

عُمْدَةُ النَّفْسِيرِ

عَنْ الْحَافِظِ ابْنِ كَثِيرٍ

مَخْضَرٌ نَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

لِلْعَلَّامَةِ الْمُحَقِّقِ

السَّيِّدِ أَحْمَدَ شَاكِرًا

أَعَدَّهُ

أَنُورُ الْبَازِ

دَارُ الْوَقْفَاءِ

عُمْدَةُ النَّفْسِيرِ

عَنْ الْحَافِظِ ابْنِ كَثِيرٍ

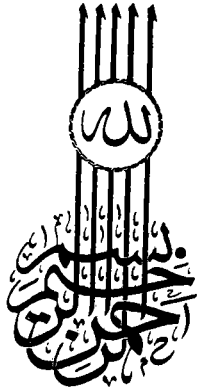
مَخْتَصَرٌ نَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

لِلْعَلَّامَةِ الْمُحَقِّقِ

السَّيِّدِ أَحْمَدَ شَيْخَ كَرِيمٍ

الجزء الأول

دار الوفاء



عُمْدَةُ النَّفْسِيرِ

عَنْ الْحَافِظِ ابْنِ كَثِيرٍ

مُخْتَصَرٌ مِنْ نَفْسِيَةِ الْقَدِّمِ الْعَظِيمِ

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الثانية
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع. - المنصورة

الإقامة: ش. الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب: ٢٣٠

ت: ٢٢٥٦٢٢٠ / ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس: ٢٢٦٠٩٧٤ / ٥٠

المكتبة: أمام كلية الطب ٢٢٤٩٥١٣ / ٥٠

E-Mail: DAR ELWAF@HOTMAIL.COM



بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله صَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عليه وعلى آله وصحبه .

وبعد :

فإن اختصار العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر لتفسير الحافظ ابن كثير والذي أسماه « عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير » - يعتبر من أجود المختصرات ، وهذا يتضح من خلال المنهج الذي ذكره في مقدمته للمختصر ، والذي ينفرد عن غيره في نقاط ، أهمها :

١ - أنه تم ضبط النص وتحقيقه على مخطوطتين ، إحداهما كاملة ، مما أعان على ضبط النص ، كما هو واضح من خلال الهوامش في الكتاب .

٢ - أنه أبقى على جميع الأحاديث الصحيحة ، باعتبار أن كل حديث فيه إضافة تُضم إلى غيرها مما يزيد المعنى وضوحاً - وهو ما فعله أيضاً في الإبقاء على جميع آيات الاستشهاد .

٣ - أنه يذكر مصدر الحديث ولا يكتفى بالراوي ، وذلك لبيان ما وقع من وهم ، كأن يذكر الحافظ أن الحديث في البخاري ومسلم مع أنه - عند البحث والتحري - نجده في أحدهما فقط .

٤ - أنه قام بضبط الأخطاء الواردة سواء في الأعلام أو الأحداث وغيرها ، وساعدت المخطوطات على ذلك .

٥ - أنه كان من الدقة وتوفيق الله له أنه لم يُبَيِّن في المختصر إلا ما صح من أحاديث عن النبي ﷺ . ولا غرابة ، فتلك صنعة ، وميدانه الذي قلَّ أن يُسبق فيه ، مما يجعلنا أن نقول بحق : إنه صحيح مختصر تفسير القرآن العظيم لابن كثير . قلت : وليس صحيحاً تلك النسخة التي يتداولها الناس ويطلق عليها بأنها صحيح المختصر ، إذ بها من الأحاديث الشديدة الضعف والمنكرة الكثير ، بعضها أشرنا إليه في المآخذ على مختصر الصابوني .

ولذا كان هذا المختصر من أجود المختصرات ، مقارنة بمختصر ابن كثير لفضيلة الشيخ محمد على الصابوني على شهرته - وكذا المختصرات التي جاءت بعده تقريبا - يتبين ذلك من خلال النماذج التالية من مختصر الصابوني - وتشارك بقية المختصرات في كثير منها :

١ - فعند تفسير الآية (٢١٣) من سورة البقرة قال الحافظ : « وفي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول : « اللهم رب جبريل ... » وهو سهو من الحافظ . والصواب نسبه للبخاري فقط ، كما في المخطوط .

٢ - وعند تفسير الآية (١٩١) من سورة آل عمران ، حديث عمران بن حصين ، حيث ذكر الحافظ أنه في الصحيحين . والصواب نسبه للبخارى فقط ، كما في المخطوط .

٣ - وعند تفسير الآية (٢٢٩) من سورة البقرة ، قال الحافظ ابن كثير : « وقد ذكر ابن جرير رحمه الله أن هذه الآية نزلت في شأن ثابت بن قيس بن شماس وامرأته حبيبة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول » . مع أن الصواب كما في الروايات : « حبيبة بنت سهل الأنصاري » و « جميلة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول » .

٤ - وعند تفسير الآية (٢٣٧) من سورة البقرة ، روى الحافظ ابن كثير عن سهل بن سعد وأبي أسيد أنهما قالوا : « تزوج رسول الله ﷺ أميمة بنت شرحبيل ، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها ، فكانها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين أزرقين » . حيث وقع التحريف في موضعين في الحديث ، فأميمة هي : « أميمة بنت شرحبيل » ، وقوله : « أزرقين » صوابه : « رازقين » كما هو موضح في موضعه من هذا المختصر .

٥ - وعند الآية (٢٧٥) من سورة البقرة ، قال الحافظ : « ... وكما قال النبي ﷺ يوم فتح مكة : « وكل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين ، وأول ربا أضع ربا العباس » مع أن الصواب : أن هذا كان في حجة الوداع ، كما هو موضح في موضعه من هذا المختصر .

٦ - وعند الآية (٣٤) من سورة غافر ، قال الحافظ : « وقوله : ﴿ وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ : يعنى أهل مصر ... وكان رسولا يدعو إلى الله أمته بالقسط ... » حيث جاءت كلمة « القسط » محرفة ، وصوابها : « القبط » كما في المخطوط .

٧ - ومن حيث التزام صحة الأحاديث في المختصر، فإن هذا الشرط قد انتقض في مواضع كثيرة، حيث نجد فيه - وفي غيره - الأحاديث الضعيفة بل وشديدة الضعف والمنكرة، من ذلك :

أ - عند الآية (٢٧٩) من سورة البقرة حديث: سهل بن حنيف أن رسول الله ﷺ قال : « من أعان مجاهدا في سبيل الله أو غازيا ... » . وقد تعقبه الذهبي في التلخيص بقوله : « فيه عمرو بن ثابت وهو رافضى متروك » .

ب - عند الآية (١٨) من سورة آل عمران حديث: عن الزبير بن العوام قال : « سمعت رسول الله ﷺ وهو يعرفه يقرأ هذه الآية : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ ... ﴾ ... » . وهو في مسند الإمام أحمد ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٢٥ / ٦) : « في إسناده مجاهيل » .

ج - عند الآية (١٠٣) من سورة آل عمران حديث : عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن هذا القرآن هو حبل الله المتين ... » . وقد قال عنه ابن الجوزي في العلل المتناهية (١٠١ / ١) : « هذا حديث لا يصح عن رسول ﷺ ، ويشبه أن يكون من كلام ابن مسعود » .

ولما كان ذلك كذلك ، فقد اشتدت الرغبة لدينا فى الحصول على هذا المختصر كاملا للشيخ أحمد شاکر - والمعروف أن الشيخ وافته المنية ولم نر له من المختصر إلا الأجزاء الخمسة الصغيرة والتي تولت نشرها مكتبة التراث الإسلامى آنذاك ، وهى تبدأ من سورة الفاتحة حتى الآية رقم (٨) من سورة الأنفال - وعليه فقد سعينا فى دار الوفاء فى الاتصال بآل شاکر للحصول على بقية المختصر لإتمام هذا العمل المبارك ، وكان من توفيق الله عز وجل لهذا العمل أن يستكمل أن حصلنا على النسخة التى قام فضيلة الشيخ أحمد شاکر باختصارها بخط يده ، وذلك حتى آخر سورة الناس ، والتي ختمها بقوله :

« أتممت اختصار هذا التفسير الجليل فى المسودة ليكون (عمدة التفسير) بين العشاءين يوم الأحد ١٢ محرم سنة ١٣٧٦ هـ - ١٩ / ٨ / ١٩٥٦ م » .

كما كان من فضل الله لإتمام هذا المختصر أن عثرنا على المخطوطة الأزهرية التى حقق بها فضيلة الشيخ أحمد شاکر النص . ولذا سعينا جادين - بعد أن توافر لدينا المختصر كاملا - بخط الشيخ شاکر وكذا المخطوطة لضبط النص - فى إخراجه ليكون المختصر - ولأول مرة - كاملا بين يدى القراء الكرام ، والله نسأل أن يتقبل منا هذا العمل ، وأن يغفر لنا ما كان من خطأ أو تقصير يغلب على طبيعة البشر ، كما أدعوه أن يرحم ويرضى عن أستاذنا وشيخنا أحمد شاکر ، وأن يجمعنا وإياه وكل من أعان فى مستقر رحمته ، والحمد لله رب العالمين .

أنور الباز

المنصورة : ١٦ من جمادى الآخرة سنة ١٤٢٣ هـ .

٢٥ من أغسطس سنة ٢٠٠٢ م .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حق حمده ، حمداً وشكراً ، نسأل ربنا عز وجل أن يتقبلهما بفضلته وكرمه ، وأن يجعلهما خالصين لوجهه الكريم ، ونرجو أن نستوجب بهما المزيد من فضله ونعماته ، إنه الجواد الكريم ، البر الرحيم ، لا نحصى ثناء عليه ، هو - سبحانه - كما أثنى على نفسه ، إنه العلى الأعلى ، ليس كمثل شئ وهو السميع البصير . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد النبي الأُمى ، سيد المرسلين وإمام المهتدين وخاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد :

فإن تفسير الحافظ (ابن كثير) أحسن التفاسير التي رأينا وأجودها وأدقها ، بعد تفسير إمام المفسرين أبى جعفر الطبرى . ولسنا نوازن بينهما وبين أى تفسير آخر مما بأيدينا ، فما رأينا مثلهما ولا ما يقاربهما .

وقد حرص الحافظ ابن كثير على أن يفسر القرآن بالقرآن أولاً ، ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، ثم بالسنة الصحيحة التي هي بيان لكتاب الله ، ثم يذكر كثيراً من أقوال السلف فى تفسير الآى . وإنه ليذكر الأحاديث - فى أكثر المواضع - بأسانيدنا من دواوين السنة ومصادرها . وكثيراً ما يذكر تعليل الضعيف منها ، ولكنه يحرص أشد الحرص على أن يذكر الأحاديث الصحاح ، وإن ذكر معها الضعاف . فكتابه - بجانب أنه تفسير للقرآن - معلم ومرشد لطلاب الحديث ، يعرف به كيف ينقد الأسانيد والمتون ، وكيف يميز الصحيح من غيره . فهو كتاب - فى هذا المعنى - تعليمى عظيم ، ونفعه جليل كثير .

وكان اتصالنا به منذ أكثر من خمس وأربعين سنة ، فى طبعته الأولى ببولاق ، التى طبع فيها بهامش تفسير آخر من سنة ١٣٠٠ - ١٣٠٢ هـ . وهى طبعة محرفة لا يكاد يتفح بها نفعاً صحيحاً . ثم طبعه أستاذنا السيد محمد رشيد رضا رحمه الله - ومعه تفسير البغوى - فى مطبعة المنار فى تسعة مجلدات ، من سنة ١٣٤٣ - ١٣٤٧ هـ ، بأمر جلالة الملك إمام أهل السنة ومحى مذهب السلف ، وباعث النهضة الإسلامية والعربية الإمام (عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود) رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته . واجتهد أستاذنا رحمه الله فى تصحيحه ما استطاع ، ولكن فاته من ذلك الشئ الكثير .

ثم تداولت المطابع فى مصر طبعه طبعات تجارية ، ليس فيها تصحيح ولا تحقيق ولا مراجعة . إنما اعتمدوا طبعة المنار ، فأخذوها بما فيها من أغلاط ، ثم زادوها ما استطاعوا من غلط أو تحريف . فكان انتفاع الناس بهذا التفسير العظيم انتفاعاً قاصراً ، لما امتلأت به طبعاته من غلط وتحريف ، يجب معهما أن يعاد طبعه طبعة علمية محققة ، يرجع فيها إلى النسخ

المخطوطة منه ما أمكن ، ثم الرجوع إلى مصادر السنة التي ينقل عنها المؤلف الإمام الحافظ، وإلى مراجع رجال الحديث والتراجم ، لتصحيح أسماء الرجال في الأسانيد - وهم شيء كثير ، وعدد ضخم .

هذه ناحية ، وناحية أخرى : أن القارئ المتوسط ، الذي يريد أن يصل إلى المقصد الأول من التفسير ، وهو فهم الآيات الكريمة على معناها الصحيح ، الذي يؤيده الكتاب والسنة الصحيحة - يجد أمامه بحراً خضماً لا يكاد يدرك ساحله ، من الأسانيد والآثار والأقوال ودقائق العلم في تخريج الأحاديث ونقد الرجال ، مما يجب معه أن نعهد الطريق لهذا القارئ المتوسط ، ونيسر له السبيل . فنضع بين يديه مقاصد هذا التفسير العظيم قريبة صافية ، يفهم منها القرآن الكريم فهماً صحيحاً ، لا يخوض معه عباب الأبحاث الفنية الدقيقة في تخريج الأحاديث ونقد الرجال ، ولا يطغى عليه اختلاف ألفاظ المفسرين من الصحابة والتابعين فمن بعدهم ، وهي في الأكثر الأغلب ترجع إلى معنى واحد في تفسير الآيات .

وقد بدا لي أن أقوم بالعملين : نشر هذا التفسير في طبعة علمية محققة متقنة ، وإخراج مختصر منه للقارئ المتوسط يحفظ عليه مقاصده - إن شاء الله ذلك ويسره ووقفني له . ثم رأيت أن أبدأ بالذي هو أيسر وأقرب للناس - وهو التفسير المختصر - وإن كان العمل فيه أكثر مشقة ، وأصعب دقة . بعد طول تردد ، وعمق تفكير ، واستشارة كثير من الإخوان العارفين بالخصائص الأمانة على العلم والدين ، جزاهم الله عنى وعن العلم أحسن الجزاء ، ووقفني وإياهم للعمل الصالح، والعلم النافع . واعتمدت « مخطوطة الأزهر » أصلاً لتصحيح نصوص الكتاب ، وهي أقرب إلى الصحة من كل طبعاته ، والخطأ من الناسخ فيها قليل ، يمكن تداركه بسهولة . وسيأتى وصفها في فصل خاص ، إن شاء الله .

وسميت هذا المختصر : (عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير) وأرجو أن يكون المسمى جديراً باسمه ، إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة .

منهج الاختصار :

١ - حافظت كل المحافظة على الميزة الأولى لتفسير ابن كثير ، الميزة التي انفرد بها عن جميع التفاسير التي رأيناها ، وهي تفسير القرآن بالقرآن، وجمع الآيات التي تدل على المعنى المراد من الآية المفسرة أو تأييده وتقويه ، فلم أحذف شيئاً مما قاله المؤلف الإمام الحافظ في ذلك .

٢ - حافظت على آراء الحافظ المؤلف وترجيحاته في تفسير الآيات ، مجتهداً في إبقاء كلامه بحروفه ما استطعت .

٣ - اخترت من الأحاديث التي يذكرها أصحابها وأقواها إسناداً ، وأوضحها لفظاً . فإن المؤلف رحمه الله كثيراً ما يذكر الحديث الواحد بروايات متعددة ، ومن أوجه مختلفة .

٤ - حذفت أسانيد الأحاديث التي أذكرها . فإن الحافظ ابن كثير يذكر الأحاديث بأسانيدها

مفصلة من دواوين السنة . فيقول مثلاً : « قال الإمام أحمد بن حنبل : حدثنا . . . » - ثم يسوق الإسناد والحديث ، ثم كثيراً ما يذكر بعده تخريجه من الصحاح والسنن وغيرها ، بأسانيدھا كاملة ، أو بالإشارة إلى الأسانيد .

٥ - فاكثفت من ذلك بذكر الحديث عن الصحابي راويه ، أو التابعي إذا كان الصحابي غير مسمى . ثم أذكر بعد ذلك من رواه من الأئمة ، معتمداً في ذلك على ما ذكره المؤلف رحمه الله ، وهو حجة في ذلك . فلم أرجع إلى المصادر التي يذكرها إلا عند الضرورة القصوى ، لتحقيق لفظ الحديث ، أو لغير ذلك من المقاصد العلمية الدقيقة ، التي تتعلق بالرواية أو الدراية . ولم أزد على تخريجه إلا ما لم يكن منه بد .

٦ - حذف كل حديث ضعيف أو معلول ، إلا أن يكون إثباته في موضعه ضرورة علمية : لرفع شبهة ، أو بيان معنى حديث صحيح بحديث ليس ضعيفاً بجرة ، أو رد على احتجاج به لذي هوى أو ضغن على الإسلام وأهله ، أو غير ذلك من المقاصد العالية .

٧ - حذف المكرر من أقوال الصحابة في التفسير ، وكثيراً من آراء التابعين ، اكتفاء ببعضها . خصوصاً وأنها كثيراً ما تختلف لفظاً وتفق أو تتقارب معنى ، كما قال المؤلف الحافظ رحمه الله (ص ٤٥ س ١١) : « والكل بمعنى واحد في أكثر الأماكن » .

٨ - نفيت عن كتابي هذا كل الأخبار الإسرائيلية وما أشبهها، فإن المؤلف رحمه الله قد جذبها (١) في مواضع كثيرة من تفسيره ، وأبان عن خطئها وضررها ، وأنحى باللائمة على روايتها ورواتها ، ورسم لنفسه خطة في شأنها. ومع ذلك فإنه - فيما يبدو لي - لم يستطع أن يسير على ما رسم ، وغلبه ما وجد من الروايات في كثير من المواطن ، فأثبت طائفة منها غير قليلة. فحذفتها كلها ، والحمد لله .

٩- حذف أكثر ما أطال به المؤلف رحمه الله من الأبحاث الكلامية والفروع الفقهية ، والمناقشات اللغوية واللفظية ، مما لا يتصل بتفسير الآية اتصالاً وثيقاً . وأبقيت من ذلك ما لم أجد منه بدأ في إيضاح معنى الآية أو تقوية المعنى الراجح المختار في تفسيرها .

١٠ - أحياناً يذكر المؤلف الحافظ حديثاً طويلاً لمناسبة تفسير آية أو لمعنى يتعلق بها ، ولا يكون كله في موضع الشاهد المتعلق بالآية ، بل بعضه فقط .

فرايت أن أقتصر في مثل هذه الحال على موضع الشاهد منه ؛ لأن المقصد الأصلي هو التفسير ، لا رواية الحديث كله . وأشير بكلمة تدل على ذلك ، وأضعها بين معكفين هكذا : [دون أن أنبه عليه ، ليعلم القارئ أن هذا من صنعى ، لا من صنع ابن كثير .

١١ - وأصنع نحو هذا فيما يذكر المؤلف من الأحداث التاريخية المطولة ، التي تتعلق

(١) جذبها : أى ذمها وعابها .

بالتفسير . فأضع الملخص الذى أكتبه بين المعكفين أيضاً ، دلالة على أنه من كلامى لا من كلامه .

١٢ - أما الزيادات التى أضعها بين المعكفين أثناء الكلام ، سواء أكانت زائدة فى المخطوطة الأزهرية على المطبوعة ، أم كانت زيادة من قبلى لتصحيح الكلام ، مما لا يفهم الكلام أو لا يتم إلا به - فإنى أنه على ذلك وعلى سبب الزيادة فى الهامش . حتى يثق المطلع على الكتاب أنى لم أتصرف فى الأصل إلا على أساس علمى صحيح . وأصيب وأخطئ ، كما يخطئ الناس ويصيبون ، والتوفيق من الله .

١٣ - وهناك تغيير أكتفى بالإشارة إليه هنا . وهو ما اقتضاه حذفى للأسانيد التى يسوقها المؤلف للأحاديث - كما بينت فى الفقرتين الرابعة والخامسة : فإما أن أذكر الحديث أولاً ، مبتدئاً باسم الصحابى مثلاً : « عن فلان » ، ثم أذكر الكتب التى نسبها إليه الحافظ . وإما أن أذكر الكتاب الذى روى منه أولاً ، فأقول مثلاً : « روى البخارى » أو « روى الإمام أحمد » ، ثم أكمل التخريج الذى ذكره المؤلف ، بعد سياق الحديث . دون أن أشير فى كل موضع إلى هذا التغيير ، فإنه بديهى ألبأ إليه حذف الإسناد .

١٤ - وتغيير آخر بسيط ، فى سياق أقوال الصحابة أو التابعين فمن بعدهم ، فى تفسير الآيات . فقد أذكر القول ثم أبين قائله ، وقد أقدم اسم قائل ذلك بعد حذف الإسناد إليه - على ما يقضى به نظام الكلام وسياقه .

١٥ - وآيات القرآن الحكيم المفسرة ، التى يذكرها الحافظ ابن كثير ويبدأ بها مجموعة - نرسمها على رسم المصحف العثمانى ، مضبوطة بالشكل الكامل ، على الرسم الثابت فى المصحف الذى طبعته الحكومة المصرية مراراً ، بعد تصحيحه ومراجعته فى لجنة علمية عظيمة ، برئاسة الشيخ محمد بن على بن خلف الحسينى - شيخ المقارئ المصرية إذ ذاك ، رحمه الله - فى سنة ١٣٣٧هـ .

١٦ - ونثبت فى آخر كل آية رقمها على ما فى ذلك المصحف الجليل .

١٧ - وأما الوقوف أثناء الآيات ، فنضع بجوارها شولة هكذا « ، » دون تقييد بالاصطلاح فيه بين : وقف جائز على التساوى ، أو جائز مع أوليته ، أو جائز مع أولوية الوصل . إلا الوقف اللازم ، فإننا نضع فوق الشولة ميماً صغيرة هكذا « م » .

١٨ - وأما الكلمة التى فيها وقفان : قبلها وبعدها ، والتى لا يجوز فيها إلا أحدهما - ولها اصطلاح خاص فى ذلك المصحف - فإننا سنتخير أجودهما وأولاهما فى المعنى . مثل « ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) » . فإن الوقف بعد « فيه » أدق وأجود من الوقف قبلها .

١٩ - ونضع فى رأس كل صفحة اسم السورة ورقم الآيات المفسرة ، حتى يسهل على القارئ البحث عما يريد من التفسير دون عناء .

- ٢٠ - وثبت بجوار أوائل أجزاء القرآن الثلاثين - بالهامش - كلمة « الجزء » وتحتها رقمه .
- ٢١ - وثبت بجوار أوائل الأرباع - بالهامش أيضاً - كلمة « ربع » . ومعناها : ربع حزب ، والحزب نصف جزء . ولكننا لا نتقيد بذكر الأحزاب ولا أرقام أرباعها : « نصف الحزب » ، « ثلاثة أرباع الحزب » - المثبتة بهامش المصحف ؛ لأن أكثر الناس لا يعرفون إلا أنها كلها أرباع فذلك أيسر لهم .
- ٢٢ - وإذا كان أول الربع أول الآيات التي يذكرها الحافظ المفسر ، اكتفينا بكلمة « ربع » . أما إذ كان أثناء الآيات ، فإننا نضع بجواره - بعد رقم الآية التي قبله - نجمة صغيرة هكذا « * » للدلالة على ذلك .
- ٢٣ - ونكتب بالهامش أيضاً - بجوار مواضع السجودات في الآيات - كلمة « سجدة » ؛ ليعرف موضع السجود عند التلاوة ، إن شاء الله .
- وأنا بفطرتي العلمية ، وبما خبرت من شأن الكتب ونفائس التراث الإسلامى العظيم - أكره اختصار الكتب أو أى تصرف فيها . ولكنى لمست الحاجة الماسة والضرورة الملحة لتقريب التفسير للمتوسطين من المثقفين ، الذين لم يمارسوا دقائق العلم ، ولم يتصلوا باصطلاحات العلماء الأئمة فى الفنون ، ولطلاب العلوم الإسلامية فى شتى أنحاء العالم الإسلامى . فرأيت أن لابد مما ليس منه بد .
- ثم قوى من عزمى وأزال ترددى ما رأيت فى (مخطوطة الأزهر) من (تفسير ابن كثير) . فإنى وجدتها قد خلت من كثير مما رأيت حذفه ، كأنها مختصرة من الكتاب ، وما هى بمختصرة . ولكنى رجحت - كأنه اليقين - أن الحافظ رحمه الله كان لا يزال ينظر فى كتابه ، فيزيد فيه ما يرى زيادته ، من أبحاث كلامية ، وفروع فقهية ، وأبحاث لغوية ، وأقوال وآراء للعلماء الأئمة . فخرجت نسخ الكتاب مختصرة ومطولة ، كما هو شأن كثير من العلماء الكبار الذين يحرصون على العلم والمعرفة ، والمثل فى ذلك حاضرة ، لا نطيل بذكرها .
- وأسأل الله العلى القدير أن يوفقنى لإتمام هذا المختصر ، على النحو المفيد المجدى المجزى . وأن يوفقنى لإخراج الأصل إخراجاً علمياً صحيحاً . إنه سميع الدعاء ، وهو ولى التوفيق .

كلمات لابن كثير بشأن الإسرائيليات

للحافظ ابن كثير كلمات قوية في شأن الإسرائيليات وروايتها، وقد رسم في بعضها خطته نحوها . ولكنى رأيته - على الرغم من ذلك - يحكى بعضها ، وكثيراً ما يعقب على ما يحكى بالرد . وقد رأيت أن أجمع هنا - في هذه المقدمة - ما وجدته أثناء قراءتى فيه مما قيدت الإشارة إلى موضعه . وعسى أن أستطيع جمع ما فاتنى من ذلك ، ثم أذكره فى آخر هذا الكتاب (العمدة) إن شاء الله .

فقال فى مقدمة تفسيره (ص ٤٣ ، ٤٤) - بعد أن ذكر حديث: « بلغوا عنى ولو آية، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار: » ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد ، لا للاعتضاد . فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما نشهد له بالصدق ، فذاك صحيح .

والثانى : ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه .

والثالث : ما هو مسكوت عنه ، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمن به ولا نكذبه ، وتجاوز حكايته لما تقدم . وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر دينى ؛ ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب فى مثل هذا كثيراً ، ويأتى عن المفسرين خلاف بسبب ذلك . كما يذكرون فى مثل أسماء أصحاب الكهف ولون كلبهم وعدتهم ، وعصا موسى من أى شجر كانت ؟ وأسماء الطيور التى أحيهاها الله لإبراهيم ، وتعيين البعض الذى ضرب به القتل من البقرة ، ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى . . . إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى فى القرآن ، مما لا فائدة فى تعيينه تعود على المكلفين فى دنياهم ولا دينهم، ولكن نقل الخلاف عنهم فى ذلك جائز. كما قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْبُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ « إلى آخر الآية [الكهف: ٢٢] .

ويقول أحمد محمد شاكر عفا الله عنه : إن إباحة التحدث عنهم فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه شئ ، وذكر ذلك فى تفسير القرآن ، وجعله قولاً أو رواية فى معنى الآيات ، أو فى تعيين ما لم يعين فيها ، أو فى تفصيل ما أجمل فيها شئ آخر !! لأن فى إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله ما يوهم أن هذا الذى لا نعرف صدقه ولا كذبه مبين لمعنى قول الله سبحانه ، ومفصل لما أجمل فيه ! وحاشا لله ولكتابه من ذلك . وإن رسول الله ﷺ إذ أذن بالتحدث عنهم - أمرنا ألا نصدقهم ولا نكذبهم ، فأى تصديق لرواياتهم وأقوالهم أقوى من أن نقرنها بكتاب الله ونضعها منه موضع التفسير أو البيان؟! اللهم غفرأ .

وقد قال الحافظ ابن كثير نفسه ، فى تفسير الآية (٥٠) من سورة الكهف - بعد أن ذكر أقوالاً فى « إبليس » واسمه ومن أى قبيل هو؟! : « وقد روى فى هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التى تنقل لينظر فيها ، والله أعلم بحال كثير منها . ومنها ما قد

يقطع بكذبه ، لمخالفته للحق الذى بأيدينا ، وفى القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة ؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان ، وقد وضع فيها أشياء كثيرة . وليس لهم من الحفاظ المتقنين - الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين - كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء ، والسادة والأتقياء ، والبررة والنجباء ، من الجهادة النقاد ، والحفاظ الجياد ، الذين دونوا الحديث وحرروه ، وبينوا صحيحه من حسنه من ضعيفه ، من منكره وموضوعه ومتروكه ومكذوبه ، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين ، وغير ذلك من أصناف الرجال . كل ذلك صيانة للجناب النبوى والمقام المحمدي ، خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ - أن ينسب إليه كذب ، أو يحدث عنه بما ليس منه ، فرضى الله عنهم وأرضاهم ، وجعل جنات الفردوس مأواهم . وقد فعل .

وقال عند تفسير الآيات (٥١ - ٥٦) من سورة الأنبياء - بعد إشارته إلى حال إبراهيم عليه السلام مع أبيه ، ونظره إلى الكواكب والمخلوقات : « وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم ، فعامتها أحاديث بنى إسرائيل . فما وافق منها الحق بما بأيدينا عن المعصوم قبلناه ؛ لموافقته الصحيح ، وما خالف منها شيئاً من ذلك رددناه ، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة ، لا نصدقه ولا نكذبه ، بل نجعله وقفاً . وما كان من هذا الضرب منها فقد رخص كثير من السلف فى روايته ، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه ، ولا حاصل له مما ينتفع به فى الدين ، ولو كانت فائدته تعود على المكلفين فى دينهم لبيتته هذه الشريعة الكاملة الشاملة . والذى نسلكه فى هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية ، لما فيها من تضييع الزمان ، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم . فإنهم لا تفرقة عندهم بين صحيحها وسقيمها ، كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة » .

وقال عند تفسير الآية (١٠٢) من سورة البقرة : « وقد روى فى قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين ، كمجاهد والسدى والحسن البصرى وقتادة وأبى العالية والزهرى والربيع ابن أنس ومقاتل ابن حيان وغيرهم ، وقصها خلق من المفسرين ، من المتقدمين والمتأخرين ، وحاصلها راجع فى تفصيلها إلى أخبار بنى إسرائيل ؛ إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى . وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها ، فنحن نؤمن بما ورد فى القرآن على ما أرادته الله تعالى ، والله أعلم بحقيقة الحال » .

وقال فى أول سورة ق : « وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا : ق ، جبل محيط بجميع الأرض ، يقال له : جبل قاف ! وكان هذا - والله أعلم - من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنهم بعض الناس ، لما رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدق ولا يكذب . وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم ، يلبسون به على الناس أمر دينهم . كما افترى فى هذه الأمة - مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها - أحاديث عن النبى ﷺ ، وما

بالعهد من قدم ، فكيف بأمة بنى إسرائيل ، مع طول المدى ، وقلة الحفاظ النقاد فيهم ، وشربهم الخمر ، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه ، وتبديل كتب الله وآياته . وإنما أباح الشارع الرواية عنهم فى قوله : « وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » فيما قد يجوزه العقل . فأما فيما تحمله العقول ، ويحكم فيه بالطلان ، ويغلب على الظنون كذبه - فليس من هذا القليل . »

وقال عند تفسير الآيات (٤١ - ٤٤) من سورة النمل ، وقد ذكر فى قصة ملكة سبأ أثراً طويلاً عن ابن عباس ، وصفه بأنه « منكر غريب جداً » - ثم قال : « والأقرب فى مثل هذه السياقات أنها متلفاة عن أهل الكتاب ، مما وجد فى صحفهم ، كروايات كعب وهب ، سامحهما الله فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بنى إسرائيل ، من الأوابد والغرائب والعجائب ، مما كان وما لم يكن ، وما حرف وبدل ونسخ . وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ . ولله الحمد والمنة . »

وقال عند تفسير الآية (٤٦) من سورة العنكبوت ، بعد أن روى الحديث : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » - قال : « ثم ليعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان ؛ لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل . وما أقل الصدق فيه ، ثم ما أقل فائدته لو كان صحيحاً . »

وقال عند تفسير الآية (١٩٠) من سورة الأعراف : « ثم أخبارهم على ثلاثة أقسام : فمنها ما علمنا صحته ، بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله . ومنها : ما علمنا كذبه ، بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً . ومنها : ما هو مسكوت عنه ، فهو المأذون فى روايته ، بقوله عليه السلام : « حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » . وهو الذى لا يصدق ولا يكذب ، لقوله : « فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » . »

وهناك قصة طويلة جداً ، رواها النسائى فى باب التفسير من السنن الكبرى - التى لم نرها - وابن أبى حاتم فى تفسيره ، عن ابن عباس ، ويسمياها الحافظ ابن كثير « حديث الفتون » ، ساقه بطوله عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَتَأْكُلُ فُتُونًا ﴾ من الآية (٤٠) من سورة طه - ثم قال : « وهو موقوف من كلام ابن عباس ، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه ، وكأنه تلقاه ابن عباس مما أبيع نقله من الإسرائيليات ، عن كعب الأخبار أو غيره ، والله أعلم . وسمعت شيخنا أبا الحجاج المزى يقول ذلك أيضاً . وهذا الحديث - حديث الفتون - يشير إليه الحافظ ابن كثير ، فى مواضع متعددة من تفسيره . وقد نفيت عن كتابى هذا نفيًا ، ولم أشر إليه إلا مرة واحدة ، عند أول مرة أشار إليه ابن كثير فيها ، عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة ، ثم أعرضت عن الإشارة إليه ، إن شاء الله ، فلا أشير إليه إلا أن أضطر إلى ذلك اضطراراً . وأسأل الله التوفيق واليسير ، والهدى والسداد . »

ومن أعظم الكلم في الدلالة على تنزيه القرآن العظيم عن هذه الأخبار الإسرائيلية - كلمة لابن عباس رواها البخارى في صحيحه ، ونقلها عنه الحافظ ابن كثير ، عند تفسير الآية (٧٩) من سورة البقرة . فقال ابن عباس : « يا معشر المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء ، وكتابكم الذى أنزل الله على نبيه أحدث أخبار الله ، تقرؤونه محضاً لم يشب ! وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا: هو من عند الله ، ليشتروا به ثمناً قليلاً . أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم ؟ ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذى أنزل إليكم » . وهذه الموعظة القوية الرائعة ، رواها البخارى في ثلاثة مواضع من صحيحه ٢١٥/٥ ، ١٣ / ٢٨٢ ، ٤١٤ من فتح البارى .

مخطوطة الأزهر

هي مخطوطة نفيسة في المكتبة الأزهرية ، تحت رقم (١٦٨ تفسير) . في سبعة مجلدات ، مجموع أوراقها (٢١٩٥) ورقة ، وهي كاملة إلا خروماً في المجلد الثالث منها ، وقد صورتها لمكتبتى .

كتبها « محمد بن على الصوفى ، البواب بالخانقاه السمسطائية ، بدمشق المحروسة » ، كما أثبت ذلك ناسخها . وفرغ من كتابتها يوم ١٠ جمادى الأولى سنة ٨٢٥ هـ . أمره بكتابتها « قاضى القضاة ، حاكم الحكام ، نجم الدين ، حجة الإسلام والمسلمين . . . عمر ، ابن سيدنا ومولانا . . . أبى محمد حجى السعدى الشافعى . . . برسم خزانه » . وأثبت كاتبها ذلك فى وثيقة مطولة فى آخر النسخة .

وقاضى القضاة نجم الدين بن حجى ولد سنة ٧٦٧هـ بدمشق ، ومات فيها قتيلاً ليلة الأحد مستهل ذى القعدة سنة ٨٣٠ هـ . وهو مترجم فى الضوء اللامع للسخاوى ٧٨/٦ ، ٧٩ ، والمدارس فى تاريخ المدارس ١/٢٥٧ ، ٢٥٨ ، والشذرات ٧/١٩٣ . وكنيته عندهم « أبو الفتوح » . ولكن كاتب هذه النسخة قال : « أبو حفص » . فلا أدرى : أكان له كنيان ؟ أم أن ما أثبتته كاتب النسخة أقرب إلى القبول ؛ لأنه من أتباعه ؟ وهذه النسخة يغلب عليها الصحة ، والخطأ فيها قليل ، بما خبرتها فى مواضع كثيرة ، وفى عملى فى هذا الكتاب . ولكن أستاذنا السيد رشيد رضا رحمه الله لم ينصفها حين وصفها . فإنه حين وصف عمله فى إخراج هذا التفسير ، فى آخر كتاب « فضائل القرآن » الذى ألحقه بالمجلد التاسع الأخير منه - قال : « ثم استعرنا من خزانه كتب الجامع الأزهر النسخة الخطية الوحيدة التى فيها ، وليست من الأصول الصحيحة التى يعتمد عليها ، بل هى كثيرة التصحيف والتحريف والسقط » ! وهكذا قال رحمه الله . أما « السقط » ، فقد بينا أنه ليس كذلك ، وإنما هناك نسخ أخرى فيها زيادات زادها الحافظ ابن كثير بعد التأليف . ولعلنا نزيد ذلك بياناً وإثباتاً ، إذا يسر لنا إخراج التفسير كله فى طبعة علمية محققة ، إن شاء الله .

وأما « التصحيف والتحريف » ، فإنه فيها قليل ، مما لا يخلو منه مخطوط أو مطبوع ، بل إنى لأستطيع أن أقرر أن أكثر ما أجد فى مطبوعة المنار من أغلاط وتصحيفات ، أجده ثابتاً على الصواب فى هذه المخطوطة ، « مخطوطة الأزهر » ، وإنى لأجد فى بعض المواضع هامشة لأستاذنا رحمه الله ، يذكر فيها ما فى نسخة الأزهر ، ثم يتبين أنه هو الصواب ، وأن ما أثبت فى صلب الكتاب هو الخطأ أو التصحيف .

والذى أرجحه أن أستاذنا رحمه الله لم يقابل الكتاب على نسخة الأزهر بنفسه ، ولعله عهد بذلك إلى بعض من يلوذ به من الطلاب أو غيرهم ، بعد أن نظر إلى النسخة نظرة عجلية ، على

ما كان من مشاغلة الكثيرة ، وما اعتذر به في آخر كلمته من المرض الطويل الذي منعه من كل عمل ، رحمه الله رحمه واسعة .

وها هي ذى نماذج مصورة (١) من بعض صحفها ، قد تقنع القارئ ببعض ما أقول ، إن لم يكن به كله . وأسأل الله سبحانه الهدى والسداد ، والعصمة والتوفيق .

أحمد محمد شاكر

الاثنين : ٢٣ ذى القعدة سنة ١٣٧٥ هـ .

عفا الله عنه بمنه

٢ يوليو سنة ١٩٥٦ م .

(١) ستأتي بعد ترجمة ابن كثير . (البار) .

بسم الله الرحمن الرحيم (١)

الحمد لله رب العالمين ، حمد الشاكرين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين ، سيدنا محمد رسول الله ، وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

فقد اقتنيت قبل الشروع فى هذا الجزء صوراً لخمس مجلدات مخطوطة من تفسير ابن كثير ، من نسخة عتيقة نفيسة صحيحة ، الخطأ فيها نادر جداً ، أحد هذه المجلدات من المكتبة الأزهرية ، وهو المجلد الثالث ، وباقيها من دار الكتب المصرية ، وهى المجلدات ٦ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، وكلها من نسخة واحدة .

فهذه النسخة مقسمة إلى عشر مجلدات ، خلافاً للمخطوطة الأزهرية المقسمة إلى سبع مجلدات (٢). وهذه النسخة العتيقة أقدم من النسخة الأزهرية - على اليقين - بما يظهر من خطها ، بل لعلها كتبت فى حياة المؤلف ، وهو الراجح عندنا ، ويؤيد ذلك : أن ناسخها كتب بهامش ص (٨٥) منها ، عند آخر تفسير الآية : ٩٩ من سورة الأنعام ما نصه : « آخر الجزء الأول من تفسير سورة الأنعام ، من خط المؤلف عفا الله عنه » . فالظاهر من هذا الدعاء - عفا الله عنه : أن المؤلف - رحمه الله - كان حياً عند كتابته .

وقد ضاع باقى هذه النسخة وما يدرينا ، لعله موجود فى أنحاء من الدنيا لم يصل إلينا علمها ، أو لعل عوادى الزمن أتت عليه ، أو فرقتة فى أماكن متعددة ، كما فرقت هذه المجلدات الخمس ، بين المكتبة الأزهرية ودار الكتب المصرية ، فى مدينة واحدة ، هى مدينة القاهرة . وهاك بيان ما اشتملت عليه هذه المجلدات الموجودة :

المجلد الثالث : أوله أول تفسير سورة الأنعام ، وآخره آخر تفسير الآية : ٣٦ من سورة التوبة ، وهو يوافق ص (٤٧١) من المخطوطة الأزهرية . وقد ختم المؤلف رحمه الله تفسير هذه الآية بقوله : « ولتذكر الأحاديث الواردة فى ذلك » . وهذه الجملة ثابتة فى المخطوطة الأزهرية ، وبعدها بياض قبل البدء فى تفسير الآية التى بعدها ، فلم تذكر فيها الأحاديث التى وعد بها الحافظ ابن كثير . وكذلك ثبت فى مطبوعة المنار ٤/١٦٤ . وكتب أستاذنا السيد رشيد رضا بهامش هذا الموضوع ما نصه : « ترك المصنف - رحمه الله - بياضاً بعد هذا لذكر الأحاديث التى وعد بها ، والظاهر أنه توفى قبل أن يكتبها .

(١) كتب فضيلة الشيخ أحمد شاكر هذه المقدمة قبل تفسير سورة الأنعام بعد وقوفه على أجزاء لمخطوطة أخرى من دار الكتب المصرية ، حيث قام بضبط النص ابتداء من أول الأنعام حتى الآية رقم (٨) من سورة الأنفال على المخطوطتين . ولم نثر على هذه الأجزاء فإكتفينا بضبط النص حتى آخر المختصر على المخطوطة الأزهرية الكاملة . (البار) .

(٢) وصفنا المخطوطة الأزهرية فى الصفحة السابقة

المجلد السادس : أوله أول تفسير سورة الإسراء ، وآخره آخر تفسير سورة الحج . ولكن فى أوله خمس صفحات وبضعة أسطر من الصفحة السادسة بخط آخر دقيق مخالف لخط سائر النسخة ، متصل بما بعده .

المجلد الثامن : أوله أول تفسير سورة الأحزاب ، وآخره آخر تفسير سورة حم السجدة .

المجلد التاسع : أوله أول تفسير سورة الشورى ، وآخره آخر تفسير سورة الممتحنة ، وفى آخره أربع ورقات بخط آخر مخالف لخطه .

المجلد العاشر : أوله أثناء تفسير الآية : ٢ من سورة الصف ، فهو ينقص ورقة واحدة من أوله ، ثم ينتهى إلى آخر تفسير القرآن الكريم ، ثم يتلوه بالخط نفسه « كتاب فضائل القرآن » للمؤلف ، وضاعت منه الورقة الأخيرة ، والذى كان فيها هو بضعة أسطر من آخر « كتاب فضائل القرآن » ، ويحتمل أن يكون فى هذه الورقة الناقصة اسم الكاتب وتاريخ الكتابة ؛ ولذلك لم نستطع الجزم بتاريخ كتابتها ، لخلو سائر الأجزاء من التاريخ واسم الكاتب .

* * *

ومما يجدر التنبيه له ما ذكرنا آنفاً : أن كاتب هذه النسخة كتب بهامش الصفحة (٨٥) من المجلد الثالث : « آخر الجزء الأول من تفسير سورة الأنعام ، من خط المؤلف - عفا الله عنه » . فإنه قد يفهم منه أن المؤلف قسم تفسير سورة الأنعام إلى أجزاء صغيرة ، فلماذا كان البدء بالجزء الأول من تفسير سورة الأنعام؟! ولماذا لم يكن التقسيم إلى أجزاء من أول تفسير القرآن؟! ثم لماذا لم يذكر الكاتب بعد ذلك - إلى آخر الكتاب - بيانا بتجزئة المؤلف ، واقتصر على بيان « آخر الجزء الأول من تفسير سورة الأنعام »؟!

ليس بين أيدينا فى هذه النسخة ما يفسر هذا الصنيع ويجيب عن هذه الأسئلة الضرورية فى مثل هذا المقام !! ولكننا وجدنا فى النسخة الأزهرية شيئاً قد يضىء لنا الطريق إلى فهم هذا التصرف ، فإن كاتبها كتب بهامش ص (١٠٨) من الجزء الثالث منها ، قبيل نهاية تفسير الآية : ١٠٠ من سورة الأنعام ما نصه :

« حشـ [أى : حاشية] : آخر أول أجزاء المؤلف - رحمه الله - من هذه السورة ، ومن هذه الآية ابتداءً بتعليق هذا التفسير إلى آخر القرآن العظيم ، ثم فسر من سورة البقرة إلى ههنا ، ووافق آخر التعليق يوم الجمعة رابع عشرى ذى قعدة ، سنة إحدى وأربعين وسبع مائة ، فكتب الجميع فى نحو أربع سنين » .

فهذه الحاشية توافق ما كتب على هامش النسخة العتيقة : أن آخر الجزء الأول من تفسير سورة الأنعام - فى خط المؤلف - هو آخر تفسير الآية : ٩٩ من هذه السورة ، ثم تفيدنا ثلاث فوائد جديدة :

١ - أن الحافظ ابن كثير بدأ تأليف هذا التفسير من أول الآية : ١٠٠ من سورة الأنعام ، حتى أتم تفسير القرآن العظيم ، ثم رجع عوداً على بدء ، فكتب تنمة التفسير من أوله إلى آخر الآية : ٩٩ من سورة الأنعام .

٢ - أنه فرغ من كتابة التفسير يوم الجمعة ٢٤ ذى القعدة سنة ٧٤١ هـ .

٣ - أنه كتب هذا التفسير الجليل فى نحو ٤ سنين .

* * *

ولكن لماذا بدأ الحافظ ابن كثير فى كتابة التفسير من أول الآية : ١٠٠ من سورة الأنعام ؟ ولماذا هذه الآية بالتعيين ، وهى ليست بدء سورة، وليست بدء جزء ، وليست بدء ربع حزب؟! ونص الآية : ١٠٠ التى بدأ بتفسيرها ، هو : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ .

لسنا نستطيع أن نعلل هذا التصرف إلا بشيء واحد، قد يكون هو الحقيقة، فى أغلب الظن عندنا ؛ إذ ليس بيدنا دليل آخر يرشدنا إلى تعليله الصحيح ؛ وذلك : أن يكون الحافظ ابن كثير - رحمه الله - بدأ دروساً علمية لتلاميذه فى تفسير القرآن تفسيراً شفوياً فى الدرس فقط ، وأن الرغبة كانت تساوره ليكتب ما يفسر به ، فيتردد فى الكتابة ، أو أن طلابه كانوا يسألونه كتابة التفسير ، فيتراوح بين الإقدام والإحجام ، حتى أتم التفسير الشفوى فى الدرس إلى نهاية الآية : ٩٩ من سورة الأنعام ، ثم زال تردده ، ووقفه الله للعزم على كتابة هذا التفسير الجليل ، فلم يرد أن يقطع الدرس ويستأنف التفسير، فكتب من حيث انتهى فى القراءة ، من بدء الآية : ١٠٠ من سورة الأنعام ، حتى إذا أتم درس التفسير العظيم قراءةً وكتابةً ، استأنف إتمام التفسير من أول الكتاب العزيز، إلى حيث انتهى من قبل، فكان القسم الذى كتبه من سورة الأنعام إلى آخر الآية : ٩٩ هو آخر الجزء الأول من تفسيرها فى خطه ، فهو جزء أول فى تفسيرها ، لهذا السبب ، لا قصداً إلى تقسيم تفسير سورة الأنعام إلى أجزاء ، ولا قصد إلى تقسيم التفسير نفسه كله إلى أجزاء ؛ إذ لو قصد إلى هذا لم يكن أول سورة الأنعام أول أجزاء التفسير، كما هو بديهى .

ولعلنا نجد فيما نستقبل من العمل فيه ، إن شاء الله ، ما يدلنا على حقيقة ما كان . وهذا غاية جهدنا الآن ، والحمد لله رب العالمين .

مساء الاثنين : ٧ رجب سنة ١٣٧٧ هـ .

أحمد شاكر

٢٧ يناير سنة ١٩٥٨ م .

ترجمة الحافظ ابن كثير

الإمام الحافظ الحجة المحدث المؤرخ الثقة ، ذو الفضائل ، عماد الدين ، أبو الفداء : إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير ، القرشي ، الدمشقي ، الشافعي . ولد رحمه الله بقرية «مجدل» من أعمال «بُصرى» (١) . وكان أبوه من أهل «بُصرى» ، وأمه من قرية «مجدل» .

وقومه كانوا «ينتسبون إلى الشرف ، وبأبيدهم نسب . وقف على بعضها شيخنا المزي فأعجبه وابتهج به ، فصار يكتب في نسبي بسبب ذلك «القرشي» - كما قال هو في ترجمة أبيه في تاريخه «البداية والنهاية» .

وتاريخ مولده سنة ٧٠٠هـ ، كما ذكر أكثر من ترجم له ، «أو بعدها بقليل» كما قال الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة . وهو تاريخ تقريبي ، أرجح أنه مستنبط من كلامه في ترجمة أبيه ، حيث ذكر أن أباه «توفي سنة ٧٠٣هـ وكنت إذ ذاك صغيراً ابن ثلاث سنين أو نحوها ، لا أدركه إلا كالحلم» .

و «ابن ثلاث سنين» لا يعرف تواريخ السنين - على اليقين - في تلك السن . فقد سمع إذن تحديد السنة التي مات فيها أبوه ممن حوله من إخوة أو أهل أو جيران . ولكنه يدرك أباه «كالحلم» . فالذي هو في سن أقل من الثلاث ما أظنه يذكر شيئاً «كالحلم» ولا أبعد من الحلم ولا أقرب . فهو حين موت أبيه قد جاوز الثالثة - في أكبر ظني - ولذلك أرجح أن مولده كان في سنة ٧٠٠هـ أو قبلها بقليل . وهو أقرب إلى الصحة من قول الحافظ ابن حجر «أو بعدها بقليل» ؛ لأن الذي «بعدها» لا يكاد يبلغ الثالثة عند موت أبيه .

وكان أبوه «الخطيب شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير» من العلماء الفقهاء الخطباء . ولد - كما قال ابنه - في حدود سنة ٦٤٠هـ . وترجم له ابنه الحافظ في تاريخه الكبير «البداية والنهاية» (١٤ / ٣١ - ٣٣) . ومما قال في ترجمته : «اشتغل بالعلم عند أخواله بني عقبة ببصرى ، فقرأ «البداية» في مذهب أبي حنيفة ، وحفظ «جمل الزجاجي» ، وعنى بالنحو والعربية واللغة ، وحفظ أشعار العرب ، حتى كان يقول الشعر الجيد الفائق في المدح والمراثي وقليل من الهجاء . وقرر بمدارس بصرى بمبرك الناقة شمالي البلدة ، حيث يزار ، وهو المبرك المشهور عند الناس (٢) ! والله أعلم بصحة ذلك .

ثم انتقل إلى خطابة القرية شرقي بصرى ، وتمذهب للشافعي ، وأخذ عن النواوي

(١) «مجدل» بكسر الميم وفتحها مع سكنون الجيم وفتح الدال . و «بُصرى» بضم الباء وسكون الصاد وآخرها ألف مقصورة: بلد بالشام من أعمال دمشق . وهي قصبه كورة «حوران» .

(٢) يريد هؤلاء الناس - فيما يزعمون : مبرك ناقة صالح ﷺ .

والشيخ تقى الدين الفزاري - وكان يكرمه ويحترمه، فيما أخبرني شيخنا العلامة ابن الزمكاني . فأقام بها نحواً من ١٢ سنة ، ثم تحول إلى خطابة « مجدل » القرية التي منها الوالدة ، فأقام بها مدة طويلة ، في خير وكفاية وتلاوة كثيرة . وكان يخطب جيداً ، وله مقول عند الناس ، ولكلامه وقع ، لديانته وفصاحته وحلاوته . وكان يؤثر الإقامة في البلاد (١) ، لما يرى فيها من الرفق ووجود الحلال له ولعِياله .

وقد ولد له عدة أولاد من الوالدة ومن أخرى قبلها. أكبرهم : إسماعيل ، ثم يونس ، وإدريس . ثم من الوالدة : عبد الوهاب ، وعبد العزيز ، وأخوات عدة . ثم أنا أصغرهم وسميت باسم الأخ « إسماعيل » ؛ لأنه كان قد قدم دمشق ، فاشتغل بها بعد أن حفظ القرآن على والده ، وقرأ مقدمة في النحو ، وحفظ التنبيه ، وشرحه على العلامة تاج الدين الفزاري ، وحصل المنتخب في أصول الفقه . قاله لى شيخنا ابن الزمكاني . ثم إنه سقط من سطح الشامية البرانية ، فمكث أياماً ومات . فوجد الوالد عليه وجداً كثيراً ، وراثه بأبيات كثيرة . فلما ولدت أنا له بعد ذلك سماني باسمه. فأكبر أولاده: إسماعيل، وأصغرهم وآخرهم : إسماعيل . فرحم الله من سلف ، وختم بخير لمن بقى. توفي والدى في شهر جمادى الأولى سنة ٧٠٣هـ في قرية مجدل، ودفن بمقبرتها الشمالية عند الزيتون، وكنت إذ ذاك صغيراً ، ابن ثلاث سنين أو نحوها. لا أدركه إلا كالحلم ، ثم تحولنا من بعده في سنة ٧٠٧هـ إلى دمشق، صحبة « كمال الدين عبد الوهاب » وقد كان لنا شقيقاً، وينا رفيقاً شغوفاً. وقد تأخرت وفاته إلى سنة خمسين [يعني سنة ٧٥٠هـ] . فاشتغلت على يديه في العلم، فيسر الله تعالى منه ما يسر ، وسهل منه ما تعسر .

وقد بدأ الاشتغال بالعلم على يد أخيه عبد الوهاب - كما قال آنفا - ثم اجتهد في تحصيل العلوم على العلماء الكبار في عصره . وحفظ القرآن الكريم ، وختم حفظه سنة ٧١١هـ ، كما صرح بذلك في تاريخه ١٤ / ٣١٢ . وقرأ بالقراءات، حتى عده الداودي من القراء (٢) ، وترجم له في طبقاتهم التي ألفها (٣) . وسمع الحديث من كثير من أئمة الحفاظ في عصره ، وعنى بالسمع والإكثار منه ، فمما ذكر في تاريخه ١٤ / ١٤٩ : أنه سمع صحيح مسلم في تسعة مجالس على الشيخ نجم الدين بن العسقلاني ، بقراءة الوزير العالم أبي القاسم محمد بن سهل الأزدي الغرناطي الأندلسي ، المتوفى بالقاهرة في ٢٢ محرم سنة ٧٣٠هـ - حين قدم دمشق في جمادى الأولى سنة ٧٢٤هـ عازماً على الحج .

(١) يعني القرى .

(٢) الداودي : هو شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي المصري ، مات سنة ٩٤٥هـ . ولكن ابن الجزري لم يذكر ابن كثير في طبقات القراء .

(٣) وما ينبغي التنبيه إليه : أن « ابن كثير » هذا الحافظ المفسر ، غير « ابن كثير » أحد القراء السبعة . فذاك اسمه « عبد الله بن كثير المكي » ، إمام أهل مكة في القراءة ، وهو قديم من التابعين ، روى عن ابن الزبير وأنس بن مالك . ولد سنة ٤٥هـ ، ومات سنة ١٢٠هـ .

وذكر في ترجمة شيخه الكبير المعمر الرحلة شهاب الدين الحجار المعروف بابن الشحنة :
أنه سمع عليه « بدار الحديث الأشرفية في أيام الشتويات نحواً من خمسمائة جزء بالإجازات
والسماع » . وهذا الشيخ « عاش مائة سنة محققاً ، وزاد عليها » . وتوفى سنة ٧٣٠هـ .
(التاريخ / ١٤ / ١٥٠) .

وتفقه على الشيخين برهان الدين الفزاري وكمال الدين ابن قاضي شعبة . وحفظ التنبيه
للشيرازي في فروع الشافعية ، ومختصر ابن الحاجب في الأصول . ولزم الحافظ الكبير أبا
الحجاج المزى ، وقرأ عليه مؤلفه العظيم في الرجال « تهذيب الكمال » . وصاهره على ابنته
زينب (١) . وكان من أعظم تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية ، ولازمه وتخرج على يديه ،
وكانت له به خصوصية ومناضلة عنه ، واتباع له في كثير من آرائه ، وكان يفتى برأيه في مسألة
الطلاق (٢) ، وامتنح بسبب ذلك وأوذى .

وكان من أفاض العلماء في عصره، أثنى عليه معاصروه وتلاميذه ومن بعدهم الثناء الجم:
فذكره الحافظ الذهبي في طبقات الحفاظ ٢٩/ ٤ ، مع أن الذهبي يكاد يكون من طبقة
شيوخه؛ لأنه مات سنة ٧٤٨هـ، قبل ابن كثير بـ ٢٦ سنة . فقال في طبقات الحفاظ : « وسمعت
مع الفقيه المفتي المحدث ، ذى الفضائل ، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصرى
الشافعى . . . سمع من ابن الشحنة وابن الرداد وطائفة . له عناية بالرجال والمتون والفقه .
خرج وناظر وصنف وفسر وتقدم » . وقال الذهبي في المعجم المختص - فيما نقله ابن حجر
 وغيره : « الإمام المفتي المحدث البارع ، فقيه متفنن ، محدث متقن ، مفسر نقال » .

وقال تلميذه شهاب الدين بن حجي : « كان أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث ،
وأعرفهم بتخريجها ورجالها ، وصحيحها وسقيمها . وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك .
وكان يستحضر كثيراً من التفسير والتاريخ ، قليل النسيان . وكان فقيهاً جيد الفهم صحيح
الذهن ، ويحفظ التنبيه إلى آخر وقت . ويشارك في العربية مشاركة جيدة ، وينظم الشعر .
وما أعرف أني اجتمعت به - على كثرة ترددي عليه - إلا واستفدت منه » . (عن النعيمي في
كتاب الدارس) .

وقال تلميذه الحافظ أبو المعاسن الحسيني في ذيل تذكرة الحفاظ (ص ٥٨) : « وصاهر
شيخنا أبا الحجاج المزى فأكثر عنه ، وأفتى ودرس وناظر ، وبرع في الفقه والتفسير والنحو ،
وأمن النظر في الرجال والعلل » .

وقال الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة : « ولازم المزى ، وقرأ عليه تهذيب الكمال ،
وصاهره على ابنته . وأخذ عن ابن تيمية ففتن بحبه ، وامتنح بسببه . وكان كثير الاستحضار،

(١) ذكرها باسمها في ترجمة شيخه الحافظ المزى ، التوفى سنة ٧٤٢هـ . (التاريخ / ١٤ / ١٩١ ، ١٩٢) .

(٢) أى وقوع الطلاق الثلاث بلفظ واحد طلقة واحدة ، كما هو الحق الذى تدل عليه الدلائل الصحاح .

حسن المفاكهة . سارت تصانيفه في البلاد في حياته ، وانتفع بها الناس بعد وفاته . ولم يكن على طريقة المحدثين في تحصيل العوالى ، وتمييز العالى من النازل ونحو ذلك من فنونهم ، وإنما هو من محدثى الفقهاء . وقد اختصر مع ذلك كتاب ابن الصلاح (١) ، وله فيه فوائد .

ونقل السيوطى فى ذيل طبقات الحفاظ كلام الحافظ ابن حجر فى أنه « لم يكن على طريقة المحدثين ... » ثم تعقبه بقوله : « العمدة فى علم الحديث معرفة صحيح الحديث وسقيمه ، وعلله واختلاف طرقة ، ورجاله جرحاً وتعديلاً . وأما العالى والنازل ونحو ذلك - فهو من الفضلات ، لا من الأصول المهمة . » وهذا حق . وقال السيوطى أيضاً : « له التفسير الذى لم يؤلف على نمطه مثله » . يشير إلى هذا التفسير العظيم الذى نختصره .

وقال العلامة العينى - فيما نقل عنه ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة : « كان قدوة العلماء والحفاظ ، وعمدة أهل المعانى والألفاظ . وسمع وجمع ، وصنف ودرس ، وحدث وألف . وكان له اطلاع عظيم فى الحديث والتفسير والتاريخ ، واشتهر بالضبط والتحرير ، وانتهى إليه علم التاريخ والحديث والتفسير . وله مصنفات عديدة مفيدة » .

ووصفه الحافظ العلامة شمس الدين بن ناصر ، فى كتاب « الرد الوافر » - بأنه « الشيخ الإمام العلامة الحافظ ، عماد الدين ، ثقة المحدثين ، عمدة المؤرخين ، علم المفسرين » .

وقال فيه ابن حبيب - فيما نقل الداودى فى طبقات القراء وابن العماد فى الشذرات : « إمام ذوى التسبيح والتهليل ، وزعيم أرباب التأويل . سمع وجمع وصنف ، وأطرب الأسماع بأقواله وشنف ، وحدث وأفاد ، وطارت فتاويه إلى البلاد ، واشتهر بالضبط والتحرير ، وانتهت إليه رياسته العلم فى التاريخ والحديث والتفسير » .

وروى له الحافظ ابن حجر فى إنباء الغمر ، وابن العماد فى الشذرات - البيتين المشهورين ،
الذائعين على الألسنة :

تمر بنا الأيام تترى وإنما نساق إلى الآجال والعين تنظر

فلا عائد ذاك الشباب الذى مضى ولا زائل هذا المشيب المكدر

وصحبته وملازمته لشيخ الإسلام ابن تيمية أفادته أعظم الفوائد ، فى علمه ودينه ، وتقوية خلقه ، وتربية شخصيته المستقلة الممتازة .

فهو مستقل الرأى ، يدور مع الدليل حيث دار ، لا يتعصب لمذهبه ولا لغيره . وكتبه العظيمة - وخاصة هذا التفسير الجليل - فيها الدلائل الوافرة . ونجده - مع أنه شافعى المذهب -

(١) كتابه هذا هو « اختصار علوم الحديث » . طبع أول مرة فى مكة المكرمة بالمطبعة الماجدية سنة ١٣٥٣هـ ، بتصحيح أئينا العلامة الكبير الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة ، أحد كبار المدرسين الآن بالحرم المكى . ثم شرحتة أنا شرحاً متوسطاً ، وطبع فى مصر فى شهر ذى القعدة سنة ١٣٥٥هـ . ثم أعدت طبعه مرة أخرى مع زيادات وتنقيح فى الشرح ، فى شهر ذى الحجة سنة ١٣٧٠هـ .

يفتى فى مسألة الطلاق الثلاث بلفظ واحد ، بما رجحته الدلائل الثابتة الصحاح ، أنه يقع طلاقة واحدة ، ثم يمتحن ويلقى الأذى ، فيثبت على قوله ، ويصبر على ما يلقي فى سبيل الله .

وهو - وهو تلميذ شيخ الإسلام ومن خاصة أنصاره - يعرف ما كان بين شيخه شيخ الإسلام وبين قاضى القضاة تقى الدين السبكى - ومع ذلك فإنه لا يعين عليه فى محنة لحقته ، بل يعلن عن غبطته بأن تزول عنه المحنة . فيذكر فى التاريخ - فى حوادث سنة ٧٤٣هـ (٢٠٤ / ١٤) أنه أُرْجِفَ الناس كثيراً بقاضى القضاة - فى دمشق - « واشتهر أنه سينعقد له مجلس للدعوى عليه بما دفعه من مال الأيتام إلى الطنبغا وإلى الفخرى . وكتبت فتوى عليه بذلك فى تغريمه ، وداروا بها على المفتين ، فلم يكتب لهم أحد فيها غير القاضى جلال الدين ابن حسام الدين الحنفى ، رأيت خطه عليها وحده بعد الصلاة . وسئلت فى الإفتاء عليها فامتنت ، لما فيها من التشويش على الحكام . » ثم يقول : « وكانوا له فى نية عجيبة ، ففرج الله عنه بطلبه إلى الديار المصرية . » فهذا خلق أهل العلم النبلاء الأتقياء .

وقد طار ذكره فى الأقطار الإسلامية ، حتى إنه ليذكر فى حوادث سنة ٧٦٣هـ (١٤ / ٢٩٤ ، ٢٩٥) أن شاباً عجمياً حضر من بلاد تبريز وخراسان ، « يزعم أنه يحفظ البخارى ومسلماً ، وجامع المسانيد والكشاف للزمخشري وغير ذلك » ، وأنه امتحنه بقراءة مجالس من البخارى وغيره بحضور قاضى القضاة الشافعى وجماعة من الفضلاء ، ثم قال : « وفرح بكتابتي له بالسماع على الإجازة . وقال : أنا ما خرجت من بلادى إلا إلى القصد إليك ، وأن تميزنى . وذكرك فى بلادنا مشهور . »

وهذا الخبر يدل على أن كتابه « جامع المسانيد » وصل إلى أقصى الشرق ، فى بلاد تبريز وخراسان ، حتى يحفظه هذا الشاب الأعجمى أو يحفظ شيئاً منه . فى حين أن الحافظ ابن كثير لم يتم تأليف « جامع المسانيد » كما هو معروف . فكان العلماء وطلاب العلم كانوا ينسخون ما يخرج منه ، ويتداولونه بينهم ، حتى يصل من دمشق إلى تلك النواحي النائية .

ولم يكن ممن يخدع فى الفتاوى التى ظاهرها قصد الاستفتاء ، ووراءها الأعيب سياسية ، أو أغراض شخصية غير سليمة ، وإن كان المستفتى من الأمراء أو ممن يخشى بأسه . فهو يقول فى حوادث سنة ٧٦٢هـ : « وجاءتني فتياً صورتها : ما تقول السادة العلماء فى ملك اشترى غلاماً فأحسن إليه وأعطاه وقدمه ، ثم إنه وثب على سيده فقتله وأخذ ماله ومنع ورثته منه ؟ وتصرف فى المملكة ، وأرسل إلى بعض نواب البلاد ليقدم عليه ليقتله : فهل له الامتناع منه ، وهل إذا قاتل دون نفسه وماله حتى يقتل يكون شهيداً ؟ وهل يثاب الساعى فى خلاص حق ورثة الملك المقتول من القصاص والمال ؟ أفتونا مأجورين ؟ » .

فهذا استفتاء صيغ فى صورة توحى بالجواب . وباطنه أن ذاك الأمير السائل يريد أن يمتنع على الملك الذى دعاه للحضور عنده ، ويريد أن يثير فتنة وقتالاً على صاحب الأمر ، لعله يصل

إلى ما يصل إليه ذاك من الملك ، كعادة الأمراء من الممالك في ذلك العهد . ولكن ابن كثير يجيبه جواباً حكيماً يكشف عن بعض مقصده ، ويضمن جوابه النصيحة في مثل هذه الحال ، فيقول : « فقلت للذي جاءني بها من جهة الأمير : إن كان مراده خلاص ذمته فيما بينه وبين الله تعالى - فهو أعلم بنيته في الذي يقصده ! ولا يسعى في تحصيل حق معين إذا ترتب على ذلك مفسدة راجحة في ذلك ، فيؤخر الطلب إلى وقت إمكانه بطريقه ! وإن كان مراده بهذا الاستفتاء أن يتقوى بها في جمع الدولة والأمراء عليه - فلا بد أن يكتب عليها كبار القضاة والمشايخ أولاً ، ثم بعد ذلك بقية المفتين بطريقه » . (التاريخ ١٤ / ٢٨١ ، ٢٨٢) .

وكان الإفرنج قد غدروا بمدينة الإسكندرية ، وأشاعوا فيها الرعب ، وارتكبوا الفظائع غدراً . وذلك : أنهم وصلوا إليها من البحر يوم الأربعاء ٢٢ محرم سنة ٧٦٧ هـ « فلم يجدوا بها نائباً ولا جيشاً ، ولا حافظاً للبحر ولا ناصرأ . فدخلوها يوم الجمعة بكرة النهار ، بعد ما حرقوا أبواباً كثيرة منها . وعاثوا في أهلها فساداً ، يقتلون الرجال ، ويأخذون الأموال ، ويأسرون النساء والأطفال ، فالحكم لله العلى الكبير المتعال . وأقاموا يوم الجمعة والسبت والأحد والاثنين والثلاثاء ، فلما كان صبيحة الأربعاء قدم الشاليش المصرى ^(١) ، فأقلعت الفرنج - لعنهم الله - عنها ، وقد أسروا خلقاً كثيراً يقاربون الأربعة آلاف ، وأخذوا من الأموال ذهباً وحريراً وبهاراً وغير ذلك ، ما لا يحد ولا يوصف . وقدم السلطان والأمير الكبير يلغا ظهر يومئذ وقد تفرط الحال ، وتحولت الغنائم كلها إلى الشوائب بالبحر ، فسمع للأسارى من العويل والبكاء والشكوى والجأر إلى الله ، والاستغاثة به وبالمسلمين - ما قطع الأكباد ، وذرفت له العيون وأصم الأسماع . فإنا لله وإنا إليه راجعون . ولما بلغت الأخبار إلى أهل دمشق شق عليهم ذلك جداً ، وذكر ذلك الخطيب يوم الجمعة على المنبر ، فتباكى الناس كثيراً . فإنا لله وإنا إليه راجعون » .

فهذه وقعة شنيعة غادرة من الإفرنج - كعاداته - والنفوس تتقرز من مثلها ، وتثور من أجلها . والملوك والأمراء الظالمون يتتهزون فرصة تعبئة الرأي العام الإسلامى - وثورته من أجل هذا الغدر ، وغضباً لهذه الفظائع - ليأكلوا أموال الناس بالباطل ، وظاهر أمرهم الانتقام وباطنه السلب والنهب . ولكن الحافظ ابن كثير يلزم جانب الحق والعدل ، ولا يرضى بالظلم ، ولو كان ظاهره الانتقام والثأر للمسلمين . فيقول : « وجاء المرسوم الشريف من الديار المصرية ، إلى نائب السلطنة ، بمسك النصرارى من الشام جملة واحدة ، وأن يأخذ منهم ربع أموالهم ، لعمارة ما خرب من الإسكندرية ، ولعمارة مراكز تغزو الإفرنج . فاهانوا النصرارى ، وطلبوا من بيوتهم بعنف . وخافوا أن يقتلوا ، ولم يفهموا ما يراد بهم فهربوا كل مهرب . ولم تكن هذه

(١) فى النجوم الزاهرة (٢٩/١١) طبعة دار الكتب المصرية : « فلما وصل السلطان إلى الطرانة أرسل جاليشاً من الأمراء أمامه فى خفية . . . » . وكتب مصححه الأستاذ محمد البرهامى منصور ، بهامشة : « الجاليش : مقدمة الجيش والراية العظيمة فى رأسها خصلة من الشعر » . وهى كلمة أعجمية - لعلها تركية أو فارسية - وفى مثلها الجيم شديدة التعطيش - بين الجيم والشين ، فيجوز تعريبها جيماً أو شيناً ، مثل « شايوش » و « جاويش » .

الحركة شرعية ولا يجوز اعتمادها شرعاً . وقد طلبت يوم السبت السادس عشر من صفر [أى سنة ٧٦٧ هـ] إلى الميدان الأخضر ، للاجتماع بنائب - السلطنة ، وكان اجتماعنا بعد العصر يومئذ ، بعد الفراغ من لعب الكرة ، فرأيت منه أنسا كبيراً ، ورأيت كامل الفهم ، حسن العبارة كريم المجالسة . « فذكرت له أن هذا لا يجوز اعتماده فى النصارى » [يعنى المرسوم بالمصادرة]. فقال: إن بعض فقهاء مصر أفتى للأمير الكبير بذلك! قلت له: هذا مما لا يسوغ شرعاً، ولا يجوز لأحد أن يفتى بهذا . ومتى كانوا باقين على الذمة ، يؤدون إلينا الجزية ملتزمين بالذلة والصغار ، وأحكام الملة قائمة - لا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد الفرد فوق ما يبذلونه من الجزية. ومثل هذا لا يخفى على الأمير! فقال : كيف أصنع وقد ورد المرسوم بذلك ؟ ولا يمكننى أن أخالفه !؟ . ثم ذكر أن نائب السلطنة كتب بذلك إلى الديار المصرية . ولكن هذا النائب لم يكن عند قوله ، فنفذ المرسوم ، وطلب النصارى الذين اجتمعوا فى كنيستهم إلى بين يديه، وهم قريب من أربعمئة، فحلفهم: كم أموالكم ؟ والزهمم بأداء الربيع من أموالهم ، فإننا لله وإنا إليه راجعون . وكانت هذه المصادرة الظالمة فى شهر ربيع الأول سنة ٧٦٧ هـ . ثم قال الحافظ - فى حوادث شهر ربيع الآخر: « وفى أوائل هذا الشهر ورد المرسوم الشريف السلطانى، بالرد على نساء النصارى ما كان أخذ منهن مع الجباية التى كان تقدم أخذها منهن وإن كان الجميع ظلماً ، ولكن الأخذ من النساء أفحش وأبلغ فى الظلم » . (التاريخ ١٤ / ٣١٥ ، ٣١٨) .

فانظر إلى هذا الإمام العظيم ، الذى يقف عند حدود الشريعة المطهرة ، يقيم ميزان العدل الصحيح كما عرفه من دينه الحنيف ، ويألم ويسترجع لما ناب النصارى من مصادرة ظالمة من أمراء طغاة جائرين ، كما ألم واسترجع من قبل لما أصاب المسلمين من غدر النصارى وبغيهم، وشتان هذا وذاك . ولكنه لا يرضى إلا أن يقيم ميزان العدل .

فكان هذا العقل المستقل الثابت على الحق ، والذى لا تغلبه العواطف والأهواء ، مما يجعل للرجل منزلة عند الناس كبيرة. يتق به أنصاره وغير أنصاره ، وموافقوه ومخالفوه . بل جعله موضع الثقة والاستشارة عند الذميين ، حتى ليستشيره بعض رؤسائهم ، فى أخص شؤونهم الكنيسية . فإنه يذكر قصة طريفة ، فى استشارة أحد البطاركة إياه فى ذلك ، يحسن أن نذكرها بعبارة بحروفها:

فقال - فى حوادث سنة ٧٦٧ هـ: « وحضر عندى يوم الثلاثاء تاسع شوال ، البترك بشارة ، الملقب بميخائيل ، وأخبرنى أن المطارنة بالشام بايعوه على أن جعلوه بتركاً بدمشق عوضاً عن البترك بأنطاكية . فذكرت له أن هذا أمر مبتدع فى دينهم ، فإنه لا تكون البتاركة إلا أربعة : بالإسكندرية، وبالقدس، وبأنطاكية ، وبرومية . فنقل رومية إلى إسطنبول ، وهى القسطنطينية ، وقد أنكر عليهم كثير منهم إذ ذاك ، فهذا الذى ابتدعوه فى هذا الوقت أعظم من ذلك . لكن اعتذر بأنه فى الحقيقة هو عن أنطاكية ، وإنما أذن له فى المقام بالشام الشريف ، لأجل أنه أمره

نائب السلطنة أن يكتب عنه وعن أهل ملتهم إلى صاحب قبرص ، يذكر له ما حل بهم من الخزي والنكال والجناية بسبب عدوان صاحب قبرص على مدينة الإسكندرية . وأحضر لى الكتب إليه وإلى ملك إسطنبول، وقرأها على من لفظه . لعنه الله ولعن المكتوب إليهم أيضاً !! وقد تكلمت معه فى دينهم ، ونصوص ما يعتقده كل من الطوائف الثلاثة ، وهم : الملكية ، واليعقوبية - ومنهم الإفرنج والقطب - والنسطورية ، فإذا هو يفهم بعض الشيء . ولكن حاصله أنه حمار ، من أكفر الكفار ! لعنه الله « . (التاريخ ١٤/٣١٩ ، ٣٢٠) .

ولا يعجبني القارئ من أن ابن كثير أعلم بعقائد طوائف النصارى من أحد بباركتهم . أستغفر الله ، بل إنه يذكر عن ذاك البترك ميخائيل الذى تكلم معه « أنه يفهم بعض الشيء » ؛ لأن ابن كثير رحمه الله من أوسع العلماء اطلاعاً على أقوال أهل الملل والنحل ، وخاصة مذاهب المسيحيين ، كما يدل عليه كلامه فى مواضع كثيرة فى التفسير والتاريخ ، بل يكفى فى الدلالة على سعة اطلاعه فى ذلك أن يكون تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية ، ذلك الذى ألف موسوعته النفيسة فى ذلك : « كتاب الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » . وهو مطبوع معروف .

وكان - رحمه الله - قد أضر فى آخر عمره . ثم مات يوم الخميس ٢٦ شعبان سنة ٧٧٤هـ . وقال ابن ناصر : « وكانت له جنازة حافلة مشهورة . ودفن بوصية منه فى تربة شيخ الإسلام ابن تيمية ، بمقبرة الصوفية ، خارج باب النصر من دمشق » .

مؤلفاته :

له مؤلفات كثيرة ، ما أظن أنى أستطيع استقصاءها الآن ، وبعضها مفقود ، أو لم نعرف مكان وجوده إلى الآن . وهو يشير إلى كثير منها فى التفسير وغيره من كتبه عند المناسبات . وسنذكر هنا ما وصل إليه علمنا ، وجله ومعظمه مما ذكره أخونا العلامة الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة ، فى ترجمته إياه فى كتاب (اختصار علوم الحديث) :

١ - التفسير . وهو هذا الكتاب الذى نختصره ، وقد فصلنا وصفه فى المقدمة .

٢ - البداية والنهاية . وهو التاريخ النفيس المعروف . طبع منه بمصر سنة ١٣٥٨هـ - ١٤ مجلداً كبيراً ، أرخ فيه من بدء الخليقة إلى أثناء سنة ٧٦٨هـ ، أى قبل وفاته بنحو ٦ سنوات . وبقي منه مجلدان لم يطبعوا . وهو القسم الأخير منه المشار إليه فى اسمه « النهاية » ، جمع فيه ما ورد من الأخبار فى الفتن وأشراف الساعة والملاحم وأحوال الآخرة .

٣ - السيرة النبوية (مطولة) . ولم نره ، ولكنه أشار إليه وإلى السيرة المختصرة فى تفسير الآية (٦) من سورة الأحزاب « فى كتاب السيرة التى أفرناها موجزاً وبسيطاً » .

٤ - السيرة (مختصرة) . وقد طبعت بمصر سنة ١٣٥٨هـ تحت اسم « الفصول فى اختصار سيرة الرسول » . وهذا المطبوع غير كامل يقيناً . فلا أدري أقتصر المؤلف رحمه الله

على هذا القدر؟ أم فقد باقى الكتاب؟ فإنه يقول فى خطبة الكتاب: « لا يجمل بأولى العلم إهمال معرفة الأيام النبوية والتواريخ الإسلامية ». ثم يقول: « وقد أحببت أن أعلق تذكرة فى ذلك... وهى مشتملة على ذكر نسب رسول الله ﷺ وسيرته وأعلامه، وذكر أيام الإسلام بعده، إلى يومنا هذا ». ولكن المطبوع هو السيرة النبوية فقط، عن مخطوطة (مكتبة عارف حكمت) بالمدينة المنورة. فالكتاب ناقص بيقين.

٥ - اختصار علوم الحديث . اختصر فيه مقدمة ابن الصلاح فى المصطلح .

وقد طبع بمكة ، وطبعته بشرحى مرتين ، كما بينت آنفاً ص : ٢٦ .

٦ - جامع المسانيد والسنن . ذكره الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة باسم (الهدى والسنن فى أحاديث المسانيد والسنن) ، وأنه « جمع فيه بين مسند الإمام أحمد والبخارى وأبى يعلى وابن أبى شيبة مع الكتب الستة » . ولست أدرى حقيقة هذا الوصف ، فإن المؤلف رحمه الله لم يتمه ، ثم المقدار الذى عمله لم يوجد منه إلا سبعة مجلدات بدار الكتب المصرية . وقد صورت المجلد الأخير منها . وفيه معظم (مسند أبى هريرة) ، رتب فيه الأحاديث من مسند أحمد على أسماء التابعين الرواة عن أبى هريرة - على حروف المعجم . وأول هذا المجلد أثناء حرف الجيم ، وأول الأسماء فيه « جعفر بن عياض المدنى عنه » ، يعنى عن أبى هريرة . وآخره « آخر مسند أبى هريرة » . وهو فى (٢٦٩) ورقة . وقد درسته طويلاً ، بعملى فى « مسند أبى هريرة » من مسند الإمام أحمد . ولم أجد فيه إشارة إلى « البخارى وأبى يعلى وابن أبى شيبة » ولكن تكثر الإشارة فيه إلى الكتب الستة . ولست أدرى خطته فيه بالدقة ، فإنه محتاج إلى دراسة وافية ، بعد تصوير سائر المجلدات الموجودة . ومجموع أوراق المجلدات السبعة - على ما فيها من خروم (٢٢٨٠) ورقة .

٧ - التكميل فى معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل جمع فيه كتابى شيخيه : المزى والذهبي ، (تهذيب الكمال) و (ميزان الاعتدال) مع زيادات فى الجرح والتعديل .

٨ - مسند الشيخين : أبى بكر وعمر .

٩ - رسالة فى الجهاد . وهى مطبوعة .

١٠ - طبقات الشافعية ، ومعه مناقب الشافعى .

١١ - اختصار كتاب (المدخل إلى كتاب السنن) للبيهقى .

١٢ - كتاب (المقدمات) . ولعله فى المصطلح .

١٣ - تخريج أحاديث أدلة التنبيه - فى فروع الشافعية .

١٤ - تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب - فى الأصول .

١٥ - شرح صحيح البخارى - شرع فيه ولم يكمله ، وأشار إليه مراراً فى كتبه .

١٦ - كتاب (الأحكام) وهو كتاب كبير لم يكمله - وصل فيه إلى « الحج » .

مصادر الترجمة:

البداية والنهاية . وهو التاريخ الكبير لابن كثير - الجزء ١٤ ، طبعة مصر ١٣٥٨هـ .

تذكرة الحفاظ للذهبي ، طبعة حيدر آباد ١٣٣٤هـ .

الدارس في تاريخ المدارس للنعمي الجزء الأول ، طبعة دمشق ١٣٦٧هـ .

الدرر الكامنة للحافظ ابن حجر الجزء الأول ، طبعة حيدر آباد ١٣٤٨هـ .

ذبول تذكرة الحفاظ للحسيني ، طبعة مصر ١٣٤٧هـ .

ذبول تذكرة الحفاظ للسيوطي ، طبعة مصر ١٣٤٧هـ .

النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ، الجزء ١١ ، طبعة دار الكتب المصرية ١٣٦٩هـ .

شذرات الذهب لابن العماد ، الجزء ٦ ، طبعة مصر ١٣٥١هـ .

الرد الوافر لابن ناصر الدين ، الجزء ٦ ، طبعة مصر ١٣٢٩هـ .

ترجمته بقلم الأخ العلامة الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة في أول (اختصار علوم الحديث)

بشرحنا ، طبعة مصر ١٣٧٠هـ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الشيخ الامام الاوحد الباق المأذون الشافعي ما ذكره ابن ابي عمير من ان
 ايضا من اكثر الشافعي رحمه الله تعالى ورضي عنه من الحديث الذي اخرج كتابه الجليل
 فقال الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ملك يوم الدين وقال تعالى الحمد لله الذي ازل
 على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا فلما انزلناه وبشرنا المؤمنين للذين يعملون الصالحات
 ان لهم اجرًا حسنًا ما كنا ننته فيهما وبشرنا الذين كفروا اتخذوا الهة لهم ان لهم عذابا عظيمًا
 وقالوا يا ربهم كبرت كلمة تخرج من افواههم ان يقولون الا كذبا قال تعالى خلقناهم من طين
 فقال تعالى الحمد لله الذي خلق السموات والارض وجعل النجوم والنور في السموات والارض
 بهم يبدلون واستشهدوا بالحق فقال الحمد لله الذي خلق السموات والارض وجعل النجوم
 الملكة ما فيهن من حروف العرش يحقن بدمهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب
 العالمين وكذا قال تعالى وهو الله لا اله الا هو له الحمد في الاولى والاخرة وله
 الحكم والبه ترجعون كما قال الحمد لله الذي خلق السموات والارض وله الحمد
 في الاولى وهو الحكيم الخبير وله الحمد في الاولى والاخرة اي في جميع مطلق زمانها
 خالق هو الخالق في ذلك كله كما يقول الحق تعالى الحمد لله ملائكة السموات وملائكة
 الارض وملائكة شيتان من شئ بعد كنهه اليهم اهل الجنة يسبحون كما تسبحون كما
 يسبحون النفس اي سبحونه وحمدونه عدد انفسهم المبرورين من عظيم نعمه عليهم
 وقال كبرته وعظيم سلطانه وتوالي منه واحسانه كما قال تعالى ان الذين ينسوا
 وتعالى الصالحات يهدهم بهم ما يمانتهم تجري من تحتهم الانهار والجنات النعيم
 وهو اعرف بما سبحك اللهم وحنيتهم فيها سلام واخره هو ان الحمد لله رب
 العالمين وكنهه الذي ارسل رسله مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على
 الله حجة بعد الرسل وختمه بالنبى الامى العزى للملكى الهادى لا اوضح السبل ارسله
 الى جميع خلقه من الانس والجن من اذن بعثته الى قيام الساعة كما قال تعالى
 وما انا الا نذير الى رسول الله اليكم جميعا الذي له ملك السموات والارض والال

هل صليت قلت لا قال قم فصل قال فقلت فصليت ثم جلست فقال يا أبا ذر
 نفوذ بالله من ثوابين الا نزلت برسول الله وللاس ثيابين قال
 نعم قال قلت برسول الله الصلاة قال خير موضوع من ثيابي اقل ومن شاء
 اكثر قلت برسول الله فالصوم قال فرض تجزي وعمد الله يريد قلت برسول
 الله فالصدقة قال اضعاف مضاعفة قلت برسول الله فايها افضل فقال جهد
 من عقل او سهر الى فقير قلت برسول الله اي الانيبا كان اول قال ادم قلت
 برسول الله ومنى كان قال نعم نبي تكلمت برسول الله كره المرسلون قال
 ثلثمائة وبضعة عشر جفا فقيرا وقال مع نفسه عشر قلت برسول الله اي ما
 انزل عليك اعظم قال ايه الكوسى الله لا اله الا هو احيى القوم ورواه
 النسائي من حديث ابي عمير الدمشقي به وقد اخرج هذا الحديث مطولا جدا
 ابو حاتم بن جبان في صحيحه بطريق اخر والله اخر رسول جدا قال بعد اعلم ووال
 الامام احمد ما وكيع عن سفيان عن منصور عن زر بن عبد الله اهدى عن
 عبد الله بن شداد عن ابن عباس قال جاز رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال
 برسول الله اني احدث نفسي ناسي ان اذخر من الساب الى من ان انكلم به
 قال فقال النبي صلى الله عليه وسلم الله اكبر الله اكبر الحمد لله الذي ردك به الى
 الوسوسة ورواه ابو داود والنسائي من حديث منصور زاد النبي
 والاعمش كلاهما عن زر به **انتهى التفسير لله الحمد والمنة**

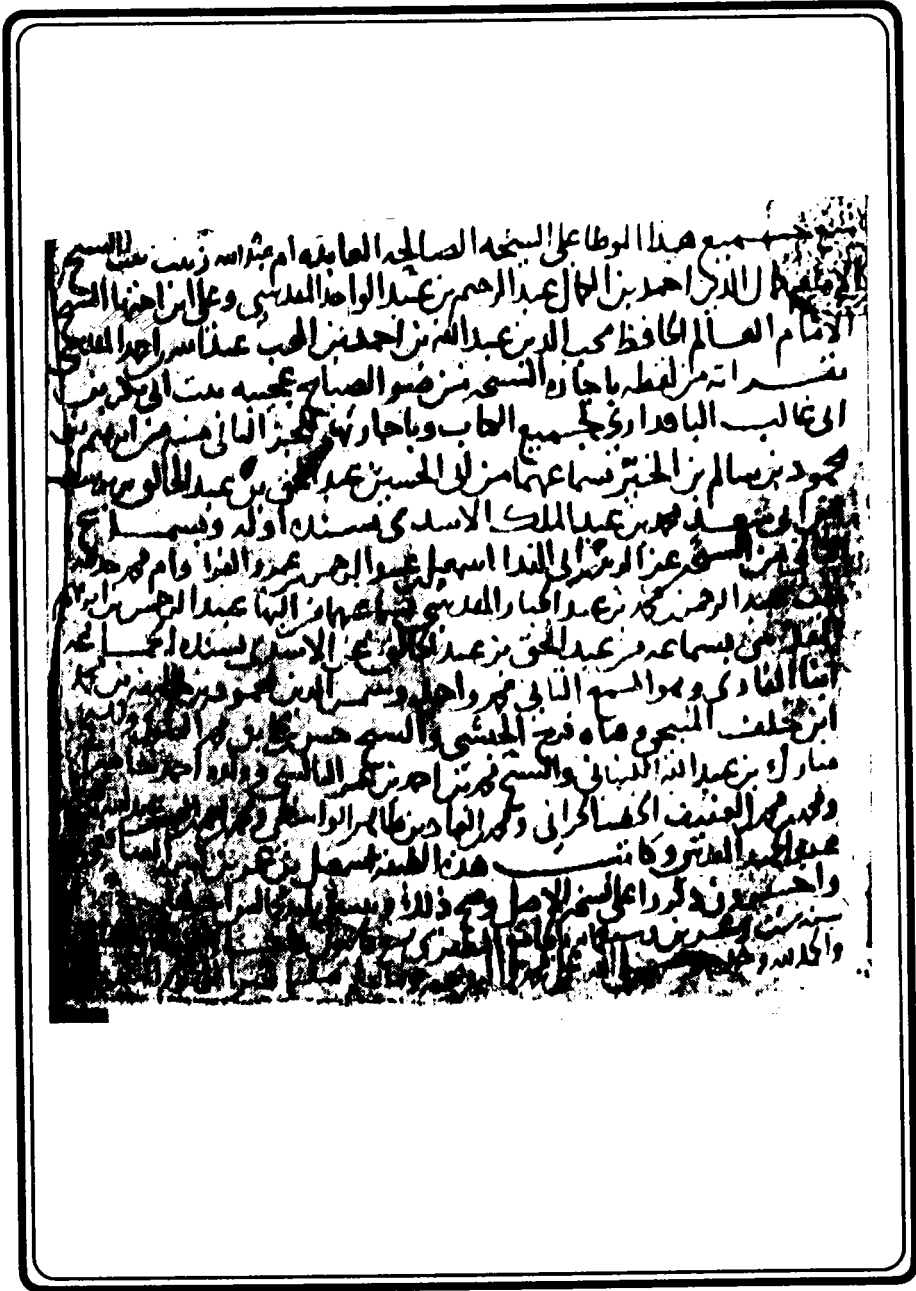
والحمد لله رب العالمين وصل الله على سيدنا محمد

والهو عليه اجمعين وصلى الله

عنه عن الصحابة اجمعين

رحمة الله وبركاته

وكان الفراغ منه في العشرين من جمادى الآخرة سنة ١٠٠٠ وعشر وثمان مائة واخمس مائة



٣ - صورة ثبت سماع بخط الحافظ ابن كثير على كتاب « موطأ سويد بن سعيد » وهي مخطوطة عتيقة جدا ، من القرن الخامس . وهذا السماع تاريخه سنة ٧٢٦ . وقد أشرنا بسهم إلى اسم الحافظ بخطه : (وكاتب هذه الطبقة إسماعيل بن عمر بن كثير الشافعي) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة سبحان وهي مكية

قال الإمام الحافظ المنقح أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا آدم بن أبي إيمان حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قلمتسمعت عبد الرحمن بن يزيد سمع ابن مسعود رضي الله عنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: إن من من الساق الأول وهن من تلادي. وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا حماد بن زيد عن مروان عن أبي نوبة سمعت عائشة تقول: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول ما يريد أن يصوم وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر.

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ه سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ السَّمَاءِ الْوَسْطَىٰ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

يمجد تعال نفسه، ويعظم شأنه، لقدوته على ما لا يقدر عليه أحد سواه، فلا إله غيره ولا رب سواه، (الذي أسرى عبده) يعني محمداً صلى الله عليه وسلم (ليلاً) أي في جنح الليل (من المسجد الحرام) وهو مسجد مكة (إلى المسجد الأقصى) وهو بيت المقدس الذي يباليه معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا جمعوا له هناك كلهم فأهمهم في عتاهم ودارهم فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وقوله تعال (الذي باركنا حوله) أي في الزروع والثمار (لنريه) أي محمداً (من آياتنا) أي العظام كما قال تعال (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) وسنذكر من ذلك ما وردت به السنة من الأحاديث عنه صلى الله عليه وسلم. وقوله تعال (إنه هو السميع البصير) أي السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم ومكذبتهم، البصير بهم فيعطى كلا منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة.

(ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء: رواية أنس بن مالك رضي الله عنه)

قال الإمام أبو عبد الله البخاري حدثني عبد العزيز بن عبد الله حدثنا سليمان بن بلال - عن شريك بن عبد الله قال سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نام في المسجد الحرام فقال أولهم أيهم هو؟ فقال أولهم هو خيرهم فقال آخرهم خذوا خيرهم، فكانت تلك الليلة فلم يرم حتى أتوه ليلة أخرى فيها يرى قلبه وتنام عينه ولا يتنام قلبه. وكذلك الأنبياء تمام أعينهم ولا تمام قلوبهم - فلم يكلموه حتى لاحتلوه فوضعه على برزخ من فتولاه منهم جبريل فشق جبريل ما بين نحره إلى لبتة حتى فرغ من صدره وجوفه فمسكه من ماء زمزم بيده حتى أتى جوفه ثم أتى بطم من ذهب فيه تور من ذهب عشو ثمأنا حكمة فحشا به صدره وليناديه - يعني عروق حلقه - ثم أطبقه ثم عرج به إلى السماء الدنيا فضرب بابا من أبواب فناداه أهل السماء من هذا؟ فقال جبريل، قالوا ومن معك؟ قال معي محمد قالوا رقدت إليه؟ قال نعم قالوا فرحبا به وأهلا، يستبشر به أهل السماء لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به في الأرض حتى يعلمهم، فوجد في السماء الدنيا آدم فقال له جبريل هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلم عليه ورد عليه آدم فقال مرحبا

ابن اسلم يعني اجمله في بيت الملك ينم ويرتف وغذاؤه عندهم غذاء الملك فذلك الصنعة . وقوله (اذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تتفر عينها وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون عرضوا عليه المراضع فأبأها قال الله تعالى (وحزنانا عليه المراضع من قبل) فجمدت أخته وقالت (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون) تعني هل أدلكم على من يرضعكم بالاجرة فذهبت به وهم معها إلى أمه فمرضت عليه ثمديا فقبله ففرحوا بذلك فرحا شديدا واستأجروها على إرضاعه فناولها بسببه سمادة ورفعة وراحة في الدنيا وفي الآخرة أعظم وأجزل ، ولهذا جماله في الحديث ومثل الصانع الذي يختصب في صنعه الخبز كمثل أم موسى يرضع ولدها وتأخذ أجرها ، وقال تعالى مهنا (فرجعناك إلى أمك كي تتفر عينها ولا تحزن) أي عليك (وقتل نفسا) يعني القبطي (فنجيناك من النعم) وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله ففر منهم هاربا حتى ورد ماء مدين وقال له ذلك الرجل الصالح (لا تخف نجوت من القوم الظالمين) . وقوله (وفتناك فتونا) قال الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي رحمه الله في كتاب التفسير من سننه قوله (وفتناك فتونا) (حديث القتون) حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا يزيد بن هارون نبايا أصح بن زيد حدثنا القاسم بن أنيوس أخبرني سعيد بن جبير قال سألت عبد الله بن عباس عن قول الله عز وجل لموسى عليه السلام (وفتناك فتونا) فسألته عن القتون ما هو فقال استأنف النهار يا ابن جبير فإن لما حدثنا ما هو فلا أصبحت غدوت إلى ابن عباس لا تخرج منه ما وعدني من حديث القتون فقال : تذكر فرعون وجلساءه ما كان الله وعند إبراهيم عليه السلام أن يجمع في ذريته أنبياء وملاوك فقال بعضهم إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك لا يتكلمون فيه وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب فلما هلك قالوا ليس هكذا كان عند إبراهيم عليه السلام فقال فرعون كيف ترون قالوا فأمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجلا معهم الشغار بطوفون في بني إسرائيل فلا يجمعون مولودا ذكرا إلا ذبحوه ففعلوا ذلك فلما رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بأهلهم والصغار يذبحون قالوا ليوشع أن فتنوا بني إسرائيل فقصروا إلى أن تبشروا من الأعمال والخدمة التي يكفونكم فافعلوا عاما كل مولود ذكرا وانكروا بناتهم ودعوا عاما فلا تقبلوا منهم أحدا فذهب الصغار مكان من يموت من الكبار فإني لم يكتفوا من تسنجين منهم فتنافروا مكاثرتهم إياكم ولم يفتنوا من يتلون ويحتاجون إليهم فأجمعوا أمرهم على ذلك فحملت أم موسى هارون في العام الذي لا يذبح فيه الغلمان فولدته علابية آمنة فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام فوقع في قلبها المم والحزن وذلك من القتون يا ابن جبير ما دخل عليه وهو في بطن أمه مما يراد به . فأوحى الله إليها أن لا تخافي ولا تحزني إنا رآؤوه إليك وجاء علوه من المرسلين فأمرها إذا ولدت أن تجعله في تابوت ثم تلقيه في اليم فلما ولدت فعلت ذلك فلما توارى عنها إنما أتانا الشيطان فقالت في نفسها ما فعلت يا بني لو ذبح عندي فواريته وكفنته كان أحب إلى من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيثانه فأنهى الماء به حتى أوفى به عند مرفعه مستقي جوارى امرأة فرعون فلما رأته أخذته فأرعدن أن يفتحن التابوت فقال ليهضمن إن في هذا مالا ولإنا بين فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدناه فيه فحملته كهيئته لم يخرجن منه شيئا حتى كفنته إليها فلما فتحت رأت فيه قلاما فأتى الله عليه لها بحجة لم تلق منها على أحد قط وأصبح فؤاد أم موسى فارغا من ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى فلما سمع الذابحون بأمره أقبلوا بشغارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه وذلك من القتون يا ابن جبير . فقالت لهم أفروه فإن هذا الواحلي لا يريد بني إسرائيل حتى آتى فرعون فأسأوه به منه فإن وهبه لي كنتم قد أحسنتم وأجلمتم وإن أمر بذبجه لم أملك فأنت فرعون فقالت قرعة عين لي ولك فقال فرعون يكون لك فأما لي فلا حاجة لي فيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرعة عين له كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداه الله ولكن حرمه ذلك . فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها إن تخشع لها فظنرا لجمال كذا أخذته امرأة ممن يرضع له يقبل على نديها حتى أشفتها امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فموت فأحزنها ذلك فأمرت به فأخرج إلى السوق وبمع الناس ترجو أن تجد لها ظنرا فأخذها منها فلم يقبل وأصبحت أم موسى والمها فقالت لاخته قضي أمره فطلابه هل تسمعين له ذكرا حتى آتى أم

حر
الكوف
في تفسير
الآية
رث السورة
منظوم
هذه الرواية
أشبهت

صلى الله عليه وسلم يوماً من الدهر بل كفى الله وشفي به الناس . وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن يزيد بن سميع عن زيد بن أرقم قال سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من اليهود فاشكى لذلك أياماً قال جاءه جبريل فقال إن رجلاً من اليهود سحرك وعقد لك عقداً في بشر كذا . فأرسل إليها من يجي بها فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستخرجها لجامه بها خللاً قال فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما نشط من عقال فاذ ذكر ذلك لليهودى ولارآه في وجهه حتى مات ، ورواه النسائي عن هناد عن أبي معاوية محمد بن عازم القطري .

وقال البخاري في كتاب الطب من صحيحه حدثنا الله بن محمد قال سمعت سفيان بن عيينة يقول أول من حدثنا به ابن جويج يقول حدثني آل عروة عن عروة : سألت هشاماً عنه حدثنا عن أبيه عن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن قال سفيان وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا فقال ه باعائشة أعلت أن الله قد أتاني فيما استخفيت به ؟ أتاني رجلان فقدم أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال الذي عند رأسي للآخر ما بال الرجل ؟ قال مطبوب ، قال ومن طبه ؟ قال لبيد بن الأعصم رجل من بني زريق حليف اليهود كان منافقاً ، قال وفيه ؟ قال في مشطه ومشاطة ، قال وأين ؟ قال في جف طامة ذكر تحت وعروة في بشر ذروان ، قالت فأني البئر حتى استخرجه فقال هذه البئر التي أريتم أو كان ما هنا فاعنا الحناء وكان نهاراً موسى الشياطين ، قال فاستخرج فقلت أفلا تنثرت ؟ فقال ه أما الله فقد شفاني وأكره أن أتبرع لأحد من الناس شراً ، وأستعمله من حبيبه .

حديثي بن يونس وأبي خزيمة أنس بن عياض وأبي أسامة ويحيى القطان وفيه قالت حتى يخيل إليه أنه فعل الشيء . ولم يفعله ، وعنده فأمر بالبشر فدفنت ويذكر أنه تزاه عن هشام أيضاً حتى أتى الزناد والليث بن سعد ، وقدر ورواه مسلم حين حديث أبي أسامة حماد بن أسامة وعبد الله بن عمير ورواه أحمد عن عفان عن وهب عن هشام به ورواه الإمام أحمد .

أبوصان إبراهيم بن خالد عن معمر بن هشام عن أبيه عن عائشة قالت : لبث النبي صلى الله عليه وسلم ستة أشهر يرى أنه يأتي ولا يأتي فأناه ملكان جلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال أحدهما الآخر ما باله ؟ قال مطبوب ، قال ومن طبه ؟ قال لبيد بن الأعصم وذكر تمام الحديث وقال الأستاذ المفسر الثملي في تفسيره قال ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما كان غلام من اليهود يقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدفنت إليه اليهود فلم يزالوا به حتى أخذ مشاطة رأس النبي صلى الله عليه وسلم وعدة من أسنان مشطه فأعطاهما اليهود فسجروه فيها وكان الذي تولى ذلك رجل منهم يقال له ابن الأعصم ثم دسها في بشر لبي زريق يقال له ذروان فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتشر شعر رأسه وألبت ستة أشهر يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن وجعل يذوب ولا يدرى ما عراه فينهاهوا نائم إذا ناه ملكان جلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال الذي عند رأسه الذي عند رجليه ما بال الرجل ؟ قال طب ، قال وما طب قاله سحر ، قال ومن سحره ؟ قال لبيد بن الأعصم اليهودي قال ومن طبه ؟ قال بمشط ومشاطة قال وأين ؟ قال في جف طامة ذكر تحت وعروة في بشر ذروان والجف بشر الطلع والوعروة حجر في أسفل البئر ناتي . فدفنت رسول الله صلى الله عليه وسلم مذعورا قال : باعائشة أما شعرت أن الله أخبرني بداني ، ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا والزبير وعمار بن ياسر فخرجوا ماء البئر كآه نقاعة الحناء ثم رفعوا الصخرة وأخرجوا الجف فإذا فيه مشاطة رأسه وأسنان من مشطه وإذا فيه وتر معقود فيه اثنا عشرة عقدة مفروزة بالبر ، فأنزل الله تعالى السورتين لجعل كلأ قرأ آية تحمك عقدة ووجد رسول الله صلى الله عليه وسلم خفة حين التحك العقدة الأخيرة فقام كأنما نشط من عقال وجعل جبريل عليه السلام يقول بسم الله أرقبك من كل شيء يؤذيك من حاسد وعين ، الله يشفيك . فقال يا رسول الله أفلا تأخذ الحديث فتقله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما أنا فقد شفاني الله وأكره أن أشهر على الناس شراً . هكذا رواه بلا استناد ليه عراقية وفي بعضه نكارة شديدة وبعضه شواهد مما تقدم والله أعلم .

تفسير سورة الناس : وهي مكية

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَهِ النَّاسِ . مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ

الضَّالِّسِ . الَّذِي يُّوسِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْخَيْتِ وَالنَّاسِ)

هذه ثلاث صفات من صفات الرب عز وجل الربوبية والملك والإلهية فهو رب كل شيء ومليكه وله جميع الأشياء

أحمد بن عبد العزيز
أتممت اختصار هذا التفسير الجليل في المسودة
ليكون (عمدة التفسير) بين العاشرين
من يوم الأحد ١٥ محرم ١٣٧٦ هـ / ١٩/١/١٩٥٦
أحمد شاعر

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام الأوحى، البارع الحافظ المتقن، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن الخطيب أبى حفص عمر بن كثير الشافعى، رحمه الله تعالى، ورضى عنه:

الحمد لله الذى افتتح كتابه بالحمد فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤-٤]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا. فِيمَا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا. مَا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا. وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا. مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥١-٥١]، وافتتح خلقه بالحمد، فقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، واختتمه بالحمد، فقال بعد ذكر مآل أهل الجنة وأهل النار: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠]، كما قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبا: ١].

فله الحمد فى الأولى والآخرة، أى فى جميع ما خلق وما هو خالق، هو المحمود فى ذلك كله، كما يقول المصلى: «اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات وملء الأرض، وملء ما شئت من شىء بعد»؛ ولهذا يلهم أهل الجنة تسيحه وتحميده كما يلهمون النفس، أى يسبحونه ويحمدونه عدد أنفاسهم؛ لما يرون من عظيم نعمه عليهم، وكمال قدرته وعظيم سلطانه، وتوالى منته ودوام إحسانه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجُوا مِنْهَا دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٩، ١٠].

والحمد لله الذى أرسل رسله ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وختمهم بالنبى الأمى العربى الملكى الهادى لأوضح السبل، أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن، من لدن بعثته إلى قيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمَّا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الاعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم، وأسود وأحمر، وإنس وجان، فهو نذير له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]. فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنار موعده، بنص الله تعالى، وكما قال تعالى: ﴿فَلذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهِذَا الْحَدِيثِ مَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ

لا يَعْلَمُونَ ﴿ [القلم: ٤٤]. وقال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ» (١). قال مجاهد: يعنى: الإنس والجن. فهو، صلوات الله وسلامه عليه، رسول الله إلى جميع الثقلين: الإنس والجن، مُبَلِّغاً لَهُمْ عَنِ اللَّهِ مَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ الْعَزِيزِ الَّذِي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه نَدَبَهُمْ فِيهِ إِلَى تَفْهَمِهِ، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتعلُّم ذلك وتعليمه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُيِّنَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧]. فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله إليهم، وإقبالهم على الدنيا وجمعها، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله.

فعلينا - أيها المسلمون - أن ننتهي عما ذمَّه الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا به، من تعلُّم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وتفهمه وتفهميه، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ. اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٦]، ١٧]. ففى ذكره تعالى لهذه الآية بعد التى قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيى الأرض بعد موتها، كذلك يلين القلوب بالإيمان بعد قسوتها من الذنوب والمعاصى، والله المؤمل المسؤول أن يفعل بنا ذلك، إنه جواد كريم. فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟

فالجواب: إن أصح الطرق فى ذلك أن يُفَسَّرَ الْقُرْآنَ بِالْقُرْآنِ، فما أجمل فى مكان فإنه قد فُسِّرَ فى موضع آخر، فإن أعيانك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام الشافعى: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]. ولهذا قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه» يعنى: السنة. والسنة أيضاً تنزل عليه بالوحى، كما ينزل القرآن؛ إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن، وقد استدلل الإمام الشافعى، وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة.

(١) معناه ثابت ضمن حديث رواه مسلم (١٤٧/١) عن جابر، وآخر رواه أحمد فى المسند (٢٧٥٦، ٢٧٤٢) عن ابن عباس.

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة، كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «بم تحكم؟». قال: بكتاب الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: بسنة رسول الله. قال: «فإن لم تجد؟». قال: أجتهد برأى. قال: فضرب رسول الله ﷺ في صدره، وقال: «الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى رسول الله». وهذا الحديث فى المساند والسنن بإسناد جيد. وحينئذ، إذا لم تجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة، رجعنا فى ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدري بذلك، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التى اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبرائهم، كالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين، وكعبد الله بن مسعود.

فقد قال ابن مسعود: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن. وقال أبو عبد الرحمن السلمى: حدثنا الذين كانوا يقرئونا أنهم كانوا يستقرئون من النبى ﷺ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً.

ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس، ابن عم رسول الله ﷺ، وترجمان القرآن ببركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال: «اللهم فقهه فى الدين، وعلمه التأويل». وروى الطبرى عن ابن مسعود قال: نعم ترجمان القرآن ابن عباس وإسناده صحيح. وقد مات ابن مسعود، فى سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح، وعمر بعده ابن عباس ستاً وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود! وقال أبو وائل: استخلف على عبد الله بن عباس على الموسم، فخطب الناس، فقرأ فى خطبته سورة البقرة، وفى رواية: سورة النور، ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا.

ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير فى تفسيره، عن هذين الرجلين: ابن مسعود وابن عباس، ولكن فى بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب، التى أباحها رسول الله ﷺ حيث قال: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» رواه البخارى عن عبد الله ابن عمرو.

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد، لا للاعتضاد، فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح.

والثانى: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجاوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني؛ ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب فى هذا كثيراً، ويأتى عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون فى مثل

هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعدتهم، وعصا موسى من أى الشجر كانت؟ وأسماء الطيور التى أحيها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذى ضرب به القتل من البقرة، ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى فى القرآن، مما لا فائدة فى تعيينه تعود على المكلفين فى دنياهم ولا دينهم. ولكن نقلُ الخلاف عنهم فى ذلك جائز، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةً سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةً وَتَأْمِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢]، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب فى هذا المقام وتعليم ما ينبغى فى مثل هذا، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث، فدل على صحته إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فقال فى مثل هذا: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾، فإنه ما يعلم ذلك إلا قليل من الناس، ممن أطلعه الله عليه؛ فلهذا قال: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أى: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب.

فهذا أحسن ما يكون فى حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال فى ذلك المقام، وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم.

فأما من حكى خلافاً فى مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب فى الذى تركه. أو يحكى الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضاً. فإن صحح غير الصحيح عامداً فقد تعمد الكذب، أو جاهلا فقد أخطأ، وكذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالاً متعددة لفظاً ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى، فقد ضيع الزمان، وتكثر بما ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبى زور، والله الموفق للصواب.

فصل :

إذا لم تجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة فى ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر، فإنه كان آية فى التفسير، فقد روى الطبرى عن ابن أبى مليكة قال: رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه ألواح، قال: فيقول له ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله. ولهذا كان سفيان الثورى يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. وكسعيد بن جببر، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبى رباح، والحسن البصرى، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبى العالية، والربيع ابن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم فى الآية فيقع فى عباراتهم تباين فى الألفاظ، يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً، وليس كذلك، فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره، ومنهم من ينص على الشيء

بعينه، والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن، فليفتن الليب لذلك، والله الهادي.

وقال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني: أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على قول بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك.

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام، لما رواه محمد بن جرير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «من قال في القرآن برأيه، أو بما لا يعلم، فليتبوأ مقعده من النار». ورواه الترمذي والنسائي، وأبو داود، وقال الترمذي: حديث حسن. وروى ابن جرير، عن جندب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ».

ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وقال الترمذي: غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم في سهل. وفي لفظ لهم: «من قال في كتاب الله برأيه، فأصاب، فقد أخطأ» أي: لأنه قد تكلف ما لا يعلم له به، وسلك غير ما أمر به، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه، كمن حكّم بين الناس على جهل فهو في النار، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر، لكن يكون أخف جرماً ممن أخطأ، والله أعلم (١)، وهكذا سمي الله القذفة كاذبين، فقال: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأَوْتِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣]، فالقاذف كاذب، ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر؛ لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به، ولو كان أخبر بما يعلم؛ لأنه تكلف ما لا يعلم له به، والله أعلم.

ولهذا تحرّج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، كما قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أى أرض تقلني، وأى سماء تظلني، إذا قلت في كتاب الله بما لا أعلم! وروى أبو عبيد القاسم بن سلام: أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]، فقال: أى سماء تظلني، وأى أرض تقلني، إذا أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم. إسناده منقطع. وروى أيضاً: أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]، فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر. وروى عبد بن حميد

(١) أما في عصرنا، فقد نابت نوابت، ونبتت نوابت، ممن استعبدوا لآراء المبشرين وأهوائهم. ومن جهلوا لغة العرب إلا كلام العامة وأشباههم، وجهلوا القرآن فلم يقرؤوه، ولا يكادون يسمعونه إلا قليلاً، وجهلوا السنة، بل كانوا من أعدائها. وهم سخروا من علم علماء الإسلام، وسفّهت أحلامهم، ومردت ألسنتهم على قولة السوء في سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم. بل لا يؤمنون بالغيب إلا قليلاً. هؤلاء وأشباههم وأمثالهم، اجترؤوا على العبث بالقرآن، واللعب بالسنة، فعرضوا لتفسير القرآن، وزعموا لأنفسهم الاجتهاد الجاهل، يفتون الناس ويعلمونهم اللعب والعبث، وينزعون من قلوبهم الإيمان. لا أقول: إن هؤلاء وأولئك يفسرون القرآن بأهوائهم، فإنهم أضعف من أن تكون لهم أهواء وأشد جهلاً، بل بأهواء سادتهم ومعلميهم من المبشرين والمستعمرين أعداء الإسلام، وقد نضرب المثل لذلك عند المناسبات، فيما سيأتي، إن شاء الله.

عن أنس، قال: كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي ظهر قميصه أربع رقاع، فقرأ: ﴿وَأَكْبَهُ وَأَبًا﴾ فقال: ما الأب؟ ثم قال: إن هذا لهو التكلف، فما عليك ألا تدريه.

وهذا كله محمول على أنهما رضي الله عنهما إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب، وإلا فكونه نباتاً من الأرض ظاهر لا يجهل، لقوله: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا﴾ الآية [عبس: ٢٧، ٢٨].

وروى الطبري عن ابن أبي مليكة: أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها. وإسناده صحيح.

وروى أبو عبيد عن ابن أبي مليكة، قال: سألت رجل ابن عباس عن ﴿يَوْمَ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥] فقال له ابن عباس: فما ﴿يَوْمَ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]؟ فقال له الرجل: إنما سألتك لتحدثني. فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله في كتابه، الله أعلم بهما. فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم. وروى الطبري عن الوليد بن مسلم، قال: جاء طلق بن حبيب إلى جندب بن عبد الله، فسأله عن آية من القرآن؟ فقال: أحرّج عليك إن كنت مسلماً لما قمت عني، أو قال: أن تجالسني. وروى مالك، عن سعيد بن المسيب: أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن، قال: إنا لا نقول في القرآن شيئاً. وروى الليث عنه أنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن.

وقال ابن شوذب: حدثني يزيد بن أبي يزيد، قال: كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحرام والحلال، وكان أعلم الناس، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت، كأن لم يسمع. وروى ابن جرير عن عبيد الله بن عمر، قال: لقد أدركتُ فقهاء المدينة، وإنهم ليعظمون القول في التفسير، منهم: سالم بن عبد الله، والقاسم ابن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع. وروى أبو عبيد عن هشام ابن عروة، قال: ما سمعت أبي تأول آية من كتاب الله قط. وروى أيضاً عن مسلم بن يسار، قال: إذا حدثت عن الله حديثاً فقف، حتى تنظر ما قبله وما بعده. وروى أيضاً عن مسروق، قال: اتقوا التفسير، فإنما هو الرواية عن الله.

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تخرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به؛ فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً، فلا حرج عليه؛ ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد؛ فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ وَلَا يُكْتُمُونَهُ﴾ (١) [آل عمران: ١٨٧]، ولما جاء في الحديث المروي من طرق: «من سئل عن علم فكتمه، ألجم يوم القيامة بلجام من نار». روى ابن جرير عن ابن عباس: التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله.

(١) هي قراءة سبعة متواترة كما في البحر المحيط ٣ / ١٣٦ . (الباز) .

مقدمة

قال قتادة : نزل في المدينة من القرآن: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة ، وبراءة، والرعد، والنحل، والحج، والنور، والأحزاب، ومحمد، والفتح، والحجرات ، والرحمن، والحديد ، والمجادلة، والحشر، والممتحنة، والصف، والجمعة، والمنافقون، والتغابن، والطلاق، و﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ ، إلى رأس العشر، وإذا زلزلت، وإذا جاء نصرُ الله. هؤلاء السور نزلت بالمدينة، وسائر السور بمكة.

فأما عدد آيات القرآن فسته آلاف آية، ثم اختلف فيما زاد على ذلك على أقوال، فمنهم من لم يزد على ذلك، ومنهم من قال: وماتت آية وأربع آيات، وقيل: وأربع عشرة آية، وقيل: ومائتان وتسع عشرة آية ، وقيل: ومائتان وخمس وعشرون آية، أو ست وعشرون آية، وقيل: ومائتان وست وثلاثون آية. حكى ذلك أبو عمرو الداني في كتابه البيان.

وأما التحزيب والتجزئة. فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما في الربعات بالمدارس وغيرها ، وأما تحزيب الصحابة للقرآن ففي مسند الإمام أحمدَ وسُننَ أبي داودَ وابن ماجهَ عن أوس بن حذيفة أنه سأل أصحابَ رسولِ الله ﷺ في حياته: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: ثلاث، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزبُ المُفَصَّلِ حتى نختم (١) .

فصل :

واختلف في معنى السورة: مِمَّ هي مشتقة؟ فقيل: من الإبانة والارتفاع. فكان القارئ ينتقل بها من منزلة إلى منزلة. وقيل: لشرفها وارتفاعها كسور البلدان. وقيل: سميت «سورة» لكونها قطعةً من القرآن وجزءاً منه، مأخوذ من سور الإنباء وهو البقية، وعلى هذا فيكون أصلها مهموزاً، وإنما خففت الهمزة فأبدلت الهمزة واواً لانضمام ما قبلها. وقيل: لتامها وكمالها ؛ لأن العرب يسمون الناقاة التامة: سورةً.

قلت: ويحتمل أن يكون من الجمع والإحاطة لآياتها ، كما يسمّى سورُ البلد؛ لإحاطته بمنزله ودوره. وجمع السورة سورٌ بفتح الواو، وقد تُجمع على سورَاتِ وسُورَاتِ.

وأما الآية ، [فأصل معناها : العلامة. سميت بذلك لأنها العلامة] (٢) على انقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصالها، أي: هي بئنة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٨]. وقيل: لأنها جماعة حروفٍ من القرآن وطائفة منه، كما يقال: خرج القوم

(١) سيذكر المؤلف هذا الحديث مطولا ، ويشرحه ، في أول «سورة ق» ، وهي أول المفصل ، وانظر : ابن حبان بتحقيقنا (١/ ١١٠) .

(٢) في المطبوعة : « وأما الآية فمن العلامة ! وهو كلام غير مستقيم ، فزدنا ما بين القوسين لإقامته . وهذه المقدمة ليست في الأزهرية ، فلم نجد مناصا من تصحيحها اجتهدا .

بآياتهم، أى: بجماعتهم. وقيل: سُمِّيَتْ آيَةُ لِإِنِّهَا عَجَبٌ بِعَجْزِ الْبَشَرِ عَنِ التَّكَلُّمِ بِمِثْلِهَا. قال سيويوه: وأصلها آيَةٌ مثل أَكْمَةٌ وَشَجَرَةٌ، وَتَحَرَّكَتِ الْيَاءُ وَافْتَتَحَ مَا قَبْلَهَا فَقَلِبْتَ الْفَاءَ فَصَارَتْ آيَةً، بِهِمْزَةٌ بَعْدَهَا مَدَّةٌ. وقال الكسائى: أصلها آيَةٌ عَلَى وَزْنِ آمِنَةٌ، فَقَلِبْتَ الْفَاءَ، ثُمَّ حُدِفَتْ لِاتِّبَاسِهَا. وَجَمَعُهَا: آيٌ وَأَيٌّ وَأَيَاتٌ.

وأما الكلمة فهي اللفظة الواحدة، وقد تكون على حرفين مثل: «ما» و«لا» ونحو ذلك، وقد تكون أكثر. وأكثر ما تكون عشرة أحرف: مثل ﴿لَيْسَتْ خَلْفَنَهُمْ﴾ [النور: ٥٥]، و﴿أَنْزَلْنَاكُمْوهَا﴾ [هود: ٢٨]، و﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقد تكون الكلمة الواحدة آية، مثل: والفجر، والضحى، والعصر، وكذلك: الم، وطه، ويس، وحم - فى قول الكوفيين - و﴿حَمَّ - عَسَقَ﴾ عندهم كلمتان. وغيرهم لا يسمي هذه آيات بل يقول: هذه فواتح السور. وقال أبو عمرو الداني: لا أعلم كلمة هي وحدها آية إلا قوله تعالى: ﴿مُدَاهِمَاتَانِ﴾ بسورة الرحمن [الآية: ٦٤].

فقط:

قال القرطبي: أجمعوا أنه ليس فى القرآن شيء من التراكيب الأعجمية، وأجمعوا أن فيه أعلاماً من الأعجمية كإبراهيم، ونوح، ولوط، واختلفوا: هل فيه شيء من غير ذلك بالأعجمية؟ فأنكر ذلك الباقلانى والطبرى وقالوا: ما وقع فيه مما يوافق الأعجمية فهو من باب ما توافقت فيه اللغات (١).

(١) هذا هو الحق الذى تدل عليه الدلائل. وقد شنع الشافعى - رحمه الله - بمن زعم أن فى القرآن ألفاظاً أعجمية، تشنيعاً شديداً بأبلغ عبارة وأعلاها وأقواها، فى كتاب (الرسالة) فى الفقرات: (١٣١-١٧٨) بتحقيقنا.

سورة الفاتحة

وهي مكية، وقيل: مدنية، ويقال: نزلت مرتين: مرة بمكة، ومرة بالمدينة، والأول أشبه . وهي سبع آيات بلا خلاف. وإنما اختلفوا في البسملة: هل هي آية مستقلة من أولها كما هو المشهور عن جمهور قراء الكوفة وقول جماعة من الصحابة والتابعين وخلق من الخلف أو بعض آية؟ أو لا تعد من أولها بالكلية، كما هو قول أهل المدينة من القراء والفقهاء؟ على ثلاثة أقوال، سيأتي تقريرها في موضعه إن شاء الله تعالى، وبه الثقة.

قال البخارى في أول كتاب التفسير: وسميت أم الكتب؛ لأنه يبدأ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة، وقيل: إنما سميت بذلك لرجوع معانى القرآن كله إلى ما تضمنته. قال ابن جرير: والعرب تسمى كل جامع أمراً أو مقدم لأمر - إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع - أمّا، فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ: أم الرأس، ويسمون لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها أمّا.

ويقال لها أيضاً: الفاتحة؛ لأنها تفتح بها القراءة، وافتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الإمام، وصح تسميتها بالسبع المثاني، قالوا: لأنها تننى في الصلاة، فتقرأ في كل ركعة، وإن كان للمثاني معنى آخر غير هذا، كما سيأتي بيانه في موضعه، إن شاء الله .

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال في أم القرآن: «هي أم القرآن، وهي السبع المثاني، وهي القرآن العظيم» ورواه ابن جرير أيضاً بنحوه . وروى الحافظ أبو بكر أحمد بن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله رب العالمين سبع آيات: بسم الله الرحمن الرحيم إحداهن، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم، وهي أم الكتاب، وفاتحة الكتاب». وقد رواه الدارقطنى - أيضاً - عن أبي هريرة مرفوعاً بنحوه أو مثله، وقال: كلهم ثقات. ورواه البيهقى عن على وابن عباس وأبي هريرة أنهم فسروا قوله تعالى: ﴿سَبْعًا مِنَ الْمُثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧] بالفاتحة، وأن البسملة هي الآية السابعة منها .

فضل الفاتحة :

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد بن المعلّى رضى الله عنه قال: كنت أصلى فدعاني رسول الله ﷺ، فلم أجه حتى صليت فاتيته، فقال: «ما منعك أن تأتيني؟». قال: قلت: يا رسول الله، إني كنت أصلى. قال: «ألم يقل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]»، ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد». قال: فأخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله، إنك قلت: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن». قال: «نعم، الحمد لله رب العالمين هي: السبع المثاني والقرآن العظيم الذى أوتيته» (١). ورواه البخارى وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه، ورواه

(١) هو فى المسند (٤/٢١١) طبعة الحلبي، ورواه أيضاً قبل ذلك بنحوه (١٧٥٩٥) (٣/٤٥٠) حلبي .

الواقدي عن أبي سعيد بن المعلّى، عن أبي بن كعب، فذكر نحوه.

وقد وقع في الموطأ للإمام مالك بن أنس، ما ينبغى التنبيه عليه، فإنه رواه مالك عن العلاء ابن عبد الرحمن بن يعقوب الحرقي: أن أبا سعيد مولى ابن عامر بن كريز أخبرهم: أن رسول الله ﷺ نادى أبا بن كعب، وهو يصلي في المسجد، فلما فرغ من صلاته لحقه، قال: فوضع النبي ﷺ يده على يدي، وهو يريد أن يخرج من باب المسجد، ثم قال: «إني لأرجو ألا تخرج من باب المسجد حتى تعلم سورة ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلاً». قال أبا بن كعب: فجعلت أبطئ في المشي رجاء ذلك، ثم قلت: يا رسول الله، السورة التي وعدتني؟ قال: «كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة؟». قال: فقرأت عليه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حتى أتيت على آخرها، فقال رسول الله ﷺ: «هي هذه السورة، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيت». فأبو سعيد هذا ليس بأبي سعيد بن المعلّى، كما اعتقده ابن الأثير في جامع الأصول ومن تبعه، فإن ابن المعلّى صحابي أنصاري، وهذا تابعي من موالى خزاعة، وذاك الحديث متصل صحيح، وهذا ظاهره أنه منقطع، إن لم يكن سمعه أبو سعيد هذا من أبا بن كعب، فإن كان قد سمعه منه فهو على شرط مسلم^(١)، والله أعلم.

على أنه قد روى عن أبا بن كعب من غير وجه كما روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ على أبا بن كعب، وهو يصلي، فقال: «يا أبا»، فالتفت فلم يجبه، ثم صلى أبا بن كعب، فخفف. ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ، فقال: السلام عليك أي رسول الله. قال: «وعليك، ما منعك أي أبا بن كعب إذ دعوتك أن تبييني؟». قال: أي رسول الله، كنت في الصلاة، قال: «أفلمست تجد فيما أوحى الله إلي: ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ [الأنفال: ٢٤]». قال: بلى يا رسول الله، لا أعود قال: «اتحب أن أعلمك سورة لم تنزل في التوراة ولا في الزبور ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلاً؟» قلت: نعم، أي رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأرجو ألا أخرج من هذا الباب حتى تعلمها». قال: فأخذ رسول الله ﷺ بيدي يحدثني، وأنا أتبطأ، مخافة أن يبلغ قبل أن يقضى الحديث، فلما دوننا من الباب قلت: أي رسول الله، ما السورة التي وعدتني؟ قال: «فكيف تقرأ في الصلاة؟». قال: فقرأت عليه أم القرآن، قال: «والذي نفسي بيده، ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلاً؛ إنها السبع المثاني»^(٢). ورواه الترمذي، وعنده: «إنها من السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته»، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح. وفي الباب، عن أنس بن مالك، ورواه عبد الله بن أحمد، عن أبي هريرة، عن أبا بن كعب، فذكره مطولاً بنحوه أو قريباً منه^(٣). وقد رواه الترمذي والنسائي، عن أبي هريرة، عن أبا بن كعب، قال:

(١) الحديث في الموطأ، ص ٨٣، باختلاف في الألفاظ قليل. وانظر: جامع الأصول (٦٢٢٥).

(٢) الحديث في المسند (٩٣٣٤) (١٢/٢) (٤١٢) حلي. وقد صححناه في هذا الموضع على ما في المسند.

(٣) هو في المسند (١١٤/٥، ١١٥) حلي.

قال رسول الله ﷺ: «ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن، وهي السبع المثاني، وهي مقسومة بيني وبين عبدي»، هذا لفظ النسائي. وقال الترمذي: حسن غريب.

وروى الإمام أحمد عن ابن جابر، قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد أهرق الماء، فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فلم يرد عليّ، قال: فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فلم يرد عليّ، قال: فقلت: السلام عليك يا رسول الله. فلم يرد عليّ. قال: فانطلق رسول الله ﷺ يمشي، وأنا خلفه حتى دخل رحله، ودخلت أنا المسجد، فجلست كئيباً حزيناً، فخرج عليّ رسول الله ﷺ قد تطهر، فقال: «عليك السلام ورحمة الله، وعليك السلام ورحمة الله، وعليك السلام ورحمة الله»، ثم قال: «ألا أخبرك يا عبد الله بن جابر بخير سورة في القرآن؟». قلت: بلى، يا رسول الله. قال: «اقرأ: الحمد لله رب العالمين، حتى تختتمها». هذا إسناد جيد (١). وعبد الله بن جابر هذا هو الصحابي، ذكر ابن الجوزي أنه هو العبدى، والله أعلم. ويقال: إنه عبد الله بن جابر الأنصارى البياضى، فيما ذكره الحافظ ابن عساکر (٢).

واستدلوا بهذا الحديث وأمثاله على تفاضل بعض الآيات والسور على بعض، كما هو المحكى عن كثير من العلماء، منهم: إسحاق بن راهويه، وأبو بكر بن العربى، وابن القصار من المالكية. وذهبت طائفة أخرى إلى أنه لا تفاضل فى ذلك؛ لأن الجميع كلام الله، ولثلاث بوجه التفصيل نقص المفضل عليه، وإن كان الجميع فاضلاً، نقله القرطبى عن الأشعرى، وأبى بكر الباقلانى، وابن حبان، ويحيى بن يحيى، ورواية عن الإمام مالك.

وقد روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى، قال: كنا فى مسير لنا، فنزلنا، فجاءت جارية فقالت: إن سيد الحى سليم، وإن نَفَرْنَا غَيْبٌ، فهل منكم راق؟ فقام معها رجل ما كنا نأبئه برقية، فراقه، فبرأ، فأمر له بثلاثين شاة، وسقانا لبناً، فلما رجع قلنا له: أكنت تحسن رقية، أو كنت ترقى؟ قال: لا، ما رقيت إلا بأمر الكتاب. قلنا: لا تُحَدِّثُوا شيئاً حتى نأتى، أو نسأل رسول الله ﷺ، فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال: «وما كان يُدْرِيه أنها رقية؟ اقسما واضربوا لى بسهم» (٣). ورواه مسلم، وأبو داود وفى بعض روايات مسلم لهذا الحديث: أن أبا سعيد هو الذى رقى ذلك السليم، يعنى: اللديغ يسمونه بذلك تفاؤلاً.

وروى مسلم فى صحيحه، والنسائى فى سننه، عن ابن عباس، قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل، إذ سمع نقيضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال: هذا باب قد فتح من السماء، ما فتح قط. قال: فنزل منه ملك، فأتى النبي ﷺ، فقال: أبشر بنورين قد

(١) هو فى المسند (١٧٦٧٣) (١٧٧/٤) حلبي.

(٢) بين الحافظ ابن حجر فى التعجيل، ص ٢١٦ أنه البياضى الأنصارى. وأما العبدى فذكر أن له حديثاً آخر، وأنه قيل: إن اسمه «عبد الرحمن».

(٣) هو فتح البارى (٤٩/٩). وقوله «ما كنا نأبئه برقية» قال ابن الأثير: «أى ما كنا نعلم أنه يرقى، فنعيبه بذلك». وهو من قولهم: «أبنة يابنة»، إذا رماه بخلة سوء.

أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، ولن تقرأ حرفاً منها إلا أوتيته. وهذا لفظ النسائي^(١). وروى مسلم: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج - ثلاثاً - غير تمام». فقيل لأبي هريرة: إنا نكون وراء الإمام، فقال: اقرأ بها في نفسك؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرُّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٣]، قال الله: أثني على عبدي، فإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، قال: حمدني عبدي - وقال مرة: «فوض إلى عبدي» - فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل»^(٢).

ثم الكلام على ما يتعلق بهذا الحديث مما يختص بحكم الفاتحة من وجوه:

أحدها: أنه قد أطلق فيه لفظ الصلاة، والمراد القراءة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَاتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]، أي: بقراءتك، كما جاء مصرحاً به في الصحيح، عن ابن عباس، وهكذا قال في هذا الحديث: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لى ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل»، ثم بين تفضيل هذه القسمة في قراءة الفاتحة: فدل على عظم القراءة في الصلاة، وأنها من أكبر أركانها، إذا أطلقت العبادة وأريد بها جزء واحد منها وهو القراءة؛ كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة في قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ. إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، والمزاد صلاة الفجر، كما جاء مصرحاً به في الصحيحين: من أنه يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، فدل هذا كله على أنه لا بد من القراءة في الصلاة، وهو اتفاق من العلماء.

ولكن اختلفوا في: أنه هل يتعين للقراءة في الصلاة فاتحة الكتاب، أم تجزئ هي أو غيرها؟ على قولين مشهورين، فعند أبي حنيفة ومن وافقه من أصحابه وغيرهم: أنها لا تتعين، بل مهما قرأ به من القرآن أجزاءه في الصلاة، واحتجوا بعموم قوله تعالى: ﴿فَأَقْرءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وبما ثبت في الصحيحين، من حديث أبي هريرة في قصة المسيء صلته: أن رسول الله ﷺ قال له: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن» قالوا: فأمره بقراءة ما تيسر، ولم يعين له الفاتحة ولا غيرها، فدل على ما قلنا.

والقول الثاني: أنه تتعين قراءة الفاتحة في الصلاة، ولا تجزئ الصلاة بدونها، وهو قول بقية

(١) هو في النسائي (٤٥/١). وفي آخره: «إلا أعطيته» بدل «أوتيته». ورواية مسلم هي في الصحيح (١)

(٢٢٢). وهذا الحديث لم أجده في مسند أحمد، على سبعة.

(٢) هو في صحيح مسلم (١١٦/١) والنسائي (١٤٤/١، ١٤٥) ورواه مالك في الموطأ ص ٨٤، ٨٥، وكذلك رواه

أحمد في المسند (٧٢٨٩، ٧٤٠٠)، ورواه الطبري مختصراً (٢٢١ - ٢٢٣).

الأئمة: مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم وجمهور العلماء؛ واحتجوا على ذلك بهذا الحديث المذكور، حيث قال صلوات الله وسلامه عليه: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج» والخداج هو: الناقص كما فسّر به في الحديث: «غير تمام». واحتجوا - أيضاً - بما ثبت في الصحيحين عن عبادة بن الصامت، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب». وفي صحيح ابن خزيمة وابن حبان، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن». والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

ثم إن مذهب الشافعي وجماعة من أهل العلم: أنه تجب قراءتها في كل ركعة. وقال آخرون: إنما تجب قراءتها في معظم الركعات، وقال الحسن وأكثر البصريين: إنما تجب قراءتها في ركعة واحدة من الصلاة، أخذًا بمطلق الحديث: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب».

وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي: لا تتعين قراءتها، بل لو قرأ بغيرها أجزأه لقوله: ﴿فَأَقْرءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [الزمل: ٢٠]، والله أعلم. وقد روى ابن ماجه عن أبي سعيد مرفوعاً: «لا صلاة لمن لم يقرأ في كل ركعة بالحمد وسورة، في فريضة أو غيرها». وفي صحة هذا نظر.

الوجه الثالث: هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء:

أحدها: أنه تجب عليه قراءتها، كما تجب على إمامه؛ لعموم الأحاديث المتقدمة.

والثاني: لا تجب على المأموم قراءة بالكلية لا الفاتحة ولا غيرها، لا في الصلاة الجهرية ولا السرية؛ لما رواه الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان له إمام فقرأه الإمام له قراءة» ولكن في إسناده ضعف. ورواه مالك، عن وهب بن كيسان، عن جابر من كلامه. وقد روى هذا الحديث من طرق، ولا يصح شيء منها عن النبي ﷺ، والله أعلم.

والقول الثالث: أنه تجب القراءة على المأموم في السرية، لما تقدم، ولا تجب في الجهرية لما ثبت في صحيح مسلم، عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الإمام ليؤتم به؛ فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا» وذكر بقية الحديث. وروى أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «وإذا قرأ فأنصتوا». وقد صححه مسلم بن الحجاج أيضاً، فدل هذان الحديثان على صحة هذا القول وهو قول قديم للشافعي، ورواية عن الإمام أحمد. وروى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وضعت جنبك على الفراش، وقرأت فاتحة الكتاب و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فقد أمنت من كل شيء إلا الموت» (١).

(١) الحديث في مجمع الزوائد (١٠ / ١٢١)، وقال: «رواه البزار، وفيه غسان بن عبيد، وهو ضعيف، ووثقه ابن حبان. وبقية رجاله رجال الصحيح». أقول: وغسان بن عبيد الموصلي، مترجم في لسان الميزان، وأنه ضعفه أحمد، والبخاري. وأنه اختلف فيه قول يحيى بن معين بين التوثيق والتضعيف، إلا أنه صرح بأنه «لم يكن من أهل الكذب». وترجمه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٣ / ٥١٢)، ولم يذكر فيه جرحاً، أمارة توثيقه عنده.

الكلام على تفسيرها :

الاستعاذة :

قال الله تعالى : ﴿ خذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ . وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٩٩ ، ٢٠٠] ، وقال تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ . وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون: ٩٦ - ٩٨] ، وقال تعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُرٌّ عَظِيمٌ . وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٦] .

فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها ، وهو أن الله يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه ، ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى الموالاة والمصافاة ، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة ؛ إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ولا يتغنى غير هلاك ابن آدم ، لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل ؛ كما قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف: ٢٧] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦] وقال : ﴿ اتَّخِذُوا لَهُ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠] ، وقد أقسم للوالد آدم : إنه لمن الناصحين ، وكذب ، فكيف معاملته لنا وقد قال : ﴿ فِعْزَتِكَ لِأَعْوَابِهِمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢ ، ٨٣] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٩٨ ، ٩٩] ؟

والمشهور الذي عليه الجمهور أن الاستعاذة لدفع الوسواس فيها ، إنما تكون قبل التلاوة ، ومعنى الآية : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨] أى : إذا أردت القراءة كقوله : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ الآية [المائدة: ٦] أى : إذا أردتم القيام . والدليل على ذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ بذلك . فروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبر قال : « سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك » . ويقول : « لا إله إلا الله » ثلاثاً ، ثم يقول : « أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه » . وقد رواه أهل السنن الأربعة وقال الترمذي : هو أشهر شيء في هذا الباب . وقد فسّر الهمز بالموتة (١) وهى الخنق ، والنَّفْخ بالكبر ، والنَّفْث بالشعر .

كما روى أبو داود وابن ماجه عن ابن جبير بن مطعم ، قال : رأيت رسول الله ﷺ حين دخل فى الصلاة ، قال : « الله أكبر كبيراً ، ثلاثاً - الحمد لله كثيراً - ثلاثاً - سبحان الله بكرة وأصيلاً - ثلاثاً - اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من همزه ونفخه ونفثه » . قال عمرو بن مرة : وهمزة الموتة ، ونفخه الكبر ، ونفثه الشعر (٢) . وروى ابن ماجه عن ابن مسعود عن النبى ﷺ

(١) الموتة - بضم الميم : جنس من الجنون والصرع يعترى الإنسان ، فإذا أفاق عاد إليه عقله ، كالنائم والسكران .

(٢) هو فى ابن ماجه (٧ - ٨) .

قال: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، وهَمَزَه ونَفَخَه ونَفَثَه». قال: همزه: الموتة، ونَفَثَه: الشعر، ونَفَخَه: الكبر^(١). وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى عن أبي بن كعب، قال: تلاحى رجلان عند النبي ﷺ، فَتَمَزَعَ أنفُ أحدهما غضباً، فقال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم شيئاً لو قاله ذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة. وروى الإمام أحمد وأبو داود، والترمذى، والنسائي في اليوم والليلة، عن معاذ بن جبل، قال: استَبَّ رجلان عند النبي ﷺ، فغضب أحدهما غضباً شديداً حتى خِيلَ إلى أن أحدهما يَتَمَزَع أنفه من شدة غضبه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب» فقال: ما هي يا رسول الله؟ قال: «يقول: اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم». قال: فجعل معاذ يأمره، فأبى، وجعل يزداد غضباً. وهذا لفظ أبي داود. وقال الترمذى: مرسل، يعنى أن عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يلتق معاذ بن جبل، فإنه مات قبل سنة عشرين.

قلت: وقد يكون عبد الرحمن بن أبي ليلى سمعه من أبي بن كعب، كما تقدم، وبلغه عن معاذ بن جبل، فإن هذه القصة شهدها غير واحد من الصحابة رضى الله عنهم. فروى البخارى: عن سليمان بن صرد قال: استب رجلان عند النبي ﷺ، ونحن عنده جلوس، فأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول رسول الله ﷺ؟ قال: إني لست بمجنون. ورواه مسلم وأبو داود والنسائي.

فصل: ومعنى «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» أى: أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي، أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه؛ فإن الشيطان لا يكفُّه عن الإنسان إلا الله؛ ولهذا أمر الله تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه، ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل؛ لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذى خلقه، وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة (٢).

والشيطان في لغة العرب مشتق من شَطَنَ إذا بعد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عن كل خير، وقيل: مشتق من شاط لأنه مخلوق من نار، ومنهم من يقول: كلاهما صحيح في المعنى، ولكن الأول أصح، وعليه يدل كلام العرب. وقال سيبويه: العرب تقول: تشيطن فلان إذا فعَلَ فعَلَ الشيطان ولو كان من شاط لقالوا: تشيط.

والشيطان مشتق من البعد على الصحيح؛ ولهذا يسمون كل ما تمرد من جنى وإنسى وحيوان شيطاناً، قال الله تعالى: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا» [الأنعام: ١١٢].

(١) هو فيه (٨٠٨). وقال البوصيرى في زوائده: «رواه أبو داود، والترمذى، والنسائي، من حديث أبي سعيد الخدرى. ورواه ابن حبان في صحيحه، من حديث جبير بن مطعم»، يعنى الحديين اللذين قبل هذا.

(٢) أعاد الحافظ رحمه الله - ذكر الآيات الثلاث، وقد مضى في الصفحة السابقة.

وفى مسند أحمد، عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر، تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن»، فقلت: أو للإنس شياطين؟ قال: «نعم»^(١). وفى صحيح مسلم عن أبي ذر - أيضاً - قال: قال رسول الله ﷺ: «يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الأسود». فقلت: يا رسول الله، ما بال الكلب الأسود من الأحمر والأصفر؟ فقال: «الكلب الأسود شيطان». وروى الطبرى أن عمر بن الخطاب ركب برذوناً، فجعل يتبختر به، فجعل يضربه فلا يزداد إلا تبختراً، فنزل عنه، وقال: ما حملتمونى إلا على شيطان، ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسى. وإسناده صحيح.

و «الرَّجِيم»: فعيل بمعنى مفعول، أى: أنه مرجوم مطرود عن الخير كله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ. وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ. لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ. إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَائِبٌ﴾ [الصفوات: ٦ - ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَّ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

افتتح بها الصحابة كتاب الله، واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل، ثم اختلفوا: هل هي آية مستقلة فى أول كل سورة، أو من أول كل سورة كتبت فى أولها، أو أنها بعض آية من أول كل سورة؟ أو أنها كذلك فى الفاتحة دون غيرها؟ أو أنها إنما كتبت للفصل، لا أنها آية؟ على أقوال للعلماء سلفاً وخلفاً، وذلك مبسوط فى غير هذا الموضع. وفى سنن أبي داود بإسناد صحيح، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وأخرجه الحاكم فى المستدرک. وفى صحيح ابن خزيمة، عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ قرأ البسملة فى أول الفاتحة فى الصلاة وعدّها آية، لكنه من رواية عمر ابن هارون البلخى، وفيه ضعف، عن ابن جرير، عن ابن أبي مليكة، عنها، وروى له الدارقطنى متابعا، عن أبي هريرة مرفوعاً. وروى مثله عن على وابن عباس وغيرهما.

ومن حكى عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة: ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبو هريرة، وعلى. ومن التابعين: عطاء، وطاوس، وسعيد بن جبيرة، ومكحول، والزهرى، وبه يقول عبد الله بن المبارك، والشافعى، وأحمد بن حنبل - فى رواية عنه - وإسحاق بن راهويه، وأبو عبيد القاسم بن سلام، رحمهم الله^(٢).

(١) رواه النسائى (٣١٩/٢) هكذا مختصراً. وهو فى المسند ضمن روايتين مطولتين (١٧٨/٥، ١٧٩ حلى). ورواه أيضاً ضمن حديث مطول عن أبي أمامة (٢٦٥/٥).

(٢) وهو القول الصحيح، الذى تنصره الدلائل الصحاح، من الكتاب والسنة. ومن أقواها أن جميع المصاحف الأمهات، التى كتبها عثمان بن عفان، وأقرأها الصحابة جميعاً، دون ما عداها - كتبت فيها البسملة فى أول =

وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما : ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور ، وقال داود: هي آية مستقلة في أول كل سورة لا منها، وهذه رواية عن الإمام أحمد . وحكاها أبو بكر الرازي، عن أبي الحسن الكرخي، وهما من أكابر أصحاب أبي حنيفة.

هذا ما يتعلق بكونها من الفاتحة أم لا . فأمّا ما يتعلق بالجهر بها، فمفترّع على هذا؛ فمن رأى أنها ليست الفاتحة فلا يجهر بها، وكذا من قال: إنها آية من أولها، وأمّا من قال بأنها من أوائل السور فاختلقوا؛ فذهب الشافعي، إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة، وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلفاً وخلفاً، فجهر بها من الصحابة أبو هريرة، وابن عمر، وابن عباس، ومعاوية، ونقله الخطيب عن سعيد بن جبيرة، وعكرمة، وأبي قلابة، والزهرى، وسعيد بن المسيب، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم.

وروى أبو داود والترمذى، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يفتح الصلاة بيسم الله الرحمن الرحيم. ثم قال الترمذى: وليس إسناده بذلك. وقد رواه الحاكم فى المستدرک، عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ يجهر بيسم الله الرحمن الرحيم، ثم قال: صحيح. وفى صحيح البخارى، عن أنس بن مالك أنه سئل عن قراءة النبي ﷺ فقال: كانت قراءته مداً، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، يمد بسم الله، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم. وفى مسند الإمام أحمد، وسنن أبى داود، وصحيح ابن خزيمة، ومستدرک الحاكم، عن أم سلمة، قالت: كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. وقال الدارقطنى: إسناده صحيح. وروى الإمام الشافعى، والحاكم فى المستدرک، عن أنس: أن معاوية صلى بالمدينة، فتروك- البسملة، فأنكر عليه من حضر من المهاجرين ذلك، فلما صلى المرّة الثانية بسمل.

وفى هذه الأحاديث، والآثار التى أوردناها كفاية ومقنع فى الاحتجاج لهذا القول عما عداها، فأما المعارضات والروايات الغريبة، وتطريقها، وتعليلها وتضعيفها، وتقريرها، فله موضع آخر.

وذهب آخرون إلى أنه لا يجهر بالبسملة فى الصلاة، وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة وعبد الله بن مغفل، وطوائف من سلف التابعين والخلف، وهو مذهب أبى حنيفة، والثورى، وأحمد بن حنبل.

= كل سورة سوى براءة . وأن الصحابة رضوان الله عليهم ، إذ جمعوا القرآن فى المصاحف، جردوه من كل شيء غيره ، فلم يكتبوا أسماء السور ، ولا أعداد الآى ، ولا كلمة « آمين » . ومنعوا أن يجرؤ أحد على كتابة ما ليس من كتاب الله فى المصاحف ، حرصاً منهم على حفظ كتاب الله ، وخشية أن يشبه على أحد ممن بعدهم فيظن غير القرآن قرآناً . أفيعقل - مع هذا كله - أن يكتبوا مائة وثلاث عشرة بسملة زيادة على ما أنزل على رسول الله ؟ ! ألا يدل هذا دلالة قاطعة منقولة بالتواتر العملى المؤيد بالكتابة المتواترة - على أنها آية من القرآن فى كل موضع كتبت فيه ؟

وقد فصلنا القول فى ذلك ، فى بحث طويل ، فى شرحنا على الترمذى (٢/١٦ - ٢٥) .

وعند الإمام مالك: أنه لا يقرأ البسملة بالكلية، لا جهراً ولا سراً، واحتجوا بما في صحيح مسلم، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: كان رسول الله ﷺ يفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بالحمد لله رب العالمين. وبما في الصحيحين، عن أنس بن مالك، قال: صليتُ خلف النبي ﷺ، وأبى بكر وعمر وعثمان، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين. ولمسلم: لا يذكرُونَ بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها. ونحوه في السنن عن عبد الله بن مُعَمَّل رضى الله عنه .

فهذه مأخذ الأئمة، رحمهم الله، في هذه المسألة وهي قريبة؛ لأنهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر، والله الحمد والمنة.

فصل في فضلها: روى الإمام أحمد في مسنده : عن عاصم، قال: سمعت أبا تيممة يحدث، عن رديف النبي ﷺ قال: عثرُ بالنبي ﷺ، فقلت: تعس الشيطان. فقال النبي ﷺ: «لا تقل تعس الشيطان. فإنك إذا قلت: تعس الشيطان تعاضم، وقال: بقوتى صرعته، وإذا قلت: بسم الله، تصاغر حتى يصير مثل الذباب». هكذا وقع في رواية الإمام أحمد^(١)، وقد روى النسائي في اليوم والليلة وابن مردويه عن أسامة بن عمير قال: كنت رديف النبي ﷺ، فذكره، وقال: «لا تقل هكذا، فإنه يتعاضم حتى يكون كالبيت، ولكن قل: بسم الله، فإنه يصغر حتى يكون كالذباب»^(٢).

فهذا من تأثير بركة بسم الله؛ ولهذا تستحب في أول كل عمل وقول. فتستحب في أول الخطبة لما جاء: «كل أمر لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم، فهو أجذم»، وتستحب البسملة عند دخول الخلاء لما ورد من الحديث في ذلك، وتستحب في أول الوضوء لما جاء في مسند الإمام أحمد والسنن، من رواية أبى هريرة، وسعيد بن زيد، وأبى سعيد مرفوعاً: «لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه»، وهو حديث حسن. ومن العلماء من أوجبها عند الذكر ههنا، ومنهم من قال بوجوبها مطلقاً، وكذا تستحب عند الذبيحة في مذهب الشافعى وجماعة، وأوجبها آخرون عند الذكر، ومطلقاً في قول بعضهم، كما سيأتى بيانه في موضعه، إن شاء الله.

وهكذا تستحب عند الأكل لما في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لربيبة عمر بن أبى سلمة: «قل: بسم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك». ومن العلماء من أوجبها والحالة هذه، وكذلك تستحب عند الجماع لما في الصحيحين، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً».

ومن ههنا ينكشف لك أن القولين عند النحاة في تقدير المتعلق بالباء في قوله: بسم الله،

(١) هو في المسند (٥/٥٩، ٧١، ٣٦٥ حلى) بأربعة أسانيد .

(٢) ورواه أبو داود (٤٩٨٢) عن أبى المليلح عن رجل، قال: «كنت رديف النبي ﷺ . . .» .

هل هو اسم أو فعل - متقاربان . وكل قد ورد به القرآن؛ أما من قدره باسم، تقديره: بسم الله ابتدائي، فلقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١]، ومن قدره بالفعل، فلقوله: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وكلاهما صحيح، فإن الفعل لا يُبدَأُ له من مصدر، فلك أن تقدر الفعل ومصدره، وذلك بحسب الفعل الذى سميت قبله، إن كان قياماً أو قعوداً أو أكلاً أو شرباً أو قراءة أو وضوءاً أو صلاة، فالمشروع ذكر اسم الله فى المشروع فى ذلك كله، تبركاً وتيمناً واستعانة على الإتمام والتقبل، والله أعلم.

﴿الله﴾: عَلَّمَ على الرب تبارك وتعالى، ويقال: إنه الاسم الأعظم؛ لأنه يوصف بجميع الصفات، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ. هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٤]، فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، وفى الصحيحين، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة»، وجاء تعداها فى رواية الترمذى، وابن ماجه، وبين الروایتين اختلاف زيادات ونقصان.

وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى؛ ولهذا لا يعرف فى كلام العرب له اشتقاق من «فعل يفعل»، فذهب من ذهب من النحاة إلى أنه اسم جامد لا اشتقاق له. وقد نقل القرطبى عن الشافعى والخطابى وإمام الحرمين والغزالى وغيرهم، وروى عن الخليل وسيبويه أن الألف واللام فيه لازمة. قال الخطابى: ألا ترى أنك تقول: يا الله، ولا تقول: يا الرحمن، فلولا أنه من أصل الكلمة لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام. وقيل: إنه مشتق، واستدلوا عليه بقول رؤبة بن العجاج:

لله در الغانيات المدَّة سبَّحنَ واسترجعن من تألهى (١)

فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر، وهو التأله، من أله يأله إلهة وتألها، كما روى أن ابن عباس قرأ: «ويدرك ولاهتتك» قال: عبادتك، أى: أنه كان يُعبَدُ ولا يُعبَدُ، وكذا قال مجاهد وغيره.

وأصل ذلك «الإله»، فحذفت الهمزة التى هى فاء الكلمة، فالتقت اللام التى هى عينها مع اللام الزائدة فى أولها للتعريف فأدغمت إحداها فى الأخرى، فصارتا فى اللفظ لهما واحدة مشددة، وفخمت تعظيماً، فقيل: الله.

(١) «المدَّة» بضم الميم وتشديد الدال، من «المدَّة» بفتح الميم وسكون الدال. وهو المد. قيل: إن الهاء بدل من الحاء، وقيل: المدَّة فى نعت الهيئة والجمال، والمدح فى كل شىء.

﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ : اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ، ورحمن أشد مبالغة من رحيم ، وفي كلام ابن جرير ما يفهم منه حكاية الاتفاق على هذا ، وقال القرطبي : والدليل على أنه مشتق ما خرجه الترمذى وصححه عن عبد الرحمن بن عوف ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : أنا الرحمن ، خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته » . قال : وهذا نص في الاشتقاق فلا معنى للمخالفة والشقاق .

قال : وإنكار العرب لاسم الرحمن لجهلهم بالله وبما وجب له ، قال القرطبي : قيل هما بمعنى واحد كندمان ونديم قاله أبو عبيد ، وقيل : ليس بناء فعلان كفعال ، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل نحو قولك : رجل غضبان ، للرجل الممتلئ غضبا ، وفعل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول ، قال أبو علي الفارسي : الرحمن : اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى ، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الاحزاب : ٤٣] ، وقال ابن عباس : هما اسمان رقيقان ، أحدهما أرق من الآخر ، أى أكثر رحمة ، ثم حكى عن الخطابي وغيره : أنهم استشكلوا هذه الصفة ، وقالوا : لعله أرفق كما جاء في الحديث : « إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله ، وإنه يعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف » (١) . وقال ابن المبارك : الرحمن إذا سئل أعطى ، والرحيم إذا لم يسأل يغضب ، وهذا كما جاء في الحديث الذى رواه الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم يسأل الله يغضب عليه » .

قالوا : ولهذا قال : ﴿ تُمُ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ ﴾ [الفرقان : ٥٩] ، وقال : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه : ٥] . فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته ، وقال : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الاحزاب : ٤٣] فخصهم باسمه الرحيم ، قالوا : فدل على أن الرحمن أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه ، والرحيم خاصة بالمؤمنين ، لكن جاء في الدعاء المأثور : رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما .

واسمه تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ خاص به لم يسم به غيره ، كما قال تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء : ١١٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٥] . ولما تجهرم مسيلمة الكذاب (٢) وتسمى بـ « رحمن اليمامة » كسأه الله جلباب الكذب وشهره به ، فلا يقال إلا : مسيلمة الكذاب ، فصار يضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضرم من أهل المدر ، وأهل الوبر من أهل البادية والأعراب .

(١) رواه بنحوه الإمام أحمد في المسند (٩٠٢) من حديث على ، مرفوعاً . ورواه بنحوه أيضاً الشيخان ، من حديث عائشة . انظر : صحيح مسلم ٢ / ٢٨٥ .

(٢) هذا الحرف « تجهرم » حرف غريب ، لم أجد في شيء من المعاجم ، ولا في المصادر الأخرى . وأنا أستسيغه جدا بذوقى العربى ، لا أجدنى نافراً منه ، ويخيل إلى أنه حرف مولد من مجموع مادتين ، كأنه من مادتي « جهر » و « حرم » ، كأنه يراد به تجاهر بجرمه . كما مزجوا من مادتين أو أكثر « حمدل » و « حبسل » و « بسمل » و « هلل » و « حوقل » ونحو ذلك .

وأما الرحيم فإنه تعالى وصف به غيره، حيث قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] كما وصف غيره بذلك من أسمائه كما فى قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٤٢].

والحاصل: أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره، ومنها ما لا يسمى به غيره، كاسم الله والرحمن والمخالق والرزاق ونحو ذلك؛ فلهذا بدأ باسم الله، ووصفه بالرحمن؛ لأنه أخص وأعرف من الرحيم؛ لأن التسمية أولاً إنما تكون بأشهر الأسماء، فلهذا ابتداء بالأخص فالأخص.

وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن، حتى رد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله ﷺ لعلى: «اكتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾»، فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم. رواه البخارى، وفى بعض الروايات: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠].

والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جُحود وعناد وتعنت فى كفرهم؛ فإنه قد وجد فى أشعارهم فى الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن، قال ابن جرير: وقد أنشد لبعض الجاهلية الجهال:

ألا ضَرَبْتَ تلكَ الفتاةَ هَجِينَهَا
ألا قَضَبَ الرحمنُ رَبِّي يمينها

وقال سلامة بن جندل الطهوى:

عَجَلْتُمْ علينا عَجَلْتِينَا عَلَيْكُمْ
وما يَشَأُ الرَّحْمَنُ يَعْجِدُ وَيُطَلِّقُ (١)

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

قال أبو جعفر بن جرير: معنى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: الشكر لله خالصاً دون سائر ما يعبد من دونه، ودون كل ما برأ من خلقه، بما أنعم على عباده من النعم التى لا يحصيها العدد، ولا يحيط بعددها غيره أحد، فى تصحيح الآلات لطاعته، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه، مع ما بسط لهم فى دنياهم من الرزق، وغذاهم به من نعيم العيش، من غير استحقاق منهم ذلك عليه، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود فى دار المقام فى النعيم المقيم، فلو ربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخرأ.

وقال ابن جرير رحمه الله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: ثناء أثنى به على نفسه، وفى ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه، فكأنه قال: قولوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾. قال: وقد قيل: إن قول القائل: « الحمد لله»، ثناء عليه بأسمائه وصفاته الحسنى، وقوله: «الشكر لله» ثناء عليه بنعمه وأياديه، ثم شرع

(١) فى المطبوعة: « إذ عجلنا » بدل « عجلتينا » والصواب من الأزهريه، وهو الموافق لما فى الطبرى (١٣١/١) من طبعتنا.

فى رد ذلك بما حاصله أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يقعون كلا من الحمد والشكر مكان الآخر . وهذا الذى ادعاه فيه نظر؛ لأنه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على التعدية، ويكون بالجنان واللسان والأركان، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجبا

ولكن اختلفوا: أيهما أعم، الحمد أو الشكر؟ على قولين، والتحقيق أن بينهما عموماً وخصوصاً، فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول: حمدته لفروسيته وحمدته لكرمه . وهو أخص لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعم من حيث ما يقعان به؛ لأنه يكون بالقول والعمل والنية ، كما تقدم ، وهو أخص لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية، لا يقال: شكرته لفروسيته، وتقول: شكرته على كرمه وإحسانه إلى . هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين، والله أعلم . وقال الجوهري: الحمد نقيض الذم، تقول: حمدت الرجل أحمده حمداً ومحمدة، فهو حميد ومحمود، والتحميد أبلغ من الحمد، والحمد أعم من الشكر . وقال فى الشكر: هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف، يقال: شكرته، وشكرت له . وباللام أفصح .

وقد روى الإمام أحمد بن حنبل: عن الأسود بن سريع، قال: قلت: يا رسول الله، ألا أشدك محامد حمدت بها ربى، تبارك وتعالى؟ فقال: «أما إن ربك يحب الحمد». ورواه النسائي^(١) . وروى الترمذى ، والنسائي وابن ماجه، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله» قال الترمذى: حسن غريب . وفى سنن ابن ماجه عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ حدثهم : « أن عبداً من عباد الله قال : يارب ، لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها، فصعدا إلى السماء فقالا: يا ربنا، إن عبدك قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها، قال الله - وهو أعلم بما قال عبده - : ماذا قال عبدى؟ قالا: يارب إنه قد قال: يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك . فقال الله لهما: اكتبها كما قال عبدى حتى يلتقانى فأجزيه بها»^(٢) .

والألف واللام فى الحمد لاستغراق جميع أجناس الحمد، وصنوفه لله تعالى كما جاء فى الحديث: «اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله» الحديث .

و « الرب » هو: المالك المتصرف، ويطلق فى اللغة على السيد، وعلى المتصرف للإصلاح،

(١) هو فى المسند (١٥٦٥٠/٣) (٤٣٥-٤٣٦ هـ) ، ونسبه السيوطى فى الدر المنثور (١٢/١) لأحمد والبخارى فى الأدب المفرد والنسائي والحاكم وصححه ، وغيرهم .

(٢) هذا الحديث ليس فى الأزهرية ، وقد صححناه من سنن ابن ماجه (٣٨٠١) وإسناده جيد ، ليس فيه مجروح .

وكل ذلك صحيح في حق الله تعالى. ولا يستعمل الرب لغير الله، بل بالإضافة تقول: رب الدار، رب كذا، وأما الرب فلا يقال إلا لله عز وجل، وقد قيل: إنه الاسم الأعظم .

و« العالمين »: جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله عز وجل، والعالم جمع لا واحد له من لفظه، والعوالم أصناف المخلوقات في السموات والأرض في البر والبحر، وكل قرن منها وجيل يسمى عالماً أيضاً.

﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾

وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ تقدم الكلام عليه في البسملة بما أغنى عن إعادته. قال القرطبي: وإنما وصف نفسه بـ ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ بعد قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ ليكون من باب قرن الترغيب بعد التهيب، كما قال تعالى: ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥]. قال: فالرب فيه تهيب، و﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ترغيب. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد».

﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾

قرأ بعض القراء: ﴿مَلِكٍ﴾. وقرأ آخرون: ﴿مَالِكٍ﴾. وكلاهما صحيح متواتر في السبع. ويقال: مَلِكٌ - بكسر اللام وإسكانها - ويقال: ملك أيضاً، وأشيع نافع كسرة الكاف فقراً: «ملكي يوم الدين»، وقد رجح كلا من القراءتين مرجحون من حيث المعنى، وكلاهما صحيحة حسنة، ورجح الزمخشري «ملك»؛ لأنها قراءة أهل الحرمين، ولقوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]، ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

ومالك مأخوذة من الملك، كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠] وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ﴾ [الناس: ١، ٢] وملك: مأخوذ من المَلِكُ كما قال تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وقال: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ [الأنعام: ٧٣]، وقال: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

وتخصيص الملك بيوم الدين لا يفتيه عما عداه؛ لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام في الدنيا والآخرة، وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعى أحد هنالك شيئاً، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذَّنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]، وقال: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقِيُّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]. وعن ابن عباس قال: يوم الدين يوم الحساب للخلائق، وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر،

إلا من عفا عنه. وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف، وهو ظاهر.

والملك في الحقيقة هو الله، عز وجل، قال الله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة، رضى الله عنه، مرفوعاً: «أخضع اسم عند الله رجل تسمى بملك الأملك ولا مالك إلا الله». وفيهما عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينه ثم يقول: أئن ملوك الأرض؟ أئن الجبارون؟ أئن المتكبرون؟». وفي القرآن العظيم: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، فأما تسمية غيره في الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: ٢٤٧]، ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩]، ﴿إِذْ جَعَلْنَا فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلْنَاهُمْ مَلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠]، وفي الصحيحين: «مثل الملوك على الأسرة».

و «الدين»: الجزاء والحساب كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥]، وقال: ﴿أَنْبِيَاءٌ لَمُذِبُونَ﴾ [الصافات: ٥٣] أى: مجزيون محاسبون. وفي الحديث: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت» (١) أى: حاسب نفسه لنفسه. كما قال عمر رضى الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن تزنوا، وتأهبوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

قرأ السبعة والجمهور بتشديد الياء من ﴿إِيَّاكَ﴾ وقرأ عمرو بن فايد بتخفيفها مع الكسر وهى قراءة شاذة مردودة؛ لأن «إيا» ضوء الشمس. وقرأ بعضهم: «أياك» بفتح الهمزة وتشديد الياء، وقرأ بعضهم: «هياك» بالهاء بدل الهمزة. و ﴿نَسْتَعِينُ﴾ بفتح النون أول الكلمة فى قراءة الجميع سوى يحيى بن وثاب والأعمش، فإنهما كسراها وهى لغة بنى أسد وربيعة وبنى تميم.

والعبادة فى اللغة: من الذلة، يقال: طريق مُعَبَّد، وبغير مُعَبَّد، أى: مذل. وفى الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف. وقدم المفعول وهو ﴿إِيَّاكَ﴾، وكرر؛ للاهتمام كله إلى هذين المعنيين، وهذا كما قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فالأول تبرؤ من الشرك، والثانى تبرؤ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله، عز وجل. وهذا المعنى فى غير آية من القرآن، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [الزلزل: ٩]، وكذلك هذه الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب، وهو مناسب؛ لأنه لما أثنى على الله

(١) من حديث رواه أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم، من حديث شداد بن أوس، مرفوعاً.

فكانه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى ؛ فلهذا قال : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ . وفي هذا دليل على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنی، وإرشاد لعباده أن يشنوا عليه بذلك ؛ ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك، وهو قادر عليه، كما جاء في الصحيحين، عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب». وفي صحيح مسلم، من حديث العلاء بن عبد الرحمن، مولى الحرقة، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَصْفَيْنِ، فَنَصَفْتُهَا لِي وَنَصَفْتُهَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] قال: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٣] قال: أتني على عبدي، فإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، قال الله: مجدني عبدي، وإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

وإنما قدم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأن العبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها، والاهتمام والحزم هو أن يقدم ما هو الأهم فالأهم، والله أعلم.

فإن قيل: فما معنى النون في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن كانت للجمع فالداعي واحد، وإن كانت للتعظيم فلا تناسب هذا المقام؟ وقد أجيب: بأن المراد من ذلك الإخبار عن جنس العباد والمصلين فرد منهم، ولا سيما إن كان في جماعة أو إمامهم، فأخبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين بالعبادة التي خلقوا لأجلها، وتوسط لهم بخير، ومنهم من قال: يجوز أن تكون للتعظيم، كان العبد قيل له: إذا كنت داخل العبادة فأنت شريف وجاهك عريض، فقل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وإذا كنت خارج العبادة فلا تقل: نحن ولا فعلنا، ولو كنت في مائة ألف أو ألف ألف لاحتياج الجميع إلى الله عز وجل. ومنهم من قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ اللطف في التواضع من إياك أعبد، لما في الثاني من تعظيمه نفسه من جعله نفسه وحده أهلاً لعبادة الله تعالى الذي لا يستطيع أحد أن يعبد حقه عبادته، ولا يشئ عليه كما يليق به، والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى.

وقد سمي الله رسوله ﷺ بعبده في أشرف مقاماته فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيَّ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، فسماه عبداً عند إنزاله عليه وعند قيامه في الدعوة وإسرائه به، وأرشدته إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين، حيث يقول: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ أَنْتَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٩].

لما تقدم الثناء على المسؤول، تبارك وتعالى ، ناسب أن يعقب بالسؤال ؛ كما قال :
 «فنصفها لى ونصفها لعبدى، ولعبدى ما سأل» وهذا أكمل أحوال السائل، أن يمدح مسؤوله،
 ثم يسأل حاجته ؛ لأنه أنجح للحاجة وأنجح للإجابة، ولهذا أرشد الله تعالى إليه لأنه الأكمل،
 وقد يكون السؤال بالإخبار عن حال السائل واحتياجه، كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا
 أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] وقد يتقدمه مع ذلك وصف المسؤول ، كقول ذى النون :
 ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقد يكون بمجرد الثناء على المسؤول،
 كقول الشاعر:

أأذكر حاجتى أم قد كفانى حياؤك إن شيمتك الحياء
 إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الثناء

والهداية ههنا: الإرشاد والتوفيق، وقد تعدى الهداية بنفسها كما هنا: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ
 الْمُسْتَقِيمَ﴾ فتضمن معنى ألهمنا، أو وفقنا، أو ارزقنا، أو اعطنا؛ ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]
 أى: بينا له الخير والشر، وقد تعدى بإلى، كقوله: ﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:
 ١٢١] ﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: ٢٣] وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة، وكذلك قوله:
 ﴿وَأِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وقد تعدى باللام، كقول أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ
 الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] أى وفقنا لهذا وجعلنا له أهلاً.

وأما « الصراط المستقيم »، فقال الإمام أبو جعفر بن جرير: أجمعت الأمة من أهل التأويل
 جميعاً على أن «الصراط المستقيم» هو الطريق الواضح الذى لا اعوجاج فيه. وكذلك ذلك فى
 لغة جميع العرب. قال: ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله فى كل قول وعمل، وصف
 باستقامة أو اعوجاج، فنصف المستقيم باستقامته، والمعوج باعوجاجه.

ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف فى تفسير الصراط، وإن كان يرجع
 حاصلها إلى شىء واحد، وهو المتابعة لله وللرسول؛ فروى أنه كتاب الله.

وفى هذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده، عن النواس بن سمعان، عن رسول
 الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب
 مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس، ادخلوا
 الصراط جميعاً ولا تعوجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من
 تلك الأبواب، قال: ويحك، لا تفتحه؛ فإنك إن تفتحه تلجه. فالصراط الإسلام، والسوران
 حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله، والداعى
 من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم» (١) ورواه الترمذى والنسائى وابن أبى حاتم

(١) هو فى المسند (١٧٧١١) (٤/١٨٢، ١٨٣)، وفى بعض ألفاظه مخالفة لما ثبت هنا. فلعله اختلاف فى نسخ
 المسند. ورواية الطبرى، التى أشار إليها ابن كثير، مختصرة، وهى برقمى (١٨٦، ١٨٧).

الطبرى . إسناده حسن صحيح ، والله أعلم .

وقال مجاهد: ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ : الحق . وهذا أشمل، ولا منافاة بينه وبين ما تقدم .
وروى ابن حاتم وابن جرير عن أبي العالية: ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ هو النبي ﷺ، وصاحبه
من بعده، قال عاصم: فذكرنا ذلك للحسن، فقال: صدق أبو العالية ونصح .

وكل هذه الأقوال صحيحة، وهى متلازمة، فإن من اتبع النبي ﷺ، واقتدى باللذين من
بعده أبى بكر وعمر، فقد اتبع الحق، ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام، ومن اتبع الإسلام فقد
اتبع القرآن، وهو كتاب الله وحبله المتين، وصراطه المستقيم، فكلها صحيحة يصدق بعضها
بعضاً، والله الحمد .

وروى الطبرانى عن عبد الله (١)، قال: الصراط المستقيم: الذى تركنا عليه رسول الله ﷺ .

ولهذا قال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: والذى هو أولى بتأويل هذه الآية عندى
- أعنى: ﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ - أن يكون معنياً به: وفقنا للثبات على ما ارتضيته ووفقت له
من أنعمت عليه من عبادك، من قول وعمل، وذلك هو الصراط المستقيم؛ لأن من وفق لما وفق
له من أنعم الله عليه من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، فقد وفق للإسلام، وتصديق
الرسول، والتمسك بالكتاب، والعمل بما أمره الله به، والانزجار عما زجره عنه، واتباع منهاج
النبي ﷺ، ومنهاج الخلفاء الأربعة، وكل عبد صالح، وكل ذلك من الصراط المستقيم .

فإن قيل: فكيف يسأل المؤمن الهداية فى كل وقت من صلاة وغيرها، وهو متصف بذلك؟
وهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا؟ فالجواب: أن لا، ولولا احتياجه ليلاً ونهاراً إلى
سؤال الهداية لما أرشده الله إلى ذلك؛ فإن العبد مفتقر فى كل ساعة وحالة إلى الله تعالى فى
تثبيته على الهداية، ورسوخه فيها، وتبصره، وازدياده منها، واستمراره عليها، فإن العبد لا يملك
لنفسه نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله، فأرشده تعالى إلى أن يسأله فى كل وقت أن يمدّه بالمعونة
والثبات والتوفيق، فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله؛ فإنه تعالى قد تكفل بإجابة الداعى إذا
دعاه، ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار، وقد قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالَّذِي أَنْزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ [النساء: ١٣٦]،
فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان، وليس فى ذلك تحصيل الحاصل؛ لأن المراد الثبات
والاستمرار والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك، والله أعلم .

وقال تعالى أمراً لعباده المؤمنين أن يقولوا: ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَدُنكَ
رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آك عمران: ٨] ، وقد كان الصديق رضى الله عنه يقرأ بهذه الآية فى
الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سراً ، فمعنى قوله تعالى: ﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ ﴾: استمر بنا عليه ولا تعدل بنا إلى غيره .

(١) عبد الله : هو ابن مسعود ، وإسناد الطبرانى إليه إسناده صحيح .

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾

قد تقدم الحديث فيما إذا قال العبد: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ إلى آخرها أن الله يقول: «هذا لعبدى ولعبدى ما سأل». وقوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ مفسر للصراط المستقيم. وهو بدل منه عند النحاة، ويجوز أن يكون عطف بيان، والله أعلم.

«الذين أنعم عليهم»: هم المذكورون في سورة النساء، حيث قال: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا. ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

وقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾: يعنى اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم عن تقدم وصفهم ونعتهم، وهم أهل الهداية والاستقامة، والطاعة لله ورسله، وامثال أوامره وترك نواهيه وزواجره، غير صراط المغضوب عليهم، وهم الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق، وأكد الكلام بـ «لا»، ليدل على أن تم مسلكين فاسدين، وهما طريقنا اليهود والنصارى.

وقد زعم بعض النحاة أن ﴿غَيْرِ﴾ ههنا استثنائية، فيكون على هذا منقطعاً لاستثنائهم من المنعم عليهم وليسوا منهم، وما أوردناه أولى، ومنهم من زعم أن «لا» في قوله: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ زائدة، وأن تقدير الكلام عنده: غير المغضوب عليهم والضالين. والصحيح ما قدمناه. ولهذا روى أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب فضائل القرآن، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه: أنه كان يقرأ: «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَغَيْرِ الضَّالِّينَ». وإسناده صحيح، وهو محمول على أنه صدر منه على وجه التفسير، فيدل على ما قلناه من أنه إنما جرى بـ «لا» لتأكيد النفي، وللفرق بين الطريقتين، لتجنب كل منهما؛ فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم؛ ولهذا كان الغضب لليهود، والضلال للنصارى؛ لأن من علم وترك استحق الغضب، بخلاف من لم يعلم. والنصارى لما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إلى طريقه؛ لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه، وهو اتباع الحق، ضلوا، وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب، وأخص أوصاف النصارى الضلال، وبهذا جاءت الأحاديث والآثار.

فروى الإمام أحمد: عن عدى بن حاتم، قال: جاءت خيل رسول الله ﷺ، فأخذوا عمى وناساً، فلما أتوا بهم إلى رسول الله ﷺ صفوا له، فقالت: يا رسول الله، نأى الوافد وانقطع الولد، وأنا عموز كبيرة، ما بى من خدمة، فمن على من الله عليك. قال: «من وافدك؟» قالت: عدى بن حاتم، قال: «الذى فر من الله ورسوله!» قالت: فمن على، فلما رجع، ورجل إلى جنبه ترى أنه على. قال: سليه حملانا، فسألته، فأمر لها، قال: فأتنتى، فقالت:

لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها، فإنه قد أتاه فلان فأصاب منه ، وأتاه فلان فأصاب منه ، فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان، أو صبي ، وذكر قربهم من النبي ﷺ ، قال : فعرفت أنه ليس بملك كسرى ولا قيصر ، فقال : « يا عدى ، ما أفرك أن يقال: لا إله إلا الله؟ فهل من إله إلا الله؟ قال: ما أفرك أن يقال: الله أكبر، فهل شيء أكبر من الله، عز وجل؟ ». قال: فأسلمت، فرأيت وجهه استبشر، وإن قال: «المغضوب عليهم اليهود، وإن الضالين النصارى». ورواه الترمذى ، وقال: حسن غريب (١). وروى عبد الرزاق: عن عبد الله بن شقيق، أنه أخبره من سمع رسول الله ﷺ، وهو بوادى القرى، على فرسه، وسأله رجل من بنى القين، فقال: يا رسول الله، من هؤلاء؟ قال: «المغضوب عليهم - وأشار إلى اليهود - والضالون هم النصارى» وقد روى مرسلا ، لم يذكر فيه من سمع رسول الله ﷺ (٢) .

وكذلك قال ابن عباس والربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد، وقال ابن أبي حاتم: ولا أعلم بين المفسرين فى هذا اختلافاً.

وشاهد ما قاله هؤلاء الأئمة من أن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون، الحديث المتقدم، وقوله تعالى فى خطابه مع بنى إسرائيل فى سورة البقرة: ﴿بِسْمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيْنَا مِنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ قَبَاءُ رَغْصَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠]، وقال فى المائة: ﴿قُلْ هَلْ أَنْتُمْ بِبَشَرٍ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَغَضَبٍ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠]، وقال: ﴿لَعْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

فصل: اشتملت هذه السورة الكريمة، وهى سبع آيات، على حمد الله وتمجيده والثناء عليه، بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العلى، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاده عبده إلى سؤاله والتضرع إليه، والتبرؤ من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالالوهية تبارك وتعالى، وتنزه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الدين القويم، وتثبيتهم عليه حتى يفضى بهم ذلك إلى جواز الصراط الحسى يوم القيامة، المفضى بهم إلى جنات النعيم فى جوار النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

واشتملت على الترغيب فى الأعمال الصالحة؛ ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل، لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون. وما

(١) هو بطوله فى المسند (٤ / ٣٧٨ ، ٣٧٩ حلى) ، وفى الترمذى (٤ / ٦٧) ، ورواه أحمد قبل ذلك (٤ / ٢٥٧) من وجه آخر ، مختصراً .

(٢) رواه الطبرى (١٩٨) من طريق عبد الرزاق . وذكر الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦ / ٣١٠ ، ٣١١) بنحوه من روايتين ، وقال: « رواه كله أحمد ، ورجاله رجال الصحيح » وهو كما قال .

أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وحذف الفاعل في الغضب في قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المجادلة: ١٤]، وكذلك إسناد الضلال إلى من قام به، وإن كان هو الذى أضلهم بقدره، كما قال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]. وقال: ﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذُرُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهداية والإضلال، لا كما تقوله الفرقة القدرية ومن حذا حذوهم، من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه، ويحتجون على بدعتهم بمتشابهه من القرآن، ويتركون ما يكون فيه صريحاً فى الرد عليهم، وهذا حال أهل الضلال والغي، وقد ورد فى الحديث الصحيح: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم»^(١). يعنى فى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧]، فليس - بحمد الله - مبتدع فى القرآن حجة صحيحة؛ لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل مفرقاً بين الهدى والضلال، وليس فيه تناقض ولا اختلاف؛ لأنه من عند الله، تنزيل من حكيم حميد.

فصل: يستحب لمن قرأ الفاتحة أن يقول بعدها: آمين، ويقال: آمين. بالقصر أيضاً، ومعناه: اللهم استجب، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد وأبو داود، والترمذى، عن وائل بن حجر، قال: سمعت النبی ﷺ قرأ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ فقال: «آمين»، ومد بها صوته، وقال الترمذى: حديث حسن. وروى عن على، وابن مسعود وغيرهم.

وعن أبى هريرة، قال: كان رسول الله ﷺ إذا تلا: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قال: «آمين» حتى يسمع من يليه من الصف الأول. رواه أبو داود، وابن ماجه، وزاد: يرتج بها المسجد، والدارقطنى وقال: هذا إسناد حسن.

قال أصحابنا وغيرهم: ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة، ويتأكد فى حق المصلى، وسواء كان منفرداً أو إماماً أو مأموماً، وفى جميع الأحوال، لما جاء فى الصحيحين، عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه» ولمسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال أحدكم فى الصلاة: آمين، الملائكة فى السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه». وفى صحيح مسلم عن أبى موسى مرفوعاً: «إذا قال، يعنى الإمام: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فقولوا: آمين. يجبكم الله».

وقال أصحاب مالك: لا يؤمن الإمام ويؤمن المأموم، لما رواه مالك عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «وإذا قال: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فقولوا: آمين». الحديث. واستأنسوا - أيضاً - بحديث أبى موسى، وقد قدمنا فى المتفق عليه: «إذا أمن الإمام فأمنوا» وأنه عليه الصلاة

(١) رواه الشيخان من حديث عائشة. وسياى فى الآية (٧) من سورة آل عمران، إن شاء الله. وقد فصلنا القول فى تخريجه، فى الطبرى (٦٦٧٠٥ - ٦٦١٥) وفى صحيح ابن حبان (٧٢، ٧٥).

والسلام كان يؤمن إذا قرأ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (١) .

وقد اختلف أصحابنا في الجهر بالتأمين للمأموم في الجهرية، وحاصل الخلاف: أن الإمام إن نسي التأمين جهر المأموم به قولاً واحداً، وإن أمن الإمام جهراً فالجديد أنه لا يجهر المأموم وهو مذهب أبي حنيفة، ورواية عن مالك؛ لأنه ذكر من الأذكار فلا يجهر به كسائر أذكار الصلاة. والقديم أنه يجهر به، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل، والرواية الأخرى عن مالك، لما تقدم: «حتى يرتج المسجد». ولنا قول آخر ثالث: أنه إن كان المسجد صغيراً لم يجهر المأموم؛ لأنهم يسمعون قراءة الإمام، وإن كان كبيراً جهر ليبلغ التأمين من في أرجاء المسجد، والله أعلم.

(١) حديث أبي هريرة في الموطأ ، ص ٨٧ . وحديث أبي موسى مضى قبل أسطر ، وليس فيهما دلالة لما يقول أصحاب مالك ، فإن هذا من الاختصار في الكلام . وقد روى مالك نفسه في الموطأ - قبل هذا الحديث - حديث أبي هريرة الماضي : «إذا أمن الإمام فأمنوا» . فالحديثان عن أبي هريرة في معنى واحد، وإن اختلف اللفظان قليلاً .

تفسير سورة البقرة

ذكر ما ورد في فضلها :

روى أحمد ومسلم والترمذى والنسائى، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، فإن البيت الذى يقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان» وقال الترمذى: حسن صحيح (١). وروى أبو عبيد: عن عبد الله، يعنى ابن مسعود، قال: إن الشيطان يفر من البيت الذى يسمع فيه سورة البقرة. ورواه النسائى فى اليوم واللييلة، وأخرجه الحاكم فى مستدركه، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه (٢). وعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شىء سناما، وإن سنام القرآن البقرة، من قرأها فى بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال، ومن قرأها فى بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام». رواه الطبرانى، وابن حبان فى صحيحه، وابن مردويه (٣).

وقد روى الترمذى، والنسائى، وابن ماجه عن أبى هريرة، قال: بعث رسول الله ﷺ بعثا وهم ذوو عدد، فاستقرأهم، فاستقرأ كل واحد منهم، يعنى ما معه من القرآن، فأتى على رجل من أحدثهم سناً، فقال: «ما معك يا فلان؟» قال: معى كذا وكذا وسورة البقرة، فقال: «أمعك سورة البقرة؟» قال: نعم. قال: «أذهب فأنت أميرهم»، فقال رجل من أشرافهم: والله ما منعى أن أتعلم البقرة إلا أنى خشيت ألا أقوم بها. فقال رسول الله ﷺ: «تعلموا القرآن واقرووه؛ فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقراه وقام به كمثل جراب محشو مسكاً يفوح ريحه فى كل مكان، ومثل من تعلمه، فيرقد وهو فى جوفه، كمثل جراب أوكى على مسك». هذا لفظ رواية الترمذى، ثم قال: هذا حديث حسن (٤). وعن أسيد بن حُصَير، قال: بينا هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس، فسكت، فسكنت، فقرأ فجالت الفرس،

(١) هو فى المسند (٧٨٠٨، ٨٩٠٢) وصحيح مسلم (٢١٧/١) والترمذى (٤٢/٤) بنحوه.

(٢) هو فى المستدرک (٢٥٩/٢، ٢٦٠) بنحوه. ووافقته الذهبى على تصحيحه. وهو وإن كان موقوفاً لفظاً، فإنه مرفوع حكماً، لأنه مما لا يعلم بالرأى. وقد رواه ابن مردويه، والنسائى فى اليوم واللييلة، عن ابن مسعود، مرفوعاً مطولاً، على ما ذكره الحافظ ابن كثير بعده. وإسناده عندهما صحيح، ثم يؤيده حديث أبى هريرة المرفوع، الذى قبله.

(٣) ذكره الهيمى فى الزوائد (٣١١/٦، ٣١٢) وقال: «رواه الطبرانى، وفيه سعيد بن خالد الخزاعى المدنى، وهو ضعيف». ولكن الذى فى صحيح ابن حبان (١٣٠/٢ - ١٣٢ من مخطوطة الإحسان): «خالد بن سعيد المزنى». و«المزنى» خطأ، صوابها: «المدنى». وخالد هذا مترجم فى لسان الميزان. وأشار إلى هذا الحديث، وذكر أنه هو «خالد بن سعيد بن أبى مريم التيمى المدنى، مولى ابن عجلان»، المترجم فى التهذيب، وهو ثقة، ذكره ابن حبان فى الثقات، وترجمه البخارى فى الكبير (١٤٠/١/٢)، وابن أبى حاتم (٣٣٣/٢/١) - فلم يذكر فيه جرحاً.

(٤) الترمذى (٤٣/٤، ٤٤).

فسكت، فسكنت، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها. فأشفق أن تصيبه، فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال: «اقرأ يا ابن حُضَيْرِ». قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى، وكان منها قريباً، فرفعت رأسى وانصرفت إليه، فرفعت رأسى إلى السماء، فإذا مثل الظلَّةَ فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال: «وتدرى ما ذاك؟». قال: لا. قال: «تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم» رواه البخارى، ورواه أيضاً أبو عبيد، فى كتاب فضائل القرآن. وقد وقع نحو من هذا لثابت بن قيس بن شماس فيما رواه أبو عبيد بإسناد جيد، إلا أن فيه إبهاماً، ثم هو مرسل، والله أعلم.

ذكر ما ورد فى فضلها مع آل عمران :

روى الإمام أحمد عن بريدة، قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ فسمعتة يقول: «تعلموا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة». قال: ثم سكت ساعة، ثم قال: «تعلموا سورة البقرة، وآل عمران، فإنهما الزهراوان، يُظَلَّانَ صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غماتان أو غيابتان، أو فرقان من طير صَوَافٍ، وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول له: هل تعرفنى؟ فيقول: ما أعرفك. فيقول: أنا صاحبك القرآن الذى أظمتك فى الهواجر، وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة. فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى الداه حلتين، لا يقوم لهما أهل الدنيا، فيقولان: بم كسينا هذا؟ فيقال: بأخذ. ولدكما القرآن. ثم يقال: اقرأ واصعد فى دَرَجِ الجنة وغرفها. فهو فى صعود ما دام يقرأ هذاً كان أو ترتيلاً» (١).

ولبعضه شواهد؛ فمن ذلك حديث أبى أمامة الباهلى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن؛ فإنه شافع لأهله يوم القيامة، اقرأوا الزهراوين: البقرة وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غماتان، أو كأنهما غيابتان، أو كأنهما فرقان من طير صوافٍ يحاجبان عن أهلها يوم القيامة» ثم قال: «اقرأوا البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة» رواه أحمد ومسلم (٢). الزهراوان: المنيران. والغياية: ما أظلك من فوقك. والفرق: القطعة من الشىء، والصواف: المصطفة المتضامة. والبطلة: السحرة، ومعنى «لا تستطيعها» أى: لا يمكنهم حفظها، وقيل: لا تستطيع النفوذ فى قارئها، والله أعلم.

ومن ذلك حديث النَّوَّاسِ بن سَمْعَانَ الكلابى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمهم سورة البقرة وآل عمران». وضرب

(١) هو فى المسند (٣٤٨/٥ حلى)، وفى إسناده «بشير بن المهاجر الغنوى» وثقه ابن معين، وأخرج له مسلم، وتكلم فيه أحمد وغيره. ولذلك قال الحافظ ابن كثير هنا: «وهذا إسناد حسن على شرط مسلم».

(٢) المسند (٢٤٩/٥ حلى) وهذا لفظه. ومسلم (٢٢٢/١) ورواه ابن حبان فى صحيحه (١١٦) بتحقيقنا، والحاكم فى المستدرک (٥٦٤/١).

لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: «كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرقي، أو كأنهما فرقان من طير صوّاف يُحاجّان عن صاحبهما». رواه أحمد ومسلم والترمذي وقال: حسن غريب (١). وثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعة واحدة.

ذكر ما ورد في فضل السبع الطول (٢) :

روى أبو عبيد عن وائلة بن الأسقع، عن النبي ﷺ، قال: «أعطيت السبع الطول مكان التوراة، وأعطيت المثين مكان الإنجيل، وأعطيت المثاني مكان الزبور، وفضلت بالمفصل». هذا حديث غريب. وقد رواه أبو عبيد عن سعيد بن أبي هلال، قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال - فذكره (٣).

وروى أبو عبيد عن سعيد بن جبير، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧]، قال: هي السبع الطول: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس. وقال مجاهد: هي السبع الطول. وهكذا قال مكحول وغيره في تفسير الآية بذلك، وفي تعدادها، وأن يونس هي السابعة. والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف.

وقد ثبت في الصحيحين، عن ابن مسعود: أنه رمى الجمرة من بطن الوادي، فجعل البيت عن يساره، ومنى عن يمينه، ثم قال: هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة. وروى ابن مردويه عن عتبة بن فرقد (٤)، قال: رأى النبي ﷺ في أصحابه تأخرأ، فقال: «يا أصحاب سورة البقرة». وأظن هذا كان يوم حنين، حين ولوا مدبرين أمر العباس فناداهم: «يا أصحاب الشجرة»، يعني أهل بيعة الرضوان. وفي رواية: «يا أصحاب سورة البقرة»؛ وينشطهم بذلك، فجعلوا يقبلون من كل وجه. وكذلك يوم اليمامة مع أصحاب مسيلمة، جعل الصحابة يفرون لكثافة جيش بني حنيفة، فجعل المهاجرون والأَنْصار يتنادون: يا أصحاب سورة البقرة، حتى فتح الله عليهم. رضى الله عن أصحاب رسول الله ﷺ أجمعين.

(١) المسند (١٧٧١٤) (١٨٣/٤ حلى)، و «الشَّرْق» بفتح الشين مع فتح الراء وإسكانها: الضوء، أو الشمس.

(٢) الطُّول - بضم الطاء وفتح الواو: جمع طولى.

(٣) هكذا ذكر الحافظ ابن كثير هذا الحديث من كتاب أبي عبيد بإسنادين فيهما مقال، فثانيهما منقطع؛ لأن سعيد ابن أبي هلال من أتباع التابعين. وفي أولهما «سعيد بن بشير الأزدي»، قال ابن كثير هنا «فيه لين». والحق أنه ثقة، كما بينا في تخريج أحاديث الطبرى (٥٤٣٩).

ولكن الحديث ثابت بإسناد آخر ليس فيه مقال. فرواه الطيالسى (١٠١٢) بإسناد صحيح. ورواه أحمد

(١٧٠٤٩) (١٠٧/٤ حلى) عن الطيالسى. وكذلك رواه الطبرى (١٢٦) من طريق الطيالسى، وفصلنا الكلام

فيه هناك، ولكن فيه عندهم: أن المثين مكان الزبور، وأن المثاني مكان الإنجيل.

(٤) في المطبوع من عمدة التفسير (طبعة مكتبة التراث): «مَرَكْدٌ» وهو خطأ. انظر: المعجم الكبير للطبرانى (٣٢٨)

(١٧/١٣٣). (الباز).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . اَلَمْ

قد اختلف المفسرون فى الحروف المقطعة التى فى أوائل السور، فمنهم من قال: هى مما استأثر الله بعلمه، فردوا علمها إلى الله، ولم يفسروها، حكاه القرطبى فى تفسيره عن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود، وقاله الشعبى والثورى، واختاره ابن حبان. ومنهم من فسرها، واختلف هؤلاء فى معناها:

فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما هى أسماء السور، قال الزمخشري فى تفسيره: وعليه إطباق الأكثر، ونقل عن سيبويه أنه نص عليه، ويعتضد هذا بما ورد فى الصحيحين، عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة: الم السجدة، وهل أتى على الإنسان. وقال مجاهد: الم، وحَم، والمص، وصر، فواتح افتتح الله بها القرآن. وقال بعض أهل العربية: هى حروف من حروف المعجم، استغنى بذكر ما ذكر منها فى أوائل السور عن ذكر بواقيها، التى هى تمة الثمانية والعشرين حرفاً، كما يقول القائل: ابني يكتب فى: ا ب ت ث، أى: فى حروف المعجم الثمانية والعشرين فيستغنى بذكر بعضها عن مجموعها. حكاه ابن جرير.

قلت: مجموع الحروف المذكورة فى أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً، وهى: ا ل م ص ر ك ه ي ع ط س ح ق ن، يجمعها قولك: نص حكيم قاطع له سر. وهى نصف الحروف عدداً.

قال الزمخشري: وهذه الحروف الأربعة عشر شتملة على أنصاف أجناس الحروف يعنى من المهموسة والمجهورة، ومن الرخوة والشديدة، ومن المطبقة والمفتوحة، ومن المستعلية والمنخفضة، ومن حروف القلقللة. وقد سردها مفصلة ثم قال: فسبحان الذى دقت فى كل شىء حكمته، وهذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها، وقد علمت أن معظم الشىء وجله ينزل منزلة كله. ومن ههنا لحظ بعضهم فى هذا المقام كلاماً، فقال: لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثاً ولا سدى؛ ومن قال من الجهلة: إنَّه فى القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية - فقد أخطأ خطأ كبيراً، فتعين أن لها معنى فى نفس الأمر، فإن صح لنا فيها عن المعصوم شىء قلنا به، وإلا وقفنا حيث وقفنا، وقلنا: ﴿أَمَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]. ولم يجمع العلماء فيها على شىء معين، وإنما اختلفوا، فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه، وإلا فالوقف حتى يتبين. هذا مقام.

المقام الآخر: فى الحكمة التى اقتضت إيراد هذه الحروف فى أوائل السور، ما هى؟ مع قطع النظر عن معانيها فى أنفسها. فقال بعضهم: ابتدئ بها لتُفتحَ لاسماعتها أسماءُ المشركين - إذ تواصلوا بالإعراض عن القرآن - حتى إذا استمعوا له تلى عليهم المؤلف منه. حكاه ابن جرير، وهو ضعيف؛ لأنه لو كان كذلك لكان ذلك فى جميع السور، لا يكون فى بعضها، بل غالبها

ليس كذلك، ولو كان كذلك - أيضاً - لانبغى الابتداء بها في أوائل الكلام معهم، سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك. ثم إن هذه السورة والتي تليها - أعنى البقرة وآل عمران - مدنيتان ليستا خطباً للمشركين، فانتقض ما ذكره .

وقال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها. وقد حكى هذا المذهب الرازي عن المبرد وجمع من المحققين، وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا، وقرره الزمخشري في كشافه ونصره أتم النصر، وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية، وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي، وحكاه لى عن ابن تيمية . قال الزمخشري : ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن، وإنما كررت ليكون أبلغ في التحدى والتبكيك كما كررت قصص كثيرة وكرر التحدى بالصريح في أماكن . قال : وجاء منها على حرف واحد كقوله: ﴿ ص ﴾، ﴿ ن ﴾، ﴿ ق ﴾، وحرفين مثل : ﴿ حَم ﴾، وثلثية مثل : ﴿ آَم ﴾، وأربعة مثل : ﴿ آَمَر ﴾ و ﴿ آَمَص ﴾، وخمسة مثل : ﴿ كَهَيَّص ﴾ و ﴿ حَم . عَسَق ﴾ ؛ لأن أساليب كلامهم على هذا، من الكلمات ما هو على حرف وعلى حرفين، وعلى ثلاثة، وعلى أربعة، وعلى خمسة لا أكثر من ذلك .

قلت: ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة؛ ولهذا يقول تعالى: ﴿ آَم . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة: ١، ٢]. ﴿ آَم . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [آل عمران: ١ - ٣]. ﴿ آَمَص . كِتَابٌ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ ﴾ [الأعراف: ١، ٢]. ﴿ آَمَر . نَزَّلْنَا الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [السجدة: ١، ٢]. ﴿ حَم . نَزَّلْنَا مِنَ الرِّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [فصلت: ١، ٢]. ﴿ حَم . عَسَق . كَذَلِكَ يُوحى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الشورى: ١ - ٣]، وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر، والله أعلم .

وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم، فقد ادعى ما ليس له، وطار في غير مظاره .

﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾

قال ابن عباس: ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾ أى: هذا الكتاب. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد ابن جبیر، أن «ذلك» بمعنى هذا . والعرب تقارض بين هذين الاسمى الإشارة، فيستعملون كلا منهما مكان الآخر، وهذا معروف فى كلامهم. و «الكتاب»: القرآن. ومن قال: إن المراد بذلك الكتاب الإشارة إلى التوراة والإنجيل، كما حكاه ابن جرير وغيره، فقد أبعد النجعة وأغرق فى النزع، وتكلف ما لا علم له به. والريب: الشك. ومعنى الكلام: أن هذا الكتاب - وهو القرآن -

لا شك فيه أنه نزل من عند الله ، كما قال تعالى في السجدة : ﴿الْمَ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة : ١ ، ٢] . وقال بعضهم : هذا خبر ومعناه النهى ، أى : لا ترتابوا فيه .

ومن القراء من يقف على قوله : ﴿ لَا رَيْبَ ﴾ . ويتدئ بقوله : ﴿ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ والوقف على قوله تعالى : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أولى للآية التي ذكرنا ، ولأنه يصير قوله : ﴿ هُدًى ﴾ صفة للقرآن ، وذلك أبلغ من كون : ﴿ فِيهِ هُدًى ﴾ . و﴿ هُدًى ﴾ : يحتمل من حيث العربية أن يكون مرفوعاً على النعت ، ومنصوباً على الحال .

وخصت الهداية للمتقين ، كما قال : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٤] . ﴿ وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن ؛ لأنه هو في نفسه هدى ، ولكن لا يناله إلا الأبرار ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٥٧] . وعن ابن عباس : ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أى : الذين يحذرون من الله عقوبته فى ترك ما يعرفون من الهدى ، ويرجون رحمته فى التصديق بما جاء به . وقال قتادة : ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ : هم الذين نعتهم الله بقوله : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ . الآية والتي بعدها [البقرة : ٣ ، ٤] . واختار ابن جرير : أن الآية تعم ذلك كله ، وهو كما قال . وقد روى الترمذى وابن ماجه عن عطية السعدى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس » . قال الترمذى : حسن غريب .

ويطلق الهدى ويراد به ما يقر فى القلب من الإيمان ، وهذا لا يقدر على خلقه فى قلوب العباد إلا الله ، عز وجل ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [التقصص : ٥٦] ، وقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] ، وقال : ﴿ مَنْ يُضِلَّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾ [الاعراف : ١٨٦] ، وقال : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلَّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ [الكهف : ١٧] إلى غير ذلك من الآيات ، ويطلق ويراد به : بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والإرشاد إليه ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢] ، وقال : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد : ٧] وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا نُمُودٌ فَمَا هِيَ بِإِيمَانٍ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [فصلت : ١٧] ، وقال : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد : ١٠] على تفسير من قال : المراد بهما : الخير والشر ، وهو الأرجح ، والله أعلم . وأصل التقوى : التوقى مما يكره لأن أصلها « وَقَوَى » من الوقاية .

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾

عن عبد الله ، قال : الإيمان التصديق . وقال ابن عباس : ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ : يصدقون . وقال الزهري : الإيمان العمل . وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس : ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ : يخشون .

قال ابن جرير وغيره : والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولاً واعتقاداً وعملاً ،

وقد تدخل الخشية لله فى معنى الإيمان، الذى هو تصديق القول بالعمل، والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله، وتصديق الإقرار بالفعل.

قلت: أما الإيمان فى اللغة فيطلق على التصديق المحض، وقد يستعمل فى القرآن، والمراد به ذلك، كما قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]، وكما قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، وكذلك إذا استعمل مقرونا مع الأعمال؛ كقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الانشقاق: ٥٥، والتين: ٦]، فأما إذا استعمل مطلقاً فالإيمان الشرعى المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً. هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة، بل قد حكاه الشافعى وأحمد بن حنبل وأبو عبيد وغير واحد إجماعاً: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص. وقد ورد فيه آثار كثيرة وأحاديث. ومنهم من فسره بالخشية، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [الملك: ١٢]، وقوله: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، والخشية: خلاصة الإيمان والعلم، كما قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. وقال بعضهم: يؤمنون بالغيب كما يؤمنون بالشهادة، وليسوا كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤]، وقال: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، فعلى هذا يكون قوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حالاً، أى: فى حال كونهم غيباً عن الناس .

وأما الغيب المراد هنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه، وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد. قال أبو العالية: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وجنته وناره ولقائه، ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث، فهذا غيب كله. وكذا قال قتادة. وعن ابن عباس: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ قال: بما جاء منه، يعنى: من الله تعالى. وقال زرّ: الغيب القرآن. وقال عطاء بن أبى رباح: من آمن بالله فقد آمن بالغيب. وقال زيد بن أسلم: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ بالقدر. فكل هذه متقاربة فى معنى واحد؛ لأن جميع هذه المذكورات من الغيب الذى يجب الإيمان به. وقال سعيد بن منصور: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمارة بن عمير.

وعن عبد الرحمن بن يزيد، قال: كنا عند عبد الله بن مسعود جلوساً، فذكرنا أصحاب رسول الله ﷺ وما سبقوا به، قال: فقال عبد الله: إن أمر محمد ﷺ كان بينا لمن رآه، والذى لا إله غيره ما آمن أحد قط إيماناً أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دُونِ إِيمَانِهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْبُرْهَانُ﴾ [البقرة: ١٠٥]. رواه سعيد بن منصور، وأبى حاتم، وابن مردويه، والحاكم. وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه (١). وفى معنى هذا الحديث الذى رواه أحمد، عن أبى جمعة قال: تغدينا مع رسول الله ﷺ ومعنا

أبو عبيدة بن الجراح، فقال: يا رسول الله، هل أحد خير منا؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك. قال: «نعم، قوم من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى» (١) [رواه ابن مردويه بأطول من هذا. وفي آخره أن رسول ﷺ] قال: «ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحي من السماء، بل قوم من بعدكم يأتيهم كتاب بين لوحين يؤمنون به ويعملون بما فيه، أولئك أعظم منكم أجراً» مرتين (٢). وهذا الحديث فيه دلالة على العمل بالوَجَادَة التى اختلف فيها أهل الحديث، كما قررته فى أول شرح البخارى؛ لأنه مدحهم على ذلك وذكر أنهم أعظم أجراً من هذه الحيشية لا مطلقاً.

﴿ وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾

قال ابن عباس: إقامة الصلاة: إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها. وقال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها، ووضوئها، وركوعها وسجودها. وقال ابن عباس: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ قال: زكاة أموالهم. وقال الضحاك: كانت النفقات قربات يتقربون بها إلى الله على قدر ميسرتهم وجهدهم، حتى نزلت فرائض الصدقات: سبع آيات فى سورة براءة، مما يذكر فيهن الصدقات، هن الناسخات المُثَبَّتَات. وقال قتادة: فأنفقوا مما أعطاكم الله، هذه الأموال عوارى وودائع عندك يابن آدم، يوشك أن تفارقها. واختار ابن جرير أن الآية عامة فى الزكاة والنفقات، فإنه قال: وأولى التأويلات وأحقها بصفة القوم: أن يكونوا لجميع اللازم لهم فى أموالهم مؤدّين، زكاة كان ذلك أو نفقة من لزمته نفقته، من أهل أو عيال وغيرهم، ممن يجب عليهم نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك؛ لأن الله تعالى عم وصفهم ومدحهم بذلك، وكل من الإنفاق والزكاة ممدوح به محمود عليه.

قلت: كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال، فإن الصلاة حق الله وعبادته، وهى مشتملة على توحيدهِ والثناء عليه، وتمجيدهِ والابتهال إليه، ودعائه والتوكل عليه؛ والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدى إليهم، وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليك، ثم الأجانب، فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل فى قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾؛ ولهذا ثبت فى الصحيحين، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «بُنِيَ الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت». والأحاديث فى هذا كثيرة.

وأصل الصلاة فى كلام العرب الدعاء، ثم استعملت الصلاة فى الشرع فى ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة فى الأوقات المخصوصة، بشروطها المعروفة، وصفاتها، وأنواعها المشهورة. قال ابن جرير: وأرى أن الصلاة المفروضة سميت صلاة؛ لأن المصلى يتعرض

(١) هو فى المسند بإسنادين (١٧٠٤٣، ١٧٠٤٤) (٤/١٠٦-١٠٧ حلى).

(٢) هذه الرواية المطولة أشار إليها الحافظ ابن حجر فى الإصابة، فى ترجمة «أبى جمعة الأنصارى» (٣٢/٧).

ثم ذكر أنه «أخرجه أحمد والدارمى، وصححه الحاكم».

لاستنتاج طلبته من ثواب الله بعمله، مع ما يسأل ربه من حاجته [تعرّض الداعي بدعائه ربه استنتاج حاجاته وسؤله . [وقيل فى اشتقاقها أقوال أخر] (١) . واشتقاقها من الدعاء أصح وأشهر، والله أعلم .

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

قال ابن عباس: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أى: يصدقون بما جئت به من الله، وما جاء به من قبلك من المرسلين، لا يفرقون بينهم، ولا يجحدون ما جاؤوهم به من ربهم ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أى: بالبعث والقيامة، والجنة، والنار، والحساب، والميزان. وإنما سميت الآخرة لأنها بعد الدنيا. وقد اختلف المفسرون فى الموصوفين هاهنا: هل هم الموصوفون بما تقدم من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] ومن هم؟ على ثلاثة أقوال حكاه ابن جرير:

أحدها: أن الموصوفين أولاً هم الموصوفون ثانياً، وهم كل مؤمن، مؤمنو العرب ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم .

والثانى: هما واحد، وهم مؤمنو أهل الكتاب، وعلى هذين تكون الواو عاطفة صفات على صفات، كما قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى. الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى. فَجَعَلَ نَتَأَ أَحْوَى﴾ [الأعلى: ١ - ٥] .

الثالث: أن الموصوفين أولاً مؤمنو العرب، والموصوفون ثانياً بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ لمؤمنى أهل الكتاب، واختاره ابن جرير، ويستشهد لما قال بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] ، ويقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٤] . وبما فى الصحيحين، عن أبى موسى: أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى، ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل أدب جاريته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها» .

وأما ابن جرير فما استشهد على صحة ما قال إلا بمناسبة، وهى أن الله تعالى وصف فى أول هذه السورة المؤمنين والكافرين، فكما أنه صنف الكافرين إلى صنفين: منافق وكافر، فكذلك المؤمنون صنفهم إلى عربى وكتابى .

قلت: والظاهر قول مجاهد: أربع آيات من أول سورة البقرة فى نعت المؤمنين، وآيتان فى نعت الكافرين، وثلاث عشرة فى المنافقين، فهذه الآيات الأربع عامة فى كل مؤمن اتصف بها (١) الزيادة الأولى: تمة كلام الطبرى، تركها الحافظ المؤلف، والمعنى لا يتم بدونها. والزيادة الثانية: تلخيص لكلام المؤلف، لم نجد حاجة للإطالة به، خصوصاً وأنه غير ثابت فى المخطوطة الأزهرية.

من عربى وعجمى، وكتابى من إنسى وجنى، وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى، بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها، فلا يصح الإيمان بالغيب وإقام الصلاة والزكاة إلا مع الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ، وما جاء به من قبله من الرسل والإيقان بالآخرة، كما أن هذا لا يصح إلا بذلك، وقد أمر الله تعالى المؤمنين بذلك، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦]. وقال: ﴿وَلَا تَجَادَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أَنزَلَ إِلَيْنَا وَأَنزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ [الأنعام: ٤٦]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَلْقُوا مَا كُنْتُمْ يُخْفُونَ لِلَّهِ لَئِن أُعْلِنَ سِرُّكُمْ وَهُوَ اللَّهُ لَأَخْرِجَكُنَّ مِنْ أَرْضِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ كُفِّرُوا عَنْهَا﴾ [النساء: ٤٧]، وقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُتِمُّوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنزَلْنَا إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨]، وأخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك، فقال: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكُتِبَ عَلَيْهِ وَرَسُولُهُ لَا تَفَرَّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رَّسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَمْ يَقْرَأُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ١٥٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أمر جميع المؤمنين بالإيمان بالله ورسوله وكتبه. لكن لمؤمنى أهل الكتاب خصوصية، وذلك أنهم مؤمنون بما بأيديهم مفصلا، فإذا دخلوا فى الإسلام وآمنوا به مفصلا كان لهم على ذلك الأجر مرتين، وأما غيرهم فإنما يحصل له الإيمان، بما تقدم مجملا، كما جاء فى الصحيح: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تكذبوهم ولا تصدقوهم، قولوا: آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم»، ولكن قد يكون إيمان كثير من العرب بالإسلام الذى بعث به محمد ﷺ أتم وأكمل وأعم وأشمل من إيمان من دخل منهم فى الإسلام، فهم وإن حصل لهم أجران من تلك الحثيثة، فغيرهم قد يحصل له من التصديق ما يُنيف ثوابه على الأجرين اللذين حصلوا لهم، والله أعلم.

﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ أى: المتصفون بما تقدم: من الإيمان بالغيب، وإقام الصلاة، والإنفاق من الذى رزقهم الله، والإيمان بما أنزل إلى الرسول ومن قبله من الرسل، والإيقان بالدار الآخرة، وهو يستلزم الاستعداد لها من العمل بالصلحاح وترك المحرمات ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ أى: نور وبيان وبصيرة من الله تعالى ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: غَطَّوا الحق وستره، وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك، سواء عليهم إنذارك وعدمه، فإنهم لا يؤمنون بما جنتهم به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] وقال فى حق المعاندين من أهل الكتاب: ﴿وَلَمَّا تَبَيَّنَ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنَّهُمْ كُفَرُوا بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبَيَّنَ قَبْلَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ١٤٥] أى: إن من كتب الله عليه الشقاوة فلا مُسْعِدَ له، ومن أضلَّه فلا هادى له، فلا تذهب نفسك

عليهم حسرات، وبلغهم الرسالة، فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر، ومن تولى فلا تحزن عليهم ولا يهمدنك ذلك؛ ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠]، و﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود: ١٢]. وعن ابن عباس، في قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأول.

وقوله تعالى: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾: محله من الإعراب أنه جملة مؤكدة للتي قبلها: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾ أى هم كفار فى كلا الحالين؛ فهذا أكد ذلك بقوله: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ويحتمل أن يكون ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ خبراً لأن تقديره: إن الذين كفروا لا يؤمنون، ويكون قوله: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ ﴾ جملة معترضة، والله أعلم.

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

قال السدى: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ ﴾ أى: طبع الله. وقال قتادة فى هذه الآية: استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه؛ فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون. وقال ابن جرير: وقال بعضهم: إنما معنى قوله: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ إخبار من الله عن تكبيرهم، وإعراضهم عن الاستماع لما دُعوا إليه من الحق، كما يقال: إن فلاناً أصمّ عن هذا الكلام، إذا امتنع من سماعه، ورفع نفسه عن تفهمه تكبراً. قال: وهذا لا يصح؛ لأن الله قد أخبر أنه هو الذى ختم على قلوبهم وأسماعهم.

قلت: وقد أظنّب الزمخشري فى تقرير ما رده ابن جرير ها هنا، وتأول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جداً، وما جراه على ذلك إلا اعتزاله؛ لأن الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيح عنده يتعالى الله عنه فى اعتقاده، ولو فهم قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥]، وقوله: ﴿ وَنَقَلَبُ أُنْفُسَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الانعام: ١١٠]، وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاءً وفاقاً على تماديهم فى الباطل وتركهم الحق، وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح، فلو أحاط علماً بهذا لما قال ما قال، والله أعلم.


قال ابن جرير: والحق عندي فى ذلك ما صحّ بنظيره الخبرُ عن رسول الله ﷺ [ثم روى]، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةً سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَعْتَبَ صَقَلَ قَلْبَهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُو قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الرَّأْيَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَأَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ » [المطففين: ١٤] وقال الترمذى: حسن صحيح^(١). ثم قال ابن جرير: فأخبر ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا


(١) الحديث فى الطبرى رقم (٣٠٤) بتخریجنا. ورواه أيضاً أحمد (٧٩٣٩) والحاكم (٥١٧/٢) وصححه هو والذهبي.

أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر عنها مخلص، فذلك هو الختم والطبع الذى ذكره فى قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف، التى لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك عنها ثم حلها، فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم إلا بعد فضه خاتمه وحلّه رباطه .

واعلم أن الوقف التام على قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً﴾ جملة تامة، فإن الطبع يكون على القلب وعلى السمع، والغشاوة - وهى الغطاء - تكون على البصر. قال ابن جريج: الختم على القلب والسمع، والغشاوة على البصر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ يَسْأَلُ اللَّهُ يَخْتِمُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤]، وقال: ﴿وَحَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الحائىة: ٢٣]. قال ابن جرير: ومن نصب غشاوة من قوله تعالى: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً﴾ يحتمل أنه نصبها بإضمار فعل، تقديره: وجعل على أبصارهم غشاوة، ويحتمل أن يكون نصبها على الاتباع، على محل ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: ٢٢] (١) .

لما تقدم وصف المؤمنين فى صدر السورة بأربع آيات، ثم عرف حال الكافرين بهاتين الآيتين، شرع تعالى فى بيان حال المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ولما كان أمرهم يشبه على كثير من الناس أطنب فى ذكرهم بصفات متعددة، كل منها نفاق، كما أنزل سورة براءة فيهم، وسورة المنافقين فيهم، وذكرهم فى سورة النور وغيرها من السور، تعريفاً لأحوالهم لتجتنب، ويُجتنب من تلبس بها أيضاً، فقال تعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾  يُخَادِعُونَ

اللَّهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ 

النفاق: هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادى: وهو الذى يخلد صاحبه فى النار، وعملى: وهو من أكبر الذنوب، كما سيأتى تفصيله فى موضعه، إن شاء الله تعالى، وهذا كما قال ابن جريج: المنافق يخالف قوله فعله، وسره علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيبه. وإنما نزلت صفات المنافقين فى السور المدنية؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق، بل كان خلافه: من الناس من كان يظهر الكفر مُستكراً، وهو فى الباطن مؤمن، فلماً هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج، وكانوا فى جاهليتهم يعبدون الأصنام، على طريقة مشركى العرب، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قَيْنُقَاع حلفاء الخزرج، وبنو النَّضِير، وبنو قُرَيْظَةَ حلفاء الأوس، فلماً قدم رسول الله ﷺ المدينة، وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتى الأوس والخزرج، وقل من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام، رضى الله عنه، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضاً؛ لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف، بل قد كان عليه، الصلاة والسلام، وأدعَ اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب

(١) نصب « غشاوة » قراءة شاذة، ردها الطبرى ولم يجز القراءة بها . وهو كما قال رحمه الله .

حوالى المدينة، فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته، وأعلى الإسلام وأهله، قال عبد الله ابن أبى ابن سلول، وكان رأسا فى المدينة، وهو من الخزرج، وكان سيد الطائفتين فى الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم، فجاءهم الخير وأسلموا، واشتغلوا عنه، فبقى فى نفسه من الإسلام وأهله، فلما كانت وقعة بدر قال: هذا أمر قد تَوَجَّهَ فأظهر الدخول فى الإسلام، ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن تَمَّ وَجِدَ النفاق فى أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد، لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرهاً، بل يهاجر ويترك ماله، وولده، وأرضه رغبة فيما عند الله فى الدار الآخرة.

ولهذا نبه الله، سبحانه، على صفات المنافقين لثلاث يغترّ بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم، وهم كفار فى نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خير، فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: يقولون ذلك قولاً ليس وراءه شيء آخر، كما قال تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ [المنافقون: ١] أى: إنما يقولون ذلك إذا جاؤوك فقط، لا فى نفس الأمر؛ ولهذا يؤكدون فى الشهادة بيان ولام التأكيد فى خبرها؛ كما أكدوا قولهم: ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ ﴾، وليس الأمر كذلك، كما أكذبهم الله فى شهادتهم، وفى خبرهم هذا بالنسبة إلى اعتقادهم، بقوله: ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون: ١]، ويقوله: ﴿ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى: يباظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك، وأن ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه كما يروج على بعض المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَعْتَبُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [المجادلة: ١٨]؛ ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله: ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ يقول: وما يغرّون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم، وما يشعرون بذلك من أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٢]. ومن القراء من قرأ: « وما يخدعون إلا أنفسهم»، وكلا القراءتين يرجع إلى معنى واحد.

قال ابن جرير: فإن قال قائل: كيف يكون المنافق لله وللمؤمنين مخادعاً، وهو لا يظهر بلسانه خلاف ما هو له معتقد إلا تقية؟ قيل: لا تمتنع العرب من أن تسمى من أعطى بلسانه غير الذى فى ضميره تقية، لينجو مما هو له خائف، مخادعاً، فكذلك المنافق، سُمى مخادعاً لله وللمؤمنين، بإظهاره ما أظهر بلسانه تقية، مما تخلص به من القتل والساء والعذاب العاجل، وهو لغير ما أظهر مستبطن، وذلك من فعله - وإن كان خداعاً للمؤمنين فى عاجل الدنيا - فهو لنفسه بذلك من فعله خادع، لأنه يُظْهِرُ لها بفعله ذلك بها أنه يعطيها أمنيته، ويسقيها كأس سرورها، وهو موردها به حياض عطيتها، ومُجَرَّعَهَا بها كأس عذابها، ومزيرها من غضب الله

وأليم عقابه ما لا قبلَ لها به، فذلك خديعته نفسه، ظناً منه - مع إساءته إليها في أمر معادها - أنه إليها محسن، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ إعلاماً منه عبادة المؤمنين أن المنافقين بإساءتهم إلى أنفسهم في إسخاطهم عليها ربهم بكفرهم، وشكهم وتكذيبهم، غير شاعرين ولا دارين، ولكنهم على عمياء من أمرهم مقيمون.

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ ﴿١٠﴾

﴿في قلوبهم مرضٌ﴾ : شك، ﴿فزادهم الله مرضاً﴾ : شكاً. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿في قلوبهم مرضٌ﴾ قال: هذا مرض في الدين، وليس مرضاً في الأجساد، وهم المنافقون. والمرض: الشك الذي دخلهم في الإسلام ﴿فزادهم الله مرضاً﴾ قال: زادهم رجساً، وقرأ: ﴿فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون. وأما الذين في قلوبهم مرضٌ فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، قال: شراً إلى شرهم وضلالة إلى ضلالتهم. وهذا الذي قاله عبد الرحمن، رحمه الله، حسن، وهو الجزء من جنس العمل، وكذلك قاله الأولون، وهو نظير قوله تعالى أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]. وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾: وقرئ «يكذبون» (١)، وقد كانوا متصفين بهذا وهذا، فإنهم كانوا كذبة ويكذبون بالغيب، يجمعون بين هذا وهذا.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ

هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

الفساد: هو الكفر، والعمل بالمعصية. قال ابن جرير: فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه، وشكهم في دينه الذي لا يقبلُ من أحد عملاً إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والريب، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله، إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً. فذلك إفساد المنافقين في الأرض، وهم يحسبون أنهم يفعلهم ذلك مصلحون فيها.

وهذا الذي قاله حسن، فإن من الفساد في الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] فقطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ عَالِيكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤] ثم قال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥] فالمنافق لما كان ظاهره الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين، فكان الفساد من جهة المنافق حاصل؛ لأنه هو الذي غرّ المؤمنين بقوله الذي لا حقيقة له، والى الكافرين على المؤمنين، ولو أنه استمر على حالته الأولية لكن شره أخف، ولو أخلص العمل لله

(١) أي بفتح الياء مع سكون الكاف، وبضم الياء وفتح الكاف وتشديد الذال المكسورة. وكلاهما من القراءات السبعة.

وتطابق قوله وعمله لأفصح وأنجح؛ [ولكنهم يقولون] أى: نريد أن ندارى الفريقين من المؤمنين والكافرين، ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء، . ويقول الله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: ألا إن هذا الذى يعتمدونه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد، ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٤﴾

يقول تعالى: وإذا قيل للمنافقين: ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ أى: كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار وغير ذلك، مما أخبر المؤمنين به وعنه، وأطيعوا الله ورسوله فى امتثال الأوامر وترك الزواجر ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾، يعنون - لعنهم الله - أصحاب رسول الله ﷺ، رضى الله عنهم. والسفهاء: جمع سفيه، كما أن الحكماء جمع حكيم، والسفيه: هو الجاهل الضعيف الرأى القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار؛ ولهذا سمى الله النساء والصبيان سفهاء، فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُتَوَاتَرُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالِكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥] قال عامة علماء السلف: هم النساء والصبيان. وقد تولى الله، سبحانه، جوابهم فى هذه المواطن كلها، فقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ فأكد وحصر السفاهة فيهم. ﴿وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ يعنى: ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم فى الضلالة والجهل، وذلك أردى لهم وأبلغ فى العمى، والبعد عن الهدى.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿١٥﴾

يقول تعالى: وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا: ﴿آمَنَّا﴾ أى: أظهرنا لهم الإيمان والموالاتة والمصافاة، غروراً منهم للمؤمنين ونفاقاً ومصانعة وتقية، وليشركوهم فيما أصابوا من خير ومغرم، ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ يعنى: وإذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا إلى شياطينهم. فضمَّن ﴿خَلَوْا﴾ معنى انصرفوا؛ لتعديته بـ «إلى»؛ ليدل على الفعل المضمر والفعل الملفوظ به. ومنهم من قال: «إلى» هنا بمعنى «مع»، والأول أحسن، وعليه يدور كلام ابن جرير. ﴿إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ من يهود الذين يأمرونهم بالتكذيب وخلاف ما جاء به الرسول قاله ابن عباس . وقال مجاهد: ﴿شَيَاطِينِهِمْ﴾: أصحابهم من المنافقين والمشركين. قال ابن جرير: وشياطين كل شىء مردته، وتكون الشياطين من الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] . وفى المسند عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنسِ وَالْجِنِّ». فقلت: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟ قال: «نعم» (١).

(١) مضى أيضا ص ٥٦، وهو فى المسند (٥/١٧٨ حلى) ضمن حديث طويل، ورواه النسائى مختصراً (٣١٩/٢).

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾: أى إنا على مثل ما أنتم عليه ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ أى:

إنما نحن نستهزئ بالقوم ونلعب بهم.

وقوله تعالى جواباً لهم ومقابلة على صنيعهم: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. أخبر تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة، فى قوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ الَّذِينَ آمَنُوا أَمْ نَرْوَنَا نَقْتَسِبُ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ الآية [الحديد: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِي لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]. فهذا وما أشبهه، من استهزاء الله، تعالى ذكره، وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين، وأهل الشرك به .

وقوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: يمدهم: يملئ لهم. يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم فى عتوهم وتمردهم، كما قال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]. والطغيان: هو المجاوزة فى الشئ، كما قال: ﴿إِنَّا لَمَأْ طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]. والعمه: الضلال، يقال: عمه فلان يعمه عمها وعموها: إذا ضل. قال: وقوله: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: فى ضلالهم، وكفرهم الذى غمرهم دسه، وعلاهم رجسه، يترددون حيارى ضللاً، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً؛ لأن الله قد طبع على قلوبهم وختم عليها، وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها، فلا يبصرون رُشداً، ولا يهتدون سبيلاً.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ﴾: استحبوا الضلالة على الهدى. وهذا يشبهه فى المعنى قوله تعالى فى ثمود: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]. وحاصل قول المفسرين: أن المنافقين عدلوا عن الهدى إلى الضلال، واعتاضوا عن الهدى بالضلالة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ﴾: أى بذلوا الهدى ثمناً للضلالة، وسواء فى ذلك من كان منهم قد حصل له الإيمان ثم رجع عنه إلى الكفر، كما قال فىهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَغِيَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمُ﴾ [المنافقون: ٣]، أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى، كما يكون حال فريق آخر منهم، فإنهم أنواع وأقسام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أى: ما ربحت صفقتهم فى هذه البيعة، ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾: أى: راشدين فى صنيعهم ذلك. وروى ابن جرير: وابن أبى حاتم عن قتادة: قد - والله - رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنة إلى البدعة.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾

﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾

وتقرير هذا المثل: أن الله، سبحانه، شبههم فى اشتراهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد التبصرة إلى العمى، بمن استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله وانطفع بها وأبصر بها ما عن

بينه وشماله، وتأنس بها - فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدى، وهو مع ذلك أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياء لما أبصر؛ فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغي على الرشد. وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر عنهم تعالى في غير هذا الموضع، والله أعلم.

وقد التفت في أثناء المثل من الواحد إلى الجمع، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ. صُمُّ بَكْمٌ عُمِيٌّ لَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وهذا أفصح في الكلام، وأبلغ في النظام، وقوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أى: أذهب عنهم ما ينفعهم، وهو النور، وأبقى لهم ما يضرهم، وهو الإحراق والدخان ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾: لا يهتدون إلى سبل خير ولا يعرفونها، وهم مع ذلك ﴿صُمُّ﴾ لا يسمعون خيراً ﴿بَكْمٌ﴾ لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿عُمِيٌّ﴾ فى ضلالة وعماية البصيرة، كما قال تعالى: ﴿فَأَنهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] فلهذا لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهداية التى باعوها بالضلالة.

﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِي أَيَّامِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ ﴿١٦﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة، ويشكون تارة أخرى، فقلوبهم فى حال شكهم وكفرهم وتردهم ﴿كَصَيْبٍ﴾، والصيب: المطر، نزل من السماء، فى حال ظلمات، وهى الشكوك والكفر والنفاق. ﴿ورعدٌ﴾: وهو ما يزعج القلوب من الخوف، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفرع، كما قال تعالى: ﴿يَخْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤] وقال: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ. لَوْ يَجِدُونَ مَلْحَطًا أَوْ مَفَارَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا لَوَكُوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٦، ٥٧]. والبرق: هو ما يلمع فى قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين فى بعض الأحيان، من نور الإيمان؛ ولهذا قال: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابَهُمْ فِي أَيَّامِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أى: ولا يُجْدَى عنهم حذرهم شيئاً؛ لأن الله محيط بهم بقدرته، وهم تحت مشيئته وإرادته، كما قال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ. وَاللَّهُ مِنْ وَّرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: ١٧ - ٢٠].

ثم قال: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ قال ابن عباس: أى لشدة ضوء الحق، كلما أضاء لهم مشوا فيه ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾: أى كلما ظهر لهم من الإيمان شئ استأنسوا به واتبعوه، وتارة تعرّض لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين. وهكذا يكونون يوم القيامة عندما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم، فمنهم من يعطى من النور ما يضىء له مسيرة فراسخ، وأكثر من ذلك وأقل من ذلك، ومنهم من يطفأ نوره تارة ويضىء له أخرى، فيمشى على

الصراط تارة ويقف أخرى ، ومنهم من يطفأ نوره بالكلبية وهم الخُلص من المنافقين ، الذين قال فيهم : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ [الحديد: ١٣] وقال في حق المؤمنين : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بِشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [الحديد: ١٢] وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحریم: ٨]

فإذا تقرر هذا صار الناس أقساماً: مؤمنون خلص، وهم الموصوفون بالآيات الأربع في أول البقرة، وكفار خلص، وهم الموصوفون بالآيتين بعدها، ومنافقون، وهم قسمان: خلص، وهم المضروب لهم المثل النارى، ومنافقون مترددون، تارة يظهر لهم لُمع من الإيمان وتارة يخبو، وهم أصحاب المثل المائى، وهم أخف حالا من الذين قبلهم. وهذا المقام يشبه من بعض الوجوه ما ذكر في سورة النور، من ضرب مثل المؤمن وما جعل الله في قلبه من الهدى والنور، بالمصباح فى الزجاجة التى كأنها كوكب درى، وهى قلب المؤمن المفطور على الإيمان واستمداده من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من غير كدر ولا تخليط، كما سيأتى تقريره فى موضعه، إن شاء الله.

ثم ضرب مثل العباد من الكفار، الذين يعتقدون أنهم على شىء، وليسوا على شىء، وهم أصحاب الجهل المركب، فى قوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ قِوَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩]. ثم ضرب مثل الكفار الجهال الجهل البسيط، وهم الذين قال تعالى فيهم: ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور: ٤٠] فقسم الكفار ههنا إلى قسمين: داعية ومقلد، كما ذكرهما فى أول سورة الحج وقال: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مُرِيدٍ ﴾ (١) وقد قسم الله المؤمنين فى سورة الواقعة وآخرها، وفى سورة الإنسان، إلى قسمين: سابقون وهم المقربون، وأصحاب يمين وهم الأبرار.

فتلخص من مجموع هذه الآيات الكريمة: أن المؤمنين صنفان: مقربون وأبرار، وأن الكافرين صنفان: دعاة ومقلدون، وأن المنافقين - أيضاً - صنفان: منافق خالص، ومنافق فيه شعبة من نفاق. كما جاء فى الصحيحين، عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ: «ثلاث من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتهم خان». استدلوا به على أن الإنسان قد

(١) الآية (٣) من سورة الحج ، والتى ذكر المؤلف قبلها هى الآية (٨) . ولم يرد بذلك نسق التلاوة ، وإنما أراد أن الله سبحانه وصف الداعية ووصف المقلد . فذكر الآيتين للاستدلال على وصف كل منهما . وطابعو التفسير لم يلاحظوا مقصد الحافظ المؤلف ، قدموا وأخروا ، اتبعوا لنسق التلاوة .

تكون فيه شعبة من إيمان، وشعبة من نفاق. إما عملي لهذا الحديث، أو اعتقادي كما دلت عليه الآية، كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض العلماء، كما تقدم، وكما سيأتي، إن شاء الله. وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعة: قلب أجرد، فيه مثل السراج يُزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مُصَفَّح؛ فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن، سراج فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق، عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة، يمدّها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح والدم، فأى المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه». وإسناده جيد حسن (١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ : لما تركوا من الحق بعد معرفته. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال ابن جرير: إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع؛ لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير، ومعنى ﴿قَدِيرٌ﴾: قادر، كما أن معنى (٢) ﴿عَلِيمٌ﴾: عالم.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ

شرح تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته، بأنه تعالى هو المنعم على عبده، بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغهم عليهم النعم الظاهرة والباطنة، بأن جعل لهم الأرض فراشا، أى: مهدا كالفرش مقررة موطأة مثبتة بالرواسي الشامخات، ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾، وهو السقف، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ﴾ [الانبيا: ٣٢] وأنزل لهم من السماء ماء - والمراد به السحاب ههنا - فى وقته عند احتياجهم إليه، فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد؛ رزقا لهم ولأنعامهم، كما قرر هذا فى غير موضع من القرآن. ومن أشبه آية بهذه الآية قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤] ومضمونه: أنه الخالق الرازق مالك الدار، وساكنيها، ورازقهم، فهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يُشْرِكُ به غيره؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى: لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التى لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره وقد علمتم أن الذى يدعوكم إليه الرسول ﷺ من توحيده هو الحق الذى لا شك فيه. وفى الصحيحين عن ابن مسعود، قال:

(١) هو فى المسند (١١١٤٦) (١٧/٣) حلى). ومجمع الزوائد (٦٣/١) وقال: «رواه أحمد والطبرانى فى الصغير، وفى إسناده ليث بن أبى سليم». وأشرنا إليه فى تخريج أحاديث الطبرى (١٤٩٧) وبيننا أن إسناده صحيح.

(٢) فى المطبوع من «عمدة التفسير»: «كما معنى» وهو خطأ طباعى واضح. (البار).

قلت : يا رسول الله ، أى الذنب أعظم؟ قال : «أن تجعل لله ندا، وهو خلقك» الحديث . وكذا حديث معاذ : «أتدري ما حق الله على عباده؟ أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً» الحديث . وعن الطفيل بن سَخْبِرَةَ ، أخى عائشة أم المؤمنين لأمها ، قال : رأيت فيما يرى النائم ، كأتيت على نفر من اليهود ، فقلت : من أنتم؟ فقالوا : نحن اليهود ، قلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنتم تقولون : عزير ابن الله . قالوا : وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد . قال : ثم مررت بنفر من النصارى ، فقلت : من أنتم؟ قالوا : نحن النصارى . قلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : المسيح ابن الله . قالوا : وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد . فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته ، فقال : «هل أخبرت بها أحداً؟» فقلت : نعم . فقام ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : «أما بعد ، فإن طُفَيْلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم ، وإنكم قلتم كلمة كان ينعنى كذا وكذا أن أنهاكم عنها ، فلا تقولوا : ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا : ما شاء الله وحده» . رواه ابن مردويه وأخرجه ابن ماجه (١) بنحوه .

وعن ابن عباس ، قال : قال رجل للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت . فقال : «أجعلتنى لله ندا؟ قل : ما شاء الله وحده» . رواه ابن مردويه ، والنسائي ، وابن ماجه (٢) . وهذا كله صيانة ، وحماية لجناب التوحيد ، والله أعلم .

وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الأنداد هو الشرك ، أخفى من ديب النمى على صفاء سواد فى ظلمة الليل ، وهو أن يقول : والله وحياتك يا فلان ، وحياتي ، ويقول : لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص ، ولولا البط فى الدار لأتى اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل : لولا الله وفلان . لا تجعل فيها «فلان» . هذا كله به شرك .

[ثم ذكر الحافظ ابن كثير هنا حديثاً طويلاً ، عن المسند للإمام أحمد من حديث الحارث ابن الحارث الأشعري : أن نبى الله ﷺ قال : «إن الله ، عز وجل ، أمر يحيى بن زكريا ﷺ بخمس كلمات أن يعمل بهن ، وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن . . . » وذكر الحديث وفيه

(١) الحديث رواه أيضاً أحمد فى المسند (٥ / ٧٢ حلى) ، وإسناده صحيح . ورواه الدارمى فى سننه (٢ / ٢٩٥) مختصراً ، وأشار إليه البخارى فى التاريخ الكبير (٢ / ٣٦٤ ، ٣٦٥) فى ترجمة الطفيل ، ورواه الحافظ المزي فى ترجمته أيضاً ، فى تهذيب الكمال ، وروى هذه القصة أيضاً - مختصرة - حذيفة بن اليمان : أتى رجل النبى ﷺ فقال : «إنى رأيت فى المنام . . . » رواها عنه أحمد فى المسند (٥ / ٣٩٣ حلى) ، وكذلك رواها ابن ماجه (٢١١٨) من حديث حذيفة ، ثم رواها من حديث الطفيل بن سخبيرة - فلم يذكر لفظه ، قال البوصيرى فى زوائده ، فى حديث الطفيل : « رجال الإسناد ثقات على شرط البخارى » . فالظاهر أن حذيفة شهد قصة الطفيل ، أو لعله سمعها منه أو من غيره ممن شهدها .

(٢) أبعد المؤلف النجعة ، إذ ذكر الحديث من رواية ابن مردويه ، وهو بين يديه فى المسند بنحوه (١٨٣٩ ، ١٩٦٤ ، ٢٥٦١ ، ٣٢٤٧) . ومن عادته أن يقدم المسند على غيره . والحديث رواه أيضاً البخارى فى الأدب المفرد ، ص ١١٦ ، وأشار إليه ابن حجر فى الفتح (١١ / ٤٧٠) وهو فى الدر المشور (١ / ٣٥) .

«وأولهن: أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً، فإن مثل ذلك مثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدى الذى عليه إلى غير سيده فأيكفم يسره أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً» إلى آخر الحديث . ثم قال الحافظ ابن كثير : هذا حديث حسن، والشاهد منه فى هذه الآية قوله: «وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً» (١).

وهذه الآية دالة على توحيدته تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وقد استدل به كثير من المفسرين - كالرازى وغيره - على وجود الصانع تعالى، وهى دالة على ذلك بطريق الأولى، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها فى مواضع النفع بها محكمة، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه.

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا عَلَىٰ أَن سُبُورٍ مِّن مِّثْلِهِ ۖ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ثم شرع تعالى فى تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو، فقال مخاطباً للكافرين: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يعنى: محمداً ﷺ ﴿فَاتُّوا بِسُورَةٍ﴾ من مثل ما جاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله، فعارضوه بمثل ما جاء به، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله، فإنكم لا تستطيعون ذلك. وقد تحداهم الله تعالى بهذا فى غير موضع من القرآن، فقال فى سورة القصص: ﴿قُلْ فَاتُّوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبَعُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩] وقال فى سورة سبحان: ﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقال فى سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَاتُّوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، وقال فى سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يَفْتَرَىٰ مِّن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَاتُّوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٧، ٣٨] وكل هذه الآيات مكية. ثم تحداهم بذلك - أيضاً - فى المدينة، فقال فى هذه الآية: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ شك ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يعنى: محمداً ﷺ ﴿فَاتُّوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ يعنى: من مثل القرآن؛ قاله مجاهد وقتادة، واختاره ابن جرير بدليل قوله: ﴿فَاتُّوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ [هود: ١٣] وقوله: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسراء: ٨٨]. وقد تحداهم بهذا فى مكة والمدينة مرات عديدة، مع شدة عداوتهم له

(١) وهذا الحديث بطوله فى المسند (١٧٢٣٦) (٤/١٣٠-حلبى)، ورواه الطيالسى فى (١١٦١، ١١٦٢)، ورواه الترمذى (٣٧/٤، ٣٨) عن محمد بن إسماعيل، وهو البخارى، ثم رواه أيضا من طريق الطيالسى. وقال الترمذى: «حديث حسن صحيح غريب». وقد أشار إليه البخارى فى التاريخ الكبير (٢٥٨/٢/١، ٢٥٩) فى ترجمة الحارث الأشعري، كعادته فى الإشارة الموجزة.

وبعضهم لدينه، ومع هذا عجزوا عن ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ «ولن»: لنفى التأييد، أى: ولن تفعلوا ذلك أبداً. وهذه - أيضاً - معجزة أخرى، وهو أنه أخبر خبيراً جازماً قاطعاً مقدماً غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبداً، وكذلك وقع الأمر، لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن، وأنى يتأتى ذلك لأحد، والقرآن كلام الله خالق كل شىء؟ وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين!؟

ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى، قال الله تعالى: ﴿الرَّكَّابُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾: [هود: ١]، فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه أو بالعكس على الخلاف، فكل من لفظه ومعناه فصيح لا يجارى ولا يدانى، فقد أخبر عن مغيبات ماضية وآتية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء^(١)، وأمر بكل خير، ونهى عن كل شر كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أى: صدقاً فى الأخبار وعدلاً فى الأحكام، فكله حق وصدق وعدل وهدى ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء، كما يوجد فى أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التى لا يحسن شعرهم إلا بها، كما قيل فى الشعر: إن أعذبه أكذبه، وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها فى وصف النساء أو الخيل أو الخمر، أو فى مدح شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب أو كائنة أو مخافة أو سب، أو شىء من المشاهدات المتعينة التى لا تفيد شيئاً إلا قدرة المتكلم المعين على التعبير على الشىء الخفى أو الدقيق أو إبرازه إلى الشىء الواضح، ثم تجد له فيها بيتاً أو بيتين أو أكثر هى بيوت القصيد وساثرها هذر لا طائل تحته.

وأما القرآن فجميعه فصيح فى غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً من فهم كلام العرب وتصاريف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها فى غاية الحلاوة، سواء كانت مبسطة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا، وكلما تكرر حلا وعلا، لا يخلق عن كثرة الرد، ولا يمل منه العلماء، وإن أخذ فى الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن، كما قال فى الترغيب: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] وقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال فى التهريب: ﴿أَفَأَمْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ [الإسراء: ٦٨]، ﴿أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورٌ . أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ [الملك: ١٦، ١٧]، وقال فى الزجر: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وقال فى

(١) هكذا ثبت فى المطبوعة؛ لأن هذه القطعة من أول قوله: «ومن تدبر...» إلى أول قوله: «ولهذا ثبت فى الصحيحين، ص ١٢٠ س ١٦ ليست فى الأزهرية. وأخشى أن يكون فى الكلام سقط ونقص، وأن يكون مراد الكلام: أنه أخبر عن مغيبات ماضية لم يكن لرسول الله ﷺ علم بها قبل هذا الوحي، وأخبر عن أشياء مستقبلية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء.

الوعظ : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٠٥ - ٢٠٧] ، إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة ، وإن جاءت الآيات فى الأحكام والأوامر والنواهى ، اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب ، والنهى عن كل قبيح رذيل دنىء ؛ كما قال ابن مسعود وغيره من السلف : إذا سمعت الله تعالى يقول فى القرآن ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فأرعها سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه . ولهذا قال تعالى : ﴿ يَا مَعْرُوفُ بِالنَّمْرِ وَبَيْنَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ يُجَلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ وَيُحْرَمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثُ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ، وإن جاءت الآيات فى وصف المعاد وما فيه من الأهوال وفى وصف الجنة والنار وما أعد الله فىهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم ، بشرت به وحذرت وأنذرت ودعت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات ، وزهدت فى الدنيا ورغبت فى الآخرة ، وبيّنت على الطريقة المثلى ، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم ، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم .

ولهذا ثبت فى الصحيحين ، عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ ، قال : « ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيت أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » لفظ مسلم (١) . وقوله : « وإنما كان الذى أوتيت » أى : الذى اختصاصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه ، بخلاف غيره من الكتب الإلهية ، فإنها ليست معجزة ، والله أعلم . وله ﷺ من الآيات الدالة على نبوته ، وصدقه فيما جاء - ما لا يدخل تحت حصر ، والله الحمد والمنة .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَنْقَرُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أما الوقود ، بفتح الواو ، فهو ما يلقى فى النار لإضرامها كالخشب ونحوه ، كما قال : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الجن : ١٥] وقال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [الأنبياء : ٩٨] .

وقوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ : الأظهر أن الضمير فى ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ ، عائد إلى النار التى وقودها الناس والحجارة ، ويحتمل عوده على الحجارة ، ولا منافاة بين القولين فى المعنى ؛ لأنهما متلازمان . و﴿ أُعِدَّتْ ﴾ أى : أرصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله . وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله تعالى : ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ أى : أرصدت وهيئت ، وقد وردت أحاديث كثيرة فى ذلك منها : «تحتاج الجنة والنار» ، ومنها : «استأذنت النار ربها فقالت : رب أكل بعضى بعضاً فأذن لها بنفسين ، نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف» ، وغير ذلك من الأحاديث المتواترة فى هذا المعنى . وقد خالفت المعتزلة بجهلهم فى هذا ، ووافقهم القاضى منذر بن سعيد البلوطى قاضى الأندلس .

﴿ وَيَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿١٥﴾
كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

لما ذكر تعالى ما أعد له لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال، عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله، الذين صدّقوا إيمانهم الصادق بأعمالهم الصالحة. وهذا معنى تسمية القرآن «مثنى» على أصح أقوال العلماء، كما سنستطه في موضعه، وهو أن يذكر الإيمان ويتبعه بذكر الكفر، أو عكسه، أو حال السعداء ثم الأشقياء، أو عكسه. وحاصله ذكر الشيء ومقابلة. وأما ذكر الشيء ونظيره فذاك التشابه، كما سنوضحه إن شاء الله؛ فلهذا قال تعالى: ﴿ وَيَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾، فوصفها بأنها تجري من تحتها الأنهار [كما وصف النار بأن وقودها الناس والحجارة ، ومعنى ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾] (١) أى: من تحت أشجارها وغرفها، وقد جاء فى الحديث: أن أنهارها تجري من غير أخدود، وجاء فى الكوثر أن حافته قباب اللؤلؤ المجوف، ولا منافاة بينهما، وطينها المسك الأذفر، وحبهاؤها اللؤلؤ والجوهر، نسال الله من فضله ، إنه هو البر الرحيم ، وعن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنهار الجنة تُفَجَّر من تحت تلال - أو من تحت جبال - المسك» رواه ابن أبى حاتم (٢) . وقال أيضا: حدثنا أبو سعيد، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، قال: قال عبد الله: أنهار الجنة تفر من جبل مسك .

وقوله تعالى: ﴿ كَلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾: معناه: مثل الذى كان بالأمس، ﴿ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ يعنى: فى اللون والمراى، وليس يشبهه فى الطعم.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ قال ابن عباس: مطهرة من القذر والأذى . وقال قتادة: مطهرة من الأذى والمائم. وقوله تعالى: ﴿ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾: هذا هو تمام السعادة، فإنهم مع هذا النعيم فى مقام أمين من الموت والانقطاع فلا آخر له ولا انقضاء، بل فى نعيم سرمدى أبدي على الدوام، والله المسؤل أن يحشرنا فى زمريهم، إنه جواد كريم، بر رحيم.

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ يَنْفُسُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(١) هذه الزيادة ثابتة فى المخطوطة الأزهرية ، وقد سقطت خطأ فى المطبوعة .

(٢) ذكر السيوطى فى الدر المنثور (١ / ٣٧) ، وأنه رواه أيضا ابن حبان ، والحاكم ، والطبرانى ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث .

قال السدي في تفسيره - عن ابن مسعود ، وغيره : لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين ، يعنى قوله : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ [البقرة: ١٧] وقوله : ﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ [البقرة: ١٩] الآيات الثلاث ، قال المنافقون : الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال ، فأنزل الله تعالى هذه الآية إلى قوله : ﴿ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ . ومعنى الآية : أنه تعالى أخبر أنه لا ﴿ يَسْتَحْيِي ﴾ ، أى : لا يستنكف ، وقيل : لا يخشى أن يضرب مثلاً ما ، [أى] : أى مثل كان ، بأى شيء كان ، صغيراً كان أو كبيراً . و«ما» ههنا للتقليل ، وتكون ﴿ بَعُوضَةً ﴾ منصوبة على البدل ، كما تقول : لأضربن ضرباً ما ، فيصدق بأدنى شيء .

واختار ابن جرير أن ما موصولة ، و﴿ بَعُوضَةً ﴾ معربة بإعرابها ؛ قال : وذلك سائغ فى كلام العرب ، أنهم يعربون صلة « ما ومن » بإعرابهما لأنهما يكونان معرفة تارة ، ونكرة أخرى ، كما قال حسان بن ثابت :

وَكَفَىٰ بِنَا فَضْلًا عَلَىٰ مَنْ غَيْرِنَا حُبَّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ إِيَانَا

قال : ويجوز أن تكون ﴿ بَعُوضَةً ﴾ منصوبة بحذف الجار ، وتقدير الكلام : إن الله لا يستحى أن يضرب مثلاً ما بين بعوضة إلى ما فوقها .

وقوله : ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ فيه قولان : أحدهما : فما دونها فى الصغر ، والحقارة ، كما إذا وصف رجل باللؤم والشح ، فيقول السامع : نعم ، وهو فوق ذلك ، يعنى فيما وصف . والثانى : فما فوقها : فما هو أكبر منها ؛ لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة . وهذا اختيار ابن جرير .

فأخبر أنه لا يستصغر شيئاً يضرب به مثلاً ولو كان فى الحقارة والصغر كالبعوضة ، كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ مَا سَمِعْتُمْ لَهُ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذَّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعْفُ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴾ [الحج : ١٧٣] ، وقال : ﴿ مِثْلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمِثْلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتُ لَبِيتَ الْعَنْكَبُوتُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤١] وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خبيثة كَشَجَرَةٍ خبيثة اجْتثتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ . يَبُتُّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم : ٢٤ - ٢٧] ، وقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ [وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا] ﴾ الآية [النحل : ٧٥] ثم قال : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ [هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ] ﴾ الآية [النحل : ٧٦] ، كما قال : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ الآية [الروم : ٢٨] ، وقال : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ الآية [الزمر : ٢٩] ، وقد قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾

[المعكبات: ٤٣] وفي القرآن أمثال كثيرة.

قال بعض السلف: إذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنُظْرِبَهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ قال قتادة: أى: يعلمون أنه كلام الرحمن، وأنه من عند الله. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾، كما قال في سورة المدثر: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيْمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مِرْضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]، وكذلك قال ههنا: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾.

قال ابن مسعود وغيره: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ يعنى: المنافقين، ﴿ويَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ يعنى: المؤمنين، فيزيد هؤلاء ضلالاً إلى ضلالهم لتكذيبهم بما علموه حقاً يقيناً، من المثل الذى ضربه الله لما ضربه له، وأنه لما ضربه له موافق، فذلك إضلال الله إياهم به ﴿ويَهْدِي بِهِ﴾ يعنى المثل، كثيراً من أهل الإيمان والتصديق، فيزيدهم هدى إلى هداهم وإيماناً إلى إيمانهم، لتصديقهم بما قد علموه حقاً يقيناً أنه موافق لما ضربه الله له مثلاً وإقرارهم به، وذلك هداية من الله لهم به (١) ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ قال قتادة: هم المنافقون، فسقوا، فأضلهم الله على فسقهم. والفاسق فى اللغة: هو الخارج عن الطاعة. وتقول العرب: فسقت الرطبة: إذا خرجت من قشرتها؛ ولهذا يقال للفاقة: فويسقة، لخروجها عن جحرها للفساد. وثبت فى الصحيحين، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم: الغراب، والحداة، والعقرب، والفارة، والكلب العقور».

فالفاسق يشمل الكافر والعاصى، ولكن فسق الكافر أشد وأفحش، والمراد من الآية الفاسق الكافر، والله أعلم، بدليل أنه وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

وهذه الصفات صفات الكفار المبينة لصفات المؤمنين، كما قال تعالى فى سورة الرعد: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَنْبَاءُ. الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَتَّقُونَ الْمِيثَاقَ. وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ الآيات، إلى أن قال: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩ - ٢٥].

وقد اختلف أهل التفسير فى معنى العهد الذى وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه، فقال بعضهم: هو وصية الله إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته فى كتبه، وعلى لسان رسله. ونقضهم ذلك وتركهم العمل به. وقال آخرون:

(١) هذا النص عن ابن مسعود وغيره، ثبت محرراً كثيراً فى المطبوعة، وقليلاً فى الأهرية، وصححه من الطبرى (٥٦٧).

بل هي في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم، وعهد الله الذي نقضوه: هو ما أخذه الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها واتباع محمد ﷺ إذا بعث والتصديق به، وبما جاء به من عند ربهم، ونقضهم ذلك: هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وإنكارهم ذلك، وكتمانهم علم ذلك عن الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبينه للناس ولا يكتُمونه، فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمناً قليلاً. وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله، وقول مقاتل بن حيان. وقال آخرون: بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق. وعهده إلى جميعهم في توحيد: ما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته، وعهده إليهم في أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثلها الشاهدة لهم على صدقهم، قالوا: ونقضهم ذلك: تركهم الإقرار بما ثبتت لهم صحته بالأدلة وتكذيبهم الرسل والكتب مع علمهم أن ما أتوا به حق، وهو حسن.

وقال آخرون: العهد الذي ذكره تعالى هو العهد الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم الذي وصف في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الآيتين: ١٧٢، ١٧٣] ونقضهم ذلك تركهم الوفاء به. حكى هذه الأقوال ابن جرير في تفسيره.

وقوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ قيل: المراد به صلة الأرحام والقربات، كما فسره قتادة كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطُّوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢] ورجحه ابن جرير. وقيل: المراد أعم من ذلك فكل ما أمر الله بوصله وفعله قطعه وتركوه. وقال مقاتل بن حيان في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ قال: في الآخرة، وهذا كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

وقال ابن جرير: الخاسرون: جمع خاسر، وهم الناقصون أنفسهم حظوظهم بمعصيتهم الله - من رحمته، كما يخسر الرجل المال في تجارته بأن يوضع من رأس المال في بيعه، وكذلك المنافق والكافر خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيامة أحوج ما كانوا إلى رحمته، يقال منه: خسر الرجل يخسر خسراً وخسراً وخساراً.

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

يقول تعالى محتجاً على وجوده وقدرته، وأنه الخالق المتصرف في عباده: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ أي: كيف تمجدون وجوده أو تعبدون معه غيره؟ ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ أي: قد كنتم عدماً فأخرجكم إلى الوجود، كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خُلِقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَلْ لَآ يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦]، وقال: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] والآيات في هذا كثيرة. وقال ابن عباس: ﴿كُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾: أمواتا في أصلاب آبائكم، لم تكونوا شيئاً حتى خلقكم، ثم يميتكم موتة الحق، ثم يحييكم حين يبعثكم.

قال: وهى مثل قوله: ﴿ رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ وهذا هو الصحيح ، وهو كقوله تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ يَخْتِمْكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجنائىة: ٢٦] .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

لما ذكر تعالى دلالة من خلقهم وما يشاهدونه فى أنفسهم، ذكر دليلا آخر مما يشاهدونه من خلق السموات والأرض، فقال: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ أى: قصد إلى السماء ، والاستواء ههنا مضمن معنى القصد والإقبال؛ لأنه عدى بالى ﴿ فَسَوَّاهُنَّ ﴾ أى: فخلق السماء سبعا. والسماء ههنا اسم جنس، فلهذا قال: ﴿ فَسَوَّاهُنَّ ﴾ . ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى: وعلمه محيط بجميع ما خلق. كما قال: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ [الملك: ١٤] وتفصيل هذه الآية فى سورة حم السجدة وهو قوله: ﴿ قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لِيُنظَرُوا . ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَاتَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فصلت: ٩ - ١٢] .

ففى هذا دلالة على أنه تعالى ابتداء بخلق الأرض أولا ، ثم خلق السموات سبعا ، وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله ثم أعاليه بعد ذلك . فأما قوله تعالى: ﴿ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم السَّمَاءِ بَنَاهَا . رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا . وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا . وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا . أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا . وَالْجِبَالِ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ [التارعات: ٢٧ - ٣٢] - فقد قيل: إن ﴿ ثُمَّ ﴾ ههنا إنما هى لعطف الخبر على الخبر، لا لعطف الفعل على الفعل .

وقد ذكر ابن أبى حاتم وابن مردويه فى تفسير هذه الآية الحديث الذى رواه مسلم والنسائى فى التفسير - أيضا - من رواية ابن جريج قال: أخبرنى إسماعيل بن أمية، عن أيوب بن خالد، عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة، عن أبى هريرة، قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة من آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل» .

وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم، وقد تكلم عليه على بن المدينى والبخارى وغير واحد من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب، وأن أبى هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحبار، وإنما اشتمبه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعا، وقد حرر ذلك البيهقى (١) .

(١) الحديث فى صحيح مسلم (٢/ ٣٤٠) من طريق ابن جريج ، وكذلك رواه البيهقى فى الأسماء والصفات، ص ٢٧٥، وتعليل البخارى إياه ثابت فى التاريخ الكبير (١/ ١١٣، ١٤) فى ترجمة أيوب بن خالد ، حيث أشار إلى الحديث ، ثم قال : « وقال بعضهم: عن أبى هريرة عن كعب ، وهو أصح » . وأعله البيهقى بعد =

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٣٠﴾

يخبر تعالى بامتثانه على بنى آدم، بتنويهه بذكرهم فى الملائكة الأعلى قبل إيجادهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ أى: واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة، واقصص على قومك ذلك. حكى ابن جرير عن بعض أهل العربية - وهو أبو عبيدة - أنه زعم أن «إذ» ههنا زائدة، وأن تقدير الكلام: وقال ربك. ورده ابن جرير. قال القرطبي: وكذا رده جميع المفسرين حتى قال الزجاج: هذا اجترأ من أبى عبيدة.

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ أى: قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل، كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وقال: ﴿ وَيَجْعَلْكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ [النمل: ٦٢]. وقال: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجْعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةَ فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٠]. وقال: ﴿ نَخْلَفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ [مریم: ٥٩]. وليس المراد ههنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط، إذ لو كان كذلك لما حسن قول الملائكة: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ فإنهم إنما أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، وكانهم علموا ذلك بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية فإن الله أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمإ مسنون، أو أنهم قاسوهم على من سبق، كما سنذكر أقوال المفسرين فى ذلك.

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبنى آدم، كما قد يتوهمه بعض المفسرين، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة فى ذلك، يقولون: يا ربنا، ما الحكمة فى خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد فى الأرض ويسفك الدماء؟ فإن كان المراد عبادتك، فنحن ﴿ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾، أى: نصلى لك كما سيأتى، أى: ولا يصدر منا شئ من ذلك، وهلا وقع الاقتصار علينا؟ قال الله تعالى مجيبا لهم عن هذا السؤال: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى: إني أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هذا الصنف - على المفسد التى ذكرتموها - ما لا تعلمون أنتم؛ فإني سأجعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد فيهم الصديقون والشهداء، والصالحون والعباد، والزهاد والأولياء، والأبرار والمقربون، والعلماء

= روايته، فقال: « وزعم بعض أهل العلم بالحديث أنه غير محفوظ، لمخالفته ما عليه أهل التفسير وأهل التواريخ. وزعم بعضهم أن إسماعيل بن أمية إنما أخذه عن إبراهيم بن أبى يحيى عن أيوب بن خالد، وإبراهيم غير محتج به ». ثم روى بإسناده: أن محمد بن يحيى سأل على بن المدينى عن هذا الحديث؟ فقال: « ما أرى إسماعيل بن أمية أخذ هذا إلا من إبراهيم بن أبى يحيى ». ثم قال البيهقى: « وقد تابعه على ذلك موسى بن عبيدة الربذى، عن أيوب بن خالد، إلا أن موسى بن عبيدة ضعيف، وروى عن بكر بن الشروذ، عن إبراهيم بن أبى يحيى، عن صفوان بن سليم، عن أيوب بن خالد. وإسناده ضعيف ». أقول: و « بكر بن الشروذ » قال فيه ابن معين: « ليس بثقة » - كما فى الكبير للبخارى (١/٢٠٩). والحديث سيذكره المؤلف الحافظ مرة أخرى، مع تعليقه، فى تفسير الآيات: (٩ - ١٢) من سورة فصلت، وسنشير إليه هناك، إن شاء الله.

العاملون والخاشعون، والمحيون له تبارك وتعالى المتبعون رسله، صلوات الله وسلامه عليهم. قال ابن جرير: وإنما معنى الخلافة التي ذكرها الله إنما هي خلافة قرن منهم قرنا . قال: والخليفة الفعيلة من قولك : خلف فلان فلانا في هذا الأمر: إذا قام مقامه فيه بعده، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]. ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم : خليفة ؛ لأنه خلف الذى كان قبله ، فقام بالأمر مقامه ، فكان منه خلفاً .

﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال ابن جرير: التقديس: هو التعظيم والتطهير، ومنه قولهم: سُبُوحٌ قُدُوسٌ، يعنى بقولهم: «سُبُوح»، تنزيه له، وبقولهم: «قُدُوسٌ»، طهارة وتعظيم له. ولذلك قيل للأرض: أرض مقدسة، يعنى بذلك المطهرة. فمعنى قول الملائكة إذا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، نزهك ونبرتك مما يضيفه إليك أهل الشرك بك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ : ننسبك إلى ما هو من صفاتك ، من الطهارة من الأذناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك .

﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ قال قتادة: فكان فى علم الله أنه سيكون فى تلك الخليقة أنبياء ورسول وقوم صالحون وساكنو الجنة .

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿١١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿١٣﴾

هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة، بما اختصه به من علم أسماء كل شىء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له. وإنما قدم هذا الفصل على ذاك، لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة، حين سألوا عن ذلك، فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون؛ ولهذا ذكر تعالى هذا المقام عقيب هذا ليعين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم فى العلم (١) ، فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾. قال ابن عباس: هى هذه الأسماء التى يتعارف

(١) آيات القرآن الصريحة المتكاثرة ، والأحاديث الصحيحة المتواترة ، كلها قاطعة الدلالة على أن الله خلق آدم على صورته وهيبته التى توارثها عنه أبناؤه إلى اليوم ، والتى يتوارثها من سيكون من نسله إلى قيام الساعة . أدلة صحيحة صريحة ، لا تحتمل تأويلا ، ولا تقبل جدلا فى دلالتها ، بما تدل به الألفاظ على المعانى . فمن عجب أن يأتى بعد ذلك من ينتسبون إلى الإسلام ، ويسمون بأسماء المسلمين ، فيقبلوا نظرية التطور الإفرنجية ، التى يقول دروين وأتباعه وأشباهه ، يقبلونها ويسلمون بها ويؤمنون ، إيمانهم بالقطعى من الدين ، بل أشد وأوثق . ثم يتأولون الدلائل القطعية الثبوت والدلالة ، من الكتاب والسنة ، فيحرفونها عن مواضعها ، كما فعل اليهود فى دينهم من قبل . ثم لا يستحون أن ينكروا الأحاديث المتواترة المعنى فى ذلك . ثم يدور كلامهم وأدبهم وعلومهم على حساب هذه النظرية التى لم تثبت قط ، والتى لا تقوم أمام النقد، والتى تنهات تهاافتا شديدا . ثم يزعمون بعد ذلك أنهم مسلمون ، ويسمون أنفسهم علماء وهم مقلدون!! تعالى الله عما يفترون .

بها الناس: إنسان، ودابة، وسماء، وأرض، وسهل، وبحر، وجمل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها . وقال مجاهد نحو ذلك . وكذلك روى عن سعيد بن جبير وقتادة وغيرهم من السلف: أنه علمه أسماء كل شيء . واختار ابن جرير أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية؛ لأنه قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ وهذا عبارة عما يعقل . وهذا الذى رجح به ليس بلازم، فإنه لا ينفى أن يدخل معهم غيرهم، ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب . كما قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥]. والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها: ذواتها وصفاتها وأفعالها؛ ولهذا روى البخارى فى تفسير هذه الآية فى كتاب التفسير من صحيحه عن أنس ، عن النبى ﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا؟ فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقتك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا .»

[وساق المؤلف الحديث بطوله . وذكر أنه رواه أيضا مسلم والنسائى وابن ماجه . ثم قال] :
 ووجه إيراده ههنا والمقصود منه قوله ﷺ: «فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس خلقتك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء»، فدل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ يعنى: المسميات ﴿فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنى لم أخلق خلقاً إلا كنتم أعلم منه، فأخبرونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . وقال ابن جرير: ومعنى ذلك: فقال: أنبئونى بأسماء من عَرَضْتَهُ عَلَيْكُمْ أيها الملائكة القائلون: أتجعل فى الأرض من يفسد فيها ويسفك الدماء، من غيرنا أم منا، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ إن كنتم صادقين فى قيلكم: أنى إن جعلتُ خليفتى فى الأرض من غيركم عصانى ذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء، وإن جعلتكم فيها أطعمتمونى واتبعتم أمرى بالتعظيم لى والتقديس، فإذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم، فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التى لم توجد أخرى أن تكونوا غير عالمين .

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ : هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء ، وأن يعلموا شيئاً إلا ما علمهم الله تعالى؛ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ أى: العليم بكل شيء، الحكيم فى خلقك وأمرك وفى تعليمك من تشاء ومنعك من تشاء، لك الحكمة فى ذلك، والعدل التام . روى ابن أبى حاتم: عن ابن عباس: « سبحان الله»، قال: تنزيه الله نفسه عن سوء . ثم قال عمر لعلى وأصحابه عنده: لا إله إلا الله، قد عرفناه ، فما « سبحان الله؟ » فقال له على: كلمة أحبها الله لنفسه، ورضيها، وأحب أن تقال .

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ : قال مجاهد : اسم الحمامة، والغراب، واسم كل شيء . وروى عن سعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، نحو ذلك . فلما ظهر

فضل آدم، عليه السلام، على الملائكة، عليهم السلام، في سرده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء، قال الله تعالى للملائكة: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ أى: ألم أتقدم إليكم أنى أعلم الغيب الظاهر والخفى، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧]، وكما قال تعالى إخباراً عن الهدهد أنه قال لسليمان: ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [النمل: ٢٥، ٢٦].

وقال ابن جرير: معنى قوله تعالى: ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ﴾ : وأعلم - مع علمى غيب السموات والأرض - ما تظهرونه بالستكم ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ وما كنتم تخفونه فى أنفسكم، فلا يخفى على شىء، سواء عندى سرائركم، وعلايتكم. والذي أظهره بالستهم قولهم: ﴿ أَنْجَعَلُ فِيهَا مَنْ يَفْسُدُ فِيهَا ﴾ ، والذي كانوا يكتُمونه ما كان عليه منظوياً إبليس من الخلاف على الله فى أمره، والتكبر عن طاعته. قال: وصح ذلك كما تقول العرب: قُتِلَ الْجَيْشُ وَهُزِمُوا، وإنما قتل الواحد أو البعض، وهزم الواحد أو البعض، فيخرج الخبر عن المهزوم منه والمقتول مخرج الخبر عن جميعهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ ﴾ [الحجرات: ٤] ذكر أن الذى نادى إنما كان واحداً من بنى تميم، قال: وكذلك قوله: ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته، حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم. وقد دل على ذلك - أيضاً - أحاديث كثيرة، منها حديث الشفاعة المتقدم، وحديث موسى عليه السلام: «رَبُّ، أرني آدم الذى أخرجنا ونفسه من الجنة»، فلما اجتمع به قال: «أنت آدم الذى خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته». وذكر الحديث كما سيأتى إن شاء الله.

والغرض أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم دخل إبليس فى خطابهم؛ لأنه - وإن لم يكن من عنصرتهم - إلا أنه كان قد تشبه بهم وتوسم بأفعالهم؛ فلهدا دخل فى الخطاب لهم، وذم فى مخالفة الأمر. وسنيسط المسألة إن - شاء الله تعالى - عند قوله: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [الكهف: ٥٠]. وقال قتادة فى قوله: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ : فكانت الطاعة لله، والسجدة لآدم، أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته. وقال بعض الناس: كان هذا سجود تحية وسلام وإكرام، كما قال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجُودًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رَأْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا ﴾ [يوسف: ١٠٠] وقد كان هذا مشروعاً فى الأمم الماضية ولكنه نسخ فى ملتنا.

وقال قتادة فى قوله تعالى: ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ : حسد عدو الله إبليس آدم عليه السلام على ما أعطاه الله من الكرامة، وقال: أنا نارى وهذا طينى. وكان

بدء الذنوب الكبير، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم عليه السلام .

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾ فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول الله تعالى إخبارا عما أكرم به آدم، بعد أن أمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا إلا إبليس: إنه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء، ويأكل منها ما شاء ﴿ رَغَدًا ﴾ أى: هنيئاً واسعاً طيباً. وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه، عن أبي ذر، قال: قلت: يا رسول الله؛ أريت آدم، أنبيأ كان؟ قال: «نعم، نبيا رسولا، كلمه الله قبلا، فقال: ﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾» (١). وقد اختلف في الجنة التي أسكنها آدم: أهي في السماء أم في الأرض؟ فالأكثر على الأول، وسيأتي تقرير ذلك في سورة الأعراف، إن شاء الله تعالى، وسياق الآية يقتضى أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة. ويقال: إن خلق حواء كان بعد دخوله الجنة.

وأما قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ فهو اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم. وقد اختلف في هذه الشجرة: ما هي؟ [وذكر المؤلف الحافظ هنا الأقوال في ذلك. ثم قال:] قال الإمام العلامة أبو جعفر ابن جرير، رحمه الله: والصواب في ذلك أن يقال: إن الله عز وجل ثاؤه، نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة، دون سائر أشجارها، فأكلا منها، ولا علم

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٥١/١) ونسبه للطبراني وأبي الشيخ في العظمة وابن مردويه. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٨/٨)، وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، وأحمد بنحوه في حديث طويل، وفيه المسعودي، وقد اختلط». والظاهر أن لفظ الطبراني مثل لفظ ابن مردويه الذي هنا. ولم يكشف لنا الهيثمي عن إسناده. أما رواية أحمد، فذاك حديث آخر طويل، في المسند (١٧٨/٥، ١٧٩ حلي)، عن أبي ذر. وفيه: «قلت: يا رسول الله، أى الأنبياء كان أول؟ قال: آدم، قلت: ونبي وكان؟ قال: نعم، نبي مكرم...». وهذا المطول ذكره الهيثمي في الزوائد (١٥٩/١، ١٦٠، و ٢١٠/٨)، ونسبه لأحمد، وأعله باختلاط المسعودي.. وهذا تعليل غير جيد، فإن أحمد رواه أولا عن وكيع عن المسعودي، ثم رواه ثانياً عن يزيد بن هارون عن المسعودي. والمسعودي: ثقة، ولكنه تغير قبل موته بسنة أو ستين. وقد صرح أحمد - كما في التهذيب - بأن سماع وكيع منه قديم، يعنى قبل تغيره.

وهذا المعنى - سؤال أبي ذر عن آدم - رواه أيضاً أحمد في المسند (٢٦٥/٥، ٢٦٦ حلي) من حديث أبي أمامة الباهلي، مطولاً. وفي إسناده على بن يزيد الألهماني، وهو ضعيف. ولكن رواه الحاكم (٢٦٢/٢) مختصراً، عن أبي أمامة: «أن رجلاً قال: يا رسول الله، أنبي كان آدم؟ قال: نعم، معلم مكرم...». وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وهو كما قالا.

وقوله في الحديث - هنا - «قبلا» هو بكسر القاف وفتح الباء، ويجوز فتحهما وضمهما، أى: «عياناً ومقابلة»، لا من وراء حجاب، ومن غير أن يولى أمره أو كلامه أحداً من ملائكته، كما قال ابن الأثير. وسيذكر الحافظ ابن كثير بعض هذه الروايات وغيرها، فيما سيأتى في تفسير الآية: (١٦٣) من سورة النساء. ولعلنا نشير لذلك هناك، إن شاء الله.

عندنا بأى شجرة كانت على التعيين؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك فى القرآن ولا من السنة الصحيحة. وقد قيل: كانت شجرة البر، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل: كانت شجرة التين. وجائز أن تكون واحدة منها، وذلك علم، إذا علم لم ينفع العالم به علمه، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾: يصح أن يكون الضمير فى قوله: ﴿ عَنْهَا ﴾ عائداً إلى الجنة، فيكون معنى الكلام كما قال عاصم بن بهدلة، وهو ابن أبى النجود: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ﴾، أى: فنحاهما. ويصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورين، وهو الشجرة، فيكون معنى الكلام كما قال الحسن وقتادة ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ﴾ أى: من قبيل الزلل، فعلى هذا يكون تقدير الكلام ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾ أى: بسببها، كما قال: ﴿ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ الْفَلَاحِ ﴾ [الذاريات: ٩] أى: يصرف بسببه من هو مأفوك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ أى: من اللباس والمنزل الرحب والرزق الهنىء والراحة.

﴿ وَقَلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أى: قرار وأرزاق وأجال إلى حِينٍ: أى: إلى وقت مؤقت ومقدار معين، ثم تقوم القيامة.

وعن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها» رواه مسلم والنسائى (١).

وقال فخر الدين: اعلم أن فى هذه الآيات تهديداً عظيماً عن كل المعاصى من وجوه: الأول: أن من تصور ما جرى على آدم بسبب إقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وجل شديد من المعاصى،

﴿ فَلَقْنِيَّ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

قيل: إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الاعراف: ٢٣]. وعن ابن عباس: ﴿ فَلَقْنِيَّ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾، قال: أى يارب، ألم تخلقنى بيدك؟ قال: بلى. قال: أى رب، ألم تنفخ فى من روحك؟ قال: بلى. قال: أرايت إن تبت وأصلحت أراجعى أنت إلى الجنة؟ قال: بلى. ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه (٢).

(١) وقد دأب الكتاب والأدباء فى عصرنا هذا على فرية أن آدم عليه السلام خدعته حواء حتى أكل من الشجرة!! يصطنعون قول الكاذبين المقتربين من أهل الكتاب، بما حرفوا وكذبوا. ثم اجترؤوا واجترأت الصحف الماجنة والمجلات الداعرة، على السخرية بآدم وحواء، وتصويرهما فى صور قبيحة منكرة، جرة منهم على الدين، واستهزاء بأول النبيين. وما كان لمسلم أن يفعل هذا أو يقوله. أعاذنا الله مما يقولون ويصنعون.

(٢) هذا الحديث ذكره ابن كثير من رواية ضعيفة، من روايات السدى بنحو هذا، ثم نسبته للحاكم، فحررت لفظه من رواية الحاكم فى المستدرک (٢/ ٥٤٥) بشيء من الاختصار، وقد وافقه الذهبى على تصحيحه.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴾ أى : إنه يتوب على من تاب إليه وأتاب ، كقوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقوله: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠]، وقوله: ﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ [الفرقان: ٧١]، وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب ويتوب على من يتوب، وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبيده، لا إله إلا هو التواب الرحيم.

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى مخبراً عما أُنذر به آدم وزوجته وإبليس حين أهبطهم من الجنة، والمراد الذرية: أنه سينزل الكتب، ويبعث الأنبياء والرسول . ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ ﴾ أى : من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أى: فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا، كما قال فى سورة طه: ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه: ١٢٣] قال ابن عباس: فلا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة . ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه: ١٢٤] كما قال ههنا: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أى: مخلدون فيها ، لا محيد لهم عنها ، ولا محيص . وقد روى ابن جرير عن أبى سعيد - واسمه سعد بن مالك بن سنان الخدرى - قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، لكن أقواماً أصابهم النار بخطاياهم، أو بذنوبهم فأماتهم إمامته، حتى إذا صاروا فحماً أذن فى الشفاعة». ورواه مسلم (١).

﴿ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِئْتِي قَارِهُونَ ﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا

بِعَابَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِئْتِي قَاتِفُونَ ﴿٤١﴾

يقول تعالى أمرا بنى إسرائيل بالدخول فى الإسلام، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام، ومهيباً لهم بذكر أبيهم إسرائيل، وهو نبي الله يعقوب عليه السلام وتقديره: يا بنى العبد الصالح المطيع لله كونوا مثل أبيكم فى متابعة الحق، كما تقول: يا بنى الكريم، افعلى كذا. يابن الشجاع، بارز الأبطال. يابن العالم ، اطلب العلم ونحو ذلك. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةٌ مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣] فأسرائيل هو يعقوب، بدليل ما رواه أبو داود الطيالسى: عن عبد الله بن عباس قال: حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ، فقال لهم:

(١) هذا لفظ الطبرى (٧٩٧) . وهو فى صحيح مسلم (٦٧/١، ٦٨) باطل من هذا ، وفضلنا تخريجه فى الطبرى.

«هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب؟». قالوا: اللهم نعم. فقال النبي ﷺ: «اللهم اشهد».

وقوله تعالى: ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ : قال مجاهد : نعمة الله التي أنعم بها عليهم فيما سمى وفيما سوى ذلك ؛ فَجَزَّ لهم الحجر ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، ونجاهم من عبودية آل فرعون . وقال أبو العالية: نعمته : أن جعل منهم الأنبياء والرسل ، وأنزل عليهم الكتب . قلت: وهذا كقول موسى ، عليه السلام ، لهم : ﴿ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٠] يعنى فى زمانهم .

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قال ابن عباس: بعهدى الذى أخذت فى أعناقكم للنبي محمد ﷺ إذا جاءكم - أنجز لكم ما وعدتكم عليه بتصديقه واتباعه ، بوضع ما كان عليكم من الإصر والأغلال التى كانت فى أعناقكم بذنوبكم التى كانت من أحداثكم . وقال أبو العالية: عهده إلى عباده: دينه الإسلام وأن يتبعوه . وقوله تعالى: ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون ﴾ أى: فاحشون . وقال ابن عباس : أى أنزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النِّعَمَاتِ التى قد عرفتم من المسخ وغيره . وهذا انتقال من التَّغْيِيبِ إلى التَّهْيِيبِ ، فدعاهم إليه بالرغبة والرهبة ، لعلهم يرجعون إلى الحق واتباع الرسول والانتعاض بالقرآن وزواجه ، وامتنال أوامره ، وتصديق أخباره ، والله يهدى من يشاء إلى صراطه المستقيم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَأَمِينُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ﴾ ﴿مُصَدِّقًا﴾ يعنى به: القرآن الذى أنزله على محمد النبي الأُمى العربى بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً مشتملاً على الحق من الله تعالى ، مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل .

وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوْلَىٰ كَافِرِيهِ ﴾ . قال ابن عباس: ولا تكونوا أول كافر به وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم . وقال أبو العالية: يقول: ولا تكونوا أول من كفر بمحمد ﷺ . وكذا قال الحسن، والسدى، والربيع بن أنس. واختار ابن جرير أن الضمير فى قوله: ﴿ بِهِ ﴾ عائد على القرآن، الذى تقدم ذكره فى قوله: ﴿ بِمَا أَنْزَلْتُ ﴾ . وكلا القولين صحيح؛ لأنهما متلازمان، لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ﷺ، ومن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالقرآن .

وأما قوله: ﴿ أَوْلَىٰ كَافِرِيهِ ﴾ فيعنى به أول من كفر به من بنى إسرائيل؛ لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير، وإنما المراد: أول من كفر به من بنى إسرائيل مباشرة، فإن يهود المدينة أول بنى إسرائيل خوطبوا بالقرآن، فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم .

وقوله: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ يقول: لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتى وتصديق رسولى بالدنيا وشهواتها، فإنها قليلة فانية . وقوله: ﴿ وَإِيَّايَ فَاتَّقُون ﴾ : روى ابن أبى حاتم: عن طلق ابن حبيب، قال: التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله، والتقوى أن تترك معصية الله مخافة عذاب الله على نور من الله (١) . ومعنى قوله: ﴿ وَإِيَّايَ فَاتَّقُون ﴾ : أنه

(١) طلق بن حبيب العنزى : تابعى ثقة ، كان من أعبد أهل زمانه . مترجم فى التهذيب ، وترجمه أبو نعيم فى الحلية (٣/٦٣-٦٦) وروى معنى قوله هذا ، نحوه .

تعالى يتوعدهم فيما يعتمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه، ومخالفتهم الرسول، صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى - ناهياً لليهود عما كانوا يعتمدونه، من تلبيس الحق بالباطل، وتمويهه به، وكتمانهم الحق وإظهارهم الباطل: ﴿ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾؛ فنهاهم عن الشيئين معاً، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به؛ ولهذا قال ابن عباس: تخلطوا . وقال: ﴿ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى: لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولى وبما جاء به، وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم فيما تعلمون من الكتب التى بأيديكم . قلت: ﴿ وَتَكْتُمُوا ﴾ يحتمل أن يكون مجزوماً، ويجوز أن يكون منصوباً، أى: لا تجمعوا بين هذا وهذا كما يقال: لا تأكل السمك وتشرب اللبن .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ قال مقاتل: أمرهم أن يصلوا مع النبى ﷺ ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾: أمرهم أن يؤتوا الزكاة، أى: يدفعوها إلى النبى ﷺ . يقول: كونوا منهم ومعهم . وقوله تعالى: ﴿ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ أى: وكونوا مع المؤمنين فى أحسن أعمالهم، ومن أخص ذلك وأكمله الصلاة . وقد استدلل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة، وأبسط ذلك فى كتاب « الأحكام الكبير » إن شاء الله .

﴿ أَمَّا مَرُونَ النَّاسِ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٤٤﴾ ربيع

يقول تعالى: كَيْفَ يَتَّبِعُ بِحُكْمٍ - يا معشر أهل الكتاب، وأنتم تأمرون الناس بالبر، وهو جماع الخير - أن تنسوا أنفسكم، فلا تأمروا بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب، وتعلمون ما فيه على من قصر فى أوامر الله؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم؛ فتنبهُوا من رقدتكم، وتبصروا من عميبتكم، وعن فتادة فى قوله تعالى: ﴿ أَمَّا مَرُونَ النَّاسِ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ قال: كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه، وبالبر، ويخالفون، فعبرهم الله، عز وجل بذلك، فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة . وقال ابن عباس: ﴿ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى: تتركون أنفسكم ﴿ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أى: تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهد من التوراة، وتتركون أنفسكم، أى: وأنتم تكفرون بما فيها من عهدى إليكم فى تصديق رسولى، وتنقضون ميثاقى، وتجددون ما تعلمون من كتابى . وروى الطبرى عن أبى الدرداء قال: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس فى ذات الله، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً (١) .

(١) الطبرى رقم (٨٤٦) ، ورواه البيهقى فى الأسماء والصفات ، ص ٢١٠ ، وتخريجه فصلناه فى الطبرى .

والغرض: أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له، فإن الأمر بالمعروف معروف وهو واجب على العالم، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به، ولا يتخلف عنهم، كما قال شعيب، عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتِطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]. فكلُّ من الأمر بالمعروف وفعله واجب، ولا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولى العلماء من السلف والخلف. وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصى لا ينهى غيره عنها، وهذا ضعيف، وأضعف منه تمسكهم بهذه الآية؛ فإنه لا حجة لهم فيها. والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف، وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه. ولكنه - والحالة هذه - مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية، لعلمه بها ومخالفته على بصيرة، فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم؛ ولهذا جاءت الأحاديث فى الوعيد على ذلك، فروى الطبرانى فى الكبير: عن جندب بن عبد الله رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل العالم الذى يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضىء للناس ويحرق نفسه». هذا حديث غريب من هذا الوجه (١).

وروى أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أسرى بى على قوم تقرض شفاههم بمقاريضق من نار. قال: قلت: من هؤلاء؟ قالوا: خطباء أمتك من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون؟». ورواه عبد بن حميد فى مسنده، وتفسيره، وابن مردويه (٢). وروى الإمام أحمد: عن أبى وائل، قال: قيل لأسامة - وأنا رديفه - : ألا تكلم عثمان؟ فقال: إنكم تُرون أنى لا أكلمه إلا أسمعكم. إنى لا أكلمه فيما بينى وبينه ما دون أن أفتح أمراً - لا أحب أن أكون أول من افتتحه، والله لا أقول لرجل: إنك خير الناس. وإن كان على أميراً - بعد أن سمعت رسول الله ﷺ يقول، قالوا: وما سمعته يقول؟ قال: سمعته يقول: «يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى فى النار، فتندلق به أقتابه، فيدور بها فى النار كما يدور الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار، فيقولون: يا فلان ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتية، وأنهاكم عن المنكر وآتية». ورواه البخارى ومسلم (٣).

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَطُئُونَ أَنفُسَهُمْ ﴿٤٦﴾ مَلَفُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَجِعُونَ ﴿٤٦﴾

(١) هو جزء من حديث ذكره الهيثمى فى الزوائد (١/ ١٨٤، ١٨٥) وقال: «رواه الطبرانى فى الكبير، ورجال موثقون»، ثم ذكره نحوه (٦/ ٢٣١، ٢٣٢) من رواية الطبرانى، من وجهين آخرين فيما مقال .
 (٢) مسند أحمد (١٢٢٣٧) (٣/ ١٢٠ حلى) وبنحوه رواه ابن حبان فى صحيحه، رقم (٥٢) بتحقيقنا، وفصلنا تخريجه هناك.
 (٣) هو فى المسند (٥/ ٢٠٥ حلى).

يقول تعالى أمراً عبده، فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة، بالاستعانة بالصبر والصلاة، كما قال مقاتل بن حيان في تفسير هذه الآية: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض، والصلاة.

فأما الصبر فقيل: إنه الصيام، نص عليه مجاهد، وعن جرير بن كليب، عن رجل من بنى سليم، عن النبي ﷺ، قال: «الصوم نصف الصبر» (١).

وقيل: المراد بالصبر الكف عن المعاصي؛ ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعمالها: فعل الصلاة. وروى ابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن، وأحسن منه الصبر عن محارم الله (٢).

وأما قوله: «وَالصَّلَاةُ»: فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر، كما قال تعالى: «اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ» الآية [العنكبوت: ٤٥].

وروى أحمد عن حذيفة بن اليمان: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى. ورواه أبو داود، وقد رواه ابن جرير بلفظ كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة (٣).

وروى محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة عن حذيفة قال: رجعت إلى النبي ﷺ، ليلة الأحزاب وهو مشتمل في شملة يصلى، وكان إذا حزبه أمر صلى، وعن علي قال: لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله ﷺ يصلى ويدعو حتى أصبح (٤).

وروى ابن جرير: أن ابن عباس نعى إليه أخوه قثم وهو في سفر، فاسترجع، ثم تنحى عن الطريق، فأناخ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشى إلى راحلته وهو يقول: «وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ» (٥).

وقال سنيد، عن حجاج، عن ابن جرير: «وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ» قال: إنهما معونتان على رحمة الله.

(١) لم يخرجها المؤلف الحافظ، وقد رواه أحمد فى المسند (٤/ ١٠٠، ٣٦٣/٥، ٣٧٠، ٣٧٢ حلى). ورواه الدارمى (١/ ١٦٧) والترمذى (٤/ ٢٦٥) وقال «حديث حسن».

وجرى - بضم الجيم وفتح الراء وتشديد الياء - بن ليب السدوسى البصرى: تابعى ثقة، مترجم فى التهذيب، والكبير للبخارى (١/ ٢ / ٢٤٢، ٢٤٣).

(٢) رجاله ثقات، ولكن فيه انقطاع بين إسحاق بن سليمان وأبى سنان، وهو يزيد بن أمية الدؤلى، أحد كبار التابعين.

(٣) الحديث باللقظين رواه الطبرى (٨٤٩، ٨٥٠). وفصلنا تخريجه هناك. ورواية أحمد هى فى المسند (٥/ ٣٨٨ حلى)، ورواية أبى داود هى فى السنن (١٣١٩).

(٤) هذا الحديث والذي قبله ليسا فى مخطوطة الأزهر. وإسنادهما صحيح.

(٥) هو فى الطبرى (٨٥٢) وإسناده صحيح.

والضمير فى قوله: ﴿ وَإِنَّهَا ﴾ عائد إلى الصلاة، نص عليه مجاهد، واختاره ابن جرير. ويحتمل أن يكون عائدا على ما دل عليه الكلام، وهو الوصية بذلك، كقوله تعالى فى قصة قارون: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ [القصص: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥] أى: وما يلقى هذه الوصية إلا الذين صبروا ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا ﴾ أى: يؤتاها ويلهما ﴿ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾.

وعلى كل تقدير، فقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ أى: مشقة ثقيلة ﴿ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ أى: الخاضعين لطاعته، الخائفين سَطَوَاتِهِ، المصدقين بوعده ووعيده. وهذا يشبه ما جاء فى الحديث: «لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه». وقال ابن جرير: معنى الآية: واستعينوا - أيها الأبحار من أهل الكتاب - بحبس أنفسكم على طاعة الله وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر، المقربة من مَرْضَى الله، العظيمة إقامتها إلا على المتواضعين لله المستكينين لطاعته، المتذللين من مخافته. هكذا قال، والظاهر أن الآية وإن كانت خطاباً فى سياق إنذار بنى إسرائيل - فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص، وإنما هى عامة لهم، ولغيرهم. والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ : هذا من تمام الكلام الذى قبله، أى: وإن الصلاة أو الوصاة لثقيلة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم، أى: محشورون إليه يوم القيامة، معروضون عليه، وأنهم إليه راجعون، أى: أمورهم راجعة إلى مشيئته، يحكم فيها ما يشاء بعدله، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهّل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات. فأما قوله: ﴿ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ فقال ابن جرير: العرب قد تسمى اليقين ظناً، والشك ظناً، نظير تسميتهم الظلمة سُدْفَةً، والضياء سُدْفَةً، والمغيث صارخاً، والمستغيث صارخاً، وما أشبه ذلك من الأسماء التى يسمى بها الشئ وضده. قال: والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن الظن فى معنى اليقين، أكثر من أن تحصر، ومنه قول الله تعالى: ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ [الكهف: ٥٣]. وروى ابن جرير عن مجاهد، قال: كل ظن فى القرآن يقين، أى: ظننت وظنونا. وروى عنه أيضاً قال: كل ظن فى القرآن فهو علم. وسنده صحيح.

وفى الصحيح: «أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أزوجك، ألم أكرمك، ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأدرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. فيقول الله تعالى: أظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول الله: اليوم أنساك كما نسيتنى». وسيأتى مبسوطاً عند قوله: ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٧] إن شاء الله تعالى (١).

(١) لم يذكر المؤلف الحافظ شيئاً من ذلك عند تلك الآية، والحديث جزء من حديث طويل فى صحيح مسلم (٣٨٦/٢) عن أبى هريرة، ورواه أحمد مختصراً (١٠٣٨٣) (١٠٣٨٣/٢) (٤٩٢/٢) (حلبى).

﴿ يَبْقَىٰ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نَعْمَىٰ آلِي أَنْعَمْتَ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٤٧﴾

يذكرهم تعالى سألهم نعمه على آباؤهم وأسلافهم، وما كان فضلهم به من إرسال الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم. وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاكُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢١]، وقال تعالى: ﴿وَأَذَّابُنَا لِقَوْمٍ إِذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلْنَا فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلْنَاكُمْ مَلَكُوتًا وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠] قال أبو العالية، في قوله تعالى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ قال: بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك الزمان؛ فإن لكل زمان عالماً. ورؤى عن مجاهد، وقتادة، نحو ذلك. ويجب الحمل على هذا؛ لأن هذه الأمة أفضل منهم، لقوله تعالى خطاباً لهذه الأمة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وفي المساند والسنن عن معاوية بن حيدة القشيري، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله» (١). والأحاديث في هذا كثيرة تذكر عند قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ﴿٤٨﴾

لما ذكرهم تعالى بنعمه أولاً، عطف على ذلك التحذير من حلول نقمه بهم يوم القيامة فقال: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا﴾ يعني: يوم القيامة ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أى: لا يغني أحد عن أحد كما قال: ﴿وَلَا تَوْرٍ وَآزِرَةً وَزَّرَ آخِرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقال: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عيس: ٣٧]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَالدِّهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣] فهذه أبلغ المقامات: أن كلا من الوالد وولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيئاً، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ يعني عن الكافرين، كما قال: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وكما قال عن أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِنَ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]، وقوله: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أى: لا يقبل منها فداء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ قَلْبًا يُقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ اقْتَدَىٰ بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١]. وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ٧٠]، وقال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا | مَاؤَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ الآية [الحديد: ١٥]؛ فأخبر تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به، ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه، فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذى جاه، ولا يقبل منهم فداء، ولو

(١) رواه بنحوه الترمذى (٨٢/٤، ٨٣) والحاكم (٨٤/٤) والطبرى - وخرجهنا مفصلاً هناك (٨٧٣، ٧٦٢١، ٧٦٢٢).

عِلءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَهُ يَوْمَ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال: ﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾ [إبراهيم: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ أى: ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله، كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه ولا يقبل منهم فداء. هذا كله من جانب التلطف، ولا لهم ناصر من أنفسهم، ولا من غيرهم، كما قال: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠] أى: إنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة، ولا ينقذ أحدا من عذابه منقذ، ولا يجيره منه أحد، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]. وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ. وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦]، وقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْصُرُونَ. بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَلْمُونَ﴾ [الصفات: ٢٥، ٢٦]، وقال: ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ الآية [الاحقاف: ٢٨]. قال ابن جرير: وتأويل قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ يعنى: أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر، كما لا يشفع لهم شافع، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية. بطلت هنالك المحاباة واضمحلت الرشى والشفاعات، وارتفع من القوم التعاون والتناصر، وصار الحكم إلى عدل الجبار الذى لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء، فيجزى بالسيئة مثلها وبالחסنة أضعافها وذلك نظير قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَهُمْ إِنَّهُمْ مُسْتَوْلُونَ. مَا لَكُمْ لَا تَنْصُرُونَ. بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَلْمُونَ﴾ [الصفات: ٢٤ - ٢٦].

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى : واذكروا يا بنى إسرائيل نعمتى عليكم ﴿إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أى : خلصتكم منهم وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى عليه السلام وقد كانوا يسومونكم، أى: يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب. وذلك أن فرعون - لعنه الله - كان قد رأى رؤيا هالته، رأى ناراً خرجت من بيت المقدس فدخلت دور القبط ببلاد مصر، إلا بيوت بنى إسرائيل، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بنى إسرائيل، ويقال: بل تحدث سماره عنده بأن بنى إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم، يكون لهم به دولة ورفعة، وهكذا جاء فى حديث الفتون، كما سيأتى فى موضعه فى سورة طه، إن شاء الله (١). فعند ذلك أمر فرعون - لعنه الله - بقتل

(١) حديث الفتون قصة طويلة فى شأن موسى وفرعون وبنى إسرائيل، رواه النسائي فى السنن الكبرى، والطبرى وابن أبى حاتم وساقه المؤلف الحافظ بطوله، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَفَسَّخْنَا قُتُونًا﴾ - فى الآية (٤٠) من سورة طه - ثم قال هناك: «وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه. وكأنه تلقاه ابن عباس مما أبيع نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره، والله أعلم، وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزرى يقول ذلك أيضا».

وقد عرضت عن هذه القصة - فيما عرضت عنه من الإسرائيليات فلا أثبتها هناك إن شاء الله ؛ لتحققى أنها من الإسرائيليات، على ما رسمت فى هذا الكتاب. والحافظ المؤلف - رحمه الله - أشار إليها فى مواضع من تفسيره، فلن أذكر شيئا من إشاراته - إن شاء الله - إلا ما اضطرت إليه، وبالله التوفيق.

كل ذكر يولد بعد ذلك من بنى إسرائيل، وأن تترك البنات، وأمر باستعمال بنى إسرائيل فى مشاق الأعمال وأراذلها. وههنا فسر العذاب بذيح الأبناء، وفى سورة إبراهيم عطف عليه، كما قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ سَاءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبِحُونَ آبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦]، وسيأتى تفصيل ذلك فى أول سورة القصص، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة والمعونة والتأييد. و « فرعون » علم على كل من ملك مصر، كافرًا من العماليق وغيرهم، كما أن « قيصر » علم على كل من ملك الروم مع الشام كافرًا، « كسرى » لكل من ملك الفرس، و« تبع » لمن ملك اليمن كافرًا .

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال ابن جرير: وفى الذى فعلنا بكم من إنجاننا إياكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون، بلاء لكم من ربكم عظيم. أى: نعمة عظيمة عليكم فى ذلك. وأصل البلاء: الاختبار، وقد يكون بالخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَنَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فَنَتَّعَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال: ﴿وَبَلَّوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الاعراف: ١٦٨]. قال ابن جرير: وأكثر ما يقال فى الشر: بلوته أبلوه بلاءً، وفى الخير: [أبليته] (١) أبلية إبلاء وبلاء، قال زهير بن أبى سلمى:

جَزَى اللهُ بِالْإِحْسَانِ مَا فَعَلَا بِكُمْ وَأَبْلَاهُمَا خَيْرَ الْبَلَاءِ الَّذِى يَبْلُو

قال: فجمع بين اللغتين؛ لأنه أراد: فأنعم الله عليهما خير النعم التى يَخْتَبِرُ بها عباده.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَمْجَيْنَاكُمُ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ معناه: وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون، وخرجتم مع موسى ﷺ خَرَجَ فرعون فى طلبكم، ففرقنا بكم البحر، كما أخبر تعالى عن ذلك مفصلاً كما سيأتى فى مواضعه، ومن أسطها فى سورة الشعراء . ﴿فَأَمْجَيْنَاكُمْ﴾ أى: خلصناكم منهم، وحجزنا بينكم وبينهم، وأغرقناهم وأنتم تنظرون؛ ليكون ذلك أشقى لصدوركم، وأبلغ فى إهانة عدوكم . وقد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء، كما روى أحمد عن ابن عباس، قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذى تصومون؟». قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجي الله عز وجل فيه بنى إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى، عليه السلام. فقال رسول الله ﷺ: «أنا أحق بموسى منكم». فصامه رسول الله ﷺ، وأمر بصومه .

ورواه البخارى، ومسلم، والنسائى، وابن ماجه (٢) .

﴿وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥١) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥١)

يقول تعالى: واذكروا نعمتى عليكم فى عفوى عنكم، لَمَّا عبدتم العجل بعد ذهاب موسى

(١) الزيادة من الطبرى، تمامًا للنص، وليصح بها المعنى .

(٢) هو فى المسند (٢٦٤٤) بتحقيقنا .

لميقات ربه، عند انقضاء أمد الموعدة، وكانت أربعين يوماً، وهى المذكورة فى الأعراف، فى قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ [الأعراف: ١٤٢] قيل: إنها ذو القعدة بكامله وعشر من ذى الحجة، وكان ذلك بعد خلاصهم من قوم فرعون وإنجائهم من البحر.

وقوله: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعنى: التوراة ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾: وهو ما يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. وكان ذلك - أيضاً - بعد خروجهم من البحر، كما دل عليه سياق الكلام فى سورة الأعراف. ولقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِبَصَائِرٍ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارئِكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارئِكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾

هذه صفةُ توبته تعالى على بنى إسرائيل من عبادة العجل، قال الحسن البصرى : ذلك حين وقع فى قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع حين قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ الآية [الأعراف: ١٤٩]. قال: فذلك حين يقول موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارئِكُمْ﴾: أى إلى خالقكم . وفى قوله هنا: ﴿إِلَىٰ بَارئِكُمْ﴾ تنبيه على عظم جرمهم، أى: فتوبوا إلى الذى خلقكم وقد عبدتم معه غيره.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَئِن نُّؤْمِنَ لَكَ حَقٌّ نَّرَىٰ اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

يقول تعالى: واذكروا نعمتى عليكم فى بعثى لكم بعد الصعق، إذ سألتم رؤيتى جهرة عياناً، مما لا يستطاع لكم ولا لامثالكم. ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ نار. ﴿وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ﴾ فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. وقال الربيع بن أنس: كان موتهم عقوبة لهم، فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم. وكذا قال قتادة.

﴿وَوَهَبْنَا لَكُمْ أَلْمَنًا وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَئِيَّ كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٥٧﴾

لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم، شرع يذكرهم - أيضاً - بما أسبغ عليهم من النعم، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَكُمْ أَلْمَنًا﴾ وهو جمع غمامة، سُمى بذلك لأنه يغمم السماء، أى: يواربها ويسترها. وهو السحاب الأبيض، ظلَّلوا به فى التيه ليقبهم حر الشمس. كما رواه النسائى وغيره عن ابن عباس، قال: ثم ظلل عليهم فى التيه بالغمام. وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ﴾: اختلفت

عبارات المفسرين فى المن: ما هو؟ فقال ابن عباس: كان المن ينزل عليهم على الأشجار، فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاؤوا. وقال مجاهد: المن: صمغة. وقال عكرمة: المن: شئ أنزله الله عليهم مثل الطل، يشبه الرُّبَّ الغليظ. وقال الربيع بن أنس: المن شراب كان ينزل عليهم مثل العسل، فيمزجونه بالماء ثم يشربونه.

والغرض أن عبارات المفسرين متقاربة فى شرح المن، فمنهم من فسره بالطعام، ومنهم من فسره بالشراب والظاهر، والله أعلم. أنه كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك، مما ليس لهم فيه عمل ولا كد، فالمن المشهور إن أكل وحده كان طعاماً وحلاوة، وإن مزج مع الماء صار شراباً طيباً، وإن ركب مع غيره صار نوعاً آخر، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده؛ والدليل على ذلك ما رواه البخارى عن سعيد بن زيد رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «الكَمَاءُ من المَنِّ، وماؤها شفاء للعين». ورواه الإمام أحمد، والجماعة، إلا أبا داود، وقال الترمذى: حسن صحيح^(١). وروى الترمذى عن أبى هريرة، قلل: قال رسول الله ﷺ: «العجوة من الجنة، وفيها شفاء من السم، والكَمَاءُ من المن، وماؤها شفاء للعين». تفرد بإخراجه الترمذى، ثم قال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه من حديث محمد بن عمرو، إلا من حديث سعيد بن عامر^(٢).

[ثم خرجه المؤلف من روايات الترمذى والنسائى وابن ماجه ، من طريق شهر بن حوشب عن أبى هريرة . وهو فى المسند من رواية شهر مراراً ، منها (٧٩٨٩ ، ٨٠٣٨) . ثم قال الحافظ ابن كثير: وهذه الطريق منقطعة بين شهر بن حوشب وأبى هريرة فإنه لم يسمعه^(٣) منه، بدليل ما رواه النسائى عن شهر بن حوشب ، عن عبد الرحمن بن عَثم ، عن أبى هريرة ، قال: خرج رسول الله ﷺ وهم يذكرون الكَمَاءَ ، وبعضهم يقول: جدرى الأرض ، فقال: « الكَمَاءُ من المن ، وماؤها شفاء للعين »^(٤) . وروى عن شهر بن حوشب عن أبى سعيد وجابر ، كما روى أحمد ، عن شهر بن حوشب ، عن جابر بن عبد الله وأبى سعيد الخدرى ، قالوا: قال رسول الله ﷺ : « الكَمَاءُ من المن ، وماؤها شفاء للعين ، والعجوة من الجنة ، وهى شفاء من السم »^(٥) .

[ثم ذكر المؤلف الحافظ - هنا - روايات كثيرة لهذا الحديث ، مطولة ومختصرة، عند النسائى وابن ماجه وابن مردويه ، من رواية شهر بن حوشب عن أبى سعيد وجابر . ومن روايته عن ابن عباس . ومن روايات أخر ثم قال] : فقد اختلف - كما ترى - فيه على شهر بن

(١) رواه أحمد فى المسند مرارا ، منها (١٦٢٥ ، ١٦٢٦) .

(٢) هو فى الترمذى (١٦٩/٣ ، ١٧٠) وإسناده صحيح . و « سعيد بن عامر » ثقة مأمون ، كما قال ابن معين .

(٣) فى المطبوعة : « لم يسمع منه ! » وهو خطأ ، صححناه من المخطوطة الأزهرية . وأيضاً فإن شهر بن حوشب سمع من أبى هريرة كثيراً . وإنما يريد الحافظ ابن كثير : أنه لم يسمع منه هذا الحديث بعينه ، كما هو ظاهر .

(٤) وهذه الرواية ثابتة أيضاً فى المسند (٨٢٩٠) . (٥) وهو فى المسند أيضا (١١٤٧٣) .

حوشب، ويحتمل عندى أنه حفظه ورواه من هذه الطرق كلها، وقد سمعه من بعض الصحابة وبلغه عن بعضهم، فإن الأسانيد إليه جيدة، وهو لا يتعمد الكذب، وأصل الحديث محفوظ عن رسول الله ﷺ، كما تقدم من رواية سعيد بن زيد . وأما « السلوى » فقال ابن عباس: السلوى طائر شبيه بالسَّمَانِي، كانوا يأكلون منه ، كذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما .

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ : أمر بإباحة وإرشاد وامتنان . وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]، أى: أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا، كما قال: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ﴾ [سبا: ١٥] فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البيّنات والمعجزات القاطعات ، وخوارق العادات ، ومن ههنا تتبين فضيلة أصحاب محمد صلوات الله وسلامه عليه ورضى عنهم، على سائر أصحاب الأنبياء فى صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم، كما كانوا معه فى أسفاره وغزواته، منها عام تبوك، فى ذلك القيظ والحر الشديد والجهد، لم يسألوا خرق عادة، ولا إيجاد أمر، مع أن ذلك كان سهلا على الرسول ﷺ، ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه فى تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم، فجاء قدر مبرك الشاة، فدعا فيه، وأمرهم فملؤوا كل وعاء معهم . وكذا لما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى، فجاءت سحابة فأمطرتهم، فشربوا وسقوا الإبل، وملؤوا أسقيتهم. ثم نظروا فإذا هى لم تجاوز العسكر. فهذا هو الأكمل فى الاتباع: المشى مع قدر الله، مع متابعة الرسول ﷺ.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ وَسَنُزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ يَمَا كَانُوا يُفْسِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

يقول تعالى لانما لهم على نكولهم عن الجهاد ودخول الأرض المقدسة - التى هى ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل - وقاتل من فيها من العمالق الكفرة، فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا، فرماهم الله فى التيه عقوبة لهم، كما ذكره تعالى فى سورة المائدة؛ ولهذا كان أصح القولين أن هذه البلدة هى بيت المقدس ، كما نص على ذلك السدى، والربيع بن أنس ، وقتادة ، وغيرهم . وقد قال الله تعالى: ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا ﴾ الآيات [المائدة: ٢١- ٢٤] . وقال آخرون: هى أريحا ، وهذا بعيد؛ لأنها ليست على طريقهم، وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحا ، والصحيح الأول؛ أنها بيت المقدس . ولهذا لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون، عليه السلام، وفتحها الله عليهم عشية جمعة، وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلا حتى أمكن الفتح . وأما أريحا فقريه ليست مقصودة لبني إسرائيل، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب - باب البلد - ﴿ سُجَّدًا ﴾ أى: شكراً لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، وردّ بلدهم إليهم وإنقاذهم من التيه والضلال . قال العوفى فى تفسيره، عن ابن عباس أنه كان يقول فى قوله: ﴿ وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾: أى ركعا . وروى

ابن جرير عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ قال: ركعا من باب صغير. ورواه الحاكم وابن أبى حاتم. وعن عبد الله بن مسعود: قيل لهم ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ فدخلوا مقنعي رؤوسهم، أى: رافعى رؤوسهم خلاف ما أمروا.

وقوله: ﴿وَقُولُوا حِطَّةً﴾: قال ابن عباس: مغفرة، استغفروا. وقال الحسن وقتادة: أى احطط عنا خطايانا. ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾: هذا جواب الأمر، أى: إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات، وضاعفنا لكم الحسنات. وحاصل الأمر: أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها، والشكر على النعمة عندها والمبادرة إلى ذلك من المحبوب لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ. وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [سورة النصر]. فسر بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر، وفسره ابن عباس بأنه نعى إلى رسول الله ﷺ أجله فيها، وأقره على ذلك عمر، ولا منافاة بين أن يكون قد أمر بذلك، ونعى إليه روحه الكريمة أيضاً، ولهذا كان عليه السلام يظهر عليه الخضوع جداً عند النصر، كما روى أنه كان يوم الفتح - فتح مكة - داخلاً إليها من الثنية العليا، وإنه الخاضع لربه حتى إن عثتونه ليمس مؤرك رحله، يشكر الله على ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾: عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله لبنى إسرائيل: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ فبدلوا، ودخلوا الباب يزحفون على أستاههم، فقالوا: حبة فى شعرة». وهذا حديث صحيح، رواه البخارى والترمذى وقال: حسن صحيح (١). وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق [من الحديث] (٢) أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل، فأمروا أن يدخلوا سجداً، فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم رافعى رؤوسهم، وأمروا أن يقولوا: حطة، أى: احطط عنا ذنوبنا، فاستهزؤوا فقالوا: حنطة فى شعيرة! وهذا فى غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة؛ ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم، وهو خروجهم عن طاعته؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾. قال ابن عباس: كل شىء فى كتاب الله من «الرجز» يعنى به العذاب. وقال أبو العالية: الرجز الغضب. وقال سعيد بن جبير: هو الطاعون. وروى ابن أبى حاتم والنسائى: عن سعد بن مالك، وأسامة بن زيد، وخزيمة بن ثابت رضى الله عنهم قالوا: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجز عذاب، عذب به من كان قبلكم». وأصل الحديث فى الصحيحين: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها» الحديث. وروى ابن جرير عن أسامة بن زيد عن رسول الله ﷺ، قال: «إن هذا الوجع والسقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم». وهذا الحديث أصله مخرج فى الصحيحين (٣).

(١) البخارى (٦ / ٣١٢ ، ٨ / ١٢٥ ، ٢٢٨ فتح) ، ورواه أحمد فى المسند بنحوه (٨٠٩٥ ، ٨٢١٣) .

(٢) الزيادة من المخطوطة الأزهرية .

(٣) الطبرى (١٠٣٦) والحديث رواه أحمد فى المسند بنحوه مطولاً (٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ حلى) .

﴿ وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

يقول تعالى: واذكروا نعمتى عليكم فى إجابتى لنبىكم موسى ﷺ حين استسقانى لكم، وتيسيرى لكم الماء، وإخراجه لكم من حجرٍ يُحمل معكم، وتفجيرى الماء لكم منه من ثنتى عشرة عيناً لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها، فكلوا من المن والسلوى، واشربوا من هذا الماء الذى أنبعته لكم بلا سعى منكم ولا كد، وابدوا الذى سخر لكم ذلك. ﴿ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾: ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها. وهذه القصة شبيهة بالقصة المذكورة فى سورة الأعراف، ولكن تلك مكية، فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب؛ لأن الله تعالى يقص ذلك على رسوله ﷺ عما فعل بهم. وأما فى هذه السورة، وهى البقرة فإنها مدنية؛ فهذا كان الخطاب فيها متوجهاً إليهم. وأخبر هناك بقوله: ﴿فَأَنْبَجَسْتُمْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] وهو أول الانفجار، وأخبر ههنا بما آل إليه الحال آخرأ وهو الانفجار، فناسب ذكر هذا ههنا، وذاك هناك، والله أعلم.

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْمِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهَيْطُوا بِمَضْرِبٍ فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ ﴾

يقول تعالى: واذكروا نعمتى عليكم فى إنزالى عليكم المن والسلوى، طعاماً طيباً نافعاً هنيئاً سهلاً، واذكروا دبركم وضجركم مما رزقتكم، وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنية من البقول ونحوها مما سألتهم. وقال الحسن البصرى: فبطروا ذلك ولم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم الذى كانوا فيه، وكانوا قوماً أهل أعداس وبصل وبقل وفوم، فقالوا: ﴿يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْمِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِهَا﴾ فالقول والقثاء والعدس والبصل كلها معروفة. وأما « الفوم » فقد اختلف السلف فى معناه، فوقع فى قراءة ابن مسعود «وثومها» بالثاء، وكذلك فسره مجاهد والربيع بن أنس، وسعيد بن جبير، وقال ابن جرير: فإن كان ذلك صحيحاً، فإنه من الحروف المبدلة كقولهم: « وقعوا فى عاثور شر، وعافور شر، وأثافى وأثائى، ومغافير ومغاثير ». وأشباه ذلك مما تقلب الفاء ثاء والباء فاء لتقارب مخرجيهما، والله أعلم. وقال آخرون: الفوم الحنطة، وهو البر الذى يعمل منه الخبز.

وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: الفوم الحنطة بلسان بنى هاشم، قالوا: وفى اللغة القديمة: « فولنا »، يعنى اختبزوا (١). وقال البخارى: وقال بعضهم: الحبوب التى تؤكل

(١) هذه الجملة أثبتت فى الأصول قبل كلام ابن جرير فى تبادل الفاء والباء. وليس ذاك بموضع لها، فقد يضطرب القارئ فى معناها، وإنما موضعها الحق هنا، فقلناها إليه.

كلها فوم .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ فيه تقريع لهم وتوبيخ على ما سألوا من هذه الأظعمة الدنيّة مع ما هم فيه من العيش الرغيد، والطعام الهني الطيب النافع .

وقوله تعالى : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ هكذا هو مُتَوْنٌ مصروف مكتوب بالألف في المصاحف الأئمة العثمانية، وهو قراءة الجمهور بالصرف . قال ابن جرير : ولا أستحيز القراءة بغير ذلك ؛ لإجماع المصاحف على ذلك . وقال ابن عباس : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ مصرًا من الأمصار، رواه ابن أبي حاتم عنه . وقال ابن جرير : وقع في قراءة أبي بن كعب وابن مسعود : «اهبطوا مصر» ، من غير إجراء، يعنى من غير صرف . ثم روى عن أبي العالية، والربيع بن أنس : أنهما فسرا ذلك بمصر فرعون . وقال ابن جرير : ويحتمل أن يكون المراد مصر فرعون على قراءة الإجراء أيضاً . ويكون ذلك من باب الاتباع لكتابة المصحف ، كما في قوله تعالى : ﴿ قَوَارِيرًا . قَوَارِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦] . ثم توقف في المراد ما هو : أمصر فرعون أم (١) مصر من الأمصار؟

وهذا الذى قاله فيه نظر، والحق أن المراد مصر من الأمصار كما روى عن ابن عباس وغيره، والمعنى على ذلك ؛ لأن موسى ﷺ يقول لهم : هذا الذى سألتم ليس بأمر عزيز، بل هو كثير فى أى بلد دخلتموه وجدتموه ، فليس يساوى - مع دناءته وكثرته فى الأمصار - أن أسأل الله فيه ؛ ولهذا قال : ﴿ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ أى : ما طلبتم ، ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورية فيه ، لم يجابوا إليه ، والله أعلم .

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرُونَ ﴾

يَعَايَنَتِ اللَّهُ وَيَقْتُلُونَ النَّيِّبِينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ أى : وضعت عليهم والزموا بها شرعاً وقدراً ، أى : لا يزالون مستذلين ، من وجدهم استذلهم وأهانهم ، وضرب عليهم الصغار ، وهم مع ذلك فى أنفسهم أذلاء مستكينون . قال الحسن : أذلهم الله فلا منعة لهم ، وجعلهم تحت أقدام المسلمين . ولقد أدركتهم هذه الآية وإن المجوس لتجيهم الجزية .

وقوله : ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ قال الضحاك : استحقوا الغضب من الله ، وقال ابن جرير : يعنى بقوله : ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ : انصرفوا ورجعوا ، ولا يقال : «باء» إلا موصولاً : إما بخير وإما بشر ، يقال منه : باء فلان بذنبه يباء به بواءً وبواء . ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾ [المائدة : ٢٩] يعنى : تنصرف متحملهما وترجع بهما ، قد صارا عليك دونى . فمعنى الكلام إذاً : فرجعوا منصرفين متحملين غضب الله ، قد صار عليهم من الله غضب ،

ووجب عليهم من الله سخط .

وقوله : ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ يقول تعالى : هذا الذى جازيناهم به - من الذلة والمسكنة، وإحلال الغضب بهم - بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، وكفرهم بآيات الله، وإهانتهم حملة الشرع - وهم الأنبياء وأتباعهم - فانتقصوهم حتى أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم، فلا كفر أعظم من هذا: إنهم كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء الحق؛ ولهذا جلة فى الحديث المتفق على صحته أن رسول الله ﷺ قال: «الكبر بَطْرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ». وروى الإمام أحمد: عن ابن مسعود قال: كنت لا أحجب عن النَّجْوَى، ولا عن كذا ولا عن كذا، فأتيت رسول الله ﷺ وعنده مالك بن مرارة الرهاوى، فأدرته من آخر حديثه، وهو يقول: يا رسول الله، قد قُسم لى من الجمال ما ترى، فما أحب أن أحداً من الناس فضّلنى بشراكين فما فوقهما أفليس ذلك هو البغى؟ فقال: «لا، ليس ذلك من البغى، ولكن البغى مَنْ بَطَرَ - أو قال: سفه - الحق وغمط الناس» (١). يعنى: رد الحق وانتقاص الناس، والازدراء بهم والتعاطم عليهم. ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبه من الكفر بآيات الله وقتل أنبيائهم، أحل الله بهم بأسه الذى لا يرد، وكساهم ذلاً فى الدنيا موصولاً بذل الآخرة جزاءً وفاقاً. وروى الإمام أحمد أيضاً عن عبد الله - يعنى ابن مسعود - أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبياً، أو قتل نبياً، وإمام ضلالة، ومثل من الممثلين» (٢).

وقوله تعالى: ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾: وهذه علة أخرى فى مجازاتهم بما جوزوا به : أنهم كانوا يعصون ويعتدون، فالعصيان: فعل المناهى، والاعتداء: المجاوزة فى حد الماذون فيه أو المأمور به. والله أعلم.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ مِنَ آءِ مَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

لما بين تعالى حال من خالف أوامره وارتكب زواجه، وتعدى فى فعل ما لا إذن فيه وانتهك المحارم، وما أحلّ بهم من النكال - نبه تعالى على أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاع، فإن له جزاء الحسنى، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة؛ كل من اتبع الرسول النبى الأسمى فله السعادة الأبدية، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه، كما قال تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس: ٦٢] وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار فى قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠]. وروى ابن أبى حاتم عن مجاهد، قال: قال سلمان: سألت النبى ﷺ عن أهل دين كنت معهم - فذكر من صلاتهم وعبادتهم -

(١) هو فى المسند (٣٦٤٤، ٤٠٥٨).

(٢) المسند (٣٨٦٨). وانظر: الترغيب والترهيب (٣/١٧٦) ومجمع الزوائد (١/١٨١) والدرر المشور (٤/١٧٤).

فنزلت: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الآية (١).

قلت: وهذا لا ينافي ما روى عن ابن عباس: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ قال: فأنزل الله بعد ذلك: ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]. فإن هذا الذى قاله ابن عباس إخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملاً، إلا ما كان موافقاً لشريعة محمد ﷺ بعد أن بعثه بما بعثه به، فاما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول فى زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة، فاليهود أتباع موسى ﷺ الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة فى زمانهم.

و«التهود»: من اليهودية وهى المودة أو التهود وهو التوبة؛ لقول موسى ﷺ: ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أى: تبنا، فكأنهم سموا بذلك فى الأصل لتوبتهم ومودتهم فى بعضهم لبعض. فلما بعث عيسى ﷺ وجب على بنى إسرائيل اتباعه والانقياد له، فأصحابه وأهل دينه هم النصارى، وسموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم، وقد يقال لهم: «أنصار» أيضاً، كما قال عيسى ﷺ: ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٥٢] وقيل: إنهم إنما سموا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضاً يقال لها ناصرة. والنصارى: جمع نصران، كنشأوى جمع نشوان، وسكارى جمع سكران، ويقال للمرأة: نصرانة. فلما بعث الله محمداً ﷺ خاتماً للنبيين، ورسولاً إلى بنى آدم على الإطلاق، وجب عليهم تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانكفاف عما عنه زجر. وهؤلاء هم المؤمنون حقاً. وسميت أمة محمد ﷺ مؤمنين لكثرة إيمانهم وشدة إيقانهم، ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية.

وأما «الصابئون» فقد اختلف فيهم؛ فقال مجاهد: الصابئون قوم بين المجوس واليهود والنصارى، ليس لهم دين. وروى عن عطاء وسعيد بن جبير نحو ذلك. وقال أبو العالية، والسدى، وإسحاق بن راهويه وغيرهم: الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور. وقال عبد الرحمن بن زيد: الصابئون أهل دين من الأديان، كانوا بجزيرة الموصل يقولون: لا إله إلا الله. وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا قول: لا إله إلا الله، قال: ولم يؤمنوا برسول، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي ﷺ وأصحابه: هؤلاء الصابئون، يشبهونهم بهم، يعنى فى قول: لا إله إلا الله. وأظهر الأقوال، والله أعلم، قول مجاهد ومتابعيه، وهب بن منبه: أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه؛ ولهذا كان المشركون ينزرون من أسلم بالصابئى، أى: إنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ١٢

الْحَسِرِينَ ١٢

يقول تعالى مذكراً بنى إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له واتباع رسله، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل على رؤوسهم ليقرأوا بما عوهدوا عليه، ويأخذوه بقوة وحزم وهمة وامتنال، كما قال تعالى: ﴿وَأِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١] فالطور هو الجبل، كما فسر به فى الأعراف، ونص على ذلك ابن عباس ، وغير واحد، وهذا ظاهر . وقال الحسن فى قوله: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾: يعنى التوراة . وقوله: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أى: بطاعة، بعملٍ بما فيه . ﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ يقول: اقرؤوا ما فى التوراة واعملوا به .

وقوله : ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ يقول تعالى: ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه وانشيتم ونقضتموه ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أى: توبته عليكم وإرساله النبيين والمرسلين إليكم ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ بنقضكم ذلك الميثاق فى الدنيا والآخرة .

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ يا معشر اليهود، ما حلّ من البأس بأهل القرية التى عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره، إذ كان مشروعاً لهم، فتحيلوا على اصطياد الحيتان فى يوم السبت، بما وضعوه لها من الشصوص والحبال والبرك قبل يوم السبت، فلما جاءت يوم السبت على عادتها فى الكثرة، نشبت بتلك الحبال والحيل، فلم تخلص منها يوماً ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت . فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة، وهى أشبه شئ بالأناسى فى الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة . فكذلك أعمال هؤلاء وحيلهم لما كانت مشابهة للحق فى الظاهر ومخالفة له فى الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم . وهذه القصة مبسطة فى سورة الأعراف ، حيث يقول تعالى : ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعاً وَيَوْمَ لَا يَسْتَوْنَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣] القصة بكاملها .

وقوله تعالى : ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قال مجاهد : مسخت قلوبهم ، ولم يسخوا قردة، وإنما هو مثل ضربه الله ﴿كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ [الجمعة: ٥] . وهو وقول غريب خلاف الظاهر من السياق فى هذا المقام وفى غيره، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ الآية [المائدة: ٦٠] . وقوله: ﴿خَاسِئِينَ﴾ قال: يعنى أذلة صاغرين . [ثم نقل المؤلف الحافظ آثاراً عن بعض الصحابة والتابعين فى مسخ هؤلاء المعتدين على صورة القردة ، وفى تفصيل قصتهم . ثم قال : قلت: والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد، رحمه الله، من أن مسخهم إنما كان معنوياً لا صورياً بل الصحيح أنه معنوى صورى، والله أعلم .

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾: قال بعضهم: الضمير في ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ عائد على القردة، وقيل: على الحيتان، وقيل: على العقوبة، وقيل: على القرية؛ حكاه ابن جرير. والصحيح أن الضمير عائد على القرية، أى: فجعل الله هذه القرية - والمراد أهلها - بسبب اعتدائهم فى سبهم ﴿نَكَالًا﴾ أى: عاقبتهم عقوبة، فجعلناهم عبرة كما قال تعالى عن فرعون: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النارعات: ٢٥]، وقوله: ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أى من القرى. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الاحقاف: ٢٧]، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ الآية [الرعد: ٤١] على أحد الأقوال، فالمراد لما بين يديها وما خلفها فى المكان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال ابن عباس: الذين من بعدهم إلى يوم القيامة. قلت: المراد بالموعظة ههنا الزاجر، أى: جعلنا ما أحللتنا بهؤلاء من البأس والنكال فى مقابلة ما ارتكبه من محارم الله، وما تحيلوا به من الحيل، فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم، كما روى الإمام أبو عبد الله بن بطة عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تتركبوا ما ارتكب اليهود، فستحلوا محارم الله بأذى الحيل». وإسناده إسناده جيد، وباقى رجاله مشهورون على شرط الصحيح. والله أعلم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَنَتَّخِذُهَا حُزًّا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

يقول تعالى: واذكروا - يا بنى إسرائيل - نعمتى عليكم فى خرق العادة لكم فى شأن البقرة، وبيان القاتل من هو؟ بسببها وإحياء الله المقتول، ونصه على من قتله منهم. [ثم ذكر ابن كثير هنا روايات مطولة، فيها بسط القصة - قصة البقرة - لا تصل للرواية، وليست موضع الثقة، ثم قال:]

وهذه السياقات عن عبيدة وأبى العالية والسدى وغيرهم، فيها اختلاف [ما] (١)، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بنى إسرائيل وهى مما يجوز نقلها، ولكن لا نصدق ولا نكذب، فلهذا لا نعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا، والله أعلم.

﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَكَ ذَلِكَ فافعلوا ما تؤمرون﴾ (١٨) ﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقْعُ لَوْثُهَا تَسْرُ النَّظِيرِينَ﴾ (١٩) ﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ شَبَّهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ (٢٠) ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا لَئِن نَّجَّيْنَاكَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٢١)

أخبر تعالى عن نعت بنى إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم . ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم ، ولو أنهم ذبحوا أى بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم ، كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم ، فقالوا : ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾ ما هذه البقرة؟ وأى شىء صفتها؟ وروى ابن جرير: عن ابن عباس ، قال: لو أخذوا أدنى بقرة اكتفوا بها ، ولكنهم شددوا فشدد [الله] (١) عليهم . وإسناده صحيح ، وقد رواه غير واحد عن ابن عباس . وقال ابن جريج: قال لى عطاء: لو أخذوا أدنى بقرة كفتهم . قال ابن جريج: قال رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُوا بِأَدْنَى بَقْرَةٍ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا شَدَّدُوا [عَلَى أَنْفُسِهِمْ] (٢) شَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ؛ وَإِيْمَ اللَّهُ لَوْ أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَشُوا مَا بَيَّنْتَ لَهُمْ آخِرَ الْأَبْدِ ﴾ (٣) .

﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ ﴾ أى: لا كبيرة هَرَمَةٌ ولا صغيرة لم يُلْقِحَهَا (٤) الفحل ، كما قاله ابن عباس وأبو العالية وغيرهما . ﴿ صَفْرَاءُ ﴾ [أى لونها أصفر] (٥) وعن الحسن قال: سوداء شديدة السواد. وهذا غريب ، والصحيح الأول ، ولهذا أكد صفتها بأنه ﴿ فَاقِعٌ لَوْنُهَا ﴾ : صافية اللون .

وقوله : ﴿ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ أى: لكثرتها ، فميز لنا هذه البقرة وصفها وحلها لنا ﴿ وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ ﴾ إذا بينتها لنا ﴿ لَمُهْتَدُونَ ﴾ إليها . وعن أبى هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ : «لولا أن بنى إسرائيل قالوا: ﴿ وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ لما أعطوا ، ولكن استنوا» ورواه ابن أبى حاتم - واللفظ له - وابن مردويه . وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبى هريرة (٦) .

﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ ﴾ أى : إنها ليست مذللة بالحرثة ولا معدة للسقى فى السانية ، بل هى مكرمة حسناء (٧) صبيحة ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ صبيحة لا عيب فيها ﴿ لَا شَيْءَ فِيهَا ﴾ أى : ليس فيها لون غير لونها .

(١) لفظ الجلالة زيادة من الأزهرية . وهو ثابت أيضا فى الطبرى (١٢٣٥) .

(٢) الزيادة من الأزهرية . وهى ثابتة فى الطبرى (١٢٤٢) .

(٣) هذا الحديث - المرفوع - مرسل لا تقوم به حجة . وسيأتى معناه بعد قليل ، مرفوعاً من حديث أبى هريرة .

(٤) فى المخطوطة والمطبوعة : « لم يلحقها » . وهو خطأ واضح ، لا معنى له .

(٥) هذه الجملة من كلامى ، مضمون ما ذكره الحافظ من الآثار .

(٦) فى إسناده «سرور بن المغيرة» ، عن عباد بن منصور . وسرور بن المغيرة بن زاذان تكلم فيه الأزدي .

والصواب أنه ثقة . ذكره ابن حبان فى الثقات . وترجمه البخارى فى الكبير (٢١٧/٢/٢) وابن أبى حاتم

(٣٢٥/١/٢) ، فلم يذكر فيه جرحاً . وقد ذكر الهيثمى هذا الحديث بنحوه ، مختصراً ، فى مجمع الزوائد (٦/

٣١٤) وقال : « رواه البزار . وفيه عباد بن منصور ، وهو ضعيف ، وبقية رجاله ثقات » . والحق أن عباد بن

منصور ثقة ، ولكنه تغير حفظه أخيراً . فلعله وهم فى رفعه . ويكون الراجح وقفه على أبى هريرة ، كما قال

ابن كثير هنا .

(٧) السانية - بالنون : الدلو العظيمة وأدواتها . وتطلق أيضاً على الدابة نفسها . وفى المطبوعة «الساقية» بالقاف . وفى

المطبوعة أيضاً «حسنة» بدل «حسنا» . والتصويب فيهما من الأزهرية .

﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ : قال قتادة: الْآنَ بَيَّنْتَ لَنَا ، ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ : قال ابن عباس: كادوا ألا يفعلوا، ولم يكن ذلك الذى أرادوا، لأنهم أرادوا ألا يذبحوها. يعنى أنهم مع هذا البيان، وهذه الأسئلة، والأجوبة، والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفى هذا ذم لهم، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت، فلهدأ ما كادوا يذبحونها . قال ابن جرير: وقال آخرون: لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة، إن أطلع الله على قاتل القتيل الذى اختصموا فيه . ولم يسنده عن أحد، ثم اختار أن الصواب فى ذلك: أنهم لم يكادوا يفعلوا ذلك لغلاء ثمنها، وللفضيحة. وفى هذا نظر، بل الصواب - والله أعلم - ما تقدم ، عن ابن عباس، على ما وجهناه . وبالله التوفيق .

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَرُؤْيُكُمْ ءَايَتُهُ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

قال البخارى: ﴿فَادَرَأْتُمْ فِيهَا﴾ : اختلفتم . وهكذا قال مجاهد . ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ : قال مجاهد: ما تغيبون . ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا﴾ هذا البعض أى شىء كان من أعضاء هذه البقرة فالمعجزة حاصله به . وخرق العادة به كائن، وقد كان معنا فى نفس الأمر، فلو كان فى تعيينه لنا فائدة تعود علينا فى أمر الدين أو الدنيا لبينه الله تعالى لنا، ولكن أبهمه، ولم يجئ من طريق صحيح عن معصوم بيانه ، فنحن نبهمه كما أبهمه الله .

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ أى: فضربه فحيى . ونبّه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتيل . جعل تبارك وتعالى ذلك الصنع حجة لهم على المعاد، وفاضلا ما كان بينهم من الخصومة والعناد (١) . والله تعالى قد ذكر فى هذه السورة ما خلقه من إحياء الموتى، فى خمسة مواضع: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦] . وهذه القصة، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها، وقصة إبراهيم والطيور الأربعة . ويُنْبِئُهُ تَعَالَى بِإِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا عَلَىٰ إِعَادَةِ الْأَجْسَامِ بَعْدَ صَيْرورتها رَمِيمًا، كما روى أبو داود الطيالسى: عن أَبِي رَزِينِ الْعُقَيْلِيِّ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى؟ قَالَ: «أَمَا مَرَرْتُ بِوَادٍ مُنْحَلٍ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِهِ خَضِرًا؟» قَالَ: بَلَى . قَالَ: «كَذَلِكَ النُّشُورُ» . أو قَالَ: «كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى» (٢) . وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ . لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣ - ٣٥] .

(١) فى الأزهرية : « والفساد » بدل « والعناد » .

(٢) مسند الطيالسى (١٠٨٩) . ورواه الإمام أحمد فى المسند بنحوه (١٦٢٦١، ١٦٢٦٢، ١٦٢٦٥) . و« رزين » :

يفتح الراء وكسر الزاى . وأبو رزين : هو لقيط بن صبرة، صحابى معروف .

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى توبيخاً لبنى إسرائيل، وتقريعاً لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى، وإحيائه الموتى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ كله ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ ﴾ التي لا تلين أبداً. ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦]. قال العوفي - فى تفسيره - عن ابن عباس: فصارت قلوب بنى إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات فهى فى قسوتها كالحجارة التى لا علاج للينها أو أشد قسوة من الحجارة، فإن من الحجارة ما تتفجر منها العيون الجارية بالأنهار، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء، وإن لم يكن جارياً، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله، وفيه إدراك لذلك بحسه، كما قال: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَأَنْفَقُوهُنَّ تَسْبِيحَهُمْ إِنْهَ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

تنبيه: اختلف علماء العربية فى معنى قوله تعالى: ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ - بعد الإجماع على استحالة كونها للشك - فقال بعضهم: «أو» ههنا بمعنى الواو، تقديره: فهى كالحجارة وأشد قسوة كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطْعَمُنَّ مِنْهُمْ آتِنَا أَوْ كُفُورًا ﴾ [الإنسان: ٢٤]. وقال آخرون: «أو» ههنا بمعنى بل، فتقديره: فهى كالحجارة بل أشد قسوة، وكقوله: ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ [النساء: ٧٧] ﴿ وَأَرْسَلْنَا إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصفوات: ١٤٧] ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ [النجم: ٩].

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى». رواه الترمذى فى كتاب الزهد من جامعه وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم^(١).

﴿ أَفَنْظَمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْصَرِفُونَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا

(١) الترمذى (٢٨٩/٣). وإبراهيم - راويه - هو ابن عبد الله بن الحارث بن حاطب الجمحى . ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : « مستقيم الحديث » . وترجمه البخارى فى الكبير (١/١/٢٩٨ ، ٢٩٩) ، وذكر أن بعض رواياته مراسيل . وما هذا بجرح فيه . وترجمه ابن أبى حاتم (١/١/١١٠) ولم يذكر فيه جرحا . فالحديث صحيح الإسناد .

وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ أيها المؤمنون أن يؤمن لكم أى: يتقاد لكم بالطاعة، هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود، الذين شاهد آباؤهم من الآيات-البيانات ما شاهدهو، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ أى: يتأولونه على غير تأويله ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أى: فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه-على بصيرة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله؟ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَانَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ١٣]. قال ابن زيد فى قوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ قال: التوراة التى أنزلها الله عليهم يحرفونها، يجعلون الحلال فيها حراماً، والحرام فيها حلالاً، والحق فيها باطلاً، والباطل فيها حقاً؛ إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب، فهو فيه محق، وإذا جاءهم أحد يسألهم شيئاً ليس فيه حق، ولا رشوة، ولا شىء، أمروه بالحق، فقال الله لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]. عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾: أى أن صاحبكم رسول الله، ولكنه إليكم خاصة. ﴿وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا﴾: لا تحدثوا العرب بهذا، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فكان منهم. فأنزل الله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أى: تقرون بأنه نبي، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه، وهو يخبرهم أنه النبي الذى كنا نتنظر، ونجد فى كتابنا. اجحدوه ولا تقروا به. يقول الله تعالى: ﴿أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَنْظُنُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ﴾ أى: ومن أهل الكتاب، قاله مجاهد: و«الأميون» جمع أمى، وهو الرجل الذى لا يحسن الكتابة، وهو ظاهر فى قوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ أى: لا يدرون ما فيه. ولهذا فى صفات النبي ﷺ أنه أمى؛ لأنه لم يكن يحسن الكتابة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَقْلُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُ بِمِمْبِلِكَ إِذَا لَأْرْتَابِ الْمُبْتَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] وقال عليه الصلاة والسلام: «إنا أمة أمية، لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا» الحديث (١).

(١) رواه أحمد فى المسند مراراً، منها: (٥١٣٧، ٥٠١٧) من حديث ابن عمر. ورواه الشيخان أيضا. انظر: الفتح (٤/ ١٠٨، ١٠٩) وصحيح مسلم (١/ ٢٩٨، ٢٩٩).

أى : لا نفتقر في عبادتنا ومواقبتها إلى كتاب ولا حساب ، وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ [الجمعة : ٢] .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ آمَنِي ﴾ : قال ابن عباس : قولاً يقولونه بأفواههم كذباً . وقال مجاهد : إن الأميين الذين وصفهم الله أنهم لا يفقهون من الكتاب - الذي أنزل الله على موسى - شيئاً ، ولكنهم يتخَرَّصُونَ الكذب ويتخَرَّصُونَ الأباطيل كذباً وزوراً . و « التمني » فى هذا الموضع : هو تخلق الكذب وتخرصه . ومنه الخبر المروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه : « ما تغنيت ولا تمنيت » . يعنى ما تخرصت الباطل ولا اختلقت الكذب . وقال ابن عباس : ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ أى : ولا يدرون ما فيه ، وهم يجدون نبوتك بالظن .

وقوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ الآية : هؤلاء صنف آخر من اليهود ، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله ، وأكل أموال الناس بالباطل . و « الويل » : الهلاك والدمار ، وهى كلمة مشهورة فى اللغة . وعن ابن عباس : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ قال : هم أخبار اليهود .

وروى البخارى عن ابن عباس أنه قال : يا معشر المسلمين ، كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء ، وكتابكم الذى أنزل الله على نبيه ، أحدث أخبار الله تقرؤونه محضاً لم يُشَبَّ؟ وقد حدَّثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ؛ أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مُسَاءَلْتِهِمْ؟ ولا والله ما رأينا منهم أحداً قط سألكم عن الذى أنزل إليكم (١) . وقال الحسن البصرى : الثمن القليل : الدنيا بحذافيرها .

وقوله : ﴿ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ أى : فويل لهم عما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان ، والافتراء ، وويل لهم عما أكلوا به من السحت .

﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُمْ أَمْ نَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم ، من أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة ، ثم ينجون منها ، فرد الله عليهم ذلك بقوله : ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا ﴾ أى : بذلك؟ فإن كان قد وقع فهو لا يُخْلَفُ عهده . ولكن هذا ما جرى ولا كان . ولهذا أتى بـ « أم » التى بمعنى : بل ، أى : بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه .

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن أبى هريرة ، قال : لما فتحت خيبر أهديت لرسول

(١) رواه البخارى فى ثلاثة مواضع (٥/٢١٥ ، ١٣/٢٨٢ ، ٤١٤ فتح) . وقد ذكرناه فى مقدمتنا لهذا الكتاب ، عند الكلام على الإسرائيليات ، ص ١٧ .

الله ﷺ شاة فيها سُم، فقال رسول الله ﷺ: «اجمعوا لى من كان من اليهود ههنا» فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أبوكم؟» قالوا: فلان. قال: «كذبتم، بل أبوكم فلان». فقالوا: صدقت وبررت، ثم قال لهم: «هل أنتم صادقى عن شىء إن سألتكم عنه؟». قالوا: نعم، يا أبا القاسم، وإن كذبتناك عرفت كذبتنا كما عرفته فى آيينا. فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أهل النار؟» فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها. فقال لهم رسول الله ﷺ: «أخسؤوا، والله لا تخلفكم فيها أبداً». ثم قال لهم رسول الله ﷺ: «هل أنتم صادقى عن شىء إن سألتكم عنه؟». قالوا: نعم يا أبا القاسم. فقال: «هل جعلتم فى هذه الشاة سمّاً». فقالوا: نعم. فقال: «فما حملكم على ذلك؟». فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرك. ورواه أحمد، والبخارى، والنسائى، بنحوه (١).

﴿ بَكَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ﴿٨١﴾
﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ﴿٨٢﴾

يقول تعالى: ليس الأمر كما تمنيتم، ولا كما تشتهون، بل الأمر: أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته، وهو من وافى يوم القيامة وليس له حسنة، بل جميع عمله سيئات - فهذا من أهل النار، ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالله ورسوله، ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ - من العمل الموافق للشريعة - فهم من أهل الجنة. وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤]. ويذكر ههنا الحديث الذى رواه الإمام أحمد: عن عبد الله بن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه». وإن رسول الله ﷺ ضرب لهنّ مثلاً، كمثّل قوم نزلوا بأرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود، والرجل يجىء بالعود، حتى جمعوا سواداً، وأججوا ناراً، فأنضجوا ما قذفوا فيها (٢).

وقال ابن عباس: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾: أى: من آمن بما كفرتم، وعمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنة خالدين فيها. يخبرهم أن الثواب بالخير والشرّ مقيم على أهله أبداً، لا انقطاع له.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَالِؤُلَادِينِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ ﴿٨٢﴾

يُذَكِّر تبارك وتعالى بنى إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر، وأخذ ميثاقهم على ذلك، وأنهم تولوا عن ذلك كله، وأعرضوا قصداً وعمداً، وهم يعرفونه ويذكرونه، فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . وبهذا أمر جميع خلقه، ولذلك خلقهم كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الانبيا: ٢٥] وقال تعالى : ﴿ وَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تعالى، أن يعبد وحده لا شريك له، ثم بعده حق المخلوقين، وأكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين، ولهذا يقرن الله تعالى بين حقه وحق الوالدين، كما قال تعالى : ﴿ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤] وقال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الآية - إلى أن قال : ﴿ وَآتَٰ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٢٦] . وفى الصحيحين، عن ابن مسعود، قلت: يا رسول الله، أى العمل أفضل؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أى؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أى؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله». ولهذا جاء فى الحديث الصحيح: أن رجلاً قال: يا رسول الله، من أبر؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أباك. ثم أدناك ثم أدناك» .

قال : ﴿ وَالْيَتَامَىٰ ﴾ وهم: الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء . ﴿ وَالْمَسَاكِينَ ﴾ : الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهلهم، وسيأتى الكلام على هذه الأصناف عند آية النساء، التى أمرنا الله تعالى بها صريحاً فى قوله: ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الآية [النساء: ٣٦] .

وقوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ أى: كلموهم طيباً، ولينؤا لهم جانباً، ويدخل فى ذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالمعروف، كما قال الحسن البصرى فالحسن من القول: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحلم، ويعفو، ويصفح، ويقول للناس حسناً كما قال الله، وهو كل خلق حسن رضيه الله . وروى الإمام أحمد: عن أبى ذر، عن النبى ﷺ أنه قال: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، وإن لم تجد فائق أخاك بوجه منطلق» . وأخرجه مسلم، والترمذى وصححه .

وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسناً، بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، فجمع بين طرفى الإحسان: الفعلى والقولى. ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمُعِين من ذلك، وهو الصلاة والزكاة، فقال: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله، أى: تركوه وراء ظهورهم، وأعرضوا عنه على عمد بعد العلم به، إلا القليل منهم، وقد أمر تعالى هذه الأمة بنظير ذلك فى سورة النساء، بقوله: ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجَنْبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يُجِبُ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦] فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها، والله الحمد والمنة .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تَفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتُونُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْكَ أَشَدَّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

يقول، تبارك وتعالى، منكرًا على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينة، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج ، وذلك أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا في الجاهلية عباد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير حلفاء الخزرج، وبنو قريظة حلفاء الأوس. فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودى أعداءه، وقد يقتل اليهودى الآخر من الفريق الآخر، وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابه. ويخرجونهم من بيوتهم وينهبون ما فيها من الأثاث والامتنعة والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكوا الأسارى من الفريق المغلوب، عملاً بحكم التوراة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ أَفْتُونُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ أى : لا يقتل بعضكم بعضاً، ولا يخرج من منزله، ولا يظاهر عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ فَتَوْبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ ﴾ [البقرة: ٥٤] وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» (١).

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ أى: ثم أقررتهم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به. ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تَفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ : والذى أرشدت إليه الآية الكريمة ، ذم اليهود في قيامهم بأمر التوراة التى يعتقدون صحتها، ومخالفة شرعها، مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة (٢) ، فلهذا لا يؤمنون على ما فيها ولا على نقلها، ولا يصدقون فيما

(١) رواه أحمد فى المسند بنحوه (٤ / ٢٧٠ حلىي) ، وكذلك رواه مسلم (٢/ ٢٨٤) والبخارى بنحوه (١٠ / ٣٦٧ فتح) ، وذكره الطبرى فى تفسيره (١٤٦٣) معلقا بغير إسناد.

(٢) ومما يملأ النفس ألماً وحزناً أن صار أكثر الأمم التى تنتسب للإسلام إلى هذا الوصف المكروه ، ووقعوا فى مثل هذا الذى ذم الله اليهود من أجله ، وجعل جزاء من يفعله خزيًا فى الحياة الدنيا وردا فى الآخرة إلى أشد العذاب. فترى أكثر الأمم المنتسبة للإسلام يعتقدون صحة القرآن ويشهدون بذلك ويعرفونه ، ويزعمون القيام بأمره - ثم هم يخالفونه فى التشريع فى شؤونهم المالية والجناثية والحلقية ، ولا يستحون أن يعلنوا أن تشريعه =

يكتُمونه من صفة رسول الله ﷺ ونعته، ومبعثه ومخرجه، ومهاجره، وغير ذلك من شؤونه، التي قد أخبرت بها الأنبياء قبله. واليهود عليهم لعائن الله يتكاثرون بينهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [أى: بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ جزاء على ما كتّموه من كتاب الله الذي بأيديهم ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١). أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة] [أى: استحبوها على الآخرة] (٢) واختاروها ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ [أى: لا يفتر عنهم ساعة واحدة] ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [أى: وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي، ولا يجيرهم منه].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾

ينعت، تبارك وتعالى، بنى إسرائيل بالعتو والعدا والمخالفة، والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم، فذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب - وهو التوراة - فحرفوها وبدلوها، وخالفوا أوامرها وأولوها. وأرسل الرسل والنبیین من بعده الذين يحكمون بشريعته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [الآية [المائدة: ٤٤]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ قال السدي، عن أبي مالك: أتبعنا. وقال غيره: أردفنا. والكل قريب، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ [المؤمنون: ٤٤] حتى ختم أنبياء بنى إسرائيل بعيسى ابن مريم، فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام، ولهذا أعطاه الله من البيّنات، وهى: المعجزات. ما يدلهم به على صدقه فيما جاءهم به. فاشتد تكذيب بنى إسرائيل له وحسدّهم وعتادهم لمخالفة التوراة في البعض، كما قال تعالى إخباراً عن عيسى: ﴿وَلَأَحِلُّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الآية [آل عمران: ٥٠]. فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء عليهم السلام أسوأ المعاملة، ففريقاً يكذبونه، وفريقاً يقتلونه، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم ويلزمهم بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها، ولهذا كان يشق ذلك عليهم، فيكذبونهم، وربما قتلوا بعضهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى

= وتشريع رسول الله في سنته لا يوافق هذا العصر! ويجعلون من حقهم أن يشرعوا ما شاؤوا، وافق الكتاب والسنة أم خالفه! ويصطنعون قوانين أوربة الوثنية الملحدة، ويشربونها في قلوبهم. يزعمونها أهدى وأنفع للناس مما أنزل إليهم من ربهم. ولا يتعظون بما أنذرهم به ربهم من المثل بالأمم قبلهم.

(١) قراءة حفص - المعروفة والتي في أيدي الناس في المصاحف: «تعملون» بالتاء، ولكن سياق الكلام يدل على أن الحافظ ابن كثير يقرؤها هنا بالياء، وهى قراءة نافع وابن كثير وغيرهما من القراء العشر. وهى ثابتة بالياء فى المخطوطة الأزهرية. وانظر: النشر لابن الجزرى (٢/٢١١).

(٢) الزيادة من الأزهرية.

أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٨﴾ .

وروح القدس هو جبريل، كما نص عليه ابن مسعود في تفسير هذه الآية، وتابعه على ذلك ابن عباس وغيره مع قوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] وعن عائشة: إن رسول الله ﷺ وضع لحيان بن ثابت منبراً في المسجد، فكان ينافح عن رسول الله ﷺ، فقال رسول الله: «اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك» رواه البخاري تعليقا، ورواه أبو داود والترمذي [موصولا] وقال الترمذي: حسن صحيح. وعن أبي هريرة: أن عمر بن الخطاب مر بحسان، وهو ينشد الشعر في المسجد، فلحظ إليه، فقال: قد كنت أنشد فيه، وفيه من هو خير منك. ثم التفت إلى أبي هريرة، فقال: أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول: أجب عني، اللهم أيد بروح القدس؟. فقال: اللهم نعم. وفي بعض الروايات: أن رسول الله ﷺ قال لحسان: «اهجهم - أو: هاجهم - وجبريل معك».

[ثم ذكر ابن كثير أقوالاً أخر في معنى «روح القدس» لا تقوم لها قائمة . ثم قال]: قال ابن جرير: وأولى التأويلات في ذلك بالصواب قول من قال: الروح في هذا الموضع جبريل، لأن الله، عز وجل، أخبر أنه أيد عيسى به، كما أخبر في قوله: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ الآية [المائدة: ١١٠]. فذكر أنه أيد به، فلو كان الروح الذي أيد به هو الإنجيل، لكان قوله: ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ تكرير قول لا معنى له، والله أعز أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به. قلت: ومن الدليل على أنه جبريل: ما تقدم في أول السياق؛ والله الحمد.

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

عن ابن عباس: ﴿ غُلْفٌ ﴾ أى: فى أكنة. وقال السدى: يقولون: عليها غلاف، وهو الغطاء. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿ غُلْفٌ ﴾ قال: يقول: قلبى فى غلاف فلا يخلص إليه ما تقول، وقرأ: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾. وهذا هو الذى رجحه ابن جرير، واستشهد بما روى، عن حذيفة، قال: القلوب أربعة. فذكر منها: وقلب أغلف مغضوب عليه، وذاك قلب الكافر (١). وعن ابن عباس قال: يقولون: قلوبنا غلف مملوءة، لا نحتاج إلى علم محمد، ولا غيره. وعلى هذا المعنى جاءت قراءة بعض الأنصار، فيما حكاه ابن جرير: « وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ » بضم اللام، أى: جمع غلاف، أى: أوعية، بمعنى أنهم ادعوا أن قلوبهم مملوءة بعلم لا يحتاجون معه إلى علم آخر. كما كانوا يمتنون بعلم التوراة. ولهذا قال تعالى: ﴿ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ قَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾، أى: ليس الأمر كما ادعوا بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها،

(١) رواه الطبرى موقوفا على حذيفة هكذا . وفى إسناده انقطاع، وقد جاء معناه مرفوعا متصلا من حديث أبى سعيد الخدرى . رواه أحمد فى المسند (١١١٤٦) بإسناد صحيح . وقد فصلنا تخريجه فى الطبرى (١٤٩٧).

كما قال في سورة النساء: ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٥٥] .

وقد اختلفوا في معنى قوله: ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ وقوله: ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، فقال بعضهم: فقليل من يؤمن منهم . وقيل: فقليل إيمانهم . بمعنى أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب ، ولكنه إيمان لا ينفعهم ؛ لأنه مغمور بما كفروا به من الذي جاءهم به محمد ﷺ . وقال بعضهم: إنهم كانوا غير مؤمنين بشيء ، وإنما قال: ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ وهم بالجميع كافرون ، كما تقول العرب: قلما رأيت مثل هذا قط . تريد: ما رأيت مثل هذا قط . حكاه ابن جرير ، والله أعلم .

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿ ٨٩ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ يعني اليهود ﴿ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ وهو: القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ ﴿ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ يعني: من التوراة ، وقوله: ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى: وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم ، يقولون: إنه سيبيح نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم . وروى محمد بن إسحاق: عن ابن عباس: أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه . فلما بعثه الله من العرب كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه . فقال لهم معاذ بن جبل ، وبشر بن البراء بن معرور ، وداود بن سلمة: يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك ، وتخبروننا بأنه مبعوث ، وتصفوننا لنا بصفته . فقال سلام بن مشكم أخو بنى النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكر لكم ، فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ الآية (١) .

﴿ يَسْمَا أَشْرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ﴿ ٩٠ ﴾

(١) نقله الحافظ ابن حجر في الإصابة (١٦١ / ٢) في ترجمة « داود بن سلمة » - عن تفسير ابن أبي حاتم من طريق ابن إسحاق . ثم قال : « كذا رأيت في نسخة [يعني من تفسير ابن أبي حاتم] . ووقع في نسخة أخرى : فقال لهم معاذ وبشر بن البراء أخو بنى سلمة . كذا ذكره الطبري من هذا الوجه ، فلعل الأول تصحيف » . ورواية الطبري هي في التفسير برقم (١٥٢٠) وليس فيها « وداود بن سلمة » ، بل فيها - كما قال ابن حجر: « أخو بنى سلمة » . وكذلك هو في سيرة ابن هشام (٣٧٨ ، ٣٧٩ طبعة أوربة) عن ابن إسحاق . فترجع جداً أن ذكر « داود بن سلمة » خطأ من بعض الناسخين . وظهر أن ابن كثير نقل الحديث من نسخة من ابن أبي حاتم وقع فيها الغلط ، كالتى رآها بعده ابن حجر .

قال السدي: ﴿ بِسْمًا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ﴾ يقول: باعوا به أنفسهم، يعني: بش ما اعتاضوا لأنفسهم ورضوا به وعدلوا إليه . وإنما حملهم على ذلك البغى والحسد والكراهية لـ ﴿ أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيَّ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ولا حسد أعظم من هذا. ﴿ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَيَّ غَضَبٍ ﴾ قال ابن عباس: فالغضب على الغضب: فغضبه عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهي معهم، وغضب بكفرهم بهذا النبي الذي أحدث الله إليهم (١). قلت: ومعنى ﴿ بَاءُوا ﴾: استوجبوا، واستحقوا، واستقروا بغضب على غضب.

وقوله: ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾: لما كان كفرهم سببه البغى والحسد، ومنشأ ذلك التكبر - قبولوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠]. وقد روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار، حتى يدخلوا سجنًا في جهنم، يقال له: بولس فتعلوهم نار الأنبار يسقون من طينة الخبال: عصارة أهل النار» (٢).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ ١١ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ﴿ ١٢ ﴾

ربع

يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أى: لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب ﴿ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أى: على محمد ﷺ ، صدقوه واتبعوه ﴿ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا ﴾ أى: يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ولا نفر إلا بذلك، ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾ يعنى: بما بعده ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴾ أى: وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ الحق ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ منصوب على الحال، أى: فى حال تصديقه لما معهم من التوراة والإنجيل، فالحجة قائمة عليهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٦].

قال تعالى: ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى: إن كنتم صادقين فى دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم، فلم تقتلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التى بأيديكم والحكم بها وعدم نسخها، وأنتم تعلمون صدقهم؟ قتلتموهم بغياً وعناداً واستكباراً على رسل الله، فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء، والآراء والتشهى، كما قال تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧]. وقال أبو جعفر بن جرير:

(١) خبر ابن عباس هذا محرف فى المطبوعة . وصححه من المخطوطة الأزهرية ، وهى موافقة للنص فى تفسير الطبرى (١٥٤٦).

(٢) المسند (٦٦٧٧) . وإسناده صحيح . وقد خرجناه وشرحناه هناك . و « بولس » : بضم الباء وفتح اللام وآخره سين . كما ضبطه المنرى فى الترغيب (١٨/٤ ، ١٩) .

قل يا محمد ليهود بنى إسرائيل - [الذين] (١) إذا قلت لهم: آمنوا بما أنزل الله قالوا: ﴿ تُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا ﴾ - : لم تقتلون - إن كنتم يا معشر اليهود مؤمنين بما أنزل الله عليكم - أنبياءه (٢) ، وقد حرم الله فى الكتاب الذى أنزل عليكم قتلهم ، بل أمركم فيه باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم ، وذلك من الله تكذيب لهم فى قولهم: ﴿ تُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا ﴾ ، وتعير لهم .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى : بالآيات الواضحات والدلائل القاطعة على أنه رسول الله ، وأنه لا إله إلا الله . والبيّنات هى : الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والعصا ، واليد ، وفلق البحر ، وتظليلهم بالعمام ، والمن والسلوى ، والحجر ، وغير ذلك من الآيات التى شاهدها ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ ﴾ أى : معبوداً من دون الله فى زمان موسى وآياته . وقوله : ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى : من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمٌ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حَلِيهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ﴾ [الاعراف: ١٤٨] ، ﴿ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ فى هذا الصنيع الذى صنعتموه من عبادتكم العجل ، وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا سَفَّطْنَا فِي يَدَيْهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَیَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الاعراف: ١٤٩] .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٩٤﴾

يعدد ، تبارك وتعالى ، عليهم خطاهم ومخالفتهم للميثاق وعتوهم وإعراضهم عنه ، حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه ؛ ولهذا [قال] (٣) : ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ . وقد تقدم تفسير ذلك . ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ قال قتادة : ﴿ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أشربوا حبه ، حتى خلع ذلك إلى قلوبهم . وروى أحمد : عن أبى الدرداء ، عن النبى ﷺ قال : « حُبُّ الشَّيْءِ يُعْمَى وَيُصَمُّ » . ورواه أبو داود (٤) .

وقوله : ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى : بشما تعتمدونه فى قديم الدهر وحديثه ، من كفركم بآيات الله ومخالفتكم الأنبياء ، ثم اعتمادكم فى كفركم بمحمد ﷺ . وهذا أكبر ذنوبكم ، وأشد الأمور عليكم ، إذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين المبعوث إلى الناس أجمعين ، فكيف تدعون لأنفسكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة ، من نفضكم الموثيق ، وكفركم بآيات الله ، وعبادتكم العجل من دون الله !؟

(١) الزيادة ضرورية ، من الطبرى (٢/ ٣٥٠) طبعتنا .

(٢) من قوله : « يا معشر اليهود » إلى هنا - محرف جدا فى المطبوعة . وثبت فى الأزهرية على الصواب الموافق لنص الطبرى .

(٣) الزيادة من الأزهرية .

(٤) المسند (٥/ ١٩٤ ، ٦ / ٤٥٠ حلى) وأبو داود (٥١٣٠) .

﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ ﴾
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ
 ﴿٩٥﴾ وَلَنَجْذِثُنَّ أَهْرَاصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ
 سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَّزَحٍ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

عن ابن عباس : أى : ادعوا بالموت على أى الفريقين أكذب . فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ أى : بعلمهم بما عندهم من العلم بك ، والكفر بذلك ، ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقى على الأرض يهودى إلا مات . رواه الطبرى من طريق ابن إسحاق . وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه . وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس . وروى ابن جرير عن ابن عباس ، أن النبى ﷺ قال : « لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ، ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ، ولا مالا » . ورواه الإمام أحمد (١) . وهذا الذى فسر به ابن عباس الآية هو المتعين ، وهو الدعاء على أى الفريقين أكذب : منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة ، ونقله ابن جرير عن قتادة ، وأبى العالية ، والربيع بن أنس .

ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة الجمعة : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَلَا يَتَمَنَّوَنَّهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي تُفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة: ٦ - ٨] فهم - عليهم لعائن الله - لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ، دعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم ، أو من المسلمين . فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد أنهم ظالمون ؛ لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك ، فلما تأخروا علم كذبهم . وهذا كما دعا رسول الله ﷺ ، وقد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم فى المناظرة ، وعتوهم وعنادهم إلى المباهلة ، فقال تعالى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١] فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض : والله لئن باهلتهم هذا النبى لا يبقى منكم عين تطرف . فعند ذلك جنحوا إلى السلم وبذل الجزية عن يد وهم صاغرون ، فضربها عليهم . وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح أميناً . ومثل هذا المعنى أو قريب منه قوله تعالى لنبىه ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ [مريم: ٧٥] ، أى : من كان فى الضلالة منا أو منكم ، فزاده الله مما هو فيه ومدّ له ، واستدرجه ، كما سيأتى تقريره فى موضعه ، إن شاء الله (٢) .

(١) هو فى المسند (٢٢٢٥ ، ٢٢٢٦) والطبرى (١٥٦٦) .

(٢) انظر : تفسير الآية (٦١) من سورة آل عمران ، والآية (٧٥) من سورة مريم .

وأما من فسر الآية على معنى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: فى دعواكم، فتمنوا الآن الموت. ولم يتعرض هؤلاء للمباهلة كما قرره طائفة من المتكلمين وغيرهم، ومال إليه ابن جرير - فهذا فيه نظر؛ وذلك: أنه لا تظهر الحجة عليهم على هذا التأويل، إذ يقال: لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون فى دعواهم أنهم يتمنون الموت فإنه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمنى الموت، وكمن صالح لا يتمنى الموت، بل يود أن يعمر ليزداد خيراً وترتفع درجته فى الجنة، كما جاء فى الحديث: «خيركم من طال عمره وحسن عمله» (١). ولهم مع ذلك أن يقولوا على هذا: فما أنتم تعتقدون - أيها المسلمون - أنكم أصحاب الجنة، وأنتم لا تتمنون فى حال الصحة الموت؛ فكيف تلزموننا بما لا نلزمكم؟ وهذا كله إنما نشأ من تفسير الآية على هذا المعنى، فأما على تفسير ابن عباس فلا يلزم عليه شئ من ذلك، بل قيل لهم كلام نَصَفَ: إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس، وأنكم أبناء الله وأحبأوه، وأنكم أهل الجنة ومن عداكم من أهل النار، فبأهلوا على ذلك وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة. فلما تيقنوا ذلك وعرفوا صدقه نكلوا عن المباهلة لما يعلمون من كذبهم وافتراءهم وكتمانهم الحق من صفة الرسول ﷺ ونعته، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحققونه. فعلم كل أحد باطلهم، وخزيهم، وضلالهم وعنادهم - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَمُنُّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ أى: على طول عمر، لما يعلمون من مآلهم السيئ وعاقبتهم عند الله الخاسرة؛ لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم. وما يحذرون واقع بهم لا محالة، حتى وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم. وهذا من باب عطف الخاص على العام. روى ابن أبى حاتم: عن ابن عباس: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قال: الأعاجم. وكذا رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرطهما، ولم يخرجاه. قال: وقد اتفقا على سند تفسير الصحابي (٢). وقال مجاهد: ﴿يُودُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ قال: حبيت إليهم الخطيئة طول العمر. وعن ابن عباس: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعْمَرَ﴾ أى: ما هو بمنحيه من العذاب. وذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت، فهو يحب طول الحياة وأن اليهودى قد عرف ما له فى الآخرة من الخزي بما صنع بما عنده من العلم (٣). ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أى: خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشر، وسيجازى كل عامل بعمله.

(١) انظر: شرح الترمذى (٣/٢٦٤).

(٢) يعنى: على أنه فى حكم المسند الرفوع. وهو فى المستدرک (٢/٢٦٣).

(٣) هذا القول عن ابن عباس، رواه الطبرى مفرقا (١٦٠٠، ١٥٩٠).

وقوله: « بمنحيه » : بالحاء المهملة، من التنحية. وهو الثابت فى الأزهرية والطبرى.

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بنى إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك. فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ في أمر نبوته. وروى عن ابن عباس أنه قال: حضرت عصابة من اليهود رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن خلال نسألك عنهن، لا يعلمهن إلا نبي، فقال رسول الله ﷺ: «سلوا عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعني على الإسلام». فقالوا: ذلك لك. فقال رسول الله ﷺ: «سلوني عما شئتم». فقالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن: أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟ وأخبرنا بهذا النبي الأُمى في النوم (١)؟ ومن وليه من الملائكة؟ فقال النبي ﷺ: «عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعني؟» فأعطوه ما شاء من عهد وميثاق. فقال: «نشدتكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل - يعقوب - مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه، فنذر الله نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرم من أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحمان الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها؟». فقالوا: اللهم نعم. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اشهد عليهم، وأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكراً بإذن الله، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله؟». قالوا: اللهم نعم. قال: «اللهم اشهد». [قال]: «وأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن هذا النبي الأُمى تنام عيناه ولا ينام قلبه؟». قالوا: اللهم نعم. قال: «اللهم اشهد». قالوا: أنت الآن، فحدثنا من وليك من الملائكة؟ فعندها نجمعك أو نفارقك. قال: «فإن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه». قالوا: فعندها نفارقك، ولو كان وليك سواء من الملائكة تابعناك وصدقناك. قال: «فما يمنعكم أن تصدقوه؟» قالوا: إنه عدونا. فأنزل الله عز وجل: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ ﴾ إلى قوله: ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٣] فعندها باؤوا بغضب على غضب. وقد رواه الإمام أحمد في مسنده (٢) وعبد بن حميد في تفسيره .

(١) في ابن كثير - مخطوطاً ومطبوعاً: «في التوراة! ولا معنى لها هنا، والسياق ينفيهما، وصححناه من الطبري (١٦٠٥)، والمسند (٢٥١٤)، وطبقات ابن سعد (١/١١٥، ١١٦).

(٢) رواه أحمد في المسند، مطولاً ومختصراً، بأسانيد صحاح (٢٥١٤، ٢٥١٥، ٢٤٧١، ٢٤٨٣). وذكر ابن كثير هنا رواية المسند (٢٤٨٣)، ونسبها أيضاً للترمذي والنسائي. وأعاد بعض رواياته عند تفسير الآية (٩٣) من سورة آل عمران .

وقال البخارى : قوله : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ ﴾ قال عكرمة : جبر ، وميك ، وسراف : عبد . وإيل : الله (١) . وحكاية البخارى عن عكرمة ما تقدم هو المشهور أن « إيل » هو الله . وكذا غير واحد من السلف ، ومن الناس من يقول : « إيل » عبارة عن عبد ، والكلمة الأخرى هى اسم الله ؛ لأن كلمة « إيل » لا تتغير فى الجميع ، فَوَزَانُهُ : عبد الله ، عبد الرحمن ، عبد الملك ، عبد القدوس ، عبد السلام ، عبد الكافى ، عبد الجليل . فـ « عبد » موجودة فى هذا كله ، واختلفت الأسماء المضاف إليها ، وكذلك جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ونحو ذلك ، وفى كلام غير العرب يقدمون المضاف إليه على المضاف ، والله أعلم . ثم قال ابن جرير : وقال آخرون : بل كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بين عمر بن الخطاب وبينهم فى أمر النبى ﷺ . [ثم ذكر ابن كثير خبرا فى ذلك مطولا ، من رواية الشعبى عن عمر ، نقله من تفسير الطبرى وابن أبى حاتم بإسناديهما . ثم أعلمهما بالانقطاع بين عمر والشعبى . وهو كما قال] .

وأما تفسير الآية فقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى : من عادى جبريل فليعلم أنه الروح الأمين الذى نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له فى ذلك ، فهو رسول من رسل الله ملكى . ومن عادى رسولا فقد عادى جميع الرسل ، كما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ [النساء : ١٥٠ ، ١٥١] فحكم عليهم بالكفر المحقق ، إذ آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم ، وكذلك من عادى جبريل فإنه عدو لله ؛ لأن جبريل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه ، وإنما ينزل بأمر ربه ، كما قال : ﴿ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مریم : ٦٤] وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٢ - ١٩٤] . وقد روى البخارى فى صحيحه ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب » (٢) . ولهذا غضب الله لجبريل على من عاداه ، فقال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ

(١) ضبطنا هذه الحروف على الأزهرية ، وعلى نص البخارى (٨ / ١٢٥ فتح) و (١٩ / ٦) من الطبعة السلطانية .
(٢) هكذا ساق ابن كثير - رحمه الله - الحديث ، والظاهر أنه كتبه من حفظه ، فوهم فيه فى موضعين : فالحديث حديث قدسى ، كما هو ظاهر . وهو فى البخارى (١١ / ٢٩٢ ، ٢٩٣ فتح) . ولفظه : « إن الله تعالى قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » . فال مؤلف سها حين أثبت كلمة « بارزنى » بدل « آذنته » .
ومعنى الحديث ثابت أيضا من حديث عائشة ، رواه أحمد فى المسند (٦ / ٢٥٦) . ومن حديث معاذ ، رواه ابن ماجه (٣٩٨٩) . ومن آخره ، أشار إليها الحافظ فى الفتح .

وليس المراد بـ « الولى » ما اصطلاح الناس على فهمه خطأ أنهم طائفة معينة يسمون « الأولياء » ، فإن هذا دخل عليهم من اصطلاحات الصوفية ، ثم جرى اللفظ على الألسنة بهذا المعنى الذى لا أصل له . بل « لى » هو كل مؤمن يتقى الله ويخافه ، ويعمل بما أمر ، ويتبهى عما نهى عنه - فيما استطاع . ولعلنا نزيد هذا المعنى بيانا عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ الآيات (٦٢ ، ٦٣) من سورة يونس ، إن شاء الله .

نَزَلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿٩٧﴾ أَي: مِنَ الْكُتُبِ الْمَتَّقِمَةِ ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي: هُدًى لِقُلُوبِهِمْ وَبُشْرَى لَهُمْ بِالْجَنَّةِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾، يَقُولُ تَعَالَى: مِنْ عَادَانِي وَمَلَائِكَتِي وَرُسُلِي - وَرُسُلِهِ تَشْمَلُ رُسُلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْبَشَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] - ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ، فَإِنَّهُمَا دَخَلَا فِي الْمَلَائِكَةِ، ثُمَّ عَمُومِ الرُّسُلِ، ثُمَّ خُصَّصَا بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّ السِّيَاقَ فِي الْإِنْتِصَارِ لَجِبْرِيلَ وَهُوَ السَّفِيرُ بَيْنَ اللَّهِ وَأَنْبِيَائِهِ، وَقُرْنَ مَعَهُ مِيكَالَ فِي الْلَفْظِ؛ لِأَنَّ الْيَهُودَ زَعَمُوا أَنَّ جِبْرِيلَ عَدُوَّهُمْ وَمِيكَالِيلَ وَلِيَّهُمْ، فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ مِنْ عَادَى وَاحِدًا مِنْهُمَا فَقَدَ عَادَى الْآخَرَ وَعَادَى اللَّهُ أَيْضًا؛ لِأَنَّهُ - أَيْضًا - يَنْزِلُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بَعْضُ الْأَحْيَانِ، كَمَا قُرْنَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي ابْتِدَاءِ الْأَمْرِ، وَلَكِنْ جِبْرِيلَ أَكْثَرَ، وَهِيَ وَظِيفَتُهُ، وَمِيكَالِيلَ مُوَكَّلٌ بِالنَّبَاتِ وَالْقَطْرِ، هَذَا بِالْهُدَى وَهَذَا بِالرِّزْقِ، كَمَا أَنَّ إِسْرَافِيلَ مُوَكَّلٌ بِالصُّوَرِ لِلنَّفْخِ لِلْبَعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ وَلِهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَإِسْرَافِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَاطْفِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» (١). وَفِي جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ لُغَاتٌ وَقِرَاءَاتٌ، تَذَكَّرَ فِي كُتُبِ اللُّغَةِ وَالْقِرَاءَاتِ، وَلَمْ نَطْوُلْ كِتَابَنَا هَذَا بِسَرْدِ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَدُورَ فِيهِ الْمَعْنَى عَلَيْهِ، أَوْ يَرْجِعَ الْحُكْمُ فِي ذَلِكَ إِلَيْهِ، وَبِاللَّهِ الثِّقَةُ، وَهُوَ الْمُسْتَعَانُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾: فِيهِ إِقْبَاعُ الْمُظْهَرِّ مَكَانَ الْمُضْمَرِّ حَيْثُ لَمْ يَقُلْ: فَإِنَّهُ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ. بَلْ قَالَ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾، وَإِنَّمَا أَظْهَرَ الْأِسْمَ هَهُنَا لِتَقْرِيرِ هَذَا الْمَعْنَى وَإِظْهَارِهِ، وَإِعْلَامِهِمْ أَنَّ مِنْ عَادَى أَوْلِيَاءِ اللَّهِ فَقَدَ عَادَى اللَّهَ، وَمِنْ عَادَى اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لَهُ، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ عَدُوَّهُ فَقَدَ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ.

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٨﴾ أَوْ كَلِمًا عَهْدُوا عَهْدًا بَدَدُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ بَدَدُ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وِرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾ وَأَتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سُلَيْمَنٌ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنٌ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِأَيْلٍ هَنُوتَ وَمَرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا

(١) رواه مسلم (٢١٥/١) من حديث عائشة، وكذلك رواه الترمذی (٢٣٧ / ٤) وابن ماجه (١٣٥٧).

ذَكَرُوا فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَرَجَعِهِ وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَكَّرُوا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾
 وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لِمَثُوبَةٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

قال الإمام أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أى : أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دلالات على نبوتك ، وتلك الآيات هى ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود، ومكنونات سرائر أخبارهم، وأخبار أوائلهم من بنى إسرائيل، والنبأ عما تضمنته كتبهم التى لم يكن يعلمها إلا أخبارهم وعلماؤهم، وما حرفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم، التى كانت فى التوراة. فأطلع الله فى كتابه الذى أنزله إلى نبيه محمد ﷺ ؛ فكان فى ذلك من أمره الآيات البيئات لمن أنصف نفسه، ولم يدعه إلى هلاكها الحسد والبغى، إذ كان فى فطرة كل ذى فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمد ﷺ من الآيات البيئات التى وصّف، من غير تعلم تعلمه من بشر ولا أخذ شيئاً منه عن آدمى. كما قال ابن عباس: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يقول: فأنت تتلوه عليهم وتخبرهم به غدوة وعشية، وبين ذلك، وأنت عندهم أمى لا تقرأ كتاباً ، وأنت تخبرهم بما فى أيديهم على وجهه. يقول الله: فى ذلك لهم عبرة وبيان، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون. وقال قتادة: ﴿نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾، أى: نقضه فريق منهم. وقال ابن جرير: أصل النبذ: الطرح والإلقاء، ومنه سُمى اللقيط: منبذاً، ومنه سُمى النبيذ، وهو التمر والزبيب إذا طرحا فى الماء.

قلت: فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهد التى تقدم الله إليهم فى التمسك بها والقيام بحقها. ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، الذى فى كتبهم نعتُه وصفته وأخباره، وقد أمروا فيها باتباعه ومؤازرته ومناصرتة، كما قال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]، وقال ههنا: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ الآية . أى: طرح طائفة منهم كتاب الله الذى بأيديهم، مما فيه البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم، أى: تركوها، كأنهم لا يعلمون ما فيها، وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه. ولهذا أرادوا كيداً برسول الله ﷺ وسحروه فى مُشْطٍ ومُشَاقَّةٍ وجُفٍّ طَلَعَةَ ذَكَر، تحت راعونة بثر ذى أروان. وكان الذى تولى ذلك منهم رجل، يقال له: لبيد بن الأعصم، لعنه الله؛ فأطلع الله على ذلك رسوله ﷺ، وشفاه منه وأنقذه، كما ثبت ذلك مبسوطاً فى الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين ، رضى الله عنها ، كما سيأتى بيانه (١).

وروى ابن أبى حاتم: عن ابن عباس، قال: كان آصف كاتب سليمان، وكان يعلم الاسم الأعظم، وكان يكتب كل شىء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان أخرجه الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً، وقالوا: هذا الذى كان سليمان يعمل بها.

(١) فى تفسير سورة الفلق ، إن شاء الله .

قال: فأكفره جهال الناس وسبوه، ووقف علماؤهم فلم يزل جهالهم يسبون، حتى أنزل الله على محمد ﷺ: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ (١).

وروى ابن جرير: عن عمران بن الحارث (٢) قال: بينا نحن عند ابن عباس إذ جاءه رجل فقال له: من أين جئت؟ قال: من العراق. قال: من أيه؟ قال: من الكوفة. قال: فما الخبر؟ قال: تركتهم يتحدثون أن عليا خارج إليهم! ففزع، ثم قال: ما تقول؟ لا أبا لك؟! لو شعرنا ما نكحنا نساءه، ولا قسمنا ميراثه، أما إني سأحدثكم عن ذلك: إنه كانت الشياطين يسترقون السمع من السماء، فيجئ أحدهم بكلمة حق قد سمعها، فإذا جُربَ منه صدق كذب معها سبعين كذبة، قال: فَتَشْرِبُهَا قُلُوبُ النَّاسِ. فأطلع الله عليها سليمان عليه السلام، فدفنها تحت كرسيه. فلما توفي سليمان عليه السلام قام شيطان الطريق، فقال: أفلا أدلكم على كنز الممنع الذي لا كنز له مثله؟ تحت الكرسي. فأخرجه، فقالوا: هذا سحر، فتناسخها الأمم - حتى بقاياها ما يتحدث به أهل العراق، وأنزل الله عز وجل: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ ورواه الحاكم (٣).

[ثم ذكر الحافظ ابن كثير أخبارا جمعة في هذا المعنى عن التابعين وغيرهم . ثم قال :
فهذه نبذة من أقوال أئمة السلف في هذا المقام، ولا يخفى ملخص القصة والجمع بين أطرافها، وأنه لا تعارض بين السياقات على اللبيب الفهم، والله الهادي. فقله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ أي: واتبعت اليهود - الذين أتوا الكتاب بعد إعراضهم عن كتاب الله الذي بأيديهم ومخالفتهم لرسول الله محمد ﷺ - ما تتلو الشياطين، أي: ما ترويه وتخبر به وتحدثه الشياطين على ملك سليمان. وعده بـ «على»؛ لأنه ضمن «تتلو»: تكذب. وقال ابن جرير: «على» ههنا بمعنى «في»، أي: تتلو في ملك سليمان. قلت: والتضمن أحسن وأولى، والله أعلم.

وقول الحسن البصري، رحمه الله: «قد كان السحر قبل زمان سليمان بن داود» صحيح لا شك فيه؛ لأن السحرة كانوا في زمان موسى، عليه السلام، وسليمان بن داود بعده، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى النَّارِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ الآية [البقرة: ٢٤٦]، ثم ذكر القصة بعدها،

(١) إسناده الذي نقله ابن كثير - وحذفناه - إسناده صحيح، وهذا موقوف من كلام ابن عباس. ونحن نقف فيه فلا نقول شيئا. وقد أطال ابن كثير في نقل أخبار في هذا المعنى. رحمه الله وإيانا، وغفر لنا وله.

(٢) في المطبوع من «عمدة التفسير»: «الحرث» وهي هكذا في المخطوطة، على عادة الكتابة قديما، وإنا آثرنا «الحارث» - وإن كان نطقهما واحدا - حتى لا يقع خطأ في تشكيلها ومن ثم نطقها. وقد راعينا ذلك في كل الكتاب. (الباز).

(٣) الخبر في الطبري (١٦٦٢)، وفي المستدرک للحاكم (٢/ ٢٦٥). ولم يتكلم الحاكم عليه، فلا أدري أهو هكذا، أم سقط كلامه من النسخ أو الطابع؟ وكتب الذهبي في تلخيصه بعده: «صحيح». وتصحيح الذهبي ثابت أيضا في مخطوطة مختصره التي عندي، ص ٢٧٢، وإسناده صحيح كما قال. ولكنه موقوف على ابن عباس. فنقف فيه أيضا.

وفيها: ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدَ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة: ٢٥١] . وقال قوم صالح - وهم قبل إبراهيم الخليل، عليه السلام ، لنبيهم صالح: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٣] .
وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ بَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا: إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ : اختلف الناس في هذا المقام ، فذهب بعضهم إلى أن « ما » نافية ، أعنى التى فى قوله: ﴿ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ ﴾ . وروى ابن جرير ، عن ابن عباس ، فى قوله: ﴿ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ بَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ يقول: لم ينزل الله السحر، وعن الربيع بن أنس، قال: ما أنزل الله عليهما السحر. قال ابن جرير: فتأويل الآية على هذا: واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان، ولا أنزل الله السحر على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴿ بَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ . فيكون قوله: ﴿ بَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ من المؤخر الذى معناه المقدم. قال: فإن قال لنا قائل: وكيف وجه تقديم ذلك؟ قيل: وجه تقديمه أن يقال: واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر ، وما كفر سليمان وما أنزل الله السحر على الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴿ بَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ فيكون معنيا بالملكين: جبريل وميكائيل، عليهما السلام؛ لأن سحرة اليهود - فيما ذكر - كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود ، فأكذبهم الله بذلك ، وأخبر نبيه محمداً ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر، وبرأ سليمان ، عليه السلام ، مما نحلوه من السحر ، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين ، وأنها تُعَلِّمُ الناس ذلك ببابل ، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان ، اسم أحدهما هاروت ، واسم الآخر ماروت ، فيكون « هاروت وماروت » على هذا التأويل ترجمة على « الناس » ، ورداً عليهم . هذا لفظه بحروفه .

ثم شرع ابن جرير فى رد هذا القول، وأن « ما » بمعنى الذى، وأطال القول فى ذلك، وادعى أن هاروت وماروت ملكان أنزلهما الله إلى الأرض، وأذن لهما فى تعليم السحر اختباراً لعباده وامتحاناً، بعد أن بين لعباده أن ذلك مما ينهى عنه على السنة الرسل، وادعى أن هاروت وماروت مطيعان فى تعليم ذلك؛ لأنهما امثلاً ما أمرا به . وهذا الذى سلكه غريب جداً ! وأغرب منه قول من زعم أن هاروت وماروت قبيلان من الجن ! وروى ابن أبى حاتم بإسناده . عن الضحاک بن مزاحم: أنه كان يقرؤها: ﴿ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ ﴾ ويقول: هما علجان من أهل بابل ! وَوَجَّهَ أصحابُ هذا القول الإنزالَ بمعنى الخلقِ ، لا بمعنى الإيحاء ، فى قوله: ﴿ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ [الزمر: ٦] ، ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [الحديد: ٢٥] ، ﴿ وَيُنزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴾ [غافر: ١٣] . وفى الحديث: « ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء » . وكما يقال: أنزل الله الخير والشر .

وذهب آخرون إلى الوقف على قوله: ﴿ يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ ، وروى ابن جرير: عن القاسم بن محمد، وسأله رجل عن قول الله: ﴿ يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ بَابِلَ

هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴿٩٩﴾ - فقال الرجل: يعلمان الناس السحر، ما أنزل عليهما، أو يعلمان الناس ما لم ينزل عليهما؟ فقال القاسم: ما أبالي أيتهما كانت. ثم روى أن القاسم قال في هذه القصة: لا أبالي أى ذلك كان، إنى آمنت به.

وذهب كثيرون من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء ، وأنهما أنزلا إلى الأرض ، فكان من أمرهما ما كان. وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه الإمام أحمد في مسنده كما سنورده إن شاء الله. وعلى هذا فيكون الجمع بين هذا وبين ما ورد من الدلائل على عصمة الملائكة: أن هذين سبق في علم الله لهما هذا، فيكون تخصيصاً لهما ، فلا تعارض حينئذ ، كما سبق في علمه من أمر إبليس ما سبق، وفي قول: إنه كان من الملائكة، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ [طه: ١١٦]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك. مع أن شأن هاروت وماروت - على ما ذكر - أخف مما وقع من إبليس لعنه الله.

ذكر الحديث الوارد في ذلك - إن صح سنده ورفعه - وبيان الكلام عليه:

روى الإمام أحمد بن حنبل، عن عبد الله بن عمر: أنه سمع نبي الله ﷺ يقول: «إن آدم - عليه السلام - لما أهبته الله إلى الأرض قالت الملائكة: أى رب ، ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، قالوا: ربنا، نحن أطوع لك من بنى آدم. قال الله تعالى للملائكة: هلموا ملكين من الملائكة حتى نهبطهما إلى الأرض، فننظر كيف يعملان؟ قالوا: ربنا ، هاروت وماروت. فأهبط إلى الأرض ومثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر، فجاءتهما، فسألاها نفسها! فقالت: لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الإشراف! فقالا : والله لا نشرك بالله شيئاً أبداً فذهبت عنهما ، ثم رجعت بصبي تحمله ، فسألاها نفسها ! فقالت: لا والله حتى تقتلا هذا الصبي! فقالا: لا، والله لا نقتله أبداً. فذهبت ثم رجعت بقدر خمر تحمله، فسألاها نفسها! فقالت: لا والله حتى تشربا هذا الخمر. فشربا فسكرا، فوقعا عليها، وقتلا الصبي! فلما أفاقا قالت المرأة: والله ما تركتما شيئاً مما أبيتماه على إلا قد فعلتماه حين سكرتما ! فخيروا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا». وهكذا رواه ابن حبان في صحيحه . وهذا حديث غريب من هذا الوجه، ورجاله كلهم ثقات من رجال الصحيحين، إلا موسى بن جبير ، وهو الأنصارى السلمى مولاهم المدينى الحذاء، روى عن ابن عباس وأبي أمامة بن سهل بن حنيف ، ونافع ، وعبد الله بن كعب بن مالك . وروى عنه ابنه عبد السلام ، وبكر بن مضر، وزهير بن محمد، وسعيد بن سلمة، وعبد الله بن لهيعة، وعمرو بن الحارث، ويحيى بن أيوب. وروى له أبو داود، وابن ماجه، وذكره ابن أبي حاتم في كتاب الجرح والتعديل، ولم يحك فيه شيئاً من هذا ولا هذا، فهو مستور الحال، وقد تفرد به عن نافع مولى ابن عمر، عن ابن عمر عن النبي ﷺ. وروى له متابع من وجه آخر عن نافع .

[ثم ذكر ابن كثير روايتين من تفسيرى ابن مردويه والطبرى . ثم قال : وهذان - أيضا

غريبان جداً!! وأقرب ما فى هذا أنه من رواية عبد الله بن عمر، عن كعب الأحبار، لا عن النبى ﷺ . [ثم ذكر رواية من تفسير عبد الرزاق ، عن الثورى ، عن موسى بن عقبة ، عن سالم ، عن ابن عمر ، عن كعب الأحبار . وذكر أنه رواها أيضا الطبرى وابن أبى حاتم . ثم قال :] فهذا أصح وأثبت إلى عبد الله بن عمر من الإسنادين المتقدمين، وسالم أثبت فى أبيه من مولاه نافع . فدار الحديث ورجع إلى نقل كعب الأحبار، عن كتب بنى إسرائيل، والله أعلم (١) .

[ثم أطل ابن كثير بسرد روايات عن بعض الصحابة والتابعين فى هذا المعنى ، لا يكاد العقل يقبل شيئا منها - ثم قال:] وقد روى فى قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين، كمجاهد والسدى والحسن البصرى وقتادة وأبى العالية والزهرى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم، وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين، وحاصلها راجع فى تفصيلها إلى أخبار بنى إسرائيل؛ إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها، فنحن نؤمن بما ورد فى القرآن على ما أراه الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال .

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ : عن ابن عباس، قال: فإذا أتاهما الآتى يريد السحر نهيها أشد النهى، وقالوا له: إنما نحن فتنة فلا تكفر، وذلك أنهما علما الخير والشر والكفر والإيمان، فعرفا أن السحر من الكفر . قال: فإذا أبى عليهما أمرهما أن يأتى مكان كذا وكذا ، فإذا أتاه عين الشيطان فعلمه، فإذا علمه خرج منه النور ، فنظر إليه ساطعاً فى السماء ، فيقول : يا حسرتاه ! ياويله! ماذا صنع !؟ وعن الحسن البصرى أنه قال فى تفسير هذه الآية: نَعَمْ، أنزل الملكان بالسحر، ليعلما الناس البلاء الذى أراد الله أن يتلى به الناس، فأخذ عليهما الميثاق أن لا يعلما أحداً حتى يقولوا: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ . وأما الفتنة فهى المحنة والاختبار ، وكذلك قوله تعالى إخباراً عن موسى، عليه السلام، حيث قال: ﴿ إِنَّ

(١) حديث ابن عمر - المرفوع - الذى ذكره ابن كثير من رواية أحمد - هو فى المسند (٦١٧٨) . وقد نقلنا كلام ابن كثير الذى هنا فى تعليقه . وفصلنا القول فى ضعفه جداً . وأشرنا إلى مخالفته الواضحة للعقل ، لا من جهة عصمة الملائكة القطعية ، بل من ناحية أن الكوكب الذى نراه صغيراً فى عين الناظر قد يكون حجمه أضعاف حجم الكرة الأرضية بالآلاف المؤلفة من الأضعاف . فأنى يكون جسم المرأة الصغير إلى هذه الأجرام الفلكية الهائلة !! . . . ونزيد هنا دليلاً على ضعف رواية المسند هذه : أن فى أولها أن قول الملائكة: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ . . . إلخ - كان بعد إهباط آدم إلى الأرض . وهو مخالف صراحة لنص الكتاب العزيز ، كما مضى فى الآيات (٣٠ - ٣٨) أن قولهم هذا كان قبل خلق آدم ، وقبل أمرهم بالسجود له . وأن إهباطه هو وحواء كان بعد أكلهما من الشجرة .

وقد بينا أيضاً وهى هذه الأخبار فيما علقنا به فى تفسير الطبرى على الحديث (١٦٨٨) .

وكنى على أن أحذف هذا الحديث أيضا من هذا الكتاب (عمدة التفسير) - على ما شرطت فى المقدمة ، ص ١١ . ولكنى رأيت أن معناه يدور على السنة الناس ، وتجربى به أقلامهم ، وأنه يجب على البيان . فعملت الذى هو خير ، ثم نفيت سائر الروايات التى أطل الحافظ ابن كثير بذكرها ، وإن لم يقصر فى الكشف عن عوارها . رحمه الله .

هِيَ إِلَّا فِتْنَتَكَ ﴿١٥٥﴾ أى : ابتلاؤك واختبارك وامتحانك ﴿ تَضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ [الاعراف : ١٥٥]. وقد استدل بعضهم بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر، ويُسْتَشْهَدُ له بالحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عبد الله، قال: من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ. وإسناده جيد، وله شواهد أخر (١).

وقوله تعالى: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ أى : فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرفون به فيما يتصرفون فيه من الأفاعيل المذمومة - ما إنهم ليفرّقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والالتلاف . وهذا من صنيع الشياطين ، كما روى مسلم عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ، قال: «إن الشيطان ليضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه فى الناس، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة، يجرى أحدهم فيقول: مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا. فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئاً. ويجرى أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله، قال: فيقربه ويدنيه ويلتزمه، ويقول: نعم أنت (٢). وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر: بالخيل إلى الرجل (٣) أو المرأة من الآخر من سوء منظر، أو خلق أو نحو ذلك أو عقد أو بغضة، أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة. و« المرء » عبارة عن الرجل، وتأتيه « امرأة »، ويشئى كل منهما ولا يجمعان، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ : قال سفيان الثوري: إلا بقضاء الله. وقال محمد بن إسحاق إلا بتخلية الله بينه وبين ما أراد. وقوله تعالى: ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا

(١) عبد الله : هو ابن مسعود . والحديث ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب (٤/٥٣) عنه بنحوه . وقال : « رواه البزار وأبو يعلى ، بإسناد جيد ، موقوفاً » . ثم ذكره بعده - بنحوه أيضاً - وقال : « رواه الطبرانى فى الكبير ، ورواته ثقات » . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٥/ ١١٨) . وقال: « رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح ، خلا هبيرة بن يريم ، وهو ثقة » .

وإسناد البزار - الذى ذكره ابن كثير هنا - ليس من رواية « هبيرة بن يريم » عن ابن مسعود . بل هو من رواية « همام » وهو ابن الحارث النخعي التابعى الكبير الثقة - عن ابن مسعود . فظاهر أن البزار رواه بإسنادين من الوجهين .

وهذا الحديث ، وإن كان موقوفاً فى ظاهره ، فإن معناه الرفع يقيناً ؛ لأن حكم الصحابى بأن هذا العمل كفر - مما لا يقال بالرأى ولا يؤخذ بقياس . كما هو ظاهر .

(٢) الحديث فى مسلم (٢/٣٤٦) مع اختلاف قليل فى اللفظ ، لعله اختلاف نسخ . وقوله فى آخره : « نعم أنت ضابطه النووي فى شرحه (١٧/ ١٥٧) : « بكسر النون وإسكان العين ، وهى نعم - الموضوعة للمدح » ، ولكن ضبط هنا فى المخطوطة الأزهرية بكسرة تحت النون ، أى كما ضبطه النووي - وبفتحة فوقها أيضاً ، وكتب عليها « معاً » يعنى بالضبطين . فتكون « نعم » التى للجواب ، بسكون الميم . وهى جيدة المعنى هنا . كأنه يقول له : نعم، أنت الذى أجدت فعلتك منهم .

(٣) الخيل - بفتح الحاء وسكون الياء : مصدر « خال الشيء يخاله خيلاً » أى : ظنه . وفى المطبوعة : « ما يخيل » وكأنه تصرف من ناسخ أو طابع . والأصل صحيح سليم المعنى .

يَنْفَعُهُمْ ﴿١﴾ أى: يضرهم فى دينهم، وليس له نفع يوازى ضرره. ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ أى: ولقد علم اليهود الذى استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسل لَمَنْ فعل فعلهم ذلك ، أنه ماله فى الآخرة من خلاق . قال ابن عباس: من نصيب .

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ مَا شُرِئَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾: يقول تعالى: ولبئس البديل ما استبدلوا به من السحر عوضاً عن الإيمان، ومتابعة الرسل ، لو كان لهم علم بما وعظوا به ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ أى: ولو أنهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم، لكان مثوبة الله على ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص : ٨٠] . وقد يستدل بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ من ذهب إلى تكفير الساحر، كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وقول طائفة من السلف. وقيل: بل لا يكفر، ولكن حذَه ضَرَبُ عنقه، لما رواه الشافعى وأحمد بن حنبل، عن بَجَّالَةَ بن عَبْدَةَ يقول: كتب عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر. وقد أخرجه البخارى فى صحيحه أيضاً (١) . وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين سحرتها جارية لها، فأمرت بها فقتلت. قال الإمام أحمد بن حنبل: صح عن ثلاثة من أصحاب النبى ﷺ فى قتل الساحر. وروى الترمذى عن جُنْدَب الأزدى أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حد الساحر ضَرْبُهُ بالسيف». ثم قال: لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه. وإسماعيل بن مسلم يُضَعِّفُ فى الحديث، والصحيح: عن الحسن عن جندب مرفوعاً. والله أعلم (٢).

فصل: حكى أبو عبد الله الرازى فى تفسيره عن المعتزلة أنهم أنكروا وجود السحر، قال: وربما كفروا من اعتقد وجوده. قال: وأما أهل السنة فقد جَوَّزُوا أن يقدر الساحر أن يطير فى الهواء، ويقلب الإنسان حماراً، والحمار إنساناً ! إلا أنهم قالوا: إن الله يخلق الأشياء عندما يقول الساحر تلك الرقى والكلمات المُعَيَّنَة، فأما أن يكون المؤثر فى ذلك هو الفلك والنجوم فلا، خلافاً للفلاسفة والمنجمين والصابئة، ثم استدل على وقوع السحر وأنه بخلق الله تعالى، بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِبِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ومن الأخبار بأن رسول الله ﷺ سحر، وأن

(١) هو جزء من حديث طويل ، فى المسند (١٦٥٧) ، والبخارى (١٨٤ / ٦) ، (١٨٥ فتح) وتخريجه مفصل فى شرح المسند .

(٢) الحديث فى الترمذى (٢ / ٣٣٨) ، ورواه أيضاً الحاكم (٤ / ٣٦٠) وقال : « هذا حديث صحيح الإسناد، وإن كان الشيخان تركا حديث إسماعيل بن مسلم فإنه غريب صحيح ». ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٨ / ١٣٦) وأعله بإسماعيل . و « إسماعيل بن مسلم المكى » : ليس ضعيفا ، كما قال الترمذى والبيهقى . بل حديثه حسن ، ومن تكلم فيه فإنما تكلم من قبل حفظه . وأثنى عليه جداً محمد بن عبد الله الأنصارى، فرجحه على يونس بن عبيد ، وشهد له بحفظ الحديث - كما فى ترجمته فى طبقات ابن سعد (٧ / ٢ / ٣٤) . وقد حسن له الترمذى حديثاً آخر . وقال : « وقد تكلم الناس فى إسماعيل بن مسلم المكى من قبل حفظه ». انظر شرحنا للترمذى (١ / ٤٥٢ - ٤٥٤) .

السحر عَمِلَ فِيهِ . [ثم قال الرازي] : إن العلم بالسحر ليس بقبیح ولا محظور: اتفق المحققون على ذلك؛ لأن العلم لذاته شريف ! وأيضاً لعموم قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]؛ ولأن السحر لو لم يُعَلِّمْ لما أمكن الفرق بينه وبين المعجزة!، والعلم بكون المعجز مُعْجِزاً واجب، وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب!! فهذا يقتضى أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجباً، وما يكون واجباً فكيف يكون حراماً وقبيحاً؟!

هذا لفظه بحروفه فى هذه المسألة، وهذا الكلام فيه نظر من وجوه، أحدها: قوله: «العلم بالسحر ليس بقبیح». إن عنى به ليس بقبیح عقلاً، فمخالفة من المعتزلة بمنعون هذا، وإن عنى أنه ليس بقبیح شرعاً، ففى هذه الآية الكريمة تشبيح لتعلم السحر، وفى الصحيح: «من أتى عرفاً أو كاهناً، فقد كفر بما أنزل على محمد». وفى السنن: «من عَدَّ عَقْدَةً ونَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ». وقوله: «ولا محظور اتفق المحققون على ذلك». كيف لا يكون محظوراً مع ما ذكرناه من الآية والحديث؟! واتفق المحققين يقتضى أن يكون قد نص على هذه المسألة أئمة العلماء أو أكثرهم، وأين نصوصهم على ذلك؟ ثم إدخاله على السحر فى عموم قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فيه نظراً! لأن هذه الآية إنما دلت على مدح العالمين بالعلم الشرعى، وكلم قلت إن هذا منه؟ ثم ترقبه إلى وجوب تعلّمه بأنه لا يحصل العلم بالمعجز إلا به - ضعيف بل فاسد؛ لأن أعظم معجزات رسولنا، عليه الصلاة والسلام، هى القرآن العظيم، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. ثم إن العلم بأنه معجز لا يتوقف على علم السحر أصلاً، ثم من المعلوم بالضرورة أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامتهم، كانوا يعلمون المعجز، ويفرقون بينه وبين غيره، ولم يكونوا يعلمون السحر ولا تعلّموه ولا علّموه، والله أعلم.

[ثم نقل الحافظ ابن كثير عن الفخر الرازي فصلاً طويلاً فى أنواع السحر، لا نرى لذكره فائدة، ولا طائل تحته، إلا نوعين (١) مما ذكر. نرى من الفائدة إثباتهما؛ لابتلاء كثير من الناس فى هذا العصر ببعض ما فيهما، بما تركوا من علم الشريعة، وبما اتبعوا من الهوى : من السحر: الأعمال العجيبة التى تظهر من تركيب الآلات المركبة من النسب الهندسية، كفارس على فرس فى يده بوق، كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق، من غير أن يمسه أحد. ومنها الصور التى تُصَوَّرُها الروم والهند، حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان، حتى يصورونها ضاحكة وباكية. إلى أن قال: فهذه الوجوه من لطيف أمور المخايل. قال: وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل. قلت: يعنى ما قاله بعض المفسرين: إنهم عمدوا إلى تلك الحبال والعصى، فحشوها زبناً فصارت تتلوى بسبب ما فيها من ذلك الزئبق، فيخيل إلى الراى أنها تسعى باختيارها.

(١) ما أبناه الشيخ - رحمه الله - ثلاثة أنواع، كما هو واضح . (الباز) .

قال الرازي: ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات، ويندرج في هذا الباب علم جرّ الأثقال بالآلات الخفيفة. قال: وهذا في الحقيقة لا ينبغي أن يعد من باب السحر؛ لأن لها أسباباً معلومة يقينية، من اطلع عليه قدر عليها. قلت: ومن هذا القبيل حيل النصارى على عامتهم، بما يُروْنهم إياه من الأنوار، كقضية قمامة الكنيسة التي لهم ببلد المقدس، وما يحتالون به من إدخال النار خفية إلى الكنيسة، وإشعال ذلك القنديل بصنعة لطيفة تروج على العوام منهم، وأما الخواص فهم يعترفون بذلك، ولكن يتأولون أنهم يجمعون شمل أصحابهم على دينهم، فيرون ذلك سائغاً لهم. وفيه شبه للجهلة الأغبياء من متعبدى الكرامة، الذين يرون جواز وضع الأحاديث في الترغيب والترهيب، فيدخلون في عداد من قال رسول الله ﷺ فيهم: «من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار». وقوله: «حدثوا عنى ولا تكذبوا علىّ فإنه من يكذب علىّ يلج النار».

ثم ذكر ههنا حكاية عن بعض الرهبان، وهو: أنه سمع صوت طائر حزين الصوت ضعيف الحركة، فإذا سمعته الطيور ترق له فتذهب فتلقى في وكره من ثمر الزيتون، ليتبلغ به، فعمد هذا الراهب إلى صنعة طائر على شكله، وتوصل إلى أن جعله أجوف، فإذا دخلته الريح يسمع منه صوت كصوت ذلك الطائر، وانقطع في صومعة ابتناها، وزعم أنها على قبر بعض صالحهم، وعلق ذلك الطائر في مكان منها، فإذا كان زمان الزيتون فتح باباً من ناحية، فتدخل الريح إلى داخل هذه الصورة، فيسمع صوتها كذلك الطائر في شكله أيضاً، فتأتى الطيور فتحمل من الزيتون شيئاً كثيراً فلا ترى النصارى إلا ذلك الزيتون في هذه الصومعة، ولا يدرون ما سببه!! ففتنتهم بذلك، وأوهم أن هذا من كرامات صاحب هذا القبر، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

ومن السحر: الاستعانة بخواص الأدوية يعنى في الأطعمة والدهانات. قال: واعلم أنه لا سبيل إلى إنكار الخواص، فإن أثر المغناطيس مشاهد. قلت: يدخل في هذا القبيل كثير ممن يدعى الفقر ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواص، مدعياً أنها أحوال له، من مخالطة النيران ومسك الحيات إلى غير ذلك من المحالات.

ومن السحر: تعليق القلب، وهو أن يدعى الساحر أنه عرف الاسم الأعظم، وأن الجن يطيعونه ويتقادون له في أكثر الأمور، فإذا اتفق أن يكون السامع ضعيف العقل قليل التمييز، اعتقد أنه حق، وتعلق قلبه بذلك، وحصل في نفسه نوع من الرهب والمخافة، فإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة، فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل ما يشاء. قلت: هذا النمط يقال له التنبلة، وإنما يروج على الضعفاء العقول من بنى آدم. وفي علم الفراسة ما يرشد إلى معرفة كامل العقل من ناقصه، فإذا كان المتنبّل حاذقاً في علم الفراسة عرف من ينقاد له من الناس من غيره.

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾

نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين فى مقالهم وفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يُعَاتُونَ من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقص - عليهم لعائن الله - فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا. يقولون: راعنا. يورون بالرعونة، كما قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا لِيَا بِالسُّنْتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلُوا أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْرَبَ وَلَكِن لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦] وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم، بأنهم كانوا إذا سلّموا إنما يقولون: السام عليكم . والسام هو: الموت . ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ «وعليكم». وإنه يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا. والغرض: أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . وروى الإمام أحمد: عن ابن عمر، رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت بين يدي الساعة بالسيف، حتى يُعبد الله وحده لا شريك له. وجعل رزقى تحت ظل رمحى، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمرى، ومن تشبه بقوم فهو منهم» (١). وروى أبو داود: « من تشبه بقوم فهو منهم » (٢). ففيه دلالة على النهى الشديد والتهديد والوعيد، على التشبه بالكفار فى أقوالهم وأفعالهم، ولباسهم وأعيادهم، وعبادتهم وغير ذلك من أمورهم التى لم تشرع لنا ولم تُقر عليها (٣).

وعن ابن عباس: ﴿رَاعِنًا﴾ أى: أرعنا سمعك. وعنه أيضا قال: كانوا يقولون للنبي ﷺ: أرعنا سمعك. وإنما ﴿رَاعِنًا﴾ كقولك: عاطنا (٤). وقال عطاء: كانت لغة يقولها الأنصار فنهى الله عنها. وقال الحسن: الراعن من القول: السخرى منه. نهاهم الله أن يسخروا من قول محمد ﷺ، وما يدعوههم إليه من الإسلام. وكذا روى عن ابن جرير أنه قال مثله. قال ابن جرير: والصواب من القول فى ذلك عندنا: أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبىه ﷺ: راعنا؛ لأنها كلمة كرهها الله

(١) المسند (٥١١٤، ٥١١٥، ٥٦٦٧). وهو فى مجمع الزوائد (٢٦٧/٥، ٦ / ٤٩). وذكره الحافظ فى الفتح (٦/ ٧٢) عن رواية المسند .

(٢) هذا جزء من الحديث السابق . وهو فى أبى داود (٤٠٣١) .

(٣) فانظر إلى ما يفعل المسلمون - بل المتسبون للإسلام - فى عصرنا، من التشبه بالكفار فى كل شىء، حتى ليريد الوقحاء من الكتاب أن يدخلوا شعائرهم أو ما يشبهها فى عبادتنا . وحتى ضربوا على أنفسهم الذلة والصغار، باصطناع تشريع أوربية الوثنية الملحدة فى قوانينهم الوضعية المجرمة الكافرة . أعاذنا الله من الفتن، وأعاد للمسلمين عقولهم ودينهم.

(٤) رواه الطبرى (١٧٣١) بإسناد ضعيف .

تعالى أن يقولوها لنيبه ﷺ، نظير الذي ذكر عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقولوا للعنب الكرم، ولكن قولوا: الحَبَلَّة. ولا تقولوا: عبدى، ولكن قولوا: فتاى» (١). وما أشبه ذلك.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَرُدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يبين تعالى بذلك شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين، الذين حذّر تعالى من مشابهتهم للمؤمنين؛ لقطع المودة بينهم وبينهم. وبينه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل، الذى شرعه لنيبه محمد ﷺ، حيث يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِمَّا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ ذُبُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

قال ابن عباس: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾: ما نبدل من آية . وقال السدى: نسخها: قبضها. وقال ابن أبي حاتم: يعنى: قبضها: رفعها، مثل قوله: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة. وقوله: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثاً». وقال ابن جرير: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾: ما ننقل من حكم آية إلى غيره فنبدله ونغيره، وذلك أن يُحوّل الحلال حراماً، والحرام حلالاً، والمباح محظوراً، والمحظور مباحاً. ولا يكون ذلك إلا فى الأمر والنهى والحظر والإطلاق والمنع والإباحة. فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ. وأصل النسخ من نسخ الكتاب، وهو نقله من نسخة إلى أخرى غيرها، فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره: إنما هو تحويله ونقل عبادة إلى غيرها . وسواء نسخ حكمها أو خطها ، وهى فى كلتا حالتها منسوخة . وأما علماء الأصول فاختلفت عباراتهم فى حد النسخ، والأمر فى ذلك قريب ؛ لأن معنى النسخ الشرعى معلوم عند العلماء. ولخص بعضهم: أنه رفع الحكم بدليل شرعى متأخر. فاندرج فى ذلك نسخ الأخرى بالأثقل ، وعكسه ، والنسخ لا إلى بدل . وأما تفاصيل أحكام النسخ وذكر أنواعه وشروطه فمبسوط فى فن أصول الفقه.

وقوله تعالى: ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾: فقرأ على وجهين : « نُنسِهَا وَنُنسِهَا ». فأما من قرأها : « نُنسِهَا » - بفتح النون والهمزة بعد السين - فمعناه: نؤخرها. قال ابن عباس: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ يقول: ما نبدل من آية ، أو نتركها لا نبدلها . وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود: ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾: ثبت خطها ونبدل حكمها. وقال أبو العالية: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ أى: نؤخرها عندنا . وأما على قراءة : ﴿ أَوْ نُنسِهَا ﴾ فقال قتادة : كان الله عز وجل ينسى نبيه ما يشاء، وينسخ ما يشاء.

(١) هذان حديثان ، ذكرهما الطبرى بدون إسناد (١٧٣٩ ، ١٧٤٠) . وأولهما رواه أحمد فى المسند (٨٥٠٩) عن أبى هريرة ، ورواه الشيخان وغيرهما . وثانيهما رواه الشيخان عن أبى هريرة أيضا . انظر : الفتح (٥) ١٢٨ - ١٣١) (صحيح مسلم (٢ / ١٩٧) .

وروى ابن جرير: عن القاسم بن ربيعة قال: سمعت سعد بن أبي وقاص يقرأ: « ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسأها » قال: قلت له: فإن سعيد بن المسيب يقرأ: « أَوْ نُنسأها ». قال: فقال سعد: إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب، قال الله، جل ثناؤه: ﴿ سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ [الأعلى: ٦] ﴿ وَأَذْكُرُ بِكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف: ٢٤] . وكذا رواه عبد الرزاق، وأخرجه الحاكم وقال: على شرط الشيخين، ولم يخرجاه (١). قال ابن أبي حاتم: وروى عن محمد بن كعب، وقتادة، وعكرمة، نحو قول سعيد.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: قال عمر: على أقضانا، وأبى أقرؤنا. وإنما لندع من قول أبى، وذلك أن أبيا يقول: ما أَدْعُ شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ، والله يقول: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسأها نأت بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ . ورواه البخارى بنحوه (٢).

وقوله: ﴿ نأت بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ أى: فى الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين، وقال أبو العالية: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ فلا نعمل بها، ﴿ أَوْ نُنسأها ﴾ أى: نرجئها عندنا، نأت بها أو نظيرها. وقال قتادة: ﴿ نأت بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ يقول: آية فيها تخفيف، فيها رخصة، فيها أمر، فيها نهى.

وقوله: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾: يرشد تعالى بهذا إلى أنه المتصرف فى خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر وهو المتصرف، فكما يخلقهم كما يشاء، يسعد من يشاء، ويشقى من يشاء، ويصح من يشاء، ويمرض من يشاء، ويوفق من يشاء، ويخذل من يشاء، كذلك يحكم فى عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء، ويحرم ما يشاء، ويبيح ما يشاء، ويحظر ما يشاء، وهو الذى يحكم ما يريد لا معقب لحكمه. ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون. ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التى يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى. فالطاعة كل

(١) رواه الطبرى بثلاثة أسانيد (١٧٥٥ - ١٧٥٧) وأحدهما من طريق عبد الرزاق، وهو فى تفسير عبد الرزاق، ص ١١٠ (مخطوط مصور عندى) . ورواية الحاكم فى المستدرک (٢/٢٤٢).

والذى فى رواية تفسير عبد الرزاق ورواية الحاكم أن قراءة سعد بن أبى وقاص « أو نُنسأها » ، وقراءة ابن المسيب « أو نُنسأها » وهو الثابت فى مخطوطة مختصر المستدرک للذهبي، ص ٢٦٥. وهذا - عندى - هو الصواب، خلافاً لما ثبت فى طبعتنا للطبرى ومطبوعة ابن كثير ومخطوطة الأزهر - لأنه هو المناسب لسياق الكلام، لا يفهم على وجهه إلا به .

وقد نقل الحافظ ابن حجر فى الفتح (٨ / ١٢٧ ، ١٢٨) هذا الخبر، فقال: « وأما قراءة من قرأ بضم أوله فمن النسيان، وكذلك كان سعيد بن المسيب يقرؤها، فأنكر عليه سعد بن أبى وقاص - أخرجه النسائى وصححه الحاكم . وكانت قراءة سعد « أو نُنسأها » بفتح المثناة، خطاباً للنبي ﷺ، واستدل بقوله تعالى: ﴿ سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ . وهو يوافق ما رجحنا فى قراءة ابن المسيب . وأما قراءة سعد فلا تتجه على النحو الذى ضبطه الحافظ مع الاستدلال بالأية . وإنما تتجه على ما أثبتنا، أنها « نُنسأها » ، أى: تؤخرها .

(٢) هو فى المسند (٥ / ١١٣ حلى)، والبخارى (٨ / ١٢٧ فتح) .

الطاعة في امتثال أمره واتباع رسله في تصديق ما أخبروا. وامتثال ما أمروا. وترك ما عنه زجروا. وفي هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ، لكفر اليهود وتزييف شبهتهم - لعنهم الله- في دعوى استحالة النسخ إما عقلا، كما زعمه بعضهم جهلا وكفراً، وإما نقلا كما تخرصه آخرون منهم افتراء وإفكا.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: فتأويل الآية: ألم تعلم يا محمد أن لى ملك السموات والأرض وسلطانها دون غيرى، أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأنهى عما أشاء، وأنسخ وأبدل وأغير من أحكامى التى أحكم بها فى عبادى بما أشاء إذا أشاء، [وأقر فيهما ما أشاء] (١). ثم قال: وهذا الخبر وإن كان من الله تعالى خطاباً لنبيه ﷺ على وجه الخبر عن عظمته - فإنه منه تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد، عليهما الصلاة والسلام، لمحيثهما بما جاء به من عند الله بتغيير ما غير الله من حكم التوراة. فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانهما، وأن الخلق أهل مملكته وطاعته وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرهم بما يشاء، ونهيهما عما يشاء، ونسخ ما يشاء، وإقرار ما يشاء، وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيه.

قلت: الذى يحمل اليهود على البحث فى مسألة النسخ، إنما هو الكفر والعناد، فإنه ليس فى العقل ما يدل على امتناع النسخ فى أحكام الله تعالى؛ لأنه يحكم ما يشاء كما يفعل ما يريد، مع أنه قد وقع ذلك فى كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه، ثم حرم ذلك، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثم نسخ حل بعضها، وكان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل وبنيه، وقد حرم ذلك فى شريعة التوراة وما بعدها، وأشياء كثيرة يطول ذكرها، وهم يعترفون بذلك ويصدفون عنه! وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية، فلا يصرف الدلالة فى المعنى، إذ هو المقصود، كما فى كتبهم مشهورا من البشارة بمحمد ﷺ والأمر باتباعه، فإنه يفيد وجوب متابعتة، عليه السلام، وأنه لا يقبل عمل إلا على شريعته. وسواء قيل: إن الشرائع المتقدمة مُعَيَّاة إلى بعثته، عليه السلام، فلا يسمى ذلك نسخاً كقوله: ﴿ ثُمَّ أْتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وقيل: إنها مطلقة، وإن شريعة محمد ﷺ نسختها، فعلى كل تقدير فوجوب متابعتة متعين لأنه جاء بكتاب هو آخر الكتب عهداً بالله تبارك وتعالى.

وقال أبو مسلم الأصبهاني المفسر: لم يقع شيء من ذلك فى القرآن! وقوله ضعيف مردود مردول. وقد تعسف فى الأجوبة عما وقع من النسخ! فمن ذلك: قضية العدة بأربعة أشهر وعشر بعد الحول، لم يجب على ذلك بكلام مقبول، وقضية تحويل القبلة إلى الكعبة، عن بيت المقدس ولم يجب بشيء، ومن ذلك: نسخ مصابرة المسلم لعشرة من الكفرة إلى مصابرة

(١) الزيادة من الأزهرية والطبرى .

الاثنين، ومن ذلك نسخ وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ وغير ذلك، والله أعلم (١).

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [١٠٨]

نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة، عن كثرة سؤال النبي ﷺ عن الأشياء قبل كونها، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ الْقُرْآنُ تَبَدَّلَ لَكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠١] أى: وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم، ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه؛ فلعله أن يحرم من أجل تلك المسألة. ولهذا جاء في الصحيح: «إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْماً مَنْ سَأَلَ عَنَ شَيْءٍ لَمْ يَحْرَمْ، فَحَرَمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ». ولما سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يَجِدُ مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا، فَإِنْ تَكَلَّمَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ عَنِ مِثْلِ ذَلِكَ؛ فَكَرِهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَسْأَلَةَ وَعَابَهَا. ثم أنزل الله تعالى حكم الملاعنة. ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة: أن رسول الله ﷺ كان ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال. وفي صحيح مسلم: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه». وهذا إنما قاله بعد ما أخبرهم أن الله كتب عليهم الحج. فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ ثلاثاً. ثم قال، عليه السلام: «لا، ولو قلت: نعم لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم». ثم قال: «ذروني ما تركتكم» الحديث. وهكذا قال أنس بن مالك: نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنَ شَيْءٍ، فَكَانَ يَعْجِبُنَا أَنْ يَأْتِيَ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَيَسْأَلُهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ. وروى أبو يعلى الموصلي عن البراء بن عازب، قال: إن كان ليأتني على السنة أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن شيء فأتھيب منه، وإن كنا لتتمنى الإعراب (٢). وروى البزار: عن ابن عباس، قال: ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد ﷺ؛ ما سألوه إلا عن اثنتي عشر مسألة، كلها في القرآن: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ [البقرة: ٢١٩]، و ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشُّهْرِ الْحَرَامِ ﴾ [البقرة: ٢١٧]، و ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى ﴾ [البقرة: ٢٢٠] يعنى: هذا وأشباهه (٣).

(١) رأى أبى مسلم الأصبهاني الرد عليه - لم يذكر في الأزهرية . وأثبتناه لجودته وإتقانه ، ولما يتجه إليه كلام المجددين في هذا العصر !! للانتصار لهذا الرأي « الضعيف المردول » ، اجتهاداً منهم ، زعموا !! وقد كتب أستاذنا السيد رشيد رضا بهامش هذا الموضوع دفاعاً عن أبى مسلم ضعيفاً لا طائل تحته .

(٢) لم أجده في مجمع الزوائد . وإسناده صحيح .

(٣) رواه أيضا الدارمي (١ / ٥٠ ، ٥١) . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١ / ١٥٨ ، ١٥٩) ، ولكن عندهما « عن ثلاث عشرة مسألة » . وقال الهيثمي : « رواه الطبراني في الكبير ، وفيه عطاء بن السائب ، وهو ثقة ، ولكنه اختلط ، وبقية رجاله ثقات » . فلم ينسبه للبزار مع الطبراني ، ولعله سهو منه . وإسناد الدارمي وإسناد البزار الذى نقله ابن كثير - هما من طريق « ابن فضيل عن عطاء » . وابن فضيل سمع من عطاء بعد اختلاطه . فيكون هذا الإسناد حسناً .

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلِ ﴾ أى: بل تريدون. أو هى على بابها فى الاستفهام، وهو إنكارى، وهو يعم المؤمنين والكافرين، فإنه، عليه السلام، رسول الله إلى الجميع، كما قال تعالى: ﴿ يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ [النساء: ١٥٣]. والمراد: أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شىء، على وجه التعنت والافتراح، كما سألت بنو إسرائيل موسى، عليه السلام، تعنتاً وتكديباً وعناداً، قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبَدِّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ ﴾ أى: ومن يشتر الكفر بالإيمان ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أى: فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد لهم، إلى مخالفتهم وتكذيبهم والافتراح عليهم بالأسئلة التى لا يحتاجون إليها، على وجه التعنت والكفر، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَنَسَّ الْقَرَارَ ﴾ [إبراهيم: ٢٨ ، ٢٩].

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طرأق الكفار من أهل الكتاب، ويعلمهم بعداوتهم لهم فى الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم. ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو والاحتمال، حتى يأتى أمر الله من النصر والفتح. ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. ويحثهم على ذلك ويرغبهم فيه، كما روى محمد بن إسحاق، عن ابن عباس، قال: كان حبي بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود للعرب حسداً، إذ خصهم الله برسوله ﷺ، وكانا جاهدين فى رد الناس عن الإسلام ما استطاعا، فأنزل الله فيهما: ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ ﴾ الآية. ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ قال ابن عباس: من بعد ما أضاء لهم الحق، لم يجهلوا منه شيئاً، ولكن الحسد حملهم على الجحود، فعيروهم وببخهم ولاهمهم أشد الملامة، وشرع لنبيه ﷺ وللمؤمنين ما هم عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل عليهم وما أنزل من قبلهم، بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم. وقال أبو العالية: ما تبين لهم أن محمداً رسول الله يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل، فكفروا به حسداً وبيغياً؛ إذ كان من غيرهم.

وقوله تعالى: ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿ وَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١١٨٦]. قال ابن عباس فى قوله: ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهَ بِأَمْرِهِ ﴾ نسخ ذلك قوله: ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ [التوبة: ٥]، وقوله: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ

مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ [التوبة: ٢٩] فَسَخَّ هذا عفوه عن المشركين . قتادة ، والسدى : إنها منسوخة بآية السيف ، ويرشد إلى ذلك أيضاً قوله : ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ . وروى ابن أبي حاتم : عن أسامة بن زيد قال : كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب ، كما أمرهم الله ، ويصبرون على الأذى ، قال الله : ﴿ فَأَعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وكان رسول الله ﷺ يتأول من العفو ما أمره الله به ، حتى أذن الله فيههم بقتل ، فقتل الله به من قتل من صناديد قريش . وإسناده صحيح ، ولم أره في شيء من الكتب الستة ، ولكن له أصل في الصحيحين عن أسامة بن زيد (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزُّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ يحثهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة ، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، حتى يمكن لهم الله النصر في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: ٥٢] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ . يعنى : أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل ، ولا يضيع لديه ، سواء كان خيراً أو شراً ، فإنه سيجازى كل عامل بعمله . وقال أبو جعفر بن جرير في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ : هذا الخبر من الله للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين ، أنهم مهما فعلوا من خير أو شر ، سرا أو علانية - فهو به بصير لا يخفى عليه منه شيء ، فيجزئهم بالإحسان خيراً ، وبالإساءة مثلاً . وهذا الكلام وإن كان قد خرج مخرج الخبر ، فإن فيه وعداً ووعيداً وأمرأ وزجراً . وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ليجدوا في طاعته إذ كان ذلك مدخراً لهم عنده ، حتى يثيبهم عليه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ، وليحذروا معصيته . قال : وأما قوله : ﴿ بَصِيرٌ ﴾ فإنه « مبصر » صرف إلى « بصير » ، كما صرف « مبدع » إلى « بديع » ، و« مؤلم » إلى « أليم » ، والله أعلم .

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرِيَّةُ عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرِيَّةُ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

(١) هذا الحديث رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن أبي اليمان . وهو قطعة من حديث طويل ، رواه البخارى (٨ / ١٧٣ - ١٧٥ فتح) . ورواه مسلم أيضا . ولكن ظن الحافظ ابن كثير أنه حديث مستقل ، فكاد ينفي أنه في الكتب الستة ، ولكنه استدرك بعد ذلك فزاد الجملة الأخيرة : أن له أصلا في الصحيحين . وهذه الجملة ليست في المخطوطة الأزهرية . وقد ذكره السيوطى في الدر المنثور (١٠٧ / ١) مختصراً ، أطول قليلا مما هنا ، ونسبه للصحيحين وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبرانى والبيهقى في الدلائل ، وأجاد في ذلك .

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها، كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة أنهم قالوا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة: ١٨]. فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك، وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينتقلون إلى الجنة. ورد عليهم تعالى في ذلك، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوا بها بلا دليل ولا حجة ولا بينة، فقال: ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾. قال أبو العالية: أمانى تمنوها على الله بغير حق. وكذا قال قتادة. ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ ﴾ أى: يا محمد، ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ قال أبو العالية ومجاهد حجتكم. وقال قتادة: بينتكم على ذلك. ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ كما تدعونه.

ثم قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أى: من أخلص العمل لله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [آل عمران: ٢٠]. ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أى: متبع فيه الرسول ﷺ. فإن للعمل المتقبل شرطين، أحدهما: أن يكون خالصاً لله وحده، والآخر: أن يكون صواباً موافقاً للشرعة. فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل؛ ولهذا قال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد». رواه مسلم من حديث عائشة. فعمل الرهبان ومن شابههم - وإن فرض أنهم يخلصون فيه لله - فإنه لا يتقبل منهم، حتى يكون ذلك متابعاً للرسول محمد ﷺ، المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، وفيهم وأمثالهم، قال الله تعالى: ﴿ وَقَدْ مَنَا إِلَىٰ مَا عَمَلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيعةٍ يَحْسبُهُ الظَّمآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ [النور: ٣٩]. روى عن أمير المؤمنين عمر أنه تأولها في الرهبان. وأما إن كان العمل موافقاً للشرعة في الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله، فهو أيضاً مردود على فاعله. وهذا حال المناقطين والمرائين، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿ قَوْلِيلٌ لِّلْمَصْلِينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ . وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ [الماعون: ٤ - ٧]، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾.

وقوله: ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾: ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور، وأمنهم مما يخافونه من المحذور ف ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ فيما يستقبلونه، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما مضى مما يتركونه، كما قال سعيد بن جبيرة: ف ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ يعنى: فى الآخرة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ للموت.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾: يبين به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديتهم وتعادنهم. كما روى محمد بن إسحاق، عن ابن عباس، قال: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ، أتتهم

أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ، فقال رافع بن حرَّيملة: ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى وبالإنجيل. وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء. ووجد نبوة موسى وكفر بالتوراة. فانزل الله تعالى في ذلك من قولهما: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾. قال: إن كلا يتلو في كتابه تصديق من كفر به، أى: يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة، فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى، وفى الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى، وما جاء من التوراة من عند الله، وكل يكفر بما فى يدي صاحبه. وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية: قد كانت أوائل اليهود والنصارى على شيء. وظاهر سياق الآية يقتضى ذمهم فيما قالوه، مع علمهم بخلاف ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ أى: وهم يعلمون أن شريعة التوراة والإنجيل، كل منهما قد كانت مشروعة فى وقت، ولكن تجاحدوا فيما بينهم عناداً وكفراً ومقابلة للفساد بالفساد، كما تقدم عن ابن عباس .

وقوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾: يبيّن بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا به من القول، وهذا من باب الإيماء والإشارة. وقد اختلف فىمن عنى بقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فقال الربيع بن أنس وقاتدة: قالت النصارى مثل قول اليهود وقيلهم. وقال السدى: فهم العرب، قالوا: ليس محمد على شيء. واختار ابن جرير أنها عامة تصلح للجميع، وليس ثم دليل قاطع يعين واحداً من هذه الأقوال، فالحمل على الجميع أولى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أى: أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد، ويفصل بينهم بقضائه العدل الذى لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة. وهذه الآية كقوله تعالى فى سورة الحج: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج: ١٧]، وكما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبا: ٢٦] .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا أَسْمُهُُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

اختلف المفسرون فى المراد من الذين منعوا مساجد الله وسعوا فى خرابها على قولين:

أحدهما: ما رواه العوفى فى تفسيره، عن ابن عباس قال: هم النصارى. وعن قتادة: هو بختنصر وأصحابه، خرَّب بيت المقدس، وأعانه على ذلك النصارى.

القول الثانى: ما رواه ابن جرير: عن ابن زيد قال: هؤلاء المشركون حين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية، وبين أن يدخل مكة حتى نحر هديه بذى طُوًى وهادنهم، وقال لهم: ما كان أحد يصدُّ عن هذا البيت، وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يصدّه. فقالوا: لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق. وروى ابن أبى حاتم: عن ابن عباس: أن قُرَيْشاً

منعوا النبي ﷺ الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام، فأنزل الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾. ثم اختار ابن جرير القول الأول، واحتج بأن قريشاً لم تَسع في خراب الكعبة. وأما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس.

قلت: والذي يظهر - والله أعلم - القول الثاني، كما قاله ابن زيد، وروى عن ابن عباس؛ لأن النصارى إذ منعت اليهود الصلاة في البيت المقدس، كان دينهم أقوم من دين اليهود، وكانوا أقرب منهم، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولاً إذ ذاك؛ لأنهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. وأيضاً فإنه تعالى لما وجّه الذم في حق اليهود والنصارى، شرع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة، ومنعواهم من الصلاة في المسجد الحرام، وأما اعتماده على أن قريشاً لم تسع في خراب الكعبة، فأى خراب أعظم مما فعلوا؟! أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ . إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيكُم مِّنْهُمْ مَّعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ لِّدُخُلِ اللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ مِنْ يَشَاءُ لَوْ تَرَيُوا لِعَذَابِنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥]، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، فإذا كان من هو كذلك مطروداً منها مصدوداً عنها، فأى خراب لها أعظم من ذلك؟! وليس المراد بعمارته زخرفتها وإقامة صورتها فقط، إنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها، ورفعها عن الدنس والشرك.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾: هذا خير معناه الطلب، أى: لا تُمكنوا هؤلاء - إذا قدرتم عليهم - من دخولها إلا تحت الهدنة والخزبة. ولهذا لما فتح رسول الله ﷺ مكة أمر من العام القابل في سنة تسع أن ينادى برحاب منى: «ألا لا يحجج بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته». وهذا كان تصديقاً وعملاً بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾. وقيل: إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد، وأنه يذل المشركين لهم حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم إلا خائفاً، يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل إن لم يسلم. وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام، وأوصى رسول الله ﷺ أن لا يبقى بجزيرة العرب دينان، وأن تجلى اليهود والنصارى منها، والله الحمد والمنة. وما ذاك إلا لتشريف أكتاف المسجد الحرام وتطهير البقعة

التي بعث الله فيها رسوله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً صلوات الله عليه . وهذا هو الخزي لهم في الدنيا؛ لأن الجزء من جنس العمل . فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام، صدوا عنه، وكما أجلوهم من مكة، أجلوا عنها. ﴿ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ على ما انتهكوا من حرمة البيت، وامتهنوه من نصب الأصنام حوله، والدعاء إلى غير الله عنده والطواف به عرياً، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله ورسوله .

وأما من فسّرهُ بيت المقدس . فهذا لا ينفي أن يكون داخلا في معنى عموم الآية فإن النصرارى لما ظلموا بيت المقدس، بامتهان الصخرة التي كانت يصلى إليها اليهود، عوقبوا شرعاً وقَدراً بالذلة فيه، إلا في أحيان من الدهر امتحن بهم بيت المقدس وكذلك اليهود لما عصوا الله فيه أيضاً أعظم من عصيان النصرارى كانت عقوبتهم أعظم، والله أعلم . وفسر هؤلاء الخزي في الدنيا بخروج المهدي . وفسره قتادة بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون . والصحيح: أن الخزي في الدنيا أعم من ذلك كله، وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، فروى الإمام أحمد عن بُسر بن أرطاة، قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: «اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة» . وهذا حديث حسن، وليس هو في شيء من الكتب الستة (١) .

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِيعُ عَلِيمٌ ﴾

وهذا - والله أعلم - فيه تسلية للرسول ﷺ وأصحابه الذين أخرجوا من مكة وفارقوا مسجدهم ومصلاهم، وقد كان رسول الله ﷺ يصلى بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه . فلما قدم المدينة ووجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، ثم صرفه الله إلى الكعبة بعدد، ولهذا يقول تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ .

روى أبو عبيد القاسم بن سلام، في كتاب الناسخ والمنسوخ: عن ابن عباس، قال: أول ما نسخ من القرآن - فيما ذكر لنا والله أعلم - شأن القبله: قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾، فاستقبل رسول الله ﷺ فصلى نحو بيت المقدس، وترك البيت العتيق، ثم صرفه الله إلى بيته العتيق ونسخها، فقال: ﴿ وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ (٢) .

(١) المسند (١٧٧٠٥) ورواه البخارى فى التاريخ الكبير (١٢٣، ١٢٢/٢/١) بالإشارة إليه كعادته فيه . وذكر الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٧٨/١٠)، ونسبه لأحمد والطبرانى، وقال: « ورجال أحمد وأحد أسانيد الطبرانى ثقات » .
 (٢) إسناده صحيح . ورواه الحاكم فى المستدرک (٢٦٧ / ٢) من طريق ابن جريج . وقال : « صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه بهذا السبأقة » ووافقه الذهبى . ولكن سقط أول إسناده إلى ابن جريج من نسخة المستدرک ، وموضعه هناك بياض . ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (١٢/٢) عن الحاكم ، من طريق ابن جريج . فيستفاد أول إسناده الحاكم من سنن البيهقى - فى موضع ذاك البياض . وذكره السيوطى فى الدر المنثور (١٠٨/١)، وزاد نسبه لابن المنذر وابن أبي حاتم . ورواية ابن أبي حاتم أشار إليها ابن كثير - بعد هذه الرواية .

وقال ابن أبي حاتم - بعد روايته الأثر المتقدم ، عن ابن عباس ، فى نسخ القبلة ، عن عطاء ، عنه : وروى عن أبى العالية ، والحسن ، وعطاء الخراسانى ، وعكرمة ، وقتادة ، والسدى ، وزيد بن أسلم ، نحو ذلك .

وقال ابن جرير : وقال آخرون : بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجه إلى الكعبة ، وإنما أنزلها تعالى ليعلم نبيه ﷺ وأصحابه أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة ، حيث شاؤوا من نواحي المشرق والمغرب ؛ لأنهم لا يوجهون وجوههم وجهاً من ذلك وناحية إلا كان جل ثناؤه فى ذلك الوجه وتلك الناحية ؛ لأن له تعالى المشرق والمغرب ، وأنه لا يخلو منه مكان ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ [المجادلة : ٧] ، قالوا : ثم نسخ ذلك بالفرض الذى فَرَضَ عليهم التوجُّه إلى المسجد الحرام . هكذا قال ، وفى قوله : «وإنه تعالى لا يخلو منه مكان» : إن أراد علمه تعالى فصحيح ؛ فإن علمه تعالى محيط بجميع المعلومات ، وأما ذاته تعالى فلا تكون محصورة فى شىء من خلقه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً (١) .

قال ابن جرير : وقال آخرون : بل نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ إذناً من الله أن يصلى المتطوع حيث توجه من شرق أو غرب ، فى مسيره فى سفره ، وفى حال المسايقة وشدة الخوف . ثم روى عن ابن عمر : أنه كان يصلى حيث توجهت به راحلته . ويذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك ، ويتأول هذه الآية : ﴿ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَوَجَّهَ اللَّهُ ﴾ . ورواه مسلم والترمذى والنسائى وابن أبي حاتم وابن مردويه (٢) ، وأصله فى الصحيحين من حديث ابن عمر وعامر ابن ربيعة ، من غير ذكر الآية . وفى صحيح البخارى ، عن ابن عمر : أنه كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصَفَّها . ثم قال : فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً قياماً على أقدامهم ، وركبانا مستقبلي القبلة وغير مستقبليها . قال نافع : ولا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبى ﷺ .

قال ابن جرير : وقال آخرون : بل نزلت هذه الآية فى قوم عُمِّيَّتْ عليهم القبلة ، فلم يعرفوا شَطْرَها ، فصلوا على أنحاء مختلفة ، فقال الله تعالى : لى المشرق والمغرب فأين وليتم وجوهكم فهنالكَ وجهى ، وهو قبلتكم فعليكم بذلك ، إنَّ صلاتكم ماضية [ثم ذكر حديثاً ضعيفاً رواه الطبرى فى هذا . وأبان ابن كثير عن ضعفه جداً] . وروى الترمذى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « ما بين المشرق والمغرب قبلة » . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح (٣) . وقد روى عن غير واحد من الصحابة : « ما بين المشرق والمغرب قبلة » منهم عمر بن الخطاب ،

(١) لا يفهم من كلام الطبرى إلا الوجه الأول الصحيح . وقد صرح بذلك فى تفسير سورة المجادلة (٢٨ / ١٠ طبعة بولاق) . ولكن هذه الشبهة إنما جاءت بما غلب على الناس من اصطلاحات علماء الكلام المتأخرين ، حتى تكاد تخرج العربية عن دلالتها الصحيحة .

(٢) صحيح مسلم (١ / ١٩٥) ورواه أيضاً أحمد فى المسند (٤٧١٤ ، ٥٠٠١) .

(٣) الترمذى (١ / ٣٤٤) (٢ / ١٧٣ بشرحنا) . ورواه ابن ماجه ، ونسبه السيوطى فى الدر المنثور (١ / ١٠٩) لابن أبى شيبة أيضاً .

وعلى، وابن عباس. وقال ابن عمر: إذا جعلت المغرب عن يمينك والمشرق عن يسارك، فما بينهما قبلة، إذا استقبلت القبلة (١).

قال ابن جرير: ويحتمل: فأينما تولوا وجوهكم في دعائكم لى فهناك وجهى أستجيب لكم دعاءكم، ثم روى عن مجاهد قال: لما نزلت: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، قالوا: إلى أين؟ فنزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾. قال ابن جرير: ويعنى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾: يسع خلقه كلهم بالكفاية، والإفضال والجلود. وأما قوله: ﴿عَلِيمٌ﴾ فإنه يعنى: عليم بأعمالهم، ما يغيب عنه منها شىء، ولا تعزب عن علمه، بل هو بجميعها عليم.

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَمْ يَلَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَدِئُونَ
بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة (٢)، والتي قبلها على الرد على النصارى - عليهم لعائن الله - وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركى العرب، ممن جعل الملائكة بنات الله، فأكذب الله جميعهم فى دعواهم وقولهم: إن لله ولدا، فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أى: تعالى وتقدس وتزده عن ذلك علواً كبيراً ﴿بَلْ لَمْ يَلَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: ليس الأمر كما افتروا، وإنما له ملك السموات والأرض، وهو المتصرف فيهم، وهو خالقهم ورازقهم، ومقدرهم ومسخرهم، ومسيرهم ومصرفهم، كما يشاء. والجميع عبيد له وملك له، فكيف يكون له ولد منهم؟ والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسبين، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير، ولا مشارك فى عظمته وكبريائه ولا صاحبة له، فكيف يكون له ولد؟! كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الانعام: ١٠١] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا. تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتْفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا. وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا. إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا. لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا. وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص].

فقرر تعالى فى هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم، الذى لا نظير له ولا شبيه له، وأن

(١) وروى الحاكم (١ / ٢٠٥) عن ابن عمر، أن النبى ﷺ قال: « ما بين المشرق والمغرب قبلة » وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبى. وكذلك رواه الدارقطنى والبيهقى.

وهذا اللفظ عام وخاص: عام لرفع الحرج عن تحرى يمين القبلة لمن هو ناه عنها، يكفى أن يتجه نحو القبلة. وخاص بالجهات التى شمالى مكة وجنوبها، كالمدينة واليمن. أما الجهات التى تكون شرق مكة فإنما يتجهون لجهة الغرب، وما كان بين الشرق والغرب، وبين الشمال والجنوب، فإنهم يتجهون إلى الجهة التى تواجه مكة من قبلهم، كما هو البديهى الذى لا يحتاج إلى دليل.

(٢) أى الآية (١١٧). (الباز).

جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة، فكيف يكون له منها ولد؟! ولهذا روى البخارى عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ، قال: «قال الله تعالى: كَذَّبْنِي ابْنِ آدَمَ ولم يكن له ذلك، وشتمنى ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياى فيزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياى فقوله: لى ولد. فسبحانى أن أتخذ صاحبة أو ولداً». انفرد به البخارى من هذا الوجه (١). وروى ابن مردويه: عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: كذبنى ابن آدم ولم ينبغ له أن يكذبنى، وشتمنى ولم ينبغ له أن يشتمنى، فأما تكذيبه إياى فقوله: لن يعيدنى كما بدأنى. وليس أول الخلق بأهون على من إعادته. وأما شتمه إياى فقوله: اتخذ الله ولداً. وأنا الله الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد» (٢). وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله؛ إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيه» (٣).

وقوله: ﴿كُلُّ لَهْ قَانِنُونَ﴾ قال عكرمة: مُقْرُونٌ له بالعبودية. وقال سعيد بن جبیر: الإخلاص. وقال مجاهد: مطيعون. طاعة الكافر فى سجود ظله وهو كاره. وهذا القول عن مجاهد - وهو اختيار ابن جرير - يجمع الأقوال كلها، وهو أن القنوت: هو الطاعة والاستكانة إلى الله، وذلك شرعى وقدرى، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا لِّمَنْ بَالُغُوا وَالْأَصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: خالقهما على غير مثال سبق، قاله مجاهد والسدى، وهو مقتضى اللغة. ومنه يقال للشئ المحدث: بدعة. كما جاء فى الصحيح لمسلم: «فإن كل محدثة بدعة». والبدعة على قسمين، تارة تكون بدعة شرعية، كقوله: «فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة». وتارة تكون بدعة لغوية، كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، عن جمعه إياهم على صلاة التراويح واستمرارهم: نعمت البدعة هذه. وقال ابن جرير: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مبدعهما. وإنما هو مُفْعَلٌ فصرف إلى فَعِيلٍ، كما صرف المؤلم إلى الأليم، والمسمع إلى السميع. ومعنى البديع: المنشئ والمحدث ما لم يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد. قال: ولذلك سمي المبتدع فى الدين مبتدعاً؛ لإحداثه فيه ما لم يسبقه إليه غيره، وكذلك كل محدث قولاً أو فعلاً لم يتقدمه فيه متقدم، فإن العرب تسميه «مبتدعاً». قال ابن جرير: فمعنى الكلام: فسبحان الله ، أنى يكون لله ولد، وهو مالك ما فى السموات والأرض، تشهد له جميعها - بدالاتها عليه - بالوحدانية، وتقر له بالطاعة، وهو بارئها وخالقها وموجدها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه. وهذا إعلام من الله عباده أن ممن يشهد له بذلك المسيح،

(١) (٨ / ١٢٨ من الفتح).

(٢) ورواه البخارى أيضاً (٨ / ٥٦٨) ونسبه السيوطى فى الدر المنثور (١ / ١٠٩) إليهما وإلى البيهقى فى الأسماء والصفات.

(٣) البخارى (١٣ / ٣٠٥ فتح)، ومسلم (٢ / ٣٤٤) من حديث أبى موسى الأشعرى.

الذى أضافوا إلى الله بُنُوته؛ وإخبار منه لهم أن الذى ابتدع السموات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال، هو الذى ابتدع المسيح من غير والد بقدرته. وهذا من ابن جرير، رحمه الله ، كلام جيد وعبارة صحيحة .

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾: يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه إذا قَدَّرَ أمراً وأراد كونه، فإنما يقول له: ﴿ كُن ﴾ . أى: مرة واحدة، ﴿ فَيَكُونُ ﴾، أى: فيوجد على وفق ما أراد، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠] وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠]. وبَّه تعالى بذلك أيضاً على أنه خلق عيسى بكلمة: كُنْ، فكان كما أمره الله، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩] .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس، قال: قال رافع بن حرمة لرسول الله ﷺ: يا محمد، إن كنت رسولا من الله كما تقول، فقل لله فليُكَلِّمُنَا حتى نسمع كلامه! فأَنْزَلَ اللهُ فى ذلك من قوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾ . وقال مجاهد : النصرارى تقولهُ . وهو اختيار ابن جرير، قال: لأن السياق فيهم . وفى ذلك نظر . وقال أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدى فى تفسير هذه الآية: هذا قول كفار العرب و﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ هم اليهود والنصارى . ويؤيد هذا القول، وأن القائلين ذلك هم مشركو العرب، قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ (١) [الأنعام: ١٢٤] . وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِفَاً أَوْ تَأْتِيَ بَاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢١]، وقوله: ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنشُورَةً ﴾ [المدثر: ٥٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركى العرب وعتوهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجة لهم به، إنما هو الكفر والمعاندة، كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم، كما قال تعالى:

(١) الآية (١٢٤) من سورة الأنعام . وآخرها من قوله : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ ﴾ لم يذكر فى المطبوعة ، وهو ثابت فى المخطوطة . وقوله : « رسالاته » بالجمع . هكذا ثبت فيها . وقراءة عبد الله بن كثير وحفص : « رسالته » بالافراد . وقرأ باقى القراء السبعة بالجمع .

﴿يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] وقال تعالى: ﴿وإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

وقوله: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أى: أشبهت قلوب مشركى العرب قلوب مَنْ تقدمهم فى الكفر والعناد والعتو، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رُّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

وقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أى: قد وَضَحْنَا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى، لمن أيقن وصدق واتبع الرسل، وفهم ما جاؤوا به من الله تبارك وتعالى. وأما من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة فأولئك الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾

روى ابن أبى حاتم: عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «أنزلت علىّ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾» قال: «بشيراً بالجنة، ونذيراً من النار» (١).

وقوله: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾: قراءة أكثرهم: ﴿وَلَا تُسْأَلُ﴾ بضم التاء على الخبر. وقرأ آخرون: «وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ» بفتح التاء على النهي، أى: لا تسأل عن حالهم (٢). وروى أحمد عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة؟ فقال: أجل، والله إنه لموصوف فى التوراة بصفته فى القرآن: «يأبها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأمينين، وأنت عبدى ورسولى، سميتك المتوكل، لا فظاً ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله. فيفتح به أعينا عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غُلفاً». انفرد بإخراجه البخارى، ورواه ابن مردويه (٣).

(١) إسناده ليس بالقوى . فيه «عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الفزارى العزمى» : روى ابن أبى حاتم (٢ / ٢٨٢) عن أبيه قال : « ليس بقوى » . وفى لسان الميزان (٤٢٨ / ٣ ، ٤٢٩) أنه ضعفه الدارقطنى، وذكره ابن حبان فى الثقات . والغالب فى هذا الحديث أن يكون من كلام ابن عباس .

(٢) هذه قراءة نافع ، والأولى قراءة باقى السبعة ، ثم ذكر ابن كثير هنا حديثين مرسلين ضعيفين جدا ، من رواية عبد الرزاق ورواية الطبرى أن سبب نزول هذه الآية سؤال النبي ﷺ عما فعل أبواه ؟ ثم نقل عن القرطبى : أن الله أحيا أبويه حتى أمنا به . ثم قال ابن كثير : « والحديث المروى فى حياة أبويه عليه السلام - ليس فى شيء من الكتب الستة ولا غيرها . وإسناده ضعيف » . وهو كما قال . وما نقله عن القرطبى والرد عليه ليس فى المخطوطة الأزهرية .

(٣) هو فى المسند (٦٦٢٢) ، وفى البخارى (٤ / ٢٨٧ ، ٢٨٨ فتح) ، وفى الأدب المفرد ، ص ٣٨ ، ٣٩ ، وطبقات ابن سعد (١ / ٨٨) . وذكره ابن كثير أيضا من رواية المسند هذه ، عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأحزاب ، وزاد نسبتها لابن أبى حاتم . وذكره أيضا عند تفسير الآية (١٥٧) من سورة الأعراف ، من رواية الطبرى .

﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِيتَهُمْ أَحْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ ۖ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

قال ابن جرير: يعنى بقوله جل ثناؤه: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾: وليست اليهود - يا محمد - ولا النصارى براضية عنك أبداً، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ أى: قل يا محمد: إن هدى الله الذى بعثنى به هو الهدى، يعنى: هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل ﴿وَلَئِنَّ آتِيتَهُمْ أَحْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾: فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى، بعد ما علموا من القرآن والسنة، عياداً بالله من ذلك، فإن الخطاب مع الرسول، والأمر لأتمته (١).

وقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾: عن قتادة: هم اليهود والنصارى. وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير. وروى عن قتادة: هم أصحاب رسول الله ﷺ. وقال أبو العالية: قال ابن مسعود: والذى نفسى بيده، إن حق تلاوته أن يُحِلَّ حلاله

(١) عصم الله المسلمين، منذ أن هداهم الله للإسلام إلى قريب من عصرنا هذا - من أن يتبعوا ملة اليهود والنصارى، إلا ما يكون من حوادث فردية، أكثرها من المعاصى العملية. ثم ذل المسلمون لأعدائهم من اليهود والنصارى، فزادوا فى التشبه بهم قليلاً. ثم وجد من أهل العلم فيهم ومن أهل الرأى - من حاول أن يدافع عن الإسلام أسوأ دفاع، فصاروا يتقربون شيئاً فشيئاً لسادتهم، بتأويل القرآن والسنة، وتحريف معانيهما، ليقاربوا بين شريعتهم المظهرة، وشرائع تلك الأمم الضاللة والمغضوب عليها. بل ليقاربوا شريعتنا ونصوصنا الصريحة إلى عقائد الملحدين الوثنيين من أهل أوربة وأمريكا. فكان فى علمائنا وكتابنا من ينكر الغيب أو أكثره، فيتأولون صفة الملائكة، ووصف الجن، وينكرون المعجزات النبوية عامة - لأنها لم ترد فى القرآن، زعموا! ثم يحرفون المعنى فيما ثبت منها فى القرآن أو السنة المتواترة. ثم كشفوا عن وجوههم فضربوا على المسلمين قوانين أوربية الوثنية المجرمة الملعونة. ثم استباحوا أكثر المحرمات، يصرحون بإباحتها عن غير حياء ولا غيره. ثم صاروا يبنزون الشرائع الإسلامية والأخلاق الكريمة التى هدانا الله إليها ورسوله - بالتقاليد وبالرجعية، لينفروا الناس منها. وقامت فى عصرنا هذا الدعوة سافرة وقحة إلى تغيير الشريعة النقية فى تعدد الزوجات والطلاق والموارث. بل إن بعض من يحمل شهادة العالمية من الأزهر كتب فى الصحف عن غير حياء: «أن الإسلام يحرم تعدد الزوجات»! وضعف الأزهر كله عن أن يضرب على يديه، خشية أن يغضب من وراءه ومن ينصره فى كفره وافتراءه على الله. وحتى إن بعض الصحف القوية الماجنة الداعرة لتدعو إلى الزنا علناً، دون أن يردعها أحد. بل إن بعضهم ليصرح بمنع العلماء من الكتابة فى هذه المسائل «الاجتماعية» والصحف الأخرى لا ترضى أن تنشر لأحد من العلماء دفعاً لهذا الكفر البواح. بل إن نساءً ماجنات فاجرات ينشرن فى الصحف الدعوة السافرة إلى الفجور، بعد انتشار السفور. فلئن لم يدفع المسلمون - أو المتسيبون للإسلام - هذه المنكرات عن دينهم وعلى بلادهم، ليسلطن الله عليه عدوهم، وليستاصلن شأفتهم، وليستبدلن بهم قوماً غيرهم، ثم لن يكونوا أمثالهم.

ويحرم حرامه ويقرأه كما أنزله الله ، ولا يحرف الكلم عن مواضعه ، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله . وعن ابن عباس قال : يتبعونه حق اتباعه ، ثم قرأ : ﴿ وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَاهَا ﴾ [الشمس : ٢] ، يقول : اتبعها . ورؤى عن عطاء ، ومجاهد نحو ذلك .

وقوله : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ خبر عن ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ أى : من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته - آمن بما أرسلتك به يا محمد ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنَ الْكِتَابِ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ الآية [المائدة : ٦٦] . وقال : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ [المائدة : ٦٨] ، أى : إذا أقمتموها حق الإقامة ، وآمنتم بها حق الإيمان ، وصدقتكم ما فيها من الأخبار بمبعث محمد ﷺ ونعته وصفته والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته - قادكم ذلك إلى الحق واتباع الخير فى الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ الآية [الاعراف : ١٥٧] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ آمَنَّا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ [الإسراء : ١٠٧ ، ١٠٨] أى : إن كان ما وعدنا به من شأن محمد ﷺ لواقعاً ، وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مُرْتِينَ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [القصص : ٥٢ - ٥٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ٢٠] ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : ١٧] . وفى الصحيح : «والذى نفسى بيده ، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة : يهودى ولا نصرانى ، ثم لا يؤمن بى ، إلا دخل النار» (١) .

﴿ يَبْنَى إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنَّى فَضَلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [١١٢] وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١١٢﴾

قد تقدم نظير هذه الآية فى صدر السورة (٢) ، وكررت ههنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبى الأمى الذى يجدون صفته فى كتبهم ونعته واسمه وأمره وأمته . يحذرهم من كتمان هذا ، وكتمان ما أنعم به عليهم ، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم ، من النعم الدنيوية والدينية ، ولا يحسدوا بنى عمهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم . ولا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه ، والحيدة عن موافقته ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

(١) هو فى صحيح مسلم (١ / ٥٣ ، ٥٤) بنحوه ، من حديث أبى هريرة .

(٢) مضى فى الآية (٤٧) ص ١١٢ .

﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾

يقول تعالى مُنْبَهًا على شرف إبراهيم خليله، عليه السلام، وأن الله تعالى جعله إماماً للناس يقتدى به في التوحيد، حتى قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي؛ ولهذا قال: ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ﴾ أى: واذكر - يا محمد - لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين يتحلون ملة إبراهيم وليسوا عليها، وإنما الذى هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم، أى: اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ أى: قام بهن كلهن، كما قال تعالى: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [النجم: ٣٧]، أى: وفى جميع ما شرع له، فعمل به صلوات الله عليه، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَّلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿ بِكَلِمَاتٍ ﴾ أى: بشرائع وأوامر ونواه، فإن الكلمات تطلق، ويراد بها الكلمات القدريّة، كقوله تعالى عن مريم، عليها السلام: ﴿ وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقُرْآنِ نَجَاتٌ ﴾ [التحریم: ١٢] . وتطلق ويراد بها الشرعية، كقوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥] (١)، أى: كلماته الشرعية. وهى إما خير صدق، وإما طلب عدل إن كان أمراً أو نهياً، ومن ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ أى: قام بهن: ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ أى: جزاء على ما فعل، كما قام بالأوامر وترك الزواجر، جعله الله للناس قدوة وإماماً يقتدى به، ويحتذى حذوه.

وقد اختلف فى تعيين الكلمات التى اختبر الله بها إبراهيم الخليل، عليه السلام. فروى عن ابن عباس فى ذلك روايات: فروى عنه: ابتلاه الله بالمناسك. ابتلاه الله بالطهارة: خمس فى الرأس، وخمس فى الجسد؛ فى الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس. وفى الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والحتان، وتنف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء (٢).

(١) قراءة حمزة والكسائى وعاصم - الذى حفص أحد رواه - « كلمة » بالإنفراد . وقرأ باقى العشرة « كلمات » بالجمع، وهى التى أثبتها الحافظ المؤلف هنا وفسرها بمعنى الجمع . وكذلك ثبتت فى المخطوطة الأزهرية . وغيرت فى المطبوعة إلى « كلمة » على قراءة حفص المعروفة .

(٢) رواه الطبرى (١٩١٠)، والحاكم فى المستدرک (٢/٢٦٦) وقال: « صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

قلت: وقريب من هذا ما ثبت في صحيح مسلم، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «عَشْرٌ مِنَ الْفِطْرَةِ: قَصُّ الشَّارِبِ، وَإِعْفَاءُ اللَّحْيَةِ، وَالسُّوَاكُ، وَاسْتِنشَاقُ الْمَاءِ، وَقَصُّ الْأَظْفَارِ، وَغَسْلُ الْبِرَاجِمِ، وَنَتْفُ الْإِبْطِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَانْتِقَاصُ الْمَاءِ» قال مصعب: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة. قال وكيع: انتقاص الماء، يعني: الاستنجاء. وفي الصحيحين، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «الْفِطْرَةُ خَمْسٌ: الْخِتَانُ، وَالِاسْتِحْدَادُ، وَقَصُّ الشَّارِبِ، وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، وَنَتْفُ الْإِبْطِ». ولفظه لمسلم. وروى ابن أبي حاتم: عن ابن عباس: أنه كان يقول في هذه الآية، قال: عَشْرٌ، ست في الإنسان، وأربع في المشاعر. فأما التي في الإنسان: حلق العانة، ونتف الإبط، والختان. وكان ابن هبيرة يقول: هؤلاء الثلاثة واحدة. وتقليم الأظفار، وقص الشارب، والسواك، وغسل يوم الجمعة. والأربعة التي في المشاعر: الطواف، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار، والإفاضة (١). وعن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: ما ابتلى بهذا الدين أحد فقام به كله إلا إبراهيم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ قلت له: وما الكلمات التي ابتلى الله إبراهيم بهن فأتتهن؟ قال: الإسلام ثلاثون سهماً، منها عشر آيات في براءة: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ إلى آخر الآية [التوبة: ١١٢]، وعشر آيات في أول سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ و ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ وعشر آيات في الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الآية: ٢٥] إلى آخر الآية، فأتتهن كلهن، فكتبت له براءة. قال الله: ﴿وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٢٧]. رواه الحاكم وابن جرير وابن أبي حاتم، وهذا لفظ ابن أبي حاتم. وروى ابن أبي حاتم عن الحسن البصرى قال: ابتلاه بالكوكب فرضى عنه، وابتلاه بالقمر فرضى عنه، وابتلاه بالشمس فرضى عنه، وابتلاه بالهجرة فرضى عنه، وابتلاه بالختان فرضى عنه، وابتلاه بابنه فرضى عنه. [ثم نقل الحافظ ابن كثير روايات هنا من الطبرى ومن غيره، عن مجاهد وعن غيره، فيها آراء مختلفة. ثم قال:]

قال ابن جرير ما حاصله: أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر، وجائز أن يكون بعض ذلك، ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع. قال: ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له. [ثم حكى كلاماً للطبرى، فيه احتمال لترجيح ما روى عن مجاهد وبعض من تابعه. ثم قال ابن كثير:] والذى قاله أولاً [يعنى ابن جرير] - من أن الكلمات تشمل جميع ما ذكر - أقوى من هذا الذى جوزه من قول مجاهد ومن قال مثله؛ لأن السياق يعطى غير ما قالوه، والله أعلم.

وقوله: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾: لما جعل الله إبراهيم إماماً، سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته، فأجيب إلى ذلك، وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون، وأنه لا ينالهم عهد الله، ولا يكونون أئمة فلا يقتدى بهم. والدليل على أنه أجيب إلى طلبه قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فكل نبي أرسله

(١) إسناد ابن أبي حاتم - فى هذا - لابن عباس، إسناد صحيح.

الله، وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم، ففى ذريته صلوات الله وسلامه عليه.

وأما قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ فقال ابن عباس : يخبره أنه كائن فى ذريته ظالم لا ينال عهده ، ولا ينبغى أن يوليه شيئاً من أمره وإن كان من ذرية خليله ، ومحسن استفذ فيه دعوته، وتبلغ له فيه ما أراد من مسألته[ونقل الحافظ أقوالاً كثيرة متقاربة العنى . ثم قال] : فهذه أقوال مفسرى السلف فى هذه الآية على ما نقله ابن جرير، وابن أبى حاتم. واختار ابن جرير أن هذه الآية - وإن كانت ظاهرة فى الخبر أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالماً - فيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل، عليه السلام، أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه.

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾

قال ابن عباس: قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ يقول: لا يقضون منه وطراً، يأتونه، ثم يرجعون إلى أهلهم، ثم يعودون إليه ﴿ وَأَمْنًا ﴾ قال أبو العالية : أمناً من العدو، وأن يُحمَل فيه السلاح. وقد كانوا فى الجاهلية يُتَخَطَّفُ الناس من حولهم، وهم آمنون لا يُسَبَّون.

ومضمون ما فسر به الأئمة هذه الآية: أن الله تعالى يذكر شرف البيت، وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدرأ، من كونه مثابة للناس، أى: جعله محلّاً تشتاق إليه الأرواح وتحن إليه، ولا تقضى منه وطراً، ولو ترددت إليه كل عام، استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم، عليه السلام، فى قوله: ﴿ فَاجْعَلْ أَفْتِدَىٰ مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ إلى أن قال: ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَائِي ﴾ [إبراهيم: ٣٧-٤٠]. ويصفه تعالى بأنه جعله أمناً، من دخله أمن، ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان أمناً. فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان الرجل يلقي قاتل أبيه وأخيه فيه فلا يعرض له. كما وصفها فى سورة المائدة بقوله تعالى: ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٩٧]، أى: يدفع عنهم بسبب تعظيمها السوء، كما قال ابن عباس: لو لم يحج الناس هذا البيت لأطبق الله السماء على الأرض؛ وما هذا الشرف إلا لشرف بانيه أولاً وهو خليل الرحمن، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾ [الحج: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِّلنَّاسِ لِلَّذِي بَكَرْنَا بِكَ مَبْرُكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]. وفى هذه الآية الكريمة نَبَّه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده، فقال: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾.

وقد اختلف المفسرون فى المراد بالمقام ما هو؟ فروى ابن أبى حاتم: عن ابن عباس: قال: مقام إبراهيم: الحرم كله. وروى عن مجاهد وعطاء مثل ذلك. وقال سعيد بن جبيرة: الحجر مقام إبراهيم نبي الله، قد جعله الله رحمة، فكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجارة. وروى ابن أبى حاتم: عن جابر فى حديثه عن حجة النبي ﷺ قال: لما طاف النبي ﷺ، قال له عمر: هذا مقام أبينا إبراهيم؟ قال: « نعم ». قال: أفلا تتخذة مصلى؟ فأنزل الله، عز وجل: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾. وروى ابن مردويه: عن عمر بن الخطاب، أنه مرَّ بمقام إبراهيم، فقال:

يا رسول الله، أليس تقوم مقام خليل ربنا؟ قال: «بلى». قال: أفلا نتخذة مصلى؟ فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. وروى البخارى عن أنس بن مالك قال: قال عمر بن الخطاب: وافقت ربي في ثلاث، أو وافقت ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. وقلت: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فأنزل الله آية الحجاب. قال: وبلغنى معاتبه النبي ﷺ بعض نساءه، فدخلت عليهن فقلت: إن انتهيتن أو لبيدكن الله رسوله خيراً منكن، حتى أتت إحدى نساءه، فقالت: يا عمر، أما فى رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟! فأنزل الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِمَّنْ كُنَّ مُسَلِّمَاتٍ﴾ الآية [التحریم: ٥]. ورواه الإمام أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه. وقال الترمذى: حسن صحيح. ورواه الإمام على بن المدينى، وقال: هذا من صحيح الحديث (١)، وروى مسلم عن ابن عمر، عن عمر، قال: وافقت ربي في ثلاث: فى الحجاب، وفى أسارى بدر، وفى مقام إبراهيم (٢). وروى أبو حاتم الرازى: عن أنس بن مالك، قال: قال عمر بن الخطاب: وافقت ربي فى ثلاث - أو وافقت رب فى ثلاث - قلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وقلت: يا رسول الله، لو حجبت النساء؟ فنزلت آية الحجاب. والثالثة: لما مات عبد الله بن أبى جاء رسول الله ﷺ ليصلى عليه. قلت: يا رسول الله، تصلى على هذا الكافر المنافق؟ فقال: «إيها عنك يا بن الخطاب»، فنزلت: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤]. وإسناده صحيح أيضاً، ولا تعارض بين هذا ولا هذا، بل الكل صحيح، ومفهوم العدد إذا عارضه منطوق قدم عليه، والله أعلم. وروى ابن جرير: عن جابر قال: استلم رسول الله ﷺ الركن، فرمل ثلاثاً، ومشى أربعاً، ثم نَفَذَ إلى مقام إبراهيم، فقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. فجعل المقام بينه وبين البيت، فصلى ركعتين. وهذا قطعة من الحديث الطويل الذى رواه مسلم فى صحيحه (٣). وروى البخارى، عن عمرو بن دينار، قال: سمعت ابن عمر يقول: قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعاً، وصلى خلف المقام ركعتين.

فهذا كله مما يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحجر الذى كان إبراهيم، عليه السلام، يقوم عليه لبناء الكعبة، لما ارتفع الجدار آتاه إسماعيل، عليه السلام، به ليقومَ فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار، كلما كَمَلَّ ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى، يطوف حول الكعبة، وهو واقف عليه، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التى تليها، وهكذا، حتى تم جدارات

(١) فتح البارى (٨ / ١٢٨)، ومسند أحمد (١٥٧، ١٦٠، ٢٥٠)، وذكره السيوطى فى الدر المنثور (١/١١٨) وخرجه من دواوين كثيرة.

(٢) صحيح مسلم (٢ / ٢٣٤).

(٣) الطبرى (٣ / ٢٠٠٣). والحديث بطوله فى صحيح مسلم (١ / ٣٤٦، ٣٤٧). وكذلك رواه أحمد فى المسند (١٤٤٩٤).

الكعبة، كما سيأتى بيانه فى قصة إبراهيم وإسماعيل فى بناء البيت، من رواية ابن عباس عند البخارى. وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفاً تعرفه العرب فى جاهليتها؛ ولهذا قال أبو طالب فى قصيدته اللامية المعروفة :

ومَوَطُّهُ إِبراهيمُ فى الصخر رطبة على قدميه حافياً غير ناعل

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضاً. كما روى ابن وهب عن أنس بن مالك، قال: رأيت المقام فيه أثر أصابعه، عليه السلام، وأخْمَصَ قدميه، غير أنه أذهب مسح الناس بأيديهم. وروى ابن جرير: عن قتادة: إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه. ولقد تكلفت هذه الأمة شيئاً ما تكلفته الأمم قبلها، ولقد ذُكِرَ لنا من رأى أثر عَقْبِهِ وأصابعه فيه، فما زالت هذه الأمة يمسخونه حتى اخلولق وانمحق.

قلت: وقد كان المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديماً، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر بمنى الداخل من الباب فى البقعة المستقلة هناك، وكان الخليل، عليه السلام، لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك؛ ولهذا - والله أعلم - أمر بالصلاة هناك عند فراغ الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه، وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين، الذين أمرنا باتباعهم، وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدي أبى بكر وعمر». وهو الذى نزل القرآن بوفاقه فى الصلاة عنده؛ ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة، رضى الله عنهم أجمعين. وروى الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى عن عائشة، أن المقام كان فى زمان رسول الله ﷺ، وزمان أبى بكر ملتصقاً بالبيت، ثم أخره عمر بن الخطاب، وإسناده صحيح.

﴿ وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾

﴿ ١٢٥ ﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿ ١٢٦ ﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ

الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ ١٢٧ ﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ

لَكَ وَمِنْ دُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿ ١٢٨ ﴾

قال الحسن البصرى: قوله: ﴿ وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ﴾ قال: أمرهما الله أن يطهرا من الأذى والنجس ولا يصيبه من ذلك شيء. وقال ابن جريج: قلت لعطاء: ما عهده؟ قال: أمره. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿ وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أى: أمرناه. كذا قال والظاهر أن هذا الحرف إنما عدى بـ « إلى »؛ لأنه فى معنى: تقدمنا وأوحينا (١). وقال

(١) هكذا ثبت فى المخطوطة والمطبوعة: « وأوحينا » بالخاء. ولقد بيدولى أن صوابها « وأوصينا » بالصاد؛ لأن من معنى « العهد»: التقدم إلى المرء فى الشيء، ومن معناه أيضا: الوصية. انظر: اللسان وغيره من المعاجم.

مجاهد وسعيد بن جبير: ﴿ طَهْرًا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ ﴾: إن ذلك من الأوثان والربِّب (١) وقول الزور والرجس .

وأما قوله تعالى: ﴿ لِلطَّائِفِينَ ﴾ فالطواف بالبيت معروف، وعن سعيد بن جبير أنه قال تعالى: ﴿ لِلطَّائِفِينَ ﴾ يعنى: من أتاه من غُربة؟ ﴿ وَالْعَاكِفِينَ ﴾: المقيمين فيه. وهكذا روى عن قتادة، والربيع بن أنس: أنهما فسرا العاكفين بأهله المقيمين فيه، كما قال سعيد بن جبير. وروى ابن أبي حاتم: عن ثابت، قال: قلت لعبد الله بن عبيد بن عمير: ما أرانى إلا مُكَلِّمَ الأمير أن أمنع الذين ينامون فى المسجد الحرام، فإنهم يجنبون ويُحدثون. قال: لا تفعل، فإن ابن عمر سئل عنهم، فقال: هم العاكفون. قلت: وقد ثبت فى الصحيح أن ابن عمر كان ينام فى مسجد الرسول ﷺ وهو عَزَبَ.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾: فقال ابن عباس: إذا كان مصلياً فهو من الركع السجود. وكذا قال عطاء وقتادة. وقال ابن جرير: فمعنى الآية: وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفين. والتطهير الذى أمرهما به فى البيت هو تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان فيه ومن الشرك. ثم أورد سؤالا فقال: فإن قيل: فهل كان قبل بناء إبراهيم عند البيت شئ من ذلك الذى أمر بتطهيره منه؟ وأجاب بوجهين :

أحدهما: أنه أمرهما بتطهيره مما كان يعبد عنده زَمَان قوم نوح من الأصنام والأوثان، ليكون ذلك سنة لمن بعدهما، إذ كان الله تعالى قد جعل إبراهيم إماماً يقتدى به، كما قال عبد الرحمن بن زيد: ﴿ أَنْ طَهَّرًا بَيْتِي ﴾ قال: من الأصنام التى يعبدون، التى كان المشركون يعظمونها. قلت: وهذا الجواب مُفَرَّعٌ على أنه كان يُعْبَدُ عنده أصنام قبل إبراهيم، عليه السلام، ويحتاج إثبات هذا إلى دليل عن المعصوم مُحَمَّدٍ.

الجواب الثانى: أنه أمرهما أن يخلصا بناءه لله وحده لا شريك له، فيبنيه مطهراً من الشرك والربِّب، كما قال جل ثناؤه: ﴿ أَقْمِنَ أَسْسَ بَيْتَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسْسَ بَيْتَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾ [التوبة: ١٠٩]. قال: فكذلك قوله: ﴿ وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِي ﴾ أى: ابنيه على طهر من الشرك بى والربب.

وملخص هذا الجواب: أن الله تعالى أمر إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، أن يبنيه الكعبة على اسمه وحده لا شريك له، للطائفين به والعاكفين عنده، والمصلين إليه من الركع السجود، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ الآيات [الحج: ٢٦ - ٣٧]. والمراد من ذلك الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته، المؤسس على عبادته وحده لا شريك له، ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي

(١) «الربب» هنا: الشر والخوف . انظر: الطبرى (٣/٣٩) . وهذا هو الثابت فى الأزهرية وفى المطبوعة « والرفث » ! وهو تصحيف .

جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءَ الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِحَادٍ يَظْلَمْ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ [الحج: ٢٥].

ثم ذكر أن البيت إنما أسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له ، إما بطواف أو صلاة ، فذكر في سورة الحج أجزاءها الثلاثة: قيامها، وركوعها؛ وسجودها، ولم يذكر العاكفين لأنه تقدم ﴿سَوَاءَ الْعَاكِفِ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ وفي هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين والعاكفين، واكتفى بذكر الركوع والسجود عن القيام؛ لأنه قد علم أنه لا يكون ركوع ولا سجود إلا بعد قيام. وفي ذلك - أيضاً - ردٌّ على من لا يحجه من أهل الكتابين: اليهود والنصارى؛ لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وعظمته ، ويعلمون أنه بنى هذا البيت للطواف في الحج والعمرة، وغير ذلك، وللاعتكاف والصلاة عنده، وهم لا يفعلون شيئاً من ذلك، فكيف يكونون مقتدين بالخليل، وهم لا يفعلون ما شرع الله له؟! وقد حجَّ البيت موسى بن عمران وغيره من الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، كما أخبر بذلك المعصوم، الذي لا ينطق عن الهوى ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤]. وتقدير الكلام إذا: ﴿وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أى: طهراه من الشرك والريب، وابنيه خالصاً لله، معقلاً للطائفين والعاكفين والركع السجود. وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية، ومن قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكِّرَ فِيهَا اسْمَهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦] ومن السنة من أحاديث كثيرة، من الأمر بتطهيرها وتطبيها وغير ذلك، من صيانتها من الأذى والتجاسات وما أشبه ذلك. ولهذا قال، عليه السلام: «إنما بُنيت المساجد لما بُنيت له» (١). وقد جَمَعْتُ في ذلك جزءاً على حدة، والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: روى الإمام أبو جعفر بن جرير: عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم حرمَّ بيت الله وأمنه، وإنى حرمت المدينة ما بين لابتيها، فلا يُصَادُ صيدها ولا يقطع عضاها» ورواه مسلم والنسائي (٢). وروى ابن جرير - أيضاً - عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم كان عبد الله وخليته، وإنى عبد الله ورسوله. وإن إبراهيم حرمَّ مكة، وإنى حرمت المدينة ما بين لابتيها، عضاها وصيدها، لا يحمل فيها سلاح لقتال، ولا يقطع منها شجرة إلا لعلف بعير». وهذه الطريق غريبة، ليست في شيء من الكتب الستة (٣) ، وأصل الحديث في صحيح مسلم من وجه آخر، عن أبي هريرة ، قال: كان الناس إذا رأوا أول الثمر، جاؤوا به إلى رسول الله ﷺ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال: «اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك

(١) رواه مسلم (١ / ١٥٧ ، ١٥٨) ، وابن ماجه (٧٦٥) ، كلاهما من حديث بريدة الأسلمى.

(٢) الطبرى (٢٠٢٩) وإسناده صحيح ، ومسلم بنحوه (١ / ٣٨٥) . و « اللابتان » : هما الحرتان بجانبى المدينة ، وهى الأرض ذات الحجارة السود التى قد البستها لكثرتها . و « العضاة » - بكسر العين وتخفيف الضاد المعجمة وآخرها هاء : كل شجر عظيم له شوك .

(٣) الطبرى (٢٠٣٠) وإسناده صحيح ، ولم أجده أيضا فى المسند ولا فى غيره مما استطعت الرجوع إليه من المراجع.

لنا فى مدينتنا، وبارك لنا فى صاعنا، وبارك لنا فى مُدُنَّا. اللهم إن إبراهيمَ عبدُك وخليلك ونبيك، وإنى عبدك ونبيك. وإنه دعاك لمكة، وإنى أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة، ومثله معه». ثم يدعوا أصغرَ ولید ، فيعطيه ذلك الثمر (١). وروى ابن جرير عن رافع بن خديج ، قال : قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة، وإنى أحرم ما بين لابتيها». انفراد بإخراجه مسلم (٢).

[ثم ذكر المؤلف الحافظ أحاديث فى هذا المعنى عن أنس ، من الصحيحين . وعن عبد الله بن زيد بن عاصم ، منهما . وعن أبى سعيد ، من صحيح مسلم . ثم قال] : والأحاديث فى تحريم المدينة كثيرة، وإنما أوردنا منها ما هو متعلق بتحريم إبراهيم عليه السلام، لمكة، لما فى ذلك فى مطابقة الآية الكريمة . وقد وردت أحاديث أخرُ تدلُّ على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات والأرض، كما جاء فى الصحيحين، عن عبد الله بن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة. وإنه لم يُحَلِّ القتال فيه لأحد قبلى، ولم يحل لى إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة. لا يُعضد شوكة ولا ينفر صيده، ولا تُلَقَطُ لُقَطُهُ إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها». فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم. فقال: «إلا الإذخر» وهذا لفظ مسلم (٣). ولهما عن أبى هريرة نحو من ذلك (٤).

فإذا علم هذا فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم، عليه السلام، حرمها؛ لأن إبراهيم بلغ عن الله حكمه فيها وتحريمه إياها، وأنها لم تزل بلداً حراماً عند الله قبل بناء إبراهيم، عليه السلام، لها، كما أنه قد كان رسول الله ﷺ مكتوباً عند الله خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل فى طيبته، ومع هذا قال إبراهيم، عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ الآية. وقد أجاب الله دعاءه بما سبق فى علمه وقدره. ولهذا جاء فى الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن بدء أمرك؟ فقال: «دعوة أبى إبراهيم، وبشرى عيسى ابن مريم، ورأت أمى كأنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام». أى: أخبرنا عن بدء ظهور أمرك. كما سيأتى قريباً، إن شاء الله (٥).

وقوله: تعالى إخباراً عن الخليل أنه قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ أى: من الخوف، لا يرعب أهله، وقد فعل الله ذلك شرعاً وقدرأ. كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وقوله ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَفُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧] إلى غير ذلك من

(١) صحيح مسلم (١ / ٣٨٧) من طريق مالك . وهو فى الموطأ ، ص ٨٨٥ .

(٢) الطبرى (٢٠٣١) ، وصحيح مسلم (١ / ٣٨٥) .

(٣) صحيح مسلم (١ / ٣٨٣) . وانظر : الطبرى وتخریجنا (٢٠٢٨) .

(٤) ثم ذكر المؤلف الحافظ حديثاً آخر بمعناها ، من حديث صفية بنت شيبة ، رواه ابن ماجه . وذكره البخارى فى الصحيح تعليقاً ، ثم حديثاً آخر بهذا المعنى ، من حديث أبى شريح العدوى ، رواه الشيخان .

(٥) عند تفسير الآية (١٣٩) من هذه السورة .

الآيات. وقد تقدمت الأحاديث في تحريم القتال فيها. وقال في هذه السورة: ﴿وَبِاجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ أى: اجعل هذه البقعة بلداً آمناً، وناسب هذا؛ لأنه قبل بناء الكعبة. وقال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥] وناسب هذا هناك لأنه، والله أعلم، كأنه وقع دعاء ثانياً بعد بناء البيت واستقرار أهله به، وبعد مولد إسحاق الذى هو أصغر سنًا من إسماعيل بثلاث عشرة سنة؛ ولهذا قال فى آخر الدعاء: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وقوله تعالى: ﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾: قال أبى بن كعب: هو قول الله تعالى. وهذا قول مجاهد وعكرمة وهو الذى صوبه ابن جرير، رحمه الله. وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٣، ٢٤]، وقوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُوتِهِمْ سَقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ. وَلِبُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُررًا عَلَيْهَا يَتَكُونَ. وَزَخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعٌ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أى: ثم أُلجئته بعد متاعه فى الدنيا وبسطننا عليه من ظلها - إلى عذاب النار وبئس المصير. ومعناه: أن الله تعالى يُنظرهم ويُمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كقوله تعالى: ﴿وَكَايِنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَا إِلَيْهَا الْمَصِيرَ﴾ [الحج: ٤٨]، وفى الصحيحين: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله؛ إنهم يجعلون له ولدًا، وهو يرزقهم ويعافيه» (١)، وفى الصحيح أيضاً: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته». ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَةَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] (٢).

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾: فالقواعد: جمع قاعدة، وهى السارية والأساس، يقول تعالى: واذكر - يا محمد - لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، البيت، ورفعهما القواعد منه، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، فهما فى عمل صالح، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما، كما روى ابن أبى حاتم، عن وهيب بن الورد (٣): أنه قرأ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ

(١) مضى فى ص ١٦٥ من حديث أبى موسى الأشعري .

(٢) رواه الشيخان والترمذى وابن ماجه ، من حديث أبى موسى . انظر : الفتح (٨ / ٢٦٧) .

(٣) وهيب بن الورد المكي : من كبار العباد الزاهدين ، من شيوخ عبد الله بن المبارك وفضيل بن عياض وعبد الرزاق . مات سنة ١٥٣ . مترجم فى التهذيب ، والكبير للبخارى (٤ / ١٧٧ / ٢) ، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم (٤ / ٣٤) . وله ترجمة حافلة جيدة فى الحلية لأبى نعيم (٨ / ١٤٠ - ١٦١) .

وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ ثُمَّ يَبْكِي وَيَقُولُ: يَا خَلِيلَ الرَّحْمَنِ، ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مُشْفِقٌ أَنْ لَا يَقْبَلَ مِنْكَ. وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين الخالص في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ أى: يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَّةٌ﴾ للمؤمنون: [٦٠]، أى: خائفة ألا يتقبل منهم. وقد روى البخارى ههنا عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، عليهما السلام. اتخذت منطقاً لتعفى أثرها على سارة. ثم جاء بها إبراهيم وبانها إسماعيل، وهى ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحه (١) فوق زَمْزَمَ فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسِقَاءٌ فيه ماء، ثم قَفَى إبراهيم، عليه السلام، منطلقاً. فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شىء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها. فقالت: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيئنا. ثم رجعت. فانطلق إبراهيم، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات، ورفع يديه، قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نَفَدَ ما فى السقَاءِ عَطِشَتْ وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال: يتلبط (٢) - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقربَ جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً. فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرفَ درعها، ثم سعت سَعَى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى. ثم أتت المروة، فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً. ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبى ﷺ: «فلذلك سعى الناس بينهما». فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه، تريد نفسها، ثم تَسَمَّعت فسمعت أيضاً. فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غُوَاثٌ (٣) فإذا هى بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - أو قال: بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تُحَوِّضُهُ، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف. قال ابن عباس: قال النبى ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً». قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافى الضيعة؛ فإن هاهنا بيتا لله، يبنى (٤) هذا الغلامُ وأبوه، وإن الله، لا يضيع أهله. وكان البيت

(١) الدوحه : الشجرة الكبيرة .

(٢) يتلبط : يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض .

(٣) « غواث » ضبطت فى اليونانية من البخارى (٤ / ١٤٣ من الطبعة السلطانية) بضم الغين وكسرهما، وعليها كلمة « صح » . وقال ابن الأثير فى النهاية : « الغواث بالفتح ، كالغياث بالكسر : من الإغاثة . وقد أغاثه يعينه . وقد روى بالضم والكسر ، وهما أكثر ما يجىء فى الأصوات ، كالنجاح والنداء . والفتح فيها شاذ » .

(٤) هكذا هو يحذف المفعول . وهو الثابت فى الأزهرية والموافق لما فى البخارى . وفى المطبوعة : « بينه » . وهو مخالف للرواية الثابتة .

مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم - أو أهل بيت من جرهم - مقبلين من طريق كداء. فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً (١)، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لَهْدُنَا بهذا الوادى وما فيه ماء. فأرسلوا جَرِيًّا (٢) أو جَرِيَيْن، فإذا هم بالماء. فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا. قال: وأم إسماعيل عند الماء. فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس. فنزلوا، وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم. حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام، وتعلم العربية منهم، وأنفسهم (٣) وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجته امرأة منهم. وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل ليطالع تركته (٤). فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه. فقالت: خرج يبتغي لنا. ثم سألتها عن عيشتهم وهيئتهم؟ فقالت: نحن بشرّ، نحن في ضيق وشدة. وشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك أقرئي عليه السلام، وقولى له: يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل، كأنه آنس شيئاً. فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسأل عنك، فأخبرته، وسألني كيف عيشتنا؟ فأخبرته أنا في جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابك. قال: ذاك أباي. وقد أمرني أن أفارقك، فالحقى بأهلك. وطلّقها وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده. فدخل على امرأته، فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشتهم وهيئتهم. فقالت: نحن بخير وسعة. وأنت على الله، عز وجل. قال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شربكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء». قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حَب، ولو كان لهم لدعا لهم فيه. قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه». قال: «فإذا جاء زوجك فأقرئي عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل، قال: هل أتاكم من أحد؟

(١) بالعين المهملة والفاء، وهو الذى يحوم على الماء ويتردد ولا يمضى عنه. قاله الحافظ فى الفتح.
 (٢) «الجرى» - بفتح الجيم وكسر الراء وتشديد الباء: الرسول، وقد يطلق على الوكيل وعلى الأجير. سُمى بذلك لأنه يجرى مجرى مرسله أو موكله، أو لأنه يجرى مسرعاً فى حوائجه.
 (٣) وأنفسهم - قال الحافظ فى الفتح «بفتح الفاء بلفظ أفعل التفضيل، من النفاسة. أى كثرت رغبتهم فيه». وفى النهاية: «أى»: أعجبهم وصار عندهم نفساً. يقال: أنفستى فى كذا: أى رغبتى فيه». وهذا الحديث صريح فى الدلالة التاريخية على أن العربية أقدم من إبراهيم وإسماعيل ولعلها أقدم من السريانية، والتي هى - يقينا - أقدم من العربية، التى هى لغة أبناء إسرائيل، الذى هو يعقوب حفيد إبراهيم. بل لعل العربية الأولى هى أم هذه اللغات - التى تسمى «السامية» - كلها - خلافاً لمن جهل ذلك، فجعلوا كل لفظة عربية توافق حرفاً من تلك اللغات معرباً عنها!!
 (٤) بكسر الراء: أى يتفقد حال تركه هناك.

قالت: نعم، أنا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه ، فسألني عنك، فأخبرته، فسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير. قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك. ثم لبث عنهم ما شاء الله، عز وجل، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبئري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد. ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر. قال: فاصنع ما أمرك ربك. قال: وتعيني؟ قال: وأعينك. قال: فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً - وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها - قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبني ، وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ، قال : «فجعلاً بينان حتى يدورا حول البيت، وهما يقولان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾». ورواه عبد بن حميد به مطولاً . ورواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، مختصراً . ورواه ابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس مطولاً .

[ثم ذكر المؤلف الحافظ حديثاً آخر فى معناه عن ابن عباس أيضا ، من صحيح البخارى . ثم قال] : والعجب أن الحافظ أبا عبد الله الحاكم رواه فى المستدرک، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه . وقد رواه البخارى كما ترى !! [ثم ذكر أحاديث أخر عن على وابن عباس ، وآثاراً عن بعض التابعين . لم نر داعياً للإطالة بذكرها . ثم قال] : وقال البخارى، رحمه الله: قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ الآية: القواعد: أساسه واحدها: قاعدة. والقواعد من النساء: واحدها قاعدة. ثم روى عن عائشة زوج النبي ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «ألم تَرَى أن قومك حين بنوا البيت اقتصروا عن قواعد إبراهيم؟» فقلت: يا رسول الله، ألا تَرَدَّهَا على قواعد إبراهيم؟ قال: «لولا حدثان قومك بالكفر». فقال عبد الله ابن عمر: لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله ﷺ ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتم على قواعد إبراهيم . ورواه مسلم والنسائي . وروى مسلم عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية - أو قال: بكفر - لأنفقت كنز الكعبة فى سبيل الله، ولجعلت بابها بالأرض، ولأدخلت فيها الحجر» .

وروى مسلم عن عبد الله بن الزبير قال: حدثتني خالتي - يعنى عائشة - قالت: قال النبي ﷺ: «يا عائشة، لولا قومك حديث عهد بشرك، لهدمت الكعبة، فألقتها بالأرض، ولجعلت لها بابين: باباً شرقياً، وباباً غربياً، وزدتُ فيها ستة أذرع من الحجر؛ فإن قريشاً اقتصرتها حيث بنت الكعبة» .

ذكر بناء قريش الكعبة بعد إبراهيم الخليل وقبل البعثة بخمسين سنين (١) :

وقد نقل معهم رسول الله فى الحجارة، وله من العمر خمس وثلاثون سنة صلوات الله

(١) وانظر أيضا فى بناء الكعبة ما كتبه المؤلف فى تاريخه (١ / ١٦٣ - ١٦٦ ، و ٢ / ٢٩٨ - ٣٠٥) .

وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين . قال محمد بن إسحاق بن يسار فى السيرة: ولما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة، اجتمعت قريش لبنان الكعبة، وكانوا يَهْمُونَ بذلك ليسقفوها، ويهايون هدمها، وإنما كانت رَضْمًا فوق القامة، فأرادوا رفعها وتسقيفها، وكان بمكة رجل قبلى، فهدمها لهم فى أنفسهم بعض ما يصلحها . فلما أجمعوا أمرهم فى هدمها وبنائها، قام أبو وهب ابن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم، فقال: يا معشر قريش، لا تُدْخِلُوا فى بِنَائِهَا من كسبكم إلا طيباً، لا يدخل فيها مهر بَعِي ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس. ثم إن قريشا تجرأت الكعبة، فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم، وكان ظهر الكعبة لبني جُمَحٍ وسَهْمٍ، وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي، ولبني أسد ابن عبد العزى بن قُصَي، ولبني عدى بن كعب بن لؤى، وهو الحَظِيم. حتى إذا انتهى الهدم إلى الأساس، أساس إبراهيم، عليه السلام، أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة أخذ بعضها بعضاً .

ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها، حتى بلغ البنيان موضع الركن - يعنى الحجر الأسود - فاخصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى تحاوروا وتخالفوا، وأعدوا للقتال. فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً، ثم تعافدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة، فسماوا: لعنة الدم. فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً. ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد فتشاوروا وتناصفوا. فزعم بعض أهل الرواية: أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم - وكان عامئذ أسن قريش كلهم - قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد، يقضى بينكم فيه. ففعلوا، فكان أول داخل رسول الله ﷺ. فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه، قال ﷺ: «هَلُمَّ لِيَّ ثوباً» فأتى به، فأخذ الركن - يعنى الحجر الأسود - فوضعه فيه بيده، ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم: «ارفعوه جميعاً». ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ﷺ، ثم بنى عليه. وكانت قريش تسمى رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحى: الأمين. وكانت الكعبة على عهد النبي ﷺ ثمانية عشر ذراعاً، وكانت تكسى القباطى، ثم كُسِيَتْ بعدُ البُرود، وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف (١) .

قلت: ولم تزل على بناء قريش حتى احترقت فى أول إمارة عبد الله بن الزبير بعد سنة ستين. وفى ولاية يزيد بن معاوية، لما حاصروا ابن الزبير، فحينئذ نقضها ابن الزبير إلى الأرض وبنائها على قواعد إبراهيم، عليه السلام، وأدخل فيها الحجر وجعل لها باباً شرقياً وباباً غربياً ملصقين بالأرض، كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين، ولم تزل كذلك مدة

(١) كلام ابن إسحاق فى السيرة طويل . انظر : سيرة ابن هشام (ص ١٢٢ - ١٢٦ طبعة أوربة) . وقد اختصر الحافظ المؤلف هنا بعضه ، واختصرت أنا كثيراً منه ؛ اقتصر على الضرورى المناسب هنا .

إمارته حتى قتله الحجاج، فردها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مروان له بذلك، كما روى مسلم بن الحجاج فى صحيحه: عن عطاء، قال: لما احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزاها أهل الشام، فكان من أمره ما كان، تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم يريد أن يُجرّتهم - أو يُحزبهم - على أهل الشام، فلما صدر الناس قال: يا أيها الناس، أشيروا علىّ فى الكعبة، أنقضها ثم أبني بناءها أو أصلح ما وهى منها؟ قال ابن عباس: إنه قد خرّق لى رأى فيها، أرى أن تُصلح ما وهى منها، وتدع بيتاً أسلم الناس عليه، وأحجاراً أسلم الناس عليها، وبعث عليها النبي ﷺ. فقال ابن الزبير: لو كان أحدهم احترق بيته ما رضى حتى يجده، فكيف بيت ربكم، عز وجل؛ إنى مستخير ربي ثلاثاً ثم عازم على أمرى. فلما مضت ثلاث أجمع رأيه على أن ينقضها. فتحامها الناس أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمر من السماء، حتى صعد رجل، فألقى منه حجارة، فلما لم يره الناس أصابه شئء تتابعوا، فنقضوه حتى بلغوا به الأرض. فجعل ابن الزبير أعمدة فستر عليها الستور، حتى ارتفع بناؤه. وقال ابن الزبير: إنى سمعت عائشة، رضى الله عنها، تقول: إن النبي ﷺ، قال: «لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر، وليس عندى من النفقة ما يُقوينى على بنائه، لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع، ولجعلت له باباً يدخل الناس منه، وباباً يخرجون منه». قال: فأنا أجد ما أنفق، ولست أخاف الناس. قال: فزاد فيه خمسة أذرع من الحجر، حتى أبدى له أساً نظّر الناس إليه فبنى عليه البناء. وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعاً، فلما زاد فيه استقصره فزاد فى طوله عشرة أذرع، وجعل له بابين: أحدهما يدخل منه، والآخر يخرج منه. فلما قُتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره بذلك، ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر إليه العدول من أهل مكة، فكتب إليه عبد الملك: إنا لسنا من تلطّيح ابن الزبير فى شئء، أما ما زاده فى طوله فأقره. وأما ما زاد فيه من الحجر فردّه إلى بنائه، وسد الباب الذى فتحه. فنقضه وأعادّه إلى بنائه .

وقد رواه النسائي عن عائشة بالمرفوع منه. ولم يذكر القصة، وقد كانت السنة إقرار ما فعله عبد الله بن الزبير، رضى الله عنه؛ لأنه هو الذى ودّه رسول الله ﷺ. ولكن خشى أن تنكره قلوب بعض الناس لحدائث عهدهم بالإسلام وقرب عهدهم من الكفر. ولكن خفيت هذه السنّة على عبد الملك بن مروان، ولهذا لما تحقق ذلك عن عائشة أنها روت ذلك عن رسول الله ﷺ، قال: وددنا أنا تركناه وما تولى. فقد روى مسلم عن أبى قرعة: أن عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت إذ قال: قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أم المؤمنين! يقول: سمعتها تقول: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، لولا حدّثان قومك بالكفر لنقضت الكعبة حتى أزيد فيها من الحجر، فإن قومك قصّروا فى البناء». فقال الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة: لا تقل هذا يا أمير المؤمنين، فأنا سمعت أم المؤمنين تحدث هذا. قال: لو كنت سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى ابن الزبير. فهذا الحديث كالمقطوع به إلى عائشة أم المؤمنين، لأنه قد روى

عنها من طرق صحيحة متعددة عن الأسود بن يزيد، والحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن محمد بن أبي بكر الصديق، وعروة بن الزبير. فدل هذا على صواب ما فعله ابن الزبير. لو ترك لكان جيداً.

ولكن بعد ما ترك الأمر إلى هذا الحال، فقد كره بعض العلماء أن يغير عن حاله، كما ذكر عن أمير المؤمنين هارون الرشيد - أو أبيه المهدي : أنه سأل الإمام مالكا عن هدم الكعبة وردّها إلى ما فعله ابن الزبير؟ فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا تجعل كعبة الله ملعبة للملوك، لا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها. فترك ذلك الرشيد. نقله عياض والنواوي، ولا تزال - والله أعلم - هكذا إلى آخر الزمان، إلى أن يُخرّبها ذو السويقتين من الحبشة، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يُخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة». وعن عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «كأنى به أسود أفحج، يقلعها حجراً حجراً». رواه البخارى. وروى الإمام أحمد بن حنبل عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة، ويسلبها حلّيتها ويجردها من كسوتها. ولكأنى أنظر إليه أصيلع أفيدع يضرب عليها بمسحاته ومعوله» (١). الفدع: زبغ (٢) بين القدم وعظم الساق. وهذا - والله أعلم - إنما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج، لما جاء في صحيح البخارى عن أبي سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ: «لِيُحَجَّجَ الْبَيْتُ وَلِيُعْتَمَرَ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ».

وقوله تعالى حكاية لدعاء إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾: قال ابن جرير: يعنيان بذلك: واجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا نشرك معك في الطاعة أحداً سواك، ولا فى العبادة غيرك. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ قال السدى: يعنيان العرب. قال ابن جرير: والصواب أنه يعمُّ العرب وغيرهم؛ لأن من ذرية إبراهيم بنى إسرائيل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهُودُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]. قلت: وهذا الذى قاله ابن جرير لا ينفيه السدى؛ فإن تخصيصهم بذلك لا ينفى من عداهم، والسياق إنما هو فى العرب؛ ولهذا قال بعده: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ الآية، والمراد بذلك محمد ﷺ، وقد بعث فيهم كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] ومع هذا لا ينفى رسالته إلى الأحمر والأسود، لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وغير ذلك من الأدلة القاطعة.

وهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل، عليهما السلام، كما أخبر الله تعالى عن عباده المتقين

(١) المسند بتحقيقنا (٧٠٥٣) .

(٢) فى المطبوع من «عمدة التفسير»: «زبغ» بالعين المهملة، وهو خطأ، وأعتقد أنه من الطابع. راجع: القاموس المحيط، مادة «فدع». (الباز).

المؤمنين ، فى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٤]. وهذا القدر مرغوب فيه شرعاً ، فإن من تمام محبة عبادة الله تعالى أن يُحب أن يكون من صلِّبه من يعبد الله وحده لا شريك له ؛ ولهذا لما قال الله تعالى لإبراهيم ، عليه السلام : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ قال : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ وهو قوله : ﴿ وَاجْعَلْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم : ٣٥]. وقد ثبت فى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له ».

﴿ وَأَرْوَانَا مَنَاسِكَنَا ﴾ : قال عطاء : أخرجها لنا ، وعلمناها . وروى أبو داود الطيالسى ، عن ابن عباس ، قال : إن إبراهيم لما أرى المناسك ، عرض له الشيطان عند المسعى ، فسابقه إبراهيم ، ثم انطلق به جبريل حتى أتى به منى ، فقال : منأخ الناس هذا . فلما انتهى إلى جمره العقبة تعرض له الشيطان ، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم أتى به الجمره الوسطى ، فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات ، حتى ذهب ، ثم أتى به الجمره القصوى ، فعرض له الشيطان ، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، فأتى به جمعاً . فقال : هذا المشعر . ثم أتى به عرفة . [فقال : هذه عرفة] (١) . فقال له جبريل : أعرفت (٢) .

﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم - أن يبعث الله فيهم رسولا منهم ، أى من ذرية إبراهيم . وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق فى تعيين محمد - صلوات الله وسلامه عليه - رسولا فى الأمين إليهم ، وإلى سائر الأعجمين ، من الإنس والجن ، كما روى الإمام أحمد : عن العرياض بن سارية قال : قال رسول الله ﷺ : « إني عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طيبته ، وسأنبئكم بأول ذلك : دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى بنى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين » (٣) . وروى أيضا عن أبى أمامة قال : قلت : يا رسول الله ، ما كان أول بدء أمرك؟ قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى بنى ، ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام » (٤) .

(١) هذه الجملة ساقطة من المطبوع من « عمدة التفسير » ، وأثبتناها من المخطوطة الأهرية . (الباز) .

(٢) هو قطعة من حديث طويل ، رواه الطيالسى فى مسنده (٢٦٩٧) ورواه أحمد فى المسند أيضا (٢٧٠٧ ، ٢٧٠٨) .

(٣) المسند (١٧٢١٧ ، ١٧٢١٨ ، ١٧٢٣٠) وأسانيده صحاح ، ورواه الطبرى (٢٠٧١ - ٢٠٧٣) . وفصلنا القول فى تخرجه هناك .

(٤) المسند (٥ / ٢٦٢ حلى) ورواه أيضا الطيالسى (١١٤٠) وكذلك رواه الطبرانى ، وابن مردويه ، والبيهقى - كما فى الدر المنثور (١ / ١٣٩) . وفى إسناده الفرج بن فضالة ، وهو ضعيف ، ولكنه يصلح شاهدا للحديث الذى قبله .

والمراد أن أول من نوهً بذكره وشهره في الناس، إبراهيم ، عليه السلام. ولم يزل ذكره في الناس مذكوراً مشهوراً سائراً حتى أفصح باسمه خاتمُ أنبياء بني إسرائيل نسباً، وهو عيسى ابن مريم، عليه السلام، حيث قام في بني إسرائيل خطيباً، وقال: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]؛ ولهذا قال في هذا الحديث: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى ابن مريم».

وقوله: «ورأت أُمى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام» - قيل: كان مناماً رأته حين حملت به، وقصته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم، وكان ذلك توطئة. وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها. ولهذا جاء في الصحيحين: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك». وفي صحيح البخاري: «وهم بالشام».

وقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ يعني: القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ يعني: السنة، قاله الحسن، وقتادة، ومقاتل بن حيان، وأبو مالك وغيرهم. وقيل: الفهم في الدين. ولا منافاة. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ قال ابن عباس: يعني طاعة الله، والإخلاص. وقال محمد بن إسحاق: يعلمهم الخير فيفعلوه، والشرف فيتقوه، ويخبرهم برضا الله عنهم إذا أطاعوه ليستكثروا من طاعته، ويجتنبوا ما يسخطه من معصيته. وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أى: العزيز الذى لا يعجزه شيء، وهو قادر على كل شيء، الحكيم في أفعاله وأقواله، فيضع الأشياء في محالها؛ لعلمه وحكمته وعدله.

﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١٢٠] إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ وَوَصَّيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنَئِي إِنْ اللَّهُ اصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٢﴾

يقول تبارك وتعالى رداً على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله، المخالف لملة إبراهيم الخليل، إمام الحنفاء، فإنه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى، فلم يدع معه غيره، ولا أشرك به طرفة عين، وتبرأ من كل معبود سواه، وخالف في ذلك سائر قومه، حتى تبرأ من أبيه، فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الانعام: ٧٨، ٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تُعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا بِأَهْلًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لِأَوْاهٍ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٢]، ولهذا وأمثاله قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أى: عن طريقتة ومنهجه. فيخالفها ويرغب عنها ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أى:

ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال، حيث خالف طريق من اصطفى في الدنيا للهداية والرشاد، من حدائته سنّه إلى أن اتخذ الله خليلاً، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء فترك طريقه هذا ومسلكه وملّته واتبع طُرُقَ الضلالة والغي، فأى سفه أعظم من هذا؟! أم أى ظلم أكبر من هذا؟! كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ . وقال أبو العالية وقتادة: نزلت هذه الآية في اليهود؛ أحدثوا طريقاً ليست من عند الله وخالفوا ملّة إبراهيم فيما أخذوه، ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧، ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى: أمره الله بالإخلاص له والاستسلام والانقياد، فأجاب إلى ذلك شرعاً وقدرأً، وقوله: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾، أى: وصى بهذه الملّة، وهى الإسلام لله لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة ووصوا أبناءهم بها من بعدهم: ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أى: أحسنوا في حال الحياة والزمو هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه. فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه. وقد أجرى الله الكريم عاداته بأن من قصد الخير ووفق له ويسر عليه. ومن نوى صالحاً ثبت عليه. وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»^(١)؛ لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث: «فيعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس. وقد قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ . فَسَنِيْرَهُ لِيَسْرَىٰ . وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ . وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ . فَسَنِيْرَهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥ - ١٠] »^(٢) .

﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾
 ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ حَلَّتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى محتجاً على المشركين من العرب أبناء إسماعيل، وعلى الكفار من بنى

(١) هذا جزء من حديث رواه أحمد في المسند (٣٦٢٤)، من حديث ابن مسعود، وكذلك رواه البخارى ومسلم وغيرهما. وهو الحديث الرابع من الأربعين النووية.

(٢) هذا جزء من حديث آخر، عن سهل بن سعد، وإنما اعتبره المؤلف الحافظ من بعض روايات الحديث الذى قبله - باعتبار المعنى، لا باعتبار اتحاد الصحابى. وحديث سهل بن سعد رواه مسلم (٢ / ٢٩٩، ٣٠٠) مختصراً. ورواه البخارى (٦ / ٦٦)، ومسلم (١ / ٤٣) مطولاً فى قصة.

إسرائيل - وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام - بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له ، فقال لهم : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ وهذا من باب التغليب لأن إسماعيل عمه . ﴿ إِلَهِهَا وَاحِدًا ﴾ أى : نُوحِدُهُ بِالْإِلَوهِيَّةِ ، ولا نشرك به شيئاً غيره ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ أى : مطيعون خاضعون كما قال تعالى : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران : ٨٣] والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة ، وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] . والآيات فى هذا كثيرة والأحاديث ، فمنها قوله ﷺ : «نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» (١) .

وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ أى : مضت ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ أى : إن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيراً يعود نفعه عليكم ، فإن لهم أعمالهم التى عملوها ولكم أعمالكم : ﴿ وَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

﴿ ١٣٥ ﴾

روى محمد بن إسحاق : عن ابن عباس ، قال : قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ : ما الهدى إلا ما نحن عليه ، فاتبعنا يا محمد تهتد . وقالت النصرارى مثل ذلك . فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ﴾ . وقوله : ﴿ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أى : لا نريد ما دعوتونا إليه من اليهودية والنصرانية ، بل نتبع ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ أى : مستقيما . وقال مجاهد : مخلصاً (٢) .

﴿ قُولُوا أَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

﴿ ١٣٦ ﴾

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً ، وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً ، ونص على أعيان من الرسل ، وأجمل ذكر بقية الأنبياء ، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم ، بل يؤمنوا بهم كلهم ، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم : ﴿ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنُكْفِرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا . أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾ الآية [النساء : ١٥٠ ، ١٥١] . وروى البخارى : عن أبى هريرة ، قال : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : «لا تصدقوا

(١) هو مختصر من معنى حديث مطول ، رواه أحمد فى المسند مرارا ، منها (٨٢٣١ ، ٩٢٥٩ ، ٩٦٣٠ - ٩٦٣٢) من حديث أبى هريرة ، ورواه الشيخان وغيرهما .

(٢) البخارى (٨ / ١٢٩ فتح) .

أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ الآية (١). وقد روى مسلم وأبو داود والنسائي عن ابن عباس، قال، كان رسول الله ﷺ أكثر ما يصلي الركعتين اللتين قبل الفجر بـ ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ الآية، والأخرى بـ ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٢]. وقال الخليل بن أحمد وغيره: الأسباط في بني إسرائيل، كالقبائل في بني إسماعيل.

﴿ فَإِنِ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِن فُوتُوا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ فَإِنِ آمَنُوا ﴾ يعني: الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ﴿ بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ ﴾ أيها المؤمنون، من الإيمان بجميع كتب الله ورسوله، ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿ فَقَدْ اهْتَدَوْا ﴾ أي: فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه: ﴿ وَإِن فُوتُوا ﴾ أي: عن الحق إلى الباطل، بعد قيام الحجة عليهم ﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾ أي: فسينصرك عليهم ويظفرك بهم ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾. روى ابن أبي حاتم: عن زياد بن يونس، حدثنا نافع بن أبي نعيم، قال: أرسل إلى بعض الخلفاء مصحف عثمان بن عفان ليصلحه. قال زياد: فقلت له: إن الناس ليقولون: إن مصحفه كان في حجره حين قُتل، فوقع الدم على ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾. فقال نافع: بصرت عيني بالدم على هذه الآية (٢).

وقوله: ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾: قال ابن عباس: دين الله. وانتصاب ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾: إما على الإغراء كقوله: ﴿ فُطِرَتِ اللَّهُ ﴾ [الروم: ٣٠] أي: الزموا ذلك عليكموه. وقال بعضهم: بدلا من قوله: ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾. وقال سيويه: هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله: ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ كقوله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ ﴾ [المائدة: ٩٠، وفي غيرها].

﴿ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مِمَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ﴾

يقول الله تعالى مرشداً نبيه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين: ﴿ قُلْ

(١) في المطبوع من «عمدة التفسير»: «بأننا» وكذا في الأهرية. وهي خطأ. وقد جاءت هذه اللفظة - «بأننا» - في المائدة: الآية (١١١) في قوله تعالى: ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّ مُسْلِمُونَ ﴾. (الباز).

(٢) إسناده صحيح إلى نافع. ونافع: هو ابن عبد الرحمن بن أبي نعيم، أحد القراء السبعة المشهورين. والراوى عنه هو تلميذه في القراءة: زياد بن يونس الحضرمي الإسكندراني، أحد الأئمة الثقات. كان يلقب «سوسة العلم»، مات بمصر سنة ٢١١هـ.

أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ ﴿٤١﴾ أَى : أتناظروننا فى توحيد الله والإخلاص له والانقياد، واتباع أوامره وترك زواجه ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ المتصرف فىنا وفىكم ، المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له !؟ ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أَى : نحن براء منكم وبما تعبدون، وأنتم براء منا، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس : ٤١] وقال تعالى : ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران : ٢٠] . وقال تعالى إخباراً عن إبراهيم : ﴿وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ قَالِ أَتَحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام : ٨٠] وقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ الآية [البقرة : ٢٥٨] . وقال فى هذه الآية الكريمة : ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ أَى : نحن براء منكم كما أنتم براء منا، ونحن له مخلصون، أَى فى العبادة والتوجه .

ثم أنكر تعالى عليهم فى دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم، إما اليهودية وإما النصرانية، فقال : ﴿قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ﴾ يعنى : بل الله أعلم، وقد أخير أنهم لم يكونوا هودا ولا نصارى، كما قال تعالى : ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الآية التى بعدها [آل عمران : ٦٧ ، ٦٨] .

وقوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ : قال الحسن البصرى : كانوا يقرؤون فى كتاب الله الذى أتاهم : إن الدين الإسلام، وإن محمداً رسول الله، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا براء من اليهودية والنصرانية، فشهد الله بذلك، وأقروا به على أنفسهم لله، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك . وقوله : ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ : تهديد ووعد شديد، أَى : علمه محيط بعملكم، وسيجزىكم عليه . ثم قال تعالى : ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أَى : قد مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أَى : لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وليس يغنى عنكم انتسابكم إليهم، من غير متابعة منكم لهم، ولا تغتروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا مثلهم منقادين لأوامر الله واتباع رسله، الذى بعث مبشرين ومنذرين، فإنه من كفر بنبى واحد فقد كفر بسائر الرسل، ولا سيما من كفر بسيد الأنبياء، وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن من المكلفين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين .

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَدْنَهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤١﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عَمَلَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾

قيل: المراد بالسفهاء ههنا: مشركو العرب. وقيل: أحبار يهود. وقيل: المنافقون، والآية عامة في هؤلاء كلهم، والله أعلم. وروى البخارى: عن البراء: أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم. فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت. وكان الذى قد مات على القبلة قبل أن تحوّل قبل البيت رجلا قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَعُوفٌ رَحِيمٌ ﴾. ورواه مسلم (١).

وروى ابن أبى حاتم: عن البراء قال: كان رسول الله ﷺ قد صلّى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وكان يحب أن يوجّه نحو الكعبة، فأنزل الله: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ قال: فوجّه نحو الكعبة. وقال السفهاء من الناس، وهم اليهود: ﴿ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ فأنزل الله: ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٢).

وقد جاء فى هذا الباب أحاديث كثيرة، وحاصل الأمر: أنه قد كان رسول الله ﷺ أمرَ باستقبال الصخرة من بيت المقدس، فكان بمكة يصلّى بين الركنين، فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس، فلما هاجر إلى المدينة تعذّر الجمع بينهما، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس فاستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهراً، وكان يكثر الدعاء والابتهال أن يوجّه إلى الكعبة، التى هى قبلة إبراهيم، عليه السلام، فأجيب إلى ذلك، وأمر بالتوجه إلى البيت العتيق، فخطب رسول الله ﷺ الناس وأعلمهم بذلك. وكان أول صلاة صلاها إليها صلاة العصر، كما تقدم فى الصحيحين من رواية البراء. وأمّا أهل قباء، فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر من اليوم الثانى، كما جاء فى الصحيحين، عن ابن عمر أنه قال: بينما الناس بقاء فى صلاة الصبح، إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها. وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة (٣). وفى هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به، وإن تقدم نزوله وإبلاغه؛ لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء، والله أعلم.

ولما وقع هذا حصل لبعض الناس - من أهل النفاق والريب وانكسرة من اليهود - ارتياب وزيف عن الهدى وتخييط وشك، وقالوا: ﴿ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ أى: قالوا: ما

(١) البخارى (٨ / ١٣٠ فتح) ومسلم (١ / ١٤٨) ورواه أحمد (٤ / ٢٨٣ حلى) . والبخارى أيضا (١ / ٨٩ - ٩٠ ، ٤٢١ ، و ١٣ / ٢٠٢) وابن سعد فى الطبقات (١ / ٥٢) والطبرى (٢١٥٣ ، ٢٢٢٢) .

(٢) إسناده صحيح .

(٣) البخارى (١ / ٤٢٤ ، و ٨ / ١٣١ فتح) ومسلم (١٨١) ، ورواه أحمد فى المسند مرارا ، منها : (٤٦٤٢ ، ٤٧٩٤ ، ٥٨٢٧ ، ٥٩٣٤) .

لهؤلاء تارة يستقبلون كذا، وتارة يستقبلون كذا؟ فأنزل الله جوابهم فى قوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أى: الحكم والتصرف والأمر كله لله، وحيثما تولوا فثم وجه الله، و﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] أى: الشأن كله فى امتثال أوامر الله، فحيثما وجَّهنا توجَّهنا، فالطاعة فى امتثال أمره، ولو وجَّهنا فى كل يوم مرات إلى جهات متعددة، فنحن عبيده وفى تصرفه وخذامه، حيثما وجَّهنا توجَّهنا، وهو تعالى له بعبدته ورسوله محمد - صلوات الله وسلامه عليه - وأمته عناية عظيمة؛ إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم، خليل الرحمن، وجعل توجيههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له، أشرف بيوت الله فى الأرض، إذ هى بناية إبراهيم الخليل، عليه السلام، ولهذا قال: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. وقد روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ - يعنى فى أهل الكتاب -: «إنهم لا يحسدونا على شىء كما يحسدونا على يوم الجمعة، التى هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى القبله التى هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين» (١).

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾: يقول تعالى: إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم، عليه السلام، واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم، لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم؛ لأن الجميع معترفون لكم بالفضل. والوسط هاهنا: الخيار والأجود، كما يقال فى قريش: أوسط العرب نسباً وداراً، أى: خيرها. وكان رسول الله ﷺ وسطاً فى قومه، أى: أشرفهم نسباً، ومنه «الصلاة الوسطى»، التى هى أفضل الصلوات، وهى العصر، كما ثبت فى الصحاح وغيرها، ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً خصَّها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِثْلَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

وروى الإمام أحمد: عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم. فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، قال: فذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾. قال: الوسط: العدل، فتدعون، فتشهدون له بالبلاغ، ثم أشهد عليكم. رواه البخارى والترمذى والنسائى وابن ماجه (٢). وروى الحاكم وابن مردويه - واللفظ له - من حديث مصعب بن ثابت، عن محمد بن كعب القرظى، عن جابر بن عبد الله، قال: شهد رسول الله ﷺ جنازة فى بنى سلمة، وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ، فقال بعضهم:

(١) المسند (٦/١٣٤ ، ١٣٥ حلى) فى حديث طويل . وإسناده صحيح .

(٢) المسند (٣/١١٣٠) والبخارى (٦/٢٦٤ ، ٨/١٣٠ ، ١٣١ ، و١٣/٢٦٦) ، ورواه الطبرى (٢١٧٩ -

٢١٨١) . وذكره ابن كثير هنا من رواية أخرى لأحمد أيضا ، وهى فى المسند (١١٥٧٩) .

والله - يا رسول الله - لنعم المرء كان، لقد كان عفيفاً مسلماً ، وكان، وأثنوا عليه خيراً. فقال رسول الله ﷺ: «أنت بما تقول؟». فقال الرجل: الله أعلم بالسرائر، فأما الذى بدا لنا منه فذاك. فقال النبي ﷺ: «وجبت». ثم شهد جنازة فى بنى حارثة، وكنتُ إلى جانب رسول الله ﷺ، فقال بعضهم: يا رسول الله، بش المرء كان، إن كان لفظاً غليظاً، فإثنوا عليه شراً فقال رسول الله ﷺ لبعضهم: «أنت بالذى تقول». فقال الرجل: الله أعلم بالسرائر، فأما الذى بدا لنا منه فذاك. فقال رسول الله ﷺ: «وجبت». قال مصعب بن ثابت: فقال لنا عند ذلك محمد ابن كعب: صدق رسول الله ﷺ، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه (١) .

وروى الإمام أحمد: عن أبى الأسود أنه قال: أتيت المدينة فوافقتها، وقد وقع بها مرض، فهم يموتون موتاً ذريعاً. فجلست إلى عمر بن الخطاب، فمرت به جنازة، فأثنى على صاحبها خير. فقال: وجبت وجبت. ثم مرُّ بأخرى فأثنى عليها شراً، فقال عمر: وجبت. فقال أبو الأسود: ما وجبت يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت كما قال رسول الله ﷺ: «أَيُّمَا مُسْلِمٍ شَهِدَ لَهُ أَرْبَعَةٌ بِخَيْرٍ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ». قال: فقلنا. وثلاثة؟ قال: «وثلاثة». قال، فقلنا: واثنان؟ قال: «واثنان» ثم لم نسأله عن الواحد. وكذا رواه البخارى، والترمذى، والنسائى (٢). وروى ابن مردويه: عن أبى بكر بن أبى زهير الثقفى، عن أبىه، قال: سمعت رسول الله ﷺ بالنبأوة يقول: «يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم». قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: بالثناء الحسن والثناء السيئ، أتم شهداء الله فى الأرض». ورواه الإمام أحمد وابن ماجه (٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقَبِيلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾: يقول تعالى: إنما شرعنا لك - يا محمد - التوجه أولاً إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنه إلى الكعبة، ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجهت ﴿مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ ، أى: مُرْتَدًّا عن دينه ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ أى: هذه الفعلية، وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أى: وإن كان هذا لأمرًا عظيمًا فى النفوس، إلا على الذين هدى الله قلوبهم، وأيقنوا بتصديق الرسول، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذى لا مرية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله أن يكلف عباده بما شاء، وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة والحجة البالغة فى جميع ذلك، بخلاف الذين فى قلوبهم مرض، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكًا، كما يحصل للذين آمنوا إيقان وتصديق، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ

(١) المستدرك (١ / ٢٦٨) .

(٢) أبو الأسود هو الدؤلى . والحديث فى المسند برقم (١٣٩).

(٣) المسند (١٥٥٠٦) ، وابن ماجه (٤٢٢١) . وقال البوصيرى فى زوائد ابن ماجه: «إسناده صحيح ، رجاله ثقات ، وليس لأبى زهير - هذا - عند ابن ماجه سوى هذا الحديث . وليس له شيء فى بقية الكتب الستة» . أقول : وليس له فى مسند أحمد غيره أيضا . وقد أشار إليه البخارى فى الكنى رقم (٢٨٦) فى ترجمة أبى زهير .

يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴿ [التوبة : ١٢٤ ، ١٢٥] وقال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت : ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خُسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢] . ولهذا كان من نَبَتَ على تصديق الرسول ﷺ واتباعه في ذلك ، وتوجه حيث أمره الله من غير شك ولا ريب ، من سادات الصحابة . وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلوا القبليتين . [وأشار المؤلف الحافظ إلى حديث ابن عمر في قصة أهل قباء الذي مضى من رواية الشيخين ص ١٩١ ثم قال] : ورواه الترمذى وعنده : أنهم كانوا ركوعاً ، فاستداروا كما هم إلى الكعبة ، وهم ركوع . وكذا رواه مسلم عن ثابت ، عن أنس ، مثله (١) . وهذا يدل على كمال طاعتهم لله ولرسوله ، وانقيادهم لأوامر الله عز وجل ، رضى الله عنهم أجمعين .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ أى : صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك لا يضيع ثوابها عند الله ، وفى الصحيح ، عن البراء ، قال : مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس فقال الناس : ما حالهم فى ذلك ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ . ورواه الترمذى عن ابن عباس وصححه (٢) . ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَعَرُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ . وفى الصحيح : أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبى قد فرقت بينها وبين ولدها ، فجعلت كلِّما وجدت صبياً من السبى أخذته فالصقته بصدرها ، وهى تدور على ولدها ، فلما وجدته ضمته إليها وألقتمه ثديها . فقال رسول الله ﷺ : «أترون هذه طارحة ولدها فى النار ، وهى تقدر على ألا تطرحه؟» قالوا : لا ، يا رسول الله . قال : «فوالله ، لله أرحم بعباده من هذه بولدها» (٣) .

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

قال ابن عباس : كان أول ما نسخ من القرآن القبلة ، وذلك : أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة ، وكان أكثر أهلها اليهود ، فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس ، ففرحت اليهود ، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً ، وكان يحب قبلة إبراهيم ، فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السماء ، فأنزل الله : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ

(١) أما رواية الترمذى (٧٠ / ٤) فإنها مختصرة . فكان الحافظ المؤلف يشير إليها بالمعنى . وأما رواية مسلم من حديث أنس - فهي صحيحة (١ / ١٤٨) ولقد مضى أيضا ، ص ١٩١ من لفظ البخارى فى حديث البراء هذا المعنى نفسه : أنهم كانوا راكعين : « فداروا كما هم قبل البيت » .

(٢) انظر فى حديث البراء : البخارى (١ / ٨٩ ، ٩٠ ، و ٨ / ١٣٠ فتح) ، وفى حديث ابن عباس : الترمذى (٤ / ٧٠) .

(٣) رواه البخارى (١٠ / ٣٦٠ ، ٣٦١) ، ومسلم (٢ / ٣٢٤ ، ٣٢٥) كلاهما من حديث عمر بن الخطاب .

شَطْرَهُ ﴿ فارتاب من ذلك اليهود، وقالوا: ﴿ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ وقال: ﴿ فَأَيُّمَا تَوَلَّوْا فَمُوجَهُ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١١٥]، وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعَ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ ﴾. وروى الحاكم، عن يحيى بن قمطة قال: رأيت عبد الله بن عمرو جالساً في المسجد الحرام، بإزاء الميزاب، فتلا هذه الآية: ﴿ فَلتَوَلَّيْكُ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ قال: نحو ميزاب الكعبة. ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ورواه ابن أبي حاتم (١) وهذا قول أبي العالية، ومجاهد، وعكرمة، وغيرهم. وكما تقدم في الحديث الآخر: « ما بين المشرق والمغرب قبله » (٢). وروى النسائي عن أبي سعيد بن المعلّى قال: كنا نغْدُو إلى المسجد على عهد رسول الله ﷺ، [فنمر على المسجد] (٣) فنصلى فيه، فمررنا يوماً - ورسول الله ﷺ قاعد على المنبر - فقلت: لقد حدث أمر، فجلست، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلتَوَلَّيْكُ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ حتى فرغ من الآية. فقلت لصاحبي: تعال نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله ﷺ، فنكون أول من صلى، فتوارينا فصليناهما. ثم نزل النبي ﷺ فصلى للناس الظهر يومئذ (٤).

وقوله: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ : أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض، شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، ولا يستثنى من هذا شيء، سوى النافلة في حال السفر، فإنه يصليها حيثما توجه قلبه وقلبه نحو الكعبة. وكذا في حال المسابقة في القتال يصلى على كل حال، وكذا من جهل جهة القبلة يصلى باجتهاده، وإن كان مخطئاً في نفس الأمر؛ لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها.

وقوله: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ : أى: واليهود - الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرفكم عن بيت المقدس - يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها، بما في كتبهم عن أنبيائهم، من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمته، وما خصه الله تعالى به وشرّفه من الشريعة الكاملة العظيمة، ولكن أهل الكتاب يتكاثرون ذلك بينهم حسداً وكفراً وعناداً؛ ولهذا يهددهم تعالى بقوله: ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ وَلَئِن آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِن آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

﴿ ١٤٥ ﴾

(١) المستدرک (٢ / ٢٦٩) وواقفه الذهبي على تصحيحه . وروای الحديث « يحيى بن قمطة » : تابعي ثقة . وأبوه « قمطة » بالقاف والميم والطاء ، كما في الطبري وتفسير عبد الرزاق (المخطوط) ومراجعة الترجمة . ولكن وقع في مطبوعة ابن كثير هنا « قطة » بدون الميم . وهو خطأ . وثبت على الصواب في مخطوطة الأزهر ، وكذلك ثبت على الصواب في مخطوطة مختصر الذهبي للمستدرک - التي عندى . والحديث رواه الطبري (٢٢٤٧ - ٢٢٤٩) بنحوه وقد فصلنا القول فيه هناك .

(٢) مضى ، ص ١٦٣ .

(٣) هذا من السنن الكبرى للنسائي . وأما الذي في السنن الصغرى (١ / ١١٩ ، ١٢٠) فإنه مختصر هكذا : « كنا نغْدُو إلى السوق على عهد رسول الله ﷺ فنمر على المسجد فنصلى فيه » . وأما هذا المطول ، فقد ذكره الهيثمي في الزوائد (٢ / ١٢ ، ١٣) بنحوه ونسبه للطبراني في الكبير .

يخبر تعالى عن كُفر اليهود وعنادهم ، ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله ﷺ ، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به ، لما اتبعوه وتركوا أهواءهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦ ، ٩٧] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَلَئِن آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به ، وأنه كما هم متمسكون بأرائهم وأهوائهم ، فهو أيضاً متمسك بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته ، وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله ، وما كان متوجهاً إلى بيت المقدس ؛ لأنها قبله اليهود ، وإنما ذلك عن أمر الله تعالى . ثم حذر تعالى من مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلى الهوى ؛ فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره . ولهذا قال مخاطباً للرسول ، والمراد الأمة : ﴿ وَلَئِن تَبِعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٤٥] .

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ ١٤٦ ﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُكْتُمِينَ ﴿ ١٤٧ ﴾

يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده ، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا ، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صغير : «ابنك هذا؟» قال : نعم يا رسول الله ، أشهد به . قال : «أما إنه لا يجنني عليك ولا تجنبي عليه» (١) . ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإيقان العلمي ﴿ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ ﴾ أى : ليكتُمون الناس ما فى كتبهم من صفة النبى ﷺ ، ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ . ثم ثبت تعالى نبيه والمؤمنين وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذى لا مرية فيه ولا شك ، فقال : ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُكْتُمِينَ ﴾ .

﴿ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلَاهَا فَاَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿ ١٤٨ ﴾

قال أبو العالية : لليهودى وجهة هو مولياها ، وللنصرانى وجهة هو مولياها ، وهداكم - أنتم أيتها الأمة - إلى القبلة التى هى القبلة . وروى عن مجاهد ، وعطاء ، نحو هذا . وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٤٨] . وقال ههنا : ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، أى : هو قادر على جمعكم من الأرض ، وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم .

(١) رواه أحمد فى المسند (٧١٠٦) من حديث أبى رمنة . ورواه بعد ذلك بأسانيد كثيرة . وقد فصلنا القول فى تخرجه هناك .

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٤٩) ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمِنَّا بِنِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١٥٠)

هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام، من جميع أقطار الأرض. وقوله: ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾ أى: أهل الكتاب؛ فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين أو لئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم فى التوجه إلى بيت المقدس. وهذا أظهر. وقوله: ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ يعنى: مشركى قريش. ووجه بعضهم حجة الظلمة - وهى داحضة - أن قالوا: إن هذا الرجل يزعم أنه على دين إبراهيم: فإن كان توجهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم، فلم يرجع عنه؟ والجواب: أن الله تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس أولاً لما له تعالى فى ذلك من الحكمة، فأطاع ربه تعالى فى ذلك، ثم صرفه إلى قبلة إبراهيم - وهى الكعبة - فامتثل أمر الله فى ذلك أيضاً، فهو، صلوات الله وسلامه عليه، مطيع لله فى جميع أحواله، لا يخرج عن أمر الله طرفة عين، وأمتع تبع له.

وقوله: ﴿ فلا تخشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴾ أى: لا تخشوا شبه الظلمة المتعتين، وأفردوا الخشية لى، فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه. وقوله: ﴿ وَلَا تَمِنَّا بِنِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾ عطف على: ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾ أى: لا تَمِنَّا بِنِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فيما شرعته لكم من استقبال الكعبة، لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهاً ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أى: إلى ما ضلَّك عن الأُمم هديناكم إليه، وخصصناكم به، ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها.

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ (١٥١) ﴿ فَادْكُرُوا فِي آذَانِكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا ﴾ (١٥٢)

يذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم، يتلو عليهم آيات الله مبيّنة ويُزَكِّيهم، أى: يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنَس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب - وهو القرآن - والحكمة - وهى السنة (١) - ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون. فكانوا فى الجاهلية الجهلاء يُسْفَهُون بالقول الفرى (٢)، فانتقلوا

(١) تفسير الحكمة بالسنة هو الحق الصحيح، وهو الذى اختاره الإمام الشافعى، ونصره بأقوى الدلائل والحجج، انظر: كتاب الرسالة للشافعى بتحقيقنا، فى الفقرات (٢٤٥ - ٢٥٤).

(٢) الفرى - بكسر الفاء جمع فرية. ووصف « القول » - وهو مفرد - بالجمع، يوجه بأنه فى معنى الجمع؛ لأنه يصدق على الكلام الكثير والقليل. وفى المطبوعة: « بالعقول الغراء » !! وهو لا معنى له.

ببركة رسالته، ويمن سفارته، إلى حال الأولياء، وسجاياء العلماء فصاروا أعمق الناس علماً، وأبرهم قلوباً، وأقلهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة. وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٤]. وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم: ٢٨]. قال ابن عباس: يعنى محمداً ﷺ؛ ولهذا نَدَبَ اللهُ المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره، فقال: ﴿ فَادْكُرُونِي أذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾.

قال مجاهد فى قوله: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ ﴾ يقول: كما فعلت فاذكرونى. وروى ابن أبى حاتم: عن مكحول الأزدي قال: قلت لابن عمر: رأيت قاتل النفس وشارب الخمر والسارق والزانى يذكر الله؟، وقد قال الله تعالى: ﴿ فَادْكُرُونِي أذْكُرْكُمْ ﴾؟ قال: إذا ذكر الله هذا ذكره الله بلعنته، حتى يسكت (١). وعن سعيد بن جبيرة: اذكرونى بطاعتي أذكركم بمغفرتى، وفى رواية: برحمتى. وفى الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، ومن ذكرنى فى ملاً ذكرته فى ملاً خير منه» (٢). روى الإمام أحمد: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: يا بن آدم، إن ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى، وإن ذكرتنى فى ملاً ذكرتك فى ملاً من الملائكة - أو قال: ملاً خير منهم - وإن دنوت منى شبراً دنوت منك ذراعاً، وإن دنوت منى ذراعاً دنوت منك باعاً، وإن أتيتنى تمشى أتيتك أهول». صحيح الإسناد: وأخرجه البخارى (٣).

وقوله تعالى: ﴿ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾: أمر الله تعالى بشكره، ووعده على شكره بمزيد الخير، فقال: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧]. وروى الإمام أحمد: عن أبى رجاء العطاردي، قال: خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خز لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «من أنعم الله عليه نعمة فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه» (٤).

(١) إسناده صحيح ومكحول الأزدي - هذا: هو العتقى البصرى. وهو تابعى ثقة. وهو غير «مكحول الشامى» التابعى الكبير. وهذا الذى قال ابن عمر حق، ينطبق تماماً على ما يصنع أهل الفسق والمجون فى عصرنا، من ذكر الله - سبحانه وتعالى - فى مواطن فسقهم وفجورهم، وفى الأغاني الداعرة، والتمثيل الفاجر الذى يزعمونه تربية وتعليماً، وفى قصصهم المقترى، الذى يجعلونه أنه هو الأدب وحده أو يكادون، وفى تلاعبهم بالدين، بما يسمونه «القصائد الدينية» و«الابتهالات»، التى يتلاعب بها الجاهلون من القراء، يتغنون بها فى مواطن الخشوع وأوقات التخللى للعبادة، حتى لبسوا على عامة الناس شعائر الإسلام. فكل أولئك يذكرون الله فيذكروهم الله بلعنته حتى يسكتوا.

(٢) رواه أحمد فى المسند (٧٤١٦) بنحوه، من حديث أبى هريرة. ورواه أيضاً الشيخان، كما بينا فى شرح المسند.

(٣) المسند (١٢٤٣٢).

(٤) المسند (٤/٤٣٨ حلى). ومعناه ثابت أيضاً من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، فى المسند (٦٧٠٨). و«المطرف» قال ابن الأثير: «بكسر الميم وفتحها وضمها: الثوب الذى فى طرفه علمان. والميم زائدة».

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١٥٢) وَلَا نَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٣﴾

لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر شرع في بيان الصبر، والإرشاد إلى الاستعانة بالصبر والصلاة ، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها ، أو في نقمة فيصبر عليها؛ كما جاء في الحديث: «عجباً للمؤمن . لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له: إن أصابته سراء فشكر، كان خيراً له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له»^(١). وبين تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمّل المصائب الصبر والصلاة، كما تقدم في قوله: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]. وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى^(٢). والصبر صبران، فصبر على ترك المحارم والمآثم ، وصبر على فعل الطاعات والقربات، والثاني أكثر ثواباً لأنه المقصود .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ﴾: يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون، كما جاء في صحيح مسلم: «أن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى قناديل معلّقة تحت العرش، فاطّلع عليهم ربك اطّلاعاً، فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا، وأى شيء نبغى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ ثم عاد إليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا، قالوا: نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا، فنقاتل في سبيلك، حتى نقتل فيك مرة أخرى؛ لما يرون من ثواب الشهادة - فيقول الرب جلّ جلاله: إني كتبتُ أنهم إليها لا يرجعون»^(٣). وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد، عن الإمام الشافعي، عن الإمام مالك، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَسْمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ تَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»^(٤). ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً، وإن كان الشهداء قد خصّصوا بالذكر في القرآن، تشريفاً لهم وتكريماً وتعظيماً .

﴿ وَلَنَلْبَثُنَّكُمْ فِي شَىْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ﴾
وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾
أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

(١) رواه أحمد في المسند (٤ / ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، و ٦ / ١٥ ، ١٦ حلى) من حديث صهيب ، وكذلك رواه مسلم (٢ / ٣٩٢) .

(٢) عند الآية (٤٥) ص ١١٠ .

(٣) مسلم (٢ / ٩٨) بمعناه . وسيذكره المؤلف الحافظ بلفظ مسلم عند تفسير الآية (١٧٠) من سورة آل عمران، إن شاء الله . وقد رواه الطبري في التفسير (٨٢٠٦ - ٨٢٠٨) . وفصلنا القول في تخريجه هناك .

(٤) المسند (١٥٨٤٣) وسيذكره المؤلف الحافظ عند الآية (١٧٠) من آل عمران ، إن شاء الله . وقوله «تعلق» : هو بفتح أوله وضم ثالثة ، من باب « قتل » . قال ابن الأثير : « أى تاكل . وهو فى الأصل للإبل إذا أكلت العضاء . يقال : علقت تعلق علوقاً . فنقل إلى الطير » .

أخبر تعالى أنه يتلى عباده ، أى : يختبرهم ويمتحنهم ، كما قال تعالى : ﴿وَلْيَلْبِؤُنْكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] فتارة بالسراء ، وتارة بالضراء من خوف وجوع ، كما قال تعالى : ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢] فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه ؛ ولهذا قال : لباس الجوع والخوف . وقال هاهنا ﴿بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ أى : بقليل من ذلك ﴿وَنَقْصِرَ مِنَ الْأَمْوَالِ﴾ أى : ذهاب بعضها ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ كموت الأصحاب والأقارب والأحباب ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ أى : لا تُغَلِّ الخدائق والمزارع كعادتها . كما قال بعض السلف : فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة . وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده ، فمن صبر أثابه ، ومن قنط أحلّ به عقابه . ولهذا قال : ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ .

ثم بين تعالى من الصابرون الذين شكرهم ، فقال : ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أى : تسلّوا بقولهم هذا عما أصابهم ، وعلموا أنّهم ملك لله يتصرف فى عباده بما يشاء ، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة ، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبده ، وأنهم إليه راجعون فى الدار الآخرة . ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك فقال : ﴿وَأُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أى : ثناء من الله عليهم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ . قال سعيد بن جبیر : أى أمانة من العذاب ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ : قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : نعم العبدان ونعمت العلاوة ﴿وَأُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ فهذان العبدان ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ فهذه العلاوة ، وهى ما يؤضع بين العبدلين ، وهى زيادة فى الحمل (١) ، وكذلك هؤلاء ، أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضا . وقد ورد فى ثواب الاسترجاع ، وهو قول : ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ عند المصائب - أحاديث كثيرة . فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد : عن أم سلمة قالت : أتانى أبو سلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ ، فقال : لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولاً سررتُ به . قال : «لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ، ثم يقول : اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيراً منها ، إلا فُعل ذلك به» . قالت أم سلمة : فحفظت ذلك منه ، فلما توفى أبو سلمة استرجعت وقلت : اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيراً منه ، ثم رجعت إلى نفسى . فقلت : من أين لى خيراً من أبى سلمة؟ فلما انقضت عدتى استأذن على رسول الله ﷺ - وأنا أدبغ إهاباً لى - فغسلت يدى من القَرَط ، وأذنت له ، فوضعت له وسادة آدم حشوها ليف ، فقعد عليها ، فخطبنى إلى نفسى ، فلما فرغ من مقالته قلت : يا رسول الله ، ما بى ألا يكون بك الرغبة ، ولكنى امرأة فى غيرة شديدة ، فأخاف أن ترى منى شيئاً يعذبنى الله به ، وأنا امرأة قد دخلتُ فى السن ، وأنا ذات عيال ، فقال : «أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله ، عز وجل ، عنك . وأما ما ذكرت من السن فقد أصابنى مثل الذى أصابك ، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالى» . قالت : فقد سلّمتُ لرسول الله ﷺ . فتزوجها رسول الله ﷺ ،

(١) حديث عمر - هذا - رواه الحاكم فى المستدرک (٢/ ٢٧٠) وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى .
و «العدل» بكسر العين : نصف الحمل يكون على أحد جنبى البعير .

فقال أم سلمة بعد: أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه، رسول الله ﷺ (١).

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ رِيعَ أَن يَطُوفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾

روى الإمام أحمد : عن عروة، عن عائشة قال: قلت : أ رأيت قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطُوفَ بِهِمَا ﴾ قلت : فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بهما؟ فقالت عائشة: بشما قلت يابن أختي إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت: فلا جناح عليه ألا يطوف بهما، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهْلون لمئة الطاغية، التي كانوا يعبدونها عند المُشَلَّل. وكان من أهل لها يتخرج أن يطوف بالصفَا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتخرج أن نطوف بالصفَا والمروة في الجاهلية؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطُوفَ بِهِمَا ﴾ قالت عائشة: ثم قد سن رسول الله ﷺ الطواف بهما، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما. أخرجاه في الصحيحين. وفي رواية عن الزهري أنه قال: فحدثت بهذا الحديث أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فقال: إن هذا العلم، ما كنتُ سمعته، ولقد سمعت رجالا من أهل العلم يقولون: إن الناس - إلا من ذكرتُ عائشة - كانوا يقولون: إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية. وقال آخرون من الأنصار: إنما أمرنا بالطواف بالبيت، ولم نؤمر بالطواف بين الصفَا والمروة، فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ قال أبو بكر بن عبد الرحمن: فلعلها نزلت في هؤلاء وهؤلاء (٢). ورواه البخارى عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنساً عن الصفَا والمروة؟ قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ (٣). وفي صحيح مسلم حديثُ جابر الطويل، وفيه: أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت، عاد إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من باب الصفَا، وهو يقول: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ ثم قال: «أبدأ بما بدأ الله به». وفي رواية النسائي: «ابدؤوا بما بدأ الله به». وروى الإمام أحمد: عن حبيبة بنت أبي تَجْرَةَ، قالت: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفَا والمروة، والناس بين يديه، وهو وراءهم، وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعى يدور به

(١) الحديث في المسند (١٦٤١٢). وقد روى مسلم نحو معناه، مختصراً من حديث أم سلمة (١ / ٢٥١). وذكره المؤلف الحافظ هنا، وحذفناه، إذ هو في معنى هذا. ثم ذكر حديثنا في الاسترجاع، رواه أحمد وابن ماجه، من حديث الحسين بن علي. وإسناده ضعيف جداً. ثم ذكر حديثنا في معنى الاسترجاع أيضاً من حديث أبي موسى، رواه أحمد والترمذى.

(٢) انظر: المسند (٦ / ١٤٤، ٢٢٧ حلى)، وفتح البارى (٣ / ٣٩٧ - ٤٠١)، وتفسير الطبرى (٢٣٥٠، ٢٣٥١).

(٣) فتح البارى (٨ / ١٣٢)، والطبرى (٢٣٣٩).

إزاره، وهو يقول: «اسعوا، فإن الله كتب عليكم السعي» (١). وقد استدلّ بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعي بين الصفا والمروة ركن في الحج، كما هو مذهب الشافعي، ومن وافقه ورواية عن أحمد وهو المشهور عن مالك. وقيل: إنه واجب، وليس بركن. وقيل: بل مستحب، والقول الأول أرجح؛ لأنه عليه السلام طاف بينهما، وقال: «لتأخذوا عنى مناسككم». فكل ما فعله في حجته تلك واجب لا بد من فعله في الحج، إلا ما خرج بدليل، والله أعلم.

فقد بين الله - تعالى - أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله، أي: مما شرع الله تعالى لإبراهيم في مناسك الحج، وقد تقدم في حديث ابن عباس: أن أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجر وتردّادها بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها، لما نفد ماؤها وزادها، حين تركهما إبراهيم - عليه السلام - هنالك ليس عندهما أحد من الناس، فلما خافت الضيعة على ولدها هنالك، ونفذ ما عندها قامت تطلب الغوث من الله، عز وجل، فلم تزل تردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متذلة خائفة وجلة مضطرة فقيرة إلى الله، عز وجل، حتى كشف الله كربتها، وأنس غربتها، وفرج شدتها، وأنبع لها زمزم التي ماؤها «طعام طعم، وشفاء سقم» (٢)، فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه، وأن يلتجئ إلى الله، عز وجل، ليُريح ما هو به من النقائص والعيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم، وأن يثبت عليه إلى مماته، وأن يحولّه من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي، إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة، كما فعل بهاجر - عليها السلام.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكُتُبِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّوْنَا أُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب، من بعد ما بينه الله - تعالى - لعباده في كتبه، التي أنزلها على رسله. قال أبو العالية: نزلت في أهل الكتاب، كتموا صفة محمد ﷺ. ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء، حتى الحوت في الماء والطيور في الهواء، فهؤلاء بخلاف العلماء، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. وقد ورد في الحديث المسند من

(١) المسند (٦ / ٤٢١ ، ٤٢٢ حلى) وابن سعد (٨ / ١٨٠) ، والدر المشور (١ / ١٦٠).

(٢) اقتباس من حديث: « زمزم طعام طعم وشفاء سقم ». رواه ابن أبي شيبة والبراز من حديث أبي ذر - كما في الجامع الصغير .

طرق يشد بعضها بعضاً، عن أبي هريرة، وغيره: أن رسول الله ﷺ قال: «من سُئِلَ عن علم، فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار» (١). والذي في الصحيح عن أبي هريرة أنه قال: لولا آية في كتاب الله ما حدثتُ أحداً شيئاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ الآية .

وروى ابن أبي حاتم: عن البراء بن عازب، قال: كنا مع النبي ﷺ في جنازة، فقال: «إن الكافر يُضْرَبُ ضربة بين عينيه، فيسمع ضربه كل دابة غير الثقلين، فتلعنه كل دابة سمعت صوته، فذلك قول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ يعني: دواب الأرض». ورواه ابن ماجه (٢). وقد جاء في الحديث: «إن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر» (٣)، وجاء في هذه الآية: أن كاتم العلم يلعنه الله والملائكة والناس أجمعون، واللاعنون أيضاً، وهم كل فصيح وأعجمي إما بلسان المقال، أو الحال أو لو كان له عقل أو يوم القيامة والله أعلم.

ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾ أى: رجعوا عما كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم وأحوالهم وبيَّنوا للناس ما كانوا كتموه ﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. وفي هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر، أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه. وقد ورد أن الأمم السابقة لم تكن التوبة تقبل من مثل هؤلاء منهم، ولكن هذا من شريعة نبي التوبة ونبي الرحمة صلوات الله وسلامه عليه.

ثم أخبر تعالى عن كفر به واستمر به الحال إلى مماته بأن ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: فى اللعنة البالغة لهم إلى يوم القيامة، ثم المصاحبة لهم فى نار جهنم التى ﴿لَا يَخَفُّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ فيها، أى: لا ينقص عما هم فيه ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أى: لا يغير عنهم ساعة واحدة، ولا يفتّر، بل هو متواصل دائم، فعوذ بالله من ذلك.

﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّهُ وَجِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

يُخْبِرُ تعالى عن تفرده بالالهية، وأنه لا شريك له ولا عدل له، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذى لا إله إلا هو وأنه الرحمن الرحيم. وقد تقدم تفسير هذين الاسمين فى أول الفاتحة. وفى الحديث عن أسماء بنت يزيد بن السكن، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين: ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ و ﴿إِسْمَ اللَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١، ٢]» (٤). ثم ذكر الدليل على تفرده بالالهية بتفرده بخلق السموات

(١) رواه أحمد فى المسند (٧٥٦١) من حديث أبى هريرة . وقد فصلنا تخريجه هناك . ورواه ابن حبان فى صحيحه (٩٥) بتحقيقنا . والحاكم فى المستدرک (١٠١ / ١) .

(٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (١٦٢/١) ونسبه لابن ماجه ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم . وهو فى ابن ماجه (٤٠٢١) مختصراً .

(٣) هو جزء من حديث رواه الترمذى (٣ / ٣٨٠ ، ٣٨١) عن أبى الدرداء . وذكر شارحه أنه رواه أيضاً أحمد ، والدارمى ، وأبو داود ، وابن ماجه .

(٤) رواه أحمد فى المسند (٦ / ٤٦١ حلبى) بنحوه . ورواه أبو داود (١٤٩٦) وهذا لفظه . قال المنذرى: «وأخرجه الترمذى وابن ماجه . وقال الترمذى : حديث حسن . وهو فى ابن ماجه (٣٨٥٥) .

والأرض وما فيهما، وما بين ذلك مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته، فقال:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِ السَّمَاءِ وَالنَّهَارِ وَاللَّيْلِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [١٦٤]

يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تلك في ارتفاعها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فللكها، وهذه الأرض في انخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه، لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] وتارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتقارضان، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١] أي: يزيد من هذا في هذا، ومن هذا في هذا ﴿وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ أي: في تسخير البحر لحمل السفن من جانب إلى جانب لمعاش الناس، والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم، ونقل هذا إلى هؤلاء وما عند أولئك إلى هؤلاء ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْعَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ . لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ . سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تَبَتُّ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٣ - ٣٦]. ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي: على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه لا يخفى عليه شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦]. ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ أي: تارة تأتي بالرحمة وتارة تأتي بالعذاب، تارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب، وتارة تسوقه، وتارة تجمععه، وتارة تفرقه، وتارة تصرفه، ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ يُسَخَّرُ إلى ما يشاء الله من الأراضى والأماكن، كما يصرفه تعالى: ﴿لَايَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: أن في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ أُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ [١٦٥]

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ [١٦٦]

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّكَ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [١٦٧]

يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا له أنداداً، أى: أمثالا ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضد له ولا ند له، ولا شريك معه. وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك».

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾: ولحبهم لله وتمام معرفتهم به، وتوقيرهم وتوحيدهم له، لا يشركون به شيئاً، بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه، ويلجؤون في جميع أمورهم إليه. ثم تَوَعَّدَ تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك، فقال: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أى: أن الحكم له وحده لا شريك له، وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبيته وسلطانه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ كما قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ. وَلَا يُوثِقُ وِثْقَاهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦] يقول: لو علموا ما يعاينونه هنالك، وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم، لانتهوا عما هم فيه من الضلال.

ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم وتبرؤ المتبوعين من التابعين، فقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا، فتقول الملائكة: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣] ويقولون: ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبا: ٤١]. والجن أيضاً تبرأ منهم، ويتصلون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ. وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الاحقاف: ٥، ٦] وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا. كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]. وقال الخليل لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمُ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمُ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعْفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعْفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعْفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرَأْنَا نَدَامَةً لِمَا رَأَوْنَا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يَجْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبا: ٣١ - ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتَكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِيَّايَ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلِ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: ﴿وَرَأَوْنَا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ أى: عاينوا عذاب الله، وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص ولم يجدوا عن النار معدلاً ولا مَصْرِفاً.

وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾ أى: لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم، فلا نلتفت إليهم، بل نوحدهم الله وحده بالعبادة!؟

وهم كاذبون في هذا، بل لو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه ، كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ كَذَلِكَ يَرِيهْمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ أى : تذهب وتضمحل كما قال الله تعالى : ﴿ وَقَدَّمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] . وقال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ الآية [إبراهيم : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً ﴾ الآية [النور : ٣٩] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ .

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوًا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

لما بين تعالى أنه لا إله إلا هو ، وأنه المستقل بالخلق ، شرع يبين أنه الرازق لجميع خلقه ، فذكر في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما فى الأرض فى حال كونه حلالا من الله طيباً ، أى : مستطاباً فى نفسه غير ضارّ للأبدان ولا للعقول . ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان ، وهى : طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها مما زينه لهم فى جاهليتهم ، كما فى حديث عياض بن حمار الذى فى صحيح مسلم ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «يقول الله تعالى : إن كل مال منحتة عبادى فهو لهم حلال» وفيه : «وإنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم» (١) .

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ قال قتادة والسدى : كل معصية لله فهى من خطوات الشيطان . وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ : تنفير عنه وتحذير منه ، كما قال : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْنَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر : ٦] ، وقال تعالى : ﴿ اتَّخِذُوهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٠] .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى : إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة ، وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه ، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم ، فيدخل فى هذا كل كافر وكل مبتدع أيضاً .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءِآبَاءَنَا أُولَٰئِكَ كَانُوا ءِآبَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَمِيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

(١) هو جزء من حديث فى مسلم (٢ / ٣٥٦ ، ٣٥٧) . وسيذكره ابن كثير مطولا من رواية الإمام أحمد عند تفسير الآية (١٩) من سورة المائدة ، والآية (٣٠) من سورة الروم .

يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُوَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ الْمَشْرِكِينَ: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ على رسوله، واركبوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل، قالوا في جواب ذلك: ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا آفَقْنَا ﴾ أى: وجدنا ﴿ عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ أى: من عبادة الأصنام والأنداد. قال الله تعالى منكرأ عليهم: ﴿ أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ ﴾ أى: الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم ﴿ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ أى: ليس لهم فهم ولا هداية. وروى ابن إسحاق عن ابن عباس: أنها نزلت فى طائفة من اليهود، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقالوا: بل نتبع ما آلفينا عليه آبائنا. فأنزل الله هذه الآية.

ثم ضرب لهم تعالى مثلاً، كما قال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوءِ ﴾ [النحل: ٦٠]، فقال: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى: فيما هم فيه من الغى والضلال والجهل - كالدواب السارحة التى لا تفقه ما يقال لها، بل إذا نعت بها راعيها، أى: دعاها إلى ما يرشدها - لا تفقه ما يقول ولا تفهمه، بل إنما تسمع صوته فقط. هكذا روى عن ابن عباس، وأبى العالية، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم نحو هذا. وقيل: إنما هذا مثل ضرب لهم فى دعائهم الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئاً، اختاره ابن جرير، والأول أولى؛ لأن الأصنام لا تسمع شيئاً ولا تعقله ولا تبصره، ولا بطش لها ولا حياة فيها.

وقوله: ﴿ صُمُّ بُكْمٌ عُصِي ﴾ أى: صم عن سماع الحق، بكم لا يفوهون به، عمى عن رؤية طريقه ومسلكه ﴿ فَهَمٌّ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أى: لا يعقلون شيئاً ولا يفهمونه، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأُ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأُ يُصِّرْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الانعام: ٣٩].

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَالْحَمَّ الْخِزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بالاكل من طيبات ما رزقهم تعالى، وأن يشكروه تعالى على ذلك، إن كانوا عبيده . والاكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الاكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ . ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يارب، يارب ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟! (١). ورواه مسلم فى صحيحه، والترمذى .

ولما امتن تعالى عليهم برزقه، وأرشدهم إلى الأكل من طيبه، ذكر أنه لم يحرم عليهم من

ذلك إلا الميتة، وهى التى تموت حَتَفَ أنفها من غير تذكية، وسواء كانت منخقة أو موقوذة أو مُتَرَدِّية أو نظيحة أو قد عدا عليها السَّبُعُ. وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير، سواء ذُكِّيَ أو مات حَتَفَ أنفه، ويدخلُ شَحْمَهُ فى حكم لحمه، وحَرَمَ عليهم ما أَهَلَ به لغير الله، وهو ما ذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام، ونحو ذلك مما كانت الجاهلية ينحرون له. ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج إليها، عند فقد غيرها من الأطعمة، فقال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أى: فى غير بغى ولا عدوان، وهو مجاوزة الحد ﴿فَلَا إثمَ عَلَيْهِ﴾ أى: فى أكل ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. قال قتادة: غير باغ فى الميتة، أى: فى أكله: أن يتعدى حلالا إلى حرام، وهو يجد عنه مندوحة.

مسألة: إذا وجد المضطر ميتة وطعام الغير بحيث لا قطع فيه ولا أذى - فإنه لا يحل له أكل الميتة بل يأكل طعام الغير بغير خلاف. فقد روى ابن ماجه عن عباد بن شرحبيل الغُبَرِيُّ قال: أصابنا عام مخمصة، فأتيت المدينة. فأتيت حائطاً [من حيطانها]، فأخذت سنبلاً ففركته وأكلته، وجعلت منه فى كسائى، فجاء صاحب الحائط فضربنى وأخذ ثوبى، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال للرجل: «ما أطعمته إذ كان جائعاً أو ساعباً، ولا علمته إذ كان جاهلاً!» . فأمره فرد إليه ثوبه، وأمر له بوسق من طعام أو نصف وسق، وإسناد صحيح قوى جيد (١). وله شواهد كثيرة. من ذلك: حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده: سئل رسول الله ﷺ عن الثمر المعلق، فقال: «من أصاب منه من ذى حاجة بفيه غير متخذ حُبْنَةً، فلا شيء عليه» الحديث (٢). وعن مسروق قال: من اضطرَّ فلم يأكل ولم يشرب، ثم مات دخل النار. وهذا يقتضى أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة. قال أبو الحسن الطبرى - المعروف بالكيا الهراسى رفيق الغزالي فى الاشتغال: وهذا هو الصحيح عندنا؛ كالإفطار للمريض ونحو ذلك.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ يَأْنِ اللَّهُ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يعنى: اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ فى كتبهم التى بأيديهم، مما يشهد له بالرسالة والنبوة، فكتموا ذلك لثلاث تذهب

(١) هو فى ابن ماجه (٢٢٩٨) وصحناه من ابن ماجه، فقد كان محرراً فى المطبوعة، والزياتان من هناك. ورواه أحمد فى المسند (١٧٥٩٤) وأبو داود (٢٦٢٠) والنسائى (٣٠٩/٢) وذكره الحافظ فى الإصابة (٢٤/٤)، وصحح إسناده. و«الغبرى» بضم الغين المعجمة وفتح الباء الموحدة، نسبة إلى «بنى غير»، بطن من «يشكر».

(٢) هو من حديث رواه أحمد فى المسند بمعناه، مراراً، منها: (٦٦٨٣) وخرجناه هنا. و«الحبنة» - بضم الحاء المعجمة وسكون الموحدة: معطف الإزار وطرف الثوب. قال ابن الأثير: «أى لا يأخذ منه فى ثوبه».

رياستهم وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم إياهم، فخشوا - لعنهم الله - إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم، فكنتموا ذلك إبقاء على ما كان يحصل لهم من ذلك، وهو نَزْرٌ يسير، فباعوا أنفسهم بذلك، واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن الله بذلك النزر اليسير . فخابوا وخسروا في الدنيا والآخرة؛ أما في الدنيا : فإن الله أظهر لعباده صدقَ رسوله، بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات، فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه، وصاروا عوناً له على قتالهم، وباؤوا بغضب على غضب، وذمهم الله في كتابه في غير ما موضع . فمن ذلك هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وهو عرض الحياة الدنيا ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ أى : إنما يأكلون ما يأكلونه فى مقابلة كتمان الحق ناراً تَأَجَّجُ فى بطونهم يوم القيامة . كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] ، وفى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الذى يأكل أو يشرب فى آتية الذهب والفضة، إنما يُجْرَجُ فى بطنه نار جهنم» (١) .

وقوله: ﴿وَلَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: وذلك لأنه غضبان عليهم، لأنهم كتموا وقد علموا، فاستحقوا الغضب، فلا ينظر إليهم ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أى: يثنى عليهم ويمدحهم بل يعذبهم عذاباً أليماً.

ثم قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى﴾ أى: اعتاضوا عن الهدى، وهو نشر ما فى كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الأنبياء واتباعه وتصديقه - استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه بالضلالة، وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته فى كتبهم ﴿وَالْعَذَابُ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ أى: اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب، وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾: يخبر تعالى أنهم فى عذاب شديد عظيم هائل، يتعجب من رأيهم فيها من صبرهم على ذلك، من شدة ما هم فيه من العذاب، والنكال، والأغلال عياداً بالله من ذلك. وقيل: أى فما أدومهم لعمل المعاصى التى تفضى بهم إلى النار .

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أى: إنما استحقوا هذا العذاب الشديد لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد ﷺ وعلى الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزواً، فكتبهم يأمرهم بإظهار العلم ونشره، فخالفوه وكذبوه. وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وهم يكذبونه ويخالفونه ويجحدونه، ويكتمون صفته، فاستهزؤوا بآيات الله المنزلة على رسله؛ فلهذا استحقوا العذاب والنكال؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ .

(١) رواه البخارى (١٠ / ٨٤ فتح) ، ومسلم (٢ / ١٤٩) ، وابن ماجه (٣٤١٣) كلهم من حديث أم سلمة .

﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ
بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُنْتَقُونَ ﴾



اشتملت هذه الآية الكريمة ، على جمل عظيمة ، وقواعد عميقة ، وعقيدة مستقيمة ، كما
روى ابن أبي حاتم: عن مجاهد، عن أبي ذر: أنه سأل رسول الله ﷺ: ما الإيمان؟ فتلا عليه:
﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ إلى آخر الآية. قال: ثم سأله أيضاً، فتلاها عليه، ثم سأله. فقال:
«إذا عملت حسنة أحبها قلبك، وإذا عملت سيئة أبغضها قلبك». وهذا منقطع؛ لأن مجاهداً
لم يدرك أبا ذر؛ فإنه مات قديماً (١).

وأما الكلام على تفسير هذه الآية، فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولاً بالتوجه إلى بيت
المقدس، ثم حولهم إلى الكعبة، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين،
فأنزل الله تعالى بياناً لحكمته في ذلك، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله، عز وجل، وامثال
أوامره، والتوجه حيثما وجه، واتباع ما شرع، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس في
لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه؛
ولهذا قال: ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الآية،
كما قال في الأضاحي والهدايا: ﴿ لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحَوْمِهَا وَلَا دِمَاؤِهَا وَلَكِنْ يَبَالُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧].
وقال الثوري في هذه الآية: ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ ﴾ الآية، قال: هذه أنواع البر كلها.
وصدق رحمه الله؛ فإن من اتصف بهذه الآية، فقد دخل في عرى الإسلام كلها، وأخذ بمجماع
الخير كله، وهو الإيمان بالله وهو أنه لا إله إلا هو، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين
الله ورسله ﴿ وَالْكِتَابِ ﴾ وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، حتى
ختمت بأشرفها، وهو القرآن المهيم على ما قبله من الكتب، الذي انتهى إليه كل خير،
واشتمل على كل سعادة في الدنيا والآخرة، ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله، وآمن بأنبياء
الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقوله: ﴿ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ أى: أخرجه، وهو مُحِبُّ له، راغب فيه. نص على ذلك ابن
مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي
هريرة مرفوعاً: «أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى، وتخشى الفقر».
وقد روى الحاكم في مستدركه، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى

(١) ورواه الحاكم في المستدرک (٢ / ٢٧٢) وصححه على شرط الشيخين . واستدرك عليه الذهبي بأنه منقطع ،
وذكره السيوطي في الدر المنثور (١ / ١٦٩) ولم ينسبه لغير ابن أبي حاتم ، وقال : « وصححه » ! وأخشى أن
يكون سقط منه قوله : « والحاكم » .

حُبِّهِ: ﴿ أَنْ تَعْطِيَهُ وَأَنْتَ صَاحِبُ شَيْءٍ صَاحِبٌ ، تَأْمَلُ الْعَيْشَ وَتَخْشَى الْفَقْرَ ﴾ . ثم قال : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه .

قلت : وقد رواه وكيع عن الأعمش ، وسفيان عن زبيد ، عن مرة ، عن ابن مسعود ، موقوفاً ، وهو أصح ، والله أعلم (١) . وقال تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴾ [الإنسان : ٨ ، ٩] . وقال تعالى : ﴿ لَنْ نَأْتِلُوا الْبِرَّ حَتَّى تَنْفَقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] ، وقوله : ﴿ وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] نَمَطٌ آخَرَ أُرْفِعُ مِنْ هَذَا ، وهو : أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه ، وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبوبون له . وقوله : ﴿ ذَوِي الْقُرْبَى ﴾ وهم : قرابات الرجل ، وهم أولى من أعطى من الصدقة ، كما ثبت في الحديث : «الصدقة على المساكين صدقة ، وعلى ذوى الرحم ثنتان : صدقة وصله» (٢) . فهم أولى الناس بك وببرك وإعطائك . وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم في غير ما موضع من كتابه العزيز . ﴿ وَأَلْيَتَامَى ﴾ هم : الذين لا كاسب لهم ، وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب . ﴿ وَالْمَسَاكِينَ ﴾ وهم : الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناهم ، فيعطون ما تُسَدُّ به حاجتهم وخلتهم . وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «ليس المسكين بهذا الطواف الذى ترده التمرة والتمرثان واللقمة واللقمتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه» . ﴿ وَأَبْنَى السَّبِيلِ ﴾ وهو : المسافر المجتاز الذى قد فرغت نفقته فيعطى ما يوصله إلى بلده ، وكذا الذى يريد سفراً فى طاعة ، فيعطى ما يكفيه فى ذهابه وإيابه ، ويدخل فى ذلك الضيف ، كما قال على ابن أبى طلحة ، عن ابن عباس أنه قال : ابن السبيل هو الضيف الذى ينزل بالمسلمين ، وكذا قال مجاهد ، وسعيد ابن جبير ، وغيرهم . ﴿ وَالسَّائِلِينَ ﴾ وهم : الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات ، كما روى الإمام أحمد عن فاطمة بنت الحسين ، عن أبيها حسين بن على ، قال : قال رسول الله ﷺ : «للسائل حق وإن جاء على فرس» . رواه أبو داود (٣) . ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ وهم : المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه فى كتابتهم . وسيأتى الكلام على كثير من هذه الأصناف فى آية الصدقات من براءة [الآية : ٦٠] ، إن شاء الله تعالى .

وقوله : ﴿ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ أى : وأتم أفعال الصلاة فى أوقاتها بركوعها ، وسجودها ، وطمأنيتها ، وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى .

وقوله : ﴿ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ : يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ : زَكَاةَ النَّفْسِ ، وَتَخْلِيصَهَا مِنَ الْأَخْلَاقِ

(١) هذا ترجيح بالتحكم . وإسناده عند الحاكم (٢ / ٢٧٢) صحيح على شرط الشيخين ، وقد وافقه الذهبى على ذلك .

(٢) رواه أحمد فى المسند (١٦٢٩٦ ، ١٦٣٠٢ ، ١٦٣٠٣) ، والترمذى (٢ / ٢٢) وقال : « حديث حسن » ، والنسائى (١ / ٣٦١) ، وابن ماجه (١٨٤٤) كلهم من حديث سلمان بن عامر .

(٣) المسند (١٧٣٠) ، وأبو داود (١٦٦٥ ، ١٦٦٦) وسيذكره الحافظ ابن كثير مرة أخرى ، فى تفسير الآية (١٩) من سورة الذاريات .

الدينية الرذيلة، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠] ، وقول موسى لفرعون: ﴿هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ . وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩] ، وقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧] . ويحتمل أن يكون المرادُ زكاة المال، كما قاله سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف المذكورين إنما هو التطوع والبر والصلة .

وقوله: ﴿وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ ، كقوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَقْضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرد: ٢٠] . وعكس هذه الصفة النفاق، كما صح الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتتمن خان». وفي الحديث الآخر: «إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» .

وقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أى: فى حال الفقر، وهو البأساء، وفى حال المرض والأسقام، وهو الضراء. ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أى: فى ساحة القتال والتقاء الأعداء، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وغيرهم. وإنما نُصِبَ ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ على المدح والحث على الصبر فى هذه الأحوال لشدته وصعوبته، والله أعلم، وهو المستعان وعليه التكلان.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أى: هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدَّقوا فى إيمانهم؛ لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال، فهؤلاء هم الذين صدَّقوا ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات .

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُبٌ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرِّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَىٰ بِالْأَنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَّاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعَدَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيٰوةٌ يَتَأَوَّلِي ٱلْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْعَدْلُ فِي الْقِصَاصِ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - حُرِّمَ بِحُرْمِمْ، وَعَبْدُكُمْ بِعَبْدِكُمْ، وَأَنْثَاكُمْ بِأَنْثَاكُمْ، وَلَا تَتَجَاوَزُوا وَتَعْتَدُوا، كَمَا اعْتَدَىٰ مِنْ قَبْلِكُمْ وَغَيَّرُوا حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ، وَسَبَبَ ذَلِكَ قَرِظَةُ وَالنُّضِيرُ، كَانَتْ بَنُو النَّضِيرِ قَدْ غَزَتْ قَرِظَةً فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَقَهَرُوهُمْ، فَكَانَ إِذَا قَتَلَ النَّضْرِيُّ الْقَرِظِيَّ لَا يَقْتُلُ بِهِ، بَلْ يُفَادَىٰ بِمِائَةِ وَسْقٍ مِنَ التَّمْرِ، وَإِذَا قَتَلَ الْقَرِظِيُّ النَّضْرِيَّ قَتَلَ بِهِ، وَإِنْ فَادَوْهُ فَدَوَهُ بِمِائَةِ وَسْقٍ مِنَ التَّمْرِ ضَعْفَ دِيَةِ الْقَرِظِيِّ، فَأَمَرَ اللَّهُ بِالْعَدْلِ فِي الْقِصَاصِ، وَلَا يَتَّبِعُ سَبِيلَ الْمُسْئِدِينَ الْمُحْرِفِينَ الْمُخَالِفِينَ لِأَحْكَامِ اللَّهِ فِيهِمْ، كَفَرُوا وَبَغْيًا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرِّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَىٰ بِالْأَنْثَىٰ﴾ .

وقوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَّاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾: قال ابن عباس: فالعفو: أن يقبل الدية فى العمد، وكذا روى عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وغيرهم. ﴿وَأَدَّاءٌ﴾

إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴿١﴾ يعنى: من القاتل من غير ضرر ولا منك، يعنى المدافعة.

وروى الحاكم ، عن ابن عباس: ويؤدى المطلوب بإحسان (١). وكذا قال سعيد بن جبير، وأبو الشعثاء ، وقتادة، وغيرهم .

وقوله: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ يقول تعالى: إنما شرع لكم أخذ الدية فى العمد تخفيفاً من الله عليكم ورحمة بكم، مما كان محتوماً على الأمم قبلكم من القتل أو العفو، كما روى سعيد بن منصور عن ابن عباس، قال: كتب على بنى إسرائيل القصاص فى القتلى، ولم يكن فيهم العفو، فقال الله لهذه الأمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرِّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ فالعفو: أن يقبل الدية فى العمد، ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ﴾ مما كتب على من كان قبلكم ﴿فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّءْ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ وأخرجه ابن حبان فى صحيحه (٢) .

وقوله: ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: يقول تعالى: فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها، فله عذاب من الله أليم موجه شديد. وهكذا روى عن ابن عباس، ومجاهد ، وقتادة، وغيرهم أنه هو الذى يقتل بعد أخذ الدية، كما قال روى أحمد عن أبى شريح الخزاعى: أن النبى ﷺ قال: «من أصيب بقتل أو خبل فإنه يختار إحدى ثلاث: إما أن يقتص، وإما أن يعفو، وإما أن يأخذ الدية؛ فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه. ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالداً فيها» (٣). وعن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أعافى رجلاً قتل بعد أخذ الدية» (٤) - يعنى: لا أقبل منه الدية ، بل أقتله .

وقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾: يقول تعالى: وفى شرع القصاص لكم - وهو قتل القاتل - حكمة عظيمة ، وهى بقاء المهج وصونها؛ لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه، فكان فى ذلك حياة للنفوس .

وفى الكتب المتقدمة: القتلُ أنْفَى للقتل. فجاءت هذه العبارة فى القرآن أفصح، وأبلغ، وأوجز: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾، قال أبو العالية: جعل الله القصاص حياة، فكم من رجل يريد أن يقتل ، فتمنعه مخافة أن يُقتل . وكذا روى عن مجاهد، وسعيد بن جبير ، وغيرهما.

(١) المستدرک (٢ / ٢٧٣) . وقال : « صحیح على شرط الشيخین ، ولم یخرجاه » .

(٢) هو فى صحیح ابن حبان (٧ / ٤٩٠) (من مخطوطة الإحسان) . وقد رواه أيضا البخارى (١٢ / ١٨٣ فتح) ، ورواه الطبرى (٢٥٩٣) .

(٣) هو فى المسند (١٦٤٤٦) . وإسناده صحیح . ورواه البخارى فى التاريخ الكبير (٢ / ٢٠٤ ، ٢٠٥) ، فى ترجمة أبى شريح الخزاعى ، واسمه « خويلد بن عمرو » . وذكره السيوطى (١ / ١٧٣) ، وزاد نسبه لعبد الرزاق ، وابن أبى شيبه ، وابن أبى حاتم ، والبيهقى . ورواه أيضا ابن ماجه (٢٦٢٣) . و « الخيل » - بفتح الخاء وسكون الباء : الجراح .

(٤) ذكره المؤلف الحافظ ، من رواية « سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة » ، ولم يبين مخرجه . ولم أجده بعد طول البحث ، إلا أن السيوطى ذكره (١ / ١٧٣) ، ونسبه لسمويه فى فوائده. وقد رواه الطبرى (٢٦٠٣) ، عن قتادة ، مرفوعاً مرسلأ .

﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يقول: يا أولى العقول والأفهام والنهى، لعلكم تنزجرون فتركون محارم الله ومآثمه، و «التقوى»: اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (١٨٠) ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٨١) ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسِرٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٨٢)

اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين. وقد كان ذلك واجباً - على أصح القولين - قبل نزول آية الموارث، فلما نزلت آية الفرائض نُسخَت هذه، وصارت الموارث المقدرة فريضة من الله، يأخذها أهلها حتماً من غير وصية ولا تحمل منة الموصى، ولهذا جاء الحديث الذى فى السنن وغيرها عن عمرو بن عمرو بن خارجه قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول: «إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه، فلا وصية لوارث» (١). وروى الإمام أحمد: عن محمد ابن سيرين، قال: جلس ابن عباس فقرأ سورة البقرة حتى أتى هذه الآية: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ فقال: نُسخَت هذه الآية. ورواه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما (٢).

وروى ابن أبى حاتم: عن ابن عباس، فى قوله: ﴿الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾: نسختها هذه الآية: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانُ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانُ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧] (٣).

(١) رواه أحمد فى المسند، مطولا، بأسانيد (١٧٧٤٠ - ١٧٧٤٢، ١٧٧٤٤، ١٧٧٤٧ - ١٧٧٥٠). ورواه الطيالسى (١٢١٧)، والترمذى (٣ / ١٩٠)، والنسائى (٢ / ١٢٨)، وابن ماجه (٢٧١٢)، وابن سعد فى الطبقات (١ / ١٣١، ١٣٢) والدارمى (٢ / ٤١٩) - كلهم من حديث عمرو بن خارجه. بعضهم مختصراً، وأكثرهم مطولا. وقال الترمذى: «حسن صحيح».

وقد ثبت أيضاً من حديث أبى امامة الباهلى: رواه أحمد فى المسند (٥ / ٢٦٧ حلى) والطيالسى (١١٢٧) وأبو داود (٢٨٧٠) والترمذى (٣ / ١٨٩) وابن ماجه (٢٧١٣) وابن الجارود ص ٤٢٤. وقال الترمذى: «حديث حسن».

وثبت أيضاً من حديث أنس: رواه ابن ماجه (٢٧١٤) وإسناده صحيح.

(٢) ظاهر الإطلاق أن يكون أحمد رواه فى المسند. ولكنى لم أجده فيه. وأرجح أن يكون فى كتاب آخر من كتب الإمام أحمد. وإسناده صحيح، وهو فى المستدرک (٢ / ٢٧٣) وواقفه الذهبى على تصحيحه. ورواه الطبرى (٢٦٥٢) من هذا الوجه. وانظر الحديث التالى لهذا.

(٣) إسناده عند ابن أبى حاتم إسناده صحيح. وقد روى البخارى (٥ / ٢٧٨، ٢٧٩) عن ابن عباس، قال: «كان المال للولد، وكانت الوصية للوالدين، ففسخ الله من ذلك ما أحب، فجعل الذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس، وجعل للمرأة الثمن والربع، وللزوج الشطر والربع». ورواه الدارمى (٤١٩، ٤٢٠) بالإسناد الذى رواه به البخارى، كلاهما عن شيخ واحد. وقال الحافظ فى الفتح: «وهو موقوف لفظاً، إلا أنه فى تفسيره إخبار بما كان من الحكم قبل نزول القرآن، فىكون فى حكم المرفوع بهذا التقرير». وأقول: بل هو مرفوع نصاً؛ لأنه إخبار عن الحكم بآية الوصية، ثم عن نسخها بآية الميراث فهو حكاية عما كان عليه الحكماء - المنسوخ والناسخ - فى عهد رسول الله ﷺ وحياته.

وروى أبو داود (٢٨٦٩) عن ابن عباس: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ فكانت الوصية كذلك، حتى نسختها آية الميراث. وإسناده صحيح.

ثم قال ابن أبي حاتم: وروى عن ابن عمر ، وأبي موسى ، وسعيد بن المسيّب ، والحسن ، ومجاهد ، وعطاء ، وسعيد بن جبّير ، ومحمد بن سيرين ، وعكرمة ، وزيد بن أسلم ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، والسدى ، ومقاتل بن حيان ، وطاوس ، وإبراهيم النخعي ، وشريح ، والضحاك ، والزهرى: أن هذه الآية منسوخة نسختها آية الميراث .

والعجب من الرازي - رحمه الله - كيف حكى فى تفسيره الكبير عن أبى مسلم الأصفهاني: أن هذه الآية غير منسوخة ، وإنما هى مُفسّرة بآية الموارث ! ومعناه: كتب عليكم ما أوصى الله به من توريث الوالدين والأقربين ، من قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١] قال: وهو قول أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء . قال: ومنهم من قال: إنها منسوخة فيمن يرث ، ثابتة فيمن لا يرث ، وهو مذهب ابن عباس ، والحسن ، ومسروق ، وطاوس ، والضحاك ، ومسلم بن يسار ، والعلاء بن زياد .

قلت: وبه قال أيضاً سعيد بن جبّير ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان . ولكن على قول هؤلاء لا يسمى هذا نسخاً فى اصطلاحنا المتأخر؛ لأن آية الميراث إنما رفعت حكم بعض أفراد ما دل عليه عموم آية الوصاية ؛ لأن «الأقربين» أعم ممن يرث ومن لا يرث ، فرفع حكم من يرث بما عيّن له ، وبقي الآخر على ما دلت عليه الآية الأولى . وهذا إنما يتأتى على قول بعضهم: أن الوصاية فى ابتداء الإسلام إنما كانت نُدباً حتى نُسخت . فأما من يقول: إنها كانت واجبة وهو الظاهر من سياق الآية - فيتعين أن تكون منسوخة بآية الميراث ، كما قاله أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء؛ فإنّ وجوب الوصية للوالدين والأقربين الوارثين منسوخ بالإجماع . بل منهى عنه للحديث المتقدم: «إن الله قد أعطى كلّ ذى حق حقه فلا وصية لوارث»^(١) . فأية الميراث حكم مستقل ، ووجوب من عند الله لأهل الفروض والعصبات ، رفع بها

(١) حديث « لا وصية لوارث » : صحيح بالأسانيد التى أشرنا إليها آنفاً ، لاشك فى صحته وإن تكلم بعض أهل العلم فى بعض أسانيدِهِ ، فإن هذه الأسانيد يشد بعضها بعضاً ، لا يشك فى ذلك من شدا شيئاً من العلم بالحديث والأسانيد .

والإمام الشافعى لم يصل إليه بإسناد صحيح متصل ، وإن كان قد ثبت عند غيره . ولكنه أثبت بطريق أقوى من الأسانيد المفاريد ، فقال فى كتاب (الرسالة) (٣٩٨ - ٤٠١) بتحقيقنا : « ووجدنا أهل الفتيا ومن حفظنا عنه من أهل العلم بالمغازى ، من قريش وغيرهم - لا يختلفون فى أن النبى قال عام الفتح : « لا وصية لوارث ، ولا يقتل مؤمن بكافر » ، ويأثرونه عن حفظوا عنه ممن لقوا من أهل العلم بالمغازى . فكان هذا نقل عامة عن عامة ، وكان أقوى فى بعض الأمر من نقل واحد عن واحد . وكذلك وجدنا أهل العلم عليه مجمعين . وروى بعض الشاميين حديثاً ليس مما يشبه أهل الحديث ، فيه: أن بعض رجاله مجهولون . فروياه عن النبى منقطعاً . وإنما قبلناه بما وصفت من نقل أهل المغازى وإجماع العامة عليه - وإن كنا قد ذكرنا الحديث فيه - واعتمدنا على حديث أهل المغازى عاماً وإجماع الناس . »

فالشافعى جزم بتواتر الحديث ، وبالإجماع على حكمه . وهو كما قال ، رحمه الله .
وأما أهل عصرنا ، المتبعون للأهواء ، الأجراء على الدين وعلى الشريعة - فقد اصطنعوا قانوناً أجازوا فيه الوصية للوارث ، خروجاً على الشريعة ، يحادون الله ورسوله ، اصطنعه لهم رجال يتسبون إلى العلم ، يلتمسون رضى عامة الناس عنهم ، لا يباليون أنى يصدرن وأنى يردن . وحسابهم عند ربهم .

حُكْمُ هذه بالكلية. بقى الأقارب الذين لا ميراث لهم، يستحب له أن يُوصىَ لهم من الثلث، استثناساً بآية الوصية وشمولها، ولما ثبت فى الصحيحين، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصى فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده». قال ابن عمر: ما مرت علىَّ ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلا وعندى وصيتى. والآيات والأحاديث بالأمر بير الأقارب والإحسان إليهم، كثيرة جداً. وروى عبد بن حميد فى مسنده عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا بن آدم، ثنتان لم يكن لك واحدة منهما: جعلت لك نصيباً فى مالك حين أخذتُ بكظمك؛ لأظهرك به وأزكّيك، وصلاةُ عبادى عليك بعد انقضاء أجلك».

وقوله: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ أى: مالا. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم. ثم منهم من قال: الوصية مشروعة سواء قلَّ المال أو كثر كالوراثه، ومنهم من قال: إنما يُوصى إذا ترك مالا جزئياً، ثم اختلفوا فى مقداره (١).

وقوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى: بالرفق والإحسان، كما روى ابن أبى حاتم عن الحسن، قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ فقال: نَعَمْ، الوصية حق، على كل مسلم أن يوصى إذا حضره الموت بالمعروف غير المنكر. والمراد بالمعروف: أن يوصى لأقربيه وصيةً لا تجحف بورثته، من غير إسراف ولا تقتير، كما ثبت فى الصحيحين أن سعداً قال: يا رسول الله، إن لى مالا ولا يرثنى إلا ابنة لى، أفأوصى بثلثى مالى؟ قال: «لا» قال: فبالشطر؟ قال: «لا» قال: فالثلث؟ قال: «الثلث، والثلث كثير؛ إنك أن تذرَ ورثتك أغنياً خير من أن تدعهم عائلة يتكفون الناس». وفى صحيح البخارى: أن ابن عباس قال: لو أن الناس غَضُوا من الثلث إلى الربع فإن رسول الله ﷺ قال: «الثلث، والثلث كثير». وروى الإمام أحمد، عن حفظة بن حذيم بن حنيفة: أن جده حنيفة أوصى ليتيم فى حجره بمائة من الإبل، فشق ذلك على بنيه، فارتفعوا إلى رسول الله ﷺ. فقال حنيفة: إنى أوصيت ليتيم لى بمائة من الإبل، كنا نسئها المطيبة. فقال النبى ﷺ: «لا، لا، لا. الصدقة: خمس، وإلا فعشر، وإلا فخمسة عشرة، وإلا فعشرون، وإلا فخمسة وعشرون، وإلا فثلاثون، وإلا فخمسة وثلاثون، فإن أكثرت فأربعون». وذكر الحديث بطوله (٢).

(١) ذكر الحافظ ابن كثير هنا روايات عن على أنه لم ير ثلاثمائة دينار أو أربعمئة مالا كثيراً يوصى فيه. وعن ابن عباس: «من لم يترك ستين ديناراً لم يترك خيراً». وعن طاوس: «ثمانين ديناراً». وعن قتادة «كان يقال: «ألفاً فما فوقها». والظاهر من إطلاق كلمة «خير»، وأن لم يرد فى الكتاب ولا السنة تحديد مقداره: أن تقديره يختلف باختلاف الأشخاص، واختلاف طبقاتهم وظروفهم، وباختلاف الأحوال المعيشية العامة، وباختلاف عدد الورثة قلة وكثرة. فرب قليل فى وقت، وبين قوم، كثير فى وقت آخر، وعند قوم آخرين.

(٢) هو فى المسند (٥ / ٦٧، ٦٨ حلى). وأشار إليه البخارى فى الكبير (٣٥ / ١ / ٢) كعادته فى الإشارة الموجزة - فى ترجمة «حفظة بن حذيم». وذكره الهيمى فى مجمع الزوائد (٤ / ٢١٠، ٢١١) بطوله. وقال: «رواه أحمد، ورجاله ثقات». وذكره الحافظ فى الإصابة (٢ / ٤٢، ٤٣) عن رواية المسند. و «حذيم»: بكسر الحاء المهملة وسكون الذال المعجمة وفتح الباء التحتية وآخره ميم.

وقوله: ﴿ فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُدْلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾: يقول تعالى: فمن بدل الوصية وحرّفها، فغيرَ حكمها وزاد فيها أو نقص - ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولى - ﴿ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُدْلُونَهُ ﴾. قال ابن عباس وغير واحد: وقد وقع أجر الميت على الله، وتعلّق الإثم بالذين بدلوا ذلك ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى: قد اطلع على ما أوصى به الميت، وهو عليم بذلك، وبما بدله الموصى إليهم.

وقوله: ﴿ فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصِرٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا ﴾: قال ابن عباس، وغيره: الجَنَفُ: الخطأ. وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها، بأن زاد وارثاً بواسطة أو وسيلة، كما إذا أوصى ببيعه الشيء الفلانيّ محاباة، أو أوصى لابن ابنته ليزيدها، أو نحو ذلك من الوسائل، إما مخطئاً غير عامد، بل بطبعه وقوة شفقتة من غير تبصر، أو متممداً أثماً في ذلك، فللوصى - والحالة هذه - أن يصلح القضية، ويعدل في الوصية على الوجه الشرعى. ويعدل عن الذى أوصى به الميت إلى ما هو أقرب الأشياء إليه وأشبه الأمور به، جمعاً بين مقصود الموصى والطريق الشرعى. وهذا الإصلاح والتوفيق ليس من التبديل فى شيء. ولهذا عطف هذا - بينه - على النهى لذلك، ليعلم أن هذا ليس من ذلك بسبيل، والله أعلم. وروى عبد الرزاق عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليعملُ بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى حاف فى وصيته، فيختم له بشر عمله، فيدخل النار، وإن الرجل ليعملُ بعمل أهل الشر سبعين سنة، فيعدل فى وصيته، فيختم له بخير عمله، فيدخل الجنة».

قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة: ٢٢٩] (١).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ ﴾

يقول تعالى مخاطباً للمؤمنين من هذه الأمة وآمرأ لهم بالصيام، وهو: الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله، عز وجل، لما فيه زكاة النفس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة. وذكر أنه كما أوجه عليهم فقد أوجه على من كان قبلهم، فلهم فيه أسوة، وليجتهد هؤلاء فى أداء هذا الفرض أكمل بما فعله أولئك، كما قال تعالى: ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنكُم شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ الآية [المائدة: ٤٨] ؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ

(١) لم أجده فى تفسير عبد الرزاق ، ولعله فى المصنف . وقد رواه أحمد فى المسند (٧٧٢٨) عن عبد الرزاق ، ورواه ابن ماجه (٢٧٠٤) عن أحمد بن الأزهر عن عبد الرزاق . ورواه بنحوه أبو داود (٢٨٦٧) والترمذى (١٨٧/٣ ، ١٨٨) . وسيذكره ابن كثير من رواية المسند فى تفسيره الآيتين (١٣ ، ١٤) من سورة النساء ، إن شاء الله .

لَمَلِكُمْ تَقُونَ» لأن الصوم فيه تركية للبدن وتضييق لمسالك الشيطان؛ ولهذا ثبت في الصحيحين: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» (١) ثم بين مقدار الصوم، وأنه ليس في كل يوم، لثلاثا يشق على النفوس فتضعف عن حمله وأدائه، بل في أيام معدودات. وقد كان هذا في ابتداء الإسلام يصومون من كل شهر ثلاثة أيام، ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان، كما سيأتي بيانه. وقد روى أن الصيام كان أولا كما كان عليه الأمم قبلنا، من كل شهر ثلاثة أيام - عن معاذ، وابن مسعود، وابن عباس، وغيرهم. وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلكم» في حديث طويل اختصر منه ذلك (٢).

ثم بين حكم الصيام على ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فقال: «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ» أى: المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر؛ لما في ذلك من المشقة عليهما، بل يفطران ويقضيان بعدة ذلك من أيام آخر. وأما الصحيح المقيم الذى يطبق الصيام، فقد كان مخيرا بين الصيام وبين الإطعام، إن شاء صام، وإن شاء أفطر، وأطعم عن كل يوم مسكينا، فإن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم، فهو خير، وإن صام فهو أفضل من الإطعام، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وغيرهم من السلف؛ ولهذا قال تعالى: «وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينَ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

وروى الإمام أحمد: عن معاذ بن جبل، قال: أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال، وأحيل الصيام ثلاثة أحوال... وأما أحوال الصيام فإن رسول الله ﷺ قدم المدينة، فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وصام عاشوراء، ثم إن الله فرض عليه الصيام، وأنزل الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» إلى قوله: «وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينَ» فكان من شاء صام، ومن شاء أطعم مسكينا، فأجزأ ذلك عنه. ثم إن الله عز وجل أنزل الآية الأخرى: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» إلى قوله: «فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ» فثبت الله صيامه على المقيم الصحيح، ورخص فيه للمريض والمسافر، وثبت الإطعام للكبير الذى لا يستطيع

(١) رواه أحمد فى المسند (٣٥٩٢) من حديث ابن مسعود، مطولا. ورواه أيضا أصحاب الكتب الستة، كما فى المنتقى (٣٤١١). وروى أحمد معناه أيضا من حديث عثمان (٤١١).

(٢) الذى اختصره هو الحافظ ابن كثير. ورجاله رجال الصحيح، إلا التابعى راويه عن ابن عمر، وهو «أبو الربيع رجل من أهل المدينة». وفى التابعين «أبو الربيع المدنى»: يروى عن أبى هريرة، له حديث عنه فى المسند (٧٧١). وفهم أيضا «أبو الربيع»: يروى عن ابن عمر، له عنه حديث فى المسند (٦١٩٥)، ولكن لم يذكر أنه مدنى. والراجح عندى أنهما واحد. وقد ورد أيضا حديث آخر، رواه البخارى فى الكبير (١/٢ / ٢٣٢، ٢٣٣)، من رواية الحسن، عن دغفل بن حنظلة، عن النبى ﷺ، قال: «كان على النصارى صوم رمضان...». فى حديث طويل. وكذلك رواه ابن النحاس فى التاسخ والنسوخ ص ٢٠. وذكره الهيثمى فى الزوائد (٣/ ١٣٩). وقال: «رواه الطبرانى فى الأوسط مرفوعا، كما تراه، ورواه فى الكبير موقوفا على دغفل. ورجال إسنادهما رجال الصحيح». ولكن البخارى أعله بأنه «لا يعرف سماع الحسن من دغفل، ولا يعرف لدغفل إدراك النبى ﷺ». انظر ترجمة «دغفل»، بوزن «جعفر»، فى الإصابة والتهديب.

الصيام، فهذان حالان. قال: وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا، فإذا ناموا امتنعوا، ثم إن رجلا من الأنصار يقال له: صرمة، كان يعمل صائماً حتى أمسى، فجاء إلى أهله فصلى العشاء، ثم نام فلم يأكل ولم يشرب، حتى أصبح فأصبح صائماً، فرآه رسول الله ﷺ وقد جهد جهداً شديداً، فقال: ما لى أراك قد جَهدتَ جدّهاً شديداً؟ قال: يا رسول الله، إني عملت أمس فجنّتُ حين جنّتُ فألقيتُ نفسي فميتُ فأصبحت حين أصبحت صائماً. قال: وكان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَحِلُّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾. وأخرجه أبو داود، والحاكم (١). وقد أخرج البخارى ومسلم عن عائشة أنها قالت: كان عاشوراء يصام، فلما نزل فرض رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر. وروى البخارى عن ابن عمر وابن مسعود، مثله.

وقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كما قال معاذ: كان فى ابتداء الأمر: من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً. وهكذا روى البخارى عن سلمة بن الأكوع أنه قال: لما نزلت: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ كان من أراد أن يفطر يفتدى، حتى نزلت الآية التى بعدها فنسختها. وروى أيضاً عن ابن عمر، قال: هى منسوخة. وقال عبد الله [هو ابن مسعود] ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أى: يتجشمونه، قال عبد الله: فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ﴾ يقول: أطعم مسكيناً آخر ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فكانوا كذلك حتى نسختها: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾. وروى البخارى أيضاً: عن ابن عباس: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾. قال ابن عباس: ليست منسوخة، هو للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما، فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً. وروى أبو بكر ابن مردويه: عن ابن أبى ليلى، قال: دخلت على عطاء فى رمضان، وهو يأكل، فقال: قال ابن عباس: نزلت هذه الآية: [﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾]، فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً، ثم نزلت هذه الآية [(٢) فنسخت الأولى، إلا الكبير الفانى إن شاء أطعم عن كل يوم مسكيناً وأفطر.

فحاصل الأمر: أن النسخ ثابت فى حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه، لقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ وأما الشيخ الفانى الهرم الذى لا يستطيع الصيام فله أن يفطر ولا قضاء عليه، لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكن فيها من القضاء. ولكن هل يجب عليه إذا أفطر أن يطعم عن كل يوم مسكيناً إذا كان ذا جِدة؟ فيه قولان للعلماء، أحدهما: لا يجب عليه

(١) ساق الحافظ ابن كثير هنا الحديث بطوله، فاختصرنا منه أحوال الصلاة، اكتفاء بأحوال الصيام، والحديث - بطوله - فى المسند (٥/٢٤٦، ٢٤٧ حلى) وهو فى سنن أبى داود (٥٠٦، ٥٠٧). والذى رواه الحاكم منه هو أحوال الصيام (٢/٢٧٤) وصححه، ووافقه الذهبى. وروى الطبرى قطعة مختصرة منه فى شأن الصوم (٢٧٢٩). وفضلنا تخريجه هناك.

(٢) الزيادة من المخطوطة الأهرية، وسقطت من المطبوعة وحذفها خطأ واضح. وابن أبى ليلى: هو محمد بن عبد الرحمن، وهو حسن الحديث. وعطاء: هو ابن أبى رباح.

إطعام؛ لأنه ضعيف عنه لسنته، فلم يجب عليه فدية كالصبي؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، وهو أحد قولى الشافعى. والثانى - وهو الصحيح، وعليه أكثر العلماء : أنه يجب عليه فدية عن كل يوم، كما فسره ابن عباس وغيره من السلف على قراءة من قرأ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يَطُوقُونَهُ﴾ أى: يتجشمونه، كما قاله ابن مسعود وغيره، وهو اختيار البخارى فإنه قال: وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام، فقد أطعم أنس - بعد أن كبر عاماً أو عامين - عن كل يوم مسكيناً خبزاً ولحماً، وأفطر . وهذا الذى علقه البخارى قد أسنده الحافظ أبو يعلى الموصلى عن أيوب بن أبى تيمية، قال: ضعف أنس عن الصوم، فصنع جفنة من ثريد، فدعا ثلاثين مسكيناً فأطعمهم (١). ورواه أيضاً عبد بن حميد . ومما يلتحق بهذا المعنى: الحامل والمرضع، إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما، ففيهما خلاف كثير بين العلماء، فمنهم من قال: يفطران ويفديان ويقضيان. وقيل: يفديان فقط، ولا قضاء. وقيل: يجب القضاء بلا فدية. وقيل: يفطران، ولا فدية ولا قضاء. وقد بسطنا هذه المسألة مستقصاة فى كتاب الصيام الذى أفردناه . والله الحمد والمنة .

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

مدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور، بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم فيه، وكما اختصه بذلك، قد ورد الحديث بأنه الشهر الذى كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء. فروى أحمد عن واثلة - يعنى ابن الأسقع - أن رسول الله ﷺ قال: « أنزلت صُحُف إبراهيم فى أول ليلة من رمضان. وأنزلت التوراة لست مَضِيْن من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان» (٢). أما الصحف والتوراة والزبور والإنجيل - فنزل كل منها على النبى الذى أنزل عليه جملة واحدة، وأما القرآن فأما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا، وكان ذلك فى شهر رمضان، فى ليلة القدر منه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر : ١] . وقال: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبْرُكَةٍ ﴾ [الدخان : ٣]، ثم نزل بعد مفراً بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ. هكذا روى من غير وجه، عن ابن عباس أنه سأله عطية بن الأسود، فقال: وقع فى قلبى الشك : قول الله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾، وقوله: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبْرُكَةٍ ﴾، وقوله: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾، وقد أنزل فى شوال، وفى ذى القعدة، وفى ذى الحجة، وفى المحرم، وصفر، وشهر ربيع ؟ فقال ابن عباس: إنه أنزل فى رمضان، فى ليلة القدر وفى ليلة مباركة جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم ترتيباً فى الشهور والأيام. رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه، وهذا لفظه . [وروى

(١) إسناده صحيح . وذكره الهيثمى فى الزوائد (٣ / ١٦٤) ، وقال : «رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح» .

(٢) هو فى المسند (١٧٠٥١) (٤ / ١٠٧ حلى) وكذلك رواه الطبرى (٢٨١٤) .

نحوه عن ابن عباس من غير وجه [.

وقوله: ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ﴾ : هذا مدح للقرآن الذي أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقته واتبعه ﴿ وَبَيِّنَاتٍ ﴾ أى : ودلائل وحجج بيّنة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها دالة على صحة ما جاء به من الهدى النافى للضلال، والرشد المخالف للغي، ومفرقاً بين الحق والباطل، والحلال، والحرام. وقد روى عن بعض السلف أنه كره أن يقال: إلا « شهر رمضان » ولا يقال: « رمضان » ، ورخص فيه ابن عباس وزيد بن ثابت. وقد انتصر البخارى، رحمه الله، فى كتابه لهذا فقال: «باب يقال رمضان»، وساق أحاديث فى ذلك منها: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» ونحو ذلك (١).

وقوله: ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ : هذا إيجاب حتم على من شهد استهلال الشهر - أى كان مقيماً فى البلد حين دخل شهر رمضان، وهو صحيح فى بدنه - أن يصوم لا محالة. ونسخت هذه الآية الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحاً مقيماً أن يفطر ويفدى بإطعام مسكين عن كل يوم، كما تقدم بيانه. ولما حتم الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض وللمسافر فى الإفطار، بشرط القضاء فقال: ﴿ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ معناه: ومن كان به مرض فى بدنه يشقّ عليه الصيام معه، أو يؤذيه، أو كان على سفر أى فى حال سفر - فله أن يفطر، فإذا أفطر فعليه عدة ما أفطره فى السفر من الأيام؛ ولهذا قال: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ أى: إنما رخص لكم فى الفطر فى حال المرض وفى السفر، مع تختمه فى حق المقيم الصحيح، تيسيراً عليكم ورحمة بكم. وههنا مسائل تتعلق بهذه الآية:

إحداها: أنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أن من كان مقيماً فى أول الشهر ثم سافر فى أثنائه، فليس له الإفطار بعذر السفر والحالة هذه، وهذا القول غريب! نقله ابن حزم فى المحلى، عن جماعة من الصحابة والتابعين. وفيما حكاه عنهم نظر، والله أعلم. فإنه قد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه خرج فى شهر رمضان لغزوة الفتح، فسار حتى بلغ الكديد، ثم أفطر، وأمر الناس بالفطر. أخرجه صاحبنا الصحيح .

الثانية: ذهب آخرون من الصحابة والتابعين إلى وجوب الإفطار فى السفر، لقوله: ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ . والصحيح قول الجمهور، أن الأمر فى ذلك على التخيير، وليس بحتم؛ لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ فى شهر رمضان. قال: « فَمِنَّا الصائم ومننا المفطر، فلم يعب الصائم على المفطر، ولا المفطر على الصائم » (٢). فلو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيام، بل الذى ثبت من فعل رسول الله ﷺ أنه كان فى مثل هذه الحالة صائماً، لما ثبت فى

(١) عبارة البخارى (٤ / ٩٦ فتح) : « باب ، هل يقال رمضان ، أو شهر رمضان ؟ ومن رأى كله واسعاً . ثم أشار للحديث الذى هنا ، ثم رواه فى الباب الذى بعده (ص ٩٨ ، ٩٩) مطولاً ، من حديث أبى هريرة .

(٢) ثبت من حديث أنس ، وأبى سعيد ، وجابر ، وعائشة . انظر : الفتح (٤ / ١٦٣) ، ومسلم (١ / ٣٠٨ ، ٣٠٩) .

الصحيحين عن أبي الدرداء قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حرٍّ شديد، حتى إن كان أحدنا يضع يده على رأسه [من شدة الحر، وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله ابن رواحة.

الثالثة: قالت طائفة منهم الشافعي: الصيام في السفر أفضل من الإفطار، لفعل النبي ﷺ كما تقدم، وقالت طائفة: بل الإفطار أفضل، أخذاً بالرخصة، ولما ثبت عن رسول الله ﷺ: أنه سئل عن الصوم في السفر، فقال: « من أفطر فحَسَنَ ، ومن صام فلا جناح عليه » (١). وقال في حديث آخر: « عليكم برخصة الله التي رخص لكم » (٢). وقالت طائفة: هما سواء لحديث عائشة: أن حمزة بن عمرو الأسلمي قال: يا رسول الله، إني كثير الصيام، أفصوم في السفر؟ فقال: « إن شئت فصم، وإن شئت فأفطر ». وهو في الصحيحين. وقيل: إن شق الصيام فالإفطار أفضل لحديث جابر: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قد ظلَّ عليه، فقال: « ما هذا؟ » قالوا: صائم، فقال: « ليس من البر الصيام في السفر ». أخرجاه. فأما إن رغب عن السنة، ورأى أن الفطر مكروه إليه - فهذا يتعين عليه الإفطار، ويحرم عليه الصيام، والحالة هذه، لما جاء في مسند الإمام أحمد وغيره، عن ابن عمر وجابر، وغيرهما: من لم يقبل رُخْصَةَ الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة (٣).

الرابعة: القضاء، هل يجب متتابعاً أو يجوز فيه التفريق؟ فيه قولان: أحدهما: أنه يجب التابع؛ لأن القضاء يحكى الأداء. والثاني: لا يجب التابع، بل إن شاء فَرَّقَ، وإن شاء تابع. وهذا قول جمهور السلف والخلف، وعليه ثبتت الدلائل؛ لأن التابع إنما وجب في الشهر لضرورة أدائه في الشهر، فأما بعد انقضاء رمضان فالمراد صيام أيام عدة ما أفطر. ولهذا قال تعالى: ﴿ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ ثم قال: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ . روى الإمام أحمد عن أبي قتادة، عن الأعرابي الذي سمع النبي ﷺ يقول: « إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره » (٤).

وروى أحمد أيضاً: عن عروة الفُقَيْمِي ، قال: كنا ننتظر النبي ﷺ فخرج [رجلاً] يَقْطُرُ رأسه من وضوء أو غسل، فصلى، فلما قضى الصلاة جعل الناس يسألونه: علينا حرج في كذا؟

(١) ثبت بمعناه من حديث حمزة بن عمرو الأسلمي . رواه مسلم (١ / ٣٧٠) ، والطبري (٢٨٩١) وفصلنا تخريجه هناك .

(٢) هذا اللفظ ورد في إحدى روايات مسلم لحديث جابر (١ / ٣٠٨) .

(٣) رواه أحمد في المسند (٥٣٩٢) عن ابن عمر ، بإسناد صحيح . ورواه أيضا (١٧٥٢٣) من حديث عقبة بن عامر الجهني ، وإسناده صحيح . ولم أجده من حديث جابر .

(٤) هو في المسند (١٦٠٠٢) وذكره الهيثمي في الزوائد (٦١/١) مختصراً ، وقال: « رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح » . وانظر حديث محجن بن الأدرع الآتي .

فقال رسول الله ﷺ: «إن دين الله في يسر» ثلاثاً يقولها ورواه ابن مردويه (١) . وروى الإمام أحمد: أيضاً عن أنس بن مالك قال: إن رسول الله ﷺ قال: «يسروا، ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا». أخرجه في الصحيحين. وفي الصحيحين أيضاً: أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن: «بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلفا». وفي السنن والمسائيد أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت بالحنيفية السمحة» . وروى ابن مردويه عن معجّن بن الأدرع: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يصلى فترأه بصره ساعة، فقال: «أترأه يصلى صادقاً؟» قال: قلت: يا رسول الله، هذا أكثر أهل المدينة صلاة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تُسمِعهُ فتهلكه». وقال: «إن الله إنما أراد بهذه الأمة اليسر، ولم يرد بهم العسر» (٢).

ومعنى قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ أي: إنما أرخص لكم في الإفطار للمرض والسفر ونحوهما من الأعذار لإرادته بكم اليسر، وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم.

وقوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ أي: ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم، كما قال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشْدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠] وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ إِيذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠] وقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ . وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٣٩ ، ٤٠] ؛ ولهذا جاءت السنة باستحباب التسبيح، والتحميد، والتكبير بعد الصلوات المكتوبات. وقال ابن عباس: ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلا بالتكبير (٣). وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه، وترك محارمه، وحفظ حدوده، فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾

(١) هو في المسند (٥ / ٦٩ حلى) . ورواه أيضا البخارى فى الكبير (٤ / ١ / ٣٠ ، ٣١) وذكره الهيثمى فى الزوائد (١ / ٦١ ، ٦٢) ، وقال : « رواه أحمد ، والطبرانى فى الكبير ، وأبو يعلى . وفيه عاصم بن هلال : وثقه أبو حاتم ، وضعفه النسائى وغيره ، وغاضرة : لم يرو عنه غير عاصم » . أقول : والإسناد صحيح . فإن غاضرة بن عروة الفقىمى : ترجمه البخارى فى الكبير (٤ / ١ / ١٠٩) فلم يذكر فيه جرحاً . ولم يحلل البخارى الحديث حين رواه فى الكبير . وزيادة [رجلا] ودناها من المسند والمخطوطة الأهرية والكبير . وهى بكسر الجيم ، يعنى أن شعره لم يكن شديد الجعودة ولا شديد السبوطة ، أى بينهما .

(٢) أبعد الحافظ النجعة ، إذ ذكره من رواية ابن مردويه ! وهو فى المسند (٤ / ٣٣٨ ، و ٥ / ٣٢ حلى) . ولكن آخره فيه : « إن خير دينكم أيسره » ، مرتين . وإسناده فى المسند - صحيحان .

(٣) رواه أحمد فى المسند (١٩٣٣ ، ٣٤٧٨) ومسلم فى صحيحه (١ / ١٣٢ ، ١٣٣) .

روى الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فجعلنا لا نصعد شرقاً، ولا نعلو شرقاً، ولا نهبط وادياً إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير. قال: فدنا منا فقال: «يا أيها الناس، أربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سمياً بصيراً، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته. يا عبد الله بن قيس، ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله». أخرجاه في الصحيحين، وبقية الجماعة بنحوه (١). وروى الإمام أحمد أيضاً عن أنس أن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا دعاني» (٢). وروى أيضاً عن أبو هريرة: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله: أنا مع عبدي ما ذكرني، وتحركت بي شفته» (٣).

قلت: وهذا كقولته تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وكقوله لموسى وهارون، عليهما السلام: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]. والمراد من هذا: أنه تعالى لا يخيب دعاء داع، ولا يشغله عنه شيء، بل هو سميع الدعاء. ففيه ترغيب في الدعاء، وأنه لا يضيع لديه تعالى، كما روى الإمام أحمد حدثنا يزيد، حدثنا رجل أنه سمع أبا عثمان - هو النهدي - يحدث عن سلمان الفارسي، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ليستحي أن ييسر العبد إليه يديه يسأله فيهما خيراً فيردّهما خائبتين». ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه وقال الترمذي: حسن غريب. ورواه بعضهم، ولم يرفعه (٤). وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد: أن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرّف عنه من السوء مثلها» قالوا: إذا نكث. قال: «الله أكثر» (٥). وروى عبد الله بن أحمد عن عبادة بن الصامت عن أن النبي ﷺ قال: «ما على ظهر الأرض من رجل مسلم يدعو الله، عز وجل، بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو كف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم». ورواه الترمذي، وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه (٦). وروى الإمام مالك، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ:

(١) هو في المسند (٤ / ٤٠٢ حلي). .

(٢) هو في المسند (١٣٢٢٥) وذكره الهيثمي في الزوائد (١٠ / ١٤٨) وقال: «رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح». ففسى أن ينسبه للمسند، ورواه مسلم (٢ / ٣٠٩) بهذا اللفظ، من حديث أبي هريرة.

(٣) المسند (١٠٩٨٩) وأشار الحافظ ابن حجر في التهذيب (١٢ / ٤٤٨) إلى أنه رواه البخاري في الأدب المفرد، وذكره في الصحيح معلقاً، «وهو أحد الأحاديث المرفوعة التي لم يوصلها في الجامع».

(٤) المسند (٥ / ٤٣٨ حلي)، والترمذي (٤ / ٢٧٤)، وابن ماجه (٣٨٦٥)، بنحوه.

(٥) المسند (١١١٥٠) وذكره الهيثمي في الزوائد (١٠ / ١٤٨، ١٤٩)، وقال: «رواه أحمد، وأبو يعلى بنحوه، والبخاري، والطبراني في الأوسط. ورجال أحمد وأبو يعلى وأحد إسناده البزار - رجال الصحيح، غير علي ابن علي الرفاعي، وهو ثقة».

(٦) هو في المسند (٥ / ٣٢٩ حلي)، من زيادات عبد الله، والترمذي (٤ / ٢٧٩، ٢٨٠).

دَعَوْتُ فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِي». أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك، به. وهذا لفظ البخاري، رحمه الله، وأثابه الجنة. وروى مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدعْ بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل». قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: «يقول: قد دعوتُ، وقد دعوتُ، فلم أرْ يستجابُ لي، فيستحسر عند ذلك، ويدع الدعاء» (١). وروى الإمام أحمد عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل». قالوا: وكيف يستعجل؟ قال: «يقول: قد دعوت ربي فلم يستجب لي» (٢). وروى أحمد أيضا عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ قال: «القلوب أوعية، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله أيها الناس فاسألوه وأتمم موقنون بالإجابة، فإنه لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل» (٣).

وفى ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء، متخللة بين أحكام الصيام - إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة، بل وعند كل فطر، كما رواه الإمام أبو داود الطيالسي عن عبد الله بن عمرو، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة». فكان عبد الله بن عمرو إذ أفطر دعا أهله، وولده ودعا (٤). وروى ابن ماجه عن عبد الله بن أبي مليكة، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال النبي ﷺ: «إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد». قال عبد الله بن أبي مليكة: سمعت عبد الله بن عمرو يقول إذا أفطر: اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي (٥). وفى مسند الإمام أحمد، وسنن الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول: بعزتي لا نصرنك ولو بعد حين» (٦).

﴿ أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَاتَّقِنِ بُشْرُوهُنَّ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْآتِلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَنْكُمُوهُنَّ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

(١) صحيح مسلم (٢ / ٣٢٠).

(٢) المسند (١٣٠٤٠، ١٣٢٣١) ومجمع الزوائد (١٠ / ١٤٧) وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه، والبخاري، والطبراني في الأوسط. وفيه أبو هلال الراسي، وهو ثقة، وفيه خلاف، وبقية رجال أحمد وأبو يعلى رجال الصحيح».

(٣) المسند (٦٦٥٥) والزوائد (١٠ / ١٤٨) وإسناده صحيح. (٤) مسند الطيالسي (٢٢٦٢).

(٥) ابن ماجه (١٧٥٣) وإسناده صحيح، ورواه الحاكم في المستدرک (١ / ٤٢٢).

(٦) الترمذى (٤ / ٢٨٨) وقال: «حديث حسن» وابن ماجه (١٧٥٢) وهو فى المسند مطولا (٨٠٣٠).

هذه رُخْصَةٌ من الله تعالى للمسلمين، ورَفَعَ لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة . فوجدوا من ذلك مَشَقَّةَ كبيرة . « والرَفْثُ » هنا هو: الجماع . قاله ابن عباس، وعطاء، ومجاهد وغيرهم .

وقوله: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وغيرهم : يعنى هن سَكَنَ لكم، وأنتم سكنن لهن . وقال الربيع بن أنس: هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن . وحاصله: أن الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويَمَاسُهُ ويضاجعه، فناسب أن يُرَخِّصَ لهم في المجامعة في ليل رمضان، لثلا يشق ذلك عليهم، ويخرجوا .

وكان السبب في نزول هذه الآية كما تقدم في حديث معاذ الطويل، عن البراء بن عازب قال: كان أصحاب النبي ﷺ إذا كان الرجل صائماً فنام قبل أن يفطر، لم يأكل إلى مثلها، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً، وكان يومه ذاك يعمل في أرضه، فلما حَضَرَ الإفطار أتى امرأته فقال: هل عندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك . فغلبته عينه فنام، وجاءت امرأته، فلما رآته نائماً قالت: خيبة لك! أمت؟ فلما انتصف النهار غشى عليه، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فترلت هذه الآية: ﴿ أَحِلُّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ ففرحوا بها فرحاً شديداً (١) .

ولفظ البخارى هنا (٢) عن البراء قال: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقرؤون النساء، رَمَضَانَ كُلَّهُ، وكان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل الله: ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ﴾ . وقال ابن عباس : كان المسلمون في شهر رمضان إذا صلوا العشاء حَرَمَ عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة، ثم إن أناساً من المسلمين أصابوا من النساء والطعام في شهر رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَلَا تَأْسُرُوا بَذْلِهِ ﴾ (٣) . وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قيس بن سعد، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هريرة في قول الله تعالى: ﴿ أَحِلُّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ قال: كَانَ المسلمون قبل أن تنزل هذه الآية إذا صلوا العشاء الآخرة حَرَمَ عليهم الطعام والشراب والنساء حتى يفطروا، وإن عمر بن الخطاب أصاب أهله بعد صلاة العشاء، وإن صرمة بن قيس الأنصاري غلبته عينه بعد صلاة المغرب، فنام ولم يشبع من الطعام، ولم يستيقظ حتى صلى رسول الله ﷺ العشاء، فقام فأكل وشرب، فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، فأنزل

(١) حديث معاذ - الطويل - مضى في ص ٢١٨ ، ٢١٩ من هذا الجزء . وحديث البراء هذا رواه أحمد في المسند

(٤ / ٢٩٥ حلى) والبخارى (٤ / ١١١ ، ١١٢ فتح) ورواه الطبري بنحوه (٢٩٣٩) وخرجه هناك .

(٢) يعنى في كتاب التفسير من الصحيح (٨ / ١٣٦ فتح) .

(٣) رواه الطبري (٢٩٤٠) ورواه ابن المنذر أيضا ، كما في الدر المنثور (١ / ١٩٧) .

الله عند ذلك : ﴿أَحَلُّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ يعنى بالرفث : مجامعة النساء : ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ يعنى : تجامعون النساء ، وتاكلون وتشربون بعد العشاء ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ يعنى : جامعوهن ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ يعنى : الولد ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ . فكان ذلك عفواً من الله ورحمة (١) . وهكذا روى عن مجاهد ، وعطاء ، وعكرمة ، والسدى ، وقتادة ، وغيرهم فى سبب نزول هذه الآية فى عمر بن الخطاب ومن صنع كما صنع ، وفى صرمة بن قيس ؛ فأباح الجماع والطعام والشراب فى جميع الليل رحمة ورحضة ورفقاً .

وقوله : ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ : قال أبو هريرة ، وابن عباس ، وأنس ، وغيرهم : يعنى الولد . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى : الجماع .

وقوله : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ : أباح تعالى الأكل والشرب ، مع ما تقدم من إباحة الجماع ، فى أى الليل شاء الصائم إلى أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل ، وعبر عن ذلك بالخيطة الأبيض من الخيط الأسود ، ورفع اللبس بقوله : ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ ، كما جاء فى الحديث الذى رواه البخارى : عن سهل بن سعد ، قال : أنزلت : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ ولم ينزل ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ وكان رجال إذا أرادوا الصوم ، رباط أحداهم فى رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود ، فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما ، فأنزل الله بعد : ﴿مِنَ الْفَجْرِ﴾ فعملوا أنما يعنى : الليل والنهار (٢) .

وروى الإمام أحمد : عن عدى بن حاتم قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ عمدت إلى عقالين ، أحدهما أسود والآخر أبيض ، قال : فجعلتهما تحت وسادتي ، قال : فجعلت أنظر إليهما فلا يتبين لى الأبيض من الأسود ولا الأبيض ، أمسكت ، فلما أصبحت غدوت على رسول الله ﷺ فأخبرته بالذى صنعت . فقال : « إن وسادك إذا لعريض ، إنما ذلك بياض النهار وسواد الليل » . أخرجاه فى الصحيحين (٣) .

ومعنى قوله : « إن وسادك إذا لعريض » أى : إن كان يسع لوضع الخيط الأسود والخيط الأبيض المرادين من هذه الآية تحتها ، فإنهما بياض النهار وسواد الليل - فيقتضى أن يكون بعرض المشرق والمغرب !! وجاء فى بعض الألفاظ : « إنك لعريض القفا » . ففسره بعضهم بالبلادة ، وهو ضعيف . بل يرجع إلى هذا ؛ لأنه إذا كان وساده عريضاً فقفاه أيضاً عريض ، والله أعلم .

وفى إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر ، دليل على استحباب السحور ؛ لأنه

(١) هذا الحديث ثبت هكذا فى ابن كثير ، دون بيان من أخرجه . والإسناد من سعيد بن أبى عروة إلى أبى هريرة - صحيح . والظاهر من خطه ابن خزيمة أنه رواه الطبرى ، ولكن لم أجده فيه فى هذا الموضع . فإما هو فى موضع آخر ، وإما سقط من ناسخ الطبرى . ويؤيد أنه من رواية الطبرى أن السيوطى نقله فى الدر المنثور (١٩٧/١) ونسبه للطبرى فقط .

(٢) البخارى (٨ / ١٣٧ فتح) ، ورواه أيضا الطبرى (٢٩٩٠) وقد فصلنا تخريجه هناك .

(٣) المسند (٤ / ٣٧٧ حلى) .

من باب الرخصة، والأخذ بها محبوب؛ ولهذا وردت السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ بالحث على السحور، ففي الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً». وفي صحيح مسلم، عن عمرو بن العاص رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ فَضَّلَ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكَلَةُ السَّحَرِ». وروى الإمام أحمد: عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «السَّحُورُ أَكْلُهُ بَرَكَةٌ؛ فَلَا تَدَعُوهُ، وَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَجْرَعُ جُرْعَةً مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يَصَلُّونَ عَلَى الْمُتَسَحِّرِينَ» (١).

وقد ورد في الترغيب في السحور أحاديث كثيرة حتى ولو بجرعة من ماء، تشبهاً بالآكلين. ويستحب تأخيره إلى وقت انفجار الفجر، كما جاء في الصحيحين، عن أنس بن مالك، عن زيد بن ثابت، قال: تسحرنا مع رسول الله ﷺ، ثم قمنا إلى الصلاة. قال أنس: قلت لزيد: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين آية. وقد ورد في أحاديث كثيرة أن رسول الله ﷺ سمَّاه «العَدَاءَ الْمُبَارَكُ»، وفي الحديث الذى رواه الإمام أحمد، والنسائي، وابن ماجه عن حذيفة بن اليمان قال: تسحرنا مع رسول الله ﷺ، وكان النهار إلا أن الشمس لم تطلع. وهو حديث تفرد به عاصم بن أبى النجود، قاله النسائي، وحمله على أن المراد قرب النهار، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢] أى: قاربين انقضاء العدة، فإذا إمساك أو ترك للفراق. وهذا الذى قاله هو المتعين حمل الحديث عليه: أنهم تسحروا ولم يتيقنوا طلوع الفجر، حتى إن بعضهم ظن طلوعه وبعضهم لم يتحقق ذلك. وقد روى عن طائفة كثيرة من السلف أنهم تسامحوا فى السحور عند مقاربة الفجر. روى مثل هذا عن أبى بكر، وعمر، وعلى، وابن مسعود، وحذيفة، وأبى هريرة، وابن عمر، وابن عباس، وزيد بن ثابت، وعن طائفة كثيرة من التابعين. وحكى ابن جرير فى تفسيره، عن بعضهم: أنه إنما يجب الإمساك من طلوع الشمس كما يجوز الإفطار بغروبها! قلت: وهذا القول ما أظن أحداً من أهل العلم يستقر له قَدَمٌ عليه، لمخالفته نص القرآن فى قوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ وقد ورد فى الصحيحين، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمنعكم أذان بلال عن سحوركم، فإنه ينادى بليل، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر». لفظ البخارى. وروى الطبرى عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل، ولكن الفجر المستطير فى الأفق» رواه مسلم (٢). وروى الطبرى عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يمنع أذان بلال عن سحوره - أو قال نداء بلال - فإن بلالا يؤذن بليل - ينادى - لينبه نائمكم وليرجع قائمكم، وليس الفجر أن يقول هكذا أو هكذا، حتى يقول هكذا» (٣).

(١) المسند (١١١٠٢) ومجمع الزوائد (٣ / ١٥٠) والترغيب والترهيب (٢ / ٩٤) وقال: «وإسناده قوى».

(٢) انظر: الطبرى (٢٩٩٦، ٢٩٩٧)، وما كتبه هناك، وصحيح مسلم (١ / ٣٠٢).

(٣) هذا الحديث نقله ابن كثير بإسنادين عن الطبرى. وقد سقط من نسخ الطبرى المخطوطة والمطبوعة التى رأينا. وهو حديث صحيح، رواه أيضا مسلم فى صحيحه (١ / ٣٠١، ٣٠٢).

مسألة: ومن جعله تعالى الفجرَ غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام - يُستدلّ على أنه من أصبح جنباً فليغتسل، وليتم صومه، ولا حرج عليه. وهذا مذهب الأئمة الأربعة وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً، لما رواه البخارى ومسلم من حديث عائشة وأم سلمة، أنهما قالتا: كان رسول الله ﷺ يصبح جنباً من جماع غير احتلام، ثم يغتسل ويصوم. وفي حديث أم سلمة عندهما: ثم لا يفطر ولا يقضى. وفي صحيح مسلم، عن عائشة: أن رجلاً قال: يا رسول الله، تُدركنى الصلاة وأنا جنب، فأصوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «وأنا تدركنى الصلاة وأنا جنب، فأصوم». فقال: لست مثلنا - يا رسول الله - قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فقال: «والله إنى لأرجو أن أكون أحشاكم لله وأعلمكم بما أتقى». فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا نودى للصلاة - صلاة الصبح - وأحدكم جنب فلا يصم يومئذ»، فإنه حديث جيد الإسناد على شرط الشيخين، وهو فى الصحيحين عن أبى هريرة، عن الفضل بن عباس عن النبى ﷺ، وفى سنن النسائى: عنه، عن أسامة بن زيد، والفضل بن عباس ولم يرفعه. فمن العلماء من علل هذا الحديث بهذا، ومنهم من ذهب إليه، ويحكى هذا عن أبى هريرة، وسالم، وغيرهما، ومنهم من حمل حديث أبى هريرة على نفى الكمال «فلا صوم له» لحديث عائشة وأم سلمة الدالين على الجواز. وهذا المسلك أقرب الأقوال وأجمعها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ يقتضى الإفطار عند غروب الشمس حكماً شرعياً، كما جاء فى الصحيحين، عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقبل الليل من هاهنا وأدبر النهار من هاهنا، فقد أفطر الصائم». وعن سهل بن سعد الساعدى، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر» أخرجه أيضاً. وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ: «يقول الله، عز وجل: إن أحبَّ عبادى إلى أعجلهم فطراً». ورواه الترمذى وقال: هذا حديث حسن غريب. وروى أحمد أيضاً: ليلى امرأة بشير بن الخصاصية، قالت: أردت أن أصومَ يومين مواصلة، فمنعنى بشير وقال: إن رسول الله ﷺ نهى عنه. وقال: «يفعل ذلك النصارى، ولكن صوموا كما أمركم الله، وأتموا الصيام إلى الليل، فإذا كان الليل فأفطروا» (١).

(١) بشير ابن الخصاصية : هو «بشير بن معبد» . وقيل فى اسم أبيه غير ذلك و «الخصاصية» - بفتح الحاء وتخفيف الصاد الأولى وكسر الثانية بعدها ياء تحتية مشددة : هى إحدى جداته ، نسب إليها . ولذلك تكتب «ابن» هنا بالالف .

والحديث فى المسند (٥ / ٢٢٥ حلى) . وذكره الهيمى فى الزوائد (٣ / ١٥٨) ، وقال : « رواه أحمد والطبرانى فى الكبير . ولىلى : لم أجد من ذكرها ، وبقية رجاله رجال الصحيح » . ولىلى : معروفة ، مترجمة فى التهذيب والإصابة فى اسم « جهمة » ، كان هذا هو اسمها ، ويقال أن النبى ﷺ غيره فسمها « لىلى » . وهى صحابية على الراجح . ولذلك ذكر الحافظ ابن حجر ، هذا الحديث فى الفتح (٤ / ١٧٦) من رواية ابن أبى حاتم . وقال : « أخرجه أحمد والطبرانى ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن أبى حاتم ، فى تفسيرهما ، بإسناد صحيح » .

ولهذا ورد في الأحاديث الصحيحة النهى عن الوصال، وهو أن يصل صوم يوم بيوم آخر، ولا يأكل بينهما شيئاً. فروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تواصلوا». قالوا: يا رسول الله، إنك تواصل؟ قال: «فإني لست مثلكم، إني أبيتُ يطعمني ربي ويسقيني». قال: فلم ينتهوا عن الوصال، فواصل بهم النبي ﷺ يومين وليتين، ثم رأوا الهلال، فقال: «لو تأخر الهلال لزدتكم» كالمُنكَل بهم. وأخرجاه في الصحيحين. وكذلك أخرجاه النهى عن الوصال من حديث أنس وابن عمر، وعائشة. فقد ثبت النهى عنه من غير وجه، وثبت أنه من خصائص النبي ﷺ، وأنه كان يقوى على ذلك ويعان، والأظهر أن ذلك الطعام والشراب في حقه إنما كان معنوياً لا حسيّاً، وإلا فلا يكون مواصلاً مع الحسى، وأما من أحبّ أن يُسك بعد غروب الشمس إلى وقت السحر فله ذلك، كما في حديث أبي سعيد الخدري، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تواصلوا، فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر». قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله؟ قال: «إني لست كهيتكم، إني أبيت لي مطعم يطعمني، وساق يسقيني». أخرجاه في الصحيحين أيضاً^(١). وروى الإمام أحمد: عن علي: أن النبي ﷺ كان يواصل من السحر إلى السحر^(٢). وقد روى ابن جرير، عن عبد الله بن الزبير وغيره من السلف، أنهم كانوا يواصلون الأيام المتعددة، وحمله منهم على أنهم كانوا يفعلون ذلك رياضة لأنفسهم، لا أنهم كانوا يفعلونه عبادة. والله أعلم. ويحتمل أنهم كانوا يفهمون من النهى أنه إرشاد، من باب الشفقة، فكان ابن الزبير وابنه عامر ومن سلك سبيلهم يتجشمون ذلك ويفعلونه، لأنهم كانوا يجدون قوة عليه. وقد ذُكر عنهم أنهم كانوا أول ما يفطرون على السمن والصبر لثلاث تتخرق الأمعاء بالطعام أولاً. وقد روى عن ابن الزبير أنه كان يواصل سبعة أيام ويصبح في اليوم السابع أفواهم وأجلدهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾: قال ابن عباس: هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان أو في غير رمضان، فحرم الله عليه أن ينكح النساء ليلاً أو نهاراً حتى يقضى اعتكافه. وهذا هو الأمر المتفق عليه عند العلماء: أن المعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفاً في مسجده، ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بد له منها فلا يحل له أن يتلبث فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك، من قضاء الغائط، أو أكل، وليس له أن يقبل امرأته، ولا يضمها إليه، ولا يشتغل بشيء سوى اعتكافه، ولا يعود المريض، لكن يسأل عنه وهو مار في طريقه. والفقهاء المصنفون يتبعون كتاب الصيام بكتاب الاعتكاف، اقتداء بالقرآن العظيم، فإنه نبه على ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم.

= وقوله: «وأتمو...» هو من لفظ الحديث، لا تلاوة للآية، وهذا ثبت في المخطوطة الأزهرية والمسند والزوائد. وفي المطبوعة «ثم أتموا» - على لفظ التلاوة. وهو تصرف من ناسخ أو طابع.

(١) البخارى (٤ / ١٧٧ فتح)، ورواه أيضاً أحمد في المسند (١١٠٧٠، ١١٨٤٥) ورواه الطبرى (٣٠٣٤)، وقد وهم الحافظ ابن كثير - هنا - وهماً شديداً، إذ نسه للصحيحين، فإنه على اليقين من أفراد البخارى. وقد نص على ذلك الحافظ ابن حجر في الفتح (٢١٧/٤) في آخر كتاب الصيام.

(٢) المسند (١١٩٤) وإسناده ضعيف، لضعف راويه: «عبد الأعلى بن عامر الثعلبي».

وفى ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبه على الاعتكاف فى الصيام، أو فى آخر شهر الصيام، كما ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ: أنه كان يعتكف العشرَ الأواخر من شهر رمضان، حتى توفاه الله، عز وجل. ثم اعتكف أزواجه من بعده. أخرجاه من حديث عائشة أم المؤمنين، وفى الصحيحين أن صفية بنت حبي كانت تزور النبي ﷺ وهو معتكف فى المسجد، فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت لترجع إلى منزلها. وكان ذلك ليلاً - فقام النبي ﷺ ليمشى معها حتى تبلغ دارها، وكان منزلها فى دار أسامة بن زيد فى جانب المدينة، فلما كان ببعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعوا - وفى رواية: تواريا - أى حياء من النبي ﷺ لكون أهله معه، فقال لهما النبي ﷺ: «على رسلكما إنها صفية بنت حبي» أى: لا تسرعوا، واعلما أنها صفية بنت حبي، أى: زوجتى. فقالا: سبحان الله يارسول الله، فقال ﷺ: «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئاً» أو قال: «شراً». قال الشافعى: أراد، عليه السلام، أن يعلم أمته التبرى من التهمة فى محلها، لثلا يقعا فى محذور، وهما كانا أتقى الله أن يظنا بالنبي ﷺ شيئاً. والله أعلم.

ثم المراد بالمباشرة: إنما هو الجماع ودواعيه من تقبيل، ومعانقة ونحو ذلك، فأما معاواة الشيء ونحوه فلا بأس به؛ فقد ثبت فى الصحيحين، عن عائشة، أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يذنى إلى رأسه فأرجله وأنا حائض، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان. قالت عائشة: ولقد كان المريضُ يكون فى البيت فما أسأل عنه إلا وأنا مارة .

وقوله: ﴿تلك حُدُودُ اللَّهِ﴾ أى: هذا الذى بيناه، وفرضناه، وحددناه من الصيام، وأحكامه، وما أبحنا فيه وما حرّمنا، وذكرنا غاياته ورخصه وعزائمه - حدود الله، أى: شرعها الله وبينها بنفسه ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ أى: لا تجاوزوها، وتعتدوها. ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾ أى: كما بين الصيام وأحكامه وشرائعه وتفصيله، كذلك يبين سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى: يعرفون كيف يهتدون، وكيف يطيعون كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩].

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى الْحُكْمِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

قال ابن عباس: هذا فى الرجل يكون عليه مال، وليس عليه فيه بيّنة، فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام، وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه أثم أكل حرام. وكذا روى عن مجاهد، وسعيد بن جبّير، وعكرمة، وغيرهم أنهم قالوا: لا تُخاصم وأنت تعلم أنك ظالم. وقد ورد فى الصحيحين عن أم سلمة: أنّ رسول الله ﷺ قال: «ألا إنما أنا بشر، وإنما يأتينى الخصم فلعل بعضكم أن يكون الخن بحجته من بعض فأقضى له، فمن قضيت له بحق مسلم،

فإنما هي قطعة من نار، فَلْيَحْمِلْهَا، أو لِيَذَرَهَا^(١). فدلَّت هذه الآية الكريمة، وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر، فلا يُحَلَّ في نفس الأمر حراماً هو حرام، ولا يحرم حلالاً هو حلال، وإنما هو ملزم في الظاهر، فإن طابق ما في نفس الأمر فذاك، وإلا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَدُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعلمون بطلان ما تدعون وتروجون في كلامكم. قال قتادة: اعلم - يابن آدم - أن قضاء القاضى لا يُحَلُّ لك حراماً، ولا يُحَقُّ لك باطلاً، وإنما يقضى القاضى بنحو ما يرى ويشهد به الشهود، والقاضى بشر يخطئ ويصيب، واعلموا أن من قُضى له بباطل أن خصومته لم تنقُض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة، فيقضى على المبطل للمحق بأجود مما قضى به للمبطل على المحق في الدنيا.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

ربع

﴿مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾. قال أبو العالية: جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم، وعدة نسائهم، ومحلّ دينهم. وروى عن عطّاء، والضحاك، وقتادة، وغيرهم نحو ذلك. وروى عبد الرزاق، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «جعل الله الأهلة مواقيت للناس. فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فعُدُّوا ثلاثين يوماً». ورواه الحاكم في مستدركه (٢)، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وقوله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾: روى البخارى عن البراء قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأنزل الله ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾. وكذا رواه أبو داود الطيالسى، بنحوه (٣). وعن جابر قال: كانت قريش تدعى الحُمس، وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام، فبينما رسول الله ﷺ في بستان إذ خرج من بابه، وخرج معه قطبة بن عامر الأنصارى، فقالوا: يا رسول الله، إن قطبة ابن عامر رجل تاجر، وإنه خرج معك من الباب. فقال له: «ما حملك على ما صنعت؟» قال: رأيتك فعلته ففعلتُ كما فعلت. فقال: «إني أحمس». قال له: فإن ديني دينك. فأنزل الله ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ

(١) كلمة «فأقصى له» ليست في الأثرية. وهي ثابتة بلفظها أو معناها في روايات هذا الحديث. واللفظ الذى

ساقه ابن كثير هنا أقرب إلى إحدى روايات مسلم (٢/ ٤٠). ولم أجده بالحرف فى سائر الروايات. والحديث فى

البخارى (٧٧/٥، ١٢ / ٢٩٩، ٣٠٠، ١٣٩ / ١٣، ١٥١، ١٥٦، بنحوه). ولعله فى مواضع أخرى منه.

(٢) المستدرک (١ / ٤٢٣) وواقفه الذهبى على تصحيحه.

(٣) البخارى (٨ / ١٣٧) والطيالسى (٧١٧) والطبرى (٣٠٧٥، ٣٠٧٦).

أبوابها». رواه ابن أبي حاتم (١). وكذا روى عن مجاهد، والزهرى، وقتادة، وغيرهم.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أى: اتقوا الله فافعلوا ما أمركم به، واتركوا ما نهاكم عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ غدا إذا وقفت بين يديه، فيجزيكم بأعمالكم على التمام، والكمال.

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمُ وَلَا تَعْدُوا إِيَّائِهِمْ لِيُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿١٩١﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُونَهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقْبِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْتَلُوا فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكٰفِرِينَ ﴿١٩٢﴾ فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٣﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٤﴾

قال أبو العالية فى قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ هذه أول آية نزلت فى القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله، ويكف عمن كف عنه حتى نزلت سورة براءة. وفى هذا نظر؛ لأن قوله: ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ إنما هو تهيج وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام وأهله، أى: كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم، كما قال: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَمَا﴾ [التوبة: ٣٦]؛ ولهذا قال فى هذه الآية: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُونَهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُ﴾ أى: لتكن همتكم منبعثة على قتالهم، كما أن همتهم منبعثة على قتالكم، وعلى إخراجهم من بلادهم التى أخرجوكم منها، قصاصاً.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْدُوا إِيَّائِهِمْ لِيُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أى: قاتلوا فى سبيل الله ولا تعتدوا فى ذلك. ويدخل فى ذلك ارتكاب المناهى - كما قال الحسن البصرى - من المثلة، والغلول، وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأى لهم ولا قتال فيهم، والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة، كما قال ذلك ابن عباس، وعمر بن عبد العزيز، ومقاتل ابن حيان، وغيرهم. ولهذا جاء فى صحيح مسلم، عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اغزوا فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً» (٢). وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيوشه قال: «اخرجوا باسم الله، قاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله، لا تعتدوا ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع». رواه الإمام أحمد (٣). ولأبى داود، عن أنس مرفوعاً، نحوه. وفى الصحيحين عن ابن عمر قال: وجدت امرأة فى بعض مغازى النبى ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل

(١) رواه أيضاً الحاكم فى المستدرک (١ / ٤٨٣) وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى. وذكر الحافظ ابن حجر فى الإصابة (٥ / ٢٤٢) أنه رواه أيضاً ابن خزيمة فى صحيحه.

(٢) هو جزء من حديث طويل فى المسند (٥ / ٣٥٨ حلى)، ومسلم (٢ / ٤٦).

(٣) المسند (٢٧٢٨)، ومجمع الزوائد (٥ / ٣١٦، ٣١٧).

النساء والصبيان. وروى الإمام أحمد: عن حذيفة قال : ضرب لنا رسول الله ﷺ أمثالا: واحداً، وثلاثة، وخمسة، وسبعة، وتسعة، وأحد عشر، فضرب لنا رسول الله ﷺ منها مثلاً وترك سائرهما، قال: «إن قوماً كانوا أهلَ ضَعْفٍ ومِسْكَةٍ، قاتلهم أهلُ تَجَبَّرٍ وعداء، فأظهر الله أهل الضعف عليهم، فعمدوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم فأسخطوا الله عليهم إلى يوم يلقونها». هذا حديث حسن الإسناد (١). ومعناه: أن هؤلاء الضعفاء لما قدروا على الأقوياء، فاعتدوا عليهم واستعملوهم فيما لا يليق بهم، أسخطوا الله عليهم بسبب هذا الاعتداء. والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً.

ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتل الرجال، نبه تعالى على أن ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله والشرك به والصد عن سبيله أبلغ وأشد وأعظم وأطم من القتل؛ ولهذا قال: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾. وقال أبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وغيرهم الشرك أشد من القتل.

وقوله: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ كما جاء في الصحيحين: «إن هذا البلد حرمة الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، ولم يحل لى إلا ساعة من نهار، وإنها ساعتى هذه حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعَصَّدُ شجره، ولا يُخْتَلَى خِلاَه. فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم». يعنى بذلك - صلوات الله وسلامه عليه - قتاله أهلها يوم فتح مكة، فإنه فتحها عنوة، وقتلت رجال به عند الخندمة، وقيل: صلحاً؛ لقوله: «من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن».

وقوله: ﴿حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ يقول تعالى: لا تقاتلوهم عند المسجد الحرام إلا أن يبدؤوكم بالقتال فيه، فلکم حينئذ قتالهم وقتلهم دفعاً للصلوات، كما بايع النبي ﷺ أصحابه يوم الحديبية تحت الشجرة على القتال، لَمَّا تَأَلَّبَتْ عَلَيْهِ بَطُونُ قُرَيْشٍ وَمَنْ وَالَاهُمْ مِنْ ثَقِيفٍ وَالْأَحَابِيْشِ عَامِئِدٌ، ثم كَفَّ اللهُ الْقِتَالَ بَيْنَهُمْ فَقَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤]، وقال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ الْمُؤْمِنِينَ وَالنِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتُصَيِّبُكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةً بَغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥].

(١) المسند (٥/٤٠٧ حلى). وفيه «عدد»، يدل «عداء». وأثبتنا ما في الأزهرية هنا. وقوله «سلطوهم»: هكذا ثبت هذا الحرف. وهو من «السلطة»، وهى القهر. والفعل منه فى المعاجم «سلطه الله - بتشديد اللام - تسلط عليهم». و «السلطة - أيضا - والسلطة، بضم السين واللام»: حدة اللسان وطوله. والفعل منه لازم: «سلط» بضم اللام. فينبغى أن يكون هكذا الحرف هنا «سلطوهم» يفتح اللام. ويكون استعمالا نادراً، من أحد هذين المعنيين: قهروهم، أو استظالوا عليهم بالاستتيم. ولم أجده فى غير هذا الموضع. وهذا تخريجه فيما أرى.

وقوله: ﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى: فإن تركوا القتال فى الحرم، وأنابوا إلى الإسلام والتوبة، فإن الله يغفر ذنوبهم، ولو كانوا قد قتلوا المسلمين فى حرم الله، فإنه تعالى لا يتعاطمه ذنّب أن يغفره لمن تاب منه إليه .

ثم أمر تعالى بقتال الكفّار: ﴿ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أى: شرك. قاله ابن عباس، وغيره. ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ أى: يكون دين الله هو الظاهر على سائر الأديان، كما ثبت فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعري، قال: سئل النبى ﷺ عن الرجل يُقاتل شجاعة، ويقاقل حميةً، ويقاقل رياء، أى ذلك فى سبيل الله؟ فقال: « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله ». وفى الصحيحين: « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله » (١).

وقوله: ﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ يقول: فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك، وقتال المؤمنين، فكفوا عنهم، فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم، ولا عدوان إلا على الظالمين، وهذا معنى قول مجاهد: لا تقاتل إلا من قاتل. أو يكون تقديره؛ فإن انتهوا فقد تحلّصوا من الظلم، وهو الشرك. فلا عدوان عليهم بعد ذلك، والمراد بالعدوان هاهنا المعاقبة والمقاتلة، كقوله: ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾، وقوله: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿ وَإِنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى بِهِ ﴾ [النحل: ١٢٦]. ولهذا قال عكرمة وقتادة: الظالم: الذى أبى أن يقول: لا إله إلا الله. وروى البخارى عن ابن عمر: أنه أتاه رجلان فى فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس [قد صنعوا وأنت ابن عمر وصاحب النبى ﷺ]، فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: يمنعنى أن الله حرم دم أخى! قالوا: ألم يقل الله: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾؟ فقال: قاتلتنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله (٢).

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١٩٤)

قال ابن عباس، وقتادة وغيرهما لما سار رسول الله ﷺ معتمراً فى سنة ست من الهجرة،

(١) من حديث أبى هريرة . ورواه أحمد فى المسند مراراً ، منها : (٨٨٩١ ، ٩٤٦٩) . وقال السيوطى فى الجامع الصغير: « وهو متواتر » .

(٢) البخارى (٨ / ١٣٧ فتح) وقوله : « قد صنعوا » زيادة حرف « قد » من البخارى . و « صنعوا » بفتح الصاد المهملة والنون . وهو الثابت فى المخطوطة الأزهرية . وهو رواية الكشميهنى أحد رواة صحيح البخارى . قال الحافظ : « ويحتاج إلى تقدير شئ محذوف ، أى : صنعوا ما ترى من الاختلاف » . ورواية الأكثر من رواية الصحيح « ضيعوا » : بضم الصاد وتشديد الياء التحتية المكسورة . ومعناها ظاهر . ويريد ابن عمر بذلك قتالهم على الملك . كما فى حديث آخر عنه فى المسند (٥٦٩٠) : قال : ويحك ! أتدرى ما الفتنة؟! إنما كان رسول الله ﷺ يقاتل المشركين ، وكان الدخول فى دينهم فتنة ، وليس بقتالكم على الملك .

وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت، وصدوه بمن معه من المسلمين في ذى القعدة، وهو شهر حرام، حتى قاضاهم على الدخول من قابل، فدخلها في السنة الآتية، هو ومن كان معه من المسلمين، وأقصه الله منهم، فنزلت في ذلك هذه الآية: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾. وروى الإمام أحمد، عن جابر بن عبد الله، قال: لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يغزى أو يُغزوا، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ^(١). وإسناده صحيح؛ ولهذا لما بلغ النبي ﷺ - وهو مُحَيِّمٌ بالحديبية - أن عثمان قتل - وكان قد بعثه في رسالة إلى المشركين - بايع أصحابه، وكانوا ألفاً وأربعمائة تحت الشجرة على قتال المشركين، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل كفاً عن ذلك، وجنح إلى المسالمة والمصالحة، فكان ما كان. وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين وتحصن فلهم بالطائف، عدل إليها، فحاصرها ودخل ذو القعدة وهو محاصرها بالمنجنيق، واستمر عليها إلى كمال أربعين يوماً، كما ثبت في الصحيحين عن أنس. فلما كثرت القتل في أصحابه انصرف عنها ولم تفتح، ثم كر راجعاً إلى مكة واعتمر من الجعرانة، حيث قسم غنائم حنين. وكانت عمرته هذه في ذى القعدة أيضاً عام ثمان، صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾: أمر بالعدل حتى في المشركين: كما قال: ﴿وَأَنْ عَاقِبْتُمْ فَاقْبُوا بِمِثْلِ مَا عُوبِتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]. وقال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾: أمر لهم بطاعة الله وتقواه، وإخباراً بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة.

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

روى البخارى وابن أبى حاتم عن حذيفة أن هذه الآية نزلت في النفقة (٢). وعن أسلم أبى عمران قال: حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرّقه، ومعنا أبو أيوب الأنصارى، فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة. فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية إنما نزلت فينا، صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر، اجتمعنا معشر الأنصار نجياً، فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره، حتى فشا الإسلام وكثر أهله، وكنا قد أثرناه على الأهلين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها، فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما. فنزل فينا: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾. فكانت التهلكة الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد. رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، وعبد بن

(١) المسند (١٤٧٦٧) (٣ / ٣٤٥ حلى).

(٢) الفتح (٨ / ١٣٨). قال الحافظ: «أى فى ترك النفقة فى سبيل الله. وهذا الذى قاله حذيفة، جاء مفسراً فى حديث أبى أيوب». ثم ذكر الحديث الذى نقله ابن كثير هنا بعد هذا. ثم قال: «وصح عن ابن عباس وجماعة من التابعين - نحو ذلك فى تأويل هذه الآية».

حُمَيْد ، وابن أبي حاتم ، وابن جرير ، وابن مَرْدُويه ، أبو يعلى ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم فى مستدركه . وقال الترمذى : حسن صحيح غريب . وقال الحاكم : على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه (١) . وعن أبى إسحاق السَّبَّيى قال : قال رجل للبراء بن عازب : إن حملتُ على العدو وحدى فقتلونى أكنت ألقىتُ بيدى إلى التهلكة؟ قال : لا ، قال الله لرسوله : ﴿ فِقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْلَفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ [النساء : ٨٤] ، إنما هذا فى النفقة . رواه ابن مردويه وأخرجه الحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه . وقال ابن عباس : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ : ليس ذلك فى القتال ، إنما هو فى النفقة : أَنْ تُمْسِكَ بِيَدِكَ عَنِ النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . وَلَا تُلْقُ بِيَدِكَ إِلَى التَّهْلُكَةِ .

ومضمون الآية : الأمرُ بالإنفاق فى سبيلِ الله فى سائر وجوه القُرْبَاتِ ووجوه الطاعات ، وخاصةً صرفَ الأموال فى قتال الأعداء وبذلها فيما يَقْوَى به المسلمون على عدوهم ، والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده . ثم عطف بالأمر بالإحسان ، وهو أعلى مقامات الطاعة ، فقال : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

﴿ وَأَيُّمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أذىٌ مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ صِيَامًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَمَا لَحَجَّ وَسَبَّعَهُ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

لما ذكر تعالى أحكام الصيام وعطفَ بذكر الجهاد ، شرعَ فى بيان المناسك ، فأمرَ بإتمام الحجِّ والعمرة ، وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ ﴾ أى : صُدِّدْتُمْ عن الوصول إلى البيت ومنعتم من إتمامهما . ولهذا اتفق العلماء على أن الشروع فى الحج والعمرة مُلْزِمٌ ، سواء قيل بوجوب العمرة أو باستحبابها ، كما هما قولان للعلماء .

وقال على فى هذه الآية : ﴿ وَأَيُّمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ : أَنْ تُحْرِمَ مِنْ دُوْرَةِ أَهْلِكَ . وكذلك قال ابن عباس ، وسعيد بن جبير . وعن سفيان الثورى أنه قال فى هذه الآية : تمامها أن تحرم من أهلك ، لا تريد إلا الحج والعمرة ، وتَهْلُ من الميقات ليس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة ، حتى إذا كنت قريباً من مكة قلت : لو حججت أو اعتمرت ، وذلك يجزئ ، ولكن التمام أن تخرج له ، ولا تخرج لغيره .

(١) هو فى الطبرى (٣١٧٩ ، ٣١٨٠) وفصلنا تخريجه هناك . ورواية الحاكم فى المستدرک (٢ / ٢٧٥) ، ووافقه الذهبى على تصحيحه . وفى لفظ أبى داود (٢٥١٢) : « فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة : أن نقيم فى أموالنا ونصلحها وتدع الجهاد . قال أبو عمران : فلم يزل أبو أيوب يجاهد فى سبيل الله ، حتى دفن بالقسطنطينية » .

قد ثبت أن رسول الله ﷺ اعتمر أربع عُمَرٍ كُلِّهَا في ذى القعدة: عمرة الحديبية في ذى القعدة سنة ست، وعمرة القضاء في ذى القعدة سنة سبع، وعمرة الجِعْرَانَةِ في ذى القعدة سنة ثمان، وعمرته التي مع حجته أحرم بهما معاً في ذى القعدة سنة عشر، ولا اعتمر قطّ في غير ذلك بعد هجرته، ولكن قال لأم هانئ: «عُمْرَةٌ في رمضان تعدل حجة معي». وما ذاك إلا لأنها كانت قد عزمت على الحج معه، عليه السلام، فاعتاقتُ عن ذلك بسبب الطهر، كما هو مبسوط في الحديث عند البخارى (١). وقد وردت أحاديث كثيرة من طرق متعددة، عن أنس وجماعة من الصحابة: أن رسول الله ﷺ جَمَعَ في إحرامه بحج وعمرة. وثبت عنه في الصحيح أنه قال لأصحابه: «من كان معه هَدْيٌ فليهل بحج وعمرة». وقال في الصحيح أيضاً: «دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة» .

وقوله: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾: ذكروا أن هذه الآية نزلت في سنة ست، أي عام الحديبية، حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ وبين الوصول إلى البيت، وأنزل الله في ذلك سورة الفتح بكمالها، وأنزل لهم رُخْصَةً: أن يذبحوا ما معهم من الهدى وكان سبعين بدنة، وأن يَحْلَلُوا من إحرامهم، فعند ذلك أمرهم عليه السلام بأن يحلقوا رؤوسهم ويتحللوا. فلم يفعلوا انتظاراً للنسخ حتى خرج فحلق رأسه، ففعل الناس وكان منهم من قصّر رأسه ولم يحلقه، فلذلك قال ﷺ: «رَحِمَ اللهُ الْمُحَلِّقِينَ». قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ فقال في الثالثة: «والمقصرين». وقد كانوا اشتركوا في هديهم ذلك، كُلُّ سَبْعَةٍ في بَدَنَةٍ، وكانوا ألفاً وأربعمائة، وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم، وقيل: بل كانوا على طَرْفِ الحرم، فالله أعلم.

ولهذا اختلف العلماء هل يختص الحصر بالعدو، فلا يتحلل إلا من حصره عدو، لا مرض ولا غيره؟ على قولين: فروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، أنه قال: لا حَصْرَ إلا حَصْرُ العدو ، فأما من أصابه مرض أو وجع أو ضلال فليس عليه شيء، إنما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ ، فليس إلا مِنْ حَصْرٍ. قال: وروى عن ابن عمر، وطاوس، والزهرى، وزيد بن أسلم، نحو ذلك. والقول الثاني: أن الحصر أعم من أن يكون بعدوً أو مرض أو ضلال - وهو التَّوَهُانُ عن

(١) سها المؤلف الحافظ رحمه الله ، في ذكر أم هانئ، وفي سبب تأخر المرأة عن الحج . فإن الذى فى صحيح البخارى (٣ / ٤٨٠ ، ٤٨١ فتح) ، من حديث ابن عباس : « لامرأة من الأنصار » نسي ابن جريج اسمها . وكذلك فى المسند (٢٥٠ - ٢٥٠) وصحيح مسلم (١ / ٣٥٧) . وقد سماها حبيب المعلم فى روايته « أم سنان الأنصارية » - كما فى رواية البخارى (٤ / ٦٦ ، ٦٧) ، ومسلم (١ / ٣٥٧ ، ٣٥٨) . وقد ذكر الحافظ ابن حجر فى الفتح ، فى الموضع الأول روايات آخر نحو هذه القصة لנסاء أخريات ، ليس فيهن « أم هانئ » . بل إنى لم أجد ذكراً لأم هانئ فى شأن العمرة فى رمضان . فلم يذرها رواية فى ذلك فى حصر أحاديثها فى ذخائر الموارث . وهو أطراف الكتب الستة والموطأ . ولا فى مجمع الزوائد ، فى « باب العمرة فى رمضان » (٣ / ٢٨٠) .

والسبب فى تأخر « أم سنان » : أنه كان لهم بغيران ، ركب زوجها وابنها أحدهما ، وبقي الآخر للسقى عليه ، فلم تجد ما تركب .

الطريق (١) أو نحو ذلك . وروى الإمام أحمد: عن عكرمة، عن الحجاج بن عمرو الأنصاري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كُسِرَ أو عَرِجَ فقد حل، وعليه حجة أخرى». قال: فذكرت ذلك لابن عباس وأبى هريرة فقالا: صدق. وأخرجه أصحاب الكتب الأربعة وابن أبى حاتم (٢). ثم قال ابن أبى حاتم: وروى عن ابن مسعود، وابن الزبير، وعلقمة، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، أنهم قالوا: الإحصار من عدو، أو مرض، أو كسر. وقال الثوري: الإحصار من كل شيء آذاه. وثبت في الصحيحين عن عائشة: أن رسول الله ﷺ دَخَلَ على ضُبَاعَةَ بنت الزبير بن عبد المطلب، فقالت: يا رسول الله، إنى أريد الحج وأنا شاكية. فقال: «حُجِّي واشترطي: أَنْ مَحَلِّي حَيْثُ حَبَسْتِي». ورواه مسلم عن ابن عباس بمثله. فذهب من ذهب من العلماء إلى صحة الاشتراط في الحج لهذا الحديث. وقد علق الإمام محمد بن إدريس الشافعي القول بصحة هذا المذهب على صحة هذا الحديث. قال البيهقي وغيره من الحفاظ: فقد صح، والله الحمد.

وقوله: «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ»: قال على بن أبى طالب: شاة. وكذا قال عطاء، ومجاهد، وقتادة وغيرهم، وهو مذهب الأئمة الأربعة.

وروى ابن أبى حاتم: عن عائشة وابن عمر: أنهما كانا لا يريان «مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ» إلا من الإبل والبقر. قال: وروى عن سالم، والقاسم، وعروة بن الزبير، وسعيد بن جبيرة - نحو ذلك.

قلت: والظاهر أن مستند هؤلاء فيما ذهبوا إليه قضية الحديدية، فإنه لم يُنْقَلْ عن أحد منهم أنه ذبح في تحلله ذاك شاة، وإنما ذبحوا الإبل والبقر، ففي الصحيحين عن جابر قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بدنة (٣).

وقال ابن عباس: إن كان موسراً فمن الإبل، وإلا فمن البقر، وإلا فمن الغنم. والدليل على صحة قول الجمهور فيما ذهبوا إليه من أجزاء ذبح الشاة في الإحصار: أن الله أوجب ذبح ما استيسر من الهدى، أى: مهما تيسر مما يسمى هدياً، والهدى من بهيمة الأنعام، وهى الإبل والبقر والغنم، كما قاله الحَبْرُ البحر ترجمان القرآن وابن عم رسول الله ﷺ. وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين، قالت: أهدى النبى ﷺ مرةً غنماً .

(١) «التوهان»: بفتح التاء والواو. والفعل: «تاه يتوه ويتيه، توها» بفتح التاء وسكون الواو. وأما الوزن الذى هنا فإنما ذكروه فى البائى: «يها». ولكن ذكر ابن سيدة أن الفعل وإن كان يائياً إلا أن ياءها واو «بدليل قولهم: ما أتوه».

(٢) المسند (١٥٧٩٦) (٣/ ٤٥٠ حلى)، وروى الطبرى أيضاً (٣٣٢١، ٢٣٢٢) والحاكم (١/ ٤٧٠) وصححه هو والذهبي.

(٣) هذا الحديث ليس فى الأزهرية، وهو فى المنتقى (٢٦٨٧)، وقال: «متفق عليه». ووقع فى المطبوعة: «فى بقرة» بدل «فى بدنة» وهو خطأ.

وقوله: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأْتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وليس معطوفاً على قوله: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ كما زعمه ابن جرير، رحمه الله؛ لأن النبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم، حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم، فأما في حال الأمن والوصول إلى الحرم فلا يجوز الحلق ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة، إن كان قارناً، أو من فعل أحدهما إن كان مُفرداً أو متمتعا، كما ثبت في الصحيحين عن حفصة أنها قالت: يا رسول الله، ما شأن الناس حلقوا من العمرة، ولم تحل أنت من عمرتك؟ فقال: «إني لبَدْتُ رَأْسِي وَقَلَّدْتُ هَدْيِي، فلا أحل حتى أنحر».

وقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ﴾: قال البخارى: عن عبد الله بن معقل، قال: فعدت إلى كعب بن عجرة في هذا المسجد - يعنى مسجد الكوفة - فسألته عن ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ﴾؟ فقال: حُمِلْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْقَمَلُ يُتَنَاثَرُ عَلَى وَجْهِهِ. فقال: «ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا، أما تجد شاة؟» قلت: لا. قال: «صُمُّ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعَمَ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، لِكُلِّ مَسْكِينٍ نِصْفَ صَاعٍ مِنْ طَعَامٍ، وَاحْلِقْ رَأْسَكَ». فنزلت في خاصة، وهى لكم عامة (١). وعن ابن عباس فى قوله: ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ﴾، قال: إذا كان «أَوْ» فأيّة أخذت أجزأ عنك. قال ابن أبى حاتم: وروى عن مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وغيرهم نحو ذلك.

قلت: وهو مذهب الأئمة الأربعة وعامة العلماء أنه يُخَيَّرُ فى هذا المقام، إن شاء صام، وإن شاء تصدق بفرق، وهو ثلاثة أصح، لكل مسكين نصف صاع، وهو مُدَان، وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها على الفقراء، أى ذلك فعل أجزأه. ولما كان لفظ القرآن فى بيان الرخصة [جاء] (٢) بالأسهل فالأسهل: ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ﴾. ولَمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ كَعْبَ بْنَ عَجْرَةَ بِذَلِكَ، أَرشده إلى الأفضل، فالأفضل فقال: انسك شاة، أو أطعم ستة مساكين، أو صم ثلاثة أيام. فكلّ حسن فى مقامه. والله الحمد والمنة. وقال طاوس: ما كان من دم أو طعام فبمكة، وما كان من صيام فحيث شاء. وكذا قال مجاهد وعطاء، والحسن. وقال هُشَيْمٌ: أخبرنا حجاج وعبد الملك وغيرهما عن عطاء: أنه كان يقول: ما كان من دم فبمكة، وما كان من طعام وصيام فحيث شاء.

وقوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أى: فإذا تمكثتم من أداء المناسك، فمن كان منكم متمتعا بالعمرة إلى الحج، وهو يشمل من أحرم بهما، أو أحرم بالعمرة أولا، فلما فرغ منها أحرم بالحج وهذا هو التمتع الخاص، وهو المعروف فى كلام

(١) حديث كعب بن عجرة - فى هذا - صحيح ثابت فى الدراوين ، من أوجه كثيرة . وقد رواه الطبرى بشمانية وعشرين إسناداً (٣٣٣٣ - ٣٣٥٩ ، ٣٣٦٤ ، ٣٣٦٥) وقد فصلنا القول فيها هناك .

(٢) كلمة [جاء] زيادة من المخطوطة الأزهرية ، ولا يتم الكلام بدونها .

الفقهاء . والتمتع العام يشمل القسمين ، كما دلت عليه الأحاديثُ الصحاح ، فإنَّ من الرواة من يقول : تمتع رسول الله ﷺ . وآخر يقول : قرَن . ولا خلاف أنه ساق الهدى .

وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ أى : فليذبح ما قدر عليه من الهدى ، وأقله شاة ، وله أن يذبح البقر ؛ لأن رسول الله ﷺ ذبح عن نسائه البقر (١) . وعن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ ذبح بقرة عن نسائه ، وكن متمتعات . رواه أبو بكر بن مردويه (٢) . وفى هذا دليل على مشروعية التمتع ، كما جاء فى الصحيحين عن عمران بن حصين قال : نزلت آية المتعة فى كتاب الله ، وفعلناها مع رسول الله ﷺ . ثم لم ينزل قرآن يُحرّمه ، ولم ينه عنها ، حتى مات . قال رجل برأيه ما شاء . قال البخارى : يقال : إنه عمر . وهذا الذى قاله البخارى قد جاء مصرحاً به أن عمر كان ينهى الناس عن التمتع ، ويقول : إن تأخذ بكتاب الله فإن الله يأمر بالتمام . يعنى قوله : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ . وفى نفس الأمر لم يكن عمر ، ينهى عنها محرماً لها ، إنما كان ينهى عنها ليشكر قصد الناس للبيت حاجين ومعتمرين ، كما قد صرح به .

وقوله : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ : يقول تعالى : فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام فى الحج ، أى : فى أيام المناسك . قال العلماء : والأولى أن يصومها قبل يوم عرفة فى العشر ، قاله عطاء . أو من حين يحرم ، قاله ابن عباس وغيره ، لقوله : ﴿ فِي الْحَجِّ ﴾ ، ومنهم من يجوز صيامها من أول شوال ، قاله طاوس ومجاهد وغير واحد . وجوز الشعبي صيام يوم عرفة وقبلة يومين ، وكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وغيرهم . وقال ابن عباس : إذا لم يجد هدياً فعليه صيام ثلاثة أيام فى الحج قبل يوم عرفة ، فإذا كان يوم عرفة الثالث فقد تم صومه وسبعة إذا رجع إلى أهله . فلو لم يصمها أو بعضها قبل العيد فهل يجوز أن يصومها فى أيام التشريق؟ فيه قولان للعلماء ، وهما للإمام الشافعى أيضاً ، القديم منهما أنه يجوز له صيامها لقول عائشة وابن عمر فى صحيح البخارى : لم يرخص فى أيام التشريق أن يصم إلا لمن لا يجد الهدى . وهو قول على وعكرمة ، والحسن البصرى ، وعروة بن الزبير ؛ وهو قول على والجديد من القولين : أنه لا يجوز صيامها أيام التشريق ، لما رواه مسلم عن نبیسة الهدلى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أيام التشريق أكل وشرب وذكر الله » (٣) .

وقوله : ﴿ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ : فيه قولان : أحدهما : إذا رجعتم إلى رحالكم . ولهذا قال

(١) فى حديث متفق عليه . انظر : المتقى (٢٧٠٢) والفتح (٣ / ٤٣٩ ، ٤٤٠) .

(٢) هو ثابت صحيح عند أبى داود (١٧٥١) وابن ماجه (٣١٣٣) عن أبى هريرة : « ذبح رسول الله ﷺ عن اعتمر من نسائه فى حجة الوداع - بقرة بينهن » . وذكره الحافظ ابن حجر فى الفتح (٣ / ٤٤٠) ونسبه للنسائى ، وصححه الحاكم ، ولم أجده فى النسائى .

(٣) مسلم (١ / ٣١٤) . ورواه أيضا أحمد فى المسند (٥ / ٧٥ حلى) . و « نبیسة » بضم النون وفتح الباء الموحدة والشين المعجمة بينهما ياء تحتية ساكنة . وفى المطبوعة : « قتيبة » ! وهو تصحيف سخيف .

وهذا الحديث عام ، والرخصة فى صومها بحديثى عائشة وابن عمر - فى الرخصة لمن لم يجد الهدى - خاص . والخاص يحكم العام ويخصه .

مجاهد: هي رخصة إذا شاء صامها في الطريق. وكذا قال عطاء. والقول الثاني: إذا رجعتم إلى أوطانكم؛ فروى عبد الرزاق عن ابن عمر قال: إذا رجع إلى أهله. وكذا روى عن سعيد ابن جبير، ومجاهد، وعطاء، وغيرهم. وحكى على ذلك أبو جعفر بن جرير الإجماع. وقد روى البخاري عن ابن عمر قال: تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى فساق معه الهدى من ذى الحليفة، فأهل بالعمرة، ثم أهل بالحج وبدأ رسول الله ﷺ فأهل بالعمرة ثم أهل بالحج، فتمتع الناس مع النبي ﷺ بالعمرة إلى الحج. فكان من الناس من أهدى فساق الهدى، ومنهم من لم يهد. فلما قدم النبي ﷺ مكة قال للناس: «من كان منكم أهدى فإنه لا يحل لشيء حرم منه حتى يقضى حجه، ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت وبالصفا والمروة، وليقتصر وليحلل، ثم ليهل بالحج، فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله». وذكر تمام الحديث. وهو مخرج في الصحيحين.

وقوله: ﴿ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ قيل: تأكيد، كما تقول العرب: رأيت بعيني، وسمعت بأذني، وكتبت بيدي. وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا طَائِرُ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الانعام: ٣٨] وقال: ﴿ وَلَا تَخْطُ بِيَمِينِكَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقال: ﴿ وَوَأَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِئَمَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [الاعراف: ١٤٢]. وقيل: أي: مُجَزَّة عن الهدى.

وقوله: ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾: قال ابن جرير: اختلف أهل التأويل فيمن عني بقوله: ﴿ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ بعد إجماع جميعهم على أن أهل الحرم معنيون به، وأنه لا متعة لهم، فقال بعضهم: عني بذلك أهل الحرم خاصة دون غيرهم. قال ابن عباس: هم أهل الحرم. وقال آخرون: هم أهل الحرم ومن بينه وبين المواقيت. واختار ابن جرير في ذلك مذهب الشافعي أنهم أهل الحرم، ومن كان منه على مسافة لا تقصر فيها الصلاة؛ لأن من كان كذلك يعد حاضراً لا مسافراً، والله أعلم. وقوله: ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي: فيما أمركم وما نهاكم ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أي: لمن خالف أمره، وارتكب ما عنه زجره.

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ حَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَكْوَدُوا فَايَاتِ حَيْرِ الزَّادِ التَّقْوَى وَأَتَّقُوا اللَّهَ يَأْتُوا بِاللَّيْلِ ﴾



اختلف أهل العربية في قوله: ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ﴾ فقال بعضهم: الحج حج أشهر معلومات، فعلى هذا التقدير يكون الإحرام بالحج فيها أكمل من الإحرام به فيما عداها، وإن كان ذلك صحيحاً والقول بصحة الإحرام بالحج في جميع السنة مذهب مالك، وأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وبه يقول إبراهيم النخعي، والثوري، والليث بن سعد. واحتج لهم بقوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٨٩] وبأنه أحد النسكين. فصح الإحرام به في جميع السنة كالعمرة. وذهب الشافعي إلى أنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره، فلو أحرم به قبلها لم ينعقد إحرامه به، وهل ينعقد عمرة؟ فيه

قولان عنه . والقول بأنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره مروى عن ابن عباس، وجابر، وبه يقول عطاء، وطاوس، ومجاهد . والدليل عليه قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾، وظاهره التقدير الآخر الذى ذهب إليه النحاة، وهو: أن وقت الحج أشهر معلّومات، فخصه بها من بين سائر شهور السنة، فدلّ على أنه لا يصح قبلها، كميقات الصلاة. وروى الشافعى، عن ابن عباس، أنه قال: لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في شهور الحج، من أجل قول الله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾. وكذا رواه ابن أبي حاتم، وابن مردويه. وروى ابن خزيمة فى صحيحه عن ابن عباس، قال: لا يحرم بالحج إلا فى أشهر الحج، فإن من سنة الحج أن يحرم بالحج فى أشهر الحج. وإسناده صحيح، وقول الصحابى: «من السنة كذا» فى حكم المرفوع عند الأكثرين، ولا سيما قول ابن عباس تفسيراً للقرآن، وهو ترجمانه.

وقد ورد فيه حديث مرفوع، رواه ابن مردويه: عن جابر، عن النبى ﷺ أنه قال: «لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا فى أشهر الحج». وإسناده لا بأس به. لكن رواه الشافعى، والبيهقى . بمعناه عن جابر موقوفاً ، وهو أصح وأثبت من المرفوع، ويبقى حينئذ مذهب صحابى، يتقوى بقول ابن عباس: «من السنة أن لا يحرم بالحج إلا فى أشهره». والله أعلم.

وقوله: ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾: قال البخارى: قال ابن عمر: هى شوال، وذو القعدة، وعشر من ذى الحجة. وهذا الذى علّقه البخارى بصيغة الجزم رواه ابن جرير موصولاً: بإسناد صحيح، رواه الحاكم أيضاً وقال: على شرط الشيخين . قلت: وهو مروى عن عمر، وعلى، وابن مسعود، وابن الزبير، وابن عباس، وعطاء، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم . وهو مذهب الشافعى، وأبى حنيفة، وأحمد بن حنبل، واختاره ابن جرير، قال: وصح إطلاق الجمع على شهرين وبعض الثالث للتغليب، كما تقول العرب: «رأيتك العام، ورأيتك اليوم». وإنما وقع ذلك فى بعض العام واليوم ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِنْتِمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٠٣] وإنما تعجل فى يوم ونصف. وقال الإمام مالك بن أنس والشافعى فى القديم: هى: شوال وذو القعدة وذو الحجة بكامله. وهو رواية عن ابن عمر أيضاً؛ فروى ابن جرير عن ابن عمر قال: شوال وذو القعدة وذو الحجة. وروى ابن أبي حاتم عن ابن جريج، قال: قلت لنافع: أسمعت عبد الله بن عمر يسمى شهور الحج؟ قال: نعم، كان عبد الله يسمى: «شوال وذو القعدة وذو الحجة». قال ابن جريج: وقال ذلك ابن شهاب، وعطاء، وجابر بن عبد الله صاحب النبى ﷺ، وإسناده صحيح إلى ابن جريج. وقد حكى هذا أيضاً عن طاوس، ومجاهد، وقتادة. وغيرهم. وفائدة مذهب مالك أنه إلى آخر ذى الحجة، بمعنى أنه مختص بالحج، فيكره الاعتمار فى بقية ذى الحجة، لا أنه يصح الحج بعد ليلة النحر. وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله: الحج أشهر معلومات، ليس فيها عمرة. وإسناده صحيح. قال ابن جرير: إنما أراد من ذهب إلى أن أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة - أن هذه الأشهر ليست أشهر العمرة، إنما هى للحج، وإن كان عمل الحج قد انقضى بانقضاء أيام منى، كما قال محمد بن سيرين: ما أحد من أهل العلم

يَشْكُ فِي أَنْ عَمْرَةَ فِي غَيْرِ أَشْهُرِ الْحَجِّ أَفْضَلُ مِنْ عَمْرَةَ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ . قُلْتُ : وَقَدْ ثَبِتَ عَنْ عَمْرٍ وَعِثْمَانَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، أَنَّهُمَا كَانَا يَحْبَانِ الْإِعْتِمَارَ فِي غَيْرِ أَشْهُرِ الْحَجِّ ، وَيُنْهِيَانِ عَنْ ذَلِكَ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وقوله : ﴿ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِِنَّ الْحَجَّ ﴾ أى : أوجب بإحرامه حجاً . فيه دلالة على لزوم الإحرام بالحج والمضى فيه . قال ابن جرير : أجمعوا على أن المراد من الفرض هاهنا الإيجاب والإلزام وقال ابن عباس : ﴿ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِِنَّ الْحَجَّ ﴾ : من أحرم بحج أو عمرة . وقال عطاء : الفرض الإحرام . قال ابن أبي حاتم : وروى عن ابن مسعود ، وابن عباس ، وابن الزبير ، ومجاهد ، وقتادة - نحو ذلك . وقال طاوس ، والقاسم بن محمد : هو التلبية .

وقوله : ﴿ فَلَا رَفَثَ ﴾ أى : من أحرم بالحج أو العمرة ، فليجتنب الرفث ، وهو الجماع ، كما قال تعالى : ﴿ أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ [البقرة : ١٨٧] ، وكذلك يحرم تعاطى دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك ، وكذا التكلم به بحضرة النساء . روى ابن جرير : عن عبد الله ابن عمر قال : الرفث إتيان النساء ، والتكلم بذلك للرجال والنساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم . وروى ابن جرير عن أبي العالية ، عن ابن عباس : أنه كان يحدو - وهو محرم - وهو يقول :

وَهَنَّ يَمْشِينَ بَنَاتُ هَمِيَسَا إِنَّ تَصَدَّقُ الطَّيْرُ نَنِكَ لَمِيَسَا

قال أبو العالية فقلت : تكلم بالرفث وأنت محرم؟! قال : إنما الرفث ما قيل عند النساء .

وروى ابن جرير أيضاً عن حصين بن قيس ، قال : أصعدت مع ابن عباس فى الحاج ، وكنت خليلاً له ، فلما كان بعد إحرامنا قال ابن عباس ، فأخذ بذنب بعيره فجعل يلويه ويرتجز ، ويقول :

وَهَنَّ يَمْشِينَ بَنَاتُ هَمِيَسَا إِنَّ تَصَدَّقُ الطَّيْرُ نَنِكَ لَمِيَسَا

قال : فقلت : أترفت وأنت محرم؟! فقال : إنما الرفث ما قيل عند النساء . وقال عطاء : الرفث : الجماع ، وما دونه من قول الفحش ، وكذا قال عمرو بن دينار . وقال عطاء : كانوا يكرهون العرابة ، وهو التعريض بذكر الجماع وهو محرم (١) . وقال طاوس : هو أن تقول للمرأة : إذا حللت ، أصبتك . وعن ابن عباس : الرفث : غشيان النساء والقبل والغمز ، وأن يعرض لها بالفحش من الكلام ، ونحو ذلك .

وقوله : ﴿ وَلَا فُسُوقَ ﴾ قال ابن عباس : هى المعاصى . وكذا قال عطاء ، ومجاهد ، وسعيد بن جببر وغيرهم . وقال ابن عمر : الفسوق ما أصيب من معاصى الله به صيداً أو غيره . وقال آخرون : الفسوق هاهنا السباب ، روى عن ابن عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير ، ومجاهد ، وغيرهم . وقد يتمسك هؤلاء بما ثبت فى الصحيح : « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر » . ولهذا

(١) « العرابة » - بكسر العين وفتحها مع تخفيف الراء ، و « الإعراب » و « التعريب » و « الإعرابة » - ما قبح من الكلام ، أو التصريح بالهجر من الكلام والفاحش منه .

رواه هاهنا الخبر أبو محمد بن أبي حاتم، عن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: « سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر » (١).

والذين قالوا: الفسوق هاهنا هو جميع المعاصي، الصواب معهم، كما نهى تعالى عن الظلم في الأشهر الحرم، وإن كان في جميع السنة منهيًا عنه، إلا أنه في الأشهر الحرم أكد؛ ولهذا قال: ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرَمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [التوبة: ٣٦]، وقال في الحرم: ﴿ وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج: ٢٥]. واختار ابن جرير أن الفسوق هاهنا: هو ارتكاب ما نهى عنه في الإحرام، من قتل الصيد، ونحو ذلك، وما ذكرناه أولى، والله أعلم. وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ».

وقوله: ﴿ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ فيه قولان:

أحدهما: ولا مجادلة في وقت الحج وفي مناسكه، وقد بينه الله أتم بيان ووضحه أكمل إيضاح. كما قال مجاهد: قد بين الله أشهر الحج، فليس فيه جدال بين الناس. وعن ابن عباس: ﴿ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ قال: المرء في الحج. وقال مالك: الجدال في الحج - والله أعلم - أن قريشاً كانت تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة، وكانت العرب، وغيرهم يقفون بعرفة، وكانوا يتجادلون، يقول هؤلاء: نحن أصوب. ويقول هؤلاء: نحن أصوب. فهذا فيما نرى، والله أعلم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كانوا يقفون مواقف مختلفة يتجادلون، كلهم يدعى أن موقفه موقف إبراهيم، فقطعه الله حين أعلم نبيه بالمناسك. وقال القاسم بن محمد أنه قال: الجدال في الحج أن يقول بعضهم: الحج غداً. ويقول بعضهم: اليوم. وقد اختار ابن جرير مضمون هذه الأقوال، وهو قطع النزاع في مناسك الحج، والله أعلم.

والقول الثاني: أن المراد بالجدال هاهنا: المخاصمة. روى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود قال: أن تمارى صاحبك حتى تغضبه. وكذلك قال ابن عباس. وكذا قال أبو العالية، وعطاء ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة وغيرهم. وقال ابن عمر: الجدال في الحج: السباب والمنازعة. وقال ابن أبي حاتم وعن عكرمة: والجدال الغضب، أن تغضب عليك مسلماً، إلا أن تستعتب مملوكاً فتغضبه من غير أن تضربه، فلا بأس عليك، إن شاء الله.

قلت: ولو ضربه لكان جائزاً سائغاً. والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد: عن أسماء بنت أبي بكر قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ حجاجاً، حتى إذا كنا بالعرج نزل رسول الله ﷺ، فجلست عائشة إلى جنب رسول الله، وجلست إلى جنب أبي. وكانت زمالة أبي بكر

(١) عبد الله: هو ابن مسعود. والحديث رواه أحمد في المسند (٣٦٤٧، ٣٩٠٣، ٣٩٥٧، ٤١٢٦) من حديثه. ورواه أيضاً الجماعة إلا أبا داود.

وزمالة رسول الله ﷺ واحدة مع غلام أبي بكر، فجلس أبو بكر ينتظره إلى أن يطلع عليه، فأطلع وليس معه بعيره، فقال: أين بعيرك؟ فقال: أضلته البارحة. فقال أبو بكر: بعير واحد تُضله؟! فطفق يضربه، ورسول الله ﷺ يتبسم ويقول: «انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع؟!». وهكذا أخرج أبو داود، وابن ماجه (١)، ولكن يستفاد من قول النبي ﷺ عن أبي بكر: «انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع» - كهيئة الإنكار اللطيف - أن الأولى ترك ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ﴾ : لما نهاهم عن إتيان القبيح قولاً وفعلًا، حثهم على فعل الجميل، وأخبرهم أنه عالم به، وسجزيهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة .

وقوله: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ : روى البخارى وأبو داود عن ابن عباس، قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون! فأنزل الله: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ . ورواه عبد بن حميد وابن حبان فى صحيحه (٢). وروى ابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر، قال: كانوا إذا أحرموا - ومعهم أزوادهم - رموا بها، واستأنفوا زاداً آخر؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ فنهوا عن ذلك، وأمرُوا أن يتزودوا الدقيق والسويق والكعك. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والشعبي، والنخعي، وسالم بن عبد الله، وقتادة وغيرهم .

وقوله: ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ : لما أمرهم بالزاد للسفر فى الدنيا أرشدهم إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى إليها، كما قال: ﴿ وَرِيْشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف: ٢٦]. لما ذكر اللباس الحسى تبه مرشداً إلى اللباس المعنوى، وهو الخشوع، والطاعة، والتقوى، وذكر أنه خير من هذا، وأنفع . وروى الحافظ الطبرانى: عن جرير بن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: « من يتزود فى الدنيا ينفعه فى الآخرة » (٣) .

وقوله: ﴿ وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ يقول: واتقوا عقابى، ونكالى، وعذابى لمن خالفنى ولم ياتم بأمرى، يادوى العقول والأفهام.

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَانَكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴾



(١) المسند (٦ / ٣٤٤ حلى) وهو فى أبى داود (٨١٨) عن أحمد بن حنبل . وهو فى ابن ماجه (٢٩٣٣) .
« الزمالة » - بكسر الزاى وتخفيف الميم : الركوب والأداة وما يكون مع المسافر فى سفره . وقوله : « فاطلع » - هكذا ثبت بالهمزة فى أوله فى المخطوطة الأزهرية والمطبوعة . وفى المسند وأبى داود وابن ماجه : « فطلع » . وما هنا صحيح جائز . ففى اللسان : « طلع الرجل على القوم ... وأطلع : هجم » .

(٢) البخارى (٣ / ٣٠٣ ، ٣٠٤) وأبو داود (١٧٣٠) ، ورواه أيضا النسائى ، وابن المنذر ، والبيهقى - كما فى الدرر المشور (١ / ٢٢٠) .

(٣) إسناده - الذى نقله الحافظ ابن كثير عن الطبرانى - إسناده صحيح ، رجاله ثقات .

روى البخارى: عن ابن عباس، قال: كانت عكاظ ومَجَنَّة، وذو المجاز أسواق الجاهلية، فتأتموا أن يتجروا فى المواسم، فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فى مواسم الحج (١).

وهكذا رواه عبد الرزاق، وسعيد بن منصور. وروى أبو داود، وغيره عن ابن عباس، قال: كانوا يتقون البيوع والتجارة فى الموسم، والحج، يقولون: أيام ذكر، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾. وروى ابن جرير: عن ابن عمر أنه سئل عن الرجل يحج ومعه تجارة؟ فقرأ ابن عمر: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

وهذا موقوف، وهو قوى جيد (٢). وقد روى مرفوعاً، فروى أحمد: عن أبى أمامة التيمى، قال: قلت لابن عمر: إنا نكرى، فهل لنا من حج، قال: أليس تطوفون بالبيت، وتأتون المَعْرَفَ، وترمون الحمار، وتحلقون رؤوسكم؟ قال: قلنا: بلى. فقال ابن عمر: جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن الذى سألتنى فلم يجبه، حتى نزل عليه جبريل بهذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾، فدعاه النبى ﷺ، فقال: «أنتم حجاج» [وكذلك رواه ابن أبى حاتم والطبرى، مرفوعاً] (٣). وروى ابن جرير: عن أبى صالح مولى عمر، قال: قلت: يا أمير المؤمنين، كنتم تتجرون فى الحج؟ قال: وهل كانت معاشهم إلا فى الحج؟! (٤).

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ إنما صرَفَ «عرفات» وإن كان علماً على مؤنث؛ لأنه فى الأصل جمع كمسلمات ومؤنات، سُمى به بقعة معينة، فروعى فيه الأصل، فصرف. اختاره ابن جرير. وعرفة: موضع الموقف فى الحج، وهى عمدة أفعال الحج؛ ولهذا روى الإمام أحمد، وأهل السنن، بإسناد صحيح عن عبد الرحمن بن يعمر الديلى، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحج عرفات - ثلاثاً - فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر، فقد أدرك. وأيام منى ثلاثة، فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه» (٥).

ووقت الوقوف من الزوال يومَ عرفة إلى طلوع الفجر الثانى من يوم النحر؛ لأن النبى ﷺ وقف فى حجة الوداع، بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس، وقال: «لتأخذوا عنى مناسككم». وقال فى هذا الحديث: «فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك» وهذا مذهب مالك، وأبى حنيفة، والشافعى رحمهم الله. وذهب الإمام أحمد إلى أن وقت الوقوف

(١) البخارى (٨ / ١٣٩). وفصلنا تخريجه فى الطبرى (٣٧٩١).

(٢) الطبرى (٣٧٧٠).

(٣) المسند (٦٤٣٤، ٦٤٣٥) والطبرى (٣٧٦٥). وقد ساقه ابن كثير من روايتى ابن أبى حاتم والطبرى. وهما بمعنى رواية المسند.

(٤) الطبرى (٣٧٨٨). وإسناده حسن.

(٥) المسند (٤ / ٣٠٩، ٣١٠، ٣٣٥ حلى) وأبو داود (١٩٤٩) والحاكم وصححه (٢ / ٢٧٨). و«عبد الرحمن بن يعمر» بفتح الياء التحتية والميم بينهما عين مهملة ساكنة. و«الديلى»: بكسر الدال.

من أول يوم عرفة. واحتجوا ، عن عروة بن مُضَرَّس بن حارثة بن لام الطائي قال: أتيت رسول الله ﷺ بالمزدلفة، حين خرج إلى الصلاة، فقلت: يا رسول الله، إنى جئت من جبل طي، أكلت راحتي، وأتعبت نفسي، والله ما تركت من جبل (١) إلا وقفت عليه، فهل لى من حج؟ فقال رسول الله ﷺ: «من شهد صلاتنا هذه، فوقف معنا حتى ندفع، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً، فقد تم حجه، وقضى تفته». رواه الإمام أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذى (٢). وتسمى عرفات: المشعر الحلال، والمشعر الأقصى، وإلال - على وزن هلال - ويقال للجبل فى وسطها: جبل الرحمة.

وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس، قال: كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة حتى إذا كانت الشمس على رؤوس الجبال، كأنها العمائم على رؤوس الرجال، دفعوا ، فأخر رسول الله ﷺ الدفعة من عرفة حتى غربت الشمس. ورواه ابن مردويه، وزاد: ثم وقف بالمزدلفة، وصلى الفجر بعكس، حتى إذا أسفر كل شىء، وكان فى الوقت الآخر، دفع. وهذا حسن الإسناد. وعن المسور بن مخرمة قال: خطبنا رسول الله ﷺ، وهو بعرفات، فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: «أما بعد - وكان إذا خطب خطبة قال: أما بعد - فإن هذا اليوم الحج الأكبر، ألا وإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون فى هذا اليوم قبل أن تطلع الشمس، إذا كانت الشمس فى رؤوس الجبال، كأنها عمائم الرجال فى وجوهها، وأنا ندفع بعد أن تطلع الشمس، مخالفاً هدينا هدى أهل الشرك». هكذا رواه ابن مردويه وهذا لفظه، والحاكم . وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وقد صح وثبت بما ذكرناه سماع المسور من رسول الله ﷺ، لا كما يتوهمه رعا أصحابنا أنه ممن له رؤية بلا سماع (٣). وفى حديث جابر بن عبد الله الطويل، الذى فى صحيح مسلم، قال فيه: فلم يزل واقفاً - يعنى بعرفة - حتى غربت الشمس، وبدت الصفرة قليلاً، حتى غاب القرص، وأردف أسامة خلفه، ودفع رسول الله ﷺ وقد شقَّ للقصواء الزمام، حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول بيده اليمنى: «أيها الناس، السكينة السكينة». كلما أتى حبلاً من الجبال أرخت لها قليلاً حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئاً، ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلى الفجر حين تبيّن له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعا الله وكبره وهلله ووحدته، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، فدفع قبل أن

(١) «الجبل» بفتح الحاء المهملة بعدها باء ساكنة: هو الرمل المجتمع الكثير العالى، وجمعه جبال. انظر: اللسان، مادة «جبل» (البار).

(٢) المسند (١٦٢٧٧، ١٦٢٧٨) (٣ / ١٥ حلى) وأبو داود (١٩٥٠)، ورواه أيضاً البخارى فى التاريخ الكبير (٣١/١/٤) فى ترجمة عروة بن مضرس. و «مضرس»: بضم الميم وفتح الضاد المعجمة وتشديد الراء المكسورة.

(٣) المستدرک (٣ / ٥٢٣، ٥٢٤) ووافقه الذهبى على شرط الشيخين. وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٥٥/٣) بنحوه، وقال: «رواه الطبرانى فى الكبير، ورجاله رجال الصحيح».

تَطْلُعُ الشَّمْسُ . وَفِي الصَّحِيحِينَ ، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ، أَنَّهُ سُئِلَ كَيْفَ كَانَ يَسِيرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ دَفَعَ؟ قَالَ: «كَانَ يَسِيرُ الْعَنْقَ، فَإِذَا وَجَدَ فَجْوَةَ نَصٍ». وَالْعَنْقُ: هُوَ انْبِسَاطُ السَّيْرِ، وَالنَّصُّ فَوْقَهُ. وَقَالَ عَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ: سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو عَنِ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ، فَسَكَتَ حَتَّى إِذَا هَبَّتْ أَيْدِي رِوَاحِلِنَا بِالْمَزْدَلِفَةِ قَالَ: أَيْنَ السَّائِلُ عَنِ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ؟ هَذَا الْمَشْعَرُ الْحَرَامُ (١). وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَاقِ: قَالَ ابْنُ عَمْرٍو: الْمَشْعَرُ الْحَرَامُ الْمَزْدَلِفَةُ كُلُّهَا (٢).

قلت: والمشاعر هي المعالم الظاهرة، وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام؛ لأنها داخل الحرم، وهل الوقوف بها ركن في الحج لا يصح إلا به، كما ذهب إليه طائفة من السلف، وبعض أصحاب الشافعي، منهم: الفقَّال، وابن خزيمة، لحديث عروة بن مضر بن مضر؟ أو واجب، كما هو أحد قولَي الشافعي يجبر بدم؟ أو مستحب لا يجب بتركه شيء كما هو القول الآخر؟ في ذلك ثلاثة أقوال للعلماء، لسطها موضع آخر غير هذا، والله أعلم.

وقوله: «وَأَذْكُرُهُ كَمَا هَدَاكُمْ»: تنبيه لهم على ما أنعم به عليهم، من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحج، على ما كان عليه إبراهيم الخليل، عليه السلام؛ ولهذا قال: «وَأَنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ» قيل: من قبل هذا الهدى، وقيل: القرآن، وقيل: الرسول. والكل متقارب، ومتلازم، وصحيح.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

«ثم» - هاهنا - لعطف خبر على خبر وترتيبه عليه، كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات أن يَدْفَعَ إلى المزدلفة، ليعرف الله عند المشعر الحرام، وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات، كما كان جمهور الناس يصنعون، يقفون بها إلا قريشاً، فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم، فيقفون في طرف الحرم عند أدنى الحِل، ويقولون: نحن أهل الله في بلدته، وقُطَّان بيته. روى البخاري عن عائشة قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يُسمَوْنَ الحُمس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات. فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يَأْتِيَ عرفات، ثم يقف بها ثم يَفِيضُ منها، فذلك قوله: «مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ» (٣). وكذا قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم. واختاره ابن جرير، وحكى عليه الإجماع. وروى الإمام أحمد، عن جبير بن مطعم، قال: أضللتُ بعبيراً لى بعرفة، فذهبت أطلبه، فإذا النبي ﷺ واقف، قلت: إن هذا من الحُمس، ما شأنه هاهنا؟ أخرجاه في الصحيحين. ثم روى البخاري

(١) رواه الطبري مطولا (٣٨٠٦، ٣٨٠٧) ونسبه السيوطي في الدر المنثور (١ / ٢٢٤) له، ولوكيع، وسفيان، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والأزرقي في تاريخ مكة، والبيهقي في السنن. وإسناده عند الطبري صحيحان.

(٢) إسناده صحيح جدا، ورواه الطبري (٣٨٠٤) وزاد السيوطي (١ / ٢٢٤) أنه رواه عبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه.

(٣) البخاري (٨ / ١٣٩ فتح) ورواه أيضا مسلم (١ / ٣٤٨) والطبري (٣٨٣١).

عن ابن عباس ما يقتضى أن المراد بالإفاضة هاهنا هي الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمى الجمار. فإله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات؛ ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر ثلاثاً (١). وفي الصحيحين أنه ندب إلى التسييح والتحميد والتكبير، ثلاثاً وثلاثين، ثلاثاً وثلاثين، ثلاثاً وثلاثين. وقد روى ابن جرير هاهنا حديث العباس بن مرداس السلمى فى استغفاره، عليه السلام، لأمتة عشيّة عرفة (٢).

وروى البخارى، عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربى، لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرّ ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علىّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لى، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها فى ليلة فمات فى ليلته دخل الجنة، ومن قالها فى يومه فمات دخل الجنة» (٣). وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو: أن أبا بكر قال: يا رسول الله، علّمنى دعاء أدعوه به فى صلاتى؟ فقال: «قل: اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لى مغفرةً من عندك وارحمنى، إنك أنت الغفور الرحيم» (٤). والأحاديث فى الاستغفار كثيرة.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّكَاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١١) أَوْلَيْكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٢﴾

يأمر تعالى بذكره والإكثار منه بعد قضاء المناسك وفراغها. وقوله: ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾: اختلفوا فى معناه، فقال عطاء: هو كقول الصبى: «أبى أمه»، يعنى: كما يلهج الصبى بذكر أبيه وأمه، فكذلك أنتم، فالهجو بذكر الله بعد قضاء النسك. وقال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يقفون فى الموسم، فيقول الرجل منهم: كان أبى يطعم ويحمل الحمالات. ليس لهم ذكر غير فعّال آبائهم. فأنزل الله على محمد ﷺ: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾. قال ابن أبى حاتم: وروى عن أنس بن مالك، وأبى وائل، وعطاء بن أبى رباح فى أحد قوليه، سعيد بن جبّير، ومجاهد، وغيرهم نحو ذلك. وهكذا حكاه ابن جرير أيضاً عن جماعة، والله

(١) مختصر من حديث فى صحيح مسلم (١ / ١٦٢) من حديث ثوبان .
 (٢) الطبرى (٣٨٤٣) ، ورواه أيضاً عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند (١٦٢٧٦) (٤ / ١٤ ، ١٥ حلى) وابن ماجه (٣٠١٣) ، وفصلنا القول فيه فى تخريجات الطبرى .
 (٣) الفتح (١١ / ٨٣ ، ٨٤) ، ورواه أيضاً أحمد فى المسند (١٧١٧٩) (٤ / ١٢٢ حلى) .
 (٤) الفتح (٢ / ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ١١١ / ١١٢) ، ومسلم (٣١٣ / ٢) ، ومسند أحمد ، رقم (٨ ، ٢٨) .
 ووقع فى المطبوعة : « عبد الله بن عمر » وهو خطأ . صوابه أنه ابن عمرو بن العاص .

أعلم. والمقصود منه الحث على كثرة الذكر لله عز وجل، ولهذا كان انتصاب قوله: ﴿أَوْ أَشَدُّ ذِكْرًا﴾ على التمييز، تقديره: كذاكم آباءكم أو أشد منه ذكراً. و«أو» هاهنا لتحقيق المماثلة في الخبر، كقوله: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله: ﴿يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ (١) إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصفات: ١٤٧]، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩]. فليست هاهنا للشك قطعاً، وإنما هي لتحقيق الخبر عنه بأنه كذلك أو أزيد منه.

ثم إنه تعالى أرشد إلى دُعائه بعد كثرة ذكره، فإنه مظنة الإجابة، وذم من لا يسأله إلا في أمر دنياه، وهو معرض عن أخراه، فقال: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلَقٍ﴾ أي: من نصيب ولا حظ. وتضمن هذا الذم التنفير عن التشبه بمن هو كذلك. قال ابن عباس: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف، فيقولون: اللهم اجعله عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن. لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً، فأنزل الله فيهم: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلَقٍ﴾ وكان يجيء بعدهم آخرون فيقولون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فأنزل الله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ . ولهذا مدح من يسأله للدنيا والأخرى، فقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فجمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا، وصرفت كل شر، فإن الحسنه في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي، من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هين، وثناء جميل، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها مندرجة في الحسنه في الدنيا. وأما الحسنه في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، وأما النجاة من النار فهو يقتضى تيسير أسبابه في الدنيا، من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام.

ولهذا وردت السنة بالترغيب في هذا الدعاء. فروى البخارى: عن أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ رَبَّنَا، آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» . وروى ابن أبي حاتم: عن أبي طالب عبد السلام بن شداد قال: كنت عند أنس بن مالك، فقال له ثابت: إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم. فقال: اللهم آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. وتحدثوا ساعة. حتى إذا أرادوا القيام، قال: يا أبا حمزة، إن إخوانك يريدون القيام فادع الله لهم فقال: تريدون أن أشقِّقَ لكم الأمور، إذا آتاكم الله في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ووقاكم عذاب النار فقد آتاكم الخير كله (٢). وروى أحمد عن أنس، أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد صار مثل الفرخ. فقال له رسول الله ﷺ: «هل تدعو

(١) في المطبوع من «عمدة التفسير» والمخطوطة الأزهرية: «فارسلناه» وهو خطأ. (الباز).

(٢) إسناده صحيح. ورواه البخارى في الأدب المفرد رقم (٦٣٣) مختصراً من وجه آخر، وفي الدر المنثور

(١/٢٣٣) أنه رواه أيضاً ابن أبي شيبة.

الله بشيء أو تسأله إياه؟» قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لى في الدنيا. فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله! لا تطيقه - أو لا تستطيعه - فهلا قلت: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾». قال: فدعا الله، فشفاه . انفراد بإخراجه مسلم (١).

وروى الإمام الشافعى عن عبد الله بن السائب: أنه سمع النبي ﷺ يقول فيما بين الركن اليمانى والركن الأسود: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. وروى الإمام الشافعى عن عبد الله بن السائب: أنه سمع النبي ﷺ يقول فيما بين الركن اليمانى والركن الأسود: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٢). وروى الحاكم عن سعيد بن جبيرة قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: إنى أجرت نفسى من قوم على أن يحملونى، ووضعت لهم من أجرتى على أن يدعونى أحج معهم، أفيجزى ذلك؟ فقال: أنت من الذين قال الله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه (٣).

﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (١٠٢)

ربع

قال ابن عباس: «الأيام المعدودات» أيام التشريق، و«الأيام المعلومات» أيام العشر. وقال عكرمة: ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ يعني: التكبير أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات: الله أكبر، الله أكبر. وروى الإمام أحمد: عن عقبه بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام، وهى أيام أكل وشرب» (٤). وروى أحمد أيضاً: عن نبيشة الهذلى قال: قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله». ورواه مسلم أيضاً (٥)، وتقدم حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلى: «وأيام منى ثلاثة، فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه» (٦). وروى ابن جرير: عن أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «أيام التشريق أيام طعم وذكر» (٧). وروى أيضاً عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن حذافة يظوف فى منى: «لا تصوموا هذه الأيام، فإنها أيام أكل وشرب، وذكر الله، عز وجل» (٨). وعن عائشة قالت: نهى رسول الله ﷺ عن

(١) المسند (١٢٠٧٤) (٣ / ١٠٧ حلى) ومسلم (٣٠٩ / ٢) ورواه أيضا الطبرى (٣٨٧٧).

(٢) إسناده صحيح، ورواه أيضا أبو داود والنسائى، ورواه الحاكم (٢٧٧ / ٢) وصححه، ووافقه الذهبى.

(٣) المستدرک (٢ / ٢٧٧، ٢٧٨) ووافقه الذهبى.

(٤) المسند (١٧٤٥١، ١٧٤٥٥) (٤ / ١٥٢ حلى)، وفى الملبوعة زيادة فى آخره: «وذكر الله»، وليست فى

الأزهريه ولا فى المسند. ورواه أيضا أبو داود (٢٤١٩) ورواه الترمذى وصححه النسائى، كما فى المنذرى.

(٥) مضى عند الآية (١٩٦).

(٦) مضى عند الآية (١٩٨).

(٧) الطبرى (٣٩١١) ورواه أحمد (٧١٣٤، ٩٠٠٨) وخرجهما، وإسناده صحيح.

(٨) الطبرى (٣٩١٢) والمسند (١٠٦٧٤، ١٠٩٣٠) وإسناده صحيح.

صوم أيام التشريق، قال: «هي أيام أكل وشرب وذكر الله» (١). وقال ابن عباس: الأيام المعدودات: أيام التشريق، أربعة أيام: يوم النحر، وثلاثة بعده. وروى عن ابن عمر، وابن الزبير، وأبي موسى، ومجاهد، وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم - مثل ذلك. وقال علي بن أبي طالب: هي ثلاثة، يوم النحر ويومان بعده، اذبح في أيهن شئت، وأفضلها أولها. والقول الأول هو المشهور وعليه دل ظاهر الآية الكريمة، حيث قال: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فدل على ثلاثة بعد النحر.

ولما ذكر الله تعالى النَّفْرَ الأول والثاني، وهو تفرق الناس من موسم الحج إلى سائر الأقاليم والآفاق بعد اجتماعهم في المشاعر والمواقف، قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٩] (٢).

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ
وَهُوَ الَّذِي الْأَخْصَابُ ﴿١٠٤﴾ وَإِذَا قَوْلَىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ
وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿١٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ
فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمُهَادُ ﴿١٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ
مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٠٧﴾﴾

قال السدي: نزلت في الأحنس بن شريق الثقفي، جاء إلى رسول الله ﷺ، وأظهر الإسلام وفي باطنه خلاف ذلك (٣). وعن ابن عباس: أنها نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في خييب وأصحابه الذين قتلوا بالرَّجِيع وعابوهم (٤). وقيل: بل ذلك عام في المنافقين كلهم وفي المؤمنين كلهم. وهذا قول قتادة، ومجاهد، والرَّبِيع بن أنس، وغير واحد، وهو الصحيح.

وأما قوله: ﴿وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾: فقرأه ابن محيَّصن: «وَيُشْهَدُ اللَّهُ» بفتح الباء، وضم الجلالة ﴿عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾ ومعناها: أن هذا وإن أظهر لكم الحيل، لكن الله يعلم من قلبه القبيح، كقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]. وقراءة الجمهور بضم الباء، ونصب الجلالة ﴿وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾ ومعناه: أنه يُظْهِرُ للناس الإسلام ويبارزُ الله بما في قلبه من الكفر والنفاق، كقوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ الآية [النساء: ١٠٨] هذا معنى ما رواه ابن إسحاق، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس. وقيل: معناه أنه إذا أظهر للناس الإسلام حَلَفَ وأشهد الله لهم: أن الذي في قلبه موافق للسان. وهذا المعنى صحيح، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير، وعزاه إلى ابن عباس، وحكاه عن مجاهد، والله أعلم.

(١) رواه الطبري أيضا (٣٩١٣) وإسناده صحيح .

(٢) هذه الجملة ، من أول قوله : « ولما ذكر الله » ليست في المخطوطة الأزهرية .

(٣) الطبري (٣٩٦١) .
(٤) الطبري (٣٩٦٢ ، ٣٩٦٣) .

وقوله: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾: الألد في اللغة: الأعوج ﴿وَتَنْذِرِيهِ قَوْمًا لَدًّا﴾ [مریم: ٩٧] أى: عوجاً. وهكذا المناق في حال خصومته، يكذب، ويَزور عن الحق ولا يستقيم معه، بل يفترى ويفجر، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» (١). وروى البخارى، عن عائشة ترفعه قال: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم».

وقوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ أى: هو أعوج المقال، سيئ الفعل، فذلك قوله، وهذا فعله: كلامه كذب، واعتقاده فاسد، وأفعاله قبيحة. والسعى هاهنا هو: القصد. كما قال إخباراً عن فرعون: ﴿ثُمَّ أَتْبَرَ يَسْعَى . فَحَشَرَ فَنَادَى . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى . فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢٢-٢٦]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩] أى: اقصدا واعمدوا وناوين بذلك صلاة الجمعة، فإن السعى الحسى إلى الصلاة منهى عنه بالسنة النبوية: «إذا أتيت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وعليكم السكينة والوقار» (٢). فهذا المناق ليس له همة إلا الفساد فى الأرض، وإهلاك الحرث، وهو: محل نماء الزروع والثمار والنسل، وهو: نتاج الحيوانات للذين لا قوام للناس إلا بهما. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ أى: لا يحب من هذه صفته، ولا من يصدر منه ذلك.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ أى: إذا وعظ هذا الفاجر فى مقاله وفعله، وقيل له: اتق الله، وانزع عن قولك وفعلك، وارجع إلى الحق امتنع وأبى، وأخذته الحمية والغضب بالإثم، أى: بسبب ما اشتمل عليه من الآثام، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَلَّوْا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْمُوتُونَ بِالَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْنَا آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كَبُرْتُمْ مِنَ ذَلِكَ النَّارِ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيُبْسُ الْمُصِيرِ﴾ [الحج: ٧٢]؛ ولهذا قال فى هذه الآية: ﴿فَعَسَىٰ جَهَنَّمَ وَلِيْسَ الْمِهَادِ﴾ أى: هى كافيته عقوبة فى ذلك.

وقوله: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مِنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ - لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة، ذكر صفات المؤمنين الحميدة، فقال: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مِنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾. قال ابن عباس، وأنس، وسعيد بن المسيب، وجماعة: نزلت فى صهيب بن سنان الرومى، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بماله، وإن أحب أن يتجرّد منه ويهاجر، فعّل. فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة. فقالوا له: ربح البيع. فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبروه

(١) هو بالمعنى . ولفظ مسلم (٣٢/١) : «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا» . إلخ ، من حديث عبد الله بن عمرو . وكذلك هو فى البخارى (١ / ٨٤ فتح) ، والمسند (٦٧٦٨ ، ٦٨٦٤) .

(٢) فى صحيح مسلم (١ / ١٦٧) بنحوه ، من حديث أبى هريرة .

أن الله أنزل فيه هذه الآية . ويروى أن رسول الله ﷺ قال له : « ربح البيع صهيب ، ربح البيع صهيب » (١) . وروى ابن مردويه : عن أبي عثمان النهدي ، عن صهيب قال : لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي ﷺ قالت لى قريش : يا صهيب ، قدمت إلينا ولا مال لك ، وتخرج أنت ومالك؟ والله لا يكون ذلك أبداً! . فقلت لهم : رأيتم إن دفعتُ إليكم مالى تُخلُّون عني؟ قالوا : نعم . فدفعتُ إليهم مالى ، فخلُّوا عني ، فخرجت حتى قدمت المدينة . فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « ربح صهيب ، ربح صهيب » مرتين (٢) .

وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل الله ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة : ١١١] . ولما حمل هشام بن عامر بين الصنفين ، أنكر عليه بعض الناس ، فرد عليهم عمر ابن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما ، وتلوا هذه الآية : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ .

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْهُ بَعْدَ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين به المصدقين برسوله : أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه ، والعمل بجميع أوامره ، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وطاوس ، « ادخلوا في السلم » يعني : الإسلام . وقال قتادة : المودعة . وقوله : « كآفَّة » : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقاتدة : جميعاً ، وقال مجاهد : أى اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر . ومن المفسرين من يجعل قوله : « كآفَّة » حالاً من الداخلين ، أى : ادخلوا في الإسلام كلكم . والصحيح الأول ، وهو أنهم أمروا كلهم أن يعملوا بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام ، وهى كثيرة جداً ما استطاعوا منها (٣) . كما روى : ابن أبى حاتم : عن ابن عباس : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كآفَّة » - كذا قرأها بالنصب - يعنى مؤمنى أهل الكتاب ، فإنهم كانوا مع الإيمان بالله مستمسكين ببعض أمر التوراة والشرائع التى أنزلت فيهم ، فقال الله : « ادخلوا في السلم كآفَّة » ، يقول : ادخلوا فى شرائع دين محمد ﷺ ولا تدعوا منها شيئاً ، وحسبكم بالإيمان

(١) فى المستدرک (٣ / ٣٩٨) من حديث أنس نحو القصة ، ونزول الآية : « فلما رآه النبي ﷺ قال : « أبا يحيى ، ربح البيع » ، قال : وتلا عليه الآية » ثم قال الحاکم : « صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه » .
(٢) رواه ابن سعد فى الطبقات (٣ / ١ / ١٦٢) عن أبى عثمان النهدي قال : « بلغنى أن صهيباً . . . الخ » ، فذكر نحوه .

(٣) هذا هو الصحيح : أن الله سبحانه وتعالى أمر كل المؤمنين بالله « بالدخول فى العمل بشرائع الإسلام كلها » سواء من آمن من العرب وغيرهم ، ومن آمن من أهل الكتاب . كلهم مؤمنون ، وكلهم مأمور أن يعمل بجميع شرائع الإسلام . وهو الذى رجحه الطبرى أيضا (٤ / ٢٥٦ ، ٢٥٧) .

بالتوراة وما فيها (١).

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أى: اعملوا الطاعات ، واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩]، و﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

وقوله: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أى: عدلتم عن الحق بعد ما قامت عليكم الحجج، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أى: فى انتقامه، لا يفوته هارب، ولا يغلبه غالب. ﴿حَكِيمٌ﴾ فى أحكامه ونقضه وإبرامه.

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾

يقول تعالى مهذّباً للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ يعنى: يوم القيامة، لفصل القضاء بين الأولين والآخرين، فيجزى كلّ عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؛ ولهذا قال: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا . وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا . وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانَ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: ٢١ - ٢٣]، وقال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الآية [الانعام: ١٥٨]. وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير هاهنا حديث الصور بطوله من أوله، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ. وهو حديث مشهور ساقه غير واحد من أصحاب المسانيد وغيرهم (٢).

﴿ سَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَاتِنَا بَيْنَهُ وَمَنْ يَبْدَلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

﴿ زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَسَخَّرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(١) هذا الخبر نقله أيضا السيوطى (١ / ٢٤١) ولم ينسبه لغير ابن أبى حاتم . وإسناده ضعيف جداً ، فيه « محمد ابن عون الخراسانى » . وهو منكر الحديث ، كما قال البخارى . ومعناه صحيح - كما هو واضح . ولكن النكارة فيه فى النص على أن ابن عباس « كذا قرأها بالنصب » ! مما يوهم أن فيها قراءة أخرى . ولم أجد فيها قراءة غير النصب ، ولا فى القراءات الشاذة .

(٢) هو فى الطبرى (٣٩٠ - ٤٠٠) وهو حديث ضعيف جداً ، فى إسناده « إسماعيل بن رافع المدينى القاص » ، قال ابن معين : « ليس بشيء » وقال أبو حاتم : « هو منكر الحديث » . ثم قد رواه من طريق « رجل من الأنصار ، عن محمد بن كعب القرظى » . والراوى المبهم لا تقوم به حجة . وقد ذكر الحافظ ابن كثير هنا قطعة من هذا الحديث ، فحذفناها ، على شرطنا .

ونحن على النهج الصحيح ، الذى كان عليه السلف الصالح : تؤمن بما ورد فى الصفات كما ورد ، من غير تشبيه ولا تمثيل ، ولا خروج عن معنى الكلام بالتأويل .

يقول تعالى - مُخْبِراً عن بنى إسرائيل: كم قد شاهدوا مع موسى ﴿مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ أى: حجة قاطعة على صدقه فيما جاءهم به، كيده وعصاه وقلقه البحر وضربه الحجر، وما كان من تظليل الغمام عليهم فى شدة الحر، ومن إنزال المُنّ والسلوى وغير ذلك من الآيات الدالات على وجود الفاعل المختار، وصدق من جرت هذه الخوارق على يديه، ومع هذا أعرض كثير منهم عنها، وبدلوا نعمة الله كفراً، أى: استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها، والإعراض عنها. ﴿وَمَنْ يُدَلِّ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، كما قال إخباراً عن كفار قريش: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَمْسُ الْقُرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رَضُوا بها واطمأنوا إليها، وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التى أمروا بها بما يُرِضِي الله عنهم، وسخروا من الذين آمنوا الذين أعرضوا عنها، وأنفقوا ما حصل لهم منها فى طاعة ربهم، وبدلوا ابتغاء وجه الله؛ فلهذا فازوا بالمقام الأسعد والحظ الأوفر يوم معادهم، فكانوا فوق أولئك فى محشرهم ومنشرهم، ومسيرهم ومآواهم، فاستقروا فى الدرجات فى أعلى عليين، وخلد أولئك فى الدركات فى أسفل السفالين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى: يرزق من يشاء من خلقه، ويعطيه عطاء كثيراً جزيلاً بلا حصر ولا تعداد فى الدنيا والآخرة، كما جاء فى الحديث: «ابن آدم، أنفق أنفق عليك» (١)، وقال النبى ﷺ: «أنفق بلال ولا تخش من ذى العرش إقلاقاً» (٢). وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبا: ٣٩]، وفى الصحيح أن ملكين ينزلان من السماء صبيحة كل يوم، فيقول أحدهما: «اللهم أعط منفقاً خلفاً». ويقول الآخر: اللهم أعط مُسْكِناً تلفاً» (٣). وفى الصحيح: «يقول ابن آدم: مالى، مالى! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، وما لبست فألبيت، وما تصدقت فأمضيت؟ وما سوى ذلك فذاهب وتاركة

(١) هو حديث قدسى: «يقول الله عز وجل: يابن آدم» - رواه أحمد فى المسند (٧٢٩٦) من حديث أبى هريرة .
ورواه الشيخان ، ما فصلنا هناك .

(٢) ورد هذا اللفظ ضمن أحاديث فرواه الطبرانى والبخارى والبيهقى ، وفى إسنادهما ضعف . ورواه البزار وأبو يعلى والطبرانى فى الكبير والأوسط ، من حديث أبى هريرة ، «وإسناده حسن» . قاله الهيثمى فى الزوائد (١٠ / ٢٤١) . وكذلك ذكر المنذرى فى الترغيب (٢ / ٤٠) حديث أبى هريرة «بإسناد حسن» ، ورواه أيضا البزار والطبرانى فى الكبير ، من حديث ابن مسعود ، «بإسناد حسن» كما فى الترغيب . وخرجه العجلونى فى كشف الخفا (١ / ٢١٠ ، ٢١١) بتوسع . ووقع فى المطبوعة هنا «أنفق بلالا» ! نصب «بلال» . ولكنه فى المخطوطة الأزهرية وسائر الروايات التى أشرنا إليها «بلال» بالبناء على الضم . وفى كشف الخفا أن السيوطى - حاول فى الأشباه والنظائر توجيهه «بأنه من الإتياع ، وإن كان منادى مفرداً علماً» - إلخ . وقال السيوطى فى همع الهوامع (٢ / ١٥٨) فى جواز الضرورة فى النثر للتناسب والسجع - قال : «وقوله فيما رواه البزار فى مسنده وغيره : «أنفق بلالا ، ولا تخش من ذى العرش إقلاقاً» ، نون المنادى المعرفة ونصبه لمناسبة «إقلاقاً» . ووجه ، لو صحت الرواية بالنصب .

(٣) رواه البخارى (٤ / ٢٤١ فتح) ومسلم (١ / ٢٧٧) - من حديث أبى هريرة . ورواه أحمد من وجه آخر (٨٠٤٠) بنحوه . وانظر : مجمع الزوائد (١٠ / ٢٨) والترغيب (٢ / ٣٨) .

للناس» (١). وفي مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له» (٢).

﴿ كَانِ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

روى ابن جرير: عن ابن عباس، قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلَفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين. قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله: «كان الناس أمة واحدة فاختلَفوا». ورواه الحاكم وقال: صحيح ولم يخرجاه (٣). وقال العوفي، عن ابن عباس: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً» يقول: كانوا كفاراً. والقول الأول عن ابن عباس أصح سنداً ومعنى؛ لأن الناس كانوا على ملة آدم، حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. ولهذا قال: ﴿ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أى: من بعد ما قامت عليهم الحجج وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض، ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾. وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة في قوله: ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ﴾ الآية قال: قال النبي ﷺ: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة نحن أول الناس دخولا الجنة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتينا من بعدهم، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالتاس لنا فيه تبع، فعداً لليهود، وبعد غد للنصارى» (٤). وقال زيد بن أسلم، فاختلَفوا في يوم الجمعة، فاتخذ اليهود يوم السبت، والنصارى يوم الأحد. فهدى الله أمة محمد

(١) رواه مسلم (٢ / ٢٨٣ ، ٣٨٤) من حديث عبد الله بن الشخير . وكذلك رواه الترمذى والنسائى ، وروى مسلم أيضا عقبه نحوه بمعناه ، من حديث أبي هريرة .

(٢) رواه أحمد فى المسند (٦ / ٧١ حلى) من حديث عائشة ، بحذف قوله : « ومال من لا مال له » . وذكره المنذرى فى الترغيب (٤ / ١٠٤) ، وذكر رواية أحمد ، وأن هذه الزيادة عند البيهقى . وقال : « وإسنادهما جيد » . وذكر الهيثمى فى الزوائد (١٠ / ٢٨٨) رواية المسند ، وقال : « ورجاله رجال الصحيح ، غير دويد ، وهو ثقة » .

(٣) الطبرى (٤٠٤٨) والحاكم (٢ / ٥٤٦ ، ٥٤٧) وصححه على شرط البخارى ، ووافقه الذهبى . وقراءة ابن مسعود : « فاختلَفوا » - لا نراها مقصودا بها التلاوة ، إنما هى - فيما نرى والله أعلم - على سبيل التفسير والبيان .

(٤) تفسير عبد الرزاق ، ص ٢٣ . ورواه أحمد فى المسند (٧٦٩٢) عن عبد الرزاق ، دون ذكر الآية فى أوله . وكذلك رواه الشيخان وغيرهما ، ورواه الطبرى (٤٠٦٠) من طريق عبد الرزاق .

ﷺ ليوم الجمعة. واختلفوا في القبلة؛ فاستقبلت النصارى المشرق، واليهود بيت المقدس، فهدى الله أمة محمد للقبلة. واختلفوا في الصلاة؛ فمنهم من يركع ولا يسجد، ومنهم من يسجد ولا يركع، ومنهم من يصلى وهو يتكلم، ومنهم من يصلى وهو يمشى، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا في الصيام، فمنهم من يصوم بعض النهار، ومنهم من يصوم عن بعض الطعام، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا في إبراهيم، عليه السلام، فقالت اليهود: كان يهودياً، وقالت النصارى: كان نصرانياً، وجعله الله حنيفاً مسلماً، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا في عيسى، عليه السلام، فكذّبت به اليهود، وقالوا لأمه بهتاناً عظيماً، وجعلته النصارى إلهاً وولداً، وجعله الله روحه، وكلمته، فهدى الله أمة محمد ﷺ للحق من ذلك.

وقوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أى: بعلمه، بما هداهم له: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أى: من خلقه ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أى: وله الحكم والحجة البالغة. وفى صحيح البخارى ومسلم عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلى يقول: «اللهم، رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم» (١). وفى الدعاء الماثور: اللهم، أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، ووفقنا لاجتنابه، ولا تجعله ملتبساً علينا فنضل، واجعلنا للمتقين إماماً.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتُمُ الْبِأَسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَرَزِلْوْا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾

يقول تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ قبل أن تُبْتَلُوا وتختبروا وتمتحنوا، كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتُمُ الْبِأَسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ وهى: الأمراض؛ والأسقام، والآلام، والمصائب والنوائب. ﴿ وَرَزِلْوْا ﴾ خوفاً من الأعداء زلزلاً شديداً، وامتحنوا امتحاناً عظيماً، كما جاء فى الحديث الصحيح عن خباب بن الارت قال: قلنا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ فقال: «إِنْ مِنْ كَانَ قَبْلِكُمْ كَانَ أَحَدُهُمْ يُوَضِّعُ الْمَنْشَارَ عَلَى مَفْرَقِ رَأْسِهِ فَيُخَلِّصُ إِلَى قَدَمِيهِ، لَا يُصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا بَيْنَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، لَا يُصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ». ثم قال: «والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون» (٢).

(١) هكذا ثبت فى المطبوعة نسبة للبخارى ومسلم. والذى فى المخطوطة نسبت للبخارى فقط، وهو سهو من الحافظ ابن كثير رحمه الله. وقد مضى الحديث عند تفسير الآيتين (٩٧، ٩٨) دون عزو. وخرجناه هنا من صحيح مسلم (١ / ٢١٥)، والبخارى لم يروه، على اليقين.

(٢) رواه البخارى - دون مسلم - (٤٥٦ / ٦، ١٢٦ / ٧، ١٢ / ٢٨١ فتح)، وأحمد فى المسند (١٠٩ / ٥ - ١١١، ٦ / ٣٩٥ حلى)، وأبو داود (٢٦٤٩).

وقال الله تعالى : ﴿ اَلَمْ . اَحْسَبَ النَّاسُ اَنْ يَتْرَكُوا اَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِيْنَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِيْنَ ﴾ [العنكبوت: ١ - ٣]. وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابه، رضى الله عنهم، فى يوم الاحزاب، كما قال الله تعالى : ﴿ اِذْ جَاؤَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ اَسْفَلِ مِنْكُمْ وَادَّاعَتْ الْاَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوْبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللّٰهِ الظُّنُوْنَ . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُوْنَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيْدًا . وَاِذْ يَقُوْلُ الْمُنٰفِقُوْنَ وَالَّذِيْنَ فِيْ قُلُوْبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُوْلُهٗ اِلَّا غُرُوْرًا ﴾ [الاحزاب: ١٠ - ١٢]. ولما سأل هرقلُ ابا سفيان: هل قاتلتموه؟ قال: نعم. قال: فكيف كانت الحرب بينكم؟ قال: سجالا، يدال علينا ونُدال عليه. قال: كذلك الرسل تبتلى، ثم تكون لها العاقبة (١).

وقوله : ﴿ مِثْلُ الَّذِيْنَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أى: سنتهم. كما قال تعالى : ﴿ فَاَهْلَكْنَا اَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضٰى مِثْلُ الْاَوَّلِيْنَ ﴾ [الزخرف: ٨].

وقوله : ﴿ وَزُلْزِلُوْا حَتّٰى يَقُوْلَ الرَّسُوْلُ وَالَّذِيْنَ اٰمَنُوْا مَعَهُ مَتٰى نَصَرَ اللهُ ﴾ أى: يستفتحون على أعدائهم، ويدعون بقرب الفرج والمخرج، عند ضيق الحال والشدة. قال الله تعالى : ﴿ اَلَا اِنْ نَصَرَ اللهُ قَرِيْبًا ﴾ كما قال : ﴿ اِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . اِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥ ، ٦]. وكما تكون الشدة ينزل من النصر مثلها؛ ولهذا قال : ﴿ اَلَا اِنْ نَصَرَ اللهُ قَرِيْبًا ﴾.

﴿ يَسْئَلُوْنَكَ مَاذَا يُنْفِقُوْنَ قُلْ مَا اَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلّٰوَالِدِيْنَ وَالْاَقْرَبِيْنَ وَالاَيْتَمٰى وَالْمَسْكِيْنَ وَابْنِ السَّبِيْلِ وَمَا تَفَعَّلُوْا مِنْ خَيْرٍ فَاِنَّ اللهَ بِهٖم عَلِيْمٌ ﴾

قال مقاتل : هذه الآية فى نفقة التطوع . ومعنى الآية: يسألونك كيف ينفقون؟ قاله ابن عباس ومجاهد، فبين لهم تعالى ذلك، فقال: ﴿ قُلْ مَا اَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلّٰوَالِدِيْنَ وَالْاَقْرَبِيْنَ وَالاَيْتَمٰى وَالْمَسْكِيْنَ وَابْنِ السَّبِيْلِ ﴾ أى: اصرفوها فى هذه الوجوه. كما جاء فى الحديث: «أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أذنك أذنك» (٢). وتلا ميمون بن مهران هذه الآية، ثم قال: هذه مواضع النفقة ما ذكر فيها طبلا ولا مزماراً، ولا تصاوير الخشب، ولا كسوة الحيطان.

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَا تَفَعَّلُوْا مِنْ خَيْرٍ فَاِنَّ اللهَ بِهٖ عَلِيْمٌ ﴾ أى: مهما صدرَ منكم من فعل معروف، فإن الله يعلمه، وسيجزىكم على ذلك أوفر الجزاء؛ فإنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة.

﴿ كَتَبَ عَلَیْكُمْ الْقِتَالَ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسٰى اَنْ تَكْرَهُوْا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسٰى اَنْ تُحِبُّوْا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّٰهُ يَعْلَمُ وَاَنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ ﴾

هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين: أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام.

(١) اقتباس من حديث طويل، رواه البخارى (١ / ٣٠ - ٤١ فتح) من حديث أبى سفيان بن حرب .
 (٢) هو جزء من حديث رواه أحمد فى المسند (٧١٠٥) من حديث أبى رمثة . ورواه أيضا (١٦٦٨٧) عند أبى الشعثاء سليم بن أسود عن رجل من بنى يربوع .

وقال الزهري: الجهاد واجب على كل أحد، غزا أو قعد؛ فالقاعد عليه إذا استعين أن يعين، وإذا استغيث أن يُغيث، وإذا استنفر أن ينفر، وإن لم يُحتج إليه قعد. قلت: ولهذا ثبت في الصحيح: «من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو مات ميتة جاهلية»^(١). وقال عليه السلام يوم الفتح: «لا هجرة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»^(٢).

وقوله: ﴿ وَهُوَ كُرَّةٌ لَكُمْ ﴾ أي: شديد عليكم ومشقة. وهو كذلك، فإنه إما أن يُقتل أو يجرح مع مشقة السفر ومجالدة الأعداء.

ثم قال تعالى: ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أي: لأن القتال يعقبه النصر والظفر على الأعداء، والاستيلاء على بلادهم، وأموالهم، وذرياتهم، وأولادهم. ﴿ وَعَسَى أَنْ تَهِبُوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾: وهذا عام في الأمور كلها، قد يُحب المرء شيئاً، وليس له فيه خيرة ولا مصلحة. ومن ذلك القعود عن القتال، قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم. ثم قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي: هو أعلم بعواقب الأمور منكم، وأخبر بما فيه صلاحكم في دنياكم وأخراكم؛ فاستجيبوا له، وانقادوا لأمره، لعلكم ترشدون.

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَظْلَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتَ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٨﴾

روى ابن أبي حاتم عن جندب بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ بعث رهطاً، وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح فلما ذهب ينطلق، بكى صباة إلى رسول الله ﷺ، فجلس، فبعث عليهم مكانه عبد الله بن جحش، وكتب له كتاباً، وأمره ألا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا، وقال: لا تكررهن أحداً على المسير معك من أصحابك. فلما قرأ الكتاب استرجع، وقال: سمعاً وطاعة لله ولرسوله. فخبّرهم الخبر، وقرأ عليهم الكتاب، فرجع رجلاً، وبقي بقيتهم، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى. فقال المشركون للمسلمين: قتلتم في الشهر الحرام! فانزل الله: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾

(١) رواه أحمد (٨٨٥٢) ومسلم (١٠٣ / ٢ ، ١٠٤) وأبو داود (٢٥٠٢) والنسائي (٥٣ / ٢ ، ٥٤) كلهم من

حديث أبي هريرة . وفي رواياتهم : « مات على شعبة من نفاق » .

(٢) رواه مسلم (٩٣ / ٢) من حديث عائشة .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿١١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الِئْتِنَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾

روى الإمام أحمد: عن عمر أنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت هذه الآية التي في البقرة: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ فدعى عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في النساء: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾ [النساء: ٤٣]، فكان منادى رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى: ألا يقربن الصلاة سكران. فدعى عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في المائدة. فدعى عمر، فقرئت عليه، فلما بلغ: ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١]؟ قال عمر: انتهينا، انتهينا (٢). وهكذا رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه. قال على بن المدينى: هذا الإسناد صالح وصححه الترمذى. وزاد ابن أبى حاتم - بعد قوله: انتهينا: «إنها تذهب المال وتذهب العقل». وسيأتى هذا الحديث أيضاً مع ما رواه أحمد من طريق أبى هريرة أيضاً - عند قوله في سورة المائدة: ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ الآيات [المائدة: ٩٠-٩٢]. فقوله: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾: أما الخمر فكما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: إنه كل ما خامر العقل. كما سيأتى بيانه في سورة المائدة، وكذا الميسر، وهو القمار.

وقوله: ﴿ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾: أما إثمهما فهو في الدين، وأما المنافع فدنوية، من حيث إن فيها نفع البدن، وتهضيم الطعام، وإخراج الفضلات، وتشحيد بعض الأذهان، ولذة الشدة المطربة التي فيها. وكذا بيعها والانتفاع بثمنها. وما كان يُقْمَشه بعضهم من الميسر فينفقه على نفسه أو عياله (٣). ولكن هذه المصالح لا توازى مضرتّه ومفسدته الراجحة، لتعلقها

(١) إسناد ابن أبى حاتم إسناد صحيح. ورواه الطبرى مطولاً - في حديثين (٤٠٨٤، ٤١٠٢). وأبهم أحد رواته. وذكره الهيثمى في الزوائد (١٩٨/٦). وقال «رواه الطبرانى، ورجاله ثقات». وذكره السيوطى (٢٥٠/١). ونسبه لهؤلاء ولابن المنذر والبيهقى «بسنده صحيح».

ثم ذكر الحافظ ابن كثير روايات أخر، فى سبب النزول. ثم ساق قصة سرية «عبد الله بن جحش» مفصلة، من سيرة ابن هشام. فمن شاء فليرجع إليها فى تفسيره (٢٥٣/١ - ٢٥٥) (تجارية). وفى تاريخه (٢٤٨/٣، ٢٥٢) حيث ذكرها وذكر هذه الروايات.

(٢) المستند (٣٧٨).

(٣) القمش - بفتح القاف وسكون الميم - والتقميش: جمع الشيء من ههنا وههنا. والقماش - بضم القاف وتخفيف الميم: ما كان على وجه الأرض من فئات الأشياء، حتى يقال لردالة الناس: قماش. عن اللسان.

بالعقل والدين، ولهذا قال: ﴿وَأْتُمُّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾؛ ولهذا كانت هذه الآية ممهدة لتحريم الخمر على البتات، ولم تكن مصرحة بل معرضة؛ ولهذا قال عمر، رضى الله عنه، لما قرئت عليه: اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً، حتى نزل التصريح بتحريمها فى سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١] .

وقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾: قرئ بالنصب وبالرفع، وكلاهما حسن متجّه قريب. وقال ابن عباس: ﴿الْعَفْوَ﴾ ما يفضل عن أهلك. وكذا روى عن ابن عمر، ومجاهد، وقتادة وغير واحد. وروى ابن جرير عن أبى هريرة قال: قال رجل: يا رسول الله، عندى دينار؟ قال: «أنفقه على نفسك». قال: عندى آخر؟ قال: «أنفقه على أهلك». قال: عندى آخر؟ قال: «أنفقه على ولدك». قال: عندى آخر؟ قال: «فأنت أبصر». وقد رواه مسلم فى صحيحه (١). وأخرج مسلم أيضاً عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها، فإن فضل شىء فأهلك، فإن فضل شىء عن أهلك فلذى قرابتك، فإن فضل عن ذى قرابتك شىء فهكذا وهكذا» (٢). وعنده عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول» (٣). وفى الحديث أيضاً: «ابن آدم، إنك أن تبدل الفضل خير لك، وأن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف» (٤). ثم قد قيل: إنها منسوخة بآية الزكاة، كما رواه على بن أبى طلحة، والعمرفى عن ابن عباس، وقاله عطاء الخراسانى والسدى، وقيل: مبينة بآية الزكاة، قاله مجاهد وغيره، وهو أوجه.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ . فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أى: كما فصل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها، كذلك يبين لكم سائر الآيات فى أحكامه ووعده، ووعيده، لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة.

(١) الطبرى (٤١٧٠) ورواه أحمد فى المسند (٧٤١٣)، بزيادة فى أوله. وقد بينت هناك تخريجه فى أبى داود، والنسائى، والحاكم وصححه على شرط مسلم. ونسبه المنذرى فى الترغيب (٨١/٣) لصحيح ابن حبان. وقد وهم الحافظ ابن كثير رحمه الله، فى نسبه لصحيح مسلم، فإنه ليس فيه، على اليقين.

(٢) صحيح مسلم (١ / ٢٧٤)، بقصة فى أوله. وكذلك رواه أحمد فى المسند (١٤٣٢٣) ورواه الطبرى (٤١٧١) بنحوه، دون ذكر القصة.

(٣) هذا اللفظ فى صحيح مسلم (١ / ٢٨٢) من حديث حكيم بن حزام. وأما من حديث أبى هريرة فلا. وقد رواه أحمد، بنحوه (٧١٥٥) عن أبى هريرة. وفصلنا تخريجه هناك. وبيننا أنه من أفراد البخارى - دون مسلم - كما نص على ذلك الحافظ ابن حجر فى الفتح، فى آخر كتاب الزكاة (٣ / ٢٩٩) فوهم الحافظ ابن كثير رحمه الله.

(٤) رواه مسلم (١ / ٢٨٣) من حديث أبى أمامة. ورواه أحمد والترمذى، كما فى الفتح الكبير (٣ / ٣٧٦).

وقوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ ﴾ الآية : روى ابن جرير، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٤] و ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم. وهكذا رواه أبو داود، والنسائي، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، والحاكم (١). وهكذا ذكر غير واحد في سبب نزول هذه الآية كمجاهد، وعطاء، والشعبي.

فقوله: ﴿ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ﴾ أى: على حدة ﴿ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ أى: وإن خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم، فلا بأس عليكم؛ لأنهم إخوانكم فى الدين؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ أى: يعلم من قصده ونيته الإفساد أو الإصلاح.

وقوله: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أى: ولو شاء لضيق عليكم وأخرجكم، ولكنه وسع عليكم، وخفف عنكم، وأباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن، كما قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، بل قد جوز الأكل منه للفقير بالمعروف، إما بشرط ضمان البدن لمن أيسر، أو مجاناً .

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِيْنَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوْا وَلَا أُمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ حَتَّىٰ مِنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِيْنَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوْا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَا أَعْبَابُكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُوْنَ إِلَى التَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوْا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيَسِّرُ الْبَلَاءَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

هذا تحريم من الله عز وجل على المؤمنين أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان. ثم إن كان عمومها مراداً، وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية وثنية - فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجْرَهُنَّ مُحْصِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ﴾ [المائدة: ٥]. قال ابن عباس: استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب. وهكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وغيرهم. وقيل: بل المراد بذلك المشركون من عبدة الأوثان، ولم يرد أهل الكتاب بالكلية، والمعنى قريب من الأول، والله أعلم.

فأما ما رواه ابن جرير عن عبد الله بن عباس قال: نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء، إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات، وحرّم كل ذات دين غير الإسلام، قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ

(١) الطبرى (٤١٨٣) وأبو داود (٢٨٧١) والحاكم (١٠٣/٢) وقال: «صحيح ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي . ورواه أحمد مختصراً (٣٠٠٢) ، وكذلك رواه الحاكم (٢٧٨/٢، ٢٧٩) مرة أخرى ، وصححه ، ووافقه الذهبي .

يَكْفُرُ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ» [المائدة: ٥] . فهو حديث غريب جداً (١) . قال أبو جعفر بن جرير ، رحمه الله - بعد حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات : وإنما كره عمر ذلك ، لثلاث يزهدهم في المسلمات ، أو لغير ذلك من المعانى ، ثم روى عن شقيق قال : تزوج حذيفة يهودية ، فكتب إليه عمر : خلّ سبيلها ، فكتب إليه : أتزعم أنها حرام فأخلى سبيلها ؟ فقال : لا أزعم أنها حرام ، ولكنى أخاف أن تعاطوا المومسات منهن . وإسناده صحيح (٢) . وروى ابن جرير عن عمر بن الخطاب قال : المسلم يتزوج النصرانية ، ولا يتزوج النصرانى المسلمة . قال : وهذا أصح إسناداً من الأول (٣) . وروى عن الحسن ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «تزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا» . ثم قال : وهذا الخبر - وإن كان فى إسناده ما فيه - فالقول به لإجماع الجميع من الأمة [على صحة القول] به . كذا قال ابن جرير (٤) . وروى ابن أبى حاتم عن ابن عمر : أنه كره نكاح أهل الكتاب ، ويتأول : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ . وقال البخارى : وقال ابن عمر : لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول : ربها عيسى .

وقوله : ﴿وَلَأَمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ قال السدى : نزلت فى عبد الله بن رواحة ، كانت له أمة سوداء ، فغضب عليها فلطمها ، ثم فزع ، فأتى رسول الله ﷺ ، فأخبره خبرها . فقال له : «ما هى ؟» قال : تصوم ، وتصلى ، وتحسن الوضوء ، وتشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله . فقال : «يا أبا عبد الله ، هذه مؤمنة» . فقال : والذى بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنّها . ففعل ، فظعن عليه ناس من المسلمين ، وقالوا : نكح أمة . وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين ، وينكحوهم رغبة فى أحسابهم ، فأنزل الله : ﴿وَلَأَمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ . روى عبد بن حميد عن عبد الله بن عمرو ، عن النبى ﷺ قال : « لا تنكحوا النساء لحسنهن ، فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تنكحوهن على أموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، وانكحوهن على الدين ، فلأمة سوداء خرماء ذات دين أفضل» . والإفريقى ضعيف (٥) . وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال :

(١) الطبرى (٤٢٢١) وإسناده صحيح . ولكن هذا المتن غريب جدا ، شاذ يخالف سائر الدلائل .
 (٢) الطبرى (٤٢٢٣) . وشقيق : هو ابن سلمة أبو وائل ، التابعى الكبير ، وكلمة «المومسات» حرفت فى الطبرى طبعة بولاق ومطبوعة ابن كثير والدر المنثور : «المؤمنات» . وهو تحريف قبيح . ونبت على الصواب فى المخطوطة الأزهرية ، والبيهقى (٧ / ١٧٢) والجصاص (١/ ٣٣٣) والقرطبى (٣/ ٦٨) .
 (٣) الطبرى (٤٢٢٢) . وإسناده صحيح متصل . وكذلك رواه البيهقى فى السنن الكبرى (٧ / ١٧٢) .
 (٤) الزيادة من الطبرى (٤/ ٢٦٧) . وحديث جابر هذا لم أجده فى شىء من المراجع غير رواية الطبرى هذه . وإسناده صحيح ، على الرغم من قول ابن جرير : « وإن كان فى إسناده ما فيه » . وقد بينت فى تخريج الطبرى أنه لعله يشير إلى زعم من زعم أن الحسن لم يسمع من جابر ، والمعاصرة كافية ، وقد رجحت أيضا أنه سمع منه .

(٥) إسناده صحيح . والإفريقى - الذى فى إسناده : هو « عبد الرحمن بن زياد بن أنعم » وهو ثقة ، وقد أخطأ من ضعفه . وقد بينا القول فى توثيقه فى تخريجات الطبرى (٢١٩٥) . والحديث رواه ابن ماجه (١٨٥٩) وزاد السيوطى فى الدر المنثور (١/ ٢٥٧) نسبته لسعيد بن منصور والبيهقى . وذكره البوصيرى فى زوائد ابن ماجه أنه رواه أيضا ابن حبان فى صحيحه بإسناد آخر . و « الحرماء » المثقوبة الأذن . ووقع فى المطبوعة : « جرداء » ! وهو خطأ .

«تنكح المرأة لأربع: لملها، ولحسبها ولجمالها، ولدينها؛ فاظفر بذات الدين تربت يداك». ولسلم عن جابر مثله^(١). وله، عن ابن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»^(٢).

وقوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ أى: لا تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات، كما قال تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [المتحنة: ١٠].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ أى: ولرجل مؤمن - ولو كان عبداً حبشياً - خير من مشرك، وإن كان رئيساً سرياً ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أى: معاشرتهم ومخالطتهم تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة، وعاقبة ذلك وخيمة ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ أى: بشرعه وما أمر به وما نهى عنه ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ ﴿١١٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَآتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُّكَلَّفُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١١٣﴾

روى الإمام أحمد عن أنس: أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت، فسأل أصحابُ النبي ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ حتى فرغ من الآية. فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح». فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه! فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا: يا رسول الله، إن اليهود قالت كذا وكذا، أفلا نجامعهن؟! فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجدَ عليهما، فخرجا، فاستقبلهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ، فأرسل في آثارهما، فسقاهما، فعرفا أن لم يجدْ عليهما. ورواه مسلم.

فقوله: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ يعنى: فى الفَرْج، لقوله: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح»؛ ولهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم إلى أنه تجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج. روى أبو داود عن عكرمة، عن بعض أزواج النبي ﷺ [أن النبي ﷺ] كان إذا أراد من الحائض شيئاً،

(١) صحيح مسلم (٤١٩/١).

(٢) صحيح مسلم (٤٢٠ / ١) وكذلك رواه أحمد فى المسند (٦٥٦٧) والنسائى (٧٢/٢، ٧٣) وابن ماجه (١٨٥٥) والصحابى راويه هو « عبد الله بن عمرو بن العاص ». . ووقع هنا فى المخطوطة والطبوعة : « ابن عمر » وهو خطأ الناسخين .

لقى على فرجها ثوباً (١). وروى ابن جرير أن مسروقاً ركب إلى عائشة، فقال: السلام على النبي وعلى أهله. فقالت عائشة: مرحباً مرحباً. فأذنوا له فدخل، فقال: إني أريد أن أسألك عن شيء، وأنا أستحي. فقالت: إنما أنا أمك، وأنت ابني. فقال: ما للرجل من امرأته وهي حائض؟ فقالت: له كل شيء إلا فرجها (٢). هذا قول ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وعكرمة. قلت: وتحل مضاجعتها ومؤاكلتها بلا خلاف. قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يأمرني فأغسل رأسه وأنا حائض، وكان يتكئ في حجرى وأنا حائض، فيقرأ القرآن (٣). وفي الصحيح عنها قالت: كنت أتعرق العرق وأنا حائض، فأعطيه النبي ﷺ، فيضع فمه في الموضع الذي وضعت فمي فيه، وأشرب الشراب فأناوله، فيضع فمه في الموضع الذي كنت أشرب (٤).

وقال آخرون: إنما تحل له مباشرتها فيما عدا ما تحت الإزار، كما ثبت في الصحيحين، عن ميمونة بنت الحارث الهلالية قالت: كان النبي ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فاتزرت وهي حائض. وهذا لفظ البخارى. ولهما عن عائشة نحوه. فهذه الأحاديث وما شابهها حجة من ذهب إلى أنه يحل له ما فوق الإزار منها، وهو أحد القولين في مذهب الشافعى رحمه الله، الذى رجحه كثير من العراقيين وغيرهم. ومأخذهم: أنه حريم الفرج، فهو حرام، لثلا يتوصل إلى تعاطى ما حرم الله عز وجل، الذى أجمع العلماء على تحريمه، وهو المباشرة فى الفرج. ثم من فعل ذلك فقد أثم، فيستغفر الله ويتوب إليه. وهل يلزمه مع ذلك كفارة أم لا؟ فيه قولان:

أحدهما: نعم، لما رواه الإمام أحمد، وأهل السنن، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ فى الذى يأتى امرأته وهى حائض: «يتصدق بدينار، أو نصف دينار». وفى لفظ للترمذى: «إذا كان دمأ أحمر فدينار، وإن كان دمأ أصفر فنصف دينار». وللإمام أحمد أيضاً، عنه: أن رسول الله ﷺ جعل فى الحائض تصاب، ديناراً فإن أصابها وقد أدبر الدم عنها ولم تغتسل، فنصف دينار (٥).
والقول الثانى: وهو الصحيح الجديد من مذهب الشافعى، وقول الجمهور: أنه لا شيء فى

(١) أبو داود (٢٧٢) ، وإسناده صحيح . والزيادة منه ومن المخطوطة الأزهرية .

(٢) الطبرى (٤٢٤٥) . وإسناده صحيح . وروى معناه عن عائشة ، قبله وبعده بأسانيد صحاح . وهذا - وإن كان موقوفاً لفظاً ، فهو مرفوع فى المعنى ؛ لأن الصحابى إذا حكى عما يحل ويحرم ، فالثقة به ألا يحكى ذلك إلا عمن يؤخذ عنه الحلال والحرام ، وهو معلم الخير ﷺ . إلا أن تدل دلائل على أن الصحابى يقوله من عند نفسه اجتهاداً . ثم الرواية عن عائشة هنا قرائنها تدل على الرفع . فلم يكن مسروق ليتجشم سؤالها فى أدق شؤون النساء ، مما يستحى الرجل أن يواجه به المرأة - وخاصة بالنسبة لأمهات المؤمنين - إلا أن يكون ذلك ليعرف الحكم عن مصدر التحليل والتحريم ، لا ليعرف رأيها الخاص واجتهادها . والصحابة إذ ذاك كثيرون متوافرون .

(٣) هذا نقله الحافظ ابن كثير من مجموع حديثين ، رواهما مسلم (٩٦ / ١) .

(٤) رواه أبو داود (٢٥٩) . وكذلك رواه مسلم (٩٦ / ١) بنحوه . و « العرق » - بفتح العين وسكون الراء - العظم إذا أخذ عنه معظم اللحم وبقيت عليه بقية .

(٥) الروايتان فى المسند (٢٠٣٢ ، ٣٧٤٣) . وانظر شرحنا للترمذى (٢٤٤ / ١ - ٢٥٤) .

ذلك، بل يستغفر الله عز وجل، لأنه لم يصح عندهم رفع هذا الحديث، فإنه قد روى مرفوعاً كما تقدم وموقوفاً، وهو الصحيح عند كثير من أئمة الحديث، فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ تفسير لقوله: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ ونهى عن قربانهن بالجماع ما دام الحيض موجوداً، ومفهومه حله إذا انقطع.

وقوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ فيه ندب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال. وذهب ابن حزم إلى وجوب الجماع بعد كل حيضة! لقوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ وليس له في ذلك مستند، لأن هذا أمر بعد الحظر. وفيه أقوال لعلماء الأصول، منهم من يقول: إنه للوجوب كالمطلق. وهؤلاء يحتاجون إلى جواب ابن حزم، ومنهم من يقول: إنه للإباحة، ويجعلون تقدم النهي قرينة صارفة له عن الوجوب، وفيه نظر. والذي ينهض عليه الدليل أنه يُرَدُّ الحكم إلى ما كان عليه الأمر قبل النهي، فإن كان واجباً فواجب، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥]، أو مباحاً فمباح، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠] وعلى هذا القول تجتمع الأدلة، وهو الصحيح. وقد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء أو تميم، إن تعذر ذلك عليها بشرطه، إلا أن أبا حنيفة يقول فيما إذا انقطع دمها لأكثر الحيض، وهو عشرة أيام عنده: إنها تحل بمجرد الانقطاع ولا تفتقر إلى غسل، والله أعلم. وقال ابن عباس: ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ أى: من الدم ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أى: بالماء. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وغيرهم.

وقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: يعنى الفَرْج . وفيه دلالة حيثئذ على تحريم الوطء فى الدبر، كما سياتى تقريره قريباً. وقال أبو رزين، وعكرمة، والضحاك وغير واحد: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ يعنى: طاهرات غير حيض، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ أى: من الذنب وإن تكرر غشيانه، ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أى: المنتزهين عن الأقدار والأذى، وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض، أو فى غير الماتى.

وقوله: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس: الحرت موضع الولد ﴿فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ أى: كيف شئتم مقبلة ومدبرة فى صِمام واحد، كما ثبتت بذلك الأحاديث. روى البخارى: عن جابر قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾. ورواه مسلم وأبو داود. وفى حديث معاوية بن حيدة الفشيرى، أنه قال: يا رسول الله، نساؤنا ما نأتى منها وما نذر؟ قال: «حرتك، ائت حرتك أنى شئت، غير ألا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا فى البيت». الحديث، رواه أحمد، وأهل السنن. وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن سابط قال: دخلت على حفصة بنت عبد الرحمن ابن أبى بكر فقلت: إنى سائلك عن أمر، وإنى أستحى أن أسالك. قالت: فلا تستحى يابن أختى. قال: عن إتيان النساء فى أديارهن؟ قالت: حدثتني أم سلمة أن الأنصار كانوا [لا

يُجِبُونَ النساء، وكانت اليهود تقول: إنه من جَبِي امرأته كان ولده أحول، فلما قدم المهاجرون المدينة نكحوا في نساء الأنصار، فجبَّوهن، فأبَت امرأة أن تطيع زوجها وقالت: لن تفعل ذلك حتى آتى رسول الله ﷺ. فدخلت على أم سلمة فذكرت لها ذلك، فقالت: اجلسى حتى يأتى رسول الله ﷺ، فلما جاء رسول الله ﷺ استحيت الأنصارية أن تسأله، فخرجت، فحدثت أم سلمة رسول الله ﷺ فقال: « ادعى الأنصارية: » فدُعيت، فتلا عليها هذه الآية: « ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ صماماً واحداً. » ورواه الترمذى وقال: حسن (١). وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس قال: جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هلكت! قال: « ما الذى أهلكك؟ » قال: حولت رحلى البارحة! قال: فلم يرد عليه شيئاً. قال: فأوحى الله إلى رسول الله ﷺ هذه الآية: « ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾: أقبل وأدبر، واتق الدبر والحیضة. » ورواه الترمذى، وقال: حسن غريب (٢). وروى أبو داود عن ابن عباس قال: إن ابن عمر - والله يغفر له - وهم أهل كتاب - وكانوا يرون لهم فضلاً عليهم فى العلم، فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم، وكان من أمر أهل الكتاب لا يأتون النساء إلا على حرف، وذلك أستر ما تكون المرأة، فكان هذا الحى من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم، وكان هذا الحى من قريش يَشْرَحون النساء شرحاً منكراً، ويتلذذون بهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات. فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار، فذهب يصنع بها ذلك، فأنكرته عليه، وقالت: إنما كنا نُؤتى على حرف، فاصنع ذلك وإلا فاجتنبى، فسرى أمرهما، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله: « ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾: أى: مقبلات، ومدبرات، ومستلقيات - يعنى بذلك موضع الولد. تفرد به أبو داود (٣)، ويشهد له بالصحة ما تقدم من الأحاديث، ولاسيما رواية أم سلمة، فإنها مشابهة لهذا السياق. وقول ابن عباس: « إن ابن عمر - والله يغفر له - وهم » كأنه يشير إلى ما رواه البخارى عن نافع قال: كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه، فأخذت عليه يوماً فقرأ سورة البقرة، حتى انتهى إلى مكان قال: أتدرى فيم أنزلت؟ قلت: لا. قال: أنزلت فى كذا وكذا. ثم مضى. وروى ابن جرير:

(١) هو فى المسند (٦ / ٣٠٥ حلى) . وإسناده صحيح . ووقع فى المطبوعة محرراً جداً . وصححه من المخطوطة الأزهرية والمسند . ولكن فى المخطوطة « أن الأنصار كانوا يجبون النساء » ، بسقوط حرف [لا] . وهو خطأ يفسد المعنى ، فزدنا الحرف من المسند . وأما رواية الترمذى ، فإنها فيه (٤ / ٧٥) مختصرة جداً وقال : « حديث حسن صحيح » . ورواه الطبرى (٤٣٤١ - ٤٣٤٥) مطولاً ومختصراً و « التجية » : أن يتكب المرء على وجهه باركاً ، على هيئة الركوع أو السجود . يقال : « جى » بفتح الجيم والباء المشددة « يجى تجية » .

(٢) المسند (٢٧٠٣) والترمذى (٤ / ٧٥ ، ٧٦) والطبرى (٤٣٤٧) وصحيح ابن حبان (٦ / ٣٦٤ ، ٣٦٥) من مخطوطة الإحسان) وهو حديث صحيح .

(٣) أبو داود (٢١٦٤) . وإسناده صحيح ، ورواه الطبرى (٤٣٣٧ ، ٤٣٣٨) والحاكم (٢ / ١٩٥ ، ٢٧٩) والبيهقى (٧ / ١٩٥ ، ١٩٦) مطولاً ومختصراً . وصححه الحاكم ووافقه الذهبى ، وذكره المؤلف الحافظ هنا أيضاً من رواية الطبرى بنحوه . وقوله : « يشرحون النساء » : من « الشرح » - ثلاثى - وهو وطء المرأة نائمة على قفاها .

عن نافع قال: قرأت ذات يوم: ﴿ نَسَاؤُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ فَأَتُوا حَرَّتَكُمْ أَنِّي شِئْتُمْ ﴾ ، فقال ابن عمر: أتدرى فيم نزلت؟ قلت: لا. قال: نزلت في إتيان النساء في أدبارهن. وهذا محمول على ما تقدم، وهو: أنه يأتيها في قبلها من دبرها، لما رواه النسائي عن أبي النضر: أنه قال لنافع مولى ابن عمر: إنه قد أكثر عليك القول: أنك تقول عن ابن عمر: إنه أفتى أن يؤتى النساء في أدبارهن؟! قال: كذبوا على، ولكن سأحدثك كيف كان الأمر: إن ابن عمر: عرض المصحف يوماً وأنا عنده، حتى بلغ: ﴿ نَسَاؤُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ فَأَتُوا حَرَّتَكُمْ أَنِّي شِئْتُمْ ﴾ : فقال: يا نافع، هل تعلم من أمر هذه الآية؟ قلت: لا. قال: إنا كنا معشر قريش نُجَبِّي النساء، فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار، أردنا منهن مثل ما كنا نريد فإذا هن قد كرهن ذلك وأعظمته، وكانت نساء الأنصار قد أخذن بحال اليهود، إنما يؤتى على جنوبهن، فأنزل الله: ﴿ نَسَاؤُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ فَأَتُوا حَرَّتَكُمْ أَنِّي شِئْتُمْ ﴾ . وإسناده صحيح، وقد رواه ابن مردويه.

وقد روينا عن ابن عمر خلاف ذلك صريحا، وأنه لا يباح ولا يحل كما سيأتي، وإن كان قد نسب هذا القول إلى طائفة من فقهاء المدينة وغيرهم، وعزاه بعضهم إلى الإمام مالك في كتاب السر، وأكثر الناس ينكر أن يصح ذلك عن الإمام مالك، رحمه الله. وقد وردت الأحاديث المروية من طرق متعددة بالزجر عن فعله وتعاطيه؛ فروى الحسن بن عرفة، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «استحيوا، إن الله لا يستحيى من الحق، لا يحل مأتى النساء في حشوشهن» (١). وروى أحمد عن خزيمه بن ثابت الخطمي: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يستحيى الله من الحق، لا يستحيى الله من الحق - ثلاثا - لا تأتوا النساء في أعجازهن». ورواه النسائي، وابن ماجه من طرق، عن خزيمه بن ثابت. وفي إسناده اختلاف كثير (٢). وروى الترمذى، والنسائي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلا أو امرأة في الدبر». ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب. وهكذا أخرجه ابن حبان في صحيحه. وصححه ابن حزم أيضاً. ولكن رواه النسائي أيضاً موقوفاً (٣).

(١) إسناده صحيح. وقد رواه الدارقطني أيضاً في سننه، (ص ٤١١) من طريق الحسن بن عرفة. وقد ذكره الحافظ ابن حجر في التلخيص (ص ٣٠٥) عن الدارقطني وابن شاهين. وفي مجمع الزوائد (٤/ ٢٩٩): «عن جابر بن عبد الله: أن النبي ﷺ نهى عن محاش النساء. رواه الطبراني، ورجاله ثقات». و«الحشوش» و«المحاش»: الأدبار: وأصل «الحش» - بضم الحاء وفتحها: النخل المجتمع، وكذلك «المحش». وكانوا يقضون حاجتهم في تلك المواضع. فكنتي بالمحاش والحشوش عن الأدبار؛ لأنها مجتمع الغائط.

(٢) المسند (٥/ ٢١٥ حلى). وإسناده في هذا الموضع صحيح. وبقاى أسانيد، في المسند (٥/ ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥) وابن ماجه (١٩٢٤) والدارمي (١٤٥/٢) والبيهقي (٧/ ١٩٦ - ١٩٨) وعندى أنه اختلاف لا يضر، فبعض الأسانيد صحاح، وما كان غير ذلك فلا يؤثر في صحة الصحيح. وقد وقع في إسناده الحديث في هذا الموضع من مطبوعة ابن كثير، وفي متنه - خطأ، صححناه من المخطوطة الأزهرية والمسند.

(٣) هو في صحيح ابن حبان (٦/ ٣٦٥، ٣٦٦ من مخطوطة الإحسان). ولفظه «أتى امرأة»، ليس فيه كلمة «رجلا». ورواية النسائي التي أشار إليها الحافظ المؤلف هنا - هي من طريق وكيع. ولكن حكى ابن حبان أن وكيعاً رفعه أيضاً. والموقوف لا يعلل المرفوع.

وروى عبد بن حميد عن طاوس : أن رجلا سأل ابن عباس عن إتيان المرأة في دبرها فقال: تسألني عن الكفر! إسناده صحيح. وكذا رواه النسائي نحوه . وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن النبي ﷺ قال: «الذي يأتي امرأته في دبرها هي اللوطية الصغرى»^(١). وعن أبي الدرداء قال: وهل يفعل ذلك إلا كافر؟^(٢). وقد روى حديث عمرو ابن شعيب، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو، موقوفاً من قوله^(٣). وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الذي يأتي امرأته في دبرها لا ينظر الله إليه». وفي لفظ له: «ملعون من أتى امرأة في دبرها». ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه ، بنحوه^(٤). وروى الإمام أحمد، وأهل السنن عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها، أو كاهناً فصدقه، فقد كفر بما أنزل على محمد». وقال الترمذي: ضعف البخاري هذا الحديث. والذي قاله البخاري في حديث حكيم الأثرم عن أبي تميمه: لا يتابع في حديثه^(٥). وروى النسائي عن أبي هريرة قال: إتيان الرجال النساء في أدبارهن كفر . هكذا رواه النسائي عن أبي هريرة موقوفاً^(٦).

وقد ثبت عن ابن مسعود، وأبي الدرداء، وأبي هريرة، وابن عباس، وعبد الله بن عمرو - تحريم ذلك، وهو الثابت بلا شك عن عبد الله بن عمر ، أنه يحرمه . روى الدارمي عن سعيد ابن يسار أبي الحجاب قال: قلت لابن عمر: ما تقول في الجوارى، أنحمض لهن؟ قال: وما التحميص؟ فذكر الدبر! فقال: وهل يفعل ذلك أحد من المسلمين؟! وإسناده صحيح^(٧). وهو

(١) المسند (٦٧٠٦، ٦٩٧، ٦٩٦٨) ورواه أيضا البزار ، والطبراني في الأوسط . وصححه المنذرى في الترغيب (٢٠٠ / ٣) ، والهيثمي في الزوائد (٤ / ٢٩٨) .

(٢) هذه الرواية عن أبي الدرداء ، في المسند ، تابعة للحديث (٦٩٦٨) . وإسنادها صحيح . وهذا وإن كان موقوفاً لفظاً ، إلا أنه مرفوع حكماً ؛ لأن الصحابي لا يحكم على عمل بأنه كفر إلا أن يكون قد علمه من المعصوم المبلغ الرسالة عن ربه . فمثل هذا مما لا يقال بالرأى ولا القياس .

(٣) هكذا أعل الحافظ ابن كثير الحديث المرفوع بالرواية الموقوفة . وتبعه في ذلك الحافظ ابن حجر في التلخيص (ص ٣٠٦) . وهذا منهما ترجيح للموقوف على المرفوع دون دليل . والرفع زيادة من ثقة ، بل من ثقات . فهو مقبول صحيح .

(٤) المسند (٧٦٧٠، ٨٥١٣، ٩٧٣١، ١٠٢٠٩) . وقد فصلنا تخريجه في أولها ، وأسانيده صحاح .

(٥) المسند (٩٢٧٩ ، ١٠١٧٠) من طريق « حكيم الأثرم ، عن أبي تيممة الهيثمي ، عن أبي هريرة . وكذلك رواه البخاري في التاريخ الكبير (١٦ / ١ / ٢) من طريق حكيم الأثرم ثم قال : « هذا حديث لا يتابع عليه . ولا يعرف لأبي تيممة سماع من أبي هريرة » . وقد وقع هنا في المطبوعة : « والذي قاله البخاري في حديث الترمذي ! وفي المخطوطة : « في حديث حكيم الترمذي !! وكلاهما خطأ واضح ، والصواب ما أثبتنا ، بدلالة كلام البخاري نفسه .

(٦) هذا وإن كان موقوفاً لفظاً ، فهو مرفوع حكماً ، كما بينا في حديث أبي الدرداء آنفاً ، كما في الحاشية (٢) من هذه الصفحة . وقد جاء مرفوعاً أيضاً : ففى الزوائد (٤ / ٢٩٩) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من أتى النساء فى أعجازهن فقد كفر » . رواه الطبراني ورجاله ثقات . وقد أشار الحافظ ابن كثير هنا إلى رواية أخرى مرفوعة ، وقال : « والموقوف أصح » .

(٧) سنن الدارمي (٢ / ٢٦٠ ، ٢٦١) .

نص صريح منه بتحريم ذلك، فكل ما ورد عنه مما يحتمل ويحتمل فهو مردود إلى هذا الحكم .
وروى معن بن عيسى، عن مالك: أن ذلك حرام (١). وروى أبو بكر التيسابورى سألت مالك ابن أنس ، أنه سئل: ما تقول فى إتيان النساء فى أدبارهن؟ قال: ما أنتم قوم عرب! هل يكون الحرت إلا موضع الزرع؟! لا تعدُّ الفرج . قلت: يا أبا عبد الله، إنهم يقولون: إنك تقول ذلك؟ قال: يكذبون على، يكذبون على . فهذا هو الثابت عنه، وهو قول أبى حنيفة، والشافعى، وأحمد بن حنبل وأصحابهم قاطبة . وهو قول سعيد بن المسيب، وأبى سلمة، وعكرمة، وطاوس، وعطاء، وسعيد بن جبيرة، وعروة بن الزبير، ومجاهد بن جبر ، والحسن وغيرهم من السلف: أنهم أنكروا ذلك أشد الإنكار، ومنهم من يطلق على فعله الكفر، وهو مذهب جمهور العلماء .

وقوله تعالى: ﴿ وَقَدْ مَوْا لَأَنفُسِكُمْ ﴾ أى: من فعل الطاعات، مع امتثال ما أنهاكم عنه من ترك المحرمات؛ ولهذا قال: ﴿ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ ﴾ أى: فيحاسبكم على أعمالكم جميعها . ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: المطيعين لله فيما أمرهم، التاركين ما عنه زجرهم .

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١١٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَوْرٌ حَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

يقول تعالى: لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من البر وصلة الرحم إذا حلفتكم على تركها، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا بَأْسَ لَآئِلُوا الْفَضْلَ مِنْكُمْ وَالسَّعَةَ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور: ٢٢] ، فالاستمرار على اليمين آثم لصاحبها من الخروج منها بالتكفير . كما روى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «والله لأن يلج أحدكم بيمينه فى أهله آثم له عند الله من أن يعطى كنفارته التى افترض الله عليه» ورواه أحمد ومسلم (٢) . وقال ابن عباس : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ﴾ قال: لا تجعلن عرضة ليمينك ألا تصنع الخير، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير . وهكذا قال مسروق، والشعبى، والنخعى، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وغيرهم . ويؤيد ما قاله هؤلاء الجمهور ما ثبت فى الصحيحين، عن أبى موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ : «إنى والله - إن شاء الله - لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذى هو خير وتحملتها» ، وثبت فيهما أيضاً أن رسول الله ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة: «يا عبد الرحمن بن سمرة ، لا تسأل

(١) فى المخطوطة الأزهرية والمطبوعة « معمر بن عيسى » وهو خطأ واضح .

(٢) البخارى (١١ / ٤٥٢ ، ٤٥٣ فتح) والمسند (٨١٩٣) ومسلم (١٨ / ٢) . ورواه أحمد أيضاً بنحوه (٧٧٢٩) . وقوله : « لأن يلج » قال الحافظ : « بفتح اللام ، وهى اللام المؤكدة للقسم . و يلج بكسر اللام ويجوز فتحها بعدها جيم ، من اللجاج ، وهو : أن يتمادى فى الأمر ولو تبين له خطؤه » . أقول: وهو من بابى « تعب » و « ضرب » .

الإمارة ، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها ، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك . وروى مسلم ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها ، فليكفر عن يمينه ، وليفعل الذي هو خير » . وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده أن رسول الله ﷺ قال : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فتركها كفارتها » . ورواه أبو داود - في حديث - بلفظك « ومن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليدعها ، وليأت الذي هو خير ، فإن تركها كفارتها » . ثم قال أبو داود : والأحاديث عن النبي ﷺ كلها : « فليكفر عن يمينه » وهى الصحاح (١) . وروى ابن جرير عن ابن جبير ، وسعيد بن المسيب ، ومسروق ، والشعبي - أنهم قالوا : لا يمين فى معصية ، ولا كفارة عليها .

وقوله : ﴿ لَا يُؤْخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ أى : لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية ، وهى التى لا يقصدها الحالف ، بل تجرى على لسانه عادة من غير تعقيد ولا تأكيد ، كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « من حلف فقال فى حلفه : واللات والعزى ، فليقل : لا إله إلا الله » . فهذا قاله لقوم حديثى عهد بجاهلية ، قد أسلموا وألستهم قد ألفت ما كانت عليه من الحلف باللات من غير قصد ، فأمرُوا أن يتلفظوا بكلمة الإخلاص ، كما تلفظوا بتلك الكلمة من غير قصد ، لتكون هذه بهذه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَكِنْ يُؤْخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ ﴾ [المائدة : ٨٩] . وروى أبو داود عن عطاء : فى اللغو فى اليمين ، قال : قالت عائشة : إن رسول الله ﷺ قال : « هو كلام الرجل فى بيته : لا والله أو بلى والله » ثم ذكر أنه روى عن عائشة موقوفاً . ورواه ابن جرير ، عن عائشة : ﴿ لَا يُؤْخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ [المائدة : ٨٩] قالت : لا والله ، بلى والله (٢) . وروى عبد الرزاق : عن عائشة فى قوله : ﴿ لَا يُؤْخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ قالت : هم القوم يتدارؤون فى الأمر ، فيقول هذا : لا والله ، وبلى والله ، وكلا والله يتدارؤون فى الأمر : لا تعقد عليه قلوبهم (٣) . وقد قال ابن أبى حاتم : عن عائشة : أنها كانت تتأول هذه الآية وتقول : هو الشبىء يحلف عليه أحدكم ، لا يريد منه إلا الصدق ، فيكون على غير ما حلف عليه . ثم حكى نحو ذلك عن أبى هريرة ، وسليمان بن يسار ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد - والحسن ، وزرارة بن أوفى ، ومكحول ، وطاوس ، وقتادة ، وغيرهم . وروى أبو داود عن سعيد بن المسيب : أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث ، فسأل أحدهما صاحبه القسمة فقال : إن عدت تسألنى عن القسمة ، فكل مالى فى رتاح الكعبة . فقال له عمر : إن الكعبة غنية عن مالك ، كفر عن يمينك وكلم أخاك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يمين عليك ، ولا نذر

(١) المسند (٦٧٣٦) أبو داود (٣٢٧٤) .

(٢) أبو داود (٣٢٥٤) والطبرى (٤٣٧٧) .

(٣) تفسير عبد الرزاق (ص ٢٧) ، وإسناده صحيح ، ورواه الطبرى (٤٣٨٣) من طريق عبد الرزاق . و « تدارأ القوم

الأمر » : اختلفوا فيه ، فتخاصموا وتدافعوا ، وتراجعوا القول بينهم .

في معصية الرب عز وجل، ولا في قطيعة الرحم، وفيما لا تملك » (١).

وقوله: «ولكن يؤخذكم بما كسبت قلوبكم»: قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: هو أن يحلف على الشيء وهو يعلم أنه كاذب. قال مجاهد وغيره: وهي كقوله تعالى: «ولكن يؤخذكم بما عقدتم الأيمان» الآية [المائدة: ٨٩]. «والله غفورٌ حلِيمٌ» أي: غفور لعباده، حلِيم عنهم.

﴿لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَائِهِمْ رَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وَإِن عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٧﴾

الإيلاء: الحلف، فإذا حلف الرجل ألا يجامع زوجته مدة، فلا يخلو: إما أن يكون أقل من أربعة أشهر، أو أكثر منها، فإن كانت أقل، فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته، وعليها أن تصبر، وليس لها مطالبة بالفيئة في هذه المدة، وهذا كما ثبت في الصحيحين عن عائشة: أن رسول الله آلى من نسائه شهراً، فنزل لتسع وعشرين، وقال: «الشهر تسع وعشرون» ولهما عن عمر بن الخطاب نحوه. فإما إن زادت المدة على أربعة أشهر، فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر: إما أن يفيء - أي: يجامع - وإما أن يطلق، فيجبره الحاكم على هذا أو هذا لثلاث يضر بها. ولهذا قال تعالى: «لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَائِهِمْ» أي: يحلفون على ترك الجماع من نسائهم، فيه دلالة على أن الإيلاء يختص بالزوجات دون الإماء كما هو مذهب الجمهور. «رَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ» أي: ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف، ثم يوقف ويطلب بالفيئة أو الطلاق. ولهذا قال: «فإن فاءوا» أي: رجعوا إلى ما كانوا عليه، وهو كناية عن الجماع، قاله ابن عباس، وغير واحد، ومنهم ابن جرير رحمه الله «فإن الله غفورٌ رحيمٌ» أي: لما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين.

وقوله: «فإن فاءوا فإن الله غفورٌ رحيمٌ» فيه دلالة لأحد قولي العلماء - وهو القديم عن الشافعي: أن المولى إذا فاء بعد الأربعة الأشهر أنه لا كفارة عليه. ويعتضد بما تقدم في الحديث عند الآية التي قبلها، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فتركها كفارتها»، كما رواه أحمد وأبو داود والترمذي. والذي عليه الجمهور - وهو الجديد من مذهب الشافعي - أن عليه الكفارة لعموم وجوب التكفير على كل حالف، كما تقدم أيضاً في الأحاديث الصحاح. والله أعلم. وقد ذكر الفقهاء وغيرهم - في مناسبة تأجيل المولى بأربعة أشهر - الأثر الذي رواه الإمام مالك بن أنس، في الموطأ، عن عبد الله بن دينار قال: خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول:

(١) أبو داود (٣٢٧٢). وزعم المنذرى أن ابن المسيب لم يسمع من عمر، قال: «فهو منقطع!» وتعبه الحافظ ابن القيم، فقال: «قال الإمام أحمد وغيره من الأئمة: سعيد بن المسيب عن عمر - عندنا حجة. قال أحمد: إذا لم نقبل سعيداً عن عمر فمن نقبل!؟ قد رأه وسمع». وهو حديث صحيح، رواه ابن حبان في صحيحه (٦ / ٤٨٧ من مخطوطة الإحسان)، ورواه الحاكم (٤ / ٣٠٠) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

تطاول هذا الليل واسودّ جانبه وأرقنى ألا خليل الأعبه
فوالله لولا أنسى أراقبه لحرك من هذا السرير جوانبه

فسأل عمر ابنته حفصة : كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: ستة أشهر أو أربعة أشهر. فقال عمر: لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك. وقد روى هذا من طرق، وهو من المشهورات.

وقوله: ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ ﴾ : فيه دلالة على أن الطلاق لا يقع بمجرد مضي الأربعة أشهر كقول الجمهور، وذهب آخرون إلى أنه يقع بمضي أربعة أشهر تطليقة، وهو مروى بأسانيد صحيحة عن عمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وزيد بن ثابت، وبه يقول ابن سيرين، ومسروق والقاسم، وسالم وغيرهم . ثم قيل: إنها تطلق بمضي الأربعة أشهر طلقة رجعية؛ قاله سعيد بن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، ومكحول، وربيعة، وغيرهم. وقيل: إنها تطلق طلقة بائنة، والذي عليه الجمهور: أنه يوقف فيطالب إما بهذا أو هذا ، ولا يقع عليها بمجرد مضيها طلاق. وروى مالك، عن نافع، عن عبد الله بن عمر أنه قال: إذا ألى الرجل من امرأته لم يقع عليه طلاق وإن مضت أربعة أشهر، حتى يوقف، فإما أن يطلق، وأما أن يفىء . وأخرجه البخارى . وروى الشافعى، عن سليمان ابن يسار قال: أدركت بضعة عشر من أصحاب النبي ﷺ كلهم يوقف المولى. وروى ابن جرير عن سهيل بن أبى صالح، عن أبيه قال: سألت اثنى عشر رجلا من الصحابة عن الرجل يولى من امرأته ؟ فكلهم يقول: ليس عليه شيء حتى تمضى الأربعة الأشهر فيوقف، فإن فاء وإلا طلق. ورواه الدارقطنى . وهو مذهب مالك، والشافعى، وأحمد بن حنبل، وأصحابهم، وهو اختيار ابن جرير أيضاً، وهو قول الليث، وإسحاق بن راهويه، وأبى عبيد، وأبى ثور، وداود .

﴿ وَالطَّلَاقُ يَتَرَبِّصُ أَنْ يَأْتِيَنَّهَا ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهَا أَنْ تَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِيهِ أَرْحَامَهُنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنْنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعَوْلِهِنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

هذا الأمر من الله سبحانه وتعالى للمطلقات - المدخول بهن من ذوات الأقراء - بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء، أى: بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء؛ ثم تزوج إن شاءت، وقد أخرج الأئمة الأربعة من هذا العموم الأمة إذا طلقت، فإنها تعتدّ عندهم بقراءين، لأنها على النصف من الحرة، والقراءة لا يتبعض، فكمل لها قرءان. وهكذا روى عن عمر بن الخطاب. قالوا: ولم يعرف بين الصحابة خلاف. وقال بعض السلف: بل عدتها كعدة الحرة لعموم الآية؛ ولأن هذا أمر جليلي، فكان الحرائر والإماء فى هذا سواء . حكى هذا القول الشيخ أبو عمر بن عبد البر، عن محمد بن سيرين وبعض أهل الظاهر، وضعفه. وقد اختلف السلف والخلف والأئمة فى المراد بالأقراء ما هو؟ على قولين:

أحدهما: أن المراد بها: الأطهار، وقال مالك في الموطأ عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة أنها قالت: انتقلت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر (١)، حين دخلت في الدم من الحيضة الثالثة، [قال الزهري] (٢): فذكرت ذلك لعمره بنت عبد الرحمن، فقالت: صدق عروة. وقد جادلها في ذلك ناس فقالوا: إن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿ثَلَاثَةٌ قُرُوءٌ﴾ فقالت عائشة: صدقتم، وتدررون ما الأقرء؟ إنما الأقرء: الأطهار. وقال مالك: عن ابن شهاب، سمعت أبا بكر بن عبد الرحمن يقول: ما أدركت أحداً من فقهاءنا إلا وهو يقول ذلك، يريد قول عائشة. وقال مالك: عن نافع، عن عبد الله بن عمر، أنه كان يقول: إذا طلق الرجل امرأته فدخلت في الدم من الحيضة الثالثة فقد برئت منه وبرئ منها. وقال مالك: وهو الأمر عندنا. وروى مثله عن ابن عباس وزيد بن ثابت، وسالم، والقاسم، وعروة، وأبي بكر بن عبد الرحمن، وقتادة، والزهري، وبقية الفقهاء السبعة، وغيرهم، وهو مذهب مالك، والشافعي وغير واحد وداود وأبي ثور، وهو رواية عن أحمد.

والقول الثاني: أن المراد بالأقرء: الحيض، فلا تنقضى الغدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة، زاد آخرون: وتغتسل منها. قال الثوري: عن منصور، عن إبراهيم، عن علقمة قال: كنا عند عمر بن الخطاب، فجاءته امرأة فقالت: إن زوجي فارقني بواحدة أو اثنتين، فجاءني وقد نزعت ثيابي وأغلقت بابي. فقال عمر لعبد الله - يعني ابن مسعود: أراها امرأته، ما دون أن تحمل لها الصلاة. قال وأنا أرى ذلك. وهكذا روى عن أبي بكر الصديق، وعمر، وعثمان، وعلى، وأبي الدرداء، وعبادة بن الصامت، وأنس بن مالك، وابن مسعود، ومعاذ، وأبي بن كعب، وأبي موسى الأشعري، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعلقمة، والأسود، وإبراهيم، ومجاهد، وعطاء، وطاوس، وسعيد بن جبيرة، وعكرمة، ومحمد بن سيرين، والحسن، وقتادة، والشعبي، وغيرهم، أنهم قالوا: الأقرء: الحيض. وهذا مذهب أبي حنيفة وأصحابه، وأصح الروايتين عن الإمام أحمد بن حنبل، وحكى عنه الأثرم أنه قال: الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: الأقرء الحيض. وهو مذهب الثوري، والأوزاعي، وابن أبي ليلى، وابن شبرمة، والحسن بن صالح بن حبان، وأبي عبيد، وإسحاق بن راهويه. ويؤيد هذا ما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود والنسائي، من طريق المنذر بن المغيرة، عن عروة بن الزبير، عن فاطمة بنت أبي حبيش: أن رسول الله ﷺ قال لها: « دَعِيَ الصلاة أيام أقرائك ». فهذا لو صح لكان صريحاً في أن القرء هو الحيض، ولكن المنذر - هذا - قال فيه أبو حاتم: مجهول ليس بمشهور. وذكره ابن حبان في الثقات (٣).

(١) « انتقلت حفصة » بنصب « حفصة »، أي نقلتها. استعمل الفعل اللازم متعدياً.

(٢) الزيادة من المخطوطة الأزهرية. وهي في الموطأ (ص ٥٧٦، ٥٧٧) « قال ابن شهاب ». وابن شهاب هو الزهري.

(٣) هكذا قال أبو حاتم في المنذر بن المغيرة، كما روى عنه ابنه في الجرح والتعديل (٤ / ١ / ٢٤٢). ولكن

ذكره ابن حبان في الثقات، كما قال الحافظ ابن كثير. وأزيد على ذلك أنه ترجمه البخاري في الكبير (١ / ٤ /

٣٥٧)، فلم يذكر فيه جرحاً. فهو - عنده - معروف وثقة. وهذا كاف في قبول روايته وصحتها.

وقال ابن جرير: أصلُ القرء في كلام العرب: الوقت لمجيء الشيء المعتاد مجيئه في وقت معلوم، ولإدبار الشيء المعتاد إدباره لوقت معلوم. وهذه العبارة تقتضى أن يكون مشتركاً بين هذا وهذا، وقد ذهب إليه بعض الأصوليين فالله أعلم. وهذا قول الأصمعي: أن القرء هو الوقت. وقال أبو عمرو بن العلاء: العرب تسمى الحيض: قرءاً، وتسمى الطهر: قرءاً، وتسمى الطهر والحيض جميعاً: قرءاً. وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر: لا يختلف أهل العلم بلسان العرب والفقهاء أن القرء يراد به الحيض ويراد به الطهر، وإنما اختلفوا في المراد من الآية ما هو على قولين.

وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لهنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ أي: من حَبَلٍ أو حَيْضٍ. قاله ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وغير واحد. وقوله: ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: تهديد لهن على [قول] خلاف الحق (١). ودل هذا على أن المرجح في هذا إليهن؛ لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتين، وتتعد إقامه البينة غالباً على ذلك، فرد الأمر إليهن، وتوعدن فيه، لثلا تخبر بغير الحق إما استعجالاً منها لانقضاء العدة، أو رغبة منها في تطويلها، لما لها في ذلك من المقاصد. فأمرت أن تخبر بالحق في ذلك من غير زيادة ولا نقصان.

وقوله: ﴿وَيَعُولُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ أي: وزوجها الذي طلقها أحق بردها ما دامت في عدتها، إذا كان مراده بردها الإصلاح والخير. وهذا في الرجعات. فأما المطلقات البوائن فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلقة بائن، وإنما صار ذلك لما حُصروا في الطلقات الثلاث، فأما حال نزول هذه الآية فكان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة، فلما قصرُوا في الآية التي بعدها على ثلاث طلقات، صار للناس مطلقة بائن وغير بائن. وإذا تأملت هذا تبين لك ضعف ما سلكه بعض الأصوليين، من استشهادهم على مسألة عود الضمير: هل يكون مخصصاً لما تقدمه من لفظ العموم أم لا؟ - بهذه الآية الكريمة، فإن التمثيل بها غير مطابق لما ذكره، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلهنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن، فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف، كما ثبت في صحيح مسلم، عن جابر، أن رسول الله ﷺ قال في خطبته، في حجة الوداع: «فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف». وفي حديث معاوية بن حيدة القشيري، أنه قال: يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسبت، ولا تضرب الوجه، ولا تُقبح، ولا تهجر إلا في البيت». وعن ابن عباس قال: إني لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لى المرأة؛ لأن الله يقول: ﴿وَلهنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾. رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم (٢).

وقوله: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ أي: في الفضيلة في الخلق والخلق، والمنزلة، وطاعة الأمر، والإنفاق، والقيام بالمصالح، والفضل في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [النساء: ٣٤]. وقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي: عزيز في انتقامه من عصاه وخالف أمره، حكيم في أمره وشرعه وقدره.

﴿ اَلطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَاِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ اَوْ تَسْرِيحٌ بِاِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ اَنْ تَاْخُذُوْا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوْهُنَّ شَيْئًا اِلَّا اَنْ يَخَافَا اَلَّا يُقِيْمَا حُدُوْدَ اللّٰهِ فَاِنْ خِفْتُمْ اَلَّا يُقِيْمَا حُدُوْدَ اللّٰهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِىمَا اَفْتَدْتُمْ بِهِنَّ تِلْكَ حُدُوْدُ اللّٰهِ فَلَا تَعْتَدُوْهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُوْدَ اللّٰهِ فَاُولٰٓئِكَ هُمُ الظَّالِمُوْنَ ﴿١١٩﴾ فَاِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهَا مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرًا فَاِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا اَنْ يَتَرَاجَعَا اِنْ ظَنَّا اَنْ يُقِيْمَا حُدُوْدَ اللّٰهِ وَتِلْكَ حُدُوْدُ اللّٰهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته، وإن طلقها مائة مرة ما دامت في العدة، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله إلى ثلاث طلاقات، وأباح الرجعة في المرة والثنتين، وأبانها بالكلية في الثالثة، فقال: ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَاِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ اَوْ تَسْرِيحٌ بِاِحْسَانٍ ﴾. روى أبو داود، عن ابن عباس: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن﴾ الآية: وذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحق برجعته، وإن طلقها ثلاثاً، فنسخ ذلك فقال: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ الآية. ورواه النسائي . وروى عبد بن حميد والطبري وابن أبي حاتم عن هشام، عن أبيه. قال: كان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها ما يشاء ، ما دامت في العدة ، وإن رجلا من الانصار تغضب على امرأته فقال: والله لا أوويك ولا أفارقك! قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك فإذا دنا أجلك راجعتك، ثم أطلقك، فإذا دنا أجلك راجعتك. فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ قال: فاستقبل الناس الطلاق، من كان طلق ومن لم يكن طلق. وقد رواه ابن مردويه، - عن هشام، عن أبيه، عن عائشة فذكره بنحو ما تقدم. ورواه الترمذى، موصولاً، ثم رواه مسلاً. وقال: هذا أصح. ورواه الحاكم موصولاً وقال : صحيح الإسناد (١).

وقوله: ﴿ فَاِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ اَوْ تَسْرِيحٌ بِاِحْسَانٍ ﴾ أي: إذا طلقته واحدة أو اثنتين، فانت مخير فيها ما دامت عدتها باقية، بين أن تردّها إليك ناوياً الإصلاح بها والإحسان إليها، وبين أن تركها حتى تنقضى عدتها، فتبين منك، وتطلق سراحها محسناً إليها، لا تظلمها من حقها شيئاً، ولا تضارّها بها.

(١) الحديث من رواية هشام بن عروة عن أبيه - رواية مرسلة . وهو في الطبري - مرسل - بإسنادين : (٤٧٧٩ ، ٤٧٨٠) ، والرواية الموصولة في الترمذى (٢/ ٢١٩) والمستدرک (٢/ ٢٧٩ ، ٢٨٠) والبيهقي (٣٣٣/٧) وقد بينا صحته موصولاً ، في تخريجات الطبري .

وقوله: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ أى: لا يحل لكم أن تُضَاجِرُوهُنَّ وتضيّقوا عليهن، ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الأصدقة أو بيعضه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ﴾ [النساء: ١٩]، فأما إن وهبته المرأة شيئاً عن طيب نفس منها. فقد قال تعالى: ﴿فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُنَّ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [النساء: ٤]، وأما إذا تشاقت الزوجان، ولم تقم المرأة بحقوق الرجل وأبغضته ولم تقدر على معاشرته، فلها أن تفتدى منه بما أعطهاها، ولا حرج عليها فى بذلها، ولا عليه فى قبول ذلك منها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ الآية.

فأما إذا لم يكن لها عذر وسألت الافتداء منه، فقد روى الإمام أحمد عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «أما امرأة سألت زوجها الطلاق فى غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة». وهكذا رواه أبو داود، وابن ماجه، وابن جرير (١). وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ: «المختلعات والمتزعات هن المنافقات» (٢).

ثم قد قال طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف: إنه لا يجوز الخلع إلا أن يكون الشقاق والنشور من جانب المرأة، فيجوز للرجل حينئذ قبول الفدية، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ الآية. قالوا: فلم يشرع الخلع إلا فى هذه الحالة، فلا يجوز فى غيرها إلا بدليل، والأصل عدمه، وعن ذهب إلى هذا ابن عباس، وطاوس، وإبراهيم، وعطاء، والحسن، والجمهور. حتى قال مالك والأوزاعى: لو أخذ منها شيئاً وهو مضار لها وجب رده إليها، وكان الطلاق رجعياً. قال مالك: وهو الأمر الذى أدركتُ الناس عليه. وذهب الشافعى، رحمه الله، إلى أنه يجوز الخلع فى حال الشقاق، وعند الاتفاق بطريق الأولى والأخرى، وهذا قول جميع أصحابه قاطبة. وقد ذكر ابن جرير، أن هذه الآية نزلت فى شأن ثابت بن قيس بن شماس وامراته حبيبة بنت عبد الله بن أبى ابن سلول (٣). ولنذكر طرق حديثها، واختلاف ألفاظه: روى الإمام مالك عن حبيبة بنت سهل الأنصارى: أنها كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس، وأن رسول الله ﷺ خرج إلى الصبح فوجد حبيبة بنت سهل عند بابها فى العكس، فقال رسول الله ﷺ: «من هذه؟» قالت: أنا حبيبة بنت سهل. فقال: «ما شأنك؟» فقالت: لا أنا ولا ثابت بن قيس - لزوجها - فلما جاء زوجها ثابت بن قيس قال له رسول الله ﷺ: «هذه حبيبة بنت سهل قد ذكرت ما شاء الله أن تذكر». فقالت

(١) المسند (٢٨٣/٥ حلى) وأبو داود (٢٢٢٦) وابن ماجه (٢٠٥٥) والطبرى (٤٨٤٤) والحاكم (٢ / ٢٠٠)

والبيهقى (٣١٦/٧) وصححه الحاكم والذهبي. وفى الفتح (٣٥٤/٩) أنه «صححه ابن خزيمة وابن حبان».

(٢) المسند (٩٣٤٧). وهو حديث صحيح. وقد فصلنا القول فى صحته فى شرح حديث آخر فى المسند (٧١٣٨) (١٢/ ١١٤ - ١١٦).

(٣) هكذا قال الحافظ ابن كثير هنا! وأخشى أن يكون وهما منه. فإن الروايات فيها «حبيبة بنت سهل الأنصارى» و«جميلة بنت عبد الله بن أبى ابن سلول». كما يتضح مما سياتى.

حبيبة: يارسول الله، كل ما أعطاني عندي. فقال رسول الله ﷺ: «خذ منها». فأخذ منها وجلست في أهلها . ورواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي من طريق مالك (١) . وروى البخارى عن ابن عباس: أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله، ما أعيبُ عليه في خلق ولا دين، ولكنى أكره الكفر في الإسلام . قال رسول الله ﷺ: «أتردين عليه حديقته؟» قالت: نعم. قال رسول الله ﷺ: «أقبل الحديقة وطلقها تطليقة». ورواه النسائي . وهكذا رواه البخارى من طرق عن ابن عباس. وفي بعضها أنها قالت: لا أطيقه، يعنى: بغضاً. وهذا الحديث من أفراد البخارى من هذا الوجه (٢) . وروى أبو القاسم البغوى عن عكرمة، عن ابن عباس، أن جميلة بنت سلول أتت النبي ﷺ فقالت: والله ما أعتب على ثابت بن قيس بن شماس في دين ولا خلق، ولكنى أكره الكفر في الإسلام، ولا أطيقه بغضاً. فقال النبي ﷺ: «تردين عليه ما ساق؟» قالت: نعم، فأمره النبي ﷺ أن يأخذ منها ما ساق ولا يزداد. وقد رواه ابن مردويه وابن ماجه وهذا إسناد جيد مستقيم (٣) . وروى ابن ماجه: عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كانت حبيبة بنت سهل تحت ثابت بن قيس بن شماس، وكان رجلاً دميماً، فقالت: يا رسول الله، والله لولا مخافة الله إذا دخل علىَّ بَسَقْتُ في وجهه! فقال رسول الله ﷺ: «أتردين عليه حديقته؟» قالت: نعم. فردت عليه حديقته. قال: ففرق بينهما رسول الله ﷺ (٤) .

وقد اختلف الأئمة، رحمهم الله، في أنه: هل يجوز للرجل أن يفاديهما بأكثر مما أعطاهما؟ فذهب الجمهور إلى جواز ذلك، لعموم قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾. وروى ابن جرير: وروى عن كثير مولى سمرة: أن عمر أتى بامرأة ناشز، فأمر بها إلى بيت كثير الزبل، ثم دعا بها فقال: كيف وجدت؟! فقالت: ما وجدت راحة منذ كنت عنده إلا هذه الليالى التى حبستنى! فقال لزوجها: اخلعها ولو من قرطها. ورواه عبد الرزاق مثله، وزاد: فحبسها له ثلاثة

(١) الموطأ (ص ٥٦٤) والمسند (٦/٤٣٣، ٤٣٤-٤٣٥ حلى) ورواه الطبرى أيضا (٤٨٠٩) من طريق مالك. وفضلنا تخريجه هنالك .

(٢) يعنى من أفراد دون مسلم . وهو فى البخارى (٩ / ٣٤٩ - ٣٥٤ فتح) ، ونص الحافظ فى الفتح (٩/٤٣٦) على أنه من أفراد دون مسلم .

(٣) ابن ماجه (٢٠٥٦) بإسناده نحوه . وروى الطبرى (٤٨١٠) نحو معناه ، عن عبد الله بن رباح ، عن جميلة بنت أبى ابن سلول . وإسناده صحيح .

(٤) ابن ماجه (٢٠٥٧) . وكذلك رواه الإمام أحمد ، ولكن لم يروه فى مسند « عبد الله بن عمرو بن العاص » . بل رواه فى مسند « سهل بن أبى حثمة » - رواه : (١٦١١٣) (٣ / ٤) ، من طريق « حجاج بن عمرو بن شعيب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو » ، ومن طريق « الحجاج عن محمد بن سليمان بن أبى حثمة عن عمه سهل بن أبى حثمة » فذكر الحديث . وزاد فى آخره : « قال : فكان ذلك أول خلع كان فى الإسلام » . وذكره الهيثمى فى الزوائد (٥ / ٤ ، ٥) وقال : « رواه أحمد والبخارى والطبرانى . وفيه الحجاج بن أرتاة ، وهو دلس » . وقولها « بسقت » : هكذا ثبت بالسین فى الأزهريه . وفى المطبوعة « بصقت » بالصاد . وفى المسند « بزقت » بالزاي - وكل ذلك صحيح لغة .

أيام (١). وقال البخارى: وأجاز عثمان الخلع دون عقاص رأسها. وروى عبد الرزاق عن الربيع بنت معوذ بن عفراء قالت: كان لى زوج يُقَلَّ على الخير إذا حضرنى، ويحرمنى إذا غاب عنى. قالت: فكانت منى زلة يوماً، فقلت له: أختلع منك بكل شيء أملكه؟ قال: نعم. قالت: ففعلت. قالت: فخاصم عمى معاذ بن عفراء إلى عثمان بن عفان، فأجاز الخلع، وأمره أن يأخذ عقاص رأسى فما دونه، أو قالت: ما دون عقاص الرأس (٢). ومعنى هذا: أنه يجوز أن يأخذ منها كل ما بيدها من قليل وكثير، ولا يترك لها سوى عقاص شعرها. وبه يقول ابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وغيرهم. وهذا مذهب مالك، والليث، والشافعى، وأبى ثور، واختاره ابن جرير. وقال أصحاب أبى حنيفة: إن كان الإضرار من قبلها جاز أن يأخذ منها ما أعطاه، ولا تجوز الزيادة عليه، فإن ازداد جاز فى القضاء. وإن كان الإضرار من جهته لم يجز أن يأخذ منها شيئاً، فإن أخذ جاز فى القضاء. وقال الإمام أحمد، وأبو عبيد، وإسحاق: لا يجوز أن يأخذ منها أكثر مما أعطاه. وهذا قول سعيد بن المسيب، وعطاء، والزهرى، وغيرهم.

وقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أى: هذه الشرائع التى شرعها لكم هى حدوده، فلا تتجاوزوها. كما ثبت فى الحديث الصحيح: «إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها، وفرض فرائض فلا تضيعوها، وحرم محارم فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان، فلا تسألوا عنها» (٣).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ أى: أنه إذا طلق الرجل امرأته طليقة ثالثة بعدما أرسل عليها الطلاق مرتين، فإنها تحرم عليه «حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ»، أى: حتى يطأها زوج آخر فى نكاح صحيح، فلو وطئها واطئ فى غير نكاح، ولو فى ملك يمين لم تحل للأول. فروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل كانت تحته امرأة فطلقها ثلاثاً فتزوجت بعده رجلاً، فطلقها قبل أن يدخل بها: أتحمّل لزوجها الأول؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، حتى يكون الآخر قد ذاق من عسيلتها وذاق من عسيلته». ورواه ابن جرير. قلت: ومحمد بن دينار بن صندل أبو بكر الأزدي ثم الطاحى البصرى، ويقال له: ابن أبى الفرات: اختلفوا فيه، فمنهم من ضعفه، ومنهم من قواه وقبله وحسن له.

(١) الطبرى (٤٨٦٠ ، ٤٨٦١) والبيهقى (٣١٥ / ٧). وهو أثر منقطع؛ لأن كثير بن أبى كثير مولى سمرة: تابعى يروى عن صغار الصحابة، وروايته عن عمر مرسله، كما فى التهذيب.

(٢) ورواه الطبرى (٤٨٧٠) من طريق عبد الرزاق. وإسناده صحيح، ورواه ابن سعد (٢٢٨ / ٨) بإسنادين صحيحين.

(٣) سيذكره الحافظ ابن كثير أيضاً عند تفسير الآية (١٠١) من سورة المائدة. وهو من حديث أبى ثعلبة الخشنى. وهو الحديث الثلاثون من الأربعين النووية. وقال النووى: «حديث حسن، رواه الدارقطنى وغيره». وذكر السيوطى فى زيادات الجامع الصغير أنه رواه الحاكم. انظر: الفتح الكبير (٣٣١ / ١).

وذكر أبو داود أنه تغير قبل موته، فإله أعلم (١). وروى ابن جرير: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ في المرأة يطلقها زوجها ثلاثاً فتزوج [زوجها] غيره، فيطلقها قبل أن يدخل بها، فيريد الأول أن يراجعها، قال: «لا، حتى يذوق الآخر عسيلتها» (٢). وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: دخلت امرأة رفاعة القرظي - وأنا وأبو بكر عند النبي ﷺ - فقالت: إن رفاعة طلقني البتة، وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجني، وإنما عنده مثل الهدبة، وأخذت هدبة من جلبابها، وخالد بن سعيد بن العاص بالباب لم يؤذن له، فقال: يا أبا بكر، ألا تنهى هذه عما تجهر به بين يدي رسول الله ﷺ! فما زاد رسول الله على التيسم، وقال رسول الله ﷺ: «كأنك تريد أن ترجعي إلى رفاعة؟! لا، حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك». ورواه البخاري. وفي حديث عبد الرزاق عند مسلم: أن رفاعة طلقها آخر ثلاث تطليقات. وقد رواه الجماعة إلا أبو داود (٣).

فصل: والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راعياً في المرأة، قاصداً لدوام عسرتها، كما هو المشروع من التزويج، واشترط الإمام مالك مع ذلك أن يطأها الثاني وطئاً مباحاً، فلو وطئها وهي محرمة أو صائمة أو معتكفة أو حائضاً أو نفساء أو والزوج صائم أو محرم أو معتكف - لم تحل للأول بهذا الوطء. وكذا لو كان الزوج الثاني ذمياً لم تحل للمسلم بنكاحه؛ لأن أنكحة الكفار باطلة عنده (٤). واشترط الحسن البصري - فيما حكاه عنه الشيخ أبو عمر بن عبد البر:

(١) المسند (١٤٠٦٩) والطبري (٤٩٠٠) ورواية «محمد بن دينار الطاحي»: ثقة. قال ابن معين: «ليس به بأس». وقال أبو زرعة: «صدوق». وترجمه البخاري في الكبير (٧٧/١/١)، فلم يذكر فيه جرحاً. و«الطاحي»: بالطاء والحاء المهملتين، نسبة إلى «طاحية»: بطن من الأزدي. ووقع في المطبوعة «الطاني»! وهو خطأ. والحديث رواه أيضاً البيهقي (٧/ ٣٧٥، ٣٧٦). وذكره الهيثمي في الزوائد (٤/ ٣٤٠)، ونسبه لأحمد والبخاري وأبو يعلى والطبراني. وقال: ورجاله رجال الصحيح، خلا محمد بن دينار الطاحي. وقد وثقه أبو حاتم وأبو زرعة وابن حبان. وفيه كلام لا يضر.

وقد ذكر الحافظ ابن كثير قبل هذا الحديث - هنا - حديثاً في معناه، من طرق، عن ابن عمر، بأسانيد من المسند، ونسبه أيضاً للنسائي وابن ماجه والطبري. وفي أسانيد ضعف. وهو في المسند (٤٧٧٦، ٤٧٧٧، ٥٢٧٧، ٥٢٧٨، ٥٥٧١) وفي الطبري: (٤٩٠٢ - ٤٩٠٤).

والمراد بذوق العسيلة: الجماع، تشبيهاً له بلذة العسل.

(٢) الطبري (٤٨٩٨، ٤٨٩٩) وزيادة [زوجاً] من المخطوطة الأزهرية والطبري. وإسناد الحديث صحيح. إلا أن الحافظ ابن كثير أعلمه هنا بقوله: «وأبو الحارث غير معروف» - يريد التابعي رواه عن أبي هريرة. وهو «أبو الحارث الغفاري». ولكنه معروف، عرفه البخاري وابن أبي حاتم، فترجما له ولم يذكر في جرحاً. ثم هو تابعي، وهم على الثقة حتى يستبين جرح واضح.

(٣) المسند (٦ / ٣٤ حلي) وصحيح مسلم (١ / ٤٠٧، ٤٠٨). وكذلك رواه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ٣٠٥ مخطوط). ورواه الطبري (٤٨٩٣) من طريق عبد الرزاق. وقد ذكر الحافظ ابن كثير هنا، قبل هذا الحديث - روايات متعددة له، مطولة ومختصرة، من الصحيحين وغيرهما. و«عبد الرحمن بن الزبير» - بفتح الزاي وكسر الباء: صحابي معروف، من بني قريظة. مترجم في الإصابة وغيرها.

(٤) يعني فيما إذا كانت الذميمة زوجاً لمسلم قبل الذمى.

أن ينزل الزوج الثاني، وكأنه تمسك بما فهمه من قوله عليه السلام: «حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك»، ويلزم على هذا أن تنزل المرأة أيضا. وليس المراد بالعسيلة المنى لما رواه الإمام أحمد والنسائي، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إن العسيلة الجماع» (١).

فأما إذا كان الثاني إنما قصده أن يحلها للأول، فهذا هو المحلل الذي وردت الأحاديث بذمه ولعنه، ومتى صرح بمقصوده في العقد بطل النكاح عند جمهور الأئمة. فروى الإمام أحمد، عن عبد الله قال: لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة، والمحلل والمحلل له، وأكل الربا وموكله. ورواه الترمذى والنسائي (٢). ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح. قال: والعمل على هذا عند أهل العلم من الصحابة، منهم: عمر، وعثمان، وابن عمر. وهو قول الفقهاء من التابعين، ويروى ذلك عن علي، وابن مسعود، وابن عباس. وروى ابن ماجه عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بالتيس المستعار؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «هو المحلل، لعن الله المحلل والمحلل له» (٣). وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له. ورواه أبو بكر بن أبي شيبة، والجوزجاني، والبيهقي، من طريق عبد الله بن جعفر القرشي. وقد وثقه أحمد بن حنبل، وعلى بن المدني، ويحيى بن معين وغيرهم. وأخرج له مسلم في صحيحه، عن عثمان بن محمد الأخنسي - وثقه ابن معين - عن سعيد المقبري، وهو متفق عليه (٤). وروى الحاكم عن نافع قال: جاء رجل إلى ابن عمر، فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثاً، فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه، ليحلها لأخيه: هل تحمل للأول؟ فقال: لا، إلا نكاح رغبة، كنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله ﷺ. ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه (٥). وهذه الصيغة مشعرة بالرفع. روى أبو بكر بن أبي شيبة، والجوزجاني، وحرب الكرماني، وأبو بكر الأثرم عن عمر أنه قال: لا أوتى بمحلل ولا محلل له إلا رجمتها. وروى البيهقي عن سليمان بن يسار: أن عثمان بن عفان رفع إليه رجل تزوج امرأة ليحلها لزوجها، ففرق بينهما. وكذا روى عن علي، وابن عباس، وغير واحد من الصحابة.

(١) المسند (٦ / ٦٢ حلى) بلفظ: «العسيلة هي الجماع»، ويظهر أن النسائي رواه في السنن الكبرى - فإنه ليس في السنن الصغرى. ولذلك ذكره الهيثمي في الزوائد (٤ / ٣٤١) وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى. وفيه أبو عبد الملك المكي، ولم أعرفه بغير هذا الحديث، وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٢) المسند (٤٢٨٣، ٤٢٨٤، ٤٤٠٣).

(٣) ابن ماجه (١٩٣٦). وإسناده صحيح، ومن تكلم فيه خطأ، وقد بين ذلك الحافظ ابن كثير - هنا - مفصلاً. ورواه الحاكم (٢ / ١٩٨، ١٩٩) بإسنادين، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٤) المسند (٨٢٧٠). وهو في الزوائد (٤ / ٢٦٧) وقال: «رواه أحمد والبخاري. وفيه عثمان بن محمد الأخنسي، وثقه ابن معين وابن حبان. وقال ابن المديني: له عن أبي هريرة أحاديث متاكير». أقول: وليس هذا منها، بل هو حديث صحيح.

(٥) المستدرک (٢ / ١٩٩). ولكن الذي فيه: «صحيح على شرط الشيخين». ووافقه الذهبي، وهو كما قال. وهو - بمعناه - في مجمع الزوائد (٤ / ٢٦٧) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح».

وقوله: ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا ﴾ أى: الزوج الثانى بعد الدخول بها ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا ﴾ أى: المرأة والزوج الأول ﴿ إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾ أى: يتعاشرا بالمعروف ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أى: شرائعه وأحكامه ﴿ بَيْنَهُمَا ﴾ أى: يوضحها ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْتَنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَخُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتِدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيُعْظِرَكُمْ بِهِ وَأَنْتُمْ أَلَّهُ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

هذا أمر من الله عز وجل للرجال إذا طلق أحدهم المرأة طلاقاً له عليها فيه رجعة - أن يحسن فى أمرها إذا انقضت عدتها، ولم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها، فإما أن يسكها، أى: يرتجعها إلى عصمة نكاحه بمعروف، وهو أن يشهد على رجعتها، وينوى عشرتها بالمعروف، أو يسرحها، أى: يتركها حتى تنقضى عدتها، ويخرجها من منزله بالتى هى أحسن، من غير شقاق ولا مخاصمة ولا تقايح، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْتِدُوا ﴾ : قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغير واحد: كان الرجل يطلق المرأة، فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضراراً، لئلا تذهب إلى غيره، ثم يطلقها فتعتد، فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة، فنهاهم الله عن ذلك، وتوعدهم عليه فقال: ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ أى: بمخالفته أمر الله تعالى .

وقوله: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا ﴾ : روى ابن جرير عن أبى موسى: أن رسول الله ﷺ غضب على الأشعرين، فأثاه أبو موسى فقال: يا رسول الله، أغضبت على الأشعرين؟! فقال: يقول أحدكم: قد طلقت! قد راجعت، ليس هذا طلاق المسلمين، طلقوا المرأة فى قُبُلِ عدتها، (١) . وقال مسروق: هو الذى يطلق فى غير كنهه، ويضار امرأته بطلاقها وارتجاعها، لتطول عليها العدة. وقال الحسن، وقتادة، وغيرهما: هو الرجل يطلق ويقول: كنت لاعباً! أو يعتق أو ينكح ويقول: كنت لاعباً! فأنزل الله: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا ﴾ فالزم الله بذلك. وروى ابن أبى حاتم عن عبادة بن الصامت قال: كان الرجل على عهد النبى ﷺ يقول للرجل زوجتك ابنتى ثم يقول: كنت لاعباً! ويقول: قد أعتقت، ويقول: كنت لاعباً! فأنزل الله: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «ثلاث من قالهن لاعباً أو غير لاعب، فهن جائزات عليه: الطلاق، والعتاق، والنكاح» (٢). والمشهور فى هذا الحديث الذى رواه أبو داود، والترمذى، وابن

(١) رواه الطبرى (٤٩٢٥) ، ورواه أيضاً بنحوه (٤٩٢٦) . وإسناده صحيحان . وكذلك رواه البيهقى (٧/٣٢٣) ، وروى ابن ماجه (٢٠١٧) نحوه بإسناد آخر صحيح ، ولفظه : « ما بال أقوام يلعبون بحدود الله؟ يقول أحدهم: قد طلقتك ! قد راجعتك ! قد طلقت ! » .
(٢) فى الدر المنثور (١ / ١٨٦) أنه رواه أيضاً ابن المنذر .

ماجه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث جدُّهن جد ، وهزلهن جد : النكاح ، والطلاق ، والرجعة » . وقال الترمذى : حسن غريب (١) .

وقوله : ﴿ وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أى : فى إرساله الرسول بالهدى والبيئات إليكم ﴿ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ أى : السنة ﴿ يَعِظْكُمْ بِهِ ﴾ أى : يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى : فيما تأتون وفيما تذرُونَ ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى : فلا يخفى عليه شىء من أموركم السرية والجهرية ، وسيجازيكم على ذلك .

﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا أَجَلُهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ لَكُمْ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية فى الرجل يطلق امرأته طليقة أو طليقتين ، فتتقاضى عدتها ، ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها ، وتريد المرأة ذلك ، فيمنعها أولياؤها من ذلك ، فنهى الله أن يمنعوها . وكذا قال مسروق ، وإبراهيم النخعى ، والزهرى والضحاك : أنها نزلت فى ذلك . وهذا الذى قاله ظاهر من الآية ، وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها ، وأنه لا بد فى النكاح من ولى ، كما قاله الترمذى وابن جرير عند هذه الآية ، كما جاء فى الحديث : « لا تزوج المرأة المرأة ، ولا تزوج المرأة نفسها ، فإن الزانية هى التى تزوج نفسها » (٢) . وفى الأثر الآخر : « لا نكاح إلا بولى مرشد ، وشاهدى عدل » (٣) . وفى هذه المسألة نزاع بين العلماء محرر فى موضعه من كتب الفروع .

وقد روى أن هذه الآية نزلت فى معقل بن يسار المزنى وأخته ، فروى الترمذى عن معقل ابن يسار : أنه زوج أخته رجلا من المسلمين ، على عهد رسول الله ﷺ ، فكانت عنده ما كانت ، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة ، فهويها وهويتها ، ثم خطبها مع الخطاب ، فقال له : يالكع ! أكرمتك بها وزوجتكها ، فطلقتها ! والله لا ترجع إليك أبداً ، آخر ما عليك ، قال : فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلاها ، فأنزل الله : ﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا أَجَلُهُنَّ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فلما سمعها معقل قال : سمع لربى وطاعة ثم دعاه ، فقال : أزوجك وأكرمك ،

(١) ورواه أيضا الحاكم وصححه ، والبيهقى ، كما هو فى الدر المنثور .

(٢) رواه ابن ماجه (١٨٨٢) . وضعفه البوصيرى فى زوائده ، من أجل « جميل بن الحسن العتكى » شيخ ابن ماجه . والحق أنه ثقة ، وقد أخطأ من تكلم فيه . ووثقه ابن حبان وابن خزيمة وغيرهما . وأخرج له ابن خزيمة هذا الحديث ، كما فى نصب الراية (١٨٨ / ٣) . وكذلك رواه الدارقطنى (ص ٣٨٤) من طريقه . ثم هو لم ينفرد به ، فقد رواه الدارقطنى أيضا من طريق صحيح مرفوعاً ، ومن طرق أخرى موقوفاً . والموقوف يثبت صحة المرفوع ويؤيده . وكذلك رواه البيهقى (٧ / ١١٠) من طرق ، ومنها طريق ابن خزيمة .

(٣) رواه البيهقى (٧ / ١٢٦) من رواية الإمام الشافعى . وروى نحو معناه قبل ذلك من وجه آخر (ص ١٢٤) .

زاد ابن مردويه: وكفرت عن يميني^(١). وهكذا ذكر غير واحد من السلف: أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار وأخته. وقال السدي: نزلت في جابر بن عبد الله، وابنة عم له، والصحيح الأول، والله أعلم.

وقوله: ﴿ ذَلِكْ يُوْعَظُ بِهِ ﴾ أى: هذا الذى نهيناكم عنه من منع الولايا أن يتزوجن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف، يأتى به ويتعظ به وينفعل له ﴿ مَن كَانَ مِنكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ يُوْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أى: يؤمن بشرع الله، ويخاف وعيد الله وعذابه فى الدار الآخرة، وما فيها

(١) الترمذى (٧٨/٤) وقال: «حديث حسن صحيح». وزيادة ابن مردويه، روى البيهقى معناها، فى روايته (٧ / ١٠٤): «فكفرت عن يمينى فأنكحتها». والحديث رواه البخارى أيضاً مطولاً ومختصراً (٨ / ١٤٣، ٩ / ١٦٠، ١٦١). وذكره الحافظ ابن كثير هنا من الرواية المختصرة، مع إشارته لإسناده. ثم ذكر أنه رواه «أبو داود وابن ماجه وابن أبى حاتم وابن جرير».

وقال الترمذى - بعد روايته: «وفى هذا الحديث دلالة على أنه لا يجوز النكاح بغير ولى لأن أخت معقل بن يسار كانت ثيباً، فلو كان الأمر إليها دون وليها لزوجت نفسها، ولم تحتج إلى وليها معقل بن يسار كانت ثيباً، فلو كان الأمر إليها دون وليها لزوجت نفسها، ولم تحتج إلى وليها معقل بن يسار. وإنما خاطب الله فى هذه الآية الأولياء، فقال: ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكَحْنَ أزْوَاجَهُنَّ ﴾. ففى هذه الآية دلالة على أن الأمر إلى الأولياء فى التزوج مع رضاهن».

وقال الطبرى (٥ / ٢٦، ٢٧ من طبعتنا): «وفى هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة قول من قال: لا نكاح إلا بولى من العصبية. وذلك أن الله تعالى ذكره منع الولى من عضل المرأة إن أرادت النكاح ونهاه عن ذلك. فلو كان للمرأة إنكاح نفسها بغير إنكاح وليها إياها، أو كان لها تولية من أرادت توليته فى إنكاحها - لم يكن لنهى وليها عن عضلها معنى مفهوم؛ إذ كان لا سبيل له إلى عضلها. وذلك أنها إن كانت متى أرادت النكاح جاز لها إنكاح نفسها، أو إنكاح من توكله بإنكاحها - فلا عضل هنالك لها من أحد فينهى عاضلها عن عضلها». وهذا الذى قاله الترمذى وابن جرير - بديهي واضح من معنى الآية وفقهها. لا يخالف فى ذلك إلا جاهل، أو ذو هوى وعصبية جامحة.

ثم الذى لا يشك فيه أحد من أهل العلم بالحديث - أن حديث «لا نكاح إلا بولى»: حديث صحيح، ثابت بأسانيد تكاد تبلغ مبلغ التواتر المعنوى الموجب للقطع بمعناه. وهو قول الكافة من أهل العلم، الذى يؤيده الفقه فى القرآن. ولم يخالف فى ذلك - فيما نعلم - إلا فقهاء الحنفية ومن تابعهم وقلدهم. وقد كان لمتقدميهم بعض العذر، لعله لم يصل إليهم إذ ذاك بإسناد صحيح. أما متأخروهم، فقد ركبوا رؤوسهم وجرفتهم العصبية، فذهبوا يذهبون كل مذهب فى تضعيف الروايات أو تأويلها. دون حجة أو دون إنصاف.

وها نحن أولاء - فى كثير من بلاد الإسلام، التى أخذت بمذهب الحنفية فى هذه المسألة - نرى آثار تدمير ما أخذوا به للأخلاق والآداب والأعراض، مما جعل أكثر أنكحة النساء اللاتى يتكحن دون أوليائهن، أو على الرغم منهن - أنكحة باطلة شرعا، تضعيع معها الأنساب الصحيحة.

وأنا أهيب بعلماء الإسلام وزعمائه، فى كل بلد وكل قطر، أن يعيدوا النظر فى هذه المسألة الخطيرة. وأن يرجعوا إلى ما أمر الله به ورسوله، من شرط الولى المرشد فى النكاح، حتى نفضى كثيراً من الأخطار الخلقية والأدبية، التى يتعرض لها النساء، بجهلهن وتهورهن، وباصطناعهن الحرية الكاذبة، وباتباعهن للأهواء. وخاصة الطبقة المنهارة منهن، طبقة المتعلمات - مما يملأ القلب أسفاً وحزناً. هداانا الله لشرعة الإسلام، ووقانا سوء المقلب.

من الجزاء ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أى: اتباعكم شرع الله فى رد الموليات إلى أزواجهن، وترك الحمية فى ذلك، أزكى لكم وأطهر لقلوبكم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أى: من المصالح فيما يأمر به وينهى عنه ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى: الخيرة فيما تأتون ولا فيما تذررون.

ربيع ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنَ كَامِلَيْنَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرُّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْفَقُوا اللَّهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٢٢﴾﴾

هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات: أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة، وهى ستتان، فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرُّضَاعَةَ﴾ وذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرم. وروى الترمذى عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء فى الثدي، وكان قبل الفطام». وقال: هذا حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم: أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان دون الحولين، وما كان بعد الحولين الكاملين فإنه لا يحرم شيئاً. قلت: تفرد الترمذى برواية هذا الحديث، ورجاله على شرط الصحيحين (١)، ومعنى قوله: «إلا ما كان فى الثدي، أى: فى محل الرضاعة قبل الحولين، كما جاء فى الحديث، الذى رواه أحمد، عن البراء بن عازب قال: لما مات إبراهيم ابن النبى ﷺ قال: «إن له مرضعاً». وهكذا أخرجه البخارى (٢)، وإنما قال، عليه السلام، ذلك؛ لأن ابنه إبراهيم، عليه السلام، مات وله سنة وعشرة أشهر، فقال: «إن له مرضعاً» يعنى: تكمل رضاعه، ويؤيده ما رواه الدارقطنى، من طريق الهيثم بن جميل، عن سليمان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرم من الرضاع إلا ما كان فى الحولين»، ثم قال: لم يسنده عن ابن عيينة غير الهيثم بن جميل، وهو ثقة حافظ. قلت:

(١) الترمذى (٢ / ٢٠١). وذكر الحافظ ابن حجر فى بلوغ المرام أن الحاكم صححه أيضا .

(٢) هكذا قال الحافظ ابن كثير، وأخشى أن يكون وهم أو سهواً. فإن حديث البراء رواه البخارى (٣ / ١٩٤ فتح) دون قوله «إن ابنى مات فى الثدي». وكذلك رواه أحمد فى المسند مراراً وقد تبعت مسند البراء كله، فلم أجد فيه هذا الحرف. وحديث البراء من أفراد البخارى دون مسلم. وأما حرف «الثدى» - فإنه فى حديث آخر مطول، عن أنس، فى المسند (١٢١٢٨) (٣ / ١١٢ حلى) بلفظ: «إن إبراهيم ابنى، وإنه مات فى الثدي، فإن له ظئرين يكملان رضاعه فى الجنة». وهذا رواه مسلم (٢ / ٢١٣). ولم يروه البخارى.

وقد رواه الإمام مالك في الموطأ، عن ثور بن زيد، عن ابن عباس مرفوعاً (١) . وروى أبو داود الطيالسي، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: « لا رضاع بعد فصال، ولا يَتَمُّ بعد احتلام»، وتام الدلالة من هذا الحديث في قوله تعالى: ﴿ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ [لقمان: ١٤]. وقال: ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ [الاحقاف: ١٥].

والقول بأن الرضاعة لا تحرم بعد الحولين مروى عن علي، وابن عباس، وابن مسعود، وجابر، وأبي هريرة، وابن عمر، وأم سلمة، وسعيد بن المسيب، وعطاء، والجمهور. وهو مذهب الشافعي، وأحمد، وإسحاق، والثوري، وأبي يوسف، ومحمد، ومالك في رواية، وقال مالك: ولو فطم الصبي دون الحولين فأرضعته امرأة بعد فصاله لم يحرم؛ لأنه قد صار بمنزلة الطعام، وهو رواية عن الأوزاعي، وقد روى عن عمر وعلى أنهما قالوا: لا رضاع بعد فصال، فيحتمل أنهما أرادا الحولين كقول الجمهور، سواء فطم أو لم يفطم، ويحتمل أنهما أرادا الفعل، كقول مالك، والله أعلم.

وقوله: ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أي: وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف، أي: بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير إسراف ولا إقتار، بحسب قدرته في يساره وتوسطه وإقتاره، كما قال تعالى: ﴿ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٧]. قال الضحاک: إذا طلقَ زوجته وله منها ولد، فأرضعت له ولده، وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف.

وقوله: ﴿ لَا تَضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا ﴾ أي: لا تدفعه عنها لتضر أباه بتربيته، ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللبن الذي لا يعيش بدون تناوله غالباً، ثم بعد هذا لها رفعه عنها إذا شاءت، ولكن إن كانت مضارة لأبيه فلا يحل لها ذلك، كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضرر لها. ولهذا قال: ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ﴾ أي: بأن يريد أن ينتزع الولد منها إضراراً بها، قاله مجاهد، وقتادة، والضحاک، وغيرهم.

وقوله: ﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴾ . قيل: في عدم الضرر لقريبه، قاله مجاهد، والشعبي، والضحاک. وقيل: عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل، والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها، وهو قول الجمهور.

وقوله: ﴿ فَإِنِ آرَادَا فِصَالًا عَنِ تِرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ أي: فإن اتفقا والدا الطفل على فطامه قبل الحولين، ورأيا في ذلك مصلحة له، وتشاورا في ذلك، وأجمعا عليه، فلا جناح عليهما

(١) الدارقطني (ص ٤٩٨) . وأما رواية مالك فهي في الموطأ (ص ٦٠٢) : « مالك ، عن ثور بن زيد الديلي، عن عبد الله بن عباس ، أنه كان يقول : ما كان في الحولين ، وإن كان مصة واحدة ، فهو يحرم » . وهذا إسناد منقطع بين ثور وابن عباس . ثم هو « موقوف » لا مرفوع . وأنا أرجح أن قوله هنا « مرفوعاً » - سبق قلم ، أو خطأ من الناسخين . بدلالة قصد المعايير بين إسناد الدارقطني المرفوع ورواية مالك الموقوفة .

فى ذلك، فيؤخذُ منه: أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفى، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر، قاله الثورى وغيره، وهذا فيه احتياط للطفل، وإلزام للنظر فى أمره، وهو من رحمة الله بعباده، حيث حجر على الوالدين فى تربية طفلهما وأرشدهما إلى ما يصلحه ويصلحهما كما قال فى سورة الطلاق: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْتَرْضْنَ لَهُنَّ وَأَجْرُهُنَّ وَاتَّمَرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمَ فَتَسْرِعْ لَهُ أُخْرَى ﴾ [الطلاق: ٦].

وقوله: ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أى: إذا اتفقت الوالدة والوالد على أن يتسلم منها الولد، إما لعذر منها، أو عذر له، فلا جناح عليها فى بذله، ولا عليه فى قبوله منها إذا سلمها أجرتها الماضية بالتى هى أحسن، واسترضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف. قاله غير واحد.

وقوله: ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى: فى جميع أحوالكم ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أى: فلا يخفى عليه شىء من أحوالكم وأقوالكم.

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

هذا أمر من الله للنساء اللاتى يتوفى عنهن أزواجهن: أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن بالإجماع، ومستنده فى غير المدخول بهن عموم الآية الكريمة، وهذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى: أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها ولم يدخل بها، ولم يفرض لها؟ فترددوا إليه مراراً فى ذلك فقال: أقول فيها برأى، فإن يك صواباً فمن الله، وإن يك خطأ فمنى ومن الشيطان، والله ورسوله بريثان منه: لها الصداق كاملاً. وفى لفظ: لها صداق مثلها، لا وكس، ولا شطط، وعليها العدة، ولها الميراث. فقام معقل بن سنان الأشجعى فقال: سمعت رسول الله ﷺ قضى به فى برؤع بنت واشق. ففرح عبد الله بذلك فرحاً شديداً (١). ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها، وهى حامل، فإن عدتها بوضع الحمل، ولو لم تمكث بعده سوى لحظة؛ لعموم قوله: ﴿ وَأَوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ٤]. وكان ابن عباس يرى: أن عليها أن تربص بأبعد الأجلين من الوضع، أو أربعة أشهر وعشر،

(١) جاء هذا الحديث بروايات كثيرة وأسانيد، والمعنى واحد. فرواه أحمد فى المسند (٤٠٩٩، ٤١٠٠، ٤٢٧٦ - ٤٢٧٨) فى مسند ابن مسعود. ورواه أيضاً (١٦٠٠٩) فى مسند معقل بن سنان، ورواه أبو داود (٢١١٤ - ٢١١٦) والترمذى (١٩٦/٢) والنسائى (٨٩/٢، ١١٣) وابن ماجه (١٨٩١) والحاكم (١٨٠/٢، ١٨١) مطولاً، وصححه على شرط مسلم، ومختصراً وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبى. وانظر: المتقى (٣٥٦٦). و «معقل بن سنان الأشجعى»: صحابى معروف. ووقع هنا فى المخطوطة المطبوعة: «معقل بن يسار الأشجعى»! وهو خطأ بين مخالف للروايات. ثم إن «معقل بن يسار» صحابى آخر، وهو مزنى لا أشجعى.

للجمع بين الآيتين ، وهذا مأخذ جيد ومسلك قوى ، لولا ما ثبتت به السنة فى حديث سبيعة الأسلمية ، المخرج فى الصحيحين من غير وجه (١) .

وقوله : ﴿ فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ يستفاد من هذا وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها ، لما ثبت فى الصحيحين ، من غير وجه ، عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أم المؤمنين ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تُحد على ميت فوق ثلاث ، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً . وفى الصحيحين أيضاً ، عن أم سلمة : أن امرأة قالت : يا رسول الله ، إن ابنتى توفى عنها زوجها ، وقد اشتكت عينها ، أفنكحها؟ فقال : « لا » . كل ذلك يقول : « لا » مرتين أو ثلاثاً . ثم قال : « إنما هى أربعة أشهر وعشر ، وقد كانت إحداكن فى الجاهلية تمكث سنة . ومن هاهنا ذهب كثير من العلماء إلى أن هذه الآية ناسخة للآية التى بعدها ، وهى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ الآية [البقرة : ٢٤٠] ، كما قاله ابن عباس وغيره ، وفى هذا نظر كما سيأتى تقريره . والغرض : أن الإحداد هو عبارة عن ترك الزينة من الطيب ، ولبس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلى وغير ذلك . وهو واجب فى عدة الوفاة قولاً واحداً ، ولا يجب فى عدة الرجعية قولاً واحداً ، وهل يجب فى عدة البائن؟ فيه قولان . ويجب الإحداد على جميع الزوجات المتوفى عنهن أزواجهن ، سواء فى ذلك الصغيرة والأيسة ، والحرة والأمة ، والمسلمة والكافرة ، لعموم الآية . وقال الثورى وأبو حنيفة وأصحابه : لا إحداد على الكافرة .

وقوله : ﴿ فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ ﴾ أى : انقضت عدتهن ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ قال الزهرى : أى : على أوليائها ﴿ فِيمَا فَعَلْنَ ﴾ يعنى : النساء اللاتى انقضت عدتهن . قال ابن عباس : إذا طلقت المرأة أو مات عنها زوجها ، فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تتزين وتتصنع وتعرض للستروج ، فذلك « المعروف » .

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَذْكُرُوهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَآخِذُوا بِهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ ﴿١٢٥﴾

يقول تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ أن تُعَرَّضُوا بخِطْبَةِ النساء فى عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح . قال ابن عباس : التعريض أن يقول : إنى أريد التزويج ، وإنى أحب امرأة من أمرها ومن أمرها - يعرض لها بالقول بالمعروف - وفى رواية : إنى لا أريد أن أتزوج غيرك

(١) سيأتى تفصيل ذلك فى الآية (٤) من سورة الطلاق ، إن شاء الله .

إن شاء الله، ولوددت أنى وجدت امرأة صالحة، ولا ينصب لها ما دامت فى عدتها (١). وهكذا قال مجاهد، وطاوس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف والأئمة فى التعريض: إنه يجوز للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة. وهكذا حكم المطلقة المبتوتة: يجوز التعريض لها، كما قال النبى ﷺ لفاطمة بنت قيس، حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات. فأمرها أن تعتد فى بيت ابن أم مكتوم، وقال لها: « فإذا حللت فأذنينى ». فلما حلّت خطب عليها أسامة بن زيد مولاه، فزوّجها إياه . فأما المطلقة الرجعية: فلا خلاف فى أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ولا التعريض لها، والله أعلم.

وقوله: ﴿ أَوْ أَكُنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ أى: أضمرتم فى أنفسكم خطبتهنّ، وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [القصص : ٦٩] ، وكقوله: ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ ﴾ [المتحنة: ١]؛ ولهذا قال: ﴿ عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ سَتَدْرُؤُنَّهُنَّ ﴾ أى: فى أنفسكم، فرفع الحرج عنكم فى ذلك، ثم قال: ﴿ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ قال الحسن البصرى، والنخعى وقتادة، والضحاك، وغيرهم: يعنى الزنا. وهو معنى رواية العوفى عن ابن عباس، واختاره ابن جرير. وقال على ابن أبى طلحة، عن أبى عباس: لا تفل لها: إنى عاشق، وعاهدينى ألا تتزوجى غيرى! ونحو هذا. وكذا روى عن سعيد بن جبير، والشعبى، ومجاهد، وغيرهم: هو أن يأخذ ميثاقها ألا تتزوج غيره، وقال ابن زيد: هو أن يتزوجها فى العدة سرّاً، فإذا حلت أظهر ذلك. وقد يحتمل أن تكون الآية عامة فى جميع ذلك؛ ولهذا قال: ﴿ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد وسعيد بن جبير: يعنى به: ما تقدم من إباحة التعريض. كقوله: إنى فىك لراغب، ونحو ذلك.

وقوله: ﴿ وَلَا تَعْرِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابَ أَجَلَهُ ﴾ يعنى: ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضى العدة. قال ابن عباس، ومجاهد، والشعبى، وقتادة وغيرهم. وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد فى مدة العدة. وقوله: ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾ توعدهم على ما يقع فى ضمائرهم من أمور النساء، وأرشدهم إلى إضمار الخير دون الشر، ثم لم يؤيسهم من رحمته، ولم يقنطهم من عائدته، فقال: ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾.

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَقْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَىٰ الْمَوْسِعِ قَدَرُهُمْ وَعَلَىٰ الْمَقْتَرِ قَدَرُهُمْ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَىٰ الْمُحْسِنِينَ ﴾

أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها وقبل الدخول بها. قال ابن عباس، وغيره المس: النكاح. بل ويجوز أن يطلقها قبل الدخول بها، والفرض لها إن كانت مفوضة، وإن

(١) « ولا ينصب لها » - بكر الصاد، يقال: « نصب للشئ ينصب نصبا »: إذا قصده وتحيرده، وفى المطبوعة: « يتصب » وهو تحريف.

كان في هذا انكسار لقلبها؛ ولهذا أمر تعالى بإمتاعها، وهو تعويضها عما فاتها بشيء تعطاه من زوجها بحسب حاله، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره. وقال ابن عباس: متعة الطلاق أعلاه الخادم، ودون ذلك الورق، ودون ذلك الكسوة. ومتع الحسن بن علي بعشرة آلاف، ويروى أن المرأة قالت:

متاع قليل من حبيب مفارق

وقد اختلف العلماء أيضاً: هل تجب المتعة لكل مطلقة؟ أو إنما تجب المتعة لغير المدخول بها التي لم يفرض لها؟ على أقوال:

أحدها: أنه تجب المتعة لكل مطلقة، لعموم قوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١] ولقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأزْوَاجِكُ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسْرِحْكُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨]، وقد كُنَّ مفروضاً لهن ومدخولاً بهن، وهذا قول سعيد بن جبيرة، والحسن البصري. وهو أحد قولي الشافعي، ومنهم من جعله الجديد الصحيح، فالله أعلم.

والقول الثاني: أنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس، وإن كانت مفروضاً لها؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩]، قال سعيد بن المسيب: نسخت هذه الآية التي في الأحزاب الآية التي في البقرة. وقد روى البخاري في صحيحه، عن سهل بن سعد، وأبي أسيد أنهما قالوا: تزوج رسول الله ﷺ أميمة بنت شراحيل، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها، فكانها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقين^(١).

والقول الثالث: أن المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها، ولم يفرض لها، فإن كان قد دخل بها وجب لها مهر مثلها إذا كانت مفوضة، وإن كان قد فرض لها وطلقها قبل الدخول، وجب لها عليه شطره، فإن دخل بها استقر الجميع، وكان ذلك عوضاً لها عن المتعة، وإنما المصابة التي لم يفرض لها ولم يدخل بها، فهذه التي دلت هذه الآية الكريمة على وجوب متعتها. وهذا قول ابن عمر، ومجاهد.

ومن العلماء: من استحبه لكل مطلقة ممن عدا المفوضة المفارقة قبل الدخول: وهذا ليس بمنكور، وعليه تحمل آية التخيير في الأحزاب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾، ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١].

ومن العلماء من يقول: إنها مستحبة مطلقاً. وروى ابن أبي حاتم: عن أبي إسحاق، عن

(١) هي « أميمة بنت النعمان بن شراحيل »، نسبت هنا لجدها، مترجمة في الإصابة، وأشار إلى هذا الحديث عند البخاري. ووقع في المطبوعة « شرحبيل » وهو تحريف. وقوله: « رازقين » قال ابن الأثير: « الرازقية: ثياب كان يبيض ». وفي المطبوعة: « أزرقين » وهو تحريف.

الشعبي قال: ذكروا له المتعة، أيحبس فيها؟ فقرأ: ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ﴾ قال الشعبي: والله ما رأيت أحداً حبس فيها، والله لو كانت واجبة لحبس فيها القضاة.

﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١٧)

وهذه الآية الكريمة بما يدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولى، حيث إنما أوجب في هذه الآية نصف المهر المفروض، وإذا طلق الزوج قبل الدخول، فإنه لو كان ثم واجب آخر من متعة لبينها، لاسيما وقد قرنهما بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الآية، والله أعلم. وتشطير الصداق - والحالة هذه - أمر مجمع عليه بين العلماء، لاختلاف بينهم في ذلك، فإنه متى كان قد سمي لها صداقاً ثم فارقتها قبل دخوله بها، فإنه يجب لها نصف ما سمي من الصداق، إلا أن عند الثلاثة أنه يجب جميع الصداق إذا خلا بها الزوج، وإن لم يدخل بها، وهو مذهب الشافعي في القديم، وبه حكم الخلفاء الراشدون، لكن روى الشافعي عن ابن عباس أنه قال: - في الرجل يتزوج المرأة فيخلو بها ولا يمسه ثم يطلقها : ليس لها إلا نصف الصداق؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ قال الشافعي: بهذا أقول، وهو ظاهر الكتاب.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ﴾ أي: النساء عما وجب لها على زوجها من النصف، فلا يجب لها عليه شيء. قال ابن عباس: إلا أن تعفو الثيب فتدع حقها. وروى عن شريح، وسعيد بن المسيب، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم - نحو ذلك.

وقوله: ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ قال ابن أبي حاتم: ذكر عن ابن لهيعة، حدثني عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «ولى عقدة النكاح الزوج». وهكذا أسنده ابن مردويه من حديث عبد الله بن لهيعة، به. وقد أسنده ابن جرير، عن ابن لهيعة، عن عمرو بن شعيب أن رسول الله ﷺ، فذكره، ولم يقل: عن أبيه، عن جده فإله أعلم (١). ثم روى ابن أبي حاتم، عن شريح قال: سألتني على بن أبي طالب عن الذي بيده عقدة النكاح. فقلت له: هو ولى المرأة. فقال على: لا، بل هو الزوج (٢)، ثم نقل سعيد بن المسيب وسعيد بن جبيرة ومجاهد والشعبي وغيرهم: أنه الزوج. قلت: وهذا هو الجديد من قولي الشافعي، ومذهب أبي حنيفة. وأصحابه، والثوري، واختاره ابن جرير. ومأخذ هذا القول: أن

(١) وهكذا ذكر البيهقي (٧/ ٢٥٠، ٢٥١) رواية ابن أبي لهيعة معلقة، كما صنع ابن أبي حاتم. ورواية الطبري (٥٣٥٥) - منقطعة، فهو حديث ضعيف بكل حال.

(٢) إسناده صحيح.

الذى بيده عقدة النكاح حقيقة: الزوج، فإن بيده عقدها وإبرامها ونقضها وانهدامها، وكما أنه لا يجوز للولى أن يهب شيئاً من مال المولية للغير، فكذلك فى الصداق.

وقوله: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾: قال ابن جرير: قال بعضهم: خوُطِبَ به الرجال، والنساء. وروى عن ابن عباس قال: أقربهما للتقوى الذى يعفو. وكذا روى عن الشعبي، وغيره، وقال مجاهد، والضحاك وغيرهم: الفضل هاهنا أن تعفو المرأة عن شطرها، أو إتمام الرجل الصداق لها. ولهذا قال: ﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أى: الإحسان، قاله سعيد. وقال الضحاك، وقتادة، والسدى: المعروف: لا تهملوه بينكم. وروى ابن مردويه: عن على بن أبى طالب، أن رسول الله ﷺ قال: «لِيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ عَضُوضٌ، يَعْضُ الْمُؤْمِنُ عَلَى مَا فِي يَدَيْهِ وَيَنْسَى الْفَضْلَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، شرار يباعون كل مضطر، وقد نهى رسول الله ﷺ عن بيع المضطر، وعن بيع الغرر، فإن كان عندك خير فعُدْ به على أخيك، ولا تزده هلاكاً إلى هلاكه، فإن المسلم أخو المسلم لا يحزنه ولا يحرمه» (١).

﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (١٦٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فِرَاجًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات فى أوقاتها، وحفظ حدودها وأدائها، كما ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ: أى العمل أفضل؟ قال: « الصلاة على وقتها». قلت: ثم أى؟ قال: « الجهاد فى سبيل الله». قلت: ثم أى؟ قال: « بر الوالدين». قال: حدثنى بهن رسول الله ﷺ، ولو استزدته لزدانى.

وخص من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى. وقد اختلف السلف والخلف فيها: أى صلاة هى؟ (٢).

فقيل: إنها الصبح. حكاه مالك فى الموطأ بلاغاً عن على، وابن عباس. وروى الطبرى عن أبى رجاء العطاردى قال: صليت خلف ابن عباس الفجر، ففقت فيها، ورفع يديه، ثم قال: هذه الصلاة الوسطى التى أمرنا أن نقوم فيها قانتين (٣). وروى أيضا عن أبى العالية قال:

(١) إسناد ابن مردويه فيه راويان لم أعرفهما. والحديث رواه الإمام أحمد فى المسند (٩٣٧) وأبو داود (٣٣٨٢) بإسناد آخر « عن شيخ من بنى تميم، قال: خطبنا على... » فذكر معناه. وإسناده صحيح، إلا جهالة التابعى رواه.

(٢) أطال الطبرى القول والرواية فى تفسير « الصلاة الوسطى » با لم نجده مستوعبا عند غيره. فروى ١١٣ خبرا، بين مرفوع وموقوف وأثر. وقد استوفينا تخريجها هناك والحمد لله (١٦٨/٥ - ٢٦٦). ثم رجح القول الصحيح: أنها صلاة العصر. والحافظ ابن كثير ساق هنا كثيرا من الروايات، رأينا أن نقتصر منها على أصحابنا سنداً وأوتقها فى الاستدلال للأقوال التى ذكرها. ثم ندع سائرنا، على شرطنا فى اختصار هذا (العمدة) عن ابن كثير.

(٣) الطبرى (٥٤٧٥). ورواه قبله وبعده بنحوه. ورواه أيضا الطحاوى والبيهقى، كما بينا هناك.

صليت خلف عبد الله بن قيس بالبصرة صلاة الغداة، فقلت لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ، إلى جاني: ما الصلاة الوسطى؟ قال: هذه الصلاة (١). وروى أيضا عن جابر بن عبد الله قال: الصلاة الوسطى: صلاة الصبح (٢). وحكاه ابن أبي حاتم، عن ابن عمر، وأبي أمامة، وأنس، ومجاهد، وعكرمة، وغيرهم وهو الذى نص عليه الشافعى، محتجا بقوله: ﴿وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾. والقنوت عنده فى صلاة الصبح ! ومنهم من قال: هى الوسطى باعتبار أنها لا تقصر، وهى بين صلاتين رباعيتين مقصورتين. وترد المغرب. وقيل: لأنها بين صلاتى ليل جهريتين .

وقيل: إنها صلاة الظهر. فروى أحمد عن زيد بن ثابت قال: كان رسول الله ﷺ يصلى الظهر بالهاجرة، ولم يكن يصلى صلاة أشد على أصحاب النبى، ﷺ، منها، فنزلت: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى﴾ وقال: « إن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين»، ورواه أبو داود (٣). وروى ابن جرير، عن زيد بن ثابت، فى حديث رفعه قال: الصلاة الوسطى صلاة الظهر (٤). ومن روى عنه أنها الظهر: ابن عمر، وأبو سعيد، وعائشة على اختلاف عنهم. وهو قول عروة ابن الزبير، ورواية عن أبى حنيفة.

وقيل: إنها صلاة العصر. قال الترمذى والبعغوى: وهو قول أكثر علماء الصحابة وغيرهم، وقال ابن عبد البر: هو قول أكثر أهل الأثر. وقال الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدماطى فى كتابه المسمى: «كشف المغطى، فى تبيين الصلاة الوسطى»: وقد نصر فيه أنها العصر، وحكاه عن عمر، وعلى، وابن مسعود، وأبى أيوب، وعبد الله بن عمرو، وسمره بن جندب، وأبى هريرة، وأبى سعيد، وحفصة، وأم حبيبة، وأم سلمة. وعن ابن عمر، وابن عباس، وعائشة على الصحيح عنهم. وبه قال النخعى، وزر بن حبيش، وسعيد بن جبيرة، وابن سيرين، والحسن، وقتادة، وغيرهم وهو مذهب أحمد بن حنبل. قال ابن المنذر: وهو الصحيح عن أبى حنيفة، وأبى يوسف، ومحمد، واختاره ابن حبيب المالكى، رحمهم الله. والدليل على ذلك ما رواه قال أحمد: عن على قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله قلوبهم وبيوتهم نارا». ثم صلاها بين العشاءين: المغرب

(١) الطبرى (٥٤٨٠). وإسناده صحيح . و « عبد الله بن قيس » : هو أبو موسى الأشعري. والصحابى الذى سأله أبو العالية لم يذكر اسمه . وإبهام الصحابى لا يضر فى صحة الرواية .

(٢) الطبرى (٥٤٨٣) وإسناده صحيح .

(٣) المسند (١٨٣ / ٥ حلى) وأبو داود (٤١١) والطبرى (٥٤٥٩) . ورواه أيضا الطحاوى والبيهقى . وأسانيده صحاح .

(٤) هكذا رواه الطبرى (٥٤٥٠) مرفوعا ، وإسناده صحيح ، وفى رفعه علة ، وذلك أنه رواه أحمد فى المسند (١٨٣ / ٥ حلى) والدارمى (٧٥ / ١) مطولا . وسياقه عندهما يدل - يقينا - على أن هذه الكلمة من كلام زيد ابن ثابت ، ليست من الحديث المرفوع ، وأن الراوى الذى اختصره وهم فاختأ . وقد بينا ذلك مفصلا فى تخريجات الطبرى .

والعشاء (١) . وأخرجه الشيخان، وأبو داود، والترمذى، والنسائى، وغير واحد من أصحاب المساند، والسنن، والصحاح من طرق يطول ذكرها. وحديث يوم الأحزاب، وشغل المشركين رسول الله ﷺ، وأصحابه عن أداء صلاة العصر يومئذ، مروى عن جماعة من الصحابة يطول ذكرهم، وإنما المقصود رواية من نص منهم فى روايته أن الصلاة الوسطى: هى صلاة العصر. وقد رواه مسلم أيضا، من حديث ابن مسعود، والبراء بن عازب [ثم نقل المؤلف الحافظ أحاديث جملة فى هذا، عن صحابة كثيرين . ثم قال]: فهذه نصوص فى المسألة لا تحتمل شيئا، ويؤكد ذلك الأمر بالمحافظة عليها، وقوله ﷺ فى الحديث الصحيح، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: « من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله » (٢). وفى الصحيح أيضا، عن بُريدة بن الحُصَيْب، عن النبى ﷺ قال: «بكروا بالصلاة فى يوم الغيم، فإنه من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله» (٣).

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد أيضا عن أبى يونس مولى عائشة قال: أمرتنى عائشة أن أكتب لها مصحفاً، قالت: إذا بلغت هذه الآية: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى﴾ فأذنى. فلما بلغت أذنتها، فأملت على: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين» قالت: سمعتها من رسول الله ﷺ وهكذا رواه مسلم (٤). وروى ابن جرير عن نافع، أن حفصة أمرت مولى لها أن يكتب لها مصحفاً فقالت: إذا بلغت هذه الآية: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى﴾ فلا تكتبها حتى أمليها عليك كما سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها. فلما بلغها أمرته فكتبتها: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين». قال نافع: فقرأت ذلك المصحف فرأيت فيه «الواو» (٥). وكذا روى ابن جرير، عن ابن عباس وعبيد بن عمير أنهما قرآ كذلك. وتقرير المعارضة أنه عطف صلاة العصر على الصلاة الوسطى بواو العطف التى تقتضى المغايرة، فدل ذلك على أنها غيرها. وأجيب عن ذلك بوجوه: أحدها: أن هذا إن روى على أنه خبر، فحديث على أصح وأصرح منه، وهذا يحتمل أن تكون

(١) هذه الرواية فى المسند (٦١٧ - ٩١١)، ورواه أيضا بأسانيد كثيرة، تعرف من فهرسه . ورواه الطبرى (٥٤٢٦) كرواية المسند هذه، ورواه بأسانيد كثيرة، أشرنا إليها فى (٥٣٨٠).

(٢) رواه أحمد فى المسند مرارا، منها (٤٥٤٥). ورواه أصحاب الكتب الستة . ورواه الطبرى (٥٣٨٩) وعبد الرزاق فى المصنف (١ / ١٨١ مخطوط)، بزيادة رأى ابن عمر أنها الصلاة الوسطى . وإسناده صحيح على شرط الشيخين .

(٣) رواه أحمد فى المسند (٥ / ٣٦١ حلى). وابن ماجه (٦٩٤) والطبرى (٥٤٩٥) بنحوه - بأسانيد صحاح. وقد تساهل الحافظ ابن كثير فى نسبه بهذا اللفظ «لصحيح». فإنه رواه البخارى (٢ / ٢٦، ٥٣)، ولكن فيه الأمر بالتكبير يوم الغيم من كلام بريدة، لا من الحديث المرفوع . وكلاهما صحيح : الموقوف والمرفوع .

(٤) المسند (٦ / ٧٣، ١٧٨ حلى) والموطأ (ص ١٣٨، ١٣٩) ومسلم (١٧٤/١، ١٧٥). وانظر تفصيل تخريجه فى الطبرى (٥٤٦٧).

(٥) الطبرى (٥٤٦٢). وقد ذكر الحافظ ابن كثير - قبل هذا وبعده - روايات أخر لحديثى عائشة وحفصة، وتفصيل ذلك فى الطبرى .

الواو زائدة ، كما فى قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الانعام : ٥٥] ، ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ [الانعام : ٧٥] ، أو تكون لعطف الصفات لالعطف الذات ، كقوله : ﴿ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ ﴾ [الاحزاب : ٤٠] ، وكقوله : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى . الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى . وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ [الاعلى : ٤] وأشبهه ذلك كثيرة .

وقد نص سيويه شيخ النحاة على جواز قول القائل : مررت بأخيك وصاحبك ، ويكون الصاحب هو الأخ نفسه ، والله أعلم . وأما إن روى على أنه قرآن فإنه لم يتواتر ، فلا يثبت بمثل خبر الواحد قرآن ؛ ولهذا لم يثبت أمير المؤمنين عثمان بن عفان فى المصحف [الإمام] ، ولا قرأ بذلك أحد من القراء الذين تثبت الحجة بقراءتهم ، لا من السبعة ولا غيرهم . ثم قد روى ما يدل على نسخ هذه التلاوة المذكورة فى هذا الحديث . فروى مسلم عن البراء بن عازب ، قال : نزلت : « حافظوا على الصلوات و صلاة العصر » فقرأناها على رسول الله ﷺ ما شاء الله ، ثم نسخها الله ، عز وجل ، فأنزل : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ ، فقال له - رجل - : أفهى العصر؟ قال : قد حدثت كيف نزلت ، وكيف نسخها الله ، عز وجل (١) . فعلى هذا تكون هذه التلاوة ، وهى تلاوة الجادة ، ناسخة للفظ رواية عائشة وحفصة ، ولمعناها ، إن كانت الواو دالة على المغايرة ، وإلا فلفظها فقط ، والله أعلم . وقيل : إن الصلاة الوسطى هى صلاة المغرب . رواه ابن أبى حاتم عن ابن عباس . وفى إسناده نظر . وقيل : إنها العشاء الآخرة ، اختاره الواحدى فى تفسيره . وقيل : هى واحدة من الخمس ، لا بعينها ، وأبهمت فيهن ، كما أبهمت ليلة القدر فى الحول أو الشهر أو العشر . وقيل : بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس ، رواه ابن أبى حاتم عن ابن عمر ، وفى صحته أيضاً نظر . والعجب أن هذا القول اختاره الشيخ أبو عمر بن عبد البر النمرى ، إمام ما وراء البحر ، وإنها لإحدى الكبير ، إذ اختار - مع اطلاعه وحفظه - ما لم يقم عليه دليل من كتاب ولا سنة ولا أثر . وتوقف فيها آخرون لما تعارضت عندهم الأدلة ، ولم يظهر لهم وجه الترجيح . ولم يقع الإجماع على قول واحد . وكل هذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلى التى قبلها ، وإنما المدار ومعتك النزاع فى الصبح والعصر . وقد ثبتت السنة بأنها العصر ، فتعين المصير إليها .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَاتِنِينَ ﴾ أى : خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه ، وهذا الأمر مستلزم ترك الكلام فى الصلاة ، لمنافاته إياها ؛ ولهذا لما امتنع النبى ﷺ من الرد على ابن مسعود حين سلم عليه ، وهو فى الصلاة ، اعتذر إليه بذلك ، وقال : « إن فى الصلاة لشغلا » ، وفى صحيح مسلم أنه عليه السلام قال لمعاوية بن الحكم السلمي حين تكلم فى الصلاة : « إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شىء من كلام الناس ، إنما هى التسبيح والتكبير وذكر الله » (٢) . وروى الإمام أحمد ، عن عمرو الشيبانى ، عن زيد بن أرقم قال : كان الرجل يكلم صاحبه فى عهد

(١) صحيح مسلم (١ / ١٧٥) والطبرى (٥٤٣٧) ، وتخرجه مفصل هناك .

(٢) مسلم (١ / ١٥١) فى حديث طويل ، ولفظه : « إنما هو التسبيح والتكبير » .

النبي ﷺ، في الحاجة في الصلاة، حتى نزلت هذه الآية: ﴿ وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ فأمرنا بالسكوت. رواه الجماعة - سوى ابن ماجه (١).

وقد أشكل هذا الحديث على جماعة من العلماء، حيث ثبت عندهم أن تحريم الكلام في الصلاة كان بمكة، قبل الهجرة إلى المدينة وبعد الهجرة إلى أرض الحبشة، كما دل على ذلك حديث ابن مسعود الذي في الصحيح، قال: كنا نسلم على النبي ﷺ قبل أن نهجر إلى الحبشة وهو في الصلاة، فبرد علينا، قال: فلما قدمنا سلمت عليه، فلم يرد على، فأخذني ما قُرب وما بُعد، فلما سلم قال: «إني لم أرد عليك إلا أني كنت في الصلاة، وإن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث ألا تكلموا في الصلاة». وقد كان ابن مسعود ممن أسلم قديماً، وهاجر إلى الحبشة، ثم قدم منها إلى مكة مع من قدم، فهاجر إلى المدينة، وهذه الآية: ﴿ وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ مدنية بلا خلاف، فقال قائلون: إنما أراد زيد بن أرقم بقوله: «كان الرجل يكلم أخاه في حاجته في الصلاة» الإخبار عن جنس الكلام، واستدل على تحريم ذلك بهذه الآية بحسب ما فهمه منها، والله أعلم (٢).

وقوله: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾: لما أمر تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات، والقيام بحدودها، وشدد الأمر بتأكيدها - ذكر الحال التي يشتغل الشخص فيها عن أدائها على الوجه الأكمل، وهي حال القتال والتحام الحرب، فقال: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ أى: فصلوا على أى حال كان، رجالا أو ركباناً، يعنى مستقبلى القبلة وغير مستقبلها كما قال مالك، عن نافع، عن ابن عمر: كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها. ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالا على أقدامهم، أو ركباناً، مستقبلى القبلة أو غير مستقبلها. قال نافع: لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي ﷺ. ورواه البخارى - وهذا لفظه - ومسلم. ولمسلم أيضاً، عن ابن عمر قال: فإن كان خوف أشد من ذلك فصل ركباً، أو قائماً تومئ إيماء. وفي حديث عبد الله بن أنيس الجهنى لما بعثه النبي ﷺ إلى خالد بن سفيان الهذلى ليقتله، وكان نحو عُرنة - وعرفات، فلما واجهه حانت صلاة العصر، قال: فخشيت أن تفوتنى، فجعلت أصلى وأنا أومئ إيماء. الحديث بطوله رواه أحمد، وأبو داود بإسناد جيد (٣). وهذا من رخصة الله التي رخص لعباده، ووَضَعِ الْأَصَارَ وَالْأَعْلَالَ عَنْهُمْ. وقد

(١) المسند (٤ / ٣٦٨ حلى)، والطبرى (٥٥٢٤) وتخريجه هناك.

(٢) تفسير «قانتين» - هذا - هو التفسير الصحيح، الذى لا ينبغى لأحد أن يظن غيره. وهو نقض لما نسب للشافعى، فيما مضى (ص ٣٤١) أنه احتج بهذه الآية الدلالة على أن الصلاة الوسطى هي الصحيح، بأن «القتوت عنده في صلاة الصبح»! وما أظن الشافعى يقول هذا، وما هو من بابه كلامه. ولم أجده فيما رأيت من فيه. ولعله مما تعلق به بعض متأخرى أصحابه، تزيداً في العلم! و«القتوت» في صلاة الصبح أو غيرها من الصلوات - له معنى خاص، غير المعنى في هذه الآية. ثم أظن أحد الشافعى أن يزعم أن الأمر بالقتوت في هذه الآية خاص بصلاة الصبح، فلا يطلب الخشوع ولا السكوت عن الكلام إلا فيها؟!

(٣) المسند (١٦١١٤، ١٦١١٥) وأبو داود (١٢٤٩).

ذهب الإمام أحمد، فيما نص عليه، إلى أن صلاة الخوف تفعل في بعض الأحيان ركعة واحدة إذا تلاحم الجيوشان، وعلى ذلك ينزل الحديث الذي رواه مسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وابن جرير عن ابن عباس قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم، ﷺ، في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة (١) وبه قال الحسن البصرى، وقتادة، والضحاك، وغيرهم واختار هذا القول ابن جرير . وقال البخارى: «باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو» وقال الأوزاعى: إن كان تهيأ الفتح، ولم يقدروا على الصلاة، صلوا إيماء، كل امرئ لنفسه، فإن لم يقدروا على الإيماء أخرجوا الصلاة حتى ينكشف القتال أو يأمنوا، فيصلوا ركعتين، فإن لم يقدروا صلوا ركعة وسجدتين، فإن لم يقدروا لا يجزيهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا. وبه قال مكحول : وقال أنس بن مالك: حضرت مناهضة حصن تُستَر عند إضاءة الفجر، واشتد اشتعال القتال، فلم يقدروا على الصلاة، فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار، فصليناها، ونحن مع أبى موسى، ففتح لنا. قال أنس: وما يسرنى بتلك الصلاة الدنيا وما فيها. هذا لفظ البخارى (٢). ثم استشهد على ذلك بحديث تأخيره ﷺ ، صلاة العصر يوم الخندق لعذر المحاربة إلى غيبوبة الشمس، وبقوله ﷺ، بعد ذلك لأصحابه، لما جهزهم إلى بنى قريظة: «لا يصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة»، فمنهم من أدركته الصلاة فى الطريق فصلوا، وقالوا: لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل السير، ومنهم من أدركته فلم يصل إلى أن غربت الشمس فى بنى قريظة، فلم يعنف واحداً من الفريقين (٣). وهذا يدل على اختيار البخارى لهذا القول، والجمهور على خلافه، ويعولون على أن صلاة الخوف، على الصفة التى ورد به القرآن فى سورة النساء، ووردت بها الأحاديث، لم تكن مشروعة فى غزوة الخندق، وإنما شرعت بعد ذلك. وقد جاء مصرحاً بهذا فى حديث أبى سعيد، وغيره، وأما مكحول، والأوزاعى، والبخارى فيجيبون بأن مشروعية صلاة الخوف بعد ذلك لا تنافى جواز ذلك؛ لأن هذا حال نادر خاص، فيجوز فيه مثل ماقلنا، بدليل صنيع الصحابة زمن عمر فى فتح تستر، وقد اشتهر ولم ينكر، والله أعلم.

وقوله: ﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ أى: أقيموا صلاتكم كما أمرتم، فأتوا ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها وهجودها ﴿ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ أى: مثل ما أنعم عليكم وهداكم للإيمان وعلمكم ما ينفعكم فى الدنيا والآخرة - فقابلوه بالشكر والذكر، كقوله بعد ذكر صلاة الخوف: ﴿ فَإِذَا أطمأنتم فَأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ [النساء: ١٠٣] وستأتى الأحاديث الواردة فى صلاة الخوف وصفاتها فى سورة النساء، عند قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴾ الآية [النساء: ١٠٢].

(١) ورواه أحمد فى المسند (٢١٧٧) والطبرى (٥٥٦٩) .

(٢) الفتح (٢ / ٣٦١ - ٣٦٣) .

(٣) هو بمعناه ، من حديث ابن عمر - فى البخارى (٢ / ٣٦٤ فتح) .

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٤٠﴾ وَلَا مُطَلَّقَتٌ مَتَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٤٢﴾ ﴾

قال الأثرون: هذه الآية منسوخة بالتي قبلها، وهي قوله: ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾. روى البخارى عن ابن الزبير قال: قلت لعثمان بن عفان: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ﴾ قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها؟ قال: يابن أخى، لا غير شيئاً منه من مكانه (١). ومعنى هذا الإشكال الذى قاله ابن الزبير لعثمان: إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة الأشهر، فما الحكمة فى إبقاء رسمها مع زوال حكمها، وبقاء رسمها بعد التى نسختها يوهم بقاء حكمها؟ فأجابه أمير المؤمنين بأن هذا أمر توقيفى، وأنا وجدتها مثبتة فى المصحف كذلك بعدها، فأثبتها حيث وجدتها (٢).

وروى ابن أبى حاتم: عن ابن عباس، فى قوله: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ فكان للمتوفى عنها زوجها نفقتها وسكانها فى الدار سنة، فنسختها آية الموارث، فجعل لهن الثمن أو الربع. وروى عن ابن عباس أيضا قال: كان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدت سنة فى بيته، ينفق عليها من ماله، ثم أنزل الله بعد: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة: ٢٣٤]. فهذه عدة المتوفى عنها زوجها، إلا أن تكون حاملا، فعدتها أن تضع ما فى بطنها، وقال: ﴿ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ ﴾ [النساء: ١٢] فبين ميراث المرأة، وترك الوصية والنفقة (٣).

وقوله: ﴿ وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ ﴾ أى: يوصيكم الله بهن وصية، كقوله: ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ الآية [النساء: ١١]، وقال: ﴿ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ ﴾ [النساء: ١٢]، وقيل: إنما انتصب على معنى: فلتوصوا بهن وصية. وقرأ آخرون «وصية» بالرفع على معنى: كتب عليكم وصية واختارها ابن جرير ولا يمتنع من ذلك، لقوله: ﴿ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ فأما إذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر، أو بوضع الحمل، واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل - فإنهن لا يمتنعن من ذلك، لقوله: ﴿ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ ﴾ وهذا القول له اتجاه، وفى اللفظ مساعدة له، وقد اختاره جماعة، منهم: الإمام أبو العباس بن تيمية، ورده آخرون، منهم: الشيخ أبو عمر ابن عبد البر. وقول عطاء ومن تابعه على أن ذلك منسوخ بآية الميراث، إن أرادوا ما زاد على

(١) البخارى (٨ / ١٤٤ فتح).

(٢) قال الحافظ فى الفتح: « وهذا الموضع مما وقع فيه الناسخ مقديما فى ترتيب التلاوة على المنسوخ ». ثم أشار إلى آيات أخر فى مثل هذا.

(٣) هذه الرواية التى قبلها عن ابن عباس - ذكرهما السيوطى فى الدر المنثور (١ / ٢٨٩) فى سياق واحد، ونسبه لابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس فى النسخ والمنسوخ.

الأربعة أشهر والعشر مُسَلَّم، وإن أرادوا أن سكنى الأربعة أشهر والعشر لا تجب في تركة الميت، فهذا محل خلاف بين الأئمة، وهما قولان للشافعي، وقد استدلوا على وجوب السكنى في منزل الزوج بما رواه مالك في موطنه عن زينب بنت كعب بن عَجْرَةَ: أن الفُرَيْعَةَ بنت مالك ابن سنان، وهى أخت أبى سعيد الخدرى، أخبرتها: أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها فى بنى خُدْرَةَ، فإن زوجها خرج فى طلب أَعْبُدَ له أبقوا، حتى إذا كانوا بطرف القَدُومِ لحقهم، فقتلوه. قالت: فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلى فى بنى خُدْرَةَ، فإن زوجى لم يتركنى فى مسكن يملكه ولا نفقة قالت: فقال رسول الله ﷺ: «نعم» قالت: فانصرفت، حتى إذا كنت فى الحجرة نادانى رسول الله ﷺ - أو أمر بى فنوديت له - فقال: «كيف قلت؟» فرددت عليه القصة التى ذكرت له من شأن زوجى. فقال: «اسكنى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله» قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرًا. قالت: فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلى، فسألنى عن ذلك، فأخبرته، فاتبعه، وقضى به. وكذا رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه وقال الترمذى: حسن صحيح (١).

وقوله: ﴿وَالْمُطَلَّقاتِ مَتاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَقِينِ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما نزل قوله: ﴿مَتاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦] قال رجل: إن شئت أحسنت ففعلت، وإن شئت لم أفعل. فانزل الله هذه الآية ﴿وَالْمُطَلَّقاتِ مَتاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَقِينِ﴾. وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة، سواء كانت مفروضة، أو مفروضا لها أو مطلقة، قبل المسيس أو مدخولا بها، وهو قول عن الشافعى، وإليه ذهب سعيد ابن جبیر، وغيره من السلف، واختاره ابن جرير. ومن لم يوجبها مطلقاً يخصص من هذا العموم بمفهوم قوله: ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّساءَ ما لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَوْهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرَهُ مَتاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ وأجاب الأولون: بأن هذا من باب ذكر بعض أفراد العموم، فلا تخصيص على المشهور المنصور، والله أعلم.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يبينُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ﴾ أى: فى إحلاله وتحريمه، وفروضه، وحدوده، فيما أمركم به ونهاكم عنه، بينه ووضحه وفسره، ولم يتركه مجملا فى وقت احتياجكم إليه ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أى: تفهمون، وتدبرون.

﴿الَّتِى تَرى إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ ديارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَخبرَهُمْ إِنَّ اللهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾
 ﴿١٤٤﴾ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٤٤﴾ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضعافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٤٥﴾

(١) الموطأ (ص ٥٩١). ورواه الشافعى عن مالك فى كتاب الرسالة بتحقيقنا، رقم (١٢١٤)، ورواه الطبرى مختصراً ومطولا (٥٠٩٠، ٥٥٨٩)، وفضلنا تخريجه فى أولهما.

روى وكيع بن الجراح عن ابن عباس: قال: كانوا أربعة آلاف، خرجوا فراراً من الطاعون، قالوا: نأتى أرضاً ليس بها موت، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم: ﴿مُوتُوا﴾ فماتوا، فمر عليهم نبي من الأنبياء، فدعا ربه أن يحييهم، فأحياهم، فذلك قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَأِ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ الآية. وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أى: فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج والدلالات الدامغة، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أى: لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم في دينهم ودنياهم. وفي هذه القصة عبرة ودليل على أنه لن يغنى حذر من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، فإن هؤلاء فروا من الوباء طلباً لطول الحياة، فعملوا بتفويض قصدهم، وجاءهم الموت سريعاً فى آن واحد. ومن هذا القبيل الحديث الصحيح الذى رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس: أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسرغ، لقيه أمراء الأجناد: أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام - فذكر الحديث - فجاءه عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيباً لبعض حاجته فقال: إن عندى من هذا علما، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه» فحمد الله عمر ثم انصرف. وأخرجه فى الصحيحين (١).

وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أى: كما أن الحذر لا يغنى من القدر، كذلك الفرار من الجهاد وتجنبه لا يقرب أجلا، ولا يبعده، بل الأجل المحتوم والرزق المقسوم مقدر مقتن، لا يزداد فيه ولا ينقص منه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تظَلْمُونَ فَتِيلًا . أَيَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٧، ٧٨]. وروينا عن أمير الجيوش، ومقدم العساكر، وحامى حوزة الإسلام، وسيف الله المسلول على أعدائه، أبى سليمان خالد بن الوليد، رضى الله عنه، أنه قال - وهو فى سياق الموت: لقد شهدت كذا كذا موقفاً، وما من عضو من أعضائى إلا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة، وها أنا ذا أموت على فراشى كما يموت العير فلا نامت عين الجبناء . يعنى: أنه يتألم لكونه ما مات قتيلا فى الحرب، ويتأسف على ذلك، ويتألم أن يموت على فراشه.

وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾: يحث تعالى عباده على الإنفاق فى سبيل الله، وقد كرر تعالى هذه الآية فى كتابه العزيز فى غير موضع. وقوله: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾: روى عن عمر وغيره من السف: هو النفقة فى سبيل الله. وقيل: هو النفقة على العيال. وقوله: ﴿فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾، كما قال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾ الآية [البقرة: ٢٦١]. وسيأتى الكلام عليها. وروى الإمام أحمد

(١) هو هكذا مختصراً فى المسند (١٦٨٣) من طريق مالك، وهو فى الموطأ (ص ٨٩٤ - ٨٩٦) فى قصة مطولة.

عن أبي عثمان النهدي، قال: أتيت أبا هريرة فقلت له: إنه بلغني أنك تقول: إن الحسنة تضاعف ألف ألف حسنة؟ . قال: وما أعجبك من ذلك! لقد سمعته من النبي ﷺ يقول: «إن الله يضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة». هذا حديث غريب، وعلى بن زيد بن جدعان عنده مناكير، لكن رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر (١) . وفي معنى هذا الحديث ما رواه الترمذي وغيره، من طريق عمرو بن دينار، عن سالم، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب [عن أبيه]، أن رسول الله ﷺ قال: «من دخل سوقاً من الأسواق، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد [يحيى ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير] وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة [وبنى له بيتا في الجنة]» (٢).

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ يُقْبِضُ وَيَسْطُ ﴾ أى: أنفقوا ولا تبالوا، فالله هو الرزاق، يضيق على من يشاء في الرزق، ويوسعه على آخرين، له الحكمة البالغة في ذلك ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى: يوم القيامة.

(١) هو في المسند (٧٩٣٢) والطبري (٩٥١٠) ، ورواه أحمد أيضا أطول منه قليلا (١٠٧٧٠) . و «على بن زيد بن جدعان» : ثقة ، كما بينا في المسند مرارا . ولم ينفرد به ، كما بين الحافظ ابن كثير هنا ، من رواية ابن أبي حاتم بإسناد صحيح . ثم هو سيذكره أيضا عند تفسير الآية (٤٠) من سورة النساء ، عن روايتي المسند وابن أبي حاتم ، وعن رواية ثانية لابن أبي حاتم . وسيذكره مرة ثالثة عن تفسير الآية (٣٨) من سورة التوبة عن رواية ابن أبي حاتم الثانية .

(٢) ثبت هذا الحديث في المخطوطة الأزهرية والمطبوعة - ناقص الإسناد ، ومختصر المتن ، وقال الحافظ ابن كثير بعده - «الحديث» . فرأيت إثباته كاملا ، ليكون الكلام عليه أدق . والحديث في الترمذي (٢/ ٢٤٠) من طريق حماد بن زيد والمعتمر بن سليمان ، عن عمرو بن دينار - هذا - بهذا الإسناد . وكذلك رواه الإمام أحمد في المسند (٣٢٧) من طريق حماد بن زيد . وكذلك رواه ابن ماجه (٢٢٢٥) من طريق حماد بن زيد . وعمرو بن دينار - هذا ليس هو «عمرو بن دينار المكي الإمام الحافظ» ، بل هو «عمرو بن دينار البصري الأعور» مولى آل الزبير بن شعيب . وقد بينه الثلاثة في رواياتهم ، فقال أحمد : «مولى آل الزبير» ، وقال الترمذي وابن ماجه : «قهرمان آل الزبير» . ولم يكن جيدا من الحافظ ابن كثير أن يحذف وصفه بهذا ، لثلاثتهم أحد أنه المكي ، على الرغم من أن البصري - هذا - متأخر عن المكي . والبصري ضعيف جدا ، قال أحمد : «ضعيف منكر الحديث» ، وقال ابن معين : «لا شيء» . ثم إن الحديث عندهم جميعا ، من رواية «سالم» ، عن أبيه ، عن جده ، وفي رواية أحمد التصريح بأنه «عن عمر» . ولذلك ثبت في مسند «عمر» . فعن هذا أكملت أنا الإسناد هنا ، تصحيحا لما ثبت خطأ في المخطوطة والمطبوعة ، مما يوهم أنه من حديث «عبد الله بن عمر» مباشرة .

وللحديث إسناد آخر جيد ، بل صحيح . فرواه الدارمي (٢/ ٢٩٣) عن يزيد بن هارون ، عن أزهري بن سنان ، عن محمد بن واسع ، عن سالم ، عن أبيه ، عن جده ، بنحوه . وكذلك رواه الترمذي (٤/ ٢٤٠) وقال: «هذا حديث غريب» . والحاكم (١/ ٥٣٨) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٥٥) - كلهم من طريق يزيد بن هارون . وقال أبو نعيم : «رواه سعيد بن سليمان» عن أزهري - مثله . تفرد به أزهري عن محمد . وحدث به الأئمة عن يزيد : أحمد بن حنبل وأبو خيثمة وطبقتهما . و «أزهري بن سنان» : ثقة . وقد ضعفه بعضهم من أجل هذا الحديث . والحق أنه ثقة ، وترجمه البخاري في الكبير (١/ ١/ ٤٦٠) وقد ذكر الحاكم متابعات وشواهد لروايته ، تحتاج إلى تحقيق وعندى أن بعضها صحيح .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ آتِنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٢٤٦﴾

وكان ذلك في زمان داود، عليه السلام، وقد كان بين داود وموسى ما ينيف عن ألف سنة، والله أعلم [وقد أوحى الله إلى ذلك النبي من بنى إسرائيل] .

وأمره بالدعوة إليه وتوحيده، فدعا بنى إسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً يقاتلون معه أعداءهم، وكان الملك أيضاً قد باد فيهم، فقال لهم النبي: فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكاً ألا تقاتلوا وتفوا بما التزمتم من القتال معه؟ ﴿ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾ أى: وقد أخذت منا البلاد، وسييت الأولاد؟ قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ أى: ما وفوا بما وعدوا، بل نكل عن الجهاد أكثرهم، والله عليم بهم .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُودًا مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿٢٤٧﴾

أى: لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً منهم، فعين لهم طالوت، وكان رجلاً من أجنادهم، ولم يكن من بيت الملك؛ لأن الملك كان فى سبط يهوذا، ولم يكن هذا من ذلك السبط، فلماذا قالوا: ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ أى: كيف يكون ملكاً علينا ﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ﴾ أى: ثم هو مع هذا فقير، لا مال له يقوم بالملك .

وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت، وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف ثم قد أجابهم النبي قائلاً: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أى: اختاره لكم من بينكم، والله أعلم به منكم . يقول: لست أنا الذى عينته من تلقاء نفسى، بل الله أمرنى به لما طلبتم منى ذلك ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ أى: وهو مع هذا أعلم منكم، وأنبل وأشكل منكم، وأشد قوة وصبراً فى الحرب ومعرفة بها، أى: أتم علماً وقامة منكم . ومن هاهنا ينبغى أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شديدة فى بدنه ونفسه، ثم قال: ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُودًا مَن يَشَاءُ ﴾ أى: هو الحاكم الذى ما شاء فعل، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، لعلمه وحكمته ورافته بخلقه؛ ولهذا قال: ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى: هو واسع الفضل يختص برحمته من يشاء، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾

يقول لهم نبيهم : إن علامة بركة ملك طالوت عليكم أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ قيل : معناه : فيه وقار ، وجلالة . وقال ابن جريج : سألت عطاء عن قوله : ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ قال : ما تعرفون من آيات الله فتسكنون إليه . وكذا قال الحسن البصري .

وقوله : ﴿ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ ﴾ : روى ابن جرير : عن ابن عباس في هذه الآية قال : عصاه ورضاض الألواح . وكذا قال قتادة وغيره . وقوله : ﴿ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ : قال ابن عباس : جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض ، حتى وضعته بين يدي طالوت ، والناس ينظرون . وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ ﴾ أي : على صدقي فيما جئتكم به من النبوة ، وفيما أمرتكم به من طاعة طالوت ﴿ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي : بالله واليوم الآخر .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلتَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ يَأِذِنُ اللَّهُ لِلَّذِينَ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

يقول تعالى - مخبراً عن طالوت ملك بني إسرائيل حين خرج في جنوده ومن أطاعه من ملا بني إسرائيل - أنه قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ﴾ قال ابن عباس وغيره : وهو نهر بين الأردن وفلسطين ، يعني : نهر الشريعة المشهور ﴿ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ أي : فلا يصحني اليوم في هذا الوجه ، ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ أي : فلا بأس عليه ، قال الله تعالى : ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ قال ابن عباس : من اعترف منه بيده روى ، ومن شرب منه لم يرو . وقد روى ابن جرير عن البراء بن عازب قال : كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر ، على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر ، وما جازه معه إلا مؤمن . ورواه البخاري . عن البراء ، بنحوه (١) . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ أي : استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم ، فشجعهم علماؤهم بأن وعد الله حق ، فإن النصر من عند الله ، ليس عين كثرة عدد ولا عدد . ولهذا قالوا : ﴿ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ يَأِذِنُ اللَّهُ لِلَّذِينَ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذَا وَقَاتِلْ لِنا دُجالوتَ وَأَنْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ ﴿١٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَما يَشَاءُ ﴿١٥١﴾ وَلَوْلا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكنَّ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالمِينَ ﴿١٥٢﴾ تِلْكَ آياتُ اللَّهِ تَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

أى: لما واجه حزب الإيمان - وهم قليل - من أصحاب طالوت، لعدوهم أصحاب جالوت - وهم عدد كثير - ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا صَبْرًا ﴾ أى: أنزل علينا صبراً من عندك ﴿ وَتَبَّتْ أقدامنا ﴾ أى: فى لقاء الأعداء، وجنبا الفرار والعجز ﴿ وَأَنْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ ﴾.

قال الله تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى: غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴾ ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَآتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ الذى كان بيد طالوت ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ أى: النبوة ﴿ وَعَلَّمَهُ مَما يَشَاءُ ﴾ أى: بما يشاء الله من العلم الذى اختصه به ﷺ، ثم قال تعالى: ﴿ وَلَوْلا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ أى: لولاه يدفع عن قوم بآخرين - كما دفع عن بنى إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود - لهلكوا، كما قال: ﴿ وَلَوْلا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهْدِمَتِ صوامِعُ وَبِيعَ وَصَلواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فيها اسمُ اللَّهِ كَثيراً ﴾ الآية [الحج: ٤٠].

وقوله: ﴿ وَلَكنَّ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالمِينَ ﴾ أى: منّ عليهم ورحمة بهم، يدفع عنهم ببعضهم بعضاً، وله الحكم والحكمة، والحجة على خلقه فى جميع أفعاله، وأقواله.

ثم قال تعالى: ﴿ تِلْكَ آياتُ اللَّهِ تَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أى: هذه آيات الله التى قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق، أى: بالواقع الذى كان عليه الأمر، المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق، الذى يعلمه علماء بنى إسرائيل ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ يا محمد ﴿ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وهذا توكيد وتوطئة للقصم.

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ وَآتَنا عيسىَ ابنَ مريمَ الْبَيِّناتِ وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَقتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعدِهِمْ مِنْ بَعدِ ما جاءَتْهُمْ الْبَيِّناتُ وَلَكنِ ائْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَقتَتَلُوا وَلَكنِ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يُريدُ ﴾ ﴿١٥٣﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَنا دَاوُدَ زُبوراً ﴾ [الإسراء: ٥٥] ، وقال هاهنا: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ﴾ يعنى: موسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم، وكذلك آدم، كما ورد به الحديث المروى

فى صحيح ابن حبان، عن أبى ذر (١) ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ كما ثبت فى حديث الإسراء، حين رأى النبى ﷺ الأنبياء فى السموات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل.

فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت فى الصحيحين، عن أبى هريرة قال: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال اليهودى فى قسم يقسمه: لا والذى اصطفى موسى على العالمين. فرفع المسلم يده فلطم بها وجه اليهودى فقال: أى خبيث، وعلى محمد ﷺ؟ فجاء اليهودى إلى رسول الله ﷺ، فاشتكى على المسلم، فقال رسول الله ﷺ: «لا تفضلونى على الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش، فلا أدرى أفاق قبلى، أم جُوزى بصعقة الطور؟ فلا تفضلونى على الأنبياء». وفى رواية: «لا تفضلوا بين الأنبياء». فالجواب من وجوه:

أحدها: أن هذا كان قبل أن يعلم بالترفضيل! وفى هذا نظر.

الثانى: أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع.

الثالث: أن هذا نهى عن التفضيل فى مثل هذه الحال التى تحاكموا فيها عند التحاجم والتشاجر.

الرابع: لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصية.

الخامس: ليس مقام التفضيل إليكم، وإنما هو إلى الله، عز وجل، وعليكم الانقياد والتسليم له، والإيمان به.

وقوله: ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ أى: الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء بنى إسرائيل به، من أنه عبد الله ورسوله إليهم ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ يعنى: أن الله أيدته بجبريل عليه السلام، ثم قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا ﴾ أى: بل كل ذلك عن قضاء الله وقدره؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾.

﴿ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

يأمر تعالى [عباده] بالإنفاق مما رزقهم فى سبيله، سبيل الخير، ليدخروا ثواب ذلك عند ربهم ومليكتهم، وليبادروا إلى ذلك فى هذه الحياة الدنيا ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ ﴾ يعنى: يوم القيامة ﴿ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ ﴾ أى: لا يباع أحد من نفسه، ولا يفادى بمال لو بذله، ولو جاء بملء الأرض ذهباً، ولا تنفعه خلة أحد، يعنى: صداقته، بل ولا نسابته، كما قال: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي

(١) مضى من رواية ابن مردويه وغيره عند تفسير الآيتين (٣٥، ٣٦) من هذه السورة. وقد أئدنا من هذه الإشارة أنه فى صحيح ابن حبان. وسيأتى كاملاً من رواية المسند عند تفسير الآية (٢٥٥) من هذه السورة.

الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿المؤمنون: ١٠١﴾ ، ﴿وَلَا شَفَاعَةَ﴾ أى : ولا تنفعهم شفاعة الشافعين .

وقوله : ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ : مبتدأ محصور فى خبره ، أى : ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ كافراً . وقد روى ابن أبى حاتم ، عن عطاء بن دينار أنه قال : الحمد لله الذى قال : ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ، ولم يقل : والظالمون هم الكافرون .

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿١٥٥﴾﴾

هذه آية الكرسي ، ولها شأن عظيم ، قد صح الحديث عن رسول الله ﷺ ، بأنها أفضل آية فى كتاب الله . روى الإمام أحمد : عن أبى بن كعب : أن النبى ﷺ سأله : «أى آية فى كتاب الله أعظم؟» قال : الله ورسوله أعلم . فرددها مراراً ، ثم قال أبى : آية الكرسي . قال : «ليهنك العلم أبا المنذر ، والذى نفسى بيده ، إن لها لساناً وشفعتين ، تقدر الملك عند ساق العرش» وقد رواه مسلم ، وليس عنده زيادة : «والذى نفسى بيده» إلى آخره (١) . وروى أبو يعلى عن أبى ابن كعب : أنه كان له جرن فيه تمر ، قال : فكان يتعاهده ، فوجده ينقص ، قال : فحرسه ذات ليلة ، فإذا هو بدابة شبيهة الغلام المحتلم ، قال : فسلمت عليه فرد السلام . قال : فقلت : ما أنت ، جنى أم إنسى؟ قال : جنى . قلت : ناولنى يدك . قال : فناولنى ، فإذا يد كلب ، وشعر كلب . فقلت : هكذا خلق الجن؟ قال : لقد علمت الجن ما فيهم أشد منى ، قلت : فما حملك على ما صنعت؟ قال : بلغنى أنك رجل تحب الصدقة ، فأحببنا أن نصيب من طعامك . قال : فقال له : فما الذى يجيرنا منكم؟ قال : هذه الآية : آية الكرسي . ثم غدا إلى النبى ﷺ فأخبره ، فقال النبى ﷺ : «صدق الحديث» . وهكذا رواه الحاكم . وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢) .

وروى الإمام أحمد : عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ سأل رجلاً من صحابته ، فقال : «أى فلان ، هل تزوجت؟» قال : لا ، وليس عندى ما أتزوج به . قال : «أوليس معك : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ؟» قال : بلى . قال : «ربع القرآن . أليس معك : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ؟» قال : بلى . قال : «ربع القرآن . أليس معك : ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ ؟» قال : بلى . قال : «ربع القرآن أليس معك : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ؟» قال : بلى . قال : «ربع القرآن . أليس معك آية الكرسي : ﴿اللَّهُ

(١) المسند (٥ / ١٤١ ، ١٤٢ حلى) وصحيح مسلم (١ / ٢٢٣) ورواه أيضا أبو داود وابن الضريس والحاكم والهروى فى الفضائل ، كما فى الدر المنثور (١ / ٣٢٢) .

(٢) زاد السيوطى فى الدر المنثور (١ / ٣٢٢) نسبه للنسائى وابن حبان والطبرانى وأبى نعيم والبيهقى - معا - فى الدلائل . وأفاد الحافظ المزى أن النسائى رواه فى كتاب اليوم والليلة .

لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿﴾ قال : بلى . قال : « ربيع القرآن » (١) . وروى الإمام أحمد ، عن أبي ذر ، رضى الله عنه ، قال : أتيت النبي ﷺ وهو فى المسجد ، فجلست . فقال : « يا أبا ذر ، هل صليت ؟ » قلت : لا . قال : « قم فصل » قال : فقممت فصليت ، ثم جلست . فقال : « يا أبا ذر ، تَعَوِّذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ » قال : قلت : يا رسول الله ، أو للإنس شياطين؟ قال : « نعم » . قلت : يا رسول الله ، الصلاة؟ قال : « خير موضوع ، من شاء أقل ، ومن شاء أكثر » . قال : قلت : يا رسول الله ، الصوم؟ قال : « فرض مُجْزئ ، وعند الله مزيد » قلت : يا رسول الله ، فالصدقة؟ قال : « أضعاف مضاعفة » . قلت : يا رسول الله ، فأيتها أفضل؟ قال : « جهد من مُقِلِّ ، أو سرِّ إلى فقير » قلت : يا رسول الله أى الأتبياء كان أول؟ قال : « آدم » قلت : يا رسول الله ، ونبي كان؟ قال : « نعم ، نبي مُكَلِّم » قلت : يا رسول الله ، كم المرسلون؟ قال : « ثلثمائة وبضعة عشر ، جمأ غفيراً » وقال مرة : « وخمسة عشر » قلت : يا رسول الله ، أى ما أنزل عليك أعظم؟ قال : « آية الكرسي : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ » ورواه النسائي (٢) . وروى الإمام أحمد عن أبي أيوب : أنه كان فى سهوة له ، وكانت الغول تجيء فتأخذ ، فشكاها إلى النبي ﷺ : فقال : « فإذا رأيتها فقل : بسم الله ، أجبى رسول الله » . قال : فجاءت ، فقال لها : فأخذها ، فقالت : إني لا أعود . فأرسلها ، فجاء ، فقال له النبي ﷺ : « ما فعل أسيرك؟ » قال : أخذتها ، فقالت لى : إني لا أعود . فأرسلتها . فقال : « إنها عائدة » فأخذتها مرتين أو ثلاثاً ، كل ذلك تقول : لا أعود ، وأجىء إلى النبي ﷺ فيقول : « ما فعل أسيرك؟ » فأقول : أخذتها . فتقول : لا أعود . فيقول : « إنها عائدة » فأخذها ، فقالت : أرسلنى وأعلمك شيئاً تقوله فلا يقربك شيء : آية الكرسي . فأتى النبي ﷺ فأخبره ، فقال : « صدقت ، وهى كذوب » . ورواه الترمذى . وقال : حسن غريب . والغول فى لغة العرب : الجان إذا تبدى فى الليل (٣) .

(١) المسند (١٣٣٤٢) وفى آخره : « قال : تزوج ، تزوج ، تزوج ثلاث مرات » . وزاد السيوطى (١ / ٣٢٣) نسبه لابن الضريس والهروى فى فضائله . وذكره الهشمى فى الزوائد (٧ / ١٤٧) ، وقال : « رواه أحمد وسلمة ضعيف » . يعنى التابعى راويه عن أنس ، وهو « سلمة بن وردان » ، وضعفه أحمد وغيره ، ولكن قال أحمد ابن صالح : « هو عندى ثقة حسن الحديث » . ثم قد ترجمه البخارى فى الكبير (٧٨ / ٢ / ٧٩) ، وذكر أنه « سمع أنس بن مالك » ، ولم يذكر فيه جرأ ، فهو - عنده - ثقة .

(٢) هو فى المسند (٥ / ١٧٨ حلى) ، عن وكيع . ثم (ص ١٧٩) ، عن يزيد بن هارون - كلاهما عن المسعودى . وقد مضت أجزاء منه عند تفسير الآيات (١٤ ، ١٥ ، ٣٥ ، ٣٦) . وبيننا تخريجه فى (١ / ١٣٤) . ونزيد هنا أن الحاكم روى قطعة منه (٢ / ٢٨٢) ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » . ووافقه الذهبى . ورواية النسائي (٢ / ٣١٩) مختصرة كما بينا فى (١ / ١٠٩) . ونقل أستاذنا السيد رشيد رضا - بهامش ابن كثير - أن ابن الجوزى عدّه فى الموضوعات ، وأن السيوطى حقق أنه ضعيف ، وأنهم انتقدوا على ابن حبان إخراجه فى صحيحه !! أقول : وقد أخطأ ابن الجوزى ، وأخطأ السيوطى ، وأخطأ ناقدو ابن حبان .

(٣) المسند (٥ / ٤٢٣ حلى) . والترمذى (٤ / ٤٣) ورواه الحاكم (٣ / ٤٥٩) - بعد روايتين عن ابن عباس وأبى أيوب ، ولم يذكر لفظه كاملاً - ثم قال : « هذه الأسانيد إذا جمع بينها صارت حديثاً مشهوراً » وقال الذهبى عن الرواية الأخيرة هذه - : « هذا أجود طرق الحديث » . وذكره المنذرى فى الترغيب (٢ / ٢٢٠) من رواية الترمذى . وزاد السيوطى (١ / ٣٢٣) نسبه لابن أبى شيبة وابن أبى الدنيا وأبى الشيخ والطبرانى وأبى نعيم . و « السهوة » - بفتح السين المهملة وسكون الهاء : هى الطاق فى الحائط يوضع فيها الشيء .

وقد ذكر البخارى هذه القصة، عن أبى هريرة، قال: وكلنى رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتانى آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: إنى محتاج، وعلى عيال، ولى حاجة شديدة. قال: فخليت عنه. فأصبحت، فقال النبى ﷺ: «يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟» قال: قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالا، فرحمته وخليت سبيله. قال: «أما إنه قد كذبتك وسيعود» فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ: «إنه سيعود» فرصدته فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ. قال: دعنى، فإنى محتاج، وعلى عيال، لا أعود. فرحمته وخليت سبيله، فأصبحت فقال لى رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت: يا رسول الله، شكا حاجة وعيالا فرحمته فخليت سبيله. قال: «أما إنه قد كذبتك وسيعود» فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ. وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود، ثم تعود. فقال: دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بها. قلت: ما هن ما هن. قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرا آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ حتى تختتم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت فقال لى رسول الله ﷺ: «ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمنى كلمات ينفعنى الله بها، فخليت سبيله. قال: «ما هى؟» قال: قال لى: إذا أويت إلى فراشك فاقرا آية الكرسي من أولها حتى تختتم الآية: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وقال لى: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح - وكانوا أحرص شىء على الخير - فقال النبى ﷺ: «أما إنه صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب ثلاث ليال يا أبا هريرة؟» قلت: لا، قال: «ذاك شيطان». كذا رواه البخارى معلقا بصيغة الجزم. وقد رواه النسائى فى «اليوم والليلة». [ورواه ابن مردويه من وجه آخر، بسياق آخر قريب من هذا] (١). وقد تقدم لأبى بن كعب كائنة مثل هذه أيضاً، فهذه ثلاث وقائع. وروى أبو عبيد فى كتاب «الغريب»: عن الشعبي، عن عبد الله بن مسعود قال: خرج رجل من الإنس فلقيه رجل من الجن، فقال: هل لك أن تصارعنى، فإن صرعتنى علمتكَ آية إذا قرأتها حين تدخل بيتك لم يدخله شيطان؟ فصارعه، فصرعه، فقال: إنى أراك ضئيلا شخيئا كأن ذراعك ذراعا كلب، أفهكذا أنتم أيها الجن. كلكم. أم أنت من بينهم؟ فقال: إنى بينهم لضليع، فعأودنى، فصارعه، فصرعه الإنسى. فقال: تقرا آية الكرسي، فإنه لا يقرؤها أحد إذا دخل بيته إلا خرج الشيطان، وله خبيخ كخبيخ الحمار. فقيل لابن مسعود: أهو عمر؟ فقال: من عسى أن يكون إلا عمر؟ قال أبو عبيد: الضئيل: النحيف الجسم، والخبيخ - بالخاء المعجمة، ويقال: بالخاء

(١) البخارى (٤ / ٣٩٦ - ٣٩٨ فتح). وقال ابن حجر: «وصله النسائى والإسماعيلى وأبو نعيم»، وزاد للسيوطى (١ / ٣٢٦) نسبه لابن الضريس. وذكر المنذرى فى الترغيب (١ / ٢١٢) أنه «رواه البخارى وابن خزيمة وغيرهما»

المهملة: الضراط (١) . وروى الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ و ﴿الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١، ٢] : «إن فيهما اسم الله الأعظم». وكذا رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه. وقال الترمذى: حسن صحيح (٢). وروى ابن مردويه عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ دُبْرَ كل صلاة مكتوبة آية الكرسي، لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت» .

وهكذا رواه النسائي في «اليوم والليلة»، وأخرجه ابن حبان في صحيحه، وإسناده على شرط البخارى، وقد زعم أبو الفرج بن الجوزى أنه حديث موضوع، والله أعلم.

وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة:

فقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق، ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ أى: الحى فى نفسه الذى لا يموت أبداً المقيم لغيره، وكان عمر يقرأ: «الْقَيَّامُ»، فجميع الموجودات مفتقرة إليه، وهو غنى عنها، ولا قوام لها بدون أمره، كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]، وقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ أى: لا يعتربه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شىء، لا يغيب عنه شىء، ولا يخفى عليه خافية. ومن تمام القيومية أنه لا يعتربه سنة ولا نوم، فقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ﴾ أى لا تغلبه سنة، وهى الوَسْنُ والنعاس؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾؛ لأنه أقوى من السَّنة. وفى الصحيح عن أبى موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغى له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور - أو النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» (٣).

وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: إخبار بأن الجميع عبيده وفى ملكه وتحت قهره

(١) إسناده عند أبى عبيد - صحيح . وكذلك رواه الدارمى (٢ / ٤٤٧ ، ٤٤٨) ، بإسناد صحيح ، وزاد السيوطى (٣٢٣ / ١) نسبته للطبرانى وأبى نعيم فى الدلائل والبيهقى . وذكره الهيمى فى الزوائد (٩ / ٧٠ ، ٧١) بروايتين للطبرانى ، أولاها عن أبى وائل عن ابن مسعود . وقال : «رجال الرواية الثانية رجال الصحيح ، إلا أن الشعبى لم يسمع من ابن مسعود . ورواة الطريق الأول فيهم المسعودى ، وهو ثقة ولكنه اختلط ، فبان لنا صحة رواية المسعودى برواية الشعبى » . أقول : والشعبى عاصر ابن مسعود ، والمعاصرة كافية فى الاتصال لغير المدلس . والشعبى هو الشعبى . و «الشخيت» : النحيف الجسم الدقيق .

(٢) مضى عند الآية (١٦٣) بنحوه ، وهذه الرواية فى المسند (٦ / ٤٦١ حلى) . وهو فى الترمذى (٤ / ٢٥٣) . وابن ماجه (٣٨٥٥) .

(٣) رواه أحمد فى المسند (٤ / ٤٠٥ حلى) ومسلم (١ / ٦٤) وابن ماجه (١٩٥) . وفى روايتهم : «بخمس كلمات» . وأما لفظ «أربع» ففى روايتين آخرين فى مسلم . ورواه أحمد قبل ذلك (ص ٤٠١) دون ذكر العدد . قال القاضى عياض فى المشارق (٢ / ٢٠٣) فى معنى «سبحات وجهه» : «قيل : نور وجهه، وقيل : جمال وجهه . ومعناه : جلاله وعظمته» .

وسلطانه، كقوله: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥] .

وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ كقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِضِي﴾ [النجم: ٢٦]، وكقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ [الانباء: ٢٨] وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه، عز وجل، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة، كما في حديث الشفاعة: «أتى تحت العرش فأخر ساجداً، فیدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقال: ارفع رأسك، وقل تسمع، واشفع تشفع» قال: «فيحُدُّ لِي حِداً فأدخلهم الجنة» (١) .

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات: ماضيها وحاضرها ومستقبلها، كقوله إخباراً عن الملائكة: ﴿وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤] .

وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أي: لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله، عز وجل، وأطلعته عليه. ويحتمل أن يكون المراد: لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته إلا بما أطلعهم الله عليه، كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] .

وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: روى ابن أبي حاتم وابن جرير: عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ قال: علمه (٢) . قال ابن أبي حاتم: وروى عن سعيد بن جبير مثله. قال ابن جرير: وقال آخرون: الكرسي، موضع القدمين، ثم رواه عن أبي موسى، والسدي، والضحاك، ومسلم البطين. وروى شجاع بن مخلد عن ابن عباس قال: سئل النبي ﷺ عن قول الله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ قال: «كرسيه موضع قدميه، والعرش لا يقدر قدره إلا الله، عز وجل». كذا أورد هذا الحديث الحافظ أبو بكر بن مردويه، وهو غلط، وقد رواه وكيع في تفسيره: عن ابن عباس قال: الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره. وقد رواه الحاكم عن ابن عباس موقوفاً مثله، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه (٣) . وقد

(١) اقتباس من حديث طويل، رواه مسلم (١ / ٧١) من حديث أنس بن مالك .

(٢) الطبري (٥٧٨٧، ٥٧٨٨) وإسناده جيد، ولكنه شاذ بمرّة، مخالف للثابت الصحيح عن ابن عباس، كما سيأتي .

(٣) الحاكم (٢ / ٢٨٢) . ووافقه الذهبي على شرط الشيخين . وذكره قاضي القضاة ابن أبي العز في شرح الطحاوية (ص ٢١٧ بتحقيقنا) أنه رواه أيضاً ابن أبي شيبة في كتاب صفة العرش . وزاد السيوطي (١ / ٣٢٧) أنه رواه الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ والخطيب والبيهقي . ورواية الطبراني في مجمع الزوائد (٦ / ٣٢٣) ، وقال : « ورجاله رجال الصحيح » .

وهذا هو الصحيح الثابت عن ابن عباس . وأما الرواية السابقة عنه ، بتأويل الكرسي بالعلم - فهي رواية شاذة ، لا يقوم عليها دليل من كلام العرب . ولذلك رجح أبو منصور الأزهري الرواية الصحيحة عن ابن عباس ، وقال : « وهذه رواية اتفق أهل العلم على صحتها . ومن روى عنه في الكرسي أنه العلم ، فقد أبطل » وقد اختار الطبري القول الباطل ورجحه دون حجة قائمة . ورد عليه أخى السيد محمود محمد شاكر ردّاً قوياً نفسياً . انظره في الطبري (٥ / ٤٠١) .

زعم بعض المتكلمين على علم الهيئة من الإسلاميين: أن الكرسي عندهم هو الفلك الثامن، وهو فلك الثوابت الذي فوقه الفلك التاسع، وهو الفلك الأثير، ويقال له: الأطلس. وقد رد ذلك عليهم آخرون. وروى ابن جرير من طريق جُوَيْر، عن [الضحاك] عن الحسن البصرى أنه كان يقول: الكرسي هو العرش^(١). والصحيح أن الكرسي غير العرش، والعرش أكبر منه، كما دلت على ذلك الآثار والأخبار .

وقوله: ﴿ وَلَا يُؤَدُّهُ حِفْظُهُمَا ﴾ أى: لا يثقله ولا يكرِّهُه حفظ السموات والأرض ومن فيهما ومن بينهما^(٢) ، بل ذلك سهل عليه، يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء فلا يعزب عنه شيء، ولا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه محتاجة فقيرة وهو الغنى الحميد، الفعال لما يريد، الذى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. وهو القاهر لكل شيء، الحسيب على كل شيء، الرقيب العلى العظيم لا إله غيره ولا رب سواه، فقوله: ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ كقوله: ﴿ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى ﴾^(٣) [الرعد: ٩] . وهذه الآيات وما فى معناها من الأحاديث الصحاح - الأجود فيها طريقة السلف الصالح: إمرارها كما جاءت، من غير تكيف ولا تشبيه.

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ أى: لا تكرهوا أحداً على الدخول فى دين الإسلام، فإنه بين واضح جلى دلالته وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيد الدخول فى الدين مكرهاً مقسوراً. وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية فى قوم من الأنصار، وإن كان حكمها عاماً. فروى ابن جرير عن ابن عباس قال: كانت المرأة تكون مقلاتاً فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله، عز وجل: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ . وقد رواه أبو داود والنسائى نحوه. وقد رواه ابن أبى حاتم، وابن حبان فى صحيحه^(٤). وهكذا ذكر مجاهد، وسعيد بن جبير، والشعبى، والحسن البصرى، وغيرهم: أنها

(١) الطبرى (٥٧٩٥) والزيادة منه ، وهى ضرورية فى الإسناد و « جوير بن سعيد الأزدى » : ضعيف جداً ، فهذا القول - إذن - غير ثابت عن الحسن .

(٢) « كرهه الأمر ، يكرهه - بضم الراء وكسرهما - كرثاً » و « أكرهه » : ساء واشتد عليه ، وبلغ منه المشقة . ثلاثى ورياعى . وفى المطبوعة : « يكرثه » ! وهو تخليط ، صحته فى المخطوطة .

(٣) فى المطبوع من « عمدة التفسير » وكذا المخطوطة الأزهرية: « وهو الكبير المتعال » . وهو خطأ . والآية بتامها : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى ﴾ . (الباز) .

(٤) الطبرى (٥٨١٢ ، ٥٨١٣) وأبو داود (٢٦٨٢) وابن حبان (بتحقيقنا) . و « المقلات » - بكسر الميم وسكون القاف : المرأة التى لا يعيش لها ولد . يقال : « أقلت المرأة إقلاتاً » . ولا يقال ذلك للرجل .

نزلت في ذلك .

وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء: أن هذه محمولة على أهل الكتاب، ومن دخل في دينهم قبل النسخ والتبديل إذا بذلوا الجزية. وقال آخرون: بل هي منسوخة بآية القتال، فإنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الخفيف دين الإسلام، فإن أبى أحد منهم الدخول ولم ينقل له ويبدل الجزية، قوتل حتى يقتل. وهذا معنى الإكراه . قال الله تعالى: ﴿سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ﴾ [الفتح: ١٦] ، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحریم: ٩] ، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣]. وفي الصحيح: «عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل» (١) ، معنى: الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الإسلام في الوثاق والأغلال والقيود والأكبال، ثم بعد ذلك يسلمون، وتصلح أعمالهم وسرايرهم، فيكونون من أهل الجنة .

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد: عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «أسلم» قال: إنى أجدنى كارها . قال: «وإن كنت كارها». فإنه صحيح، ولكن ليس من هذا القبيل، فإنه لم يكرهه النبى ﷺ على الإسلام، بل دعاه إليه، فأخبره أن نفسه ليست قابلة له، بل هى كارهة، فقال له: «أسلم، وإن كنت كارها، فإن الله سيرزقك حسن النية والإخلاص» (٢) .

وقوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ أى: من خلع الأنداد والأوثان، وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله ، ووجد الله فعبده وحده ، وشهد أنه لا إله إلا هو ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ أى: فقد ثبت فى أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم . وروى أبو القاسم البغوى عن عمر قال: إن الجبّ: السحر، والطاغوت: الشيطان، وإن الشجاعة والجبّ غرائز تكون فى الرجال، يقاتل الشجاع عمن لا يعرف، ويفر الجبان عن أمه، وإن كرم الرجل دينه، وحسبه خلقه وإن كان فارسياً أو نبطياً . ورواه ابن جرير . وابن أبى حاتم . ومعنى قوله فى « الطاغوت »: أنه الشيطان، قوى جداً ، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية ، من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها .

وقوله: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ أى: فقد استمسك من الدين بأقوى سبب، وشبه ذلك بالعروة القوية التى لا تنقسم، فهى فى نفسها محكمة مبرمة قوية، وربطها قوى شديد، ولهذا قال: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ . قال مجاهد: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ يعنى: الإيمان . وقال السدى: هو الإسلام، وقال سعيد بن جبیر، والضحاك: يعنى لا إله إلا الله . وعن أنس بن مالك: ﴿الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى﴾: القرآن . وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا تنافى بينها . وقال معاذ ابن جبل، فى قوله: ﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ أى: لا

(١) المسند (٨٠٠٠) والبخارى (١٠١/٦ فتح) وابن حبان فى صحيحه (١٣٤) من حديث أبى هريرة .

(٢) المسند (١٢٠٨٦ ، ١٢٨٩٩) بإسنادين صحيحين .

انقطاع لها دون دخول الجنة. وقال مجاهد وسعيد بن جبير: ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْقِصَامَ لَهَا﴾ ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. وروى الإمام أحمد عن ابن عون، عن محمد - وهو ابن سيرين - عن قيس بن عباد قال: كنت في المسجد، فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع، فدخل فصلى ركعتين أوجز فيهما، فقال القوم: هذا رجل من أهل الجنة. فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله، فدخلت معه، فحدثته، فلما استأنس قلت له: إن القوم لما دخلت المسجد قالوا كذا وكذا. قال: سبحان الله! ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك لم: إنى رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ، فقصصتها عليه: رأيت كأنى في روضة خضراء - قال ابن عون: فذكر من خضرتها وسعتها - وسطها عمود حديد، أسفله في الأرض وأعلى في السماء، في أعلاه عروة، فقيل لى: اصعد عليه. فقلت: لا أستطيع. فجاءنى منصف - قال ابن عون: هو الوصيف - فرفع ثيابه من خلفى، فقال: اصعد. فصعدت حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك بالعروة. فاستيقظت وإنها لفى يدى، فأتيت رسول الله ﷺ فقصصتها عليه. فقال: «أما الروضة فروضة الإسلام، وأما العمود فعمود الإسلام، وأما العروة فهى العروة الوثقى، أنت على الإسلام حتى تموت». قال: وهو عبد الله بن سلام. أخرجاه فى الصحيحين (١).

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

يخبر تعالى أنه يهدى من اتبع رضوانه سبيل السلام، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب، إلى نور الحق الواضح الجلى المبين السهل المنير، وأن الكافرين إنما وليهم الشياطين تزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات، ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. ولهذا وحده تعالى لفظ النور وجمع الظلمات؛ لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة، وكلها باطلة كما قال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الانعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنُّورِ﴾ [الانعام: ١]، وقال تعالى: ﴿عَنِ اليمينِ وَعَنِ الشِّمَالِ﴾ [المعارج: ٣٧] إلى غير ذلك من الآيات التى فى لفظها إشعار بتفرد الحق، وانتشار الباطل وتفرقه وتشعبه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَنَّهُ اللَّهُ الْمَلَكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ أَلَّذِى يُعْبَدُ وَيُعْبَدُ قَالَ أَنَا أُعْبَدُ وَأُمِّيُّتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

(١) المسند (٥ / ٤٥٢ حلى). ثم ذكره ابن كثير عن المسند (٤٥٢، ٤٥٣) من وجه آخر بسياق أطول. وذكر أنه رواه مسلم والنسائي.

هذا الذى حاج إبراهيم فى ربه هو ملك بابل : نمرود بن كنعان . ومعنى قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أى : بقلبك يا محمد ﴿ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ أى : وجود ربه . وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره ، كما قال بعده فرعون لئله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : ٢٨] ، وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تجبره ، وطول مدته فى الملك ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ وكأنه طلب من إبراهيم دليلا على وجود الرب الذى يدعو إليه ، فقال إبراهيم : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أى : الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها ، وعدمها بعد وجودها . وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة ؛ لأنها لم تحدث بنفسها ، فلا بد لها من موجد أوجدها وهو الرب الذى أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له . فعند ذلك قال المحاج - وهو النمرود : ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ . قال قتادة ، ومحمد بن إسحاق ، والسدى ، وغير واحد : وذلك أنى أوتى بالرجلين قد استحقا القتل ، فأمر بقتل أحدهما فيقتل ، وبالغفو عن الآخر فلا يقتل . فذلك معنى الإحياء والإماتة . والظاهر والله أعلم - أنه ما أراد هذا ؛ لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم ولا فى معناه ؛ لأنه مانع لوجود الصانع . وإنما أراد أن يدعى لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة ، ويوهم أنه الفاعل لذلك ، وأنه هو الذى يحيى ويميت ، كما اقتدى به فرعون فى قوله : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ ؛ ولهذا قال له إبراهيم لما ادعى هذه المكابرة : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ أى : إذا كنت كما تدعى من أنك تحى وتميت - فالذى يحيى ويميت هو الذى يتصرف فى الوجود فى خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته ، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق ، فإن كنت إلهاً كما ادعيت - تحى وتميت - فأت بها من المغرب !! فلما علم عجزه وانقطاعه ، وأنه لا يقدر على المكابرة فى هذا المقام بهت ، أى : أحرص فلا يتكلم ، وقامت عليه الحجة . قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ أى : لا يلهمهم حجة ولا برهاناً ، بل حججهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد .

وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين : أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثانى انتقال من دليل إلى أوضح منه ! ومنهم من قد يطلق عبارة ردية (١) . وليس كما قالوه ، بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثانى ويبيّن بطلان ما ادعاه نمرود فى الأول والثانى ، والله الحمد والمنة .

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُعْبَهُ هَذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٥١﴾ ﴿

(١) هى « رديئة » بتسهيل الهمزة ، وهو الثابت فى المخطوطة الأزهرية . وفى المطبوعة : « ترديه » وهو غير جيد .

تقدم قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ وهو فى قوة قوله: هل رأيت مثل الذى حاج إبراهيم فى ربه؟ ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾. اختلفوا فى هذا المار من هو؟ فروى ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب أنه قال: هو عزيز (١). وحكاه ابن جرير، وابن أبى حاتم، عن ابن عباس، والحسن، وقناة، وغيرهم ، وهذا القول هو المشهور. وقال مجاهد بن جبير: هو رجل من بنى إسرائيل. وأما القرية: فالمشهور أنها بيت المقدس، مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها.

﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ ﴾ أى: ليس فيها أحد، من قولهم: خوت الدار تخوى وخوياً.

وقوله: ﴿ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ أى: ساقطة سقفوها وجدرانها على عرصاتها، فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة ، وقال: ﴿ أُنَى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾؟ وذلك لما رأى من ذورها وشدة خرابها ويعددها عن العود إلى ما كانت عليه، قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ وعمرت البلدة بعد مضى سبعين سنة من موته، وتكامل ساكنوها وتراجعت بنو إسرائيل إليها. فلما بعثه الله، عز وجل، بعد موته كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه كيف يحيى بدنه؟ فلما استقل سويا قال الله له - أى بواسطة الملك : ﴿ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا ﴾ قالوا: وذلك أنه مات أول النهار، ثم بعثه الله فى آخر نهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم، فقال: ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ لم يتغير منه شيء ﴿ وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ ﴾ أى: كيف يحييه الله، عز وجل، وأنت تنظر ﴿ وَلِنَجْمِكَ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ أى: دليلاً على المعاد ﴿ وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ أى: نرفعها فتركب بعضها على بعض. وقد روى الحاكم عن زيد بن ثابت: أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ بالزأى. ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢). وقرئ: ﴿ نُشْرِهَا ﴾ أى: نحيتها، قاله مجاهد ﴿ ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ فعند ذلك لما تبين له هذا كله ﴿ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى: أنا عالم بهذا، وقد رأيت عياناً، فأنا أعلم أهل زمانى بذلك. وقرأ آخرون: « قال اعلم » ، على أنه أمر له بالعلم (٣).

(١) ورواه الحاكم (٢ / ٢٨٢) فى قصة ، موقوفاً من كلام على . وقال : « صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه » . وواقفه الذهبى .

(٢) المستدرک (٢ / ٢٣٤) . وتعقبه الذهبى بتضعيف أحد رواته ، فإن فى إسناده « إسماعيل بن قيس بن سعد بن زيد بن ثابت » وهو ضعيف جداً . قال البخارى فى الكبير (١ / ١ / ٣٧٠) . وكذا قال فى الضعفاء (ص ٤) . وقال ابن أبى حاتم (١ / ١ / ١٩٣) : « سألت أبى عنه ؟ فقال : ضعيف الحديث ، منكر الحديث ، يحدث بالناكير ، لا أعلم له حديثاً قائماً » . ولم يكن من شرطنا إثبات مثل هذا الحديث الواهى فى (عمدة التفسير) ، لولا أن جاء به الحافظ ابن كثير ليحكى به القراءة بالزأى ، ثم ينقل تصحيح الحاكم إياه ولا يعقب عليه . والقراءة بالزأى ثابتة بثبوت القطع فى القراءات السبع وغيرها . فقد قرأ بها ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى وخلف . وقرأ باقى الأربعة عشر بالراء مع ضم النون . فهما قراءتان صحيحتان متواترتان . لا يحتاج فى إثبات واحدة منهما إلى رواية حديث صحيح أو ضعيف .

(٣) « اعلم » - فعل أمر - هى قراءة حمزة والكسائى من السبعة ، واختارها الطبرى ورجحها من ناحية المعنى (٤٨٣ / ٥ ، ٤٨٤) .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِمُتَّؤْمِنٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ قَالَ فَعُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَا تَيْنَكَ سَعِيًّا وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام أسباباً، منها: أنه لما قال لنمروذ: ﴿ رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيت ﴾ أحب أن يترقى من علم اليقين في ذلك إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة فقال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِمُتَّؤْمِنٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ ﴾ . فأما الحديث الذي رواه البخارى عن أبى هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم، إذ قال: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ قال: ﴿ قَالَ أُولَٰئِمُتَّؤْمِنٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكَ ﴾ وكذا رواه مسلم، فليس المراد ههنا بالشك ما قد يفهمه من لا علم عنده، بلاخلاف. وقد أجيب عن هذا الحديث بأجوبة، أحدها (١).

وقوله: ﴿ قَالَ فَعُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾: اختلف المفسرون في هذه الأربعة: ما هي؟ وإن كان لا طائل تحت تعيينها، إذ لو كان في ذلك مهمٌ لنص عليه القرآن. وقوله: ﴿ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ أى: قطعهن. قاله ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو الأسود الدؤلى ، وغيرهم . ﴿ وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أى: عزيز لا يغلبه شيء، ولا يمتنع منه شيء، وما شاء كان بلا ممانع لأنه العظيم القاهر لكل شيء ، حكيم فى أقواله وأفعاله وشرعه وقدره . وروى ابن أبى حاتم عن ابن المكدر ، أنه قال : التقى عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص: أى آية فى القرآن أرجى عندك؟ فقال عبد الله ابن عمرو: قول الله عز وجل: ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا ﴾ الآية، فقال ابن عباس: لكن أنا أقول: قول الله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِمُتَّؤْمِنٌ قَالَ بَلَىٰ ﴾ فرضى من إبراهيم قوله: ﴿ بَلَىٰ ﴾ قال: فهذا لما يعترض فى النفوس ويوسوس به الشيطان . وهكذا روى الحاكم مثله . ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه (٢).

(١) هنا بياض فى المخطوطة الأزهرية والمطبوعة . لعل الحافظ ابن كثير تركه ليكتب الأقوال فى ذلك ، ثم لم يفعل سهواً أو نسياناً ، وقد أفاض الحافظ ابن حجر فى الفتح (٦ / ٢٩٤ ، ٢٩٥) فى ذكر أقوال العلماء فى ذلك . وأجود ذلك - عندى - قول ابن عطية ، أن « الحديث مبنى على نفي الشك ، والمراد بالشك فيه : الخواطر التى لا تثبت . وأما الشك المصطلح ، وهو التوقف بين الأمرين من غير مزية لأحدهما على الآخر ، فهو منفي عن الخليل قطعاً ؛ لأنه يبعد وقوعه من رسوخ الإيمان فى قلبه ، فكيف بمن بلغ رتبة النبوة ؟ وأيضاً : فإن السؤال لما وقع بـ « كيف » دل على حال شيء موجود مسرور عند السائل والمسؤول ، كما تقول : كيف علم فلان ، و « كيف » فى الآية سؤال عن هيئة الإحياء ، لا عن نفس الإحياء ، فإنه ثابت مقرر . وقال غيره : « معناه : إذا لم نشك نحن فإبراهيم أولى ألا يشك ، أى : لو كان الشك متطرقاً إلى الأنبياء لكتبت أنا أحق به منه ، وقد علمتم أنى لم أشك فاعلموا أنه لم يشك ، وإنما قال ذلك تواضعاً منه » .

(٢) الحاكم (١ / ٦٠) . « الذى فيه أنه « على شرط الشيخين » . وتعبه الذهبى بأن فيه انقطاعاً . والظاهر أنه يريد أن « محمد بن المنكدر » رواه لم يدرك « عبد الله بن عمرو » ! وهو خطأ ، لما فى التهذيب : أن الترمذى سأل البخارى : « سمع محمد بن المنكدر من عائشة ؟ قال : نعم » . وعائشة أقدم موتاً من عبد الله ابن عمرو .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَبِيلٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضائه، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فقال: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ قال سعيد بن جبيرة: يعنى: فى طاعة الله. وقال مكحول: يعنى به: الإنفاق فى الجهاد، من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك. وقال ابن عباس: الجهاد والحج، يضعف الدرهم فيهما إلى سبعمائة ضعف؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَبِيلٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ ﴾. وهذا المثل أبلغ فى النفوس، من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينمىها الله، عز وجل، لأصحابها، كما ينمى الزرع لمن بذره فى الأرض الطيبة، وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف، فروى الإمام أحمد عن عياض بن غطيف قال: دخلنا على أبى عبيدة نعوذ من شكوى أصابه - وامرأته تُحَيِّفُ قاعدة عند رأسه - قلنا: كيف بات أبو عبيدة؟ قالت: والله لقد بات بأجر، قال أبو عبيدة: ما بت بأجر، وكان مقبلا بوجهه على الحائط، فأقبل على القوم بوجهه، وقال: ألا تسألونى عما قلت؟ قالوا: ما أعجبنا ما قلت فنسألك عنه! قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنفق نفقة فاضلة فى سبيل الله فبسبعمائة، ومن أنفق على نفسه وأهله، أو عاد مريضاً أو مازأذى، فالحسنة بعشر أمثالها، والصوم جنة ما لم يخرقها، ومن ابتلاه الله، عز وجل، ببلاء فى جسده فهو له حطّة».

وقد روى النسائى بعضه مرفوعاً وموقوفاً (١). وروى أحمد أيضاً عن أبى مسعود: أن رجلاً تصدق بناقاة مخطومة فى سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقاة مخطومة». ورواه مسلم والنسائى (٢). وروى أحمد أيضاً عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما شاء الله، يقول الله: إلا الصوم، فإنه لى وأنا أجزى به، يدع طعامه وشرابه من أجلى، وللصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخُلُوفِ فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. الصوم جنة، الصوم جنة». وكذا رواه مسلم (٣). وقد تقدم حديث أبى عثمان النهدى، عن أبى هريرة فى تضعيف الحسنة إلى ألفى ألف حسنة (٤). وروى ابن مردويه عن ابن عمر

(١) المسند (١٦٩٠) والنسائى (٣١١/١) ورواه أحمد أيضاً بنحوه (١٧٠٠ ، ١٧٠١) ورواه الحاكم (٢٦٥/٣) والبيهقى (٣ / ٣٧٤) . وأشار إليه البخارى فى الكبير (١١٣/١/٤) والصغير (ص ٩٤) والحافظ فى الفتح (٩٥ / ١٠) . وقوله : « أو مار أذى » : أى نحاه وأزاله .

(٢) المسند (٥ / ٢٧٤ حلى) ومسلم (٩٩/٢) . وأبو مسعود : هو عقبه بن عمرو البدرى الأنصارى، ووقع فى المخطوطة الأزهرية والمطبوعة : « ابن مسعود » وهو خطأ .

(٣) المسند (٩٧١٢ ، ١٠١٧٨) ومسلم (١ / ٣١٦ ، ٣١٧) . ورواه أحمد أيضاً بنحوه (٧٥٩٦) .

(٤) عند الآية : (٢٤٥) من هذه السورة .

قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال النبي ﷺ: «رب زد أمتي» قال: فانزل الله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال: «رب زد أمتي» قال: فانزل الله: ﴿إِنَّمَا يُؤَكِّمُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. وقد رواه ابن حبان في صحيحه (١).

وقوله هاهنا: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أى: بحسب إخلاصه فى عمله ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أى: فضله واسع كثير أكثر من خلقه، عليم بمن يستحق ومن لا يستحق سبحانه ويحمده .

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىٰ وَاللَّهُ غَفِيٌّ حَلِيمٌ﴾ ﴿٦٧﴾ يَتَّيِّبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٦٨﴾

ربع

يمدح تعالى الذين ينفقون أموالهم فى سبيله، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات منّا على من أعطوه، فلا يمتنون به على أحد، ولا يمتنون به لا بقول ولا فعل.

وقوله: ﴿وَلَا أَذَىٰ﴾ أى: لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروها يحبطون به ما سلف من الإحسان. ثم وعدهم تعالى الجزاء الجزيل على ذلك، فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أى: ثوابهم على الله، لا على أحد سواه ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى: فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أى: على ما خلفوه من الأولاد وما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها، لا يأسفون عليها؛ لأنهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أى: من كلمة طيبة ودعاء لمسلم ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أى: غفر عن ظلم قولى أو فعلى ﴿خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَىٰ وَاللَّهُ غَفِيٌّ﴾. أى: عن خلقه. ﴿حَلِيمٌ﴾ أى: يحلم ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم.

وقد وردت الأحاديث بالنهى عن المن فى الصدقة، ففى صحيح مسلم، عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكّيهم، ولهم عذاب أليم: المنان بما أعطى، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب» (٢). وروى ابن مردويه عن أبى الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة عاق، ولا منان، ولا مدمن خمر، ولا مكذب بقدر» وروى أحمد وابن ماجه نحوه (٣). ثم روى ابن مردويه، وابن حبان،

(١) هذا الحديث ذكره الحافظ ابن كثير أيضا عند تفسير الآية (٢٤٥) من هذه السورة، من رواية ابن أبى حاتم.

(٢) صحيح مسلم (١ / ٤١).

(٣) إسناده ابن مردويه إسناده صحيح، وكذلك إسناده أحمد فى المسند (٦ / ٤٤١ حلى)، ولكن ليس فيه: «ولا منان». وأما ابن ماجه - وإسناده صحيح أيضا - فإنه رواه (٣٣٧٦) مختصرا، فى «مدمن الخمر» فقط.

والحاكم، والنسائي عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، ومدمن الخمر، والمنان بما أعطى» (١)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ فاخبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى، فما يفي ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى.

ثم قال تعالى: ﴿كَالَّذِي يُفِيقُ مَالَهُ وَرَاءَ النَّاسِ﴾ أى: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كما تبطل صدقة من راعى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله وإنما قصده مدح الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة، ليشكر بين الناس، أو يقال: إنه كريم ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرائى بإنفاقه فقال: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ﴾ وهو جمع صفوانة، ومنهم من يقول: الصفوان يستعمل مفرداً أيضاً، وهو الصفا، وهو الصخر الأملس ﴿عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابُهُ وَآبِلٌ﴾ وهو المطر الشديد ﴿فَفَرَّكَهُ صُلْدًا﴾ أى: فترك الوابل ذلك الصفوان صلداً، أى: أملس يابساً، أى: لا شيء عليه من ذلك التراب، بل قد ذهب كله، أى: وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله، وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَأْتَتْ أَكْطُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ يَمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١٦٥)

وهذا مثل المؤمنين المنفقين ﴿أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ عنهم فى ذلك ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أى: وهم متحققون مثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء، ونظير هذا فى المعنى قوله، عليه السلام، فى الحديث المتفق على صحته: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً...» أى: يؤمن أن الله شرعه، ويحسب عند الله ثوابه.

وقوله: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ أى: كمثل بستان بربوة. وهو عند الجمهور: المكان المرتفع من الأرض. وزاد ابن عباس والضحاك: وتجرى فيه الأنهار. قال ابن جرير: وفى الربوة ثلاث لغات هن ثلاث قراءات: بضم الراء، وبها قرأ عامة أهل المدينة والحجاز والعراق. وفتحها، وهى قراءة بعض أهل الشام والكوفة، ويقال: إنها لغة تميم. وكسر الراء، ويذكر أنها قراءة ابن عباس.

وقوله: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ وهو المطر الشديد، كما تقدم، ﴿فَتَأْتَتْ أَكْطُلَهَا﴾ أى: ثمرتها ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أى: بالنسبة إلى غيرها من الجنان ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ﴾ قال الضحاك: هو الرذاذ،

(١) وهذا رواه أيضاً أحمد فى المسند (٦١٨٠) مطولاً، وإسناده صحيح. وفضلنا تخريجه هناك.

وهو اللين من المطر. أى: هذه الجنة بهذه الربوة لا تحمل أبداً؛ لأنها إن لم يصبها وابل فطل، وأيا ما كان فهو كفايتها، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبداً، بل يتقبله الله ويكثره وينميه، كل عامل بحسبه ؛ ولهذا قال: ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أى: لا يخفى عليه من أعمال عباده شىء .

﴿ أَيُّدُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاءُ فَاَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾

روى البخارى عن ابن عباس قال: قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبى ﷺ: فيمن ترون هذه الآية نزلت: ﴿ أَيُّدُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾؟ قالوا: الله أعلم! فغضب عمر فقال: قولوا: نعم أولاً نعلم. فقال ابن عباس: فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين. فقال عمر: يا ابن أخى، قل ولا تحقر نفسك. قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل. قال عمر: أى عمل؟ قال ابن عباس: [بعمل]. قال عمر: لرجل غنى يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أغرق أعماله^(١). وهو من أفراد البخارى، رحمه الله .

وفى هذا الحديث كفاية فى تفسير هذه الآية، وتبين ما فيها من المثل: بعمل من أحسن العمل أولاً، ثم بعد ذلك انعكس سيره، فبدل الحسنات بالسيئات، عياداً بالله من ذلك، فأبطل بعمله الثانى ما أسلفه فيما تقدم من الصالح، واحتاج إلى شىء من الأول فى أضيق الأحوال، فلم يحصل [له] منه شىء، وخانه أحوج ما كان إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاءُ فَاَصَابَهَا إِعْصَارٌ ﴾ وهو الريح الشديد ﴿ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ﴾ أى: أحرق ثمارها وأباد أشجارها، فأى حال يكون حاله؟ وقد روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: ضرب الله له مثلاً حسناً، وكل أمثاله حسن، قال: ﴿ أَيُّدُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ يقول: صنعه فى شببته فأصابه الكبر وولده وذريته ضعاف عند آخر عمره، فجاءه ﴿ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ ﴾ فاحترق بستانه، فلم يكن عنده قوة أن يغرس مثله، ولم يكن عند نسله خير يعودون به عليه، وكذلك الكافر يوم القيامة، إذا ردّ إلى الله، عز وجل، ليس له خير فيستعتب، كما ليس لهذا قوة فيغرس مثل بستانه، ولا يجده قدم لنفسه خيراً يعود عليه، كما لم يُغن عن هذا ولده، وحرّم أجره عند أفقر ما كان إليه، كما حرم هذا جنته عند أفقر ما كان إليها عند كبره وضعف ذريته^(٢). وهكذا روى الحاكم: أن رسول الله ﷺ كان يقول فى دعائه:

(١) البخارى (٨ / ١٥١ فتح) . والزيادة منه ومن المخطوطة ، إلا أن الذى فى البخارى : « لعمل » باللام ، بدل « بعمل » . وكذلك رواه الطبرى (٦٠٩٦ ، ٦٠٩٧) ، وحذف هذه الزيادة خطأ من ناسخ أو طابع ؛ لأنه يوهم أن بيان العمل من كلام ابن عباس . والثابت فى كل الروايات أن ابن عباس ذكر العمل مجملاً ، والذى بينه هو عمر بن الخطاب .

(٢) وكذلك رواه الطبرى (٦١٠١) بزيادة فى آخره . وذكره السيوطى (١ / ٣٤٠) ونسبه إليهما .

«اللهم اجعل أوسع رزقك على عند كبير سنى وانقضاء عمرى»^(١)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أى: تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعانى، وتنزلونها على المراد منها، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْنِصُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٨﴾ يُوقِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٦٩﴾﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإنفاق - والمراد به الصدقة ههنا؛ قاله ابن عباس - من طيبات ما رزقهم من الأموال التى اكتسبوها ، ومن الثمار والزروع التى أنبتها لهم من الأرض. قال ابن عباس: أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصدق بردالة المال ودينه - وهو خبيثه - فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا﴾ أى: تقصدوا ﴿الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ﴾ أى: لو أعطيتموه ما أخذتموه، إلا أن تتغاضوا فيه، فالله أغنى عنه منكم، فلا تجعلوا لله ما تكرهون. وقيل: معناه: لا تعدلوا عن المال الحلال، وتقصدوا إلى الحرام، فتجعلوا نفقتكم منه. ويذكر ههنا الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذى نفسى بيده، لا يسلم عبداً حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه». قالوا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: «عشمة وظلمه، ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار: إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»^(٢).

(١) نسبة السيوطى أيضا للحاكم من حديث عائشة . انظر : الفتح الكبير (١/٢٣١).

(٢) المسند (٣٦٧٢) وسيذكره الحافظ ابن كثير مرة أخرى ، عند تفسير الآية (١١٤) من سورة هود . وقد ضعفت إسناده فى شرح المسند ، من أجل روايه « الصباح بن محمد بن أبى حازم البجلي الأحمسى » . وقد غلا فيه ابن حبان ، فضعه جداً . ثم استبان لى خطأ هذا ، وأن « الصباح » ثقة ، والإسناد صحيح ؛ لأن البخارى ترجم للصباح هذا فى الكبير (٣١٤ / ٢ / ٢) ، فلم يذكر فيه جرحاً . وإنما أشار لروايته موقوفاً ، كما سيأتى . وكذلك ترجمه ابن أبى حاتم (٤٤١ / ٢) ، فلم يذكر فيه جرحاً ، فهو ثقة عندهما ، ثم لم يذكره البخارى ولا النسائى فى الضعفاء .

والحديث رواه الحاكم (٤٤٧ / ٢ ، و ٤ / ١٦٥) - ولم يذكره كاملا فى الموضوعين ، وقال فيهما: «صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه» . وواقفه الذهبى فى الموضوعين . وذكره الهيثمى فى الزوائد (٥٣ / ١) ، و (٢٨٨ / ١٠) ، عن المسند ، وقال فى الموضوع الأول : « إسناده بعضهم مستور ، وأكثرهم ثقات » ، وقال فى الثانى : « رجاله وثقوا ، وفى بعضهم خلاف » . ثم ذكره مرة ثالثة (٢٩٢ / ١٠) ، ونسى ذنبك الموضوعين! فقال: «رواه البزار ، =

والصحيح القول الأول؛ وروى ابن جرير عن البراء بن عازب في قول الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ الآية . قال: نزلت في الانتصار، كانت الانتصار إذا كان أيام جدّاذ النخل، أخرجت من حيطانها [أقتناه] البسر، فعلقوه على حبل بين الأسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ، فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف ، فيدخله مع أقتناء البسر، يظن أن ذلك جائز، فانزل الله فيمن فعل ذلك: ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ . ورواه ابن ماجه، وابن مردويه، والحاكم عن البراء، بنحوه . وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه (١) . [وروى ابن أبي حاتم عن البراء، نحوه ، وزاد في آخره] : قال: لو أن أحدكم أهدى له مثل ما أعطى ما أخذه إلا على إغماض وحياء، فكنا بعد ذلك يجيء الرجل منا بصلاح ما عنده . وكذا رواه الترمذى، فذكر نحوه . ثم قال: هذا حديث حسن غريب . وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: أتى رسول الله ﷺ بضب فلم يأكله ولم ينه عنه . قلت: يا رسول الله، نطعمه المساكين؟ قال: « لا تطعموهم مما لا تأكلون » (٢) .

وعن البراء ﴿ وَلَسْتُمْ بِأَخِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ يقول: لو كان لرجل على رجل، فأعطاه ذلك لم يأخذه؛ إلا أن يرى أنه قد نقصه من حقه رواه ابن جرير (٣) ، عن ابن عباس: ﴿ وَلَسْتُمْ بِأَخِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ يقول: لو كان لكم على أحد حق، فجاءكم بحق دون حقكم لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه . قال: فذلك قوله: ﴿ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ . فكيف ترضون لى ما لا ترضون لأنفسكم، وحقى عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه؟! رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وزاد: وهو قوله: ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢] (٤) .

وقوله: ﴿ وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أى: وإن أمركم بالصدقات وبالطيب منها فهو غنى

= وفيه من لم أعرفهم!! وتعقبه الحافظ ابن حجر ، فكتب بهامشه : « كلهم معروف والآفة من الصباح » . وذكر الهيثمى أيضا (١٠ / ٩٠) أوله مع زيادة بعده ، عن ابن مسعود موقوفا من كلامه . وقال : « رواه الطبرانى موقوفا ، ورجاله رجال الصحيح » . وهذا الموقوف هو الذى أشار إليه البخارى فى الكبير، فقال: « وقال الثورى ، عن زبيد ، عن مرة ، عن عبد الله - ولم يرفعه » . وعندى أن الموقوف لا يكون تعليلا للمرفوع ، بل يكون مؤيدا له . خصوصا إذا كان فى أشياء لا تؤخذ بالقياس ، ولا تعرف بالرأى . ومع ذلك فإن الثورى رواه أيضا عن زبيد ، عن مرة ، عن ابن مسعود ، مرفوعا . وتابعه على ذلك حمزة الزيات ، عن زبيد ، كما رواه الحاكم (١ / ٣٣ ، ٣٤) بإسنادين، وصححه ، ووافقه الذهبى ، ولكنه لم يذكره كله ، بل ذكره إلى قوله : « ولا يعطى الإيمان إلا من يحب » . فصح أصل الحديث من هذه الوجوه ، مرفوعا وموقوفا . والحمد لله .

(١) الطبرى (٦١٣٩) . والزيادة منه ومن المخطوطة ، والحاكم (٢ / ٢٨٥) ، ولكن فيه : « على شرط مسلم » ووافقه الذهبى .

(٢) المسند (٦ / ١٠٥ ، ١٢٣ ، ١٤٤) بإسناد صحاح . وذكره الهيثمى فى الزوائد (٣ / ١١٣) ، ونسبه للطبرانى فى الأوسط « ورجاله موثقون » . فنسى أن ينسبه للمسند !

(٣) الطبرى (٦١٥١) . (٤) الطبرى (٦١٥٢) .

عنها، وما ذاك إلا ليساوى الغنى الفقير، كقوله: ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ ثَقْوَىٰ مِنْكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧] وهو غنى عن جميع خلقه، وجميع خلقه فقراء إليه، وهو واسع الفضل لا ينفد ما لديه، فمن تصدق بصدقة من كسب طيب، فليعلم أن الله غنى واسع العطاء، كريم جواد، وسيجزيه بها ويضاعفها له أضعافاً كثيرة، من يقرض غيرَ عديم ولا ظلوم، وهو الحميد، أى: المحمود فى جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَقَضَاءً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾: روى ابن أبى حاتم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: « إن للشيطان لكمة بآدم، وللملك كمة، فأما لكمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لكمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان». ثم قرأ: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَقَضَاءً ﴾ الآية. وهكذا رواه الترمذى والنسائى. وأخرجه ابن حبان فى صحيحه، وقد رواه أبو بكر بن مردويه عن عبد الله بن مسعود، مرفوعاً نحوه. ورواه أيضاً عن ابن مسعود. فجعله من قوله، والله أعلم (١).

ومعنى قوله تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ﴾ أى: يخوفكم الفقر، لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه فى مرضاة الله، ﴿ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾ أى: مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق، يأمركم بالمعاصى والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق، قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ ﴾ أى: فى مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء ﴿ وَقَضَاءً ﴾ أى: فى مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾.

وقوله: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ﴾ قال ابن عباس: يعنى المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله. وقال مجاهد: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ﴾: ليست بالنبوة، ولكنه العلم والفقه والقرآن. وقال مالك: وإنه يقع فى قلبى أن الحكمة هو الفقه فى دين الله، وأمرٌ يدخله الله فى القلوب من رحمته وفضله، ومما يبين ذلك: أنك تجد الرجل عاقلاً فى أمر الدنيا ذا نظر فيها، وتجد آخر ضعيفاً فى أمر دنياه، عالماً بأمر دينه، بصيراً به، يؤتية الله إياه ويحرمه هذا، فالحكمة: الفقه فى دين الله. والصحيح أن الحكمة - كما قاله الجمهور - لا تختص بالنبوة، بل هى أعم منها، وأعلاها النبوة، والرسالة أخص، ولكن

(١) وكذلك رواه الطبرى (٦١٧٠) ، وإسناده وإسناد ابن أبى حاتم صحيحان ، ثم رواه الطبرى بأسانيد آخر موقوفاً (٦١٧١ - ٦١٧٦) والترمذى وابن كثير يشيران من طرف خفى إلى تعليل المرفوع بالروايات الموقوفة . وما هى بعللة بعد صحة الإسناد . ثم هو مما لا يعلم بالرأى ولا يدخله القياس ، فالوقوف لفظاً - فيه - مرفوع حكماً على اليقين . و « اللمة » - بفتح اللام وتشديد الميم - قال ابن الأثير : « الهمة والخطرة تقع فى القلب . أراد إلام الملك أو الشيطان به والقرب منه ، فما كان من خطرات الخير فهو من الملك ، وما كان من خطرات الشر فهو من الشيطان » .

لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع. وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها » وهكذا رواه البخارى، ومسلم، والنسائى، وابن ماجه (١).

وقوله: ﴿ وَمَا يَذُكَّرْ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أى: وما يتنفع بالموعظة والتذكار إلا من له لب وعقل يعى به الخطاب ومعنى الكلام.

﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (١٧٠) **﴿ إِن تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾** (١٧١)

يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات. وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعالمين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده. وتوعد من لا يعمل بطاعته، بل خالف أمره وكذب خبره وعبد معه غيره، فقال: ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ أى: يوم القيامة ينقذونهم من عذاب الله ونقمته. وقوله: ﴿ إِن تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ أى: إن أظهرتموها فنعم شيء هي.

وقوله: ﴿ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾: فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها؛ لأنه أبعد عن الرياء؛ إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة، من اقتداء الناس به - فيكون أفضل من هذه الحيثية، وقال رسول الله ﷺ: « الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة » (٢). والأصل أن الإسرار أفضل؛ لهذه الآية، ولما ثبت فى الصحيحين، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « سبعة يظلمهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ». وفى الحديث المروى: « صدقة السر تطفى غضب الرب، عز وجل » (٣). ثم إن الآية عامة فى أن إخفاء الصدقة أفضل، سواء كانت مفروضة أو

(١) المسند (٤١: ٩) والبخارى (١٥١/ ١ - ١٥٣، ٢١٩/ ٣، ١٣ / ١٠٧، ٢٥٣ فتح) ومسلم (١ / ٢٢٤) وابن حبان فى صحيحه (٩٠) بتحقيقنا.

(٢) رواه أحمد فى المسند (١٧٤٤٠، ١٧٥١٧) وأبو داود (١٣٣٣) والترمذى (٤ / ٥٦) والنسائى (١ / ٢٤٥)، (٣٥٧) من حديث عقبة بن عامر. وأسانيدهم صحاح.

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط، ضمن حديث عن معاوية بن حيدة، ورواه فى الكبير ضمن حديث عن أبى أمامة، وأسانيد جيد، وروى من أوجه أخر ضعاف. انظر: الزوائد (٣ / ١١٥).

مندوبة. لكن روى ابن جرير عن ابن عباس، في تفسير هذه الآية، قال: جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها، فقال: بسعين ضعفاً. وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها، فقال: بخمسة وعشرين ضعفاً (١).

وقوله: ﴿وَنُكْفِرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أى: بدل الصدقات، ولاسيما إذا كانت سراً يحصل لكم الخير في رفع الدرجات ونكفر عنكم السيئات. وقد قرئ: «ونكفر [عنكم] بالضم، وقرئ: بالجزم»، عطفاً على محل جواب الشرط (٢)، وهو قوله: ﴿فَنَعْمًا هِيَ﴾ كقوله: «فاصدق وأكون» ﴿وَإَكُن﴾ [المتفقون: ١٠]. وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أى: لا يخفى عليه من ذلك شيء، وسيجزىكم عليه.

رب

﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَا كِنَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٧٦﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْيَاءً مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ قَابَتْ اللَّهُ بِهِمْ عَلَيْهِمُ ﴿٧٧﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٨﴾﴾

روى النسائي عن ابن عباس قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين، فسألوا، فرخص لهم، فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (٣).

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: أنه كان يأمر بالآ يتصدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ إلى آخرها، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سأل من كل دين (٤). وسيأتي عند قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ الآية [المتحنة: ٨] حديث أسماء بنت الصديق في ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ﴾ كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦، الجاثية:

(١) الطبري (٦١٩٧)، ورواه ابن أبي حاتم وابن المنذر، كما في الدر المنثور (١ / ٣٥٣).
 (٢) الزيادة من المخطوطة. والقراءة التي أثبتها ابن كثير هنا «ونكفر» - بالنون، كما ثبت في المخطوطة، وهي التي فيها الخلاف بين رفع الراء وسكونها، فقرأ نافع وحزمة والكسائي وأبو جعفر وخلف بالنون وجزم الراء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر ويعقوب بالنون ورفع الراء. وأما قراءة «ويكفر» - بالياء: فهي قراءة ابن عامر وحفص، وهي برفع الراء لا غير. انظر: القراءات الأربع عشر (ص ١٦٥).
 (٣) إسناده صحيح. ورواه الطبري بنحوه بأسانيد صحاح (٦٢٠٢، ٦٢٠٤، ٦٢٠٥) والحاكم (٢ / ٢٨٥) وصححه ووافقه الذهبي. وزاد السيوطي (١ / ٣٥٧) نسبه لابن أبي حاتم وابن المنذر وغيرهما. وقوله: «يرضخوا» - الرضخ: العطية القليلة.
 (٤) إسناده صحيح. وزاد السيوطي نسبه لابن مردويه والضياء في المختارة.

١٥] ونظائرها في القرآن كثيرة.

وقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾: قال الحسن البصري: نفقة المؤمن لنفسه، ولا ينفق المؤمن - إذا أنفق - إلا ابتغاء وجه الله. وقال عطاء الخراساني: يعني إذا أعطيت لوجه الله، فلا عليك ما كان عمله. وهذا معنى حسن، وحاصله أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله فقد وقع أجره على الله، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب: البرّ أو فاجر أو مستحق أو غيره، هو مثاب على قصده، ومستند هذا تمام الآية: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾، والحديث المخرج في الصحيحين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج فوضعها في يد زانية، فأصبح الناس يتحدثون: تُصدّق على زانية! فقال: اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون: تُصدّق الليلة على غني! فقال: اللهم لك الحمد على غني، لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصدّق الليلة على سارق! فقال: اللهم لك الحمد على زانية، وعلى غني، وعلى سارق، فأتى فقيل له: أما صدقتك فقد قبلت؛ وأما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن زناها، ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقة».

وقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني: المهاجرين الذين قد انقطعوا إلى الله وإلى رسوله، وسكنوا المدينة وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم و﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: سافراً للتسبب في طلب المعاش. والضرب في الأرض: هو السفر؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَتْتَفُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية [الزمل: ٢٠].

وقوله: ﴿يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ أي: الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء، من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالهم. وفي هذا المعنى الحديث المتفق على صحته، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، والأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غني يغنيه، ولا يفتن له فيُصدّق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً». وقد رواه أحمد، من حديث ابن مسعود أيضاً (١).

وقوله: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي: بما يظهر لذوى الألباب من صفاتهم، كما قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]. وفي الحديث الذي في السنن: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله»، ثم قرأ: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ

(١) حديث أبي هريرة في المسند (٧٥٣٠، ٧٥٣١) وهو حديث متفق عليه. وأما حديث ابن مسعود فإنه في المسند (٣٦٣٦، ٤٢٦٠)، ولكن إسناده ضعيف.

لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿١﴾ [الحجر: ٧٥].

وقوله: ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ أى: لا يلحون فى المسألة ويكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه، فإن من سأل وله ما يغنيه عن السؤال، فقد ألحف فى المسألة .

روى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين الذى تردده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقمتان ، إنما المسكين الذى يتعفف؛ اقرؤوا إن شئتم - يعنى قوله: ﴿ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾» . ورواه مسلم النسائى بنحوه (٢) . وروى أحمد عن جعفر - وهو ابن عبد الله بن الحكم - عن رجل من مزينة، أنه قالت له أمه: ألا تتطلق فتسأل رسول الله ﷺ كما يسأله الناس؟ فانطلقت أسأله، فوجدته قائماً يخطب، وهو يقول: «ومن استعف أعفه الله، ومن استغنى أغناه الله، ومن يسأل الناس وله عدل خمس أواق فقد سأل الناس إلحافاً». فقلت بينى وبين نفسى: لناقة لى خير من خمس أواق، ولغلامه ناقة أخرى ، فهى خير من خمس أواق ، فرجعت ولم أسأل (٣) . وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن ابن أبى الرجال، عن عمارة بن غزية، عن عبد الرحمن بن أبى سعيد، عن أبيه قال: سرحتنى أُمى إلى رسول الله ﷺ، أسأله، فأتيته فقعدت، قال: فاستقبلنى فقال: «من استغنى أغناه الله، ومن استعف أعفه الله، ومن استكف كفاه الله، ومن سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف». قال: فقلت: ناقتى الياقوتة خير من أوقية. فرجعت ولم أسأله . وهكذا رواه أبو داود والنسائى، نحوه (٤) .

وقوله: ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ أى: لا يخفى عليه شىء منه، وسيجزى عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة، أخرج ما يكونون إليه .

وقوله: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ هذا مدح منه تعالى للمتفقيين فى سبيله، وابتغاء مرضاته فى جميع الأوقات من ليل أو نهار، والأحوال من سر وجهار، حتى إن النفقة على الأهل تدخل فى ذلك أيضاً، كما ثبت فى الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبى وقاص - حين عاده مريضاً عام الفتح، وفى رواية عام حجة الوداع : «وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة، حتى ما تجعل فى فى امرأتك» (٥) . وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر وبهز قالوا: حدثنا شعبة، عن عدى بن ثابت قال: سمعت عبد الله بن يزيد الأنصارى، يحدث عن أبى مسعود، عن النبى ﷺ، أنه قال: «إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحسبها كانت له صدقة»

(١) سيأتى عند الآية (٧٥) من سورة الحجر، وأنه رواه الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم ، من حديث أبى سعيد .

(٢) البخارى (١٥٢ / ٨ فتح) ومسلم (٢٨٣ / ١) .

(٣) المسند (١٧٣ - ٣) والزوائد (٩٥ / ٣) وقال : « رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح » .

(٤) المسند (١١٠٧٥) . وإسناده صحيح ، ورواه الطبرى بنحوه من وجه آخر (٦٢٢٨) بإسناد آخر صحيح .

وكذلك رواه أحمد (١٤٢٢١ ، ١٤٢٢٢) .

(٥) هو فى البخارى مرارا بنحوه ، منها : (١٣٢ / ٣ فتح) ومسلم (٨ / ٢ ، ٩) من حديث سعد بن أبى وقاص .

أخرجاه (١).

وقوله: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أى: يوم القيامة على ما فعلوا من الإنفاق فى الطاعات ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ تقدم تفسيره (٢).

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧٥﴾

لما ذكر تعالى الأبرار المؤدين النفقات، المخرجين الزكوات، المتفضلين بالبر والصدقات لذوى الحاجات والقربات فى جميع الأحوال والأوقات - شرع فى ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات، فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها إلى بعثهم ونشورهم، فقال: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ أى: لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له؛ وذلك أنه يقوم قياماً منكراً. وقال ابن عباس: أكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يُخَنَّق. رواه ابن أبى حاتم (٣)، قال: وروى عن عوف بن مالك، وسعيد بن جبير، وقتادة وغيرهم، نحو ذلك. وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: يقال يوم القيامة لأكل الربا: خذ سلاحك للحرب. وقرأ: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ قال: وذلك حين يقوم من قبره (٤).

وقوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ أى: إنما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله فى شرعه، وليس هذا قياساً منهم للربا على البيع؛ لأن المشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذى شرعه الله فى القرآن، ولو كان هذا من باب القياس لقالوا: إنما الربا مثل البيع، وإنما قالوا: ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ أى: هو نظيره، فلم حرم هذا وأبيح هذا؟ وهذا اعتراض منهم على الشرع. أى هذا مثل هذا، وقد أحل هذا، وحرم هذا، ويحتمل أن يكون من تمام الكلام، رداً عليهم، أى: قالوا ما قالوه من الاعتراض، مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكماً، وهو العليم الحكيم الذى لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها، وما ينفع عباده فيبيحه لهم، وما يضرهم فينهاهم عنه، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل؛ ولهذا قال: ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ

(١) المسند (١٧١٧٨)، وزيادة [وهو] منه.

(٢) عند تفسير الآيات: (٣٨، ١١٢، ٢٦٢) من هذه السورة.

(٣) ورواه الطبرى (٦٢٤٢). وإسناده صحيح، وكذلك رواه ابن المنذر، كما فى الدر المنثور (١ / ٣٦٤).

(٤) الطبرى (٦٢٤١). وإسناده صحيح، وهذا الذى قبله - عندنا - من المرفوع حكماً، وإن كان موقوفاً لفظاً؛ لأنه مما لا يعلم بالرائى، كما هو ظاهر بديهى.

وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ﴿ أَى : من بلغه نهى الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه، فله ما سلف من المعاملة، لقوله: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ [المائدة: ٩٥] وكما قال النبي ﷺ يوم فتح مكة: «وكل ربياً فى الجاهلية موضوع تحت قدمى هاتين، وأول رباً أضع رباً العباسن» (١) ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة فى حال الجاهلية، بل عفا عما سلف، كما قال تعالى: ﴿ فَلَهُ مَا سَلَفَ ﴾ : ما كان أكل من الربا قبل التحريم.

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ أَى: إلى الربا ففعله بعد بلوغه نهى الله عنه، فقد استوجب العقوبة، وقامت عليه الحجة؛ ولهذا قال: ﴿ فَأُوْتِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . وقد روى أبو داود عن جابر قال: لما نزلت: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقْرَمُونَ إِلَّا كَمَا يَقْرَمُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ قال رسول الله ﷺ: «من لم يذر المخابرة، فليؤذن بحرب من الله ورسوله» ورواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه (٢).

وإنما حرمت المخابرة وهى: المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض، والمزابنة وهى: اشتراء الرطب فى رؤوس النخل بالتمر على وجه الأرض، والمحاكلة وهى: اشتراء الحب فى سنبله فى الحقل بالحب على وجه الأرض - إنما حرمت هذه الأشياء وما شاكلها، حسماً لمادة الربا؛ لأنه لا يعلم التساوى بين الشئين قبل الجفاف. ولهذا قال الفقهاء: الجهل بالمثالة كحقيقة المفاضلة. ومن هذا حرموا أشياء بما فهموا من تضييق المسالك المفضية إلى الربا، والوسائل الموصلة إليه، وتفاوت نظرهم بحسب ما وهب الله لكل منهم من العلم، وقد قال تعالى: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦].

وباب الربا من أشكال الأبواب على كثير من أهل العلم، وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه: ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ عهد إلينا فيهن عهداً تنتهى إليه: الجدد، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا (٣). يعنى بذلك بعض المسائل التى فيها شائبة الربا، والشريعة شاهدة بأن كل حرام فالوسيلة إليه مثله؛ لأن ما أفضى إلى الحرام حرام، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وقد ثبت فى الصحيحين، عن النعمان بن بشير، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بينٌ وإن الحرام بين، وبين ذلك أمور مشبهات، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كالراعى يرعى حول

(١) وهم الحافظ ابن كثير - رحمه الله - فإن هذا لم يكن يوم فتح مكة ، بل كان فى حجة الوداع ، فى خطبته ﷺ بعرفة . انظر فى ذلك حديث جابر الطويل فى المسند (١٤٤٩٢) وصحيح مسلم (١ / ٣٤٦ - ٣٤٨) وأبى داود (١٩٠٥) . وانظر أيضاً سيرة ابن سيد الناس (٢ / ٢٧٥) .

(٢) أبو داود (٣٤٠٦) والحاكم (٢ / ٢٨٥ ، ٢٨٦) ووافقه الذهبى . ولكن الآية ، لم تذكر فى رواية أبى داود .

(٣) البخارى (١٠ / ٤٣ فتح) ومسلم (٢ / ٤٠١ ، ٤٠٢) فى حديث عن عمر . وقال الحافظ ابن حجر : «لعله يشير إلى ربا الفضل ؛ لأن ربا النسئة متفق عليه بين الصحابة . وسياق عمر يدل على أنه كان عنده نص فى بعض من أبواب الربا دون بعض ؛ فلهاذا تمت معرفة البقية .»

الحمى يوشك أن يرتع فيه « (١) . وفي السنن عن الحسن بن علي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» (٢). وفي الحديث الآخر: «الإثم ما حاك في القلب وترددت فيه النفس، وكرهت أن يطلع عليه الناس». وفي رواية: «استفت قلبك، وإن أفتاك الناس وأفتوك» (٣) . وعن ابن عباس قال: آخر ما نزل على رسول الله ﷺ آية الربا. رواه البخارى (٤). وروى أحمد : أن عمر قال: من آخر ما نزل آية الربا، وإن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يفسرها لنا، فدعوا الربا والريبة (٥). وقد روى ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي ﷺ قال: «الربا ثلاثة وسبعون بابا» . ورواه الحاكم وزاد: «أيسرها [مثل] أن ينكح الرجل أمه ، وإن أربى الربا عرضُ الرجل المسلم» . وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه (٦). وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: «يأتى على الناس زمان يأكلون فيه الربا» قال: قيل له: الناس كلهم؟ قال: «من لم يأكله منهم ناله من غباره» . وكذا رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه (٧) .

ومن هذا القبيل، [وهو] تحريم الوسائل المفضية إلى المحرمات - الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن عائشة قالت: لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة فى الربا ، خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد، فقراهُن، فحرم التجارة فى الخمر. وقد أخرجه الجماعة سوى الترمذى (٨) .

قال بعض من تكلم على هذا الحديث من الأئمة: لما حرّم الربا ووسائله حرّم الخمر وما

- (١) هو مختصر من الحديث السادس من الأربعين النووية .
 (٢) وهو الحديث الحادى عشر من الأربعين النووية . وقال : « رواه النسائي والترمذى ، وقال : « حسن صحيح» . وهو جزء من حديث مطول فى المسند (١٧٢٣ ، ١٧٢٧) .
 (٣) هذا الحديث والذى قبله جعلهما الحافظ ابن كثير حديثا واحدا بروايتين . ولكن يظهر أنه ذكره من حفظه . فالحديث رواه الدارمى (٢ / ٢٤٥ ، ٢٤٦) من حديث وابصة بن معبد ، أنه جاء يسأل عن البر والإثم ؟ وفيه : وقال : «استفت نفسك ، استفت قلبك يا وابصة - ثلاثا - البر : ما اطمانت إليه النفس ، واطمان إلى القلب ، والإثم : ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك» . ورواه أحمد (٤ / ٢٨٨ حلى) بنحوه بإسنادين . وروى مسلم (٢ / ٢٧٧) عن النواس بن سمعان ، أنه سأل عن البر والإثم ؟ فقال: «البر : حسن الخلق ، والإثم : ما حاك فى نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس» . وكذلك رواه أحمد عن النواس (١٧٧٠ ، ١٧٧٠٩) . وقد جمع النووى حديثى النواس ووابصة فى الأربعين فى الحديث (٢١) .
 (٤) البخارى (٨ / ١٥٣ فتح) . ورواه الطبرى (٦٣١٠) بزيادة فى آخره .
 (٥) المسند (٢٤٦ ، ٣٥٠) وابن ماجه (٢٢٧٦) والطبرى (٦٣٠٨) .
 (٦) ابن ماجه (٢٢٧٥) والمستدرک (٢ / ٢٧) . وزدنا منه كلمة [مثل] . وواقفه الذهبى على شرط الشيخين .
 (٧) المسند (١٠٤١٥) وأبو داود (٣٣٣١) والنسائي (٢ / ٢١٢) وابن ماجه (٢٢٧٨) ورواه أيضا الحاكم (٢ / ١١) ، وقال : « قد اختلف أئمتنا فى سماع الحسن عن أبى هريرة ، فإن صح سماعه منه فهذا حديث صحيح» . وسماع الحسن من أبى هريرة صحيح ثابت . وقد بيناه مفصلا بدلالته فى شرح المسند (٧١٣٨) . وأيضا فإن الحديث الذى هنا رواه البخارى فى التاريخ الكبير (٢ / ١ / ٤٣٠) من هذا الوجه ، ولم يذكر له تعليلا ، ولو كان معلولا عنده لما ترك ذلك .
 (٨) انظر : الفتح (٨ / ١٥٢) .

يفضى إليه من تجارة ونحو ذلك، كما قال، عليه السلام، فى الحديث المتفق عليه: «لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجملوا فباعوها وأكلوا أثمانها» (١). وفى حديث ابن مسعود وغيره مرفوعا: «لعن الله آكل الربا وموكله، وشاهديه وكاتبه» (٢). قالوا: وما يشهد عليه ويكتب إلا إذا أظهر فى صورة عقد شرعى ويكون داخله فاسداً، فالاعتبار بمعناه لا بصورته؛ لأن الأعمال بالنيات (٣)، وفى الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» (٤). وقد صنّف الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية كتاباً فى «إبطال التحليل» تضمن النهى عن تعاطى الوسائل المفضية إلى كل باطل، وقد كفى فى ذلك وشفى، فرحمه الله ورضى عنه (٥).

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ أَرْبَاؤَ وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

يخبر تعالى أنه يمحق الربا، أى: يذهب، إما بأن يذهب بالكلية من يد صاحبه، أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به، بل يعذبه به فى الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة. كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَأَسْتَوِيَ النَّخِيبُ وَالطَّيْبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ النَّخِيبِ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ النَّخِيبَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧]، وقال: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيُرَبُّوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يُرَبُّوا عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية [الروم: ٣٩]. وقال ابن جرير فى قوله: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرَّبَا﴾: وهذا نظير الخبر

(١) رواه البخارى بنحوه (٤ / ٣٤٤ فتح) ومسلم (١ / ٤٦٤) من حديث عمر بن الخطاب. ورواه الجماعة من حديث جابر، كما فى المتقى (٢٧٧٧) وثبت أيضا من حديث ابن عباس فى المسند (٢٢٢١) ومن حديث عبد الله بن عمر (٥٩٨٢)، ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص (٦٩٩٧) ومن حديث أبى هريرة فى البخارى (٤ / ٣٤٥ فتح) ومسلم (١ / ٤٦٤). و«جملوها» - بفتح الجيم والميم مخففة: أى أذابوها واستخرجوا دهنها.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه، من حديث ابن مسعود. ورواه أحمد ومسلم من حديث جابر - كما فى الفتح الكبير (٣ / ١٣).

(٣) هذا كان حين كان الحكم فى بلاد الإسلام للإسلام، فكان من يريد العصيان والخروج يحتال بمظهر العمل الصحيح. أما الآن، وأكثر البلاد التى تنتسب للإسلام، وتسمى نفسها بلاداً إسلامية، ثم تحمك بتشريع آخر غير دين الإسلام، تشريع مقتبس عن القوانين الوثنية والنصرانية والامم الملحدة - هؤلاء لا يحتاجون إلى الحيل الظهور بمظهر العمل الصحيح!! بل هم يكتبون العقود ظاهرة صريحة بالربا وبال عقود الباطلة فى دين الإسلام؛ لأنهم اتخذوا ديناً غيره، بخضوعهم ورضاهم بتشريع غير شرعته، فإن الإسلام قول وعمل، وسمع وطاعة. فلن يقبل من أحد أن يقول كلمة الإسلام ثم يخضع نفسه وأمنه لشرعة أعدائه، ويضم فى قلبه أنه بذلك يصنع الصواب، أو يختار ما فيه المصلحة، أو يلزم ما يناسب عصره! فيهدم بعمله ما يقوله بلسانه ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦] فإننا لله وإنا إليه راجعون.

(٤) رواه أحمد (٧٨١٤) ومسلم (٢ / ٢٨٠) من حديث أبى هريرة.

(٥) طبع هذا الكتاب بمصر سنة ١٣٢٨، ضمن المجلد الثالث من مجموعة فتاوى شيخ الإسلام.

الذى روى عن عبد الله بن مسعود، أنه قال: «الربا وإن كثرت إلى قل». وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «إن الربا وإن كثرت فإن عاقبته تصير إلى قل» وقد رواه ابن ماجه بنحوه (١).

وهذا من باب المعاملة بتقيض المقصود، كما روى الإمام أحمد عن أبي يحيى - رجل من أهل مكة - عن فروخ مولى عثمان: أن عمر - وهو يومئذ أمير المؤمنين - خرج من المسجد، فرأى طعاماً مثنوراً. فقال: ما هذا الطعام؟ فقالوا: طعام جلب إلينا. قال: بارك الله فيه وفيمن جلبه. قيل: يا أمير المؤمنين، إنه قد احتكر. قال: ومن احتكره؟ قالوا: فروخ مولى عثمان، وفلان مولى عمر. فأرسل إليهما فقال: ما حملكما على احتكار طعام المسلمين؟! قالوا: يا أمير المؤمنين، نشترى بأموالنا ونبيع، فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من احتكر على المسلمين طعامهم؛ ضربه الله بالإفلاس أو بجذام». فقال فروخ عند ذلك: أعاهد الله وأعاهدك إلا أعود في طعام أبداً. وأما مولى عمر فقال: إنما نشترى بأموالنا ونبيع. قال أبو يحيى: فلقد رأيت مولى عمر مجذوماً. ورواه ابن ماجه ولفظه: «من احتكر على المسلمين طعامهم؛ ضربه الله بالإفلاس والجذام» (٢).

وقوله: «وَيُرَبِّي الصُّدُقَاتِ»: قُرئ بضم الياء والتخفيف، من «ربا الشيء يربو» و«أرباه يُربيه» أى: كثّره ونماه ينميه. وقرئ: «وَيُرَبِّي» بالضم والتشديد، من التربية. وروى البخارى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله ليقبلها بيمينه، ثم يربها لصاحبه كما يربى أحدكم فُلُوّه، حتى يكون مثل الجبل» ورواه مسلم والترمذى والنسائى والبيهقى. وقال الترمذى: حسن صحيح (٣). وروى الإمام أحمد عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليربى لأحدكم التمرة واللقمة، كما يربى أحدكم فُلُوّه أو فصيلة، حتى يكون مثل أحد». تفرد به أحمد من هذا الوجه (٤).

وقوله: «وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ»: أى: لا يحب كفور القلب أثيم القول والفعل. ولا بد من مناسبة فى ختم هذه الآية بهذه الصفة، وهى أن المرابى لا يرضى بما قسم الله له من الحلال،

(١) المسند (٣٧٥٤) وابن ماجه (٢٢٧٩) ورواه الحاكم (٢ / ٣٧ ، ٤ / ٣١٧ ، ٣١٨) وصححه ، ووافقه الذهبى .

و «القل» - بضم القاف وتشديد اللام : القلة ، كالذلل والذلة .

(٢) المسند (١٣٥) وابن ماجه مختصراً (٢١٥٥) . وإسنادهما صحيحان .

(٣) البخارى (٣ / ٢٢٠ - ٢٢٢ ، ١٣ / ٣٥٢ فتح) ومسلم (١ / ٢٧٧) بنحوه ، ورواه أحمد فى المسند - بمعناه - مرارا . أولها: (٧٦٢٢) ، وفصلنا تخريجه هناك ، وكذلك رواه الطبرى (٦٢٥٣ ، ٦٢٥٤ ، ٦٢٥٦ ، ٦٢٥٧) . و «العدل» - بفتح العين ، ويجوز كسرهما ، وسكون الدال : المثل . و «القلو» - بفتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو : المهر الصغير .

(٤) المسند (٦ / ٢٥١ حلى) ورواه الطبرى (٦٢٥٥) مطولا . وذكره الهيثمى (٣ / ١١١) مختصراً ، ونسبه للطبرانى فى الأوسط ، وقال: «ورجاله رجال الصحيح» . ونسى أن ينسبه للمسند ! ثم ذكره (٣ / ١١٢) مطولا ، وقال: «رواه البزار ، ورجاله ثقات» .

ولا يكتفى بما شرع له من الكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلوم آثم يأكل أموال الناس بالباطل.

ثم قال تعالى مادحا للمؤمنين بربهم، المطيعين أمره، المؤدين شكره، المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، مخبراً عما أعد لهم من الكرامة، وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتِغُوا فَلَئِمَّ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَّا تَطْلُمُونَ وَلَا تَطْلُمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بتقواه، ناهياً لهم عما يقربهم إلى سخطه ويبعدهم عن رضاه، فقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: خافوه وراقبوه فيما تفعلون ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ أى: اتركوا مالكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال، بعد هذا الإنذار ﴿إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى: بما شرع الله لكم من تحليل البيع، وتحريم الربا وغير ذلك . وقد ذكر زيد بن أسلم، وابن جريج، ومقاتل ، والسدى: أن هذا السياق نزل فى بنى عمرو بن عمير من ثقيف، وبنى المغيرة من بنى مخزوم، كان بينهم ربا فى الجاهلية، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه، طلبت ثقيف أن تأخذهم منهم، فتشارورا، وقالت بنو المغيرة: لانؤدى الربا فى الإسلام ، فكتب فى ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية، فكتب بها رسول الله ﷺ إليه: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ . فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فقالوا: نتوب إلى الله، ونذر ما بقى من الربا، فتركوه كلهم . وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، لمن استمر على تعاطى الربا بعد الإنذار، قال ابن عباس: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ﴾ أى: استيقنوا بحرب من الله ورسوله . وتقدم عن ابن عباس قال: يقال يوم القيامة لأكل الربا: خذ سلاحك للحرب . ثم قرأ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (١) . وقال ابن عباس: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾: فمن كان مقيماً على الربا لا يتزع عنه كان حقا على إمام المسلمين أن يستتيبه، فإن نزع وإلا ضرب عنقه(٢) . وروى ابن أبى حاتم عن الحسن وابن سيرين، أنهما قالا: والله إن هؤلاء الصيارفة لأكلت الربا، وإنهم قد أذنوا بحرب من الله ورسوله، ولو كان على الناس إمام عادل لاستتابهم، فإن تابوا وإلا وضع فيهم السلاح (٣) . وقال

(١) مضى عند الآية : (٢٧٥) من هذه السورة .

(٢) رواه الطبرى (٦٢٦١) ، وزاد السيوطى (١ / ٢٦٦) نسبه لابن المنذر وابن أبى حاتم .

(٣) إسناد ابن أبى حاتم - فى هذا - صحيح إلى الحسن وابن سيرين .

قتادة : أوعدهم الله بالقتل كما تسمعون ، وجعلهم بهرجاً أين ما أتوا ، فإياكم ومخالطة هذه البيوع من الربا ؛ فإن الله قد أوسع الحلال وأطابه ، فلا يُلجئنكم إلى معصيته فاقه . رواه ابن أبي حاتم (١) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ ﴾ أى : بأخذ الزيادة ﴿ وَلَا تَظْلِمُونَ ﴾ أى : بوضع رؤوس الأموال أيضاً ، بل لكم ما بذلت من غير زيادة عليه ولا نقص منه . وروى ابن أبي حاتم عن سليمان [بن عمرو] بن الأحوص عن أبيه قال : خطب رسول الله ﷺ فى حجة الوداع فقال : « ألا إن كل ربا كان فى الجاهلية موضوع عنكم كله ، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، وأول ربا موضوع ربا العباس بن عبد المطلب كله » (٢) .

وقوله : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ : يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذى لا يجد وفاء ، فقال : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين : إما أن تقضى وإما أن تبرى . ثم يندب إلى الوضع عنه ، ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل ، فقال : ﴿ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(١) لم يذكر الحافظ ابن كثير إسناده ، ولكن روى الطبرى (٦٢٦٤) - أوله إلى قوله : « وجعلهم بهرجا أينما تقفوا » بدل « أتوا » . وإسناده إلى قتادة إسناده صحيح . و « البهرج » - بفتح الباء والراء بينهما هاء ساكنة : الشيء المباح . ويهرج دمه : أهدره وأبطله .

(٢) إسناده صحيح . ولكن وقع لابن كثير فى نسخة ابن أبي حاتم : « عن سليمان بن الأحوص ، عن أبيه » . وهو إما سهو من الناسخ ، أو تساهل من بعض الرواة ، نسبة إلى جده ، والحديث حديث « عمرو بن الأحوص » ، رواه عنه ابنه سليمان .

والحديث رواه الترمذى (١١٤ / ٤ ، ١١٥) مطولا ، وابن ماجه (٣٠٥٥) مطولا أيضا ، وأبو داود (٣٣٣٤) مختصراً - كلهم من حديث « سليمان بن عمرو بن الأحوص ، عن أبيه » . وقال الترمذى : « حسن صحيح » . وها هو ذا القرآن الكريم يحرم الربا كله أشد التحريم ، ويفسره التفسير الواضح الذى لا يحتمل تأويلا : أنه ما زاد على رأس المال ، وتؤكد الأحاديث الصحاح فى التحريم والتفسير ، ويتوعد الله أكل الربا أشد الوعيد بالحرب من الله ورسوله ، يتوعد أكل الكثير والقليل ، بل يتوعد أكل « ما بقى من الربا » ، ليشمل أقل القليل . وها هى ذى أقوال الصحابة والتابعين ، فى استتابة المرابين ، ثم وجوب قتلهم إن لم يتوبوا عنه - فقها منهم دقيقاً لمعنى الآية فى إعلام المرابين بالحرب . هذا فيمن يفعل دون مجاهرة باستحلال الربا ، أما المستحل ما حرم الله فى كتابه وعلى لسان رسوله ، المعلوم تحريمه من الدين بالضرورة ، فلا يشك مسلم من عامة المسلمين فى أنه مرتد خارج من الإسلام ، مباح الدم بالردة عن الإسلام ، لا يأكل الربا والإصرار عليه فقط . فانظروا - أيها المسلمون إن كنتم مسلمين - إلى بلاد الإسلام فى كافة أقطار الأرض إلا قليلا ، وقد ضربت عليها القوانين الكافرة الملعونة ، المقتبسة من قوانين أوربة الوثنية الملحدة ، التى استباحت الربا استباحة صريحة بالفاظها وروحها ، والتى يتلاعب فيها واضعوها بالالفاظ ، بتسمية « الربا » : « فائدة » . حتى لقد رأينا ممن يتسب إلى الإسلام من رجال هذه القوانين ومن غيرهم ممن لا يفقهون - من يجادل عن هذه الفائدة ، ويرمى علماء الإسلام بالجهل والجمود ، إن لم يقبلوا منهم هذه المحاولات لإباحة الربا .

أيها المسلمون ، إن الله لم يتوعد فى القرآن بالحرب على معصية من المعاصى غير الربا ، فانظروا إلى أنفسكم وأممكم ودينكم ، ولن يغلب الله غالب .

أى : وأن تركوا رأس المال بالكفية وتضعوه عن المدين . وقد وردت الأحاديث من طرق متعددة عن النبي ﷺ ، بذلك ، فروى الإمام أحمد عن بريدة قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة» . قال : ثم سمعته يقول : «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة» . قلت : سمعتك - يا رسول الله - تقول : «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة» . ثم سمعتك تقول : «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة»؟! قال : «له بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين ، فإذا حل الدين فأنظره ، فله بكل يوم مثله صدقة» (١) . وروى أحمد أن أبا قتادة كان له دين على رجل ، وكان يأتيه يتقاضاه ، فيختبئ منه ، فجاء ذات يوم فخرج صبي فسأله عنه ، فقال : نعم ، هو في البيت يأكل خزيرة فنذاه فقال : بأفان ، اخرج ، فقد أخبرت أنك ههنا فخرج إليه ، فقال : ما يغيبك عني؟ فقال : إني معسر ، وليس عندي . قال : الله إنك معسر؟ قال : نعم . فبكى أبو قتادة ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من نفّس عن غريمه - أو محا عنه - كان في ظل العرش يوم القيامة» ورواه مسلم (٢) .

وروى أبو يعلى عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : «أتى الله بعدد من عبده يوم القيامة ، قال : ماذا عملت لى فى الدنيا؟ فقال : ما عملت لك يارب مثقال ذرة فى الدنيا أرجوك بها ، قالها ثلاث مرات ، قال العبد عند آخرها : يارب ، إنك أعطيتنى فضل مال ، وكنت رجلاً أبايع الناس وكان من خلقى الجواز ، فكنت أيسر على الموسر ، وأنظر المعسر . قال : فيقول الله ، عز وجل : أنا أحق من يسر ، ادخل الجنة» . وقد أخرجه البخارى ، ومسلم ، وابن ماجه . زاد مسلم : وعقبه بن عامر وأبى مسعود البدرى عن النبي ﷺ ، بنحوه (٣) . وروى أحمد عن أبى

(١) المسند (٥ / ٣٦٠ حلى) وهو فى الزوائد (٤ / ١٣٥) ، وقال : «رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح» .
(٢) المسند (٥ / ٣٠٨ حلى) . وإسناده صحيح . وأما رواية مسلم (١ / ٤٦٠) ، فإنها مقتصرة على المرفوع بنحوه ، ومن وجه آخر . و«الجزيرة» - بالخاء والزاي المعجمتين وبعد الياء راء - لحم يقطع صغاراً ويصب عليه ماء كثير ، فإذا نضج ذر عليه الدقيق . وقوله : «ليس عندي» - اسم «ليس» محذوف للعلم به . وهذا هو الثابت فى المخطوطة الأزهرية والمسند . وفى المطبوعة زيادة «شئ» ! وأخشى أن تكون تصرفاً من ناسخ أو طابع .
(٣) البخارى (٤ / ٢٦١ ، ٥ / ٤٤ ، ٦ / ٣٥٩ فتح) ، ومسلم (١ / ٤٥٩ ، ٤٦٠) . ورواه أيضاً أحمد بنحوه (٥ / ٤٠٧ حلى) .

تنبه مهم : قال الحافظ ابن كثير - هنا - «ولفظ البخارى» . ثم لم يكتب لفظه وترك بياضاً . ثبت ذلك فى المخطوطة الأزهرية وطبعة بولاق . وأبان ذلك أستاذنا السيد رشيد رضا بهامش طبعته (٢ / ٦٧) ، وأشار للموضع الأول من روايات البخارى . وهذا عمل سليم دقيق .
ثم جاء مصححو ابن كثير فى الطبعة التجارية (١ / ٣٣٢) ففهموا إشارة السيد رشيد خطأ ، فنقلوا من البخارى (٤ / ٢٦٢) حديث أبى هريرة مرفوعاً : «كان تاجر يداين الناس ، فإذا رأى معسراً قال لفتيانه : تجاوزوا عنه لعل الله أن يتجاوز عنا ، فتجاوز الله عنه» . وهو حديث صحيح ، رواه أيضاً أحمد (٧٥٦٩) ومسلم (١ / ٤٦٠) . ونقلوه عن البخارى بإسناده على طريقة ابن كثير ، دون بيان أنه زيادة من عندهم ! فكان هذا العمل تزييفاً ، فوق أنه ينهى عن جهل شديد ! فحديث أبى هريرة لا يكون لفظاً آخر لحديث حذيفة عند من يفقه شيئاً من العلم بالحديث . وهو عمل ينافى الأمانة والصدق . ثم هو - فوق ذلك - افتراء على الحافظ ابن كثير ، يومه القارئ بادئ ذى بدء أن ابن كثير يسقط مثل هذه السقطة الشنيعة !! وحاشاه من ذلك .

اليسر ، أن رسول الله ﷺ قال : « من أنظر معسراً أو وضع عنه ؛ أظله الله ، عز وجل ، في ظله يوم لا ظل إلا ظله » . وقد أخرجه مسلم (١) .

ثم قال تعالى يعظ عباده ويذكرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وغيرها، وإتيان الآخرة والرجوع إليه تعالى ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر، ويحذرهم عقوبته، فقال: ﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَلَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ . وقد روى أن هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن العظيم . وقد روى ابن مردويه عن ابن عباس، قال: آخر آية نزلت: ﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ . ورواه النسائي بنحوه (٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْمَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُعْلِمَ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلِيَّهُ بِالْمَدْلِ وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبُ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفَعَلُوا فَإِنَّهُ بَسُوفٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمِ اللَّهُ

اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

هذه الآية الكريمة أطول آية في القرآن العظيم، وقد روى ابن جرير عن سعيد بن المسيب: أنه بلغه: أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين (٣) . وروى الإمام أحمد: عن ابن عباس أنه قال: لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ: «إن أول من جحد آدم، عليه السلام، أن الله لما خلق آدم، مسح ظهره فأخرج منه ما هو ذارئ إلى يوم القيامة، فجعل يعرض ذريته عليه، فرأى فيهم رجلاً يزهر، فقال: أي رب، من هذا؟ قال: هو ابنك داود. قال: أي رب، كم عمره؟ قال: ستون عاماً، قال: رب زد في عمره. قال: لا، إلا أن أزيده من عمرك. وكان عمر آدم ألف سنة، فزاده أربعين عاماً، فكتب عليه بذلك كتاباً وأشهد عليه الملائكة، فلما احتضر آدم وأتته الملائكة قال: إنه قد بقي من عمري أربعون عاماً، فقيل له: إنك قد وهبتها لابنك داود. قال: ما فعلت. فأبرز الله عليه الكتاب، وأشهد عليه الملائكة». وكذا رواه ابن أبي حاتم . هذا حديث

(١) المسند (١٥٥٨٧) . وأما رواية مسلم فإنها أثناء قصة طويلة ، من وجه آخر (٢ / ٣٩٤) .

(٢) يريد في السنن الكبرى . ورواه الطبري أيضا (٦٣١١) بنحوه ، بإسناد صحيح . وذكره الحافظ في الفتح (٨ / ١٥٣) من رواية الطبري فقط ، والهشمي في الزوائد (٦ / ٣٢٤) ، ونسبه « للطبراني بإسنادين ، رجال أحدهما ثقات » . وزاد السيوطي (١ / ٣٦٩ ، ٣٧٠) . نسبته لأبي عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر وغيرهم .

(٣) إسناده إلى سعيد بن المسيب صحيح ، ولكنه حديث مرسل لم يذكر فيه صحابي .

غريب جداً، وعلى بن زيد بن جُدعان في أحاديثه نكارة. وقد رواه الحاكم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، فذكره بنحوه (١).

فقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاتَّكِبُوهُ﴾. هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها، ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها، وأضبط للشاهد فيها، وقد نبه على هذا في آخر الآية حيث قال: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾. وعن ابن عباس، قال: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أحله وأذن فيه، ثم قرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. رواه البخاري. وثبت في الصحيحين عن ابن عباس، قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يُسَلِّفُونَ في الثمار السنتين والثلاث، فقال رسول الله ﷺ: «من أسلف فيلسف في كيل معلوم، ووزن معلوم، إلى أجل معلوم».

وقوله: ﴿فَاتَّكِبُوهُ﴾: أمر منه تعالى بالكتابة للتوثيق والحفظ، فإن قيل: فقد ثبت في الصحيحين، عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»، فما الجمع بينه وبين الأمر بالكتابة؟ فالجواب: أن الدين من حيث هو غير مفتقر إلى كتابة أصلاً؛ لأن كتاب الله قد سهل الله ويسر حفظه على الناس، والسنن أيضاً محفوظة عن رسول الله ﷺ، والذي أمر بكتابتها إنما هو أشياء جزئية تقع بين الناس، فأمرُوا أمر إرشاد لا أمر إيجاب.

وقوله: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ أي: بالقسط والحق، ولا يجز في كتابته على أحد، ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان.

وقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ أي: ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس، ولا ضرورة عليه في ذلك، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم، فلْيَتَصَدَّقْ على غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب، كما جاء في الحديث: «إن من الصدقة أن تعين صناعاً أو تصنع لأخرق» (٢). وقال مجاهد وعطاء: واجب على الكاتب أن يكتب.

وقوله: ﴿وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ أي: وليملل المدين على الكاتب ما في ذمته

(١) حديث ابن عباس في المسند (٢٧٠، ٢٧١٣)، وكذلك رواه الطيالسي (٢٦٩١). وعلى بن زيد بن جُدعان ثقة. وليس في هذا الحديث نكارة كما زعم ابن كثير. وقد رجحت صحته برواية معناه من حديث أبي هريرة عند الحاكم، وهو في المستدرک (٥٨٥/٢، ٥٨٦) وصححه، وهو كما قال. وقد ذكره الحافظ ابن كثير في التاريخ، مطولاً، من صحيح ابن حبان، من حديث أبي هريرة أيضاً، وقوله: «يظهر»: أي يضىء وجهه حسناً.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، ولكن معناه ثابت ضمن حديثين في السؤال عن أفضل الأعمال؟ وفيهما: «تعين صناعاً، أو تصنع لأخرق». رواه أحمد في المسند (٩٠٢٦) من حديث أبي هريرة. ورواهما أحمد (٥/١٥٠ حلى) والبخاري (١٠٥/٥ فتح) ومسلم (٣٦/١) - ثلاثهم من حديث أبي ذر. وفي رواية مسلم: «صانعا» بدل «صانعا». والمعنى قريب. و«الأخرق»: الجاهل الذي لا يتقن ما يعمل، أو الأحمق الذي ليس في يديه صنعة يكتب بها.

من الدين، وليتق الله في ذلك، ﴿ وَلَا يَتَخَسَّ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ أى : لا يكتسب منه شيئاً، ﴿ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا ﴾ محجوراً عليه بتبذير ونحوه، ﴿ أَوْ ضَعِيفًا ﴾ أى : صغيراً أو مجنوناً ﴿ أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْلُهُ ﴾ إما لعي أو جهل بموضع صواب ذلك من خطئه. ﴿ فَلْيَمْلِكْ وَلِيَهُ بِالْعَدْلِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَأَشْهَدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ ، أمر بالإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثيق، ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ ﴾ ، وهذا إنما يكون فى الأموال وما يقصد به المال، وإنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة، كما روى مسلم عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال : «يا معشر النساء، تصدقن وأكثرن الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار»، فقالت امرأة منهن جَزَلَةٌ : وما لنا - يا رسول الله - أكثر أهل النار؟ قال : «تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن». قالت : يا رسول الله، ما نقصان العقل والدين؟ قال : «أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالى لا تصلى، وتفطر فى رمضان، فهذا نقصان الدين» (١).

وقوله : ﴿ مِنْ تَرَضُّونَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ : فيه دلالة على اشتراط العدالة فى الشهود، وهذا مقيد، حكّم به الشافعى على كل مطلق فى القرآن، من الأمر بالإشهاد من غير اشتراط. وقد استدل من رد المستور بهذه الآية [الدالة] على أن يكون الشاهد عدلاً مرضياً. وقوله : ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا ﴾ يعنى : المرأتين إذا نسيت الشهادة ﴿ فَتَذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾ أى : يحصل لها ذكرى بما وقع به الإشهاد، ولهذا قرأ آخرون : «تتذكر» (٢) بالتشديد من التذكار. ومن قال : إن شهادتها معها تجعلها كشهادة ذكر فقد أبعده، والصحيح الأول، والله أعلم.

وقوله : ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ : قيل : معناه : إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة، وهو قول قتادة والربيع بن أنس. وهذا كقوله : ﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ ﴾ ، ومن هاهنا استفيد أن تحمّل الشهادة فرض كفاية. وقيل - وهو مذهب الجمهور - المراد بقوله : ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ للدعاء، لحقيقة قوله : ﴿ الشُّهَدَاءُ ﴾ ، والشاهد حقيقة فيمن تحمّل، فإذا دعى لأدائها فعليه الإجابة إذا تعينت وإلا فهو فرض كفاية، والله أعلم. وقال مجاهد وأبو مجلز، وغير واحد : إذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار، وإذا شهدت فدعيت فأجب. وقد ثبت فى صحيح مسلم والسنن، عن زيد بن خالد : أن رسول الله ﷺ قال : «ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذى يأتى بشهادته قبل أن يسألها» (٣). فأما الحديث الآخر فى الصحيحين : «ألا أخبركم بشر

(١) هذا اللفظ هو لفظ حديث ابن عمر ، فى مسلم (١ / ٣٥) ، وكذلك رواه أحمد (٥٣٤٣) . ثم روى مسلم بإسناد آخر إلى أبى هريرة ، وقال : «بمثل معنى حديث ابن عمر» . يريد المعنى الإجمالى للحديث ، لا لفظه ولا سياقه . وحديث أبى هريرة بسياق آخر ولفظ أطول ، وهو فى المسند (٨٨٤٩٠) . فلم يكن صنيع ابن كثير دقيقاً حين نسب هذا اللفظ لأبى هريرة دون بيان .

(٢) قراءة ابن كثير المكى وأبى عمرو - بسكون الذال وكسر الكاف مخففة . وقرأ باقى السبعة بفتح الذال وتشديد الكاف المكسورة ، وهى قراءة حفص .

(٣) صحيح مسلم (٢ / ٤) .

الشهداء؟ الذين يشهدون قبل أن يُستشهدوا»، وكذا قوله: «ثم يأتي قوم تسبق إيمانهم شهادتهم، وتسبق شهادتهم إيمانهم». وفى رواية: «ثم يأتي قوم يشهدون ولا يُستشهدون»^(١). وهؤلاء شهود الزور. وقد روى عن ابن عباس والحسن البصرى: أنها تعم الحالين: التحمّل والأداء.

وقوله: «وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ»: هذا من تمام الإرشاد، وهو الأمر بكتابة الحق صغيراً كان أو كبيراً، فقال: «وَلَا تَسْأَمُوا»: أى: لا تملوا أن تكتبوا الحق على أى حال كان من القلة والكثرة «إِلَىٰ أَجَلِهِ». وقوله: «ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا»: أى: هذا الذى أمرناكم به من الكتابة للحق إذا كان مؤجلاً هو «أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ»: أى: أعدل «وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ»: أى: أثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة، لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه، كما هو الواقع غالباً «وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا»: وأقرب إلى عدم الريبة، بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذى كتبتموه، فيفصل بينكم بلا ريبة.

وقوله: «إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا»: أى: إذا كان البيع بالحاضر يدا بيد، فلا بأس بعدم الكتابة لانتفاء المحذور فى تركها. فاما الإشهاد على البيع، فقد قال تعالى: «وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ»، روى ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قول الله: «وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ» يعنى: أشهدوا على حقكم إذا كان فيه أجل أو لم يكن، فأشهدوا على حقكم على كل حال. قال: وروى عن جابر بن زيد، ومجاهد نحو ذلك. وقال الشعبى والحسن: هذا الأمر منسوخ بقوله: «فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِنَ أَمَانَتَهُ». وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب، لا على الوجوب. والدليل على ذلك حديث خزيمَةَ ابن ثابت الأنصارى، وقد رواه الإمام أحمد عن عمارة بن خزيمة الأنصارى، أن عمه حدثه - وهو من أصحاب النبى ﷺ - أن النبى ﷺ ابتاع فرساً من أعرابى، فاستبعه النبى ﷺ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبى ﷺ وأبطأ الأعرابى، ففطق رجال يعترضون الأعرابى فيساومونه بالفرس، ولا يشعرون أن النبى ﷺ ابتاعه، حتى زاد بعضهم الأعرابى فى السوم على ثمن الفرس الذى ابتاعه النبى ﷺ، فنادى الأعرابى النبى ﷺ فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتعه، وإلا بعتّه، فقام النبى ﷺ حين سمع نداء الأعرابى، قال: «أوليس قد ابتعته منك؟!» قال الأعرابى: لا، والله ما بعتك. فقال النبى ﷺ: «بل قد ابتعته منك». ففطق الناس يلوذون بالنبى ﷺ والأعرابى وهما يتراجعان، ففطق الأعرابى يقول: هَلُمَّ شهيداً يشهد أنى بايعتك. فمن

(١) هى ثلاثة أحاديث: أما أولها: «ألا أخبركم بشر الشهداء» إلخ - فقد نسبه الحافظ ابن كثير للصحيحين، ولم أجده فيهما ولا فى غيرهما بهذا اللفظ، وإن كان معناه صحيحاً فى ذاته. وثانيهما: رواه البخارى (١٩١ فتح) ومسلم (٢/ ٢٧١) بنحوه عن ابن مسعود. ولفظ البخارى: «ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته». ورواه أحمد فى المسند مرارا، منها: (٤١٣٠). والثالث رواه أيضا البخارى (١٩٠ / ٥) ومسلم (٢ / ٢٧١) بنحوه، من حديث عمران بن حصين. ففى روايات ابن كثير هنا تساهل. والظاهر أنه ذكرها من حفظه.

جاء من المسلمين قال للأعرابي: ويلك! إن النبي ﷺ لم يكن يقول إلا حقاً. حتى جاء خزيمية، فاستمع لمراجعة النبي ﷺ ومراجعة الأعرابي [فطفق الأعرابي] يقول: هلم شهيداً يشهد أني بايعتك!. قال خزيمية: أنا أشهد أنك قد بايعته. فأقبل النبي ﷺ على خزيمية فقال: «بم تشهد؟» فقال: بتصديقك يا رسول الله. فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمية بشهادة رجلين. وهكذا رواه أبو داود والنسائي نحوه (١).

ولكن الاحتياط هو الإشهاد، لما رواه الإمامان الحافظ أبو بكر بن مردويه والحاكم عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم: رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل دفع مال يتيم قبل أن يبلغ، ورجل أقرض رجلاً مالا فلم يُشده». قال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

(١) المسند (٥ / ٢١٥ ، ٢١٦ حلي). وأبو داود (٣٦٠٧) والنسائي (٢ / ٢٢٩) والحاكم (٢ / ١٧ ، ١٨). وإسناده صحيح كالشمس. والصحابي المبهم، عم عمارة وأخو خزيمية بن ثابت: لا يضر عدم معرفة اسمه. وكذلك رواه ابن سعد في الطبقات (٤ / ٢ / ٩٠ ، ٩١). وقد روى عمارة بن خزيمية بن ثابت في الحديث - بنحوه - عن أبيه أيضاً. رواه الطبراني «ورجاله كلهم ثقات»، كما في مجمع الزوائد (٩ / ٣٢٠). وذكره الحافظ في الفتح (٨ / ٣٩٩)، من رواية الطبراني وابن شاهين. ورواه الحاكم أيضاً (٢ / ١٨).

وقد صنع أستاذنا السيد رشيد رضا - هنا - شيئاً لم يكن الظن به أن يصنعه. وما أدري كيف صدر هذا منه! فإنه أراد أن يتأول الحديث بما يخرجه عن معناه، وينفي خصوصية خزيمية بأن شهادته بشهادة رجلين! فذكر قول رسول الله ﷺ لخزيمية - في رواية الطبراني - : «بم تشهد ولم تكن حاضراً؟» ونقل عن ابن التين أن النبي قال لخزيمية: «لا تعد». وهو قد نقل هاتين الكلمتين من فتح الباري يقيناً، لأن مجمع الزوائد لم يكن طبع إذ ذاك، ولأن لفظ الطبراني في الزوائد: «ما حملك على الشهادة ولم تكن حاضراً!» ثم قال كلمتين لا يجدران بمثله، بل لا يجدران برجل يقدر السنة قدرها. فقال: «وفي قول العلماء أنه ﷺ جعل شهادة خزيمية شهادة رجلين نظر!» ثم قال بعد تأويل الحديث: «فتخرجه على حكم الحاكم بما علمه يقيناً أولى من تخريجه بحكم شاهد واحد أقيم مقام شاهدين، خصوصية له خصص بها حكم القرآن!! فأنكر نص الحديث صريحاً، وجعله من «قول العلماء»، وجعل خصوصية خزيمية من تخريجهم! والحديث أمامه صريح في نص المسند الذي نقله ابن كثير هنا: «فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمية شهادة رجلين». وكذلك هو بهذا المعنى - أمامه - في رواية الطبراني التي نقلها الحافظ في الفتح: «فقال النبي ﷺ: من شهد له خزيمية أو عليه فحسه». فالنص فيهما صريح بأن رسول الله ﷺ هو الذي خص حذيفة بهذه الخصوصية وجعل شهادته بشهادة رجلين. ولم يكن هذا اختراعاً اخترعه العلماء، ولم يكن تخريجاً لهم يصلح عرضة للرد والنقد. بل إن كلمة ابن التين التي نقلها واستند عليها - نقلها وهو يعلم أنها لا أصل لها، لأنه إنما نقلها عن الحافظ في الفتح (٨ / ٣٩٩)، ونص كلامه: «زعم ابن التين أن النبي ﷺ قال لخزيمية لما جعل شهادته شهادتين: لا تعد، أي تشهد على ما لم تشاهده. انتهى. وهذه الزيادة لم أقف عليها». وكفى في نفيها أن لم يجدها الحافظ ابن حجر، ثم لم يجدها أحد بعده. وأكثر من هذا أن الموضع الذي نقل منه من الفتح - هو في شرح حديث زيد بن ثابت في نسخة المصاحف، الذي فيه أن لم يجد آية من سورة الأحزاب، وهي (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) - «مع أحد إلا مع خزيمية الأنصاري، الذي جعل رسول الله ﷺ، شهادته شهادة رجلين». وهذا نص صريح من صحابي آخر، اتصل به العمل: أنه أخذ بشهادة خزيمية وحده، إيماناً بهذه الخصوصية له مما يدل على أنها كانت معروفة للصحابة، مشهورة لديهم. وهي خصوصية لا تزال معروفة مشهورة، ولا أعلم أحداً من أهل العلم تشكك في صحتها قبل السيد رشيد رضا، رحمه الله وإيانا، وغفر لنا وله.

وقوله: ﴿وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾: قيل: معناه: لا يضار الكاتب ولا الشاهد، فيكتب هذا خلاف ما يملئ، ويشهد هذا بخلاف ما سمع أو يكتهما بالكلية، وهو قول الحسن وقيادة وغيرهما. وقيل: معناه: لا يضر بهما، روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في هذه الآية قال: يأتي الرجل فيدعوهما إلى الكتاب والشهادة، فيقولان: إنا على حاجة، فيقول: إنكما قد أمرتما أن تجييا. فليس له أن يضارهما. ثم قال: وروى عن عكرمة، ومجاهد، وطاوس وغيرهم نحو ذلك (١).

وقوله: ﴿وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾: أى: إن خالفتم ما أمرتم به، وفعلتم ما نهيتم عنه، فإنه فسق كائن بكم، أى: لازم لكم لا تحيدون عنه ولا تنفكون منه.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: أى: خافوه وراقبوه، واتبعوا أمره واتركوا زجره، ﴿وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ﴾ كقولهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، وكقولهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: أى: هو عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء، بل علمه محيط بجميع الكائنات.

ربع ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُوْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَسْتَقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْفُرُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْفُرْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

يقول تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ﴾: أى: مسافرين وتدايتم إلى أجل مسمى ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ يكتب لكم. قال ابن عباس: أو وجدوه ولم يجد قرطاساً أو دواة أو قلماً ﴿فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾: أى: فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة فى يد صاحب الحق، وقد استدل بقوله: ﴿فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾، على أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض، كما هو مذهب الشافعى والجمهور، واستدل بها آخرون على أنه لا بد أن يكون الرهن مقبوضاً فى يد المرتهن، وهو رواية عن الإمام أحمد، وذهب إليه طائفة. واستدل آخرون من السلف بهذه الآية على أنه لا يكون الرهن مشروعاً إلا فى السفر، قاله مجاهد وغيره، وقد ثبت فى الصحيحين، عن أنس، أن رسول الله ﷺ تَوَقَّى وَدَرَعَهُ مرهونة عند يهودى على ثلاثين وسقاً من شعير، رهنها قوتاً لأهله.

وقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُوْتِمِنَ أَمَانَتَهُ﴾: روى ابن أبي حاتم - بإسناد جيد - عن أبي سعيد الخدرى أنه قال: هذه نسخت ما قبلها، وقال الشعبى: إذا اتّمن بعضكم بعضاً فلا بأس ألا تكتبوا أو لا تشهدوا.

(١) هذا هو القول الصحيح الذى رجحه الطبرى (٦ / ٩٠ ، ٩١).

وقوله: ﴿وَلَيَقْبَلَنَّ اللَّهُ مِنْ يَدَيْهِ﴾ يعني: المؤمن، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن، عن سَمُرَةَ: أن رسول الله ﷺ قال: «على اليد ما أخذت حتى تؤديه» (١).
وقوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أى: لا تخفوها وتغلوها ولا تظهروها. قال ابن عباس وغيره: شهادة الزور من أكبر الكبائر، وكتمانها كذلك. ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾، قال السدى: يعنى: فاجر قلبه، وهذا كقولہ تعالیٰ: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّهَا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ [المائدة: ١٠٦]، وقال تعالیٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُهَا يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

يخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن، وأنه المطلع على ما فيهن، لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر، وإن دقت وخفيت، وأخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم كما قال: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبَدُّوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩]، وقال: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، والآيات في ذلك كثيرة جداً، وقد أخبر في هذه بمزيد على العلم، وهو: المحاسبة على ذلك، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة، رضى الله عنهم، وخافوا منها، ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُهَا يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جثوا على الركب، وقالوا: يا رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطبق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزل عليك هذه الآية ولا نطبقها. فقال رسول الله ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير». فلما أقر بها القوم وذلت بها ألسنتهم، أنزل الله في أثرها: ﴿أَمَّا الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾. فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نُسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، إلى آخرها.

(١) المسند (٥ / ٨ حلى) وأبو داود (٣٥٦١) والترمذى (٢ / ٢٥٢) وقال: «حديث حسن». وفى بعض

ورواه مسلم منفرداً به عن أبي هريرة، فذكر مثله، ولفظه: «فلما فعلوا ذلك نسخها الله، فانزل الله: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ قال: نعم، ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ قال: نعم، ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ قال: نعم، ﴿ وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ قال: نعم (١). .وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَافُكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء، قال: فقال رسول الله، ﷺ: «قولوا: سمعنا وأطعنا وسلمنا». فاللقى الله الإيمان في قلوبهم، فانزل الله: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْكُمْ وَكَيْهِ وَرَسُولِهِ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رَسُولِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾، إلى قوله: ﴿ فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾. وهكذا رواه مسلم وزاد: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ قال: قد فعلت ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ قال: قد فعلت، ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ قال: قد فعلت ﴿ وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا ﴾ قال: قد فعلت (٢).

[ثم ذكر الحافظ ابن كثير هنا رواية أخرى عن ابن عباس ، من المسند (٣٠٧١) ، وروايتين عنه من الطبري : (٦٤٥٩ ، ٦٤٦٢) ، ثم قال] :

فهذه طرق صحيحة عن ابن عباس، وقد ثبت عن ابن عمر كما ثبت عن ابن عباس ، فروى البخارى عن مروان الاصفر، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ - أحسبه ابن عمر - ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ ﴾ قال: نسختها الآية التي بعدها. وهكذا روى عن علي، وابن مسعود ، والشعبي، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة: أنها منسوخة بالتي بعدها.

وقد ثبت بما رواه الجماعة في كتبهم الستة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لى عن أمتى ما حدثت به أنفسها، ما لم تكلم أو تعمل ». وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عسراً».

وروى ابن جرير عن الحسن البصرى أنه قال: هى مُحْكَمَةٌ لم تنسخ. واختار ابن جرير ذلك، واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة، وأنه تعالى قد يحاسب ويغفر، وقد يحاسب ويعاقب - بالحديث الذى رواه عن صفوان بن مُحْرَز، قال: بينا نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر، وهو يطوف، إذ عرض له رجل فقال: يا بن عمر، ما سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدنو المؤمن من ربه، عزوجل، حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه فيقول: هل تعرف كذا؟ فيقول: رب أعرف - مرتين - حتى إذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ قال: فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم». قال:

(١) المسند (٩٣٣٣) وصحيح مسلم (٤٦/١، ٤٧)، ورواه أيضا ابن حبان (١٣٩) بتحقيقنا، والطبري (٦٤٥٦).

(٢) المسند (٢٠٧٠) وصحيح مسلم (٤٧/١) والطبري (٦٤٥٧) والحاكم (٢/٢٨٦، ٢٨٧).

« فيعطى صحيفة حسناته - أو كتابه - بيمينه ، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الأشهاد : ﴿ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ » [هود : ٤١٨] . وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وغيرهما (١) . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن أمية قالت : سألت عائشة عن هذه الآية : ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ فقالت : ما سألتني عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ عنها فقال : « هذه متابعة الله العبد ، وما يصيبه من الحمى ، والنكبة ، والبضاعة يضعها في يد كفه ، فيفتقدتها فيفزع لها ، ثم يجدها في ضبنته ، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر » . وكذا رواه الترمذى ، وابن جرير ، وقال الترمذى : غريب . قلت : وعلى بن زيد بن جُدعان ضعيف ، يغرب في رواياته ، وهو يروى هذا الحديث عن امرأة أبيه : أم محمد أمية بنت عبد الله ، عن عائشة ، وليس لها عنها في الكتب سواه (٢) .

﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (١٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿ (١٨٦) ﴾

ذكر الأحاديث الواردة في فضل هاتين الآيتين الكريمتين نفعنا الله بهما (٣) :

روى البخارى عن أبي مسعود ، عن النبى ﷺ قال : « من قرأ بالآيتين » ، وحدثنا أبو نعيم ، حدثنا سفيان ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن أبي مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كَفَتَّاهُ » . وقد أخرجه بقية الجماعة والإمام أحمد (٤) عن أبى ذر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش ، لم يعطهن نبى قبلى » . وقد رواه ابن مردويه (٥) .

(١) الطبرى (٦٤٩٧) ورواه أيضا أحمد فى المسند (٥٤٣٦ ، ٥٨٢٥) ، وتخريجه مفصل فى الكتابين .
(٢) الترمذى (٤ / ٧٨ ، ٧٩) والطبرى (٦٤٩٥) . ورواه أيضا الطيالسى (١٥٨٤) وأحمد فى المسند (٢١٨ / ٦ حلى) . وفصلنا تخريجه وصحته فى الطبرى . وقوله : « متابعة الله العبد » يعنى : ما يصيب الإنسان مما يؤله ، يتابعه الله به ليكفر عنه من ذنوبه ، وهذا هو الثابت فى المسند والطبرى . وثبت هنا فى المخطوطة والمطبوعة : « مباحة » ! وهو تصحيف . وقوله : « فى ضبنته » : هكذا ثبت بلفظ التانيث فى المخطوطة . والضبن - بكسر الضاد وسكون الباء الموحدة : ما بين الإبط والكشح .

(٣) ذكر الحافظ ابن كثير هنا عشرة أحاديث وطرقها وأسانيدنا . اقتصرنا منها على ثلاثة أحاديث ، هى أصحها إن شاء الله .

(٤) البخارى (٩ / ٥٠ ، ٨٢ فتح) ومسلم (١ / ٢٢٢) والمسند (١٧١٣٦) . و « أبو مسعود » : هو البدرى ، عقبه بن عمرو الأنصارى .

(٥) المسند (٥ / ١٥١ ، ١٨٠ حلى) بأربعة أسانيد ، اثنان منهما برجال الصحيح . وهو فى الزوائد (٦ / ٣١٢) .

وروى مسلم عن عبد الله، قال: لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدره المنتهى، وهى فى السماء السادسة إليها ينتهى ما يعرج [به] من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهى ما يهبط [به] من فوقها فيقبض منها، قال: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم: ١٦]، قال: فرأش من ذهب. قال: وأعطى رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطى الصلوات الخمس، وأعطى خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المَقْحَمَاتُ (١).

ف قوله تعالى: ﴿أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾: إخبار عن النبي ﷺ بذلك. وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف على ﴿الرَّسُولُ﴾، ثم أخبر عن الجميع فقال: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾، فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره، ولا رب سواه. ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم، فيؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله، حتى نسخ الجميع بشرع محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، الذى تقوم الساعة على شريعته، ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين.

وقوله: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أى: سمعنا قولك يا ربنا، وفهمناه، وقمنا به، وامتلنا العمل بمقتضاه، ﴿غُفْرَانِكَ رَبَّنَا﴾ سؤال للغفر والرحمة. روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قول الله: ﴿أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، إلى قوله: ﴿غُفْرَانِكَ رَبَّنَا﴾ قال: قد غفرت لكم (٢)، ﴿وَاللَّيْلِ الْمَصِيرِ﴾ أى: إليك المرجع والمآب يوم يقوم الحساب.

وقوله: ﴿لَا يَكِلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أى: لا يكلف أحداً فوق طاقته، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورافته بهم وإحسانه إليهم، وهذه هى الناسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصحابة، فى قوله: ﴿وَأَنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ أى: هو وإن حاسب وسأل لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه، فأما ما لا يملك دفعه - من وسوسة النفس وحديثها - فهذا لا يكلف به الإنسان، وكراهية الوسوسة السيئة من الإيمان.

(١) عبد الله: هو ابن مسعود. والحديث فى صحيح مسلم (١ / ٦٢ ، ٦٣). ورواه أيضا أحمد (٣٦٦٥). وذكره ابن كثير ثانياً فى أحاديث الإسراء، عند تفسير الآية الأولى منها. ثم ذكره ثالثاً عند تفسير الآية (١٦) من سورة النجم. ووقع فى المطبوعة «السماء السابعة». وهو خطأ، صوابه من المخطوطة والمسند وصحيح مسلم. و«المقحّمات» - بكسر الحاء: الذنوب العظام التى تقتحم أصحابها فى النار، أى تلقيهم فيها. وذكر ابن كثير آخر الأحاديث العشرة. حديث ابن عباس فى شأن نزولهما ونزول الفاتحة. وقد مضى عند سورة الفاتحة.

(٢) هو مختصر من حديث مطول، رواه الطبرى (٦٥٤٠) هكذا موقوفاً على ابن عباس. وهو وإن كان موقوفاً لفظاً فإنه مرفوع حكماً. ثم قد رواه الطبرى أيضا (٦٥٣٤) مرفوعاً لفظاً، بإسناد صحيح. وقد مضى معناه أيضا من حديثى أبى هريرة وابن عباس عند الآية (٢٨٤) من هذه السورة عن المسند وصحيح مسلم.

وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أى: من خير، ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ أى: من شر، وذلك فى الأعمال التى تدخل تحت التكليف . ثم قال تعالى مرشداً عباده إلى سؤاله، وقد تكفل لهم بالإجابة، كما أرشدهم وعلمهم أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا﴾ أى: إن تركنا فرضاً على جهة النسيان، أو فعلنا حراماً كذلك ﴿أَوْ أخطأْنَا﴾ أى: الصواب فى العمل، جهلاً منا بوجهه الشرعى . وقد تقدم فى صحيح مسلم لحديث أبى هريرة: «قال الله: نعم» ولحديث ابن عباس، قال الله: «قد فعلت». وروى ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والطبرانى عن ابن عباس. قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان، وما استكروها عليه». وقد روى من طُرُقٍ أُخَرَ وأعله أحمد وأبو حاتم (١) ، والله أعلم.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ أى: لا تكلفنا من الأعمال الشاقة - وإن أطقناها - كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والأصار التى كانت عليهم، التى بعثت نبيك محمداً ﷺ نبي الرحمة بوضعه فى شرعه الذى أرسلته به، من الدين الخفيف السهل السمح. وقد ثبت فى صحيح مسلم، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: نعم». وعن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: قد فعلت». وجاء الحديث من طرق، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة» (٢).

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أى: من التكليف والمصائب والبلاء، لا تبتلينا بما لا قبل لنا به.

وقوله: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا﴾ أى: فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا، ﴿وَأَغْفِرْ لَنَا﴾ أى: فيما بيننا وبين عبادك، فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة، ﴿وَأَرْحَمْنَا﴾ أى: فيما يُستقبل، فلا توقعنا - بتوفيقك - فى ذنب آخر، ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه فى نظيره. وقد تقدم فى الحديث أن الله قال: «نعم». وفى الحديث الآخر: «قال الله: قد فعلت».

وقوله: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أى: أنت ولينا وناصرنا، وعليك توكلنا، وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك، ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أى: الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك، ورسالة نبيك، وعبدوا غيرك، وأشركوا معك من عبادك، فانصرنا عليهم،

(١) الظاهر أن العلة التى فيه؛ الانقطاع فى إسناد ابن ماجه، ولكن إسنادى ابن حبان والطبرانى متصلان صحيحان . وكذلك رواه الحاكم (١٩٨/٢) بنحوه، بالإسناد المتصل، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبى .

(٢) من حديث رواه أحمد فى المسند (٦ / ١١٦ ، ٢٣٣ حلى) عن عائشة، مرفوعاً: «لتعلم يهود أن فى ديننا فسحة، إني أرسلت بحنيفية سمحة» قال ذلك فى شأن الحبشة ولعبهم فى المسجد ونظر عائشة إليهم . وإسناده صحيح . وانظر كشف الخفا (١ / ٢١٧) .

واجعل لنا العاقبة عليهم فى الدنيا والآخرة، قال الله: « نعم » . وفى الحديث الذى رواه مسلم، عن ابن عباس: « قال الله: قد فعلت ». وروى ابن جرير أن معاذاً كان إذا فرغ من هذه السورة «فأنصرتنا» (١) على القوم الكافرين ﴿ قال: آمين (٢) .

(وتم تفسير سورة البقرة والحمد لله رب العالمين)

(١) فى المطبوع من « عمدة التفسير » وكذا المخطوطة : « وأنصرتنا » وهو خطأ بين . (الباز) .
(٢) الطبرى (٦٥٤٢) ورواه أيضاً أبو عبيد ، وابن أبى شيبه وابن المنذر ، كما فى الدر المنثور (١ / ٣٧٨) .

بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقى إلا بالله (١)

تفسير سورة آل عمران

وهي مدنية؛ لأن صدرها إلى ثلاث وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران، وكان قدومهم في سنة تسع من الهجرة، كما سيأتى بيان ذلك عند تفسير آية المباهلة منها، إن شاء الله تعالى (٢)، وقد ذكرنا ما ورد في فضلها مع سورة البقرة أول البقرة (٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اَلَمْ يَلْمِ الْاِسْمَ الَّذِي لَا اِلَهَ اِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ ﴿١﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْاِنْجِيلَ ﴿٢﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ اِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بِآيَاتِ اللّٰهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيْدٌ وَاللّٰهُ عَزِيْزٌ ذُوْ اَنْبَاقٍ ﴿٣﴾

وقد ذكرنا الحديث الوارد في أن اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، و﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ عند تفسير آية الكرسي (٤)، وتقدم الكلام على قوله: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ في أول سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته، وتقدم الكلام على قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ في تفسير آية الكرسي (٥).

وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: نزل عليك القرآن - يا محمد - ﴿بِالْحَقِّ﴾ أى: لا شك فيه ولا ريب، بل هو منزل من عند الله عز وجل، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيداً. وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى: من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله الأنبياء، فهي تصدقه بما أخبرت به وبشرت، في قديم الزمان، وهو يصدقها؛ لأنه طابق ما أخبرت به وبشرت، من الوعد من الله بإرسال محمد ﷺ، [وإنزال القرآن العظيم عليه].

وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ﴾ أى: على موسى بن عمران ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ أى: على عيسى ابن مريم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أى: من قبل هذا القرآن ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أى: فى زمانهما ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ وهو الفارق بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والغى والرشاد، بما يذكره الله تعالى من الحجج والبيّنات، والدلائل الواضحات، والبراهين القاطعات، وبيّنه ويوضحه ويفسره ويقرّره، ويرشد إليه وبينه عليه - من ذلك. وقال قتادة والربيع بن أنس: الفرقان ههنا القرآن. واختار ابن جرير أنه مصدر ههنا؛ لتقدم ذكر القرآن فى قوله: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ وهو القرآن.

(١) هذا أول المجلد الثانى من المخطوطة الأهرمية.

(٢) ص ٧٣ .

(٣) الآية : ٦١ .

(٤ ، ٥) ص ٣١١ .

وقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أى: جحدوا بها وأنكروها، وردّوها بالباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أى: يوم القيامة ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أى: منبع الجنب عظيم السلطان ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ أى: ممن كذب بآياته، وخالف رسله الكرام، وأنبياءه العظام.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾

يخبر تعالى أنه يعلم غيب السموات والأرض، لا يخفى عليه شيء من ذلك ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أى: يخلقكم فى الأرحام كما يشاء، من ذكر وأنثى، وحسن وقبيح، وشقى وسعيد ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أى: هو الذى خلق، وهو المستحق للإلهية وحده لا شريك له، وله العزة التى لا ترام، والحكمة والأحكام . وهذه الآية فيها تعريض بل تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق، كما خلق الله سائر البشر؛ لأن الله صورّه فى الرحم وخلقّه، كما يشاء، فكيف يكون إلهاً كما زعمته النصارى - عليهم لعائن الله - وقد تقلب فى الأحشاء، وتنقل من حال إلى حال؟! كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦].

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكَ هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ وَأُخْرٌ مُّتَشَابِهَةٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٧﴾ رَبِّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبِّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَبَّ فِيهِ إِذْكَ اللَّهُ لَا يُخَلِّفُ أَلِيمًا﴾ ﴿٩﴾

يخبر تعالى أن فى القرآن آيات محكمات ﴿هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ﴾، أى: بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها على أحد، ومنه آيات آخر فيها اشتباه فى الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمن ردّ ما اشتبه عليه إلى الواضح منه، وحكّم محكمه على متشابهه عنده، فقد اهتدى. ومن عكس انعكس؛ ولهذا قال: ﴿هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ﴾ أى: أصله الذى يرجع إليه عند الاشتباه ﴿وَأُخْرٌ مُّتَشَابِهَةٌ﴾ أى: تحتل دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب، لا من حيث المراد .

وقد اختلفوا فى المحكم والمتشابه، فروى عن السلف عبارات كثيرة، فقال ابن عباس المحكمات ناسخه، وحلاله وحرامه، وحدوده وفرائضه، وما يؤمن به ويعمل به. وعن ابن عباس أيضاً أنه قال: المحكمات [فى] قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الانعام: ١٥١] والآيات بعدها، وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى ثلاث آيات بعدها. رواه ابن

أبى حاتم. وحكاه عن سعيد بن جبيرة. وعن سعيد بن جبيرة أيضا: ﴿ هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ ﴾ يقول: أصل الكتاب، وإنما سماهن [أم الكتاب؛ لأنهن مكتوبات فى جميع الكتب . وقيل فى التشابهات: [إنهن] المنسوخة، والمقدم والمؤخر، والأمثال فيه ، والأقسام، وما يؤمن به ولا يعمل به. رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس. وقيل: هى الحروف المقطعة فى أوائل السور، قاله مقاتل. وعن مجاهد: التشابهات يصدق بعضها بعضاً. وهذا إنما هو فى تفسير قوله: ﴿ كِتَابًا مُّشَابِهًا مَّثَانِي ﴾ [الزمر: ٢٣]. هناك ذكروا: أن المشابه هو الكلام الذى يكون فى سياق واحد، والثانى هو الكلام فى شيئين متقابلين كصفة الجنة وصفة النار، وذكر حال الأبرار وحال الفجار، ونحو ذلك. فأما هاهنا فالمشابه: هو الذى يقابل المحكم.

وأحسن ما قيل فيه الذى قدمناه، وهو الذى نص عليه محمد بن إسحاق حيث قال: ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ ﴾: فهن حجة الرب، وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وُضِعْنَ عليه. قال: والمثابهات فى الصدق، لهن تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى الله فهن العباد، كما ابتلاهم فى الحلال والحرام، ألا يُصْرَفْنَ إلى الباطل، ولا يحرقن عن الحق.

ولهذا قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ أى: ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾ أى: إنما يأخذون منه بالمشابه الذى يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها، لاحتمال لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه؛ لأنه دامغ لهم وحجة عليهم، ولهذا قال: ﴿ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ﴾ أى: الإضلال لاتباعهم، إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهذا حجة عليهم لا لهم، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى [هو] ﴿ رَسُولَ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُنقَاها إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ [النساء: ١٧١] (١)، وتركوا الاحتجاج بقوله: ﴿ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا عِدَّةٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ [الزخرف: ٥٩]، ويقول: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩] وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله، وعبد، ورسول من رسل الله.

وقوله: ﴿ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ أى: تحريفه على ما يريدون. وقال مقاتل والسدى: يبتغون أن يعلموا ما يكون وما عواقب الأشياء من القرآن . وقد روى الإمام أحمد، عن عائشة قالت: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُّشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَوَّلُو الْأَنْبَابِ ﴾ - « فإذا رأيتم الذين يُجادِلُونَ فيه فهم الذين عَنَى اللَّهُ فَأَحْذَرُوهُمْ » (٢).

(١) وقع هنا فى المخطوطة والمطبوعة « روح الله » بدل « رسول الله » . وهو سبق قلم من الحافظ المؤلف . فليس فى القرآن أبداً وصف عيسى بلفظ « روح الله » . ولذلك غيرنا هذا الخطأ إلى الصواب الذى فى الكتاب العزيز .
 (٢) نسبه الحافظ المؤلف هنا إلى كثير من طرقه فى الدواوين، وساق بعض ألفاظهم، والمعنى واحد، وسنشير إلى أماكنه فيما عندنا منها: وهو فى المسند (٦ / ٤٨ حلى) ، ورواه الطيالسى (١٤٣٢، ١٤٣٣) والبخارى (٨ / ١٥٧ - ١٥٩ فتح) ومسلم (٣٠٣ / ٢، ٣٠٤) وأبو داود (٤٥٩٨) والترمذى (٤ / ٨٠) وابن ماجه (٤٧) وابن حبان فى صحيحه (٧٢، ٧٥) بتحقيقنا، والطبرى (٦٦٠٥ - ٦٦١٥) . ورواه أيضا عبد الرزاق، ومحمد بن يحيى العبدى .

وروى الإمام أحمد: عن أبي أمامة ، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾ قال: «هم الخوارج»، وفي قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ آل عمران: ١٠٦ قال: «هم الخوارج». ورواه ابن مردويه . وهذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفاً من كلام الصحابي، ومعناه صحيح؛ فإن أول بدعته وقعت في الإسلام فتنة الخوارج، وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم النبي ﷺ غنائم حنين، فكأنهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة! ففاجؤوه بهذه المقالة، فقال قائلهم - وهو ذو الحويصرة بقر الله خاصرته : اعدل فإنك لم تعدل! فقال له رسول الله ﷺ: ﴿ لَقَدْ خَبِتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلْ ، أَيَأْمَنُنِي عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَا تَأْمُونُنِي؟! ﴾ . فلما قفا الرجل استاذن عمر بن الخطاب - وفي رواية: خالد بن الوليد - في قتله، فقال: «دَعَهُ فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِي هَذَا - أَيْ: مِنْ جِنْسِهِ - قَوْمٌ يَحْقِرُ أَحَدَكُمْ صَلَاتِهِ مَعَ صَلَاتِهِمْ، [وصيامه مع صيامهم] ، وقراءته مع قراءتهم، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، فإِنَّمَا لَقَيْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرًا لِمَنْ قَتَلَهُمْ» (١) . ثم كان ظهورهم أيام علي بن أبي طالب، وقتلهم بالنهروان، ثم تشعبت منهم شعوب وقبائل وآراء وأهواء ومقالات ونحل كثيرة منتشرة، ثم انبعثت القدرية، ثم المعتزلة، ثم الجهمية، وغير ذلك من البدع التي أخبر عنها الصادق المصدوق ﷺ في قوله : ﴿ وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً ﴾ قالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : « من كان على ما أنا عليه وأصحابي » . أخرجه الحاكم (٢) .

وقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾: اختلف القراء في الوقف ههنا، فقيل: على الجلالة، كما تقدم عن ابن عباس أنه قال: التفسير على أربعة أنحاء: فتفسير لا يعذر أحد في فهمه، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها، وتفسير يعلمه الراسخون في العلم، وتفسير لا يعلمه إلا الله (٣) . ويروي هذا القول عن عائشة، وعروة، وأبي الشعثاء، وغيرهم . وروى عبد الرزاق: كان ابن عباس يقرأ: «وما يعلم تأويله إلا الله، ويقول الراسخون آمنا به» (٤) . وكذا رواه ابن جرير، عن عمر ابن عبد العزيز، ومالك بن أنس: أنهم يؤمنون به ولا يعلمون تأويله . وحكى ابن جرير أن في قراءة عبد الله بن مسعود: «إن تأويله إلا عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به» . وكذا عن أبي بن كعب . واختار ابن جرير هذا القول .

ومنهم من يقف على قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، وتبعهم كثير من المفسرين وأهل

(١) الأحاديث في معناه كثيرة يطول ذكرها . فانظر مثلا : صحيح مسلم (١ / ٢٩١ - ٢٩٥) والمسند (٦١٦) وابن حبان (٢٤) .

(٢) المستدرک (١ / ١٢٨ ، ١٢٩) من حديث عبد الله بن عمرو ، مع اختلاف قليل في اللفظ .

(٣) مضى بنحوه في المقدمة من رواية الطبري .

(٤) إسناده صحيح ، وهي قراءة تفسيرية ، ليست على سبيل التلاوة . ولذلك حذف منها قوله : «في العلم» وهذا هو الثابت في ابن كثير مخطوطا ومطبوعا ، وكذلك في الطبري (٦٦٢٧) في روايته من طريق عبد الرزاق ، ولكن أخى السيد محمود زادها هناك ، على اعتبار أنها قراءة .

الأصول، وقالوا: الخطاب بما لا يفهم بعيد. وقد روى عن ابن عباس أنه قال: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله. وقال مجاهد: والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به. وكذا قال الربيع بن أنس. وقال محمد بن جعفر بن الزبير: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ ﴾ الذي أراد ما أراد ﴿إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ ثم ردوا تأويل المتشابه على ما عرفوا من تأويل المحكمة التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد، فأتسق بقولهم الكتاب، وصدق بعضه بعضاً، فنفذت الحجة، وظهر به العذر، وزاح به الباطل، ودفع به الكفر. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ دعا لابن عباس فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» (١).

ومن العلماء من فصل في هذا المقام، فقال: التأويل يطلق ويراد به في القرآن معنيان، أحدهما: التأويل بمعنى حقيقة الشيء، وما يؤول أمره إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبْوَابَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبْتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠]، وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ [الاعراف: ٥٣] أى: حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا، فالوقف على الجلالة؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجلية إلا الله عز وجل، ويكون قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ مبتدأ، و﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ خبره. وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر - وهو التفسير والتعبير والبيان عن الشيء كقوله تعالى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: ٣٦] أى: بتفسيره - فإن أريد به هذا المعنى، فالوقف على: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هى عليه، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ حالاً منهم، وساغ هذا، وهو أن يكون من المعطوف دون المعطوف عليه، كقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ الآية [الحشر: ٨ - ١٠]، وكقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] أى: وجاءت الملائكة صفوفاً صفوفاً.

وقوله إخباراً عنهم أنهم ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ أى: بالمتشابه ﴿كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا﴾ أى: الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له؛ لأن الجميع من عند الله، وليس شيء من عند الله بمختلف ولا متضاد، كقوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أى: إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعانى على وجهها أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة. وروى الإمام أحمد: عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: سمع رسول الله ﷺ قوماً يتدارؤون فقال: «إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضاً، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه» ورواه ابن مردويه (٢). وروى أبو يعلى عن أبي سلمة قال: لا أعلمه إلا عن أبي

(١) المسند (٢٣٩٧) من حديث ابن عباس، وقد مضى في المقدمة. وانظر فتح الباري (١/١٥٥).

(٢) المسند (٦٧٤١).

هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف، والمرأء في القرآن كفر - قالها ثلاثاً - ما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه». وإسناده صحيح، ولكن فيه علة بسبب قول الراوى: «لا أعلمه إلا عن أبى هريرة» (١). وروى ابن المنذر عن نافع بن يزيد قال: يقال: الراسخون فى العلم المتواضعون لله، المتذللون لله فى مرضاته، لا يتعاضمون من فوقهم، ولا يحقرون من دونهم .

ثم قال تعالى عنهم مخبراً أنهم دعوا ربهم قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أى: لا تملمها عن الهدى بعد إذ أقمته عليها ولا تجعلنا كالذين فى قلوبهم زيغ، الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم، ودينك القويم ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ﴾ [أى: من عندك] (٢) ﴿رَحْمَةً﴾ تثبت بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ . وروى الإمام أحمد عن شهر ابن حوشب قال : سمعت أم سلمة تحدث أن رسول الله ﷺ كان يكثر فى دعائه أن يقول: «اللهم مقلب القلوب، ثبت قلبى على دينك» قالت: قلت: يا رسول الله، أو إن القلوب لتتقلب؟ قال: «نعم، ما من خلق الله من بنى آدم من بشر إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله ، فإن شاء الله عز وجل أقامه، وإن شاء الله أزاعه». فنسأل الله ربنا ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة، إنه هو الوهاب . قالت : قلت : يا رسول الله ، ألا تعلمنى دعوة أدعو بها لنفسى ؟ قال: « بلى ، قولى : اللهم رب محمد النبى ، اغفر لى ذنبى ، وأذهب غيظ قلبى ، وأجرنى من مضلات الفتن ما أحبتنا ثم رواه أحمد مختصراً، بدون قوله : « فنسأل الله ربنا » إلخ - من رواية شهر بن حوشب أيضاً، قال : « قلت لأم سلمة : يا أم المؤمنين ، ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟... » (٣). وروى ابن مردويه عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبى على دينك»، قلت: يا رسول الله، ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء؟ فقال: «ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن، إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاعه، أما تسمعين قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾». غريب من هذا الوجه، ولكن أصله ثابت فى الصحيحين، وغيرهما من طرق كثيرة بدون زيادة ذكر هذه

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه (٧٣) بتحقيقنا ، عن أبى يعلى بإسناده . ورواه أيضا أحمد فى المسند (٧٩٧٦) ، وكذلك رواه الطبرى برقم (٧) . وفصلنا تخريجه فى تلك الكتب . وهو حديث صحيح؛ لثبوته من غير هذا الشك .

(٢) الزيادة من المخطوطة الأزهرية .

(٣) المسند (٦/٣٠١، ٣٠٢، ٣١٥ حلى) . وإسناده صحيحان . وقد اضطرت لإثبات الحديث من المسند ؛ لأن الحافظ ابن كثير ذكره هنا بأسانيد ، عن ابن أبى حاتم وابن جرير ، وابن مردويه ، واختلطت عليه الأسانيد ، فجعلها أسانيد لحديث واحد رواه ابن أبى حاتم مختصراً ، من حديث شهر بن حوشب «عن أم سلمة وهى أسماء بنت يزيد بن السكن» . ولكن الصحيح أن شهرا رواه مختصراً عن أسماء - وهى صحابية ، كنيتهما : أم سلمة - ورواه أيضا مطولا ومختصراً عن أم سلمة أم المؤمنين . فدخل على ابن كثير إسناده فى إسناده ، أو أسانيد فى أسانيد . وانظر تفصيل ذلك فى الطبرى (٦٦٥٠ - ٦٦٥٢ ، ٦٦٥٨) .

الآية الكريمة وروى عبد الرزاق عن أبي عبد الله الصنابحي، أنه صلى وراء أبي بكر الصديق المغرب، فقرأ أبو بكر في الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورتين من قصار المفصل، وقرأ في الركعة الثالثة، قال: فدنوت منه حتى إن ثيابي لتكاد تمس ثيابه، فسمعتة يقرأ بأم القرآن وهذه الآية: ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (١).

وقوله: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴾ أى: يقولون فى دعائهم: إنك - يا ربنا - ستجمع بين خلقك يوم معادهم، وتفصل بينهم وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه، وتحزى كلا بعمله، وما كان عليه فى الدنيا من خير وشر.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ ﴿١٠﴾ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾

يخبر تعالى عن الكفار أنهم وقود النار، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢]، وليس ما أوتوه فى الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله، ولا بمنجيتهم من عذابه وأليم عقابه، [بل] كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُغْنِيكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿لَا يَغْنَثُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧] كما قال ههنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: بآيات الله وكذبوا رسله، وخالفوا كتابه، ولم يتصفوا بوحية إلى أنبيائه ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ أى: حطبها الذى تسجر به وتوقد به، كقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الانبيا: ٩٨]. وروى ابن أبى حاتم عن أم الفضل أم عبد الله بن عباس قالت: بينما نحن بمكة قام رسول الله ﷺ من الليل، فنادى: «هل بلغت؟، اللهم هل بلغت؟» ثلاثاً، فقام عمر بن الخطاب فقال: نعم. ثم أصبح فقال النبى ﷺ: «ليظهرن الإسلام حتى يرد الكفر إلى مواطنه، ولتنحوضن البحار بالإسلام، وليأتين على الناس زمان يتعلمون القرآن ويقرئونه، ثم يقولون: قد قرأنا وعلمنا، فمن هذا الذى هو خير منا؟! فهل فى أولئك من خير؟» قالوا: «يا رسول الله، فمن أولئك؟ قال: «أولئك منكم وأولئك هم وقود النار». ورواه ابن مردويه بنحوه (٢).

وقوله: ﴿ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ قال ابن عباس: كصنيع آل فرعون. وكذا روى عن عكرمة، ومجاهد، وغير واحد، ومنهم من يقول: كسنة آل فرعون، وكفعل آل فرعون وكشبه آل فرعون، والألفاظ متقاربة. والدأب - بالتسكين، والتحريك أيضاً كنهْر ونَهْر: هو الصنع والحال والشأن والأمر والعادة، كما يقال: لا يزال هذا دأبى ودأبك. والمعنى فى الآية: أن الكافرين لا تغنى

(١) رواه عبد الرزاق عن مالك، وهو فى الموطأ (ص ٧٩).

(٢) إسناد ابن أبى حاتم إسناد صحيح.

عنهم الأموال ولا الأولاد، بل يهلكون ويعذبون، كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسول فيما جاؤوا به من آيات الله وحججه. ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى: شديد الأخذ اليم العذاب، لا يمتنع منه أحد، ولا يفوته شيء بل هو الفعال لما يريد، الذى قد غلب كل شيء، لا إله غيره، ولا رب سواه.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتُّغْلِبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسَّ السَّبِيلُ إِلَىٰ جَهَنَّمَ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ قُرَيْشٍ وَتَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾

يقول تعالى: قل يا محمد للكافرين: ﴿سِتُّغْلِبُونَ﴾ أى: فى الدنيا، ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ أى: يوم القيامة ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسَّ السَّبِيلُ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾. وقد ذكر محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة؛ أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة، جمع اليهود فى سوق بنى قَيْنُقَاعَ وقال: «يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً». فقالوا: يا محمد، لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرأ من قريش كانوا أغمارأ لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا ! فانزل الله فى [مثل] ذلك من قولهم: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سِتُّغْلِبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسَّ السَّبِيلُ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾. وقد رواه ابن إسحاق أيضاً، عن ابن عباس فذكره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أى: قد كان لكم - أيها اليهود القائلون ما قلت - ﴿آيَةٌ﴾ أى: دلالة على أن الله معز دينه، وناصر رسوله، ومظهر كلمته، ومعل أمره ﴿فِي فِتْنَةٍ﴾ أى: طائفتين ﴿التَّقَاتِ﴾ أى: للقتال ﴿فِتْنَةٌ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المسلمون، ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ وهم مشركو قريش يوم بدر.

وقوله: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ﴾ قال بعض العلماء - فيما حكاه ابن جرير: يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثلهم فى العدد رأى أعينهم، أى: جعل الله ذلك فيما رآه سبباً لنصرة الإسلام عليهم. وهذا لا إشكال عليه إلا من جهة واحدة، وهى أن المشركين بعثوا عمر بن سعد يومئذ قبل القتال يحزير لهم المسلمين، فأخبرهم بأنهم ثلاثمائة، يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا. وهكذا كان الأمر، كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، ثم لما وقع القتال أمدهم الله بألف من خواص الملائكة وساداتهم. والقول الثانى: أن المعنى فى قوله: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ﴾ أى: ترى الفتنة المسلمة الفتنة الكافرة مثلهم، أى: ضعفهم فى العدد، ومع هذا نصرهم الله عليهم. وهذا لا إشكال فيه على ما روى عن ابن عباس أن المؤمنين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، والمشركين كانوا ستمائة وستة وعشرين. وكان هذا القول مأخوذ من ظاهر هذه الآية، ولكنه خلاف المشهور عند أهل التواريخ والسير وأيام الناس، وخلاف المعروف عند الجمهور من أن المشركين كانوا ما بين تسعمائة إلى ألف كما رواه محمد بن إسحاق، وغيره . وعلى كل تقدير فقد كانوا ثلاثة أمثال المسلمين، وعلى هذا فيشكل هذا القول والله أعلم. لكن

وجه ابن جرير هذا، وجعله صحيحاً كما تقول: عندى ألف وأنا محتاج إلى مثليها، وتكون محتاجاً إلى ثلاثة آلاف، كذا قال. وعلى هذا فلا إشكال.

لكن بقى سؤال آخر وهو وارد على القولين، وهو أن يقال: ما الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى فى قصة بدر: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيْتِمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٤]؟ فالجواب: أن هذا كان فى حال، والآخر كان فى حال أخرى، كما روى عن ابن مسعود فى قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْتَيْنِ التَّقَاتِ﴾ الآية، قال: هذا يوم بدر. وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يُضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيْتِمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾. فعندما عين كل الفريقين الآخر رأى المسلمون المشركين مثلهم، أى: أكثر منهم بالضعف، ليتوكلوا ويتوجهوا ويطلبوا الإعانة من ربهم، عز وجل. ورأى المشركون المؤمنين كذلك ليحصل لهم الرب والخوف والجزع والهلع، ثم لما حصل التصاف والتقى الفريقان قلل الله هؤلاء فى أعين هؤلاء، وهؤلاء فى أعين هؤلاء، ليقدم كل منهما على الآخر.

﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أى: ليفرق بين الحق والباطل، فيظهر كلمة الإيمان على الكفر والطغيان، ويعز المؤمنين ويذل الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقال ههنا: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أى: إن فى ذلك لمعتبراً لمن له بصيرة وفهم، ليهتدى به إلى حكم الله وأفعاله، وقدره الجارى بنصر عباده المؤمنين فى هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

﴿زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿قُلْ أَوْبَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ﴿١٥﴾

يخبر تعالى عما زين للناس فى هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين، فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد، كما ثبت فى الصحيح أنه، عليه السلام، قال: ﴿مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضُرُّ عَلَى الرَّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ (١). فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد، فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه، كما وردت الأحاديث بالترغيب فى التزويج والاستكثار منه، ﴿وَإِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ كَانَ أَكْثَرُهَا نِسَاءً﴾ (٢)، وقوله، عليه السلام: ﴿الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِهَا﴾

(١) رواه أحمد فى المسند (٥ / ٢٠٠، ٢١٠ حلى)، والبخارى (٩ / ١١٨ فتح) ومسلم (٢ / ٣٢٠) - كلهم من حديث أسامة بن زيد.

(٢) من حديث ابن عباس. رواه أحمد (٢٠٤٨، ٢١٧٩، ٣٥٠٧) والبخارى (٩ / ٩٩ فتح) والحاكم (٢ / ١٦٠).

المرأة الصالحة ، إن نظرت إليها سرته، وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله» (١) ، وقوله في الحديث الآخر : «حُبَّ إِلَى النِّسَاءِ والطَّيِّبِ ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» (٢).

محمد ﷺ ممن يعبد الله وحده لا شريك له، فهذا محمود ممدوح، كما ثبت في الحديث: «تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ، فَإِنِّي مُكَافِّرٌ بِكُمْ الْأُمَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٣). وحب المال - كذلك - تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء، والتجبر على الفقراء، فهذا مذموم، وتارة يكون للنفقة في القربان وصللة الأرحام والقربان ووجوه البر والطاعات، فهذا ممدوح محسود عليه شرعاً. وقد اختلف المفسرون في مقدار القنطار على أقوال، وحاصلها: أنه المال الجزيل، كما قاله الضحاك وغيره، وقيل: ألف دينار. وقيل: ألف ومائتا دينار. وقيل: اثنا عشر ألفاً. وقيل: أربعون ألفاً. وقيل: ستون ألفاً. وقيل غير ذلك.

وحب الخيل على ثلاثة أقسام، تارة يكون ربطها أصحابها معدة لسبيل الله ، متى احتاجوا إليها غزواً عليها، فهؤلاء يثابون. وتارة تربط فخراً ونواً لأهل الإسلام، فهذه على صاحبها وزر. وتارة للتعفف واقتناء نسلها ولم ينس حق الله في رقابها، فهذه لصاحبها ستر، كما سيأتي الحديث بذلك عند قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وأما «المُسَوِّمَةَ» فعن ابن عباس: المسومة الراعية، وألظهمة الحسان، وكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وغيرهم. وقال مكحول: المسومة: الغرة والتججيل. وقيل غير ذلك. روى الإمام أحمد: عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيٍّ إِلَّا يُؤَدِّنَ لَهُ مَعَ كُلِّ فَجْرٍ يَدْعُو بِدَعْوَتَيْنِ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ خَوَّلْتَنِي مِنْ خَوَّلَتْنِي مِنْ بَنِي آدَمَ، فَاجْعَلْنِي مِنْ أَحَبِّ مَالِهِ وَأَهْلِهِ إِلَيْهِ، أَوْ أَحَبِّ أَهْلِهِ وَمَالِهِ إِلَيْهِ» (٤).

وقوله: «وَالْأَنْعَامَ» يعني: الإبل والبقر والغنم «وَالْعَرْتَ» يعني: الأرض المتخذة للغراس

(١) لم أجده حديثاً واحداً بهذا اللفظ . ويظهر أن الحافظ ابن كثير كتبه من حفظه . فاوله «الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة» - مضى في ص ٣١٥ من هذا الجزء ، وأنه رواه أحمد ومسلم وغيرهما من حديث عبد الله ابن عمرو . وياقيه رواه أحمد (٧١٤٥) « عن أبي هريرة سئل رسول الله ﷺ: أي النساء خير؟ قال: الذي تسره إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر ، ولا تخالفه فيما يكره ، في نفسها وماله » . ورواه النسائي (٢ / ٧٢) والحاكم (٢ / ١٦١ ، ١٦٢) ، وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي . وروى أبو داود (١٦٦٤) نحوه بمعناه ، ضمن حديث لابن عباس ، وذكر المنذرى أنه رواه ابن مردويه والحاكم وصححه على شرط الشيخين . وسيذكره الحافظ المؤلف عند تفسير (٣٤ ، ٣٥) من سورة التوبة .

(٢) من حديث أنس ، رواه أحمد (١٢٣٢٠ ، ١٣٠٨٩ ، ١٤٠٨٢) والنسائي (٢ / ١٥٦) والحاكم (٢ / ١٦٠) ، وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي .

(٣) جزء من حديث ، عن معقل بن يسار ، رواه أبو داود (٢٠٥٠) والنسائي (٢ / ٧١) والحاكم (٢ / ١٦٢) وصححه . ولكن ليس عندهم كلمة : « يوم القيامة » .

(٤) المسند (٥ / ١٧٠ حلى) والنسائي (٢ / ١٢١) . ورواه أحمد قبل ذلك مطولاً بإسناد آخر ، وكلا الإسنادين صحيح .

والزراعة. روى الإمام أحمد: عن سويد بن هبيرة، عن النبي ﷺ قال: «خَيْرُ مَالٍ امْرَأٍ لَهُ مُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ ، أَوْ سِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ» (١) ، المأمورة الكثيرة النسل، والسكَّة: النخل المصطف، والمأبورة: الملقحة.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: إنما هذا زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية الزائلة ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَأْبِ﴾ أي: حسن المرجع والثواب. ﴿قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ﴾ أي: قل يا محمد للناس: أخبركم بخير مما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها، الذي هو زائل لا محالة؟ ثم أخبر عن ذلك، فقال: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار، من أنواع الأشربة؛ من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين فيها أبد الأبد، لا يبغون عنها حولا، ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: من الدُّنْس، والحَبْث، والأذى، والحیض، والنفاس، وغير ذلك مما يعتري نساء الدنيا ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: يحل عليهم رضوانه، فلا يَسْخَطُ عليهم بعده أبدا؛ ولهذا قال في الآية الأخرى التي في براءة: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] أي: أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم، ثم قال: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾ أي: يعطى كلاً بحسب ما يستحقه من العطاء.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١١)
 ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ (١٧)

يصف تعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل. فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آتْنَا﴾ أي: بك وبكتابك ورسولك ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي بإيماننا بك وبما شرعته لنا فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا من أمرنا بفضلك ورحمتك ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. ثم قال: ﴿الصَّابِرِينَ﴾ أي: في قيامهم بالطاعات وتركهم المحرمات ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتزمونه من الاعمال الشاقة ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ والقنوت: الطاعة والخضوع ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ أي: من أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات، وصلة الأرحام والقرابات، وسد الخلات، ومواساة ذوى الحاجات ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ دل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار. وثبت في الصحيحين وغيرها من المساند والسنن، من غير وجه، عن جماعة من الصحابة، أن رسول الله ﷺ قال: «يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيهِ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَاسْتَجِيبَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَاغْفِرَ لَهُ؟» الحديث (٢). وقد أقرده الحافظ

(١) المسند (١٥٩١٠) . وهو في مجمع الزوائد (٥/ ٢٥٨) ، وقال : « رواه أحمد والطبراني ، ورجاله ثقات » .

(٢) منها حديث أبي هريرة بهذا المعنى . رواه أحمد في المسند (٧٥٠٠ ، ٧٥٨٢ ، ٧٦١١ ، ٧٧٧٩) والبخارى (٣/ ٢٥ ، ٢٦ فتح) ومسلم (١/ ٢١٠) وغيرهم . وحديث ابن مسعود رواه أحمد (٣٦٧٣) . وانظر كتاب التوحيد لإمام الأئمة ابن خزيمة (ص ٨٣ - ٩٥) وشرحنا للترمذي (٢ / ٣٠٧ - ٣٠٩) ومجمع الزوائد (١٥٣/١٠٠ - ١٥٥) .

الدارقطنى فى ذلك جزءاً على حدة ، فرواه من طرق متعددة .

وفى الصحيحين، عن عائشة قالت: من كلِّ اللَّيْلِ قَدْ أُوتِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، مِنْ أَوْلِهِ وَأَوْسَطِهِ وَأَخْرِهِ، فَانْتَهَى وَتَرَهُ إِلَى السَّحَرِ. وكان عبد الله بن عمر يصلى من الليل، ثم يقول: يا نافع، هل جاء السَّحَرُ؟ فإذا قال: نعم، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح. رواه ابن أبى حاتم.

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ أَلْعَلُّهُمْ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجَّكَ فَقُلْ أَسَلْتُكُمْ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْنِمْ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةِينَ أَسَلَمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾

شهد تعالى - وكفى به شهيدا، وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم، وأصدق القائلين - ﴿أنه لا إله إلا هو﴾ أى: المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق، وأن الجميع عبيده وخلقه، والفقراء إليه، وهو الغنى عما سواه كما قال تعالى: ﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنه بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا﴾ الآية [النساء: ١٦٦]. ثم قرن شهادة ملائكته وأولى العلم بشهادته فقال: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء فى هذا المقام ﴿قَانِمًا بِالْقِسْطِ﴾ منصوب على الحال، وهو فى جميع الأحوال كذلك ﴿لا إله إلا هو﴾ تأكيد لما سبق ﴿العزیز﴾ الذى لا يرام جنباه عظمة وكبرياء، ﴿الحكيم﴾ فى أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ إخبار من الله تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به فى كل حين، حتى ختموا بمحمد ﷺ، الذى سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقي الله بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته، فليس بمقبل. كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وقال فى هذه الآية - مخبرا بانحصار الدين المتقبل عنده فى الإسلام: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾. وذكر ابن جرير أن ابن عباس قرأ: «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قانما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم». أن الدين عند الله الإسلام» بكسر «إنه» وفتح «أن الدين عند الله الإسلام» أى: شهد هو وملائكته وأولو العلم من البشر بأن الدين عند الله الإسلام. والجمهور قرؤوها بالكسر على الخير، وكلا المعنيين صحيح. ولكن هذا على قول الجمهور أظهر والله أعلم (١).

(١) ولكن هذه القراءة المنسوبة لابن عباس لم يروها الطبرى بإسناده، بل صرح بأنها غير معلومة «برواية صحيحة ولا سقيمة» الطبرى (٦ / ٢٦٨).

ثم أخبر تعالى أن الذين أوتوا الكتاب الأول إنما اختلفوا بعد ما قامت عليهم الحجة ، بإرسال الرسل إليهم ، وإنزال الكتب عليهم ، فقال : ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أى : بغى بعضهم على بعض ، فاختلّفوا فى الحق لنحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم ، فحمل بعضهم بغير البعض الآخر على مخالفته فى جميع أقواله وأفعاله ، وإن كانت حقا ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أى : من جحد ما أنزل الله فى كتابه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ فإن الله سيجازيه على ذلك ، ويحاسبه على تكذيبه ، ويعاقبه على مخالفته كتابه .

ثم قال تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ ﴾ أى : جادلوك فى التوحيد ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ أى : فقل أخلصت عبادتى لله وحده ، لا شريك له ولا ند له ولا ولد له ولا صاحبة له ، ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ على دينى ، يقولون كمقالتى ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

ثم قال تعالى أمراً لعبده ورسوله محمد ﷺ أن يدعو إلى طريقته ودينه ، والدخول فى شرعه وما بعثه الله به - الكتابيين من الملتين والأمة من المشركين فقال : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ أى : والله عليه حسابهم وإليه مرجعهم ومآبهم ، وهو الذى يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وله الحكمة فى ذلك ، والحجة البالغة ، ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ ﴾ أى : هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة ، وهو الذى ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الانبيا : ٣٣] ، وما ذاك إلا لحكمته ورحمته . وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته ﷺ ، إلى جميع الخلق ، كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دل عليه الكتاب والسنة فى غير ما آية وحديث ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الاعراف : ١٥٨] ، وقال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] وفى الصحيحين وغيرهما ، مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة ، أنه بعث كتبه ﷺ يدعو إلى الله ملسوك الآفاق ، وطوائف بنى آدم من عربهم وعجمهم ، كتابيهم وأمميهم ، امتثالا لأمر الله له بذلك . وعن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ أنه قال : ﴿ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ، وَمَاتَ وَكَمْ يُؤْمِنُ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ﴾ رواه مسلم .

وقال ﷺ : ﴿ بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً ﴾ . وروى الإمام أحمد عن أنس : أن غلاما يهوديا كان يضع للنبي ﷺ وضوءه ويناوله نعليه ، فمرض ، فاتاه النبى ﷺ فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه ، فقال له النبى

(١) من حديث رواه أحمد (٤ / ٤١٦ حلى) من حديث أبى موسى الأشعري ، وآخر فى المسند أيضا (٥ / ١٤٥) من حديث أبى ذر . ومعناه ثابت ضمن حديث جابر ، رواه مسلم (١ / ١٤٧) ، وآخر عن ابن عباس رواه أحمد (٢٢٥٦ ، ٢٧٤٢) .

ﷺ: « يَا فُلَانُ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » فَظَرَّ إِلَى أَبِيهِ ، فَسَكَتَ أَبُوهُ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَظَرَّ إِلَى أَبِيهِ، فَقَالَ أَبُوهُ: أَطْعَمَ أَبَا الْقَاسِمِ، فَقَالَ الْغُلَامُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ: « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخْرَجَهُ بِي مِنَ النَّارِ » أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١) . إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بْنَ مَرْيَمَ حَتَّىٰ وَفَقَتُوا
الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١١﴾ أُولَٰئِكَ
الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ ﴿١٢﴾

هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب فيما ارتكبه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات الله قديماً وحديثاً، التي بلغتهم إياها الرسل، استكباراً عليهم وعناداً لهم، وتعاضماً على الحق واستنكافاً عن اتباعه، ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه، بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم، إلا لكونهم دعوهم إلى الحق ﴿ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ﴾ وهذا هو غاية الكبر، كما قال النبي ﷺ: « الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ » (٢) . ولهذا لما أن تكبروا عن الحق واستكبروا على الخلق، قابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار في الدنيا، والعذاب المهين في الآخرة، فقال: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى: موجع مهين ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ
ثُمَّ يَتَوَلَّوْا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا
مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ
فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ﴿١٤﴾

يقول تعالى منكرأ على اليهود والنصارى، المتمسكين فيما يزعمون بكتايبهم اللذين بأيديهم، وهما التوراة والإنجيل، وإذا دُعُوا إِلَى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما، من اتباع محمد ﷺ - تولَّوْا وهم معرضون عنهما . وهذا في غاية ما يكون من ذمهم، والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد. ثم قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ أى: إنما حملهم وجبرأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم أنهم إنما يعذبون في النار سبعة أيام، عن كل ألف سنة في الدنيا يوماً. وقد تقدم تفسير ذلك

(١) المسند (٢٨٢١) والبخارى بنحوه (٣ / ١٧٦ فتح) .

(٢) رواه مسلم (١ / ٣٧) في حديث عن ابن مسعود ، وبنحوه رواه أحمد (٣٦٤٤ ، ٣٧٨٩ ، ٤٠٥٨) والترمذى (٣ / ١٤٤ - ١٤٥) والحاكم (١ / ٢٦) ورواه أيضا أبو داود (٤٠٩٢) بنحوه ، في حديث عن أبي هريرة . وقد مضى دون تخريج . و « غمط الناس » : الاستهانة بهم واستحقارهم .

فى سورة البقرة (١). ثم قال: ﴿وَعَرَّوْهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى: ثبتهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أياما معدودات، وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم وافتعلوه، ولم ينزل الله به سلطانا قال الله تعالى متهددا لهم ومتوعدا: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى: كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله وكذبوا رسله وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم، الأمرين بالمعروف والناهيين عن المنكر، والله تعالى سائلهم عن ذلك كله، ومحاسنهم عليه، ومجازيهم به؛ ولهذا قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: لا شك فى وقوعه وكونه ﴿وَرَوَيْتُ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبِيدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِعَمْرِ حِسَابٍ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قُلِ﴾ يا محمد، معظما لربك ، وشاكراً له ومفوضاً إليه ومتوكلا عليه: ﴿اللَّهُمَّ مَا لَكَ الْمُلْكُ﴾ ، أى: لك الملك كله ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ ، أى: أنت المعطى، وأنت المانع، وأنت الذى ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن. وفى هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة؛ لأن الله حول النبوة من بنى إسرائيل إلى النبو العربي القرشى المكى الأمى خاتم الأنبياء على الإطلاق، ورسول الله إلى جميع الثقيلين الإنس والجن، الذى جمع الله فيه محاسن من كان قبله، وخصه بخصائص لم يُعْطَهَا نَبِيًّا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَلَا رَسُولًا مِنْ الرسل، فى العلم بالله وشريعته وإطلاعه على الغيوب الماضية والآتية، وكشفه عن حقائق الآخرة ونشر أمته فى الآفاق، فى مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان، والشرائع، فصلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين، ما تعاقب الليل والنهار. ولهذا قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَا لَكَ الْمُلْكُ﴾ الآية، أى: أنت المتصرف فى خلقك، الفعال لما تريد، كما رد تبارك وتعالى على من يتحكم عليه فى أمره، حيث قال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. قال الله تعالى رداً عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ [نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ الآية [الزخرف: ٣٢] أى: نحن نتصرف فى خلقنا كما نريد، بلا ممانع ولا مدافع، ولنا الحكمة والحجة فى ذلك، وهكذا نعطي النبوة لمن نريد، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ﴾ (٢) [الانعام: ١٢٤] ، وقال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

(١) يعنى عند تفسير الآية رقم : ٨٠ .
(٢) قراءة ابن كثير المكى وحفص عن عاصم : (رسالته) بالافراد . وقرأ باقى السبعة : (رسالاته) بالجمع ، وهى التى ثبتت فى المخطوطة فى هذا الموضع .

وقوله : ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أى : تأخذ من طول هذا فتزيده فى قصر هذا. فيعتدلان ، ثم تأخذ من هذا فى هذا فيتفاوتان ، ثم يعتدلان . وهكذا فى فصول السنة : ربيعاً وصيفاً وخريفاً وشتاء .

وقوله : ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ أى : تخرج الحبة من الزرع والزرع من الحبة ، والنخلة من النواة والنواة من النخلة ، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، والدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة ، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء ﴿ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أى : تعطى من شئت من المال ما لا يعده ولا يقدر على إحصائه ، وتقدر على آخرين ، لما لك فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشئبة .

﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتَةٌ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾

نهى الله ، تبارك وتعالى ، عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين ، وأن يتخذوهم أولياء يسرؤن إليهم بالمودة من دون المؤمنين ، ثم توعد على ذلك فقال : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ أى : ومن يرتكب نهى الله فى هذا فقد برئ من الله ، كما ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلْيَدُ الْكَافِرِينَ أَلْيَدُ الْمُنْكَرِ اللَّهُ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ [النساء : ١٤٤] . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [المتحنة : ١] وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة : ٥١] .

وقال - بعد ذكر موالاتة المؤمنين للمؤمنين من المهاجرين والأنصار والأعراب : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٣] .

وقوله : ﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتَةٌ ﴾ أى : [إلا] من خاف فى بعض البلدان أو الأوقات من شرهم ، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته ، كما حكاه البخارى عن أبى الدرداء أنه قال : «إِنَّا لَنَكْشِرُ فِي وَجْهِهِمْ أَقْوَامٌ وَقُلُوبُنَا تَلْعَنُهُمْ» (١) . وقال ابن عباس : ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان ، وكذا قال أبو العالية ، وغيره . ويؤيد ما قاله قول الله تعالى : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل : ١٠٦] . وقال البخارى : قال الحسن : التقية إلى يوم القيامة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ أى : يحذركم نغمته ، أى مخالفته وسطوته فى عذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى : إليه المرجع والمنقلب ،

(١) « نكشر » - بسكون الكاف وكسر الشين ، من الثلاثى : من انكشر - بسكون الشين - وهو : ظهور الأسنان للضحك . وكاشره : إذا ضحك فى وجهه وبأسطه . قاله ابن الأثير .

فيجازى كل عامل بعمله. روي ابن أبي حاتم: عن عمرو بن ميمون قال: قام فينا معاذ بن جبل فقال: يا بنى أود، إني رسولُ رسولِ الله إليكم، تعلمون أن المعاد إلى الجنة أو إلى النار^(١).

﴿ قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُتُّوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ فَانفُسُهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٢﴾

يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والآتات واللحظات وجميع الأوقات، وبجميع ما في السموات والأرض، لا يغيب عنه مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال، وهو ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى: وقدرته نافذة في جميع ذلك.

وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته، وألا يرتكبوا ما نهى عنه وما يبغضه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، وإن أنظر من أنظر منهم، فإنه يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ ، ، يعنى: يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر كما قال تعالى: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣] ، فما رأى من أعماله حسنا سره ذلك وأفرحه، وما رأى من قبيح ساءه وغازظه، وود لو أنه تبرأ منه، وأن يكون بينهما أمد بعيد ، كما يقول لشيطانه الذى كان مقترنا به فى الدنيا، وهو الذى جرّاه على فعل السوء : ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسُقَ الْقَرِينِ﴾ [الزخرف: ٣٨].

ثم قال تعالى - مؤكدا ومهددا ومتوعدا: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ فَانفُسُهُ﴾ أى: يخوفكم عقابه، ثم قال - مرجعاً لعباده لئلا يياسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾. قال الحسن البصرى: من رأفته بهم حذرهم نفسه. وقال غيره: أى رحيم بخلقه، يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ودينه القويم، وأن يتبعوا رسوله الكريم.

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿١٢﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿١٣﴾

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب فى نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدى والدين النبوى فى جميع أقواله وأفعاله ، كما

(١) فى المطبوعة : « عن ميمون بن مهران ! وفى المخطوطة الأزهرية : « عن عمرو بن ميمون بن مهران ! » وهو تخليط . فإن « ميمون بن مهران » ليس من « بنى أود » . ثم هو لم يدرك معاذ . وابنه : « عمرو بن ميمون » أبعد من ذلك . والصراب ما أثبتناه : « عن عمرو بن ميمون » وهو الأودى ، وهو تابعى كبير مخضرم ، أدرك الجاهلية ، ولم يلق النبى ﷺ ، وروى عن كبار الصحابة .

ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرًا فَهُوَ رَدٌّ» (١) ولهذا قال: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ» أى: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض العلماء الحكماء: ليس الشأن أن تُحِبَّ، إنما الشأن أن تُحَبَّ .

ثم قال: «وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» أى: باتباعكم للرسول ﷺ يحصل لكم هذا كله ببركة سفارته. ثم قال آمراً لكل أحد من خاص وعام: «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا» أى: خالفوا عن أمره «فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ» فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه يحب الله ويتقرب إليه، حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل، ورسول الله إلى جميع الثقيلين الجن والإنس، الذي لو كان الأنبياء - بل المرسلون، بل أولو العزم منهم - فى زمانه لما وسعهم إلا اتباعه، والدخول فى طاعته، واتباع شريعته، كما سيأتى تقريره عند قوله: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ» الآية [آل عمران: ٨١] إن شاء الله تعالى.

﴿ ٢٣ ﴾ ربيع
 ﴿ ٢٤ ﴾ ذُرِّيَّةٌ مِمَّنْهَا مِنْ بَعْضِ آلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، فاصطفى آدم، عليه السلام، خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة ثم أهبطه منها، لما له فى ذلك من الحكمة. واصطفى نوحا، عليه السلام، وجعله أول رسول إلى أهل الأرض، لما عبد الناس الأوثان، وأشركوا فى دين الله ما لم ينزل به سلطانا، وانتقم له لما طالت مدته بين ظهرائى قومه، يدعوهم إلى الله ليلا ونهاراً، سرا وجهاراً، فلم يزدهم ذلك إلا فراراً، فدعا عليهم، فأغرقهم الله عن آخرهم، ولم ينجُ منهم إلا من اتبعه على دينه الذى بعثه الله به. واصطفى آل إبراهيم، ومنهم: سيد البشر وخاتم الأنبياء على الإطلاق محمد ﷺ، وآل عمران، والمراد بعمران هذا: هو والد مريم بنت عمران، أم عيسى ابن مريم، عليهم السلام. فعيسى، عليه السلام، من ذرية إبراهيم، كما سيأتى بيانه فى سورة الأنعام، إن شاء الله وبه الثقة.

﴿ ٢٥ ﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ ٢٦ ﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿ ٢٧ ﴾

(١) رواه الشيخان من حديث عائشة . وهذا لفظ مسلم (٢ / ٤٢) . وهو الحديث الخامس من الأربعين النووية .

امرأة عمران هذه [هى] أم مريم عليها السلام ، قال ابن إسحاق : كانت امرأة لا تحمل ، فاشتت الولد ، فدعت الله تعالى أن يهبها ولدا ، فاستجاب الله دعائها ، فلما تحققت الحمل نذرت أن يكون ﴿مُحَرَّرًا﴾ أى : خالصا مفرغا للعبادة ، ولخدمة بيت المقدس ، فقالت : ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ، أى : السميع للدعائى ، العليم بنبئى ، ولم تكن تعلم ما فى بطنها أذكرا أم أنثى؟ ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ . قرئ برفع التاء على أنها تاء المتكلم ، وأن ذلك من تمام قولها ، وقرئ بتسكين التاء على أنه من قول الله عز وجل ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ أى : فى القوة والجلد فى العبادة وخدمة المسجد الأقصى ﴿وَأَنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ فيه دليل على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق ؛ لأنه شرع من قبلنا ، وقد حكى مقررآ ، وبذلك ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ حيث قال : ﴿وُلِدَ لِي اللَّيْلَةَ وَكَدَّ سَمِيَّتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ﴾ . أخرجه (١) .

وقوله إخبارآ عن أم مريم أنها قالت : ﴿وَأَنِّي أُعِيدُهَا بَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ .

أى : عودتها بالله ، عز وجل ، من شر الشيطان ، وعودت ذريتها ، وهو ولدها عيسى ، عليه السلام . فاستجاب الله لها ذلك كما روى الشيخان عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا مَسَّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُوَلَّدُ ، فَيَسْتَهْلُ صَارِخًا مِنْ مَسِّهِ إِيَّاهُ ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا﴾ . ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿وَأَنِّي أُعِيدُهَا بَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٢) .

﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنَزَّيْمُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُرِزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها نذيرة ، وأنه ﴿أَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أى : جعلها شكلا مليحا ومنظرا بهيجا ، ويسر لها أسباب القبول ، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين . فلهذا قال : ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [وفى قراءة : ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾] بتشديد الفاء ونصب زكريا على المفعولية ، أى جعله كافلا لها (٣) . قال ابن إسحاق : وما ذاك إلا أنها كانت يتيمة . وإنما قدر الله كون زكريا كافلا لسعادتها ، لتقتبس منه علما جما نافعا وعملا صالحا ؛ ولأنه كان زوج خالتها ، على ما ذكره ابن إسحاق وابن جرير . وقيل : زوج أختها ، كما ورد فى الصحيح :

(١) أى البخارى ومسلم . وهذه الكلمة جزء من حديث أنس ، فى صحيح مسلم (٢ / ٢١٣) . والحديث رواه البخارى أيضا (٣ / ١٣٨ - ١٤٠) ، ولكن ليس فى روايته هذه الكلمة . ونص الحافظ فى الفتح على أنها زيادة عند مسلم .

(٢) البخارى (٨ / ١٥٩ فتح) ومسلم (٢ / ٢٢٤) والمسند (٧١٨٢ ، ٧٦٩٤) والطبرى (٦٨٨٤ - ٦٨٩٢) بنحوه .

(٣) التشديد قراءة الكوفيين من السبعة ، وقرأ باقى السبعة بتخفيف الفاء ، فيكون «زكريا» فاعلا مرفوعا . والزيادة هنا من المخطوطة . وهى تدل على أن الحافظ ابن كثير ذكرها بقراءة التخفيف ، ثم حكى قراءة التشديد .

«فَإِذَا بِيحْيَى وَعِيسَى، وَهَمَّا ابْنَا الْحَالَةَ»، وقد يُطلق على ما ذكره ابن إسحاق ذلك أيضاً توسعاً، فعلى هذا كانت في حضنة خالتها.

ثم أخبر تعالى عن سيادتها وجلالتها في محل عبادتها، فقال: «كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا». قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير وغيرهم يعنى وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف. وفيه دلالة على كرامات الأولياء. وفي السنة لهذا نظائر كثيرة. فإذا رأى زكريا هذا عندها «قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا» أى يقول: من أين لك هذا؟ «قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٦٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٦٩﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي عُزْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٧٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٧١﴾ ﴾

لما رأى زكريا، عليه السلام، أن الله تعالى يرزق مريم، عليها السلام، فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء - طمع حينئذ في الولد، وكان شيخا كبيرا قد ضعف ووهن منه العظم، واشتعل رأسه شيبا، وكانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقرا، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خفيا، وقال: «رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ» أى: من عندك «ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً» أى: ولدا صالحا «إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ». قال الله تعالى: «فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ» أى: خاطبته الملائكة شفاها خطاباً أسمعتة، وهو قائم يصلى في محراب عبادته، ومحل خلوته، ومجلس مناجاته، وصلاته. ثم أخبر تعالى عما بشرته به الملائكة: «أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى»، أى: بولد يوجد لك من صلبك اسمه «يحيى» .

وقوله: «مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ» عن ابن عباس والحسن وقتادة وعكرمة ومجاهد، وغيرهم : أى: بعيسى ابن مريم (١) .

وقوله: «وَسَيِّدًا»: قال أبو العالية، وقتادة، وسعيد بن جبير، وغيرهم: الحكيم، وقال قتادة: سيداً في العلم والعبادة. وقال ابن عباس، والثوري، والضحاك: السيد الحكيم المتقى. وقال مجاهد وغيره : هو الكريم على الله عز وجل وقوله: «وَحَصُورًا» روى عن ابن مسعود، وابن عباس ، ومجاهد، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وغيرهم أنهم قالوا : هو الذى لا يأتى

(١) يعنى أن عيسى خلق بكلمة من الله، قال له: «كن» فكان . كما سيأتى فى تفسير «إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ» ، ص ٣٧٢ . وقد أحال الحافظ ابن كثير هناك على هذا الموضع ، ولكنه لم يذكره هنا صراحة ، كما ترى .

النساء (١). وقد قال القاضى عياض فى كتابه الشفاء: اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان ﴿حَصُورًا﴾ ليس كما قاله بعضهم: إنه كان هيوبا، أو لا ذَكَرَ له، بل قد أنكر هذا حَدَاقُ المفسرين ونقاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصة وعيب ولا تليق بالأنبياء، عليهم السلام، وإنما معناه: أنه معصوم من الذنوب، أى لا يأتىها كأنه حضور عنها، وقيل: مانعا نفسه من الشهوات. وقيل: ليست له شهوة فى النساء. وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل فى كونها موجودة ثم يمنعها: إما بمجاهدة كعيسى أو بكفاية من الله، عز وجل، كيحيى، عليه السلام. ثم هى فى حق من قَدَرَ عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه درجة عليا، وهى درجة نبينا ﷺ الذى لم يشغله كثرتهم عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة، بتحسينهن وقيامه عليهن، واكتسابه لهن، وهدايته إياهن. بل قد صرَّح أنها ليست من حظوظ دنياه هو، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره، فقال: «حَبِّبَ إِلَىَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ». هذا لفظه. والمقصود: أن مدح يحيى بأنه حضور ليس أنه لا يأتى النساء، بل معناه كما قاله هو وغيره: أنه حضور من الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال: «هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً» كأنه قال: ولدأ له ذرية ونسل وعقب، والله سبحانه وتعالى أعلم.

قوله: ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته، وهى أعلى من الأولى كقوله لأم موسى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] فلما تحققت زكريا، عليه السلام، هذه البشارة أخذ يتعجب من وجود الولد منه بعد الكبر ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ﴾ أى الملك: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أى: هكذا أمر الله عظيم، لا يعجزه شىء ولا يتعاضمه أمر ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أى: علامة أستدل بها على وجود الولد منى ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تَكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا﴾ أى: إشارة لا تستطيع النطق، مع أنك سوى صحيح، كما فى قوله: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] ثم أمر بكثرة الذكر والشكر والتسبيح فى هذه الحال، فقال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسِحِّ بِالْقَشِيِّ وَالْإِبْرَارِ﴾. وسيأتى طرف آخر فى بسط هذا المقام فى أول سورة مريم، إن شاء الله تعالى.

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤١﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٢﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمْتُمْ أَنَّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

هذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم، عليها السلام، عن أمر الله لهم (١) ثم ذكر الحافظ ابن كثير هنا - نقلا عن ابن أبي حاتم - حديثا مرفوعا فى هذا المعنى، وصفه بأنه «غريب جدا». ثم نقل مثله موقوفا على عبد الله بن عمرو بن العاص. ثم قال: «فهذا موقوف، وهو أصح إسنادا من المرفوع، بل وفى صحة المرفوع نظر». هذا ما ثبت فى المخطوطة. وفى الطبوعة زيادة رواية مرفوعة عن عبد الله بن عمرو، من تفسير ابن المنذر، وأخرى مرفوعة أيضا، من رواية ابن أبي حاتم، من حديث أبي هريرة.

بذلك : أن الله قد اصطفأها ، أى : اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهرها من الأكدار والوسواس ، واصطفأها ثانياً مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين . روى عبد الرزاق : عن سعيد بن المسيب فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ . قال : كان أبو هريرة يحدث عن رسول الله ﷺ : « خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبَنِ الْإِبِلَ نِسَاءُ قُرَيْشٍ ، أَحْنَاهُ عَلَى وَكْدٍ فِى صِغَرِهِ ، وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِى ذَاتِ يَدِهِ ، وَلَمْ تَرَكَبْ مَرِيْمُ بِنْتُ عِمْرَانَ بَعِيْرًا قَطُّ » (١) . وعن على ابن أبى طالب : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خَيْرُ نِسَائِهَا مَرِيْمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيْجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ » . أخرجاه فى الصحيحين (٢) . وروى الترمذى : عن أنس ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ مَرِيْمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَخَدِيْجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَقَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ، وَأَسِيَّةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ » تفرد به الترمذى وصححه (٣) . وروى البخارى عن أبى موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « كَمَلْ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيْرٌ ، وَلَمْ يَكْمَلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ أَسِيَّةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ ، وَمَرِيْمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَإِنْ فَضَّلَ عَائِشَةُ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضَلِ الثَّرِيْدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ » . ورواه الجماعة إلا أبى داود ، واللفظ للبخارى (٤) .

ثم أخبر تعالى عن الملائكة : أنهم أمروها بكثرة العبادة والخشوع والخضوع والسجود والركوع والدؤوب فى العمل ، لما يريد الله بها من الأمر الذى قدره الله وقضاه ، مما فيه محنة لها ورفعة فى الدارين ، بما أظهر الله تعالى فيها من قدرته العظيمة ، حيث خلق منها ولدأ من غير أب ، فقال تعالى : ﴿ يَا مَرِيْمُ اقْنِىْ لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِيْ وَأَرْكَبِيْ مَعَ الرَّاكِعِيْنَ ﴾ . أما القنوت : فهو الطاعة فى خشوع ، كما قال تعالى : ﴿ بَلِّغْ لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ [البقرة : ١١٦] .

ثم قال تعالى لرسوله - بعدما أطلعه على جلية الأمر : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ أى : نقصه عليك ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ أى : ما كنت عندهم يا محمد فتخبر عنهم معاينة عما جرى ، بل أطلعك الله على ذلك كأنك كنت حاضرا وشاهداً لما كان من أمرهم حين اقترعوا فى شأن مريم أيهم يكفلها ، وذلك لرغبتهم فى الأجر .

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرَمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ أَسْمُهُ الْمَسِيْحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيْهَا فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِيْنَ ﴾ ﴿ ٤٥ ﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهَلَا وَمِنَ الصَّالِحِيْنَ ﴿ ٤٦ ﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنْىْ يَكُونُ لِيْ وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِيْ بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿ ٤٧ ﴾

- (١) ورواه أحمد (٧٦٣٧) عن عبد الرزاق ، بقصة فى أوله ، ولم يذكر الآية . وكذلك رواه مسلم (٢ / ٢٧٠) من طريق عبد الرزاق . وقوله : « ولم تتركب مريم ... » - هو من كلام أبى هريرة ، لا من الحديث المرفوع ، كما بين ذلك صريحا فى رواية أحمد ورواية أخرى لمسلم قبل هذه . وانظر تفسير الطبرى (٧٠٢٨ ، ٧٠٢٩) .
- (٢) ورواه أحمد (٦٤٠ ، ٩٣٨) والطبرى (٧٠٢٦) . وفضلنا تخريجه فيهما .
- (٣) ورواه أيضا أحمد (١٢٤١٨) والحاكم (٣ / ١٩٧ - ١٩٨) .
- (٤) البخارى (٦ / ٣٠ ، ٣٢١ فتح) ، ورواه الطبرى (٧٠٣١) بزيادة خديجة وفاطمة ، ولم يذكر عائشة .

هذه بشارة من الملائكة لمريم، عليها السلام، بأن سيوجد منها ولد عظيم، له شأن كبير. قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ أى: بولد يكون وجوده بكلمة من الله، أى: بقوله له: «كن» فيكون، وهذا تفسير قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩] كما ذكره الجمهور على ما سبق بيانه (١) ﴿أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أى يكون مشهوراً بهذا فى الدنيا، يعرفه المؤمنون بذلك. وسمى المسيح، قال بعض السلف: لكثرة سياحته. وقيل: لأنه كان مسيح القدمين: لا أخصص لهما (٢). وقيل: لأنه كان إذا مسح أحداً من ذى العاهات برئ بإذن الله تعالى. وقوله: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ نسبة له إلى أمه، حيث لا أب له ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أى: له وجهة ومكانة عند الله فى الدنيا، بما يوحيه الله إليه من الشريعة، وينزله عليه من الكتاب، وغير ذلك مما منحه به. وفى الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل منه، أسوة بإخوانه من أولى العزم، صلوات الله عليهم.

وقوله: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أى: يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فى حال صغره، معجزة وآية، وحال كهولته حين يوحى الله إليه [بذلك] ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أى: فى قوله وعمله، له علم صحيح وعمل صالح. فلما سمعت بشارة الملائكة لها بذلك، عن الله، عز وجل، قالت فى مناجاتها: ﴿رَبِّ أُنثَىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسُنِي بِشَرٌّ﴾، تقول: كيف يوجد هذا الولد منى وأنا لست بذات زوج ولا من عزمى أن أتزوج، ولست بغيا؟! حاش لله. فقال لها الملك - عن الله، عز وجل، فى جواب هذا السؤال: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أى: هكذا أمر الله عظيم، لا يعجزه شىء. وصرح هاهنا بقوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ولم يقل: «يفعل» كما فى قصة زكريا، بل نص هاهنا على أنه يخلق؛ لثلا يبقى لمبطل شبهة، وأكد ذلك بقوله: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أى: فلا يتأخر شيئاً، بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة، كقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلِمَةٍ بِلَيْسٍ﴾ [القمر: ٥٠]، أى: إنما نأمر مرة [واحدة] لا مثنوية فيها، فيكون ذلك الشىء سريعاً كلمح بالبصر.

﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ (٣) ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ الطَّيْرَ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُزْرِي الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُنحِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنثِيكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَإِلَّا جَدَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ رَفِيعٌ ذَرِيرٌ﴾ ﴿٥١﴾

(١) لم يصرح ابن كثير بذلك هناك ، ص ٣٦٩ ، كما بينا من قبل .

(٢) «الأخصص» - بفتح الهززة والميم بينهما خاء معجمة : باطن القدم وما رق من أسفلها وتحافى عن الارض .

(٣) قرأ نافع وعاصم : « ويعلمه » بالياء ، وهى قراءة حفص أحد رواة عاصم . وقرأ باقى السبعة : « ونعلمه » بالنون، وهى الثابتة فى المخطوطة الأزهرية .

يقول تعالى - مخبراً عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى ، عليه السلام - أن الله يعلمه **«الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ»** . الظاهر أن المراد بالكتاب هاهنا : الكتابة . والحكمة تقدم تفسيرها فى سورة البقرة (١) . **«وَالْتُورَاةَ وَالْإِنْجِيلَ»** ، فالتوراة: هو الكتاب الذى أنزله الله على موسى بن عمران . والإنجيل: الذى أنزل الله على عيسى عليهما السلام ، وقد كان عيسى عليه السلام ، يحفظ هذا وهذا .

وقوله : **«وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ»** [أى : يجعله رسولا إلى بنى إسرائيل] (٢) ، قائلاً لهم : **«أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ»** وكذلك كان يفعل : يصور من الطين شكل طير ، ثم ينفخ فيه ، فيطير عياناً بإذن الله ، عز وجل ، الذى جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله .

«وَأُتِرَىٰ الْأَكْمَةَ» قيل : هو الذى يبصر نهاراً ولا يبصر ليلاً . وقيل بالعكس . وقيل : هو الذى يولد أعمى . وهو أشبه ؛ لأنه أبلغ فى المعجزة وأقوى فى التحدى **«وَالْأَبْرَصَ»** معروف . **«وَأُحْيَى الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ»** قال كثير من العلماء : بعث الله كل نبي من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى ، عليه السلام ، السحر وتعظيم السحرة . فبعثه الله بمعجزات بَهَرَتِ الأبصار وحيرت كل سَحَّارٍ ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام ، وصاروا من الأبرار . وأما عيسى ، عليه السلام ، فبعث فى زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة ، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه ، إلا أن يكون مؤيداً من الذى شرع الشريعة . فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجمادات؟ أو على مداواة الأكمه ، والأبرص؟ وبعث من هو فى قبره رهين إلى يوم التناد؟ وكذلك محمد ﷺ بعثه فى زمن الفصحاء والبلغاء ونحارير الشعراء (٣) ، فأتاهم بكتاب من الله ، عز وجل ، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور من مثله ، أو بسورة من مثله - لم يستطيعوا أبداً ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، وما ذاك إلا لأن كلام الرب لا يشبهه كلام الخلق أبداً .

وقوله : **«وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ»** أى : أخبركم بما أكل أحدكم الآن ، وما هو مدخر له فى بيته لغده **«إِنَّ فِي ذَلِكَ»** أى : فى ذلك كله **«لَايَةً لَّكُمْ»** أى : على صدقنى فيما جئتكم به **«إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَاةِ»** أى : مقررًا لها ومثبتًا **«وَلَأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ»** ، فيه دلالة على أن عيسى ، عليه السلام ، نسخ بعض شريعة التوراة ، وهو الصحيح من القولين ، ومن العلماء من قال : لم ينسخ منها شيئاً ، وإنما أحلَّ لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه فأحفظوا ، فكشف لهم عن المغطى فى ذلك ، كما قال فى الآية الأخرى : **«وَلَأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي**

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٩) والآية (١٥١) . ويتعين أن تكون الحكمة هنا بمعنى الفهم فى الدين .

(٢) الزيادة من المخطوطة الأزهرية . وحذفها خطأ .

(٣) « النحارير » بالنون والحاء المهملة وراءين : جمع « نحير » بكسر النون . وهو الحاذق الماهر العاقل المتقن البصير فى كل شئ . وفى المطبوعة بدلها : « تجاريد » ! وهو غاية فى السخف . والصواب من المخطوطة .

تَخْتَلِفُونَ فِيهِ [الزخرف: ٦٣] والله أعلم .

ثم قال : ﴿ وَجِئْتُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أى : بحجة ودلالة على صدقى فيما أقول لكم ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبِّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ أى : أنا وأنتم سواء فى العبودية له والخضوع والاستكانة إليه ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ .

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِجُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُؤًا مِمَّا كَرِهَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمُنْكَرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى ﴾ أى : استشعر منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال قال : ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ، قال مجاهد : أى من يتبعنى إلى الله؟ والظاهر أنه أراد : من أنصارى فى الدعوة إلى الله . كما كان النبي ﷺ يقول فى مواسم الحج ، قبل أن يهاجر : ﴿ مَنْ رَجُلٌ يُؤْوِينِي حَتَّى أَبْلُغَ كَلَامَ رَبِّي ، فَإِنَّ قَرِينًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أَبْلُغَ كَلَامَ رَبِّي ﴾ حتى وجد الأنصار فأروه ونصروه ، وهاجر إليهم فواسوه ، ومنعوه من الأسود والأحمر . وهكذا عيسى ابن مريم ، انتدب له طائفة من بنى إسرائيل فآمنوا به وآزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه . ولهذا قال تعالى مخبراً عنهم : ﴿ قَالَ الْخَوَارِجُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ : الخواريون ، قيل : كانوا قَصَّارِينَ وقيل : سموا بذلك لياض ثيابهم ، وقيل : صيادين . والصحيح أن الخواري الناصر ، كما ثبت فى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب ، فانتدب الزبير ، ثم نديهم فانتدب الزبير ، فقال : ﴿ إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيَّ وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرِ ﴾ (١) . وروى ابن أبى حاتم : عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ، قال : مع أمة محمد ﷺ . وإسناده جيد .

ثم قال تعالى مخبراً عن بنى إسرائيل فيما هموا به من الفتك بعيسى ، عليه السلام ، وإرادته بالسوء والصلب ، حين تمالؤوا عليه ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان ، وكان كافراً ، [فأنهوا إليه] أن هاهنا رجلا يضل الناس ويصدهم عن طاعة الملك ، ويُفِئِدُ الرعايا (٢) ، ويفرق بين الأب وابنه ، إلى غير ذلك مما تقلدوه فى رقابهم ورموه به من الكذب ، وأنه ولد زانية ! حتى استثاروا غضب الملك ، فبعث فى طلبه من يأخذه ويصلبه ويُنكَلُ به ، فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظفروا به ، نجاه الله من بينهم ، ورفعهم من رَوْزَتِهِ ذلك البيت إلى السماء ، وألقى الله شبهه على رجل كان عنده فى المنزل ، فلما دخل أولئك اعتقدوه فى ظلمة الليل عيسى ، فأخذوه

(١) انظر المسند (٦٨١ ، ٧٩٩) من حديث على ، و (١٤٤٢٧ ، ١٤٦٨٧) من حديث جابر وكذلك البخارى من حديثه (١٣ / ٢٠٣ - ٢٠٤ فتح) .

(٢) يفند الرعايا : بتشديد النون المكسورة : يفرقهم ويجعلهم أفنادا ، أى : فرقا مختلفين . وفى المطبوعة : « يفسد » بالسين بدل النون .

وأهانوه [وصلبوه] ، ووضعوا على رأسه الشوك . وكان هذا من مكر الله بهم ، فإنه نجى نبيه ورفع من بين أظهرهم ، وتركهم فى ضلالهم يعمهون ، يعتقدون أنهم قد ظفروا بطلبتهم ، وأسكن الله فى قلوبهم قسوة وعنادا للحق ملازما لهم ، وأورثهم ذلة لا تفارقهم إلى يوم التناد؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إِنِّي مَتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَمَةِ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾

اختلف المفسرون فى قوله تعالى : ﴿ إِنِّي مَتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ فقال قتادة وغيره : هذا من المقدم المؤخر ، وتقديره : إنى رافعك إلى ومتوفيك ، يعنى بعد ذلك . وقال ابن عباس : ﴿ إِنِّي مَتَوَفِّيكَ ﴾ أى : مميتك . قال ابن إسحاق : والنصارى يزعمون أن الله توفاه سبع ساعات ثم أحياه ! وقال مطر الوراق : إنى متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت ، وكذا قال ابن جريج : تَوَفَّيه هو رفعه .

وقال الاكثرون : المراد بالوفاة هاهنا : النوم ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ [الانعام : ٦٠] ، وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٢] ، وكان رسول الله ﷺ يقول - إذا قام من النوم - : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ » (١) ، وقال الله تعالى : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا . وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَلْأَلْيَمَنِينَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ١٥٦ - ١٥٩] والضمير فى قوله : ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ عائد على عيسى ، عليه السلام ، أى : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمننَّ بعيسى [قبل موت عيسى] ، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ، على ما سيأتى بيانه (٢) ، فحيثنذ يؤمن به أهل الكتاب كلهم ؛ لأنه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام (٣) .

(١) من حديث رواه البخارى (١١ / ٩٦ ، ٩٧ فتح) ، من حديث حذيفة .

(٢) عند تفسير الآية (١٥٩) من سورة النساء .

(٣) وهو القول الصحيح المتعين . وصححه الطبرى ، وقال : « معنى ذلك : إنى قابضك من الأرض ورافعك إلى . لتواتر الأخبار عن رسول الله ﷺ أن قال : ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الدجال ، ثم يمكث فى الأرض مدة - ذكرها - اختلفت الرواية فى مبلغها - ثم يموت فيصلب عليه المسلمون ويدفونونه » . ثم قال : « ومعلوم أنه لو كان قد أماته الله عز وجل ، لم يكن بالذى يميته مينة أخرى ، فيجمع عليه ميتتين » . انظر الطبرى (٦ / ٤٥٨ ، ٤٦٠) (طبعنا بدار المعارف) .

وقوله تعالى: ﴿وَمُطَهَّرَكُمْ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: يرفعى إليك إلى السماء ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وهكذا وقع؛ فإن المسيح، عليه السلام، لما رفعه الله إلى السماء تفرقت أصحابه شيعاً بعده؛ فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله. وآخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة. وقد حكى الله مقالاتهم فى القرآن، ورد على كل فريق، فاستمروا كذلك كذلك قريباً من ثلاثمائة سنة، ثم نبع لهم ملك من ملوك اليونان، يقال له: قسطنطين، فدخل فى دين النصرانية، قيل: حيلة ليفسده، فإنه كان فيلسوفاً، وقيل: جهلا منه، إلا أنه بدل لهم دين المسيح وحرفه، وزاد فيه ونقص منه، ووضعت له القوانين والأمانة الكبيرة - التى هى الخيانة الحقيرة - وأحل فى زمانه لحم الخنزير، وصلوا [له] إلى المشرق، وصوروا له الكنائس، وزادوا فى صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه، فيما يزعمون. وصار دين المسيح دين قسطنطين، إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثنى عشر ألف معبد، وبنى المدينة المنسوبة إليه، واتبعه الطائفة المملكية منهم. وهم فى هذا كله قاهرون لليهود، أيديهم عليهم؛ لأنهم أقرب إلى الحق منهم، وإن كان الجميع كفارا، عليهم لعائن الله.

فلما بعث الله محمداً ﷺ، فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق - كانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض - إذ قد صدقوا الرسول النبى الأُمى، خاتم الرسل، وسيد ولد آدم، الذى دعاهم إلى التصديق بجميع الحق، فكانوا أولى بكل نبي من أمته، الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته، مع ما قد حرفوا وبدلوا.

ثم لو لم يكن شئ من ذلك لكان قد نسخ الله شريعة جميع الرسل بما بعث به محمداً ﷺ من الدين الحق، الذى لا يغير ولا يبدل إلى قيام الساعة، ولا يزال قائماً منصوراً ظاهراً على كل دين. فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها، واحتازوا جميع الممالك، ودانت لهم جميع الدول، وكسروا كسرى، وقصروا قيصر (١)، وسلبوهما كُتُوزهما، وأنفقت فى سبيل الله، كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم، عز وجل، فى قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ الآية [النور: ٥٥] ولهذا لما كانوا هم المؤمنون بالمسيح حقا سلبوا النصرارى بلاد الشام وأجلوهم إلى الروم، فلعجؤوا إلى مدينتهم القسطنطينية، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة. وقد أخبر الصادق المصدوق أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية، ويستفيؤون ما فيها من الأموال، ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جدا، لم ير الناس مثلها ولا يرون بعدها نظيرها (٢)، وقد جمعت فى هذا جزءاً مفرداً. ولهذا

(١) يريد: قسروه، أى غلبوه وقهروه، من «القسر»، فأبدل السين صاداً، وهما يتبادلان فى كثير من الكلام. انظر: اللسان (٦ / ٤٠٩).

(٢) فتح القسطنطينية المبره به فى الحديث - سيكون فى مستقبل قريب أو بعيد، يعلمه الله عز وجل. وهو الفتح =

قال تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فُورًا الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ. فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾، وكذلك فعل تعالى بمن كفر بالمسيح من اليهود، أو غلا فيه أو أطراه من النصارى؛ عذبهم في الدنيا بالقتل والسبي وأخذ الأموال وإزالة الأيدي عن الممالك، وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤]. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾، أى: فى الدنيا والآخرة، فى الدنيا بالنصر والظفر، وفى الآخرة بالجنات العاليات ﴿وَاللَّهُ لَا يَجِبُ الظَّالِمِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ أى: هذا الذى قَصَصْنَا عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ فِي أَمْرِ عِيسَى وَمَبْدَأِ مِيلَادِهِ وَكَيْفِيَةِ أَمْرِهِ، هُوَ مِمَّا قَالَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَأَوْحَاهُ إِلَيْكَ وَأَنْزَلَهُ عَلَيْكَ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، فَلَا مَرِيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ مَرْيَمَ: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ. مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٤، ٣٥] وهانها قال تعالى:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾
 ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَادَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ قَوْلُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فى قدرة الله تعالى حيث خلقه من غير أب ﴿كَمَثَلِ آدَمَ﴾ فإن الله تعالى خلقه من غير أب ولا أم، بل ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ والذى خلق آدم على خلق عيسى بالطريق الأولى والأخرى، وإن جاز ادعاء البنوة فى عيسى بكونه مخلوقا من غير أب، فجاوز ذلك فى آدم بالطريق الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواه فى عيسى أشد بطلانا وأظهر فسادا. ولكن الرب، عز وجل، أراد أن يظهر قدرته لخلقته، حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى؛ وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى، ولهذا قال تعالى فى سورة مريم: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١]، وقال هانها: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أى: هذا القول هو الحق فى عيسى، الذى لا محيد عنه ولا صحيح سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

= الصحيح لها، حين يعود المسلمون إلى دينهم الذى أعرضوا عنه، وأما فتح الترك الذى كان قبل عصرنا هذا، فإنه كان تمهيدا لفتح الأعظم. ثم هى قد خرجت بعد ذلك من أيدي المسلمين، منذ أعلنت حكومتهم هناك أنها حكومة غير إسلامية وغير دينية، وعاهدت الكفار أعداء الإسلام، وحكمت أمتها بأحكام القوانين الوثنية الكافرة. وسيعود الفتح الإسلامى لها، إن شاء الله كما بشر رسول الله.

ثم قال تعالى - أمرا رسوله ﷺ أن يُبَاهِلَ مَنْ عَانَدَ الْحَقَّ فِي أَمْرِ عَيْسَى بَعْدَ ظَهْوَرِ الْبَيَانِ : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ﴾ أى : نحضرهم فى حال المباهلة ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ ﴾ أى : نلتعن ﴿ فَتَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ ، أى : منا أو منكم .

وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها - من أول السورة إلى هنا - فى وفد نجران : أن النصرارى حين قدموا فجعلوا يُحَاجُّونَ فى عيسى ، ويزعمون فيه ما يزعمون من البتوة والإلهية ، فأنزل الله صَدْرَ هذه السورة رداً عليهم . وروى البخارى : عن حذيفة قال : جاء العاقبُ والسيدُ صاحباً نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه ، قال : فقال أحدهما لصاحبه : لا تَفْعَلْ ، فوالله إن كان نبيا فلاعناه لا نفلحُ نحنُ ولاعقبنا من بعدنا . قالوا : إنا نعطيك ما سألتنا ، وابعث معنا رجلا أميناً ، ولاتبعت معنا إلا أميناً . فقال : «لَأُبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا ، حَقَّ أَمِينٍ» ، فاستشرف لها أصحابُ رسول الله ﷺ ، فقال : «قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ» فلما قام قال رسول الله ﷺ : «هَذَا أَمِينٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ» . ورواه مسلم ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه بنحوه (١) . وقد رواه أحمد ، والنسائى ، وابن ماجه ، عن ابن مسعود ، بنحوه (٢) .

وروى الإمام أحمد : عن ابن عباس ، قال : قال أبو جهل : إن رأيتُ محمداً يصلى عند الكعبة لأتينه حتى أطأ على عنقه . قال : فقال : «لو فعلَ لأخَذته الملائكةُ عياناً ، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلاً» . وقد رواه الترمذى ، وقال الترمذى : حسن صحيح (٣) .

والغرض : أن وفودهم كان فى سنة تسع ؛ لأن الزهرى قال : كان أهل نجران أول من أذى الجزية إلى رسول الله ﷺ ، وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح ، وهى قوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] (٤) .

وروى ابن مردويه عن الشعبى ، عن جابر قال : قدم على النبى ﷺ العاقب والطيب ، فدعاهما إلى الملاعنة فواعدها على أن يلاعناه الغداة . قال : فغدا رسول الله ﷺ ، فأخذ بيد على وفاطمة والحسن والحسين ، ثم أرسل إليهما فأبياً أن يجيبا ، وأقرأ له بالخراج ، قال : فقال

(١) البخارى (٧٣ / ٨ ، ٧٤ فتح) ومسلم (٢ / ٢٤١) مختصراً ، وكذلك رواه أحمد مختصراً (٥ / ٣٨٥ ، ٣٩٨ حلى) .

(٢) المسند (٣٩٣٠) مطولاً .

(٣) المسند (٢٢٢٥ ، ٢٢٢٦) . وفى المطبوعة هنا زيادة نسبتها للبخارى ، وليست فى المخطوطة . والبخارى لم يروه كاملاً ، إنما روى منه ما يتعلق بأبى جهل (٨ / ٥٥٧) ، وهى رواية مختصرة ، رواها أحمد أيضاً (٣٤٨٣) .

(٤) ذكر الحافظ ابن كثير - فى تفسير هذه الآيات - قصة وفد نجران مفصلة ، من سيرة ابن إسحاق ، ومن رواية ابن مردويه ، ومن دلائل النبوة لليهقى . فمن شاء التفصيل فليرجع إليه (١ / ٣٦٨ - ٣٧٠ الطبعة التجارية) وإلى تاريخه الكبير : البداية والنهاية (٥ / ٥٢ - ٥٦) وطبقات ابن سعد (١ / ٨٤ ، ٨٥) .

رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ لَوْ قَالَ: لَا، لَأَمْطَرَ عَلَيْهِمُ الْوَادِي نَارًا» قال جابر: وفيهم نزلت ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾. قال جابر: «أَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ»: رسول الله ﷺ وعلى بن أبي طالب ﴿وَأَبْنَاؤُنَا﴾: الحسن والحسين ﴿وَنِسَاءَنَا﴾: فاطمة. وهكذا رواه الحاكم بمعناه، ثم قال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. هكذا قال: وقد رواه أبو داود الطيالسي، عن الشعبي مرسلًا، وهذا أصح، وقد روى عن ابن عباس والبراء نحو ذلك.

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ أى: هذا الذى قصصناه عليك يا محمد فى شأن عيسى هو الحق الذى لا معدل عنه ولا محيد ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أى: عن هذا إلى غيره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أى: من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد والله عليم به، وسيجزيه على ذلك شر الجزاء، وهو القادر، الذى لا يفوته شىء سبحانه ويحمده ونعوذ به من حلول نقمه.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن جرى مجراهم ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ﴾ والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال هاهنا. ثم وصفها بقوله: ﴿سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أى: عدل ونصف، نستوى نحن وأنتم فيها. ثم فسرها بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ لا وتئن، ولا صنم، ولا صليب ولا طاغوت، ولا نار، ولا شىء. بل نُفَرِّدَ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. وهذه دعوة جميع الرسل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَبُوا الطَّاعُوتِ﴾ [النحل: ٣٦].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال ابن جرير: يعنى: يطيع بعضنا بعضا فى معصية الله.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أى: فإن تولوا عن هذا النَّصَفِ وهذه الدعوة فأشهدوهم أنتم على استمراركم على الإسلام الذى شرعه الله لكم. وقد روى البخارى، عن أبى سفيان، فى قصته حين دخل على قيصر، وكان ذلك بعد صلح الحُدَيْبِيَّةِ وقبل الفتح، أنه قال: ثم جىء بكتاب رسول الله ﷺ فقراه، فإذا فيه: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلٍ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَيَّ مِنْ اتَّبِعَ الْهُدَى. أَمَّا بَعْدُ، فَاسَلِّمْ وَسَلِّمْ، وَأَسَلِّمْ يَوْمَكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ إِثْمُ الْارِيسِيِّنِ، وَ«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ».

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغير واحد: أن صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران، وقال الزهري: هم أول من بذل الجزية. ولا خلاف أن آية الجزية نزلت بعد الفتح، فما الجمع بين كتابة هذه الآية قبل الفتح إلى هرقل في جملة الكتاب، وبين ما ذكره محمد بن إسحاق والزهري؟ والجواب من وجوه:

أحدها: يحتمل أن هذه الآية نزلت مرتين، مرة قبل الحديبية، ومرة بعد الفتح.

الثاني: يحتمل أن صدر سورة آل عمران نزل في وفد نجران إلى عند هذه الآية، وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك، ويكون قول ابن إسحاق: «إلى بضع وثمانين آية» ليس بمحفوظ، لدلالة حديث أبي سفيان.

الثالث: يحتمل أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية، وأن الذي بذلوه مصلحة عن المباهلة لا على وجه الجزية، بل يكون من باب المهادنة والمصالحة، ووافق نزول آية الجزية بعد ذلك على وفق ذلك، كما جاء فرض الخمس والأربعة الأخماس وفق ما فعله عبد الله بن جحش في تلك السرية قبل بدر، ثم نزلت فريضة القسّم على وفق ذلك.

الرابع: يحتمل أن رسول الله ﷺ لما أمر بكتب هذا الكلام في كتابه إلى هرقل وإن لم يكن أنزل بعد، ثم نزل القرآن موافقة له ﷺ كما نزل بموافقة عمر بن الخطاب في الحجاب وفي الأسارى، وفي عدم الصلاة على المنافقين، وفي قوله: «وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى» [البقرة: ١٢٥]، وفي قوله: «عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُدْخِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ» الآية [التحریم: ٥].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٥﴾ هَاتَمْتُمْ هَتُولًا حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلىُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾

ينكر تعالى على اليهود والنصارى في محتاجتهم في إبراهيم الخليل، ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم، كما روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ، فتنازعوا عنده، دلت الأخبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديا. وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانيا. فأنزل الله تعالى: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ». أى: كيف تدعون، أيها اليهود، أنه كان يهوديا، وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى؟، وكيف تدعون، أيها النصارى، أنه كان نصرانيا، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر؟! ولهذا قال: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

ثم قال: «مَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا

تَعْلَمُونَ ﴿ هذا إنكار على من يحاج فيما لا علم له به ، فإن اليهود والنصارى تحاجوا في إبراهيم بلا علم ، ولو تحاجوا فيما بأيديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثه محمد ﷺ لكان أولى بهم ، وإنما تكلموا فيما لم يعلموا ، فانكر الله عليهم ذلك ، وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة ، الذى يعلم الأمور على حقائقها وجليلاتها ، ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ﴾ أى : متحنفاً عن الشرك قاصداً إلى الإيمان ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . وهذه الآية كالتى تقدمت فى سورة البقرة : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٥] .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يقول تعالى : أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه ، وهذا النبى - يعنى محمداً ﷺ - والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن بعدهم . روى سعيد بن منصور : عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلَاةً مِنَ النَّبِيِّينَ ، وَإِنَّ وُلَاةَ مِنْهُمْ أبى وَخَلِيلُ رَبِّى عز وجل » . ثم قرأ : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ الآية . ورواه الترمذى والبخارى . ورواه وكيع فى تفسيره عن ابن مسعود بنحوه (١) . وقوله : ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : ولى جميع المؤمنين برسله .

﴿ وَدَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿٦٩﴾ يَتَّهَلَّ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَتَّهَلَّ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَءَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرُهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تَتُومِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُعَاجِزْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْصُصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين وبغيهم إياهم الإضلال ، وأخبر أن وبأل ذلك إنما يعود على أنفسهم ، وهم لا يشعرون أنهم محمور بهم .

ثم قال تعالى منكرا عليهم : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ أى : تعلمون صدقها وتحققون حقها ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى :

(١) ورواه أحمد (٣٨٠٠) عن وكيع . ورواه أيضا الطبرى (٧٢١٦ ، ٧٢١٧) والحاكم (٢ / ٢٩٢) وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى .

تكتُمون ما فى كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعرفون ذلك وتتحققونه. ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الدِّينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارَ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ هذه مكيدة أرادوها
ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهرُوا الإيمان أول
النهار ويصَلُّوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من
الناس: إنما رَدَّهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب فى دين المسلمين، ولهذا قالوا: ﴿لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ﴾. وقال ابن عباس: قالت طائفة من أهل الكتاب: إذا لقيتم أصحاب محمد أول النهار
فآمنوا، وإذا كان آخره فصلُّوا صلاتكم، لعلهم يقولون: هؤلاء أهل الكتاب وهم أعلم
منا. وهكذا روى عن قتادة .

وقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أى: لا تطمئنوا وتظهروا سركم وما عندكم إلا لمن اتبع
دينكم ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين، فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ
إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ أى: هو الذى يهدى قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان، بما ينزله على عبده ورسوله
محمد ﷺ من الآيات البينات، والدلائل القاطعات، والحجج الواضحات، وإن كنتم - أيها
اليهود - ما بأيديكم من صفة محمد النبى الأُمى فى كتبكم التى نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين .

وقوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ يقولون: لا تظهروا ما عندكم من
العلم للمسلمين، فيتعلموه منكم، ويساوونكم فيه، ويمتازون به عليكم لشدة الإيمان به، أو
يحاجوكم به عند الله، أى: يتخذوه حجة عليكم بما فى أيديكم، فتقوم به وتتركب الحجة فى
الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أى: الأمور كلها تحت
تصرفه، وهو المعطى المانع، يمن على من يشاء بالإيمان والعلم والتصور التام، ويضل من يشاء
ويعمى بصره وبصيرته، ويختم على قلبه وسمعه، ويجعل على بصره غشاوة، وله الحجة
والحكمة . ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أى: اختصاصكم - أيها
المؤمنون - من الفضل بما لا يُحد ولا يُوصف، بما شرف به نبيكم محمداً ﷺ على سائر الأنبياء
وهذاكم به لأحمد الشرائع .

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن إِنْ تَأَمَّنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَن إِنْ تَأَمَّنْهُ
بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُوتِ
سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَن أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَأَتَىٰ
فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

ربع

يخبر تعالى عن اليهود بأن فيهم الخونة، ويحذر المؤمنين من الاغترار بهم، فإن منهم ﴿مَن
إِنْ تَأَمَّنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ أى: من المال ﴿يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ أى: وما دونه بطريق الأولى أن يؤديه إليك ﴿وَمِنْهُمْ
مَن إِنْ تَأَمَّنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أى: بالمطالبة والملازمة والإلحاح فى استخلاص

حَقِّكَ ، وَإِذَا كَانَ هَذَا صَنِيعَهُ فِي الدِّينَارِ فَمَا فَوْقَهُ أَوْلَىٰ أَلَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ .

ومناسب أن يكون ها هنا الحديث الذي علقه البخارى فى غير موضع من صحيحه ، ومن أحسنها سياقه فى كتاب الكفالة عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ : أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسَلِّفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ ، فَقَالَ : ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أَشْهَدُهُمْ . فَقَالَ : كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا . قَالَ : ائْتِنِي بِالْكَفِيلِ . قَالَ : كَفَىٰ بِاللَّهِ كَفِيلًا . قَالَ : صَدَقْتَ . فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَىٰ أَجْلِ مَسْمَىٰ ، فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ فَقَضَىٰ حَاجَتَهُ ، ثُمَّ التَّمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلْأَجْلِ الَّذِي أَجَلُهُ ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا ، فَأَخَذَ خَشَبَةً فَفَرَمَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ ، وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَىٰ صَاحِبِهِ ، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا ، ثُمَّ أَتَىٰ بِهَا إِلَىٰ الْبَحْرِ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي اسْتَسَلَفْتُ فَلَاتًا أَلْفَ دِينَارٍ فَسَأَلْتَنِي كَفِيلًا ، فَقُلْتُ : كَفَىٰ بِاللَّهِ كَفِيلًا [فَرَضَىٰ بِكَ] . وَسَأَلْتَنِي شَهِيدًا ، فَقُلْتُ : كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا . فَرَضَىٰ بِكَ ، وَإِنِّي جَهِدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ ، وَإِنِّي اسْتَوَدَعْتُكَهَا . فَرَمَىٰ بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّىٰ وَلَجَتْ فِيهِ ، ثُمَّ انصَرَفَ ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمَسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَىٰ بَلَدِهِ ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ اسْلَفَهُ لِيَنْظُرَ لَعَلَّ مَرْكَبًا يَجِيئُهُ بِمَالِهِ ، فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ ، فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطْبًا ، فَلَمَّا كَسَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ ، ثُمَّ قَدَّمَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ تَسَلَّفَ مِنْهُ ، فَأَتَاهُ بِالْأَلْفِ دِينَارٍ ، وَقَالَ : وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لِأَتِيكَ بِمَالِكَ ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي آتَيْتُ فِيهِ . قَالَ : هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَىٰ شَيْءٍ ؟ قَالَ : أَلَمْ أَخْبِرْكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ هَذَا ؟ قَالَ : فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّىٰ عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الْخَشَبَةِ ، فَانصَرَفَ بِالْأَلْفِ دِينَارٍ رَاشِدًا . هكذا رواه البخارى فى موضعه معلقًا بصيغة الجزم ، وأسنده فى بعض المواضع من الصحيح . ورواه الإمام أحمد ورواه البزار عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ بنحوه (١) .

وقوله : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ » أى : إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَىٰ جُحُودِ الْحَقِّ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : لَيْسَ عَلَيْنَا فِي دِينِنَا حَرَجٌ فِي أَكْلِ أَمْوَالِ الْأُمِّيِّينَ ، وَهُمْ الْعَرَبُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْلَاهَا لَنَا ! قال الله تعالى : « وَيَقُولُونَ عَلَىٰ اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أى : وقد اختلفوا هذه المقالة ، واتفقوا بهذه الضلالة ، فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَكْلَ الْأَمْوَالِ إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَإِنَّمَا هُمْ قَوْمٌ بُهَّتْ . روى عبد الرزاق : عن صعصعة بن يزيد : أن رجلا سأل ابن عباس ، قال : [إنا] نصيب فى الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة ؟ قال ابن عباس : فتقولون ماذا ؟ قال : نقول : ليس علينا بذلك بأس . قال : هذا كما قال أهل الكتاب : « لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ » إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا يطيب أنفسهم (٢) .

(١) البخارى (٤ / ٣٨٥ ، ٣٨٦ فتح) والمسند (٨٥٧١) وروايته موصولة . ونسبه الحافظ فى الفتح أيضا للنسائى ، والبخارى فى الأدب المفرد ، وابن حبان فى صحيحه .

(٢) رواه الطبرى (٧٧٧٤) من طريق عبد الرزاق ، وإسناده صحيح . وزيادة [أنا] من المطبوعة والطبرى . و « صعصعة ابن يزيد » : تابعى ثقة ، ترجمه البخارى فى الكبير (٣٢١ / ٢ / ٣٢٢) وابن أبى حاتم (٤٤٦ / ١ / ٢) وأشار البخارى إلى حديثه هذا إشارة موجزة ، كما دته . ويقال فيه : « صعصعة بن زيد » ، وبين البخارى أن الصواب « بن يزيد » . وذكر ابن حبان فى الثقات (ص ٢٢٥ مخطوط مصور) ، ولم يذكر خلافا فى اسم أبيه . ووقع فى ابن كثير مخطوطا ومطبوعا - « عن أبى صعصعة » ! وهو خطأ صرف .

ثم قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ﴾ أي: لكن من أوفى بعهده منكم يا أهل الكتاب، الذي عاهدكم الله عليه، من الإيمان بمحمد ﷺ إذا بَعَثَهُ كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأممهم بذلك، واتفق محارم الله واتبع طاعته وشرعته التي بَعَثَ بها خاتم الرسل وسيد البشر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْفَيْصَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

يقول تعالى: إن الذين يتعاضون عما عاهدوا الله عليه، من اتباع محمد ﷺ، وذكر صفة للناس وبيان أمره، وعن إيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة - بالأثمان القليلة الزهيدة، وهي عروض هذه الدنيا الفانية الزائلة، ف﴿أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: لا نصيب لهم فيها، ولا حظ لهم منها ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: برحم منه لهم، يعنى: لا يكلمهم الله كلام لطف بهم، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة ﴿وَلَا يُرَكِّبُهُمْ﴾ أي: من الذنوب والأدناس، بل يأمر بهم إلى النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية الكريمة فلنذكر منها ما تيسر:

روى الإمام أحمد: عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» قلت: يا رسول الله، من هم؟ خابوا وخسروا. قال: وأعاده رسول الله ﷺ ثلاث مرات قال: «المُسْبِلُ، والمُنْتَفِقُ سَلْعَتَهُ بِالْحَلْفِ الْكَاذِبِ، والمنان». ورواه مسلم، وأهل السنن (١). وروى الإمام أحمد عن عدي - هو ابن عميرة الكندي - قال: خاصم رجل من كندة يقال له: امرؤ القيس بن عامر رجلا من حضرموت إلى رسول الله ﷺ في أرض، فقاضى على الحضرمي بالبينة، فلم يكن له بينة، فقاضى على امرئ القيس باليمين. فقال الحضرمي: [إن] أمكنته من اليمين يارسول الله ذهبت - ورب الكعبة - أرضى. فقال النبي ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةً لِيَقْتَطَعَ بِهَا مَالَ أَحَدٍ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ» وتلا رسول الله ﷺ: «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا». فقال امرؤ القيس: ماذا لمن تركها يا رسول الله؟ فقال: «الجنة» قال: فاشهد أنى قد تركتها له كلها. ورواه النسائي (٢).

وروى أحمد عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ، لِيَقْتَطَعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ». فقال الأشعث: فى والله كان ذلك، كان بينى وبين رجل من اليهود أرض فجحذنى، فقدمته إلى رسول الله ﷺ فقال لى رسول الله ﷺ: «أَلَكْ بَيْتَةٌ؟» قلت: لا، فقال لليهودى: «احلف» فقلت: يارسول الله، إذا يحلف فيذهب مالى. فأنزل الله عز وجل: «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا» إلى آخر الآية.

(١) المسند (٥ / ١٤٨ حلى) . وقد مضى من رواية مسلم .

(٢) المسند (٤ / ١٩١ ، ١٩٢ حلى) . وتفصيل تخريجه فى الطبرى (٧٢٨٠) . وزيادة [إن] من المسند .

أخرجاه (١). وروى ابن أبي حاتم : عن عبد الله بن أبي أوفى : أن رجلا أقام سلعة له في السوق، فحلف بالله لقد أعطى بها ما لم يُعْطه، ليوقع فيها رجلا من المسلمين، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. ورواه البخارى . وروى الإمام أحمد أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم، ولا يزكّيهم، وهم عذاب اليم: رجلٌ منع ابن السبيل فضل ماء عنده، ورجلٌ حلف على سلعة بعد العصر - يعنى كاذبًا - ورجلٌ بايع إمامًا، فإن أعطاه وفى له، وإن لم يُعْطه لم يف له». ورواه أبو داود، والترمذى ، وقال الترمذى: حسن صحيح (٢).

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن اليهود، عليهم لعائن الله، أن منهم فريقًا يحرفون الكلم عن مواضعه ويبدلون كلام الله، ويزيلونه عن المراد، ليؤهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك، وينسبونه إلى الله، وهو كذب على الله، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله؛ ولهذا قال: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. وقال مجاهد والشعبي وغيرهما: ﴿يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾: يحرفونه. وقال وهب بن منبه: إن التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله لم يغير منهما حرف، ولكنهم يضلون بالتحريف والتأويل، وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، فأما كتب الله فإنها محفوظة ولا تحول. رواه ابن أبي حاتم، فإن عنى وهب ما بأيديهم من ذلك، فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص، وأما تعريب ذلك المشاهد بالعربية ففيه خطأ كبير، وزيادات كثيرة ونقصان، وهم فاحش. وهو من باب تفسير المعبر المعرب، وفهم كثير منهم - بل أكثرهم، بل جميعهم - فاسد. وأما إن عنى كتب الله التي هي كتبه عنده، فتلك - كما قال - محفوظة لم يدخلها شيء.

﴿ مَا كَانَ لِيَشْرَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (٧٦) وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٨٠)

روى ابن إسحاق عن ابن عباس، قال: قال أبو رافع القرظى، حين اجتمعت الاحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران، عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصرانى يقال له الرئيس:

(١) المسند (٣٥٩٧) والبخارى (٥٣/٥، ٢٠٦ فتح) ومسلم (١/٣٩ - ٥٠) والطبرى (٧٢٧٩).

(٢) المسند (١٠٢٣١). ورواه أيضا أطول من ذلك (٧٤٣٥).

أَوَ ذَاكَ تَرِيدُ مِنَّا يَا مُحَمَّدُ، وَإِلَيْهِ تَدْعُونَا؟ أَوْ كَمَا قَالَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَعَادَ اللَّهِ أَنْ نَعْبُدَ غَيْرَ اللَّهِ، أَوْ أَنْ نَأْمُرَ بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ، مَا بِذَلِكَ بَعَثَنِي، وَلَا بِذَلِكَ أَمَرَنِي». أَوْ كَمَا قَالَ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمَا: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

فقوله: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى: ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوّة أن يقول للناس: اعبدوني من دون الله. أى: مع الله، وإذا كان هذا لا يصلح لنبى ولا لمُرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأخرى؛ ولهذا قال الحسن البصرى: لا ينبغي هذا لمؤمن أن يأمر الناس بعبادته. قال: ذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضاً - يعنى أهل الكتاب - كانوا يتعبّدون لأخبارهم ورهبانهم، كما قال الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ٣١] وفى المسند، والترمذى - كما سيأتى - أن عدى بن حاتم قال: يا رسول الله، ما عبدوهم. قال: «بلى، إنهم أحلّوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إيّاهم» (١). فالجهلة من الأخبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون فى هذا الذم والتوبيخ، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنما يأمرون بما يأمر الله به وبلغتهم إياه رسله الكرام. وإنما يتهونونهم عما نهاهم الله عنه وبلغتهم إياه رسله الكرام، فالرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، هم السفراء بين الله وبين خلقه فى أداء ما حملوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة، فقاموا بذلك أتم القيام، ونصحوا الخلق، وبلغوهم الحق.

وقوله: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِينَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أى: ولكن يقول الرسول للناس: كونوا ربّانيين. قال ابن عباس وغير واحد: أى حكماء علماء حلماء. وقال الحسن وغير واحد: فقهاء.

وقال الضحاك فى قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾: حقّ على من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ أى: تفهمون معناه. وقرئ: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ بالتشديد من التعليم (٢) ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾: تحفظون ألفاظه.

ثم قال: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ أى: ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله، لا نبى مرسل ولا ملك مقرب ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أى: لا يفعل ذلك؛ لأنّ من دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَبُوا الطَّاعُونَ﴾ الآية [النحل: ٣٦]، وقال: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال إخباراً

(١) سيأتى عند تفسير الآية: (٣١) من سورة التوبة.

(٢) قراءة التشديد هذه - هى قراء ابن عامر وعاصم والكساتى، والقراءة الأولى - بفتح التاء وسكون العين وفتح اللام - هى قراءة باقى السبعة وغيرهم.

عن الملائكة: ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذِكَّ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢٩].

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم، عليه السلام، إلى عيسى، عليه السلام، لهما أتى الله أحدهم من كتاب وحكمة، وبلغ أى مبلغ، ثم جاءه رسول من بعده، ليؤمنن به ولينصرنه، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته؛ ولهذا قال تعالى وتقدس: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ أى: لهما أعطيتكم من كتاب وحكمة ﴿ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد: يعنى عهدى.

﴿ قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ. فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ ﴾ أى: عن هذا العهد والميثاق ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ . قال على بن أبى طالب وابن عمه ابن عباس: ما بعث الله نبيا من الانبياء إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته : لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه. وقال طاووس، والحسن البصرى ، وقتادة: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضا . وهذا لا يصاد ما قاله على وابن عباس ولا ينفيه، بل يستلزمه ويقضيه. فالرسول محمد خاتم الانبياء، صلوات الله وسلامه عليه، دائما إلى يوم الدين، وهو الإمام الاعظم ، الذى لو وجد فى أى عصر وجد لكان هو الواجب الطاعة المقدم على الانبياء كلهم؛ ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا بيت المقدس، وكذلك هو الشفيع فى يوم الحشر فى إتيان الرب لفصل القضاء، وهو المقام المحمود الذى لا يليق إلا له، والذى يحيد عنه أولو العزم من الانبياء والمرسلين، حتى تنتهى النبوة إليه، فيكون هو المخصوص به.

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْعُوثُ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ ﴿٨٢﴾ قُلْ ءَأَمِنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَيْكَ إِلَّا حِكْمَةٌ وَتُورٍ مُبِينٌ ﴿٨٣﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ الْإِسْلَامَ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٤﴾

يقول تعالى منكراً على من أراد دينا سوى دين الله، الذى أنزل به كتبه وأرسل به رسله، وهو عبادته وحده لا شريك له، الذى ﴿ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى: استسلم له من

فيهما طوعا وكرها، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا بِالْغَدْرِ وَالْأَصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ ذَاخِرُونَ. وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبِرُونَ. يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٨ - ٥٠]. فالؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرها، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم، الذي لا يُخَالَفُ ولا يمانع. ﴿وَاللَّهِ يُرْجِعُونَ﴾ أى: يوم المَعَاد، فيجازى كلا بعمله.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعنى: القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أى: من الصحف والوحي ﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾ وهم بطون بنى إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل - هو يعقوب - الاثنى عشر ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَى﴾ يعنى: بذلك التوراة والإنجيل ﴿وَالنَّبِيِّنَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهذا يعم جميع الأنبياء جملة ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ يعنى: بل نؤمن بجميعهم ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾: فالؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل، وبكل كتاب أنزل، لا يكفرون بشيء من ذلك بل هم مُصَدِّقُونَ بما أنزل من عند الله، وبكل نبي بعثه الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ أى: من سلك طريقاً سوى ما شرَّعه الله فلن يقبل منه ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ كما قال النبي ﷺ فى الحديث الصحيح: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرًا فَهُوَ رَدٌّ» (١). وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «تَجِيءُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتَجِيءُ الصَّلَاةُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصَّلَاةُ. فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَىٰ خَيْرٍ. وَتَجِيءُ الصَّدَقَةُ فَتَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا الصَّدَقَةُ. فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَىٰ خَيْرٍ. ثُمَّ يَجِيءُ الصِّيَامُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَنَا الصِّيَامُ. فَيَقُولُ: إِنَّكَ عَلَىٰ خَيْرٍ. ثُمَّ تَجِيءُ الْأَعْمَالُ، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّكَ عَلَىٰ خَيْرٍ، ثُمَّ يَجِيءُ الْإِسْلَامُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنْتَ السَّلَامُ وَأَنَا الْإِسْلَامُ. فَيَقُولُ اللَّهُ: إِنَّكَ عَلَىٰ خَيْرٍ، بِكَ الْيَوْمَ أَخَذُ بِكَ اعْطَى، قَالَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾». تفرد به أحمد (٢).

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٨٦﴾ أَوْلَيْكَ جَزَاؤُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا لَا يَخْفَىٰ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾

(١) مضى فى ص ٣٦٧ من هذا الجزء ، من حديث عائشة .

(٢) المسند (٨٧٢٧) وهو فى الزوائد (١٠/٣٤٥) ، وزاد نسبه لأبى يعلى والطبرانى فى الأوسط . وقال: «وفيه عباد ابن راشد، وثقه أبو حاتم وغيره، وضعفه جماعة، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح». وقد اعلمه عبد الله ابن الإمام أحمد عقب روايته فى المسند، فقال: «عباد بن راشد ثقة، ولكن الحسن لم يسمع من أبى هريرة». وقد بينت صحة هذا الحديث، ورددت على تعليل عبد الله فى شرح حديث المسند (٧١٣٨) (١٢/١١٣، ١١٤).

روى ابن جرير عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك، ثم ندم، فأرسل إلى قومه: أن سلّوا لى رسول الله ﷺ: هل لى من توبة؟ قال: فنزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فأرسل إليه قومه فأسلم. وهكذا رواه النسائى، وابن حبان، والحاكم، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (١).

فقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَاهَدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أى: قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول، ووضّح لهم الأمر، ثم ارتدوا إلى ظلّمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلبّسوا به من العماية؟! ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. ثم قال: ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهمُ أَنْ عَلَيهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أى: يلعنهم الله ويلعنهم خلقه ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: فى اللعنة ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أى: لا يُتْرَك عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ سَاعَةً وَاحِدَةً.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهذا من لطفه وبره ورافته ورحمته وعائده على خلقه: أن من تاب إليه تاب عليه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ نُقَبِّلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفْرًا فَلَنْ يُفَكَّرَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أَوْتَدْتى بِدِهِمُ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى متوعداً ومتهدداً لمن كفر بعد إيمانه ثم ازداد كفراً، أى: استمر عليه إلى الممات، ومخبراً بأنهم لن تقبل لهم توبة عند الممات، كما قال: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفْرًا أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨]. ولهذا قال هاهنا: ﴿لَنْ نُقَبِّلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ أى: الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغى. روى أبو بكر البزار عن ابن عباس؛ أن قوماً أسلموا ثم ارتدوا، ثم أسلموا ثم ارتدوا، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ نُقَبِّلَ تَوْبَتَهُمْ﴾. وإسناده جيد.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفْرًا فَلَنْ يُقَبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أَوْتَدْتى بِهِ﴾ أى: من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبداً، ولو كان قد أنفق ملىء الأرض ذهباً فيما يراه قربة، كما سئل النبى ﷺ عن عبد الله بن جدعان - وكان يُقرى الضيف، ويقف العانى، ويُطعم الطعام -: هل ينفعه ذلك؟ فقال: ﴿لا، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ: رَبِّ اغْفِرْ لى خَطِيئَتى يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٢).

(١) الطبرى (٧٣٦٠) والحاكم (١٤٢/٢) ووافقه الذهبى على تصحيحه. ورواه أحمد أيضاً فى المسند (٢٢١٨) وإسناده صحيح.

(٢) رواه أحمد فى المسند (٩٣/٦ حلى) من حديث عائشة، وكذلك رواه مسلم (٧٨/١) ورواه أيضاً من حديثها (١٢٠/٦) بإسناد آخر صحيح.

وكذلك لو افتدى بملء الأرض أيضاً ذهباً ما قبل منه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقال: ﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلاَلٌ﴾ [إبراهيم: ٣١]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تَقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦]؛ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ فعطف ﴿وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ على الأول، فدل على أنه غيره، وما ذكرناه أحسن من أن يقال: إن الواو زائدة، والله أعلم. ويقتضى ذلك ألا يتقضى ذلك إلا يتقذه من عذاب الله شيء، ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهباً، ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهباً، بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهولها ووعورها وبرها وبحرها. وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، أَكُنْتَ مُفْتَدِياً بِهِ؟» قَالَ: «فَيَقُولُ: نَعَمْ.» قَالَ: «فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ أَبِيكَ أَدَمَ الْأَشْرِكِ بِي شَيْئاً، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي.» وأخرجه البخاري، ومسلم (١).

ولهذا قال: ﴿أَوَلَيْكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أي: وما لهم من أحد يُنْقِذُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، ولا يجيرهم من اليم عقابه.

﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ نُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْنَا وَمَا نُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ ﴿٩٢﴾

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالا، وكان أحب أمواله إليه بئرحاء - وكانت مستقبلية المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب - قال أنس: فلما نزلت: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ نُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْنَا﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ نُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْنَا﴾ وإن أحب أموالي إلى بئرحاء، وإنها صدقة لله، أرجو برها وذخرها عند الله تعالى، فضعتها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال النبي ﷺ: «بِئْرٍ بَيْحٍ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ، وَأَنَا أَرَىٰ أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ.» فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبنى عمه. أخرجه (٢). وفي الصحيحين أن عمر قال: يارسول الله، لم أصب مالا قط هو أنفسي عندي من سهمي الذي هو بخير، فما تأمرني به؟ قال: «حَبَسِ الْأَصْلَ، وَسَبِّلِ الثَّمَرَ» (٣).

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاَلًا لِيُنْفِقُ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ أَقْرَبَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

الجزء
٤

(١) المسند (١٢٣١٦).

(٢) المسند (١٢٤٦٥) من طريق مالك. وهو في الموطأ (٩٩٥، ٩٩٦) ورواه الطبري مختصراً (٧٣٩٤، ٧٣٩٥).

وفصلنا تخريجه هناك.

(٣) انظر: المسند (٥٩٤٧، ٦٤٦٠) من حديث ابن عمر.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقالوا: حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي؟ [فذكر الحديث ، وفيه أنهم قالوا] : أخبرنا أى الطعام حرم إسرائيل على نفسه؟ [وأن رسول الله ﷺ قال لهم] : « أنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى: هل تعلمون أن إسرائيل مريض مريضاً شديداً وطال سقمه، فندرت الله نذراً ، لكن شفاه الله من سقمه ليحرم من أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه، وكان أحب الطعام إليه لحمان الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها؟ » فقالوا: اللهم نعم. قال: «اللهم اشهد عليهم» (١).

وقوله: «من قبل أن تنزل التوراة» أى: حرم ذلك على نفسه من قبل أن تنزل التوراة. قلت: ولهذا السياق بعد ما تقدم مناسبتان:

إحداهما: أن إسرائيل، عليه السلام، حرم أحب الأشياء إليه وتركها لله، وكان هذا سائغاً فى شريعتهم ، فله مناسبة بعد قوله: «لَنْ تَأَلَوْا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ». فهذا هو المشروع عندنا وهو الإنفاق فى طاعة الله مما يحبه العبد ويشتيه، كما قال: «وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ» [البقرة: ١٧٧]. وقال تعالى: «وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ» [الإنسان: ٨].

المناسبة الثانية: لما تقدم السياق فى الرد على النصارى، واعتقادهم الباطل فى المسيح وتبين زيف ما ذهبوا إليه. وظهور الحق واليقين فى أمر عيسى وأمه، وكيف خلقه الله بقدرته ومشيته، وبعثه إلى بنى إسرائيل يدعو إلى عبادة ربه تعالى - شرع فى الرد على اليهود، فبحهم الله، وبيان أن النسخ الذى أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع، فإن الله، عز وجل، قد نص فى كتابهم التوراة: أن نوحا، عليه السلام، لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحمان الإبل وألبانها، فاتبعه بنوه فى ذلك، وجاءت التوراة بتحريم ذلك، وأشياء آخر زيادة على ذلك. وكان الله، عز وجل، قد أذن لأدم فى تزويج بناته من بنيه، وقد حرم ذلك بعد ذلك. وكان التسرّى على الزوجة مباحا فى شريعة إبراهيم عليه السلام، وقد فعله الخليل فى هاجر لما تسرّى بها على سارة، وقد حرم مثل هذا فى التوراة عليهم. وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغاً، وقد فعله يعقوب، عليه السلام، جمع بين الأختين، ثم حرم ذلك عليهم فى التوراة. وهذا كله منصوص عليه فى التوراة عندهم، فهذا هو النسخ بعينه، فكذلك فليكن ما شرعه الله للمسيح، عليه السلام، فى إحلاله بعض ما حرم فى التوراة، فما بالهم لم يتبعوه؟! بل كذبوه وخالفوه!! وكذلك ما بعث الله به محمداً ﷺ من الدين القويم، والصرط المستقيم، وملة أبيه إبراهيم فما بالهم لا يؤمنون؟! ولهذا قال تعالى: «كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ» أى: كان حلالاً لهم جميع الأطعمة

(١) ساق الحافظ ابن كثير - هنا - الحديث (٢٥١٤) من المسند ، بطوله ، ثم ذكره برواية أخرى من المسند (٢٤٨٣) ، وذكر أن هذا الأخير رواه الترمذى والنسائى بنحوه . وقد اقتصرنا على موضع الشاهد المناسب للآية من أولهما؛ لأن الحديث مضى مطولا عند تفسير الآية : ٩٧ من سورة البقرة من رواية الطبرى . وأشرنا هناك إلى هذا الموضع .

قبل نزول التوراة إلا ما حرّمه إسرائيل، ثم قال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّورَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ فإنها ناطقة بما قلناه ﴿فَمَنْ أَقْرَأَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أى: فمن كذّب على الله وادّعى أنه شرع لهم السبت والتمسك بالتوراة دائماً، وأنه لم يبعث نبيا آخر يدعو إلى الله بالبراهين والحجج بعد هذا الذي بيّناه من وقوع النسخ وظهور ما ذكرنا - ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أى: قل يا محمد: صدق فيما أخبر به وفيما شرعه فى القرآن ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أى: اتبعوا ملة إبراهيم التى شرعها الله فى القرآن على لسان محمد ﷺ، فإنه الحق الذى لاشك فيه ولا مرية، وهى الطريقة التى لم يأت نبي بأكمل منها ولا أبين ولا أوضح ولا أتم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الانعام: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا قَامَ إِبْرَاهِيمُ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَنِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

يُخبر تعالى أن أول بيت وُضع للناس، أى: لعموم الناس، لعبادتهم ونُسكهم، يَطُوفون به ويُصلُّون إليه ويعتكفون عنده ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ يعنى: الكعبة التى بناها إبراهيم الخليل، الذى يزعم كل من طائفتى النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجه، ولا يحجُّون إلى البيت الذى بناه عن أمر الله له فى ذلك ونادى الناس إلى حجه. ولهذا قال: ﴿مُبَارَكًا﴾ أى وُضع مباركا ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾.

وقد روى الإمام أحمد عن أبى ذر، قال: قلت: يا رسول الله، أى مسجد وُضع أول؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أى؟ قال: «المسجد الأقصى». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة». قلت: ثم أى؟ قال: «ثم حيث أدركت الصلاة فصل، فكلها مسجد». وأخرجه البخارى، ومسلم (١). وروى ابن حاتم عن على فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ قال: كانت البيوت قبله، ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله (٢). وعن خالد بن عرعره قال: قام رجل إلى على فقال: ألا تُحدثنى عن البيت: أهو أول بيت وُضع فى

(١) المسند (٥ / ١٥٠ حلى) والبخارى (٦ / ٢٩٠ - ٢٩٢ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ فتح) ومسلم (١ / ١٤٦) وروى الطبرى (٧٤٣٤) قطعة من أوله .

(٢) إسناد ابن أبى حاتم فيه «مجالد بن سعيد» . وهو حسن الحديث . ولكن الحافظ ابن حجر ذكر هذا الأثر عن على ، فى الفتح (٦ / ٢٩٠) وقال : «أخرجه إسحاق بن راهويه وابن أبى حاتم وغيرهما بإسناد صحيح» . فعمل له إسنادا آخر . أو لعل الحافظ ذهب إلى تصحيح رواية مجالد .

الأرض؟ قال: لا، ولكنه أول بيت وضع فيه البركة، مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً (١). وزعم السُّدِّيُّ أنه أولُ بيت وضع على وجه الأرض مطلقاً! والصحيحُ قولُ عليّ .

وقوله تعالى: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ بَكَّةُ: من أسماء مكة على المشهور، قيل: سُمِّيت بذلك لأنها تَبَكَّ أعناق الظلمة والجبابرة، بمعنى: يكون بها ويخضعون عندها. وقيل: لأن الناس يَتَبَاكُونَ فيها، أي: يزدحمون. وعن ابن عباس قال: مَكَّةُ من الفجِّ إلى التنعيم، وبكَّةُ من البيت إلى البطحاء. وقال إبراهيم: بكَّةُ: البيت والمسجد. وكذا قال الزهري. وقال عكرمة: البيت وما حوله بكَّة، وما وراء ذلك مكة. وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة [منها]: مكة، وبكة، والبيت العتيق، والبيت الحرام، والبلد الأمين، وأم القرى، والقادس؛ لأنها تطهر من الذنوب، والمقدسة، والبلدة، والكعبة.

وقوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أي: دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم، وأن الله تعالى عَظَّمَهُ وشرفه. ثم قال تعالى: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ يعني: الذي لَمَّا ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران، حيث كان يقف عليه ويناوله ولده إسماعيل، وقد كان ملصقاً بجدار البيت، حتى أخره عُمَرُ بن الخطاب، في إمارته إلى ناحية الشرق، بحيث يتمكن الطَّوْفُ، ولا يُشَوِّشُونَ على المصلين عنده بعد الطواف؛ لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقد قدمنا الأحاديث في ذلك، فأغنى عن إعادتها هاهنا، والله الحمد والمنة. وقال ابن عباس في قوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: فمنهنَّ مقام إبراهيم والمشاعر. وقال مجاهد: أثر قدميه في المقام آية بيّنة. وكذا روى عن عُمَرُ بن عبد العزيز، والحسن، وقتادة، وغيرهم.

وقوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ يعني: حَرَمُ مكة إذا دخله الخائف يأمنُ من كل سوء، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية، كما قال الحسن البصري وغيره: كان الرجل يَقتُلُ فيضَعُ في عنقه صوفةً ويدخل الحرم فيلقاه ابنُ المقتول فلا يهيجُه حتى يخرج. وقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣، ٤] وحتى إنه من جُملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها وقَلْع حَشِيشِهَا، كما ثبتت الأحاديث والآثار في ذلك عن جماعة من الصحابة مرفوعاً وموقوفاً: ففي الصحيحين، واللفظ لمسلم، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «لأهجرة ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»، وقال يوم فتح مكة: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمُ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا فِي سَاعَةٍ مِنْ نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ، وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهُ، وَلَا يَلْتَقَطُ لُقَطَتَهُ إِلَّا مِنْ عَرَفَها،

(١) إسناده صحيح، وهو جزء من خير مطول، رواه الطبري مطولاً ومختصراً (٢٠٥٨ - ٢٠٦٠، ٧٤٢٢، ٧٤٢٣). وقد ذكره الحافظ ابن كثير مطولاً، وحذفناه وأشرنا إليه فيما مضى عند تفسير الآيات (١٢٥ - ١٢٨) من سورة البقرة.

ولا يُخْتَلَى خَلَاها ، فقال العباس : يا رسول الله ، إلا الإذخر ، فإنه لقينهم ولبيوتهم ، فقال : «إلا الإذخر» (١) . ولهما عن أبي هريرة ، مثله أو نحوه . ولهما واللفظ لمسلم أيضاً عن أبي شريح العدوي أنه قال لعمر بن سعيد ، وهو يبعث البعوث إلى مكة : ائذن لي أيها الأمير أن أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح ، سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به ، إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال : «إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللهُ وَلَمْ يَحْرَمَهَا النَّاسُ ، فَلَا يَحِلُّ لِمَرِيٍّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا ، وَلَا يَعْصِدَ بِهَا شَجْرَةً ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيهَا فَقُولُوا لَهُ : إِنَّ اللَّهَ أَذَنٌ لِنَبِيِّهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ ، وَإِنَّمَا أَذَنٌ لِي فِيهَا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ» فقيل لأبي شريح : ما قال لك عمرو؟ قال : أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح ، إن الحرم لا يعيد عاصيا ولا فارا يدم ولا فارا بخربة (٢) . وعن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لَا يَحِلُّ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَحْمَلَ السَّلَاحَ بِمَكَّةَ» رواه مسلم . وعن عبد الله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ، وهو واقف بالحزورة في سوق مكة : «وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَيَّ اللهُ ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ» . رواه الإمام أحمد ، وهذا لفظه ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه . وقال الترمذي : حسن صحيح (٣) ، وكذا صحح من حديث ابن عباس نحوه . وروى أحمد عن أبي هريرة ، نحوه .

وقوله : «وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَيُّ الْقَيُّومِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» هذه آية وجوب الحج عند الجمهور . وقيل : بلى هي قوله : «وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ» [البقرة : ١٩٦] والأول أظهر . وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده ، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعاً ضرورياً ، وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : «أَيُّهَا النَّاسُ ، قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ فَحُجُّوا» . فقال رجل : أكل عام يا رسول الله؟ فسكت ، حتى قالها ثلاثاً . فقال رسول الله ﷺ : «لَوْ قُلْتُ : نَعَمْ ، لَوَجِبَتْ ، وَكَمَا اسْتَطَعْتُمْ» . ثم قال : «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ، فَإِنَّمَا هَلَكُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ

(١) مسلم (١/ ٣٨٣) وكذلك رواه البخاري (٦/ ٢٠٢ ، ٢٠٣ فتح) . وقد مضى منه قوله : «إن هذا البلد حرمه الله ...» إلخ عند تفسير الآية : ١٢٥ .

(٢) مسلم (١/ ٣٨٣ ، ٣٨٤) ورواه أحمد في المسند (١٦٤٤٤ ، ١٦٤٤٨) مطولاً ومختصراً . ورواه البخاري (١٧٦/ ١٧٧ ، ١٧٧/ ٤ - ٣٩ فتح) . وروى الطبري بعضه (٢٠٢٧) . وقوله : «ولا فاراً بخربة» : بالخاء المعجمة والراء المفتوحين . قال ابن الأثير : «الخرية أصلها العيب ، والمراد بها هنا : الذي يفر بشيء يريد أن يفرده ويغلب عليه ، مما لا تميزه الشريعة» .

(٣) المسند (٤/ ٣٠٥ حلي) . وسيذكره الحفاظ ابن كثير مرة أخرى ، عند تفسير الآية : ٧ من سورة الشورى . و«الحزورة» ضبطها ياقوت وابن الأثير - بفتح الحاء المهملة وسكون الزاي ثم واو فراء مفتوحين . قال ياقوت : «قال الدارقطني : كذا صوابه ، والمحدثون يفتحون الزاي ويشدون الواو ، وهو تصحيف» . وقال ابن الأثير : «قال الشافعي : الناس يشدون «الحزورة» و«الحديبية» - وهما مخففتان» . وقال ياقوت : «كانت الحزورة سوق مكة ، وقد دخلت في المسجد لما زيد فيه» .

سُؤَالِهِمْ وَأَخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَإِذَا أَمَرْتُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ». ورواه مسلم نحوه (١). وعن ابن عباس قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ». فقام الأقرع بن حابس فقال: يا رسول الله، أفي كل عام؟ قال: «لَوْ قُلْتُمْهَا، لَوَجِبَتْ، وَلَوْ وَجِبَتْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهَا، وَلَكِنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْمَلُوا بِهَا؛ الْحَجُّ مَرَّةً، فَمَنْ زَادَ فَهُوَ تَطَوُّعٌ». رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم (٢) وروى من حديث أسامة زيد.

وفى الصحيحين عن جابر، عن سراقه بن مالك قال: يا رسول الله، مُتَعَتْنَا هَذِهِ لِعَامِنَا هَذَا أَمْ لِلْأَبَدِ؟ قال: «لَا، بَلْ لِلْأَبَدِ». وفى رواية: «بَلْ لِلْأَبَدِ أَبَدٌ» (٣). وفى مسند الإمام أحمد، وسنن أبي داود، من حديث أبي واقد الليثي، أن رسول الله ﷺ قال لئنسانه فى حجته: «هَذِهِ ثُمَّ ظُهُورُ الْحَصْرِ» (٤) يعنى: ثم الزمّنَ ظُهُورَ الْحَصْرِ، ولا تخرجن من البيوت (٥).

وأما الاستطاعة فأقسام: تارة يكون الشخص مستطيعا بنفسه، وتارة بغيره، كما هو مقرر فى كتب الأحكام. وروى الحاكم عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله عز وجل: «مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» فقيل: ما السبيل؟ قال: «الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ». ثم قال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه (٦). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعَجَّلُوا إِلَى الْحَجِّ - يعنى الفريضة - فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَدْرِي مَا يَعْزُضُ لَهُ». وروى عنه أيضا مرفوعا «مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ». ورواه أبو داود (٧).

وقوله: «وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: أى ومن جحد فريضة الحج فقد كفر، والله غنى عنه. روى أبو بكر الإسماعيلي الحافظ عن عمر بن الخطاب قال: من أطاق الحج فلم يحج، فسواء عليه مات يهوديا أو نصرانيا. وإسناده صحيح إلى

(١) المسند (١٠٦١٥) وصحيح مسلم (١/٣٧٩).

(٢) المسند مرارا، أولها: (٢٣٠٤) وخرجناه هناك. وهو عند الحاكم (٢/٢٩٣) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٣) هو جزء من حديث لجابر بن عبد الله، فيه: «أن سراقه بن مالك...». فى البخارى (٤/٤٨٤، ٤٨٥ فتح) . ومسلم (١/٣٤٤، ٣٤٥).

(٤) المسند (٥/٢١٨، ٢١٩ حلى). وأبو داود (١٧٢٢). وأسانيده صحاح. ورواه أحمد أيضا، بإسناد صحيح، من حديث أبي هريرة (٩٧٦٤).

(٥) فإذا كان هذا فى النهى عن الحج بعد حجة الفريضة، على أن الحج من أعلى القربات عند الله - فما بالك بما يصنع النساء المتسبات للإسلام فى هذا العصر، من التنقل فى البلاد، حتى ليخرجن سافرات عاصيات ماجنات إلى بلاد الكفر، وهدهن دون محرم، أو مع زوج أو محرم كأنه لا وجود له! فأين الرجال! أين الرجال!؟

(٦) رواه الحاكم (١/٤٤١، ٤٤٢) بإسنادين، صحح أولهما على شرط الشيخين، وثانيهما على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٧) الأولى فى المسند (٢٨٦٩) وفى إسناده ضعف. والثانى فيه: (١٩٧٣) بإسناد صحيح. وانظر المسند أيضا (١٨٣٣)، (١٨٣٤).

عمر^(١) وروى سعيد بن منصور فى سنته عن الحسن البصرى قال: قال عمر بن الخطاب: لقد هممت أن أبعث رجالا إلى هذه الأمصار فينظروا كل من كان له جِدَّةٌ فلم يحج، فيضربوا عليهم الجزية، ما هم بمسلمين، ما هم بمسلمين.

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٩٨﴾ قُلْ
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبِعُونَهَا ءَوْجًا وَانْتَمَّ شَهَادَةٌ وَمَا
اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

هذا تعنيف من الله تعالى لكفرة أهل الكتاب، على عنادهم للحق، وكفرهم بآيات الله، وصدّهم عن سبيله من أرادهم من أهل الإيمان بجهدهم وطاقاتهم، مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله، بما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين، والسادة المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وما بشرُوا به ونوّهوا، من ذكّر النبي الأُمى الهاشمى العربى المكّى، سيد ولد آدم، وخاتم الأنبياء، ورسول رب الأرض والسماء. وقد توعدهم الله تعالى على ذلك بأنه شهيد على صنيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء، ومقابلتهم الرسول المبشر بالتكذيب والحدود والعناد، وأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون، أى: وسيجزئهم على ذلك يوم لا ينفعهم مال ولا بنون.

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ
إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تَتْلُوا ءَايَاتِ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن
يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَد هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب، الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله، وما منحهم به من إرسال رسوله، كما قال تعالى: ﴿وَدُ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٠٩] وهكذا قال هاهنا: ﴿إِن تُطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ ثم قال: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تَتْلُوا عَلَيْنَا آيَاتِ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ يعنى: أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه؛ فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلا ونهاراً، وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨]. وكما جاء فى الحديث: أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «أى المؤمنين أعجب إليكم إيماناً؟» قالوا: الملائكة. قال: «وكيف لا يؤمنون [وهم عند ربهم؟!]» وذكروا الأنبياء، قال: «وكيف لا يؤمنون [والوحي ينزل

(١) وهذا - وإن كان موقوفاً لفظاً - فإنه من المرفوع حكماً، كما هو ظاهر؛ لأن عمر لا يجزم بمثل هذا من قبل نفسه. وذلك الظن به، إن شاء الله.

عَلَيْهِمْ؟» قالوا: فنحن. قال: «وَكَيْفَ لَا تُؤْمِنُونَ وَأَنَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ؟!». قالوا: فأى الناس أعجب إيمانًا؟ قال: « قَوْمٌ يَجِيئُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ يَجِدُونَ صُحُفًا يُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا ». وقد ذكرت سند هذا الحديث والكلام عليه فى أول شرح البخارى ، والله الحمد (١).

ثم قال تعالى: «وَمَنْ يَتَّصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هَدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» أى: ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة فى الهداية، والعمدة فى مباحة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد.

﴿ يَتَّيِبُوا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا اٰتَقُوا اللّٰهَ حَقَّ تَقَاتِهٖ وَلَا تَمُوْنۡ اِلَّا وَاَنْتُمْ مُسْلِمُوْنَ ﴿١٠٢﴾
وَاَعْتَصِمُوْا بِحَبْلِ اللّٰهِ جَمِيْعًا وَلَا تَفَرَّقُوْا وَاذْكُرُوْا اَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَيْكُمْ اِذْ كُنْتُمْ اَعْدَاءً فَاَلْفَ بَيْنٍ قُلُوْبِكُمْ فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهٖ اِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلٰى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَاَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذٰلِكَ يَبِيْنُ اللّٰهُ لَكُمْ ءَايٰتِهٖ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُوْنَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

روى ابن أبى حاتم عن عبد الله - هو ابن مسعود - «اتقوا الله حق تقاته» قال: أن يطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر. وهذا إسناد صحيح موقوف. وكذا رواه الحاكم وقد رواه ابن مردويه عن ابن مسعود، بنحوه مرفوعاً. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. كذا قال. والأظهر أنه موقوف، والله أعلم (٢).

وقد ذهب سعيد بن جببر وقتادة، ومقاتل وغيرهم إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» [التغابن: ١٦]. وقال ابن عباس فى: لم تُنسخ، ولكن «حَقُّ تَقَاتِهِ» أن يجاهدوا فى سبيله حق جهاده، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وأبائهم وأبنائهم.

(١) هذا الحديث ذكره الحافظ ابن كثير، فيما مضى من التفسير (٧٤١، ٧٥) بإسناده من جزء الحسن بن عرقه، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وأعله بأن فى إسناده «المغيرة بن قيس البصرى»، وأن أباه حاتم قال فيه: «منكر الحديث». ثم أشار هناك إلى رواية للحاكم عن عمر، بمثله أو نحوه. وأعله بأن فى إسناده «محمد بن حميد، وفيه ضعف». وذكره الحافظ ابن كثير أيضاً - دون إسناد أو تخريج - فى اختصار علوم الحديث (ص ١٤٣ بشرحنا: الباعث الحثيث) محتجاً به على صحة الرواية. وخرجه السيوطى فى تدريب الراوى (ص ١٤٩، ١٥٠)، ونقلنا تخريجه فى (الباعث الحثيث ص ١٤٥). ومجموع طرقه يدل على صحته. والمغيرة بن قيس البصرى: غلا فيه أبو حاتم. والحق أنه ثقة، فقد ترجمه البخارى فى الكبير (٤ / ٣٢٦/١) فلم يذكر فيه جرحاً، وذكر ابن حبان فى الثقات، كما نقل الحافظ ابن حجر فى لسان الميزان (٧٩/٦). ولم نذكر حديثه هذا هناك (٩٨/١)، اكتفاءً بحديث فى معناه صحيح، من حديث أبى جمعة الأنصارى. والزيادة التى ردها فى لفظ الحديث هنا - هى من اختصار علوم الحديث. وهى ثابتة بنحوها فى الرواية السابقة. وهى ضرورية، لا يستقيم سياق الكلام بدونها. وقد سقطت فى المخطوطة والمطبوعة هنا.

(٢) هكذا نسب الحافظ ابن كثير الرواية المرفوعة للحاكم، ولكن الرواية التى يشير إليها هى فى المستدرک (٢ / ٢٩٤) موقوفة غير مرفوعة، وكذلك ثبت فى مخطوطة مختصرة للذهبي، إلا أن يكون الحاكم رواه فى موضع آخر مرفوعاً، وما أظنه.

وقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أى: حافظوا على الإسلام فى حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عاداته بكرمه أنه من عاش على شىء مات عليه، ومن مات على شىء بُعث عليه، فعياذاً بالله من خلاف ذلك. وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وَكَوْنُ أَنْ قَطْرَةَ مِنَ الزُّقُومِ قَطِرَتْ لِأَمْرَتِ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ عَيْشَتَهُمْ فَكَيْفَ بِمَنْ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إِلَّا الزُّقُومُ. وهكذا رواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وابن حبان فى صحيحه، والحاكم وقال الترمذى: حسن صحيح. وقال الحاكم: على شرط الشيخين، ولم يخرجاه (١). وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْحَجَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَدْرِكْهُ مَنِيَّتُهُ، وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَيَأْتِي إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ﴾ (٢). وروى الإمام أحمد عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: ﴿لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ﴾. ورواه مسلم.

وقوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ قيل: ﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ أى: بعهد الله، كما قال فى الآية بعدها: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَيْنَ مَا ثَقَّفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢] أى بعهد وذمة. وقيل: ﴿بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ﴾ يعنى: القرآن. وقد ورد فى ذلك حديث خاص بهذا المعنى، فروى الطبرى عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿كِتَابُ اللَّهِ، هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَمْدُودُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ (٣).

وقوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾: أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة. وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهى عن التفرق والأمر بالاجتماع والاتلاف، كما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا، يَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُتَاصَحُوا مِنْ وَلاَةِ اللَّهِ أَمْرَكُمْ؛ وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ. وقد ضمنت لهم العصمة، عند اتفاقهم، من الخطأ، كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة أيضاً، وخيف عليهم الأفتراق، والاختلاف، وقد وقع ذلك فى هذه الأمة فافترقوا على ثلاث وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية إلى الجنة ومسلمة من عذاب النار، وهم الذين على ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه.

(١) المسند (٢٧٣٥) والحاكم (٢/٢٩٤) ووافقه الذهبى. ووقع متن الحديث فى المطبوعة مخالفاً للمخطوطة ولراوية المسند، وأثبتناه على الصواب، وسيذكره الحافظ ابن كثير مرة أخرى عند تفسير الآية (٦٦) من سورة الصافات.
(٢) المسند (٦٨٠٧). وهو مختصر من حديث مطول بالإسناد نفسه (٦٧٩٣) وبإسناد آخر (٦٥٠٣) ورواه مسلم مطولاً (٨٧/٢، ٨٨) وسيذكره ابن كثير عند تفسير الآية (١٨٥) من هذه السورة، من رواية وكيع فى تفسيره، ثم أشار لرواية المسند.

(٣) الطبرى (٧٥٧٢). وإسناده ضعيف، كما فصلنا هناك، ولكن المعنى صحيح ثابت. فروى ابن حبان فى صحيحه (١٢٣) بتحقيقنا، عن زيد بن أرقم - مرفوعاً: «إنى تارك فيكم كتاب الله، هو حبل الله، من اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على الضلالة». وقد رواه مسلم مطولاً (٢/٢٣٨).

وقوله: ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِيَعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج، فإنه كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة وضغائن، وإحن وذحول طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم - صاروا إخوانا متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ. وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٢] وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم، فأبعدهم الله منها: أن هداهم للإيمان. وقد امتن عليهم بذلك رسول الله ﷺ يوم قَسَمَ غنائم حنين، فَعَتَبَ من عتب منهم لما فضل عليهم في القسمة بما أراه الله، فخطبهم فقال: «يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي؟ وَعَالَةً فَاغْنَاكُمُ اللَّهُ بِي؟» فكلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله آمن.

﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِهِ رَحْمَةٌ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩)

يقول تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ أى: منتصبة للقيام بأمر الله، فى الدعوة إلى الخير، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ قال الضحاك: هم خاصة الصحابة وخاصة الرواة، يعنى: المجاهدين والعلماء. والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أضعفُ الْإِيمَانِ». وفى رواية: «وَلَيْسَ رَأَى ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةَ خَرْدَلٍ» (١).

وروى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان، أن النبى ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَأْمُرَنَّ

(١) وهم الحفاظ ابن كثير هنا وهما شديدا . فحديث « من رأى منكم منكرا » إلخ - هو حديث أبى سعيد الخدرى، كما أثبتنا . ولكن الذى قاله ابن كثير هنا : « عن أبى هريرة » . وهو خطأ على اليقين . والحديث فى صحيح مسلم (٢٩/١) مطولا ، وكذلك رواه الإمام أحمد ، مطولا ومختصرا فى مسند أبى سعيد (١١٠٨٩) ، (١١٦٧) . ثم قوله : « وفى رواية : وليس وراء ذلك » إلخ - لم يكن رواية فى حديث أبى سعيد ، كما يوهم ظاهر كلامه . بل هو جزء من حديث مطول عن ابن مسعود ، رواه مسلم عقب حديث أبى سعيد . فليس لأبى هريرة رواية فى هذا ولا ذاك .

بِالْمَعْرُوفِ وَلَكِنَّهُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لِيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلَا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ». ورواه الترمذى، وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن. والأحاديث فى هذا الباب كثيرة. مع الآيات الكريمة كما سيأتى تفسيرها فى أماكنها.

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾: ينهى هذه الأمة أن تكون كالأمم الماضين فى تفرقهم واختلافهم، وتركهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع قيام الحجة عليهم . وروى الإمام أحمد عن أبى عامر عبد الله بن لُحَى قال: حججنا مع معاوية بن أبى سفيان، فلما قدمنا مكة قام حين صلى الظهر فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِينَ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثَلَاثِينَ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَمْتَرُقُ عَلَى ثَلَاثِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً - بِعَنِ الْأَهْوَاءِ - كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ، وَإِنَّهُ سَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءِ، كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ، لَا يَبْقَى مِنْهُ عَرَقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ». وَاللَّهُ - يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ - لَنْ لَمْ تَقُومُوا بِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيِّكُمْ ﷺ لَعَنَ لَكُمْ مِنْ النَّاسِ أُخْرَى إِلَّا يَقُومُ بِهِ». وهكذا رواه أبو داود، وقد روى هذا الحديث من طرق.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ يعنى: يوم القيامة، حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة، قاله ابن عباس.

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾: قال الحسن البصرى: وهم المنافقون: ﴿فَلذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وهذا الرصف يعنى كل كافر ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِحَبْلِ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ يعنى: الجنة، ماكثون فيها أبدا لا يبيغون عنها حولا. وقد روى الترمذى عن أبى غالب قال: رأى أبو أمامة رؤوسا منصوبة على درج مسجد دمشق، فقال أبو أمامة: كلاب النار، شر قتلى تحت أديم السماء، خير قتلى من قتلوه، ثم قرأ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ إلى آخر الآية. قلت لأبى أمامة: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: لو لم أسمعها إلا مرة أو مرتين أو ثلاثا أو أربعاً - حتى عدت سبعا - ما حدثتكموه. ثم قال: هذا حديث حسن: وقد رواه ابن ماجه، وأخرجه أحمد بنحوه .

ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ أى: هذه آيات الله وحججه وبياناته ﴿تَنْتَلُوها عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿بِالْحَقِّ﴾ أى: نكشف ما الأمر عليه فى الدنيا والآخرة ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ أى: ليس بظالم لهم بل هو الحكيم العدل الذى لا يجور؛ لأنه القادر على كل شىء، العالم بكل شىء، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحدا من خلقه؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: الجميع ملك له وعبيد له ﴿وَالِىَ اللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ أى: هو المتصرف فى الدنيا والآخرة، الحاكم فى الدنيا والآخرة.

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُصْرَفُونَ ﴿١١١﴾ ضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ أَيْنَ مَا تَفَقَّهُوا إِلَّا يَجْحَلِ مِنَ اللَّهِ وَجْهًا يَنْ النَّاسِ وَيَأْمُرُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم فقال: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾. روى البخارى عن أبى هريرة: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ قال: خير الناس للناس، تاتون بهم فى السلاسل فى أعناقهم حتى يدخلوا فى الإسلام (١). وهكذا قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وغيرهم: يعنى: خير الناس للناس. والمعنى: أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس؛ ولهذا قال: ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾.

وروى الإمام أحمد عن ذرة بنت أبى لهب، قالت: قام رجل إلى النبى ﷺ وهو على المنبر، فقال: يارسول الله، أى الناس خير؟ فقال: «خير الناس أقرؤهم وأتقاهم لله، وأمرهم بالمعروف، وأنهارهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم» (٢). وروى أحمد، والنسائى والحاكم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾، قال: هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة (٣).

والصحيح أن هذه الآية عامة فى جميع الأمة، كل قرن بحسبه، وخير قرونهم: الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ، ثم الذين يكونهم، ثم الذين يلونهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أى: خيارا ﴿ لِيَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾. وروى الإمام أحمد، والترمذى، وابن ماجه، والحاكم عن معاوية بن حيدة، قال: قال رسول الله ﷺ: « أنتم تُوفون سبعين أمة، أنتم خيرها، وأكرمها على الله عز وجل ». وهو حديث مشهور، وقد حسنه الترمذى (٤). ويروى من حديث معاذ بن جبل، وأبى سعيد، نحوه (٥).

(١) البخارى (١٦٩/٨ فتح) ، وهو موقوف لفظا ، ولكنه مرفوع حكما . وقد رواه - بنحوه - البخارى مرفوعا أيضا (١٠١ / ٦ فتح) ، وكذلك رواه أحمد فى المسند (٨٠٠٠) وابن حبان فى صحيحه (١٣٤) مرفوعا .
(٢) المسند (٤٣٢ / ٦ حلى) . وهو من رواية « زوج ذرة بنت أبى لهب » عنها . ولم يذكر اسمه ، ولكن عرف أنه « دحية بن خليفة الكلبي » كما يتبين من ترجمتها فى ابن سعد (٣٤ / ٨) والإصابة (٧٦ / ٨ ، ٧٧) وإسناد الحديث صحيح .

(٣) المسند (٢٤٦٣ ، ٢٩٢٨ ، ٢٩٨٩ ، ٣٣٣١) والحاكم (٢ / ٢٩٤) وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى ، ونسبه الحافظ فى الفتح (١٦٩ / ٨) لعبد الرزاق وأحمد والنسائى والحاكم « بإسناد جيد » .
(٤) مضى عند تفسير الآية : ٤٧ من سورة البقرة
(٥) حديث أبى سعيد ، ضمن حديث مطول فى المسند (١١٦٠٩) .

وإنما حازت هذه الأمة قَصَبَ السَّبْقِ إلى الخيرات بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أشرف خلق الله، وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع عظيم لم يُعْطِه نبيًّا قبله ولا رسولاً من الرسل . فالعمل على منهاجه وسبيله، يقوم القليلُ منه ما لا يقوم العملُ الكثيرُ من أعمال غيرهم مقامه، كما روى الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيَتْ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ». فقلنا: يا رسول الله، ما هو؟ قال: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُعْطِيَتْ مَفَاتِيحُ الْأَرْضِ، وَسُمِّيَتْ أَحْمَدَ، وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهْرًا، وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الْأُمَّمِ». تفرد به أحمد من هذا الوجه، وإسناده حسن^(١).

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: أكثرنا الحديث عند رسول الله ﷺ ذات ليلة، ثم غَدَوْنَا إِلَيْهِ فَقَالَ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأَنْبِيَاءُ اللَّيْلَةَ بِأَمَمَهَا، فَجَعَلَ النَّبِيُّ يَمُرُّ وَمَعَهُ الثَّلَاثَةُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الْعَصَابَةُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ النَّفْرُ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى مَرَّ عَلَيَّ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَعَهُ كَبْكَبَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَعْجَبُونِي، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَقِيلَ: هَذَا أَخُوكَ مُوسَى، مَعَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ» [قال]: «فَقُلْتُ: فَأَيْنَ أُمَّتِي؟ فَقِيلَ: انظُرْ عَن يَمِينِكَ. فَتَنَظَرْتُ فَإِذَا الظَّرَابُ قَدْ سُدَّ بِوُجُوهِ الرَّجَالِ ، [ثم قيل لي: انظُرْ عَن يَسَارِكَ. فَتَنَظَرْتُ، فَإِذَا الْأَفُقُ قَدْ سُدَّ بِوُجُوهِ الرَّجَالِ] فَقِيلَ لِي: أَرَضِيتَ؟ فَقُلْتُ: «رَضِيتُ يَا رَبِّ، [رَضِيتُ يَا رَبِّ]». قال: «فَقِيلَ لِي: إِنْ مَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ». فقال النبي ﷺ: «فَدَاكُمُ أَبِي وَأُمِّي، إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنَ السَّبْعِينَ أَلْفًا فَافْعَلُوا ، فَإِنْ قَصَرْتُمْ فَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الظَّرَابِ، فَإِنْ قَصَرْتُمْ فَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْأَفُقِ ، فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُمْ ثُمَّ أَنَا سَاءَ يَتَهَاوُسُونَ». فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله - يا رسول الله - أن يجعلني من السبعين ، فدعا له . فقام رجل آخر فقال: ادع الله - يا رسول الله - أن يجعلني منهم فقال: «قَدْ سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ». قال: ثم تحدثنا فقلنا: من ترون هؤلاء السبعين الألف؟ قوم ولدوا في الإسلام لم يشركوا بالله شيئا حتى ماتوا؟ فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَكْتُونُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَطْفِرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». وإسناده صحيح، تفرد به أحمد ولم يخرجوه^(٢). وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ وَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ». قال أبو هريرة: فقام عكاشة بن محصن الأسدي يرفع نمرَةً، عليه فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ». ثم قام رجل من الأنصار فقال: [يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم] فقال: «سَبَقَكَ بِهَا

(١) المسند (٧٦٣) . وحسنه أيضا الحافظ في الفتح (١٦٩/ ٨) . وعندى أن إسناده صحيح .

(٢) المسند (٢٨٠٦ - ٣٩٨٧ - ٣٩٨٩ ، ٤٠٠٠) ورواه الحاكم (٤ / ٥٧٧ ، ٥٧٨) وصححه ووافقه الذهبي . وهو في مجمع الزوائد (١٠ / ٤٠٥ ، ٤٠٦) وقال : « وأحد أسانيد أحمد والبيزار رجاله رجال الصحيح » . وأشار إليه الحافظ في الفتح (١١ / ٣٥٢) عند أحمد والبيزار « بسند صحيح » . وقد صححتنا لفظ الحديث هنا من رواية المسند والمخطوطة الأهرية . والزيادات من المسند . و« الككبجة » بضم الكافين وفتحهما : الجماعة المتضامة من الناس . و« الظراب » - بكسر الظاء المعجمة وتخفيف الراء : الجبال الصغار .

عكاشة^(١).

وروى مسلم عن حُصَيْن بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: أَيْكُمْ رَأَى الكوكب الذى انقضَّ البارحة؟ قلتُ: أنا. ثم قلتُ: أما إنى لم أكن فى صلاة، ولكنى لُدغْتُ. قال: فما صنعت؟ قلتُ: استرقيتُ. قال: فما حملك على ذلك؟ قلتُ: حديثُ حدثنا الشعبي. قال: وما حدثكم الشعبي؟ قلتُ: حدثنا عن بُرَيْدَةَ^(٢) بن الحُصَيْب الأسلمى أنه قال: لا رُقِيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَّةٍ. فقال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابنُ عباس عن النبي ﷺ قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رَفَعَ لِي سَوَادَ عَظِيمٍ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْأَفْقِ. فَظَنَرْتُ، [فَظَنَرْتُ] فَإِذَا سَوَادُ عَظِيمٍ، فَقِيلَ لِي: انظُرْ إِلَى الْأَفْقِ الْآخَرَ، فَإِذَا سَوَادُ عَظِيمٍ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَلَا عَذَابٍ. ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسَ فِي أَوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحَبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا الَّذِي تَخَوْضُونَ فِيهِ؟» فَخَبَّرُوهُ، فَقَالَ: «هُمْ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رِيهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». فَقَامَ عَكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: ادع الله أن يجعلني منهم قال: «أَنْتَ مِنْهُمْ». ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرَ فَقَالَ: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: «سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ». وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ^(٣). وَثَبِتَ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» فَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» فَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(٤). وَرَوَى عَبْدِ الرَّزَّاقِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «نَحْنُ الْآخَرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، يَبْدَأُهُمْ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وَأَوْتِيَاهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَهَدَانَا اللَّهُ لَمَّا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ، فَهَذَا الْيَوْمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ، النَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، غَدًا لِلْيَهُودِ، وَلِلنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مَرْفُوعًا بِنَحْوِهِ^(٥).

(١) المسند (٨٠٠٣) والبخارى (٢٣٤/١٠ ، ٣٥٨/١١ ، ٣٥٩ فتح) ومسلم (٧٨/١) .

(٢) فى المطبوع من «عمدة التفسير»: «بريدة» بيايين بينهما راء، ولا شك أنه خطأ من الطابع. (الباز) .

(٣) مسلم (٧٨/٢ ، ٧٩) . وزيادة [فنظرت] من صحيح مسلم . وفى المطبوعة هنا زيادة «ولا يكتون» ، وليست فى مسلم ولا فى المخطوطة، ولكنها ثابتة فى المسند ، والحديث فيه: (٢٤٤٨ ، ٢٤٤٩) . وأشرنا هناك لمواضعه فى البخارى .

(٤) هو مختصر من حديث فى صحيح مسلم (٧٩/١) ، وبنحوه رواه أحمد (٣٦٦١ ، ٤١٦٦ ، ٤٢٥١) والبخارى (٣٣٥/١١ ، ٣٣٦ ، ٤٦٠) .

(٥) هو فى تفسير عبد الرزاق (ص ٢٣ ، ٢٤) ورواه أحمد (٧٦٩٣) عن عبد الرزاق . وليس فيه: «نحن أول الناس دخولا الجنة» . وهو فى مسلم (٢٣٤/١) بأسانيد وألفاظ متقارب المعنى ، وكذلك رواه أحمد مرارا ، منها: (٧٣٠٨ ، ٧٣٩٣ ، ٧٣٩٥ ، ٧٦٩٢ ، ٨١٠٠) ومضى من رواية أخرى عن عبد الرزاق (ص ٨٣) . وقد ذكر الحافظ ابن كثير فى تفسير هذه الآية أحاديث كثيرة فى هذا المعنى، وفيها أثبتنا منها كفاية والحمد لله .

فهذه الأحاديث فى معنى قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم فى هذا المدح ، ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنِ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة : ٧٩] . ولهذا لما مدح الله تعالى هذه الأمة على هذه الصفات ، شرع فى ذم أهل الكتاب وتأنيبهم ، فقال : ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ أى : بما أنزل على محمد ﷺ ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أى : قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليك وما أنزل إليهم ، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان .

ثم قال تعالى مخبراً عباده المؤمنين ومبشراً لهم أن النصر والظفر لهم على أهل الكتاب الكفرة الملحدين ، فقال : ﴿ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أذى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأُدْبَارُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴾ . وهكذا وقع ، فإنهم يوم خيبر أذلهم الله وأرغم آتافهم ، وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة فى غير ما موطن ، وسلبوهم ملك الشام أبد الأبدين ودهر الداهرين ، ولا تزال عصاة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم كذلك ، ويحكم ، بشرع محمد ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام .

ثم قال تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيُّنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحِجْرٍ مِنَ اللَّهِ وَحِجْرٍ مِنَ النَّاسِ ﴾ أى : ألزمهم الله الذلة والصغار أينما كانوا فلا يأمنون ﴿ إِلَّا بِحِجْرٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى : بذمة من الله ، وهو عقد الذمة لهم وضرب الجزية عليهم ، والزامهم أحكام الملة ﴿ وَحِجْرٍ مِنَ النَّاسِ ﴾ أى : أمان منهم ولهم ، كما فى المهادن والمعاهد والأسير إذا آمنه واحد من المسلمين . وقال ابن عباس : أى : بعهد من الله وعهد من الناس ، وهكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وغيرهم .

وقوله : ﴿ وَيَأْتُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى : ألزموا فالتزموا بغضب من الله ، وهم يستحقونه ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ﴾ أى : ألزموها قدراً وشرعاً . ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ﴾ ، أى : إنما حملهم على ذلك الكبر والبغى والحسد ، فاعقبتهم ذلك الذلة والصغار والمسكنة أبداً ، متصلاً بذلة الآخرة ، ثم قال : ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ أى : إنما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله وقبضوا لذلك - أنهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله ، والغشيان لمعاصى الله ، والاعتداء فى شرع الله ، فعياًداً بالله من ذلك ، والله المستعان .

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَأَنَاءَ أَيْلٍ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ ﴿ ١١٧ ﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿ ١١٤ ﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿ ١١٥ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ

أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾
 مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرَثَ قَوْمٍ
 ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتَهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال: «أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم». قال: فنزلت هذه الآيات: «ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة» حتى بلغ: «والله عليهم بالمتقين» (١).

والمشهور عند كثير من المفسرين - كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره، ورواه العوفي عن ابن عباس: أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وأسد ابن عبيد وثعلبة بن سعية وغيرهم (٢)، أى: لا يستوى من تقدم ذكرهم بالدم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا، ولهذا قال تعالى: «ليسوا سواء» أى: ليسوا كلهم على حد سواء، بل منهم المؤمن ومنهم المجرم، ولهذا قال تعالى: «من أهل الكتاب أمة قائمة» أى: قائمة بأمر الله، مطيعة لشرع الله متبعة نبي الله، «قائمة» بمعنى مستقيمة «يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون» أى: يقومون الليل، ويكثرون التهجد، ويتلون القرآن فى صلواتهم «يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأرثك من الصالحين». وهؤلاء هم المذكورون فى آخر السورة: «وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليك وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب» [الآية ١٩٩] وهكذا قال

(١) المسند (٣٧٦٠) وإسناده صحيح. ورواه أيضاً الطبرى (٧٦٦١، ٧٦٦٢) وفى الزوائد (٣١٢/١) أنه رواه أيضاً أبو يعلى والبخارى والطبرانى فى الكبير.

(٢) «سعية»: بفتح السين وسكون العين المهملتين بعدهما ياء تحتية ساكنة. ووقع فى المخطوطة والمطبوعة «شعبة»! وهو تصحيف، كما حققت ضبطه فى الأصمعيات، (ص ٨٠، ٨١).

و«سعية» - هذا - والد ثعلبة: هو «سعية بن الغريض بن عادي، شاعر يهودى لم يدرك الإسلام وهو أخو السموأل بن عادي، الشاعر المشهور، وله ولد آخر أسلم أيضاً، وهو «أسد بن سعية» وقد أثبتناه فى شرح الأصمعيات «أسيد» بزيادة الياء، وهو خطأ، تبعنا فيه خطأ الذهبى فى المشتبه.

فائدة: تختلف عبارات الصحابة، وعبارات الرواة - فى أسباب نزول الآيات، ونجد أحاديث صحاحاً وروايات قوية، عن حوادث متعددة، ووقائع متباينة، يحكى كل منها سبباً لنزول آية معينة.

والرأى الراجح عندنا للجمع فى مثل هذه الحالات - وقد سبقنا إليه غيرنا من أهل العلم: أن يكون المراد أن الآية منطبقة على هذه الحادثة، داخله الحادثة فى عموم لفظها ومعناها، دون تقييد ذلك بسبب معين، قد يكون حادثة أخرى، وفى بعض الأحيان تكون الآية قد تليت لمناسبة معينة يحضرها أحد الصحابة، فيظن أن هذه المناسبة هى سبب النزول، فيحكى ما شهد، دون ما لم يشهد، ولم يتصل به علمه من قبل، ويكون الجميع صحيحاً، والرواة صادقين. وهذا أحسن ما نرى فى ذلك، ولعله الصواب، إن شاء الله.

ها هنا: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ نَكْفُرَهُ﴾ أى : لا يضيع عند الله بل يجزيكم به أوفر الجزاء (١) ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ أى : لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملا .

ثم قال تعالى مخبراً عن الكفرة المشركين بأنه ﴿لَنْ نَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أى لا ترد عنهم بأس الله ولا عذابه إذا أراد بهم ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

ثم ضرب مثلاً لما ينفقه الكفار فى هذه الدار، فقال تعالى : ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أى : برد شديد، قاله ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير وغيرهم . وعن ابن عباس أيضاً ومجاهد : أى : نار . وهو يرجع إلى الأول ، فإن البرد الشديد سيما الجليلد يحرق الزروع والثمار، كما يحرق الشيء بالنار ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكْتَهُ﴾ أى : فأحرقته، يعنى بذلك السفعة (٢) إذا نزلت على حرت قد آن جداده أو حصاده فدمرته وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع، فذهبت به وأفسدته، فعدمه صاحبه أحوج ما كان إليه . فكذلك الكفار : يحق الله ثواب أعمالهم فى هذه الدنيا وثمرتها كما أذهب ثمرة هذا الحرت بذنوب صاحبه . وكذلك هؤلاء بنوها على غير أصل وعلى غير أساس ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ .

﴿يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخِذُوا بِطَانَةَ مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَاتَمْتُمْ ءَوْلَاءَ مُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمَسَّسْتُمْ حَسَنَةً تَسَوْهُمْ وَإِن تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن نَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

يقول تبارك وتعالى ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة، أى : يُطلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم، والمنافقون بجهدهم ويطانتهم لا يألون المؤمنين خبالاً، أى : يَسْعَوْنَ فى مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن، وبما يستطيعون من المكر والخديعة، ويودون ما يُعنتُ المؤمنين ويحرجهم وَيَشُقُّ عليهم .

وقوله : ﴿لَا تَخِذُوا بِطَانَةَ مِّن دُونِكُمْ﴾ أى : من غيركم من أهل الأديان، وبطانة الرجل : هم

(١) « يفعلوا » و« يكفروه » - قراءة حفص وحمزة والكسائى وخلف والأعشى - بياء الغائب فيهما . وقرأ باقى القراءة الأربعة عشر « تفعلوا » و« تكفروه » - بقاء الخطاب . فأثبتتهما فى الآيات بالياء ، اتباعاً للثابت فى المصحف الذى بأيدى الناس . وأثبتتهما هنا - أثناء التفسير - بقاء الخطاب، كما ثبت فى المخطوطة ، وبدلالة تفسير الحافظ ابن كثير بقوله « بل يجزيكم » . أما المطبوعة فإنها غيرتها إلى « يجزيهم » !

(٢) « السفعة » - بفتح السين وتقديم الفاء بعدها عين مهملة : من قولهم : « سفعت النار والشمس والسموم سفعا » : غيرت لون بشرته وسودته . و« السوافع » : لوافح السموم . وفى المطبوعة : « السفعة » بتقديم العين . وهو تصحيف ، صوابه فى المخطوطة .

خاصة أهله الذين يطلعون على داخل أمره . وقد روى البخارى ، والنسائى ، وغيرهما ، عن أبى سعيد؛ أن رسول الله ﷺ قال : « مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلَا اسْتُخْلِفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بَطَانَتَانِ : بَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ ، وَبَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالسُّوءِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ » ورواه النسائى عن أبى هريرة ، مرفوعا ، بنحوه (١) . وروى ابن أبى حاتم : قيل لعمر بن الخطاب : إن هاهنا غلاما من أهل الحيرة ، حافظ كاتب ، فلو اتخذته كاتباً؟ قال : قد اتخذت إذا بطانة من دون المؤمنين . ففى هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم فى الكتابة ، التى فيها استتالة على المسلمين وإطلاع على دواخل أمورهم التى يخشى أن يقشوها إلى الأعداء من أهل الحرب (٢) ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا يَأْتُونَكُمْ خَبَآئِرٌ وَدُوآمًا عَنِّي ﴾ .

وروى أبو يعلى عن الأزهر بن راشد قال : كانوا يأتون أنساً ، فإذا حدثهم بحديث لا يدرون ما هو ، أتوا الحسن - يعنى البصرى - فيفسره لهم . قال : فحدث ذات يوم عن النبى ﷺ أنه قال : « لَا تَسْتَضِيؤُوا بِنَارِ الْمُشْرِكِينَ ، وَلَا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِمِكُمْ عَرَبِيًّا » . فلم يدروا ما هو ؟ فاتوا الحسن فقالوا له : إن أنسا حدثنا أن رسول الله ﷺ قال : « لَا تَسْتَضِيؤُوا بِنَارِ الْمُشْرِكِينَ وَلَا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِمِكُمْ عَرَبِيًّا ؟ » . فقال الحسن : أما قوله : « لَا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِمِكُمْ عَرَبِيًّا » : محمد ﷺ . وأما قوله : « لَا تَسْتَضِيؤُوا بِنَارِ الْمُشْرِكِينَ » يقول : لا تستشبروا المشركين فى أموركم . ثم قال الحسن : تصديق ذلك فى كتاب الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ ﴾ . هكذا رواه أبو يعلى ، وقد رواه أحمد والنسائى مثله ، من غير ذكر تفسير الحسن البصرى (٣) .

وهذا التفسير فيه نظر ، ومعناه ظاهر : « لَا تَنْقُشُوا فِي خَوَاتِمِكُمْ عَرَبِيًّا » أى : بخط عربى ، لئلا يشابه نقش خاتم النبى ﷺ ، فإنه كان نقشه : « محمد رسول الله » ؛ ولهذا جاء فى الحديث الصحيح أنه نهى أن ينقش أحد على نقشه . وأما الاستضاءة بنار المشركين ، فمعناه : لا تقاربوهم فى المنازل بحيث تكونون معهم فى بلادهم ، بل تباعدوا منهم وهاجروا من بلادهم ، فحمل الحديث على ما قاله الحسن ، رحمه الله ، والاستشهاد عليه بالآية - فيه نظر ، والله أعلم .

ثم قال : « قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ » أى : قد لاح على صفحات وجوههم ، وفتلت ألسنتهم من العداوة ، مع ما هم مشتملون عليه فى صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله ، ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل ؛ ولهذا قال : « قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ » .

(١) حديث أبى سعيد فى البخارى (١٦٤/١٣ ، ١٦٥ فتح) ، ورواه أيضاً أحمد فى المسند (١١٣٦٢ ، ١١٨٥٧) . وحديث أبى هريرة فى المسند (٧٢٣٨ ، ٧٨٧٤) وذكره البخارى معلقا عقب حديث أبى سعيد . وفى رواية أبى هريرة زيادة : « وهو مع التى تغلب عليه منهما » .

(٢) وقد ابتلى المسلمون بهذا بلاء شديدا وشاع فيهم ، ورواوا من خطره ما فيه عبرة لمن يعتبر . وأنى هذا ؟

(٣) ورواه الطبرى أيضا مع تفسير الحسن : (٧٦٨٥) . وأما رواية الإمام أحمد فإنها فى المسند (١١٩٧٨) . ورواه البخارى أيضا فى الكبير (٤٥٥/١/١) دون كلام الحسن . وفسر قوله : « عربيا » وقال : « يقول : لا تكتبوا مثل خاتم النبى : « محمد رسول الله » .

هَذَا أَنتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴿١٢١﴾ أَيْ : أَنْتُمْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - تُحِبُّونَ الْمُنَافِقِينَ بِمَا يَظْهَرُونَ لَكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ، فَتُحِبُّونَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَهُمْ لَا يُحِبُّونَكُمْ، لَا بَاطِنًا وَلَا ظَاهِرًا ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أَيْ : لَيْسَ عِنْدَكُمْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ شَكٌّ وَلَا رَيْبٌ، وَهُمْ عِنْدَهُمُ الشُّكُّ وَالرَّيْبُ وَالْحَيْرَةُ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أَيْ : بِكِتَابِكُمْ وَكِتَابِهِمْ، وَبِمَا مَضَى مِنَ الْكُتُبِ قَبْلَ ذَلِكَ، وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِكِتَابِكُمْ، فَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِالْبَغْضَاءِ لَهُمْ، مِنْهُمْ لَكُمْ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ. ﴿وَإِذَا لَقَّوْكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَىٰ عَيْنِكُمُ الْأُنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ وَالْأُنَامِلُ : أَطْرَافُ الْأَصْبَاحِ، وَقِيلَ : هِيَ الْأَصْبَاعُ .

وهذا شأن المنافقين يُظْهَرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ الْإِيمَانَ وَالْمُؤَدَّةَ وَهُمْ فِي الْبَاطِنِ بِخِلَافِ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَىٰ عَيْنِكُمُ الْأُنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ وَذَلِكَ أَشَدُّ الْغَيْظِ وَالْحَقِّقِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَيْ : مَهْمَا كُنْتُمْ تَحْسُدُونَ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنِينَ وَيَغِيظُكُمْ ذَلِكَ مِنْهُمْ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَمُكَمَّلَ دِينَهُ، وَمُعَلِّ كَلِمَتَهُ وَمُظْهِرَ دِينَهُ، فَمَوْتُوا أَنْتُمْ بِغَيْظِكُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أَيْ : هُوَ عَلِيمٌ بِمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ ضَمَائِرُكُمْ، وَتَكُنُّهُ سَرَائِرُكُمْ مِنَ الْبَغْضَاءِ وَالْحَسَدِ وَالغُلِّ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ مُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا بِأَنْ يَرِيكُمْ خِلَافَ مَا تُوْمَلُونَ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ فِي النَّارِ الَّتِي أَنْتُمْ خَالِدُونَ فِيهَا، فَلَا خُرُوجَ لَكُمْ مِنْهَا .

ثُمَّ قَالَ : ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ . وَهَذِهِ الْحَالُ دَالٌّ عَلَى شِدَّةِ الْعِدَاوَةِ مِنْهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا أَصَابَ الْمُؤْمِنِينَ خَصْبٌ، وَنَصْرٌ وَتَأْيِيدٌ، وَكَثْرَاوَةٌ وَعِزٌّ أَنْصَارُهُمْ، سَاءَ ذَلِكَ الْمُنَافِقِينَ، وَإِنْ أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ سَنَةٌ - أَيْ : جَدَبٌ - أَوْ أُدْبِلَ عَلَيْهِمُ الْأَعْدَاءُ، لَمَّا لِلَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ، كَمَا جَرَى يَوْمَ أُحُدٍ، فَرِحَ الْمُنَافِقُونَ بِذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخَاطِبًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ : ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، يَرشُدُهُمْ تَعَالَى إِلَى السَّلَامَةِ مِنْ شَرِّ الْأَشْرَارِ وَكَيْدِ الْفُجَّارِ، بِاسْتِعْمَالِ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ الَّذِي هُوَ مُحِيطٌ بِأَعْدَائِهِمْ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لَهُمْ إِلَّا بِهِ، وَهُوَ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ. وَلَا يَقَعُ شَيْءٌ فِي الْوُجُودِ إِلَّا بِتَقْدِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ.

ثُمَّ شَرَعَ تَعَالَى فِي ذِكْرِ قِصَّةِ أُحُدٍ، وَمَا كَانَ فِيهَا مِنَ الْإِخْتِبَارِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، وَبَيَانِ صَبْرِ الصَّابِرِينَ، فَقَالَ تَعَالَى :

﴿وَإِذْ عَدُوَّتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾
 ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾
 ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

المرادُ بهذه الواقعة يوم أُحُدٍ عند الجمهور، قاله ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدي، وغير واحد. وعن الحسن البصري: المراد بذلك يوم الأحزاب! . رواه ابن جرير، وهو غريب

لا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ . وكانت وقعةُ أحد يومَ السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة (١) . وكان سببها أن المشركين حين قُتِلَ من قتل من أشرفهم يومَ بدر، وسكمت العيرُ بما فيها من التجارة التي كانت مع أبي سفيان، [فلما رجع قتلهم (٢)] قال أبناء من قُتِلَ، ورؤساء من بقى لأبي سفيان: أرصد هذه الأموال لقتال محمد، فأنفقوها في ذلك، وجمعوا الجموع والأحاييش وأقبلوا في قريب من ثلاثة آلاف، حتى نزلوا قريباً من أحد تلقاء المدينة، فصلى رسولُ الله ﷺ يوم الجمعة، فلما قرغَ منها صلى على رجل من بنى النجار، يقال له: مالك بن عمرو، واستشار الناس: أ يخرج إليهم أم يمكث بالمدينة؟ فأشار عبد الله بن أبي بالمقام بالمدينة، فإن أقاموا أقاموا بشرَّ محبس، وإن دخلوها قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين. وأشار آخرون من الصحابة - ممن لم يشهد بدرًا - بالخروج إليهم، فدخل رسول الله ﷺ فلبس لأمته وخرج عليهم، وقد ندم بعضهم وقالوا: لعننا استكرهنا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إن شئت أن نمكث؟ فقال رسول الله ﷺ: «مَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ إِذَا لَيْسَ لِأُمَّتِهِ أَنْ يَرْجِعَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ لَهُ» . فسار، عليه السلام، في ألف من أصحابه، فلما كانوا بالشوط (٣) رجع عبد الله بن أبي بثُلث الجيش مُغضباً؛ لكونه لم يرجع إلى قوله، وقال هو وأصحابه: لو نعلم اليوم قتالاً لا تبعناكم، ولكننا لا نراكم تقاتلون اليوم. واستمر رسول الله ﷺ سائراً حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي. وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال: «لَا يُقَاتِلَنَّ أَحَدٌ حَتَّى نَأْمُرَهُ بِالْقِتَالِ» . وتهايا رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعمئة من أصحابه، وأمر على الرماة عبد الله بن جبير أخا بني عمرو بن عوف، والرماة يومئذ خمسون رجلاً، فقال لهم: «انصَحُوا الْخَيْلَ عَنَّا، وَلَا نُؤْتَيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ. وَالزُّمُومَا مَكَانَكُمْ إِنْ كَانَتْ النَّوْبَةُ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخَطَّفْنَا الطَّيْرَ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ» . وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين، وأعطى اللواء مُصعب بن عمير أخا بني عبد الدار. وأجاز رسول الله ﷺ بعض الغلمان يومئذ وأرجأ آخرين، حتى أمضاهم يوم الخندق بعد هذا اليوم بقریب من ستين. وتهايات قریش وهم ثلاثة آلاف، ومعهم مائة فرس قد جنبوها، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد ابن الوليد: وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، ودفَعوا إلى بني عبد الدار اللواء. ثم كان بين الفريقين ما سيأتى تفصيله في مواضعه [عند هذه الآيات] إن شاء الله تعالى.

ولهذا قال تعالى: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ أي: تنزلهم منازل وتجعلهم ميمنة وميسرة وحيث أمرتهم ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي: سميع لما تقولون، عليم بضمائرهم.

(١) نقل الحافظ قولين: أنها كانت في ١١ شوال، والآخر: في النصف من شوال. والثابت في كتاب التوفيقات الإلهامية أن أول شوال سنة ٣ - كان يوم أحد. فيكون يوم السبت هو يوم ١٤ منه.

وانظر تفصيل الأخبار عن غزوة أحد في (البداية والنهاية لابن كثير ٩/ ٤ - ٦١) .

(٢) الزيادة من المخطوطة الأزهرية. و « القفل » - بالقاف والفاء المتوحدتين: اسم جمع للقافل، من القفول، وهو الرجوع من الغزو.

(٣) « الشوط » - بفتح الشين وسكون الواو: بستان بين المدينة وأحد.

وقد أورد ابن جرير هاهنا سؤالاً، حاصله: كيف يقولون: إن النبي ﷺ خرج إلى أحد يوم الجمعة بعد الصلاة، وقد قال الله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾؟ ثم كان جوابه عنه: أن غدوه ليبيوهم مقاعد، إنما كان يوم السبت أول النهار.

وقوله: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فليتوكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، روى البخارى عن جابر بن عبد الله قال: فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فليتوكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قال: نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة، وما نحب أنها لم تنزل، لقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾. رواه مسلم (١). وكذا قال غير واحد من السلف: إنهم بنو حارثة وبنو سلمة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى: يوم بدر، وكان فى يوم الجمعة، وافق السابع عشر من شهر رمضان، من سنة اثنتين من الهجرة، وهو يوم الفرقان الذى أعز الله فيه الإسلام وأهله، ودمغ فيه الشرك وخرَّب محله، مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فيهم فرسان وسبعون بعيراً، والباقون مشاة، ليس معهم من العُدَد جميع ما يحتاجون إليه، وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف فى سوابغ الحديد والبيض، والعدة الكاملة والخيول المسومة والحلى الزائد، فأعز الله رسوله، وأظهر وحيه وتنزيله، وبيض وجه النبي وقبيله، وأخزى الشيطان وجيله. ولهذا قال تعالى - مُمْتَنًا على عباده المؤمنين وحزبه المتقين: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أى: قليل عددكم ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله، لا بكثرة العُدَد والعُدَد؛ ولهذا قال فى الآية الأخرى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتُمْ كَثْرَتَكُمْ قَلَمَ تَغْنَعَنَّكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَابَتْ لِيَتِمَّ مُدْبِرِينَ. ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ. ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥ - ٢٧].

وروى الإمام أحمد عن عياض الأشعري قال: شهدتُ اليرموك وعلينا خمسة أمراء: أبو عبيدة، ويزيد بن أبى سفيان، وابن حسنة، وخالد بن الوليد، وعياض. وقال عمر: إذا كان قتال فعليكم أبو عبيدة. قال: فكتبنا إليه: إنه قد جاش إلينا الموت، واستمددناه، فكتب إلينا: إنه قد جاءنى كتابكم تستمدوننى، وإنى أدلكم على من هو أعز نصرأ، وأحصن جنداً: الله عز وجل، فاستنصروه، فإن محمداً ﷺ قد نُصر يوم بدر فى أقل من عدتكم، فإذا جاءكم كتابى فقاتلوهم ولا تراجعونى. قال: فقاتلناهم فهزمناهم أربع فراسخ، قال: وأصبنا أموالاً، فتشاورنا، فأشار علينا عياض أن نُعطىَ عن كل ذى رأس عشرة. قال: وقال أبو عبيدة: من يراهمتى؟ فقال شاب: أنا، إن لم تغضب. قال: فسبقه، فرأيت عقيصتى أبى عبيدة تنقران وهو خلفه على فرس عريّ إسناده صحيح. وقد أخرجه ابن حبان فى صحيحه بنحوه، واختاره الحافظ

(١) « بنو سلمة » بفتح السين وكسر اللام . وليس فى العرب غيرهم بكسر اللام . وسائر الأسماء بفتح اللام .

الضياء المقدسى فى كتابه^(١). وبَدْر مَحَلَّة بين مكة والمدينة، تُعرف ببئرها، منسوبة إلى رجل حفرها يقال له: «بدر بن النارين». قال الشعبي: بدر بئر لرجل يسمى بدرًا.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ أى: تقومون بطاعته.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنُظْمِنَ قُلُوبَكُمْ بِهِ. وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

اختلف المفسرون فى الوعد: هل كان يوم بدر أو يوم أحد؟ على قولين:

أحدهما: أن قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾. روى هذا عن الحسن البصرى، والشعبى، وغيرهما. واختاره ابن جرير.

فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية - على هذا القول - وبين قوله فى قصة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِنُظْمِنَ بِهِ قُلُوبَكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩، ١٠]؟ فالجواب: أن التنصيص على الآف هاهنا لا ينافى الثلاثة الآف فما فوقها، لقوله: ﴿مُرَدِّينَ﴾، بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم الوف آخر مثلهم^(٢). وهذا السياق شبيه بهذا السياق فى سورة آل عمران. فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر، والله أعلم.

القول الثانى: أن هذا الوعد متعلق بقوله: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تَبَوَّأَ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾، وذلك يوم أحد. وهو قول مجاهد، وعكرمة، والزهرى، وموسى بن عتبة وغيرهم. لكن قالوا: لم يحصل الإمداد بالخمس الآف؛ لأن المسلمين فرأوا يومئذ - زاد عكرمة: ولا بالثلاثة الآف؛ لقوله: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾، فلم يصبروا، بل فرأوا، فلم يمدوا بملك واحد.

وقوله: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾، يعنى: تصبروا على مصابرة عدوكم وتتقونى وتطيعوا أمرى. وقوله: ﴿وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا﴾، قال الحسن، وقتادة، والربيع، والسدى: أى من

(١) المسند (٣٤٤). و«عياض» أحد الأمراء الخمسة: هو عياض بن غنم الفهري. وهو غير «عياض الأشعري» التابعى راوى الحديث وقوله: «جاش إلينا الموت»: أى تدفق وفاض. وقوله: «يراهنى» بتشديد النون: أصلها «يراهنتى».

(٢) (مردفين): قرأها نافع وأبو جعفر ويعقوب - بفتح الدال: اسم مفعول، أى: مردفين بغيرهم. وقرأها باقى الأربعة عشر بكسر الدال: اسم فاعل، أى مردفين مثلهم. وتفسير ابن كثير إياها هنا على معنى فتح الدال.

وجهم هذا. وقال مجاهد، وعكرمة : أى من غضبهم هذا. وقوله: ﴿يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أى: معلمين بالسِّمَا. وروى ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب قال: كان سِيَمَا الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض، وكان سِيماهم أيضا فى نواصي خيلهم.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ أى: وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالها إلا بشارةً لكم وتطيبيا لقلوبكم وتطمينا، وإلا فإنما النصر من عند الله، الذى لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بِأَلْهِمْ. وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ - ٦]. ولهذا قال هاهنا ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أى: هو ذو العزة التى لا تُرَام، والحكمة فى قدره والإحكام.

ثم قال تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُ﴾ أى: يخزيهم ويردهم بغیظهم لم ينالوا منكم ما أرادوا؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ فَيُنْقَلِبُوا﴾ أى: يرجعوا ﴿خَائِبِينَ﴾ أى: لم يحصلوا على ما أمَّلوا.

ثم اعترض بجملة دلَّت على أن الحُكْم فى الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له، فقال: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أى: بل الأمر كله إلى، كما قال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَن أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

ثم ذكر تعالى بقية الأقسام فقال: ﴿أَوْ يُتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أى: بما هم فيه من الكفر فيهديهم بعد الضلالة ﴿أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أى: يستحقون ذلك.

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم العن فلانا، اللهم العن الحارث بن هشام، اللهم العن سهيل بن عمرو، اللهم العن صفوان بن أمية». فنزلت هذه الآية: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾، فتب عليهم كلهم^(١). وروى البخارى عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد - أو يدعو لأحد - قنَّت بعد الركوع، وربما قال - إذا قال: «سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد»: «اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَسَلْمَةَ بْنَ هِشَامٍ، وَعِيَّاشَ بْنَ أَبِي رِبِيعَةَ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسَنَى يَوْسُفَ». يجهر بذلك،

(١) المسند (٥٦٧٤). وهو حديث صحيح. ورواه أحمد مرارا من أوجه عن ابن عمر - وفى بعض رواياته أن ذلك كان بعد الرفع من الركوع فى الركعة الثانية من صلاة الفجر. ورواه البخارى من طرق عن ابن عمر. وذكر الحافظ ابن كثير هنا بعض رواياته من المسند والبخارى وانظر المسند (٥٨١٢، ٦٣٤٩)، (٦٣٥٠) والفتح (٢٨١/٧، ٢٦٣/١٣، ٢٦٤).

وكان يقول - فى بعض صلواته فى صلاة الفجر - : «اللهم العن فلانا وفلانا» لأحياء من أحياء العرب، حتى أنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية (١). وروى الإمام أحمد: عن أنس، أن النبى ﷺ كَسَرَتْ رَبَاعِيَّتَهُ يَوْمَ أَحُدٍ، وَشَجَّ فِي [جَبْهَتِهِ] (٢) حتى سال الدم على وجهه، فقال: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ، عَزَّ وَجَلَّ». فانزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلِإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾. انفرد به مسلم (٣).

ثم قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: الجميع ملك له، وأهلها عبيد بين يديه ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أى: هو المتصرف فلا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٤٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٤٢﴾ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٤٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالضَّرَّاءِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجْسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاَسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتْ بُحَيْرَىٰ مِّن تَحْتِهَا الْآبَتْهُرُ خَالِدِينَ فِيهَا وَعِصْمَ أُجْرِ الْعَمَلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطى الربا واكله أضعافا مضاعفة، كما كانوا فى الجاهلية يقولون - إذا حلَّ أجل الدين: إما أن تقضى وإما أن ترمى، فإن قضاؤه وإلا زاده فى المدة وزاده الآخر فى القدر، وهكذا كلَّ عام، فرميا تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً (٤).

(١) البخارى (٨/ ١٧٠، ١٧١ فتح) . ورواه أحمد فى المسند مراراً، مطولاً ومختصراً، منها (٧٢٥٩، ٧٤٥٨) ورواه مسلم (١٨٧/١).

(٢) فى المطبوع من «عمدة التفسير» وكذا المخطوطة الأهرية «جبهته»، وما أثبتناه من المسند (٣/ ٩٩)، وعند مسلم (١٧٩١): «رأسه». (البار).

(٣) المسند (١١٩٨٠) ومسلم (٦٧/٢) ورواه الطبرى (٧٨٠٥ - ٧٨٠٨). وتفصيل تخريجه فيه . و «الرابعة» - بورن «ثمانية»: الأسنان الأربعة التى تلى الثنابا . وقد جمع الحافظ ابن حجر فى الفتح (٨/ ١٧١) بين هذا الحديث وحديث ابن عمر بأنه ﷺ دعا على المذكورين بعد ذلك فى صلواته، فنزلت الآية فى الأمرين معا . وذلك كله فى أحد .

(٤) والمتلاعبون بالدين من أهل عصرنا، وأولياؤهم من عابدى التشريع الوثنى الأجنبى - بل التشريع اليهودى فى الربا - يلعبون بالقرآن، ويزعمون أن هذه الآية تدل على أن الربا المحرم هو «الأضعاف المضاعفة» ! ليجزوا ما بقى من أنواع الربا، على ما ترضاه أهواؤهم وأهواء سادتهم، ويتركوا الآية الصريحة: ﴿وَأَن تَبْتَئِمَّ فَلكُمْ رِزْوَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَن تَقُولُوا لَا تَنْظُمُونَ وَلَا تَنْظُمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩] - انظر ما مضى عند تفسير الآية (٢٧٥) من سورة البقرة . فكانوا فى تلاعبهم بتأويل هذه الآيات الصريحة أسوأ حالاً ممن ﴿يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧] - «فأولئك الذين سمى الله، فاحذروهم» .

وأمر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون في الأولى والأخرى، ثم توعدهم بالنار وحذرهم منها، فقال: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ .

ثم ندبهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات والمصارعة إلى نيل القربات، فقال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أى: كما أعدت النار للكافرين. وقد قيل: إن معنى قوله: ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾: تنبيهها على اتساع طولها، كما قال فى صفة فرش الجنة: ﴿بَطَانَتُهَا مِثْلُ اسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤] أى: فما ظنك بالظواهر؟ وقيل: بل عرضها كطولها؛ لأنها قبة تحت العرش، والشئ المُقَبَّبُ والمستدير عَرْضُهُ كطولهِ. وقد دل على ذلك ما ثبت فى الصحيح: «إذا سألتُم الله الجنة فاسألوه الْفَرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَسَقْفُهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ» (١). وهذه الآية كقولهِ تعالى فى سورة الحديد: ﴿وَسَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [رقم ٢١].

وقد روينا فى مسند الإمام أحمد: أن هِرْقَلُ كَتَبَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: إِنَّكَ دَعَوْتَنِي إِلَى جَنَّةِ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، فَأَيْنَ النَّارُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سُبْحَانَ اللَّهِ! فَأَيْنَ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ؟!». وقد رواه ابن جرير (٢). وروى الطبري عن يزيد بن الأصم: أن رجلا من أهل الكتاب قال: يقولون: ﴿جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، فأين النار؟ فقال ابن عباس: أين يكون الليل إذا جاء النهار؟، وأين يكون النهار إذا جاء الليل؟ وقد روى هذا مرفوعا، فروى البزار عن أبى هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: رأيت قوله تعالى: ﴿جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، فأين النار؟ قال: «أَرَأَيْتَ اللَّيْلَ إِذَا جَاءَ لَبَسَ كُلَّ شَيْءٍ، فَأَيْنَ النَّهَارُ؟» قال: حيث شاء الله. قال: «وَكَذَلِكَ النَّارُ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» (٣). وهذا يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون المعنى فى ذلك: أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار ألا يكون فى مكان، وإن كنا لا نعلمه، وكذلك النار تكون حيث يشاء الله عز وجل، وهذا أظهر كما تقدم فى حديث أبى هريرة.

الثانى: أن يكون المعنى: أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب، فإن الليل يكون

(١) البخارى (٦ / ٩ ، ١٠ ، ١٣ / ٣٤٩ ، ٣٥٠ فتح) ، عن أبى هريرة ، مع اختلاف قليل فى اللفظ . وهو مما انفرد به البخارى عن مسلم ، كما نص على ذلك الحافظ (٦ / ١٣٥) .

(٢) هو جزء من حديث طويل ، عن التنوخى رسول هرقل ، فى المسند (١٥٧١٩) . ونقله الحافظ ابن كثير فى التاريخ (٥ / ١٥ ، ١٦) ، عن رواية المسند ، كاملا . ثم قال : « هذا حديث غريب ، وإسناده لا بأس به . تفرد به أحمد » . ورواية الطبري مختصرة (٧٨٣١) .

(٣) حديث ابن عباس - الموقوف - رواه عنه ابن خالته « يزيد بن الأصم بن عبيد » التابعى الثقة . وهو فى الطبري (٧٨٣٦) وإسناده صحيح . وحديث أبى هريرة - المرفوع - رواه عنه « يزيد بن الأصم » أيضا . وإسناد البزار صحيح . وذكره الهيثمى فى الزوائد (٦ / ٣٢٧) ، وقال : « رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح » ورواه أيضا بنحوه ابن حبان فى صحيحه (١٠٣ بتحققنا) . ورواه الحاكم (١ / ٣٦) وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى .

من الجانب الآخر^(١) ، فكذلك الجنة في أعلى عليين فوق السموات تحت العرش، وعرضها كما قال الله، عز وجل: ﴿كَعْرَضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١] ، والنار في أسفل سافلين. فلا تنافى بين كونها كعرض السماء والأرض، وبين وجود النار، والله أعلم.

ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة، فقال: ﴿الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي السَّاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ أى: فى الشدة والرخاء، والمنشط والمكروه، والصحة والمرض، وفى جميع الأحوال، كما قال: ﴿الَّذِينَ يُفْقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: ٢٧٤]. والمعنى: أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والإنفاق فى مراضيه، والإحسان إلى خلقه من قرباتهم وغيرهم بأنواع البر.

وقوله: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أى: إذا ثار بهم الغيظ كظموه، بمعنى: كتموه فلم يعملوه، وعفا مع ذلك عمن أساء إليه. وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، قال: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ ، وَلَكِنَّ الشَّدِيدَ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ». وقد رواه الشيخان^(٢). وروى الإمام أحمد - فى حديث - عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا تَعُدُّونَ فِيكُمْ الصُّرْعَةَ؟» قلنا: الذى لا تصرعه الرجال، قال: قال: «لا، ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب»^(٣). وروى الإمام أحمد عن جارية بن قدامة السعدى؛ أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، قل لى قولاً ينفعنى وأقال على، لعلى أعيه. فقال رسول الله ﷺ: «لَا تَغْضَبْ». فأعاد عليه حتى أعاد عليه مرارا، كل ذلك يقول: «لَا تَغْضَبْ» انفراد به أحمد^(٤). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ لَهُ وَقَاهُ اللَّهُ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ، أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزَنٌ بَرِيَّةٌ - ثلاثا - أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِشَهْوَةِ وَالسَّعِيدُ مَنْ وَقَى الْفِتْنَ، وَمَا مِنْ جُرْعَةٍ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ جُرْعَةٍ غَيْظٍ يَكْظُمُهَا عَبْدٌ، مَا كَظَمَهَا عَبْدٌ لِلَّهِ إِلَّا مَلَأَ اللَّهُ جَوْفَهُ إِيْمَانًا». انفراد به أحمد، وإسناده حسن ليس فيه مجروح، ومثته حسن^(٥). وروى ابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ مِنْ جُرْعَةٍ أَفْضَلَ أَجْرًا مِنْ جُرْعَةٍ غَيْظٍ كَظَمَهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ» ورواه ابن جرير وابن ماجه^(٦).

(١) هذا أحد الدلائل على أن كروية الأرض كانت معروفة لعلماء الإسلام ، قبل أن تخطر ببال الإفرنج ومن يشابعهم . ليخزى الله المستهترين بالطعن فى علوم الإسلام وعلمائه . جهلا منهم وتقليداً .

(٢) المسند (٧٢١٨) والبخارى (٤٣١/١٠ فتح) ومسلم (٢/ ٢٨٩ ، ٢٩٠) . و« الصرعة » - بضم الصاد وفتح الراء: البالغ فى الصراع ، الذى لا يغلب فيه .

(٣) من حديث مطول فى المسند (٣٦٢٦) ساقه الحافظ ابن كثير كاملا . واقتصرنا على موضع الشاهد منه . والبخارى روى قطعة من أوله . ومسلم روى باقى (٢/ ٢٨٩) . ورواه البخارى كاملا فى الأدب المفرد ، قم (١٥٣ - ١٥٥) .

(٤) المسند (٣٤/٥ حلى) . و« جارية » بالجم والياء . وفى المطبوعة : « حارثة » وهو تصحيف . وأشار ابن حجر فى الإصابة فى ترجمته إلى أن الحديث رواه ابن حبان فى صحيحه .

(٥) المسند (٣٠١٧) .

(٦) هو حديث صحيح . ورواه أحمد فى المسند (٦١١٤ ، ٦١١٦) . والعجب من الحافظ ابن كثير ألا ينسبه للمسند !

قوله: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ﴾ أى: لا يعملون غضبهم فى الناس، بل يكفون عنهم شرهم، ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل.

ثم قال: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ أى: مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم فى أنفسهم، فلا يبقى فى أنفسهم موجدة على أحد، وهذا أكمل الأحوال، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. فهذا من مقامات الإحسان. وفى الحديث: «ثلاث أُنسِمُ عليهن: ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبدا بغضوا إلا عزاء، ومن تواضع لله رفعه الله» (١).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ أى: إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار.

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «إن رجلا أذنب ذنبا، فقال: رب، إني أذنبت ذنبا فاغفره. فقال الله: عبدى عمل ذنبا، فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدى، ثم عمل ذنبا آخر فقال: رب، إني عملت ذنبا فاغفره لى. فقال عز وجل: علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدى، ثم عمل ذنبا آخر فقال: رب، إني عملت ذنبا فاغفره. فقال عز وجل: عبدى علم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، أشهدكم أنى قد غفرت لعبدى، فليعمل ما شاء». أخرجاه فى الصحيح بنحوه (٢). وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، قلنا: يا رسول الله، [إنا] إذا رأيناك رقت قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة، وإذا فارقتك أعجبتنا الدنيا وشممتنا النساء والأولاد، فقال: «لو أنكم تكونون على كل حال، على الحال التى أنتم عليها عندى، لصافحتكم الملائكة بأفئهم، وكزارتكم فى بيوتكم، ولو لم تذبوا لَجَاءَ اللهُ بِقَوْمٍ يُذنبُونَ كى يغفر لهم». قلنا: يا رسول الله، حدثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «لَبِنَةُ ذَهَبٍ، وَلَبِنَةُ فِضَّةٍ، وَمَلَأَهَا الْمَسْكُ الْأَذْفَرُ، وَحَصَبًا وَهِيَ اللَّوْثُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ لَا يَبَاسَ، وَيَخْلُدُ لَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ، ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يَفْطَرَ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ تَحْمَلُ عَلَى الْغَمَامِ وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي لِأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ». ورواه الترمذى، وابن ماجه (٣).

(١) رواه أحمد (٧٢٠٥) ومسلم (٢/٢٨٥) والترمذى (٣/١٥٥) من حديث أبى هريرة. وصححه الترمذى، ولكن أوله عندهم: «ما نقصت صدقة من مال». وليس عندهم قوله: «ثلاث أُنسِمُ عليهن».

(٢) المسند (٧٩٣٥) والبخارى (١٣/٣٩٢، ٣٩٣ فتح) ومسلم (٢/٣٢٦). والثابت هنا عمل الذنب أربع مرات، وهو الثابت فى المخطوطة الأزهرية (٢/١١٥)، وكذلك ثبت بهذه الزيادة ليست فى أصول المسند الثلاثة، ولا فى الصحيحين ونقل الحافظ ابن كثير فى موضعين فى كتابين يرجح أن هذه الزيادة ثابتة فى أصول صحيحة من المسند.

(٣) المسند (٨٠٣٠)، والزيادة منه. وفصلنا تخريجه هناك، وقد مضى آخره: «ثلاثة لا ترد دعوتهم...» عند تفسير الآية (١٨٦) من سورة البقرة.

ويتأكد الوضوء وصلاة ركعتين عند التوبة، لما رواه الإمام أحمد عن علي قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعني الله بما شاء منه، وإذا حدثني عنه غيره استحلقتُهُ، فإذا حلفت لي صدقته، وإن أبا بكر حدثني، وصدق أبو بكر: أنه سمع رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيَتَوَضَّأُ وَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ، فَيُصَلِّيَ رَكَعَتَيْنِ فَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا غُفِرَ لَهُ». وكذا رواه علي بن المديني، والحَمِيدِيُّ وأبو بكر بن أبي شيبة، وأهل السنن، وابن حبان في صحيحه والبزار والدارقطني، وقال الترمذي: هو حديث حسن^(١). وهو من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، عن خليفة النبي أبي بكر، رضى الله عنهما. وما يشهد لصحة هذا الحديث ما رواه مسلم في صحيحه، عن عمر عن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبَلِّغُ - أَوْ: فَيَسْبِغُ - الْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ». وفي الصحيحين عن عثمان بن عفان، أنه تَوَضَّأَ لَهُمْ وَضُوءَ النَّبِيِّ ﷺ، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكَعَتَيْنِ لَا يَحْدِثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ». فقد ثبت هذا الحديث من رواية الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، عن سيد الأولين والآخرين ورسول رب العالمين، كما دل عليه الكتاب المبين، من أن الاستغفار من الذنب ينفع العاصين. وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «قَالَ إِبْلِيسُ: يَا رَبِّ، وَعَزَّتْكَ لَا أَرَأَى أَغْوَى بَنِي آدَمَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ. فَقَالَ اللَّهُ: وَعَزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَرَأَى أَغْوَى لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي»^(٢).

وقوله: «وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ» أي: لا يغفرها أحد سواه، كما روى الإمام أحمد عن الأسود بن سريج؛ أن النبي ﷺ أتى بأسير فقال: اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد. فقال النبي ﷺ: «عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ»^(٣).

وقوله: «وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ» أي: تابوا من ذنوبهم، ورجعوا إلى الله عن قريب، ولم يستمروا على المعصية ويصروا عليها غير مقلعين عنها، ولو تكرر منهم الذنب تابوا عنه، كما قال روى أبو يعلى عن مولى لأبي بكر، عن أبي بكر، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَصْرَ مَنْ اسْتَغْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً». ورواه أبو داود، والترمذي، والبزار وقول ابن المديني والترمذي: ليس إسناده هذا الحديث بذاك، فالظاهر أنه لأجل جهالة مولى أبي بكر، ولكن جهالة مثله لا تضر؛ لأنه تابعي كبير، ويكفيه نسبه إلى أبي بكر، فهو حديث حسن،

(١) بل هو حديث صحيح. ورواه أيضا ابن خزيمة في صحيحه، كما ذكره ابن حجر في التهذيب (١/٢٦٧)، (٢٦٨) وهو الحديث رقم (٢) في المسند. ورواه الطبري (٧٨٥٣، ٧٨٥٤).

(٢) المسند (١١٢٥٧، ١١٢٦٤، ١١٣٨٧، ١١٧٥٢)، وهو في الزوائد (١٠/٢٠٧) ونسبه أيضا للطبراني وأبي يعلى. وقال: «واحد إسناده أحمد رجاله رجال الصحيح. وكذلك أحد إسناده أبي يعلى».

(٣) المسند (١٥٦٥١)، وإسناده صحيح. والأسود بن سريج: هو التميمي السعدي، الشاعر المشهور، وهو صحابي

والله أعلم (١).

وقوله: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: قال مجاهد وعبد الله بن عبيد بن عمير: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن من تاب تاب الله عليه. وهذا كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وكقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] ونظائر هذا كثيرة جدا. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال - وهو على المنبر -: ﴿ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يَغْفَرَ لَكُمْ، وَيَلْ لَأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيَلْ لِلْمُصْرِئِينَ الَّذِينَ يُصِرُونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. تفرد به أحمد (٢).

ثم قال تعالى - بعد وصفهم بما وصفهم به : ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ﴾ أى: جزاؤهم على هذه الصفات ﴿مُغْفِرَةً مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرِي مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى: من أنواع المشروبات ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكين فيها ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ يمدح تعالى الجنة.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾
 ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ
 الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ
 وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُدَّوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ
 لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ
 حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ ﴿١٤٢﴾
 وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

يقول تعالى مخاطبا عباده المؤمنين الذين أصيبوا يوم أحد، وقتل منهم سبعون: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ أى: قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾.

ثم قال: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ يعنى: القرآن فيه بيان للأمر على جليتها، وكيف كان الأمم الأقدمون مع أعدائهم ﴿وَهُدًى﴾ يعنى: القرآن فيه خبرٌ ما قبلكم وهدى لقلوبكم، و﴿مَوْعِظَةٌ﴾ أى: زاجر عن المحارم والمآثم.

(١) ورواه الطبري أيضا (٧٨٦٣).

(٢) المسند (٦٥٤١، ٦٥٤٢، ٧٠٤١) وأسانيد صحاح . ورواه البخارى فى الأدب المفرد (٣٨٠) . و «أقماع»: جمع «قمع» بكسر القاف وفتح الميم . وهو المعروف الذى تملأ به المائعات فى رؤوس الأدانى الضيقة . قال ابن الأثير: «شبه أسمع الذين يستمعون القول ولا يعون ويحفظونه ولا يعملون به - بالأقماع التى لا تعى شيئا مما يفرغ فيها، فكانه يمر عليها مجازا، كما يمر الشراب فى الأقماع اجتياراً» .

ثم قال مسلماً للمؤمنين: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أى: لا تضعفوا بسبب ما جرى ﴿وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى: العاقبة والنصرة لكم أيها المؤمنون. ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ ، أى: إن كنتم قد أصابتمكم جراحٌ وقُتِلَ منكم طائفةٌ، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أى: نُدِيلُ عليكم الأعداء تارة، وإن كانت العاقبة لكم ، لما لنا فى ذلك من الحكمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال ابن عباس: فى مثل هذا لَنَرَى، من يصبر على مناجزة الأعداء ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ يعنى: يُقْتَلُونَ فى سبيله، ويذُلُونَ مُهَجَّجًا فى مرضاته. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: يكفر عنهم من ذنوبهم، إن كانت لهم ذنوب، وإلا رُفِعَ لهم فى درجاتهم بحسب ما أصيبوا به، وقوله: ﴿وَيَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ يَمُنُّونَ بِمَا نَزَّلْنَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ﴾ أى: فإنهم إذا ظفروا بَعَاوًا وبَطَرُوا ، فىكون ذلك سَبَبًا دمارهم وهلاكهم ومَحَقِّهم وفنائهم.

ثم قال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ﴾ أى: أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشدائد؟ كما قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبِينَ وَالضَّرَاءُ وَزَلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ١٧٧]. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ﴾ أى: لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا ويرى الله منكم المجاهدين فى سبيله ، والصابرين على مقاومة لأعداء.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ أى: قد كنتم - أيها المؤمنون - قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو وتتحرقون عليه، وتودون مناجزتهم ومصابرتهم، فهذا قد حصل لكم الذى تمنيتموه وطلبتموه ، فدونكم فقاتلوا وصابروا . وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: ﴿لَا تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُّوْا اللَّهُ الْعَاقِبَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَعَلِمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ﴾ (١). ولهذا قال: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ يعنى: الموت شاهدتموه فى لمعان السيوف، وحدَّ الأَسِنَّةِ ، واشتباك الرِّمَاحِ، وصفوف الرجال للقتال. والمتكلمون يعبرون عن هذا بالتخييل، وهو مشاهدة ما ليس بحسوس كالمحسوس ، كما تتخيَّل الشاة صداقة الكبش وعداوة الذئب.

(١) ضمن حديث فى البخارى (١٠٩/٦ - ١١١ فتح) ومسلم (٤٨/٢) كلاهما من حديث عبد الله بن أبى أوفى .
والذى فىهما : « لا تمنوا » وأصلها : « تمنوا » بحذف إحدى التائين .

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾
 ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَدَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَجِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَالْتَمَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، وقيل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قُتِل. ورجع ابن قميَّة إلى المشركين فقال لهم: قتلتم محمداً! وإنما كان قد ضرب رسول الله ﷺ، فشجَّه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس واعتقدوا أن رسول الله قد قُتِل، وجوزوا عليه ذلك، كما قد قصَّ الله عن كثير من الأنبياء، عليهم السلام، فحصل وهن وضعف وتأخر عن القتال، ففي ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه.

ثم قال تعالى منكرًا على من حصل له ضعف: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ أي: رجعتم القهقري ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: الذين قاموا بطاعته، وقاتلوا عن دينه، واتبعوا رسوله حيا وميتا. كذلك ثبت في الصحاح والسنن والمسند، وغيرها من كتب الإسلام من طرق متعددة تفيد القطع: أن الصديق - رضی الله عنه - تلا هذه الآية لما مات رسول الله ﷺ. وروى البخارى عن الزهري: أخبرنى أبو سلمة؛ أن عائشة أخبرته أن أبا بكر، أقبل على فرس من مسكنه بالسُّنخ حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتميم رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه وقبله وبكى، ثم قال: بأبى أنت وأمى. والله لا يجمع الله عليك موتتين؛ أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها. وقال الزهري: وحدثنى أبو سلمة عن ابن عباس، أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس فقال: اجلس يا عمر، قال أبو بكر: أما بعد، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إلى قوله: ﴿الشَّاكِرِينَ﴾ قال: فوالله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلاها الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها. وأخبرنى سعيد بن المسيَّب أن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ففقرت حتى

ما تقلنى رجلاى ، وحتى هويتُ إلى الأرض (١) .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾ أى : لا يموت أحد إلا بقدر الله ، وحتى يستوفى المدة التى ضربها الله له ؛ ولهذا قال : ﴿ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾ ، كقوله : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ [فاطر: ١١] ، وكقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ﴾ [الأنعام: ٢٢] . وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم فى القتال ، فإن الإقدام والإحجام لا يُنقُص من العمر ولا يزيد فيه كما روى ابن أبى حاتم عن حبيب بن صهبان ، قال : قال رجل من المسلمين - وهو حُجْر بن عَدَى : ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو ، هذه النطفة؟! - يعنى دجلة - ﴿ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ﴾ ، ثم أقحم فرسه دجلة فلما أقحم أقحم الناس فلما رأهم العدو قالوا: ديوان ، فهربوا (٢) .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ أى : من كان عمله للدنيا فقط نال منها ما قدره الله له ، ولم يكن له فى الآخرة نصيب ، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها مع ما قسم له فى الدنيا كما قال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٨ ، ١٩] وهكذا قال هاهنا : ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ أى : سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا فى الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم .

ثم قال تعالى - مسلماً للمسلمين عما كان وقع فى نفوسهم يوم أحد - : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلْ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ ﴾ (٣) ، قيل : معناه : كم من نبي قتل وقتل معه ربيون من أصحابه كثير . وهذا القول هو اختيار ابن جرير ، فإنه قال : وأما الذين قرؤوا : ﴿ قَاتِلْ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ ﴾ فإنهم قالوا : إنما عنى بالقتل النبى وبعض من معه من الربيين دون جميعهم ، وإنما نفى الوهن والضعف عن بقى من الربيين عنى لم يقتل . قال : ومن قرأ ﴿ قَاتِلْ ﴾ فإنه اختار ذلك لأنه قال : لو قتلوا لم

(١) هكذا ساقه البخارى حديثاً واحداً (٨ / ١١٠ ، ١١١ فتح) واختصره ابن كثير قليلا . وهو فى حقيقته ثلاثة أحاديث رواها الزهرى : اثنان منها عن أبى سلمة عن عائشة ، وعن أبى سلمة عن ابن عباس ، والثالث عن ابن السيب عن عمر .

(٢) حبيب بن صهبان أبو مالك الأسدى : تابعى كبير ثقة . روى عن عمر وغيره . وثقة ابن سعد (٦ / ١١٥) ، وغيره . و « صهبان » : بضم الصاد المهملة وسكون الهاء . ووقع فى المخطوطة « ضبيان » ، وفى المطبوعة « ظبيان » ! وكلاهما تصحيف . وهذه الحادثة كانت فى فتح المدائن سنة ١٦ . وقد رواها الطبرى فى تاريخه بنحو معناها (٤ / ١٧٢ ، ١٧٣) بإسنادين . وفيه : « عن حبيب بن صهبان أبى مالك ، قال : لما عبر المسلمون يوم لمدائن دجلة ، فظفروا إليهم يعبرون ، جعلوا يقولون بالفارسية : ديوان آمد . وقال بعضهم لبعض : والله ما تقاتلون الإنس ، وما تقاتلون إلا الجن ! فانهزموا » . وذكرها ابن كثير فى التاريخ مختصرة (٧ / ٦٤) . وكلمة « ديوان » - معناها : الشيطان . انظر العرب للجوالقى ، (ص ١٥ طبع دار الكتب المصرية بتحقيقنا) .

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن محيصن واليزيدى (قتل) بضم القاف وكسر التاء . وهى القراءة التى فسر عليها المحافظ ابن كثير هنا ثم حكى بعد ذلك القراءة الأخرى (قاتل) ، وهى قراءة باقى القراء الأربعة عشر ، وعليها قراءة حفص المروفة .

يكن لقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ وجه معروف؛ لأنهم يستحيل أن يوصفوا بأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا بعد ما قتلوا. ثم اختار قراءة من قرأ ﴿قُتِلَ مَعَهُ رَيْبُونَ كَثِيرٌ﴾ (١)؛ لأن الله عاتب بهذه الآيات والتي قبلها من انهزم يوم أحد، وتركوا القتال لما سمعوا الصائح يصيح: «بأن محمداً قد قتل. فعدلهم الله على فرارهم وتركهم القتال فقال لهم: ﴿أَفَأَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ أيها المؤمنون ارتددتم عن دينكم ﴿انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾؟ وقيل: وكمن من نبي قُتِلَ بين يديه من أصحابه ريبون كثير.

وعن ابن مسعود ﴿رَيْبُونَ كَثِيرٌ﴾، أي: ألوف. وقال ابن عباس، ومجاهد وسعيد بن جبيرة وغيرهم: الريبون: الجموع الكثيرة. وقال الحسن: أي: علماء كثير، وعنه أيضاً: علماء صبر أربار أتقياء. وحكى ابن جرير، عن بعض نحاة البصرة: هم الذين يعبدون الرب، عز وجل، قال: ورد بعضهم عليه فقال: لو كان كذلك لليل «الريبون»، بفتح الراء. وقال ابن زيد: الريبون: الاتباع، والرعية، والربانيون: الولاة.

﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال قتادة والربيع بن أنس: ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ بقتل نبيهم ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾، يقول: فما ارتدوا عن بصيرتهم (٢) ولا عن دينهم، أن قاتلوا على ما قاتل عليه نبي الله حتى لحقوا بالله. ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾. وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَفْئِدَانَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: لم يكن لهم هجيري إلا ذلك (٣). ﴿فَاتَّاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ أي: النصر والظفر والعاقبة ﴿وَوَحَّسَنَّا ثَوَابَ الْآخِرَةِ﴾ أي: جمع لهم ذلك مع هذا، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿يَتَّيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَا نُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْخِرَكُمْ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْخِرَكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ فَأَتْبِكُمْ غَمًّا لِيُكَيِّلَ تَحَزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

ربع

(١) انظر الطبرى (٧/ ٢٦٤ ، ٢٦٥ طبعنا) .

(٢) فى المطبوعة : « عن نصرتهم » وهو خطأ ، والصواب من المخطوطة الأزهرية . وانظر الطبرى (٧ / ٢٧٠) .

(٣) أى: لم يكن دأبهم وشأنهم وكلامهم إلا ذلك . وهى بكسر الهاء وتشديد الجيم المكسورة وآخرها ألف مقصورة .

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين ، فإن طاعتهم تورث الردى فى الدنيا والآخرة (١) ؛ ولهذا قال : ﴿ إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَقْبَلُوا خَاسِرِينَ ﴾ . ثم أمرهم بطاعته ومولاته ، والاستعانة به ، والتوكل عليه ، فقال : ﴿ بَلَىٰ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ .

ثم بشرهم بأنه سيلقى فى قلوب أعدائهم الخوف منهم والذلة لهم ، بسبب كفرهم وشركهم ، مع ما ادخره لهم فى الدار الآخرة من العذاب والنكال ، فقال : ﴿ سَنَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّغْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَىٰ الظَّالِمِينَ ﴾ . وقد ثبت فى الصحيحين عن جابر بن عبد الله ، أن رسول الله ﷺ قال : « أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرَّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَىٰ قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعثَ إِلَى النَّاسِ عَامَةً . وروى الإمام أحمد عن أبى أمامة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « فَضَّلَنِي رَبِّي عَلَى الْأَنْبِيَاءِ - أَوْ قَالَ : عَلَى الْأُمَّمِ - بِأَرْبَعٍ : « أُرْسِلْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ كُلُّهَا وَلاَ مَتَى مَسْجِدًا وَطَهْرًا ، فَأَيْنَمَا أَدْرَكْتُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي الصَّلَاةُ فَعِنْدَهُ مَسْجِدُهُ وَطَهْرُهُ ، وَنُصِرْتُ بِالرَّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ يَقْدِفُهُ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِي وَأَحَلَّ لَنَا الْغَنَائِمُ . ورواه الترمذى وقال : حسن صحيح (٢) . وروى الإمام أحمد عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « أُعْطِيَتْ خَمْسًا : بُعثتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَهْرًا وَمَسْجِدًا ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَكَمْ تَحَلَّ لِمَنْ كَانَ قَبْلِي ، وَنُصِرْتُ بِالرَّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ ، وَكَيْسَ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ سَأَلَ شَفَاعَتَهُ ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ شَفَاعَتِي ، ثُمَّ جَعَلْتُهَا لِمَنْ مَاتَ لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا . تفرد به أحمد (٣) .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ ﴾ . قال ابن عباس : وعدهم الله النصر .

وقد يستدل بهذه الآية على أحد القولين المتقدمين فى قوله : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ . بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ : أن ذلك كان يوم أحد لأن عدوهم كان ثلاثة آلاف مقاتل ،

(١) وقد وقع المسلمون فى هذه العصور الأخيرة فيما نهاهم الله عنه من طاعة الذين كفروا فأسلموا إلى الكفار عقولهم وألبابهم ، وأسلموا إليهم - فى بعض الأحيان - بلادهم ، وصاروا فى كثير من الأقطار رعية للكافرين من الحاكمين ، وأتباعاً لدولهم هى ألد الأعداء للإسلام والمسلمين ، ووضعوا فى أعناقهم ريقه الطاعة لهم ، بما هو من حق الدول من طاعة المحكوم للحاكم . بل قاتل ناس ينتسبون للإسلام من رعايا الدول العدو للإسلام - إخوانهم المسلمين فى دول كانت إسلامية إذ ذاك . ثم عم البلاء ، فظهر حكام فى كثير من البلاد الإسلامية يدينون بالطاعة للكفار - عقلاً وروحاً وعقيدة - واستذلوا الرعية من المسلمين وبثوا فيهم عداوة الإسلام بالتدرج ، حتى كادوا يردوهم على أعقابهم خاسرين ، وما أولئك بالمسلمين . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

(٢) المسند (٥/ ٢٤٨ حلى) . وصححه عنه ومن المخطوطة .

(٣) المسند (٤/ ٤١٦ حلى) والزوائد (٨/ ٢٥٨) وقال : « رواه أحمد متصلًا ومرسلًا ، والطبرانى ، ورجال رجال الصحيح » . وقد رواه أحمد أيضا بنحوه (٢٧٤٢) من حديث ابن عباس . وإسناده صحيح . وهذا المعنى ثابت عن كثير من الصحابة ، حتى ليكاد يكون متواترا معنى .

فلما واجهوهم كان الظفر والنصر أول النهار للإسلام، فلما حصل ما حصل - من عصيان الرِّمَّة وفشل بعض المقاتلة، تأخر الوعد الذي كان مشروطاً بالثبات والطاعة (١)؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أى: أول النهار ﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ﴾ أى: تقتلونهم ﴿بِأَذْنِهِ﴾ أى: بتسليطه إياكم عليهم ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ قال ابن عباس: الفشل الجبن ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَعَصَيْتُمْ﴾ كما وقع للرِّمَّة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تَحْبُونَ﴾ وهو الظفر بهم، ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ وهم الذين رغبوا فى المغنم حين رأوا الهزيمة ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ثم أدا لهم عليكم (٢) ليختبركم ويمتحنكم ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ أى: غفر لكم ذلك الصنيع، وذلك - والله أعلم - لكثرة عدد العدو وعددهم، وقلة عدد المسلمين وعددهم ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، روى الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال: ما نصر الله فى موطن كما نصر يوم أحد. فأنكرنا ذلك! فقال ابن عباس: بينى وبين من أنكر ذلك كتاب الله، إن الله يقول فى يوم أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ﴾، يقول ابن عباس: والحس: القتل. ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾، وإنما عنى بهذا الرِّمَّة، وذلك: أن النبى ﷺ أقامهم فى موضع، ثم قال: «أحموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا». فلما غنم النبى ﷺ وأباحوا عسكر المشركين أكبت الرِّمَّة جميعاً فى العسكر ينهبون، ولقد التقت صفوف أصحاب رسول الله ﷺ، فهم هكذا - وشبك بين يديه - وانتشبا، فلما أحل الرِّمَّة تلك الخلة التى كانوا فيها، دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب رسول الله ﷺ، فضرب بعضهم بعضاً والتبسوا، وقتل من المسلمين ناس كثير، وقد كان لرسول الله ﷺ وأصحابه أول النهار، حتى قُتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة، وجال المسلمون جولة نحو الجبل ولم يبلغوا - حيث يقول الناس - الغار، إنما كانوا تحت المهراس، وصاح الشيطان: قتل محمد! فلم يشك فيه أنه حق، فما زلنا كذلك ما نشك أنه حق، حتى طلع رسول الله ﷺ بين السعدين، نعرفه بتكفئه إذا مشى، قال: ففرحنا حتى كأنه لم يصبنا ما أصابنا، قال: فرقى نحونا وهو يقول: «اشتد غضبُ الله على قومٍ دموا وجهَ رسولِ الله». ويقول مرة أخرى: [«اللهم إنه ليس لهم أن يعلنوا»]. حتى انتهى إلينا، فمكث ساعة، فإذا أبو سفيان يصيح فى أسفل الجبل: اعل هبل، مرتين - يعنى آلهته - أين ابن أبى كبشة؟ أين ابن أبى قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: يا رسول الله، ألا أجيئه؟ قال: «بلى» قال: فلما قال: اعل هبل. قال عمر: الله أعلى وأجل.

فقال أبو سفيان: إنه قد أنعمت عينها فعَالَ عنها، فقال: أين ابن أبى كبشة؟ أين ابن أبى قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: هذا رسول الله، وهذا أبو بكر، وها أنا ذا عمر. قال: فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، الأيام دُول، وإن الحرب سجال. قال: فقال عمر: لا سواء،

(١) انظر ما مضى عند تفسير الآيات : (١٢٤ - ١٢٩) .

(٢) فى المطبوعة : « ثم أدا لكم عليهم » ؛ وهو تخليط نقيض للمراد . والصواب من المخطوطة .

قتلنا في الجنة وقتلاكم في النار. قال: إنكم لتزعمون ذلك، لقد خَبِنَا إِذْنِ وَخَسِرْنَا ثُمَّ قَالَ أَبُو سَفْيَانَ: إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي قِتْلَاكُمْ مَثَلَةً ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَنْ رَأْيِ سَرَاتِنَا. قَالَ: ثُمَّ أَدْرَكَتْهُ حَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ فَقَالَتْ: أَمَا إِنَّهُ إِنْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ نَكْرَهُهُ. هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، وَسِيَاقٌ عَجِيبٌ، وَهُوَ مِنْ مَرْسَلَاتِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فَإِنَّهُ لَمْ يَشْهَدْ أَحَدًا وَلَا أَبُوهُ. وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ بَيْهَقٍ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ، وَبَعْضُهُ شَوَاهِدٌ فِي الصَّحَاحِ وَغَيْرِهَا (١)، فَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: إِنْ النَّسَاءُ كُنْ يَوْمَ أَحَدٍ، خَلْفَ الْمُسْلِمِينَ، يُجْهَزْنَ عَلَى جَرْحِي الْمَشْرُوكِينَ، فَلَوْ حَلَقْتُ يَوْمَئِذٍ رَجُوتُ أَنْ أَبْرَ: أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مَنَا يُرِيدُ الدُّنْيَا، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَتْلِيَكُمْ﴾ فَلَمَّا خَالَفَ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَصَوْا مَا أَمَرُوا بِهِ، أَفْرَدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي تِسْعَةِ: سَبْعَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ، وَهُوَ عَاشِرُهُمْ، فَلَمَّا رَهَقُوهُ قَالَ: ﴿رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَدَّهُمْ عَنَّا﴾. قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَاتَلَ سَاعَةً حَتَّى قُتِلَ، فَلَمَّا رَهَقُوهُ أَيْضًا قَالَ: ﴿رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا رَدَّهُمْ عَنَّا﴾. فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ ذَا حَتَّى قُتِلَ السَّبْعَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِصَاحِبِهِ: ﴿مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا﴾. فَجَاءَ أَبُو سَفْيَانَ فَقَالَ: اءَعْلَى هَبْلًا! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُ﴾. فَقَالُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُ. فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ: لَنَا الْعُزَى وَلَا عُزَى لَكُمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قُولُوا: «اللَّهُ مَوْلَانَا، وَالْكَافِرُونَ لَأَمْوَالِي لَهُمْ». ثُمَّ قَالَ أَبُو سَفْيَانَ: يَوْمٌ بِيَوْمٍ بَدْرٌ، يَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا ، وَيَوْمٌ نِسَاءٌ وَيَوْمٌ نُسَرٌ. حَنْظَلَةٌ بِحَنْظَلَةٍ، وَفَلَانٌ بِفَلَانٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا سَوَاءَ. أَمَا قِتْلَانَا فَأَحْيَاءُ يُرْزَقُونَ، وَقِتْلَاكُمْ فِي النَّارِ يُعَذِّبُونَ». قَالَ أَبُو سَفْيَانَ: قَدْ كَانَتْ فِي الْقَوْمِ مَثَلَةٌ، وَإِنْ كَانَتْ لَعَنَ غَيْرَ مَلَأَ مَنَا، مَا أَمَرْتُ وَلَا نَهَيْتُ، وَلَا أَحْبَبْتُ وَلَا كَرِهْتُ، وَلَا سَأَنْتِي وَلَا سَرْنِي. قَالَ: فَنَظَرُوا فَإِذَا حِمَزَةٌ قَدْ بَقِرَ بَطْنُهَا، وَأَخَذَتْ هُنْدُ كَبِدَهُ فَلَاكِنَهَا فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَأْكُلَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَكَلَتْ شَيْئًا؟» قَالُوا: لَا. قَالَ: «مَا كَانَ اللَّهُ لِيُدْخِلَ شَيْئًا مِنْ حِمَزَةٍ فِي النَّارِ». قَالَ: فَوَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِمَزَةً فَصَلَّى عَلَيْهِ، وَجِيءَ بِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَوُضِعَ إِلَى جَنْبِهِ فَصَلَّى عَلَيْهِ، فَرَفَعَ الْأَنْصَارِيُّ وَتَرِكَ حِمَزَةً، ثُمَّ جِيءَ بِآخَرَ فَوَضِعَهُ إِلَى جَنْبِ حِمَزَةٍ فَصَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ رَفَعَ وَتَرِكَ حِمَزَةً ، حَتَّى صَلَّى عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ صَلَاةً . تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ أَيْضًا (٢).

(١) المسند (٢٦٠٩). وقد صححنا نصه منه ومن المخطوطة الأزهرية . وذكره الحافظ ابن كثير في التاريخ أيضًا (٢٤/٢٥) ، وقال: « وهذا حديث غريب ، وهو من مرسلات ابن عباس ، وله شواهد من وجوه كثيرة » . وإسناده صحيح ، وقد صححه الحاكم (٢/ ٢٩٦ ، ٢٩٧) ، ووافقه الذهبي . وظاهر سياقه قد يوهم أن ابن عباس شهد الواقعة ، وليس مرادًا على اليقين ، فإنه كان إذا ذاك طفلًا مع أبيه بكة . وسامعوه حين تحدث به ، ومنهم عبيد الله بن عبد الله بن عتبة - يعرفون ذلك لا يشكون فيه - فهو من مراسيله كما قال ابن كثير . بل الراجح أنه حدث به عن أحد من الصحابة عن شهادها ، فأسقط بعض الرواة اسمه . ولكن بقيت الدلالة عليه في نص الحديث ، مثل قوله « فما رلنا كذلك » ، « فرقى نحونا » وغيرهما . فهو عن أحد الصحابة الذين كانوا على الحبل تحت المهراس . وقد أشار إليه الحافظ في الفتح (٧ / ٢٧٠) .

(٢) المسند (٤٤١٤) . ونقله ابن كثير في التاريخ أيضًا (٤ / ٤٠ ، ٤١) وقال : « تفرد به أحمد ، وهذا إسناد فيه ضعف من جهة عطاء بن السائب » . وكذلك قال صاحب الزوائد (٦/ ١٠٩ ، ١١٠) : « وفيه عطاء بن السائب ، وقد اختلط » . وهذا التعليل منهما غير جيد؛ لأن حماد بن سلمة - رواه - سمع من عطاء قديمًا قبل اختلاطه .

وروى البخارى عن البراء قال: لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جِيشًا من الرِّمَّةِ، وأمر عليهم عبد الله بن جبير وقال: «لَا تَبْرَحُوا إِنْ رَأَيْتُمْوْنَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمْوهم ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا تُعِينُونَا». فلما لقيناهم هربوا، حتى رأينا النساء يشتدْنَ فى الجبل، رفَعْنَ عن سوقهن، وقد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة. فقال عبد الله بن جبير: عهد إلى النبي ﷺ ألا تَبْرَحُوا. فأبوا، فلما أبوا صرَف وجوههم، فأصيب سبعون قتيلًا، وأشرف أبو سفيان فقال: أفى القوم محمد؟ فقال: «لَا تُجِيبُوهُ». فقال: أفى القوم ابن أبى قحافة؟ فقال: «لَا تُجِيبُوهُ». فقال: أفى القوم ابن الخطاب؟ فقال له: إن هؤلاء قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمرُ نفسه فقال: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، قد أبقى الله لك ما يخزيك. فقال أبو سفيان: اعلِ هُبُلًا! فقال النبي ﷺ: «أجيبُوهُ». قالوا: ما نقول؟ قال: «قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ». فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم! فقال النبي ﷺ: «أجيبُوهُ». قالوا: ما نقول؟ قال: «قُولُوا: اللَّهُ مَوْلَانَا، وَلَا مَوْلَى لَكُمْ». قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وتجدون مثله لم أمر بها ولم تسونى (١).

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ وروى البخارى عن أنس بن مالك : أن عمه - يعنى أنس ابن النضر - غاب عن بدر فقال: غِبتُ عن أول قتال النبي ﷺ، لئن أشهدنى الله مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أجد، فلقى يوم أحد، فهزم الناس، فقال: اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعنى المسلمين - وأبرأ إليك مما جاء به المشركون ، فتقدم بسيفه فلقى سعد بن معاذ فقال: أين يا سعد؟ إنى أجد ريح الجنة دون أحد. فمضى فقتل، فما عرف حتى عرفته أخته بينانه بشامة أو بشيابه، وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم وأخرجه مسلم بنحوه (٢).

وقوله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ أى: صرفكم عنهم إذا تصعدون ،أى: فى الجبل هارين من أعدائكم ﴿وَلَا تَلْوَنَ عَلَى أَحَدٍ﴾ أى: وأنتم لا تلون على أحد من الدهش والخوف والرعب ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ﴾ أى: وهو قد خلفتموه وراء ظهركم يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء، وإلى الرجعة والعودة والكرة. وثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ فَعَلُوا بِرَسُولِ اللَّهِ - وهو حينئذ يشير إلى ربايعته - اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى رَجُلٍ يَقْتُلُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (٣). وأخرج البخارى عن ابن عباس قال: اشتد غضب الله على من قتله رسول الله ﷺ بيده فى سبيل الله، اشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسول الله ﷺ. وقال ابن إسحاق: أصيبت رباعية رسول الله ﷺ وشج فى وجنته، وكلمت شفته، وكان الذى أصابه عتبة بن أبى وقاص.

(٢) الفتح (٧/ ٢٧٤) .

(١) فتح البارى (٧/ ٢٦٩ - ٢٧٢) .

(٣) الفتح (٧/ ٢٨٦) ومسلم (٢/ ٦٧) . وهو فى الحقيقة حديثان ، من صحيفة همام بن منبه عن أبى هريرة ، فى المسند (٨١٩٨ ، ٨١٩٨ م) .

قال الواقدي: وَالثَّبْتُ عِنْدَنَا أَنَّ الذِّي دَمَى وَجَنَّتِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ابْنُ قَمِيئَةَ، وَالذِّي رَمَى شَفْتَهُ وَأَصَابَ رِبَاعِيَةَ عَتْبَةَ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ . وَقَدْ ثَبِتَ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ أَنَّهُ سَأَلَ عَنْ جُرْحِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: جُرْحُ وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ وَكُسِرَتْ رِبَاعِيَتُهُ، وَهُشِمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، فَكَانَتْ فَاطِمَةُ [بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ] تَغْسِلُ الدَّمَ، وَكَانَ عَلَيَّ يَسْكَبُ عَلَيْهِ بِالْمِجْنِ، فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةُ أَنَّ الْمَاءَ لَا يَزِيدُ الدَّمَ إِلَّا كَثْرَةً، أَخَذَتْ قِطْعَةً مِنْ حَصِيرٍ فَأَحْرَقَتْهَا، حَتَّى إِذَا صَارَتْ رَمَادًا أَلْصَقَتْهُ بِالْجُرْحِ، فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ.

وقوله: ﴿فَأَنَابِكُمْ غَمًّا يَغْمُّكُمْ﴾ أَي: فَجَازَاكُمْ غَمًّا عَلَى غَمِّ كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ: نَزَلَتْ بِنِي فُلَانٍ، وَنَزَلَتْ عَلَى بَنِي فُلَانٍ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿وَلَا صَلْبِنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أَي: عَلَى جُدُوعِ النَّخْلِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْغَمُّ الْأُولُ: بِسَبَبِ الْهَزِيمَةِ وَحِينَ قِيلَ: قَتَلَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَالثَّانِي: حِينَ عَلَاهُمُ الْمُشْرِكُونَ فَوْقَ الْجَبَلِ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَعْلُونَا». وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ: الْغَمُّ الْأُولُ: بِسَبَبِ الْهَزِيمَةِ، وَالثَّانِي: حِينَ قِيلَ: قَتَلَ مُحَمَّدٌ ﷺ، كَانَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ أَشَدَّ وَأَعْظَمَ مِنَ الْهَزِيمَةِ وَرَاهِمَا ابْنُ مَرْدُودِيَةَ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَأُولَى هَذِهِ الْأَقْوَالُ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: فَأَنَابِكُمْ بِغَمِّكُمْ - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - بِحَرَمَانِ اللَّهِ إِيَّاكُمْ غَنِيمَةَ الْمُشْرِكِينَ وَالظَّفْرَ بِهِمْ وَالنَّصْرَ عَلَيْهِمْ، وَمَا أَصَابَكُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالْجِرَاحِ يَوْمَئِذٍ - بَعْدَ الَّذِي كَانَ قَدْ أَرَاكُمْ فِي كُلِّ ذَلِكَ مَا تَحْبُونَ - بِمَعْصِيَتِكُمْ رَبِّكُمْ، وَخِلَافِكُمْ أَمْرَ نَبِيِّكُمْ ﷺ، غَمٌّ ظَنَنْتُمْ أَنَّ نَبِيَكُمْ قَدْ قَتَلَ، وَمِيلَ الْعَدُوِّ عَلَيْكُمْ بَعْدَ فُلُولِكُمْ مِنْهُمْ (١).

وقوله: ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ أَي: عَلَى مَا فَاتَكُمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ بَعْدَكُمْ ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ مِنَ الْقَتْلِ وَالْجِرَاحِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنًا نَّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَوْلُوا مِنْكُمْ يَوْمَ الْاِجْمَاعِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾

(١) يعنى بعد هزيمتكم وفراكم منهم . وهذا هو الذى فى المخطوطة الأزهرية . وفى المطبوعة : « ونبوكم منهم » !
وهو تصرف غير سديد من الطابع . والذى أثبتنا هو الموافق لما فى الطبرى (٨ / ٣١٣) .

يقول تعالى مُمْتَنَّا عَلَىٰ عِبَادِهِ فِيمَا أُنزِلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّكِينَةِ وَالْأَمْنَةِ، وهو النعاس الذي غشبيهم وهم مستلثموا السلاح في حال همهم وعمهم^(١)، والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان، كما قال في سورة الأنفال، في قصة بدر: ﴿إِذْ يُغَشِّبُكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ الآية [الأنفال: ١١]. وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال: النعاس في القتال من الله، وفي الصلاة من الشيطان^(٢).

وروى البخارى عن أبي طلحة قال: غَشَبْنَا النعاس ونحن في مَصَافِنَا يوم أحد. قال: فجعل سيفى يسقط من يدي وآخذه، ويسقط وآخذه. وقد رواه الترمذى والنسائى والحاكم بنحو معناه. والطائفة الأخرى: المنافقون ليس لهم همٌ إلا أنفسهم، أجبن قوم وأرعنه، وأخذله للحق ﴿يَظُنُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أهل شك وريب فى الله، عز وجل. فإن الله عز وجل يقول: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنْكُمْ﴾ يعنى: أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأن الله عز وجل سينصر رسوله ويتجز له مأموله، ولهذا قال: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعنى: لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف ﴿يَظُنُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنَ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزِينَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢] وهكذا هؤلاء، اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهله! هذا شأن أهل الريب والشك: إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة. ثم أخبر تعالى عنهم أنهم ﴿يَقُولُونَ﴾ فى تلك الحال: ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ؟﴾ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يَخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾، ثم فسّر ما أخفوه فى أنفسهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ أى: يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ. وعن عبد الله بن الزبير قال: قال الزبير: لقد رأيتنى مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا، أرسل الله علينا النوم، فما منا من رجل إلا ذقته فى صدره، قال: فوالله إنى لأسمع قول مُعْتَبِ بْنِ قَشِيرٍ، ما أسمعته إلا كالحلم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾. فحفظتها منه، وفى ذلك أنزل الله: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ لقول مُعْتَبِ بْنِ قَشِيرٍ. رواه ابن أبي حاتم^(٣).

قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أى: هذا قدر مقدر من الله عز وجل، وحكم حتم لازم لا يحاد عنه، ولا مناص منه.

(١) « مستلثموا السلاح » : من قولهم : « استلام الرجل » : لبس « اللأمة » - بفتح اللام وسكون الهمزة - وهى الدرع ، وقيل : السلاح مطلقا . وفى المطبوعة : « مشتملون السلاح » ! وهو تصحيف قبيح . والصواب من المخطوطة . وقد وثقها كاتب النسخة فوضع تحت السين من كلمة « مستلثموا » ثلاث نقط ، توكيدا لإهمالها ؛ لتلا تقرأ بالمعجمة .

(٢) إسناده صحيح . وهو - وإن كان موقوفا على ابن مسعود لفظا - فإنه يعتبر مرفوعا حكما .

(٣) إسناده صحيح .

وقوله: ﴿وَلِيَتَلَبَّيْهُمُ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أى: يختبركم بما جرى عليكم ، ليميز الخبيث من الطيب، ويظهر أمر المؤمن والمنافق للناس فى الأقوال والأفعال ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أى: بما يختلج فى الصدور من السرائر والضمائر.

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بَعْضَ مَا كَسَبُوا﴾ أى: ببعض ذنوبهم السالفة، كما قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾، أى: عمّا كان منهم من الفرار ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أى: يغفر الذنب ويحلّم عن خلقه، ويتجاوز عنهم، روى الإمام أحمد عن عاصم، عن شقيق، قال: لقي عبد الرحمن بن عوف الوليد بن عقبة، فقال له الوليد: ما لى أراك جفوت أمير المؤمنين عثمان؟ فقال له عبد الرحمن: أبلغه أنى لم أفر يوم عَيْنَيْنِ قال عاصم: يقول يوم أحد - ولم أتخلف عن بدر، ولم أترك سنة عمر! قال: فانطلق فخبّر بذلك عثمان، قال: فقال: أما قوله: إني لم أفر يوم عَيْنَيْنِ - فكيف يعبرنى بذلك وقد عفا الله عنه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بَعْضَ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾!؟ وأما قوله: إني تخلفت يوم بدر - فإني كنت أمرض رقية بنت رسول الله ﷺ حتى ماتت، وقد ضرب لى رسول الله ﷺ بسهم، ومن ضرب له رسول الله ﷺ بسهم فقد شهد. وأما قوله: إني تركت سنة عمر - فإني لا أطيقها ولا هو، فاته فحده بذلك (١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار فى اعتقادهم الفاسد، الدال عليه قوله عن إخوانهم الذين ماتوا فى الأسفار وفى الحروب: لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم. فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أى: عن إخوانهم ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: سافروا للتجارة ونحوها ﴿أَوْ كَانُوا غُزًى﴾ أى: فى الغزو ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾ أى: فى

(١) المسند (٤٩٠). وإسناده صحيح . وعاصم: هو ابن أبى النجود . ووقع فى متن الحديث تحريف فى المطبوعة ، صححناه من المسند والمخطوطة ، وذكره الهيمى فى الزوائد (٧/ ٢٢٦ ، ٨٣/٩ ، ٨٤) ، وزاد نسبه لأبى يعلى والطبرانى والبيزار . «عينين» - بلفظ تثنية العين: جبل من جبال أحد . ولذلك يقال له: «يوم أحد» و«يوم عينين» . ووقع فى المطبوعة: «حين» ! وهو تصحيف عجيب . وثبت على الصواب فى المخطوطة والمسند . وقد أجاب ابن عمر عن عثمان بمثل ذلك ، إذ أراد رجل من أهل مصر أن يغمز عثمان . وحديثه فى المسند (٥٧٧٢) . والبخارى (٧/ ٤٨ ، ٤٩ فتح) .

البلد ﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ أى: ما ماتوا فى السفر ولا قتلوا فى الغزو.

وقوله: ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أى: خلق هذا الاعتقاد فى نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتهم وقتلهم . ثم قال تعالى ردا عليهم: ﴿وَاللَّهُ يَخْتِ وَيُمِيتُ﴾ أى: بيده الخلق وإليه يرجع الأمر، ولا يحيا أحد ولا يموت إلا بمشيئته وقدره، ولا يزداد فى عمر أحد ولا ينقص منه إلا بقضائه وقدره ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أى: وعلمه وبصره نافذ فى جميع خلقه، لا يخفى عليه من أمورهم شىء .

وقوله: ﴿وَلَنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةً مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ تضمن هذا أن القتل فى سبيل الله، والموت أيضا، وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه، وذلك خير من البقاء فى الدنيا وجمع حطامها الفانى .

ثم أخبر بأن كل من مات أو قتل فمصيره ومرجهه إلى الله، عز وجل، فيجزيه بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، فقال: ﴿وَلَنْ مِّمَّ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ .

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يتخذ لكم من ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿١٦٠﴾ وما كان لنبى أن يعقل ومن يعقل يأت بما على يوم القيمة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴿١٦١﴾ أفمن أتبع رضوان الله كمن أباه إسخط من الله وما أوله جهنم ونس المصير ﴿١٦٢﴾ هم درجت عند الله والله بصير بما يعملون ﴿١٦٣﴾ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويُرَكِّبُهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾

يقول تعالى مخاطبا رسوله ﷺ ، ممثنا عليه وعلى المؤمنين ، فيما ألان به قلبه على أمته، المتبعين لأمره ، التاركين لجزره ، وأطاب لهم لفظه : ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ أى : أى شىء جعلك الله لهم لينا لولا رحمة الله بك وبهم . قال قتادة : يقول : فبرحمة من الله لنت لهم . و«ما» صلة، والعرب تصلها بالمعرفة كقوله: ﴿فِيمَا نَقَضَهُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، المائة: ١٣]، وبالنكرة كقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠] وهكذا هاهنا: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ أى : برحمة من الله . وقال الحسن البصرى: هذا خلق محمد ﷺ بعثه الله به . وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] .

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ الفظ: الغليظ، والمراد به هاهنا :

غليظ الكلام؛ لقوله بعد ذلك: ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ أى: لو كنت سيئَ الكلام قاسى القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، وألان جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم، كما قال عبد الله بن عمرو: إنه رأى صفة رسول الله ﷺ فى الكتب المتقدمة: أنه ليس بفظاً، ولا غليظ، ولا سخّاب فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح (١).

ولهذا قال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه فى الأمر إذا حَدَثَ، تطيباً لقلوبهم؛ ليكونوا أنشط لهم فيما يفعلونه شاورهم يوم بدر فى الذهاب إلى العير، فقالوا: يا رسول الله، لو استعرضت بنا عُرْضَ البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا إلى بَرَكِ الْعَمَادِ لسرنا معك، ولا نقول لك كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب، فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك (٢).

وشاورهم - أيضا - أين يكون المنزل؟ حتى أشار المنذر بن عمرو [المُنْعِقَ ليموت]، بالتقدم أمام القوم (٣)، وشاورهم فى أحد فى أن يقعد فى المدينة أو يخرج إلى العدو، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم. وشاورهم يوم الخندق فى مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ، فأبى عليه ذلك السعدان: سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فترك ذلك. وشاورهم يوم الحديبية فى أن يميل على ذَرَارَى المشركين، فقال له الصديق: إنا لم نجئ لقتال أحد، وإنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال. وقال عليه السلام فى قصة الإفك: «أَشِيرُوا عَلَيَّ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ فِي قَوْمٍ أَبْنَا أَهْلِي وَرَمَوْهُمْ، وَإِيْمَ اللَّهُ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ، وَأَبْنَاوَهُمْ بَيْنَ - وَاللَّهِ - مَا عَلِمْتُ [عَلَيْهِ] (٤) إِلَّا خَيْرًا». واستشار عليا وأسامة فى فراق عائشة. فكان يشاورهم فى الحروب ونحوها. وقد اختلف الفقهاء: هل كان ذلك واجبا عليه أو من باب الندب تطيبا لقلوبهم؟ على قولين.

وقد روى الحاكم عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ قال: أبو بكر وعمر، ثم قال:

(١) إشارة إلى حديث المسند (٦٦٢٢). وقد مضى كاملا عند تفسير الآيات (١١٩ - ١٢٠) وبيننا هناك أنه رواه البخارى أيضا .

(٢) هذا الحديث رواه الحافظ ابن كثير من حفظه بالمعنى ، لم يذكره على سبيل رواية معينة . فسطره الأول ثابت معناه من حديث أنس، فى المسند (١٢٠٤٧، ١٢٩٨٦، ١٣٣٣٠، ١٣٧٣٩). وسطره الآخر ثابت معناه من حديث ابن مسعود، فى المسند (٣٦٩٨، ٤٠٧٠، ٤٣٧٦). وتفصيل ذلك فى تاريخ ابن كثير (٣/٢٦٢ - ٢٦٤) و « برك الغماد » : موضع باليمن . ويجوز فتح الباء وكسرها ، وضم الغين وكسرها .

(٣) « المنعق » : بضم الميم وسكون العين وكسر النون . والمنذر هذا : من الخزرج ، شهد بدراً وأحدًا . وقتل شهيداً يوم بئر معونة . قال ابن سعد (٣ / ٢ / ١٠٠ ، ١٠١) : « وقال رسول الله ﷺ : أعتق المنذر ليموت . ويقول : مشى إلى الموت وهو يعرفه » .

(٤) هو جزء من حديث طويل ، رواه البخارى (٤٧٥٠) ومسلم (٥٨ التوبة) والترمذى (٣١٨٠) . وهو فى المسند (٥٩ / ٦) . وكلمة [عليه] ليست فى المطبوع من « عمدة التفسير » وكذا المخطوطة الأزهرية ، وأثبتناها من مصادر التخرىج (الباز) .

صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (١). وقد روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن غنم ، أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر وعمر: ﴿لَوْ اجْتَمَعْتُمَا فِي مَشُورَةٍ مَا خَالَفْتُكُمَا﴾ (٢) .. وروى ابن ماجه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: ﴿الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ﴾. ورواه أبو داود والترمذى ، وحسنه والنسائى بأبسط من هذا (٣). ثم روى بن ماجه عن أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ﴾. تفرد به (٤).

وقوله: ﴿وَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أى: إذا شاورتهم فى الأمر وعزمت عليه فتوكل على الله فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

(١) الحاكم (٧٠/٣) ووافقه الذمى على شرط الشيخين .

(٢) المسند (٢٢٧/٤ حلى) . وإسناده صحيح .

(٣) ابن ماجه (٣٧٤٥) والترمذى (٤/٢٥ ، ٢٦) ، ولم يذكر تحسينه الذى نقله الحافظ ابن كثير . ولكن رواه الترمذى - من هذا الوجه - قبل ذلك ، ضمن قصة مطولة (٣/٢٧٤ - ٢٧٦) ، وقال: «حسن صحيح غريب» .

(٤) ابن ماجه (٣٧٤٦) . وقال البوصيرى فى زوائده: «إسناد حديث أبى مسعود صحيح ، رجاله ثقات» . وكذلك رواه أحمد فى المسند (٥/٢٧٤ حلى) . وأبو مسعود : هو البدرى الأنصارى . ووقع هنا فى المخطوطة والطبوعة «ابن مسعود» . وهو خطأ واضح .

وهذه الآية ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ ، والآية الأخرى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى : ٣٨] ، اتخذهما اللاعيون بالدين فى هذا العصر - من العلماء وغيرهم - عدتهم فى التضليل بالتأويل ، ليواطؤا صنع الإفرنج فى منهج النظام الدستورى الذى يزعمونه ، والذى يخدعون الناس بتسميته «النظام الديمقراطى» ! فاصطنع هؤلاء اللاعبون شعاراً من هاتين الآيتين ، يخدعون به الشعوب الإسلامية أو المنتسبة للإسلام . يقولون كلمة حتى يزداد بها الباطل : يقولون : «الإسلام يأمر بالشورى» ، ونحو ذلك من الألفاظ .

وحقاً إن الإسلام يأمر بالشورى ، ولكن أى شورى يأمر بها الإسلام ؟ إن الله سبحانه يقول لرسوله ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ومعنى الآية واضح صريح ، لا يحتاج إلى تفسير ، ولا يحتمل التأويل . فهو أمر للرسول ﷺ ، ثم لمن يكون ولى الأمر من بعده: أن يستعرض آراء أصحابه الذين يراهم موضع الرأى ، الذى هم أولو الأحلام والنهى ، فى المسائل التى تكون موضع تبادل لآراء وموضع الاجتهاد فى التطبيق . ثم يختار من بينها ما يراه حقاً أو صواباً أو مصلحة ، فيعزم على إنفاذه غير متقيد برأى فريق معين ، ولا برأى عدد محدود ، لا برأى أكثرية ، ولا برأى أقلية ، فإذا عزم توكل على الله ، وأنفذ العزم على ما ارتآه .

ومن المفهوم البديهى الذى لا يحتاج إلى دليل : أن الذين أمر الرسول بمشاورتهم - ويأتسى به فيه من يلى الأمر من بعده - هم الرجال الصالحون القائمون على حدود الله ، المتقون لله ، المقيمو الصلاة ، المؤدو الزكاة ، المجاهدون فى سبيل الله ، الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: ﴿لِيَلْنِي مِنْكُمْ أَوْلُو الْأَحْلَامِ وَالنَّهْيِ﴾ . ليسوا هم الملحدين ، ولا المحاربين لدين الله ، ولا الفجار الذين لا يتورعون عن منكر ، ولا الذين يزعمون أن لهم أن يضعوا شرائع وقوانين تخالف دين الله ، وتهدم شريعة الإسلام . هؤلاء وأولئك - من بين كافر وفسق - موضعهم الصحيح تحت السيف أو السوط ، لا موضع الاستشارة وتبادل الآراء .

والآية الأخرى ، آية سورة الشورى - كمثل هذه الآية وضوحاً وبيانا صراحة : ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الشورى : ٣٨] . ثم هى ما كانت خاصة بطرق لحكم وأنظمة الدولة . إنما هى فى خلق المؤمنين الطائعين المتبعين أمر ربهم أن من خلقهم أن يتشاوروا فى شؤونهم الخاصة والعامه ، ليكون دينهم التعاون والتساند فى شأنهم كله .

ومجال القول ذو سعة . وفيما قلنا عبرة وعظة وكفاية ، إن شاء الله .

وقوله: ﴿إِن يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذَلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾ وهذا كما تقدم من قوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، ثم أمرهم بالتوكل عليه فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُلَ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: ما ينبغي لنبي أن يخون. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: فقدوا قطيفة يوم بدر، فقالوا: لعل رسول الله ﷺ أخذها، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُلَ﴾ أى: يخون. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا حصيبة، حدثنا مِقْسَمٌ حدثني ابن عباس أن هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُلَ﴾ نزلت في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر، فقال بعض الناس: أخذها. قال فأكثروا في ذلك، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُلَ وَمَنْ يَقُلْ يَأْتِ بِمَا غُلُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. ورواه أبو داود، والترمذى والطبرى. وقال الترمذى: حسن غريب. ورواه بعضهم مرسلًا. وروى من غير وجه عن ابن عباس نحو ما تقدم. وهذه تبرئة له، صلوات الله وسلامه عليه، عن جميع وجوه الخيانة في أداء الأمانة وقسم الغنيمة وغير ذلك.

وقرأ الحسن البصرى وطاوس، ومجاهد، والضحاك: ﴿أَنْ يَقُلَ﴾ بضم الياء أى: يخان. وحكى عن بعضهم أنه فسر هذه القراءة بمعنى: يَتَّهَمُ بالخيانة (١).

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقُلْ يَأْتِ بِمَا غُلُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد. وقد وردت السنة بالنهى عن ذلك أيضا في أحاديث متعددة: روى الإمام أحمد عن أبي مالك الأشجعي، عن النبي ﷺ قال: «أَعْظَمُ الْعُثُولِ عِنْدَ اللَّهِ ذِرَاعٌ مِنَ الْأَرْضِ: تَجْدُونَ الرَّجُلَيْنِ جَارِيَيْنِ فِي الْأَرْضِ - أَوْ فِي الدَّارِ - فَيَقْطَعُ أَحَدُهُمَا مِنْ حَظِّ صَاحِبِهِ ذِرَاعًا، فَإِذَا اقْتَطَعَهُ طَوَّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ إِلَى [يَوْمِ الْقِيَامَةِ]» (٢). وروى أيضا عن المُسْتَوْدِ بْنِ شَدَادٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ وُلِيَ لَنَا عَمَلًا وَلَيْسَ لَهُ مَنزَلٌ فَلْيَتَّخِذْ مَنزَلًا، أَوْ لَيْسَتْ لَهُ زَوْجَةٌ فَلْيَتَزَوَّجْ، أَوْ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَتَّخِذْ خَادِمًا، أَوْ لَيْسَ لَهُ ذَابَةٌ فَلْيَتَّخِذْ ذَابَةً، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ غَالٌ» ورواه أبو داود بنحوه (٣). وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «لَا أَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ شَاةً لَهَا نُعَاءٌ، يُنَادِي: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ بَلَغْتُكَ. وَلَا أَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ جَمَلًا لَهُ رِعَاءٌ، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ بَلَغْتُكَ. [وَلَا أَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ فَرَسًا لَهُ حَمَحَمَةٌ، يُنَادِي: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ بَلَغْتُكَ. وَلَا أَعْرِفَنَّ أَحَدَكُمْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُ فِشْعًا مِنْ أَدَمٍ، يُنَادِي: يَا مُحَمَّدُ، يَا مُحَمَّدُ. فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَدْ

(١) القراءة الأولى - بفتح الياء - قراءة ابن كثير وأبي عمرو وعاصم، والقراءة الثانية - بضم الياء - قراءة باقى السبعة.

(٢) المسند (١٧٣٢١). وإسناده صحيح.

(٣) المسند (٢٢٩/٤ حلى) وأبو داود (٢٩٤٥) والمنذرى (٢٨٢٥).

بَلَّغْتُكَ». ولم يروه أحدٌ من أصحاب الكتب الستة (١). وروى الإمام أحمد عن أبي حميد الساعدي قال: استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزدي يقال له: ابن النبتية على الصدقة، ف جاء فقال: هذا لكم وهذا أهدي لى! فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال: «مَا بَالُ الْعَامِلِ نَبِعْتُهُ فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أَهْدَى لى؟! أَفَلَا جَلَسَ فى بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمُّهُ فَيَنْظُرُ أَيُّهُدَى إِلَيْهِ أَمْ لَأ؟! وَالَّذى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَأ يَأْتى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْهَا بِشَىءٍ إِلا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ إِنْ كَانَ بَعيراً لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خَوَارٌ، أَوْ شاةٌ تَبَعْرٌ» ثم رفع يديه حتى رأينا عُرْفَةَ إِبْطِيهِ ثم قال: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟» ثلاثاً أخرجاه (٢). وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً. ذكر الغلُولُ فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، ثم قال: «لَأ أَلْفِينٌ أَحَدَكُمْ يَجىءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعيراً لَهُ رُغَاءٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اغْنِنى. فَأَقُولُ: لَأ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. [لَأ أَلْفِينٌ أَحَدَكُمْ يَجىءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهَا حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اغْنِنى. فَأَقُولُ: لَأ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَأ أَلْفِينٌ أَحَدَكُمْ يَجىءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفَقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اغْنِنى، فَأَقُولُ: لَأ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَأ أَلْفِينٌ أَحَدَكُمْ يَجىءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِنى. فَأَقُولُ: لَأ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً، قَدْ أَبْلَغْتُكَ » أخرجاه (٣). وروى الإمام أحمد عن عدى بن عميرة الكندي قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْيُهَا النَّاسُ، مَنْ عَمِلَ لَنَا مِنْكُمْ عَمَلاً، فَكَتَمْنَا مَخِيطاً فَمَا فَوْقَهُ فَهُوَ غُلٌّ يَأْتى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». قال: فقام رجل من الأنصار أسود، كانى أنظر إليه، فقال: يا رسول الله، اقبل عنى عملك. قال: «وَمَا ذَاكَ؟» قال: سمعتك تقول كذا وكذا. قال: «وَأَنَا أَقُولُ ذَاكَ الْآنَ: مَنْ اسْتَعْمَلَنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجىءْ بِقَلْبِهِ وَكَتْبِهِ، فَمَا أُرْتى مِنْهُ أَحَدُهُ. وَمَا نُهَى عَنْهُ أَنْتَهَى». وكذا رواه مسلم، وأبو داود (٤). وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «رُدُّوا الْخِيَاطَ وَالْمَخِيطَ، فَإِنَّ الْغُلُولَ عَارٌ وَنَارٌ وَسَنَارٌ عَلَى أَهْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (٥). وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال: لما كان يومٌ خيبر

(١) الطبرى (٨١٥٨) وإسناده صحيح . ولم يروه أيضا الإمام أحمد فى المسند . والزيادة من المخطوطة الأزهرية والطبرى . وقوله : « لا أعرفن » : كلمة تقال عند التهديد والوعيد والزجر الشديد . وثبتت فى المطبوع : « لأعرفن! وهو خطأ . و« الثغاء » : صوت الشاة . و« الرغاء » : صوت الإبل . و« القشع » - بكسر القاف وسكون الشين العجمة: هو الجلد الحلق . و« الأدم » : جمع آدم . وهو الجلد . وثبت فى المطبوعة « قسما من آدم » ! وهو تخطيط .

(٢) المسند (٤٢٣/٥ ، ٤٢٤ حلى) والبخارى (١٤٤/١٣ - ١٤٦ فتح) ومسلم (٨٣/٢ ، ٨٤) ورواه الطبرى أيضا (٨١٥٩ - ٨١٦١) .

(٣) المسند (٩٤٩٩) . والزيادة منه ومن المخطوطة الأزهرية . وفى المسند زيادة أخرى لم يذكرها ابن كثير ، وهو فى البخارى (١٢٩/٦ فتح) ومسلم (٨٣/٢) . ورواه أيضا الطبرى (٨١٥٥ - ٨١٥٧) .

(٤) المسند (١٩٢/٤ حلى) ومسلم (٨٤/٢ ، ٨٥) .

(٥) هكذا ذكره الحافظ ابن كثير ، دون نسبة ، وهو - بمعناه - جزء من حديث طويل ، رواه أحمد فى المسند (٦٧٢٩) ، وإسناده صحيح . وفضلنا تخريجه هناك وفى الاستدراك (٣٠١٣) .

أقبل نَفَرٌ من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: فلان شهيد، وفلان شهيد. حتى أتوا على رجل فقالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله ﷺ: «كَلَّا، إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ عَلَّهَا - أَوْ عَبَاءَةٌ». ثم قال رسول الله ﷺ: « اذْهَبْ فَتَادِ فِي النَّاسِ: إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ ». قال : فنادت : إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون . وكذا رواه مسلم ، والترمذى . وقال الترمذى : حسن صحيح (١) .

وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا غنم غنيمة أمر بلالا فينادى فى الناس ، فَيَجِئُونَ بِغَنَائِمِهِمْ ، فيخمسه ويُقسمه ، فجاء رجل يوما بعد النداء بزمام من شَعَرَ فقال : يا رسول الله ، هذا كان مما أصبناه من الغنيمة . فقال : « أَسْمَعْتَ بِلَالًا يُنَادِي ثَلَاثًا؟ » ، قال : نعم . قال : « فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَجِيءَ بِهِ ؟ » فاعتذر إليه ، فقال : « كَلَّا ، أَنْتَ تَجِيءُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَلَنْ أَقْبِلَهُ مِنْكَ » (٢) .

وقوله : « أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطِ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » أى : لا يستوى من اتبع رضوان الله فيما شرعه ، فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه وأجبر من وبيل عقابه ، ومن استحق غضب الله وألزم به ، فلا محيد له عنه ، وماواه يوم القيامة جهنم وبئس المصير . وهذه الآية لها نظائر كثيرة فى القرآن كقوله تعالى : « أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى » [الرعد : ١٩] وقوله : « أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ » [القصاص : ٦١] .

ثم قال : « هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ » . قال الحسن البصرى ومحمد بن إسحاق : يعنى : أهل الخير وأهل الشر درجات ، وقال أبو عبيدة والكسائى : منازل ، يعنى : يتفاوتون فى منازلهم ودرجاتهم فى الجنة ودرجاتهم فى النار ، كما قال تعالى : « وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا » الآية [الانعام : ١٣٢] ؛ ولهذا قال : « وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ » أى : وسيؤفهم إياها ، لا يظلمهم خيرا ولا يزيدهم شرا ، بل يجازى كلا بعمله .

وقوله : « لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » أى : من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به ، كما قال تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا » [الروم : ٢١] أى : من جنسكم ، وقال تعالى : « قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ » [الكهف : ١١٠] ، وقال تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ »

(١) المسند (٢٠٣ ، ٣٢٨) ومسلم (٤٣/١) .

(٢) أبو داود (٢٧١٢) . ورواه أيضا أحمد فى المسند (٦٩٩٦) وابن حبان فى صحيحه (١٤٧/٧) من مخطوطة الإحسان (والحاكم (١٣٩/٢) وصححه . ووقع اسم الصحابى فى مختصر المنذرى (٢٥٩٧) ، والمستدرک « عبد الله بن عمر » . وهو خطأ ، وثبت على الصواب فى أبى داود ومخطوط الذهبى باختصار المستدرک . ثم قد سها الحافظ ابن كثير - هنا - فذكر اسم الصحابى « سمرة بن جندب » ! هكذا ثبت فى المخطوطة والمطبوعة ولعل الحافظ كتبه من حفظه - رحمه الله .

[الفرقان: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم، بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته في فهم الكلام عنه، ولهذا قال: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ يعني: القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أى: يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ليزكوا نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث الذى كانوا متلبسين به فى حال شركهم وجاهليتهم ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ يعنى: القرآن والسنة ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أى: من قبل هذا الرسول ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أى: لفى غى وجهل ظاهر جلى بين لكل أحد.

﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مُمْسِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَلَمْ نَقُلْ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنْ لِلَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ فَنُتَلِّوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابْتُمْ مُمْسِيَةً﴾: وهى ما أصيب منهم يوم أحد من قتل السبعين منهم ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾. يعنى: يوم بدر، فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلًا وأسروا سبعين أسيرًا ﴿قُلْتُمْ أَلَمْ نَقُلْ هَذَا﴾ أى: من أين جرى علينا هذا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾. روى ابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم أحد من العام المقبل، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وفر أصحاب رسول الله ﷺ عنه، وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابْتُمْ مُمْسِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَلَمْ نَقُلْ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ بأخذكم الفداء. وهكذا رواه الإمام أحمد ولكن بأطول منه (١)، وكذا قال الحسن البصرى. وقال محمد بن إسحاق، وابن جريج، والربيع بن أنس، والسدى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ أى: بسبب عصيانكم لرسول الله ﷺ حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتهم، يعنى بذلك الرماة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى: ويفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنْ لِلَّهِ﴾ أى: فراركم بين يدى عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتم لأخرين - كان بقضاء الله وقدره، وله الحكمة فى ذلك. [وقوله]: ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ يعنى بذلك أصحاب عبد الله بن أبى بن سلول الذين

(١) هو جزء من حديث طويل فى المسند (٢٠٨). وسيدكزه الحافظ ابن كثير عند تفسير الآيتين (٩، ١٠) من سورة الأنفال، وينسبه لمسلم وغيره.

رجعوا معه فى أثناء الطريق، فاتبعهم من اتبعهم من المؤمنين يحرضونهم على الإياب والقتال والمساعدة؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ اذْقُوا﴾. قال ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبیر يعنى كثروا سواد المسلمين. فتعللوا قائلين: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ قال مجاهد: يعنون: لو نعلم أنكم تلقون حربا لجنناكم، ولكن لا تلقون قتالا.

[رؤى ابن إسحاق عن جماعة من التابعين، قالوا: [خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - يعنى حين خرج إلى أحد - فى ألف رجل من أصحابه، حتى إذا كان بالشَّوْطِ - بين أحد والمدينة - انحاز عنه عبد الله بن أبى ابن سلول بثلاث الناس، فقال: أطاعهم فخرج وعصانى! ووالله ما ندرى علام تقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس!! فرجع بمن اتبعه من الناس من قومه من أهل النفاق وأهل الريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو ابن حرَّام أخو بنى سلمة، يقول: يا قوم، أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضر من عدوكم، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكننا لا نرى أن يكون قتال. فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم، قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغنى الله عنكم. ومضى رسول الله ﷺ (١).

قال الله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾: استدلوا به على أن الشخص قد تنقلب به الأحوال، فيكون فى حال أقرب إلى الكفر، وفى حال أقرب إلى الإيمان.

ثم قال: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يعنى: أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته، ومنه قولهم هذا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ فإنهم يتحققون أن جندا من المشركين قد جاءوا من بلاد بعيدة، يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من سراتهم يوم بدر، وهم أضعاف المسلمين - أنه كائن بينهم قتال لا محالة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾.

وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ أى: لو سمعوا من مشورتنا عليهم فى القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل. قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت، فينبغى، أنكم لا تموتون، والموت لا بد آت إليكم ولو كنتم فى بروج مشيدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين قال مجاهد، عن جابر بن عبد الله: نزلت هذه الآية فى عبد الله بن أبى ابن سلول.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١١٩﴾﴾
 ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاسْتَبْشِرُوا بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ

أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ ﴿١٧٦﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٧﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِنَّ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٨﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٩﴾

يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار. روى ابن جرير عن ابن إسحاق بن أبي طلحة : حدثني أنس بن مالك في أصحاب رسول ﷺ الذين أرسلهم نبي الله ﷺ إلى أهل بئر معونة ، قال : لا أدري أربعين أو سبعين . وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفرى ، فخرج أولئك النفر من أصحاب رسول الله ﷺ ، حتى أتوا غارا مشرفا على الماء فقعدوا فيه ، ثم قال بعضهم لبعض : أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ [أهل هذا الماء؟ فقال - أراه ابن ملحان الأنصارى :- أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ] . فخرج حتى أتى حواء منهم فاخْتَبَأَ أمام البيوت ، ثم قال : يا أهل بئر معونة ، إني رسول رسول الله إليكم : أتى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فأمنوا بالله ورسوله . فخرج إليه رجل من كسر البيت برُمح فضربه في جنبه حتى خرج من الشق الآخر . فقال : الله أكبر ، فزُت ورب الكعبة . فاتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه في الغار فقتلهم أجمعين عامر بن الطفيل . وقال ابن إسحاق : حدثني أنس بن مالك : أن الله أنزل فيهم قرآنا : (بَلِّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَرَضِينَا عَنْهُ) ، ثم نسخت فرفعت بعد ما قرأناه زمنا وأنزل الله : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ ﴾ (١) . وقد روى مسلم عن مسروق قال : إنا سألنا عبد الله عن هذه الآية : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ ﴾ فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك ؟ فقال : « أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم اطَّلَاعَةً فَقَالَ : هَلْ تَسْتَهْوُونَ شَيْئًا؟ فَقَالُوا : أَى شَيْءٍ نَسْتَهْوَى وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟ فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يَتْرَكُوا مِنْ أَنْ يَسْأَلُوا قَالُوا : يَا رَبُّ ، نُريدُ أَنْ تَرُدَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نُقتَلَ في سبيلك مرةً أُخرى ، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ

(١) هذا الحديث رواه الطبرى فى التفسير (٨٢٢٤) ، والتاريخ (٣٦/٣) بإسناد واحد . وإسناده صحيح . وثبت لفظه فى مخطوطة ابن كثير ناقصا ، وكذلك فى طبعة بولاق . والزيادة التى هنا رادها السيد رشيد رضا رحمه الله من تفسير الطبرى ، وبين ذلك بهامش طبعته . وهى ثابتة فى التاريخ أيضا ، وقوله «حتى أتى حواء منهم» - «الحواء» بكسر الحاء وتخفيف الواو : جماعة بيوت الناس إذا تدان ، وهى من الوبر . وقد ثبت بهذا اللفظ فى تاريخ الطبرى ، وهو أقرب للرسم الثابت فى مخطوطة ابن كثير . وفى تفسير الطبرى «حيًا منهم» ، وهو مقارب أيضًا وفى مطبوعة ابن كثير «حول بيتهم» ! وهو تصحيف .

وهذه القصة بهذا السياق لم أجدها عند غير الطبرى . ولكن معناها ثابت فى روايات كثيرة عن أنس . انظر المسند (١٢٤٢٩ ، ١٣٢٢٨ ، ١٤١١٩) والبخارى (٢٩٧/٧ - ٢٩٩) وطبقات ابن سعد (٣/٢ - ٧١ - ٧٢) . وتفصيل القصة فى تاريخ ابن كثير (٤/٧١ - ٧٤) .

تُرَكُّوا»^(١). وقد روى نحوه من حديث أنس وأبي سعيد . وروى الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ، لَهَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ، يَسْرُهَا أَنْ تَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا إِلَّا الشَّهِيدَ، فَإِنَّهُ يَسْرُهُ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى مِمَّا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ» تفرد به مسلم^(٢) . وروى البخارى عن جابر قال: لما قُتِلَ أبى جعلت أبكى وأكشفت الثوب عن وجهه، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهونى، والنبي ﷺ لم ينه، فقال النبي ﷺ: «لَا تَبْكِيه - أَوْ: مَا تَبْكِيه - مَا زَالَتْ الْمَلَائِكَةُ تَنْظُرُ بِأَجْنَحِهَا حَتَّى رُفِعَ». ورواه مسلم والنسائي بنحوه . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأَحَدٍ جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خَضِرٍ، تَرُدُّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثَمَارِهَا وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبَ مَاكَلَهُمْ وَمَشْرَبَهُمْ، وَحَسَنَ مَنَقَلِبَهُمْ قَالُوا: يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَا يَعْلَمُونَ مَا صَنَعَ اللَّهُ لَنَا، لِنَلَا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكَلُوا عَنِ الْحَرْبِ» فقال الله عز وجل: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ. فَانزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ: ﴿وَلَا تَحْسِنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ وما بعدها» ورواه ابن جرير وأبو داود والحاكم^(٣). روى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «الشَّهَدَاءُ عَلَى بَارِقٍ، نَهْرٍ بِيَابِ الْجَنَّةِ، فِي قُبَّةٍ خَضْرَاءَ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا» تفرد به أحمد ، وإسناده جيد ، ورواه الطبري^(٤).

وكان الشهداء أقسام: منهم من تسرح أرواحهم فى الجنة، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر، فيجتمعون هنالك، ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراى، والله أعلم.

وقد روينا فى مسند الإمام أحمد حديثا فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون فى الجنة تسرح أيضا فيها، وتأكل من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور، وتشاهد ما أعدّه الله لها من الكرامة. وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة؛ فإن الإمام أحمد رواه عن محمد بن إدريس الشافعى، عن مالك بن أنس الأصبحى، عن الزهرى، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَلْقَى فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»^(٥). قوله: «يلقى»، أى: يأكل. وفى هذا الحديث: أن روح المؤمن تكون على شكل طائر فى الجنة. وأما

(١) صحيح مسلم (٩٨/٢). وعبد الله: هو ابن مسعود. وقد مضى بمعناه عند تفسير الآيتين (١٥٣، ١٥٤) من سورة البقرة منسوبا لمسلم.

(٢) المسند (١٢٣٠٠) ومسلم (٩٦/٢).

(٣) المسند (٢٣٨٨، ٢٣٨٩) وأبو داود (٢٥٢٠) والطبري (٨٢٠٥) والحاكم (٢٩٧/٢، ٢٩٨) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبى.

(٤) المسند (٢٣٩٠) والطبري (٢٣٢٣، ٨٢٠٩ - ٨٢١٣) ورواه أيضا ابن حبان فى صحيحه (٦٩/٧) مخطوطة

الإحسان) والحاكم (٧٤/٢) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبى.

(٥) مضى هذا الحديث عند تفسير الآيتين: (١٥٣، ١٥٤) من سورة البقرة.

أرواح الشهداء، فكما تقدم فى حواصل طير خضر، فهى كالكوكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين، فإنها تطير بأنفسها، فنسأل الله الكريم المنان أن يمتتنا على الإيمان.

وقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. أى: الشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله أحياء عند الله، وهم فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة، ويستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم فى سبيل الله: أنهم يقدمون عليهم، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم نسأل الله الجنة. وقد ثبت فى الصحيحين عن أنس فى قصة أصحاب بئر معونة السبعين من الأنصار، الذين قتلوا فى غداة واحدة: وقنت رسول الله ﷺ يدعو على الذين قتلوهم، يدعو عليهم ويلعنهم، قال أنس: ونزل فيه قرآن قرأه حتى رفع: «أَنْ بَلَّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا أَنَا لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَأَرْضَانَا».

ثم قال: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: قال محمد بن إسحاق: استبشروا وسرّوا لما عاينوا من وفاء الموعود وجزيل الثواب. وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم، سواء الشهداء وغيرهم، وكلما ذكر الله فضلا ذكر به الأنبياء وثوابا أعطاهم، إلا ذكر ما أعطى الله المؤمنين من بعدهم.

وقوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾: هذا كان يوم «حمراء الأسد»، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كروا راجعين إلى بلادهم، فلما استمروا فى سيرهم تدمّوا لم لا تمّموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة! فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعّعهم ويريهم أن بهم قوّة وجلدا، ولم يأذن لأحد سوى من حضر الواقعة يوم أحد، سوى جابر بن عبد الله - لما سنذكره - فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والإثخان، طاعة لله ولرسوله ﷺ. وقال محمد بن إسحاق: كان يوم أحد يوم السبت للنصف من شوال، فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذن مؤذن رسول الله ﷺ فى الناس بطلب العدو، وأذن مؤذنه ألا يخرجنّ معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس. فكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، فقال: يا رسول الله، إن أبى كان خلّفنى على أخوات لى سبّع، وقال: يا بنى، إنه لا ينبغى لى ولا لك أن تترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن، ولست بالذى أوثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسى، فتخلّف على أخواتك، فتخلّفت عليهن، فأذن له رسول الله ﷺ، فخرج معه. وإنما خرج رسول الله ﷺ مرهبا للعدو، وليبلغهم أنه خرج فى طلبهم ليظنوا به قوّة، وأن الذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم. قال ابن إسحاق: فحدثنى عبد الله بن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبى السائب مولى عائشة بنت عثمان؛ أن رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ من بنى عبد الأشهل - كان شهد أحدا - قال: شهدنا أحدا مع رسول الله ﷺ أنا وأخ لى، فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج فى طلب العدو، قلت لأخى - أو قال: أنفتوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ، وكنت أيسر جراحا منه،

فكان إذا غلب حملته عُقْبَةً، ومشى عُقْبَةً حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون. وروى البخارى عن عائشة: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرُّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، قالت لعروة: يا ابن أختى، كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر، لما أصاب نبي الله ﷺ ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا، فقال: «مَنْ يَرْجِعْ فِي أَثْرِهِمْ؟» فانتدبَ منهم سبعون رجلا، فيهم أبو بكر والزبير ورواه الحاكم ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. كذا قال! ورواه ابن ماجه وسعيد بن منصور وأبو بكر الحميدى (١).

وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ أى: الذين توعدتهم الناس بالجموع وخوفوهم بكثرة الأعداء، فما اكثرثوا لذلك، بل توكلوا على الله واستعانوا به ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. وروى البخارى عن ابن عباس: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾: قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ورواه النسائى. والعجب أن الحاكم رواه ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه! (٢).

وقد روى الإمام أحمد عن عوف بن مالك: أن النبي ﷺ قضى بين رجلين، فقال المقضى عليه لما أدبر: حسبى الله ونعم الوكيل. فقال النبي ﷺ: «رُدُّوْا عَلَيَّ الرَّجُلَ». فقال: «ما قلت؟». قال: قلت: حسبى الله ونعم الوكيل. فقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ قُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ». وكذا رواه أبو داود والنسائى بنحوه (٣). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدْ أَلْتَمَ الْقَرْنَ وَحَنَى جَبْهَتَهُ، يَسْتَمِعُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخُ». فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فما نقول؟ قال: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا». وقد روى هذا من غير وجه، وهو حديث جيد (٤). وروينا عن أم المؤمنين عائشة وزينب بنت جحش أنهما تفاخرتا، فقالت زينب: زوجنى الله وزوجكن أهاليكن. وقالت عائشة: نزلت براءتى من السماء فى القرآن. فسَلَّمَتْ لها زينب، ثم قالت: كيف قلت حين ركبت راحلة صفوان بن المعطل؟ فقالت: قلت: حسبى الله ونعم الوكيل، فقالت زينب: قلت كلمة المؤمنين.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَقَضِيَ لَهُمْ يَمْسَسَهُمْ سُوءٌ﴾ أى: لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم وردد عنهم بأس من أراد كيدهم، فرجعوا إلى بلدهم ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَقَضِيَ لَهُمْ

(١) البخارى (٧/ ٢٨٧ فتح) والحاكم (٢/ ٢٩٨). ورواه أيضا الطبرى بنحوه: (٨٢٣٩، ٨٢٤١).

(٢) الفتح (٨/ ١٧٢) والحاكم (٢/ ٢٩٨). والعجب أيضا أن الذهبى لم يتعقب فى استدراكه هذا الحديث، وهو فى صحيح البخارى!

(٣) المسند (٦/ ٢٤، ٢٥ حلى) وإسناده صحيح. ورواه أيضا المزى فى تهذيب الكمال. (ص ٥٧١ مخطوط مصور) بإسناده.

(٤) المسند (٣٠١٠) وسيذكره الحافظ ابن كثير عند تفسير الآية: ٨ من سورة المثر، من رواية ابن أبى حاتم. ورواه الحاكم (٤/ ٥٥٩).

يَمْسَهُمْ سُوءٌ ﴿١٧٦﴾ مَا أَضْمَرَ لَهُمْ عَدُوَّهُمْ ﴿١٧٧﴾ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٨﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أى: يخوفكم أوليائه، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى: فإذا سول لكم فأوهمكم فتوكلوا على والجؤوا إلى، فانا كافيكم وناصركم عليهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾، إلى قوله: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٦-٣٨]، وقال: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وقال: ﴿أَوَلَيْكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبِينَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال: ﴿وَلْيَنْصُرْنَا اللَّهُ مِنْ نِصْرَتِهِ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذرتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غانر: ٥١، ٥٢].

﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٧٦﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٧٧﴾

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرًا لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ﴿١٧٨﴾

﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٧٩﴾

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ﴿١٨٠﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾، وذلك من شدة حرصه على الناس كان يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق، فقال تعالى: لا يحزنك ذلك ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ أى: حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته ألا يجعل لهم نصيبا فى الآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى مخبرا عن ذلك إخبارا مقررأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أى: استبدلوا هذا بهذا ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أى: ولكن يضررون أنفسهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرًا لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾، كقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ . نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، وكقوله: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤]، وكقوله: ﴿فَلَا تَعْجَبْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ [التوبة: ٥٥].

ثم قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أي: لأبَد أن يعقد سببا من المحنة، يظهر فيه وليه، ويفتضح فيه عدوه. يُعرف به المؤمن الصابر، والمنافق الفاجر. يعنى بذلك يوم أحد الذى امتحن الله به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وطاعتهم لله ولرسوله ﷺ، وهتك به ستر المنافقين، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله. قال مجاهد: ميز بينهم يوم أحد. وقال قتادة: ميز بينهم بالجهاد والهجرة.

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ أي: أنتم لا تعلمون غيب الله فى خلقه حتى يتميز لكم المؤمن من المنافق، لولا ما يعقده من الأسباب الكاشفة عن ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ، كقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

ثم قال: ﴿فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: أطيعوا الله ورسوله واتبعوه فيما شرعه لكم ﴿وَلِإِنْ تَوَلَّوْا وَتَقَوَّا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا يَحْسِنُ الَّذِينَ يَخْلُونَ بِمَا أَنَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ أي: لا يحسن البخيل أن جمعه المال ينفعه، بل هو مضرة عليه فى دينه - وربما كان - وفى دنياه. ثم أخبر بمآل أمر ماله يوم القيامة فقال: ﴿سَيَطُوفُونَ مَا بِخَلْوَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، روى البخارى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مِثْلَ لَهْ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيَّتَانِ، يُطَوِّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَأْخُذُ بِلَهْزَمَتَيْهِ - يعنى بشدقيه - يقول: أنا مَالِكٌ، أنا كَنْزُكَ» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسِنُ الَّذِينَ يَخْلُونَ بِمَا أَنَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ إلى آخر الآية. تفرد به البخارى دون مسلم ورواه ابن حبان (١).

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر، عن النبى ﷺ قال: «إِنَّ الَّذِي لَا يُؤَدِّي زَكَاتَ مَالِهِ يُمَثَّلُ اللَّهُ لَهُ مَالَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيَّتَانِ، ثُمَّ يُلْزِمُهُ طَوِّقَهُ، يَقُولُ: أَنَا كَنْزُكَ، أَنَا كَنْزُكَ» ورواه النسائى (٢). وروى الإمام أحمد عن عبد الله، عن النبى ﷺ؛ قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاتَ مَالِهِ إِلَّا جُعِلَ لَهُ شُجَاعٌ أَقْرَعٌ يَتَّبِعُهُ، يَفِرُّ مِنْهُ وَهُوَ يَتَّبِعُهُ فَيَقُولُ: أَنَا كَنْزُكَ». ثم قرأ عبد الله مصداقه من كتاب الله: ﴿سَيَطُوفُونَ مَا بِخَلْوَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه، وقال

(١) البخارى (١٧٣/٨) ورواه أيضا (٢١٤/٣، ٢١٥). ومعناه ثابت عن أبى هريرة، فى المسند من أوجه كثيرة، منها: (٧٧٤٢، ٨١٧٠، ٨٦٤٦، ٨٩٢٠). ووهام المنذرى فى الترغيب (١/٢٦٩)، إذ نسبه لصحيح مسلم و«الشجاع»: الحية الذكر.

(٢) المسند (٥٧٢٩) والنسائى (١/٣٤٣) وإسنادهما صحيحان.

الترمذى : حسن صحيح . رواه الحاكم ورواه ابن جرير من غير وجه ، عن ابن مسعود ، موقوفاً (١) .

وروى الحافظ أبو يعلى عن ثوبان ، عن النبي ﷺ ، قال : «مَنْ تَرَكَ بَعْدَهُ كَنْزًا مِثْلَ لَهْ شُجَاعًا أَقْرَعَ [يَوْمَ الْقِيَامَةِ] ، لَهُ زَيْبَتَانِ ، يَتَّبِعُهُ فَيَقُولُ : مَنْ أَنْتَ؟ وَيَلِكُ؟! . فَيَقُولُ : أَنَا كَنْزُكَ الَّذِي خَلَّفْتَ بَعْدَكَ ، فَلَا يَزَالُ يَتَّبِعُهُ حَتَّى يُلْقِمَهُ يَدَهُ فَيَقْضِمَهَا ، ثُمَّ يَتَّبِعُهُ سَائِرَ جَسَدِهِ .» إسناده جيد قوى ولم يخرجوه .

وقوله : «وَاللَّهُ مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» أى : فانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فإن الأمور كلها مرجعها إلى الله عز وجل . فقدموا لكم من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» أى : بنياتكم وضماتركم .

﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَمِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آلا تُوْمِنُ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِنْ كَذَّبُوك فَكذبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالرُّبْرُ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾

عن ابن عباس قال : دخل أبو بكر الصديق ، بيت المدراس ، فوجد من يهود أناسا كثيرا قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له : فنحاص ، وكان من علمائهم وأخبارهم ، ومعه خبر يقال له : أشيع . فقال أبو بكر : ويحك يا فنحاص ، اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل ، فقال فنحاص : والله - يا أبا بكر - ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، وإنه إلينا لفقير ! ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ! وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ! ينهاكم عن الربا ! فغضب أبو بكر ، فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً ، وقال : والذى نفسى بيده ، لولا الذى بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله ، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين ، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، أبصر ما صنع بى صاحبك ! فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر : «ما حملك على ما صنعت؟» فقال : يا رسول الله ، إن عدو الله قد قال قولا عظيماً ، زعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ! فلما قال ذلك غضبتُ لله مما قال ، فضربت وجهه ، فجدد ذلك فنحاص وقال : ما قلت ذلك ، فأنزل الله فيما قال فنحاص رداً وتصديقاً لأبى

(١) المسند (٣٥٧٧) والترمذى (٨٥/٤) والحاكم (٢/٢٩٨ ، ٢٩٩) ولكن روايته موقوفة ، خلافاً لما يوهمه كلام الحافظ ابن كثير هنا . والطبرى (٨٢٨٥ - ٨٢٨٩ ، ٨٢٩٢) ، ورواه ابن خزيمة فى صحيحه ، كما فى الترغيب (٢٦٨/١) .

بكر: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ الآية. رواه ابن أبي حاتم (١).

وقوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ تهديد ووعيد؛ ولهذا قرنه تعالى بقوله: ﴿وَقَالَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾
أى: هذا قولهم فى الله، وهذه معاملتهم لرسول الله، وسيجزيهم الله على ذلك شرّ الجزاء؛
ولهذا قال: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ. ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾
أى: يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً.

وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ لَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بَقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ يقول تعالى
تكذيباً أيضاً لهؤلاء الذين زعموا أن الله عهد إليهم فى كتبهم ألا يؤمنوا برسول حتى يكون من
معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته فقبلت منه أن تنزل نار من السماء تأكلها. قال الله
تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ قِبَلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾
أى: بالحجج والبراهين ﴿وَالَّذِينَ قَالُوا﴾
أى: وبنار تأكل القرابين المتقبلة ﴿فَلِمَ قَاتَلْتُمُوهُمْ﴾
أى: فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾
أنكم تتبعون الحق وتتقادون للرسول!؟

ثم قال تعالى مسلماً لنبىه ﷺ: ﴿إِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قِبَلِكُمْ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾
أى: لا يوهنك تكذيب هؤلاء لك، فلك أسوة من قبلك من الرسل الذين كذبوا مع ما جاؤوا به من البيّنات، وهى الحجج والبراهين القاطعة ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهى الكتب المتلقاة من السماء، كالصحف المنزلة على المرسلين ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾
أى: البين الواضح الجلى.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُودِ﴾
﴿١٨٥﴾ ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِن عَزْرِ الْأُمُورِ﴾
﴿١٨٦﴾

يخبر تعالى إخباراً عاماً، يعم جميع الخليقة - بأن كل نفس ذائقة الموت، كقوله: ﴿كُلُّ مَن عَلَيْهَا فَاَن. وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فهو تعالى وحده هو الحى الذى لا يموت، والإنس والجن يموتون، وكذلك الملائكة وحملة العرش، ويفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء، فيكون آخراً كما كان أولاً. وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت، فإذا انقضت المدة وقرعت النطفة التى قدر الله وجودها من صلب آدم، وانتهت البرية -: أقام الله القيامة، وجازى الخلائق بأعمالها، جليلها وحقيها، كثيرها وقليلها، كبيرها وصغيرها، فلا يظلم أحداً مثقال ذرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُولَؤُنَّ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

(١) رواه أيضا الطبرى (٨٣٠٠) وإسناده جيد أو صحيح. وزاد السيوطى فى الدر المنثور (٢/ ١٠٥، ١٠٦) نسبه لابن المنذر.

وقوله: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أى: من جُنِبَ النار ونجا منها وأدخل الجنة، فقد فاز كل الفوز. وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَوْضِعُ سَوَاطِئِ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾». هذا الحديث ثابت فى الصحيحين من غير هذا الوجه بدون هذه الزيادة، وقد رواه بهذه الزيادة ابن حبان والحاكم (١). وتقدم ما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَزْحَرَ عَنِ النَّارِ وَأَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَدْرِكْهُ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلِيَأْتِ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ» (٢).

وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ تصغيراً لشأن الدنيا، وتحقيراً لأمرها، وأنها دنية فانية قليلة زائلة، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُوذَرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الاعلى: ١٦، ١٧]، وقال: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص: ٦٠]، وفى الحديث: «والله ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يغمس أحدكم إصبعه فى اليمِّ، فلينظر بهم ترجع إليه» (٣).

وقوله: ﴿لَتَبْلُؤُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ كقولهِ: ﴿وَلَتَبْلُوتُنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦] أى: لا بد أن يبتلى المؤمن فى شىء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله، ويبتلى المرء على قدر دينه، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى البلاء ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً﴾، يقول تعالى للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر، مسلماً لهم عما نالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين، وأمرأ لهم بالصبر والصفح والعفو حتى يفرج الله، فقال: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾.

روى البخارى عن أسامة بن زيد: أن رسول الله ﷺ ركب على حمار، عليه قطيفة فدكية، وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عبادة فى بنى الحارث بن الخزرج، قبل وقعة بدر، قال: حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبى ابن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبى، فإذا فى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين، عبدة الأوثان واليهود والمسلمين، وفى المجلس عبد الله بن رباح، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة حمر عبد الله بن أبى أنه بردائه وقال: «لا تغبروا علينا. فسلم رسول الله ﷺ، ثم وقف، فنزل فدعاهم إلى الله عز وجل، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبى: أيها المرء، إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقاً، فلا تؤذنا

(١) وكذلك رواه أحمد فى المسند (٩٦٤٩) والترمذى (٨٥/٤) والطبرى (٨٣١٥) وهو فى المستدرک (٢/٢٩٩) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبى.

(٢) مضى عند تفسير الآيتين: (١٠٢، ١٠٣) من سورة آل عمران.

(٣) رواه أحمد فى المسند (٤/٢٢٩) حلى، من حديث المستورد بن شداد الفهرى. وبنحوه رواه مسلم (٢/٣٥٥) من حديثه.

به في مجالسنا، ارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه. فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله، فأغشنا به في مجالسنا، فإننا نحب ذلك. فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل النبي ﷺ يُخفضهم حتى سكتوا، ثم ركب النبي ﷺ دابته، فسار حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له النبي ﷺ: «يا سعد، ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب؟ - يريد عبد الله بن أبي - قال كذا وكذا». فقال سعد: يا رسول الله، اعف عنه واصفح، فالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصططح أهل هذه البحيرة على أن يتوجه فيعصبوه بالعصاة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شريكاً بذلك، فذلك الذي فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، قال الله تعالى: ﴿وَلْتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ الآية [البقرة: ١٠٩]، وكان النبي ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله له فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدرًا، فقتل الله به صناديد كفار قريش، قال عبد الله بن أبي ابن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام، فبايعوا وأسلموا (١).

فكان من قام بحق، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، فلا بد أن يؤدي، فما له دواء إلا الصبر في الله، والاستعانة بالله، والرجوع إلى الله.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَتُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئِسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾

هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب، الذين أخذ عليهم العهد على السنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن ينهوا بذكره في الناس ليكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه، فكتموا ذلك، وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف، والحظ الدنيوي السخيف، فبئس الصفقة صفقتهم، وبئس البيعة بيعتهم.

(١) البخارى (١٧٣/٨ - ١٧٥ فتح). وقوله: «على طيف فذكية»: أى كساء غليظ منسوب إلى فذك - بفتح الفاء والدال، وهى بلد مشهور قريب من المدينة. وقوله: «البحيرة»: بالتصغير فى بعض روايات البخارى، كما ثبت هنا. وفى بعضها: «البحرة» بالتكبير. قال الحافظ: وهذا اللفظ يطلق على القرية وعلى البلد، والمراد به هنا: «المدينة المنورة». وقوله: «شرق» - بفتح الشين المعجمة وكسر الراء، أى: غص به. وهو كناية عن الحسد.

وفى هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويسلك بهم مسلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع، الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئاً، فقد ورد فى الحديث المروى من طرق متعددة عن النبي ﷺ أنه قال: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار» (١).

وقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآية، يعنى بذلك: المرأين المتكثرين بما لم يعطوا، كما جاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ: «من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزد الله إلا قلة» (٢). وفى الصحيح: «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور» (٣). وروى الإمام أحمد عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف: أن مروان قال: اذهب يا رافع - لبوابه - إلى ابن عباس، فقل: لئن كان كل امرئ منّا فرح بما أتى، وأحب أن يحمد بما لم يفعل - معدباً، لتعدبن أجمعين؟ فقال ابن عباس: ما لكم وهذه؟ إنما نزلت هذه فى أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ الآية، وتلا ابن عباس: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾. وقال ابن عباس: سألهم النبي ﷺ عن شيء، فكتموه إياه وأخبروه بغيره، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم ما سألهم عنه. وهكذا رواه البخارى، ومسلم، والترمذى، والنسائى، وابن أبى حاتم، وابن خزيمة، والحاكم، وابن مردويه (٤). وروى البخارى عن أبى سعيد الخدرى؛ أن رجلاً من المنافقين فى عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو وتخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتدروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ ورواه مسلم بنحوه (٥).

وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ يقرأ بالتاء على مخاطبة المفرد، وبالياء على الإخبار عنهم، أى: لا يحسبوا أنهم ناجون من العذاب، بل لابد لهم منه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

(١) المسند (٧٥٦١) من حديث أبى هريرة. وقد مضى عند تفسير الآية: (٥٩) من سورة البقرة وانظر: المقاصد الحسنة للسخاوى (١١٣٥).

(٢) هو جزء من حديث رواه مسلم (٤٢/١)، من حديث ثابت بن الضحاك. وقد تساهل الحافظ ابن كثير فى نسبة هذه الفقرة للصحيحين. فإن البخارى روى أصل الحديث مراراً، منها: (٣٨٩/١٠، ٤٢٨، ٤٦٨/١١، ٤٦٩ فتح)، ولم يرو هذه الفقرة أصلاً، كما نص الحافظ ابن حجر فى الموضوع الأخير على أنها من زيادات مسلم. وكذلك روى الإمام أحمد أصل الحديث (١٦٤٥٦، ١٦٤٦٣)، ولم يرو هذه الجملة.

(٣) رواه الشيخان وأحمد وأبو داود، من حديث أسماء بنت أبى بكر. ورواه مسلم أيضاً من حديث عائشة - كما فى الفتوح الكبير (٢٥٣/٣). وهو فى صحيح مسلم فى حديثيهما (١٦٧/٢).

(٤) المسند (٢٧١٢) والبخارى (١٧٥/٨، ١٧٦ فتح).

(٥) البخارى (١٧٥/٨ فتح).

ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى: هو مالك كل شيء، والقادر على كل شيء، فلا يعجزه شيء، فهابوه ولا تخالفوه، واحذروا نقمته وغضبه، فإنه العظيم الذى لا أعظم منه، التقدير الذى لا أقدر منه.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾
 ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا
 إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا
 مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
 سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْآبَرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَعَإِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ
 الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿١٩٤﴾

معنى الآية : أنه يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: هذه فى ارتفاعها واتساعها، وهذه فى انخفاضها وكثافتها واتضاعها، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات، وثوابت وبحار، وجبال وقفار وأشجار ونبات وزروع وثمار، وحيوان ومعادن ومنافع، ومختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص ﴿وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أى: تعاقبهما وتَقَارُضُهُمَا الطول والقصر، فطرة يطول هذا ويقصر هذا، ثم يعتدلان، ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذى كان قصيرا، ويقصر الذى كان طويلا، وكل ذلك تقدير العزيز الحكيم، ولهذا قال: ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أى: العقول التامة الذكية التى تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَايِنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ. وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥، ١٠٦].

ثم وصف تعالى أولى الألباب فقال: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ كما ثبت فى صحيح البخارى عن عمران بن حصين، أن رسول الله ﷺ قال: «صلِّ قائما، فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فعلى جنب» (١)، أى: لا يقطعون ذكره فى جميع أحوالهم بسرائرهم وضمايرهم وألسنتهم ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته، وعلمه وحكمته، واختياره ورحمته.

وقد ذم الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته، فقال: ﴿وَكَايِنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ. وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥، ١٠٦]، ومدح عباده المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ

(١) البخارى (٤٨٣/٢)، ٤٨٤ فتح). والثابت فى المخطوطة الأزهرية هو ما أثبتنا نسبه للبخارى فقط. وفى المطبوعة نسبه للصحيحين، وهو خطأ يقينا، فقد نص الحافظ فى الفتح (٤٨٦/٢) على أنه من أفراد البخارى دون مسلم. وكذلك نسب للبخارى وحده فى ذخائر المواريث والجامع الصغير.

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ قائلين : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا ﴾ أى : ما خلقت هذا الخلق عبثاً ، بل بالحق لتجزى الذين أسأوا بما عملوا ، وتجزى الذين أحسنوا بالحسنى . ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل فقالوا : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أى : عَنَ أَنْ تَخْلُقَ شَيْئًا بَاطِلًا ﴿ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ أى : يا من خلقت الخلق بالحق والعدل يا من هو مُنَزَّهٌ عَنِ النَّقَائِصِ وَالْعَيْبِ وَالْعَبْثِ ، قنا من عذاب النار بحولك وقوتك وقِضْنَا لأعمال ترضى بها عنا ، ووقفنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم ، وتجيرنا به من عذابك الأليم .

ثم قالوا : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ ﴾ أى : أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ أى : يوم القيامة لا مُجِيرَ لَهُمْ مِنْكَ ، ولا مُحِيدَ لَهُمْ عما أردت بهم ﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ ﴾ أى : داعياً يدعو إلى الإيمان ، وهو الرسول ﷺ ﴿ أَنْ آمَنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ﴾ أى يقول : ﴿ آمَنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ﴾ أى : فاستجبنا له واتبعناه ﴿ رَبَّنَا فَاعْفُرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ أى : بإيماننا واتباعنا نبيك ، أى : استرها ﴿ وَكُفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ﴾ أى : فيما بيننا وبينك ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ أى : الحقنا بالصالحين ﴿ رَبَّنَا وَأَنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ﴾ قيل : معناه : على الإيمان برسلك . وقيل : معناه : على السنة رسلك . وهذا أظهر . ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى : على رؤوس الخلائق ﴿ إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ أى : لا بد من الميعاد الذى أخبرت عنه رسلك ، وهو القيام يوم القيامة بين يديك . وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل لتهجده ، فروى البخارى ، عن ابن عباس قال : بت عند خالتي ميمونة ، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ، ثم رقد ، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء ، فقال : ﴿ إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ، ثم قام فتوضأ واستن . فصلى إحدى عشرة ركعة . ثم أذن بلالٌ فصلى ركعتين ، ثم خرج فصلى بالناس الصبح ورواه مسلم (١) .

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ بَاطِنًا مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَوَايَا مَن عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾

يقول تعالى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أى : فأجابهم ربهم ، كما قال الشاعر :

وداعٍ دعا : يا مَن يجيب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب (٢)

روى سعيد بن منصور عن أم سلمة أنها قالت : يا رسول الله ، لا نَسْمَعُ اللهَ ذَكَرَ النِّسَاءِ فِي الْهَجْرَةِ بِشَيْءٍ ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ﴾ إِلَى

(١) البخارى (١٧٦/٨ ، ١٧٧ فتح) ، ورواه فى مواضع آخر ، ورواه مسلم (١ / ٢١١ - ٢١٤) من طرق متعددة ، ورواه أحمد فى المسند مرارا ، منها : (٢١٦٤ ، ٣٣٧٢) .
(٢) هو لكعب بن سعد الغنوى ، من الأصمعية (١٤) بتحقيقنا . وذكره الطبرى فى التفسير مرارا ، منها : (١ / ٣٢٠ ، ٤٤٨ / ٧) بتحقيقنا .

آخر الآية. وقالت الأنصار: هي أول ظعينة قدمت علينا. ورواه الحاكم ثم قال: صحيح على شرط البخارى، ولم يخرجاه (١).

ومعنى الآية: أن المؤمنين ذوى الألباب لما سألوها - مما تقدم ذكره - فاستجاب لهم ربهم - عقيب ذلك بفاء التعقيب، كما قال تعالى: ﴿وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقوله: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ نَسِيٍّ﴾ هذا تفسير للإجابة، أى: قال لهم مُجِيباً لهم: أنه لا يضيع عمل عامل لديه، بل يُوقَى كل عامل بقسط عمله، من ذكر أو نسي.

وقوله: ﴿بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ أى: جميعكم فى ثوابى سواء ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ أى: تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان وفارقوا الأحباب والخلان والإخوان والجيران ﴿وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أى: ضايقتهم المشركون بالأذى حتى ألقواهم إلى الخروج من بين أظهرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ أى: إنما كان ذنبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [المتحنة: ١]. وقال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

وقوله: ﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ وهذا أعلى المقامات أن يقاتل فى سبيل الله، فيُعَمَّر جَوادُه، ويعفَّر وجهه بدمه وترابه، وقد ثبت فى الصحيح أن رجلاً قال: يا رسول الله، أرأيت إن قُتلت فى سبيل الله صابراً مُحْتَسِباً مُقْبِلاً غير مُدْبِر، أيكفّر الله عنى خطاياى؟ قال: «نعم» ثم قال: «كيف قلت؟» فأعاد عليه ما قال، فقال: «نعم، إلا الدين، قاله لى جبريل آنفاً» (٢). ولهذا قال تعالى: ﴿لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سِيبَاتِهِمْ وَلَادْخُلَتْهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى: تجرى فى خلالها الأنهار من أنواع المشارب، من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن وغير ذلك، مما لا عَيْن رَأَتْ، ولا أذن سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلب بشر.

وقوله: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أضافه إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم؛ لأن العظيم الكريم لا يعطى إلا جزئياً كثيراً. وقوله: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ أى: عنده حُسْنُ الجزاء لمن عمل صالحاً.

﴿ لَا يَغْرَنَّاكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ (١٦٦) مَتَعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاؤَنَّهُمْ
جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمِهَادُ ﴿ (١٦٧) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ ﴿ (١٦٨)

(١) المستدرک (٢/ ٣٠٠) ورواه الطبري أيضا بنحوه (٨٣٦٧ - ٨٣٦٩). وفصلنا تخريجه هناك.

(٢) رواه مسلم مطولا (٩٧/٢، ٩٨) من حديث أبى قتادة. ورواه أيضا أحمد فى المسند (٣٠٣/٥، ٣٠٤/٤ حلى) والترمذى (٣٥/٣، ٣٦) والنسائى (٦٢/٢). وذكره المنذرى فى الترغيب (١٨٩/٢، ١٩٠). وفى المطبوعة: «وقد ثبت فى الصحيحين» وهو خطأ، صوابه من المخطوطة، ويؤيده أنه لم يروه البخارى.

يقول تعالى: لا تنظروا إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه، من النعمة والغبطة والسرور، فعما قليل يزول هذا كله عنهم، ويصبحون مرتين بأعمالهم السيئة، فإنما تمد لهم فيما هم فيه استدراجا، وجميع ما هم فيه ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ [غافر: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠]، وقال تعالى: ﴿نَمَتَّعْتَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّضْنَاهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَهَمَلِ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رَوِيدًا﴾ [الطارق: ١٧]، أى: قليلا، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١]، وهكذا لما ذكر حال الكفار فى الدنيا وذكر مآلهم إلى النار - قال بعده: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزْلًا﴾ [أى: ضيافة] ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَتَّيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، وبما أنزل على محمد، مع ما هم يؤمنون به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله، أى: مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه ﴿لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أى: لا يكتمون ما بأيديهم من البشارات بمحمد ﷺ، وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفتهم، سواء كانوا هوداً أو نصارى. وقد قال تعالى فى سورة القصص: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ. أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ الآية [القصص: ٥٢ - ٥٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكِتَابِ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ الآية [البقرة: ١٢١]، وقال: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الاعراف: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا. وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا. وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ بَيْنَهُمْ خُشوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩]، وهذه الصفات توجد فى اليهود، ولكن قليلا، كما وجد فى عبد الله بن سلام وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود، ولم يبلغوا عشرة أنفس، وأما النصارى فكثير منهم مهتدون وينقادون للحق، كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيسِينَ وَرَهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ. وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ. فَأَنَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي

مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴿ الآية [المائدة: ٨٢ - ٨٥] ، وهكذا قال هاهنا: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. وثبت في الصحيحين أن النجاشي لما مات نَعَاهُ النبي ﷺ إلى أصحابه، وقال: «إن أَخًا لَكُمْ بالحِشَّة قد مات فَصَلُّوا عليه». فخرج إلى الصحراء، فَصَفَّهُمْ، وَصَلَّى عليه. وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أنس بن مالك قال: لما تُوفِّي النجاشي قال رسولُ الله ﷺ: «استغفروا لأخيكم». فقال بعض الناس: يأمرنا أن نستغفر لعلج مات بأرض الحِشَّة. فنزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ الآية (١). وروى الحاكم عن عبد الله بن الزبير قال: نزل بالنجاشي عَدُوًّا مِنْ أَرْضِهِمْ، فجاء المهاجرون فقالوا: إنا نحب أن نَخْرُجَ إِلَيْهِمْ حتى نقاتل معك، وترى جرأتنا، ونجزيك بما صنعت بنا. فقال: لا، داءُ بنصرة الله عز وجل خَيْرٌ مِنْ دواءِ بنصرة الناس. قال: وفيه نزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ الآية، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه (٢). وقد ثبت في الصحيحين، عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ» فذكر منهم: «ورجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي».

وقوله: ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أى: لا يكتمون ما بأيديهم من العلم، كما فعله الطائفة المردولة منهم، بل يبذلون ذلك مجانًا؛ ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. قال مجاهد: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يعنى: سريع الإحصاء.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ قال الحسن البصرى: أمروا أن يصبروا على دينهم الذى ارتضاه الله لهم، وهو الإسلام، فلا يدعوه لسراء ولا لضرأ ولا لشدة ولا لرخأ، حتى يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء. وكذا قال غير واحد من علماء السلف.

وأما المرابطة فهى المداومة فى مكان العبادة والثبات. وقيل: انتظار الصلاة بعد الصلاة، قاله ابن عباس وسهل بن حنيف، ومحمد بن كعب القرظى، وغيرهم. وروى ابن أبي حاتم هاهنا الحديث الذى رواه مسلم والنسائى عن أبى هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ إسبأغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط» (٣).

وقيل: المراد بالمرابطة هاهنا مرابطة الغزو فى نحر العدو، وحفظ ثُغور الإسلام وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين، وقد وردت الأخبار بالترغيب فى ذلك، وذكر كثرة الثواب فيه، فروى البخارى فى صحيحه عن سهل بن سعد الساعدى: أن رسول الله ﷺ قال:

(١) ذكره الهيثمى فى الزوائد (٣٨/٣) بنحو معناه، وقال: «رواه البزار والطبرانى فى الأوسط، ورجال الطبرانى ثقات».

(٢) المستدرک (٢/٣٠٠) ووافقه الذهبى على تصحيحه.

(٣) مسلم (١/٨٦) ورواه أحمد فى المستد مرارا، بنحوه، منها: (٧٢٠٨، ٧٧١٥، ٨٠٠٨) ورواه أيضاً الطبرى (٨٣٩٧، ٨٣٩٨). وفصلنا تخريجه فى الكتابين.

«رَبَّاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا». وروى مسلم عن سلمان الفارسي، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «رَبَّاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٌ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأَجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفِتَانَ». وروى الإمام أحمد عن فضالة بن عبيد عن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ، إِلَّا الَّذِي مَاتَ مُرَبِّطاً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَأْمَنُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ». وهكذا رواه أبو داود، والترمذي. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه ابن حبان في صحيحه أيضاً (١). وروى البخاري عن أبي هريرة، قال: قال النبي ﷺ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهَمِ وَعَبْدُ الْحَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رِضَى، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخَطٌ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ أَخَذَ بَعْنَانَ قَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبِرَةً قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنَ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَعْ» (٢).

وقوله: «وَاتَّقُوا اللَّهَ» أي: في جميع أموركم وأحوالكم، كما قال النبي ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتَّبِعِ السَّبِيلَ الْحَسَنَ تَمَحُّجُهَا، وَخَالَقِ النَّاسَ بِخُلُقِ حَسَنٍ» (٣). «لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ» أي: في الدنيا والآخرة.

آخر تفسير سورة آل عمران، والله الحمد والمنة

نسأله الموت على الكتاب والسنة

(١) المسند (٦ / ٢٠ حلي) والترمذي بشرح المباركفوري (٢/٣).

(٢) البخاري (٦١/٦، ٦٢ فتح). وقوله: «وانتكس»: أي عاوده المرض. وقوله: «وإذا شيك فلا انتقش»: قال الحافظ في الفتح: «شيك: بكسر المعجمة وسكون التحتانية بعدها كاف. وانتقش: بالقاف والمعجمة. والمعنى: إذا أصابته الشربة فلا وجد من يخرجها منه بالمنقاش. تقول: نقشت الشوك، إذا استخراجته». وقوله: «إن كان في الحراسة»: إلخ - قال ابن الجوزي: «المعري: أنه خامل الذكر، لا يقصد السمو، فإن اتفق له السير سار. فكأنه قال: إن كان في الحراسة استمر فيها، وإن كان في الساقه استمر فيها». وقد ذكر الحافظ ابن كثير في فضل الرباط أحاديث كثيرة، اقتصرنا على أصحابها. وفيه الكفاية، إن شاء الله.

(٣) هو الحديث الثامن عشر من الأربعين النووية، وهو من حديث أبي ذر ومعاذ. رواه الترمذي، وقال: حديث حسن، وفي بعض النسخ: حسن صحيح، كما قال النووي رحمه الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النساء

قال ابن عباس: نزلت سورة النساء بالمدينة. وكذا روى ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير، وزيد بن ثابت. وروى الحاكم عن عبد الله بن مسعود، قال: إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرني أن لى بها الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية، و﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الآية، و﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، و﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ الآية، [و﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾] (١). ثم قال: هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن سمع من أبيه، فقد اختلف في ذلك (٢). وروى الحاكم عن ابن عباس قال: سلوني عن سورة النساء، فإني قرأت القرآن وأنا صغير. ثم قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه (٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتِّقَارًا لِكُلِّ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

يقول تعالى أمراً خلقه بتقواه، وهى عبادته وحده لا شريك له، ومنبها لهم على قدرته التى خلقهم بها من نفس واحدة، وهى آدم، عليه السلام «وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا» وهى حواء، عليها السلام، خلقت من ضلعه الأيسر. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: خلقت المرأة من الرجل، فجعل نهمتها فى الرجل، وخلق الرجل من الأرض، فجعل نهمته فى الأرض، فاحسبوا نساءكم (٤). وفى الحديث الصحيح: «إن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شئ فى الضلع أعلاه، فإن ذهب تقيمه كسرته، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج» (٥).

(١) سقطت هذه الآية من المطبوع من «عمدة التفسير» وكذا من المخطوطة الأزهرية وأثبتناها من عند الحاكم فى المستدرک . (الباز) .

(٢) الحاكم (٣٠٥/٢) . وعبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود : سمع من أبيه ، كما هو الراجح الذى رجحه البخارى فى التاريخ الصغير (ص ٤٠) ، وكما جزم به ابن أبي حاتم فى الجرح والتعديل (٢/٢٤٨) ، بل لم يحك قولاً غيره . وقد رجحنا ذلك أيضاً فى شرح المسند (٣٦٩٠ ، ٣٨٣٥) .

(٣) الحاكم (٣٠١/٢) ووافقه الذهبى .

(٤) إسناد ابن أبي حاتم إسناد صحيح . وزاد السيوطى فى الدر المنثور (٢/١١٦) نسبه لابن المنذر، والبيهقى فى الشعب .

(٥) من حديث رواه مسلم (٤٢١/١) وبنحوه رواه البخارى (٦/٢٦١ ، ٢٦٢) ورواه أحمد مختصراً (٩٥٢٠) ، ٩٧٩٤ ، ١٠٨٦٨ . كلهم من حديث أبى هريرة .

وقوله: ﴿وَبَثُّ مِثْمًا رَجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ أى: وذراً منهما، أى: من آدم وحواء رجلاً كثيراً ونساءً، ونشرهم فى أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم، والوانهم ولغاتهم، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر.

ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: واتقوا الله بطاعتكم إياه، قال إبراهيم ومجاهد والحسن: ﴿الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ أى: كما يقال: أسألك بالله وبالرحم. وقال الضحاك: واتقوا الله الذى به تعاقدون وتعاهدون، واتقوا الأرحام أن تقطعوها، ولكن بروها وصلوها، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وغير واحد.

وقرأ بعضهم: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ بالخفض على العطف على الضمير فى ﴿بِهِ﴾، أى: تساءلون بالله وبالأرحام، كما قال مجاهد وغيره.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أى: هو مراقب لجميع أعمالكم وأحوالكم كما قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩]. وفى الحديث الصحيح: «عبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» (١). وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب؛ ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة؛ ليعطف بعضهم على بعض، ويحننهم على ضعفائهم، وقد ثبت فى صحيح مسلم، من حديث جرير بن عبد الله البجلي؛ أن رسول الله ﷺ حين قدم عليه أولئك النفر من مَضَرَ - وهم مُجْتَابُو النَّمَارِ - أى من عُرَيْبِهِمْ وفَقْرِهِمْ - قام فَحَطَبَ الناس بعد صلاة الظهر فقال فى خطبته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ حتى ختم الآية، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَتَنْتَظِرْ نَفْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الحشر: ١٨] ثم حَضَمَهُم على الصدقة فقال: ﴿تَصَدَّقْ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ صَاعِ بُرَّةٍ، مِنْ صَاعِ تَمْرَةٍ﴾، وذكر تمام الحديث (٢).

﴿وَمَا آتَاؤُا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّا مَثَىٰ وَتِلْكَ وَرِثَةٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعْوَلُوا ﴿١﴾ وَمَا آتَاؤُا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَاكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴿٢﴾

يأمر تعالى بدفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحلم كاملة موفرة، وينهى عن أكلها وضمها إلى أموالهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّيِّبِ﴾. وقال سعيد بن جبير: لا تبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم، يقول: لا تبذروا أموالكم الحلال وتأكلوا أموالهم الحرام.

(١) اللفظ المعروف فى حديث سؤالات جبريل، من حديث عمر بن الخطاب، أن جبريل سأل فقال: «فأخبرنى عن الإحسان؟ قال: أن تعبد لله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» رواه مسلم (١٧/١). وانظر المسند (١٨٤)، والاستدراك عليه رقم (١٤٠٩). وأما اللفظ الذى هنا، فقد رواه أبو نعيم فى الحلية (٢٠٢/٨)، (٢٠٣) من حديث زيد ابن أرقم.

(٢) من حديث طويل فى صحيح مسلم (٢٧٨/١، ٢٧٩).

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، وغيرهما: أى لا تخلطوها فتأكلوها جميعا. وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُبًّا كَبِيرًا﴾ قال ابن عباس: أى إثماً كبيراً عظيماً. وهكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، وغيرهم مثل قول ابن عباس. والمعنى: إن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم وخطأ كبير، فاجتنبوه.

وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ﴾ أى: إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة وخاف ألا يعطيها مهر مثلها، فليعدل إلى ما سواها من النساء، فإنهن كثير، ولم يضيق الله عليه. وروى البخارى عن عروة بن الزبير: أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾؟ قالت: يا ابن أختي، هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى ماله ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن فى الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن. قال عروة: قالت عائشة: وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية؟ فأنزل الله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ قالت عائشة: وقول الله فى الآية الأخرى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: ١٢٧]: رغبة أحدكم عن يتيمة حين تكون قليلة المال والجمال. فنهوا أن ينكحوا من رغبوها فى ماله وجماله فى يتامى النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال^(١).

وقوله: ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ أى: انكحوا ما شئتم من النساء سواهن، إن شاء أحدكم ثنتين، وإن شاء ثلاثا، وإن شاء أربعا، كما قال تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولِيٰ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [فاطر: ١] أى: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ولا ينفى ما عدا ذلك فى الملائكة لدلالة الدليل عليه، بخلاف قصر الرجال على أربع، من هذه الآية، كما قاله ابن عباس وجمهور العلماء؛ لأن المقام مقام امتنان وإباحة، فلو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لذكره. قال الشافعى: وقد دلت سنة رسول الله ﷺ - المبينة عن الله - أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة. وهذا الذى قاله الشافعى، مجمع عليه بين العلماء، إلا ما حكى عن طائفة من الشيعة: أنه يجوز الجمع بين أكثر من أربع إلى تسع. وقال بعضهم: بلا حصر. وقد يتمسك بعضهم بفعل رسول الله ﷺ فى جمعه بين أكثر من أربع إلى تسع كما ثبت فى الصحيحين وهذا عند العلماء من خصائصه دون غيره من الأمة، لما سنذكره. فروى الإمام أحمد عن ابن عمر: أن غيلان بن سلمة الثقفى أسلم وتحتة عشرة نسوة، فقال له النبى ﷺ: « اختر منهن أربعا ». فلما كان فى عهد عمر طلق نساءه، وقسم ماله بين بنيه، فبلغ ذلك عمر فقال: إني لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك فخذفه فى نفسك، ولعلك أن لا تمكث إلا قليلا. وإيم الله لتراجعن نساءك، ولترجعن فى

(١) البخارى (٨/ ١٧٩، ١٨٠ فتح). ورواه الطبرى بنحوه، مطولا ومختصرا، بسبعة أسانيد (٨٤٥٦ - ٨٤٦١،

مالك، أو لأورثهن منك، ولأمرن بقبرك فيرجم، كما رجم قبر أبي رغال. ورواه الشافعي والترمذي وابن ماجه والدارقطني والبيهقي وغيرهم مثله إلى قوله: « اختر منهن أربعاً ». وباقي الحديث في قصة عمر من أفراد أحمد، وهي زيادة حسنة. وإسناد الحديث الذي قدمناه من مسند الإمام أحمد رجاله ثقات على شرط الصحيحين^(١). فوجه الدلالة أنه لو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لسوغ له رسول الله ﷺ سائرهن في بقاء العشرة وقد أسلمن معه، فلما أمره بإمسك أربع وفراق سائرهن، دل على أنه لا يجوز الجمع بين أكثر من أربع بحال، وإذا كان هذا في الدوام، ففي الاستئناف بطريق الأولى والأحرى، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

وقوله: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ أى: فإن خشيتم من تعداد النساء ألا تعدلوا بينهن، كما قال تعالى: ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [النساء: ١٢٩] - فمن خاف من ذلك فيقتصر على واحدة، أو على الجوارى السرارى، فإنه لا يجب قسّم بينهن، ولكن يستحب، فمن فعل فحسن، ومن لا فلا حرج^(٢).

(١) المسند (٤٦٣١) ورواه أحمد قبل ذلك مختصراً، كرواية الباقرين (٤٦٠٩). وقد ذكر الحافظ ابن كثير هنا تعليلاً البخارى إياه، ورد عليه رداً قويا جداً. وفصلنا القول في تخريجه وتعليبه، فى المسند فى الموضوعين، وفى الاستدراكات (١٣٢٩، ١٣٣٩، ١٥٦٧، ١٩٢٤، ٢٤٢٢، ٢٦٨٩، ٣٨٥٣).

فى تعدد الزوجات

(٢) نبتت فى عصرنا هذا الذى نحيا فيه نابتة إفرنجية العقل، نصرانية العاطفة، رباهم الإفرنج فى ديارنا وديارهم، وأرضعوههم عقاندهم، صريحة تارة، وممزوجة تارات، حتى لبسوا عليهم تفكيرهم، وغلبوهم على فطرتهم الإسلامية، فصار هجّيراهم وديدنهم أن ينكروا تعدد الزوجات، وأن يروه عملاً بشعاً غير مستساغ فى نظرهم! فمنهم من يصرح، ومنهم من يجمجم، وجاراهم فى ذلك بعض من ينتسب إلى العلم من أهل الأزهر، المتسبين للدين والذين كان من واجهم أن يدفوعوا عنه، وأن يعرفوا الجاهلين حقائق الشريعة.

فقام من علماء الأزهر من يمهّد لهؤلاء الإفرنجيين العقيدة والتربية - للحدّ من تعدد الزوجات، زعموا!! ولم يدرك هؤلاء العلماء أن الذين يحاولون استرضاءهم لا يريدون أن يزيلوا كل أثر لتعدد الزوجات فى بلاد الإسلام، وأنهم لا يرضون عنهم إلا أن جاروهم فى تحريمه ومنعه جملة وتفصيلاً، وأنهم يأبون أن يوجد على أى وجه من الوجوه؛ لأنه منكر بشع فى نظر سادتهم الحاجات!!

وزاد الأمر وطمّ، حتى سمعنا أن حكومة من الحكومات التى تنتسب للإسلام وضعت فى بلادها قانوناً منعت فيه تعدد الزوجات جملةً، بل صرحت تلك الحكومة باللفظ المنكر: أن تعدد الزوجات - عندهم - صار حراماً. ولم يعرف رجال تلك الحكومة أنهم بهذا اللفظ الجريء المجرم صاروا مرتدين خارجين من دين الإسلام، تجرى عليهم وعلى من يرضى عن عملهم كل أحكام الردّة المعروفة التى يعرفها كل مسلم، بل لعنهم يعرفون ويدخلون فى الكفر والردة عامدين عالمين.

بل إن أحد الرجال الذين ابتلى الأزهر بانتسابهم إلى علمائه، تجرأ مرة وكتب بالقول الصريح أن الإسلام يحرم تعدد الزوجات، جراً على الله، وافترأ على دينه الذى فُرض أن يكون هو من حفظته القائمين على نصره!!

واجترأ بعض من يعرف القراءة والكتابة - من الرجال والنسوان - فجعلوا أنفسهم مجتهدين فى الدين!! يستنبطون الأحكام، ويفتون فى الحلال والحرام، ويسبون علماء الإسلام إذا أرادوا أن يعلموهم ويقفوهم عند =

وقوله: ﴿ذَلِكَ أَتَىٰ الْأُتُورَ﴾ قال بعضهم: أدنى ألا تكثر عائلتكم. قاله زيد بن أسلم

= حدّهم . وأكثر هؤلاء الأجرىء ، من الرجال والنساء ، لا يعرفون كيف يتوضؤون ولا كيف يصلون ، بل لا يعرفون كيف يتطهرون ، ولكنهم فى مسألة تعدد الزوجات مجتهدون !!
بل لقد رأينا بعض من يخوض منهم فيما لا يعلم ، يستدل بآيات القرآن بالمعنى؛ لأنه لا يعرف اللفظ القرآنى !!

وعن صنعهم هذا الإجرامى ، وعن جرأتهم هذه المنكرة ، وعن كفرهم البواح دخل فى الأمر غير المسلمين ، وكتبوا آراءهم مجتهدين !! كسابقهم ، يستنبطون من القرآن وهم لا يؤمنون به ، ليخدعوا المسلمين ويضلّوهم عن دينهم . حتى إن أحد الكتاب غير المسلمين كتب فى إحدى الصحف اليومية - التى ظاهر أمرها أن أصحابها مسلمون - كتب مقالا بعنوان « تعدد الزوجات وصمة »! فشمته بهذه الجرأة الشرعية الإسلامية ، وشمته جميع المسلمين من بدء الإسلام إلى الآن ! ولم نجد أحداً حرك فى ذلك ساكناً . مع أن اليقين أن لو كان العكس ، وأن لو تحجراً كاتب مسلم على شتم شريعة ذلك الكاتب ، لقامت الدنيا وقعدت . ولكن المسلمين مؤذّبون .

وبعد : فإن أول ما اصطنعوا من ذلك : أن اصطنعوا الشفقة على الأسرة وعلى الأبناء خاصة ! وزعموا أن تعدد الزوجات سبب لكثرة المتشردين من الأطفال ! بأن أكثر هؤلاء من آباء فقراء تزوجوا أكثر من واحدة ! وهم فى ذلك كاذبون ، والإحصاءات التى يستندون إليها هى التى تكذبهم . فأرادوا أن يشرعوا قانوناً يحرم تعدد الزوجات على الفقير ، ويأذنون به للغنى القادر !! فكان هذا سواة السوات : أن يجعلوا هذا التشريع الإسلامى السامى وفقاً على الأغنياء !

ثم لم يفتح هذا ولم يستطيعوا إصداره ، فاتجهوا وجهة أخرى يتلاعبون فيها بالقرآن : فزعموا أن إباحة التعدد مشروطة بشرط العدل ، وأن الله سبحانه أخبر بأن العدل غير مستطاع ، فهذه أمانة تحريمه عندهم !! إذ قصروا استدلالهم على بعض الآية وتركوا باقيها : ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ وتركوا باقيها : ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمَمْلُوقَةِ﴾ . فكانوا كالذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض !

ثم ذهبوا يتلاعبون بالالفاظ ، وبعض القواعد الاصولية ، فسمّوا تعدد الزوجات « مباحاً » ! وأن لولى الأمر أن يقيد بعض المباحات بما يرى من القيود للمصلحة !

وهم يعلمون أنهم فى هذا كله ضالون مضلّون . فما كان تعدد الزوجات مما يطلق عليه لفظ « المباح » بالمعنى العلمى الدقيق: أى المسكوت عنه ، الذى لم يرد نص بتحليله أو تحريمه ، وهو الذى قال فيه رسول الله ﷺ : « ما أحل الله فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو » . بل إن القرآن نص صراحة على تحليله ، بل جاء إحلاله بصيغة الأمر ، التى أصلها للوجوب : ﴿فَأَنْكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ .

وإنما انصرف فيها الأمر من الوجوب إلى التحليل بقوله : ﴿ مَا طَابَ لَكُمْ ﴾ . ثم هم يعلمون - علم اليقين - أنه حلال بكل معنى كلمة « حلال » ، بنص القرآن ، وبالعامل المتواتر الواضح الذى لا شك فيه ، منذ عهد النبى ﷺ وأصحابه إلى اليوم ، ولكنهم قوم يقترنون !

وشرط العدل فى هذه الآية ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ - شرط شخصى لا تشريعى ، أعنى: أنه شرط مرجعه لشخص المكلف ، لا يدخل تحت سلطان التشريع والقضاء . ، فإن الله قد أذن للرجل - بصيغة الأمر - أن يتزوج ما طاب له من النساء ، دون قيد بإذن القاضى أو بإذن القانون أو بإذن ولى الأمر أو غيره ، وأمره أنه إذا خاف - فى نفسه - ألا يعدل بين الزوجات أن يقتصر على واحدة . وبالبداهة أن ليس لأحد سلطان على قلب المرید الزواج ، حتى يستطيع أن يعرف ما فى دخيلة نفسه من خوف الجور أو عدم خوفه ، بل ترك الله ذلك لتقديره فى ضميره وحده . ثم علّمه الله سبحانه أنه على الحقيقة لا يستطيع إقامة ميزان العدل بين الزوجات =

وسفيان بن عيينة والشافعي ، وهذا مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ أى : فقراً ﴿ فَسَوْفَ

= إقامة تامة لا يدخلها ميل ، فأمره ألا يميل « كل الميل فيذر بعض زوجاته كالمعلقة » . فاكتمى ربه منه - فى طاعة أمره بالعدل - أن يعمل منه بما استطاع ، ورفع عنه ما لم يستطع .

وهذا العدل المأمور به مما يتغير بتغير الظروف ، ومما يذهب ويحيى بما يدخل فى نفس المكلف . ولذلك لا يعقل أن يكون شرطاً فى صحة العقد . بل هو شرط نفسى متعلق بنفس المكلف ويتصرفه فى كل وقت بحسبه : فرب رجل عزم على الزواج المتعدد ، وهو مصرّ فى قلبه على عدم العدل ، ثم لم ينفذ ما كان مصرّاً عليه ، وعدل بين أزواجه . فهذا لا يستطيع أحد يعقل الشرائع أن يدعى أنه خالف أمر ربه . إذ أنه أطاع الله بالعدل ، وعزيمته فى قلبه من قبل لا أثر لها فى صحة العقد أو بطلانه - بدهاءة - خصوصاً وأن النصوص كلها صريحة فى أن الله لا يؤاخذ العبد بما حدث به نفسه ، ما لم يعمل به أو يتكلم .

ورب رجل تزوج زوجة أخرى عازماً فى نفسه على العدل ، ثم لم يفعل ، فهذا قد ارتكب الإثم بترك العدل ومخالفة أمر ربه . ولكن لا يستطيع أحد يعقل الشرائع أن يدعى أن هذا الجور المحرم منه قد أثر على أصل العقد بالزوجة الأخرى ، فنقله من الحل والجواز إلى الحرمة والبطلان . إنما إثمه على نفسه فيما لم يعدل ، ويجب عيه طاعة ربه فى إقامة العدل ، وهذا شئ بديهى لا يخالف فيه من يفقه الدين والتشريع .

والقوم أصحاب هوى ركب عقولهم ، لا أصحاب علم ولا أصحاب استدلال ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويلعبون بالدلائل الشرعية من الكتاب والسنة ما وسعهم اللعب .

فمن الأعيهم : أن يستدلوا بقصة على بن أبى طالب ، حين خطب بنت أبى جهل فى حياة فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وأن رسول الله ﷺ حين استؤذن فى ذلك قال : « فلا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن ، إلا أن يريد ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فإنما هى بضعة منى ، يربىنى ما أرابها ، ويؤذنى ما آذاها » ، ولم يسوقوا لفظ الحديث ، إنما خصوا القصة تلخيصاً مريباً ! يستدلوا بها على أن النبى ﷺ يمنع تعدد الزوجات ، بل صرح بعضهم بالاستدلال بهذه القصة على ما يزعم من التحريم ! لعباً بالدين ، وافتراءً على الله ورسوله . ثم تركوا باقى القصة ، الذى يدمغ افتراءهم - ولا أقول استدلالهم - وهو قول رسول الله ﷺ فى الحادثة نفسها : « وإنى لست أحرم حلالاً ، ولا أحل حراماً ، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله و بنت عدو الله مكاناً واحداً أبداً » .

واللفظان الكريمان رواهما الشيخان : البخارى ومسلم . انظر البخارى (٢٨٦/٩ ، ٢٨٧ ، ١٤٩/٦ فتح) . ومسلم (٢/٢٤٧ ، ٢٤٨) .

فهذا رسول الله ، المبلغ عن الله ، والذى كلمته الفصل فى بيان الحلال والحرام ، يصرح باللفظ العربى المبين - فى أدق حادث يمس أحب الناس إليه ، وهى ابنته الكريمة السيدة الزهراء - بأنه لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً ، ولكنه ينكر أن تجتمع بنت رسول الله و بنت عدو الله فى عصمة رجل واحد .

وعندى وفى فهمى : أنه ﷺ لم يمنع علياً من الجمع بين بنته و بنت أبى جهل بوصفه رسولاً مبلغاً عن ربه حكماً تشريعياً ، بدلالة تصريحه بأنه لا يحرم حلالاً ولا يحل حراماً ، وإنما منعه منعاً شخصياً بوصفه رئيس الأسرة التى منها على ابن عمه وفاطمة ابنته ، بدلالة أن أسرة بنت أبى جهل هى التى جاءت تستأذنه فيما طلب إليهم على رضى الله عنه . وكلمة رئيس الأسرة مطاعة من غير شك ، خصوصاً إذا كان ذلك الرئيس هو سيد قریش ، وسيد العرب ، وسيد الخلق أجمعين ﷺ .

وليس بالقوم استدلال أو تحرماً يدل عليه الكتاب والسنة ، ولا هم من أهل ذلك ولا يستطيعونه . إنما بهم الهوى إلى شئ معين ، يتلمسون له العلل التى قد تدخل على الجاهل والغافل .

بل إن فى فلتات أقلامهم ما يكشف عن خبيثتهم ، ويفضح ما يكون فى ضمائرهم . ومن أمثلة ذلك : أن موظفاً كبيراً فى إحدى وزاراتنا كتب مذكرة أضفى عليها الصفة الرسمية ، ونشرت فى الصحف منذ بضع سنين ، وضع نفسه فيها موضع المجتهدين ، لا فى التشريع الإسلامى وحده ، بل فى جميع الشرائع والقوانين !! فاجترأ على أن يعقد موازنة بين الدين الإسلامى فى إحلاله تعدد الزوجات ، وبين =

يُعِينِكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿ [التوبة: ٢٨] . تقول العرب: عال الرجل يعيل عيلةً، إذا افتقر . ولكن في هذا

= الأديان الأخرى - زعم !! - وبين قوانين الأمم حتى الوثنية منها ! ولم يجد في وجهه من الحياء ما يمنعه من الإيحاء بتفضيل النصرانية التي تحرم تعدد الزوجات ، ومن ورائها التشريعات الأخرى التي تسايها بل يكاد قوله الصريح ينبي عن هذا التفضيل !!

ونسى أنه بذلك خرج من الإسلام بالكفر البواح ، على الرغم من أن اسمه يدل على أنه ولد على فراش رجل مسلم ، إلى ما يدل عليه كلامه من جهله بدين النصارى ، حتى عقد هذه المفاضلة !! فإن اليقين الذي لا شك فيه : أن سيدنا عيسى عليه السلام لم يحرم تعدد الزوجات الحلال في التوراة التي جاء هو مصدقاً لها بنص القرآن الكريم ، وإنما حرمه بعض البابوات بعد عصر سيدنا عيسى بأكثر من ثمانمائة سنة على اليقين ، بما جعل هؤلاء لأنفسهم حق التحليل والتحريم ، الذي نعه الله عليهم في الكتاب الكريم : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ، والذي فسره رسول الله ﷺ ، حين استفسر منه عدى بن حاتم الطائي - الذي كان نصرانياً وأسلم - إذ سمع هذه الآية فقال : إنهم لم يعبدوهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم » ، انظر ما يأتي في تفسير الآية (٣١) من سورة التوبة ، إن شاء الله .

فيا أيها المسلمون :

لا يستجربنكم الشيطان ، ولا يخدعنكم أتباعه وأتباع عابديه ، فتستخفوا بهذه الفاحشة التي يريدون أن يذيعوها فيكم ، وبهذا الكفر الصريح الذي يريدون أن يوقعوكم فيه . فليست المسألة مسألة تقييد مباح أو منعه ، كما يريدون أن يوهموكم . وإنما هي مسألة في صميم العقيدة : أتصرون على إسلامكم وعلى التشريع الذي أنزله الله إليكم وأمركم بطاعته في شأنكم كله ؟ أم تعرضون عنهما - والعباد بالله - فتردوا في حماة الكفر ، وتعرضوا لسخط الله ورسوله ؟ هذا هو الأمر على حقيقته .

إن هؤلاء القوم - الذين يدعونكم إلى منع تعدد الزوجات - لا يتورع أكثرهم عن اتخاذ العدد الجم من العشيقات والأخدان ، وأمرهم معروف مشهور ، بل إن بعضهم لا يستحي من إذاعة مبادئه وقادوراته في الصحف والكتب . ثم يرفع علم الاجتهاد في الشريعة والدين ، ويترى بالإسلام والمسلمين .

إن الله حين أحل تعدد الزوجات - بالنص الصريح في القرآن - أحله في شريعته الباقية على الدهر ، في كل زمان وكل عصر ، وهو سبحانه يعلم ما كان وما سيكون ، فلم يعزب عن علمه - عز وجل - ما وقع من الأحداث في هذا العصر ، ولا ما سيقع فيما يكون من العصور القادمة ، ولو كان هذا الحكم مما يتغير بتغير الزمان - كما يزعم الملحدون الهدامون - لنص على ذلك في كتابه أو في سنة رسوله : ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات : ١٦] .

والإسلام برىء من الرهبانية ، وبرىء من الكهنوت ، فلا يملك أحد أن ينسخ حكماً أحكمه الله في كتابه أو في سنة رسوله ، ولا يملك أحد أن يحرم شيئاً أحله الله ، ولا أن يحل شيئاً حرمه الله . لا يملك ذلك خليفة ولا ملك ، ولا أمير ولا وزير ، بل لا يملك ذلك جمهور الأمة ، سواء بإجماع أم بأكثرية . الواجب عليهم جميعاً الخضوع لحكم الله ، والسمع والطاعة .

اسمعوا قول الله : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصَبْنَا لَكُمْ الْكُذْبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يَفْلَحُونَ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل : ١١٦ ، ١١٧] .

وقوله سبحانه : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : ٥٩] .

ألا فلتعلمن أن كل من حاول تحريم تعدد الزوجات أو منعه ، أو تقييده بقيود لم ترد في الكتاب ولا في السنة ، فإمّا يفترى على الله الكذب .

ألا فلتعلمن أن « كل امرئ حسب نفسه » ، فينظر امرؤ لنفسه أتى يصدر وأنى يرد . وقد أبلغت . والحمد لله رب العالمين .

التفسير ها هنا نظر؛ لأنه كما يخشى كثرة العائلة من تعداد الحرائر، كذلك يخشى من تعداد السرارى أيضا. والصحيح قول الجمهور: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ أى: لا تجوروا. يقال: عال فى الحكم: إذا قسَطَ وظلم وجار. وقد روى ابن أبى حاتم، وابن مردويه، ابن حبان فى صحيحه عن عائشة عن النبى ﷺ: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ قال: «لا تجوروا». قال ابن أبى حاتم: قال أبى: هذا حديث خطأ، والصحيح: عن عائشة موقوف. وروى عن ابن عباس، وعائشة، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وغيرهم أنهم قالوا: لا تميلوا .

وقوله: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ قال ابن عباس: يعنى بالنحلة: المهر. وقالت عائشة: نحلة: فريضة. وقال ابن زيد: النحلة فى كلام العرب: الواجب، يقول: لا تنكحها إلا بشيء واجب لها، وليس ينبغى لأحد بعد النبى ﷺ أن ينكح امرأة إلا بصداق واجب، ولا ينبغى أن تسمية تسمية الصداق كذبا بغير حق. ومضمون كلامهم: أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتماً، وأن يكون طيب النفس بذلك، كما يمنح المنحة ويعطى النحلة طيباً بها، كذلك يجب أن يعطى المرأة صداقها طيباً بذلك، فإن طابت هى له به بعد تسميته أو عن شيء منه، فليأكله حلالاتاً طيباً؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾.

﴿وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّرُوفًا﴾ وَأَبْلُوا الِئْتِمَى حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا

ينهى تعالى عن تمكين السفهاء من التصرف فى الأموال التى جعلها الله للناس قياما، أى: تقوم بها معاشهم من التجارات وغيرها. ومن ها هنا يؤخذ الحجر على السفهاء، وهم أقسام: فتارة يكون الحجرُ للصرغ؛ فإن الصغير مسلوب العبارة، وتارة يكون الحجرُ للجنون، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين، وتارة يكون الحجر للمفلس، وهو ما إذا أحاطت الديون برجل وضاق ماله عن وفائها، فإذا سأل الغرماء الحاكم الحجرَ عليه حَجَرَ عليه. قال ابن عباس فى قوله: ﴿وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ قال: هم بتوك النساء، وكذا قال ابن مسعود، والحكم بن عتيبة، والحسن، والضحاك: هم النساء والصبيان. وقال سعيد بن جبیر: هم اليتامى. وقال مجاهد وعكرمة وقتادة: هم النساء.

وقوله: ﴿وَارزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّرُوفًا﴾ قال ابن عباس يقول: لا تعتمد إلى مالك وما حَوْلَكَ الله، وجعله معيشة، فتعطيه امرأتك أو بَنِيكَ، ثم تنظر إلى ما فى أيديهم، ولكن أَمْسِكْ مالك وأصلحْه، وكن أنت الذى تنفق عليهم من كسوتهم ومؤنتهم ورزقهم.

وروى ابن جرير عن أبى موسى قال: «ثلاثة يدعون الله فلا يستجيب لهم: رجل كانت له

امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل أعطى ماله سفيها، وقد قال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾، ورجل كان له على رجل دين فلم يشهد عليه ^(١). وقال مجاهد: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾: يعنى فى البر والصلة. وهذه الآية الكريمة انتظمت الإحسان إلى العائلة، ومن تحت الحجر بالفعل، من الإنفاق فى الكساوى والأرزاق ^(٢) والكلام الطيب، وتحسين الأخلاق.

وقوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾ أى اختبروهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾، قال مجاهد: يعنى: الحُلْم. قال الجمهور من العلماء: البلوغ فى الغلام تارة يكون بالحُلْم، وهو أن يرى فى منامه ما ينزل به الماء الدافق الذى يكون منه الولد. وقد روى أبو داود عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب، قال: حفظت من رسول الله ﷺ: «لا يَتَم بعد احتلام، ولا صُمَات يوم إلى الليل» ^(٣). وفى الحديث الآخر عن عائشة وغيرها من الصحابة، عن النبى ﷺ قال: «رُفِعَ الْقَلَمُ عن ثلاثة: عن الصَّبِيِّ حتى يَحْتَلِمَ، وعن النَّائِم حتى يَسْتَيْقِظَ، وعن المجنون حتى يُفِيقَ» ^(٤) أو يستكمل خمس عشرة سنة ^(٥)، وأخذوا ذلك من الحديث الثابت فى الصحيحين عن ابن عمر قال: عُرِضَتْ على النبى ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة، فلم يجزنى، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازنى، فقال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز - لما بلغه هذا الحديث: إن هذا الفرق بين الصغير والكبير.

واختلفوا فى إنبات الشعر الحشن حول الفرج، وهو الشعرة، هل يدل على بلوغ أم لا؟ والصحيح أنها بلوغ لأن هذا أمر جبلي يستوى فيه الناس، ثم قد دلت السنة على ذلك فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد، عن عَطِيَّةَ القُرْطَى، قال: عُرِضْنَا على رسول الله ﷺ يوم قُرَيْظَةَ، فكان من أُنْبِتَ قُتِلَ، ومن لم يُنْبِتْ خُلِيَ سبيله، فكنت فىمن لم يُنْبِتْ، فخلى سبيلى ^(٦).

(١) الطبرى (٨٥٤٤)، وإسناده صحيح، ورواه الحاكم (٣٠٢/٢) بإسناد آخر مرفوعا، وقال: «صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، لتوقيف أصحاب شعبة هذا الحديث على أبى موسى» ووافقه الذهبى، وعندى أنهما صحيحان، والرفع زيادة من ثقة، فهى مقبولة. ثم إن هذا الموقف من الواضح أنه مما لا يدرك بالرأى، فهو مرفوع حكما. والسيوطى فى الدر المنثور (١٢٠/٢، ١٢١)، زاد نسبة المرفوع لليهقى فى الشعب، والموقوف لابن أبى شيبه وابن المنذر.

(٢) فى المخطوطة الأزهرية: «والإنفاق» وهكذا جاءت فى عمدة التفسير المطبوع، وما أثبتناه من النسخة المطبوعة من تفسير ابن كثير، تحقيق: سامى بن السلامة. (الباز).

(٣) أبو داود (٢٨٧٣). وإسناده صحيح.

(٤) هو بمعناه ثابت عن عمر وعلى، عند أحمد وأبى داود والحاكم. وعن على عند الترمذى وابن ماجه والحاكم وعن عائشة عند أحمد وأبى داود والنسائى وابن ماجه والحاكم. انظر الفتح الكبير (١٣٥/٢).

(٥) قوله: «أو يستكمل خمسة عشر سنة» - هو من كلام الحافظ ابن كثير، عطفًا على قوله قبل ذلك - حكاية عن جمهور العلماء - : «البلوغ فى الغلام تارة يكون بالحلم». وهذا هو الثابت فى المخطوطة الأزهرية، وهو الذى يستقيم به سياق الكلام. وكذلك ثبت فى طبعة المنار، إلا أنه أدخله فى لفظ الحديث، بعد قوله: «حتى يفيق»! فاختلف نظام الكلام، ودخل فى الحديث ما ليس من لفظه.

(٦) المسند (٤ / ٣١٠ حلى).

وقد أخرجهم أهل السنن الأربعة بنحوه، وقال الترمذى: حسن صحيح. وإنما كان كذلك؛ لأن سعد بن معاذ كان قد حكم فيهم بقتل المقاتلة وسبى الذرية.

وقوله: ﴿فَإِنْ آتَيْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾. قال سعيد بن جبير: يعنى: صلاحاً في دينهم وحفظاً لأموالهم. وكذا روى عن ابن عباس، والحسن البصرى، وغير واحد من الأئمة. وهكذا قال الفقهاء: متى بلغ الغلام مصلحاً لدينه وماله، انفك الحجر عنه، فيسلم إليه ماله الذى تحت يد وليه.

وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾: ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية إسرافاً ومبادرة قبل بلوغهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾: من كان فى غنىة عن مال اليتيم فليستعفف عنه، ولا يأكل منه شيئاً ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾. روى البخارى عن عائشة: أنها نزلت فى والى اليتيم إذا كان فقيراً، أنه يأكل منه مكان قيامه عليه بمعروف (١). وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: ليس لى مال ولى يتيم؟ فقال: «كُلْ من مال يتيمك غير مُسْرِفٍ ولا مُبَذِّرٍ ولا متأثِّلٍ مالا، ومن غير أن تقى مالك - أو قال: تفدى مالك - بماله» (٢). ورواه ابن أبى حاتم وأبو داود والنسائى وابن ماجه بنحوه. وروى ابن حبان فى صحيحه، وابن مردويه عن جابر: أن رجلاً قال: يا رسول الله، فيما أضرب يتيمى؟ قال: ما كنت ضارباً منه ولدك، غير واق مالك بماله، ولا متأثِّل منه.

وقوله: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ يعنى: بعد بلوغهم الحلم وإيناس الرشد، فحيث سلموهم أموالهم، فإذا دفعتم إليهم أموالهم ﴿فَلْيَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾، وهذا أمر الله تعالى للأولياء: أن يشهدوا على الأيتام إذا بلغوا الحلم وسلموا إليهم أموالهم؛ لثلا يقع من بعضهم جُحود وإنكار بما قبضه وتسلمه.

ثم قال: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ أى: وكفى بالله محاسباً وشهيداً ورفيقاً على الأولياء فى حال نظرهم للأيتام، وحال تسليمهم للأموال: هل هى كاملة موفرة، أو منقوصة مبخوسة مدخلة، مروج حسابها، مدلس أمرها؟ الله عالم بذلك كله. ولهذا ثبت فى صحيح مسلم، أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسى، لا تأمرن على اثنين، ولا تليّن مال يتيم» (٣).

(١) البخارى (٨ / ١٨١ فتح).

(٢) المسند (٧٠٢٢). وإسناده صحيح. وقوله: «ولا متأثِّل»: بتشديد التاء المثلثة المكسورة، أى: غير جامع.

(٣) صحيح مسلم (٢ / ٨١).

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (٧) وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلِيَحْشَى الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِهِمْ ظُلْمًا إِنَّمَا يَكُونُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

قال سعيد بن جبير وقتادة: كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئا، فأنزل الله: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أى: الجميع فيه سواء فى حكم الله تعالى، يستوون فى أصل الوراثة وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم، بما يدل به إلى الميت من قرابة، أو زوجية، أو ولاء. فإنه لُحْمَةٌ كُلُّحْمَةِ النِّسَبِ.

وقوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ الآية، قيل: المراد: وإذا حضر قسمة الميراث ذوى القربى ممن ليس بوارث واليتامى والمساكين فليُرْضَخْ لهم من التركة نصيب، وأن ذلك كان واجبا فى ابتداء الإسلام. وقيل: مستحب. واختلفوا: هل هو منسوخ أم لا؟ على قولين: فروى البخارى عن ابن عباس قال: هى مُحْكَمَةٌ، وليست بمنسوخة. وكذلك روى ابن جرير عنه نحوه. وعن مجاهد قال: هى واجبة على أهل الميراث، ما طابت به أنفسهم. وهكذا روى عن ابن مسعود، وأبى موسى، وغيرهم.

وذهب بعضهم إلى أن ذلك أمر بالوصية لهم فروى عبد الرزاق: أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر قسم ميراث أبية عبد الرحمن وعائشة حية، فلم يدع فى الدار مسكينا ولا ذا قرابة إلا أعطاه من ميراث أبية. وتلا: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ﴾. قال القاسم: فذكرت ذلك لابن عباس؟ فقال: ما أصاب، ليس ذلك له، إنما ذلك إلى الوصية، وإنما هذه الآية فى الوصية، يريد: الميت يوصى لهم (١).

وذهب بعضهم إن هذه الآية منسوخة بالكلية. فروى ابن مردويه عن ابن عباس فى هذه الآية: كان ذلك قبل أن تنزل الفرائض، فأنزل الله بعد ذلك الفرائض، فأعطى كل ذى حق حقه، فجعلت الصدقة فيما سُمى المتوفى. وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس نحوه. وروى أيضا عن سعيد بن المسيب أنه قال: إنها منسوخة، كانت قبل الفرائض، كان ما ترك الرجل من مال أعطى منه اليتيم والفقير والمسكين وذوى القربى إذا حضرُوا القسمة، ثم نسخ بعد ذلك، نسختها المواريث، فألحق الله بكل ذى حق حقه، وصارت الوصية من ماله، يوصى بها لذوى

(١) هو فى تفسير عبد الرزاق (ص ٣٨٠ - مخطوط مصور). وذكر ابن كثير هنا أنه رواه ابن أبى حاتم من طريق عبد الرزاق. وقد رواه أيضا الطبرى (٨٦٨١) بنحوه.

قرايته حيث يشاء .

وهكذا روى عن عكرمة ، وأبي الشعثاء ، والقاسم بن محمد ، وغيرهم ، أنهم قالوا : إنها منسوخة . وهذا مذهب جمهور الفقهاء : الأئمة الأربعة وأصحابهم .

والمعنى : أنه إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون ، واليتامى والمساكين قسمة مال جزيل ، فإن أنفسهم تشوف إلى شىء منه ، إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ ، وهم يائسون لا شىء يعطون ، فأمر الله تعالى - وهو الرؤوف الرحيم - أن يرضخ لهم شىء من الوسط يكون برا بهم ، وصدقة عليهم ، وإحسانا إليهم ، وجبرا لكسرهم ، كما قال تعالى : ﴿ كَلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام : ١٤١] . وذم الذين ينقلون المال خفية ؛ خشية أن يطلع عليهم المحابيح وذوو الفاقة ، كما أخبر عن أصحاب الجنة ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ [القلم : ١٧] ، أى : بليل ، وقال : ﴿ فَانظُرُوا لَهُمْ نَبَاتًا نَبَاتًا . أَنْ لَا يَدْخُلَهَا يَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴾ [القلم : ٢٣ ، ٢٤] فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، فمن جحد حق الله عليه عاقبه فى أعز ما يملكه ؛ ولهذا جاء فى الحديث : « ما خالطت الصدقة مالا إلا أفسدته » (١) . أى : منعها يكون سبب محاق ذلك المال بالكلية .

وقوله : ﴿ وَيَخْشَى الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الآية ، قال ابن عباس : هذا فى الرجل يحضره الموت ، فيسمعه الرجل يوصى بوصية تضر بورثته ، فأمر الله تعالى الذى يسمعه أن يتقى الله ، ويوفقه ويسدده للصواب ، ولينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشى عليهم الضيعة . وهكذا قال مجاهد وغير واحد ، وثبت فى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبى وقاص يعودده قال : يارسول الله ، إبنى ذو مال ولا يرثنى إلا ابنة ، أفأتصدق بثلى مالى ؟ قال : « لا » . قال : فالشطر ؟ قال : « لا » . قال : فالثلث ؟ قال : « الثلث ، والثلث كثير » . ثم قال رسول الله ﷺ : « إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عائلة يتكفون الناس » . وفى الصحيح أن ابن عباس قال : لو أن الناس غصوا من الثلث إلى الربع ، فإن رسول الله ﷺ قال : « الثلث ، والثلث كثير » .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى : فى مباشرة أموال اليتامى ولا يأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا . حكاه ابن جرير عن ابن عباس : وهو قول حسن ، يتأيد بما بعده من التهديد فى أكل مال اليتامى ظلما ، أى : كما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك ، فعامل الناس فى ذرياتهم إذا وليتهم . ثم أعلمهم أن من أكل مال يتيم ظلما فإنما يأكل فى بطنه نارا ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا ﴾ . أى : إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب ، فإنما يأكلون نارا تتأجج فى بطونهم يوم القيامة . وفى الصحيحين عن أبى هريرة ، أن

(١) رواه البخارى فى التاريخ الكبير (١/١/١٨٠) فى ترجمة « محمد بن عثمان بن صفوان الحمصى » . وإسناده صحيح ، ولفظه : « إلا أهلكته » . و« محمد بن عثمان » - هذا : ثقة ، لم يذكر فيه البخارى جرحا ، وذكره ابن حبان فى الثقات . وذكره السيوطى فى الجامع الصغير ، كلفظ البخارى ، ونسبه لابن سعد والبيهقى . وذكر شارحه المناوى أنه حديث ضعيف ؛ لأجل محمد بن عثمان ، ولكن الحق ما ذكرناه أنه ثقة .

رسول الله ﷺ قال: «اجْتَنِبُوا السَّعَّ الْمُبِقَاتِ» قيل: يارسول الله، وماهن؟ قال: «الشَّرِكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ». وروى ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَحْرَجُ مَالِ الضَّعِيفِينَ: الْمَرْأَةَ وَالْيَتِيمَ» (١). أى: أوصيكم باجتنب مالهما.

وتقدم في سورة البقرة، عن ابن عباس قال: لما أنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ الآية، انطلق من كان عنده يتيم، فعزّل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشئ فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ الآية [البقرة: ٢٢٠]، فخطوا طعامهم، بطعامهم وشرابهم بشرابهم (٢).

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ وَإِلَىٰ وَالِدَيْهِ أَبَآؤُهُ فَلِلْوَالِدَيْنِ إِذَا مَاتَ الْوَالِدُ لِلَّذِينَ لَهُنَّ إِخْوَةٌ فَلِلْوَالِدَيْنِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُم أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

هذه الآية الكريمة والتي بعدها والآية التي هي خاتمة هذه السورة هن آيات علم الفرائض، وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث، ومن الأحاديث الواردة في ذلك مما هي كالتفسير لذلك . وكذا ذكر منها ما هو متعلق بتفسير ذلك، وأما تقرير المسائل ونصب الخلاف والأدلة، والحجاج بين الأئمة، فموضعه كتب «الأحكام» والله المستعان.

وقد ورد الترغيب في تعلم الفرائض، وهذه الفرائض الخاصة من أهم ذلك. وقد روى أبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو، مرفوعا: «العلمُ ثلاثة، وما سوى ذلك فهو فضل: آية مُحْكَمَةٌ، أو سُنَّةٌ قَائِمَةٌ، أو فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ» (٣). وروى البخارى عن جابر بن عبد الله قال: عدانى رسول الله ﷺ وأبو بكر في بنى سلمة ماشيين، فوجدنى النبي ﷺ لا أعقل شيئا، فدعا بماء فتوضأ منه، ثم رش على، فأفقت، فقلت: ما تأمرنى أن أصنع فى مالى يارسول الله؟ فنزلت: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾. ورواه الجماعة كلهم (٤).

(١) إسناد ابن مردويه صحيح . ولم أجد هذا الحديث فى أى مرجع آخر ، فيستفاد من هذا الموضوع .

(٢) مضى عند تفسير الآيتين : (٢١٩ ، ٢٢٠) من سورة البقرة .

(٣) أبو داود (٢٨٨٥) وابن ماجه (٥٤) . ورواه أيضا الحاكم (٣٣٢/٤) ، ولم يتكلم عليه . وضعفه الذهبي ، وعندى أن إسناده صحيح .

(٤) البخارى (١٨٢/٨ فتح) . ورواه أيضا الطبرى (٨٧٣٠ ، ٨٧٣١) وفضلنا تخريجه هناك .

وروى الإمام أحمد عن جابر قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع، قُتل أبوهما معك في أحد شهيدا، وإن عمهما، أخذ مالهما، فلم يدع لهما مالا، ولا يُنكحان إلا ولهما مال. قال: فقال: «يقضي الله في ذلك». قال: فنزلت آية الميراث، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال: «أعط ابنتي سعد الثلثين، وأمهما الثمن، وما بقى فهو لك». وقد رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه (١) . والظاهر أن حديث جابر الأول إنما نزل بسببه الآية الأخيرة من هذه السورة كما سيأتى، فإنه إنما كان له إذ ذاك أخوات، ولم يكن له بنات، وإنما كان يورث كلاله، ولكن ذكرنا الحديث هاهنا تبعا للبخارى، رحمه الله، فإنه ذكره هاهنا. والحديث الثانى عن جابر أشبه بنزول هذه الآية، والله أعلم (٢).

فقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ أى: يأمركم بالعدل فيهم، فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم فى أصل الميراث، وفاوت بين الصنفين، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين؛ وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة والكلفة ومعاناة التجارة والتكسب وتجشّم المشقة، فناسب أن يُعطى ضعف ما تأخذه الأنثى.

وقد استنبط بعض الأذكياء من قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ أنه تعالى أرحم بخلقه من الوالد بولده، حيث وصّى الوالدين بأولادهم، فعلم أنه أرحم بهم منهم، كما جاء فى الحديث الصحيح: وقد رأى امرأة من السبى تدور على ولدها، فلما وجدته أخذته فألصقت به صدرها وأرضعته. فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أترون هذه طارحة ولدها فى النار وهى تقدّر على ذلك؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فوالله أرحم بعباده من هذه بولدها» (٣). وروى البخارى عن ابن عباس قال: كان المال للولد، وكانت الوصية للوالدين، فتمسّخ الله من ذلك ما أحب، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث، وجعل للزوجة الثمن والربع، وللزوج الشطر والربع (٤).

وقوله: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾. قال بعض الناس: قوله: ﴿فَوْقَ﴾ زائدة وتقديره: فإن كنّ نساء اثنتين، كما فى قوله: ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال: ١٢]! وهذا غير مُسلّم لا هنا ولا هناك؛ فإنه ليس فى القرآن شىء زائد لا فائدة فيه، وهذا ممتنع، ثم قوله: ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ لو كان المراد ما قالوه لقال: فلهما ثلثا ما ترك. وإنما استفيد كون الثلثين للبتين من

(١) المسند (١٤٨٥٤). وذكره الحافظ فى الفتح (١٨٣/٨) وزاد أنه صححه الحاكم.

(٢) وهذا هو الصحيح الذى يفهم من مجموع الروايات، وإن حاول الحافظ فى الفتح الجمع بينها بشىء من التكلف.

(٣) هو فى الصحيحين بمعناه، من حديث عمر بن الخطاب. وقد مضى تخريجه عند تفسير الآيات: (١٤٢ -

١٤٤) من سورة البقرة.

(٤) البخارى (٥/٢٧٨، ٢٧٩، ١٩/١٢ فتح).

حكم الأختين فى الآية الأخيرة، فإنه تعالى حكم فيها للأختين بالثلثين. وإذا ورث الأختان الثلثين فلأن يرث البنتان الثلثين بطريق الأولى والأخرى. وقد تقدم فى حديث جابر أن رسول الله ﷺ حكم لابنتى سعد بن الربيع بالثلثين (١)، فدل الكتاب والسنة على ذلك. وأيضاً فإنه قال: «وَأَنَّ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ». فلو كان للبتين النصف أيضاً لنص عليه، فلما حكم به للواحدة على انفرادها دل على أن البتتين فى حكم الثلاث والله أعلم.

وقوله: «وَلِأَبْوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ» إلى آخره، الأبوان لهما فى الإرث أحوال:

أحدها: أن يجتمعا مع الأولاد، فيفرض لكل واحد منهما السدس، فإن لم يكن للميت إلا بنت واحدة، فرض لها النصف، وللأبوين لكل واحد منهما السدس، وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب، فيجمع له - والحالة هذه - بين الفرض والتعصيب.

الحال الثانى: أن ينفرد الأبوان بالميراث، فيفرض للأم الثلث - والحالة هذه - ويأخذ الأب الباقي بالتعصيب المحض، ويكون قد أخذ ضعفى ما فرض للأم، وهو الثلثان، فلو كان معهما زوج أو زوجة أخذ الزوج النصف والزوجة الربع. ثم اختلف العلماء: ماذا تأخذ الأم بعد ذلك؟ على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها تأخذ ثلث الباقي فى المسألتين؛ لأن الباقي كأنه جميع الميراث بالنسبة إليهما. وقد جعل الله لها نصف ما جعل للأب فتأخذ ثلث الباقي ويأخذ الباقي ثلثيه. وهو قول عمر وعثمان، وأصح الروايتين عن على. وبه يقول ابن مسعود وزيد بن ثابت، وهو قول الفقهاء السبعة، والأئمة الأربعة، وجمهور العلماء.

الثانى: أنها تأخذ ثلث جميع المال لعموم قوله: «فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ»، فإن الآية أعم من أن يكون معها زوج أو زوجة أو لا. وهو قول ابن عباس. وروى عن على، ومعاذ بن جبل، نحوه. وبه يقول شريح وداود الظاهري، واختاره أبو الحسين محمد ابن عبد الله بن اللبان البصرى فى كتابه «الإيجاز فى علم الفرائض». وهذا فيه نظر، بل هو ضعيف؛ لأن ظاهر الآية إنما هو إذا استبد بجميع التركة، فأما فى هذه المسألة فيأخذ الزوج أو الزوجة الفرض، ويبقى الباقي كأنه جميع التركة، فتأخذ ثلثه.

القول الثالث: أنها تأخذ ثلث جميع المال فى مسألة الزوجة، فإنها تأخذ الربع وهو ثلاثة من اثنى عشر، وتأخذ الأم الثلث وهو أربعة، فيبقى خمسة للأب. وأما فى مسألة الزوج فتأخذ ثلث الباقي؛ لثلاث تأخذ أكثر من الأب لو أخذت ثلث المال، فتكون المسألة من ستة: للزوج النصف ثلاثة، وللأم ثلث ما بقى وهو سهم، وللأب الباقي بعد ذلك وهو سهمان! ويحكى هذا عن ابن سيرين، وهو قول مركب من القولين الأولين، موافق كلاً منهما فى صورة! وهو ضعيف أيضاً. والصحيح الأول، والله أعلم.

الحال الثالث من أحوال الأبوين: وهو اجتماعهما مع الإخوة سواء كانوا من الأبوين، أو من الأب، أو من الأم، فإنهم لا يرثون مع الأب شيئاً، ولكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس، فيفرض لها مع وجودهم السدس، فإن لم يكن وارث سواها وسوى الأب أخذ الأب الباقي. وحكم الأخوين فيما ذكرناه كحكم الإخوة عند الجمهور.

وقوله: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾: أضروا بالأم ولا يرثون، ولا يحجبها الأخ الواحد من الثلث ويحجبها ما فوق ذلك، وكان أهل العلم يرون أنهم إنما حججوا أمهم من الثلث أن أباهم يلي إنكاحهم ونفقتهم عليهم دون أمهم . وهذا كلام حسن. لكن روى عن ابن عباس بإسناد صحيح: أنه كان يرى أن السدس الذي حجبه عن أمهم يكون لهم، وهذا قول شاذ، رواه ابن جرير ثم قال: وهذا قول مخالف لجميع الأمة .

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ زَيْنٍ﴾: أجمع العلماء سلفاً وخلفاً: أن الدين مقدم على الوصية، وذلك عند إمعان النظر يفهم من فَحْوَى الآية الكريمة. وقد روى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وأصحاب التفاسير عن علي بن أبي طالب قال: إنكم تقرؤون ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ زَيْنٍ﴾ وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية، وإن أعيان بنى الأم يتوارثون دون بنى العلات، يرث الرجل أخاه لأبيه وأمه دون أخيه لأبيه. ثم قال الترمذي: لا نعرفه إلا من حديث الحارث الأعور، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم. قلت: لكن كان حافظاً للفرائض معتنياً بها وبالْحَسَابِ، والله أعلم (١).

وقوله: ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أى: إنما فرضنا للأبَاء وللأبناء، وساوينا بين الكل في أصل الميراث، على خلاف ما كان عليه الأمر في الجاهلية، وعلى خلاف ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من كون المال للولد وللأبوين الوصية، كما تقدم عن ابن عباس، إنما نسخ الله ذلك إلى هذا، ففرض لهؤلاء ولهؤلاء بحسبهم؛ لأن الإنسان قد يأتيه النفع الدينى - أو الأخرى أو هما - من أبيه ما لا يأتيه من ابنه، وقد يكون بالعكس؛ فلهذا قال: ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أى: إن النفع متوقع ومرجو من هذا، كما هو متوقع ومرجو من الآخر؛ فلهذا فرضنا لهذا ولهذا، وساوينا بين القسمين في أصل الميراث، والله أعلم. وقوله: ﴿فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أى: هذا الذى ذكرناه - من تفصيل الميراث، وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض - هو فرض من الله الله حكم به وقضاه، وهو العليم الحكيم، الذى يضع الأشياء فى محالها، ويعطى كلا ما يستحقه بحسبه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

(١) الحارث هذا: هو ابن عبد الله الأعور، وهو تابعى ضعيف الحديث. وانظر: المسند (٥٩٥، ١٠٩١،

رَبِيعٌ ﴿١١﴾ ﴿١٢﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَكُلٌّ فَإِنْ كَانَ لهنَّ وَكُلٌّ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَكُلٌّ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَكُلٌّ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ تُوَصُّونَ بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍ وَصِيَّتِهِ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴿١٢﴾

يقول تعالى: ولكم - أيها الرجال - نصف ما ترك أزواجكم إذا متن عن غير ولد، فإن كان لهن ولد فلکم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين. وقد تقدم أن الدين مقدم على الوصية، وبعده الوصية ثم الميراث، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، وحكم أولاد البنين وإن سفلوا حكم أولاد الصلب. ثم قال: ﴿ولهن الربع مما تركتم﴾ إلى آخره، وسواء في الربع أو الثمن الزوجة والزوجتان الاثنتان والثلاث والأربع يشتركن فيه. وقوله: ﴿من بعد وصية﴾ إلخ، الكلام عليه كما تقدم.

وقوله: ﴿وإن كان رجلٌ يورثُ كلالَةً﴾ الكلاله: مشتقة من الإكليل، وهو الذي يحيط بالرأس من جوانبه، والمراد هنا: من يرثه من حواشيه لا أصوله ولا فروعه، كما روى الشعبي عن أبي بكر الصديق: أنه سئل عن الكلاله؟ فقال: أقول فيها برأى، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريثان منه، الكلاله: من لا ولد له ولا والد. فلما ولي عمر قال: إني لأستحي أن أخالف أبا بكر في رأى رآه. رواه ابن جرير وغيره.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: كنت آخر الناس عهدا بعمر، فسمعتة يقول: القول ما قلت، قلت: وما قلت؟ قال الكلاله: من لا ولد له ولا والد (١). وهكذا قال وابن مسعود، وصح من غير وجه عن ابن عباس، وزيد بن ثابت، وبه يقول الشعبي والنخعي، وغيرهم وبه يقول أهل المدينة والكوفة والبصرة. وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور السلف والخلف، بل جميعهم. وقد حكى الإجماع عليه غير واحد، وورد فيه حديث مرفوع. قال ابن اللبان: وقد روى عن ابن عباس ما يخالف ذلك، وهو: أنه من لا ولد له. والصحيح عنه الأول، ولعل الراوى ما فهم عنه ما أراد.

وقوله: ﴿وله أخٌ أو أُختٌ﴾ أى: من أم، كذا فسرها أبو بكر الصديق فيما رواه قتادة عنه، ﴿فلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ إخوة الأم يخالفون بقية الورثة من

(١) إسناد ابن أبي حاتم إسناده صحيح. وهذا الأثر رواه الطبري في التفسير (٨٧٦٧)، ولكن سقط منه من آخره قوله: «ولا والد» وعندى أن هذا خطأ من ناسخ الطبري؛ لأنه ذكره ضمن الروايات التي رواها عن ابن عباس: «من لا ولد له ولا والد». ورواه البيهقي أيضا (٢٢٥/٦) ناقصا كرواية الطبري. ولكنه وقع له هكذا، ثم يعقب عليه بما يدل على إنكاره! فهو معذور في إنكاره، إذ وقعت له الرواية الناقصة ولم تقع له الرواية التامة.

وجوه ، أحدها: أنهم يرثون مع من أدلوا به وهى الأم . الثانى : أن ذكرهم وأثامهم سواء . الثالث: أنهم لا يرثون إلا إذا كان ميتهم يورث كلاله ، فلا يرثون مع أب، ولا جد، ولا ولد، ولا ولد ابن . الرابع: أنهم لا يزدادون على الثلث، وإن كثر ذكورهم وإناتهم.

واختلف العلماء فى المسألة المشتركة، وهى: زوج، وأم أو جدة، واثان من ولد الأم وواحد أو أكثر من ولد الأبوين ؟ فعلى قول الجمهور: للزوج النصف، وللأم أو الجدة السدس، ولولد الأم الثلث، ويشاركهم فيه ولد الأب والأم بما بينهم من القدر المشترك وهو إخوة الأم.

وقد وقعت هذه المسألة فى زمن أمير المؤمنين عمر، فأعطى الزوج النصف، والأم السدس، وجعل الثلث لأولاد الأم، فقال له أولاد الأبوين: يا أمير المؤمنين، هب أن أبانا كان حمارا! السنا من أم واحدة ؟ فشرَّك بينهم . صح التشريك عنه وعن أمير المؤمنين عثمان، وهو إحدى الروايتين عن ابن مسعود، وزيد بن ثابت، وابن عباس . وبه يقول سعيد بن المسيب، وشريح القاضى، وعمر بن عبد العزيز، والثورى، وغيرهم . وهو مذهب مالك والشافعى، وإسحاق بن راهويه .

وكان على بن أبى طالب لا يشرك بينهم، بل يجعل الثلث لأولاد الأم، ولا شىء لأولاد الأبوين، والحالة هذه، لأنهم عصبه . وهذا قول أبى بن كعب وأبى موسى الأشعري، وهو المشهور عن ابن عباس، وهو مذهب الشعبي وابن أبى ليلى، وأبى حنيفة، وأبى يوسف، ومحمد والإمام أحمد، ويحيى بن آدم ، وداود بن على الظاهرى وغيرهم ، واختاره ابن اللبان الفرضى، فى كتابه «الإيجاز» .

وقوله: ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ أى: لتكن وصيته على العدل، لا على الإضرار والجور والحيف، بأن يحرم بعض الورثة، أو ينقصه، أو يزيده على ما قدر الله له من الفريضة، فمتى سعى فى ذلك كان كمن ضاد الله فى حكمته وقسمته . وروى الطبرى عن ابن عباس، موقوفا: «الضرار فى الوصية من الكباثر» وكذا رواه النسائى وابن أبى حاتم ، عن ابن عباس موقوفا (١) . ولهذا اختلف الأئمة فى الإقرار للوارث: هل هو صحيح أم لا؟ على قولين: أحدهما: لا يصح لأنه مظنة التهمة . وقد ثبت فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه، فلا وصية لوارث» (٢) . وهذا مذهب أبى حنيفة ومالك، وأحمد بن حنبل، والقول القديم للشافعى، وذهب فى الجديد إلى أنه يصح الإقرار . وهو مذهب طائفة، وعطاء، والحسن، وعمر بن عبد العزيز . وهو اختيار أبى عبد الله البخارى فى صحيحه .

(١) الطبرى (٨٧٨٣ - ٨٧٨٧) . وكذلك رواه البيهقى (٢٧١/٦) ورواه الطبرى (٨٧٨٨) والبيهقى وابن أبى حاتم - فيما نقله - عنه ابن كثير هنا - مرفوعا . وإسناده ضعيف جدا . والصحيح أنه موقوف على ابن عباس ، ولكنه موقوف لفظا ، وهو - عندنا - مرفوع حكما ، إذ لا يقول هذا ابن عباس ، ولا يجزم بأنه من الكباثر - من قبل نفسه .

(٢) مضى عند تفسير الآيات : (١٧٨ - ١٨٢) من سورة البقرة ، من حديث عمرو بن خارجة .

واحتج بأن رافع بن خديج أوصى ألا تُكشَفَ الفَرَازِيَّةُ عما أُغْلِقَ عليه بابها . قال : وقال بعض الناس : لا يجوز إقراره لسوء الظن بالورثة ، وقد قال النبي ﷺ : « إياكم والظن ، فإن الظنَّ أكذبُ الحديثِ » . وقال الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكُمْ لَأَشَدُّ قُوَّةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » [النساء : ٥٨] فلم يخص وارثاً ولا غيره . انتهى ما ذكره . فمتى كان الإقرار صحيحاً مطابقاً لما في نفس الأمر جرى فيه هذا الخلاف ، ومتى كان حيلةً ووسيلةً إلى زيادة بعض الورثة ونقصان بعضهم ، فهو حرام بالإجماع وبنص هذه الآية الكريمة « غَيْرِ مُضَارٍ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ » .

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾

أى : هذه الفرائض والمقادير التي جعلها الله للورثة بحسب قربهم من الميت واحتياجهم إليه وفقدهم له عند عدمه - هي حدود الله ، فلا تعتدوها ولا تجاوزوها ؛ ولهذا قال : « وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أى : فيها ، فلم يزد بعض الورثة ولم ينقص بعضاً بحيلة ووسيلة ، بل تركهم على حكم الله وفريضة وقسمته « يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » . وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ أى : لكونه غير ما حكم الله به وضاد الله فى حكمه (١) . وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به ، ولهذا يجازيه بالإهانة فى العذاب الاليم المقيم .

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ الرَّجُلُ لَيَعْمَلْ بِعَمَلِ أَهْلِ الْخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً ، فَإِذَا أُوصِيَ حَافٍ فِي وَصِيَّتِهِ ، فَيُخْتَمَ لَهُ بِشَرِّ عَمَلِهِ ، فَيَدْخُلُ النَّارَ ؛ وَإِنْ الرَّجُلُ لَيَعْمَلْ بِعَمَلِ أَهْلِ الشَّرِّ سَبْعِينَ سَنَةً ، فَيُعَدَّلُ فِي وَصِيَّتِهِ ، فَيُخْتَمَ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ » . قال : ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم « تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ إلى قوله : « عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٢) . ورواه أبو داود والترمذى وابن ماجه ، بنحوه . وسياق الإمام أحمد أتم وأكمل .

(١) هذا الوعيد الشديد هو لمن تعدى حدود الله فى الوصية والميراث وإعطاء كل ذى حق حقه ، وخالف عن أمر ربه ، وظن أنه يعمل ما يراه - بعقله القاصر أو بهواه - ما فيه مصلحة لورثته ، أعنى أن هذا فى المخالفة العملية التى لا تتصل بالعقيدة ، كما هو ظاهر من سياق الآيات الربانية . أما الخارجون على شريعة الله وحدوده ، الذين يطالبون بمساواة المرأة بالرجل فى الميراث - من الجمعيات النسائية الفاجرة المتهتكة ، ومن الرجال أو أشباه الرجال ، الذين يروجون لهذه الدعوة ، ويتملقون النسوة فيما يصدرن ويردون - فلإنما هم خارجون من الإسلام خروج المرتدين ، لاتصال ذلك بأصل العقيدة ، وإنكار التشريع الإسلامى ، فيجب على كل مسلم أن يقاومهم ما استطاع ، وأن يدفع شرهم عن دينه وعن أمته .

(٢) المسند (٧٧٢٨) . وقد مضى عند تفسير الآيات : (١٨٠ - ١٨٤) من سورة البقرة ، وخرجناه وأشرنا إلى هذا الموضع هناك .

﴿ وَالَّتِي يَأْتِيكِ الْفَحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنَّهَا مِنْكُمْ فَتَاذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾

كان الحكم في ابتداء الإسلام : أن المرأة إذا زنت فبنت زناها بالبينة العادلة، حُبست في بيت فلا تُمكن من الخروج منه إلى أن تموت؛ ولهذا قال: ﴿ وَاللَّاتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ ﴾ يعني: الزنا ﴿ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ فالسبيل الذى جعله الله : هو الناسخ لذلك. قال ابن عباس: كان الحكم كذلك، حتى أنزل الله سورة النور ، فنسخها بالجلد، أو الرجم. وهو أمر متفق عليه. روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي أثر عليه وكرب لذلك وترّيد وجهه، فأنزل الله عز وجل عليه ذات يوم، فلما سرى عنه قال: «خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا: الثَّيْبُ بِالثَّيْبِ، وَالْبِكْرُ بِالْبِكْرِ، الثَّيْبُ جَلْدُ مِائَةٍ، وَرَجْمٌ بِالْحِجَارَةِ، وَالْبِكْرُ جَلْدُ مِائَةٍ ثُمَّ نَفَى سَنَةَ». وقد رواه مسلم وأصحاب السنن : قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح وكذا. رواه أبو داود الطيالسى (١). وقد ذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى القول بمقتضى هذا الحديث، وهو الجمع بين الجلد والرجم فى حق الثيب الزانى، وذهب الجمهور إلى أن الثيب الزانى إنما يُرجم فقط من غير جلد، قالوا: لأن النبي ﷺ رَجِمَ مَاعِزًا وَالْغَامِدِيَّةَ وَالْيَهُودِيَّيْنَ، وَلَمْ يَجْلِدْهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْجِلْدَ لَيْسَ بِحَتْمٍ، بَلْ هُوَ مَنْسُوخٌ عَلَى قَوْلِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وقوله: ﴿ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنَّهَا مِنْكُمْ فَتَاذُوهُمَا ﴾ أى: والذنان يفعلان الفاحشة فآذوهما. قال ابن عباس وسعيد بن جبير وغيرهما: أى بالشتم والتعير، والضرب بالنعال، وكان الحكم كذلك حتى نسخه الله بالجلد أو الرجم. وقال عكرمة، وعطاء، والحسن، وعبد الله بن كثير: نزلت فى الرجل والمرأة إذا زنيا. وقال مجاهد: نزلت فى الرجلين إذا فعلا، لا يكتفى، وكأنه يريد اللواط، والله أعلم. وقد روى أهل السنن عن ابن عباس مرفوعا، قال: قال رسول الله ﷺ: « مَنْ رَأَيْتُمُوهُ يَعْجَلُ عَمَلًا قَوْمٍ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ » (٢).

وقوله: ﴿ فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا ﴾ أى: أقبلوا ونزعًا عما كانا عليه، وصلحت أعمالهما وحسنت ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ﴾ أى: لا تعنّفوهما بكلام قبيح بعد ذلك؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾. وقد ثبت فى الصحيحين: « إِذَا زَنَّتْ أَمَةٌ أَحَدَكُمْ فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ وَلَا يُثْرَبْ عَلَيْهَا » (٣) أى: لا يُعيرها بما صنّعت بعد الحد، الذى هو كفارة لما صنّعت.

(١) المسند (٥/٣١٨ حلى) . ورواه أيضا قبل ذلك (ص٣١٣ ، ٣١٧) . وهو فى الطيالسى (٥٨٤) ، ورواه الشافعى فى الرسالة (٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٦٨٦) بتحقيقنا . ورواه الطبرى (٨٨٠٥ - ٨٨٠٧ ، ٨٨١٠ ، ٨٨١١) . وفصلنا تخرجه هناك .

(٢) ورواه أحمد فى المسند (٢٧٣٢) . وإسناده صحيح .

(٣) مختصر من حديث رواه البخارى مرارا ، من حديث أبى هريرة ، منها: (٤/٣٥٠ فتح) ومسلم (٣٧/٢ ، ٣٨) بأسانيد . ورواه أيضا أحمد فى المسند (٧٣٨٩) .

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِنِّ تَبْتُ الْإِنِّ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

يقول تعالى: إنما يتقبل الله التوبة ممن عمل السوء بجهالة، ثم يتوب ولو قبل معاينة الملك لقبض روحه قَبْلَ الْغَرْغَرَةِ. قال مجاهد وغير واحد: كل من عصى الله خطأ أو عمداً فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب. وروى عبد الرزاق: عن قتادة قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فأروا أن كل شيء عُصِيَ به فهو جهالة، عمداً كان أو غيره (١). وقال عن ابن عباس ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾ قال: ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت، وقال الحسن البصرى: ما لم يُغْرَغِر. وقال عكرمة: الدنيا كلها قريب.

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرَغِرْ». ورواه الترمذى وابن ماجه. وقال الترمذى: حسن غريب (٢). ووقع في سنن ابن ماجه: عن عبد الله بن عمرو. وهو وهم، إنما هو عبد الله بن عمر بن الخطاب. وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن البيهقي قال: اجتمع أربعة من أصحاب النبي ﷺ، فقال أحدهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ يَوْمَ». فقال الآخر: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ يَوْمَ». فقال الثالث: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بَضْحَاةً». قال الرابع: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغْرَغِرْ بِنَفْسِهِ» (٣). وقد رواه سعيد بن منصور عن عبد الرحمن بن البيهقي، فذكر قريباً منه.

فقد دلت هذه الأحاديث على أن من تاب إلى الله عز وجل وهو يرجو الحياة، فإن توبته مقبولة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. وأما متى وقع الإياب من الحياة، وعاین الملك، وحسرت الروح في الحلق، وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغرغرت النفس صاعدة في العلاصم - فلا توبة متقبلة حينئذ، ولات حين مناص؛ ولهذا قال: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِنِّ تَبْتُ الْإِنِّ وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا

(١) هو في تفسير عبد الرزاق (ص ٣٩). وكذلك رواه الطبري من طريقه (٨٨٣٣).

(٢) المسند (٦١٦٠، ٦٤٠٨). ورواه أيضا الحاكم (٤/٢٥٧) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) المسند (١٥٥٦٥)، وإسناده صحيح. «وعبد الرحمن بن البيهقي: تابعي ثقة. ووقع في المطبوعة: «بن المسلماني»! وهو تحريف. والحديث رواه الحاكم (٤/٢٥٧ - ٢٥٩) بأسانيد صحاح. وذكر البيهقي في الزوائد (١٠/١٩٧) وقال: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحاح، غير عبد الرحمن، وهو ثقة».

رَأَوْا بِأَسَنَاءَ قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴿ الآيتين [عافر: ٨٤، ٨٥]، وكما حكم تعالى بعدم توبة أهل الأرض إذا عاينوا الشمس طالعة من مغربها كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ الآية [الانعام: ١٥٨].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ يعني : أن الكافر إذا مات على كفره وشركه، لا ينفعه ندمه ولا توبته، ولا يقبل منه فدية ولو بملء الأرض . قال ابن عباس ، وأبو العالية ، والربيع ابن أنس : ﴿وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ قالوا: نزلت في أهل الشرك . وروى الإمام أحمد عن أبي ذر: أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله يقبل توبة عبده - أو يغفر لعبده - ما لم يقع الحجاب». قيل : وما وقوع الحجاب؟ قال : «تخرج النفسُ وهي مشرِكة» (١)؛ ولهذا قال : ﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أى : موجعا شديداً مقيماً.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١١﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتِهِنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ءَاتَاخُذُوهُنَّ بِهَتْنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴿١٢﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٣﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ءَإِنَّكُمْ كَانُمْ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿١٤﴾﴾

روى البخارى عن ابن عباس: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاؤوا زوّجوها، وإن شاؤوا لم يزوّجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك. ورواه أبو داود، والنسائي، وابن مردويه، وابن أبي حاتم (٢).

وروى الطبرى عن عكرمة قال : نزلت في كَيْبِشَةَ بنت مَعْن بن عاصم من الأوس، توفى عنها أبو قيس بن الأسلت، فجنحَ عليها ابنه، فجاءت رسول الله ﷺ، فقالت: يارسول الله، لا أنا ورثت زوجى، ولا أنا تركت فأنكح، فنزلت هذه الآية (٣). وقال مجاهد فى الآية: كان الرجل يكون فى حجره اليتيمة هو يلى أمرها، فيحبسها رجاء أن تموت امرأته، فيتزوجها أو يزوجه ابنه. رواه ابن أبي حاتم. ثم قال: وروى عن الشعبي، وعطاء بن أبى رباح، وأبى مجلز، والضحاك، والزهرى، وعطاء الخراسانى، ومقاتل بن حيان - نحو ذلك. قلت: فالآية

(١) المسند (٥ / ١٧٤ حلى) وإسناده صحيح . ورواه أيضا البخارى من الكبير (١ / ٢٢ / ٢٢٢ ، ١٦١ ، ١٦٢) والحاكم (٤ / ٢٥٧) وصححه ، ووافقه الذهبى . وهو فى مجمع الزوائد (١٠ / ١٩٨) وزاد نسبه للبخارى .
 (٢) البخارى (٨ / ١٨٤ - ١٨٦ فتح) . ورواه الطبرى (٨٨٦٩) .
 (٣) الطبرى فى خير طويل (٨٨٧٣) . وقوله : « جنح عليها » : أى بسط عليها جناحه أو كنفه ومال عليها . يعنى : أنه مال عليها ليحول بينها وبين الناس .

تعم ما كان يفعله أهل الجاهلية، وما ذكره مجاهد ومن وافقه، وكل ما كان فيه نوع من ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْضَلُوهُنَّ لِتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ أي: لا تضاروهن في العشرة: لتترك لك ما أصدقتها أو بعضه، أو حقاً من حقوقها عليك، أو شيئاً من ذلك على وجه القهر لها والاضطهاد.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ﴾ قال ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وسعيد ابن جبيرة، ومجاهد، وغيرهم: يعني بذلك الزنا، يعني: إذا زنت فلنكحها أن تسترجع منها الصداق الذي أعطيتها وتضاجرها حتى تتركه لك وتخالعها، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ حِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ (١) [البقرة: ٢٢٩]. وقال ابن عباس، وعكرمة، والضحاك: الفاحشة المبينة: النشوز والعصيان. واختار ابن جرير أنه يعم ذلك كله: الزنا، والعصيان، والنشوز، وبدء اللسان، وغير ذلك. يعني: أن هذا كله يبيح مضاجرتها حتى تبرئه من حقها أو بعضه ويفارقها، وهذا جيد، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: طيبوا أقوالكم لهن، وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم، كما تحب ذلك منها، فافعل أنت بها مثله، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقال رسول الله ﷺ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي» (٢).

وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة دائم البشر، يداعب أهله، ويتلطف بهم، ويوسعهم نفاقته، ويضاحك نساءه، حتى إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين، يتودد إليها بذلك. قالت: سأبنتي رسول الله ﷺ فسبقتة، وذلك قبل أن أحمل اللحم، ثم سابقته بعد ما حملت اللحم فسبنتي، فقال: «هذه بتلك» (٣) ويجتمع نساؤه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله ﷺ، فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها. وكان ينام مع المرأة من نساته في شعار واحد، يضع عن كتفيه الرداء وينام بالإزار، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلاً قبل أن ينام، يؤانسهم بذلك ﷺ وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ أي: فعسى أن يكون صبركم مع إساكتكم لهن مع كراهن - فيه خير كثير لكم في الدنيا والآخرة. كما قال ابن عباس في هذه الآية: هو أن يعطف عليها، فيرزق منها ولداً، ويكون في ذلك الولد خير

(١) انظر ما مضى عند تفسير الآيتين: (٢٢٩، ٢٣٠).

(٢) رواه الترمذی (٣٦٧/٤) من حديث عائشة، وقال: «حديث حسن صحيح». ورواه ابن ماجه (١٩٧٧) من حديث ابن عباس، وإسناده صحيح.

(٣) من حديث رواه أبو داود (٢٥٧٨) بنحوه. قال المنذرى: «وأخرجه النسائي وابن ماجه».

كثير، وفي الحديث الصحيح: «لا يَفْرَكُ مؤمن مؤمنة، إن سَخَطَ منها خُلِقًا رَضِيَ منها آخر» (١).
 وقوله: «وإن أردتم استبدالَ زوجٍ مكانَ زوجٍ وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً تأخذونه بهتاناً وإنما مبيناً» أى: إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأة ويستبدل مكانها غيرها، فلا يأخذن مما كان أصدق الأولى شيئاً، ولو كان قنطاراً من مال.

وفي هذه الآية دلالة على جواز الإصداق بالمال الجزيل، وقد كان عمر بن الخطاب نهى عن كثرة الإصداق، ثم رجع عن ذلك، كما قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا سلمة بن علقمة، عن محمد بن سيرين، قال: بُنِتُ عن أبي العَجَفَاءِ السُّلَمِيِّ قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: ألا لا تَغْلُوا في صداق النساء، فإنها لو كانت مَكْرُمَةً في الدنيا أو تَقْوَى عند الله كان أولاكم بها النبي ﷺ، ما أصدق رسولُ الله ﷺ امرأةً من نسائه، ولا أصدقَتُ امرأةً من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقية، وإن كان الرجل لِيُبْتَلَى بصِدْقَةِ امرأته حتى يَكُونَ لها عداوة في نفسه، وحتى يقول: كَلِفْتُ إليك علقَ القربة. ورواه أهل السنن، وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح (٢). وروى أبو يعلى عن مسروق، قال: ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ثم قال: أيها الناس، ما إكثاركم في صدق النساء؟ وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه وإنما الصدقات فيما بينهم أربعمائة درهم فما دون ذلك. ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها. فلا أعرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمائة درهم. قال: ثم نزل، فاعترضته امرأة من قريش، فقالت: يا أمير المؤمنين، نهيت الناس أن يزيدوا النساء في صداقهن على أربعمائة درهم؟ قال: نعم. فقالت: أما سمعت ما أنزل الله في القرآن؟ قال: وأى ذلك؟ فقالت: أما سمعت الله يقول: «وَأْتَيْتُمُ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا» الآية [النساء: ٢٠]. قال: فقال: اللهم غَفْرًا، كُلُّ الناس أَفْقَهُ من عمر. ثم رجع فركب المنبر فقال: أيها الناس، إنى كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صداقهن على أربعمائة درهم، فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب. قال أبو يعلى: وأظنه قال: فمن طابت نفسه فليفعل. إسناده جيد قوى (٣).

ولهذا قال منكرا: «وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ» أى: وكيف تأخذون الصداق من المرأة وقد أفضيت إليها وأفضت إليك؟ قال ابن عباس، ومجاهد، والسدى، وغير واحد: يعنى بذلك الجماع. وقد ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال للمتلاعنين بعد فراغهما من تلاعهما: «الله يعلم أن أحدكما كاذب. فهل منكما تائب؟» قالها ثلاثاً. فقال الرجل: يا رسول الله، مالى؟ - يعنى: ما أصدقها - قال: «لا مال لك. إن كنت صدقت فهو بما

(١) رواه مسلم (١/ ٤٢١) من حديث أبى هريرة . وقوله : « لا يفرك » - بفتح الراء : أى لا يبغضها بغضا يؤدى إلى تركها .

(٢) المسند (٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٣٤٠) ورواه الحاكم (١٧٥/٢ ، ١٧٦) وصححه ، ووافقه الذهبي . وقوله : « علق القربة » : هو بفتح العين واللام ، وهو حبل القربة الذى تعلق به . يريد: تحملت لأجلك كل شىء حتى علق القربة .

(٣) وهو فى مجمع الزوائد (٤/ ٢٨٣ ، ٢٨٤) .

استحللت من فرجها، وإن كنت كذبت عليها فهو أبعد لك منها». وفي سنن أبي داود وغيره عن بصرة بن أكرم : أنه تزوج امرأة بكرأ في خدرها، فإذا هي حامل من الزنا، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له. ففضى لها بالصداق وفرق بينهما، وأمر بجلدها، وقال: «الولد عبد لك والصداق في مقابلة البضع» (١).

وقوله: «وَأَخَذْنَا مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا»: روى عن ابن عباس ومجاهد، وسعيد بن جبير: أن المراد بذلك العقد. وعن ابن عباس قال: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. قال ابن أبي حاتم: وروى عن عكرمة، ومجاهد، والحسن، وقتادة وغيرهم نحو ذلك. وفي صحيح مسلم، عن جابر في خطبة حجة الوداع: أن النبي ﷺ قال فيها: «واستوصوا بالنساء خيراً، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

وقوله: «وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا» يُحَرِّمُ تعالى زوجات الآباء تكرمه لهم، وإعظماً واحتراماً أن توطأ من بعده، حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها، وهذا أمر مجمع عليه. وقد زعم السهيلي أن نكاح نساء الآباء كان معمولاً به في الجاهلية؛ ولهذا قال: «إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ». كما قال: «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ». قال: وقد فعل ذلك كنانة بن خزيمه، تزوج بامرأة أبيه، فأولدها ابنه النضر بن كنانة، قال: وقد قال ﷺ: «وُلِدْتُ مِنْ نِكَاحٍ لَا مِنْ سِفَاحٍ». قال: فدل على أنه كان سائغاً لهم ذلك، فإن أراد أنهم كانوا يعدونه نكاحاً، فقد روى ابن جرير عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللهُ، إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين، فأنزل الله: «وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ» «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ» (٢). وهكذا قال عطاء وقتادة. ولكن فيما نقله السهيلي من قصة كنانة نظر، والله أعلم. وعلى كل تقدير فهو حرام في هذه الأمة، مُبْتَسَعٌ غاية التبسيع، ولهذا قال: «إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا»، قال: «وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ» [الأنعام: ١٥١]، وقال: «وَلَا تَقْرُبُوا الزَّوْجَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا» [الإسراء: ٣٢]. فزاد هاهنا: «وَمَقْتًا» أى: بُغْضاً، أى هو أمر كبير في نفسه، ويؤدى إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامراته، فإن الغالب أن من تزوج بامرأة يبغض من كان زوجها قبله؛ ولهذا حرمت أمهات المؤمنين على الأمة؛ لأنهن أمهات، لكونهن زوجات النبي ﷺ، وهو كالأب، بل حقه أعظم من حق الآباء بالإجماع، بل حبه مقدم على حب النفوس صلوات الله وسلامه عليه.

وقال عطاء بن أبي رباح في قوله: «وَمَقْتًا» أى: يمقت الله عليه «وَسَاءَ سَبِيلًا» أى: وبئس طريقاً لمن سلكه من الناس، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه، فيقتل، ويصير ماله فيئاً لبيت المال. كما روى الإمام أحمد، عن البراء بن عازب، قال: مرّ بي عمى الحارث بن عمرو، ومعه لواء قد عقده له النبي ﷺ فقلت له: أى عم، أين بعثك النبي ﷺ؟ قال: بعثنى إلى

(١) أبو داود (٢١٣١، ٢١٣٢) بمعناه، وقد سها الحافظ ابن كثير هنا، فذكر الصحابي باسم «بصرة ابن أبي بصرة وهو خطأ، فإن هذا صحابي آخر ليس صاحب القصة. وما ذكرنا هو الثابت في أبي داود، وكتب الرجال، ووقع في المطبوعة: «نضرة بن أبي نضرة»! وهو خطأ إلى خطأ.

(٢) الطبرى (٨٩٣٨) وإسناده صحيح. ورواه أيضا ابن المنذر، كما في الدر المنثور (١٣٤/٢).

رجل تزوج امرأة أبيه فأمرني أن أضرب عنقه (١).

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَالَاتُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِّنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٣﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَذَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْلِفِينَ ۚ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾

الجزء

٥

هذه الآية الكريمة هي آية تحريم المحارم من النسب، وما يتبعه من الرضاع والمحامر بالصهر، قال ابن أبي حاتم: وقد استدلل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزانى عليه بعموم قوله: ﴿وَبَنَاتِكُمْ﴾؛ فإنها بنت فتدخل في العموم، كما هو مذهب أبي حنيفة، ومالك، وأحمد ابن حنبل. وقد حكى عن الشافعي شيء في إباحتها؛ لأنها ليست بنتاً شرعية، فكما لم تدخل في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَى﴾؛ فإنها لا تترث بالإجماع، فكذلك لا تدخل في هذه الآية، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ﴾ أي كما يحرم عليك أمك التي

(١) المسند (٤ / ٢٩٢ حلى). ورواه أبو داود (٤٤٥٧) وفيه: «فأمرني أن أضرب عنقه وأخذ ماله» . والإسنادان صحيحان .

وهذا حكم الله وحكم رسوله فيمن ركب هذه الفحشاء المستبشة . فانظروا ماذا جنت علينا القوانين الوثنية؟ تزوج رجل امرأة شابة ، وكان له ابن شاب لا يخاف الله ، ولا يرقب في خلق ولا عرض إلا ولا ذمة . فزنا بامرأة أبيه ، ثم شعر المجرمان بأن الرجل كاد يكشف ما ركبوا من فجور . فتآمرا وقتلاه . وثبتت هذه الوقائع . وقد استحق هذان الفاجران القتل ، بجرمة الفجور بين المحارم ، واستحقا القتل مرة أخرى بقتل الأب والزوج عمداً . ولكن هذه القوانين أفسدت على الناس عقولهم وفطرتهم الإسلامية ، بل فطرتهم الآدمية . فحكمت على هذين الفاسقين القاتلين بالتعزير ! بيضع سنين من الأشغال الشاقة ! دون نظر إلى الجريمة الخلقية البشعة ، ودون نظر إلى القتل العمد ، وخاصة قتل الأب الوالد . وكان التعليل لنقل الحد من القتل إلى التعزير أعجب ! بتصوير الرجل القاتل المظلوم - المعتدى على دمه وعرضه - بصورة المخطئ المنسب في هاتين الجريمةين ! بزعم أنه رجل كبير السن تزوج امرأة فتية ! بما وضعه المشرون وأتباعهم في نفوس المنتسبين للإسلام ، من إنكار زواج الكبير بالصغيرة ، قصداً إلى المساس بالمقام الأعلى . ولا أحب أن أقول أكثر من هذا ، ولكني أقول : إنه لا يشك مسلم - عالماً كان أو عامياً - أن هذا لا يصدر عن مسلم ، وأن المسلم الذي يقوله أو يرضى به يخرج من الإسلام إلى حماة الكفر والردة . والعياذ بالله .

ولدتك، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك؛ ولهذا روى البخارى ومسلم فى الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة»، وفى لفظ لمسلم: «يَحْرُمُ مِنَ الرضاعة ما يَحْرُمُ مِنَ النَسَبِ».

ثم اختلف الأئمة فى عدد الرضعات المحرمة، فذهب ذاهبون إلى أنه يحرم مجرد الرضاع لعموم هذه الآية. وهذا قول مالك، ويحكى عن ابن عمر، وإليه ذهب سعيد بن المسيّب، وعروة بن الزبير، والزهرى. وقال آخرون: لا يحرم أقل من ثلاث رضعات لما ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُحْرَمُ المصّةُ والمصتان». وعن أم الفضل قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تُحْرَمُ الرضعةُ أو الرضعتان، المصّةُ أو المصتان»، وفى لفظ آخر: «لا تحرم الإملاجة والإملاجتان» رواه مسلم^(١). ومن ذهب إلى هذا القول الإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو عبيد، وأبو ثور. وهو مروى عن على، وعائشة، وأم الفضل، وابن الزبير، وسليمان ابن يسار، وسعيد بن جبيرة. وقال آخرون: لا يحرم أقل من خمس رضعات، لما ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة، قالت: كان فيما أنزل من القرآن: عشر رضعات معلومات يحرم من. ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفى رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن^(٢). وروى عبد الرزاق، عن عائشة نحو ذلك. وفى حديث سهلة بنت سهيل: أن رسول الله ﷺ أمرها أن تُرضع سالماً مولى أبى حذيفة خمس رضعات^(٣)، وكانت عائشة تأمر من يريد أن يدخل عليها أن يرضع خمس رضعات. وبهذا قال الشافعى وأصحابه. ثم ليعلم أنه لا بد أن تكون الرضاعة فى سن الصغر دون الحولين على قول الجمهور. وقد قدمنا الكلام على هذه المسألة فى سورة البقرة^(٤).

ثم اختلفوا: هل يحرم لبن الفحل، كما هو قول جمهور الأئمة الأربعة وغيرهم؟ أو إنما يختص الرضاع بالأم فقط، ولا ينتشر إلى ناحية الأب كما هو قول لبعض السلف؟ على قولين. وقوله: «وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ»: أما أم المرأة فإنها تحرم بمجرد العقد على بنتها، سواء دخل بها أو لم يدخل بها. وأما الربيبة - وهى بنت المرأة - فلا تحرم بمجرد العقد على أمها، حتى يدخل بها، فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بنتها، ولهذا قال: «وَرَبَائِبُكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ» فى تزويجهن، فهذا خاص بالربائب وحدهن. وقد فهم بعضهم عود الضمير إلى الأمهات والربائب، فقال: لا تحرم واحدة من الأم ولا البنت بمجرد العقد على الأخرى حتى يدخل بها؛ لقوله: «وَأَمَّا نِسَاءُكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ». وروى ابن جرير عن على، فى رجل تزوج امرأة فطلقها قبل أن يدخل بها،

(١) صحيح مسلم (٤١٤/١، ٤١٥). (٢) صحيح مسلم (٤١٥/١).

(٣) هذا مختصر من حديث رواه مسلم (٤١٥/١، ٤١٦). وانظر الفتح (٩/١١٣ - ١١٥، ١٢٥ - ١٢٩).

(٤) انظر ما مضى عند تفسير الآية: (٢٣٣) من سورة البقرة.

أيتزوج أمها؟ قال: هي بمنزلة الربيبة (١). وروى عن زيد بن ثابت قال: إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها فلا بأس أن يتزوج أمها (٢). القول مروى عن علي ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير، ومجاهد، وابن جبير، وابن عباس، وقد توقف فيه معاوية، وذهب إليه من الشافعية أبو الحسن أحمد بن محمد الصابوني.

وجمهور العلماء على أن الربيبة لا تحرم بالعقد على الأم ، بخلاف الأم فإنها تحرم بمجرد العقد. وهذا هو مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة، وجمهور الخلف والسلف .

وقد قيل بأنه لا تحرم الربيبة إلا إذا كانت في حجر الرجل، فإذا لم تكن كذلك فلا تحرم. وروى ابن أبي حاتم عن مالك بن أوس بن الحدثان قال: كانت عندي امرأة فتوفيت، وقد ولدت لي، فوجدت عليها، فلقيني على بن أبي طالب ، فقال: مالك؟ قلت: توفيت المرأة. فقال علي: لها ابنة؟ قلت: نعم، وهي بالطائف، قال: كانت في حجرك؟ قلت: لا، هي بالطائف قال: فانكحها. قلت: فأين قول الله: ﴿وَرَبَائِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ﴾؟ قال: إنها لم تكن في حجرك، إنما ذلك إذا كانت في حجرك وإسناده قوى ثابت إلى علي بن أبي طالب، على شرط مسلم، وهو قول غريب جداً، وإلى هذا ذهب داود بن علي الظاهري وأصحابه. وحكاه أبو القاسم الرافعي عن مالك واختاره ابن حزم، وحكى لي شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي: أنه عرّض هذا على الشيخ الإمام تقي الدين ابن تيمية، فاستشكله، وتوقف في ذلك، والله أعلم (٣).

وأما الربيبة في ملك اليمين فقد قال ابن عبد البر: لا خلاف بين العلماء أنه لا يحل لأحد أن يطاء امرأة وابنتها من ملك اليمين، لأن الله حرم ذلك في النكاح، قال: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمْ﴾ وملك اليمين عندهم تبع للنكاح، إلا ما روى عن ابن عمر وابن عباس، وليس على ذلك أحد من أئمة الفتوى ولا من تبعهم. وقال ابن جرير: وفي إجماع الجميع على أن خلوة الرجل بامرأته لا يحرم ابنتها عليه إذا طلقها قبل مسيسها ومباشرتها وقبل النظر إلى فرجها بشهوة، ما يدل على أن معنى ذلك : هو الوصول إليها بالجماع.

وقوله: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ أي: وحُرمت عليكم زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم، يحترز بذلك عن الأدياء الذين كانوا يتبنونهم في الجاهلية، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ الآية [الأحزاب: ٣٧]. وروى ابن أبي حاتم عن الحسن بن محمد أن هؤلاء الآيات مهمات: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمْ﴾ «أُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ» (٤) ثم قال: وروى عن طاوس وإبراهيم والزهرى ومكحول نحو ذلك.

(١) الطبري (٨٩٥١ ، ٨٩٥٢) بإسناد جيد .

(٢) الطبري (٨٩٥٣ ، ٨٩٥٤) بإسناد صحيح .

(٣) انظر المحلى لابن حزم (٩ / ٥٢٧ - ٥٣٢) .

(٤) الحسن بن محمد : من ثقات التابعين . وأبوه هو « محمد بن علي بن أبي طالب » - المعروف بابن الحنفية .

قلت: معنى مبهمات: أى عامة فى المدخول بها وغير المدخول ، فتحرم بمجرد العقد عليها ، وهذا متفق عليه . فإن قيل: فمن أين تحرم امرأة ابنه من الرضاعة ، كما هو قول الجمهور، ومن الناس من يحكيه إجماعاً ، وليس من صلبه ؟ فالجواب : من قوله ﷺ : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » (١).

وقوله: ﴿ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أى : وحرم عليكم الجمع بين الأختين معاً فى التزويج، وكذا فى ملك اليمين ، إلا ما كان منكم فى جاهليتكم . فقد عفونا عنه وغفرناه . فدل على أنه لا مثوية فيما يستقبل لأنه استثنى فيما سلف، كما قال: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ [الدخان: ٥٦]، فدل على أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً . وقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة قديماً وحديثاً: على أنه يحرم الجمع بين الأختين فى النكاح . ومن أسلم وتحتة أختان خيّر، فيمسك أحدهما ويطلق الأخرى لا محالة . روى الإمام أحمد عن فيروز، قال: أسلمت وعندى امرأتان أختان، فأمرنى النبي ﷺ أن أطلق إحداهما . وأخرجه أبو داود والترمذى، وابن ماجه، وفى لفظ للترمذى: فقال النبي ﷺ: « اختر أيتها شئت ». ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن (٢). وفيروز : هو الديلمي ، وكان من جملة الأمراء باليمن الذين ولّوا قتل الأسود العنسى المنتبئ لعنه الله .

وأما الجمع بين الأختين فى ملك اليمين فحرام أيضاً لعموم الآية، وروى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود: أنه سئل عن الرجل يجمع بين الأختين، فكرهه، فقال له - يعنى السائل - : يقول الله تعالى: ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾؟! فقال له ابن مسعود: وبغيرك مما ملكت يمينك!! وهذا هو المشهور عن الجمهور : الأئمة الأربعة وغيرهم، وإن كان بعض السلف قد توقف فى ذلك . روى الإمام مالك، عن ابن شهاب، عن قبيصة بن ذؤيب: أن رجلاً سأل عثمان بن عفان عن الأختين فى ملك اليمين، هل يجمع بينهما؟ قال عثمان: أحلتها آية وحرمتها آية، فأما أنا فلا أحب أن أصنع ذلك، فعرج من عنده فلقي رجلاً من أصحاب النبي ﷺ، فسأله عن ذلك ؟ فقال: لو كان لى من الأمر شيء ثم وجدت أحداً فعل ذلك لجعلته نكالا . قال مالك: وبلغنى عن الزبير ابن العوام مثل ذلك (٣). وروى ابن عبد البر عن إياس بن عامر، قال: سألت على بن أبى طالب فقلت: إن لى أختين مما ملكت يمينى، اتخذت إحداهما سرية ، فولدت لى أولاداً، ثم رغبت فى الأخرى، فما أصنع؟ فقال على: تعتق التى كنت تظاً ثم تظاً ، الأخرى . قلت: فإن

(١) رواه أحمد والشيخان وغيرهم من حديث عائشة . ورواه زحمد ومسلم وغيرهما من حديث ابن عباس ، كما فى الفتح الكبير (٣/٤١٥) .

وانظر : حديث ابن عباس فى المسند (٢٤٩٠ ، ٢٤٩١ ، ٢٦٣٣) .

(٢) المسند (٤/٢٣٢ حلى) . وانظر الإصابة (٥/٢١٤) .

(٣) الموطأ (ص٥٣٨ ، ٥٣٩) . وقول عثمان : « فأما أنا فلا أحب أن أصنع ذلك » - هو الصواب الثابت فى الموطأ وشرحه . ووقع بدله - هنا - فى المخطوطة والمطبوعة : « وما كنت لأمنع ذلك » ! وهو تخليط من الناسخين .

ناساً يقولون: بل تزوجها ثم تطأ الأخرى؟ فقال على: أرأيت إن طلقها زوجها أو مات عنها ليس ترجع إليك؟ لأن تعتقها أسلم لك. ثم أخذ على يدي فقال لى: إنه يحرم عليك مما ملكت يمينك ما يحرم عليك فى كتاب الله عز وجل من الحرائر إلا العدد - أو قال: إلا الأربع - ويحرم عليك من الرضاع ما حرم عليك فى كتاب الله من النسب. ثم قال أبو عمر [بن عبد البر] : هذا الحديث رُحِّلَ، لو لم يصب من أقصى المغرب أو الشرق إلى مكة غيره لما خابت رحلته (١). وروى ابن مردويه عن ابن عباس ، قال : وكانت الجاهلية يحرمون ما تحرمون إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين، فلما جاء الإسلام أنزل الله: ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴿ وقال ابن عبد البر : وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين فى الوطاء ، كما لا يحل ذلك فى النكاح. وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ ﴾ إلى آخر الآية: أن النكاح وملك اليمين فى هؤلاء كلهن سواء، فكذاك يجب أن يكون نظراً وقياساً الجمع بين الأختين وأمهات النساء والريائب. وكذلك هو عند جمهورهم، وهم الحجة المحجوج بها من خالفها وشذ عنها.

وقوله: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ أى: وحرّم عليكم الأجنبية المحصنات وهن الزوجات ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ يعنى: إلا ما ملكتموهن بالسبى، فإنه يحل لكم وطوهن إذا استبرأتموهن، فإن الآية نزلت فى ذلك. روى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى قال: أصبنا سبيًا من سبى أوطاس، ولهن أزواج، فكرهنا أن تقع عليهن ولهن أزواج، فسألنا النبي ﷺ ؟ فنزلت هذه الآية: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾: فاستحللنا بها فروجهن وروى عبد الرزاق ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى (٢).

وقد ذهب جماعة من السلف إلى أن بيع الأمة يكون طلاقاً من زوجها، أخذنا بعموم هذه الآية. وقد خالفهم الجمهور قديماً وحديثاً، فرأوا أن بيع الأمة ليس طلاقاً لها ؛ لأن المشترى نائب عن البائع، والبائع كان قد أخرج عن ملكه هذه المنفعة وباعها مسلوبة عنها، واعتمدوا فى ذلك على حديث بريرة المخرج فى الصحيحين وغيرهما؛ فإن عائشة أم المؤمنين اشترتها وأعتقتها، ولم يفسخ نكاحها من زوجها، بل خيرها النبي ﷺ بين الفسخ والبقاء، فاختارت الفسخ، وقصتها مشهورة، فلو كان بيع الأمة طلاقاً - كما قاله هؤلاء - ما خيرها النبي ﷺ، فلما خيرها دل على بقاء النكاح، وأن المراد من الآية المسيبات فقط، والله أعلم.

وقوله: ﴿ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أى: هذا التحريم كتاب كتبه الله عليكم ، فالزموا كتابه ، ولا تخرجوا عن حدوده، والزموا شرعه وما فرضه. وقوله: ﴿ وَأَحِلُّ لَكُمْ مَا وَّرَاءَ ذَلِكَ ﴾ أى: ما عدا من

(١) قول ابن عبد البر: « رحلة رجل » : هو بضم الراء وسكون الحاء ، أى : الوجه الذى يأخذ فيه ويريده . تقول : « أنتم رحلتى » - بضم الراء: أى الذين أرتحل إليهم . وقوله : « لما خابت رحلته » : هو بكسر الراء، أى: ارتحاله .
(٢) المسند (١١٧١٤ ، ١١٨٢٠ ، ١١٨٢١) ، وكذلك رواه الطبرى (٨٩٦٧ - ٨٩٧١) . وفصلنا تخريجه هناك .

ذكرن من المحارم هن لكم حلال ، قاله عطاء وغيره . وقوله : ﴿ أَنْ تَتَفَوَّأُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ أى : تحصلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع أو السراى ما شتمت بالطريق الشرعى ؛ ولهذا قال : ﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ أى : كما تستمتعون بهن فآتوهن مهورهن فى مقابلة ذلك ، كقوله : ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ [النساء : ٢١] ، وكقوله : ﴿ وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ [النساء : ٤] ، وكقوله : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا ﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

وقد استدل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة ، ولا شك أنه كان مشروعاً فى ابتداء الإسلام ، ثم نسخ بعد ذلك . وقد ذهب الشافعى وطائفة من العلماء إلى أنه أبيع ثم نسخ ، ثم أبيع ثم نسخ ، مرتين . وقال آخرون أكثر من ذلك ، وقال آخرون : إنما أبيع مرة ، ثم نسخ ولم يبيح بعد ذلك . وقد روى عن ابن عباس وطائفة من الصحابة القول بإباحتها للضرورة ، وهو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل والعمدة ما ثبت فى الصحيحين ، عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب قال : نهى النبى ﷺ عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر . وفى صحيح مسلم عن سبرة بن معبد الجهنى أنه غزا مع رسول الله ﷺ فتح مكة ، فقال : «يا أيها الناس ، إنى كنت أذنت لكم فى الاستمتاع من النساء ، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة ، فمن كان عنده منهن شىء فليخل سبيله ، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً » وفى رواية لمسلم : « فى حجة الوداع » (١) .

وقوله : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاوَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ﴾ : أى : إذا فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه ، أو عن شىء منه فلا جناح عليك ولا عليها فى ذلك . وقال ابن عباس : التراضى أن يُوفىها صداقها ثم يخيرها ، يعنى : فى المقام أو الفراق .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ مناسب ذكر هذين الوصفين بعد شرع هذه المحرمات .

﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيَتَيْكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفَّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّهُنَّ أَتَيْنَ بِفَحْشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

يقول تعالى : ومن لم يجد ﴿طَوْلاً﴾ أى : سعة وقدرة ﴿أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أى : الحرائر . العنائف . ﴿فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيَتَايِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أى : فتزوجوا من الإماء المؤمنات

(١) صحيح مسلم (١/٣٩٥ ، ٣٩٦) والمسند (١٥٤١٠ ، ١٥٤١٣ ، ١٥٤١٤) .

اللاتى يملكن المؤمنين . ثم اعترض بقوله : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ أى : هو العالم بحقائق الأمور وسرائرها، وإنما لكم أيها الناس الظاهر من الأمور .

ثم قال : ﴿فَأَنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ فدل على أن السيد هو ولى أمته ، لا تزوج إلا بإذنه، وكذلك هو ولى عبده، ليس لعبده أن يتزوج إلا بإذنه، كما جاء فى الحديث : «أبما عبد تزوج بغير إذن مواليه فهو عاهر» أى : زان (١) . فإن كان مالك الأمة امرأة زوجها من يزوج المرأة بإذنها؛ لما جاء فى الحديث : «لا تزوج المرأة [المرأة] ، ولا المرأة نفسها، فإن الزانية هى التى تزوج نفسها» (٢) .

وقوله : ﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى : وادفعوا مهورهن بالمعروف، أى : عن طيب نفس منكم، ولا تبخسوا منه شيئاً استهانة بهن؛ لكونهن إماء مملوكات .

وقوله : ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ أى : عفاف عن الزنا لا يتعاطيهن؛ ولهذا قال : ﴿غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ ، وهن الزوانى اللاتى لا يمتنعن من أحد أرادهن بالفاحشة . وقوله : ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ قال ابن عباس يعنى : أخلاء .

وكذا روى عن أبى هريرة، ومجاهد، والشعبى، وغيرهم أخلاء . وقال الضحاك : ذات الخليل الواحد، المقررة به، نهى الله عن ذلك، يعنى تزويجها ما دامت كذلك .

وقوله : ﴿فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ : اختلف القراء فى «أَحْصَيْنَ» : فقرأه بعضهم بضم الهمزة وكسر الصاد، مبنى لما لم يسم فاعله . وقرأ بفتح الهمزة والصاد فعل لازم (٣) ثم قيل : معنى القراءتين واحد . واختلفوا فيه على قولين : أحدهما : أن المراد بالإحصان هاهنا الإسلام . وقيل : المراد به هاهنا : التزويج . وقيل : معنى القراءتين متباين . فمن قرأ «أَحْصَيْنَ» بضم الهمزة، فمراده التزويج، ومن قرأ بفتحها، فمراده الإسلام . اختاره ابن جرير فى تفسيره، وقرره ونصره .

والأظهر - والله أعلم - أن المراد بالإحصان هاهنا التزويج؛ لأن سياق الآية يدل عليه، حيث يقول سبحانه وتعالى : ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمْ﴾ . والآية الكريمة سياقها فى الفتيات المؤمنات، فتعين أن المراد بقوله : ﴿فَإِذَا أَحْصَيْنَ﴾ أى : تزوجن، كما فسره ابن عباس ومن تبعه .

وقوله : ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ﴾ أى : إنما يباح نكاح الإماء بالشروط المتقدمة لمن خاف

(١) المسند (١٤٢٦١ ، ١٥٠٩١ ، ١٥١٥٣) وأبو داود (٢٠٧٨) والترمذى (١٨١/٢ ، ١٨٢) كلهم من حديث جابر . قال الترمذى : «حسن صحيح» .

(٢) مضى عند تفسير الآية : ٢٣٢ من سورة البقرة تصحيحه من رواية ابن ماجه ، وابن خزيمة وغيرهما وسهونا هناك أن نذكر أنه من حديث أبى هريرة ، فيصح هناك .

(٣) هى قراءة أبى بكر وحزمة والكسائى . وضم الهمزة قراءة باقى السبعة .

على نفسه الوقوع فى الزنا، وشق عليه الصبر عن الجماع، وعتت بسبب ذلك كله، فله حينئذ أن يتزوج بالأمة، وإن ترك تزوجها، وجاهد نفسه فى الكف عن الزنا، فهو خير له؛ لأنه إذا تزوجها جاء أولاده أرقاء لسيدتها إلا أن يكون الزوج عربياً، فلا تكون أولاده منها أرقاء فى قول قديم للشافعى، ولهذا قال: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. ومن هذه الآية الكريمة استدل جمهور العلماء، فى جواز نكاح الإماء، على أنه لا بد من عدم الطول لنكاح الحرائر ومن خوف العنت؛ لما فى نكاحهن من مفسدة رق الأولاد، ولما فيهن من الدناءة فى العدول عن الحرائر إليهن. وخالف الجمهور أبو حنيفة وأصحابه فى اشتراط الأمرين، فقالوا: متى لم يكن الرجل مزوجاً بحرة جاز له نكاح الأمة، سواء كان واجداً لطول حرة أم لا، وسواء خاف العنت أم لا! وعمدتهن فيما ذهبوا إليه قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥] أى: العنائف، وهو يعم الحرائر والإماء، وهذه الآية عامة أيضاً ظاهرة فى الدلالة على ما قاله الجمهور، والله أعلم.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ تَتُوبَ عَلَيْهِمْ وَيُرِيدَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿١٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿١٨﴾

يخبر تعالى أنه يريد أن يبين لكم - أيها المؤمنون - ما أحل لكم وحرم عليكم، مما تقدم ذكره فى هذه السورة وغيرها، ﴿ويهديكم سنن الذين من قبلكم﴾ يعنى: طرائقهم الحميدة واتباع شرائعها التى يحبها ويرضاها ﴿ويتوب عليكم﴾ أى: من الإثم والمحارم ﴿والله عليم حكيم﴾ أى: فى شرعه وقدره وأفعاله وأقواله.

وقوله: ﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾ أى: يريد أتباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة ﴿أن تميلوا﴾ عن الحق إلى الباطل ﴿ميلاً عظيماً﴾ يريد الله أن يخفف عنكم ﴿أى: فى شرائع وأوامره ونواهيه وما يقدره لكم، ولهذا أباح الإماء بشروطه، كما قال مجاهد وغيره ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ فناسبه التخفيف؛ لضعفه فى نفسه، وضعف عزمه وهتمته. وروى ابن أبى حاتم عن طاوس: ﴿خلق الإنسان ضعيفاً﴾ أى: فى أمر النساء. وقال وكيع: يذهب عقله عندهن.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتًا كَلُوا مِمَّا بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ﴿١٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهُ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٢٠﴾ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٢١﴾

بهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضاً بالباطل، أى: بأنواع

المكاسب التي هي غير شرعية، كأنواع الربا والقمار، وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الخيل، وإن ظهرت في قالب الحكم الشرعي مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الخيلة على الربا، حتى روى ابن جرير عن ابن عباس - في الرجل يشتري من الرجل الثوب فيقول: إن رضيته أخذته وإلا رددت معه درهما - قال: هو الذي قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِآبَاطٍ﴾ (١).

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ قرئ: «تجارة» بالرفع وبالنصب، وهو استثناء منقطع، كأنه يقول: لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال، لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها وتسببوا بها في تحصيل الأموال. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وكقوله: ﴿لَا يَدْرُقُونَ فِيهَا الْمُوتَ إِلَّا الْمُوتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦].

ومن هذه الآية الكريمة احتج الشافعي على أنه لا يصح البيع إلا بالقبول؛ لأنه يدل على التراضي نَصًا، بخلاف المعاطاة فإنها قد لا تدل على الرضا ولا بد، وخالف الجمهور في ذلك: مالك وأبو حنيفة وأحمد وأصحابهم، فرأوا أن الأقوال كما تدل على التراضي، وكذلك الأفعال تدل في بعض المحال قطعاً، فصححوا بيع المعاطاة في المحقرات، وفيما يعده الناس بيعاً، وهو احتياط نظر من محققى المذهب، والله أعلم. ومن تمام التراضي إثبات خيار المجلس، كما ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا» (٢). وفي لفظ البخاري: «إذا تباع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا» (٣). وذهب إلى القول بمقتضى هذا الحديث أحمد والشافعي، وأصحابهما، وجمهور السلف والخلف.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: بارتكاب محارم الله وتعاطي معاصيه وأكل أموالكم بينكم بالباطل «إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا» أي: فيما أمركم به، ونهاكم عنه.

وروى الإمام أحمد عن عمرو بن عمرو بن العاص، أنه قال - لما بعثه النبي ﷺ عام ذات السلاسل - قال: احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيمنت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح، قال: فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له، فقال: «يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب!» قال: قلت: يا رسول الله، إنني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فذكرت قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

(١) الطبري (٩١٤٢) وإسناده صحيح، ورواه قبله (٩١٤١) بنحوه. وإسناده صحيح أيضا. ورواه قبل ذلك بمعناه

(٣٠٦٥) عند الآية (١٨٨) من سورة البقرة، ولكنه هناك من كلام عكرمة دون ذكر ابن عباس.

(٢) المسند مراراً، منها: (٤٤٨٤)، (٤٥٦) من حديث ابن عمر. ورواه الطبري (٩١٦٤). هو بأصح الأسانيد، وقد فصلنا تخريجه في الكتابين.

(٣) البخاري (٢٧٩/٤ فتح) من حديث ابن عمر، وكذلك رواه مسلم (٤٤٧/١) وأحمد في المسند (٦٠٠٦) بهذا اللفظ، فلا وجه لتخصيص البخاري به.

بِكُمْ رَحِيمًا ، فتمت ثم صليت . فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئا . ورواه أبو داود (١) .
وروى ابن مردويه - هنا - عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ ، يَجَأُ بِهَا بَطْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِسِمِّ (٢) ، فَسَمُّهُ فِي يَدِهِ ، يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا ، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ ، فَهُوَ مُتَرَدِّدٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا . » وهذا الحديث ثابت في الصحيحين (٣) ، وعن ثابت بن الضحاك ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ عُدَّ بِه يَوْمَ الْقِيَامَةِ . » وقد أخرجه الجماعةُ في كتبهم (٤) . وفي الصحيحين عن جندب بن عبد الله البجلي قال : قال رسول الله ﷺ : « كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ بِهِ جُرْحٌ ، فَأَخَذَ سَكِينًا نَحَرَ بِهَا يَدَهُ ، فَمَا رَقَا الدَّمُ حَتَّى مَاتَ ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : عَبْدِي بَادَرَنِي بِنَفْسِهِ ، حَرَمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ » (٥) .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا ﴾ أي : ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه متعديا فيه ظلما في تعاطيه ، أي : عالما بتحريمه متجاسرا على انتهاكه ﴿ فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، فليحذر منه كل عاقل لبيب عن ألقى السمع وهو شهيد .

وقوله : ﴿ إِنْ تَجْتَبُوا كِبَائِرَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلِكُمْ مَدْخَلَ كَرِيمًا ﴾ أي : إذا اجتنبتُم كِبَائِرَ الْأَثَامِ الَّتِي نَهَيْتُمْ عَنْهَا ، كَفَرْنَا عَنْكُمْ صَغَائِرَ الذُّنُوبِ ، وَأَدْخَلْنَاكُمْ الْجَنَّةَ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَنُدْخِلِكُمْ مَدْخَلَ كَرِيمًا ﴾ . وروى الطبري عن أنس ، قال : لم أرَ مثلَ الذي بلغنا عن ربنا ، لم نخرج له عن كل أهل ومال . ثم سكت هنية ، ثم قال : والله لقد كلفنا ربنا أهون من ذلك : لقد تجاوز لنا عما دون الكبائر ، فما لنا ولها !؟ ثم تلا : ﴿ إِنْ تَجْتَبُوا كِبَائِرَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلِكُمْ مَدْخَلَ كَرِيمًا ﴾ (٦) .

(١) المسند (٤/٢٠٣ ، ٢٠٤ حلى) وأبو داود (٣٣٤ ، ٣٣٥) .

(٢) في المطبوع من (عمدة التفسير) والمخطوطة الأهرية : « بسم تردى به » ، فقوله : « تردى به » ريدت سهوا ، فهي ليست في المسند أو في الصحيحين وانظر البخاري (٥٧٧٨) ومسلم (١٠٩) . (البار) .

(٣) ورواه أحمد في المسند (٧٤٤١) . وفصلنا تخريجه هناك .

(٤) هو جزء من حديث في المسند (١٦٤٥٦ ، ١٦٤٦٣) والبخاري (٣/١٨٠ ، ٣٨٩/١٠ ، ٤٢٨ ، ٤٦٨/١١ ، ٤٦٩ فتح) ومسلم (٤٢/١) .

(٥) البخاري (٣/١٨٠ ، ٣٦٢/٦ فتح) ومسلم (١/٤٣) والمسند (٤/٣١٢ حلى) بنحوه .

(٦) هذا الأثر عن أنس ، في الطبري (٩٢٣١) ، وإسناده صحيح . وقد ذكره الحافظ ابن كثير من رواية الطبري في أواخر الكلام في الكبائر . وذكره هنا من رواية البزار ، وقع فيه تخليط في الإسناد ، وفي المطبوعة : « عن أنس روفعه » ، وكلمة « روفعه » غير واضحة في المخطوطة . والظاهر أنها تخليط أيضاً من الناسخين ، لأن الهيثمي ذكر رواية البزار في مجمع الزوائد (٧/٣ ، ٤) . وليس فيها « روفعه » . ثم إسناد البزار ضعيف . فقدما رواية الطبري إلى هذا الموضوع . وقد ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢/١٤٥) من رواية ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير ، ولم يذكره من رواية البزار ولم يشر إليها .

وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة، فلنذكر منها ما تيسر^(١): فروى الصرى عن أبي هريرة وأبى سعيد قالا : حَطَبْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ» - ثلاث مرات - ثم أَكَبَّ، فَأَكَبَ كُلُّ رَجُلٍ مَنَا يَبْكِي، لَا نَدْرِي عَلَى مَاذَا حَلَفَ عَلَيْهِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَفِي وَجْهِهِ الْبَشْرَى ، فَكَانَ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ، فَقَالَ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يُصَلِّي الصَّلَاةَ الْخَمْسَ، وَيَصُومُ رَمَضَانَ، وَيُخْرِجُ الزَّكَاةَ، وَيَجْتَنِبُ الْكِبَائِرَ السَّبْعَ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ لَهُ: ادْخُلْ بِسَلَامٍ». وهكذا رواه النسائي، والحاكم وابن حبان في صحيحه، ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه^(٢).

وتفسير هذه السبع: ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ» قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَالسَّحَرُ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»^(٣). فالنص على هذه السبع بأنهن كبائر لا ينفي ما عدها، إلا عند من يقول بمفهوم اللقب، وهو ضعيف عند عدم القرينة، ولا سيما عند قيام الدليل بالمنطوق على عدم المفهوم^(٤)، كما سنورده من الأحاديث المتضمنة من الكبائر غير هذه السبع، فمن ذلك ما رواه الحاكم عن عمير بن قتادة: أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ الْمُصَلُّونَ مِنْ يُقِيمُ الصَّلَاةَ الْخَمْسَ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْهِ، وَيُصُومُ رَمَضَانَ وَيَحْتَسِبُ صَوْمَهُ، يَرَى أَنَّهُ عَلَيْهِ حَقٌّ، وَيُعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ يَحْتَسِبُهَا، وَيَجْتَنِبُ الْكِبَائِرَ الَّتِي نَهَى اللَّهُ عَنْهَا». ثم إن رجلاً سأله فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ فقال: «تسع: الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ نَفْسٍ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَفِرَارُ يَوْمِ الزَّحْفِ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَةِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ الْمُسْلِمِينَ، وَالسَّحَرُ، وَاسْتِحْلَالُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ قَبْلَتِكُمْ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا، ثُمَّ لَا يَمُوتُ رَجُلٌ لَا يَعْمَلُ هَؤُلَاءِ الْكِبَائِرَ، وَيُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، إِلَّا كَانَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي دَارٍ مَصَانِعُهَا مِنْ ذَهَبٍ». هكذا رواه الحاكم مطولاً، وقد أخرجه أبو داود والنسائي مختصراً. وكذا رواه ابن أبي حاتم من حديثه مبسوطاً ثم قال الحاكم: رجاله كلهم محتج بهم في الصحيحين إلا عبد الحميد بن سنان. قلت: وهو حجازي لا يعرف إلا بهذا الحديث، وقد ذكره ابن حبان في كتاب الثقات، وقال البخاري: في حديثه نظر^(٥).

(١) ذكر الحافظ ابن كثير هنا أحاديث وآثاراً كثيرة، اكتفينا منها بما سنذكر، إن شاء الله.

(٢) الطبري (٩١٨٥). وتفصيل تخريجه هناك.

(٣) البخاري (٥/٢٩٤، ١٢/١٦٠ فتح)، وهنا أفاض الحافظ في شرحه، ومسلم (١/٣٧٧).

(٤) هذا ليس من مفهوم اللقب، بل هو مفهوم العدد، ومن أجاب بأن مفهوم العدد ليس بحجة - فجوابه ضعيف، كما قال الحافظ في الفتح، وذكر جوابين آخرين أقرب إلى القبول: أحدهما: أنه أعلمهم أولاً بهذه السبع، ثم أعلمهم بما زاد، فيجب الأخذ بالزائد، وثانيهما: أن الاقتصار وقع بحسب المقام بالنسبة للسائل، أو من وقعت له واقعة، أو نحو ذلك.

(٥) الحاكم (١/٥٩)، وتعبه الذهبي بأن «عبد الحميد بن سنان» مجهول! ثم رواه مرة أخرى (٤/٢٥٩/٢٦٠) وصححه، ووافقه الذهبي ولم يتعبه. ورواه الطبري (١٩٨٩) بإسناد آخر فيه رجل ضعيف وفيه انقطاع، ولم يذكر لفظه كاملاً. وفصلنا القول فيه هناك.

عن طَيْسَلَةَ بن مَيَّاس قال: كنت مع النَّجْدَات، فأصبت ذنوباً لا أراها إلا من الكبائر، فلقيت ابنَ عُمَرَ فقلت له: إنى أصبت ذُنُوباً لا أراها إلا من الكبائر. قال: ما هي؟ قلت: أصبت كذا وكذا؟ قال: ليس من الكبائر. قلت: وأصبت كذا وكذا؟ قال: ليس من الكبائر، قال: لشيء لم يسمه طَيْسَلَةُ (١) - قال: هي تسع، وسأعدهن عليك: الإشرāk بالله، وقتل النفس بغير حلِّها، والفرار من الزحف، وقذف المحصنة، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم ظلماً، وإلحاد في المسجد الحرام، والذي يستسحر، وبكاء الوالدين من العقوق. قال طيسلة لما رأى ابن عمر فرقى. قال: أتخاف النار أن تدخلها؟ قلت: نعم. قال: وتحب أن تدخل الجنة؟ قلت: نعم. قال: أحيى والدك؟ قلت: عندى أمى. قال: فوالله لئن أنت ألنَّت لها الكلام، وأطعمتها الطعام، لتدخلن الجنة ما اجتنبت الموجبات (٢). وروى الإمام أحمد عن أبى أيوب قال: قال رسول الله ﷺ: «من عبَدَ الله لا يُشْرِكُ به شيئاً، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وصام رمضان، واجتنبَ الكبائر، فله الجنة - أو دخل الجنة - فسأله رجل: ما الكبائر؟ فقال: «الشرك بالله، وقتل نفس مسلمة، والفرار يوم الزحف» ورواه النسائي (٣). وروى الإمام أحمد عن أنس ابن مالك قال: ذكر رسول الله ﷺ الكبائر - أو سئل عن الكبائر - فقال: «الشرك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين». وقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى. قال: «وقول الزور - أو شهادة الزور». وأخرجه الشيخان (٤). وروى الشيخان عن أبى بكره قال: قال النبى ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟»، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشرāk بالله، وعقوق الوالدين» وكان متكئاً فجلس فقال: «ألا وشهادة الزور، ألا وقول الزور». فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت (٥). وفى الصحيحين، عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أى الذنب أعظم؟ - وفى رواية: أكبر - قال: «أن تجعل لله ندا وهو خالقك». قلت: ثم أى؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قلت: ثم أى؟ قال: «أن تزانى حليلة جارك»، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ [الفرقان: ٦٨] (٦). وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ أنه قال: «أكبر الكبائر الإشرāk بالله، وعقوق

(١) يعنى أن هذه الذنوب التى أشار إليها طيسلة - لم يبينها ولم يسمها .

(٢) الطبرى (٩١٨٧) وإسناده صحيح . وروى البخارى فى الأدب المفرد ، رقم (٨) بإسناد صحيح ، مختصراً قليلاً .

وأشار إليه الحافظ فى الفتح (١٦١/١٢) موجزاً ، وزاد نسبه لعبد الرزاق ، والخرائطى فى مساوى الأخلاق ، وإسماعيل القاضى فى أحكام القرآن « مرفوعاً وموقوفاً » .

(٣) المسند (٥ / ٤١٣ ، ٤١٤ حلى) بإسنادين صحيحين . ورواه أيضاً الطبرى (٩٢٢٤) بإسناد آخر صحيح ،

ونسبه السيوطى (١٤٦/٢) أيضاً لابن المنذر وابن حبان والحاكم « وصححه » .

(٤) المسند (١٢٣٦٣) . ورواه أيضاً الطبرى (٩٢١٩ ، ٩٢٢٠ ، ٩٢٢١) . وفصلنا تخريجه هناك .

(٥) أبو بكره : هو الثقفى ، نفع بن الحارث . ووقع هنا فى المخطوطة المطبوعة : « أبى بكر » وهو خطأ .

والحديث رواه أيضاً أحمد (٥ / ٣٦ ، ٣٨ حلى) ثلاث مرات .

(٦) ورواه الطبرى (٩٢٢٧ ، ٩٢٢٨) وأحمد مراراً ، منها : (٣٦١٢ ، ٤٢٢٣) . وتفصيل التخرىج فى الكتابين .

والوالدين ، أو قَتَلَ النَّفْسَ - شعبة الشاك - واليمين الغموس » ورواه البخارى والترمذى والنسائى (١). وروى البخارى عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: « من أكبر الكبائر أن يَلْعَنَ الرجلُ والديه ». قالوا: وكيف يَلْعَنُ الرجلُ والديه؟! قال: «يَسُبُّ الرجلُ أبا الرجل فيسبُّ أباه، ويسبُّ أمه فيسبُّ أمه». ورواه مسلم بنحوه. وقال الترمذى: صحيح (٢). وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «سببُ المسلم فسوقٌ، وقتاله كفرٌ» (٣). وروى أبو داود عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: « [إن] من أكبر الكبائر استطالة الرجل فى عرضِ رجلٍ مسلم بغير حق، ومن الكبائر السبَّان بالسبِّ ». ورواه ابن أبى حاتم وابن مردويه (٤). وروى ابن أبى حاتم عن أبى قتادة العدوى، قال: قرئ علينا كتابُ عمر: من الكبائر جمع بين الصلاتين - يعنى بغير عذر - والفرارُ من الزَّحْفِ والنُّهْبَةِ. وهذا إسناد صحيح: والغرض: أنه إذا كان الوعيد فيمن جمع بين الصلاتين كالظهر والعصر، تقدما أو تأخيراً، وكذا المغرب والعشاء، مما من شأنه أن يجمع بسبب من الأسباب الشرعية، فإذا تعاطاه أحد بغير شىء من تلك الأسباب يكون مرتكباً كبيرة، فما ظنك بمن يترك الصلاة بالكليّة؟! ولهذا روى مسلم فى صحيحه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة» (٥) وفى السنن عنه، عليه السلام، أنه قال: «العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر» (٦). وروى الإمام أحمد عن سلمة بن قيس الأشجعى قال: قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع: «ألا إنهن أربع: لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفسَ التى حَرَّمَ اللهُ إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا». قال: فما أنا بأشخَّ عليهن منى، إذ سمعتهن من رسول الله ﷺ. رواه النسائى وابن مردويه (٧). وروى ابن جرير عن الحسن: أن ناساً سألوا عبد الله بن عمرو بمصر فقالوا: نرى أشياء من كتاب الله عز وجل ، أمر أن يُعملَ بها، لا يعملُ بها، فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين فى ذلك ، فقدموا وقدموا معه، فلقى عمر، فقال: متى قدمت؟ فقال: منذ كذا وكذا، قال: ألباذن قدمت؟ قال: فلا أدرى كيف رد عليه؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن ناساً لقونى بمصر فقالوا: إنا نرى أشياء فى كتاب الله عز وجل ، أمر أن يعمل بها فلا يعمل بها، فأحبوا أن يلقوك فى ذلك؟ قال: فاجمعهم لى. قال: فجمعتهم له - قال ابن عون: أظنه قال: فى بهو - فأخذ أذانهم رجلاً فقال: أنشدك بالله

(١) المسند (٦٨٨٤) ورواه الطبرى (٩٢٢٢ ، ٩٢٢٣) وتخريجه فيهما .

(٢) ورواه أحمد (٦٥٢٩ ، ٦٨٤٠ ، ٧٠٢٩) .

(٣) رواه الجماعة إلا أبداً داود ، من حديث ابن مسعود . وقد مضى عند تفسير الآية : (١٩٧) من سورة البقرة .

(٤) أبو داود (٤٨٧٧) [إن] منه . وإسناده صحيح .

(٥) مسلم (٣٦/١) من حديث جابر ، بلفظ : « بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » .

(٦) رواه الترمذى (٣٦٠/٣) من حديث بريدة ، وقال : « حسن صحيح غريب » . وقال شارحه : « وأخرجه

أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم ، وقال : « صحيح ولا تعرف له علة » .

(٧) المسند (٤ / ٣٣٩ ، ٣٤٠ حلى) . وإسناده صحيح ، والظاهر أنه يريد برواية النسائى أنه فى السنن الكبرى .

وقد ذكره الهيثمى فى الزوائد (١٠٤/١) وقصر جداً إذ لم ينسبه للمسند ، بل قال: « رواه الطبرانى فى الكبير ،

ورجاله ثقات » .

وبحق الإسلام عليك، أقرأت القرآن كله؟ قال: نعم. قال: فهل أحصيته في نفسك؟ فقال: اللهم لا! قال: ولو قال نعم لخصمه. قال: فهل أحصيته في بصرك؟ فهل أحصيته في لفظك؟ هل أحصيته في أترك؟ ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم. قال: فتكلمت عمر أمه! أنكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله؟! قد علم ربنا أنه ستكون لنا سيئات. قال: وتلا: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكَفَرِ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلِكُمْ مَدْخَلَ كَرِيمًا﴾ ثم قال: هل علم أهل المدينة - أو قال: هل علم أحد - بما قدمتم؟ قالوا: لا. قال: لو علموا لوعظت بكم. إسناد صحيح ومتن حسن، وإن كان من رواية الحسن عن عمر، وفيها انقطاع، إلا أن مثل هذا اشتهر فتكفى شهرته^(١). وروى ابن أبي حاتم عن طاوس قال: قلت لابن عباس: ما السبع الكبائر؟ قال: هن إلى السبعين أقرب منها إلى السبع. ورواه ابن جرير^(٢). وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الكبائر: كل ما وعد الله عليه النار كبيرة. وكذا قال سعيد بن جبيرة، والحسن البصرى. وروى أيضا عن أبي الوليد قال: سألت ابن عباس عن الكبائر؟ قال: كل شيء عصى الله فيه فهو كبيرة.

وقد اختلف علماء الأصول والفروع في حد الكبيرة، فمن قائل: هي ما عليه حد في الشرع. ومنهم من قال: هي ما عليه وعيد لخصومه من الكتاب والسنة. وقيل غير ذلك.

قال أبو القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعى، فى كتابه «الشرح الكبير» فى كتاب الشهادات منه: ثم اختلف الصحابة فمن بعدهم فى الكبائر، وفى الفرق بينها وبين الصغائر؟ وللأصحاب فى تفسير الكبيرة وجوه: أنها المعصية الموجبة للحد. والثانى: أنها المعصية التى يلحق صاحبها الوعيد الشديد بنص كتاب أو سنة. وهذا أكثر ما يوجد لهم، وهو إلى الأول أميل، لكن الثانى أوفق لما ذكره عند تفصيل الكبائر. والثالث: قال إمام الحرمين فى «الإرشاد» وغيره: كل جريمة تنبئ بقله اكتراث مرتكبها بالدين ورقة الديانة، فهى مبطله للعدالة. والرابع: ذكر القاضى أبو سعيد الهروى أن الكبيرة: كل فعل نص الكتاب على تحريمه، وكل معصية توجب فى جنسها حداً من قتل أو غيره، وترك كل فريضة مأمور بها على الفور، والكذب فى الشهادة، والرواية، واليمين. هذا ما ذكره على سبيل الضبط.

ثم قال: وفصل القاضى الرويانى فقال: الكبائر سبع: قتل النفس بغير الحق، والزنا، واللواط، وشرب الخمر، والسرقه، وأخذ المال غصباً، والقذف. وزاد فى «الشامل» على السبع المذكورة: شهادة الزور. وأضاف إليها صاحب العدة: أكل الربا، والإفطار فى رمضان بلا عذر، واليمين الفاجرة، وقطع الرحم، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف، وأكل مال اليتيم، والخيانة فى الكيل والوزن، وتقديم الصلاة على وقتها، وتأخيرها عن وقتها بلا عذر، وضرب المسلم بلا حق، والكذب على النبى ﷺ عمداً، وسب أصحابه، وكتمان الشهادة بلا عذر، وأخذ الرشوة، والقيادة بين الرجال والنساء، والسعاية عند السلطان، ومنع الزكاة، وترك الأمر

(١) الطبرى (٩٢٣٠).

(٢) الطبرى (٩٢٠٨) وإسناده وإسناد ابن أبى حاتم صحيحان.

بالمعروف والنهي عن المنكر مع القدرة، ونسيان القرآن بعد تعلمه، وإحراق الحيوان بالنار، وامتناع المرأة من زوجها بلا سبب، واليأس من رحمة الله، والأمن من مكر الله، ويقال: الوقعة في أهل العلم وحملة القرآن. ومما يعد من الكبائر: الظهار، وأكل لحم الخنزير والميتة إلا عن ضرورة. ثم قال الرافعي: وللتوقف مجال في بعض هذه الخصال.

قلت : وقد صنف الناس في الكبائر مصنفات ، منها ما جمعه شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي ، بلغ نحو من سبعين كبيرة ، وإذا قيل : إن الكبيرة ما توعد عليها الشارع بالنار بخصوصها ، كما قال ابن عباس، وغيره ، وتَّبِعَ ذلك ، اجتمع منه شيء كثير . وإذا قيل : كل ما نهى الله عنه - فكثير جداً، والله أعلم (١) .

﴿ وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يُكَلِّمُ شَيْءٌ عَلِيمًا ﴾

شَيْءٌ عَلِيمًا ﴿١١﴾

(١) « كتاب الكبائر » للحافظ الذهبي مطبوع بمصر ، سنة ١٣٥٦ ، في نحو ٢٤٠ صفحة . وطبعته كثيرة التحريف ، عن مخطوطات غير موثقة (*) . وقد أبلغ فيه عدد الكبائر إلى ٧٠ ، بكثير من التوسع والتساهل ، إن لم يكن من الغلو ، وقد قال في روائل الكتاب ، ص : ٧ - « والذي يتجه ويقوم عليه الدليل : أن من ارتكب شيئاً من هذه العظائم ، مما فيه حد في الدنيا ، كالقتل والزنا والسرقة ، أو جاء فيه وعيد في الآخرة ، من عذاب أو غضب أو تهديد ، أو لعن فاعله على لسان نبينا محمد ﷺ - فإنه كبيرة ، ولا بد من تسليم أن بعض الكبائر أكبر من بعض ، ألا ترى أنه ﷺ عد الشرك بالله من الكبائر ؟ مع أن مرتكبه مخلد في النار ولا يغفر له أبداً » ، ومع هذا التوسع الشديد في تعريف الكبيرة - فإنه لم يتحرر فيما أورده صحة الأحاديث التي يستدل بها ! بل يذكر الضعيف والواهي الذي ضعفه لا يحتمل ، ويذكر أحاديث دون أن يعزوها أو يبين مخرجها أو درجتها ! خلافاً لما يظن برجل حافظ كبير مثله ، رحمه الله .

ثم جاء بعده بأكثر من ٢٠٠ سنة، ابن حجر الهيثمي المكي المصري - وهو غير الحافظ ابن حجر العسقلاني - فزاد غلواً وتوسعاً ، وصنع كتاباً كبيراً ، سماه « الزواجر عن اقتراف الكبائر » - بلغ فيه بعدد الكبائر إلى ٤٦٧ كبيرة ! كأنه أدخل كل منهي عنه في تعريف الكبيرة !! وقد طبع هذا الكتاب مراراً بمصر ، وأول طبعاته - فيما أعلم - طبعة بولاق سنة ١٢٨٤ ، في نحو ٦٠٠ صفحة .

ولعل أقرب ما رأيت إلى التحقيق العلمي - في نظري - وهو ما صنع الحافظ ابن حجر في الفتح (١٦٠) ، (١٦١) إذ جمع كثيراً من الأحاديث في بيان الكبائر ، ثم حرر ما صنع فقال : « فهذا جميع ما وقفت عليه ، مما ورد التصريح بأنه من الكبائر أو من أكبر الكبائر ، صحيحاً وضعيفاً ، ومرفوعاً وموقوفاً ، وقد تتبعته غاية التبع ، وفي بعضه ما ورد خاصاً ويدخل في عموم غيره » ، ثم قال : « والمعتمد من كل ذلك ما ورد مرفوعاً بغير تداخل ، من وجه صحيح . وهي السبعة المذكورة في حديث الباب [يعني حديث أبي هريرة : اجتنبوا السبع الموبقات . وقد مضى في ص ٤٩٠] والانتقال عن الهجرة ، والزنا ، والسرقة ، والعقوق ، واليمين الغموس ، والإلحاد في الحرم ، وشرب الخمر ، وشهاد الزور ، والنميمة ، وترك التنزه من البول ، والغلول ، ونكث الصفة ، وفراق الجماعة ، فتلك عشرون خصلة ، وتفاوت مراتبها ، والمجمع على عده من ذلك أقوى من المختلف لا ما عضده القرآن أو الإجماع ، فيلتحق بما فوقه » .

(*) قمنا بفضل الله بتحقيقه على نسخة خطية بخط الحافظ الذهبي ، لتفادي هذه التحريفات ، ونحسب أنها أصح نسخة لهذا الكتاب . وقد نشرته دار الوفاء سنة ١٤١٨هـ / ١٩٩٨ م . (الباز) .

وروى الإمام أحمد عن أم سلمة أنها قالت : يا رسول الله ، تغزو الرجال ولا تغزو، ولنا نصف الميراث؟ فأنزل الله : ﴿وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ . ورواه الترمذى وقال: غريب . ورواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن مردويه، والحاكم (١) .

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: أتت امرأةٌ إلى النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله، للذكر مثل حظ الأنثيين، وشهادة امرأتين برجل، أفنحن في العمل هكذا، إن عملت امرأة حسنة؟ كتبت لها نصف حسنة. فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَلَا تَمَنَّوْا﴾، «فإنه عدل منى، وأنا صنعته» (٢) . وعن ابن عباس قال ولا يتمنى الرجل فيقول: «ليت أن لى مال فلان وأهله!» فهى الله عن ذلك، ولكن ليسأل الله من فضله (٣) . وقال الحسن ومحمد بن سيرين وعطاء والضحاك نحو هذا ، وهو الظاهر من الآية، ولا يرد على هذا ما ثبت فى الصحيح: «لا حَسَدَ إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق، فيقول رجل: لو أن لى مثل ما لفلان لعمتُ مثله» (٤) . فهما فى الأجر سواء ، فإن هذا شىء غير ما نهت عنه الآية، وذلك أن الحديث حصَّ على تمنى مثل نعمة هذا، والآية نهت عن تمنى عين نعمة هذا، فقال: ﴿وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أى: فى الأمور الدنيوية، وكذا الدينية أيضا ، لحديث أم سلمة، وابن عباس .

ثم قال: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ﴾ أى: كل له جزاء على عمله بحسبه، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر . وهو قول ابن جرير . وقيل: المراد بذلك فى الميراث، أى: كل يرث بحسبه . رواه الترمذى عن ابن عباس .

ثم أرشدهم إلى ما يصلحهم فقال: ﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ولا تمنوا ما فضلنا به بعضكم على بعض، فإن هذا أمر محتوم، أى: إن التمنى لا يجدى شيئا، ولكن سلونى من فضلى أعظكم؛ فإنى كريم وهاب . وقد روى الترمذى، وابن مردويه عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «سلوا الله من فضله؛ فإن الله يحب أن يسأل، وإن أفضل العبادة انتظار الفرج» وروى ابن مردويه نحوه ، من حديث ابن عباس .

(١) المسند (٦ / ٣٢٢ حلى) . والترمذى (٤ / ٨٨) والحاكم (٢ / ٣٠٥ ، ٣٠٦) ورواه الطبرى (٩٢٣٦ ، ٩٢٣٧ ، ٩٢٤١) . وفضلنا تخريجه فى (٩٢٤١)، وبيننا أنه حديث صحيح متصل .

وهذا الحديث يرد على الكنايين المقترين - فى عصرنا - الذين يحرصون على أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين، فيخرجون المرأة عن خدرها، وعن صونها وسترها الذى أمر الله به ، فيدخلونها فى نظام الجند ، عارية الأذرع والأفخاذ ، بارزة المقدمة والمؤخرة ، متهتكة فاجرة !! يرمون بذلك - فى الحقيقة - إلى الترفيه الملعون عن الجنود الشبان، المحرومين من النساء فى الجندية، تشبها بفجور اليهود والإفرنج، عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة . (٢) إسناد هذا الحديث عند ابن أبي حاتم إسناد صحيح . ولم أجده فى مصدر آخر ، ولم ينسبه السيوطى فى الدر المنثور (٢ / ١٤٩) لغير ابن أبي حاتم .

(٣) أثر ابن عباس - هذا - رواه الطبرى (٩٢٣٨)، ورواه ابن المنذر وابن أبي حاتم كما فى الدر المنثور (٢ / ١٤٩) .

(٤) من حديث رواه أحمد (١٠٢١٨ ، ١٠٢١٩) والبخارى (٩ / ٦٥ ، ٦٦ ، ١٣ / ٤١٩) كلاهما عن أبى هريرة ، وقوله هنا عقب الحديث: «فهما فى الأجر سواء» - صنيع الحافظ ابن كثير قد يوهم أنه من باقى الحديث . ولكن لم أجده هذه الكلمة فيما رأيت من رواياته .

ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أى: هو عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه منها، وبمن يستحق الفقر فيفقره، وعلیم بمن يستحق الآخرة فيقيضه لأعمالها، وبمن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطى الخير وأسبابه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، وغيرهم: ﴿مَوَالِي﴾ أى: ورثة. وعن ابن عباس فى رواية: أى عَصَبَة. قال ابن جرير: والعرب تسمى ابن العم مولى، ويعنى بقوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾: من تركه والديه وأقربيه من الميراث، فأتویل الكلام: ولكلكم - أيها الناس - جعلنا عَصَبَة يرثونه مما ترك والداه وأقربوه من ميراثهم له.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ (١) أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ﴾ أى: والذين تحالفتم بالأيمان المؤكدة - أنتم وهم - فآتوهم نصيبهم من الميراث، كما وعدتموهم فى الأيمان المغلظة، إن الله شاهد بينكم فى تلك العهود والمعاقدات. وقد كان هذا فى ابتداء الإسلام، ثم نسخ بعد ذلك، وأمروا أن يوفوا لمن عاقدوا، ولا يئنسثوا بعد نزول هذه الآية معاقدة. روى البخارى عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي﴾ قال: ورثة، ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجرى الأنصارى، دون ذوى رحمته؛ للأخوة التى آخى النبى ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي﴾ نسخت، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة، وقد ذهب الميراث ويوصى له (٢). ورواه ابن أبى حاتم عن ابن عباس، بنحوه. وروى ابن أبى حاتم أيضا عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ﴾ فكان الرجل قبل الإسلام يعاقد الرجل، يقول: ترثنى وأرثك وكان الأحياء يتحالفون، فقال رسول الله ﷺ: «كُلُّ حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوْ عَقْدٌ أَدْرَكَهُ الْإِسْلَامُ، فَلَا يَزِيدُهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً، وَلَا عَقْدٌ وَلَا حِلْفٌ فِي الْإِسْلَامِ». فنسختها هذه الآية: ﴿وَأَوْلُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] (٣). ثم قال: وروى عن سعيد بن المسيَّب، ومجاهد، وعطاء، والحسن، وسعيد بن جبیر، وقاتدة، وغيرهم: أنهم قالوا: هم الحلفاء. وروى أحمد وابن جرير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ، وَكُلُّ حِلْفٍ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَلَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا

(١) «عاقدت»: رسمت بالالف فى المخطوطتين - هنا وفى رأس الآية، وفيما يأتى. فهى القراءة التى أثبتتها الحافظ المؤلف. وفى قراءة حفص «عقدت» بدون الف، وهى قراءة عاصم وحزمة والكسائى. وبالالف قراءة باقى السبعة. وقال الطبرى (٨ / ٢٧٢): «إنهما قراءتان معروفتان مستفيضتان فى قراءة أمصار المسلمين، بمعنى واحد».

(٢) البخارى (٨ / ١٨٦، ١٨٧ فتح) ورواه الطبرى مقطعا (٩٢٧٥، ٩٢٧٧)، ولم يذكر فى آخر الثانية قوله: «ويوصى له».

(٣) إسناد ابن أبى حاتم إسناد صحيح. ونسبه السيوطى (٢ / ١٥٠) لابن المنذر أيضا.

شِدَّة، وما يَسْرُتِي أن لى حُمَرَ النَّعَمِ وَأنى نَقَضْتُ الحِلْفَ الذى كان فى دار النَّدْوَةِ هذا لفظ ابن جرير (١). وروى ابن جرير عن عبد الرحمن بن عوف ، أن رسول الله ﷺ قال: «شَهِدْتُ حِلْفَ المُطَبِّينَ، وَأنا غُلامٌ مع عُمُومَتى، فما أحب أن لى حُمَرَ النَّعَمِ وأنا أنكثُهُ». قال الزهرى: قال رسول الله ﷺ: «لم يُصِبِ الإسلامُ حِلْفًا إلا زاده شِدَّةٌ». قال: «ولا حِلْفٌ فى الإسلام». وقد ألف النبى ﷺ بين قريش والأنصار ورواه الإمام أحمد (٢). وروى الطبرى . عن قيس بن عاصم: أنه سأل النبى ﷺ عن الحلف قال: فقال: «ما كان من حِلْفٍ فى الجاهلية فَمَسَّكُوا به، ولا حلف فى الإسلام» ورواه أحمد (٣). وروى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حِلْفَ فى الإسلام، وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يَزِدْهُ الإسلامُ إلا شِدَّةً». ورواه مسلم وأبو داود والنسائى والطبرى (٤). فالصحيح أنهم كانوا فى ابتداء الإسلام يتوارثون بالحلف ، ثم نسخ وبقى تأثير الحلف بعد ذلك ، وإن كانوا قد أمرُوا أن يوفوا بالعقود والعهود، والحلف الذى كانوا قد تعاقده قبل ذلك تقدم فى حديث جبير بن مطعم وغيره من الصحابة: لا حلف فى الإسلام، وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يَزِدْهُ الإسلامُ إلا شدة. وهذا نص فى الرد على من ذهب إلى التوارث بالحلف اليوم، كما هو مذهب أبى حنيفة وأصحابه، ورواية عن أحمد بن حنبل.

والصحيح قول الجمهور ومالك والشافعى وأحمد فى المشهور عنه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي﴾ أى: ورثة من أقربائه من أبويه وأقربيه، هم يرثونه دون سائر الناس، كما ثبت فى الصحيحين، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أَلْحِقُوا الفرائضَ بأهلها، فما بَقِيَ فهو لأولى رَجُلٍ ذَكَرَ» أى: اقسما الميراث على أصحاب الفرائض الذين ذكرهم الله فى آيتى الفرائض، فما بقى بعد ذلك فأعطوه العَصْبَةَ، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدْتَ أَيْمَانَكُمْ﴾ أى: قبل نزول هذه الآية ﴿فَأَتَوْهُمْ نَصِيحُهُمْ﴾ ، أى: من الميراث ، فأما حلف عُقْدَ بعد ذلك فلا تأثير له. وقد قيل: إن هذه الآية نسخت الحلف فى المستقبل، وحكم الماضى أيضا، فلا توارث به. وعن على بن أبى طلحة عن ابن عباس: قوله: ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدْتَ أَيْمَانَكُمْ﴾ قال: كان الرجل يعاقد الرجل، أيهما مات ورثه الآخر، فأنزل الله: ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ [الاحزاب: ٦]. يقول: إلا أن يوصوا لأوليائهم الذين عاقدوا وصية فهو لهم جائز من ثلث مال الميت، وذلك هو المعروف (٥).

(١) المسند (٢٩١١، ٤٦، ٣٠) مختصرا . والطبرى (٩٢٨٩) مختصرا أيضا، و(٩٢٩٠) مطولا . وأسانيدهما صحاح.

(٢) الطبرى (٩٢٩٦) والمسند (١٦٥٥) .

(٣) الطبرى (٩٢٩٢) والمسند (٥ / ٦١ حلى) . وإسناداهما صحيحان .

(٤) المسند (١٦٨٣٢) ومسلم (٢ / ٢٧٠) والطبرى (٩٢٩٥) . وتفصيل تخريجه فيه .

(٥) رواه الطبرى (٩٢٦٨) . ونسبه السيوطى (٢ / ١٤٩ ، ١٥٠) أيضا لابن المنذر وابن أبى حاتم والنحاس فى الناسخ والنسوخ وابن مردويه .

وهكذا نص غير واحد من السلف: أنها منسوخة بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ .
وقال سعيد بن جبير: ﴿فَاتَّوَهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾ أى: من الميراث. قال: وعاقده أبو بكر مولى
فورثه. رواه ابن جرير. وقال ابن المسيب: نزلت هذه الآية فى الذين كانوا يتبنون رجلا غير
أبنائهم، يورثونهم، فأنزل الله فيهم، فجعل لهم نصيبا فى الوصية، ورد الميراث إلى المولى فى
ذى الرحم والعصبة، وأبى الله للمدعين ميراثا ممن ادعاهم وتبناهم، ولكن جعل لهم نصيبا من
الوصية. رواه ابن جرير.

وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿فَاتَّوَهُمْ نَصِيْبُهُمْ﴾ أى: من النصرة والنصيحة والمعونة،
لا أن المراد: فاتوهم نصيبهم من الميراث - حتى تكون الآية منسوخة، ولا أن ذلك كان حكما
ثم نسخ، بل إنما دلت الآية على الوفاء بالخلف المعقود على النصرة والنصيحة فقط، فهى
محكمة لا منسوخة. وهذا الذى قاله فيه نظر، فإن من الخلف ما كان على المناصرة والمعاونة،
ومنه ما كان على الإرث، كما حكاه غير واحد من السلف، وكما قال ابن عباس: كان المهاجرى
يرث الأنصارى دون قراباته وذوى رحمه، حتى نسخ ذلك، فكيف يقول: إن هذه الآية محكمة
غير منسوخة؟! والله أعلم^(١).

(١) انظر الطبرى (٨ / ٢٨٨ ، ٢٨٩) ، وتعليق أخى السيد محمود محمد شاكر . وقد احتج الطبرى لما ذهب إليه ،
بأن الآية إذا اختلف أهل العلم : أمنسوخة هى أم غير منسوخة - لم يجز القضاء بالنسخ إلا « بحجة يجب
التسليم لها » . ويريد بالحجة : ظاهر القرآن أو سنة صحيحة عن رسول الله ﷺ .
وهذا كلام صحيح سليم ، ولكن ألم يأت فى هذه الآية - يعينها - حجة على النسخ يجب التسليم لها ؟
بلى ، قد ورد : فإن الأحاديث الثلاثة عن ابن عباس ، التى روى أولها البخارى وابن أبى حاتم ، وروى ثانيها
ابن أبى حاتم وابن المنذر ، وروى ثالثها الطبرى وغيره صريحت فى الإخبار عن النسخ ، والإخبار عما كان قبل
نزول هذه الآية وقبل نزول آية سورة الأحزاب ، التى نصها : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِالنَّبِيِّينَ وَأَزْوَاجَهُمْ
وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا إِلَىٰ أَوْلِيَانِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب : ٦] .
ولم يكن كلام ابن عباس فى هذا اجتهادا من قبل نفسه وهو يحكى ما كان قبل نزول كل من الآيتين . ومثل
هذا هو عند أهل العلم بالحديث من نوع الحديث المرفوع ، بل هو مرفوع فعلا ؛ لأنه يخبر عما كان على عهد
رسول الله ﷺ من الأحكام ، وعما جد بعد ذلك فى عهده من أحكام آخر .

كل ما فى الأمر أن حديث ابن عباس - الأول - فيه شيء من الاختصار أو الاقتصار ، بينه التفصيل فى
حديثه الآخرين . ولذلك قال الحافظ ابن حجر ، عند قول ابن عباس فى رواية البخارى : « فلما نزلت » ولكل
جعلنا موالى » نسخت - قال ابن حجر « هكذا وقع فى هذه الرواية : أن ناسخ ميراث الحليف هذه الآية .
وروى الطبرى من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، قال : كان الرجل يعاقد الرجل ، فإذا مات
ورثه الآخر ، فأنزل الله : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا إِلَىٰ
أَوْلِيَانِكُمْ مَعْرُوفًا ﴾ ، يقول : إلا أن توصوا لأوليائكم الذين قد عاقدتم . ومن طريق قتادة : كان الرجل يعاقد
الرجل فى الجاهلية ، فيقول : دمسى دمك وترثنى وأرثك ، فلما جاء الإسلام أمروا أن يؤتوهم نصيبهم من
الميراث ، وهو السدس ، ثم نسخ ذلك بالميراث فقال : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ . ومن طرق شتى
عن جماعة من العلماء كذلك . وهذا هو المعتمد . ويحتمل أن يكون النسخ وقع مرتين : الأولى : حيث كان
المعاقد يرث وحده دون العصبة ، فنزلت « ولكل » وهى آية الباب [يريد : الباب فى صحيح البخارى] ، =

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالَّذِينَ حَفِظْتُ لَهُمُ اللَّغِيْبُ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّيْنُ تَخَافُونَ سُوءَ مُرْتَبِعِهِمْ فَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُمْ إِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيْلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيْمًا كَبِيْرًا﴾

يقول تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أى: الرجل قَيِّمٌ على المرأة، أى: هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا عوجتِ ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أى: لأن الرجال أفضل من النساء، والرجل خير من المرأة؛ ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال، وكذلك الملك الأعظم؛ لقوله ﷺ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْأُ أَمْرَهُمْ امْرَأَةٌ» رواه البخارى من حديث أبى بكره (١). وكذا منصب القضاء وغير ذلك. ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أى: من المهور والنفقات والكلف التى أوجبها الله عليهم لهنّ فى كتابه وسنة نبيه ﷺ، فالرجل أفضل من المرأة فى نفسه، وله الفضل عليها والإفضال، فناسب أن يكون قَيِّمًا عليها، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ

= فصاروا جميعاً يرثون ، وعلى هذا يتنزل حديث ابن عباس . ثم نسخ ذلك آية الأحزاب ، وخص الميراث بالعصبة ، وبقي للمعاقد النصر والإرفاد ونحوها . وعلى هذا يتنزل بقية الآثار . وقد تعرض له ابن عباس فى حديثه أيضاً ، لكن لم يذكر الناسخ الثانى [يعنى فى رواية البخارى] ، ولا بد منه . وهذا تحقيق جيد رفيع من الحافظ ابن حجر . والناسخ الثانى ذكره ابن عباس أيضاً فى الروایتين الآخريتين ، الدالتين على أن الرواية الأولى - رواية البخارى - فيها اختصار .

ثم إن ظاهر الآية يدل على ذلك أيضاً ، ولا يصح تأويلها على ما رجحه ابن جرير من أنها غير منسوخة . إذ هو يجعل معناها على المعنى الذى جاء فى رواية ابن عباس الأولى - رواية البخارى : « ثم قال » والذين عاقدت إيمانك فأتوهم نصيبهم » من النصر والرفادة والنصيحة . وهذا المعنى لا يصلح قط أن يناسب سياق الكلام ، ولا المعنى الوضعى للفظ العربى ، أعنى أنه لا يصلح أن يكون معنى سبق له الكلام ابتداء ، فما كان « النصر والرفادة والنصيحة » مما يدل عليها كلمة « نصيب » ، وإن دخلت تحت موضوعه بنحو من المجاز والتوسع ، أما أن تكون معنى أصلياً لكلمة « نصيب » فلا . انظر إلى السياق ، إذا كان اللفظ يدل على هذا المعنى فسيكون سياق الكلام : والذين حالقتموهم وعاقدتموهم فأتوهم نصيبهم من النصر والرفادة والنصيحة ! أهذا كلام يساق مساق الكلام الصحيح؟! وهل كانوا يقسمون بين الورثة - مما ترك الوالدان والأقربون - النصر والرفادة والنصيحة ، حتى يؤتوا أحلافهم نصيبهم منها؟! .

إنى لا أشك أن حديث ابن عباس الأول - رواية البخارى - فيه شىء من الاختصار ، أبان عنه الروایتان الآخريتان ، وهو الذى أشار إليه الحافظ ابن حجر بقوله فى آخر كلامه عن ذلك الحديث: « لكن لم يذكر الناسخ الثانى ، ولا بد منه » .

ويكون معنى حديث ابن عباس ، بما يجتمع من رواياته : أن قوله : « والذين عقدت إيمانك فأتوهم نصيبهم » يعنى نصيبهم من الميراث ، فجاءت آية الأحزاب : ﴿ وَأَوْلُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ﴾ فذهب الميراث ، وبقي أن يفعلوا لهم المعروف ، من الوصية ، « ومن النصر والرفادة والنصيحة » . وذلك هو المعروف الذى بقى لهم بعد ذهاب الميراث .

فقد أصاب ابن كثير ، وأخطأ ابن جرير ، رحمهما الله .

(١) البخارى (٨ / ٩٧ ، ٤٥ / ١٣ ، ٤٦) . ورواه أيضاً أحمد والترمذى والنسائى ، كما فى الفتح الكبير .

عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿البقرة: ٢٢٨﴾ (١).

وقوله: ﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾ أي: من النساء ﴿فَأَنبَتَتْ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يعنى مطيعات لأزواجهن ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ قال السدى وغيره: أى تحفظ زوجها فى غيبته فى نفسها وماله.
وقوله: ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ أى: المحفوظ من حفظه.

روى ابن جرير عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ النِّسَاءِ امْرَأَةٌ إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهَا سَرَّتْكَ، وَإِذَا أَمَرْتَهَا أَطَاعَتْكَ، وَإِذَا غَيْبَتْ عَنْهَا حَفِظْتِكَ فِي نَفْسِهَا وَمَالِكَ». ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ إلى آخرها. ورواه ابن أبى حاتم (٢).

وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ حَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا؛ وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا، قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ الْأَبْوَابِ شِئْتَ». تفرد به أحمد (٣).

﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ أى: والنساء اللاتى تتخوفون أن ينشزن على أزواجهن. والنشوز: هو الارتفاع، فالمرأة الناشز: هى المرتفعة على زوجها، التاركة لأمره، المُعْرِضَةَ عنه، المُبْغِضَةَ له. فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها وليخوفها عقاب الله فى عصيانه، فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته، وحرّم عليها معصيته لما له عليها من الفضل والإفضال. وقد قال رسول الله ﷺ: «لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لِأَمْرَتِ الْمَرْأَةِ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا، مِنْ عَظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا» (٤) وروى البخارى، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَأَبَتْ عَلَيْهِ، لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ». ورواه مسلم بمعناه (٥)؛ ولهذا

(١) أما النساء فى عصرنا، فقد ملاهن الكبر والغرور والطغيان، بما بث أعداؤنا المبشرون والمستعمرون فى نفوسهن، بالتعليم المتهتك الفاسق. فزعمن لأنفسهن حق المساواة بالرجال فى كل شيء! فى ظاهر أمرهن، وهن على الحقيقة مستعليات طاغيات، يردن أن يحكمن الرجال فى الدار وخارج الدار، وأن يعتدين على التشريع الإسلامى، حتى فيما كان فيه النصوص الصريحة من الكتاب والسنة. بل يردن أن يكن حاكمات فعلا، يتولين من شؤون الرجال ما ليس لهن، وأن يخرجن على ما أمر الله به ورسوله. بل يكفرن بأن الرجال قوامون على النساء، ويكفرن بأنه «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»، حتى طمعن فى مناصب القضاء وغيرها، وساعدهن الرجال الذين هم أشباه الرجال. ولم يخش هؤلاء ولا أولئك ما وراء ذلك من فساد وانهايار، ثم من سخط الله وشديد عقابه.

(٢) الطبرى (٩٣٢٨). ورواه أيضا الطيالسى فى مسنده، برقم (٢٣٢٥) ورواه أحمد مختصرا بنحوه، بدون ذكر تلاوة الآية (٧٤١٥). وكذلك رواه الحاكم (١٦١/٢) والنسائى (٧٢/٢).
(٣) المسند (١٦٦١).

(٤) هو بمعناه ثابت عن قيس بن سعد، عند أبى داود (٢١٤٠) والحاكم (١٨٧/٢) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبى. وعن أبى هريرة عند الترمذى (٢٠٣/٢، ٢٠٤). وعن عائشة، عند أحمد (٧٦/٦ حلى)، وابن ماجه (١٨٥٢). وعن معاذ، عند أحمد (٢٢٧/٥، ٢٢٨). وعن عبد الله بن أبى أوفى، عند أحمد (٣٨١/٤) وابن ماجه (١٨٥٣) وعند ابن حبان، كما فى زوائد ابن ماجه.

(٥) البخارى (٢٢٦/٦، ٢٥٨/٩ فتح) ومسلم (٤٠٩/١).

قال تعالى : ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾ .

وقوله : ﴿وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ ابن عباس : الهجر : ألا يجامعها ، ويضاجعها على فراشها ويوليها ظهره . وكذا قال غير واحد ، وزاد آخرون - منهم : السدى ، والضحاك ، وعكرمة ولا يكلمها مع ذلك ولا يحدثها . وفي السنن والمسند عن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال : يا رسول الله ، ما حق امرأة أحدنا عليه ؟ قال : «أن تُطعمها إذا طَعِمْتَ ، وتكسوها إذا اكتسَيْتَ ، ولا تُضرب الوجهَ ولا تُقبِحَ ، ولا تهجر إلا في البيت» (١) .

وقوله : ﴿وَأَضْرِبُوهُنَّ﴾ أى : إذا لم يرتدعن بالموعظة ولا بالهجران ، فلکم أن تضربوهن ضربا غير مبرح ، كما ثبت فى صحيح مسلم عن جابر عن النبى ﷺ : أنه قال فى حجة الوداع : «واتقوا الله فى النساء ، فإنهن عندكم عوانٌ ، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، فإن فعلن فاضربوهن ضربا غير مبرح ، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف» (٢) . وكذا قال ابن عباس وغير واحد : ضربا غير مبرح . قال الحسن البصرى : يعنى غير مؤثر . قال الفقهاء : هو ألا يكسر فيها عضوا ولا يؤثر شيئا . ابن عباس : يهجرها فى المضجع ، فإن أقبلت وإلا فقد أذن الله لك أن تضربها ضربا غير مبرح ، ولا تكسر لها عظما ، فإن أقبلت وإلا فقد أحل الله لك منها الفدية . وعن إياس بن عبد الله بن أبى ذباب قال : قال النبى ﷺ : «لا تضربوا إماء الله» . فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال : ذئر النساء على أزواجهن . فرخص رسول الله ﷺ فى ضربهن ، فأطاف بأل رسول الله ﷺ نساء كثير يشكون أزواجهن ، فقال رسول الله ﷺ : «لقد أطاف بأل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن ، ليس أولئك بخياركم» رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه (٣) . وروى الإمام أحمد عن الأشعث بن قيس ، قال : ضفتُ عمر ، فتناول امرأته فضربها ، وقال : يا أشعث ، احفظ عني ثلاثا حفظتهن عن رسول الله ﷺ : لا تسأل الرجلَ فيمَ ضربَ امرأته ، ولا تنم إلا على وتر ، ونسى الثالثة . وكذا رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه (٤) .

(١) هو جزء من حديث طويل رواه أحمد مطولا ومختصرا مرارا (٤ / ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤ / ٥ ، ٥ حلى) وأبو داود (٢١٤٢ - ٢١٤٤) والطبرى (٩٣٧٢ - ٩٣٧٤) وتفصيل تخريجه فيه .

(٢) انظر : صحيح مسلم (١ / ٣٤٧) .

(٣) أبو داود (٢١٤٦) . ورواه البخارى فى الكبير (١ / ١ / ٤٤٠) موجزا بالإشارة ، فى ترجمة «إياس بن عبد الله ابن أبى ذياب» ، وقال : «ولا يعرف لإياس صحبة» يريد أنه يكون حديثا مرسلا ولكن جزم ابن أبى حاتم (١ / ١ / ٢٨٠) بأن له صحبة . وهو الذى رجحه الحافظ فى التهذيب «وأبو ذياب» بضم الذال المعجمة وياءين موحدتين . ووقع فى المطبوعة «ذئاب» وهو تصحيف . . وقوله : «ذئر النساء» - بفتح الذال المعجم وكسر الهمزة ، أى : نشزن عليهم واجتران . قال الخطابى : «معناه سوء الخلق والجرأة على الأزواج . والذائر : المغتاز على خصمه ، المستعد للشر» .

(٤) المسند (١٢٢) وأبو داود (٢١٤٧) مختصرا ، ورواه أيضا الحاكم (٤ / ١٧٥) ، وذكر الخصلة الثالثة : «ولا تسأله عن يعتمد من إخوانه ولا يعتمدهم» وصححه ، ووافقه الذهبى .

وقوله: ﴿فَإِنْ أَطَعْتُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أى: إذا أطاعت المرأة زوجها فى جميع ما يريد منها، مما أباحه الله له منها، فلا سبيل له عليها بعد ذلك، وليس له ضربها ولا هجرانها.
وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب، فإن الله العلىّ الكبير وليهن، وهو منتقم من ظلمهن وبغى عليهن.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾

ذكر الحال الأول، وهو إذا كان النفور والشور من الزوجة، ثم ذكر الحال الثانى وهو: إذا كان النفور من الزوجين، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾. وقال الفقهاء: إذا وقع الشقاق بين الزوجين، أسكنهما الحاكم إلى جنب ثقة، ينظر فى أمرهما، ويمنع الظالم منهما من الظلم، فإن تفاقم أمرهما وطالت خصومتها، بعث الحاكم ثقة من أهل المرأة، وثقة من قوم الرجل، ليجتمعا وينظرا فى أمرهما، ويفعلا ما فيه المصلحة فيما يريانه من التفريق أو التوفيق. وتَشَوَّفُ الشارع إلى التوفيق؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾.

وقال ابن عباس: أمر الله، عز وجل، أن يبعثوا رجلا صالحًا من أهل الرجل، ورجلا مثله من أهل المرأة، فينظران: أيهما المسيء؟ فإن كان الرجل هو المسيء، حجبا عنه امرأته وقصره على النفقة، وإن كانت المرأة هى المسيئة، قصروها على زوجها ومنعوها النفقة. فإن اجتمع أيهما على أن يفرقا أو يجمعا، فأمرهما جائز. فإن رأيا أن يجمعا، فرضى أحد الزوجين وكره ذلك الآخر، ثم مات أحدهما، فإن الذى رضى يرث الذى كره، ولا يرث الكاره الراضى. رواه ابن أبى حاتم وابن جرير^(١). وروى عبد الرزاق أن عَقِيل بن أبى طالب تزوّج فاطمة بنت عتبة ابن ربيعة فقالت: تصير لى وأنفق عليك. فكان إذا دخل عليها قالت: أين عتبة بن ربيعة وشيبة ابن ربيعة؟ قال: على يسارك فى النار إذا دخلت! فشدت عليها ثيابها فجاءت عثمان، فذكرت له ذلك، فضحك وأرسل ابن عباس ومعاوية، فقال ابن عباس: لأفرقن بينهما. فقال معاوية: ما كنت لأفرق بين شيخين من بنى عبد مناف، فأتياهما فوجداهما قد أغلقا عليهما أبوابهما، فرجعا^(٢). روى أيضاً عن عبيدة قال: شهدت عليا وجاءته امرأة وزوجها، مع كل واحد منهما فَنَامَ من الناس، فأخرج هؤلاء حكما وهؤلاء حكما، فقال على للحكَمَيْنِ: أتدريان ما عليكما؟ إن عليكما [إن رأيتما أن تفرقا فرقتما، و [إن رأيتما أن تجمعا، جمعتما. فقالت المرأة: رضيت بكتاب الله لى وعلى. وقال الزوج: أما الفرقة فلا. فقال على: كذبت، والله لا تبرح

(١) الطبرى (٩٤١٨). وقوله: « قصره » - بالصاد، أى: ألزموه إياه قهرا. وأصلها من « القسر » السين. وهما تبادلان كثيرا، وانظر مثل ذلك فيما مضى عند تفسير الآيات (٥٥ - ٥٨) من سورة آل عمران.
(٢) ورواه الشافعى فى الام (٥ / ١٧٧ - ١٨٧) والبيهقى (٣٠٦ / ٧) ورواه الطبرى (٩٤٢٧) بنحوه مختصرا.

حتى ترضى بكتاب الله، عز وجل، لك وعليك. رواه ابن أبي حاتم، ورواه ابن جرير مثله (١). وهذا مذهب جمهور العلماء: أن الحكيمين (٢) إليهما الجمع والتفرقة، حتى قال إبراهيم النخعي: إن شاء الحكمان أن يفرقا بينهما بطلقة أو بطلقتين أو ثلاث فعلا. وهو رواية عن مالك.

وقال الحسن البصرى: الحكمان يحكمان فى الجمع ولا يحكمان فى التفريق، وكذا قال قتادة، وزيد بن أسلم. وبه قال أحمد بن حنبل، وأبو ثور، وداود، وماخذهم قوله تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ ولم يذكر التفريق. وأما إذا كانا وكيلين من جهة الزوجين، فإنه يُنفذُ حكمهما فى الجمع والتفرقة بلا خلاف.

وقد اختلف الأئمة فى الحكيمين: هل هما منصوبان من عند الحاكم، فيحكمان وإن لم يرض الزوجان؟ أو هما وكيلان من جهة الزوجين؟ على قولين: فالجمهور على الأول؛ لقوله تعالى: ﴿فَابْتَغُوا حُكْمًا مِنْ أٰهْلِهِ وَحُكْمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ فسامهما حكيمين، ومن شأن الحكم أن يحكم بغير رضا المحكوم عليه، وهذا ظاهر الآية، والجديد من مذهب الشافعى، وهو قول أبى حنيفة وأصحابه. الثانى منهما: بقول على، رضى الله عنه، للزوج - حين قال: أما الفرقة فلا - فقال: كذبت، حتى تقر بما أقرت به، قالوا: فلو كانا حاكمين لما افتقر إلى إقرار الزوج، والله أعلم.

قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر: وأجمع العلماء على أن الحكيمين - إذا اختلف قولهما - فلا عبرة بقول الآخر، وأجمعوا على أن قولهما نافذ فى الجمع وإن لم يوكلهما الزوجان، واختلفوا: هل ينفذ قولهما فى التفرقة؟ ثم حكى عن الجمهور: أنه ينفذ قولهما فيها أيضا.

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾

يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له؛ فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه فى جميع الأنات والحالات، فهو المستحق منهم أن يوحده، ولا يشركوا به شيئا من مخلوقاته، كما قال النبى ﷺ لمعاذ: «تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»، ثم قال: «تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟ أَلَا

(١) تفسير عبد الرزاق (ص ٤٢، ٤٣) والزيادة منه، وقد سقطت من المطبوعة والمخطوطين خطأ. ورواه أيضا الشافعى فى الام (١٧٧/٥) والطبرى (٩٤٠٧ - ٩٤٠٩) والبيهقى (٣٠٥/٧، ٣٠٦). وقال الشافعى (ص ١٧٨): «حديث على ثابت عندنا».

(٢) فى المطبوعة: «وقد أجمع العلماء على أن الحكيمين» - إلخ. وهو خطأ واضح، إذ سيحكى المؤلف الحافظ الخلاف فى ذلك. وأثبتنا الصواب من المخطوطتين.

يُعَذِّبُهُمْ» (١). ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين، فإن الله، سبحانه، جعلهما سببا لخروجك من العدم إلى الوجود، وكثيرا ما يقرن الله، سبحانه، بين عبادته والإحسان إلى الوالدين، كقوله: ﴿إِنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، وكقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

ثم عطف على الإحسان إلى الوالدين الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء، كما جاء في الحديث: «الْصَّدَقَةُ عَلَى الْمَسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ» (٢).

ثم قال: ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ وذلك لأنهم قد فقدوا من يقوم بمصالحهم، ومن ينفق عليهم، فأمر الله بالإحسان إليهم والحنو عليهم.

ثم قال: ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ وهم المحاويج من ذوى الحاجات الذين لا يجدون من يقوم بكفائتهم، فأمر الله سبحانه بمساعدتهم بما تتم به كفائتهم وتزول به ضرورتهم. وسيأتى الكلام على الفقير والمسكين فى سورة براءة (٣).

وقوله: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾. قال ابن عباس: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ يعنى: الذى بينك وبينه قرابة ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ الذى ليس بينك وبينه قرابة. وكذا روى عن عكرمة، ومجاهد، وقتادة وغيرهم. وقال نَوْفَ الْبِكَالَى فى قوله: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾: يعنى: الجار المسلم ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ يعنى: اليهودى والنصرانى. رواه ابن أبى حاتم. وقد وردت الأحاديث بالوصايا بالجار (٤). فروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه». وأخرجه فى الصحيحين (٥). وروى أحمد أيضا عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن النبى ﷺ أنه قال: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره». ورواه الترمذى وقال حسن غريب (٦). وروى الإمام أحمد عن المقداد بن الأسود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ما تقولون فى الزنا؟» قالوا: حرمة الله ورسوله، هو حرام إلى يوم القيامة. فقال رسول الله ﷺ: «لأن يزنى

(١) رواه البخارى (١٣ / ٣٠٠ فتح) ومسلم (١ / ٢٥ ، ٢٦) والترمذى (٣ / ٣٦٩) وابن ماجه (٤٢٩٦) كلهم من حديث معاذ بن جبل .

(٢) مضى عند تفسير الآيات : (١٧٤ - ١٧٦) من سورة البقرة تخريجه من المسند والترمذى والنسائى وابن ماجه - كلهم من حديث سلمان بن عامر .

(٣) عند الآية : (٦٠) منها .

(٤) ذكر المؤلف الحافظ هنا أحاديث كثيرة ، اكتفينا منها بما أثبتنا .

(٥) المسند (٥٥٧٧) . ورواه أحمد أيضا (٦٤٩٦) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص . ورواه أيضا من حديث أبى هريرة (٧٥١٤ ، ٨٠٣٢ ، ٩٧٤٤ ، ٩٩١٢ ، ١٠٦٨٦) .

(٦) المسند (٦٥٦٦) والترمذى (٣ / ١٢٩) ورواه الحاكم (١ / ٤٤٣) ، و٢ / ١٠١ ، و٤ / ١٦٤) وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى . وذكره المنذرى فى الترغيب (٣ / ٢٣٧) ، و٤ / ٤٦) ونسبه أيضا لابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما .

الرَّجُلُ بَعَثَ نِسْوَةً، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِهِ». قال: ما تقولون في السرقة؟ قالوا: حَرَمَهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ فِيهِ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. قَالَ: «لَأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنَ عَشْرَةِ آيَاتٍ، أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ جَارِهِ». تفرد به أحمد^(١)، وله شاهد في الصحيحين من حديث ابن مسعود: قلت: يا رسول الله، أيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ». قلتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تَزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»^(٢). وروى الإمام أحمد عن عائشة؛ أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت: «إِنْ لِي جَارِيْنِ، فإِلَى أَيِّهِمَا أُهْدِي؟ قَالَ: «إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكَ أَبَا». ورواه البخاري.

وقوله: «وَالصَّاحِبِ بِالْجَنِّبِ» عن علي وابن مسعود قالوا: هي المرأة. وقال ابن أبي حاتم: وروى عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، النخعي، والحسن، وسعيد بن جبيرة - في إحدى الروايات - نحو ذلك. وقال ابن عباس وجماعة: هو الرفيق في السفر. وقال سعيد بن جبيرة: هو الرفيق الصالح. وقال زيد بن أسلم: هو جلسك في الحضرة، ورفيقك في السفر.

وأما «ابن السبيل» فعن ابن عباس وجماعة هو: الضيف. وقال مجاهد وغيره: هو الذي يمر عليك مجتازاً في السفر. وهذا أظهر. وإن كان مراد القائل بالضيف: المار في الطريق، فهما سواء. وسيأتي الكلام على أبناء السبيل في سورة براءة، وبالله الثقة وعليه التكلان.

وقوله: «وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» وصية بالأرقاء؛ لأن الرفيق ضعيف الحيلة^(٣)، أسير في أيدي الناس، ولهذا ثبت أن رسول الله ﷺ جعل يُوصِي أُمَّتَهُ فِي مَرَضِ الْمَوْتِ يَقُولُ: «الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ». فجعل يُرَدِّدُهَا حَتَّى مَا يَفِيضُ بِهَا لِسَانَهُ^(٤). وروى الإمام أحمد عن المقدم ابن معد يكرب قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَطْعَمْتَ نَفْسَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، [وَمَا أَطْعَمْتَ وَكَذَلِكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ]، وَمَا أَطْعَمْتَ زَوْجَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَمَا أَطْعَمْتَ خَادِمَكَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ». ورواه النسائي، وإسناده صحيح، والله الحمد^(٥). وعن عبد الله بن عمرو أنه قال لِقَهْرَمَانَ لَهُ:

(١) المسند (٦ / ٨ حلى) . ورواه أيضا البخاري في الأدب المفرد ، رقم (١٠٣) وإسنادهما صحيحان . وذكره المنذرى في الترغيب (٣ / ٢٣٣) ونسبه لأحمد « ورواته ثقات » ، والطبراني في الكبير والأوسط . وفي الزوائد (٨ / ١٦٨) : « رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ وَالْأَوْسَطِ ، وَرَجَالُهُ ثَقَاتٌ » .

(٢) البخاري (٨ / ١٢٤ فتح) ، وفي مواضع كثيرة ، ومسلم (١ / ٣٦ ، ٣٧) . وقد مضى بأطول من هذا عند تفسير الآيات : (٢٩ - ٣١) من سورة النساء .

(٣) هكذا ثبت في المطبوعة . وفي المخطوطتين : « ضعيف الجنبه » - واضحة الرسم والنطق : بالجيم والنون والباء الموحدة ولم أستطع أن أجد لها توجيها أو تصحيحا . وانفاق المخطوطتين عليها عجيب ! وقد تكون مصحفة عن « الحية » - بكسر الحاء المهملة بعدها ياء تحتية ثم باء موحدة - وهي الهم والحزن . وهي أيضاً الحاجة والمسكنة ، ولكن توجيهاها فيه تكلف شديد وعسر . فرجحت إثبات ما في المطبوعة ، لأنه واضح المعنى صحيحه .

(٤) من حديث رواه أحمد (١٢١٩٥) من حديث أنس . وذكره المؤلف الحافظ في التاريخ (٥ / ٢٣٨) من رواية أحمد ، ونسبه أيضاً للنسائي وابن ماجه . وذكره بنحوه أيضاً (٢٣٨ ، ٢٣٩) من حديث أم سلمة . ونسبه ليعقوب بن سفيان والنسائي وابن ماجه .

(٥) المسند (١٧٢٤٥) . والزيادة منه .

هل أعطيت الرقيق قوتهم؟ قال: لا. قال: فانطلق فأعطهم؛ فإن رسول الله ﷺ قال: «كفى المرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوتهم». رواه مسلم^(١). وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «للمملوك طعامه وكسوته، ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق». رواه مسلم أيضاً^(٢). وعنه، عن النبي ﷺ قال: «إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه، فإن لم يجلسه معه، فليناوله لقمَةً أو لقمتين أو أكلةً أو أكلتين، فإنه وكى حره وعلاجه». أخرجاه ولفظه للبخارى. وعن أبي ذر، عن النبي ﷺ قال: «هم إخوانكم خوكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم، فأعينوهم». أخرجاه^(٣).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ أى: مختالاً فى نفسه، معجباً متكبراً، فخوراً على الناس، يرى أنه خير منهم، فهو فى نفسه كبير، وهو عند الله حقير، وعند الناس بغض.

﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٣٧) ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ (٣٨) ﴿وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ (٣٩)

يقول تعالى ذاماً للذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به - من بر الوالدين، والإحسان إلى الأقارب واليتامى والمساكين، والجار ذى القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، وما ملكت أيمانهم من الأرقاء - ولا يدفعون حق الله فيها، ويأمرون الناس بالبخل أيضاً. وقد قال رسول الله ﷺ: «وأي داء أدوأ من البخل؟»^(٤). وقال: «ياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»^(٥).

وقوله: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فالبخيل جحود لنعمة الله، لا تظهر عليه ولا تبين، لا فى أكله ولا فى ملبسه، ولا فى إعطائه وبذله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ. وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكٍ لَّشَهِيدٌ﴾ [العاديات: ٦، ٧] أى: بحاله وشمائله، ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨] وقال

(١) صحيح مسلم (١/٢٧٤). وانظر المسند (٦٤٩٥، ٦٨٤٢).

(٢) مسلم (٢/٢١). ورواه أيضاً أحمد (٧٣٥٨، ٧٣٥٩).

(٣) «الختول» - بفتح الخاء المعجمة والواو: حشم الرجل وأتباعه. وهو مأخوذ من «التحويل»: التملك. وقيل: من الرعاية. قاله ابن الأثير.

(٤) رواه البخارى فى الأدب المفرد (٢٩٦) مرفوعاً ضمن حديث عن جابر. ورواه الحاكم (٣/٢١٩) مرفوعاً ضمن حديث آخر عن أبى هريرة، ورواه البخارى فى الصحيح، ضمن حديث آخر موقوفاً على أبى بكر الصديق، من حديث جابر (٦/١٧٢، ٨/٧٥ فتح). وانظر الإصابة (١/١٥٥، ٤/٢٩٠، ٢٩١).

(٥) هو جزء من حديث طويل، رواه أحمد (٦٤٨٧) بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. وروى هذا الجزء أبو داود (١٦٩٨).

ها هنا : « وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » ، ولهذا توعدّهم بقوله : « وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا » . والكفر هو الستر والتغطية ، فالبخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويجحدها ، فهو كافر لنعم الله عليه . وفي الحديث : « إن الله إذا أنعم نعمةً على عبدٍ أحبَّ أن يَظْهَرَ أثرُها عليه » (١) . وفي الدعاء النبوي : « واجعلنا شاكرين لنعمتك ، مثنين بها ، قابليها وأتممها علينا » (٢) .

وقد حمل بعضُ السلف هذه الآية على بخل اليهود بإظهار العلم الذي عندهم ، من صفة النبي ﷺ وكتمانهم ذلك ؛ ولهذا قال : « وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا » . رواه ابن إسحاق عن ابن عباس . وقاله مجاهد وغير واحد .

ولا شك أن الآية محتملة لذلك ، والظاهر أن السياق في البخل بالمال ، وإن كان البخل بالعلم داخلا في ذلك بطريق الأولى ؛ فإن سياق الكلام في الإنفاق على الأقارب والضعفاء ، وكذا الآية التي بعدها ، وهى قوله : « وَالَّذِينَ يَبْذُرُونَ آمَوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ » فذكر المسكين المذمومين وهم البخلاء ، ثم ذكر الباذلين المرائين الذين يقصدون بإعطائهم السمعة وأن يُمدحوا بالكرم ، ولا يريدون بذلك وجه الله ، وفي الحديث الذى فيه الثلاثة الذين هم أول من تُسَجَّرُ بهم النار ، وهم : العالم والغازى والمنفق ، المرائون بأعمالهم ، يقول صاحب المال : ما تركت من شيء تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت فى سبيلك . فيقول الله : كذبت ؛ إنما أردت أن يقال : جواد فقد قيل (٣) . أى : فقد أخذت جزاءك فى الدنيا وهو الذى أردت بفعلك . وفي الحديث : أن رسول الله ﷺ قال لعدي : « إن أباك أراد أمراً فبلغه » (٤) . وفي حديث آخر : أن رسول الله ﷺ سئل عن عبد الله بن جُدعان : هل ينفعه إنفاقه ، وإعتاقه ؟ فقال : « لا ، إنه لم يقل يوماً من الدهر : رب اغفر لى خطيئتي يوم الدين » (٥) .

ولهذا قال : « وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ » الآية ، أى : إنما حملهم على صنيعهم هذا الفبيح وعدلولهم عن فعل الطاعة على وجهها الشيطان ؛ فإنه سَوَّلَ لهم وأملى لهم ، وقارنهم فحسَنَ لهم القَبائح « وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا » .

ثم قال تعالى : « وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ » أى : وأى شيء

(١) معناه ثابت صحيح من حديث عبد الله بن عمرو ، فى المسند (٦٧٠٨) . والترمذى (٢٥ / ٤) والحاكم (١٣٥ / ٤) . ورواه أحمد والطبرانى والبيهقى ، من حديث عمران بن حصين . قال فى الزوائد (١٣٢ / ٥) : « ورجال أحمد ثقات » .

(٢) من الدعاء المشهور بعد التشهد . رواه أبو داود (٩٦٩) . وذكره المنذرى أنه رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه ، وصححه الترمذى .

(٣) من حديث طويل عن أبى هريرة ، رواه مسلم والترمذى والنسائى وابن حبان . انظر : الترغيب (١ / ٢٩) .

(٤) من حديث رواه أحمد فى المسند (٣٧٩ / ٤) حلى (بلفظ : « قلت : يا رسول الله ، إن أبى كان يصل الرحم ويفعل ويفعل ، فهل له فى ذلك ، يعنى من أجر ؟ قال : إن أبال طلب أمراً فأصابه » . ورواه قبل ذلك (ص ٢٥٨) ، وأسانيده صحاح .

(٥) مضى عند تفسير الآيتين : (٩٠ ، ٩١) من سورة آل عمران وأنه رواه أحمد ومسلم من حديث عائشة .

يكرههم لو سلكوا الطريق الحميدة، وعدّلوا عن الرياء إلى الإخلاص والإيمان بالله، رجاء موعوده في الدار الآخرة لمن أحسن عملا، وأنفقوا مما رزقهم الله في الوجوه التي يحبها الله ويرضاها؟

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ أي: وهو عليم بنياتهم الصالحة والفسادة، وعليم بمن يستحق التوفيق منهم، فيوفقه ويلهمه رشده ويقضه لعمل صالح يرضى به عنه، وبمن يستحق الخذلان والطرده عن جنبه الأعظم الإلهي، الذي من طُرِدَ عن بابه، فقد خاب وخسر في الدنيا والآخرة، عيادا بالله من ذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾
 ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ
 يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ سَوَّيْهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

يخبر تعالى أنه لا يظلم عبدا من عباده يوم القيامة مثقال حبة خردل ولا مثقال ذرة، بل يوفئها ويضاعفها له إن كانت حسنة، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الانباء: ٤٧] وقال تعالى مخبرا عن لقمان أنه قال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُصَدِّرُ النَّاسَ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ. فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾. وفي الصحيحين، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل، وفيه: فيقول الله عز وجل: «ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فأخرجوه من النار - وفي لفظ: أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار - فيخرجون خلقا كثيرا» ثم يقول أبو سعيد: اقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآية (١). وروى أحمد عن أبي عثمان النهدي قال: أتيت أبا هريرة فقلت له: بلغني أنك تقول: إن الحسنة تضاعف ألف ألف حسنة؟ قال: وما أعجبك من ذلك؟ فوالله لقد سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الله ليضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة» ورواه ابن أبي حاتم (٢).

وقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾. يقول تعالى - مخبرا عن هول يوم القيامة وشدته أمره وشأنه: فكيف يكون الأمر والحال يوم القيامة حين يجيء من كل أمة بشهيد - يعني الأنبياء عليهم السلام؟ كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَبِّئُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ نَزْلًا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبَيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى

(١) انظر المسند (١١١٤٤ ، ١١٩٢٢) والبخارى (١٣ / ٣٥٨ - ٣٦١ فتح) ومسلم (١ / ٦٦ ، ٦٧) . وتفصيل تخريجه في الطبري (٩٥٠٦ ، ٩٥٠٧) .

(٢) مضى هذا الحديث وتخريجه عند تفسير الآيات : (٢٤٣ - ٢٤٥) من سورة البقرة ، وأشرنا إلى هذا الموضوع هناك .

لِلْمُسْلِمِينَ» [النحل: ٨٩]. وروى البخارى عن عبد الله بن مسعود قال: قال لى رسول الله ﷺ: «اقرأ على» قلت: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «نعم، إني أحب أن أسمع من غيرى» فقرأت سورة النساء، حتى أتيت إلى هذه الآية: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا» قال: «حسبك الآن» فإذا عيناه تَدْرِفَانِ. ورواه أحمد ومسلم أيضاً. وقد روى من طرق متعددة عن ابن مسعود، فهو مقطوع به عنه (١). وروى ابن أبى حاتم عن فضيل بن سليمان، حدثنا يونس بن محمد بن فضالة الأنصارى، عن أبيه - قال: وكان أبى ممن صحب النبى ﷺ: أن النبى ﷺ أتاهم فى بنى ظفر، فجلس على الصخرة التى فى بنى ظفر اليوم، ومعه ابن مسعود ومعاذ بن جبل وناس من أصحابه، فأمر النبى ﷺ قارئاً فقراً، فأتى على هذه الآية: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا». فبكى رسول الله ﷺ حتى اضطرب لحياه وجنباه، فقال: «يا رب، هذا شهدت على من أنا بين ظهره، فكيف بمن لم أراه؟» (٢). وروى ابن جرير عن عبد الله - هو ابن مسعود - «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ» قال: قال رسول الله ﷺ: «شاهد عليهم ما دمت فيهم، فإذا توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم» (٣).

وقوله: «يَوْمَئِذٍ يُوَدِّدُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تَسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ» أى: لو انشقت وبلعتهم، مما يرون من أهوال الموقف، وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ، كقوله: «يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا» [النبا: ٤٠].

وقوله: «وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا» أخبر عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه، ولا يكتُمون منه شيئاً. وروى ابن جرير عن سعيد بن جبيرة قال: جاء رجل ابن عباس فقال: سمعتُ الله، عز وجل، يقول - يعنى إخباراً عن المشركين يوم القيامة أنهم قالوا -: «وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» [الأنعام: ٢٣]، وقال فى الآية الأخرى: «وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا»؟ فقال ابنُ العباس: أما قوله: «وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» - فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا: تعالوا فلنُجِدْ، فقالوا: «وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ». فحتم الله على أفواههم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم «وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا» (٤).

(١) البخارى (٩ / ٨١ فتح) والمسند (٣٥٠٠، ٣٥٥١، ٣٦٠٦، ٤١١٨) وانظر: الطبرى (٩٥١٩).

(٢) إسناده ابن أبى حاتم إسناده صحيح. وكذلك رواه البخارى فى التاريخ الكبير (١ / ١ / ١٦) موجزاً، كعادته، بإسناده صحيح. وذكر الحافظ فى الإصابة (٦ / ٥٠) أنه رواه أيضاً البغوى وابن شاهين عن البغوى و«محمد بن فضالة»: هو «محمد بن أنس بن فضالة» على الصحيح الذى جرى عليه البخارى ورجحه الحافظ. ورواه ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل (٣ / ٢٠٧) فجعلهما اثنين.

(٣) الطبرى (٩٥١٨). وإسناده صحيح.

(٤) الطبرى (٩٥٢٠). وإسناده صحيح. ورواه بعد ذلك: (٩٥٢١، ٩٥٢٢) بإسنادين آخرين بمعناه. وذكرهما ابن

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة في حال السكر، الذى لا يدرى معه المصلى ما يقول، وعن قربان محلها - وهى المساجد - للجنب، إلا أن يكون مجتازا من باب إلى باب من غير مكث . وقد كان هذا قبل تحريم الخمر، كما دل الحديث الذى ذكرناه فى سورة البقرة، عند قوله : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ الآية [البقرة: ٢١٩]؛ فإن رسول الله ﷺ تلاها على عمر، فقال: اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا. فلما نزلت هذه الآية، تلاها عليه، فقال: اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا. فكانوا لا يشربون الخمر فى أوقات الصلوات حتى نزلت : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١] فقال عمر: انتهينا، انتهينا (١). وفى رواية أبى داود زيادة : فكان منادى رسول الله ﷺ إذا قامت الصلاة ينادى: ألا يَقْرَبَنَّ الصلاة سكران. لفظ أبى داود. وذكروا فى سبب نزول هذه الآية : ما رواه ابن أبى حاتم عن سعد قال: نزلت فى أربع آيات: صنع رجل من الأنصار طعاما، فدعا أناسا من المهاجرين وأناسا من الأنصار، فأكلنا وشربنا حتى سكرنا، ثم افتخرنا، فرفع رجل لحي بغير ففزر به أنف سعد، فكان سعد مَفْزور الأنف، وذلك قبل أن تحرم الخمر، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾ الآية. والحديث بطوله عند مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه (٢).

سبب آخر: روى ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما، فدعانا وسقانا من الخمر، فأخذت الخمر منا، وحضرت الصلاة فقدموا فلاناً - قال: فقرا: قل يا أيها الكافرون، ما أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون!! . فانزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ ورواه الترمذى، وقال: حسن صحيح.

وقد رواه ابن جرير عن على؛ أنه كان هو وعبد الرحمن ورجل آخر شربوا الخمر، فصلى

(١) مضى عند تفسير الآيتين : (٢١٩ ، ٢٢٠) من سورة البقرة .

(٢) هو جزء من حديث مطول . وابن أبى حاتم رواه من طريق الطيالسى . وهو فى مسند الطيالسى (٢٠٨) وفيه : أن هذه الحادثة سبب نزول آية ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾ ، وسبب نزول الآية الأخرى ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ ولكن رواية أحمد فى المسند (١٥٦٧ ، ١٦١٤) ومسلم (٢٣٩/ ٢ ، ٢٤٠) فيهما الاقتصار على الآية الثانية فقط . و« لحي البعير » : هو العظم الذى تنبت فيه الأسنان . وقوله : « فزر أنفه » - بالفاء والزاي وآخره راء : أى شقه ، و« المفزور » المشقوق .

بهم عبد الرحمن فقراً: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فخلط فيها، فنزلت: ﴿لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾. رواه أبو داود والنسائي (١).

وقال الضحَّاكُ في الآية: لم يعن بها سُكْرَ الخمر، إنما عنى بها سُكْرَ النوم! . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

ثم قال ابن جرير: والصواب: أن المراد سُكْرُ الشراب. قال: ولم يتوجه النهي إلى السُّكْران الذي لا يفهم الخطاب؛ لأن ذاك في حكم المجنون، وإنما حُوْطِبَ بالنهي التَّمْل الذي يفهم التكليف.

هذا حاصل ما قاله. وقد ذكره غير واحد من الأصوليين، وهو أن الخطاب يتوجه إلى من يفهم الكلام، دون السكران الذي لا يدري ما يقال له؛ فإن الفهم شرط التكليف. وقد يحتمل أن يكون المراد التعريض بالنهي عن السُّكْر بالكلية؛ لكونهم مأمورين بالصلاة في الخمسة الأوقات من الليل والنهار، فلا يتمكن شارب الخمر من أداء الصلاة في أوقاتها دائماً، والله أعلم. وعلى هذا فيكون كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وهو الأمر لهم بالتأهب للموت على الإسلام والمداومة على الطاعة لأجل ذلك.

وقوله: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ هذا أحسن ما يقال في حد السكران: أنه الذي لا يدري ما يقول، فإن المخدور فيه تخليط في القراءة وعدم تدبره وخشوعه فيها، وقد روى الإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نعس أحدكم وهو يصلي، فليصرف ولينم حتى يعلم ما يقول. انفراد بإخراجه البخاري دون مسلم، ورواه النسائي (٢) وفي بعض ألفاظ الحديث: فلعله يذهب يستغفر فيسب نفسه (٣).

وقوله: ﴿وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾. روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لا تدخلوا المسجد وأنتم جنب إلا عابري سبيل، قال: تمر به مرأً ولا تجلس. ثم قال: وروى عن عبد الله بن مسعود، وأنس، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، وقتادة، نحو ذلك. وروى ابن جرير عن يزيد بن أبي حبيب عن قول الله عز وجل: ﴿وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾: أن رجلاً من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد، فكانت تصيبهم جنابة ولا ماء عندهم، فيريدون الماء، ولا يجدون مراً إلا في المسجد، فأنزل الله: ﴿وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ (٤).

(١) الطبري (٩٥٢٤).

(٢) هذا هو الثابت في الطبعة. وفي المخطوطتين: «انفراد بإخراجه مسلم». وهو خطأ يقيناً. فإن الحديث رواه البخاري (٢٧٢/١ فتح) بنحوه. ولم يروه مسلم على الجزم. وقد صرح الحافظ في الفتح (٣٠٩/١) بذلك. والحديث في المسند (١٢٤٧٣، ١٢٥٤٧). ورواه أيضاً بإسنادين آخرين (١١٩٩٦، ١٣٦٤٦).

(٣) لم أجد هذا اللفظ من حديث أنس، بل هو جزء من حديث عائشة، رواه البخاري (٢٧١/١ فتح) ومسلم (٢١٨/١).

(٤) الطبري (٩٥٦٧). وهذا حديث مرسل؛ لأن يزيد بن أبي حبيب تابعي. ولم أجدّه موصولاً. وذكره السيوطي (١٦٦ / ٢)، ولم ينسبه لغير الطبري.

ويشهد لصحة ما قاله يزيد بن أبي حبيب، رحمه الله، ما ثبت في صحيح البخارى: أن رسول الله ﷺ قال: «سُدُّوا كلَّ خَوْخَةٍ في المسجدِ إلا خَوْخَةَ أبى بكرٍ». وهذا قاله في آخر حياته ﷺ، علما منه أن أبى بكر، سبلى الأمر بعده، ويحتاج إلى الدخول في المسجد كثيرا للأمر المهمة فيما يصلح للمسلمين، فأمر بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا باب، رضى الله عنه. ومن روى: «إلا بابِ عَلِيٍّ» كما وقع في بعض السنن، فهو خطأ، والصحيح ما ثبت في الصحيح. ومن هذه الآية احتج كثير من الأئمة على أنه يحرم على الجنب اللبث في المسجد، ويجوز له المرور، وكذا الحائض والنفساء أيضاً في معناه؛ إلا أن بعضهم قال: يمنع مرورهما لاحتمال التلويث. ومنهم من قال: إن أمنت كل واحدة منهما التلويث في حال المرور جاز لهما المرور وإلا فلا. وقد ثبت في صحيح مسلم عن عائشة، قالت: قال لى رسول الله ﷺ: «ناولينى الخُمرة من المسجد» فقلت: إني حائض. فقال: «إن حيضتك ليست في يدك». وله عن أبى هريرة مثله. وفيه دلالة على جواز مرور الحائض في المسجد، والنفساء في معناها، والله أعلم. وروى ابن أبى حاتم عن على: «وَلَا جَنبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ». قال: لا يقرب الصلاة، إلا أن يكون مسافرا تصيبه الجنابة، فلا يجد الماء فيصلى حتى يجد الماء (١). قال: ورؤى عن ابن عباس في إحدى الروايات، وسعيد بن جبير، والضحاك، نحو ذلك. وقد روى ابن جرير معناه عن على وعن ابن عباس. ويُسْتَشْهَد لهذا القول بالحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «الصعيدُ الطيبُ طهورُ المسلم، وإن لم يجد الماء عشر حججٍ، فإذا وجدت الماء فأمسسه بشرتك فإن ذلك خير» (٢).

ثم قال ابن جرير - بعد حكايته القولين -: والأولى قول من قال: «وَلَا جَنبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ»: إلا مجتازى طريق فيه. وذلك أنه قد بين حكم المسافر إذا عدم الماء وهو جنب في قوله: «وإن كنتم مرضى أو على سفرٍ» [المائدة: ٦٦] إلى آخره. فكان معلوما بذلك أن قوله: «وَلَا جَنبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا» لو كان معناها به المسافر، لم يكن لإعادة ذكره في قوله: «وإن كنتم مرضى أو على سفرٍ» - معنى مفهوم، وقد مضى ذكر حكمه قبل ذلك؛ فإذا كان ذلك كذلك، فتاويل الآية: يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا المساجد للصلاة مصلين فيها وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون، ولا تقربوها أيضا جنبا حتى تغتسلوا، إلا عابري سبيل. قال: والعابر السبيل: المجتاز مرآ وقطعا. يقال منه: عبرت هذا الطريق فأننا أعبره عبرا وعبوراً ومنه قيل: «عبر فلان النهر» إذا قطعه وجاوزه. ومنه يقال للناقة القوية على الأسفار: هي عبر أسفار؛

(١) ورواه الطبرى عن على، بنحوه (٩٥٣٧، ٩٥٤٠). وقوله: «فيصلى حتى يجد الماء» - يعنى: فيتيمم ويصلى، كما هو واضح، وكما يدل عليه روايتنا الطبرى.

(٢) هو حديث صحيح. ورواه الحاكم أيضا وصححه (١٧٦/ ١، ١٧٧). وقد فصلنا القول في تخريجه وتصحيحه في شرحنا للترمذى، رقم (١٢٤) ورواه أيضا البزار من حديث أبى هريرة، كما سيأتى. وروى معناه الطبرانى فى الأوسط، فى قصة لأبى ذر، من حديث أبى هريرة أيضا. وذكره الهيمى (٢٦١/١) وقال: «ورجاله رجال الصحيح».

لقوتها على قطع الأسفار.

وهذا الذى نصره هو قول الجمهور، وهو الظاهر من الآية، وكأنه تعالى نهى عن تعاطى الصلاة على هيئة ناقصة تناقض مقصودها، وعن الدخول إلى محلها على هيئة ناقصة، وهى الجنابة المباحة للصلاة ولمحلها أيضا، والله أعلم.

وقوله: ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ دليل لما ذهب إليه الأئمة الثلاثة - أبو حنيفة ومالك والشافعى: أنه يحرم على الجنب المكث فى المسجد حتى يغتسل أو يتيمم، إن عدم الماء، أو لم يقدر على استعماله بطريقه. وذهب الإمام أحمد إلى أنه متى توضأ الجنب جاز له المكث فى المسجد، لما روى هو وسعيد بن منصور فى سننه بسند صحيح على شرط مسلم: أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك (١).

وقوله: ﴿وَأَنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أما المرض المبيح للتيمم: فهو الذى يخاف معه من استعمال الماء فوات عضو أو شينه أو تطويل البرء. ومن العلماء من جوز التيمم بمجرد المرض لعموم الآية. والسفر معروف، ولا فرق فيه بين الطويل والقصير.

﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ الغائط: هو المكان المظتمن من الأرض، كنى بذلك عن التغوط، وهو الحدث الأصغر.

وأما قوله: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ فقرأ: «لَمَسْتُمْ» و«لامستم» واختلف المفسرون والأئمة فى معنى ذلك، على قولين: أحدهما: أن ذلك كناية عن الجماع؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَلْقَوْهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَصَفَّ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ تَلَقَّيْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْدُونَهَا﴾ [الاحزاب: ٤٩]. روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ قال: الجماع (٢). وروى عن على، وأبى بن كعب والشعبي، وقتادة، وغيرهم - نحو ذلك. وروى ابن جرير عن سعيد بن جبيرة قال: ذكروا اللمس، فقال ناس من الموالى: ليس بالجماع. وقال ناس من العرب: اللمس الجماع. قال: فلقيت ابن عباس فقلت له: إن ناسا من الموالى والعرب اختلفوا فى اللمس، فقالت الموالى: ليس بالجماع. وقالت العرب: الجماع. قال: فمن أى الفريقين كنت؟ قلت: كنت من الموالى. قال: غلب فريق الموالى. إن المس واللمس والمباشرة: الجماع، ولكن الله يكنى ما شاء بما شاء (٣).

ثم رواه ابن جرير عن بعض من حكاه ابن أبى حاتم عنهم. ثم قال ابن جرير: وقال

(١) ولكن هذا من فعل بعض الصحابة، اجتهادا منهم وتأولا. فهو أثر موقوف عليهم. وهو يخالف نص الآية على المعنى الصحيح الذى رجحه الطبرى، وارتضاه الحافظ ابن كثير. فلا حجة لقول الصحابى أو عمله إذا خالف النص من الكتاب أو السنة، ويكون منه اجتهادا يعذر صاحبه، ولكن لا يكون حجة على أحد.

(٢) إسناده ابن أبى حاتم إسناده صحيح. (٣) الطبرى (٩٥٨١، ٩٥٨٢) بإسنادين صحيحين.

آخرون: عنى الله تعالى بذلك كلَّ من لمس، بيد أو بغيرها من أعضاء الإنسان، وأوجبوا الوضوء على كل من مس بشيء من جسده شيئاً من جسدها مفضياً إليه. ثم روى عن عبد الله ابن مسعود قال: اللمس ما دون الجماع^(١). وقد روى من طرق متعددة عن ابن مسعود بمثله. قال ابن أبي حاتم: ورؤى عن ابن عمر، وعبيدة، وأبى عثمان النهدي وأبى عبيدة - يعنى ابن عبد الله بن مسعود - وعامر والشَّعْبِي، وغيرهم - نحو ذلك. وروى ابن جرير : أن ابن عمر كان يتوضأ من قبلة المرأة ، ويرى فيها الوضوء ، ويقول : هى من اللماس^(٢).

قلت: وروى مالك، عن الزهرى، عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه أنه كان يقول: قبلة الرجل امرأته وجسده بيده من الملامسة، فمن قبَّل امرأته أو جسَّها بيده، فعليه الوضوء^(٣).

والقول بوجود الوضوء من المس هو قول الشافعى وأصحابه ومالك والمشهور عن أحمد ابن حنبل، رحمهم الله. قال ناصروه: قد قرئ فى هذه الآية ﴿لَا مَسَّكُمْ﴾ و﴿لَسْتُمْ﴾، واللمس يطلق فى الشرع على الجس باليد قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ [الأنعام: ٧]، أى جسوه. وقال ﷺ لما عاز - حين أقر بالزنا يُعرض له بالرجوع عن الإقرار : «لعلك قبلت أو لمست». وفى الحديث الصحيح: «واليد زناها للمس». وقالت عائشة، قلَّ يوم إلا ورسول الله ﷺ يطوف علينا، فيقبل ويلمس. ومنه ما ثبت فى الصحيحين: أنه ﷺ نهى عن بيع الملامسة. وهو يرجع إلى الجس باليد على كلا التفسيرين، قالوا: ويطلق فى اللغة على الجس باليد، كما يطلق على الجماع .

واستأنسوا أيضا بالحديث الذى رواه أحمد عن عبد الرحمن ابن أبى ليلى، عن معاذ قال: أتى رسول الله ﷺ رجلٌ فقال: يا رسول الله، ما تقول فى رجل لقى امرأة لا يعرفها، فليس يأتى الرجل من امرأته شيئاً إلا قد أتاه منها، غير أنه لم يجامعها؟ قال: فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿ أقم الصلاة طهر فمى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ [هود: ١١٤] قال: فقال له رسول الله ﷺ: «توضه ثم صل». قال معاذ: فقلت: يا رسول الله، أله خاصة أم للمؤمنين عامة؟ قال: «بل للمؤمنين عامة». ورواه الترمذى ، وقال: ليس بمتمصل. ورواه النسائى عن عبد الرحمن بن أبى ليلى مرسلا. قالوا: فأمره بالوضوء؛ لأنه لمس المرأة ولم يجامعها. وأجيب : بأنه منقطع بين أبى ليلى ومعاذ، فإنه لم يلقه، ثم يحتمل أنه إنما أمره بالوضوء والصلاة للتوبة، كما تقدم فى حديث الصديق : «ما من عبد يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلى ركعتين إلا غفر الله له» الحديث^(٤).

ثم قال ابن جرير : وأولى القولين فى ذلك بالصواب قول من قال: عنى الله بقوله: ﴿ أَوْ

(١) الطبرى (٨ / ٩٦٠) وإسناده صحيح . (٢) الطبرى (٩٦١٧) وإسناده صحيح .

(٣) الموطأ (ص ٤٣) وهو من أصح الأسانيد .

(٤) مضى عند تفسير الآيات : (١٣٠ - ١٣٦) من سورة آل عمران .

لَا مَسْمُومَةَ النَّسَاءِ الْجَمَاعِ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ مَعَانِي اللَّامِسِ؛ لَصِحَّةِ الْخَبَرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : أَنَّهُ قَبْلَ بَعْضِ نِسَائِهِ ثُمَّ صَلَّى وَلَمْ يَتَوَضَّأْ، ثُمَّ رَوَى عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَوَضَّأُ ثُمَّ يَقْبَلُ، ثُمَّ يَصَلِّي وَلَا يَتَوَضَّأُ. ثُمَّ رَوَى عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ بَعْضِ نِسَائِهِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ وَلَمْ يَتَوَضَّأْ، قُلْتَ: مَنْ هِيَ إِلَّا أَنْتِ؟ فَضَحَكَتْ. وَهَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَابْنُ مَاجَةَ (١). قَالَ أَبُو دَاوُدَ: رَوَى عَنِ الثَّوْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ: مَا حَدَّثْنَا حَبِيبٌ إِلَّا عَنِ عُرْوَةَ الْمَزْنِيِّ. وَقَالَ يَحْيَى الْقَطَّانُ لِرَجُلٍ: احْكُ عَنِّي أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ شَبَهَ لَا شَيْءَ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: سَمِعْتُ الْبُخَارِيَّ يُضْعَفُ هَذَا الْحَدِيثَ وَقَالَ: حَبِيبُ بْنُ أَبِي ثَابِتٍ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ عُرْوَةَ. وَقَدْ وَقَعَ فِي رِوَايَةِ ابْنِ مَاجَةَ: عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عَائِشَةَ. وَأَبْلَغَ مِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ، مِنْ حَدِيثِ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ، وَهَذَا نَصٌّ فِي كَوْنِهِ عُرْوَةَ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ: «مَنْ هِيَ إِلَّا أَنْتِ، فَضَحَكَتْ» (٢).

وقوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ استنبط كثير من الفقهاء من هذه الآية: أنه لا يجوز التيمم لعادم الماء إلا بعد طلب الماء، فمتى طلبه فلم يجده جاز له حينئذ التيمم. وقد ذكروا كيفية الطلب في كتب الفروع، وفي الصحيحين، من حديث عمران بن حصين: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً معتزلاً لم يصل في القوم، فقال: «يا فلان، ما منعك أن تصلي مع القوم؟ ألسنت برجل مسلم؟» قال: بلى يا رسول الله، ولكن أصابتني جنابة ولا ماء. قال: «عليك بالصعيد، فإنه يكفيك».

ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ فالتيمم في اللغة: هو القصد. والصعيد قيل: هو كل ما صعد على وجه الأرض، فيدخل فيه التراب، والرمل، والشجر، والحجر، والنبات، وهو قول مالك. وقيل: ما كان من جنس التراب، كالرمل والزرنخ، والنورة، وهذا مذهب أبي حنيفة. وقيل: هو التراب فقط، وهو قول الشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهما، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿فَتَصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف: ٤٠]، أي: تراباً أملس طيباً، وبما ثبت في صحيح مسلم، عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء» وفي لفظ: «وجعل ترابها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء». قالوا: فخصص الطهورية بالتراب في مقام الامتنان، فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره معه.

والطيب هاهنا قيل: الحلال. وقيل: الذي ليس بنجس. كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن

(١) الطبري (٩٦٢٩، ٩٦٣٠).

(٢) حديث عائشة هذا رواه الترمذي، رقم (٨٦) بشرحنا. وقد فصلنا القول في تخريجه وتعليقه، وحققتنا صحته، وحققتنا القول الصحيح: أن اللبس لا ينقض الوضوء، وأن الآية هنا إنما هي كناية عن الجماع - في شرحنا للترمذي (١٣٣/١ - ١٤٢). ولذلك حذفنا هنا ما ذكره الحافظ ابن كثير بعد هذا من الروايات.

إلا ابن ماجه عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «الصعيد الطيب ظهور المسلم، وإن لم يجد الماء عشر حجج، فإذا وجدته، فليمسه بشرته، فإن ذلك خير له». وقال الترمذى: حسن صحيح: وصححه ابن حبان أيضا ، ورواه الحافظ البزار فى مسنده عن أبى هريرة ، وصححه الحافظ أبو الحسن القطان (١). وقال ابن عباس: أطيب الصعيد تراب الحرث. رواه ابن أبى حاتم، ورفعہ ابن مردويه.

وقوله: «فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ»: التيمم بدل عن الوضوء فى التطهر به، لا أنه بدل منه فى جميع أعضائه، بل يكفى مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع، ولكن اختلف الأئمة فى كيفية التيمم على أقوال:

أحدها - وهو مذهب الشافعى فى الجديد: أنه يجب أن يمسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين؛ لأن لفظ اليدين يطلق على ما يبلغ المنكبين، وعلى ما يبلغ المرفقين، كما فى آية الوضوء، ويطلق ويراد بهما ما يبلغ الكفان، كما فى آية السرقة: «فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا» [المائدة: ٣٨]. قالوا: وحمل ما أطلقناه هنا على ما قيد فى آية الوضوء أولى، لجامع الطهورية. وذكر بعضهم ما رواه الدارقطنى، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «التيمم ضربتان: ضربة للوجه، وضربة لليدين إلى المرفقين». ولكن لا يصح؛ لأن فى أسانيد ضعفاء لا يثبت الحديث به. وروى أبو داود عن ابن عمر - فى حديث: أن رسول الله ﷺ ضرب بيديه على الخائط ومسح بهما وجهه، ثم ضرب ضربة أخرى فمسح ذراعيه. ولكن فى إسناده محمد بن ثابت العبدى، وقد ضعفه بعض الحفاظ، ورواه غيره من الثقات فوقوه على فعل ابن عمر، قال البخارى وأبو زرعة وابن عدى: هو الصواب. وقال البيهقى: رَفَعَ هذا الحديث منكر. واحتج الشافعى بما رواه عن إبراهيم بن محمد عن أبى الحويرث عبد الرحمن بن معاوية، عن الأعرج، عن ابن الصمة: أن رسول الله ﷺ تيمم فمسح وجهه وذراعيه(٢).

والقول الثانى: أنه يجب مسح الوجه واليدين إلى الكفين بضربتين، وهو القول القديم للشافعى.

(١) حديث أبى هريرة مضت الإشارة إليه ص ٥١٢. وقد ذكره الهيثمى فى الزوائد (١/٢٦١)، وقال: «ورجاله رجال الصحيح».

(٢) الأم (١/٤٢). ومسند الشافعى بترتيب الشيخ عابد السندى (١/٤٤) برقم (١٣٠) ورواه البيهقى (١/٢٠٥) من طريق الشافعى بهذا الإسناد، بلفظ أطول من هذا و«ابن الصمة»: هو أبو الجهم بن الحارث بن الصمة. وأعل البيهقى هذه الرواية بأن الأعرج «لم يسمعه من ابن الصمة، وإنما سمعه من عمير مولى ابن عباس عن ابن الصمة. ويأن إبراهيم بن محمد بن أبى يحيى الأسلمى وأبا الحويرث عبد الرحمن بن معاوية - «قد اختلف الحفاظ فى عدلتهما». وأصل حديث أبى جهم - هذا - صحيح بلفظ: «فمسح بوجهه ويديه»، كما فى رواية - البخارى (١/٣٧٤، ٣٧٥ فتح). ولكن خطأ رواية إبراهيم بن محمد - هذه - فى قوله: «وذراعيه». وقد فصلنا القول فى تخريجه وما وقع فى بعض رواياته من خطأ - فى تخريجات الطبرى (٩٦٦٨). ووقع فى المخطوطتين والطبوعة «عن أبى الحويرث عن عبد الرحمن بن معاوية!» وهو خطأ من الناسخين. فإن عبد الرحمن بن معاوية هو «أبو الحويرث»، هذه كنيته.

والثالث: أنه يكفي مسح الوجه والكفين بضربة واحدة؛ وروى الإمام أحمد عن ابن عبد الرحمن بن أبزي، أن رجلا أتى عمر فقال: إني أجنب فلم أجد ماء؟ فقال عمر: لا تصل. فقال عمار: أما تذكر يا أمير المؤمنين - إذ أنا وأنت في سرية فأجنبنا فلم نجد ماء، فأما أنت فلم تصل، وأما أنا فتمعكت في التراب فصليت، فلما أتينا النبي ﷺ ذكرت ذلك له، فقال: «إنما كان يكفيك». وضرب النبي ﷺ بيده الأرض، ثم نفخ فيها ومسح بها وجهه وكفيه^(١).

وروى أحمد عن شقيق قال: كنت قاعدا مع عبد الله وأبي موسى فقال أبو موسى لعبد الله: لو أن رجلا لم يجد الماء لم يصل؟ فقال عبد الله: لا. فقال أبو موسى: أما تذكر إذ قال عمار لعمر: ألا تذكر إذ بعثنى رسول الله ﷺ وإياك في إبل، فأصابتنى جنابة، فتمرغت في التراب، فلما رجعتُ إلى رسول الله ﷺ أخبرته، فضحك رسول الله ﷺ وقال: «إنما كان يكفيك أن تقول هكذا»، وضرب بكفيه إلى الأرض، ثم مسح كفيه جميعا، ومسح وجهه مسحة واحدة بضربة واحدة؟ فقال عبد الله: لا جرم، ما رأيت عمر قنع بذلك؟! قال: فقال له أبو موسى: فكيف بهذه الآية في سورة النساء: «فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا؟» قال: فما درى عبد الله ما يقول، وقال: لو رخصنا لهم في التيمم لأوشك أحدهم إذا برد الماء على جلده أن يتيمم^(٢).

وقوله: «مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ» أي: في الدين الذي شرَّعه لكم «وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ»^(٣). فلهذا أباح التيمم، إذا لم تجدوا الماء أن تعدلوا إلى التيمم بالصعيد والتيمم نعمة عليكم لعلكم تشكرون.

ولهذا كانت هذه الأمة مخصوصة بمشروعية التيمم دون سائر الأمم، كما ثبت في الصحيحين، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيَتْ خُمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةَ فَلْيَصِلْ - وَفِي لَفْظٍ: فَعِنْدَهُ مَسْجِدُهُ وَطَهْرُهُ - وَأَحَلَّتْ لِي الْغَنَائِمَ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ يَبْعَثُ النَّبِيَّ إِلَى قَوْمِهِ وَيَبْعَثُ إِلَى النَّاسِ كَافَةً». وفي حديث حذيفة عند مسلم: «فضلنا على الناس بثلاث: جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجدا، وتربتها طهورا إذا لم نجد الماء»^(٤).

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: «فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا غَفُورًا» أي:

(١) المسند (٤/ ٢٦٥ حلى). ورواه البخارى (١/ ٣٧٥ - ٣٧٧ فتح) ومسلم (١/ ١١٠). وفصلنا تخريجه في الطبرى (٩٦٥٧).

(٢) المسند (٤/ ٢٦٥ حلى). ووقع فيه في المطبوعة هنا تخطيط، صححناه من المخطوطتين ومن المسند، ورواه البخارى (١/ ٣٨٦ فتح) ومسلم (١/ ١١٠) والطبرى (٩٦٧١) بنحوه. وفصلنا تخريجه فيه.

(٣) ما أدرى: أسها الحافظ ابن كثير هنا، فأدخل تفسير بعض آية التيمم التي في المائة (الآية: ٦) - هنا؟ أم قصد إلى استكمال المعنى ١؟ ولكنه بكل حال لم ينبه إلى ذلك.

(٤) صحيح مسلم (١/ ١٤٧). وقد مضى هذا الحديث (ص ٦١٣).

ومن عفوه عنكم وِعَفْرَهُ لَكُمْ (١) : أن شرع لكم التيمم، وأباح لكم فعل الصلاة به إذا فقدتم الماء، توسعة عليكم ورخصة لكم، وذلك أن هذه الآية الكريمة فيها تنزيه الصلاة أن تفعل على هيئة ناقصة : من سُكَّرَ حتى يصحو المكلف ويعقل ما يقول، أو جنابة حتى يغتسل، أو حدث حتى يتوضأ، إلا أن يكون مريضاً أو عادماً للماء، فإن الله، عز وجل، قد أخص في التيمم والحالة هذه، رحمة بعباده ورافة بهم، وتوسعة عليهم، والله الحمد والمنة.

ذكر سبب نزول مشروعية التيمم:

وإنما ذكرنا ذلك هاهنا؛ لأن هذه الآية التي في النساء متقدمة النزول على آية المائدة، وبيانه: أن هذه نزلت قبل تحريم الخمر، والخمر إنما حرم بعد أحد، يقال: في محاصرة النبي ﷺ لبني النضير بعد أحد بيسير، وأما المائدة فإنها من أواخر ما نزل، ولا سيما صدرها، فناسب أن يذكر السبب هنا، وبالله الثقة. روى البخارى عن عائشة قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنا في بالبيداء - أو بذات الجيش - انقطع عقد لى، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه، وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فأتى الناس إلى أبى بكر فقالوا: ألا ترى إلى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله ﷺ وبالناس (٢)، وليسوا على ماء وليس معهم ماء؟ فجاء أبو بكر، ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام، فقال: حبست رسول الله ﷺ والناس، وليسوا على ماء وليس معهم ماء؟ قالت عائشة: فعاتبنى أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده في خاصرتي، ولا يمنعنى من التحرك إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي، فقام رسول الله ﷺ حين أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم فتييمموا، فقال أسيد بن الحضير: ما هى بأول بركتكم يا آل أبى بكر. قالت: فبعثنا البعير الذى كنت عليه، فوجدنا العقد تحته . ورواه مسلم (٣).

وروى الإمام أحمد عن عمار بن ياسر؛ أن رسول الله ﷺ عرس بأولات الجيش ومعه عائشة زوجته، فانقطع عقد لها من جَزَع ظَفَار، فحبس الناس ابتغاء عقدها ذلك وحتى أضاء الفجر، وليس مع الناس ماء، فأنزل الله على رسوله رخصة التطهر بالصعيد الطيب، فقام المسلمون مع رسول الله ﷺ، فضربوا بأيديهم الأرض، ثم رفعوا أيديهم ولم ينفصوا من التراب شيئاً، فمسحوا بها وجوههم وأيديهم إلى المناكب، ومن بطون أيديهم إلى الآباط (٤).

(١) « الغفر » - بفتح فسكون : مصدر ، كالمغفرة والغفران .

(٢) قوله : « وبالناس » : سقط فى المطبوع من « عمدة التفسير » ، وهذا بلا شك - من أخطاء الطباعة .

(٣) البخارى (١/٣٦٥ - ٣٦٨ فتح) . ورواه أحمد (٦/١٧٩ حلى) والطبرى (٩٦٤١) . وفضلنا تخريجه فيه .

(٤) المسند (٤/٢٦٣ ، ٢٦٤) ، وإسناده صحيح . ورواه الطبرى (٩٦٧٠) بإسناد غير متصل . وقد بينا صحته وطرقه الموصولة هناك .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾
 ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ
 الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي
 الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا
 يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

يخبر تبارك تعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة - أنهم يشترون الضلالة بالهدى، ويُعرضون عما أنزل الله على رسوله، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين، في صفة محمد ﷺ، ليشتروا به ثمنًا قليلًا من حطام الدنيا ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ أى: يودون لو تكفرون بما أنزل عليكم - أيها المؤمنون - وتركون ما أنتم عليه من الهدى والعلم النافع ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ أى: هو يعلم بهم ويحذرهم منهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ أى: كفى به وليا لمن لجأ إليه، ونصيرًا لمن استنصره.

ثم قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ « من » هذه لبيان الجنس كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠].

وقوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ أى: يتأولون الكلام على غير تأويله، ويفسرونه بغير مراد الله، عز وجل، قصدًا منهم وافتراء ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أى: سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه. هكذا فسره مجاهد وابن زيد، وهو المراد، وهذا أبلغ فى كفرهم وعنادهم، أنهم يتولون عن كتاب الله بعد ما عقلوه، وهم يعلمون ما عليهم فى ذلك من الإثم والعقوبة.

وقولهم: ﴿وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ أى: اسمع ما نقول، لا سمعت. وقال مجاهد والحسن: واسمع غير مقبول منك. وهذا استهزاء منهم واستهتار، عليهم لعنة الله. ﴿وَرَاعِنَا لِيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ﴾ أى: يوهمون أنهم يقولون: راعنا سمعك بقولهم: «راعنا»، وإنما يريدون الرعونة. وقد تقدم الكلام فى هذا (١).

ولهذا قال تعالى عن هؤلاء اليهود الذين يريدون بكلامهم خلاف ما يظهرونه: ﴿لِيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ﴾ يعنى: بسبهم النبى ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى: لولبهم مطرودة عن الخير مبعدة منه، فلا يدخلها من الإيمان شىء نافع لهم وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨] (٢) والمقصود: أنهم لا يؤمنون إيمانًا نافعًا.

(١) عند تفسير الآيتين: (١٠٤، ١٠٥) من سورة البقرة.

(٢) عند تفسير الآيتين: (٨٨، ٨٩) من سورة البقرة.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾

يقول تعالى - أمرا أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على عبده ورسوله محمد ﷺ من الكتاب العظيم، الذى فيه تصديق الأخبار التى بأيديهم من البشارات، ومتهددا لهم أن يفعلوا، بقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾. قال بعضهم: طمسها: هو ردها إلى الأدبار، وجعل أبصارهم من ورائهم. ويحتمل أن يكون المراد: من قبل أن نطمس وجوها فلا يبقى لها سمع ولا بصر ولا أثر، ونردها مع ذلك إلى ناحية الأدبار. وقال ابن عباس: طمسها: أن تعمى ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾، يقول: نجعل وجوههم من قبل أفتيتهم، فيمشون القهقرى، ونجعل لأحدهم عينين من قفاه. وكذا قال قتادة. وهذا أبلغ فى العقوبة والنكال، وهو مثل ضربه الله لهم فى صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبل الضلالة يُهْرَعُونَ ويمشون القهقرى على أدبارهم، وهذا كما قال بعضهم فى قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ. وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ [يس: ٨، ٩]: أن هذا مثل ضربه الله لهم فى ضلالهم ومنعهم عن الهدى. قال مجاهد: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾ يقول: عن صراط الحق ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ أى: فى الضلالة.

وقوله: ﴿أَوْ نَلْعَنُهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ يعنى: الذين اعتدوا فى سبتهم بالحيلة على الاصطياد، وقد مسحوا قردة وخنزير، وسيأتى بسط قصتهم فى سورة الأعراف (١).

وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أى: إذا أمر بأمر، فإنه لا يخالف ولا يمانع.

ثم أخبر تعالى: أنه ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ أى: لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ أى: من الذنوب ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أى: من عباده. وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة، فلنذكر منها ما تيسر:

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدواوين عند الله ثلاثة؛ ديوان لا يعبأ الله به شيئا، وديوان لا يترك الله منه شيئا، وديوان لا يغفره الله. فأما الديوان الذى لا يغفره الله، فالشرك بالله، قال الله عز وجل: ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢]. وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به شيئا، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه، من صوم يوم تركه، أو صلاة تركها؛ فإن الله يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء. وأما الديوان الذى لا يترك الله منه

(١) فى الآية (١٦٣) منها .

من هذا الوجه^(١) . وروى الإمام أحمد عن ضمضم بن جوس اليمامي قال: قال لى أبو هريرة: يا يمامى، لا تقولن لرجل: والله لا يغفر الله لك. أو لا يدخلك الجنة أبدا. قلت: يا أبا هريرة، إن هذه كلمة يقولها أحدنا لأخيه وصاحبه إذا غضب قال: فلا تقلها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان فى بنى إسرائيل رجلان كان أحدهما معجتها فى العبادة، وكان الآخر مسرفا على نفسه، وفكانا متآخيين، وكان المجتهد لا يزال يرى الآخر على ذنب، فيقول: يا هذا، أفصر. فيقول: خلنى وربى، أبعثت على رقيبا؟! قال: إلى أن رآه يوما على ذنب استعظمه، فقال له: ويحك! أفصر قال: خلنى وربى، أبعثت على رقيبا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك - أو لا يدخلك الله الجنة أبدا - قال: فبعث الله إليهما ملكا فقبض أرواحهما واجتمعا عنده، فقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتى. وقال للآخر: أكنت بى عالما؟ أكنت على ما فى يدى قادرا؟ اذهبوا به إلى النار. قال: فوالذى نفس أبى القاسم بيده لتكلم بكلمة أو بقت دنياه وآخرته». ورواه أبو داود (٢) .

وقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ كقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وثبت فى الصحيحين، عن ابن مسعود أنه قال: قلت: يا رسول الله، أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» وذكر تمام الحديث^(٣).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزُكِّيٰ مِنْ يَشَاءَ وَلَا يَظْلَمُونَ قَتِيلًا﴾ ﴿٤٩﴾ أَنْظَرُ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّنْعُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن نَّجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾

قال الحسن وقتادة: نزلت هذه الآية - وهى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ - فى اليهود والنصارى، حين قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾. زاد ابن زيد: وفى قولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١]. وقال مجاهد: كانوا يقدمون الصبيان أمامهم فى الدعاء والصلاة يؤمنونهم، ويزعمون أنهم لا ذنب لهم . روى ذلك ابن جرير . وروى ابن أبى حاتم

(١) لكن رواه أحمد من أوجه آخر : (١٤٥٤٠، ١٤٧٦٥، ١٥٠٧٦، ١٥٢٦٣) . وكذلك رواه مسلم (١/ ٣٨) .
ورواه أحمد أيضا ضمن حديث مطول (١٥٢٧٣) .

(٢) المسند (٨٢٧٥) وإسناده صحيح . ورواية أبى داود (٤٩٠١) مختصرة . وأعله المنذرى بأحد الرواة فى أبى داود، وفاته إسناد المسند الذى خلا من ذلك الراوى - على أنه ثقة أيضا . و «ضمضم» : بفتح الضادين المعجمتين بينهما ميم ساكنة . و «جوس» : بفتح الجيم وسكون الواو ثم سين مهملة ، ووقع فى المطبوعة بالمعجمة ، وهو تصحيف . و «اليمامى» : بالميم . ووقع فى المخطوطتين والمطبوعة : «اليمانى» بالنون ، وهو تصحيف . ووقع أيضا فى متن الحديث أغلاط فى الأصول هنا ، صححناه من المسند .

(٣) مضى عند تفسير الآيات : (٢٩ - ٣١) من سورة النساء .

عن ابن عباس قال: كانت اليهود يقدمون صبيانهم يصلون بهم، ويقربون قربانهم ويزعمون أنهم لا خطايا لهم ولا ذنوب. وكذبوا. قال الله تعالى: «إِنِّي لَا أُطَهِّرُ ذَا ذَنْبٍ بِآخِرٍ لَا ذَنْبَ لَهُ»، وأنزل الله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ» (١). ثم قال: وروى عن مجاهد، وأبي مالك، والسدي، وعكرمة، والضحاك - نحو ذلك.

وقيل: نزلت في ذم التمداح والتزكية. وفي صحيح مسلم، عن المقداد بن الأسود قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المدّاحين التراب. وفي الصحيحين عن أبي بكر: أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يثنى على رجل، فقال: «ويحك. قطعت عنقَ صاحيك !». ثم قال: «إن كان أحدكم مادحا صاحبه لا محالة، فليقل: أحسبه، ولا يزكى على الله أحدا» (٢). وروى الإمام أحمد عن معبد الجهني قال: كان معاوية قلما يحدث عن النبي ﷺ، قال: وكان قلما يكاد أن يدع يوم الجمعة هؤلاء الكلمات أن يحدث بهن عن النبي ﷺ، يقول: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإن هذا المال حلو خضر، فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه، وإياكم والتمداح فإنه الذبح». وروى ابن ماجه منه: «إياكم والتمداح فإنه الذبح». ومعبد هذا: هو ابن عبد الله بن عويم البصرى القدرى (٣). وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود قال: إن الرجل ليغدو بدينه، ثم يرجع وما معه منه شيء، يلقي الرجل ليس يملك له ضرا ولا نفعاً فيقول له: والله إنك لذيت وذيت، فلعله أن يرجع ولم يحل من حاجته بشيء وقد أسخط الله [عليه]. ثم قرأ: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ» الآية (٤).

وسياتى الكلام على ذلك مطولا، عند قوله تعالى: «فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى» [النجم: ٣٢]. ولهذا قال تعالى: «بَلِ اللَّهُ يَزَكِي مَنْ يَشَاءُ» أى: المرجع فى ذلك إلى الله، عز وجل، لأنه عالم بحقائق الأمور وغوامضها.

ثم قال تعالى: «وَلَا يُظَلِّمُونَ فَيْلًا» أى: ولا يترك لأحد من الأجر ما يوازن مقدار الفتيل. قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد من السلف: هو ما يكون فى شق النواة. وعن ابن عباس: هو ما فتلت بين أصابعك. وكلا القولين متقارب.

وقوله: «انظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ» أى: فى تزكيتهم أنفسهم ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقولهم: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى» [البقرة: ١١١]، وقولهم: «لَنْ نَسْتَأْتِيَ النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً» [البقرة: ٨٠]، واتكالهم على أعمال آبائهم الصالحة، وقد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزى عن الأبناء شيئا، فى قوله: «تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ [وَلَا تُسْأَلُونَ

(١) إسناده صحيح . ولم ينسبه السيوطى (١٧٠ / ٢) لغير ابن أبى حاتم .

(٢) سياتى هذا الحديث أيضا عند الآية (٣٢) من سورة النجم .

(٣) المسند (١٦٩٠٨ ، ١٦٩١٧) وابن ماجه (٣٧٤٣). «و معبد الجهنى»: على أنه أول من تكلم فى القدر ، ولكنه ثقة ، وثقه ابن معين . وقال أبو حاتم : « كان صدوقا فى الحديث » .

(٤) الطبرى (٩٧٤٤) . وهو موقف جيد الإسناد .

عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [البقرة: ١٤١]. ثم قال: «وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا» أى: وكفى بصنبتهم هذا كذبا وافتراء ظاهرا.

وقوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ»، أما «الجبت»: فرورى ابن إسحاق عن عمر بن الخطاب أنه قال: «الجبت»: السحر، و«الطاغوت»: الشيطان. وهكذا روى عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جببر، وغيرهم. وقيل: الجبت: الشيطان. وقال الجوهري فى «الصحاح»: «الجبت» كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك، وفى الحديث: «الطيرة والعيافة والطَّرْقُ من الجبت». وهذا الحديث الذى ذكره، رواه الإمام أحمد عن قبيصة بن مخارق أنه سمع النبي ﷺ قال: «إن العيافة والطَّرْقُ والطيرة من الجبت» وقال عوف: «العيافة»: زجر الطير، و«الطَّرْقُ»: الخط، يخط فى الأرض، و«الجبت» قال الحسن: إنه الشيطان. وهكذا رواه أبو داود والنسائى وابن أبى حاتم (١). وقد تقدم الكلام على «الطاغوت» فى سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا (٢).

وقوله: «وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا» أى: يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم، وقلة دينهم، وكفرهم بكتاب الله الذى بأيديهم. وقد روى ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: جاء حبيى بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة، فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن محمد؟ فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكوماء، ونسقى الماء على اللبن، ونفك العنائة، ونسقى الحجيج - ومحمد صنوبر، قطع أرحامنا، واتبعه سراق الحجيج من غفار، فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدى سبيلا. فأنزل الله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيْبًا» الآية. وقد روى هذا من غير وجه، عن ابن عباس وجماعة من السلف (٣). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت قريش: ألا ترى هذا الصنوبر المنبتر من قومه؟ يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة، وأهل السقاية؟ قال: أنتم خير. قال: فنزلت فيهم: «إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ» [الكوثر: ٣]، ونزل: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ» إلى «نصيرا» (٤).

(١) المسند (٥ / ٦٠ حلى) .

(٣) حديث عكرمة هذا حديث مرسل . وكذلك نسبة السيوطى (١٧١/٢) إلى «سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبى حاتم ، مرسلا» . وذكره قبله من رواية «الطبرانى والبيهقى فى الدلائل ، عن عكرمة عن ابن عباس» . وذكره الهشمى فى الزوائد (٧ / ٥ ، ٦) من رواية الطبرانى ، وقال : «وفيه يونس بن سليمان الجمال ، ولم أعرفه ، وبقية رجاله رجال الصحيح» . وانظر الحديث الذى عقب هذا . و«الكوما» - بفتح الكاف - : الناقة العظيمة السنام . و«الصنوبر» - بضم الصاد المهملة وسكن النون - أصله : نخلة تخرج من أصل النخلة الأخرى من غير أن تغرس ، ثم قيل : رجل صنوبر ، أى : فرد ضعيف ذليل لا أهل له ولا عقب . يريدون : أن رسول الله ﷺ لا عقب له ولا أخ فإذا مات انقطع ذكره ! وكذبوا وأخزاهم الله .

(٤) هكذا ذكره المؤلف الحافظ من رواية الإمام أحمد ، وكذلك نسبة إليه السيوطى (١٧١/٢) . ولكنى لم أجده فى المسند فى مسند ابن عباس ، على اليقين بعد التبع التام . فلعله فى كتاب آخر من كتب الإمام أحمد . ورواه أيضا الطبرى (٩٧٨٦) . وزاد السيوطى نسبتة لابن المنذر وابن أبى حاتم . وسيذكره الحافظ ابن كثير - بنحوه - فى تفسير سورة الكوثر من رواية البزار ، وقال: «وهو إسناد صحيح» . وذكره السيوطى فى تفسيرها (٤٠٣/٦) من رواية «البزار وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه» .

وروى ابن إسحاق عن ابن عباس قال: كان الذين حَزَبُوا الأحزاب من قريش وغطفان وبنى قريظة حَيَّ بن أخطب وسلام بن أبي الحَقِيق وأبو رافع، والربيع بن أبي الحَقِيق، وأبو عامر، ووَحوح بن عامر، وهُوذة بن قيس. فأما وَحوح وأبو عامر وهُوذة فمن بنى وائل، وكان سائرهم من بنى النضير، فلما قدموا على قريش قالوا هؤلاء أحبار يهود وأهل العلم بالكتب الأول، فاسألوهم: أدينكم خير أم دين محمد؟ فسألوهم؟ فقالوا: دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه وعن اتبعه! فأنزل الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُم مَّلَكًا عَظِيمًا﴾ (١). وهذا لعن لهم، وإخبار بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين، وإنما قالوا لهم ذلك ليستيلوهم إلى نصرتهم، وقد أجابوهم، وجاؤوا معهم يوم الأحزاب، حتى حفر النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق، فكفى الله شرهم ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمَلِكِ إِذَا لَأ يُوْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ (٥١) ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مَلَكًا عَظِيمًا﴾ (٥٢) ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ (٥٥)

يقول تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمَلِكِ﴾؟! وهذا استفهام إنكار، أى: ليس لهم نصيب من الملك. ثم وصفهم بالبخل فقال: ﴿إِذَا لَأ يُوْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ أى: لأنهم لو كان لهم نصيب من الملك والتصرف لما أعطوا أحدا من الناس - ولا سيما محمد ﷺ - شيئا، ولا ما يملأ «النقير»، وهو النقطة التى فى النواة، فى قول ابن عباس والأكثرين.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ [الإسراء: ١٠٠] أى: خوف أن يذهب ما بأيديكم، مع أنه لا يتصور نفاذه، وإنما هو من بخلكم وشحكم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَرُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] أى: بخيلا.

ثم قال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يعنى بذلك: حسدَهم النبي ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدُهم له؛ لكونه من العرب وليس من بنى إسرائيل.

قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مَلَكًا عَظِيمًا﴾ أى: فقد جعلنا فى أسباط بنى إسرائيل - الذين هم من ذرية إبراهيم - النبوة، وأنزلنا عليهم الكتب، وحكموا فيهم بالسنن - وهى الحكمة - وجعلنا منهم الملوك، ومع هذا ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ أى: بهذا الإيتاء وهذا الإنعام ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ أى: كفر به وأعرض عنه، وسعى فى صد الناس عنه،

وهو منهم ومن جنسهم، من بنى إسرائيل، فقد اختلفوا عليهم، فكيف بك يا محمد ولست من بنى إسرائيل؟ وقال مجاهد: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ أى: بمحمد ﷺ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾، فالكفرة منهم أشد تكديبا لك، وأبعد عما جتتهم به من الهدى، والحق المبين. ولهذا قال متوعدا لهم: ﴿وَكَفَىٰ بَٰجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أى: وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمَا نَصِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَّتُهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا جُلُودٌ نَّوْصِيحَةٌ ﴿٥٧﴾﴾

يخبر تعالى عما يعاقب به فى نار جهنم من كفر بآياته وصدّ عن رسله، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا﴾ الآية، أى ندخلهم فيها دخولا يحيط بجميع أجزائهم، ثم أخبر عن دوام عقوبتهم ونكالهم، فقال: ﴿كَلَّمَا نَصِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَّتَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾. وروى الإمام أحمد عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: «يُعْظَمُ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ، حَتَّىٰ إِنْ بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِ أَحَدِهِمْ إِلَىٰ عَاتِقِهِ مَسِيرَةٌ سَبْعُمِائَةِ عَامٍ، وَإِنْ غَلِظَ جِلْدُهُ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَإِنْ ضُرَّ سَهٌ مِثْلُ أَحَدٍ». تفرد به أحمد من هذا الوجه (١).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾: هذا إخبار عن مآل السعداء فى جنات عدن، التى تجرى فيها الأنهار فى جميع فجاجها ومحالها وأرجائها حيث شاؤوا وأين أرادوا، وهم خالدون فيها أبدا، لا يحولون ولا يزولون، ولا يبغون عنها حولا. وقوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أى: من الحيض والنفاس والأذى. والأخلاق الرذيلة، والصفات الناقصة. وقوله: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أى: ظلا عميقا كثيرا غزيرا طيبا أنيقا. روى ابن جرير عن أبى هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجْرَةً يَسِيرُ الرَّكَّابُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، شَجْرَةُ الْخَلْدِ» (٢).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾

يخبر تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، وفى حديث سمرّة، أن رسول الله ﷺ

ربع

(١) المسند (٤٨٠٠)، وإسناده جيد . وزاد فى مجمع الزوائد (٣٩١/١٠) نسبه للطبرانى فى الكبير والوسط .
 (٢) الطبرى (٩٨٣٨) . وكذلك رواه أحمد (٩٨٧٠، ٩٩٥١) . وأصل الحديث ثابت من أوجه كثيرة عن أبى هريرة، فى المسند والصحيحين وغيرها، دون زيادة «شجرة الخلد» . انظر المسند (٧٤٨٩) .

قال: «أد الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك». رواه الإمام أحمد وأهل السنن^(١)، وهذا يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله، عز وجل، على عباده، من الصلوات والزكوات، والكفارات والنذور والصيام، وغير ذلك، مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض : كالودائع وغير ذلك مما يأتون به بعضهم على بعض من غير اطلاع بيّنة على ذلك. فأمر الله، عز وجل، بأدائها، فمن لم يفعل ذلك فى الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة، كما ثبت فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لَتُؤَدَّ الحقوق إلى أهلها، حتى يقتص للشاة الجماء من القرناء»^(٢). وروى ابن حاتم عن زاذان، عن ابن مسعود قال: إن الشهادة تكفر كل ذنب إلا الأمانة، يؤتى بالرجل يوم القيامة - وإن كان قُتِلَ فى سبيل الله - فيقال: أد أمانتك. فيقول: وأنى أؤديها وقد ذهبت الدنيا؟! فتمثل له الأمانة فى قعر جهنم، فيهوى إليها، فيحملها على عاتقه. قال: فتتزل عن عاتقه، فيهوى على أثرها أيد الأبدنين. قال زاذان: فأتييت البراء فحدثته، فقال: صدق أخى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأماناتِ إِلَى أَهْلِهَا»^(٣).

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى شأن عثمان بن طلحة بن أبى طلحة، واسم أبى طلحة: «عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى بن كلاب» القرشى العبدري، حاجب الكعبة المعظمة، وهو ابن عم شيبه بن عثمان بن أبى طلحة، الذى صارت الحجابة فى نسله إلى اليوم، أسلم عثمان هذا فى الهدنة بين صلح الحديبية وفتح مكة، هو وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وأما «عمه عثمان بن أبى طلحة»، فكان معه لواء المشركين يوم أحد، وقتل يومئذ كافرا. وإنما نبهنا على هذا النسب؛ لأن كثيرا من المفسرين قد يشبهه عليهم هذا بهذا^(٤). وسبب نزولها فيه : لما أخذ منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة يوم الفتح، ثم رده عليه. وروى ابن إسحاق فى غزوة الفتح عن صفية بنت شيبه؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمأن الناس، خرج حتى جاء إلى البيت، فطاف به سبعا على راحلته،

(١) هكذا قال الحافظ ابن كثير . وأرى أنه وهم رحمه الله . فإنى لم أجده من حديث سمرة قط ، لا فى المسند ولا فى غيره . ولكن رواه أبو داود (٣٥٣٥) والترمذى (٢ / ٢٥١ ، ٢٥٢) والدارمى (٢ / ٢٦٤) والحاكم (٢ / ٤٦) - كلهم من حديث أبى هريرة . قال الترمذى : «حسن غريب» وصححه الحاكم على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى . وروى الحاكم عقبه شاهدا له من حديث أنس . ورواه أحمد فى المسند (١٥٤٩١) وأبو داود (٣٥٣٤) من حديث رجل من الصحابة ، وفى إسنادهما راو مهم لم يسم . نعم رواه الطبرى (٩٨٥٠) من حديث الحسن - مرسلا . وذكره السيوطى (١٧٥ / ٢) عن رواية الحسن ، ولم ينسبها لغير الطبرى . ثم ذكره من حديث أبى هريرة الذى ذكرناه ، وزاد نسبه لليهقى فى الشعب .

(٢) رواه أحمد فى المسند (٧٢٠٣ ، ٧٩٨٣ ، ٨٢٧١) ومسلم (٢ / ٢٨٣ ، ٢٨٤) كلاهما من حديث أبى هريرة .

(٣) إسناده ابن أبى حاتم صحيح . وزاد السيوطى (٢ / ١٧٥) نسبه لعبد الرزاق وابن أبى شيبه وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقى فى الشعب . وهذا وإن كان موقوفا لفظا على ابن مسعود والبراء ، فإنه مرفوع حكما ؛ لأنه مما لا يعرف بالرأى .

(٤) انظر : نسب قريش للمصعب (ص ٢٥١ - ٢٥٣) وجمهرة الأنساب لابن حزم (ص ١١٨) .

يستلم الركن بمحجن في يده، فلما قضى طوافه، دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحت له، فدخلها، فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها، ثم وقف على باب الكعبة وقد استكف له الناس في المسجد.

قال ابن إسحاق: فحدثني بعض أهل العلم: أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مائة أو دم أو مال يُدعى، فهو تحت قدمي هاتين إلا سداثة البيت وسقاية الحاج». وذكر بقية الحديث في خطبة النبي ﷺ يومئذ، إلى أن قال: ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية، صلى الله عليك. فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة؟» فدعى له، فقال له: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم وفاء وبر» (١). وهذا من المشهورات أن هذه الآية نزلت في ذلك، وسواء كانت نزلت في ذلك أو لا، فحكمها عام؛ ولهذا قال ابن عباس ومحمد ابن الحنفية: هي للبر والفاجر، أي: هي أمر لكل أحد.

وقوله: «وَإِذَا حَكَّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ» أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس؛ ولهذا قال محمد بن كعب وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب: إن هذه الآية إنما نزلت في الأمراء، يعنى الحكام بين الناس. وفي الحديث: «إن الله مع الحاكم ما لم يجر، فإذا جار وكله الله إلى نفسه» (٢). وفي الأثر: «عدل يوم عبادة أربعين سنة» (٣).

وقوله: «إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا بِعِبَتِكُمْ بِهِ» أي: يأمركم به من أداء الامانات، والحكم بالعدل بين الناس، وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة. وقوله: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا» أي: سميعا لأقوالكم، بصيرا بأفعالكم.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾

وروى البخارى عن ابن عباس: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ»، قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى؛ إذ بعثه النبي ﷺ في سرية (٤). وهكذا أخرجه بقية

(١) سيرة ابن هشام (ص ٨٢٠، ٨٢١) من طبعة أوربة.

(٢) رواه الترمذى (٢٧٧/٢) وابن ماجه (٢٣١٢) والحاكم (٩٣/٤) - كلهم من حديث عبد الله بن أبى أوفى بنجوه. وقال الترمذى: «غريب» وصححه الحاكم، ووافقه الذهبى. وعنده كلهم بلفظ «القاضى» بدل «الحاكم». ولفظ الحاكم: «فإذا جار تبرأ الله منه». ولفظ الترمذى: «فإذا جار تخلى عنه ولزمه الشيطان». وروى ابن حبان في صحيحه شطره الأول فقط (٧/٢١٥ مخطوطة الإحسان).

(٣) هذا أثر لا أدري ما هو؟

(٤) البخارى (٨/١٩٠، ١٩١ فتح) والمسند (٣١٢٤)، وهو حديث مختصر. قال الحافظ: «كذا ذكره مختصرا».

والمعنى: نزلت في قصة عبد الله بن حذافة، أي: المقصود منها في قصته قوله: «فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله» الآية. والقصة مفصلة في الحديث التالى لهذا، من حديث على.

الجماعة إلا ابن ماجه. وروى الإمام أحمد عن علي قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، واستعمل عليهم رجلا من الأنصار، فلما خرجوا وجد عليهم في شيء. قال: فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: اجمعوا لى حطبا، ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنها. قال: فقال لهم شاب منهم: إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها. قال: فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال لهم: «لو دخلتموها ما خرجتم منها أبدا؛ إنما الطاعة في المعروف». أخرجاه في الصحيحين (١). وروى أبو داود عن عبد الله بن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: «السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة». أخرجاه (٢). وعن عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله. قال: «إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم فيه من الله برهان». أخرجاه (٣). وفي الحديث الآخر، عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «اسمعوا وأطيعوا، وإن أمرَ عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة». رواه البخاري (٤). وعن أبي هريرة قال: أوصاني خليلي أن أسمع وأطيع، وإن كان عبدا حبشيا مُجَدِّعَ الأطراف. رواه مسلم (٥). وعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدى، وسيكون خلفاء فيكثرون». قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: «أوفوا ببيعة الأول فالأول، وأعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم». أخرجاه (٦). وعن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى من أميره شيئا فكرهه فليصبر؛ فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت إلا مات ميتة جاهلية». أخرجاه (٧). وعن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يدا من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية». رواه مسلم (٨).

(١) المسند (٦٢٢). ورواه أيضا مطولا ومختصرا (٧٢٤، ١٠١٨). والقصة مفصلة أيضا في المسند (١١٦٦٢) من حديث أبي سعيد الخدري، وفيه التصريح بأن أمير السرية كان عبد الله بن حذافة، كما أشار ابن عباس في روايته الموجزة آنفا.

(٢) ورواه أحمد في المسند (٤٦٦٨، ٦٢٧٨). وشرحناه في أولهما شرحا مسهبا، ورواه أيضا الطبري (٩٨٧٧، ٩٨٧٨).

(٣) البخاري (٥/١٣، ٦ فتح) ومسلم (٨٦/٢، ٨٧) مرارا. ورواه أحمد في المسند (٥/٣١٤، ٣٢١ حلي). وقوله: «بواحا»: بفتح الباء الموحدة وتخفيف الواو، أى: ظاهرا باديا.

(٤) البخاري (٢/١٥٦، ١٥٧، ١٣/١٠٨، ١٠٩ فتح).

(٥) هكذا كتب الحافظ ابن كثير هنا. وهو وهم، لعله كتبه من حفظه. فالحديث رواه مسلم (٢/٨٥) من حديث أبي ذر، لا من حديث أبي هريرة.

(٦) البخاري (٦/٣٥٩، ٣٦٠) ومسلم (٢/٨٧) والمسند (٧٩٤٧).

(٧) ورواه أحمد (٢٤٨٧، ٢٧٠٢، ٢٨٢٦، ٢٨٢٧).

(٨) صحيح مسلم (٨٩١٢). ورواه أحمد مرارا، منها: (٥٣٨٦).

وروى مسلم أيضا، عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال: دخلت المسجد، فإذا عبدُ الله ابن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة، والناسُ حوله مجتمعون عليه، فأتيتهم فجلستُ إليه، فقال: كنا مع رسول الله ﷺ في سَفَرٍ، فنزلنا منزلا فمنا من يُصلحُ خبائه، ومنا من يَنْتَصل، ومنا من هو في جَسْرِهِ، إذ نادى منادى رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة. فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، ويُنذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن هذه الأمة جعلت عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمرور تُنكرونها، وتجيء فتن يُرَقِّقُ بعضها بعضا، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه، فمن أحب أن يَرْحَاحَ عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إماما فأعطاه صَفَقَةً يده وثمره قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر». قال: فدنوت منه فقلت: أنشدك الله أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه وقال: سمعته أذناي، ووعاه قلبي، فقلت له: هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، ونقتل أنفسنا، والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩] قال: فسكت ساعة ثم قال: أطعه في طاعة الله، واعصه في معصية الله (١). والأحاديث في هذا كثيرة.

وقال ابن عباس: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ يعني: أهل الفقه والدين. وكذا قال مجاهد، وعطاء، والحسن البصري، وأبو العالية: يعني: العلماء. والظاهر - والله أعلم - أن الآية عامة في كل أولى الأمر من الأمراء والعلماء، كما تقدم. قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِنَّمِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ﴾ [المائدة: ٦٣]. وقال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وفي الحديث الصحيح المتفق على صحته، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى، ومن عصى أميرى فقد عصانى» (٢).

فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمراء، ولهذا قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ أى: اتبعوا كتابه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أى: خذوا بسنته ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أى: فيما أمروكم به من طاعة الله لا فى

(١) صحيح مسلم (٢ / ٨٧ ، ٨٨) . ورواه أحمد (٣ / ٦٥٠) ورواه أيضا مختصرا قليلا (٦٧٩٣) . وقوله « ومننا من هو فى جسره » - بفتح الجيم وسكون الشين المهملة : يعنى الدواب التى ترعى وتبيت مكانها . وقوله « يرقق بعضها بعضا » - هو بضم الباء ، وفتح الراء وقافين أولاهما مشددة مكسورة ، أى : يصير بعضها رقيقا ، أى خفيفا ؛ لعظم ما بعده ، فالثانى يجعل الأول رقيقا .

(٢) البخارى (١٣ / ٩٩) ومسلم (٢ / ٨٥) والمسند (٧٦٤٣) . ورواه أحمد مرارا أيضا ، منها : (٧٤٢٨ ، ٧٣٣٠) والطبرى (٩٨٥١) وسياىتى عند تفسير الآيتين : (٨٠ ، ٨١) .

معصية الله، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله، كما تقدم في الحديث الصحيح: «إنما الطاعة في المعروف» (١). وروى الإمام أحمد عن عمران بن حصين، عن النبي ﷺ قال: «لا طاعة في معصية الله» (٢).

وقوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ قال مجاهد وغير واحد من السلف: أى: إلى كتاب الله وسنة رسوله. وهذا أمر من الله، عز وجل، بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع فى ذلك إلى الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، فما حكم به كتاب الله وسنة رسوله وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أى: ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله، فتحاكموا إليها فيما شجر بينكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. فدل على أن من لم يتحاكم فى مجال النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما فى ذلك، فليس مؤمنا بالله ولا باليوم الآخر.

وقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أى: التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله. والرجوع فى فصل النزاع إليهما خير ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أى: وأحسن عاقبة ومآلا، كما قاله السدى وغير واحد. وقال مجاهد: وأحسن جزاء. وهو قريب.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نَزَّلَ إِلَيْكَ وَمَا نَزَّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿١١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿١٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿١٣﴾﴾

هذا إنكار من الله، عز وجل، على من يدعى الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم فى فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله، كما ذكر فى سبب نزول هذه الآية: أنها فى رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما، فجعل اليهودى يقول: بينى وبينك محمد. وذاك يقول: بينى وبينك كعب بن الأشرف. وقيل: فى جماعة من المنافقين، ممن أظهروا الإسلام، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية. وقيل غير ذلك، والآية أعم من ذلك كله، فإنها دامة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هنا؛ ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾. إلى آخرها .

(١) رواه أحمد والشيخان من حديث على، كما مضى (ص ٤٦٨).

(٢) المسند (٤/ ٤٢٦) حلى. «وإسناده صحيح».

وقوله : ﴿ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ أى : يعرضون عنك إعراضا كالمتكبرين عن ذلك ، كما قال تعالى عن المشركين : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [لقمان : ٢١] ، هؤلاء وهؤلاء بخلاف المؤمنين ، الذين قال الله فيهم : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٥١] .

ثم قال تعالى فى ذم المنافقين : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى : فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير ، إليك فى مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم ، واحتاجوا إليك فى ذلك ﴿ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ أى : يعتذرون إليك ويحلفون : ما أردنا بذهابنا إلى غيرك ، وتحاكمنا إلى عداك إلا الإحسان والتوفيق ، أى : المداراة والمصانعة ، لا اعتقادا منا صحة تلك الحكومة ، كما أخبرنا تعالى عنهم فى قوله : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَأُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ [المائدة : ٥٢] .

وقد قال الطبرانى عن ابن عباس . قال : كان أبو برة الأسلمى كاهنا يقضى بين اليهود فيما يتنافرون فيه ، فتنافر إليه ناس من المسلمين فأنزل الله عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ (١) .

ثم قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أى : هذا الضرب من الناس هم المنافقون ، والله يعلم ما فى قلوبهم وسيجزىهم على ذلك ، فإنه لا تخفى عليه خافية . فاكثف به - يا محمد - فيهم ، فإنه عالم بظواهرهم وبواطنهم ؛ ولهذا قال له : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ أى : لا تعنفهم على ما فى قلوبهم ﴿ وَعَظِّمُهُمْ ﴾ أى : وانهم على ما فى قلوبهم من النفاق وسرائر الشر ﴿ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ أى : وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿١٥﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ ﴾ أى : فُرِضَتْ طاعته على من أرسله إليه . وقوله : ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ قال مجاهد : أى لا يطيع أحد إلا بإذنى . يعنى : لا يطيعهم إلا من وقفته لذلك ، كقوله : ﴿ وَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعَدَهُ إِذْ تَحْسِنْتُمْ بِإِذْنِهِ ﴾ [آل عمران : ١٥٢] أى : عن أمره وقدره ومشيبته ، وتسليطه إياكم عليهم .

وقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا ﴾

(١) إسناده الطبرانى إسناده صحيح . ونقله الهيثمى فى الزوائد (٦/٧) عن الطبرانى ، وقال : « رجاله رجال الصحيح » . وذكره السيوطى (٢/١٧٨) عن ابن أبى حاتم والطبرانى « بسند صحيح » .

رُحِيمًا: يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده، ويسأله أن يستغفر لهم، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم، ولهذا قال: ﴿لَوْ جَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رُحِيمًا﴾.

وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة: أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنا وظاهرا؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أى: إذا حكموك بطيعونك فى بواطنهم فلا يجدون فى أنفسهم حرجا مما حكمت به، ويتقادون له فى الظاهر والباطن، فيسلمون لذلك تسليما كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة، كما ورد فى الحديث: «والذى نفسى بيده، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به» (١).

وروى البخارى عن عروة قال: خاصم الزبير رجلا فى شريح من الحرّة، فقال النبى ﷺ: «اسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك» فقال الأنصارى: يا رسول الله، أن كان ابن عمك؟! فتلّون وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، ثم أرسل الماء إلى جارك»، واستوعى النبى ﷺ للزبير حقة فى صريح الحكم، حين أحفظه الأنصارى، وكان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعة. قال الزبير: فما أحسب هذه الآية إلا نزلت فى ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾. وصورته صورة الإرسال، وهو متصل فى المعنى. وقد رواه الإمام أحمد من هذا الوجه فصرح بالإرسال، فروى عن عروة بن الزبير: أن الزبير كان يحدث: أنه كان يخاصم رجلا من الأنصار - قد شهد بدرا - إلى النبى ﷺ فى شراج الحرّة، كانا يسقيان بها كلاهما، فقال النبى ﷺ للزبير: «اسق ثم أرسل إلى جارك». فغضب الأنصارى وقال: يا رسول الله، أن كان ابن عمك؟! فتلّون وجه رسول الله ﷺ ثم قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر». فاستوعى النبى ﷺ للزبير حقه، وكان النبى ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير برأى أراد فيه سعة له وللأنصارى، فلما أحفظ الأنصارى رسول الله ﷺ استوعى النبى ﷺ للزبير حقه فى صريح الحكم، قال عروة: فقال الزبير: والله ما أحسب هذه الآية نزلت إلا فى ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾. هكذا رواه الإمام أحمد، وهو منقطع بين عروة وبين أبيه الزبير؛ فإنه لم يسمع منه، والذي يقطع به أنه سمعه من أخيه عبد الله، فإن

(١) هو الحديث الحادى والأربعون من الأربعين النووية، ولكن ليس فى أوله: «والذى نفسى بيده» من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. قال النووى: حديث حسن صحيح. رويناه فى كتاب الحجّة بإسناد صحيح «يريد كتاب الحجّة» لأبى الفتح المقدسى. وذكره ابن رجب (ص ٢٨١، ٢٨٢) أنه رواه أيضا الحافظ أبو نعيم فى «كتاب الأربعين» التى شرط فيها الصحة. وأنه رواه أيضا الطبرانى. ثم أطلال القول فى تعليقه. وعندى أن تعليقه غير جيد، وأن الحديث صحيح.

ابن أبي حاتم رواه كذلك عن عروة بن الزبير حدثه، أن عبد الله بن الزبير حدثه، عن الزبير ابن العوام - فذكر الحديث بنحوه . وهكذا رواه النسائي، ورواه أحمد والجماعة كلهم. وجعله أصحاب الأطراف في مسند عبد الله بن الزبير، وكذا ساقه الإمام أحمد في مسند عبد الله بن الزبير، والله أعلم^(١).

(١) حديث البخارى عن عروة بن الزبير ، هو فى الصحيح (٨ / ١٩١ فتح) . وحديث الإمام أحمد ، هو فى المسند (١٤١٩) فى مسند الزبير بن العوام . وحديث ابن أبي حاتم - الذى ذكر الحافظ ابن كثير أنه رواه الإمام أحمد أيضاً فى مسند عبد الله بن الزبير - هو فى المسند (١٦١٨٥) . وكذلك رواه ابن حبان فى صحيحه ، رقم (٢٣) بتحقيقنا . وكذلك رواه الطبرى (٩٩١٢) ، من رواية عروة، عن أخيه عبد الله بن الزبير . ثم رواه (٩٩١٣) كرواية البخارى الأولى . وظاهر رواية البخارى الأولى أن صورتها صورة الإرسال ، كما قال ابن كثير . وأما رواية الإمام أحمد (١٤١٩) التى حكى ابن كثير بانقطاعها ، فإنها عندنا متصلة ؛ لأن عروة بن الزبير سمع من أبيه الزبير بن العوام ، كما قال مسلم بن الحجاج : « حج عروة مع عثمان ، وحفظ عن أبيه فمن دونه من الصحابة » ، وقد ثبت فى حديث آخر فى المسند (١٤١٨) أنه صرح بالسماع من أبيه ، فجزم ابن كثير بأنه لم يسمع منه - غير سديد . والحديث حديث الزبير ، رواه عنه ابنه : عبد الله وعروة . والظاهر أن عروة سمعه من أبيه ، ومن أخيه عن أبيه . وقد أفاض الحافظ ابن حجر فى الفتح فى بيان صحة الحديث واتصاله (٥ / ٢٦ ، ٢٧) . وبيننا ذلك أيضاً مفصلاً فى تعليقاتنا على الخراج ليحيى بن آدم (٣٣٧) وعلى المسند ، وعلى ابن حبان ، وعلى الطبرى - بما أغنى عن إعادة هنا .

وهاهى ذى الآيات فى هذه السورة، من الآية (٥٩) إلى آخر الآية (٦٥) - واضحة الدلالة ، صريحة اللفظ ، لا تحتاج إلى طول شرح ، ولا تحمل التلاعب بالتأويل . يأمرنا الله سبحانه فيها بطاعته وطاعة وسوله ، وأولى الأمر منا ، أى من المسلمين . ويأمرنا إذا تنازعنا فى شىء واختلفنا أن نرده إلى حكم الله فى كتابه وحكم رسوله فى سنته . ويقول فى ذلك : ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ . فیرشدنا سبحانه وتعالى إلى أن طاعته وطاعة رسوله فى شأن الناس كلهم ، وفيما يعرض لهم نم قضايا وخلاف ونزاع - شرط فى الإيمان بالله واليوم الآخر . وكما قال الحافظ ابن كثير أنفا (ص ٤٧٠) : « تدل على أن من لم يتحاكم فى محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما فى ذلك - فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر » . ثم يرينا الله سبحانه حكمه فى الذين يزعمون أنهم يؤمنون برسوله محمد ﷺ وبما أنزل إليه، ثم يريدون ﴿ أَنْ يَتَّحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ ، فيحكم بأنهم منافقون ، لأنهم إذا دعوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، صدوا عنه صدوداً . والنفاق شر أنواع الكفر . ثم يعلمنا الله سبحانه أنه لم يرسل رسله عبثاً ، وإنما أرسلهم ليطيعهم الناس بإذن الله . ثم يقسم ربنا تبارك وتعالى بنفسه الكريمة المقدسة : أن الناس لا يكونون مؤمنين حتى يتحاكموا فى شأنهم كله إلى رسوله محمد ﷺ ، وحتى يرضوا بحكمه طائعين خاضعين ، لا يجدون فى حكمه حرجاً فى أنفسهم ، وحتى يسلموا فى دخيلة قلوبهم إلى حكم الله ورسوله تسليماً كاملاً ، لا ينافقون به المؤمنون ، ولا يخضعون فى قبوله لقوة حاكم أو غيره ، بل يرضون به مهما يلقوا فى ذلك من مشقة أو مؤنة . وأنهم إن لم يفعلوا لم يكونوا مؤمنين قط ، بل دخلوا فى عداد الكافرين والمنافقين .

فانظروا أيها المسلمون ، فى جميع البلاد الإسلامية أو البلاد التى تنتسب للإسلام ، فى أقطار الأرض - إلى ما صنع بكم أعداؤكم المشركون والمستعمرون : إذ ضربوا على المسلمين قوانين ضالة مدمرة للأخلاق والآداب والأديان ، قوانين إفرنجية وثنية ، لم تبن على شريعة ولا دين ، بل بنيت على قواعد وضعها رجل كافر وثنى ، أبى أن يؤمن برسول عصره - عيسى عليه السلام - وأصر على وثنيته ، إلى ما كان من فسقه وفجوره وتهتكه ! هذا هو جوستينيان ، أبو القوانين وواضع أسسها فيما يزعمون ، والذى لم يستح رجل من كبار رجالات مصر =

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَذَّبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِن دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾
 ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِنْتَهُمْ مِن لَّدُنَّا أَجْرًا
 عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ
 اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصّٰدِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ
 الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾

= المتسيين - ظلماً وزوراً - إلى الإسلام ، أن يترجم قواعد ذلك الرجل الفاسق الوثني ، ويسمها « مدونة جوستينيان » ! سخرية وهزءاً بـ « مدونة مالك » ، إحدى موسوعات الفقه الإسلامي المبني على الكتاب والسنة ، والمنسوبة إلى إمام دار الهجرة . فانظروا إلى مبلغ ذلك الرجل من السخف ، بل من الوقاحة والاستهتار !
 هذه القوانين التي فرضها على المسلمين أعداء الإسلام السافرو العداوة ، هي في حقيقتها دين آخر جعلوه ديناً للمسلمين بدلا من دينهم النقي السامي ، لأنهم أوجبوا عليهم طاعتها ، وغرسوا في قلوبهم حبها وتقديسها والعصبية لها . حتى لقد تجرأ على الألسنة والأقلام كثيرا كلمات « تقديس القانون » « قدسية القضاء » « حرم المحكمة » ، وأمثال ذلك من الكلمات التي يابون أن توصف بها الشريعة الإسلامية وآراء الفقهاء الإسلاميين . بل هم حيثئذ يصفونها بكلمات « الرجعية » « الجمود » « الكهنوت » « شريعة الغاب » إلى أمثال ما ترى من المنكرات في الصحف والمجلات والكتب العصرية ، التي يكتبها أتباع أولئك الوثنيين !
 ثم صاروا يطلقون على هذه القوانين ودراساتها كلمة « الفقه » و« الفقيه » و« التشريع » و« المشرع » ، وما إلى ذلك من الكلمات التي يطلقها علماء الإسلام على الشريعة وعلمائها . وينحدرون فيتجرؤون على الموازنة بين دين الإسلام وشريعته وبين دينهم المفتري الجديد !!

ثم نفوا شريعتهم الإسلامية عن كل شيء ، وصرح كثير منهم في كثير من أحكامها القطعية الثبوت والدلالة بأنها لا تناسب هذا العصر، وأنها شرعت لقوم بدائيين غير متمدينين، فلا تصلح لهذا العصر الإنفرنجي الوثني !! خصوصاً في الحدود المنصوصة في الكتاب والعقوبات الثابتة في السنة .
 فترى الرجل المنتسب للإسلام ، التمسك به في ظاهر أمره ، المشرب قلبه هذه القوانين الوثنية ، يتعصب لها مالا يتعصب لدينه . بل يجتهد لئيبراً من العصبية للإسلام ، خشية أن يرمى بالجمود والرجعية ! ثم هو يصلى كما يصلى المسلمون ، ويصوم كما يصوم المسلمون ، وقد يحج كما يحج المسلمون . فإذا ما انتصب لإقامة القانون ، لبسه شيطان الدين الجديد ، فقام له قومة الأسد يحمي عرينه ، ونفى عن عقله كل ما عرف من دينه الأصلي ! ورأى أن هذه القوانين ألصق بقلبه ، وأقرب إلى نفسه ! هذا في المستمسك منهم بدين الإسلام ، وهم الأقل . دع عنك أكثرهم .

وقد ربي لنا المستعمرون من هذا النوع طبقات ، أرضعوهم لبان هذه القوانين ، حتى صار منهم فئات عالية الثقافة ، واسعة المعرفة - في هذا اللون من الدين الجديد ، الذي نسخوا به شريعتهم . ونبغت فيهم نوايغ يفخرون بها على رجال القانون في أوربة ، فصار للمسلمين من أئمة الكفر ، ما لم يتبل به الإسلام في أي دور من أدوار الجهل بالدين في بعض العصور .

وصار هذا الدين الجديد هو القواعد الأساسية التي يتحاكم إليها المسلمون في أكثر بلاد الإسلام ويحكمون بها . سواء منها ما وافق في بعض أحكامه شيئا من أحكام الشريعة وما خالفها . وكله باطل وخروج ، لأن ما وافق الشريعة إنما وافقها مصادفة ، لا اتباعاً لها ، ولا طاعة لأمر الله وأمر رسوله . فالموافق والمخالف كلاهما مرتكس في حماة الضلالة ، يقود صاحبه إلى النار . لا يجوز لمسلم أن يخضع له أو يرضى به .
 وقد نزيد هذا المعنى بيانا ، عند كلام الحافظ ابن كثير في تفسير الآية : (٥٠) من سورة المائدة ، إن شاء

يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبونه من المناهى لما فعلوه؛ لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر، وهذا من علمه - تبارك وتعالى - بما لم يكن لو كان فكيف كان يكون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية .

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ أى: ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به، وتركوا ما ينهون عنه ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أى: من مخالفة الأمر وارتكاب النهى ﴿وَأَشَدُّ تَنبِيئًا﴾ ، قال السدى: أى: وأشد تصديقاً ﴿وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا﴾ أى: من عندنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعنى: الجنة ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أى: فى الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ أى: من عمل بما أمره الله به ورسوله، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقاً للأنبياء ثم لمن بعدهم فى الرتبة، وهم الصديقون، ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين، وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم.

ثم أثنى عليهم تعالى فقال: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾. وروى البخارى عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة» وكان فى شكواه الذى قبض فيه، فأخذته بحة شديدة، فسمعتة يقول: «مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين» فعلمت أنه خير. وكذا رواه مسلم (١). وهذا معنى قوله ﷺ فى الحديث الآخر: «اللهم الرفيق الأعلى» ثلاثاً: ثم قضى، عليه أفضل الصلاة والتسليم (٢).

وسبب نزول هذه الآية الكريمة : ما روى ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ وهو محزون، فقال له النبي ﷺ : «يا فلان ، مالى أراك محزوناً ؟ » فقال : يا رسول الله ، شىء فكرت فيه ، قال : «ما هو؟» قال : نحن نغدو عليك ونروح ، نظفر إلى وجهك ونجالسك ، غداً ترفع مع النبيين فلا نصل إليك . فلم يرد عليه النبي ﷺ عليه شيئاً ، فاتاه جبريل بهذه الآية : ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ الآية . فبعث النبي ﷺ فبشره . وقد روى هذا الأثر مرسلًا عن مسروق ، وعن عكرمة ، وعامر الشعبي ، وقتادة ، وعن الربيع بن أنس ، وهو من أحسنها سنداً (٣) . وروى ابن مردويه عن عائشة قالت : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنك لأحب إلى من نفسى ، وأحب إلى من أهلى ، وأحب إلى من ولدى ، وإنى لأكون فى البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فانظر إليك ، وإذا ذكرت موتى وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين ، وإن دخلت

(١) البخارى (٨/ ١٩٢ فتح) ومسلم (٢/ ٢٤٥ ، ٢٤٦) .

(٢) انظر صحيح مسلم (٢/ ٢٤٦) .

(٣) حديث سعيد بن جبير - مرسلًا - هو فى الطبرى (٩٩٢٤) . وكذلك المرسلات التى أشار إليها الحافظ ابن كثير ورواها الطبرى عند ذلك الموضع .

الجنة خشيت الأ أراك. فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزلت عليه: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾. وهكذا رواه الحافظ أبو عبد الله المقدسى فى كتابه: «صفة الجنة»، ثم قال: لا أرى بإسناده بأسا. والله أعلم (١). وثبت فى صحيح مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمى، أنه قال: كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لى: «سَلِّ». فقلت: يا رسول الله، أسألك مرافقتك فى الجنة. فقال: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟» قلت: هو ذاك. قال: «فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ» (٢).

وروى الإمام أحمد عن عمرو بن مَرَّة الْجُهَنِيِّ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، شهدت أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، وصليت الخمس، وأديت زكاة مالى، وصمت شهر رمضان؟. فقال رسول الله ﷺ: «من مات على ذلك كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا - ونصب إصبعيه - ما لم يعقِّ والديه» تفرد به أحمد (٣). وروى الترمذى عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء». ثم قال: هذا حديث حسن (٤).

وأعظم من هذا كله بشارة ما ثبت فى الصحاح والمسائيد وغيرهما، من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة: أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم؟ فقال: «المرء مع من أحب» قال أنس: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث . وفى رواية عن أنس أنه قال: إنى لأحب رسول الله ﷺ، وأحب أبا بكر وعمر، رضى الله عنهما، وأرجو أن يعثنى الله معهم وإن لم أعمل كعملهم (٥).

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ أى: من عند الله برحمته، هو الذى أهلهم لذلك، لا بأعمالهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ أى: هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق.

(١) رواه أيضا أبو نعيم فى الحلية (٨ / ١٢٥) عن الطبرانى بإسناده . ونسبه السيوطى (٢ / ١٨٢) لهما أيضا . وذكره الهيثمى فى الزوائد (٧ / ٧) وقال: «رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط ، ورجاله رجال الصحيح ، غير عبد الله بن عمران العابدى ، وهو ثقة » . وهذا الحديث مع اعتضاده بالمرسل الماضى عن سعيد بن جبير ، وبالمرسلات الأخر التى أشار إليها ابن كثير ورواها الطبرى - يكون حديثا صحيحا لغيره ، إن لم يكن صحيحا لصحة إسناده .

(٢) مسلم (١ / ١٤٠) . وفى الحديث قصة مطولة ، ورواه أحمد وجه آخر (١٦٦٥١ ، ١٦٦٥٢) .

(٣) خفى على مكانه من المسند . وذكره السيوطى (٢ / ١٨٢) ولم ينسبه لغيره . وذكره الهيثمى فى الزوائد (٨ / ١٤٧) وقال : «رواه أحمد ، والطبرانى بإسنادين ، ورجاله أحد إسنادى الطبرانى رجال الصحيح » . وذكره قبل ذلك (١ / ٤٦) بنحوه مختصرا ، وقال : «رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح ، خلا شيخى البزار ، وأرجو إسناده أنه إسناده حسن أو صحيح » .

(٤) الترمذى (٢ / ٢٢٧) . ورواه أيضا الدارمى (٢ / ٢٤٧) .

(٥) من حديث طويل فى البخارى (٧ / ٤٠ فتح) .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴾ (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبْتَئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لِيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴿ فَلَْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٧٤)

ربع

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم، وهذا يستلزم التأهب لهم ، بإعداد الأسلحة والعدد، وتكثير العدد بالنفير في سبيله ﴿ثُبَاتٍ﴾ أى: جماعة بعد جماعة، وفرقة بعد فرقة، وسرية بعد سرية، والثبات: جمع ثبة، وقد تجمع الثبة على ثبين ﴿أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ يعنى: كلكم. وكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وقناة، وغيرهم .

وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبْتَئَنَّ﴾ قال مجاهد وغير واحد: نزلت فى المنافقين، وقال مقاتل ابن حيان: ﴿لِيُبْتَئَنَّ﴾ أى: ليتخلفن عن الجهاد. ويحتمل أن يكون المراد أنه يتباطأ هو فى نفسه، ويبطئ غيره عن الجهاد، كما كان عبد الله بن أبى بن سلول - قبحه الله - يفعل، يتأخر عن الجهاد، ويُبطئ الناس عن الخروج فيه. وهذا قول ابن جرير وابن جرير؛ ولهذا قال تعالى إخبارا عن المنافق أنه يقول إذا تأخر عن الجهاد: ﴿فَإِنَّ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ أى: قتل وشهادة وغلب العدو لكم، لما لله فى ذلك من الحكمة ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أى: إذ لم أحضر معهم وقعة القتال، يعد ذلك من نعم الله عليه!، ولم يدر ما فاته من الأجر فى الصبر أو الشهادة إن قتل ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى: نصر وظفر وغنيمة ﴿لِيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ أى: كأنه ليس من أهل دينكم ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أى: بأن يضرب لى بسهم معهم فأحصل عليه. وهو أكبر قصده وغاية مراده.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَْيُقَاتِلْ﴾ أى: المؤمن النافر ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أى: يبيعون دينهم بعرض قليل من الدنيا، وما ذلك إلا لكفرهم وعدم إيمانهم^(١).
ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى: كل من

(١) « شرى » و« اشترى » : يأتیان بمعنى باع ، أى : أعطى شيئاً وأخذ بدله . ويأتیان بمعنى « اشترى » المعروف على السنة الناس ، أى : أخذ شيئاً وأعطى بدله . فهما من الأضداد ، يستعمل كل منهما فى المعنيين المتقابلين . والحافظ ابن كثير فسر « يشرون » فى هذه الآية ، بالمعنى الثانى : أنهم يأخذون الحياة الدنيا ويختارونها بدلا من الآخرة . وبذلك جعل « الذين » مفعولا لقوله « فليقاتل » ، وبين أن الفاعل محذوف ، قدره بقوله « المؤمن النافر » . أى : يجب على المؤمن الذى ينفر إلى القتال أن يقاتل الكفار الذين يختارون الحياة الدنيا على الآخرة « ويبيعون دينهم بعرض قليل من الدنيا » . وغير ابن كثير فسر الآية على المعنى الآخر ، « يشرون » ، أى : يبيعون . فيكون المعنى : يجب على المؤمنين الذين يبيعون الحياة الدنيا ويختارون عليها الآخرة - أن يقاتلوا . ويكون المفعول حيثئذ محذوفاً للعلم به ، أى فليقاتل المؤمنون الكافرين . وكلا المعنيين صحيح جاز . ولكن الذى اختاره ابن كثير أعلى وأدق .

قاتل في سبيل الله - سواء قتل أو غلب - فله عند الله مثوبة عظيمة وأجر جليل ، كما ثبت في الصحيحين : « تكفل الله للمجاهد في سبيله ، إن توفاه أن يدخله الجنة ، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة » (١) .

﴿ وَمَا كُفِّرُوا وَلَا تُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ

الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

يحرص تعالى عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله ، وعلى السعى في استنقاذ المستضعفين بمكة ، من الرجال والنساء والصبيان المتبرمين من المقام بها ؛ ولهذا قال تعالى : « الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ » يعنى : مكة ، كقوله : « وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ » [محمد : ١٣] .

ثم وصفها بقوله : « الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا » أى : سخر لنا من عندك وليا وناصرا . روى البخارى عن ابن عباس قال : كنت أنا وأمى من المستضعفين . وروى عن ابن ابي مليكة أن ابن عباس تلا : « إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ » قال : كنت أنا وأمى ممن عذّر الله عز وجل .

ثم قال تعالى : « الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ » أى : المؤمنون يقاتلون في طاعة الله ورضوانه ، والكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان .

ثم هيّج تعالى المؤمنين على قتال أعدائه بقوله : « فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا » .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنِعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ أَنْفَى وَلَا نُظَلِّمُونَ فَنِيَلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

(١) البخارى (٦ / ١٥٤ فتح) ومسلم (٢ / ٩٦) . وانظر المسند (٧١٥٧) وما أشرنا إليه من الروايات هناك .

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام - وهم بمكة - مأمورين بالصلاة والزكاة وإن لم تكن ذات النُّسب، لكن كانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة، منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم، ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداءً لانتقا. فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة، لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار، ومع هذا لما أمروا بما كانوا يودونه جَزَع بعضهم منه وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: لولا أخرت فرضه إلى مدة أخرى، فإن فيه سفك الدماء، ويثم الأبناء، وتأييم النساء، وهذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ . طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٠، ٢١]. روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة، فقالوا: يا نبي الله، كنا في عزٍّ ونحن مشركون، فلما آمننا صرنا أذلة! قال: «إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم». فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال، فكفوا. فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ الآية. ورواه النسائي، والحاكم، وابن مردويه (١).

وقوله: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ أي: آخرة المتقى خير من دنياه ﴿وَلَا تُظَلِّمُونَ فِتْيَانًا﴾ أي: من أعمالكم بل توفونها أتم الجزاء. وهذه تسلية لهم عن الدنيا، وترغيب لهم في الآخرة، وتحريض لهم على الجهاد.

وقوله: ﴿أَيَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ أي: أنتم صاثرون إلى الموت لا محالة، ولا ينجو منه أحد منكم، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَقْبَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الانباء: ٣٤]. والمقصود: أن كل أحد صائر إلى الموت لا محالة، ولا ينجيه من ذلك شيء، وسواء جاهد أو لم يجاهد، فإن له أجلاً محتوماً، وأمداً مقسوماً، كما قال خالد بن الوليد حين جاءه الموت على فراشه: لقد شهدت كذا وكذا موقفاً، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية، وما أنا أموت على فراشي! فلا نامت أعين الجبناء (٢).

وقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ أي: حصينة منيعة عالية رفيعة. أي: لا يغنى حذر وتحصن من الموت، كما قال زهير بن أبي سلمى:

(١) الحاكم (٣٠٧/٢) بنحوه، وصححه على شرط البخاري ووافقه الذهبي. ورواه أيضاً الطبري (٩٩٥١) والبيهقي في السنن الكبرى (١١/٩).

(٢) مضى هذا الأثر عن خالد عند تفسير الآيات: (٢٤٣ - ٢٤٥) من سورة البقرة.

ومن هاب أسباب المنايا يَنْتَهُ ولو رام أسباب السماء بَسْلَمُ

ثم قيل: « المُشِيدَةُ » هي المُشِيدَةُ كما قال: ﴿ وَقَصْرٌ مُشِيدٌ ﴾ [الحج : ٤٥] وقيل : بل بينهما فرق ، وهو أن المُشِيدَةَ بالتشديد، هي : المطولة ، وبالتخفيف هي : المزينة بالشَّيد وهو الجص . وقوله: ﴿ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ ﴾ أى : خصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحو ذلك . هذا معنى قول ابن عباس وأبى العالية والسدى ﴿ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أى : قحط وجذب ونقص فى الثمار والزروع أو موت أولاد أو نتاج أو غير ذلك . كما يقوله أبو العالية والسدى . ﴿ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ أى : من قبلك وبسبب اتباعنا لك واقتدائنا بدينك . كما قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴾ [الاعراف: ١٣١] . وكما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ﴾ [الحج: ١١] . وهكذا قال هؤلاء المنافقون الذين دخلوا فى الإسلام ظاهرا وهم كارهون له فى نفس الأمر؛ ولهذا إذا أصابهم شر إنما يسندونه إلى اتباعهم للنبي ﷺ ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ أى : الجميع بقضاء الله وقدره، وهو نافذ فى البرِّ والفاجر، والمؤمن والكافر .

ثم قال تعالى منكرأ على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شك وريب، وقلة فهم وعلم، وكثرة جهل وظلم: ﴿ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ .

ثم قال تعالى - مخاطباً للرسول ، والمراد جنس الإنسان ليحصل الجواب: ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ أى : من فضل الله ومنه ولطفه ورحمته ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ أى : فمن قبلك ، ومن عملك أنت ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠] . قال قتادة: ﴿ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ : عقوبة لك يا ابن آدم بذنبك . قال: وذكر لنا أن النبي ﷺ قال: ﴿ لَا يَصِيبُ رَجُلًا خَدَشَ عَوْدَ ، وَلَا عَثْرَةَ قَدَمِ ، وَلَا اخْتِلَاجَ عِرْقٍ ، إِلَّا بَذَنْبٍ ، وَمَا يَعْفُو اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرُ . ﴾ وهذا الذى أرسله قتادة قد روى متصلا فى الصحيح: «والذى نفسى بيده، لا يصيب المؤمن همٌّ ولا حزنٌ، ولا نصبٌ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياها» (١) . وروى ابن أبى حاتم عن مطرف بن عبد الله قال: ما تريدون من القدر؟ أما تكفيكم الآية التى فى سورة النساء: ﴿ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ أى : من نفسك؟! والله ما وكلُّوا إلى القدر وقد أمرُوا وإليه يصيرون. وهذا كلام مبين قوى، فى الرد على القدرية والجبرية أيضا .

وقوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾ أى : تبلغهم شرائع الله، وما يحبه ويرضاه، وما

(١) أثر قتادة رواه الطبرى (٩٩٦٩) . وذكره السيوطى (٢ / ١٨٥) أنه رواه أيضا عبد بن حميد . وأما الحديث المتصل، فإنى لم أجده بهذا اللفظ تماما . ولكن معناه ثابت فى الصحيحين من حديث عائشة ، ومن حديث أبى هريرة وأبى سعيد . انظر البخارى (١٠ / ٨٩ - ٩١ فتح) ومسلم (٢ / ٢٨٢) والمسند (١٤ / ٨٠) .

يكرهه ويأباه ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أى: على أنه أرسلك، وهو شهيد أيضا بينك وبينهم، وعالم بما تبلغهم إياه، وبما يردون عليك من الحق كفراً أو عناداً.

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأن من أطاعه فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، وما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى. روى ابن أبى حاتم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن عصانى فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعنى، ومن عصى الأمير فقد عصانى». وهذا الحديث ثابت فى الصحيحين (١).

وقوله: ﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أى: لا عليك منه، إن عليك إلا البلاغ، فمن تبعك سعد ونجا، وكان لك من الأجر نظير ما حصل له، ومن تولى عنك خاب وخسر، وليس عليك من أمره شيء، كما جاء فى الحديث: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه» (٢).

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ يخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرون الموافقة والطاعة ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أى: خرجوا وتواروا عنك ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أى: استسروا ليلاً فيما بينهم بغير ما أظهروه. فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾ أى: يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتبين، الذين هم موكلون بالعباد. والمعنى فى هذا التهديد: أنه تعالى أخبر بأنه عالم بما يضمرونه ويسرونه فيما بينهم، وما يتفقون عليه ليلاً، من مخالفة الرسول وعصيانه، وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة، وسيجزئهم على ذلك. كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرُّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَقُولُونَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٤٧].

وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أى: اصفح عنهم واحلم عليهم، ولا تؤاخذهم، ولا تكشف أمورهم للناس، ولا تحف منهم أيضا ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أى: كفى به ولياً وناصرأ ومعيناً لمن توكل عليه وأتاب إليه.

(١) مضى عند تفسير الآية: (٥٩) من سورة النساء .
(٢) هو جزء من حديث رواه أبو داود مرتين بإسناد صحيح (١٠٩٧ ، ٢١١٩) من حديث عبد الله بن مسعود .
وزاد فى آخره: «ولا يضر الله شيئاً» .

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾
 ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

يقول تعالى أمراً عباده بتدبر القرآن، وناهيا لهم عن الإعراض عنه، وعن تفهم معانيه المحكمة والفاظه البليغة، ومخبراً لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تضاد ولا تعارض؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد، فهو حق من حق؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ ثم قال: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ ﴾ أي: لو كان مفتعلاً مختلفاً، كما يقوله من يقوله من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم ﴿ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا ﴾ أي: اضطراباً وتضاداً ﴿ كَثِيرًا ﴾ أي: وهذا سالم من الاختلاف، فهو من عند الله. كما قال تعالى مخبراً عن الراسخين في العلم حيث قالوا: ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران: ٧] أي: محكمه ومتشابهه حق؛ فلهذا ردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، والذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه فغوا؛ ولهذا مدح تعالى الراسخين وذم الزائغين .

روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أحب أن لي به حُمُرُ النعم، أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ على باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم، فجلسنا حَجْرَةً، إذ ذكروا آية من القرآن، فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله ﷺ مُغَضَّباً حتى احمر وجهه، يرميهم بالتراب، ويقول: «مهلا يا قوم، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، بل يصدق بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه» ورواه أيضاً أحمد وابن ماجه مختصراً (١). وروى أحمد عن أبي عمران الجوني قال: كتب إلى عبد الله بن ربّاح، يحدث عن عبد الله بن عمرو قال: هَجَرْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَإِنَّا لَجُلُوسٌ إِذْ اخْتَلَفَ اثْنَانِ فِي آيَةٍ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا، فَقَالَ: «إِنَّمَا هَلَكْتَ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ». ورواه مسلم والنسائي (٢).

وقوله: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ﴾ إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها، فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة. وقد روى مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «كفى بالمرء كذباً أن يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ». وكذا رواه أبو داود (٣).

(١) الرواية الأولى المطولة في المسند (٦٧٠٢). والرواية المختصرة في المسند (٦٦٦٨) وابن ماجه (٨٥). وأسانيدهما كلها صحاح .

وقوله: « فجلسنا حجرة » : هي بفتح الحاء المهملة وسكون الجيم وفتح الراء ، أي : ناحية منفردين .

(٢) المسند (٦٨٠١) ومسلم (٣٠٤/٢) . وانظر أيضاً المسند (٦٨٤٥ ، ٦٨٤٦) .

(٣) مسلم (٥/١) . ورواه ابن حبان في صحيحه بنحوه (٢٩) بتحقيقنا ، وفضلنا تخريجه هناك .

وفى الصحيحين عن المغيرة بن شعبة: أن رسول الله ﷺ نهى عن قيل وقال ، أى: الذى يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبت، ولا تدبر، ولا تبين. وفى سنن أبى داود أن رسول الله ﷺ قال: «بئس مطية الرجل: زعموا» (١). وفى الصحيح: «من حدث بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين» (٢).

ويذكر هاهنا حديث عمر بن الخطاب المتفق على صحته ، حين بلغه أن رسول الله ﷺ طلق نساءه، فجاء من منزله حتى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك، فلم يصبر حتى استأذن على رسول الله ﷺ فاستفهمه: «أطلقت نساءك؟» قال: «لا». فقلت: «الله أكبر». وذكر الحديث بطوله. وعند مسلم: فقلت: «أطلقتهن؟» فقال: «لا». فقامت على باب المسجد فنادت بأعلى صوتي: «لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه». ونزلت هذه الآية: «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ» فكانت أنا استنبطت ذلك الأمر (٣).

ومعنى: «يَسْتَنْبِطُونَهُ» أى: يستخرجونه من معادنه، يقال: استنبط الرجل العين، إذا حفرها واستخرجها من قرارها. قوله: «لَاتَّبِعُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا» قال ابن عباس: يعنى المؤمنين.

﴿ فَتَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيمًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِنَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مَنَّا أَوْ رُدُّوهُا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾

يا أمر تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ أن يياشر القتال بنفسه، ومن نكل عليه فلا عليه منه؛ ولهذا قال: «لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ». روى ابن أبى حاتم عن أبى إسحاق قال: سألت البراء بن عازب عن الرجل يلقى المائة من العدو، فيقاتل، أياكون من قال الله فيه: «وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ؟» [البقرة: ١٩٥] قال: قد قال الله تعالى: «فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ». ورواه الإمام أحمد، عن سليمان بن داود، عن أبى بكر بن عيَّاش، عن أبى إسحاق قال: قلت للبراء: الرجل يحمل على المشركين، أهو من ألقى بيده إلى التهلكة؟ قال: لا، إن الله بعث رسوله ﷺ وقال: «فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ» إنما ذلك فى النفقة. وكذا رواه

(١) أبو داود (٤٩٧٢) من حديث أبى مسعود أو حذيفة ، على الشك .

(٢) مسلم (٥ / ١) من حديث سمرة بن جندب والمغيرة بن شعبة . ورواه ابن حبان فى صحيحه (٢٨) بتحقيقنا من حديث سمرة فقط .

(٣) إشارة إلى حديث طويل ، صحيح ثابت ، رواه الشيخان وغيرهما . وانظر المسند ، رقم (٢٢٢) .

ابن مردويه (١).

وقوله: ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: على القتال وورغهم فيه وشجعهم عليه كما قال لهم ﷺ يوم بدر، وهو يسوى الصفوف: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» (٢). وقد وردت أحاديث كثيرة فى الترغيب فى ذلك، فمن ذلك ما رواه البخارى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر فى سبيل الله أو جلس فى أرضه التى ولد فيها» قالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس بذلك؟ فقال: «إن فى الجنة مائة درجة، أعدّها الله للمجاهدين فى سبيل الله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة. وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة» (٣). وروى من حديث معاذ وأبى الدرداء وعبادة نحو ذلك. وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا سعيد، من رضى بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً نبياً، وجبت له الجنة». قال: فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدّها علىّ يا رسول الله. ففعل. ثم قال رسول الله ﷺ: «وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة فى الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء إلى الأرض». قال: وما هى يا رسول الله؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله». رواه مسلم (٤).

وقوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسِ الدِّينِ كَفْرًا﴾ أى: بتحريضك إياهم على القتال تنبعث همهم على مناجزة الأعداء، ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وأهله، ومقاومتهم ومصابرتهم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ أى: هو قادر عليهم فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَلُو بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

وقوله: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾ أى: من سعى فى أمر، فترتب عليه خير، كان له نصيب من ذلك ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾ أى: يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذى ترتب على سعيه ونيته، كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «اشفعوا توجروا، ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء» (٥). وقال مجاهد بن جبر: نزلت هذه الآية فى شفاعات الناس بعضهم لبعض. وقال الحسن البصرى: قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ﴾ ولم يقل: من يَشْفَعْ.

(١) أسانيد عند أحمد وابن أبى حاتم وابن مردويه - أسانيد صحاح . وهو فى المسند (٤ / ٢٨١ / حلى) . وذكره الهيثمى فى الزوائد (٥ / ٢٣٨) عن المسند ، وقال: «ورجاله رجال الصحيح ، غير سليمان بن داود الهاشمى ، وهو ثقة» .

(٢) من حديث رواه مسلم ١٠١ / ٢ ، عن أنس بن مالك .

(٣) البخارى (٦ / ٩ ، فتح ١٠) . ورواه أيضاً (١٣ / ٣٤٩ ، ٣٥٠) . وثبت فى الأصول المخطوطة والمطبوعة هنا : « وآتى الزكاة » بين الصلاة والصيام . وهذا الحرف لم يروه البخارى فى هذا الحديث يقيناً ، كما فصل ذلك الحافظ ابن حجر ، فلذلك حذفناه ، ولعل الحافظ ابن كثير ذكره من حفظه ، فدخلت عليه رواية فى رواية .

(٤) مسلم (٢ / ٩٧) . (٥) رواه البخارى (٣ / ٢٣٨ فتح) ومسلم (٢ / ٢٩٣) .

وقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّتَبِعًا﴾ قال ابن عباس، وعطاء، وقتادة أى : حفيظا. وقال مجاهد: شهيدا. وفى رواية عنه: حسيبا. وقال ابن جبير، والسدى، وابن زيد: قديرا. وقال عبد الله بن كثير: المقيت: المواظب وقال الضحاك: المقيت: الرزاق (١).

وقوله: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ أى : إذا سلم عليكم المسلم فردوا عليه أفضل مما سلم، أو ردوا عليه بمثل ما سلم ، فالزيادة مندوبة، والمماثلة مفروضة. روى ابن جرير عن سلمان الفارسي قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليك يا رسول الله. فقال: «وعليكم السلام ورحمة الله». ثم أتى آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله. فقال له رسول الله ﷺ: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته». ثم جاء آخر فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فقال له: «وعليك». فقال له الرجل: يا نبي الله، بأبى أنت وأمى، أذاك فلان وفلان فسلمنا عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت على. فقال: «إنك لم تدع لنا شيئا، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ فرددناها عليك» رواه ابن أبى حاتم معلقا، وراه ابن مردويه من طريق عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه، فذكره مثله . ولم أره فى المسند . والله أعلم (٢) . وفى هذا الحديث دلالة على أنه لا زيادة فى السلام على هذه الصفة: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ، إذ لو شرع أكثر من ذلك، لزاده رسول الله ﷺ . وروى الإمام أحمد عن عمران بن حصين؛ أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: السلام عليكم. فرد عليه، ثم جلس، فقال: «عشر». ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله. فرد عليه، ثم جلس، فقال: «عشرون». ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فرد عليه، ثم جلس، فقال: «ثلاثون». رواه أبو داود والترمذى والنسائى والبزار؟ قال الترمذى : حسن غريب . وقال البزار : قد روى هذا عن النبي ﷺ من وجوه، هذا أحسنها إسنادا (٣). وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: من عليك من خلق الله، فاردد عليه، وإن كان مجوسيا؛ ذلك بأن الله يقول: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ (٤).

فأما أهل الذمة فلا يُبدؤون بالسلام ولا يزدون، بل يرد عليهم بما ثبت فى الصحيحين، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم: السام عليك!!

(١) الذى رجح الطبرى أنه الصواب : أن معنى « المقيت » : التقدير . انظره (٨ / ٥٨٤) . والظاهر أن سائر المعانى المروية ترجع إلى هذا المعنى بالتأمل الدقيق .

(٢) الطبرى (٤٤ / ١٠٠) . وفصلنا تخريجه هناك ، وهو ليس فى المسند ، كما قال الحافظ ابن كثير . وذكره السيوطى (٢ / ١٨٨) أنه رواه أحمد فى كتاب الزهد . وزاد فى نسبه أيضا أنه رواه ابن المنذر والطبرانى ، وذكر أنه «بسنده حسن» . وهو فى الزوائد (٨ / ٣٣) عن رواية الطبرانى ، ومجموع أسانيده وما قيل فيها تدل على أنه حديث حسن على الأقل .

(٣) المسند (٤ / ٤٣٩ ، ٤٤٠ حلى) . وإسناده صحيح على شرط الشيخين .

(٤) ورواه الطبرى (٣٩ / ١٠٠)، وإسناده وإسناد ابن أبى حاتم صحيحان . ورواه البخارى فى الأدب المفرد (٧ / ١١٠) ، ولنظفه : «ردوا السلام على من كان ، يهوديا أو نصرانيا أو مجوسيا ، ذلك بأن الله يقول . . . » وإسناده صحيح أيضا . ونسبه السيوطى (٢ / ١٨٨) أيضا لابن أبى شيبه وابن أبى الدنيا وابن المنذر .

فقل: «وعليك». وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقة». وقال الحسن البصرى: السلام تطوع، والرد فريضة. وهذا الذى قاله هو قول العلماء قاطبة: أن الرد واجب على من سلم عليه، فيأثم إن لم يفعل؛ لأنه خالف أمر الله فى قوله: ﴿فَحِوُوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾.

وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إخبار بتوحيده وتفرده بالإلهية لجميع المخلوقات، وتضمن قسما، لقوله: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. وهذه اللام موطة للقسم، فقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر وقسم أنه سيجمع الأولين والآخرين فى صعيد واحد، فيجازى كل عامل بعمله. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ أى: لا أحد أصدق منه فى حديثه وخبره، ووعده ووعيده، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنْخِذُوا مِنْهُمْ وَآلِيَاءَ وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءَوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ آَعَزْتُمُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ السَّلَامُ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَىٰ الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعَزَلُوكُمْ وَيُقَاتِلُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَنَدِبُهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾

يقول تعالى منكرًا على المؤمنين فى اختلافهم فى المنافقين على قولين . واختلف فى سبب ذلك، فروى الإمام أحمد عن زيد بن ثابت: أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فىهم فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم. وفرقة تقول: لا. فانزل الله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إنها طيبة، وإنها تنفى الخبث كما ينفى الكبر خبث الحديد». أخرجاه فى الصحيحين (١). وقد ذكر ابن إسحاق فى وقعة أحد: أن عبد الله بن أبى سلول رجع يومئذ بثلاث الجيش، رجع بثلاثمائة وبقي النبي ﷺ فى سبعائة.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ﴾ أى: ردهم وأوقعهم فى الخطأ ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أى: بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول واتباعهم الباطل ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أى: لا طريق له إلى الهدى ولا مخلص له إليه.

ثم قال: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ أى: هم يودون لكم الضلالة لتستوا أتمم وإياهم فيها، وما ذاك إلا لشدة عداوتهم وبغضهم لكم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أى: تركوا الهجرة، ابن عباس. وقال السدى: أظهروا كفرهم ﴿فَخَذَرُوهُمْ وَأَقَلَّوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أى: لا توالوهم ولا تستنصروا بهم على الأعداء ما داموا كذلك.

ثم استثنى الله، سبحانه، من هؤلاء فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ أى: إلا الذين لجؤوا وتميزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة أو عقد ذمة، فاجعلوا حكمهم كحكمهم. وهذا قول السدى، وابن زيد، وابن جرير. وقد روى ابن أبي حاتم عن علي بن زيد بن جدعان، عن الحسن: أن سراقه بن مالك المدلجى حدثهم قال: لما ظهر - يعنى النبي ﷺ - على أهل بدر وأحد، وأسلم من حولهم، قال سراقه: بلغنى أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي - بنى مدلج - فأتيته فقلت: أنشدك النعمة. فقالوا: صه. فقال النبي ﷺ: «دعوه، ما تريد؟». قال: بلغنى أنك تريد أن تبعث إلى قومي، وأنا أريد أن توادعهم، فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا فى الإسلام، وإن لم يسلموا لم تخشُن قلوب قومك عليهم. فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد بن الوليد، فقال: «أذهب معه فافعل ما يريد». فصالحهم خالد على ألا يعينوا على رسول الله ﷺ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم. فأنزل الله: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾. ورواه ابن مردويه وقال: فأنزل الله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾، فكان من وصل إليهم كانوا معهم على عهدهم^(١). وهذا أنسب لسياق الكلام. وفى صحيح البخارى فى قصة صلح الحديبية: فكان من أحب أن يدخل فى صلح قريش وعهدهم، ومن أحب أن يدخل فى صلح محمد وأصحابه وعهدهم.

وقوله: ﴿أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتٌ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يَقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾: هؤلاء قوم آخرون من المُستثنين عن الأمر بقتالهم، وهم الذين يجيئون إلى المصاف، وهم حَصْرَةٌ صدورهم، أى: ضيقة صدورهم مَبْغُضِينَ أن يقاتلوكم، ولا يهون عليهم أيضا أن يقاتلوا قومهم معكم، بل هم لا لكم ولا عليكم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطْنَاهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾ أى: من لطفه بكم أن كفهم عنكم ﴿فَإِنِ اعْتَزَلْتُمْ فَلَهُمُ الْيَمِينُ مِمَّا أَغْوَيْنَا﴾ أى: المسألة ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ أى: فليس لكم

(١) نسبه السيوطى أيضاً (٢ / ١٩١) لابن أبى شيبة وأبى نعيم فى الدلائل، وإسناد ابن أبى حاتم إلى الحسن إسناد صحيح، إلا أن الكلام فى سماع الحسن من سراقه بن مالك. فى المراسيل لابن أبى حاتم (ص ١٥) عن على بن المدينى، قال: «روى الحسن بن أبى الحسن عن سراقه حدثهم، من رواية على بن زيد بن جدعان، وهو إسناد ينبو عنه القلب: أن يكون الحسن سمع من سراقه، إلا أن يكون معنى حديثهم: حدث الناس، فهذا أشبه». ثم روى عن عبد الله بن أحمد قال: «سئل أبى: سمع الحسن من سراقه؟ قال: لا، هذا على بن زيد يرويه، كأنه لم يفتح به». وهذا مبنى على الرواية أن سراقه مات سنة ٢٤. ولكن فى رواية أخرى أنه مات بعد مقتل عثمان، أى بعد سنة ٣٥. فإن يكن ذلك يكن سماعه منه محتملاً جداً، إذ أنه كان إذ ذاك مميزاً، فى الثقات لابن حبان أن الحسن احتلم سنة ٣٧، والثابت أنه مات سنة ١١٠ عن ٨٨ سنة، فكانه ولد سنة ٢٢. ويؤيد سماعه منه تصريحه هنا بأن سراقه «حدثهم».

أن تقاتلوهم، ما دامت حالهم كذلك، وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بنى هاشم مع المشركين، فحضروا القتال وهم كارهون، كالعباس ونحوه، ولهذا نهى النبي ﷺ يومئذ عن قتل العباس وعبر بأسره.

وقوله: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ : هؤلاء فى الصورة الظاهرة كمن تقدمهم، ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك، فإن هؤلاء قوم منافقون يظهرن للنبي ﷺ ولأصحابه الإسلام؛ ليأمنوا بذلك عندهم على دمايتهم وأموالهم وذرايتهم، ويصانعون الكفار فى الباطن، فيعبدون معهم ما يعبدون، ليأمنوا بذلك عندهم، وهم فى الباطن مع أولئك، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤]. وقال هاهنا: ﴿كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ أى: انهمكوا فيها. وقال السدى: والفتنة هاهنا: الشرك. وحكى ابن جرير، عن مجاهد: أنها نزلت فى قوم من أهل مكة، كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون فى الأوثان، يتغون بذلك أن يأمنوا هاهنا وهاهنا، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْتَزْلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلْمَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أى: عن القتال ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أى: أين لقيتموهم ﴿وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أى: بينا واضحا.

﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَمَنَّهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾

يقول تعالى: ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه، كما ثبت فى الصحيحين، عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والشيب الزانى، والتارك لدينه المفارق للجماعة». ثم إذا وقع شىء من هذه الثلاث، فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله، وإنما ذلك إلى الإمام أو نائبه.

وقوله: ﴿الْأَخْطَا﴾ قالوا: هو استثناء منقطع. واختلف فى سبب نزول هذه الآية، فقال مجاهد وغير واحد: نزلت فى عياش بن أبى ربيعة أخى أبى جهل لأمه - وهى أسماء بنت مخزبة - وذلك أنه قتل رجلا كان يعذبه مع أخيه على الإسلام، وهو الحارث بن يزيد العامرى، فأضمر له عياش السوء، فأسلم ذلك الرجل وهاجر، وعياش لا يشعر، فلما كان يوم الفتح رآه، فظن أنه على دينه، فحمل عليه فقتله. فأنزل الله هذه الآية.

وقوله : «وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ ﴿٩٢﴾ هذان واجبان في قتل الخطأ، أحدهما: الكفارة لما ارتكبه من الذنب العظيم، وإن كان خطأ، ومن شرطها أن تكون عتق رقبة مؤمنة فلا تجزئ الكافرة . وحكى ابن جرير، عن ابن عباس، والشعبي، والنخعي، والحسن البصرى أنهم قالوا: لا يجزئ الصغير حتى يكون قاصداً للإيمان . واختار ابن جرير أنه إن كان مولوداً بين أبوين مسلمين أجزأ، وإلا فلا . والذي عليه الجمهور: أنه متى كان مسلماً صح عتقه عن الكفارة، سواء كان صغيراً أو كبيراً . روى الإمام أحمد عن رجل من الأنصار؛ أنه جاء بأمة سوداء، فقال: يا رسول الله، إن على رقبة مؤمنة، فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعتقتها . فقال لها رسول الله ﷺ: «أتشهدين أن لا إله إلا الله؟» قالت: نعم . قال: «أتشهدين أنى رسول الله؟» قالت: نعم . قال: «أتؤمنين بالبعث بعد الموت؟» قالت: نعم، قال: «أعتقتها» . وهذا إسناد صحيح، وجهالة الصحابي لا تضر^(١) . وفى موطأ الإمام مالك، ومسندي الشافعي وأحمد، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود والنسائي، عن معاوية بن الحكم: أنه لما جاء بتلك الجارية السوداء قال لها رسول الله ﷺ: «أين الله؟» قالت: فى السماء . قال: «من أنا؟» . قالت: أنت رسول الله . قال: «أعتقتها فإنها مؤمنة»^(٢) .

وقوله : «وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ ﴿٩٣﴾ هو الواجب فيما بين القاتل وأهل القتيل، عوضاً لهم عما فاتهم من قريبهم . وهذه الدية إنما تجب أحماساً، كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن ابن مسعود ، قال: قضى رسول الله ﷺ فى دية الخطأ: عشرين بنت مخاض، وعشرين بنى مخاض ذكورا، وعشرين بنت لبون، وعشرين جذاعاً ، وعشرين حقة . لفظ النسائي، قال الترمذى: لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وقد روى عن عبد الله موقوفاً^(٣) . وقيل: تجب أرباعاً . وهذه الدية إنما تجب على عاقلة القاتل، لا فى ماله، قال الشافعي: لم أعلم مخالفاً أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة، وهو أكثر من حديث الخاصة . وهذا الذى أشار إليه، رحمه الله، قد ثبت فى غير ما حديث، فمن ذلك: ما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة قال: اقتلت امرأتان من هُدَيْلٍ، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما فى بطنها، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ، فقضى أن دية جنينها غُرَّةٌ ، عبد أو أمة، وقضى بدية المرأة على عاقلتها . وهذا يقتضى

(١) المسند (١٥٨٠٨) . ورواه أيضاً إمام الأئمة ابن خزيمة فى كتاب التوحيد ، (ص ٨٢) . وهو حديث صحيح متصل . وذكره الهيثمى فى الزوائد (١/ ٢٣ ، ٤/ ٢٤٤) ، وقال فى الموضعين : « رواه أحمد ، ورجاله رجال الصحيح » . ورواه مالك فى الموطأ ، (ص ٧٧٧) مرسلًا . وقد ثبت وصله بروايته أحمد وابن خزيمة . وثبت معناه أيضاً من حديث أبى هريرة ، فى المسند (٧٨٩٣) ، وإسناده صحيح . وأشارنا إلى هذا هناك .

(٢) هو جزء من حديث طويل فى صحيح مسلم (١٥١/١) . وقد مضى جزء آخر منه (١٤٠/٢) منسوباً لصحيح مسلم فقط . وقد أطلق الحافظ ابن كثير هنا أن حادثة الرجل من الأنصار فى الحديث السابق - هى حادثة معاوية بن الحكم نفسها ، فقال : « لما جاء بتلك الجارية السوداء » ! وفى هذا نظر ، لأن معاوية بن الحكم السلمى : من بنى سليم - بضم السين - وبنو سليم ليسوا من الأنصار يقيناً ، ففى كلامه هذا تساهل . وتعدد الحادئين أقرب إلى الصواب .

(٣) المسند مختصراً ومطولاً : (٣٦٣٥ ، ٤٣٠٣) والنسائي (٢/ ٢٤٨) والترمذى (٢/ ٣٠٢ ، ٣٠٣) .

أن حكم عمد الخطأ حكم الخطأ المحض فى وجوب الدية، لكن هذا تجب فيه الدية أثلاثاً كالعمد، لشبهه به. وفى صحيح البخارى، عن عبد الله بن عمر قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا. فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا!. فجعل خالد يقتلهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فرفع يديه وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد». وبعث علياً فودى قتلاهم وما أتلف من أموالهم، حتى ميلغة الكلب (١). وهذا يؤخذ منه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون فى بيت المال.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَصُدُّوْا﴾ أى: فتجب فيه الدية مسلمة إلى أهله إلا أن يتصدقوا بها فلا تجب.

وقوله: ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوِّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أى: إذا كان القتل مؤمناً، ولكن أولياؤه من الكفار أهل حرب، فلا دية لهم، وعلى قاتله تحرير رقبة مؤمنة لا غير.

وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ الآية، أى: فإن كان القتل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة، فلهم دية قتلهم، فإن كان مؤمناً فدية كاملة، وكذا إن كان كافراً أيضاً عند طائفة من العلماء. وقيل: يجب فى الكافر نصف دية المسلم، وقيل: ثلثها، ويجب أيضاً على القاتل تحرير رقبة مؤمنة

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَابِعَيْنِ﴾ أى: لا إفطار بينهما، بل يسرد صومهما إلى آخرهما،

(١) حديث ابن عمر رواه البخارى فى موضعين اثنين فقط (٨ / ٤٥ ، ٤٦ ، ١٣ / ١٥٨ فتح) ورواه أحمد (٦٣٨٢) والنسائى (٢ / ٣٠٨) . وآخره عندهم كلهم : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد » . وهو عندهم بأطول مما هنا قليلاً . ولكن قوله : « وبعث علياً » إلخ - ليس من حديث ابن عمر على اليقين ، ولا يوجد فى شيء من رواياته . بل هو تلخيص بالمعنى من رواية ابن إسحاق فى السيرة عن حكيم بن حكيم عن أبى جعفر محمد بن على بن الحسين - وهو أبو جعفر الباقر - مرسلًا ، لأن الباقر تابعى معروف . فهذه الرواية الملخصة عن حديث مرسل ، وهم الحافظ ابن كثير ، فأدرجها فى حديث ابن عمر الصحيح المتصل ، وليست منه ! والغالب أنه كتب من حفظه ، فاختصر حديث ابن عمر وأدرج فيه ملخصاً لرواية أخرى غير متصلة . ولذلك فصلنا حديث ابن عمر المتصل عن رواية الباقر المرسلة . وقد استيقنا من ذلك ، لأن الروايات لحديث ابن عمر فى البخارى والمسند والنسائى ليس فيها هذه الزيادة ، ولأن الحافظ ابن حجر أشار إليها فى الفتح (٨ / ٤٦) وذكر أنها من رواية الباقر ، ولم ينسبها لغيره . بل إن الحافظ ابن كثير نفسه ، نقل فى التاريخ (٤ / ٣١٢ - ٣١٤) رواية ابن إسحاق عن حكيم عن الباقر - مطولة ، ثم نقل حديث ابن عمر من رواية المسند (٦٣٨٢) على الصواب ، ثم ذكر أنه رواه البخارى والنسائى ، وانظر رواية ابن إسحاق أيضاً فى سيرة ابن هشام (ص ٨٣٣ - ٨٣٩) . و « بنو جذيمة » : بفتح الجيم وكسر الذال المعجمة . ووقع فى المطبوعة مصححاً . وضبط فى النهاية لابن الأثير بالقلم بوضع ضمة فوق الجيم وفتح فوق الذال ! وهو تصحيف أيضاً . وقوله : « صبأنا » : أصل معناه : خرجنا من دين إلى دين ، وكانت قريش تقول لكل من أسلم : « صبأ » - تريد الذم . فلما سمع خالد من بنى جذيمة ذلك ظنهم أنهم يريدون هذا المعنى ، فلم يعرف أنهم أخطؤوا لفظاً وأصابوا معنى . فلذلك قتلهم متأولاً . وقوله فى الرواية الأخيرة المدرجة : « ميلغة الكلب » : بكسر الميم ، وهى الإناء الذى يبلغ فيه الكلب . يعنى أنه أعطاهم قيمة كل ما ذهب منهم ، حتى الشيء الضئيل .

فإن أظفر من غير عذر - من مرض أو حيض أو نفاس - استأنف. واختلفوا في السفر: هل يقطع أم لا؟ على قولين.

وقوله: ﴿تَوْبَةٌ مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أى: هذه توبة القاتل خطأ، إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين. واختلفوا فيمن لا يستطيع الصيام: هل يجب عليه إطعام ستين مسكينا، كما في كفارة الظهار؟ على قولين: أحدهما: نعم. كما هو منصوص عليه في كفارة الظهار، وإنما لم يذكر هاهنا؛ لأن هذا مقام تهديد وتخويف وتحذير، فلا يناسب أن يذكر فيه الإطعام، لما فيه من التسهيل والترخيص. والقول الثانى: لا يعدل إلى الطعام؛ لأنه لو كان واجبا لما أصر بيانه عن وقت الحاجة.

ثم لما بين تعالى حكم القتل الخطأ، شرع في بيان حكم القتل العمد، فقال: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم، الذى هو مقرون بالشرك بالله فى غير ما آية فى كتاب الله، حيث يقول، سبحانه، فى سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ الآية [الفرقان: ٦٨]. وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

والأحاديث فى تحريم القتل كثيرة جدا. من ذلك: ما ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء». وفى الحديث الآخر الذى رواه أبو داود عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال المؤمن مُعْتَقًا صالحا ما لم يصب دما حراما، فإذا أصاب دما حراما بَلَّحَ» (١). وفى حديث آخر: «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم» (٢). وقد كان ابن عباس، رضى الله عنهما، يرى أنه لا توبة للقاتل عمدا المؤمن. وروى البخارى عن سعيد بن جبيرة قال: [آية] اختلف فيها أهل الكوفة، فَرَحَلْتُ إلى ابن عباس فسألته عنها؟ فقال: نزلت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾، هى آخر ما نزل، وما نسخها شىء ورواه مسلم والنسائى وأبو داود (٣). وروى ابن جرير عن سالم بن أبى الجعد قال: كنا عند ابن عباس بعد ما كُفَّ بصره، فأثاه رجل

(١) هو من حديث طويل رواه أبو داود (٤٢٧٠) عن أم الدرداء، وعن عبادة بن الصامت. وقوله: «معنقا»: بضم الميم وسكون العين وكسر النون وآخر قاف، أى: سريع السير خفيف الظهر. وقوله: «بلح»: بفتح الباء وتشديد اللام المفتوحة وآخره حاء مهملة، أى: أعيا فى السير وانقطع.

(٢) رواه الترمذى (٣٠٦/٢) والنسائى (١٦٣/٢) من حديث عبد الله بن عمرو، مرفوعا وموقوفا. ورواه ابن ماجه (٢٦١٩) من حديث البراء بن عازب مرفوعا، وصحح البوصيرى إسناده. ورواه النسائى أيضا (١٦٣/٢) بنحوه، من حديث بريدة. وإسناده صحيح.

(٣) البخارى (١٩٣/٨، ١٩٤ فتح). وكلمة [آية] سقطت من الأصول المخطوطة والمطبوعة، وزدناها من البخارى.

فناداه: يا عبد الله بن عباس، ما ترى في رجل قتل مؤمنا متعمدا؟ فقال: «جَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا». قال: فأرأيت إن تاب وعمل صالحا ثم اهتدى؟! قال ابن عباس: ثكلته أمه! وأنى له التوبة والهدى؟ والذي نفسى بيده، لقد سمعت نبيكم ﷺ يقول: «ثكلته أمه، قاتل مؤمنا متعمدا، جاء يوم القيامة آخذه يمينه أو بشماله، تَشَخَّبَ أوداجه، في قُبُلِ عرش الرحمن، يلزم قاتله بيده الأخرى، يقول: يارب، سل هذا فيم قتلنى؟ وإيم الذى نفس عبد الله بيده، لقد أنزلت هذه الآية، فما نسختها من آية حتى قبض نبيكم ﷺ، وما نزل بعدها من برهان. وقد رواه أحمد والنسائي وابن ماجه (١). وقد روى هذا عن ابن عباس من طرق كثيرة.

ومن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف: زيد بن ثابت، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمرو، وأبوسلمة بن عبد الرحمن، وعبيد بن عمير، والحسن، وقتادة، والضحاك، نقله ابن أبي حاتم.

وفى الباب أحاديث كثيرة: فمن ذلك ما رواه ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «يجيء المقتول متعلقا بقاتله يوم القيامة، آخذًا رأسه بيده الأخرى فيقول: يا رب، سل هذا فيم قتلنى؟» قال: «فيقول: قتلته لتكون العزة لك. فيقول: فإنها لى». قال: «ويجىء آخر متعلقا بقاتله، فيقول: رب، سل هذا فيم قتلنى؟» قال: «فيقول قتلته لتكون العزة لفلان». قال: «فإنها ليست له فيبوء بإثمه». قال: «فيهوى فى النار سبعين خريفا». ورواه النسائي (٢). وروى الإمام أحمد عن معاوية، سمعت النبي ﷺ يقول: «كل ذنب عسى الله أن يغفره، إلا الرجل يموت كافرا، أو الرجل يقتل مؤمنا متعمدا». رواه النسائي (٣). وروى الإمام أحمد عن عتبة بن مالك الليثي قال: بعث رسول الله ﷺ سرية، فأغارت على قوم، فشد من القوم رجل، فاتبعه رجل من السرية شاهرا سيفه، فقال الشاد من القوم: إني مسلم. فلم ينظر فيما قال، فقتله، فَمَنَى الحديث إلى رسول الله ﷺ، فقال فيه قولاً شديداً، فبلغ القاتل. فبينما رسول الله ﷺ يخطب، إذ قال القاتل: والله ما قال الذى قال إلا تعودا من القتل. قال: فأعرض رسول الله ﷺ عنه وعن قبله من الناس، وأخذ فى خطبته، ثم قال أيضا: يا رسول الله، ما قال الذى قال إلا تعودا من القتل، فأعرض عنه وعن قبله من الناس، وأخذ فى خطبته، ثم لم يصبر، فقال الثالثة: والله - يا رسول الله - ما قال الذى قال إلا تعودا من القتل. فأقبل عليه رسول الله ﷺ تُعَرَّفُ المساءة فى وجهه، فقال: «إن الله أبى على من قتل مؤمنا» ثلاثاً. ورواه النسائي (٤).

(١) الطبرى (١٠١٨٨)، وإسناده صحيح. ورواه أيضا مطولا ومختصرا (١٠١٨٩ - ١٠١٩١)، والمسند مطولا ومختصرا (١٩٤١، ٢١٤٢، ٢٦٨٣) بأسانيد صحاح.

(٢) النسائي (١٦٤/٢). وإسناده صحيح.

(٣) مضى عند تفسير الآيتين: (٤٧، ٤٨) من سورة النساء.

(٤) المسند (٥/٢٨٨، ٢٨٩ حلى)، وذكره الهيثمى فى الزوائد (١/٢٦، ٢٧) وقال: «رواه الطبرانى فى الكبير وأحمد وأبو يعلى، ورجاله ثقات كلهم»، وهو كما قال. وهذا يدل على أن نسبة الحفاظ ابن كثير إياه للنسائي إنما يريد به السنن الكبرى، ولم نجد فى السنن الصغرى.

والذى عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها: أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله عز وجل، فإن تاب وأتاب وخشع وخضع، وعمل عملاً صالحاً، بدل الله سيئاته حسنات، وعوض المقتول من ظلامته وأرضاه عن طلابته.

قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا. إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩]، وهذا خبر لا يجوز نسخه. وحمله على المشركين، وحمل هذه الآية على المؤمنين خلاف الظاهر، ويحتاج حمله إلى دليل، والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣]. وهذا عام في جميع الذنوب، من كفر وشرك، وشك ونفاق، وقتل وفسق، وغير ذلك: كل من تاب من أى ذلك تاب الله عليه.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨]. فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك، وهى مذكورة فى هذه السورة الكريمة بعد هذه الآية وقبلها، لتقوية الرجاء، والله أعلم. وثبت فى الصحيحين خبر الإسرائيلى الذى قتل مائة نفس، ثم سأل عالماً: هل لى من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟! ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه، فهاجر إليه، فمات فى الطريق، فقبضته ملائكة الرحمة. وإن كان هذا فى بنى إسرائيل، فلأن يكون فى هذه الأمة التوبة مقبولة بطريق الأولى والأخرى؛ لأن الله وضع عنا الاغلال والأصار التى كانت عليهم، وبعث نبينا بالحنيفية السمحة. فأما الآية الكريمة، وهى قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا ﴾ الآية، فقد قال أبو هريرة وجماعة من السلف: هذا جزاؤه إن جازاه، وقد رواه ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعاً، ولكن لا يصح. ومعنى هذه الصيغة: أن هذا جزاؤه إن جوزى عليه، وكذا كل وعيد على ذنب، لكن قد يكون كذلك معارض من أعمال صالحة تمنع وصول ذلك الجزاء إليه، على قولى أصحاب الموازنة أو الإحباط. وهذا أحسن ما يسلك فى باب الوعيد، والله أعلم بالصواب. وبتقدير دخول القاتل فى النار، إما على قول ابن عباس ومن وافقه أنه لا توبة له، أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحاً ينجو به، فليس بمخلد فيها أبداً، بل الخلود هو المكث الطويل. وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ: أنه يخرج من النار من كان فى قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان. وأما حديث معاوية: «كل ذنب عسى الله أن يغفره، إلا الرجل يموت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً»، ف«عسى» للترجى، فإذا انتفى الترجى فى هاتين الصورتين لا ينتفى وقوع ذلك فى أحدهما، وهو القتل؛ لما ذكرنا من الأدلة. وأما من مات كافراً؛ فالنص أنه لا يُغفر له البتة، وأما مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة، فإنه حق من حقوق الأدميين وهى لا تسقط بالتوبة، ولا فرق بين المقتول والمسروق منه، والمغضوب منه والمقدوف وسائر حقوق الأدميين، فإن الإجماع منعقد على أنها لا تسقط بالتوبة،

ولابد من أدائها إليهم في صحة التوبة، فإن تعذر ذلك فلا بد من الطلابة يوم القيامة، لكن لا يلزم من وقوع الطلابة وقوع المجازاة، وقد يكون للقاتل أعمال صالحة تصرف إلى المقتول أو بعضها، ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة، أو يعوض الله المقتول من فضله بما يشاء، من قصور الجنة ونعيمها، ورفع درجته فيها، ونحو ذلك، والله أعلم.

ثم للقتل العمد أحكام في الدنيا وأحكام في الآخرة، فأما الدنيا فتسلط أولياء المقتول عليه، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣]، ثم هم مخيرون بين أن يقتلوا، أو يعفوا، أو يأخذوا دية مغلظة اثلاثاً: ثلاثون حقة، وثلاثون جذعة، وأربعون حلفه، كما هو مقرر في كتب الأحكام.

واختلف الأئمة: هل تجب عليه كفارة عتق رقبة، أو صيام شهرين متتابعين، أو إطعام؟ على أحد القولين، كما تقدم في كفارة الخطأ؟ على قولين: فالشافعي وأصحابه وطائفة من العلماء يقولون: نعم، يجب عليه؛ لأنه إذا وجبت عليه الكفارة في الخطأ فلأن تجب في العمد أولى. وطرردوا هذا في كفارة اليمين الغموس، واعتضدوا بقضاء الصلاة المتروكة عمداً، كما أجمعوا على ذلك في الخطأ. وقال أصحاب الإمام أحمد وآخرون: قتل العمد أعظم من أن يكفر، فلا كفارة فيه، وكذا اليمين الغموس، ولا سبيل لهم إلى الفرق بين هاتين الصورتين وبين الصلاة المتروكة عمداً، فإنهم يقولون: بوجوب قضائها وإن تركت عمداً.

وقد احتج من ذهب إلى وجوب الكفارة في قتل العمد بما رواه الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع قال: أتى النبي ﷺ نفر من بنى سليم، فقالوا: إن صاحبنا لنا قد أوجب. قال: «فليعتق رقبة، يفدى الله بكل عضو منها عضواً منه من النار» ورواه أبو داود والنسائي (١).

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ ءالسَّلَامُ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَعَادِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: مر رجل من بنى سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ يرمى غنما له، فسلم عليهم فقالوا: لا يسلم علينا إلا ليتعوذ منا. فعمدوا إليه فقتلوه، وأتوا بغنمه النبي ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ ءالسَّلَامُ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ ورواه الترمذى، وقال: حسن صحيح. والحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه وابن جرير (٢).

(١) المسند (١٧٠٥٢) وأبو داود، بنحوه (٢٩٦٤). ورواه أحمد أيضاً قبل ذلك بنحوه (١٦٠٧٧، ١٦٠٧٩). وإسناده صحيح.

(٢) المسند (٢٠٢٣). ورواه أيضاً (٢٤٦٢، ٢٩٨٨) والترمذى (٩٠/٤) والحاكم (٢/٢٣٥) وواقفه الذهبى على تصحيحه، والطبرى (١٠٢١٧). ورواه البخارى (١٩٤/٨) فتح مختصراً بنحوه، وفيه تفسير ابن عباس «عرض الحياة الدنيا» بأنه «تلك الغنمة». ورواه سعيد بن منصور أيضاً، بنحوه مختصراً، دون تفسير ابن عباس.

الله ﷺ إلى إصم، فخرجت في نفر من المسلمين، فيهم: أبو قتادة الخارث بن ربیع، ومُحَلَّم بن جثامة بن قيس، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إصم مر بنا عامر بن الأصبط الأشجعي، على قعود له، معه مُتَيْع ووطب من لبن، فلما مر بنا سلم علينا، فأمسكنا عنه، وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله، لشيء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومُتَيْع، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ وأخبرناه الخبر، نزل فينا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿خَيْرًا﴾. تفرد به أحمد (١). وروى ابن جرير عن ابن عمر قال: بعث رسول الله ﷺ مُحَلَّم بن جثامة مبعثًا، فلقبهم عامر بن الأصبط، فحياهم بتحية الإسلام وكانت بينهم حنة في الجاهلية، فرماه محلم بسهم فقتله، فجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ، فتكلم فيه عيينة والأقرع، فقال الأقرع: يا رسول الله، سرُّ اليوم وغير غدا. فقال عيينة: لا والله، حتى تذوق نساؤه من الثكل ما ذاق نساؤي. فجاء محلم في بردين، فجلس بين يدي رسول الله ﷺ ليستغفر له، فقال رسول الله ﷺ: «لا غفر الله لك». فقام وهو يتلقى دموعه ببرديه، فما مضت له سابعة حتى مات، ودفنوه، ولفظته الأرض، فجاؤوا إلى النبي ﷺ فذكروا ذلك له، فقال: «إن الأرض تقبل من هو شر من صاحبكم، ولكن الله أراد أن يعظكم» ثم طرحوه في جبل، وألقوا عليه الحجارة، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَيْنَا﴾ الآية (٢). وروى البزار عن ابن عباس قال: بعث

(١) المسند (٦ / ١١ حلى). ورواه أيضا الطبري (١٠٢١٢)، وذكره الهيثمي في الزوائد (٨ / ٧) وقال: «رواه أحمد والطبراني، ورجاله ثقات». ورواه ابن سعد بنحوه، بإسناد آخر (٤ / ٢٢ / ٢٣). وذكره أيضا (٢ / ٩٦)، وزاد السيوطي (٢ / ١٩٩، ٢٠٠) نسبه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي نعيم والبيهقي في الدلائل.

(٢) الطبري (١٠٢١١). وذكره السيوطي (٢ / ٢٠٠) مختصراً، ولم ينسبه لغير الطبري. وفي إسناد الطبري ضعف، لأن شيخه «سفيان بن وكيع» تكلموا فيه من قبل حفظه وعدم ضبطه. ولكن حديث عبد الله بن أبي حدر، صحيح له. وله شاهد آخر صحيح: فقد نقل الهيثمي في الزوائد (١ / ٢٧) نحو هذه القصة: «عن جندب بن سفيان - رجل من بجيلة - قال: إني لعند رسول الله ﷺ حين جاء بشير من سريره، فأخبره بالنصر الذي نصر الله سريره وبالفتح الذي فتح الله لهم، وقال: يا رسول الله، بينا نحن نطلب القوم وقد هزمهم الله تعالى، إذ سحقت رجلا بالسيف، فواقعه وهو يسعى وهو يقول إني مسلم، إني مسلم، قال: فقتلته؟ فقال: يا رسول الله، إنما تعود، قال: فهلا شققت عن قلبه فنظرت أصادق هو أم كاذب؟ قال: لو شققت عن قلبه ما كان علمي! هل قلبه إلا بضعة من لحم؟ قال: لا ما في قلبه تعلم، ولا لسانه صدقت، قال: يا رسول الله، استغفر لي، قال: لا أستغفر لك، فمات ذلك الرجل فدفنوه، فأصبح على وجه الأرض، ثم دفنوه فأصبح على وجه الأرض، ثلاث مرات، فلما رأوا ذلك استحيوا وخزوا مما لقي، فاحتملوه فآلقوه في شعب من تلك الشعاب». قال الهيثمي: «رواه الطبراني في الكبير وأبو يعلى، وفي إسناد عبد الحميد بن بهرام وشهر بن حوشب، وقد اختلف في الاحتجاج بهما». أقول: وكلاهما ثقة. وقال الهيثمي أيضاً: «قلت: هو في الصحيح باختصار». أقول: يشير بذلك إلى وقعة أخرى رواها مسلم (١ / ٣٩، ٤٠) من حديث جندب أيضاً، ولكن تلك الوقعة يظن جندب أنها مع أسامة بن زيد، ولم يذكر موت ذلك القتال. أما هذه القصة - التي من رواية ابن عمر ومن رواية جندب، والتي فيها موت القتال ولفظ الأرض إياه - فقد روى ابن ماجه (٣٩٣٠) نحوها من حديث عمران بن حصين أيضاً بإسنادين صحيحين. فقد تأيدت من أوجه مختلفة يقوى بعضها بعضاً. وقد مضى ما يؤيد أكثر معناها أيضاً (ص ٦٥٨) من حديث عقبه بن مالك.

رسول الله ﷺ سرية، فيها المقداد بن الأسود، فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا، وبقي رجل له مال كثير لم يبرح، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله. وأهوى إليه المقداد فقتله، فقال له رجل من أصحابه: أقتلت رجلاً شهد أن لا إله إلا الله؟! والله لأذكرن ذلك للنبي ﷺ. فلما قدموا على رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، إن رجلاً شهد أن لا إله إلا الله، فقتله المقداد. فقال: «ادعوا لى المقداد. يا مقداد، أقتلت رجلاً يقول: لا إله إلا الله؟ فكيف لك بلا إله إلا الله غدا؟». قال: فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ فقال رسول الله ﷺ للمقداد: «كان رجل مؤمن يخفى إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانه، فقتلته، وكذلك كنت تخفى إيمانك بمكة قبل» (١).

وقوله: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ﴾ أى: خير مما رغبتم فيه من عرض الحياة الدنيا الذى حملكم على قتل مثل هذا الذى ألقى إليكم السلام، وأظهر لكم الإيمان، فتغافلتم عنه، واتهمتموه بالمصانعة والتقية؛ لتبتغوا عرض الحياة الدنيا، فما عند الله من الرزق الحلال خير لكم من مال هذا.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أى: قد كنتم من قبل هذه الحال كهذا الذى يسر إيمانه ويخفيه من قومه، كما تقدم فى الحديث المرفوع آنفاً، وكما قال تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [الأنفال: ٢٦]، وهذا مذهب سعيد بن جبير، واختيار ابن جرير. وقوله: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ تأكيد لما تقدم. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قال سعيد بن جبير: هذا تهديد ووعيد.

﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾

(١) ذكره الهيثمى فى الزوائد (٧ / ٨ ، ٩) وقال : « رواه البزار ، وإسناده جيد » . وقد روى البخارى (١٢ / ١٦٨ فتح) - بعضه مختصراً تعليقاً ، فقال الحافظ : « وهذا التعليق وصله البزار والدارقطنى فى الأفراد والطبرانى فى الكبير » . وكذلك نسب له السيوطى (٢ / ٢٠٠) . وأشار إليه الحافظ فى الفتح قبل ذلك (٨ / ١٩٤) منسوباً للبزار فقط . وأشار إليه فى التهذيب بإيجاز (٢ / ٣٣) . وشار إليه فيه مفصلاً (٢ / ٩٤ ، ٩٥) فى ترجمة « جعفر بن سلمة » ، فأشار لرواية البخارى المعلقة ، ثم قال : « ووصله البزار والطبرانى والدارقطنى فى الأفراد - كلهم من طريق جعفر بن سلمة هذا عن المسمى . وقال البزار : لا نعلمه يروى عن ابن عباس إلا من هذا الوجه ، ولا له عنه إلا هذا الطريق . وقال الدارقطنى : تفرد به حبيب بن أبى عمرة ، وتفرد به عنه المسمى . قلت [القائل ابن حجر] : وإنما تفرد المسمى بوصله ، وإلا فقد أخرجه الطبرى فى التفسير والحديث بن أبى أسامة فى مسنده ، من طريق سفيان الثورى عن حبيب عن سعيد بن جبير - مرسلًا ، لم يذكر ابن عباس . وهو يشير إلى رواية الطبرى (٢٢٤ / ١) . ووقع فى مطبوعة التهذيب : « الطبرانى » ، وهو خطأ مطبعى يقيناً . وثبت على الصواب فى الفتح (١٢ / ١٦٨) .

روى البخارى عن البراء قال: لما نزلت : ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال النبي ﷺ : « ادع فلانا » فجاءه ومعه الدواة واللوح والكتف ، فقال : « اكتب : لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله » وخلف النبي ﷺ ابن أم مكتوم ، فقال : يا رسول الله ، أنا ضرير فنزلت مكانها : ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (١) .

وروى البخارى عن سهل بن سعد الساعدي : أنه رأى مروان بن الحكم فى المسجد ، قال : فأقبلت حتى جلست إلى جنبه ، فأخبرنا : أن زيد بن ثابت أخبره : أن رسول الله ﷺ أملى على : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله » . فجاء ابن أم مكتوم ، وهو يميلها على ، قال : يا رسول الله ، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت - وكان أعمى - فأنزل الله على رسوله ﷺ ، وفخذه على فخدى ، فثقلت على حتى خفت أن تُرض فخدى ، ثم سُرى عنه ، فأنزل الله : ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ . تفرد به البخارى دون مسلم (٢) ، وقد روى من وجه آخر عند الإمام أحمد عن خارجة بن زيد قال : قال زيد بن ثابت : إني قاعد إلى جنب النبي ﷺ ، إذ أوحى إليه ، وغشيتة السكينة ، قال : فرفع فخذه على فخدى حين غشيتة السكينة . قال زيد : فلا والله ما وجدت شيئاً قط أثقل من فخذ رسول الله ﷺ ، ثم سُرى عنه فقال : « اكتب يا زيد » . فأخذت كتفا ، فقال : « اكتب : لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون » إلى قوله : ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ . فكتبت ذلك فى كتف ، فقام حين سمعها ابن أم مكتوم - وكان رجلاً أعمى - فقام حين سمع فضيلة المجاهدين ، قال : يا رسول الله ، وكيف بمن لا يستطيع الجهاد ممن هو أعمى ، وأشبه ذلك؟ قال زيد : فوالله ما قضى كلامه - أو ما هو إلا أن قضى كلامه - غشيت النبي ﷺ السكينة ، ف وقعت فخذه على فخدى ، فوجدت من ثقلها كما وجدت فى المرة الأولى ، ثم سُرى عنه ، فقال : « اقرأ » . فقرأت عليه : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون » فقال النبي ﷺ : ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ قال زيد : فألحقتها ، فوالله كانى أنظر إلى ملحقها عند صدع كان فى الكتف . ورواه أبو داود نحوه (٣) .

وروى عبد الرزاق عن قبيصة بن ذؤيب ، عن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب لرسول الله ﷺ [فقال : « اكتب : لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله »] ، فجاء عبد الله بن أم مكتوم فقال : يا رسول الله ، إني أحب الجهاد فى سبيل الله ، ولكن بى من الزمانة ما قد ترى ، ذهب بصرى . قال زيد : فثقلت فخذ رسول الله ﷺ على فخدى ، حتى خشيت أن ترصها ، ثم سُرى عنه ، ثم قال : « اكتب : ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ »

(١) البخارى (٨ / ١٩٦) . ورواه البخارى وغيره من أوجه كثيرة عن البراء ، بنحوه . وهو فى الطبرى بسبعة أسانيد : (١٠٢٣٣ - ١٠٢٣٧ ، ١٠٢٤٨ ، ١٠٢٤٩) . وقد فصلنا القول فى تخريجه هناك .

(٢) البخارى (٨ / ١٩٥ ، ١٩٦) ، وكذلك رواه الطبرى (١٠٢٣٩) . وفصلنا تخريجه هناك .

(٣) المسند (٥ / ١٩٠ ، ١٩١ حلى) . بإسنادين صحيحين . ورواه الحاكم (٢ / ٨١ ، ٨٢) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿١﴾ . ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير^(١) وابن عباس أخبره: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عن بدر، والخارجون إلى بدر. انفرد به البخارى دون مسلم . وقد رواه الترمذى وزاد : لما نزلت غزوة بدر قال عبد الله بن جحش وابن أم مكتوم : إنا أعميان يا رسول الله، فهل لنا رخصة؟ فنزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ وفضل الله المجاهدين على القاعدين درجة، فهؤلاء القاعدون غير أولى الضرر ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ﴾ على القاعدين من المؤمنين غير أولى الضرر. هذا لفظ الترمذى، ثم قال: حسن غريب من هذا الوجه^(٢).

فقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كان مطلقا، فلما نزل بوحى سريع: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ صار ذلك مخرجا لذوى الأعذار المبيحة لترك الجهاد - من العمى والعرج والمرضى - عن مساواتهم للمجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم.

ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين على القاعدين، قال ابن عباس: غير أولى الضرر. وكذا ينبغى أن يكون، كما ثبت فى صحيح البخارى عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة أقواما ما سرتهم من مسير، ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه» قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله؟ قال: «نعم حبسهم العذر» ورواه أحمد وأبو داود^(٣).

وقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ أى: الجنة والجزاء الجزيل. وفيه دلالة على أن الجهاد ليس بفرض عين، بل هو فرض على الكفاية.

ثم قال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، ثم أخبر تعالى بما فضلهم به من الدرجات، فى غرف الجنان العاليات، ومغفرة الذنوب والزلات، وأحوال الرحمة والبركات، إحسانا منه وتكريما؛ ولهذا قال: ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةٌ وَرَحْمَةٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى، أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة

(١) تفسير عبد الرزاق (ص ٤٨ مخطوط مصور) والطبرى (١٠٢٣٠) من طريق عبد الرزاق . وكذلك رواه أحمد (٥ / ١٨٤ حلى) ، عن عبد الرزاق . والزيادة التى اثبتناها هنا ثابتة عندهم وفى مطبوعة ابن كثير . ولكنها ساقطة فى المخطوطتين .

(٢) رواية البخارى المختصرة ، فى الفتح (٨ / ١٩٦ ، ١٩٧) . ورواية الترمذى المطولة ، فى الترمذى (٤ / ٩١) . ورواها الطبرى (١٠٢٤٢) . وعنده « أبو أحمد بن جحش » - بدل « عبد الله بن جحش » . وهو الصواب ، لأن عبد الله بن جحش لم يكن أعمى وقد قتل شهيدا فى غزوة أحد . والأعمى هو « أبو أحمد » أخوه ، واسمه « عبد » بدون إضافة ، وقيل أيضا « عبد الله » ، فلو صح لم تكن رواية الترمذى خطأ . وأبو أحمد هذا كان من السابقين الأولين . قال ابن إسحاق : « كان ضريفا ، يطوف بمكة أعلاها وأسفلها بغير قائد » .

(٣) البخارى (٨ / ٩٦ فتح) .

مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» (١).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْتَكُمَاؤُنْهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ قَالُوا لَيْتَك عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

ربع

روى البخارى عن محمد بن عبد الرحمن أبى الأسود قال: قُطِعَ على أهل المدينة بعث، فاكتتبت فيه، فلقيتُ عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته، فنهاني عن ذلك أشد النهى، قال: أخبرني ابن عباس: أن ناسا من المسلمين كانوا مع المشركين، يكثرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ، يأتى السهم يُرمى به، فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب عنقه فيقتل، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ (٢). وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، قال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكروهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ الآية، قال: فكتب إلى من بقى من المسلمين بهذه الآية: لا عذر لهم. قال: فخرجوا، فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٨] (٣). فنزلت هذا الآية الكريمة عامة فى كل من أقام بين ظهرانى المشركين وهو قادر على الهجرة، وليس متمكنا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه مرتكب حراما بالإجماع، وبنص هذه الآية، حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ أى: بترك الهجرة ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أى: لم مكثتم هاهنا وتركتم الهجرة؟ ﴿قَالُوا كُنَّا

(١) وهم الحافظ ابن كثير فى نسبة هذا للصحيحين من حديث أبى سعيد . وقد ذكره السيوطى (٢/ ٢٠٥) ، ونسبه لعبد بن حميد وابن أبى حاتم فقط . وهذا اللفظ رواه البخارى (٦/ ٩ ، ١٠ ، ١٣ / ٣٤٩ ، ٣٥٠ فتح) ، ضمن حديث لأبى هريرة . وهو من أفراد البخارى ، كما نص عليه الحافظ فى الفتح (٦/ ١٣٥) . وقد مضى حديث أبى هريرة كاملا ، نسبه ابن كثير هناك للبخارى ، على الصواب عند تفسير الآيات : (٨٤ - ٨٧) من سورة النساء . وروى مسلم ٢/ ٩٧ حديثا لأبى سعيد ، فيه معنى هذا الحديث ، ولكنه بسياق آخر . وقد مضى عند تفسير الآيات : (٨٤ - ٨٨) من سورة النساء .

(٢) البخارى (٨/ ١٩٧ ، ١٩٨) . و « التبت » : بضم التاء الأولى وكسر الثانية بالبناء للمجهول . ورواه أيضا الطبرى (١٠٢٦١ ، ١٠٢٦٢) .

(٣) ورواه الطبرى (١٠٢٦٠) ، وإسناده عندهما صحيح . وزاد السيوطى (٢/ ٢٠٥) نسبه لابن المنذر وابن مردويه والبيهقى . وذكره الهيثمى فى الزوائد (٧/ ٩ ، ١٠) ، وقال : « رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح ، غير محمد بن شريك ، وهو ثقة » .

مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ﴿١﴾ أى : لا نقدر على الخروج من البلد، ولا الذهب في الأرض ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأَوْلِيكَ مَا أُوَاهِمُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. وروى أبو داود عن سمرة بن جندب: أما بعد، قال رسول الله ﷺ: «من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله» (١).

وقوله: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ﴾ هذا عذر من الله تعالى لهؤلاء في ترك الهجرة، وذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين، ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾. قال مجاهد، وعكرمة، والسدى: يعنى طريقا.

وقوله: ﴿فَأَوْلِيكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ عَنْهُمْ﴾ أى: يتجاوز عنهم بتركهم الهجرة، و﴿عَسَى﴾ من الله موجبة ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا غَفُورًا﴾ (٢). روى البخارى عن أبى هريرة قال: بينا رسول الله ﷺ يصلى العشاء إذ قال: «سمع الله لمن حمده». ثم قال قبل أن يسجد: «اللهم أنج عياش بن أبى ربيعة، اللهم نج سلمة بن هشام، اللهم نج الوليد بن الوليد، اللهم نج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف» (٣).

وقوله: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغِمًا كَثِيرًا وَسِعَةً﴾: هذا تحريض على الهجرة، وترغيب فى مفارقة المشركين، وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصن فيه، و«المراغم»: مصدر، تقول العرب: راغم فلان قومه مراغما ومراغمة، وقال ابن عباس: «المراغم»: التحول من أرض إلى أرض. وقال مجاهد: يعنى: متزحزحا عما يكره. والظاهر - والله أعلم - أن المراغم: هو التمتع الذى يتحصن به، ويراعم به الأعداء. قوله: ﴿وَسِعَةً﴾ يعنى: الرزق. قاله غير واحد.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أى: ومن خرج من منزله بنية الهجرة، فمات فى أثناء الطريق، فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر، كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما من الصحاح والمسانيد والسنن عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

(١) أبو داود (٢٧٨٧).

(٢) وقع سهوا فى المطبوعة من «عمدة التفسير»: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ وهو خطأ واضح. (الباز).

(٣) البخارى (١٩٨/٨ فتح). وقد وقع فى متن البخارى المطبوع بهامش الفتح فى هذا الموضع «عن أبى سلمة» -

فقط - دون ذكر «عن أبى هريرة»! وهو خطأ من الناسخين فى نسخة المتن التى طبع عنها هذا الموضع.

وثبت على الصواب فى سائر نسخ البخارى الصحيحة الموثوق بها. انظر الطبعة السلطانية (٤٨/٦، ٤٩).

والحديث حديث أبى هريرة معروف. وأبو سلمة بن عبد الرحمن تابعى يرويه عن أبى هريرة.

ثم ذكر ابن كثير هنا حديث ابن عباس فى أنه وأمه كانا من المستضعفين - من روايتى عبد الرزاق والبخارى.

وقد مضى عند تفسير الآيتين: (٧٥، ٧٦) من سورة النساء.

وهذا عام في الهجرة وفي كل الأعمال. ومنه الحديث الثابت في الصحيحين ، في الرجل الذى قتل تسعة وتسعين نفساً. ثم أكمل بذلك العابد المائة، ثم سأل عالماً: هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أرشده إلى أن يتحول من بلده إلى بلد أخرى يعبد الله فيه، فلما ارتحل من بلده مهاجراً إلى البلد الأخرى ، أدركه الموت فى أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقال هؤلاء: إنه جاء تائباً. وقال هؤلاء: إنه لم يصل بعد. فأمروا أن يقيسوا ما بين الأرضين ، فإلى أيهما كان أقرب فهو منها ، فأمر الله هذه أن تقترب من هذه، وهذه أن تبعد ، فوجدوه أقرب إلى الأرض التى هاجر إليها بشيراً، فقبضته ملائكة الرحمة. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عتيك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من خرج من بيته مجاهداً فى سبيل الله - ثم قال بأصابعه هؤلاء الثلاثة: الوسطى والسبابة والإبهام، فجمعهن وقال: وأين المجاهدون؟ - فخرّ عن دابته فمات فقد وقع أجره على الله، أو لدغته دابة فمات، فقد وقع أجره على الله، أو مات حتف أنفه، فقد وقع أجره على الله - يعنى بحتف أنفه على فراشه ، والله إنها لكلمة ما سمعتها من أحد من العرب قبل رسول الله ﷺ - ومن قتل قعصاً فقد استوجب المآب» (١). وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: خرج ضمرة ابن جندب إلى رسول الله ﷺ، فمات فى الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ، فنزلت: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية (٢).

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ (١١)

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: سافرتم فى البلاد، كما قال تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَتْتَمُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ الآية [المزمل: ٢٠].

وقوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ أى: تخففوا فيها، إما من كميتها بأن تجعل الرباعية ثنائية، كما فهمه الجمهور من هذه الآية، واستدلوا بها على قصر الصلاة فى السفر، على اختلافهم فى ذلك: فمن قائل: لا بد أن يكون سفر طاعة، من جهاد، أو حج، أو عمرة،

(١) المسند (١٦٤٨٥)، ورواه الحاكم (٨٨/٢) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه». ووافقه الذهبى. وهو فى مجمع الزوائد (٥/٢٧٦، ٢٧٧)، ونسبه لأحمد والطبرانى وذكره الحافظ فى الإصابة (٤/١٠١)، ونسبه لأحمد والبخارى فى التاريخ وابن أبى خيثمة وابن شاهين والطبرانى، ونسبه السيوطى (٢/٢٠٩) لابن سعد أيضاً. وكان متن الحديث ناقصاً ومحرفاً فى المطبوعة، فصححناه من المخطوطتين والمسند. و«القعص» - يفتح القاف وسكون العين المهملة: أن يضرب الإنسان فيموت مكانه. وأراد بوجود المآب: حسن المرجع بعد الموت.

(٢) إسناده صحيح. ورواه الطبرى (١٠٢٩٤) بنحوه، بإسناد آخر صحيح. وذكره الهيثمى فى الزوائد (٧/١٠) بلفظ أطول قليلاً، وقال: «رواه أبو يعلى، ورجاله ثقات». ونسبه السيوطى (٢/٢٠٧) لأبى يعلى وابن أبى حاتم والطبرانى «بسند رجاله ثقات»، ثم لابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم «من وجه آخر».

أو طلب علم، أو زيارة، أو غير ذلك، كما هو مروى عن ابن عمر وعطاء، ويحكى عن مالك فى رواية عنه نحوه، لظاهر قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

ومن قائل: لا يشترط سفر القربة، بل لا بد أن يكون مباحا، لقوله: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]، فما أباح له تناول الميتة مع اضطراره إلا بشرط ألا يكون عاصيا بسفره. وهذا قول الشافعى وأحمد وغيرهما من الأئمة.

ومن قائل: يكفي مطلق السفر، سواء كان مباحا أو محظورا، حتى لو خرج لقطع الطريق وإخافة السبيل، ترخص، لوجود مطلق السفر. وهذا قول أبى حنيفة، والثورى وداود، لعموم الآية وخالفهم الجمهور. وأما قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقد يكون هذا خرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية، فإن فى مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة، بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عام، أو فى سرية خاصة، وسائر الأحياء حرب الإسلام وأهله، والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة فلا مفهوم له، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرَهُوا قِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور: ٢٣]، وكقوله تعالى: ﴿وَرَبَائِبِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ الآية [النساء: ٢٣]. وروى الإمام أحمد عن يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب، قلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْرَءُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقد أمن الناس؟ فقال لى عمر: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته». رواه مسلم وأهل السنن. وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح. وقال على بن المدينى: هذا حديث صحيح من حديث عمر، ولا يحفظ إلا من هذا الوجه، ورجاله معروفون^(١). وروى ابن أبى شيبة: عن أبى حنظلة الحداء قال: سألت ابن عمر عن صلاة السفر؟ فقال: ركعتان. فقلت: أين قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ونحن آمنون؟ قال: سنة رسول الله ﷺ^(٢). وروى ابن أبى شيبة عن ابن عباس قال: صلينا مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة، ونحن آمنون، لا نخاف بينهما، ركعتين ركعتين ورواه الترمذى والنسائى. قال الترمذى: صحيح^(٣). وروى البخارى عن أنس قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة، فكان يصلى ركعتين ركعتين، حتى رجعنا إلى المدينة. قلت: أقمتم بمكة شيئا؟ قال: أقمنا بها عشرا أخرجه الجماعة. وروى الإمام أحمد عن حارثة بن وهب الخزاعى قال: صليت مع النبى ﷺ الظهر والعصر بمنى - أكثر ما كان الناس وآمنه - ركعتين. ورواه الجماعة سوى ابن ماجه^(٤). وروى البخارى ومسلم عن عبدالله بن عمر قال: صليت مع رسول الله ﷺ ركعتين، وأبى بكر وعمر، ومع عثمان صدرا من إمارته، ثم أمتها. وكذا رواه مسلم من حديث يحيى بن

(١) المسند (١٧٤).

(٢) إسناده صحيح. ورواه أحمد (٦١٩٤). ورواه بنحوه مرارا، منها: (٤٧٠٤، ٥٢١٣).

(٣) ورواه أحمد (١٨٥٢، ١٩٩٥، ٣٣١٧) والترمذى بشرحنا (٤٥٧).

(٤) المسند (٤/٣٠٦ حلى).

سعید القطان، به . وروى البخارى عن عبد الرحمن بن يزيد قال: صلى بنا عثمان بن عفان بمنى أربع ركعات، فقيل فى ذلك لعبد الله بن مسعود؟ فاسترجع، ثم قال: صليت مع رسول الله ﷺ بمنى ركعتين، وصليت مع أبى بكر بمنى ركعتين، وصليت مع عمر بن الخطاب بمنى ركعتين، فليت حظى من أربع ركعات ركعتان متقبلتان. وأخرجه مسلم .

فهذه الأحاديث دالة صريحا على أن القصر ليس من شرطه وجود الخوف؛ ولهذا قال من قال من العلماء: إن المراد من القصر هاهنا إنما هو قصر الكيفية لا الكمية. وهو قول مجاهد، والضحاك، والسدى كما سيأتى بيانه، واعتضدوا أيضا بما رواه الإمام مالك، عن عائشة، أنها قالت: فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فى السفر والحضر، فأقرت صلاة السفر؛ وزيد فى صلاة الحضر. وقد روى هذا الحديث البخارى، ومسلم، وأبو داود، والنسائى. قالوا: فإذا كان أصل الصلاة فى السفر هى الثلثين، فكيف يكون المراد بالقصر هاهنا قصر الكمية؟ لأن ما هو الأصل لا يقال فيه: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾. وأصرح من ذلك دلالة على هذا، ما رواه الإمام أحمد عن عمر، قال: صلاة السفر ركعتان، وصلاة الأضحى ركعتان، وصلاة الفطر ركعتان، وصلاة الجمعة ركعتان، تمام غير قصر، على لسان محمد ﷺ ورواه النسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه . وإسناده على شرط مسلم^(١). وقد روى مسلم، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه، عن عبد الله بن عباس قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم محمد ﷺ فى الحضر أربعاء، وفى السفر ركعتين، وفى الخوف ركعة^(٢).

فهذا ثابت عن ابن عباس، ولا ينافى ما تقدم عن عائشة لأنها أخبرت أن أصل الصلاة ركعتان، ولكن زيد فى صلاة الحضر، فلما استقر ذلك صح أن يقال: إن فرض صلاة الحضر أربع، كما قاله ابن عباس، والله أعلم. لكن اتفق حديث ابن عباس وعائشة على أن صلاة السفر ركعتان، وأنها تامة غير مقصورة، كما هو مصرح به فى حديث عمر، وإذا كان كذلك، فيكون المراد بقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ قصر الكيفية كما فى صلاة الخوف؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

ولهذا قال بعدها: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ الآية، فبين المقصود من القصر هاهنا وذكر صفته وكيفية؛ ولهذا لما اعتضد البخارى «كتاب صلاة الخوف» صدره بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا

(١) المسند (٢٥٧). وقد ذهبنا هناك إلى ضعف إسناده، بعلة انقطاعه، بأن عبد الرحمن بن أبى ليلى لم يسمع من عمر. ثم بينا صحته من وجه آخر، بروايتى ابن ماجه وابن حزم اللتين فيهما: «عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن كعب بن عجرة عن عمر». ولكن الحافظ ابن كثير ذهب هنا إلى صحة رواية المسند، بثبوت سماع ابن أبى ليلى من عمر. وقد استدركتنا ذلك فى المسند، بنقل كلام ابن كثير فى الاستدراك (١٨١٣). فصح الحديث من الوجهين، والحمد لله.

(٢) ورواه أحمد (٢١٢٤، ٢١٧٧) ومسلم (١٩٢/١) وأبو داود (١٢٤٧) والنسائى (٢٢٨/١) وابن ماجه (١٠٦٨). وقد مضى عند آية صلاة الخوف (٢٣٩) من سورة البقرة. وانظر بعض تخريجه فى الطبرى (٥٥٦٩).

ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴿١٠٢﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ . وهكذا قال الضحّاك ذاك عند القتال، يصلي الرجل الراكب تكبيرتين حيث كان وجهه. وروى ابن جرير عن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد: أنه قال لعبد الله بن عمر: إنا نجد في كتاب الله قصر صلاة الخوف، ولا نجد قصر صلاة المسافر؟ فقال عبد الله : إنا وجدنا نبينا ﷺ يعمل عملا عملنا به (١). فقد سُمي صلاة الخوف مقصورة، وحمل الآية عليها، لا على قصر صلاة المسافر، وأقره ابن عمر على ذلك ، واحتج على قصر الصلاة في السفر بفعل الشارع لا بنص القرآن .

وأصرح من هذا ما رواه ابن جرير عن سَمَاك الحنفي: سألت ابن عمر عن صلاة السفر؟ فقال: ركعتان تمام غير قصر، إنما القصر صلاة المخافة. فقلت: وما صلاة المخافة؟ فقال: يصلي الإمام بطائفة ركعة، ثم يجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء، ويجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء، فيصلي بهم ركعة، فيكون للإمام ركعتان، ولكل طائفة ركعة ركعة (٢).

﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتَقِمَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا بِأَسْلِحَتِهِمْ فِإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وِرَائِكُمْ وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَفْقَهُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠١﴾ ﴾

صلاة الخوف أنواع كثيرة، فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة، وتارة يكون في غير صوبها، والصلاة تكون رباعية، وتارة تكون ثلاثية كالمغرب، وتارة تكون ثنائية، كالصبح وصلاة السفر، ثم تارة يصلون جماعة، وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرّون على الجماعة، بل يصلون فرادى مستقبلى القبلة وغير مستقبلها، ورجالا وركبانا، ولهم أن يمشوا والحالة هذه، ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة.

ومن العلماء من قال: يصلون والحالة هذه ركعة واحدة؛ لحديث ابن عباس المتقدم، وبه قال أحمد بن حنبل. قال المنذرى في الحواشي: وبه قال عطاء ، وجابر ، والحسن ، ومجاهد ، والحكم، وقتادة، وحماد. وإليه ذهب طاوس والضحّاك. وقد حكى أبو عاصم العادى ، عن محمد بن نصر المروزي؛ أنه يرى ردّ الصبح إلى ركعة في الخوف ، وإليه ذهب ابن حزم أيضاً. وقال إسحاق بن راهويه: أما عند المسايقة فيجزيك ركعة واحدة، تومئ بها إيماء، فإن لم تقدر

(١) الطبرى (١٠٣١٨) ، وإسناده هنا منقطع . وكذلك رواه أحمد (٥٣٣٣) من طريق مالك بإسناد منقطع ، لكنه ثابت موصولاً في المسند (٥٦٨٣ ، ٦٣٥٣) .

(٢) الطبرى (١٠٣٢٧) ، وإسناده صحيح .

فسجدة واحدة؛ لأنها ذكر الله . وقال آخرون: تكفى تكبيرة واحدة. ففعله أراد ركعة واحدة، كما قاله الإمام أحمد بن حنبل وأصحابه، ولكن الذين حكوه إنما حكوه على ظاهره في الاجتزاء بتكبيرة واحدة، كما هو مذهب إسحاق بن راهويه ، وإليه ذهب الأمير عبد الوهاب بن بخت المكي، حتى قال: فإن لم يقدر على التكبيرة فلا يتركها في نفسه، يعنى بالنية، رواه سعيد بن منصور في سننه عن إسماعيل ابن عيَّاش، عن شعيب بن دينار، عنه، فالله أعلم^(١).

ومن العلماء من أباح تأخير الصلاة لعذر القتال والمناجزة، كما أخرج النبي ﷺ يوم الأحزاب الظهر والعصر، فصلاهما بعد الغروب، ثم صلى بعدهما المغرب ثم العشاء. وكما قال بعدها - يوم بنى قريظة، حين جهز إليهم الجيش -: « لا يصلين أحدٌ منكم العصر إلا في بنى قريظة»، فأدرتكم الصلاة في أثناء الطريق، فقال منهم قائلون: لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيلَ المسير، ولم يرد منا تأخير الصلاة عن وقتها، فصلوا الصلاة لوقتها في الطريق. وأخر آخرون منهم صلاة العصر، فصلوها في بنى قريظة بعد الغروب، ولم يُعَفِّ رسول الله ﷺ أحداً من الفريقين . وقد تكلمنا على هذا في كتاب السيرة، وبيَّنا أن الذين صلوا العصر لوقتها أقرب إلى إصابة الحق في نفس الأمر، وإن كان الآخرون معذورين أيضاً، والحجة هاهنا في عذرهم في تأخير الصلاة لأجل الجهاد والمبادرة إلى حصار الناكثين للعهد، من الطائفة الملعونة اليهود^(٢) . وأما الجمهور فقالوا: هذا كله منسوخ بصلاة الخوف، فإنها لم تكن نزلت بعد، فلما نزلت نسخ تأخير الصلاة لذلك . والعجب - كل العجب - أن المزي، وأبا يوسف القاضى، وإبراهيم بن إسماعيل بن عليَّة ذهبوا إلى أن صلاة الخوف منسوخة بتأخيرها، عليه الصلاة والسلام، الصلاة يوم الخندق! وهذا غريب جداً!! وقد ثبتت الأحاديث بعد الخندق بصلاة الخوف.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ أى: إذا صليت بهم إماماً في صلاة الخوف، وهذه حالة غير الأولى، فإن تلك قصرها إلى ركعة، كما دل عليه الحديث ، فرادى ورجالا وركبانا، مستقبلي القبلة وغير مستقبلها، ثم ذكر حال الاجتماع والائتمام بإمام واحد. وما أحسن ما استدل به من ذهب إلى وجوب الجماعة من هذه الآية الكريمة، حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة، فلولا أنها واجبة لما ساغ ذلك، وأما من استدل بهذه الآية على أن صلاة الخوف منسوخة بعد النبي ﷺ لقوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ﴾ فبعده نفوت هذه الصفة، فإنه استدلال ضعيف، ويَرد عليه مثل قول مانعى الزكاة، الذين احتجوا بقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] قالوا: فنحن لا ندفع زكاتنا بعده

(١) عبد الوهاب بن بخت - بفتح الباء وسكون الحاء وآخره تاء مثناة : كان من أمراء الحروب المجاهدين ، مولى آل مروان . وهو من شيوخ مالك ، وقال مالك : « كان كثير الحج والعمرة والغزو ، حتى استشهد » ، قتل مقدما في نحر العدو سنة ١١٣ . وشعيب بن دينار - الراوى عنه - : هو شعيب بن أبى حمزة الثقة الحافظ .

(٢) انظر: تاريخ ابن كثير (٤/ ١١٦ - ١١٨) .

ﷺ إلى أحد، بل نخرجها نحن بأيدينا على من نراه، ولا ندفعها إلا إلى من صلاته، أى : دعاؤه، سكن لنا ! ومع هذا ردَّ عليهم الصحابة وأبوا عليهم هذا الاستدلال، وأجبروهم على أداء الزكاة، وقتلوا من منعها منهم .

ولنذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة أولاً قبل ذكر صفتها: فروى الإمام أحمد عن أبي عياش الزُّرْقِي ، قال: كنا مع رسول الله ﷺ بعُسْفَانَ، فاستقبلنا المشركون، عليهم خالد ابن الوليد، وهم بيننا وبين القبلة، فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر، فقالوا: لقد كانوا على حال لو أصبنا غرَّتْهم. ثم قالوا : تأتى عليهم الآن صلاة هى أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم . قال: فنزل جبريل بهذه الآيات بين الظهر والعصر: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ . قال: فحضرت، فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح، قال : فصفنا خلفه صفين، قال: ثم ركع فركعنا جميعاً، ثم رفع فرفعنا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذى يليه ، والآخرون قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا فى مكانهم ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، ثم ركع فركعوا جميعاً، ثم رفع فرفعوا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ والصف الذى يليه ، والآخرون قيام يحرسونهم ، فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا ، ثم سلم عليهم ، ثم انصرف . قال: فصلّاها رسول الله ﷺ مرتين : مرة بعسفان ، ومرة بأرض بنى سليم (١) . ورواه أبو داود والنسائي ، وإسناده صحيح، وله شواهد كثيرة، فمن ذلك ما رواه البخارى عن ابن عباس قال: قام النبي ﷺ وقام الناس معه، فكبر وكبروا معه، وركع وركع ناس منهم، ثم سجد وسجدوا معه، ثم قام للثانية فقام الذين سجدوا، وحرصوا إخوانهم، وأنت الطائفة الأخرى فركعوا وسجدوا معه، والناس كلهم فى الصلاة، ولكن يحرس بعضهم بعضاً .

وروى الإمام أحمد عن سليمان بن قيس اليشكرى، عن جابر بن عبد الله قال: قاتل رسول الله ﷺ محارب بن خصفة ، فجاء رجل منهم يقال له: «عَوْرَتُ بن الحارث» حتى قام على رسول الله ﷺ بالسيف، فقال: من يمنعك منى؟ قال: «الله»، فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ فقال: «ومن يمنعك منى؟» قال: كن خير آخذ . قال: «أتشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله؟» قال: لا، ولكنى أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك . فخلى سبيله، فأتى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس . فلما حضرت الصلاة صلى رسول الله ﷺ صلاة الخوف، فكان الناس طائفتين: طائفة بإزاء العدو، وطائفة صلوا مع رسول الله ﷺ . فصلى بالطائفة الذين معه ركعتين، وانصرفوا، فكانوا مكان الطائفة الذين كانوا بإزاء العدو ، ثم انصرف الذين كانوا بإزاء العدو فصلوا مع رسول الله ﷺ ركعتين، فكان لرسول الله ﷺ أربع

(١) المسند (١٦٦٥٣ ، ١٦٦٥٤) وأبو داود (١٢٣٦) والطبرى (١٠٣٢٣ ، ١٠٣٢٤) والحاكم (١/ ٣٣٧) وصححه ، ووافقه الذهبى .

ركعات، وللقوم ركعتين ركعتين. تفرد به من هذا الوجه^(١). وروى ابن أبي حاتم عن يزيد الفقير قال: سألت جابر بن عبد الله عن الركعتين في السفر: أقصرهما؟ قال: الركعتان في السفر تام، إنما القصر واحدة عند القتال، بينما نحن مع رسول الله ﷺ في قتال إذ أقيمت الصلاة، فقام رسول الله ﷺ فصف طائفة، وطائفة وجهها قبل العدو، فصل بهم ركعة وسجد بهم سجدتين، ثم الذين خلفوا انطلقوا إلى أولئك فقاموا مقامهم ومكانهم نحو ذا، وجاء أولئك فقاموا خلف رسول الله ﷺ فصلى بهم ركعة وسجد بهم سجدتين، ثم إن رسول الله ﷺ جلس وسلم، وسلم الذين خلفه، وسلم أولئك، فكانت لرسول الله ﷺ ركعتين، وللقوم ركعة ركعة، ثم قرأ: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾. وروى الإمام أحمد عن يزيد الفقير، عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ صلى بهم صلاة الخوف، فقام صف بين يديه، وصف خلفه، فصلى بالذين خلفه ركعة وسجدتين، ثم تقدم هؤلاء حتى قاموا في مقام أصحابهم، وجاء أولئك حتى قاموا مقام هؤلاء، فصلى بهم رسول الله ﷺ ركعة وسجدتين، ثم سلم. فكانت للنبي ﷺ ركعتين ولهم ركعة. ورواه النسائي^(٢)، ولهذا الحديث طرق عن جابر، وهو في صحيح مسلم من وجه آخر بلفظ آخر، وقد رواه عن جابر جماعة كثيرون في الصحيح والسنن والمسند^(٣). وروى ابن أبي حاتم عن ابن عمر، قال: هي صلاة الخوف، صلى رسول الله ﷺ بإحدى الطائفتين ركعة، والطائفة الأخرى مقبلة على العدو، وأقبلت الطائفة الأخرى التي كانت مقبلة على العدو فصلى بهم رسول الله ﷺ ركعة أخرى، ثم سلم بهم، ثم قامت كل طائفة منهم فصلت ركعة ركعة. وهذا الحديث رواه الجماعة في كتبهم^(٤) ولهذا الحديث طرق كثيرة عن جماعة من الصحابة.

وأما الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف، فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب، لظاهر الآية، وهو أحد قولي الشافعي: ويدل عليه قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ أي: بحيث تكونون على أهبة إذا احتجتم إليها لبستموها بلا كلفة ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا وُفِعْتُمْ وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِعَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(١) المسند (١٥٢٥٢). ورواه أيضا من هذا الوجه (١٤٩٨٧). وكذلك رواه الطبري (١٠٣٢٥) من هذا الوجه، بنحوه. وانظر الإصابة (١٩١/٥، ١٩٢) وتاريخ ابن كثير (٨٤/٤، ٨٥) والفتح (٣٢١/٧ - ٣٢٥).
 (٢) المسند (١٤٢٢٩). وكذلك رواه الطبري (١٠٣٤٠) من هذا الوجه.
 (٣) ورواه أحمد (١٤٤٨٨) عن عطاء عن جابر، (١٥٠٧٩) عن أبي الزبير عن جابر. وكذلك رواه مسلم من هذين الوجهين (٢٣١/١). ورواه أحمد أيضا (١٤٩٨٦) عن أبي سلمة عن جابر.
 (٤) المسند (٦٣٥١) ومسلم (٢٣٠/١). ولكنهما لم يذكرهما الآية في أول الحديث.

يأمر الله تعالى بكثرة الذكر عقيب صلاة الخوف، وإن كان مشروعاً مرغبا فيه أيضاً بعد غيرها، ولكن هاهنا أكد لما وقع فيها من التخفيف في أركانها، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب وغير ذلك، مما ليس يوجد في غيرها، كما قال تعالى في الأشهر الحرم: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، وإن كان هذا منهيًا عنه في غيرها، ولكن فيها أكد لشدة حرمتها وعظمتها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أي: في سائر أحوالكم. ثم قال: ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ﴾ أي: فإذا أمتم وذهب الخوف، وحصلت الطمأنينة ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: فأتوها وأقيموها كما أمرتم بحدودها، وخشوعها، وركوعها، وسجودها، وجميع شؤونها.

وقوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ قال ابن عباس: أي مفروضاً. وقال ابن مسعود (١): إن للصلاة وقتاً كوقت الحج. وكذا روى عن مجاهد وسالم بن عبد الله وغيرهما. وقال زيد بن أسلم: ﴿مَوْقُوتًا﴾: منجماً، كلما مضى نجم، جاءتهم، يعني: كلما مضى وقت جاء وقت.

وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ أي: لا تضعفوا في طلب عدوكم، بل جدوا فيهم وقاتلوهم، واقعدوا لهم كل مرصد: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ أي: كما يصيبكم الجراح والقتل، كذلك يحصل لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلَهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ثم قال: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أي: أنتم وإياهم سواء فيما يصيبكم وإياهم من الجراح والآلام، ولكن أنتم ترجون من الله المثوبة والنصر والتأييد، وهم لا يرجون شيئاً من ذلك، فأنتم أولى بالجهاد منهم، وأشد رغبة في إقامة كلمة الله وإعلانها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: هو أعلم وأحكم فيما يقدره ويقضيه، وينفذه ويمضيه، من أحكامه الكونية والشرعية، وهو المحمود على كل حال.

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَافًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَاتَتْهُ هَتُولَاءُ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾

يقول تعالى مخاطباً لرسوله محمد ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي: هو حق من الله، وهو يتضمن الحق في خبره وظلّه.

(١) وقع سهواً في المطبوع من عمدة التفسير « وقال أيضاً » - أي ابن عباس - بدل « وقال ابن مسعود » ، والمثبت هو الموافق للمخطوطة . (الباز) .

وقوله: ﴿لَتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ احتج به من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان ﷺ له أن يحكم بالاجتهاد بهذه الآية، وبما ثبت في الصحيحين عن أم سلمة؛ أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: «ألا إنما أنا بشر، وإنما أفضى بنحو مما أسمع، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأفضى له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من نار فليحملها أو ليذرها» (١). وروى الإمام أحمد عن أم سلمة قالت: جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ في مواريث بينهما قد درست، ليس عندهما بينة، فقال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إلي، وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما أفضى بينكم على نحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه؛ فإنما أقطع له قطعة من النار، يأتي بها إسظاماً في عنقه يوم القيامة». فبكى الرجلان وقال كل منهما: حتى لأخي. فقال رسول الله ﷺ: «أما إذ قتلتما فاذهبا فاقتما، ثم توخيا الحق بينكما، ثم استهما، ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه». وقد رواه أبو داود. وزاد: «إني إنما أفضى بينكما برأى فيما لم ينزل عليّ فيه» (٢).

وقوله: ﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ الآية، هذا إنكار على المنافقين في كونهم يستحفون بقبائحهم من الناس لثلا ينكروا عليهم، ويجاهرون الله بها لأنه مطلع على سرائرهم وعالم بما في ضمائرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ تهديد لهم ووعيد.

ثم قال: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: هب أن هؤلاء انتصروا في الدنيا بما أبدوه أو أبدى لهم عند الحكام الذين يحكمون بالظاهر - وهم متعبدون بذلك - فماذا يكون صنيعهم يوم القيامة بين يدي الله، عز وجل، الذي يعلم السر وأخفى؟ ومن ذا الذي يتوكل لهم يومئذ في ترويح دعواهم؟ أي: لا أحد يكون يومئذ لهم وكيلاً، ولهذا قال: ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾
 ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١١١) وَمَنْ
 يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا فِي بَرِيئَةٍ فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (١١٢) وَلَوْلَا فَضْلُ
 اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا
 يَصُرُونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ
 وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (١١٣)

(١) البخارى (٥/ ٧٧، و١٢/ ٢٩٩، ٣٠٠، ١٣/ ١٣٩، ١٥١، ١٥٢، ١٥٦ فتح) ومسلم (٢/ ٤٠) كلاهما بنحوه.

(٢) المسند (٦/ ٣٢٠ حلى). ورواه أبو داود بإسنادين مختصرا (٣٥٨٤، ٣٥٨٥). والزيادة التي هنا في آخرهما. و «الإسظام» بكسر الهمزة وسكون السين - و «السطام» - بكسر السين: الحديد التي تحرك بها النار وتسر.

يخبر، تعالى، عن كرمه وجوده: أن كل من تاب إليه تاب عليه من أى ذنب كان، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

قال ابن عباس: أخبر الله عباده بحلمه وعفوه وكرمه وسعة رحمته، ومغفرته، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال. رواه ابن جرير (١). وروى ابن جرير أيضاً عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: كان بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنباً أصبح قد كُتِبَ كَفَّارَةُ ذَلِكَ الذَّنْبِ عَلَى أَبِيهِ، وإذا أصاب البول منه شيئاً قرضه بالمقراض. فقال رجل: لقد أتى الله بنى إسرائيل خيراً! فقال عبد الله: ما آتاكم الله خيراً مما آتاهم، جعل الماء لكم طهوراً، وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥] وقال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٢). وروى أيضاً عن حبيب بن أبى ثابت قال: جاءت امرأة إلى عبد الله بن مغفل، فسألته عن امرأة فجرت فجلت، فلما ولدت قتلت ولدها؟ قال عبد الله بن مغفل: ما لها؟ لها النار، فانصرفت وهي تبكي، فدعاها ثم قال: ما أرى أمرك إلا أحد أمرين: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. قال: فمسحت عينها، ثم مضت (٣). وروى الإمام أحمد عن علي، قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً نفعتني الله بما شاء أن ينفعتني عنه. وحدثني أبو بكر - وصدق أبو بكر - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يذنب ذنباً ثم يتوضأ فيصلى ركعتين، ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلا غفر له». وقرأ هاتين الآيتين: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ الآية، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الآية (٤).

وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ الآية: [فاطر: ١٨] يعنى: أنه لا يجنى أحد على

(١) الطبرى (١٠٤٢٤).

(٢) الطبرى (١٠٤٢٢)، وإسناده صحيح. وزاد السيوطى (٢/ ٢١٩) نسبه لعبد بن حميد والطبرانى والبيهقى فى الشعب. وذكره الهيثمى فى الزوائد (٧/ ١١) من رواية الطبرانى، وقال: «ورجاله رجال الصحيح، إلا أن ابن سيرين ما أظنه سمع من ابن مسعود». وابن سيرين أصغر من أن يدرك ابن مسعود. ولكن إسناد الطبرى هو من رواية أبى وائل عن ابن مسعود، فهو متصل صحيح، وهو من غير الوجه الذى رواه منه الطبرانى، كما هو ظاهر.

(٣) الطبرى (١٠٤٢٣). وإسناده صحيح أيضاً. قال أخى السيد محمود شاکر: «وهذا الخبر من محاسن الأخبار الدالة على الفقيه وبصره بأمر دينه، ونصيحته للناس فى أمور دينهم». أقول: ولم يكن عبد الله بن مغفل ولا حبيب بن أبى ثابت قاذفين فى حكاية هذا الخبر؛ لأنهما لم يعينا شخص المرأة. ثم لم يكن عبد الله بن مغفل فى سلطان الحكم حتى يقيم عليها الحد إذ اعترفت له. بل كان شقيقاً ناصحاً لها فى أمر دينها. وهكذا شأن العلماء الكاملة، رضى الله عنهم.

(٤) المسند (٤٧). وقد مضى أيضاً عند تفسير الآيات: (١٣٠ - ١٣٦) من سورة آل عمران. عن رواية المسند، رقم (٢). ومضت الإشارة إليه أيضاً عند تفسير الآية: (٤٣) من سورة النساء.

أحد، وإنما على كل نفس ما عملت، لا يحمل عنها غيرها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أى: من علمه وحكمته، وعدله ورحمته كان ذلك.

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ هذا التقرير وهذا التوبيخ عام فى كل من هذه صفته . ثم قال :

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾.

ثم امتن عليه بتأييده إياه فى جميع الأحوال، وعصمته له، وما أنزل عليه من الكتاب، وهو القرآن، والحكمة، وهى السنة: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ أى: قبل نزول ذلك عليك، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣] ، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ .

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿١١٤﴾ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ﴿١١٥﴾

يقول تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾ يعنى: كلام الناس ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ أى: إلا نجوى من قال ذلك كما جاء فى الحديث الذى رواه ابن مردويه عن أم حبيبة قالت: قال رسول الله ﷺ: «كلام ابن آدم كله عليه لا له ، ما خلا أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله عز وجل» ، فقال سفيان [وهو الثورى] : أو ما سمعت الله يقول فى كتابه: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ ؟ فهو هذا بعينه، أو ما سمعت الله يقول: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَدْنَىٰ لَهُ الرُّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨] ؟ فهو هذا بعينه، أو ما سمعت الله يقول فى كتابه: ﴿وَالْعَصْرُ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر] ؟ ، فهو هذا بعينه . وقد روى هذا الحديث الترمذى وابن ماجه، ولم يذكر أقوال الثورى ، ثم قال الترمذى: حديث غريب . وروى الإمام أحمد عن أم كلثوم بنت عقبة : أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس فينمي خيرا - أو يقول خيرا» وقالت: لم أسمع به يرخص فى شيء مما الناس إلا فى ثلاث: فى الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها. وكانت أم كلثوم بنت عقبة من المهاجرات اللاتي بايعن رسول الله ﷺ.

وقد رواه الجماعة، سوى ابن ماجه، نحوه (١).

وروى الإمام أحمد عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة، والصيام والصدقة؟» قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «إصلاح ذات البين» قال: «فساد ذات البين هي الخالقة». ورواه أبو داود والترمذى، وقال الترمذى: حسن صحيح (٢).

ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أى: مخلصاً فى ذلك، محتسباً ثواب ذلك عند الله عز وجل ﴿فَمَوْفٍ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى: ثواباً جزيلاً كثيراً واسعاً.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ أى: ومن سلك غير طريق الشريعة التى جاء بها الرسول ﷺ، فصار فى شق والشرع فى شق، وذلك عن عمد منه بعدما ظهر له الحق وتبين له واتضح له.

وقوله: ﴿وَيَبِّغْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما أجمعت عليه الأمة المحمدية، فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً، فإنه قد ضمنت لهم العصمة فى اجتماعهم من الخطأ، تشريعاً لهم وتعظيماً لنيهم. وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة فى ذلك، قد ذكرنا منها طرفاً صالحاً فى كتاب «أحاديث الأصول» (٣)، ومن العلماء من ادعى تواتر معناها، والذى عول عليه الشافعى، فى الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم مخالفته هذه الآية الكريمة، بعد التروى والفكر الطويل. وهو من أحسن الاستنباطات وأفواها، وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك واستبعد الدلالة منها على ذلك.

ولهذا توعد تعالى على ذلك بقوله: ﴿نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أى: إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك، بأن نحسنها فى صدره ونزينها له - استدراجاً له - كما قال تعالى: ﴿فَلذَرْنِي وَمَنْ يُكذِّبُ بِهِدَا الْعَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وقوله: ﴿وَنذَرُهمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]. وجعل النار مصيره فى الآخرة، لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿احشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ. مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]. وقال: ﴿وَرَأَى الْمَجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوقَعُونَ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

(١) المسند (٦/ ٤٠٣ حلى). (٢) المسند (٤٤٤، ٤٤٥ حلى).

(٣) كتاب «أحاديث الأصول» - هذا - ليس عندنا علم به، وأى كتاب هو؟ ولم نجد له ذكراً فى شىء من المراجع. وللحافظ ابن كثير كتاب صغير، فى تخرىج أحاديث مختصر ابن الحاجب، اسمه «تحفة الطالب». وعندى نسخة مصورة عن مخطوط منه. وما أظنه يشير إليه؛ لأن ما ذكره فيه عن هذه المسألة لا يزيد على نصف صفحة متوسطة (ص ٧، ٨). والظاهر أن كتاب «أحاديث الأصول» كتاب آخر أكبر منه.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [١١٦] **﴿** إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتِثَاوًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا الشَّيْطَانَ مَرِيدًا **﴾** [١١٧] **﴿** لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا **﴾** [١١٨] **﴿** وَلَا أَضِلَّهُمْ وَلَا مَتِّبُهُمْ وَلَا مَرْتَبَهُمْ فَلْيَبْتِكُنَّ أَذَانَ الْاِنْعَامِ وَلَا مَرْتَبَهُمْ فَلْيَغْيِرْكَ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا **﴾** [١١٩] **﴿** يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا **﴾** [١٢٠] **﴿** أُولَئِكَ مَاؤُنْهَمُ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا **﴾** [١٢١] **﴿** وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا **﴾** [١٢٢]

قد تقدم الكلام على هذه الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [الآية: النساء: ٤٨]، وذكرنا ما يتعلق بها من الأحاديث في صدر هذه السورة.

وقد روى الترمذي عن علي أنه قال: ما في القرآن آية أحب إلي من هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، ثم قال: حسن غريب (١).

وقوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي: فقد سلك غير الطريق الحق، وضل عن الهدى وبعد عن الصواب، وأهلك نفسه وخسرهما في الدنيا والآخرة، وفاتته سعادة الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتِثَا﴾ قال ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتِثَا﴾ قال: مع كل صنم جنية (٢). وروى أيضا عن عائشة: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتِثَا﴾ قالت: أوثانا. وروى عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، وعروة بن الزبير، ومجاهد، وغيرهم نحو ذلك.

وقوله: ﴿إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ أي: هو الذي أمرهم بذلك وحسنه وزينه لهم، وهم إنما يعبدون إبليس في نفس الأمر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]. وقال تعالى إخباراً عن الملائكة: أنهم يقولون يوم القيامة عن المشركين الذين ادعوا عبادتهم في الدنيا: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١].

وقوله: ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي: طرده وأبعده من رحمته، وأخرجه من جواره وقال: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أي: مُعَيَّنًا مَقْدَرًا مَعْلُومًا. ﴿وَلَأَضِلَّهُمْ﴾ أي: عن الحق ﴿وَلَأَمْتِنِيَهُمْ﴾ أي: أزين لهم ترك التوبة، وأعدهم الأمانى، وأمرهم بالتسوية والتأخير، وأغرهم من أنفسهم. وقوله:

(١) الترمذي (٩٤/٤).

(٢) ورواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٥/١٣٥ حلى). وذكره الهيثمي في الزوائد (٧/١٢) وقال: «ورجاله رجال الصحيح». وزاد السيوطي (٢/٢٢٢) نسبه لابن المنذر والضياء في المختارة.

﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَبْتِكُنْ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ قال قتادة والسدى وغيرهما: يعنى تشقيها ، وجعلها سمة وعلامة للبحيرة والسائبة . ﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرُنْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: يعنى بذلك خصى الدواب . وكذا روى عن ابن عمر ، وأنس ، وسعيد بن المسيب ، وغيرهم . وقد وردَ في حديث النهي عن ذلك . وقال الحسن البصرى: يعنى بذلك الوشم . وفى الصحيح عن ابن مسعود أنه قال : « لعن الله الواشمات والمستوشمات ، والنامصات والمتمنصات ، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله ، عز وجل » ثم قال: ألا العن من لعن رسول الله ﷺ وهو فى كتاب الله ، عز وجل ، يعنى قوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] (١). وقال ابن عباس - فى رواية عنه - ومجاهد، وعكرمة والنخعى ، والحسن ، وقاتة ، وغيرهم فى قوله: ﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرُنْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ يعنى: دين الله ، عز وجل . وهذا كقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] على قول من جعل ذلك أمراً ، أى: لا تبدلوا فطرة الله ، ودعوا الناس على فطرتهم ، كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تجدون بها من جدعاء؟ » (٢) وفى صحيح مسلم ، عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: « قال الله عز وجل: إني خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم » (٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ أى: فقد خسر الدنيا والآخرة ، وتلك خسارة لا جبر لها ، ولا استدراك لفاتها .

وقوله: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْتَنِيهِمْ﴾ وهذا إخبار عن الواقع؛ فإن الشيطان يعد أولياءه ويمنهم بأنهم هم الفائزون فى الدنيا والآخرة ، وقد كذب وافترى فى ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ، كما قال تعالى مخبراً عن إبليس يوم المعاد: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢] .

(١) رواه أحمد بنحوه مطولاً (٤١٢٩) . وكذلك البخارى (٤٨٣/٨ ، ٤٨٤ فتح) ، وفى مواضع آخر ، ومسلم (٢) / (١٦٦) . وسيذكره الحافظ ابن كثير عند تفسير الآية (٧) من سورة الحشر ، عن رواية المسند . و« النامصة » : التى تنتف الشعر من وجهها . و« المتمنصة » : التى تأمر من يفعل بها ذلك . و« المتفلجة للحسن » : التى تصنع فرجة فى أسنانها بين الشايبا والرابعيات ، رغبة فى التحسين والتجميل .

(٢) المسند (٧١٨١ ، ٧٦٩٨) وصحيح ابن حبان بنحقيقنا (١٣٠) والبخارى (١٩٦/٣ - ٢٠٠ فتح) ، وفى مواضع آخر ، ومسلم (٢/٣٠١) . وسيذكره ابن كثير مرة أخرى عن روايتى الشيخين ، عند تفسير الآية : (٣٠) من سورة الروم . و« الجمعاء » : السليمة من العيوب المجتمعة الأعضاء الكاملتها . و« الجدعاء » : المقطوعة الأطراف أو بعضها .

(٣) هو جزء من حديث طويل فى صحيح مسلم (٢/٣٥٦ ، ٣٥٧) . وقد مضى عند تفسير الآية : (١٦٨) من سورة البقرة . ورواه أحمد فى المسند (١٧٥٥٦) . « فاجتالتهم » : أى استخفتهم فجالوا معهم فى الضلال . و« اجتال الشئ » : إذ ذهب به وساقه .

وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ أى: المستحسنون له فيما وعدهم ومنّاهم ﴿مَاوَاهُمُ جَهَنَّمُ﴾ أى: مصيرهم ومآلهم. يوم حسابهم ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أى: ليس لهم عنها مندوحة ولا مصرف، ولا خلاص ولا مناص.

ثم ذكر تعالى حال السعداء الأتقياء، وما لهم فى مآلهم من الكرامة التامة، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: صدقت قلوبهم وعملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات، وتركوا ما نهوا عنه من المنكرات ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى: يصرفونها حيث شاءوا وأين شاءوا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أى: بلا زوال ولا انتقال ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ أى: هذا وعد من الله، ووعد الله معلوم حقيقة أنه واقع لا محالة، ولهذا أكده بالمصدر الدال على تحقيق الخبر، وهو قوله: ﴿حَقًّا﴾. ثم قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ أى: لا أحد أصدق منه قولاً وخبراً، لا إله إلا هو، ولا رب سواه. وكان رسول الله ﷺ يقول فى خطبته: «إن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار» (١).

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٢٤) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ نَقِيرًا﴾ (١٢٥) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ حَلِيلًا﴾ (١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ (١٢٦)

قال قتادة: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ افْتَخَرُوا، فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ: نَبِينَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ، وَكِتَابِنَا قَبْلَ كِتَابِكُمْ، فَنَحْنُ أَوْلَىٰ بِاللَّهِ مِنْكُمْ. وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم نبينا، خاتم النبيين، وكتابنا يقضى على الكتب التى كانت قبله، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾. فأفالج الله حجة المسلمين على من ناوَاهم من أهل الأديان (٢). وكذا روى عن السدى، ومسروق، والضحاك وأبى صالح، وغيرهم.

والمعنى فى هذه الآية: أن الدين ليس بالتحلى ولا بالتمنى، ولكن ما وفر فى القلوب

(١) هو جزء من حديث رواه النسائى (١/ ٢٣٤) من حديث جابر، بلفظ: «إن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد» - إلخ. ورواه أحمد (١٤٣٨٥) بلفظ: «وإن أفضل الهدى هدى محمد» مع اختلاف فى آخره. ورواه مسلم (١/ ٢٣٧) وابن حبان فى صحيحه، رقم (٩) بتحقيقنا، بلفظ: «إن خير الحديث كتاب الله». ولم أجد اللفظ الذى هنا: «إن أصدق الحديث كلام الله».

(٢) رواه الطبرى (٤٩٣-١) وهو مرسل. وإسناد الطبرى إلى قتادة إسناد صحيح. ورواه أيضا عبد بن حميد وابن المنذر، كما فى الدر المنثور (٢/ ٢٢٥).

وصدقته الأعمال ، وليس كلُّ من ادعى شيئاً حصل له بمجرد دعواه، ولا كل من قال إنه هو المُحقَّ سَمِعَ قوله بمجرد ذلك، حتى يكون له من الله برهان؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ أى : ليس لكم ولا لهم النجاة بمجرد التمنى، بل العبرة بطاعة الله سبحانه، واتباع ما شرعه علنيَّ السنة الرسل الكرام؛ ولهذا قال بعده : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ كقوله : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] .

وقد روى أن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على كثير من الصحابة . فروى الإمام أحمد عن أبي بكر أنه قال : يا رسول الله ، كيف الفلاح بعد هذه الآية : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ فكلُّ سوء عملناه جزينا به؟ فقال النبي ﷺ : «عَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ، أَلَسْتَ تَمْرُضُ؟ أَلَسْتَ تَنْصَبُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَسْتَ تُصَيِّكُ اللَّوَاءَ؟» قال : بلى . قال : «فهو ما تُجْزَوْنَ بِهِ» وزواه سعيد بن منصور وابن حبان في صحيحه والحاكم ^(١) . وروى ابن مردويه عن مسروق قال : قال أبو بكر الصديق : يا رسول الله ، ما أشد هذه الآية : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ ! فقال رسول الله ﷺ : «المصائب والأمراض والأحزان في الدنيا جزاء» ^(٢) . وروى سعيد بن منصور عن عبيد بن عمير ، عن عائشة : أن رجلا تلا هذه الآية : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ فقال : إنا لنُجْزَى بكل ما عملنا ؟ هلكننا إذن . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : «نعم ، يُجْزَى به المؤمن في الدنيا ، في نفسه ، في جسده ، فيما يؤذيه» ^(٣) . وروى ابن أبي حاتم عن ابن أبي مليكة ، عن عائشة قالت : قلت : يا رسول الله ، إني لأعلم أشد آية في القرآن . فقال : «ما هي يا عائشة؟» قلت : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ فقال : « هو ما يصيب العبد المؤمن حتى النكبة ينكبها» ورواه أبو داود وابن جرير ^(٤) . وروى أبو داود الطيالسي عن أمية أنها سألت عائشة عن هذه الآية : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ فقالت : ما سألتني عن هذه الآية أحد منذ سألت عنها رسول الله ﷺ ، فقال :

(١) المسند (٦٨ - ٧١) وابن حبان (٤ / ٥٠٢) مخطوطة الإحسان المصورة) والحاكم (٣ / ٧٤ ، ٧٥) وصححه ووافقه الذهبي . ورواه أيضا الطبري (١٠٥٢٣ - ١٠٥٢٨) . وزاد السيوطي (٢ / ٢٢٦) نسبه لابن المنذر وابن السني والبيهقي في الشعب . وفي إسناده انقطاع بين التابعي أبي بكر بن أبي زهير الثقفي - رواه عن أبي بكر الصديق - وبين أبي بكر . ولكن الشواهد الآتية تؤيد صحته . وانظر شرح الطحاوية بتحقيقنا (ص ٢٦٣) .
«اللاواء» - بفتح اللام والواو بينهما همزة ساكنة وبالمد : المشقة والشدة .

(٢) ورواه الطبري (١٠٥٢٩) بلفظ : «إن المصيبة في الدنيا جزاء» . وذكره السيوطي (٢ / ٢٢٦ ، ٢٢٧) بمثل لفظ ابن مردويه ، ونسبه لسعيد بن منصور وهناد وابن جرير ، وأبي نعيم في الحلية وابن مردويه « عن مسروق » ولكن الذي وقع في نسخ الطبري بحذف «عن مسروق» . والراجح عندي أنه سقط سهوا من الناسخين . وهو في الحلية (١١٩/٨) على الصواب .

(٣) إسناده صحيح . ورواه أحمد في المسند (٦ / ٦٥ ، ٦٦ حلى) . ورواه البخاري في التاريخ الكبير (٤ / ٢ / ٣٧١) مختصرا . وهو في مجمع الزوائد (٧ / ١٢) وقال : «رواه أحمد وأبو يعلى ، ورجلها رجال الصحيح» وزاد السيوطي (٢ / ٢٢٧) نسبه لابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان « بسند صحيح » . ولم أجد في الطبري .

(٤) إسناده صحيح . وهو في الطبري (١٠٥٣٢) . ورواية أسى داود (٩٣ / ٣٠) أطول قليلا . ورواه الطبري بأطول منه (١٠٥٣١) ، وقد فضل أخی السيد محمود شاکر تخريجه هناك .

«يا عائشة، هذه متابعة الله للعبد، مما يصيبه من الحمى والنكبة والشوكة، حتى البضاعة يضعها في كُمه فيفزع لها، فيجدها في جيبه، حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبرُّ الأحمر من الكبر»^(١). وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا كثرت ذنوب العبد، ولم يكن له ما يكفرها [من العمل]، ابتلاه الله بالحزن ليكفرها عنه»^(٢). وروى سعيد ابن منصور، عن أبي هريرة، قال: لما نزلت: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ شق ذلك على المسلمين، فقال لهم رسول الله ﷺ: «سَدُّوا وقاربوا، فإن في كل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى الشوكة يُشَاكها، والنكبة يَنْكُبُها». وهكذا رواه أحمد، ومسلم والترمذي والنسائي^(٣). وعن أبي سعيد وأبي هريرة: أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا سقم ولا حزن، حتى الهم يهّمه، إلا كفر الله من سيئاته» أخرجاه^(٤). وروى أحمد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رجل لرسول الله ﷺ: رأيت هذه الأمراض التي تصيبنا؟ ما لنا بها؟ قال: «كفارات». قال أبي: وإن قلت؟ قال: «حتى الشوكة فما فوقها» قال: فدعا أبي على نفسه أنه لا يفارقه الوَعَكُ حتى يموت، في ألا يشغله عن حج ولا عمرة، ولا جهاد في سبيل الله، ولا صلاة مكتوبة في جماعة، فما مسه إنسان حتى وجد حره، حتى مات. تفرد به أحمد^(٥). وروى ابن جرير عن الحسن: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾، قال: الكافر، ثم قرأ: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ﴾ [سبأ: ١٧] ^(٦). وهكذا روى عن ابن عباس، وسعيد بن جبيرة: أنهما فسرا السوء هاهنا بالشرك أيضاً.

وقوله: ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ قال ابن عباس: إلا أن يتوب فيتوب الله عليه. رواه ابن أبي حاتم. والصحيح أن ذلك عام في جميع الأعمال، لما تقدم من الأحاديث، وهذا اختيار ابن جرير، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ لما ذكر الجزاء على السيئات، وأنه لا بد أن يأخذ مستحقها من العبد إما في الدنيا - وهو الأجود له - وإما في الآخرة - والعياذ بالله من ذلك، ونسأله العافية في الدنيا والآخرة، والصفح والعفو والمسامحة - شرع في بيان إحسانه وكرمه ورحمته في قبول الأعمال الصالحة من عباده ذكراً منهم

(١) مسند الطيالسي (١٥٨٤). وقد رواه الطبري في تفسير هذه الآية، برقم (١٠٥٣١). ورواه قبل ذلك برقم

(٦٤٩٥)، وفصلنا تخريجه فيه وقد مضى عند تفسير الآية: (٢٨٤) من سورة البقرة.

(٢) المسند (١٥٧/٦)، وزدنا منه قوله: [من العمل]. وذكره الهيثمي في الزوائد دون هذه الزيادة (١٠/١٩٢) وقال: «رواه أحمد والبخاري، وإسناده حسن».

(٣) المسند (٧٣٨٠)، وفصلنا تخريجه هناك. ورواه أيضاً الطبري (١٠٥٢٠) من هذا الوجه، بنحوه. وكذلك رواه البيهقي (٣/٣٧٣). وزاد السيوطي (٢/٢٢٧) نسبه لابن أبي شيبه وابن المنذر وابن مردويه.

(٤) البخاري (١٠/٩٢ فتح) ومسلم (٢/٢٨٢). ورواه أيضاً أحمد (١٤/٨٠) والبيهقي (٣/٣٧٣).

(٥) المسند (١١٢٠١). وهو في الزوائد (٢/٣٠١، ٣٠٢) وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى، ورجاله ثقات».

(٦) الطبري (١٠٥١١).

وإنائهم، بشرط الإيمان، وأنه سيدخلهم الجنة ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقيير، وهو النقرة التي في ظهر نواة التمرة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أى: أخلص العمل لربه، عز وجل، فعمل إيماناً واحتساباً ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أى: اتبع فى عمله ما شرعه الله له، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق، وهذان الشرطان لا يصح عمل عامل بدونهما، أى: يكون خالصاً صواباً، والخالص . أن يكون لله . والصواب: أن يكون متابعا للشريعة . فيصح ظاهره بالمطابقة، وباطنه بالإخلاص، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد . فمن فقد الإخلاص كان منافقاً، وهم الذين يراؤون الناس، ومن فقد المطابقة كان ضالاً جاهلاً . ومتى جمعهما فهو عمل المؤمنين ﴿الَّذِينَ يُتَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦] (١)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، وهم محمد وأتباعه إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨] . وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣] والحنيف: هو المائل عن الشرك قصداً، أى تاركاً له عن بصيرة، ومقبل على الحق بكلية، لا يصده عنه صاد، ولا يرده عنه راد .

وقوله: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ وهذا من باب الترغيب فى اتباعه؛ لأنه إمام يقتدى به، حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له، فإنه انتهى إلى درجة الخلَّة التي هى أرفع مقامات المحبة، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه، كما وصفه به فى قوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧] قال كثير من علماء من السلف: أى قام بجميع ما أمر به ووفى كل مقام من مقامات العبادة، فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير، ولا كبير عن صغير . وقال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] . وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٢] .

وإنما سُمِّي خليل الله لشدة محبة ربه، عز وجل، له، لما قام له من الطاعة التي يحبها ويرضاها؛ ولهذا ثبت فى الصحيحين، عن أبى سعيد الخدرى: أن رسول الله ﷺ لما خطبهم فى آخر خطبة خطبها قال: «أما بعد، أيها الناس، فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر بن أبى قحافة خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله» . وجاء من طريق جندب ابن عبد الله البجلي، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن مسعود، عن النبى ﷺ قال :

(١) قراءة حفص وحمزة والكسائى: «تقبل» و«تجاوز» بالنون، ونصب «أحسن» . وقرأ باقى السبعة: «يتقبل» و«يتجاوز» بضم الياء بالبناء لما لم يسم فاعله، ورفع «أحسن» نائب فاعل . وهذه القراءة هى المناسبة للاقتباس هنا، كما هو ظاهر . وثبت الحرفان هنا بالياء فى المطبوعة والمخطوطتين .

«إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا» (١).

وقوله: «وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» أى: الجميع ملكه وعبيده وخلقه، وهو المتصرف فى جميع ذلك، لا راد لما قضى، ولا معقب لما حكم، ولا يسأل عما يفعل، لعظمته وقدرته وعدله، وحكمته ولطفه ورحمته.

وقوله: «وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا» أى: علمه نافذ فى جميع ذلك، لا تخفى عليه خافية من عباده، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ولا تخفى عليه ذرة لما تراءى للنواظر وما توارى.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتْلَىٰ النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقَوْمُوا لِلَّتِي بِالْقِسْطِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ (١٤٧)

روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها: «وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ» إلى قوله: «وَرَغِبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ» قالت عائشة: هو الرجل يكون عنده البيّمة، هو وليها ووارثها، قد شركته فى ماله، حتى فى العّدق، فيرغب أن ينكحها، ويكره أن يزوّجها رجلا، فيشركه فى ماله بما شركته، فيعضلها، فنزلت هذه الآية ورواه مسلم. وروى ابن أبى حاتم عن عائشة قالت: ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن، فأنزل الله: «وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ» الآية، قالت: والذى ذكر الله أنه يتلى عليه فى الكتاب الآية الأولى التى قال الله: «وَأَنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ» [النساء: ٣]. وبهذا الإسناد، عن عائشة قالت: وقول الله عز وجل: «وَرَغِبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ» رغبة أحدكم عن يتيّمته التى تكون فى حجره حين تكون قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا فى مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهن عنهن. وأصله ثابت فى الصحيحين (٢).

(١) حديث أبى سعيد الخدرى فى الصحيحين ليس فيه قوله: «ولكن صاحبكم خليل الله». انظر البخارى (٧ / ١٠)، (١١ فتح). ومسلم (٢ / ٢٣٠). ولكن ثبت فى حديث ابن مسعود، فى المسند (٣٥٨٠) - مرفوعاً: «إني أبرأ إلى كل خليل من خلته، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلًا، وإن صاحبكم خليل الله». ورواه مسلم (٢ / ٢٣١) والترمذى (٣٠٨ / ٤). وفى حديث جندب بن عبد الله: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لى منكم خليل، فإن الله قد اتخذنى خليلًا، كما اتخذ إبراهيم عليه السلام خليلًا، ولو كنت متخذاً من أمتى خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا» رواه مسلم (١ / ١٤٩). وانظر أيضا فتح البارى (٧ / ١٥).

(٢) حديث عائشة - من رواية البخارى - فى الفتح (٨ / ١٩٩). وقد مضى بأطول من هذا عند تفسير الآيات: (٢ - ٤) من سورة النساء. من رواية البخارى أيضا. وحديثه - من رواية ابن أبى حاتم - إسنادهما صحيح. وهما فى معنى حديثهما الماضى من رواية البخارى وقد روى الطبرى حديثها هذا بالفاظ كثيرة مطولة ومختصرة، فى مناسبة الآية السابقة، وفى مناسبة هذه الآية، بالأرقام ٨٤٥٦ - ٨٤٦١، ٨٤٧٧، ١٠٥٤٠، ١٠٥٥٤، ١٠٥٥٥. وتفصيل تخريجه فى تلك المواضع من الطبرى.

والمقصود: أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يحل له تزويجها، فتارة يرغب أن يتزوجها، فأمره الله أن يمهرها أسوة أمثالها من النساء، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء، فقد وسع الله عز وجل. وهذا المعنى في الآية الأولى التي في أول السورة. وتارة لا يكون للرجل فيها رغبة، لدمامتها عنده، أو في نفس الأمر، فهناك الله عز وجل أن يعضلها عن الأزواج، خشية أن يشركوه في ماله الذي بينه وبينها، كما قال ابن عباس في الآية، وهى في قوله: ﴿فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ الآية، فكان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة، فيلقى عليها ثوبه، فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً، فإن كانت جميلة وهويها تزوجها وأكل مالها، وإن كانت دميمة منعها الرجال أبداً حتى تموت، فإذا ماتت ورثها. فَحَرَّمَ اللهُ ذَلِكَ وَنَهَى عَنْهُ.

وقال في قوله: ﴿وَالْمُسْتَضْفَيْنِ مِنَ الْوَالِدَانِ﴾: كانوا في الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات، وذلك قوله: ﴿لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾، فنهى الله عن ذلك، وبين لكل ذى سهم سهمه، فقال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَى﴾ [النساء: ١١] صغيراً أو كبيراً. وكذا قال سعيد بن جبير وغيره. قال سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَأَنْ تَقْرَمُوا لِلْيَتَامَى بِالْفِسْطِ﴾: كما إذا كانت ذات جمال ومال نكحتها واستأثرت بها، كذلك إذا لم تكن ذات مال ولا جمال فانكحها واستأثرت بها. وقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ تهيباً على فعل الخيرات وامتنالاً للأوامر، وأن الله عز وجل عالم بجميع ذلك، وسيجزى عليه أوفر الجزاء وأتمه.

﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ الْإِنْسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُواهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كُلاً مِنْ سَعْتِهِ، وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾

يقول تعالى مخبراً ومشرعاً عن الزوجين: تارة في حال نفور الرجل عن المرأة، وتارة في حال انفاقه معها، وتارة في حال فراقه لها.

فالحالة الأولى: ما إذا خافت المرأة من زوجها أن ينفر عنها، أو يعرض عنها، فلها أن تسقط حقها أو بعضه، من نفقة أو كسوة، أو مبيت، أو غير ذلك من الحقوق عليه، وله أن يقبل ذلك منها، فلا جناح عليها في بذلها ذلك له، ولا عليه في قبوله منها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصَالِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ (١) ثم قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ أى: من الفراق. وقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الرَّجُلَ إِذَا كَانَ فِي الْحَرْبِ مَكْرًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصَالِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ (٢) وقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الرَّجُلَ إِذَا كَانَ فِي الْحَرْبِ مَكْرًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصَالِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ (٣)

(١) « يصالحا » : بفتح الياء وتشديد الصاد المفتوحة ، وأصلها « يتصالحا » . وقراءة حفص « يصلحا » : بضم الياء وسكون الصاد ، وهى قراءة الكوفيين . وأثبتنا ما ثبت فى المخطوطتين ، وهى قراءة باقى القراء السبعة ، لأنها هى التى أثبتتها ابن كثير فى تفسيره . والمراد فىهما واحد .

الْأَنْفُسُ الشُّعْ» أى الصلح عند المُشَاحَّة خير من الفراق (١)؛ ولهذا لما كبرت سَوْدَةُ بنت زَمْعَةَ عزم رسول الله ﷺ على فراقها، فصالحته على أن يمسكها، وتترك يومها لعائشة، فقبَّل ذلك منها وأبقاها على ذلك. فقد روى الطيالسى عن ابن عباس قال: خَشِيتُ سَوْدَةَ أَنْ يَطْلُقَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فقالت: يا رسول الله، لا تطلقنى، واجعل يومى لعائشة. ففعل، ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ الآية، قال ابن عباس: فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز. ورواه الترمذى، عن محمد بن المثنى، عن أبى داود الطيالسى، به. وقال: حسن غريب (٢). وفى الصحيحين، عن عائشة قالت: لما كبرت سَوْدَةُ بنتُ زَمْعَةَ وهبتُ يومها لعائشة، فكان النبى ﷺ يقسم لها بيوم سودة. وروى الحاكم عن عروة، عن عائشة: أنها قالت له: يا بن أختى، كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض فى مكثه عندنا، وكان قلَّ يوم إلا وهو يطوف علينا، فيدون من كل امرأة من غير مَسِيس، حتى يبلغ إلى من هو يومها فيبيت عندها، ولقد قالت سودة بنت زَمْعَةَ - حين أسنت وقرت أن يفارقها رسول الله ﷺ - : يا رسول الله، يومى هذا لعائشة. فقبَّل ذلك رسولُ الله ﷺ. قالت عائشة: ففى ذلك أنزل الله: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾. ورواه أبود اود وابن مردويه، نحوه. قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٣). وروى البخارى عن عائشة: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ قالت: الرجل تكون عنده المرأة، ليس بمسكث منها، يريد أن يفارقها، فتقول: أجعلك من شأنى فى حل. فنزلت هذه الآية (٤). وروى ابن أبى حاتم عن خالد بن عَرَعَرَةَ قال: جاء رجل إلى على بن أبى طالب، فسأله عن قول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ قال على: يكون الرجل عنده المرأة، فتنبو عينها عنها من دمامتها، أو كبرها، أو سوء خلقها، أو قذذها، فتكره فراقه، فإن وضعت له من مهرها شيئاً حل له، وإن جعلت له من أيامها فلا حرج. ورواه أبو داود الطيالسى، وابن جرير (٥). وكذا فسرها ابن عباس، وعبيدة السلمانى، ومجاهد، والشَّعْبَى، وسعيد بن جبیر، وقتادة، وغير واحد من السلف والأئمة، ولا أعلم فى ذلك خلافا فى أن المراد بهذه الآية هذا، والله أعلم. وروى الشافعى عن ابن المسيَّب: أن بنت محمد بن مسَلَمَةَ كانت عند رافع بن خديج، فكره منها أمرا إما كبرا أو غيره، فأراد طلاقها، فقالت: لا تطلقنى، واقسم لى ما بدا لك. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِنْ

(١) « الشح » : حرص النفس على ما ملكت وبخلها به . ومنه « المشاحة » ، وهى: تنازع الخصم على أمر يبادر كل منهم إليه ويحرص عليه حذر فوته . ولكن تفسير ابن كثير لهذه الآية « وأحضرت الأنفس الشح » ليس تفسيرا لمعنى الجملة ، بل هو نتيجة لسباق الكلام . والمعنى الصحيح ، هو ما ذكره الطبرى (٩ / ٢٧٩) : « وأحضرت أنفس النساء الشح على أنصباتهن من أنفس أزواجهن وأمواهن » . ثم قال (ص ٢٨٢) : « والشح : الإفراط فى الحرص على الشيء ، وهو فى هذا الموضع : إفراط حرص المرأة على نصيبها من أيامها من زوجها ونفقتها » . (٢) الطيالسى (٢٦٨٣) والترمذى (٤ / ٩٤ ، ٩٥) وإسنادهما صحيح . والذى فى الترمذى أنه قال : « حديث حسن صحيح غريب » .

(٣) الحاكم (٢ / ١٨٦) ووافقه الذهبى على تصحيحه ، وأبو داود (٢١٣٥) .

(٤) البخارى (٨ / ١٩٩ فتح) . ورواه الطبرى بنحوه (١٠٥٨٥ ، ١٠٥٨٦) .

(٥) الطبرى (١٠٥٧٥ - ١٠٥٧٨) وأسانيده صحاح .

امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ﴿١﴾ الآية . وقد رواه الحاكم بأطول من هذا السياق (١) .

وقوله : ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ قال ابن عباس : يعنى التخيير ، أن تخيير الزوج لها بين الإقامة والفراق ، خير من تمادى الزوج على أثره غيرها عليها . والظاهر من الآية أن صلحهما على ترك بعض حقها للزوج ، وقبول الزوج ذلك ، خير من المفارقة بالكلية ، كما أمسك النبي ﷺ سودة بنت زمعة على أن تركت يومها لعائشة ، ولم يفارقها بل تركها من جملة نسائه ، وفعله ذلك لتأسى به أمته فى مشروعية ذلك وجوازه ، فهو أفضل فى حقه عليه الصلاة والسلام . ولما كان الوفاق أحب إلى الله من الفراق قال : ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ ، بل الطلاق بغض إليه ، سبحانه وتعالى ؛ ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «أبغض الحلال إلى الله الطلاق» (٢) .

وقوله : ﴿وَأَنْ تَحْسَبُوا أَنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ : وإن تتجشموا مشقة الصبر على من تكرهون منهن ، وتقسما لهن أسوة أمثالهن ، فإن الله عالم بذلك ، وسيجزىكم على ذلك أوفر الجزاء .

وقوله تعالى : ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ أى : لن تستطيعوا أيها الناس أن تساوا بين النساء من جميع الوجوه ، فإنه وإن وقع القسم الصورى : ليلة وليلة ، فلا بد من التفاوت فى المحبة والشهوة والجماع ، كما قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن البصرى ، وغيرهم . كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن . عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : «اللهم هذا قَسَمِي فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك» يعنى : القلب . لفظ أبى داود ، وإسناده صحيح (٣) .

وقوله : ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ أى : فإذا ملتم إلى واحدة منهن فلا تبالغوا فى الميل بالكلية ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ أى : فتبقى الأخرى معلّقة . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جببر ، والحسن ، وغيرهم : معناه : لا ذات زوج ولا مطلقة (٤) . وروى الطيالسى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما ، جاء يوم القيامة وأحد شِقِيهِ ساقط» . ورواه الإمام أحمد وأهل السنن (٥) .

(١) حديث الشافعى مختصر ، وظاهره الإرسال . وهو فى المستدرک (٢ / ٣٠٨ ، ٣٠٩) مطولا موصولا ، وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى .

(٢) أبو داود (٢١٧٨) وابن ماجه (٢٠١٨) ، وإسناده ابن ماجه ضعيف . ورواه أبو داود قبل ذلك مرسلا . وصرح المنذرى بأن الموصول غريب ، وأن المشهور فى ذلك المرسل ، ففى صحته نظر كثير .

(٣) أبو داود (٢١٣٤) والترمذى (١٩٥/٢) . وقوله : « يعنى القلب » من كلام أبى داود . ورواه الحاكم (٢ / ١٨٧) وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى .

(٤) انظر ما قلنا فيما مضى « فى تعدد الزوجات عند تفسير الآيات : (٢ - ٤) من سورة النساء .

(٥) مسند الطيالسى (٢٤٥٤) ومسند أحمد (٧٩٢٣) . وقد فصلنا تخريجه هناك .

وقوله: ﴿وَأَنْ تَصَلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أى: وإن أصلحتم فى أموركم، وقسمتم بالعدل فيما تملكون، واتفقتم الله فى جميع الأحوال، غفر الله لكم ما كان من ميل إلى بعض النساء دون بعض.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْ يَتَفَرَّقَا يَغْنُ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ وهذه هى الحالة الثالثة، وهى حالة الفراق، وقد أخبر الله تعالى أنهما إذا تفرقا فإن الله يغنيه عنها ويغنيها عنه، بأن يعوضه الله من هو خير له منها، ويعوضها عنه بمن هو خير لها منه ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ أى: واسع الفضل عظيم المن، حكيما فى جميع أفعاله وأقداره وشرعه.

﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ ﴿١٣١﴾ **وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا** ﴿١٣٢﴾ **إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ** وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ **مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴿١٣٤﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه الحاكم فيهما؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أى: وصيناكم بما وصيناهم به، من تقوى الله، عز وجل، بعبادته وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿وَأَنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾، كما قال تعالى إخبارا عن موسى أنه قال لقومه: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقال: ﴿فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَأَسْتَفْتَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦] أى: غنى عن عباده، ﴿حَمِيدٌ﴾ أى: محمود فى جميع ما يقدره ويشرعه.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أى: هو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب الشهيد على كل شىء.

وقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ أى: هو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه، كما قال: ﴿وَأَنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالِكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]. وقال بعض السلف: ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره. وقال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠] أى: ما هو عليه بممتنع.

وقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أى: يا من ليس همه إلا الدنيا، اعلم أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة، وإذا سألته من هذه وهذه أعطاك وأغناك وأثناك، كما قال

تعالى : ﴿فَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ . وَمَنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة : ٢٠٠ - ٢٠١] ، وقال تعالى : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى : ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا . كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء : ١٨ - ٢١] .

وقد زعم ابن جرير أن المعنى فى هذه الآية : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ أى : من المنافقين الذين أظهروا الإيمان لأجل ذلك ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ وهو ما حصل لهم من المغانم وغيرها مع المسلمين . وقوله : ﴿وَالْآخِرَةَ﴾ أى : وعنده ثواب الآخرة ، وهو ما ادخره لهم من العقوبة فى نار جهنم . وجعلها كقولها : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نَفْسٌ فَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود : ١٥ ، ١٦] . ولا شك أن هذه الآية معناها ظاهر ، وأما تفسيره الآية الأولى بهذا ففيه نظر ؛ فإن قوله : ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ ظاهر فى حضور الخير فى الدنيا والآخرة ، أى : بيده هذا وهذا ، فلا يقتصر قاصر الهمة على السعى للدنيا فقط ، بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية فى الدنيا والآخرة ، فإن مرجع ذلك كله إلى الذى بيده الضر والنفع ، وهو الله الذى لا إله إلا هو ، الذى قد قسم السعادة والشقاوة بين الناس فى الدنيا والآخرة ، وعدل بينهم فيما علمه فيهم ، ممن يستحق هذا ، وممن يستحق هذا ؛ ولهذا قال : ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ .

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُوفُؤًا قَوْمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّهُ أَوْ تَعْرِضُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١٢٥)

يأمر تعالى عبده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط ، أى : بالعدل ، فلا يعدلوا عنه يمينا ولا شمالا ، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ، ولا يصرفهم عنه صارف ، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه .

وقوله : ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ كما قال : ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ أى : ليكن أدوها ابتغاء وجه الله ، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقاً ، خالية عن التحريف والتبديل والكتمان ؛ ولهذا قال : ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ أى : أشهد الحق ولو عاد ضررها عليك (١) ، وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه ، وإن كان مضره عليك ، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجا ومخرجا من كل أمر يضيق عليه .

(١) أى : ضرر الشهادة . وفى المطبوعة : « ضرره » كان الضمير عائد على « الحق » . وأثبتنا ما فى المخطوطتين ، وهو أجود .

وقوله: ﴿أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ أى: وإن كانت الشهادة على والديك أو قرابتك ، فلا تُرَاعَهُمْ فِيهَا، بل اشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم، فإن الحق حاكم على كل أحد. وقوله: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أى: لا تراعه لغناه، ولا تشفق عليه لفقره، والله يتولاهما، بل هو أولى بهما منك، وأعلم بما فيه صلاحهما.

وقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ أى: فلا يحملنكم الهوى والعصية وبغضة الناس إليكم، على ترك العدل فى أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدل على أى حال كان، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنَ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]. ومن هذا قول عبد الله بن رواحة، لما بعثه النبي ﷺ يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزرعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم، فقال: والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلى، ولأنتم أبغض إلى من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملنى حبي إياه وبغضى لكم على ألا أعدل فيكم. فقالوا: «بهذا قامت السموات والأرض». وسيأتى الحديث مسندا فى سورة المائدة، إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَلَوْتُمْ أَوْ لَعَنْتُمْ أَوْ عُزِّرْتُمْ﴾ قال مجاهد وغير واحد من السلف: ﴿تَلَوْتُمْ﴾ أى: تحرفوا الشهادة وتغيروها، و«اللئى» هو: التحريف وتعمد الكذب، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧٨] الآية. و«الإعراض» هو: كتمان الشهادة وتركها، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمهَا فَإِنَّهُ أَتَمَّ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]. وقال النبي ﷺ: «خير الشهداء الذى يأتى بشهادته قبل أن يسألها» (١). ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أى: وسيجازيكم بذلك.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ ءَالْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالدخول فى جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتقديره وتثبيتته والاستمرار عليه. كما يقول المؤمن فى كل صلاة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] أى: بصرنا فيه، وزدنا هدى، وثبتنا عليه. فأمرهم بالإيمان به وبرسوله، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ [الحديد: ٢٨].

وقوله: ﴿وَءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ يعنى: القرآن ﴿وَءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ﴾ وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة، وقال فى القرآن: ﴿نَزَّلَ﴾؛ لأنه نزل متفرقا منجما على الوقائع، بحسب ما يحتاج إليه العباد فى معاشهم ومعادهم، وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ

(١) رواه ابن ماجه (٢٣٦٤) بنحوه، من حديث زيد بن خالد الجهنى. ورواه مسلم (٤٢/٢) من حديثه، بمعناه، وقد مضى عند تفسير الآية: (٢٨٢) من سورة البقرة.

وَكُتِبَ عَلَيْهِ وَرُسُلُهُ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٧﴾ : فقد خرج عن طريق الهدى، وبعد عن القصد كل البعد.

﴿١٣٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكُتُبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْكَرُوا إِذَا مَشَاهُرُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

يخبر تعالى عن دخول في الإيمان ثم رجع عنه، ثم عاد فيه ثم رجع، واستمر على ضلاله وازداد حتى مات، فإنه لا توبة بعد موته، ولا يغفر الله له، ولا يجعل له مما هو فيه فرجا ولا مخرجا، ولا طريقا إلى الهدى؛ ولهذا قال: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾. روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا﴾ قال: تَمَادَوْا عَلَى كُفْرِهِمْ حَتَّى مَاتُوا. وكذا قال مجاهد. وروى ابن أبي حاتم عن علي، أنه قال: يستتاب المرتد، ثلاثاً، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾.

ثم قال: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يعنى: أن المنافقين من هذه الصفة، فإنهم آمنوا ثم كفروا، فطبع على قلوبهم. ثم وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، بمعنى: أنهم معهم فى الحقيقة، يوالونهم ويسرون إليهم بالمودة، ويقولون لهم إذا خلوا بهم: إنما نحن معكم، إنما نحن مستهزئون، أى بالمؤمنين فى إظهارنا لهم الموافقة. قال الله تعالى منكرأ عليهم فيما سلكوه من موالة الكافرين: ﴿أَيَّتَقُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ؟﴾

ثم أخبر تعالى بأن العزة كلها له وحده لا شريك له، ولمن جعلها له. كما قال فى الآية الأخرى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

والمقصود من هذا: التهييج على طلب العزة من جناب الله، والالتجاء إلى عبوديته، والانتظام فى جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصره فى هذه الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد.

ومناسب أن يُذَكَّرَ هَاهُنَا الْحَدِيثَ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي رِيحَانَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ اتَّسَبَ إِلَى تِسْعَةِ آبَاءِ كَفَّارٍ، يَرِيدُ بِهِمْ عِزًّا وَفَخْرًا، فَهُوَ عَاشِرُهُمْ فِي النَّارِ». تفرد به أحمد. وأبو ریحانة هذا: هو أزدى، ويقال: أنصارى. واسمه: شمعون، بالمعجمة، فيما قاله البخارى، وقال غيره: بالمهمله (١)، والله أعلم.

(١) المسند (١٧٢٧٨). ورواه أيضا البخارى فى الكبير (٢/١) (٣٥٣). وذكره الهيثمى فى الزوائد (٨/ ٨٥) وقال: «رواه أحمد والطبرانى فى الكبير والأوسط وأبو يعلى، ورجال أحمد ثقات».

وقوله : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ ﴾ أى : إذا ارتكبت النهى بعد وصوله إليكم ، ورضيت بالجلوس معهم فى المكان الذى يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ ويتنقص بها ، وأقررتموهم على ذلك - فقد شاركتموهم فى الذى هم فيه . فلماذا قال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ ﴾ فى المآثم ، كما جاء فى الحديث : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يُدار عليها الخمر » (١) . والذى أحيل عليه فى هذه الآية من النهى فى ذلك ، هو قوله تعالى فى سورة الأنعام ، وهى مكية : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام : ٦٨] .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ أى : كما اشتركوا فى الكفر ، كذلك يشارك الله بينهم فى الخلود فى نار جهنم أبداً ، وجمع بينهم فى دار العقوبة والنكال ، والقيود والأغلال ، وشرب الحميم والغسلين لا الزلال .

﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾

يخبر تعالى عن المنافقين : أنهم يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء ، بمعنى ينتظرون زوال دولتهم ، وظهور الكفرة عليهم ، وذهاب ملتهم ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى : نصر وتأييد وظفر وغنيمة ﴿ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ أى : يتوددون إلى المؤمنين بهذه المقالة ﴿ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ ﴾ أى : إدالة على المؤمنين فى بعض الأحيان ، كما وقع يوم أحد ، فإن الرسل تبلى ثم يكون لها العاقبة ﴿ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : ساعدناكم فى الباطن ، وما ألواناهم خبالاً وتحذيراً ، حتى انتصرتهم عليهم . وقال السدى : ﴿ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ ﴾ : نغلب عليكم ، كقوله : ﴿ اسْتَحِذْ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ ﴾ [المجادلة : ١٩] ، وهذا أيضاً تودد منهم إليهم ، فإنهم كانوا يصانعون هؤلاء وهؤلاء ؛ ليحظوا عندهم ويأمنوا كيدهم ، وما ذاك إلا لضعف إيمانهم ، وقلة إيقانهم .

قال الله تعالى : ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى : بما يعلمه منكم - أيها المنافقون - من البواطن الرديئة ، فلا تغتروا بجريان الأحكام الشرعية عليكم ظاهراً فى الحياة الدنيا ، لما له فى ذلك من الحكمة ، فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهركم ، بل هو يوم تبلى فيه السرائر ويحصل ما فى الصدور .

وقوله : ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ روى عبد الرزاق عن يسع الكندى ، قال :

(١) جزء من حديث رواه أحمد (١٤٧٠٤) والترمذى (٤ / ٢٠) كلاهما من حديث جابر . قال الترمذى : « حسن

جاء رجل إلى علي بن أبي طالب، فقال: كيف هذه الآية: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾؟ فقال علي: ادنه ادنه، ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾^(١). وكذا يروى قال: ذاك يوم القيامة. وكذا روى عن أبي مالك الأشجعي: يعني يوم القيامة. وقال السدي: ﴿سَبِيلًا﴾ أى: حجة^(٢).

ويحتمل أن يكون المراد: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أى: فى الدنيا، بأن يُسَلِّطُوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية، وإن حصل لهم ظفر فى بعض الأحيان على بعض الناس، فإن العاقبة للمتقين فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ الْعَذَابُ لَئِيمٌ وَسَاءَ الدَّارُ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]. وعلى هذا فيكون ردأ على المنافقين فيما أملوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين، خوفاً على أنفسهم منهم إذا هم ظهروا على المؤمنين فاستأصلوهم، كما قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَأُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢].

وقد استدل كثير من الفقهاء بهذه الآية الكريمة على أصح قولى العلماء، وهو المنع من بيع العبد المسلم للكافر، لما فى صحة إتياعه من التسليط له عليه والإذلال، ومن قال منهم بالصحة يأمره بإزالة ملكه عنه فى الحال؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٤٢﴾ مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ ﴿١٤٣﴾

قد تقدم فى أول سورة البقرة قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٩] وقال هاهنا: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾. ولا شك أن الله تعالى لا يخادع، فإنه العالم بالسرائر والضمائر، ولكن المنافقين - لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم - يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس وجرّت عليهم أحكامُ الشريعة ظاهراً، فكَذَلِكَ يكون حكمهم عند الله يوم القيامة، وأن أمرهم يروج عنده، كما أخبر تعالى عنهم أنهم يوم القيامة يحلفون له: أنهم كانوا على الاستقامة والسداد، ويعتقدون أن ذلك نافع لهم عنده، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَعِثُوكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

(١) فى تفسير عبد الرزاق (ص ٥١)، وإسناده صحيح. ورواه الطبرى (١٠٧١٤ - ١٠٧١٦) بأسانيد صحاح. ورواه الحاكم (٣٠٩/٢) وصححه، ووافقه الذهبى. وزاد السيوطى (٢/٢٣٥) نسبةً للفرىابى وعبد بن حميد وابن المنذر. و«يسع»: بضم الباء فى أوله وفتح السين وسكون الباء الثانية وآخره عين مهملة. ووقع فى المطبوعة والمستدرک: «سبع»! وهو تصحيف.

(٢) هذه الروايات الثلاث رواها الطبرى (١٠٧١٩، ١٠٧١٨، ١٠٧٢٠).

وقوله: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ أى: هو الذى يستدرجهم فى طغيانهم وضلالهم، ويخدلهم عن الحق والوصول إليه فى الدنيا، وكذلك فى القيامة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِبْ مِنْ ثَوْرِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ . يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ . فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ بئسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٣ - ١٥]. وقد ورد فى الحديث: «من سمع سمع الله به، ومن رآه رأى الله به» (١).

وقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالِي﴾ الآية: هذه صفة المنافقين فى أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها، وهى الصلاة. إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها؛ لأنهم لا نية لهم فيها، ولا إيماناً لهم بها ولا خشية، ولا يعقلون معناها، كما روى ابن مردويه، عن ابن عباس قال: يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة وهو كسلان، ولكن يقوم إليها طلق الوجه، عظيم الرغبة، شديد الفرح، فإنه يناجى الله، وإن الله أمامه يغفر له ويجيبه إذا دعاه، ثم يتلو ابن عباس هذه الآية: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالِي﴾. وروى من غير هذا الوجه، عن ابن عباس، نحوه.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالِي﴾ هذه صفة ظواهرهم، كما قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالِي﴾ [التوبة: ٥٤]. ثم ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة، فقال: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ أى: لا إخلاص لهم ولا معاملة مع الله، بل إنما يشهدون الصلاة تقية من الناس ومصانعة لهم؛ ولهذا يتخلفون كثيراً عن الصلاة التى لا يُرَوْنَ غالباً فيها كصلاة العشاء وقت العتمة، وصلاة الصبح فى وقت العَلَس، كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فىهما لأتوهما ولو حبوًّا، ولقد هممت أن أمر بالصلاة فتقام، ثم أمر رجلاً يصلى بالناس، ثم أنطلق معى برجال، معهم حُزْمٌ من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار».

وفى رواية: «والذى نفسى بيده، لو علم أحدهم أنه يجد عرقاً سميماً أو مرماتين حسنتين، لشهد الصلاة، ولولا ما فى البيوت من النساء والذرية لحرقت عليهم بيوتهم بالنار» (٢).

(١) رواه مسلم (٢ / ٣٩٠) من حديث ابن عباس . ورواه البخارى بنحوه (١١ / ٢٨٨) ومسلم (٢ / ٣٩٠) كلاهما من حديث جندب بن عبد الله . ورواه أحمد والبخارى والطبرانى - بأسانيد حسنة - من حديث أبى بكره ، كما فى الزوائد (١٠ / ٢٢٢ ، ٢٢٣) .

(٢) اللفظ الأول رواه - بنحوه - أحمد (٩٤٨٢) ومسلم (١ / ١٨٠) . وبعضه مع بعض اللفظ الثانى رواه البخارى (٢ / ١٠٤ - ١٠٨ فتح) . وأما قوله فى اللفظ الثانى « ولولا ما فى البيوت » - إلخ - فقد رواه أحمد (٨٧٨٢) بلفظ: « لولا ما فى البيوت من النساء والذرية لأقمت صلاة العشاء، وأمرت قيتانى يحرقون ما فى البيوت بالنار » . وكل ذلك من حديث أبى هريرة . وقد استوفى الحافظ فى الفتح شرحه واختلاف رواياته . ولعل الحافظ ابن كثير هنا كتب فى حفظه ، فدخلت ألفاظ الروايات بعضها فى بعض . وانظر كثيراً من رواياته فى المسند (٧٣٢٤ ، ٨١٣٤ ، ٨٢٣٩ ، ٨٨٧٧ ، ٨٨٩٠ ، ٩٣٧٢ ، ١٠٠٨٨٩) . و« العرق » - بفتح العين وسكون الراء : العظم إذا أخذ منه معظم اللحم . و « المرماة » - بكسر الميم الأولى ، وقد فتتح : ما بين ظلفى الشاة من اللحم . يريد به حقارته .

وقوله: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى: فى صلاتهم لا يخشعون ولا يدرون ما يقولون، بل هم فى صلاتهم ساهون لاهون، وعمما يراد بهم من الخير معرضون. وقد روى الإمام مالك عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق: يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان، قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً». ورواه مسلم، والترمذى، والنسائى وقال الترمذى: حسن صحيح (١).

وقوله: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يعنى: المنافقين، محيرين بين الإيمان والكفر، فلا هم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا مع الكافرين ظاهراً وباطناً، بل ظواهرهم مع المؤمنين، وبواطنهم مع الكافرين. ومنهم من يعتريه الشك، فتارة يميل إلى هؤلاء، وتارة يميل إلى أولئك ﴿كَلِمًا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوَ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ الآية [البقرة: ٢٠]. وروى ابن جرير عن ابن عمر، عن النبى ﷺ قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تَعمِرُ إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة، لا تدرى أيهما تتبع». تفرد به مسلم (٢). وروى ابن أبى حاتم عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: مثل المؤمن والمنافق والكافر: مثل ثلاثة نفر انتهوا إلى واد، فدفع أحدهم فعبر، ثم وقع الآخر، حتى إذا أتى على نصف الوادى ناداه الذى على شفير الوادى: ويلك! أين تذهب؟ إلى الهلكة! ارجع عودك على بدئك، وناداه الذى عبر: هلم إلى النجاة. فجعل ينظر إلى هذا مرة وإلى هذا مرة، قال: فجاءه سيل فأغرقه، فالذى عبر: هو المؤمن، والذى غرق: المنافق ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ والذى مكث: الكافر (٣). وروى ابن جرير عن قتادة: ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ يقول: ليسوا بمؤمنين مخلصين ولا مشركين مصرحين بالشرك. قال: وذكر لنا: أن نبى الله ﷺ كان يضرب مثلاً للمؤمن وللمنافق وللکافر، كمثل رهط ثلاثة دَفَعُوا إلى نهر، فوقع المؤمن فقطع، ثم وقع المنافق حتى إذا كاد يصل إلى المؤمن ناداه الكافر أن: هلم إلى، فأنى أخشى عليك! وناداه المؤمن أن: هلم إلى، فأنى عندى وعندى؛ يُحصى له ما عنده. فما زال المنافق يتردد بينهما حتى أتى آذى فغرقه. وإن المنافق لم يزل فى شك وشبهة، حتى أتى عليه الموت وهو كذلك (٤).

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أى: ومن صرفه عن طريق الهدى ﴿فَلَنْ

(١) الموطأ (ص ٢٢٠) ومسلم (١/ ١٧٣) بنحوه .

(٢) الطبرى (١٠٧٢٨ - ١٠٧٣٠) ومسلم (٢/ ٣٣٩) . ورواه أحمد مطولا ومختصرا (٤٨٧٢، ٥٠٧٩ ، ٥٣٥٩ ، ٥٥٤٦ ، ٥٦١٠ ، ٥٧٩٠ ، ٦٢٩٨) . وقد ساق الحافظ ابن كثير هنا بعض طرقه من المسند . و« الشاة العائرة »: هى المترددة بين قطيعين لا تدرى أيهما تتبع .

(٣) إسناد ابن أبى حاتم صحيح . ولم ينسبه السيوطى (٢/ ٢٣٦) لغيره . وهذا وإن كان موقوفا لفظا ، إلا أنه يحتمل أن يكون مرفوعا معنى . ويقويه حديث قتادة الآتى بعده من رواية الطبرى ، فإنه مرفوع ، ولكنه مرسل . فكلاهما شاهد للآخر بؤيده .

(٤) الطبرى (١٠٧٣٢) ، وإسناده صحيح إلى قتادة ، ولكنه مرسل يعضده الموقف على ابن مسعود الذى قبله . و« الآذى » بالمد وتشديد الياء : الموج الشديد .

تَجِدْ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿ فَإِنَّهُ مَنْ يُضِلَّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾ والمنافقون الذين أضلهم عن سبيل النجاة فلا هادى لهم، ولا منقذ لهم مما هم فيه، فإنه تعالى لا مُعَقِّبَ لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يُسألون .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَانْتَحِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُوا أَنْ يَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ ﴿١٤٧﴾

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يعنى: مصاحبتهم ومصادقتهم ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم، كما قال تعالى: ﴿ لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرَكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران: ٢٨] أى: يحذركم عقوبته فى ارتكابكم نهيهِ. ولهذا قال هاهنا: ﴿ أُرِيدُونَ أَنْ يَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ أى: حجة عليكم فى عقوبته إياكم. روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قوله: ﴿ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾: كل سلطان فى القرآن حجة. وإسناده صحيح. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وغيرهم .

ثم أخبر تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ أى: يوم القيامة، جزاء على كفرهم الغليظ. قال ابن عباس: ﴿ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ أى: فى أسفل النار. وقال غيره: النار دركات، كما أن الجنة درجات. وروى ابن أبى حاتم عن أبى هريرة: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ قال: الدرك الأسفل بيوت لها أبواب تطبق عليهم، فتوقد من تحتهم ومن فوقهم (١). ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ أى: ينقذهم مما هم فيه، ويخرجهم من أليم العذاب .

ثم أخبر تعالى أن من تاب منهم فى الدنيا تاب عليه، وقبِلَ ندمه، إذا أخلص فى توبته وأصلح عمله، واعتصم بربه فى جميع أمره، فقال: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ أى: بدّلوا الرياء بالإخلاص، فینفَعهم العمل الصالح وإن قلَّ. وروى ابن أبى حاتم عن معاذ بن جبل: أن رسول الله ﷺ قال: «أَخْلِصْ دِينَكَ، يَكْفِكَ الْقَلِيلَ مِنَ الْعَمَلِ» (٢). ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: فى زمرة يوم القيامة ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

ثم قال مخبراً عن غناه عما سواه، وأنه إنما يعذب العباد بذنوبهم، فقال: ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ﴾ أى: أصلحتم العمل وآمنتُم بالله ورسوله ﴿ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ أى: من شكر شكر له، ومن آمن قلبه به علمه، وجزاه على ذلك أوفر الجزاء .

(١) هذا موقوف ، وإسناد ابن أبى حاتم إلى أبى هريرة صحيح .

(٢) زاد السيوطى (٢/ ٢٣٦) نسبه لابن أبى الدنيا فى كتاب الإخلاص والحاكم « وصححه » والبيهقى فى الشعب .

الجزء ٦
 ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوْمِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ [١٤٨] **إِنْ**
بُذِرُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفَّوْهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾

قال عن ابن عباس - في الآية - يقول: لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد، إلا أن يكون مظلوماً، فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه، وذلك قوله: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾، وإن صبر فهو خير له (١). وروى أبو داود عن عائشة قالت: سُرِقَ لها شيء، فجعلت تدعو عليه، فقال النبي ﷺ: «لَا تُسَبِّخِي عَنْهُ» (٢).

وقال الحسن البصرى: لا يدع عليه، وليقل: اللهم أعنى عليه، واستخرج حقى منه.

وقال عبد الكريم بن مالك الجَزَرِيُّ - في هذه الآية: هو الرجل يشتمك فتشتمه، ولكن إن افتري عليك فلا تفتري عليه؛ لقوله: ﴿وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١].

وروى أبو داود عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الْمُسْتَبَانَ مَا قَالَا، فعلى البادئ منهما، ما لم يعتد المظلوم» (٣). وقد روى الجماعة سوى النسائي والترمذى عن عقبة بن عامر قال: قلنا: يا رسول الله، إنك تبعثنا فننزل بقوم فلا يقرؤنا، فما ترى في ذلك؟ فقال: «إذا نزلتم بقوم فأمرؤا لكم بما ينبغى للضيف، فاقبلوا منهم، وإن لم يفعلوا فخذوا منهم حقَّ الضيف الذى ينبغى لهم» (٤). وروى الإمام أحمد عن المقدم أبى كريمة، عن النبي ﷺ أنه قال: «أَيُّمَا مسلم ضاف قوماً، فأصبح الضيف محروماً، فإن حقاً على كل مسلم نصره حتى يأخذ بقرى ليلته من زرعه وماله». تفرد به أحمد من هذا الوجه (٥)، وروى أحمد أيضاً عن المقدم أبى كريمة، سمع رسول الله ﷺ يقول: «ليلة الضيف واجبة على كل مسلم، فإن أصبح بفئائه محروماً كان ديناً له عليه، فإن شاء اقتضاه وإن شاء تركه». ورواه أبو داود (٦).

ومن هذه الأحاديث وأمثالها ذهب أحمد وغيره إلى وجوب الضيافة، ومن هذا القبيل

(١) رواه الطبرى (١٠٧٤٩). وكذلك ابن المنذر وابن أبى حاتم، كما فى الدر المنثور (٢/ ٢٣٧).

(٢) أبو دود (١٤٩٧)، وإسناده صحيح. وقوله: «لا تسبخى عنه»: بضم التاء وفتح السين وكسر الباء الموحدة المشددة وبالخاء المعجمة، قال الخطابى: «معناه: لا تخفى عنه بدعائك».

(٣) أبو داود (٤٨٩٤). ورواه أحمد (٧٢٠٤) ومسلم (٢/ ٢٨٥).

(٤) المسند (١٧٤١٦) والبخارى (٥/ ٧٧ - ٧٨ فتح) ومسلم (٢/ ٤٥).

(٥) المسند (١٧٢٤٤، ١٧٢٦٣، ١٧٢٦٤). وأسانيده صحاح. وذكره الهيثمى فى الزوائد (٨/ ١٧٥) بلفظ مختصر عن ألفاظ المسند، وقال: «رواه أحمد، ورجاله ثقات» وقد سها الحافظ ابن كثير فى دعواه أنه تفرد به أحمد من هذا الوجه - يعنى عن الكتب الستة - وقلده الهيثمى فى ذكره فى الزوائد. فإن هذا الحديث رواه أبو داود (٣٧٥١) من الوجه الذى رواه منه أحمد. و«المقدم أبو كريمة»: هو المقدم بن معد يكرب، و«أبو كريمة» كنيته. ووقع فى المطبوعة - فى هذا الحديث والذى بعده - «عن المقدم بن أبى كريمة»! وهو خطأ صرف. وثبت على الصواب فى المخطوطتين.

(٦) المسند (١٧٢٣٨، ١٧٢٦١، ١٨٢٦٢، ١٧٢٦٨) وأبو داود (٣٧٥٠) وأسانيده صحاح.

الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار عن أبي هريرة؛ أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: إن لى جاراً يؤذنى، فقال له: «أخرج متاعك فضعه على الطريق». فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق، فجعل كل من مر به قال: مالك؟ قال: جارى يؤذنى. فيقول: اللهم عنه، اللهم أخزه. قال: فقال الرجل: ارجع إلى منزلك، وقال: لا أؤذك أبداً. ورواه أبو داود (١).

وقوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾ أى: إن تطهروا - أيها الناس - خيراً، أو أخفيتموه، أو عفوتهم عن أساء إليكم، فإن ذلك مما يقربكم عند الله، ويجزل ثوابكم لديه، فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم. ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾؛ ولهذا ورد فى الحديث الصحيح: «ما نقص مال من صدقة، ولا زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه» (٢).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾

يتوعد تبارك وتعالى الكافرين به ويرسله من اليهود والنصارى، حيث فرّقوا بين الله ورسله فى الإيمان، فآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض، بمجرد التشهى والعادة، وما ألقوا عليه آباءهم، لا عن دليل قادم إلى ذلك، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك بل بمجرد الهوى والعصية. فاليهود - عليهم لعائن الله - آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد ﷺ، والسامرة لا يؤمنون بنبي بعد يوشع خليفة موسى بن عمران، والمجوس يقال: إنهم كانوا يؤمنون بنبي لهم يقال له: زرادشت، ثم كفروا بشرعه، فرفع من بين أظهرهم، والله أعلم.

والمقصود: أن من كفر بنبي من الأنبياء، فقد كفر بسائر الأنبياء، فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض، فمن رد نبوته للحسد أو العصبية أو التشهى، تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيماناً شرعياً، إنما هو عن غرض وهوى وعصبية؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ فوسمهم بأنهم كفار بالله ورسله ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أى: فى الإيمان ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أى: طريقاً ومسلكاً. ثم أخبر تعالى عنهم، فقال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ أى: كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا

(١) أبو داود (٥٣٥١) بنحوه. ورواه البخارى فى الأدب المفرد، رقم (١٢٤). وأسانيد الحديث صحاح. وهذا الحديث ليس فى المسند، بعد التبع التام لمسند أبى هريرة.

(٢) رواه أحمد (٧٢٠٥) ومسلم (٢/٢٨٥) من حديث أبى هريرة. وقد مضى تخريجه عند تفسير الآيات: (١٣٠ - ١٣٦) من سورة آل عمران.

الإيمان به؛ لأنه ليس شرعياً، إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله لآمنوا بنظيره، وبمن هو أوضح دليلاً وأقوى برهاناً منه، لو نظروا حق النظر فى نبوته.

وقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أى: كما استهانوا بمن كفروا به، لعدم نظرهم فيما جاءهم به من الله، وإعراضهم عنه وإقبالهم على جمع حطام الدنيا، مما لا ضرورة بهم إليه، وإما بكفرهم به بعد علمهم بنبوته، كما كان يفعله كثير من أحناف اليهود فى زمان رسول الله ﷺ، حيث حسدوه على ما آتاه الله من النبوة العظيمة، وخالفوه وكذبوه وعادوه وقتلوه، فسلط الله عليهم الذل الدنيوى الموصول بالذل الآخروى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذُّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١] فى الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ يعنى بذلك: أمة محمد ﷺ، فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله وبكل نبي بعثه الله، كما قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٨٥]. ثم أخبر تعالى بأنه قد أعد لهم الجزاء الجزيل والثواب الجليل والعطاء الجميل، فقال: ﴿أُولَئِكَ سَوْفَ نُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ﴾ (١) على ما آمنوا بالله ورسوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أى: لذنوبهم، أى: إن كان لبعضهم ذنوب.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ أَلْبَيْتُنَا فَعَقَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَعَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥١﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ وَقَلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقَلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٢﴾﴾

قال محمد بن كعب القرظى، والسدى، وقتادة، سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة. قال ابن جريج: سألوه أن ينزل عليهم صحفاً من الله مكتوبة إلى فلان وفلان، بتصديقه فيما جاءهم به! وهذا إنما قالوه على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد، كما سأل كفار قريش قبلهم نظير ذلك، كما هو مذكور فى سورة «سبحان»: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ الآيات [الإسراء: ٩٠-٩٣]. ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ أى: بطغيانهم وبغيهم، وعتوهم وعنادهم. وهذا مفسر فى سورة «البقرة» حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ. ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أى: من بعد ما رأوا من الآيات

(١) «نؤتيهم»: رسمت فى المخطوطتين بالنون، فأثبتناه كذلك. وهى قراءة القراء السبعة، ما عدا حفص عن عاصم، فإنه قرأها: «يؤتيهم» بالياء. وهى الثابتة فى المصحف الذى بأيدي أكثر الناس.

الباهرة والأدلة القاهرة على يد موسى، عليه السلام، في بلاد مصر وما كان من إهلاك عدو الله فرعون وجميع جنوده في اليم، فما جاوزوه إلا يسيراً حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، فقالوا لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ الآيتين [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩]. ثم ذكر تعالى قصة اتخاذهم العجل مبسوطة في سورة «الأعراف»، وفي سورة «طه» بعد ذهاب موسى إلى مناجاة الله، عز وجل، ثم لما رجع وكان ما كان، جعل الله توبتهم من الذي صنعوه وابتدعوه: أن يقتل من لم يعبد العجل منهم من عبده، فجعل بعضهم يقتل بعضاً فقال الله عز وجل: ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثَاقِهِمْ﴾، وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة، وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى، عليه السلام - رفع الله على رؤوسهم جبلاً، ثم ألزموا فالتزموا وسجدوا، وجعلوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم خشية أن يسقط عليهم! كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ الآية [الأعراف: ١٧١]. ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أى: فخالفوا ما أمروا به من القول والفعل، فإنهم أمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس سجداً، وهم يقولون: حطة. أى: حط اللهم عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد ونكولنا عنه، حتى تهنا في التيه أربعين سنة. فدخلوا يزحفون على أستاهم، وهم يقولون: حنطة في شعرة!! ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ أى: وصيناهم بحفظ السبت والالتزام. ما حرم الله عليهم، ما دام مشروعاً لهم ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أى: شديداً، فخالفوا وعصوا وتحيلوا على ارتكاب مناهى الله، عز وجل، كما هو مبسوط في سورة الأعراف عند قوله: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣ - ١٦٦] الآيات.

﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٥٥﴾ وَيَكْفُرِهِمْ وَعَلَى مَرِيَمَ بَيْتُنَا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾

وهذه من الذنوب التي ارتكبوها، مما أوجب لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى، وهو نقضهم المواثيق والعهود التي أخذت عليهم، ﴿وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، أى: حججه وبراهينه، والمعجزات التي شاهدها على أيدي الأنبياء، عليهم السلام. وقوله: ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾، وذلك لكثرة إجرامهم واجترائهم على أنبياء الله، فإنهم قتلوا جمّاً غفيراً من الأنبياء عليهم السلام. ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وغير واحد:

أى فى غطاء . وهذا كقول المشركين: ﴿رَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ الآية [فصلت: ٥]. وقد تقدم نظيره فى سورة البقرة (١) .

قال الله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى: مرّدت قلوبهم على الكفر والطغيان وقلة الإيمان ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ قال ابن عباس: يعنى أنهم رموها بالزنا. وكذا قال السدى، ومحمد بن إسحاق وغير واحد. وهو ظاهر من الآية: أنهم رموها وابنها بالعظائم، فجعلوها زانية، قد حملت بولدها من ذلك ! فعليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة. وقولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أى: هذا الذى يدعى لنفسه هذا المنصب قتلناه. وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء، كقول المشركين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

وكان من خبر اليهود - عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه : أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى، حسدوه على ما آتاه الله من النبوة والمعجزات الباهرات، التى كان يبرئ بها الأكمه والأبرص ويحى الموتى بإذن الله، ويصور من الطين طائراً ثم ينفخ فيه فيكون طائراً يشاهد طيرانه بإذن الله، عز وجل، إلى غير ذلك من المعجزات التى أكرمها الله بها وأجرها على يديه، ومع هذا كذبوه وخالفوه، وسعّوا فى أذاه بكل ما أمكنهم، حتى جعل نبي الله عيسى، عليه السلام، لا يساكنهم فى بلدة، بل يكثر السياحة هو وأمه، عليهما السلام، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق فى ذلك الزمان - وكان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب، وكان يقال لأهل ملته: اليونان - وأنهبوا إليه: أن يبيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه. فغضب الملك من هذا، وكتب إلى نائبه بالقدس أن يحتاط على هذا المذكور، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه، ويكف أذاه عن الناس. فلما وصل الكتاب امثل متولّى البلد ذلك، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذى فيه عيسى، عليه السلام، وهو فى جماعة من أصحابه، اثنا عشر أو ثلاثة عشر - وقيل: سبعة عشر نفرأ ، فحصره هنالك. فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه، أو خروجه عليهم قال لأصحابه: أيكم يلتقى عليه شبيهى، وهو رقيقى فى الجنة؟ فانتدب لذلك شاب منهم، فقال: أنت هو، وألقى الله عليه شبه عيسى، حتى كأنه هو، وفتحت روضة من سقف البيت، وأخذت عيسى عليه السلام سنة من النوم، فرفع إلى السماء وهو كذلك، كما قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥]. فلما رفع خرج أولئك نفر ، فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى، فأخذوه فى الليل وصلبوه، ووضعوا الشوك على رأسه، وأظهر اليهود أنهم سعوا فى صلبه وتبجحوا بذلك، وسلم لهم طوائف من النصرارى ذلك، لجهلهم وقلة عقلهم، ما عدا من كان فى البيت مع المسيح، فإنهم شاهدوا رفعه، وأما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصلوب هو المسيح ابن مريم .

وهذا كله من امتحان الله عباده؛ لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وقد أوضح الله الأمر وجلاه وبينه وأظهره في القرآن العظيم، الذي أنزله على رسوله الكريم، المؤيد بالمعجزات والبيّنات والدلائل الواضحات، فقال تعالى - وهو أصدق القائلين، ورب العالمين، المطلع على السرائر والضمائر، الذى يعلم السر فى السموات والأرض، العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون :- ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَّوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أى: رأوا شبهه فظنوه إياه؛ ولهذا قال: ﴿وَرَأَى الَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِيهِ لِنْفَى شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ يعنى بذلك: من ادعى قتله من اليهود، ومن سلّمه من جهال النصارى، كلهم فى شك من ذلك وحيرة وضلال وسعّر (١). ولهذا قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أى: وما قتلوه متيقنين أنه هو، بل شاكين متوهمين ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أى منيع الجناب لا يرام جنابه، ولا يضام من لاذ ببابه ﴿حَكِيمًا﴾ أى: فى جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التى يخلقها وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، والسلطان العظيم، والأمر القديم.

وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء، خرج على أصحابه - وفى البيت اثنا عشر رجلا من الحواريين - يعنى: فخرج عليهم من عين فى البيت، ورأسه يقطر ماء، فقال: إن منكم من يكفر بى اثنى عشر مرة، بعد أن آمن بى. قال: ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهى، فيقتل مكانى ويكون معى فى درجتى؟ فقام شاب من أحدثهم سنا، فقال له: اجلس. ثم أعاد عليهم فقام ذلك الشاب، فقال: اجلس. ثم أعاد عليهم، فقام الشاب، فقال: أنا. فقال: أنت هو ذاك. فألقى عليه شبه عيسى. ورفع عيسى من روضة فى البيت إلى السماء. قال: وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا الشبه فقتلوه، ثم صلبوه، وكفر به بعضهم اثنى عشر مرة، بعد أن آمن به، وافترقوا ثلاث فرق، فقالت طائفة: كان الله فىنا ما شاء ثم صعد إلى السماء! وهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة: كان فىنا ابن الله ما شاء، ثم رفعه الله إليه! وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فىنا عبد الله ورسوله ما شاء، ثم رفعه الله إليه. وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة، فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ. وإسناده صحيح إلى ابن عباس، ورواه النسائى بنحوه. وكذا ذكر غير واحد من السلف أنه قال لهم: أيكم يلقى عليه فيقتل مكانى، وهو رفيقى فى الجنة؟ (٢).

(١) «السر»: الجنون.

(٢) القصة التى رواها ابن أبى حاتم عن ابن عباس، ذكرها السيوطى (٢/ ٢٣٨)، وزاد نسبتها لعبد بن حميد وابن مردويه. وصيغتها وسياقها تضعها موضع الشك فى صحة نسبتها لابن عباس - وإن كان إسنادها إليه صحيحا - وليس عليها ضوء كلام ذلك العصر الزاهر، عصر الصحابة. ولعلها من أوهام المنهال بن عمرو الأسدى، راويها عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. بل إنها لا تكاد ترتفع إلى مرتبة الإسرائيليات التى تنسب إلى اليهود - لعنهم الله - يقولون غير هذا.

فهذه القصة، والقصة التى قبلها، التى ساقها الحافظ ابن كثير من قبل نفسه، والتى لخصها من القصص المملوءة به كتب التفسير عن وهب بن منبه وأمثاله - ليس لواحدة منهما سند صحيح من القرآن أو السنة الثابتة. =

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ قال ابن جرير: اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: يعنى بعيسى ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ يعنى: قبل موت عيسى . يُوجِه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتصير المثل كلها واحدة، وهى ملة الإسلام الحنيفية، دين إبراهيم، عليه السلام . ثم روى عن ابن عباس: ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ قال: قبل موت عيسى ابن مريم . عليه السلام (١) . وكذا قال أبو مالك ، والحسن ، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد. هذا القول هو الحق، كما سنبينه بعد بالدليل القاطع، إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان.

قال ابن جرير: وقال آخرون: يعنى بذلك: ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ ﴾ بعيسى قبل موت الكتابى . ذكر من كان يُوجِه ذلك إلى أنه إذا عاين علم الحق من الباطل؛ لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل فى دينه . [ثم نقل الحافظ ابن كثير روايات من الطبرى ، عن ابن عباس ، بهذا المعنى ، نذكر منها] : عن ابن عباس: ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ قال: هى فى قراءة أبى: « قبل موتهم » ليس يهودى يموت أبداً حتى يؤمن بعيسى . قيل لابن عباس: أرايت إن خرّ من فوق بيت؟ قال: يتكلم به فى الهوى . فقيل: أرايت إن ضربت عنق أحد منهم؟ قال: يَلْمُجَلج بها لسانه (٢) . وكذا روى أبو داود الطيالسى عن ابن عباس . فهذه كلها أسانيد صحيحة إلى ابن عباس (٣) ، وكذا صحّ عن مجاهد، وعكرمة، ومحمد بن سيرين .

قال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت الكتابى . [ثم روى ذلك عن عكرمة] . ثم قال ابن جرير: وأولى هذه الأقوال بالصحة القول الأول، وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى، عليه السلام، إلا آمن به قبل موته، أى قبل موت عيسى، عليه السلام، ولا شك أن هذا الذى قاله ابن جرير، هو الصحيح؛ لأنه المقصود من سياق الآى فى تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلّم لهم من النصارى الجهلة ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شبه لهم، فقتلوا الشبيه وهم لا يتبينون ذلك، ثم إنه رفعه إليه، وإنه باق حى، وإنه

= ثم إن كلا منهما متناقضة مع نفسها ومع الأخرى . فإن نفر الذين كانوا مع عيسى عليه السلام فى البيت سمعوه - كما تقول القصة - يقول لهم : « أيكم يلقى عليه شبهى وهو رفيقى فى الجنة ؟ » . وسمعوا أحدهم اختار هذه المنزلة - كما تقول القصة - فكيف يزعمون بعد ذلك أنه هو المصلوب المتول موافقة لزعم أعدائهم اليهود؟! كما نقد أبو جعفر الطبرى - لله دره - أمثال هذه الحكايات . انظر تفسير الطبرى (٩ / ٣٧٤ - ٣٧٦) . فالذى نؤمن به موقنين : هو ما أخبرنا الله به فى كتابه نصا ، أنهم ﴿ مَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ الآية ١٥٧ - دون أن ندخل فى تفصيل كيف شبه لهم ، وعلى من من الناس ألقى شبهه ؟ فهذا التفصيل لم تكلف الإيمان به ، إذ لم يعلمنا الله ولا رسوله بشيء من ذلك التفصيل . والله الهادى إلى سواء السبيل .

(١) الطبرى (١٠٧٩٤) . وإسناده صحيح . (٢) الطبرى (١٠٨١٤) . وإسناده صحيح .

(٣) وقد تناقضت الروايات الصحيحة عنه واختلفت ، كما ترى !

سينزل قبل يوم القيامة، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة - التي سنوردها إن شاء الله قريباً - فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية - يعنى: لا يقبلها من أحد من أهل الأديان، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف - فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ، ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أى: قبل موت عيسى، الذى زعم اليهود ومن وافقهم من النصارى أنه قتل وصلب

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أى: بأعمالهم التى شاهدتها منهم قبل رفعه إلى السماء وبعد نزوله إلى الأرض. فأما من فسر هذه الآية بأن المعنى: أن كل كتابى لا يموت حتى يؤمن بعيسى أو بمحمد، عليهما السلام، فهذا هو الواقع، وذلك: أن كل أحد عند احتضاره يتجلى له ما كان جاهلاً به، فيؤمن به، ولكن لا يكون ذلك إيماناً نافعاً له، إذا كان قد شاهد الملك، كما قال تعالى فى أول هذه السورة: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا﴾ الآية [النساء: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥] وهذا يدل على ضعف ما احتج به ابن جرير فى رد هذا القول، حيث قال: ولو كان المراد بهذه الآية هذا، لكان كل من آمن بمحمد أو بالمسيح، بمن كفر بهما - يكون على دينهما، وحينئذ لا يرثه أقرباؤه من أهل دينه؛ لأنه قد أخبر الصادق أنه يؤمن به قبل موته (١). فهذا ليس بجيد؛ إذ لا يلزم من إيمانه فى حالة لا ينفعه إيمانه أنه يصير بذلك مسلماً، ألا ترى إلى قول ابن عباس: «ولو تردى من شاهق أو ضرب بسيف أو افترسه سبع، فإنه لا بد أن يؤمن بعيسى!» فالإيمان فى مثل هذه الحال ليس بنافع، ولا ينقل صاحبه عن كفره لما قدمنا، والله أعلم.

ومن تأمل هذا جيداً وأمعن النظر، اتضح له أن هذا، وإن كان هو الواقع، لكن لا يلزم منه أن يكون المراد بهذه الآية هذا، بل المراد بها ما ذكرناه من تقرير وجود عيسى، عليه السلام، وبقاء حياته فى السماء، وأنه سينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة؛ ليكذب هؤلاء وهؤلاء من اليهود والنصارى، الذين تباينت أقوالهم فيه وتضادت، وتعاكست وتناقضت، وخلت عن الحق، ففرط هؤلاء اليهود وأفرط هؤلاء النصارى: تنقَّصه اليهود بما رموه به وأمه من العظائم، وأطراه النصارى بحيث ادعوا فيه بما ليس فيه، فرفعه فى مقابلة أولئك عن مقام النبوة إلى مقام الربوبية، تعالى الله عما يقول هؤلاء وهؤلاء علواً كبيراً، وتنزه وتقدَّس، لا إله إلا هو.

ذكر الأحاديث الواردة فى نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض من السماء، فى آخر الزمان قبل يوم القيامة، وأنه يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له:

قال البخارى، رحمه الله، فى كتاب ذكر الأنبياء، من صحيحه الملتقى بالقبول: (نزول

عيسى ابن مريم - عليه السلام): ثم روى عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخَنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيُفِضُ الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا». ثم يقول أبو هريرة: «واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾». ورواه مسلم وأخرجه الشيخان من طرق متعددة (١). ورواه ابن مردويه بنحوه .

وزاد فى آخره كلام أبى هريرة : ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ : موت عيسى ابن مريم ، ثم يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لِيَهْلُنَّ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَفَجِّ الرَّوْحَاءِ بِالْحَجِّ أَوْ الْعُمْرَةِ أَوْ لَيْسِنِيَهُمَا جَمِيعًا» ورواه مسلم (٢). وروى أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الخنزير، ويمحو الصليب، وتجمع له الصلاة، ويعطى المال حتى لا يقبل، ويضع الخراج، وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر، أو يجمعهما». قال: وتلا أبو هريرة: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ الآية . فزعم حنظلة : أن أبا هريرة قال: يؤمن به قبل موت عيسى، فلا أدري : هذا كله حديث النبى ﷺ أو شئء قاله أبو هريرة ؟. ورواه ابن أبى حاتم (٣). وروى البخارى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح ابن مريم، وإمامكم منكم؟» ورواه الإمام أحمد ومسلم (٤). وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة؛ أن النبى ﷺ قال: «الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وإنى أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه لم يكن بينى وبينه نبى، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه: رجل مربع إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان ممصران، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويدعو الناس إلى الإسلام، ويهلك الله فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك الله فى زمانه المسيح الدجال، ثم تقع الأمانة على الأرض، حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمار مع البقر، والذئب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم، فيمكث أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلى عليه المسلمون». ورواه أبو داود، وابن جرير - ولم يورد عند هذه الآية سواء (٥). وروى البخارى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا

(١) البخارى (٦ / ٣٥٥ - ٣٥٧ ، ٤ / ٣٤٣ ، ٥ / ٨٦ فتح) ومسلم (١ / ٥٤) . ورواه أحمد - مطولا ومختصرا
(٧٢٦٧ ، ٧٦٦٥ ، ٧٨٩٠ ، ١٠٩٥٧) ومرارا غيرها .

وانظر الطبرى (٧١٤٤ ، ٧١٤٥ ، ١٠٨٣٠) .

(٢) المسند (٧٢٧١) ومسلم (١ / ٣٥٦ ، ٣٥٧) . (٣) المسند (٧٨٩٠) .

(٤) البخارى (٦ / ٣٥٧ ، ٣٥٨ فتح) والمسند (٧٦٦٦) ومسلم (١ / ٥٤) .

(٥) المسند (٩٢٥٩) . ورواه أيضا (٩٦٣٠ ، ٩٦٣١ ، ٩٦٣٢) والطبرى (١٠٨٣٠) . وأسانيده صحاح . ورواه الحاكم

(٢ / ٥٩٥) ، وصححه ، ووافقه الذهبى . وفضلنا تخريجه فى الطبرى (٧١٤٥) حيث روى نحوه بإسناد آخر

ضعيف . وقوله : « إخوة لعلات » - بفتح العين المهملة وتشديد اللام : أى أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد .

وأراد أن إيمانهم واحد وشراعتهم مختلفة . والثياب الممصرة - بفتح الصاد المشددة - هى التى فيها صفرة خفيفة .

والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد» (١). وروى مسلم عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق - أو بدابق - فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قالت الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم. فيقول المسلمون: لا والله، لا نخلى بينكم وبين إخواننا. فيقاتلونهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً، ويُقتلُ ثلثهم أفضل الشهداء عند الله، ويفتتح الثلث، لا يفتنون أبداً، فيفتتحون قسطنطينية، فبينما هم يقسمون الغنائم قد علّقوا سيوفهم بالزيتون، إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم. فيخرجون، وذلك باطل. فإذا جاؤوا الشام خرج، فبينما هم يُعدّون للقتال: يسوون الصفوف، إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم، فأمرهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته» (٢).

وروى أحمد: عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى، عليهم السلام، فتذاكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم، فقال: لا علم لى بها. فردوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا علم لى بها. فردوا أمرهم إلى عيسى، فقال: أما وَجَبَتْهَا فلا يعلم بها أحد إلا الله، وفيما عهد إلى ربي - عز وجل - أن الدجال خارج ومعى قضيبان، فإذا رأيت ذاب كما يذوب الرصاص، قال: فيهلكه الله إذا رأيت حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم، إن تحتى كافراً فتعال فاقتله، قال: فيهلكهم الله، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم، فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيطؤون بلادهم، فلا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه، قال: ثم يرجع الناس يشكونهم، فادعوا الله عليهم، فيهلكهم ويميتهم، حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم، وينزل الله المطر، فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر، فبيما عهد إلى ربي - عز وجل : أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتيم، لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادها ليلاً أو نهاراً». ورواه ابن ماجه (٣).

وروى الإمام أحمد عن أبي نضرة قال: أتينا عثمان بن أبى العاص فى يوم الجمعة؛ لنعرض عليه مصحفاً لنا على مصحفه، فلما حضرت الجمعة أمرنا فاغتسلنا، ثم أتينا بطيب فتطينا، ثم جئنا المسجد، فجلسنا إلى رجل، فحدثنا عن الدجال. ثم جاء عثمان بن أبى العاص فقمتنا

(١) البخارى (٦ / ٣٥٤ فتح). ورواه الحاكم (٢/ ٥٩٢) من الطريق التى رواه منها البخارى! فوهم فى استدراكه.
 (٢) مسلم (٢ / ٣٦٥). و«دابق»: قرية قرب حلب. و«الأعماق»: قال ياقوت: «جاء بلفظ الجمع، والمراد به العمق [يفتح العين وسكون الميم]، وهو كورة قرب دابق بين حلب وأنطاكية. ونحو ذلك قال النووى فى شرحه (١٨ / ٢١): «موضعان بالشام بقرب حلب». فما جاء بهامش مسلم طبعة الأستانة (٨ / ١٧٦)، من أن «الأعماق اسم موضع من أطراف المدينة» و«دابق موضع سوق المدينة» - تخليط عجيب!!
 (٣) المسند (٣٥٥٦) وابن ماجه (٤٠٨١)، وإسنادهما صحيحان. ورواه الحاكم (٤ / ٤٨٨، ٤٤٩، ٥٤٥، ٥٤٦) وصححه ووافقه الذهبى. وسيذكره الحافظ ابن كثير مرة أخرى فى أحاديث الإسراء، فى أول السورة.

إليه، فجلسنا، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون للمسلمين ثلاثة أمصار: مصر بملتقى البحرين، ومصر بالحيرة، ومصر بالشام. ففرغ الناس ثلاث فزعات، فيخرج الدجال في أعراض الناس، فيَهْزِمُ من قبل المشرق، فأول مصر يرده المصر الذي بملتقى البحرين، فيصير أهلهم ثلاث فرق: فرقة تُقيم تقول: نُشَامُهُ ننظر ما هو؟ وفرقة تلحق بالأعراب، وفرقة تلحق بالمصر الذي يليهم. ومع الدجال سبعون ألفاً عليهم السيجان، وأكثر من معه اليهود والنساء،] ثم يأتي المصر الذي يليه، فيصير أهله ثلاث فرق: فرقة تقول: نشامه وننظر ما هو؟ وفرقة تلحق بالأعراب، وفرقة تلحق بالمصر الذي يليهم بغرب الشام]، وينحاز المسلمون إلى عقبة أفيق فيبعثون سرحاً لهم، فيصاب سرحهم، فيشتد ذلك عليهم، وتصيبهم مجاعة شديدة وجهد شديد، حتى إن أحدهم ليحرق وتر قوسه فيأكله، وبينما هم كذلك إذ نادى مناد من السَّحَر (١): يا أيها الناس، أتاكم الغوث - ثلاثاً - فيقول بعضهم لبعض: إن هذا لصوت رجل شبعان، وينزل عيسى ابن مريم، عليه السلام، عند صلاة الفجر، فيقول له أميرهم: يا رُوح الله، تَقَدَّمْ صلِّ. فيقول: هذه الأمة أمراء، بعضهم على بعض. فيتقدم أميرهم فيصلي، فإذا قضى صلاته أخذ عيسى حربته، فيذهب نحو الدجال، فإذا رآه الدجال ذاب كما يذوب الرصاص، فيضع حربته بين ثنودتيه، فيقتله ويهزم أصحابه، فليس يومئذ شيء يوارى منهم أحداً، حتى إن الشجرة تقول: يا مؤمن، هذا كافر! ويقول الحجر: يا مؤمن، هذا كافر!». تفرد به أحمد من هذا الوجه (٢).

وروى مسلم عن النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَقَّعَ، حَتَّى ظَنَّنَاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رَحَلْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا، فَقَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَكَرْتَ الدَّجَالَ فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَقَّعْتَ حَتَّى ظَنَّنَاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، قَالَ: «غَيْرِ الدَّجَالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجُ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجُ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَأَمْرٌ حَجِيجٌ نَفْسِهِ، وَاللَّهِ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ: إِنَّهُ شَابٌ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَافِيَةٌ، كَأَنِّي أَشْبَهُهُ بَعْدَ الْعَزِيِّ بْنِ قَطَنٍ، مَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ، إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةٌ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاتٌ يَمِيناً وَعَاتٌ شِمَالاً. يَا عِبَادَ اللَّهِ، فَابْتُوا»: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا لَبَّيْهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ يَوْماً، يَوْمَ كَسَنَةِ، وَيَوْمَ كَشْهَرٍ، وَيَوْمَ كَجَمْعَةٍ، وَسَائِرَ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ».

(١) في المطبوع من «عمدة التفسير»: «الشجر»، وفي المخطوطة الأزهرية: «البحر»، وما أثبتناه من المسند . (الباز).

(٢) المسند (٤/ ٢١٦، ٢١٧ حلبى). وهو في مجمع الزوائد (٧/ ٣٤٢)، وقال: «رواه أحمد والطبراني، وفيه على بن زيد، وفيه ضعف وقد وثق، وبقيت رجالهما رجال الصحيح». والزيادة التي أثبتناها في متن الحديث - من المسند ومجمع الزوائد. وقوله: «وفرقة تقول: نشامه» - بتشديد الميم، من الشم. أى: نخبره وننظر ما عنده. قال ابن الأثير: «يقال: شامت فلاناً، إذا قاربه وتعرفت ما عنده بالاختيار والكشف. وهى مفاعلة من الشم، كأنك تشم ما عنده ويشم ما عندك لتعملاً بمقتضى ذلك». و«عقبة أفيق» - بضم الهمزة وفتح الفاء: بالقرب من حوران. قال ياقوت: «تنزل في هذه العقبة إلى الغور، وهو الأردن، وهى عقبة طويلة نحو ميلين».

[قلنا: يا رسول الله وذلك اليوم الذى كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «لا، اقدروا له قدره»]. قلنا: يا رسول الله، وما إسرعه فى الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح، فيأتى على قوم فيدعوهم، فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذُرَى، وأسبغه ضُرُوعاً، وأمدّه خواصر، ثم يأتى القوم فيدعوهم، فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون مُمحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم. ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجى كنوزك. فتنبه بكنوزها كيحاسب النحل. ثم يدعو رجلاً ممتلاً شاباً، فيضربه بالسيف، فيقطعه جزلتين رَمِيَّة الغرض، ثم يدعو فيقبل ويتهلل وجهه يضحك. فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، عليه السلام، فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق، بين مَهْرودتين، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قَطَر، وإذا رفعه تحدّر منه جُمان كاللؤلؤ، ولا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهى حيث ينتهى طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لُد، فيقتله.

ثم يأتى عيسى [ابن مريم]، عليه السلام، قوماً قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم فى الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله، عز وجل، إلى عيسى : إني قد أخرجت عبداً لى لا يدان لأحد بقتالهم، فحرز عبادى إلى الطور. ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء. ويحصّر نبي الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النعف فى رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة. ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون فى الأرض موضع شبر إلا ملاء زهمهم وتنتهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيراً كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله. ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة، ثم يقال للأرض: أخرجى ثمرك وردى بركتك. فيومئذ تأكل العصابة من الرمان، ويستظلون بقحفها، ويبارك الله فى الرسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى الفتام من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة». ورواه الإمام أحمد وأهل السنن. وسنذكره أيضاً من طريق أحمد، عند قوله تعالى فى سورة الأنبياء: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ [الأنبياء : ٩٦] (١).

وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو - وجاءه رجل فقال :- ما هذا الحديث الذى تُحدث به؟ تقول: إن الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ فقال: سبحان الله! - أو: لا إله إلا الله! أو كلمة نحوها - لقد هممت ألا أحدث أحداً شيئاً أبداً، إنما قلت: إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً، يُحرق

البيت، ويكون ويكون. ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمتي، فيمكث أربعين، لا أدرى أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين عاماً - فيبعث الله عيسى ابن مريم، كأنه عروة بن مسعود، فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان - إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبَد جبل لَدَحَلَّتْهُ عليه حتى تَقْبُضَهُ» قال: سمعتها من رسول الله ﷺ، قال: «فيبقى شرار الناس في خَفَّة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا، فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستحيون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارٌ رزقهم، حسن عيشتهم. ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لِينًا ورفع لِينًا، قال: وأول من يسمعه رجل يَلُوط حوض إبله، قال: فَيَصَعَقُ وَيَصَعَقُ النَّاسُ. ثم يرسل الله - أو قال: ينزل الله - مطراً كأنه الطَّل - أو قال: الظل، فتنبت منه أجساد الناس، ﴿ثُمَّ نَفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. ثم يقال: يا أيها الناس، هلموا إلى ربكم، ﴿وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مُسْتَوْلُونَ﴾ [الصفات: ٢٤]. «ثم يقال: أخرجوا بَعَثَ النَّارَ. فيقال: من كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين». قال: فذلك يوم ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [الزمل: ١٧]، وذلك ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢]. ورواه النسائي في تفسيره (١).

وروى الإمام أحمد عن مُجَمَّع بن جارية، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقتل ابنُ مريم المسيح الدجال بباب لُدَّ - أو: إلى جانب لُدَّ». وعن عبد الله بن عبيد الله بن ثعلبة، عن عبد الرحمن ابن يزيد عن عمه مُجَمَّع بن جارية، عن رسول الله ﷺ قال: «يقتل ابن مريم الدجال بباب لُدَّ». ورواه الترمذى، وقال: «حديث صحيح» (٢). قال: وفي الباب عن عمران ابن حصين، ونافع بن عتبة، وأبى بَرَزَةَ، وحذيفة بن أسيد، وأبى هريرة، وكيسان، وعثمان بن أبى العاص، وجابر، وأبى أمامة، وابن مسعود، وعبد الله بن عمرو، وسُمْرَةَ بن جُنْدَب، والنواس بن سمعان، وعمرو بن عوف، وحذيفة بن اليمان، رضى الله عنهم.

ومراده برواية هؤلاء ما فيه ذكر الدجال. وقتل عيسى ابن مريم، عليه السلام، له. فأما أحاديث ذكر الدجال فقط فكثيرة جداً، وهى أكثر من أن تحصى؛ لانتشارها وكثرة روايتها فى الصحاح والحسان والمسانيد، وغير ذلك. وروى الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدُّخَانُ، والداية، وخروج يأجوج ومأجوج، ونزول عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة

(١) مسلم (٢/ ٣٧٨، ٣٧٩). ورواه أحمد (٦٥٥٥). وسيذكره الحافظ ابن كثير عن رواية المسند - فى تفسير الآية (٦٨) من سورة الزمر.

(٢) المسند (١٥٥٣٥) والترمذى (٣/ ٢٣٩). و «مجمع»: بضم الميم الأولى وفتح الجيم وتشديد الميم الثانية المكسورة وآخره عين مهملة. و «جارية»: بالجيم والياء التحتية.

العرب. ونار تخرج من قعر عَدَن، تسوق - أو تحشر - الناس، تبيت معهم حيث باتوا، وتقبل معهم حيث قالوا». ورواه مسلم وأهل السنن (١).

فهذه أحاديث متواترة عن رسول الله ﷺ من رواية أبي هريرة، وابن مسعود، وعثمان بن أبي العاص، وأبي أمامة، والنواسة بن سمعان، وعبد الله بن عمرو بن العاص، ومُجمَع بن جارية، وأبي سَرِيحَة حذيفة بن أسيد، رضى الله عنهم. وفيها دلالة على صفة نزوله ومكانه، من أنه بالشام، بل بدمشق، عند المنارة الشرقية، وأن ذلك يكون عند إقامة الصلاة للصبح. وقد بنيت هذه الأعصار، فى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة منارة للجامع الأموى ببيضاء، من حجارة منحوتة، عوضاً عن المنارة التى هدمت بسبب الحريق المنسوب إلى صنيع النصارى - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة - وكان أكثر عمارتها من أموالهم، وقويت الظنون أنها هى التى ينزل عليها المسيح عيسى ابن مريم، عليه السلام، فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، فلا يقبل إلا الإسلام كما تقدم فى الصحيحين، وهذا إخبار من النبى ﷺ بذلك، وتقدير وتشريع وتسويغ له على ذلك فى ذلك الزمان، حيث تنزاح عللهم، وترتفع شبههم من أنفسهم؛ ولهذا كلهم يدخلون فى دين الإسلام متابعين لعيسى، عليه السلام، وعلى يديه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليومنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وإنه لعلم للساعة﴾ [الزخرف: ٦١] وقرئ: «لَعَلَّم» بالتحريك، أى أمارة ودليل على اقتراب الساعة، وذلك لأنه ينزل بعد خروج المسيح الدجال، فيقتله الله على يديه، ويبعث الله فى أيامه يأجوج ومأجوج، فيهلكهم الله ببركة دعائه، وقد قال تعالى: ﴿حتى إذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ. واقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٦، ٩٧] (٢).

وقوله تعالى: ﴿ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ قال قتادة: يشهد عليهم أنه قد بلغهم الرسالة من الله، وأقر بالعبودية لله، عز وجل، وهذا كقوله تعالى فى آخر سورة المائدة: ﴿وإذا قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ إلى قوله: ﴿العزيز الحكيم﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٨].

﴿فِيظَلِمِ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحْلَتْ لَهُمْ وَيَصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾
 ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِحُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

(١) المسند (١٦٢١٣) ومسلم (٢/ ٣٦٦، ٣٦٧).

(٢) ثم ذكر المؤلف الحفاظ هنا أحاديث تحت عنوان: «صفة عيسى عليه السلام». لم نر حاجة لإبانتها. ومن شاء فليرجع إليها فى تفسيره، وفى تاريخه (٢/ ٩٦ - ١٠١).

يخبر تعالى أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبوه من الذنوب العظيمة، حَرَّمَ عليهم طيبات كان أحلها لهم. وهذا التحريم قد يكون قديراً، بمعنى: أنه تعالى قيضهم لأن تأولوا في كتابهم، وحرَّفوا وبدلوا أشياء كانت حلالاً لهم، فحرموها على أنفسهم، تشديداً منهم على أنفسهم وتضييقاً وتنطعا. ويحتمل أن يكون شريعياً، بمعنى: أنه تعالى حَرَّمَ عليهم في التوراة أشياء كانت حلالاً لهم قبل ذلك، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزَلَ التَّوْرَةُ﴾. [آل عمران: ٩٣]. وقد قدمنا الكلام على هذه الآية، وأن المراد: أن الجميع من الأطعمة كانت حلالاً لهم، من قبل أن تنزل التوراة ما عدا ما كان حرام إسرائيل على نفسه من لحوم الإبل والبانها (١). ثم إنه تعالى حرم أشياء كثيرة في التوراة، كما قال في سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦] أى: إنما حرمنا عليهم ذلك؛ لأنهم يستحقون ذلك، بسبب بغْيهم وطغيانهم ومخالفتهم رسولهم واختلافهم عليه. ولهذا قال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أى: صدوا الناس وصدوا أنفسهم عن اتباع الحق. وهذه سَجِيَّة لهم متصفون بها من قديم الدهر وحديثه؛ ولهذا كانوا أعداء الرسل، وقتلوا خَلْقًا من الأنبياء، وكذبوا عيسى ومحمداً، صلوات الله وسلامه عليهما.

وقوله: ﴿وَآخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدَّحُوا عَنْهُ﴾ أى: أن الله قد نهاهم عن الربا فتناولوه وأخذوه، واحتالوا عليه بأنواع من الخيل وصنوف من الشبه، وأكلوا أموال الناس بالباطل. قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ أى: الثابتون في الدين لهم قدم راسخة في العلم النافع. وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة آل عمران (٢). ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف على الراسخين، وخبره ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾. قال ابن عباس: أنزلت في عبد الله ابن سلام، وشعلة بن سَعِيَّة، وزيد بن سَعِيَّة وأسد بن عبيد، الذين دخلوا في الإسلام، وصدقوا بما أرسل الله به محمداً ﷺ.

وقوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ هكذا هو في جميع المصاحف الأئمة، وكذا هو في مصحف أبيّ ابن كعب. وذكر ابن جرير أنها في مصحف ابن مسعود: «والمقيمون الصلاة»، قال: والصحيح قراءة الجميع. ثم ردّ على من زعم أن ذلك من غلط الكاتب، ثم ذكر اختلاف الناس، فقال بعضهم: هو منصوب على المدح، كما جاء في قوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، قال: وهذا سائغ في كلام العرب، كما قال الشاعر:

(١) مضى عند تفسير الآية : (٩٣) من سورة آل عمران .

(٢) يعنى بيان الراسخين فى العلم . وقد مضى عند تفسير الآية : (٧) .

لَا يَبْعَدَنَّ قَوْمِي الَّذِينَ هُمْ
أُسْدُ الْعُدَاةِ وَآفَةُ الْجُزْرِ
وَالطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الْأُزْرِ
وَالنَّازِلِينَ بِكُلِّ مُعْتَرِكٍ

وقال آخرون: هو مخفوض عطفًا على قوله: ﴿بِمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ يعنى: وبالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ. وكأنه يقول: وبإقامة الصلاة، أى: يعترفون بوجودها وكتابتها عليهم، أو أن المراد بالمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ الملائكة، وهذا اختيار ابن جرير، يعنى: يؤمنون بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك، وبالملائكة. وفي هذا نظر (١)، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يحتمل أن يكون المراد: زكاة الأموال، ويحتمل زكاة النفوس، ويحتمل الأمرين، والله أعلم. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أى: يصدقون بأنه لا إله إلا الله، ويؤمنون بالبعث بعد الموت، والجزء على الأعمال خيرا وشرها. وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ﴾ هو الخبر عما تقدم ﴿سُنُّوهُمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعنى: الجنة.

رَبِيعٌ
﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ إِذْ هَمَّ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ
دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ (١١٢) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ
مُوسَى تَكْوِيمًا ﴿١١٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ
وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١١٥﴾

روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال: قال سكين وعدى بن زيد: يا محمد، ما يعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى! فأنزل الله فى ذلك من قولهما: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إلى آخر الآيات (٢). ذكر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله محمد ﷺ كما أوحى إلى غيره من الأنبياء المتقدمين. ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ والزبور: اسم الكتاب الذى أوحاه الله إلى داود، عليه السلام.

وقوله: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أى: من قبل هذه الآية، يعنى: فى السور المكية وغيرها. وهذه تسمية الأنبياء الذين نص الله على أسمائهم فى القرآن، وهم: آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وشعيب، وموسى، وهارون، ويونس، وداود، وسليمان، وإلياس، وأليسع، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين، وسيدهم محمد ﷺ.

(١) انظر الطبرى (٩ / ٣٩٧ - ٣٩٩). وانظر فيه آية ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ (٣ / ٣٥٢ - ٣٥٤). والبيتان اللذان ذكرهما الحافظ ابن كثير هنا - نكلا عن الطبرى فى هذا الموضع - لم يذكر فى ولا فى الموضع السابق. فلعلهما سقطا من هذا الموضع من ناسخى النسخ التى وقعت إلينا من تفسير الطبرى.

(٢) سكين - بضم السين - بن أبى سكين وعدى بن زيد - هما من بنى قينقاع، من الأعداء من يهود. وهذا الخبر ثابت فى سيرة ابن هشام. ورواه الطبرى (١٠٨٤٠) من طريق ابن إسحاق.

وقوله: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْضُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ أى: خلقنا آخرين لم يذكروا فى القرآن. وقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ وهذا تشرىف لموسى، عليه السلام، بهذه الصفة؛ ولهذا يقال له: الكلیم. وقد روى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن مسبح بن حاتم، حدثنا عبد الجبار بن عبد الله قال: جاء رجل إلى أبى بكر بن عیاش فقال: سمعت رجلا یقرأ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ (١) فقال أبو بكر: ما قرأ هذا إلا كافر! قرأت على الأعمش، وقرأ الأعمش على ابن وثاب، وقرأ یحیی بن وثاب على أبى عبد الرحمن السلمی، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمی، على أبى طالب، وقرأ على بن أبى طالب على رسول الله ﷺ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾.

وإنما اشتد غضب أبى بكر بن عیاش، رحمه الله، على من قرأ كذلك؛ لأنه حرّف لفظ القرآن ومعناه، وكان هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون الله كلم موسى، عليه السلام، أو يكلم أحداً من خلقه، كما روينا عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ: ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾ فقال له: يا ابن اللخناء! كيف تصنع بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؟! يعنى: أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل.

وقوله: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أى: يبشرون من أطاع الله واتبع رضوانه بالخيرات، وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب.

وقوله: ﴿لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أى: أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والندارة، وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه؛ لئلا يبقى لمعتذر عذر، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَبِّئَ عَائِيكَ مِن قَبْلِ أَنْ نُنزِلَ نَجْزِي﴾ [طه: ١٣٤]، وكذا قوله: ﴿وَلَوْلَا أَن تَصِيَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧]. وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين» وفى لفظ آخر: «من أجل ذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه» (٢).

﴿لَكِنَ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (١١١) **﴿١١١﴾** إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا **﴿١١٧﴾** إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا **﴿١١٨﴾** إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا **﴿١١٩﴾** يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَتَمَنَّوْا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا **﴿١٢٠﴾**

(١) يعنى بفتح الهاء من لفظ الجلالة .

(٢) انظر المسند (٣٦١٦، ٤١٥٣) وصحيح مسلم (٣٢٦/٢) .

لما تضمن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إلى آخر السياق - إثبات نبوته ﷺ، والرد على من أنكر نبوته من المشركين وأهل الكتاب، قال الله تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أى: وإن كفر به من كفر به ممن كذبك وخالفك، فالله يشهد لك بأنك رسوله الذى أنزل عليه الكتاب، وهو: القرآن العظيم الذى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]؛ ولهذا قال: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أى: فيه علمه الذى أراد أن يطلع العباد عليه، من البيئات والهدى والفرقان وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضى والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة، التى لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب، إلا أن يُعلمه الله به، كما قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]. وروى ابن أبى حاتم عن عطاء بن السائب قال: أقرأنى أبو عبد الرحمن السلمى القرآن، وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال: قد أخذت علم الله، فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل، ثم يقرأ قوله: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ أى: بصدق ما جاءك وأوحى إليك وأنزل عليك، مع شهادة الله تعالى لك بذلك ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾. عن ابن عباس قال: دخل على رسول الله ﷺ جماعة من اليهود، فقال لهم: «إنى لأعلم - والله - إنكم لتعلمون أنى رسول الله». فقالوا: ما نعلم ذلك. فأنزل الله عز وجل: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (١).

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أى: كفروا فى أنفسهم، فلم يتبعوا الحق، وسعوا فى صد الناس عن اتباعه والافتداء به، قد خرجوا عن الحق وضلوا عنه، وبعُدوا منه بعداً عظيماً شاسعاً. ثم أخبر تعالى عن حكمه فى الكافرين بآياته وكتابه ورسوله، الظالمين لأنفسهم بذلك، وبالصد عن سبيله وارتكاب مآثمه وانتهاك محارمه، بأنه لا يغفر لهم ولا يهديهم ﴿طريقاً﴾ أى: سبيلاً إلى الخير ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ وهذا استثناء منقطع ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ أى: قد جاءكم محمد - صلوات الله وسلامه عليه - بالهدى ودين الحق، والبيان الشافى من الله، عز وجل، فآمنوا بما جاءكم به واتبعوه يكن خيراً لكم. ثم قال: ﴿وَأَنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: فهو غنى عنكم وعن إيمانكم، ولا يتضرر بكفرانكم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]. وقال هاهنا: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ أى: بمن يستحق منكم الهداية فيهديه، وبمن يستحق الغواية فيغويه ﴿حَكِيمًا﴾ أى: فى أقواله وأفعاله

وشرعه وقدره .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (١٧١)

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير فى النصرى، فإنهم تجاوزوا الحد فى عيسى، حتى رفعوه فوق المنزلة التى أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهًا من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غلوا فى أتباعه وأشياعه، ممن زعم أنه على دينه، فادَّعوا فيهم العصمة واتبعوه فى كل ما قالوه، سواء كان حقًا أو باطلا، أو ضلالًا أو رشادًا، أو صحيحًا أو كذبًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [الآية [التوبة: ٣١]. وروى الإمام أحمد عن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: « لا تُطْرُونى كما أطرت النصرى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد الله ورسوله ». وقال على بن المدينى: هذا حديث صحيح مسند . ورواه البخارى (١) . وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك: أن رجلا قال: يا محمد، يا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا. فقال رسول الله ﷺ: « يا أيها الناس، عليكم بقولكم، ولا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أنا محمدُ بنُ عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عز وجل ». تفرد به من هذا الوجه (٢) .

وقوله: ﴿ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ أى: لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولدا - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وتنزهه وتقدس وتوحد فى سؤده وكبريائه وعظمته - فلا إله إلا هو، ولا رب سواه؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ أى: إنما هو عبد من عباد الله، وخلق من خلقه، قال له: كن، فكان، ورسول من رسله، وكلمته ألقاها إلى مريم، أى: خلقه بالكلمة التى أرسل بها جبريل، عليه السلام، إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه، عز وجل، وكانت تلك النفخة التى نفخها فى جيب درعها، فنزلت حتى وكّجت فرجها، بمنزلة لقاح الأب الأم، والجميع مخلوق لله، عز وجل؛ ولهذا قيل لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب تولد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التى قال له بها: كن، فكان. و الروح التى أرسل بها جبريل، قال الله تعالى: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ [المائدة: ٧٥]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩]. وقال تعالى: ﴿ وَالَّتِي أَحْصَيْنَا

(١) المسند (١٥٤، ١٦٤، ٣٣١) والبخارى (٦ / ٣٥٥ فتح) . وهو جزء من حديث السقيفة الطويل، رواه أحمد (٣٩١) والبخارى (١٢ / ١٢٨ - ١٣٩ فتح) .

(٢) المسند (١٢٥٧٨) . وإسناده صحيح .

فُرَجِّهَا فَفَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَمَلْنَاهَا ابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿ [الأنبياء: ٩١] وقال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَاتِنِينَ﴾ [التحریم: ١٢]. وقال تعالى إخباراً عن المسيح: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْوَعْدُ الَّذِي أَنعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي، قال: سمعت شاذَّ (١) بن يحيى يقول في قول الله: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ قال: ليس الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى.

وهذا أحسن مما ادعاه ابن جرير في قوله: ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أي: أعلمها بها، كما زعمه في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥] أي: يعلمك بكلمة منه، ويجعل ذلك كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦] (٢) بل الصحيح أنها الكلمة التي جاء بها جبريل إلى مريم، فنفخ فيها بإذن الله، فكان عيسى، عليه السلام. وروى البخاري عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ قال: « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه ، والجنة حق ، والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل ». ورواه مسلم (٣).

فقوله في الآية والحديث: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَاءً فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الباقية: ١٣] أي: من خلقه ومن عنده، وليست «من» للتبويض، كما تقول النصارى - عليهم لعائن الله المتتابعة - بل هي لابتداء الغاية، كما في الآية الأخرى.

وقد قال مجاهد في قوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي: ورسول منه. وقال غيره: ومجبة منه. والأظهر الأول، وهو: أنه مخلوق من روح مخلوقة، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف، كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله، في قوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ [هود: ٦٤]. وفي قوله: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦]، وكما ورد في الحديث الصحيح: «فأدخل على ربي في داره»، أضافها إليه إضافة تشريف، وهذا كله من قبيل واحد وتمط واحد.

وقوله: ﴿قَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: فصدقوا بأن الله واحد أحد، لا ولد له ولا صاحبة، واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبد الله ورسوله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ أي: لا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(١) شاذ: بتشديد الذال المعجمة. ووقع في المطبوعة «شاذان» بزيادة ألف ونون في آخره. وهو خطأ صرف.

«وشاذ» - هذا: مترجم في التهذيب، وهو يروي عن وكيع وي زيد بن هارون، وسئل عنه أحمد، فقال:

«عرفته. وذكره بخير» وترجمه ابن أبي حاتم (٢ / ١ / ٣٩٢) وقال: «نزل عليكم وكيع حيث خرج إلى

عبادان».

(٢) انظر الطبري (٩ / ٤١٨، ٤١٩). ثم ما قبل ذلك (٦ / ٤١١ - ٤١٣).

(٣) البخاري (٦ / ٣٤٢ فتح) ومسلم (١ / ٢٥).

وهذه الآية والتي تأتى فى سورة المائدة ، حيث يقول تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣]. وكما قال فى آخر السورة المذكورة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقال فى أولها: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]، فالنصارى - عليهم لعنة الله - من جهلهم ليس لهم ضابط، ولا لكفرهم حد، بل أقوالهم وضلالهم منتشر، فمنهم من يعتقد إلهاً، ومنهم من يعتقد شريكاً، ومنهم من يعتقد ولدأ. وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة، وأقوال غير مؤتلفة، ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا عن أحد عشر قولاً!! ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير عندهم وهو سعيد ابن بطريق - بترك الإسكندرية - فى حدود سنة أربعمائة من الهجرة النبوية، أنهم اجتمعوا المجمع الكبير، الذى عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التى لهم، وإنما هى الخيانة الحقيرة الصغيرة! وذلك فى أيام قسطنطين باني المدينة المشهورة، وأنهم اختلفوا عليه اختلافاً لا ينضب ولا ينحصر، فكانوا أزيد من ألفين أسقفأ، فكانوا أحزاباً كثيرة، كل خمسين منهم على مقالة، وعشرون على مقالة، ومائة على مقالة، وسبعون على مقالة، وأزيد من ذلك وأنقص. فلما رأى عصابة منهم قد زادوا على الثلاثمائة بشمانية عشر نفرأ، وقد توافقوا على مقالة، فأخذها الملك ونصرها وأيدها - وكان فيلسوفأ داهية - ومَحَقَ ما عداها من الأقوال، وانتظم دَسْتُ أولئك الثلاثمائة وثمانية عشر، وبنيت لهم الكنائس، ووضعوا لهم كتبأ وقوانين، وأحدثوا الأمانة التى يلقنونها الولدان من الصغر - ليعتقدوها - ويُعَمِّدُونَهُمْ عليها، وأتباع هؤلاء هم الملكية. ثم إنهم اجتمعوا مجمعا ثانياً فحدث فيهم اليعقوبية، ثم مجمعا ثالثاً فحدث فيهم النسطورية. وكل هذه الفرق تثبت الأقاليم الثلاثة فى المسيح، ويختلفون فى كيفية ذلك وفى اللاهوت والناسوت على زعمهم! هل اتحدا، أو ما اتحدا، بل امتزجا أو حل فيه؟ على ثلاث مقالات! وكل منهم يكفر الفرقة الأخرى، ونحن نكفر الثلاثة (١)! ولهذا قال تعالى: ﴿انتهوا خيراً لكم﴾ أى: يكن خيراً لكم ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أى: تعالى وتقدس عن ذلك علواً كبيراً ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ أى: الجميع ملكه وخلقه، وجميع ما فيهما عبيده، وهم تحت تدبيره وتصريفه، وهو وكيل على كل شىء، فكيف يكون له منهم صاحبة وولدا؟! كما قال فى الآية الأخرى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَطَّرَنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مریم: ٨٨ -

﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ؕ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ (١٧٣)

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قوله: ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ ﴾: لن يستكبر. وقال قتادة: لن يحتشم ﴿ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ وقد استدل بعض من ذهب إلى تفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية حيث قال: ﴿ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾. وليس له في ذلك دلالة؛ لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح؛ لأن الاستنكاف هو الامتناع، والملائكة أقدر على ذلك من المسيح؛ فلهذا قال: ﴿ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ولا يلزم من كونهم أقوى وأقدر على الامتناع أن يكونوا أفضل. وقيل: إنما ذكروا؛ لأنهم اتخذوا آلهة مع الله، كما اتخذ المسيح، فأخبر تعالى أنهم عبيد من عبيده وخلق من خلقه، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ الآيات [الانباء: ٢٦- وما بعدها]. ولهذا قال: ﴿ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ أى: فيجمعهم إليه يوم القيامة، ويفضل بينهم بحكمه العدل، الذى لا يجور فيه ولا يحيف؛ ولهذا قال: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ يعنى: فيعطيهم من الثواب على قدر أعمالهم الصالحة ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه وسعة رحمته وامتثانه. ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا ﴾ أى: امتنعوا من طاعة الله وعبادته واستكبروا عن ذلك ﴿ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ كقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠] أى: صاغرين حقيرين ذليلين، كما كانوا ممتنعين مستكبرين.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴾ (١٧٥)

يقول تعالى مخاطباً جميع الناس، ومخبراً بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم، وهو الدليل القاطع للعدر، والحجة الزيلة للشبهة؛ ولهذا قال: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ أى: ضياء واضحا على الحق، قال ابن جرير وغيره: هو القرآن. ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ ﴾ أى: جمعوا بين مقامى العبادة والتوكل على الله فى جميع أمورهم. ﴿ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ ﴾ أى: يرحمهم فيدخلهم الجنة ويزيدهم ثوابا ومضاعفة ورفعا فى درجاتهم، من فضله عليهم وإحسانه إليهم ﴿ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴾ أى: طريقا واضحا قصدا قواما لا اعوجاج فيه ولا انحراف. وهذه صفة المؤمنين فى الدنيا والآخرة، فهم فى الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة فى جميع الاعتقادات والعمليات، وفى الآخرة على صراط الله المستقيم المفضى إلى روضات الجنات.

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرُؤُا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وُلْدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وُلْدٌ فَإِنْ كَانَتَا أُثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

روى البخارى عن البراء قال : آخر سورة نزلت : « براءة » ، وآخر آية نزلت : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ ﴾ (١) . وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال: دخل على رسول الله ﷺ ، وأنا مريض لا أعقل ، قال : فتوضأ ، ثم صبَّ علىّ - أو قال : صبوا عليه - فقُلْتُ : إنه لا يرثنى إلا كلاله ، فكيف الميراث؟ قال : فنزلت آية الفرائض . أخرجاه فى الصحيحين ، ورواه بقية الجماعة وفى بعض الألفاظ : فنزلت آية الميراث : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾ الآية . وكان معنى الكلام - والله أعلم - : يستفتونك عن الكلاله قل : الله يفتيكم فيها ، فدل المذكور على المتروك . وقد تقدم الكلام على الكلاله واشتقاقها ، وأنها مأخوذة من الإكليل الذى يحيط بالرأس من جوانبه (٢) ؛ ولهذا فسرها أكثر العلماء : بمن يموت وليس له ولد ولا والد ، ومن الناس من يقول : الكلاله من لا ولد له ، كما دلت عليه هذه الآية : ﴿ إِنْ أَمْرُؤُا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وُلْدٌ ﴾ (٣) .

وقد أشكل حكم الكلاله على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، كما ثبت عنه فى الصحيحين أنه قال : ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهدا تنتهى إليه : الجد ، والكلاله ، وباب من أبواب الربا . وروى الإمام أحمد عن معدان بن أبى طلحة قال : قال عمر بن الخطاب : ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلاله ، حتى طعن بأصبعه فى صدرى وقال : «يكفيك آية الصيف التى فى آخر سورة النساء» . هكذا رواه مختصراً وقد أخرجه مسلم مطولاً أكثر من هذا (٤) . وروى الإمام أحمد عن إبراهيم [النخعى] ، عن عمر قال : سألت رسول الله ﷺ عن الكلاله؟ فقال : «يكفيك آية الصيف» . فقال : لأن أكون سألت النبى ﷺ عنها أحبّ إلىّ من أن يكون لى حُمُر النعم . وهذا إسناد جيد ، إلا أن فيه انقطاعاً بين إبراهيم وبين عمر ، فإنه لم يدركه (٥) . وروى الإمام أحمد عن البراء بن عازب قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عن الكلاله ، فقال : «يكفيك آية الصيف» . وهذا إسناد جيد ، ورواه أبو داود والترمذى . وكان المراد بآية الصيف : أنها نزلت فى فصل الصيف ، والله أعلم .

ولما أرشده النبى ﷺ إلى تفهمها - فإن فيها كفاية - نسى أن يسأل النبى ﷺ عن معناها ؛ ولهذا قال : فلأن أكون سألت رسول الله ﷺ عنها أحبّ إلىّ من أن يكون لى حُمُر النعم .

(١) البخارى (٨ / ٢٠١ فتح) .

(٢) مضى عند تفسير الآية : (١٢) من سورة النساء .

(٣) سبأى قريبا الرد على هذا القول بالدليل الصريح : أن الآية نصت على ميراث الأخت فى حال الكلاله بأن لها نصف التركة . والأخت لا ترث مع وجود الوالد ، بالبداية ؛ لأنه يحجبها حجب حرمان .

(٤) المستند (١٧٩) ومسلم - مطولاً - (٣ / ٢) . وكذلك رواه أحمد مطولاً (٨٩ ، ١٨٦ ، ٣٤١) .

(٥) المستند (٢٦٢) .

وروى ابن جرير عن سعيد بن المسيب قال: سأل عمر بن الخطاب النبي ﷺ عن الكلالة؟ فقال: «أليس قد بين الله ذلك؟» فنزلت: «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ» (١).

ذكر الكلام على معناها وبالله المستعان، وعليه التكلان:

قوله تعالى: «إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ» أى: مات، قال الله تعالى: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» [القصص: ٨٨] كل شيء يفنى ولا يبقى إلا الله، عز وجل، كما قال: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

وقوله: «لَيْسَ لَهُ وُلْدٌ» تمسك به من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلالة انتفاء الوالد، بل يكفي في وجود الكلالة انتفاء الولد، وهو رواية عن عمر بن الخطاب، رواها ابن جرير عنه بإسناد صحيح إليه. ولكن الذى رجع إليه هو قول الجمهور وقضاء الصديق: أنه من لا ولد له ولا والد، ويدل على ذلك قوله: «وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ» ولو كان معها أب لم ترث شيئاً؛ لأنه يحجبها بالإجماع، فدل على أنه من لا ولد له بنص القرآن، ولا والد بالنص عند التأمل أيضاً؛ لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد، بل ليس لها ميراث بالكلية. وروى الإمام أحمد عن زيد بن ثابت: أنه سئل عن زوج وأخت لأب وأم؟ فأعطى الزوج النصف والأخت النصف. فكلم في ذلك، فقال: حضرت رسول الله ﷺ قضى بذلك. تفرد به أحمد من هذا الوجه (٢)، وقد نقل ابن جرير وغيره عن ابن عباس وابن الزبير: أنهما كانا يقولان في الميت ترك بنتاً وأختاً: إنه لا شيء للأخت لقوله: «إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وُلْدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ» قالوا: فإذا ترك بنتاً فقد ترك ولداً، فلا شيء للأخت، وخالفهما الجمهور، فقالوا في هذه المسألة: للبنت النصف بالفرض، وللأخت النصف الآخر بالتعصيب، بدليل غير هذه الآية. وهذه نصت أن يفرض لها في هذه الصورة، وأما وراثتها بالتعصيب؛ فلما رواه البخارى عن الأسود، قال: قضى فينا معاذ بن جبل - على عهد رسول الله ﷺ: النصف للبنت، والنصف للأخت. وفي صحيح البخارى أيضاً عن هُزَيْلِ بْنِ شَرْحَبِيلٍ قَالَ: سئل أبو موسى الأشعري عن ابنة وابنة ابن وأخت؟ فقال: للابنة النصف، وللأخت النصف، وأت ابن مسعود فسيتابعنى. فسئل ابن مسعود - وأخبر بقول أبي موسى؟ فقال: لقد ضللتُ إذأ وما أنا من المهتدين، أفضى فيها بما قضى النبي ﷺ: للبنت النصف، ولبنت الابن السدس، تكملة الثلثين، وما بقى فللأخت، فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود، فقال: لا تسألونى ما دام هذا الخبر فيكم.

وقوله: «وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وُلْدٌ» أى: والأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلاله، وليس لها ولد، أى: ولا والد؛ لأنه لو كان لها والد لم يرث الأخ شيئاً، فإن فرض أن معه من له

(١) المسند (٤/ ٢٩٣ حلى).

(٢) المسند (٥/ ١٨٨ حلى). وذكره الهيثمى فى الزوائد (٤/ ٢٢٨) وقال: «رواه أحمد وفيه أبو بكر بن أبى مريم، قد اختلط، وبقيه رجاله رجال الصحيح». وذكره السيوطى (٢/ ٢٥١) عن المسند فقط، وقال: «بسن جيد».

فرض، صرف إليه فرضه؛ كزوج، أو أخ من أم، وصرف الباقي إلى الأخ؛ لما ثبت في الصحيحين، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا أَبَقَتْ لِلْفَرَائِضِ فَلَأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرَ».

وقوله: ﴿فَإِنْ كَانَتْ أَثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا التُّلْثَانُ مِمَّا تَرَكَ﴾ أى: فإن كان لمن يموت كلاله، أختان، فرض لهما الثلثان، وكذا ما زاد على الأختين فى حكمهما، ومن هاهنا أخذ الجماعة حكم البنتين كما استفيد حكم الأخوات من البنات، فى قوله: ﴿فَإِنْ كُنْ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلَاثُ مَا تَرَكَ﴾.

وقوله: ﴿وَأِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ هذا حكم العصابات من البنين وبنى البنين والإخوة، إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم، أعطى الذكر منهم مثل حظ الأنثيين. قوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ﴾ أى: يفرض لكم فرائضه، ويحد لكم حدوده، ويوضح لكم شرائعه.

وقوله: ﴿أَنْ تَصَلُّوا﴾ أى: لتلا تصلوا عن الحق بعد البيان ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أى: هو عالم بعواقب الأمور ومصالحها وما فيها من الخير لعباده، وما يستحقه كل واحد من القربات بحسب قربه من المتوفى. وقد روى البزار عن أبى عبيدة بن حذيفة، عن أبىه: «نزلت الكلاله على النبى ﷺ وهو فى مسير له، فوقف النبى ﷺ وإذا هو بحذيفة، وإذا رأس ناقة حذيفة عند مؤتزر النبى ﷺ، فلما إياه، فنظر حذيفة فإذا عمر، رضى الله عنه، فلما إياه، فلما كان فى خلافة عمر نظر عمر فى الكلاله، فدعا حذيفة فسأله عنها؟ فقال حذيفة: لقد لقّانها رسول الله ﷺ فَلَقَيْتُكَ كما لقانى، والله إنى لصادق، والله لا أزيدك على ذلك شيئاً أبداً. ثم قال البزار: وهذا الحديث لا نعلم أحداً رواه إلا حذيفة، ولا نعلم له طريقاً عن حذيفة إلا هذا الطريق، وكذا رواه ابن مردويه (١). وروى ابن جرير عن طارق بن شهاب قال: «أخذ عمر كتفاً وجمع أصحاب رسول الله ﷺ، ثم قال: لأفضين فى الكلاله قضاء تُحدّث به النساء فى خدورهن. فخرجت حينئذ حية من البيت، ففرقوا، فقال: لو أراد الله، عز وجل، أن يتم هذا الأمر لأتمه. وهذا إسناد صحيح (٢). وروى الحاكم عن محمد بن طلحة بن يزيد بن ركانة عن عمر ابن الخطاب قال: لأن أكون سألت رسول الله ﷺ عن ثلاث أحبّ إلى من حمر النعم: من الخليفة بعده؟ وعن قوم قالوا: نُقرُّ فى الزكاة من أموالنا ولا نُؤديها إليك، أيحل قتالهم؟ وعن الكلاله. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وروى أيضا ابن عباس قال: كنتُ آخر الناس عهداً بعمر، فسمعتة يقول: القول ما قلتُ، قلت: وما قلت؟ قال

(١) إسناده صحيح . وذكره الهيثمى فى الزوائد : (٧ / ١٣) وقال : « رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح ، غير أبى عبيدة ابن حذيفة ، ووثقة ابن حبان » . أقول : وأبو عبيدة بن حذيفة بن اليمان : ترجمه البخارى فى الكنى رقم (٤٤٥) ، وابن أبى حاتم (٤ / ٢ / ٤٠٣ ، ٤٠٤) فلم يذكرها فيه جرحا ، فهو ثقة عندهما . والحديث ذكره السيوطى (٢ / ٢٥٠) ونسبه للعدنى والبزار وأبى الشيخ فى الفرائض « بسند صحيح » وروى الطبرى ، نحو معناه (١٠٨٧٤ - ١٠٨٧٦) من حديث ابن سيرين ، مرسلا .

(٢) الطبرى (١٠٨٨٢) .

قلت: الكلالة، من لا ولد له. ثم قال: صحيح على شرطهما ولم يخرجاه. وروى ابن جرير عن سعيد بن المسيّب: أن عمر كتب في الجَدِّ والكلالة كتاباً، فمكث يستخير الله [فيه] يقول: اللهم إن علمت فيه خيراً فأمضه، حتى إذا طَعِنَ دَعَا بكتابِ فَمُحِي ، ولم يدرِ أحداً ما كتب فيه. فقال: إني كنت كتبت في الجَدِّ والكلالة كتاباً، وكنت استخرت الله فيه، فرأيت أن أترككم على ما كنتم عليه (١). قال ابن جرير: وقد رُوِيَ عن عمر، أنه قال: إني لأستحيى أن أخالف أبا بكر. وكان أبو بكر يقول: هو ما عدا الولد والوالد (٢).

وهذا الذي قاله الصديق عليه جمهور الصحابة والتابعين والأئمة، في قديم الزمان وحديثه، وهو مذهب الأئمة الأربعة، والفقهاء السبعة. وقول علماء الأمصار قاطبة، وهو الذي يدل عليه القرآن، كما أرشد الله أنه قد بين ذلك ووضحه في قوله: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

(١) الطبري (١٠٨٧٨ ، ١٠٨٧٩) .

(٢) الطبري (٤٣٧ / ٩) . وقد كان روى ذلك من قبل مفصلاً (٨ / ٥٣ - ٥٥) بالأرقام (٨٧٤٥ - ٤٩ - ٨٧) .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة المائدة

وهي مدنية

روى الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد قالت: إنني لآخذة بزمام العَضْبَاءِ ناقة رسول الله ﷺ، إذ نزلت عليه المائدة كلها، وكادت من ثقلها تَدُقُّ عَضْدُ الناقة (١). وروى أحمد أيضاً عن عبد الله بن عمرو قال: أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحمله، فنزل عنها . تفرد به أحمد (٢) . وقد روى الترمذى عن عبد الله بن عمرو قال: آخر سورة أنزلت: سورة المائدة والفتح، ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب . وقد روى عن ابن عباس أنه قال: آخر سورة أنزلت: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [سورة النصر: ١] . وقد روى الحاكم نحو رواية الترمذى، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وروى الحاكم عن جبير بن نُفَيْرٍ قال: حججت فدخلت على عائشة، فقالت لى: يا جبير، تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم. فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه. ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . ورواه الإمام أحمد وزاد: وسألته عن خلق رسول الله ﷺ؟ فقالت: القرآن. ورواه النسائى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَآمِنُوا بِالْعُقُودِ ؕ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَتُ ءَآلِئِنَّهُمَ ءِإِلَّا مَا يَتَّبَعِ عَلَيْكُمْ رِيعَ عَبْرِ مَحَلِّ الصَّيْدِ ؕ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا مَحْلُوءًا شَعَبِيَّ ؕ وَاللَّهُ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْمُدَىٰ وَلَا الْقَلْبِدَ وَلَا ءَأَمِينَ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١﴾

روى ابن أبى حاتم عن مَعْنٍ وَعَوْفٍ - أو: أحدهما - أن رجلا أتى عبد الله بن مسعود فقال: اعهد إلىّ . فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فأرعبها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه (٣) . وروى ابن جرير عن محمد بن مسلم قال: قرأت كتاب رسول الله

(١) المسند (٦/٤٥٥ حلى) والزوائد (٧/١٣) ، ونسبه أيضا للطبرانى ، وقال : « وفيه شهر بن حوشب ، وهو ضعيف ، وقد وثق » . ونقل قول : بل إسناده صحيح .

(٢) المسند (٦٦٤٣) ، وإسناده صحيح .

(٣) إسناده جيد ، إلا أن فيه انقطاعا بين معن وعوف وبين ابن مسعود .

ﷺ الذي كُتِبَ لعمر بن حَزْمٍ حين بعثه إلى نَجْرَانَ ، وكان الكتاب عند أبي بكر بن حزم ، فيه : هذا بيان من الله ورسوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ فكتب الآيات منها ، حتى بلغ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (١) . وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو ابن حزم ، عن أبيه قال : هذا كتابُ رسول الله ﷺ عندنا ، الذي كتبه لعمر بن حَزْمٍ ، حين بعثه إلى اليمن يُفَقِّه أهلها ويعلمهم السنة ، ويأخذ صدقاتهم . فكتب له كتابا وعهدا ، وأمره فيه بأمره ، فكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من الله ورسوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ عَهْدٌ من محمد رسول الله ﷺ لعمر بن حزم ، حين بعثه إلى اليمن ، أمره بتقوى الله في أمره كله ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

وقوله : ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ : قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : يعنى بالعقود : العهود . وحكى ابن جرير الإجماع على ذلك ، قال : والعهود : ما كانوا يتعاقدون عليه من الحلف وغيره . وعن ابن عباس فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ يعنى بالعهود ، يعنى : ما أحل الله وما حرم ، وما فرض وما حد فى القرآن كله ، ولا تغدروا ولا تنكثوا ، ثم شدد فى ذلك فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ إلى قوله : ﴿ سَاءَ الدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٥] (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ أَحَلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ ﴾ هى : الإبل ، والبقر ، والغنم . قاله الحسن وقتادة وغير واحد . قال ابن جرير : وكذلك هو عند العرب . وقد استدل ابن عمر ، وابن عباس ، وغير واحد بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وجد ميتا فى بطن أمه إذا ذبحت ، وقد ورد فى ذلك حديث فى السنن ، رواه أبو داود و الترمذى وابن ماجه عن أبى سعيد ، قال : قلنا : يا رسول الله ، ننحر الناقة ، ونذبح البقرة أو الشاة فى بطنها الجنين ، أنلقيه أم نأكله؟ فقال : «كلوه إن شئتم ؛ فإن ذكاته ذكاة أمه» . وقال الترمذى : حديث حسن . وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله ، عن رسول الله ﷺ قال : «ذكاة الجنين ذكاة أمه» . تفرد به أبو داود .

وقوله : ﴿ إِلَّا مَا يَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ : قال ابن عباس : يعنى بذلك : الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير . وقال قتادة : يعنى بذلك الميتة ، وما لم يذكر اسم الله عليه . والظاهر - والله أعلم - أن المراد بذلك قوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ ﴾ ؛ فإن هذه وإن كانت من الأنعام إلا أنها تحرم بهذه العوارض ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَّا مَا ذُكِّبْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ ﴾ يعنى : منها . فإنه حرام لا يمكن استدراكه ، وتلاحقه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَحَلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أى : إلا ما سيتلى عليكم من تحريم بعضها فى بعض الأحوال .

وقوله : ﴿ غَيْرَ مُحْلَى الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ﴾ قال بعضهم : هذا منصوب على الحال . والمراد بالأنعام :

(١) الطبرى (١٠٩١٤) . و « محمد بن مسلم » : هو الزهري .

(٢) رواه الطبرى (١٠٩٠٧) .

ما يعم الإنسى من الإبل والبقر والغنم، وما يعم الوحشى كالظباء والبقر والحمر، فاستثنى من الإنسى ما تقدم، واستثنى من الوحشى الصيد فى حال الإحرام. وقيل: المراد : أحللتنا لكم الأنعام لكم فى جميع الأحوال، فحرموا الصيد فى حال الإحرام، فإن الله قد حكم بهذا وهو الحكيم فى جميع ما يأمر به وينهى عنه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.

ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس : يعنى بذلك مناسك الحج. وقال مجاهد : الصفا والمروة والهدى والبُدن من شعائر الله. وقيل: شعائر الله محارمه ، أى: لا تحلوا محارم الله التى حرمها تعالى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا الشُّهُرَ الْحَرَامَ﴾ يعنى بذلك تحريمه والاعتراف بتعظيمه، وترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه ، من الابتداء بالقتال وتأكيد اجتناب المحارم، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشُّهُرِ الْحَرَامِ قَاتَلٍ فِيهِ قُلْ قَاتَلٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ الآية [التوبة: ٣٦]. وفى صحيح البخارى عن أبى بكره : أن رسول الله ﷺ قال فى حجة الوداع: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حُرُمٌ ، ثلاث متواليات : ذو القعدة، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مُضَرُّ الذى بين جُمادى وشعبان». وهذا يدل على استمرار تحريمها إلى آخر وقت، كما هو مذهب طائفة من السلف. وقال ابن عباس فى قوله: ﴿وَلَا الشُّهُرَ الْحَرَامَ﴾ يعنى : لا تستحلوا القتال فيه . واختاره ابن جرير أيضاً، وذهب الجمهور إلى أن ذلك منسوخ، وأنه يجوز ابتداء القتال فى الأشهر الحرم ، واحتجوا بقوله: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرَامُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] ، قالوا: والمراد أشهر التسيير الأربعة، ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ ، قالوا: فلم يستثن شهرا حراما من غيره. وقد حكى الإمام أبو جعفر الإجماع على أن الله قد أحل قتال أهل الشرك فى الأشهر الحرم، وغيرها من شهور السنة، قال: وكذلك أجمعوا على أن المشرك لو قلد عنقه أو ذراعيه بلحاء جميع أشجار الحرم، لم يكن ذلك له أمانا من القتل، إذا لم يكن تقدم له عقد ذمة من المسلمين أو أمان . ولهذا المسألة بحث آخر، له موضع أبسط من هذا.

وقوله: ﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ يعنى: لا تتركوا الإهداء إلى البيت الحرام ؛ فإن فيه تعظيم شعائر الله ، ولا تتركوا تقليدها فى أعناقها لتمييزه به عما عداها من الأنعام ، وليعلم أنها هدى إلى الكعبة فيجتنبها من يريدها بسوء، وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها، فإن من دعا إلى هَدْيٍ كان له من الأجر مثل أجر من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا؛ ولهذا لما حَجَّ رسول الله ﷺ بات بذي الحليفة، وهو وادى العقيق، فلما أصبح طاف على نسائه، وكن تسعا، ثم اغتسل وتطيب وصلّى ركعتين، ثم أشعر هَدْيَهُ وَقَلَدَهُ، وأهل للحج والعمرة ، وكان هديه إبلا كثيرة تنيف على الستين، من أحسن الأشكال والألوان، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. قال بعض السلف: إعظامها: استحسانها واستسمانها. قال على بن أبى طالب: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن. رواه أهل

السنن. وقال مقاتل بن حيان: ﴿وَلَا أَقْلَانِدُ﴾: فلا تستحلوه. وكان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم في غير الأشهر الحرم، قلدوا أنفسهم بالشعر والوبر، وتقلد مشركو الحرم من لحاء شجر الحرم، فيأمنون به. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَتَوْنَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ أى: ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام، الذى من دخله كان آمناً، وكذا من قصده طالباً فضل الله وراغباً فى رضوانه، فلا تصدوه ولا تمنعوه ولا تهيجوه. قال مجاهد، وعطاء، وقتادة، وغير واحد فى قوله: ﴿يَتَتَوْنَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعنى بذلك: التجارة. وهذا كما تقدم فى قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]. وقوله: ﴿وَرِضْوَانًا﴾: قال ابن عباس: يترضون الله بحجهم. وقد ذكر عكرمة، والسدى، وابن جريج: أن هذه الآية نزلت فى الحطيم بن هند البكرى، كان قد أغار على سرح المدينة، فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت، فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا عليه من طريقه إلى البيت، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَتَوْنَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ (١).

وقد حكى ابن جرير الإجماع على أن المشرك يجوز قتله، إذا لم يكن له أمان، وإن أمّ البيت الحرام أو بيت المقدس؛ وأن هذا الحكم منسوخ فى حقهم، والله أعلم. فأما من قصده بالإلحاد فيه والشرك عنده والكفر به، فهذا يمنع كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]؛ ولهذا بعث رسول الله ﷺ عام تسع - لما أمر الصديق على الحجيج - علياً، وأمره أن ينادى على سبيل النيابة عن رسول الله ﷺ ببراءة، «وَأَلَّا يَحِجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَنَّ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ».

وقال ابن عباس: قوله: ﴿وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ يعنى: من توجه قبل البيت الحرام، فكان المؤمنون والمشركون يحجون، فنهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحداً من مؤمن أو كافر، ثم أنزل الله بعدها: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٧]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨] فنهى المشركين من المسجد الحرام. وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿وَلَا أَقْلَانِدُ﴾ يعنى: إن تقلد قلادة من الحرم فأمنوه، قال: ولم تزل العرب تُعير من أخفر ذلك.

وقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أى: إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتم منه، فقد أبحنا لكم ما كان محرماً عليكم فى حال الإحرام من الصيد. وهذا أمر بعد الخطر، والصحيح الذى يثبت على السبب: أنه يرد الحكم إلى ما كان عليه قبل النهى، فإن كان واجباً رده واجباً، وإن كان مستحباً فمستحب، أو مباحاً فمباح. ومن قال: إنه على الوجوب، ينتقض عليه بآيات كثيرة،

(١) انظر: الطبرى (١٠٩٥٨، ١٠٩٥٩) والسيوطى (٢ / ٢٥٤، ٢٥٥) فى خبرى السدى وعكرمة. ولم أجد

ومن قال : إنه للإباحة ، يردُّ عليه آيات أخرى، والذي ينتظم الأدلة كلها هذا الذي ذكرناه، كما اختاره بعض علماء الأصول، والله أعلم.

وقوله : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ : من القراء من قرأ : «أن صدوكم» بفتح الألف من «أن»، ومعناها ظاهر، أى : لا يحملنكم بغض قوم قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام، وذلك عام الخديبية، على أن تعتدوا حكم الله فيكم فتقتصوا منهم ظلماً وعدواناً، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل فى كل أحد (١) . وهذه الآية كما سيأتى من قوله تعالى : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] أى : لا يحملنكم بغض أقوام على ترك العدل، فإن العدل واجب على كل أحد، فى كل أحد، فى كل حال. وقال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، والعدل به قامت السموات والأرض.

والشَنَاَن هو: البغض. قاله ابن عباس وغيره، وهو مصدر من شَنَّته أشنؤه شَنَاَنًا، بالتحريك، مثل قولهم: جَمَزَان، ودرَجَان ورفَلَان، من جمز، ودرج، ورفل (٢). قال ابن جرير: من العرب من يسقط التحريك فى شَنَاَن، فيقول: شَنَاَن. قال: ولم أعلم أحداً قرأ بها .

وقوله : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَىٰ الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَىٰ الْإِثْمِ وَالتَّعَدْوَانِ﴾ : يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات، وهو البر، وترك المنكرات وهو التقوى، وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم. قال ابن جرير: الإثم: ترك ما أمر الله بفعله، والتعدوان: مجاوزة [ما حد الله فى دينكم، ومجاوزة] ما فرض عليكم فى أنفسكم وفى غيركم .

وقد روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنْصُرُ أَخَاكَ ظَلَمًا أَوْ مَظْلُومًا». قيل: يا رسول الله، هذا نَصْرُهُ مَظْلُومًا، فكيف أنصره إذا كان ظالماً؟ قال: «تحمزه وتمنعه من الظلم ، فذاك نصره» . ورواه الشيخان بنحوه .

وروى الحافظ أبو بكر البزار عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «الدَّالُّ عَلَى الْخَيْرِ كِفَاعُهُ». ثم قال: لا نعلمه يروى إلا بهذا الإسناد . قلت: وله شاهد فى الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك

(١) لم يذكر المؤلف الحافظ للقراءة الأخرى : « إن صدوكم » بكسر الهمزة ، وهى قراءة ابن كثير وأبى عمرو من السبعة . وقراءة الفتح قراءة باقى السبعة . ولكن صنيع الحافظ ابن كثير يدل على أنه كان يقروها بالكسر ، بقراءة سميه ابن كثير وزميله أبى عمرو .

(٢) « الجمز » بسكون الميم ، و « الجمزى » بفتحها مع ألف مقصورة : هو ضرب من السير مسرعاً دون العدو الشديد . ولم أجد استعمال « الجمزان » الذى حكاه ابن كثير هنا ، و « الدرّج » بسكون الراء ، و « الدرجان » : مشية الشيخ والصبى . و « الرفل » بسكون الفاء ، و « الرفلان » : جر الذليل مع التبخر .

من آثامهم شيئاً» (١).

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْقُودَةُ وَالْمَتْرَدِيَّةُ وَالنَّطِيعَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى التُّصْبِ وَأَنْ تَسْفَسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمَ يَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

يخبر تعالى عباده خيرا متضمنا النهى عن تعاطى هذه المحرمات من الميتة، وهى: ما مات من الحيوان حتف أنفه، من غير ذكاة ولا اصطياد، وما ذاك إلا لما فيها من المضرة، لما فيها من الدم المحتقن، فهى ضارة للدين والبدن فلهذا حرمها الله، عز وجل، ويستثنى من الميتة السمك، فإنه حلال سواء مات بتذكية أو غيرها، لما رواه مالك، والشافعى وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما، عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ سئل عن ماء البحر؟ فقال: « هو الطَّهُورُ ماؤه ، الحِلُّ مِيتته ». وهكذا الجراد، لما سياتى من الحديث .

وقوله: ﴿ وَالْدَّمُ ﴾ يعنى : المسفوح؛ لقوله: ﴿ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. قاله ابن عباس وسعيد ابن جبیر. روى ابن احنم عن ابن عباس: أنه سئل عن الطحال؟ فقال: كلوه، فقالوا: إنه دم. فقال: إنما حُرِّمَ عليكم الدم المسفوح (٢). وقد روى الشافعى عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: « أَحِلُّ لَنَا مِيتَتَانِ وَدَمَانِ، فَأَمَّا الْمِيتَتَانِ فَالْسَمَكُ وَالْجِرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ ». وكذا رواه أحمد بن حنبل، وابن ماجه، والدارقطنى، والبيهقى، وقد رواه سليمان بن بلال - أحد الأثبات - عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر، فوقفه بعضهم عليه. قال الحافظ أبو زرعة الرازى: وهو أصح (٣). وروى ابن احنم عن أبى حاتم عن أبى أمامة - وهو صدق بن عجلان - قال: بعثنى رسول الله ﷺ إلى قومى أَدْعَوْهُمْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَعْرَضَ عَلَيْهِمْ شُرَائِعَ الْإِسْلَامِ، فَأَتَيْتَهُمْ، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ جَاؤُوا بِقِصْعَةٍ مِنْ دَمٍ، فَاجْتَمَعُوا عَلَيْهَا يَأْكُلُونَهَا، فَقَالُوا: هَلْمْ يَا صُدُقِي، فَكُلْ. قال: قلت: ويحكم! إنما أتيتكم من عند من يُحَرِّمُ هذا عليكم،

(١) صحيح مسلم (٢ / ٣٠٦) عن أبى هريرة . وكذلك رواه أحمد (٩١٤٩) وابن حبان فى صحيحه (١١٢) بتحقيقنا .

(٢) إسناده ابن أبى حاتم صحيح .

(٣) فى أسانيدہ مقال كثير. انظر التلخيص الحبير (ص٩) وقال الحافظ هناك: «وصحح الموقوف أبو زرعة وأبو حاتم». ثم قال: «نعم، الرواية الموقوفة التى صححها أبو حاتم وغيره فى حكم المرفوع؛ لأن قول الصحابى: أحل لنا، وحرم علينا كذا - مثل قوله: أمرنا بكذا، ونهينا عن كذا. فيحصل الاستدلال بهذه الرواية؛ لأنها فى معنى المرفوع». وهذا حق وصحيح .

وأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ، قَالُوا: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: فَتَلَوْتُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ﴾ الْآيَةَ .
 وَرَوَاهُ الْحَافِظُ ابْنُ مَرْدُؤِيَةَ مِثْلَهُ ، وَزَادَ بَعْدَ هَذَا السِّيَاقَ : قَالَ : فَجَعَلْتُ أَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ،
 وَيَأْبُونَ عَلَيَّ ، فَقُلْتُ : وَيَحْكُمُ ، اسْقُونِي شَرِبَةً مِنْ مَاءٍ ، فَإِنِّي شَدِيدُ الْعَطْشِ . قَالَ : وَعَلَيَّ عِبَادَتِي -
 فَقَالُوا : لَا ، وَلَكِنْ نَدْعُكَ حَتَّى تَمُوتَ عَطْشًا . قَالَ : فَاعْتَمَمْتُ وَضَرَبْتُ بِرَأْسِي فِي الْعِبَادَةِ ،
 وَنَمَتُ عَلَى الرَّمْضَاءِ فِي حَرِّ شَدِيدٍ ، قَالَ : فَأَتَانِي آتٌ فِي مَنَامِي بِقَدْحٍ مِنْ زَجَاجٍ لَمْ يَرِ النَّاسُ
 أَحْسَنَ مِنْهُ ، وَفِيهِ شَرَابٌ لَمْ يَرِ النَّاسُ أَلْذَمَنَّهُ ، فَأَمَكَّنْتِي مِنْهَا فَشَرِبْتَهُ ، فَلَمَّا فَرَعْتَ مِنْ شَرَابِي
 اسْتَيْقَظْتُ ، فَلَا وَاللَّهِ مَا عَطَشْتُ وَلَا عَرَفْتُ عَطْشًا بَعْدَ تَيْكِ الشَّرِبَةِ . وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ وَذَكَرَ نَحْوَهُ ،
 وَزَادَ بَعْدَ قَوْلِهِ : « بَعْدَ تَيْكِ الشَّرِبَةِ » : « فَسَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ : أَتَأْكُمُ رَجُلٌ مِنْ سِرَاةِ قَوْمِكُمْ ، فَلَمْ
 تُمَجِّعُوهُ بِمَدَقَّةٍ ، فَأَتُونِي بِمَدَقَّةٍ ، فَقُلْتُ : لَا حَاجَةَ لِي فِيهَا ، إِنَّ اللَّهَ أَطْعَمَنِي وَسَقَانِي ، وَأَرَيْتَهُمْ
 بَطْنِي فَأَسْلَمُوا عَنْ آخِرِهِمْ » (١) .

وقوله: ﴿وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ﴾ يعني: إنسيه ووحشيه، واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم، ولا
 يحتاج إلى تحذلق الظاهرية في جمودهم وهنا وتعسفهم في الاحتجاج بقوله: ﴿فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فَسَقٌ﴾
 يعنون قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مُسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥] ، أعادوا
 الضمير - فيما فهموه - على الخنزير، حتى يعم جميع أجزائه ! وهذا بعيد من حيث اللغة، فإنه
 لا يعود الضمير إلا إلى المضاف دون المضاف إليه، والأظهر أن اللحم يعم جميع الأجزاء ، كما
 هو المفهوم من لغة العرب، ومن العرف المطرد، وفي صحيح مسلم، عن بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ
 الْأَسْلَمِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدِ شِيرٍ فَكَأَنَّمَا صَبَّغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ الْخَنزِيرِ
 وَدَمِهِ » . فَإِذَا كَانَ هَذَا التَّنْفِيرَ لِلْمَجْرَدِ لِلْمَسِّ ، فَكَيْفَ يَكُونُ التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ الْأَكِيدُ عَلَى أَكْلِهِ
 وَالتَّغْذَى بِهِ ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى شُمُولِ اللَّحْمِ لِجَمِيعِ الْأَجْزَاءِ مِنَ الشَّحْمِ وَغَيْرِهِ .

(١) روايتا ابن أبي حاتم وابن مردويه هي من طريق بشير بن سريج - بضم السين المهملة وآخره جيم - ورواية الحاكم
 (٣ / ٦٤١ ، ٦٤٢) هي من طريق صدقة بن هرمز الزماني ، كلاهما عن أبي غالب عن أبي أمامة .
 والحديث ذكره الهيثمي في الزوائد (٩ / ٢٨٦ ، ٢٨٧) من روايتين للطبراني ، قال في أولاهما : « رواه
 الطبراني ، وفيه بشير بن سريج ، وهو ضعيف » . وقال في الأخرى : « رواه الطبراني بإسنادين ، وإسناد
 الأولى حسن ، فيها أبو غالب ، وقد وثق » . وذكره الحافظ في الإصابة (٣ / ٢٤١) بنحوه ، من رواية أبي
 يعلى . ولم أجده في الزوائد من رواية أبي يعلى ، وهو على شرطه . ولم يتكلم الحاكم على الحديث ، ولكن
 قال الذهبي : « صدقة : ضعفه ابن معين » . وأبو غالب - صاحب أبي أمامة - فيه كلام كثير . والحق أنه ثقة ،
 وحديثه صحيح . و « بشير بن سريج » الراوي عنه عند ابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني - ثقة ، ترجمه ابن
 أبي حاتم (١ / ١ / ٣٧٥) ، فلم يذكر فيه جرحا ، وذكره ابن حبان في الثقات . فإطلاق صاحب الزوائد
 تضعيفه غير جيد . ثم إن صنيعة يوهم أن روايته ليست عن أبي غالب ، بذكر أبي غالب في الرواية الأخرى
 فقط . وصدقة بن هرمز الزماني - الراوي الآخر عن أبي غالب في رواية الحاكم - ثقة أيضا . ترجمه البخاري
 في الكبير (٢ / ٢ / ٢٩٧ ، ٢٩٨) ، فلم يذكر فيه جرحا ، وذكره ابن حبان في الثقات . وانفرد بتضعيفه ابن
 معين عند ابن أبي حاتم (٢ / ١ / ٤٣١) . ثم اتفاق هذين الرواين على روايته عن أبي غالب يرفع شبهة
 الضعف عن الحديث ، ويقوى كل منهما الآخر . وقوله : « ولا عرفت عطشا » كان في الأصول هنا: « ولا
 عريت » ! وصححناه من المستدرک .

وقوله: ﴿ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ أى: ما ذبح فذكر عليه اسم غير الله، فهو حرام؛ لأن الله أوجب أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم، فتمتى عدل بها عن ذلك، وذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك، من سائر المخلوقات، فإنها حرام بالإجماع. وإنما اختلف العلماء فى متروك التسمية، إما عمداً أو نسياناً، كما سيأتى تقريره فى سورة الأنعام (١).
 وقوله: ﴿ وَالْمُنْحَنَقَةُ ﴾ وهى التى تموت بالخنق إما قصداً وإما اتفاقاً، بأن تتخبل فى وثاقها فتموت به، فهى حرام. وأما ﴿ الْمَوْثُودَةُ ﴾ فهى التى تضرب بشيء ثقيل غير محدد حتى تموت، كما قال ابن عباس وغير واحد: هى التى تضرب بالخشبة حتى يوقدها فتموت. قال قتادة: كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصى حتى إذا ماتت أكلوها. وفى الصحيح: أن عدى بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إني أرمى بالمعراض الصيد فأصيب؟ قال: «إذا رميت بالمعراض فخرق فكله، وإن أصابه بعرضه فإنما هو وقيد فلا تأكله». ففرق بين ما أصابه بالسهم، أو بالزراق ونحوه بحده فأحله، وما أصابه بعرضه فجعله وقيداً فلم يحله، وقد أجمع الفقهاء على هذا الحكم ههنا، واختلفوا فيما إذا صدم الجارحة الصيد فقتله بثقله ولم يجرحه، على قولين، هما قولان للشافعى: أحدهما: لا يحل، كما فى السهم، والجامع أن كلا منهما ميت بغير جرح فهو وقيد. والثانى: أنه يحل؛ لأنه حكم بإباحة ما صاده الكلب، ولم يستفصل، فدل على إباحة ما ذكرناه؛ لأنه قد دخل فى العموم.

وأما ﴿ الْمَرْدِيَّةُ ﴾ فهى التى تقع من شاهق أو موضع عال فتموت بذلك، فلا تحل.
 وأما ﴿ النَّطِيحَةُ ﴾ فهى التى ماتت بسبب نطح غيرها لها، فهى حرام، وإن جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحتها. والنطيحة فعيلة بمعنى مفعولة، أى: منطوحة. وأكثر ما ترد هذه البنية فى كلام العرب بدون تاء التانيث، فيقولون: كَفَّ خَضِيْبٌ، وعين كحيل، ولا يقولون: كَفَّ خَضِيْبِيَّةٌ، ولا: عين كحيلية؛ وأما هذه فقال بعض النحاة: إنما استعمل فيها تاء التانيث؛ لأنها أجريت مجرى الأسماء، كما فى قولهم: طريقة طويلة. وقال بعضهم: إنما أتى بتاء التانيث فيها لتدل على التانيث من أول وهلة، بخلاف: عين كحيل، وكف خضيب؛ لأن التانيث مستفاد من أول الكلام.

وقوله: ﴿ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ ﴾ أى: ما عدا عليها أسد، أو فهد، أو نمر، أو ذئب، أو كلب، فأكل بعضها فماتت بذلك، فهى حرام وإن كان قد سال منها الدماء ولو من مذبحتها، فلا تحل بالإجماع. وقد كان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضل السبع من الشاة أو البعير أو البقرة ونحو ذلك فحرم الله ذلك على المؤمنين. وقوله: ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ عائد على ما يمكن عوده عليه، مما انعقد سبب موته فأمكن تداركه بذكاة، وفيه حياة مستقرة، وذلك إنما يعود على قوله: ﴿ وَالْمُنْحَنَقَةُ وَالْمَوْثُودَةُ وَالْمَرْدِيَّةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ ﴾. قال ابن عباس: قوله: ﴿ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ يقول: إلا ما ذبحتم من هؤلاء وفيه روح، فكلوه، فهو ذكى. وكذا روى عن سعيد بن جبير، والحسن البصرى،

والسدى . وروى ابن جرير عن علي قال: إذا أدركت ذكاة الموقوذة والمتردية والنطيحة، وهي تحرك يداً أو رجلاً، فكلها . وهكذا روى عن طاوس ، والحسن ، وقتادة ، وغير واحد: أن المذكاة متى تحركت بحركة تدل على بقاء الحياة فيها بعد الذبح، فهي حلال. وهذا مذهب جمهور الفقهاء، وبه قال أبو حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل . قال ابن وهب: سئل مالك عن الشاة التي يخرق جوفها السبع حتى تخرج أعضائها؟ فقال مالك: لا أرى أن تذكى، أى شئ يُذكى منها؟! هذا مذهب مالك، رحمه الله . وظاهر الآية عام فيما استثناه مالك من الصور التي بلغ الحيوان فيها إلى حالة لا يعيش بعدها، فيحتاج إلى دليل مخصص للآية ، والله أعلم .

وفى الصحيحين: عن رافع بن خديج أنه قال: قلت: يا رسول الله، إنا لاقو العدو غدأ، وليس معنا مدي، أفندبح بالقصب؟ فقال: « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه، ليس السنُّ والظفرُ، وسأحدثكم عن ذلك، أما السن فعظم، وأما الظفر فمذى الحبشة » . وفى الحديث الذى رواه السدارقطنى مرفوعاً ، وفيه نظر ، وروى عن عمر موقوفاً ، وهو أصح : « ألا إن الذكاة فى الحلق واللبة، ولا تعجلوا الأنفس أن تهرق » . فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن أبى العُشراء الدارمى، عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، أما تكون الذكاة إلا من اللبة والحلق؟ فقال: «لو طعنت فى فخذه لأجزأ عنك » . وهو حديث صحيح ، ولكنه محمول على ما لا يقدر على ذبحه فى الحلق واللبة .

وقوله: «وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ»: قال مجاهد وابن جرير: كانت النصب حجارة حول الكعبة ، قال ابن جرير : وهي ثلثمائة وستون نصبا، كانت العرب فى جاهليتها يذبحون عندها، وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح، ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب . وكذا ذكره غير واحد، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح لتي فعلت عند النصب ، من الشرك الذى حرمه الله ورسوله . وينبغى أن يحمل هذا على هذا؛ لأنه قد تقدم تحريم ما أهل به لغير الله .

وقوله : «وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ» أى : حرم عليكم أيها المؤمنون الاستقسام بالأزلام ، واحدها: زلم، وقد تفتح الزاى، فيقال: زكم، وقد كانت العرب فى جاهليتها يتعاطون ذلك، وهى عبارة عن قداح ثلاثة، على أحدها مكتوب: «افعل» وعلى الآخر: «لا تفعل»، والثالث غُفْل ليس عليه شئ - ومن الناس من قال: مكتوب على الواحد: «أمرنى ربى»، وعلى الآخر: «نهانى ربى». والثالث غفل ليس عليه شئ - فإذا أجالها فطلع السهم الأمر فعله، أو الناهى تركه، وإن طلع الفارغ أعاد . والاستقسام: مأخوذ من طلب القسَم من هذه الأزلام . هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير . وذكر محمد بن إسحاق وغيره: أن أعظم أصنام قريش صنم كان يقال له: هُبَل، وكان داخل الكعبة، منصوب على بئر فيها، توضع الهدايا وأموال الكعبة فيه، وكان عنده سبعة أزلام مكتوب فيها ما يتحاكمون فيه، بما أشكل عليهم ، فما خرج لهم منها رجعوا إليه

ولم يعدلوا عنه.

وثبت في الصحيح (١) : أن النبي ﷺ لما دخل الكعبة، وجد إبراهيم وإسماعيل موصولين فيها، وفي أيديهما الأوزام، فقال: «قاتلهم الله ! لقد علموا أنهما لم يستقسما بها أبدا» (٢) .
وروى ابن مردويه عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يلج الدرجات من تكهن أو استقسم أو رجع من سفر طائراً» (٣) .

وقوله : ﴿ذَلِكُمْ فَسُقْ﴾ أى: تعاطيه فسق وغى وضلال وجهالة وشرك، وقد أمر الله المؤمنين إذا ترددوا فى أمورهم أن يستخيروه بأن يعبدوه، ثم يسألوه الخيرة فى الأمر الذى يريدونه، كما رواه الإمام أحمد والبخارى وأهل السنن عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن، ويقول: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إنى أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسميه باسمه - خير لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة امرى، أو قال : عاجل امرى ، وأجله ، فاقدره لى ويسره لى ، ثم بارك لى فيه، وإن كنت تعلمه شرا لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة امرى، فاصرفنى عنه، واصرفه عنى، واقدر لى الخير حيث كان، ثم رضى به». لفظ أحمد . وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح غريب .

وقوله: ﴿الْيَوْمَ يَسَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾: قال ابن عباس: يعنى: يشسوا أن يراجعوا دينهم . وكذا روى عن عطاء بن أبى رباح، والسدى ومقاتل بن حيان . وعلى هذا المعنى يرد الحديث الثابت فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الشيطان قد يسس أن يعبد المصلون فى جزيرة العرب، ولكن بالتخريش بينهم» (٤) . ويحتمل أن يكون المراد: أنهم يشسوا من مشابهة المسلمين، بما تميز به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك وأهله؛ ولهذا قال تعالى أمرا عباده المؤمنين أن يصبروا ويثبتوا فى مخالفة الكفار، ولا يخافوا أحدا إلا الله، فقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ أى: لا تخافوهم فى مخالفتكم إياهم واخشونى، أنصركم عليهم وأبيدهم ، وأظفركم بهم، وأشرف صدوركم منهم، وأجعلكم فوقهم فى الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾: هذه أكبر نعم

(١) فى المطبوعتين (تفسير ابن كثير ، والعمدة) : «الصحيحين» وهو خطأ ، وصوابه ما أثبتناه من المخطوطة الأزهرية . (الباز) .

(٢) رواه البخارى - بنحوه - من حديث ابن عباس (٢٧٦٦ فتح) .

(٣) «طائراً» : من الطيرة ، يعنى متطيرا . والحديث ذكره الهيثمى فى الزوائد (١١٨/٥) بلفظ : «أو رجع من سفر نظيراً» وقال : «رواه الطبرانى : بإسنادين ، ورجال أحدهما ثقات» .

(٤) صحيح مسلم (٢ / ٣٤٦) من حديث جابر .

الله، عز وجل، على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم، صلوات الله وسلامه عليه؛ ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خُلف، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أى: صدقا فى الأخبار، وعدلا فى الأوامر والنواهي، فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أى: فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذى أحبه الله ورضيه، وبعث به أفضل الرسل الكرام، وأنزل به أشرف كتبه. وقال ابن عباس: قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وهو الإسلام، أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين: أنه أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبدا، وقد أمه الله فلا ينقصه أبدا، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدا. وقال السدى: نزلت هذه الآية يوم عرفة، فلم ينزل بعدها حلال ولا حرام، ورجع رسول الله ﷺ فمات. قالت أسماء بنت عميس: حَجَّجْتُ مع رسول الله ﷺ تلك الحجة، فبينما نحن نسير إذ تجلَّى له جبريل، فمال رسول الله ﷺ على الراحلة، فلم تطق الراحلة من ثقل ما عليها من القرآن، فبركت، فأتيته فسجَّيت عليه برُدا كان على (١).

وروى ابن جرير وغير واحد: مات رسول الله ﷺ بعد يوم عرفة بأحد وثمانين يوما .
وروى الإمام أحمد عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال:
يا أمير المؤمنين، إنكم تقرؤون آية فى كتابكم، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا. قال: وأى آية؟ قال: قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾، فقال عمر: والله إنى لأعلم اليوم الذى نزلت على رسول الله ﷺ، والساعة التى نزلت فيها على رسول الله ﷺ، عشية عرفة فى يوم جمعة. ورواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى، وفى رواية البخارى من طريق سفيان الثورى: قال سفيان: وأشك كان يوم الجمعة أم لا. وشك سفيان، رحمه الله، إن كان فى الرواية فهو تورع، حيث شك هل أخبره شيخه بذلك أم لا؟ وإن كان شكاً فى كون الوقوف فى حجة الوداع كان يوم جمعة، فهذا ما إخاله يصدر عن الثورى، رحمه الله، فإن هذا أمر معلوم مقطوع به، لم يختلف فيه أحد من أصحاب المغازى والسير ولا من الفقهاء، وقد وردت فى ذلك أحاديث متواترة لا يُشك فى صحتها، والله أعلم، وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن عمر (٢). وروى ابن جرير عن عمار - هو مولى بنى هاشم - أن ابن عباس قرأ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. فقال يهودى: لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذنا يومها عيداً. فقال ابن عباس: فإنها نزلت فى

(١) رواه الطبرى (١١٠٨١) .

(٢) المسند (١٨٨ ، ٢٧٢) . وتفصيل تخريجه هناك ، وفى الاستدراكين (٣٧٣٣ ، ، ٣٧٣٦) . وكذلك رواه

الطبرى (١١٠٩٤ - ١١٠٩٦) .

يوم عيدين اثنين: يوم عيد ويوم جمعة (١) . وروى ابن مردويه عن علي قال: نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ، وهو قائم عشية عرفة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (٢) . وروى ابن جرير عن عمرو بن قيس السكوني: أنه سمع معاوية بن أبي سفيان على المنبر ينتزع بهذه الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ حتى ختمها، فقال: نزلت في يوم عرفة، في يوم جمعة (٣) .

وروى ابن مردويه، عن سمره قال: نزلت هذه الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ يوم عرفة ورسول الله ﷺ واقف على الموقف (٤) .

والصواب الذي لا شك فيه ولا مرية: أنها أنزلت يوم عرفة، وكان يوم جمعة، كما روى ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وأول ملوك الإسلام معاوية بن أبي سفيان، وترجمان القرآن عبد الله بن عباس، وسمره بن جندب، رضى الله عنهم، وأرسله الشعبي، وقتادة بن دعامة، وشهر بن حوشب، وغير واحد من الأئمة والعلماء، واختاره ابن جرير الطبري، رحمه الله .

وقوله: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى: فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات التي ذكرها الله تعالى، لضرورة أُلجأته إلى ذلك، فله تناول ذلك، والله غفور رحيم له؛ لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطر، وافتقاره إلى ذلك، فيتجاوز عنه ويغفر له. وفي المسند وصحيح ابن حبان، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته»، لفظ ابن حبان (٥). وفي لفظ لأحمد: «من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة» (٦). ولهذا قال الفقهاء: قد يكون تناول الميتة واجبا في بعض الأحيان، وهو ما إذا خاف على نفسه ولم يجد غيرها، وقد يكون مندوبا، وقد يكون مباحا، بحسب الأحوال. واختلفوا: هل يتناول منها قدر ما يسد به الرمق، أو له أن يشبع ويتزود؟ على أقوال، كما هو مقرر في كتاب الأحكام. وفيما إذا وجد ميتة وطعام الغير، أو صيدا وهو محرم: هل يتناول الميتة، أو ذلك الصيد ويلزمه الجزاء، أو ذلك

(١) الطبري (١١٠٩٧ - ١١٠٩٩) . ورواه أيضا بنحوه - الطيالسي، برقم (٢٧٠٩) والترمذى (٩٦/٤) وقال:

«حسن غريب» . وزاد السيوطى (٢ / ٢٥٨) نسبته لعبد بن حميد والطبرانى والبيهقى فى الدلائل .

(٢) إسناده عند ابن مردويه فيه: «إسماعيل بن سلمان الأزرق» وهو ضعيف . وقد ذكره السيوطى (٢ / ٢٥٨) ونسبه لابن جرير وابن مردويه، ولم أجده فى تفسير الطبرى .

(٣) الطبرى (١١١٠٨) ، وإسناده صحيح . وذكره الهيثمى فى الزوائد (٧ / ١٤) بزيادة فى آخره، وقال: «رواه الطبرانى، ورجاله ثقات» . وقوله: «ينتزع بهذه الآية»: يعنى يتمثل بها ويقروها .

(٤) ذكره الهيثمى (٧ / ١٣ ، ١٤) وقال: «رواه الطبرانى والبزار، وفيه عمر بن موسى بن وجيه، وهو ضعيف» . وهو فى إسناده ابن مردويه أيضا .

(٥) وهو لفظ المسند أيضا (٥٨٦٦) ، وإسناده صحيح .

(٦) المسند (٥٣٩٢) وهو حديث غير الذى قبله، من وجه آخر غير ذلك الوجه، وإن تقاربا فى المعنى . وقد مضى هذا الحديث عند تفسير الآية: (١٨٥) من سورة البقرة .

الطعام ويضمن بدله؟ على قولين، هما قولان للشافعي، رحمه الله. وليس من شرط جواز تناول الميتة أن يمضى عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاما، كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم إبل متى اضطر إلى ذلك جاز له، وقد روى الإمام أحمد عن أبي واقد الليثي أنهم قالوا: يا رسول الله، إنا بأرض تصيبنا بها المخمصة، فمتى تحمل لنا بها الميتة؟ فقال: «إذ لم تصطبِحوا، ولم تغتَبِقُوا، ولم تحفَتُوا بقلأً، فشأنكم بها». تفرد به أحمد من هذا الوجه، وهو إسناد صحيح على شرط الصحيحين. رواه ابن جرير (١). ومعنى قوله: «ما لم تصطبِحوا»: يعني به: الغداء، «وما لم تغتَبِقُوا»: يعني به: العشاء، «أو تحفَتُوا فلا فشأنكم بها» أي: فكلوا منها. قال ابن جرير: يروى هذا الحرف - يعني قوله: «أو تحفَتُوا» - على أربعة أوجه: «تحفَتُوا» بالهمزة، و«تحفَتُوا» بتخفيف الياء والحاء، و«تحفَتُوا» بتشديد [الفاء]، و«تحفَتُوا» بالحاء وبالتخفيف، ويحتمل الهمزة، كذا ذكره في التفسير (٢).

وقوله: «غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ» أي: مُتَعَاظٍ لِمَعْصِيَةِ اللَّهِ، فإن الله قد أباح ذلك له وسكت عن الآخر، كما قال في سورة البقرة: «فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» [الآية: ١٧٣] (٣). وقد استدل بهذه الآية من يقول بأن العاصي بسفره لا يترخص بشيء من رخص السفر؛ لأن الرخص لا تنال بالمعاصي، والله أعلم.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ يَعْلَمُونَهَا إِنَّمَا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَعَلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَنْقُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

لما ذكر تعالى ما حرمه في الآية المتقدمة من الخبائث الضارة لتناولها، في بدنه، أو في دينه، أو فيهما، واستثنى ما استثناه في حالة الضرورة، كما قال: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرُّوهُمُ إِلَيْهِ﴾ [الانعام: ١١٩]، قال بعدها: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ (٤)، كما

(١) المسند (٥ / ٢١٨ حلى) والطبرى (١١٢٥). وإسناد أحمد صحيح، كما قال ابن كثير. وفي إسناد الطبرى رجل ضعيف، فلا يضر، إذ ثبت بإسناد آخر صحيح. والذي في المسند «ولم تحفَتُوا فشأنكم بها»، ليس فيه كلمة «بقلأ». والظاهر أنها ثابتة في نسخ أخرى من المسند. ورواه الحاكم (٤ / ١٢٥) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي. وهو في الزوائد (٤ / ١٦٥، ٥ / ٥٠).

(٢) الطبرى (٩ / ٥٤٢)، وقد فسر أخى السيد محمود شاكر هذه الحروف بدقة وإسهاب. وملخص ذلك هنا: أن «تحفَتُوا»: من «الحفأ»، وهو البردى، يقال «احتفأ الحفأ»: اقتلعه من منبته. و«تحفَتُوا» - بكسر الفاء وضم الياء - من قولهم «احتفى الحفأ» أي البقل، إذا اقتلعه من وجه الأرض بالأظافر، وأصله الهمز. و«تحفَتُوا» - بتشديد الفاء - من قولهم «احتف الطعام»، إذا أكل جميع ما في القدر. و«تحفَتُوا» بتخفيف الفاء - من قولهم «احتفى البقل»، إذا اقتلعه، وهو غير مهموز.

(٣) انظر تفسيرها فيما مضى هناك.

(٤) يريد: بعدها في النزول، لا في سياق التلاوة؛ لأن آية ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ﴾ مكية، وهذه الآية المفسرة من

في سورة الأعراف في صفة محمد ﷺ: أنه ﴿يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الآية: ١٥٧].

روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة، أن عدى بن حاتم، وزيد بن مهلهل الطائين سألوا رسول الله ﷺ، فقالا: يا رسول الله، قد حرم الله الميتة، فماذا يحل لنا منها؟ فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ﴾. قال سعيد: يعني: الذبائح الحلال الطيبة لهم (١). وقال مقاتل: الطيبات ما أحل لهم من كل شيء أن يصيبوه، وهو الحلال من الرزق. وقد سئل الزهري عن شرب البول للتداوى؟ فقال: ليس هو من الطيبات.

وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ أى: أحل لكم الذبائح التي ذكر اسم الله عليها والطيبات من الرزق، وأحل لكم ما صدتموه بالجوارح، وهي من الكلاب والفهود والصقور وأشباهاها، كما هو مذهب الجمهور من الصحابة والتابعين والأئمة، ومن قال ذلك ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾: وهن الكلاب المعلمة، والبازي، وكل طير يعلم للصيد، والجوارح: يعني الكلاب الضواري والفهود والصقور وأشباهاها. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وروى عن خيثمة، وطاوس، ومجاهد، وغيرهم، نحو ذلك. ثم روى عن ابن عمر قال: أما ما صاد من الطير، البزاة وغيرها من الطير، فما أدركت فهو لك، وإلا فلا تطعمه.

قلت: والمحكى عن الجمهور أن صيد الطيور كصيد الكلاب؛ لأنها نُكِّلَب الصيد بمخالبتها، كما نُكِّلَبه الكلاب، فلا فرق. وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم، واختاره ابن جرير، واحتج في ذلك بما رواه عن عدى بن حاتم قال: سألت رسول الله ﷺ عن صيد البازي؟ فقال: «ما أمسك عليك فكل» (٢). واستثنى الإمام أحمد صيد الكلب الأسود؛ لأنه عنده مما يجب قتله ولا يحل اقتناؤه؛ لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يَقْطَعُ الصَّلَاةَ الْحِمَارُ وَالْمَرَأَةُ وَالْكَلْبُ الْأَسْوَدُ». فقلت: ما بال الكلب الأسود من الأحمر؟ فقال: «الكلب الأسود شيطان» (٣).

وسميت هذه الحيوانات التي يصطاد بهن: جوارح، من الجرح، وهو: الكسب. كما تقول العرب: فلان جرح أهله خيرا، أى: كسبهم خيرا. ويقولون: فلان لا جرح له، أى: لا كاسب له، وقال الله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] أى: ما كسبتم من خير وشر. وقد ذكر في سبب نزول هذه الآية الشريفة الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ؛ أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب، فقالت، فجاء الناس فقالوا: يا رسول الله، ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ فسكت، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ الآية. فقال رسول الله ﷺ: «إذا أرسل الرجل كلبه

(١) إسناده إلى سعيد بن جبيرة جيد، إلا أن ظاهره الإرسال، ويحتمل أن يكون سعيد بن جبيرة سمعه من عدى بن حاتم؛ لأنه من الرواة عنه. أما «زيد الخليل بن مهلهل» فإنه قديم الموت، لم يدركه ابن جبيرة.

(٢) الطبري (١١١٥٦). وتخريجه وتصحيحه هناك.

(٣) من حديث في صحيح مسلم (١/ ١٤٤).

وسَمَى، فأمسك عليه، فليأكل ما لم يأكل». ورواه ابن جرير (١). ورواه الحاكم وقال: صحيح ولم يخرجاه (٢).

وقوله: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ يحتمل أن يكون حالا من الضمير في ﴿عَلَّمْتُمْ﴾ فيكون حالا من الفاعل، ويحتمل أن يكون حالا من المفعول وهو ﴿الْجَوَارِحُ﴾ أى: وما علمتم من الجوارح فى حال كونهن مكَلِّبات للصيد، وذلك أن تقتنصه، بمخالبها أو أظفارها . فيستدل بذلك - والحالة هذه - على أن الجارحة إذا قتل الصيد بصدمة أو بمخلاهه وظفره أنه لا يحل، كما هو أحد قولى الشافعى وطائفة من العلماء؛ ولهذا قال: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ وهو أنه إذا أرسله استرسل، وإذا أشلاه (٣) استشلى، وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه ولا يمسه لنفسه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فمتى كان الجارحة معلما وأمسك على صاحبه، وكان قد ذكر اسم الله عند إرساله حل الصيد، وإن قتله بالإجماع.

وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، كما ثبت فى الصحيحين عن عَدِيِّ ابن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إنى أرسل الكلاب المعلمة وأذكر اسم الله؟ فقال: «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله، فكل ما أمسك عليك». قلت: وإن قتلن؟ قال: «وإن قتلن ما لم يشركها كلب ليس منها، فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره». قلت له: فإنى أرمى بالمعراض الصيد فأصيب؟ فقال: «إذا رميت بالمعراض فخرق فكله، وإن أصابه بعرض فإنه وقيد، فلا تأكله». وفى لفظ لهما: «إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله، فإن أمسك عليك فأدرت حيا فاذبحه، وإن أدركته قد قتل ولم يأكل منه فكله، فإن أخذ الكلب ذكاته». وفى رواية لهما: «فإن أكل فلا تأكل، فإنى أخاف أن يكون أمسك على نفسه». فهذا دليل للجمهور، وهو الصحيح من مذهب الشافعى، وهو أنه إذا أكل الكلب من الصيد يحرم مطلقا، ولم يستفصلوا كما ورد بذلك الحديث. وحكى عن طائفة من السلف أنهم قالوا: لا يحرم مطلقا. [ثبت ذلك عن سلمان، وسعد بن أبى وقاص، وأبى هريرة، وابن عمر] . وهو محكى عن على، وابن عباس. وهو قول الزهرى، وربيعة، ومالك. وإليه ذهب الشافعى فى القديم، وأوماً إليه فى الجديد.

وروى أبو داود عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده؛ أن أعرابيا - يقال له: أبو ثعلبة - قال: يا رسول الله، إن لى كلابا مكَلَّبة، فأفتنى فى صيدها؟ فقال النبى ﷺ: «إن كان لك

(١) الطبرى (١١٣٤) ، وروايته أطول من رواية ابن أبى حاتم . وكلتا الروايتين ضعيفتا الإسناد ، فهما « موسى ابن عبيدة الربذى » ، وهو ضعيف جداً .

(٢) المستدرک (٢ / ٣١١) ووافقه الذهبى على تصحيحه . ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٩ / ٢٣٥) عن الحاكم . وروى أحمد فى المسند نحو هذا المعنى عن أبى رافع - فى قتل الكلاب - ولكن ليس فيه أن ذلك سبب نزول هذه الآية (المسند ٦ / ٩ ، ٣٩١ حلبى) . وذكر الهيثمى فى الزوائد (٤ / ٤٢) روايتى المسند ، وقال : « رواه البزار وأحمد بأسانيد ، رجال بعضها رجال الصحيح . ورواه الطبرانى فى الكبير أيضا . »

(٣) « أشلاه » : دعا فأرسله محرصا له على الصيد .

كلاب مكلية، فكل مما أمسكن عليك». فقال: ذكيا وغير ذكي؟ قال: «نعم». قال: وإن أكل منه؟ فقال: «نعم، وإن أكل منه». قال: يا رسول الله، أفتنى فى قوسى. قال: «كُلْ ما رَدَّتْ عَلَيْكَ قَوْسُكَ». قال: ذكيا وغير ذكي؟ قال: « وَإِنْ تَغَيَّبَ عَنْكَ مَالٌ يَصِلُ، أَوْ تَجِدَ فِيهِ أَثْرَ غَيْرِ سَهْمِكَ ». قال: أفتنى فى آتية المجوس إذا اضطرننا إليها؟ قال: « اغسلها وكل فيها ». ورواه النسائى (١). وروى أبو داود عن أبى ثعلبة قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل، وإن أكل منه، وكل ما ردت عليك يدك ». وإسنادهما جيدان (٢).

فهذان أثران يدلان على أنه يغتفر إن أكل منه الكلب. وقد احتج بهما من لم يحرم الصيد بأكل الكلب وما أشبهه، كما تقدم عن حكيمه عنهم، وقد توسط آخرون فقالوا: إن أكل عقب ما أمسكه فإنه يحرم لحديث عدى بن حاتم. وللعلة التى أشار إليها النبى ﷺ: « فإن أكل فلا تأكل، فإنى أخاف أن يكون أمسك على نفسه ». وأما إن أمسكه ثم انتظر صاحبه فطال عليه وجاع، فأكل منه لجوعه، فإنه لا يؤثر فى التحريم. وحملوا على ذلك حديث أبى ثعلبة الخُسنى، وهذا تفريق حسن، وجمع بين الحديثين صحيح. وقد تمنى الأستاذ أبو المعالى الجوينى فى كتابه «النهاية» أن لو فصل مُفصل هذا التفصيل، وقد حقق الله أمينته، وقال بهذا القول والتفريق طائفة من الأصحاب منهم، وقال آخرون قولاً رابعاً فى المسألة، وهو التفرقة بين أكل الكلب، فيحرم لحديث عدى، وبين أكل الصقور ونحوها فلا يحرم؛ لأنه لا يقبل التعليم إلا بالأكل.

وقوله: « فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ » أى: عند إرساله، كما قال النبى ﷺ لعدى بن حاتم: « إذا أرسلت كلبك المعلم، وذكرت اسم الله، فكل ما أمسك عليك ». وفى حديث أبى ثعلبة المخرج فى الصحيحين أيضاً: « إذا أرسلت كلبك، فاذكر اسم الله، وإذا رميت بسهمك فاذكر اسم الله »؛ ولهذا اشترط من الأئمة - كالإمام أحمد رحمه الله فى المشهور عنه - التسمية عند إرسال الكلب والرمى بالسهم لهذه الآية وهذا الحديث، وهذا القول هو المشهور عن الجمهور: أن المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الإرسال، كما قال السُدِّى وغيره. وقال ابن عباس فى قوله: « وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ » يقول: إذا أرسلت جارحك فقل: بسم الله، وإن نسيت فلا حرج. وقال بعض الناس: المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الأكل كما ثبت فى الصحيحين: أن رسول الله ﷺ عَلَّمَ رَبِيهَ عُمَرَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ فَقَالَ: « سَمَّ اللَّهُ، وَكُلَّ بِيَمِينِكَ، وَكُلَّ مِمَّا يَلِيكَ ». وفى صحيح البخارى: عن عائشة أنهم قالوا: يا رسول الله، إن قوما يأتوننا - حديث عهدهم بكفر - بلُحْمَانٍ لا ندرى أذكر اسم الله عليها أم لا؟ فقال: « سَمُّوا أَنْتُمْ وَكُلُوا ».

وروى الإمام أحمد عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان يأكل طعاما فى ستة نفر من

(١) أبو داود (٢٨٥٧). ورواه أيضا أحمد فى المسند (٦٧٢٥). ورواية النسائى (١٩٦ / ٢) مختصرة قليلا.
وقوله: « مما لم يصل »: بفتح الياء وكسر الصاد المهملة وتشديد اللام، يعنى: ما لم يتن.
(٢) حديث أبى ثعلبة فى أبى داود (٢٨٥٢).

أصحابه، فجاء أعرابي جائع فأكله بلقمتين ! فقال: « أما إنه لو ذكر اسم الله لكفاكم، فإذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله، فإن نسي اسم الله في أوله فليقل: بسم الله أوله وآخره ». ورواه أبو داود، والترمذى، والنسائى . وروى الإمام أحمد عن حذيفة قال: كنا إذا حضرنا مع رسول الله ﷺ على طعام، لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله ﷺ فيضع يده، وأنا حضرنا معه طعاما، فجاءت جارية، كأنما تُدْفَعُ، فذهبت تضع يدها فى الطعام، فأخذ رسول الله ﷺ بيدها، وجاء أعرابي كأنما يُدْفَعُ، فذهب يضع يده فى الطعام، فأخذ رسول الله ﷺ بيده، فقال رسول الله ﷺ: « إن الشيطان يَسْتَحِلُّ الطعام إذا لم يذكر اسم الله عليه، وإنه جاء بهذه الجارية ليستحل بها، فأخذت بيدها، وجاء بهذا الأعرابي ليستحل به، فأخذت بيده، والسدى نفسى بيده، إن يده فى يدي مع يدهما » يعنى الشيطان. ورواه مسلم وأبو داود والنسائى (١). وروى مسلم وأهل السنن إلا الترمذى عن جابر بن عبد الله، عن النبى ﷺ قال: « إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر اسم الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت، فإذا لم يذكر اسم الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء ». لفظ أبى داود .

﴿ **الْيَوْمَ أَحْلَلْ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلْلٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلْلٌ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مَسْخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيْمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِينَ** ﴾

لما ذكر تعالى ما حرمه على عباده المؤمنين من الخبائث، وما أحله لهم من الطيبات، قال بعده: ﴿ **الْيَوْمَ أَحْلَلْ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ** ﴾ . ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتابين من اليهود والنصارى، فقال: ﴿ **وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلْلٌ لَكُمْ** ﴾ . قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، وغيرهم: يعنى ذبائحهم. وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء: أن ذبائحهم حلال للمسلمين؛ لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزه عنه، تعالى وتقدس. وقد ثبت فى الصحيح عن عبد الله بن مَعْقِل قال: أدلى بجراب من شحم يوم خيبر . فحضته ! وقلت: لا أعطى اليوم من هذا أحداً، والتفت فإذا النبى ﷺ يتبسم (٢). فاستدل به الفقهاء على أنه يجوز تناول ما يحتاج إليه من الأطعمة ونحوها من الغنيمة قبل القسمة، وهذا ظاهر. واستدل به الفقهاء الحنفية والشافعية والحنابلة على أصحاب مالك فى منعهم أكل ما يعتقد اليهود تحريمه من ذبائحهم، كالشحوم ونحوها مما حرم

(١) المسند (٥ / ٣٨٢ ، ٣٨٣ حلى) ومسلم (٢ / ١٣٤ ، ١٣٥) . وكان فى نص الحديث نقص وتحريف فى المطبوعة والمخطوطتين ، فصححناه من المسند ، إذ ساقه ابن كثير من روايته .
(٢) صحيح مسلم (٢ / ٥٩) . ورواه أحمد أيضا (١٦٨٦٢) .

عليهم . فالمالكية لا يجوزون للمسلمين أكله ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌ لَّكُمْ ﴾ ، قالوا : وهذا ليس من طعامهم . واستدل عليهم الجمهور بهذا الحديث ، وفي ذلك نظر ؛ لأنه قضية عين ، ويحتمل أن يكون شحما يعتقدون حله ، كشحم الظهر والحوايا ونحوهما ، والله أعلم .

وأجود منه في الدلالة ما ثبت في الصحيح : أن أهل خيبر أهدوا لرسول الله ﷺ شاة مَصْلِيَّةً ، وقد سَمَوْا ذراعها ، وكان يعجبه الذراع ، فتناوله فَهَشَ مِنْهُ نَهْشَةً ، فأخبره الذراع أنه مسموم ، فَلَفَّظَهُ وَأَثَرُ ذَلِكَ السَّمِ فِي ثَنَائِهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وفي أَبْهَرِهِ ، وأكل معه منها بشر بن البراء بن مَعْرُورٍ ؛ فمات ، فقتل اليهودية التي سمتهما ، وكان اسمها زينب ، فقتلت ببشر بن البراء . ووجه الدلالة منه : أنه عزم على أكلها ومن معه ، ولم يسألهم : هل نزعوا منها ما يعتقدون تحريمه من شحمها أم لا ؟ وأهل الكتاب يذكرون اسم الله على ذبائحهم وقرابينهم ، وهم متعبدون بذلك ؛ ولهذا لم يبيح ذبائح من عداهم من أهل الشرك ومن شابههم ، لأنهم لا يذكرون اسم الله على ذبائحهم ، بل ولا يتوقفون فيما يأكلونه من اللحم على ذكاة ، بل يأكلون الميتة ، بخلاف أهل الكتابين ومن شاكلهم من السامرة والصابئة ، ومن يتمسك بدين إبراهيم وشيث وغيرهما من الأنبياء ، على أحد قولى العلماء .

وأما المجوس ، فإنهم وإن أخذت منهم الجزية تبعا وإلحاقا لأهل الكتاب ، فإنهم لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم ، خلافا لأبي ثور أحد الفقهاء من أصحاب الشافعى ، وأحمد بن حنبل ، ولما قال ذلك واشتهر عنه أنكروا عليه الفقهاء ذلك ، حتى قال عنه الإمام أحمد : أبو ثور كاسمه ! يعنى فى هذه المسألة ، وكأنه تمسك بعموم حديث روى مرسلًا عن النبي ﷺ أنه قال : «سُنُوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ» ، ولكن لم يثبت بهذا اللفظ ، وإنما الذى فى صحيح البخارى : عن عبد الرحمن بن عوف ؛ أن رسول الله ﷺ أخذ الجزية من مجوس هَجَرَ . ولو سلم صحة هذا الحديث ، فعمومه مخصوص بمفهوم هذه الآية : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌ لَّكُمْ ﴾ ، فدل بمفهومه - مفهوم المخالفة - على أن طعام من عداهم من أهل الأديان لا يحل (١) .

وقوله : ﴿ وَطَعَامُكُمْ حَلٌ لَّكُمْ ﴾ أى : ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم ، وليس هذا إخبارا عن الحكم عندهم ، اللهم إلا أن يكون خبرا عما أمروا به من الأكل من كل طعام ذكر اسم الله عليه ، سواء كان من أهل ملتهم أو غيرها . والأول أظهر فى المعنى ، أى : ولكم أن تطعموهم

(١) هذا كله فى طعام أهل الكتاب ، إذا كانوا أهل كتاب . أما المتسبون الآن للنصرانية واليهودية ، فى أوربة وأمريكا وغيرهما - فنحن نقطع أنهم ليسوا أهل كتاب ، لأنهم كفروا بأديانهم ، وإن اصطنع بعضهم رسومها الظاهرة فقط . فآكثرتهم ملحدون لا يؤمنون بالله ولا بالأنبياء ، وكتبهم وأخبارهم بين أيدينا . فهم قد خرجوا على كل دين ، ودانوا بالإباحية والتحلل فى الأخلاق والأعراض . فلا يجوز نكاح نسائهم ، لفقدانهم صفة « أهل الكتاب » على الحقيقة . ولا يجوز أكل طعامهم ، لذلك ، ولأن الثابت أنهم لا يذبحون فى بلادهم قط . بل يرون الذبح الشرعى المعروف تعذيباً للحيوان - أخزاهم الله - ويقتلون الحيوان بطرق أخرى ، يزعمون أنها أرفق بالحيوان . فكل اللحوم عندهم ميتة ، لا يجوز لمسلم أن يأكل منها .

من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم . وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة، كما ألبس النبي ﷺ ثوبه لعبد الله بن أبي ابن سلول حين مات ودفنه فيه، قالوا: لأنه كان قد كسا العباس حين قدم المدينة ثوبه، فعزاه النبي ﷺ ذلك بذلك، فأما الحديث الذي فيه: « لا تَصْحَبُ إِلَّا مَوْمِنًا، وَلَا يَأْكُلُ طَعَامَكَ إِلَّا تَقَىٰ » - فمحمول على الندب والاستحباب، والله أعلم (١) .

وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: وأحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات، وذكر هذا توطئة لما بعده، وهو قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، فقيل: أراد بالمحصنات: الحرائر دون الإماء، حكاه ابن جرير عن مجاهد . وإنما قال مجاهد: المحصنات: الحرائر، فيحتمل أن يكون أراد ما حكاه عنه، ويحتمل أن يكون أراد بالحرمة العفيفة، كما قال في الرواية الأخرى عنه . وهو قول الجمهور ههنا، وهو الأشبه؛ لثلاثا يجتمع فيها أن تكون ذمية وهي مع ذلك غير عفيفة، فيفسد حالها بالكلية، ويتحصل زوجها على ما قيل في المثل: «حَسْفًا وَسَوْءَ كَيْلَةً» (٢) . والظاهر من الآية أن المراد بالمحصنات: العفيفات عن الزنا، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥] .

ثم اختلف المفسرون والعلماء في قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: هل يعم كل كتابية عفيفة، سواء كانت حرة أو أمة؟ حكاه ابن جرير عن طائفة من السلف، ممن

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن حبان والحاكم، من حديث أبي سعيد كما في الفتح الكبير (٣/ ٢٢٧) .

(٢) وأكثر النساء من تيك الأمم التي تنتسب لليهودية والمسيحية، ليس فيهن عفيفات بل لقد صرن لا يعرفن البكارة ولا يحرصن عليها . يعاشرن الأخدان دون حياء ولا حرص على عرض، أبحن من أنفسهن لأخدانهن وأحباهن كل شيء . لا تتزوج امرأة منهن رجلا إلا بعد أن تعرفه معرفة تامة، ومعرفة داخلية في كل شيء، وبعد أن تكون تقلبت بين أيدي الرجال . إلا النادر الذي لا يؤبه له، ولا حكم له .

وأقبح من هذا وأسوأ أثرا: أن هذه الحال المنكرة فشت في الأمم المنتسبة للإسلام، خاصة في الطبقات المتعلمة، التي تصطنع تقليد الإفرنج، والتي ترى أن الرقى والمدنية لا يكونان إلا في التهتك والإباحية، والرقص والفجور وشرب الخمر والقمار - إلى ما يث فيهن معلوم من الإلحاد وإنكار الأديان، والكفر بالله وبالأنبياء، ومن السخرية بالدين وبالمستمسكين به . وإلى ما تذيعه المجلات الماجنة الداعرة من الدعوة إلى الإختلاط، والحرص على ما يسمونه « حقوق المرأة » و « مساواتها بالرجل » . بل زادوا فجورا ونكرا، فسموا « العفة » التي أمر الله بها في كل دين « كبتا » . وصارت الدعوة سافرة إلى تخفيف هذا « الكبت » عن الشبان من الجنسين . بل صارت الدعوة علانية إلى البغاء، لا يستحي الداعون إليه! بل يريدون « تنظيم البغاء »، حتى لا يضار الشبان من « الكبت »! فهؤلاء ملعونون في كل دين، وعلى لسان كل نبي .

وقد صرنا نأسف أن نرى أكثر عقود الزواج بين هذه الطبقات باطلة شرعاً، بحكم الكفر الذي اختاروه لأنفسهم . وصارت الأنساب في هذه الطبقات مدخولة، بحكم الفجور من ناحية، حين يكون الفجور، وبحكم الردة والكفر في كل النواحي فيهم: فالملحد - وهو كافر مرتد - زواجه بمثله من النساء زواج باطل، لا ينتج عنه نسل شرعي ثابت النسب، وزواجه بالمسلمة الحقيقية أشد بطلانا . والمسلم الحقيقي زواجه بالملحدة المرتدة باطل، لا ينتج عنه نسل شرعي ثابت النسب . وهكذا الحكم فيما إذا كان الزوجان مسلمين عند عقد الزواج، ثم تردى أحدهما أو كلاهما في حماة الردة والإلحاد والكفر .

فليظن المسلمون لأنفسهم، وليروا أين يذهب بهم . وإنا لله وإنا إليه راجعون .

فسر المحصنة بالعفيفة. وقيل: المراد بأهل الكتاب ههنا الإسرائيليات، وهو مذهب الشافعي. وقيل: المراد بذلك: الذميات دون الحرييات؛ لقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. وقد كان عبد الله بن عمر لا يرى التزويج بالنصرانية، ويقول: لا أعلم شركا أعظم من أن تقول: إن ربها عيسى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ الآية [البقرة: ٢٢١]. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾، قال: فحجز الناس عنهن حتى نزلت التي بعدها: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، فنكح الناس نساء أهل الكتاب (١).

وقد تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصارى ولم يروا بذلك بأسا، أخذوا بهذه الآية الكريمة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، فجعلوا هذه مخصصة للتي في سورة البقرة: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ [الآية: ٢٢١] (٢) إن قيل بدخول الكتابيات في عمومها، وإلا فلا معارضة بينها وبينها؛ لأن أهل الكتاب قد يفضّل في ذكرهم عن المشركين في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١]، وكقوله: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ الآية [آل عمران: ٢٠].

وقوله: ﴿إِذَا أَتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أى: مهورهن، أى: كما هن محصنات عفائف، فابذلوا لهن المهور عن طيب نفس. وقد أفتى جابر بن عبد الله، والشعبي، والنخعي، والحسن البصرى بأن الرجل إذا نكح امرأة فزنت قبل دخوله بها: أنه يفرق بينهما، وتردّ عليه ما بذل لها من المهر. رواه ابن جرير عنهم.

وقوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾: فكما شرط الإحصان في النساء - وهى العفة عن الزنا - كذلك شرطها في الرجال وهو أن يكون الرجل أيضا محصنا عفيفا؛ ولهذا قال: ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ وهم: الزناة الذين لا يرتدعون عن معصية، ولا يردون أنفسهم عنم جاءهم، ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ أى: ذوى العشيقات الذين لا يفعلون إلا معهن، كما تقدم فى سورة النساء سواء؛ ولهذا ذهب الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله، إلى أنه لا يصح نكاح المرأة البغى حتى تتوب، وما دامت كذلك لا يصح تزويجها من رجل عفيف، وكذلك لا يصح عنده عقد الرجل الفاجر على عفيفة حتى يتوب ويقلع عما هو فيه من الزنا؛ لهذه الآية

(١) الحديث كما هو ثابت فى المخطوطة الأزهرية «عن أبى مالك الغفارى عن ابن عباس» وهو فى حكم المرفوع، وإن كان موقوفا لفظا. وليس كما قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله «فى عمدة التفسير»: «فالحديث مرسل» وذلك راجع إلى أن النسخة التى اختصرها أسقطت «ابن عباس» وجعلته من رواية «أبى مالك الغفارى» - واسمه «غزوان» وهو تابعى ثقة، كما قال شاكر رحمه الله. (الباز).

(٢) وانظر ما مضى فى تفسير سورة البقرة آية: (٢٢١).

وللحديث : « لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله » (١) .

وسبأتي الكلام على هذه المسألة مستقصى عند قوله : ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور : ٣] ؛ ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

قال كثيرون من السلف : قوله : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ : معناه وأنتم مُحَدِّثُونَ . وقال آخرون : إذا قمتم من النوم إلى الصلاة ، وكلاهما قريب . وقال آخرون : بل المعنى أعم من ذلك ، فالآية أمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة ، ولكن هو في حق المُحَدِّثِ واجب ، وفي حق المتطهر ندب . وقد قيل : إن الأمر بالوضوء لكل صلاة كان واجبا في ابتداء الإسلام ، ثم نسخ .

وروى الإمام أحمد عن بُرَيْدَةَ قال : كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة ، فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه ، وصلى الصلوات بوضوء واحد . فقال له عمر : يا رسول الله ، إنك فعلت شيئا لم تكن تفعله؟ قال : « إني عمدأ فعلته يا عمر » . وهكذا رواه مسلم وأهل السنن وقال الترمذى : حسن صحيح . وروى ابن جرير عن الفضل بن المُبَشَّر قال : رأيت جابر بن عبد الله يصلى الصلوات بوضوء واحد ، فإذا بال أو أحدث ، توضأ ومسح بفضله طهوره الخفين . فقلت : أبا عبد الله ، أشيء . تصنعه برأيك ؟ قال : بل رأيت النبي ﷺ يصنعه ، فأنا أصنعه ، كما رأيت رسول الله يصنع . وكذا رواه ابن ماجه (٢) . وروى أحمد بن محمد بن يحيى بن حبان الأنصارى ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر قال : رأيت وضوء عبد الله بن عمر لكل صلاة طاهراً كان أو غير طاهر ، عَمَّنْ هو؟ قال : حدثته أسماء بنت زيد ابن الخطاب ؛ أن عبد الله بن حنظلة ابن الغسيل حدثها : أن رسول الله ﷺ كان أمر بالوضوء لكل صلاة طاهراً كان أو غير طاهر ، فلما شق ذلك عليه أمر بالسواك عند كل صلاة ووُضِعَ عنه الوضوء ، إلا من حَدَّثَ . فكان عبد الله يرى أن به قوة على ذلك ، كان يفعله حتى مات . ورواه أبو داود . وإسناده الحديث صحيح (٣) . وفي فعل ابن عمر هذا ، ومداومته على إسباغ الوضوء لكل صلاة ، دلالة

(١) رواه أبو داود والحاكم ، من حديث أبي هريرة ، كما فى الفتح الكبير (٣ / ٣٧٢ ، ٣٧٣) .
(٢) الطبرى (١١٣١٨) وابن ماجه (٥١١) . وإسناده صحيح . و « الفضل بن مبشر » : تابعى ثقة ، ومن تكلم فيه فقد أخطأ . وترجمه البخارى فى الكبير (١١٤ / ١ / ٤) ولم يذكر فيه جرحا . وذكره ابن حبان فى الثقات .
(٣) المسند (٥ / ٢٢٥ حلى) وأبو داود (٤٨) . ورواه الطبرى (١١٣٢٨ ، ١١٣٢٩) .

على استحباب ذلك ، كما هو مذهب الجمهور .

وروى ابن جرير عن عكرمة قال : كان على يتوضأ عند كل صلاة ، ويقرأ هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ الآية (١) . وروى عن النزال بن سبرة قال : رأيت علياً صلى الظهر ، ثم قعد للناس في الرَّحْبَةِ ، ثم أتى بماء فغسل وجهه ويديه ، ثم مسح برأسه ورجليه ، وقال : هذا وضوء من لم يُحَدِّثْ (٢) . وروى عن إبراهيم ؛ أن علياً اكنال من حُبِّ ، فتوضأ وضوءاً فيه تجوَّز ، فقال : هذا وضوء من لم يحدث (٣) . وهذه طرق جيدة عن علي ، يقوى بعضها بعضاً . وروى ابن جرير عن أنس قال : توضأ عمر بن الخطاب وضوءاً فيه تجوَّز ، خفيفاً ، فقال : هذا وضوء من لم يُحَدِّثْ . وإسناده صحيح (٤) . وروى الإمام أحمد عن عمرو بن عامر الأنصاري ، سمعت أنس بن مالك يقول : كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة ، قال : قلت : فأنتم كيف كنتم تصنعون؟ قال : كنا نصلى الصلوات كلها بوضوء واحد ما لم نُحَدِّثْ . وقد رواه البخاري وأهل السنن (٥) . وروى أبو داود عن عبد الله بن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ خرج من الخلاء ، فقدم إليه طعام ، فقالوا : ألا نأتيك بوضوء فقال : « إنما أمرت بالوضوء إذا قُمْتُ إِلَى الصَّلَاةِ » . ورواه الترمذي والنسائي وقال الترمذي : هذا حديث حسن . وروى مسلم عن ابن عباس قال : كنا عند النبي ﷺ فأتى الخلاء ، ثم إنه رجع فأتى بطعام ، فقيل : يا رسول الله ، ألا تتوضأ ؟ فقال : « لَمْ أَصَلْ فَأَتَوْضَأُ » .

وقوله : ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ قد استدل طائفة من العلماء بقوله : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ على وجوب النية في الوضوء ؛ لأن تقدير الكلام : « إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم لها » ، كما تقول العرب : « إذا رأيت الأمير فقم » أي : له . وقد ثبت في الصحيحين حديث : « الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » (٦) .

ويستحب قبل غسل الوجه أن يذكر اسم الله تعالى على وضوئه ؛ لما ورد في الحديث من طرق جيدة ، عن جماعة من الصحابة ، عن النبي ﷺ أنه قال : « لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه » (٧) . ويستحب أن يغسل كفيه قبل إدخالهما في الإناء ، ويتأكد ذلك عند القيام من النوم ؛ لما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا استيقظ أحدكم من

(١) الطبري (١١٣٢٣) .

(٢) الطبري (١١٣٢٦) وهو مختصر . وقد رواه أحمد مرارا مطولا ، بزيادة الشرب قائما ، وزيادة أنه رأى النبي ﷺ يفعل هذا ، المسند (٥٨٣ ، ٩٧٠ ، ١٠٠٥ ، ١١٧٣ ، ١٢٢٢ ، ١٣١٥ ، ١٣٦٦) . ورواه البخاري مختصرا ومطولا (١٠ / ٧١ ، ٧٢ فتح) .

(٣) الطبري (١١٣٢٧) . و « الحب » - بضم الحاء - الجرة الضخمة .

(٤) الطبري (١١٣٢٥) .

(٥) البخاري (١ / ٢٧٢ ، ٢٧٣ فتح) . ورواه أيضا الطبري (١١٣٣٦) .

(٦) معروف مشهور من حديث عمر بن الخطاب .

(٧) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه ، من حديث أبي هريرة . ورواه أحمد وابن ماجه ، من حديث سعيد بن زيد وأبي سعيد . كما في المنتقى (٢٢٦ ، ٢٢٧) .

تَوَمِّه، فلا يُدخِل يده في الإناء قبل أن يغسلها ثلاثاً، فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده .
 وحَدُّ الوجه عند الفقهاء: ما بين منابت شعر الرأس - ولا اعتبار بالصَّلَع ولا بالغَمَم - إلى
 منتهى اللحيين والذقن طولاً، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً .

ويستحب للمتوضئ أن يخلل لحيته إذا كانت كثيفة . وروى الإمام أحمد عن شقيق قال :
 رأيت عثمان توضأ - فذكر الحديث - قال: وخلل اللحية ثلاثاً حين غسل وجهه، ثم قال : رأيت
 رسول الله ﷺ فعل الذي رأيتموني فعلت . رواه الترمذى، وابن ماجه وقال الترمذى: حسن
 صحيح ، وحسنه البخارى .

وقد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه في الصحاح وغيرها : أنه كان إذا توضأ تمضمض
 واستنشق ، فاختلف الأئمة في ذلك: هل هما واجبان في الوضوء والغسل، كما هو مذهب أحمد
 ابن حنبل ؟ أو مستحبان فيهما، كما هو مذهب الشافعى ومالك؟ لما ثبت في الحديث الذى رواه
 أهل السنن وصححه ابن خزيمة، عن رفاعه بن رافع الزرقى؛ أن النبي ﷺ قال للمسيء صلته:
 «توضأ كما أمرك الله» أو يجبان في الغسل دون الوضوء، كما هو مذهب أبى حنيفة؟ أو يجب
 الاستنشاق دون المضمضة كما هو رواية عن الإمام أحمد؟ لما ثبت في الصحيحين: أن رسول
 الله ﷺ قال: « من توضأ فليستنشق » (١) وفى رواية: « إذا توضأ أحدكم فليجعل في منخرينه
 من الماء ثم لينثر » (٢) والانتثار: هو المبالغة في الاستنشاق. وروى الإمام أحمد عن ابن عباس؛
 أنه توضأ فغسل وجهه، ثم أخذ غرفة من ماء فتمضمض بها واستنثر، ثم أخذ غرفة فجعل بها
 هكذا، يعنى أضافها إلى يده الأخرى، فغسل بها وجهه. ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده
 اليمنى، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليسرى، ثم مسح رأسه، ثم أخذ غرفة من ماء، ثم
 رش على رجله اليمنى حتى غسلها، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها رجله اليسرى، ثم قال:
 هكذا رأيت رسول الله ﷺ، يعنى يتوضأ . ورواه البخارى (٣) .

وقوله: ﴿وَأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ أى: مع المرافق ، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى
 أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢] . ويستحب للمتوضئ أن يشرع في العضد ليغسله مع
 ذراعيه؛ لما روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أمتى يُدعون يوم
 القيامة غُرًّا مُحَجَّلِينَ من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غُرَّتَه فليفعل» . وفى صحيح
 مسلم عن أبى هريرة قال : سمعت خليلي ﷺ يقول: « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ
 الوضوء » .

(١) الذى فى الصحيحين - فيما رأيت - بلفظ : « من توضأ فليستنثر » ، وهو من حديث أبى هريرة . انظر البخارى
 (١ / ٢٢٩ فتح) ومسلم (١ / ٨٣ ، ٨٤) والمسند (٧٢٢٠) .

(٢) من حديث أبى هريرة . ولفظ البخارى (١ / ٢٢٩) : « فليجعل فى أنفه ماء » . ولفظ مسلم (١ / ٨٣) :
 « فليستنشق بمنخرينه من الماء » . وانظر المسند (٧٧٣٢) .

(٣) المسند (٢٤١٦) والبخارى (١ / ٢١١ ، ٢١٢ فتح) .

وقوله: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾: اختلفوا في هذه «الباء» هل هي للإصاق؟ وهو الأظهر، أو للتبعيض؟ وفيه نظر، على قولين. ومن الأصوليين من قال: هذا مجمل فليرجع في بيانه إلى السنة، وقد ثبت في الصحيحين من طريق مالك، عن عمرو بن يحيى المازني عن أبيه؛ أن رجلاً قال لعبد الله بن زيد بن عاصم - وهو جد عمرو بن يحيى، وكان من أصحاب النبي ﷺ -: هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فقال عبد الله بن زيد: نعم، فدعا بوضوء، فأفرغ على يديه، فغسل يديه مرتين، ثم مضمض واستنشق ثلاثاً، وغسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين، ثم مسح بيديه، فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه. وفي حديث عبد خير، عن علي في صفة وضوء رسول الله ﷺ نحو هذا، وروى أبو داود عن معاوية والمقداد بن معد يكرب، في صفة وضوء رسول الله ﷺ مثله. ففي هذه الأحاديث دلالة لمن ذهب إلى وجوب تكميل مسح جميع الرأس، كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل، لا سيما على قول من زعم أنها خرجت مخرج البيان لما أجمل في القرآن.

وقد ذهب الحنفية إلى وجوب مسح ريع الرأس، وهو مقدار الناصية. وذهب أصحابنا إلى أنه إنما يجب ما يطلق عليه اسم مسح، لا يتقدر ذلك بحد، بل لو مسح بعض شعرة من رأسه أجزاء! واحتج الفريقان بحديث المغيرة بن شعبة، قال: تخلف النبي ﷺ فتخلفت معه، فلما قضى حاجته قال: «هل معك ماء؟» فأتيته بمطهرة فغسل كفيه ووجهه، ثم ذهب يحسر عن ذراعيه فضاقت كم الجبة، فأخرج يديه من تحت الجبة وألقى الجبة على منكبيه، فغسل ذراعيه ومسح بناصيته، وعلى العمامة وعلى خفيه. وذكر باقي الحديث، وهو في صحيح مسلم، وغيره. فقال لهم أصحاب الإمام أحمد: إنما اقتصر على مسح الناصية لأنه كمل مسح بقية الرأس على العمامة، ونحن نقول بذلك، وأنه يقع عن الموقع كما وردت بذلك أحاديث كثيرة، وأنه كان يمسح على العمامة وعلى الخفين، فهذا أولى، وليس لكم فيه دلالة على جواز الاقتصار على مسح الناصية أو بعض الرأس من غير تكميل على العمامة، والله أعلم.

ثم اختلفوا في أنه: هل يستحب تكرار مسح الرأس ثلاثاً، كما هو المشهور من مذهب الشافعي، أو إنما يستحب مسحة واحدة، كما هو مذهب أحمد بن حنبل ومن تابعه؟ على قولين. فروى عن حمّان بن أبان قال: رأيت عثمان بن عفان توضأ فأفرغ على يديه ثلاثاً فغسلهما، ثم تمضمض واستنشق، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثاً، ثم غسل اليسرى مثل ذلك، ثم مسح برأسه، ثم غسل قدمه اليمنى ثلاثاً، ثم اليسرى ثلاثاً مثل ذلك، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا، ثم قال: «من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه، غفر له ما تقدم من ذنبه». وأخرجه البخاري ومسلم بنحوه، وفي سنن أبي داود عن عثمان في صفة الوضوء: ومسح برأسه مرة واحدة. وكذا من رواية عبد خير، عن علي مثله.

واحتج من استحج تكرار مسح الرأس بعموم الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن عثمان ، أن رسول الله ﷺ: توضع ثلاثا ثلاثا. وروى أبو داود عن حمران قال: رأيت عثمان بن عفان توضع ... فذكر نحوه ، ولم يذكر المضمضة والاستنشاق ، قال فيه: ثم مسح رأسه ثلاثا ، ثم غسل رجليه ثلاثا ، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضع هكذا ، وقال: « من توضع هكذا كفاه ». تفرد به أبو داود ، ثم قال: وأحاديث عثمان الصحاح تدل على أنه مسح الرأس مرة واحدة .

وقوله : ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ قُرئ : ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ بالنصب عطفًا على ﴿ فَأَغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ . روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس؛ أنه قرأها: ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ يقول: رجعت إلى الغسل . وروى عن عبد الله بن مسعود، وعروة، وعطاء ، ومجاهد ، وغيرهم نحو ذلك. وهذه قراءة ظاهرة في وجوب الغسل، كما قاله السلف، ومن ههنا ذهب من ذهب إلى وجوب الترتيب في الوضوء ، كما هو مذهب الجمهور، خلافاً لأبي حنيفة حيث لم يشترط الترتيب، بل لو غسل قدميه ثم مسح رأسه وغسل يديه ثم وجهه أجزاء ذلك ! لأن الآية أمرت بغسل هذه الأعضاء، و«الواو» لا تدل على الترتيب. وقد سلك الجمهور في الجواب عن هذا البحث طرقتا، فمنهم من قال: الآية دلت على وجوب غسل الوجه ابتداء عند القيام إلى الصلاة؛ لأنه مأمور به بقاء التعقيب، وهي مقتضية للترتيب، ولم يقل أحد من الناس بوجوب غسل الوجه أولاً ثم لا يجب الترتيب بعده، بل القائل اثنان : أحدهما: يوجب الترتيب، كما هو واقع في الآية. والآخر يقول: لا يجب الترتيب مطلقاً، والآية دلت على وجوب غسل الوجه ابتداء، فوجب الترتيب فيما بعده لإجماع لا فارق . ومنهم من قال: لا نسلم أن «الواو» لا تدل على الترتيب ، بل هي دالة - كما هو مذهب طائفة من النحاة وأهل اللغة وبعض الفقهاء. ثم نقول - بتقدير تسليم كونها لا تدل على الترتيب اللغوي -: هي دالة على الترتيب شرعاً فيما من شأنه أن يرتب، والدليل على ذلك : أن رسول الله ﷺ لما طاف بالبيت ، خرج من باب الصفا وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٥٨] ثم قال: « أبدأ بما بدأ الله به » لفظ مسلم، ولفظ النسائي: « ابدؤوا بما بدأ الله به ». وهذا لفظ أمر، وإسناده صحيح (١) ، فدل على وجوب البداية بما بدأ الله به، وهو معنى كونها تدل على الترتيب شرعاً، والله أعلم .

ومنهم من قال: لما ذكر تعالى هذه الصفة في هذه الآية على هذا الترتيب، فقطع النظر عن النظر، وأدخل المسوح بين المغسولين، دل ذلك على إرادة الترتيب. ومنهم من قال: لا شك أنه قد روى أبو داود وغيره عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده؛ أن رسول الله ﷺ توضع مرة مرة، ثم قال: « هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به » . قالوا: فلا يخلو إما أن يكون توضعاً مرتباً فيجب الترتيب ، أو يكون توضعاً غير مرتب فيجب عدم الترتيب ! ولا قائل به، فوجب ما ذكرناه .

(١) هو جزء من حديث جابر - الطويل - في صفة حجة النبي ﷺ في صحيح مسلم (١ / ٣٤٦ - ٣٤٨) .

وأما القراءة الأخرى، وهى قراءة من قرأ: ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾ بالخفض - فقد احتج بها الشيعة فى قولهم بوجوب مسح الرجلين؛ لأنها عندهم معطوفة على مسح الرأس. وقد زوى عن طائفة من السلف ما يوهم القول بالمسح، فروى ابن جرير: عن حميد قال: قال موسى بن أنس لأنس - ونحن عنده: يا أبا حمزة، إن الحجاج خطبنا بالأهواز ونحن معه، فذكر الطهور، فقال: اغسلوا وجوهكم وأيديكم، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم، وإنه ليس شئ من ابن آدم أقرب من خبثه من قدميه، فاغسلوا بطونهما وظهورهما وعراقيبهما. فقال أنس: صدق الله وكذب الحجاج، قال الله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾ قال: وكان أنس إذا مسح قدميه بلأههما. وإسناده صحيح إليه. وروى ابن جرير عن أنس، قال: نزل القرآن بالمسح، والسنة بالغسل. وإسناده صحيح (١). وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: الوضوء غَسْلَتَانِ وَمَسْحَتَانِ.

وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ قال: هو المسح. ثم قال: وروى عن ابن عمر، وعلقمة، وغيرهما - نحوه.

فهذه آثار غريبة جداً! وهى محمولة على أن المراد بالمسح هو الغسل الخفيف، لما سنذكره من السنة الثابتة فى وجوب غسل الرجلين. وإنما جاءت هذه القراءة بالخفض: إما على المجاوزة وتناسب الكلام، كما فى قول العرب: «جَحْرُ ضَبِّ خَرَبٍ»، وكقوله تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِمْتِرَاقٌ﴾ [الإنسان: ٢١] وهذا سائغ ذائع، فى لغة العرب شائع. ومنهم من قال: هى محمولة على مسح القدمين إذا كان عليهما الخفان، قاله الشافعى. ومنهم من قال: هى دالة على مسح الرجلين، ولكن المراد بذلك الغسل الخفيف، كما ورد به السنة. وعلى كل تقدير فالواجب غسل الرجلين فرضاً، لا بد منه، للآية والأحاديث التى سنوردها.

ومن أحسن ما يستدل به على أن المسح يطلق على الغسل الخفيف ما رواه الحافظ البيهقى عن الزَّالِ بن سَبْرَةَ يحدث عن على بن أبى طالب؛ أنه صلى الظهر، ثم قعد فى حوائج الناس فى رَحْبَةِ الكوفة حتى حضرت صلاة العصر، ثم أتى بكوز من ماء، فأخذ منه حفنة واحدة، فمسح بها وجهه ويديه ورأسه ورجليه، ثم قام فشرب فضلته وهو قائم، ثم قال: إنا ناسا يكرهون الشرب قائما، وإن رسول الله ﷺ صنع ما صنعت. وقال: « هذا وضوء من لم يحدث ». رواه البخارى فى الصحيح، ببعض معناه.

ومن أوجب من الشيعة مسحهما كما يمسح الخف، فقد ضل وأضل (٢). وكذا من جوز مسحهما وجوز غسلهما فقد أخطأ أيضاً، ومن نقل عن أبى جعفر بن جرير أنه أوجب غسلهما للأحاديث، وأوجب مسحهما للآية - فلم يحقق مذهبه فى ذلك، فإن كلامه فى تفسيره إنما يدل

(١) الطبرى (١١٤٧٥، ١١٤٧٦).

(٢) لأنهم خالفوا السنة الثابتة المتواترة قولاً وفعلاً. وليس بهم إلا الهوى والأكاذيب وسب الصحابة وتكفير كثير منهم، ثم العداوة للمسلمين أهل السنة، ونصر أعداء الإسلام حيث كانوا، والغدر بالمسلمين إذا خدعوا بهم واطمأنوا إليهم. والشواهد حاضرة كل يوم.

على أنه أراد أنه يجب ذلك الرجلين من دون سائر أعضاء الوضوء؛ لأنهما يليان الأرض والطين وغير ذلك، فأوجب ذلكهما ليذهب ما عليهما، ولكنه عبّر عن ذلك بالمسح، فاعتقد من لم يتأمل كلامه أنه أراد وجوب الجمع بين غسل الرجلين ومسحهما، فحكاه من حكاه كذلك؛ ولهذا يستشكله كثير من الفقهاء وهو معذور، فإنه لا معنى للجمع بين المسح والغسل، سواء تقدمه أو تأخر عليه؛ لاندراجه فيه، وإنما أراد الرجل ما ذكرته، والله أعلم. ثم تأملت كلامه أيضاً فإذا هو يحاول الجمع بين القراءتين، في قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ خفضاً على المسح وهو الدلك، ونصباً على الغسل، فأوجبهما أخذاً بالجمع بين هذه وهذه.

ذكر الأحاديث الواردة في غسل الرجلين وأنه لا بد منه :

قد تقدم في حديث أميرى المؤمنين عثمان وعلى، وابن عباس ومعاوية، وعبد الله بن زيد ابن عاصم، والمقداد بن معد يكره؛ أن رسول الله ﷺ غسل الرجلين في وضوئه، إما مرة، وإما مرتين، أو ثلاثاً، على اختلاف رواياتهم (١). وفي حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ توضأ فغسل قدميه، ثم قال: «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به». وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو قال: تَخَلَّفَ عَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرَةٍ سَافَرْنَاهَا، فَادْرَكْنَا وَقَدْ أَرْهَقْتَنَا الصَّلَاةَ، صَلَاةُ الْعَصْرِ وَنَحْنُ نَتَوَضَّأُ، فَجَعَلْنَا نَمْسَحُ عَلَى أَرْجُلِنَا، فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ». وكذلك هو في الصحيحين عن أبي هريرة. وفي صحيح مسلم عن عائشة، عن النبي ﷺ أنه قال: «أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ». وعن عبد الله بن الحارث بن جزء؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ وَيُطَوَّنُ الْأَقْدَامُ مِنَ النَّارِ». رواه البيهقي والحاكم، وإسناده صحيح. وروى الإمام أحمد عن جابر ابن عبد الله، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وَيْلٌ لِلْعَرَاقِيبِ مِنَ النَّارِ». وروى أيضاً عن جابر ابن عبد الله قال: رأى النبي ﷺ في رَجُلٍ رَجُلٍ مَنَا مِثْلَ الدَّرْهَمِ لَمْ يَغْسِلْهُ، فَقَالَ: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ».

ووجه الدلالة من هذه الأحاديث ظاهرة، وذلك أنه لو كان فَرَضَ الرجلين مَسْحَهُمَا، أو أنه يجوز ذلك فيهما - لما تَوَعَّدَ على تركه؛ لأن المسح لا يستوعب جميع الرجل، بل يجري فيه ما يجري في مسح الخف، وهكذا وَجَّهَ هذه الدلالة على الشيعة الإمام أبو جعفر بن جرير.

وقد روى مسلم عن عمر بن الخطاب؛ أن رجلاً توضأ فترك موضع ظفر على قدمه، فأبصره النبي ﷺ فقال: «ارجع فأحسن وضوءك». وروى البيهقي عن أنس بن مالك؛ أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ قد توضأ، وترك على قدمه مثل موضع الظفر، فقال له رسول الله ﷺ: «ارجع فأحسن وضوءك». رواه أبو داود وابن ماجه، وإسناده جيد، ورجاله كلهم ثقات. وروى الإمام أحمد عن خالد بن معدان، عن بعض أزواج النبي ﷺ؛ [أن النبي ﷺ رأى

رجلا يصلى وفي ظهر قدمه لُمعة قدر الدرهم لم يصبها الماء، فأمره رسول الله ﷺ أن يعيد الوضوء. ورواه أبو داود، وزاد: «والصلاة». وإسناده جيد قوى صحيح، والله أعلم (١). وفي حديث عثمان، في صفة وضوء النبي ﷺ: أنه خلل بين أصابعه. وروى أهل السنن من حديث لقيط بن صبرة، قال، قلت: يا رسول الله، أخبرني عن الوضوء؟ فقال: «أسبغ الوضوء، وحلّل بين الأصابع، وبالغ في الاستنشاق إلا أن تكون صائماً».

وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة: حدثنا عمرو بن عبّسة، قال: قلت: يا نبي الله، أخبرني عن الوضوء؟ قال: «ما منكم من أحد يقرب وضوءه، ثم يتمضمض ويستنشق وينثر، إلا خرت خطاياها من فمه وخياشيمه مع الماء حين ينثر، ثم يغسل وجهه كما أمره الله إلا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرت خطايا يديه من أطراف أنامله، ثم يمسح رأسه إلا خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين كما أمره الله إلا خرت خطايا قدميه من أطراف أصابعه مع الماء، ثم يقوم فيحمد الله ويثنى عليه بالذي هو له أهل، ثم يركع ركعتين إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه». قال أبو أمامة: يا عمرو، انظر ما تقول! سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ أعطى هذا الرجل كله في مقامه؟ فقال عمرو بن عبّسة: يا أبا أمامة، لقد كبرت سنّي، وورق عظمي، واقترب أجلي، وما بي حاجة أن أكذب على الله، وعلى رسول الله ﷺ، لو لم أسمع من رسول الله ﷺ إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً، لقد سمعته سبع مرات أو أكثر من ذلك. وهذا وإسناده صحيح (٢)، وهو في صحيح مسلم من وجه آخر، وفيه: «ثم يغسل قدميه كما أمره الله». فدل على أن القرآن يأمر بالغسل.

ومن ههنا يتضح لك المراد من حديث عبد خير، عن علي؛ أن رسول الله ﷺ رَشَ على قدميه الماء وهما في النعلين فدلّكهما - إنما أراد غسلًا خفيفاً وهما في النعلين ولا مانع من إيجاد الغسل والرجل في نعلها، ولكن في هذا رد على المتعمقين والمتنطعين من الموسوسين!

وهكذا الحديث الذي أورده ابن جرير على نفسه عن حذيفة قال: أتى رسول الله ﷺ سبأة قوم فبال قائماً، ثم دعا بماء فتوضأ، ومسح على نعليه. وهو حديث صحيح. وقد أجاب ابن جرير عنه بأن الثقات الحفاظ روه عن حذيفة قال: فبال قائماً، ثم توضأ ومسح على خفيه. قلت: ويحتمل الجمع بينهما بأن يكون في رجله خفان، وعليهما نعلان. وهكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل عن أوس بن أبي أوس قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ ومسح على نعليه، ثم قام إلى الصلاة. ورواه أبو داود عن أوس بن أبي أوس قال: رأيت رسول الله ﷺ أتى سبأة قوم فبال، وتوضأ ومسح على نعليه وقدميه. وقد رواه ابن جرير، ثم قال: وهذا محمول على أنه توضأ كذلك وهو غير محدث؛ إذ كان غير جائز أن تكون فرائض الله وسنن

(١) أبو داود (١٧٥). والذي فيه «عن بعض أصحاب النبي ﷺ».

(٢) هو جزء من حديث طويل في المسند (١٧٠٨٦).

رسوله متنافية متعارضة، وقد صح عنه ﷺ الأمرُ بعموم غسل القدمين في الوضوء بالماء بالنقل المستفيض القاطع عُذْر من انتهى إليه وبلغه .

ولما كان القرآن أمراً بغسل الرجلين - كما في قراءة النصب، وكما هو الواجب في حمل قراءة الخفض عليها - توهم بعض السلف أن هذه الآية ناسخة لرخصة المسح على الخفين، وقد روى ذلك عن علي بن أبي طالب، ولكن لم يصح إسناده، ثم الثابت عنه خلافه، وليس كما زعموه، فإنه قد ثبت أن النبي ﷺ مسح على الخفين بعد نزول هذه الآية الكريمة . فروى الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله البجلي قال: أنا أسلمت بعد نزول المائدة، وأنا رأيت رسول الله ﷺ يمسح بعد ما أسلمت . تفرد به أحمد . وفي الصحيحين، من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن هَمَّام قال: بال جرير، ثم توضأ ومسح على خفيه، فقيل: تفعل هذا؟ فقال: نعم، رأيت رسول الله ﷺ بال، ثم توضأ ومسح على خفيه . قال إبراهيم: فكان يعجبهم هذا الحديث؛ لأن إسلام جرير كان بعد نزول المائدة . لفظ مسلم . وقد ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ مشروعية المسح على الخفين قولاً منه وفعلاً ، كما هو مقرر في كتاب « الأحكام الكبير » ، مع يحتاج إليه ذكره هناك ، من تأقيت المسح أو عدمه أو التفصيل فيه ، كما هو مبسوط في موضعه . وقد خالفت الروافض في ذلك كله بلا مستند ، بل بجهل وضلال! مع أنه ثابت في صحيح مسلم، من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، كما ثبت في الصحيحين عنه، عن النبي ﷺ النهي عن نكاح المتعة وهم يستبيحونها ! وكذلك هذه الآية الكريمة دالة على وجوب غسل الرجلين، مع ما ثبت بالتواتر من فعل رسول الله ﷺ على وفق ما دلت عليه الآية الكريمة، وهم مخالفون لذلك كله، وليس لهم دليل صحيح في نفس الأمر، والله الحمد .

وهكذا خالفوا الأئمة والسلف في الكعبين اللذين في القدمين، فعندهم أنهما في ظهر القدم، فعندهم في كل رجل كعب ! وعند الجمهور أن الكعبين هما العظمان الناتان عند مفصل الساق والقدم . قال الربيع : قال الشافعي : لم أعلم مخالفاً في أن الكعبين اللذين ذكرهما الله في كتابه في الوضوء هما الناتان، وهما مجمع مفصل الساق والقدم . هذا لفظه . فعند الأئمة، رحمهم الله في كل قدم كعبان ، كما هو المعروف عند الناس، وكما دلت عليه السنة في الصحيحين عن عثمان؛ أنه توضأ فغسل رجله اليمنى إلى الكعبين، واليسرى مثل ذلك . وروى البخاري - تعليقاً مجزوماً به - وأبو داود وابن خزيمة في صحيحه عن النعمان بن بشير قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال: «أقيموا صفوفكم - ثلاثاً - والله لتقيمُن صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم» . قال: فرأيت الرجل يلزق كعبه بكعب صاحبه، وركبته بركبة صاحبه، ومنكبه بمنكبه . لفظ ابن خزيمة . فليس يمكن أن يلزق كعبه بكعب صاحبه إلا والمراد به العظم الناتئ في الساق، حتى يحاذي كعب الآخر، فدل ذلك على ما ذكرناه، من أنهما العظمان الناتان عند مفصل الساق والقدم ، كما هو مذهب أهل السنة .

وقوله : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً

فَتَيْمُّوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ﴿٦﴾ كل ذلك قد تقدم الكلام عليه في تفسير آية النساء، فلا حاجة بنا إلى إعادته؛ لثلاث بطول الكلام. وقد ذكرنا سبب نزول آية التيمم هناك (١)، لكن البخارى روى هنا حديثا خاصا بهذه الآية الكريمة عن عائشة قالت: سقطت قلادة لى بالبدياء، ونحن داخلون المدينة، فأناخ رسول الله ﷺ ونزل، فنتى رأسه فى حجرى راقداً، أقبل أبو بكر فلكرزنى لكزة شديدة، وقال: حبست الناس فى قلادة! فبى الموت لمكان رسول الله ﷺ منى، وقد أوجعنى، ثم إن النبى ﷺ استيقظ وحضرت الصبح، فالتمس الماء فلم يوجد، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ الآية، فقال أسيد بن الحضير لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبى بكر، ما أنتم إلا بركة لهم (٢). وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ أى: فلهذا سهل عليكم ويسر ولم يعسر، بل أباح التيمم عند المرض، وعند فقد الماء، توسعة عليكم ورحمة بكم، وجعله فى حق من شرع له يقوم مقام الماء إلا من بعض الوجوه، كما هو مقرر فى كتاب «الأحكام الكبير».

وقوله: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى: نعمه عليكم فيما شرعه لكم من التوسعة والرأفة والرحمة والتسهيل والسماحة، وقد وردت السنة بالحث على الدعاء عقب الوضوء، بأن يجعل فاعله من المتطهرين الداخلين فى امثال هذه الآية الكريمة، كما رواه الإمام أحمد ومسلم وأهل السنن، عن عقبة بن عامر قال: كانت علينا رعاية الإبل، فجاءت نوبتى فروحتها بعشى، فأدرت رسول الله ﷺ قائما يحدث الناس، فأدرت من قوله: «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلى ركعتين مقبلاً عليهما بقلبه ووجهه، إلا وجبت له الجنة». قال: قلت: ما أجود هذه، فإذا قائل بين يدي يقول: التى قبلها أجود منها. فنظرت فإذا عمر، فقال: إنى قد رأيتك جئت أنفا، قال: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو: فيسبغ - الوضوء، يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء». لفظ مسلم.

وعن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم - أو: المؤمن - فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء - أو: مع آخر قطر الماء - فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يده مع الماء - أو: مع آخر قطر الماء - فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء - أو: مع آخر قطر الماء - حتى يخرج نقياً من الذنوب». رواه مسلم. وروى مسلم عن أبى مالك الأشعرى؛ أن رسول الله ﷺ قال: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض، والصوم جنة، والصبر ضياء، والصدقة برهان، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها». وفى صحيح مسلم عن ابن عمر قال: قال

(١) انظر ما مضى فى تفسير سورة النساء عند الآية: (٤٣).

(٢) البخارى (٨ / ٢٠٥ فتح). وقد مضى - بمعناه - من رواية أخرى للشيخين.

رسول الله ﷺ: «لا يقبل الله صدقة من غُلُول، ولا صلاة بغير طهور». وروى الطيالسي عن أبي المليح الهذلي عن أبيه قال: كنت مع رسول الله ﷺ في بيت، فسمعتة يقول: «إن الله لا يقبل صلاة من غير طهور، ولا صدقة من غُلُول». وكذا رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه.

﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاثَقْتُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَاعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ءَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى مُذكراً عباده المؤمنين نعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته على متابعتة ومناصرتة ومؤازرتة، والقيام بدينه وإبلاغه عنه وقبوله منه ، فقال : ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثاقَهُ الَّذِي وَاثَقْتُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وهذه هي البيعة التي كانوا يبائعون عليها رسول الله ﷺ عند إسلامهم، كما قالوا: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله» (١) ، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرُّسُولِ يَدْعُوكُمْ لَتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الحديد:٨]، وقيل: هذا تذكار لليهود بما أخذ عليهم من الموائيق والعهود في متابعة محمد ﷺ والانقياد لشرعه، رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس. وقيل: هو تذكار بما أخذ تعالى من العهد على ذرية آدم حين استخرجهم من صلبه وأشهدهم على أنفسهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف:١٧٢]، قاله مجاهد، ومقاتل . والقول الأول أظهر ، وهو المحكى عن ابن عباس، والسُدِّي . واختاره ابن جرير. ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تأكيد وتحريض على مواظبة التقوى في كل حال. ثم أعلمهم أنه يعلم ما يتخالج في الضمائر والسرائر من الأسرار والخواطر، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ أى: كونوا قائمين بالحق لله، عز وجل، لا لأجل الناس والسمعة، وكونوا ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ أى: بالعدل لا بالجور. وقد ثبت في الصحيحين، عن النعمان بن بشير أنه قال: نحلنى أبى نَحْلًا، فقالت أمى عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تُشَهد عليهِ رسول الله ﷺ. فجاء ليشهده على صدقتى فقال: «أكل ولدك نحلث مثله؟» قال:

(١) من حديث رواه الشيخان وغيرهما من حديث عبادة بن الصامت . وقد مضى كاملا مخرجاً عند تفسير الآية (٥٩) من سورة النساء .

لا. قال: «اتقوا الله، واعدلوا في أولادكم». وقال: «إني لا أشهد على جور». قال: فرجع أبى فردَّ تلك الصدقة. وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ أى: لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل فى كل أحد، صديقاً كان أو عدواً؛ ولهذا قال: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أى: عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه. ودل الفعل على المصدر الذى عاد الضمير عليه، كما فى نظائره من القرآن وغيره، كما فى قوله: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمْ ارجِعُوا فارجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨].

وقوله: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، من باب استعمال أفعل التفضيل فى المحل الذى ليس فى الجانب الآخر منه شىء، كما فى قوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، وكقول بعض الصحابيَّات لعمر: أنت أفضُّ وأغلظُ من رسول الله ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أى: وسيجزىكم على ما علم من أفعالكم التى عملتموها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةً﴾ أى: لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وهو: الجنة التى هى من رحمته على عباده، لا ينالونها بأعمالهم، بل برحمة منه وفضل، وإن كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم، وهو تعالى الذى جعلها أسباباً إلى نيل رحمته وفضله وعفوه ورضوانه، فالكل منه وله، فله الحمد والمنة. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، وهذا من عدله تعالى، وحكمته وحكمه الذى لا يجور فيه، بل هو الحكم العدل الحكيم القدير.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ روى عبد الرزاق عن جابر؛ أن النبى ﷺ نزل منزلاً، وتفرَّق الناس فى العشاء يستظلون تحتها، وعلق النبى ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابى إلى سيف رسول الله ﷺ فأخذَه فسَلَّه، ثم أقبل على النبى ﷺ فقال: من يمنعك منى؟ قال: «الله»، قال الأعرابى مرتين أو ثلاثاً: من يمنعك منى؟ والنبى ﷺ يقول: «الله»، قال: فشام الأعرابى السيف، فدعا النبى ﷺ أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابى، وهو جالس إلى جنبه ولم يعاقبه (١). وقصة هذا الأعرابى - وهو غورث بن الحارث - ثابتة فى الصحيح. وذكر محمد ابن إسحاق، ومجاهد وعكرمة، وغير واحد: أنها نزلت فى شأن بنى النضير، حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى، لما جاءهم يستعينهم فى دية العامرين، ووكلوا عمرو بن جحاش بن كعب بذلك، وأمره إن جلس النبى ﷺ تحت الجدار واجتمعوا عنده أن يلقى تلك الرحى من فوقه، فأطلع الله النبى ﷺ على ما تملؤوا عليه، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه، فأنزل الله فى ذلك. ثم أمر رسول الله ﷺ أن يغدو إليهم فحاصرهم، حتى أنزلهم فأجلاهم.

(١) تفسير عبد الرزاق (ص ٦ مخطوط مصور). ورواه الطبرى (١١٥٦٦) من طريق عبد الرزاق، وإسناده صحيح. ورواه - بنحوه - أحمد (١٤٣٨٦، ١٤٩٨٧، ١٥٢٥٢) من أوجه. وكذلك البخارى (٧ / ٣٢٩ - ٣٣١ فتح). وقد مضى حديث آخر فيه شىء من هذه القصة، عن جابر أيضاً، وفيه التصريح بأنه «غورث ابن الحارث» مضت عند تفسير الآية: (١٠٢) من سورة النساء. و«العشاء» - بكسر العين المهملة وآخره هاء - ما عظم من شجر الشوك وطال حتى يستظل به الناس. وقوله «فشام الأعرابى السيف»: أى أغمده.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يعنى: من توكل على الله كفاه الله ما أهمه، وحفظه من شر الناس وعصمه.

﴿ وَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فِيمَا نَقُضُوا مِنْهُمْ أَصْلَهُمْ وَبَعَثْنَا لَعْثُمَهُمْ وَأَجَلْنَا قُلُوبَهُمْ فَنَسِيتُمْ آيَاتِي الَّتِي بَيَّنَّاهُمْ وَنَشَأُوا خَطًّا وَمَا ذُكِّرُوا بِهَا وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَكَ إِذْ أَخَذْنَا مِنْهُمُ آلِفَتَهُمْ فَانْسُوا خَطًّا وَمَا ذُكِّرُوا بِهَا فَاغْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

لما أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه، الذى أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ، وأمرهم بالقيام بالحق والشهادة بالعدل، وذكرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة، فيما هداهم له من الحق والهدى - شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين: اليهود والنصارى، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنا منه لهم، وطردها عن بابهم وجنابهم، وحجابا لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق، وهو العلم النافع والعمل الصالح، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ يعنى: عرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع، والطاعة لله، ولرسوله ولكتابه. وهكذا لما بايع رسول الله ﷺ الأنصار ليلة العقبة، كان فيهم اثنا عشر نقيبا . ثلاثة من الأوس وهم: أسيد بن الحضير، وسعد بن خيثمة، ورفاعة بن عبد المنذر - ويقال بدله: أبو الهيثم ابن التيهان - رضى الله عنهم، وتسعة من الخزرج، وهم: أبو امامة أسعد بن زُرارة، وسعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، ورافع بن مالك بن العجلان، والبراء بن معرور، وعبادة بن الصامت، وسعد ابن عبادة، وعبد الله بن عمرو بن حرام، والمنذر بن عمرو بن حنيس، رضى الله عنهم. والمقصود: أن هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلتذ عن أمر النبي ﷺ لهم بذلك، وهم الذين ولّوا المبايعة والمبايعة عن قومهم للنبي ﷺ على السمع والطاعة .

وروى الإمام أحمد عن مسروق قال: كنا جلوسا عند عبد الله بن مسعود وهو يقرئنا القرآن، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، هل سألتم رسول الله ﷺ: كم يملك هذه الأمة من خليفة؟ فقال عبد الله: ما سألتني عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك، ثم قال: نعم، ولقد سألتنا

رسول الله ﷺ ؟ فقال: « اثنا عشر، كعدة نقباء بنى إسرائيل ». هذا حديث غريب من هذا الوجه (١) .

وأصل هذا الحديث ثابت فى الصحيحين عن جابر بن سمرة قال: سمعت النبى ﷺ يقول: « لا يزال أمر الناس ماضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا ». ثم تكلم النبى ﷺ بكلمة خفيت علىّ، فسألت ، أى: ماذا قال النبى ﷺ؟ قال: «كلهم من قريش». وهذا لفظ مسلم ، ومعنى هذا الحديث البشارة بوجود اثنى عشر خليفة صالحاً ، يقيم الحق ويعدل فيهم، ولا يلزم من هذا تواليهم وتتابع أيامهم، بل قد وجد منهم أربعة على نسق، وهم الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، رضى الله عنهم، ومنهم عمر بن عبد العزيز بلا شك عند الأئمة، وبعض بنى العباس. ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لا محالة، والظاهر أن منهم المهدي المبشر به فى الأحاديث الواردة بذكره: أنه يواطئ اسمه اسم النبى ﷺ، واسم أبيه اسم أبيه، فيملا الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت جوراً وظلماً، وليس هذا بالمنتظر الذى تتوهم الرافضة وجوده ثم ظهوره من سرداب « سأمراً » ! فإن ذلك ليس له حقيقة ولا وجود بالكلية، بل هو من هوس العقول السخيفة، وتوهم الخيالات الضعيفة، وليس المراد بهؤلاء الخلفاء الاثنى عشر الأئمة الاثنى عشر الذين يعتقد فيهم الاثنا عشرية من الروافض، لجهلهم وقلة عقلهم (٢) . وفى التوراة البشارة بإسماعيل، عليه السلام، وأن الله يقيم من صلبه اثنى عشر عظيماً، وهم هؤلاء الخلفاء الاثنا عشر المذكورون فى حديث ابن مسعود، وجابر بن سمرة، وبعض الجهلة ممن يسلم من اليهود إذا اقترن بهم بعض الشيعة يوهمونهم أنهم الأئمة الاثنا عشر، فيتشيع كثير منهم جهلاً وسفهاً، لقلّة علمهم وعلم من لقنهم ذلك بالسنن الثابتة عن النبى ﷺ.

وقوله تعالى: « وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ » أى: بحفظى وكلاءتى ونصرى « لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي » أى: صدقتموهم فيما يجيئونكم به من الوحى « وعزّوتموهم » أى: نصرتموهم ووازرتموهم على الحق « وأقرضتم الله قرضاً حسناً » وهو: الإنفاق فى سبيله وابتغاء مرضاته « لأكفرنّ عنكم سيئاتكم » أى: ذنوبكم ، أمحوها وأسترها، ولا أؤاخذكم بها « ولأدخلنكم جنّات تجري من تحتها الأنهار » أى: أدفع عنكم المحذور، وأحصل لكم المقصود.

وقوله: « فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلّ سواء السبيل » أى: فمن خالف هذا الميثاق بعد عقده وتوكيده وشده، وجحدته وعامله معاملة من لم يعرفه، فقد أخطأ الطريق الواضح، وعدل عن الهدى إلى الضلال.

ثم أخبر تعالى عما حلّ بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه ونقضهم عهده، فقال: « فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعنَاهُمْ » أى: فبسبب نقضهم الميثاق الذى أخذ عليهم لعناهم، أى: أبعدهناهم عن

(١) المسند (٣٧٨١) . وإسناده صحيح .

(٢) بل هو من أكاذيب هذه الفئة المضلة ، التى استمرت الكذب والافتراء ، ومرنت عليه قلوبهم وألستهم .

الحق وطردها عن الهدى ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ أى: فلا يتعظون بموعظة لغلظتها وقساوتها ﴿يَحِرُّونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أى: فسدت فهمهم، وساء تصرفهم فى آيات الله، وتأولوا كتابه على غير ما أنزله، وحملوه على غير مراده، وقالوا عليه ما لم يقل، عياداً بالله من ذلك ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أى: وتركوا العمل به رغبة عنه. وقال الحسن: تركوا عرى دينهم ووظائف الله تعالى التى لا يقبل العمل إلا بها. وقال غيره: تركوا العمل فصاروا إلى حالة رديئة، فلا قلوب سليمة، ولا فطر مستقيمة، ولا أعمال قويمية ﴿وَلَا تَرَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ أى: مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك. ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ وهذا هو عين النصر والظفر، كما قال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه. وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق، ولعل الله أن يهديهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: الصفا عمن أساء إليك.

وقوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ أى: ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى متابعون المسيح ابن مريم، عليه السلام، وليسوا كذلك، أخذنا عليهم العهد والمواثيق على متابعة الرسول ﷺ ومناصرتة ومؤازرتة واقضاء آثاره، والإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض، ففعلوا كما فعل اليهود: خالفوا المواثيق ونقضوا العهد؛ ولهذا قال: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أى: فآلقينا بينهم العداوة والتباغض لبعضهم بعضا، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة. وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين، يكفر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً؛ فكل فرقة تحرم الأخرى ولا تدعها تلجُ معبداً، فالملكية تكفر اليعقوبية، وكذلك الآخرون، وكذلك النسبورية والأريوسية، كل طائفة تكفر الأخرى فى هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد (١).

ثم قال: ﴿وَسَوْفَ يَنْبِئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ وهذا تهديد ووعد أكيد للنصارى على ما ارتكبه من الكذب على الله رسوله، وما نسبوه إلى الرب - عز وجل، وتعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً - من جعلهم له صاحبة وولداً، تعالى الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾

(١) وقد حقق الله وعده، وسيحققه عليهم إلى يوم القيامة، وقوله الصدق، ووعد الحق. ولذلك ترى هذه الأمم الفاجرة الضالة، الذين يتسبون إلى المسيح، عليه السلام، زورا وبهتانا، أولئك يزعمون أنهم نصارى - لا يزالون فى شقاق وخلاف، وعداوة بينهم وحروب مدمرة، وألوان من العدوان فاقت عدوان الوحوش الكاسرة. وقد حقت عليهم كلمة العذاب إلى يوم القيامة، إن شاء الله.

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة: أنه قد أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض، عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم، وأنه بعثه بالبينات والفرق بين الحق والباطل، فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ أى: يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه، وافتروا على الله فيه، ويسكت عن كثير مما غيرهه ولا فائدة فى بيانه. وقد روى الحاكم عن ابن عباس قال: من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب، قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ فكان الرحم مما أخفوه. ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (١). ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذى أنزله على نبيه الكريم فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ أى: طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أى: ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم آيين المسالك، فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أنجب الأمور، وينفى عنهم الضلالة، ويرشدهم إلى أقوم حالة.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَبُوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى مخبراً وحاكماً بكفر النصارى فى ادعائهم فى المسيح ابن مريم - وهو عبد من عباد الله، وخلق من خلقه - أنه هو الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

ثم قال مخبراً عن قدرته على الأشياء وكونها تحت قهره وسلطانه: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أى: لو أراد ذلك، فمن ذا الذى كان يمنع؟ أو من ذا الذى يقدر على صرفه عن ذلك؟

ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أى: جميع الموجودات ملكه وخلقها، وهو القادر على ما يشاء، لا يُسأل عما يفعل، لقدرته وسلطانه، وعدله وعظمته، وهذا رد على النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة. ثم قال تعالى راداً على اليهود والنصارى فى كذبهم وافترائهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ أى: نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية، وهو يحبنا. ونقلوا عن كتابهم: أن الله تعالى قال لعبده إسرائيل: «أنت ابني بكرى»! فحملوا هذا على غير تأويله، وحرفوه. وقد رد عليهم غير واحد

(١) المستدرک (٤ / ٣٥٩) ووافقه الذهبى على تصحيحه . ورواه أيضا الطبرى (١١٦٠٩ ، ١١٦١٠) بإسنادين صحيحين . وزاد السيوطى (٢ / ٢٦٩) نسبه لابن الضريس والنسائى وابن أبى حاتم .

من أسلم من عقلائهم، وقالوا: هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام، كما نقل النصارى عن كتابهم : أن عيسى قال لهم: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم ! يعنى: ربي وربكم. ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من النبوة ما ادعوها في عيسى، عليه السلام، وإنما أرادوا من ذلك معزتهم لديه وحظوتهم عنده، ولهذا قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه.

قال الله تعالى رادا عليهم: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أى: لو كنتم - كما تدعون - أبناءه وأحباؤه، فلم أعدت لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافترائكم؟! وقد قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء: أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فلم يرد عليه، فتلا عليه الصوفى هذه الآية: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾. وهذا الذى قاله حسن، وله شاهد فى المسند للإمام أحمد حيث روى عن أنس قال: مر النبي ﷺ فى نفر من أصحابه، وصبى فى الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابنى ابنى، وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه تلتقى ولدها فى النار. قال: فخفضهم النبي ﷺ فقال: «لا، والله ما يلتقى حبيبه فى النار». تفرد به (١).

﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ أى: لكم أسوة أمثالكم من بنى آدم، وهو سبحانه الحاكم فى جميع عبادہ ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أى: هو فعال لما يريد، لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب. ﴿وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه، ﴿وإليه المصير﴾ أى: المرجع والمآب إليه، فيحكم فى عبادہ ما يشاء، وهو العادل الذى لا يجور.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرَّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

يقول تعالى مخاطبا أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمدا ﷺ خاتم النبيين، الذى لا نبى بعده ولا رسول، بل هو المعقب لجميعهم؛ ولهذا قال: ﴿عَلَىٰ فِتْرَةٍ مِّنَ الرَّسُلِ﴾ أى: بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم.

وقد اختلفوا فى مقدار هذه الفترة، كم هى؟ فقال أبو عثمان النهديّ وقتادة - فى رواية عنه: كانت ستمائة سنة. ورواه البخارى عن سلمان الفارسى. وعن قتادة: خمسمائة وستون سنة. وقال معمر، عن بعض أصحابه: خمسمائة وأربعون سنة. وقال: الضحاك: أربعمائة ويضع وثلاثون سنة. وذكر ابن عساكر فى ترجمة عيسى، عليه السلام، عن الشعبي أنه قال: ومن رفع المسيح إلى هجرة النبى ﷺ تسعمائة وثلاث وثلاثون سنة. والمشهور هو الأول، وهو أنه ستمائة سنة. ومنهم من يقول: ستمائة وعشرون سنة. ولا منافاة بينهما، فإن القائل الأول أراد ستمائة سنة شمسية، والآخر أراد قمرية، وبين كل مائة سنة شمسية وبين القمرية نحو من

(١) المسند (١٢٠٤٣) وإسناده صحيح. وقوله: «فخفضهم» - بتشديد الفاء المفتوحة وبالضاد المعجمة، أى: سكنهم. وفى المطبوعة: «حفظهم» بالظاء! وهو تصحيف. والصواب من المسند والمخطوطتين.

ثلاث سنين؛ ولهذا قال تعالى في قصة أصحاب الكهف: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥] أى: قمرية، لتكميل الثلاثمائة الشمسية التى كانت معلومة لأهل الكتاب. وكانت الفترة بين عيسى ابن مريم، آخر أنبياء بنى إسرائيل، وبين محمد خاتم النبيين من بنى آدم على الإطلاق، كما ثبت فى صحيح البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن أولى الناس لأنا، ليس بينى وبينه نبي»، هذا فيه رد على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبي، يقال له: خالد بن سنان، كما حكاه القضاعى وغيره.

والمقصود: أن الله بعث محمداً ﷺ على فترة من الرسل، وطُمُوس من السبل، وتَغْيِر الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمة به أتم النعم، والحاجة إليه أمر عَمَم، فإن الفساد كان قد عم جميع البلاد، والطغيان والجهل قد ظهر فى سائر العباد، إلا قليلا من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين، من بعض أحبار اليهود وعباد النصرارى والصابئين، كما روى الإمام أحمد عن عياض بن حمّار الجاشعئى، أن النبى ﷺ خطب ذات يوم فقال فى خطبته: «إن ربي أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى فى يومى هذا: كل مال نَحَلْتَه عبادى حلال، وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا، ثم إن الله عز وجل، نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عجمهم وعربهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك، وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء، تقرؤه نائما ويقظانا، ثم إن الله أمرنى أن أحرق قريشا، فقلت: يارب، إذن يُلغُوا رأسى فيدعوه خبزة، فقال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نُغْرَكَ، وأنفق عليهم فسننق عليك، وابعث جندا نبعت خمسة أمثاله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك، وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مُقْسَطٌ مُصَدِّقٌ موفق، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذى قرىبى ومسلم، ورجل عَفِيفٌ فقير متصدق، وأهل النار خمسة: الضعيف الذى لا زبُر له، الذين هم فيكم - تَبَعًا أو تُبَعَاء لا يبتغون أهلا ولا مالا، والحائن الذى لا يَخْفَى له طَمَعٌ وإن دَقَّ إلا خانه، ورجل لا يُصْبِح ولا يُمَسِي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك»، وذكر البخل والكذب، والشنظير: الفاحش» (١).

والمقصود من إيراد هذا الحديث قوله: «وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عجمهم وعربهم إلا بقايا من أهل الكتاب». وكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم، حتى بعث الله محمداً ﷺ، فهدى الخلائق، وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور، وتركهم على المحجة

(١) المسند (١٧٥٥٦ - ١٧٥٥٨ ، ١٧٥٦٣) ومسلم (٢ / ٣٥٦ ، ٣٥٧). وسيأتى مرة أخرى عند تفسير الآية (٣٠) من سورة الروم وقد مضى بعضه عند تفسير الآية (١٦٨) من سورة البقرة، والآيات: (١١٦ - ١٢٢) من سورة النساء وقوله: «يلغوا رأسى»: من «الثلغ» بالثاء المثناة، وهو الشدخ، وقيل: هو ضربك الشيء الرطب بالشيء اليابس حتى ينشخ. وقوله: «الضعيف الذى لا زبُر له»: هو يفتح الزاى وسكون الباء الموحدة، قال ابن الأثير: «أى لا عقل له يزره وينهاه عن الإقدام على ما لا يبغي». و«الشنظير»: بكسر الشين المعجمة: هو السوء الخلق.

البيضاء، والشريعة الغراء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ أى: لتلا تحتجوا. وتقولوا يا أيها الذين بدلوا دينهم وغيروه - ما جاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ يعنى: محمداً ﷺ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. قال ابن جرير: معناه: إني قادر على عقاب من عصاني، وثواب من أطاعنى.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ يَنْقُورِ اذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَى آذَانِكُمْ فَذَحَّضُوا مِنْكُمْ إِزْرًا إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جِبَارِينَ وَإِنَّا لَنَنذُرُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿١١﴾ قَالَ مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَانظُرُوا فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ مُوسَى إِنَّا لَنَنذُرُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هُنَا قَانِعُونَ ﴿١٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام، فيما ذكَّر به قومه نعم الله عليهم وآلاءه لديهم، فى جمعه لهم خير الدنيا والآخرة لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة - فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ أى: كلما هلك نبي قام فيكم نبي، من لدن أيكم إبراهيم وإلى ما بعده. وكذلك كانوا، لا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله ويحذرون نقمته، حتى ختموا بعيسى ابن مريم، عليه السلام، ثم أوحى الله إلى خاتم الأنبياء والرسل على الإطلاق محمد بن عبد الله، المنسوب إلى إسماعيل ابن إبراهيم، عليه السلام، وهو أشرف من كل من تقدمه منهم ﷺ. ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ عن ابن عباس قال: الخادم والمرأة والبيت. وروى الحاكم عن ابن عباس قال: المرأة والخادم ﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال: الذين بين ظهرانيتهم يومئذ، ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وروى ابن جرير عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وسأله رجل فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال عبد الله: ألك امرأة تأوى إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء. فقال: إن لى خادما. قال: فأنت من الملوك (١).

وقال السُّدِّيُّ فى قوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ قال: يملك الرجل منكم نفسه وماله وأهله. رواه ابن أبى حاتم. وقد ورد فى الحديث: «من أصبح منكم مُعَافَى فى جسده، آمناً فى سربه، عنده

(١) الطبرى (١١٦٢٥) وإسناده صحيح. ورواه أيضا مسلم (٢ / ٣٨٨، ٣٨٩) مطولا بقصة أخرى فى آخره. وقصر السيوطى (٢ / ٢٧٠) إذ اقتصر على نسبه لسعيد بن منصور وابن جرير، ولم ينسبه لصحيح مسلم.

قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ﴿١﴾ .

وقوله: ﴿وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ يعنى عالمى زمانكم، فإنهم كانوا أشرف الناس فى زمانهم، من اليونان والقيبط وسائر أصناف بنى آدم، كما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الباقية: ١٦]، وقال تعالى إخباراً عن موسى لما قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ . قَالَ أَغَيْرِ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الاعراف: ١٣٨ - ١٤٠] .

والمقصود: أنهم كانوا أفضل أهل زمانهم، وإلا فهذه الأمة أشرف منهم، وأفضل عند الله، وأكمل شريعة، وأقوم منهاجاً، وأكرم نبياً، وأعظم ملكاً، وأغزر أرزاقاً، وأكثر أموالاً وأولاداً، وأوسع مملكة، وأدوم عزا، قال الله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقد ذكرنا الأحاديث المتواترة فى فضل هذه الأمة وشرفها وكرمها، عند الله، عند قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ من سورة آل عمران (٢) .

ثم قال تعالى مخبراً عن تحريض، موسى، عليه السلام، بنى إسرائيل على الجهاد والدخول إلى بيت المقدس، الذى كان بأيديهم فى زمان أبيهم يعقوب، لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلى بلاد مصر أيام يوسف، عليه السلام، ثم لم يزالوا بها حتى خرجوا مع موسى فوجدوا فيها قوما من العمالقة الجبارين، قد استحذوا عليها وتملكوها، فأمرهم رسول الله موسى، عليه السلام، بالدخول إليها، وبقتال أعدائهم، وبشَرَّهم بالنصرة والظفر عليهم، فَنَكَلُوا وَعَصَوْا وَخَالَفُوا أمره، فعوقبوا بالذهاب فى التيه والتمادى فى سيرهم حائزين، لا يدرون كيف يتوجهون إلى مقصد، مُدَّة أربعين سنة، عقوبة لهم على تفریطهم فى أمر الله تعالى، فقال تعالى مخبراً عن موسى أنه قال: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ أى: المطهرة . وقال ابن عباس: هى الطور وما حوله . وكذا قال مجاهد وغير واحد . وفى رواية عن ابن عباس قال: هى أريحاء وكذا ذكر غير واحد من المفسرين . وفى هذا نظر ! لأن أريحاء ليست هى المقصود بالفتح، ولا كانت فى طريقهم إلى بيت المقدس، وقد قدموا من بلاد مصر، حين أهلك الله عدوهم فرعون، اللهم إلا أن يكون المراد بأريحاء أرض بيت المقدس، كما قاله السدى - فيما رواه ابن جرير عنه - لا أن المراد بها هذه البلدة المعروفة فى طرف الطور شرقى بيت المقدس .

وقوله تعالى: ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أى: التى وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل: أنه وراثة من آمن منكم ﴿وَلَا تَوَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ﴾ أى: ولا تنكروا عن الجهاد ﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ قَالُوا

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد، رقم (٣٠٠)، والترمذى (٣ / ٢٦٨ ، ٢٦٩) وابن ماجه (٤١٤١) -

كلهم من حديث عبيد الله بن محصن . قال الترمذى : حديث حسن غريب . وقوله : «أنا فى سربه» : أى فى نفسه . وقوله : «حيزت» : أى جمعت .

(٢) مضى عند تفسير الآية : (١١٠) من سورة آل عمران .

يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنذُرُكَ لَنُدْخِلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٠﴾ أى: اعتذروا بأن فى هذه البلدة - التى أمرتنا بدخولها وقتال أهلها - قوما جبارين، أى: ذوى خلقٍ هائلة، وقوى شديدة، وإنا لا نقدر على مقاومتهم ولا مصاوتهم، ولا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها دخلناها، وإلا فلا طاقة لنا بهم .

وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا أخباراً من وضع بنى إسرائيل، فى عظمة خلق هؤلاء الجبارين، وأن منهم عوج بن عنق، بنت آدم، عليه السلام، وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعاً وثلاث ذراع، تحرير الحساب!! وهذا شئ يستحى من ذكره! ثم هو مخالف لما ثبت فى الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن» (١). ثم ذكروا أن هذا الرجل كان كافراً، وأنه كان ولد زنية، وأنه امتنع من ركوب السفينة، وأن الطوفان لم يصل إلى ركبته! وهذا كذب وافتراء، فإن الله ذكر أن نوحاً دعا على أهل الأرض من الكافرين، فقال: «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا» [نوح: ٢٦]، وقال تعالى: «فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ» [الشعراء: ١١٩، ١٢٠]، وقال تعالى: «لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ» [هود: ٤٣]، وإذا كان ابن نوح الكافر غرق، فكيف يبقى عوج بن عنق، وهو كافر وولد زنية؟! هذا لا يسوغ فى عقل ولا شرع. ثم فى وجود رجل يقال له: «عوج بن عنق» نظر، والله أعلم.

وقوله: «قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴿٢١﴾ أى: فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله ومتابعة رسول الله ﷺ حرَّضهم رجلان لله عليهما نعمة عظيمة، وهما ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه . وقرأ بعضهم: « مِنَ الَّذِينَ يُخَافُونَ » أى: ممن لهما مهابة وموضع من الناس (٢) . «ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» أى: متى توكلتم على الله واتبعتم أمره، ووافقتم رسوله، نصركم الله على أعدائكم وأيدكم وظفركم بهم، ودخلتم البلدة التى كتبها لكم . فلم ينفع ذاك منهم شيئاً «قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنَنذُرُكَ لَنُدْخِلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلْ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ» وهذا نكول منهم عن الجهاد، ومخالفة لرسولهم، وتخلف عن مقاتلة الأعداء .

وما أحسن ما أجاب به الصحابة، رضى الله عنهم ، يوم بدر رسول الله ﷺ، حين استشارهم فى قتال النفير، الذين جاؤوا لمنع العير الذى كان مع أبى سفيان، فلما فات اقتناص

(١) من حديث فى المسند (٨١٥٦) من حديث أبى هريرة، من صحيفة همام بن منبه، ورواه الشيخان، كما قال ابن كثير .

(٢) هذه القراءة - بضم الياء من « يخافون » - ليست فى شئ من القراءات الأربعة عشر . فهى قراءة شاذة، وقد رواها الطبرى بإسناده (١١٦٧٥) عن سعيد بن جبیر، ثم ردّها ورجح القراءة المعروفة بفتح الياء : « لإجماع قرأة الأمصار عليها، وأن ما استفاضت به القراءة عنهم، فحجة لا يجوز خلافها . وما انفرد به الواحد فجائز فيه الخطأ والسهو . »

العير، واقترب منهم النفير، وهم فى جمع ما بين التسعمائة إلى الألف، فى العدة والبيض واليلب، فتكلم أبو بكر فأحسن، ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين، ورسول الله ﷺ يقول: «أشيروا على أيها المسلمون». وما يقول ذلك إلا ليستعلم ما عند الأنصار؛ لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ. فقال سعد بن معاذ: كأنك تُعرض بنا يا رسول الله، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر فى الحرب، صدق فى اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله فسر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك (١). وروى ابن مردويه عن أنس، أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين، فأشار إليه عمر، ثم استشارهم فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار، إياكم يريد رسول الله ﷺ. قالوا: إذا لا نقول له كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿أذهب أنت وربك فقاتل إنا هاهنا قاعدون﴾ والذى بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك. ورواه الإمام أحمد والنسائي وابن حبان (٢).

وكان ممن أجاب يومئذ المقداد بن عمرو الكندى، رضى الله عنه، كما روى الإمام أحمد: لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إلى مما عدل به: أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: والله - يا رسول الله - لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فأذهب أنت وربك فقاتل إنا هاهنا قاعدون﴾، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن يسارك، ومن بين يديك ومن خلفك. فرأيت وجه رسول الله ﷺ يُشرق لذلك، وسر بذلك. ورواه البخارى (٣).

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ يعنى: لما نكل بنو إسرائيل عن القتال غضب عليهم موسى عليه السلام، وقال داعياً عليهم: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ أى: ليس أحد يطيعنى منهم فيمثل أمر الله، ويجيب إلى ما دعوت إليه إلا أنا وأخى هارون، ﴿فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ قال ابن عباس: يعنى اقض بينى وبينهم. وعنه أيضاً: افصل بيننا وبينهم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مَعْرَمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، لما دعا عليهم موسى، عليه السلام، حين نكلوا عن الجهاد حكم الله بتحريم دخولها عليهم مدة أربعين سنة، فوقعوا فى التيه، يسيرون دائماً لا يهتدون للخروج منه، وفيه كانت أمور عجيبة، وخوارق كثيرة، من

(١) انظر تاريخ ابن كثير (٣ / ٣٦٢).

(٢) المسند (١٢٩٨٦) بأطول قليلاً. ورواه أيضاً بنحوه (١٢٠٤٧، ١٣٣٣٠، ١٣٧٣٩). وذكر الحافظ المؤلف فى التاريخ (٣ / ٣٦٣) عن الرواية (١٢٩٨٦) ثم قال: «وهذا إسناد ثلاثى صحيح على شرط الصحيح».

(٣) المسند (٣٦٩٨). ورواه أيضاً (٤٠٧٠، ٤٣٧٦) والبخارى (٧ / ٢٢٣، ٢٢٤، ٨ / ٢٠٥ فتح). وذكره المؤلف الحافظ فى التاريخ (٣ / ٢٦٢، ٣٦٣) عن الموضوع الأول من الفتح، ثم قال: «انفرد به البخارى دون مسلم، فرواه فى مواضع من صحيحه».

تظليلهم بالعمام وإنزال المن والسلوى عليهم، ومن إخراج الماء الجارى من صخرة صماء تحمل معهم على دابة، فإذا ضربها موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنا عشرة عينا تجرى لكل شعب عين، وغير ذلك من المعجزات التي أيد الله بها موسى بن عمران. وهناك نزلت التوراة، وشرعت لهم الأحكام . وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: فتأهوا أربعين سنة، فهلك موسى وهارون فى التيه وكل من جاوز الأربعين سنة، فلما مضت الأربعون سنة ناهضهم «يوشع ابن نون»، وهو الذى قام بالأمر بعد موسى، وهو الذى افتتحها، وهو الذى قيل له: « اليوم يوم الجمعة » فهموا بفتحها، ودنت الشمس للغروب، فخشى إن دخلت ليلة السبت أن يُسبوا ، فنادى الشمس: «إنى مأمور وإنك مأمورة» ، فوقفت حتى افتتحها، فوجد فيها من الأموال ما لم ير مثله قط، فقربوه إلى النار فلم تأته ، فقال: فيكم الغلول، فدعا رؤوس الأسباط، وهم اثنا عشر رجلا ، فبايعهم، والتصقت يد رجل منهم بيده، فقال: الغلول عندك، فأخرجه ، فأخرج رأس بقرة من ذهب، لها عينان من ياقوت، وأسنان من لؤلؤ، فوضعه مع القربان، فأنت النار فأكلتها . وهذا السياق له شاهد فى الصحيح .

وقال بعض المفسرين فى قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾: هذا وقف تام، وقوله: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ منصوب بقوله: ﴿يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ . وقد اختار ابن جرير أن قوله: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ هو العامل فى «أربعين سنة»، وأنهم مكثوا لا يدخلونها أربعين سنة، وهم تائهون فى البرية لا يهتدون لمقصد. وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ تسلية لموسى، عليه السلام، عنهم، أى: لا تتأسف ولا تحزن عليهم فيما حكمت عليهم، به فإنهم يستحقون ذلك.

وهذه القصة تضمنت تقريب اليهود وبيان فضائحتهم، ومخالفتهم لله ولرسوله ، ونكولهم عن طاعتها ، فيما أمراهم به من الجهاد ، فضغفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم، ومقاتلتهم، مع أن بين أظهرهم رسول الله وكليمه وصفيه من خلقه فى ذلك الزمان، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم، هذا مع ما شاهدوا من فعل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال والغرق له ولجنوده فى اليم، وهم ينظرون ، لتقرَّ به أعينهم وما بالعهد من قدام ، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هى بالنسبة إلى ديار مصر لا توازى عشر المعشار فى عدة أهلها وعددهم، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام، وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل، ولا يسترها الليل، هذا وهم فى جهلهم يعمهون، وفى غيهم يترددون، وهم البُعصاء إلى الله وأعداؤه، ويقولون مع ذلك: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨] !! فقيح الله وجوههم التى مسخ منها الخنازير والقروود، وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات القوود، ويقضى لهم فيها بتأييد الخلود، وقد فعل ، وله الحمد من جميع الوجود.

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيْكَ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِرَبِّهِ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُؤْوِلْتِي أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

يقول تعالى مبينا وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابني آدم لصلبه - في قول الجمهور - وهما قابيل وهابيل (١) ، كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله ، بغيا عليه وحسدا له ، فيما وهبه الله من النعمة وتقبل القربان الذي أخلص فيه الله عز وجل ، ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة ، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة ، فقال تعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ ﴾ أي : اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة ، إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم - خبر ابني آدم ، وهما هابيل وقابيل فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف . وقوله : ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي : على الجلية والأمر الذي لا يس فيه ولا كذب ، ولا وهم ولا تبديل ، ولا زيادة ولا نقصان ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ بِالْحَقِّ ﴾ [آل عمران: ٦٢] وقال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ [الكهف: ١١٣] ، وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ ﴾ [مريم: ٣٤] .

وكان من خبرهما - فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف: أن الله تعالى شرع لآدم ، عليه السلام ، أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال ، ولكن قالوا: كان يُولد له في كل بطن ذكر وأنثى ، فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر ، وكانت أخت هابيل دميمة ، وأخت قابيل وضيئة ، فأراد أن يستأثر بها على أخيه ، فأبى آدم ذلك إلا أن يقربا قربانا ، فمن تقبل منه فهي له ، فتقبل من هابيل ولم يتقبل من قابيل ، فكان من أمرهما ما قص الله في كتابه (٢) . وروى ابن أبي حاتم عن ابن خثيم قال : أقبلت مع سعيد بن جبير ، فحدثني عن ابن عباس قال : نهى أن تنكح المرأة أخاها تؤمها ، وأمر أن ينكحها غيره من إخواتها ، وكان يولد له في كل بطن رجل وامرأة ، فبينما هم كذلك ولد له امرأة وضيئة ، وولد له أخري قبيحة دميمة ، فقال أخو

(١) أما أنهما ابنا آدم لصلبه ، فهو القول الثابت الصحيح ، الذي يدل عليه سياق الآيات ، مؤيدا بالسنة الصحيحة ، كما سيأتي . وأما تسميتهما - « قابيل وهابيل » فإنما هو من نقل العلماء عند أهل الكتاب ، لم يرد به القرآن ، ولا جاء في سنة ثابتة فيما نعلم ، فلا علينا ألا نجزم به ولا نرجحه ، وإنما هو قول قيل .
(٢) هذا من قصص أهل الكتاب ، ليس له أصل صحيح . ثم قد ساق الحافظ المؤلف هنا آثارا كثيرة في هذا المعنى ، مما امتلأت به كتب المفسرين . وقد عرضنا عن ذلك ، وأبقينا شيئا منها أجود إسنادا ، على سبيل المثال . ليس على سبيل الرواية الصحيحة المقبولة .

الدميمة: أنكحني أحتك وأنكحك أحتى. قال: لا، أنا أحق بأحتى فقربا قربانا ، فتقبل من صاحب الكبش ، ولم يتقبل من صاحب الزرع ، فقتله إسناده جيد (١) . وعن ابن عباس قال: [كان] من شأنهما أنه لم يكن مسكين يتصدق عليه ، وإنما كان القربان يقربه الرجل . فبينما ابنا آدم قاعدان إذ قالوا: لو قربنا قربانا وكان الرجل إذا قرب قربانا فرضيه الله ، أرسل إليه نارا فتأكله ، وإن لم يكن رضيه الله خبّت النار ، فقربا قربانا ، وكان أحدهما راعيا ، وكان الآخر حرّآنا ، وإن صاحب الغنم قرب خبير غنمه وأسمنها ، وقرب الآخر بعض زرعه ، فجاءت النار فنزلت بينهما ، فأكلت الشاة وتركت الزرع ، وإن ابن آدم قال لأخيه: أتمشى فى الناس وقد علموا أنك قربت قربانا فتقبل منك وردّ على؟! فلا والله لا ينظر الناس إليك وإلى وأنت خبير منى . فقال: لأقتلنك . فقال له أخوه: ما ذنبى؟ إنما يتقبل الله من المتقين . رواه ابن جرير . فهذا الأثر يقتضى أن تقرب القربان كان لا عن سبب ولا عن تدارى فى امرأة ، كما تقدم عن جماعة ممن تقدم ذكرهم ، وهو ظاهر القرآن: ﴿ إِذْ قَرَّبْنَا قُورَيْبًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ . فالسياق يقتضى أنه إنما غضب عليه وحسده لقبول قربانه دونه .

وقوله: ﴿ لَنْ بَسَطَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيْ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ : يقول له أخوه الرجل الصالح ، الذى تقبل الله قربانه لتقواه حين تواعده أخوه بالقتل على غير ما ذنب منه إليه: ﴿ لَنْ بَسَطَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيْ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ أى: لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله ، فأكون أنا وأنت سواء فى الخطيئة ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى: من أن أصنع كما تريد أن تصنع ، بل أصبر وأحتسب . ولهذا ثبت فى الصحيحين ، عن النبى ﷺ أنه قال: « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول فى النار . قالوا: يا رسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول؟ قال: « إنه كان حريصا على قتل صاحبه » (٢) .

وروى الإمام أحمد أن سعد بن أبى وقاص قال عند فتنة عثمان : أشهد أن رسول الله ﷺ قال : « إنها ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشى ، والماشى خير من الساعى » . قال: أفرايت إن دخل على بيتى فبسط يده إلى ليقتلنى ؟ فقال: « كن كابن آدم » . وكذا رواه الترمذى وقال: هذا حديث حسن . وقد رواه أبو داود بنحوه ، وفى آخره : قال: فقال رسول الله ﷺ: « كن كابن آدم » . وتلا يزيد: ﴿ لَنْ بَسَطَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيْ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) . قال أيوب السخّيانى : إن أول من أخذ بهذه الآية من هذه الأمة: ﴿ لَنْ بَسَطَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيْ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ لعثمان

(١) ورواه الطبرى (١١٧٥١) مطولا ، بإسناد جيد أيضا . وهو خير - كما ترى - ليس من السنة النبوية ، بل ظاهره يدل على أنه مما أخذه ابن عباس من كتب أهل الكتاب . و « التوم » - بضم التاء وسكون الهمزة : التوام ، يقال للذكر وللأنثى .

(٢) البخارى (١٣ / ٢٧ فتح) ومسلم (٢ / ٣٦٢) - كلاهما من حديث أبى بكره .

(٣) المسند (١٦٠٩) والترمذى (٣ / ٢٢٠) وأبو داود (٤٢٥٧) . ولكن الذى فيه أن الذى تلا هذه الآية هو

يزيد بن خالد الرملى شيخ أبى داود . خلافا لما يوهمه السياق هنا .

ابن عفان، رضى الله عنه . رواه ابن أبى حاتم .

وروى الإمام أحمد عن أبى ذر قال: ركب النبي ﷺ حمارا وأردفنى خلفه، وقال: « يا أبا ذر، أرأيت إن أصاب الناس جوعٌ شديد لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك، كيف تصنع؟ ». قال: قال: الله ورسوله أعلم. قال: « تَعَفَّفُ ». قال: « يا أبا ذر، أرأيت إن أصاب الناس موتٌ شديد، ويكون البيت فيه بالبعد، يعنى القبر، كيف تصنع؟ ». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: « اصبر ». قال: « يا أبا ذر، أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضا، يعنى حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء، كيف تصنع؟ ». قال: الله ورسوله أعلم. قال: « اقعِدْ فى بيتك، وأغلق عليك بابك ». قال: فإن لم أترك؟ قال: « فأت من أنت منهم، فكن منهم ». قال: فأخذ سلاحى؟ قال: « فإذا تشاركهم فيما هم فيه، ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف، فأتى طرف رداثك على وجهك حتى يبوء بإثمك وإثمك ». ورواه مسلم وأهل السنن سوى النسائى (١) .

وقوله: « إِنِّى أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ »: قال ابن عباس، ومجاهد وغيرهما : أى: بإثم قتلى وإثمك الذى عليك قبل ذلك. قال ابن جرير: وقال آخرون: يعنى بذلك : إنى أريد أن تبوء بخطيئتي، فتتحمل وزرها، وإثمك فى قتلك إياى. وهذا قول وجدته عن مجاهد، وأخشى أن يكون غلطاً؛ لأن الصحيح من الرواية عنه خلافه. قلت: وقد يتوهم كثير من الناس هذا القول، ويذكرون فى ذلك حديثاً لا أصل له: « ما ترك القاتل على المقتول من ذنب ». وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً يشبه هذا، ولكن ليس به، فروى عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: « قتل الصَّبْر لا يبر بذنب إلا محاه ». وهذا لا يصح، ولو صح فمعناه: أن الله يكفر عن المقتول بألم القتل ذنوبه، فأما أن تحمل على القاتل فلا. ولكن قد يتفق هذا فى بعض الأشخاص، وهو الغالب، فإن المقتول يطالب القاتل فى العَرَصات فيؤخذ له من حسناته بقدر مظلمته، فإن نفذت ولم يستوف حقه أُخِذَ من سيئات المقتول فطُرِحَتْ على القاتل، فرمى لا يبقى على المقتول خطيئة إلا وضعت على القاتل. وقد صح الحديث بذلك عن رسول الله ﷺ فى المظالم كلها، والقتل من أعظمها وأشدّها، والله أعلم.

وأما ابن جرير فقال: والصواب من القول فى ذلك أن يقال: إن تأويله: إنى أريد أن تنصرف بخطيئتك فى قتلك إياى - وذلك هو معنى قوله: « إِنِّى أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي » وأما معنى « وَإِثْمِكَ » فهو إثمه بغير قتله، وذلك معصيته - عز وجل، فى أعمال سواه. وإنما قلنا ذلك الصواب، لإجماع أهل التأويل عليه، وأن الله، عز وجل، أخبرنا أن كل عامل فجزاء عمله له أو عليه، وإذا كان هذا حكمه فى خلقه، فغير جائز أن تكون آثام المقتول مأخوذاً بها القاتل، وإنما يؤخذ القاتل بإثمه بالقتل المحرّم وسائر آثام معاصيه التى ارتكبها بنفسه دون ما ركبته قتيله. هذا لفظه (٢). ثم أورد على هذا سؤالاً، حاصله: كيف أراد هابيل أن يكون على أخيه قابيل إثم قتله، وإثم نفسه، مع أن قتله له محرم؟ وأجاب بما حاصله: أن هابيل أخبر عن نفسه

(٢) الطبرى (١٠ / ٢١٦ ، ٢١٧) .

(١) المسند (٥ / ١٤٩ حلى) .

بأنه لا يقاتل أخاه إن قاتله، بل يكف يده عنه، طالباً - إن وقع قتل - أن يكون من أخيه لا منه. قلت: وهذا الكلام متضمن موعظة له لو اتعظ، وزجرًا له لو انزجر؛ ولهذا قال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أى: تتحمل إثمى وإثمك ﴿فَتَكُونُ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾. وقال ابن عباس: خوفه النار فلم ينته ولم ينزجر.

وقوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ أى: فحسنت وسوَّكت له نفسه، وشجعته على قتل أخيه فقتله، أى: بعد هذه الموعظة وهذا الزجر. وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة، وأى خسارة أعظم من هذه؟. وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظَلَمًا، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دِمَاهَا، لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ». وقد أخرج الجماعة سوى أبى داود (١).

وقوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِثُ سُوءَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِثُ سُوءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾: قال ابن عباس: جاء غراب إلى غراب ميت، فَبَحَثَ عليه من التراب حتى واره، فقال الذى قتل أخاه: ﴿يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِثُ سُوءَ أَخِي﴾. وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ قال الحسن البصرى: علاه الله بندامة بعد خسران. فهذه أقوال المفسرين فى هذه القصة، وكلهم متفقون على أن هذين ابنا آدم لصلبه، كما هو ظاهر القرآن، وكما نطق به الحديث فى قوله: «إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ مِنْ دِمَاهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ». وهذا ظاهر جَلَى، ولكن روى ابن جرير عن الحسن - هو البصرى - قال: كان الرجلان اللذان فى القرآن، اللذان قال الله: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمُ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ من بنى إسرائيل، ولم يكونا ابني آدم لصلبه، وإنما كان القريبان من بنى إسرائيل، وكان آدم أول من مات. وهذا غريب جداً، وفى إسناده نظر (٢).

(١) المسند (٣٦٣٠، ٤٠٩٢، ٤١٢٣) وهو فى البخارى (٦ / ٢٦٢، ١٢ / ١٦٩، ١٣ / ٢٥٦ فتح).

ورواه أيضا الطبرى (١١٧٣٨، ١١٧٣٩) و «الكفل» - بكسر الكاف وسكون الفاء: الحظ والنصيب.

(٢) الطبرى (١١٧١٩) (١٠ / ٢٠٨). وقد رده عقيبه بما ملخصه: أن الله يتعالى عن أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به فائدة. والمخاطبون يعلمون أن القريبان لم يكن مشروعاً إلا فى بنى آدم، فلو كان المراد رجلين من بنى إسرائيل لم يكن فى قوله: «ابنى آدم» فائدة جديدة. ثم رده مرة أخرى (ص ٢١٩، ٢٢٠) بأنه «خطأ»، لأن رسول الله ﷺ قد أخبر عن هذا القاتل الذى قتل أخاه: أنه أول من سن القتل. وقد كان - لا شك - القتل قبل إسرائيل، فكيف قبل ذريته! فخطأ من القول أن يقال: أول من سن القتل رجل من بنى إسرائيل. ثم رده مرة ثالثة (ص ٢٢٤)، عند قوله تعالى: (فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض) - الآية - بأن «الرجلين اللذين وصف الله صفتها فى هذه الآية، لو كانا من بنى إسرائيل، لم يجهل القاتل دفن أخيه ومواراة سوءه أخيه. ولكنهما كانا من ولد آدم لصلبه، ولم يكن القاتل منهما أخاه علم سنة الله فى عباده الموتى، ولم يدر ما يصنع بأخيه المقتول». وهذا كلام قوى نفيس.

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ﴾ قتل ابن آدم أخاه ضمنا وعدوانا ﴿ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى: شرعنا لهم وأعلمناهم ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ أى: ومن قتل نفسا بغير سبب من قصاص، أو فساد فى الأرض، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية، فكأنما قتل الناس جميعا؛ لأنه لافرق عنده بين نفس ونفس ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ أى: حرم قتلها واعتقد ذلك، فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار؛ ولهذا قال: ﴿ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾. وعن أبى هريرة قال: دخلت على عثمان يوم الدار، فقلت: جئت لأنصرك وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين. فقال: يا أبا هريرة، أيسرك أن تقتل الناس جميعا وإياى معهم؟ قلت: لا. قال: فإنك إن قتلت رجلا واحدا فكأنما قتلت الناس جميعا، فانصرف ماذونا لك، مأجورا غير مأزور. قال: فانصرفت ولم أقاتل (١). وقال ابن عباس: ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ وإحياؤها: ألا يقتل نفسا حرما لله، فذلك الذى أحيا الناس جميعا، يعنى: أنه من حرم قتلها إلا بحق، حياى الناس منه. وقال سعيد بن جبيرة: من استحل دم مسلم فكأنما استحل دماء الناس جميعا، ومن حرم دم مسلم فكأنما حرم دماء الناس جميعا. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: جاء حمزة بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، اجعلنى على شىء أعيش به؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا حمزة، نفس تحيىها أحب إليك أم نفس تميتها؟» قال: بل نفس أحيىها: قال: «عليك بنفسك» (٢).

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى: بالحجج والبراهين والدلائل الواضحة ﴿ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ وهذا تقريع لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها، كما كانت بنو قريظة والنضير وغيرهم من بنى قينقاع ممن حول المدينة من اليهود، الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج إذا وقعت بينهم الحروب فى الجاهلية، ثم إذا وضعت الحروب أوزارها فدوا من أسروه، وودوا من قتلوه، وقد أنكر الله عليهم ذلك فى سورة البقرة، حيث يقول:

(١) هذا الخبر لم يبين الحافظ ابن كثير مخرجه. وقد رواه ابن سعد فى الطبقات (٣ / ١ / ٤٨ ، ٤٩)، وإسناده صحيح جدا. وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٢ / ٢٧٧) وله ينسبه لغير ابن سعد.
(٢) المسند (٦٦٣٩). وإسناده صحيح.

﴿وَأَذِّنَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ . ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ أَفْتَرِئُونَ بَعْضُ الْكُتَابِ وَتَكْفُرُونَ بَبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٤، ٨٥] (١) .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ الآية . المحاربة: هي المضادة والمخالفة، وهي صداقة على الكفر، وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل، وكذا الإفساد في الأرض يطلق على أنواع من الشر، حتى قال كثير من السلف، منهم سعيد بن المسيب: إن قرض الدراهم والدنانير من الإفساد في الأرض (٢) ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥] .

ثم قال بعضهم: نزلت هذه الآية الكريمة في المشركين، كما روى ابن جرير عن عكرمة والحسن البصرى قالا: نزلت هذه الآية في المشركين، فمن تاب منهم من قبل أن تقتلوا عليه، لم يكن عليه سبيل، وليست تُحَرِّزُ هذه الآية الرجل المسلم من الحد، إن قتل أو أفسد في الأرض أو حارب الله ورسوله، ثم لحق بالكفار قبل أن يقدر عليه، لم يمنعه ذلك أن يقيم عليه الحد الذي أصاب (٣) . ورواه أبو داود والنسائي، من طريق عكرمة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾: نزلت في المشركين، فمن تاب منهم قبل أن يُقَدَّرَ عليه لم يمنعه ذلك أن يقيم فيه الحد الذي أصابه (٤) . وروى عن ابن عباس، قال: كان قوم من أهل الكتاب، بينهم وبين النبي ﷺ عهد وميثاق، فنقضوا العهد وأفسدوا في الأرض، فخير الله رسوله: إن شاء أن يقتل، وإن شاء أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف (٥) .

والصحيح أن هذه الآية عامة في المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات، كما رواه البخارى ومسلم من حديث أبي قلابة - واسمه عبد الله بن زيد الجرمي البصرى - عن أنس بن مالك: أن نفرًا من عكّل ثمانية، قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام، فاستوخموا المدينة، وسقمت أجسامهم، فشكروا إلى رسول الله ﷺ، فقال: «ألا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيبون من أبقالها وألبانها؟» فقالوا: بلى . فخرجوا، فشربوها من أبقالها وألبانها، فصَحُّوا، فقتلوا الراعى وطرّدوا الإبل . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فبعث في آثارهم، فأدركوا،

(١) انظر ما مضى عند تفسير الآيتين: (٨٤، ٨٥) من سورة البقرة .

(٢) «قرض الدراهم والدنانير»: قطعها . ومنه: «قراضة الذهب والفضة» . وهذا القرض سرقة وغش في المعاملة . ووقع في المطبوعة: «قبض» ! وهو تصحيف وكلام لا معنى له .

(٣) رواه الطبري - هكذا - من كلام عكرمة والحسن، مرتين بإسناد واحد (١١٨٠٦، ١١٨٧٢) .

(٤) أبو داود (٤٣٧٢) والنسائي (٢ / ١٦٩) . وإسنادهما صحيحان وهو الحديث السابق عن عكرمة والحسن،

إلا أن الطبري أو أحد رجال إسناده قصر به، فلم يرتفع به إلى ابن عباس .

(٥) الطبري (١١٨٠٣) .

فجىء بهم، فأمر بهم ففقطعت أيديهم وأرجلهم، وسُمرت أعينهم، ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا. لفظ مسلم (١).

وعند البخارى: قال أبو قلابة: فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله (٢). ورواه مسلم من طريق سليمان التيمي، عن أنس قال: إنما سَمَلَ النبي ﷺ أعين أولئك؛ لأنهم سَمَلوا أعين الرعاء (٣). وقال حماد بن سلمة: حدثنا قتادة وثابت البناني وحميد الطويل، عن أنس بن مالك: أن ناساً من عُرْبَةِ قَدَمُوا المدينة، فَاجْتَوَوْهَا، فبعثهم رسول الله ﷺ في إبل الصدقة، وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها ففعلوا، فَصَحَّوْا فارتدوا عن الإسلام، وقتلوا الراعى، وساقوا الإبل، فأرسل رسول الله ﷺ في آثارهم، فجىء بهم، ففقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وَسَمَّرَ أعينهم وألقاهم في الحرة. قال أنس: فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه عطشاً حتى ماتوا، ونزلت: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية. رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن مردويه - وهذا لفظه - وقال الترمذى: «حسن صحيح». وقد تقدم في صحيح مسلم أنهم سَمَلُوا أعين الرعاء، فكان ما فعل بهم قصاصاً، والله أعلم. وقد روى قصة العرنيين من حديث جماعة من الصحابة، منهم: جابر وعائشة وغير واحد. وقد اعتنى الحافظ الجليل أبو بكر بن مردويه بتطريق هذا الحديث من وجوه كثيرة جداً، فرحمه الله وأثابه.

وقد اختلف الأئمة في حكم هؤلاء العرنيين: هل هو منسوخ أو محكم؟ فقال بعضهم: هو منسوخ بهذه الآية، وزعموا أن فيها عتاباً للنبي ﷺ كما في قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، ومنهم من قال: هو منسوخ بنهى النبي ﷺ عن المثلة. وهذا القول فيه نظر، ثم صاحبه مطالب ببيان تأخر الناسخ الذى ادعاه عن المنسوخ! وقال بعضهم: كان هذا قبل أن تنزل الحدود، قاله محمد بن سيرين، وفي هذا نظر، فإن قصتهم متأخرة، وفي رواية جرير بن عبد الله لقصتهم ما يدل على تأخرها، فإنه أسلم بعد نزول المائدة. ومنهم من قال: لم يسمل النبي ﷺ أعينهم، وإنما عزم على ذلك، حتى نزل القرآن فبين حكم المحاربين! وهذا القول أيضاً فيه نظر؛ فإنه قد تقدم في الحديث المتفق عليه أنه سَمَلَ - وفي رواية: سمر - أعينهم.

وقال ابن جرير: حدثنا على بن سهل، حدثنا الوليد بن مسلم قال: ذكرت الليث بن سعد ما كان من سَمَلَ النبي ﷺ أعينهم، وتركه حَسَمَهُمْ حتى ماتوا، قال: سمعت محمد بن عجلان يقول: أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ معاتبة في ذلك، وعلمه عقوبة مثلهم: من القتل والقطع والنفى، ولم يسمل بعدهم غيرهم. قال: وكان هذا القول ذكر لأبى عمرو - يعنى

(١) مسلم (٢ / ٢٥، ٢٦). ورواه قبل ذلك وبعده، من أوجه مختلفة، ورواه أيضا الطبرى من أوجه كثيرة، منها: (١١٨١٤).

(٢) البخارى مطولا (١ / ٢٨٩ - ٢٩٤ فتح). وهنا شرحه الحافظ شرحا وافيا. وقد رواه البخارى فى مواضع آخر أيضا، منها: (٦ / ١٠٨، ٧ / ٣٥٢، ٨ / ٢٠٦، ١٢ / ٩٩، ١٠٠ فتح).

(٣) مسلم (٢ / ٢٦).

الأوزاعي - فأكثر أن يكون نزلت معاتبه، وقال: بل كانت عقوبة أولئك النفر بأعيانهم، ثم نزلت هذه الآية في عقوبة غيرهم ممن حارب بعدهم، ورفع عنهم السمل (١).

ثم قد احتج بعموم هذه الآية جمهور العلماء في نهابهم إلى أن المحاربة في الأمصار وفي السبلان على السواء لقوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾. وهذا مذهب مالك، والأوزاعي، والليث ابن سعد، والشافعي، أحمد بن حنبل، حتى قال مالك - في الذي يغتال الرجل فيخدعه حتى يدخله بيتاً فيقتله، ويأخذ مامعه -: إن هذا محاربة، ودمه إلى السلطان لا إلى ولي المقتول، ولا اعتبار بعفوه عنه في إسقاط القتل (٢). وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا تكون المحاربة إلا في الطرقات، فأما في الأمصار فلا؛ لأنه يلحقه الغوث إذا استغاث، بخلاف الطريق لبعده ممن يغيثه ويعينه.

وأما قوله: ﴿أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ فقال ابن عباس: من شهر السلاح في قبة الإسلام (٣)، وأخاف السبيل، ثم ظفر به وقدر عليه، فإمام المسلمين فيه بالخيار: إن شاء قتله، وإن شاء صلبه، وإن شاء قطع يده ورجله.

وكذا قال سعيد بن المسيب، ومجاهد، وعطاء، وغيرهم. وروى ذلك ابن جرير، وحكى مثله عن مالك بن أنس، رحمه الله. ومستند هذا القول: أن ظاهر «أو» للتخيير، كما في نظائر

(١) الطبري (١١٨١٨).

(٢) روى الطبري (١١٨٢٢) عن الوليد بن مسلم، قال: «قلت للمالك بن أنس: تكون محاربة في مصر؟ قال: نعم، والمحارب عندنا من حمل السلاح على المسلمين في مصر أو خلاء، فكان ذلك منه على غير نائرة كانت بينهم ولا دخل ولا عداوة، قاطعاً للسبيل والطريق والديار، مخيفاً لهم بسلاحه، فقتل أحداً منهم، قتله الإمام كقتله المحارب، ليس لولى المقتول فيه عفو ولا قود». ثم روى (١١٨٢٣) عن الوليد، قال: «وسألت عن ذلك الليث بن سعد وابن لهيعة، قلت: تكون المحاربة في دور المصر والمدائن والقرى؟ فقالا: نعم، إذا هم دخلوا عليه بالسيوف علانية، أو ليلاً بالنيران، قلت: فقتلوا، أو أخذوا المال ولم يقتلوا؟ فقال: نعم، هم المحاربون، فإن قتلوا قتلوا، وإن لم يقتلوا وأخذوا المال قطعوا من خلاف إذا هم خرجوا به من الدار، ليس من حارب المسلمين في الخلاء والسبيل، بأعظم محاربة ممن حاربهم في حريمهم ودورهم». ثم روى (١١٨٢٤) عن الوليد، قال: «قال أبو عمرو [يعني الأوزاعي]: وتكون المحاربة في مصر، شهر على أهله بسلاحه ليلاً أو نهاراً. قال الوليد: وأخبرني مالك: أن قتل الغيلة - عنده - بمنزلة المحاربة، قلت: وما قتل الغيلة؟ قال: هو الرجل يخذع الرجل أو الصبي فيدخله بيتاً أو يخلو به، فيقتله ويأخذ ماله، فالإمام ولي قتل هذا، وليس لولى الدم والجرح قود ولا قصاص».

وقول مالك في الرواية الأولى: «نائرة» هي بالنون، وهي: الفتنة الحادثة في عداوة وشحناء و«الذحل» - بفتح الذال المعجمة وسكون الحاء المهمله - هو الثار.

(٣) «قبة الإسلام»: فسرها أخى السيد محمود شاكراً في الطبري (٢٦٣/١٠) بأنه «يعنى في ظله وحيث مستقرها سلطانه، ولذلك سماها البصرة: قبة الإسلام». وفي المطبوعة: «قبة الإسلام»! وكذلك كانت في طبعة الطبري القديمة. وهي - كما قال أخى السيد محمود - لا معنى لها! وكلمة «قبة» واضحة الرسم والنطق في مخطوطتي ابن كثير، ومضبوطة بالشكل في إحداهما.

ذلك من القرآن، كقوله في جزاء الصيد: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قُتِلَ مِنَ النِّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَذَا بِالْعِزَّةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥]. وقوله في كفارة القدية: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفَدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ نُسْكَ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وكقوله في كفارة اليمين: ﴿إِطْعَامُ (١) عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِّن أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩]. هذه كلها على التخبير، فكذلك فلتكن هذه الآية. وقال الجمهور: هذه الآية منزلة على أحوال كما روى الشافعي عن ابن عباس في قطاع الطريق: إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قُطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالا نفوا من الأرض. وقد رواه ابن أبي شيبة عن ابن عباس، بنحوه. وهكذا قال غير واحد من السلف والأئمة.

واختلفوا: هل يُصلب حيا ويُترك حتى يموت بمنعه من الطعام والشراب؟ أو يقتله برمح ونحوه؟ أو يقتل أولا ثم يصلب تنكيلا وتشديدا لغيره من المفسدين؟ وهل يصلب ثلاثة أيام ثم ينزل؟ أو يترك حتى يسيل صديده؟ في ذلك كله خلاف محرر في موضعه، وبالله الثقة وعليه التكلان.

وأما قوله تعالى: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ فقال بعضهم: هو أن يطلب حتى يقدر عليه، فيقام عليه الحد أو يهرب من دار الإسلام. رواه ابن جرير عن ابن عباس، وأنس بن مالك، وسعيد ابن جبيرة، والليث، ومالك، وغيرهم. وقال آخرون: هو أن ينفي من بلده إلى بلد آخر، أو يخرج السلطان أو نائبه من معاملته بالكلية، وقال الشعبي: ينفيه من عمله كله. وقال عطاء الخراساني: ينفي من جند إلى جند سنين، ولا يخرج من دار الإسلام. وكذا قال سعيد بن جبيرة، وأبو الشعثاء، والحسن، والزهرى، وغيرهم. وقال آخرون: المراد بالنفي ههنا السجن، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، واختار ابن جرير: أن المراد بالنفي ههنا: أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه.

وقوله: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أى: هذا الذى ذكرته - من قتلهم، ومن صلبهم، وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ونفيهم - خِزْيٌ لهم بين الناس فى هذه الحياة الدنيا، مع ما ادخر الله لهم من العذاب العظيم يوم القيامة، وهذا يؤيد قول من قال: إنها نزلت فى المشركين، فأما أهل الإسلام فقد ثبت فى صحيح مسلم، عن عبادة بن الصامت قال: أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء: ألا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق، ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا يعصه بعضنا بعضا، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فهو كفارة له، ومن ستره الله فأمره إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه. وعن على قال: قال رسول الله ﷺ: «من أذنب ذنبا فى الدنيا، فعوقب به، فالله

(١) فى المطبوع من «عمدة التفسير»: «إطعام». صوابه ما أثبتناه. (البار).

أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده، ومن أذنب ذنباً في الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه، فالله أكرم من أن يعود عليه في شيء قد عفا عنه». رواه الإمام أحمد، والترمذى، وابن ماجه، وقال الترمذى: «حسن غريب». وقد سئل الحافظ الدارقطنى عن هذا الحديث؟ فقال: روى مرفوعاً وموقوفاً، وقال: ورفعه صحيح. وقال ابن جرير فى قوله: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ يعنى: شرٌّ وعارٌ ونكالٌ وذلةٌ وعقوبةٌ فى عاجل الدنيا قبل الآخرة ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أى: إذا لم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا - فى الآخرة مع الجزاء الذى جازيتهم به فى الدنيا، والعقوبة التى عاقبتهم بها فى الدنيا - ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعنى: عذاب جهنم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أما على قول من قال: إنها فى أهل الشرك - فظاهر، وأما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم، فإنه يسقط عنهم انتحام القتل والصلب وقطع الرجل، وهل يسقط قطع اليد أم لا؟ فيه قولان للعلماء. وظاهر الآية يقتضى سقوط الجميع، وعليه عمل الصحابة، كما روى ابن أبى حاتم عن الشعبي قال: كان حارثة بن بدر التميمى من أهل البصرة، وكان قد أفسد فى الأرض وحارب، فكلم رجلاً من قريش منهم: الحسن بن على، وابن عباس، وعبد الله بن جعفر، فكلموا علياً فيه، فلم يؤمنه. فأتى سعيد بن قيس الهمداني فخلفه فى داره، ثم أتى علياً فقال: يا أمير المؤمنين، أرأيت من حارب الله ورسوله وسعى فى الأرض فساداً، فقرأ حتى بلغ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ﴾ قال: فكتب له أماناً. قال سعيد بن قيس: فإنه حارثة بن بدر. وكذا رواه ابن جرير (١).

وروى ابن جرير عن الشعبي قال: جاء رجل من مرد إلى أبى موسى، وهو على الكوفة فى إمارة عثمان، بعد ما صلى المكتوبة، فقال: يا أبا موسى، هذا مقام العائذ بك، أنا فلان ابن فلان المرادى، وإنى كنت حاربت الله ورسوله وسعيت فى الأرض فساداً، وإنى تبت من قبل أن يُقدَّرَ علىّ. فقام أبو موسى فقال: إن هذا فلان ابن فلان، وإنه كان حارب الله ورسوله، وسعى فى الأرض فساداً، وإنه تاب من قبل أن تُقدَّرَ عليه، فمن لقيه فلا يعرض له إلا بخير، فإن يك صادقاً فسيب من صدق، وإن يك كاذباً تدركه ذنوبه، فأقام الرجل ما شاء الله، ثم إنه خرج فأدركه الله تعالى بذنوبه فقتله (٢).

ثم روى ابن جرير عن الليث، قال حدثنى موسى بن إسحاق المدنى - وهو الأمير عندنا: أن علياً الأسدى حارب وأخاف السبيل وأصاب الدم والمال، فطلبه الأئمة والعامّة، فامتنع ولم يقدروا عليه، حتى جاء تائباً، وذلك أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية: ﴿يَا عِبَادِى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فوقف عليه فقال: يا عبد الله، أعد قراءتها. فأعادها عليه، فغمد سيفه، ثم جاء تائباً. حتى قدم المدينة من

(١) رواه الطبرى مطولاً ومختصراً (١١٨٧٩ - ١١٨٨١).

(٢) الطبرى (١١٨٨٤، ١١٨٨٥).

السحر، فاغتسل، ثم أتى مسجد رسول الله ﷺ فصلى الصبح، ثم قعد إلى أبي هريرة في غمار أصحابه، فلما أسفروا عرفه الناس، فقاموا إليه، فقال: لا سبيل لكم على جنت تائباً من قبل أن تقدروا على. فقال أبو هريرة: صدق. وأخذ بيده أبو هريرة حتى أتى مروان بن الحكم في أمرته على المدينة، في زمن معاوية، فقال: هذا عليّ جاء تائباً، ولا سبيل لكم عليه ولا قتل. فترك من ذلك كله، قال: وخرج عليّ تائباً مجاهداً في سبيل الله في البحر، فلقوا الروم، فقربوا سفينته إلى سفينة من سفنهم، فاقتحم على الروم في سفينتهم، فهربوا منه إلى شقها الآخر، فمالت به وبهم، ففرقوا جميعاً (١).

﴿يَتَّيِبُهُا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَ مَا مَكُّ لَيَفْقَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا نُقِلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بتقواه، وهي إذا قرنت بطاعته كان المراد بها الانكفاف عن المحارم وترك المنهيات، وقد قال بعدها: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ قال ابن عباس: أى القرية. وكذا قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد، وغير واحد. وقال قتادة: أى تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه. وقرأ ابن زيد: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧]. وهذا الذى قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه.

والوسيلة: هى التى يتوصل بها إلى تحصيل المقصود، والوسيلة أيضاً: عَلم على أعلى منزلة فى الجنة، وهى منزلة رسول الله ﷺ وداره فى الجنة، وهى أقرب أمكنة الجنة إلى العرش، وقد ثبت فى صحيح البخارى عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته، إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة». وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبى ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا علىّ، فإنه من صلى علىّ صلى الله عليه عشرأ، ثم سلوا الله لى الوسيلة، فإنها منزلة فى الجنة، لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة» (٢). وروى الإمام أحمد عن كعب، عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا صليتم علىّ فسلُّوا لى الوسيلة». قيل: يا رسول الله، وما الوسيلة؟ قال: «أعلى درجة فى الجنة، لا ينالها إلا رجلٌ واحد، وأرجو أن أكون أنا هو». ورواه الترمذى ثم قال: غريب،

(١) الطبرى (١١٨٨٩).

(٢) ورواه الإمام أحمد فى المسند (٦٥٦٨). وخرجه هناك.

وكعب ليس بمعروف، لا نعرف أحداً روى عنه غير ليث بن أبي سليم (١).

وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: لما أمرهم بترك المحارم وفعل الطاعات، أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين، الخارجين عن الطريق المستقيم، والتاركين للدين القويم، ورغبتهم في ذلك بالذي أعدده للمجاهدين في سبيله يوم القيامة، من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التي لا تبيد ولا تحوّل ولا تزول في الغرف العالية الرفيعة الآمنة، الحسنة مناظرها، الطيبة مساكنها، التي من سكنها يتعم لا يباس، ويحيا لا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه.

ثم أخير تعالى بما أعد لأعدائه الكفار من العذاب والنكال يوم القيامة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تَقْبَلُ مِنْهُمْ﴾ أي: لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهباً، وبمثلته ليفتدي بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به، وتيقن وصوله إليه، ما تقبل ذلك منه، بل لا مندوحة عنه ولا محيص له ولا مناص؛ ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجع ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يُخْرِجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ الآية [الحج: ٢٢]، فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته وأليم مسه، ولا سبيل لهم إلى ذلك، كلما رفعهم اللهب فصاروا في أعلى جهنم، ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد، فيردوهم إلى أسفلها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌّ﴾ أي: دائم مستمر لا خروج لهم منها، ولا محيد لهم عنها. وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يُوتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، كَيْفَ وَجَدْتَ مَضْجَعَكَ؟» فيقول: شرّ مضجع، فيقول: هل تفتدي بقراب الأرض ذهباً؟» قال: «فيقول: نعم، يا رب، فيقول: كذبت، قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل: فيؤمر به إلى النار». رواه مسلم والنسائي وابن مردويه. وروى ابن مردويه عن يزيد بن صهيب الفقير، عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ [قال]: «يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة». قال: فقلت لجابر بن عبد الله: يقول الله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾؟ قال: اتل أول الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ﴾ الآية، ألا إنهم الذين كفروا. وقد روى الإمام أحمد ومسلم هذا الحديث من وجه آخر، عن يزيد الفقير، عن جابر، وهذا أبسط سياقاً.

وروى ابن أبي حاتم عن يزيد الفقير قال: جلست إلى جابر بن عبد الله، وهو يحدث، فحدث أن ناساً يخرجون من النار، قال: وأنا يومئذ أنكر ذلك، فغضبت وقلت: ما أعجب من الناس، ولكن أعجب منكم يا أصحاب محمد، تزعمون أن الله يخرج ناساً من النار، والله يقول: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾؟! فاتتهرني أصحابه، وكان أحلمهم فقال: دعوا الرجل، إنما ذلك للكفار: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا

(١) المسند (٧٥٨٨)، وإسناده صحيح. وكعب المدني: تابعي معروف، ذكره ابن حبان في الثقات، وترجمه البخاري في الكبير (٤ / ١ / ٢٢٤) فلم يذكر فيه جرحاً.

بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿﴾ حتى بلغ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى قد جمعته ، قال: أليس الله يقول: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدُ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ ؟ [الإسراء: ٧٩] ، فهو ذلك المقام ، فإن الله يحسب أقواماً بخطاياهم فى النار ما شاء ، لا يكلمهم ، فإذا أراد أن يخرجهم أخرجهم . قال : فلم أعد بعد ذلك إلى أن أكذب به (١) . ثم روى ابن مردويه عن طلح بن حبيب قال: كنت من أشد الناس تكذيباً بالشفاعة ، حتى لقيت جابر بن عبد الله ، فقرأت عليه كل آية أفدر عليها يذكر الله فيها خلود أهل النار ، فقال: يا طلق، أترأى أقرأ لكتاب الله وأعلم بسنة رسول الله منى؟ إن الذين قرأت هم أهلها، هم المشركون، ولكن هؤلاء قوم أصابوا ذنوباً فعذبوا، ثم أخرجوا منها، ثم أهوى بيديه إلى أذنيه، فقال : صمنا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرجون من النار بعد ما دخلوا». ونحن نقرأ كما قرأت (٢) .

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا تَكْلَافًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٢٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى حاكماً وأمراً بقطع يد السارق والسارقة، وروى أن ابن مسعود كان يقرأها: «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما». وهذه قراءة شاذة، وإن كان الحكم عند جميع العلماء موافقاً لها، لا بها، بل هو مستفاد من دليل آخر. وقد كان القطع معمولاً به فى الجاهلية، فقرر فى الإسلام وزيدت شروط آخر، كما سنذكره إن شاء الله تعالى، كما كانت القسامة والدية والقراض وغير ذلك من الأشياء التى ورد الشرع بتقريرها على ما كانت عليه، وزيادات هى من تمام المصالح . ويقال : إن أول من قطع الأيدي فى الجاهلية قريش ، قطعوا رجلاً يقال له : «دويك» ، مولى لبنى مليح بن عمرو من خزاعة، كان قد سرق كنز الكعبة، ويقال: سرقه قوم فوضعه عنده.

وقد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئاً قطعت يده به، سواء كان قليلاً أو كثيراً؛ لعموم هذه الآية: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ . فلم يعتبروا نصاباً ولا حرزاً، بل أخذوا بمجرد السرقة . وتمسكوا بما ثبت فى الصحيحين ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ، يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده» . وأما الجمهور فاعتبروا النصاب فى السرقة، وإن كان قد وقع بينهم الخلاف فى قدره، فذهب كل من الأئمة الأربعة إلى قول على حدة، فعند الإمام مالك بن أنس : النصاب ثلاثة دراهم مضروبة

(١) إسناد ابن أبى حاتم - فى هذا - إسناد صحيح .

(٢) إسناده صحيح . ورواه أحمد فى المسند (١٤٥٨٦) بأطول منه قليلاً ، وإسناده أيضا صحيح . وزاد السيوطى

(٢ / ٢٨٠) نسبته للبخارى فى الأدب المفرد والبيهقى فى الشعب ، ولكنه فاته أن ينسبه للمسند . ولم أجده

فى الأدب المفرد .

خالصة، فمتى سرقها أو ما يبلغ ثمنها فما فوقها وجب القطع، واحتج في ذلك بما رواه عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قطع في مجن ثمنه ثلاثة دراهم. أخرجه في الصحيحين . قال مالك : وقطع عثمان ، في أترجة قومت بثلاثة دراهم، وهو أحب ما سمعت في ذلك . وهذا الأثر عن عثمان قد رواه مالك : أن سارقاً سرق في زمان عثمان أترجة، فأمر بها عثمان أن تقوم، فقومت بثلاثة دراهم من صرف اثني عشر درهماً ، فقطع عثمان يده . قال أصحاب مالك : ومثل هذا الصنيع يشتهر، ولم ينكر، فمن مثله يحكى الإجماع السكوتي، وفيه دلالة على القطع في الثمار خلافاً للحنفية . وعلى اعتبار ثلاثة دراهم خلافاً لهم في أنه لا بد من عشرة دراهم، وللشافعية في اعتبار ربع دينار، والله أعلم . وذهب الشافعي إلى أن الاعتبار في قطع يد السارق بربع دينار أو ما يساويه من الأثمان أو العروض فصاعداً . والحجة في ذلك ما أخرجه الشيخان عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « تقطع يد السارق في ربع دينار فصاعداً » . ولمسلم عن عائشة؛ أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً » . قال أصحابنا : فهذا الحديث فاصل في المسألة ، ونصر في اعتبار ربع الدينار لا ما سواه . قالوا: وحديث ثمن المجن، وأنه كان ثلاثة دراهم، لا ينافي هذا؛ لأنه إذ ذاك كان الدينار باثني عشر درهماً، فهي ثمن ربع دينار، فأمكن الجمع بهذه الطريق . ويروى هذا المذهب عن عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلى بن أبي طالب . وبه يقول عمر بن عبد العزيز، والليث بن سعد ، والأوزاعي ، والشافعي ، وأصحابه، وغيرهم .

وذهب الإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه - في رواية عنه - إلى أن كل واحد من ربع الدينار والثلاثة دراهم مرد شرعي، فمن سرق واحداً منهما، أو ما يساويه قطع ، عملاً بحديث ابن عمر، وبحديث عائشة ووقع في لفظ عند الإمام أحمد، عن عائشة ، أن رسول الله ﷺ قال : « اقطعوا في ربع دينار، ولا تقطعوا فيما هو أدنى من ذلك » . وكان ربع الدينار يومئذ ثلاثة دراهم، والدينار اثني عشر درهماً . وفي لفظ للنسائي : « لا تقطع يد السارق فيما دون ثمن المجن . قيل لعائشة : ما ثمن المجن ؟ قالت : ربع دينار (١) . فهذه كلها نصوص دالة على عدم اشتراط عشرة دراهم، والله أعلم .

وأما الإمام أبو حنيفة وأصحابه: أبو يوسف، ومحمد، وزفر، وكذا سفیان الثوري - فإنهم ذهبوا إلى أن النصاب عشرة دراهم مضرورية غير مغشوشة . واحتجوا بأن ثمن المجن الذي قطع فيه السارق على عهد رسول الله ﷺ، كان ثمنه عشرة دراهم . وقد روى أبو بكر بن أبي شيبة عن ابن عباس قال: كان ثمن المجن على عهد النبي ﷺ عشرة دراهم . ثم روى عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تقطع يد السارق في دون ثمن المجن » . وكان ثمن المجن عشرة دراهم . قالوا: فهذا ابن عباس وعبد الله بن عمرو قد خالفا ابن عمر في ثمن المجن، فالاحتياط الأخذ بالأكثر؛ لأن الحدود تدرأ بالشبهات . وذهب بعض

(١) انظر هذه الأحاديث كلها في المتقى (٤٠٦٧ - ٤٠٧٥) .

السلف إلى أنه تَقَطَّعَ يَدُ السَّارِقِ فِي عَشْرَةِ دَرَاهِمٍ، أَوْ دِينَارٍ، أَوْ مَا يَبْلُغُ قِيَمَتَهُ وَاحِدًا مِنْهُمَا، يَحْكِي هَذَا عَنْ عَلِيٍّ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، وَأَبِي جَعْفَرٍ الْبَاقِرِ، وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لَا تَقْطَعُ الْخَمْسَ إِلَّا فِي خَمْسٍ، أَيْ: فِي خَمْسَةِ دَنَانِيرٍ، أَوْ خَمْسِينَ دَرَاهِمًا. وَيَنْقُلُ هَذَا عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ .

وقد أجاب الجمهور عما تمسك به الظاهرية من حديث أبي هريرة: «يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتَقْطَعُ يَدَهُ، وَيَسْرِقُ الْحَبْلَ فَتَقْطَعُ يَدَهُ» بأجوبة:

أحدها: أنه منسوخ بحديث عائشة. وفي هذا نظر؛ لأنه لا بد من بيان التاريخ.

والثاني: أنه مؤول ببيضة الحديد وحبل السفن، قاله الأعمش فيما حكاه البخارى وغيره عنه.

والثالث: أن هذا وسيلة إلى التدرج في السرقة من القليل إلى الكثير الذي تقطع فيه يده، ويحتمل أن يكون هذا خرج مخرج الإخبار عما كان الأمر عليه في الجاهلية، حيث كانوا يقطعون في القليل والكثير، فلعن السارق الذي يبذل يده الثمينة في الأشياء المهينة.

وقد ذكروا أن أبا العلاء المَعْرِيُّ، لما قدم بغداد، اشتهر عنه أنه أورد إشكالا على الفقهاء في جعلهم نصاب السرقة ربع دينار، ونظم في ذلك شعراً دل على جهله، وقلة عقله ! فقال:

تَنَاقَضَ مَا لَنَا إِلَّا السَّكُوتُ لَهُ وَأَنْ نَعُوذَ بِمَوْلَانَا مِنَ النَّارِ
يَدٌ بِخَمْسٍ مِثْلٍ عَسَجَدٍ فُذِيَتْ مَا بِالْهَالِهَا قُطِعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارٍ

ولما قال ذلك واشتهر عنه تَطَلَّبَهُ الْفُقَهَاءُ فَهَرَبَ مِنْهُمْ. وقد أجابه الناس في ذلك، فكان جواب القاضي عبد الوهاب المالكي أن قال: لما كانت أمينة كانت ثمينة، ولما خانت هانت. ومنهم من قال: هذا من تمام الحكمة والمصلحة وأسرار الشريعة العظيمة، فإن في باب الجنائيات ناسب أن تعظم قيمة اليد بخمسائة دينار، لثلاثي يَجْنِي عَلَيْهَا، وفي باب السرقة ناسب أن يكون القدر الذي تقطع فيه ربع دينار، لثلاثي يتسارع الناس في سرقة الأموال، فهذا هو عين الحكمة عند ذوى الالباب؛ ولهذا قال: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا﴾ أى: مجازاة على صنيعهما السيئ في أخذهما أموال الناس بأيديهم، فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك ﴿نَكَالًا مِنَ اللَّهِ﴾ أى: تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أى: في انتقامه ﴿حَكِيمٌ﴾ أى: في أمره ونهيه وشرعه وقدره.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى: من تاب بعد سرقة وأتاب إلى الله، فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه، فأما أموال الناس فلا بد من ردها إليهم أو بدلها عند الجمهور. وقال أبو حنيفة: متى قطع وقد تلفت في يده، فإنه لا يرد بدلها. وقد روى الدارقطنى عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ أتى بسارق قد سرق شملة فقال: «ما إخاله سرق»، فقال السارق: بلى يا رسول الله. قال: «أذهبوا به فاقطعوه، ثم احسموه، ثم اتونى به». فقطع فأتى به، فقال: «تب إلى الله». فقال: تبت إلى الله. فقال: «تاب الله عليك».

وقد روى من وجه آخر مرسلًا ورجح إرساله على بن المديني وابن خزيمة. وروى ابن ماجه عن ثعلبة الأنصاري ، أن عمرو بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس جاء إلى النبي ﷺ ، فقال: يا رسول الله ، إنى سرقت جملاً لبني فلان فطهرنى ، فأرسل إليهم النبي ﷺ ، فقالوا: إنا افتقدنا جملاً لنا . فأمر به فقطعت يده ، وهو يقول: الحمد لله الذى طهرنى منك ، أردت أن تدخلنى جسدى النار (١) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو؛ أن امرأة سرقت على عهد رسول الله ﷺ ، فجاء بها الذين سرقتهم ، فقالوا: يا رسول الله ، إن هذه المرأة سرقتنا ، قال قومها: فنحن نفديها ، فقال رسول الله : «اقطعوا يدها» ، فقالوا: نحن نفديها بخمسائة دينار . فقال: « اقطعوا يدها» . فقطعت يدها اليمنى . فقالت المرأة: هل لى من توبة يا رسول الله؟ قال: «نعم ، أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك» . فأنزل الله فى سورة المائدة: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢) .

وهذه المرأة هى المخزومية التى سرقت ، وحديثها ثابت فى الصحيحين عن عائشة؛ أن قريشاً أهمهم شأن المرأة التى سرقت فى عهد النبي ﷺ ، فى غزوة الفتح ، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ؟ فأتى بها رسول الله ﷺ ، فكلمه فيها أسامة بن زيد ، فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال: «أتشفع فى حد من حدود الله ، عز وجل؟ !» فقال له أسامة : استغفر لى يا رسول الله . فلما كان العشى قام رسول الله ﷺ فاخطب ، فأتى على الله بما هو أهله ، ثم قال: «أما بعد ، فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وإنى - والذى نفسى بيده - لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» . ثم أمر بتلك المرأة التى سرقت فقطعت يدها . قالت عائشة : فحسنت توبتها بعد ، وتزوجت ، وكانت تأتى بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ . وهذا لفظ مسلم . وعن ابن عمر قال: كانت امرأة مخزومية تستعير متاعاً على السنة جاراتها وتمجده ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع يدها . رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وهذا لفظه . وقد ورد فى أحكام السرقة أحاديث كثيرة مذكورة فى كتاب «الأحكام» ، والله الحمد والمنة .

ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: هو المالك لجميع ذلك ، الحاكم فيه ، الذى لا معقب لحكمه ، وهو الفعال لما يريد ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣) .

(١) ابن ماجه (٢٥٨٨) . ووقع فى المطبوعة « عمر بن سمرة » بدل « عمرو » . وهو خطأ .
(٢) المسند (٦٦٥٧) وإسناده صحيح . وهو فى مجمع الزوائد (٢٧٦/٦) . ورواه الطبرى (١١٩١٧) مختصراً ، وإسناده صحيح أيضاً .

(٣) هذا حكم الله فى السارق والسارقة ، قاطع صريح اللفظ والمعنى ، لا يحتمل أى شك فى الثبوت ولا فى الدلالة . وهذا حكم رسول الله تفضيلاً لحكم الله وطاعة لأمره ، فى الرجال والنساء : قطع اليد ، لاشك فيه ، حتى ليقول ﷺ بأبى هو وأمى : « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

﴿ يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا
ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَكَّعُوا لِلْكَذِبِ
سَكَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ
هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتُوهُ فَأَحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً

= فانظروا إلى ما فعل بنا أعداؤنا المبشرون المستعمرون! العبوا بديننا ، وضربوا علينا قوانين وثنية ملعونة مجرمة ، نسخروا بها حكم الله وحكم رسوله . ثم ربوا فينا ناساً ينتسبون إلينا ، أشربوهم في قلوبهم بغض هذا الحكم ، ووضعوا على ألسنتهم كلمة الكفر : أن هذا حكم قاس لا يناسب هذا العصر الماجن ، عصر المدنية المتهتكة ! وجعلوا هذا الحكم موضع سخريتهم وتندرهم ! فكان عن هذا أن امتلأت السجون - في بلادنا وحدها - بمئات الألوف من اللصوص ، بما وضعوا في القوانين من عقوبات للسرقة ليست برادعة ، ولن تكون أبداً رادعة ، ولن تكون أبداً علاجاً لهذا الداء المستشري .

ثم أدخلها في عقول الطبقة المثقفة ، وخاصة القائمين على هذه القوانين الوثنية - ما يسمونه « علم النفس » . وهو ليس بعلم ولا شبيه به . بل هو أهواء متناقضة متباينة . لكل إمام من أئمة الكفر في هذا العلم رأى يقض رأى مخالفه . ثم جاؤوا في التطبيق يلتمسون الأعذار من « علم النفس » لكل لص بحسبه . ثم زاد الأمر شراً أن يكتب اللصوص أنفسهم كلاماً يلتمسون به الأعذار لجرمهم . وقام المدافعون عنهم المقامات التي توردهم النار : يعلمون أن الجريمة ثابتة ، فلا يحاولون إنكارها ، بل يحاولون التهوين من شأنها ، بدراسة نفسية المجرم وظروفه !!

ولقد جادلت منهم رجالاً كثيراً من أساطينهم ، فليس عندهم إلا أن حكم القرآن في هذا لا يناسب هذا العصر !! وأن المجرم إن هو إلا مريض يجب علاجه لا عقابه . ثم ينسبون قول الله سبحانه في هذا الحكم بعينه : ﴿ جَزَاءُ بِمَا كَسَبَ نَكَالًا مِنَ اللَّهِ ﴾ . فالله سبحانه - وهو خالق الخلق ، وهو أعلم بهم ، وهو العزيز الحكيم - يجعل هذه العقوبة للتكبير بالسارقين ، نصاً قاطعاً صريحاً . فأين يذهب هؤلاء الناس !!

المسألة - عندنا نحن المسلمين - هي من صميم العقيدة ، ومن صميم الإيمان . فهؤلاء المنتسبون للإسلام ، المنكروين حد القطع أو الراغبين عنه - سنسألهم : أتؤمنون بالله وبأنه خلق هذا الخلق ؟ فيقولون : نعم . أتؤمنون بأنه أرسل رسوله محمداً بالهدى ودين الحق ، وأنزل عليه هذا القرآن من لدنه هدى للناس وإصلاحاً لهم في دينهم وديناهم ؟ فيقولون : نعم . أتؤمنون بأن هذه الآية بعينها ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ من القرآن ؟ فيقولون : نعم . أتؤمنون بأن تشريع الله قائم ملزم للناس في كل زمان وفي كل مكان ، وفي كل حال ؟ فيقولون نعم . إذن فأني تصرفون؟! وعلى أي شرع تقومون؟! أما من أجاب - بمن ينتسب للإسلام - على أي سؤال من هذه السؤالات بأن: لا ، فقد فرغنا منه وعرفنا مصيره . وقد أيقن كل مسلم ، من عالم أو جاهل ، مثقف أو أمي - أن من يقول في شيء من هذا « لا » فقد خرج من الإسلام ، وتردى في حماة الردة . وأما من عدا المسلمين ، ومن عدا المنتسبين للإسلام ، فلن نجادلهم في هذا ، ولن نسأيرهم في الحديث عنه ، إذ لم يؤمنوا بمثل ما آمننا . ولن يرضوا عنا أبداً إلا أن نقول مثل قولهم ! وعباداً بالله من ذلك .

ولو عقل هؤلاء الناس - الذين ينتسبون للإسلام - لعلموا أن بضعة أيد من أيدي السارقين لو قطعت كل عام ، لنجت البلاد من سبة اللصوص ، ولما وقع كل عام إلا بضع سرقات ، كالشيء النادر ، ولخلت السجون من مئات الألوف التي تجعل السجون مدارس حقيقية للتفنن في الجرائم . لو عقلوا لفعلوا ، ولكنهم يصرون على باطلهم ، ليرضى عنهم سادتهم ومعلموهم ! وهيئات !!

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمِعْتُمْ لِلْكَذِبِ أَكْثَلُونَ لِلْحَقِّ فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرَضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَنِيِّونَ وَالْأَحْبَارَ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِنَائِبِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾

نزلت هذه الآيات الكريمت في المسارعين في الكفر، اخرجين عن طاعة الله ورسوله، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله، عز وجل ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ أي: أظهروا الإيمان بالسنتهم، وقلوبهم خراب خاوية منه، وهؤلاء هم المنافقون. ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أعداء الإسلام وأهله . وهؤلاء كلهم ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي: مستجيبون له، منفعلون عنه ﴿سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ أي: يستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمد . وقيل: المراد أنهم يتسمعون الكلام، وينهونه إلى أقوام آخرين ممن لا يحضر عندك، من أعدائك ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أي: يتأولونه على غير تأويله، ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُرْتِمْتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتِرْهُ فَاحْذَرُوا﴾. قيل: نزلت في أقوام من اليهود، قتلوا قتيلًا، وقالوا: تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد، فإن بالدية فاقبلوه، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه .

والصحيح أنها نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، من الأمر برجم من أحصن منهم، فحرقوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، والتحميم والإركاب على حمارين مقلوبين ! فلما وقعت تلك الكائنة بعد هجرة النبي ﷺ، قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك .

وقد وردت الأحاديث بذلك، فقال مالك، عن نافع، عن ابن عمر أنه قال: إن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟» فقالوا: نفضحهم ويُجلدون. قال عبد الله بن سلام: كذبتم، إن فيها الرجم. فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك. فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، فأرابت الرجل يحنى على المرأة

بقيها الحجارة. أخرجاه ، وهذا لفظ البخارى (١). وفى لفظ له: « قال لليهود: ما تصنعون بهما؟ » قالوا: نُسَخِمَ وجوههما ونُخزِيهما. قال: ﴿فَأْتُوا بِالتُّورَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩٣]. فجاؤوا، فقالوا لرجل منهم ممن يرضون أعور: اقرأ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها فوضع يده عليه، قال: ارفع يدك. فرفع، فإذا آية الرجم تلوح، قال: يا محمد، إن فيها آية الرجم، ولكننا نتكاثمه بيننا. فأمر بهما فُرَجِمَا (٢). وعند مسلم: أن رسول الله ﷺ أتى يهودى ويهودية قد زنيا، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود، فقال: «ما تجدون فى التوراة على من زنى؟» قالوا: نُسَوِّدُ وجوههما ونُحْمَلُهما، ونخالف بين وجوههما ويُطَافُ بهما، قال: ﴿فَأْتُوا بِالتُّورَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال: فجاؤوا بها، فقرأوها، حتى إذا مر بآية الرجم وضع الفتى الذى يقرأ يده على آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها. فقال له عبد الله بن سلام - وهو مع رسول الله ﷺ: مره فليرفع يده. فرفع يده، فإذا تحتها آية الرجم. فأمر بهما رسول الله ﷺ فُرَجِمَا. قال عبد الله بن عمر: كنت فيمن رجمهما، فلقد رأيته بقيها من الحجارة بنفسه (٣).

وروى الإمام أحمد عن البراء بن عازب قال: مرَّ على رسول الله ﷺ يهودى محمَّم مجلود ، فدعاهم فقال: « أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم؟ » فقالوا: نعم ، فدعا رجلاً من علمائهم فقال: « أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حدَّ الزانى فى كتابكم؟ » فقال: لا، والله، ولولا أنك نَشَدْتَنِي بهذا لم أخبرك، نجد حد الزانى فى كتابنا الرجم، ولكنه كثر فى أشرفنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا حتى نجعل شيئاً نقيمه على الشريف والوَضِيع، فاجتمعنا على التحميم والجلد. فقال النبى ﷺ: « اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه ». قال: فأمر به فرجم، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله: ﴿يَقُولُونَ إِن أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ يقولون: اتنوا محمداً، فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، إلى قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: فى اليهود إلى قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قال: فى اليهود ، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قال: فى الكفار كلها . انفرد بإخراجه مسلم دون البخارى، وأبو داود، والنسائى، وابن ماجه (٤).

وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدى فى مسنده: حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا مُجَالِدُ ابْنِ سَعِيدِ الهمداني، عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله قال: زنى رجل من أهل فدك،

(١) البخارى (٦ / ٤٦٣ ، ، ١٢ / ١٤٨ - ١٥٣ فتح) . وهو فى الموطأ (ص ٨١٩) .

(٢) البخارى (١٣ / ٤٣٢ فتح) . وهو من رواية أيوب عن نافع عن ابن عمر . ومن هذا الوجه رواه أحمد فى المسند (٤٤٩٨) .

(٣) مسلم (٢ / ٣٦) .

(٤) المسند (٤ / ٢٨٦ حلى) ومسلم (٢ / ٣٧) . ورواه الطبرى كاملاً (١٢٠٣٤ ، ١٢٠٣٦) . ورواه ناقصاً (١١٩٢٢) ، ثم روى باقيه (١١٩٣٩ ، ١٢٠٢٢) .

فكتب أهل فدك إلى ناس من اليهود بالمدينة : أن سلوا محمداً عن ذلك ؟ فإن أمركم بالجلد فخذوه عنه ! وإن أمركم بالرجم فلا تأخذوه عنه ! فسألوه عن ذلك ؟ فقال : « أرسلوا إلى أعلم رجلين فيكم ». فجاؤا برجل أعور - يقال له : ابن صوريا - وآخر ، فقال لهما النبي ﷺ : « أنتما أعلم من قبلكما ؟ ». فقالا : قد لَحَانَا قَوْمَنَا كَذَلِكَ ، فقال النبي ﷺ لهما : « أليس عندكما التوراة فيها حكم الله ؟ » قالوا : بلى ، فقال النبي ﷺ : « أشدكم بالذى قَلَقَ البحرَ لبني إسرائيل ، وظَلَّلَ عليكم العَمَامَ ، وأنجاكم من آل فرعون ، وأنزل المن والسلوى على بني إسرائيل - ما تجدون في التوراة في شأن الرجم ؟ » فقال أحدهما للآخر : ما نُشِدُّتُ بمثله قط . قالوا : نجد ترداد النظر زنية والاعتناق زنية ، والقَبْلَ زنية ، فإذا شهد أربعة أنهم رأوه يبدئ ويعيد ، كما يدخل الميل في المكْحَلَة ، فقد وجب الرجم . فقال النبي ﷺ : « هو ذاك » . فأمر به فَرُجِمَ ، فنزلت : « فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » . ورواه أبو داود وابن ماجه ، نحوه (١) .

فهذه أحاديث دالة على أن رسول الله ﷺ حكم بموافقة حكم التوراة ، وليس هذا من باب الإلزام لهم بما يعتقدون صحته ؛ لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدي لا محالة ، ولكن هذا بوحى خاص من الله ، عز وجل ، إليه بذلك ، وسؤاله إياهم عن ذلك ليقررهم على ما بأيديهم ، مما تواطؤوا على كتمانهم وجحدته ، وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة . فلما اعترفوا به - مع عملهم على خلافه - بان زيغهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم ، وعدولهم إلى تحكيم الرسول ﷺ إنما كان عن هوى منهم وشهوة لموافقة آرائهم ، لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به . لهذا قالوا : « إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا » أى : الجلد والتحميم « فَخُذُوهُ » أى : اقبلوه « وَإِنْ لَمْ تُؤْتُوهُ فَاحْذَرُوا » أى : من قبلوه واتباعه .

قال الله تعالى : « وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حِزْبٌ حَزِيٌّ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ » أى : الباطل « أَكَاوُنَ لِلْسُّحْتِ » أى : الحرام ، وهو الرشوة ، كما قاله ابن مسعود وغير واحد ، أى : ومن كانت هذه صفته كيف يطهر الله قلبه ؟ وأنى يستجيب له ؟ ! ثم قال لنبية : « فَإِنْ جَاءُوكَ » أى : يتحاكمون إليك « فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا » أى : فلا عليك ألا تحكم بينهم ؛ لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق ، بل ما يوافق أهواءهم . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والسدي ، وزيد بن أسلم ، وعطاء الخراساني : هى منسوخة

(١) مجالد بن سعيد الهمداني : حديثه حسن ، كما رجحنا فى مواضع متعددة . والحديث فى أبى داود (٤٤٥٢) من طريق مجالد أيضاً . ورواية أبى داود مختصرة . والتفصيل الذى فى رواية الحميدى هذه لم نجد فى غير هذا الموضع . وقول اليهوديين « قد لَحَانَا قَوْمَنَا كَذَلِكَ » هكذا ثبت فى المخطوطتين واضحاً « لَحَانَا » باللام والحاء المهملة . و « اللحو » : الشتم ، يقال : « لَحَا الرجل لِحْوًا : شتمه » . فلعل الحرف استعمل هنا فى معنى أعم من ذلك ، كأنهما يقولان : قد نسب إلينا قومنا ذلك ونبزونا به ، كأنهما يقولانه تواضعاً ! وفى المطبوعة « قد دعانا قومنا لذلك » . وهو تحريف ، وما فى المخطوطتين أجود وأصح .

بقوله: ﴿وَأَن احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩] (١) ، ﴿وَأَن حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أى : بالحق والعدل وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ .

ثم قال تعالى - منكرأ عليهم فى آرائهم الفاسدة ومقاصدهم الزائغة، فى تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذى بأيديهم، الذى يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبداً، ثم خرجوا عن حكمه وعدلوا إلى غيره، مما يعتقدون فى نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم - فقال: ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ تَمَّ يَتْلُونَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ .

ثم مدح التوراة التى أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران، فقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ أى: لا يخرجون عن حكمها ولا يبدلون لها ولا يحرفونها ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ﴾ أى: وكذلك الربانيون منهم وهم العباد العلماء، والأخبار وهم العلماء ﴿بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ أى: بما استودعوا من كتاب الله الذى أمرنا أن يظهره ويعملوا به ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُوا﴾ أى: لا تخافوا منهم وخافوا منى ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ فى قولان سيأتى بيانهما .

سبب آخر فى نزول هذه الآيات الكريمة :

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : إن الله أنزل : ﴿ وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ و ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ و ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ قال ابن عباس : أنزلها الله فى الطائفتين من اليهود ، كانت إحداهما قد قهرت الأخرى فى الجاهلية ، حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتله العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقاً ، وكل قتيل قتله الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق ، فكانوا على ذلك حتى قدم النبى ﷺ ، فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلًا ، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة : أن ابعثوا لنا مائة وسق ، فقالت الذليلة : وهل كان هذا فى حين قط دينهما واحد ، ونسبهما واحد ، وبلدهما واحد - دية بعضهم نصف دية بعض ؟ إنما أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا ، وفرقاً منكم ، فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم ذلك ، فكادت الحرب تهيج بينهما ، ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله ﷺ بينهم ، ثم ذكرت العزيزة فقالت : والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم ، ولقد صدقوا ، ما أعطونا هذا إلا ضيماً منا وقهراً لهم ، فلدسوا إلى محمد من يخبر لكم رأيه ، إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه وإن لم يعطكم حذرتم فلم تحكموه . فلدسوا إلى رسول الله ﷺ ناساً من المنافقين ليخبروا لهم رأى رسول الله ﷺ ، فلما جاؤوا رسول الله ﷺ أخبر الله رسول الله ﷺ بأمرهم كله ، وما أرادوا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ إلى قوله : ﴿ الْفَاسِقُونَ ﴾ ، ففهم - والله - أنزل ، وإياهم عنى الله ، عز وجل . ورواه أبو داود بنحوه (٢) .

(١) ستأتى الرواية عن ابن عباس فى شأن النسخ - عند تفسير الآية : (٤٨) ويأتى الكلام فى ذلك ، إن شاء الله .
(٢) المسند (٢٢١٢) . وإسناده صحيح . وهو فى مجمع الزوائد (٧ / ١٥ ، ١٦) وقال : « رواه أحمد والطبرى بنحوه . وفيه عبد الرحمن بن أبى الزناد ، وهو ضعيف ، وقد وثق ، وبقيه رجاله ثقات » . وقال أيضاً : « روى أبو داود بعضه » .

وروى ابن جرير عن ابن عباس؛ أن الآيات في «المائدة»، قوله: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ﴾ إلى: ﴿الْمُقْسِطِينَ﴾، إنما أنزلت في الدية في بنى النضير وبنى قريظة، وذلك أن قتلى بنى النضير، كان لهم شرف، تُودَى الدية كاملة، وأن قريظة كانوا يُودُونَ نصف الدية فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله ذلك فيهم، فحملهم رسول الله ﷺ على الحق في ذلك، فجعل الدية في ذلك سواء - والله أعلم أى ذلك كان . ورواه أحمد، وأبو داود، والنسائي بنحوه (١) . ثم روى ابن جرير عن ابن عباس قال: كانت قريظة والنضير ، وكانت النضير أشرف من قريظة، فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلاً من النضير قتل به، وإذا قتل النضيرى رجلاً من قريظة، وُدَى مائة وسق تمر. فلما بعث رسول الله ﷺ ، قتل رجلاً من قريظة، فقالوا: ادفعهو إليه ، فقالوا: بيننا وبينكم رسول الله ﷺ . فنزلت: ﴿وَأَنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾. ورواه أبو داود والنسائي، وابن حبان، والحاكم بنحوه (٢) . وهكذا قال قتادة، ومقاتل ابن حيان، وابن زيد وغير واحد. وقد روى عن ابن عباس: أن هذه الآيات نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، كما تقدمت الأحاديث بذلك. وقد يكون اجتمع هذان السببان في وقت واحد، فنزلت هذه الآية في ذلك كله، والله أعلم.

ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ إلى آخرها، وهذا يقوى أن سبب النزول قضية القصاص، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾: قال البراء بن عازب، وحذيفة بن اليمان، وابن عباس ، والحسن البصرى، وغيرهم: نزلت في أهل الكتاب - زاد الحسن البصرى: وهى علينا واجبة. وروى ابن جرير عن علقمة ومسروق : أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة ؟ فقال: من السُّحْتِ: قال: فقالا: وفى الحكم؟ قال: ذاك الكفر! ثم تلا: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾. وقال السُّدَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ يقول: ومن لم يحكم بما أنزلت ، فتركه عمداً ، أو جار وهو يعلم، فهو من الكافرين . وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: من جحد ما أنزل الله فقد كفر. ومن أقر به فهو ظالم فاسق . رواه ابن جرير. ثم اختار أن الآية المراد بها أهل الكتاب، أو من جحد حكم الله المنزل في الكتاب.

وروى ابن جرير عن الشعبي: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: هذا في المسلمين، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظالمون﴾ قال: هذا في اليهود، ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الفاسقون﴾ قال: هذا في النصارى . وروى عبد الرزاق عن ابن طاوس ، عن

(١) الطبرى (١١٩٧٤) من طريق ابن إسحاق . والمسند (٣٤٣٤) وأبو داود (٣٥٩١) من طريقه أيضا . وهو فى سيرة ابن هشام (ص ٣٩٥ ، ٣٩٦) طبعة أوربة . وفيها أن قوله : « والله أعلم أى ذلك كان » - من كلام ابن إسحاق .

(٢) الطبرى (١١٩٧٥) وأبو داود (٤٤٩٤) .

أبيه قال: سئل ابن عباس عن قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ﴾ الآية قال: هي به كفر. قال ابن طاوس: وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله. وقال عطاء: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق. رواه ابن جرير. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: ليس بالكفر الذي تذهبون إليه. ورواه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (١).

(١) الحاكم (٢ / ٣١٣)، ولفظه: «إنه ليس بالكفر الذي يذهبون إليه، إنه ليس كفرًا ينقل عن الملة ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ - كفر دون كفر». ووافقه الذهبي على تصحيحه.

وهذه الآثار - عن ابن عباس وغيره - مما يلعب به المضللون في عصرنا هذا، من المنتسبين للعلم، ومن غيرهم من الجراء على الدين: يجعلونها عذرًا أو إباحية للقوانين الوثنية الموضوعه، التي ضربت على بلاد الإسلام.

وهناك أثر عن أبي مجلز، في جدال الإباضية الخوارج إياه، فيما كان يصنع بعض الأمراء من الجور، فيحكمون في بعض قضائهم بما يخالف الشريعة، عمدًا إلى الهوى، أو جهلاً بالحكم. والخوارج، من مذهبهم أن مرتكب الكبيرة كافرة، فهم يجادلون يريدون من أبي مجلز أن يوافقهم على ما يرون من كفر هؤلاء الأمراء، ليكون ذلك عذرًا لهم فيما يرون من الخروج عليهم بالسيف. وهذا الأثران رواهما الطبري (١٢٠٢٥)، وكتب عليهما أخى السيد محمود محمد شاعر تعليقا نفيسا جدا، قويا صريحا. فرأيت أن أثبت هنا نص أولى روايتي الطبري، ثم تعليق أخى على الروايتين.

فروى الطبري (١٢٠٢٥) عن عمران بن حدير، قال: «أتى أبا مجلز ناسٌ من بنى عمرو بن سدوس، فقالوا: يا أبا مجلز، أرايت قول الله ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أحق هو؟ قال: نعم، قالوا: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أحق هو؟ قال: نعم، قالوا: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أحق هو؟ قال: نعم، قال: فقالوا: يا أبا مجلز، فيحكم هؤلاء بما أنزل الله؟ قال: هو دينهم الذي يدينون به، وبه يقولون، وإليه يدعون، فإن هم تركوا شيئا منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنبا، فقالوا: لا والله، ولكنك تفرق! قال: أنتم أولى بهذا مني! لا أرى، وإنكم ترون هذا ولا تحرجون! ولكنها أنزلت في اليهود والنصارى وأهل الشرك، أو نحوًا من هذا».

ثم روى الطبري (١٢٠٢٦) نحو معناه. وإسناده صحيحان. فكتب أخى السيد محمود، بمناسبة هذين الاثرين ما نصه:

«اللهم إني أبرأ إليك من الضلالة. وبعد، فإن أهل الرب والفتن ممن تصدوا للكلام في زماننا هذا، قد تلمس المعذرة لأهل السلطان في ترك الحكم بما أنزل الله، وفي القضاء في الدماء والأعراض والأموال بغير شريعة الله التي أنزلها في كتابه، وفي اتخاذهم قانون أهل الكفر شريعة في بلاد الإسلام. فلما وقف على هذه الخبرين، اتخذهما رأيا يرى به صواب القضاء في الأموال والأعراض والدماء بغير ما أنزل الله، وأن مخالفة شريعة الله في القضاء العام لا تكفر الراضى بها، والعامل عليها.

والناظر في هذين الخبرين لا محيص له عن معرفة السائل والمسؤول، فأبو مجلز (لاحق بن حميد الشيباني الدوسي) تابعي ثقة، وكان يحب عليًا رضي الله عنه. وكان قوم أبي مجلز، وهم بنو شيبان، من شيعة على يوم الجمل وصفين. فلما كان أمر الحكمين يوم صفين، واعتزلت الخوارج، كان فيمن خرج على علي رضي الله عنه، طائفة من بنى شيبان، ومن بنى سدوس ابن شيبان بن ذهل. وهؤلاء الذين سألوا أبا مجلز، ناس من بنى عمرو بن سدوس (كما في الأثر: ١٢٠٢٥)، وهم نفر من الإباضية (كما في الأثر: ١٢٠٢٦)، والإباضية من جماعة الخوارج الحرورية، هم أصحاب عبد الله بن أباض التميمي، وهم يقولون بمقالة سائر =

﴿ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ﴿٤٥﴾

= الخوارج في التحكيم ، وفي تكفير على رضي الله عنه إذ حكم الحكيمين ، وأن علياً لم يحكم بما أنزل الله ، في أمر التحكيم . ثم إن عبد الله بن إياض قال: إن من خالف الخوارج كافر ليس بمشرك ، فخالف أصحابه ، وأقام الخوارج على أن أحكام المشركين تجري على من خالفهم .

ثم اختلفت الإباضية بعد عبد الله بن إياض الإمام افتراضاً لا ندرى معه في أمر هذين الخبرين - من أي الفرق كان هؤلاء النسائلون ، بيد أن الإباضية كلها تقول : إن دور مخالفيهم دور توحيد ، إلا معسكر السلطان فإنه دار كفر عندهم . ثم قالوا أيضاً : إن جميع ما افترض الله سبحانه على خلقه إيمان ، وأن كل كبيرة فهي كفر نعمة ، لا كفر شرك ، وأن مرتكبي الكبائر في النار خالدون مخلدون فيها .

ومن البين أن الذين سألوا أبا مجلز من الإباضية ، ، إنما كانوا يريدون أن يلزموا الحجة في تكفير الأمراء ، لأنهم في معسكر السلطان ، ولأنهم ربما عصوا أو ارتكبوا بعض ما نهاهم الله عن ارتكابه . ولذلك قال لهم في الخبر الأول (رقم : ١٢٠٢٥) : « فإن هم تركوا شيئاً منه عرفوا أنهم قد أصابوا ذنباً » ، وقال لهم في الخبر الثاني : « إنهم يعملون بما يعملون ويعلمون أنه ذنب » .

وإذن ، فلم يكن سؤالهم عما احتج به مبتدعة زماننا ، من القضاء في الأموال والأعراض والدماء بقانون مخالف لشريعة أهل الإسلام ، ولا في إصدار قانون ملزم لأهل الإسلام ، بالاحتكام إلى حكم غير الله في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم . فهذا الفعل إعراض عن حكم الله ، ورغبته عن دينه ، وإيثار لأحكام أهل الكفر على حكم الله سبحانه وتعالى ، وهذا كفر لا يشك أحد من أهل القبلة على اختلافهم في تكفير القاتل به والداعي إليه .

والذي نحن فيه اليوم ، هو هجر لأحكام الله عامة بلا استثناء ، وإيثار أحكام غير حكمه في كتابه وستة نبيه ، وتعطيل لكل ما في شريعة الله ، بل بلغ الأمر مبلغ الاحتجاج على تفضيل أحكام القانون الموضوع ، على أحكام الله المنزلة ، وإدعاء المحتجين لذلك بأن أحكام الشريعة إنما نزلت لزمان غير زماننا ، ولعلل وأسباب انقضت ، فسقطت الأحكام كلها بانقضائها . فأين هذا مما بيناه من حديث أبي مجلز والنفر من الإباضية من بنى عمرو بن سدوس !!

ولو كان الأمر على ما ظنوا في خبر أبي مجلز ، أنهم أرادوا مخالفة السلطان في حكم من أحكام الشريعة . فإنه لم يحدث في تاريخ الإسلام أن سن حاكم حكماً وجعله شريعة ملزمة للقضاء بها . هذه واحدة . وأخرى ، أن الحاكم الذي حكم في قضية بعيثها بغير حكم الله فيها ، فإنه إما أن يكون حكم بها وهو جاهل ، فهذا أمر الجاهل بالشريعة . وإما أن يكون حكم بها هوى ومعصية ، فهذا ذنب تناله التوبة ، وتلحقه المغفرة . وإما أن يكون حكمه به متأولاً حكماً خالف به سائر العلماء فهذا حكمه حكم كل متأول يستمد تأويله من الإقرار بنص الكتاب ، وستة رسول الله .

وأما أن يكون كان في زمن أبي مجلز أو قبله أو بعده حاكم حكم بقضاء في أمر ، جاحداً لحكم من أحكام الشريعة ، أو مؤثراً لأحكام أهل الكفر على أحكام أهل الإسلام ، فذلك لم يكن قط . فلا يمكن صرف كلام أبي مجلز والإباضيين إليه . فمن احتج بهذه الأثرين وغيرهما في غير بابها ، وصرفها إلى غير معناها ، رغبة في نصرة سلطان ، أو احتيالا على تسوية الحكم بغير ما أنزل الله وفرض على عباده ، فحكمه في الشريعة حكم الجاحد لحكم من أحكام الله : أن يستتاب ، فإن أصر وكابر وجحد حكم الله ، ورضى بتبديل الأحكام فحكم الكافر المصر على كفره معروف لأهل هذا الدين . وكتبه محمود محمد شاكر .

وهذا أيضاً مما وُبِّحَتْ به اليهود وُقِرُّوا عليه، فإن عندهم فى نص التوراة: أن النفس بالنفس. وهم يخالفون حكم ذلك عمداً وعناداً، ويُقيدون النضرى من القرظى، ولا يُقيدون القرظى من النضرى، بل يعدلون إلى الدية! كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم فى رجم الزانى المحصن، وعدلوا إلى ما اصطَلَحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار! ولهذا قال هناك: «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» لأنهم جحدوا حكم الله قصداً منهم وعناداً وعمداً، وقال ههنا: «فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم فى الأمر الذى أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه، فخالفوا وظلموا، وتعدوا على بعضهم على بعضنا. وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قرأها: «وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ» نصب «النفس» ورفع «العين». وكذا رواه أبو داود، والترمذى، وقال الترمذى: حسن غريب. وقال البخارى: تفرد ابن المبارك بهذا الحديث (١).

وقد استدلل كثير ممن ذهب من الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا، إذا حكى مقررأ ولم ينسخ، كما هو المشهور عن الجمهور، وكما حكاه الشيخ أبو إسحاق الاسفراينى عن نص الشافعى وأكثر الأصحاب - بهذه الآية، حيث كان الحكم عندنا على وفقها فى الجنائيات عند جميع الأئمة. وقال الحسن البصرى: هى عليهم وعلى الناس عامة. رواه ابن أبى حاتم. وقد حكى الإمام أبو نصر بن الصباغ فى كتابه «الشامل» إجماع العلماء على الاحتجاج بهذه الآية على ما دلت عليه، وقد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة بعموم هذه الآية الكريمة، وكذا ورد فى الحديث الذى رواه النسائى وغيره: أن رسول الله ﷺ كتب فى كتاب عمرو بن حزم: «أن الرجل يقتل بالمرأة» وفى الحديث الآخر: «المسلمون تتكافأ دماؤهم»، وهذ قول جمهور العلماء. وكذا احتج أبو حنيفة بعموم هذه الآية على أنه يقتل المسلم بالكافر، وعلى قتل الحر بالعبد، وقد خالفه الجمهور فيهما، ففى الصحيحين عن على قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقتل مسلم بكافر»، وأما العبد ففيه عن السلف آثار متعددة: أنهم لم يكونوا يُقيدون العبد من الحر، ولا يقتلون حراً بعبد، وجاء فى ذلك أحاديث لا تصح، وحكى الشافعى الإجماع على خلاف قول الحنفية فى ذلك، ولكن لا يلزم من ذلك بطلان قولهم إلا بدليل مخصص للآية الكريمة.

ويؤيد ما قاله ابن الصباغ من الاحتجاج بهذه الآية الكريمة - الحديث الثابت فى ذلك، كما روى الإمام أحمد: عن أنس بن مالك: أن الربيع عمّة أنس كسرت ثنية جارية، فطلبوا إلى

(١) المسند (١٣٢٨٢) والترمذى (٥٨ / ٤) وأبو داود (٣٩٧٦، ٣٩٧٧) والحاكم (٢ / ٢٣٦) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه». ووافقه الذهبى. وأشار إليه البخارى فى الكنى، رقم (٤٥٥) وابن أبى حاتم (٤٠٩ / ٢ / ٤).

والقراءة برفع «العين» ثم رفع ما بعدها - قراءة الكسائى. وقرأ أبو عمرو وابن كثير وابن عامر بنصب «والعين» وما بعدها، ما عدا «الجروح» فقرؤها بالرفع. وقرأ باقى السبعة بنصب الجميع «والعين»... «والجروح».

القوم العفو ، فأبوا ، فأتوا رسول الله ﷺ فقال: « القصاص ». فقال أخوها أنس بن النضر: يا رسول الله ، تكسر ثنية فلانة؟! فقال رسول الله ﷺ: « يا أنس ، كتاب الله القصاص ». قال: فقال : لا ، والذي بعثك بالحق ، لا تكسر ثنية فلانة . قال : فرضى القوم ، فغفوا وتركوا القصاص ، فقال رسول الله ﷺ: « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » . أخرجاه فى الصحيحين . وروى أبو داود عن عمران ابن حصين، أن غلاماً لأناس فقراء قطع أذن غلام لأناس أغنياء ، فأتى أهله النبى ﷺ فقالوا: يا رسول الله ، إنا أناس فقراء ، فلم يجعل عليه شيئاً . وكذا رواه النسائى . وإسناده قوى ، رجاله كلهم ثقات . وهو حديث مشكل ، اللهم إلا أن يقال: إن الجانى كان قبل البلوغ ، فلا قصاص عليه ، ولعله تحمل أرضاً ما نقص من غلام الأغنياء عن الفقراء ، أو استعفاهم عنه .

وقوله تعالى: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ قال ابن عباس: تقتل النفس بالنفس، وتفقد العين بالعين، ويقطع الأنف بالأنف، وتترع السن بالسن، وتقتص الجراح بالجراح. فهذا يستوى فيه أحرار المسلمين فيما بينهم، رجالهم ونساؤهم، إذا كان عمداً فى النفس وما دون النفس، ويستوى فيه العبيد رجالهم ونساؤهم فيما بينهم إذا كان عمداً، فى النفس وما دون النفس . رواه ابن جرير وابن أبى حاتم (١) .

وقوله: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ قال ابن عباس: يقول: فمن عفا عنه، وتصدق عليه فهو كفارة للمطلوب، وأجر للطالب. وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: فمن تصدق به فهو كفارة للجراح ، وأجر المجروح على الله ، عز وجل . رواه ابن أبى حاتم، ثم قال: وروى عن خيثمة بن عبد الرحمن، ومجاهد، وإبراهيم - فى أحد قوليه - الشعبى، وجابر بن زيد - نحو ذلك . وروى ابن أبى حاتم عن الهيثم أبى العريان النخعى ، قال: رأيت عبد الله بن عمرو عند معاوية أحمر شبيهاً بالموالى ، فسألته عن قول الله: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ قال: يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به . ورواه ابن جرير (٢) . ثم روى ابن جرير عن أبى السَّفر ، قال: دفع رجل من قريش رجلاً من الأنصار، فاندقت ثنيته، فرفعه الأنصارى إلى معاوية، فلما ألح عليه الرجل قال: شأنك وصاحبك . قال: وأبو الدرداء عند معاوية، فقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يصاب بشيء فى جسده، فيهبه، إلا رفعه الله به درجة،

(١) هذا التشريع الثابت بنص القرآن الكريم - الذى أخبرنا الله سبحانه فى هذه الآيات أنه ثابت فى التوراة - جعله الإفرنج الكفرة الفجرة مما يتندرون به فى أقوالهم وكتاباتهم ، يسمونه « شريعة الغاب » !! عن كفرهم بالأديان ، وإنكارهم للشرائع السماوية . حتى سارت هذه الكلمة المنكرة مثلاً . ثم يقلدهم الملحدون من المنتسبين للإسلام، والجاهلون من المسلمين ، لا يدرون أنهم بذلك طعنوا فى التشريع الإلهى الثابت فى الأديان الثلاثة السماوية ! فليحذر المسلمون مواطن الزلق ، وليصونوا ألتتهم وأفلامهم . أما الملحدون فهم الملحدون .

(٢) الطبرى (١٢٠٧٣ - ١٢٠٧٥) . وأسانيده - عندهما - صحاح . و « الهيثم أبى العريان » : هو « الهيثم بن الأسود » كنيته « أبو العريان » . وهو ثقة من خيار التابعين . ووقع فى الأصول المخطوطة والمطبوعة هنا : « الهيثم ابن العريان » . وهو تحريف من الناسخين .

وحط عنه به خطيئة». فقال الأنصاري: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: سمعته أذناي ووعاه قلبي، فخلني سبيل القرشي، فقال معاوية: مروا له بما. ورواه الإمام أحمد عن أبي السفر، قال: كسر رجل من قريش سن رجل من الأنصار، فاستعدى عليه معاوية، فقال معاوية: إنا سنرضيه. فالح الأنصاري، فقال معاوية: شأنك بصاحبك، وأبو الدرداء جالس، فقال أبو الدرداء سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يضاب بشيء من جسده، فيتصدق به، إلا رفعه الله به درجة أو حط عنه خطيئة». فقال الأنصاري: قد عفوت. وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه. ثم قال الترمذي: غريب هذا الوجه، ولا أعرف لأبي السفر سمعاً من أبي الدرداء (١). وروى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يجرح من جسده جراحة، فيتصدق بها، إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق به». ورواه النسائي وابن جرير (٢). وروى الإمام أحمد عن المحرر بن أبي هريرة، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: «من أصيب بشيء من جسده، فتركه لله، كان كفازة له» (٣). وقوله: «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»، قد تقدم عن طاوس وعطاء أنهما قالا: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق.

﴿وَقَفَيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَإِنَّا لَنَجِئُ فِيهِ هُدًى وَنُورًا وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْذَرُوا أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَقَفَيْنَا﴾ أى: أتبعنا ﴿عَلَى آثَرِهِمْ﴾ يعنى: أنبياء بنى إسرائيل ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أى: مؤمناً بها حاكماً بما فيها ﴿وَأَنبِئَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورًا﴾ أى: هدى إلى الحق، ونور يستضاء به فى إزالة الشبهات وحل المشكلات ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أى: متبعاً لها، غير مخالف لما فيها، إلا فى القليل مما بين لبنى إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبنى إسرائيل: ﴿وَلَأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]؛ ولهذا كان المشهور من قول العلماء: أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة. وقوله تعالى: ﴿وَهُدًى﴾ أى: وجعلنا الإنجيل هدى يهتدى به ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ أى: زاجراً عن ارتكاب المحارم والمآثم ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ أى: لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه.

(١) رواية الطبرى فى التفسير (١٢٠٨٠). ورواية الإمام أحمد فى المسند (٦ / ٤٤٨ حلى). وهو فى الترمذي (٣٠٥ / ٢) وابن ماجه (٢٦٩٣)، وروايته مختصرة. و «أبو السفر»: بفتح السين والفاء. وروايته عن أبى الدرداء مرسله؛ لأنه مات سنة ١١٢ أو ١١٣. وأبو الدرداء مات سنة ٣٢.

(٢) المسند (٥ / ٣١٦ حلى) والطبرى (١٢٠٨١). وإسنادهما صحيحان.

(٣) إسناده حسن. ووظاهر اللفظ هنا أنه موقوف على الصحابي. وأخشى أن يكون سهواً من الناسخين؛ لأن الإمام أحمد لا يروى الموقوفات فى المسند إلا أن تكون تبعاً لحديث مرفوع. ثم لم أستطع معرفة موضعه فى المسند.

وقوله: ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾، قرئ: ﴿وَلِيَحْكُمَ﴾ بالنصب على أن اللام لام كى، أى: وآتيناه الإنجيل ليحكم أهل ملته به فى زمانهم. وقرئ: ﴿وَلِيَحْكُمَ﴾ بالجرم على أن اللام لام الأمر، أى: ليؤمنوا بجميع ما فيه، وليقيموا ما أمروا به فيه، وبما فيه البشارة ببعثة محمد والأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ [الاعراف: ١٥٧]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أى: الخارجون عن طاعة ربهم، المائلون إلى الباطل، التاركون للحق. وقد تقدم أن هذه الآية نزلت فى النصارى، وهو ظاهر من السياق.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَقُوا أَلْحَادَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرَجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنزِلْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن أَحْكَم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَم أَنهَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

لما ذكر تعالى التوراة التى أنزلها الله على موسى كلمه ، ومدحها وأثنى عليها، وأمر باتباعها حيث كانت سائغة الاتباع، وذكر الإنجيل ومدحه، وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه، كما تقدم بيانه - شرع تعالى فى ذكر القرآن العظيم، الذى أنزله على عبده ورسوله الكريم، فقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أى: بالصدق الذى لا ريب فيه أنه من عند الله ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أى: من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فكان نزوله كما أخبرت به، مما زادها صدقاً عند حاملها من ذوى البصائر، الذين انتقادوا لأمر الله واتبعوا شرائع الله، وصدقوا رسل الله، كما قال تعالى: ﴿إِن الَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] أى: إن كان ما وعدنا الله على ألسنة الرسل المتقدمين، من مجيء محمد، عليه السلام ﴿لَمَفْعُولًا﴾ أى: لكائناً لا محالة ولا بد .

وقوله: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ قال ابن عباس، أى: مؤمناً عليه. وقال: القرآن أمين على كل كتاب قبله . وروى عن عكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وغيرهم نحو ذلك. وقال ابن جرير: القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه منها فهو باطل . وعن ابن عباس: أى: حاكماً على ما قبله من الكتب. وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم «المهيمن» يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا

الكتاب العظيم، الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها - أشملها وأعظمها وأكملها ، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ؛ فهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها . وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة ، فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] . فأما ما حكاه ابن أبي حاتم، عن عكرمة، وسعيد بن جبير ، وغيرهما أنهم قالوا في قوله: ﴿ وَمُهَيِّمِنَا عَلَيْهِ ﴾ يعني: محمداً ﷺ أمين على القرآن - فإنه صحيح في المعنى، ولكن في تفسير هذا بهذا نظراً، وفي تنزيله عليه من حيث العربية أيضاً نظراً . وبالجملة فالصحيح الأول، وقال أبو جعفر بن جرير، بعد حكايته له عن مجاهد: وهذا التأويل بعيد من المفهوم في كلام العرب، بل هو خطأ، وذلك أن «المهيمن» عطف على «المصدق»، فلا يكون إلا صفة لما كان «المصدق» صفة له . ولو كان كما قال مجاهد لقال: «وأنزلنا إليك الكتاب مُصدقا لما بين يديه من الكتاب مهيمنا عليه» . يعني من غير عطف (١) .

وقوله: ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أى: فاحكم - يا محمد - بين الناس: عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم بما أنزل الله إليك هذا الكتاب العظيم، وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه في شرعك . هكذا وجهه ابن جرير بمعناه . وروى ابن أبي حاتم من طريق سفيان بن حسين، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ مخيراً، إن شاء حكم بينهم، وإن شاء أعرض عنهم . فردهم إلى أحكامهم، فنزلت: ﴿ وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ فأمر رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم بما في كتابنا (٢) .

(١) انظر : تفسير الطبرى (١٠ / ٣٨٠ - ٣٨٢) .

(٢) سبقت الإشارة إلى هذا الحديث عن ابن عباس ، ضمن الحكاية عن القائلين بالنسخ مضت عند تفسير الآية : (١٧١) من سورة النساء .

هذا الحديث إسناده عند ابن أبي حاتم إسناده صحيح . ورواه الحاكم (٢ / ٣١٢) من هذا الوجه بنحو معناه ، مختصراً ، وقال : « صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه » . ووافقه الذهبى . ورواه الطبرى (١١٩٩٦) بنحوه ، بأطول من رواية الحاكم . فرواه بالإسناد الذى رواه به ابن أبي حاتم ، ولكن قصر به ، فجعله من كلام مجاهد ! فلا أدرى : أهو تفسير من الطبرى فى الإسناد ؟ أم سقط من الناسخين قوله : « عن ابن عباس » ؟ وهذا الذى أكاد أرجحه .

وقد رواه أبو جعفر النحاس فى كتاب الناسخ والمنسوخ (ص ١٣٩) ، والبيهقى فى السنن الكبرى (٨ / ٢٤٨) ، (٢٤٩) كلاهما من هذا الوجه ، من طريق سفيان بن حسين ، بهذا الإسناد ، مطولا . ولفظه : « عن ابن عباس ، قال : نسخت من هذه السورة - معنى المائدة - آيتان : آية القلائد ، وقوله : ﴿ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ ﴾ [المائدة : ٤٢] ، فكان رسول الله ﷺ مخيراً . إن شاء حكم وإن شاء أعرض عنهم فردهم إلى أحكامهم ، فنزلت : ﴿ وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ [المائدة : ٤٩] فأمر النبي ﷺ أن يحكم بينهم بما فى كتابنا » .

وهذه الرواية هى أوفى الروايات لهذا الحديث . وكذلك نقله السيوطى فى الدر المنثور (٢ / ٢٨٤) بهذا اللفظ المطول ، ونسبه لابن أبي حاتم والنحاس فى ناسخه والطبرانى والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى سننه . ومن الواضح أنه يريد أصل الحديث ، وإلا فبعض هؤلاء رواه مختصراً ، كما فى روايتى ابن أبي حاتم والحاكم . وذكره الجصاص فى أحكام القرآن (٢ / ٤٣٤ ، ٤٣٥) معلقاً ، بنحو روايتى النحاس والبيهقى . =

وقوله : ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى : آراءهم التى اصطلمحو عليها ، وتركوا بسببها ما أنزل الله

= ثم قال النحاس - بعد رواية الحديث - : « وهذا إسناد مستقيم . وأهل الحديث يدخلونه فى المسند . وهو مع قول جماعة من العلماء » . ثم روى نحو هذا بإسناد آخر عن مجاهد ، ثم قال : « فهذا أيضا إسناد صحيح . والقول بأنهما منسوخة قول عكرمة والزهرى وعمر بن عبد العزيز والسدى . وهو الصحيح من قول الشافعى . قال فى كتاب الجزية : ولا خيار له إذا تحاكموا إليه ، لقوله تعالى : ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] . وهذا من أصح الاحتجاجات ، لأنه إذا كان معنى ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ أن تجرى عليهم أحكام المسلمين - وجب أن لا يردوا إلى أحكامهم ، فإذا وجب هذا فالآية منسوخة » .

ونقل البيهقى فى السنن الكبرى (٢٤٨ / ٨) عن الشافعى أنه « نص فى كتاب الجزية على أن ليس للإمام الخيار فى أحد من المعاهدين الذين يجرى عليهم الحكم إذا جاؤوه فى حد الله ، وعليه أن يقيمه . واحتج بقول الله عز وجل : ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] . قال : فكان الصغار - والله أعلم - أن يجرى عليهم حكم الإسلام » .

وقد رد الفاضى أبو بكر بن العربى فى أحكام القرآن (٢٦١ / ١) قول من ذهب إلى النسخ ، فقال : « وهذه دعوى عريضة ! فإن شروط النسخ أربعة ، منها : معرفة التاريخ بتحصيل المتقدم والمتأخر ، وهذا مجهول من هاتين الآيتين ، فامتنع أن يدعى أن واحدة منهما ناسخة للأخرى ، وبقي الأمر على حاله !! » وهذا كلام ملقى على عواهنه ، غير محرر .

فإن سياق الآيات ، من أول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ الآية (٤١) ، إلى آخر هذه الآيات فى الآية (٥٠) - يدل على أنه سياق واحد نزل دفعة واحدة غير منجم . ويزيده تأييدا وتوكيدا ، حديث أسماء بنت يزيد ، الذى مضى فى أول سورة المائدة الذى فيه : « إذ نزلت عليه المائدة كلها » . وكذلك حديث عبد الله بن عمرو ، المذكور عقبه هناك ، بما يدل فى ظاهره على نزول « سورة المائدة » ، من غير بيان أن بعضها تأخر نزوله عن سائرهما .

وقد رد الجصاص (٢ : ٤٣٥) برد آخر طريق ! بأنه « لم يقل من أثبت التخيير أن آية التخيير نزلت بعد قوله : ﴿ وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ [المائدة : ٤٩] وأن التخيير نسخة » . يريد بذلك أن يعقد تعاضدا بين الآيتين ، وأن لا بد أن إحداهما ناسخة ، وأنه لم يقل أحد أن آية التخيير - وهى المقدمة فى التلاوة - متأخرة النزول عن هذه الآية ﴿ وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ ﴾ حتى يكون التخيير ناسخا لها . فكان من الضرورى أن الآية التالية فى التلاوة ناسخة للتخيير الذى فى الآية قبلها .

وأما الطبرى ، فإنه أبى القول بالنسخ ، مستندا إلى القاعدة الأصولية الصحيحة : أنه لا يصار إلى القول بالنسخ إذا تعارضت الآيتان تعاضدا تاما بحيث لا يمكن الجمع بينهما . ولكنه حين أراد أن يجمع بينهما أخطأ طريق الجمع ، فتأول الآية الثانية بما يجعلها غير مقررة حكما جديدا ! بأن جعل معناها : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله إذا حكمت منهم باختيارك الحكم بينهم ، إذا اخترت ذلك ، ولم تختَر الإعراض عنهم » . انظر تفسير الطبرى (١٠ / ٣٣٣ - ٣٣٤) .

ومن المفهوم بداهة : أن هذا الجمع يكاد يجعل الأمر بالحكم بينهم فى الآيتين (٤٨ ، ٤٩) تكرارا فقط لما مضى فى الآية (٤٢) ، آية التخيير ! لأن نصها : ﴿ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ » . ثم جاءت الآية (٤٨) : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّبًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ - إلى آخر الآية . ثم جاءت بعدها الآية (٤٩) مؤكدة لحكمها ، مشتة لمعناها : ﴿ وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة : ٤٩] .

فسياق الآيات الثلاث واضح جدا ، وصریح فى أن الحكم فى الآيتين الأخيرتين غير الحكم فى الآية (٤٣) ، =

على رسوله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: لا تنصرف عن الحق

= وأنه حكم جديد. مؤكداً. مثبت. المعنى في آيتين متالتين. فجملة فيها على معنى الآية (٤٣) بأن حكمها هذا إنما هو في أحد حالى التخيير فقط. - غير سديد، ولا هو بمستقيم.

والوجه الصحيح في فهم هذه الآيات والجمع بينها، وفي فهم حديث ابن عباس بالنسخ: أن آية التخيير إنما هي في القوم الذين جاؤوا إلى رسول الله ﷺ يحكمونه بينهم في شأن الزانين وفي شأن الديارات، وهم قوم من يهود، لم يكونوا ذميين ولا معاهدين، أعنى: أنهم لم يكونوا في سلطان الدولة الإسلامية ولا خاضعين لأحكامها. بل قدموا إلى الحاكم الأعلى في الدولة الإسلامية يجعلونه حكماً بينهم في بعض شأنهم، وكانوا مستطيعين أن يحكموا بأنفسهم في شأنهم بحكم دينهم أو بأهوائهم، كعادتهم في سائر ما يعرض لديهم من الأفضية. فإذا جاؤوا إلى رسول الله ﷺ يحكمونه على بعض ما عرض لهم، أعلمه الله سبحانه أن له الخيار أن يحكم بينهم فيما حكموه فيه أو أن يعرض عنهم، وأمره في الآية نفسها أنه إذا أراد أن يحكم بينهم واختار ذلك - أن يحكم فيهم بالعدل. ويوضح ذلك وبينه كالشمس: أنه قال له في الآية التي تتلو آية التخيير: ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣]. فحددت هذه الآية معنى حكم التخيير، وأنه في قوم لجؤوا إليه وجاؤوا يجعلونه حكماً بينهم، ليس في قوم هم رعية له خاضعون لحكمه وسلطانه. ثم جاءت الآيات الأخريان بحكم جديد: بأمره أن يحكم في رعيته من أهل الكتاب ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٤] وألا يتبع أهواءهم. فليس لهم حق أن يتحاكموا إلى أهل ملتهم، وليس لهم على المسلمين امتياز بالأل يخضعوا لحكم الدولة التي هم خاضعون لأحكامها، والتي يعطون فيها الجزية عن يد وهم صاغرون.

وإلى هذا المعنى الدقيق يشير كلام الشافعي في الأم، بل يكاد يكون صريحاً. فقد قال في الجزء (٤) / ١٢٩، (١٣٠): «لم أعلم مخالفاً من أهل العلم بالسير أن رسول الله ﷺ لما نزل بالمدينة وادع يهود كافة على غير جزية، وأن قول الله عز وجل: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢]، إنما نزلت في اليهود المواعين الذين لم يعطوا جزية، ولم يقرروا بأن يجرى عليهم الحكم. وقال بعض: نزلت في اليهوديين اللذين زنيا. قال الشافعي: والذي قالوا يشبه ما قالوا، لقول الله عز وجل: ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣]، وقوله: ﴿وَأَنْ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَخْذُزَّهُمْ أَنْ يَفْتُوكَ﴾ [المائدة: ٤٩]. يعنى - والله أعلم - : إن تولوا عن حكمك بغير رضاهم. وهذا يشبه أن يكون ممن أتى حاكماً غير مقهور على الحكم. والذين حاكموا إلى رسول الله ﷺ - في امرأة منهم ورجل زنيا - موادعون. وكان في التوراة الرجم، فجاؤوا بهما فرجمهما رسول الله ﷺ، قال: وإذا وادع الإمام قوماً من أهل الشرك ولم يشترط أن يجرى عليهم الحكم، ثم جاؤوا متحاكمين، فهو بالخيار بين أن يحكم بينهم أو يدع الحكم. فإن اختار أن يحكم بينهم حكم بينهم حكمة من المسلمين، لقول الله ﴿وَأَنْ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمِاقِسِ﴾ [المائدة: ٤٢]. والقسط: حكم الله الذي أنزله عليه ﷺ. قال الشافعي: وليس للإمام الخيار في أحد من المعاهدين اللذين يجرى عليهم الحكم، إذا جاؤوه في حد الله عز وجل، وعليه أن يقبضه، ولا يفارقون المواعين إلا في هذا الموضع».

ثم قال الشافعي: «قال الله عز وجل: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. فكان الصغار - والله أعلم - أن يجرى عليهم حكم الإسلام... ولا يجوز أن تكون دار الإسلام دار مقام لمن يتمتع من الحكم في حال».

وقد ذكر الجصاص (٤٣٥/٢) هذا المعنى، وجعله محتملاً في معنى الآية، ثم رده بما لا يصلح رداً، فقال: «ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: ٤٢] قبل أن تعقد لهم الذمة ويدخلوا تحت أحكام الإسلام بالجزية، فلما أمر الله بأخذ الجزية منهم وجرت عليهم أحكام الإسلام أمر بالحكم بينهم بما أنزل الله، فيكون حكم الآيتين جميعاً ثابتاً: التخيير في أهل العهد اللذين لا ذمة =

الذى أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء .

وقوله : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ شِرْعَةً ﴾ قال : سبيلاً ﴿ وَمِنْهَاجًا ﴾ قال : سنة . وكذا روى عن مجاهد ، وعكرمة ، والحسن البصرى ، وغيرهم . وعن ابن عباس أيضاً ومجاهد عكسه : ﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ أى : سنة وسبيلاً ، والأول أنسب ، فإن - الشريعة وهى الشريعة أيضاً - هى ما يتبدأ فيه إلى الشئ ومنه يقال : ﴿ شرع فى كذا ﴾ أى : ابتداء فيه . وكذا الشريعة وهى ما يشرع منها إلى الماء . أما المنهاج : فهو الطريق الواضح السهل ،

= لهم ولم يجز عليهم إحكام المسلمين ، كأهل الحرب إذا هادناهم . وإيجاب الحكم بما أنزل الله فى أهل الذمة الذين يجزى عليهم أحكام المسلمين . وقد روى عن ابن عباس ما يدل على ذلك : روى محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس : أن الآية التى فى المائدة ، قول الله تعالى : ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ [المائدة : ٤٢] - إنما نزلت فى الدية بين بنى قريظة وبنى النضير ، وذلك : أن بنى النضير كان لهم شرف ، يدون دية كاملة ، وأن بنى قريظة يدون نصف الدية ، فتحاكموا فى ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فأنزل الله ذلك فيهم ، فحملهم رسول الله ﷺ على الحق فى ذلك ، فجعل الدية سواء . ومعلوم أن بنى قريظة والنضير لم تكن لهم ذمة قط . وقد أجلى النبى ﷺ بنى النضير وقتل بنى قريظة . ولو كان لهم ذمة لما أجلاهم ولا قتلهم ، وإنما كان بينه وبينهم عهد وهدنة فنقضوها . فأخبر ابن عباس أن آية التخيير نزلت فيهم ، فجاز أن يكون حكمها باقياً فى أهل الحرب من أهل العهد ، وحكم الآية الأخرى - فى وجوب الحكم بينهما بما أنزل الله - ثابتاً فى أهل الذمة . فلا يكون فيها نسخ . وهذا تأويل سائغ ، لولا ما روى عن السلف من نسخ التخيير بالآية الأخرى .

وحدث ابن عباس ، الذى ذكره الجصاص من رواية ابن إسحاق - حديث صحيح أيضاً ، وقد مضى عند تفسير الآيات : (٤١ - ٤٤) من سورة المائدة . وهو لا يعارض حديثه فى نسخ آية التخيير ، الذى ذكرناه مفسراً واضحاً من روايتى النحاس والبيهقى . لأن مراد ابن عباس بالنسخ ، ليس النسخ المصطلح عليه عند الأصوليين بمعناه الدقيق . بل الظاهر الراجح عندنا - والله أعلم - أنه يريد به معنى التخصيص . أى أن آية التخيير ليست عامة فى كل الحالات ، بل هى قاصرة على مثل ما فى معناها ، وهو معنى الجمع بين الآيتين ، الذى يفهم من كلام الإمام الشافعى ، والذى بينه الجصاص ، وجعله تأويلاً سائغاً لولا ما يعرّك عليه من التصريح بالنسخ - فى رايه .

ويكون معنى كلام ابن عباس : أن آية التخيير قد يظن أنها عامة فى كل أحوال الحكم بين غير المسلمين فيكون الإمام مخيراً دائماً . فأبان ابن عباس بحديثه : حديث أنها منسوخة ، وحديث أنها نزلت فى قريظة والنضير - أن هذا العموم غير مراد بها ، وأن الآية الأخرى بالأمر الحتم بالحكم نسخت بعض هذا العموم ، أى جعلته خاصاً بمثل تلك الحال ، وهى حال الموادعين ، الذين ليسوا بأهل ذمة ولا عهد ، أعنى الذين لم يدخلوا تحت سلطان الدولة الإسلامية ولم يكونوا من رعيتها ولا قارين بها .

وليس فى هذا التأويل والجمع أى تكلف . فالمعروف أن الصحابة وكثير من أئمة السلف يطلقون كلمة « النسخ » على التخصيص وغيره . ولذلك قال ابن القيم : « مراد عامة السلف بالناسخ والمنسوخ : رفع الحكم بجملته ، تارة - وهو اصطلاح المتأخرين . ورفع دلالة العام والمطلق والظاهر وغيرهما ، تارة . إما بتخصيص (عام) ، أو تقييد مطلق وحمله على المقيد وتفسيره وتبيينه ، حتى إنهم يسمون الاستثناء والشرط والصفة نسخاً ، لتضمن ذلك رفع دلالة الظاهر وبيان المراد . فالنسخ - عندهم وفى لسانهم - هو بيان المراد بغير ذلك اللفظ ، بل بأمر خارج عنه . ومن تأمل كلامهم رأى من ذلك فيه ما لا يحصى ، وزال عنه به إشكالات أوجبه حمل كلامهم على الاصطلاح الحادث المتأخر » . انظر : تفسير الشيخ جمال الدين القاسمى (١ / ٣٢ - ٣٨) .

والسنن: الطرائق، فتفسير قوله: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ بالسبيل والسنة أظهر في المناسبة من العكس، والله أعلم. ثم هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان، باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام، المتفقة في التوحيد، كما ثبت في صحيح البخارى، عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات، ديننا واحد» (١). يعنى بذلك التوحيد، الذى بعث الله به كل رسول أرسله، وضمنه كل كتاب أنزله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الانبيا: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ الآية [النحل: ٣٦]، وأما الشرائع فمختلفة فى الأوامر والنواهي، فقد يكون الشيء فى الشريعة حراما ثم يحل فى الشريعة الأخرى، وبالعكس، وخفيفاً فيزداد فى الشدة فى هذه دون هذه. وذلك لما له تعالى فى ذلك من الحكمة البالغة، والحجة الدامغة.

قال قتادة: قوله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ يقول: سبيلا وسنة، والسنن مختلفة: هى فى التوراة شريعة، وفى الإنجيل شريعة، وفى الفرقان شريعة، يحل الله فيها ما يشاء، ويحرم ما يشاء، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، والدين الذى لا يقبل الله غيره: التوحيد والإخلاص لله، الذى جاءت به الرسل (٢). وقيل: المخاطب بهذا هذه الأمة، ومعناه: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا الْقُرْآنَ مِنْكُمْ﴾ أيها الأمة ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أى: هو لكم كلكم، تقتدون به. وحُدِّف الضمير المنصوب فى قوله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ أى: جعلناه، يعنى القرآن، ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أى: سبيلاً إلى المقاصد الصحيحة، وسنة أى: طريقاً ومسلكاً واضحاً بيناً.

هذا مضمون ما حكاه ابن جرير عن مجاهد، رحمه الله، والصحيح القول الأول، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فلو كان هذا خطاباً لهذه الأمة لما صح أن يقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وهم أمة واحدة، ولكن هذا خطاب لجميع الأمم، وإخبار عن قدرته تعالى العظيمة التى لو شاء الله لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة، لا ينسخ شىء منها. ولكنه تعالى شرع لكل رسول شرعة على حدة، ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذى بعده، حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمداً ﷺ، الذى ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة، وجعله خاتم الأنبياء كلهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَلْوَكُمُ فِيهَا آتَاكُم﴾ أى: أنه تعالى شرع الشرائع مختلفة، ليختبر عباده فيما شرع لهم، ويشيهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله. قال عبد الله بن كثير: ﴿فِي مَا آتَاكُمْ﴾ يعنى: من الكتاب.

ثم إنه تعالى ندبهم إلى المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إليها، فقال: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾

(١) مضى هكذا مختصراً عند تفسير الآيات: (١٣٣ - ١٣٦) من سورة البقرة. ومضى بنحوه ضمن حديث مطول عند تفسير الآيات: (١٢٤ - ١٢٩) من سورة آل عمران.
(٢) رواه الطبرى (١٢١٢٦) بنحوه عن قتادة.

وهي طاعة الله واتباع شرعه، الذي جعله ناسخاً لما قبله، والتصديق بكتابه القرآن الذي هو آخر كتاب أنزله. ثم قال تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أى: معادكم أيها الناس ومصيركم إليه يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أى: فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق، فيجزى الصادقين بصدقهم، ويعذب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق، العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان، بل هم معاندون للبراهين القاطعة، والحجج البالغة، والأدلة الدامغة.

وقوله: ﴿وَأَن أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك، والنهي عن خلافه. ثم قال: ﴿وَاحْذَرُهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أى: احذر أعداءك اليهود أن يدلسوا عليك الحق فيما يئهوونه إليك من الأمور، فلا تغتر بهم، فإنهم كذبة كفرة خونة ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أى: عما تحكم به بينهم من الحق، وخالفوا شرع الله ﴿فَاعَلِمْنَا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أى: فاعلم أن ذلك كائن عن قدرة الله وحكمته فيهم أن يصرفهم عن الهدى لما لهم من الذنوب السالفة التي اقتضت إضلالهم ونكالهم ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ أى: أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم، مخالفون للحق ناكبون عنه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]. وقال تعالى: ﴿وَإِن تَطَّعْ أَكْثَرَنَا فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]. وعن ابن عباس قال: قال كعب بن أسد، وابن صلوياء، وعبد الله بن صوريا، وشأس بن قيس، بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد، لعلنا نفتنه عن دينه! فاتوه، فقالوا: يا محمد، إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وإنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة، فنحاكمهم إليك، فتقضى لنا عليهم، ونؤمن بك ونصدقك! فأبى ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله، عز وجل، فيهم: ﴿وَأَن أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرُهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿لَقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم (١).

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾: ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهى عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بأرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم سنكرخان (٢)، الذي وضع لهم الياسق (٣)، وهو عبارة

(١) الطبرى (١٢١٥٠).

(٢) هكذا ثبت في المخطوطتين واضحا: « سنكرخان » بالسین فى أوله . والمشهور على الألسنة الثابت فى المراجع التاريخية : « جنكرخان » بالجيم بدل السين ، وهو الثابت فى المطبوعة هنا .

(٣) هكذا رسمت هذه الكلمة فى المخطوطتين والطبوعة . وهى كلمة أعجمية ، لذلك اختلفت المراجع فى رسمها وأصلها . وفى تاريخ ابن كثير (١٣ / ١١٧) فى ترجمته جنكرخان : « وهو الذى وضع لهم الياسا ، التى يتحاكمون إليها ويحكمون بها ، وأكثرها مخالف لشرائع الله وكتبه ، وهو شىء اقترحه من عند نفسه ، وتبعوه فى ذلك » . ثم سماها بعد ذلك « الياسا » - فيما نقله عن الوزير علاء الدين الجوينى (ص ١١٨) ، وفيه : =

عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها ، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنية شبرعاً متبعاً، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير، قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أى: يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أى: ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به وأيقن وعلم أنه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء (١) .

= « وأما كتابه الياس ، فإنه يكتب في مجلدين بخط غليظ ، ويحمل على بعير عندهم » . وقال الزبيدي في شرح القاموس (٧ / ٩٨) - « يساق ، كسحاب ، وربما قيل : يسق ، بحذف الألف ، والأصل فيه : يساغ ، بالغين المعجمة ، وربما خفف فحذف وربما قلب قافاً ، وهى كلمة تركية يعبر بها عن وضع قانون المعاملة ، كذلك ذكره غير واحد وقد حررها المقرئ في الخطط (٣ / ٣٥٧ ، ٣٥٨) ، قال تحت عنوان « ذكر أحكام السياسة : » ... ويقال : ساس الأمر سياسة ، بمعنى قام به ... فهذا أصل وضع السياسة فى اللغة . ثم رسمت بأنها القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح وانتظام الأحوال . والسياسة نوعان : سياسة عادلة تخرج الحق من الظالم والفاجر ، فهى من الأحكام الشرعية ، علمها من علمها وجهلها من جهلها ... والنوع الآخر سياسة ظالمة ، فالشريعة تحرمها . وليس ما يقوله أهل زماننا فى شيء من هذا . وإنما هى كلمة مغلية ، أصلها : ياسة ، فحرفها أهل مصر وزادوا بأولها شيئاً فقالوا : سياسة ، وأدخلوا عليها الألف واللام ، فظن من لا علم عنده أنها كلمة عربية ! وما الأمر فيها إلا ما قلت . وسمع الآن كيف نشأت هذه الكلمة حتى انتشرت بمصر والشام : وذلك أن جنكزخان القائم بالدولة التتر فى بلاد الشرق ، لما غلب الملك أونك خان وصارت له دولة - قرر قواعد وعقوبات ، أثبتها فى كتاب سماه : ياسة ، ومن الناس من يسميه : يسق ، والأصل فى اسمه : ياسة . ولما تم وضعه كتب ذلك نقشاً فى صفائح الفولاذ ، وجعله شريعة لقومه ، فالتزموه بعده ، حتى قطع الله دابرهم . وكان جنكزخان لا يتدين بشيء من أديان أهل الأرض - كما تعرف هذا إن كنت أشرفت على أخباره - فصارت الياسة حكماً بتاً فى أعقابها ، لا يخرجون عن شيء من حكمه » . ثم قال فى (ص ٣٥٩) بعد ذكر أمثلة من سخافات هذه الياسة - : « وجعل حكم الياسة لولده جقتاي بن جنكزخان ، فلما مات التزم من بعده أولاده وأتباعهم حكم الياسة ، كالتزام أول المسلمين حكم القرآن ، وجعلوا ذلك ديناً لم يعرف عن أحد منهم مخالفته بوجه » .

(١) وقد نقل الحافظ المؤلف فى تاريخه أشياء من سخافات هذا « الياسق » ، (١٣ / ١١٨ ، ١١٩) ، ثم قال : « فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء ، وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة - كفر . فكيف بمن تحاكم إلى الياسا وقدمها عليه ؟ ! من فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين » .

أقول : أفيجوز - مع هذا - فى شرع الله أن يحكم المسلمون فى بلادهم بتشريع مقتبس عن تشريعات أوربه الوثنية الملحدة ؟ بل بتشريع تدخله الأهواء والآراء الباطلة ، يغيرونه ويبدلونه كما يشاؤون ، لايبالى واضعه أوافق شرعة الإسلام أم خالفها ؟

إن المسلمين لم يُلِّوْا بهذا قط - فيما نعلم من تاريخهم - إلا فى ذلك العهد ، عهد التتار ، وكان من أسوأ عهود الظلم والظلام . ومع هذا فإنهم لم يخضعوا له ، بل غلب الإسلام التتار ، ثم مزجهم فأدخلهم فى شرعته . وزال أثر ما صنعوا ، بثبات المسلمين على دينهم وشريعتهم ، وبأن هذا الحكم السىء الجائر كان مصدره الفريق الحاكم إذ ذاك ، لم يندمج فيه أحد من أفراد الأمم الإسلامية المحكومة ، ولم يتعلموه ولم يعلموه أبناءهم . فما أسرع ما زال أثره .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْكَرُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْنُ قَدْ تَصَيَّبْنَا دَابَّةَ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِي بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِينًا ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْلَؤَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، الذين هم أعداء الإسلام وأهله، قاتلهم الله، ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض، ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾.

= أفرأيت هذا الوصف القوي من الحافظ ابن كثير - في القرن الثامن - لذاك القانون الوضعي، الذي صنعه عدو الإسلام جنكزخان؟ أستم ترونه يصف حال المسلمين في هذا العصر، في القرن الرابع عشر؟ إلا في فرق واحد، أشرنا إليه آنفاً: أن ذلك كان في طبقة خاصة من الحكام. أتى عليها الزمن سريعاً، فاندمجت في الأمة الإسلامية، وزال أثر ما صنعت.

ثم كان المسلمون الآن أسوأ حالا وأشد ظلماً وظلاماً منهم. لأن أكثر الأمم الإسلامية الآن تندمج في هذه القوانين المخالفة للشريعة، والتي هي أشبه شيء بذاك «الياسق» الذي اصطنعه رجل كافر ظاهر الكفر. هذه القوانين التي يصطنعها ناس ينتسبون للإسلام، ثم يتعلمها أبناء المسلمين، ويفخرون بذلك آباء وأبناء، ثم يجعلون مرد أمرهم إلى معتققي هذا «الياسق العصري»! ويحرقون من يخالفهم في ذلك، ويسمون من يدعوهم إلى الاستسناك بدينهم وشريعتهم «رجعياً» و«جامداً»! إلى مثل ذلك من الألفاظ البذيئة.

بل إنهم أدخلوا أيديهم فيما بقي في الحكم من التشريع الإسلامي، يريدون تحويله إلى «ياسقهم الجديد»، بالهونيا واللين تارة، وبالمكر والخديعة تارة، وبما ملكت أيديهم من السلطات تارات. ويصرحون - ولا يستحيون - بأنهم يعملون على فصل الدولة عن الدين!!

أفيجوز إذن - مع هذا - لأحد من المسلمين أن يعتنق هذا الدين الجديد، أعني التشريع الجديد! أو يجوز لأب أن يرسل أبناءه لتعلم هذا واعتناقه واعتقاده والعمل به، عالمًا كان الأب أو جاهلاً؟!

أو يجوز لرجل مسلم أن يلي القضاء في ظل هذا «الياسق العصري»، وأن يعمل به ويعرض عن شريعته البينة؟! ما أظن أن رجلاً مسلماً يعرف دينه ويؤمن به جملة وتفصيلاً، ويؤمن بأن هذا القرآن أنزله الله على رسوله كتاباً محكماً، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبأن طاعته وطاعة الرسول الذي جاء به واجبة قطعية الوجوب في كل حال - ما أظنه يستطيع إلا أن يجزم غير متردد ولا متاؤل، بأن ولاية القضاء في هذه الحال باطلة بطلاناً أصلياً، لا يلحقه التصحيح ولا الإجازة!

إن الأمر في هذه القوانين الرضعية واضح وضوح الشمس، هي كفر بواح، لا خفاء فيه ولا مداورة. ولا عذر لأحد ممن ينتسبون للإسلام - كائناً من كان - في العمل بها أو الخضوع لها أو إقرارها. فليحذر امرؤ نفسه. و«كل امرئ حسب نفسه».

ألا فليصدع العلماء بالحق غير هيابين، وليبلغوا ما أمروا بتبليغه، غير موانين ولا مقصرين. سيقول عنى عبید هذا «الياسق العصري» وناصروه، أتى جامد، وأتى رجعي، وما إلى ذلك من الأقاويل. ألا فليقولوا ما شاؤوا، فما عبأت يوماً ما بما يقال عنى. ولكنى قلت ما يجب أن أقول.

وقوله: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أى: شك، وريب، ونفاق ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ أى: يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم فى الباطن والظاهر ﴿يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ أى: يتأولون فى مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكفار بالمسلمين، فتكون لهم أباد عند اليهود والنصارى، فينفعهم ذلك، عند ذلك قال الله تعالى: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِي بِالْفَتْحِ﴾ قال السدِّى: يعنى فتح مكة. وقال غيره: يعنى القضاء والفصل ﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ قال السدِّى: يعنى ضرب الجزية على اليهود والنصارى ﴿فَيُصِيبُوهَا﴾ يعنى: الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين ﴿عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من الموالاة ﴿نَادِمِينَ﴾ أى: على ما كان منهم، مما لم يُجد عنهم شيئاً، ولا دفع عنهم محذوراً، بل كان عين المفسدة، فإنهم فضحوا، وأظهر الله أمرهم فى الدنيا لعباده المؤمنين، بعد أن كانوا مستورين لا يدرى كيف حالهم. فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم، تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين، فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين، ويحلفون على ذلك ويتألون؟! فبان كذبهم وافتراؤهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلَؤَالِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ .

وقد اختلف القراء فى هذا الحرف، فقرأه الجمهور بإثبات الواو فى قوله: ﴿وَيَقُولُ﴾ ثم منهم من رفع ﴿وَيَقُولُ﴾ على الابتداء، ومنهم من نصب عطفاً على قوله: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِي بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ فتقديره «أن يأتى» و «أن يقول»، وقرأ أهل المدينة: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بغير واو، وكذلك هو فى مصاحفهم على ما ذكره ابن جرير (١)، قال مجاهد: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِي بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ تقديره: حينئذ ﴿يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلَؤَالِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ .

واختلف المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات الكريمات، فذكر السدِّى أنها نزلت فى رجلين، قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أحد: أما أنا فإنى ذاهب إلى ذلك اليهودى، فأوى إليه وأتهدد معه، لعله ينفعنى إذا وقع أمر أو حدث حادث! وقال الآخر: وأما أنا فإنى ذاهب إلى فلان النصرانى بالشام، فأوى إليه وأتنصر معه! فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ الآيات. وقال عكرمة: نزلت فى أبى لُبابة بن عبد المنذر، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى قُرَيْظَةَ، فسأله: ماذا هو صانع بنا؟ فأشار بيده إلى حلقته، أى: إنه الذبح. رواه ابن جرير (٢).

وقال محمد بن إسحاق: فكانت أول قبيلة من اليهود نقضت ما بينها وبين رسول الله ﷺ بنو قينقاع. فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة قال: فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على

(١) قراءة «يقول» بالرفع وبغير الواو - هى قراءة نافع وابن كثير وابن عامر وأبى جعفر وابن محيصة. وهى كذلك ثابتة فى مصاحف مكة والمدينة. والواو ثابتة فى مصاحف الكوفة وأهل المشرق. والقراءة بإثبات الواو مع نصب اللام - هى قراءة أبى عمرو ويعقوب. وإثبات الواو مع الرفع - قراءة باقى الأربعة عشر.

(٢) روايتا السدِّى وعكرمة رواهما الطبرى (١٢١٥٩، ١٢١٦٠).

حكمه ، فقام إليه عبد الله بن أبي ابن سلول ، حين أمكنه الله منهم ، فقال : يا محمد ، أحسن في موالى . وكانوا حلفاء الخزرج ، قال : فأبطأ عليه رسول الله ﷺ ، فقال : يا محمد ، أحسن في موالى . قال : فأعرض عنه . فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ . فقال له رسول الله ﷺ : « أرسلنى » . وغضب رسول الله ﷺ حتى رثى لوجهه ظللاً ، ثم قال : « ويحك أرسلنى » . قال : لا ، والله لا أرسلك حتى تحسن في موالى ، أربعمائة حاسر ، وثلاثمائة دارع ، قد منعونى من الأحمر والأسود ، تحصدهم فى غداة واحدة؟! إني امرؤ أخشى الدوائر ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « هم لك » . قال ابن إسحاق : فحدثنى أبى إسحاق بن يسار ، عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ ، تشبث بأمرهم عبد الله بن أبى ، وقام دونهم ، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ ، وكان أحد بنى عوف بن الخزرج ، له من حلفهم مثل الذى لعبد الله بن أبى ، فجعلهم إلى رسول الله ﷺ ، وتبرأ إلى الله ورسوله ﷺ من حلفهم ، وقال : يا رسول الله ، أبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم ، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم . ففيه وفى عبد الله بن أبى نزلت الآيات فى المائدة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة : ٥٦] . وروى الإمام أحمد عن أسامة ابن زيد قال : دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبى نعوذه ، فقال له النبى ﷺ : « قد كنت أنهاك عن حب يهود » . فقال عبد الله : فقد أبغضهم أسعد بن زرارة ، فمات . ورواه أبو داود (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّا وَوَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته ، فإن الله يستبدل به من هو خير لها منه ، وأشد منعة وأقوم سبيلاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالِكُمْ ﴾ [محمد : ٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [إبراهيم : ١٩ ، ٢٠] أى : بممتنع ولا صعب . وقال تعالى هنا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ﴾ أى : يرجع عن الحق إلى الباطل ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ قال الحسن : هو والله أبو بكر وأصحابه . رواه ابن أبى حاتم . وروى عن ابن عباس قال : ناس من أهل اليمن ، ثم من كندة ، ثم من السكون . وروى ابن أبى حاتم أيضاً عن الأشعري قال : لما نزلت : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « هم قوم هذا » . ورواه ابن

جري (١).

وقوله تعالى: ﴿أَذَلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ هذه صفات المؤمنين الكُمَّل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه وولييه، متعززاً على خصمه وعدوه، كما قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. وفي صفة النبي ﷺ أنه: «الضحوك القتال»، فهو ضحوك لأوليائه قتال لأعدائه.

وقوله: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ أى: لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله، وقتال أعدائه، وإقامة الحدود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يردهم عن ذلك راد، ولا يصدهم عنه صاد، ولا يحيك فيهم لوم لائم، ولا عذل عاذل. روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: أمرني تخليلى ﷺ بسبع، أمرني بحب المساكين والدينو منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقى، وأمرني أن أصل للمرحوم وإن أدبرت، وأمرني ألا أسأل أحداً شيئاً، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرأ، وأمرني ألا أخاف فى الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن من كتر تحت العرش (٢). وروى الإمام أحمد أيضاً عن ذر، قال: بايعنى رسول الله ﷺ خمسا وواثقنى سبعا، وأشهد الله على تسعا (٣)، أنى لا أخاف فى الله لومة لائم. قال أبو ذر: فدعانى رسول الله ﷺ فقال: «هل لك إلى بيعة ولك الجنة؟» قلت: نعم، قال: وبسطت يدي، فقال النبى ﷺ وهو يشترط على: ألا تسأل الناس شيئا؟ قلت: نعم، قال: «ولا سوطك وإن سقط منك حتى تنزل إليه فتأخذه» (٤). وروى الإمام أحمد أيضاً عن الحسن، عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهدته، فإنه لا يقرب من أجل، ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو يدكر بعظيم». تفرد به أحمد (٥). وروى أحمد أيضاً عن أبى

(١) الطبرى (١٢١٨٨ - ١٢١٩٢). وهو حديث صحيح. ورواه ابن سعد (٤ / ١ / ٧٩) والحاكم (٢ / ٣١٣) وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخزجاه، ووافقه الذهبى، وذكره الهيمى فى الزوائد (١٦ / ٧) وقال: رواه الطبرانى، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) المسند (٥ / ١٥٩ حلى). وإسناده صحيح. وذكره الهيمى فى الزوائد (٧ / ٢٦٥) ونسبه للطبرانى فى الصغير والكبير، وقال: «ورجاله رجال الصحيح»، غير سلام أبى المنذر، وهو ثقة. ورواه البزار. وذكر قبل ذلك نحوه - من وجه آخر فيه كلام - ونسبه أيضاً للطبرانى فى الكبير والصغير، وقال: «وأظنه رواه أحمد». فهو لم يره فى المسند.

(٣) فى المطبوعة والمطبوع من «عمدة التفسير»: «سبعا»، وما أثبتناه هو الموافق لما فى المخطوطة الأزهرية وكذا الهيمى فى الزوائد. (الباز).

(٤) المسند (٥ / ١٧٢ حلى). وذكره الهيمى فى الزوائد (٣ / ٩٢، ٩٣) بروايتين، وقال: «رواه كله أحمد، ورجاله ثقات».

(٥) المسند (١١٤٩٤). وإسناده صحيح. وذكره الهيمى فى الزوائد (٧ / ٢٦٥)، ونسبه للطبرانى فى الأوسط وقال: «ورجاله رجال الصحيح. غير شيخ الطبرانى! فتنسى أن ينسبه للمسند، الذى لم يروه عن شيخ الطبرانى».

سعيد الخدرى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ أَنْ يَرَى أَمْرًا لَلَّهِ فِيهِ مَقَالٌ ، فلا يقوله فيه ، فيقال له يوم القيامة : ما منعك أن تكون قلت في كذا وكذا؟ فيقول : مخافة الناس . فيقول : إياي أحق أن تخاف . » ورواه ابن ماجه (١) . وروى أحمد وابن ماجه عن أبي سعيد الخدرى ، عن النبي ﷺ قال : « إن الله ليسأل العبد يوم القيامة ، حتى إنه ليسأله يقول له : أى عبدى ، أرايت منكرأ قلم تنكره؟ فإذا لقن الله عبداً حجته ، قال : أى رب ، وثقت بك وخفت الناس » (٢) . وثبت فى الصحيح : « ما ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه ، قالوا : وكيف يذل نفسه يا رسول الله؟ قال : « يتحمل من البلاء ما لا يطيق » (٣) .

« ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » أى : من اتصف بهذه الصفات ، فإنما هو من فضل الله عليه ، وتوفيقه له « وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » أى : واسع الفضل ، عليم بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه . وقوله : « إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا » أى : ليس اليهود بأوليائكم ، بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين . وقوله : « الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » أى : المؤمنون المتصفون بهذه الصفات ، من إقام الصلاة التى هى أكبر أركان الإسلام ، وهى لله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة ، التى هى حق المخلوقين ومساعدة للمحتاجين من الضعفاء والمساكين .

وأما قوله : « وَهُمْ رَاكِعُونَ » : فقد توهم بعض الناس أن هذه الجملة فى موضع الحال من قوله : « وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » أى : فى حال ركوعهم ! ولو كان هذا كذلك ، لكان دفع الزكاة فى حال الركوع أفضل من غيره ؛ لأنه ممدوح ! وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى ، وحتى إن بعضهم ذكر فى هذا أثراً عن على بن أبى طالب : أن هذه الآية نزلت فيه : وذلك أنه مر به سائل فى حال ركوعه ، فأعطاه خاتمه . [ثم ذكر الحافظ ابن كثير هنا آثاراً فى ذلك ، بأسانيدها الضعيفة . وأبان عن عوار كل منها . ثم قال] : وليس يصح شىء منها بالكلية ، لضعف أسانيدها وجهالة رجالها (٤) .

وقد تقدم فى الأحاديث التى أوردناها : أن هذه الآيات كلها نزلت فى عبادة بن الصامت ، رضى الله عنه ، حين تبرأ من حلف يهود ، ورضى بولاية الله ورسوله والمؤمنين ؛ ولهذا قال تعالى بعد هذا كله : « وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ » ، كما قال تعالى :

(١) المسند (١١٧٢٢) . وإسناده صحيح .

(٢) المسند (١١٢٦٥) . وإسناده صحيح . ورواه أيضا بنحوه (١١٢٣٢ ، ١١٧٥٨) ، وابن ماجه (٤٠١٧) .

(٣) هكذا جزم المؤلف الحافظ بأن هذا الحديث فى الصحيح . وهو - على اليقين - ليس فى الصحيحين ، إنما رواه الإمام أحمد فى المسند (٥ / ٤٠٥ حلى) . والترمذى (٣ / ٢٤٣) وابن ماجه (٤٠١٦) - كلهم من حديث حذيفة . وقال الترمذى : « حسن غريب » .

(٤) بل هى أمر من أكاذيب الشيعة ، الذين يلعبون بتأويل القرآن ، لينسبوا لعلى كرم الله وجهه مآثر وفضائل غير ثابتة . ثم أعجب من ذلك أن يستدلوا بهذه الأكاذيب فى هذا الموضع على وجوب إمامة على . والزمخشرى - على ذكائه - فانت عليه هذه السخافات وحكاها كأنها حقيقة واقعة ، جهلا منه بطرق الرواية وإثباتها . والفخر الرازى - على جهله بعلوم الحديث - رفضها رفضاً شديداً ، وندد بمخترعيها ومصديقيها .

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ . لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢١ ، ٢٢] . فكل من رضى بولاية الله ورسوله والمؤمنين فهو مفلح في الدنيا والآخرة ، ومنصور في الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِمَّنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوعًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

وهذا تنفير من موالة أعداء الإسلام وأهله، من الكتابيين والمشركين، الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون، وهى شرائع الإسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوى وأخروى، يتخذونها «هزوعاً» يستهزئون بها «ولعباً» يعتقدون أنها نوع من اللعب فى نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد . وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ﴾ «من» ههنا لبيان الجنس، كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، وقرأ بعضهم «وَالْكَافِرَ» بالخفض عطفًا، وقرأ آخرون بالنصب على أنه معمول ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِمَّنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ تقديره: ولا الكفار أولياء، أى: لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء (١) . والمراد بالكفار ههنا المشركون . وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء ﴿إِنَّ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بشرح الله الذى اتخذه هؤلاء هزوعاً ولعباً، كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيَحْذَرِكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨] .

وقوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أى: وكذلك إذا أذنتم داعين إلى الصلاة التى هى أفضل الأعمال لمن يعقل ويعلم من ذوى الألباب «اتَّخَذُوهَا» أيضاً «هزوعاً ولعباً ذلك بأنهم قومٌ لا يعقلون» معانى عبادة الله وشرائعه، وهذه صفات أتباع الشيطان الذى إذا سمع الأذان أدير وله حُصاص - أى: ضراط - حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضى التأذين أقبل، فإذا تَوَبَّ بالصلاة أدير، فإذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء وقلبه، فيقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يكن يذكر، حتى يظل الرجل لا يدرى كم صلى، فإذا وجد أحدكم ذلك، فليسجد سجدة قبل السلام». متفق عليه (٢) . وقال الزهرى: قد ذكر الله التأذين فى كتابه فقال: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوعًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ . رواه ابن أبى حاتم .

وروى الإمام أحمد عن عبد العزيز بن عبد الملك بن أبى محذورة؛ أن عبد الله بن مُحَيْرِيزٍ

(١) القراءة بالخفض قراءة أبى عمرو والكسائى ويعقوب . وبالنصب قراءة باقى الأربعة عشر .

(٢) البخارى (٢ / ٦٩ - ٧١ فتح) ومسلم (١ / ١١٤) كلاهما بنحوه ، من حديث أبى هريرة .

أخبره - وكان يتيماً في حجر أبي محذورة - قال: قلت لأبي محذورة: يا عم، إنني خارج إلى الشام، وأخشى أن أسأل عن تآذيتك. فأخبرني: أن أبا محذورة قال له: نعم خرجت في نفر، وكنا في بعض طريق حنين، مقفل رسول الله ﷺ من حنين، فلقينا رسول الله ﷺ ببعض الطريق، فأذن مؤذن رسول الله ﷺ بالصلاة عند رسول الله ﷺ، فسمعنا صوت المؤذن ونحن متكبون، فصرخنا نحكيه ونستهزئ به! فسمع رسول الله ﷺ الصوت، فأرسل إلينا إلى أن وقفنا بين يديه، فقال رسول الله ﷺ: «أيكم الذي سمعتُ صوته قد ارتفع؟» فأشار القوم كلهم إلى، وصدقوا، فأرسل كلهم وحسني. وقال: «قم فأذن». فقامت ولا شيء أكره إلى من رسول الله ﷺ، ولا مما يأمرني به، فقامت بين يدي رسول الله ﷺ، فألقى عليّ رسول الله ﷺ التآذين هو بنفسه، قال: «قل: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حتى على الصلاة، حتى على الفلاح، حتى على الفلاح، حتى على الفلاح، لا إله إلا الله». ثم دعاني حين قضيت التآذين، فأعطاني صرة فيها شيء من فضة، ثم وضع يده على ناصية أبي محذورة، ثم أمرها على وجهه، ثم بين ثدييه، ثم على كبده حتى بلغت يد رسول الله ﷺ سره أبي محذورة، ثم قال رسول الله ﷺ: «بارك الله فيك وبارك عليك». فقلت: يا رسول الله، مُرني بالتآذين بمكة. فقال: «قد أمرتك به». وذهب كل شيء كان لرسول الله ﷺ من كراهة، وعاد ذلك كله محبة لرسول الله ﷺ. فقدمت على عتاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ، فأذنت معه بالصلاة عن أمر رسول الله ﷺ، وأخبرني ذلك من أدركت من أهلي ممن أدرك أبا محذورة، على نحو ما أخبرني عبد الله بن محيريز. هكذا رواه الإمام أحمد، وقد أخرجه مسلم في صحيحه، وأهل السنن الأربعة عن أبي محذورة واسمه: سمرّة بن معير بن لوذان - أحد مؤذني رسول الله ﷺ الأربعة، وهو مؤذن أهل مكة، وامتدت أيامه، رضى الله عنه وأرضاه (١).

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنِّي إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُ فَسِقُونَ ﴾ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَغَضَبِ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ وَالْحَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ وَقَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَرَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْأَثَرِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَتَنَّهُمُ الرَّبَّيُّوتُ وَالْأَجْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾

(١) المسند (١٥٤٤٥). وإسناده صحيح. وكذلك رواه النسائي (١ / ١٠٣، ١٠٤) وابن ماجه (٧٠٨) من هذا الوجه مطولاً. وكذلك رواه أبو داود (٥٠٣) من هذا الوجه، ومختصراً بعض الشيء. وذكر الحافظ ابن حجر في التهذيب (٦ / ٣٤٧) أنه رواه أيضاً ابن خزيمة في صحيحه من هذا الوجه. وأما رواية مسلم (١ / ١١٢) فإنها مختصرة ومن وجه آخر. ورواه الترمذى من وجهين آخرين مختصراً، رقم (١٩١)، (١٩٢) بشرحنا. ورواه النسائي - قبل ذلك وبعده - من أوجه متعددة.

يقول تعالى: قل يا محمد، لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من أهل الكتاب: ﴿هَلْ تَنْفَعُونَ مَنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أى: هل لكم علينا مطعن أو عيب إلا هذا؟! وهذا ليس بعيب ولا مذمة، فيكون الاستثناء منقطعاً، كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، وكقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَنْعَمَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٤٧٤].

وقوله: ﴿وَأَنْ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ معطوف على ﴿أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ أى: وآمنا بأن أكثركم فاسقون، أى: خارجون عن الطريق المستقيم. ثم قال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمْ مُتَّوْبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ أى: هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونونه بنا؟ وهم أنتم الذين هم متصفون بهذه الصفات المفسرة، فقوله: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أى: أبعده من رحمته ﴿وَعَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أى: غضباً لا يرضى بعده أبداً ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرْدَةَ وَالْحَنَازِيرَ﴾، كما تقدم بيانه فى سورة البقرة. وكما سيأتى إيضاحه فى سورة الأعراف (١). وعن ابن مسعود قال: سئل رسول الله ﷺ عن القردة والحنازير، أهى مما مسخ الله؟ فقال: «إن الله لم يهلك قوماً - أو قال: لم يمسخ قوماً - فيجعل لهم نسلاً ولا عقباً، وإن القردة والحنازير كانت قبل ذلك». رواه مسلم (٢).

وقوله: ﴿وَعِبَدَ الطَّاغُوتِ﴾ وقرئ: ﴿وَعِبَدَ الطَّاغُوتِ﴾ على أنه فعل ماض، و«الطاغوت» منصوب به، أى: وجعل منهم من عبد الطاغوت. وقرئ: ﴿وَعِبَدَ الطَّاغُوتِ﴾ بالإضافة على أن المعنى: وجعل منهم خدَم الطاغوت، أى: خدامه وعبيده. وقرئ: ﴿وَعِبَدَ الطَّاغُوتِ﴾ على أنه جمع الجمع: عبد وعبيد وعبد، مثل ثمار وتُمر. حكاه ابن جرير عن الأعمش. وحكى عن بُريدة الأسلمى أنه كان يقرؤها: «وعابد الطاغوت»، وعن أبى، وابن مسعود: «وعبدوا»، وحكى ابن جرير عن أبى جعفر القارئ أنه كان يقرؤها: ﴿وَعِبَدَ الطَّاغُوتِ﴾ على أنه مفعول ما لم يسم فاعله، ثم استبعد معناها. والظاهر أنه لا بعد فى ذلك؛ لأن هذا من باب التعريض بهم، أى: وقد عبدت الطاغوت فيكم، أنتم الذين فعلتموه (٣). وكل هذه القراءات يرجع معناها إلى: أنكم يا أهل الكتاب الطاعنين فى ديننا - الذى هو توحيد الله وإفراده بالعبادة دون ما سواه - كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر؟! ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ أى: مما تظنون بنا ﴿وَأَضَلُّ عَنِ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾. وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل فيما ليس فى الطرف الآخر مشاركة، كقوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ وهذه صفة المنافقين منهم: إنهم يصنعون المؤمنين فى الظاهر وقلوبهم منطوية على الكفر؛ ولهذا قال: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا﴾ أى:

(١) سورة البقرة (٦٥) وسورة الأعراف (١٦٦).

(٢) من حديث طويل فى صحيح مسلم (٢ / ٣٠٣). ورواه أحمد (٣٧٠٠).

(٣) أما القراءة السبعة، فقرأ منهم حمزة «عبد» بفتح العين والذال بينهما باء مضمومة. و«الطاغوت» بالخفض على الإضافة. وقرأ باقيهم «عبد» فعل ماض، و«الطاغوت» مفعول.

عندك يا محمد ﴿بِالْكَفْرِ﴾ أى: مستصحين الكفر فى قلوبهم، ثم خرجوا وهو كامن فيها، لم ينتفعوا بما قد سمعوا منك من العلم، ولا نجت فيهم المواعظ ولا الزواجر؛ ولهذا قال: ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ فخصهم به دون غيرهم. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾: والله عالم بسر أئمتكم وما تنطوى عليهم ضمائرهم، وإن أظهروا لخلقهم خلاف ذلك، وتزينوا بما ليس فيهم، فإن الله عالم الغيب والشهادة أعلم بهم منهم، وسيجزى بهم على ذلك أتم الجزاء.

وقوله: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ أى: يبادرون إلى ذلك من تعاطى المأثم والمحارم والاعتداء على الناس، وأكل أموالهم بالباطل ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: لبس العمل كان عملهم، وبئس الاعتداء اعتداؤهم.

وقوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾
يعنى: هلا كان ينهاهم الربانيون والأخبار عن تعاطى ذلك. والربانيون: هم العلماء العمال أرباب الولايات عليهم، والأخبار: هم العلماء فقط. ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ يعنى: فى تركهم ذلك. قاله ابن عباس. وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: ما فى القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾. وروى ابن حاتم عن يحيى بن يعمر قال: خطب على بن أبى طالب فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصى، ولم ينههم الربانيون والأخبار، فلما تمادوا فى المعاصى [ولم ينههم الربانيون والأخبار] أخذتهم العقوبات. فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، قبل أن ينزل بكم مثل الذى نزل بهم، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يقطع رزقاً ولا يقرب أجلاً (١). وروى الإمام أحمد عن جرير، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصى هم أعز منه وأمنع، ولم يغيروا، إلا أصابهم الله منه بعداب». ورواه أبو داود وابن ماجه، بنحوه (٢).

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلِعِنَّا لَمَّا قَالُوا لَئِن يَدَاهُ مُبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَاتُ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعَّوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مَتَّعْنَاهُمْ مَقْتَصِدَةً وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(١) إسناده صحيح، ولكن فى سماع يحيى بن يعمر من على كلام. والزيادة من المخطوطة الأخرى الصحيحة.

(٢) المسند (٤ / ٣٦٣ حلى). وإسناده صحيح.

يخبر تعالى عن اليهود - عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة - بأنهم وصفوه ، عز وجل وتعالى عن قولهم علواً كبيراً - بأنه بخيل ! كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء ! وعبروا عن البخل بقولهم : ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ . قال ابن عباس : قوله : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ قال : لا يعنون بذلك أن يد الله موثمة ، ولكن يقولون : بخيل يعنى : أمسك ما عنده بخلاً ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً . وكذا روى عن مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والسدي ، والضحاك ، وقرأ : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩] يعنى : أنه ينهى عن البخل وعن التبذير ، وهو زيادة الإنفاق فى غير محله ، وعبر عن البخل بقوله : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ .

وهذا هو الذى أراد هؤلاء اليهود - عليهم لعائن الله - وقد قال عكرمة : إنها نزلت فى فنحاص اليهودى - عليه لعنة الله- وقد تقدم أنه الذى قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] فضربه أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه (١) . وروى ابن إسحاق عن ابن عباس ، قال : قال رجل من اليهود ، يقال له : شأس بن قيس : إن ربك بخيل لا ينفق ! فأنزل الله : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ .

وقد رد الله ، عز وجل ، عليهم ما قالوه ، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه واثبتكوه ، فقال : ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ . وهكذا وقع لهم ، فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم ، كما قال تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا . أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الأنعام: ٥٣ - ٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ﴾ [آل عمران: ١١٢] .

ثم قال تعالى : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أى : بل هو الواسع الفضل ، الجزيل العطاء ، الذى ما من شىء إلا عنده خزائنه ، وهو الذى ما يخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له ، الذى خلق لنا كل شىء مما نحتاج إليه ، فى ليلتنا ونهارنا ، وحضرنا وسفرنا ، وفى جميع أحوالنا ، كما قال : ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤] . والآيات فى هذا كثيرة ، وقد روى الإمام أحمد بن حنبل عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن يمين الله مלאى لا يعيضا نفقة ، سحاء الليل والنهار ، أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يعرض ما فى يمينه» قال : «وعرشه على الماء ، وفى يده الأخرى القبض ، يرفع ويخفض » : وقال : يقول الله تعالى : «أنفق أنفق عليك » أخرجاه فى الصحيحين (٢) .

وقوله : ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ طُفْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أى : يكون ما آتاك الله يا محمد من النعمة نقمة فى حق أعدائك من اليهود وأشباههم ، فكما يزداد به المؤمنون تصديقاً وعملاً

(١) مضى عند تفسير الآية : (١٨١) من سورة آل عمران .

(٢) المسند (٨١٢٥) فى صحيفة همام بن منبه . والبخارى (١٣ / ٣٤٧ فتح) ومسلم (١ / ٢٧٣ ، ٢٧٤) . وانظر أيضا المسند (٧٢٩٦) .

صالحًا وعلماً نافعاً، يزداد به الكفرة الحاسدون لك ولأمتك ﴿طُفِقَانَا﴾ وهو: المبالغة والمجازة للحد في الأشياء ﴿وَكُفْرًا﴾ أى: تكديبا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] . وقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعنى: أنه لا تجتمع قلوبهم، بل العداوة واقعة بين فرقههم بعضهم فى بعض دائما؛ لأنهم لا يجتمعون على حق، وقد خالفوك وكذبوك. وقال إبراهيم النخعى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ قال: الخصومات والجدال فى الدين. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿كَلِمًا أَوْ قَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ أى: كلما عقدوا أسباباً يكيدونك بها، وكلما أبرموا أموراً يحاربونك بها يبطلها الله ويرد كيدهم عليهم، ويحقيق مكرهم السيئ بهم ﴿وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ أى: من سجيتهم أنهم دائماً يسعون فى الإفساد فى الأرض، والله لا يحب من هذه صفته. ثم قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أى: لو أنهم آمنوا بالله ورسوله، واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أى: لأزلنا عنهم المحذور ولحصّلنا لهم المقصود. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ﴾ قال ابن عباس، وغيره: يعنى القرآن ﴿لَأَكْلُوا مِن فَوْتِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أى: لو أنهم عملوا بما فى الكتب التى بأيديهم عن الأنبياء، على ما هى عليه، من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير، لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمداً ﷺ؛ فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتماً لا محالة.

وقوله: ﴿لَأَكْلُوا مِن فَوْتِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يعنى: كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والنبات لهم من الأرض. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ الآية [الروم: ٤١] . وقد ذكر ابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك أن يرفع العلم». فقال زياد بن ليبيد: يا رسول الله، وكيف يرفع العلم وقد قرأنا القرآن وعلّمناه أبناءنا؟ فقال: «ثكلتك أمك يابن ليبيد! إن كنت لأراك من أفقه أهل المدينة، أو ليست التوراة والإنجيل بأيدي اليهود والنصارى، فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله» ثم قرأ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾. هكذا أورده ابن أبى حاتم معلقاً من أول إسناده، مرسلأ فى آخره . وقد روى الإمام أحمد عن سالم بن أبى الجعد، عن زياد بن ليبيد أنه قال: ذكر النبى ﷺ شيئاً فقال: «وذاك عند [أوان] ذهاب العلم». قال: قلنا: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا، وأبناؤنا يقرؤنه أبناءهم إلى يوم القيامة؟ قال: «ثكلتك أمك يابن أم ليبيد! إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا يتنصون مما فيهما بشيء؟!». ورواه ابن

ماجه . وإسناده صحيح (١) .

وقوله: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ كقولہ: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الاعراف: ١٥٩] ، وكقوله عن أتباع عيسى: ﴿فَاتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧] . فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد، وهو أوسط مقامات هذه الأمة، وفوق ذلك رتبة السابقة، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ . جَنَّاتٌ عُدْنُ يَدْخُلُونَهَا﴾ الآية [فاطر: ٣٢ ، ٣٣] .
والصحيح أن الأقسام الثلاثة من هذه الأمة كلهم يدخلون كلهم الجنة .

ربع

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ باسم الرسالة، وأمرأ له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به، وقد امثل صلوات الله وسلامه عليه ذلك، وقام به أتم القيام. روى البخارى عن عائشة قالت: من حَدَّثَكَ أن محمداً كتم شيئاً مما أنزل الله عليه فقد كذب، وهو يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ . هكذا رواه ههنا مختصراً، وقد أخرجه فى مواضع من صحيحه مطولاً. وكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى وفى الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت: لو كان محمد ﷺ كاتباً من القرآن شيئاً لكتم هذه الآية: ﴿وَتَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ

(١) المسند (١٧٥٤٥) وابن ماجه (٤٠٤٨) . وزياد بن لييد: صحابى قديم ، أنصارى من الأوس، أسلم قديماً وخرج إلى رسول الله ﷺ بمكة ، فأقام معه حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، فهاجر معه ، فكان يقال : زياد مهاجرى أنصارى . وشهد بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . كما فى ابن سعد (٣ / ٢ / ١٣١) .

والحديث رواه أيضا الحاكم (٣ / ٥٩٠) من هذا الوجه ، وقال : « صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه » . وذكره البخارى فى الكبير (٢ / ١ / ٣١٥) موجزاً بالإشارة كعادته ، ثم قال : « ولا أرى سالماً سمع من زياد » . وذكر الحافظ فى الإصابة (٣ / ٢٠) ونسبه للمسند وابن ماجه والحاكم ، ثم قال : « وسالم لم يلق زياداً . وله شاهد أخرجه الطبرانى فى الأوسط ، من طريق أبى طوالة عن زياد بن لييد ، نحوه . وهذا منقطع أيضا بين أبى طوالة وزياد . وفى الترمذى والدارمى من طريق معاوية بن صالح ، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفيير عن أبيه ، عن أبى الدرداء ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ فقال : هذا أوان يختلس العلم ، فقال له زياد بن لييد الأنصارى - فذكر الحديث - قال : فلقيت عبادة بن الصامت ، فقال: صدق ، وأول ما يرفع الخشوع » . وهذا الحديث الذى أشار إليه الحافظ - هو فى الترمذى (٣ / ٣٧١) وقال « حديث حسن غريب » ثم ذكر أنه رواه بعضهم « عن عبد الرحمن بن جبير بن نفيير عن أبيه ، عن عوف بن مالك ، عن النبى ﷺ » وحديث عوف بن مالك - الذى أشار إليه الترمذى - رواه أحمد فى المسند (٦ / ٢٦ ، ٢٧ حلى) ، لكن من رواية الوليد بن عبد الرحمن الجرشى ، عن جبير بن نفيير ، عن عوف بن مالك . وإسناده صحيح . وقد ذكر الحافظ فى الإصابة أنه رواه النسائى وابن حبان والحاكم .
وهذه الروايات تقوى رواية سالم بن أبى الجعد عن زياد بن لييد مع انقطاعها .

أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ» [الاحزاب: ٣٧]. وروى ابن أبي حاتم هارون بن عترة، عن أبيه قال: كنت عند ابن عباس، فجاءه رجل فقال له: إن ناساً يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئاً لم يیده رسولُ الله ﷺ للناس؟ فقال: ألم تعلم أن الله تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾؟! والله ما ورثنا رسول الله ﷺ سوداءً في بيضاء. وإسناده جيد. وفي صحيح البخارى من رواية أبى جَحِيفَةَ وَهَبِ بن عبد الله السَّوَّائى قال: قلت لعلی بن أبى طالب: هل عندكم شىء من الوحى مما ليس فى القرآن؟ فقال: لا، والذى فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فَهَمَّا يعطيه الله رجلاً فى القرآن، وما فى هذه الصحيفة. قلت: وما فى هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر. وقال البخارى: قال الزهرى: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم.

وقد شهدت له أمته ببلاغ الرسالة وأداء الأمانة، واستنتظهم بذلك فى أعظم المحافل، فى خطبته يوم حجة الوداع، وقد كان هناك من أصحابه نحو من أربعين ألفاً، كما ثبت فى صحيح مسلم، عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته يومئذ: «أيها الناس، إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلّغت وأديت ونصحت. فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها إليهم ويقول: «اللهم هل بلّغت». وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع: «أيها الناس، أى يوم هذا؟» قالوا: يوم حرام. قال: «أى بلد هذا؟» قالوا: بلد حرام. قال: «فأى شهر هذا؟» قالوا: شهر حرام. قال: «فإن أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، فى بلدكم هذا، فى شهركم هذا». ثم أعادها مراراً. ثم رفع إصبعه إلى السماء فقال: «اللهم هل بلغت؟» مراراً - قال: يقول ابن عباس: والله [إنها] لوَصِيَّةٌ إلى ربه عز وجل، ثم قال: «ألا فليبلغ الشاهد الغائب، لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضهم رقاب بعض». وقد روى البخارى نحوه (١).

وقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يعنى: وإن لم تُؤد إلى الناس ما أرسلتك به ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أى: وقد علم ما يترتب على ذلك لو وقع. وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أى: بلغ أنت رسالتى، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك. أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك. وقد كان النبى ﷺ قبل نزول هذه الآية يُحْرَسُ، كما روى الإمام أحمد: أن عائشة كانت تحدث: أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة، وهى إلى جنبه، قالت: فقلت: ما شأنك يا رسول الله؟ قال: «ليت رجلاً صالحاً من أصحابى يحرسنى الليلة» قالت: فبينما أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح، فقال: «من هذا؟» فقال: أنا سعد ابن مالك. فقال: «ما جاء بك؟» قال: جئت لأحرسك يا رسول الله. قالت: فسمعت غطيظ

(١) المسند (٢٠٣٦). وذكره المؤلف الحافظ فى التاريخ (٥ / ١٩٤) عن رواية البخارى. وانظر الفتح (٣ / ٤٥٧)،

رسول الله ﷺ في نومه . أخرجاه في الصحيحين . وروى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : كان النبي ﷺ يُحَرِّسُ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ . قالت : فأخرج النبي ﷺ رأسه من القبة ، وقال : «يا أيها الناس ، انصرفوا ، فقد عصمني الله عز وجل» . ورواه الترمذى وسعيد بن منصور وابن جرير والحاكم . قال الترمذى : حديث غريب . وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه (١) .

ومن عصمة الله عز وجل لرسوله حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومُعَانِدِيهَا ومترفها ، مع شدة العداوة والبغضة ونصب المحاربة له ليلاً ونهاراً ، بما يخلقه الله تعالى من الأسباب العظيمة بقدره وحكمته العظيمة . فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبى طالب ، إذ كان رئيساً مطاعاً كبيراً في قريش ، وخلق الله في قلبه محبة طبيعية لرسول الله ﷺ لا شرعية ، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها ، ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه ، فلما مات عمه أبوطالب نال منه المشركون أذى يسيراً ، ثم قيص الله له الأئصار ، فبايعوه على الإسلام ، وعلى أن يتحول إلى دارهم - وهى المدينة - فلما صار إليها منعه من الأحمر والأسود ، وكلما هم أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله ورد كيده عليه . لما سم كاده اليهود بالسحر حماه الله منهم ، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء . ولما سم اليهود ذراع تلك الشاة بخبير ، أعلمه الله به ، وحماه منه ؛ ولهذا أشباه كثيرة جداً يطول ذكرها ، وقصة «عَوْرَتِ بْنِ الْحَارِثِ» مشهورة في الصحيح (٢) . وروى ابن مردويه عن أبى هريرة قال : كنا إذا صحبنا رسول الله ﷺ في سفر تركنا له أعظم شجرة وأظلمها ، فينزل تحتها ، فنزل ذات يوم تحت شجرة وعلق سيفه فيها ، فجاء رجل فأخذه فقال : يا محمد ، من يمنعك منى؟ فقال رسول الله ﷺ : «الله يمنعني منك ، ضع السيف» . فوضعه ، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ . ورواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه (٣) . وروى الإمام أحمد عن جعدة - هو ابن خالد بن الصمة الجشمى - قال : سمعت النبي ﷺ ورأى رجلاً سميناً ، فجعل النبي ﷺ يومئ إلى بطنه بيده ويقول : «لو كان هذا في غير هذا لكان خيراً لك» . قال : وأتى النبي ﷺ برجل فقيل : هذا أراد أن يقتلك . فقال له النبي ﷺ : «لم تُرَعْ ، ولو أردت ذلك لم يسلك الله عليّ» (٤) .

وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أى : بلغ أنت ، والله هو الذى يهدى من يشاء ،

(١) إسناده صحيح . وهو فى الترمذى (٩٦ / ٤) والطبرى (١٢٢٧٦) والحاكم (٣١٣ / ٢) ووافقه الذهبى على تصحيحه . ورواه بعضهم مرسلًا - عند الطبرى وغيره - وأشار الترمذى إلى ذلك . وما هذه بعلة تقدر فى صحة الموصول .

(٢) انظر ما مضى عند تفسير الآية (١٠٢) من سورة النساء ، والآيات (٧ - ١١) من سورة المائدة .

(٣) نقله السيوطى فى الدر المنثور (٢ / ٢٩٩) ولم ينسبه لغبر ابن مردويه وابن حبان .

(٤) المسند (١٥٩٣٣) ، وإسناده صحيح . وذكره الهيثمى فى الزوائد (٨ / ٢٢٦ ، ٢٢٧) وقال : «رواه أحمد والطبرانى باختصار ، ورجاله رجال الصحيح غير أبى إسرائيل الجشمى ، وهو ثقة» .

ويضل من يشاء، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال: ﴿فَأِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ وَلْيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مِن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أى: من الدين ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ أى: حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء، وتعملوا بما فيها وما فيها الأمر باتباع محمد ﷺ والإيمان ببعثته، والافتداء بشريعته؛ ولهذا قال مجاهد، فى قوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ﴾ يعنى: القرآن العظيم. وقوله: ﴿وَلْيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ تقدم تفسيره (١) ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أى: فلا تحزن عليهم ولا يهيدنك ذلك منهم (٢).

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وهم المسلمون ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم حملة التوراة ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ لما طال الفصل حسن العطف بالرفع. والصابئون: طائفة من النصارى والمجوس، ليس لهم دين. قاله مجاهد، وعنه: من اليهود والمجوس. وقال سعيد بن جبير: من اليهود والنصارى، وقال قتادة: هم قوم يعبدون الملائكة، ويصلون إلى غير القبلة، ويقرؤون الزبور. وقال ابن وهب: أخبرنى ابن أبى الزناد، عن أبىه قال: الصابئون: قوم مما يلى العراق، وهم بكوثى، وهم يؤمنون بالنبيين كلهم، ويصومون كل سنة ثلاثين يوماً، ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات. وقيل غير ذلك. وأما النصارى فمعروفون، وهم حملة الإنجيل.

والمقصود: أن كل فرقة آمنت بالله وباليوم الآخر، وهو المعاد والجزاء يوم الدين، وعملت عملاً صالحاً، ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقاً للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين، فمن اتصف بذلك ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه، ولا على ما تركوا وراء ظهورهم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. وقد تقدم الكلام على نظيراتها فى سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته هنا (٣).

(١) تقدم عند تفسير الآيات : (٦٤ - ٦٦) من سورة المائدة .

(٢) « ولا يهيدنك » أى : لا يزعجك . يقال : « هاده الشيء يهيده » : إذا أفرغه وكربه . وفى المطبوعة : « ولا يهينك ! » وهو تخطيط لا معنى له . والصواب من المخطوطتين ، وانظر فى تفسير مثل هذه الآية : (٦٢) من سورة البقرة .

(٣) مضى عند تفسير الآيتين : (٣٨ ، ١١٢) من سورة البقرة . وانظر فى تفسير مثل هذه الآية ما مضى عند تفسير الآية : (٦٢) من سورة البقرة .

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَآرَسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلًا كَلِّمًا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ ﴿٧٥﴾ وَحَسِبُوا أَن لَّا تَكُونُ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧٦﴾

يذكر تعالى أنه أخذ العهود والمواثيق على بني إسرائيل، على السمع والطاعة لله ولرسوله، فنقضوا تلك العهود والمواثيق، واتبعوا آراءهم وأهواءهم وقدموها على الشرائع، فما وافقهم منها قبلوه، وما خالفهم ردوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَلِّمًا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ . وَحَسِبُوا أَن لَّا تَكُونُ فِتْنَةً﴾ أى: وحسبوا ألا يترتب لهم شر على ما صنعوا، فترتب، وهو: أنهم عموا عن الحق وصموا، فلا يسمعون حقاً ولا يهتدون إليه، ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أى: بما كانوا فيه ﴿ثُمَّ عَمُوا﴾ أى: بعد ذلك ﴿وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أى: مطلع عليهم، وعليهم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية منهم .

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴾ ﴿٧٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٨﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرِ الظَّالِمِينَ ﴿٧٩﴾

يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى، من الملكية واليعقوبية والنسطورية، ممن قال منهم بأن المسيح هو الله! تعالى الله عن قولهم وتزوه وتقدس علواً كبيراً.

هذا وقد تقدم إليهم المسيح بأنه عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، ولم يقل: إني أنا الله، ولا: ابن الله. بل قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٠ - ٣٦].

وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته، آمراً لهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لا شريك له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أى: فيعبد معه غيره ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ أى: فقد أوجب له النار، وحرّم عليه الجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الاعراف: ٥٠]. وفي الصحيح: أن النبي ﷺ بعث منادياً ينادى في الناس: ﴿إِنَّ الْجَنَّةَ

لا يدخلها إلا نفس مسلمة » ، وفي لفظ : « مؤمنة »^(١). وتقدم في أول سورة النساء عند قوله : « **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ** » [النساء : ٤٨ ، ١١٦] حديث : « **الدواوين ثلاثة** » ، فذكر منهم ديواناً لا يغفره الله ، وهو الشرك بالله ، قال الله تعالى : « **مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ** » والحديث في مسند أحمد^(٢). ولهذا قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبنى إسرائيل : « **إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ** » أى : وما له عند الله ناصر ولا معين ولا منقذ مما هو فيه .

وقوله : « **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ** » ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسن الهستجاني ، حدثنا سعيد بن الحكم بن أبي مريم ، حدثنا الفضل ، حدثني أبو صخر في قول الله : « **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ** » والصحيح : أنها نزلت في النصارى خاصة ، قاله مجاهد وغير واحد . ثم اختلفوا في ذلك ، فقيل : المراد بذلك كفارهم في قولهم بالأقانيم الثلاثة ، وهو أقنوم الأب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن !! تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، قاله ابن جرير وغيره : والطوائف الثلاثة - من الملكية واليعقوبية والنسطورية - تقول بهذه الأقانيم ! وهم مختلفون فيها اختلافاً متبايناً ليس هذا موضع بسطه ، وكل فرقة منهم تكفر الأخرى ، والحق أن الثلاث كافرة . وقال السدي وغيره : نزلت في جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله ، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار ، قال السدي : وهي كقوله تعالى في آخر السورة : « **وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ آأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ** » الآية [المائدة : ١١٦] . وهذا القول هو الأظهر ، والله أعلم . قال الله تعالى : « **وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ** » أى : ليس متعدد ، بل هو وحده لا شريك له ، إله جميع الكائنات وسائر الموجودات . ثم قال تعالى متوعداً لهم ومتهدداً : « **وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ** » أى : من هذا الافتراء والكذب « **لَيَمَسُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** » أى : فى الآخرة من الأغلال والنكال . ثم قال : « **أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ** » والله غفورٌ رحيمٌ . وهذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه ، مع هذا الذنب العظيم وهذا الافتراء والكذب والإفك - يدعوهم إلى التوبة والمغفرة ، فكل من تاب إليه تاب عليه .

ثم قال : « **مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ** » أى : له سوية أمثاله^(٣) من سائر المرسلين المتقدمين عليه ، وأنه عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام ، كما قال : « **إِنَّهُ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ** » [الزخرف : ٥٩] . وقوله : « **وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ** » أى : مؤمنة به مصدقة له . وهذا أعلى مقاماتها ، فدل على أنها ليست بنبية ، كما زعمه ابن حزم وغيره - ممن

(١) هو جزء من حديث لابن مسعود ، فى المسند (٣٦٦١) . ورواه الشيخان ، كما بينا هناك . وجزء من حديث آخر لأبى هريرة ، فى المسند (٨٠٧٦) . ورواه الشيخان أيضا .

(٢) مضى عند تفسير الآيتين : (٤٧ ، ٤٨) من نفس السورة .

(٣) قوله : « له سوية أمثاله » : بفتح السين وكسر الواو وتشديد الياء ، أى : هو مستو معهم فى عبوديته لربه ، كأمثاله من الأنبياء . يقال : « هما على سوية من الأمر » ، أى : على استواء . انظر اللسان (١٩ / ١٤٢) .

ذهب إلى نبوة سارة أم إسحاق، ونبوة أم موسى، ونبوة أم عيسى - استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم، وبقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، وهذا معنى النبوة، والذي عليه الجمهور: أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري الإجماع على ذلك. وقوله تعالى: ﴿كَانَا يَا كُلَّانِ الطَّعَامَ﴾ أي: يحتاجان إلى التغذية به، وإلى خروجه منهما، فهما عبدان كسائر الناس وليسا بالهين كما زعمه فرق النصارى الجهلة، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة. ثم قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ أي: نوضحها ونظهرها ﴿ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون؟! وبأى قول يتمسكون؟ وإلى أى مذهب من الضلال يذهبون!؟

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى منكرأ على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان، ومينأ له أنها لا تستحق شيئاً من الإلهية: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بني آدم، ودخل في ذلك النصارى وغيرهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: لا يقدر على إيصال ضرر إليكم، ولا إيجاد نفع ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: فلم عدلتم عن أفراد السميع لأقوال عباده، العليم بكل شيء إلى عبادة جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئاً، ولا يملك ضرراً ولا نفعاً لغيره ولا لنفسه؟

ثم قال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي: لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق، ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه، حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية، كما صنعتم في المسيح، هو نبي من الأنبياء، فجعلتموه إلهاً من دون الله وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخ الضلال، الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي: وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال، إلى طريق الغواية والضلال.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِيقُونَ ﴿٨١﴾

يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بنى إسرائيل من دهر طويل، فيما أنزله على داود نبيه، عليه السلام، وعلى لسان عيسى ابن مريم، بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه. قال ابن عباس: لعنوا في التوراة والإنجيل وفي الزبور، وفي الفرقان.

ثم بين حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم، فقال: ﴿كَانُوا لَا يَتَّهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي: كان لا ينهاه أحد منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم، ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يُركبَ مثل الذي ارتكبوا، فقال: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾. وروى الإمام أحمد عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي، نهتهم علماءهم فلم ينتهوا، فجالسواهم في مجالسهم - قال يزيد: وأحسبه قال: وأسواقهم - وواكلوهم وشاربوهم. فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون»، وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس فقال: «لا والذي نفسي بيده، حتى تأطروهم على الحق أطرا». ورواه أبو داود عن عبد الله ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل كان الرجل يلقي الرجل فيقول: يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك. ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿لَعْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله: ﴿فَاسْقُون﴾، ثم قال: «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا - أو تقسرنه على الحق قسراً». وكذا رواه الترمذى وابن ماجه، وقال الترمذى: «حسن غريب». ثم رواه هو وابن ماجه عن أبي عبيدة مرسلًا (١). والأحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جداً، ولندكر منها ما يناسب هذا المقام. فقد تقدم حديث جرير عند قوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٦٣] (٢)، وسيأتي عند قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، حديث أبي بكر الصديق وأبي ثعلبة الخشني. فروى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان: أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم». ورواه الترمذى وقال: هذا حديث حسن (٣). وفي الصحيح عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان». ورواه

(١) المسند (٣٧١٣) وأبو داود (٤٣٣٦) والترمذى (٧٤ / ٤). ونقله المنذرى في الترغيب (٣ / ١٦٩)، (١٧٠) من روايتي أبي داود والترمذى، ثم قال: «رواه من طريق أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، ولم يسمع من أبيه، وقيل: سمع. ورواه ابن ماجه عن أبي عبيدة مرسلًا». و«الأطر» - بسكون الطاء: عطف الشيء، تقبض على أحد طرفيه فتعوجه.

(٢) مضى تخريجه عند الآية: (٦٣) من نفس السورة، وهو حديث «جرير»، كما ثبت في المخطوطتين هنا على الصواب. وفي المطبوعة «جابر»! وهو تحريف ومخالف للواقع.

(٣) المسند (٥ / ٣٨٨، ٣٨٩ حلي). وإسناده صحيح. وقد مضى تخريجه عند تفسير الآيات: (١٠٤ - ١٠٩) من سورة آل عمران.

مسلم (١).

وروى أبو داود عن عَدِيّ بن عَدِيّ ، عن العُرْس - يعنى ابن عميرة - عن النبي ﷺ قال :
 « إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فكرهها - وقال مرة: فأنكرها - كان كمن غاب
 عنها، ومن غاب عنها فرَضِيها كان كمن شهدها». تفرد به أبو داود، ثم رواه مرسلًا (٢).
 وروى أبو داود عن أبى البَخْتَرى قال: أخبرنى من سمع النبي ﷺ؛ أن النبي ﷺ - قال: «لن
 يهلك الناس حتى يعذروا - أو: يُعذروا - من أنفسهم» (٣). وروى ابن ماجه عن أبى سعيد
 الخدرى؛ أن رسول الله ﷺ قام خطيباً، فكان فيما قال: « ألا لا يمنعن رجلاً هيبَةُ الناس أن يقول
 الحق إذا علمه». قال: فبكى أبو سعيد وقال: قد - والله - رأينا أشياء، فهَبْنَا (٤). وعن أبى
 سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر». رواه أبو داود،
 والترمذى، وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن غريب من هذا الوجه (٥).

وروى ابن ماجه أيضاً عن أبى أمامة قال: عَرَضَ لرسول الله ﷺ رجلٌ عند الجَمْرَةِ الأولى
 فقال: يا رسول الله، أى الجهاد أفضل؟ فسكت عنه. فلما رمى الجمرَةَ الثانية سألَهُ؟ فسكت عنه.
 فلما رمى جمرَةَ العَقَبَةِ، ووضع رجله فى العَرَزِ ليركب، قال: « أين السائل؟» قال: أنا يا رسول
 الله، قال: « كلمة حق تقال عند ذى سلطان جائر». تفرد به (٦). وروى الإمام أحمد عن حذيفة
 عن النبي ﷺ قال: « لا ينبغي لمسلم أن يذُل نفسه ». قيل: وكيف يذل نفسه؟ قال:
 « يتعرض من البلاء لما لا يطيق ». وكذا رواه الترمذى وابن ماجه. وقال الترمذى: هذا

(١) مسلم (٢٩/١). وقد مضى تخريجه عند تفسير الآيات: (١٠٤ - ١٠٩) من سورة آل عمران. وذكرنا هناك
 أن الحافظ ابن كثير وهم فى ذلك الموضع فجعله من حديث أبى هريرة. وها هو يذكره هنا على الصواب.

(٢) أبو داود (٤٣٤٥، ٤٣٤٦). وإسناد الموصول صحيح.
 (٣) أبو داود (٤٣٤٧). وإسناده صحيح. وجهالة الصحابى لا تضر. وقوله: « حتى يعذروا » - قال ابن الأثير:
 « يقال: أعذر فلان من نفسه، إذا أمكن منها. يعنى: أنهم لا يهلكون حتى تكثر ذنوبهم وعبوبهم،
 فيستوجبون العقوبة، ويكون لمن يعذبهم عذر، كأنهم قاموا بعذره فى ذلك. ويروى بفتح الياء، من: عذرتة.
 وهو بمعناه. وحقيقة عذرت: محوت الإساءة وطمسها ».

(٤) ابن ماجه (٤٠٠٧). وقد رواه أحمد بنحوه (١١٧٠١). ورواه أيضاً بنحو معناه، مطولاً ومختصراً
 (١١٠٣٠، ١١٤٢٣، ١١٤٤٨، ١١٥١٨، ١١٨١٦، ١١٨٤٧، ١١٨٥٤، ١١٨٩٢). وقد مضى

حديث آخر أطول منه، فيه نحو معناه عند تفسير الآية: (٥٤) من نفس السورة.
 (٥) ابن ماجه (٤٠١١) وأبو داود (٤٣٤٤) والترمذى (٢١٠ / ٣). وهو من رواية عطية العوفى عن أبى سعيد.
 وعطية ضعيف. ولكنه ثابت ضمن حديث مطول، رواه أحمد بإسنادين صحيحين، من رواية أبى
 نضرة عن أبى سعيد (١١١٦٠، ١١٦٠٩).

(٦) ابن ماجه (٤٠١٢). ورواه أحمد من هذا الوجه (٥ / ٢٥١، ٢٥٦ حلى). ثم ذكر المؤلف الحافظ هنا
 حديثى أبى سعيد « لا يحقر أحدكم نفسه... »، و« إن الله ليسأل العبد يوم القيامة » - ذكرهما من رواية ابن
 ماجه. وقد مضيا عند تفسير الآيتين: (٥٤، ٥٥) من نفس السورة من رواية المسند. فاكتفينا بالإشارة إليهما.

حديث حسن غريب (١). وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال: قيل: يا رسول الله، متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: « إذا ظَهَرَ فيكم ما ظَهَرَ في الأمم قبلكم ». قلنا: يا رسول الله، وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال: « المُلْكُ في صغاركم، والفاحشة في كباركم، والعلم في رُدِّالكم ». قال زيد: تفسير معنى قول النبي ﷺ: « والعلم في رُدِّالكم»: إذا كان العلم في الفساق. تفرد به ابن ماجه (٢). وسيأتى في حديث أبي ثعلبة، عند قوله: « لا يضرُّكم من ضلَّ إذا هتديتم » [المائدة: ١٠٥] شاهد لهذا، إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

وقوله: « تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » قال مجاهد: يعنى بذلك المنافقين. وقوله: « لَيْسَ مَا قَدَّمْتَ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ » يعنى بذلك موالاتهم للكافرين، وتركهم موالة المؤمنين، التي أعقبتهم نفاقاً في قلوبهم، وأسخطت الله عليهم سخطاً مستمراً إلى يوم معادهم؛ ولهذا قال: « أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ » فسر بذلك ما ذمهم به. ثم أخبر أنهم « فِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ » يعنى يوم القيامة. وقوله تعالى: « وَوَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ » أى: لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسول والفرقان لما ارتكبوا ما ارتكبه من موالة الكافرين فى الباطن، ومعادة المؤمنين بالله والنبي وما أنزل إليه « وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » أى: خارجون عن طاعة الله ورسوله، مخالفون لآيات وحيه وتنزيله.

الجزء

٧

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾
 وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُّكَ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ
 قَتِيلِينَ وَرَهَبًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٦﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى
 أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَكُتِّبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٧﴾
 وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٨﴾
 فَأَنْبِئُهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٩٠﴾

قال ابن عباس: نزلت هذه الآيات فى النجاشى وأصحابه، الذين حين تلا عليهم جعفر بن

(١) المسند (٥ / ٤٠٥ حلى) وابن ماجه (٤٠١٦). وإسنادهما صحيحان. وقد مضت الإشارة إليه بمعناه عند الآيتين: (٥٤، ٥٥) من نفس السورة حيث ذكره المؤلف هناك منسوباً للصحيح. وبيننا وهمه هناك وما هو ذا يذكره هنا على الصواب.

(٢) ابن ماجه (٤٠١٥). وقال البوصيرى فى زوائده: « إسناده صحيح، رجاله ثقات ». ورواه أيضاً أحمد فى المسند (١٢٩٧٥). وإسناده صحيح. وزيد - الذى فسر الكلمة فى الحديث - هو زيد بن يحيى بن عبيد الخزاعى، شيخ أحمد، وشيخ شيخ ابن ماجه فى هذا الحديث. وتفسيره لم يذكر فى المسند. و« رذال »: بضم الراء وتخفيف الذال المعجمة، وهو جمع « رذل » بفتح الراء وسكون الذال، وهو من الجمع العزيز، كما فى اللسان. و« الرذل »: الدون الخسيس. ووقع فى ابن ماجه: « فى رذالكم ». وأخشى أن يكون خطأ من ناسخ أو طابع، فهو مخالف لما ثبت هنا فى المخطوطتين والمطبوعة، ولما ثبت فى المسند.

أبى طالب بالحبيشة القرآن بكوا حتى أخضلوا لحاهم. وهذا القول فيه نظر؛ لأن هذه الآية مدنية، وقصة جعفر مع النجاشي قبل الهجرة. واختار ابن جرير أن هذه الآيات نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة، سواء كانوا من الحبيشة أو غيرها.

فقوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ ما ذاك إلا لأن كفر اليهود عناد وجحود ومباهنة للحق، وعَمَطٌ للناس وتَنَقُّصٌ بحملة العلم. ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هموا بقتل الرسول ﷺ غير مرة وسموه وسحروه، وألبوا عليه أشباههم من المشركين - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةَ لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ أى: الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله، فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما فى قلوبهم، إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرافة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]، وفى كتابهم: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر! وليس القتال مشروعاً فى ملتهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرَهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى: يوجد فيهم القسيسون - وهم خطباؤهم وعلماؤهم، واحدهم: قسيس وقس أيضاً، وقد يجمع على قسوس. والرهبان: جمع راهب، وهو: العابد. مشتق من الرهبة، وهى الخوف، كراكب وركبان، وفارس وفرسان. قال ابن جرير: وقد يكون الرهبان واحداً وجمعه رهابين، مثل قربان وقرايين، وجرذان وجرآذين، وقد يجمع على رهابنة.

فقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرَهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع، ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف، فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أى: مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أى: مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به.

وروى ابن أبى حاتم وابن مردويه والحاكم عن ابن عباس فى قوله: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أى: مع محمد ﷺ، وأمه، هم الشاهدون، يشهدون لنبيهم ﷺ أنه قد بلغ، وللرسل أنهم قد بلغوا. قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (١).

وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون فى قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ الآية [آل عمران: ١٩٩]، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ. [أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٥]؛ ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فَاتَّابَهُمُ اللَّهُ

يَمَا قَالُوا ﴿ أَى : فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴾ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴿ أَى : ماكتين فيها أبداً ، لا يحولون ولا يزولون ، ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أَى : فى اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان، وأين كان، ومع من كان.

ثم أخبر عن حال الأشقياء فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أَى : جحدوا بها وخالفوها ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أَى : هم أهلها والداخلون فيها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية فى رهط من أصحاب النبى ﷺ، قالوا: نقطع مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا، ونسيح فى الأرض كما يفعل الرهبان! فبلغ ذلك النبى ﷺ، فأرسل إليهم، فذكر لهم ذلك، فقالوا: نعم. فقال النبى ﷺ: «لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأنام، وأنكح النساء، فمن أخذ بسنتى فهو منى، ومن لم يأخذ بسنتى فليس منى». رواه ابن أبى حاتم. وروى ابن مردويه نحو ذلك (١). وفى الصحيحين عن أنس؛ أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبى ﷺ عن عمله فى السر؟ فقال بعضهم: لا أكل اللحم. وقال بعضهم: لا أتزوج النساء. وقال بعضهم: لا أنام على فراش. فبلغ ذلك النبى ﷺ، فقال: «ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا؟! لكنى أصوم وأفطر، وأنام وأقوم، وأكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى» (٢). وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس؛ أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إني إذا أكلت اللحم انتشرت للنساء، وإني حرمت على اللحم، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾. وكذا رواه الترمذى وابن جرير وقال: حسن غريب. وقد روى من وجه آخر مرسلأ (٣). وعن عبد الله ابن مسعود قال: كنا نغزو مع رسول الله ﷺ، وليس معنا نساء، فقلنا: ألا نستخصى؟! فنهانا رسول الله ﷺ عن ذلك، ورخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل، ثم قرأ عبد الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾. أخرجاه (٤). وهذا كان قبل تحريم نكاح المتعة، والله أعلم.

(١) وكذلك رواه الطبرى بنحوه (١٢٣٤٦).

(٢) الحديث حديث أنس بن مالك، كذلك رواه البخارى (٩ / ٨٩، ٩٠ فتح) ومسلم (١ / ٣٩٤) من حديث أنس. وكذلك رواه ابن حبان فى صحيحه، رقم (١٣) بتحقيقنا، مختصراً. وكان فى الأصول المخطوطة والمطبوعة هنا: «عن عائشة!» وهو وهم - يقينا - من الحافظ ابن كثير. وقد قلده فى هذا الوهم تلميذه قاضى القضاة ابن أبى العز فى شرح الطحاوية (ص ٤٤٧، ٤٤٨) بتحقيقنا. وقد بينا هذا الوهم هناك. وما وجدته من حديث عائشة قط، لا فى الصحيحين ولا فى غيرها.

(٣) الطبرى (١٢٣٥٠) والترمذى (٤ / ٩٧، ٩٨). (٤) انظر الفتح (٩ / ١٠١ - ١٠٣).

وفى هذه القصة دلالة لمن ذهب من العلماء - كالشافعى وغيره - إلى أن من حرم مأكلاً أو ملبساً أو شيئاً ما عدا النساء : أنه لا يحرم عليه، ولا كفارة عليه أيضاً؛ ولقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ؛ ولأن الذى حَرَّمَ اللحم على نفسه - كما فى الحديث المتقدم - لم يأمره النبي ﷺ بكفارة. وذهب آخرون منهم الإمام أحمد بن حنبل إلى أن من حرم مأكلاً أو مشرباً أو شيئاً من الأشياء فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين، كما إذا التزم تركه باليمين فكذلك يؤخذ بمجرد تحريمه على نفسه إلزاماً له بما التزمه، كما أفتى بذلك ابن عباس، وكما فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَغَّى مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحریم: ١] ثم قال: ﴿فَدَفَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ الآية [التحریم: ٢]. وكذلك ههنا لما ذكر هذا الحكم عقبه بالآية المبينة لتكفير اليمين، فدل على أن هذا منزل منزلة اليمين فى اقتضاء التكفير، والله أعلم. وروى ابن جرير عن ابن جُرَيْج، عن مجاهد قال: أراد رجال، منهم عثمان بن مظعون وعبد الله بن عمرو أن يَتَّبِلُوا ويخصوا أنفسهم ويلبسوا المسوح، فنزلت هذه الآية إلى قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾. قال ابن جريج، عن عكرمة: إن عثمان بن مظعون، وعلى ابن أبى طالب، وابن مسعود، والمقداد بن الأسود، وسالماً مولى أبى حذيفة فى أصحابه - تبتلوا، فجلسوا فى البيوت، واعتزلوا النساء، ولبسوا المسوح، وحرموا طيبات الطعام واللباس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بنى إسرائيل، وهموا بالإخصاء وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ يقول: لا تسيروا بغير سنة المسلمين، يريد: ما حرّموا من النساء والطعام واللباس، وما أجمعوا عليه من قيام الليل وصيام النهار، وما هموا به من الإخصاء، فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال: «إِنَّ لَأَنْفُسِكُمْ حَقًّا، وَإِنْ لَأَعَيْنِكُمْ حَقًّا، صُومُوا وَأَفْطَرُوا، وَصَلُّوا وَنَامُوا، فَلَيْسَ مِنَّا مَنْ تَرَكَ سِتْنَانَا». فقالوا: اللهم سلّمنا واتبعنا ما أنزلت (١).

وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين مرسله، ولها شاهد فى الصحيحين من رواية عائشة أم المؤمنين، كما تقدم ذلك، والله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ يحتمل أن يكون المراد منه: ولا تبالغوا فى التضييق على أنفسكم بتحريم المباحات عليكم، كما قاله من قاله من السلف. ويحتمل أن يكون المراد: كما لا تحرموا الحلال، فلا تعتدوا فى تناول الحلال، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم، ولا تجاوزوا الحد فيه، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ الآية [آل عمران: ٣١] وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، فشرع الله عدل بين الغالى فيه والجافى عنه، لا إفراط ولا تفريط؛ ولهذا قال: ﴿لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

ثم قال: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا﴾ أى: فى حال كونه حلالاً طيباً ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: فى جميع أموركم، واتبعوا طاعته ورضوانه، واركبوا مخالفته وعصيانه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

وقد تقدم فى سورة البقرة الكلام على لغو اليمين، وأنه قول الرجل فى الكلام من غير قصد: لا والله، وبلى والله (١). وقيل: هو فى الهزل. وقيل: فى المعصية. وقيل: على غلبة الظن وهو قول أبى حنيفة وأحمد. وقيل: اليمين فى الغضب. وقيل: فى النسيان. وقيل: هو الحلف على ترك المأكل والمشرب والملبس ونحو ذلك، واستدلوا بقوله: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾. والصحيح أنه اليمين من غير قصد؛ بدليل قوله: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ أى: بما صمتم عليه من الأيمان وقصدتموها، ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ يعنى: محاييج من الفقراء، ومن لا يجد ما يكفيه.

وقوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال ابن عباس، وسعيد بن جبیر، وعكرمة: أى من أعدل ما تطعمون أهليكم. وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: كان الرجل يقوت بعض أهله قوت دون، وبعضهم قوتاً فيه سعة، فقال الله تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ من الخبز والزيت. واختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أى: فى القلة والكثرة.

ثم اختلف العلماء فى مقدار ما يطعمهم، فروى ابن أبى حاتم عن على فى قوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال: يغديهم ويعشيهم. وقال الحسن ومحمد بن سيرين: يكفيه أن يطعم عشرة مساكين أكلة واحدة خبزاً ولحماً، زاد الحسن: فإن لم يجد فخبزاً وسمناً ولبناً، فإن لم يجد فخبزاً وزيتاً وخللاً، حتى يشبعوا. وقال آخرون: يطعم كل واحد من العشرة نصف صاع من بر أو تمر، ونحوهما. هذا قول عمر، وعلى، وعائشة، ومجاهد، والشعبى، وسعيد ابن جبیر، وغيرهم. وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قال: مداً من بر - يعنى لكل مسكين - ومعه إدامه. ثم قال: وروى عن ابن عمر، وزيد بن ثابت، وسعيد بن المسيب، ومجاهد وغيرهم نحو ذلك. وقال الشافعى: الواجب فى كفارة اليمين مدٌ بمدّ النبى ﷺ لكل مسكين. ولم يتعرض للأدم. واحتج بأمر النبى ﷺ للذى جامع فى رمضان بأن يطعم ستين مسكيناً من مكيل يسع خمسة عشر صاعاً لكل واحد منهم مدٌ.

(١) مضى عند تفسير الآية : (٢٢٥) من نفس السورة.

وقال أحمد بن حنبل: الواجب مُدٌّ من بر، أو مدان من غيره. والله أعلم.

وقوله: ﴿أَوْ كَسَوْتُهُمْ﴾: قال الشافعي: لو دفع إلى كل واحد من العشرة ما يصدق عليه اسم الكسوة من قميص أو سراويل أو إزار أو عمامة أو مقتنعة أجزاء ذلك وقال مالك وأحمد بن حنبل: لا بد أن يدفع إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصح أن يصلى فيه، إن كان رجلاً أو امرأة، كلُّ بحسبه. والله أعلم.

وقوله: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾: أخذ أبو حنيفة بإطلاقها، فقال: تجزئ الكافرة كما تجزئ المؤمنة. وقال الشافعي وآخرون: لا بد أن تكون مؤمنة. وأخذ تقييدها بالإيمان من كفارة القتل؛ لاتحاد الموجب وإن اختلف السبب والحديث معاوية بن الحكم السلمي، الذي هو موطأ مالك ومسند الشافعي وصحيح مسلم: أنه ذكر أن عليه عتق رقبة، وجاء معه بجارية سوداء، فقال لها رسول الله ﷺ: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله. قال: «اعتقها فإنها مؤمنة». الحديث بطوله (١). فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين، أيها فعَلَّ الحانثُ أجزاء عنه بالإجماع. وقد بدأ بالأسهل فالأسهل، فالإطعام أسهل وأيسر من الكسوة، كما أن الكسوة أيسر من العتق، فترقى فيها من الأدنى إلى الأعلى. فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث كفر بصيام ثلاثة أيام، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾. وروى ابن جرير، عن سعيد بن جبير والحسن البصري أنهما قالوا: من وجد ثلاثة دراهم لزمه الإطعام وإلا صام. وقال ابن جرير، حاكياً عن بعض متأخري متفقهة زمانه أنه قال: جاز لمن لم يكن له فضل عن رأس مال يتصرف به لمعاشه [ما يكفر به بالإطعام، أن يصوم إلا أن يكون له كفاية، ومن المال ما يتصرف به لمعاشه] (٢)، ومن الفضل عن ذلك ما يكفر به عن يمينه. ثم اختار ابن جرير: أنه الذي لا يفضل عن قوته وقوت عياله في يومه ذلك ما يخرج به كفارة اليمين.

واختلف العلماء: هل يجب فيها التتابع، أو يستحب ولا يجب ويجزئ التفريق؟ على قولين: أحدهما: لا يجب، وهذا منصوص الشافعي في كتاب «الإيمان»، وهو قول مالك، لإطلاق قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ وهو صادق على المجموعة والمفرقة، كما في قضاء رمضان؛ لقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]. ونص الشافعي في موضع آخر في «الأم» على وجوب التتابع، كما هو قول الحنفية والحنابلة؛ لأنه قد روى عن أبي بن كعب وغيره: أنهم كانوا يقرؤونها: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات». وحكاها مجاهد، والشعبي، وأبو إسحاق عن عبد الله بن مسعود. وقال الأعمش: كان أصحاب ابن مسعود يقرؤونها كذلك. وهذه إذا لم يثبت كونها قرآناً متواتراً، فلا أقل من أن يكون خبر واحد، أو تفسيراً من الصحابي، وهو في حكم المرفوع.

(١) مضت الإشارة إليه عند تفسير الآيتين: (٩٢، ٩٣) من سورة النساء.

(٢) ما بين المعرفتين غير موجود في المطبوعة وكذا المطبوع من «عمدة التفسير» وأيضاً المخطوطة الأهرية. وأثبتناه من الطبري. راجع تفسير الآية (٨٩) به. (الباز).

وقوله: ﴿ذَلِكَ كَفَارَةٌ أَيَّمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ قال ابن جرير: معناه : لا تركوها بغير تكفير ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أى: يوضحها ويفسرهما ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميسر، وهو القمار. وقد ورد عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه قال: الشطرنج من الميسر. رواه ابن أبى حاتم (١). وروى ابن أبى حاتم عن عطاء ومجاهد وطاوس - أو اثنين منهم - قالوا: كل شيء من القمار فهو من الميسر، حتى لعب الصبيان بالجوز. وروى عن راشد بن سعد وضمرة بن حبيب، وقالوا: حتى الكعباب، والجوز، والبيض التى تلعب بها الصبيان. وعن ابن عمر قال: الميسر هو القمار. وقال ابن عباس: الميسر هو القمار، كانوا يتقامرون فى الجاهلية إلى مجيء الإسلام، فنهاهم الله عن هذه الأخلاق القبيحة. وقال سعيد بن المسيب: كان ميسر أهل الجاهلية بيع اللحم بالشاة والشاتين. وقال الأعرج: الميسر الضرب بالقداح على الأموال والثمار. وقال القاسم ابن محمد: كل ما ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة، فهو من الميسر. رواه ابن أبى حاتم. وفى صحيح مسلم، عن بُريدة بن الحُصيب الأسلمى قال: قال رسول الله ﷺ: «من لعب بالتردشير فكأنما صبغ يده فى لحم خنزير ودمه». وفى موطأ مالك ومسنَد أحمد، وسننى أبى داود وابن ماجه، عن أبى موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «من لعب بالترد فقد عصى الله ورسوله». وروى موقوفاً عن أبى موسى من قوله، فالله أعلم.

وأما الشطرنج، فقد قال عبد الله بن عمر: إنه شرّ من النرد. وتقدم عن على أنه قال: هو من الميسر، ونص على تحريمه مالك، وأبو حنيفة، وأحمد، وكرهه الشافعى.

وأما الأنصاب، فقال ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، وغير واحد: هى حجارة كانوا يذبحون قرايبنهم عندها.

وأما الأزلام، فقالوا أيضاً: هى قداح كانوا يستقسمون بها. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله تعالى: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ قال ابن عباس: أى سَخَط من عمل الشيطان. وقال

(١) إسناده منقطع؛ لانه من رواية محمد بن على بن الحسين، عن جد أبيه على بن أبى طالب. وبينهما دهر طويل.

سعيد بن جبير: إثم. وقال زيد بن أسلم: أى شر من عمل الشيطان ﴿فَاجْتَبِوهُ﴾: الضمير عائد على الرجس، أى: اتركوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ وهذا ترغيب.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ وهذا تهديد وترهيب.

ذكر الأحاديث الواردة فى بيان تحريم الخمر:

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: حرمت الخمر ثلاث مرات، قدم رسول الله ﷺ المدينة، وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما فانزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ إلى آخر الآية [البقرة: ٢١٩]. فقال الناس: ما حرم علينا، إنما قال: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾. وكانوا يشربون الخمر، حتى كان يوماً من الأيام صلى رجل من المهاجرين، أم أصحابه فى المغرب، خلط فى قراءته، فانزل الله آية أعظمت منها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]. وكان الناس يشربون، حتى يأتى أحدهم الصلاة وهو مفيق. ثم أنزلت آية أعظمت من ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَبِوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ قالوا: انتهينا ربنا. وقال الناس: يا رسول الله، ناس قتلوا فى سبيل الله، وماتوا على فرشههم، كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر، وقد جعله الله رجساً من عمل الشيطان؟ فانزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا﴾ إلى آخر الآية، فقال النبى ﷺ: «لو حرم عليهم لتركوه كما تركتم». انفرد به أحمد (١).

وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب أنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال: اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التى فى البقرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، فدعى عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التى فى سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ فكان نادى رسول الله ﷺ إذا قال: حى على الصلاة - نادى: لا يقربن الصلاة سكران. فدعى عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التى فى المائدة، فدعى عمر فقرئت عليه فلما بلغ: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ قال عمر: انتهينا. وهكذا رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى وصحح هذا الحديث على بن المدينى والترمذى (٢). وقد ثبت فى الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قال فى خطبته

(١) المسند (٨٦٠٥). وذكره الهيثمى فى الزوائد (٥ / ٥١) وقال: «أبو وهب مولى أبى هريرة: لم يجرحه أحد ولم يوثقه. وأبو معشر نجيح: ضعيف لسوء حفظه». أقول: وأبو وهب: تابعى عرف شخصه، وترجمه البخارى فى الكنى (ص ٧٥١) وابن أبى حاتم (٤ / ٢ / ٤٥١، ٤٥٢)، فلم يذكر فيه جرحاً، فهو ثقة عندهما. وللحديث شواهد تجبر ضعف أبى معشر نجيح.

(١) المسند (٢٧٨)، وإسناده صحيح. وقد مضى عند تفسير الآيتين: (٢١٩، ٢٢٠) من سورة البقرة. وأشار المؤلف الحافظ هناك إلى ذكره فى هذا الموضع. ومضى أيضاً عند تفسير الآية: (٢٣) من سورة النساء. ورواه الحاكم (٢٧٨/٢)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبى. ورواه الطبرى بخمسة أسانيد (١٢٥١٢ - ١٢٥١٦).

على منبر رسول الله ﷺ: أيها الناس، إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة: من العنب، والتمر، والعسل، والحنطة، والشعير، والخمر ما خامر العقل . وروى البخارى عن ابن عمر قال: نزل تحريم الخمر وإن بالمدينة يومئذ خمسة أشربة ما فيها شراب العنب (١).

وروى الطيالسى عن ابن عمر قال: نزلت فى الخمر ثلاث آيات، فأول شيء نزل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ الآية، [البقرة: ٢١٩] فقيل: حرمت الخمر. فقالوا: يا رسول الله، دعنا ننتفع بها كما قال الله تعالى. قال: فسكت عنهم، ثم نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: ٤٣]. فقيل: حرمت الخمر، فقالوا: يا رسول الله، إنا لا نشربها قرب الصلاة، فسكت عنهم ثم نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «حرمت الخمر» (٢). وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن وعلّة قال: سألت ابن عباس عن بيع الخمر؟ فقال: كان لرسول الله ﷺ صديق من ثقيف - أو: من دوس - فلقبه يوم الفتح براوية خمر يهديها إليه، فقال رسول الله ﷺ: «يا فلان، أما علمت أن الله حرّمها؟» فأقبل الرجل على غلامه فقال: اذهب فبعها. فقال رسول الله ﷺ: «يا فلان، بماذا أمرته؟» فقال: أمرته أن يبيعهها. قال: «إن الذى حرم شربها حرم بيعها». فأمر بها فأفرغت فى البطحاء. ورواه مسلم والنسائى (٣).

رواه مسلم من طريق ابن وهب، عن مالك، عن زيد بن أسلم. ومن طريق ابن وهب أيضاً، عن سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد كلاهما - عن عبد الرحمن بن وعلّة، عن ابن عباس، به. ورواه النسائى، عن قتيبة، عن مالك، به .

وروى أبو يعلى الموصلى عن شهر بن حوشب، عن تميم الدارى أنه كان يهدى لرسول الله ﷺ كل عام راوية من خمر، فلما أنزل الله تحريم الخمر جاء بها، فلما رآها رسول الله ﷺ ضحك وقال: «إنها قد حرمت بعدك». قال: يا رسول الله، فأبيعها أنتفع بثمنها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لعن الله اليهود، حرمت عليهم شحوم البقر والغنم، فأذابوه، وباعوه! والله حرّم الخمر وثنمها». وقد رواه أيضاً الإمام أحمد عن شهر بن حوشب قال: حدثنى عبد الرحمن بن غنم: أن الدارى كان يهدى لرسول الله ﷺ كل عام راوية من خمر، فلما كان عام حرمت جاء براوية، فلما نظر إليه ضحك فقال: «أشعرت أنها قد حرمت بعدك؟» فقال: يا رسول الله، ألا أبيعها وأنتفع بثمنها؟ فقال رسول الله ﷺ: «لعن الله اليهود، انطلقوا إلى ما حرّم عليهم من شحم البقر والغنم فأذابوه، فباعوا به ما يأكلون! وإن الخمر حرام وثنمها حرام، وإن الخمر حرام

(١) انظر المسند (٥٩٩٢)، وما أشرنا إليه من الروايات هناك .

(٢) مسند الطيالسى (١٩٥٧) . ورواه أيضاً الطبرى (٤١٤٣) . وفصلنا القول فيه هناك .

(٣) المسند (٢٠٤١) والمتقى (٤٧٠٢) .

وثنمها حرام، وإن الخمر حرام وثنمها حرام» (١).

وروى الإمام أحمد عن نافع بن كيسان أن أباه أخبره : أنه كان يتجر في الخمر في زمن رسول الله ﷺ، وأنه أقبل من الشام ومعه خمر في الزقاق، يريد بها التجارة، فأتى بها رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى جئتك بشراب طيب ! فقال رسول الله ﷺ: «يا كيسان، إنها قد حرمت بعدك». قال: فأبيعها يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنها قد حرمت وحرمت ثمنها». فإنتقل كيسان إلى الزقاق، فأخذ بأرجلها ثم هراقها (٢). وروى الإمام أحمد عن أنس قال: كنت أسقى أبا عبيدة بن الجراح، وأبى بن كعب، وسُهَيْل بن بيضاء، ونفراً من أصحابه عند أبى طلحة، حتى كاد الشراب يأخذ منهم، فأتى آت من المسلمين فقال: أما شعرتم أن الخمر قد حرمت؟ فما قالوا: حتى ننظر ونسأل ! فقالوا: يا أنس أكف ما بقى فى إناثك، فوالله ما عادوا فيها، وما هى إلا التمر والبسر، وهى خمرهم يومئذ . أخرجاه فى الصحيحين (٣). وفى رواية عن أنس قال: كنت ساقى القوم يوم حرمت الخمر فى بيت أبى طلحة، وما شرابهم إلا الفُصِيخُ : البسرُ والتمرُ، فإذا مناد ينادى، قال: اخرج فانظر. فإذا مناد ينادى: ألا إن الخمر قد حرمت، فجرت فى سبكك المدينة، قال: فقال لى أبو طلحة: اخرج فأهرقها. فهرقتها، فقالوا - أو: قال بعضهم: قُتِلَ فُلَانٌ وفلان وهى فى بطونهم؟ قال: فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الآية. وروى ابن جرير عن أنس بن مالك قال: بينما أنا أدير الكأس على أبى طلحة، وأبى عبيدة بن الجراح وأبى دُجَانَةَ، ومعاذ بن جبل، وسهيل ابن بيضاء، حتى مالت رؤوسهم من خليط بسر وتمر. فسمعت منادياً ينادى: ألا إن الخمر قد

(١) رواية شهر بن حوشب عن تميم الدارى - التى رواها أبو يعلى - تحتل الاتصال . ولكن رواية المسند التى بعدها ترجح أنه سمعه من عبد الرحمن بن غنم - وهو صحابى - حكاية منه للقصة . ولم أجد رواية أبى يعلى فى الزوائد ، مع أنها على شرطه ، ولعلها فى موضع خفى على من . ورواية أحمد هى فى المسند (٤ / ٢٢٧ حلى) . وهى فى الزوائد (٤ / ٨٨) ، وقال : « رواه أحمد هكذا : عن ابن غنم أن الدارى . وفيه شهر ، وحديثه حسن ، وفيه كلام . ورواه الطبرانى فى الكبير عن عبد الرحمن بن غنم ، عن تميم الدارى : أنه كان يهدى . فذكر نحوه باختصار ، إلا أنه قال : إنه حرام شراًؤها وثنمها . وإسناده متصل حسن » . فالظاهر من قرينة رواية الطبرانى أن عبد الرحمن بن غنم سمعه من تميم الدارى ، وأن شهر بن حوشب سمعه من عبد الرحمن بن غنم ، ثم حدث به على أوجه مختلفة ، مرجعها واحد . فالحديث صحيح بكل حال .

(٢) المسند (٤ / ٣٣٥ ، ٣٣٦ حلى) . ورواه البخارى فى الكبير (٤ / ١ / ٢٣٣) فى ترجمة الصحابى « كيسان ابن عبد الله بن طارق » . وهو فى الزوائد (٤ / ٨٨) ، وقال : « رواه أحمد والطبرانى فى الكبير والأوسط ، وفيه نافع بن كيسان ، وهو مستور » . أقول : بل هو ثقة ، ترجمة البخارى وابن أبى حاتم ، فلم يذكر فيه جرماً ، بل ذكره بعضهم - ومنهم المحافظ ابن حجر - فى الصحابة . والحديث ذكره المحافظ فى الإصابة (٥ / ٣١٦) ، وزاد نسبه للبغوى والرويانى وأبى نعيم .

(٣) المسند (١٢٩٠٠) . وقوله : « فما قالوا حتى ننظر ونسأل » - يريد : أنهم قبلوا خبر المخبر بالتحريم دون تردد ، طاعة لله ورسوله ، وثقة بخبر الناقل إليهم . ووقع فى المطبوعة « فقالوا » ! وهو تغيير سخيف ، يقلب المعنى إلى ضده . وما أثبتنا هو الذى فى المسند والمخطوطين . وقوله : « أكف ما بقى فى إناثك » : أصله « أكفىء » فحذفت الهمزة الأخيرة تسهيلاً . وفى المطبوعة بدلها : « اسكب » ! وهو تصرف أيضاً ، مخالف لما فى المسند والمخطوطين .

حُرِّمَتْ! قال: فما دخل علينا داخل ولا خرج منا خارج، حتى أهرقنا الشراب، وكسرنا القلال، وتوضأ بعضنا واغتسل بعضنا، وأصننا من طيب أم سليم، ثم خرجنا إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾. فقال رجل: يا رسول الله، فما ترى فيمن مات وهو يشربها؟ فانزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الآية، وقال رجل لأنس بن مالك: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم - أو: حدثني من لم يكذب، ما كنا نكذب، ولا ندرى ما الكذب (١). وروى الإمام أحمد عن قيس بن سعد بن عبادة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن ربي تبارك وتعالى حرم على الخمر، والكوبة، والقنين. وإياكم والغبيراء فإنها ثلث خمر العالم» (٢). وروى أحمد أيضاً عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال على ما لم أقل فليتبوأ مقعده من جهنم». قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله حرم الخمر والميسر والكوبة والغبيراء، وكل مسكر حرام». تفرد به أحمد (٣).

وروى الإمام أحمد أيضاً عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لعنت الخمر على عشرة وجوه: لعنت الخمر بعينها وشاربها، وساقبها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وأكل ثمنها». ورواه أبو داود وابن ماجه (٤). وروى أحمد عن ابن عمر قال: خرج رسول الله ﷺ إلى المربد، فخرجت معه فكنت عن يمينه، وأقبل أبو بكر فتأخرت عنه، فكان عن يمينه وكنت عن يساره. ثم أقبل عمر فتنحيت له، فكان عن يساره. فأتى رسول الله ﷺ المربد، فإذا بزقاق على المربد فيها خمر - قال ابن عمر -: فدعاني رسول الله ﷺ بالمدينة - قال ابن عمر: وما عرفت المدينة إلا يومئذ - فأمر بالزقاق فشقَّتْ، ثم قال: «لعنت الخمر وشاربها، وساقبها، وبائعها، ومبتاعها، وحاملها، والمحمولة إليه، وعاصرها، ومعتصرها، وأكل ثمنها» (٥).

(١) الطبري (١٢٥٢٧). وإسناده صحيح. وهو رواية مفصلة لحديث أنس، السابق بروايتين. وهذه الرواية لم ينسبها السيوطي (٣٢٠/٢) لغير الطبري. وقد ذكره الهيثمي في الزوائد (٥٢/٥)، وقال: «رواه البزار، ورجاله ثقات».

(٢) المسند (١٥٥٤٧). وإسناده صحيح. وكذلك رواه ابن عبد الحكم في فتوح مصر، (ص ٢٧٣)، من هذا الوجه. و«الكوبة» - بضم الكاف - هي الزرد، وقيل: الطبل، وقيل: البربط، قاله ابن الأثير. و«القنين» - بكسر القاف وتشديد النون الأولى المكسورة: قال ابن الأثير: «لعبة للروم يقامرون بها». وقيل: هي الطنبور بالحيشية. والتقنين: الضرب بها. و«الغبيراء» - بضم الغين المعجمة: ضرب من الشراب يتخذة الخبش من الذرة. وفي حديث آخر لابن عباس - مرفوعاً - في المسند (٢٤٧٦، ٢٦٢٥): «إن الله حرم الخمر والميسر والكوبة، وكل مسكر حرام». قال سفيان في الرواية الأولى: «قلت لعلى بن بذيمة: ما الكوبة؟ قال: «الطبل»». وهو حديث صحيح.

(٣) المسند (٦٥٩١). ورواه أيضاً بنحوه (٦٤٧٨). وإسناده صحيحان.

(٤) المسند (٤٧٨٧، ٥٣٩١). ورواه أيضاً بإسناد آخر (٥٧١٦) بنحوه. وكلا الإسنادين صحيح.

(٥) المسند (٥٣٩٠)، وإسناده صحيح. ورواه أيضاً ابن عبد الحكم في فتوح مصر (ص ٢٦٤) مطولاً. وانظر تفسير الطبري (٤١٤٣).

وعن ثابت بن يزيد الخولاني: أنه كان له عم يبيع الخمر، وكان يتصدق! قال: فنهتته عنها فلم ينته، فقدمت المدينة فلقيت ابن عباس، فسألته عن الخمر وثمانها؟ فقال: هي حرام وثمانها حرام. ثم قال ابن عباس: يا معشر أمة محمد، إنه لو كان كتاب بعد كتابكم، ونبي بعد نبيكم، لأنزل فيكم كما أنزل فيمن قبلكم، ولكن أخر ذلك من أمركم إلى يوم القيامة، ولعمري لهو أشد عليكم، قال ثابت: فلقيت عبد الله بن عمر فسألته عن ثمن الخمر؟ فقال: سأخبرك عن الخمر، إني كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد، فبينما هو محتب حلَّ حيوته، ثم قال: «من كان عنده من هذه الخمر شيء فليأتنا بها». فجعلوا يأتونه، فيقول أحدهم: عندي راوية. ويقول الآخر: عندي زق أو: ما شاء الله أن يكون عنده، فقال رسول الله ﷺ: «اجمعوا ببيع كذا وكذا ثم آذنوني». ففعلوا، ثم آذنه، فقام وقمت معه، ومشيت عن يمينه وهو متكئ على، فلحقنا أبو بكر، فأخبرني رسول الله ﷺ، فجعلني عن شماله، وجعل أبا بكر في مكاني. ثم لحقنا عمر بن الخطاب، فأخبرني، وجعله عن يساره، فمشى بينهما. حتى إذا وقف على الخمر قال للناس: «أتعرفون هذا؟» قالوا: نعم، يا رسول الله، هذه الخمر. قال: «صدقتم». قال: «فإن الله لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها، وشاربها وساقبها، وحاملها والمحمولة إليه، وبائعها ومشتريها وأكل ثمنها». ثم دعا بسكين فقال: «اشحذوها». ففعلوا، ثم أخذها رسول الله ﷺ يُخرقُ بها الزقاق، قال: فقال الناس: في هذه الزقاق منفعة، فقال: «أجل، ولكني إنما أفعل ذلك غضباً لله، عز وجل، لما فيها من سخطه». فقال عمر: أنا أكفيك يا رسول الله، قال: «لا» (١).

وروى البيهقي عن ابن عباس قال: إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار، شربوا فلما أن تَمَلَّ القوم عبث بعضهم ببعض، فلما أن صَحُّوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ورأسه ولحيته، فيقول: صنع بي هذا أخى فلان - وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن - والله لو كان بي رؤوفاً رحيماً ما صنع هذا بي، حتى وقعت في الضغائن في قلوبهم فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ إلى قوله ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ فقال ناس من المتكلفين: هي رجس، وهي في بطن فلان، وقد قتل يوم أحد! فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا﴾ إلى آخر الآية. ورواه النسائي (٢). وروى ابن جرير عن بريدة، قال: بينا نحن فَعُودٌ على شراب لنا، ونحن رَمَلَةٌ، ونحن ثلاثة أو أربعة، وعندنا باطية لنا، ونحن نشرب الخمر حلاً، إذ قمت حتى أتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه، إذ نزل تحريم الخمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إلى آخر الآية:

(١) السنن الكبرى (٨ / ٢٨٧). ورواه أيضاً الحاكم (٤ / ١٤٤، ١٤٥) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي (٨ / ٢٨٥، ٢٨٦)، وإسناده صحيح. ورواه الطبري (١٢٥٢٢) والحاكم (٤ / ١٤١، ١٤٢) وصححه الذهبي على شرط مسلم. وذكره الهيثمي في الزوائد (٧ / ١٨) وقال: «رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح».

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ فبحثت إلى أصحابي فقرأتها إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ قال: وبعض القوم شربته في يده، قد شرب بعضها وبقي بعض في الإناء، فقال بالإناء تحت شفته العليا، كما يفعل الحجام، ثم صبوا ما في باطيتهم فقالوا: انتهينا ربنا (١). وروى الطيالسي عن البراء بن عازب قال: لما نزل تحريم الخمر قالوا: كيف بمن كان يشربها قبل أن تحرم؟ فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الآية. ورواه الترمذى نحوه. وقال: حسن صحيح. وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك؛ أن أبا طلحة سأل النبي ﷺ عن أيتام في حجره ورثوا خمرًا، فقال: «أهرقها». قال: أفلا نجعلها خلا؟ قال: «لا». ورواه مسلم، وأبو داود، والترمذى.

وروى ابن وهب بإسناده عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله ﷺ قال: «من ترك الصلاة سكرًا مرة واحدة، فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فسلبها، ومن ترك الصلاة سكرًا أربع مرات، كان حقًا على الله أن يسقيه من طينة الخبال». قيل: وما طينة الخبال؟ قال: «عصارة أهل جهنم». ورواه أحمد (٢).

وروى أبو داود عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «كل مخمر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب مسكرًا بخست صلاته أربعين صباحًا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة كان حقًا على الله أن يسقيه من طينة الخبال». قيل: وما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال: «صدید أهل النار، ومن سقاه صغيرًا لا يعرف حلاله من حرامه، كان حقًا على الله أن يسقيه من طينة الخبال». تفرد به أبو داود (٣). وقال الشافعي: «أنبأنا مالك، عن نافع، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «من شرب الخمر في الدنيا، ثم لم يتب منها حُرِّمها في الآخرة». أخرجه البخارى ومسلم. وروى مسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر فمات وهو يُدْمِنُها ولم يتب منها لم يشربها في الآخرة». وروى ابن وهب عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمُدْمِنُ الخمر، والمنان بما أعطى». ورواه النسائي (٤). وروى أحمد عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة منان، ولا عاق، ولا مُدْمِنُ خمر». ورواه النسائي (٥).

وعن عثمان بن عفان قال: اجتنبوا الخمر، فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس، فعلقته امرأة غوية، فأرسلت إليه جاريتها: إنا ندعوك لشهادة.

(١) الطبرى (١٢٥٢٣)، وإسناده صحيح. وقد أشار إليه البخارى فى الكبير كعادته فى الإيجاز (٢ / ٢ / ١٣٤) ولم يذكر له علة، فهو أمارة قبوله عنده.

(٢) المسند (٦٦٥٩). ورواه أيضا الحاكم (٤ / ١٤٦) وصححه، وقال الذهبى: «غريب جدًا».

(٣) أبو داود (٣٦٨٠)، وإسناده صحيح.

(٤) النسائي (١ / ٣٥٧). وقد مضى عند تفسير الآية: (٢٦٤) من سورة البقرة. وهو جزء من حديث مطول فى المسند (٦١٨٠).

(٥) المسند (١١٢٤٠، ١١٤١٨)، وإسناده صحيحان. ورواه أيضا البيهقى (٨ / ٢٨٨).

فدخل معها، فطفقت كلما دخل باباً أغلقتة دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيفة عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك لشهادة ولكنى دعوتك لتقع علىّ أو تقتل هذا الغلام، أو تشرب هذا الخمر ! فسقته كأساً، فقال: زيدونى، فلم يرم حتى وقع عليها، وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر، فإنها لا تجتمع هى والإيمان أبداً إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه. رواه البيهقى ، وإسناده صحيح (١) . وقد رواه أبو بكر بن أبى الدنيا فى كتابه «ذم المسكر» مرفوعاً . والموقوف أصح، والله أعلم. وله شاهد فى الصحيحين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق سرقه حين يسرقها وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» (٢).

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما حرمت الخمر قال أناس: يا رسول الله، أصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها؟ فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ الآية. قال: ولما حوت القبلة قال أناس: يا رسول الله، أصحابنا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] (٣). وروى الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد، أنها سمعت النبى ﷺ يقول: «من شرب الخمر لم يرض الله عنه أربعين ليلة، إن مات مات كافراً، وإن تاب تاب الله عليه. وإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال». قالت: قلت: يا رسول الله، وما طينة الخبال؟ قال: «صديد أهل النار» (٤).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَلْبِثُوكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَن أَعَدَّيْ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّرَهُ طَعَامًا مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَن عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾

قال ابن عباس : قوله : ﴿لِيَلْبِثُوكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ قال : هو الضعيف من الصيد وصغيره ، يتلى الله به عبادته فى إحرامهم ، حتى لو شأوا ويتناولونه بأيديهم . فنهاهم الله أن يقربوه . وقال مجاهد : ﴿تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ﴾ يعنى : صغار الصيد وفرادخه ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ يعنى : كباره . ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ يعنى : أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم فى رحالهم ،

(١) السنن الكبرى (٨ / ٢٨٧ ، ٢٨٨) . ورواه أيضا النسائى (٢ / ٣٣١) موقوفاً بإسنادين صحيحين .
(٢) رواه البخارى (٥ / ٨٦ ، ١٠ / ٢٨ ، ٢٩ ، ١٢ / ٥٠ ، ١٠١ فتح) ومسلم (١ / ٣١ ، ٣٢) وأحمد فى المسند (٧٣١٦) كلهم من حديث أبى هريرة بنحوه . ورواه البخارى أيضا (١٢ / ٧١ ، ١٠١ فتح) من حديث ابن عباس ، بمعناه .

(٣) المسند (٢٦٩١) ، وإسناده صحيح . وقد مضت الإشارة إليه فى شأن القبلة عند الآية (١٤٣) البقرة .

(٤) المسند (٦ / ٤٦٠ حلى) ، وإسناده صحيح .

يتمكنون من أخذه بالأيدى والرماح سرّاً وجهرّاً ، لتظهر طاعة من يطيع منهم فى سره وجهره ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك : ١٢] . وقوله ههنا : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ قال السدى وغيره : يعنى بعد هذا الإعلام والإنذار والتقدم ﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : لمخالفته أمر الله وشرعه .

ثم قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ﴾ وهذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد فى حال الإحرام ، ونهى عن تعاطيه فيه . وهذا إنما يتناول - من حيث المعنى - المأكول وما يتولد منه ومن غيره ، فأما غير المأكول من حيوانات البر ، فعند الشافعى يجوز للمحرم قتلها . والجمهور على تحريم قتلها أيضاً ، ولا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت فى الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «خمس فَوَاسِقٌ يُقْتَلْنَ فى الْحِلِّ وَالْإِحْرَامِ : الْغُرَابُ وَالْحِدَاةُ ، وَالْعَقْرَبُ ، وَالْفَأْرَةُ ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ » (١) .

وقال مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «خمس من الدواب ليس على المحرم فى قتلهن جُنَاحٌ : الغراب ، والحداة ، والعقرب ، والفأرة ، والكلب العقور» . أخرجاه (٢) . ومن العلماء - كمالك وأحمد - من ألحق بالكلب العقور الذئب ، والسبع ، والثمر ، والفهد ؛ لأنها أشد ضرراً منه ، فالله أعلم . وقال سفيان بن عيينة وزيد بن أسلم : الكلب العقور يشمل هذه السباع العادية كلها . قالوا : فإن قتل ما عداها كالضبع والثعلب والوبر ونحو ذلك (٣) . قال مالك : وكذا يستثنى من ذلك صغار هذه الخمس المنصوص عليها ، وصغار الملحق بها من السباع العوادي . وقال الشافعى : يجوز للمحرم قتل كل ما لا يؤكل لحمه ، ولا فرق بين صغاره وكباره . وجعل العلة الجامعة كونها لا تؤكل . وقال أبو حنيفة : يقتل المحرم الكلب العقور والذئب ؛ لأنه كلب برى ، فإن قتل غيرهما فداء ، إلا أن يصول عليه سبع غيرهما فيقتله ، فلا فداء عليه . وهذا قول الأوزاعى ، والحسن بن صالح بن حى . وقال بعض الناس : المراد بالغراب ههنا الأبقع ، وهو الذى فى بطنه وظهره بياض ، دون الأدرع وهو الأسود ، والأعصم وهو الأبيض ؛ لما رواه النسائى عن عائشة ، عن النبى ﷺ قال : «خمس

(١) البخارى (٤/٣٠ - ٣٣ ، و٦/٢٥٣ فتح) ومسلم (١/٣٣٥) . ولكن لفظه عندهما : « يقتلن فى الحرام » ، ليس فيه كلمة « فى الحل » ، إلا فى رواية أخرى عن عائشة عند مسلم (١/٣٣٤ ، ٣٣٥) ، وفيه : « الحرام » بدل « الإحرام » . وأثبتنا ما فى المخطوطتين هنا . وفى المطبوعة : « فى الحل والحرم » . ولفظ « الإحرام » ثابت فى حديث آخر عند مسلم (١/٣٣٥) من حديث ابن عمر مرفوعاً : « خمس لا جناح على من قتلهن فى الحرم والإحرام » . فلعل الحفاظ ابن كثير أثبت ما هنا من حفظه ، أو من رواية أخرى لغير الصحيحين ، ونسبهما لها تجوزاً ، بإعادة أصل الحديث .

(٢) الموطأ (ص ٣٥٦) والبخارى (٤/٢٩ ، و٦/٢٥٣ فتح) ومسلم (١/٣٣٥) .

(٣) الوبر : بفتح الواو وسكون الباء الموحدة : دوية على قدر السنور ، غبراء أو بياض ، من دواب الصحراء ، حسنة العينين شديدة الحياة . قاله فى اللسان . وقال الجوهري : « هى طحلاء اللون ، لا ذنب لها ، تدجن فى البيوت » . وفى المخطوطتين : « وهر البر » بدل « والوبر » .

يقتلهم المحرم: الحية، والفأرة، والحدأة، والغراب الأبقع، والكلب العقور (١). والجمهور على أن المراد به أعم من ذلك؛ لما ثبت في الصحيحين من إطلاق لفظه (٢). وقال مالك: لا يقتل المحرم الغراب إلا إذا صال عليه وآذاه (٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ الذي عليه الجمهور أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه. وقال الزهري: دل الكتاب على العامد، وجرت السنة على الناسي، ومعنى هذا: أن القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمد وعلى تأنيبه بقوله: ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾، وجاءت السنة من أحكام النبي ﷺ وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ، كما دل الكتاب عليه في العمد، وأيضاً فإن قتل الصيد إتلاف، والإتلاف مضمون في العمد وفي النسيان، لكن المتعمد مأثوم والمخطئ غير مأثوم.

وقوله: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾: قرأ بعضهم بالإضافة، وقرأ آخرون بضمها: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ (٤). وفي قوله: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ - على كل من القراءتين - دليل لما ذهب إليه مالك، والشافعي، وأحمد، والجمهور: من وجوب الجزاء في مثل ما قتله المحرم، إذا كان له مثل من الحيوان الإنسي، خلافاً لأبي حنيفة، حيث أوجب القيمة سواء كان الصيد المقتول مثلياً أو غير مثلي، قال: وهو مخير إن شاء تصدق بثمنه، وإن شاء اشترى به هدياً. والذي حكم به الصحابة في المثل أولى بالاتباع، فإنهم حكموا في النعامة ببذنه، وفي بقرة الوحش ببقرة، وفي الغزال بعنز.

وقوله: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ يعني: أنه يحكم بالجزاء في المثلي، أو بالقيمة في غير المثلي، عدلان من المسلمين. واختلف العلماء في القاتل: هل يجوز أن يكون أحد الحكمين؟ على قولين: أحدهما: لا؛ لأنه قد يتهم في حكمه على نفسه، وهذا مذهب مالك. والثاني: نعم؛ لعموم الآية. وهو مذهب الشافعي، وأحمد. واحتج الأولون بأن الحاكم لا يكون محكوماً عليه في صورة واحدة.

روى ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران؛ أن أعرابياً أتى أبا بكر فقال: قتلت صيداً وأنا محرم، فما ترى علي من الجزاء؟ فقال أبو بكر لأبي بن كعب وهو جالس عنده: ما ترى فيها قال؟ فقال الأعرابي: أتيتك وأنت خليفة رسول الله ﷺ أسألك، فإذا أنت تسأل غيرك! فقال أبو بكر: وما تنكر؟ يقول الله تعالى: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ فشاورت

(١) السنائي (٢ / ٢٦). وكذلك رواه مسلم (١ / ٣٣٤، ٣٣٥) بنحوه.

(٢) ولكن يعكر عليه أن المطلق يحمل على المقيد.

(٣) لا أدري من أين جاء الحافظ ابن كثير بهذا الذي نسب لمالك؟! وقوله في الموطأ غير ذلك، قال: «وأما ما ضر من الطير - فإن المحرم لا يقتله، إلا ما سمى النبي ﷺ: «الغراب والحدأة». [الموطأ، ص ٣٥٧].

(٤) قرأ عاصم وحزمة والكسائي ويعقوب وخلف «فجزاء» بالتونين والرفع، و«مثل» برفع اللام، صفة لجزاء. وقرأ باقي الأربعة عشر برفع «جزاء» من غير تنوين وخفض اللام في «مثل». والقراءتان صحيحتان.

صاحبي حتى إذا اتفقنا على أمر أمرناك به . وإسناده جيد ، لكنه منقطع بين ميمون وبين الصديق ، ومثله يحتمل ههنا . فبين له الصديق الحكم برفق وتؤدّة ، لما رآه أعرابياً جاهلاً ، وإنما دواء الجهل التعليم ، فأما إذا كان المعترض منسوباً إلى العلم ، فقد روى ابن جرير عن قبيصة بن جابر قال : خرجنا حجاً ، فكنّا إذا صلينا الغداة اقتدنا وواحلنا تماشى نتحدث ، قال : فبينما نحن ذات غداة إذ سَنَحَ لنا ظبي - أو : بَرَحَ - فرماه رجل كان معنا بحجر ، فما أخطأ حشاه فركب رَدْعَهُ ميتاً ، قال : فَعَظَمْنَا عليه ، فلما قدمنا مكة خرجت معه حتى أتينا عمر بن الخطاب ، فقص عليه القصة ، قال : وإلى جنبه رجل كان وجهه قُلبَ فضة - يعني عبد الرحمن بن عوف - فالتفت عمر إلى صاحبه فكلمه ، قال : ثم أقبل على الرجل فقال : أعمداً قتلته أم خطأ؟ قال الرجل : لقد تعمدت رميه ، وما أردت قتله . فقال عمر : ما أراك إلا قد أشركت بين العمد والخطأ ، اعمد إلى شاة فاذبها فتصدق بلحمها واستبق إهابها . قال : فقمتنا من عنده ، فقلت لصاحبي : أيها الرجل ، عَظَمَ شعائر الله ، فما درى أمير المؤمنين ما يفتيك حتى سأل صاحبه! اعمد إلى ناقتك فانحرها ، فلعل ذاك ، يعني : أن يجزئ عنك . قال قبيصة : ولا أذكر الآية من سورة المائدة : ﴿يَعْلَمُ بِهِ ذَوْأً عَدَلٌ مِنْكُمْ﴾ ببلغ عمر مقالتي ، فلم يفجأنا منه إلا ومعه الدرّة . قال : فعلا صاحبي ضرباً بالدرّة : أقتلت في الحرم وسفّهت الحكم؟! قال : ثم أقبل على فقلت : يا أمير المؤمنين ، لا أحل لك اليوم شيئاً يحرم عليك مني ، فقال : يا قبيصة بن جابر ، إنى أراك شاب السن ، فسيح الصدر ، بين اللسان ، وإن الشاب يكون فيه تسعة أخلاق حسنة وخلق سيئ ، فيفسد الخلق السيئ الأخلاق الحسنة ، فإياك وعثرات الشباب (١) .

وروى ابن جرير عن طارق قال : أوطأ أربدُ ضباً فقتله وهو محرم ، فأتى عمر؛ ليحكم عليه ، فقال له عمر : احكم معي ، فحكما فيه جدياً ، قد جمع الماء والشجر . ثم قال عمر :

(١) الطبري (١٢٥٨٨) ، وإسناده صحيح . ورواه قبل ذلك مختصراً بسياقات ومن أوجه (١٢٥٧٣ - ١٢٥٧٧) ، (١٢٥٨٦ ، ١٢٥٨٧) . ورواه البيهقي من هذا الوجه مطولاً (١٨١ / ٥) . ورواه أيضاً عقب ذلك عن الحاكم ، مختصراً قليلاً من وجه آخر . وهو في المستدرک (٣ / ٣١٠) . وقال الحاكم : « صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه » . ووافقه الذهبي . وذكره الهيثمي في الزوائد (٣ / ٢٣١ ، ٢٣٢) بنحوه ، وقال : « رواه الطبراني في الكبير ، ورجاله ثقات » . وذكره السيوطي (٢ / ٣٢٩) ، وزاد بنسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم . وقوله : « إذا سنح لنا ظي أو برح » : هما بفتح أولهما وثانيهما . و « سنح » : أتاك عن يسارك . و « برح » : أتاك عن يمينك . وقوله : « فركب رده » : هو بفتح الراء وسكون الدال ، أي : خر لوجهه على دمه وركبه ، إذ الدم يسيل ثم يخر عليه صريعاً . وهذا الحرف ثابت على الصواب في المخطوطتين هنا . وفي المطبوعة « فركب وودعه » ! وهو تخليط . وقوله : « قلب فضة » - « القلب » بضم القاف وسكون اللام ، وهو السوار الملوي ليا واحداً .

وموعظة عمر لقبيصة في شأن الشباب ، من أغلى المواعظ وأعلاها ، وأبلغها عبارة . فما يفسد الشباب شيء مثل خلق سيئ ، يدمر ما كان حسناً من أخلاقه .

﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ (١). وفي هذا دلالة على جواز كون القاتل أحد الحكمين ، كما قاله الشافعي وأحمد ، رحمهما الله .

واختلفوا: هل تستأنف الحكومة في كل ما يصيبه المحرم، فيجب أن يحكم فيه ذوا عدل، وإن كان قد حكم في مثله الصحابة؟ أو يكتفى بأحكام الصحابة المتقدمة؟ على قولين، فقال الشافعي وأحمد: يتبع في ذلك ما حكمت به الصحابة ، وجعله شرعاً مقررأ لا يعدل عنه، وما لم يحكم فيه الصحابة يرجع فيه إلى عدلين. وقال مالك وأبو حنيفة: بل يجب الحكم في كل فرد فرد، سواء وجد للصحابة في مثله حكم أم لا؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ .

وقوله: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكُعْبَةِ﴾ أى: واصلاً إلى الكعبة، والمراد وصوله إلى الحرم، بأن يذبح هناك، ويفرق لحمه على مساكن الحرم. وهذا أمر متفق عليه في هذه الصورة. وقوله: ﴿أَوْ كَفَّارَةً طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ أى: إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال، أو قلنا بالتخيير في هذا المقام بين الجزاء والإطعام والصيام، كما هو قول مالك، وأبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد ، وأحد قولي الشافعي، والمشهور عن أحمد ، لظاهر الآية « أو » فإنها للتخيير. والقول الآخر: أنها على الترتيب . فصورة ذلك : أن يعدل إلى القيمة، فيقوم الصيد المقتول عند مالك، وأبي حنيفة وأصحابه، وحماد، وإبراهيم. وقال الشافعي: يقوم مثله من النعم لو كان موجوداً، ثم يشتري به طعام فيتصدق به، فيصرف لكل مسكين مُدّ منه عند الشافعي، ومالك، وفقهاء الحجاز، واختاره ابن جرير. وقال أبو حنيفة وأصحابه: يُطعم كل مسكين مُدّين، وهو قول مجاهد. وقال أحمد: مُدّ من حنطة، أو مدان من غيره. فإن لم يجد - أو قلنا بالتخيير - صام عن إطعام كل مسكين يوماً. واختلفوا في مكان هذا الإطعام، فقال الشافعي: محله الحرم، وهو قول عطاء. وقال مالك: يطعم في المكان الذي أصاب فيه الصيد، أو أقرب الأماكن إليه. وقال أبو حنيفة: إن شاء أطعم في الحرم، وإن شاء أطعم في غيره.

وقوله: ﴿لِيَذُوقَ وَيَلَّأَ أَمْرَهُ﴾ أى: أوجبنا عليه الكفارة ليذوق عقوبة فعله الذي ارتكب فيه المخالفة ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ أى: في زمان الجاهلية، لمن أحسن في الإسلام واتبع شرع الله، ولم يرتكب المعصية . ثم قال: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ أى: ومن فعل ذلك بعد تحريمه في الإسلام وبلوغ الحكم الشرعى إليه ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ . قال ابن جرّيج، قلت لعطاء: ما ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ قال: قلت: وما ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾؟ قال: ومن عاد في الإسلام، فينتقم الله

(١) الطبرى (١٢٥٨٩) . ورواه الشافعي في الأم (١٦٥ / ٢) . ورواه البيهقي (١٨٢ / ٥) من طريق الشافعي ، وذكره الحافظ في الإصابة (١ / ١٠٣ ، ١٠٤) في ترجمة « أريد بن عبد الله البجلي » من رواية عبد الرزاق ، وقال : « إسناده صحيح » . وقوله : « أوطأ أريد ضبا » : أى جعل دابته تطؤه في مسيرها . وكان في المخطوطتين المطبوعة هنا : « ظيبا » بدل « ضبا » وصححناه من الأم والطبرى . ويؤيده أنه جاء في الأم تحت عنوان « باب الضب » .

منه، وعليه مع ذلك الكفارة قال: قلت: فهل في العود حدٌ تعلمه؟ قال: لا. قال: قلت: فترى حقاً على الإمام أن يعاقبه؟ قال: لا، هو ذنب أذنبه فيما بينه وبين الله، عز وجل، ولكن يفتدى. رواه ابن جرير^(١). وقيل: معناه: فينتقم الله منه بالكفارة. قاله سعيد بن جبير، وعطاء. ثم الجمهور - من السلف والخلف - على أنه متى قتل المحرم الصيد وجب الجزاء، ولا فرق بين الأوَّل والثانية والثالثة، وإن تكرر ما تكرر، سواء الخطأ في ذلك والعمد^(٢). وروى ابن جرير عن ابن عباس فيمن أصاب صيداً فحُكِمَ عليه ثم عاد، قال: لا يحكم عليه، ينتقم الله منه^(٣). وهكذا قال شُرَيْحٌ، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهم.

وقال ابن جرير في قوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ يقول عزَّ ذكره: والله منيع في سلطانه لا يقهره قاهر، ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه، ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع؛ لأن الخلق خلقه، والأمر أمره، له العزة والمنعة. وقوله: ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ يعنى: أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه^(٤).

(١) الطبرى (١٢٦٣٦، ١٢٦٣٧).

(٢) «الأولة»: أثبتناها على ما فى المخطوطتين. وفى المطبوعة: «الأولى»، وأرجح أنه تصرف من ناسخ أو طابع، و«الأولة»: مؤنث «أول»، كالأولى، ولكنها قليلة. ففى اللسان (١٤ / ٢٤٤): «وحكى عن ثعلب: من الأولات دخولا والأخرات خروجاً: واحدها الأولة والأخرة. ثم قال: ليس هذا أصل الباب، وإنما أصل الباب: الأول والأولى، كالأطول والطولى».

(٣) الطبرى (١٢٦٦١). وإسناده صحيح.

(٤) إلى هنا آخر المجلد الثانى من المخطوطة الأزهرية، المقسمة إلى سبعة مجلدات، كما بينا صفتها فى بداية هذا الجزء وكتب الناسخ فى آخر المجلد ما نصه:

«آخر الجزء الثانى من تفسير القرآن العظيم. يتلوه فى الثالث قوله تعالى ﴿أَحِلُّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾. والحمد لله وحده. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. وحسبنا الله ونعم الوكيل».

وهذا الجزء غير مؤرخ الكتابة، كمثل سائر الأجزاء، إلا الجزء الأخير. فقد بينا هناك أن الناسخ فرغ من كتابته يوم ١٠ جمادى الأولى سنة ٨٢٥.

وكنت أثناء طبع الجزء الثانى من هذا الكتاب - اقتنيت مصوراً عن مجلد مخطوط من الجزء الثانى من تفسير ابن كثير. وهذا المجلد بدار الكتب المصرية، تحت رقم ٨٥ تفسير. وهو مجلد مفرد من نسخة أخرى. وهو مجلد نفيس، يغلب عليه الصحة، أكثر من النسخة الأزهرية. وهو أقدم منها. بل يبدو لى أن النسخة الأزهرية منقولة عن النسخة الذى منها هذا المجلد، لأنى وجدت أنه إذا ما وقع خطأ أو سقط فى هذه النسخة، وقع مثله بالضبط فى النسخة الأزهرية. هذا إلى إتحاد التقسيم؛ لأن هذا المجلد كمثل المجلد الثانى من النسخة الأزهرية: ينتهى إلي هذا الموضوع أيضاً، وأوله أول تفسير سورة آل عمران، كمثل النسخة الأزهرية.

وناسخ هذا المجلد لم يذكر اسمه، ولكنه أثبت تاريخ نسخه. ففى آخره ما مثاله.

«نجز الجزء الثانى من تفسير القرآن العظيم. غفر الله لكتابه وقاره ولوالديهما، ولوالكه ولوالديه، ولسائر المسلمين، آمين، آمين، آمين. وذلك فى العشر الثالث من شهر جمادى الأولى سنة (٧٨٠) ثمانين وسبعمانه. الحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وشرف وكرم. يتلوه فى الثالث قوله تعالى ﴿أَحِلُّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾».

﴿ أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَّعًا لَكُمْ وَالسِّيَّارَةَ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١١﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكُفَّةَ آيَاتَ الْحَرَامِ قِيمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَيْدَ ذَلِكَ لِيَتَسَمَّوْا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ ﴿١٧﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

قال ابن عباس - في رواية عنه - وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير ، وغيرهم في قوله : ﴿ أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ ﴾ يعني : ما يصطاد منه طرياً ﴿ وَطَعَامَهُ ﴾ : ما يتزود منه مليحاً يابساً . وقال ابن عباس في الرواية المشهورة عنه : صيده ما أخذه منه حياً ﴿ وَطَعَامَهُ ﴾ : ما لفظه ميتاً . وكذا روى عن أبي بكر الصديق وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمر ، وأبي أيوب الأنصاري ، رضى الله عنهم . وغيرهم . وعن أبي بكر الصديق أنه قال : ﴿ طَعَامَهُ ﴾ : كل ما فيه . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم (١) . وعن ابن عباس في قوله : ﴿ أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ ﴾ قال : ﴿ طَعَامَهُ ﴾ : ما قذف .

= وكتب أحد قرائه - الذي لم يذكر اسمه - بهامش الصفحة الأخيرة منه ما نصه :

« بلغ مقابلة فصيح حسب الطاقة ، في مجالس آخرهم [كذا] ثالث عشر رمضان المعظم سنة عشر وثمانمائة [٨١٠] من الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . والحمد لله وحده . »
وقرئ هذا الجزء بالجامع الأزهر على أحد العلماء الكبار ، وكتب ثبت القراءة بذيل الصفحة الأخيرة منه أيضا . ونصه :

« قرأ جميع هذه المجلدة ، في مجالس متعددة ، بالجامع الأزهر ، بعد صلاة العشاء الآخرة ، بحضور جمع كثير - على سيدنا قاضى القضاة شيخ الإسلام ، حافظ مصر والشام ، محمد قطب الدين الخضيرى ، أمتع الله به . وأجاز لى وللحاضرين . وختمها بتاريخ ليلة الخميس الحادى عشر من شهر رجب الفرد ، سنة إحدى وتسعين وثمانمائة [٨٩١] . كتبه محمد العز الحجازى الشافعى ، لطف الله به وبالمسلمين . »

و « قاضى القضاة قطب الدين الخضيرى - هذا الذى قرئ عليه - من أكبر تلاميذ الحافظ ابن حجر العسقلانى ، أثنى عليه شيخه الحافظ ثناء جميلا ، وشهد له شهادة قيمة ، نقلها السخاوى فى الضوء اللامع ، فذكر أنه « وصفه بالفاضل البارع » و « أنه سمع الكثير ، وكتب كتبا كثيرة وأجزاء ، وجد وحصل فى مدة لطيفة شيئا كثيرا . وخطه مليح ، وفهمه جيد ، ومحاضراته تدل على كثرة استحضاره » . نقل السخاوى هذه الشهادة على الرغم منه ، بما قرئ فى نفسه من حقد على القاضى الخضيرى وحسد ، بل على كل معاصريه . حتى إن ما فى نفسه جعله يكاد يكذب شيخه الحافظ ابن حجر فى شهادته تكذيبا مقنعا عجيبا ! فذكر أن كلام شيخه « يحتاج إلى تأويل فى بعض الكلمات ! وكذا وصفه له بالحفظ بعد ذلك ليس على إطلاقه » !! وليس تأويل الكلام بإخراجه عن معناه الوضعى للكلمات ، المفهوم من لغة العرب - إلا تكذيبا لمدلول الكلام ، باختراع مدلول آخر له ، تحوزاً من التكذيب الصريح .

وترجمة القاضى الخضيرى وافية فى الضوء اللامع ، على الرغم من تحامل السخاوى [١١٧/٩ - ١٢٤] ، وفيها أنه ولد ليلة الاثنين منتصف رمضان سنة ٨٢١ بدمشق . وأنه مات فى شهر ربيع الثانى سنة ٨٩٤ بالقاهرة . ودفن بترتبه عند باب الشافعى .

(١) الطبرى (١٢٦٨٤ ، ١٢٦٨٥) . وفى إسناده انقطاع بين عكرمة وأبى بكر .

عن ابن عباس قال: ﴿وَطَعَامُهُ﴾: ما لفظ من ميتة. رواهما ابن جرير أيضاً (١).

وروى ابن جرير عن نافع؛ أن عبد الرحمن بن أبي هريرة سأل ابن عمر فقال: إن البحر قد قذف حيتاناً كثيرة ميتة، أفناكلها؟ فقال: لا تأكلوها. فلما رجع عبد الله إلى أهله أخذ المصحف فقرأ سورة المائدة، فأتى [على] هذه الآية: ﴿وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ فقال: اذهب فقل له فليأكله، فإنه طعامه (٢). وهكذا اختار ابن جرير أن المراد بطعامه ما مات فيه، قال: وقد روى في ذلك خبر، وإن بعضهم يرويه موقوفاً. ثم روى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿أَحْلِلْ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعاً لَكُمْ﴾ قال: «طعامه: ما لفظه ميتاً». ثم قال: وقد وقف بعضهم هذا الحديث على أبي هريرة. ثم رواه موقوفاً (٣).

وقوله: ﴿مَتَاعاً لَكُمْ﴾ أى: منفعة وقوتاً لكم أيها المخاطبون ﴿وَالسَّيَّارَةِ﴾ وهم جمع سيّار. قال عكرمة: لمن كان بحضرة البحر. وقال غيره: الطرى منه لمن يصطاده من حضرة البحر، و﴿طَعَامُهُ﴾: ما مات فيه أو اصطيد منه وملح وقد زاداً للمسافرين والنائين عن البحر. وقد روى نحوه عن ابن عباس، ومجاهد، والسدي وغيرهم. وقد استدلل جمهور العلماء على حل ميتة البحر بهذه الآية الكريمة، وبما رواه الإمام مالك عن جابر بن عبد الله قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً قبيل الساحل، فأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح، وهم ثلاثمائة، قال: وأنا فيهم. قال: فخرجنا، حتى إذا كنا ببعض الطريق فنى الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش، فجمع ذلك كله، فكان مزودى تمر، قال: فكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً، حتى فنى، فلم يكن يصيبنا إلا ثمرة تمر. [فقلت: وما تغنى ثمرة؟] (٤) فقال: فقد وجدنا فقدوها حين فنى، قال: ثم انتهينا إلى البحر، فإذا حوت مثل الظرب، فأكل منه ذلك الجيش ثمانى عشرة ليلة. ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فصبأ، ثم أمر براحلة فرحلت، ومرت تحتها فلم تصبهما. وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين، وله طرق عن جابر.

وفى صحيح مسلم عن جابر: فإذا على ساحل البحر مثل الكتيب الضخم، فأتيناه فإذا بدابة يقال لها: العنبر قال: قال أبو عبيدة: ميتة، ثم قال: لا، نحن رسل رسول الله ﷺ، وقد اضطرتهم فكلوا، قال: فأقمنا عليه شهراً ونحن ثلاثمائة حتى سمننا. ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينه بالقلال الدهن، ونقطع منه الفدر كالثور، قال: ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر

(١) الطبرى (١٢٦٨٩، ١٢٦٩٠، ١٢٦٩٢).

(٢) الطبرى (١٢٧٠٠)، وإسناده صحيح. وزدنا منه كلمة [على]. ورواه الطبرى أيضاً بنحوه (١٢٦٩٩)، (١٢٧٠٠، ١٢٧٠٣). ورواه أيضاً مالك عن نافع، فى الموطأ (ص ٤٩٤) بنحوه. ورواه البيهقى (٩/ ٢٥٥) من طريق مالك.

(٣) الطبرى (١٢٧٢٩) مرفوعاً، و (١٢٧٣٠) موقوفاً. وكلا الإسنادين صحيح، فلا يعل المرفوع بالموقوف، بل يؤيده.

(٤) ما بين المعقوفتين ساقط من المطبوعة وكذا المطبوع من «عمدة التفسير» والمخطوطة الأزهرية، وأثبتناه من الموطأ (٢/ ٩٣٠) صفة النبى ﷺ، رقم (٢٤). (الباز).

رجلاً، فأقعدهم في وَقْب عينه، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها، ثم رحل أعظم بعير معنا فمر من تحته، وتزودنا من لحمه وشائق. فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ، فذكرنا ذلك له، فقال: «هو رزق أخرجه الله لكم، هل معكم من لحمه شيء فتطعمونا؟» قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله. وفي بعض روايات مسلم: أنهم كانوا مع النبي ﷺ حين وجدوا هذه السمكة. فقال بعضهم: هي واقعة أخرى، وقال بعضهم: بل هي قضية واحدة، ولكن كانوا أولاً مع النبي ﷺ، ثم بعثهم سرية مع أبي عبيدة، فوجدوا هذه في سريتهم تلك مع أبي عبيدة، والله أعلم (١). وروى مالك عن أبي هريرة قال: سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: «هو الطَّهُور ماؤه الحِلّ ميتته». وقد روى هذا الحديث الإمامان الشافعي، وأحمد بن حنبل، وأهل السنن الأربع، وصححه البخاري، والترمذي، وابن خزيمة، وابن حبان، وغيرهم. وقد روى عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ، بنحوه (٢). وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من الفقهاء إلى أنه تؤكل دواب البحر، ولم يستثن من ذلك شيئاً. وقد تقدم عن الصديق أنه قال: ﴿طَعَامُهُ﴾: كل ما فيه. وقد استثنى بعضهم الضفادع وأباح ما سواها؛ لما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي عن عبد الرحمن بن عثمان التيمي؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الضفدع (٣). وقال آخرون: يؤكل من صيد البحر السمك، ولا يؤكل الضفدع. واختلفوا فيما سواهما، فقيل: يؤكل سائر ذلك، وقيل: لا يؤكل. وقيل: ما أكل شبهه من البر أكل مثله في البحر، وما لا يؤكل شبهه لا يؤكل. وهذه كلها وجوه في مذهب الشافعي. وقال أبو حنيفة، رحمه الله: لا يؤكل ما مات في البحر، كما لا يؤكل ما مات في البر؛ لعموم قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]. وقد احتج الجمهور من أصحاب مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، بحديث «العنبر» المتقدم ذكره، وبحديث: «هو الطهور ماؤه الحِلّ ميتته»، وقد تقدم أيضاً. وروى الإمام الشافعي عن ابن عمر قال: قال رسول الله

- (١) الموطأ (ص ٩٣٠، ٩٣١) والبخاري (٥ / ٩٢ فتح) ومسلم (٢ / ١١٠، ١١١). ورواه أحمد في المسند من طريق مالك (١٤٣٣٦). ورواه أيضاً من أوجه، مطولاً ومختصراً (١٤٣٠٦، ١٤٣٨٧، ١٤٣٨٩، ١٥١٠٨). وقوله في رواية مالك: «مثل الظرب»: هو بفتح الظاء المعجمة وكسر الراء، وهو الجبل الصغير. وقوله في رواية مسلم: «من وقب عينه» - بفتح الواو وسكون القاف وآخره باء موحدة: وهو داخل العين ونقرتها. و«القلال» - بكسر القاف: جمع «قلة»، بضمها، وهي الحجر الكبيرة. وقوله: «الفدر» - بكسر الفاء وفتح الدال: جمع «فدرة» بكسر فسكون، وهي القطعة من اللحم. وقوله: «وشائق» - بالشين المعجمة: جمع «وشيقة»، وهي اللحم يغلى قليلاً قليلاً في ماء مالح، فيقدد ليبقى أياماً لا ينتن.
- (٢) الموطأ (ص ٢٢٢). ورواه الإمام أحمد من طريق مالك، مختصراً (٧٢٣٢) ومطولاً (٨٧٢٠). وفصلنا تخريجه في أولهما. وقد أفاض الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير القول في تخريجه، وفي شواهد من روايات الصحابة (ص ٢، ٣).
- (٣) المسند (١٥٨٢٢، ١٦١٣٧) والنسائي (٢ / ٢٠٢) بنحوه، وأسانيده صحاح.

﴿عَلَيْكُمْ﴾: « أَحَلَّتْ لَنَا مَيْتَانِ وَدَمَانِ ، فَأَمَّا الْمَيْتَانِ فَالْحَوْتِ وَالْجُرَادِ ، وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ » .
ورواه أحمد وابن ماجه ، والدارقطنى والبيهقى . وله شواهد ، وروى موقوفاً ، والله أعلم (١) .

وقوله: ﴿وَحَرْمٌ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا﴾ أى: فى حال إحرامكم يحرم عليكم الاصطياد .
ففيه دلالة على تحريم ذلك ، فإذا اصطاد المحرم الصيد متعمداً أثمَ وُغرمَ ، أو مخطئاً غرم وحرم عليه أكله؛ لأنه فى حقه كالميتة ، وكذا فى حق غيره من المحرمين والمحلين عند مالك والشافعى - فى أحد قوليه - وبه يقول عطاء ، والقاسم ، وسالم ، وأبو يوسف ، ومحمد ، وغيرهم . فإن أكله أو شئناً منه ، فهل يلزمه جزاء ثانٍ ؟ فيه قولان للعلماء: أحدهما: نعم ، قال عن عطاء: إن ذبحه ثم أكله فكفارatan ، وإليه ذهب طائفة . والثانى: لا جزاء عليه فى أكله .
نص عليه مالك بن أنس . قال أبو عمر بن عبد البر: وعلى هذا مذاهب فقهاء الأمصار ، وجمهور العلماء . ثم وجهه أبو عمر بما لو وطئ ثم وطئ ثم وطئ قبل أن يُحدَّ ، فإنما عليه حد واحد . وقال أبو حنيفة: عليه قيمة ما أكل . وأما إذا صاد حلالاً صيداً فأهداه إلى محرم ، فقد ذهب ذاهبون إلى إباحتة مطلقاً ، ولم يستفصلوا بين أن يكون قد صاده لأجله أم لا . حكى هذا القول أبو عمر بن عبد البر ، عن عمر بن الخطاب ، وأبى هريرة ، والزيبر بن العوام ، وسعيد ابن جببر ، وغيرهم . وبه قال الكوفيون . روى ابن جرير عن أبى هريرة؛ أنه سئل عن لحم صيد صاده حلال ، أياكله المحرم؟ قال: أفأنتاهم بأكله . ثم لقى عمر بن الخطاب فأخبره بما كان من أمره ، فقال: لو أفنتههم بغير هذا لأوجعتُ لك رأسك (٢) .

وقال آخرون: لا يجوز أكل الصيد للمحرم بالكلية ، ومنعوا من ذلك مطلقاً؛ لعدم هذه الآية الكريمة . وروى عبد الرزاق عن ابن عباس؛ أنه كره أكل لحم الصيد للمحرم ، وقال: هى مبهمة . يعنى قوله: ﴿وَحَرْمٌ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا﴾ . وروى عن ابن عمر؛ أنه كان يكره للمحرم أن يأكل من لحم الصيد على كل حال (٣) . قال ابن عبد البر: وبه قال طائوس ، وجابر ابن زيد ، وإليه ذهب الثورى ، وقد روى نحوه عن على بن أبى طالب ، رواه ابن جرير عن سعيد بن المسيب: أن علياً كره لحم الصيد للمحرم على كل حال (٤) .

وقال مالك ، والشافعى ، وأحمد بن حنبل ، والجمهور: إن كان الحلال قد قصد المحرم

(١) الأم (٢ / ١٩٧) . والمسند (٥٧٣٢) . وإسناده ضعيف . ولكنه ثبت مرفوعاً بإسناد آخر صحيح ، وثبت موقوفاً بأسانيد صحاح . والموقوف هنا موقوف لفظاً ، ولكنه مرفوع معنى ، يقينا . لأن الصحابى إذا قال: « أحل لنا كذا » أو « حرم علينا كذا » فإنما يريد أن الذى أحل الشيء أو حرمه هو النبى ﷺ ، المبلغ عن ربه . ولم يكن الصحابة كاذبين ولا مفترين ، ولا جراء على الشرع ، حتى يظن بهم أن ينقلوا التحليل أو التحريم عن غير صاحب الشريعة ﷺ . وقد فصلنا القول فى روايات الحديث وتخريجه فى ذاك الموضوع من المسند .

(٢) الطبرى (١٢٧٥٤) . وإسناده صحيح . ورواه - بنحوه - بأسانيد آخر (١٢٧٥٦ ، ١٢٧٥٧ ، ١٢٧٦٠ ، ١٢٧٦٢) .

(٣) إسنادا عبد الرزاق فى خبرى ابن عباس وابن عمر - صحيحان .

(٤) الطبرى (١٢٧٤٤) .

بذلك الصيد ، لم يجز للمحرم أكله ؛ لحديث الصَّعْب بن جَثَّامَة : أنه أهدى للنبي ﷺ حماراً وحشياً ، وهو بالأبواء - أو : بَوَدَّان - فرده عليه ، فلما رأى ما فى وجهه قال : « إنا لم نرُدّه عليك إلا أنا حُرْمٌ » . وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين ، وله ألفاظ كثيرة (١) . قالوا : فوجهه أن النبى ﷺ ظن أن هذا إنما صاده من أجله ، فرده لذلك . فأما إذا لم يقصده بالاصطياد ، فإنه يجوز له الأكل منه ؛ لحديث أبى قتادة حين صاد حماراً وحشياً ، وكان حلالاً لم يحرم ، وكان أصحابه محرمين ، فتوقفوا فى أكله . ثم سألوا رسول الله ﷺ ؟ فقال : « هل كان منكم أحد أشار إليها ، أو أعان فى قتلها ؟ » قالوا : لا . قال : « فكلوا » . وأكل منها رسول الله ﷺ . وهذه القصة ثابتة أيضاً فى الصحيحين بألفاظ كثيرة (٢) . وروى الإمام أحمد عن المطلب بن عبد الله بن حنطب ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « صيد البر لكم حلال وأنتم حرم ، ما لم تُصيده أو يُصد لكم » . وكذا رواه أبو داود والترمذى والنسائى . وقال الترمذى : لا نعرف للمطلب سماعاً من جابر . ورواه الإمام الشافعى ، من طريق عمرو بن جابر ثم قال : وهذا أحسن حديث روى فى هذا الباب وأقيس (٣) . وروى مالك ، عن عبد الله بن أبى بكر ، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : رأيت عثمان بن عفان بالعرج ، وهو محرم فى يوم صائف ، قد غطى وجهه بقטיפه أرجوان ، ثم أتى بلحم صيد فقال لأصحابه : كلوا ، فقالوا : أو لا تأكل أنت ؟ فقال : إني لست كهيتكم ، إنما صيد من أجلى (٤) .

[تكميل]

[ذكر الحافظ ابن كثير هنا أربع آيات ، هى : ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ . ثم فسر أكثر الآية الأولى منها فقط إلى هذا الموضع ، ولم يذكر تفسير آخرها ولا الثلاثة بعدها . وهذا هو الثابت فى كل الأصول المخطوطة والمطبوعة . والظاهر أنه سها عن ذلك ، رحمه الله . فمن البعيد جداً أن يكون ذلك سهواً من الناسخين يتفقون عليه فى جميع النسخ على اختلاف مصادرها . فرأيت - تكميل هذا النقص ، بإثبات تفسيرها من تفسير إمام المفسرين : ابن جرير الطبرى - بشيء من الاختصار والتصرف ، والاقتصار على التفسير نفسه . مراعيًا الدقة فى

(١) انظر صحيح مسلم (١ / ٣٣٢ ، ٣٣٣) .

(٢) انظر صحيح مسلم (١ / ٣٣٣ ، ٣٣٤) .

(٣) المسند (١٤٩٥١) . ورواه الحاكم (١ / ٤٥٢ ، ٤٧٦) وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى فى الموضوعين . ورواه البيهقى (٥ / ١٩٠) بأسانيد وأبان عن صحته . وأما إعلال الترمذى إياه فليس بذى شأن ؛ لأن « المطلب بن عبد الله بن حنطب » اثنان ، ، فشبّه على الترمذى وغيره . وقد حقت ذلك بأوفى بيان ، فى شرحى لكتاب الرسالة للإمام الشافعى ، (ص ٩٧ - ١٠٣) .

(٤) الموطأ (ص ٣٥٤) طبعة الأستاذ فؤاد عبد الباقي ، و (٢ / ٣٢٥) من الطبعة التى معها شرح السيوطى سنة ١٣٤٣ . ووقع فيهما : « عن عبد الرحمن بن عامر بن ربيعة » ! وهو خطأ ناسخ أو طابع . ولا يوجد راو بهذا الاسم . بل إن السيوطى نفسه فى « رجال الموطأ » لم يذكره إلا على الصواب . وثبت أيضاً على الصواب فى شرح الزرقانى للموطأ (٢ / ١٩٣ ، ١٩٤) .

المحافظة على عبارته العالية ما استطعت ، إن شاء الله ، وبه الاستعانة [.

﴿ وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ يقول تعالى : واخشوا الله - أيها الناس - واحذروه ، بطاعته فيما أمركم به من فرائضه ، وفيما نهاكم عنه في هذه الآيات التي أنزلها على نبيكم ﷺ : من النهى عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، وعن إصابة صيد البر وقتله في حال إحرامكم ، فإن لله مصيركم ومرجعكم ، فيعاقبكم بمعصيتكم إياه ، ويجازيكم فيثيبكم على طاعتكم له .

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْيَتَامَى الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ ﴾ يقول تعالى صير الله الكعبة البيت الحرام قواماً للناس الذين لا قوام لهم من رئيس يحجز قوتهم عن ضعيفهم ، ومسيئهم عن محسنهم ، وظالمهم عن مظلومهم ﴿ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقِلَابِدَ ﴾ يقول : وجعل هذه أيضاً قياماً للناس ، كما جعل الكعبة قياماً لهم ، فحجز بكل واحد من ذلك بعضهم عن بعض ، إذ لم يكن لهم قيامٌ غيره ، وجعلها معالم لدينهم ومصالح أمورهم . وقيل : « قِيَامًا » بالياء ، وهو من ذوات الواو ، لكسرة القاف ، وهى فاء الفعل ، فجعلت العين منه بالكسرة ياءً . كما قيل فى مصدره « قمت : « قِيَامًا » و « صمت : « صِيَامًا » . وجعل تعالى الكعبة والشهر الحرام والهدى والقلائد قواماً لمن كان يحرم ذلك من العرب ويعظمه ، بمنزلة الرئيس الذى يقوم به أمر تباعه ، وأما الكعبة : فالحرم كله ، وسماها الله « حراماً » لتحريمه إياها أن يصاد صيدها أو يُختلى خلاها أو يعضد شجرها . وكذلك كانت الكعبة والشهر الحرام والهدى والقلائد قواماً أمر العرب ، الذى كان به صلاحهم فى الجاهلية . وهى فى الإسلام معالم حجهم ومناسكهم ، ومتوجّههم لصلاتهم .

﴿ ذَلِكَ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ يقول تعالى : صيرت لكم - أيها الناس - ذلك قياماً ، كى تعلموا أن من أحدث لكم لمصالح دنياكم ما أحدث مما به قوامكم ، علماً منه بمنافعكم ومضاركم - أنه كذلك يعلم جميع ما فى السموات والأرض مما فيه صلاح عاجلكم وآجلكم . ولتعلموا أنه بكل شىء عليم ، لا يخفى عليه شىء من أموركم وأعمالكم ، وهو محصياها عليكم ، حتى يجازى المحسن منكم بإحسانه ، والمسيء منكم بإساءته .

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يقول تعالى : اعلموا أن ربكم الذى يعلم ما فى السموات والأرض ، ولا يخفى عليه شىء من سرائر أعمالكم وعلانياتها - شديد عقابه على من عصاه وتمرد عليه ، وهو غفور لذنوب من أطاعه وأتاب إليه ، رحيم به أن يعاقبه على ما سلف من ذنوبه بعد إنابته وتوبته منها . ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ وهذا من الله تهديد لعباده ووعيد . يقول : ليس على رسولنا الذى أرسلناه إليكم ، إلا أن يودى إليكم رسالتنا ، ثم إلينا الثواب على الطاعة ، وعلينا العقاب على المعصية . وغير خفى علينا المطيع منكم القابل رسالتنا ، من العاصى الأبى رسالتنا . لأننا نعلم ما عمله العامل منكم فأظهره بحوارحه ونطق به لسانه ، وما تخفونه فى أنفسكم من إيمان وكفر ، أو يقين وشك

ونفاق . فمن كان كذلك ، لا يخفى عليه شيء من ضمائر الصدور ، وظواهر أعمال النفوس ، مما فى السموات والأرض ، ويده الثواب والعقاب ، فحقيق أن يتقى ، وأن يطاع فلا يعصى .

﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَكُونُوا لِآلَتَابٍ لَّعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ ﴾ ﴿١٠٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَّ لَكُمْ سُؤكُمُ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَّلَ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ أى: يا أيها الإنسان ﴿كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ يعنى: أن القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار، كما جاء فى الحديث: « ما قلَّ وكفى، خيرٌ مما كثرَ وألهى » (١) . ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أى: يا ذوى العقول الصحيحة المستقيمة، وتجنبوا الحرام ودعوه، واقنعوا بالحلال واكتفوا به ﴿لَّعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَّ لَكُمْ سُؤكُمُ﴾: هذا تأديب من الله لعباده المؤمنين، ونهى لهم عن أن يسألوا عما لا فائدة لهم فى السؤال والتنقيب عنها؛ لأنها إن ظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءت لهم وشق عليهم سماعها، كما جاء فى الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: « لا يبلغنى أحد عن أحد شيئاً، إني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » (٢) . وروى البخارى عن أنس بن مالك قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، وقال فيها: « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » . قال: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم، لهم حنين . فقال رجل: من أبى؟ قال: « فلان »، فنزلت هذه الآية: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ﴾ (٣) . ورواه مسلم، وأحمد، والترمذى، والنسائى .

وروى ابن جرير عن قتادة فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَّ لَكُمْ سُؤكُمُ﴾ : أن أنس بن مالك حدثه: أن رسول الله ﷺ سألوه حتى أحفوه بالمسألة، فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر، فقال: « لا تسألوا اليوم عن شيء إلا بيته لكم » . فأشفق أصحاب رسول الله ﷺ أن يكون بين يدى أمر قد حضر، فجعلت لا ألثفت يميناً ولا شمالاً إلا وجدت كلاً لاقاً رأسه فى ثوبه يبكى، فأنشأ رجل كان يلاحى فيدعى إلى غير أبيه، فقال: يا نبي الله، من أبى؟

(١) ذكره الهيثمى فى الزوائد (١٠ / ٢٥٥ ، ٢٥٦) من حديث أبى سعيد ، وقال : « رواه أبو يعلى ، ورجاله رجال الصحيح ، غير صدقة بن الربيع ، وهو ثقة » .

(٢) رواه أبو داود (٤٨٦٠) من حديث ابن مسعود . وهو جزء من حديث مطول ، رواه أحمد فى المسند (٣٧٥٩) . وكذلك رواه الترمذى (٤ / ٣٦٧) . وذكره المؤلف الحافظ فى التاريخ (١ / ٣١٣) عن رواية

المسند . وسيأتى هذا الجزء فى (ص ٨٨٠) عن رواية المسند .

(٣) البخارى (٨ / ٢١٠ ، ٢١١ فتح) .

قال: « أبوك حذافة ». قال: ثم قام عمر - أو قال: فأنشأ عمر - فقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، عائداً بالله - أو قال: أعوذ بالله - من شر الفتن قال: وقال رسول الله ﷺ: « لم أر في الخير والشر كالיום قط، صورت لى الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط ». أخرجاه (١). ورواه الزهري، عن أنس بنحو ذلك - أو قريباً منه - قال الزهري: فقالت أم عبد الله بن حذافة: ما رأيت ولدًا أعق منك قط، أكنت تأمن أن تكون أمك قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية فتفضحها على رؤوس الناس؟! فقال: والله لو ألحقني بعبد أسود للحقته (٢).

وروى البخارى عن ابن عباس قال: كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء، فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟! فأنزل الله فيهم هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ ﴾ حتى فرغ من الآية كلها. تفرد به البخارى (٣). وروى الإمام أحمد عن على، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران: ٩٧] قالوا: يا رسول الله، أفى كل عام؟ فسكت، قال: ثم قالوا: أفى كل عام؟ فقال: « لا، ولو قلت: نعم لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم »، فأنزل الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ ﴾ الآية.

وكذا رواه الترمذى وابن ماجه، وقال الترمذى: غريب من هذا الوجه، وسمعت البخارى يقول: أبو البخترى لم يدرك علياً (٤).

وظاهر الآية النهى عن السؤال عن الأشياء التى إذا علم بها الشخص ساءته، فالأولى الإعراض عنها وتركها. وما أحسن الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: « لا يبلغنى أحد عن أحد شيئاً؛ فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » الحديث، وقد رواه أبو داود والترمذى. قال الترمذى: غريب من هذا الوجه (٥). وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ ﴾ أى: وإن تسألوا عن هذه الأشياء - التى نهيتهم عن السؤال عنها - حين ينزل الوحي على رسول الله ﷺ تبين لكم، وذلك يسير.

(١) الطبرى (١٢٧٩٧) . ورواه قبل ذلك (١٢٧٩٥) وفى آخره : « وكان قتادة يذكر هذا الحديث عند هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ ﴾ .

(٢) حديث الزهري عن أنس رواه البخارى مطولا ومختصرا (١ / ١٦٩ ، ٢ / ١٧ ، ١٨ ، ٨ / ٢١٠ ، ٢١١ ، ١٣ / ٢٣٠ فتح) وابن حبان فى صحيحه ، رقم (١٠٦) بتحقيقنا . ولكن ليس عندهما الزيادة التى ذكرها الحافظ ابن كثير هنا ، وهى ثابتة فى رواية مسلم (٢ / ٢٢٢) من رواية الزهري عن أنس .

(٣) البخارى (٨ / ٢١٢ فتح) . ورواه الطبرى بنحوه (١٢٧٩٤) .

(٤) المسند (٩٠٥) . وإسناده ضعيف لسبب آخر : أن فيه « عبد الأعلى بن عامر الثعلبى » ، وهو ضعيف . وقد رواه الطبرى (٣ / ١٢٨) عن على بن عبد الأعلى الثعلبى . ووقف به عنده ، فلم يذكر باقى الإسناد ! فجعله معضلاً .

(٥) مضى فى (ص ٨٧٨) من غير بيان مخرجه ، وخرجناه هناك .

ثم قال : ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ أي : عما كان منكم قبل ذلك ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ .

وقيل : المراد بقوله : ﴿وإن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ الْقُرْآنُ تَدَبَّرْكُمْ﴾ أي : لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها ، فلعلّه قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضييق . وقد ورد في الحديث : «أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يُحرّم فحرّم من أجل مسألته» (١) . ولكن إذا نزل القرآن بها معجّلة فسألتم عن بيانها بينت لكم حينئذ لاحتياجكم إليها .

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ أي : ما لم يذكره في كتابه فهو مما عفا عنه ، فاستكتوا أنتم عنها كما سكت عنها . وفي الصحيح ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «ذروني ما تركتم ؛ فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم» (٢) . وفي الحديث الصحيح أيضاً : «إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها ، وحرّم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم ، غير نسيان ، فلا تسألوا عنها» (٣) .

ثم قال تعالى : ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ أي : قد سأل هذه المسائل المنهى عنها قومٌ من قبلكم ، فأجيبوا عنها ثم لم يؤمنوا بها ، فأصبحوا بها كافرين ، أي : بسببها ، أن بينت لهم فلم ينتفعوا بها ؛ لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد ، وإنما سألوا على وجه التعنت والعناد . وروى الطبري عن خُصيف ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ﴾ قال : هي البحيرة والوصيلة والسائبة والحام ، ألا ترى أنه : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ﴾ ولا كذا ولا كذا ؟ ، قال : وأما عكرمة فقال : إنهم كانوا يسألونه عن الآيات ، فنهوا عن ذلك . ثم قال : ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ (٤) يعني عكرمة رحمه الله : أن المراد بهذا النهي عن سؤال وقوع الآيات ، كما سألت قريش أن يجرى لهم أنهاراً ، وأن يجعل لهم الصمّاً ذهباً ! وغير ذلك ، وكما سألت اليهود أن ينزل عليهم كتاباً من السماء ، وقد قال الله تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصَرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً﴾ [الإسراء: ٥٩] وقال تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنِ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ . وَنَقَلِبْ أَقْدِتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طَعْيَانِهِمْ

(١) المسند (١٥٤٥) من حديث سعد بن أبي وقاص ، بلفظ : «أعظم المسلمين في المسلمين جرماً» . ورواه قبل ذلك بنحوه (١٥٢٠) . ورواه ابن حبان في صحيحه ، رقم (١١٠) بتحقيقنا ، وفصلنا تخريجه فيه ، وأنه رواه أيضاً الشيخان وأبو داود .

(٢) هو جزء من حديث رواه أحمد في المسند (٧٣٦١) من حديث أبي هريرة وفصلنا تخريجه هناك ، وأنه رواه الشيخان وغيرهما . ورواه الطبري في التفسير (١٢٣٤) ، معلقاً محرف اللفظ ، وبيننا ذلك هناك .

(٣) رواه الحاكم (١١٥/٤) والدارقطني (ص ٥٠٢ ، ٥٠٣) وابن حزم في الإحكام (٢٤ / ٨) بتحقيقنا - ثلاثتهم من حديث أبي ثعلبة الخشني مرفوعاً . وذكر الهيثمي في الزوائد (١ / ١٧١) من رواية الطبراني في الكبير ، وقال : «ورجاله رجال الصحيح» . ورواه الطبري في التفسير (١٢٨١٣) موقوفاً من كلام أبي ثعلبة . وقد بينا في تمام التخريج (٣ / ٥٨٧ ، ٥٨٨ برقم ٣) صحته مرفوعاً ، وأن الذي رفعه ثلاثة من الثقات . وهو الحديث الثلاثون من الأربعين النووية .

(٤) الطبري (١٢٨١١) .

يَعْمَهُونَ . وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١٠٩﴾ [الأنعام: ١٠٩ - ١١١].

﴿ مَا جَمَلَ اللَّهُ مِنْ بُحَيْرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

روى البخارى عن سعيد بن المسيب قال: «البحيرة»: التى يُمنَعُ درَّها للطواغيت، فلا يحلبها أحد من الناس. و«السائبة»: كانوا يسيبونها لآلهتهم، لا يحمل عليها شيء، قال: وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجرُّ قُصْبَهُ فى النار، كان أول من سيب السوائب». و«الوصيلة»: الناقة البكر، تُبَكَّرُ فى أول نتاج الإبل، ثم تشى بعد بأثى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم، إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر. و«الحام»: فحل الإبل يُضْرَبُ الضرابُ المعدود، فإذا قضى ضرابه ودَعُوهُ للطواغيت، وأغفوه عن الحمل، فلم يُحمَلْ عليه شيء، وسموه الحامى. وكذا رواه مسلم والنسائى (١). ثم رواه البخارى عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً، ورأيت عمراً يجرُّ قُصْبَهُ، وهو أول من سيب السوائب». تفرد به البخارى (٢). وروى ابن جرير عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجؤن: «يا أكثم، رأيت عمرو ابن لُحَى بن قَمْعَةَ بن خندف يجرُّ قُصْبَهُ فى النار، فما رأيت رجلاً أشبهه برجل منك به، ولا به منك». فقال أكثم: تخشى أن يضرنى شبهه يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، إنك مؤمن وهو كافر، إنه أول من غير دين إسماعيل، وبحر البحيرة، وسيب السائبة، وحامى الحامى». ثم رواه بإسناد آخر نحوه. ليس هذان الطريقتان فى الكتب (٣). وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود، عن النبى ﷺ قال: «إن أول من سيب السوائب، وعبد الأصنام، أبو خزاعة عمرو ابن عامر، وإنى رأيت يجر أمعاءه فى النار». تفرد به أحمد من هذا الوجه (٤).

(١) البخارى (٨ / ٢١٣ ، ٢١٤ فتح) . ورواه مرة أخرى بنحوه (٦ / ٣٩٩ ، ٤٠٠) دون آخره فى تفسير الوصيلة والحام . وكذلك رواه مسلم (٢ / ٣٥٤ ، ٣٥٥) . وروى المرفوع منه أحمد فى المسند (٧٦٩٦) بإسناد فيه انقطاع . ثم رواه موصولاً (٨٧٧٢) . ورواه ابن حزم فى جمهرة الأنساب (ص ٢٢٢) مختصراً من طريق البخارى وطريق مسلم .

(٢) البخارى (٨ / ٢١٤ فتح) . و«القصب» - بضم القاف وسكون الصاد المهملة : الأمعاء .

(٣) الطبرى (١٢٨٢٠ ، ١٢٨٢٢) . وإسناده صحيحان . وكان فى المطبوعة : «أول من غير دين إبراهيم» . وأثبتنا ما فى الطبرى فى الرواية الأولى . وأما الثانية ففيها «إبراهيم» .

(٤) المسند (٤٢٥٨) ، وإسناده ضعيف . ولكن شواهدة تجعله صحيحاً لغيره أو حسناً .

فعمرو هذا هو ابن لحي بن قَمَعَةَ (١) ، أحد رؤساء خزاعة، الذين ولّوا البيت بعد جرهم. وكان أول من غير دين إبراهيم الخليل، فأدخل الأصنام إلى الحجاز، ودعا الرعاع من الناس إلى عبادتها والتقرب بها، وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها، كما ذكره الله تعالى في سورة الأنعام، عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] إلى آخر الآيات في ذلك.

فأما البحيرة، فقال ابن عباس: هي الناقة إذا نُتجت خمسة أبطن نظروا إلى الخامس، فإن كان ذكراً ذبحوه، فأكله الرجال دون النساء. وإن كان أنثى جدعوا آذانها، فقالوا: هذه بحيرة. وذكر السدّي وغيره قريباً من هذا.

وأما السائبة، فقال مجاهد: هي من الغنم نحو ما فسر من البحيرة، إلا أنها ما ولدت بين ولد وبين ستة أولاد كانت على هيتها، وإذا ولدت السابع ذكراً أو ذكرين، ذبحوه، فأكله رجالهم دون نسايتهم. وقال محمد بن إسحاق: السائبة: هي الناقة إذا ولدت عشر إناث من الولد ليس بينهن ذكر، سبّيت فلم تركب، ولم يُجزَّ وبرها، ولم يحلب لبنها إلا الضيف.

وأما الوصيلة، فقال ابن عباس: هي الشاة إذا نتجت سبعة أبطن نظروا السابع، فإن كان ذكراً أو أنثى وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء، وإن كان أنثى استحيوها، وإن كان ذكراً وأنثى في بطن استحيوهما وقالوا: وصلته أخته فحرمته علينا. رواه ابن أبي حاتم. وروى عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب قال: فالوصيلة من الإبل، كانت الناقة تبتكر بأنثى، ثم نثت بأنثى، فسموها الوصيلة، ويقولون: وصلت أنثيين ليس بينهما ذكر، فكانوا يجدعونها لطواغيتهم. وكذا روى عن الإمام مالك. وقال محمد بن إسحاق: الوصيلة من الغنم: إذا ولدت عشر إناث في خمسة أبطن، توأمين توأمين في كل بطن، سميت الوصيلة وتركت، فما ولدت بعد ذلك من ذكر أو أنثى، جعلت للذكور دون الإناث. وإن كانت ميتة اشتركوا فيها.

وأما الحام فقال ابن عباس قال: فالفحل من الإبل، إذا وُلد لولده قالوا: حمى هذا ظهره، فلا يحملون عليه شيئاً، ولا يجوزون له وبراً، ولا يمنعونه من حمى رعى، ومن حوض يشرب منه، وإن كان الحوض لغير صاحبه.

وقد قيل غير ذلك في تفسير هذه الآية. وقد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم عن أبي الأحوص الجشمي، عن أبيه مالك بن نضلة قال: أتيت النبي ﷺ في خَلْقَانِ مِنَ الثِّبَابِ، فقال لي: «هل لك من مال؟» فقلت: نعم. قال: «من أى المال؟» قال: فقلت: من كل المال، من الإبل والغنم والخليل والرقيق. قال: «فإذا أتاك الله مالاً فكثّرْ عليك». ثم قال: «تُنْتَجُ إِبْلَكَ

(١) هو « عمرو بن عامر بن لحي بن قَمَعَةَ بن خندف بن إلياس بن مضر ». و « خندف » : هو أبو « خزاعة » .

انظر جمهرة الأنساب لابن حزم (ص ٢٢٢ ، ٢٢٣) . فنسب « عمرو » إلى أبيه تارة ، وإلى جسد أخرى .

و « لحي » : بضم اللام وفتح الحاء المهملة وتشديد الياء . و « قَمَعَةَ » : بفتح القاف والميم مخففة . و « خندف » :

بكسر الحاء المعجمة والذال المهملة بينهما نون ساكنة .

وافية آذانها؟» قال: قلت: نعم. قال: «وهل تُنتج الإبل إلا كذلك؟» قال: «فعلك تأخذ موسى فتقطع آذان طائفة منها وتقول: هذه بحيرة ، وتشق آذان طائفة منها، وتقول: هذه صُرْمٌ؟» قلت: نعم. قال: «فلا تفعل، إن كل ما أتاك الله لك حل»، ثم قال: «مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ»، أما البحيرة: فهي التي يجدهون آذانها، فلا تنتفع امرأته ولا بناته ولا أحد من أهل بيته بصوفها ولا أوبارها ولا أشعارها ولا ألبانها، فإذا ماتت اشتركوا فيها. وأما السائبة: فهي التي يسيبون لآلهتهم، ويذهبون إلى آلهتهم فيسيبونها، وأما الوصيلة: فالشاة تلد ستة أبطن، فإذا ولدت السابع ، جدعت وقطع قرنها، فيقولون: قد وصلت، فلا يذبحونها ، ولا تضرب ولا تمنع مهما وردت على حوض. هكذا يذكر تفسير ذلك مدرجاً في الحديث. وقد روى من وجه آخر عن أبي الأحوص عوف بن مالك، من قوله، وهو أشبه. وقد روى هذا الحديث الإمام أحمد، عن أبي الأحوص عوف بن مالك بن فضلة، عن أبيه، به. وليس فيه تفسير هذه ، والله أعلم (١).

وقوله: «وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» أى: ما شرع الله هذه الأشياء ولا هي عنده قربة، ولكن المشركون افتروا ذلك ، وجعلوه شرعاً لهم وقربة يتقربون بها إليه. وليس ذلك بحاصل لهم، بل هو وبال عليهم ﴿وَأِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أى: إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه وترك ما حرمه، قالوا: يكفيننا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أى: لا يفهمون حقاً، ولا يعرفونه، ولا يهتدون إليه، فكيف يتبعونهم والحالة هذه؟! لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم، وأضل سبيلاً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِيمَنْبِتِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقاتهم، ومخبراً لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس، سواء كان قريباً منه أو بعيداً. قال ابن عباس عند تفسير هذه الآية: يقول تعالى: إذا ما العبد أطاعنى فيما أمرته به من الحلال ونهيته عنه من الحرام، فلا يضره من ضل بعده، إذا عمل بما أمرته به. وهكذا قال مقاتل . فتقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ نصب على الإغراء ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِيمَنْبِتِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: فيجازى كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

(١) المسند (١٥٩٥٣ ، ١٥٩٥٦) بنحوه . ورواه أيضا قبل ذلك وبعده بأسانيد ، مختصراً ومطولاً ، دون التفسير المدرج هنا . ورواه أيضا (١٧٢٩٤)، وهى الرواية التى يشير إليها الحافظ ابن كثير هنا . ورواه الطبرى (١٢٨٢٥) ، (١٢٨٢٦) وقال الطبرى (١١ / ١٣٣) - بعد أن أطال فى تفسيرها ورواية الآثار فيها : « وهذه أمور كانت فى الجاهلية فأبطلها الإسلام ، فلا تعرف قوما يعملون بها اليوم » .

وليس فيها دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا كان فعل ذلك ممكناً، وقد روى الإمام أحمد عن قيس قال: قام أبو بكر، رضى الله عنه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ إلى آخر الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإنى سمعت رسول الله ﷺ قال: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه أوشك الله، عز وجل، أن يعمهم بعقابه». قال: وسمعت أبا بكر يقول: يا أيها الناس، إياكم والكذب، فإن الكذب مجانب للإيمان. وقد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة، وابن حبان فى صحيحه، وغيرهم، من طرق كثيرة متصلاً مرفوعاً، ومنهم من رواه موقوفاً على الصديق. وقد رجح رفعه الدارقطنى وغيره (١). وروى الترمذى عن أبى أمية الشَّعْبَانِي، قال: أتيت أبا ثعلبة الخشنى فقلت له: كيف تصنع فى هذه الآية؟ فقال: أية آية؟ قلت: قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾؟ قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «بل اتتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع العوام، فإن من ورائكم أياماً الصبر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم» - قال عبد الله بن المبارك: وزاد غير عتبة: قيل: يا رسول الله، أجر خمسين رجلاً منا أو منهم؟ قال: «بل أجر خمسين منكم». ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب صحيح. وكذا رواه أبو داود، وابن ماجه، وابن جرير، وابن أبى حاتم (٢).

وعن أبى العالية، عن ابن مسعود، فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ﴾ الآية، قال: كانوا عند عبد الله بن مسعود جلوساً، فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس، حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه، فقال رجل من جلساء عبد الله: ألا أقوم فأمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر؟ فقال آخر إلى جنبه: عليك بنفسك، فإن الله يقول: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ الآية! قال: فسمعها ابن مسعود فقال: مه، لم يجئ تأويل هذه بعد. إن القرآن أنزل حيث أنزل، ومنه آى قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن، ومنه آى قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ، ومنه آى قد وقع تأويلهن بعد النبى ﷺ بيسير، ومنه آى يقع تأويلهن بعد اليوم، ومنه آى يقع تأويلهن عند الساعة: ما ذكر من الساعة، ومنه آى يقع تأويلهن يوم الحساب: ما ذكر من الحساب والجنة والنار. فما دامت قلوبكم واحدة، وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعاً، ولم يذق بعضكم بأس بعض فأمروا وانهوا. وإذا اختلفت القلوب والأهواء، وألبستم شيعاً، وذاق

(١) المسند (١٦).

(٢) الترمذى (٩٩/٤، ١٠٠) وأبو داود (٤٣٤١) وابن ماجه (٤٠١٤). ورواه الطبرى (١٢٨٦٢، ١٢٨٦٣).
والزيادة التى ذكر ابن المبارك أنها غير «عتبة بن أبى حكيم» - ثابتة فى الرواية الأولى عند الطبرى من رواية أيوب ابن سويد عن عتبة.

بعضكم بأس بعض فامرؤ ونفسه، عند ذلك جاءنا تأويل هذه الآية. رواه ابن جرير (١).

وروى ابن جرير عن الربيع بن صبيح، عن سفيان بن عقال قال: قيل لابن عمر: لو جلست في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه، فإن الله قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾؟! فقال ابن عمر: إنها ليست لى ولا لأصحابى؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «ألا فليبلغ الشاهد الغائب». فكنا نحن اليهود وأنتم الغيب، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا، إن قالوا لم يقبل منهم (٢). وروى أيضاً عن سوار بن شبيب قال: كنت عند ابن عمر، إذ أتاه رجل جليد فى العين، شديد اللسان، فقال: يا أبا عبد الرحمن، نفر ستة، كلهم قد قرأ القرآن فأسرع فيه، وكلهم مجتهد لا يالو، وكلهم بغيض إليه أن يأتى دناءة، وهم فى ذلك يشهد بعضهم على بعض بالشرك؟! فقال رجل من القوم: وأى دناءة تريد أكثر من أن يشهد بعضهم على بعض بالشرك؟ فقال الرجل: إني لست إياك أسأل، إنما أسأل الشيخ. فأعاد على عبد الله الحديث، فقال عبد الله: لعلك ترى، لا أبالك، أنى سامرك أن تذهب فقتلهم؟! عظمهم وانهمم، فإن عصوك فعليك نفسك، فإن الله، عز وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ الآية (٣). وروى أيضاً عن أبى مازن، قال: انطلقت على عهد عثمان إلى المدينة، فإذا قوم من المسلمين جلوس، فقرأ أحدهم هذه الآية: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ فقال أكثرهم: لم يجئ تأويل هذه الآية اليوم (٤).

وروى أيضاً عن جبير بن نفير قال: كنت فى حلقة فيها أصحاب رسول الله ﷺ، وإنى لأصغر القوم، فتذاكروا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فقلت أنا: أليس الله يقول فى كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾؟ فأقبلوا على بلسان واحد وقالوا: تنزع آية من القرآن ولا تعرفها، ولا تدري ما تأويلها؟! فتمنيت أنى لم أكن تكلمت، وأقبلوا يتحدثون، فلما حضر قيامهم، قالوا: إنك غلام حديث السنن، وإنك نزع آية لا تدري ما هى، وعسى أن تدرك ذلك الزمان، إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بنفسك، لا يضرك من ضل إذا اهتديت (٥). وقال سعيد بن المسيب: إذا أمرت

(١) الطبرى (١٢٨٥٩، ١٢٨٦٠).

(٢) الطبرى (١٢٨٥١)، وإسناده صحيح. «الربيع بن صبيح» - بفتح الصاد وكسر الباء: تكلم فيه بعضهم، والراجح عندنا أنه ثقة. و«سفيان بن عقال» - بكسر العين وتخفيف القاف - تابعى ثقة، ترجمه البخارى وابن أبى حاتم قلم يذكرا فيه جرحاً.

(٣) الطبرى (١٢٨٥٤). وإسناده صحيح. «سوار بن شبيب»: تابعى ثقة، ترجمه البخارى وابن أبى حاتم فلم يذكرا فيه جرحاً.

(٤) الطبرى (١٢٨٥٢، ١٢٨٥٣)، وإسناده صحيحان. و«أبو مازن»: هو الأزدي الحداني، وهو تابعى ثقة. ترجمه البخارى فى الكنى (٦٩٦)، وقال: «كان من صلحاء الأزدي، قدم المدينة زمن عثمان». ولكن وقع فى كتاب الكنى: «أبو ملاز»! وهو خطأ مطبعى واضح. ثم رواه الطبرى بعد ذلك بنحوه (١٢٨٥٦، ١٢٨٥٧).

(٥) الطبرى (١٢٨٥٨).

بالمعروف ونهيت عن المنكر، فلا يضرك من ضل إذا اهتديت. رواه ابن جرير، وكذا قال غير واحد من السلف.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذُوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُوهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ اَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّيِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيْنَ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهِدَتَيْهِمَا وَمَا ءَعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّيِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ أَدْفَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا أَوْ يَحْفَؤُوا أَنْ تَرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز، قيل: إنه منسوخ رواه العوفي عن ابن عباس. وقال حماد بن أبي سليمان، عن إبراهيم: إنها منسوخة. وقال آخرون - وهم الأكثرون، فيما قاله ابن جرير -: بل هو محكم؛ ومن ادعى النسخ فعليه البيان.

فقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ﴾ هذا هو الخبر؛ لقوله: ﴿شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ﴾ فقيل: تقديره: «شهادة اثنين»، حذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه. وقيل: دل الكلام على تقدير أن يشهد اثنان. وقوله: ﴿ذُوَا عَدْلٍ﴾ وصف الاثنتين، بأن يكونا عدلين. وقوله: ﴿مِّنْكُمْ﴾ أي: من المسلمين. قاله الجمهور. قال ابن عباس: من المسلمين. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: روى عن عبيدة، وسعيد بن المسيب، والحسن، ومجاهد، وغيرهم، نحو ذلك. قال ابن جرير: وقال آخرون: عنى: ذلك ﴿ذُوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ من أهل الموصى. وذلك قول روى عن عكرمة وعبيدة وعدة غيرهما (١).

وقوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ قال: من غير المسلمين، يعنى: أهل الكتاب. ثم قال: وروى عن عبيدة، وشريح، وسعيد بن المسيب، وابن سيرين، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهم، نحو ذلك. وعلى ما حكاه ابن جرير عن عكرمة وعبيدة في قوله: ﴿مِّنْكُمْ﴾ أي: المراد من قبيلة الموصى، يكون المراد ههنا: ﴿أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي: من غير قبيلة الموصى.

وقوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سافرتم ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ وهذان شرطان

(١) ثم رد ذلك بأن الله عم المؤمنين بخطابهم بذلك، في قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ «فغير جائز أن يصرف عما عمه الله إلى الخصوص إلا بحجة يجب التسليم لها». وهذا كلام جيد قوى. انظر الطبرى (١١ / ١٥٧) من طبعتنا.

لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين : أن يكون ذلك في سفر، وأن يكون في وصية، كما صرح بذلك شريح القاضي. روى ابن جرير عن شريح قال: لا يجوز شهادة اليهودي والنصراني إلا في سفر، ولا تجوز في سفر إلا في وصية (١). وروى نحوه عن الإمام أحمد بن حنبل، وهذه المسألة من أفراده، وخالفه الثلاثة فقالوا: لا تجوز شهادة أهل الذمة على المسلمين. وأجازها أبو حنيفة فيما بين بعضهم بعضاً. وروى ابن جرير عن الزهري قال: مضت السنة ألا تجوز شهادة الكافر في حضر ولا سفر، إنما هي في المسلمين. وقال ابن زيد: نزلت هذه الآية في رجل توفى وليس عنده أحد من أهل الإسلام، وذلك في أول الإسلام، والأرض حرب، والناس كفار، وكان الناس يتوارثون بالوصية، ثم نسخت الوصية وفرضت الفرائض، وعمل الناس بها. رواه ابن جرير، وفي هذا نظر، والله أعلم.

وقال ابن جرير: اختلف في قوله: ﴿شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾: هل المراد أن يوصى إليهما؟ أو يشهدهما؟ على قولين: أحدهما: أن يوصى إليهما، والقول الثاني: أنهما يكونان شاهدين. وهو ظاهر سياق الآية الكريمة، فإن لم يكن وصى ثالث معهما اجتمع فيهما الوصفان: الوصاية والشهادة، كما في قصة تميم الداري، وعدي بن بداء، كما سيأتي ذكرهما، إن شاء الله وبه التوفيق (٢). وقد استشكل ابن جرير كونهما شاهدين، قال: لأننا لا نعلم حكماً يحلّف فيه الشاهد. وهذا لا يمنع الحكم الذي تضمنته هذه الآية الكريمة، وهو حكم مستقل بنفسه، لا يلزم أن يكون جارياً على قياس جميع الأحكام، على أن هذا حكم خاص بشهادة خاصة في محل خاص، وقد اغتفر فيه من الأمور ما لم يغتفر في غيره، فإذا قامت قرينة الريبة حلّف هذا الشاهد بمقتضى ما دلت عليه هذه الآية الكريمة.

وقوله تعالى: ﴿تَجَسُّوْنَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ قال ابن عباس: يعني صلاة العصر. وكذا قال سعيد بن جبيرة، والنخعي، وقتادة، وغيرهم. وقال الزهري: يعني صلاة المسلمين، وقال السدي، عن ابن عباس: يعني صلاة أهل دينهما (٣). والمقصود: أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ أي: إن ظهرت لكم منهما ريبة، أنهما قد خاننا أو غلّا، فيحلفان حينئذ بالله ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ﴾ أي: بأيماننا. قاله مقاتل بن حيان ﴿ثَمَانًا﴾ أي: لا نعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الفانية الزائلة ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي: ولو كان المشهود عليه قريباً إلينا لا نحايبه ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾: أضافها إلى الله تشريقاً لها،

(١) الطبري (١٢٩١١، ١٢٩١٢، ١٢٩٢٥).

(٢) في الصفحة التالية.

(٣) هذه رواية شاذة، رواها الطبري (١٢٩٥٤) في قصة طويلة. ثم ردها رداً شديداً. وجزم بأن المراد الصلاة المعروفة للمخاطبين، التي كان رسول الله ﷺ يتخيرها لاستحلاف من أراد تغليظ اليمين عليه، وهي صلاة العصر. الطبري (١١ / ١٧٦، ١٧٧) من طبعنا.

وتعظيماً لأمرها. وقرأ بعضهم: «ولا نكتم شهادة الله مجروراً على القسم. رواها ابن جرير، عن عامر الشعبي (١). وحكى عن بعضهم أنه قرأ: «وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ» (٢)، والقراءة الأولى هي المشهورة. «إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَيْمِينَ» أى: إن فعلنا شيئاً من ذلك، من تحريف الشهادة، أو تبديلها، أو تغييرها، أو كتمها بالكلية.

ثم قال تعالى: «فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا» أى: فإن اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين، أنهما خانا أو غلّا شيئاً من المال الموصى به إليهما، وظهر عليهما بذلك «فَأَخْرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ»: هذه قراءة الجمهور: «اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ» أى: متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتها، فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة وليكونا من أولى من يرث ذلك المال «فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا» أى: لقولنا: إنهما خانا - أحق وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة «وَمَا اعْتَدَيْنَا» أى: فيما قلنا من الخيانة «إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ» أى: إن كنا قد كذبتنا عليهما. وهذا التحليف للورثة، والرجوع إلى قولهما والحالة هذه - كما يحلف أولياء المقتول إذا ظهر لوث في جانب القاتل، فيقسم المستحقون على القاتل فيدفع برؤيته إليهم، كما هو مقرر في باب «القسامة» من الأحكام.

وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، فروى الترمذى عن ابن عباس قال: خرج رجل من بنى سَهْمٍ مع تميم الدارى وعدى بن بداء، فمات السهمى بأرض ليس فيها مسلم، فلما قدما بتركته فقدوا جأماً من فضة مخصوصاً بالذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ، ووجدوا الجام بمكة، فقيل: اشتريناه من تميم وعدى. فقام رجلان من أولياء السهمى فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما، وأن الجام لصاحبهم. وفيهم نزلت: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ». رواه أبو داود، ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب (٣).

وقد ذكر هذه القصة مرسله غير واحد من التابعين منهم: عكرمة، ومحمد بن سيرين، وقتادة. وذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر، رواه ابن جرير (٤). وكذا ذكرها مرسله:

(١) بتوين «شهادة» وكسر الهاء من لفظ الجلالة، أى: بالله، أو: والله. ووقع في المطبوع «شهادة لله» . والتصحيح من مخطوطتى الطبرى وابن كثير.

(٢) بتوين «شهادة» ونصب الهاء من لفظ الجلالة، أى: ولا تكتم الله شهادة عندنا. انظر الطبرى (١١ / ١٧٨) من طبعنا.

(٣) الترمذى (٤ / ١٠٠، ١٠١) وأبو داود (٣٦٠٦). ورواه أيضا البخارى (٥ / ٣٠٧-٣٠٩ فتح). ومن عجب أن يسهو الحافظ ابن كثير عن نسبه للبخارى. والحديث رواه أيضا الطبرى (١٢٩٦٦). ورواه الترمذى (٤ / ١٠٠) والطبرى (١٢٩٦٧) مطولاً؛ بإسناد آخر ضعيف جدا. والحجة فى الرواية الأولى الصحيحة.

و «عدى بن بداء» - بفتح الباء وتشديد الدال: ذكره بعضهم فى الصحابة خطأ، وصحح الحافظ فى الفتح والإصابة (٤ / ٢٢٨) أنه مات نصرانياً. و «الجام» - بتخفيف الميم: إناء من فضة. و «المخوص» - بضم الميم وفتح الحاء وتشديد الواو: الذى عليه صفائح من ذهب على هيئة خوص النخل.

(٤) الطبرى (١٢٩٦٨). وهى أطول من الروایتين الأخرين.

مجاهد، والحسن، والضحاك. وهذا يدل على اشتهاها في السلف وصحتها.

ومن الشواهد لصحة هذه القصة أيضا ما رواه ابن جرير عن الشعبي؛ أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقاً، قال: فحضرته الوفاة ولم يجد أحداً من المسلمين يشهده على وصيته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب. قال: فقدم الكوفة، فأتيا الأشعري - يعنى: أبا موسى الأشعري - فأخبراه، وقدم الكوفة بتركته ووصيته، فقال الأشعري: هذا أمر لم يكن بعد الذى كان على عهد رسول الله ﷺ. قال: فأحلفهما بعد العصر: بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدلاً ولا كتماً ولا غيراً، وإنها لو صية الرجل وتركته. قال: فأمضى شهادتهما. ثم رواه بإسناد آخر عن الشعبي؛ أن أبا موسى قضى به. وهذان إسنادان صحيحان إلى الشعبي، عن أبا موسى الأشعري (١). فقولته: «هذا أمر لم يكن بعد الذى كان على عهد رسول الله ﷺ» الظاهر - والله أعلم - أنه إنما أراد بذلك قصة تميم وعدى بن بداء، وقد ذكروا أن إسلام تميم بن أوس الدارى كان فى سنة تسع من الهجرة فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخراً، يحتاج مدعى نسخه إلى دليل فاصل فى هذا المقام، والله أعلم. وروى ابن جرير عن إبراهيم وسعيد بن جبير، أنهما قالا فى هذه الآية: إذا حضر الرجل الوفاة فى سفر، فليشهد رجلين من المسلمين، فإن لم يجد رجلين من المسلمين فرجلين من أهل الكتاب فإذا قدما بتركته، فإن صدقهما الورثة قبل قولهما، وإن اتهموا حلفا بعد صلاة العصر: بالله ما كتمنا ولا كذبنا ولا خناً ولا غيرنا (٢).

وقال ابن عباس فى تفسير هذه الآية: فإن ارتيب فى شهادتهما استحلفا بعد الصلاة بالله: ما اشترينا بشهادتنا ثمناً قليلاً. فإن اطلع الأولياء على أن الكافرين كذبا فى شهادتهما، قام رجلان من الأولياء فحلفا بالله: إن شهادة الكافرين باطلة، وإننا لم نعتد، فذلك قوله: «فإن عثر على أنهما استحقا إثماً» يقول: إن اطلع على أن الكافرين كذبا «فأخراهم يقومان مقامهما» يقول: من الأولياء، فحلفا بالله: إن شهادة الكافرين باطلة، وإننا لم نعتد، فترد شهادة الكافرين، وتجوز شهادة الأولياء. رواه ابن جرير (٣) وهكذا قرر هذا الحكم على مقتضى هذه الآية غير واحد من أئمة التابعين والسلف، وهو مذهب الإمام أحمد.

وقوله: «ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها» أى: شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضى من تحليف الشاهدين الذميين أقرب إلى إقامتهما الشهادة على الوجه المرضى. وقوله: «أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم» أى: يكون الحامل لهم على الإتيان بها على وجهها، وهو تعظيم الحلف بالله ومراعاة جانبه وإجلاله، والخوف من الفضيحة بين الناس إذا ردت اليمين على الورثة، فيحلفون ويستحقون ما يدعون، ولهذا قال: «أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم». ثم قال: «واتقوا الله» أى: فى جميع أموركم «واسمعوا» أى: وأطيعوا «والله لا يهدى القوم الفاسقين»

(١) الطبرى (١٢٩٤٨، ١٢٩٢٧)، ورواه أيضا (١٢٩٢٦، ١٢٩٥٣). ورواه أبو داود (٣٦٠٥). و«دقوقاً»:

بفتح الدال وضم القاف الأولى ويجوز فيه المد والقصر. وهو اسم بلد بين إربل وبغداد.

(٢) الطبرى (١٢٩٦١).

(٣) الطبرى (١٢٩٥٢).

يعنى: الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته.

ربع

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾ ﴿١٠٩﴾

هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة، عما أجيبوا به من أمهم الذين أرسلهم إليهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] . وقول الرسل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ قال مجاهد، والحسن البصرى، والسدسى: إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم . ولا شك أنه قول حسن، وهو من باب التأدب مع الرب، جل جلاله ، أى: لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء، فنحن - وإن كنا قد أجبنا وعرفنا من أجابنا - ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره، لا علم لنا بباطنه، وأنت العليم بكل شيء، المطلع على كل شيء . فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلاً علم، فإنك ﴿أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبَ﴾ .

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنْ آمِنُوا بِي وِرْسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾

يذكر تعالى ما امتن به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام ، مما أجراه على يديه من المعجزات الباهرات وخوارق العادات، فقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ أى: في خلقي إياك من أم بلا ذكر، وجعلني إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتي على الأشياء ﴿وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ حيث جعلتك لها برهاناً على براءتها مما نسبها الظالمون والجاهلون إليها من الفاحشة ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل، عليه السلام، وجعلتك نبياً داعياً إلى الله فى صغرك وكبرك، فأنطقتك فى المهد صغيراً، فشهدت ببراءة أمك من كل عيب، واعترفت لى بالعبودية، وأخبرت عن رسالتى إياك ودعوتى إلى عبادتى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أى: تدعو الناس إلى الله فى صغرك وكبرك . وضمن ﴿تكلم﴾ تدعو؛ لأن كلامه الناس فى كهولته ليس بأمر عجيب .

وقوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أى: الخط والفهم ﴿وَالتَّوْرَةَ﴾ وهى المنزلة على موسى ابن عمران الكليم . وقوله: ﴿وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أى: تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذنى لك فى ذلك ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ ، أى: فتنفخ فى تلك الصورة التى شكلتها بإذنى لك فى ذلك ، فتكون طيراً ذا روح بإذن الله وخلقه . وقوله: ﴿وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ﴾

وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ﴿١﴾ قد تقدم الكلام عليه في سورة آل عمران (١) . وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْرُجُ الْمُوتَىٰ بِإِذْنِي﴾ أى: تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته، وإرادته ومشيئته (٢) . وقوله: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: واذكر نعمتى عليك فى كفى إياهم عنك ، حين جئتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك ورسالتك من الله إليهم، فكذبوك واتهموك بأنك ساحر، وسعوا فى قتلك وصلبك، فنجيتك منهم، ورفعتك إلى، وطهرتك من دنسهم، وكفيتك شرهم. وهذا يدل على أن هذا الامتحان كان من الله إليه بعد رفعه إلى السماء الدنيا، أو يكون هذا الامتحان واقعاً يوم القيامة، وعبر عنه بصيغة الماضى دلالة على وقوعه لا محالة. وهذا من أسرار الغيوب التى أطلع الله عليها رسوله محمداً ﷺ. وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ وهذا أيضاً من الامتحان عليه، عليه السلام، بأن جعل له أصحاباً وأنصاراً. ثم قيل: المراد بهذا الوحي وحى إلهام، كما قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الآية [القصص: ٧] ، وهذا وحى إلهام بلا خوف، وكما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ . ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سَبِيلَ رَبِّكَ ذُلًّا﴾ الآية [النحل: ٦٨، ٦٩] . وهكذا قال بعض السلف فى هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ﴾ أى: ألهموا ذلك فامتثلوا ما ألهموا. قال الحسن البصرى: ألهمهم الله. عز وجل ذلك، وقال السدى: قذف فى قلوبهم ذلك.

﴿١١٥﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ أَتَقْنُونَ اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٥﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَتَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَتَكُونَ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٧﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُرْسِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾

(١) مضى عند تفسير الآية : (٤٩) من سورة آل عمران .

(٢) ثم ذكر المؤلف الحافظ هنا أثراً ، من رواية ابن أبى حاتم ، عن أبى الهذيل - وهو غالب بن أبى الهذيل الأودى - مضمونه : أن عيسى كان إذا أراد إحياء الموتى صلى ركعتين ، يقرأ فى الأولى (تبارك) ، وفى الثانية (تنزِيل) السجدة ، ثم يدعو بأسماء - ذكرها - ثم قال الحافظ بعده : « وهذا أثر عجيب جداً ! » كما فى المخطوطة الأزهرية والمخطوطة المكية ، كما ذكر السيد رشيد رضا بهامش المطبوعة . وفى المطبوعة : « عظيم جداً !! » وهو أعجب من الأثر نفسه ، وما أظن ابن كثير إلا أنه قال : « عجيب جداً ! »

وأيا ما كان فإن هذا الكلام مكذوب جداً، ليس فى وجه الذى افتراه حياء!! أفكان القرآن ينزل على عيسى قبل نزوله على محمد ﷺ؟! لا يقول هذا مسلم ولا عاقل . وأنا أرجح أنه من وضع يهودى من أعداء الإسلام، يريد أن يسخر بالمسلمين ، فوقع فى حياثله رجل مسكين مثل أبى الهذيل هذا . ثم رواه ابن أبى حاتم بإسناده إليه ، فكانت سقطة منه لا شوى لها ! ثم غفل ابن كثير فنقله عن ابن أبى حاتم . وكان يجدر به - فى علمه وعقله - أن يعرض عنه فلا يذكره .

ولم نرد إثبات نصح فى اختيارنا واختصارنا . ولكن لم نجد بداً من الإشارة إليه وبيان حاله ، لئلا يغتر به الأغرار ، ثقة منهم بالحافظ ابن كثير ، رحمه الله وعفا عنه .

هذه قصة المائدة، وإليها تنسب السورة فيقال: «سورة المائدة». وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى لما أجاب دعاءه بنزولها، فأنزلها الله آية باهرة وحجة قاطعة. وقد ذكر بعض الأئمة أن قصة المائدة ليست مذكورة في الإنجيل، ولا يعرفها النصارى إلا من المسلمين، فالله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم أتباع عيسى، عليه السلام ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ هذه قراءة كثيرين، وقرأ آخرون: «هل تَسْتَطِيعُ رَبُّكَ» (١) أى: هل تستطيع أن تسأل ربك ﴿أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾. والمائدة هي: الخوان عليه طعام. وذكر بعضهم أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقدهم، فسألوه أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يقتاتون منها، ويتقنون بها على العبادة قال: ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى: فأجابهم المسيح، عليه السلام، قائلاً لهم: اتقوا الله، ولا تسألوا هذا، فعساه أن يكون فتنة لكم، وتوكلوا على الله فى طلب الرزق إن كنتم مؤمنين. ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ أى: نحن محتاجون إلى الأكل منها ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُنَا﴾ إذا شاهدنا نزولها رزقاً لنا من السماء ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا﴾ أى: ونزداد إيماناً بك وعلماً برسالتك ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أى: ونشهد أنها آية من عند الله، ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ما جئت به.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوْلَانَا وَأَخْرَابِنَا﴾ قال السدّى: أى تتخذ ذلك اليوم الذى نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا، وقال سفيان الثورى: يعنى يوماً نصلى فيه، وقال قتادة: أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم. ﴿وَأَيَّةٍ مِنْكَ﴾ أى: دليلاً تنسبه على قدرتك على الأشياء، وعلى إجابتك لدعوتى، فيصدقونى فيما أبلغه عنك ﴿وَأَرْزُقْنَا﴾ أى: من عندك رزقاً هنيئاً بلا كلفة ولا تعب ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾. قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ﴾ أى: فمن كذب بها من أمتك يا عيسى وعاندها ﴿فإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لِأَعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أى: من عالمى زمانكم، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ (٢) أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ [عافر: ٤٦]، وكقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]. وقد روى ابن جرير، من طريق عوف الأعرابى، عن أبى المغيرة القوأس، عن عبد الله بن عمرو قال: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون (٣). وروى ابن أبى حاتم عن عمار بن ياسر، عن النبى ﷺ قال: «نزلت المائدة من السماء، عليها خبز ولحم، وأمروا ألا يخونوا ولا يرفعوا لغد، فخانوا وادخروا ورفعوا، فمسخوا قردة وخنازير». ورواه ابن جرير (٤).

(١) هي قراءة الكسائى. والقراءة الأولى قراءة باقى السبعة.

(٢) فى المطبوعة، والمطبوع من «عمدة التفسير»، وكذا المخطوطة الأزهرية: «ويوم القيامة» وهو خطأ واضح. (الباز).

(٣) الطبرى (١٣٠٢٥) وإسناده صحيح، ولكنه موقوف من كلام عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٤) الطبرى (١٣٠١٢). ثم رواه بنحوه موقوفاً على عمار (١٤-١٣٠). ورواه الترمذى (٤/١٠٢) مرفوعاً. ثم رواه موقوفاً، وجزم بأنه أصح، ثم قال: «ولا نعرف للمحدث المرفوع أصلاً». وهو كما قال.

[ثم أطل الحافظ ابن كثير فى ذكر آثار فى نزول المائدة وصفنها ، ليست ثابتة عن النبى ﷺ ، فأعرضنا عن إثباتها هنا . ثم قال] : وكل هذه الآثار دالة على أن المائدة نزلت على بنى إسرائيل ، أيام عيسى ابن مريم ، إجابة من الله لدعوته ، وكما دل على ذلك ظاهر السياق من القرآن العظيم : ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ الآية .

وقال قائلون : إنها لم تنزل . فروى عن مجاهد ، قال : هو مثل ضربه الله ، ولم ينزل شىء . رواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير . وروى عن الحسن أنه قال فى المائدة : لم تنزل . وأسانيدنا صحيحة إلى مجاهد والحسن (١) ، وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا يعرفه النصارى وليس هو فى كتابهم ، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعى على نقله ، وكان يكون موجوداً فى كتابهم متواتراً ، ولا أقل من الأحاد ، والله أعلم (٢) . ولكن الذى عليه الجمهور أنها نزلت ، وهو الذى اختاره ابن جرير ، قال : لأن الله تعالى أخبر بنزولها فى قوله تعالى : ﴿ إِنِّي مُنزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مَنِّكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ قال : ووعد الله ووعيده حق وصدق .

وهذا القول هو - والله أعلم - الصواب ، كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم . وقد ذكر أهل التاريخ : أن موسى بن نصير نائب بنى أمية فى فتوح بلاد المغرب ، وجد المائدة هنالك مرصعة باللكلئ وأنواع الجواهر ، فبعث بها إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، بانى جامع دمشق ، فمات وهى فى الطريق ، فحملت إلى أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة بعده ، فأراها الناس فتعجبوا منها كثيراً ؛ لما فيها من اليواقيت النفيسة والجواهر اليتيمة . ويقال : إن هذه المائدة كانت لسليمان بن داود ، عليهما السلام ، فإله أعلم . وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قالت قريش للنبي ﷺ : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك ! قال : « وتفتعلون ؟ » قالوا : نعم . فاتاه جبريل فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا (١) الطبرى (١٣٠١٩ ، ١٣٠٢١) .

(٢) هذا المروى عن مجاهد والحسن - خطأ منهما ، لم يستندا فيه إلى خبر ثابت ، وإنما هو رأى واستنباط ، أخطأ طريقه .

وأما ما زعمه الحافظ ابن كثير هنا ، من أنه قد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا يعرفه النصارى إلى آخر كلامه - فإنه كلام ضعيف لا قيمة له ولا حجة فيه . ولا أدرى كيف يظن ابن كثير هذا الظن الباطل ؟! وإن كان قد استدرك بعد فرجح القول الصحيح الذى يدل عليه صريح القرآن : أن المائدة نزلت عليهم . فالاستناد إلى أن خبر المائدة ليس فى كتب النصارى ولا يعرفونه - كلام متهاافت باطل . لأن القرآن جاء مهيمنا على الكتب السابقة ، فما واقفه منها كان صحيحا ، وما خالفه كان باطلا . فأولى ألا يكون سكوتها عن شىء أمارة نفيه ، إذا ما أثبتة القرآن . ومن زعم أن عدم ذكرها عندهم دليل على نفي وجودها ، مع ذكرها فى القرآن - فقد جعل هذه الكتب المحرفة غير الثابتة هى المهيمنة على القرآن !! وحاشا لمسلم أن يزعم ذلك .

ثم ليس خبر المائدة وحده هو الثابت فى القرآن غير المذكور عندهم : فإن خبر كلام عيسى فى المهد ثابت فى الكتاب العزيز بأصرح لفظ وأوضحه . ولا يعرفه النصارى فى كتبهم وأخبارهم ، مع توافر الدواعى على نقله . فكان ماذا ؟ كان أن القرآن حق ، وما خالفه باطل ، دون تردد أو ريب .

ذهبا، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة؟ قال: «بل باب التوبة والرحمة». ورواه ابن مردويه والحاكم (١).

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تُغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾

هذا أيضاً مما يخاطب الله تعالى به عبده ورسوله عيسى ابن مريم، عليه السلام، قائلاً له يوم القيامة بحضرة من اتخذته وأمه إلهين من دون الله: ﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد. هكذا قاله قتادة وغيره، واستدل قتادة على ذلك بقوله تعالى: ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾. وقال السدي: هذا الخطاب والجواب في الدنيا. قال ابن جرير: وهذا هو الصواب، وكان ذلك حين رفعه إلى السماء الدنيا. واحتج ابن جرير على ذلك بمعنيين: أحدهما: أن لفظ الكلام لفظ المضى. والثاني: قوله: ﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ ﴾، ﴿ وَإِنْ تُغْفِرَ لَهُمْ ﴾. وهذان الدليلان فيهما نظر؛ لأن كثيراً من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ المضى، ليدل على الوقوع والثبوت. ومعنى قوله: ﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تُغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الآية: التبرى منهم ورد المشيئة فيهم إلى الله، وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضى وقوعه، كما في نظائر ذلك من الآيات. والذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر - والله أعلم - أن ذلك كائن يوم القيامة، ليدل على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة.

﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ﴾ هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل، كما روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: يلقي عيسى حجته، ولقاه الله في قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قال أبو هريرة، عن النبي ﷺ: فلقيه الله: ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ﴾ إلى آخر الآية (٢).

وقوله: ﴿ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ﴾ أى: إن كان صدر مني هذا فقد علمته يا رب، فإنه لا يخفى

(١) المسند (٢١٦٦، ٢٣٢٣) والحاكم (٣١٤/٢)، وقال: «صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجه». ووافقه الذهبي. وسيدكره المؤلف الحافظ مرة أخرى عند الآية (٥٩) من سورة الإسراء. وذكره في التاريخ (٥٢/٣) بإسنادي المسند، ثم قال: «وهذان إسنادان جيدان».

(٢) إسناد ابن أبي حاتم إسناد صحيح. ورواه الترمذي (١٠٢/٤، ١٠٣) بالإسناد نفسه، وقال: «حديث حسن صحيح». وذكره السيوطي (٣٤٩/٢) وزاد نسبه للنسائي - يعنى فى السنن الكبرى - وأبى الشيخ وابن مردويه والديلمى.

عليك شيء مما قلته ولا أدركته في نفسي ولا أضمرتته؛ ولهذا قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ بإبلاغه ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أى : هذا هو الذى قلت لهم ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أى : كنت أشهد على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ .

روى الطيالسى عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة ، فقال : « يا أيها الناس ، إنكم محشورون إلى الله ، عز وجل ، حفاة عراة غرلاً ، ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] وإن أول الخلائق يُكسى إبراهيم ، ألا وإنه يجاء برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : أصحابي . فقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك . فأقول كما قال العبد الصالح : ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . إِنْ تَعَذَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ، فقال : إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم . ورواه البخارى (١) .

وقوله : ﴿ إِنْ تَعَذَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله ، عز وجل ، فإنه الفعال لما يشاء ، الذى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . ويتضمن التبرى من النصارى الذين كذبوا على الله ، وعلى رسوله ، وجعلوا لله نداً وصاحبة وولداً ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . وهذه الآية لها شأن عظيم ونباً عجيب ، وقد ورد فى الحديث : أن النبى ﷺ قام بها ليلة حتى الصباح يرددها . روى الإمام أحمد عن أبى ذر ، قال : صلى النبى ﷺ ذات ليلة فقرأ بأية حتى أصبح ، يركع بها ويسجد بها : ﴿ إِنْ تَعَذَّبْتَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ، فلما أصبح قلت : يا رسول الله ، ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت ، ترقع بها وتسجد بها؟ قال : « إنى سألت ربى ، عز وجل ، الشفاعة لأمتى ، فأعطانيها ، وهى نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً » (٢) .

﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾

يقول تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى ابن مريم ، فيما أنهاه إليه من التبرى من النصارى الملحدين ، الكاذبين على الله وعلى رسوله ، ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه ، عز وجل ، فعند ذلك يقول تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ . قال ابن عباس : يقول : يوم ينفع الموحدين توحيدهم . ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أى : ماكين فيها لا يحولون ولا يزولون ،

(١) مسند الطيالسى (٢٦٣٨) والبخارى (٨ / ٢١٥ فتح) . ورواه أحمد فى المسند مطولا (٢٠٩٦ ، ٢٢٨١) .

وروى بعضه مختصرا (١٩٥٠ ، ٢٠٢٧) .

(٢) المسند (٥ / ١٤٩ حلى) . وإسناده جيد .

رضى الله عنهم ورضوا عنه، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]. وسيأتى ما يتعلق بتلك الآية من الحديث (١). وقوله: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أى: هذا هو الفوز الكبير الذى لا أعظم منه، كما قال تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]، وكما قال: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى: هو الخالق للأشياء، المالك لها، المتصرف فيها القادر عليها، فالجميع ملّكه وتحت قهره وقدرته وفى مشيئته، فلا نظير له ولا وزير، ولا عدل، ولا والد ولا ولد ولا صاحبة، ولا إله غيره ولا رب سواه. روى ابن وهب عن عبد الله بن عمرو (٢) قال: آخر سورة أنزلت سورة المائدة (٣).

وهذا آخر تفسير سورة المائدة

والحمد لله رب العالمين

(١) عند الآية (٧٢) من سورة التوبة .

(٢) فى المطبوع من « عمدة التفسير » : « عمر » وهو خطأ من الطابع . (الباز) .

(٣) رواه الحاكم (٢ / ٣١١) من طريق ابن وهب ، وقال: « صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه » . ورواه الترمذى (٤ / ١٠٣) من طريق ابن وهب أيضا ، بلفظ : « سورة المائدة والفتح » وقال : « هذا حديث حسن غريب » . وقد مضت رواية الترمذى فى أول هذه السورة .

تفسير سورة الأنعام

وهي مكية

قال ابن عباس: أنزلت سورة الأنعام بمكة. وروى الطبراني عن ابن عباس، قال: نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة، حولها سبعون ألف ملك يجارون حولها بالتسبيح (١). وعن أسماء بنت يزيد قالت: نزلت سورة الأنعام على النبي ﷺ جملة [واحدة]، وأنا أخذة بزمام ناقة النبي ﷺ، إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة (٢). وروى ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة، سد ما بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح والأرض بهم ترتج»، ورسول الله ﷺ يقول: «سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم» (٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّىٰ عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

يقول تعالى مادحاً نفسه الكريمة، وحامداً لها على خلقه السموات والأرض قراراً لعباده، وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده في ليلهم ونهارهم، فجمع لفظ «الظلمات» ووحده لفظ «النور»؛ لكونه أشرف، كما قال: ﴿عَنِ اليمينِ والشَّمَالِ﴾ [النحل: ٤٨]، وكما قال في آخر هذه السورة: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وقوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: ومع هذا كله كفر به بعض عباده، وجعلوا له شريكاً وعدلاً، واتخذوا له صاحبةً وولداً، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

(١) إسناده عند الطبراني إسناده صحيح . وزاد السيوطي في الدر المنثور (٣ / ٢) نسبه لأبي عبيد وابن الضريس وابن المنذر وابن مردويه .

(٢) لم يخرجها الحافظ ابن كثير ، فلم يذكر إلا أنه رواه سفيان الثوري . والحديث في مجمع الزوائد (٧ / ٢٠) ، وقال : « رواه الطبراني ، وفيه شهر بن حوشب ، وهو ضعيف ، وقد وثق » . وشهر: ثقة عندنا . وذكره السيوطي (٣ / ٢) ، ونسبه للطبراني وابن مردويه .

(٣) إسناده ابن مردويه فيه رجلان لم أعرف ترجمتهما . وقد ذكره الهيثمي في الزوائد (٧ / ٢٠) ، وقال : « رواه الطبراني عن شيخه محمد بن عبد الله بن عرس ، عن أحمد بن محمد بن أبي بكر السالمي ، ولم أعرفهما ، وبقية رجاله ثقات » . وأما اللذان فسي إسناده ابن مردويه فهما شيخ شيخه « إبراهيم بن درستويه الفارسي » ، و « أحمد بن محمد بن أبي بكر » . وهو الذي ذكر الهيثمي أنه في إسناده الطبراني . والحديث ذكره أيضاً السيوطي (٣ / ٢) ، وزاد نسبه لأبي الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان والسلفي في الطيوريات .

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ يعني: أباهم آدم الذي هو أصلهم ومنه خرجوا، فانتشروا في المشارق والمغارب. وقوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ قال ابن عباس: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ يعني: الموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ يعني: الآخرة. وهكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وغيرهم. وقال الحسن - في رواية عنه: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ وهو ما بين أن يُخْلَقَ إلى أن يموت ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ وهو ما بين أن يموت إلى أن يبعث. ويرجع إلى ما تقدم، وهو تقدير الأجل الخاص، وهو عمر كل إنسان، وتقدير الأجل العام، وهو عمر الدنيا بكمالها ثم انتهائها وانقضائها وزوالها، وانتقالها، والمصير إلى الدار الآخرة. ومعنى قوله: ﴿عِنْدَهُ﴾ أى: لا يعلمه إلا هو، كقوله: ﴿إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّبُهَا لَوْفَتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وكقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا. إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٤]. وقوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ قال السدّي وغيره: يعني تشكون في أمر الساعة.

وقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ اختلف مفسرو هذه الآية على أقوال، بعد الاتفاق على تخطئه، الأول القائلين بأنه - تعالى عن قولهم علواً كبيراً - في كل مكان! حيث حملوا الآية على ذلك، فالأصح من الأقوال أنه: المدعو الله في السموات وفي الأرض، أى: يعبد ويوحده ويقر له بالإلهية من في السموات ومن في الأرض، ويسمونه الله، ويدعونه رَعْبًا وَرَهْبًا، إلا من كفر من الجن والإنس، وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] أى: هو إله من في السماء وإله من في الأرض، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ خبيراً أو حالاً. والقول الثاني: أن المراد أن الله الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض، من سر وجهر. فيكون قوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾، تقديره: وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض ويعلم ما تكتسبون. والقول الثالث: أن قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ﴾ وقف تام، ثم استأنف الخبر، فقال: ﴿فِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾، وهذا اختيار ابن جرير. وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أى: جميع أعمالكم خيرها وشرها.

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ وَرَأْسُنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مَدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين المكذبين المعاندين: أنهم مهما أتتهم ﴿من آية﴾ أى: دلالة ومعجزة وحجة من الدلالات على وحدانية الرب، عز وجل، وصدق رسله الكرام، فإنهم يعرضون عنها، فلا ينظرون إليها ولا يبالون بها، قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. وهذا تهديد لهم ووعد شديد على تكذيبهم بالحق، بأنه

لا بد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب، وليجدن غيبه، وليذوقن وبالهن.

ثم قال تعالى واعظاً ومحذراً لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي ما حل بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوة، وأكثر جمعاً، وأكثر أموالاً وأولاداً واشتغالا للأرض وعمارة لها، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَكُمْ﴾ أى: من الأموال والأولاد والأعمار، والجاه العريض، والسعة والجنود ولهذا قال: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ أى: شيئاً بعد شيء ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ أى: كثرت عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض، أى: استدراجاً وإملاء لهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أى: بخطاياهم وسيئاتهم التي اجتمروها ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أى: فذهب الأولون كأمس الذاهب وجعلناهم أحاديث ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أى: جيلاً آخر لنختبرهم، فعملوا مثل عملهم، فهلكوا كهلاكهم. فاحذروا - أيها المخاطبون - أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فما أنتم بأعز على الله منهم، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب ومعالجة العقوبة منهم، لولا لطفه وإحسانه.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَابٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ فَحَقَّ بِالَّذِينَ سَخَرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١١﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ومباهتتهم فيه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَابٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أى: عاينوه، وراوا نزوله، وباشروا ذلك ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، وهذا كما قال تعالى مخبراً عن مكابرتهم للمحسوسات: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَهْرَجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤]. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أى: فيكون معه نذيراً، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أى: لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاءهم من الله العذاب، كما قال الله تعالى: ﴿مَا نَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ يَقُولُونَ هِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢].

وقوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ أى: لو أنزلنا مع الرسول البشري ملكاً، أى: لو بعثنا إلى البشر رسولا ملكياً، لكان على هيئة الرجل ليتمكن مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر، كما يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانُوا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمْسُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكَ﴾

رَسُولًا ﴿ [الإسراء : ٩٥] ، فمن رحمته تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلاً منهم ، ليدعو بعضهم بعضاً ، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٤] . قال ابن عباس : يقول : لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل ؛ لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة ﴿ وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴾ أى : ولخلطنا عليهم ما يخلطون .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِنَا مِن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ هذا تسليية لرسوله محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ، ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة . ثم قال : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ ﴾ أى : فكروا في أنفسكم ، وانظروا ما أحل الله بالقرون الماضية الذين كذبوا رسله وعاندوه ، من العذاب والنكال ، والعقوبة في الدنيا ، مع ما ادخر لهم من العذاب الاليم في الآخرة ، وكيف نجى رسله وعباده المؤمنين .

﴿ قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿ وَ لَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿١٣﴾ قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ وَجْهًا فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يُطْعَمُهُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَلَهُ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَن يُصِرَّ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾

ربع

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ومن فيهن ، وأنه قد كتب على نفسه المقدسة الرحمة ، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ، قال : قال النبي ﷺ : ﴿ إن الله لما خلق الخلق كتب كتاباً عنده فوق العرش : إن رحمتى تغلب غضبي ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ هذه اللام هي الموطئة للقسم ، فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده لبيقات يوم معلوم ، وهو يوم القيامة ، الذى لا ريب فيه ولا شك عند عباده المؤمنين ، فأما الجاحدون المكذبون فهم فى ربهم يترددون . وقوله : ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : لا يصدقون بالمعاد ، ولا يخافون شر ذلك اليوم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَ لَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أى : كل دابة فى السموات والأرض ، الجميع عباده وخلقه ، وتحت قهره وتدبيره ، لا إله إلا هو ، ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم .

ثم قال لعبده ورسوله محمد ﷺ ، الذى بعثه بالتوحيد العظيم وبالشرع القويم ، وأمره أن

(١) رواه أحمد فى المسند مرارا ، بنحوه ، منها : (٧٢٩٧ ، ٧٤٩١ ، ٧٥٢٠ ، ٨١١٢) وسياى عن الرواية الأخيرة من المسند عند الآيات : (٥٠ - ٥٤) ، ورواه الطبرى فى التفسير بنحوه (١٣٠٩٦ ، ١٣١٠٥) .

يدعو الناس إلى صراط الله المستقيم: ﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَخِيذٌ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كما قال: ﴿قُلْ أَفَغَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤] ، والمعنى: لا أتخذ ولياً إلا الله وحده لا شريك له، فإنه فاطر السموات والأرض، أى: خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق. ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أى: وهو الرزاق لخلقه من غير احتياج إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].
وقرأ بعضهم ههنا: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أى: لا يأكل (١) . وعن أبى هريرة قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قُباء النبي ﷺ ، قال: فانطلقنا معه، فلما طعم النبي ﷺ وغسل يديه قال: « الحمد لله الذى يطعم ولا يُطعم ، ومنّ علينا فهدانا ، وأطعمنا وسقانا وكلّ بلاء حسنّ أبلانا ، الحمد لله غير مُودّع ولا مكافأ ولا مكفور ولا مُستغنى عنه ، الحمد لله الذى أطعمنا من الطعام ، وسقانا من الشراب ، وكسانا من العرى، وهدانا من الضلال ، وبصرنا من العمى، وفضّلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً، الحمد لله رب العالمين» (٢).

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أى : من هذه الأمة «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعنى: يوم القيامة . «مَنْ يُصِرْ عَنْهُ﴾ يعنى: العذاب «يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ يعنى: فقد رحمه الله «وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ» (٣) ، كما قال: «فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ، والفوز: هو حصول الرّيح ونفى الخسارة.

(١) يعنى بفتح الياء والعين . وهذه القراءة مروية عن الحسن والطوعى . انظر القراءات الأربعة عشر (ص ٢٠٦) . وذكرها الطبرى (١١ / ٢٨٤) مجهلاً قارئها ، وقال: «أى أنه يطعم خلقه، ولا يأكل هو . ولا معنى لذلك ، لقلة القراءة به» .

(٢) هذا حديث صحيح . ذكره الحافظ ابن كثير دون تخريج . وقد رواه الحاكم (١ / ٥٤٦) بهذا اللفظ مع اختلاف قليل بعض الكلمات . ورواه ابن حبان فى صحيحه (٧ / ٢٦٥) (مخطوطة الإحسان المصورة) مختصراً قليلاً . وقال الحاكم : « صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه » . ووافقه الذهبى .
وقد روى البخارى بعض معناه (٩ / ٥٠١ - ٥٠٢) بروايتين من حديث أبى أمامة . وكذلك رواه أبو داود (٣٨٤٩) . وروى الحاكم حديث أبى أمامة هذا (٤ / ١٣٥ ، ١٣٦) بروايتين ، وقال فى كل منهما : « صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه » . ووافقه الذهبى ! فلم يعقب عليه بأنهما فى صحيح البخارى .
وأشار الحافظ ابن حجر إلى حديث أبى هريرة هذا أثناء شرحه حديث أبى أمامة ، ونسبه للنسائى وابن حبان والحاكم . ولكنه ليس فى السنن الصغرى للنسائى ، فالنسبة إذن للسنن الكبرى .
وقوله : « غير مودع » : هو بفتح الدال المهملة المشددة ، أى : غير متروك . وهذا الضبط هو الثابت وحده فى اليونينية . وذكر القاضى عياض فى مشارق الأنوار (٢ / ٢٨٢) والحافظ فى الفتح : أنه يجوز كسر الدال المشددة ، بمعنى : غير تارك طاعة ربه .

(٣) فى المطبوعة والمطبوع من « عمدة التفسير » وكذا المخطوطة الأزهرية: «وذلك هو الفوز المبين» وهو خطأ واضح . (الباز) :

﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ. وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَيْنَكُمُ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ اللَّهِ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُمْ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً أنه مالك الضر والنفع، وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، كما قال: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ الآية [فاطر: ٢]، وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي: هو الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت حكمه وقهره. ﴿هُوَ الْحَكِيمُ﴾ أي: في جميع ما يفعله ﴿الْخَبِيرُ﴾ بمواضع الأشياء ومحالها، فلا يعطى إلا لمن يستحق ولا يمنع إلا من يستحق. ثم قال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ أي: من أعظم الأشياء شهادة ﴿قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هو العالم بما جئتم به، وما أنتم قائلون لي ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي: وهو نذير لكل من بلغه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]. قال الربيع بن أنس: حق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذي دعا رسول الله ﷺ، وأن يندر كالذي أنذر.

وقوله: ﴿أَيْنَكُمُ لَتَشْهَدُونَ﴾ أي: أيها المشركون ﴿أَنْ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةٌ أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ كما قال: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠]، ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

ثم قال مخبراً عن أهل الكتاب: إنهم يعرفون هذا الذي جئتم به كما يعرفون أبناءهم، بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء، فإن الرسل كلهم بشرٌ بوجود محمد ﷺ وبنعته وصفته، وبلده ومهاجره، وصفة أمته؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: خسروا كل الخسارة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا الأمر الجلى الظاهر الذى بشرت به الأنبياء، ونوهت به في قديم الزمان وحديثه.

ثم قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي: لا أظلم من تقول على الله، فادعى أن الله أرسله ولم يكن أرسله، ثم لا أظلم ممن كذب بآيات الله وحججه وبراهينه ودلالاته، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لا يفلح هذا ولا هذا، لا المفتري ولا المكذب.

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّا سُرَّكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (١٢)
 ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿١٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ
 وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ
 وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ يَبْغِدُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ
 هَذَا إِلَّا أَسْطُورُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا
 يَشْعُرُونَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة ، فيسألهم عن الأصنام والأنداد التي كانوا يعبدونها من دونه قائلاً لهم: ﴿إِنَّا سُرَّكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ كما قال في سورة القصص: ﴿وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيُّ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الآية: ٦٢].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ أى: حججهم. قال ابن عباس: أى: معذرتهم. وكذا قال قتادة. وقال ابن جرير: والصواب: ثم لم يكن قيلهم عند فتنتنا إياهم، اعتذاراً مما سلف منهم من الشرك بالله. ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: أتاه رجل فقال: يا أبا عباس (١). سمعت الله يقول: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾؟ قال: أما قوله: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، فقالوا: تعالوا فلنجحد، فيجحدون، فيحتم الله على أفواههم، وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثاً، فهل فى قلبك الآن شيء؟ إنه ليس من القرآن شيء إلا قد نزل فيه شيء، ولكن لا تعلمون وجهه (٢). وقال الضحاک عن ابن عباس: هذه فى المنافقين. وفى هذا نظر، فإن هذه الآية مكية، والمنافقون إنما كانوا بالمدينة، والتي نزلت فى المنافقين آية المجادلة: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّمَا هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]. وهكذا قال فى حق هؤلاء: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ كما قال: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيُّ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ [غافر: ٧٣، ٧٤].

وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أى: يجيؤوك ليسمعوا قراءتك، ولا تجزى عنهم شيئاً؛ لأن الله جعل ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أى: أغطية لئلا يفهموا القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أى: صمماً عن السماع النافع، فهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمِثْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمُّ بِكُمْ عَمَىٰ فَهَمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أى: مهما رأوا من الآيات والدلالات

(١) «أبو عباس»: كنية عبد الله بن عباس. وهذا هو الثابت فى المخطوطتين: «يا أبا عباس»، وفى المطبوعة: «يا بن عباس».

(٢) ورواه أيضاً الطبرى (١٣١٤٠) (١١ / ٣٠٢). ورواه قبل ذلك بالإسناد نفسه (٩٥٢٠) (٨ / ٣٧٣). ورواه عقب ذلك (٩٥٢١) بإسناد آخر مطولا.

والحجج البينات، لا يؤمنوا بها. فلا فهم عندهم ولا إنصاف، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] .

وقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ ﴾ أى: يحاجونك ويناضونك فى الحق بالباطل ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى: ما هذا الذى جئت به إلا مأخوذ من كتب الأوائل ومنقول عنهم. وقوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾ فى معنى ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ قولان: أحدهما: أن المراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق، وتصديق الرسول، والالتقاد للقرآن، ﴿يَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾ أى: ويتعدون عنه، فيجمعون بين الفعلين القبيحين: لا يتتبعون ولا يدعون أحداً يتتبع . وهذا القول أظهر، والله أعلم، وهو اختيار ابن جرير. والقول الثانى: روى عن ابن عباس قال: نزلت فى أبى طالب كان ينهى الناس عن النبى ﷺ أن يؤذى. وكذا قال عطاء بن ديار وغيره: إنها نزلت فى أبى طالب . وقال سعيد بن أبى هلال: نزلت فى عمومة النبى ﷺ، وكانوا عشرة، فكانوا أشد الناس معه فى العلانية، وأشد الناس عليه فى السر. رواه ابن أبى حاتم. ﴿وَأَن يَهْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أى: وما يهلكون بهذا الصنيع، ولا يعود وباله إلا عليهم، وما يشعرون.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿١٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك قالوا: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا، ليعملوا عملاً صالحاً، ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ أى: بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون فى أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة، وإن أنكروها فى الدنيا أو فى الآخرة، كما قال قبل هذا بيسير: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ. انظُرْ كَيْفَ كَذَّبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ . ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءتهم به الرسل فى الدنيا، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه، كما قال تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَاطِرٍ﴾ الآية [الإسراء: ١٠٢] . وقال تعالى مخبراً عن فرعون وقومه: ﴿وَجحدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] . ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء: المنافقون الذين كانوا يظهرون للناس الإيمان ويطنون الكفر، ويكون هذا إخباراً عما يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار، ولا ينافى هذا كون هذه السورة مكية، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من الأعراب،

وقد ذكر الله وقوع النفاق في سورة مكية وهي العنكبوت، فقال: ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١]؛ وعلى هذا فيكون إخباراً عن حال المنافقين في الدار الآخرة، حين يعاينون العذاب، فظهر لهم حينئذ غيباً ما كانوا يبطنون من الكفر والنفاق والشقاق، والله أعلم.

وأما معنى الإضراب في قوله: ﴿بَلْ بَدَأُ لَهُمْ﴾ فهُمْ ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان، بل خوفاً من العذاب الذي عاينوه جزاء على ما كانوا عليه من الكفر، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أى: فى تمنيهـم الرجعة رغبة ومحبة فى الإيمان.

ثم قال مخبراً عنهم: إنهم لو رُدُّوا إلى الدار الدنيا، لعادوا لما نهُوا عنه من الكفر والمخالفة ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أى: فى قولهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنُكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أى: لعادوا لما نهُوا عنه، ولقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ أى: ما هى إلا هذه الحياة الدنيا، ثم لا معاد بعدها؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أى: أوقفوا بين يديه ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أى: أليس هذا المعاد بحق وليس يبطل كما كنتم تظنون؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أى: بما كنتم تكذبون به، فذوقوا اليوم مسه ﴿أَفَسِحْرَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥].

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْصُرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿١١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن خسارة من كذب بقاء الله، وعن خيبته إذا جاءته الساعة بغتة، وعن ندامته على ما فرط من العمل، وما أسلف من قبح الفعل؛ ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾ وهذا الضمير يحتمل عودته على الحياة وعلى الأعمال، وعلى الدار الآخرة، أى: فى أمرها. وقوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ أى: يحملون. وقال قتادة: يحملون. وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ﴾ أى: إنما غالبها كذلك ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿قَدْ نَعَلَمَ إِنَّهُ لِيَْحْزَنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنْتُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤﴾ وَإِنْ كَانَ كَبْرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْلُغَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَاتِنَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿١٥﴾﴾

وَالْمَوْقِنَ يُبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى مسلماً لنبية ﷺ، في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ أى: قد أحطنا علماً بتكذيب قومك لك ، وحزنك وتأسفك عليهم ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨] ، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسُكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسُكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٧] . وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أى: لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيِّنَاتٍ اللَّهُ يَجْعَلُوهنَّ﴾ أى: ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم، كما قال على: قال أبو جهل للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب ما جئت به، فأنزل الله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيِّنَاتٍ اللَّهُ يَجْعَلُوهنَّ﴾ . رواه الحاكم، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه (١) .

وذكر محمد بن إسحاق، عن الزهري، في قصة أبي جهل حين جاء يستمع قراءة النبي ﷺ من الليل، هو وأبو سفيان صخر بن حرب، والأخنس بن شريق، ولا يشعر أحد منهم بالآخر. فاستمعوها إلى الصباح، فلما هجم الصبح تفرقوا، فجمعتهم الطريق، فقال كل منهم للآخر: ما جاء بك؟ فذكر له ما جاء له، ثم تعاهدوا ألا يعودوا، لما يخافون من علم شباب قريش بهم، لئلا يفتنوا بمجيئهم، فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ظناً منه أن صاحبه لا يجيئان، لما تقدم من العهود، فلما أصبحوا جمعتهم الطريق، فتلاوموا، ثم تعاهدوا ألا يعودوا. فلما كانت الليلة الثالثة جاؤوا أيضاً، فلما أصبحوا تعاهدوا ألا يعودوا لمثلها، ثم تفرقوا. فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به. ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه في بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ قال تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجأنا على الركب، وكنا كقرسى رهان، قالوا: منا نبى يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه، قال: فقام عنه الأخنس وتركه .

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَاهُمْ نَصْرًا﴾: هذه تسليية للنبي ﷺ وتعزية له فيمن كذبه من قومه، وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ووعد له بالنصر كما نصرنا، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة، بعد ما نالهم من التكذيب من

(١) ورواه الترمذى (٤ / ١٠٣) ، ثم رواه مرسلًا ، من رواية ناجية بن كعب ، دون ذكر « على » ، وقال: « وهذا أصح » . أى أنه رجح المرسل على الموصول . وكذلك رواه الطبرى (١٣١٩٥ ، ١٣١٩٦) عن ناجية - مرسلًا . ولكن رواية الحاكم (٢ / ٣١٥ ، ٣١٦) موصولة بإسناد آخر غير إسناد الترمذى . فالوصل زيادة من ثقتين ، فهي مقبولة على اليقين . وقد تعقب الذهبي تصحيح الحاكم إياه « على شرط الشيخين » بأنهما لم يخرجا لناجية شيئا . وهذا صحيح ، فإن الشيخين لم يخرجا لناجية بن كعب الأسدى شيئا . ولكنه تابعى ثقة . فالخديت صحيح ، وإن لم يكن على شرطهما .

قومهم والأذى البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا، كما لهم النصر في الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أى: التى كتبها بالنصر فى الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين، كما قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلِينَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ﴾ أى: من خبرهم كيف نُصِرُوا وأيدوا على من كذبهم من قومهم، فلك فيهم أسوة وبهم قدوة.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أى: إن كان شق عليك إعراضهم عنك ﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلْمًا فِي السَّمَاءِ﴾ قال ابن عباس: النَّفَقُ: السَّرْبُ، فتذهب فيه ﴿فَتَأْتِيهِمْ بَأْيَةٌ﴾ أو تجعل لك سلماً فى السماء فتصعد فيه فتأتيهم بأية أفضل مما أتيتهم به، فافعل. وكذا قال قتادة، والسُّدَى، وغيرهما. وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تَكْفُرُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] قال ابن عباس فى قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾، قال: إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبر الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة فى الذكر الأول.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أى: إنما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه، كقوله: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠]، وقوله: ﴿وَالْمَوْتَى يَعْثُمُ اللَّهُ﴾ يعنى: بذلك الكفار؛ لأنهم موتى القلوب، فشيهم الله بالأوت الأجساد، فقال: ﴿وَالْمَوْتَى يَعْثُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ وهذا من باب التهكم بهم، والإزاء عليهم.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ نُرِّئُ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُدُّوا وَيُكْرَمُونَ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلِّهِ وَمَنْ يَشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم كانوا يقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أى: خارق على مقتضى ما كانوا يريدون، وما يتعتون كما قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَنْفَجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا﴾ الآيات [الإسراء: ٩٠]. ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: هو تعالى قادر على ذلك، ولكن حكمته تعالى تقتضى تأخير ذلك؛ لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا، لعاجلهم بالعقوبة، كما فعل بالأمم السالفة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

وقوله: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ ﴾ قال مجاهد: أى أصناف مُصَنَّفَةٌ تُعْرَفُ بِأَسْمَائِهَا. وقال قتادة: الطير أمة، والإنس أمة، والجن أمة. وقوله: ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى: الجميع علمهم عند الله، ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وتدبيره، سواء كان برياً أو بحرياً، كما قال: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [هود: ٦]. أى: مُفْصَحٌ بِأَسْمَائِهَا وَأَعْدَادِهَا وَمِظَانِهَا، وَحَاصِرٌ لِحَرَكَاتِهَا وَسُكُنَاتِهَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَرَأَيْنَا مِنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

وقوله: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ : وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: حَشَرَهَا الْمَوْتُ . وكذا رواه ابن جرير والقول الثانى: إن حشرها هو بعثها يوم القيامة ، لقوله: ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ [التكوير: ٥] . وروى الإمام أحمد عن أبي ذر: أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنتطحان ، فقال: « يا أبا ذر، هل تدر فيم تنتطحان؟ » قال: لا . قال: « لكن الله يدري، وسيقضى بينهما » . ورواه ابن جرير ، وزاد: قال أبو ذر: ولقد تركنا رسول الله ﷺ وما يُقَلَّبُ طائر جناحيه فى السماء إلا ذكرنا منه معلماً (١) . وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة فى قوله: ﴿ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ قال: يحشر الخلق كلهم يوم القيامة، البهائم والدواب والطيور وكل شئ، فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجماء من القرناء . قال: ثم يقول: كونى ترابا . قال : فلذلك يقول الكافر: ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ [النبأ: ٤٠] (٢) .

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمْ وَيُكْمُ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ أى: مثلهم فى جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم - وهو الذى لا يسمع - أبكم - وهو الذى لا يتكلم - وهو مع هذا فى ظلام لا يبصر، فكيف يهتدى مثل هذا إلى الطريق، أو يخرج مما هو فيه؟! كما قال تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ . صُمُّكُمْ عَمَىٰ فَبُهِمَ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٧، ١٨] ، وكما قال تعالى: ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَجِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا لَمْ يَنْوُرْ ﴾ [النور: ٤٠] ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلِّهِ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أى: هو المتصرف فى خلقه بما يشاء .

(١) المسند (٥/١٥٣، ١٦٢ حلى) . والطبرى (١٣٢٢٣، ١٣٢٢٤) . وفى أسانيدنا ضعف ، بالانقطاع أو إبهام بعض الرواة . ولكن قول أبي ذر ، قال : « تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يطير بجناحيه إلا عندنا منه علم » . وانظر تمة التخرىج فى تفسير الطبرى (١١ / ٥٩٠) ، رقم (٨) . ومجمع الزوائد (٨ / ٢٦٣ ، ٢٦٤) .
(٢) إسناد عبد الرزاق إسناده صحيح . وكذلك رواه الطبرى (١٣٢٢٢) من طريق عبد الرزاق . ورواه الحاكم (٢ / ٣١٦) من طريق عبد الرزاق أيضاً ، وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى . وهو موقوف على أبي هريرة . ومعناه ثابت صحيح مرفوعاً : فروى أحمد فى المسند (٣٠٣ / ٧٢) عن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ : « لتؤذن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرفاء تنطحها » . وقد مضت الإشارة إلى هذا المرفوع (٣ / ٢٠٣) و « الجماء » : التى لا قرن لها . و « القرفاء » ذات القرن .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ أَعْبَدَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِلَٰهَهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقَطَّعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾

يخبر تعالى أنه الفعال لما يريد ، المتصرف فى خلقه بما يشاء ، وأنه لا معقب لحكمه ، ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه ، بل هو وحده لا شريك له ، الذى إذا سئل يجيب لمن يشاء ؛ ولهذا قال : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ ﴾ أى : أناكم هذا أو هذا ؟ أعبَد الله تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى : لا تدعون غيره لعلمكم أنه لا يقدر أحد على دفع ذلك سواه ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى : فى اتخاذكم آلهة معه ﴿ بَلْ إِلَٰهَهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ أى : فى وقت الضرورة لا تدعون أحداً سواه وتذهب عنكم أصنامكم وأندادكم كما قال : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلُّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ ﴾ الآية [الإسراء : ٦٧] .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ ﴾ يعنى : الفقر والضيق فى العيش ﴿ وَالضَّرَّاءِ ﴾ وهى الأمراض والأسقام والآلام ﴿ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ أى : يدعون الله ويتضرعون إليه ويخشعون ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾ أى : فهلا إذا ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتمسكوا لدينا ﴿ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى : ما رقت ولا خشعت ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى : من الشرك والمعاصى .

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ أى : اعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى : فتحتنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون ، وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم ، عياداً بالله من مكروه ؛ ولهذا قال : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا ﴾ أى : من الأموال والأولاد والأرزاق ﴿ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾ أى : على غفلة ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ أى : آيسون من كل خير . قال ابن عباس : المبلس : الأيس . قال الحسن البصرى : من وسَّع الله عليه فلم ير أنه يكر به ، فلا رأى له . ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له ، فلا رأى له ، ثم قرأ : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ قال الحسن : مكر بالقوم ورب الكعبة ؛ أعطوا حاجتهم ثم أخذوا . رواه ابن أبى حاتم . وقال قتادة : بَغَتِ القومُ أمرُ الله ، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرثهم ونعمتهم ، فلا تغتروا بالله ، إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون . رواه ابن أبى حاتم أيضاً . وقد روى الإمام أحمد عن عَقْبَةَ بن مسلم ، عن عَقْبَةَ بن عامر ، عن النبى ﷺ قال : «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَىٰ مَعْصِيَةٍ مَا يَحِبُّ ، فَلَمَّا هُوَ اسْتَدْرَاجٌ» . ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم

بَعْتَهُ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿١﴾ . ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم (١) . وقال ابن أبي حاتم عن إبراهيم بن أبي عبلة، عن عبادة بن الصامت، أن رسول الله ﷺ كان يقول: « إذا أراد الله بقوم بقاء - أو: نعمة - رزقهم القصد والعفاف، وإذا أراد الله بقوم اقتطاعاً فتح لهم - أو: فتح عليهم - باب خيانة ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ كما قال: ﴿فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ورواه أحمد وغيره (٢) .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مَنَ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ بَعْتَهُ أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ: قل لهؤلاء المكذبين المعاندين: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ أى: سلبكم إياها كما أعطاكموها فإنه ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ [وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ]﴾ [الملك: ٣٣] . ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بهما النفع الشرعى؛ ولهذا قال: ﴿وَخَمَّ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ كما قال: ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ [يونس: ٣١] ، وقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤] . وقوله: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ أى: هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم؟ لا يقدر على ذلك أحد سواه؛ ولهذا قال: ﴿أَنْظَرُ كَيْفَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ﴾ أى: نبيها ونوضحها ونفسرها ، دالة على أنه لا إله إلا الله، وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أى: ثم هم مع هذا البيان يعرضون عن الحق، ويصدون الناس عن اتباعه. قال ابن عباس: ﴿يَصْدِفُونَ﴾: يعدلون. وقال مجاهد، وقتادة: يعرضون: وقال السدى: يصدون.

وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ بَعْتَهُ﴾ أى: وأنتم لا تشعرون به حتى بعتكم وفجأكم ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ أى: ظاهراً عياناً ﴿هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ أى: إنما كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله، وينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:

(١) المسند (١٧٣٨٢) والطبرى (١٣٢٤٠، ١٣٢٤١) . وفى إسناد أحمد: « رشدين بن سعد » وهو ضعيف . وإسناد الطبرى لا بأس بهما ، فهما يشدان من رواية رشدين ، ويكونان شاهدين له . خصوصاً وأن ضعف رشدين إنما هو من قبل حفظه وتخليطه فى بعض ما يروى ، ولكنه كان رجلاً صالحاً .

(٢) إسناده منقطع بين إبراهيم بن أبي عبلة وعبادة بن الصامت دهر طويل ! . وقوله هنا : « ورواه أحمد وغيره » ثبت فى المطبوعة فقط ، ولم يذكر فى المخطوطتين . وإثباته - فى رأى - خطأ . فالحديث ليس فى المسند على اليقين . وقد ذكره السيوطى (٣ / ١٢) ، ونسبه لابن أبي حاتم وأبى الشيخ وابن مردويه ، فقط .

٨٢ . وقوله : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أى : مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات ، ومنذرين من كفر بالله التقمات والعقوبات . ولهذا قال : ﴿ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ ﴾ أى : فمن آمن قلبه بما جاؤوا به وصلاح عمله باتباعه إياهم ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : بالنسبة إلى ما يستقبلونه ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أى : بالنسبة إلى ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وضيعتها ، الله وليهم فيما خلفوه ، وحافظهم فيما تركوه . ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أى : ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل ، وخرجوا عن أوامر الله وطاعته ، وارتكبوا من مناهيه ومحارمه وانتهاك حرمانه .

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكُمْ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَكَفُونًا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَّمْتُ عَلَيْكُمْ كَمَا كَتَبْتُ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُمْ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ﴾ أى : لست أملكها ولا المتصرف فيها ، ﴿ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ أى : ولا أقول لكم : إنى أعلم الغيب ، إنما ذاك من علم الله ، عز وجل ، لا أطلع منه إلا على ما أطلعنى عليه ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ أى : ولا ادعى أنى ملك ، إنما أنا بشر من البشر ، يُوحى إلى من الله ، عز وجل ، شرفنى بذلك ، وأنعم على به ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكُمْ ﴾ أى : لست أخرج عنه قيد شبر ولا أدنى منه . ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ أى : هل يستوى من اتبع الحق وهدى إليه ، ومن ضل عنه ولم يتقده ؟ ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، وهذه كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الرعد : ١٩] .

وقوله : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أى : وأنذر بهذا القرآن يا محمد ﴿ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٧] والذين ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ [الرعد : ٢١] . ﴿ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ لَيْسَ لَهُمْ ﴾ أى : يومئذ ﴿ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أى : لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أرادهم بهم ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أى : أنذر هذا اليوم الذى لاحاكم فيه إلا الله ، عز وجل ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ فيعملون فى هذه الدار عملاً ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه ، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه .

وقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أى: لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك، كما قال: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. وقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أى: يعبدونه ويسألونه ﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ قال سعيد بن المسيب، ومجاهد، والحسن، وقتادة: المراد بذلك الصلاة المكتوبة. وهذا كتوبه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] أى: أتقبل منكم. وقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أى: يريدون بذلك العمل وجه الله الكريم، فهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات. وقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ كقول نوح، عليه السلام، فى جواب الذين قالوا: ﴿أَنْتُمْ لَكُمْ وَآتَيْنَاكَ الْأَرْضَ لَذُونَ. قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء: ١١١ - ١١٣]، أى: إنما حسابهم على الله، عزوجل، وليس على من حسابهم من شىء، كما أنه ليس عليهم من حسابى من شىء.

وقوله: ﴿فَطْرَدْتُهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى: إن فعلت هذا والحالة هذه. روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: مر الملاء من قريش على رسول الله ﷺ، وعنده: خباب، وصهيب، وبلال، وعمار. فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء؟ فنزل فيهم القرآن: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾. ورواه ابن جرير عن ابن مسعود قال: مر الملاء من قريش برسول الله ﷺ، وعنده: صهيب، وبلال، وعمار، وخباب، وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا؟ أنحن نصير تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك! فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ إلى آخر الآية (١). وعن سعد قال: نزلت هذه الآية فى ستة من أصحاب النبى ﷺ، منهم ابن مسعود، قال: كنا نسبق إلى رسول الله ﷺ، وندنو منه ونسمع منه، فقالت قريش: يدنى هؤلاء دوننا! فنزلت: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾. رواه الحاكم، وقال: على شرط الشيخين. وأخرجه ابن حبان فى صحيحه (٢).

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أى: ابتلينا واختبرنا وامتحاننا بعضهم ببعض ﴿لِيَقُولُوا هَؤُلَاءِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنَانَا﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ كان غالب من اتبعه فى أول البعثة، ضعفاء

(١) المسند (٣٩٨٥) والطبرى (١٣٢٥٥)، وإسناداهما صحيحان. وتفصيل التخرىج هناك فى الموضوعين.
 (٢) المستدرک (٣/٣١٩) وواقفه الذهبى على تصحيحه. وهو فى الحقيقة لا يستدرک على الشيخين، فقد رواه مسلم (٢/٢٤٠ بولاق) بنحوه. ورواه أيضا الطبرى (١٣٢٦٣). واللفظ الذى أورده الحافظ ابن كثير هنا، هو لفظ الطبرى. وقد خرجه السيوطى (٣/١٣) ونسبه أيضا لأحمد. وقلت فى تمة التخرىج فى الطبرى (١١/٥٩٠): «لم أجده فى المسند، فى مسند سعد بن أبى وقاص، إلا أن يكون الإمام أحمد رواه أثناء مسند صحابى آخر، فخفى على موضعه». وكان سعد بن أبى وقاص - راوى الحديث - أحد هؤلاء الستة أيضا، كما فى روايتى مسلم والحاكم.

الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل، كما قال قوم نوح لنوح: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّيرَائِي﴾ الآية [هود: ٢٧]، وكما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان حين سأله عن تلك المسائل، فقال له: فهل اتبعه ضعفاء الناس أو أشرافهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم. فقال: هم أتباع الرسل .

والغرض: أن مشركى قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم، ويعذبون من يقدرون عليه منهم، وكانوا يقولون: ﴿أَهْوَاءٍ مِّنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيْنِنَا؟ أَى: ما كان الله ليهدى هؤلاء إلى الخير - لو كان ما صاروا إليه خيراً - ويدعنا، كما قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣] . قال الله تعالى فى جواب ذلك: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِعْيَا﴾ [مريم: ٧٤]، وقال فى جوابهم حين قالوا: ﴿أَهْوَاءٍ مِّنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيْنِنَا﴾ - ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أى: أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وضمائرهم، فيوفقهم ويهديهم سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وفى الحديث الصحيح: « إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى ألوانكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » (١).

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أى: فآكرمهم برد السلام عليهم، وبشّرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم؛ ولهذا قال: ﴿كُتِبَ رَبِّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ أى: أوجبها على نفسه الكريمة، تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً ﴿أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾، قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل. وقال عكرمة: الدنيا كلها جهالة. رواه ابن أبى حاتم .
﴿ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ أى: رجع عما كان عليه من المعاصى، وأقلع وعزم على ألا يعود، وأصلح العمل فى المستقبل ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ . روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « لما قضى الله الخلق، كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتى غلبت غضبى ». أخرجه فى الصحيحين (٢). وسيأتى كثير من الأحاديث الموافقة لهذه عند قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. وما يناسب هذه الآية من الأحاديث أيضاً قوله ﷺ لمعاذ بن جبل: «أتدرى ما حق الله على العباد؟ أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً»، ثم قال: «أتدرى ما حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك؟ ألا يعذبهم». وقد رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة (٣).

(١) رواه أحمد فى المسند (٧٨١٤) ومسلم (٢ / ٢٨٠) - من حديث أبى هريرة ولكن فىهما: « لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ». وكذلك مضى على الصواب عند تفسير الآية: (٢٧٥) من سورة البقرة .

(٢) المسند (٨١١٢) فى صحيفة همام بن منبه . وقد مضى من رواية الشيخين عند تفسير الآية: (١٢) من سورة الأنعام ، وأشرنا إلى هذا هناك .

(٣) حديث معاذ مضى عند تفسير الآية: (٣٦) من سورة النساء ، وخرجناه من رواية الشيخين وغيرهما . وقد رواه الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك (١٣٧٧٨) . وهو فى الحقيقة من رواية أنس عن معاذ ، كما تدل عليه الروايات الأخر وأما حديث أبى هريرة فهو فى المسند (٨٠٧١ ، ١٠٨٠٨ ، ١٠٩٣١) .

﴿ وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْأَيَّاتِ وَلِتَسْتَتِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِجُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا مَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقَضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَأْسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾

ربع

يقول تعالى: كما بينا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد، ودم المجادلة والعناد - ﴿كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْأَيَّاتِ﴾ أي: التي يحتاج المخاطبون إلى بيانها ﴿وَلِتَسْتَتِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسول، وقرئ: «ولتستبين سبيل المجرمين» أي: ولتستبين يا محمد - أو يا مخاطب - سبيل المجرمين (١).

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي: على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها إلي ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ أي: بالحق الذي جاءني من الله ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أي: من العذاب ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: إنما يرجع أمر ذلك إلى الله إن شاء عَجَلْ لكم ما سألتموه من ذلك، وإن شاء أنظركم وأجلكم؛ لما له في ذلك من الحكمة العظيمة. ولهذا قال: ﴿يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أي: وهو خير من فصل القضايا، وخير الفاتحين الحاكم بين عباده. وقوله: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقَضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: لو كان مرجع ذلك به إلي، لأوقعت بكم ما تستحقونه من ذلك ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾.

فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية، وبين ما ثبت في الصحيحين عن عائشة؛ أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: «لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال، فلم يجبنى إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلمتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، عليه السلام، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم». قال: «فناداني ملك الجبال وسلم علي، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وقد بعثني ربك إليك، لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين؟» فقال رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله، لا يشرك به شيئاً»، وهذا لفظ مسلم (٢). فقد عُرِضَ عليه عذابهم واستئصالهم، فاستأنى بهم،

(١) قراءة نصب اللام هي قراءة نافع وأبي جعفر. وقراءة الرفع هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وحفص .
(٢) مسلم (٢ / ٦٨ بولاق) والبخاري (٦ / ٢٢٤، ٢٢٥ فتح) . و «يالليل»: بكسر اللام الأولى . و «كلال»: بضم القاف وتخفيف اللام . و «قرن الثعالب»: هو ميقات أهل نجد، ويقال له: قرن المنازل أيضا، وهو على يوم وليلة من مكة . و «الأخشبان» - بالخاء والشين المعجمتين: هما جبلا مكة، أبو قيس والذي يقابله .

وسأل لهم التأخير، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئاً. فما الجمع بين هذا، وبين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾؟ فالجواب - والله أعلم -: أن هذه الآية دلّت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذى يطلبونه حال طلبهم له، لأوقعه بهم. وأما الحديث، فليس فيه أنهم سأله وقوع العذاب بهم، بل عرض عليه ملك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين - وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوباً وشمالاً - فلماذا استأنى بهم وسأل الرفق لهم .

وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ روى البخارى عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]» (١). وفى حديث عمر: أن جبريل حين تبدى له فى صورة أعرابى فسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان؟ فقال له النبي ﷺ فيما قال له: «فى خمس لا يعلمهن إلا الله»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان: ٣٤].

وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أى: يحيط علمه العظيم بجميع الموجودات، بريها وبحريها، لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولا مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

وقوله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ أى: ويعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات، ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم؟ كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِينَ ﴿١٨﴾﴾

يخبر تعالى أنه يتوفى عباده فى منامهم بالليل، وهذا هو التوفى الأصغر، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْأَيْكَ وَرَأَيْكَ وَرَأَيْكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]، يذكر فى هذه الآية الوفايتين: الكبرى والصغرى، وهكذا ذكر فى هذا المقام حكم الوفايتين الصغرى ثم الكبرى، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أى: ويعلم ما كسبتم

(١) البخارى (٨ / ٢١٩ فتح) . ورواه أحمد مرارا، منها: (٤٧٦٦) وسيدكره الحافظ ابن كثير فيما يأتى، عند تفسير الآية (٣٤) من سورة لقمان - من رواية المسند وغيره . ورواه - بنحوه - ابن حبان فى صحيحه (٦٩)، (٧٠) بتحقيقنا، وفصلنا تخريجه هناك .

من الأعمال بالنهار. وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه في ليالهم ونهارهم، في حال سكونهم وفي حال حركتهم، كما قال: ﴿سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] ، وكما قال تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي: في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣] ، أي: في النهار، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا . وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: ١٠ ، ١١] ؛ ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ أي: ما كسبتم بالنهار ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُم فِيهِ﴾ أي: في النهار. قاله مجاهد، وقتادة، والسدّي . وقال ابن جريج ، عن عبد الله بن كثير: أي في المنام . والأول أظهر . وقوله: ﴿لِيُقَضَىٰ أَجَلٌ مُّسْمًى﴾ يعني به: أجل كل واحد واحد من الناس ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم﴾ أي: فيخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: ويجزيكم على ذلك إن خيراً فخير، وإن شراً فشر .

وقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي: هو الذي قهر كل شيء، وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أي: من الملائكة يحفظون بدن الإنسان، كما قال: ﴿لَهُ مَعْقِبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] ، وحفظة يحفظون عمله ويحفظونه عليه، كما قال: ﴿وَإِن عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ . كَرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [الانقطار: ١٠ - ١٢] وقال: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧ ، ١٨] . وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ﴾ أي: احتضر وحن أجله ﴿تَوَفَّاهُ رُسُلُنَا﴾ أي: ملائكة موكلون بذلك. وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يُفْرَطُونَ﴾ أي: في حفظ روح المتوفى، بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله، عز وجل، إن كان من الأبرار ففي عليين، وإن كان من الفجار ففي سجين، عيادا بالله من ذلك .

وقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوهُ﴾ قال ابن جرير: يعني: الملائكة ﴿إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ﴾ . ونذكر هاهنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا تزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَجُ بها إلى السماء فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: مرحبا بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان . فلا تزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل . وإذا كان الرجل السوء ، قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، فلا تزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا يفتح لك أبواب السماء . فترسل من السماء ، ثم تصير إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل في الحديث

الأول، ويُجَلَس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول «. هذا حديث غريب (١) .
ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا﴾ يعني: الخلائق كلهم إلى الله يوم القيامة،
فيحكم فيهم بعده، كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة:
٤٩، ٥٠]، وقال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧-
٤٩]؛ ولهذا قال: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ .

﴿قُلْ مَنْ يَنْجِيكُمْ مِّنْ ظُلْمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيِّنَ أَنْجِنَا مِنْ هَذِهِ
لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٦﴾ قُلْ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿١٤﴾ قُلْ هُوَ
الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ
بِأَسِّ بَعْضٍ أَنْظَرْ حَتَّىٰ كَيْفَ نَصْرَفُ الْأَيَاتِ لَعَالَهُمْ يَقْفَهُوتَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ممتنا على عباده في إنجائه المضطرين منهم ﴿مِنَ ظُلْمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أى:
الحائرين الواقعين فى المهامة البرية، وللجج البحرية إذا هاجت الرياح العاصفة، فحينئذ يَردون
الدعاء له وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلُّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُكُمْ فَلَمَّا نَجَّكُمْ
إِلَى الْبَرِّ اعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] ، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا
أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]، وقال
تعالى: ﴿أَمْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلْمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بِشَرِّ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا
يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣] . وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ مَنْ يَنْجِيكُمْ مِّنْ ظُلْمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا
وَخُفْيَةً﴾ أى: جهراً وسراً ﴿لَئِنِ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ﴾ أى: من هذه الضائقة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى:
بعدها، قال الله تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ﴾ أى: بعد ذلك ﴿تُشْرِكُونَ﴾
أى: تَدْعُونَ معه فى حال الرفاهية آلهة أخرى .

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ لما قال: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ
تُشْرِكُونَ﴾ عقبه بقوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ أى: بعد إنجائه إياكم، كما قال فى
سورة سبحان: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا . وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ

(١) المسند (٨٧٥٤) . وإسناده صحيح . ورواه الطبرى - بنحوه - بإسنادين (١٤٦١٥ ، ١٤٦١٦) . وسيذكر
الحافظ المؤلف ، عند الآية (٤٠) من سورة الأعراف من رواية الطبرى ، ونسبه هناك لأحمد والنسائى وابن
ماجه . ولم أجد وجهاً لحكم الحافظ ابن كثير هنا على هذا الحديث بأنه « غريب » ! فإن إسناده الإمام أحمد
صحيح عى شرط الشيخين ، وكذلك الإسناد الثانى عند الطبرى ، إلا شيخه « محمد بن عبد الله بن عبد
الحكم » فإنه لم يرو له الشيخان ، ولكنه إمام ثقة لا خلاف فيه . وليس فى متن الحديث شيء من الغرابة أو
المخالفة لأدلة أخرى .

فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا . أَفَأَمْنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا . أَمْ أَمْنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿ [الإسراء : ٦٦ - ٦٩] .

قال البخارى فى قوله : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ ﴾ الآية : ﴿ يَلْبِسْكُمْ ﴾ : يَخْلَطُكُمْ ، من الالتباس ، يَلْبَسُوا : يَخْلُطُوا . ﴿ شَيْعًا ﴾ : فرقا . ثم روى عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ ﴾ ، قال رسول الله ﷺ : «أعوذ بوجهك» ﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجَلِكُمْ ﴾ قال : «أعوذ بوجهك» ﴿ أَوْ يَلْبِسْكُمْ شَيْعًا وَيَذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ ، قال رسول الله ﷺ : « هذا أهون - أو قال : هذا أيسر » . ورواه النسائي ، والحמיד فى مسنده ، وابن حبان فى صحيحه ، وابن جرير ، وابن مردويه وسعيد بن منصور (١) . وروى الإمام أحمد عن سعد بن أبى وقاص ، قال : أقبلنا مع رسول الله ﷺ ، حتى مرنا على مسجد بنى معاوية ، فدخل فصلى ركعتين ، فصلينا معه ، فناجى ربه ، عز وجل ، طويلا ، ثم قال : « سألت ربي ثلاثا : سألته ألا يهلك أمتى بالغرق ، فأعطانيها . وسألته ألا يهلك أمتى بالسنة ، فأعطانيها . وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم ، فمنعنيها » . انفرد بإخراجه مسلم (٢) . وروى الإمام أحمد عن جابر بن عتيك ؛ أنه قال : جاءنا عبد الله بن عمر فى حرة بنى معاوية - قرية من قرى الأنصار - فقال لى : هل تدرى أين صلى رسول الله ﷺ فى مسجدكم هذا ؟ فقلت : نعم . فأشرت إلى ناحية منه ، فقال : هل تدرى ما الثلاث التى دعا بهن فىه ؟ فقلت : نعم . قال : فأخبرنى بهن ، فقلت : دعا بأن لا يُظْهَر عليهم عدواً من غيرهم ، ولا يهلكهم بالسنين ، فأعطينهما ، ودعا بأن لا يجعل بأسهم بينهم ، فَمُنِعَهَا . قال : صدقت ، فلا يزال الهرج إلى يوم القيامة » . ليس هو فى شيء من الكتب الستة ، وإسناده جيد قوى ، والله الحمد والمنة (٣) .

وروى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل قال : أتيت رسول الله ﷺ أطلبه فقيل لى : خرج قبل . قال : فجعلت لا أمر بأحد إلا قال : مر قبل . حتى مررت فوجدته قائما يصلى . قال : فجئت حتى قمت خلفه ، قال : فأطال الصلاة ، فلما قضى الصلاة ، قلت : يا رسول الله ، لقد صليت صلاة طويلة ؟ فقال رسول الله ﷺ : «إنى صليت صلاة رغبة ورهبة ، سألت الله ، عز وجل ، ثلاثا فأعطانى اثنتين ، ومنعنى واحدة . سألته ألا يهلك أمتى غرقا ، فأعطانيها . وسألته ألا يُظْهَر عليهم عدواً ليس منهم ، فأعطانيها . وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم ، فردها على » . ورواه ابن ماجه . ورواه ابن مردويه بمثله أو نحوه (٤) . وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أنه قال : رأيت رسول الله ﷺ فى سفر صلى سُبْحَةَ الضحى ثمانى ركعات . فلما انصرف قال : «إنى صليت صلاة رغبة ورهبة ، سألت ربي ثلاثا فأعطانى ثنتين ومنعنى واحدة : سألته ألا يتلى

(١) البخارى (٢١٩ / ٨ فتح) والطبرى (١٣٣٦٥ ، ١٣٣٦٦ ، ١٣٣٧٢) .

(٢) المسند (١٥١٦ ، ١٥٧٤) ومسلم (٣٦٣ / ٢ بولاق) .

(٣) المسند (٤٤٥ / ٥ حلى) . وذكره الهيثمى فى الزوائد (٧ / ٢٢١) وقال : « رواه أحمد ، ورجاله ثقات » .

(٤) المسند (٢٤٠ / ٥ حلى) وابن ماجه (٣٩٥١) . وقال البوصيرى فى زوائده : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » .

أمتي بالسنين، ففعل. وسألته ألا يظهر عليهم عدوهم، ففعل. وسألته ألا يلبسهم شيعاً، فأبى عليّ». ورواه النسائي (١). وروى الإمام أحمد عن خباب بن الارت، مولى بنى زُهرة، وكان قد شهد بدمراً مع رسول الله ﷺ، أنه قال: راقبت رسول الله ﷺ في ليلة صلاها كلها، حتى كان مع الفجر فسلم رسول الله ﷺ من صلاته، فقلت: يا رسول الله، لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت مثلها؟ فقال رسول الله ﷺ: «أجل، إنها صلاة رغب ورهب. سألت ربي، عز وجل، فيها ثلاث خصال، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة: سألت ربي، عز وجل، ألا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا، فأعطانيها. وسألت ربي، عز وجل، ألا يظهر علينا عدوا من غيرنا، فأعطانيها. وسألت ربي، عز وجل، ألا يلبسنا شيعاً، فمنعنيها». ورواه النسائي وابن حبان في صحيحه، والترمذي وقال: حسن صحيح (٢).

وروى الإمام أحمد عن شداد بن أوس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لى الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبليخ ما زوى لى منها، وإنى أعطيت الكثرين الأبيض والأحمر، وإنى سألت ربي، عز وجل، ألا يهلك أمتي بسنة بعامه وألا يسلط عليهم عدواً فيهلكهم بعامه، وألا يلبسهم شيعاً، وألا يذيق بعضهم بأس بعض. فقال: يا محمد، إنى إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد. وإنى قد أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة بعامه، وألا أسلط عليهم عدواً ممن سواهم فيهلكهم بعامه، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، وبعضهم يقتل بعضاً، وبعضهم يسبى بعضاً». قال: وقال النبي ﷺ: «وإنى لا أخاف على أمتي إلا الأئمة المضلين، فإذا وُضِع السيف فى أمتي، لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة». ليس فى شىء من الكتب الستة، وإسناده جيد قوى (٣). وروى ابن مردويه عن أبى مالك الأشجعى، عن نافع بن خالد الخزاعى، عن أبىه قال - وكان أبوه من أصحاب رسول الله ﷺ، وكان من أصحاب الشجرة -: كان رسول الله ﷺ إذا صلى والناس حوله، صلى صلاة خفيفة تامة الركوع والسجود. قال: فجلس يوماً فأطال الجلوس حتى أوماً بعضنا إلى بعض: أن اسكتوا، إنه ينزل عليه. فلما فرغ قال له بعض القوم: يا رسول الله، لقد أطلت الجلوس حتى أوماً بعضنا إلى بعض: إنه ينزل عليه؟ قال: «لا، ولكنها كانت صلاة رغبة ورهبة، سألت الله فيها ثلاثاً فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة. سألت الله ألا يعذبكم بعذاب عذب به من كان قبلكم،

(١) المسند (١٢٥١٣، ١٢٦١٦). وإسناده صحيحان. ورواية النسائي له إنما هى فى السنن الكبرى، كما نص عليه الحافظ ابن حجر فى تعجيل المنفعة (ص ١٣٤). وذكره الهيثمى فى الزوائد (٢٣٦/٢) وقال: «رواه أحمد، ورجاله ثقات». إلا أنه سقط فيه ألفاظ من متن الحديث.

(٢) المسند (١٠٨ / ٥، ١٠٩ حلى) والترمذى (٣ / ٢١٠). ورواه الطبرى (١٣٣٧٠، ١٣٣٧١) بإسنادين فيها انقطاع، ولكن تبين وصلهما من روايات المسند والترمذى وغيرهما.

(٣) المسند (١٧١٨٢). وذكره الهيثمى فى الزوائد (٧ / ٢٢١)، وقال: «رواه أحمد والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح». ورواه الطبرى أيضاً (١٣٣٦٨، ١٣٣٦٩) وأشار إليه الحافظ فى الفتح (٨ / ٢٢١) عن رواية الطبرى، وقال: «بإسناد صحيح». وقوله: «زوى لى الأرض»: أى قبضها وجمعها حتى يراها جميعاً.

فأعطانيها، وسألت الله ألا يسلط على أمتي عدواً يستبيحها، فأعطانيها. وسألته ألا يلبسكم شيعاً وألا يذيق بعضكم بأس بعض، فمنعنيها، قال: قلت له: أبوك سمعها من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، سمعته يقول: إنه سمعها من رسول الله ﷺ عدد أصابعي هذه، عشر أصابع (١). وروى ابن مردويه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «سألت ربي لأمتي أربع خصال، فأعطاني ثلاثاً ومنعني واحدة. سألته ألا تكفر أمتي واحدة، فأعطانيها. وسألته ألا يعذبهم بما عذب به الأمم قبلهم، فأعطانيها. وسألته ألا يظهر عليهم عدواً من غيرهم، فأعطانيها. وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها». ورواه ابن أبي حاتم (٢).

وقال مجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد في قوله: «عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ» يعني: الرجم «أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ» يعني: الخسف. وهذا هو اختيار ابن جرير.

وهو كما قال ابن جرير، رحمه الله، ويشهد له بالصحة قوله تعالى: «أَأَمْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ. أَمْ أَمْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ» [الملك: ١٦-١٨]، وفي الحديث: «ليكونن في هذه الأمة قَذْفٌ وَخَسْفٌ وَمَسْخٌ» (٣) وذلك مذكور مع نظائره فسى أمارات الساعة وأشراطها وظهور الآيات قبل يوم القيامة، وستأتى مواضعها إن شاء الله تعالى.

وقوله: «أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا» أى: يجعلكم ملتسبين شيعاً: فرقاً متخالفين. قال ابن عباس: يعنى: الأهواء. وكذا قال مجاهد وغير واحد. وقد ورد في الحديث المروى من طرق عنه ﷺ أنه قال: «وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة». وقوله: «وَيَذِيقُ بَعْضُكُم بِأَسِّ بَعْضٍ» قال ابن عباس وغير واحد: يعنى يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل. وقوله: «انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ» أى: نبينها ونوضحها ونفسرها «لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ» أى: يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه.

(١) ورواه الطبري (١٣٣٦٧) - بنحوه - مختصراً قليلاً. وأشار إليه الحافظ في الإصابة (١٠١ / ٢) ونسبه للحسن بن سفيان وأبى يعلى والطبراني والطبري وغيرهم، وقال: «رجاله ثقات». وذكره الهيثمي في الزوائد (٧ / ٢٢٢، ٢٢٣)، وقال: «رواه الطبراني بأسانيد، ورجال بعضها رجال الصحيح غير نافع بن خالد، وقد ذكره ابن أبي حاتم، ولم يخرج أحد. ورواه البزار». ونافع بن خالد: ترجمه البخارى فى الكبير (٤ / ٨٥)، ولم يذكر فيه جرحاً.

(٢) ذكره الهيثمي في الزوائد (٧ / ٢٢٢)، وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات». ورواه البزار، إلا أنه قال: سألت ربي ثلاثاً. ورواية البزار أشار إليها الحافظ ابن كثير هنا عقب هذا الحديث، من رواية أخرى لابن مردويه.

(٣) بهذا اللفظ رواه ابن أبي الدنيا في ذم الملاحى، عن أنس. وفي آخره: «ذلك إذا شربوا الخمر، واتخذوا القينات، وضربوا بالمعازف» - كما فى الفتح الكبير (٣ / ٧١). ورواه الترمذى (٣ / ٢١٥، ٢١٦) من حديث عائشة، مرفوعاً: «يكون فى آخر هذه الأمة خسف ومسح وقذف، قالت: قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا ظهر الخبث». قال الترمذى: حديث غريب.

﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَئِنْ ذُكِّرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ ﴾ أى: بالقرآن الذى جئتكم به، والهدى والبيان ﴿ قَوْمُكَ ﴾ يعنى: قريشاً ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ أى: الذى ليس وراءه حق ﴿ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أى: لست عليكم بحفيظ، ولست بموكل بكم، كقوله: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩] أى: إنما على البلاغ، وعليكم السمع والطاعة، فمن اتبعنى سعد فى الدنيا والآخرة، ومن خالفنى فقد شقى فى الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: أى لكل نبي حقيقة، أى: لكل خبر وقوع، ولو بعد حين، كما قال: ﴿ وَتَلْعَلْمُنْ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص: ٨٨]، وقال: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [الرعد: ٣٧]. وهذا تهديد ووعيد أكيد؛ ولهذا قال بعده: ﴿ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾.

ثم قال: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ أى: بالتكذيب والاستهزاء ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ أى: حتى يأخذوا فى كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ ﴾ والمراد بهذا كل فرد فرد من آحاد الأمة، ألا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير موضعها، فإن جلس أحد منهم ناسياً، فلا يقعد بعد التذكر ﴿ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾. ولهذا ورد فى الحديث: « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » (١). وقال السُّدِّى، عن أبى مالك وسعيد ابن جبير فى قوله: ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ ﴾ قال: إن نسيت فذكرت، فلا تجلس معهم. وكذا قال مقاتل ابن حيان. وهذه الآية هى المشار إليها فى قوله: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ ﴾ الآية [النساء: ١٤٠] أى: إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك، فقد ساويتموهم فى الذى هم فيه.

وقوله: ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى: إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم فى ذلك، فقد برئوا من عهدهم، وتخلصوا من إثمهم. وقوله: ﴿ وَلَئِنْ ذُكِّرُوا ﴾ أى: ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذ تذكيراً لهم عما هم فيه؛ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ ذلك ولا يعودون إليه.

(١) هو بهذا اللفظ يدور على السنة الفقهاء وغيرهم. وقد ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٤٤٦٣)، وأنه رواه الطبرانى عن ثوبان، ورمز له بالصحة. وأخطأ فى ذلك، فإن فى إسناده رجلاً ضعيفاً، كما بينه شارحه المناوى. وقد أطال السخاوى فى تخريجه وبيان ضعفه فى المقاصد الحسنة، رقم (٥٢٨) (ص ٢٢٨ - ٢٣٠). ولكن معناه ثابت صحيح. فقد مضى عند تفسير الآيتين: (٢٨٥، ٢٨٦) من سورة البقرة حديث ابن عباس مرفوعاً: « إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ». وبينا هناك صحته.

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ آَلْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِمْ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَلَ كُلُّ قَدْلٍ لَأَلْيُؤَخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ آَلْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى: دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلاً، فإنهم صاثرون إلى عذاب عظيم؛ ولهذا قال: ﴿ وَذَكَرَ بِهِ ﴾ أى: وذكر الناس بهذا القرآن، وحذرهم نعمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة. وقوله: ﴿ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أى: لتلا تبسل. قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن: تبسل: تبسل: تُسَلِّم. عن ابن عباس: تُفَضِّح. وقال الكلبي: تُجْزَى. وكل هذه الأقوال والعبارات متقاربة فى المعنى، وحاصلها: الإسلام للهلكة، والحبس عن الخير، والارتهان عن درك المطلوب، كما قال: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ [المثدر: ٣٨، ٣٩]. وقوله: ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أى: لا قريب ولا أحد يشفع فيها، كما قال: ﴿ مَن قَبِلَ أَن يَأْتِي يَوْمَ لَأَبِيعَ فِيهِ وَلَا خَلَّةَ وَلَا شَفَاعَةَ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقوله: ﴿ وَإِنْ تَعَدَلَ كُلُّ قَدْلٍ لَأَلْيُؤَخَذَ مِنْهَا ﴾ أى: ولو بذلت كل مبدول ما قبل منها، كما قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقِيلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ اقْتَدَى بِهِ أَرْثُكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٩١]، وهكذا قال هاهنا: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾.

﴿ قُلْ أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَآ يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرُدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَتَيْنَا قُلُوبَ الْبَنَاتِ هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرَنَا لِلسَّلَامِ رَبِّ الْمَلَكِينَ ﴾ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا زَكَاةً وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

قال السُّدِّي: قال المشركون للمسلمين: اتبعوا سبيلنا، واتركوا دين محمد، فأنزل الله، عز وجل: ﴿ قُلْ أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَآ يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرُدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا ﴾ أى: فى الكفر ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ فيكون مثلنا مثل الذى ﴿ اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ ﴾ يقول: مثلكم، إن كفرتم بعد الإيمان، كمثل رجل كان مع قوم على الطريق، ففضلَّ الطريق، فحيرته الشياطين، واستهوته فى الأرض، وأصحابه

على الطريق، فجعلوا يدعونه إليهم يقولون: اثنتا فإنا على الطريق، فأبى أن يأتيهم. فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ ومحمد الذي يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام. رواه ابن جرير (١). وقال قتادة: ﴿اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾: أضلته في الأرض، يعنى: استهوته: [سيرته]، مثل قوله: ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]. وقال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها، والدعاة الذين يدعون إلى الله، عز وجل، كمثلي رجل ضل عن الطريق تائها ضالاً، إذ ناداه مناد: يا فلان بن فلان، هلم إلى الطريق، وله أصحاب يدعونه: يا فلان، هلم إلى الطريق، فإن اتبع الداعي الأول، انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة. وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى، اهتدى إلى الطريق. وهذه الداعية التي تدعو في البرية من الغيلان، يقول: مثل من يعبد هذه الآلهة من دون الله، فإنه يرى أنه في شيء حتى يأتيه الموت، فيستقبل الندامة والهلكة. وقوله: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾، هم «الغيلان»، يدعونه باسمه واسم أبيه وجده، فيتبعها وهو يرى أنه في شيء، فيصبح وقد ألقته في هلكة، وربما أكلته - أو تلقيه في مضلة من الأرض، يهلك فيها عطشاً، فهذا مثل من أجاب الآلهة التي تُعبد من دون الله، عز وجل. رواه ابن جرير (٢).

وسياق الآية يقتضى أن هذا الذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران - وهو منصوب على الحال، أى: فى حال حيرته وضلاله وجهله بوجه الحجّة - وله أصحاب على المحجة سائرون، فجعلوا يدعونه إليهم وإلى الذهاب معهم على الطريقة المثلى. وتقدير الكلام: فأبى عليهم ولا يلتفت إليهم، ولو شاء الله لهداه، وكرّد به إلى الطريق؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى﴾، كما قال: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧]، وقال: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧]. وقوله: ﴿وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: نخلص له العبادة وحنه لا شريك له.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ﴾ أى: وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه فى جميع الأحوال ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أى: يوم القيامة.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أى: بالعدل، فهو خالقهما ومالكهما، والمدبر لهما ولمن فيهما. وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يعنى: يوم القيامة، الذى يقول الله: ﴿كُنْ﴾ فيكون عن أمره كلمح البصر، أو هو أقرب. و ﴿يَوْمَ﴾ منصوب إما على العطف على قوله: ﴿وَأَتَقَوْهُ﴾، وتقديره: واتقوا يوم يقول كن فيكون، وإما على قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أى: وخلق يوم يقول كن فيكون. فذكر بدء الخلق وإعادته، وهذا مناسب. وإما على إضمار فعل، تقديره: واذكر يوم يقول كن فيكون. ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ جملتان محلها الجر، على أنهما صفتان لرب العالمين. وقوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ يحتمل أن يكون بدلاً من قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ ويحتمل أن يكون ظرفاً لقوله: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ كقوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وكقوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا

عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿ [الفرقان : ٢٦] ، وما أشبه ذلك .

واختلف المفسرون في قوله : «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ» ، فقال بعضهم : المراد بالصور هاهنا جمع «صورة» أى : يوم ينفخ فيها فتحيا . قال ابن جرير : كما يقال : سور - لسور البلد - هو جمع سورة . والصحيح أن المراد بالصور : «الْقَرْنُ» الذى ينفخ فيه إسرافيل ، عليه السلام ، قال ابن جرير : والصواب من القول فى ذلك عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إن إسرافيل قد التتم الصور وحنى جبهته ، ينتظر متى يُؤمر ، فينفخ» . ورواه مسلم فى صحيحه (١) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : قال أعرابى : يا رسول الله ، ما الصور؟ قال : « قَرْنٌ ينفخ فيه » (٢) . وقد روينا حديث الصور بطوله ، من طريق الحافظ أبى القاسم الطبرانى ، وهو غريب جدا ! ولبعظه شواهد فى الأحاديث المتفرقة ، وفى بعض ألفاظه نكارة . تفرد به إسماعيل بن رافع قاص أهل المدينة ، وقد اختلف فيه ، فمنهم من وثقه ، ومنهم من ضعفه ، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة ، كأحمد بن حنبل ، وأبى حاتم الرازى ، وعمرو بن على الفلاس ، ومنهم من قال فيه : هو متروك . وقال ابن عدى : أحاديث كلها فيها نظر إلا أنه يكتب حديثه فى جملة الضعفاء .

قلت : وقد اختلف عليه فى إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة ، قد أفردتها فى جزء على حدة . وأما سياقه ، فغريب جداً ! ويقال : إنه جمعه من أحاديث كثيرة ، وجعله سياقاً واحداً !! فأنكر عليه بسبب ذلك . وسمعت شيخنا الحافظ أبى الحجاج المزنى يقول : إنه رأى للوليد بن مسلم مصنفاً قد جمعه كالشواهد لبعض مفردات هذا الحديث ، فالله أعلم (٣) .

(١) وهم الحافظ ابن كثير هنا وهماً شديداً ! فالحديث ليس فى صحيح مسلم ، على اليقين . ثم ليس فى شيء من رواياته التى رأيتها تسميه «إسرافيل» . بل فيها : «صاحب القرن» . والحديث رواه أحمد فى المسند (١١٠٥٤) عن أبى سعيد الخدرى ، عن النبى ﷺ ، قال : « كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن ، وحنى جبهته ، وأصغى سمعه ، ينظر متى يؤمر؟ » قال المسلمون : يا رسول الله ، فما نقول ؟ قال : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » . وإسناده ضعيف . ورواه الحاكم فى المستدرک (٤ / ٥٥٩) بإسنادين ضعيفين . وذكره النابلسى فى ذخائر الموارث (٧٩٦٠) ، ونسبه لأبى داود والترمذى وابن ماجه . وذكره السيوطى فى زيادات الجامع الصغير (٣٣٥ / ٢ ، ٣٣٦) من الفتح الكبير ، ونسبه لأحمد والترمذى وابن حبان والحاكم . ورواه أحمد أيضاً (٣٠١٠) من حديث ابن عباس . وكذلك رواه الحاكم (٤ / ٥٥٩) . وإسناده - عندهما - ضعيف .

(٢) المسند (٦٥٠٧ ، ٦٨٠٥) . ورواه الترمذى (٣ / ٢٩٥) وصححه . ورواه الحاكم (٢ / ٤٣٦ ، ٥٠٦ ، و ٤ / ٥٦٠) وصححه ووافقه الذهبى .

(٣) هو حديث ظاهر النكارة ، ساقه ابن كثير هنا من رواية الطبرانى ، كما قال فحذفناه ، كما شرطنا فى كتابنا هذا . و «إسماعيل بن رافع» - راويه : قال فيه ابن معين : « ليس بشيء » . وقال أبو حاتم : « هو منكر الحديث » . انظر الجرح والتعديل لابن أبى حاتم (١ / ١٦٨ - ١٦٩) . وقال ابن حبان فى كتاب المجروحين (ص ٨٣ ، ٨٤ مخطوط مصور) : « كان رجلاً صالحاً ، إلا أنه يقلب الأخبار ، حتى صار الغالب على حديثه المنكير ، التى يسبق إلى القلب أنه كالتعمد لها » .

رَبِّهِمْ لِأَبِيهِمْ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ يَا أَبَتِ أَيُّ آلِهَاتِكَ تُؤْتُونَهُمْ قُلْ إِنَّمَا يُؤْتِيهِمْ اللَّهُ ذُو الْعَرْشِ عَالِمُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْفَىٰ عَلَىٰ عِزِّهِ مَا يَشَاءُ وَيُخْفَىٰ عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ يَسْتَأْذِنُ الْفَلَاحِ ﴿٧٤﴾

وَأِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ يَا أَبَتِ أَيُّ آلِهَاتِكَ تُؤْتُونَهُمْ قُلْ إِنَّمَا يُؤْتِيهِمْ اللَّهُ ذُو الْعَرْشِ عَالِمُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْفَىٰ عَلَىٰ عِزِّهِ مَا يَشَاءُ وَيُخْفَىٰ عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ يَسْتَأْذِنُ الْفَلَاحِ ﴿٧٥﴾

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ الْكُوفَةَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾

فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾

فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

قال الضحاك، عن ابن عباس: إن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر، وإنما كان اسمه تارح. رواه ابن أبي حاتم. وهكذا قال غير واحد من علماء النسب: إن اسمه تارح. وقال مجاهد والسدي: آزر: اسم صنم. قلت: كأنه غلب عليه آزر لخدمته ذلك الصنم، فالله أعلم. وقال ابن جرير: وقال آخرون: هو سب وعيب بكلامهم، ومعناه: مُعَوَّج. ولم يسنده ولا حكاه عن أحد. ثم قال ابن جرير: والصواب أن اسم أبيه آزر. ثم أورد على نفسه قول النسابين أن اسمه تارح، ثم أجاب بأنه قد يكون له اسمان، كما لكثير من الناس، أو يكون أحدهما لقباً. وهذا الذي قاله جيد قوي، والله أعلم (١).

واختلف القراء في أداء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾، فحكى ابن جرير عن الحسن البصري وأبي يزيد المدني أنهما كانا يقرآن: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾. ومعناه: يا آزر، أنتخذ أصناماً آلهة. وقرأ الجمهور بالفتح، إما على أنه علم أعجمي لا ينصرف، وهو بدل من قوله: ﴿لِأَبِيهِ﴾، أو عطف بيان، وهو أشبه. وعلى قول من جعله نعتاً لا ينصرف أيضاً كأحمر وأسود. فأما من زعم أنه منصوب لكونه معمولاً لقوله: ﴿أَتَّخِذُ أَصْنَامًا﴾، تقديره: يا أبت، أنتخذ آزر أصناماً آلهة! فإنه قول بعيد في اللغة؛ فإن ما بعد حرف الاستفهام لا يعمل فيما قبله؛ لأن له صدر الكلام، كذا قرره ابن جرير وغيره. وهو مشهور في قواعد اللغة العربية.

(١) أما أن اسم والد إبراهيم «آزر» - فإنه عندنا أمر قطعي الثبوت، بصريح القرآن في هذه الآية، بدلالة الألفاظ على المعاني. وأما التأويل والتلاعب بالألفاظ، فما هو إلا إنكار مقنع لمضمون الكلام ومعناه. وسواء أكان اسمه في قول أهل النسب نقلاً عن الكتب السابقة - «تارح»، أو لم يكن، فلا أثر له في وجوب الإيمان بصدق ما نص عليه القرآن، وبدلالة لفظ «لأبيه» على معناه الوضعي في اللغة. والقرآن هو المهيمن على ما قبله من كتب الأديان السابقة.

ثم يقطع كل شك، ويذهب بكل تأويل - الحديث الصحيح الذي رواه البخاري (٤/ ١٣٩) من الطبعة السلطانية، ٦ / ٢٧٦ من فتح الباري: «عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قتره وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟» - إلى آخر الحديث. وليس بعد هذا النص مجال للتلاعب.

وقد فصلت تحقيق هذه المسألة في بحث مسهب، ألحقته بكتاب المغرب للجواليقي - بتحقيقي - طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٦١، (ص ٣٥٩ - ٣٦٥).

والمقصود : أن إبراهيم، عليه السلام، وعظ أباه في عبادة الأصنام، وزجره عنها، ونهاه فلم ينته، كما قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَّ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ أى: أتتاله لصنم تعبده من دون الله؟ ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ﴾ أى: السالكين مسلكك ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى: تائهين لا تهتدون أين تسلكون، بل في حيرة وجهل وأمركم في الجهالة والضلال بين واضح لكل ذى عقل صحيح.

وقال تعالى: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا. يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا. يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا. يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا. قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنِ الْهَيْبَةِ يَا إِبْرَاهِيمَ لئن لَمْ تَنْتَهِ لِأَرْجَمْتِكَ وَأَهْرَجْتَنِي مَلِيًّا. قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا. وَأَعْتَزَلْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مریم: ٤١ - ٤٨] ، فكان إبراهيم، عليه السلام، يستغفر لأبيه مدة حياته، فلما مات على الشرك وتبين إبراهيم ذلك، رجع عن الاستغفار له، وتبرأ منه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]. وثبت في الصحيح : أن إبراهيم يلتقى أباه آزر يوم القيامة فيقول له آزر : يا بنى ، اليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : أى رب ، ألم تعدنى أنك لا تخزنى يوم الدين ، وأى خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقال : يا إبراهيم ، انظر ما وراءك . فإذا هو بذبح متلطح فيؤخذ بقوائمه ، فيلقى فى النار (١) .

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: نبين له وجه الدلالة - فى نظره إلى خلقهما - على وحدانية الله، عز وجل، فى ملكه وخلقه، وإنه لا إله غيره ولا رب سواه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] ، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي السَّمَوَاتِ فِي الْمَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الاعراف: ١٨٥] ، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نُخِيفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْقِطْ عَلَيْهِمُ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٩] . ويحتمل أن يكون هذا كشف له عن بصره، حتى رأى ذلك عياناً، ويحتمل أن يكون عن بصيرته حتى شاهده بفؤاده وتحققه وعرفه، وعلم ما فى ذلك من الحكم الباهرة والدلالات القاطعة، كما رواه الإمام أحمد والترمذى وصححه، عن معاذ بن جبل فى حديث المنام: «أتانى ربي فى أحسن صورة فقال: يا محمد، فيم يختصم الملائة الأعلى؟ فقلت: لا أدرى يا رب، فوضع كفه بين كفتى، حتى وجدت برد أنامله بين ثديى، فتجلى لى كل شىء وعرفت» وذكر الحديث.

وقوله: ﴿وَلْيَكُونَنَّ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ قيل: «الواو» زائدة، تقديره: وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتبينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥] . وقيل: بل هى على بابها، أى: نرى ذلك ليكون عالماً وموقناً.

(١) هو الحديث الذى أشرنا فى الهامشة السابقة إلى أنه رواه البخارى من حديث أبى هريرة ، والمؤلف اختصره هنا ، كأنه يحكيه بالمعنى .

(٢) فى المطبوع من «عمدة التفسير» وكذا المخطوطة الأزهرية : «أفلم» وهو خطأ واضح . (الباز) .

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أى: تغشاه وستره ﴿رَأَى كَوْكَبًا﴾ أى: نجماً ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أى: غاب. قال ابن إسحاق: «الأفول»: الذهاب. وقال ابن جرير: يقال: أفل النجم يأفل ويأفل أفولاً وأفلاً: إذا غاب ويقال: أين أفلت عنا؟ بمعنى: أين غبت عنا. ﴿قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ قال قتادة: علم أنه ربه دائم لا يزول ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾ أى: طالعاً ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ أى: هذا الشيء الطالع ربى ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ أى: جرماً من النجم ومن القمر، وأكثر إضاءة ﴿فَلَمَّا أَفَلَّتْ﴾ أى: غابت ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ أى: أخلصت دينى وأفردت عبادتى ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ﴿حَنِيفًا﴾ أى: فى حال كونى حنيفاً، أى: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وقد اختلف المفسرون فى هذا المقام، هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير عن ابن عباس ما يقتضى أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير مستدلاً بقوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾. والحق: أن إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، كان فى هذا المقام مناظراً لقومه، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين فى المقام الأول مع أبيه خطأهم فى عبادة الأصنام الأرضية، التى هى على صورة الملائكة السماوية، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذى هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته، ليشفعوا لهم عنده فى الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه. وبين فى هذا المقام خطأهم وضلالهم فى عبادة الهياكل، وهى الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهى: القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشتري، وزحل، وأشدهن إضاءة وأشرفهن عندهم: الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة. فبين أولاً: أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية؛ لأنها مسخرة مقدره بسير معين، لا تزيغ عنه يمينا ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هى جرم من الأجرام خلقها الله منيرة، لما له فى ذلك من الحكمة العظيمة، وهى تطلع من المشرق، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو فى الليلة القابلة على هذا المنوال. ومثل هذه لا تصلح للإلهية. ثم انتقل إلى القمر، فبين فيه مثل ما بين فى النجم. ثم انتقل إلى الشمس كذلك. فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التى هى أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع - ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أى: أنا برىء من عبادتهن ومولاتهن، فإن كانت آلهة، فكيدونى بها جميعاً ثم لا تنظرون ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أى: إنما أعبد خالق الأشياء ومخترعها ومُسَخِّرَها ومقدرها ومدبرها، الذى بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربى ومليكه وإلهه، كما قال تعالى: ﴿إِن رَّبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الاعراف: ٥٤]. وكيف يجوز أن يكون إبراهيم الخليل ناظراً فى هذا المقام؟ وهو الذى قال الله فى حقه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ

وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَائِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥١﴾ [الأنبياء : ٥١ ، ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَاتَّبَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . ثُمَّ أَرْحَمْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ [النحل : ١٢٠ - ١٢٣] ، وقال تعالى : ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ [الأنعام : ١٦١] .

وقد ثبت في الصحيحين ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : «كل مولود يولد على الفطرة» ، وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله : إني خلقت عبادي حنفاء » وقال الله في كتابه العزيز : ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴿٣٠﴾ [الروم : ٣٠] ، وقال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴿١٧٢﴾ [الأعراف : ١٧٢] ومعناه على أحد القولين : كقوله : ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ كما سيأتي بيانه . فإذا كان هذا في حق سائر الخليفة ، فكيف يكون إبراهيم الخليل - الذي جعله الله ﴿أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ [النحل : ١٢٠] - ناظرًا في هذا المقام ! بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة ، والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب . وما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظرًا لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظرًا - قوله تعالى :

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾

يقول تعالى : وجادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد ، وناظره بشبه من القول - ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي﴾ أي : أتجادلونني في أمر الله وأنه لا إله إلا هو ؟ وقد بصّرني وهداني إلى الحق وأنا على بينة منه ، فكيف التفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة ؟! وقوله : ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أي : ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئًا ، وأنا لا أخافها ، ولا أبايها ، فإن كان لها صنع ، فكيدوني بها ولا تتظرون ، بل عاجلونني بذلك . وقوله : ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ استثناء منقطع ، أي : لا يضر ولا ينفع إلا الله ، عز وجل . ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي : أحاط علمه بجميع الأشياء ، فلا يخفى عليه خافية . ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي : فيما بينت لكم ، فتعتبرون أن هذه الآلهة باطلة ، فتتجزوا عن عبادتها . وهذه الحجة نظير ما احتج به نبي الله هود ، عليه السلام ، على قومه عاد ، فيما قص عنهم في كتابه ، حيث يقول : ﴿قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ

قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . مَنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ [هود: ٥٣-٥٦] .

وقوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ أى: كيف أخاف من هذه الأصنام التى تعبدونها من دون الله ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ قال ابن عباس وغير واحد من السلف: أى: حجة. وهذا كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [التجم: ٢٣]. وقوله: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى: فأى الطائفتين أصوب؟ الذى عبد من بيده الضر والنفع، أو الذى عبد من لا يضر ولا ينفع بلا دليل؟ أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة؟ قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ أى: هؤلاء الذى أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، ولم يشركوا به شيئاً، هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون فى الدنيا والآخرة.

روى البخارى عن عبد الله قال: لما نزلت ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قال أصحابه: وأينا لم يظلم نفسه؟ فنزلت: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] (١).

وروى الإمام أحمد عن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على الناس، فقالوا: يا رسول الله، أينا لا يظلم نفسه؟ قال: «إنه ليس الذى تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، إنما هو الشرك» (٢).

وقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ أى: وجهنا حجته على قومه. قال مجاهد وغيره: يعنى بذلك قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وقد صدقه الله، وحكم له بالأمن والهداية فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾، ثم قال بعد ذلك كله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾. قرئ بالإضافة وبلا إضافة، كما فى سورة يوسف، وكلاهما قريب فى المعنى.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أى: حكيم فى أفعاله وأقواله ﴿عَلِيمٌ﴾ أى: بمن يهديه ومن يضلّه، وإن قامت عليه الحجج والبراهين، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

(١) البخارى (٨ / ٢٢١ فتح).

(٢) المسند (٣٥٨٩)، وفضلنا تخريجه هناك. ورواه الطبرى بنحوه (١٣٤٧٦ - ١٣٤٨٠).

﴿ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُنَّ لِآءٍ فَفَدَّا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ آقْدَةُ قُلْ لَا آسَأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق، بعد أن طعن في السن، وأيس هو وامرأته «سارة» من الولد، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط، فبشروهما بإسحاق، فتعجبت المرأة من ذلك، وقالت: «قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ. قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ» [هود: ٧٢، ٧٣]. وبشروهما مع وجوده بنبوته، وبأن له نسلا وعقباً، كما قال: «وَبَشِّرْنَا هَ إِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ» [الصافات: ١١٢]، وهذا أكمل في البشارة، وأعظم في النعمة، وقال: «فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ» [هود: ٧١]، أى: ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما، فتقر أعينكما به كما قررت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه، وقعت البشارة به وبولده باسم «يعقوب»، الذى فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم، عليه السلام، حين اعتزل قومه وتركهم، ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله في الأرض، فعوضه الله، عز وجل، عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه، لتقر بهم عينه، كما قال: «فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا» [مريم: ٤٩]، وقال هاهنا: «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا».

وقوله: «وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ» أى: من قبله، هديناه كما هديناه، ووهبنا له ذرية صالحة، وكل منهما له خصوصية عظيمة، أما نوح، عليه السلام، فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به - وهم الذين صحبوه في السفينة - جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذرية نوح، وكذلك الخليل إبراهيم، عليه السلام، لم يبعث الله، عز وجل، بعده نبياً إلا من ذريته، كما قال تعالى: «وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ» [العنكبوت: ٢٧]، وقال تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ» [الحديد: ٢٦]، وقال تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجُودًا وَبُكِيًّا» [مريم: ٥٨].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ أى: وهدينا من ذريته ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ الآية، وعود الضمير إلى «نوح»؛ لأنه أقرب المذكورين - ظاهر. وهو اختيار ابن جرير. وعوده إلى «إبراهيم»؛ لأنه الذى سبق الكلام من أجله - حسن، لكن يشكل على ذلك «لوط»، فإنه ليس من ذرية «إبراهيم»، بل هو ابن أخيه هاران بن آزر؛ اللهم إلا أن يقال: إنه دخل فى الذرية تغليبا، كما فى قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، فإسماعيل عمه، ودخل فى آبائه تغليبا. وكما فى قوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [الحجر: ٣٠]، فدخل إبليس فى أمر الملائكة بالسجود، ودم على المخالفة؛ لأنه كان قد تشبه بهم، فعومل معاملةً، ودخل معهم تغليبا، وإلا فهو كان من الجن وطبيعته النار، والملائكة من نور.

وفى ذكر «عيسى»، عليه السلام، فى ذرية «إبراهيم» أو «نوح» - على القول الآخر - دلالة على دخول ولد البنات فى ذرية الرجال؛ لأن «عيسى»، عليه السلام، إنما ينسب إلى «إبراهيم»، عليه السلام، بأمه «مريم» عليها السلام، فإنه لا أب له. روى ابن حاتم عن أبى حرب بن أبى الأسود قال: أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر فقال: بلغنى أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبی ﷺ، تجده فى كتاب الله؟ وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده! قال: ليس تقرأ سورة الأنعام: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾، حتى بلغ ﴿وَيَحْيَى وَعِيسَى﴾؟ قال: بلى، قال: ليس عيسى من ذرية إبراهيم، وليس له أب؟ قال: صدقت. فلماذا إذا أوصى الرجل لذريته، أو وقف على ذريته أو وهبهم، دخل أولاد البنات فيهم. فأما إذا أعطى الرجل بنيه أو وقف عليهم، فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه وبنو بنيه، واحتجوا بقول الشاعر العربى:

بُنُونًا بَنُو أَبْنَانِنَا ، وَبَنَاتِنَا
بُنُونُهُنَّ أَبْنَاءُ الرِّجَالِ الأَجَانِبِ

وقال آخرون: ويدخل بنو البنات فيهم أيضا، لما ثبت فى صحيح البخارى، أن رسول الله ﷺ قال للحسن بن على: «إن ابنى هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» (١). فسماه ابنا، فدل على دخوله فى الأبناء. وقال الآخرون: هذا تجوز.

وقوله: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾: ذكر أصولهم وفروعهم. وذوى طبقتهم، وأن الهداية والاجتماع شملهم كلهم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَجَبْنَاَهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. ثم قال: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أى: إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم، ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: تشديد لأمر الشرك، وتغليظ لشأنه، وتعظيم لملاسته، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وهذا شرط، والشرط لا يقتضى جواز الوقوع، كقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، وكقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَا مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الانباء: ١٧] وكقوله: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ أى: أنعمنا عليهم بذلك رحمة للعباد بهم، ولفظاً منا بالخلقة ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ أى: بالنبوة. ويحتمل أن يكون الضمير عائداً على هذه الأشياء الثلاثة: الكتاب، والحكم، والنبوة. وقوله: ﴿هُؤُلَاءِ﴾ يعنى: أهل مكة. قاله ابن عباس، وسعيد بن المسيّب، وقتادة، والسدّى ﴿فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أى: إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومليين وكتابين، فقد وكلنا بها قوماً ﴿آخَرِينَ﴾ يعنى: المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة ﴿لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أى: لا يجحدون منها شيئاً، ولا يردون منها حرفاً واحداً، بل يؤمنون بجميعها محكمها ومتشابهها، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه وإحسانه.

ثم قال تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: ﴿أُولَئِكَ﴾ يعنى: الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان وهم الأشباه ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ أى: هم أهل الهداية لا غيرهم، ﴿فِيهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ﴾ أى: اقتد واتبع. وإذا كان هذا أمراً للرسول ﷺ، فأتمته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به. وقوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أى: لا أطلب منكم على إبلاغي إياكم هذا القرآن أجره، ولا أريد منكم شيئاً ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أى: يتذكرون به، فيرشدوا من العمى إلى الهدى، ومن الغنى إلى الرشد، ومن الكفر إلى الإيمان.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ لِيَجْعَلُوهُ قَرَأٰطيسَ تُبَدُّونَهَا وَنُحْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُهُ مَا لَمْ يَلْمَسُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى: وما عظموا الله حق تعظيمه، إذ كذبوا رسله إليهم، قال ابن عباس، ومجاهد: نزلت في قريش. واختاره ابن جرير، وقيل: نزلت في طائفة من اليهود؛ وقيل: في فنحاص رجل منهم، وقيل: في مالك بن الصيف، ﴿قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ والأول أصح؛ لأن الآية مكية، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء، وقريش - والعرب قاطبة - كانوا يبعدون إرسال رسول من البشر، كما قال: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رُّسُلًا. قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْنُونُ مَطْمَئِنِينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رُّسُلًا﴾ [الإسراء: ٩٤، ٩٥]، وقال ههنا: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، قال الله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أى: قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لانزال شيء من الكتب من عند الله، في جواب سلبهم العام، بإثبات قضية جزئية موجبة: ﴿مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾ يعنى: التوراة التي قد علمتم - وكل

أحد - أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران ﴿ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ أى : ليستضاء بها فى كشف المشكلات ، ويهتدى بها من ظلم الشبهات .

وقوله : ﴿ يَجْعَلُونَهُ ^(١) قَرَأِطِيسَ يَيْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ أى : يجعلون جملتها قراطيس ، أى : قطعاً قطعاً ، يكتبونها من الكتاب الأصيلى الذى بأيديهم ويحرفون منها ما يحرفون ، ويبدلون ويتأولون ، ويقولون : ﴿ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٧٩] أى : فى كتابه المنزل ، وما هو من عند الله ؛ ولهذا قال : ﴿ يَجْعَلُونَهُ قَرَأِطِيسَ يَيْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ (٢) . وقوله تعالى : ﴿ وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ﴾ أى : ومن أنزل القرآن الذى علمكم الله فيه من خبر ما سبق ، ونبا ما يأتى ما لم تكونوا تعلمون ذلك ، لا أنتم ولا آباؤكم . وقد قال قتادة : هؤلاء مشركو العرب . وقال مجاهد : هذه للمسلمين .

وقوله : ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ : قال عن ابن عباس : أى : قل : الله أنزله . وهذا الذى قاله ابن عباس هو المتعين فى تفسير هذه الكلمة ، لا ما يقوله بعض المتأخرين ، من أن معنى ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ أى : لا يكون خطابك هم إلا هذه الكلمة ، كلمة : « الله » . وهذا الذى قاله هذا القائل يكون أمراً بكلمة مفردة من غير تركيب ، والآيتان بكلمة مفردة لا يفيد فى لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها . وقوله : ﴿ ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أى : ثم دعهم فى جهلهم وضلالهم يلعبون ، حتى يأتهم من الله اليقين فسوف يعلمون : ألهم العاقبة ، أم لعباد الله المتقين ؟ .

وقوله : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ ﴾ يعنى : القرآن ﴿ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكًا مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى ﴾ يعنى : مكة ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من أحياء العرب ، ومن سائر طوائف بنى آدم من عرب وعجم ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الاعراف : ١٥٨] ، وقال : ﴿ لَا نُذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] ، وقال : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : ١٧] ، وقال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] ، وقال : ﴿ وَقُلِ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ﴾

(١) من أول قوله : « وقوله يجعلونه » - إلى هنا - أثبتنا الأفعال : « يجعلونه » و « ييدونها » و « يخفون » ، والأفعال فى كلام الحافظ ابن كثير فى تفسير الآية - بياء الغائب فى المضارعة ، دون تاء المخاطب ، لأن هذا هو الثابت فى المخطوطتين . وهى قراءة ابن كثير - القارئ - وأبى عمرو « بالغيب فى الثلاثة ، على إسناده للكفار » . ووافقهم ابن محيصن واليزيدى . وقرأ باقى الأربعة عشر « تجعلونه » - إلخ بناء المخاطب ، وهى قراءة حفص الثابتة فى مصاحفنا . وكذلك قول ابن كثير « من الكتاب الأصيلى الذى بأيديهم » - هو الثابت فى المخطوطتين . وثبت فى المطبوعة : « بأيديكم » . وهو المناسب لقراءة تاء الخطاب . وإنما رجحنا إثبات ما فى المخطوطتين لأنه هو الذى يستقيم وما ذهب إليه الحافظ ابن كثير - تبعاً للطبرى - أن الآية نزلت فى قريش ، فيكون الخبر عن اليهود بياء الغائب . وقد رجح الطبرى القراءة بياء الغائب ، وحكى أنها قراءة مجاهد أيضاً (١١ / ٥٢٥ ، ٥٢٦) . بل جعلها « الأصوب من القراءة » : « أن يكون بالياء ، لا بالتاء . على معنى : أن اليهود يجعلونه قراطيس ييدونها ويخفون كثيراً . ويكون الخطاب بقوله : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ ﴾ لمشركى قريش . هذا نص كلامه .

(٢) هذا هو الحق . وهو يدل على بطلان ما يتلاعب به بعض المتصوفة بالذكر بكلمات مفردة من أسماء الله عز وجل .

أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ [آل عمران: ٢٠] وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أَعْطَيْتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي» وذكر منهن: «وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة» (١)؛ ولهذا قال: «وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ» أي: كل من آمن بالله واليوم الآخر آمن بهذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يقومون بما افترض عليهم، من أداء الصلوات في أوقاتها.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفَرَّى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكَبْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفَرَّى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله، فجعل له شريكاً أو ولداً، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يرسله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ قال عكرمة وقتادة: نزلت في مسيلمة الكذاب. ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يعني: أو من ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي بما يفتره من القول، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١] ، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أي: في سكراته وغمراته وكرباته، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: بالضرب ، كما قال: ﴿لَنْ يَسْطُرَ إِلَيَّ يَدُكَ لِتَقْتُلَنِي﴾ الآية [المائدة: ٢٨] ، وقال: ﴿وَيَسْطُرُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَالسُّيُوفُ بِالسُّوءِ﴾ الآية [المتحنة: ٢] . قال الضحاك، وأبو صالح: ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: بالعذاب. وكما قال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ يتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠] ؛ ولهذا قال: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: بالضرب لهم ، حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم؛ ولهذا يقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ، وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال، والأغلال والسلاسل، والجحيم والحميم، وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحه في جسده، وتعصى وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم، قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي: اليوم تهانون غاية الإهانة ، كما كنتم تكذبون على الله ، وتستكبرون عن اتباع آياته ، والانقياد لرسله. وقد وردت الأحاديث المتواترة في كيفية احتضار المؤمن والكافر، وهي مقررة عند قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] .

(١) رواه الشيخان وغيرهما في حديث مطول ، من حديث جابر . انظر الفتح الكبير (١ / ١٩٩) .

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: يقال لهم يوم معادهم هذا، كما قال: ﴿وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨] ، أي: كما بدأناكم أعدناكم، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه، فهذا يوم البعث. وقوله: ﴿وَتَرَكْتُمَا خَوْلَانَكُمْ﴾ أي: من النعم والأموال التي اقتنيتوها في الدار الدنيا ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي ! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذهب وتاركة للناس» (١).

وقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾: تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان، ظانين أنها تنفعهم في معاشهم ومعادهم إن كان ثم معاد، فإذا كان يوم القيامة تقطعت بهم الأسباب، وانزاح الضلال، وضل عنهم ما كانوا يفترون، ويناديهم الرب، جل جلاله، على رؤوس الخلائق: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢، ٧٤] وقيل لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَبْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْبِئُونَ﴾ [الشعراء: ٩٢، ٩٣] ؛ ولهذا قال ههنا: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: في العبادة، لهم فيكم قسط في استحقاق العبادة لهم.

ثم قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ﴾: قرئ بالرفع، أي: شملكم، وقرئ بالنصب، أي: لقد تقطع ما بينكم من الوصلات والأسباب والوسائل ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ﴾ أي: وذهب عنكم ﴿مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من رجوى الأصنام، كما قال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَبْتَرِّئُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] ، وقال: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] ، وقال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُم فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ الآية [القصص: ٦٤] ، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ . ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢ - ٢٤] ، والآيات في هذا كثيرة جدا .

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالنَّوَىٰ ۗ يُخْرِجُ الْمَتَىٰ مِنَ الْعَيْتِ وَيُخْرِجُ الْعَيْتَ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَالِقُ تُوْفُكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حَسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النَّجْمَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾

(١) رواه مسلم (٢ / ٣٨٣ ، ٣٨٤) من حديث عبد الله بن الشخير . وكذلك رواه أحمد والترمذي والنسائي . وقد مضى عند تفسير الآية : (٢١٣) من سورة البقرة .

يخبر تعالى أنه ﴿ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالنَّوَى ﴾ أى: يشقه فى الثرى ، فنبت منه الزروع على اختلاف أصنافها من الحبوب والشمار ومن اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها من النوى؛ ولهذا فسر قوله : ﴿ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالنَّوَى ﴾ بقوله: ﴿ يُخْرِجُ الْغَيْبَ مِنَ الْغَيْبِ وَمُخْرِجُ الْمَيْتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾ أى: يخرج النبات الحى من الحب والنوى، الذى كالجماد الميت، كما قال: ﴿ آيَةً لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ . سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمَنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٣ - ٣٦] . وقوله: ﴿ وَمُخْرِجُ الْمَيْتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾ معطوف على ﴿ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالنَّوَى ﴾ ثم فسره ثم عطف عليه قوله: ﴿ وَمُخْرِجُ الْمَيْتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾ . وقد عبروا عن هذا وهذا بعبارات كلها متقاربة مؤدية للمعنى ، فمن قائل: يخرج الدجاجة من البيضة، والبيضة من الدجاجة، من قائل: يخرج الولد الصالح من الكافر ، والكافر من الصالح ، وغير ذلك من العبارات التى تنتظمها الآية وتشملها. ثم قال تعالى: ﴿ ذَلِكَمُ اللَّهُ ﴾ أى: فاعل هذا هو الله وحده لا شريك له ﴿ فَأَنْتَى تُؤَفِّكُونَ ﴾ أى: فكيف تصرفون من الحق وتعدلون عنه إلى الباطل فتعبدون معه غيره ؟ !

وقوله: ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا ﴾ (١) أى: خالق الضياء والظلام، كما قال فى أول السورة: ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾، فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح، فيضئ الوجود، ويستتير الأفق، ويضمحل الظلام، ويذهب الليل بدأته وظلام رواقه (٢) ، ويجيء النهار بضيائه

(١) « وجاعل الليل » - قراءة عاصم وحزمة والكسائى وخلف والأعمش « وجعل الليل » بصيغة الفعل الماضى ونصب « الليل » مفعولا وهى قراءة حفص عن عاصم الثابتة فى مصاحف مصر ، وقرأ باقى الأربعة عشر « وجاعل الليل » بصيغة اسم الفاعل وجر « الليل » بالإضافة . وهى الثابتة فى المخطوطتين من ابن كثير هنا ، فأثبتناها كذلك . والقراءتان صحيحتان .

(٢) قوله : « بدأته » : بفتح الدال الأولى وبعدها ألف ممدودة ثم دال مكسورة ثم همزة مكسورة . وقد رسمت فى المخطوطة العتيقة هكذا : « بداديه » ، ورسمت فى المخطوطة الأزهرية هكذا « بداءديه » . أما الهمزة فى الأزهرية فموضعها خطأ من الناسخ ، موضعها الصحيح قبل الألف ، لتقرأ ألفا ممدودة . وأما الياء بعد الدال الثانية فهى ، فهكذا ترسم الهمزة المكسورة التى تكتب على ياء فى الخطوط القديمة ، كلها أو أكثرها . حتى فى ألفاظ القرآن . مثلا لفظ « بارتكم » فى الآية (٥٤) من سورة البقرة مكررا مرتين ، رسم فى المخطوطة الأزهرية (١ / ١٤٦) فى المرتين : « باريكم » . وتسهيل هذه الهمزة إلى ياء فصيح صحيح فى لغة العرب . ولم يحسن طابعو تفسير ابن كثير قراءة هذه الكلمة ، فاستسهلوا تغييرها ، فجعلوها « بسواده » ! وما أبعد ما بين الحرفين فى الرسم !!

وأما معناها ، فالمراد بها شدة الظلام فى آخر الشهر . وأصل الحرف فى نص لسان العرب (مادة : دأدأ) ، قال :

« وَالِدَاءُ وَالذُّؤْدُؤُ وَالذُّؤْدَاءُ وَالذُّؤْدَاءُ : آخر أيام الشهر . قال :

نحن أجزنا كلَّ ذِيَالٍ قَتْرٍ فى الحِجِّ مِنْ قَبْلِ دَادِي الْمُؤْتَمِرِ أَرَادَ : دَادِي الْمُؤْتَمِرِ ، فأبدل الهمزة ياءً ثم حذفها لالتقاء الساكنين .

قال الأعشى :

تداركه فى مُصِلِ الْإِلِ بعدَ مَا مَصَى غَيْرَ دَادَاءٍ وَقَد كَادَ يَعْطُبُ =

وإشراقه، كما قال : ﴿يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الاعراف: ٥٤]، فبين تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة ، الدالة على كمال عظمتة وعظيم سلطانه، فذكر أنه فائق الإصباح وقابل ذلك بقوله : ﴿وَجَاعِلَ اللَّيْلِ سَكَنًا﴾ أى: ساجيا مظلما تسكن فيه الأشياء، كما قال: ﴿وَالضُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١، ٢] ، وقال : ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّأَهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: ٣، ٤]. وقال صُهَيْبُ الرَّومِي لَامْرَأَتِهِ - وقد عاتبته فى كثرة سهره: إن الله جعل الليل سكنا إلا لصهيب، إن صهيبا إذا ذكر الجنة طال شوقه، وإذا ذكر النار طار نومه، رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حِسَابًا﴾ أى: يجريان بحساب مُقَنَّ مَقْدَرٌ ، لا يتغير ولا يضطرب، بل كل منهما له منازل يسلكها فى الصيف والشتاء، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولاً وقصرًا، كما قال : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ الآية [يونس: ٥] ، وكما قال : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وقال : ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [الاعراف: ٥٤] . وقوله: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أى: الجميع جار بتقدير العزيز الذى لا يمانع ولا يخالف، العليم بكل شىء، فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، وكثيراً ما إذا ذكر تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر، يختم الكلام بالعزة والعلم، كما ذكر فى هذه الآية، وكما فى قوله: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ . وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧، ٣٨] . ولما ذكر خلق السموات والأرض وما فيهن فى أول سورة ﴿حَم﴾ السجدة، قال: ﴿وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢] .

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ قال بعض السلف: من اعتقد فى هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله: أن الله جعلها زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، ويُهتدى بها فى ظلمات البر والبحر. وقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أى: قد بينها ووضحناها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أى: يعقلون ويعرفون الحق ويتجنبون الباطل.

= قال الأزهرى : أراد أن تداركه فى آخر ليلة من ليالى رجب . وقيل : الدَّاءُ والدُّدَاءُ ليلة خمس وست وسبع وعشرين . وقال ثعلب : العرب تسمى ليلة ثمان وعشرين وتسع وعشرين : الدَّادِيَّ ، والواحد : دَأْدَاءٌ . وفى الصحاح : الدَّادِيُّ ثلاث ليالٍ من آخر الشهر قبل ليالى المحاق ، والمحاق آخرها ، وقيل : هى هِي . أبو الهيثم : الليالى الثلاث التى بعد المحاق سُمِينَ دَادِيَّ ، لأن القمر فيها يُدَادِيُّ إلى الغُوبِ . أى يسرع ، من دَأْدَاءَ البعير . وقال الأصمعى : فى ليالى الشهر ثلاث محاق ، وثلاث دَادِيَّ ، قال : والدَّادِيُّ الأواخر ، وأنشد :

أَبْدَى لَنَا غُرَّةً وَجَهَ بَادِي كَزُهْرَةِ النُّجُومِ فِي الدَّادِيَّ

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرَجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

يقول تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ يعني : آدم عليه السلام ، كما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النساء : ١] . وقوله : ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ : اختلفوا فى معنى ذلك ، فعن ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم : ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ ﴾ أى : فى الأرحام . قالوا أو أكثرهم : ﴿ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ أى : فى الأصلاب . وعن ابن مسعود وطائفة عكس ذلك . وعن ابن مسعود أيضاً وطائفة : فمستقر فى الدنيا ، ومستودع حيث يموت . الأول هو الأظهر ، والله أعلم . وقوله : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ أى : يفهمون ويعون كلام الله ومعناه .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أى بقدر ، مباركاً ، رزقاً للعباد وغيثاً للخلائق ، رحمة من الله لخلقه ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ﴾ [الانبيا : ٣٠] . ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا ﴾ أى : زرعاً وشجراً أخضر ، ثم بعد ذلك يخلق فيه الحب والتمر ؛ ولهذا قال : ﴿ نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾ أى : يركب بعضه بعضاً ، كالسنبال ونحوها ﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ ﴾ أى : جمع قنو وهو عذوق الرطب ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ أى : قريبة من المتناول ، كما قال ابن عباس : يعنى بالقنوان الدانية : قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض . رواه ابن جرير . قال ابن جرير : وأهل الحجاز يقولون : قنوان ، وقيس يقولون : قنوان قال امرؤ القيس :

فَأَثَّتْ أَعَالِيهِ وَأَدَّتْ أَصُولَهُ
وَمَالَ بَقْتَوَانَ مِنَ الْبَسْرِ أَحْمَرَ

قال : وتميم يقولون : قنيان بالياء - قال : وهى جمع قنو ، كما أن صنوان جمع صنو .

وقوله : ﴿ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ أى : ونخرج منه جنات من أعناب ، وهذان النوعان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز ، وربما كانا خيار الثمار فى الدنيا ، كما امتن الله بهما على عباده ، فى قوله : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [النحل : ٦٧] ، وكان ذلك قبل تحريم الخمر . وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ [يس : ٣٤] . وقوله : ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ قال قتادة وغيره : يتشابه فى الورق ، قريب الشكل بعضه من بعض ، ويتخالف فى الثمار شكلاً وطعماً وطبعاً .

وقوله : ﴿ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ أى : نضجه ، قاله البراء بن عازب ، وابن عباس ، وقتادة ، وغيرهم . أى : فكروا فى قُدْرَةِ خالقه من العدم إلى الوجود ، بعد أن كان حطْبًا صار عنبًا ورطبًا وغير ذلك ، مما خلق تعالى من الألوان والأشكال والطعوم والروائح ، كما قال

تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ بَعْضُهُا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلَانِ فِي ذَلِكَ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤٤] ولهذا قال ههنا: ﴿إِن فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ﴾ أى: للدلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: يصدقون به، ويتبعون رسله (١).

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَكَ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ﴾

هذا ردّ على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، وأشركوا فى عبادته أن عبدوا الجن، فجعلوهم شركاء الله فى العبادة، تعالى الله عن شركهم وكفرهم.

فإن قيل: فكيف عبّدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام؟ فالجواب: أنهم ما عبدوها إلا عن طاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك، كما قال تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا. لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا. وَلَأُصَلِّنَهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيُبْتِئَنَّ أَذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا. يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٧ - ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال إبراهيم لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ. وَأَن اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١]، وتقول الملائكة يوم القيامة: ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِيْمَ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١]، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ أى: وقد خلقهم، فهو الخالق وحده لا شريك له، فكيف يعبد معه غيره؟ كما قال إبراهيم، عليه السلام: ﴿اتَّعْبُدُونِ مَا تَنْحِتُونَ. وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦]. ومعنى الآية: أنه سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق وحده؛ فلهذا يجب أن يُفرد بالعبادة وحده لا شريك له.

وقوله تعالى: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: يئنه به تعالى على ضلال من ضل فى وصفه تعالى بأن له ولدًا، كما يزعم من قاله من اليهود فى العزير، ومن قال من النصارى فى المسيح، وكما قالت المشركون من العرب فى الملائكة: أنها بنات الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا. ومعنى قوله: ﴿وَخَرَقُوا﴾ أى: واختلقوا واثفكوا، وتخرصوا وكذبوا، كما قاله علماء

(١) هنا بهامش المخطوطة العتيقة ما نصه: « آخر الجزء الأول من تفسير سورة الأنعام، من خط المؤلف، عفا الله عنه ». وبهامش المخطوطة الأزهرية - ولكن بعد هذا الموضع بقليل - ما نصه: « آخر أول أجزاء المؤلف رحمه الله من هذه السورة. ومن هذه الآية ابتدا بتعليق هذا التفسير إلى آخر القرآن العظيم. ثم فسر من سورة البقرة إلى ههنا. ووافق آخر التعليق يوم الجمعة رابع عشرى ذى قعدة، سنة إحدى وأربعين وسبع مائة. فكتب الجميع فى نحو أربع سنين ».

السلف . قال ابن جرير: فتأويل الكلام إذاً: وجعلوا لله الجن شركاء في عبادتهم إياه، وهو المنفرد بخلقهم بغير شريك ولا ظهير ﴿وَحَرِّقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بحقيقة ما يقولون، ولكن جهلاً بالله وبعظمته، وأنه لا ينبغي لمن كان إلهاً أن يكون له بنون وبنات ولا صاحبة، ولا أن يشركه في خلقه شريك. ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي: تقدس وتنزه وتعظم عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون من الأولاد والأنثاد، والنظراء والشركاء.

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۗ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٠١﴾

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مبدع السموات والأرض وخالقها ومنشئها ومحدثها على غير مثال سبق، كما قال مجاهد والسدي. ومنه سميت البدعة بدعة؛ لأنه لا نظير لها فيما سلف. ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: كيف يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة؟ أي: والولد إنما يكون متولداً عن شيئين متناسبين، والله لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه؛ لأنه خالق كل شيء، فلا صاحبة له ولا ولد، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۗ﴾ [تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشِقُ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۗ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۗ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۗ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۗ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۗ وَكَلَّمَهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ۗ﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥]. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۗ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: فبين تعالى أنه الذي خلق كل شيء، وأنه بكل شيء عليم، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه، وهو الذي لا نظير له؟ ! فأنى يكون له ولد؟! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۗ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۗ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ﴿١٠٢﴾ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: الذي خلق كل شيء ولا ولد له ولا صاحبة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ فاعبدوه وحده لا شريك له، وأقروا له بالوحدانية، وإنه لا إله إلا هو، وأنه لا ولد له ولا والد، ولا صاحبة له ولا نظير ولا عديل ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: حفيظ ورقيب يدبر كل ما سواه، ويرزقهم ويكلوهم بالليل والنهار.

وقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ فيه أقوال للأئمة من السلف: أحدها: لا تدركه في الدنيا، وإن كانت تراه في الآخرة، كما توارت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من غير ما طريق ثابت في الصحاح والمسانيد والسنن، كما قالت عائشة: من زعم أن محمداً أبصر ربه فقد كذب، فإن الله يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾. رواه ابن أبي حاتم، وثبت في الصحيح وغيره عن عائشة من غير وجه. وخالفها ابن عباس، فعنه: إطلاق الرؤية، وعنه: رآه بفؤاده مرتين. والمسألة تذكر في أول «سورة النجم» إن شاء الله .

وقال آخرون: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أى: جميعها، وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له فى الآخرة. وقال آخرون من المعتزلة - بمقتضى ما فهموه من هذه الآية: أنه لا يرى فى الدنيا ولا فى الآخرة. فخالفوا أهل السنة والجماعة فى ذلك، مع ما ارتكبه من الجهل بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله. أما الكتاب، فقوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ. إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى عن الكافرين: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحْجُورُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. قال الإمام الشافعى: فدل هذا على أن المؤمنين لا يُحجَّبون عنه تبارك وتعالى. وأما السنة، فقد تواترت الأخبار عن أبى سعيد، وأبى هريرة، وأنس، وجريج، وصُهَيْب، وبلال، وغير واحد من الصحابة عن النبى ﷺ: أن المؤمنين يرون الله فى الدار الآخرة فى العرصات، وفى روضات الجنات، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه آمين. وقال آخرون: لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفى الإدراك، فإن الإدراك أخص من الرؤية، ولا يلزم من نفى الأخص انتفاء الأعم. ثم اختلف هؤلاء فى الإدراك المنفى، ما هو؟ فقول: معرفة الحقيقة، فإن هذا لا يعلمه إلا هو وإن رآه المؤمنون، كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته، فالعظيم أولى بذلك، وله المثل الأعلى. وقال آخرون: المراد بالإدراك الإحاطة. قالوا: ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية، كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم، قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وفى صحيح مسلم: «لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» (١). ولا يلزم من هذا عدم الثناء، فكذلك هذا. وروى ابن أبى حاتم عن عكرمة، أنه قيل له: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾؟ قال: ألسنت ترى السماء؟! قال: بلى. قال: فكلمها ترى؟! وقال آخرون فى الآية بما رواه الترمذى فى جامعه، وابن أبى عاصم فى كتاب «السنة» له، وابن أبى حاتم، وابن مردويه عن عكرمة قال: سمعت ابن عباس يقول: رأى محمد ربه تبارك وتعالى. فقلت: أليس الله يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ الآية؟ فقال لى: «لا أم لك. ذاك نوره، الذى هو نوره، إذا تجلّى بنوره لا يدركه شىء». وفى رواية: «لا يقوم له شىء». قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه (٢).

وفى معنى هذا الأثر ما ثبت فى الصحيحين، عن أبى موسى الأشعري: «إن الله لا ينام، ولا يبتغى له أن ينام، يخفض القسطن ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور - أو: النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» (٣).

(١) صحيح مسلم (١ / ١٤٠ بولاق) من حديث من رواية أبى هريرة عن عائشة.

(٢) لم أجد فى المستدرک بهذا اللفظ، خفى على موضعه منه. وهو فى الترمذى (٤ / ١٨٩) «عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: رأى محمد ربه، قلت: أليس الله يقول «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ»؟ قال: ويحك، ذاك إذا تجلّى بنوره الذى هو نوره، وقد رأى محمد ربه مرتين». قال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب».

(٣) مسلم (١ / ٦٤) فى حديث. ولم أجد فى البخارى، فلا أدري أخفى على موضعه أم وهم الحافظ ابن كثير؟

المؤمنين كما يشاء . فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه - تعالى وتقدس وتنزه - فلا تدركه الأبصار؛ ولهذا كانت أم المؤمنين عائشة تثبت الرؤية في الدار الآخرة وتنفيها في الدنيا، وتحتج بهذه الآية: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ فالذى نفته الإدراك الذى هو بمعنى رؤية العظمة والجلال على ما هو عليه، فإن ذلك غير ممكن للبشر، ولا للملائكة ولا لشيء .

وقوله : ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ أى : يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه؛ لأنه خلقها كما قال تعالى : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك : ١٤] . وقال أبو العالية فى قوله : ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ : اللطيف لاستخراجها، الخبير بمكانها . والله أعلم . وهذا كما قال تعالى إخباراً عن لقمان فيما وعظ به ابنه : ﴿ يَا بَنِيَّ إِنِّي كُنْتُ مَثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : ١٦] .

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِيُنَبِّئَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

البصائر: هى البينات والحجج التى اشتمل عليها القرآن ، وما جاء به الرسول ﷺ ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ﴾ مثل قوله : ﴿ مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [الإسراء : ١٥] ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ ، لما ذكر البصائر قال : ﴿ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ أى : إنما يعود وبال ذلك عليه ، كقوله : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] . ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴾ أى : بحافظ ولا رقيب، بل أنا مبلغ والله يهدى من يشاء ويضل من يشاء . وقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ ﴾ أى : وكما فصلنا الآيات فى هذه السورة، من بيان التوحيد وأنه لا إله إلا هو، هكذا نوضح الآيات ونفسرها ونبينها فى كل موطن لجهالة الجاهلين، وليقول المشركون والكافرون المكذبون: دَارَسْتَ يَا مُحَمَّدٌ مِنْ قَبْلِكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَقَارَأْتَهُمْ وَتَعَلَّمْتَ مِنْهُمْ (١) . هكذا قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، وغيرهم . وروى الطبرانى عن ابن عباس قال : ﴿ دَارَسْتَ ﴾ : تلوت، خاصمت، جادلت (٢) .

وهذا كما قال تعالى إخباراً عن كذبهم وعنادهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَسَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤ ، ٥] ، وقال تعالى إخباراً عن زعيمهم وكاذبهم : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ [المدثر : ١٨-٢٥] .

(١) فسرها المؤلف رحمه الله على قراءة « دارست » بإثبات الألف بين الدال والراء . وهى قراءة ابن عباس ، كما روى ذلك عنه الطبرى (١٣٧١٧) . وهى أيضا قراءة ابن كثير القارئ وأبى عمرو . وكتبت فى الآية فى المخطوطتين بإثبات الألف ، على هذه القراءة . وقراءة حفص التى فى مصاحفنا : « درست » بدون ألف . والقراءتان صحيحتان .

(٢) إسناده جيد . وكذلك رواه الطبرى عن ابن عباس (١٣٧١٩ ، ١٣٧٢٠) .

وقوله: ﴿وَلَنُبَيِّنَ لَكُمْ لَقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أى: ولنوضحه لكم يعلمون الحق فيتبعونه، والباطل فيجتنبونه. فله تعالى الحكمة البالغة فى إضلال أولئك، وبيان الحق لهؤلاء. كما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] ، وقال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فَتَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ [وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ . وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ] (١)﴾ [الحج: ٥٣ ، ٥٤] ، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَقِينَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] ، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى أنزل القرآن هدى للمتقين، وأنه يضل به من يشاء ويهدى من يشاء: ولهذا قال ههنا: ﴿وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَآرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَ لَكُمْ لَقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ . وقرأ بعضهم: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ . قال التميمي، عن ابن عباس: «درست» أى: قرأت وتعلمت. وكذا قال مجاهد، والسدى والضحاك، وغير واحد . وقال الحسن: «وليقولوا دَرَسْتَ» ، يقول: تقدمت وانمحت. وروى عبد الرزاق عن ابن الزبير: إن صبيانا يقرؤون ههنا: «دَآرَسْتَ» ، وإنما هي: «دَرَسْتَ». وقال شعبة: حدثنا أبو إسحاق الهمداني ، قال : هي فى قراءة ابن مسعود: «دَرَسْتَ» يعنى بغير ألف، بنصب السين ووقف على التاء . قال ابن جرير: ومعناه : انمحت وتقدمت، أى: أن هذا الذى تلوه علينا قد مر بنا قديماً، وتناولت مدته. وقال سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة أنه قرأها: «دَرَسْتَ» أى: قرأت وتعلمت . وروى ابن مردويه عن أبى بن كعب قال: أقرأنى رسول الله ﷺ: «وليقولوا دَرَسْتَ». ورواه الحاكم وقال: يعنى بجزم السين، ونصب التاء، ثم قال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢).

﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾
 ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾

يقول تعالى أمراً لرسوله ﷺ ولمن أتبع طريقته: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أى: اقتد به، واقتف أثره، واعمل به؛ فإن ما أوحى إليك من ربك هو الحق الذى لا مربة فيه؛ لأنه لا إله إلا هو ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أى: اعف عنهم واصفح، واحتمل أذاهم، حتى يفتح الله لك وينصرك ويظفرك عليهم . واعلم أن الله حكمة فى إضلالهم، فإنه لو شاء لهدى الناس كلهم

(١) ما بين المعقوفين سقط من المطبوعة والمطبوع من عمدة التفسير ، وكذا المخطوطة الأزهرية . ولا يتم الاستشهاد إلا به . (الباز) .

(٢) المستدرک (٢ / ٢٣٨ ، ٢٣٩) ووافقه الذهبي على تصحيحه .

جميعاً ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام : ٣٥] . ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ أى : بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. وقوله : ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أى : حافظاً تحفظ أعمالهم وأقوالهم ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أى : موكل على أرزاقهم وأمورهم إن عليك إلا البلاغ ، كما قال تعالى : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . نَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية : ٢١ ، ٢٢] ، وقال ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد : ٤٠] .

﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٨﴾

يقول تعالى ناهياً لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين، وإن كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهى مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين، وهو الله لا إله إلا هو. كما قال ابن عباس فى هذه الآية: قالوا: يا محمد، لتنتهين عن سب آلهتنا، أو لنهجون ربك، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

ومن هذا القبيل - وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها - ما جاء فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ملعون من سب والديه». قالوا: يا رسول الله، وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: «يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه». أو كما قال ﷺ (١).

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾ أى : وكما زيننا لهؤلاء القوم حب أصنامهم والمحاماة لها والانتصار، كذلك زيننا لكل أمة ، أى : من الأمم الخالية على الضلال - عملهم الذى كانوا فيه، والله الحجة البالغة، والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختاره ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ﴾ أى : معادهم ومصيرهم ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى : يجازيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٩﴾ وَنَقَلَبْ أَفْئِدَهُمْ وَابْصُرْهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين: إنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم، أى : حلفوا أيماناً مؤكدة

(١) مضى عند تفسير الآيات: (٢٩ - ٣١) من سورة النساء . من رواية البخارى عن عبد الله بن عمرو ، بلفظ : « من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ، قالوا : وكيف يلعن الرجل والديه ؟ ... » . وهو أيضاً فى المسند (٦٥٢٩ ، ٦٨٤٠ ، ٧٠٢٩) وصحيح مسلم (١ / ٣٧ بولاق) بنحوه ، والمؤلف الحافظ ذكره هنا بالمعنى لا باللفظ .

﴿ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ ﴾ أى: معجزة وخارق، ﴿ لِيُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ أى: ليصدقنها ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى: قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تعتتاً وكفراً وعناداً، لا على سبيل الهدى والاسترشاد: إنما مرجع هذه الآيات إلى الله، إن شاء جاءكم بها ، وإن شاء ترككم . روى ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: كلم رسول الله ﷺ قريشاً، فقالوا: يا محمد، تخبرنا أن موسى كان معه عصاً يضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، وتخبرنا أن عيسى كان يحيى الموتى، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة، فأتنا من الآيات حتى نصدقك ! فقال رسول الله ﷺ: «أى شيء تحبون أن آتيكم به؟». قالوا: تجعل لنا الصفاً ذهباً. فقال لهم: «فإن فعلتُ تصدقوني؟». قالوا: نعم، والله لئن فعلت لتتبعنك أجمعين. فقام رسول الله ﷺ يدعو، فجاءه جبريل، عليه السلام، فقال له: ما شئت، إن شئت أصبح ذهباً، ولئن أرسل آية فلم يصدقوا عند ذلك ليعذبنهم، وإن شئت فأنزركم حتى يتوب تائبهم. فقال رسول الله ﷺ: «بل يتوب تائبهم». فأنزل الله: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ يَجْهَلُونَ ﴾ . وهذا مرسل ، وله شواهد من وجوه آخر (١) . وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا مَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ قيل: المخاطب بـ ﴿ مَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ : المشركون، وإليه ذهب مجاهد، كأنه يقول لهم: وما يدريك بصدقكم في هذه الأيمان التي تقسمون بها. وعلى هذا فالقراءة: «إنها إذا جاءت لا يؤمنون» بكسر «إنها» على استئناف الخبر عنهم بنفى الإيمان عند مجيء الآيات التي طلبوها. وقرأ بعضهم: «إنها إذا جاءت لا تؤمنون» بالثاء المثناة من فوق. وقيل: المخاطب بقوله: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ المؤمنون، أى: وما يدريك أيها المؤمنون، وعلى هذا فيجوز فى قوله: ﴿ إِنَّهَا ﴾ الكسر كالأول والفتح على أنه معمول ﴿ يُشْعِرُكُمْ ﴾ (٢) . وعلى هذا فتكون «لا» فى قوله: ﴿ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ صلة كما فى قوله: ﴿ مَا مَعَكَ إِلَّا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف: ١٢] وقوله: ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٥] . أى: ما منعك أن تسجد إذ أمرتك ، وحرام أنهم يرجعون. وتقديره فى هذه الآية: وما يدريك - أيها المؤمنون الذين تودون لهم ذلك حرصاً على إيمانهم - أنها إذا جاءتهم الآيات يؤمنون . وقال بعضهم: «إنها» بمعنى لعلها . قال ابن جرير: وذكروا أن ذلك كذلك فى قراءة أبى بن كعب . قال: وقد ذكر عن العرب سمعاً: «أذهب إلى السوق أنك تشتري لنا شيئاً» بمعنى: لعلك تشتري . وقد اختار هذا القول ابن جرير وذكر عليه شواهد من أشعار العرب والله أعلم .

وقوله تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَٰى مَرَّةً ﴾ . قال ابن عباس فى هذه الآية: لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء وردت عن كل أمر . وقال مجاهد: ونحول بينهم وبين الإيمان ولو جاءتهم كل آية، فلا يؤمنوا ، كما حلنا بينهم وبين

(١) الطبرى (١٣٧٤٦) .

(٢) قراءة «إنها» بكسر الهمزة - هى قراءة القارئ ابن كثير وأبى عمرو ، وقرأ باقى السبعة بفتحها . وقراءة «تؤمنون» بتاء الخطاب قراءة ابن عامر وحزمة ، وبياء الغائب باقى السبعة .

الإيمان أول مرة. وكذا قال عكرمة. وعن ابن عباس أنه قال: أخبر الله ما العبادُ قائلون قبل أن يقولوه وعملهم قبل أن يعملوه. قال: ﴿ وَلَا يُبْنِيكَ مِثْلُ خَيْرٍ ﴾ [فاطر: ١٤] ، ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي حَنْبِ اللَّهِ ﴾ إلى قوله: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الزمر: ٥٦ - ٥٨] ، فأخبر سبحانه أنهم لو ردوا لم يقدروا على الهدى، وقال: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨] ، وقال: ﴿ وَنَقَلَبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَٰ مرة ﴾ قال: لو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى، كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا^(١). وقوله: ﴿ وَنَذَرَهُمْ ﴾ أى: تركهم ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ قال ابن عباس والسدى: فى كفرهم. وقال أبو العالية وقتادة: فى ضلالهم ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ قال الأعمش: يلعبون. وقال ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: فى كفرهم يترددون.

﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْتَوَكُّ وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِن أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾

الجزء
٨

يقول تعالى: ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم ﴿لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها﴾ فنزلنا عليهم الملائكة، أى: تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل، كما سألوا فقالوا: ﴿ أَوْ تَأْتِي بَالِهِ الْمَلَائِكَةُ قُبُلًا ﴾ [الإسراء: ٩٢] و﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُلَ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عَتْوًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢١] . ﴿ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى ﴾ أى: فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل ﴿ وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ﴾ - قرأ بعضهم: «قبلا» بكسر القاف وفتح الباء، من المقابلة، والمعانية. وقرأ آخرون ﴿ قُبُلًا ﴾ بضمهما^(٢) ، قيل: معناه من المقابلة والمعانية أيضا، قال ابن عباس. وبه قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال مجاهد: «قبلا»: أفواجًا، قبيلًا قبيلًا، أى: تعرض عليهم كل أمة من الأمم فتحبرهم بصدق الرسل فيما جاؤوهم به ﴿ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أى: إن الهداية إليه، لا إليهم. بل يهدى من يشاء ويضل من يشاء، وهو الفعال لما يريد، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، لعلمه وحكمته، وسلطانه وقهره وغلبته. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ ﴾ ﴿ وَلِاصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْعَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْتَضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴾

(١) رواه الطبرى عن ابن عباس (١٣٧٥٤) .

(٢) « قبلا » - بكسر القاف وفتح الباء : قراءة نافع وابن عامر . وقراءة ضمها لباقي السبعة .

يقول تعالى : كما جعلنا لك - يا محمد - أعداءً يخالفونك ، ويعادونك ويعاندونك - جعلنا لكل نبي من قبلك أيضا أعداء فلا يهيدنك ذلك (١) ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [فاطر : ٤] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوَدُّوا حَتَّىٰ أَنَا هُمْ نَصَرْنَا ﴾ [الأنعام : ٣٤] ، وقال تعالى : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَنُورٌ مَغْفِرَةٌ وَذُو عَقَابٍ أَلِيمٌ ﴾ [فصلت : ٤٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان : ٤٣] . وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ : إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي .

وقوله : ﴿ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ يدل من ﴿ عَدُوًّا ﴾ أى : لهم أعداء من شياطين الإنس والجن ، والشياطين كل من خرج عن نظيره بالشر ، ولا يعادى الرسل إلا الشياطين من هؤلاء ، قبحهم الله ولعنهم . قال قتادة فى قوله : ﴿ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ : من الجن شياطين ، ومن الإنس شياطين ، يوحى بعضهم إلى بعض ، قال قتادة : وبلغنى : أن أبا ذر كان يوما يصلى ، فقال النبى ﷺ : « تعوذت يا أبا ذر من شياطين الإنس والجن ؟ » . فقال : أو إن من الإنس لشياطين ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم » . وهذا منقطع بين قتادة وأبى ذر . وروى متصلا ، فرواه الإمام أحمد عن أبى ذر قال : أتيت النبى ﷺ وهو فى المسجد ، فجلست فقال : « يا أبا ذر ، هل صليت ؟ » . قلت : لا . قال : « قم فصل » . قال : فقممت فصليت ، ثم جلست ، فقال : « يا أبا ذر ، تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن » . قال : قلت : يا رسول الله ، وللإنس شياطين ؟ قال : « نعم » . وذكر تمام الحديث بطوله . وكذا رواه الحافظ ابن مردويه (٢) . وروى ابن أبى حاتم عن أبى أمامة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا ذر ، تعوذت من شياطين الجن والإنس ؟ » . قال : يا رسول الله ، وهل للإنس شياطين ؟ قال : « نعم » ، فقلت : يا رسول الله ، ولللإنس شياطين إلى بعضهم زخرف القول غرورا (٣) . فهذه طرق لهذا الحديث ، ومجموعها يفيد قوته وصحته ، والله أعلم . وعلى كل حال فالصحيح ما تقدم من حديث أبى ذر : إن للإنس شياطين منهم ، وشيطان كل شىء مارده ، ولهذا جاء فى صحيح مسلم ، عن أبى ذر ، أن رسول الله ﷺ قال : « الكلب الأسود شيطان » (٤) . ومعناه - والله أعلم - : شيطان فى الكلاب .

وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية : كفار الجن شياطين ، يوحون إلى شياطين الإنس ، كفار

(١) أى : لا يزعجنا ذلك . يقال : « هاده الشىء يهده هيدا وهادا » : إذا أفرعه وكربه وتقول : « ما يهدينى ذلك » أى : ما يزعجنى ولا أكثر له ولا أباليه . وغير الطابعون هذا الحرف ، فكتبوه : « فلا يحزنك ذلك ! » وهو تصرف غير جيد .

(٢) مضى بطوله عند تفسير الآية : (٢٥٥) من سورة البقرة ، وبيننا صحته وتخريجه هناك . ومضى بعضه أيضا عند الاستعاذة والآية : (١٤) ، والآيتين : (٣٥ ، ٣٦) من سورة البقرة .

(٣) هو جزء من حديث مطول ، رواه أحمد فى المسند (٥ / ٢٦٥ ، ٢٦٦ حلى) . وذكره الهيثمى بطوله فى مجمع الزوائد (١ / ١٥٩) ونسبه لأحمد والطبرانى فى الكبير ، وقال : « ومداره على على بن يزيد ، وهو ضعيف » .

(٤) من حديث مضى فى آخر الكلام فى الاستعاذة والآية : (٤) من سورة المائدة .

الإنس، زخرف القول غرورا.

وروى ابن أبي حاتم، عن عكرمة قال: قدمت على المختار فأكرمنى وأنزلنى حتى كان يتعاهد مبيتى بالليل، قال: فقال لى: اخرج فَحَدَّثَ النَّاسَ. قال: فخرجت، فجاء رجل فقال: ما تقول فى الوحى؟ فقلت: الوحى وحيان، قال الله تعالى: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣] ، وقال تعالى: ﴿شَاطِطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ قال: فهموا بى أن يأخذونى، فقلت: ما لكم ذلك، إنى مفتيكم وضيغكم. فركونى. وإنما عرَضَ عكرمة بالمختار - وهو ابن أبى عبيد - قبحه الله، وكان يزعم أنه يأتيه الوحى، وقد كانت أخته صفة تحت عبد الله بن عمر، وكانت من الصالحات، ولما أخبر عبد الله بن عمر أن المختار يزعم أنه يوحى إليه قال: صدق! قال الله تعالى: ﴿وَأِنَّ الشَّاطِطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ (١) [الأنعام: ١٢١].

وقوله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ أى: يلقي بعضهم إلى بعض القول المزين المزخرف، وهو المزوق الذى يغتر سامعه من الجهلة بأمره ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أى: وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيته أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء ﴿فَدَرَهُمْ﴾ أى: فدعهم ﴿وَمَا يَقْتَرُونَ﴾ أى: يكذبون، أى: دع أذاهم وتوكل على الله فى عداوتهم، فإن الله كافيك وناصرك عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ﴾ أى: ولتميل إليه، قاله ابن عباس ﴿أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أى: قلوبهم وعقولهم وأسماعهم. وقال السدى: قلوب الكافرين ﴿وَليرضوه﴾ أى: يحبوه ويريدوه. وإنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَأَنكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ. مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِينَ. إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: ١٦١-١٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ. يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكِّ﴾ [الذاريات: ٨، ٩]. وقوله: ﴿وَلِيَقْتَرُوا مَا هُمْ مُقْتَرُونَ﴾ قال ابن عباس: وليكتسبوا ما هم مكتسبون. وقال السدى، وابن زيد: وليعملوا ما هم عاملون.

﴿أَفغِيرَ اللَّهُ أَتَغْيَ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾
﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

يقول تعالى لنبىه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين بالله غيره، الذين يعبدون غيره: ﴿أَفغِيرَ اللَّهُ أَتَغْيَ حَكَمًا﴾ أى: بينى وبينكم ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ أى: مبينا ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أى: من اليهود والنصارى ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أى: بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ كقوله: ﴿فَإِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤] ،

(١) مضى هذا الخبر من رواية ابن أبى حاتم فى آخر الكلام فى الاستعاذة والآية: (٤) من سورة المائدة.

وهذا شرط، والشرط لا يقتضى وقوعه؛ ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أشك ولا أسأل» (١).

وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ قال قتادة: صدقا فيما وقال، وعدلا فيما حكم. يقول: صدقا فى الإخبار وعدلا فى الطلب، فكل ما أخبر به فحق لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذى لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة، كما قال: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. «لأُ مَبْدَلٌ لِكَلِمَاتِهِ» أى: ليس أحد يُعقِبُ حكمه تعالى لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوال عباده «العليم» بحركاتهم وسكناتهم، الذى يجازى كل عامل بعمله.

﴿وَلَنْ تُلَاقِيَهُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ وَإِنْ تَطَّلَعْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ نَجِدْهَا أَضْطَرَّتْ عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١٦﴾ وَإِنْ تَطَّلَعْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ نَجِدْهَا أَضْطَرَّتْ عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١٧﴾

يخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بنى آدم: أنه الضلال، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَلْبُهُمْ أَكْثَرَ الْأُولِينَ﴾ [الصفات: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] (٢)، وهم فى ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم فى ظنون كاذبة وحسبان باطل، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، فإن الخرص هو الحزر، ومنه خرص النخل، وهو حزر ما عليها من التمر وكذلك كله عن قدر الله ومشيتته ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فيسرهم لذلك ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ فيسره لذلك، وكل ميسر لما خلق له.

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِنَا مُؤْمِنِينَ﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطَرَّرْتُمُ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَلْغُلُوبِ بَأَهْوَابِهِمْ يُغَيِّرُ عَلَيْهِمْ إِنْ رَّبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٨﴾

هذا إباحة من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمه، ومفهومه: أنه لا يباح ما لم يذكر اسم الله عليه، كما كان يستبيحه كفار المشركين من أكل الميتات، وأكل ما ذبح على النصب وغيرها. ثم ندب إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه، فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا

(١) سيذكره المؤلف الحافظ عند تفسير الآية (٩٤) من سورة يونس: «قال قتادة بن دعامة: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: لا أشك ولا أسأل». وكذلك ذكره السيوط (٣ / ٣١٧) عن قتادة، ونسبه لعبد الرزاق وابن جرير. وأقوى منه وأثبت ما ذكره السيوطى عن ابن عباس، قال: «لم يشك رسول الله ﷺ ولم يسأل». ونسبه لابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والضياء فى المختارة.

(٢) هذه الآيات وما فى معناها تدفع بالبطلان نوع الحكم الذى يخدعون به الناس ويسمونهم «الديمقراطية»، إذ هى حكم الأكثرية الموسومة بالضلال، هى حكم الدهماء والغوغاء.

مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴿١﴾ أى: قد بين لكم ما حرم عليكم ووضحه. وقرأ بعضهم: ﴿فَصَّل﴾ بالتشديد، وقرأ آخرون بالتخفيف (١) ، والكل بمعنى البيان والوضوح. ﴿إِلَّا مَا اضْطُرُّرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ أى: إلا فى حالة الاضطرار، فإنه يباح لكم ما وجدتم. ثم بين جهالة المشركين فى آرائهم الفاسدة من استحلالهم الميتات، وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى: فقال ﴿وَأَنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ أى: هو أعلم باعتدائهم وكذبهم وافتراءهم.

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

قال مجاهد: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾: معصيته فى السر والعلانية ، وفى رواية عنه : هو ما ينوى مما هو عامل. وقال قتادة: قليله وكثيره، سره وعلانيته . وقال السدى: ظاهره: الزنا مع البغايا ذوات الرايات، وباطنه: الزنا مع الخليفة والصدائق والأخذان . وقال عكرمة: ظاهره: نكاح ذوات المحارم . والصحيح أن الآية عامة فى ذلك كله ، وهى كقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ الآية [الاعراف: ٣٣]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى: سواء كان ظاهراً أو خفياً، فإن الله سيجزيهم عليه.

روى ابن أبى حاتم عن النواس بن سمعان قال: سألت رسول الله ﷺ عن الإثم فقال: «الإثم ما حاك فى صدرك، وكرهت أن يطلع الناس عليه» (٢) .

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكُمْ أَوْلِيَاءَهُمْ لِيُجَدِّدُوا لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾

استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها، ولو كان الذابح مسلماً، وقد اختلف الأئمة، رحمهم الله ، فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال:

فمنهم من قال: لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة، وسواء متروك التسمية عمداً وسهواً. وهو مروى عن ابن عمر، ونافع مولاة، والشعبى، وابن سيرين. وهو رواية عن مالك، ورواية عن أحمد بن حنبل نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين، وهو اختيار أبى ثور، وداود الظاهرى، واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية، ويقولون فى آية الصيد: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَسْكَنَ عَلَيْكُمْ

(١) لعل الحافظ ابن كثير وهم وانتقل نظره فى حكاية القراءتين فى قوله « فصل » . فإن قراءة « فصل » بفتح الفاء والصاد مخففة - قراءة شاذة ، لم تحك إلا عن عطية العوفى - وهو ضعيف - حكاها عنه الطبرى (١٢ / ٧٠) ، وردها ، وكذلك حكاها عنه أبو حيان فى البحر (٤ / ٢١١) ثم هى ليست بمعنى بين واضح . بل فسرها الطبرى « بمعنى وقد أتاكم حكم الله فيما حرم عليكم » . وأما القراءات المعروفة فى هذه الآية ، فهى ثلاث قراءات : فقرأ نافع وحفص وأبو جعفر ويعقوب : « فصل » و « حرم » بفتح أولهما بالبناء للفاعل . وقرأهما ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر بضم أولهما بالبناء للمفعول . وقرأهما أبو بكر وحزمة والكسائى وخلف ببناء « فصل » للفاعل و « حرم » للمفعول - كل ذلك مع تشديد الصاد من « فصل » .

(٢) هو جزء من حديث رواه مسلم (٢ / ٢٧٧) . وكذلك رواه أحمد فى المسند (١٧٧٠٨ ، ١٧٧٠٩) .

وَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴿المائدة: ٤﴾. ثم قد أكد في هذه الآية بقوله: ﴿وَأِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾. والضمير قيل: عائد على الأكل، وقيل: عائد على الذبح لغير الله، وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد، كحديثى عدى بن حاتم وأبى ثعلبة: «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك». وهما فى الصحيحين (١)، وحديث رافع بن خديج: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه». وهو فى الصحيحين أيضاً (٢)، وحديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال للجن: «لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه». رواه مسلم. وحديث جندب بن سفيان البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «من ذبح قبل أن يصلى فليذبح مكانها أخرى، ومن لم يكن ذبح حتى صلينا فليذبح باسم الله». وعن عائشة: أن ناسا قالوا: يا رسول الله، إن قوما يأتوننا باللحم لا ندرى: أذكر اسم الله عليه أم لا؟ قال: «سموا عليه أنتم وكلوا». قالت: وكانوا حديثى عهد بالكفر. رواه البخارى (٣). ووجه الدلالة: أنهم فهموا أن التسمية لا بد منها، وخشوا ألا تكون وجدت من أولئك، لحداثة إسلامهم، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل، لتكون كالمعوض عن المتروكة عند الذبح إن لم تكن وجدت، وأمرهم بإجراء أحكام المسلمين على السداد، والله أعلم.

والمذهب الثانى فى المسألة: أنه لا يشترط التسمية، بل هى مستحبة، فإن تَرَكْتُمْ عَمْدًا أو نسيانًا لم تضر. وهذا مذهب الإمام الشافعى وجميع أصحابه، ورواية عن الإمام أحمد. نقلها عنه حنبل. وهو رواية عن الإمام مالك، ونص على ذلك أشهب بن عبد العزيز من أصحابه، وحكى عن ابن عباس، وأبى هريرة، وعطاء بن أبى رباح، والله أعلم. وحمل الشافعى الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ على ما ذبح لغير الله، كقوله تعالى: ﴿أَوْ فَسَقًا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥]. وقال عطاء: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قال: ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش عن الأوثان، وينهى عن ذبائح الجوس، وهذا المسلك الذى طرقه الإمام الشافعى قوى، وقد حاول بعض المتأخرين أن يقويه بأن جعل «الواو» فى قوله: ﴿وَأِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ حالية، أى: لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه فى حال كونه فسقا، ولا يكون فسقا حتى يكون قد أهل به لغير الله! ثم ادعى أن هذا متعين، ولا يجوز أن تكون «الواو» عاطفة. لأنه يلزم منه عطف جملة إسمية خبرية على جملة فعلية طلبية! وهذا ينتقض عليه بقوله: ﴿وَأَنَّ الشَّيَاطِينَ يُؤْحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾. فإنها عاطفة لا محالة، فإن كانت «الواو» التى ادعى أنها حالية صحيحة على ما قال؛ امتنع عطف هذه عليها، فإن عطف على الطلبية ورد عليه ما أورد على غيره، وإن لم تكن «الواو» حالية، بطل ما قال من أصله، والله أعلم.

(٢) أما حديث عدى بن حاتم فهو فى الصحيحين. وقد مضى مطولا عند تفسير الآية: (٤) من سورة البقرة. وأما حديث أبى ثعلبة فليس بهذا اللفظ، وليس فى الصحيحين، بل رواه أبو داود (٢٨٥٢). وقد مضى عند تفسير الآية: (٤) من سورة البقرة.

(٣) من حديث مضى عند تفسير الآية: (٣) من سورة المائدة.

(٤) مضى عند تفسير الآية: (٤) من سورة المائدة. وهو فى البخارى بنحوه (٤/٢٥٢، و٩/٥٤٦، و٥٤٧ فتح).

المذهب الثالث فى المسألة: أنه إن ترك البسملة على الذبيحة نسياناً لم يضر، وإن تركها عمداً لم تحل . هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك، والإمام أحمد بن حنبل، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه، وإسحاق بن راهويه . وهو محكى عن على، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعطاء، وطاوس، والحسن البصرى ، وغيرهم . ونقل الإمام أبو الحسن المرغينانى فى كتابه «الهداية» الإجماع قبل الشافعى على تحريم متروك التسمية عمداً، فلهذا قال أبو يوسف والمشايع: لو حكم حاكم بجواز بيعه لم ينفذ لمخالفة الإجماع ! وهذا الذى قاله غريب جداً !! وقد تقدم نقل الخلاف عن قبل الشافعى، والله أعلم. قال ابن جرير: وقد اختلف أهل العلم فى هذه الآية: هل نسخ من حكمها شيء أم لا؟ فقال بعضهم: لم ينسخ منها شيء وهى محكمة فيما عُنيت به . وعلى هذا قول عامة أهل العلم. وروى عن الحسن البصرى وعكرمة. ما حدثنا به ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، عن الحسين بن واقد، عن الحسن البصرى وعكرمة أنهما قالا: قال الله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾، وقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ فنسخ واستثنى من ذلك فقال: ﴿وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ [المائدة:٥]. ثم قال ابن جرير: والصواب أنه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب، وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه . وهذا الذى قاله صحيح، من أطلق من السلف النسخ ههنا فإنما أراد التخصيص، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ روى ابن أبى حاتم عن أبى إسحاق قال: قال رجل لابن عمر: إن المختار يزعم أنه يوحى إليه؟ قال: صدق، وتلا هذه الآية: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ . وروى عن أبى زميل قال: كنت قاعداً عند ابن عباس، وحج المختار بن أبى عبيد، فجاءه رجل فقال: يا ابن عباس، زعم أبو إسحاق أنه أوحى إليه الليلة؟ فقال ابن عباس: صدق !! فنفر وقلت: يقول ابن عباس: صدق !! فقال ابن عباس: هما وحيان، وحى الله، وحى الشيطان، فوحى الله إلى محمد ﷺ، ووحى الشيطان إلى أوليائه، ثم قرأ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ (١). وقد تقدم عن عكرمة نحو هذا (٢). وقوله: ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ روى أبو داود عن ابن عباس قال: جاءت اليهود إلى النبى ﷺ فقالوا: نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ . وكذا رواه ابن جرير، والبخاري (٣). وهذا فيه نظر من وجوه ثلاثة:

أحدها: أن اليهود لا يرون إباحة الميتة حتى يجادلوا.

الثانى: أن الآية من الأنعام، وهى مكية.

(١) خبر أبى زميل عن ابن عباس، رواه الطبرانى أيضا (١٣٨٣٢). و «المختار بن أبى عبيد»: متنبئ كذاب وقح. قتله مصعب بن الزبير سنة ٦٧ من الهجرة.
 (٢) مضى عند تفسير الآيتين: (١١٣، ١١٤) من سورة الأنعام.
 (٣) الطبرى (١٣٨٢٥). وتمة التخرىج فيه (١٢ / ٥٨٥، ٥٨٦).

الثالث: أن هذا الحديث رواه الترمذى بلفظ: أتى ناسُ النبي ﷺ فذكروه وقال: حسن غريب، وروى عن سعيد بن جبير مرسلاً .

وروى الطبرانى عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أرسلت فارس إلى قريش: أن خاصموا محمداً وقولوا له: فَمَا تَذْبَحُ أَنْتَ بِيَدِكَ بِسَكِينٍ فَهُوَ حَلَالٌ، وما ذبح الله، عز وجل، بشمشير من ذهب - يعنى الميتة - فهو حرام؟ فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ قال: وإن الشياطين من فارس، وأولياؤهم قريش (٣) . وقال أبو داود: حدثنا محمد ابن كثير، أخبرنا إسرائيل، حدثنا سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ يقولون: ما ذبح الله فلا تأكلوه . وما ذبحتم أنتم فكلوه ! فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ . ورواه ابن ماجه وابن أبى حاتم وإسناده صحيح . ورواه ابن جرير من طرق متعددة، عن ابن عباس، وليس فيه ذكر اليهود، فهذا هو المحفوظ ، والله أعلم .

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَطْعَمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أى: حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره، فقدتم عليه غيره ، فهذا هو الشرك، كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ٣١] . وقد روى الترمذى فى تفسيرها، عن عدى بن حاتم أنه قال: يا رسول الله، ما عبدوهم، فقال: «بل إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم .»

﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذى كان ميثا، أى: فى الضلالة، هالكا حائرا، فأحياه الله، أى: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له ووفقه لاتباع زسله ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ أى: يهتدى كيف يسلك، وكيف يتصرف به . والنور هو: القرآن، كما قال ابن عباس . وقال السدى: الإسلام . والكل صحيح . ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ أى: الجهالات والأهواء والضلالات المنفرقة ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ أى: لا يهتدى إلى منفذ ، ولا مخلص مما هو فيه، وفى مسند الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله خلق خلقه فى ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل» (٢) . كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ

(١) إسناده عند الطبرانى إسناده صحيح . وكذلك رواه الطبرى (١٣٨٠٥) من هذا الوجه، وفيه: «بشمشار» . وكتب هنا بهامش المخطوطة العتيقة: « فى تفسير ابن جرير: بشمشار من ذهب » وتحته وعليها علامة أنها حاشية « والشمشير: السكين، بالفارسية » .

(٢) هو جزء من حديث طويل، فى المسند (٦٦٤٤) بإسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو . وفى لفظه: « ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ » . ورواه مرة أخرى من المراجع التى أشرنا إليها فى التخرىج فى الموضعين كلمة « رش » ! والظاهر أن الحافظ ابن كثير ذكره بالمعنى من حفظه .

إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿البقرة: ٢٥٧﴾. قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مَكْبًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿الملك: ٢٢﴾، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿هود: ٢٤﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ . وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ . وَلَا الظُّلُ وَلَا الْحُرُورُ . وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ . إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿فاطر: ١٩-٢٣﴾. والآيات في هذا كثيرة، ووجه المناسبة في ضرب المثلين ههنا بالنور والظلمات، لما تقدم في أول السورة: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١١] . وزعم بعضهم أن المراد بهذا المثل رجلان معينان، والصحيح أن الآية عامة، يدخل فيها كل مؤمن وكافر .

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: حسن لهم ما كانوا فيه من الجهالة والضلالة، قدرا من الله وحكمة بالغة، لا إله إلا هو .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُّجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

يقول تعالى: وكما جعلنا في قريتك - يا محمد - أكبر من المجرمين، ورؤوساً ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله، وإلى مخالفتك وعداوتك، كذلك كانت الرسل من قبلك يبتلون بذلك، ثم تكون لهم العاقبة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿الفرقان: ٣١﴾ ، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿الإسراء: ١٦﴾ ، قيل: معناه: أمرناهم بالطاعات، فخالفوا، فدمرناهم. وقيل: أمرناهم أمراً قديراً، كما قال ههنا: ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ . قال ابن عباس: ﴿أَكْبَرُ مُّجْرِمِيهَا﴾ قال: سلطنا شرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب. وقال مجاهد وقتادة: ﴿أَكْبَرُ مُّجْرِمِيهَا﴾ قال: عظمائها. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿سبا: ٣٤ ، ٣٥﴾، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿الزخرف: ٢٣﴾ .

والمراد بالمكر ههنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال، كما قال تعالى إخباراً عن قوم نوح: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ [نوح: ٢٢] ، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنْحَنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُّجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرَأُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿سبا: ٣١ - ٣٣﴾ .

وقوله: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أى: وما يعود وبال مكرهم ذلك وإضلالهم

من أضلوه إلا على أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] ، وقال: ﴿وَمِنَ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أى: إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة، قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أى: حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة، كما تأتى إلى الرسل، كقوله، جل وعلا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ﴾ أى: هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ. أَهُم يَظُنُّونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ الآية [الزخرف: ٣١، ٣٢] يعنون: لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير مبجل فى أعينهم ﴿مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾ أى: مكة والطائف. وذلك لأنهم - قبحهم الله - كانوا يزدرون بالرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بغياً وحسداً، وعناداً واستكباراً، كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَإِذَا رَأَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذُكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذُكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ يَرْسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. هذا، وهم معترفون بفضله وشرفه ونسبه، وطهارة بيته ومرياه ومنشئه، حتى إنهم إنما كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه: «الأمين»، وقد اعترف بذلك رئيس الكفار «أبو سفيان» حين سأله «هرقل» ملك الروم: كيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب. قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، الحديث بطوله الذى استدل به ملك الروم بطهارة صفاته، عليه السلام، على صدقه ونبوته وصحة ما جاء به.

وروى الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة، واصطفى من بنى كنانة قريشا، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفاني من بنى هاشم». انفرد بإخراجه مسلم نحوه (١). وفى صحيح البخارى، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قُرُونًا فَقَرْنَا، حَتَّى بَعِثْتُ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ» (٢). وروى الإمام أحمد عن المطلب بن أبى وداعة قال: قال العباس: بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس، فصعد المنبر فقال: «من أنا؟». قالوا: أنت رسول الله. فقال: «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه، وجعلهم فريقين، فجعلنى فى خير فرقة، وخلق القبائل فجعلنى فى خير قبيلة. وجعلهم بيوتا فجعلنى فى خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً» (٣).

صدق صلوات الله وسلامه عليه. وفى الحديث أيضا المروى عن عائشة، قالت: قال رسول الله

(١) المسند (١٧٠٥٤) ومسلم (٢ / ٢٠٣ بولاق). (٢) البخارى (٦ / ٤١٨ فتح).

(٣) المسند (١٧٨٨). وإسناده صحيح. ورواه الترمذى (٤ / ٢٩٢، ٢٩٣).

ﷺ: «قال لى جبريل: قلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلاً أفضل من محمد، وقلبتُ الأرضُ مشارقها ومغاربها فلم أجد بنى أب أفضل من بنى هاشم». رواه الحاكم والبيهقى (١).

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: إن الله نظر فى قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعته برسالته. ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأى المسلمون سيئاً فهو عند الله سيئ (٢). وروى ابن أبى حاتم عن ابن أبى حسين قال: أبصر رجل ابن عباس وهو داخل من باب المسجد، فلما نظر إليه راعه، فقال: من هذا؟ قالوا: ابن عباس ابن عم رسول الله ﷺ. فقال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتَهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد، لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاؤوا به، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله ﴿صَغَارٌ﴾ وهو الذلة الدائمة، كما أنهم استكبروا أعقبهم ذلك ذلاً كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [عافر: ٦٠]. أى: صاغرين ذليلين حقيرين. وقوله: ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ لما كان المكر غالباً إنما يكون خفياً، وهو التلطف فى التحيل والخديعة، قوبلوا بالعذاب الشديد جزاء وفاقا ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] أى: تظهر المستترات والمكنونات والضمائر. وجاء فى الصحيحين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لُؤَاءٌ عِنْدَ اسْتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ ابْنِ فُلَانٍ» (٣). والحكمة فى هذا: أنه لما كان الغدر خفياً لا يطلع عليه الناس، فيوم القيامة يصير علماً منشوراً على صاحبه بما فعل.

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا

يُؤْمِنُونَ ﴿١١٥﴾

يقول تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ أى: ييسره له وينشطه ويسهله

(١) إطلاقه النسبة إلى الحاكم يوهم أنه فى المستدرک، ولم أجد فيه. ونسبه السيوطى فى الجامع الصغير للحاكم فى الكنى وابن عساکر. وليس بين يدي إسناده حتى أعرف درجته. وذكره الهيثمى فى الزوائد (٢١٧/٨) وقال: «رواه الطبرانى فى الأوسط، وفيه موسى بن عبيدة الزيدى، وهو ضعيف». ونقل المناوى فى شرح الجامع الصغير أنه رواه أحمد فى المنائب والطبرانى والبيهقى وغيرهم، وقال: «قال ابن حجر فى أماليه: لوائح الصحة ظاهرة على صفحات هذا المتن!» وما هذا بقول يقبل فى تصحيح حديث، وما هو من باب كلام أهل العلم بالحديث.

(٢) المسند (٣٦٠). وإسناده صحيح.

(٣) هو فى المسند (٤٦٤٨) بنحوه من حديث ابن عمر. وانظر البخارى (١٣ / ٦٠، ٦١ فتح) وصحيح مسلم (٢ / ٤٧).

لذلك، فهذه علامات على الخير، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]. قال ابن عباس: ﴿فَمَنْ يَرِدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ يقول: يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به، وكذا قال غير واحد. وهو ظاهر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ قرئ بفتح الضاد وتسكين الباء، والأكثر: ﴿ضَيِّقًا﴾ بتشديد الباء وكسرها، وهما لغتان: كهَيْنَ وهَيْنَ. وقرأ بعضهم: ﴿حَرَجًا﴾ بفتح الحاء وكسر الراء، قيل: بمعنى آثم. قاله السدي. وقيل: بمعنى القراءة الأخرى ﴿حَرَجًا﴾ بفتح الحاء والراء، وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى، ولا يخلص إليه شيء ما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه. وقد سأل عمر بن الخطاب رجلا من الأعراب من أهل البادية من مدليج: ما الحرَجَة؟ فقال: هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية، ولا وحشية، ولا شيء. فقال عمر: كذلك قلب المنافق، لا يصل إليه شيء من الخير. وقال ابن جرير: ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ بلا إله إلا الله، حتى لا يستطيع أن يدخله، كأنما يصعد في السماء من شدة ذلك عليه. وقال عطاء الخراساني: ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ ويقول: مثله كمثل الذي لا يستطيع أن يصعد إلى السماء. وقال ابن عباس: ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ ويقول: فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، فكذلك لا يقدر أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه، حتى يدخله الله قلبه.

وقال ابن جرير: وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة تضيقه إياه عن دخول الإيمان إليه. يقول: فمثله في امتناعه من قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه، مثل امتناعه من الصعود إلى السماء وعجزه عنه؛ لأنه ليس في وسعه وطاقته. وقال في قوله: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يقول: كما يجعل الله صدر من أراد ضلاله ضيقا حرجا، كذلك يسلب الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله، فيغويه ويصده عن سبيل الله. وقال ابن عباس: الرجس: الشيطان. وقال مجاهد: الرجس: كل ما لا خير فيه. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرجس: العذاب.

﴿ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ ﴿١٢٦﴾ ﴿ هَلَمْ دَارٌ رَّبِيعِ ﴾
﴿ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٢٧﴾

لما ذكر تعالى طريق الضالين عن سبيله، الصادين عنها - نبه على شرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق، فقال: ﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ منصوب على الحال، أى: هذا الدين الذى شرعناه لك يا محمد بما أوحينا إليك هذا القرآن هو صراط الله المستقيم، كما تقدم فى حديث الحارث، عن على فى نعت القرآن: «هو صراط الله المستقيم، وحبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم». رواه أحمد والترمذى بطوله. ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أى: وضحناها وبينناها وفسرناها

﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أى: لمن له فهم ووعى يعقل عن الله ورسوله. ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ وهى: الجنة، ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أى: يوم القيامة. وإنما وصف الله الجنة ههنا بدار السلام، لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم، المكتفى أثر الأنبياء وطرائقهم، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام. ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ أى: حافظهم وناصرهم ومؤيدهم ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: جزاء على أعمالهم الصالحة تولاهم وأثابهم الجنة، بمنته وكرمه.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى: واذكر يا محمد فيما تقصه عليهم وتذكرهم به ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يعنى: الجن وأولياءهم، الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا، ويعوذون بهم ويطيعونهم، ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أى: ثم يقول: يا معشر الجن. وسياق الكلام يدل على المحذوف.

ومعنى قوله: ﴿قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أى: من إضلالهم وإغوائهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلُّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢]. وقال ابن عباس: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ يعنى: أضللتهم منهم كثيرا. وكذلك قال مجاهد، والحسن، وقتادة.

﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ يعنى: أن أولياء الجن من الإنس قالوا مجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا. وقال ابن جرير: كان الرجل فى الجاهلية ينزل الأرض، فيقول: أعوذ بكبير هذا الوادى! فذلك استمتاعهم، فاعتذروا يوم القيامة. وأما استمتاع الجن بالإنس فإنه كان - فيما ذكر - ما ينال الجن من الإنس من تعظيمهم إياهم فى استعانتهم بهم، فيقولون: قد سدنا الإنس والجن. ﴿وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا﴾ قال السدى، أى الموت ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ أى: ماواكم ومنزلكم أنتم وأولياؤكم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكنين فيها مكثا مخلدا ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾. قال بعضهم: يرجع معنى هذا الاستثناء إلى البرزخ. وقال بعضهم: هذا رد إلى مدة الدنيا. وقيل غير ذلك من الأقوال التى سيأتى تقريرها عند قوله تعالى فى سورة هود: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [الآية: ١٠٧]. وقد روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ قال: إن هذه الآية آية لا ينبغى لأحد أن يحكم على الله فى خلقه، لا ينزلهم جنة ولا ناراً.

﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَيِّدُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

قال سعيد، عن قتادة فى تفسيرها: إنما يولى الله بين الناس بأعمالهم، فالمؤمن ولى المؤمن

أين كان وحيث كان، والكافر ولى الكافر أينما كان وحيثما كان، ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى. واختار هذا القول ابن جرير. وقال قتادة فى تفسيرها: يولى الله بعض الظالمين بعضا فى النار، يتبع بعضهم بعضا. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿كَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ قال: ظالمى الجن وظالمى الإنس، وقرأ: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] ، قال: ونسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس .

ومعنى الآية الكريمة: كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التى أغوتهم من الجن، كذلك نفعل بالظالمين، نسلط بعضهم على بعض، ونهلك بعضهم ببعض، وننتقم من بعضهم ببعض، جزاء على ظلمهم وبغيهم.

﴿يَمَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَفْضُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُذَرُّوكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾

وهذا أيضا مما يُقرع الله - سبحانه وتعالى - به كافرى الجن والإنس يوم القيامة، حيث يسألهم - وهو أعلم : هل بلغتهم الرسل رسالاته؟ وهذا استفهامٌ تقريرى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ أى : من جملتكم . والرسل من الإنس فقط، وليس من الجن رسل، كما نص على ذلك مجاهد، وابن جرير، وغير واحد من الأئمة، من السلف والخلف. وقال ابن عباس: الرسل من بنى آدم، ومن الجن نذُر. وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم: أنه زعم أن فى الجن رسلا، واحتج بهذه الآية الكريمة وفيه نظر؛ لأنها محتملة وليست بصريحة، وهى - والله أعلم - كقوله ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ أى : المالح والحلو ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ إلى أن قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ١٩- ٢٢]، ومعلوم أن اللؤلؤ والمرجان إنما يستخرجان من الملح لا من الحلو. وهذا واضح، والله الحمد. وقد نص على هذا الجواب بعينه ابن جرير .

والدليل على أن الرسل إنما هم من الإنس قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إلى قوله: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٥] ، وقال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم فى ذريته، ولم يقل أحد من الناس: إن النبوة كانت فى الجن قبل إبراهيم الخليل، ثم انقطعت عنهم ببعثته. وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩]، ومعلوم أن الجن تبع للإنس فى هذا الباب؛ ولهذا قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصُرُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ. قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ. يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ. وَمَنْ لَّا يَجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الاحقاف: ٢٩-٣٢]. وقد جاء فى الحديث

- الذي رواه الترمذى وغيره - أن رسول الله ﷺ تلا عليهم سورة الرحمن، وفيها قوله تعالى :
﴿ سَنَفِرُ لَكُمْ أَيُّهَا الْفُلَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الآيتان : ٣١ ، ٣٢] (١) .

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا ﴾ أى : أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك، وأنذرونا لقاءك، وأن هذا اليوم كائن لا محالة . قال تعالى : ﴿ وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى : وقد فرطوا فى حياتهم الدنيا، وهلكوا فيها بتكذيبهم الرسل، ومخالفتهم المعجزات، لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها ﴿ وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ أى : فى الدنيا، بما جاءتهم به الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم .

﴿ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكًا الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكًا الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ أى : إنما أعددنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب، لئلا يعاقب أحداً بظلمه، وهو لم تبلغه دعوة، ولكن أعددنا إلى الأمم، وما عذبنا أحداً إلا بعد إرسال الرسل إليهم، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : ٢٤]، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦]، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥]، وقال تعالى : ﴿ كَلَّمَا أَنفِئِي فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا ﴾ [الملك : ٨ ، ٩] والآيات فى هذا كثيرة . قال الإمام أبو جعفر بن جرير : ويحتمل قوله تعالى : ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ وجهين :

أحدهما : ذلك من أجل أن ربك لم يكن ليهلك القرى بظلم أهلها بالشرك ونحوه، وهم غافلون، يقول : لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم رسولا بينهم على حجج الله عليهم، وينذرهم عذاب الله يوم معادهم، ولم يكن بالذى يؤاخذهم غفلة فيقولوا : ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾ [المائدة : ١٩] .

والوجه الثانى : ﴿ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكًا الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ ﴾ يقول : لم يكن ليهلككم دون التنبيه والتذكير بالرسول والآيات والعبر، فيظلمهم بذلك، والله غير ظلام لعبيده . ثم شرع يرجح الوجه الأول، ولا شك أنه أقوى، والله أعلم .

وقال : وقوله : ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ أى : ولكل عامل من طاعة الله أو معصيته منازل

(١) الترمذى (٤ / ١٩١ ، ١٩٢) من حديث جابر ، قال : « خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ، فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها ، فسكتوا ، فقال : لقد قرأتها على الجن ليلة الجن ، فكانوا أحسن مردودصا منكم ، كنت كلما أتيت على قوله ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ - قالوا : لا بشيء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد . قال الترمذى : « هذا حديث غريب » . ورواه الحاكم (٤ / ٤٧٣) وقال : « صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه » . ووافقه الذهبى .

ومراتب من عمله يبلغه الله إياها، ويثيبه بها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. قلت: ويحتمل أن يعود قوله: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمَلُوا﴾ أى: من كافر الجن والإنس، أى: ولكل درجة فى النار بحسبه، كقوله: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضَعْفٍ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ قال ابن جرير: أى وكل ذلك من عملهم، يا محمد، بعلم من ربك، يحصيها ويثبتها لهم عنده، ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ومعادهم إليه.

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ مَا تُوْعَدُونَ لَأَتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٧﴾ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ تَكْوُنٍ لَّهُ عَاقِبَةٌ الدَّارِ الَّتِي لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿الغني﴾ أى: عن جميع خلقه من جميع الوجوه، وهم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم، ﴿ذو الرحمة﴾ أى: وهو مع ذلك رحيم بهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]. ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أى: إذا خالفتكم أمره، ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ أى: قوما آخرين، أى: يعملون بطاعته ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ أى: هو قادر على ذلك، سهل عليه، يسير لديه، كما أذهب القرون الأولى وأتى بالذى بعده، كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿يَأْيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥-١٧]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]. وروى ابن إسحاق، عن أبيان بن عثمان قال: الذرية: الأصل، والذرية: النسل. وقوله تعالى: ﴿إِنْ مَا تُوْعَدُونَ لَأَتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أى: أخبرهم يا محمد أن الذى توعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أى: لا تعجزون الله، بل هو قادر على إعادتكم، وإن صرتم تراباً ورفاتاً وعظاماً، هو قادر لا يعجزه شىء.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ هذا تهديد، أى: استمروا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى، فانا مستمر على طريقتى ومنهجى، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ . وَانظُرُوا إِنَّا مُنظَرُونَ﴾ [هود: ١٢١]، [١٢٢]. قال ابن عباس: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أى: ناحيتكم. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ تَكْوُنٍ لَّهُ عَاقِبَةٌ الدَّارِ الَّتِي لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أى: أنكون لى أو لكم. وقد أمجز موعوده لرسوله، صلوات الله عليه، فإنه تعالى مكن له فى البلاد، وحكمه فى نواصى مخالفيه من العباد، وفتح له مكة، وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناواه، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب، وكذلك اليمن والبحرين، وكل ذلك فى حياته. ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته فى أيام خلفائه، رضى الله

عنهم ، كما قال تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ [المجادلة: ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذرتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: ٥١ ، ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] ، وقال تعالى إخباراً عن رسوله : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَتُسَكِّنَنَّ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١٣ ، ١٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ الآية [النور: ٥٥] ، وقد فعل الله ذلك بهذه الأمة ، وله الحمد والمنة أولاً وآخراً ، باطنًا وظاهرًا .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعًا وكفرًا وشركًا ، وجعلوا لله جزءًا من خلقه ، وهو خالق كل شيء سبحانه وتعالى عما يشركون ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ ﴾ أى : بما خلق وبرأ ﴿ مِنَ الْحَرْثِ ﴾ أى : من الزروع والثمار ﴿ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾ أى : جزءًا وقسمًا ﴿ فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ﴾ .

وقوله : ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ ﴾ قال ابن عباس فى تفسير هذه الآية : إن أعداء الله كانوا إذا احترثوا حرثًا ، أو كانت لهم ثمرة ، جعلوا لله منه جزءًا وللوثن جزءًا ، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه . وإن سقط منه شيء فيما سموه للصدم رده إلى ما جعلوه للوثن . وإن سبقهم الماء الذى جعلوه للوثن ، فسقى شيئًا جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن . وإن سقط شيء من الحرث والثمرة التى جعلوها لله ، فاختلط بالذى جعلوه للوثن ، قالوا : هذا فقير ! ولم يردوه إلى ما جعلوا لله . وإن سبقهم الماء الذى جعلوا لله ، فسقى ما سُمى للوثن تركوه للوثن ، وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، فيجعلونه للأوثان ، ويزعمون أنهم يحرمونه لله ، فقال الله ، عز وجل : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾ الآية . وهكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والسدى ، وغير واحد . ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى : ساء ما يقسمون ، فإنهم أخطؤوا أولاً فى القسمة ، لأن الله تعالى هو رب كل شيء ومليكه وخالقه ، وله الملك ، وكل شيء له وفى تصرفه وتحت قدرته ومشيتته ، لا إله غيره ، ولا رب سواه .

ثم لما قسموا فيما زعموا لم يحفظوا القسمة ، بل جاروا فيها ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل: ٥٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾ [الزخرف: ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ أَلَكُمُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ [النجم: ٢١ ، ٢٢] .

﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ
شُرَكَاءَهُمْ لِيُرِدُّوهُمْ وَلَيْسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ
وَمَا يَفْقَرُونَ ﴾ ﴿١٣٧﴾

يقول تعالى: وكما زينت الشياطين لهؤلاء أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق، وواد البنات خشية العار. قال ابن عباس: زينوا قتل أولادهم . وقال مجاهد: ﴿شُرَكَاءَهُمْ﴾: شياطينهم، يأمرونهم أن يئدوا أولادهم خشية العيلة. وقال السدي: أمرتهم الشياطين أن يقتلوا البنات. وأما ﴿لِيُرِدُّوهُمْ﴾ فيهلكوهم، وأما ﴿لَيْسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أى: فيخطئوا عليهم دينهم. ونحو ذلك قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقاتدة . وهذا كقولته تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ. يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩]. وقد كانوا أيضا يقتلون الأولاد من الإملاق، وهو: الفقر، أو خشية الإملاق أن يحصل لهم فى ثانى الحال ، وقد نهاهم عن قتل أولادهم لذلك ، وإنما كان هذا كله من شرع الشيطان وتزيينه لهم ذلك .

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أى: كل هذا واقع بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كونًا، وله الحكمة التامة فى ذلك، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون . ﴿فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْقَرُونَ﴾ أى: فدعهم واجتنبهم وما هم فيه، فسبحكم الله بينك وبينهم.

﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنفُسُ حَجَرٍ لَّهَا بَطْنٌ وَإِلَّا مَن نَّشَاءُ بِرِزْقِهِمْ
وَأَنفُسُ حَرَمَتٍ ظُهُورُهَا وَأَنفُسُ لَّا يَذْكُرُونَ أَسَمَ اللَّهُ عَلَيْهَا اقْتِرَاءَ عَلَيْهِ سِجِّيزِهِمْ بِمَا
كَانُوا يَفْقَرُونَ ﴾ ﴿١٣٨﴾

قال ابن عباس: «الحجر»: الحرام، مما حرّموا الوصيلة، وتحريم ما حرّموا. وكذلك قال مجاهد، وقاتدة، وغيرهما. وقال السدي: ﴿لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِرِزْقِهِمْ﴾ يقولون: حرام أن نطعم إلا من شئنا. وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدْنَىٰ لَكُمْ أَمْ عَلَىٰ اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، وكقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَآكَرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]. وقال مجاهد: كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها ولا فى شىء من شأنها، لا إن ركبوا، ولا إن حلبوا، ولا إن حملوا، ولا إن نتجوا، ولا إن عملوا شيئا . ﴿اقْتِرَاءَ عَلَيْهِ﴾ أى: على الله، وكذبا منهم فى إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعته؛ فإنه لم يأذن لهم فى ذلك ولا رضىه منهم ، ﴿سِجِّيزِهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْقَرُونَ﴾ أى: عليه، ويُسندون إليه .

﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَمُحَرَّمٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَإِنْ كَانَ مِنَ لَدُنْهِمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾

قال ابن عباس: ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قال: اللبن، كانوا يحرمونه على إناثهم، ويشربه ذكراهم. وكانت الشاة إذ ولدت ذكراً ذبحوه، وكان للرجال دون النساء. وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء. ففيه الله عن ذلك. وقال مجاهد في قوله: ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفِهِمْ ﴾ أى: قولهم الكذب فى ذلك، يعنى كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتَكُمُ الْكُذْبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ الآية [النحل: ١١٦، ١١٧]. ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ ﴾ أى: فى أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأعمال عباده من خير وشر، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء.

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ ﴿١٤٠﴾

يقول تعالى: قد خسر الذين صنعوا هذه الأفاعيل فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم، وضيقوا عليهم فى أموالهم، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وأما فى الآخرة فيصيرون إلى شر المنازل بكذبهم على الله وافتراءهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠]. وروى ابن مردويه عن ابن عباس، قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرا ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام، ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾. وهكذا رواه البخارى منفرداً (١).

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَاتَ مُتَشَكِّبًا وَغَيْرَ مُتَشَكِّبٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ ﴿١٤١﴾

يقول تعالى بيانا لأنه الخالق لكل شيء، من الزروع والثمار والأنعام التى تصرف فيها المشركون بأرائهم الفاسدة وقسموها وجزؤوها، فجعلوا منها حراماً وحلالاً، فقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾. قال عطاء الخرساني، عن ابن عباس: ﴿ مَعْرُوشَاتٍ ﴾: ما عرش

من الكرم **﴿وَعَبَّرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾** : ما لم يعرش من الكرم . وكذا قال السدى . وقال ابن جرير : **﴿مُتَشَابِهًا وَعَبَّرَ مُتَشَابِهًا﴾** قال : متشابهها في المنظر، وغير متشابهه في المطعم . وقال محمد بن كعب : **﴿كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾** قال : من رطبه وعنبه .

وقوله تعالى : **﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾** قال ابن جرير : قال بعضهم : هي الزكاة المفروضة . وروى عن أنس بن مالك قال : **﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾** قال : الزكاة المفروضة (١) . وقال ابن عباس : يعنى : الزكاة المفروضة ، يوم يكال ويعلم كيله . وكذا قال سعيد بن المسيب . وقد روى الإمام أحمد وأبو داود عن جابر بن عبد الله ؛ أن النبي ﷺ أمر من كل جاد عشرة أوسق من التمر ، بقتن يعلق في المسجد للمسكين ، وإسناده جيد قوى (٢) . وقال طاوس ، وأبو الشعثاء ، وقتادة ، والحسن ، والضحاك ، وابن جرير : هي الزكاة . وقال الحسن البصرى : هي الصدقة من الحب والثمار . وقال آخرون : هو حق آخر سوى الزكاة . وقال مجاهد : عند الزرع يعطى القبضة ، وعند الصرام يعطى القبضة ، وتركهم فيتبعون آثار الصرام . وقال سعيد بن جبير : كان هذا قبل الزكاة : للمسكين ، القبضة والضغث لعلف دابته . وقال آخرون : هذا كان واجباً ، ثم نسخة الله بالعشر أو نصف العشر . حكاه ابن جرير عن ابن عباس ، ومحمد بن الحنفية ، وإبراهيم النخعي وغيرهم . واختاره ابن جرير . قلت : وفى تسمية هذا نسخاً نظراً ؛ لأنه قد كان شيئاً واجباً فى الأصل ، ثم إنه فصل بيانه وبين مقدار المخرج وكميته . قالوا : وكان هذا فى السنة الثانية من الهجرة ، فالله أعلم .

وقد ذم الله سبحانه الذين يصومون ولا يتصدقون ، كما ذكر عن أصحاب الجنة فى سورة «ن» : **﴿إِذْ أَقْسَمُوا لِيَصْرِمُهَا مُصْبِحِينَ . وَلَا يَسْتَتُونَ . فَنَظَّافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ . فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾** أى : كالليل المدلهم سوداء محترقة **﴿فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ . أَنْ ائْتُوا عَلَيْنَا حَرْثَكُمْ﴾** إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون . أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . **﴿وَعَدُوا عَلَيْنَا حَرْدٌ﴾** أى : قوة وجلد وهمة **﴿قَادِرِينَ . فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ . قَالَ أَرَأَيْتُمْ لَكُمْ لَوْلَا تَسْبِحُونَ . قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَامُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ . عَسَى رَبَّنَا أَنْ يَدُلَّنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ . كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾** [القلم : ١٧ - ٣٣] .

وقوله : **﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾** قيل : معناه : ولا تسرفوا فى الإعطاء ، فتعطوا فوق المعروف . وقال عطاء : نهوا عن السرف فى كل شىء . وقال السدى : لا تعطوا أموالكم ، فتتعادوا فقراء . وقال سعيد بن المسيب ومحمد بن كعب : لا تمنعوا الصدقة فتعصوا . ثم اختار ابن جرير قول عطاء : أنه نهى عن الإسراف فى كل شىء . ولا شك أنه صحيح ، لكن الظاهر - والله أعلم - من سياق الآية حيث قال تعالى : **﴿كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا﴾** أن يكون ،

(١) الطبرى (١٣٩٦٣) ، وإسناده صحيح . يزيد بن درهم أبو العلاء العجمى - رواه عن أنس : تابعى ثقة ، ترجمه البخارى فى الكبير (٤ / ٢ / ٣٣٠) فلم يذكر فيه جرماً . وترجمه ابن أبى حاتم (٤ / ٢ / ٢٦٠) وروى عن عبد الصمد بن عبد الوارث أنه قال : « وكان ثقة » . ثم روى عن يحيى بن معين أنه قال : « ليس بشىء » . وتلميذه عبد الصمد أعرف به من ابن معين .

(٢) المسند (١٤٩٢٤) وأبو داود (١٦٦٢) . وقوله : « من جاد عشرة أوسق » الجاد ، بالدال المهملة المشددة - بمعنى المجرد ، أى : نخلا يجد منه هذا القدر . وهو من « الجداد » بفتح الجيم وتخفيف الدال ، وهو قطع ثمر النخل .

عائداً على الأكل، أى: ولا تسرفوا فى الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن ، كما قال تعالى : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] ، وفى صحيح البخارى تعليقاً: «كلوا واشربوا، والبسوا وتصدقوا، فى غير إسراف ولا مخيلة» (١). وهذا من هذا، والله أعلم .

وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ﴾ أى: وأنشأ لكم من الأنعام ما هو حمولة وما هو فرش، قيل: المراد بالحمولة ما يحمل عليه من الإبل، والفرش الصغار منها. كما قال عن عبد الله فى قوله: ﴿حَمُولَةٌ﴾: ما حمل عليه من الإبل ﴿وَفَرَشٌ﴾ الصغار من الإبل. رواه الحاكم، وقال: صحيح ولم يخرجاه. وقال ابن عباس: الحمولة: الكبار، والفرش الصغار من الإبل. وكذا قال مجاهد. وقال ابن عباس: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ﴾: فأما الحمولة فالإبل والحيل والبغال والحمير وكل شىء يحمل عليه، وأما الفرش فالغنم . واختاره ابن جرير ، قال : وأحسبه إنما سمى فرشاً لدنونه من الأرض . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الحمولة ما تركيبون، والفرش ما تأكلون وتحلبون، شاة لا تحمل، تأكلون لحمها وتتخذون من صوفها لحافاً وفرشاً . وهذا الذى قاله عبد الرحمن فى تفسير هذه الآية الكريمة حسن ، يشهد له قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١] ، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٦٩-٨٠] ، وقال لشاربين ﴿إلى أن قال: ﴿وَمِنْ أَسْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: ٦٩-٨٠] ، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفَالِكِ تَحْمِلُونُ . وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُكْفِرُونَ﴾ [غافر: ٧٩-٨١] .

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أى: من الثمار والزروع والأنعام، فكلها خلقها الله وجعلها رزقاً لكم ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾ أى: طرائقه وأوامره، كما اتبعها المشركون الذين حرموا ما رزقهم الله، أى: من الثمار والزروع افتراء على الله ﴿إِنَّهُ﴾ أى: إن الشيطان - أيها الناس - لكم ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أى: مبين ظاهر العداوة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] ، وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّ الشَّيْطَانَ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾ الآية [الأعراف: ٢٧] ، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]. والآيات فى هذا كثيرة فى القرآن .

﴿ثُمَّ نَبَّيْنَا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنَّ سَبِيلَنَا مُبْتَلًى وَمَنْ يُؤْتِنا مِنْكُمْ صَدَقَةً فَحَدِّثْهُمْ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَكُنُوا لَهُمْ سَابِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣] وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشٌ وَالْإِبِلُ اثْنَتَيْنِ وَالْبَقَرُ اثْنَتَيْنِ قُلْ أَلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ أَلْسِنَةٌ أَوْ يَدَانِ أَوْ أَعْيُنٌ أَمْ أُكُلُكُمْ أَمْ أَكُلْتُمْ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾

(١) البخارى (٢١٥/١٠ فتح) . ورواه أحمد فى المسند (٦٦٩٥) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وسيدكره المؤلف الحافظ مخرجاً عند الآية (٣١) من سورة الأعراف . و «المخيلة» بضم الميم : الخيلاء .

وهذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام فيما كانوا حَرَمُوا من الأنعام، وجعلوها أجزاءً وأنواعاً: بحيرة، وسائبة، ووصيلة وحاماً، وغير ذلك من الأنوع التي ابتدعوها فى الأنعام والزروع والشمار، فبين أنه تعالى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، وأنه أنشأ من الأنعام حمولة وفرشا. ثم بين أصناف الأنعام إلى غنم وهو بياض وهو الضأن، وسواد وهو المعز، ذكره وأنتاه، وإلى إبل ذكورها وإناثها، وبقر كذلك. وأنه تعالى لم يحرم شيئاً من ذلك ولا شيئاً من أولادها، بل كلها مخلوقة لبنى آدم، أكلا، وركوباً، وحمولة، وحلباً، وغير ذلك من وجوه المنافع، كما قال : ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ الآية [الزمر: ٦].

وقوله : ﴿أَمَا اسْتَمَلَّتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ﴾ ردّ عليهم فى قولهم : ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِدُكُورِنَا وَمَحْرَمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾. وقوله : ﴿تَبَيَّرْنِي يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى : أخبرونى عن يقين: كيف حرم الله عليكم ما زعمتم تحريمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك؟ وقوله : ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا﴾: تهكم بهم فيما ابتدعوه واقتروه على الله، من تحريم ما حرموه من ذلك ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أى : لا أحد أظلم منه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ . وأول من دخل فى هذه الآية: عمرو بن لُحَيّ بن قَمَعَةَ، فإنه أول من سَبَّبَ السوائب، ووصل الوصيلة، وحمى الحام، كما ثبت ذلك فى الصحيح (١).

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِعَظِيمِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ عَلَيْهِ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤٥)

يقول تعالى آمراً عبده ورسوله محمداً، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين حرموا ما رزقهم الله افتراء على الله: ﴿لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ أى : أكل يأكله. قيل: معناه: لا أجد شيئاً مما حرمتم حراماً سوى هذه. وقيل: معناه: لا أجد من الحيوانات شيئاً حراماً سوى هذه. فعلى هذا يكون ما ورد من التحريمات بعد هذا فى سورة «المائدة»، وفى الأحاديث الواردة، رافعاً لمفهوم هذه الآية. ومن الناس من يسمي ذلك نسخاً، والأكثرون من المتأخرين لا يسمونه نسخاً؛ لأنه من باب رفع مباح الأصل، والله أعلم. وقال ابن عباس: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ يعنى: المَهْرَاقُ . وقال عِكْرِمَةُ فى قوله: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾: لولا هذه الآية لتتبع الناس ما فى العُرُوقِ، كما تتبعه اليهود . وقال قتادة: حرم من الدماء ما كان مسفوحاً، فأما لحم خالطه دم فلا بأس به. وروى ابن جرير عن عائشة: أنها كانت لا ترى بلحوم السباع بأساً، والحمرة والدم يكونان على القَدْرِ بأساً، وقرأت هذه الآية. صحيح غريب (٢).

(١) انظر ما مضى عند تفسير الآيات : (١٠٠ - ١٠٤) من سورة المائدة .

(٢) الطبرى (١٤٠٩٠) .

وروى الحميدى عن عمرو بن دينار قال: قلت لجابر بن عبد الله: إنهم يزعمون أن رسول الله ﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خبير؟ فقال: قد كان يقول ذلك «الحكم بن عمرو» عن رسول الله ﷺ، ولكن أبى ذلك البحر - يعنى ابن عباس - وقرأ: «قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ» الآية. رواه البخارى، وأخرجه أبو داود، ورواه الحاكم، مع أنه فى صحيح البخارى، كما رأيت (١).

وروى ابن مردويه والحاكم عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرا، فبعث الله نبيه وأنزل كتابه، وأحل حلاله وحرم حرامه، فما أحل فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، وتلا هذه الآية: «قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ» إلى آخر الآية. وهذا لفظ ابن مردويه. ورواه أبو داود منفرداً به، عن محمد بن داود بن صبيح، عن أبى نعيم، به. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢).

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: ماتت شاة لسودة بنت زمعة، فقالت: يا رسول الله، ماتت فلانة - تعنى الشاة - قال: «فلولا أخذتم مسكها؟». قالت: نأخذ مسك شاة قد ماتت؟! فقال لها رسول الله ﷺ: «إنما قال الله: «قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ»، وإنكم لا تطعمونه أن تدبغوه فتتفوعوا به». فأرسلت فسلخت مسكها فدبغته، فاتخذت منه قرية، حتى تحرقت عندها (٣). ورواه البخارى والنسائى عن ابن عباس، عن سودة بنت زمعة، بذلك أو نحوه. وقال سعيد بن منصور: حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن عيسى بن نُمَيْلَةَ الفزارى، عن أبيه قال: كنت عند ابن عمر، فسأله رجل عن أكل القنفذ؟ فقرأ عليه: «قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ» الآية، فقال شيخ عنده: سمعت أبا هريرة يقول: ذكر عند النبى ﷺ فقال: «خبث من الخبائث». فقال ابن عمر: إن كان النبى ﷺ قاله فهو كما قال. ورواه أبو داود (٤).

وقوله تعالى: «فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ» أى: فمن اضطر إلى أكل شىء مما حرم الله فى هذه الآية الكريمة، وهو غير متلبس ببغى ولا عدوان «فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» أى: غفور له، رحيم به. وقد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة البقرة بما فيه كفاية (٥). والمقصود من سياق هذه الآية الكريمة الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه، من تحريم المحرمات على أنفسهم بأرائهم

(١) البخارى (٩ / ٥٦٤ ، ٥٦٥) مختصراً قليلاً. ولكن فيه «جابر بن زيد» بدل «جابر بن عبد الله». وجابر ابن زيد: هو أبو الشعثاء التابعى. ورواية الحاكم فى المستدرک (٢ / ٣١٧) كرواية الحميدى التى ذكرها الحافظ ابن كثير هنا. وأما رواية أبى داود (٣٨٠٨) ففى إسنادها راو مبهم، وفيها اختلاف عن هاتين الروایتين. والظاهر أنها خطأ من أحد الرواة.

(٢) الحاكم (٤ / ١١٥) ووافقه الذهبى على تصحيحه. وهو فى أبى داود (٣٨٠٠). ورواه أيضا ابن حزم فى الإحكام (٨ / ٢٨) بتحقيقنا. واختصره قليلاً من آخره، فلم يذكر الآية.

(٣) المسند (٣٠٢٧). (٤) أبو داود (٣٧٩٩) من طريق سعيد بن منصور.

(٥) مضى عند تفسير الآية: (١٧٣) من سورة البقرة.

الفاسدة من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك، فأمر الله رسوله أن يخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك محرم، وإنما حُرِّمَ ما ذكر في هذه الآية من الميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به. وما عدا ذلك فلم يحرم، وإنما هو عفو مسكوت عنه، فكيف تزعمون أنتم أنه حرام، ومن أين حرمتوه ولم يحرمه الله؟! وعلى هذا فلا ينفي تحريم أشياء أخر فيما بعد هذا، كما جاء النهي عن لحوم الحمر الأهلية ولحوم السباع، وكل ذي مخلب من الطير، على المشهور من مذاهب العلماء.

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾

قال ابن جرير: يقول تعالى: وحرمتنا على اليهود ﴿كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾، وهو البهائم والطيور ما لم يكن مشقوق الأصابع، كالإبل والنعام والأوز والبط. قال ابن عباس: هو البعير والنعام. وكذا قال مجاهد.

وقوله: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ قال السدي: يعني: الثَّرْبُ (١) وشحم الكليتين. وكانت اليهود تقول: إنه حرمه إسرائيل فنحن نحرمه. وكذا قال ابن زيد. وقال قتادة: الثَّرْبُ وكل شحم كان كذلك ليس في عظم. وقوله: ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ قال ابن جرير: ﴿الْحَوَايَا﴾ جمع، واحدها حاوياء، وحاوية وحوية وهو ما تحوى من البطن فاجتمع واستدار، وهى بنات اللبن، وهى «المباعر»، وتسمى «المرايض»، وفيها الأمعاء. قال: ومعنى الكلام: ومن البقر والغنم حرمتنا عليهم شحومهما، إلا ما حملت ظهورهما، وما حملت الحوايا.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ أى: إلا ما اختلط من الشحوم بالعظام فقد أحللتناه لهم. وقال ابن جرير: شحم الألية اختلط بالعصعص، فهو حلال. وكل شيء فى القوائم والجنب والرأس والعين وما اختلط بعظم، فهو حلال، ونحوه قال السدي. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ أى: هذا التضييق إنما فعلناه بهم وألزمناهم به، مجازاة لهم على بغيتهم ومخالفتهم وأمرنا، كما قال تعالى: ﴿فَبَطَّلْنَا مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠]. وقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أى: وإنا لعادلون فيما جزيناهم به. وقال ابن جرير: وإنا لصادقون فيما أخبرناك به يا محمد من تحريمنا ذلك عليهم، لا كما زعموا من أن إسرائيل هو الذى حرمه على نفسه، والله أعلم. وقال عبد الله بن عباس: بلغ عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أن سمرّة باع خمراً، فقال: قاتل الله سمرّة، ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجمّلوها فباعوها». أخرجاه.

(١) «الثرب» - بفتح الثاء المثلثة وسكون الراء: شحم رقيق يغشى الكرش والأمعاء.

وعن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول عام الفتح: «إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام». فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة، فإنه يدهن بها الجلود وتطلى بها السفن، ويستصيح بها الناس. فقال: «لا، هو حرام». ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «قاتل الله اليهود، إن الله لما حرم عليهم شحومها جملوه، ثم باعوه وأكلوا ثمنه». رواه الجماعة. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قاتل الله اليهود! حرمت عليهم الشحوم، فباعوها وأكلوا ثمنها». رواه البخاري ومسلم... وروى ابن مردويه عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ كان قاعداً خلف المقام، فرفع بصره إلى السماء فقال: «لعن الله اليهود - ثلاثاً - إن الله حرم عليهم الشحوم، فباعوها وأكلوا ثمنها، وإن الله لم يحرم على قوم أكل شيء إلا حرم عليهم ثمنه» (١).

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ قاعداً في المسجد مستقبلاً الحجر، فنظر إلى السماء فضحك، [ثم قال: «لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها، وإن الله إذا حرم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه»]. ورواه أبو داود (٢).

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾

يقول تعالى: فإن كذبتك - يا محمد - مخالفة من المشركين واليهود ومن شابههم، فقل: ﴿رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة، باتباع رسوله ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ترهيب لهم في مخالفتهم الرسول خاتم النبيين. وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الآية: ١٦٥]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]، [٥٠]، وقال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٍ. إِنَّهُ هُوَ يَدْعُو وَيُعِيدُ. وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٢-١٤]، والآيات في هذا كثيرة جداً.

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلَمْ شُهِدْكُمْ أَنْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا إِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِعَايِنِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

(١) رواه البخاري في التاريخ الكبير - مختصراً - من الوجه الذي رواه ابن مردويه (١/٢١٧/١٤٧)، وإسنادهما صحيح.
(٢) المسند (٢٢٢١)، وإسناده صحيح.

هذه مناظرة ذكرها الله تعالى وشبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا؛ فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه، وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان، ويحول بيننا وبين الكفر، فلم يغيره، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا بذلك! ولهذا قال: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ كما في قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الزخرف: ٢٠]، وكذلك الآية التي في «النحل» مثل هذه سواء، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أى: بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء. وهى حجة داحضة باطلة؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه، ودمر عليهم، وأدال عليهم رسله الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام. ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى: بأن الله تعالى راض عنكم فيما أنتم فيه ﴿فَتَخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أى: فتظهِروه لنا وتبينوه وتبرزوه ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أى: الوهم والخيال. والمراد بالظن ههنا: الاعتقاد الفاسد. ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أى: تكذبون على الله فيما ادعيتموه.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ أى: له الحكمة التامة، والحجة البالغة فى هداية من هدى، وإضلال من ضل، ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويُبغض الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٩٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةَ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]. قال الضحاك: لا حجة لأحد عصى الله، ولكن لله الحجة البالغة على عباده.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُكُمْ﴾ أى: أحضروا شهداءكم ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَمٌ هَذَا﴾ أى: هذا الذى حرمتموه وكذبتم وافترتيم على الله فيه ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ أى: لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذباً وزوراً ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أى: يشركون به، ويجعلون له عديلاً.

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَنَّمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١٥١)

عن ابن مسعود، قال: من أراد أن يقرأ صحيفة رسول الله ﷺ التى عليها خاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١). وروى الحاكم

(١) لم يخرجها الحافظ ابن كثير . وذكره السيوطى (٣/ ٥٤) بلفظ: «من سره أن ينظر إلى وصية محمد» - إلى آخره . ونسبه للترمذى وحسنه وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبى الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى شعب الإيمان .

عن ابن عباس يقول: إن في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب، ثم قرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ﴾. الآيات . قال الحاكم : صحيح الإسناد، ولم يخرجاه (١). وروى الحاكم أيضاً عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «أبيكم يبايعني على ثلاث؟» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ﴾ حتى فرغ من الآيات فمن وفى فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئاً فأدرکه الله به في الدنيا كانت عقوبته ، ومن أخر إلى الآخرة فأمره إلى الله، إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه . ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه (٢) .

وأما تفسيرها فيقول تعالى لنبية ورسوله محمد ﷺ: قل يا محمد - لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله، وحرّموا ما رزقهم الله، وقتلوا أولادهم وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿تَعَالَوْا﴾ أى: هلموا وأقبلوا ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ﴾ أى: أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقاً لا تخرصاً، ولا ظناً، بل وحيّاً منه وأمرّاً من عنده ﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾، وكأن في الكلام محذوفاً دل عليه السياق، وتقديره: ووصاكم ﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾؛ ولهذا قال في آخر الآية: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وتقول العرب: أمرتك ألا تقوم . وفي الصحيحين من حديث أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتانى جبريل فبشرنى أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من أمتك، دخل الجنة». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: « وإن زنى وإن سرق ». قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: « وإن زنى وإن سرق ». قلت: وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر؟ قال: «وإن زنى وإن سرق، وإن شرب الخمر»: وفي بعض الروايات: أن القائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله ﷺ، وأنه، عليه الصلاة والسلام، قال فى الثالثة: «وإن رغم أنف أبي ذر». فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث: وإن رغم أنف أبي ذر (٣). وفى بعض المسانيد والسنن عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، إنك ما دعوتنى ورجوتنى فإنى أغفر لك على ما كان منك ولا أبالى، ولو أتيتنى بقراب الأرض خطيئة أتيته بقرابها مغفرة، ما لم تشرك بى شيئاً، وإن أخطأت حتى تبلغ خطاياك عنان السماء ثم استغفرتنى، غفرت لك» (٤). ولهذا شاهد فى القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَفْقِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَفْقِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]. وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود: «من مات لا يشرك بالله شيئاً، دخل الجنة». والآيات والأحاديث فى هذا كثيرة جداً.

وقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أى: وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحساناً، أى: أن تحسنوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبِّيَ أَلَّا تُعْبَدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. وقرأ

(١) المستدرک (٢ / ٣١٧) ووافقه الذهبى على تصحيحه .

(٢) الحاكم (٢ / ٣١٨) ووافقه الذهبى على تصحيحه . وزاد السيوطى (٣ / ٥٤) نسبه لعبد بن حميد وابن أبى حاتم وأبى الشيخ وابن مردويه .

(٣) الحديث مضى عند تفسير الآيتين : (٤٧ ، ٤٨) من تفسير سور النساء من رواية المسند بنحوه .

(٤) رواه أحمد فى المسند (٥ / ١٥٤ حلى) والدارمى (٢ / ٣٢٢) كلاهما بنحوه من حديث أبى ذر : ورواه الترمذى - بنحوه - من حديث أنس (٢ / ٢٧٠) .

بعضهم: «ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً». أى : أحسنوا إليهم . والله تعالى كثيراً ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين، كما قال: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ. وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤، ١٥]. فأمر بالإحسان إليهما، وإن كانا مشركين ، بحسبهما، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية [البقرة: ٨٣]. والآيات فى هذا كثيرة. وفى الصحيحين عن ابن مسعود ، قال: سألت رسول الله ﷺ: أى العمل أفضل ؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أى؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أى؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله». قال ابن مسعود: حدثنى بهن رسول الله ﷺ، ولو استزدته لزدانى .

وقوله : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾: لما وصى تعالى ببر الآباء والأجداد، عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾، وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سَوَّكْت لهم الشياطين ذلك، فكانوا يثدون البنات خشية العار، وربما قتلوا بعض الذكور خيفة الافتقار؛ ولهذا جاء فى الصحيحين، من حديث عبد الله بن مسعود، أنه سأل رسول الله ﷺ ، أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قلت: ثم أى؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قلت: ثم أى؟ قال: «أن تزانى حليلة جارك». ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]. وقوله: ﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ قال ابن عباس، وقتادة، والسدى: هو الفقر، أى: ولا تقتلوهم من فقرهم الحاصل، وقال فى سورة «سبحان»: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] أى: خيفة حصول فقر فى الآجل؛ ولهذا قال هناك : ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أى: لا تخافوا من فقرهم بسببهم، فرزقهم على الله. وأما فى هذه الآية فلما كان الفقر حاصلًا، قال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ لأنه الأهم هاهنا، والله أعلم.

وقوله : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ ، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] وقد تقدم تفسيرها فى قوله: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠]. وفى الصحيحين، عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حَرَّمَ الفواحش ما ظَهَرَ منها وما بَطَّنَ». وعن المغيرة قال: قال سعد بن عبادة: لو رأيتُ مع امرأتى رجلاً لضربته بالسيف غير مُصْفَح. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أتمتعجون من غيرة سعد؟ فوالله لأنا أغير من سعد، والله أغير منى، من أجل ذلك حَرَّمَ الفواحش ما ظهر منها وما بَطَّنَ». أخرجاه (١).

(١) من حديث فى البخارى (٩ / ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ١٢ / ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٣ / ٣٣٧ ، ٣٣٨ فتح) ومسلم (١ / ٤٣٨ ، ٤٣٩) . ورواه أحمد فى المسند (٤ / ٢٤٨) .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وهذا مما نص تبارك وتعالى على النهي عنه تأكيداً، وإلا فهو داخل فى النهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فقد جاء فى الصحيحين عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله - إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة». وفى لفظ لمسلم: «والذى لا إله غيره لا يحل دم رجل مسلم». وروى أبو داود، والنسائى، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث خصال: زان مُحْصَن يُرْجَم، ورجل قتل رجلاً مُتَعَمِّداً فيقتل، ورجل يخرج من الإسلام حارب الله ورسوله، فيقتل أو يصلب أو ينفى من الأرض». وهذا لفظ النسائى. وعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، أنه قال وهو محصور: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل كَفَرَ بعد إسلامه، أو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفساً بغير نفس». فوالله ما زينت فى جاهلية ولا إسلام، ولا تمنيت أن لى بدينى بدلا منه بعد إذ هدانى الله، ولا قتلت نفساً، فبم تقتلونى؟! رواه الإمام أحمد، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه. وقال الترمذى: هذا حديث حسن (١).

وقد جاء النهى والزجر والوعيد فى قتل المعاهد - وهو المستأمن من أهل الحرب - فروى البخارى، عن عبد الله بن عمر، عن النبى ﷺ قال: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً». وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «من قتل معاهداً له ذمة الله وذمة رسوله، فقد أخفر بذمة الله، فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً». رواه ابن ماجه، والترمذى، وقال: حسن صحيح.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أى : هذا مما وصاكم به لعلكم تتقون عن الله أمره ونهيه.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ
وَيَهْدِ اللَّهُ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

عن ابن عباس قال: لما أنزل الله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ و «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا» الآية [النساء: ١٠]، فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله ويفسد. فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَاخْرَأْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، قال: فخلطوا طعامهم بطعامهم، وشرابهم بشرابهم. رواه أبو داود (٢).

(١) المسند (٤٦٨) بنحوه. ورواه أيضا مطولا ومختصرا: (٤٣٧، ٤٣٨، ٤٥٢، ٥٠٩).

(٢) مضى تخريجه عند تفسير الآية: (٢٢٠) من سورة البقرة.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قال الشعبي، ومالك، وغير واحد من السلف: يعنى: حتى يحتلم. وقوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾: يأمر تعالى بإقامة العدل فى الأخذ والإعطاء، كما توعد على تركه فى قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزِنُوهُمْ يُخْسِرُونَ. أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ. لِيَوْمٍ عَظِيمٍ. يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١-٦]. وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال والميزان. وقوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ أى: من اجتهد فى أداء الحق وأخذه، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه.

وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، وكذا التى تشبهها فى سورة المائدة (١)، يأمر تعالى بالعدل فى الفعال والمقال، على القريب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد، فى كل وقت، وفى كل حال. ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ قال ابن جرير: يقول وبوصية الله التى أوصاكم بها فأوفوا. وإيفاء ذلك: أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم، وتعملوا بكتابه وسنة رسوله، وذلك هو الوفاء بعهد الله. ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى: هذا وصاكم به، وأمركم به، وأكد عليكم فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أى: تتعظون وتتنبهون مما كنتم فيه قبل هذا. وقرأ بعضهم بتشديد «الذال»، وآخرون بتخفيفها.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَقَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٥٣)

قال ابن عباس فى قوله: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَقَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وفى قوله: ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، ونحو هذا فى القرآن، قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمرء والخصومات فى دين الله. ونحو هذا قال مجاهد، وغير واحد. وروى الإمام أحمد بن حنبل عن عبد الله - هو ابن مسعود، قال: خط رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيماً». وخط على يمينه وشماله، ثم قال: «هذه السبيل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه». ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَقَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾. وكذا رواه الحاكم، وقال: صحيح ولم يخرجاه. ورواه النسائى وابن مردويه. فقد صححه الحاكم كما رأيت من الطريقتين (٢)، وقد روى من حديث الثؤاس بن سمعان نحوه، روى الإمام أحمد عن الثؤاس بن سمعان، عن رسول الله ﷺ قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعن جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب

(١) الآية رقم (٨).

(٢) المسند (٤٤٣٧). ورواه أيضا (٤١٤٢) والحاكم (٣١٨/٢). ورواه أيضا ابن حبان فى صحيحه، رقم (٥) بتحقيقنا. وهو فى مجمع الزوائد (٧/٢٢) وقال: «رواه أحمد والبخارى، وفيه عاصم بن بهدلة، وهو ثقة، وفيه ضعف».

مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس، ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً، ولا تعرجوا وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك ، لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجّه ، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق واعظ الله في قلب كل مسلم». ورواه الترمذى والنسائى ، وقال الترمذى: حسن غريب (١).

وقوله: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ﴾، إنما وحد سبيله لأن الحق واحد؛ ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وروى ابن أبي حاتم عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم يباعدنى على هؤلاء الآيات الثلاث؟». ثم تلا: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾، حتى فرغ من ثلاث آيات، ثم قال: «ومن وفى بهن أجره الله، ومن انتقص منهن شيئاً فادركه الله فى الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه، وإن شاء عفا عنه» (٢).

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾

قال ابن جرير: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ تقديره: ثم قل - يا محمد - مخبراً عنا بأننا آتينا موسى الكتاب، بدلالة قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾. قلت: وفى هذا نظر، و ﴿ثُمَّ﴾ ههنا إنما هى لعطف الخبر بعد الخبر، لا للترتيب ههنا، كما قال الشاعر:

قُلْ لِمَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ
ثُمَّ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ قَد سَادَ جَدَهُ

وههنا لما أخبر الله تعالى عن القرآن بقوله: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ - عطف بمدح التوراة ورسولها، فقال: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾. وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين ذكر القرآن والتوراة، كقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الاحقاف: ١٢]، وقوله أول هذه السورة: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا يُّبَدُونَهَا وَتُخْفَوْنَ كَثِيرًا﴾ [الآية: ٩١]، وبعدها: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ الآية [الأنعام: ٩٢]، وقال تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُرْتِي مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ قال الله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ﴾ [القصص: ٤٨]، وقال تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿قَالُوا يَا قَوْمِنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ

(١) المسند (١٧٧١). وقد مضى عند تفسير الآية: (٦) من سورة الفاتحة.

(٢) مضى من رواية الحاكم.

يَدِيهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ [الاحقاف: ٣٠].

وقوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا﴾ أى: آتيناه الكتاب الذى أنزلناه إليه تمامًا كاملاً جامعاً لجميع ما يحتاج إليه فى شريعته ، كما قال تعالى: ﴿ وَكَيْتَابًا لَهُ فِي الْأَنْوَاعِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ الآية [الاعراف: ١٤٥]. وقوله: ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ أى: جزاء على إحسانه فى العمل، وقيامه بأوامرنا وطاعتنا، كقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وكقوله: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] (١). وقال الربيع بن أنس: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ يقول: أحسن فيما أعطاه الله. وقال قتادة: من أحسن فى الدنيا تم له ذلك فى الآخرة. واختار ابن جرير أن تقدير الكلام: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا﴾ على إحسانه. فكانه جعل «الذى» مصدرية، كما قيل فى قوله تعالى: ﴿وَخَضْتُمْ كَأَلَدِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩] أى: كخوضهم ، وقال آخرون: «الذى» ههنا بمعنى «الذين». قال ابن جرير: وقد ذكر عن عبد الله ابن مسعود: أنه كان يقرؤها: «تماماً على الذين أحسنوا». وقال مجاهد: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ قال: على المؤمنين والمحسنين، وكذا قال أبو عبيدة. وقال البغوى: والمحسنون: الأنبياء والمؤمنون، يعنى: أظهرنا فضله عليهم. قلت: كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الاعراف: ١٤٤]، ولا يلزم اصطفاؤه على محمد ﷺ خاتم الأنبياء والخليل، عليهما السلام ، لأدلة آخر. قال ابن جرير: وروى أبو عمرو بن العلاء عن يحيى بن يعمر أنه كان يقرؤها: ﴿تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾، رفعا، بتأويل: على الذى هو أحسن ، قال: وهذه قراءة لا أستجيز القراءة بها، وإن كان لها فى العربية وجه صحيح. وقيل: معناها: تماماً على إحسان الله إليه زيادة على ما أحسن الله إليه، حكاة ابن جرير، والبغوى. ولا منافاة بينه وبين القول الأول، وبه جمع ابن جرير كما بيناه، والله الحمد.

وقوله: ﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾: فيه مدحٌ لكتابه الذى أنزله الله عليه ﴿لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: فيه الدعوة إلى اتباع القرآن ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به فى الدنيا والآخرة .

﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجِزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

(١) فى المطبوع من «عمدة التفسير» وكذا المخطوطة الأزهرية: « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » وهو خلط بين آيتي السجدة - هذه - والآية (٧٣) . (الباز) .

قال ابن جرير: معناه: وهذا كتاب أنزلناه لثلاثا تقولوا: ﴿إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾. يعني: لينقطع عذركم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا (١) رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧]. وقوله: ﴿عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال ابن عباس: هم اليهود والنصارى وكذا قال مجاهد، والسدى، وقتادة، وغير واحد. وقوله: ﴿وَأِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ أى: وما كنا نفهم ما يقولون؛ لأنهم ليسوا بلساننا، ونحن فى شغل وغفلة مع ذلك عما هم فيه.

وقوله: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ أى: وقطعنا لتعللكم أن تقولوا: لو أنا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكننا أهدى منهم فيما أوتوه، كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِيحَادِي الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢]، وهكذا قال هاهنا: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ يقول: فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ النبى العبرى قرآن عظيم، فيه بيان للحلال والحرام، وهدى لما فى القلوب، ورحمة من الله لعبادة الذين يتبعونه ويقتفون ما فيه.

وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أى: لم ينتفع بما جاء به الرسول، ولا اتبع ما أرسل به، ولا ترك غيره، بل صدَفَ عن اتباع آيات الله، أى: صَرَفَ الناس وصداهم عن ذلك، قاله السدى. وعن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾: أعرض عنها. وقول السدى ههنا فيه قوة؛ لأنه قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾، كما تقدم فى أول السورة: ﴿وَهُمْ يَتَّبِعُونَ عَنَّهُ وَيَتَّبِعُونَ عَنَّهُ وَإِنْ يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الآية: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زَادَنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾. وقد يكون المراد كما قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أى: لا آمن بها ولا عمل بها، كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدْقَ وَلَا صَلَىٰ. وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]، ونحو ذلك من الآيات الدالة على اشتغال الكافر على التكذيب بقلبه، وترك العمل بجوارحه، ولكن كلام السدى أقوى وأظهر، والله أعلم.

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامِنْتَ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انظُرُوا إِنَّا مُنظَرُونَ ﴾

يقول تعالى متوعداً للكافرين به، والمخالفين لرسوله والمكذبين آياته، والصادقين عن سبيله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾، وذلك كائن يوم القيامة ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾.

(١) فى المطبوعة والمطبوع من «عمدة التفسير»: «لقالوا» وهو خطأ واضح. (البار).

رَبِّكَ ﴿ وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراتها ، كما روى البخارى عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا رآها الناس آمن من عليها . فذلك حين ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾ » . أخرجه بقية الجماعة فى كتبهم إلا الترمذى . وروى ابن جرير عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث إذا خرجن ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض » . ورواه أحمد ، وعنده : « والدخان » . ورواه مسلم (١) . وروى ابن جرير عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت آمن الناس كلهم ، وذلك حين ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾ الآية » (٢) . وروى ابن جرير عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها ، قُبِلَ منه » . لم يخرجها أحد من أصحاب الكتب الستة (٣) . وعن أبى ذر جندب بن جنادة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « تدرى أين تذهب الشمس إذا غربت ؟ » . قلت : لا أدرى ! قال : « إنها تنتهى دون العرش ، فتخر ساجدة ، ثم تقوم حتى يقال لها : ارجعى فيوشك يا أبا ذر أن يقال لها : ارجعى من حيث جئت ، وذلك حين : ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾ » . رواه الشيخان وغيرهما . وروى الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد [أبى سريحة الغفارى قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ، ونحن نتذاكر الساعة ، فقال : « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن ، تسوق - أو : تحشر - الناس ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقبل معهم حيث قالوا » . رواه مسلم وأهل السنن الأربعة وقال الترمذى : حسن صحيح (٤) . وعن صفوان بن عسال قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله فتح باباً قبيل المغرب عرضه سبعون عاماً للتوبة ، لا يغلق حتى تطلع الشمس منه » . رواه الترمذى وصححه النسائى ، وابن ماجه من حديث طويل .

وروى الإمام أحمد عن أبى زُرعة بن عمرو بن جرير قال : جلس ثلاثة نفر من المسلمين إلى مروان بالمدينة فسمعوه وهو يحدث عن الآيات : أن أولها خروج الدجال . قال : فانصرف نفر إلى عبد الله بن عمرو ، فحدثوه بالذى سمعوه من مروان فى الآيات ، فقال : لم يقل مروان شيئاً ! قد حفظت من رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة ضحى ، فأيتهما كانت قبل صاحبها فالأخرى على إثرها » . ثم قال

(١) الطبرى (١٤٢٤٧) والمسند (٩٧٥١) . (٢) الطبرى (١٤٢١٩) .

(٣) الطبرى (١٤٢٢٠) . ورواه أحمد فى المسند (٧٦٩٧) . وقد بينت فى تخريجه فى المسند أنه رواه مسلم فى صحيحه (٢ / ٣١٢) . فلا ينبغي أن يوصف بأنه لم يخرجها أحد من أصحاب الكتب الستة .

(٤) المسند (١٦٢١٣) ومسلم (٣٦٦ / ٢ ، ٣٦٧) . وقد مضى عند تفسير الآيات : (١٥٥ - ١٥٩) من سورة النساء .

عبد الله - وكان يقرأ الكتب - : وأظن أولها خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وذلك أنها كلما غربت أتت تحت العرش وسجدت واستأذنت في الرجوع ، فأذن لها في الرجوع، حتى إذا بدا الله أن تطلع من مغربها فعلت كما كانت تفعل: أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع، فلم يردّ عليها شيء، ثم تستأذن في الرجوع فلا يرد عليها شيء، حتى إذا ذهب من الليل ما شاء الله أن يذهب، وعرفت أنه إذا أذن لها في الرجوع لم تدرك المشرق، قالت: رب، ما أبعد المشرق. من لى بالناس؟ حتى إذا صار الأفق كأنه طوق استأذنت في الرجوع، فيقال لها: من مكانك فاطلعي. فطلعت على الناس من مغربها، ثم تلا عبد الله هذه الآية: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ الآية. وأخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه (١). وروى الإمام أحمد عن ابن السعدي؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يُقاتل». فقال معاوية، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمرو بن العاص: إن النبي ﷺ قال: «إن الهجرة خصلتان: إحداهما تهجر السيئات، والأخرى تهاجر إلى الله ورسوله، ولا تنقطع ما تُقبَلت التوبة، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب، فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه، وكفى الناس العمل». هذا الحديث حسن الإسناد، ولم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة (٢).

فقوله: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك، فإن كان مصلحاً في عمله فهو بخير عظيم، وإن كان مخلفاً فأحدث توبة يومئذ لم تقبل منه توبته، كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة، وعليه يحمل قوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ أي: ولا يقبل منها كسبُ عمل صالح إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك. وقوله: ﴿قُلْ أَنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾: تهديد شديد للكافرين، ووعيد أكيد لمن سوف يإيمانه وتوبته إلى وقت لا يتفعه ذلك. وإنما كان هذا الحكم عند طلوع الشمس من مغربها، لاقتراب وقت القيامة، وظهور أشراتها كما قال: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ [محمد: ١٨] ، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَرَأُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا سَيِّعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

﴿١٥٩﴾

- (١) المسند (٦٨٨١) . ورواه الطبري أيضا مطولا (١٤٢١٤ ، ١٤٢١٥) . وقد تساهل الحافظ ابن كثير في نسبه لمسلم وأبي داود وابن ماجه ، فإنهم لم يخرجوه بهذه السياقة ، إنما رووا قطعة منه مختصرة . ولذلك ذكره الهيثمي في الزوائد (٨ / ٨ ، ٩) عن هذه الرواية . وأصاب في ذلك . ورواه الحاكم (٤ / ٥٠٠ ، ٥٠١) ، ٥٤٧ ، ٥٤٨) . وتفصيل التخريج في المسند والطبري .
- (٢) المسند (١٦٧٢) . ورواه الطبري (١٤٢١٢) مختصرا .

قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، والسُدِّي: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى. وقال ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَابًا﴾ وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل أن يبعث محمد ﷺ، ففترقوا. فلما بعث محمداً ﷺ أنزل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَابًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ الآية. والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿وَكَانُوا شِعَابًا﴾ أى: فرقاً كأهل الملل والنحل - وهى الأهواء والضلالات - فالله قد برأ رسوله بما هم فيه. وهذه الآية كقولته تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ الآية [الشورى: ١٣]، وفى الحديث: «نحن معاصر الأنبياء أولاد علأت، ديننا واحد». فهذا هو الصراط المستقيم، وهو ما جاءت به الرسل: من عبادة الله وحده لا شريك له، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء، والرسل برآء منها، كما قال: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُبَيِّنُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ كقولته: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧]. ثم بين كيفية فصله يوم القيامة فى حكمه وعدله فقال:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

وهذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل فى الآية الأخرى، وهى قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ [النمل: ٨٩]، وقد وردت الأحاديث مطابقة لهذه الآية، كما روى الإمام أحمد . عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ، فيما يروى عن ربه، تبارك وتعالى: «إن ربكم عز وجل رحيم، من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرةا إلى سبعمائة، إلى أضعاف كثيرة. ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له واحده، أو يحوها الله، عز وجل، ولا يهلك على الله إلا هالك». ورواه البخارى، ومسلم، والنسائى (١). وروى الإمام أحمد أيضاً: عن أبى ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله، عز وجل: من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد. ومن عمل سيئة فجزاؤه مثلها أو أغفر. ومن عمل قرأب الأرض خطيئة ثم لقينى لا يشرك بى شيئا جعلت له مثلها مغفرة. ومن اقترب إلى شبراً اقتربت إليه ذراعاً، ومن اقترب إلى ذراعاً اقتربت إليه باعاً، ومن أتانى يمشى أتيت هزولته». رواه مسلم وابن ماجه . وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرةا. ومن هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب عليه شيء، فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة» (٢).

(١) المسند (٢٥١٩) . ورواه قبل ذلك مختصراً (٢٠٠١) .

(٢) إسناده صحيح . وذكره الهيمى فى الزوائد (١٤٥/١٠) وقال : « رواه أبو يعلى ، ورجاله رجال الصحيح » .

واعلم أن تارك السيئة الذى لا يعملها على ثلاثة أقسام: تارة يتركها لله ، فهذا تكتب له حسنة على كفه عنها لله تعالى، وهذا عمل ونية؛ ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة، كما جاء فى بعض ألفاظ الصحيح: «فإنما تركها من جرّائى» ، أى: من أجلى. وتارة يتركها نسياناً وذُهوراً عنها، فهذا لا له ولا عليه؛ لأنه لم يتو خيراً ولا فعل شراً. وتارة يتركها عجزاً وكسلاً عنها بعد السعى فى أسبابها والتلبس بما يقرب منها، فهذا بمنزلة فاعلها، كما جاء الحديث فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال: « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار». قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» (١) .

وروى الإمام أحمد عن خُرَيْمِ بن فاتك الأسدى؛ أن النبى ﷺ قال: «الناس أربعة، والأعمال ستة. فالناس مُوسِعٌ له فى الدنيا والآخرة، وموسع له فى الدنيا مَقْتُورٌ عليه فى الآخرة، ومقتور عليه فى الدنيا موسع له فى الآخرة، وشَقِيٌّ فى الدنيا والآخرة. والأعمال مُوجِبَتان، ومثل بمثل، وعشرة أضعاف، وسبعمائة ضعف؛ فالموجبتان من مات مُسْلِماً مؤمناً لا يشرك بالله شيئاً وَجِبَتْ له الجنة، ومن مات كافراً وجبت له النار. ومن همَّ بحسنة فلم يعملها، فعلم الله أنه قد أشعرها قَلْبَهُ وحرَّص عليها، كتبت له حسنة. ومن هم بسبيئة لم تكتب عليه، ومن عملها كتبت واحدة ولم تضاعف عليه. ومن عمل حسنة كانت له بعشرة أمثالها. ومن أنفق نفقة فى سبيل الله، عز وجل، كانت له بسبعمائة ضعف». ورواه الترمذى والنسائى ببعضه (٢) .

وروى ابن أبى حاتم عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبى ﷺ قال: « يحضر الجمعة ثلاثة نفر: رجل حضرها بلغو فهو حَظُّهُ منها، ورجل حضرها بدعاء، فهو رجل دعا الله، فإن شاء أعطاه، وإن شاء منعه، ورجل حضرها بإنصات وسكوت ولم يتَحَطَّ رَقَبَةً مسلم ولم يؤذ أحداً، فهي كفارة له إلى الجمعة التى تليها وزيادة ثلاثة أيام؛ وذلك لأن الله يقول: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾» (٣) . وعن أبى ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: « من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله». رواه الإمام أحمد - وهذا لفظه - والنسائى، وابن ماجه، والترمذى ، وزاد: «فأنزل الله تصديق ذلك فى كتابه: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ اليوم بعشرة أيام»، ثم قال: هذا حديث حسن . والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جداً، وفيما ذكر كفاية ، إن شاء الله ، وبه الثقة .

(١) البخارى (١ / ١٨ ، و ١٢ / ١٧٣ فتح) ومسلم (٢ / ٣٦٢) كلاهما من حديث أبى بكره . وقد مضى بنحوه عند تفسير الآيات: (٢٧ - ٣١) من سورة المائدة من رواية أخرى للشيخين أيضا عن أبى بكره بلفظ : « إذا تواجه المسلمان » .

(٢) المسند (٤ / ٣٤٥ حلى) . وهو حديث صحيح .

(٣) إسناده صحيح . ورواه أيضا أحمد فى المسند (٢٠٢ - ٧٠) . ورواه قبل ذلك مختصراً (١٠٦٧) ، وفضلنا تخريجه هناك .

﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَ دِينِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهِ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

يقول تعالى أمراً لنبيه ﷺ سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم به عليه من الهداية إلى صراط المستقيم، الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ أي: قائماً ثابتاً ﴿مِثْلَ دِينِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كقوله: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لَأَنْعَمَهُ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

وليس يلزم من كونه عليه السلام أمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها؛ لأنه، عليه السلام، قام بها قياماً عظيماً، وأكملت له إكمالاً تاماً لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال؛ ولهذا كان خاتم الأنبياء، وسيد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق كلام، حتى إبراهيم الخليل، عليه السلام. وقد روى ابن مردويه عن ابن أبي عمير، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «أصبحنا على ملة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» (١). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله تعالى؟ قال: «الحنيفية السمحة» (٢). وروى أحمد عن عائشة، قالت: وضع رسول الله ﷺ ذقني على منكبيه، لأنظر إلى زفن الحبيشة، حتى كنت التي مللت فانصرفت عنه. قال لى عروة: إن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ يومئذ: «لتعلم يهود أن في ديننا فسحة»، إني أرسلت بحنيفية سمحة» (٣). أصل الحديث مُخَرَّجٌ في الصحيحين، والزيادة لها شواهد من طرق عدة، وقد استقصيت طرقها في شرح البخاري، والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: يأمره تعالى أن يخبر المشركين - الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه - أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] أي: أخلص له صلاتك وذبيحتك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص

(١) إسناده صحيح . (٢) المسند (٢١٠٧) . وإسناده صحيح .

(٣) المسند (١١٦ / ٦ حلى) . وإسناده صحيح . وقد مضت الإشارة إليه مختصراً عند تفسير الآية : (٢٨٦)

الله تعالى .

وقوله : ﴿وَأَنَا أَوْلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال قتادة: أى من هذه الأمة . وهو كما قال ، فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام ، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له ، كما قال : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ، وقد أخبر تعالى عن نوح أنه قال لقومه : ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢] ، وقال تعالى : ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢] ، وقال يوسف ، عليه السلام : ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] ، وقال موسى : ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ . فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: ٨٤-٨٦] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ الآية [المائدة: ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿وَأُوحِيَ إِلَى الْهُودِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١] .

فأخبر الله تعالى أنه بعث رسله بالإسلام ، ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التى ينسخ بعضها بعضاً ، إلى أن نسخت بشريعة محمد ﷺ التى لا تنسخ أبد الأبدين ، ولا تزال قائمة منصوره ، وأعلامها منشورة إلى قيام الساعة ؛ ولهذا قال عليه السلام : « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد » (١) . فإن أولاد العلات : هم الأخوة من أب واحد وأمها شتى ، فالدين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وإن تنوعت الشرائع التى هى بمنزلة الأمهات ، كما أن إخوة الأخياف عكس هذا : بنو الأم الواحدة من آباء شتى ، والإخوة الأعيان : الأشقاء من أب واحد وأم واحدة ، والله أعلم .

وقد روى الإمام أحمد عن على رضى الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا كبر استفتح ، ثم قال : ﴿وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩] ، ﴿إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوْلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ ، اللهم أنت الملك ، لا إله إلا أنت ، أنت ربى وأنا عبدك ، ظلمت نفسى واعترفت بذنبي ، فاغفر لى ذنوبى جميعاً ، لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق ، لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها ، لا يصرف عني سيئها إلا أنت ، تباركت وتعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك . ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله فى الركوع والسجود والتشهد . وقد رواه مسلم فى صحيحه (٢) .

(١) مضى مراراً ، آخرها عند تفسير الآيات : (٤٨ - ٥٠) من سورة المائدة .

(٢) المسند (٧٢٩) وصحيح مسلم (١ / ٢١٥) والملحى لابن حزم (٤ / ٩٥ ، ٩٦) بتحقيقنا .

﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِي رِبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرْ
وَأَزْرَهُ وَزَرَّ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه: ﴿أَغْيَرَ اللَّهُ آبِي رِبًّا﴾ أى: أطلب ربا سواه، وهو رب كل شيء، يرينى ويحفظنى ويكلونى ويدبر أمرى، أى: لا أتوكل إلا عليه، ولا أنيب إلا إليه؛ لأنه رب كل شيء ومليكه، وله الخلق والأمر. فهذه الآية فيها الأمر بإخلاص التوكل، كما تضمنت الآية التى قبلها إخلاص العبادة له لا شريك له. وهذا المعنى يقرون بالآخر كثيراً فى القرآن، كقوله تعالى مرشداً لعباده أن يقولوا له: ﴿يَاكَ نَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥٠]، وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، وقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، وأشباه ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ إخبار عن الواقع يوم القيامة فى جزاء الله تعالى وحكمه وعدله، أن النفوس إنما تجازى بأعمالها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد. وهذا من عدله تعالى، كما قال: ﴿وَأَن تَدْعُ مَثَلَةً إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، وقوله: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، قال العلماء بالتفسير: أى فلا يظلم بأن يُحمل عليه سيئات غيره، ولا يهضم بأن ينقص من حسناته. وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينًا. إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٨، ٣٩]، معناه: كل نفس مرتهنة بعملها السيئ إلا أصحاب اليمين، فإنه قد تعود بركات أعمالهم الصالحة على ذرياتهم وقرباتهم، كما قال فى سورة الطور: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الآية: ٢١] (١)، أى: أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ فى المنزلة الرفيعة فى الجنة، وإن لم يكونوا قد شاركوهم فى الأعمال، بل فى أصل الإيمان ﴿وَمَا أَلْتَنَاهُمْ﴾ أى: أنقصنا أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئاً حتى ساويناهم وهؤلاء الذين هم أنقص منهم فى المنزلة، بل رفعهم تعالى إلى منازل الآباء بركة أعمالهم، بفضلهم ومثته، ثم قال: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينًا﴾ [الطور: ٢١] أى: من شر. وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أى: اعملوا على مكاتبتكم، إنا عاملون على ما نحن عليه، فستعرضون ونعرض عليه، وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم، وما كنا نختلف فيه فى الدار الدنيا، كما قال: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ. قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبا: ٢٥، ٢٦].

(١) ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فى الموضعين فى هذه الآية من سورة الطور - بالجمع - هى قراءة ابن عامر وأبى عمرو، من السبعة . وبها كتب الحافظ المؤلف فى هذا الموضع، كما ثبت فى المخطوطتين . وقراءة حفص وغيره ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فى الموضعين ، بالإفراد .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ خَلِيفَةً وَأَنْتُمْ عَلَىٰهَا قَائِمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ خَلِيفَةً ﴾ أى: جعلكم تعمرون الأرض جيلا بعد جيل، وقرنا بعد قرن، وخلفنا بعد سلف. قاله ابن زيد وغيره، كما قال: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٠] ، وكقوله: ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ [النمل: ٦٢] ، وقوله: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠] ، وقوله: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الاعراف: ١٢٩] . وقوله: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ أى: فارت بينكم فى الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمساوى، والمناظر والأشكال والألوان، وله الحكمة فى ذلك، كقوله: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣٢] ، وقوله: ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ قَضَلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٢١] .

وقوله: ﴿ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ أى: ليختبركم فى الذى أنعم به عليكم وامتحانكم به، ليختبر الغنى فى غناه ويسأله عن شكره، والفقير فى فقره ويسأله عن صبره. وقد روى مسلم عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حُلوة خَضِرَةٌ وإن الله مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَظَرُ مَاذَا تَعْمَلُونَ ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء » (١) . وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ : ترهيب وترغيب، أن حسابه وعقابه سريع فيمن عصاه وخالف رسله ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن والاه واتبع رسله فيما جاؤوا به من خبر وطلب .

وكثيرا ما يقرن تعالى فى القرآن بين هاتين الصفتين، كما قال ﴿ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩ ، ٥٠] ، وقوله: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الرعد: ٦] وغير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها ، والقيامة وأهوالها، وتارة بهذا وهذا ؛ لينجع فى كُلِّ بَحْسِهِ . جَعَلْنَا اللهُ مِنْ أَطَاعِهِ فِيَمَا أَمْرٌ، وَتَرَكَ مَا عَنْهُ نَهَىٰ وَزَجَرَ، وَصَدَقَهُ فِيَمَا أَخْبَرَ، إِنَّهُ قَرِيبٌ مَجِيبٌ سَمِيعُ الدُّعَاءِ،

(١) صحيح مسلم (٢ / ٣٢١) . والذى فيه : « فينظر كيف تعملون » .

جواد كريم وهاب . وقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طَمِعَ بالجنة أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قَنَطَ من الجنة أحد ، خلق الله مائة رَحْمَةٍ فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها ، وعند الله تسعة وتسعون [رحمة] » . ورواه الترمذى وقال : حسن . ورواه مسلم (١) .

آخر تفسير سورة الأنعام والحمد لله والمنة (٢)

(١) المسند (١٠٢٨٥) ومسلم (٢ / ٣٢٥) ، ولكن ليس عنده قوله : « خلق الله مائة رحمة ... » . ولكنه ثابت عنده بمعناه (ص ٣٢٤) من وجه آخر من حديث أبي هريرة .
(٢) هنا بهامش المخطوطة العتيقة ما نصه : « آخر الجزء الثانى من تفسير سورة الأنعام ، من خط المؤلف ، عفا الله عنه » . وبهامشه أيضا : « بلغ مقابلة بالأصل » .

فهرس الموضوعات

الصفحة

الموضوع

٥	مقدمة
٩	منهج الاختصار
١٤	كلمات لابن كثير بشأن الإسرائيليات
١٧	كلمة عظيمة لابن عباس فى التنفير منها
١٨	صفة مخطوطة الأزهر من تفسير ابن كثير ، وهى التى اعتمدها فى التصحيح
٢٣	ترجمة الحافظ ابن كثير
٢٧	حوادث هامة شخصية لابن كثير ، مقتبسة من تاريخه الكبير
٣٠	مؤلفاته
٣٢	مصادر الترجمة
٣٣	الصفحة الأولى من مخطوطة الأزهر من تفسير ابن كثير
٤١	خطبة الحافظ ابن كثير
٤٢	أحسن طرق التفسير : بالكتاب ثم بالسنة
٤٣	ثم تأتى أقوال الصحابة
٤٤	أحسن ما يكون فى حكاية الخلاف
٤٤	فصل : فى آراء التابعين
٤٥	تفسير القرآن بمجرد رأى حرام
٤٥	أما فى عصرنا : فهؤلاء الذين يلعبون ويعبثون ، تبعاً لاهواء سادتهم ومعلميهم
٤٧	مقدمة الحافظ ابن كثير
٤٧	معنى « السورة » و « الآية »
٤٨	فصل : ليس فى القرآن أعجمى إلا الأعلام

سورة الفاتحة (١)

٤٩	ذكر فضل الفاتحة
٥١	تفاضل بعض الآيات والسور على بعض
٥٢	قراءة الفاتحة فى الصلاة
٥٤	الاستعاذة
٥٥	فصل : فى معنى « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم »
٥٦	البسملة : وهل هى آية من كل سورة ؟

- ٥٨ فصل: فى فضلها، والبء فى تفسيرها
- ٦١ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إلى آخر الفاتحة
- ٦٩ فصل: فى إجمال معانى الفاتحة
- ٧٠ فصل: فى استحباب « آمين » عقبها

سورة البقرة (٢)

- ٧٢ ذكر ما ورد فى فضلها
- ٧٣ ذكر ما ورد فى فضلها مع آل عمران
- ٧٤ ما ورد فى فضل السبع الطول
- ٧٥ البء فى تفسير سورة البقرة
- ٧٥ الكلام فى الحروف المقطعة فى أوائل السور
- ٧٦ أول البقرة بعد الحروف المقطعة
- ٨٢ معنى ختم الله على القلوب والأسماع، والرد على الزمخشري فى اعتزله
- ٨٣ النفاق والمنافقون وصفاتهم
- ٨٩ المؤمنون صنفان، والكافرون صنفان، والمنافقون صنفان
- ٩٠ الدلالة على وحدانية الله وألوهيته بما خلق من الخلق
- ٩٢ التحدى بإعجاز القرآن
- ٩٣ كلام عظيم لابن كثير فى وجوه الإعجاز
- ٩٥ ريع: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ﴾
- ٩٦ ضرب الأمثال فى القرآن
- ١٠٠ خلق آدم وكلام الملائكة
- ١٠٣ أمر الله الملائكة بالسجود
- ١٠٤ أكل آدم وزوجه من الشجرة، والتنديد بمن يزعم أن حواء خدعت آدم
- ١٠٦ أمر بنى إسرائيل بالدخول فى الإسلام، وأنهم يكتمون الحق
- ١٠٨ ريع: ﴿ أَنَا مُرُونَ النَّاسَ بِالنَّبِيِّ ﴾
- ١٠٩ الاستعانة بالصبر والصلاة
- ١١٢ تذكير اليهود بنعم الله عليهم، والنعم عليهم فى كفرهم أولاً وآخرأ
- ١١٧ فضيلة أصحاب محمد ﷺ فى ثباتهم وصبرهم
- ١١٩ ريع: ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى ﴾
- ١٢٠ اليهود: ضربت عليهم الذلة والمسكنة
- ١٢٤ قصة البقرة التى أمروا بذبحها، وتعنتهم ثم قسوة قلوبهم
- ١٢٧ ريع: ﴿ أَلَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾
- ١٣٦ ريع: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ﴾

- ١٣٨ اليهود : أحرص الناس على حياة _____
- ١٤٠ عداوتهم للملائكة _____
- ١٤٢ ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ _____
- ١٤٦ ذكر الحديث الوارد فى قصة هاروت وماروت . وبيان أنه حديث لا أصل له _____
- ١٤٨ تكفير من تعلم السحر، وأن حد السحر القتل _____
- ١٥٠ الكلام فى شأن السحر، وبعض أنواعه _____
- ١٥٢ ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ _____
- ١٥٣ ريع: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾ ، وأحكام النسخ _____
- ١٥٦ النهى عن كثرة الأسئلة _____
- ١٥٨ غرور اليهود والنصارى ، وتبادلهم المطاعن _____
- ١٦٢ بدء الكلام فى شأن القبلة _____
- ١٦٤ تنزيه الله سبحانه عن اتخاذ ولد _____
- ١٦٧ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ _____
- ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ والنعمى على حال المسلمين اليوم فى التقرب
إلى أولئك واصطناع تشريعاتهم وقوانينهم الوثنية _____
- ١٦٨ ريع: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ﴾ ، وما الكلمات التى ابتلى بها إبراهيم _____
- ١٧٠ مقام إبراهيم _____
- ١٧٢ بناء إبراهيم وإسماعيل الكعبة المشرفة، وتحريم مكة _____
- ١٧٤ قصة إبراهيم وإسماعيل وهاجر ، من صحيح البخارى _____
- ١٧٩ ذكر بناء قريش الكعبة بعد إبراهيم الخليل وقبل البعثة بخمس سنين _____
- ١٨١ دعوة إبراهيم يبعث الرسول الأمين محمد ﷺ _____
- ١٨٥ وصية يعقوب لنيه _____
- ١٨٧ الجزء - ٢: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ _____
- ١٩٠ شأن نسخ القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة _____
- ١٩١ ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ _____
- ١٩٧ من يقتل فى سبيل الله أحياء _____
- ١٩٩ البشرى للصابرين الذين يسترجعون _____
- ٢٠١ ريع: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ _____
- ٢٠٢ الوعيد على كتمان البيئات والهدى _____
- ٢٠٤ الآيات فى خلق السموات والأرض ... إلخ _____
- ٢٠٤ الذين آمنوا أشد حياءً لله _____
- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالًا طَيِّبًا... مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٦٩) وفيهما : الأمر بأكل الحلال ،
والنهى عن اتباع الشيطان _____
- ٢٠٦

- ٢٠٦ إصرار الكفار على تقليد آبائهم
- ٢٠٧ الأمر بأكل الطيبات ، وبيان المحرمات
- ٢٠٨ أهل الكتاب يكتمون ما أنزل الله ويأكلون فى بطونهم النار
- ٢١٠ ريع : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ ﴾
- الأعمال التى هى البر . وما اشتملت عليه هذه الآية الكريمة ، من الجمل العظيمة ، والقواعد العميقة ، والعقيدة المستقيمة
- ٢١٠ العميقة ، والعقيدة المستقيمة
- ٢١٢ القصاص فى القتل
- ٢١٤ آية الوصية
- بيان صحة حديث « لا وصية لوارث » ، وما ابتدعه أهل هذا العصر ، من إجازة الوصية للوارث ، جراً ، واتباعاً للأهواء
- ٢١٤
- ٢١٧ آيات الصوم
- حديث معاذ : « وأحيل الصيام ثلاثة أحوال »
- ٢١٨ من تجب عليه الفدية ، ونسخها فى حق الصحيح غير المسافر
- ٢١٩ شهر رمضان ووجوبه
- ٢٢٠
- ٢٢١ الصوم والقطر فى السفر
- ٢٢٣ الله سبحانه قريب يجيب دعوة الداعى
- ٢٢٥ من أحكام الصيام
- ٢٢٧ بيان الفجر ، وسنة السحور
- ٢٢٩ تعجيل القطر ، والنهى عن الوصال
- ٢٣٠ ﴿ وَلَا تَبْشُرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾
- النهى عن أكل الأموال بالباطل ، وأن قضاء القاضى لا يحل حراماً ، ولا يحق باطلا
- ٢٣١ ريع : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ ﴾
- ٢٣٢ الأمر بالقتال حتى لا تكون فتنة ، والنهى عن الاعتداء
- ٢٣٣ الشهر الحرام ، ومقابلة العدوان بالمثل
- ٢٣٥ الإنفاق فى سبيل الله ، وبيان أن الإلقاء باليد فى التهلكة إنما هو الضن بالنفقة فى سبيل الله
- ٢٣٦
- ٢٣٧ آيات الحج والعمرة ، وأحكام الإحصار والهدى
- ٢٤٠ التمتع بالعمرة إلى الحج
- ٢٤٢ أشهر الحج وما نهى عنه فيه
- ٢٤٦ الإفاضة من عرفات
- الأمر بالإكثار من الذكر بعد قضاء المناسك والدعاء بخيرى الدنيا والآخرة
- ٢٥٠ ريع : ﴿ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ﴾
- ٢٥٢ من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، وإذا تولى أفسد فى الأرض
- ٢٥٣

٨٥٧	فهرس الموضوعات
٢٥٥	الأمر بالدخول فى السلم
٢٥٦	بنو إسرائيل وكفرهم
٢٥٧	سخرية الكفار من المؤمنين . وهم فوقهم يوم القيامة
٢٥٨	﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾
٢٥٨	هداية الله المؤمنين لما اختلف فيه أهل الكتاب من الحق بإذنه
٢٥٩	امتحان الله للمؤمنين بالبأساء والضراء
	مواضع الإنفاق الصحيحة المشروعة . ما ذكر فيها طبلا ولا مزماراً ، ولا تصاویر الخشب ، ولا
٢٦٠	كسوة الحيطان
٢٦٠	﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾
٢٦٢	ربع : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾
٢٦٣	مصارف النفقات
٢٦٤	أموال اليتامى ومخالطتهم فيها
٢٦٤	تحريم نكاح الشركات وإنكاح المشركين
٢٦٦	أحكام الحيض
٢٦٨	الحرث موضع الولد
٢٧٢	﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ ﴾
٢٧٤	أحكام الإيلاء
٢٧٥	العدة من الطلاق وأحكامها
٢٧٨	الطلقتان الأوليان ، والثالثة الباتة ، وأحكام الخلع
٢٧٩	« المختلعات هن المناقات » إذا لم يكن عن سبب صحيح
٢٨١	المتوتة تحل للأول بعد دخول الثانى بها
	يجب أن يكون الثانى راغباً فيها قاصداً دوام عشرتها ، أما المحلل بقصد التحليل فإنه ملعون ،
٢٨٢	ولا يحلها ذلك للأول
٢٨٤	الإمساك بالمعروف أو التسريح بالإحسان
٢٨٥	النهى عن عضل المرأة ، ودلالة ذلك على أن المرأة لا تزوج نفسها
	صحة حديث : « لا نكاح إلا بولي » . ويبان أثر تزويج النساء أنفسهن فى عصرنا ، وما دمر
٢٨٦	من الأخلاق والآداب والأعراض
٢٨٧	ربع : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾
٢٨٩	عدة المتوفى عنها زوجها
٢٩٠	جواز التعريض بالخطبة للمتوفى عنها فى عدتها دون التصريح
٢٩١	جواز الطلاق بعد العقد وقبل الدخول
٢٩٤	الصلاة الوسطى ، وتحقيق أنها العصر
٢٩٨	صلاة الخوف

- ٣٠١ المتعة للمطلقات وللمتوفى عنها
- ٣٠١ ربع : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ قصة بنى إسرائيل فى طلبهم ملكا ليقاتلوا فى سبيل الله . وبعث الله طالوت ملكا عليهم
- ٣٠٤ ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾
- ٣٠٦ الجزء - ٣ : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾
- ٣٠٨ آية الكرسي ، ولها شأن عظيم
- ٣١١ اشتمال آية الكرسي على عشر جمل مستقلة
- آيات الصفات ، الأجود فيها طريقة السلف الصالح : أمرها كما جاءت ، من غير تكيف ولا
- ٣١٣ تشبيه
- ٣١٣ لا إكراه فى الدين
- ٣١٤ العروة الوثقى
- ٣١٥ قصة إبراهيم مع الملك فى عصره ، وإقامته الحجة عليه ﴿ قُبِهُتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾
- ٣١٦ الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه
- ٣١٨ طلب إبراهيم رؤية إحياء الموتى
- ٣١٩ مضاعفة الأجر فى النفقة فى سبيل الله إلى سبعمائة ضعف فأكثر
- ٣٢٠ ربع : ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ ﴾
- ٣٢٢ مثل الغنى الذى عمل بطاعة الله ، ثم عمل المعاصى حتى أغرق أعماله
- ٣٢٣ الأمر بالتصدق من الطيبات
- ٣٢٥ ﴿ يُؤْتَى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ﴾
- ٣٢٦ الصدقة فى الإعلان وفى الأسرار
- ٣٢٧ ربع : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾
- ٣٣٠ تحريم الربا ، والتنديد بمن يعترض على أحكام الله ، بأن البيع مثل الربا
- ٣٣٣ بيان ما ابتليت به أكثر البلاد المنتسبة للإسلام بالقوانين الوثنية ، تبيح الربا والعقود الباطلة
- ٣٣٥ الإسلام قول وعمل ، وسمع وطاعة
- ٣٣٥ إيدان المتعاملين بالربا بحرب من الله ورسوله
- ٣٣٦ إن الله لم يتوعد فى القرآن بالحرب على معصية غير الربا
- ٣٣٨ آية الدين إلى أجل مسمى ، وهى أطول آية فى القرآن
- ٣٤٣ ربع : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا ﴾
- ٣٤٣ الرهن فى الدين فى السفر
- ٣٤٤ ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَافُكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾
- ٣٤٦ ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ ﴾ الآيتان من آخر سورة البقرة
- ٣٤٩ آخر تفسير سورة البقرة

سورة آل عمران (٣)

- ٣٥١ المحكم والمتشابه
- ٣٥٤ معنى « التأويل »
- ٣٥٧ ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتُونَ وَتَحْشُرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ﴾
- ٣٥٨ المؤمنون والكافرون فى موقفهم يوم بدر
- ٣٥٨ ﴿ زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾
- ٣٦١ ربيع : ﴿ قُلْ أَوْثَقِكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ ﴾
- ٣٦٣ ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾
- ٣٦٣ الذين يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولون
- ٣٦٤ ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾
- ٣٦٥ النهى عن موالة الكافرين . ومعنى التقية
- ٣٦٦ من ادعى محبة الله غير متبع الشرع المحمدى - فهو كاذب
- ٣٦٧ ربيع : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ ﴾
- ٣٦٨ ابتداء قصة مريم وأهلها
- ٣٦٩ دعاء زكريا والبشرى بولادة يحيى . ومعنى « الحصور » ، وتنزيه الأنبياء عن النقائص
- ٣٧٠ العود إلى قصة مريم ، ثم تبشيرها بالمسيح
- ٣٧٢ إرسال عيسى إلى بنى إسرائيل ، وما أعطى من الآيات
- ٣٧٤ ربيع : ﴿ لَللَّهِ أَحْسَنُ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾
- ٣٧٥ رفع عيسى حيا ، وإقامة الدلائل على ذلك
- ٣٧٦ دخول قسطنطين فى النصرانية ليفسدها ، حتى « صار دين المسيح دين قسطنطين »
- ٣٧٦ المسلمون هم المؤمنون بالمسيح حقا ، وهم أتباعه الصادقون العارفون به
- ٣٧٦ فتح القسطنطينية - المبشر به - سيكون فى المستقبل ، حين يعود المسلمون إلى دينهم
- ٣٧٧ ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾
- ٣٧٨ سبب نزول آية المباهلة
- ٣٧٩ ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ﴾
- الإنكار على اليهود والنصارى فى محاجتهم فى إبراهيم الخليل جهلا بغير علم . وأن أولى
- ٣٨٠ الناس به أتباعه ومحمد والمؤمنون
- ٣٨١ أهل الكتاب وضلالهم وإضلالهم ونفاقهم
- ٣٨٢ ربيع : ﴿ وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ يَقْتَارِ ﴾
- ٣٨٤ الذين لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة
- فريق من أهل الكتاب يحرفون الكلم . وبيان أن التوراة والإنجيل دخلهما التبديل والتحريف
- ٣٨٥ والزيادة والنقص
- ٣٨٥ الانبياء والرسل لا يأمرؤن إلا بعبادة الله وحده

- أخذ الميثاق على الأنبياء بالإيمان بالمرسل من بعدهم ونصرته _____ ٣٨٧
- ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ _____ ٣٨٧
- الوعيد الشديد لمن يكفر بعد الإيمان _____ ٣٨٨
- ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ _____ ٣٩٠
- الجزء - ٤ : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِيَّيْنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ _____ ٣٩٠
- أول بيت وضع للناس ، وفرض الحج ، وحرمة مكة _____ ٣٩٢
- قال لنسائه فى حجته : « هذه ثم ظهور الحصر » . وانظر ما يصنع النساء المنسوبات للإسلام
- من السفر دون محرم سافرات عاصيات ماجنات _____ ٣٩٥
- ﴿ إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ _____ ٣٩٦
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر _____ ٣٩٩
- ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ _____ ٤٠١
- ربع : ﴿ تَسُوا سِوَاءَ ﴾ _____ ٤٠٤
- فائدة : فى اختلاف عبارات الصحابة وعبارات الرواة فى أسباب النزول _____ ٤٠٥
- أهل الذمة لا يجوز استعمالهم فى الامور العامة - كالكتابة - التى فيها استتالة على المسلمين
- واطلاع على دواخل أمورهم _____ ٤٠٧
- الآيات فى وقعة يوم أحد _____ ٤٠٨
- تحريم الربا _____ ٤١٣
- ربع : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ _____ ٤١٣
- اللاعبون بالدين وأولياؤهم من عابدى التشريع الوثنى الاجنبى _____ ٤١٣
- كروية الأرض كانت معروفة لعلماء الإسلام قبل أن تخطر ببال الإفرنج _____ ٤١٥
- ﴿ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ ﴾ _____ ٤١٦
- قبول ربنا عز وجل التوبة والاستغفار _____ ٤١٧
- هزيمة المسلمين يوم أحد ، وجزعههم إذ ظنوا أن رسول الله ﷺ قتل _____ ٤١٨
- ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤْتًى ﴾ _____ ٤٢١
- ﴿ إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَقْلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ _____ ٤٢٢
- ربع : ﴿ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ ﴾ _____ ٤٢٢
- وقوع المسلمين فى هذه العصور الأخيرة ، فيما نهاهم الله عنه من طاعة الكفار _____ ٤٢٣
- بقية قصة يوم أحد _____ ٤٢٣
- بيان لعب اللاعبين بالدين فى هذا العصر بآبى المشاورة ، وزعمهم أنها الاكذوبة التى يسمونها
- « الديمقراطية » _____ ٤٣٢
- بيان أن أهل الشورى هم الرجال الصالحون القائمون على حدود الله ، المتقون لله - الخ _____ ٤٣٢
- التشديد فى النهى عن الغلول _____ ٤٣٣
- بقية الكلام فى وقعة يوم أحد _____ ٤٣٦

- ٤٣٧ الشهداء وما لهم من رفيع المنزلة
- ٤٣٧ ربيع : ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ ﴾
- ٤٣٧ إذا غلبك أمر فقل : حسبي الله ونعم الوكيل
- ٤٤٢ ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾
- ٤٤٣ البخل وما فيه من الوعيد
- ٤٤٤ لعن الله اليهود ، إذ زعموا أن الله فقير
- ٤٤٥ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾
- ٤٤٥ ربيع : ﴿ تَتْلُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾
- ٤٤٧ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْفُرُوا بِهِ ﴾
- ٤٤٩ ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾
- ٤٥١ ﴿ لَا يَغْرَبُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾
- ٤٥٢ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾

سورة النساء (٤)

- ٤٥٥ ربيع : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ وهو أول السورة
- ٤٥٦ إيتاء أموال اليتامى والنهي عن أكلها
- ٤٥٧ لا يجوز الجمع في النكاح بين أكثر من أربع زوجات
- بحث نفيس في تعدد الزوجات ، وبيان أن محاولة منعه بالقانون أو تقييده كفر وكذب
- ٤٥٨ على الله
- ٤٦٢ دفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا راشدين ، والنهي عن دفعها للفساء
- ٤٦٥ توريث الرجال والنساء ، وإيتاء من حضر القسمة من أولى القربى واليتامى والمساكين
- ٤٦٦ الوصية لا تزيد على الثلث
- ٤٦٧ تفصيل بعض الفرائض
- ٤٧١ ربيع : ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ ﴾
- ٤٧٣ الوعيد الشديد لمن تعدى حدود الله في الوصية والميراث
- ٤٧٣ بيان كفر المطالبين بمساواة المرأة بالرجل في الميراث
- ٤٧٤ الحكم الذي كان في ابتداء الإسلام في شأن الزنا
- ٤٧٥ التوبة مقبولة إلى ما قبل الغرغرة
- ٤٧٦ النهي عن عضل النساء
- ٤٧٧ « خيركم خيركم لأهله »
- من إجرام القوانين الوثنية : أن لا يحكم بقتل رجل زنا بامرأة أبيه، ثم ائتمر معها فقتلا
- الأب - فلم يعاقبا على هاتين الجريمتين المنكرتين بأكثر من الأشغال الشاقة بضع سنين، مما
- ٤٨٠ لا يصنعه رجل مسلم

- ٤٨٠ _____ المحرمات من النساء
- ٤٨٠ _____ الجزء ٥ - ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾
- ٤٨٥ _____ جواز نكاح الإماء لمن لم يجد طول الحرة
- ٤٨٧ _____ النهى عن أكل أموالنا بيننا بالباطل ، وجواز التجارة عن تراض
- ٤٨٩ _____ ﴿ إِن تَجْتَبُوا كِبَارًا مَّا تَنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ ثم البحث فى الكبائر: ما هى ؟
- ٤٩٤ _____ ﴿ وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾
- ٤٩٥ _____ البيان عن الكذابين المفتريين ، الذين يخرجون المرأة عن خدرها ، ويكشفون سترها
- ٤٩٦ _____ « لا حلف فى الإسلام »
- الرد على ابن جرير فى زعمه أن قوله : ﴿ فَآتَوْهُمْ نَصِيحَهُمْ ﴾ غير منسوخ . لادعائه أن ليس المراد
- ٤٩٨ _____ بالنصيب الميراث
- ٤٩٩ _____ ﴿ الرَّجَالُ قَوَامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾
- ٥٠٠ _____ الرد على عدوان النساء وأشباههن من الرجال
- ٥٠٢ _____ ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ﴾
- ٥٠٣ _____ ربيع : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾
- ٥٠٤ _____ الوصاة بالجار
- ٥٠٥ _____ الوصاة بالرقيق
- ٥٠٧ _____ التنديد بالرياء ، وقوله لعدى بن حاتم : « إن أبك أراد أمراً فبلغه »
- ٥٠٨ _____ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا ﴾
- ٥٠٨ _____ ﴿ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾
- ٥١٠ _____ ﴿ لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾
- ٥١٣ _____ شرع التيمم
- ٥١٣ _____ تحقيق القول بأن لمس المرأة لا تنقض الوضوء
- ٥١٥ _____ التيمم
- ٥١٦ _____ صفة التيمم
- ٥١٩ _____ اليهود - عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة - يشترون الضلالة بالهدى
- ٥٢٠ _____ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾
- ٥٢٢ _____ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾
- ٥٢٦ _____ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا ﴾
- ٥٢٦ _____ ربيع : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرِكُمْ أَنْ تُوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾
- ٥٢٨ _____ ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ ﴾
- ٥٣١ _____ ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ﴾
- ٥٣٣ _____ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾

- آخر ، جعلوه ديناً للمسلمين بدلا من دينهم النقي السامي
- ٥٣٤ ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾
- ٥٣٧ ربيع : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾
- ٥٣٨ ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ ﴾
- ٥٤٠ ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾
- ٥٤٢ ﴿ أَقْلًا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾
- ٥٤٣ ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْفَلُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾
- ٥٤٤ ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مَنَاسِكُمْ ﴾
- ٥٤٦ ربيع : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ ﴾
- ٥٤٧ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا ﴾
- ٥٤٩ ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾
- ٥٥٥ ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ ﴾
- ٥٥٧ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ﴾
- ٥٦٠ ربيع : ﴿ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مَرَاغِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾
- ٥٦٠ صلاة السفر وصلاة الخوف
- ٥٦٢ صفة صلاة الخوف
- ٥٦٥ الأمر بكثرة ذكر الله عقب صلاة الخوف
- ٥٦٩ ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِصَحِّحِ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾
- ٥٦٩ ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾
- ٥٧٠ ربيع : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ ﴾
- ٥٧٢ ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾
- ٥٧٢ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنَ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾
- ٥٧٦ ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَكَ فِي النَّسَاءِ ﴾
- ٥٨٠ الصلح خير
- ٥٨١ ربيع : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ﴾
- ٥٨٥ وصف المنافقين الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين
- ٥٨٧ المنافقون يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء
- ٥٨٨ ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾
- ٥٨٩ النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين
- ٥٩٢ الجزء - ٦ : ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾
- ٥٩٣ اليهود - لعنهم الله - وتعتهم وعنادهم وعصيانهم
- ٥٩٥ ادعائهم أنهم قتلوا المسيح ﷺ ﴿ وَمَا قُلُوهُ وَمَا صَلُّوهُ وَلَكِنْ شِبْهُ لَهُمْ ﴾
- ٥٩٧ القصص الذي يذكره المفسرون عن رفع عيسى ليس لها سند صحيح من القرآن أو السنة

- الثابتة. والذي نؤمن به هو ما ثبت في القرآن ، دون تفصيل ٥٩٨
 الأحاديث الواردة في نزول عيسى إلى الأرض قبل يوم القيامة ، وهي أحاديث صحيحة متواترة ٦٠٠
 تحريم الله الطيبات على اليهود بسبب ظلمهم ٦٠٦
 ريع : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ ٦٠٨
 ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ ٦١١
 الكلالة ٦١٥

سورة المائدة (٥)

- ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ﴾ ٦٢٤
 ﴿ الْيَوْمَ اكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ ٦٢٨
 الصيد ٦٣٢
 طعام الذين أوتوا الكتاب ونساؤهم ٦٣٥
 بيان أن المنتسبين الآن للنصرانية واليهودية لا يحل طعامهم ، لكفرهم بالأديان
 نساء المنتسبين للنصرانية واليهودية الآن - أكثرهن ليس فيهن عفيفات ، ولسن بمحصنات ، فلا
 يجوز زواجهن . بل كثير من المنتسبين للإسلام ، خاصة الطبقة المتعلمة ، صاروا ملحدين
 لا يؤمنون بالدين . فنكاحهم باطل ، وأنساب ذريتهم مدخولة غير شرعية ٦٣٦
 آية الطهارة : الوضوء ، والغسل ، والتيمم ٦٣٩
 الأحاديث الواردة في غسل الرجلين ٦٤٥
 ثبت بالتواتر مشروعية المسح على الخفين . وقد خالف الروافض في ذلك بجهل وضلال ٦٤٧
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾ ٦٤٩
 ﴿ اْعِدُّوا لَهُ أَقْرَبَ لِلشُّرَى ﴾ ٦٥٠
 ريع : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ٦٥١
 ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعِدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ . وقد حقق الله وعده ، وسيحققه عليهم إلى يوم
 القيامة ٦٥٣
 ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ ٦٥٤
 عصيان اليهود - لعنهم الله - وضربهم بالتيه أربعين سنة ٦٥٧
 ريع : ﴿ وَآتَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ ﴾ ٦٦٢
 هما ابنا آدم لصلبه ، أما تسميتها « قاييل وهاييل » فلم تثبت في كتاب ولا سنة ٦٦٢
 ﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ ٦٦٦
 ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ٦٦٧
 ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ ٦٧٤
 كفر الذين لا يقبلون الحكم بقطع يد السارق ، ويقدمون عليه حكم القوانين الوضعية والوثنية ٦٧٨
 ريع : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ ٦٧٨

- فهرس الموضوعات _____ ٨٦٥
- ٦٨٢ _____ سبب آخر فى نزول هذه الآيات الكرىمات
- ردّ السيد محمود محمد شاكراً على المتلاعبين بالدين فى هذا العصر، الذين يتلمسون المعذرة فى ترك الحكم بما أنزل الله ، وفى القضاء فى الدماء والأعراض والأموال بغير شريعة وفى اتخاذهم قانون أهل الكفر شريعة فى بلاد الإسلام
- ٦٨٤ _____ ﴿ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾
- ٦٨٥ _____ تلاعب الملحدىن فى هذا العصر فى تسميتهم شريعة القصاص « شريعة الغاب » - بكفرهم
- ٦٨٧ _____ والحادهم
- ٦٩٠ _____ ﴿ فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾
- تحقيق صحة حديث ابن عباس فى أن آية التخيير منسوخة، وبيان معناه بأنه يريد بالنسخ التخصيص. وتحقيق أن التخيير ليس فى شأن رعايا الدولة من أهل الكتاب، إنما هو فىمن يتحاكم إلينا منهم ممن لا يدخل فى سلطانتنا
- ٦٩٣ _____
- ٦٩٥ _____ ﴿ أَلْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةَ يَتَّبِعُونَ ﴾
- تحقيق لفظ كلمة « الياسق » وبيان معناها، وهى القانون الباطل الذى وضعه جنكيز خان
- ٦٩٥ _____ « الياسق العصرى » - هو هذه القوانين المقتبسة من قوانين أوربة الوثنية الملحدة
- ٦٩٥ _____ إن الأمر فى هذه القوانين الوضعية واضح ، هى كفر بواح ، لا عذر لأحد يتسبب للإسلام فى العمل بها أو الخضوع لها أو إقرارها
- ٦٩٦ _____
- ٦٩٧ _____ ربيع: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ﴾
- ٦٩٩ _____ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ﴾
- ٧٠٠ _____ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
- ٧٠٢ _____ النهى عن تولى الذين يتخذون ديننا هزواً ولعباً
- ٧٠٣ _____ ﴿ هَلْ تَقِفُونَ مِمَّا إِنْ أَنْ آتَانَا ﴾
- ٧٠٥ _____ ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا ﴾
- ٧٠٨ _____ ربيع: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾
- ٧١٢ _____ ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾
- ٧١٥ _____ ﴿ كَانُوا لَا يَتَّهَوْنَ عَنْ مُنْكَرِ فَعْلُوهُ ﴾
- ٧١٥ _____ الأحاديث فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
- الجزء - ٧ : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾
- ٧١٧ _____
- ٧١٩ _____ ﴿ لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾
- ٧٢١ _____ ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِالْفُحْرِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾
- ٧٢٣ _____ ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾
- ٧٢٤ _____ الأحاديث الواردة فى تحريم الخمر
- ٧٣٠ _____ ﴿ لِيَلْوَنَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ ﴾
- ٧٣٣ _____ نصيحة غالية من عمر بن الخطاب للشباب

بيان عن جزء ثان من تفسير ابن كثير، مخطوط مصور، مقروء على قاضى القضاة الخضيرى،

- ٧٣٥ تلميذ الحافظ ابن حجر
- ٧٣٦ ﴿ أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ ﴾
- ٧٣٩ ربع : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكُفَّةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴾
- ٧٤٠ تكميل فى تفسير آيات ترك الحافظ ابن كثير تفسيرها سهواً . ولخصنا تفسيرها من تفسير الطبرى
- ٧٤٢ ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوَأُكُمْ ﴾
- ٧٤٥ ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ ﴾
- ٧٤٧ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾
- ٧٤٨ ليس فيها دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
- ٧٥٠ ﴿ شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ ﴾
- ٧٥٤ ربع : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ ﴾
- ٧٥٤ معجزات عيسى عليه السلام
- ٧٥٥ سؤال الحوارين نزول مائدة عليهم من السماء
- الرد على من زعم أن المائدة لم تنزل ، بحجة أنها غير معروفة عند النصارى ! وبيان أن
- ٧٥٧ القرآن مهيمن على الكتب السابقة
- ٧٥٨ ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيْ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾
- ٧٥٩ ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾

سورة الأنعام (٦)

- ٧٦١ ﴿ اَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾
- ٧٦٢ المشركون المكذبون مهما أتتهم من آية ومعجزة على وحدانية الله فهم معرضون عنها
- ٧٦٣ لو نزل كتاب فى قرطاس فلمسه المشركون بأيديهم لقالوا : سحر مبین
- ٧٦٤ ربع : ﴿ وَلَهُ مَا مَكَّنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾
- ٧٦٦ الضر والنفع بيده سبحانه ، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه
- ٧٦٧ ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ ﴾
- ٧٦٨ مشهد الكفار يوم القيامة إذا وقفوا على النار وشاهدوا ما فيها
- ٧٦٩ خسارة من كذب بقاء الله ، وعن خيبته إذا جاءت الساعة بغتة
- ٧٦٩ ربع : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَعْطُهُمُ اللَّهُ ﴾
- ٧٧١ ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾
- ٧٧٣ الله تعالى هو المتصرف فى خلقه بما يشاء ولا معقب لحكمه
- ٧٧٤ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾
- ٧٧٥ رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يملك خزائن ربه ولا يعلم الغيب وليس ملكا

- ٧٧٨ ربيع : ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾
- ٧٧٩ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَرَفَّعُ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾
- ٧٨١ تنجية الله تعالى المضطرين والخائرين من المهامه البرية واللجج البحرية
- ٧٨٥ تكذيب قريش بالقرآن واستهزاؤهم به
- ٧٨٦ ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾
- ٧٨٦ المشركون يقولون للمسلمين : اتبعوا سبيلنا واركبوا دين محمد
- ٧٨٩ ربيع : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَّ اتَّخَذَ أَسْمَاءًا آلِهَةً﴾
- ٧٨٩ الجزم بأن « آزر » اسم والد إبراهيم ﷺ وبصريح القرآن الكريم
- ٧٩٢ جدال قوم إبراهيم ﷺ في التوحيد
- ٧٩٤ هبة الله تعالى لإبراهيم : إسحاق ويعقوب عليهم السلام بعد أن طعن هو وزوجته في السن
- ٧٩٦ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾
- ٧٩٨ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾
- ٧٩٩ ربيع : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾
- ٨٠٢ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾
- ٨٠٣ تنزيه الله تعالى عن البنين والبنات والصاحبة
- ٨٠٦ ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾
- ٨٠٧ ﴿اتَّبِعْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾
- ٨٠٨ النهى عن سب آلهة المشركين
- ٨٠٨ ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾
- ٨١٠ الجزء ٨ - ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾
- ٨١٠ جعل الله لكل نبي عدواً من شياطين الإنس والجن
- ٨١٢ ﴿أَفَقِيرَ اللَّهِ أَتَبْنِي حَكْمًا﴾
- ٨١٣ حال أكثر أهل الأرض من بنى آدم الضلال
- ٨١٣ أباح الله لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمه تعالى
- ٨١٤ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾
- ٨١٧ ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِنَّا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾
- ٨١٨ الأنبياء جميعهم ابتلوا بأكابر المجرمين فى قراهم
- ٨٢٠ ﴿فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾
- ٨٢١ ربيع : ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾
- ٨٢٢ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾
- ٨٢٢ ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾
- ٨٢٣ تقرير الله تعالى كافرى الجن والإنس يوم القيامة وسؤاله: هل بلغتكم الرسل لرسالتى
- ٨٢٤ ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا غَافِلُونَ﴾

- ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ ٨٢٥
- ذم وتوبيخ الله تعالى للمشركين الذين جعلوا له جزءاً من خلقه ٨٢٦
- زين للمشركين قتل أولادهم خشية الإملاق ٨٢٧
- ﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتٌ حَجِرٌ لَا يُطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾ ٨٢٧
- ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرْنَا وَمَحْرَمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا ﴾ ٨٢٧
- خسران المشركين الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ٨٢٨
- ربع : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ ٨٢٨
- جهل العرب قبل الإسلام فيما كانوا حرموه على أنفسهم من الأنعام ٨٣١
- ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ ٨٣١
- ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ ﴾ ٨٣٣
- ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾ ٨٣٤
- مناظرة وشبهة ذكرها الله تعالى تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا ٨٣٥
- ربع : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ ٨٣٥
- ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ٨٣٨
- أمر الله تعالى المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة ٨٣٩
- ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ ٨٤٠
- ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ ٨٤١
- ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ ٨٤٢
- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ ٨٤٤
- الحسنة بعشرة أمثالها والسيئة بمثلها ٨٤٥
- ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا ﴾ ٨٤٧
- ﴿ قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ آفِي رِبًا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ٨٤٩
- ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ ٨٥٠
- فهرس الموضوعات ٨٥٣

رقم الإيداع : ٢٠٠٢ / ١٥٣٦١ م

I.S.B.N:977-15-0386-3

عُمْدَةُ النَّفْسِيرِ

عَنْ الْحَافِظِ ابْنِ كَثِيرٍ

مَخْضَرٌ نَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

لِلْعَلَّامَةِ الْمُحَقِّقِ

السَّيِّدِ أَحْمَدَ شَاكِرًا

أَعَدَّهُ

أَفْرَاقُ الْبَازِ

الْجُزْءُ الثَّانِي

تَارِخُ الْوَقْفَاءِ



عُمدَةُ النَّفسِیرِ

عَنْ الحَافِظِ ابْنِ کَثِیرٍ

مُجْتَمِعٌ مِنْ نَفْسِیةِ الرَّأْسِ العَظِیمَةِ

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الثانية
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع. - المنصورة
الإدارة: ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب: ٢٣٠
ت: ٢٢٥٦٢٢٠ / ٢٢٥٦٢٣٠ - فاكس: ٢٢٦٠٩٧٤ / ٥٠
المكتبة: أمام كلية الطب ٢٢٤٩٥١٣ / ٥٠
E-Mail: DAR ELWAF@HOTMAIL.COM



تفسير سورة الأعراف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَصَّ﴾ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا
تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾

قد تقدم الكلام في أول «سورة البقرة» على ما يتعلق بالحروف وسطه، واختلاف الناس فيه. «كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ» أي: هذا كتاب أنزل إليك، أي: من ربك «فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ» قال مجاهد، وقتادة والسُّدِّيُّ: شكٌ منه. وقيل: لا تتحرج به في إبلاغه والإنذار به، واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل؛ ولهذا قال: «لِتُنذِرَ بِهِ» أي: أنزل إليك لتنذر به الكافرين «وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ».

ثم قال تعالى مخاطباً للعالم: «اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ» أي: اقتفوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شيء ومليكه، «وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ» أي: لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره، فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره. «قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ» كقول: «وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ» [يوسف: ١٠٣]، وقوله: «وَأَن تَطْعَ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ» [الأنعام: ١١٦]، وقوله: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ» [يوسف: ١٠٦].

﴿١﴾ وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٢﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣﴾ فَلَنَسْتَلِزَّ الَّذِينَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلِزَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٤﴾ فَلَنَقْصِنَّ عَلَيْهِمْ بِعَلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٥﴾

يقول تعالى: «وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا» أي: بمخالفة رسلنا وتكذيبهم، فاعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة، كما قال تعالى: «وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» [الأنعام: ١٠]، وقال تعالى: «فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْعُرُ مِعْطَلَةً وَقَصُرَ مُشِيدٌ» [الحج: ٤٥]، وقال تعالى: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَلَمَّا كُنْتُمْ لَهَا تَسَكُنُ مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ» [القصص: ٥٨].

وقوله: «فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ» أي: فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته «بَيِّنًا» أي: ليلاً «أَوْ هُمْ قَائِلُونَ» من القيلولة، وهي: الاستراحة وسط النهار. وكلا الوقتين

وقت غَفَلَةٌ وَلَهُوَ ، كما قال : ﴿ أَقَامِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ . أَوْ آمِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٧ ، ٩٨] ، وقال : ﴿ أَقَامِنَ الَّذِينَ مَكَّرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ . أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل: ٤٥ - ٤٧] .

وقوله : ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أى : فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم ، وأنهم حقيقون بهذا . كما قال تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ . فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَّ بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكَبُونَ . لَا تَرْكَبُوا وَأَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ [الانبيا: ١١ - ١٥] . قال ابن جرير: فى هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ . ثم روى عن أبى سنان ، عن عبد الملك بن ميسرة الزرّاد قال : قال عبد الله بن مسعود: قال رسول الله ﷺ : « ما هلك قوم حتى يُعذّروا من أنفسهم » . قال : قلت لعبد الملك : كيف يكون ذلك؟ قال : فقرأ هذه الآية : ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ فَلَنَسْتَلْنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ الآية ، كقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٦٥] ، وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْقُرْآنَ لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١٠٩] ، فالربُّ تبارك وتعالى يوم القيامة يسأل الأمم عما أجابوا رسله فيما أرسل به ، ويسأل الرسل أيضا عن بلاغ رسالاته ؛ ولهذا قال ابن عباس فى تفسير هذه الآية : ﴿ فَلَنَسْتَلْنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلْنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ قال : عما بلغوا . وروى ابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالإمام يسأل عن الرجل ، والرجل يسأل عن أهله ، والمرأة تسأل عن بيت زوجها ، والعبد يسأل عن مال سيده » . ثم قرأ : ﴿ فَلَنَسْتَلْنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلْنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ . وهذا الحديث مُخَرَّجٌ فى الصحيحين بدون هذه الزيادة . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمِهِمْ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾ : يوضع الكتاب يوم القيامة ، فيتكلم بما كانوا يعملون ، يعنى : أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا ، من قليل وكثير ، وجليل وحقيق ؛ لأنه تعالى شهيد على كل شىء ، لا يغيب عنه شىء ، ولا يغفل عن شىء ، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا نَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩] .

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿١﴾

(١) الطبرى (١٤٣٢٣) . وذكر السيوطى (٦٧ / ٣) رواية ابن أبى حاتم بنحوه ، وقد جزم الطبرى هنا بصحته ! وما نراه صحيحا ، فإن عبد الملك بن ميسرة الزرّاد يروى عن صغار الصحابة ، ولا نراه أدرك ابن مسعود . عبد الملك مات بعد سنة ١١٠ ، وابن مسعود مات سنة ٣٢ أو ٣٣ .

يقول تعالى: ﴿وَالْوِزْنَ﴾ أى: للأعمال يوم القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ أى: لا يظلم تعالى أحداً، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ . فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ . نَارُ حَامِيَةٍ﴾ [القارعة: ٦ - ١١]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ . فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١ - ١٠٣].

فصل : والذي يوضع فى الميزان يوم القيامة ، قيل: الأعمال وإن كانت أعراضاً، إلا أن الله تعالى يقبلها يوم القيامة أجساماً . قال البغوى: يروى نحو هذا عن ابن عباس ، كما جاء فى الصحيح من أن « البقرة » و « آل عمران » يأتیان يوم القيامة كأنهما غماتان - أو: غيأتان - أو فرقان من طير صَوَافٍ (١) . وكذلك فى الصحيح قصة القرآن ، وأنه يأتى صاحبه فى صورة شاب شاحب اللون، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذى أسهرت ليلك ، وأظمأت نهارك (٢). وفى حديث البراء، فى قصة سؤال القبر: «فيأتى المؤمن شاباً حسن اللون طيب الريح، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا عمك الصالح». وذكر عكسه فى شأن الكافر والمنافق.

وقيل: يوزن كتاب الأعمال، كما جاء فى حديث البطاقة، فى الرجل الذى يؤتى به ويوضع له فى كِفِّهِ تسعة وتسعون سجلاً، كل سِجْلٍ مَدَّ البصر، ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها: «لا إله إلا الله» فيقول: يارب، وما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول الله تعالى: إنك لا تُظْلَمُ. فتوضع تلك البطاقة فى كفة الميزان. قال رسول الله ﷺ: «فَطَاشَتْ السُّجُلَاتُ، وَثَقُلْتُ البطاقة» . رواه الترمذى بنحو من هذا ، وصححه .

وقيل: يوزن صاحب العمل، كما فى الحديث: «يُؤْتَى يوم القيامة بالرجل السَّمِينِ، فلا يَزِينُ عند الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ». ثم قرأ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]. وفى مناقب عبد الله بن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: «أعجبون من دِقَّةِ سَاقِيهِ ! والذى نفسى بيده لهما فى الميزان أثقل من أحدٍ» .

وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً، فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم.

(١) هو جزء من حديث رواه أحمد ومسلم ، من حديث أبى أمامة الباهلى ، وقد مضى عند فضل سورة البقرة ، ومضى نحوه أيضاً من حديث بريدة ، عند أحمد .

(٢) ليس فى واحد من الصحيحين ، بل رواه - بنحوه - أحمد فى المسند (٥ / ٣٥٢ حلى) وابن ماجه (٣٧٨١) كلاهما من حديث بريدة . وقال البوصيرى فى زوائده : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » . ومعناه ثابت ضمن حديث بريدة الماضى عند فضل سورة البقرة .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشًا قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿١٠﴾

يقول تعالى ممثنا على عبيده فيما مكن لهم من أنه جعل الأرض قراراً، وجعل لها رواسي وأنهاراً، وجعل لهم فيها منازل وبيوتاً، وأباح لهم منافعها، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها معاش، أي: مكاسب وأسباباً يتجرون فيها، ويتسبون أنواع الأسباب، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك، كما قال: ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقد قرأ الجميع: ﴿ مَعَايِشٌ ﴾ بلا همز، إلا عبد الرحمن بن هرْمَزُ الأعرج فإنه همزها. والصواب الذي عليه الأكثر بلا همز؛ لأن معاش جمع معيشة، من «عاش يعيش عيشاً ومعيشة» أصلها «مَعِيشَةٌ» فاستقلت الكسرة على الياء، فنقلت إلى العين فصارت مَعِيشَةً، فلما جُمعت رجعت الحركة إلى الياء لزوال الاستتقال، فقيل: معاش. وورنه مَفَاعِلٌ؛ لأن الياء أصلية في الكلمة. بخلاف مدائن وصحائف وبصائر، جمع مدينة وصحيفة وبصيرة من: مدن وصحف وأبصر، فإن الياء فيها رائدة، ولهذا تجمع على فعائل، وتهمز لذلك، والله أعلم.

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ ﴿١١﴾

ينبه تعالى بنى آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم، ويبين لهم عداوة عدوهم إبليس، وما هو منطوق عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم، ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ . وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ . فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ الآية [الحجر: ٢٨] ، وذلك أنه تعالى لما خلق آدم، عليه السلام، بيده من طين لازب، وصوره بشراً سوياً ، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأن الرب تعالى وجلاله، فسمعوا كلهم وأطاعوا، إلا إبليس لم يكن من الساجدين. وقد تقدم الكلام على إبليس في أول تفسير «سورة البقرة» (١) . وهذا الذي قررناه هو اختيار ابن جرير: أن المراد بذلك كله آدم، عليه السلام.

وعن ابن عباس: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ قال: خُلِقُوا فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ، وَصُورُوا فِي أَرْحَامِ النِّسَاءِ. رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرطهما ، ولم يخرجاه . ونقله ابن جرير عن بعض السلف أيضاً: أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم: الذرية. وقال الربيع بن أنس، والسدي، وقتادة، والضحاك في هذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ أي: خلقنا آدم ثم صورنا الذرية. وهذا فيه نظر؛ لأنه قال بعده: ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾، فدل على أن المراد بذلك آدم، وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر، كما يقول تعالى لبنى إسرائيل الذين كانوا في زمن

الرسول ﷺ: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّانَ وَالسَّلْوَى﴾ [البقرة: ٥٧]، والمراد: آباؤهم الذين كانوا فى زمان موسى ، ولكن لما كان ذلك منةً على الآباء - الذين هم أصلٌ - صار كأنه واقع على الأبناء . وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢ ، ١٣]، فإن المراد منه آدم المخلوق من سلاله من طين ، وذريته مخلوقون من نقطة، وصح هذا لأن المراد من ﴿خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ الجنس، لا معينا، والله أعلم.

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا أَنْتَ إِذْ أَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾

قال بعض النحاة فى توجيه قوله تعالى: ﴿مَا مَنَّكَ إِلَّا أَنْتَ إِذْ أَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾: « لا » ههنا زائدة. وقال بعضهم: زيدت لتأكيد الجحد، كقول الشاعر:

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله

فأدخل «إن»، وهى للنفى، على «ما» النافية؛ لتأكيد النفى، قالوا: وكذلك ههنا: ﴿مَا مَنَّكَ أَنْ لَا تَسْجُدَ﴾ مع تقدم قوله: ﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾. حكاها ابن جرير وردهما، واختار أن «منك» مضمّن معنى فعل آخر تقديره: ما أخرجك والزمك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك، ونحو هذا. وهذا القول قوى حسن، والله أعلم.

وقول إبليس لعنه الله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ - من العذر الذى هو أكبر من الذنب ! كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول ! يعنى لعنه الله: وأنا خير منه، فكيف تأمرنى بالسجود له؟ ثم بين أنه خير منه، بأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خلقت منه، وهو الطين ! فنظر للعين إلى أصل العنصر، ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً فى مقابلة نص قوله تعالى: ﴿فَقْعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢]، فشذ من بين الملائكة بترك السجود؛ فلهذا أبليس من الرحمة، أى: أوبس من الرحمة، فأخطأ قبّحه الله فى قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضاً، فإن الطين من شأنه الرزاة والحلم والأناة والثبوت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح ، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة؛ ولهذا خان إبليس عنصره، ونفع آدم عنصره فى الرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة. وفى صحيح مسلم، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ» (١). وروى ابن جرير عن الحسن فى قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ قال: قاس إبليس، وهو أول من قاس . إسناده صحيح. وعن ابن سيرين قال: أول من قاس إبليس، وما عُبِدَتِ الشمس والقمر إلا بالمقاييس. وإسناده صحيح أيضا.

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

يقول تعالى مخاطباً لإبليس بأمر قدرى كونه: ﴿ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ أى: بسبب عصيانك لأمرى، وخروجك عن طاعتي، ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ . قال كثير من المفسرين: الضمير عائد إلى الجنة، ويحتمل أن يكون عائداً على المنزلة التى هو فيها فى الملكوت الأعلى. ﴿ فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ أى: الذليلين الحقيرين، معاملة له بنقيض قصده، مكافأة لمراده بضده، فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين، فقال: ﴿ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾، أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التى لا تخالف ولا تمنع، ولا مُعَقَّبَ لحكمه، وهو سريع الحساب.

﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَمِّنْ حَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه لما أنذر إبليس ﴿إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، واستوثق إبليس بذلك، أخذ فى المعاندة والتمرد، فقال: ﴿ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أى: كما أغويتنى. قال ابن عباس: كما أضللتنى. وقال غيره: كما أهلكتنى لأقعدن لعبادك - الذين تخلقهم من ذرية هذا الذى أبعدتنى بسببه - على ﴿صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أى: طريق الحق وسبيل النجاة، فأضلنهم عنها لثلاثا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياى . وقال بعض النحاة: الباء ههنا قسمية، كأنه يقول: فبإغوائك إياى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . قال مجاهد: ﴿صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ﴾ يعنى: الحق. وقال عون بن عبد الله: يعنى طريق مكة. قال ابن جرير: والصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك .

قلت: لما روى الإمام أحمد عن سبرة بن أبى فاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه، قعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟». قال: «فعصاه وأسلم». قال: «وقعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطول؟ فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، وهو جهاد النفس والمال، فقال: تقاتل فتقتل، فتتكح المرأة ويقسم المال؟». قال: «فعصاه، فجاهد». قال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو قُتِلَ كان حقاً على الله، أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة» (١) .

(١) المسند (١٦٠٢٤) ، وكذلك رواه البخارى فى التاريخ الكبير (١٨٨/٢/٢) ، وأشار إليها الحافظ فى الإصابة (٦٤/٣) ونسبه للنسائى «بإسناد حسن، إلا أن فيه اختلافاً». وذكره الطبرى فى التفسير (١٤٣٦٤) بدون إسناد. و «الأطرق»: جمع طريق، مثل «يمين وأيمن» .

وقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الآية قال ابن عباس: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: أشككهم فى آخرتهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: أرغبهم فى دنياهم ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾: أشبه عليهم أمر دينهم ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾: أشهى لهم المعاصى. وقال قتادة: أتاهم ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من أمر الدنيا فزيتها لهم ودعاهم إليها و﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ من قبل حسناتهم بطأهم عنها ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾: زين لهم السيئات والمعاصى، ودعاهم إليها، وأمرهم بها. أنك يا ابن آدم من كل وجه، غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله. وقال مجاهد: من بين أيديهم وعن أيانهم حيث يبصرون، ومن خلفهم وعن شمائلهم حيث لا يبصرون. واختار ابن جرير أن المراد جميع طرق الخير والشر، فالخير يصددهم عنه، والشر يحسنه لهم. وقال ابن عباس: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ قال: موحدين. وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم، وقد وافق فى هذا الواقع، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا قَلِيًّا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمُ مَنْ يُوْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبا: ٢٠، ٢١].

ولهذا ورد فى الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها، كما روى البزار عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دىنى ودنياى، وأهلى ومالى، اللهم استر عورتى، وآمن روعاتى، واحفظنى من بين يدى ومن خلفى، وعن يمينى وعن شمالى، ومن فوقى، وأعوذ بك اللهم أن أعتال من تحتى». تفرد به البزار، وحسنه. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر قال: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسى: «اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة، اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دىنى ودنياى وأهلى ومالى، اللهم استر عوراتى، وآمن روعاتى، اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى، وعن يمينى وعن شمالى، ومن فوقى، وأعوذ بعظمتك أن أعتال من تحتى». قال وكيع: يعنى الخسف. ورواه أبو داود، والنسائى، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم وقال: صحيح الإسناد (١).

﴿قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا وَمِمَّا مَذْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

أكد تعالى عليه اللعنة والطرْدَ والإبعاد والنفى عن محل الملا الأعلى بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا وَمِمَّا مَذْحُورًا﴾. قال ابن جرير: أما المذموم فهو المعيب، والذام غير مشدد: العيب. يقال: ذامه يذامه ذاماً فهو مذموم. ويتركون الهمز فيقولون: «ذمته أذيمه ذيمًا وذامًا»، والذام والذيم أبلغ فى العيب من الذم. قال والمدحور: المُقْصَى. وهو المبعد المطرود. وقال ابن عباس: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا وَمِمَّا مَذْحُورًا﴾ قال: صغيرا مقيتا.

وقوله تعالى: ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿قَالَ أَذْهَبَ لَمَنْ تَبِعَكَ

(١) المسند (٤٧٨٥). وذكره الحافظ ابن كثير فى التاريخ أيضا (١ / ٦٨) وخرجه كهذا التخرىج.

مَنْهُمْ فَإِنْ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا. وَاسْتَفْرَزَ مَنْ اسْتَفْرَزَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجَلَ
وَشَارَكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتِهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا. إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى
بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿الإسراء: ٦٣ - ٦٥﴾.

﴿١١﴾ وَتَقَادِمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا
مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ فَوَسَّوَسَ لَهَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهَا مَا وُورِيَ عَنْهَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا
نَهَىٰ لَكُمَا رَبُّكُمَا عَنِ هَذِهِ الشَّجَرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿١٢﴾ وَقَاسَمَهُمَا
إِنِّي لَكُمَا لَئِنِ التَّصَيَّرْتُمَا ﴿١١﴾

يذكر تعالى أنه أباح لآدم، عليه السلام، ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة. وقد تقدم الكلام على ذلك في «سورة البقرة»، فعند ذلك حسدهما الشيطان، وسعى في المكر والخديعة والوسوسة ليلسبا ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن، وقال كذبا وافتراء: مانهاكما ربكما عن أكل هذه الشجرة إلا لتلا تكونا ملكين خالدين ههنا، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلك، كقوله: ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْغُلْدُ وَمُلْكٍ لَأَيُّكُمَا﴾ [طه: ١٢٠] أى: لتلا تكونا ملكين، كقوله: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ الْكَلِيمَاتِ﴾ [النساء: ١٧٦]، أى: لتلا تضلوا، ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] أى: لتلا تميد بكم. وكان ابن عباس ويحيى بن أبي كثير يقرآن: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ﴾ بكسر اللام. وقراه الجمهور بفتحها. ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أى: حلف لهما بالله: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَئِنِ التَّصَيَّرْتُمَا﴾، فإني من قبلكما ههنا، وأعلم بهذا المكان، وهذا من باب المفاعلة والمراد أحد الطرفين، أى: حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما، وقد يخدع المؤمن بالله. وكان بعض أهل العلم يقول: «من خادعنا بالله خدعنا».

﴿١٢﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ
الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ
﴿١٣﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَنَا تِغْفِرُ لَنَا وَتَرْحَمُنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤﴾

قال مجاهد: جعلوا يخصفان عليهما من ورق الجنة، قال: كهيئة الثوب. وقال الضحاک بن مزاحم في قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَنَا تِغْفِرُ لَنَا وَتَرْحَمُنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه.

﴿١٤﴾ قَالِ أَهْطُوا بِعَضُوكُمْ لِبَعْضِ عَدُوِّكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرًّا وَمَتَعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤﴾ قَالِ
فِيهَا حَيَوْنٌ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿١٥﴾

قيل: المراد بالخطاب بـ ﴿أَهْطُوا﴾: آدم، وحواء، وإبليس، والحية. ومنهم من لم يذكر

الحية، والله أعلم . والعمدة في العداوة آدم وإبليس؛ ولهذا قال تعالى في سورة «طه» ، قال : **﴿أَهْبِطْنَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾** الآية [رقم ١٢٣] ، وحواء تبع لآدم . والحية - إن كان ذكرها صحيحا - فهي تبع لإبليس . وقد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط فيها كل منهم، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات، والله أعلم بصحتها . ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم، أو دنياهم، لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسوله ﷺ .

وقوله : **﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾** أى : قرار وأعمار مضمرة إلى آجال معلومة ، قد جرى بها القلم ، وأحصاها القدر ، وسطرت في الكتاب الأول .

وقوله : **﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾** كقوله تعالى : **﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾** [طه : ٥٥] ، يخبر تعالى أنه جعل الأرض داراً لبني آدم مدة الحياة الدنيا، فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم، ومنها نشورهم ليوم المعاد ، الذى يجمع الله فيه الأولين والآخرين ، ويجازى كلا بعمله .

﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤَرِّى سَوَآتِكُمْ وَرِدْيًا وَّرِبَاسًا أَلْتَقَوْنَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾

يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والرياش . فاللباس - المذكور ههنا : لستر العورات - وهى السوآت - والرياش والريش : هو ما يتجمل به ظاهراً ، فالأول من الضروريات ، والريش من التكميلات والزيادات . قال ابن جرير : «الرياش» فى كلام العرب : الأثاث ، وما ظهر من الثياب . وقال ابن عباس - وحكاه البخارى عنه : الريش : المال . وكذا قال مجاهد ، وعروة بن الزبير ، وغيرهم . عن ابن عباس : «الرياش» : اللباس ، والعيش ، والنعيم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : «الرياش» : الجمال . وروى الإمام أحمد عن أبى العلاء الشامى قال : لبس أبوأمامة ثوباً جديداً ، فلما بلغ ترقوقته قال : الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى ، وأتجمل به فى حياتى . ثم قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : قال رسول الله ﷺ : «من استجد ثوباً فلبسه ، فقال حين يبلغ ترقوقته : الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى ، وأتجمل به فى حياتى ، ثم عمد إلى الثوب الخلق فتصدق به ، كان فى ذمة الله ، وفى جوار الله ، وفى كنف الله حيا وميتا . رواه الترمذى ، وابن ماجه ، وأبو العلاء الشامى : لا يعرف إلا بهذا الحديث ، ولكن لم يجرحه أحد ، والله أعلم (١) . وعن أبى مطر ؛ أنه رأى علياً أتى غلاماً حدثاً ، فاشتري منه قميصاً بثلاثة دراهم ، ولبسه ما بين الرسغين إلى الكعبين ، يقول ولبسه : الحمد لله الذى رزقتى من الرياش ما أتجمل به فى الناس ، وأوارى به عورتى . فقيل : هذا شئء ترويه عن نفسك أو عن النبى ﷺ ؟ قال : هذا شئء سمعته من رسول الله ﷺ يقول عند الكسوة : «الحمد لله الذى رزقتى من الرياش ما أتجمل به فى الناس ، وأوارى به عورتى» . رواه الإمام أحمد (٢) .

وقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾: قرأ بعضهم: «ولباس التقوى»، بالنصب. وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء، و ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ خبره. واختلف المفسرون في معناه، فقال عكرمة: يقال هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة. رواه ابن أبي حاتم. وقال قتادة، وابن جريج: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾: الإيمان. وقال ابن عباس: العمل الصالح. وعن ابن عباس: هو السميت الحسن في الوجه. وعن عروة بن الزبير: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾: خشية الله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾: يتقى الله، فيواري عورته، فذاك لباس التقوى. وكلها متقاربة.

﴿يَنْبِئُ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتَهُمَا إِنَّهُ يَرَئِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى محذراً بنى آدم من إبليس وقبيله، مبيناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم، عليه السلام، في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعيم، إلى دار التعب والعناء، والتسبب في هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة، وهذا كقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَاءِ أَنْتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿١٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قال مجاهد: كان المشركون يطوفون بالبيت عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا. فتضع المرأة على فرجها النُّسْعَةَ (١)، أو الشيء، وتقول:

اليوم يبدو كله أو بعضه وما بدأ منه فلا أحله

فانزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا﴾ الآية. قلت: كانت العرب - ماعدا قريشاً - لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش - وهم الخمس - يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسي ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه، ثم يلقيه فلا يتملكه أحد، فمن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسي ثوباً، طاف عرياناً. وربما كانت امرأة فتطوف عريانة، فتجعل على فرجها شيئاً يستره بعض الشيء وتقول:

(١) «النُّسْعَةُ» - بكسر النون وسكون السين: القطعة من «النسج»، وهو سير يظفر على هيئة أعنة النعال.

اليوم يبدو كلُّه أو بعضه وما بدأ منه فلا أحله

وأكثر ما كان النساء يظفن عراة بالليل، وكان هذا شيئاً قد ابتدعه من تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه آباءهم ، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك، فقال: ﴿وَإِذَا قَالُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فقال تعالى رداً عليهم: ﴿قُلْ﴾ أى: قل يا محمد لمن ادعى ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أى: هذا الذى تصنعونه فاحشة منكورة، والله لا يأمر بمثل ذلك ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى: أنسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته.

وقوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أى: بالعدل والاستقامة ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أى: أمركم بالاستقامة فى عبادته فى محالها، وهى متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله ، وجاؤوا به من الشرائع، وبالإخلاص له فى عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنتين: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، وأن يكون خالصاً من الشرك.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ . فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ اختلف فى معنى قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ فقال مجاهد: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: يحييكم بعد موتكم. وقال الحسن البصرى: كما بدأكم فى الدنيا، كذلك تعودون يوم القيامة أحياء. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كما بدأكم أولاً، كذلك يعيدكم آخرًا. واختار هذا القول ابن جرير، وأيده بما رواه عن ابن عباس قال: قام فىنا رسول الله ﷺ بموعظة ، فقال: «يا أيها الناس، إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً» ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعَدْنَا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الانبيا: ١٠٤] . وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين (١).

وعن مجاهد: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قال: يبعث المسلم مسلماً، والكافر كافراً . وقال ابن عباس قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ . فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ قال: إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ لَمِنكُمْ كَافِرٍ وَمِنكُمْ مُّؤْمِنٍ﴾ [التغابن: ٢]، ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم ، مؤمناً وكافراً.

قلت: ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود فى صحيح البخارى: «فوالذى لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع - أو: ذراع - فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخل النار، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع - أو: ذراع - فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة ، فيدخل الجنة». . وروى البغوى عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد ليعمل - فيما

(١) الطبرى (١٤٥٠٢) . ورواه أحمد فى المسند - مطولا ومختصر (١٩٥٠) ، ، ٢٠٢٧ ، ٢٠٩٦ ، ٢٢٨١ ، ٢٢٨٢) والبخارى (٨ / ٣٣٢ ، ١١ / ٣٣١ فتح) . و « الغرل » - بضم الغين المعجمة وسكون الراء : جمع « أغرل » ، وهو الأتلف الذى لم يختن .

يرى الناس - بعمل أهل الجنة ، وإنه من أهل النار . وإنه ليعمل - فيما يرى الناس - بعمل أهل النار ، وهو من أهل الجنة ، وإنما الأعمال بالخواتيم . هذا قطعة من حديث رواه البخارى . وروى ابن جرير عن جابر ، عن النبي ﷺ أنه قال : «تَبِعْتُ كُلَّ نَفْسٍ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ» . وهذا الحديث رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه ، عن الأعمش ، به . ولفظه : «يبعث كل عبد على ما مات عليه» . وعن ابن عباس مثله .

قلت : ولا بد من الجمع بين هذا القول - إن كان هو المراد من الآية - وبين قوله تعالى : «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا» [الروم : ٣٠] ، وما جاء فى الصحيحين ، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» . وفى صحيح مسلم ، عن عياض بن حمار ، قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله تعالى : إنى خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم» الحديث (١) . ووجه الجمع على هذا أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر ، فى ثنائى الحال ، وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده ، والعلم بأنه لا إله غيره ، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك ، وجعله فى غرائزهم وفطرتهم ، ومع هذا قدر أن منهم شقياً ومنهم سعيداً : «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ» [التغابن : ٢] ، وفى الحديث : «كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها ، أو موبقها» (٢) . وقدر الله نافذ فى بريته ، فإنه هو «الَّذِي قَدَّرَ لَهُدَى» [الاعلى : ٣] ، و«الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى» [طه : ٥٠] ، وفى الصحيحين : «فأما من كان منكم من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة» (٣) ؛ ولهذا قال تعالى : «فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ» ، ثم علل ذلك فقال : «إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ» . قال ابن جرير : وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها ، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها ، فيركبها عناداً منه لربه فيها ؛ لأن ذلك لو كان كذلك ، لم يكن بين فريق الضلالة الذى ضل وهو يحسب أنه مهتد ، وفريق الهدى فرق . وقد فرق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما فى هذه الآية .

﴿ يَبْنَى ۙ ءَادَمَ ۙ حُدُوًا زَيْنَتُهُ ۙ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ۙ وَكَلُوا وَأَشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

ربع

هذه الآية الكريمة ردٌ على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراً ، كما رواه مسلم والنسائى وابن جرير - واللفظ له - عن ابن عباس قال : كانوا يطوفون بالبيت عراً ،

(١) مضى كاملاً عند الآية ١٩ من سورة المائدة .

(٢) من حديث رواه مسلم (١ / ٨٠) ، من حديث أبى مالك الأشعري .

(٣) انظر البخارى - بنحوه - من حديث على (٣ / ١٧٩ فتح) .

الرجال والنساء: الرجال بالنهار، والنساء بالليل. وكانت المرأة تقول:

اليوم ييدو بعضه أو كله وما بدأ منه فلا أحله

فقال الله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ . وقال ابن عباس : الزينة: اللباس، وهو ما يوارى السوءة، وما سوى ذلك من جيد البزِّ والمتاع - فأمرُوا أن يأخذوا زيتهم عند كل مسجد. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبَّير، وقتادة ، وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها: أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت عراة.

ولهذه الآية، وما ورد في معناها من السنة، يستحب التجمل عند الصلاة - ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد - والطَّيبُ لأنه من الزينة، والسواك لأنه من تمام ذلك . ومن أفضل الثياب البياض، كما روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «البسوا من ثيابكم البياض، فإنها من خير ثيابكم، وكَفَنُوا فيها موتاكم، وإن من خير أكحالكم الإثمِد، فإنه يجلو البصر، وينبت الشعر». هذا حديث جيد الإسناد، رجاله على شرط مسلم. ورواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن صحيح (١). وللإمام أحمد أيضا، وأهل السنن بإسناد جيد، عن سَمْرَةَ بن جُنْدَب قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالثياب البياض فالبسوها؛ فإنها أطهر وأطيب، وكفنوا فيها موتاكم» .

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ . وقال البخارى: قال ابن عباس: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة. وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: أحل الله الأكل والشرب، ما لم يكن سرقا أو مخيلة. إسناده صحيح. وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ قال: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا، فى غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده». ورواه النسائى وابن ماجه ، بنحوه (٢). وروى الإمام أحمد عن المقدم بن معد يكرب الكندى ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطن ، حَسَبَ ابن آدم أَكْلَاتِ يَمْنَنَ صُلْبِهِ، فإن كان فاعلا لا محالة، فثلث طعام، وثلث شراب، وثلث لنفسه». ورواه النسائى والترمذى، وقال الترمذى: حسن - وفى نسخة: حسن صحيح (٣) .

وقال السُّدِّى: كان الذين يطوفون بالبيت عراة، يحرمون عليهم الودك ما أقاموا فى الموسم؛ فقال الله تعالى لهم : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ يقول: لا تسرفوا فى التحريم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ يقول: لا تاكلوا حراما، ذلك الإسراف . وقال ابن جرير: وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ يقول الله تعالى : إن الله لا يحب

(١) المستد (٢٠٤٧) .

(٢) المستد (٦٧٠٨) . وقد مضى بعضه وتخرجه عند الآيات : ٣٧ - ٣٩ من سورة النساء .

(٣) المستد (١٧٢٥٢) .

المتعدين حده في حلال أو حرام، الغالين فيما أحلّ، بإحلال الحرام أو بتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يحلل ما أحلّ، ويحرم ما حرم، وذلك العدل الذي أمر به.

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى رداً على من حرّم شيئاً من المأكّل والمشرب، والملابس، من تلقاء نفسه، من غير شرع من الله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بأرائهم الفاسدة وابتداعهم: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبدته في الحياة الدنيا - وإن شركهم فيها الكفار حباً في الدنيا - فهي لهم خاصة يوم القيامة، لا يشركهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنة محرمة على الكافرين.

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴾ ﴿٣٣﴾

روى الإمام أحمد عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغبر من الله، فلك ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحبُّ إليه المدح من الله». أخرجاه في الصحيحين، وتقدم الكلام في سورة الأنعام على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن (١). وقوله: ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قال السدّي: أما الإثم فالمعصية، والبغى أن تبغى على الناس بغير الحق. وقال مجاهد: الإثم المعاصي كلها، وأخبر أن الباغي بغية كائن على نفسه. وحاصل ما فُسر به الإثم: أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، والبغى: هو التعدي إلى الناس، فحرم الله هذا وهذا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: تجعلوا له شريكا في عبادته، وأن تقولوا عليه من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولداً ونحو ذلك، مما لا علم لكم به كما قال تعالى: ﴿فَاجْتَبُوا الرَّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَبُوا قَوْلَ الزُّورِ. حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١].

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ﴿٣٤﴾ يَبْقَى
 ءَادَمَ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَتَقَىٰ فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
 يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
 خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾

يقول تعالى : ﴿ وَكُلُّ أُمَّةٍ ﴾ آى : قَرَنٌ وَجِيلٌ ﴿ أَجَلٌ لِّإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ ﴾ آى : ميقاتهم المقدر لهم ﴿ لَا يَسْتَخْرُونَ سَاعَةً ﴾ آى : عن ذلك ﴿ وَلَا يَسْتَفِيدُونَ ﴾ .

ثم أنذر تعالى بنى آدم أنه سيبعث إليهم رسلا، يقصون عليهم آياته، وبشر وحذر ، فقال : ﴿ فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ ﴾ آى : ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ﴾ آى : كذبت بها قلوبهم ، واستكبروا عن العمل بها ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ آى : ماكنون فيها مكثا مخلدا .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكُذْبِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوهُمْ قَالُوا أَإِنَّا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَا مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا وَشْهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾

يقول تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ آى : لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله ، أو كذب بآيات الله المنزلة . ﴿ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ : اختلف المفسرون فى معناه ابن عباس يقول : نصيبهم من الأعمال ، من عمل خيرا جزى به ، ومن عمل شرا جزى به . وقال مجاهد : ما وعدوا به من خير وشر . وكذا قال قتادة ، والضحاك ، وغير واحد . واختاره ابن جرير . وقال محمد بن كعب القرظى : عمله ورزقه وعمره . وكذا قال الربيع بن أنس ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وهذا القول قوى فى المعنى ، والسياق يدل عليه ، وهو قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوهُمْ ﴾ ويصير المعنى فى هذه الآية كما فى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يَفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنْفِخُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : ٦٩ ، ٧٠] ، وقوله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنْفِخُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نُنْظَرُهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : ٢٣ ، ٢٤] .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوهُمْ قَالُوا أَإِنَّمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَا مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين بنزعهم عند الموت وقبض أرواحهم إلى النار ، يقولون لهم : أين الذين كنتم تشركون بهم فى الحياة ، وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله ادعوهم يخلصونكم مما أنتم فيه . قالوا : ﴿ صَلُّوا عَلَيْنَا ﴾ آى : ذهبوا عنا ، فلا نرجو نفعهم ، ولا خيرهم ﴿ وَشْهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ﴾ آى : أقروا واعترفوا على أنفسهم ﴿ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ .

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آدَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِيَهُمْ لِأَوْلِيَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَجَاءَنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا نَعْلَمُونَ ﴾ وَقَالَتْ أَوْلِيَهُمْ لِأَخْرِيَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به، المفترين عليه، المكذبين بآياته: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ أى: من أشكالكم وعلى صفاتكم ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أى: من الأمم السالفة الكافرة ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ يحتمل أن يكون بدلاً من قوله: ﴿فِي أُمَمٍ﴾ ويحتمل أن يكون ﴿فِي أُمَمٍ﴾، أى: مع أمم.

وقوله: ﴿كَلِمًا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ كما قال الخليل، عليه السلام: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [المنكوت: ٢٥]. وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ. وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَسَأَلْنَا هَؤُلَاءِ عَنَّا وَكُنَّا بِأَعْيُنِنَا وَسَيَمْنَنَ اللَّهُ بِأَعْيُنِنَا لَوْلَا أَنَّ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَّا فَتْرًا مَا كُفِّرُوا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَالضُّلَمَاءُ لَوَالِغٌ فِي أَسْمَانِهِمْ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أى: اجتمعوا فيها كلهم ﴿قَالَتْ أَخْرَاهُمِ لَأَوْلَاهُمْ﴾ أى: أخراهم دخولا - وهم الاتباع - لأولاهم - وهم المتبعون - لأنهم أشد جرماً من أتباعهم، فدخلوا قبلهم، فتشكروهم الاتباع إلى الله يوم القيامة؛ لأنهم هم الذين أضلهم عن سواء السبيل، فيقولون: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ أى: أضعف عليهم العقوبة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ. وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا. رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَنَا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨].

وقوله: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ أى: قد فعلنا ذلك وجازينا كلا بحسبه، كما قال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [المنكوت: ١٣] وقال: ﴿وَمِنَ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]. ﴿وَقَالَتْ أَوْلَاهُم لَأَخْرَاهُم﴾ أى: قال المتبعون للاتباع: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ قال السدى: فقد ضللتكم كما ضللنا ﴿فَدَعَوْا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ وهذا الحال كما أخبر تعالى عنهم فى حال محشرهم، فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنْتُمْ صَدَدْتَنَا كَمَا عَنِ الْهَدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكَرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرَأُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْقَابِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبا: ٣١ - ٣٣].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٤٠﴾ هُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ وَهَادٍ وَمِنْ قَوْمِهِمُ عَوَاشِرٌ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤١﴾

قوله: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ قيل: المراد: لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء. قاله مجاهد، وسعيد بن جبيرة. وروى عن ابن عباس. وقيل: المراد: لا تفتح لأرواحهم أبواب

السماء. روى عن ابن عباس. وقاله السُّدِّي وغير واحد، ويؤيده ما روى ابن جرير:

عن البراء؛ أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر، وأنه يُصعد بها إلى السماء، قال: «فيصعدون بها، فلا تمر على ملاء من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان، بأقبح أسمائه التي كان يُدعى بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحون بابها له فلا يفتح له». ثم قرأ رسول الله ﷺ: «لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ» (١). هكذا رواه، وهو قطعة من حديث طويل رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه، وقد رواه الإمام أحمد عن البراء ابن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الانصار، فانتبهنا إلى القبر ولَمَّا يُلْحَد. فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير، وفى يده عود ينكت به فى الأرض، فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر» مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا، وإقبال إلى الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر. ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس المطمئنة، اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان». قال: «فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعها فى يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن، وفى ذلك الحنوط. ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض. فيصعدون بها فلا يمرون - يعنى - بها على ملاء من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها فى الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله، عز وجل: اكتبوا كتاب عبدى فى عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإنى منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى». قال: «فتعاد روحه، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له ما دينك؟ فيقول: دينى الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت. فينادى مناد من السماء: أن صدق عبدى، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة. فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له فى قبره مدَّ بصره». قال: «ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذى يسرك، هذا يومك الذى كنت توعده. فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عمك الصالح. فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلى ومالى».

قال: «وإن العبد الكافر، إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح، فيجلسون منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى

يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجى إلى سخط من الله وغضب». قال: «فَتَفَرَّقَ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يَنْتَزِعُ السَّقُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تَلْكَ الْمَسْوَحِ، وَيُخْرِجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ جَيْفَةٍ وَجَدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمْرُونَ بِهَا عَلَى مَلَأَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثَةُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانِ ابْنِ فَلَانٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمِّي بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتَحُ، فَلَا يَفْتَحُ لَهُ. ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْجَأَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾، فَيَقُولُ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِّينَ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى. فَتَطْرَحُ رُوحَهُ طَرَحًا». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتُخَفِّفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]. « فتعاد روجه فى جسده. ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاهاه! لا أدرى! فيقولان: ما دينك؟ فيقول: هاهاه! لا أدرى! فيقولان: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هاهاه! لا أدرى. فينادى مناد من السماء: أن كذب، فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار. فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذى يسوؤك، هذا يومك الذى كنت توعده فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر. فيقول: أنا عمك الخبيث. فيقول: رب لا تقم الساعة». وروى أحمد أيضاً عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة، فذكر نحوه. وفيه: «حتى إذا خرج روجه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك فى السماء، وفتحت له أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله، عَزَّ وَجَلَّ، أن يعرج بروحه من قبَلهم». وفى آخره: «ثم يقبض له أعمى أصم أبكم، فى يده مرزبة لو ضرب بها جبل كان تراباً، فيضربه ضربة فيصير تراباً، ثم يعيده الله، عَزَّ وَجَلَّ، كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصبح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين». قال البراء: «ثم يفتح له باب من النار، ويمهد له من فرش النار» (١).

وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد، والنسائى، وابن ماجه وابن جرير - واللفظ له - عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال: «الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجى أيتها النفس المطمئنة كانت فى الجسد الطيب، اخرجى حميدة، وأبشرى بروح وريحان، ورب غير غضبان، فيقولون ذلك حتى يُعْرَجَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيَسْتَفْتَحُ لَهَا، فَيَقَالُ: مِنْ هَذَا؟

(١) الرواية الأولى فى المسند (٤ / ٢٨٧ ، ٢٨٨) والثانية فيه (٤ / ٢٩٥ ، ٢٩٦ حلى) وهو فى أبى داود (٤٧٥٣ ، ٤٧٥٤) . ورواه الحاكم (١ / ٣٧ - ٣٩) بإسناد ، وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى . وأطال الحافظ ابن القيم القول فى تصحيحه والرد على من أعله - فى تهذيب السنن (٤٥٨٦) (٧ / ١٣٩ - ١٤٦) . ونقله قاضى القضاة ابن أبى العز فى شرح الطحاوية (ص ٣٣١ - ٣٣٣) ونسبه أيضا لابن أبى عوانة وابن حبان .

فيقولان: فلان. فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة التى كانت فى الجسد الطيب، ادخلى حميدة، وأبشرى بروح وريحان، ورب غير غضبان، فيقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله، عز وجل. وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث، اخرجى ذميمة، وأبشرى بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، فيقولون ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقولون: فلان. فيقولون: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث، ارجعى ذميمة، فإنه لم يُفتح لك أبواب السماء، فترسل بين السماء والأرض، فتصير إلى القبر» (١).

قال ابن جرير فى قوله: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ قال: لا تفتح لأعمالهم، ولا لأرواحهم. وهذا فيه جمع بين القولين، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ هكذا قرأه الجمهور (٢)، وفسروه بأنه البعير. قال ابن مسعود: هو الجمال ابن الناقة. وفى رواية: زوج الناقة. وقال الحسن البصرى: حتى يدخل البعير فى خرق الإبرة. وكذا قال أبو العالية، والضحاك. وكذا روى عن ابن عباس. وقال مجاهد، وعكرمة، عن ابن عباس: أنه كان يقرؤها: «يلج الجمل فى سم الخيام» بضم الجيم، وتشديد الميم، يعنى: الحبل الغليظ فى خرق الإبرة. وهذا اختيار سعيد بن جبير. وفى رواية أنه قرأ: «حتى يليج الجمل» يعنى: قُلُوس السفن، وهى الحبال الغلاظ.

وقوله: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ قال محمد بن كعب القرظى: الفرش ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ قال: اللحف. وكذا قال الضحاك بن مزاحم، والسدى ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولَنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم، ضد أولئك الذين كفروا بآيات الله، واستكبروا عنها.

وينبئ تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل؛ لأنه تعالى قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ أى: من حسد وبغضاء، كما جاء فى

(١) مضى فى هذا الجزء مخرجاً عند الآيات : ٤٠ - ٤٥ من سورة الأنعام .

(٢) فى المطبوعة : « هكذا رواه الجمهور . وفى المخطوطتين : « هكذا فسر الجمهور » . وكلاهما غير جيد ، فكتبتاها « قرأه » لأنه أضبط فى المعنى وأجود .

الصحيح للبخارى عن أبي سعيد الخدرى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا خُصَّ المؤمنون من النار حُسبوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هُذبوا ونُقوا ، أذن لهم فى دخول الجنة ؛ فوالذى نفسى بيده ، إن أحدهم بمنزلة فى الجنة أدل منه بمسكنه كان فى الدنيا » . وقال قتادة : قال على : « إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ ﴾ . رواه ابن جرير . وروى عبد الرزاق عن على قال : فىنا والله أهل بدر نزلت : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ ﴾ . وروى النسائى وابن مردويه - واللفظ له - عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول : لولا أن الله هدانى ، فيكون له شكرًا . وكل أهل النار ، يرى مقعده من الجنة ، فيقول : لو أن الله هدانى ، فيكون له حسرة » (١) . ولهذا لما أورشوا مقاعد أهل النار من الجنة : ﴿ نُودُوا أَنْ تُلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة ، وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم . وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت فى الصحيحين عنه : « واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتعمدنى الله برحمة منه وفضل » (٢) .

﴿ وَآدَىٰ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدَّ وَجَدْنَا مَا وَعَدْنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذْنُ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

يخبر تعالى بما يخاطب به أهل الجنة أهل النار إذا استقروا فى منازلهم - وذلك على وجه التقرير والتوبيخ : ﴿ أَنْ قَدَّ وَجَدْنَا مَا وَعَدْنَا رَبَّنَا حَقًّا ﴾ « أن ههنا مفسرة للقول المحذوف ، و« قد » للتحقيق ، أى : قالوا لهم : ﴿ قَدَّ وَجَدْنَا مَا وَعَدْنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ ﴾ كما أخبر تعالى فى سورة « الصافات » عن الذى كان له قرين من الكفار : ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ . قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ تُفْرِدِينَ . وَتَوَلَّى نِعْمَةً رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ . أَلَمْآ نَحْنُ بِمَبِينٍ . إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [الآيات : ٥٥ - ٥٩] أى : ينكر عليه مقالته التى يقولها فى الدنيا ، ويقرعه بما صار إليه من العذاب والنكال ، وكذلك تفرعهم الملائكة يقولون لهم : ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ . أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ . أَصْلُوهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور : ١٤ - ١٦] . وكذلك قرع رسول الله ﷺ قتلى القلب يوم بدر ، فنادى : « يا أبا جهل ابن هشام ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبه بن ربيعة - وسمى رؤوسهم - : هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟ فإنى وجدت ما

(١) ورواه أحمد فى المسند (١٠٦٦٠) . وذكره الهيمى فى الزوائد (١٠ / ٣٩٩) ثم رواية أخرى له ، ثم قال :

« رواه كله أحمد ، ورجال الرواية الأولى (يريد هذه الرواية) رجال الصحيح » .

(٢) هو بمعناه ثابت من حديث أبى هريرة . انظر المسند (٧٢٠٢ ، ٧٤٧٣ ، ٧٥٧٧) والبخارى (١٠ / ١٠٩ ،

١١ ، و ١١ / ٢٦٢ - ٢٦٥) .

وعدنى ريبى حقاً. قال عمر: يا رسول الله، تخاطب قوماً قد جيئوا؟ فقال: «والذى نفسى بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا» .

وقوله: ﴿فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أى : أعلم معلّم ونادى مُناد : ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أى : مستقرة عليهم .

ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْتَرِفُونَ عِوَجًا﴾ أى : يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء، ويعتدون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة، حتى لا يتبعها أحد ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ أى : وهم لبقاء الله فى الدار الآخرة كافرون، أى : جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به . فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل؛ لأنهم لا يخافون حساباً عليه ، ولا عقاباً، فهم شر الناس أعمالاً وأقوالاً .

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار، نبه أن بين الجنة والنار حجاباً، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة . قال ابن جرير: وهو السور الذى قال الله تعالى: ﴿فَضْرِبْ بَيْنَهُمْ سُورًا لَبِيبًا بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣] . وهو الأعراف الذى قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ . ثم روى بإسناده عن السدى أنه قال فى قوله تعالى : ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ وهو «السور»، وهو «الأعراف» . وقال مجاهد: الأعراف: حجاب بين الجنة والنار، سور له باب . قال ابن جرير: والأعراف جمع «عُرف»، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى «عُرفاً»، وإنما قيل لعرف الديك عرفاً لارتفاعه . وعن ابن عباس: الأعراف، تل بين الجنة والنار، حبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار . وفى رواية عنه: هو سور بين الجنة والنار . وكذلك قال الضحاك وغير واحد من علماء التفسير .

واختلفت عبارات المفسرين فى أصحاب الأعراف من هم، وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد، وهو: أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم . نص عليه حذيفة، وابن عباس، وابن مسعود، وغير واحد من السلف والخلف، رحمهم الله . وقد جاء فى حديث مرفوع رواه ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: سئل رسول الله ﷺ عن استوت حسناته وسيئاته؟ فقال: «أولئك أصحاب الأعراف، لم يدخلوها وهم يطمعون» . وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، ورواه من وجه آخر عن محمد بن المنكدر عن رجل من مزينة قال: سئل رسول الله ﷺ عن استوت حسناته وسيئاته وعن أصحاب الأعراف؟ فقال: «إنهم قوم خرجوا عصاة بغير إذن آبائهم، فقتلوا فى سبيل الله» . وعن يحيى بن عبد الرحمن المزنى، عن أبيه قال: سئل رسول الله ﷺ عن

«أصحاب الأعراف» فقال: «هم ناس قتلوا فى سبيل الله بمعصية آبائهم، فمنعهم من دخول الجنة معصية آبائهم ومنعهم من النار قتلهم فى سبيل الله».

هكذا رواه ابن مَرْدُويَه، وابن جرير، وابن أبى حاتم وكذا رواه ابن ماجه مرفوعاً، من حديث أبى سعيد الخدرى وابن عباس ، والله أعلم بصحة هذه الأخبار المرفوعة وقصارها أن تكون موقوفة وفيه دلالة على ما ذكر. وروى ابن جرير عن حذيفة؛ أنه سئل عن أصحاب الأعراف، قال: فقال: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة، وخلقت بهم حسناتهم عن النار. قال: فوقفوا هنالك على السور حتى يقضى الله فيهم .

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ قال ابن عباس : يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه، وأهل النار بسواد الوجوه . وقال: أنزلهم الله بتلك المنزلة، ليعرفوا من فى الجنة والنار، وليعرفوا أهل النار بسواد وجوه ، ويتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين. وهم فى ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام، لم يدخلوها، وهم يطعمون أن يدخلوها، وهم داخلوها إن شاء الله. وكذا قال مجاهد، والضحاك، وغيرهم . وعن الحسن: أنه تلا هذه الآية: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ قال : والله ما جعل ذلك الطمع فى قلوبهم ، إلا لكرامة يريد بها بهم. وقال قتادة : أنباكم الله بمكانهم من الطمع.

وقوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال ابن عباس: إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار عرفوهم ، قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ فرأوا وجوههم مسودة، وأعينهم مزرقة ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ .

﴿ وَنَادَى أَحَدُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا لَا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهْلُؤَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

يقول تعالى إخبارا عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم، يعرفونهم فى النار بسيماهم: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أى: كثرتكم ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى: لا ينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله، بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال ﴿أَهْلُؤَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قال ابن عباس: يعنى: أصحاب الأعراف ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ . وروى ابن جرير عن ابن عباس: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ الآية، قال: فلما قالوا لهم الذى قضى الله أن يقولوا - يعنى أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار - قال الله لأهل التكبر والاموال: ﴿أَهْلُؤَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ .

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِتَابِعِينَ ﴿٥١﴾ يَجْحَدُونَ ﴾

يخير تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم، وأنهم لا يجابون إلى ذلك . قال السُّدِّي : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ يعني : الطعام . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يستطعمونهم ويستسقونهم . وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ يعني : طعام الجنة وشرابها . ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا من اتخاذهم الدين لهوا ولعبا، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للدار الآخرة .

وقوله : ﴿ فَالْيَوْمَ نَسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ أى : تعاملهم معاملة من نسيتهم ؛ لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه ، كما قال تعالى : ﴿ فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [طه : ٥٢] . وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة ، كما قال : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة : ٦٧] ، وقال : ﴿ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَذَلِكَ الْيَوْمَ تَنسَى ﴾ [طه : ١٢٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ [الجنائى : ٣٤] . وقال ابن عباس فى : نسيتهم الله من الخير ، ولم ينسهم من الشر . وقال ابن عباس : نتركهم ، كما تركوا لقاء يومهم هذا . وقال مجاهد : نتركهم فى النار . وقال السُّدِّي : نتركهم من الرحمة ، كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا . وفى الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : « ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى . فيقول : أظننت أنك ملاقى ؟ فيقول : لا . فيقول الله تعالى : فالיום أنساك كما نسيتنى » (١) .

﴿ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلْنَاهُ عَلَىٰ عَلَيْهِ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن إعداده إلى المشركين بإرسال الرسول إليهم بالكتاب الذى جاء به

(١) مضى عند الآية : ٤٧ من سورة البقرة مختصراً هكذا . وهو جزء من حديث طويل فى المسند (١٠٣٨٣) وصحيح مسلم (٢ / ٣٨٦) من حديث أبى هريرة .

الرسول، وأنه كتاب مفصل مبين، كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ لُفِّتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]

وقوله: ﴿فَصَلِّنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أى: على علم منا بما فصلناه به، كما قال تعالى: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦]. قال ابن جرير: وهذه الآية مردودة على قوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢]. ﴿وَلَقَدْ جِئْتَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾ الآية. وهذا الذى قاله فيه نظر، فإنه قد طال الفصل، ولا دليل على ذلك، وإنما لما أخبر بما صاروا إليه من الخسار فى الدار الآخرة، ذكر أنه قد أراح عليلهم فى الدار الدنيا، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]؛ ولهذا قال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أى: ما وعد من العذاب والنكال والجنة والنار. قاله مجاهد وغير واحد. وقال الربيع: لا يزال يجيء من تأويله أمر، حتى يتم يوم الحساب، حتى يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيتم تأويله يومئذ.

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ أى: يوم القيامة، قاله ابن عباس ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أى: تركوا العمل به، وتناسوه فى الدار الدنيا ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَمَنْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءٍ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ أى: فى خلاصنا مما صرنا إليه مما نحن فيه ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الدار الدنيا ﴿فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، كما قال هاهنا: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى: خسروا أنفسهم بدخلوهم النار وخلودهم فيها ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى: ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله، فلا ينصرونهم، ولا يشفعون فيهم، ولا يتقذونهم مما هم فيه.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى السَّمَوَاتِ وَيُقْبِضُ إِلَيْهِ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ شَاءَ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْحُورَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

يخبر تعالى أنه خلق هذا العالم: سماواته وأرضه، وما بين ذلك فى ستة أيام، كما أخبر بذلك فى غير ما آية من القرآن. والستة الأيام هى: الأحد، والإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة - وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم، عليه السلام. واختلفوا فى هذه الأيام: هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان؟ أو كل يوم كالف سنة، كما نص على ذلك مجاهد، والإمام أحمد بن حنبل، ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس؟ فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع، ومنه سُمى السبت، وهو القطع.

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق

آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل». فقد رواه مسلم والنسائي ، وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال في ستة أيام؛ ولهذا تكلم البخارى وغير واحد من الحفاظ فى هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبى هريرة، عن كعب الأحبار، ليس مرفوعا، والله أعلم (١) .

وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ فللناس فى هذا المقام مقالات كثيرة جدا، ليس هذا موضع بسطها، وإنما نُسلك فى هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك، والاوزاعى، والثورى، والليث ابن سعد، والشافعى، وأحمد، وإسحاق بن راهويه وغيرهم، من أئمة المسلمين قديما وحديثا، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفى عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ، بل الأمر كما قال الأئمة - منهم نعيم بن حماد الخزازى شيخ البخارى ، قال : « من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر». وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذى يليق بجلال الله ، ونفى عن الله تعالى النقائص، فقد سلك سبيل الهدى.

وقوله تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ أى: يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، أى: سريعاً لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، كما قال تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلَمُونَ. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧ - ٤٠]. فقله: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ أى: لا يفوته بوقت يتأخر عنه، بل هو فى أثره لا واسطة بينهما؛ ولهذا قال: ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ منهم من نصب، ومنهم من رفع، وكلاهما قريب المعنى، أى: الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيتته؛ ولهذا قال منبها: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ؟﴾ أى: له الملك والتصرف، ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، كما قال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّكُمْ لَا تُحِبُّونَ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

أرشد تبارك وتعالى عباده إلى دعائه، الذى هو صلاحهم فى دنياهم وأخراهم، فقال :

(١) المسند (٨٣٢٣) . والتعليل بأنه مما أخذ أبو هريرة عن كعب الأحبار - ليس بجيد ولا مستقيم مع السياق ؛ بقوله فى أوله : « أخذ رسول الله ﷺ بيدي . وإنما الخطأ من بعض الرواة . وقد مضى الحديث والكلام عليه عند الآية : ٣٠ من سورة البقرة .

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ قيل : معناه: تذللًا واستكانة، كما قال: ﴿وَأَذْكُرُ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وفي الصحيحين، عن أبي موسى الأشعري ، قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، اربعوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصمًّا ولا غائبًا، إن الذي تدعونه سميع قريب» . الحديث. وقال ابن عباس في قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، قال: السر. وقال ابن جرير: ﴿تَضَرُّعًا﴾: تذللًا واستكانة لطاعته ﴿وَخُفْيَةً﴾ يقول: بخشوع قلوبكم، وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه، لا جهارًا ومراءاة. وقال الحسن: «إن كان الرجل لقد جمع القرآن، وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل لقد فقهه الفقه الكثير، وما يشعر به الناس. وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزُّور وما يشعرون به. ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدر أن يعملوه في السر، فيكون علانية أبداً. ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يُسمع لهم صوت، إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رَضِيَ فعله فقال: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ١٣]. وقال ابن جرير: يكره رفع الصوت والنداء والصبح في الدعاء، ويؤمر بالتضرع والاستكانة، ثم روى ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ في الدعاء ولا في غيره. وقال أبو مجلز: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾: لا يسأل منازل الأنبياء. وروى أحمد عن مولى لسعد؛ أن سعداً سمع ابنا له يدعو وهو يقول: اللهم، إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحوها من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسها وأغلالها. فقال: لقد سألت الله خيراً كثيراً، وتعوذت بالله من شر كثير، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء». وقرأ هذه الآية: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾، وإن بحسبك أن تقول: «اللهم إني أسألك الجنة وما قَرَّبَ إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل». ورواه أبو داود (١). وروى أحمد: أن عبد الله بن مَعْقَل سمع ابنه يقول: اللهم، إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: يا بني، سل الله الجنة، وعُدْ به من النار؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون قوم يَعْتَدُونَ في الدعاء والطَّهْر». رواه ابن ماجه، وأبو داود، وهو إسناد حسن لا بأس به، والله أعلم (٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾: ينهى تعالى عن فسَادِ في الأرض، وأضره بعد الإصلاح؛ فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد، ثم وقع الإفساد بعد ذلك، كان أضرَّ ما يكون على العباد. فنهى تعالى عن ذلك، وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه، فقال: ﴿وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أى: خوفاً مما عنده من وبيل العقاب، وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب. ثم قال: ﴿إِنْ رَحِمَتِ اللَّهُ قَرْيَبًا مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: إن رحمته مُرْصَدَةٌ للمحسنين، الذين

(١) المسند (١٤٨٣)

(٢) المسند (١٦٨٦٧) ورواه أيضا الحاكم في المستدرک (١/٥٤٠) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

يتبعون أوامرهم ويتركون زواجرهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]. وقال: ﴿قَرِيبٌ﴾، ولم يقل: «قريبة»؛ لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مضافة إلى الله، فلهذا قال: قريب من المحسنين. وقال مطر الوراق: تَنَجَّرُوا موعود الله بطاعته، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين، رواه ابن أبي حاتم.

﴿هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا نِّقَالًا سَقَنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيْتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُنصِّرُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُشْكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض، وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر، وأرشد إلى دعائه؛ لأنه على ما يشاء قادر - نبه تعالى على أنه الرزاق، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ نَشْرًا﴾ أي: ناشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر، ومنهم من قرأ ﴿بُشْرًا﴾ (١) كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦].

وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: بين يدي المطر، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]، وقال: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمَعْبُودٍ وَالَّذِي يَبْدَأُ الْحَيَاةَ الْأُولَىٰ وَالَّذِي يُعِيدُهَا كَمَا بَدَأَهَا الْأُولَىٰ وَالَّذِي يُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٠] (٢).

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أي: حملت الرياح سحاباً ثقالاً، أي: من كثرة ما فيها من الماء، تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة. وقوله: ﴿سَقَنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيْتٍ﴾ أي: إلى أرض ميتة، مجدبة لا نبات فيها، كما قال: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣]؛ ولهذا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ﴾ أي: كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها، كذلك نحى الأجساد بعد صيرورتها رَمِيمًا يوم القيامة، ينزل الله، سبحانه وتعالى، ماء من السماء، فتمطر الأرض أربعين يوماً، فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض. وهذا المعنى كثير في القرآن، يضرب الله مثلاً للقيامة بإحياء الأرض بعد موتها؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي: والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسناً، كما قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧]. ﴿وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾

(١) قراءة «بشراً» بالباء المضمومة مع سكنون الشين - هي قراءة عاصم، وهي التي في قراءة حفص عن عاصم. وقرأها ابن عامر: «نشراً» بضم النون مع سكنون الشين. وقرأها حمزة والكسائي بفتح النون وإسكان الشين. وقرأ باقي السبعة بضم النون والشين معاً.

(٢) «إلى أثر رحمة الله»: ثبتت كلمة «أثر» بالإنفراد في المخطوطتين. وقراءة حفص وابن عامر وحمزة والكسائي: «آثار» بالجمع. وقرأ باقي السبعة بالإنفراد. وهي التي قرأ بها المؤلف وأثبتها في تفسيره.

قال مجاهد وغيره: كالسباخ ونحوها. وقال ابن عباس في هذه الآية: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر. وروى البخارى عن أبى موسى ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانت منها نقيعاً قبلت الماء، فأنبتت الكلاً والعشب الكثير. وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا. وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فُتِه في دين الله ونفعه ما بعثنى الله به، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذى أُرْسِلْتُ به». رواه مسلم والنسائى .

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أَبْلَغِكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة، وما يتعلق بذلك ويتصل به، وفرغ منه - شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء، عليهم السلام، الأول فالأول، فابتدأ بذكر نوح ، عليه السلام ، فإنه أول رسول إلى أهل الأرض بعد آدم، عليه السلام، قال ابن إسحاق: ولم يلق نبى من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبى قتل. قال ابن عباس وغير واحد من علماء التفسير: وكان أول ما عبدت الأصنام، أن قوماً صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجدَ وصوروا صورة أولئك فيها، ليتذكروا حالهم وعبادتهم، فيتشبهوا بهم. فلما طال الزمان، جعلوا تلك الصور أجساداً على تلك الصور. فلما تمدى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين **يَعْبُوثُ وَيَعُوقُ** ونسراً. فلما تفاقم الأمر بعث الله ، سبحانه وتعالى - وله الحمد والمنة - رسوله نوحاً يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال: **﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾** أى: من عذاب يوم القيامة إن لقيتم الله وأنتم مشركون به **﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾** أى: الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم: **﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾** أى: فى دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التى وجدنا عليها آباءنا. وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار فى ضلالة، كما قال تعالى: **﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ﴾** [المطففين: ٣٢]، **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقْنَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾** [الحاقف: ١١]، إلى غير ذلك من الآيات.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: ما أنا ضال، ولكن أنا رسول رب كل شىء ومليكه **﴿أَبْلَغِكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾**. وهذا شأن الرسول، أن يكون بليغاً فصيحاً ناصحاً بالله، لا يدرکہم أحد من خلق الله فى هذه الصفات، كما جاء فى صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة، وهم أوفر ما كانوا

وأكثر جمعا: «أيها الناس، إنكم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكتها عليهم ويقول: «اللهم اشهد، اللهم اشهد» (١).

﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾
﴿ ١٦ ﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَجْمِنْتُهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿ ١٧ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح : أنه قال لقومه : ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجب أن يوحى الله إلى رجل منكم، رحمة بكم ولطفا وإحسانا إليكم، لإنذاركم ولتتقوا نعمة الله ولا تشركوا به ﴿ولعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: تمادوا على تكذيبه ومخالفته، وما آمن معه منهم إلا قليل، كما نص عليه تعالى في موضع آخر ﴿فَأَجْمِنْتُهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾، وهى السفينة، كما قال: ﴿فَأَجْمِنْتُهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥] ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ كما قال: ﴿ثُمَّ خَطَّأَهُمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح: ٢٥] (٢).

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ أي: عن الحق، لا يبصرونه ولا يهتدون له. فبين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه، وأنجى رسوله والمؤمنين، وأهلك أعداءهم من الكافرين، كما قال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ. يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذرتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]. وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة. أن العاقبة فيها للمتقين والظفر والغلب لهم، كما أهلك قوم نوح بالغرق، ونجى نوحا وأصحابه المؤمنين.

﴿ وَإِلَّا عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يُنْقِمِ رَبِّي مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾
﴿ ١٥ ﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظَنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿ ١٦ ﴾ قَالَ يُنْقِمِ رَبِّي لِيَسَّ فِي سَفَاهَةٍ وَلِيَكُنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ ١٧ ﴾ أُنبِئْكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿ ١٨ ﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَتْلِحُونَ ﴿ ١٩ ﴾

(١) هو جزء من حديث جابر الطويل، في صفة حجة النبي ﷺ في صحيح مسلم (١ / ٣٤٦ - ٤٣٨).

(٢) ثبت في المخطوطتين (عما خطاياهم)، فثبتناها كذلك، وهى قراءة أبى عمرو. وقرأ باقى السبعة (عما خطياتهم).

يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوحاً، كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً. قال ابن إسحاق: هم ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح. قلت: وهؤلاء هم عاد الأولى، الذين ذكرهم الله، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمدة في البر، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٦ - ٨] وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥]. وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهي جبال الرمل^(١). روى ابن إسحاق عن أبي الطفيل عامر بن وائلة: سمعت علياً يقول لرجل من حضرموت: هل رأيت كثيباً أحمر يخالطه مدرة حمراء ذا أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت؟ هل رأيت؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. والله إنك لتنعتة نعت رجل قد رآه. قال: لا، ولكني قد حدثت عنه. فقال الحضرمي: وما شأنه يا أمير المؤمنين؟ قال: فيه قبر هود، عليه السلام. رواه ابن جرير. وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن، فإن هوداً، عليه السلام، دفن هناك، وقد كان من أشرف قومه نسبا؛ لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم، وكانوا من أشد الأمم تكذيباً للحق؛ ولهذا دعاهم هود، عليه السلام، إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى طاعته وتقواه.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ والملاء هم: الجمهور والسادة والقادة منهم ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أى: فى ضلالة حيث دعوتنا إلى ترك عبادة الأصنام، والإقبال إلى عبادة الله وحده، كما تعجب الملاء من قريش من الدعوة إلى إله واحد، فقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [ص: ٥]. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: لست كما تزعمون، بل جئتكم بالحق من الله الذى خلق كل شىء، فهو رب كل شىء ومليكه ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ وهذه الصفات التى يتصف بها الرسل: البلاغ والنصح والأمانة. ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ أى: لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولا من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه، بل احمداوا الله على ذاكم ﴿وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أى: واذكروا نعمة الله عليكم إذ جعلكم من ذرية نوح، الذى أهلك الله أهل الأرض بدعوته، لما خالفوه وكذبوه، ﴿وَإِذْ جَاءَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةٌ﴾ أى: زاد طولكم على الناس بسطة، أى: جعلكم أطول من أبناء جنسكم، كما قال تعالى: فى قصة طالوت: ﴿وَإِذْ جَاءَهُ بَسْطَةٌ فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. ﴿فَادْكُرُوا آيَاتِ اللَّهِ﴾ أى: نعمه ومنته عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ و «الآلاء» جمع

(١) «جبال الرمل»: بالحاء المهملة، جمع «حبل». وهى المستطيل من الرمل، الضخم منه. والجبال فى الرمل كالجبال فى غير الرمل.

«إلى» ، وقيل: إلى^(١).

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَدُّهُ وَنَدَّرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَإِنَّا بِمَا
تَعَدْنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ
وَعَظْبٌ أَتَجِدَلُونِنِى فِى أَسْمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ
سُلْطَانٍ فَأَنْظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَجْحِبْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرِحْمَةِ
رَبِّهِمْ وَأَقْطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾

يقول تعالى مخبرا عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود، عليه السلام: ﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَدُّهُ وَنَدَّرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَإِنَّا بِمَا تَعَدْنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ، كما قال الكفار من قريش: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] . ولهذا قال هود، عليه السلام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَظْبٌ﴾ أى: قد وجب عليكم بمقاتلتكم هذه من ربكم رجس ، قيل: هو مقلوب من « رجز » . وعن ابن عباس: معناه السخط والغضب. ﴿أَتَجَادِلُونِنِى فِى أَسْمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ أى: أتجاجونى فى هذه الأسمام التى سميتموها أنتم وآبائكم آلهة، وهى لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلا؟! ولهذا قال: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَأَنْظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه؛ ولهذا عقب بقوله: ﴿فَأَجْحِبْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرِحْمَةِ رَبِّهِمْ وَأَقْطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ .

وقد ذكر سبحانه، صفة إهلاكهم فى أماكن آخر من القرآن، بأنه أرسل عليهم الريح العقيم، ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالريم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَاهْلَكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ - ٨] . لما تمردوا وعتوا أهلكهم الله بريح عاتية، فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه إلى الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتتلغ رأسه حتى تُبينه من جسده؛ ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ .

وقال محمد بن إسحاق: كانوا يسكنون باليمن ، بين عمان وحضرموت، وكانوا مع ذلك قد فشوا فى الأرض وقهروا أهلها، بفضل قوتهم التى آتاهم الله، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله، فبعث الله لهم هوداً، عليه السلام، وهو من أوسطهم نسباً، وأفضلهم موضعاً، فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلها غيره، وأن يكفوا عن ظلم الناس، فأبوا عليه

(١) «الآلى»: مقصور، بفتح الهمزة وكسرها، وجمعها آلاء، كسبب وأسباب - فى حالة الفتح . ومثلها «الإلى» :

بكسر الهمزة وسكون اللام وآخره ياء .

وكذبوه، وقالوا: من أشد منا قوة؟! واتبعه منهم ناس - وهم يسير يكتمون بإيمانهم، فلما عتت عاد على الله وكذبوا نبيه، وأكثروا في الأرض الفساد وتجبروا، وبنوا بكل ريع آية عبثا بغير نفع، كلمهم هود فقال: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ. وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٣١]. ﴿ قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ أى: بجنون ﴿ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٣ - ٥٦].

روى الإمام أحمد عن أبي وائل، عن الحارث البكرى قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ، فمررت بالريذة، فإذا عجوز من بني تميم منقطع بها، فقالت: يا عبد الله، إن لى إلى رسول الله ﷺ حاجة، فهل أنت مبلغى إليه؟ قال: فحملتها فأتيت المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد سيفاً بين يدي رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً. فقال: فجلست، قال: فدخل منزله - أو قال: رحله - فاستأذنت عليه، فأذن لى، فدخلت وسلمت، قال: هل بينكم وبين تميم شيء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الدبيرة عليهم، ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألتنى أن أحملها إليك، وما هى بالباب. فأذن لها، فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً، فاجعل الدهناء. فحميت العجوز واستوفزت، فقالت: يا رسول الله، فإلى أين يُضطرُّ مُضطرُّك؟ قال: قلت: إن مثلى ما قال الأول: معزى حمَلت حتفها، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لى خصماً، أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد، قال لى: وما وافد عاد؟ - وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه - قلت: إن عاداً قُمحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: قَيْل، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنيه جارتان، يقال لهما: الجرادتان، فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة، فقال: اللهم إنك تعلم أنى لم أجيء إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه. اللهم أسقِ عاداً ما كنت تسقيه، فمرت به سحابات سود، فنودى: منها اختر. فأوماً إلى سحابة منها سوداء، فنودى منها: خذها رماداً رمداً، لا تبقى من عاد أحداً. قال: فما بلغنى أنه بُعث عليهم من الريح إلا قدر ما يجرى فى خاتمى هذا، حتى، هلكوا - قال أبو وائل: وصدق، قال: وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: لا تكن كوافد عاد. ورواه الترمذى نحوه. ورواه النسائى وابن ماجه (١).

(١) المسند (١٦٠٢٠). ورواه الطبرى (١٤٨٠٥، ١٤٨٠٦) بنحوه. وقصة هذه المرأة - وهى قبيلة بنت مخزومة - فى الإصابة (٨ / ١٧١) ومجمع الزوائد (٦ / ٩ - ١٢).

﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْمِمْ بَعْنَةً مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يَسُوءَ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ يَبُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٨﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٩﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحُ اثْنَتَا يَمَاعَتِنَا إِن كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

قال علماء التفسير والنسب: ثمود وكذلك قبيلة طسم، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل، عليه السلام، وكانت ثمود بعد عاد، ومسكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادى القرى وما حوله، وقد مر رسول الله ﷺ على قراهم ومسكنهم، وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع.

روى الإمام أحمد عن نافع، عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فمجنوا منها ونصبوا منها القدور. فأمرهم النبي ﷺ فأهرقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال: «إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم» (١). وروى أحمد عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم، أن يصيبكم مثل ما أصابهم». وأصل هذا الحديث مُخْرَجٌ فى الصحيحين من غير وجه (٢). وروى الإمام أحمد عن أبى كبشة الأثمارى، قال: لما كان فى غزوة تبوك، تسارع الناس إلى أهل الحجر، يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فنادى فى الناس: «الصلاة جامعة». قال: فأتيت رسول الله ﷺ وهو ممسك بعنزة وهو يقول: «ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم». فناداه رجل منهم: تعجب منهم يا رسول الله قال: «أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك: رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم، وبما هو كائن بعدكم، فاستقيموا وسددوا، فإن الله لا يعبا بعدابكم شيئا، وسيأتى قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئا». لم يخرج أحد من أصحاب السنن، وأبو كبشة: اسمه عمرو ابن سعد، ويقال: عامر بن سعد، والله أعلم (٣). وروى الإمام أحمد عن جابر قال: لما مر

(٢) المسند (٥٤٤١).

(١) المسند (٥٩٨٤). ورواه أيضا الشيخان، كما بينا هناك.

(٣) المسند (٤ / ٢٣١ حلى). وإسناده صحيح.

رسول الله ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات، فقد سألتها قوم صالح فكانت - يعنى الناقة - ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يوماً ويشربون لبنها يوماً، فعقروها، فأخذتهم صيحة، أهدم الله من تحت أديم السماء منهم، إلا رجلاً واحداً كان فى حرم الله». فقالوا: من هو يا رسول الله؟ قال: «أبو رغال. فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه». وهذا الحديث ليس فى شىء من الكتب الستة، وهو على شرط مسلم^(١).

فقوله تعالى: ﴿وَأَلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ أى: ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، جميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رُّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةٌ لِلَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أى: قد جاءكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به. وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية. فأقامت الناقة وفصيلها - بعد ما وضعته بين أظهرهم - مدة تشرب من بئرها يوماً، وتدعه لهم يوماً، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها، يحتلبونها فيملؤون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَنَبِّهَهُمْ أَنَ الْمَاءِ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شَرْبٌ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]. وكانت تسرح فى بعض تلك الأودية ترد من فج وتصدر من غيره ليسعها؛ لأنها كانت تتصلع من الماء، وكانت - على ما ذكر - خلقاً هاتلاً ومنظراً رائعاً، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها. فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبى، عليه السلام، عزموا على قتلها، ليستأثروا بالماء كل يوم، فيقال: إنهم اتفقوا كلهم على قتلها. وهذا هو الظاهر؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِم رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤]، وقال: ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال: ﴿فَعَقَرُوهَا النَّاقَةَ﴾ فأسند ذلك إلى مجموع القبيلة، فدل على رضى جميعهم بذلك، والله أعلم.

قال علماء التفسير: ولم يبق من ذرية ثمود أحد، سوى صالح، عليه السلام، ومن اتبعه، رضى الله عنهم، إلا أن رجلاً كان يقال له: «أبو رغال»، كان لما وقعت النقمة بقومه مقيماً إذ ذاك فى الحرم، فلم يصبه شىء، فلما خرج فى بعض الأيام إلى الحل، جاءه حجر من السماء فقتله. وقد تقدم فى أول القصة حديث «جابر بن عبد الله» فى ذلك، وذكروا أن أبا رغال هذا هو والد «ثقيف» الذين كانوا يسكنون الطائف. عن جبير بن أبى بجير قال: سمعت عبد الله ابن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول، حين خرجنا معه إلى الطائف، فمرنا بقبر فقال: «هذا قبر أبى رغال، وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم يدفع عنه، فلما خرج، أصابته النقمة التى أصابت قومه بهذا المكان، فدفن فيه. وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب، إن أنتم نبيستم عنه أصبتموه، فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن». رواه أبو داود،

(١) المسند (١٤٢٠٦). - ورواه الطبرى بنحوه (١٤٨١٧، ١٤٨٢٠، ١٤٨٢٣).

من طريق ابن إسحاق . قال شيخنا أبو الحجاج المزني : وهو حديث حسن عزيز . قلت : تفرد بوصله «بُجَيْرُ بن أبي بجير» هذا، وهو شيخ لا يعرف إلا بهذا الحديث . قال يحيى ابن معين : ولم أسمع أحداً روى عنه غير إسماعيل بن أمية .

قلت : وعلى هذا، فيخشى أن يكون وهم في رفع هذا الحديث، وإنما يكون من كلام عبد الله ابن عمرو، مما أخذه من الزاملتين . قال شيخنا أبو الحجاج، بعد أن عرضت عليه ذلك : وهذا محتمل، والله أعلم .

وقوله تعالى :

﴿ قَتَلْنَا عَنْهُمْ وَإِقْدَاقَهُمْ لَمِيحَاتِهِمْ كَأَنَّهُمْ عِزَابُ الْعَنْكَبُوتِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ فَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَن لَّا يَكُونُوا مِّن قَوْمِ آلِ فِرْعَوْنَ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَذُكِّرُوا بِالْجَنَّةِ وَإِن مِّن نَّاصِحٍ فِيهَا ﴾

هذا تقرير من صالح، عليه السلام، لقومه، لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه، وتمردهم على الله، وإبائهم عن قبول الحق، وإعراضهم عن الهدى إلى العمى - قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريراً وتوبيخاً وهم يسمعون ذلك، كما ثبت في الصحيحين : أن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل بدر، أقام هناك ثلاثاً، ثم أمر بإراجلته فشدت بعد ثلاث من آخر الليل، فركبها، ثم سار حتى وقف على القلب، قلب بدر، فجعل يقول : «يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبه بن ربيعة، ويا فلان بن فلان : هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً» . فقال له عمر : يا رسول الله، ما تكلم من أقوام قد جفوا؟ فقال : «والذي نفسى بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يجيبون» . وفي السيرة أنه، عليه السلام، قال لهم : «بئس عشيرة النبي كنتم لنيكم، كذبتوني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتوني ونصرني الناس، فبئس عشيرة النبي كنتم لنيكم» .

وهكذا صالح، عليه السلام، قال لقومه : «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ فَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَن لَّا يَكُونُوا مِّن قَوْمِ آلِ فِرْعَوْنَ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَذُكِّرُوا بِالْجَنَّةِ وَإِن مِّن نَّاصِحٍ فِيهَا» . وقد ذكر بعض المفسرين أن كل نبي هلكت أمته، كان يذهب فيقيم في الحرم، حرم مكة، فالله أعلم . وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : لما مر رسول الله ﷺ بوادي عسفان حين حج قال : «يا أبا بكر، أي وادي هذا؟» قال : هذا وادي عسفان . قال : «لقد مر به هود وصالح، عليهما السلام، على بكرات حمر خطمها الليف، أزرهم العباء، وأرديتهم النمار، يلبون، يحجون البيت العتيق» . هذا حديث غريب من هذا الوجه، لم يخرج أحد منهم^(١) .

﴿ وَلَوْ طَآءَ أُمَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ آلِهِم مَّا عُدْتُمْ عَلَيْهِم جُنُودًا لَقَدْ جَاءتْ رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ فَكَفَرُوا بِهَا فُوَّكَرُوا وَكَرِهُوا فَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَن لَّا يَكُونُوا مِّن قَوْمِ آلِ فِرْعَوْنَ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَذُكِّرُوا بِالْجَنَّةِ وَإِن مِّن نَّاصِحٍ فِيهَا ﴾

(١) ومع هذا فهو ضعيف الإسناد، في المسند (٢٠٦٧)، في إسناده زمعة بن صالح، وهو ضعيف . ونقله المؤلف الحافظ في التاريخ (١ / ١٣٨) وقال : «إسناده حسن» .

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا لُوطًا﴾ ، أو تقديره: ﴿وَوَ﴾ اذكر ﴿لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ . ولوط هو بن هاران بن آزر، وهو ابن أخى إبراهيم الخليل، عليهما السلام، وكان قد آمن مع إبراهيم، عليه السلام، وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله إلى أهل «سَدُومَ» وما حولها من القرى، يدعوهم إلى الله، عز وجل، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها، لم يسبقهم بها أحد من بنى آدم ولا غيرهم، وهو إتيان الذكور . وهذا شيء لم تكن بنو آدم تعهده ولا تألفه، ولا يخطر ببالهم، حتى صنع ذلك أهل «سَدُومَ» عليهم لعائن الله .

قال عمرو بن دينار: قوله: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال: مانراً ذَكَرَ عَلَى ذَكَرٍ، حتى كان قوم لوط . وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي، باني جامع دمشق: لولا أن الله، عز وجل، قص علينا خير لوط، ما ظننت أن ذكراً يعلوا ذكراً . ولهذا قال لهم لوط، عليه السلام: ﴿اتَّاتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ . إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أى: عدلتم عن النساء، وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال، وهو إسراف منكم وجهل؛ لأنه وضع الشيء فى غير محله؛ ولهذا قال لهم فى الآية الأخرى: ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١]، فأرشدهم إلى نسائهم، فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن، ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩] أى: لقد علمت أنه لا أرب لنا فى النساء، ولا إرادة، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك . وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد اغتنى بعضهم ببعض، وكذلك نساؤهم كن قد استغنين بعضهن ببعض أيضاً .

﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ ﴿٨٢﴾

أى: ما أجابوا لوطاً إلا أن هموا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم، فأخرجه الله تعالى سالماً، وأهلكهم فى أرضهم صاعيرن مهانين .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ قال قتادة : عابوهم بغير عيب . وقال مجاهد : إنهم أناس يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء . وروى مثله عن ابن عباس أيضاً .

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِذْ أَمْرَانَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٨٤﴾

يقول تعالى: فأنجينا لوطاً وأهله، ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، إلا امرأته فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها، فمآلتهم عليه وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم؛ ولهذا لما أمر لوط، عليه السلام، أن يسرى بأهله أمر ألا يعلمها

ولا يخرجها من البلد. ومنهم من يقول: بل اتبعتم، فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم. والأظهر أنها لم تخرج من البلد، ولا أعلمها لوط، بل بقيت معهم؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أى: الباقيين، وقيل: من الهالكين، وهو تفسير باللام.

وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ مفسر بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مُنْضُودٍ. مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدَةٌ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣]، ولهذا قال: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: انظر - يا محمد - كيف كان عاقبة من يجترئ على معاصي الله ويكذب رسله (١).

وقد ذهب الإمام أبو حنيفة، رحمه الله، إلى أن اللائط يلتقى من شاطئ، ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط. وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يرجم سواء كان محصناً أو غير محصن، وهو أحد قولى الشافعى، رحمه الله، والحجة ما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به». وقال آخرون: هو كالزانى، فإذا كان محصناً رجم، وإن لم يكن محصناً جلد مائة جلدة. وهو القول الآخر للشافعى.

وأما إتيان النساء فى الأدبار، فهو اللوطية الصغرى، وهو حرام بإجماع العلماء، إلا قولاً شاذاً لبعض السلف، وقد تقدم الكلام عليها فى سورة البقرة (٢).

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَمْشِيًا هُمْ وَلَا نَفْسًا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

مدین تطلق على القبيلة، وعلى المدينة، وهى التى بقرب «معان» من طريق الحجاز، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، وهم أصحاب الأيكة، كما سنذكره إن شاء الله، وبه الثقة. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾: هذه دعوة الرسل كلهم ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: قد أقام الله الحجج والبيّنات على صدق ما جئتكم به. ثم وعظهم فى معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان، ولا يبخسوا الناس أشياءهم، أى: لا يخونوا

(١) وقد شاعت هذه الفاحشة القذرة، فى كثير من البلاد. وأكثر ما شاعت فى الأمة الإنجليزية الملعونة، حتى صارت عندهم شيئاً هيناً لا يعاب به، بل شيئاً لا ينكر. وزاد الأمر أن كثيراً من قساوستهم - لعنهم الله - أعلنوا أن ليس فى هذا العمل المنكر جريمة، إذا ما كان بالتراضى! فكانوا خزيًا لدينهم ولامتهم.

ونحن نبشر تلك الأمة الفاجرة القذرة الطاغية بأن ستكون عاقبتهم كمثل عاقبتهم قوم لوط، يدمر الله عليهم، بما اجترؤوا على هذا المنكر، ثم على ذبوعه، ثم على التصريح بإباحته، أخزاهم الله وأراح العالم من شرورهم وطغيانهم.

(٢) عند الآية رقم (٢٢٣).

الناس فى أموالهم ويأخذوها على وجه البخس، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليساً، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُوا لَهُمْ أَوْ وَزَنُوا لَهُمْ يُخْسِرُونَ. أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ. لِيَوْمٍ عَظِيمٍ. يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١ - ٦]، وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد، نسأل الله العافية منه.

ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب، الذى يقال له: «خطيب الأنبياء»، لفصاحة عبارته، وجزالة موعظته :

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِأَلَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

ينهاهم شعيب، عليه السلام، عن قطع الطريق الحسى والمعنوى بقوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أى: تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم. قال السدى وغيره: كانوا عشارين. وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد: أى تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه. والأول أظهر؛ لأنه قال: ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ وهى الطريق، وهذا الثانى هو قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أى: وتودون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ﴾ أى: كنتم مستضعفين لقلنتكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم، فاذكروا نعمة الله عليكم فى ذلك ﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أى: من الأمم الخالية والقرون الماضية، ما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصى الله وتكذيب رسله.

وقوله: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِأَلَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ أى: قد اختلفتم على ﴿فَاصْبِرُوا﴾ أى: انتظروا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أى: يفصل ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فإنه سيجعل العاقبة للمتقين، والدمار على الكافرين.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّةِنَا قَالَ أُولُو كُنَا كَرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِن عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّمُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

هذا إخبار من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيباً ومن معه من المؤمنين، فى توعدهم إياه ومن معه بالنفى عن القرية، أو الإكراه على الرجوع فى ملتهم والدخول معهم فيما

هم فيه . وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملأ .

وقوله : ﴿أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ يقول : أو أنتم فاعلوا ذلك وإن كنا كارهين ما تدعوننا إليه ، فإننا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه ، فقد أعظمتنا الفرية على الله في جعل الشركاء معه أندادا . وهذا تنفير منه عن اتباعه ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ وهذا رد إلى المسبب ، فإنه يعلم كل شيء ، وقد أحاط بكل شيء علما ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أى : فى أمورنا ما نأتى منها وما نذر ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ أى : افصل بيننا وبين قومنا ، وانصرنا عليهم ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ أى : خير الحاكمين ، فإنك العادل الذى لا تجوز أبداً .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَيْرُونَ ﴾ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَفْقَهُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾

يخبر تعالى عن شدة كفر قوم شعيب وتمردهم وعتوهم ، وما هم فيه من الضلال ، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق ، ولهذا أقسموا فقالوا : ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ ، فلهذا عقب ذلك بقوله : ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ أخبر تعالى هاهنا أنهم أخذتهم الرجفة ، وذلك لما أرفجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء ، كما أخبر عنهم فى سورة هود فقال : ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤] . والمناسبة فى ذلك - والله أعلم - أنهم لما تهكموا بنبى الله شعيب فى قولهم : ﴿أَصْلَاتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] فجاءت الصيحة أسكتهم . وقال تعالى إخبارا عنهم فى سورة الشعراء : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩] ، وما ذاك إلا لأنهم قالوا له فى سياق القصة : ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧] ، فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة ، وقد اجتمع عليهم ذلك كله : أصابهم عذاب يوم الظلة ، وهى سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم ، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجة من الأرض شديدة من أسفل منهم ، فزهقت الأرواح ، وفاضت النفوس وخمدت الأجساد ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿كَانَ لَمْ يَفْقَهُوا فِيهَا﴾ أى : كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التى أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها . ثم قال مقابلا لقيلمهم : ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ .

﴿ فَنَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأْتُمْ عَلَى قَوْمٍ كافرين ﴾ ﴿٩٢﴾

أى : فتولى عنهم «شعيب» عليه السلام بعد ما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنقمة

والنكال، وقال مقرعاً لهم وموبخاً: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أى: قد أديت إليكم ما أُرسلت به، فلا آسف عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به، فلهذا قال: ﴿فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمِ كَافِرِينَ﴾ .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾
 ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ
 فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

يقول تعالى مخبراً عما اختبر به الأمم الماضية، الذين أرسل إليهم الأنبياء بالباء والضراء، يعنى ﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾: ما يصيبهم فى أبدانهم من أمراض وأسقام ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾: ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ أى: يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى فى كشف ما نزل بهم . وتقدير الكلام: أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا، فما فعلوا شيئاً من الذى أراد الله منهم، فقلب الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أى: حولنا الحال من شدة إلى رخاء، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية، ومن فقر إلى غنى، ليشكروا على ذلك، فما فعلوا .

وقوله: ﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ أى: كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، يقال: عفا الشيء: إذا كثر ﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول تعالى: ابتلاهم بهذا وهذا ليتضرعوا ويئيبوا إلى الله، فما نجح فيهم لا هذا ولا هذا، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا، بل قالوا: قد مسنا من البأساء والضراء، ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آبائنا فى قديم الدهر، وإنما هو الدهر تارات وتارات، ولم يتفطنوا لأمر الله فيهم، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم فى الحالين. وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء، ويصبرون على الضراء، كما ثبت فى الصحيحين: «عجباً للمؤمن، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له» (١) . فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء؛ ولهذا جاء فى الحديث: «لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقياً من ذنوبه، والمنافق مثله كمثل الحمار، لا يدري فيم يربطه أهله، ولا فيم أرسلوه» (٢) ، أو كما قال . ولهذا عقب هذه الصفة بقوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أى: أخذناهم بالعقوبة بغتة، أى:

(١) مضى بنحوه مع تخرجه عند الآية : ١٥٣ من سورة البقرة .

(٢) أوله ثابت من حديث أبى هريرة ، فى المسند (٧٨٤٦) : « لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة فى جسده وفى ماله وفى ولده حتى يلقى الله وما عليه من خطيئة » . ورواه الترمذى والحاكم ، كما بينا هناك . وفى حديث أبى هريرة أيضا ، فى الترغيب والترهيب (٤ / ١٤٥) : « مثل المؤمن كمثل الزرع ، لا تزال الرياح تفيثه ، ولا يزال المؤمن يصيبه بلاء ، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز ، لا تهتز حتى تستحصد » . رواه مسلم والترمذى وصححه . وأما اللفظ الذى هنا فلم أجده .

على بغتة منهم، وعدم شعور منهم، أى: أخذناهم فجأة ، كما جاء فى الحديث: «موت الفجأة رحمة للمؤمن ، وأخذة أسف للكافر» (١) .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل، كما قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُّؤَسُّوْنَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِظَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨] أى: ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس، فإنهم آمنوا، وذلك بعد ما عاينوا العذاب، كما قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ . فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات: ١٤٧ ، ١٤٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [سبأ: ٣٤]

وكذا قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا ﴾ أى: آمنت قلوبهم بما جاءتهم به الرسل، وصدقت به واتبعته، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى: قطر السماء ونبات الأرض. قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى: ولكن كذبوا رسلهم، فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم.

ثم قال تعالى مخوفاً ومحذراً من مخالفة أوامره، والتجرى على زواجره: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ ﴾ أى: الكافرة ﴿ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ﴾ أى: عذابنا ونكالنا ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ أى: ليلاً ﴿ وَهُمْ نَائِمُونَ . أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أى: فى حال شغلهم وغفلتهم، ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ﴾ أى: بأسه ونعمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم فى حال سهوهم وغفلتهم ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾؛ ولهذا قال الحسن البصرى، رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مُشْفِقٌ وَجِلٌ خائف، والفاجر يعمل بالمعاصى وهو آمن.

﴿ أُولَٰئِكَ يَهْدِي لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ ﴿١٠٠﴾

قال ابن عباس فى قوله: ﴿ أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا ﴾: أو لم نبيّن لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم. وكذا قال مجاهد وغيره . وقال ابن جرير : يقول تعالى: أو لم

(١) رواه أحمد فى المسند (١٣٦/٦ حلى)، من حديث عائشة ، وإسناده ضعيف، ولكن فيه : « للفاجر » بدل « للكافر » .

نبيين للذين يستخلفون في الأرض من بعد هلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها، فساروا سيرتهم، وعملوا أعمالهم، وعتوا على ربهم: ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْنَأَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾، يقول: أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ يقول: ونختم على قلوبهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ موعظة ولا تذكرياً.

قلت: وهكذا قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ [طه: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٩]، وقال: ﴿أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ. وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، [٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْوًا﴾ [مريم: ٩٨] أى: هل ترى لهم شخصاً أو تسمع لهم صوتاً؟ وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الانعام: ٦]، وقال تعالى بعد ذكره إهلاك عاد: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ. وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنْ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الاحقاف: ٢٥ - ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبا: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَبَقِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَثُرُ مَعْطِلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ. أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٥، ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الانعام: ١٠] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه، وحصول نعمه لأوليائه؛ ولهذا عقب ذلك بقوله، وهو أصدق القائلين ورب العالمين:

﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا ۗ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ۚ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

لما قص تعالى على نبيه ﷺ خبر قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين، وأنه تعالى أعذر إليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على السنة الرسل، صلوات الله عليهم أجمعين - قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أى: يا محمد ﴿مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ أى: من أخبارها ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى: بالحجج على صدقهم فيما

أخبروهم به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ. وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنِ ظَلَمُوا أُنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١، ١٠٢].

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ الباء سببية، أى: فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم. حكاه ابن عطية، رحمه الله، وهو متجه حسن، كقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ. وَنَقَلَبُ أَمْعِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِمْ فَتَرَاهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ يَمْشُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠، ١١١]؛ ولهذا قال هنا: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ. وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ﴾ أى: لاكثر الأمم الماضية ﴿مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ أى: ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال. والعهد الذى أخذه هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه، وأخذ عليهم فى الأصلاب. أنه ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، وأقروا بذلك، وشهدوا على أنفسهم به، فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة، لا من عقل ولا شرع، وفى الفطر السليمة خلاف ذلك، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهى عن ذلك، كما جاء فى صحيح مسلم: «يقول الله تعالى: إني خلقت عبادى حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم» (١). وفى الصحيحين: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه» الحديث (٢). وقال تعالى فى كتابه العزيز: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مَنْ رُسُلُنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرْنَا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أى: الرسل المتقدم ذكرهم، كنوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين ﴿مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ أى: بحججنا ودلائلنا البينة إلى ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وهو ملك مصر فى زمان موسى ﴿وَمَلَئِهِ﴾ أى: قومه، ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أى: جحدوا وكفروا بها ظلما منهم وعناداً، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤] أى: الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله، أى: انظر - يا محمد - كيف فعلنا بهم، وأغرقتناهم عن آخرهم، بمرأى من موسى وقومه. وهذا أبلغ فى النكال بفرعون وقومه، وأشفى لقلوب أولياء الله موسى وقومه من المؤمنين به.

(١) هو جزء من حديث عياض بن حمار، مضى كاملاً وتخريجه عند الآية: ١٩ من سورة المائدة.

(٢) مضى عند الآيات: ١١٦ - ١٢٢ من سورة النساء.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَنفِرْعُونُ إِنَِّّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون، وإلجامة إياه بالحجة، وإظهاره الآيات البيّنات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنَّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: أرسلنى الذى هو خالق كل شىء وربى ومليكه ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَا أَقُولُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ فقال بعضهم: معناه: حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق، أى: جدير بذلك وحرى به. وقالوا: «الباء» و«على» يتعاقبان، يقال: «رمت بالقوس» و«على القوس»، و«جاء على حال حسنة» و«بحال حسنة». وقال بعض المفسرين: معناه: حريص على ألا أقول على الله إلا الحق. وقرأ آخرون من أهل المدينة: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ﴾ بمعنى: واجب وحق على ذلك، إلا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق، لما أعلم من عز جلاله وعظيم سلطانه.

﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: بحجة قاطعة من الله، أعطانيها دليلاً على صدقى فيما جئتكم به ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أى: أطلقهم من أسرك وقهرك، ودعهم وعبادة ربك وربهم؛ فإنهم من سلالة نبي كريم: إسرائيل، وهو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أى: قال فرعون: لست بمصدقك فيما قلت، ولا بمطيعك فيما طلبت، فإن كانت معك حجة فأظهرها لنراها، إن كنت صادقاً فيما ادعيت.

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

قال ابن عباس فى قوله: ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾: الحية الذكر. وكذا قال السدى، والضحاك. وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ أى: أخرج يده من درعه بعد ما أدخلها فيه، فخرجت بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض، كما قال تعالى: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءً مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٢٢].

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَأَمَّا تَأْمُرُونَ ﴾ ﴿١١٠﴾ ﴾

أى: قال الملأ - وهم الجمهور والسادة - من قوم فرعون، موافقين لقول فرعون فيه، بعد ما رجع إليه روعه، واستقر على سرير مملكته بعد ذلك، قال للملأ حوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾، فوافقوه وقالوا كعقالته، وتشاوروا فى أمره، وكيف يصنعون فى أمره؟ وكيف تكون حيلتهم فى إطفاء نوره وإخماد كلمته، وظهور كذبه وافتراءه، وتخوفوا من معرفته أن يستميل الناس إليه بسحره فيما يعتقدون، فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم، وإخراجه إياهم من أرضهم. والذى

خافوا منه وقعوا فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمَا مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦٠] فلما تشاوروا في شأنه، واتمروا فيه، اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله تعالى:

﴿قَالُوا أَزْجَاهُ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ ﴿١١١﴾ يَا تَوَكُّلْ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾

قال ابن عباس: ﴿أزجَاهُ﴾: آخره. وقال قتادة: احبسه ﴿وأرسل﴾: أى: ابعث ﴿في المدائن﴾: أى: في الأقاليم ومدائن ملكك ﴿حاشيرين﴾: أى: من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم. وقد كان السحر في زمانهم غالبا كثيرا ظاهرا. واعتقد من اعتقد منهم، وأوهم من أوهم منهم، أن ما جاء به موسى، عليه السلام، من قبيل ما تُشعَبِدُ به سحرتهم؛ فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البنات، كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال: ﴿أَجْتِنَّا لَتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى . فَلْنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى . قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحًى . فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ [طه: ٥٧- ٦٠] وقال تعالى هاهنا:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّكَ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى ، عليه السلام: إن غلبوا موسى ليثبتنهم وليعطينهم عطاء جزيلا. فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا، ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده، فلما توثقوا من فرعون لعنه الله .

﴿قَالُوا يَكْفُوسُ إِيمَانًا أَنْ تُلْقَى وَإِمَانًا أَنْ تَكُونَ نَحْنُ الْمَلْقِينَ﴾ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾

هذه مبارزة من السحرة لموسى، عليه السلام، في قولهم: ﴿إِمَانًا أَنْ تُلْقَى وَإِمَانًا أَنْ تَكُونَ نَحْنُ الْمَلْقِينَ﴾ أى: قبلك. كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَإِمَانًا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [طه: ٦٥]. فقال لهم، عليه السلام: ﴿ألقوا﴾: أى: أنتم أولا قيل: الحكمة في هذا - والله أعلم - ليرى الناس صنعهم ويتأملوه، فإذا فرغ من بهرجهم ومحالهم، جاءهم الحق الواضح الجلى بعد التطلب له والانتظار منهم لمجيئه، فيكون أوقع في النفوس ، وكذا كان. ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أى: خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة فى الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى . فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى . فَلَمَّا لَا تَخَفُ بَلَغَ مِنْكَ أَنْتَ الْأَعْلَى . وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٦ - ٦٩].

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغَلَبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاحِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا أَمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى، عليه السلام، في ذلك الموقف العظيم، الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل، يأمره بأن يلقي ما في يمينه وهى عصاه ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ أى: تاكل ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أى: ما يلقونه ويوهمون أنه حق، وهو باطل. قال ابن عباس: فجعلت لا تمر بشيء من حبالهم ولا من خشبهم إلا التقمته، فعرفت السحرة أن هذا أمر من السماء، وليس هذا بسحر، فخروا سجدا وقالوا: ﴿أَمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا ءَأَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمِيعًا ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نَنفِقُ مِنَّا إِلَّا أَن تَأْتِيَنَا رَبِّنَا لَمَّا جَاءَ تَنَارًا فَرِحَ عَلَيْنَا صَبْرًا وَوَفَّانَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

يخبر تعالى عما توعد به فرعون، لعنه الله، السحرة لما آمنوا بموسى، عليه السلام، وما أظهره للناس من كيد ومكره في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا ءَأَهْلَهَا﴾ أى: إن غلبه لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك، كقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧٠]، وهو يعلم وكل من له لب أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل؛ فإن موسى، عليه السلام، بمجرد ما جاء من «مدين» دعا فرعون إلى الله، وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ما جاء به، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاملته سلطنته، فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر، ممن اختار هو والملا من قومه، وأحضرهم عنده ووعدهم بالعباء الجزيل. وقد كانوا من أحرص الناس على ذلك، وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون. وموسى، عليه السلام، لا يعرف أحدا منهم ولا رآه ولا اجتمع به، وفرعون يعلم ذلك، وإنما قال هذا تسترا وتدليسا على رعاع دولته وجهنتهم، كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَّاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، فإن قوما صدقوه في قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [التازعات: ٢٤] من أجهل خلق الله وأضلهم !!

وقوله: ﴿لِتُخْرِجُوا مِنْهَا ءَأَهْلَهَا﴾ أى: تجتمعوا أنتم وهو، وتكون لهم دولة وصوله، وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء، وتكون الدولة والتصرف لكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أى: ما أصنع بكم.

ثم فسر هذا الوعيد بقوله: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ﴾ يعنى: يقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس ﴿وَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمِيعِينَ﴾. وقال في الآية الأخرى: ﴿فِي جَذُوعِ

النَّحْلِ ﴿ طه : ٧١ ﴾ أى : على الجذوع .

وقول السحرة : ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ أى : قد تحققنا أننا إليه راجعون ، وعذابه أشد من عذابك ، ونكاله على ما تدعوننا إليه وما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك ، فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب الله ؛ ولهذا قالوا : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ أى : عمنا بالصبر على دينك ، والثبات عليه ، ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ أى : متابعين لنبيك موسى ، عليه السلام . وقالوا لفرعون : ﴿ فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى . إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى . وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴾ ﴿ طه : ٧٢ - ٧٥ ﴾ ، فكانوا فى أول النهار سحرة ، فصاروا فى آخرة شهداء برة .

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنْقَتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ ﴿ ١٢٧ ﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿ ١٢٨ ﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿ ١٢٩ ﴾

يخبر تعالى عما نالاً عليه فرعون وملؤه، وما أضمره لموسى، عليه السلام، وقومه من الأذى والبغضة : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ أى : لفرعون ﴿ أَتَنْذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ ﴾ أى : أتدعهم ﴿ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : يفسدوا أهل رعبتك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك ! يا الله العجب ! صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه ! ألا إن فرعون وقومه هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون ؛ ولهذا قالوا : ﴿ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ قال بعضهم : «الواو» هنا حالية ، أى : أنذره وقومه يفسدون وقد ترك عبادتك؟! وقال آخرون : هى عاطفة ، أى : أتدع موسى يصنع هو وقومه من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى تركه آلتهك . وقرأ بعضهم : «إلهتك» أى : عبادتك ، وروى ذلك عن ابن عباس ومجاهد وغيره . وعلى القراءة الأولى قال بعضهم : كان لفرعون إله يعبده . قال الحسن البصرى : كان لفرعون إله يعبده فى السر .

فأجابهم فرعون فيما سأله بقوله : ﴿ سَنْقَتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ﴾ ، وهذا أمر ثان بهذا الصنيع ، وقد كان نكل بهم به قبل ولادة موسى ، عليه السلام ، حذراً من وجوده ، فكان خلاف ما رامه وصد ما قصده فرعون . وهكذا عومل فى صنيعه أيضاً لما أراد إذلال بنى إسرائيل وقهرهم ، فجاء الأمر على خلاف ما أراد : أعزهم الله وأذله ، وأرغم أنفه ، وأغرقه وجنوده .

ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبنى إسرائيل ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا ﴾ ، ووعدهم بالعاقبة ، وأن الدار ستصير لهم فى قوله : ﴿ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ

عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ . قَالُوا أُرِيدْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴿١٣٠﴾ أى : قد جرى علينا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى ، ومن بعد ذلك . فقال منبها لهم على حالهم الحاضر وما يصيرون إليه فى ثانى الحال : ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ، وهذا تخصيص لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم .

﴿١٣١﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٢﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عَلَيْهِمْ غَشَاةٌ ۗ إِنَّنَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴿١٣٤﴾

يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أى : اختبرناهم وامتحانهم وابتليناهم ﴿بِالسِّنِينَ﴾ وهى سنى الجوع بسبب قلة الزروع ﴿وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ قال مجاهد : وهو دون ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ . فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ أى : من الخصب والرزق ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أى : هذا لنا بما نستحقه ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أى : جذب وقحط ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾ أى : هذا بسببهم وما جاؤا به ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس : إلا من قبل الله .

﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ يَمُومِينَ ﴿١٣٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَ ۗ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٦﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ۖ إِنَّمَا عَهْدُ عِنْدَكَ لِئِنَّ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لِنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٧﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلَّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴿١٣٩﴾

هذا إخبار من الله ، عز وجل ، عن تمرد قوم فرعون وعتوهم ، وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل فى قولهم : ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ يَمُومِينَ﴾ يقولون : أى آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها ، رددناها فلا نقبلها منك ، ولا نؤمن بك ولا بما جئت به ، قال الله تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ . اختلفوا فى معناه ، فعن ابن عباس فى رواية : كثرة الأمطار المغرقة المثقلة للزروع والثمار . وبه قال الضحاك بن مزاحم . وعن ابن عباس فى رواية أخرى : هو كثرة الموت . وكذا قال عطاء . وقال مجاهد : ﴿الطُّوفَانَ﴾ : الماء ، والطاعون على كل حال . وقال ابن عباس فى رواية أخرى : هو أمر من الله طاف بهم ، ثم قرأ : ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [القلم : ١٩] .

وأما الجراد فمعروف مشهور ، وهو مأكول ؛ لما ثبت فى الصحيحين عن أبى يعفور ، قال : سألت عبد الله بن أبى أوفى عن الجراد ؟ فقال : غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات ناكل الجراد . وروى الشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وابن ماجه عن ابن عمر ، عن النبى ﷺ

قال: «أحلت لنا ميتتان ودمان: الحوت والجراد، والكبد والطحال». ورواه البغوي . وروى أبو داود عن سلمان قال: سئل رسول الله ﷺ عن الجراد فقال: «أكثر جنود الله، لا أكله، ولا أحرمه». وإنما تركه، عليه السلام، لأنه كان يعافه، كما عافت نفسه الشريفة أكل الضب، وأذن فيه . وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يشتهيهِ ويحبه، فعن ابن عمر: أن عمر سئل عن الجراد فقال: ليت أن عندنا منه قَفْعَةٌ (١) أو قفعتين نأكله. وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال : كان أزواج النبي ﷺ يتهادين الجراد على الأطباق .

وأما «القُمَّلُ» : فعن ابن عباس: هو السوس الذي يخرج من الحنطة. وعنه أنه الدبا - وهو الجراد الصغار الذي لا أجنحة له. وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة. وعن الحسن وسعيد ابن جبير: «القُمَّلُ»: دواب سود صغار. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «القُمَّلُ»: البراغيث. وقال ابن جرير: «القُمَّلُ»: جمع واحدتها «قُمَّلَةٌ»، وهى دابة تشبه القُمَّل، تأكلها الإبل، فيما بلغنى . وقال زيد ابن أسلم: يعنى بالدم: الرعاف. رواه ابن أبى حاتم.

﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا حَنَافِيذٍ
 وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا الَّتِي
 بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ
 يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا - مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة - انتقم منهم بإغراقه إياهم فى اليم، وهو البحر الذى فرقه لموسى، فجاوزه وبنو إسرائيل معه، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم، فغرقوا عن آخرهم، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها.

وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون - وهم بنو إسرائيل - «مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا» كما قال تعالى: «وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ» [القصص: ٥، ٦]، وقال تعالى: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَهِنَ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَا قَوْمًا آخَرِينَ» [الدخان: ٢٥ - ٢٨] . وعن الحسن البصرى وقتادة، فى قوله: «مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا» يعنى: الشام.

وقوله: «وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا» قال مجاهد وابن جرير: وهى قوله تعالى: «وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ» .

(١) القفعة - بفتح القاف وسكون الفاء : شىء كالقفعة ، واسع الأسفل ضيق الأعلى .

وقوله: ﴿ وَذَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ﴾ أى: وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع، ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: بينون.

﴿ وَجَنَوْنَا يَبْنَى إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَاتَوَا عَلَى قَوْمٍ يَكْفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم بِعَمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عما قاله جهلة بنى إسرائيل لموسى، عليه السلام، حين جاوزوا البحر، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ﴿ فَاتَوَا ﴾ أى: فمروا ﴿ عَلَىٰ قَوْمٍ يَكْفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ ﴾ قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين . وقيل: كانوا من لحم . قال ابن جريج: وكانوا يعبدون أصناما على صور البقر، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم فى عبادتهم العجل بعد ذلك، فقالوا: ﴿ يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ أى: تجهلون عظمة الله وجلاله، وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل . ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ ﴾ أى: هالك ﴿ وَيَاطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . وروى ابن جرير عن أبى واقد الليثى: أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين، قال: وكان للكفار سدرة يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها: «ذات أنواط»، قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة، قال: فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط !! فقال: «قلتم والذى نفسى بيده، كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ . إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَيَاطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

وروى الإمام أحمد عن أبى واقد الليثى قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قَبْلَ حَنِينَ، فمررنا بسدرة، فقلت: يا نبى الله، اجعل لنا ذات أنواط، كما للكفار ذات أنواط ! وكان الكفار ينطون سلاحهم بسدرة، ويعكفون حولها. فقال النبى ﷺ: «الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ إنكم تركبون سنن من قبلكم» (٢) . ورواه ابن أبى حاتم، من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى، عن أبيه، عن جده مرفوعا .

﴿ قَالَ أَعِيََّرَ اللَّهُ أَبْعِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أُنجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾

يذكرهم موسى، عليه السلام، بنعمة الله عليهم، من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره، وما كانوا فيه من الهوان والذلة، وما صاروا إليه من العزة والاشتقاء من عدوهم، والنظر إليه فى حال هوانه وهلاكه، وغرقه ودماره. وقد تقدم تفسيرها فى البقرة (٣) .

(١) الطبرى (١٥٠٥٦ ، ١٥٠٥٧ ، ١٥٠٥٨) . وتفصيل تخريجه هناك .

(٢) المسند (٥ / ٢١٨ حلى) . (٣) عند الآيتين (٤٩ ، ٥٠) .

﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾
 وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

يقول تعالى ممتنا على بنى إسرائيل بما حصل لهم من الهداية، بتكليمه موسى، عليه السلام، وإعطائه التوراة، وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة. ثم أمره الله تعالى أن يكمل العشر أربعين.

وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي؟ فالأكثر على أن الثلاثين هي ذو القعدة، والعشر عشر ذى الحجة. قاله مجاهد، ومسروق، وابن جريج. وروى عن ابن عباس وغيره . فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر، وحصل فيه التكليم لموسى، عليه السلام، وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فلما تم الميقات عزم موسى على الذهاب إلى الطور، كما قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ الآية [طه: ٨٠]، فحيثئذ استخلف موسى على بنى إسرائيل أخاه هارون، وأوصاه بالإصلاح وعدم الإفساد. وهذا تنبيه وتذكير، وإلا فهارون، عليه السلام، نبي شريف كريم على الله، وله وجاهة وجلالة، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى سائر الأنبياء.

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ أَنظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ سُوقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحٰنَكَ بُتُّ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٤٣﴾

يخبر تعالى عن موسى، عليه السلام، أنه لما جاء لميقات الله تعالى، وحصل له التكليم من الله، سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي﴾.

وقد أشكل حرف «لن» هاهنا على كثير من العلماء؛ لأنها موضوعة لنفى التأيد، فاستدل به المعتزلة على نفى الرؤية في الدنيا والآخرة. وهذا أضعف الأقوال؛ لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة، كما سنوردها عند قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يُّوْمِتِد نَاصِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. وقوله تعالى إخباراً عن الكفار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]. وقيل: إنها لنفى التأيد في الدنيا، جمعا بين هذه الآية، وبين الدليل القاطع على صحة الرؤية في الدار الآخرة. وقيل: إن هذا الكلام في هذا المقام كالكلام في قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وقد تقدم ذلك في الأنعام (١).

فى الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى، عليه السلام: «يا موسى، إنه لا يرانى حتى إلامات، ولا يابس إلا تدهده» ؛ ولهذا قال : «فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا». وروى الإمام أحمد فى مسنده: حدثنا أبو المثنى، معاذ بن معاذ العنبرى، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت البنانى، عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ فى قوله : «فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ» : قال: قال هكذا - يعنى أنه أخرج طرف الخنصر - قال أحمد: أرانا معاذ، فقال له حميد الطويل: ما تريد إلى هذا يا أبا محمد؟ قال: فضرب صدره ضربة شديدة وقال: من أنت يا حميد؟! وما أنت يا حميد؟! يحدثنى به أنس ابن مالك عن النبى ﷺ، يقول: ما تريد إليه؟! ورواه الترمذى ثم قال: هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث حماد. ورواه الحاكم وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. ورواه أبو محمد الحسن بن محمد الخلال، وقال: هذا إسناد صحيح لا علة فيه.

وقال ابن عباس فى قول الله تعالى: «فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ» قال: ما تجلى منه إلا قدر الخنصر «جَعَلَهُ دَكًّا» قال: ترابا «وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا» قال: مغشىا عليه. رواه ابن جرير. والمعروف أن «الصعق» هو الغشى هاهنا، كما فسره ابن عباس وغيره، لا كما فسره قتادة بالموت، وإن كان ذلك صحيحاً فى اللغة، كقوله تعالى : «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مِن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم بِنُجُومٍ يَبْتَظِرُونَ» [الزمر : ٦٨] ، فإن هناك قرينة تدل على الموت كما أن هنا قرينة تدل على الغشى، وهى قوله: «فَلَمَّا أَفَاقَ» ، والإفاقة لا تكون إلا عن غشى. «قَالَ سُبْحَانَكَ» تنزيها وتعظيما وإجلالا أن يراه أحد فى الدنيا إلامات. وقوله: «تَبَّتْ إِلَيْكَ» قال مجاهد: أن أسألك الروية «وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ»، قال ابن عباس ومجاهد: من بنى إسرائيل. واختاره ابن جرير. وفى رواية أخرى عن ابن عباس: «وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ» أنه لا يراك أحد. وكذا قال أبو العالية: قد كان قبله مؤمنون، ولكن يقول : أنا أول من آمن بك أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة . وهذا قول حسن له اتجاه .

وقال البخارى فى صحيحه وقوله: «وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا»، فيه أبو سعيد وأبو هريرة، عن النبى ﷺ: فأما حديث أبى سعيد، فأسنده البخارى عن أبى سعيد الخدرى، قال: جاء رجل من اليهود إلى النبى ﷺ قد لطم وجهه، فقال: يا محمد، إن رجلا من أصحابك من الأنصار لطم فى وجهى. قال: «ادعوه». فدعوه، قال: «لم لطمت وجهه؟» قال: يا رسول الله، إنى مررت باليهود فسمعتهم يقول: والذى اصطفى موسى على البشر. قال: قلت: وعلى محمد؟ فأخذتني غضبة، فلطمته، قال: «لا تخيرونى من بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور». ورواه مسلم وأبو داود .

وأما حديث أبى هريرة فروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، قال: استب رجلان: رجل من المسلمين، ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذى اصطفى محمداً على العالمين. وقال اليهودى:

والذى اصطفى موسى على العالمين، فغضب المسلم على اليهودى فلطمه، فأتى اليهودى رسول الله ﷺ، فسأله فأخبره، فدعاه رسول الله ﷺ، فاعترف بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لا تخيرونى على موسى؛ فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى ممسك بجانب العرش، فلا أدرى أكان ممن صعق فأفاق قبلى، أم كان ممن استثناه الله، عز وجل». أخرجاه فى الصحيحين .

والكلام فى قوله، عليه السلام: «لا تخيرونى على موسى»، كالكلام على قوله: «لا تفضلونى على الأنبياء ولا على يونس بن متى»، قيل: من باب التواضع. وقيل: قبل أن يعلم بذلك. وقيل: نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضب والتعصب. وقيل: على وجه القول بمجرد الرأى والتشهى، والله أعلم.

وقوله: «فإن الناس يصعقون يوم القيامة» - الظاهر أن هذا الصعق يكون فى عرصات القيامة، يحصل أمر يصعقون منه، والله أعلم به. وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، وتجلي للخلائق الملك الديان، كما صعق موسى من تجلى الرب تبارك وتعالى، ولهذا قال، عليه السلام: «فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور» .

﴿ قَالَ يَمْسُحُ إِلَىٰ أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على عالمى زمانه برسالاته وكلامه، ولا شك أن محمداً ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين؛ ولهذا اختصه تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين، الذى تستمر شريعته إلى قيام الساعة، وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم، وبعده فى الشرف والفضل إبراهيم الخليل، عليه السلام، ثم موسى بن عمران كليم الرحمن، عليه السلام؛ ولهذا قال له: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ أى: من الكلام والمناجاة ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى: على ذلك، ولا تطلب ما لا طاقة لك به.

ثم أخبر تعالى أنه كتب له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلاً لكل شىء، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التى قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ [القصص: ٤٣]. وقيل: الألواح أعطاها موسى قبل التوراة، فإله أعلم. وعلى كل تقدير فكانت كالتعويض له عما سأل من الرؤيا ومنع منها، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أى: بعزم على الطاعة ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ قال عن ابن عباس: أمر موسى - عليه السلام - أن يأخذ بأشد ما أمر قومه.

وقوله: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أى: سترون عاقبة من خالف أمرى، وخرج عن طاعتى، كيف

يصير إلى الهلاك والدمار والتباب . قال ابن جرير: وإنما قال: ﴿سَأْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾، كما يقول القائل لمن يخاطبه: «سأريك غدا إلى ما يصير إليه حال من خالف أمرى»، على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره . نقل معنى ذلك عن مجاهد، والحسن البصرى . وقيل: معناه ﴿سَأْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أى: من أهل الشام، وأعطيتكم إياها . وقيل: منازل قوم فرعون، والأول أولى، والله أعلم؛ لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر، وهو خطاب لبنى إسرائيل قبل دخولهم التيه، والله أعلم .

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعَنَاءِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أى: سأمنع فهم الحجج والأدلة على عظمتى وشريعتى وأحكامى قلوب المتكبرين عن طاعتى، ويتكبرون على الناس بغير حق، أى: كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] . وقال بعض السلف: لا ينال العلم حياً ولا مستكبر . وقال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة، بقى فى ذل الجهل أبداً . وقال سفيان بن عيينة فى قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ قال: أنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتى . قال ابن جرير: وهذا يدل على أن هذا خطاب لهذه الأمة . قلت: ليس هذا بلازم؛ لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد فى حق كل أمة، ولا فرق بين أحد وأحد فى هذا، والله أعلم .

وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ ، ٩٧] . وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أى: وإن ظهر لهم سبيل الرشد، أى: طريق النجاة لا يسلكوها، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً .

ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أى: كذبت بها قلوبهم، ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أى: لا يعملون شيئاً مما فيها .

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أى: من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات، حبط عمله . وقوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: إنما تجازيهم بحسب أعمالهم التى أسلفوها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وكما تدين تدان (١) .

(١) هنا بهامش المخطوطة العتيقة ما نصه: «آخر الجزء الأول من تفسير سورة الأعراف، من خط المؤلف عفا الله عنه» .

﴿ وَأَخَذَ قَوْمَ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خَوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا أَخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بنى إسرائيل فى عبادتهم العجل، الذى اتخذه لهم السامرى من حلى القبط، الذى كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلا، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التى أخذها من أثر فرس جبريل، عليه السلام، فصار عجلا جسدا له خوار، و«الخوار» صوت البقر. وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى، وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور، حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه : ٨٥] . وقد اختلف المفسرون فى هذا العجل: هل صار لحما ودما له خوار؟ أو استمر على كونه من ذهب، إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقرة؟ على قولين، والله أعلم . قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه : ٨٩] . وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ ينكر تعالى عليهم فى ضلالهم بالعجل، وذوولهم عن خالق السموات والأرض ورب كل شىء ومليكه، أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خوار ولا يكلمهم، ولا يرشدهم إلى خير. ولكن غطى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلال .

وقوله: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أى: ندموا على ما فعلوا، ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ وقرأ بعضهم: «لئن لم ترحمنا» بالياء المثناة من فوق، «ربنا» منادى، «وتغفر لنا»، «لنكونن من الخاسرين» أى: من الهالكين وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عزوجل .

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ۖ أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلاِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾

يخبر تعالى أن موسى، عليه السلام، رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف . قال أبو الدرداء «الأسف»: أشد الغضب . ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ يقول: بش ما صنعتم فى عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم .

وقوله: ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ يقول: استعجلتم مجيئى إليكم، وهو مقدر من الله تعالى .

وقوله: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ فى هذا دلالة على ما جاء فى الحديث :

«ليس الخبر كالمعاينة» (١) . ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضباً على قومه، وهذا قول جمهور العلماء سلفاً وخلفاً .

وقوله: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ خوفاً أن يكون قد قصر في نهيهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا . أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي . قَالَ يَبْتُؤُمْ لَا تَأْخُذُ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٢ - ٩٤]، وقال هاهنا: ﴿ابن أمّ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾ أي: لا تسوقني مساقهم، ولا تجعلني معهم . وإنما قال: ﴿ابن أمّ﴾؛ ليكون أرقاً وأنجع عنده، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه .

فلما تحقق موسى، عليه السلام، براءة ساحة هارون عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونَ مِنْ قَبْلِ يَأْ قَوْمٍ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠] فعند ذلك قال موسى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ . وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله موسى، ليس المعاین كالمخبر؛ أخبره ربه، عز وجل، أن قومه فتنوا بعده، فلم يلتق الألواح، فلما رآهم وعابنهم ألقى الألواح» (٢) .

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٢﴾

أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة، حتى قتل بعضهم بعضاً، كما تقدم في سورة البقرة: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤] . وأما الذلة فاعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا .

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ نائلة لكل من افترى بدعة، فإن ذل البدعة ومخالفة الرشد، متصلة من قبله على كتفيه، كما قال الحسن البصري: إن ذل البدعة على آكتافهم، وإن همّلت بهم البغلات، وطقطقت بهم البراذين . وهكذا روى أيوب السخيتاني، عن أبي قلابة الجرّمي، أنه قرأ هذه الآية: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ قال: هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة . وقال

(١) رواه أحمد في المسند مطولاً ومختصراً (١٨٤٢ ، ٢٤٤٧) من حديث ابن عباس . ورواه الحاكم مطولاً (٢ /

٣٢١) وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي . ورواه ابن حبان في صحيحه (٢ / ٢٩٨) (من

المخطوطة المصورة) . وستأتي الرواية المطولة في آخر تفسير هذه الآية .

(٢) هذه هي الرواية المطولة للخبر السابق . وهي في المسند (٢٤٤٧) . ونسبها السيوطي (٢ / ١٢٧) أيضاً لعبد

ابن حميد ، والبخاري ، وابن السخيتاني ، وابن مردويه .

سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل.

ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان، حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق؛ ولهذا عقب هذه القصة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَأَمَّوْا إِنَّ رَبَّكَ﴾ أي: يا محمد، يا رسول التوبة ونبي الرحمة، ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد تلك الفعلة ﴿لَفَقُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وروى ابن أبي حاتم عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود؛ أنه سئل عن ذلك، يعني عن الرجل يزني بالمرأة، ثم يتزوجها؟ فتلا هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَأَمَّوْا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَفَقُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فتلاها عبد الله عشر مرات، فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها (١).

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابُ فِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ هُمْ رَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ أي: غضبه علي قومه ﴿أَخَذَ الْأَلْوَابُ﴾ أي: التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل، غيرة الله وغضبا له ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ هُمْ رَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾. فقد أخبر تعالى أنه لما أخذها بعد ما ألقاها وجد فيها ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾. ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ رَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾: ضمن الرهبة معنى الخضوع؛ ولهذا عدّها باللام.

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَرَأَيْتُ أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ حَيُّ الْغَفِيرُ﴾ ﴿١٥٥﴾ ﴿وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِنَّكَ

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلا، فاختار سبعين رجلا فبرز بهم ليدعوا ربهم، فكان فيما دعوا الله قالوا: اللهم أعطنا ما لم تعط أحدا قبلنا ولا تعطه أحدا بعدنا! فكره الله ذلك من دعائهم، فأخذتهم الرجفة، قال موسى: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَرَأَيْتُ﴾ الآية. وقال السدي: إن الله أمر موسى أن يأتيه في ناس من بنى إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موعدا، ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا. فلما أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته، فأرانا. فأخذتهم الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: رب، ماذا أقول لبنى إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَرَأَيْتُ﴾.

وقال ابن عباس وقتادة ومجاهد وابن جرير: إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم يزايلوا قومهم في عبادتهم العجل ، ولا نهوهم ، ويتوجه هذا القول بقول موسى: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾. وقوله: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أى: ابتلاؤك وامتحانك واختبارك . قاله ابن عباس، وسعيد ابن جبير، وغير واحد من علماء السلف والخلف. ولا معنى له غير ذلك؛ يقول: إن الأمر إلا أمرٌ، وإن الحكم إلا لك، فما شئت كان، تضل من تشاء، وتهدى من تشاء، ولا هادى لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطى لمن منعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك، والحكم كله لك، لك الخلق والأمر.

وقوله: ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾: العَفْرُ هو: الستر، وترك المؤاخذة بالذنب، والرحمة إذا قرنت مع الغفر، يراد بها ألا يوقعه فى مثله فى المستقبل ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ أى: لا يغفر الذنوب إلا أنت ﴿وَأَكْتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ ها ذاك الفصل الأول من الدعاء فى دفع المحذور، وهذا لتحصيل المقصود ﴿وَأَكْتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أى: أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة . ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أى: تبنا ورجعنا وأنبنا إليك. قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد وغير واحد. وهو كذلك لغة.

﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنَ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٥١)

يقول تعالى مجيباً لموسى فى قوله: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ الآية، قال: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنَ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أى: أفعل ما أشاء، وأحكم ما أريد، ولى الحكمة والعدل فى كل ذلك، سبحانه لا إله إلا هو.

وقوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ : آية عظيمة الشمول والعموم، كقوله تعالى إخباراً عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رُحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر: ٧]. وروى الإمام أحمد عن جندب - هو ابن عبد الله البجلي، رضى الله عنه - قال: جاء أعرابى فأناخ راحلته ثم عقّلها ، ثم صلى خلف رسول الله ﷺ . فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقّالها، ثم ركبها ! ثم نادى: اللهم، ارحمنى ومحمداً، ولا تشرك فى رحمتنا أحداً!! فقال رسول الله ﷺ: «أتقولون هذا أضل أم بعيره؟ ألم تسمعوا ما قال؟!» قالوا: بلى. قال: «لقد حظرت رحمة واسعة؛ إن الله، عز وجل، خلق مائة رحمة، فأنزل رحمة واحدة يتعاطف بها الخلق؛ جنبها وإنسها وبهائمها، وأخر عنده تسعاً وتسعين رحمة، أتقولون هو أضل أم بعيره؟!» . ورواه أبو داود (١) .

وروى أحمد عن سلمان ، عن النبي ﷺ قال: «إن لله، عز وجل، مائة رحمة، فمنها

رحمة يتراحمُ بها الخلق ، وبها تعطف الوحوش على أولادها ، وأخر تسعاً وتسعين إلى يوم القيامة . تفرد بإخراجه مسلم . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن لله مائة رحمة ، عنده تسعة وتسعون ، وجعل عندكم واحدة تتراحمون بها بين الجن والإنس وبين الخلق ، فإذا كان يوم القيامة ضمها إليه . تفرد به أحمد من هذا الوجه . وروى أحمد عن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لله مائة رحمة ، فقسم منها جزءاً واحداً بين الخلق ، فيه يتراحم الناس والوحش والطير » . ورواه ابن ماجه .

وقوله : ﴿ فَسَأَكْتَبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ إلى آخرها ، يعنى : فسأوجب حصول رحمتي منه منى وإحسانا إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤] .

وقوله : ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ أى : سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات ، وهم أمة محمد ﷺ ﴿ الَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ ، أى : الشرك والعظائم من الذنوب ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ قيل : زكاة النفوس . وقيل : الأموال . ويحتمل أن تكون عامة لهما ؛ فإن الآية مكية ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : يصدقون .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ : وهذه صفة محمد ﷺ فى كتب الأنبياء بشروا أمهم ببعثه ، وأمروهم بتابعته ، ولم تزل صفاته موجودة فى كتبهم يعرفها علماءهم وأخبارهم كما قال الإمام أحمد عن أبى صخر العقيلي ، حدثنى رجل من الأعراب ، قال : جلبت جلوبية إلى المدينة فى حياة رسول الله ﷺ ، فلما فرغت من بيعى قلت : لألقين هذا الرجل فلاسمعن منه ، قال : فتلقانى بين أبى بكر وعمر يمسون ، فتبعتم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرؤها ، يعزى بها نفسه على ابن له فى الموت كأجمل الفتيان وأحسنها ، فقال رسول الله ﷺ : « أنشدك بالذى أنزل التوراة ، هل تجد فى كتابك هذا صفتى ومخرجى ؟ » فقال برأسه هكذا ، أى : لا . فقال ابنه ، أى : والذى أنزل التوراة إنا لنجد فى كتابنا صفتك ومخرجك ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله ، فقال : « أقيموا اليهودى عن أحيكم » . ثم تولى كفته وجنته والصلاة عليه . هذا حديث جيد (١) ، قوى له

(١) المسند (٥ / ٤١١) . وذكره الهيثمى فى الزوائد (٨ / ٢٣٤) وقال : « رواه أحمد ، وأبو صخر لم يعرفه ، وبقيت رجاله رجال الصحيح » . و « أبو صخر العقيلي » : صاحبى ، جزم البخارى ومسلم وابن حبان وغيرهم أن له صحبة . فالإسناد صحيح . وانظر الإصابة (٧ / ١٠٤) وتعجيل المنفعة (ص ٤٩٥ ، ٤٩٦) . وقوله : « وجنته » - بفتح الجيم والنون ، أى : ستره ودفنه . وفى هامش المخطوطة العتيقة : « جنت الميت واجنته ، أى واريته ، ومنه سمي القبر جنتنا ؛ لأنه وارى صاحبه » .

شاهد في الصحيح، عن أنس. وروى ابن جرير عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل والله، إنه لموصوف في التوراة كصفته في القرآن: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأمينين، أنت عبدى ورسولى، اسمك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به قلوبنا غُلُفاً، وآذاناً صمّاً، وأعيناً عمياً» قال عطاء: ثم لقيت كعباً فسألته عن ذلك؟ فما اختلفا حرفاً، إلا أن كعباً قال بلغته، قال: «قلوباً غُلُوفياً وآذاناً صمومياً وأعيناً عمومياً». وقد رواه البخارى نحوه، وزاد بعد قوله: «ليس بفظ ولا غليظ»: «ولا صحاب في الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح» (١). وذكر حديث عبد الله بن عمرو، ثم قال: ويقع في كلام كثير من السلف إطلاق «التوراة» على كتب أهل الكتاب. وقد ورد في بعض الأحاديث ما يشبه هذا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ هذه صفة الرسول صلوات الله وسلامه عليه في الكتب المتقدمة، وهكذا كانت حاله، عليه السلام، لا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن شر، كما قال عبد الله بن مسعود: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير تؤمر به أو شر تُنهر عنه. ومن أهم ذلك وأعظمه، ما بعثه الله تعالى به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة من سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وروى الإمام أحمد عن أبى حميد وأبى أسيد، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب، فأنأ أولاكم به. وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم بعيد، فأنأ أبعدكم منه». هذا حديث جيد الإسناد، لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب. وروى الإمام أحمد عن على، قال: إذا حدثت عن رسول الله ﷺ حديثاً، فظنوا به الذى هو أهدى، والذى هو أهيا، والذى هو أتقى (٢).

وقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ أى: يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر، والسوائب، والوصائل، والحامى، ونحو ذلك، مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم، ويحرم عليهم الخبائث. قال ابن عباس: كل لحم الخنزير والربا، وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المأكَل التي حرمها الله تعالى. قال بعض العلماء: كل ما أحل الله تعالى، فهو طيب نافع فى البدن والدين، وكل ما حرمه، فهو خبيث ضار فى البدن والدين.

وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتقبيح العقليين، وأجيب عن ذلك بما لا يتسع هذا الموضوع له. وكذا احتج بها من ذهب من العلماء إلى أن المرجع فى حل المأكَل التي

(١) الطبرى (١٥٢٢٥ - ١٥٢٢٧). ورواه أحمد فى المسند (٦٦٢٢) وفضلنا تخريجه هناك.

(٢) المسند (٩٨٥).

لم ينص على تحليلها ولا تحريمها، إلى ما استطابته العرب في حال رفاهيتها، وكذا في جانب التحريم إلى ما استخشته. وفيه كلام طويل أيضا.

وقوله : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : إنه جاء بالتيسير والسماحة ، كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال : « بعثت بالحنيفية السمحة » (١). وقال ﷺ لأمريره معاذ وأبى موسى الأشعري، لما بعثهما إلى اليمن: « بشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا، وتطاوعا ولا تختلعا». وقال صاحبه أبو برة الأسلمي: صحبتُ رسول الله ﷺ وشهدت تيسيره. وقد كانت الأمم الذين قبلنا في شرائعهم ضيقٌ عليهم، فوسع الله على هذه الأمة أمورها، وسهلها لهم؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها، ما لم تقل أو تعمل». وقال: «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»؛ ولهذا أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا: «رَبَّنَا لَا تَأْخُذْنَا إِنْ نُسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» [البقرة: ٢٢٨٦]. وثبت في صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه: «قد فعلت، قد فعلت».

وقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ﴾ أى: عظموه ووقروه، وقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ أى: القرآن والوحي الذى جاء به مبلغاً إلى الناس ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

يقول تعالى لنبىه ورسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، وهذا خطاب للأحمر والأسود، والعربى والعجمى ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أى: جميعكم، وهذا من شرفه وعظمته أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوث إلى الناس كافة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الانعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ [آل عمران: ٢٠]، والآيات فى هذا كثيرة، كما أن الأحاديث فى هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة: أنه، صلوات الله وسلامه عليه، رسول الله إلى الناس كلهم. روى البخارى عن أبى الدرداء، قال: كانت بين أبى بكر وعمر محاوراة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عنه عمر مغضبا، فاتبعه أبو بكر فسأله أن يستغفر له،

(١) مضى مختصرا عند الآية: ٢٨١ من سورة البقرة ومضى كاملا عند الآية: ٣١ من سورة الأعراف.

فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ ، فقال أبو الدرداء: ونحن عنده ، قال رسول الله ﷺ: «أما صاحبكم هذا فقد غامر» أى: غاضبٌ وحاقدٌ - قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ، وقص على رسول الله ﷺ الخبر - قال أبو الدرداء: فغضب رسول الله ﷺ وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله ﷺ لانا كنت أظلم، فقال رسول الله ﷺ: «هل أنتم تاركو لى صاحبي؟ إني قلت: يأبها الناس، إني رسول الله إليكم جميعا، فقلتم: كذبت. وقال أبو بكر: صدقت». انفرد به البخارى . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبلى - ولا أقوله فخرا: بعثت إلى الناس كافة: الأحمر والأسود، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأعطيت الشفاعة فأحرتها لأمتى يوم القيامة ، فهى لمن لا يشرك بالله شيئا » . إسناده جيد ، ولم يخرجوه (١) . روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك، قام من الليل يصلى، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه، حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم: «لقد أعطيت الليلة خمسا ما أعطيهن أحد قبلى، أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة ، وكان من قبلى إنما يرسل إلى قومه، ونصرت على العدو بالرعب، ولو كان بينى وبينهم مسيرة شهر لمئى منى رعبا، وأحلت لى الغنائم أكلها ، وكان من قبلى يعظمون أكلها، كانوا يحرقونها، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، أينما أدركتني الصلاة تمسحت وصليت، وكان من قبلى يعظمون ذلك، إنما كانوا يصلون فى بيعهم وكنائسهم، والخامسة هى ما هى، قيل لى : سل؛ فإن كل نبي قد سأل . فأخرت مسألتي إلى يوم القيامة، فهى لكم ولن شهد أن لا إله إلا الله». إسناده جيد قوى أيضا ولم يخرجوه (٢) . وروى أيضا عن أبى موسى الأشعري، عن رسول الله ﷺ قال: «من سمع بى من أمتى أو يهودى أو نصرانى، فلم يؤمن بى، لم يدخل الجنة » . وهذا الحديث فى صحيح مسلم من وجه آخر، عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، لا يسمع بى رجل من هذه الأمة: يهودى ولا نصرانى، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار » . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ ، أنه قال: «والذى نفسى بيده، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة: يهودى أو نصرانى، ثم يموت ولا يؤمن بالذى أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار». تفرد به أحمد . وروى الإمام أحمد عن أبى موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا: بعثت إلى الأحمر والأسود، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لمن كان قبلى، ونصرت بالرعب مسيرة شهرا ، وأعطيت الشفاعة - وليس من نبي إلا وقد سأل الشفاعة، وإنى قد اختبأت شفاعتى، ثم جعلتها لمن مات من أمتى لم يشرك بالله شيئا » . وهذا أيضا إسناده صحيح، ولم أرهم خرجوه، والله أعلم، وله مثله من حديث ابن عمر بسند

(١) المسند (٢٧٤٢) . وهو فى مجمع الزوائد (٨ / ٢٥٨) ونسبه أيضا للبخارى والطبرانى بنحوه ، وقال : « ورجال

أحمد رجال الصحيح ، غير يزيد بن أبى زياد ، وهو حسن الحديث » .

(٢) المسند (٧٠٦٨) . وذكره الهيثمى فى الزوائد (١٠ / ٣٦٧) مختصرا قليلا، وقال : «رواه أحمد، ورجاله ثقات» .

جيد أيضا . وهذا الحديث ثابت في الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، فأما رجل من امتى أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى الغنائم، ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة » .

وقوله: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ صفة الله تعالى فى قوله: ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ أى: الذى أرسلنى هو خالق كل شىء وربى ومليكه، الذى بيده الملك والإحياء والإماتة، وله الحكم .

وقوله: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾: أخبرهم أنه رسول الله إليهم، ثم أمرهم باتباعه والإيمان به ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ أى: الذى وعدتم به وبشرتم به فى الكتب المتقدمة، فإنه منعوت بذلك فى كتبهم؛ ولهذا قال: ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أى: يصدق قوله عمله، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ أى: اسلكوا طريقه واقتفوا أثره ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أى: إلى الصراط المستقيم .

﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن بنى إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به، كما قال تعالى: ﴿مَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا بَتُلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الآية البقرة: ١٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا بَتُلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا . وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهِمْ خُشوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩] .

﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ: أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْعَنَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُونُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَعْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾

تقدم تفسير هذا كله في سورة «البقرة»، وهي مدنية، وهذا السياق مكى، ونبهنا على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن إعادته، والله الحمد والمنة .

﴿ وَسَأَلْتُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

هذا السياق هو بسط لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥] ، يقول تعالى، لنبية صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَأَسْأَلْتُهُمْ﴾ أى: وأسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم فى المخالفة، وحذّر هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها فى كتبهم؛ لتلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم. وهذه القرية هى «أيلة»، وهى على شاطئ بحر القلزم. قال ابن عباس فى قوله: ﴿وَأَسْأَلْتُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ قال: هى قرية يقال لها «أيلة» بين مدين والطور. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وقتادة . وقال عبد الله بن كثير القارئ: سمعنا أنها أيلة. وقيل: هى مدين، وهو رواية عن ابن عباس .

﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ﴾ أى: يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاية به إذ ذاك ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا﴾ قال ابن عباس: أى ظاهرة على الماء. قال ابن جرير: وقوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ﴾ أى: نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء فى اليوم المحرم عليهم صيده، وإخفائها عنهم فى اليوم الحلال لهم صيده ﴿كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ﴾ نختبرهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يقول: بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها . وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله، بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التى معناها فى الباطن تعاطى الحرام. وقد قال الفقيه الإمام أبو عبد الله بن بطة عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: « لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الخيل ». وإسناده جيد، ويصحح الترمذى بمثل هذا الإسناد كثيراً.

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَدِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّا رَبِّكَرُ وَلَعَلَّهُمْ يَنْتَفُونَ ﴾ ﴿١٦٤﴾ ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجْبَنَّا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ بَعِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ ﴿١٦٥﴾ ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ ﴿١٦٦﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور،

واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، كما تقدم بيانه في سورة البقرة. وفرقة نهت عن ذلك، وأنكرت واعتزلتهم. وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه، ولكنها قالت للُنكْرَة : ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أى: لم تنهون هؤلاء، وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله؟ فلا فائدة فى نهيكم إياهم؟ قالت لهم المنكرة: ﴿مَعَذْرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ﴾. قرأ بعضهم بالرفع، كأنه على تقدير: هذا معذرة. وقرأ آخرون بالنصب، أى: نفعل ذلك ﴿مَعَذْرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أى: فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يقولون: ولعل بهذا الإنكار يتقون ما هم فيه ويتركونه، ويرجعون إلى الله تائبين، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أى: فلما أبى الفاعلون المنكر قبول النصيحة، ﴿أَجْمِنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى: ارتكبوا المعصية ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾، فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين، وسكت عن الساكتين؛ لأن الجزء من جنس العمل، فهم لا يستحقون مدحا فيمدحوا، ولا ارتكبوا عظيما فيذموا، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم: هل كانوا من الهالكين أو من الناجين؟ على قولين:

وقال ابن عباس: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ هى قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة، يقال لها: «أيلة»، فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم، وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعاً فى ساحل البحر، فإذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها. فمضى على ذلك ما شاء الله، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم، فنهتهم طائفة وقالوا: تأخذونها وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم؟! فلم يزدادوا إلا غياً وعتواً، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم، فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النهاء: تعلمون أن هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، وكانوا أشد غضبا لله من الطائفة الأخرى، فقالوا: ﴿مَعَذْرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، وكل قد كانوا ينهون، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا: ﴿لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، والذين قالوا: ﴿مَعَذْرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ﴾، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان، فجعلهم قرده. وقال عكرمة، عن ابن عباس فى الآية، قال: ما أدرى أنجى الذين قالوا: «أنعظون قوما الله مهلكهم»، أم لا؟ قال: فلم أرل به حتى عرفته أنهم قد نجوا، فكسانى حلة.

وقد قدمنا فى سورة «البقرة» من الآثار فى خبر هذه القرية ما فيه مقنع وكفاية، والله الحمد. القول الثانى: أن الساكتين كانوا من الهالكين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾: فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا. و ﴿بَئِيسٍ﴾ فيه قراءات كثيرة، ومعناه فى قول مجاهد: الشديد، وفى رواية: أليم. وقال قتادة: موجه. والكل متقارب، والله أعلم. وقوله: ﴿خَاسِئِينَ﴾ أى: ذليلين مهانين.

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾
 ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ﴿١٦٧﴾

﴿تَأَذَّنَ﴾: تَفَعَّلَ من الأذان ، أى: أَعْلَمَ ، قاله مجاهد . وقال غيره: أَمَرَ . وفى قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة ، ولهذا أتبعت باللام فى قوله: ﴿لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أى: على اليهود ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أى: بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه واحتيالهم على المحارم . فيقال: إن موسى ، عليه السلام ، ضرب عليهم الخراج سبع سنين ، وقيل: ثلاث عشرة سنة ، وكان أول من ضرب الخراج . ثم كانوا فى قهر الملوك من اليونانيين والكشديانيين والكلدانيين ، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم إياهم ، وأخذهم منهم الجزية والخراج ، ثم جاء الإسلام ، ومحمد ﷺ ، فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الخراج والجزية . وقال ابن عباس : هى الجزية ، والذين يسومونهم العذاب: محمد رسول الله ﷺ وأمته ، إلى يوم القيامة . وكذا قال سعيد بن جبير ، وابن جرير ، وقتادة .

قلت: ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصاراً للدجال ، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم ، عليه السلام ، وذلك آخر الزمان .

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ أى: لمن عصاه وخالف شرعه ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: لمن تاب إليه وأتاب . وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة ، لئلا يحصل اليأس ، فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيراً؛ لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف .

﴿ وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِّنْهُمْ الْأَصْلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُ مَا أَخَذُوهُ آلَتَ يُؤْخَذَ عَلَيْهِمْ مِّمِثُّ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَىٰ حَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

يذكر تعالى أنه فرقهم فى الأرض أُمَمًا ، أى: طوائف وفرقًا ، كما قال : ﴿وَقَلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤] . ﴿مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ أى: فىهم الصالح وغير ذلك ، كما قالت الجن: ﴿وَأَنَا مِمَّنَّ الصَّالِحِينَ وَمِمَّنَّ دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَاتِقَ قَدَدًا﴾ [الجن: ١١] ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ﴾ أى: اختبرناهم ﴿بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أى: بالرخاء والشدة ، والرغبة والرهبه ، والعافية والبلاء ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ .

ثم قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ يَأْخُذُوهُ﴾، يقول تعالى: فخلف من بعد ذلك الجيل - الذين فيهم الصالح والطيح - خلف آخر لا خير فيهم، وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة، وقال مجاهد: هم النصارى، وقد يكون أعم من ذلك ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ أى: يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا، ويسوقون أنفسهم ويعدون بها بالتوبة، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ يَأْخُذُوهُ﴾ كما قال سعيد بن جبير: يعملون الذنب، ثم يستغفرون الله منه، فإن عرض ذلك الذنب أخذوه. وقال مجاهد: لا يشرف لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه، حلالاً كان أو حراماً، ويتمنون المغفرة، ويقولون: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وإن وجدوا عرضاً مثله يأخذوه. وقال قتادة فى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾: أى والله، لخلف سوء، ورثوا الكتاب بعد أنبيائهم ورسولهم، ورثهم الله وعهد إليهم، وقال الله فى آية أخرى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ﴾ [مريم: ٥٩]، قال: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾، تمنوا على الله أمانى، وغرة يغترون بها، ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ يَأْخُذُوهُ﴾ لا يشغلهم شيء عن شيء، ولا ينههم شيء عن ذلك، كلما هف لهم شيء من الدنيا أكلوه، لا يبالون حلالاً كان أو حراماً.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ يقول تعالى منكرأ عليهم فى صنعهم هذا، مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبين الحق للناس، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَسَّ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. قال ابن عباس: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ قال: فيما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التى لا يزالون يعودون فيها، ولا يتوبون منها. وقوله تعالى: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (١): يرغبهم تعالى فى جزيل ثوابه، ويحذرهم من وبيل عقابه، أى: وثوابى وما عندى خير لمن اتقى المحارم، وترك هوى نفسه، وأقبل على طاعة ربه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يقول: أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندى عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير؟! ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذى يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ، كما هو مكتوب فيه، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أى: اعتصموا به، واقتدوا بأوامره، وتركوا زواجره ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

﴿ وَإِذْ نَقَعْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١٧١)

قال ابن عباس: قوله: ﴿وَإِذْ نَقَعْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ يقول: رفعناه، وهو قوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمْ﴾

(١) « أفلا يعقلون »: قراءة حفص - التى عليها مصاحفنا - ونافع وابن عامر: « تعقلون ». وقرأ باقى الأربعة عشر: « يعقلون » بياء الغيبة، وهى الثابتة فى تفسير ابن كثير، وهى التى فسر المعنى عليها.

الطُّورِ بِمِثْقَالِهِمْ ﴿النساء: ١٥٤﴾ .

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكمهم، وأنه لا إله إلا هو. كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وفى الصحيحين عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد يولد على الفطرة - وفى رواية: على هذه الملة - فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء» وفى صحيح مسلم، عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: إني خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم، عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم». وروى ابن جرير عن الحسن عن الأسود بن سريع من بنى سعد، قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات، قال: فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فاشتد عليه، ثم قال: «ما بال أقوام يتناولون الذرية؟» قال رجل: يا رسول الله، أليسوا أبناء المشركين؟ فقال: «إن خياركم أبناء المشركين، ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها، فأبواها يهودانها وينصرانها». قال الحسن: ولقد قال الله فى كتابه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الآية . قد رواه الإمام أحمد والنسائى، ولم يذكر قول الحسن البصرى واستحضاره الآية عند ذلك (١) .

وقد وردت أحاديث فى أخذ الذرية من صلب آدم، عليه السلام، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، وفى بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم. روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ، قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرايت لو كان لك ما على الأرض من شىء أكننت مفتديا به؟» قال: «فيقول: نعم». فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك فى ظهر آدم ألا تشرك بى شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بى». أخرجاه فى الصحيحين . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم، عليه السلام، بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية

(١) الطبرى (١٥٣٥٣) . وتفصيل تخريجه هناك . وقوله: «ذرياتهم» هو الثابت فى المخطوطتين، فهى القراءة التى اختارها الحافظ ابن كثير بالجمع، وهى قراءة نافع وأبى عمر . وقرأ باقى السبعة: «ذريتهم» بالإنفراد .

ذراها فشرها بين يديه، ثم كلمهم قبلاً، قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا﴾ إلى قوله: ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾. ورواه النسائي. ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم، إلا أن ابن أبي حاتم جعله موقوفاً. وأخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبر. وهكذا قال، ورواه عن ابن عباس موقوفاً فهذا أكثر وأثبت، والله أعلم (١). وروى الطبري عن جوبير قال: مات ابن للضحك بن مَرْحَم، ابن ستة أيام. قال: فقال: يا جابر، إذا أنت وضعت ابني في لحده، فأبرز وجهه، وحلّ عنه عقده، فإن ابني مُجَلِّس، ومسؤول. ففعلت به الذي أمر، فلما فرغت قلت: يرحمك الله، عمّ يسأل ابنك؟ من يسأله إياه؟ قال: يسأل عن الميثاق الذي أقر به في صلب آدم. قلت: يا أبا القاسم، وما هذا الميثاق الذي أقر به في صلب آدم؟ قال: حدثني ابن عباس: أن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، فأخذ منهم الميثاق: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وتكفل لهم بالأرزاق، ثم أعادهم في صلبه. فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به، نفعه الميثاق الأول. ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقر به، لم ينفعه الميثاق الأول. ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر، مات على الميثاق الأول، على الفطرة (٢). فهذه الطرق كلها مما تقوى وَقَفَ هذا على ابن عباس، والله أعلم (٣).

وروى الإمام أحمد عن مسلم بن يسار الجهني: أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ الآية، فقال عمر ابن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ، سئل عنها؟ فقال: «إن الله خلق آدم، عليه السلام، ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون. ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون». فقال رجل: يا رسول الله، فقيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: «إذا خلق الله العبد للجنة، استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله الجنة. وإذا خلق العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله به النار». وهكذا رواه أبو داود والنسائي والترمذي وابن أبي حاتم وابن جرير. وأخرجه ابن حبان في صحيحه، قال الترمذي: وهذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع عمر. وكذا قال أبو حاتم وأبو زرعة. زاد أبو حاتم: وبينهما نعيم بن ربيعة (٤).

وهذا الذي قاله أبو حاتم، رواه أبو داود عن مسلم بن يسار الجهني، عن نعيم بن ربيعة

(١) بين ابن كثير هنا من روه موقوفاً على ابن عباس. والمرفوع في المسند (٢٤٥٥). وقد بينا هناك أن الموقوف لا يكون علة للمرفوع، والرفع زيادة من ثقة، فهي مقبولة.

(٢) الطبري (١٥٣٥٢). وإسناده جيد.

(٣) وهو في حكم المرفوع؛ لأن مما لا يعلم برأى. ثم الرفع زيادة من ثقة، فهو مقبول.

(٤) المسند (٣١١)، وهو في الموطأ (٩٢ / ٢) والترمذي (١٠٧ / ٤) وصحيح ابن حبان (٢ / ٢٨٦) (من المخطوطة المصورة). وذكره البخاري في التاريخ الكبير (٩٧ / ٤ / ٢ / ٩٦، ٩٧).

قال: كنت عند عمر بن الخطاب ، وقد سئل عن هذه الآية: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» ، فذكره . وقال الحافظ الدارقطني: وقد تابع عمر بن جُعْثَمَ يزيد بن سنان أبو قَرَوَةَ الرَّهَّأَوِي، وقولهما أولى بالصواب من قول مالك، والله أعلم . قلت: الظاهر أن الإمام مالكا إنما أسقط ذكر «نعيم بن ربيعة» عمداً؛ لما جهل حال نعيم ولم يعرفه، فإنه غير معروف إلا في هذا الحديث، ولذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيهم؛ ولهذا يرسل كثيراً من المرفوعات، ويقطع كثيراً من الموصولات، والله أعلم .

روى الترمذى عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نَسْمَةٍ هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وَبَيْصًا من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: أى رب، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك . فرأى رجلاً منهم فأعجبه وَبَيْص ما بين عينيه، قال: أى رب، من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذُرِّيَّتِكَ، يقال له: داود . قال: أى رب، وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة . قال: أى رب، زده من عمرى أربعين سنة . فلما انقضى عمر آدم، جاءه ملك الموت قال: أو لم يبق من عمرى أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسى آدم فنسيت ذريته، وخَطِئَ آدم فخطئت ذريته » . ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح ، ورواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . ورواه ابن أبي حاتم فذكر نحو ما تقدم، إلى أن قال: «ثم عرضهم على آدم فقال: يا آدم، هؤلاء ذريتك . وإذا فيهم الأجدم والأبرص والأعمى، وأنواع الأسقام، فقال آدم: يا رب، لم فعلت هذا بذريتي؟ قال: كى تشكر نعمتى . وقال آدم: يا رب، من هؤلاء الذين أظهَرَ الناس نورا؟ قال: هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك» . ثم ذكر قصة داود، كنحو ما تقدم . وعن هشام بن حكيم : أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أم قد قُضِيَ القضاء؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم، ثم أشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بهم فى كفيه» ثم قال: «هؤلاء فى الجنة ، وهؤلاء فى النار، فأهل الجنة مُسَرَّون لعمل أهل الجنة، وأهل النار مُسَرَّون لعمل أهل النار» . رواه ابن جرير (١) . وروى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، وغير واحد من علماء السلف، سياقات توافق هذه الأحاديث، اكتفينا بإيرادها عن التطويل فى تلك الآثار كلها، وبالله المستعان .

فهذه الأحاديث دالة على أن الله، عز وجل، استخرج ذرية آدم من صلبه، وميز بين أهل الجنة وأهل النار . وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم، فما هو إلا فى حديث كلثوم بن جبر ، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس ، وفى حديث عبد الله بن عمرو ، وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان، كما تقدم . ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو

(١) الطبرى (١٥٣٧٧) . وتفصيل تخريجه هناك .

فَطَرَهُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ، كما تقدم في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المُجَاشَعِي، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سَرِيح. وقد فسر الحسن البصري الآية بذلك، قالوا: ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾، ولم يقل: «من آدم»، ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾، ولم يقل: «من ظهره» ﴿ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أى: جعل نسلهم جيلا بعد جيل، وقرناً بعد قرن، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خُلَافَاءَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال: ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

قال: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ أى: أوجدتهم شاهدين بذلك، قائلين له حالاً وقالاً. والشهادة تارة تكون بالقول، كقوله: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وتارة تكون حالاً، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ﴾ [التوبة: ١٧] أى: حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، وكما قال تعالى: ﴿وَأِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: ٧]، كما أن السؤال تارة يكون بالمقال، وتارة يكون بالحال، كما في قوله: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا هذا: أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم فى الإِشْرَاق، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قاله، لكان كل أحد يذكره، ليكون حجة عليه. فإن قيل: إخبار الرسول ﷺ به كاف فى وجوده؟ فالجواب: أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءت به الرسل من هذا وغيره. وهذا جعل حجة مستقلة عليهم، فدل على أنه الفطرة التى فُطِرُوا عليها من الإقرار بالتوحيد؛ ولهذا قال: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ أى: لثلاثا تقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾ أى: التوحيد ﴿غَافِلِينَ﴾. أو تقولوا إنما أشرك آبائنا ﴿الآية﴾.

﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَأَتَبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (١٧٥) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثُ ذَٰلِكَ مِثْلَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٧٦) ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (١٧٧)

روى عبد الرزاق عن عبد الله بن مسعود، فى قوله تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا﴾ الآية، قال: هو رجل من بنى إسرائيل، يقال له: بلعم بن باعوراء. وقال ابن عباس: هو صيفى بن الراهب. وقال مالك بن دينار: كان من علماء بنى إسرائيل، وكان مجاب الدعوة، يقدمونه فى الشدائد، بعثه نبي الله موسى إلى ملك مدين يدعو إلى الله، فأقطعاه وأعطاه، فتبع دينه وترك دين موسى، عليه السلام. وروى سفيان بن عيينة عن ابن عباس: هو بلعم بن باعوراء. وكذا قال مجاهد وعكرمة. وعن عبد الله بن عمرو فى قوله: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ الآية، قال: هو صاحبكم أمية ابن أبى الصلت. وقد

روى من غير وجه، عنه وهو صحيح إليه، وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبى الصلت يشبهه، فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة، ولكنه لم ينتفع بعلمه، فإنه أدرك زمان رسول الله ﷺ، وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته، وظهرت لكل من له بصيرة، ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه، وصار إلى موالاة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم، ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة، قبحه الله . وقد جاء فى بعض الأحاديث: «أنه ممن آمن لسانه، ولم يؤمن قلبه»؛ فإن له أشعاراً ربانية وحكما وفصاحة، ولكنه لم يشرح الله صدره للإسلام.

وأما المشهور فى سبب نزول هذه الآية الكريمة، فإنما هو رجل من المتقدمين فى زمان بنى إسرائيل، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف.

[وقوله: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أى: استحوذ عليه وغلبه على أمره، فمهما أمره امتثل وأطاعه؛ ولهذا قال: ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أى: من الهالكين الخائرين البائسين] (١). وقد ورد فى معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ أبو يعلى عن جندب الجلى : أن حذيفة - يعنى ابن اليمان، حدثه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما أتخوف عليكم رجلٌ قرأ القرآن، حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان ردء الإسلام اعتره إلى ما شاء الله، انسلخ منه، ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك». قال: قلت: يا نبى الله، أيهما أولى بالشرك: المرمى أو الرامى؟ قال: «بل الرامى». وإسناده جيد .

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أى: لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التى آتيناها إياها ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أى: مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها، وأقبل على لذاتها ونعيمها، وغرته كما غرت غيره من غير (٢) أولى البصائر والنهى.

وقوله: ﴿فَمِثْلَهُ كَمِثْلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ﴾ قيل: معناه: فصار مثله فى ضلاله واستمراره فيه، وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء، كالكلب فى لهيئه فى حالتيه: إن حملت عليه وإن تركته، هو يلهث فى الحالين، وكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه؛ كما قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، ونحو ذلك . وقيل: معناه: أن قلب الكافر والمنافق والضال ضعيف فارغ من الهدى، فهو كثير الوجيب، فعبر عن هذا بهذا، نقل نحوه عن الحسن البصرى وغيره .

وقوله تعالى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى لنبىه محمد ﷺ: ﴿فَاقْصُصِ

(١) هذه الفقرة ساقطة من المطبوع من «عمدة التفسير»، وأثبتناها من المخطوطة الأزهرية . (الباز) .

(٢) سقط كلمة «غير» من المطبوع من «عمدة التفسير»، وأثبتناها من المخطوطة الأزهرية . ولا يستقيم المعنى بدونها . (الباز) .

الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ ﴿١٧٨﴾ أى : لعل بنى إسرائيل العالمين بحال بلعام ، وما جرى له فى ضلال الله إياه وإيعاده من رحمته ، بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه - فى تعليمه الاسم الأعظم الذى إذا سئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب - فى غير طاعة ربه ، بل دعا به على حزب الرحمن ، وشعب الإيمان ، أتباع عبده ورسوله فى ذلك الزمان ، كلهم الله موسى بن عمران ، عليه السلام ؛ ولهذا قال : ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أى : فيحذروا أن يكونوا مثله ؛ فإن الله قد أعطاهم علماً ، وميزهم على من عداهم من الأعراب ، وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم ، فهم أحق الناس بأولاهم باتباعه ومناصرتة ومؤازرتة ، كما أخبرتهم أنبياءهم بذلك وأمرتهم به ؛ ولهذا من خالف منهم ما فى كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد ، أحل الله به ذلاً فى الدنيا موصولاً بذل الآخرة .

وقوله : ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ : يقول تعالى : ساء مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، أى : ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التى لا همة لها إلا فى تحصيل أكلة أو شهوة ، فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه ، واتبع هواه ، صار شبيهاً بالكلب ، وبئس المثل مثله ؛ ولهذا ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «ليس لنا مثل السوء ، العائد فى هبته كالكلب يعود فى قيئه» (١) .

وقوله : ﴿وَأَنفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلَمُونَ﴾ أى : ما ظلمهم الله ، ولكن هم ظلموا أنفسهم ، بإعراضهم عن اتباع الهدى ، وطاعة المولى ، إلى الركون إلى دار البلى ، والإقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى .

﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىُّ وَمَن يُضِلِّ فَاُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١٧٨)

يقول تعالى : من هداه الله فإنه لا مضل له ، ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة ، فإنه تعالى ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ؛ ولهذا جاء فى حديث ابن مسعود : «إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » . الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد ، وأهل السنن ، وغيرهم .

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (١٧٩)

(١) رواه أحمد والبخارى والترمذى والنسائى ، من حديث ابن عباس ، كما فى الفتح الكبير (٣ / ٦٥) . وهو فى المسند (١٨٧٢) .

لها، ويعمل أهلها يعملون، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق، علم ما هم عاملون قبل كونهم، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، كما ورد في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله قَدَّرَ مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء». وفي صحيح مسلم عن عائشة أم المؤمنين، أنها قالت: دُعِيَ رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طوبى له، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل السوء ولم يدركه. فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق الجنة، وخلق لها أهلاً، وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار، وخلق لها أهلاً، وهم في أصلاب آبائهم». وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود: «ثم يبعث إليه الملك، فيؤمر بأربع كلمات، فيكتب: رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أم سعيد». وتقدم أن الله لما استخرج ذرية آدم من صلبه وجعلهم فريقين: أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، قال: «هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي». والأحاديث في هذا كثيرة، ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها.

وقوله تعالى: «لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا» يعنى: ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية، كما قال تعالى: «وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ» الآية [الاحقاف: ٢٦]، وقال تعالى: «صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَعَمِّي فَعَمِّي لَا يَرْجِعُونَ» [البقرة: ١٨]، هذا في حق المنافقين، وقال في حق الكافرين: «صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَعَمِّي فَعَمِّي لَا يَنْقَلِبُونَ» [البقرة: ١٧١]، ولم يكونوا صمًا وبكمًا وعميًا إلا عن الهدى، كما قال تعالى: «وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ» [الأنفال: ٢٣]، وقال: «فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» [الحج: ٤٦]، وقال: «وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ تَقِيضُ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ» [الزخرف: ٣٦، ٣٧].

وقوله تعالى: «أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ» أى: هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يُقَيِّتُها من ظاهر الحياة الدنيا، كما قال تعالى: «وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاءً وَنِدَاءً» [البقرة: ١٧١] أى: ومثلهم - في حال دعائهم إلى الإيمان - كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول؛ ولهذا قال في هؤلاء: «بَلْ هُمْ أَضَلُّ» أى: من الدواب؛ لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أَسَّ بها، وإن لم تفقه كلامه، بخلاف هؤلاء؛ ولأن الدواب تفقه ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر، فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده، فكفر بالله وأشرك به؛ ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر، كانت الدواب أتم منه؛ ولهذا قال تعالى: «أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ».

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

عن أبي هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر». أخرجاه فى الصحيحين . وأخرجه الترمذى مثله، وزاد بعد قوله: «يحب الوتر»: هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكيم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلى، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوى، المتين، الولى، الحميد، المحصى، المبدئ، المعيد، المحيى، المميت، الحى، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالى، المتعالى، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغنى، المغنى، المانع، الضار، النافع، النور، الهادى، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور . ثم قال الترمذى: هذا حديث غريب وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة ، ولا نعلم فى كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث . ورواه ابن حبان فى صحيحه ، وقد رواه ابن ماجه عن أبى هريرة مرفوعا ، فسرد الأسماء كتحو مما تقدم بزيادة ونقصان . والذى عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء فى هذا الحديث مدرج فيه ، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعانى ، عن زهير بن محمد: أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أى: أنهم جمعوها من القرآن كما روى عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبى زيد اللغوى، والله أعلم .

ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة فى التسعة والتسعين، بدليل ما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود، عن رسول الله ﷺ ، أنه قال: «ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض فى حكمك، عدل فى قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو علمته أحدا من خلقك، أو أنزلته فى كتابك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدرى، وجلاء حزنى، وذهب همى، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحاً». فقيل: يا رسول الله، أفلا نتعلمها ؟ فقال: « بلى ، ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها ». وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البستى فى صحيحه بمثله . وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربى أحد أئمة المالكية فى كتابه: «الأحوذى فى شرح الترمذى» أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، فالله أعلم .

وقال ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يَلْحُدُونَ فِيْ اَسْمَانِهِ﴾ قال: إلحاد الملحدين: أن دَعَوْا اللات فى أسماء الله. وقال مجاهد: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يَلْحُدُونَ فِيْ اَسْمَانِهِ﴾ قال: اشتقوا اللات من الله، واشتقوا العزى من العزيز. وقال قتادة: ﴿يَلْحُدُونَ﴾ يشركون فى أسمائه. عن ابن عباس: الإلحاد: التكذيب. وأصل الإلحاد فى كلام العرب: العدول عن القصد، والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد فى القبر، لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

﴿ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (١٨١)

يقول تعالى: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا﴾ أى: وبعض الأمم ﴿أُمَّةً﴾ قائمة بالحق، قولاً وعملاً ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾، يقولونه ويدعون إليه ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾: يعملون ويقضون. وقد جاء فى الآثار: أن المراد بهذه الأمة المذكورة فى الآية، هى هذه الأمة المحمدية. قال قتادة فى تفسير هذه الآية: بلغنا أن نبي الله ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية: «هذه لكم، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الاعراف: ١٥٩]».

وعن الربيع بن أنس فى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أمتى قوماً على الحق، حتى ينزل عيسى ابن مريم متى ما نزل». وفى الصحيحين عن معاوية بن أبى سفيان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى تقوم الساعة»، وفى رواية: «حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك»، وفى رواية: «وهم بالشام».

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٨٢) وَأَمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿ (١٨٢)

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومعناه: أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش فى الدنيا، حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شىء، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ. فَقَطَّعْ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَمْلِي لَهُمْ﴾ أى: أطول لهم ما هم فيه ﴿إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أى: قوى شديد.

﴿ أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (١٨٤)

يقول تعالى: ﴿أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ يعنى محمداً - صلوات الله وسلامه عليه ﴿مِنْ جِنَّةٍ﴾ أى: ليس به جنون، بل هو رسول الله حقاً دعا إلى حق ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أى: ظاهر لمن كان له لب وقلب يعقل به ويعبى به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ

بِمَجْنُونٍ ﴿التكوير: ٢٢﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى قُرْأَدٍ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿سبأ: ٤٦﴾، يقول: إنما أطلب منكم أن تقوموا قياما خالصا لله، ليس فيه تعصب ولا عناد ﴿مِثْلَى قُرْأَدٍ﴾ أى: مجتمعين ومتفرقين، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ فى هذا الذى جاءكم بالرسالة من الله: به جنون أم لا؟ فإنكم إذا فعلتم ذلك، بأن لكم وظهر أنه رسول الله حقاً وصدقاً. وقال قتادة ابن دعامه: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان على الصفا، فدعا قريشاً فجعل يُفخِّذهم فخذاً فخذاً: «يا بنى فلان، يا بنى فلان»، فحذرهم بأس الله ووقائع الله، فقال قائلهم: إن صاحبكم هذا لمجنون. بات يصوت إلى الصباح، أو: حتى أصبح، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٥﴾

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

يقول تعالى: أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا - فى ملك الله وسلطانه فى السموات والأرض، وفيما خلق من شىء فيهما، فيتدبروا ذلك ويعتبروا به، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيهه، ومن فعل من لا ينبغى أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له، فيؤمنوا به، ويصدقوا رسوله، وينبوا إلى طاعته، ويخلعوا الأنداد والأوثان، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيهلكوا على كفرهم، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؟ يقول: فبأى تخويف وتحذير وترهيب - بعد تحذير محمد وترهيبه، الذى آتاهم به من عند الله فى آى كتابه - يصدقون، إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذى جاءهم به محمد من عند الله، عز وجل؟
ثم قال تعالى:

﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

يقول تعالى: من كُتِبَ عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر، فإنه لا يجزى عنه شيئاً ﴿وَمَنْ يردِ اللَّهُ فتنه فلا تملك له من الله شيئاً﴾ [المائدة: ٤١]، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ انظُرُوا ماذا فى السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ [يونس: ١٠١].

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلا هُوَ ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيك إلا بغنة يسألونك كأنك حفي عنها قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

يقول تعالى: ﴿يسألونك عن الساعة﴾، كما قال تعالى: ﴿يسألك الناس عن الساعة﴾ [الأحزاب: ٦٣]

فقيل : نزلت في قريش . وقيل : في نفر من اليهود . والأول أشبه ؛ لأن الآية مكية ، فكانوا يسألون عن وقت الساعة ، استبعاداً لوقوعها ، وتكديماً بوجودها ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأنبياء : ٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ [الشورى : ١٨] .

وقوله : ﴿ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ قال ابن عباس : «متهاها» أى : متى محطها؟ وأيان آخر مدة الدنيا الذى هو أول وقت الساعة ؟ ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾ : أمر تعالى رسول ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة ، أن يردَّ علمها إلى الله تعالى ؛ فإنه هو الذى يجليها لوقتها ، أى : يعلم جلية أمرها ، ومتى يكون على التحديد ، لا يعلم ذلك إلا هو تعالى ؛ ولهذا قال : ﴿ نُقِلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ . قال عن قتادة فى قوله : ﴿ نُقِلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال : ثقل علمها على أهل السموات والأرض إنهم لا يعلمون . قال الحسن : إذا جاءت ثقلت على أهل السموات والأرض ، يقول : كُبرت عليهم . وقال الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ نُقِلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال : ليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة . وقال ابن جرير : إذا جاءت انشقت السماء ، وانثرت النجوم ، وكورت الشمس ، وسيرت الجبال ، وكان ما قال الله ، عز وجل ، فذلك ثقلها . واختار ابن جرير ، رحمه الله : أن المراد : ثقل علم وقتها على أهل السموات والأرض ، كما قال قتادة . وهو كما قاله ، لقوله تعالى : ﴿ لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْةٌ ﴾ ، ولا ينفى ذلك ثقل مجيئها على أهل السموات والأرض ، والله أعلم . وقال السدى : يقول : خفيت فى السموات والأرض ، فلا يعلم قيامها حين تقوم ملك مقرب ، ولا نبى مرسل .

﴿ لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْةٌ ﴾ قال : بيغتهم قيامها ، تأتيمهم على غفلة . وروى البخارى : عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً ، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما ، فلا يبايعانه ولا يطويانه . ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه . ولتقومن الساعة وهو يليب حوضه فلا يسقى فيه . ولتقومن الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها » . وروى مسلم عن أبى هريرة يبلغ به ، قال : «تقوم الساعة والرجل يحلب لقمته ، فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم الساعة . والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم . والرجل يلوط حوضه فما يصدر حتى تقوم » .

وقوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ : اختلف المفسرون فى معناه ، فقيل : معناه : كما قال ابن عباس : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ يقول : كأن بينك وبينهم مودة ، كأنك صديق لهم . قال ابن عباس : لما سأل الناس محمداً ﷺ عن الساعة ، سأله سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفى بهم ، فأوحى الله إليه : إنما علمها عنده ، استأثر به ، فلم يطلع الله عليها ملكاً مقرباً ولا

رسولاً . وقال قتادة: قالت قريش لمحمد ﷺ: إن بيننا وبينك قرابة، فأسرّ إلينا متى الساعة. فقال الله، عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾. وكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وأبي مالك، والسدي . هذا قول . والصحيح عن مجاهد قال: اسْتَحْفَيْتَ عَنْهَا السُّؤَالَ، حتى علمت وقتها. وكذا قال الضحاک، عن ابن عباس يقول: كأنك عالم بها، لست تعلمها ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾. وقال معمر عن بعضهم: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾: كأنك عالم بها. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾: كأنك عالم بها، وقد أخفى الله علمها على خلقه، وقرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان: ٣٤]. وهذا القول أرجح في المعنى من الأول، والله أعلم؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ولهذا لما جاء جبريل، عليه السلام، في صورة أعرابي، يعلم الناس أمر دينهم، فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد، وسأله عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، ثم قال: « فمتى الساعة؟ » قال له رسول الله ﷺ: « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » أي: لست أعلم بها منك ولا أحد أعلم بها من أحد، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية . وفي رواية: فسأله عن أشراف الساعة ، فبين له أشراف الساعة ، ثم قال: « في خمس لا يعلمهن إلا الله ». وقرأ هذه الآية وفي هذا كله يقول له بعد كل جواب: « صدقت »؛ ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدق، ثم لما انصرف قال رسول الله ﷺ: « هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم » . وفي رواية قال: « وما أتاني في صورة إلا عرفته فيها، إلا صورته هذه ». ولما سأله ذلك الأعرابي وناداه بصوت جهورى فقال: يا محمد، قال له رسول الله ﷺ: « هاؤم ، على نحو من صوته ، قال: يا محمد، متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ: « ويحك! إن الساعة آتية، فما أعددت لها؟ » قال: ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام، ولكني أحب الله ورسوله. فقال له رسول الله ﷺ: « المرء مع من أحب ». فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث . وهذا له طرق متعددة في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: « المرء مع من أحب »، وهي متواترة عند كثير من الحفاظ المتقين .

ففيه أنه، عليه السلام، كان إذا سئل عن هذا الذي لا يحتاجون إلى علمه ، أرشدهم إلى ما هو الأهم في حقهم، وهو الاستعداد لوقوع ذلك، والتهيؤ له قبل نزوله، وإن لم يعرفوا تعيين وقته. ولهذا روى مسلم عن عائشة، قالت: كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ، سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فينظر إلى أحدث أسنان منهم فيقول: « إن يعيش هذا لم يدركه الهرم حتى قامت عليكم ساعتكم » . يعني بذلك موتهم الذي يقضى بهم إلى الحصول في برزخ الدار الآخرة .

ثم روى مسلم عن أنس؛ أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الساعة، وعنده غلام من الأنصار يقال له محمد، فقال رسول الله ﷺ: « إن يعيش هذا الغلام فعسى ألا يدركه الهرم حتى

تقوم الساعة». انفرد به مسلم . وعن أنس بن مالك، أن رجلاً سأل النبي ﷺ قال: متى الساعة؟ فسكت رسول الله ﷺ هنيهة، ثم نظر إلى غلام بين يديه من أزد شنوءة، فقال: «إن عمرٌ هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة» - قال أنس: ذلك الغلام من أترابي . وروى عن أنس قال: مر غلام للمغيرة بن شعبة - وكان من أترابي - فقال النبي ﷺ: «إن يُؤخَّرَ هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة» . ورواه البخاري عن أنس؛ أن رجلاً من أهل البادية قال: يا رسول الله، متى الساعة؟ فذكر الحديث، وفي آخره: «فمر غلام للمغيرة بن شعبة»، وذكره . وهذا الإطلاق في هذه الروايات محمول على التقييد بـ «ساعتكم» في حديث عائشة . وعن جابر بن عبد الله : سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر : «تسألوني عن الساعة، وإنما علمها عند الله . وأقسم بالله ما على ظهر الأرض اليوم من نفس منفوسة، تأتي عليها مائة سنة» رواه مسلم . وفي الصحيحين، عن ابن عمر مثله، قال ابن عمر: وإنما أراد رسول الله ﷺ انخراط ذلك القرن .

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «لقيت ليلة أسرى بي إبراهيم وموسى وعيسى ، فتذاكروا أمر الساعة»، قال: «فردوا أمرهم إلى إبراهيم، عليه السلام، فقال: لا علم لي بها. فردوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا علم لي بها. فردوا أمرهم إلى عيسى، فقال عيسى: أما وجبتُها فلا يعلم بها أحد إلا الله، عز وجل، وفيما عهد إلى ربي، عز وجل، أن الدجال خارج»، قال: «ومعنى قضيبان، فإذا رأيتي ذاب كما يذوب الرصاص»، قال: «فيهلكه الله، عز وجل، إذا رأيتي، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم، إن تحتي كافراً فتعال فاقتله». قال: «فيهلكهم الله، عز وجل، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم»، قال: «فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيطؤون بلادهم، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه»، قال: «ثم يرجع الناس إلى فيسكونهم، فأدعو الله، عز وجل، عليهم فيهلكهم ويميتهم، حتى تجوى الأرض من نثر ريحهم - أي: تئنن - قال: «فينزل الله عز وجل المطر، فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر». قال الإمام أحمد: قال يزيد بن هارون: ثم تنسف الجبال، وتمد الأرض مد الأديم - ثم رجع إلى حديث هشيم قال: ففيما عهد إلى ربي، عز وجل، أن ذلك إذا كان كذلك، فإن الساعة كالحامل المتيم لا يدري أهلها متى تفجأهم بولادها ليلاً أو نهاراً . ورواه ابن ماجه ، نحوه (١) .

فهؤلاء أكابر أولى العزم من المرسلين، ليس عندهم علم بوقت الساعة على التعيين، وإنما ردوا الأمر إلى عيسى عليه السلام، فتكلم على أشراتها؛ لأنه ينزل في آخر هذه الأمة منفذاً لأحكام رسول الله ﷺ، ويقتل المسيح الدجال، ويجعل الله هلاك يأجوج ومأجوج ببركة دعائه، فأخبر بما أعلمه الله تعالى به .

(١) المسند (٣٥٥٦) وابن ماجه (٤٠٨١) . ورواه أيضا الحاكم في المستدرک (٤ / ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٤٥ ،

٥٤٦) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي .

وروى الإمام أحمد عن حذيفة قال: سئل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال: «علمها عند ربي لا يُجلبها لوقتها إلا هو، ولكن سأخبركم بمشاريطها، وما يكون بين يديها: إن بين يديها فتنة وهرجاً»، قالوا: يا رسول الله، الفتنة قد عرفناها، في الهرج؟ قال بلسان الحبشة: «القتل». قال: «ويبقى بين الناس التناكرُ، فلا يكاد أحد يعرف أحداً». لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه. وعن طارق بن شهاب، قال: كان رسول الله ﷺ لا يزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ الآية [النازعات: ٤٢]. ورواه النسائي وإسناده جيد قوى.

فهذا النبي الأُمي سيد الرسل وخاتمهم محمد، صلوات الله عليه وسلامه، نبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملحمة، والعاقب والمُفقى، والحاشر الذي تحشر الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه في الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها. ومع هذا كله، قد أمره الله تعالى أن يرد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

وقوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ قال مجاهد: لو كنت أعلم متى أموت، لعملت عملاً صالحاً. وقال مثله ابن جرير. وفيه نظر؛ لأن عمل رسول الله ﷺ كان ديمة. وفي رواية: كان إذا عمل عملاً أثبته. فجميع عمله كان على منوال واحد، كأنه ينظر إلى الله، عز وجل، في جميع أحواله، اللهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك، والله أعلم. والأحسن في هذا ما رواه الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ أى: من المال. وفي رواية: لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه، ولا يصيبني الفقر. وقال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من المخضبة، ولوقت الغلاء من الرخص، فاستعددت له من الرخص. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ قال: لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون، واتقيته.

ثم أخبر أنه إنما هو نذير وبشير، أى: نذير من العذاب، وبشير للمؤمنين بالجنات، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسْرُنَا لِبَلْسَانَكَ تَبَشِيرٌ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنَذِيرٌ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّهَا حَمَلًا خَفِيًّا فَامْرَأَتْ بِهِ فَلَمَّا أَنْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبُّهُمَا لِيَأْتِيَنَا صَبْلًا فَصَلُّوا رِجَالًا فَسَخَّرَ لَهُمَا مِنْ الشَّجَرِ الْأَيْحِينَ وَالشَّجَرِ الْأَيْحِينَ فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَبْلًا جَعَلَا لَهُمُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم، عليه السلام، وأنه خلق منه زوجته حواء، ثم انتشر الناس منهما، كما قال تعالى: ﴿يَأْيُهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَأْيُهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ الآية [النساء: ١]. وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: ليلفها ويسكن بها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فلا ألفة بين روجين أعظم مما بين الزوجين؛ ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيدته إلى التفرقة بين المرء وزوجه. ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أي: وطئها ﴿حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا﴾، وذلك أول الحمل، لا تجد المرأة له الماء، إنما هي النطفة، ثم العلقة، ثم المضة.

وقوله: ﴿فَامْرَأَتْ بِهِ﴾ قال مجاهد: استمرت بحمله. وقال أيوب: سألت الحسن عن قوله: ﴿فَامْرَأَتْ بِهِ﴾؟ قال: لو كنت رجلاً عربياً لعرفت ما هي. إنما هي: فاستمرت به. وقال ابن جرير: معناه: استمرت بالماء، قامت به وقعدت.

﴿فَلَمَّا أَنْقَلَتْ﴾ أي: صارت ذات ثقل بحملها. وقال السدي: كبر الولد في بطنها. ﴿دَعَا اللَّهَ رَبُّهُمَا لِيَأْتِيَنَا صَبْلًا﴾ أي: بشرا سويا، كما قال ابن عباس: أشفقا أن يكون بهيمة. ذكر المفسرون هاهنا آثاراً وحديثاً سأوردها وأبين ما فيها، ثم تتبع ذلك بيان الصحيح في ذلك، إن شاء الله وبه الثقة.

قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا عبد الصمد، حدثنا عمر بن إبراهيم، حدثنا قتادة، عن الحسن، عن سمرة، عن النبي ﷺ قال: « لما ولدت حواء طاف بها إبليس - وكان لا يعيش لها ولد - فقال: سمّيه عبد الحارث؛ فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث، فعاش وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره ». ورواه ابن جرير، ورواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، عن قتادة، ورواه بعضهم عن عبد الصمد، ولم يرفعه. ورواه الحاكم مرفوعاً ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم مرفوعاً. وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه. والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه: أحدها: أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصري، وقد وثقه ابن معين، ولكن قال أبو حاتم الرازي: لا يحتج به. ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر، عن أبيه، عن الحسن، عن سمرة مرفوعاً، فالله أعلم. الثاني: أنه قد روى من قول سمرة نفسه، ليس مرفوعاً، كما روى

ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، عن سمرة بن جندب ، قال: سمى آدم ابنه «عبد الحارث» . الثالث: أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً، لما عدل عنه .

روى ابن جرير عن الحسن: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ ، قال: كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم . وقال الحسن: عنى بها ذرية آدم، ومن أشرك منهم بعده - يعنى: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ . وكان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً، فهو دوا ونَصَرُوا . أسانيدنا صحيحة عن الحسن، رحمه الله : أنه فسر الآية بذلك، وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ ، لما عدل هو ولا غيره عنه ، لا سيما مع تقواه الله وورعه، فهذا يدل على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب، من آمن منهم، مثل: كعب أو وهب بن منبّه وغيرهما، كما سيأتى بيانه إن شاء الله ، إلا أننا يرثنا من عهدة المرفوع، والله أعلم .

وأما الآثار فروى ابن إسحاق عن ابن عباس قال: كانت حواء تلد لآدم، عليه السلام، أولاداً فيعبدهم لله ويسميهم : «عبد الله» و«عبيد الله»، ونحو ذلك، فيصيبهم الموت ، فاتاها إبليس وآدم فقال: إنكما لو سميتما بغير الذى تسميانه به لعاش ، قال: فولدت له رجلاً فسماه «عبد الحارث»، ففيه أنزل الله، يقول الله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ إلى آخر الآية .

وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه، كمجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة . ومن الطبقة الثانية: قتادة، والسدى، وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة، وكأنه - والله أعلم - أصله مأخوذ من أهل الكتاب، فإن ابن عباس رواه عن أبي بن كعب، كما رواه ابن حاتم عن ابن عباس، عن أبي بن كعب قال: لما حملت حواء آتاه الشيطان، فقال لها: أتطيعيني ويسلم لك ولدك؟ سميه «عبد الحارث»، فلم تفعل، فولدت فمات، ثم حملت فقال لها مثل ذلك، فلم تفعل . ثم حملت الثالث فجاءها فقال: إن تطيعيني يسلم، وإلا فإنه يكون بهيمة ! فهيهما فاطاعا .

وهذه الآثار يظهر عليها - والله أعلم - أنها من آثار أهل الكتاب، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلَ الْكِتَابِ فَلَا تَصَدَّقُوهُمْ وَلَا تَكْذِبُوهُمْ»، ثم أخبرهم على ثلاثة أقسام: فمنها: ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله . ومنها ما علمنا كذبه، بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً . ومنها: ما هو مسكوت عنه، فهو المأذون فى روايته، بقوله، عليه السلام: «حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج» وهو الذى لا يصدق ولا يكذب ، لقوله: « لا تصدقوهم ولا تكذبوهم» . وهذا الأثر هل هو من القسم الثانى أو الثالث؟ فيه نظر . فأما من حدث به من صحابى أو تابعى، فإنه يراه من القسم الثالث، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصرى فى هذا ، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته؛ ولهذا قال الله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فذكر آدم وحواء

أولا كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس ، كقوله : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ الآية ، ومعلوم أن المصابيح - وهى النجوم التى زينت بها السماء - ليست هى التى يرمى بها ، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها ، ولهذا نظرنا فى القرآن ، والله أعلم .

﴿ أَيَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَمِيمُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنزَلْنَا بِطُورِ سَيْنَاءَ إِذْ نَادَىٰ بِأَنَّ لِلَّهِ الْإِسْلَامَ وَاللَّهُ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ إِلَهًا لَّهُمْ أَذَاتُ يَسْمَعُونَ ﴿١٩٦﴾ وَإِنَّ إِلَهًا لَّهُمْ أَجْرُلٌ يَمْسُونَ بِهَا أَمْ لَكُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَكُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَكُمْ أَرْبَابُ مَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنَّ إِلَهًا لَّهُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، من الأنداد والأصنام والأوثان، وهى مخلوقة لله مريوبة مصنوعة، لا تملك شيئا من الأمر، ولا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تنتصر لعابديها، بل هى جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم؛ ولهذا قال: ﴿أَيَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ أى: أيشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئا ولا يستطيع ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ. مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤] ، أخبر تعالى أنه لو اجتمعت آلهتهم كلها ، ما استطاعوا خلق ذبابة ، بل لو سلبتهم الذبابة شيئا من حقير المطاعم وطارت، لما استطاعوا إنقاذه منها ، فمن هذه صفته وحاله، كيف يعبد ليرزق ويستنصر؟! ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ أى: بل هم مخلوقون مصنوعون ، كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٥، ٩٦].

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أى: لعابديهم ﴿وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ يعنى: ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء، كما كان الخليل يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة، كما أخبر تعالى عنه فى قوله: ﴿فَرَأَىٰ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصفات: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جَذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الانباء: ٥٨]، وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل - وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة - فكانا يعدوان فى الليل على أصنام

المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل، ليعتبر قومهما بذلك، ويرتؤوا لأنفسهم، فكان لعمرو بن الجموح - وكان سيداً في قومه - صنم يعبده ويطيعه، فكانا يجيثان في الليل فينكسانه على رأسه، ويلطخاناه بالعدرة، فيجىء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطيعه ويضع عنده سيفاً، ويقول له: «انتصر»!! ثم يعودان لمثل ذلك، ويعود إلى صنيعة أيضاً، حتى أخذاه مرة فقرنا معه جرو كلب ميت، ودلياه في حبل في بثر هناك! فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، ثم أسلم فحسن إسلامه، وقتل يوم أحد شهيداً، رضى الله عنه وأرضاه، وجعل جنة الفردوس مأواه.

وقوله: ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ . يعنى: أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دحأها، كما قال إبراهيم: ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٤٢] ؟

ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها، أى: مخلوقات مثلهم، بل الأناسى أكمل منها، لأنها تسمع وتبصر وتبطلش، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك.

وقوله: ﴿ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ أى: استنصروا بها على، فلا تؤخرونى طرفة عين، واجهدوا جهدكم! ﴿ إِنْ وَلِيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَكَّلُ الصَّالِحِينَ ﴾ أى: الله حسبي وكافيني، وهو نصيرى، وعليه متكلى، وإليه ألقأ، وهو ولى فى الدنيا والآخرة، وهو ولى كل صالح بعدى. وهذا كما قال هود، عليه السلام، لما قال له قومه: ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦]، وكقول الخليل: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ . الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٨٠]، وكقوله لأبيه وقومه: ﴿ إِنِّي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يُرْجَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨].

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ إلى آخر الآية، مؤكد لما تقدم، إلا أنه بصيغة الخطاب، وذلك بصيغة الغيبة؛ ولهذا قال: ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ . وقوله: ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾ [فاطر: ١٤]. وقوله: ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ : إنما قال: ﴿ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ أى: يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة، وهى جماد؛ ولهذا عاملهم معاملة من يعقل؛ لأنها على صور مصورة كالإنسان، فقال ﴿ وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ فعب عنها بضمير من يعقل. وقال السدى: المراد بهذا المشركون وروى عن مجاهد نحوه. والأول أولى، وهو اختيار ابن جرير، وقاله قتادة.

﴿ خُذِ الْعَقْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ ﴿ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

قال ابن عباس قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ يعنى: خذ ما عفا لك من أموالهم، وما أتوك به من شىء فخذهُ. وكان هذا قبل أن تنزل «براءة» بفرائض الصدقات وتفصيلها، وما انتهت إليه الصدقات. قاله السدى . وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾: أنفق الفضل. وقال سعيد بن جبیر عن ابن عباس: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال: الفضل . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾: أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين، ثم أمره بالغلظة عليهم. واختار هذا القول ابن جرير. وقال غير واحد، عن مجاهد فى قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال: أخلاق الناس وأعمالهم بغير تجسس. وقال هشام بن عروة، عن أبيه: أمر الله رسوله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وفى رواية قال: خذ ما عفا لك من أخلاقهم. وفى صحيح البخارى عن عبد الله بن الزبير قال: إنما أنزل: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ من أخلاق الناس. وفى رواية سعيد بن منصور، عن أبى الزبير: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ قال: من أخلاق الناس، والله لآخذنه منهم ما صحبتهم. وهذا أشهر الأقوال .

وقال البخارى : قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ «العرف»: المعروف. روى أن ابن عباس قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس - وكان من النفر الذين يدينهم عمر - وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته - كهُولاً كانوا أو شبانا - فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخى، لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لى عليه. قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هى يا بن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل!! فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. وإن هذا من الجاهلين! والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله، عز وجل. انفرد بإخراجه البخارى . وروى ابن أبى حاتم: أن سالم بن عبد الله بن عمر مر على غير لأهل الشام وفيها جرس، فقال: إن هذا منهى عنه، فقالوا: نحن أعلم بهذا منك، إنما يكره الجلجل الكبير، فأما مثل هذا فلا بأس به! فسكت سالم وقال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. وقول البخارى: «العرف»: المعروف» - نص عليه عروة بن الزبير، والسدى، وقتادة، وابن جرير، وغير واحد. وحكى ابن جرير أنه يقال: أوليته معروفاً، وعارفاً، وعارفة، كل ذلك بمعنى: «المعروف». قال: وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف، ويدخل فى ذلك جميع الطاعات، وبالإعراض عن الجاهلين، وذلك وإن كان أمراً لنبيه ﷺ فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم، لا بالإعراض عن جهل الحق الواجب من حق الله، ولا بالصفح عن كفر بالله وجهل وحادنيته، وهو للمسلمين حرب.

وقال بعض العلماء: الناس رجلان: فرجل محسن، فخذ ما عفا لك من إحسانه، ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يحرجه. وإما مسيء، فمره بالمعروف، فإن تمادى على ضلاله، واستعصى عليك، واستمر فى جهله، فأعرض عنه، فلعل ذلك أن يرد كيده، كما قال تعالى:

﴿ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ . وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُوا﴾ [المؤمنون: ٩٦ - ٩٨] ، وقال تعالى : ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُرٌّ حَظًّا عَظِيمٌ﴾ أى : هذه الوصية ﴿ وَإِذَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٦] ، وقال فى هذه السورة الكريمة أيضا : ﴿وَإِذَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فهذه الآيات الثلاث فى «الأعراف» و«المؤمنون» و«حم السجدة» ، لا رابع لهن ، فإنه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف والتي هي أحسن ، فإن ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى ؛ ولهذا قال : ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ . ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجن ، فإنه لا يكفيه منك الإحسان ، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية ، فإنه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك (١) .

قال ابن جرير فى تفسير قوله : ﴿وَإِذَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ : وإما يُغْضِبَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ غضب يصدك عن الإعراض عن الجاهل ، ويحملك على مجازاته ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ ، يقول : فاستجر بالله من نزغه ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لجهل الجاهل عليك ، والاستعاذة به من نزغه ، ولغير ذلك من كلام خلقه ، لا يخفى عليه منه شيء ، عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان ، وغير ذلك من أمور خلقه .

وقد تقدم فى أول الاستعاذة حديث الرجلين اللذين تسابا بحضرة النبي ﷺ ، فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمزج غضباً ، فقال رسول الله ﷺ : «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» . ف قيل له ، فقال : ما بى من جنون (٢) .

وأصل «النزغ» : الفساد ، إما بالغضب أو غيره ، قال الله تعالى : ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣] ، و«العياذ» : اللجوء والاستناد والاستجارة من الشر ، وأما «الملاذ» ففى طلب الخير ، وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة فى أول التفسير ، بما أغنى عن إعادته ها هنا .

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٍ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾
﴿١١﴾ وَإِحْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿١٢﴾

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر ، وتركوا ما عنه زجر ، أنهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ أى : أصابهم «طيف» وقرأ آخرون : «طائف» ، وقد جاء فيه حديث ، وهما قراءتان مشهورتان ، فقيل : بمعنى واحد . وقيل : بينهما فرق ، ومنهم من فسر ذلك بالغضب ، ومنهم من فسره بمس الشيطان بالصرع ونحوه ، ومنهم من فسر بهم بالذنب ، ومنهم من فسره بإصابة الذنب .

وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أى: عقاب الله وجزيل ثوابه، ووعدته ووعيدته، فتابوا وأنابوا، واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ أى: قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه .

وقد روى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن أبي هريرة، قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ وبها طيف، فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يشفينى. فقال: «إن شئت دعوتُ الله فشفاك، وإن شئت فاصبرى ولا حساب عليك». فقالت: بل أصبر، ولا حساب علىّ. ورواه غير واحد من أهل السنن، وعندهم: قالت: يا رسول الله، إنى أصرع وأتكشف، فادع الله أن يشفينى. فقال: «إن شئت دعوتُ الله أن يشفيك، وإن شئت صبرت ولك الجنة؟» فقالت: بل أصبر، ولى الجنة، ولكن ادع الله ألا أتكشف، فدعا لها، فكانت لا تتكشف. وأخرجه الحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه .

وقوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ أى: وإخوان الشياطين من الإنس، كقوله: ﴿إِنَّ الْمُبْذَرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧]، وهم أتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهم ﴿يَمْدُونَهُمْ فِي الْغِيِّ﴾ أى: تساعدهم الشياطين على المعاصى، وتسهلها عليهم وتحسنها لهم. قال ابن كثير: المد: الزيادة . يعنى : يزيدونهم فى الغي، يعنى: الجهل والسفه. ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قيل: معناه: إن الشياطين تمد الإنسان لا تقصر فى أعمالهم بذلك. كما قال ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمْدُونَهُمْ فِي الْغِيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ قال: لا الإنسان يقصرون عما يعملون، ولا الشياطين تمسك عنهم. وقيل: معناه كما رواه العوفى، عن ابن عباس قال: هم الجن، يوحون إلى أوليائهم من الإنس ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ يقول: لا يسأمون. وكذا قال السدى وغيره: إن الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس ولا تسأم من إمدادهم فى الشر؛ لأن ذلك طبيعة لهم وسجية، لا تفتقر فيه ولا تبطل عنه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَزُّهُمْ أَزْأً﴾ [مریم: ٨٣] قال ابن عباس وغيره: تزعجهم إلى المعاصى إزعاجا.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّيكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

قال ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: لولا تلقيتها. وقال مرة أخرى: لولا أحدثتها فأشأتها. وقال مجاهد: لولا اقتضيتها، قالوا: تخرجها من نفسك. وكذا قال قتادة، والسدى، واختاره ابن جرير. قال العوفى، عن ابن عباس: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ يقول: تلقيتها من الله تعالى. وقال الضحاک: يقول: لولا أخذتها أنت فجننت بها من السماء.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾ أى: معجزة وخارق، كما قال تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]، ويقولون للرسول ﷺ: ألا تجهد نفسك فى طلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها؟! قال الله تعالى له: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ

رَبِّي ﴿ أَى : أَنَا لَا أَتَقَدَّمُ إِلَيْهِ تَعَالَى فِي شَيْءٍ ، وَإِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا أَمَرَنِي بِهِ فَأَمْتَثِلُ مَا يُوحِيهِ إِلَيَّ ، فَإِن بَعَثَ آيَةً قَبْلُهَا ، وَإِن مَنَعَهَا لَمْ أَسْأَلْهُ ابْتِدَاءً إِيَّاهَا ؛ إِلَّا أَن يَأْذَنَ لِي فِي ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .

ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات ، وأبين الدلالات ، وأصدق الحجج والبيّنات ، فقال : ﴿ هَذَا بَصَائِرٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة ، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظماً له واحتراماً ، لا كما كان يعتمد كفار قريش المشركون في قولهم : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ [فصلت : ٢٦] ، ولكن يتأكد ذلك في الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة كما ورد الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه ، من حديث أبي موسى الأشعري ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا جَعَلَ الْإِمَامَ لِيُؤْتِمَّ بِهِ ، فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا ، وَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا » ، وكذا رواه أهل السنن من حديث أبي هريرة أيضاً ، وصححه مسلم ولم يخرج في كتابه . وروى ابن جرير عن المسيب بن رافع ، قال ابن مسعود : كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة ، فجاء القرآن : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١) . وروى أيضاً عن يسير بن جابر قال : صلى ابن مسعود ، فسمع ناساً يقرؤون مع الإمام ، فلما انصرف قال : أما أن لكم أن تفهموا ؟! أما أن لكم أن تعقلوا ؟! ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ ، كما أمركم الله (٢) .

وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة ، فقال : « هل قرأ أحد منكم معي آتفا ؟! » قال رجل : نعم يا رسول الله . قال : « إني أقول : ما لى أنزع القرآن ؟! » قال : فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه رسول الله ﷺ بالقراءة من الصلوات ، حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ . وقال الترمذي : « هذا حديث حسن » . وصححه أبو حاتم الرازي .

وقال الزهري : لا يقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام ، تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يسمعهم صوته ، ولكنهم يقرؤون فيما لا يجهر به سراً في أنفسهم ، ولا يصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سراً ولا علانية ، فإن الله تعالى قال : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

قلت : هذا مذهب طائفة من العلماء : أن المأموم لا يجب عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام لا الفاتحة ولا غيرها ، وهو أحد قولى الشافعى ، وهو القديم ، كمذهب مالك ،

(١) الطبرى (١٥٥٨١) . وإسناده منقطع بين المسيب بن رافع وابن مسعود .

(٢) الطبرى (١٥٥٨٤) . ووقع فيه : « بشير بن جابر » ، وهو تصحيف . وقد بينا صوابه في تمة التخریج (٣ / ٥٨٦)

ورواية عن أحمد بن حنبل، لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة. وقال في الجديد: يقرأ الفاتحة فقط في سكنات الإمام، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم. وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: لا يجب على المأموم قراءة أصلاً في السرية ولا الجهرية، لما ورد في الحديث: «من كان له إمام فقراءته قراءة له». وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر مرفوعاً، وهو في موطأ مالك، عن جابر موقوفاً، وهذا أصح. وهذه المسألة مبسطة في غير هذا الموضوع، وقد أفرد لها الإمام أبو عبد الله البخاري مصنفاً على حدة، واختار وجوب القراءة خلف الإمام في السرية والجهرية أيضاً، والله أعلم.

وقال ابن عباس : قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ يعنى: فى الصلاة المفروضة. وكذا روى عن عبد الله بن المغفل. وعن مجاهد قال: لا بأس إذا قرأ الرجل فى غير الصلاة أن يتكلم. وعن مجاهد قال فى هذه الآية: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ قال: فى الصلاة والخطبة يوم الجمعة. وكذا روى ابن جريج، عن عطاء، مثله. وعن سعيد بن جبیر فى قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ قال: الإنصات يوم الأضحى، ويوم الفطر، ويوم الجمعة، وفيما يجهر به الإمام من الصلاة. وهذا اختيار ابن جرير: أن المراد الإنصات فى الصلاة وفى الخطبة؛ كما جاء فى الأحاديث من الأمر بالإنصات خلف الإمام وحال الخطبة. وعن مجاهد: أنه كره إذا مر الإمام بأية خوف أو بأية رحمة أن يقول أحد من خلفه شيئاً، قال: السكوت. وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «من استمع إلى آية من كتاب الله، كتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة». تفرد به أحمد.

﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا

تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿١٠٦﴾

سجدة

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيرا، كما أمر بعبادته فى هذين الوقتين فى قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]. وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، وهذه الآية مكية. وقال هاهنا بالغدو - وهو أوائل النهار ﴿وَالْآصَالِ﴾: جمع أصيل، كما أن الأيمان جمع يمين.

وأما قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أى: اذكر ربك فى نفسك رغبة ورهبة، وبالقول لا جهراً؛ ولهذا قال: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾. وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداء وجهراً بليغاً؛ ولهذا لما سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: أقرب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فنزل الله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعري قال: رفع الناس أصواتهم بالدعاء فى بعض الأسفار، فقال لهم النبى ﷺ:

«أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً؛ إن الذي تدعونه سميع قريب ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته .» .

وقد يكون المراد من هذه الآية كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]، فإن المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه ، وسبوا من أنزله، وسبوا من جاء به؛ فأمره الله تعالى ألا يجهر به، لئلا ينال منه المشركون، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعونهم، وليتخذ سبيلاً بين الجهر والإسرار. وكذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ .

وقد زعم ابن جرير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم قبله: أن المراد بهذه الآية: أمر السامع للقرآن في حال استماعه بالذكر على هذه الصفة ! وهذا بعيد مناف للإنصات للمأمور به، ثم المراد بذلك في الصلاة، كما تقدم، أو الصلاة والخطبة، ومعلوم أن الإنصات إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان، سواء كان سراً أو جهراً، فهذا الذي قالاه لم يتابعا عليه، بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال، لئلا يكونوا من الغافلين؛ ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ . وإنما ذكرهم بهذا ليتشبه بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم؛ ولهذا شرع لنا السجود هاهنا لما ذكر سجودهم لله، عز وجل، كما جاء في الحديث: «أَلَا تَصْفُونَ كَمَا تَصَفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا، يَتَمَوَّنُ الصُّفُوفَ الْأُولَى فَالْأُولَى ، وَيَتَرَاوُونَ فِي الصَّفِّ» . وهذه أول سجدة في القرآن، مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع. وقد ورد في حديث رواه ابن ماجه، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ أنه عدّها في سجّادات القرآن (١) .

(١) رواه - بنحوه - أحمد في المسند (٥ / ١٠١) ومسلم (١ / ١٢٧) كلاهما من حديث جابر بن سمرة .

تفسير سورة الأنفال

وهى مدنية . آياتها سبعون وست آيات (١) . كلماتها ألف كلمة، وستمائة كلمة، وإحدى وثلاثون كلمة . حروفها خمسة آلاف ومائتان، وأربعة وتسعون حرفا ، والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَأُوا لِيكُفَّ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ قَالَ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾

ربيع

قال البخارى: قال ابن عباس: الأنفال: الغنائم وروى عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: سورة الأنفال؟ قال: نزلت فى بدر . أما ما علقه عن ابن عباس، فكذلك رواه على ابن أبى طلحة، عن ابن عباس أنه قال: الأنفال: الغنائم، كانت لرسول الله ﷺ خالصة، ليس لأحد منها شيء . وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، والضحاك، وقتادة، وغير واحد : أنها المغانم .

وروى ابن جرير عن القاسم بن محمد ، قال : سمعت رجلا يسأل ابن عباس عن الأنفال ؟ ، فقال ابن عباس : الفرس من النفل، والسلب من النفل . ثم عاد لمسألته، فقال ابن عباس ذلك أيضا . ثم قال الرجل: الأنفال التى قال الله فى كتابه، ما هى؟ قال القاسم: فلم يزل يسأله حتى كاد يُخرجه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مثل هذا، مثل صبيغ الذى ضربه عمر بن الخطاب . وروى عبد الرزاق عن القاسم بن محمد قال: قال ابن عباس: كان عمر بن الخطاب إذا سئل عن شيء قال: لا أمرك ولا أنهاك . ثم قال ابن عباس: والله ما بعث الله نبيه ﷺ إلا زاجرا أمرا ، مُحَلًا مُحَرَّمًا . قال القاسم: فسُلِّطَ على ابن عباس رجل فسأله عن الأنفال، فقال ابن عباس: كان الرجل ينفل فرس الرجل وسلاحه . فأعاد عليه الرجل، فقال له مثل ذلك، ثم أعاد عليه حتى أغضبه، فقال ابن عباس: أتدرون ما مثل هذا؟ مثل صبيغ الذى ضربه عمر بن الخطاب، حتى سألت الدماء على عقبه وعلى رجله، فقال الرجل: أما أنت فقد انتقم الله لعمر منك . وإسناده صحيح إلى ابن عباس: أنه فسر النفل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه، بعد قسم أصل المغنم، وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل، والله أعلم .

وروى ابن المبارك وغير واحد عن عطاء بن أبى رباح: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ ، قال: يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين فى غير قتال، من دابة أو عبد أو أمة أو متاع، فهو

(١) فى المخطوطتين: «آياتها ست وأربعون آية» . وهو خطأ يقينا ، مخالف للواقع فى عدد آياتها . وهى فى عد مصحفنا ٧٥ آية ، على عد المصحف الكوفى ، وهى ٧٦ آية فى عد المصاحف المدنى والمكى والبصرى .

نَقَلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ يصنع به ما يشاء . وهذا يقتضى أنه فسر الأنفال بالفىء ، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال . قال ابن جرير: وقال آخرون: هي أنفال السرايا ، وقد صرح بذلك الشعبى ، واختار ابن جرير أنها الزيادة على القَسَم ، ويشهد لذلك ما ورد فى سبب نزول الآية ، وهو ما رواه الإمام أحمد عن سعد بن أبى وقاص قال: لما كان يوم بدر، وقتل أخى عُمَيْرٌ، وَقَتْلُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ وَأَخَذَتْ سَيْفَهُ، وَكَانَ يُسَمَّى «ذَا الْكَتَيْفَةِ»، فَأَتَيْتُ بِهِ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَذْهَبْ فَاطْرَحْهُ فِي الْقَبْضِ». قال: فرجعت وبى ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخى وأخذ سلبى. قال: فما جاوزت إلا يسيرا حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لى رسول الله ﷺ: «أذهب فخذ سَلْبَكَ» .

وروى الإمام أحمد أيضا عن سعد بن مالك قال: قلت: يا رسول الله، قد شفاني الله اليوم من المشركين، فهب لى هذا السيف. فقال: «إن هذا السيف لا لك ولا لى، ضعه» قال: فوضعتة، ثم رجعت، فقلت: عسى أن يعطى هذا السيف اليوم من لا يبلى بلائى، قال: رجل يدعونى من ورائى، قال: قلت: قد أنزل الله فى شيئا ، قال: «كنت سألتنى السيف، وليس هو لى وإنه قد وهب لى، فهو لك» قال: وأنزل الله هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ﴾ . ورواه أبو داود، والترمذى، والنسائى . وقال الترمذى: حسن صحيح . وهكذا رواه أبو داود الطيالسى عن سعد قال: نزلت فى أربع آيات: أصبت سيفا يوم بدر، فأتيت النبى ﷺ فقلت: نَقَلْتَنِيهِ . فقال: «ضعه من حيث أخذته» مرتين، ثم عاودته ، فقال النبى ﷺ: «ضعه من حيث أخذته» ، فنزلت هذه الآية: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ . وتمام الحديث فى نزول: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨] ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ [المائدة: ٩٠] ، وآية الوصية . وقد رواه مسلم .

وروى الإمام أحمد عن أبى أمامة قال: سألت عبادة عن الأنفال، فقال: فىنا - أصحاب بدر - نزلت، حين اختلفنا فى النَّقْلِ ، وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا، وجعله لى رسول الله ﷺ ، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بَوَاءٍ - يقول: عن سواء .

وروى الإمام أحمد عن أبى أمامة، عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع النبى ﷺ، فشهدت معه بدرًا، فالتقى الناس، فهزم الله تعالى العدو، فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون ويقتلون، وأكبت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه. وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غِرَّةٌ ، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها، فليس لأحد فيها نصيب. وقال الذين خرجوا فى طلب العدو: لستم بأحق به منا، نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم. وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: خفنا أن يصب العدو منه غرة، فاشتغلنا به، فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ فَانقُضُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ ، فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين - وكان رسول الله ﷺ إذا غار فى أرض

العدو نَقَلَ الرِّبْعَ ، فإذا أقبِلَ راجعاً نفلَ الثلثَ ، وكان يكره الأنفال . ورواه الترمذى وابن ماجه نحوه ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن . ورواه ابن حبان فى صحيحه ، والحاكم فى مستدركه ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه . وروى أبو داود والنسائى ، وابن جرير ، وابن مردويه - واللفظ له - وابن حبان ، والحاكم عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ : «من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا ، فتسارع فى ذلك شبان الرجال ، وبقي الشيوخ تحت الرايات ، فلما كانت المغانم ، جاؤوا يطلبون الذى جعل لهم ، فقال الشيوخ : لا تستأثروا علينا ، فإننا كنا رداءً لكم ، لو انكشفتم لفتنتم إينا . فتنازعوا فأنزل الله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ إلى قوله : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١) .

وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام ، رحمه الله ، فى كتاب «الأموال الشرعية وبيان جهاتها» : أما الأنفال : فهى المغانم ، وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب ، فكانت الأنفال الأولى إلى النبى ﷺ ، يقول الله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فقسمها يوم بدر على ما أراه الله من غير أن يُخَمِّسها على ما ذكرناه فى حديث سعد ، ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس ، فنسخت الأولى . قلت : هكذا روى على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، سواء . وبه قال مجاهد ، وعكرمة والسدى . وقال ابن زيد : ليست منسوخة ، بل هى محكمة .

قال أبو عبيد : فى ذلك آثار ، والأنفال أصلها جماع الغنائم ، إلا أن الخمس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب ، وجرت به السنة . ومعنى الأنفال فى كلام العرب : كل إحسان فعله فاعل تفضلاً من غير أن يجب ذلك عليه ، فذلك النفل الذى أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم وإنما هو شيء خصه الله به تطولاً منه عليهم ، بعد أن كانت المغانم محرمة على الأمم قبلهم ، فنفلها الله تعالى هذه الأمة ، فهذا أصل النفل . قلت : شاهد هذا ما فى الصحيحين عن جابر : أن رسول الله ﷺ قال : «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى» فذكر الحديث ، إلى أن قال : «وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى» ، وذكر تمام الحديث . ثم قال أبو عبيد : ولهذا سمى ما جعل الإمام للمقاتلة نفلاً ، وهو تفضيله بعض الجيش على بعض بشيء سوى سهامهم ، يفعل ذلك بهم على قدر العناء عن الإسلام والنكايه فى العدو .

وقوله تعالى : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أى : اتقوا الله فى أموركم ، وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا ؛ فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى : فى قسمة بينكم على ما أَرَادَهُ اللهُ ، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف . وقال ابن عباس : هذا تحريج من الله ورسوله أن يتقوا ويصلحوا ذات بينهم . وكذا قال مجاهد . وقال السدى : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أى :

(١) رواه الطبرى بثلاثة أسانيد صحاح إلى ابن عباس (١٥٦٥٠ - ١٥٦٥٢) ورواه بإسناد رابع (١٥٦٥٣) إلى عكرمة فقط - وهو فى أبى داود (٢٧٣٧) والحاكم (٢ / ١٣١ ، ١٣٢) ، وقال الذهبى : « هو على شرط البخارى » . ورواه مرة أخرى مطولاً من وجه آخر (٣٢٦ / ٢) وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى .

لا تستبوا .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾

قال ابن عباس فى قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شىء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشىء من آيات الله، ولا يتوكلون، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأدوا فرائضه ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ يقول: تصديقًا ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يقول: لا يرجون غيره. وقال مجاهد: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فَرَقَتْ ، أى: فزعت وخافت. وكذا قال السدى وغير واحد.

وهذه صفة المؤمن حق المؤمن ، الذى إذا ذكر الله وجل قلبه ، أى : خاف منه ، ففعل أوامره ، وترك زواجره ، كقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَنْ يَسُدَّ لَهُمُ الدُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وكقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [النارعات: ٤٠ ، ٤١] ولهذا قال سفيان الثورى: سمعت السدى يقول فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قال: هو الرجل يريد أن يظلم - أو قال: يهجم بمعصية - فيقال له: اتق الله ، فيجل قلبه . وقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ كقوله: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَأَدَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

وقد استدلل البخارى وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها، على زيادة الإيمان وتفاضله فى القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة، كالشافعى، وأحمد بن حنبل، وأبى عبيد، كما بينا ذلك مستقصى فى أول شرح البخارى، والله الحمد والمنة. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف فى الملك، وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب؛ ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾: ينبه تعالى بذلك على أعمالهم، بعد ما ذكر اعتقادهم، وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها، وهو إقامة الصلاة، وهو حق الله تعالى. وقال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها، ووضوئها، وركوعها، وسجودها. وقال مقاتل ابن حيان: إقامتها: المحافظة على مواقيتها ، وإسباغ الطهور فيها، وتمام ركوعها وسجودها،

وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبي ﷺ، هذا إقامتها. والإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة، وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب، والخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقه. قال قتادة في قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: فأنفقوا مما أعطاكم الله، فإنما هذه الأموال عواري وودائع عندك يابن آدم، أو شكت أن تفارقها.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أى: المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان. وقال عمرو بن مرة في قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾: إنما نزل القرآن بلسان العرب، كقولك: فلان سيد حقا، وفى القوم سادة، وفلان تاجر حقا، وفى القوم تجار، وفلان شاعر حقا، وفى القوم شعراء.

وقوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أى: منازل ومقامات ودرجات فى الجنات، كما قال تعالى: ﴿هُمُ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣]. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أى: يغفر لهم السيئات، ويشكر لهم الحسنات. وقال الضحاك فى قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فىرى الذى هو فوق فضله على الذى هو أسفل منه، ولا يرى الذى هو أسفل أنه فضل عليه أحد. ولهذا جاء فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر فى أفق من آفاق السماء﴾، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا ينالها غيرهم؟ فقال: «بلى»، والذى نفسى بيده، لرجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» (١). وفى الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إن أهل الجنة ليرآون أهل الدرجات العلى، كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعمًا﴾ (٢).

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكُرِهُونَ ﴿٥﴾
يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ
اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ
أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ
الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

قال الإمام أبو جعفر الطبرى: اختلف المفسرون فى السبب الجالب لهذه «الكاف» فى قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾، فقال بعضهم: شبه به فى الصلاح للمؤمنين اتقاؤهم ربهم، وإصلاحهم ذات بينهم، وطاعتهم لله ورسوله. ثم روى عن عكرمة نحو هذا.

(١) انظر البخارى (٦ / ٢٣٣ ، ٢٣٤ فتح) ومسلم (٢ / ٣٤٩).

(٢) «وأنعمًا»: أى زادا وفضلا، ويقال: قد أحسنت إلى فى الإحسان وأنعمت، أى: زدت على الإحسان. وقيل: معناه: صارا إلى النعيم ودخلا فيه. قاله فى اللسان.

ومعنى هذا : أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغامر وتشاحتم فيها فانترعها الله منكم، وجعلها إلى قسمة وقسم رسوله ﷺ، فقسمها على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة، وهم النفيير الذين خرجوا لنصر دينهم، وإحراز غيرهم، فكان عاقبة كراحتكم للقتال بأن قدره لكم، وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد - رشداً وهدى، ونصراً وفتحاً، كما قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

قال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ ﴾ على كره من فريق من المؤمنين، كذلك هم كارهون لقتال، فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم، ثم روى نحوه عن مجاهد أنه قال: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ قال: كذلك يجادلونك في الحق. وقال السدي: أنزل الله في خروجه إلى بدر ومجادلتهم إياه فقال: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنْ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ لطلب المشركين ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾. وقال بعضهم: يسألونك عن الأنفال مجادلة، كما جادلوك يوم بدر فقالوا: أخرجتنا للغير، ولم تعلمنا قتالا فنستعد له.

قلت: رسول الله ﷺ إنما خرج من المدينة طالبا لغير أبي سفيان، التي بلغه خبرها أنها صادرة من الشام، فيها أموال جزيلة لقريش، فاستنهض رسول الله ﷺ المسلمين من خف منهم، فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، وطلب نحو الساحل من على طريق بدر، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ في طلبه، فبعث ضَمْضَمَ بن عمرو نذيرا إلى مكة، فنهضوا في قريب من ألف مُقْتَعٍ، ما بين التسعمائة إلى الألف، وتيامن أبو سفيان بالغير إلى سيف البحر فَنَجَا، وجاء النفيير فوردوا ماء بدر، وجمع الله المسلمين والكافرين على غير ميعاد، لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين ونصرهم على عدوهم، والتفرقة بين الحق والباطل، كما سيأتي بيانه.

والغرض: أن رسول الله ﷺ لما بلغه خروج النفيير، أوحى الله إليه يعده إحدى الطائفتين: إما العير وإما النفيير، ورغب كثير من المسلمين إلى العير؛ لأنه كسب بلا قتال، كما قال تعالى: ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾. روى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري، قال: قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: « إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة فهل لكم أن نخرج قبلك هذه العير لعل الله يُغْنِمَنَاهَا؟ » فقلنا: نعم، فخرج وخرجنا، فلما سرنا يوما أو يومين قال لنا: « ما ترون في قتال القوم؟ فإنهم قد أخبروا بخروجكم؟ » فقلنا: لا، والله ما لنا طاقة بقتال العدو، ولكننا أردنا العير، ثم قال: « ما ترون في قتال القوم؟ » فقلنا مثل ذلك فقال المقداد بن عمرو: إذا لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلْ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤]، قال: فتمنينا - معشر الأنصار - أن لو قلنا كما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون

لنا مال عظيم، قال: فأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ وذكر تمام الحديث . ورواه ابن أبى حاتم بنحوه . ورواه ابن مردويه أيضاً عن علقمة ابن وقاص الليثى ، قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر ، حتى إذا كان بالروحاء، خطب الناس فقال: « كيف ترون؟ » فقال أبو بكر: يا رسول الله، بلغنا أنهم بمكان كذا وكذا . قال : ثم خطب الناس فقال: « كيف ترون ؟ » فقال عمر مثل قول أبى بكر . ثم خطب الناس فقال: « كيف ترون؟ » فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله إيانا تريد؟ فوالذى أكرمك وأنزل عليك الكتاب، ماسلكتها قط ولا لى بها علم، ولئن سرت حتى تأتى «برك الغماد» من ذى يمن لنسيرن معك، ولا نكون كالذين قالوا لموسى: ﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما متبعون، ولعلك أن تكون خرجت لأمر، وأحدث الله إليك غيره، فانظر الذى أحدث الله إليك، فامض له، فصل حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وعاد من شئت، وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فنزل القرآن على قول سعد: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ الآيات .

وقال العوفى، عن ابن عباس: لما شاور النبى ﷺ فى لقاء العدو، وقال له سعد بن عبادة ما قال وذلك يوم بدر، أمر الناس أن يتهيؤوا للقتال، وأمرهم بالشوكة، فكره ذلك أهل الإيمان، فأنزل الله: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ . يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ . وقال مجاهد: يجادلونك فى الحق: فى القتال . قال ابن جرير: وقال آخرون: عنى بذلك المشركين . ثم روى عن ابن زيد ، قال: هؤلاء المشركون، جادلوه فى الحق ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ ﴾ حين يدعون إلى الإسلام ﴿ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ قال: وليس هذا من صفة الآخرين، هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر . ثم قال ابن جرير: ولا معنى لما قاله؛ لأن الذى قبل قوله: ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ ﴾ خبر عن أهل الإيمان، والذى يتلوه خبر عنهم، والصواب قول ابن عباس وابن إسحاق أنه خبر عن المؤمنين . وهذا الذى نصره ابن جرير هو الحق، وهو الذى يدل عليه سياق الكلام، والله أعلم . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر: عليك بالعبير ليس دونها شيء ، فناداه العباس بن عبد المطلب وهو أسير فى وثاقه: إنه لا يصلح لك ، قال : ولم ؟ قال : لأن الله عز وجل إنما وعدك إحدى الطائفتين ، وقد أعطاك الله ما وعدك . إسناده جيد، ولم يخرجوه (١) .

ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ ﴾ أى: يحبون أن الطائفة التى لا حد لها ولا منعة ولا قتال، تكون لهم وهى العبير ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أى: هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التى لها الشوكة والقتال، ليظفركم بهم ويظهركم عليهم، ويظهر دينه، ويرفع كلمة الإسلام، ويجعله غالباً على الأديان ، وهو أعلم بعواقب الأمور، وهو

الذى يدبركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم، كما قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن مسلم الزهري، وعاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله ابن أبي بكر، ويزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا، عن عبد الله ابن عباس - كل قد حدثني بعض هذا الحديث، فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر - قالوا: لما سمع رسول الله ﷺ بأبى سفيان مقبلا من الشام ندب المسلمين إليهم، وقال: « هذه غير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها ». فانتدب الناس، فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقي حربا، وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان، تخوفا على أمر الناس، حتى أصاب خيرا من بعض الركبان: أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذَرَ عند ذلك، فاستأجر ضَمُضَمَ بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى أهل مكة، وأمره أن يأتي قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضَمُضَمُ بن عمرو سريعا إلى مكة، وخرَجَ رسول الله ﷺ في أصحابه حتى بلغ واديا يقال له «ذَفْرَان»، فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل، وأتاه الخبر عن قُريش بمسيرهم ليمنعوا غيرهم فاستشار رسول الله ﷺ الناس، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر، رضى الله عنه، فقال فأحسن، ثم قام عمر فقال فأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أمرك الله به، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلْ إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذى بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى «بِرْكِ الغِمَاد» - يعنى مدينة الحبشة - لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيرا، ودعا له بخير، ثم قال رسول الله ﷺ: « أشيروا على أيها الناس » - وإنما يريد الأنصار - وذلك أنهم كانوا عدَدَ الناس، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: يا رسول الله، إنا برآء من ذمّامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمّنا نمنعك عما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا بمن دهمه بالمدينة، من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلما قال رسول الله ﷺ ذلك، قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: « أجل » قال: فقد آمنّا بك، وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا وموآثقتنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أمرك الله. فوالذى بعثك بالحق، إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما يتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبرٌ عند الحرب، صدقٌ عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسرّ بنا على بركة الله. فسرّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: «سيروا

على بركة الله وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم» .

وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا، وكذلك قال السدي، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم، وغير واحد من علماء السلف والخلف، اختصرنا أقوالهم اكتفاءً بسياق محمد بن إسحاق .

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

(*) روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب ، قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه، وهم ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة ، وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال : « [اللهم أين ما وعدتني] (١) ، اللهم أنجز لى ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد فى الأرض أبدا»، قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فاتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبي الله، كفاك (٢) مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله، عز وجل: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴾ ، فلما كان يومئذ التقوا ، فهزم الله المشركين ، فقتل منهم سبعون رجلا، وأسر منهم سبعون رجلا، واستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً ، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه منهم قُوَّةً لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عَضُدًا، فقال رسول الله ﷺ : « ما ترى يا بن الخطاب ؟ » قال : قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكنى أرى أن تُمكنننى من فلان - قريب لعمر - فأضربَ عنقه، وتمكنَ علياً من عقيل فيضربَ عنقه، وتمكن حمزة من فلان - أخيه فيضربَ عنقه، حتى يعلم الله أن ليس فى قلوبنا هواده للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء، فلما كان من الغد - قال عمر - فغدوت إلى النبي ﷺ وأبى بكر وهما يبكيان ، فقلت : ما يبكيك أنت وصاحبك، فإن وجدتُ بكاءً بكيتُ، وإن لم أجد بكاءً تبكيتُ لبيكائكما! قال النبي ﷺ: « للذى عَرَضَ على أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة » لشجرة قريبة من النبي ﷺ ، وأنزل الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ لَوْ كَانَتْ تُسْرَىٰ فِي الْأَرْضِ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٩] ، فأحل لهم الغنائم، فلما كان يوم

(*) من هنا بداية عملنا من حيث التخريج وتحقيق النص (أنور الباز) .

(١) ساقطة من المخطوطة والمطبوعة ، وأثبتناها من المسند .

(٢) فى المخطوطة : « كذلك » ، والمثبت كما فى المسند .

أحد من العام المقبل، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر، من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون، وقرَّ أصحابُ النبي ﷺ عن النبي ﷺ، وكسرت رباعيته، وهُشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله : ﴿ أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلِهَا قُلْتُمْ أِنَّا هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٦٥] ، بأخذكم الفداء. ورواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن جرير ، وابن مردويه ، وصححه على بن المدينى والترمذى، وقالوا : لا يعرف إلا من حديث عكرمة بن عمار اليمانى (١) . وروى البخارى عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ يوم بدر: « اللهم أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تُعبد » ، فأخذ أبو بكر بيده ، فقال : حسبك ! فخرج وهو يقول: ﴿ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدَّبِيرَ ﴾ [القمر: ٤٥] . ورواه النسائى (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴾ أى : يُرَدُّ بِبَعْضِهِمْ بَعْضًا ، كما قال ابن عباس : ﴿ مُرَدِّينَ ﴾ : متتابعين . ويحتمل أن المراد ﴿ مُرَدِّينَ ﴾ لكم ، أى : نجدة لكم ، عن ابن عباس : ﴿ مُرَدِّينَ ﴾ ، يقول المدد ، كما تقول : ائت الرجل زده كذا وكذا . وهكذا قال مجاهد ، وابن كثير القارئ ، وابن زيد : ﴿ مُرَدِّينَ ﴾ : مُمَدِّينَ . وقال أبو كُدَيْبَةَ ، عن قابوس (٣) ، عن أبيه ، عن ابن عباس : ﴿ مُمَدِّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴾ قال : وراء كل ملك ملك . وفى رواية بهذا الإسناد : ﴿ مُرَدِّينَ ﴾ قال : بعضهم على أثر بعض . وكذا قال أبو ظبيان ، والضحاك ، وقتادة . وروى ابن جرير : عن على ، قال : نزل جبريل فى ألف من الملائكة عن ميمنة النبي ﷺ وفيها أبو بكر ، ونزل ميكائيل فى ألف من الملائكة عن ميسرة النبي ﷺ ، وأنا فى الميسرة . وهذا يقتضى - لو صح إسناده - أن الألف مردفة بمثلها ؛ ولهذا قرأ بعضهم : « مُرَدِّينَ » بفتح الدال ، فالله أعلم . والمشهور عن ابن عباس قال : وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة ، فكان جبريل فى خمسمائة من الملائكة مُجَنَّبَةً ، وميكائيل فى خمسمائة مُجَنَّبَةً . وروى البخارى عن معاذ ابن رِفَاعَةَ بن رافع الزُرْقَى ، عن أبيه - وكان أبوه من أهل بدر - قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال : « من أفضل المسلمين » - أو كلمة نحوها - قال : وكذلك من شهد بدرا من الملائكة . انفرد بإخراجه البخارى (٤) . وفى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال لعمر لما شاوره فى قتل حاطب بن أبى بلتعة : « إنه قد شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » (٥) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى ﴾ الآية ، أى : وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بُشْرَى ، ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴾ وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) المسند (٢٠٨) ، ورواه مسلم (١٧٦٣) ، وأبو داود (٢٦٩٠) ، والترمذى (٣٠٨١) ، والطبرى (١٢٧/٩) .

(٢) البخارى (٣٩٥٣) ، والنسائى فى الكبرى (١١٥٥٧) .

(٣) فى المطبوعة : « قابس » ، والمثبت من المخطوطة . (٤) رواه البخارى (٣٩٩٢) .

(٥) رواه البخارى (٣٩٨٣) ، ومسلم (٢٤٩٤/١٦١) . (٦) فى المخطوطة : « وإذا » وهو خطأ واضح .

فَضْرَبَ الرِّقَابَ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بِأَلْفِهِمْ . وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ الَّتِي كَانُوا يَعْرِفُونَ لَهَا ﴿١١﴾ وقال تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٠ ، ١٤١] ، فهذه حكم شرع الله جهاد الكفار بأيدى المؤمنين لأجلها ، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمة المكذبة ، كما أهلك قوم نوح بالطوفان ، وعاداً الأولى بالدبور ، وثمود بالصيحة ، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل (١) ، وقوم شعيب بيوم الظلة ، فلما بعث الله تعالى موسى وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق في اليوم ، ثم أنزل على موسى التوراة ، شرع فيها قتال الكفار ، واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ ﴾ [القصص : ٤٣] ، وقَتْلُ الْمُؤْمِنِينَ لِلْكَافِرِينَ أَشَدُّ إِهَانَةً لِلْكَافِرِينَ ، وأشفى لصدور المؤمنين ، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَبْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٤]؛ ولهذا كان قتلُ صناديد قريش بأيدى أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم ، أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان . فقتلُ أبي جهل في معركة القتال وحومة الوغى ، أشدُّ إهانة له من موته على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك ، كما مات أبو لهب - لعنه الله - بالعدسة (٢) بحيث لم يقربه أحد من أقاربه ، وإنما غسلوه بالماء قدفاً من بعيد ، ورجموه حتى دفنوه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أى : له العزة ورسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر : ٥١] ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار ، مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم ، بحوله وقوته ، سبحانه وتعالى .

﴿ إِذْ يَفِشِكُمْ الْعُتَّاسَ أَمَّنَّهُ مِنْهُ وَيُرِلُّ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحَى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْتَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرُسُلَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَمُ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾

يذكرهم الله بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم ، أماناً منهم به من خوفهم الذى

(١) فى المخطوطة « السجين » ، والمثبت من المطبوعة ، وهو الموافق لما فى القرآن الكريم .

(٢) هى بثرة تشبه العدسة تخرج فى مواضع من الجسد ، من جنس الطاعون ، تقتل صاحبها غالباً . انظر : النهاية

حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم، وكذلك فَعَلَ تعالى بهم يوم أحد ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ الآية [آل عمران : ١٥٤] . قال أبو طلحة: كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد، ولقد سقط السيف من يدي مرارا يسقط وأخذه، ويسقط وأخذه، ولقد نظرت إليهم يميدون وهم تحت الحَجَف (١) .

وروى أبو يعلى عن علي ، قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسولُ الله ﷺ ، يصلى تحت شجرة ويبكى حتى أصبح (٢) .

قلت : أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد، وأمر ذلك مشهور جدا ، وأما الآية الشريفة إنما هي فى سياق قصة بدر، وهى دالة على وقوع ذلك أيضا وكان ذلك كان كائن للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله . وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمته عليهم، وكما قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥ ، ٦] ؛ ولهذا جاء فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر فى العريش مع الصديق ، وهما يدعوان ، أخذت رسول الله ﷺ سنة من النوم ، ثم استيقظ متبسما فقال : « أبشر يا أبا بكر ، هذا جبريل على ثنياه التمع » ثم خرج من باب العريش ، وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ سَيُهِزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر : ٤٥] (٣) .

وقوله : ﴿ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ : قال ابن عباس : نزل النبى ﷺ حين سار إلى بدر والمشركون بينهم وبين الماء رملة دعصة (٤) ، وأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان فى قلوبهم الغيظ، يوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون مجنبيين ! فأمطر الله عليهم مطرا شديدا ، فشرب المسلمون وتطهروا ، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان ، وثبت الرمل حين أصابه المطر ومشى الناس عليه والدواب ، فساروا إلى القوم وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل فى خمسمائة مُجَنَّبَةٍ، وميكائيل فى خمسمائة مُجَنَّبَةٍ. وكذا قال ابن عباس: إن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير وليقاتلوا عنها ، نزلوا على الماء يوم بدر، فغلبوا المؤمنين عليه. فأصاب المؤمنين الظمأ، فجعلوا يصلون مجنبيين محدثين، حتى تعاضموا ذلك فى صدورهم، فأنزل الله من السماء ماء حتى سال الودى، فشرب المؤمنون، وملؤوا الأسيقية، وسقوا الركاب ، واغتسلوا من الجنابة ، فجعل الله فى ذلك تطهورا، وثبت به الأقدام . وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة، فبعث الله المطر عليها ، فضرها حتى اشتدت ، وثبتت عليها الأقدام . ونحو ذلك روى

(١) الحَجَف : التروس من جلود ، واحدها : حَجَفَةٌ . (القاموس) .

(٢) أبو يعلى (٢٨٠)، وهو فى المسند (١٠٢٣) ، وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده صحيح ، وقد ذكره الحافظ ابن كثير فى التفسير (٢٢/٤) ، ولكن نسبه لأبى يعلى عن زهير عن عبد الرحمن بن مهدى ، فلعل الحافظ نسى أنه فى المسند فلم ينسبه إليه » .

(٣) الدر المنثور (١٦٨/٣) ، وعجز الحديث رواه البخارى (٢٩١٥) .

(٤) أى سهلة .

عن قتادة، والضحاك، والسدى.

والمعروف أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر، نزل على أدنى ماء هناك أى: أول ماء وجده، فتقدم إليه الحباب بن المنذر فقال: يا رسول الله، هذا المنزل الذى نزلته منزل أنزلك الله إياه فليس لنا أن نجاوزه، أو منزل نزلته للحرب والمكيدة؟ فقال: «بل منزل نزلته للحرب والمكيدة». فقال: يا رسول الله، إن هذا ليس بمنزل، ولكن سر بنا حتى نزل على أدنى ماء يلى القوم ونغور ما وراءه من القلب، ونستقى الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء. فسار رسول الله ﷺ ففعل كذلك .

وأحسن ما فى هذا ما رواه ابن إسحاق عن عروة بن الزبير قال : بعث الله السماء - وكان الوادى دهنًا (١) فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم من المسير، وأصاب قريشا ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه (٢) . وقال مجاهد: أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس، فأطفأ بالمطر الغبار ، وتلبدت به الأرض، وطابت نفوسهم ، وثبتت به أقدامهم .

وقوله: ﴿ لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ أى: من حدث أصغر أو أكبر، وهو تطهير الظاهر ﴿ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ أى: من وسوسة أو خاطر سيئ، وهو تطهير الباطن ، كما قال تعالى فى حق أهل الجنة : ﴿ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ فهذا زينة الظاهر ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان : ٢١] أى: مطهراً لما كان من غل أو حسد أو تباغض ، وهو زينة الباطن وطهارته ﴿ وَلَيُرَبِّطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ أى: بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء ، وهو شجاعة الباطن ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ وهو شجاعة الظاهر، والله أعلم.

وقوله: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ : وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم، ليشكروه عليها، وهو أنه تعالى أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين، يوحى إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا . قال ابن إسحاق : وآزروهم. وقال غيره : قاتلوا معهم . وقيل : كثروا سوادهم . وقيل : كان ذلك بأن الملك كان يأتى الرجل من أصحاب النبي ﷺ فيقول: سمعت هؤلاء القوم - يعنى المشركين - يقولون: «والله لئن حملوا علينا لننكشفن» ، فيحدث المسلمون بعضهم بعضا بذلك ، فتقوى أنفسهم . حكاها ابن جرير، وهذا لفظه بحروفه.

وقوله: ﴿ سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ ﴾ أى : ثبتوا أتم المؤمنين وقوا أنفسهم على أعدائهم ، عن أمرى لكم بذلك ، سألتى الرعب والذلة والصغار على من خالف أمرى، وكذب رسولى ﴿ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ أى: اضربوا الهام ففلقوها، واحتزوا الرقاب فقطعوها، وقطعوا الأطراف منهم، وهى أيديهم وأرجلهم .

وقد اختلف المفسرون فى معنى: ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ فقيل: معناه : اضربوا الرؤوس. قاله

(١) الدَّهْسُ : المكان السهل ليس برمل ولا تراب. (القاموس) .

(٢) سيرة ابن هشام (٢/٢٦٩) .

عكرمة . وقيل : معناه : على الأعناق ، وهى الرقاب . قاله الضحاك ، ويشهد لهذا المعنى أن الله تعالى أُرشد المؤمنين إلى هذا فى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمُ فَشَدُّوا الرِّقَابَ ﴾ [محمد : ٤] . واختار ابن جرير أنها قد تدل على ضرب الرقاب ولفق الهام .

وقوله : ﴿ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ قال ابن جرير : معناه : واضربوا من عدوكم أيها المؤمنون كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم . و « البنان » : جمع بنانة ، وقال ابن عباس : يعنى بالبنان : الأطراف . وكذا قال الضحاك وابن جريج . وقال السدى : البنان : الأطراف ، ويقال : كل مفصل . وقال العوفى ، عن ابن عباس - فذكر قصة بدر إلى أن قال : فقال أبو جهل : لا تقتلوهم قتلا ، ولكن خذوهم أخذا ، حتى تعرفوهم الذى صنعوا من طعنهم فى دينكم ، ورجبتهم عن اللات والعزى . فأوحى الله إلى الملائكة : ﴿ أَنِّي مَعَكُمْ فَنِيْتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ الآية فقتل أبو جهل لعنه الله ، فى تسعة وستين رجلا ، وأسر عقبة بن أبى معيط فقتل صبورا ، فوفى ذلك سبعين - يعنى : قتيلا . ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أى : خالفوهما فساروا فى شق ، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه فى شق - وهو مأخوذ أيضا من شق العصا ، وهو جعلها فرقتين - ﴿ وَمَنْ يَشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أى : هو الطالب الغالب لمن خالفة وناواه ، لا يفوته شىء ، ولا يقوم لغضبه شىء ، تبارك وتعالى ، لا إله غيره ، ولا رب سواه ﴿ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾ : هذا خطاب للكفار أى : ذوقوا هذا العذاب والتكال فى الدنيا ، واعلموا أيضا أن للكافرين عذاب النار فى الآخرة .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ ﴿١٥﴾
 وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَكَءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

يقول تعالى متوعدا على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا ﴾ أى : تقاربتم منهم ودنوتم إليهم ، ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ أى : تفروا وتركوا أصحابكم ﴿ وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ ﴾ أى : يفر بين يدى قرنه مكيدة ؛ ليريه أنه خاف منه فيتبعه ، ثم يكر عليه فيقتله ، فلا بأس عليه فى ذلك . نص عليه سعيد بن جبير ، والسدى . وقال الضحاك : أن يتقدم عن أصحابه ليرى غرة من العدو فيصيبها . ﴿ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ ﴾ أى : فر من هاهنا إلى فتنة أخرى من المسلمين ، يعاونهم ويعاونونه ، فيجوز له ذلك ، حتى ولو كان فى سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم ، دخل فى هذه الرخصة . روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر ، قال : كنت فى سرية من سرايا رسول الله ﷺ ، فحاص الناس حيصة - فكنت فى من حاص - فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا : لو دخلنا المدينة ثم بتنا ؟ ثم قلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ ، فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا ،

فأتيناه قبل صلاة الغداة ، فخرج فقال : «من القوم ؟» فقلنا : نحن الفرارون . فقال : « لا ، بل أنتم العكَّارون ، أنا فتتكم ، وأنا فئة المسلمين » قال : فأتيناه حتى قبَلنا يده . وهكذا رواه أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، من طرق عن يزيد بن أبي زياد ، وقال الترمذى : حسن لا نعرفه إلا من حديثه (١) .

قال أهل العلم : معنى قوله : «العكَّارون» أى : العطافون . وكذلك قال عمر بن الخطاب ، فى أبى عبيد لما قتل على الجسر بأرض فارس ، لكثرة الجيش من ناحية المجوس ، فقال عمر : لو تحيَّز إلى لكنت له فئة . وقال مجاهد : قال عمر : أنا فئة كل مسلم . وقال الضحاك فى قوله : «أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ» المتحيِّز : الفار إلى النبى وأصحابه ، وكذلك من فر اليوم إلى أميره وأصحابه . فاما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب ، فإنه حرام وكبيرة من الكبائر ، لما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « اجتنبوا السبع الموبقات » . قيل : يا رسول الله ، وما هن؟ قال : «الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولَّى يوم الزحف ، وقذْف المحصنات الغافلات المؤمنات » (٢) . ولهذا قال تعالى : «فَقَدْ بَاءَ» أى : رجع «بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ» أى : مصيره ومنقلبه يوم مياعده «جَهَنَّمَ وَبَسَّ الْمَصِيرُ» . وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حراما على الصحابة ؛ لأنه [يعنى الجهاد] كان فرض عين عليهم . وقيل : على الأنصار خاصة ؛ لأنهم بايعوا على السمع والطاعة فى المنشط والمكره .

وقيل : المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة ، يروى هذا عن عمر ، وابن عمر ، وابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم . وحجتهم فى هذا : أنه لم تكن عصابة لها شوكة يفيؤون إليها سوى عصابتهم تلك ، كما قال النبى ﷺ : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض » (٣) ؛ ولهذا قال الحسن فى قوله : « وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ » : ذلك يوم بدر ، فاما اليوم : فإن انحاز إلى فئة أو مصر - أحسبه قال : فلا بأس عليه .

وقال يزيد بن أبى حبيب : أوجب الله تعالى لمن فر يوم بدر النار ، قال : « وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ » ، فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ » إلى قوله : « وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ » [آل عمران : ١٥٥] ، ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين ، قال : « ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدْبِرِينَ » [التوبة : ٢٥] ، « ثُمَّ يُتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ » [التوبة : ٢٧] . وهذا كله لا ينفى أن يكون الفرار من الزحف حراما على غير أهل بدر ، وإن كان سبب نزول الآية فيهم ، كما دل عليه حديث أبى هريرة المتقدم ، من أن

(١) المسند (٥٣٨٤) ، وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وفيه بحث للشيخ انظره فى المسند ، وأبو داود (٢٦٤٧) ، والترمذى (١٧١٦) ، وابن ماجه (٣٧٠٤) .

(٢) رواه البخارى (٢٧٦٦) ، ومسلم (١٤٥/٨٩) .

(٣) مسلم (٥٨/١٧٦٣) ، والمسند (٢٢١) .

الفرار من الزحف من الموبات، كما هو مذهب الجماهير، والله أعلم.

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ
وَلِيَسْبِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنْ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكَمُ وَأَنَّ اللَّهَ
مُوهِنٌ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد، وأنه المحمود على جميع ما صدر عنهم من خير؛ لأنه هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم؛ ولهذا قال: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ أي: ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم، أي: بل هو الذي أظفركم عليهم كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣] ، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥] ، يعلم - تعالى وتبارك - أن النصر ليس عن كثرة العدد ، ولا بلبس الامة والعدد ، وإنما النصر من عند الله تعالى ، كما قال: ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩] .

ثم قال لنبيه ﷺ أيضا في شأن القبضة من التراب ، التي حصب بها وجوه المشركين يوم بدر، حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكائه ، فرماهم بها ، وقال : « شأهت الوجوه » . ثم أمر الصحابة أن يصدقوا الحملة إثرها ، ففعلوا ، فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين ، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ أي : هو الذي بلغ ذلك إليهم ، وكتبهم بها لا أنت . عن ابن عباس: رفع رسول الله ﷺ يديه - يعنى يوم بدر - فقال: « يا رب ، إن تهلك هذه العصابة ، فلن تعبد فى الأرض أبدا » . فقال له جبريل: « خذ قبضة من التراب ، فارم بها فى وجوههم » فأخذ قبضة من التراب ، فرمى بها فى وجوههم ، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة ، فولوا مدبرين (١) . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ قال : هذا يوم بدر ، أخذ رسول الله ﷺ ثلاث حصبات فرمى بحصبة ميمنة القوم ، وحصبة فى ميسرة القوم ، وحصبة بين أظهرهم ، وقال : « شأهت الوجوه » ، فانهزموا .

وقد روى فى هذه القصة عن عروة بن الزبير ، ومجاهد وعكرمة ، وقاتدة وغير واحد من الأئمة: أنها نزلت فى رمية النبى ﷺ يوم بدر ، وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين أيضا . وروى ابن إسحاق عن عروة بن الزبير فى قوله: ﴿ وَلِيَسْبِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا ﴾ أي: ليعرف المؤمنون نعمته عليهم ، من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم ، وقلة عددهم ، ليعرفوا بذلك حقه ، ويشكروا بذلك نعمته . وهكذا فسره ابن جرير أيضا .

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي: سميع الدعاء ، عليم بمن يستحق النصر والغلب . وقوله:

(١) سبق تخريجه عند الآية: (٩) من السورة نفسها .

﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ : هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر: أنه أعلمهم تعالى بأنه مُضْعَفُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ فيما يستقبل، مصغراً أمرهم، وأنهم كل ما لهم في تبار ودمار، والله الحمد والمنة.

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتِكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٩﴾

يقول تعالى للكفار: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ أى: تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين، فقد جاءكم ما سألتهم، كما روى ابن إسحاق عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير؛ أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أينما كان أقطع للرحم وآنانا بما لا نعرف، فأحنه الغداة - وكان ذلك استفتاحاً منه - فنزلت: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ إلى آخر الآية. وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثعلبة: أن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم، أقطعنا للرحم، وآنانا بما لا نعرف، فأحنه الغداة، فكان المستفتح. وكذا رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه (١). وقال السدي: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر، أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين. فقال الله: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾، يقول: قد نصرت ما قلت، وهو محمد ﷺ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو قوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقوله: ﴿وَإِنْ تَنْهَوْا﴾ أى: عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة ﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ﴾ كقوله: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عَدُنَا﴾ [الإسراء: ٨] معناه: وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة، نعد لكم بمثل هذه الواقعة. ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتِكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أى: ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا، فإن من كان الله معه فلا غالب له، فإن الله مع المؤمنين، وهم الحزب النبوى، والجناب المصطفى.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتَّبَعْتُمْ سَمْعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ﴾ أى: تتركوا طاعته وامتنال أوامره وترك زواجره

﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أى: بعد ما علمتم ما دعاكم إليه ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ قيل: المراد: المشركون. واختاره ابن جرير. وقال ابن إسحاق: هم المنافقون؛ فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا، وليسوا كذلك.

ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بنى آدم سئى الخلق والخليقة، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدُّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ﴾ أى: عن سماع الحق ﴿الْبِكْمُ﴾ عن فهمه؛ ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾، فهؤلاء شر البرية؛ لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا؛ ولهذا شبههم بالأنعام فى قوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَعَبُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ﴾ الآية [البقرة: ١٧١]. وقال فى الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الاعراف: ١٧٩]. وقيل: المراد بهؤلاء المذكورين نفر من بنى عبد الدار من قريش. روى عن ابن عباس ومجاهد، واختاره ابن جرير، وقال محمد بن إسحاق: هم المنافقون. قلت: ولا منافاة بين المشركين والمنافقين فى هذا؛ لأن كلا منهم مسلوب الفهم الصحيح، والقصد إلى العمل الصالح.

ثم أخبر تعالى بأنهم لافهم لهم صحيح، ولا قصد لهم صحيح، لو فرض أن لهم فهما، فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ أى: لأفهمهم، وتقدير الكلام: ولكن لا خير فيهم فلم يفهمهم؛ لأنه يعلم أنه ﴿لَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أى: أفهمهم ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ عن ذلك قصدا وعنادا بعد فهمهم ذلك ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عنه.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

قال البخارى: ﴿استجيبوا﴾: أجيبوا ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾: لما يصلحكم. وروى عن أبى سعيد ابن المعلّى قال: كنت أصلى، فمر [بى] (١) رسول الله ﷺ، فدعانى فلم آته حتى صليت، ثم أتيت فقال: «ما منعك أن تأتيني؟» ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قبل أن أخرج»، فذهب رسول الله ﷺ ليخرج، فذكرت له، وقال: «هى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ السبع المثانى» (٢). وقال مجاهد فى قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال: الحق. وقال قتادة: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قال: هو هذا القرآن، فيه النجاة والبقاء والحياة. وقال السدّى: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾: فى الإسلام إحيائهم بعد موتهم بالكفر. وعن عروة بن الزبير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أى: للحرب التى أعزكم الله تعالى بها بعد الذل، وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم.

(١) ساقطة من المخطوطة، وأثبتناها من المطبوعة والبخارى.

(٢) البخارى (٤٦٤٧).

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ قال ابن عباس: يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان. رواه الحاكم موقوفاً، وقال: صحيح ولم يخرجاه (١). وكذا قال مجاهد، وسعيد، وعكرمة، وغيرهم. وقال السدي: يحول بين الإنسان وقلبه، فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه. وقال قتادة هو كقولہ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]. وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما يناسب هذه الآية:

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك». قال: فقلنا: يا رسول الله، آما بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى يقليبها». وهكذا رواه الترمذي. ثم قال: حسن (٢). وروى أيضاً الإمام أحمد عن أم سلمة: أن رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه يقول: «اللهم يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك». قالت: فقلت: يا رسول الله، أو إن القلوب لتقلب؟ قال: «نعم، ما خلق الله من بشر من بنى آدم إلا أن قلبه بين إصبعين من أصابع الله، عز وجل، فإن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه. فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب». قالت: فقلت: يا رسول الله، ألا تعلمنى دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال: «بلى، قولي: اللهم رب النبي محمد، اغفر لي ذنبي، وأذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن ما أحيتني» (٣). وروى أيضاً الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد يصرفها كيف شاء». ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مُصَرِّفِ القلوب، صَرِّفْ قلوبنا إلى طاعتك». انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري، فرواه مع النسائي (٤).

﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

﴿١٥﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين ﴿فِتْنَةً﴾ أى: اختباراً ومحنة، يعم بها المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب، بل يعمهما، لم تدفع وترفع. كما روى الإمام أحمد عن مطرف قال: قلنا للزبير: يا أبا عبد الله، ما جاء بكم؟ ضيعتم الخليفة الذى قتل، ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزبير: إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان، رضى الله عنهم: ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾، لم تكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت (٥). وعن الحسن فى هذه الآية قال: نزلت فى على، وعثمان،

(١) الحاكم فى المستدرک (٢/٣٢٨).

(٢) المسند (٣/١١٢)، والترمذى (٢١٤٠)، وصححه الألبانى.

(٣) المسند (٦/٣٠١). ورواه الترمذى (٣٥٢٢) وقال: «حديث حسن»، وصححه الألبانى.

(٤) المسند (٦٥٦٩)، ومسلم (٢٦٥٤)، والنسائى فى الكبرى (٧٨٦١).

(٥) المسند (٤/١٦٥).

وظلحة والزبير ، رضى الله عنهم . وقال السُّدِّيُّ : نزلت في أهل بدر خاصة ، فأصابتهم يوم الجمل ، فاقتلوا .

وقال ابن عباس في تفسير هذه الآية : أمر الله المؤمنين ألا يقروا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب . وهذا تفسير حسن جداً ؛ ولهذا قال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ : هي أيضاً لكم ، وكذا قال الضحاك ، ويزيد بن أبي حبيب ، وغير واحد . وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة ، إن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن: ١٥] ، فأیکم استعاذ فليستغذ بالله من مُضِلَّاتِ الفتن .

والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم - وإن كان الخطاب معهم - هو الصحيح ، ويدل على ذلك الأحاديث الواردة في التحذير من الفتن . روى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « والذي نفسى بيده ، لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم » (١) . وروى أحمد عن عامر ، قال : سمعت النعمان بن بشير يخطب يقول - وأوماً بأصبعيه إلى أذنيه - يقول : مثل القائم على حدو الله والواقع فيها والمدهن فيها كمثل قوم ركبوا سفينة ، فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها ، وأصاب بعضهم أعلاها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فأدوهم ، فقالوا : لو خررقتنا في نصيبنا خررقتنا ، فاستقينا منه ، ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعا . انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم (٢) . وروى أحمد أيضاً عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا ظهرت المعاصي في أمتي ، عمهم الله بعذاب من عنده » . فقلت : يا رسول الله ، أما فيهم أناس صالحون ؟ قال : « بلى » ، قالت : فكيف يصنع أولئك ؟ قال : « يصيبهم ما أصاب الناس ، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان » (٣) .

﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ الْأَنَاسُ فَتَوَاكَلْتُمْ وَأَيَّدْتُمْ بِنَصْرِهِمْ وَرَزَقِكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم وإحسانه إليهم ، حيث كانوا قليلين فكثروهم ، ومستضعفين خائفين فقوَّاهم ونصرهم ، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات ، واستشكرهم فأطاعوه ، وامتلوا جميع ما أمرهم . وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستضعفين مضطهدين ، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله ، من مشرك ومجوسى ورومى ، كلهم أعداء لهم

(١) المسند (٥/٣٣٨) ، والحديث رواه الترمذى (٢١٦٩) ، وقال : « حسن » .

(٢) المسند (٤/٢٦٩) ، والبخارى (٢٤٩٣) ، (٢٦٨٦) .

(٣) المسند (٦/٣٠٤) ، وإسناده صحيح .

لقتهم وعدم قوتهم ، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة ، فأوهم إليها ، وقِيضَ لهم أهلها، أووا ونصروا يوم بدر وغيره وواسوا بأموالهم ، وبدلوا مَهْجهم في طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ .

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ : كان هذا الحى من العرب أذل الناس دُلاً ، وأشقاء عَيْشًا ، وأجوعه بطونًا ، وأعراه جلودا ، وأبينه ضللا ، من عاش منهم عاش شقياً ، ومن مات منهم رُدَى في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قَبِيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشمر منزلا منهم، حتى جاء الله بالإسلام فمكّن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس. وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمه ، فإن ربكم مُنِعِمٌ يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله .

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾
وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ أَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

قال الزهري: أنزلت في أبي لُبابة بن عبد المنذر، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى قُرَيْظَةَ لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فاستشاروه في ذلك، فأشار عليهم بذلك - وأشار بيده إلى حلقه - أى: إنه الذبيح، ثم فطن أبو لبابة، ورأى أنه قد خان الله ورسوله، فحلف لا يذوق ذواقا حتى يموت أو يتوب الله عليه، وانطلق إلى مسجد المدينة، فربط نفسه في سارية منه، فمكث كذلك تسعة أيام، حتى كان يخر مغيشا عليه من الجهد، حتى أنزل الله توبته على رسوله. فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه، وأرادوا أن يحلوه من السارية، فحلف لا يحلّه منها إلا رسول الله ﷺ بيده، فحله، فقال: يا رسول الله، إني كنت نذرت أن أنخلع من مالى صدقة ، فقال : « يجزيك الثلث أن تصدق به » (١) .

وروى ابن جرير : عن المغيرة بن شعبة قال : نزلت هذه الآية في قتل عثمان : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ الآية . وفي الصحيحين قصة « حاطب بن أبى بلتعة » أنه كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله ﷺ إياهم عام الفتح، فأطلع الله رسوله على ذلك، فبعث فى إثر الكتاب فاسترجعه ، واستحضر حاطبا فأقر بما صنع ، فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله، ألا أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ؟ فقال: « دعه، فإنه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » (٢) .

قلت: والصحيح أن الآية عامة ، وإن صح أنها وردت على سبب خاص ، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء .

(١) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد (١٦/٥ - ١٨) ، وفتح البارى (٤١٣/٧) .

(٢) سبق تخريجه عند الآية : (٩) من السورة نفسها .

والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية . قال ابن عباس : ﴿ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾ : الأمانة الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد - معنى الفريضة - يقول: لا تخونوا : لا تنقضوها . وقال في رواية: ﴿ لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ يقول: بترك سنته وارتكاب معصيته . وقال السُّدِّيُّ : إذا خانوا الله والرسول ، فقد خانوا أماناتهم . وقال أيضا : كانوا يسمعون من النبي ﷺ الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين .

وقوله تعالى: ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أى: اختبار وامتحان منه لكم؛ إذ أعطاكموها ليعلم أشكرونها عليها وتطيعونه فيها ، أو تشتغلون بها عنه، وتعتاضون بها منه ؟ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٥] ، وقال: ﴿ وَنَبَلُّوكم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء: ٣٥] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَلْهَكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩] ، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ الآية [التغابن: ١٤] .

وقوله: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أى: ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد، فإنه قد يوجد منهم عدو، وأكثرهم لا يغنى عنك شيئا، والله، سبحانه، هو المتصرف المالك للعالمين والآخر، ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة . وفى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان أن يلقى فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه » (١) . بل حب رسوله مقدم على الأولاد والأموال والنفوس، كما ثبت فى الصحيح أنه ﷺ قال : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين » (٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

قال ابن عباس، والسُّدِّيُّ، ومُجَاهِدٌ، وغيرهم : ﴿ فُرْقَانًا ﴾ : مخرجًا . زاد مجاهد : فى الدنيا والآخرة . وفى رواية عن ابن عباس: نجاة . وفى رواية عنه: نصرا . وقال ابن إسحاق : ﴿ فُرْقَانًا ﴾ أى: فصلا بين الحق والباطل . وهذا التفسير من ابن إسحاق أعم مما تقدم وقد يستلزم ذلك كله؛ فإن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجه، وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا، وسعادته يوم القيامة، وتكفير ذنوبه وهو محوها، وغفرها: سترها عن الناس، سبباً لنيل ثواب الله الجزيل، كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨] .

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ ليقيدوك. وقال عطاء، وابن زيد: ليحبسوك. وقال السُّدِّيُّ: «الإثبات»: هو الحبس والوثاق. وهذا يشمل ما قاله هؤلاء وهؤلاء، وهو مجمع الأقوال، وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء. ثم إن اجتماع قريش على هذا الاتجار والمشاورة على الإثبات أو النفي أو القتل، إنما كان ليلة الهجرة، وكان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين، الذي كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه. والدليل على صحة ما قلنا: ما رواه الإمام محمد بن إسحاق عن ابن عباس؛ أن نفرا من قريش من أشرف كل قبيلة، اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا: من أنت؟ قال: شيخ من نجد، سمعت أنكم اجتمعتم، فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم رأيي ونصحي. قالوا: أجل، ادخل فدخل معهم فقال: انظروا في شأن هذا الرجل، والله ليوشكن أن يواثبكم في أمركم بأمره. قال: فقال قائل منهم: احبسوه في وثاق، ثم تربصوا به ريب المنون، حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء: زهير والتابعة، إنما هو كأحدهم، قال: فصرخ عدو الله الشيخ النجدى فقال: والله ما هذا لكم برأى، والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه، فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذه من أيديكم، فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجكم من بلادكم قال: فانظروا في غير هذا. قال: فقال قائل منهم: أخرجوه من بين أظهركم تستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع، إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم، وكان أمره في غيركم، فقال الشيخ النجدى: والله ما هذا لكم برأى، ألم تروا حلاوة قوله وطلاوة لسانه، وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم، ثم استعرض العرب، ليجتمعن عليكم، ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم. قالوا: صدق والله، فانظروا باباً غير هذا. قال: فقال أبو جهل، لعنه الله: والله لأشيرن عليكم برأى ما أراكم بصرقموه بعد، ما أرى غيره. قالوا: وما هو؟ قال: نأخذ من كل قبيلة غلاما شابا وسيطا نهذاً، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل، فلا أظن هذا الحى من بنى هاشم يقوون على حرب قريش كلها. فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العَقْل، واسترحنا وقطعنا عنا أذاه. قال: فقال الشيخ النجدى: هذا والله الرأي. القول ما قال الفتى لا رأى غيره، قال: فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له. فأتى جبريل النبي ﷺ، فأمره ألا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم. فلم يبيت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك بالخروج، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة «الأنفال» يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، وأنزل في قولهم: تربصوا به ريب المنون، حتى

يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَّبِعُهُ بِهِ رَبِّبَ الْمُنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] ، وكان ذلك اليوم يسمى «يوم الزحمة» ، للذي اجتمعوا عليه من الرأي .

وأَنْزَلَ اللهُ فِي إِرَادَتِهِمْ إِخْرَاجَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦] . وقال ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ ينتظر أمر الله ، حتى إذا اجتمعت قريش فمكرت به ، وأرادوا به ما أرادوا ، أتاه جبريل ، عليه السلام ، فأمره ألا يبيت في مكانه الذي كان يبيت فيه ، فدعا رسول الله ﷺ على بن أبي طالب ، فأمره أن يبيت على فراشه ويتسجى ببرد له أخضر ، ففعل . ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابهِ ، وخرَجَ معه بحفنة من تراب ، فجعل يذرها على رؤوسهم ، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد ﷺ وهو يقرأ: ﴿يَسْ . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩-١٠] . قال الحافظ أبو بكر البيهقي: وروى عن عكرمة ما يؤكد هذا (١) .

وقد روى ابن حبان في صحيحه، والحاكم عن ابن عباس قال: دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهي تبكي ، فقال : « ما يبكيك يا بنية ؟ » قالت: يا أبت ، وما لي لا أبكي ، وهؤلاء الملأ من قريش في الحجر يتعاهدون باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلونك ، وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك . فقال: «يا بنية ، اتنى بوضوء» . فتوضأ رسول الله ﷺ ، ثم خرج إلى المسجد . فلما رأوه قالوا: ها هو ذا . فطأطأوا رؤوسهم ، وسقطت رقابهم بين أيديهم ، فلم يرفعوا أبصارهم . فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها، وقال : « شامت الوجوه » . فما أصاب رجلا منهم حصاة من حصياته إلا قُتل يوم بدر كافرا . ثم قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه ، ولا أعرف له علة (٢) . وعن عروة بن الزبير في قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أى: فمكرت بهم بكيدى المتين ، حتى خلصتكم منهم .

﴿وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٢﴾ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٣﴾﴾

يخبر تعالى عن كفر قريش وعتوتهم وتمردهم وعنادهم ، ودعواهم الباطل عند سماع آياته إذا تتلى عليهم أنهم يقولون: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ . وهذا منهم قول بلا فعل ، وإلا فقد تحدوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلا . وإنما هذا قول منهم يغرّون به أنفسهم ومن اتبعهم على باطلهم . وقد قيل : إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث

(١) دلائل النبوة (٢/٤٦٩ ، ٤٧٠) . (٢) ابن حبان في الموارد (٦١٩١) ، والحاكم (٣/١٥٧) .

- لعنه الله - كما قد نص على ذلك سعيد ابن جبير ، والسدى ، وابن جريج وغيرهم ؛ فإنه - لعنه الله - كان قد ذهب إلى بلاد فارس ، وتعلم من أخبار ملوكهم رستم واسفنديار ، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله ، وهو يتلو على الناس القرآن ، فكان إذا قام ﷺ من مجلس ، جلس فيه النضر فحدثهم من أخبار أولئك ، ثم يقول : بالله أيهما أحسن قصصا؟ أنا أو محمد؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع في الأسارى ، أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبته صبورا بين يديه ، ففعل ذلك ، والله الحمد . وكان الذى أسره المقداد بن الأسود ، كما روى ابن جرير عن سعيد ابن جبير قال : قتل النبي ﷺ يوم بدر صبورا عقبه بن أبى معيط وطعيمة بن عدى ، والنضر بن الحارث . وكان المقداد أسر النضر ، فلما أمر بقتله ، قال المقداد : يا رسول الله ، أسيرى . فقال رسول الله ﷺ : « إنه كان يقول فى كتاب الله ، عز وجل ، ما يقول . » فأمر رسول الله ﷺ بقتله ، فقال المقداد : يا رسول الله ، أسيرى . فقال رسول الله ﷺ : « اللهم اغن المقداد من فضلك . » فقال المقداد : هذا الذى أردت . قال : وفيه أنزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا تَلَّيْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (١) .

ومعنى : ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وهو جمع أسطورة ، أى : كتبهم اقتبسها ، فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس . وهذا هو الكذب البحت ، كما أخبر الله عنهم فى الآية الأخرى : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٥ ، ٦] أى : لمن تاب إليه وأتاب ؛ فإنه يتقبل منه ويصفح عنه .

وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ : هذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم ، وعنادهم وعتوهم ، وهذا مما عيَّبوا به ، وكان الأولى لهم أن يقولوا : « اللهم ، إن كان هذا هو الحق من عندك ، فاهدنا له ، ووفقنا لاتباعه . » ولكن استفتحوا على أنفسهم ، واستعجلوا العذاب ، وتقديم العقوبة كقوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ أَجَلَ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلِيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٣] ، ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [ص : ١٦] ، وقوله : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ [المعارج : ١-٣] ، وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة ، كما قال قوم شعيب له : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء : ١٨٧] ، وقال هؤلاء : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ . وروى البخارى عن أنس بن مالك قال : هو أبو جهل بن هشام قال : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، فنزلت : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَفْرِقُونَ ﴾ (٢) . وقال قتادة فى قوله : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ الآية ، قال : قال ذلك سفهة هذه الأمة وجهلتها ، فعاد الله بعائده ورحمته على سفهة هذه الأمة وجهلتها .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ عن ابن عباس قال: كان المشركون يظفون بالبيت ويقولون: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك . فيقول النبي ﷺ : « قَدْ قَدَّ » ويقولون: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك . ويقولون: غفرانك، غفرانك، فأنزل الله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ الآية ، قال ابن عباس: كان فيهم أمانان: النبي ﷺ ، والاستغفار، فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار (١) .

وقال الضحاك وأبو مالك: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ يعنى : المؤمنين الذين كانوا بمكة . وقال ابن عباس: إن الله جعل فى هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ما داما بين أظهرهم: فأمان قبضه الله إليه ، وأمان بقى فيكم، قوله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ . وروى الإمام أحمد والحاكم عن أبى سعيد، أن رسول الله ﷺ قال : « إن الشيطان قال: وعزتك يا رب، لا أبرح أغوى عبادك ما دامت أرواحهم فى أجسادهم . فقال الرب: وعزتى وجلالى، لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى » . ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢) .

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٤)

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (٢٥)

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم، ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام الرسول ﷺ بين أظهرهم ؛ ولهذا لما خرج من بين أظهرهم ، أوقع الله بهم بأسه يوم بدر، فقتل صناديدهم وأسر سراتهم . وأرشد تعالى إلى الاستغفار من الذنوب، التى هم متلبسون بها من الشرك والفساد . وقال قتادة والسُّدِّى وغيرهما : لم يكن القوم يستغفرون ، ولو كانوا يستغفرون لما عذبوا . واختاره ابن جرير، فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين، لوقع بهم البأس الذى لا يرد، ولكن دفع عنهم بسبب أولئك، كما قال تعالى فى يوم الحديبية: ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّهُمُ فَصَبَّحَكُمْ مِنْهُم مَعْرَةٌ بَعِيرٌ عَلمٌ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح : ٢٥] . روى ابن جرير عن ابن أبى عمير قال: كان النبي ﷺ بمكة ، فأنزل الله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ قال: فخرج النبي ﷺ إلى المدينة، فأنزل الله: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ قال: وكان أولئك البقية من المسلمين الذين بقوا فيها مستضعفين - يعنى بمكة - يستغفرون فلما خرجوا، أنزل الله : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾

وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ﴿٣٤﴾ قال: فأذن الله في فتح مكة، فهو العذاب الذي وعدهم. وروى عن ابن عباس ، والضحاك ، وغير واحد نحو هذا .

وقد قيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، على أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم. قال عكرمة والحسن البصرى: قال في « الأنفال » : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، فنسختها الآية التي تليها: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ، فقوتلوا بمكة، فأصابهم فيها الجوع والضر. وعن ابن عباس: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ثم استثنى أهل الشرك فقال: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاءُؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى: وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام أى الذى بمكة، يصدون المؤمنين الذين هم أهلهم عن الصلاة فيه والطواف به؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاءُؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ أى: هم ليسوا أهل المسجد الحرام، وإنما أهل النبي ﷺ وأصحابه، كما قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ . إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَمَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَّرَ بِهِ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَإِخْرَاجَ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ الآية [البقرة: ٢١٧] . وروى الحاكم عن إسماعيل ابن عبيد بن رفاعه، عن أبيه، عن جده قال: جمع رسول الله ﷺ قريشا فقال: «هل فيكم من غيركم؟» قالوا: فينا ابن أختنا، وفينا حليفنا، وفينا مولانا. فقال: «حليفنا منا، وابن أختنا منا، ومولانا منا، إن أوليائى منكم المتقون». ثم قال: هذا صحيح، ولم يخرجاه (١). وقال السدى فى قوله تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَاءُؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ قال: هم محمد ﷺ وأصحابه، رضى الله عنهم . وقال مجاهد : هم المجاهدون ، من كانوا ، وحيث كانوا .

ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام، وما كانوا يعاملونه به، فقال: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة وغيرهم : هو الصفير - وزاد مجاهد: وكانوا يدخلون أصابعهم فى أفواههم. وقال السدى: المكاء: الصفير على نحو طير أبيض يقال له: «المكاء»، ويكون بأرض الحجاز . وعن ابن عباس فى قوله: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً ﴾ قال: كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق. والمكاء: الصفير، والتصديّة: التصفيق . وكذا روى عن ابن عمر، ومجاهد ، وقناة ، وغيرهم نحو هذا . وعن ابن عمر أيضاً أنه قال: كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويصفقون ويصفرون. قال مجاهد : وإنما كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ صلواته . وقال الزهرى : يستهزئون بالمؤمنين .

قوله : ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ قال الضحاك : هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي . واختاره ابن جرير ، ولم يحك غيره .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ ﴿٢٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾

قال ابن إسحاق : حدثني الزهري ، ومحمد بن يحيى بن حبان ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد (١) بن معاذ ، قالوا : لما أصيبت قريش يوم بدر ، ورجع فلهم إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بعيره ، مشى عبد الله بن أبي ربيعة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، في رجال من قريش أصيب آباؤهم ، وأبناؤهم وإخوانهم ببدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا : يا معشر قريش ، إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربيه ، لعلنا أن ندرك منه ثاراً بمن أصيب منا! ففعلوا . قال : ففيهم - كما ذكر عن ابن عباس - أنزل الله ، عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ (٢) . وروى عن مجاهد ، وقتادة ، والسدي وغيرهم : أنها نزلت في أبي سفيان ونفقته الأموال في أحد لقتال رسول الله ﷺ . وقال الضحاك : نزلت في أهل بدر .

وعلى كل تقدير ، فهي عامة . وإن كان سبب نزولها خاصا ، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق ، فيسفلون ذلك ، ثم تذهب أموالهم ﴿ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ أى : ندامة ؛ حيث لم تجد شيئاً لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق ، والله متم نوره ولو كره الكافرون ، وناصر دينه ، ومعلن كلمته ، ومظهر دينه على كل دين . فهذا الخزي لهم في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب النار ، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوؤه ، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدى والعذاب السرمدي ؛ ولهذا قال : ﴿ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ قال ابن عباس فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء ، وقال السدي : يميز المؤمن من الكافر . وهذا يحتمل أن يكون هذا التمييز في الآخرة ، كقوله : ﴿ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فزِيلْنَا بِهِمْ ﴾ الآية [يونس : ٢٨] ، وقوله : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ ﴾ [الروم : ١٤] ، وقال في الآية الأخرى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُصَدَّعُونَ ﴾

(١) في المطبوعة : « سعيد » وهو خطأ ، والثبت من المخطوطة .

(٢) في المطبوعة : « إلى قوله : « أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ » ، والثبت من المخطوطة .

[الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا زُورُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَإِمَّا أَقْدَارُ الْأُولِيَّاتِ﴾ [يس: ٥٩]. ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الدنيا، بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين، وتكون «اللام» معللة لما جعل الله للكافرين من مال ينفقونه في الصد عن سبيل الله، أى: إنما أقدرناهم على ذلك ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ أى: من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالنكول عن ذلك كقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فِإِذَنْ لَوِىَ اللَّهُ وَبَعَثَ فِي الْأُمَمِ نَبِيًّا﴾ [النور: ٤٣]. ولعلهم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم﴾ الآية [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذِرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ الآية [آل عمران: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، ونظيرتها في براءة أيضا. فمعنى الآية على هذا: إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم، وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها في ذلك؛ ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكَبَهُمْ﴾ أى: يجمعه كله، وهو جمع الشيء بعضه على بعض، كما قال تعالى في السحاب: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رِكَامًا﴾ [النور: ٤٣] أى: متراكما متراكبا ﴿فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أى: هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأُولِيَّاتِ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ فَإِنَّ أُنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نَعَمْ أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ يَوْمَ الْأَحْزَابِ﴾ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى لنبى محمد ﷺ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أى: عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد، ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة، يغفر لهم ما قد سلف، أى: من كفرهم، وذنوبهم وخطاياهم، كما جاء فى الصحيح عن ابن مسعود؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من أحسن فى الإسلام، لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية، ومن أساء فى الإسلام، أخذ بالأول والآخر» (١). وفى الصحيح أيضا: أن رسول الله ﷺ قال: «الإسلام يجب ما قبله، والتوبة تجب ما كان قبلها» (٢).

وقوله: ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ أى: يستمروا على ما هم فيه ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأُولِيَّاتِ﴾ أى: فقد مضت سنتنا فى الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم، أنا نعالجهم بالعذاب والعقوبة. وقوله: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأُولِيَّاتِ﴾ أى: فى قريش يوم بدر وغيرها من الأمم. وقال السدى وابن إسحاق: أى: يوم بدر.

وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ﴾ : روى البخارى عن ابن

(١) هو فى البخارى (٦٩٢١)، ومسلم (١٨٩/١٢٠).

(٢) أحمد (٤/١٩٨)، وقال الهشمى فى الزوائد (٩/٣٥٤) : «رواه أحمد والطبرانى ورجالهما ثقات».

عمر ؛ أن رجلا جاءه (١) فقال : يا أبا عبد الرحمن ، ألا تسمع (٢) ما ذكر الله في كتابه : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلُوا ﴾ الآية [الحجرات : ٩] ، فما يمنعك ألا تقاتل كما ذكر الله في كتابه ؟ فقال : يا بن أخي ، أُعيرَ بهذه الآية ولا أقاتل ، أحب إلي من أن أُعيرَ بالآية التي يقول الله ، عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا ﴾ إلى آخر الآية [النساء : ٩٣] ، قال : فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ ؟ قال ابن عمر : قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلا ، وكان الرجل يُفتن في دينه : إما أن يقتلوه ، وإما أن يوثقوه ، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة ، فلما رأى أنه لا يوافقها فيما يريد ، قال : فما قولك في علي وعثمان؟ قال ابن عمر : أما قولى في علي وعثمان؟ أما عثمان فكان الله قد عفا عنه ، وكرهتم أن يعفو الله عنه ، وأما على فابن عم رسول الله ﷺ وختنه - وأشار بيده - وهذه ابنته - أو بنته - حيث ترون (٣) . وقال ابن عباس : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ يعنى : حتى لا يكون شرك ، وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، وقال عروة بن الزبير وغيره من علمائنا : حتى لا يفتن مسلم عن دينه .

وقوله : ﴿ وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ قال ابن عباس : يخلص التوحيد لله . وقال الحسن وقتادة : أن يقال : لا إله إلا الله . وقال ابن إسحاق : ويكون التوحيد خالصا لله ، ليس فيه شرك ، ويخلع ما دونه من الأنداد . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ﴿ وَيَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ : لا يكون مع دينكم كفر . ويشهد له ما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها ، عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله ، عز وجل » (٤) . وفيهما عن أبي موسى الأشعري قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أى : ذلك في سبيل الله ، عز وجل؟ فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله ، عز وجل » (٥) .

وقوله : ﴿ فَإِنْ انْتَهَرُوا ﴾ أى : بقتالكم عما هم فيه من الكفر ، فكفوا عنه ، وإن لم تعلموا بواطنهم ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ، كقوله : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة : ٥] ، وفى الآية الأخرى : ﴿ فَأَخْوَأَكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ [التوبة : ١١] .

وقال : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَرُوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٣] وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأسماء - لما علا ذلك الرجل بالسيف ، فقال : « لا إله إلا الله » ، فضربه فقتله ، فذكرت ذلك لرسول الله - فقال لأسماء : « أقتلته بعد ما قال : لا إله إلا الله؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة ؟ » فقال : يا رسول الله ، إنما قالها تعوذا . قال : « هلا

(١) وذلك في فتنة ابن الزبير .

(٢) في المطبوعة والمخطوطة : « تصنع » ، والمثبت من البخارى .

(٣) البخارى (٤٦٥٠ ، ٤٦٥١) . (٤) البخارى (٢٥) ، ومسلم (٣٦/٢٢) .

(٥) البخارى (٢٨١٠) ، ومسلم (١٤٩/١٩٠٤) .

شَقَّقَتْ عَنْ قَلْبِهِ؟»، وجعل يقول ويكرر عليه: «من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة؟» قال أسامة: حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ (١).

وقوله: ﴿وَأَنْ تَوَكَّلُوا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ أى : وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ : سيدكم وناصركم على أعدائكم ، فنعم المولى ونعم النصير .

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَأَيَّتِمَّ
وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ
يَوْمَ الْفُتَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤١)

الجزء

١٠

يبين تعالى تفصيل ما شرعه مخصصا لهذه الأمة الشريفة من بين سائر الأمم المتقدمة، بإحلال الغنائم و«الغنيمة»: هي المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب. و«الفيء»: ما أخذ منهم بغير ذلك ، كالأموال التي يصالحون عليها ، أو يتوفون عنها ولا وارث لهم، والجزية والخراج ونحو ذلك. هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف. ومن العلماء من يطلق الفيء على ما تطلق عليه الغنيمة ، والغنيمة على الفيء أيضا .

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ : توكيدا لتخميس كل قليل وكثير حتى الخيط والمخيط ، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقُلْ يَأْتِ بِمَا غُلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦] .

وقوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ : اختلف المفسرون هاهنا : فقال بعضهم : لله نصيب من الخمس يجعل في الكعبة. وقال آخرون : ذكر الله هاهنا افتتاح كلام للتبرك، وسهمه لرسوله عليه السلام .

قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا، خَمَسَ الغنيمة، فضرب ذلك الخمس في خمسة. ثم قرأ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ ، ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ مفتاح كلام ، لله ما في السموات وما في الأرض، فجعل سهم الله وسهم الرسول واحداً. ويؤيد هذا ما رواه الإمام البيهقي بإسناد صحيح، عن عبد الله بن شقيق، عن رجل ، قال: أتيت النبي ﷺ وهو بوادي القرى ، وهو يعرض فرساً ، فقلت : يا رسول الله ، ما تقول في الغنيمة ؟ فقال : « لله خمسها ، وأربعة أخماس للجيش». قلت: فما أحد أولى به من أحد ؟ قال : « لا ، ولا السهم تستخرجه من جيبك ، ليس أنت أحق به من أخيك المسلم » (٢) . وروى ابن جرير عن الحسن قال : أوصى أبو بكر بالخمس من ماله، وقال: ألا أرضى - من مالى بما

(٢) البيهقي في السنن الكبرى (٦/٣٢٤) .

(١) البخارى (٤٢٦٩)، ومسلم (١٥٩/٩٦) .

رضى الله لنفسه (١) .

وقال عطاء : خمس الله والرسول واحد ، يحمل منه ويصنع فيه ما شاء - يعنى : النبى ﷺ . وهذا أعم وأشمل ، وهو أنه ﷺ يتصرف فى الخمس الذى جعله الله له بما شاء، ويرده فى أمته كيف شاء . ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد عن المقدم بن معد يكرب الكندى : أنه جلس مع عبادة بن الصامت، وأبى الدرداء، والحارث بن معاوية الكندى ، فتذاكروا حديث رسول الله ﷺ ، فقال أبو الدرداء لعبادة : يا عبادة، كلمات رسول الله ﷺ فى غزوة كذا وكذا فى شأن الأخماس؟ فقال عبادة: إن رسول الله ﷺ صلى بهم فى غزوة إلى بغير من المغنم، فلما سلم قام رسول الله ﷺ فتناول وبرة بين أُمَّلتيه فقال: «إن هذه من غنائمكم، وإنه ليس لى فيها إلا نصيبى معكم الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدوا الخيط والمخييط، وأكبر من ذلك وأصغر، ولا تغلوا، فإن الغلول عارٌ ونار على أصحابه فى الدنيا والآخرة، وجاهدوا الناس فى الله القريب والبعيد، ولا تبالوا فى الله لومة لائم، وأقيموا حدود الله فى السفر والحضر ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم ، ينجى الله به من الهم والغم » . هذا حديث حسن عظيم (٢) .

وقد كان للنبى ﷺ من المغنم شىء يصطفيه لنفسه عبداً أو أمة أو فرساً أو سيفاً أو نحو ذلك، كما نص على ذلك محمد بن سيرين وعامر الشعبي، وتبعهما على ذلك أكثر العلماء. وروى الإمام أحمد، والترمذى - وحسنه - عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ تنفل سيفه ذا الفقار يوم بدر، وهو الذى رأى فيه الرؤيا يوم أحد (٣). وعن عائشة ، قالت : كانت صفة من الصقلى . رواه أبو داود (٤) . وروى أيضاً بإسناده، والنسائى أيضاً عن يزيد بن عبد الله قال: كنا بالمربد إذ دخل رجل معه قطعة أديم، فقرأناها فإذا فيها: «من محمد رسول الله إلى بنى زهير بن أقيش، إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأديتم الخمس من المغنم، وسهم النبى وسهم الصقلى، أنتم آمنون بأمان الله ورسوله». فقلنا: من كتب لك هذا؟ فقال: رسول الله ﷺ (٥) . فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرر هذا وثبوته؛ ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه .

وقال آخرون: إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين، كما يتصرف فى مال الفىء . وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية، رحمه الله: وهذا قول مالك وأكثر السلف، وهو أصح الأقوال .

فإذا ثبت هذا وعلم، فقد اختلف أيضاً فى الذى كان يناله عليه السلام من الخمس ، ماذا

(١) ابن جرير فى التفسير (٣/١٠)، وفى المطبوعة والمخطوطة : «أوصى الحسن» بدل «أوصى أبو بكر»، والمثبت من الطبرى .

(٢) المسند (٣١٦/٥) .

(٣) المسند (٢٤٤٥) ، وقال الشيخ أحمد شاکر : «إسناده صحيح» ، والترمذى (١٥٦١) .

(٤) أبو داود (٢٩٩٤) . (٥) المسند (٧٧/٥) ، وأبو داود (٢٩٩٩)، والنسائى (٤١٤٦) .

يُصنع به من بعده؟ فقال قائلون: يكون لمن يلي الأمر من بعده . وقال آخرون: يصرف في مصالح المسلمين . وقال آخرون: بل هو مردود على بقية الأصناف: ذوى القربى، واليتامى، والمساكين ، وابن السبيل، اختاره ابن جرير . وقال آخرون : بل سهم النبي ﷺ وسهم ذوى القربى مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل .

وقيل: إن الخمس جميعه لذوى القربى . ثم اختلف الناس فى هذين السهمين بعد وفاة رسول الله ﷺ ، فقال قائلون : سهم النبي ﷺ تسليما للخليفة من بعده . وقال قائلون: لقراءة النبي ﷺ . وقال قائلون: سهم القرابة لقراءة الخليفة . فاجتمع قولهم على أن يجعلوا هذين السهمين فى الخيل والعدة فى سبيل الله ، فكانا على ذلك فى خلافة أبى بكر وعمر، رضى الله عنهما .

وأما سهم ذوى القربى فإنه يصرف إلى بنى هاشم وبنى المطلب ؛ لأن بنى المطلب وازروا بنى هاشم فى الجاهلية وفى أول الإسلام ، ودخلوا معهم فى الشعب غضبا لرسول الله ﷺ وحماية له: مسلمهم طاعة لله ولرسوله، وكافرهم حَمِيَّةٌ للعشيرة وأئفة وطاعة لأبى طالب عم رسول الله . وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل - وإن كانوا أبناء عمهم - فلم يوافقهم على ذلك، بل حاربهم وناذبوهم، ومالؤوا بطون قريش على حرب الرسول .

وقال جبير بن مطعم بن عدى : مشيت أنا وعثمان بن عفان إلى رسول الله ﷺ ، فقلنا : يا رسول الله ، أعطيت بنى المطلب من خمس خبير وتركتنا ، ونحن وهُم منك بمنزلة واحدة، فقال : « إنما بنو هاشم وبنو عبد المطلب شىء واحد » . رواه مسلم (١) . وفى بعض روايات هذا الحديث: «إنهم لم يفارقونا فى جاهلية ولا إسلام» (٢) . وهذا قول جمهور العلماء أنهم بنو هاشم وبنو المطلب . قال ابن جرير: وقال آخرون: هم بنو هاشم . ثم روى عن مجاهد قال : علم الله أن فى بنى هاشم فقراء ، فجعل لهم الخمس مكان الصدقة . وفى رواية عنه قال: هم قرابة رسول الله ﷺ الذين لا تحل لهم الصدقة .

وقوله : ﴿ وَالْيَتَامَى ﴾ أى: يتامى المسلمين . واختلف العلماء: هل يختص باليتام الفقراء، أو يعم الأغنياء والفقراء؟ على قولين . ﴿ وَالْمَسَاكِينَ ﴾ : هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسد خللتهم ومسكتهم . ﴿ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ﴾ : هو المسافر، أو المرید للسفر، إلى مسافة تقصر فيها الصلاة، وليس له ما ينفقه فى سفره ذلك . وسيأتى تفسير ذلك فى آية الصدقات فى سورة «براءة»، إن شاء الله تعالى، وبه الثقة، وعليه التكلان .

وقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ أى: امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس فى الغنائم، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل على رسوله؛ ولهذا جاء فى الصحيحين، من حديث عبد الله ابن عباس، فى حديث وفد عبد القيس: أن رسول الله ﷺ قال لهم: «وأمركم

(١) الحديث فى البخارى (٣١٤٠)، ولم تقف عليه فى صحيح مسلم كما أشار الحافظ .

(٢) النسائى (٤١٣٧) .

بأربع وأنهاكم عن أربع: أمركم بالإيمان بالله ثم قال: هل تدرُونَ ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخُمس من المغنم. الحديث بطوله^(١)، فجعل أداء الخُمس من جملة الإيمان.

وقوله: ﴿يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: ينبه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه بما فرَّق به بين الحق والباطل ببدر، ويسمى «الفرقان»؛ لأن الله تعالى أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل، وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه. قال ابن عباس: يوم بدر، فرَّق الله فيه بين الحق والباطل.

وقال عروة بن الزبير فى قوله: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾: يوم فرق الله بين الحق والباطل، وهو يوم بدر، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ. وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة، فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة - أو: سبع عشرة - مضت من رمضان، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة. فهزم الله المشركين، وقتل منهم زيادة على السبعين، وأسر منهم مثل ذلك.

وعن على قال: كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان، فى صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان. وهو الصحيح عند أهل المغازى والسير.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفرقان: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ أى: إذ أنتم نزلت بعدوة الوادى الدنيا القريبة إلى المدينة ﴿وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ أى: المشركون نزلت ﴿بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ أى: البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة ﴿وَالرَّكْبُ﴾ أى: العير الذى فيه أبو سفيان بما معه من التجارة ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أى: مما يلى سيف البحر ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أى: أنتم والمشركون إلى مكان ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾. قال عبد الله بن الزبير فى هذه الآية قال: ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم، ما لقيتموهم ﴿وَلَكِن لِّيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أى: ليضى الله ما أراد بقدرته من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، عن غير ملامتكم، ففعل ما أراد. من ذلك بلطفه. وفى حديث كعب بن مالك قال: إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد^(٢). وروى ابن جرير عن عمير بن إسحاق قال: أقبل أبو سفيان فى الركب من الشام، وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله ﷺ وأصحابه، فالتقوا ببدر، لا يشعر هؤلاء بهؤلاء، ولا هؤلاء بهؤلاء، حتى

(٢) البخارى (٣٩٥١).

(١) البخارى (٥٣)، ومسلم (٢٣/١٧).

التَقَّتِ السَّقَاةُ ، وَنَهَدَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ (١) .

وقال محمد بن إسحاق : حتى إذا رأى أبو سفيان أن قد أحرز غيره بعث إلى قريش فقال: إن الله قد نجى غيركم وأموالكم ورجالكم، فارجعوا. فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نأتى بدرًا - وكانت بدر سوقًا من أسواق العرب - فنقيم بها ثلاثًا، فنطعمُ بها الطعام، وننحرُ بها الجُزُرَ ، ونُسقي بها الخمر، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ويسيرنا، فلا يزالون يهابوننا بعدها أبدًا.

قال ابن إسحاق : وبعث رسول الله ﷺ - حين دنا من بدر - عليَّ بن أبي طالب، وسعدُ ابن أبي وقاص، والزبير بن العوام، في نفر من أصحابه، يتجسسون له الخبر فأصابوا سقاةَ لقريش: غلامًا لبني سعيد بن العاص ، وغلامًا لبني الحجاج، فأتوا بهما رسول الله ﷺ، فوجدوه يصلى، فجعل أصحاب رسول الله ﷺ يسألونهما: لمن أنتما؟ فيقولان: نحن سقاة لقريش، بعثونا نسقيهم من الماء. فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما فلما ذلوهما قالوا: نحن لأبي سفيان. فتركوهما، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتين، ثم سلم وقال: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما. صدقا، والله إنهما لقريش، أخبراني عن قريش». قالوا: هم وراء هذا الكتيب الذي ترى بالعدوة القصوى - والكتيب: العَقَنُ - فقال لهما رسول الله ﷺ: «كم القوم؟» قالوا: كثير. قال: «ما عدتكم؟» قالوا: ما ندرى. قال: «كم ينحرون كل يوم؟» قالوا: يوما تسعاً، ويوما عشراً، قال رسول الله ﷺ: «القوم ما بين التسعمائة إلى الألف». ثم قال لهما: «فمن فيهم من أشرف قريش؟» قالوا: عتبة ابن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختری بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدى بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، ونُبَيْه ومُنْبَه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود . فأقبل رسول الله ﷺ وسلم على الناس فقال : « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها » .

قال ابن إسحاق : إن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ ، لما التقى الناس يوم بدر : يا رسول الله ، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونُنِخَ إليك ركائبك ، ونلقى عدونا، فإن أظهرنا الله عليهم وأعزنا فذاك ما نحب، وإن تكن الأخرى فتجلس على ركائبك، وتلحق بمن وراءنا من قومنا ، فقد - والله - تخلف عنك أقوام ما نحن بأشدَّ لك حبا منهم، لو علموا أنك تلقى حزبا ما تخلفوا عنك ، ويوادونك وينصرونك. فإثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له به. فبني له عريش ، فكان فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر ، ما معهما غيرهما .

قال ابن إسحاق: وارتحلت قريش حين أصبحت، فلما أقبلت ورآها رسول الله ﷺ قال : «اللهم هذه قريش قد أقبلت بفخرها وخيلائها تُحَادُّكَ وتكذب رسولك، اللهم أحْنَمْ الغداة » .

وقوله: ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتِنَا وَيَحَيِّى مَنْ حَيَّ عَن بَيْتِنَا ﴾ : قال ابن إسحاق: أى ليكفر من كفر بعد الحجة، لما رأى من الآية والعبرة، ويؤمن من آمن على مثل ذلك. وهذا تفسير جيد، وبَسَطُ ذلك أنه تعالى يقول: إنما جمعكم مع عدوكم فى مكان واحد على غير ميعاد، لينصركم عليهم، ويرفع كلمة الحق على الباطل، ليصير الأمر ظاهراً، والحجة قاطعة، والبراهين ساطعة، ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة، فحيثذ ﴿ يَهْلِكُ مَنْ هَلَكَ ﴾ أى: يستمر فى الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره أنه مبطل، لقيام الحجة عليه ﴿ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ ﴾ أى: يؤمن من آمن ﴿ عَن بَيْتِنَا ﴾ أى: حجة وبصيرة. والإيمان هو حياة القلوب، قال الله تعالى: ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِنَّا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ [الأنعام : ١٢٢] ، وقالت عائشة فى قصة الإفك: فى هلك من هلك أى: قال فيها ما قال من الكذب والبهتان والإفك.

وقوله: ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ ﴾ أى: لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أى: بكم وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين.

﴿ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكٍ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَدْنَاكُمْ كَثِيرًا لَفَشَيْنَاكُمْ وَلَسَنَزَعَنَّكُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتُ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾

قال مجاهد : أراه الله إياهم فى منامه (١) قليلا، وأخبر النبى ﷺ أصحابه بذلك، فكان تثبيتا لهم .

وقوله: ﴿ وَلَوْ أَرَأَاكُمْ كَثِيرًا لَفَشَيْنَاكُمْ ﴾ أى: لجبتم عنهم واختلفتم فيما بينكم ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ﴾ أى: من ذلك: بأن أراكم قليلا ﴿ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتُ الصُّدُورِ ﴾ أى: بما تجبه الضمائر، وتنطوى عليه الاحشاء، ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر] .

وقوله: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾ : وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم إياهم قليلا فى رأى العين، فيجرتهم عليهم، ويطمعهم فيهم ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ : روى ابن أبى حاتم عن عكرمة: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ قال: حضض بعضهم على بعض . إسناده صحيح . ومعنى هذا : أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر، وقلله فى عينه ليطمع فيه، وذلك عند المواجهة. فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين، بقى حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه، كما قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنِى الثَّقَاتِ فَمَا تَقَاتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي

(١) فى المطبوعة والمخطوطة : « أراهم الله فى منامه » ، وما أثبتاه من الطبرى ١٠ / ١٠ .

ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ [آل عمران : ١٣] ، وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين ، فإن كلا منهما حق وصدق ، والله الحمد والمنة .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَسْرِعُوا بِالنَّفْسِ وَالْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾

هذا تعليم من الله لعباده المؤمنين آداب اللقاء ، وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء ، فقال : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ﴾ . ثبت فى الصحيحين ، عن عبد الله بن أبى أوفى ، عن رسول الله ﷺ : أنه انتظر فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال : « يَأَيُّهَا النَّاسُ ، لا تمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » . ثم قام النبى ﷺ وقال : « اللهم ، منزل الكتاب ، ومُجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم » (١) .

وقال قتادة فى هذه الآية : افترض الله ذكره عند أشغل ما تكونون ، عند الضراب بالسيوف . وروى ابن أبى حاتم عن ابن جريج عن عطاء قال : وجب الإنصات والذكر عند الزحف ، ثم تلا هذه الآية ، قلت : يجهرون بالذكر ؟ قال : نعم . فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم ، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا ، وأن يذكروا الله فى تلك الحال ولا ينسوه بل يستعينوا به ويتوكلوا عليه ، ويسألوه النصر على أعدائهم ، وأن يطيعوا الله ورسوله فى حالهم ذلك . فما أمرهم الله تعالى به اثتمروا ، وما نهاهم عنه انزجروا ، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا فيكون سبباً لتخاذلهم وفشلهم . ﴿ وَتَذَهَّبَ رِيحُكُمْ ﴾ أى : قوتكم وحدتكم وما كتتم فيه من الإقبال ﴿ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ . وقد كان للصحابة - رضى الله عنهم - فى باب الشجاعة والاثتمار بأمر الله ، وامتنال ما أرشدهم إليه ، ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم ، ولا يكون لأحد ممن بعدهم ؛ فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم ، فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً فى المدة اليسيرة ، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم ، من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش وأصناف السودان والقبط ، وطوائف بنى آدم ، قهروا الجميع حتى عكَّتْ كلمة الله ، وظهر دينه على سائر الأديان ، وامتدت الممالك الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها ، فى أقل من ثلاثين سنة ، فرضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين ، وحشرنا فى زمرتهم ، إنه كريم تواب .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص فى القتال فى سبيله وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين فى خروجهم من ديارهم ﴿بَطْرًا﴾ أى : دفعا للحق ﴿وَرِثَاءَ النَّاسِ﴾ وهو : المفاخرة والتكبر عليهم، كما قال أبو جهل - لما قيل له : إن العير قد نجا فارجعوا - فقال : لا، والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر، وننحر الجزر، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان ، وتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبدا، فانعكس ذلك عليه أجمع؛ لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحمام، ورُموا فى أطواء بدر مهانين أذلاء، صغرة أشقياء فى عذاب سرمدى أبدى؛ ولهذا قال : ﴿وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أى : عالم بما جاؤوا به وله، ولهذا جازاهم عليه شر الجزاء لهم. قال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ﴾ قالوا : هم المشركون، الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر. وقال محمد بن كعب : لما خرجت قريش من مكة إلى بدر، خرجوا بالقيان والدفوف، فأنزل الله : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

وقوله : ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ الآية : حسن لهم - لعنه الله - ما جاؤوا له وما هموا به، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا فى ديارهم من عدوهم بنى بكر فقال: إني جار لكم، وذلك أنه تبدى لهم فى صورة سراقه ابن مالك، وكل ذلك منه، كما قال تعالى عنه : ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء : ١٢٠]. وقال ابن عباس : جاء إبليس يوم بدر فى جند من الشياطين، معه رايته، فى صورة رجل من بنى مدلج، والشيطان فى صورة سراقه بن مالك بن جعشم [١]، فقال الشيطان للمشركين : ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾. فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوه المشركين، فولوا مدبرين وأقبل جبريل ، عليه السلام، إلى إبليس، فلما رآه - وكانت يده فى يد رجل من المشركين - انتزع يده ثم ولى مدبرا هو وشيعته، فقال الرجل : ياسراقه ، أتزعم أنك لنا جار؟ فقال : ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وذلك حين رأى الملائكة. وقال محمد بن إسحاق عن عروة بن الزبير : لما أجمعت قريش المسير، ذكرت الذى بينها وبين بنى بكر من الحرب، فكاد ذلك أن

يشبههم، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجى - وكان من أشرف بنى كنانة - فقال: أنا جار لكم أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعا. قال محمد بن إسحاق: فذكر لى أنهم كانوا يرونه فى كل منزل فى صورة سراقه بن مالك لا يتكرونه، حتى إذا كان يوم بدر والتقى الجمعان، كان الذى رآه حين نكص الحارث بن هشام - أو: عمير ابن وهب - فقال: أين، أى سراق؟ (١) ومثل عدو الله فذهب - قال: فأوردهم ثم أسلمهم - قال: ونظر عدو الله إلى جنود الله، قد أيد الله بهم رسوله والمؤمنين فانتكص على عقبه، وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ وصدق عدو الله، وقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. وقال قتادة: وذكر لنا أنه رأى جبريل، عليه السلام، تنزل معه الملائكة، فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة فقال: ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾، وكذب عدو الله، والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة، وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم، وتبرأ منهم عند ذلك.

قلت: يعنى بعبادته لمن أطاعه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلُ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ [الحشر: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَوَعَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمُزُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هُوَلاءِ دِينِهِمْ﴾: قال ابن عباس فى هذه الآية: لما دنا القوم بعضهم من بعض قتل الله المسلمين فى أعين المشركين، وقلل المشركين فى أعين المسلمين فقال المشركون: ﴿غَرَّ هُوَلاءِ دِينِهِمْ﴾ وإنما قالوا ذلك من قلتهم فى أعينهم، فظنوا أنهم سيهزمونهم، لا يشكون فى ذلك، فقال الله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. وقال قتادة: رأوا عصابة من المؤمنين تشددت لأمر الله، وذكر لنا أن أبا جهل عدو الله لما أشرف على محمد ﷺ وأصحابه قال: والله لا يعبدوا الله بعد اليوم، قسوة وعتوا. وقال مجاهد فى قوله، عز وجل: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هُوَلاءِ دِينِهِمْ﴾ قال: فنة من قريش، خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ، قالوا: ﴿غَرَّ هُوَلاءِ دِينِهِمْ﴾، حتى قدموا على ما قدموا عليه، مع قلة عددهم وكثرة عدوهم.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أى: يعتمد على جنبه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أى: لا يُضام من التجأ إليه، فإن الله عزيز منيع الجناب، عظيم السلطان، ﴿حَكِيمٌ﴾ فى أفعاله، لا يضعها إلا فى مواضعها، فينصر من يستحق النصر، ويخذل من هو أهل لذلك.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

(١) فى المخطوطة: «أين أين سراق»، والمثبت من سيرة ابن هشام (١/٦٣٣).

يقول تعالى: ولو عاينت يا محمد حال توفى الملائكة أرواح الكفار، لرأيت أمرا عظيما هائلا فظيحا منكرا؛ إذ يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقولون لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. قال مجاهد: ﴿وَأَدْبَارَهُمْ﴾ : أستاذهم ، قال : يوم بدر . وقال ابن عباس: إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ، ضربوا وجوههم بالسيوف ، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة فضربوا أدبارهم .

وهذا السياق - وإن كان سببه وقعة بدر - ولكنه عام فى حق كل كافر؛ ولهذا لم يخصه تعالى بأهل بدر، بل قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ وفى سورة القتال مثلها (١) ، وتقدم فى سورة الأنعام قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣]. أى: باسطو أيديهم بالضرب فيهم، يأمرونهم إذا استصعبت أنفسهم، وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهراً. وذلك إذ بشروهم بالعذاب والغضب من الله؛ ولهذا أخبر تعالى أن الملائكة تقول لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ﴾ أى: هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة فى حياتكم الدنيا، جزاكم الله بها هذا الجزاء ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أى: لا يظلم أحدا من خلقه، بل هو الحكم العدل، الذى لا يجور، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه الغنى الحميد؛ ولهذا جاء فى الحديث الصحيح من رواية أبى ذر عن رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول: يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا. يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم، فممن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» (٢) ولهذا قال تعالى:

﴿كَذَّابٍ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۗ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

يقول تعالى: فعل هؤلاء المشركون المكذبون بما أرسلت به يا محمد، كما فعل الأمم المكذبة قبلهم، ففعلنا بهم ما هو دأبنا ، أى: عادتنا وستتنا فى أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسل ، الكافرين بآيات الله ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أى : بسبب ذنوبهم اهلكهم، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى: لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغْتَبِئًا بِنِعْمَةِ أُنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٥٢﴾ كَذَّابٍ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۗ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ ۗ وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٣﴾

يخبر تعالى عن تمام عدله، وقسطه في حكمه، بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ ﴾ [الرعد : ١١] .

وقوله: ﴿ كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ أى: كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته ، أهلكتهم بسبب ذنوبهم، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون، وزروع وكنوز ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، وما ظلمهم الله في ذلك، بل كانوا هم الظالمين.

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْزَأَةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَمَّا تَتَّقَنِمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

أخبر تعالى أن شر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون، الذين كلما عاهدوا عهدا نقضوه، وكلما أكدوه بالآيمان نكثوه ﴿ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ أى: لا يخافون من الله في شيء ارتكبه من الآثام. ﴿ فَأَمَّا تَتَّقَنِمْ فِي الْحَرْبِ ﴾ أى: تغلبهم وتظفر بهم في حرب ﴿ فَشَرِدَ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ ﴾ أى: نكل بهم، قاله ابن عباس ومعناه: غلظ عقوبتهم وأتخنهم قتلا، ليخاف من سواهم من الأعداء، من العرب وغيرهم، ويصيروا لهم عبرة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ ﴾. وقال السدى: يقول: لعلمهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك.

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

يقول تعالى لنبية ﷺ: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ ﴾ قد عاهدتهم ﴿ خِيَانَةً ﴾ أى: نقضا لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود ﴿ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ ﴾ أى: عهدهم ﴿ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ أى: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم ، وهم حرب لك ، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أى: تستوى أنت وهم في ذلك . وعن الوليد بن مسلم أنه قال فى قوله: ﴿ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ أى: على مهل، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴾ أى: حتى ولو فى حق الكافرين، لا يحبها أيضا.

روى الإمام أحمد عن سليم بن عامر قال : كان معاوية يسير فى أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد ، فأراد أن يدنو منهم ، فإذا انقضى الأمد غزاهم ، فإذا شيخ على دابة يقول : الله أكبر ، الله أكبر ، وفاء لا غدرا ، إن رسول الله ﷺ قال : « ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلنَّ عقدة ولا يشدها حتى ينقضى أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء » قال : فبلغ ذلك معاوية، فرجع، وإذا الشيخ عمرو بن عبسة، رضى الله عنه. ورواه الترمذى وقال : حسن صحيح (١) .

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى لنبية ﷺ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ (١) يا محمد ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ﴾ أى : فاتونا فلا نقدر عليهم، بل هم تحت قهر قدرتنا وفي قبضة مشيئتنا فلا يعجزوننا، كقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤] أى: يظنون، وقوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا أُوَاهِمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [النور: ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿ لَا يَفْرُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا أُوَاهِمُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٩٦ ، ١٩٧].

ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة، فقال: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ أى: مهما أمكنكم ﴿ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾. روى الإمام أحمد عن عقبه بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ ، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي . ورواه مسلم (٢) . وروى الإمام مالك عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « الخيل لثلاثة: لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر؛ فأما الذى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله ، فأطال بها فى مرج - أو: روضة - فما أصابت فى طيلها ذلك من المرج - أو: الروضة - كانت له حسنات، ولو أنها قطعت طيلها فاستنتت شرفاً أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه، ولم يرد أن يسقى به ، كان ذلك حسنات له ؛ فهى لذلك الرجل أجر . ورجل ربطها تغنياً وتعففاً، ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها، فهى له ستر . ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء فهى على ذلك وزر . وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال: « ما أنزل الله على فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ » [الزلزلة: ٧ ، ٨] . رواه البخارى - وهذا لفظه - ومسلم (٣) .

وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمي أفضل من ركوب الخيل، وذهب الإمام مالك إلى أن الركوب أفضل من الرمي، وقول الجمهور أقوى للحديث، والله أعلم. والأحاديث الواردة فى فضل ارتباط الخيل كثيرة ، وفى صحيح البخارى، عن عروة بن أبى الجعد البارقى: أن رسول الله ﷺ قال: « الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والمغرم » (٤).

وقوله : ﴿ تُرْهَبُونَ ﴾ أى: تخوفون ﴿ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ أى: من الكفار ﴿ وَآخَرِينَ مِنْ

(١) كذا فى المطبوعة والمخطوطة بالتاء ، وهى قراءة سبعة .

(٢) المسند (٤/١٥٦)، ومسلم (١٩١٧/١٦٧) .

(٣) مالك فى الموطأ (٢/٤٤٤) ، والبخارى (٢٣٧١)، ومسلم (٩٨٧/٢٤) .

(٤) البخارى (٢٨٥٠) .

دُونِهِمْ ﴿ قَالَ مُجَاهِدٌ : يَعْنِي : قَرِظَةٌ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : فَارَسٌ ، وَقَالَ مِقَاتِلٌ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ : هُمُ الْمُنَافِقُونَ . وَهَذَا أَشْبَهَ الْأَقْوَالَ ، وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠١] .

وقوله : ﴿ وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلُمُونَ ﴾ أى : مهما أنفقتم فى الجهاد ، فإنه يوفى إليكم على التمام والكمال .

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنِحْ لَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾
 ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِى أَيْدِكَ بِتَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾
 وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿

ربع

يقول تعالى : إذا خفت من قوم خيانة فانبد إليهم عهدهم على سواء ، فإن استمروا على حريك ومنابدتك فقاتلهم ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا ﴾ أى : مالوا ﴿ لِلسَّلَامِ ﴾ أى : المسالمة والمصالحة والمهادنة ﴿ فَاجْتَنِحْ لَهُمْ ﴾ أى : فمحل إليها ، واقبل منهم ذلك ؛ ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين ؛ أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر . وقوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى : صالحهم وتوكل على الله ، فإن الله كافيك وناصرك ، ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقوا ويستعدوا ﴿ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ﴾ أى : كافيك وحده .

ثم ذكر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار ؛ فقال : ﴿ هُوَ الَّذِى أَيْدِكَ بِتَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ . وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ أى : جمعها على الإيمان بك ، وعلى طاعتك ومناصرتك وموازرتك ﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ أى : لما كان بينهم من العداوة والبغضاء فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة فى الجاهلية ، بين الأوس والخزرج ، وأمور يلزم منها التسلسل فى الشر ، حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان ، كما قال تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبَحْتُمْ بِيَعْنَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٣] . وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار فى شأن غنائم حنين قال لهم : « يا معشر الأنصار ، ألم أجدكم ضللا فهداكم الله بى ، وعالة فاعناكم الله بى ، وكنتم متفرقين فالفكم الله بى » كلما قال شيئا قالوا : الله ورسوله أمن (١) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أى : عزيز الجناب ، فلا يخيب رجاء من توكل عليه ، حكيم فى أفعاله وأحكامه . روى النسائى والحاكم عن عبد الله بن مسعود قال : ﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ الآية ، قال : هم المتحابون فى الله ، وفى رواية : نزلت فى المتحابين فى الله . وقال الحاكم : صحيح (٢) . وقال مجاهد : إذا تراءى

(١) البخارى (٤٣٣٠) ، ومسلم (١٠٦١/١٣٩) . (٢) النسائى فى الكبرى (١٢١٠) ، والحاكم (٣٢٩/٢) .

المتحابان في الله ، فأخذ أحدهما بيد صاحبه ، وضحك إليه ، تحات خطاياهما كما يتحات ورق الشجر . قال عبدة : قتلته له : إن هذا ليسير! فقال: لا تقل ذلك ؛ فإن الله تعالى يقول : ﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ ! . قال عبدة : فعرفت أنه أفقه مني . وروى الطبراني عن سلمان الفارسي : أن رسول الله ﷺ قال : « إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم ، فأخذ بيده ، تحاتت عنهما ذنوبهما ، كما يتحات الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف ، وإلا غفر لهما ولو كانت ذنوبهما مثل زيد البحر » (١) .

﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٤﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرْصُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ﴿١٥﴾ أَلْفَنَ حَقَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٦﴾

يحرص تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران، ويخبرهم أنه حسبهم، أي: كافيتهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم، وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم، ولو قل عدد المؤمنين. قال الشعبي في قوله: ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال: حسبك الله، وحسب من شهد معك. وعن عطاء الخراساني، وعبد الرحمن بن زيد مثله.

ولهذا قال: ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرْصُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ أي: حثهم وذمهم عليه ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرص على القتال عند صفهم ومواجهة العدو، كما قال لأصحابه يوم بدر، حين أقبل المشركون في عددهم وعددهم: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» فقال عمير ابن الحمام: عرضها السموات والأرض؟! فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فقال: يخ، يخ، فقال: «ما يحملك على قولك يخ، يخ ؟» قال : رجاء أن أكون من أهلها! قال: «فإنك من أهلها» فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم ألقى بقيتهن من يده، وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها حياة طويلة! ثم تقدم فقاتل حتى قتل، رضى الله عنه (٢) .

ثم قال تعالى مَبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَأَمْرًا: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ، كل واحد بعشرة . ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة. عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ ، شق ذلك على المسلمين حين فرض الله عليهم ألا يفر واحد من عشرة، ثم جاء التخفيف، فقال: ﴿الآن حَقَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ ، قال: خفف الله عنهم من العدة، ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم (٣) .

(١) الطبراني في الكبير (٢٥٦/٦) (٦١٥٠) ، وقال الهيثمي في الزوائد (٤٠/٨): «رجاله رجال الصحيح غير سالم ابن غيلان ، وهو ثقة» .
(٢) رواه مسلم (١٤٥/١٩٠١) .
(٣) البخاري (٤٦٥٣) بنحوه .

﴿ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُتَخَبَّرَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾

قرأ ابن عباس: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى﴾ حتى بلغ: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال: غنائم بدر، قبل أن يحلها لهم، يقول: لولا أني لا أعذب من عصاني حتى أتقدم إليه، لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم. وكذا قال مجاهد. وقال الأعمش: سبق منه ألا يعذب أحدا شهد بدرا. وروى نحوه عن سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن جبير، وعطاء. وقال ابن عباس في قوله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ يعني: في أم الكتاب الأول أن المغانم والأسارى حلال لكم ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من الأسارى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، قال الله تعالى: ﴿فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ الآية. وروى مثله عن أبي هريرة، وابن مسعود، وسعيد بن جبير، وعطاء وغيرهم، وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله. ويستشهد لهذا القول بما أخرجاه في الصحيحين عن جابر ابن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا، لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه ويبعث إلى الناس عامة» (١).

ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء. وقد روى أبو داود عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة (٢).

وقد استقر الحكم فى الأسرى عند جمهور العلماء: أن الإمام مخير فيهم: إن شاء قتل - كما فعل بنى قريظة - وإن شاء فادى بمال - كما فعل بأسرى بدر - أو بمن أسر من المسلمين - كما فعل رسول الله ﷺ فى تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا فى سبى سلمة بن الأكوع، حيث ردهما وأخذ فى مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أسر. هذا مذهب الإمام الشافعى وطائفة من العلماء، وفى المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر فى موضعه من كتب الفقه.

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبٌ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيُعْطِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

(١) البخارى (٣٣٥)، ومسلم (٣/٥٢١).

(٢) أبو داود (٢٦٩١)، وقال الألبانى: «صحيح دون الأربعمائة»، وانظر: إرواء الغليل (١٢١٨).

روى ابن إسحاق عن عبد الله بن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر : « إني قد عرفت أن أناسا من بنى هاشم وغيرهم ، قد أخرجوا كرها ، لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقي منكم أحدا منهم - أى : من بنى هاشم - فلا يقتله ، ومن لقى أبا البختري بن هشام فلا يقتله ، ومن لقى العباس ابن عبد المطلب فلا يقتله ، فإنه إنما أخرج مستكرها . فقال أبو حذيفة بن عتبة : أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشائرتنا ونترك العباس ؟ ! والله لئن لقيته لألجمنه بالسيف ؟ فبلغت رسول الله ﷺ ، فقال لعمر بن الخطاب : « يا أبا حفص » - قال عمر : والله إنه لأول يوم كنانى فيه رسول الله ﷺ - « أ يضرب وجه عم رسول الله بالسيف ؟ » فقال عمر : يا رسول الله ، ائذن لى فأضرب عنقه ، فوالله لقد نافق . فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك : والله ما آمن من تلك الكلمة التى قلت ، ولا أزال منها خائفا ، إلا أن يكفرها الله عنى بشهادة . فقتل يوم اليمامة شهيدا ، رضى الله عنه (١) .

قال ابن إسحاق : وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس بن عبد المطلب ، وذلك أنه كان رجلا مؤسرا فافتدى نفسه بمائة أوقية ذهباً . وفى صحيح البخارى ، من حديث أنس بن مالك أن رجلا من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا : ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه . قال : « لا ، والله لا تدرّون منه درهما » (٢) .

وقال محمد بن إسحاق : بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ فى فداء أسراهم ، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا ، وقال العباس : يا رسول الله ، قد كنت مسلما ! فقال رسول الله ﷺ : « الله أعلم بإسلامك ، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك ، وأما ظاهره فقد كان علينا ، فافتد نفسك وابنى أخيك : نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وعقيل بن أبى طالب بن عبد المطلب ، وحليفك عتبة بن عمرو أخى بنى الحارث بن فهر » . قال : ما ذاك عندى يا رسول الله ! قال : « فأين المال الذى دفتته أنت وأم الفضل ؟ فقلت لها : إن أصبت فى سفرى هذا ، فهذا المال الذى دفتته لبنى : الفضل ، وعبد الله ، وقثم » . قال : والله يا رسول الله ، إنى لأعلم أنك رسول الله ، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيرى وغير أم الفضل ، فاحسب لى يا رسول الله ما أصبتم منى : عشرين أوقية من مال كان معى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا ، ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك » . ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه ، وأنزل الله ، عز وجل فيه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . قال العباس : فأعطانى الله مكان العشرين الأوقية فى الإسلام عشرين عبدا ، كلهم فى يده مال يضرب به ، مع ما أرجو من مغفرة الله ، عز وجل .

وقال ابن عباس : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى ﴾ : عباس وأصحابه . قال : قالوا للنبي ﷺ : آمنا بما جئت به ، ونشهد أنك رسول الله ، لننصحن لك على قومنا . فأنزل الله :

﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ إيماناً وتصديقاً، يخلف لكم خيراً مما أخذ منكم ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ الشرك الذي كنتم عليه . قال : فكان العباس يقول : ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا، وأن لى الدنيا، لقد قال : ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ فقد أعطاني خيراً مما أخذ منى مائة ضعف، وقال : ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾، وأرجو أن يكون غُفر لى .

وقوله : ﴿وَأَنْ يُرِيدُوا حَيَاتِكَ﴾ أى : فيما أظهروا لك من الأقوال ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أى : من قبل بدر بالكفر به ﴿فَأَمَكَنَّ مِنْهُمْ﴾ أى : بالإسار يوم بدر ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أى : عليهم بما يفعله، حكيم فيه . قال قتادة : نزلت فى عبد الله بن سعد بن أبى سرح الكاتب حين ارتد، ولحق بالمشركين . وقال ابن عباس : نزلت فى عباس وأصحابه ، حين قالوا : لننصحن لك على قومنا . وفسرها السدى على العموم، وهو أشمل وأظهر، والله أعلم .

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَبَالٍ لِيَبْغِيَ الَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

ذكر تعالى أصناف المؤمنين ، وقسمهم إلى مهاجرين، خرجوا من ديارهم وأموالهم، وجاؤوا لنصر الله ورسوله ، وإقامة دينه ، وبذلوا أموالهم وأنفسهم فى ذلك . وإلى أنصار، وهم : المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك، أووا إخوانهم المهاجرين فى منازلهم، وواسوهم فى أموالهم، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم ، فهؤلاء ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أى : كل منهم أحق بالآخر من كل أحد ؛ ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، كل اثنين أخوان ، فكانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث، ثبت ذلك فى صحيح البخارى، عن ابن عباس (١) ، وقاله مجاهد ، وعكرمة ، والحسن، وقتادة، وغيرهم .

وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار فى غير ما آية فى كتابه، فقال : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠] ، وقال : ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمَسْرَةِ﴾ الآية [التوبة: ١١٧] ، وقال تعالى : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصَرُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الآية

[الحشر: ٨ ، ٩]

وأحسن ما قيل في قوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ أى : لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم، فإن ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، لا يختلفون في ذلك.

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ : هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا، بل أقاموا في بواديهم ، فهؤلاء ليس لهم فى المغانم نصيبٌ، ولا فى خُمسها إلا ما حضروا فيه القتال، كما روى الإمام أحمد عن بريدة ابن الحُصيبِ الأَسلمى قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش، أوصاه فى خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ، وقال : « اغزوا باسم الله فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال، فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين، وأن عليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين، ولا يكون لهم فى الفئء والغنيمة نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله ثم قاتلهم». انفراد به مسلم، وعنده زيادات أخر (١).

وقوله: ﴿وَإِنْ اسْتَشْرَكْتُمْ فِي الدِّينِ فَلَعَلَّكُمْ النُّصْرَ لِأَعْلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ : يقول تعالى: وإن استنصروكم هؤلاء الأعراب، الذين لم يهاجروا فى قتال دينى، على عدو لهم فانصروهم، فإنه واجب عليكم نصرهم؛ لأنهم إخوانكم فى الدين، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أى: مهادنة إلى مدة، فلا تخفروا ذمتكم، ولا تنقضوا إيمانكم مع الذين عاهدتم. وهذا مروى عن ابن عباس .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، قطع المروالة بينهم وبين الكفار، كما روى الحاكم عن أسامة ، عن النبى ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين، ولا يرث مسلم كافراً ، ولا كافر مسلماً» ، ثم قرأ : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢). قلت : الحديث فى الصحيحين من رواية أسامة بن زيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم» (٣).

ومعنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أى: إن لم تجانبوا المشركين

(٢) الحاكم (٢/ ٢٤٠).

(١) المسند (٥/ ٣٥٢)، ومسلم (٣/ ١٧٣١).

(٣) البخارى (٦٧٦٤)، ومسلم (١/ ١٦١٤).

وتوالوا المؤمنين، وإلا وقعت الفتنة فى الناس، وهو التباس الأمر، واختلاط المؤمن بالكافر، فيقع بين الناس فساد منتشر طويل عريض.

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين فى الدنيا ، عطف بذكر ما لهم فى الآخرة ، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان ، كما تقدم فى أول السورة ، وأنه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب إن كانت ، وبالرزق الكريم ، وهو الحسن الكثير الطيب الشريف ، دائم مستمر أبدا لا يتقطع ولا ينقضى ، ولا يُسأم ولا يملُّ لحسنه وتنوعه. ثم ذكر أن الاتباع لهم فى الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم فى الآخرة كما قال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ الآية [التوبة: ١٠٠] ، وقال : ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر: ١٠] وفى الحديث المتفق عليه، بل المتواتر من طرق صحيحة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المرء مع من أحب» (١) .

وأما قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أى: فى حكم الله ، وليس المراد بقوله: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ﴾ خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة، الذين لا فرض لهم ولا هم عصبه، بل يُدلون بوارث، كالحالة، والحال، والعمه، وأولاد البنات، وأولاد الأخوات، ونحوهم، كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية، ويعتقد ذلك صريحا فى المسألة، بل الحق أن الآية عامة تشمل جميع القرابات. كما نص ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة وغير واحد: على أنها ناسخة للإرث بالخلف والإخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولا، وعلى هذا فتشمل ذوى الأرحام بالاسم الخاص. ومن لم يورثهم يحتج بأدلة من أقواها حديث: «إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه، فلا وصية لوارث» (٢) ، قالوا: فلو كان ذا حق لكان له فرض فى كتاب الله مسمى، فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثا، والله أعلم.

(١) البخارى (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٤/١٦٥) .

(٢) أبو داود (٢٨٧٠)، والترمذى (٢١٢٠) ، والنسائى (٣٦٤٣) ، وابن ماجه (٢٧١٣)، وصححه الألبانى .

تفسير سورة التوبة

مدنية

﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ رِيعَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَعَلَمُوا أَكْثَرَ غَيْرِ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿٢﴾

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ ، كما روى البخارى عن أبى إسحاق قال: سمعت البراء يقول: آخر آية نزلت: «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ» [النساء: ١٧٦] ، وآخر سورة نزلت براءة (١) .

وإنما لا يسمل فى أولها لأن الصحابة لم يكتبوا بالبسملة فى أولها فى المصحف الإمام ، والافتداء فى ذلك بأمر المؤمنين عثمان بن عفان ، كما روى الترمذى عن ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال ، وهى من المثنى ، وإلى براءة وهى من المئين ، وقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا بينهما سطر «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ، ووضعتموها فى السبع الطول ، ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ مما يأتى عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشئ دعا بعض من كان يكتب ، فيقول: ضعوا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر ما نزل القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وخشيت أنها منها ، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ، ووضعتها فى السبع الطول . رواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٢) .

وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ ، لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج ، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم فى ذلك ، وأنهم يطوفون بالبيت عراة فكره مخالطتهم ، وبعث أبا بكر الصديق ، رضى الله عنه ، أميراً على الحج تلك السنة ، ليقم للناس مناسكهم ، ويعلم المشركين ألا يحجوا بعد عامهم هذا ، وأن ينادى فى الناس «بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» ، فلما قفل أتبعه بعل بن أبى طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ ، لكونه عصبته له .

فقوله: «بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» أى: هذه براءة ، أى: تبرؤ من الله ورسوله «إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ

(١). البخارى (٤٦٥٤) .

(٢) المسند (٣٩٩) ، وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح» ، وأبو داود (٧٨٦) ، والترمذى (١٠٨٦) ، والنسائى فى الكبرى (٨٠٠٧) ، وابن حبان فى الإحسان (٤٤) ، والحاكم (٢/ ٣٣٠) .

مِنَ الْمُشْرِكِينَ فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ﴿٣﴾ . اختلف المفسرون ها هنا اختلافا كثيرا ، فقال قائلون : هذه الآية لذوى العهود المطلقة غير المؤقتة ، أو من له عهد دون أربعة أشهر ، فيكمل له أربعة أشهر ، فاما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته ، مهما كان ؛ لقوله تعالى : ﴿فَاتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مِدَّتِهِمْ﴾ الآية [التوبة : ٤] . ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهدة إلى مدته . وهذا أحسن الأقوال وأقواها ، وقد اختاره ابن جرير ، وروى عن غير واحد . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿بِرَاءةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ . فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر﴾ قال : حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر ، يسيحون فى الأرض حيثما شاؤوا ، وأجل أجل من ليس له عهد ، انسلاخ الأشهر الحرم ، من يوم النحر إلى انسلاخ المحرم ، فذلك خمسون ليلة ، فإذا انسلاخ الأشهر الحرم أمره بأن يضع السيف فيمن لا عهد له . وقال الضحاك بعد قوله : فذلك خمسون ليلة : فأمر الله نبيه إذا انسلاخ المحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد ، يقتلهم حتى يدخلوا فى الإسلام . وأمر من كان له عهد إذا انسلاخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر ، أن يضع فيهم السيف ، حتى يدخلوا فى الإسلام . وقال مجاهد : ﴿بِرَاءةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلى أهل العهد : خزاعة ، ومُدَلَج ، ومن كان له عهد أو غيرهم . أقبل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ ، فأراد رسول الله ﷺ الحج ، ثم قال : «إنما يحضر المشركون فيطوفون عرأة ، فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك» . فأرسل أبا بكر وعلياً ، رضى الله عنهما ، فطافا بالناس فى ذى الحجاز وبأمكناتهم التى كانوا يتبايعون بها بالمواسم كلها ، فأذنوا أصحاب العهد بأن يأمنوا أربعة أشهر ، فهى الأشهر المتواليات : عشرون من ذى الحجة إلى عشر يخلون من ربيع الآخر ، ثم لا عهد لهم ، وأذن الناس كلهم بالقتال إلا أن يؤمنوا . وهكذا روى عن السدى ، وقناة .

﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ إِنَّا بُنِينًا لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

يقول تعالى : وإعلام ﴿من الله ورسوله﴾ وتقدم وإنذار إلى الناس ﴿يوم الحج الأكبر﴾ : وهو يوم النحر الذى هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكثرها جمعا (١) ﴿أن الله بريء من المشركين ورسوله﴾ أى : برىء منهم أيضا .

ثم دعاهم إلى التوبة إليه فقال : ﴿فإن تبتم﴾ أى : بما أنتم فيه من الشرك والضلال ﴿فهو خير لكم وإن توليتم﴾ أى : استمررتم على ما أنتم عليه ﴿فاعلموا أنكم غير معجزى الله﴾ ، بل هو قادر عليكم ، وأنتم فى قبضته ، وتحت قهره ومشيتته ﴿وبشر الذين كفروا بعذاب أليم﴾ أى : فى الدنيا بالخزى والنكال ، وفى الآخرة بالمقامع والأغلال .

روى البخارى عن أبى هريرة قال : بعثنى أبو بكر فى تلك الحجة فى المؤذنين ، بعثهم يوم

(١) فى المطبوعة : « جميعا » ، والمثبت من المخطوطة .

النحر، يُؤذّنون بمنى: ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان . ثم أردف النبي ﷺ بعلی بن أبی طالب، فأمره أن يؤذّن ببراءة. قال أبوهريرة: فأذّن معنا على في أهل منى يوم النحر ببراءة وألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان (١) . ورواه البخارى أيضا عن أبى هريرة قال: بعثنى أبو بكر فيمن يؤذّن يوم النحر بمنى: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ويوم الحج الأكبر يوم النحر، وإنما قيل: «الأكبر»، من أجل قول الناس: «الحج الأصغر»، فنذّ أبو بكر إلى الناس فى ذلك العام، فلم يحج عام حجة الوداع الذى حج فيه رسول الله ﷺ مشرك. وهذا لفظ البخارى فى كتاب «الجهاد» (٢) . وروى أحمد عن محرّر بن أبى هريرة، عن أبيه قال: كنت مع على بن أبى طالب، حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة بـ «براءة»، فقال: ما كنتم تتادون؟ قال: كنا ننادى: ألا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله - أو مدته - إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة الأشهر فإن الله برىء من المشركين ورسوله، ولا يحج هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك. قال: فكنت أنادى حتى صحل صوتى (٣) . وروى الإمام أحمد عن زيد بن يثيع - رجل من همدان: سألتنا عليا: بأى شيء بعثت؟ يعنى: يوم بعثه النبي ﷺ مع أبى بكر فى الحجة، قال: بعثت بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فعهده إلى مدته، ولا يحج المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا . ورواه الترمذى، وقال: حسن صحيح (٤) .

وقال عطاء: يوم الحج الأكبر، يوم عرفة.

والقول الثانى: أنه يوم النحر. عن على قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر. وروى عن ابن عباس، وسعيد بن جبّير، والزهرى، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم أنهم قالوا: يوم الحج الأكبر هو يوم النحر. واختاره ابن جرير. وروى ابن جرير عن عبد الرحمن بن أبى بكرة، عن أبيه قال: لما كان ذلك اليوم، قعد رسول الله ﷺ على بعير له، وأخذ الناس بخطامه - أو: زمامه - فقال: «أى يوم هذا؟» قال: فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، فقال: «أليس هذا يوم الحج الأكبر». وهذا إسناد صحيح، وأصله مخرج فى الصحيح (٥) .

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر، لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت، فأجله

(١) البخارى (٤٦٥٥) .

(٢) البخارى (٣١٧٧) .

(٣) المسند (٧٩٦٤)، وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» .

(٤) المسند (٥٩٤)، وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح»، والترمذى (٣٠٩٢) .

(٥) ابن جرير فى التفسير (٥٢/١٠)، والبخارى (٤٤٠٦)، ومسلم (٢٩/١٦٧٩) .

أربعة أشهر، يسبح في الأرض، يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت، فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها، وذلك بشرط ألا ينقض المعاهد عهده، ولم يظهر على المسلمين أحداً، أى: يمالئ عليهم من سواهم، فهذا الذى يوفى له بذمته وعهده إلى مدته؛ ولهذا حرص تعالى على الوفاء بذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أى: الموفين بعهدهم.

﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضِرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

اختلف المفسرون فى المراد بالأشهر الحرم هاهنا، ما هى؟ فذهب ابن جرير إلى أنها المذكورة فى قوله تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية [التوبة: ٣٦]، قاله أبو جعفر الباقر. لكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم فى حقهم المحرم، وهذا الذى ذهب إليه حكاه على بن أبى طلحة عن ابن عباس، وإليه ذهب الضحاك أيضاً، وفيه نظر، والذى يظهر من حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس فى رواية العوفى عنه، وبه قال مجاهد، وعمرو بن شعيب وغيرهم: أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها فى قوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ٢]، ثم قال: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ﴾ أى: إذا انقضت الأشهر الأربعة التى حرمت عليكم فيها قتالهم، وأجلناهم فيها، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم؛ لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر؛ ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتى بيان حكمها فى آية أخرى بعد فى هذه السورة الكريمة.

وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أى: من الأرض. وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال فى الحرم بقوله: ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]. ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أى: وأسروهم، إن شئتم قتلا، وإن شئتم أسرا ﴿وَأَحْضِرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ أى: لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدهم بالحصار فى معاقلمهم وحصونهم، والرصد فى طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع، وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ولهذا اعتمد الصديق، رضى الله عنه، فى قتال مانعى الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال، وهى الدخول فى الإسلام، والقيام بأداء واجباته. ونبه بأعلاها على أدناها، فإن أشرف الأركان بعد الشهادة الصلاة، التى هى حق الله، عز وجل، وبعدها أداء الزكاة التى هى نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج، وهى أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين؛ ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة، وقد جاء فى الصحيحين، عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله

وأن محمداً رسول الله، وقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة» (١) الحديث. وعبد الله بن مسعود قال: أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن لم يترك فلا صلاة له. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة، وقال: يرحم الله أبا بكر، ما كان أفتقه. وروى الإمام أحمد عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، واستقبلوا قبلتنا، وأكلوا ذبيحتنا، وصلوا صلاتنا، فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم». ورواه البخارى، وأهل السنن إلا ابن ماجه (٢).

وهذه الآية الكريمة هى آية السيف التى قال فيها الضحاك بن مزاحم: إنها نسخت كل عهد بين النبى ﷺ وبين أحد من المشركين، وكل عهد، وكل مدة. وقال ابن عباس فى هذه الآية: لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة، منذ نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم، ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل أربعة أشهر، من يوم أذن براءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر. وقال [أيضاً]: أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا فى الإسلام، ونقض ما كان سمي لهم من العهد والميثاق، وأذهب الشرط الأول.

ثم اختلف المفسرون فى آية السيف هذه، فقال الضحاك والسدى: هى منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَا بَعْدُ وَإِنَّا فِدَاءٌ﴾ [محمد: ٤]، وقال قتادة بالعكس.

﴿وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾

يقول تعالى لنبىه، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أمرتك بقتالهم، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم، ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ أى: استأمنك، فأجبه إلى طلبته ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ أى: القرآن تقرؤه عليه وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم عليه به حجة الله ﴿ثُمَّ ابْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ أى: وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله، وتنتشر دعوة الله فى عباده. وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية: إنسان يأتىك ليسمع ما تقول وما أنزل عليك، فهو آمن حتى يأتىك فتسمعه كلام الله، وحتى يبلغ مأمنه، حيث جاء.

ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطى الأمان لمن جاءه، مسترشداً أو فى رسالة، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم: عروة بن مسعود، ومكرز بن حفص، وسهيل ابن عمرو، وغيرهم واحداً بعد واحد، يترددون فى القضية بينه وبين المشركين، فرأوا من إعظام

(١) البخارى (٢٥)، ومسلم (٣٤/٢١).

(٢) المسند (١٩٩/٣)، والبخارى (٣٩٢)، وأبو داود (٢٦٤١)، والترمذى (٢٦٠٨)، والنسائى (٥٠٠٣).

المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم. ولهذا أيضاً لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له: «أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟» قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ: «لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك» (١).

والغرض : أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة، أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب، فطلب من الإمام أو نائبه أماناً، أعطى أماناً ما دام متردداً في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه. لكن قال العلماء: لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان، عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء، رحمهم الله.

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرفف أين ثقفوا، فقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ أي: أمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يعني يوم الحديبية، كما قال تعالى: ﴿هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ﴾ الآية [الفتح: ٢٥]، ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ أي: مهما تمسكوا بما عاهدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾، وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذى القعدة في سنة ست، إلى أن نقضت قريش العهد ومالؤوا حلفاءهم وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ، فقتلوهم معهم في الحرم أيضاً، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان، ففتح الله عليه البلد الحرام، ومكنه من نواصيهم، والله الحمد والمنة، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم، فسموا الطلقاء، وكانوا قريباً من الفين، ومن استمر على كفره وفر من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر، يذهب حيث شاء: منهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلا الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله.

﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

يقول تعالى محرضاً للمؤمنين على معاداتهم والتبري منهم ، ومبينا أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله وكفرهم برسول الله ﷺ ، ولأنهم لو ظهروا على المسلمين وأدبوا عليهم ، لم يبقوا ولم يذروا ، ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة . قال ابن عباس : «الإل» : القرابة ، و«الذمة» : العهد . وكذا قال الضحاك والسدي . وقال مجاهد : «لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا» : الله . وفى رواية : لا يرقبون الله ولا غيره . والقول الأول أشهر وأظهر ، وعليه الأكثر .

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

يقول تعالى ذمًا للمشركين وحثًا للمؤمنين على قتالهم : ﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ يعنى : أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهبوا به من أمور الدنيا الخسيسة ﴿ فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى : منعوا المؤمنين من اتباع الحق ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ ﴾ تقدم تفسيره ، وكذا الآية التى بعدها : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ إلى آخرها .

﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

يقول تعالى : وإن نكث هؤلاء المشركون الذين عاهدتوهم على مدة معينة أيمانهم ، أى : عهودهم ومواثيقهم ﴿ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ أى : عابوه وانتقصوه . ومن هاهنا أخذ قتل من سب الرسول ﷺ ، أو من طعن فى دين الإسلام أو ذكره بنقص ؛ ولهذا قال : ﴿ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ أى : يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال . وقد قال قتادة وغيره : أئمة الكفر كأبى جهل ، وعتبة ، وشيبة ، وأميه بن خلف ، وعدد رجالا . والصحيح أن الآية عامة ، وإن كان سبب نزولها مشركى قريش فهى عامة لهم ولغيرهم ، والله أعلم .

﴿ أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَئِكَ مَخَشَوْنَهُمْ فَأَلَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَيَّ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾

وهذا أيضا تهيج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم ، الذين هموا بإخراج الرسول من مكة ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْتِوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ

وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿ [الانفال : ٣٠] . وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِنَّا لَهُمْ أَن تُوْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ الآية [المتحنة: ١]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ الآية [الإسراء: ٧٦] .

وقوله: ﴿وَهُمْ يَدُؤُوكُمْ أَوْلَ مَرَّةٍ﴾ : قيل: المراد بذلك يوم بدر ، حين خرجوا لنصر غيرهم ، كما تقدم بسط ذلك . وقيل : المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بنى بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ ، حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح ، وكان ما كان ، والله الحمد والمنة . وقوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّهْ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ : يقول تعالى: لا تخشوهم واخشون، فإنا أهل أن يخشى العباد من سطوتى وعقوبتى، فبيدى الأمر، وما شئت كان، وما لم أشأ لم يكن .

ثم قال تعالى عزيمة على المؤمنين، وبيانا لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده: ﴿فَاتْلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ وهذا عام فى المؤمنين كلهم . وقال مجاهد، وعكرمة، والسدى : معنى: خزاعة . وأعادوا الضمير فى قوله : ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ عليهم أيضا . ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ أى: من عباده ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أى: بما يصلح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ فى أفعاله وأقواله الكونية والشرعية، فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وهو العادل الحاكم الذى لا يجور أبدا، ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر، بل يجازى عليه فى الدنيا والآخرة .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أيها المؤمنون أن نترككم مهملين، لا نختبركم بأمر يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب؟ ولهذا قال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾ أى: بطانة ودخيلة ، بل هم فى الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله، فاكفى بأحد القسمين ، كما قال الشاعر:

وما أدرى إذا يممت أرضاً
أريد الخير أيهما يلينى

وقد قال الله تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ أَلَمْ . أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتَّكِرُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢ ، ٣] ، وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ الآية [آل عمران : ١٤٢] ، وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ الآية [آل عمران : ١٧٩] .

والحاصل أنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد، بين أن له فيه حكمة، وهو اختبار عبيده: من يطيعه ممن يعصيه، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؟ فيعلم الشئ قبل كونه، ومع كونه على ما هو عليه، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، ولا راد لما قدره وأمضاه .

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى: ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمرُوا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له، وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر ، أى: بحالهم وقالهم، كما قال السدّي : لو سألت النصراني: ما دينك؟ لقال: نصراني، واليهودي: ما دينك؟ لقال يهودي، والصابئي، لقال: صابئي، والمشرک، لقال: مشرك. ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أى: بشرکهم، ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلٌ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَفُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال : ٣٤]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد.

وقوله: ﴿ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ﴾ أى: التي هي أكبر عبادات البدن، ﴿ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ أى: التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلاق ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ أى: ولم يخف إلا من الله تعالى، ولم يخش سواه، ﴿ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ قال ابن عباس: أولئك هم المفلحون، كقوله لنبيه ﷺ: ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَخْتِكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩] وهي الشفاعة، وكل «عسى» في القرآن فهي واجبة. وقال ابن إسحاق : و«عسى» من الله حق.

﴿ أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِرُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

عن ابن عباس قال: إن المشركين قالوا: عمارة بيت الله، وقيام على السقاية، خير ممن آمن وجاهد، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماراه، فذكر الله استكبارهم وإعراضهم، فقال لأهل الحرم من المشركين: ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنَلِّىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِبُونَ. مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٦، ٦٧] يعنى: أنهم كانوا يستكبرون بالحرم قال: ﴿ بِهِ سَامِرًا ﴾، كانوا يسمرون به، ويهجرون القرآن والنبى ﷺ، فخير الله الإيمان والجهاد مع النبى ﷺ، على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به، وإن كانوا يعمرون بيته ويحرمون به .

قال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ يعني: الذين زعموا أنهم أهل العمارة ، فسامهم الله «ظالمين» بشركهم ، فلم تغن عنهم العمارة شيئاً. روى مسلم وابن جرير - واللفظ له - عن النعمان بن بشير الأنصاري قال: كنت عند منبر رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فقال رجل منهم: ما أبالي ألا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج. وقال آخر: بل عمارة المسجد الحرام. وقال آخر: بل الجهاد في سبيل الله خير مما قلتكم. فزجرهم عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ - وذلك يوم الجمعة - ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه. قال: ففعل، فانزل الله، عز وجل: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ ءَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْتُمْ هُمْ الظَّالِمُونَ ﴾ (١٤) قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ءَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤﴾

أمر تعالى بمباينة الكفار به ، وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم إن «استحبوا» أى: اختاروا الكفر على الإيمان ، وتوعد على ذلك كقوله تعالى : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢].

ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقربائه وعشيرته على الله وعلى رسوله وجهاد في سبيله، فقال: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ أى: اكتسبتموها وحصلتموها «وتجارة تخشون كسادها ومسكن ترضونها» أى: تحبونها لطيبها وحسنها، أى: إن كانت هذه الأشياء «أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا» أى: فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم، ولهذا قال: ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾. وروى الإمام أحمد عن زهرة بن مَعْبُد، عن جده قال: كنا مع رسول الله ﷺ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال: والله لآنت يارسول الله أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى فقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه». فقال عمر: فآنت الآن والله أحب إلى من نفسى. فقال رسول الله: «الآن ياعمر». انفرد بإخراجه البخارى (٢). وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذى نفسى بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» (٣).

(١) مسلم (١١١/١٨٧٩)، وابن جرير فى التفسير (٦٧/١٠).

(٢) المسند (٣٣٦/٤)، والبخارى (٦٦٣٢).

(٣) البخارى (١٤).

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مَّدْيَنَ ﴾
 ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ
 الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ
 يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾

يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم فى نصره إياهم فى مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله ، وأن ذلك من عنده تعالى ، ويتأيده وتقديره ، لا بعددهم ، ولا بعددهم ، ونبههم على أن النصر من عنده ، سواء قل الجمع أو كثر ، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئا فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ . ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه ، ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده ويأمداده وإن قل الجمع ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين .

وقد كانت وقعة: «حُنين» بعد فتح مكة فى شوال سنة ثمان من الهجرة ، وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة ، وتمهدت أمورها ، وأسلم عامة أهلها ، وأطلقهم رسول الله ﷺ ، فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه ، وأن أميرهم مالك بن عوف النَّضْرِي ، ومعه ثقيف بكما لها ، وبنو جشم وبنو سعد بن بكر ، وأوزاع من بنى هلال ، وهم قليل ، وناس من بنى عمرو بن عامر ، وعوف ابن عامر ، وقد أقبلوا معهم النساء والولدان والشاء والنعم ، وجاؤوا بِقَضْمِهِمْ وَقَضِيضِهِمْ فخرج إليهم رسول الله ﷺ فى جيشه الذى جاء معه للفتح ، وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة ، وهم الطلقاء فى الفين أيضا ، فسار بهم إلى العدو ، فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له «حُنين» ، فكانت فيه الوقعة فى أول النهار فى غلس الصبح ، انحدروا فى الوادى وقد كمنت فيه هوازن ، فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد ثارورهم ، ورشقوا بالنبال ، وأصلتوا السيوف ، وحملوا حملة رجل واحد ، كما أمرهم ملكهم . فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين ، كما قال الله ، عز وجل ، وثبت رسول الله ﷺ ، وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسوقها إلى نحر العدو ، والعباس عمه أخذ بركابها الأيمن ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخذ بركابها الأيسر ، يثقلانها لثلا تسرع السير ، وهو ينوه باسمه ، عليه الصلاة والسلام ، ويدعو المسلمين إلى الرجعة [ويقول]: «أين ياعباد الله؟ إلى أنا رسول الله» ، ويقول فى تلك الحال:

«أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب»

وثبت معه من أصحابه قريب من مائة ، ثم أمر ﷺ عمه العباس - وكان جهير الصوت - أن ينادى بأعلى صوته: يا أصحاب الشجرة - يعنى شجرة بيعة الرضوان ، التى بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها ، على ألا يفروا عنه - فجعل ينادى بهم: يا أصحاب السمرة ،

ويقول تارة: يا أصحاب سورة البقرة ، فاجعلوا يقولون : يالبيك ، يالبيك ، وانعطف الناس فجعلوا يتراجعون إلى رسول الله ﷺ ، حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع ، لبس درعه ، ثم انحدر عنه ، وأرسله ، ورجع بنفسه إلى رسول الله ﷺ . فلما رجعت شردمة منهم ، أمرهم ، عليه السلام ، أن يصدقوا الحملة ، وأخذ قبضة من التراب بعدما دعا ربه واستنصره ، وقال : « اللهم أنجز لى ما وعدتني » ثم رمى القوم بها ، فما بقى إنسان منهم إلا أصابه منها فى عينه وفمه ما شغله عن القتال ، ثم انهزموا ، فاتبع المسلمون أقباءهم يقتلون ويأسرون ، وما تراجع بقية الناس إلا والأسارى مجندلة بين يدى رسول الله ﷺ .

وفى الصحيحين عن البراء بن عازب ، أنه قال له رجل : يا أبا عمارة ، أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين ، فقال : لكن رسول الله ﷺ لم يفر ، إن هوازن كانوا قوماً رماً ، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا ، فأقبل الناس على الغنائم ، فاستقبلونا بالسهم ، فانهزم الناس ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ البيضاء ، وهو يقول :

« أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب » (١)

قلت : وهذا فى غاية ما يكون من الشجاعة النامة ، إنه فى مثل هذا اليوم فى حومة الوغى ، وقد انكشف عنه جيشه ، هو مع ذلك على بغلة وليست سريعة الجرى ، ولا تصلح لكر ولا لفر ولا لهرب ، وهو مع هذا أيضاً يركضها إلى وجوههم وينوء باسمه ليعرفه من لم يعرفه ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ، وما هذا كله إلا ثقة بالله ، وتوكلاً عليه ، وعلماً منه بأنه سينصره ، ويتم ما أرسله به ، ويظهر دينه على سائر الأديان ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أى : طمأنينته وثباته على رسوله ، ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى : الذين معه ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة .

وروى الحافظ أبو بكر البيهقى عن ابن مسعود : كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين ، فولى عنه الناس ، وبقيت معه فى ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار ، قدمنا ولم نولهم الدبر ، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة . قال : ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضى قدماً ، فحادت بغلته ، فمال عن السرج ، فقلت : ارتفع رفعك الله . قال : «ناولنى كفاً من التراب» . فناولته ، قال : فضرب به وجوههم ، فامتلت أعينهم تراباً ، قال : «أين المهاجرون والأنصار ؟ » قلت : هم هناك . قال : « اهتف بهم » . فهتفت ، فجاؤوا وسيوفهم بأيانهم ، كأنها الشهب ، وولى المشركون أديبارهم . ورواه الإمام أحمد نحوه (٢) .

قال جبير بن مطعم : إنا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين ، والناس يقتتلون ، إذ نظرت إلى

(١) البخارى (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦/٧٨) .

(٢) البيهقى فى دلائل النبوة (١٤٢/٥)، وهو فى المسند (٤٣٣٦)، وقال الشيخ أحمد شاکر : «إسناده صحيح» .

مثل البجاد الأسود يهوى من السماء، حتى وقع بيننا وبين القوم، فإذا غل منشور قد ملاً الوادى، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فما كنا نشك أنها الملائكة. وقال سعيد بن السائب بن يسار، عن أبيه قال: سمعت يزيد بن عامر السؤائي - وكان شهد حيننا مع المشركين ثم أسلم بعد - فكنا نسأله عن الرعب الذىلقى الله فى قلوب المشركين يوم حنين، فكان يأخذ الحصاة فيرمى بها فى الطست فيطن، فيقول: كنا نجد فى أجوافنا مثل هذا. وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نصرت بالرعب، وأوتيت جوامع الكلم» (١).

ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ (٢) اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَكَرَ جَزَاءَ الْكَافِرِينَ﴾.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: قد تاب الله على بقية هوازن، وأسلموا وقدموا عليه مسلمين، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة، وذلك بعد الواقعة بقریب من عشرين يوماً، فعند ذلك خيّرهم بين سبيهم وبين الأموال، فاخترأوا سبيهم، وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة، فرده عليهم، وقسم أموالهم بين الغائمين، ونفل أناساً من الطلقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام، فأعطاهم مائة مائة من الإبل، وكان من جملة من أعطى مائة مالك بن عوف النضرى، واستعمله على قومه كما كان، فامتدحه بقصيدته التى يقول فيها:

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ
فِي النَّاسِ كُلُّهُمْ بِمِثْلِ مُحَمَّدٍ

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٨) ﴿قِنَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٢٩)

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنفى المشركين، الذين هم نجس ديناً، عن المسجد الحرام، وألا يقربوه بعد نزول هذه الآية. وكان نزولها فى سنة تسع؛ ولهذا بعث رسول الله ﷺ علياً صحبة أبى بكر، رضى الله عنهما، عامئذ، وأمره أن ينادى فى المشركين: «ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان» (٣). فأتى الله ذلك، وحكم به شرعاً وقدرأ. وقال الإمام الأوزاعى: كتب عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه: أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين، وأتبع نهيه قول الله: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾. وقال عطاء: الحرم كله مسجد، لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾.

(٢) فى المخطوطة: «فأنزل»، وهو خطأ واضح.

(١) مسلم (٥٢٣).

(٣) البخارى (١٦٢٢)، ومسلم (٤٣٥/١٣٤٧).

ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما ورد في الصحيح: «المؤمن لا ينجس» (١).
وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات؛ لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم.

وقوله: ﴿وَأَنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾: قال ابن إسحاق: وذلك أن الناس قالوا: لتنقطعنَّ عنا الأسواق، ولتهلكن التجارة، وليذهبن ما كنا نصيب فيها من المرافق، فأنزل الله: ﴿وَأَنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من وجه غير ذلك ﴿إِنْ شَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أى: هذا عوض ما تخوفتم من قطع تلك الأسواق، فعوضهم الله بما قطع عنهم من أمر الشرك، ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب، من الجزية. وهكذا روى عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة والضحاك، وغيرهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ أى: بما يصلحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ أى: فيما يأمر به وينهى عنه؛ لأنه الكامل فى أفعاله وأقواله، العادل فى خلقه وأمره، تبارك وتعالى؛ ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التى يأخذونها من أهل الذمة، فقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، فهم فى نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل، ولا بما جاؤوا به، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه، لا لأنه شرع الله ودينه؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيمانا صحيحا لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ، لأن جميع الأنبياء بشروا به، وأمروا باتباعه، فلما جاء وكفروا به، وهو أشرف الرسل، علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله، بل لحظوظهم وأهوائهم، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء، وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخالقهم وأكملهم؛ ولهذا قال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ .

وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب، بعد ما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس فى دين الله أفواجا، واستقامت جزيرة العرب، أمر الله رسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى، وكان ذلك فى سنة تسع؛ ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك، وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، فأوعبوا معه، واجتمع من المقاتلة نحواً من ثلاثين ألفاً، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم، وكان ذلك فى عام جدب، ووقت قيظ وحر، وخرج، عليه السلام، يريد الشام لقتال الروم، فبلغ تبوك، فنزل بها وأقام على مائها قريباً من عشرين يوماً، ثم استخار الله فى الرجوع، فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس، كما سيأتى بيانه بعد إن شاء الله.

وقد استدللَّ بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب، أو من

أشبههم كالمجوس، لما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر . وهذا مذهب الشافعي، وأحمد - في المشهور عنه - وقال أبو حنيفة : بل تؤخذ من جميع الأعاجم ، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ، ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب . وقال الإمام مالك : بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي، ومجوسى، ووثنى، وغير ذلك، ولما أخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا، والله أعلم .

وقوله : « حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ » أى : إن لم يسلموا « عَنْ يَدٍ » أى : عن قهر لهم وغلبة « وَهُمْ صَاغِرُونَ » أى : ذليلون حقيرون مهانون . فلهذا لا يجوز إغزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين، بل هم أذلاء صَغْرَةٌ أشقياء ، كما جاء فى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة ، أن النبى ﷺ قال : « لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام ، وإذا لقيتم أحدهم فى طريق فاضطروه إلى أضيقه » (١) . ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب تلك الشروط المعروفة فى إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم، وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ، من رواية عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال : كتبت لعمر بن الخطاب حين صالح نصارى من أهل الشام :

« بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرائعنا ، وأموالنا وأهل ملتنا ، وشرطنا لكم على أنفسنا ألا نحدث فى مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة، ولا قلاية ولا صومعة راهب، ولا نجد ما خرب منها ، ولا نحى منها ما كان خططاً للمسلمين، وألا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين فى ليل ولا نهار، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل، وأن ننزل من رأينا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم، ولا نؤوى فى كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً، ولا نكتم غشاً للمسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شركاً، ولا ندعو إليه أحداً؛ ولا نمنع أحداً من ذوى قرابتنا الدخول فى الإسلام إن أرادوه، وأن نوقر المسلمين، وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس، ولا نشبه بهم فى شىء من ملابسهم، فى قلنسوة، ولا عمامة، ولا نعلين، ولا فرق شعر، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نكتنى بكنائهم، ولا نركب السروج، ولا نتقلد السيوف، ولا نتخذ شيئاً من السلاح، ولا نحمله معنا، ولا نقش خواتمنا بالعربية، ولا نبيع الخمر، وأن نجزم مقادير رؤوسنا، وأن نلزم زيننا حيثما كنا، وأن نشد الزنانيير على أوساطنا، وألا نظهر الصليب على كنائسنا، وألا نظهر صلبنا ولا كتبنا فى شىء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نضرب نواقيسنا فى كنائسنا إلا ضرباً خفياً، وألا نرفع أصواتنا بالقراءة فى كنائسنا فى شىء من حضرة المسلمين، ولا نخرج شعانين ولا بعوتاً، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر التيران معهم فى شىء من طرق المسلمين ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا، ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، وأن نرشد المسلمين، ولا نطلع عليهم فى منازلهم » . قال : فلما أتيت عمر بالكتاب ، زاد فيه : « ولا نضرب أحداً من المسلمين، شرطنا

لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا ، وقبلنا عليه الأمان ، فإن نحن خالفنا فى شىء مما شرطناه لكم ووظفنا على أنفسنا ، فلا ذمة لنا ، وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَسَلْنَا لَهُمُ اللَّهُ آتَى يُوَفِّكَونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقاتلتهم هذه المقالة الشنيعة ، والفرية على الله تعالى ، فاما اليهود فقالوا فى العزير : « إنه ابن الله » ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . واما ضلال النصارى فى المسيح فظاهر ؛ ولهذا كذب الله سبحانه الطائفتين فقال : « ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ أى : لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افتراءهم واختلاقهم « يُضَاهِيهِمْ ﴾ أى : يشابهون « قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : من قبلهم من الأمم ، ضلوا كما ضل هؤلاء « قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ قال ابن عباس : لعنهم الله « أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ ؟ أى : كيف يضلون عن الحق ، وهو ظاهر ، ويعدلون إلى الباطل ؟

وقوله : « اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ : روى الإمام أحمد ، والترمذى ، عن عدى بن حاتم ، أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ قرأ إلى الشام ، وكان قد تنصر فى الجاهلية ، فأسرت أخته وجماعة من قومه ، ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأعطاهما ، فرجعت إلى أخيها ، فرغبتة فى الإسلام وفى القدوم على رسول الله ﷺ ، فتقدم عدى إلى المدينة ، وكان رئيسا فى قومه طيئ ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم ، فتحدثت الناس بقدمه ، فدخل على رسول الله ﷺ وفى عنق عدى صليب من فضة ، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : « اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ . قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم . فقال : « بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم » . وقال رسول الله ﷺ : « يا عدى ، ما تقول ؟ أيفرك أن يقال : الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئا أكبر من الله ؟ ما يفرك ؟ أيفرك أن يقال : لا إله إلا الله ؟ فهل تعلم من إله إلا الله ؟ » ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم ، وشهد شهادة الحق ، قال : فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال : « إن اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون » (١) . وهكذا قال حذيفة بن اليمان ، وعبد الله بن عباس ، وغيرهما فى تفسير : « اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ : إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا .

(١) المسند (٤/٣٧٨) ، والترمذى (٣٠٩٥) ، وقال : « غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب ، وغطف بن أعين ليس بمعروف فى الحديث » ، وصححه الألبانى . و « يفرك » أى : يحمل على الفرار .

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أى: الذى إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما حلله حل، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى: تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى : يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ ﴾ أى : ما بعث به رسوله ﷺ من الهدى ودين الحق، بمجرد جدالهم وافتراءهم، فمثلهم فى ذلك كمثل من يريد أن يطفى شعاع الشمس، أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل الله به رسول الله ﷺ لا بد أن يتم ويظهر؛ ولهذا قال تعالى مقابلا لهم فيما راموه وأرادوه: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ . والكافر: هو الذى يستر الشيء ويغطيه، ومنه سمي الليل « كافرا » ؛ لأنه يستر الأشياء .

ثم قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ : فالهدى هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة ، والإيمان الصحيح ، والعلم النافع ودين الحق : هى الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة فى الدنيا والآخرة ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أى: على سائر الأديان، كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « إن الله زوى لى الأرض مشارقتها ومغاربها ، وسيلبغ ملك أمتى ما زوى لى منها » (١) . وروى الإمام أحمد عن تميم الدارى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ليلبغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر » ، فكان تميم الدارى يقول: قد عرفت ذلك فى أهل بيتى، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كان منهم كافرا الذل والصغار والجزية (٢) . وروى مسلم عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا يذهب الليل والنهار حتى تُعَبِّدَ اللاتُ والعزى ». فقلت: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله، عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ أن ذلك تام، قال: «إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، عز وجل، ثم يبعث الله ريحا طيبة ، [فيتوفى كل من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان] ، فيبقى من لا خير فيه، فيرجعون إلى دين آبائهم » (٣) .

(١) مسلم (١٩/٢٨٨٩) .

(٢) المسند (١٠٣/٤) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (١٤/٦) : « رجال أحمد رجال الصحيح » .

(٣) مسلم (٥٢/٢٩٠٧) ، وما بين المعقوفين ساقط من المخطوطة الأهرية ، والمثبت من المطبوعة وصحيح مسلم .

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيُصَدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتَرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَفَرْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قال السدي: الأخبار من اليهود، والرهبان من النصارى. وهو كما قال، فإن الأخبار هم علماء اليهود، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَتَّهَمُ الرِّبَايُونَ وَالْأَخْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِنَّمُ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ﴾ [المائدة: ٦٣]، والرهبان: عباد النصارى، والقسيسون: علماؤهم، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَن مِّنْهُمْ قِيسِيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]. والمقصود: التحذير من علماء السوء وعباد الضلال، كما قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى. وفي الحديث الصحيح: «لتركب سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة». قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟». وفي روايه: فارس والروم؟ قال: «ومن الناس إلا هؤلاء؟» (١).

والحاصل: التحذير من التشبه بهم في أحوالهم وأقوالهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس، يأكلون أموالهم بذلك، كما كان لأخبار اليهود على أهل الجاهلية شرف، ولهم عندهم خراج وهدايا وضرائب تحبى إليهم، فلما بعث الله رسول ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم، طمعا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات، فأطفاها الله بنور النبوة، وسلبهم إياها، وعوضهم بالذلة والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله.

وقوله تعالى: ﴿وَيُصَدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى: وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق، ويلبسون الحق بالباطل، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير، وليسوا كما يزعمون، بل هم دعاة إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتَرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس، فإن الناس عالة على العلماء، وعلى العباد، وعلى أرباب الأموال، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس، كما قال بعضهم: وهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمَلُوكُ وَأَحْبَارُ سُوءِ رُهْبَانِيهَا؟

وأما الكنز: فقال ابن عمر: هو المال الذى لا تؤدى منه الزكاة. وقال أيضاً: ما أدى زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما كان ظاهرا لا تؤدى زكاته فهو كنز.

وروى البخارى عن خالد بن أسلم قال : خرجنا مع عبد الله بن عمر ، فقال : هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما نزلت جعلها الله طهراً للأموال (١) . وكذا قال عمر بن عبد العزيز ، وعراك ابن مالك : نسخها قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣] . وروى الإمام أحمد عن ثوبان قال : لما نزل فى الفضة والذهب ما نزل قالوا : فأى المال نتخذ؟ قال [عمر : أنا أعلم ذلك لكم فأوضح على بغير فأدركه ، وأنا فى أثره ، فقال : يا رسول الله ، أى المال نتخذ؟ قال] : « ليتخذ أحدكم قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وزوجة تعين أحدكم فى أمر الآخرة » . ورواه الترمذى ، وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذَوْقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتَبُونَ ﴾ أى : يقال لهم هذا الكلام تبيكتنا وتقربنا وتهكما ، كما فى قوله : ﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان : ٤٨ ، ٤٩] أى : هذا بذاك ، وهو الذى كنتم تكتنون لأنفسكم ؛ ولهذا يقال : من أحب شيئا وقدمه على طاعة الله ، عذب به . وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال أثر عندهم من رضا الله عنهم ، عذبوا بها ، كما كان أبو لهب ، لعنه الله ، جاهداً فى عداوة رسول الله ﷺ ، وامرأته تعينه فى ذلك ، كانت يوم القيامة عوناً على عذابه أيضا ﴿ فِي جِيدِهَا ﴾ أى : عنقها ﴿ حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ [المسد : ٥] أى : تجمع من الحطب فى النار وتلقى عليه ، ليكون ذلك أبلغ فى عذابه ممن هو أشفق عليه فى الدنيا ، كما أن هذه الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها ، كانت أضمر الأشياء عليهم فى الدار الآخرة ، فيحمرى عليها فى نار جهنم ، وناهيك بحرهما ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . قال عبد الله بن مسعود : والله الذى لا إله غيره ، لا يكوى عبد بكنز ، فيمس ديناراً ، ولا درهم درهما ، ولكن يوسع جلده ، فيوضع كل دينار ودرهم على حدته .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ما من رجل لا يؤدى زكاة ماله إلا جعل يوم القيامة صفائح من نار يكوى بها جنبه وجبهته وظهره ، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين الناس ، ثم يُرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار » وذكر تمام الحديث (٣) . وروى البخارى عن أبى ذر قال : كنا بالشام ، فقرأت : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فقال معاوية : ما هذه فينا ، ما هذه إلا فى أهل الكتاب . قال : قلت : إنها لفينا وفيهم (٤) .

قلت : كان من مذهب أبى ذر تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال ، وكان يفتى بذلك ، ويحثهم عليه ، ويأمرهم به ، ويغلظ فى خلافه . فنهاه معاوية فلم يته ، فخشى أن يضر بالناس

(١) البخارى (١٤٠٤) .

(٢) المسند (٢٨٢/٥) ، والترمذى (٣٠٩٤) ، وقال : « حسن » ، وابن ماجه (١٨٥٦) .

(٣) مسلم (٢٦/٩٨٧) .

(٤) البخارى (٤٦٦٠) .

فى هذا، فكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان، وأن يأخذه إليه، فاستقدمه عثمان إلى المدينة، وأنزله بالربذة وحده، وبها مات فى خلافة عثمان. وقد اختبره معاوية، وهو عنده، هل يوافق عمله قوله؟ فبعث إليه بألف دينار، ففرقها من يومه، ثم بعث إليه الذى أتاه بها فقال: إن معاوية إنما بعثنى إلى غيرك فأخطأت، فهات الذهب! فقال: ويحك! إنها خرجت، ولكن إذا جاء مالى حاسبناك به.

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأبى ذر: « ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهباً يمر عليه ثلاثة وعندى منه شيء، إلا دينار أرصده لدين » (١). فهذا - والله أعلم - هو الذى حدا أبا ذر على القول بهذا.

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

روى الإمام أحمد عن أبى بكر، أن النبى ﷺ خطب فى حجته، فقال: « ألا إن الزمان قد استدار كهيته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان ». الحديث. ورواه البخارى ومسلم (٢). وقال ابن عباس فى قوله: « مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ » قال: محرم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجة.

وقوله ﷺ فى الحديث: « إن الزمان قد استدار كهيته يوم خلق الله السموات والأرض » تقرير منه ﷺ وتثبيت للأمر على ما جعله الله تعالى فى أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص، ولا نسيء ولا تبديل.

فصل: ذكر الشيخ علم الدين السخاوى فى جزء جمعه سماه « المشهور فى أسماء الأيام والشهور »: أن المحرم سُمى بذلك لكونه شهراً محرماً، وعندى أنه سُمى بذلك تأكيداً لتحريمه؛ لأن العرب كانت تتقلب به، فتحله عاماً وتحرمه عاماً.

صفر: سُمى بذلك لخلو بيوتهم منه، حين يخرجون للقتال والأسفار، يقال: « صَفَرَ المكان »: إذا خلا.

شهر ربيع أول: سُمى بذلك لارتباعتهم فيه. والارتباع الإقامة فى عمارة الربيع.
ربيع الآخر: كالأول.
جمادى: سُمى بذلك لجمود الماء فيه.

(١) البخارى (٦٤٤٤).

(٢) المسند (٣٧/٥)، والبخارى (٤٦٦٢)، ومسلم (٢٩/١٦٧٩).

رجب: من الترجيب، وهو التعظيم .

شعبان: من تشعب القبائل وتفرقتها للغارة .

رمضان: من شدة الرمضاء ، وهو الحر، يقال: « رمضت الفصال » : إذا عطشت ، وقول من قال: « إنه اسم من أسماء الله »؛ خطأ لا يعرج عليه، ولا يلتفت إليه .

شوال: من شالت الإبل بأذنانها للطراق .

القعدة: بفتح القاف - قلت: وكسرهما - لعودهم فيه عن القتال والترحال .

الحجة: بكسر الحاء - قلت: وفتحها - سمي بذلك لإيقاعهم الحج فيه .

وقوله تعالى: ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ﴾ : فهذا مما كانت العرب أيضا في الجاهلية تحرمه ، وهو الذى كان عليه جمهورهم، إلا طائفة منهم يقال لهم: « البسل »، كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر، تعمقا وتشديداً .

وأما قوله: « ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان »، فإنما أضافه إلى مضر، لبيان صحة قولهم فى رجب أنه الشهر الذى بين جمادى وشعبان ، لا كما كانت تظنه ربعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذى بين شعبان وشوال، وهو رمضان اليوم، فبين ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربعة. وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة، ثلاثة سرّد وواحد فرد؛ لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحرم قبل شهر الحج شهر، وهو ذو القعدة؛ لأنهم يقعدون فيه عن القتال، وحرم شهر ذى الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون فيه بأداء المناسك، وحرم بعده شهر آخر، وهو المحرم؛ ليرجعوا فيه إلى نائى أقصى بلادهم آمين، وحرم رجب فى وسط الحول، لأجل زيارة البيت والاعتما به، لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب، فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمنا .

وقوله: ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أى: هذا هو الشرع المستقيم، من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم ، والحذو بها على ما سبق فى كتاب الله الأول ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى : فى هذه الأشهر المحرمة؛ لأنه أكد وأبلغ فى الإثم من غيرها، كما أن المعاصى فى البلد الحرام تضاعف ، لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج : ٢٥] ، وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام؛ ولهذا تغلظ فيه الدية فى مذهب الشافعى، وطائفة كثيرة من العلماء، وكذا فى حق من قتل فى الحرم أو قتل ذا محرم. وقال ابن عباس : قوله : ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ : فى كلهن، ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حراما، وعظم حرّماتهن، وجعل الذنب فيهن أعظم، والعمل الصالح والأجر أعظم. وقال قتادة إن الظلم فى الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزرا، من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيما، ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء. قال: إن الله اصطفى صفّايا من خلقه، اصطفى من

الملائكة رسلا ، ومن الناس رسلا ، واصطفى من الكلام ذكره ، واصطفى من الأرض المساجد ، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم ، واصطفى من الأيام يوم الجمعة ، واصطفى من الليالى ليلة القدر ، فَعَظَّمُوا ما عَظَمَ اللهُ ، فإنما تُعَظَّمُ الأمور بما عَظَمَ اللهُ به عند أهل الفهم وأهل العقل . وقال ابن إسحاق : ﴿ فَلَا تَظَلِمُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى : لا تجعلوا حرامها حلالا ولا حلالها حراما ، كما فعل أهل الشرك ، فإنما النسئ الذى كانوا يصنعون من ذلك ، زيادة فى الكفر ﴿ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية [التوبة : ٣٧] . وهذا القول اختيار ابن جرير .

وقوله : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ أى : جميعكم ﴿ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ أى : جميعهم ، ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ . وقد اختلف العلماء فى تحريم ابتداء القتال فى الشهر الحرام : هل هو منسوخ أو محكم ؟ على قولين : أحدهما - وهو الأشهر - أنه منسوخ .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ فيحتمل أنه منقطع عما قبله ، وأنه حكم مستأنف ، ويكون من باب التهيج والتحضيض ، أى : كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أنتم أيضا لهم إذا حاربتوهم ، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون ، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين فى الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم ، كما قال تعالى : ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ﴾ [البقرة : ١٩٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾ الآية [البقرة : ١٩١] .

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سَوْءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم فى شرع الله بآرائهم الفاسدة ، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة ، وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله ، فإنهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة فى التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم ، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم فأخروه إلى صفر ، فيحلون الشهر الحرام ، ويحرمون الشهر الحلال ، ليواطئوا عدة ما حرم الله الأشهر الأربعة . قال ابن عباس فى قوله : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ : النسئ أن جنادة بن عوف بن أمية الكنانى ، كان يوافق الموسم فى كل عام ، وكان يكنى «أبا ثمامة» ، فينادى : ألا إن أبا ثمامة لا يُحَاب ولا يُعَاب ، ألا وإن صفر العام الأول حلال . فيحله للناس ، فيحرم صفرًا عامًا ، ويحرم المحرم عامًا ، فذلك قول الله : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ ، يقول : يتركون المحرم عامًا ، وعاما يحرمونه . وقال مجاهد ، كان رجل من بنى كنانة يأتى كل عام إلى الموسم على حمار له ، فيقول : يا أيها الناس ، إنى لا أعاب ولا أحاب ، ولا مرَدٌ لما أقول ، إنا قد حرّمنا المحرم ، وأخرنا صفر . ثم يجىء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته ، ويقول : إنا قد حرّمنا صفر ، وأخرنا

المحرم» فهو قوله: ﴿لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قال: يعنى الأربعة ﴿فِيُحِلُّوْا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ لتأخير هذا الشهر الحرام. فإنهم لما كانوا يحلون شهر المحرم عاما يحرمون عوضه صفر، وبعده ربيع وربيع إلى آخر السنة بحالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها ثم فى العام القابل يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه ، وبعده صفر ، وربيع وربيع إلى آخرها فيحلونه عاما ويحرمونه عاما ؛ ليؤطوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله، أى: فى تحريم أربعة أشهر من السنة، إلا أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية وهو المحرم، وتارة ينسئون إلى صفر، أى: يؤخرونه. وقد قدمنا الكلام على قوله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر»، أى: أن الأمر فى عدة الشهور وتحريم ما هو محرم منها، على ما سبق فى كتاب الله من العدد والتوالى، لا كما يعتمده جهلة العرب، من فصلهم تحريم بعضها بالنسبة عن بعض، والله أعلم.

وقال ابن إسحاق : كان أول من نساَ الشهور على العرب، فأحل منها ما حرم الله، وحرم منها ما أحل الله، عز وجل، «القلَمَس» وهو حذيفة بن عبد فُقَيْم ، ثم قام بعده على ذلك ابنه عبَّاد ، ثم من بعد عبَّاد ابنه قَلْع بن عبَّاد، ثم ابنه أمية بن قلع، ثم ابنه عوف بن أمية، ثم ابنه أبو ثمامة جُنَّاد بن عوف، وكان آخرهم، وعليه قام الإسلام. فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه، فقام فيهم خطيباً، فحرم رجباً، وذو القعدة، وذو الحجة، ويحل المحرم عاما، ويجعل مكانه صفر، ويحرمه عاما ليؤاطى عدة ما حرم الله، فيحل ما حرم الله، يعنى: ويحرم ما أحل الله ، والله أعلم .

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿١٨﴾ إِلَّا أَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

هذا شروع فى عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، حين طابت شمار والظلال فى شدة الحر وحمارة القيظ، فقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى: إذا دعيتم إلى الجهاد فى سبيل الله ﴿اتَّقِلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أى: تكاسلتم وملتم إلى المقام فى الدعة والخفض وطيب شمار ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ ؟ أى: ما لكم فعلتم هكذا أرضاً منكم بالدنيا بدلا من الآخرة ؟

ثم زهد تبارك وتعالى فى الدنيا، ورغب فى الآخرة، فقال: ﴿فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ، كما روى الإمام أحمد عن المستورد أخى بنى فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليم، فلينظر بم ترجع». وأشار بالسبابة. انفرد

بإخراجه مسلم (١) . وروى ابن أبي حاتم عن أبي عثمان قال: قلت: يا أبا هريرة، سمعت من إخواني بالبصرة أنك تقول: سمعت نبي الله يقول: « إن الله يجزي بالحسنة ألف حسنة » قال أبو هريرة: بل سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله يجزي بالحسنة ألف حسنة »، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٢) ، فالدنيا ما مضى منها وما بقى منها عند الله قليل . ولما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة قال: اتونى بكفى الذى أكفن فيه، أنظر إليه . فلما وضع بين يديه نظرت إليه فقال: أما لى من كبير ما أخلف من الدنيا إلا هذا ؟ ثم ولى ظهره فبكى وهو يقول : أف لك من دار . إن كان كثير لكليل ، وإن كان قليلك لقصير ، وإن كنا منك لفى غرور .

ثم توعد تعالى على ترك الجهاد فقال : ﴿الْأَتَقِفُوا يَعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب، فتأقلوا عنه، فأمسك الله عنهم القَطْرَ فكان عذابهم ﴿وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أى: لنصرة نبيه وإقامة دينه، كما قال تعالى: ﴿وَأَن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالِكُمْ﴾ [محمد: ٣٨] . ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ أى: ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد، وتكولكم وتأقلكم عنه ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى: قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم .

﴿إِنَّا نُنصِرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَنصُرُكَ اللَّهُ مَعَنَا فَاَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيْدِيَهُمْ يُجْنُوذُ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

يقول تعالى: ﴿الْأَتَضَرُّوهُ﴾ أى: تنصروا رسوله، فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه، كما تولى نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا﴾ أى: عام الهجرة لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه، فخرج منهم هارباً صحبة صديقه وصاحبه أبى بكر بن أبى قحافة، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا فى آثارهم، ثم سيروا نحو المدينة، فجعل أبو بكر يجزع أن يطلع عليهم ، فيخلص إلى الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، منهم أذى ، فجعل النبي ﷺ يسكنه ويثبتته ويقول: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما»، كما روى الإمام أحمد عن أبى بكر قال : قلت للنبي ﷺ ، ونحن فى الغار : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه . قال : فقال : «يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما » أخرجاه فى الصحيحين (٣) .

(١) المسند (٤/٢٢٨) ، ومسلم (٥٥/٢٨٥٨) .

(٢) مضى تخريجه عند الآية (٢٤٣) من سورة البقرة .

(٣) المسند (١١) ، والبخارى (٣٦٥٣) ، ومسلم (١/٢٣٨١) .

ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أى: تأييده ونصره عليه، أى: على الرسول فى أشهر القولين: وقيل: على أبى بكر، وروى عن ابن عباس وغيره، قالوا: لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينته، وهذا لا ينافى تجدد سكينته خاصة بتلك الحال؛ ولهذا قال: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ أى: الملائكة ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾. قال ابن عباس: يعنى ﴿كَلِمَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: الشرك، و﴿كَلِمَةُ اللَّهِ﴾ هى: لا إله إلا الله. وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعري، قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أى ذلك فى سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله» (١). وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أى: فى انتقامه وانتصاره، منيع الجناب، لا يُضام من لاذ ببابه، واحتمى بالتمسك بخطابه ﴿حَكِيمٌ﴾ فى أقواله وأفعاله.

﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

أمر الله تعالى بالنفير العام مع الرسول ﷺ عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحتم على المؤمنين فى الخروج معه على كل حال فى المنشط والمكروه والعسر واليسر، فقال: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾. وقال أبو طلحة: كهولا وشبابا، ما سمع الله عذر أحد، ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قُتل. وفى رواية: قرأ أبو طلحة سورة براءة، فأتى على هذه الآية: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقال: أرى ربنا يستنفرنا شيوخاً وشباباً، جهزوني يا بنى. فقال بنوه: يرحمك الله، قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات، ومع أبى بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك. فأبى، فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنه فيها إلا بعد تسعة أيام، فلم يتغير، فدفنوه بها. وهكذا روى عن ابن عباس وعكرمة والحسن البصرى وغير واحد أنهم قالوا فى تفسير هذه الآية: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾: كهولا وشبابا. وكذا قال عكرمة والضحاك، ومقاتل ابن حيان، وغير واحد. وقال مجاهد: شبابا وشيوخا، وأغنياء ومساكين. وقال الحكم بن عتيبة: مشاغيل وغير مشاغيل. وقال الحسن البصرى أيضاً: فى العسر واليسر. وهذا كله من مقتضيات العموم فى الآية، وهذا اختيار ابن جرير.

وقال الإمام الأوزاعى: إذا كان النفير إلى دُروب الروم نفرَ الناس إليها خفافا وركباناً، وإذا كان النفير إلى هذه السواحل نفرُوا إليها خفافا وثقالاً، وركباناً ومشاة. وهذا تفصيل فى المسألة. وقال السدى قوله: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يقول: غنيا وفقيرا، وقويا وضعيفاً، فجاءه رجل يومئذ، زعموا أنه المقداد، وكان عظيماً سمياً، فشكا إليه وسأله أن يأذن له، فأبى فنزلت يومئذ: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس، فنسخها الله، فقال:

(١) البخارى (٢٨١٠)، ومسلم (١٩٠٤/١٥٠).

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة: ٩١] . وقال أبو راشد الحبراني : وافيت المقداد ابن الأسود فارس رسول الله ﷺ جالسا على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص، وقد فضل عنها من عظمه، يريد الغزو، فقلت له: قد أعذر الله إليك ، فقال: أتت علينا سورة « البعوث » : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ .

ثم رغب تعالى في النفقة في سبيله ، وبذل المهج في مرضاته ومرضاة رسوله ، فقال : ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: هذا خير لكم في الدنيا والآخرة، ولأنكم تغرمون في النفقة قليلا، فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا، مع ما يدخر لكم من الكرامة في الآخرة، كما قال النبي ﷺ : « وَتَكْفُلُ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ إِنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يَدْخُلَهُ الْجَنَّةَ ، أَوْ يَرِدَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ » (١) . ولهذا قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّفْهَاءُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

يقول تعالى موبخاً للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك، وقعدوا بعد ما استأذنوه في ذلك، مظهرين أنهم ذوو أعدار، ولم يكونوا كذلك، فقال: ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا ﴾ قال ابن عباس: غنيمة قريبة ﴿ وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴾ أي: قريباً أيضاً ﴿ لَاتَّبَعُوكَ ﴾ أي: لكانوا جاؤوا معك لذلك ﴿ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّفْهَاءُ ﴾ أي: المسافة إلى الشام ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴾ أي: لكم إذا رجعت إليهم ﴿ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ أي: لو لم يكن لنا أعدار لخرجنا معكم، قال الله تعالى: ﴿ يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ﴿ ٤٢ ﴾ لَا يَسْتَعِذُّنَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿ ٤٤ ﴾ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّنَكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَرْتَابٌ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿ ٤٥ ﴾

عن عون قال: هل سمعتم بمعاتبه أحسن من هذا؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبه فقال: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ ﴾ . وقال قتادة: عاتبه كما تسمعون، ثم أنزل التي في سورة النور، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء: ﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ [النور : ٦٢] . وقال

مجاهد : نزلت هذه الآية في أناس قالوا : استأذنوا رسول الله ، فلإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا . ولهذا قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْغَيْبُ مِنَ الْغَيْبِ ﴾ . في إبداء الأعذار ﴿ وَتَعَلَّمِ الْكَافِرِينَ ﴾ يقول تعالى : هلا تركتهم لما استأذنتكم ، فلم تأذن لأحد منهم في القعود ، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب ، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه . ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله ، فقال : ﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ ﴾ أى : فى القعود عن الغزو ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ لأنهم يرون الجهاد قربة ، ولما نديهم إليه بادروا وامتلوا ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ﴾ أى : فى القعود ممن لا عذر له ﴿ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أى : لا يرجون ثواب الله فى الدار الآخرة على أعمالهم ﴿ وَأَرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى : شككت فى صحة ما جتتهم به ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ أى : يتحIRON ، يُقَدِّمُونَ رجلا ويؤخرون أخرى ، وليست لهم قدم ثابتة فى شىء ، فهم قوم حيارى هلئى ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا .

ربيع ﴿ وَتَوَّأَرَدُوا الْخُرُوجَ لِأَعْدَاؤِهِمْ وَعَدَّةٌ وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ أَفْعَدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ تَوَّأَرَدُوا فِيكُمْ مَا زَادَكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضِعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَتَوَّأَرَدُوا الْخُرُوجَ ﴾ أى : معك إلى الغزو ﴿ لِأَعْدَاؤِهِمْ ﴾ أى : لكانوا تاهبوا له ﴿ وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ ﴾ أى : أبغض أن يخرجوا معكم قدراً ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ أى : أخرجهم ﴿ وَقِيلَ أَفْعَدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ أى : قدراً .

ثم بين الله تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين ، فقال : ﴿ تَوَّأَرَدُوا فِيكُمْ مَا زَادَكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ أى : لأنهم جناء مخذولون ﴿ وَلَا وُضِعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ ﴾ أى : ولأسرعوا السير والمشى بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة ﴿ وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ ﴾ أى : مطيعون لهم ومستجيبون لحديثهم وكلامهم ، يستنصحنونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم ، فيؤدى إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير . وقال مجاهد ، وزيد بن أسلم ، وابن جرير : ﴿ وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ ﴾ أى : عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم . وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم ، بل هذا عام فى جميع الأحوال ، والمعنى الأول أظهر فى المناسبة بالسياق ، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين . وقال ابن إسحاق : كان الذين استأذنوا - فيما بلغنى من ذوى الشرف منهم : عبد الله بن أبى ابن سلول والجد بن قيس ، وكانوا أشرافاً فى قومهم ، فثبَّطهم الله ، لعلمه بهم : أن يخرجوا معه ، فيفسدوا عليه جنده . وكان فى جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه ، لشرفهم فيهم ، فقال : ﴿ وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ ﴾ .

ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ ، فأخبر بأنه يعلم ما كان ، وما

يكون ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ ، فأخبر عن حالهم كيف يكون لو خرجوا ومع هذا ما خرجوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَبِيئًا. وَإِذَا لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا. وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨]، والآيات في هذا كثيرة.

﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾

يقول تعالى محرضاً لنبية عليه السلام على المنافقين: ﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أى: لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم فى كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماله مدة طويلة، وذلك أول مقدم النبى ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة، وحاربتهم يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته، قال عبد الله بن أبى وأصحابه: هذا أمر قد تَوَجَّه. فدخلوا فى الإسلام ظاهراً، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أُنذُنِي لِئَ لَا تَفْتِنِي إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾

يقول تعالى: ومن المنافقين من يقول لك يا محمد: ﴿أُنذُنِي لِئَ لَا تَفْتِنِي﴾ فى القعود ﴿وَلَا تَفْتِنِي﴾ بالخروج معك، بسبب الجوارى من نساء الروم، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أى: قد سقطوا فى الفتنة بقولهم هذا، كما روى ابن إسحاق، عن الزهري، ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبى بكر، وعاصم بن قتادة وغيرهم قالوا: قال رسول الله ﷺ ذات يوم، وهو فى جهازه، للجد بن قيس أخى بنى سلمة: «هل لك يا جد العام فى جلاذ بنى الأصفر؟» فقال: يا رسول الله، أو تأذن لى ولا تفتنى، فوالله لقد عرف قومى ما رجل أشد عجباً بالنساء منى، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر عنهن. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «قد أذنت لك». ففى الجذ بن قيس نزلت هذه: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أُنذُنِي لِئَ لَا تَفْتِنِي﴾ الآية، أى: إن كان إنما يخشى من نساء بنى الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه، أعظم. وهكذا روى عن ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: أنها نزلت فى الجذ بن قيس. وقد كان الجذ بن قيس هذا من أشرف بنى سلمة، وفى الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لهم: «من سيدكم يا بنى سلمة؟» قالوا: الجذ بن قيس، على أنا نبخله. فقال رسول الله ﷺ: «وإى داء أدوا من البخل، ولكن سيدكم الفتى الجذ

الأيض بشر بن البراء بن معرور « (١) » .

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي: لا محيد لهم عنها، ولا مَحِيص، ولا مَهْرَب.

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسَبِّحْهُنَّ وَسُبِّحْهُنَّ فِي الْبُحُورِ وَالْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ فِي سُبْحَانَكَ وَمُحِيطَةٌ بِمَا فِي رُحُوبِكَ﴾ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

يعلم تبارك وتعالى نبيه بعداوة هؤلاء له ؛ لأنه مهما أصابه من ﴿حَسَنَةٍ﴾ أي: فتح ونصر وظفر على الأعداء، مما يسره ويسر أصحابه، ساءهم ذلك ﴿وَأَنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلِ﴾ أي: قد احترزنا من متابعتهم من قبل هذا ﴿وَيَقُولُوا وَهُمْ قَرِحُونَ﴾. فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة، فقال: ﴿قُلْ﴾ أي: لهم ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي: نحن تحت مشيئة الله، وقدره ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي: سيدنا وملجؤنا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ونحن متوكلون عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْتَبِصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِتْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَا﴾ أي: تنتظرون بنا ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾: شهادة أو ظفر بكم. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم. ﴿وَنَحْنُ نَرْتَبِصُ بِكُمْ﴾ أي: نتظر بكم هذا أو هذا، إما ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ بسبي أو بقتل ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أي: مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِتْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك، وهو أنهم لا يتقبل منهم ﴿لأنهم كفروا بالله ورسوله﴾ أي: والأعمال إنما تصح بالإيمان ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ أي: ليس لهم قصد صحيح، ولا همة في العمل ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾ نفقة ﴿إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾. وقد أخبر الصادق المصدوق أن الله لا يميل حتى تملأوا، وأنه طيب لا يقبل إلا طيباً؛ فلهذا لا يتقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً، لأنه إنما يتقبل من المتقين.

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْسِهِمْ فِيهِ رِزْقٌ رَيْبٌ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [طه : ١٣١] ، وقال : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ . نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦] .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ : قال الحسن البصري : بزكاتها ، والنفقة منها في سبيل الله . واختاره ابن جرير ، وهو القول القوي الحسن . وقوله : ﴿ وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ أي : ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر ، ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم ، عياداً بالله من ذلك ، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه .

﴿ وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيْتِمَانَكُمْ لِمَنْكُمْ وَمَا هُمْ بِتَنَكُّرٍ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴾ ﴿٥٦﴾

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ ﴿٥٧﴾

يخبر تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفزعهم وفرقهم واهلهم أنهم ﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيْتِمَانَكُمْ ﴾ مينا مؤكدة ﴿ وَمَا هُمْ بِتَنَكُّرٍ ﴾ أي : في نفس الأمر ﴿ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴾ أي : فهو الذي حملهم على الخلف . ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا ﴾ أي : حصنا يتحصنون به ، وحرزا يتحرزون به ، ﴿ أَوْ مَغَارَاتٍ ﴾ وهي التي في الجبال ﴿ أَوْ مُدْخَلًا ﴾ وهو السرب في الأرض والنفق . قال ذلك في الثلاثة ابن عباس ، ومجاهد ، وقاتدة : ﴿ لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ أي : يسرعون في ذهابهم عنكم ، لأنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة ، وودوا أنهم لا يخالطونكم ، ولكن للضرورة أحكام ؛ ولهذا لا يزالون في هم وحزن وعم ؛ لأن الإسلام واهله لا يزال في عز ونصر ورفعة .

﴿ وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴾ ﴿٥٨﴾

﴿ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ أي ومن المنافقين ﴿ مَن يَلْمِزُكَ ﴾ أي : يعيب عليك ﴿ فِي ﴾ ﴿ الصَّدَقَاتِ ﴾ إذا فرقتها ، ويتهمك في ذلك ، وهم المتهمون المالبسون ، وهم مع هذا لا ينكرون للدين ، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم ؛ ولهذا إن ﴿ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴾ أي : يغضبون لأنفسهم . وقال قتادة في قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ يقول : ومنهم من يطعن عليك في الصدقات . وهذا الذي ذكره قتادة شبيه بما رواه الشيخان عن أبي سعيد في قصة ذي الحويصرة - واسمه حرقوص - لما اعترض على النبي ﷺ حين قسم غنائم حنين ، فقال له : عدل ، فإنك لم تعدل . فقال : « لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل » . ثم قال رسول الله

ﷺ وقد رآه مقفياً : «إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يرقون من الدين مروق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء» وذكر بقية الحديث (١) .

ثم قال تعالى مُنَّبَهَا لَهُمْ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ لَهُمْ، فقال : «وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ» فتضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً وسراً شريفاً، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده، وهو قوله : «وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ» وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامثال أوامره، وترك زواجه، وتصديق أخباره، والافتقار بآثاره.

رَبِيع ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُؤِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَنَمِمْ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي ﷺ ولزهم إياه في قَسْمِ الصدقات، بين تعالى أنه هو الذي قسمها وبين حكمها، وتولى أمرها بنفسه، ولم يكل قَسْمَهَا إلى أحد غيره، فجزأها لهؤلاء المذكورين .

وقد اختلف العلماء في هذه الأصناف الثمانية : هل يجب استيعاب الدفع إليها أو إلى ما أمكن منها ؟ على قولين : أحدهما : أنه يجب ذلك، وهو قول الشافعي وجماعة . والثاني : أنه لا يجب استيعابها، بل يجوز الدفع إلى واحد منها، ويعطى جميع الصدقة مع وجود الباقي . وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف، منهم : عمر، وحذيفة، وابن عباس ، وسعيد بن جبير . قال ابن جرير : وهو قول عامة أهل العلم . وعلى هذا فإنما ذكرت الأصناف ها هنا لبيان المصرف لا لوجوب استيعاب الإعطاء .

وإنما قدم الفقراء ها هنا على البقية لأنهم أحوج من غيرهم على المشهور، لشدة فاقتهم وحاجتهم ، وعند أبي حنيفة أن المسكين أسوأ حالا من الفقير . وروى عن ابن عباس وغير واحد : أن الفقير : هو المتعفف الذي لا يسأل الناس شيئاً، والمسكين : هو الذي يسأل ويطوف ويتبع الناس . وقال قتادة : الفقير : من به زمانة، والمسكين : الصحيح الجسم . وقال عكرمة : لا تقولوا لفقراء المسلمين مساكين ، إنما المساكين مساكين أهل الكتاب . ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية :

فأما الفقراء : فعن ابن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تحل الصدقة لغني ولا الذي مرَّ سَوَى » . رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي (٢) .

(١) البخارى (٣٦١٠) ، ومسلم (١٠٦٤/١٤٣ ، ١٤٤) .

(٢) المسند (٦٥٣٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (١٦٣٤) ، والترمذي (٦٥٢) وقال : « حسن » ، وجاء خطأ في المطبوعة والمخطوطة الأزهرية أن الحديث من رواية « ابن عمر » .

وأما المساكين : فعن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « ليس المسكين بهذا الطواف الذى يطوف على الناس ، فتردهُ اللقمة واللقمتان ، والتمرّة والتمرتان » . قالوا : فما المسكين يا رسول الله ؟ قال : « الذى لا يجدُ غنى يغنيه ، ولا يُفطنُ له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئاً » . رواه البخارى ومسلم (١) .

وأما العاملون عليها : فهم الجباة والسعاة ، يستحقون منها قسطاً على ذلك ، ولا يجوز أن يكونوا من أقرباء رسول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقة ، لما ثبت فى صحيح مسلم - عن عبد المطلب ابن ربيعة بن الحارث : أنه انطلق هو والفضل بن عباس يسألان رسول الله ﷺ ليستعملهما على الصدقة ، فقال : « إن الصدقة لا تحمل لمحمد ولا لآل محمد ، إنما هى أوساخ الناس » (٢) .

وأما المؤلفة قلوبهم : فأقسام : منهم من يعطى لئسلم ، كما أعطى النبى ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين ، كما روى الإمام أحمد عن صفوان بن أمية قال : أعطانى رسول الله ﷺ يوم حنين ، وإنه لأبغض الناس إلى ، فما زال يعطينى حتى إنه لأحب الناس إلى . رواه مسلم والترمذى (٣) .

ومنهم من يُعطى ليحسن إسلامه ، ويثبت قلبه ، كما أعطى يوم حنين أيضاً جماعة من صناديد الطلقاء وأشرفهم : مائة من الإبل ، مائة من الإبل ، وقال : « إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلى منه ، مخافة أن يكبه الله على وجهه فى نار جهنم » (٤) . ومنهم من يُعطى لما يرجى من إسلام نظرائه . ومنهم من يُعطى ليجبى الصدقات ممن يليه ، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد . وهل تعطى المؤلفة على الإسلام بعد النبى ﷺ؟ فيه خلاف ، فروى عن عمر ، والشعبى وجماعة : أنهم لا يُعطون بعده ؛ لأن الله قد أعز الإسلام وأهله ، ومكّن لهم فى البلاد ، وأذل لهم رقاب العباد . وقال آخرون : بل يُعطون ؛ لأنه ﷺ قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن ، وهذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم .

وأما الرقاب : فروى عن الحسن البصرى ، ومقاتل وعمر بن عبد العزيز وغيرهم : أنهم المكاتبون ، وهو قول الشافعى . وقال ابن عباس والحسن : لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة ، وهو مذهب الإمام أحمد ومالك ، وإسحاق ، أى : إن الرقاب أعم من أن يعطى المكاتب ، أو يشتري رقبة فيعتقها استقلالاً . وقد ورد فى ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة ، وأن الله يعتق بكل عضو منها عضواً من معتقها حتى الفرج بالفرج ، وما ذاك إلا لأن الجزء من جنس العمل ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٣٩] . وعن أبي هريرة ، أن النبى ﷺ قال : « ثلاثة حق على الله عونهم : الغازى فى سبيل الله ، والمكاتب الذى يريد الأداء ، والناكح

(١) البخارى (١٤٧٩) ، ومسلم (١٠١/١-٣٩) .

(٢) مسلم (١٠٧٢/١-١٦٧) .

(٣) المسند (٤٦٥/٦) ، ومسلم (٥٩/٢٣١٣) ، والترمذى (٦٦٦) .

(٤) البخارى (١٤٧٨) .

الذي يريد العفاف . رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا أبا داود (١) .

وأما الغارمون: فهم أقسام: فمنهم من تحمّل حمالة أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بماله، أو غرم في أداء دينه أو في معصية ثم تاب، فهؤلاء يدفع إليهم. والأصل في هذا الباب حديث قبيصة بن مخارق الهلالي قال: تحمّلت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة، فنأمر لك بها». قال: ثم قال: «يا قبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمّل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك. ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش: أو قال: سداداً من عيش - ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوى الحج من قرابة قومه، فيقولون: لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة، حتى يصيب قواماً من عيش - أو قال سداداً من عيش - فما سواهن من المسألة سحت، يأكلها صاحبها سحتاً». رواه مسلم (٢) .

وأما في سبيل الله: فمنهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان .

وكذلك ابن السبيل: وهو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره، فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال. وهكذا الحكم فيمن أنشأ سفرًا من بلده وليس معه شيء، فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه. والدليل على ذلك الآية، وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحل الصدقة لغنى إلا لخمسة: العامل عليها، أو رجل اشتراها بماله، أو غارم، أو غاز في سبيل الله، أو مسكين تصدق عليه منها فأهدى لغنى» (٣) .

وقوله: ﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾: أى حكماً مقدراً بتقدير الله وقرضه وقسمه ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾: أى: عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصلح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾: فيما يفعله ويقوله ويشعره ويحكم به، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

﴿وَمِنَهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ قُلٍّ أذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

يقول تعالى: ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه ويقولون: ﴿هُوَ أذُنٌ﴾: أى: من قال له شيئاً صدقه فينا، ومن حدثه صدقه، فإذا جئناه وحلفنا له صدقنا. روى معناه عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: أى: هو أذن خير، يعرف الصادق من الكاذب ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: أى: ويصدق المؤمنين ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾

(١) المسند (٧٤١٠) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح»، والترمذى (١٦٥٥) وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه (٢٥١٨) .

(٢) مسلم (١٠٩/١٠٤٤) .

(٣) أبو داود (١٦٣٥)، وابن ماجه (١٨٤١)، وصححه الألبانى .

أى : وهو حجة على الكافرين ؛ ولهذا قال : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولَهُ فَأَبَقُوا لَكُمُ فَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿١١﴾

قال قتادة فى قوله تعالى : ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ﴾ الآية ، قال : ذكر لنا أن رجلا من المنافقين (١) قال : والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا ، وإن كان ما يقول محمد حقا ، لهم شر من الحمير . قال : فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله إن ما يقول محمد لحق ، ولأنت أشر من الحمير . قال : فسعى بها الرجل إلى النبي ﷺ فأخبره ، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال : «ما حملك على الذى قلت ؟» فجعل يلتعن ، ويحلف بالله ما قال ذلك . وجعل الرجل المسلم يقول : اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب . فأنزل الله هذه الآية .

وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولَهُ﴾ أى : ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حاد الله ، أى : شاقه وحاربه وخالفه ، وكان فى حدِّ والله ورسوله فى حدٍّ ﴿فَأَبَقُوا لَكُمُ فَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾ أى : مهاناً معذبا ، و﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ أى : وهذا هو الذل العظيم ، والشقاء الكبير .

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا وَإِنَّ اللَّهَ لَمُخْرِجٌ مِمَّا تُحْذَرُونَ﴾ ﴿١٤﴾

قال مجاهد : يقولون القول بينهم ، ثم يقولون : عسى الله ألا يفشى علينا سرنا هذا . وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسِبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسُ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة : ٨] وقال فى هذه الآية : ﴿قُلِ اسْتَزِرُوا وَإِنَّ اللَّهَ لَمُخْرِجٌ مِمَّا تُحْذَرُونَ﴾ أى : إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به ، ويبين له أمركم كقوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ إلى قوله : ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ الآية [محمد : ٢٩ ، ٣٠] ؛ ولهذا قال قتادة : كانت تسمى هذه السورة «الفاضحة» ، فاضحة المنافقين .

﴿وَلَمَّا كُنَّا فُجُوزًا وَنَلَعَبُ قُلٌ أَبَا اللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿١٥﴾ لَا تَقْمَدُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ تَعَفُّ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١٦﴾

قال ابن إسحاق : وقد كان جماعة من المنافقين منهم ودیعة بن ثابت ، أخو بنى أمية بن زيد ، من بنى عمرو بن عوف ، ورجل من أشجع حليف لبنى سلمة يقال له : مُحْشَن بن حُمَيْر يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك ، فقال بعضهم لبعض : اتحسبون جلاد بنى

(١) سیاتی عند شرح الآية (٧٤) من هذه السورة أنه : الجلاس بن سويد بن الصامت .

الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكأنا بكم غداً مقرّنين في الجبال، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين، فقال مُحْشَنُ بن حَمِيرٍ: والله لوددتُ أنى أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة، وإما نُنْفَلْتُ أن ينزل فينا قرآنٌ لمقالتكم هذه. وقال رسول الله ﷺ - فيما بلغنى - لعمار بن ياسر: «أدرك القوم، فإنهم قد احترقوا، فاسألهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قلتُم كذا وكذا». فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم، فاتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعة ابن ثابت، ورسول الله ﷺ واقف على راحلته، فجعل يقول وهو آخذ بحَبَّها: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، فقال مُحْشَنُ بن حَمِيرٍ: يا رسول الله، قعد بى اسمى واسم أبى. فكان الذى عفى عنه فى هذه الآية مُحْشَنُ بن حَمِيرٍ، فتسمى عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيدا لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة، فلم يوجد له أثر.

وقوله: ﴿لَا تَعْتَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أى: بهذا المقال الذى استهزأتم به ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةَ﴾ أى: لا يعفَى عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أى: مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة.

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيهِمْ إِنْ الِْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾
 ﴿١٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَاللَّهُ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿١٨﴾

يقول تعالى منكرًا على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، كان هؤلاء ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أى: عن الإنفاق فى سبيل الله ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أى: نسوا ذكر الله ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أى: عاملهم معاملة من نسيتهم، كقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الحائىة: ٣٤]، ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أى: الخارجون عن طريق الحق، الداخلون فى طريق الضلالة.

وقوله: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أى: على هذا الصنيع الذى ذكر عنهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكثين فيها مخلدين، هم والكفار ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أى: كفايتهم فى العذاب ﴿وَلَعْنَةُ اللَّهِ﴾ أى: طردهم وأبعدهم ﴿وَاللَّهُ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾.

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضِّتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَالِسُونَ﴾
 ﴿١٩﴾

يقول تعالى: أصاب هؤلاء من عذاب الله تعالى فى الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم

وقوله : ﴿ بِخَلْقِهِمْ ﴾ : قال الحسن البصرى : بدنيهم . وقوله : ﴿ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ : أى : فى الكذب والباطل ﴿ أَوْلَيْكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ : أى : بطلت مساعيهم ، فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة : ﴿ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَوْلَيْكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ؛ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب .

﴿ الَّذِينَ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنْتُمْ رُسُلُهُمْ يَاجِبُونَ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

يقول تعالى واعظا لهؤلاء المنافقين الكاذبين للرسول : ﴿ أَلَمْ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ : أى : ألم تُخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم الكاذبة للرسول ﴿ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ ، وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض ، إلا من آمن بعبدته ورسوله نوح ، عليه السلام ﴿ وَعَادَ ﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم ، لما كذبوا هودا ، عليه السلام ، ﴿ وَثَمُودَ ﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحا ، عليه السلام ، وعقروا الناقة ﴿ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم ، وأهلك ملكهم نمرود بن كنعان لعنه الله ، ﴿ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ ﴾ وهم قوم شعيب ، عليه السلام ، وكيف أصابهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة ، ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾ قوم لوط ، وقد كانوا يسكنون فى مدائن ، وقال فى الآية الأخرى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةُ أَهْوَى ﴾ [النجم : ٥٣] ، أى : الأمة المؤتفكة ، وقيل : أم قراهم ، وهى « سدوم » . والغرض : أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطا ، وإتيانهم الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين . ﴿ أَنْتُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ : أى : بالحجج والدلائل القاطعات ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ : أى : بإهلاكه إياهم ؛ لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإزاحة العلل ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ : أى : بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق ، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذاب والدمار .

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة ، عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة ، فقال : ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ ﴾ : أى : يتناصرون ويتعاضدون ، كما جاء فى الصحيح : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وشبك بين أصابعه (١) . وفى الصحيح أيضا : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم ، كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحلمى والسهر » (٢) .

وقوله : ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ الآية [آل عمران : ١٠٤] .

وقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أى: يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى: فيما أمر، وترك ما عنه زجر ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ من اتصف بهذه الصفات ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أى: يعز من أطاعه ، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ﴿حَكِيمٌ﴾ فى قسمته هذه الصفات لهؤلاء، وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة، فإن له الحكمة فى جميع ما يفعله، تبارك وتعالى .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

يخبر تعالى بما أعدّه للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم فى ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكنين فيها أبدا ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ أى: حسنة البناء، طيبة القرار، كما جاء فى الصحيحين عن عبد الله بن قيس الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : «جنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن» (١) . وفى الصحيحين أيضا، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة وصام رمضان، فإن حقا على الله أن يدخله الجنة، هاجر فى سبيل الله، أو حبس فى أرضه التى ولد فيها» . قالوا: يارسول الله، أفلا نخبر الناس؟ قال: «إن فى الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين فى سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تَفَجَّرُ أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن» (٢) .

وعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ: « إن أهل الجنة ليتراءون العُرفَةَ فى الجنة، كما ترون الكوكب فى السماء» . أخرجه فى الصحيحين (٣) .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص؛ أنه سمع النبى ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا علىّ، فإنه من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة يوم القيامة» (٤) .

وقوله تعالى: ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أى: رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم، كما روى الإمام مالك عن أبى سعيد الخدري ، أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل، يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير فى يديك . فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يارب، وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحدا من

(١) البخارى (٤٨٧٨) ، ومسلم (٢٩٦/١٨٠) .

(٢) البخارى (٧٤٢٣) ، ولم يعزه صاحب التحفة (٢٧٨/١٠) إلا للبخارى .

(٣) البخارى (٦٥٥٥) ، ومسلم (١٠/٢٨٣٠) . (٤) مسلم (١١/٣٨٤) .

خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يارب، وأى شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً أخرجاه (١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرَ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَوُوا يَعَذِبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة. عن أمير المؤمنين على ابن أبى طالب أنه قال: بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف، سيف للمشركين: ﴿فَإِذَا نَسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] ، وسيف لكفار أهل الكتاب: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] ، وسيف للمنافقين: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩] ، وسيف للبغاة: ﴿فَقَاتِلُوا الَّذِينَ تَبِعُوا تَبِعِيَّ حَتَّى تَقِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩] . وهذا يقتضى أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق، وهو اختيار ابن جرير. وقال ابن عباس: أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان، وأذهب الرفق عنهم. وقال الضحاك: جاهد الكفار بالسيف، واغلظ على المنافقين بالكلام، وهو مجاهدتهم . وقال الحسن وقتادة: مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم. وقد يقال: إنه لا منافاة بين هذه الأقوال، لأنه تارة يؤاخذهم بهذا، وتارة بهذا بحسب الأحوال، والله أعلم.

وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾: قال قتادة: نزلت فى عبد الله ابن أبى، وذلك أنه اقتتل رجلان: جهنى وأنصارى، فعلا الجهنى على الأنصارى، فقال عبد الله للأنصار: ألا تنصروا أخاكم؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: «سمن كلبك ياكلك»، وقال: ﴿لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] . فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبى ﷺ ، فأرسل إليه فسأله ، فجعل يحلف بالله ما قاله ، فأنزل الله فيه هذه الآية . وقال عروة بن الزبير: نزلت هذه الآية فى الجلاس بن سويد بن الصامت، أقبل هو وابن امراته مُصعب من قباء، فقال الجلاس: إن كان ما جاء به محمد حقا فنحن أشر من حُمُرنا هذه التي نحن عليها. فقال مُصعب: أما والله - يا عدو الله - لا أخبرن رسول الله ﷺ بما قلت: فأتيت النبى ﷺ ، وخفت أن ينزل فى القرآن، أو تصيبنى قارعة، أو أن أحلط بخطيئته، فقلت: يا رسول الله، أقبلت أنا والجلاس من قباء، فقال كذا وكذا، ولولا

مخافة أن أخلط بخطيئة أو تصيبني قارعة ما أخبرتك. قال: فدعا الجلاس فقال: «يا جلاس، أقلت الذى قاله مصعب؟» فحلف، فأنزل الله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ الآية.

وقوله: ﴿وَهُمْ أَيْمَانُ مَا يَنُوتُونَ﴾ قيل: أنزلت فى الجلاس بن سويد، وذلك أنه همّ بقتل ابن امرأته حين قال: لأخبرن رسول الله ﷺ، وقيل: فى عبد الله بن أبى، همّ بقتل رسول الله ﷺ. وقال السدى: نزلت فى أناس أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبى وإن لم يرض رسول الله ﷺ. وقد ورد أن نفرا من المنافقين هموا بالفتك بالنبي ﷺ وهو فى غزوة تبوك فى بعض تلك الليالى فى حال السير وكانوا بضعة عشر رجلا. قال الضحاك: فىهم نزلت هذه الآية. وروى الإمام أحمد عن أبى الطفيل قال: لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، أمر مناديا فنادى: إن رسول الله ﷺ أخذ العقبة فلا يأخذها أحد. فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل فغشوا عمارا وهو يسوق برسول الله، وأقبل عمار، رضى الله عنه، يضرب وجوه الرواحل، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة: «قد، قد» حتى هبط رسول الله ﷺ، نزل ورجع عمار، فقال: «يا عمار، هل عرفت القوم؟» فقال: قد عرفت عامة الرواحل، والقوم متلثمون. قال: «هل تدرى ما أرادوا؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «أرادوا أن ينفروا برسول الله ﷺ فيطرحوه». قال: فسار عمار رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ فقال: نشدتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة؟ قال: أربعة عشر رجلا. فقال: إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر. قال: فعذر رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا: والله ما سمعنا منادى رسول الله، وما علمنا ما أراد القوم. فقال عمار: أشهد أن الاثنى عشر الباقين حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد (١).

ويشهد لهذه القصة بالصحة، ما رواه مسلم: عن أبى الطفيل قال: كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس، فقال: أنشدك بالله، كم كان أصحاب العقبة؟ قال: فقال له القوم: أخبره إذ سألك. قال: كنا نخبر أنهم أربعة عشر، فإن كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر، وأشهد بالله أن اثنى عشر منهم حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وعذر ثلاثة قالوا: ما سمعنا منادى رسول الله ﷺ، ولا علمنا بما أراد القوم. وقد كان فى حرة يمشى، فقال: «إن الماء قليل، فلا يسبقني إليه أحد»، فوجد قوما قد سبقوه، فلعنهم يومئذ (٢). وما رواه مسلم أيضا عن عمار بن ياسر قال: أخبرني حذيفة عن النبي ﷺ أنه قال: «فى أصحابي اثنا عشر منافقا، لا يدخلون الجنة، ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل فى سم الخياط: ثمانية تكفيهم الدُّبيلة: سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من صدورهم» (٣). ولهذا كان حذيفة يقال له: «صاحب السر، الذى لا يعلمه غيره» أى: من

(١) المسند (٤٥٣/٥) وقال الهيمى فى الزوائد (١٩٥/٦): «رجال رجال الصحيح».

(٢، ٣) مسلم (١١/٢٧٧٩).

تعيين جماعة من المنافقين، وهم هؤلاء، قد أطلعهم عليهم رسول الله ﷺ دون غيره، والله أعلم.
 وقوله تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى : وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته وبمن سفارته (١) ، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به، كما قال للانصار: « ألم أجدكم ضلّالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فآلفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي ؟ » كلما قال شيئاً قالوا: الله ورسوله آمن (٢) . وهذه الصيغة تقال حيث لاذب كما قال تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ ﴾ الآية [البروج : ٨] .

ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبة فقال: ﴿ فَإِنْ يَتُوبُوا بِكَ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ أى : وإن يستمروا على طريقهم ﴿ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا ﴾ أى : بالقتل والهيم والغم ﴿ وَالْآخِرَةِ ﴾ أى : بالعذاب والنكال والهوان والصغار ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ أى : وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم، ولا يحصل لهم خيراً، ولا يدفع عنهم شراً.

﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَبِئْسَ مَا آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنُصَدِّقَنَّهُ وَلَنُكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿ ٧٥ ﴾ ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمُ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ ﴿ ٧٦ ﴾ ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ ﴿ ٧٧ ﴾ ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبِ ﴾ ﴿ ٧٨ ﴾

يقول تعالى : ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه : لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله، وليكونن من الصالحين. فما وفى بما قال، ولا صدق فيما ادعى، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن فى قلوبهم إلى يوم يلقون الله، عز وجل، يوم القيامة، عياداً بالله من ذلك. وقوله تعالى : ﴿ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ الآية ، أى : أعقبهم النفاق فى قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم ، كما جاء فى الصحيحين ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » (٣) .

وقوله : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ الآية ، يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى، وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها ، فإن الله أعلم بهم من أنفسهم؛ لأنه تعالى علام الغيوب، يعلم كل غيب وشهادة، وكل سر ونجوى، ويعلم ما ظهر وما بطن.

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿ ٧٩ ﴾

(١) فى المطبوعة : « سعادته » وهو تصحيف .

(٢) البخارى (٣٣) ، ومسلم (١٠٧/٥٩) .

(٣) البخارى (٤٣٣٠) .

وهذه أيضا من صفات المنافقين: لا يسلم أحد من عيهم ولمزهم فى جميع الأحوال، حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم، إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا: هذا مرء، وإن جاء بشيء يسير قالوا: إن الله لغنى عن صدقة هذا. كما روى البخارى عن أبى مسعود قال: لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير، فقالوا: مرأى. وجاء رجل فتصدق بصاع، فقالوا: إن الله لغنى عن صدقة هذا، فنزلت ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ الآية. وقد رواه مسلم (١). وقال ابن عباس فى هذه الآية: جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ وجاءه رجل من الأنصار بصاع من طعام، فقال بعض المنافقين: والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء. وقالوا: إن كان الله ورسوله لغنيين عن هذا الصاع. وقال ابن إسحاق: كان المطوعون من المؤمنين فى الصدقات: عبد الرحمن بن عوف، تصدق بأربعة آلاف درهم، وعاصم بن عدى أخا بنى العجلان، وذلك أن رسول الله ﷺ رغب فى الصدقات، وحض عليها، فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف، وقام عاصم فتصدق بمائة وستى من تمر، فلمزوهما وقالوا: ما هذا إلا رياء. وكان الذى تصدق بجهدته: أبو عقيل أخو بنى أنيف الإراشى حليف بنى عمرو بن عوف، أتى بصاع من تمر فأفرغه فى الصدقة، فتضاحكوا به وقالوا: إن الله لغنى عن صاع أبى عقيل.

وقوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾: هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر بهم، انتصارا للمؤمنين فى الدنيا، وأعد للمنافقين فى الآخرة عذاباً أليماً؛ لأن الجزاء من جنس العمل.

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم.

وقد قيل: إن السبعين إنما ذكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم؛ لأن العرب فى أساليب كلامها تذكر السبعين فى مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها. وقيل: بل لها مفهوم، كما روى العوفى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «أسمع ربي قد رخص لى فيهم، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة، لعل الله أن يغفر لهم» فقال الله من شدة غضبه عليهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦].

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾
 ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

يقول تعالى ذاماً للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا بمقعدهم بعد خروجه ﴿وَكْرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ معه ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا﴾ أى: بعضهم لبعض: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر، عند طيب الظلال والثمار، فلماذا قالوا: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ لَهُمْ: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تصيرون إليها بسبب مخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ مما فررتم منه من الحر، بل أشد حرا من النار، كما روى الإمام مالك عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «نار بنى آدم التي يوقدون بها جزء من سبعين جزءاً [من نار جهنم] فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية. قال: «إنها فضّلت عليها بتسعة وستين جزءاً» أخرجاه في الصحيحين (١). وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وضربت بالبحر مرتين، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد». وهذا أيضا إسناده صحيح (٢). وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار، يغلى دماغه من حرارة نعليه» (٣). وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن أدنى أهل النار عذابا رجل يجعل له نعلان يغلى منهما دماغه». وهذا إسناد جيد قوى، رجاله على شرط مسلم، والله أعلم (٤).

والأحاديث والآثار النبوية في هذا كثيرة، وقال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَنْزَاةٌ لِلشَّوْىِٕ﴾ [المعارج : ١٥ ، ١٦] ، وقال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ النَّحِيمُ . يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ . وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ . كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ النَّحْرِيقِ﴾ [الحج : ١٩ - ٢٢] ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء : ٥٦].

وقال تعالى في هذه الآية: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ أى: لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول في سبيل الله في الحر، ليتقوا به حر جهنم، الذى هو أضعاف أضعاف هذا .

(١) الموطأ (٢/٩٩١)، والبخارى (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣/٣٠)، وما بين المعقوفتين ليس فى المخطوطة، وأثبتناه من المطبوعة والموطأ .

(٢) المسند (٧٣٢٣)، وقال الشيخ أحمد شاکر: «هو بإسنادين أحدهما صحيح متصل، والآخر مرسل ضعيف...» .

(٤) المسند (٢/٤٣٨) .

(٣) مسلم (٢١١/٣٦١) .

ثم قال تعالى جل جلاله ، متوعداً لهؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا : ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَتَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ قال ابن عباس : الدنيا قليل ، فليضحكوا فيها ما شاؤوا ، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله ، عز وجل ، استأنفوا بكاء لا ينقطع أبداً . وكذا قال الحسن ، وغيرهما .

﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْتُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ يُقْبِلُونَا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَائِفِينَ ﴾ ﴿٨٢﴾

يقول تعالى أمراً لرسوله ﷺ : ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ﴾ أى : ردك الله من غزوتك هذه ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ قال قتادة : ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً ﴿فَاسْتَدْتُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ أى : معك إلى غزوة أخرى ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ أى : تعزيراً لهم وعقوبة . ثم علل ذلك بقوله : ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الآية [الانعام : ١١٠] ، فإن من جزاء السيئة السيئة بعدها كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، كقوله فى عمرة الحديبية : ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمٍ لِتَأْخُذُوهَا﴾ الآية [الفتح : ١٥]

وقوله تعالى : ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَائِفِينَ﴾ قال ابن عباس : أى الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة .

﴿ وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ ﴿٨٤﴾

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين ، وألا يصلى على أحد منهم إذا مات ، وألا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له ؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله ، وماتوا عليه . وهذا حكم عام فى كل من عرف نفاقه ، وإن كان سبب نزول الآية فى عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين ، كما روى البخارى عن ابن عمر قال : لما توفى عبد الله جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه ، فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام رسول الله ﷺ ليصلى عليه ، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، تصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه؟! فقال رسول الله ﷺ : «إنما خيرنى الله فقال : «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» . قال : إنه منافق ! قال : فصلى عليه رسول الله ﷺ . فأنزل الله ، عز وجل ، آية : ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ . وكذا رواه مسلم (١) . ثم رواه البخارى عن عبيد الله - وهو ابن عمر العمرى - وقال : فصلى عليه ، وصلينا معه ، وأنزل الله : ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ الآية (٢) .

(٢) البخارى (٤٦٧٢) .

(١) البخارى (٤٦٧٠) ، ومسلم (٣/٢٧٧٤) .

وهكذا رواه الإمام أحمد (١) .

وقد روى من حديث عمر بن الخطاب نفسه أيضاً بنحو من هذا، فروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لما توفى عبد الله بن [أبى] دعى رسول الله ﷺ للصلاة عليه ، فقام إليه ، فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولت حتى قمت فى صدره ، فقلت : يا رسول الله ، أعلی عدو الله عبد الله بن [أبى] القاتل يوم كذا: كذا وكذا - يُعَدُّ أيامه - قال: ورسول الله ﷺ يتبسم، حتى إذا أكثرت عليه قال: «أخّر عنى يا عمر، إني خيّر فاخترت، قد قيل لى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] ، لو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت». قال: ثم صلى عليه، ومشى معه، وقام على قبره حتى فرغ منه - قال: فَعَجِبُ لى وجرأتى على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم! قال: فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾. فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق، ولا قام على قبره، حتى قبضه الله، عز وجل. وهكذا رواه الترمذى ، وقال: حسن صحيح (٢) . ورواه البخارى فذكر مثله وقال: «أخّر عنى يا عمر». فلما أكثرت عليه قال: «إني خيّر فاخترت، ولو أعلم أنى إن زدت على السبعين يُغْفَرُ (٣) له لزدت عليها». قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف، فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ الآية، فعجبت بعد من جرأتى على رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ أعلم (٤) . وروى البخارى عن جابر بن عبد الله قال : أتى النبى ﷺ عبد الله بن أبى بعد ما أدخل فى قبره ، فأمر به فأخرج ، ووضع على ركبتيه ، ونفث عليه من ريقه ، وألبسه قميصه ، والله أعلم (٥) . وقد رواه أيضاً فى غير موضع مع مسلم والنسائى (٦) .

وقد ذكر بعض السلف : إنما كساه قميصه ؛ لأن عبد الله بن أبى لما قدم العباس طُلب له قميص ، فلم يُوجد على تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أبى ؛ لأنه كان ضخماً طويلاً ، ففعل ذلك به رسول الله ﷺ ، مكافأة له ، فالله أعلم . ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلى على أحد من المنافقين ، ولا يقوم على قبره ، كما روى الإمام أحمد عن عبد الله ابن أبى قتادة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا دعى لجنزة سأل عنها، فإن أتى عليها خيراً قام فصلى عليها، وإن أتى عليها غير ذلك قال لأهلها: «شأنكم بها» ، ولم يصل عليها (٧) .

(١) المسند (٤٦٨٠)، وقال الشيخ أحمد شاکر : «إسناده صحيح» .

(٢) المسند (٩٥) ، وقال الشيخ أحمد شاکر : «إسناده صحيح» ، والترمذى (٣٠٩٧) .

(٣) فى المطبوعة : «غفر» وفى المخطوطة : «لغفر» والمثبت من البخارى .

(٤) البخارى (٤٦٧١) . (٥) البخارى (٥٧٩٥) .

(٦) مسلم (٢٧٧٣)، والنسائى فى السنن (٣٧/٤ ، ٣٨) .

(٧) المسند (٢٩٩/٥)، وقال الهيمى فى الزوائد (٦/٣ ، ٧) : «رجالہ رجال الصحیح» .

وكان عمر بن الخطاب لا يصلى على جنازة من جهل حاله، حتى يصلى عليها حذيفة بن اليمان؛ لأنه كان يعلم أعيان منافقين، قد أخبره بهم رسول الله ﷺ؛ ولهذا كان يقال له : «صاحب السر» الذى لا يعلمه غيره أى من الصحابة.

ولما نهى الله، عز وجل، عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم، كان هذا الصنيع من أكبر القربات فى حق المؤمنين، فشرع ذلك، وفى فعله الأجر الجزيل، لما ثبت من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط، ومن شهدا حتى تدفن فله قيراطان ». قيل: وما القيراطان؟ قال: « أصغرهما مثل أحد » (١).

وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات فقد روى أبو داود عن عثمان قال : كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال : « استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل ». انفرد بإخراجه أبو داود (٢).

﴿ وَلَا تَعْبُجْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

قد تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة، والله الحمد (٣).

﴿ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطُّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْمُتَعِدِينَ ﴾ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَمِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُوْنَ ﴾ ﴿٨٧﴾

يقول تعالى منكرأ وذاماً للمتخلفين عن الجهاد، الناكلين عنه مع القدرة عليه، ووجود السعة والطول، واستأذنوا الرسول فى القعود، وقالوا : « ذرنا نكن مع القاعدین » ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود فى البلد مع النساء، وهن الخوالف، بعد خروج الجيش، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلاماً، كما قال تعالى، عنهم فى الآية الأخرى: « فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالنسيئة حداداً » [الأحزاب: ١٩]، أى : علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوى فى الأمن، وفى الحرب أجبن شىء، وقال تعالى فى الآية الأخرى: « ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولئك لهم طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر قلل صدقوا الله لكان خيراً لهم » الآية [محمد : ٢٠، ٢١] .

وقوله : « وطمِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ » أى : بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول فى سبيل الله، « فهم لا يفقهون » أى : لا يفهمون ما فيه صلاح لهم في فعلوه، ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه .

(٢) أبو داود (٣٢٢١)، وصححه الألبانى .

(١) البخارى (١٣٢٥)، ومسلم (٥٣/٩٤٥) .

(٣) وهى الآية (٥٥) من هذه السورة .

﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُوْلَآئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمُ الْخِيَرَاتُ وَأُوْلَآئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ اَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾

لما ذكر تعالى ذم المنافقين، بين ثناء المؤمنين، وما لهم في آخرتهم، فقال: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا﴾ إلى آخر الآيتين من بيان حالهم ومآلهم. وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ أي: في الدار الآخرة، في جنات الفردوس والدرجات العلى.

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ ﴾

ثم بين تعالى حال ذوى الأعدار فى ترك الجهاد، الذين جاؤوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، ويبينون له ما هم فيه من الضعف، وعدم القدرة على الخروج، وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة. عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ» بالتخفيف، ويقول: هم أهل العذر. وهذا القول هو الأظهر فى معنى الآية؛ لأنه قال بعد هذا: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: لم يأتوا فيعتذروا. قال مجاهد وغيره: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ قال: نفر من بنى غفار، جاؤوا فاعتذروا فلم يُعذِّرهم الله. والقول الأول أظهر والله أعلم، لما قدمنا من قوله بعده: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار، ثم أوعدهم بالعذاب الاليم، فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿ لَيْسَ عَلَى الضَّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلْتَ لِيُحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحَدٌ مَّا أَحْمَلْكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَحْدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

ثم بين تعالى الأعدار التى لا حَرَجَ على من قعد معها عن القتال، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه، وهو الضعف فى التركيب الذى لا يستطيع معه الجهاد فى الجهاد، ومنه العمى والعرج ونحوهما، ولهذا بدأ به. ومنها ما هو عارض بسبب مرض عن له فى بدنه، شغله عن الخروج فى سبيل الله، أو بسبب فقره لا يقدر على التجهز للحرب، فليس على هؤلاء حَرَجَ إذا قعدوا ونصحوا فى حال قعودهم، ولم يرجفوا بالناس، ولم يُبْطِطوهم، وهم

محسنون في حالهم هذا ؛ ولهذا قال: ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . وقال الأوزاعي: خرج الناس للاستسقاء، فقام فيهم بلال بن سعد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معشر من حضر، أستم مقيرين بالإساءة؟ قالوا: اللهم نعم. فقال: اللهم، إنا نسمةك تقول: ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ اللهم، وقد أقرنا بالإساءة فاعفر لنا وارحمنا واسقنا. ورفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا. وقال ابن عباس في هذه الآية: وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه، فجاءته عصابة من أصحابه، فيهم عبد الله بن مغلل المزني، فقالوا: يا رسول الله، احملنا. فقال لهم: « والله لا أجد ما أحملكم عليه ». فتولوا ولهم بكاء، وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد، ولا يجدون نفقة ولا محملا. فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه، فقال: ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقال ابن إسحاق في سياق غزوة تبوك: ثم إن رجالا من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ، وهم البكاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، من بنى عمرو بن عوف: سالم بن عمير، وعليه بن زيد أخو بنى حارثة، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب، أخو بنى مازن بن النجار، وعمرو بن الحمام ابن الجموح أخو بنى سلمة، وعبد الله بن المغلل المزني؛ وهرمي بن عبد الله، أخو بنى واقف، وعرباض بن سارية الفزاري، فاستحملوا رسول الله ﷺ، وكانوا أهل حاجة، فقال: « لا أجد ما أحملكم عليه » فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون.

وروى ابن أبي حاتم عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: « لقد خلفتم بالمدينة أقواما، ما أنفقت من نفقة، ولا قطعتم واديا، ولا نلت من عدو نيلا إلا وقد شركوكم في الأجر، ثم قرأ: ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلْتُمْ لِيَحْمِلَهُمْ قُلْتُمْ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ الآية. وأصل الحديث في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: « إن بالمدينة أقواما ما قطعتم واديا، ولا سرتهم مسيرا إلا وهم معكم ». قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: « نعم، حبسهم العذر » (١). وروى الإمام أحمد عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: « لقد خلفتم بالمدينة رجالا، ما قطعتم واديا، ولا سلكتهم طريقا إلا شركوكم في الأجر، حبسهم المرض ». رواه مسلم، وابن ماجه (٢).

ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء، وأنبهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال ﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

(١) البخارى (٢٨٣٩)، ومسلم (١٥٩/١٩١١) .

(٢) المسند (٣/٣٠٠) ، ومسلم (١٥٩/١٩١١) ، وابن ماجه (٢٧٦٥) .

﴿بَعْدُ زُورٌ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَدُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ وَسِيرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِرِضْوَانِهِمْ فَإِنْ تَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم ﴿قُلْ لَا تَعْتَدُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي: لن نصدقكم ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ﴾ أي: قد أعلمنا الله أحوالكم ﴿وَسِيرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي: سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا ﴿ثُمَّ تَرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فيخبركم بأعمالكم، خيرا وشرها، ويجزيكم عليها. ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون معتذرين لتعرضوا عنهم فلا تؤنبوهم ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ احتقارا لهم ﴿إِنَّهُمْ رَجِسٌ﴾ أي: خبثاء نجس بواطنهم واعتقاداتهم ﴿وَمَآؤُهُمْ﴾ في آخرتهم ﴿جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: من الآثام والخطايا. وأخبر أنهم وإن رضوا عنهم بحلفهم لهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعته وطاعة رسوله.

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَرِثَ الْأَعْرَابُ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُورِ الدُّوَابِّ ۗ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا لِلَّهِ وَصَلَاتٍ الرَّسُولُ أَلَّا إِنَّمَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

أخبر تعالى أن في الأعراب كفارا ومنافقين ومؤمنين، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد، وأجدر، أي: أخرى ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، كما قال الأعمش عن إبراهيم قال: جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند، فقال الأعرابي: والله إن حديثك ليعجبني، وإن يدك لترينني فقال زيد: ما يُريك من يدي؟ إنها الشمال. فقال الأعرابي: والله ما أدري، اليمين يقطعون أو الشمال؟ فقال زيد بن صوحان: صدق الله: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ .

ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولا، وإنما كانت البيعة من أهل القرى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]. روى مسلم عن عائشة قالت: قَدِمَ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا:

أَتَقْبَلُونَ صَبِيَانَكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالُوا: وَلَكِنَّا وَاللَّهِ مَا نَقْبَلُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأَمَلَكُ أَنْ كَانَ اللَّهُ نَزَعَ مِنْكُمْ الرَّحْمَةَ؟» (١). وقوله: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أى: عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق، لا يسأل عما يفعل، لعلمه وحكمته.

وأخبر تعالى أن منهم ﴿ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ ﴾ أى: فى سبيل الله ﴿ مَقْرَمًا ﴾ أى: غرامة وخسارة ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمْ الدُّوَابُّ ﴾ أى: ينتظر بكم الحوادث والآفات ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ ﴾ أى: هى منعكسة عليهم والسوء دائر عليهم ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى: سميع لدعاء عباده، عليم بمن يستحق النصر من يستحق الخذلان.

وقوله: ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ﴾: هذا هو القسم الممدوح من الأعراب، وهم الذين يتخذون ما ينفقون فى سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله، ويتغنون بذلك دعاء الرسول لهم ﴿ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ﴾ أى: ألا إن ذلك حاصل لهم ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم. قال الشعبى: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية. وقال أبو موسى الأشعري، والحسن، وقاتدة: هم الذين صلوا إلى القبليتين مع رسول الله ﷺ.

فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضى عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان: فإيا ويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم، أعنى الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبى قحافة، رضى الله عنه، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويُبغضونهم ويسبونهم، عياداً بالله من ذلك. وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن، إذ يسبون من رضى الله عنهم؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عن من رضى الله عنه، ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالى الله، ويعادون من يعادى الله، وهم متبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدون ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون.

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾

يخبر تعالى رسوله ﷺ أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون، وفي أهل المدينة أيضاً منافقون ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ أى: مرنوا واستمروا عليه: ومنه يقال: شيطان مريد ومارد، ويقال: تمرد فلان على الله، أى: عتا وتجبر.

وقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لا ينافى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسْمَاهُمْ وَتَعَرَّفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ الآية [محمد: ٣٠]؛ لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين. وقد كان يعلم أن فى بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً، وإن كان يراه صباحاً ومساءً. وقال قتادة فى هذه الآية أنه قال: ما بال أقوام يتكلفون علم الناس؟ فلان فى الجنة وفلان فى النار. فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدرى! لعمري أنت بنفسك^(١) أعلم منك بأحوال الناس، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك. قال نبي الله نوح: ﴿قَالَ وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢]، وقال نبي الله شعيب: ﴿بَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦]، وقال الله لنبيه ﷺ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿سَعَدْبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ يعنى: القتل والسبأ، وقال - فى رواية: بالجوع، وعذاب القبر ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾. وقال ابن جرير: عذاب الدنيا، وعذاب القبر، ثم يردون إلى عذاب النار. وقال عبد الرحمن بن زيد: أما عذاب فى الدنيا فالأموال والأولاد، وقرأ قول الله: ﴿فَلَا تَعْجَبْ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٨٥]، فهذه المصائب لهم عذاب، وهى للمؤمنين أجر، وعذاب فى الآخرة فى النار ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ قال: النار.

﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّا اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

لما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتكديباً وشكاً، شرع فى بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة، مع إيمانهم وتصديقهم بالحق، فقال: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أى: أقرروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم، ولهم أعمال آخر صالحة، خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه. وهذه الآية - وإن كانت نزلت فى أناس معينين - إلا أنها عامة فى كل المذنبين الخاطئين المخلطين المتلوئين. وقال ابن عباس: ﴿وَأَخْرُونَ﴾: نزلت فى أبى لُبابة وجماعة من أصحابه، تخلفوا عن غزوة تبوك، فلما رجع النبي ﷺ من غزوته، ربطوا أنفسهم بسوارى المسجد، وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله ﷺ، فلما أنزل الله هذه الآية: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أطلقهم النبي ﷺ، وعفا عنهم.

(١) فى المطبوعة والمخطوطة: « بنصيبك » والثبت من الطبرى (٨/١١).

وروى البخارى عن سمرّة بن جندب : قال رسول الله ﷺ لنا: «أتانى الليلة آتيان فابتعثاني فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فتلقانا رجال شطّر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطّر كأقبح ما أنت راء، قال لهم: اذهبوا ففَعُوا فى ذلك النهر. فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا فى أحسن صورة، قال لى: هذه جنة عدن، وهذا منزلك. قالوا: أما القوم الذين كانوا شطّر منهم حَسَن وشطّر منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فتجاوز الله عنهم» (١).

﴿ حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَ عَلَيْهِمُ إِنَّا صَلَوَاتِكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكّيهم بها، وهذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير فى «أموالهم» إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً؛ ولهذا اعتقد بعض مانعى الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون، وإنما كان هذا خاصاً بالرسول ﷺ؛ ولهذا احتجوا بقوله تعالى: ﴿ حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ ﴾ الآية ، وقد ردّ عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد الصديق أبو بكر وسائر الصحابة، وقاتلوهم حتى أداوا الزكاة إلى الخليفة، كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ ، حتى قال الصديق : والله لو منعونى عقالا - وفى رواية - عناقا - كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه (٢).

وقوله: ﴿ وَصَلَ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : ادع لهم واستغفر لهم ، كما رواه مسلم عن عبد الله بن أبى أوفى قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلّى عليهم، فاتاه أبى بصدقته فقال: «اللهم صلّ على آل أبى أوفى» (٣). وقوله: ﴿ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾: قال ابن عباس: رحمة لهم. وقال قتادة : وقار ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ أى : لدعائك ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أى : بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له. وقوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ : هذا تهيج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحطّ الذنوب ويمحصها ويمحقها.

وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه فيريها لصاحبها، حتى تصير التمرة مثل أحد. كما جاء بذلك الحديث، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيريها لأحدكم، كما يربى أحدكم مهره، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد»، وتصديق ذلك فى كتاب الله، عز وجل: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ وقوله: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرَّبَا وَيُزِيهِ

(٢) البخارى (٧٢٨٤ ، ٧٢٨٥).

(١) البخارى (٤٦٧٤).

(٣) مسلم (١٠٧٨ / ١٧٦).

الصَّدَقَاتِ ﴿البقرة: ٢٧٦﴾ (١) .

﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٠٥﴾

قال مجاهد: هذا وعيد من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرضُ عليه تبارك وتعالى ، وعلى الرسول ﷺ ، وعلى المؤمنين . وهذا كائن لا محالة يوم القيامة ، كما قال : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْلَى السُّرَائِرُ ﴾ [الطارق: ٩] وقال : ﴿ وَحَصِّلْ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ [العاديات: ١٠] . وقال البخارى: قالت عائشة: إذا أعجبتك حُسن عمل امرئ، فقل: ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (٢) .

وقد ورد في الحديث شبيه بهذا ، روى الإمام أحمد عن أنس ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا بم يختم له ؟ فإن العامل يعمل زماناً من عمره - أو: برهة من دهره - بعمل صالح لو مات عليه لدخل الجنة ، ثم يتحول فيعمل عملاً سيئاً ، وإن العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيئ ، لو مات عليه دخل النار ، ثم يتحول فيعمل عملاً صالحاً ، وإذا أراد الله بعبد خيراً استعمله قبل موته » . قالوا : يا رسول الله وكيف يستعمله: قال: « يوفقه لعمل صالح ثم يقضه عليه » . تفرد به أحمد من هذا الوجه (٣) .

﴿ وَآخَرُونَ مُّرْجُونَ لِمِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿١٠٦﴾

قال ابن عباس وغير واحد: هم الثلاثة الذين خلفوا ، أى: عن التوبة ، وهم : مرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، قعدوا عن غزوة تبوك فى جملة من قعد ، كسلا وميلا إلى الدعة والحفظ وطيب الثمار والظلال ، لا شكا ونفاقا ، فكانت منهم طائفة رَبطوا أنفسهم بالسوارى ، كما فعل أبو لُبابة وأصحابه ، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون ، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء ، وأرجى هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية ، وهى قوله : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ الآية [التوبة : ١١٧] ، ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ الآية [التوبة : ١١٨] ، كما سيأتى بيانه فى حديث كعب بن مالك .

وقوله : ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ أى: هم تحت عفو الله ، إن شاء فعل بهم هذا ، وإن شاء فعل بهم ذاك ، ولكن رحمته تغلب غضبه ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى: عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو، حكيم فى أفعاله وأقواله، لا إله إلا هو، ولا رب سواه .

(١) الترمذى (٦٦٢) وقال : « حسن صحيح » .

(٢) البخارى معلقاً (الفتح ٥٠٣/١٣) .

(٣) المسند (٣/ ١٢٠) وقال الهيثمى فى الزوائد (٧/ ٢١١) : « رجاله رجال الصحيح » .

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحَسَنَ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقْعُدُوا فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ حُجَّةً لِمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ قَبْلُ وَلَقَدْ كَفَرَ مِنْ قَبْلُ أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَئِنْ عُلِّمُوا مِنْ قَبْلِهِمْ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١٠٨﴾

سبب نزول هذه الآيات الكريكات: أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له: « أبو عامر الراهب »، وكان قد تنصّر في الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرف في الخزرج كبير. فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، وصارت للإسلام كلمة عالية، وأظهرهم الله يوم بدر، شرّق اللعين أبو عامر بريقه، وبارز بالعداوة، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحد، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتنعهم الله عز وجل، وكانت العاقبة للمتقين. وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين، فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ، وأصيب ذلك اليوم، فجرح في وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى، وشج رأسه ﷺ.

وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك علينا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبوه. فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدى شر. وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً، فنالته هذه الدعوة. وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد، ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل، ملك الروم، يستنصره على النبي ﷺ، فوعده ومناه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويؤمنهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج النبي ﷺ إلى تبوك، وجاؤوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلى في مسجدهم، ليحتجوا بصلاته، عليه السلام، فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله».

فلما قفل ﷺ راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه الوحي بخبر مسجد الضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء، الذي أسس من أول يوم على التقوى. فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من هدّمه قبل مقدمه المدينة، كما قال ابن عباس في قوله: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَارًا»:

وهم أناس من الأنصار، ابنتوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر، ابنوا مسجداً واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم، فأتى بجند من الروم وأخرج محمداً وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فحب أن تصلى فيه وتدعو لنا بالبركة. فانزل الله، عز وجل: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ إلى: ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ . وكذا روى عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وعروة بن الزبير، وقتادة وغير واحد من العلماء. وقوله: ﴿ وَلِيَحْلِفُنَّ ﴾ أى: الذين بنوه ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى ﴾ أى: ما أردناه بينانه إلا خيراً ورفقاً بالناس، قال الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى: فيما قصدوا وفيما نوا، وإنما بنوه ضراراً لمسجد قباء، وكفراً بالله، وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله، وهو أبو عامر الفاسق، الذى يقال له: «الراهب» لعنه الله. وقوله: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً ﴾: نهى من الله لرسوله ﷺ والأمة تبع له فى ذلك، عن أن يقوم فيه، أى: يصلى فيه أبداً.

ثم حثه على الصلاة فى مسجد قباء الذى أسس من أول يوم بنائه على التقوى، وهى طاعة الله، وطاعة رسوله، وجمعاً لكلمة المؤمنين ومَعقلاً وموثلاً للإسلام وأهله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ والسياق إنما هو فى معرض مسجد قباء؛ ولهذا جاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « صلاة فى مسجد قباء كعمرة » (١). وفى الصحيح: أن رسول الله ﷺ كان يزور مسجد قباء راكباً وماشياً (٢).

وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف: ابن عباس وعن عروة بن الزبير، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم، والشعبى، والحسن البصرى، وسعيد بن جبير، وقتادة. وقد ورد فى الحديث الصحيح: أن مسجد رسول الله ﷺ الذى هو فى جوف المدينة، هو المسجد الذى أسس على التقوى. وهذا صحيح. ولا منافاة بين الآية وبين هذا؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى؛ ولهذا روى الإمام أحمد عن سهل بن سعد الساعدى قال: اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ فى المسجد الذى أسس على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد رسول الله ﷺ. وقال الآخر: هو مسجد قباء.

وقد قال بأنه مسجد النبي ﷺ جماعة من السلف والخلف، وهو مروى عن عمر بن الخطاب، وابنه عبد الله، وزيد بن ثابت، وسعيد بن المسيب. واختاره ابن جرير.

وقوله: ﴿ لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ فيه رجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَّهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ: دليل على استحباب الصلاة فى المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لا شريك له، وعلى استحباب الصلاة مع جماعة الصالحين، والعباد العاملين المحافظين

(١) الترمذى (٣٢٤) وقال: « حديث حسن صحيح »، وابن ماجه (١٤١١).

(٢) مسلم (٥١٥/١٣٩٩).

على إسباغ الوضوء، والتتره عن ملابس القاذورات.

وقال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾: إن الطهور بالماء الحسن، ولكنهم المطهرون من الذنوب. وقال الأعمش: التوبة من الذنب، والتطهير من الشرك.

﴿أَفَمَنْ أَسَسَ بُيُوتَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَسَ بُيُوتَهُ عَلَىٰ شَفَا حَرْفٍ هَارٍ فَانْتَهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُيُوتَهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾

يقول تعالى: لا يستوى من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، ومن بنى مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين، وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل، وإنما بنى هؤلاء بنيانهم ﴿على شفا حرف هار﴾ أى: طرف حفيرة ﴿في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أى: لا يصلح عمل المفسدين.

وقوله: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أى: شكا ونفاقا بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع، أورثهم نفاقا فى قلوبهم، كما أشرب عابدهو العجل حبه.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أى: بموتهم. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم، وغير واحد من علماء السلف. ﴿والله عليم﴾ أى: بأعمال خلقه، ﴿حكيمة﴾ فى مجازاتهم عنها، من خير وشر.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾

يخبر تعالى أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوا فى سبيله بالجنة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده الطيعين له؛ ولهذا قال الحسن البصرى وقتادة: بايعهم الله فأعلى ثمنهم.

وقوله: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أى: سواء قتلوا أو قُتلوا، أو اجتمع لهم هذا وهذا، فقد وجبت لهم الجنة؛ ولهذا جاء فى الصحيحين: «وتكفل الله لمن خرج فى سبيله، لا يخرج إلا جهاد فى سبيله، وتصديق برسلى، بأن توفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه، نائلا ما نال من أجر أو غنيمة» (١).

وقوله : ﴿ وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ : تأكيد لهذا الوعد، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة ، وأنزله على رسله في كتبه الكبار ، وهي التوراة المنزلة على موسى ، والإنجيل المنزل على عيسى ، والقرآن المنزل على محمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقوله : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ فإنه لا يخلف الميعاد ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٨٧] ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء : ١٢٢] ؛ ولهذا قال : ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى : فليستبشروا من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد، بالفوز العظيم، والنعيم المقيم .

﴿ التَّكْوِينُ الْمَكِيدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّائِحُونَ الزَّكِيمُونَ ﴾ السَّائِحُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة ﴿ التَّائِبُونَ ﴾ من الذنوب كلها، التاركون للفواحش ﴿ الْعَابِدُونَ ﴾ أى : القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها، وهى الأقوال والأفعال فمن أخصَّ الأقوال الحمد ؛ فلهذا قال : ﴿ الْحَامِدُونَ ﴾ ، ومن أفضل الأعمال الصيامُ ، وهو ترك الملاذِّ من الطعام والشراب والجماع ، وهو المراد بالسياحة هاهنا ؛ ولهذا قال : ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ ، كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك فى قوله تعالى : ﴿ سَائِحَاتُ ﴾ [التحریم : ٥] ، أى : صائمات، وكذا الركوع والسجود، وهما عبارة عن الصلاة، ولهذا قال : ﴿ الرَّائِعُونَ السَّاجِدُونَ ﴾ وهم مع ذلك يتفنون خلق الله، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، مع العلم بما ينبغى فعله ويجب تركه، وهو حفظ حدود الله فى تحليله وتحريمه، علما وعملا، فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق؛ ولهذا قال : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به . قال عبد الله بن مسعود : ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ : الصائمون . وكذا روى عن ابن عباس . وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبیر، وعطاء، وغيرهم : أن المراد بالسائحين : الصائمون . وهذا أصح الأقوال وأشهرها، وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد، وهو ما روى أبو داود فى سنته، من حديث أبى أمامة أن رجلا قال : يا رسول الله، ائذن لى فى السياحة . فقال النبي ﷺ : « سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله » (١) .

وليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة فى الأرض، والتفرد فى شواحق الجبال والكهوف والبرارى، فإن هذا ليس بمشروع إلا فى أيام الفتن والزلازل فى الدين، كما ثبت فى صحيح البخارى، عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : « يوشك أن يكون خير مال الرجل غَنَمٌ يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ، ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن » (٢) . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ قال : القائمون بطاعة الله . وكذا قال الحسن البصرى ،

وعنه رواية : ﴿ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ قال : لفرائض الله ، وفي رواية : القائمون على أمر الله .

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهَا لَأَيُّهُ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتَاءَهُ فَلَ مَا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾

روى الإمام أحمد عن ابن المسيب ، عن أبيه قال : لما حَضَرَتْ أبا طالب الوفاة ، دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل ، وعبد الله بن أبي أمية ، فقال : «أى عمّ ، قل : لا إله إلا الله . كلمة أحاجّ لك بها عند الله ، عز وجل» . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ [فقال : أنا على ملة عبد المطلب] . فقال النبي ﷺ : «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» . فنزلت : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهَا لَأَيُّهُ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتَاءَهُ فَلَ مَا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ ، قال : ونزلت فيه : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص : ٥٦] أخرجاه (١) .

وقال ابن عباس في هذه الآية : كانوا يستغفرون لهم ، حتى نزلت هذه الآية ، فلما نزلت أمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ، ولم ينههم أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا ، ثم أنزل الله : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾ الآية . وقال سعيد بن جبيرة : مات رجل يهودي وله ابن مسلم ، فلم يخرج معه ، فذكر ذلك لابن عباس فقال : فكان ينبغي له أن يمشى معه ويدفنه ، ويدعو له بالصلاح ما دام حيا ، فإذا مات وكّله إلى شأنه ثم قال : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتَاءَهُ فَلَ مَا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ ﴾ لم يدع . وشهد له بالصححة ما رواه أبو داود وغيره ، عن علي بن أبي طالب قال : لما مات أبو طالب قلت : يا رسول الله ، إن عمك الشيخ الضال قد مات . قال : «أذهب فواره ولا تحذثن شيئا حتى تأتيني» . فذكر تمام الحديث (٢) .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ ﴾ قال ابن عباس : ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه . وفي رواية : لما مات تبين له أنه عدو لله . وكذا قال مجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وغيرهم .

وقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ قال عبد الله بن مسعود : الأواه : الدعاء . وقال قتادة : إنه الرحيم ، أى : بعباد الله . وقال ابن عباس : المؤمن التواب . وقال العوفي عنه : هو المؤمن بلسان الحبشة . وعن مجاهد : الأواه : الحفيظ الوجل ، يذنب الذنب سرا ، ثم يتوب منه سرا . قال ابن

(١) المسند (٥٣٣/٥) والبخارى (٤٦٧٥) ، ومسلم (٣٩/٢٤) ، وما بين المعوقتين من المطبوعة والمسند ، وليس في المخطوطة .

(٢) أبو داود (٣٢١٤) ، وصححه الألبانى .

جرير: وأولى الأقوال قول من قال: إِنَّهُ الدَّعَاءُ، وهو المناسب للسياق، وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعدة وعدها آياه، وقد كان إبراهيم كثير الدعاء حليماً عن ظلمه وأناله مكروها؛ ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه في قوله: ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ مَا سَتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ [مريم: ٤٧]، فحلم عنه مع أذاه له، ودعا له واستغفر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ .

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة وحكمه العادل: إنه لا يضل قوماً إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم، حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة، كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ الآية [فصلت: ١٧] . قال ابن جرير: يقول الله تعالى: وما كان الله ليقضى عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووقفكم للإيمان به وبرسوله، حتى يتقدم إليكم بالنهاي عنه فتركوا، فأما قبل أن يبين لكم كراهيته ذلك بالنهاي عنه، ثم تتعدوا نهيه إلى ما نهاكم عنه، فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهى، وأما من لم يؤمر ولم ينه فغير كائن مطعياً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه .

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ : قال ابن جرير: هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر، وأن يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض، ولا يرهبوا من أعدائه فإنه لا ولي لهم من دون الله، ولا نصير لهم سواه. وقال كعب الأحبار: ما من موضع خرمة إبيرة من الأرض إلا وملك موكل بها، يرفع علم ذلك إلى الله، وإن ملائكة السماء لأكثر من عدد التراب، وإن حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى مَحَّة مسيرة مائة عام .

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ يَهْتَمُ رءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾

قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مُجْدَبة وحر شديد، وعسر من الزاد والماء. وقال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك في لَهَبَان الحر، على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهد شديد، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم، يمصها هذا، ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا، ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأفضلهم من غزوتهم. وروى

ابن جرير عن عمر بن الخطاب قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد ، فزلنا منزلاً ، فأصابنا فيه عطش ، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر قرته فيشربه ، ويجعل ما بقى على كبده ، فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله ، إن الله عز وجل ، قد عودك في الدعاء خيراً ، فادع لنا . قال : « تحب ذلك » ؟ . قال : نعم ! فرفع يديه فلم يرجعهما حتى مالت السماء فأظلمت ثم سكبت ، فملؤوا ما معهم ، ثم ذهبنا نظنر فلم نجدها جاوزت العسكر (١) .

وقال ابن جرير في قوله : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ ﴾ أى : من النفقة والظهر والزاد والماء ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فُرَيْقٍ مِنْهُمْ ﴾ أى : عن الحق ويشك في دين رسول الله ﷺ ويرتاب ، بالذى نالهم من المشقة والشدة في سفره وغزوه ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ يقول : ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم ، والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿ إِنَّهُ بِهِمْ رُءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَسْتُوْبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٨﴾

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن كعب بن مالك قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فقال كعب بن مالك : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزاة غزاها قط إلا في غزاة تبوك ، غير أنى كنت تخلفت في غزاة بدر ، ولم يعاتب أحدٌ تخلف عنها ، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد غير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام ، وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر ، وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه في تلك الغزاة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة ، وكان رسول الله ﷺ قلماً يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز ، وعدوا كثيراً ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم وجهه الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ، لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - فقال كعب : فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحى من الله ، عز وجل ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت شمار والظل ، وأنا إليها أصعر . فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه ، وطفقت أغدو لكى أتجهز معهم ، فأرجع ولم أقض من جهازى شيئاً ، فأقول لنفسى : أنا قادر

(١) ابن جرير فى التفسير (١١/٤٠) . ورواه الحاكم فى المستدرک (١/١٥٩) ، وقال : « حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه » .

على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجِدِّ، فأصبح رسول الله ﷺ غاديا والمسلمون معه، ولم أقض من جهازى شيئا، وقلت: الجهاز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه . فغدوت بعدما فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئا من جهازى. ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهمت أن أرتحل فأدرتهم - وليت أتى فعلت - ثم لم يقدر ذلك لى، فطفقت إذا خرجتُ فى الناس بعد رسول الله ﷺ يحزننى ألا أرى إلا رجلا مغموصا عليه فى النفاق، أو رجلا بمن عذره الله، عز وجل، ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك؟» قال رجل من بنى سلمة: حبسه يارسول الله برُداءه، والنظر فى عطفه. فقال له معاذ بن جبل: بشما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا! فسكت رسول الله ﷺ قال كعب بن مالك: فلما بلغنى أن رسول الله ﷺ قد توجَّه قافلا من تبوك حضرنى بئى، فطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدا؟ أستعين على ذلك كلِّ ذى رأى من أهلى. فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظلمَ قادمًا، زاح عنى الباطل وعرفت أنى لم أتج منه بشيء أبدا. فأجمعتُ صدقه، وصبَّح رسول الله ﷺ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس. فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له - وكانوا بضعة وثمانين رجلا - فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت، فلما سلَّمت عليه تبسَّم تبسِّم الغضب، ثم قال لى: «تعال»، فجئت أمشى حتى جلستُ بين يديه، فقال لى: «ماخلفك، ألم تك قد اشترت ظهرك؟» قال: فقلت: يارسول الله، إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيتُ جدلا، ولكنه والله لقد علمتُ لئن حَدَّثتكَ اليوم حديث كذب ترضى به عنى، ليوشكن الله بسُخطك على، ولئن حَدَّثتكَ بصدق تجدُّ علىَّ فيه، إنى لأرجو أقرب عقيبى ذلك من الله، عز وجل، والله ما كان لى عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر منى حين تخلفت عنك. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضى الله فيك». فممت وبادرنى رجال من بنى سلمة واتبعونى، فقالوا لى: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزتُ ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافيك من ذنبك استعفار رسول الله ﷺ لك. قال: فوالله ما زالوا يؤثبونى حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى: قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معى أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان، قالا ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك. قلت: فمن هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامرى، وهلال بن أمية الواقفى. فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا لى فيهما أسوة. قال: فمضيت حين ذكروهما لى - قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا - أيها الثلاثة - من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا، حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض، فما هى بالأرض التى كنت أعرف، فليثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحبى فاستكانا وقعدا فى

بيوتهما بيكيان، وأما أنا فكننت أشب القوم وأجلدهم، فكننت أشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف بالأسواق، فلا يكلمني أحد، وأتى رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم، وأقول في نفسي: حرك شفتيه برد السلام على أم لا؟ ثم أصلى قريبا منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، فإذا التفت نحوه أعرض، حتى إذا طال على ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي، وأحب الناس إلي - فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك الله: هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت. قال: فعدت فشدته فسكت، فعدت فشدته، فقال: الله ورسوله أعلم. قال: ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار. فبينما أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط الشام، ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فطفق الناس يشيرون له إلي، حتى جاء فدفع إلي كتابا من ملك غسان، وكننت كتابا، فإذا فيه: أما بعد، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك. قال: فقلت حين قرأتها: وهذا أيضا من البلاء. قال: فتيممت به التور فسجرت به، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: بل اعتزلها ولا تقربها. قال: وأرسل إلي صاحبي بمثل ذلك، قال: فقلت لامرأتي: الحقى بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضى الله في هذا الأمر. قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله، إن هلالا شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربنك، قالت: وإنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما يزال بيكي من لدن أن كان من أمرك ما كان إلى يومه هذا. قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قال: فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وأما أدرى ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب؟ قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليال، فكمّل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا: قد ضاقت على نفسي، وضاقت على الأرض بما رحبت، سمعت صارخا أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر. قال: فخررت ساجدا، وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا، فأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إلى رجل فرسا، وسعى ساع من أسلم وأوفى على جبل، فكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرنى، نزعت له ثوبي، فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أوم رسول الله ﷺ، يلقاني الناس فوجا فوجا يهثونى بالتوبة، يقولون: ليهنك توبة الله عليك. حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد

حواله الناس، فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول، حتى صافحنى وهنأتى، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك». قال: قلت: أمن عندك يارسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله». قال: وكان رسول الله ﷺ إذا سرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، حتى يعرف ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: يارسول الله، إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله. قال: «أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك». قال: فقلت: فإنى أمسك سهمى الذى بخير. وقلت: يا رسول الله، إنما نجاني الله بالصدق، وإن من توبتى ألا أحدث إلا صدقا ما بقت. قال: فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله من الصدق فى الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلانى الله تعالى، والله ما تعدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى. قال: وأنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ. وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾. قال كعب: فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام أعظم فى نفسى من صدقى رسول الله ﷺ يومئذ إلا أكون كذبتة فأهلك كما هلك الذين كذبوه؛ فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، فقال الله تعالى: ﴿سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِكْمًا إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآرَاهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. يَخْلِفُونَ لَكُمْ لَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦]. قال: وكنا خلفنا - أيها الثلاثة - عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله أمرنا، حتى قضى الله فيه، فذلك قال الله عز وجل: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾، وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذى ذكر مما خلفنا بتخلفنا عن الغزو، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه. رواه البخارى ومسلم بنحوه (١).

ولما ذكر تعالى ما فرّج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكره، من هجر المسلمين إياهم نحواً من خمسين ليلة بأيامها، وضاق عليهم أنفسهم، وضاق عليهم الأرض بما رحبت، أى: مع سعتها، فسددت عليهم المسالك والمذاهب، فلا يهتدون ما يصنعون، فصبروا لأمر الله، واستكانوا لأمر الله، وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ فى تخلفهم، وأنه كان عن غير عذر، فعوقبوا على ذلك هذه المدة، ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيرا لهم وتوبة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، أى: اصدقوا والزمو الصدق تكونوا مع أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجا من أموركم، ومخرجا،

وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذابا». أخرجه فى الصحيحين (١). وعن عبد الله بن عمر: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾: مع محمد ﷺ وأصحابه. وقال الضحاك: مع أبى بكر وعمر وأصحابهما. وقال الحسن البصرى: إن أردت أن تكون مع الصادقين، فعليك بالزهد فى الدنيا، والكف عن أهل الملّة.

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِنًا يَعْغِطُ الْكُفَّارَ وَلَا يَتَأَلَوْنَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

يعاتب تعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب، ورجبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل من المشقة، فإنهم نَقَصُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ؛ لأنهم ﴿ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ وهو: العطش ﴿ وَلَا نَصَبٌ ﴾ وهو: التعب ﴿ وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾ وهى: المجاعة ﴿ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِنًا يَعْغِطُ الْكُفَّارَ ﴾ أى: ينزلون منزلا يرهبُ عدوهم ﴿ وَلَا يَتَأَلَوْنَ ﴾ منه ظفراً وغلبة عليه ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ بهذه الاعمال التى ليست داخلة تحت قدرهم، وإنما هى ناشئة عن أفعالهم، أعمالا صالحة وثوابا جزيلا ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٣٠].

﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِحَاجَتِهِمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى: ولا ينفق هؤلاء الغزاة فى سبيل الله ﴿ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ أى: قليلا ولا كثيرا ﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا ﴾ أى: فى السبيل إلى الأعداء ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ ولم يقل «به» لأن هذه أفعال صادرة عنهم؛ ولهذا قال: ﴿ لِحَاجَتِهِمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾. وقال قتادة فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ الآية: ما ازداد قوم من أهلهم فى سبيل الله بعدا إلا ازدادوا من الله قربا.

﴿ وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفي الأحياء مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك ، فإنه قد ذهبت طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفي على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، وقال: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ الآية [التوبة: ١٢٠] ، قالوا: فنسخ ذلك بهذه الآية. وقد يقال: إن هذا بيان لمراده تعالى من نفي الأحياء كلها، وشردمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم، ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو، فيجتمع لهم الأمران في هذا: النفي المعين وبعده، صلوات الله وسلامه عليه، تكون الطائفة النافرة من الحى إما للتفقه وإما للجهاد؛ فإنه فرض كفاية على الأحياء.

وقال ابن عباس : ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعا ويتركوا النبي ﷺ وحده، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يعني: عصابة، يعني: السرايا، ولا يسبوا إلا بإذنه، فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبي ﷺ، قالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنا، وقد تعلمناه. فمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم، ويبعث سرايا أخرى، فذلك قوله: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ يقول: ليتعلموا ما أنزل الله على نبيهم، وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾. وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب محمد ﷺ، خرجوا في البوادي، فأصابوا من الناس معروفًا، ومن الخصب ما ينتفعون به، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى، فقال الناس لهم: ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجتتمونا. فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجًا، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ، فقال الله، عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ يبتغون الخير ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ وليستمعوا ما في الناس، وما أنزل الله بعدهم ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ الناس كلهم ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ .

وقال قتادة في هذه الآية: هذا إذا بعث رسول الله ﷺ الجيوش، أمرهم الله ألا يعرفوا نبيّه ﷺ، وتقيم طائفة مع رسول الله ﷺ تتفقه في الدين، وتنطلق طائفة تدعو قومها، وتحذرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم. وقال عكرمة: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَنْفِرُوا يَعْذِبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة: ٣٩] ، ﴿وَمَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ الآية [التوبة: ١٢٠]، قال المنافقون: هلك أصحاب البدو الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه. وقد كان ناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم، فأنزل الله، عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ الآية ، ونزلت: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ الآية [الشورى: ١٦] . وقال الحسن البصرى في الآية : ليتفقه الذين خرجوا، بما يردهم الله من الظهور على المشركين، والنصرة، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام؛ ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة، والطائف، واليمن، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لكونهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس وجذب البلاد وضيق الحال، وكان ذلك سنة تسع من هجرته ﷺ. ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع. ثم عاجلته المنية ﷺ بعد الحجة بأحد وثمانين يوماً، فاختره الله لما عنده.

وقام بالأمر بعده خليفته أبو بكر رضى الله عنه، وقد مال الدين ميلاً كاد أن ينحفل، فثبته الله تعالى به فوطد القواعد، وثبت الدعائم، ورد شارذ الدين وهو راغم. ورد أهل الردة إلى الإسلام، وبين الحق لمن جهله، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم وإلى الفرس، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنفس كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد. وكان تمام الأمر على يدي ولى عهده الفاروق عمر بن الخطاب، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، وقمع الطغاة والمنافقين، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً. وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعداً وقرباً. ففرقها على الوجه الشرعى، والسبيل المرضى. ثم لما مات شهيداً أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان ابن عفان، فكسا الإسلام بجلاله رياسة حلة سابعة. وأمدت في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة، وظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، فكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار، امثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أى: وليجد الكفار منكم غلظة عليهم فى قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذى يكون رفيقاً لأخيه المؤمن، غليظاً على عدوه الكافر، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة : ٥٤] ، وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، والتحريم : ٩] .

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أى: قاتلوا الكفار، وتوكلوا على الله، واعلموا أن الله معكم إن اتقيتموه وأطعتموه . وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة، فى غاية الاستقامة، والقيام بطاعة الله تعالى، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل الفتوحات كثيرة، ولم تزل الأعداء فى سَفَالٍ وخسار. ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك، طمع الأعداء فى أطراف البلاد، فأخذوا من الأطراف بلدانا كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، والله، سبحانه، الأمر من قبل ومن بعد. فكلما قام ملك من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر الله، فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه،

ويقدر ما فيه من ولاية الله .

﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ آيَاتُكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ﴾ فمن المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ آيَاتُكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا؟﴾ أى: يقول بعضهم لبعض: أىكم زادته هذه السورة إيمانا؟ قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾. وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أى: زادتهم شكا إلى شكهم، وربيا إلى ريبهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدى القلوب يكون سببا لضلالتهم ودمارهم، كما أن سئى المزاج لو غذى بما غذى به لا يزيده إلا خبالا ونقصا.

﴿ أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُمْ مِن أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

يقول تعالى: أو لا يرى هؤلاء المنافقون (١) ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ أى: يختبرون ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أى: لا يتوبون من ذنوبهم السالفة، ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم. قال مجاهد: يختبرون بالسنة والجوع. وقال قتادة: بالغزو فى السنة مرة أو مرتين.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾، هذا أيضا إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ ﴿ظَرَّ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أى: يلفتوا، ﴿هَلْ يَرَىٰكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ أى: تولوا عن الحق وانصرفوا عنه، وهذا حالهم فى الدين لا يشبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يقيمونه، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَفْرِفَةٌ. فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١]، وقال تعالى: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ. عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [المعارج: ٣٦، ٣٧]، أى: ما لهؤلاء القوم يتفللون عنك يمينا وشمالا، هروبا من الحق، وذهابا إلى الباطل.

وقوله: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] ﴿بِأَنَّهُمْ

(١) فى المخطوطة: «المنافقين» وهى خطأ .

قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١﴾ أى: لا يفهمون عن الله خطابه، ولا يقصدون لفهمه ولا يريدونه، بل هم فى شدة عنه ونفور منه، فلهدا صاروا إلى ما صاروا إليه.

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾

يقول تعالى ممتنا على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولا من أنفسهم، أى: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٩] ، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٤] ، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أى: منكم وبلغتكم، كما قال جعفر بن أبى طالب للنجاشى، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: إن الله بعث فينا رسولا منا، نعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته .

وقوله: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أى: يعز عليه الشىء الذى يعنتُ أمته ويشق عليها وفى الصحيح: «إن هذا الدين يسر» (١) ، وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة، يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه. ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى: على هدايتكم ووصول النفع الدينوى والأخروى إليكم. روى الطبرانى عن أبى الطفيل، عن أبى ذر قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه فى الهواء إلا وهو يذكرنا منه علما . قال: وقال ﷺ: «مابقى شىء يُقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم» (٢) .

وقوله: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ . وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ [الشعراء: ٢١٥ - ٢١٧] .

وهكذا أمره تعالى فى هذه الآية الكريمة، وهى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى: تولوا عما جنتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة ﴿ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ أى: الله كافى، لا إله إلا هو عليه توكلت، كما قال تعالى: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [الزمر: ٩] . ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أى: هو مالك كل شىء وخالقه، لأنه رب العرش العظيم، الذى هو سقف المخلوقات وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيها وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شىء، وقدره نافذ فى كل شىء، وهو على كل شىء وكيل .

آخر سورة براءة، والحمد لله وحده

(١) البخارى (٣٩) .

(٢) الطبرانى فى الكبير (١٥٥/٢) ، ١٥٦ (١٦٤٧) وقال الهشمى فى الزوائد ٢٦٦/٨ ، ٢٦٧ : « رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ وهو ثقة » .

تفسير سورة يونس

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾

أما الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تقدم الكلام عليها في أوائل سورة البقرة.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ أى: هذه آيات القرآن المحكم المبين ، وقال مجاهد: التوراة والإنجيل ، وقال الحسن: التوراة والزبور .

وقوله: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ الآية : يقول تعالى منكرا على من تعجب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر، كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قولهم: ﴿ أَبَشِّرْ يَهُدُونَنا ﴾ [التغابن: ٦] ، وقال هود وصالح لقومهما: ﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾ [الأعراف: ٦٣، ٦٩] وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا: ﴿ أَجْعَلُ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥] . وقال ابن عباس : لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً ، أنكرت العرب ذلك ، أو من أنكر منهم ، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد . قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ .

وقوله: ﴿ أَنْ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ : اختلفوا فيه ، فقال ابن عباس : سبقت لهم السعادة في الذكر الأول . وقال : أجرا حسنا، بما قدموا . وهذا كقوله تعالى: ﴿ لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا . مَا كُنَّ فِيهِ أَبْدًا ﴾ [الكهف: ٢ ، ٣] . وقال مجاهد: ﴿ أَنْ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ : الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقهم وتسيبهم . واختار ابن جرير قول مجاهد - أنها الأعمال الصالحة التي قدموها - قال: كما يقال: ﴿ له قدم في الإسلام ﴾ ، ومنه قول حسان رضى الله عنه:

لَنَا الْقَدَمُ الْعُلْيَا إِلَيْكَ وَخَلْفُنَا
لَأَوْلِنَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَابِعُ

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى: مع أنا بعثنا إليهم رسولا منهم، رجلا من جنسهم، بشيراً ونذيراً ﴿ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى: ظاهر، وهم الكاذبون في ذلك .

﴿إِنْ رَّبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْ يَهْدِيهِ ذٰلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه، وأنه خلّق السموات والأرض في ستة أيام - قيل: كهذه الأيام، وقيل: كل يوم كالف سنة مما تعدون - ثم استوى على العرش، والعرش أعظم المخلوقات وسقفها. ﴿يَدْبِرُ الْأُمْرَ﴾ أى: يدبر أمر الخلائق ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبا: ٣]، ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلظه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير، فى الجبال والبحار والعرمان والقفار ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦]. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الانعام: ٥٩].

وقوله: ﴿مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣]. وقوله: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رِبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ أى: أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أى: أيها المشركون فى أمركم، تعبدون مع الله غيره، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧]، وكذا الآية التى قبلها والتى بعدها.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

يخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة، لا يترك منهم أحدا حتى يعيده كما بدأه. ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أى: بالعدل والجزاء الأوفى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أى: بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العقاب، من ﴿سُمُومٍ وَحَمِيمٍ. وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة ٤٢، ٤٣]. ﴿هَذَا فَلْيَذوقوه حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ. وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجَ﴾ [ص: ٥٧، ٥٨]، ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ. يَطوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانَ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

﴿إِن فِي آخِزَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء وشعاع القمر نورا، هذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما

لثلا يشبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيراً، ثم يتزايد نُوره وجرمه، حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع فى النقص حتى يرجع إلى حاله الأول فى تمام شهر، كما قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدْرَتَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]، وقال: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الانعام: ٩٦]. وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَدْرُهُ﴾ أى: القمر ﴿وَقَدْرُهُ مَنَازِلَ لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام. ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أى: لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة فى ذلك، وحجة بالغة ﴿نَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾ (١) أى: نبين الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أى: تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئاً، كقوله تعالى: ﴿يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الاعراف: ٥٤]، وقال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ الآية [يس: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ (٢) اللَّيْلِ سَكِينًا﴾ الآية [الانعام: ٩٦].

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: من الآيات الدالة على عظمته تعالى، ما قال: ﴿وَكَايِنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يوسف: ١٠٥]، وقوله: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُفْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [سبا: ٩]، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] أى: العقول، وقال ها هنا: ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ أى: عقاب الله، وسَخَطَه، وعذابه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ ﴿أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ يَمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ولا يرجون فى لقائه شيئاً، ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأننوا إليها أنفسهم. قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها، حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأتمرون بها، بأن ماوأهم يوم معادهم النار، جزاء على ما كانوا يكسبون فى دنياهم من الآثام والخطايا والأجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسله واليوم الآخر.

(١) « يفصل » - بضم الياء وكسر الصاد: قراءة ابن كثير (القارئ) وأبى عمرو وحفص ويعقوب، وقرأ ابن السَّمِيعِ:

« تفصل » - بضم التاء وفتح الصاد. وقرأ الباقون: « تفصل »، بضم النون وكسر الصاد، وهى قراءة الحافظ

ابن كثير.

(٢) هى قراءة سبعية، كما سبق.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ
الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١١﴾ دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ
دَعْوَتُهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

وهذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وامتلوا ما أمروا به ،
فعملوا الصالحات ، بأنه سيهديهم بإيمانهم. يحتمل أن تكون «الباء» هاهنا سببية، فتقديره:
بسبب إيمانهم فى الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط، حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة.
ويحتمل أن تكون للاستعانة، كما قال مجاهد فى قوله: ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ ، قال: يكون
لهم نورا يمشون به .

وقوله: ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى:
هذا حال أهل الجنة. قال ابن جريج: أخبرت أن قوله: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾، قال: إذا مر
بهم الطير يشتهونه، قالوا: سبحانك اللهم ، وذلك دعواهم فيأتيهم الملك بما يشتهونه، فيسلم
عليهم، فيردون عليه، فذلك قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾، قال: فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم،
فلذلك قوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وهذه الآية فيها شبه من قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ
يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ الآية [الأحزاب: ٤٤] ، وقوله: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا تَأْتِيًا. إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾
[الواقعة: ٢٥، ٢٦]، وقوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]، وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ
كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وقوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: هذا فيه دلالة على أن الله تعالى هو المحمود
أبدا، المعبود على طول المدى؛ ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفى ابتداء كتابه،
وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]،
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] إلى غير ذلك من الأحوال التى يطول بسطها،
وأنه المحمود فى الأولى والآخرة ، فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، فى جميع الأحوال ؛ ولهذا جاء
فى الحديث : « إن أهل الجنة يُلهمون التسبيح والتحميد كما يُلهمون النفس » (١) . وإنما يكون
ذلك كذلك لما يرون من تزايد نعم الله عليهم، فتكرّر وتعاد وتزاد، فليس لها انقضاء ولا أمد،
فلا إله إلا هو ولا رب سواه .

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعَجَّلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَصِحَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ ﴾
رَبِيعُ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٢﴾

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده: أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم

أو أولادهم ، في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم عَدَم القصد بالشر إلى إرادة ذلك ،
 فلهذا لا يستجيب لهم - والحالة هذه - لطفًا ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو
 لأموالهم أو أولادهم بالخير والبركة والنماء؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ
 بِالْخَيْرِ لَقَضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ الآية أى: لو استجاب لهم كلُّما دعوه به فى ذلك، لأهلكهم، ولكن
 لا ينبغى الإكثار من ذلك، كما جاء فى الحديث . عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا
 تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة
 فيها إجابة فيستجيب لكم» (١). وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية: هو قول الإنسان لولده وماله
 إذا غضب عليه: «اللهم لا تبارك فيه والعنه». فلو يعجل لهم الاستجابة فى ذلك، كما
 يستجاب لهم فى الخير لأهلكهم.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ
 كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الشر، كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فذُو دُعَاءٍ
 عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١] أى: كثير، وهما فى معنى واحد؛ وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها
 وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله فى كشفها وزوالها عنه فى حال اضطجاعه
 وقعوده وقيامه ، وفى جميع أحواله ، فإذا فرَّج الله شدته وكشف كربته، أعرض ونأى بجانبه،
 وذهب كأنه ما كان به من ذاك شيء ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ﴾ .

ثم ذم تعالى مَنْ هذه صفته وطريقته فقال: ﴿كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ، فأما من
 رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد، فإنه مستثنى من ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ
 صَبَرُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١] ، وكقول رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن ، لا يقضى
 الله له قضاء إلا كان خيراً له: إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وإن أصابته سراء شكر
 فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن» (٢) .

﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا
 لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ
 لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٤﴾

أخبر تعالى عما أحلَّ بالقرون الماضية فى تكذيبهم الرسل فيما جاؤوهم به من البينات
 والحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم، وأرسل إليهم رسولا لينظر
 طاعتهم له، واتباعهم رسوله، وفى صحيح مسلم عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن

الدنيا حلوة خَضِرَة، وإن الله مستخلفكم فيها فانظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء (١) .

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِشْرَةٌ آتِيَةٌ غَيْرُ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأَكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركى قريش الجاحدين الحقَّ المعرضين عنه، أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحجته الواضحة قالوا له: ﴿إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ أى: رد هذا وجننا بغيره من غمط آخر، أو بدله إلى وضع آخر، قال الله لنبية ﷺ ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي ﴾ أى: ليس هذا إلى، إنما أنا عبد مأمور، ورسول مبلغ عن الله ﴿ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

ثم قال محتجا عليهم فى صحة ما جاءهم به : ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأَكُمْ بِهِ ﴾ أى: هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لى فى ذلك ومشيتته وإرادته ، والدليل على أنى لست أنقوله من عندى ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقى وأمانتى منذ نشأت بينكم إلى حين بعثنى الله عز وجل، لا تنتقدون على شيئا تغمصونى به ؛ ولهذا قال : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أى: أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل؛ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه ، فيما سأله من صفة النبى ﷺ ، قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان : فقلت : لا - وقد كان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين، ومع هذا اعترف بالحق:

وَالْفَضْلُ مَا شَهِدْتُ بِهِ الْأَعْدَاءُ

فقال له هرقل : فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله! وقال جعفر بن أبى طالب للنجاشى ملك الحبشة: بعث الله فينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته، وقد كانت مدة مقامه، عليه السلام، بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة. وعن سعيد بن المسيب: ثلاثا وأربعين سنة. والصحيح المشهور الأول.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ (٢) مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِعَايَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ﴿١٧﴾

يقول تعالى : لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراما ﴿ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ وتقول

(٢) فى المخطوطة : « ومن » وهو خطأ .

(١) مسلم (٩٩/٢٧٤٢) .

على الله ، وزعم أن الله أرسله ، ولم يكن كذلك ، فليس أحد أكبر جرماً ولا أعظم ظلماً من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء ، فكيف يشبه حال هذا بالأنبياء ؟ فإن من قال هذه المقالة صادقاً أو كاذباً، فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على برِّه أو فُجُوره ما هو أظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى ووقت نصف الليل في حُندس الظلماء، فَمَنْ سِما كل منهما وكلامه وفعاله يَسْتَدَلُّ من له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب، وسَجَّاح، والأسود العنسى .

قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنجفل الناس، فكننت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام ، وصلُّوا بالليل والناس نيام ، تدخلون الجنة بسلام» (١) .

ولما قَدَمَ ضمَامُ بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في قومه بنى سعد بن بكر قال لرسول الله فيما قال له: من رفع هذه السماء ؟ قال : « الله » . قال : ومن نصب هذه الجبال ؟ قال : « الله » . قال : ومن سطح هذه الأرض ؟ قال : « الله » . قال : فبالذى رفع هذه السماء، ونصب هذه الجبال، وسَطَّحَ هذه الأرض: الله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ قال : « اللهم نعم » ثم سأله عن الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين، ويحلف رسول الله ﷺ، فقال له: صدقت، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص (٢) . فاكتمى هذا الرجل بمجرد هذا، وقد أيقن بصدقه، صلوات الله وسلامه عليه، بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه، كما قال حسان بن ثابت:

لَوْ لَمْ تُكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُّبَيَّنَةٌ كَانَتْ بَدِيهَتُهُ تَأْتِيكَ بِالْخَبَرِ

وأما مسيلمة فمن شاهده من ذوى البصائر، علم أمره لا محالة، بأقواله الركيكة التي ليست بفضيحة، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة، وقرآنه الذي يخلد به فى النار يوم الحسرة والفضيحة، وكَم من فرق بين قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ إلى آخرها [البقرة: ٢٥٥] . وبين قول مسيلمة قبحه الله ولعنه: «يا ضفدع بنت الضفدعين ، نقى كما تنقىن لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين» ! . وقوله - قُبِّحَ ولعن: « لقد أنعم الله على الحبلَى، إذ أخرج منها نَسْمَةٌ تسعى، من بين صفاقٍ وحشَى » . وقوله - خَدَّرَهُ اللهُ فى نار جهنم، وقد فعل : « الفيل وما أدراك ما الفيل ؟ له زُلُقُومٌ طويلٌ » وقوله - أبعده الله من رحمته: « والعاجنات عجننا ، والخابزات خبزنا، واللاقمات لقما ، إهالة وسمنا ، إن قريشا قوم يعتدون » إلى غير ذلك من الهديانات والخرافات التي يأنف الصبيان أن يتلفظوا بها، إلا على وجه السخرية والاستهزاء ؛ ولهذا أرغم الله أنفه ، ومزق شمله. ولعنه صحبه وأهله. وقدموا على الصديق تائبين، وجاؤوا

(١) المسند (٤٥١/٥) ، والترمذى - واللفظ له - (٢٤٨٥) وقال : « حديث صحيح » .

(٢) مسلم (١٠/١٢) عن أنس ، بنحوه .

فى دين الله راغبين، فسألهم الصديق خليفة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، ورضى عنه - أن يقرؤوا عليه شيئا من قرآن مسيلمة لعنه الله، فسألوه أن يعفيهم من ذلك، فأبى عليهم إلا أن يقرؤوا شيئا منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس، فيعرفوا فضل ما هم عليه من الهدى والعلم. فقرؤوا عليه من هذا الذى ذكرناه وأشباهه، فلما فرغوا قال لهم الصديق، رضى الله عنه: ويحكم! أين كان يُدَّهَبُ بعقولكم!؟

وذكروا أن وفد عمرو بن العاص على مسيلمة، وكان صديقا له فى الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعد، فقال له مسيلمة: ويحك يا عمرو، ماذا أنزل على صاحبكم - يعنى: رسول الله ﷺ - فى هذه المدة؟ فقال: لقد سمعت أصحابه يقرؤون سورة عظيمة قصيرة فقال: وما هى؟ فقال: ﴿وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالنَّحْيِ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر]، ففكر مسيلمة ساعة، ثم قال: وقد أنزل على مثله. فقال: وما هو؟ فقال: «يا وبر، إنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حقر نقر، كيف ترى يا عمرو؟» فقال له عمرو: «والله إنك لتعلم أنى أعلم أنك لتكذب»، فإذا كان هذا من مشرك فى حال شركه، لم يشبهه عليه حال محمد ﷺ وصدقه، وحال مسيلمة - لعنه الله - وكذبه، فكيف بأولى البصائر والنهى، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجى! ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١] ، وكذلك من كذب بالحق الذى جاءت به الرسل، وقامت عليه الحجج، لا أحد أظلم منه كما جاء فى الحديث: «أعتى الناس على الله رجل قتل نبيا، أو قتله نبي» (١).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٨) ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٩)

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تنفع ولا تضر ولا تملك شيئا، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها، ولا يكون هذا أبدا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾. وقال ابن جرير: معناه: أتخبرون الله بما لا يكون فى السموات ولا فى الأرض؟ ثم نزه نفسه عن شركهم وكفرهم، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث فى الناس، كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد، وهو الإسلام؛ قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم

على الإسلام، ثم وقع الاختلاف بين الناس، وعُبدت الأصنام والأنداد والأوثان، فبعث الله الرسل بآياته وبياناته وحُججه البالغة وبراهينه الدامغة، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] .

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَقَّتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه؛ وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود لقضى بينهم فيما فيه اختلفوا، فأسعد المؤمنين، وأعتت الكافرين.

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾

أى: ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون : لولا انزل على محمد آية من ربه ، يعنون: كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن يحول لهم الصفا ذهابا، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهارا، أو نحو ذلك مما الله عليه قادر ، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا . بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان : ١٠ ، ١١] وكقوله : ﴿وَمَا مَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ﴾ الآية [الإسراء: ٥٩] ، يقول تعالى: إن ستنى فى خلقى أنى إذا آتيتهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة. ولهذا لما خير رسول الله ﷺ ، بين أن يعطى ما سألوا، فإن أجابوا وإلا عوجلوا، وبين أن يتركهم ويُنظرهم، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة ﷺ ؛ ولهذا قال تعالى إرشادا لنبىه إلى الجواب عما سألوا: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أى: الأمر كله لله، وهو يعلم العواقب فى الأمور، ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ أى: إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتهم فانتظروا حكم الله فى وفىكم. هذا مع أنهم قد شاهدوا من معجزاته ﷺ ، أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إيداره، فانشق باثنتين : فرقة من وراء الجبل، وفرقة من دونه. وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا ومالم يسألوا، ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشادا وتبئنا لأجابه، ولكن علم أنهم إنما يسألون عنادا وتعنتا، فتركهم فيما رابهم، وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] ، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١] ، ولما فيهم من المكابرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَمْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧] فمثل هؤلاء

أقل من أن يجابوا إلى ما سألوها؛ لأنه لا فائدة في جواب هؤلاء؛ لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم، لكثرة فجورهم وفسادهم؛ ولهذا قال: ﴿فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا أذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِن بَعْدِ ضِرَاءِ مَسْتَهْمِ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُم فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَئِن آجَمْتَنَا مِنْ هَذَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا آجَمْتَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ بِتَأْيِهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْبِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّمَا رَجَعْتُكُمْ فَمَنْعْتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم، كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجذب، والمطر بعد القحط ونحو ذلك ﴿وَإِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾. قال مجاهد: استهزاء وتكذيب. كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ الآية [يونس: ١٢]، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سماء - مطر - أصابهم من الليل ثم قال: «هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنُورِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ» (١).

وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أى: أشد استدراجا وإمهالا، حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه، والكاثبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله، ويحصونه عليه، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة، فيجازيه على الحقيق والجليل، والنقى والقَطْمِيرِ.

ثم أخبر تعالى أنه: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أى: يحفظكم ويكلؤكم بحراسته ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ أى: بسرعة سيرهم راققين، فبينما هم كذلك إذ ﴿جَاءَتْهَا﴾ أى: تلك السفن ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أى: شديدة ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أى: اغتلم البحر عليهم ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أى: هلكوا ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ أى: لا يدعون معه صنما ولا وثنا، بل يفرّدونه بالدعاء والابتهال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ ائْتَرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال هاهنا: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَئِن آجَمْتَنَا مِنْ هَذَا﴾ أى: هذه الحال ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أى: لانشرك بك أحدا، ولنفرّدك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء هاهنا، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا

أَمْجَاهُمْ ﴿٢٤﴾ أى : من تلك الورطة ﴿إِذَا هُمْ يَتَفَوَّنُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أى : كان لم يكن من ذلك شيء ﴿كَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرْمَسُهُ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿يَأْيُهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْرِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أى : إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تضرون به أحدا غيركم ، كما جاء فى الحديث : «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا ، مع ما يدخر الله لصاحبه فى الآخرة ، من البغي وقطيعة الرحم » (١) .

وقوله : ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى : إنما لكم متاع فى الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة ﴿ثُمَّ إِنَّا مَرْجِعُكُمْ﴾ أى : مصيركم ومآلكم ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ﴾ أى : فنخبركم بجميع أعمالكم ، ونوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾

ضرب تعالى مثلا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها ، بالنبات الذى أخرجه الله من الأرض بماء أنزل من السماء ، مما يأكل الناس من زروع وثمار ، على اختلاف أنواعها وأصنافها ، وما تاكل الأنعام من أب وقضب وغير ذلك ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أى : زينتها الفانية ﴿وَوَازَّيَّنَتْ﴾ أى : حسنت بما خرج من ربها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان ﴿وَوَظَّنَّ أَهْلُهَا﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ أى : على جذاذها وحصادها ، فيبناهم كذلك إذ جاءتها صاعقة ، أو ريح باردة ، فأبيست أوراقها ، وأتلفت ثمارها ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ أى : يبسا بعد الخضرة والنضارة ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ أى : كأنها ما كانت حسناء قبل ذلك . وقال قتادة : ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ : كان لم تنعم . وقال تعالى إخباراً عن المهلكين : ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَائِعِينَ . كَأَن لَّمْ يَغْنُوا فِيهَا﴾ [هود : ٩٤ ، ٩٥] .

ثم قال تعالى : ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أى : نبين الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعتبرون بهذا المثل فى زوال الدنيا عن أهلها سريعا مع اغترارهم بها ، وتمكنهم بمواعيدها وتفتلتها منهم ، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها ، والطلب لمن هرب منها ، وقد ضرب الله مثل الحياة الدنيا بنبات الأرض ، فى غير ما آية من كتابه العزيز ، فقال فى سورة الكهف : ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف : ٤٥] ، وكذا فى سورة الزمر (٢) ، والحديد (٣) يضرب بذلك مثل الحياة الدنيا كماء .

(١) أبو داود (٤٩٠٢) ، والترمذى (٢٥١١) وقال : «حديث حسن صحيح» .

(٢) الآية (٢٠) .

(٣) الآية (٢١) .

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ الآية: لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها ، رَغَّبَ فِي الْجَنَّةِ ودعا إليها، وسماها دار السلام أى: من الآفات، والنقائص والنكبات، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

عن جابر بن عبد الله قال: خرج علينا رسولُ الله ﷺ يوماً فقال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسى، وميكائيل عند رجلى، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً. فقال: اسمع سمعت أذنك، واعقل عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أمك كمثل ملك اتخذ داراً، ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مادية، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد الرسول، فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها» (١).

رَبِيع ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح : الحسنى فى الدار الآخرة، كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]. وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: هى تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وزيادة على ذلك، ويشمل ما يعطيهم الله فى الجنان من القصور والحور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضل ورحمته، وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم، عن أبى بكر الصديق، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله ابن عباس، وقتادة، والسدى، وغيرهم من السلف والخلف.

وقد وردت فى ذلك أحاديث كثيرة، عن رسول الله ﷺ، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن صهيب؛ أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه. فيقولون: وما هو؟ ألم يُثَقَّلْ موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا من النار؟». قال: «فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر لأعينهم». وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة (٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أى: قنام وسواد فى عَرَصات المحشر، كما يعترى وجوه الكفرة الفجرة من القترة والغبرة ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أى: هوان وصغار، أى: لا يحصل لهم

(١) البخارى (٨٢٨١) بنحوه .

(٢) المسند (٤/٣٣٢)، ومسلم (١٨١/٢٩٧)، والترمذى (٢٥٥٢)، وابن ماجه (١٨٧).

إهانة في الباطن، ولا في الظاهر، بل هم كما قال تعالى في حقهم: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] أى: نضرة في وجوههم، وسروراً في قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضلِهِ ورحمته، آمين.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ مِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِرٍ كَانَمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿١٧﴾

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يُضاعف لهم الحسنات، ويزدادون على ذلك، عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر تعالى عدله فيهم، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها، لا يزيدهم على ذلك، ﴿وتَرْهَقُهُمْ﴾ أى: تعثر بهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها، كما قال: ﴿وتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الدَّلِيلِ﴾ الآية [الشورى: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ . مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ الآيات [إبراهيم: ٤٢ - ٤٤]، وقوله: ﴿مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِمٍ﴾ أى: من مانع ولا واق يقيه العذاب، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ . كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠ - ١٢].

وقوله: ﴿كَانَمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهُهُمْ﴾ الآية: إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وَجُوهٌُ وَسَوْدٌ وَجُوهٌُ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وَجُوهُهُمُ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمُ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧]، وقوله تعالى: ﴿وَجُوهُهُمُ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ . وَوَجُوهُهُمُ يَوْمَئِذٍ مُّغْشَرَةٌ﴾ الآية [عبس: ٣٨ - ٤٠].

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿هَٰنَالِكَ تَبَلَّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أى: أهل الأرض كلهم، من جن وإنس، وبر وفاجر، كقوله: ﴿وَنَحْشُرَانَهُمْ فَلَمَّ نَعَادِرُ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ الآية، أى: الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، كقوله تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، وقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ﴾ [الروم: ١٤].

وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة إخباراً عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة: ﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ الآية، أنهم أنكروا عبادتهم، وتبرؤوا منهم، كقوله: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ الآية [مريم: ٨٢]. وقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا

حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءُ ﴿ [الاحقاف: ٥ ، ٦] . وقوله في هذه الآية إخباراً عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ أى: ما كنا نشعر بها ولا نعلم، وإنما أنتم كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضينا منكم بذلك.

وفى هذا تبيكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ممن لا يسمع ولا يبصر، ولا يغنى عنهم شيئاً، ولم يأمرهم بذلك ولا رضى به ولا أرادته، بل تبرأ منهم فى وقت أحوج ما يكونون إليه، وقد تركوا عبادة الحى القيوم، السميع البصير، القادر على كل شىء، العليم بكل شىء وقد أرسل رسله وأنزل كتبه، أمراً بعبادته وحده لا شريك له، ناهياً عن عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦] ، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الانبياء: ٢٥] ، وقال: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] . والمشركون أنواع وأقسام كثيرون، قد ذكرهم الله فى كتابه، وبين أحوالهم وأقوالهم ، ورد عليهم فيما هم فيه أتم رد.

وقوله: ﴿هَذَا كِتَابٌ تَجِيبُ لِمَنْ سَأَلَ عَنْهُ مِنَ الْوَعْدِ وَأَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أى: فى موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما أسلفت من خير وشر ، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَتْلَى السُّرَاتُورُ﴾ [الطارق: ٩] ، وقال تعالى: ﴿يَبْنَؤُا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣] ، وقال تعالى: ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا . افْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الاسراء: ١٣ ، ١٤] .

وقوله: ﴿ وَرَدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ ﴾ أى: ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكيم العدل، فصللها ، وأدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أى : ذهب عن المشركين ﴿ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى: ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه .

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالَةُ فَإِنَّكُمْ تَصْرَفُونَ ﴿٢٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانيته الإلهية ، فقال : ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: من ذا الذى ينزل من السماء ماء المطر، فيشق الأرض شقاً بقدرته ومشيبته، فيخرج منها ﴿حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدائقَ غلبًا . وفاكهةً وأبا﴾ [عبس: ٢٧ - ٣١] ، إله مع الله ؟ فسيقولون: الله ، ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ [الملك: ٢١] ، وقوله: ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ أى: الذى وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو

شاء لذهب بها وسلبكم إياها، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك: ٢٣] ، وقال: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴾ [الانعام: ٤٦].

وقوله: ﴿ وَمَنْ يُخْرِجِ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجِ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ أى: بقدرته العظيمة، ومنتته العجيبة، وقد تقدم ذكر الخلاف فى ذلك، وأن الآية عامة فى ذلك كله (١). وقوله: ﴿ وَمَنْ يُدَبِّرِ الْأُمْرَ ﴾ أى: من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه، وهو المتصرف الحاكم الذى لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩] ، فالملك كله العلوى والسفلى، وما فيهما من ملائكة وإنس وجان، فقبيرون إليه، عبيد له، خاضعون لديه ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ أى: هم يعلمون ذلك ويعترفون به ﴿ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أى: أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم؟.

وقوله: ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ ﴾ أى: فهذا الذى اعترفتن بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذى يستحق أن يفرد بالعبادة ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ أى: فكل معبود سواه باطل، لا إله إلا هو، واحد لا شريك له ﴿ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ أى: فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه، وأنتم تعلمون أنه الرب الذى خلق كل شىء، والمتصرف فى كل شىء؟

وقوله: ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى: كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره ، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف فى الملك وحده، الذى بعث رسله بتوحيده؛ فلهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكنى النار، كقوله: ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر: ٧١].

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ ﴿٤٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَّ فَمَا لَكُمُ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والانداد ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ ﴾ ؟ أى: من بدأ خلق هذه السموات والأرض ثم ينشئ ما فيهما من الخلائق، ويفرق أجرام السموات والأرض ويبدلها ببناء ما فيهما، ثم يعيد الخلق خلقاً جديداً؟ ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ هو الذى يفعل هذا ويستقل به، وحده لا شريك له ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ أى: فكيف تصرفون عن طريق الرشيد إلى الباطل؟! ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾

أى: أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال، وإنما يهذى الحيارى والضلال، ويقلب القلوب من الغى إلى الرشد الله، الذى لا إله إلا هو ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَى ﴾ أى: أفيتبع العبد الذى يهذى إلى الحق ويُبصِّر بعد العمى، أم الذى لا يهذى إلى شيء إلا أن يهذى، لعماه وبكمه؟ كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال: ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٤٢] ، وقال لقومه: ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ . وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أى: فما بالكم يذهبُ بقولكم، كيف سويتم بين الله وبين خلقه، وعدلتم هذا بهذا، وعبدتم هذا وهذا؟ وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادى من الضلالة بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة.

ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون فى دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً، وإنما هو ظن منهم، أى: توهم وتخيل، وذلك لا يغنى عنهم شيئاً ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾: تهديد لهم، ووعيد شديد؛ لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء.

﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِن نَّصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣٧) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣٨) ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَا تَهُم تَأْوِيلُهُ كَذَّابَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣٩) ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ (٤٠)

هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور، ولا بسورة من مثله، لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته، واشتماله على المعانى العزيزة الغزيرة، النافعة فى الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله الذى لا يشبهه شيء فى ذاته ولا صفاته، ولا فى أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام البشر ﴿ وَلَكِن نَّصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى: من الكتب المتقدمة، ومهيماً عليها، ومبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل. وقوله: ﴿ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى: وبيان الأحكام والحلال والحرام، بياناً شافياً كافياً حقاً لا مرية فيه من الله رب العالمين .

وقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى: إن ادعيتم وافترتيم وشككتكم فى أن هذا من عند الله، وقلتم كذباً وميناً: « إن هذا من عند محمد »، فمحمد بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن، فاتوا أنتم بسورة مثله، أى: من جنس القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان.

وهذا هو المقام الثالث فى التحدى، فإنه تعالى تحدهم ودعاهم، إن كانوا صادقين فى دعواهم، أنه من عند محمد، فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده وليستعينوا بمن شاؤوا. وأخبر أنهم لا يقدرُونَ على ذلك، ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: ﴿ قُلْ لئن اجتمعتِ الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء: ٨٨]، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه، فقال فى أول سورة هود: ﴿ أم يَقُولُونَ اقْرَأْهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود: ١٣]، ثم تنازل إلى سورة، فقال فى هذه السورة: ﴿ أم يَقُولُونَ اقْرَأْهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾، وكذا فى سورة البقرة تحدهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً، فقال: ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ ﴾ الآية: [البقرة: ٢٤].

هذا وقد كانت الفصاحة من سجايهم، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى فى هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قبَلَ لأحد به، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته، وجزالته وطلاوته، وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به، وأفهمهم له، وأتبعهم له وأشدهم له انقياداً، كما عرف السحرة، لعلمهم بفنون السحر، أن هذا الذى فعله موسى، عليه السلام، لا يصدر إلا عن مؤيد مُسدّد مرسل من الله، وأن هذا لا يستطيع لبشر إلا بإذن الله. وكذلك عيسى، عليه السلام، بُعث فى زمان علماء الطب ومعالجة المرضى، فكان يرى الأكمه والأبرص، ويحى الموتى بإذن الله، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله؛ ولهذا جاء فى الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً (١)».

وقوله: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ يقول: بل كذب هؤلاء بالقرآن، ولم يفهموه ولا عرفوه ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ أى: ولم يُحصَلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلاً وسفهاً ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى: من الأمم السالفة ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ أى: فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلواً، وكفراً وعناداً وجهلاً، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم.

وقوله: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ أى: ومن هؤلاء الذين بُعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن، ويتبعك ويتنفع بما أرسلت به ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ بل يموت على ذلك ويبعث عليه ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ أى: وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضلّه، وهو العادل الذى لا يجور، بل يعطى كلا ما يستحقه، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه، لا إله إلا هو.

﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيْتُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ: وإن كذبك هؤلاء المشركون، فبئراً منهم ومن عملهم ﴿فقل لي عملي ولكم عملكم﴾، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى آخرها [سورة الكافرون]. وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين: ﴿إِنَّا بَرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية [المتحنة: ٤].

وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أى: يسمعون كلامك الحسن، والقرآن العظيم، والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة فى القلوب والأبدان والأديان، وفى هذا كفاية عظيمة، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم، فإنك لا تقدر على إسماع الأصم - وهو الأطرش - فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء، إلا أن يشاء الله. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ أى: ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التؤدة، والسمت الحسن، والخلق العظيم، والدلالة الظاهرة، على نبوتك لأولى البصائر والنهى، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم، ولا يحصل لهم من الهداية شىء مما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، والكافرون ينظرون إليك بعين الاحتقار، ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَتَّخِذُونَكَ إِلهًا هُزُوًا﴾ الآية [الفرقان: ٤١].

ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحد شيئاً، فهو الحاكم المتصرف فى ملكه بما يشاء، الذى لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، لعلمه وحكمته وعدله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. وفى الحديث عن أبى ذر، عن النبى ﷺ، فيما يرويه عنه ربه عز وجل: «يا عبادى، إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» إلى أن قال فى آخره: «يا عبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفىكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه». رواه مسلم بطوله (١).

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول تعالى مُدْكَرًا للناس قيام الساعة وحشرهم من أجدانهم إلى عرصات القيامة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ الآية، كقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا . يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢ - ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا

لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴿٥٥﴾ الآيتين [الروم: ٥٥، ٥٦]. وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة كقوله: ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ . قَالَ إِنَّ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤].

وقوله: ﴿ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ أى: يعرف الأبناء الآباء ، والقربان بعضهم لبعض ، كما كانوا فى الدنيا ، ولكن كل مشغول بنفسه ، ﴿ فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ الآية [المؤمنون: ١٠١] ، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ [المعارج: ١٠] الآيات .

وقوله: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ ، كقوله تعالى: ﴿ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ١٥] ، لأنهم خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المين. فهذه هى الخسارة العظيمة، ولا خسارة أعظم من خسارة من فرّق بينه وبين أحبته، يوم الحسرة والندامة .

﴿ وَإِنَّمَا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

يقول تعالى مخاطبا لرسوله ﷺ: ﴿ وَإِنَّمَا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾ أى: نتقم منهم فى حياتك لتقر عينك منهم ﴿ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أى: مصيرهم ومنقلبهم، والله شهيد على أفعالهم بعدك .
وقوله: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ ﴾ : قال مجاهد: يعنى يوم القيامة ﴿ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر: ٦٩] ، فكل أمة تُعْرَضُ على الله بحضرة رسولها، وكتاب أعمالها من خير وشر وموضوع شاهد عليهم، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضا أمة بعد أمة. وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم فى الخلق، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم، ويقضى لهم، كما جاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضى لهم قبل الخلائق» (١) ، فأتمت إنما حازت قَصَبَ السَّبْقِ لشرف رسولها، صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَجِرُّونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عِدَابُهُمْ يَبْتَئُونَ أَوْ نَهَارًا مَادَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَلَنْتُمْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخَالِدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كُفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب وسؤالهم عن وقته قبل التعيين، مما لا فائدة لهم فيه، كقوله : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ [الشورى: ١٨] أى: كائنة لا محالة وواقعة، وإن لم يعلموا وقتها وعينا، ولهذا أرشد رسول الله ﷺ إلى جوابهم فقال : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ أى: لا أقول إلا ما علمنى، ولا أقدر على شىء مما استأثر به إلا أن يُطلعنى عليه، فأنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجىء الساعة وأنها كائنة، ولم يطلعنى على وقتها، ولكن ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾، أى: لكل قرن مدة من العمر مُدَدَرَةٌ، فإذا انقضى أجلهم ﴿ فَلَا يَسْتَعْرِضُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾، كقوله: ﴿ وَتَنْ يُؤَخِّرُ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ [المنافقون: ١١]، ثم أخبرهم أن عذاب الله سيأتيهم بغتة، فقال: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا ﴾ أى: ليلاً أو نهاراً، ﴿ مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ . أَمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ الْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ يعنى: أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا: ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ [السجدة: ١٢] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥]. ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾ أى: يوم القيامة يقال لهم هذا، تبيكتنا وتقرعنا، كقوله: ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ . أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ . اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: ١٣ - ١٦].

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ ﴿ ٥٤ ﴾ ربيع
وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ
وَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿ ٥٥ ﴾

يقول تعالى: ويستعجلونك «أحق هو»؟ أى: المعاد والقيامة من الأجداد بعد صيرورة الأجسام تراباً ﴿ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى: ليس صيرورتكم تراباً بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]. وهذه الآية ليس لها نظير فى القرآن إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد فى سورة سبأ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [الآية: ٣]، وفى التغابن: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُعْثُنَّ ثُمَّ لَتُنْبِتُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الآية: ٧].

ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يود الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ﴿ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴾ أى: بالحق ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ ٥٥ ﴾ هُوَ يَحْيَىٰ وَيُيَسِّرُ وَيُلَيِّقُ تَرْجِعُونَ ﴿ ٥٦ ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنَّ وعده حقّ كائن لا محالة، وأنه يحيى ويميت وإليه مرجعهم، وأنه القادر على ذلك، العليم بما تفرّق من الأجسام وتمزّق في سائر أقطاب الأرض والبحار والقفار .

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

يقول تعالى ممتنا على خلقه بما أنزل إليهم من القرآن العظيم على رسوله الكريم: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: زاجر عن الفواحش ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أى: من الشبهة والشكوك، وهو إزالة ما فيها من رجس ودنّس ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أى: يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى. وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه، كقوله تعالى: ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْءَانٌ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يَبْذُلُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ الآية [فصلت: ٤٤] .

وقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أى: بهذا الذى جاءهم من الله من الهدى ودين الحق، فليفرحوا، فإنه أولى ما يفرحون به ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أى: من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحرمون ويحلون من البحائر والسوائب والوصائل، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] الآيات .

وروى الإمام أحمد عن عوف بن مالك بن نضلة عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا قَشْفُ الهيئة، فقال: «هل لك مال؟» قال: قلت: نعم. قال: «من أى المال؟» قال: قلت: من كل المال، من الإبل والرقيق والخيل والغنم. فقال: «إذا أتاك مالا فليّر عليك». وقال: «هل تنتج إبل قومك صحاحا آذانها، فتعمد إلى موسى فتقطع آذانها، فتقول: هذه بحر وتشقها، أو تشق جلودها وتقول: هذه صرْم، وتحرمها عليك وعلى أهلك؟» قال: نعم. قال: «فإن ما أتاك الله لك حل، وساعد الله أشد من ساعدك، وموسى الله أحد من موساك» وذكر تمام الحديث . وهذا حديث جيد قوى الإسناد (١) .

وقد أنكر تعالى على من حرّم ما أحل الله، أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء، التى

لا مستند لها ولا دليل عليها، ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة، فقال: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى: ما ظنهم أن يصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾: قال ابن جرير: فى تركه معاجلتهم بالعقوبة فى الدنيا. قلت: ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع فى الدنيا، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم فى دنياهم أو دينهم. ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم، ويضيعون على أنفسهم، فيجعلون بعضا حلالا وبعضا حراما. وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه فى دينهم.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

يخبر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق فى كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة فى حقارتها وصغرها فى السموات ولا فى الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا فى كتاب مبين، كقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الانعام: ٥٩]، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات، وكذلك الدواب السارحة فى قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ الآية [الانعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ الآية [هود: ٦].

وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف بعلمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ. الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٧ - ٢١٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أى: إذ تأخذون فى ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راؤون سامعون، ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان: « أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (١).

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكُمْ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

يخبر تعالى أن أوليائه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، كما فسره لهم ربهم، فكل من كان تقيا

كان لله وليا ، ف ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى : فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما وراءهم فى الدنيا . وقال عبد الله بن مسعود ، وابن عباس ، وغير واحد من السلف : أولياء الله : الذين إذا رؤوا ذكّر الله .

وروى ابن جرير عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من عباد الله عابادا يغبطهم الأنبياء والشهداء » . قيل : من هم يا رسول الله ؟ لعلنا نجيبهم . قال : « هم قوم تحابوا فى الله من غير أموال ولا أنساب ، وجوههم نور على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس » . ثم قرأ : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ . ثم رواه أيضا أبو داود عن أبى زرعة ابن عمرو بن جرير ، عن عمر بن الخطاب عن النبى ﷺ ، بمثله (١) . وهذا أيضا إسناد جيد ، إلا أنه منقطع بين أبى زرعة وعمر بن الخطاب ، والله أعلم . وروى الإمام أحمد عن أبى ذر؛ أنه قال : يا رسول الله ، الرجل يعمل العمل فيحمله الناس عليه ، ويشنون عليه به ، فقال رسول الله ﷺ : « تلك عاجل بشرى المؤمن » . رواه مسلم (٢) . وهكذا روى عن ابن مسعود ، وأبى هريرة ، وابن عباس ، ومجاهد ، وعروة بن الزبير ، ويحيى ابن أبى كثير ، وإبراهيم النخعى ، وعطاء بن أبى رباح : أنهم فسروا ذلك بالرؤيا الصالحة .

وقيل : المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة كقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ . نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٠ - ٣٢] . وفى حديث البراء : « أن المؤمن إذا حضره الموت ، جاءه ملائكة بيض الوجوه ، بيض الثياب ، فقالوا : اخرجى أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان . فتخرج من فمه ، كما تسيل القطرة من فم السقاء » (٣) .

وأما بشرهم فى الآخرة ، فكما قال تعالى : ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ وَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء : ١٠٣] ، وقال تعالى : ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد : ١٢] . وقوله : ﴿لَا تَدْبِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أى : هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير ، بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة : ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

(١) ابن جرير فى التفسير (٩٢/١١) ، وأبو داود (٣٥٢٧) ، وصححه الألبانى .

(٢) المسند (١٥٦/٥) ، ومسلم (١٦٦/٢٦٤٢) .

(٣) المسند (٢٨٧/٤) ، وأبو داود (٤٧٥٣) ، والترمذى (١٠٧١) ، وقال : « وفى الباب عن البراء بن عازب » ،

وصححه الألبانى .

﴿ وَلَا يَخْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَسْمَعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْمَعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ وَلَا يَخْزَنُكَ ﴾ قول هؤلاء المشركين ، واستعن بالله عليهم ، وتوكل عليه ؛ فإن ﴿ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ ، أى : جميعها له ولرسوله وللمؤمنين ، ﴿ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم .

ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض ، وأن المشركين يعبدون الأصنام ، وهى لا تملك شيئا ، لا ضراً ولا نفعاً ، ولا دليل لهم على عبادتها ، بل إنما يتبعون فى ذلك ظنونهم وتخرفهم وكذبهم وإفكهم .

ثم أخبر أنه الذى جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه ، أى : يستريحون فيه من نصبهم وكلالهم وحركاتهم ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أى : مضيئاً لمعاشهم وسعيهم ، وأسفارهم ومصالحهم ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ ﴾ أى : يسمعون هذه الحجج والأدلة ، فيعتبرون بها ، ويستدلون على عظمة خالقها ، ومقدرها ومسيرها .

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى منكرأ على من ادعى أن له ولداً : ﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ أى : تقدر عن ذلك ، هو الغنى عن كل ما سواه ، وكل شيء فقير إليه ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : فكيف يكون له ولد مما خلق ، وكل شيء مملوك له ، عبد له؟! ﴿ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ﴾ أى : ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان! ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ : إنكار ووعيد أكيد ، وتهديد شديد ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مریم: ٨٨- ٩٥] .

ثم توعد تعالى الكاذبين عليه المفترين ، ممن زعم أنه له ولداً ، بأنهم لا يفلحون فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فأما فى الدنيا فإنهم إذا استدريجهم وأملى لهم متعهم قليلاً ، ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ ، كما قال تعالى هاهنا : ﴿ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ﴾ أى : مدة قريبة ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أى :

يوم القيامة ﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ ﴾ أى: الموجع المؤلم ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ أى: بسبب كفرهم وافتراءهم وكذبهم على الله، فيما ادعوه من الإفك والزور.

ربع

﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَيَّانَتِ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَاحِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَدَبِّرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أى: أخبرهم واقصص عليهم، أى: على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك ﴿ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ أى: خبره مع قومه الذين كذبوه، كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ ﴾ أى: عظم عليكم ﴿ مَقَامِي ﴾ أى: فيكم بين أظهركم ﴿ وَتَذِكْرِي ﴾ إياكم ﴿ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أى: بحججه وبراهينه ﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أى: فإنى لا أبالى ولا أكف عنكم، سواء عظم عليكم أو لا ! ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ أى: فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله، من صنم ووثن ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ أى: ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبسا، بل افصلوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون، فاقضوا إلى ولا تنظرون، أى: ولا تؤخروني ساعة واحدة، أى: مهما قدرتم فافعلوا، فإنى لا أخاف منكم، لأنكم لستم على شيء، كما قال هود لقومه: ﴿ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ الآية [هود: ٥٤ - ٥٦].

﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أى: كذبتهم وأدبرتم عن الطاعة ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أى: لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئا ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى: وأنا ممثلاً ما أمرت به من الإسلام لله عز وجل؛ والإسلام هو دين الأنبياء من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨] سيلا وسنة. فهذا نوح يقول: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٩١]، وقال تعالى عن إبراهيم الخليل: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣١، ١٣٢]، وقال يوسف: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال موسى: ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ مُنْتَمِ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤]، وقال السحرة: ﴿ رَبَّنَا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ [الاعراف: ١٢٦]، وقالت بلقيس: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ ﴾

فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا. [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْغَوَاصِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١] وقال خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] أى: من هذه الأمة؛ ولهذا قال: «نحن معاشر الأنبياء أولاد علّات، ديننا واحد» (١).
أى: وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت شرائعنا، وذلك معنى قوله: «أولاد علّات»، وهم: الإخوة من أمهات شتى والأب واحد.

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ أى: على دينه ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ وهى: السفينة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ أى: فى الأرض، ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ أى: يا محمد كيف أتحينا المؤمنين، وأهلكنا المكذبين.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ وَهُمْ بِالْبَيْتَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد نوح ﴿رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيْتَاتِ﴾ أى: بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاؤوهم به ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أى: فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم، بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقوله: ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ أى: كما طبع الله على قلوب هؤلاء، فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويختم على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. والمراد: أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل، وأنجى من آمن بهم، وذلك من بعد نوح، عليه السلام، فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم عليه السلام على الإسلام، إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام، فبعث الله إليهم نوحا، عليه السلام؛ ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة: أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. وقال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام. وقال الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ الآية [الإسراء: ١٧]، وفى هذا إنذار عظيم لمشركى العرب الذين كذبوا بسيد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العقاب والنكال، فماذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك؟

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِتِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد تلك الرسل ﴿مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أى: قومه ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أى: حججنا وبراهيننا ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ أى: استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ كأنهم - قبَّحهم الله - أقسموا على ذلك، وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان، كما قال تعالى: ﴿وَجَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَى﴾ منكرًا عليهم: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾. قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِتِنَا﴾ أى: تنسينا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أى: الدين الذى كانوا عليه ﴿وَتَكُونَ لَكُمْ﴾ أى: لك ولهارون ﴿الْكِبْرِيَاءُ﴾ أى: العظمة والرياسة ﴿فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وكثيراً ما يذكر الله تعالى قصة موسى، عليه السلام، مع فرعون فى كتابه العزيز؛ لأنها من أعجب القصص، فإن فرعون حَذَرَ من موسى كل الحذر، فسخره القدر أن رَّبَّى هذا الذى يُحَدِّثُ منه على فراشه، ثم ترعرع وعقد الله له سبباً أخرجه من بين أظهرهم، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم، وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده ويرجع إليه، فتمرد فرعون واستكبر وأهان حزب الإيمان من بنى إسرائيل، والله تعالى يحفظ رسوله موسى وأخاه هارون، ويحوظهما بعنائه، ولم تزل المحاجة والمجادلة والآيات تقوم على يدي موسى شيئاً بعد شيء، مما يبهر العقول، ولا يأتى به إلا من هو مؤيد من الله، وصمم فرعون ومَلَأُوهُ على التكذيب بذلك كله، حتى أحل الله بهم بأسه الذى لا يُرَدُّ، وأغرقهم فى صبيحة واحدة أجمعين ﴿فَقَطَعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الانعام: ٤٥].

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا الْقُوا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُطِئِلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٨﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

ذكر الله سبحانه قصة السحرة مع موسى، عليه السلام، فى سورة الأعراف، وقد تقدم الكلام عليها هناك. وفى هذه السورة، وفى سورة طه، وفى الشعراء؛ وذلك أن فرعون - لعنه الله - أراد أن يعارض ما جاء به موسى من الحق المبين، فخاب وخسر الجنة، واستوجب النار. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ﴾. فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ؟؛ وإنما قال لهم ذلك

لأنهم اصطفوا - وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل - ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى . قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴾ [طه: ٦٥، ٦٦]، فأراد موسى أن تكون البداية منهم، ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم؛ ولهذا لما ﴿ أَلْقُوا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْتَرَهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴾ [الاعراف: ١١٦]، ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةٌ مُوسَى . قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى . وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ [طه: ٦٧ - ٦٩]. فعند ذلك قال موسى لما ألقوا: ﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُطْلِعُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ . وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى، عليه السلام، مع ما جاء به من الآيات البيّنات والحجج القاطعات، إلا قليل من قوم فرعون، من الذرية - وهم الشباب - على وجل وخوف منه ومن ملكته، أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر؛ لأن فرعون كان جبارا عنيدا مسرفا في التمرد والعتو، وكانت له سَطْوَةٌ ومهابة، تخاف رعيته منه خوفا شديدا. قال ابن عباس: ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ قال: فإن الذرية التي آمنت لموسى، من أناس غير بنى إسرائيل، من قوم فرعون يسير، منهم: امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه.

﴿ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ ﴾ أى: وأشراف قومهم أن يفتنهم، ولم يكن فى بنى إسرائيل من يخاف منه أن يفتن عن الإيمان سوى قارون، فإنه كان من قوم موسى، فبغى عليهم. وما يدل على أنه لم يكن فى بنى إسرائيل إلا مؤمن قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ ﴿ ٨٤ ﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿ ٨٥ ﴾ وَجَنَّا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿ ٨٦ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن موسى أنه قال لبنى إسرائيل: ﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ أى: فإن الله كاف من توكل عليه، ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر: ٣٦]، ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق: ٣]. وكثيرا ما يقرن الله بين العباداة والتوكل، كقوله تعالى: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل: ٩]، وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا فى كل صلواتهم مرات متعددة: ﴿ يَاكَ نَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥].

وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك، فقالوا: ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى:

لا تظفروهم بنا، وتسلبهم علينا ، فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل، فيفتنوا بذلك. هكذا روى عن أبي مجلز ، وأبي الضحى. وقال مجاهد: لا تعذبنا بأيدي قوم فرعون ، ولا بعذاب من عندك ، فيقول قوم فرعون : لو كانوا على حق ما عذبوا، ولا سلطنا عليهم، فيفتنوا بنا. ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ أى: خلصنا برحمة منك وإحسان ﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أى: الذين كفروا الحق وستره، ونحن قد آمننا بك وتوكلنا عليك.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يُثُوتًا وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

يذكر تعالى سبب إنجائه بنى إسرائيل من فرعون وقومه، وكيفية خلاصهم منهم ، وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون، عليهما السلام ﴿أَنْ تَبَوَّءَا﴾ أى: يتخذا لقومهما بمصر بيوتا. عن ابن عباس: ﴿وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قال: أمرُوا أن يتخذوها مساجد. وكان هذا - والله أعلم - لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه، وضيقوا عليهم، أمروا بكثرة الصلاة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]. وفى الحديث : كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى (١). ولهذا قال تعالى فى هذه الآية : ﴿وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: بالثواب والنصر القريب.

وقال ابن عباس فى تفسير هذه الآية : قالت بنو إسرائيل لموسى، عليه السلام: لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة ، فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا فى بيوتهم ، وأمرُوا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة. وقال مجاهد: ﴿وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ ، قال: لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يقتلوا فى الكنائس الجامعة، أمرُوا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبله الكعبة، يصلون فيها سرا. وكذا قال قتادة، والضحاك.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾

﴿ ٨٨ ﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ ٨٩ ﴾

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى، عليه السلام، على فرعون وملائته ، لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين، ظلما وعلوا وتكبرا وعتوا، قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً﴾ أى : من أثاث الدنيا ومتاعها ﴿وَأَمْوَالًا﴾ أى : جزيلة كثيرة ﴿فِي﴾ هذه ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ﴾ أى: ليفتنن بما أعطيتهم من شئت من خلقك، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيت هؤلاء هذا لحبك إياهم ، واعتنائك بهم. ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ

أَمْوَالِهِمْ ﴿١٠٠﴾ قال ابن عباس، ومجاهد: أى: أهلكها. وقال الضحاك، وأبو العالية، والربيع بن أنس: جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت.

وقوله: ﴿ وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ قال ابن عباس: أى اطبع عليها ﴿ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ . وهذه الدعوة كانت من موسى، عليه السلام، غضباً لله ولدينه على فرعون وملكه، الذين تبين له أنه لا خير فيهم، ولا يجيء منهم شيء كما دعا نوح، عليه السلام، فقال: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فِي الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يَصْلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧] ؛ ولهذا استجاب الله تعالى لموسى، عليه السلام، فيهم هذه الدعوة، التى آمن عليها أخوه هارون، فقال تعالى: ﴿ قَدْ أَجِيتَ دُعْوَتَكُمَا ﴾ أى: قد أجبتكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون ﴿ فَاسْتَقِيمَا ﴾ : فامضيا لأمرى، وهى الاستقامة. قال ابن جريج: يقولون: إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة. وقال محمد بن على بن الحسين: أربعين يوماً.

﴿ وَجَنُوزَنَا بِجَنَى إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَانْبَعَثَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ ءَأَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٠١﴾ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٢﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ ءَأَيَّةً وَإِن كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنِ ءَأَبَيْنَا لَفَعَفَلُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده؛ فإن بنى إسرائيل لما خرجوا من مصر صحبة موسى، عليه السلام، وهم - فيما قيل - ستمائة ألف مقاتل سوى الذرية، وقد كانوا استعاروا من القبط حلياً كثيراً، فخرجوا به معهم، فاشتد حنق فرعون عليهم، فأرسل فى المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمه، فركب ورائهم فى أبهة عظيمة، وجيوش هائلة لما يريد الله تعالى بهم، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان فى سائر مملكته، فلحقوهم وقت شروق الشمس ﴿ فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ [الشعراء: ٦١] ، وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر، وأدركهم فرعون، ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان ، وألح أصحاب موسى، عليه السلام ، عليه فى السؤال كيف المخلص مما نحن فيه؟ فيقول: إنى أمرت أن أسلك هاهنا ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢] ، فعندما ضاق الأمر اتسع، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفلق البحر، ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦٣] أى: كالجبل العظيم، وصار اثنى عشر طريقاً، لكل سبط واحد. وأمر الله الريح فنشفت أرضه ﴿ فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ [طه: ٧٧] ، وجازت بنو إسرائيل البحر، فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى ، أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم، فلم ينج منهم أحد، وتراكت الأمواج فوق فرعون، وغشيته سكرات الموت، فقال وهو كذلك : ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ فآمن حيث لا ينفعه

الإيمان ، ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِعْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٤ ، ٨٥] .

وهكذا قال الله تعالى فى جواب فرعون حين قال ما قال : ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ ﴾ أى : أهذا الوقت تقول ، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه؟ ﴿ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أى : فى الأرض الذين أضلوا الناس ، ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [القصص: ٤١] .

وهذا الذى حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا فى حاله ذاك من أسرار الغيب التى أعلم الله بها رسوله ؛ ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله : عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « لما قال فرعون : ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾ ، قال لى جبريل : يا محمد ، لو رأيتنى وقد أخذت حالا من حال البحر ، فدسسته فى فيه مخافة أن تناله الرحمة » . ورواه الترمذى ، وقال الترمذى : حديث حسن (١) .

وقوله : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً ﴾ : قال ابن عباس وغيره من السلف : إن بعض بنى إسرائيل شكوا فى موت فرعون ، فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده بلا روح ، وعليه درعه المعروفة به ، على نجوة من الأرض وهو المكان المرتفع ، ليتحققوا موته وهلاكه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ﴾ أى : نرفعك على نَشْرٍ من الأرض ﴿ بِدَنِكَ ﴾ . قال مجاهد : بجسدك . وقال الحسن : بجسم لا روح فيه . وقال عبد الله بن شداد : سويا صحيحا ، أى : لم يتمزق ليتحققوه ويعرفوه . وكل هذه الأقوال لا منافاة بينها ، كما تقدم ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً ﴾ أى : لتكون لبنى إسرائيل دليلا على موتك وهلاكك ، وأن الله هو القادر الذى ناصية كل دابة بيده ، وأنه لا يقوم لغضبه شىء ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ أى : لا يتعظون بها ، ولا يعتبرون . وقد كان إهلاك فرعون وملئه يوم عاشوراء ، كما روى البخارى عن ابن عباس قال : قدم النبى ﷺ المدينة ، واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون . فقال النبى ﷺ لأصحابه : « أنتم أحق بموسى منهم ، فصوموه » (٢) .

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبْوَأً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْدُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على بنى إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية ، وقوله : ﴿ مَبْوَأً صِدْقٍ ﴾ قيل : هو بلاد مصر والشام ، مما يلى بيت المقدس ونواحيه ، فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْثَقْنَا

(١) المسند (٣٨٢١) وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده صحيح » ، والترمذى (٣١٠٧) .

(٢) البخارى (٤٦٨٠) .

الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ [الاعراف: ١٣٧] ، وقال فى الآية الأخرى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بِنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٧ - ٥٩] ، ولكن استمروا مع موسى ، عليه السلام ، طالين إلى بلاد بيت المقدس ، وكان فيه قوم من العمالقة ، فنكل بنو إسرائيل عن قتال العمالقة ، فشردهم الله تعالى فى التيه أربعين سنة ، ومات فيه هارون ثم موسى عليهما السلام ، وخرجوا بعدها مع يوشع بن نون ، ففتح الله عليهم بيت المقدس ، واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بختصر حيناً من الدهر ، ثم عادت إليهم ، ثم أخذها ملوك اليونان ، وبعث الله عيسى ابن مريم ، عليه السلام ، فى تلك المدة ، فاستعانت اليهود على معاداة عيسى ، عليه السلام ، بملوك اليونان ، وكانت تحت أحكامهم ، وشوا عندهم ، وأوحوا إليهم أن هذا يفسد عليكم الرعايا فبعثوا من يقبض عليه ، فرفعه الله إليه ، وشبه لهم بعض الحوارين بمشيئة الله وقدره ، فأخذوه فصلبوه ، واعتقدوا أنه هو ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٧ ، ١٥٨] ثم بعد المسيح ، عليه السلام بنحو ثلاثمائة سنة ، دخل قسطنطين - أحد ملوك اليونان - فى دين النصرانية ، فدخل فى دين النصرارى حيلة ليفسده ، فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة وبدعاً أحدثوها ، فبنى لهم الكنائس والبيع والصوامع والهياكل ، وانتشر دين النصرانية فى ذلك الزمان ، واشتهر على ما فيه من تبديل وتغيير وتحريف . والغرض : أن يدهم لم تزل على هذه البلاد إلى أن انتزعها منهم الصحابة ، رضى الله عنهم ، وكان فتح بيت المقدس على يدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، والله الحمد والمنة .

وقوله : ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أى : الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ أى : ما اختلفوا فى شىء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم ، أى : ولم يكن لهم أن يختلفوا ، وقد بين الله لهم وأزال عنهم اللبس . وقد ورد فى الحديث : أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة ، وأن النصرارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، منها واحدة فى الجنة ، واثنتان وسبعون فى النار . قيل : من هم يا رسول الله؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابى » . رواه الحاكم فى مستدركه بهذا اللفظ ، وهو فى السنن والمسانيد (١) . ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أى : يفصل بينهم ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

(١) المستدرک (١/١٢٩) من حدیث عمرو بن عوف المزنى ، وأبو داود (٤٥٩٦) ، والترمذى (٢٦٤٠) ، وقال : «حسن صحيح» كلاهما عن أبى هريرة ، وهو فى المسند (٣/١٤٥) بنحوه عن أنس بن مالك .

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾

قال قتادة بن دعامة: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا أشك ولا أسأل» (١). وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن البصرى، وهذا فيه تثبيت للأمة، وإعلام لهم أن صفة نبينهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ الآية [الاعراف: ١٥٧]. ثم مع هذا العلم يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم، يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أى: لا يؤمنون إيماناً ينفعهم، بل حين لا ينفع نفساً إيمانها؛ ولهذا لما دعا موسى، عليه السلام، على فرعون وملته قال: ﴿ارْتَبْنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يُجَاهِلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]، ثم قال تعالى:

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾

يقول تعالى: فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل، بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه، أو أكثرهم كما قال تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠]، ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْتَنِبٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]. وفى الحديث الصحيح: «عرض على الأنبياء، فجعل النبي يمر ومعه الفئام من الناس، والنبي معه الرجل والنبي معه الرجلان، والنبي ليس معه أحد» (٢) ثم ذكر كثرة أتباع موسى، عليه السلام، ثم ذكر كثرة أمته، صلوات الله وسلامه عليه، كثرة سدت الخافقين الشرقى والغربى.

والغرض: أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى، إلا قوم يونس، وهم أهل نينوى، وما كان إيمانهم إلا خوفاً من وصول العذاب الذى أنذرهم به رسولهم، بعد

(١) مضى تخريجه والتعليق عليه عند الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

(٢) البخارى (٥٧٥٢)، ومسلم (٣٧٤/٢٢٠).

ما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به، واستكانوا وأحضرُوا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم ، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذى أنذرهم به نبيهم . فعندها رحمهم الله ، وكشف عنهم العذاب وأخروا ، كما قال تعالى : ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ .

واختلف المفسرون: هل كُشف عنهم العذاب الأخرى مع الدينوى؟ أو إنما كشف عنهم فى الدنيا فقط؟ على قولين، أحدهما: إنما كان ذلك فى الحياة الدنيا، كما هو مقيد فى هذه الآية، والقول الثانى فىهما لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ. فَأَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصفات: ١٤٧، ١٤٨]، فأطلق عليهم الإيمان، والإيمان منقذ من العذاب الأخرى ، وهذا هو الظاهر، والله أعلم .

قال قتادة فى تفسير هذه الآية: لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب، فتركت، إلا قوم يونس، لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، قذف الله فى قلوبهم التوبة، ولبسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عَجَّوا إلى الله أربعين ليلة. فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم، والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف الله عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم - قال قتادة: وذكر أن قوم يونس كانوا بنينوى أرض الموصل. وكذا روى عن ابن مسعود، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف . وتام القصة سيأتى مفصلا فى سورة الصفات إن شاء الله .

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تَكْفُرُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ يا محمد، لأذن لأهل الأرض كلهم فى الإيمان بما جنتهم به ، فآمنوا كلهم، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كقوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] ، وقال تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَأْسَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١] ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تَكْفُرُ النَّاسَ﴾ أى: تلزمهم وتلجئهم ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أى: ليس ذلك عليك ولا إليك ، بل الله ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨] ، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] ، ﴿لَعَلَّكَ بَاطِعٌ لِمَنْ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] ، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] ، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ بِلَاغٌ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] ، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢] ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، الهادى من يشاء، المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ وهو الخبال والضلال ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أى: حجج الله وأدلته، وهو العادل فى كل ذلك،

في هداية من هدى، وإضلال من ضل.

﴿ قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

يرشدُ تعالى عباده إلى التفكير في آلائه وما خلق في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوى الأبواب، مما في السموات من كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر، والليل والنهار، واختلافهما، وإيلاج أحدهما في الآخر، حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها، وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير، وصنوف النبات، وما ذرا فيها من دوابٍ مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب. وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مذل للسالكين، يحمل سفنهم، ويجرى بها برفق بتسخير القدير له، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله: ﴿ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى: وأى شيء تُجدى الآيات السماوية والأرضية، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها، عن قوم لا يؤمنون، كما قال: ﴿ إِنْ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].
وقوله: ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى: فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النعمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم المكذبة لرسولهم ﴿ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ. ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أى: ونهلك المكذبين بالرسول ﴿ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: حقا أوجه تعالى على نفسه الكريمة كقوله: ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الانعام: ١٢]، كما جاء في الصحيحين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله كتب كتابا فهو عنده فوق العرش: إن رحمتى سبقت غضبي» (١).

﴿ قُلْ يَتَّبِعُنَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أِقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : قل : يا أيها الناس ، إن كنتم في شك من صحة ما جئكم من الدين الحنيف ، الذى أوحاه الله إلى ، فها أنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له ، وهو الذى يتوفاكم كما أحياكم ، ثم إليه مرجعكم ؛ فإن كانت آلهتكم التى تدعون من دون الله حقا ، فانا لا أعبدها ، فادعوها فلتضرنى ، فإنها لا تضر ولا تنفع ، وإنما الذى بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له ، وأمرت أن أكون من المؤمنين .

وقوله : ﴿ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ أى : أخلص العبادة لله وحده ﴿ حَنِيفًا ﴾ أى : منحرفا عن الشرك ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ، وهو معطوف على قوله : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ الآية ، فيه بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه فى ذلك أحد ، فهو الذى يستحق العبادة وحده ، لا شريك له . وقوله : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ أى : لمن تاب إليه وتوكل عليه ، ولو من أى ذنب كان ، حتى من الشرك به ، فإنه يتوب عليه .

﴿ قُلْ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُفْرًا مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ۗ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۗ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

يقول تعالى أمرا لرسوله ﷺ أن يخبر الناس أن الذى جاءهم به من عند الله هو الحق الذى لامرية فيه ولا شك ، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه ، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه . ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أى : وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين ، وإنما أنا نذير لكم ، والهداية على الله تعالى .

وقوله : ﴿ وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ ﴾ أى : تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك ، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ﴾ أى : يفتح بينك وبينهم ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ أى : خير الفاتحين بعدله وحكمته .

تفسير سورة هود عليه السلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الر كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَضَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرٌّ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة ، وبالله التوفيق .

وأما قوله: ﴿أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَضَّلْتُ﴾ أى: هى محكمة فى لفظها، مفصلة فى معناها، فهو كامل صورة ومعنى. هذا معنى ماروى عن مجاهد، وقتادة، واختاره ابن جرير ﴿من لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ أى: من عند الله الحكيم فى أقواله، وأحكامه، والخير بعواقب الأمور. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أى: نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الانبيا: ٢٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] .

وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أى: إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه، وبشير بالثواب إن أطعتموه، كما جاء فى الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ صعد الصفا، فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب ، فاجتمعوا ، فقال : « يامعشر قريش، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا تصبحكم ، أستم مصدقى ؟ » فقالوا : ماجربنا عليك كذبا . قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » (١) .

وقوله: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أى: وأمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله عز وجل فيما تستقبلونه ، وأن تستمروا على ذلك ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ أى : فى الدنيا ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أى: فى الدار الآخرة، قاله قتادة، كقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] ، وقد جاء فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لسعد : « وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله ، إلا أجزت بها، حتى ما تجعل فى فى امرأتك » (٢) .

(٢) البخارى (٦٣٧٣) ، ومسلم (٥/١٦٢٨) .

(١) البخارى (٤٩٧١) .

وقوله: ﴿وَأَنْ تَوَكَّلُوا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾: هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى، وكذب رسله، فإن العذاب يناله يوم معاده لا محالة، ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أى: معادكم يوم القيامة، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى: وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه، وانتقامه من أعدائه، وإعادة الخلائق يوم القيامة، وهذا مقام الترهيب، كما أن الأول مقام ترغيب.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُبْسِرُونَ وَمَا يَأْتُونَ بِإِلْمٍ عَلَيْهِمْ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

قال ابن عباس: كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم، وحال وقاعهم، فانزل الله هذه الآية. وفي لفظ آخر له: أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا، فيفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم. قال البخارى عن ابن عباس: ﴿يَسْتَغْشُونَ﴾: يغطون رؤوسهم (١). وقال ابن عباس فى رواية أخرى فى تفسير هذه الآية: يعنى به الشك فى الله، وعمل السيئات، وكذا روى عن مجاهد، والحسن، وندهم: أى أنهم كانوا يتنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه، يظنون أنهم يستخفون من الله، فأعلمهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند مناهمهم فى ظلمة الليل ﴿يَعْلَمُ﴾ من القول ﴿وَمَا يَأْتُونَ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى: يعلم ما تكن صدورهم من الضمائر والسرائر. وما أحسن ما قال زهير بن أبى سلمى:

فَلَا تَكْتُمَنَّ اللَّهُ مَا فِي نَفُوسِكُمْ لِيُخْفِيَ، فَمَهْمَا يُكْتُمُ اللَّهُ يَعْلَمُ

وقال عبد الله بن شداد: كان أحدهم إذا مر برسول الله ﷺ نثى صدره، وغطى رأسه فانزل الله ذلك. وعود الضمير على الله أولى؛ لقوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُبْسِرُونَ وَمَا يَأْتُونَ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض، صغيرها وكبيرها، بحريها وبريها، وأنه ﴿يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أى: يعلم أين منتهى سيرها فى الأرض، وأين تأوى إليه من وكرها، وهو مستودعها. وقال ابن عباس: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ أى: حيث تأوى، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾، حيث تموت. وعن مجاهد: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ فى الرحم، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ فى الصلب، وأن جميع ذلك مكتوب فى كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك، كقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُنْمِئَتْ أُمَّالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]،

وقوله : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩] .

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّا لَنَعْلَمُ بِمَا نَسْتَعْتِبُكُمْ مِنَ الْقُدْرَةِ الْكَبِيرَةِ لَنَقُولَنَّ كَمَا أَرَادُوا أَن يَخْتَارُوا وَإِن كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [٧] وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [٨]

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك، كما روى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله قَدَّرَ مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء » (١). وروى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « قال الله عز وجل: أنفق أنفق عليك ». وقال: « يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار » وقال « أفرايتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض، فإنه لم يغيض مافي يده، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع » (٢). وروى الإمام أحمد عن أبي رزين - واسمه لقيط ابن عامر بن المنتفق العُقَيْلِيُّ - قال: قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: « كان في عَمَاءَ، ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خلق العرش بعد ذلك ». وقد رواه الترمذى، وابن ماجه . وقال الترمذى: هذا حديث حسن (٣) .

وقال مجاهد : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ قبل أن يخلق شيئا. قاله قتادة، وابن جرير، وغير واحد. وقال قتادة: ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض. وقال ابن عباس: إنما سمي العرش عرشا لارتفاعه.

وقال ابن إسحاق في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾: فكان كما وصف نفسه تعالى، إذ ليس إلا الماء وعليه العرش، وعلى العرش ذو الجلال والإكرام، والعزة والسلطان، والملك والقدرة، والحلم والعلم، والرحمة والنعمة، الفعال لما يريد.

وقوله تعالى: ﴿ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أى : خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبده وحده لا شريك له ، ولم يخلق ذلك عبثا ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص : ٢٧] ، وقال

(٢) البخارى (٤٦٨٤) .

(١) مسلم (١٦/٢٦٥٣) .

(٣) المسند (١١/٤) ، والترمذى (٣١٠٩) ، وابن ماجه (١٨٢) .

تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦] ، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] .

وقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أى: ليختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ولم يقل: أكثر عملاً، بل ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله عز وجل، على شريعة رسول الله ﷺ. فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين بطل وحبط.

وقوله: ﴿وَلَئِن قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مِعْبُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾: يقول تعالى: ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم، مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذى خلق السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة، الذى هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداية، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿مَا خَلَقْكُمْ وَلَا بِحُكْمٍ إِلَّا كُنُفُسٌ وَاحِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨] .

وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: يقولون كفراً وعناداً: مانصداً على وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا من سحرته، فهو يتبعك على ماتقول.

وقوله: ﴿وَلَئِن أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ يقول تعالى: ولئن أخرجنا العذاب والمؤاخذه عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور، وأوعدناهم به إلى مدة مضروبة، ليقولن تكديبا واستعجالاً: ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾ أى: يؤخر هذا العذاب عنا، فإن سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك، فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد.

والأمة تستعمل فى القرآن والسنة فى معان متعددة، فيراد بها: الأمد، كقوله فى هذه الآية: ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ وقوله فى يوسف: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥] ، وتستعمل فى الإمام المقتدى به، كقوله: ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانْنَا لِلَّهِ حَيِّفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] ، وتستعمل فى الملة والدين، كقوله إخباراً عن المشركين أنهم قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] ، وتستعمل فى الجماعة، كقوله: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنٍ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قَضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧] .

والمراد من الأمة هاهنا: الذين يبعث فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم، كما فى صحيح مسلم: «والذى نفسى بيده، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة، يهودى ولا نصرانى، ثم لا يؤمن بى إلا

دخل النار» (١) . وأما أمة الأتباع، فهم المصدقون للرسول، كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وفي الصحيح: «فأقول: أمتي أمتي» (٢).

وتستعمل الأمة في الفرقة والطائفة، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَوْمَ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الاعراف: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿مَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾

[آل عمران: ١١٣]

﴿وَلَيْنَ أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ بِكُفُورٍ
وَلَيْنَ أَدْقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ
إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة، إلا من رحم الله من عباده المؤمنين، أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة، حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل، وكفر وجحود لماضى الحال، كأنه لم ير خيرا، ولم يرج بعد تلك فرجا. وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة ﴿لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أى: يقول: ما بقى ينالنى بعد هذا ضييم ولا سوء ﴿إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾ أى: فرح بما فى يده، بظر فخور على غيره.

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أى: على الشدائد والمكاره ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: فى الرخاء والعافية ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أى: بما يصيبهم من الضراء ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بما أسلفوه فى زمن الرخاء، كما جاء فى الحديث: «والذى نفسى بيده، لا يصيب المؤمن هم ولا غم، ولا نصب ولا وصب، ولا حزن حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله عنه بها من خطاياها» (٣)، «والذى نفسى بيده، لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له، وليس ذلك لأحد غير المؤمن» (٤)، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا. إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا. وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا. إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ الآية [المعارج: ١٩ - ٢٢].

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ
أَفْتَرَّهُ قُلٌ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَأَدْعُوا مَنَ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِيْنَ ﴿١٣﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَحْجِبُوْا لَكُمْ فَاعْلَمُوْا إِنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ
أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

(٢) البخارى (٧٥١٠).

(١) مسلم (٢٤٠/١٥٣).

(٤) مسلم (٦٤/٢٢٩٩) بنحوه .

(٣) مسلم (٢٥٧٣، ٢٥٧٤/٥٢).

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ، عما كان يتعنت به المشركون، فيما كانوا يقولونه عن الرسول : ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكْوِينٌ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُسَهَّرًا ﴾ [الفرقان: ٧، ٨] . فأمر الله تعالى رسوله ﷺ وأرشده إلى ألا يضيق بذلك منهم صدره، ولا يصدنه ذلك ولا يثنيه عن دعائهم إلى الله عز وجل آتاء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر: ٩٧]، وقال هاهنا: ﴿ فَلَمَّا تَأَرَّكَ بِعَضِّ مَأْيُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَاتِقٍ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا ﴾ أى : لقولهم ذلك، فإنما أنت نذير، ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك، فإنهم كذبوا وأودوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل .

ثم بين تعالى إعجاز القرآن ، وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ، ولا بعشر سور مثله ، ولا بسورة من مثله ؛ لأن كلام الرب لا يشبهه كلام المخلوقين ، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات ، وذاته لا يشبهها شيء ، تعالى وتقدس وتنزه ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

ثم قال تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ أى: فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتهم إليه ، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام منزل من عند الله ، متضمن علمه وأمره ونهيه ﴿ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْشَوْنَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

قال ابن عباس فى هذه الآية : إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم فى الدنيا ، وذلك أنهم لا يظلمون نقيرا ، يقول : من عمل صالحا التماس الدنيا ، صوما أو صلاة أو تهجد بالليل ، لا يعمله إلا التماس الدنيا ، يقول الله تعالى : أوفيه الذى التمس فى الدنيا من المثابة ، وحبط عمله الذى كان يعمله التماس الدنيا ، وهو فى الآخرة من الخاسرين . وهكذا روى عن مجاهد ، والضحاك ، وغير واحد . وقال قتادة: من كانت الدنيا همه وطلبته ونيته، جازاه الله بحسناته فى الدنيا، ثم يقضى إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء . وأما المؤمن فيجازى بحسناته فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة . قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا . كُلًّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢١] ، وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠] .

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده، من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو، كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ الآية [الروم: ٣٠] ، وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟» (١). وقوله: ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ أى : وجاء شاهد من الله، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء، من الشرائع المطهرة المكتملة المعظمة المختتمة بشريعة محمد، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. ولهذا قال ابن عباس، ومجاهد، والسدي، وغير واحد فى قوله تعالى: ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ إنه جبريل عليه السلام. وعن على، والحسن، وقتادة: هو محمد ﷺ. وكلاهما قريب فى المعنى؛ لأن كلا من جبريل ومحمد، صلوات الله عليهما، بلغ رسالة الله تعالى، فجبريل إلى محمد، ومحمد إلى الأمة .

ثم قال تعالى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ ﴾ أى: ومن قبل القرآن كتاب موسى، وهو التوراة ﴿ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ أى : أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماما لهم، وقدوة يقتدون بها، ورحمة من الله بهم. فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ .

ثم قال تعالى متوعدا لمن كذب بالقرآن أو بشيء منه: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ أى: ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركيهم: أهل الكتاب وغيرهم، من سائر طوائف بنى آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم، ممن بلغه القرآن، كما قال تعالى: ﴿ لَأَنذِرْكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ . وفى صحيح مسلم عن أبى موسى الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفسى بيده، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار» (٢) .

قوله: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ أى: القرآن حق من الله، لا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى : ﴿ الَّتِمْ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [السجدة: ١، ٢] ، وقال تعالى : ﴿ الَّتِمْ . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١، ٢]. وقوله: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَطَّعْ أَكْثَرَ مَن

(٢) مسلم (١٥٣/ ٢٤٠) .

(١) البخارى (١٣٨٥) ، ومسلم (٢٦٥٨/ ٢٢) .

فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿[الانعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿ وَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سبا: ٢٠] .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْتَوْنَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جِزْمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

يبين تعالى حال المفتريين عليه وفضيحتهم فى الدار الآخرة على رؤوس الخلائق ؛ من الملائكة، والرسل، والأنبياء، وسائر البشر والجان، كما روى الإمام أحمد عن صفوان بن محرز قال: كنت أخذاً بيد ابن عمر، إذ عرض له رجل قال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله عز وجل يدنى المؤمن، فيضع عليه كتفه، ويستتره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال: فىنى قد سترتها عليك فى الدنيا، وإنى أغفرها لك اليوم. ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول ﴿ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ . أخرجه البخارى ومسلم (١) .

وقوله : ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْتَوْنَهَا عِوَجًا ﴾ أى : يردون الناس عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عز وجل ويجنّبونهم الجنة ﴿ وَيَعْتَوْنَهَا عِوَجًا ﴾ أى : ويريدون أن يكون طريقهم عوجاً غير معتدلة ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ أى : جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها. ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ أى: بل كانوا تحت قهره وغلبته ، وفى قبضته وسلطانه ، وهو قادر على الانتقام منهم فى الدار الدنيا قبل الآخرة، ولكن ﴿ يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وفى الصحيحين: «إن الله ليُملى للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته» (٢) ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ الآية أى: يضاعف عليهم العذاب، وذلك لأن الله تعالى جعل لهم سمعا وأبصارا وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم، بل كانوا صُمًا عن سماع الحق، عُما عن اتباعه، كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠] ، وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ ﴾ الآية [النحل: ٨٨] ؛

(١) المسند (٢/٧٤) ، والبخارى (٤٦٨٥) ، ومسلم (١٧٦٨/٦٤) .

(٢) البخارى (٤٦٨٦) ، ومسلم (٢٥٨٣/٦١) .

ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه، وعلى كل نهى ارتكبوه؛ ولهذا كان أصح الأقوال أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيتها بالنسبة إلى الدار الآخرة.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى: خسروا أنفسهم لأنهم أدخلوا ناراً حامية، فهم معذبون فيها لا يفتر عنهم من عذابها طرفة عين، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا حَتَّ ذِقْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]. ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أى: ذهب عنهم ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من دون الله من الأنداد والأصنام، فلم تجد عنهم شيئاً، بل ضررتهم كل الضرر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الحقاف: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال الخليل لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَأَكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسرتهم ودمارهم؛ ولهذا قال: ﴿لَا جَرِمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسر الناس صفقة فى الدار الآخرة؛ لأنهم اعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن، وعن الحور العين بطعام من غسلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن ورؤيته بغضب الديان وعقوبته، فلا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٢﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَبْصِرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

ربع

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فأمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولاً وفعلاً، وبهذا ورثوا الجنات، المشتمة على الغرف العاليات، والسرر المصفوفات، والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات، والنظر إلى خالق الأرض والسماوات، وهم فى ذلك خالدون، لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون، ولا يتغطون، ولا يبصقون ولا يتمخطون، إن هو إلا رشح مسك يعرقون.

ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين، فقال: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أى: الذين وصفهم أولاً بالشقاء والمؤمنين السعداء، فأولئك كالأعمى والأصم، وهؤلاء كالبصير والسميع. فالكافر أعمى عن وجه الحق فى الدنيا، وفى الآخرة لا يهتدى إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجج، فلا يسمع ما ينتفع به ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٢٣]، وأما المؤمن ففطن ذكى لبيب، بصير الحق، يميز بينه وبين الباطل، فيتبع الخير ويترك الشر، سميع للحجة، يفرق بينها وبين الشبهة، فلا يروج عليه باطل، فهل يستوى هذا وهذا.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: أفلا تعتبرون فتفرون بين هؤلاء وهؤلاء، كما قال فى الآية الأخرى:

﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠] وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرَ. وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورَ. وَلَا الظُّلُ وَلَا الْحُرُورَ. وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ. إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ. إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٤].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِسْمِ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنظُرُكُمْ كَذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

يخبر تعالى عن نوح ، عليه السلام ، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام أنه قال لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر النذارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله؛ ولهذا قال: ﴿وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِسْمِ﴾ أي إن استمررتم على ما أنتم عليه عذبكم الله عذابا ليما موجعا شاقا في الدار الآخرة . ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ والملا هم: السادة والكبراء من الكافرين منهم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا﴾ أي: لست بملك ، ولكنك بشر ، فكيف أوحى إليك من دوننا ؟ ثم ما نراك أتبعك إلا أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء ، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تروٍّ منهم ولا فكرة ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك ؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا نَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئِ الرَّأْيِ﴾ أي: في أول بادئ الرأي ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلق ولا خلق، ولا رزق ولا حال، لَمَّا دخلتم في دينكم هذا ﴿بَلْ نَنظُرُكُمْ كَذِبِينَ﴾ أي: فيما تدعونكم لكم من البر والصلاح والعبادة، والسعادة في الدار الآخرة إذا صرتم إليها. هذا اعتراض الكافرين على نوح، عليه السلام، وأتباعه، وذلك دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق ردالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح، وسواء اتبعه الأشراف أو الأراذل ، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يابونه هم الأراذل، ولو كانوا أغنياء. ثم الواقع غالبا أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] ، ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ، قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل.

وقولهم: ﴿بَادِي الرَّأْيِ﴾ ليس بمذمة ولا عيب؛ لأن الحق إذا وضح لا يبقى للتروى ولا للفكر مجال، والرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، إنما جاؤوا بأمر جلي واضح.

وقولهم: ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ هم لا يرون ذلك؛ لأنهم عُمى عن الحق، لا يسمعون ولا يبصرون: بل هم فى ريبهم يترددون، فى ظلمات الجهل يعمهون، وهم الأفاكون الكاذبون، الأقلون الأزدلون، وفى الآخرة هم الأخسرون.

﴿ قَالَ يَتَقَوَّرُوا أَبَآءَهُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيَّ يَدِينُوا مِّن رَّبِّي وَعَلَىٰ رَحْمَةٍ مِّن عِنْدِي فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنزَلْنَاهُمْ مَكْمُومًا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما ردَّ به نوح على قومه فى ذلك : ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيَّ يَدِينُوا مِّن رَّبِّي ﴾ أى : على يقين وأمر جلى ، ونبوة صادقة ، وهى الرحمة العظيمة من الله به وبهم ﴿ نَعْمِيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ أى : خفيت عليكم ، فلم تهتدوا إليها ، ولا عرفتم قدرها ، بل بادرتهم إلى تكذيبها وردّها ﴿ أَنزَلْنَاهُمْ مَكْمُومًا ﴾ أى : نغصبكم بقبولها . ﴿ وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ .

﴿ وَيَتَقَوَّرُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُّلتَقُوا رَبَّهُمْ وَلَنُكْفِيَنَّ أَرْكَانَهُمْ قَوْمًا يَّجْهَلُونَ ﴾ ﴿٢٩﴾ وَيَتَقَوَّرُوا مِّن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿٣٠﴾

يقول لقومه: لا أسألكم على نصحى لكم مالا ؛ أجرة أخذها منكم ، إنما أبتغى الأجر من الله عز وجل ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه ، احتشاما ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم ، كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلسا خاصا ، فانزل الله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ [الأنعام: ٥٢] ، ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ [الكهف: ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّقَوْلِ أَهْلَآءٍ مِّنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣] .

﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنْ إِذْ أَلَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٣١﴾

يخبرهم أنه رسولٌ من الله ، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ويخبرهم أنه لا يقدر على التصرف فى خزائن الله ، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه ، وليس هو بملك من الملائكة ، بل بشر مرسل ، مؤيد بالمعجزات . ولا أقول عن هؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم : إنه ليس لهم عند الله ثواب على إيمانهم الله أعلم بما فى أنفسهم ، فإن كانوا مؤمنين باطنا ، كما هو الظاهر من حالهم ، فلهم جزاء الحسنى ، ولو قطع لهم أحد بشر بعد ما آمنوا ، لكان ظالما قائلا ما لا أعلم له به .

﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾
 ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٢٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ
 أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه، والبلاء موكل بالمنطق: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾ أى: حاججتنا فأكثرت من ذلك، ونحن لا نتبعك ﴿فَأَتَانَا بِمَا تَعْدُنَا﴾ أى: من النقمة والعذاب، ادع علينا بما شئت، فليأتنا ما تدعو به ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أى: إنما الذى يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذى لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أى: أى شَيْءٍ يُجْدِي عَلَيْكُمْ إِبْلَاغِي لَكُمْ وَإِنذَارِي إِيَّاكُمْ وَنُصْحِي، إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ إِغْوَاءَكُمْ وَدِمَارَكُمْ ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى: هو مالك أزمة الأمور، والمتصرف الحاكم العادل الذى لا يجور، مالك الدنيا والآخرة.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ وَمِمَّا يَجْحَرُونَ ﴾ ﴿٢٥﴾

هذا كلام معترض فى وسط هذه القصة، مؤكد لها، مقرر لها. يقول تعالى لمحمد ﷺ: أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون: افترى هذا وافعله من عنده ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي﴾ أى: فإثم ذلك على ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْحَرُونَ﴾ أى: ليس ذلك مفتعلا، ولا مفترى، لأنى أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه.

﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّءَ أَمَنَ فَلَا يَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ﴿٢٦﴾ وَأَصْنَعُ الْفُلَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِئْتَنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ وَصَنَعُ الْفُلَّكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٢٨﴾ فَسَوْفَ نَعْلَمُوكَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومُه نقمة الله بهم وعذابه لهم، فدعا عليهم نوح دعوته التى قال الله تعالى مخبراً عنه أنه قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، فعند ذلك أوحى الله إليه: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّءَ أَمَنَ﴾، فلا تحزن عليهم ولا يهْمَنَّك أمرهم. ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَّكَ﴾ أى: السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أى: برأى منا ﴿وَوَحِّينَا﴾ أى: تعليمنا لك ما تصنعه، ﴿وَلَا تَخْطِئْتَنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾. وقوله: ﴿وَصَنَعُ الْفُلَّكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ أى: يهزؤون به ويكذبون بما

يتوعدهم به من الغرق ﴿ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ ﴾ الآية ، وعيد شديد ، وتهديد أكيد ﴿ مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أى : يهينه فى الدنيا ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أى : دائم مستمر أبدا .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ ﴿٤١﴾

هذه موعدة من الله تعالى لنوح ، عليه السلام ، إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة ، والهتان الذى لا يُقْلَع ولا يُفْتَر ، بل هو كما قال تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ . وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَابٍ دُورٍ . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفْرًا ﴾ [القمر: ١١ - ١٤]

وأما قوله : ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ فعن ابن عباس : التنور : وجه الأرض ، أى : صارت الأرض عيوناً تفور ، حتى فار الماء من التنابير التى هى مكان النار ، صارت تفور ماء ، وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف .

فحينئذ أمر الله نوحا ، عليه السلام ، أن يحمل معه فى السفينة من كل زوجين - من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح ، قيل : وغيرها من النباتات - اثنين . ذكرا وأنثى .

وقوله : ﴿ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ أى : واحمل فيها أهلك ، وهم أهل بيته وقرابته ، إلا من سبق عليه القول منهم ، ممن لم يؤمن بالله ، فكان منهم ابنه «يام» الذى انعزل وحده ، وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله . ﴿ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ أى : من قومك ﴿ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أى : نَزَّر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، فعن ابن عباس : كانوا ثمانين نفسا منهم نساؤهم . وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفسا . وقيل : كانوا عشرة . والله أعلم وأحكم .

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحْرُنَهَا وَرَسَتْهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ﴿٤٢﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوْحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَقْزِلٍ يُبَيِّقُ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قَالَ سَتَأْتِي إِلَىٰ جِبَلٍ يَْعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِن أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّجِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح ، عليه السلام ، أنه قال للذين أمر بحملهم معه فى السفينة : ﴿ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَرَسَتْهَا ﴾ أى : بسم الله يكون جريها على وجه الماء ، وبسم الله يكون منتهى سيرها ، وهو رُسُوها .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ . وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿المؤمنون: ٢٨، ٢٩﴾؛ ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور: عند الركوب على السفينة وعلى الدابة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفَلِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . لَسْتُمْ عَلَى ظَهْرِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةً رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَرَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤]، وجاءت السنة بالحث على ذلك، والندب إليه، كما سيأتي في سورة «الزخرف»، إن شاء الله . وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين ذكر أنه غفور رحيم، كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الاعراف: ١٦٧]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]، إلى غير ذلك من الآيات التي يقرون فيها بين انتقامه ورحمته .

وقوله: ﴿وَمِمَّا تَجْرِى بِبِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ أى: السفينة سائرة بهم على وجه الماء، الذى قد طبَّق جميع الأرض، حتى طفت على رؤوس الجبال، وهذه السفينة على وجه الماء سائرة بإذن الله وتحت كنفه وعنايته، وحراسته وامتنانه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكُرَةً وَتَمِيهًا أُنْذُرَ بِهِ لِقَاكَ رَبِّكَ وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٌ فِي هَاتِهِ . لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْوَجِّ . إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا . وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٣ - ١٥] .

وقوله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ الآية: هذا هو الابن الرابع، واسمه «يام»، وكان كافراً، دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ . اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال، وأنه لو تعلق فى رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق، فقال له أبوه نوح، عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ أى: ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ .

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْخَمَاءِ أَقْلِي وَغِيصَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤٤﴾

يخبر تعالى أنه لما غرق أهل الأرض إلا أصحاب السفينة، أمر الأرض أن تبلع ماءها الذى نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تفلع عن المطر ﴿وَوُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أى: فرغ من أهل الأرض قاطبة، بمن كفر بالله، لم يبق منهم ديار ﴿وَأَسْتَوَتْ﴾ السفينة بمن فيها ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ قال مجاهد: وهو جبل بالجزيرة، تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتناولت، وتواضع هو لله عز وجل، فلم يغرق، وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام . وقال قتادة: استوت عليه شهرا حتى نزلوا منها، قال قتادة: قد أبقي الله سفينة نوح، عليه السلام، على الجودى من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت، وصارت رمادا . وقال الضحاك: الجودى: جبل بالموصل: وقال بعضهم: هو الطور .

وقوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أى: هلاكاً وخساراً لهم، وبعداً من رحمة الله، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم، فلم يبق لهم بقية .

﴿٤٥﴾ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ
 قَالَ يَنْتَوِجُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِنَ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي
 أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ
 وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٤٧﴾

هذا سؤال استعلام وكشف من نوح، عليه السلام، عن حال ولده الذي غرق ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أي: وقد وعدتني بنجاة أهلي، ووعدك الحق الذي لا يخلف، فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟ ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الذين وعدت إنجاءهم؛ لأنني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك؛ ولهذا قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠]، فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحا، عليه السلام.

وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن زنية. وقال ابن عباس، وغير واحد من السلف: ما زنت امرأة نبي قط، قال: وقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي: الذين وعدت نجاتهم. وقول ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه، فإن الله سبحانه أغير من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة، ولهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبي ﷺ، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿إِذْ تَلَقَوْهُ بِالْأَيْتِمْ وَتَقُولُونَ يَا أَوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١ - ١٥]. وقال ابن عباس: هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية. قال عكرمة: في بعض الحروف: «إنه عمل عملاً غير صالح».

﴿٤٨﴾ قِيلَ يَنْتَوِجُ أَهْبَطْ بِسَلَامٍ مَتَا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمِّهِ وَمَنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَمِعْتَهُمْ
 ثُمَّ يَمْسَهُمْ مَتَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٩﴾

يخبر تعالى عما قيل لنوح، عليه السلام، حين أرست السفينة على الجودي، من السلام عليه، وعلى من معه من المؤمنين، وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة. وقال ابن إسحاق: ولما أراد أن يكف الطوفان أرسل ريحا على وجه الأرض، فسكن الماء، وانسدت ينابيع الأرض وأبواب السماء، يقول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ الآية، فجعل الماء ينقص ويغيب ويُدبر، و﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مَتَا﴾ الآية.

﴿٤٩﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا
 فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى لنبية ﷺ : هذه القصة وأشباهها ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ ، معنى : من أخبار الغيوب السالفة نوحيتها إليك على وجهها ، كأنك شاهدها ﴿ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾ أى : نعلمك بها وحيا منا إليك ﴿ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ أى : لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها، حتى يقول من يكذبك : إنك تعلمتها منه ، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح ، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك ، فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك ، وأذاهم لك ، فإننا سننصرك ونحوطك بعنايتنا ، ونجعل العاقبة لك ولأتباعك فى الدنيا والآخرة ، كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الآية [غافر: ٥١] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾ الآية [الصافات: ١٧١ - ١٧٣] ، وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَتْلُوكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مَجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى : ولقد أرسلنا ﴿إِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أمرا لهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجره على هذا النصح والبلاغ من الله ، إنما يبغى ثوابه من الله الذى فطره ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم فى الدنيا والآخرة من غير أجره .

ثم أمرهم بالاستغفار الذى فيه تكفير الذنوب السالفة ، وبالتوبة عما يستقبلون ، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه ، وسهل عليه أمره وحفظ شأنه ؛ ولهذا قال : ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ [نوح: ١١] ، وفى الحديث : « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب » (١) .

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسْمِ اللَّهِ قَالَ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُون ﴿٥٥﴾ إِنْ أِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾

(١) المسند (٢٢٣٤) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (١٥١٨) ، وابن ماجه (٣٨١٩) .

يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيهم: ﴿ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ أى: بحجة وبرهان على ما تدعيه ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ ﴾ أى: بمجرد قولك: «اتركوهم» تركهم ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: بمصدقين ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ يقولون: ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخيل فى عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها ﴿ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ ﴾ ، يقول: إني برىء من جميع الأنداد والأصنام، ﴿ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ﴾ أى: أنتم وآلهتكم إن كانت حقا ﴿ ثُمَّ لَا تَنْظُرُونَ ﴾ أى: طرفة عين .

وقوله: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ أى تحت قهره وسلطانه ، وهو الحاكم العادل الذى لا يجوز فى حكمه ، فإنه على صراط مستقيم . وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به ، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التى لا تنفع ولا تضر ، بل هى جماد لا تسمع ولا تبصر ، ولا توالى ولا تُعَادى ، وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له ، الذى بيده الملك ، وله التصرف ، وما من شىء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه ، فلا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ وَتَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ءَعَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ءَلَّا إِنَّ ءَعَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ءَلَّا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

يقول لهم هود: فإن تولوا عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له ، فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغى إياكم رسالة الله التى بعثنى بها ﴿ وَتَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ يعبدونه وحده لا يشركون به ، ولا يبالي بكم ، فإنكم لا تضرونه بكفركم ، بل يعود وبأل ذلك عليكم ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴾ أى: شاهد وحافظ لاقوال عباده وأفعالهم ويجزيهم عليها إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ وهو الريح العقيم ، فأهلكهم الله عن آخرهم ، ونجى هودا واتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه . ﴿ وَتِلْكَ ءَعَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ كفروا بها ، وعصوا رسل الله ، وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء ، لأنه لا فرق بين أحد منهم فى وجوب الإيمان به ، فعاد كفروا بهود ، فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل ﴿ وَأَتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ : تركوا اتباع رسولهم الرشيد ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد . فلماذا أتبعوا فى هذه الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا ، وينادى عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ﴿ ءَلَّا إِنَّ ءَعَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾ الآية . قال السدنى: ما بعث نبي بعد عاد إلا لعنوا على لسانه .

﴿ وَإِلَىٰ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ ﴿١١﴾

يقول تعالى: ولقد أرسلنا ﴿ إلى تمود ﴾ وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة، وكانوا بعد عاد، فبعث الله منهم ﴿ أخاهم صالحا ﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده؛ ولهذا قال: ﴿ هو أنشأكم من الأرض ﴾ أى: ابتداء خلقكم منها، خلق منها أباكم آدم ﴿ واستعمركم فيها ﴾ أى: جعلكم عمارة تعمرونها وتستغلونها ﴿ فاستغفروه ﴾ لسالف ذنوبكم ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ فيما تستقبلونه ﴿ إن ربي قريب مجيب ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ الآية [البقرة: ١٨٦].

﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ أَنتَ الْمُرْسَلُ هَذَا الَّذِي كُنَّا نَدْعُونَ قَالَ إِنِّي آنسأْتُ اللَّهَ أَن يَمُنَّ عَلَيَّ فَتَبَّ عَلَىٰ مَا يَدْعُونَ قَالَ إِنِّي آنسأْتُ اللَّهَ أَن يَمُنَّ عَلَيَّ فَتَبَّ عَلَىٰ مَا يَدْعُونَ قَالَ إِنِّي آنسأْتُ اللَّهَ أَن يَمُنَّ عَلَيَّ فَتَبَّ عَلَىٰ مَا يَدْعُونَ قَالَ إِنِّي آنسأْتُ اللَّهَ أَن يَمُنَّ عَلَيَّ فَتَبَّ عَلَىٰ مَا يَدْعُونَ قَالَ إِنِّي آنسأْتُ اللَّهَ أَن يَمُنَّ عَلَيَّ فَتَبَّ عَلَىٰ مَا يَدْعُونَ ﴾ ﴿١٢﴾

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح، عليه السلام، وبين قومه، وما كان عليه قومه من الجهل والعناد في قولهم: ﴿ قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ﴾ أى: كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت! ﴿ أتئاننا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ﴾ وما كان عليه أسلافنا ﴿ وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ أى: شك كثير.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ فيما أرسلنى به إليكم على يقين وبرهان ﴿ وأتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته ﴾ وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده، فلو تركته لما نفعتموني ولما زدموني ﴿ غير تعسير ﴾ أى: خسارة.

﴿ وَيَقَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٍ ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿ كَانَ لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا آلَ إِبْرَاهِيمَ وَإِنَّمَا كَانُوا أَقْبَادًا مَّحْمُومًا ﴾ ﴿١٧﴾ ﴿ وَإِلَىٰ عَادَ أَخَاهُمْ هَارُونَ قَالَ أَتَدَّبَّرْتُمُ التَّمْجِيعَ ﴾ ﴿١٨﴾

تقدم الكلام عليها في سورة « الأعراف » (١) بما أغنى عن إعادته فله الحمد والمنة .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَهُ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَمَا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَهُ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَوْتَلَيْتُ آلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ ولما جاءت رُسُلنا ﴾ وهم الملائكة ﴿ إبراهيم بالبشري ﴾ قيل : تبشره بإسحاق ، وقيل : بهلاك قوم لوط . ويشهد للأول قوله تعالى : ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الأروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط ﴾ [هود: ٧٤] ، ﴿ قالوا سلاما قال سلام ﴾ أى : عليكم . ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ أى : ذهب سريعا ، فاتاهم بالضيافة ، وهو عجل : فتى البقر ، حنيذ : مشوى على الرضف ، وهى الحجارة المحمأة . هذا معنى ما روى عن ابن عباس ، وقتادة وغير واحد ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ فرأغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم قال ألا تأكلون ﴾ [الذاريات : ٢٦ ، ٢٧] . وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة .

وقوله : ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم ﴾ تنكرهم ﴿ وأوجس منهم خيفة ﴾ وذلك أن الملائكة لاهمة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه ؛ فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به ، فارغين عنه بالكلية فعند ذلك نكرهم ﴿ وأوجس منهم خيفة ﴾ .

وقوله تعالى إخبارا عن الملائكة : ﴿ قالوا لا تخف ﴾ أى قالوا : لا تخف منا ، إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم . فضحكت سارة استبشارا بهلاكهم ، لكثرة فسادهم ، وغلظ كفرهم وعنادهم ، فلهذا جوزيت بالشارة بالولد بعد الإياس . قال ابن عباس : ﴿ فضحكت ﴾ أى : حاضت . ﴿ فبشرتها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ أى : بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل ؛ فإن يعقوب ولد إسحاق ، كما قال فى آية البقرة : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهنا واحدا ونحن لله مسلمون ﴾ [البقرة: ١٣٣] . ومن هاهنا استدل من استدل بهذه الآية ، على أن الذبيح إنما هو إسماعيل ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق ؛ لأنه وقعت البشارة به ، وأنه سيولد له يعقوب ، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده . ووعد الله حق لا خلف فيه ، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه ، فتعين أن يكون هو إسماعيل وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه وأبينه ، والله الحمد .

﴿ قالت يا ويلتى ألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ﴾ الآية : حكى قولها فى هذه الآية ، كما حكى فعلها فى الآية الأخرى ، فإنها : ﴿ قالت يا ويلتى ألد وأنا عجوز ﴾ وفى الذاريات : ﴿ فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ﴾ [الذاريات : ٢٩] ، كما جرت به عادة النساء فى أقوالهن

وأفعالهن عند التعجب . ﴿ قَالُوا أَتَمَجِّبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ ؟ أى : قالت الملائكة لها : لا تعجبى من أمر الله ، فإنه إذا أراد شيئاً أن يقول له : « كن » فيكون ، فلا تعجبى من هذا ، وإن كنت عجزوا عقيماً ، وبعلك شيخاً كبيراً ، فإن الله على ما يشاء قدير . ﴿ رَحِمَتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ ﴾ أى : هو الحميد فى جميع أفعاله وأقواله محمود ، ممدوح فى صفاته وذاته ؛ ولهذا ثبت فى الصحيحين أنهم قالوا : قد علمنا السلام عليك ، فكيف الصلاة عليك يا رسول الله ؟ قال : قولوا : اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم ، إنك حميد مجيد (١) .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمَنِهْمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

يخبر تعالى عن إبراهيم ، عليه السلام ، أنه لما ذهب عنه الروع ، وهو ما أوجس من الملائكة خيفة ، حين لم يأكلوا ، وبشروه بعد ذلك بالولد ، وأخبروه بهلاك قوم لوط ، أخذ يقول أنهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن ؟ قالوا : لا . قال : أنهلكون قرية فيها مائتا مؤمن ؟ قالوا : لا . قال : أنهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً ؟ قالوا : لا . قال : ثلاثون ؟ قالوا لا حتى بلغ خمسة قالوا : لا قال : أرايتكم إن كان فيها رجل واحد مسلم أنهلكونها؟ قالوا : لا . فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك : ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَجِّنَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا ﴾ الآية [العنكبوت : ٣٢] ، فسكت عنهم واطمأنت نفسه .

وقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ مدح إبراهيم بهذه الصفات الجميلة ، وقد تقدم تفسيرها (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ ﴾ الآية ، أى : إنه قد نفذ فيهم القضاء ، وحققت عليهم الكلمة بالهلاك ، وحلول اليأس الذى لا يُرد عن القوم المجرمين .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ ﴿٧٥﴾ وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُ مُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزِنُوهُ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بِنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَنَعَاكُمَا تُرِيدُ ﴿٧٧﴾

(٢) راجع تفسير الآية (١١٤) من سورة براءة .

(١) البخارى (٤٧٩٧) ، ومسلم (٦٦/٤٠٦) .

يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة بعد ما أعلموا إبراهيم بهلاكهم ، وفارقوه وأخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة . فانطلقوا من عنده ، فأتوا لوطا ، عليه السلام ، فى أرض له ، وقيل : فى منزله ، ووردوا عليه وهم فى أجمل صورة تكون ، على هيئة شبان حسان الوجوه ، ابتلاء من الله ، وله الحكمة والحجة البالغة ، فساء شأنهم وضاعت نفسه بسببهم ، وخشى إن لم يُضِفْهُم أن يُضِفْهُم أحد من قومه ، فينالهم بسوء ﴿ وَقَالَ هَذَا يَوْمَ عَصِيبٍ ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : شديد بلاؤه وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم ، ويشق عليه ذلك . وقال السدى : خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط ، فبلغوا نهر سدوم نصف النهار ، ولقوا بنت لوط تستقى ، فقالوا : يا جارية ، هل من منزل ؟ فقالت : مكانكم حتى آتيكم ، وفَرقت عليهم من قومها ، فأتت أباهما فقالت : يا ابتاه ، أدرك فتيانا على باب المدينة ، ما رأيت وجوه قوم أحسن منهم ، لا يأخذهم قومك فيفضحهم ، وكان قومه نهوه أن يضيف رجلا ، فقالوا : خل عنا فلنُضِفِ الرجال . فجاء بهم ، فلم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته ، فخرجت امرأته فأخبرت قومها ، فجأؤوا يهرعون إليه .

وقوله : ﴿ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أى : يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك . وقوله : ﴿ وَمِنْ قَبْلِ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أى : لم يزل هذا من سجيتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال .

وقوله : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هُوَ لَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ : يرشدهم إلى نسايتهم ، فإن النبى للامة بمنزلة الوالد ، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم فى الدنيا والآخرة ، كما قال لهم فى الآية الأخرى : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ . وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء : ١٦٥ ، ١٦٦] ، وقوله فى الآية الأخرى : ﴿ قَالُوا أَوْلَمْ نُنْهَكُ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [الحجر : ٧٠] أى : ألم تنهك عن ضيافة الرجال ﴿ قَالَ هُوَ لَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ . لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر : ٧١ ، ٧٢] ، وقال فى هذه الآية الكريمة : ﴿ هُوَ لَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ قال مجاهد : لم يكن بناته ، ولكن كن من أمته ، وكل نبى أبو أمته . وقال ابن جرير : أمرهم أن يتزوجوا النساء ، لم يعرض عليهم سفاحا .

وقوله : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ أى : اقبلوا ما أمركم به من الاقتصار على نسايتكم ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ أى : فيه خير ، يقبل ما أمره به ، ويترك ما نهاه عنه ؟ ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِنْ حَقٍّ ﴾ أى : إنك تعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولانشتهيهن ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ أى : ليس لنا غرض إلا فى الذكور ، وإنك تعلم ذلك ، فأى حاجة فى تكرار القول علينا فى ذلك ؟ قال السدى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ : إنما نريد الرجال .

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلْبُوطٌ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرَبْنَا بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْمُوكَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط، عليه السلام: إن لوطاً توعدهم بقوله: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ الآية ، أى: لكنت نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل بنفسى وعشيرتى ، ولهذا ورد عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «رحمة الله على لوط، لقد كان يأوى إلى ركن شديد - يعنى: الله عز وجل - فما بعث الله بعده من نبى إلا فى ثروة من قومه» (١) . فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسلُ الله إليه، وأنهم لاوصول لهم إليه ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ﴾ ، وأمروه أن يسرى بأهله من آخر الليل ، وأن يتبع أديبارهم ، أى: يكون ساقية لأهله، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أى: إذا سمعت ما نزل بهم، ولا تهولتكم تلك الأصوات المزعجة، ولكن استمروا ذاهبين . ﴿إِلَّا أَمْرَاتَكَ﴾ : هو استثناء من قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ .

ثم قربوا له هلاك قومه تبشيراً له؛ لأنه قال لهم: «أهلكوهم الساعة»، فقالوا: ﴿إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ ، هذا وقومُ لوطٍ وقوف على الباب وعكوف قد جاؤوا يهرعون إليه من كل جانب، ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه، وهم لايقبلون منه، بل يتوعدونه ، فعند ذلك خرج عليهم جبريل ، عليه السلام ، فضرب وجوههم بجناحه ، فطمس أعينهم ، فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَذُنِيبٌ﴾ الآية [القمر: ٣٧ - ٣٩] .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَاقِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ ﴾ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا﴾ وهى قريتهم سدوم ﴿سَاقِلَهَا﴾ كقوله: ﴿فَنَشَأَهَا مَا غَشَى﴾ [النجم : ٥٤] أى: أمطرتنا عليها حجارة من «سجيل» وهى بالفارسية: حجارة من طين ، قاله ابن عباس وغيره. وقد قال فى الآية الأخرى: ﴿حِجَارَةٌ مِنْ طِينٍ﴾ [الذاريات : ٣٣] أى : مستحجرة قوية شديدة. وقال بعضهم: مشوية ، وقال البخارى: «سجيل»: الشديد الكبير ، سجيل وسجين واحد، اللام والنون أختان (٢) .

وقوله: ﴿مَنضُودٌ﴾: قال بعضهم: منضودة فى السماء، أى: معدة لذلك. وقال آخرون: أى: يتبع بعضها بعضاً فى نزولها عليهم. وقوله: ﴿مُسَوِّمَةٌ﴾ أى : مُعَلِّمَةٌ مختومة، عليها أسماء أصحابها، كل حجر مكتوب عليه اسم الذى ينزل عليه.

وذكروا أنها نزلت على أهل البلد، وعلى المتفرقين فى القرى مما حولها، فبينما أحدهم يكون عند الناس يتحدث، إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس، فدمره، ففتبعهم الحجارة من سائر البلاد، حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد. وقال مجاهد: أخذ جبريل قوم لوط من سرّحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم، ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح

كلابهم ثم أكفأهم وكان حملهم على خوافي جناحه الأيمن. قال: ولما قلبها كان أول ما سقط منها شرفاتها. وعن قتادة وغيره: بلغنا أن جبريل، عليه السلام، لما أصبح نشر جناحه، فانتسف به أرضهم بما فيها من قُصُورها ودوابها وحجارتها وشجرها، وجميع ما فيها، فضمها في جناحه، فحواها وطواها في جوف جناحه، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا، حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب، وكانوا أربعة آلاف ألف، ثم قلبها، فأرسلها إلى الأرض منكوسة، ودمدم بعضها على بعض، فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها حجارة من سجيل. وقال السدي: لما أصبح قوم لوط، نزل جبريل فاقتلع الأرض من سبع أرضين، فحملها حتى بلغ بها السماء، حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم، وأصوات ديوكهم، ثم قلبها فقتلهم، فذلك قوله: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ [النجم: ٥٣]، ومن لم يمت حين سقط للأرض، أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة، ومن كان منهم شاذاً في الأرض يتبعهم في القرى، فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: في القرى حجارة من سجيل.

وقوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ﴾ أي: وما هذه النعمة من تشبه بهم في ظلمهم، ببعيد عنه.

رَبِيعٌ ﴿وَالْمَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ وَلَا تَقْصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ مُحِيطٍ﴾

يقول تعالى: ولقد أرسلنا إلى مدين، وهم قبيلة من العرب، كانوا يسكنون بين الحجاز والشام، قريباً من بلاد معان، في بلد يعرف بهم، يقال لها «مدين» فأرسل الله إليهم شعيباً، وكان من أشرفهم نسباً؛ ولهذا قال: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان ﴿إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: في معيشتكم ورزقكم فأخاف أن تسلبوا ما أنتم فيه بانتهاكم محارم الله ﴿وَأِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ أي: في الدار الآخرة.

﴿وَيَنْقُورُ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾

ينهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين، ونهاهم عن العثر في الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطريق.

وقوله: ﴿بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس: رزق الله خير لكم. وقال الربيع بن أنس: وصية الله خير لكم. وقال مجاهد: طاعة الله. وقال قتادة: حظكم من الله خير لكم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «الهلاك» في العذاب، و«البقية» في الرحمة. وقال ابن جرير:

﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ ﴾ أى : ما يفضل لكم من الريح بعد وفاء الكيل والميزان ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أى : من أخذ أموال الناس ، قال : وقد روى هذا عن ابن عباس . قلت : ويشبهه قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَأَسْتَوِيَ الْخَبِيثَ وَالطَّيِّبَ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾ [المائدة : ١٠٠] .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أى : بربق وبلا حفيظ ، أى : افعلوا ذلك لله عز وجل لا تفعلوه ليراكم الناس ، بل لله عز وجل .

﴿ قَالُوا يَسْخَعِبُ أَصْلَابُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِيهِ أَمْوَالَنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾

يقولون له على سبيل التهكم ، قبحهم الله : ﴿ أَصْلَابُكَ ﴾ قال الأعمش : أى : قراءتك ﴿ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ أى : الأوثان والأصنام ﴿ أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ ، فترك التطفيف على قولك ، هى أموالنا نفعل فيها ما نريد . قال الحسن فى قوله : ﴿ أَصْلَابُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ : إى والله ، إن صلاته لتامرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم . وقال الثورى فى قوله : ﴿ أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ : يعنون الزكاة .

وقولهم : ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ : قال ابن عباس وابن جرير وغيرهما : يقولون ذلك - أعداء الله - على سبيل الاستهزاء ، قبحهم الله ولعنهم عن رحمته ، وقد فعل .

﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنْتُمْ لَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

يقول لهم : أرايتم يا قوم ﴿ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّي ﴾ أى : على بصيرة فيما أَدْعُو إليه ﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ ، قيل : أراد النبوة . وقيل : أراد الرزق الحلال ، ويحتمل الأمرين . وقال الثورى : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَنْتُمْ لَكُمْ عَنْهُ ﴾ أى : لا أنهاكم عن شىء وأخالف أنا فى السر فافعله خفية عنكم ، كما قال قتادة : لم أكن لأنهاكم عن أمر وأركبه ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ أى : فيما آمركم وأنهاكم ، إنما مرادى إصلاحكم جهدى وطاقتى ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي ﴾ أى : فى إصابة الحق فيما أُرِيدُهُ ﴿ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ فى جميع أمورى ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أى : أرجع .

وروى أحمد عن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده قال : أخذ النبى ﷺ ناساً من قومي فى تَهْمَةٍ فحبسهم ، فجاء رجل من قومي إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب ، فقال : يا محمد ، علام تحبس جبريتى ؟ فصمت رسول الله ﷺ [عنه] فقال : إن ناساً ليقولون : إنك تنهى عن الشىء وتستخلى به ، فقال النبى ﷺ : « ما يقول ؟ » قال : فجعلت أعرض بينهما الكلام مخافة أن يسمعها فيدعو على قومي دعوة لا يفلحون بعدها أبداً ، فلم يزل رسول الله ﷺ به حتى فهمها ، فقال : « أو قد قالوها - أو : قائلها منهم - والله لو فعلت لكان على وما كان عليهم ، خلوا له

عن جيرانه « (١) . ومن هذا القبيل الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الملك بن سعيد ابن سويد الأنصاري قال: سمعت أبا حميد وأبا أسيد يقولان : قال رسول الله ﷺ : « إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم قريب ، فإنا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عنى تُنكره قلوبكم ، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم بعيد فإنا أبعدهم منه » (٢) . هذا إسناد صحيح ، ومعناه - والله أعلم - : مهما بلغكم عنى من خير فإنا أولاكم به ومهما يكن من مكروه فإنا أبعدهم منه ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالَفَكُمْ إِلَيَّ مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ .

وقال أبو سليمان الضبي : كانت تحيئنا كتب عمر ابن عبد العزيز فيها الأمر والنهى ، فيكتب فى آخرها : وما كنت من ذلك إلا كما قال العبد الصالح : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

﴿ وَيَنْقُورُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ (٨٩) ﴿ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ (٩٠)

يقول لهم : ﴿ وَيَا قَوْمَ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ﴾ أى : لا تحملنكم عداوتى وبغضى على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد ، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط من النعمة والعذاب .

وقوله : ﴿ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ يعنى : إنما أهلكوا بين أيديكم بالأمس ، وقيل : فى المكان ، ويحتمل الأمران ، ﴿ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ أى : استغفروه من سالف الذنوب ، وتوبوا فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ أى : لمن تاب وأناب .

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ (٩١) ﴿ قَالَ يَنْقُورُ آرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَانْخِذْ ثَمُوهُ وَرَأْيَكُمْ ظَهْرًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (٩٢)

يقولون : ﴿ يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ ﴾ أى : ما نفهم ﴿ كَثِيرًا ﴾ من قولك ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ . قال السدى : أى أنت واحد . وقال أبو روق : يعنون : ذليلاً ؛ لأن عشيرتك ليسوا على دينك . ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ ﴾ أى : قومك وعشيرتك ؛ لولا معزة قومك علينا ﴿ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ قيل : بالحجارة ، وقيل : لسببناك ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ أى : ليس لك عندنا معزة . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ : يقول : أتتركونى لأجل قومى ، ولا تتركونى إعظاما لجناب الله أن تتالوا نبيه بمساءة ،

(١) المسند (٢/٥) ، ورواه الترمذى - مختصراً - (١٤١٧) وقال : « حديث حسن » ، وما بين المعقوفين من المسند .

(٢) المسند (٣/٤٩٧) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (١/١٥٥) : « رجاله رجال الصحيح » .

وقد اتخذتم جانب الله ﴿وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾ أى: نبذتموه خلفكم، لاتطيعونه ولا تعظمونه ﴿إِنْ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أى: هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزىكم بها.

﴿وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلُّهُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا آلَا بَعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾

لما ينس نبى الله شعيب من استجابتهم له ، قال : يا قوم ﴿اعملوا علىٰ مكانكم﴾ أى: على طريقتكم، وهذا تهديد شديد، ﴿إني عاملٌ﴾، على طريقتى ﴿سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب﴾ أى: منى ومنكم ﴿وارتقبوا﴾ أى: انتظروا ﴿إني معكم رقيب﴾ .

قال الله تعالى: ﴿ولمّا جاء أمرنا نجّينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمةٍ منّا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ أى: هامدين لاجراك بهم. وذكر هاهنا أنهم أتتهم صيحة ، وفى الأعراف رجفة ، وفى الشعراء عذاب يوم الظلة ، وهم أمة واحدة، اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها . وإنما ذكر فى كل سياق ما يناسبه، ففى الأعراف لما قالوا: ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا﴾ [الأعراف: ٨٨] ، ناسب أن يذكر هناك الرجفة، فرجفت بهم الأرض التى ظلموا بها، وأرادوا إخراج نبيهم منها، وهاهنا لما أساؤوا الأدب فى مقاتلتهم على نبيهم ناسب ذكر الصيحة التى استلبتهم وأحمدتهم ، وفى الشعراء لما قالوا: ﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين﴾ [الشعراء : ١٨٧] ، قال: ﴿فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يومٍ عظيم﴾ [الشعراء: ١٨٩]، وهذا من الأسرار الدقيقة، والله الحمد والمنة كثيراً دائماً.

وقوله: ﴿كأن لم يعنوا فيها﴾ أى: يعيشوا فى دارهم قبل ذلك ، ﴿ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾ وكانوا جيرانهم قريباً منهم فى الدار، وشبيهاً بهم فى الكفر وقطع الطريق، وكانوا عرباً مثلهم .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِنْ فِرْعَوْنُ وَمَلَائِيهٖ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَنْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ يَنْسُ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن إرساله موسى، عليه السلام، بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون ، وهو ملك القبط وملته ﴿فاتبعوا أمر فرعون﴾ أى: مسلكه ومنهجه وطريقته فى الغى ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ أى: ليس فيه رشد ولا هدى، وإنما هو جهل وضلال، وكفر وعناد، وكما أنهم

أَتَبِعُوهُ فِي الدُّنْيَا، وَكَانَ مُقَدِّمَهُمْ وَرِثِيهِمْ، كَذَلِكَ هُوَ يُقَدِّمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ الْحِظِّ الْأَوْفَرِ، مِنَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَعْصَى فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ فَاخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيْلًا﴾ [الزمل: ١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى. ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى. فَحَشَرَ فَنَادَى. فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى. فَاخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى﴾ [النار: ٢١ - ٢٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُقَدِّمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾، وَكَذَلِكَ شَأْنُ الْمَتَّبِعِينَ يَكُونُونَ مُؤَفَّرِينَ فِي الْعَذَابِ يَوْمَ الْمَعَادِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الاعراف: ٣٨]، وَقَالَ تَعَالَى إِجْبَارًا عَنِ الْكُفْرَةِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ فِي النَّارِ: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَعْطَيْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ. رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

وقوله: ﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْقُودُ﴾ أى: اتبعناهم زيادة على ما جازيناهم من عذاب النار لعنة في هذه الحياة الدنيا ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْقُودُ﴾ قال مجاهد: زيدوا لعنة يوم القيامة، فتلك لعنتان. وقال ابن عباس: ﴿بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْقُودُ﴾ قال: لعنة الدنيا والآخرة، وكذا قال الضحّاك، وقتادة، وهو كقولهم: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُبْصِرُونَ. وَآتَيْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤١، ٤٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهِمْ أَلَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيرٍ﴾ ﴿١٠١﴾

لما ذكر تعالى خير هؤلاء الأنبياء، وما جرى لهم مع أممهم، وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين قال: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى﴾ أى: أخبارهم ﴿نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ﴾ أى: عامر ﴿وَحَصِيدٌ﴾ أى: هالك ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ﴾ أى: إذ أهلكناهم ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهِمْ﴾ أوثانهم التي كانوا يعبدونها ويدعونها ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ مانفوعهم ولا أنقذوهم لما جاء أمر الله بإهلاكهم ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيرٍ﴾ أى: غير تخسير، وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة وعبادتهم إياها، فهذا أصابهم ما أصابهم، وخسروا بهم، في الدنيا والآخرة.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿١٠١﴾

يقول تعالى: وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسولنا كذلك نعمل ﴿إِنْ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ وفى الصحيحين عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْ»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ الآية (١).

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٦﴾ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمٌ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ أَنْفُسَ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾

يقول تعالى : إن في إهلاكنا الكافرين وإنجائنا المؤمنين ﴿ لآية ﴾ أي : عظة واعتبارا على صدق موعودنا في الآخرة ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١] ، وقال تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ الآية [إبراهيم: ١٣ ، ١٤] .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ ﴾ أي : أولهم وآخرهم كقوله : ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٧] . ﴿ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ أي : عظيم تحضره الملائكة ، ويجتمع فيه الرسل ، وتحشر الخلائق بأسرهم ، من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب ، ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها .

وقوله : ﴿ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ ﴾ أي : ما تؤخر إقامة القيامة إلا أنه قد سبقت كلمة الله وقضاؤه وقدره ، في وجود أناس معدودين من ذرية آدم ، وضرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم قامت الساعة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ ﴾ أي : لمدة مؤقتة لا يزداد عليها ولا يتقص منها ﴿ يَوْمٌ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ أَنْفُسَ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ يقول : يوم يأتي يوم القيامة ، لا يتكلم أحد إلا بإذن الله كقوله : ﴿ لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبا: ٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ ﴾ الآية [طه: ١٠٨] ، وفي الصحيحين من حديث الشفاعة : « ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم » (١) .

وقوله : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ أي : فمن أهل الجمع شقى ومنهم سعيد ، كما قال : ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧] . ثم بين تعالى حال الأشقياء وحال السعداء ، فقال :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ قال ابن عباس : الزفير في الخلق ، والشهيق في الصدر أي : تنفسهم زفير ، وأخذهم النفس شهيق ، لما هم فيه من العذاب ، عياداً بالله من ذلك . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ : قال ابن جرير : من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت : « هذا دائم دوام السموات والأرض » ، وكذلك يقولون : هو باق ما اختلف الليل والنهار ، يعنون بذلك كلمة : « أبدا » ، فحاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم ، فقال : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ .

قلت : ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض : الجنس ؛ لأنه لا بد في عالم الآخرة

من سموات وأرض، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]؛ ولهذا قال الحسن البصرى فى قوله: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، قال: تبدل سماء غير هذه السماء، وأرض غير هذه الأرض، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض. وقال ابن عباس قوله: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، قال: لكل جنة سماء وأرض. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: مادامت الأرض أرضاً، والسماء سماءً.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ كقوله تعالى: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الانعام: ١٢٨]. وقد اختلف المفسرون فى المراد من هذا الاستثناء، على أقوال كثيرة، [نقل كثيراً منها ابن جرير واختار ما روى] عن ابن عباس والحسن: أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين، من الملائكة والنبیین والمؤمنين، حين يشفعون فى أصحاب الكبائر، ثم تأتى رحمة أرحم الراحمين، فتخرج من النار من لم يعمل خيراً قط، وقال يوماً من الدهر: لا إله إلا الله. كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة. وهذا الذى عليه كثير من العلماء قديماً وحديثاً فى تفسير هذه الآية الكريمة. وقال السدى: هى منسوخة بقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: ٥٧].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُوزٍ﴾

يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا﴾ وهم أتباع الرسل ﴿فَفِي الْجَنَّةِ﴾ أى: فمأواهم الجنة، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: مقيمين فيها أبداً ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ معنى الاستثناء هاهنا: أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم، ليس أمراً واجباً بذاته، بل هو موكل إلى مشيئة الله تعالى، فله المنة عليهم دائماً، ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس. وقال الضحاك، والحسن البصرى: هى فى حق عصاة الموحدين الذين كانوا فى النار، ثم أخرجوا منها. وعقب ذلك بقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُوزٌ﴾ أى: غير مقطوع، قاله ابن عباس، ومجاهد وغير واحد، لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاعاً، أو لبساً، أو شيئاً، بل ختم له بالدوام وعدم الانقطاع، كما بين هناك أن عذاب أهل النار فى النار دائماً مردود إلى مشيئته، وأنه بعدلُه وحكمته عذبهم؛ لهذا قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، كما قال: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الانبيا: ٢٣]، وهنا طيب القلوب وثبت المقصود بقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُوزٌ﴾.

وقد جاء فى الصحيحين: «يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح، فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلّود فلا موت، ويا أهل النار، خلّود فلا موت» (١). وفى الصحيح: «فيقال: يا أهل الجنة، إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تباؤوا أبداً» (٢).

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيْبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِن كَلَامَنَا لِيُوقِنَ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ ﴾ المشركون ، إنه باطل وجهل وضلال ، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل ، أى : ليس لهم مُستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء فى الجهالات ، وسيجزئهم الله على ذلك أتم الجزاء فيعذب كافرهم عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين ، وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها فى الدنيا قبل الآخرة . قال ابن عباس : ﴿ وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيْبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴾ ، قال : ما وعدوا فيه من خير أو شر . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص .

ثم ذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب ، فاختلف الناس فيه ، فمن مؤمن به ، ومن كافر به ، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة ، فلا يغيظنك تكذيبهم لك ، ولا يهمنك ذلك . ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ قال ابن جرير : لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم ، لقضى الله بينهم . ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحججة عليه ، وإرسال الرسول إليه ، كما قال : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] ؛ فإنه قد قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى . فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ [طه : ١٢٩ ، ١٣٠] . [ثم أخبر أن الكافرين فى شك - مما جاءهم به الرسول - قوى ، فقال : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾] (١) .

ثم أخبرنا تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم ، ويجزيهم بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فقال : ﴿ وَإِن كَلَامَنَا لِيُوقِنَ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أى : عليم بأعمالهم جميعاً ، جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها .

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسِكُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة ، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأصدقاء ونهى عن الطغيان ، وهو البغى ، فإنه مَصْرَعَةٌ حتى ولو كان على مشرك . وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد ، لا يغفل عن شىء ، ولا يخفى عليه شىء .

(١) ما بين المعقوفين ساقط من المطبوعة ، وأثبتناه من المخطوطة .

وقوله: ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ : قال ابن عباس: ولا تميلوا إلى الذين ظلموا ، أى: لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بباقي صنيعهم ﴿ فَمَسْكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ أى : ليس لكم من دونه من ولى يقمذكم ، ولاناصر يخلصكم من عذابه .

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفْعًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكْرِينَ ﴾ (١١٤) وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿ (١١٥) ﴾

قال ابن عباس : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ ﴾ قال : يعنى الصبح والمغرب ، وكذا قال الحسن، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وقال مجاهد: هى الصبح فى أول النهار، والظهر والعصر من آخره .

وقوله: ﴿ وَرُفْعًا مِنَ اللَّيْلِ ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغيرهم: يعنى صلاة العشاء . وقال الحسن - فى رواية - يعنى: المغرب والعشاء . وكذا قال قتادة، والضحاك وغيرهما: إنها صلاة المغرب والعشاء . وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء؛ فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان: صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروبها . وفى أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة، ثم نسخ فى حق الأمة، وثبت وجوبه عليه، ثم نسخ عنه أيضاً، فى قول، والله أعلم .

وقوله: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ، يقول: إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة، كما جاء فى الصحيحين عن عثمان بن عفان: أنه توضع لهم كوضوء رسول الله ﷺ ، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله يتوضأ، وقال: «من توضأ نحو وضوئى هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه، غفر له ماتقدم من ذنبه» (١) . وفى الصحيح عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أرأيتم لو أن بياض أحدكم نهراً غمرأ غمرأ يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيئاً؟» قالوا: لا، يا رسول الله . قال: «وكذلك الصلوات الخمس ، يحو الله بهن الذنوب والخطايا» (٢) . وروى مسلم عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر» (٣) . وروى البخارى عن ابن مسعود ؛ أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبى ﷺ فأخبره ، فأنزل الله: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفْعًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ فقال الرجل : ألى هذا يا رسول الله ؟ قال : « لجميع أمتى كلهم » . ورواه مسلم ، وأحمد ، وأهل السنن إلا أبا داود (٤) . وروى الإمام أحمد عن أبى ذر ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «اتق الله حيثما كنت ،

(١) البخارى (١٥٩) ، ومسلم (٢٤٥/٣٣) . (٢) البخارى (٥٢٨) ، ومسلم (٦٦٧/٢٨٣) .

(٣) مسلم (٢٣٣/١٤) .

(٤) المسند (٣٨٥/١) ، والبخارى (٥٢٦) ، (٤٦٨٧) ، ومسلم (٢٧٦٣/٣٩) ، والترمذى (٣١١٤) .

وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن « (١) .

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَجْمَعْنَا مِنْهُمْ وَأَتَّبَعْنَا مِنْهُمْ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ يَظْلِمَ وَأَهْلَهَا مُضْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد فى الأرض. وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى: قد وُجد منهم من هذا الضرب قليل، لم يكونوا كثيرا، وهم الذين اتجأهم الله عند حلول غضبه، وفجأة نَقَمْتَهُ؛ ولهذا أمر تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وفى الحديث: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب» (٢)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَجْمَعْنَا مِنْهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَأَتَّبَعْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ﴾ أى: استمروا على ما هم فيه من المعاصى والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك، حتى فَجَّاهُمُ الْعَذَابُ ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهى ظالمة، ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١] .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَوَعَّتْ كَلِمَةَ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة، من إيمان أو كفران، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩].

وقوله: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ أى: ولا يزال الخُلُفُ بين الناس فى أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم. وقوله: ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ أى: إلا المرحومين من أتباع الرسل، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين. أخبرتهم به رسل الله إليهم، ولم يزل ذلك دأبهم، حتى كان النبى ﷺ الأمى خاتم الرسل والأنبياء، فاتبعوه وصدقوه، ونصروه ووازره، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة؛ لأنهم الفرقة الناجية، كما جاء فى الحديث

(١) المسند (٥/١٥٣)، والحديث رواه الترمذى (١٩٨٧)، وقال: «حسن صحيح» .

(٢) المسند (٢) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح»، وأبو داود (٤٣٣٨)، والترمذى (٣٠٥٧)، وقال:

«حسن صحيح»، وابن ماجه (٤٠٠٥) .

المروى فى المسانيد والسنن، من طرق يشد بعضها بعضا: «إن اليهود افتقرت على إحدى وسبعين فرقة، وإن النصرى افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة، كلها فى النار إلا فرقة واحدة». قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابى» (١). وقال قتادة: أهل رحمة الله أهل الجماعة، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فرقة، وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم.

وقوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال الحسن البصرى - فى رواية عنه -: وللاختلاف خلقهم. وقال ابن عباس: خلقهم فريقين، كقوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]. وقيل: للرحمة خلقهم. وعن ابن عباس قال: للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب. وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة. ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقيل: بل المراد: وللرحمة والاختلاف خلقهم، كما قال الحسن البصرى فى رواية عنه فى قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: الناس مختلفون على أديان شتى ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾، فمن رحم ربك غير مختلف. قيل له: فلذلك خلقهم؟ قال: خلق هؤلاء الجنة، وخلق هؤلاء النار، وخلق هؤلاء لرحمته، وخلق هؤلاء لعذابه. وقال ابن وهب: سألت مالكا عن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قال: فريق فى الجنة وفريق فى السعير. وقد اختار هذا القول ابن جرير.

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾: يخبر تعالى أنه قد سبق فى قضائه وقدره، لعلمه التام وحكمته النافذة، أن ممن خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس، وله الحجة البالغة والحكمة التامة. وفى الصحيحين عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «اختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: مالى لا يدخلنى إلا ضعفة الناس وسقطهم؟ وقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. فقال الله عز وجل للجنة، أنت رحمتى أرحم بك من أشياء. وقال للنار: أنت عذابى، أنتقم بك من أشياء، ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما الجنة فلا يزال فيها فضل، حتى ينشئ الله لها خلقا يسكن فضل الجنة، وأما النار فلا تزال تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع عليه رب العزة قدمه، فنقول: قَطُّ قَطُّ، وعزتك» (٢).

﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَشِئْتُمْ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

يقول تعالى: وكل أخبار نقصها عليك، من أنباء الرسل المتقدمين قبلك مع أهمهم، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله

(١) راجع تخريجه عند تفسير الآية (٩٣) من سورة يونس.

(٢) البخارى (٧٤٤٩)، ومسلم (٣٤/٢٨٤٦).

حزبه المؤمنين وخذل أعداء الكافرين - كل هذا مما ثبت به فؤادك - يا محمد - أى : قلبك ، ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة .

وقوله : ﴿ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ ﴾ أى : فى هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف نجّاهم الله والمؤمنين بهم ، وأهلك الكافرين ، جاءك فيها قصص حق ، ونبا صدق ، وموعظة يرتدع بها الكافرون ، وذكرى يتذكر بها المؤمنون .

﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

يقول تعالى أمرا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد : ﴿ اَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ أى : على طريقتكم ومنهجكم ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ أى : على طريقتنا ومنهجنا ﴿ وَأَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴾ أى : فستعلمون من تكون له عاقبة الدار ، إنه لا يفلح الظالمون . وقد أنجز الله لرسوله وعده ، ونصره وأيده ، وجعل كلمته هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، والله عزيز حكيم .

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض ، وأنه إليه المرجع والمآب ، وسيؤتى كل عامل عمله يوم الحساب ، فله الخلق والأمر . فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه ؛ فإنه كاف من توكل عليه وأتاب إليه . وقوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى : ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد ، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء فى الدنيا والآخرة ، وسيصرك وحزبك عليهم فى الدارين .

تفسير سورة يوسف عليه السلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْعَاقِلِينَ ﴿٣﴾﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة «البقرة». وقوله: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ أى: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن ﴿ الْمُبِينِ ﴾ أى: الواضح الجلى، الذى يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرهما ويبينها. ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾: وذلك لان لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تادية للمعاني التى تقوم بالنفوس؛ فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك فى أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله فى أشرف شهور السنة وهو رمضان، فكمل من كل الوجوه؛ ولهذا قال: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن. وقد وردَ فى سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن جرير عن مصعب بن سعد عن سعد قال: أنزل على النبي ﷺ القرآن، قال: فتلا عليهم زمانا، فقالوا: يا رسول الله، لو قصصت علينا. فأنزل الله عز وجل: ﴿ الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ إلى قوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾. ثم تلا عليهم زمانا، فقالوا: يا رسول الله، لو حدثنا. فأنزل الله عز وجل: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ الآية [الزمر: ٢٣]، وذكر الحديث. ورواه الحاكم (١).

وما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة، المشتملة على مدح القرآن، وأنه كاف عن كل ما سواه من الكتب ما رواه الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله؛ أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ فغضب وقال: « أُمَّتُهُمْ كَوْنٌ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِهَا بِيضَاءَ نَقِيَّةٍ، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقِّ فَتُكَذِّبُونَهُ، أَوْ بِيَاطِلٍ فَتُصَدِّقُونَهُ، وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا، لَمَا وَسَعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِى » (٢).

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾﴾

سَجِدِينَ ﴿٤﴾

(١) ابن جرير فى التفسير (١٢/٩٠)، والحاكم (٢/٣٤٥)، وقال: « صحيح الإسناد ولم يخرجاه ».

(٢) المسند (٣/٣٨٧)، والسنة لابن أبى عاصم رقم (٥٠) وحسنه الألبانى. انظر: الإرواء (١٥٨٩) والمشكاة (١٧٧).

يقول تعالى: اذكر لقومك يا محمد في قَصَصِكَ عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه، وأبوه يعقوب، عليه السلام، كما روى الإمام أحمد عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم». انفرد بإخراجه البخاري (١)، وروى البخاري أيضاً عن أبي هريرة، قال: سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله بن نبي الله بن خليل الله». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألوني؟» قالوا: نعم. قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا» (٢). وقال ابن عباس: رؤيا الأنبياء وحى.

وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام: أن الأحد عشر كوكبا عبارة عن إخوته، وكانوا أحد عشر رجلا سواه، والشمس والقمر عبارة عن أبيه وأمه. روى هذا عن ابن عباس، والضحاك، وقتادة وغيرهم، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة، وقيل: ثمانين سنة، وذلك حين رفع أبويه على العرش، وهو سريره، وإخوته بين يديه: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَا أَيُّهَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلِ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠].

﴿ قَالَ يَبْنَئِي لَا تَقْضُ رُؤْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قصَّ عليه ما رأى من هذه الرؤيا، التي تعبيرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً، بحيث يخرون له ساجدين إجلالاً وإكراماً واحتراماً، فخشى يعقوب، عليه السلام، أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدونه على ذلك، فيبغون له الغوائل، حسداً منهم له؛ ولهذا قال له: ﴿لَا تَقْضُ رُؤْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أى: يحتالوا لك حيلةً يُرْدُونَكَ فِيهَا. ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به، وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر وليتفل عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله من شرها، ولا يحدث بها أحداً، فإنها لن تضره» (٣).

﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لولده يوسف: إنه كما اختارك ربك، وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك ﴿كَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أى: يختارك ويصطفيك لنبوته

(٢) البخاري (٤٦٨٩).

(١) المسند (٥٧١٢)، والبخاري (٤٦٨٨).

(٣) المسند (٢٩٦/٥)، ومسلم (٤/٢٢٦١).

﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنَ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد: يعنى: تعبير الرؤيا. ﴿ وَيَمِّتُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ أى: بإرسالك والإيحاء إليك؛ ولهذا قال: ﴿ كَمَا أُنْمَتْهَا عَلَىٰ أَبِيكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وهو الخليل ﴿ وَإِسْحَاقَ ﴾ ولده ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى: هو أعلم حيث يجعل رسالاته .

ربع

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّالِطِينَ ﴾ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنََّا وَحَسُنَ عَصَبَةٌ إِنَّا أَنبَاءٌ لِّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا نَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾

يقول تعالى: لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات، أى: عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك، المستخبرين عنه، فإنه خبر عجيب، يستحق أن يستخبر عنه ﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا ﴾ أى: حلفوا فيما يظنون: والله ليوسف وأخوه - يعنون بنيامين، وكان شقيقه لأمه - ﴿ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْنَا وَحَسُنَ عَصَبَةٌ ﴾ أى: جماعة، فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة ﴿ إِنَّ أَنبَاءًا لِّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ يعنون فى تقديمهما علينا، ومحبة إياهما أكثر منا. ﴿ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ ﴾ : يقولون: هذا الذى يزاحمكم فى محبة أبيكم لكم، أعدموه من وجه أبيكم، ليخلو لكم وحدكم، إما بأن تقتلوه، أو تلقوه فى أرض من الأراضى، تستريحوا منه، وتختلوا أنتم بأبيكم، وتكونوا من بعد إعدامه قوماً صالحين. فأضمرُوا التوبة قبل الذنب.

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴾ : قال قتادة: كان أكبرهم واسمه روبيل ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾ أى: لاتصلوا فى عداوته وبغضه إلى قتله، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله؛ لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لا بد من إمضائه وإتمامه، من الإيحاء إليه بالنبوة، ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها، فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل فيه وإشارته عليهم بأن يلقوه فى ﴿ غِيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ وهو أسفله. قال قتادة: وهى بئر بيت المقدس. ﴿ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ أى: المارة من المسافرين، فاستريحوا بهذا، ولا حاجة إلى قتله ﴿ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ أى: إن كنتم عازمين على ما تقولون. قال ابن إسحاق: لقد اجتمعوا على أمر عظيم، من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذى لا ذنب له، وبالكبير الفانى ذى الحق والحرمة والفضل، وخطره عند الله، مع حق الوالد على ولده، ليفرقوا بينه وبين ابنه وحببيه، على كبر سنه، ورفقة عظمه، مع مكانه من الله فيمن أحبه طفلاً صغيراً، وبين أبيه على ضعف قوته وصغر سنه، وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمراً عظيماً.

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾

لما تواطؤوا على أخذه وطرحه في البئر، كما أشار به عليهم أخوهم رُوبيل ، جاؤوا أباهم يعقوب، عليه السلام، فقالوا: ما بالك ﴿ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ وهذه توطئة ودعوى ، وهم يريدون خلاف ذلك ؛ لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له ﴿ أَرْسَلَهُ مَعَنَا ﴾ أى : ابنته معنا ﴿ غَدَا نَرْعُ وَنَلْعَبُ ﴾ وقرأ بعضهم بالياء ﴿ يَرْعُ وَيَلْعَبُ ﴾ (١) . قال ابن عباس : يسعى وينشط . وكذا قال قتادة ، والضحاك والسدي ، وغيرهم . ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ يقولون : ونحن نحفظه ونحوطه من أهلك .

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾
﴿ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه يعقوب أنه قال لابنيه في جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعى في الصحراء : ﴿ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ﴾ أى : يشق على مفارقتة مدة ذهابكم به إلى أن يرجع ، وذلك لقرط محبته له ، لما يتوسم فيه من الخير العظيم ، وشمائل النبوة والكمال في الخلق والخلق ، صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله : ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ : يقول : وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون ، فأخذوا من فمه هذه الكلمة ، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه ، وقالوا مجيبين عنها في الساعة الراهنة : ﴿ لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ ﴾ يقولون : لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ، ونحن جماعة ، إنا إذا لهالكون عاجزون .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

يقول تعالى : فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك ﴿ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ ﴾ ، هذا فيه تعظيم لما فعلوه أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب ، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يُظهِرُونَهُ له إكراماً له ، وبسطاً وشرحاً لصدره ، وإدخالاً للسرور عليه ، فيقال : إن يعقوب ، عليه السلام ، لما بعثه معهم ضمه إليه ، وقبله ودعا له . وذكر السدي وغيره : أنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له ، إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه ، ثم شرعوا يؤذونه بالقول ، من شتم ونحوه ، والفعل من ضرب ونحوه ، ثم جاؤوا به إلى ذلك الجب الذي اتفقوا على رميه فيه فربطوه بحبل ودلوه فيه ، فجعل إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه ، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه ، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة ، فسقط في الماء فغمره ، فصعد إلى صخرة تكون في وسطه ، يقال لها : « الراغوفة » ، فقام فوقها .

(١) « نرع ونلعب » - بالنون فهما : قراءة ابن كثير (القارئ) وأبى عمرو بن عامر ، وباقي السبعة بالياء ، وقراءة الحافظ ابن كثير إنما هي بالنون .

قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ : يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر : إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق، تطيباً لقلبه ، وتثبيتاً له : إنك لا تحزن بما أنت فيه ، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً، وستنصرك الله عليهم ، ويعليك ويرفع درجتك، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع. وقوله: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بإيحاء الله إليه. وقال ابن عباس: ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقل، وهم لا يعرفونك، ولا يستشعرون بك .

﴿ وَجَاءُوا آبَاءَهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكَنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الذى اعتمده إخوة يوسف بعد ما ألقوه فى غيابة الجب : ثم رجعوا إلى أبيهم فى ظلمة الليل يبكون ، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ويتغممون لأبيهم ، وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا: ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ أى : نترامى ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ﴾ أى : ثيابنا وأمتعتنا ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ وهو الذى كان قد جزع منه ، وحذر عليه .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ : تلتطف عظيم فى تقرير ما يحاولونه، يقولون : ونحن نعلم أنك لا تصدقنا - والحالة هذه - لو كنا عندك صادقين، فكيف وأنت تتهمنا فى ذلك، لأنك خشيت أن يأكله الذئب، فأكله الذئب، فأنت معذور فى تكذيبك لنا؛ لغرابة ما وقع، وعجيب ما اتفق لنا فى أمرنا هذا.

﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ أى : مكذب مفتري. وهذا من الأفعال التى يؤكدون بها ما تمالؤوا عليه من المكيدة، وهو أنهم عمدوا إلى سَخْلَةٍ - فيما ذكره مجاهد والسدى وغير واحد - فذبحوها، ولطخوا ثوب يوسف بدمها، موهمين أن هذا قميصه الذى أكله فيه الذئب، وقد أصابه من دمه، ولكنهم نسوا أن يخرقوه، فلهذا لم يَرُجْ هذا الصنيع على نبي الله يعقوب، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع فى نفسه من تمالئهم عليه: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أى : فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذى قد اتفقتم عليه، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه ﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ أى : على ما تذكرون من الكذب والمحال. وقال ابن عباس : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ قال : لو أكله السبع لخرق القميص. وكذا قال الشعبي، والحسن، وقتادة، وغير واحد. وقال مجاهد: الصبر الجميل : الذى لا جزع فيه . وذكر البخارى هاهنا حديث عائشة فى الإفك حتى ذكر قولها: والله لا أجد لى ولكم مثلاً إلا أبا يوسف ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (١).

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَذَا عَلِيمٌ وَأَسْرُوهُ يَضَعَةٌ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَّوهُ بِشَمَنِ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف، عليه السلام، حين اللقاء إخوته، وتركوه في ذلك الجب فريداً وحيداً . قال ابن إسحاق : لما ألقاه إخوته جلسوا حول البئر يومهم ذلك، ينظرون ما يصنع وما يصنع به، فساق الله له سيارة ، فنزلوا قريباً من تلك البئر، وأرسلوا واردهم - وهو الذي يتطلب لهم الماء - فلما جاء تلك البئر، وأدلى دلوه فيها، تثبت يوسف، عليه السلام، فيها، فأخرجه واستبشر به، وقال : ﴿ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةٍ ﴾ أى : وأسره الواردون من بقية السيارة وقالوا: اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره . قاله مجاهد، والسدى، وابن جرير . هذا قول . وقال ابن عباس قوله : ﴿ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةٍ ﴾ يعنى : إخوة يوسف، أسروا شأنه، وكنتموا أن يكون أخاهم وكنتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيهقي . فذكره إخوته لوارد القوم، فنادى أصحابه : ﴿ يَا بُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ ﴾ بياح، فباعه إخوته . وقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أى : يعلم ما يفعله إخوة يوسف ومشتروه، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه، ولكن له حكمة وقدر سابق، فترك ذلك ليمضى ما قدره وقضاه، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين . وفى هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ ، وإعلام له بأننى عالم بأذى قومك، وأنا قادر على الإنكار عليهم ، ولكنى ساملى لهم، ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم، كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته .

وقوله : ﴿ وَشَرَّوهُ بِشَمَنِ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ ، يقول تعالى : وباعه إخوته بشمن قليل، والبخس : هو النقص ، أى : اعتاض عنه إخوته بشمن دون قليل ﴿ وَكَانُوا ﴾ مع ذلك ﴿ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ أى : ليس لهم رغبة فيه، بل لو سأله بلا شيء لأجابوا . ولهذا قال : ﴿ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ فعن ابن مسعود : باعوه بعشرين درهماً ، وقال مجاهد : اثنان وعشرون درهماً . وقال الضحاک فى قوله : ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ : وذلك أنهم لم يعلموا نبوته ومنزلته عند الله عز وجل .

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ وَأَمْرُهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

يخبر تعالى بالطافه بيوسف، عليه السلام، أنه قبيض له الذى اشتراه من مصر، حتى اعتنى

به وأكرمه، وأوصى أهله به، وتوسم فيه الخير والصلاح ، فقال لامرأته: ﴿ أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ ، وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها، وهو الوزير بها. قال ابن عباس: وكان اسمه قطفير ، وكان على خزائن مصر، وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد، رجل من العماليق قال: واسم امرأته راعيل بنت رعائيل ، وقال غيره : اسمها زليخا.

يقول تعالى: وكما أنقذنا يوسف من إخوته ﴿ كَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ يعني : بلاد مصر ﴿ وَنُعَلِّمُهُ مِنَ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ قال مجاهد والسدى : هو تعبير الرؤيا ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ أى: إذا أراد شيئاً فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه. وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ : يقول: لا يدرون حكمته فى خلقه ، وتلطفه لما يريد .

وقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ أى: يوسف عليه السلام ﴿أَشُدَّهُ﴾ أى: استكمل عقله ، وتم خلقه. ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ معنى: النبوة، إنه حباه بها بين أولئك الأقوام ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: إنه كان محسناً فى عمله، عاملاً بطاعة ربه تعالى. وقد اختلف فى مقدار المدة التى بلغ فيها أشده، فقال ابن عباس: بضع وثلاثون. وقال الضحاک: عشرون . وقال الحسن : أربعون سنة. وقال السدى : ثلاثون سنة . وقال الإمام مالك : الأشد الحلم . وقيل غير ذلك ، والله أعلم .

﴿ وَرَزَقْنَاهُ الْغُيُوتَ إِذْ رَمَىٰ بِهَا فِي بَيْتِهَا عَنِ النَّفْسِ الْأَعْتَىٰ ۚ وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التى كان يوسف فى بيتها بمصر، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه فراودته عن نفسه ، أى : حاولته على نفسه ، ودعته إليها، وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجماله وحسنه وبهائه، فحملها ذلك على أن تجملت له، وغلقت عليه الأبواب، ودعته إلى نفسها ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ فامتنع من ذلك أشد الامتناع، و﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي ﴾ وكانوا يطلقون «الرب» على السيد والكبير، أى: إن بعلك ربي أحسن مثواي ، أى : منزلى وأحسن إلى ، فلا أقبله بالفاحشة فى أهله ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ قال ذلك مجاهد، والسدى، ومحمد ابن إسحاق، وغيرهم.

وقد اختلف القراء فى قراءة: ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾، فقرأه كثيرون بفتح الهاء، وإسكان الياء، وفتح التاء. وقال ابن عباس وغير واحد : معناه : أنها تدعوه إلى نفسها . تقول : هلم لك . وقال أبو عبيد : وكان الكسائى يقول: هى لغة ، لأهل حوران ، وقعت إلى أهل الحجاز، معناها: تعال . وقرأ ذلك آخرون: ﴿ هَيْتُ لَكَ ﴾ بكسر الهاء والهمزة، وضم التاء، بمعنى: تهيأت لك، ومن روى عنه هذه القراءة ابن عباس وقتادة ، وكلهم يفسرها بمعنى: تهيأت لك. وقرأ آخرون، منهم عامة أهل المدينة : ﴿ هَيْتُ ﴾ بفتح الهاء، وضم التاء . وقال آخرون : ﴿ هَيْتُ لَكَ ﴾، بكسر الهاء، وإسكان الياء، وضم التاء.

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجَا بُرْهَانَ رَبِّهٖ كَذَلِكَ لِنَصَّرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ ﴿١٤﴾

اختلفت أقوال الناس وعباراتهم فى هذا المقام ، قال بعضهم : المراد بهمه بها هم خَطَرَات حديث النفس . حكاه البغوى عن بعض أهل التحقيق ، ثم أورد حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : إذا همَّ عبدى بحسنة فاكْتُبها له حسنة ، فإن عملها فاكْتُبها له بعشر أمثالها ، وإن هم بسئته فلم يعملها فاكْتُبها حسنة ، فإنما تركها من جرأتى ، فإن عملها فاكْتُبها بمثلها » . وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين (١) . وقيل : هم بضربها . وقيل : تمنأها زوجة . وقيل : ﴿ هَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجَا بُرْهَانَ رَبِّهٖ ﴾ أى : فلم يهيم بها . وأما البرهان الذى رآه ففیه أقوال أيضاً ، قال ابن جرير : والصواب أن يقال : إنه رأى من آيات الله ما زجره عما كان هم به ، وجائز أن يكون صورة يعقوب ، وجائز أن يكون الملك ، وجائز أن يكون ما رآه مكتوباً من الزجر عن ذلك . ولا حجة قاطعة على تعيين شىء من ذلك ، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى .

وقوله : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصَّرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ أى : كما أريناه برهاناً صرفه عما كان فيه ، كذلك نقيه السوء والفحشاء فى جميع أموره ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى : المجتنبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار ، صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿١٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدْتْنِي عَنْ نَفْسِيَّ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِيَّ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكٰذِبِينَ ﴿١٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هٰذَا وَأَسْتَغْفِرِي لِدُنْيِكُ إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخٰطِئِينَ ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب ، يوسف هارب ، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت ، فلحقته فى أثناء ذلك ، فأمسكت بقميصه من ورائه فقَدَّتْهُ قَدْماً فظيعاً ، يقال : إنه سقط عنه ، واستمر يوسف هارباً ذاهباً ، وهى فى إثره ، فألفيا سيدها - وهو زوجها - عند الباب ، فعند ذلك خرجت مما هى فيه بمكرها وكيدها ، وقالت لزوجها متصلة وقاذفة يوسف بدائها : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ أى : فاحشة ﴿ إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ ﴾ أى : يحبس ﴿ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : يضرب ضرباً شديداً موجعاً . فعند ذلك انتصر يوسف ، عليه السلام ، بالحق ، وتبرأ مما

رتمته به من الخيانة، وقال يارا صادقاً : ﴿هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾، وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قادت قميصه ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ قَبْلِ﴾ أى : من قدامه ﴿فَصَدَقَتْ﴾ أى : فى قولها إنه أرادها على نفسها، لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته فى صدره، فقدت قميصه، فيصح ما قالت : ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وذلك يكون كما وقع لما هرب منها، وتطلبت أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها، فقدت قميصه من ورائه .

وقد اختلفوا فى هذا الشاهد : هل هو صغير أو كبير ، على قولين لعلماء السلف ، فقال ابن عباس : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قال : ذو لحية . وقال : كان من خاصة الملك . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والسدى وغيرهم : إنه كان رجلاً . وقال زيد بن أسلم، والسدى : كان ابن عمها . وقال الحسن وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم : إنه كان صبياً فى الدار . واختاره ابن جرير . وقد ورد فيه حديث عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال : «تكلم أربعة وهم صغار»، فذكر فيهم شاهد يوسف (١) .

وقوله : ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدٌّ مِّنْ دُبُرٍ﴾ أى : فلما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به ﴿فَقَالَ إِنَّهُ مِّنْ كَيْدِكُنَّ﴾ أى : إن هذا البهت واللطخ الذى لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدكن ﴿إِنْ كَيْدِكُنَّ عَظِيمٌ﴾ .

ثم قال أمرا ليوسف، عليه السلام، بكتمان ما وقع : يا ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أى : اضرب عن هذا صفحا، فلا تذكره لاحد ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ يقول لامراته وقد كان لين العريكة سهلا، أو أنه عذرها؛ لأنها رأت ما لا صبر لها عنه، فقال لها : ﴿اسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ أى : الذى وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب، ثم قذفه بما هو برىء منه، استغفري من هذا الذى وقع منك ﴿إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ .

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنِ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيَكُونَنَّ مِنَّا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَأَسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع فى المدينة ، وهى مصر، حتى تحدث

(١) المسند (٢٨٢٢) ، وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح» .

به الناس ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ مثل نساء الكبراء والأمراء ، ينكرون على امرأة العزيز ، ويعبن ذلك عليها : ﴿ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تَرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ أى : تحاول غلامها عن نفسه ، وتدعوه إلى نفسها ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ أى : قد وصل حبه إلى شغاف قلبها ، وهو غلافه قال ابن عباس : الشَّغَفُ : الحب القاتل ، والشَّغَفُ دون ذلك ، والشغاف : حجاب القلب ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : فى صنعها هذا من حبها فتاها ، ومراودتها إياه عن نفسه . ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ قال بعضهم : بقولهن . وقال ابن إسحاق : بل بَلَّغَهُنَّ حُسْنَ يَوْسُفَ ، فأحببن أن يرينه ، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته ، فعند ذلك ﴿ أُرْسِلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ أى : دعتهن إلى منزلها لتضيفهن ﴿ وَأَعَدَّتْ لهنَّ مَتَكًا ﴾ قال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وغيرهم : هو المجلس المعد ، فيه مفارش ومخاد وطعام ، فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَتَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ كان هذا مكيدة منها ، ومقابلة لهن فى احتيالهن على رؤيته ﴿ وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَ ﴾ وذلك أنها كانت قد خبأته فى مكان آخر ﴿ فَلَمَّا ﴾ خرج و ﴿ رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتَهُ ﴾ أى : أعظمن شأنه ، وأجللن قدره ؛ وجعلن يقطعن أيديهن دَهَشًا برؤيته ، وهن يظنن أنهم يقطعن الأترج بالسكاكين ، والمراد : أنهم حزرزن أيديهن بها ، قاله غير واحد .

وقد ذكر عن زيد بن أسلم أنها قالت لهن بعدما أكلن وطابت أنفسهن ، ثم وضعت بين أيديهن أترجا ، وأتت كل واحدة منهن سكيئا : هل لكن فى النظر إلى يوسف؟ قلن : نعم . فبعثت إليه تأمره أن اخراج إليهن ، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن ، ثم أمرته أن يرجع فرجع ليرينه مقبلا ومدبرا ، وهن يحزرزن فى أيديهن ، فلما أحسسن بالألم جعلن يولولن ، فقالت : أنتن من نظرة واحدة فعلتن هكذا ، فكيف ألام أنا؟ فقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ، ثم قلن لها : وما نرى عليك من لوم بعد الذى رأينا ، لأنهن لم يرين فى البشر شبيهه ولا قريبا منه ، فإنه ﷺ كان قد أعطى شطر الحسن ، كما ثبت ذلك فى الحديث الصحيح فى حديث الإسراء : أن رسول الله ﷺ مر بيوسف ، عليه السلام ، فى السماء الثالثة ، قال : « فإذا هو قد أعطى شطر الحسن » (١) .

فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ قال مجاهد : معاذ الله ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ . قَالَتْ فَلذَلِكَنَّ الَّذِي لَمْتُنِّي فِيهِ ﴾ : تقول هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق بأن يحب لجماله وكماله .

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ أى : فامتنع . قال بعضهم : لما رأين جماله الظاهر ، أخبرتتهن بصفاته الحسنة التى تخفى عنهن ، وهى العفة مع هذا الجمال ، ثم قالت تتوعد : ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمَرُهُ لَيُسْجِنَنَّ وَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ فعند ذلك استعاذ يوسف ، عليه السلام ، من شرهن وكيدهن ، وقال : ﴿ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ أى : من الفاحشة ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ

أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴿٣٥﴾ أى: إن وكلتني إلى نفسي، فليس لى من نفسي قدرة، ولا أملك لها ضرا ولا نفعا إلا بحولك وقوتك، أنت المستعان وعليك التكلان، فلا تكني إلى نفسي ﴿٣٥﴾ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴿٣٦﴾ وذلك أن يوسف، عليه السلام، عصمه الله عصمة عظيمة ، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا فى غاية مقامات الكمال: أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيده، وهى امرأة عزيز مصر، وهى مع هذا فى غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع من ذلك، ويختار السجن على ذلك، خوفا من الله ورجاء ثوابه.

ولهذا ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد ، إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحبا فى الله اجتمعا عليه وافترقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعت امرأه ذات جمال ومنصب، فقال: إني أخاف الله » (١) .

﴿ تَرَبَّدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَ جُنْتُهُ حَتَّى حِينَ ﴾

يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين، أى: إلى مدة، وذلك بعدما عرفوا براءته ، وظهرت الآيات - وهى الأدلة - على صدقه فى عفته ونزاهته . وكأنهم - والله أعلم - إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاما أن هذا راودها عن نفسها، وأنهم سجنوه على ذلك. ولهذا لما طلبه الملك الكبير فى آخر المدة، امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة، فلما تقرر ذلك خرج وهو نقيّ العرض، صلوات الله عليه وسلامه . وذكر السدى: أنهم إنما سجنوه لثلاث شىء ما كان منها فى حقه، ويبرأ عرضه فيفضحها.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نُرِيدُكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

قال قتادة: كان أحدهما ساقى الملك، والآخر خبازه قال السدى : كان سبب حبس الملك إيهاما أنه توهم أنهما تمالأ على سمه فى طعامه وشرابه. وكان يوسف ، عليه السلام، قد اشتهر فى السجن بالجوّد والأمانة وصدق الحديث، وحسن السمت وكثرة العبادة ، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعبادة مرضاهم والقيام بحقوقهم. ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن، تألفا به وأحباها جدا شديدا، وقالوا له : والله لقد أحببناك جدا زائدا. قال : بارك الله فيكما، إنه ما أحبني أحد إلا دخل على من محبته ضرر، أحبني أبى فأوذيت بسببه، وأحبتني امرأة العزيز فكذلك ، فقالوا: والله ما نستطيع إلا ذلك، ثم إنهما رأيا مناما، فرأى الساقى أنه

(١) البخارى (١٤٢٣) ، ومسلم (١٠٣١/٩١) .

يعصر خمرًا - يعنى عنبًا - وقال الآخر - وهو الخباز - ﴿ إِنِّي أَرَانِي أٰحْمِلُ فَوْقَ رَاسِي خَبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئًا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ . والمشهور عند الأكثرين ما ذكرناه ، وأنهما رأيا مناما وطلبا تعبيره . وروى ابن جرير : عن عبد الله [ابن مسعود] قال : ما رأى صاحبًا يوسف شيئًا ، إنما كانا نالحمالا ليجربا عليه .

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا بِنَآئِكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كٰفِرُونَ ﴿٧٧﴾ وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي لِإِتْرَاهِمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

يخبرهما يوسف ، عليه السلام ، أنهما مهما رأيا فى نومهما من حلم ، فإنه عارف بتفسيره ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه ؛ ولهذا قال : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ ﴾ قال مجاهد : فى نومكما ﴿ إِلَّا بِنَآئِكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ . ثم قال : وهذا إنما هو من تعليم الله إياي ؛ لأنى اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر ، فلا يرجون ثوابا ولا عقابا فى المعاد ﴿ وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ الآية ، يقول : هجرت طريق الكفر والشرك ، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى ، واتبع طريق المرسلين ، وأعرض عن طريق الظالمين فإنه يهدى قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلمه ، ويجعله إماما يقتدى به فى الخير ، وداعيا إلى سبيل الرشاد .

﴿ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ﴾ : هذا التوحيد ، وهو الإقرار بأنه لا إله إلا هو - وحده لا شريك له ﴿ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ أى : أوحاه إلينا ، وأمرنا به ﴿ وَعَلَى النَّاسِ ﴾ ، إذ جعلنا دعاء لهم إلى ذلك ﴿ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ أى : لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم ، بل ﴿ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨] .

﴿ يَصْدِحِي السَّجْنَءَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٧٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطٰنٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

ثم إن يوسف ، عليه السلام ، أقبل على الفتين بالمخاطبة ، والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له وَخَلَعَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ التى يعبدها قومهما ، فقال : ﴿ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ أى : الذى ذل كل شىء لعز جلاله ، وعظمة سلطانه . ثم بين لهما أن التى يعبدونها ويسمونها آلهة ، إنما هى جعل منهم ، وتسمية من تلقاء أنفسهم ، تلقاها خلفهم عن سلفهم ، وليس لذلك مستند من عند الله ؛ ولهذا قال : ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطٰنٍ ﴾ أى : حجة ولا برهان .

ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشئة والملك كله لله ، وقد أمر عباده قاطبة ألا يعبدوا إلا إياه ، ثم قال : ﴿ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أى : هذا الذى أدعوكم إليه من توحيد الله ، وإخلاص

العمل له، هو الدين المستقيم، الذي أمر الله به وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: فلهذا كان أكثرهم مشركين ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]. وقد جعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام وُصْلَةً وَسَبِيلاً إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام، لما رأى فى سجيتهما من قبول الخير والإقبال عليه، والإنصات إليه، ولهذا لما فرغ من دعوتهما، شرع فى تعبير رؤياهما، من غير تكرار سؤال فقال:

﴿يَصْحَبِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ
الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ ﴿٤١﴾

يقول لهما: ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ وهو الذى رأى أنه يعصر خمرًا، ولكنه لم يعينه لثلا يحزن ذاك، ولهذا أبهمه فى قوله: ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ وهو فى نفس الأمر الذى رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً. ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه، وهو واقع لا محالة. وقال عبد الله [بن مسعود]: لما قال ما قال، وأخبرهما، قال: ما رأينا شيئاً. فقال: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ
ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ ﴿٤٢﴾

ولما ظن يوسف، عليه السلام، أن الساقى ناج قال له يوسف خفية عن الآخر والله أعلم، لثلا يشعره أنه المصلوب قال له: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾، يقول: اذكر قصتى عند الملك، ففسى ذلك الموصى أن يذكّر مولاه بذلك، وكان من جملة مكاييد الشيطان، لثلا يطلع نبي الله من السجن. وأما «البضع»، فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع. وقال وهب بن منبه: مكث أيوب فى البلاء سبعاً، ويوسف فى السجن سبعاً.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ
خُضِرٍ وَأُخْرَى يَأْسَتِ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونًا فِي رَبْعِي إِذْ كُنْتُمْ لِلرِّجَالِ يَا تَعْمُرُونَ﴾ ﴿٤٣﴾
قَالُوا أَضْغَنْتُ أَحْلِبٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ
بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ
بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَأْسَتِ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى
النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ
إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا
مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِصُونَ﴾ ﴿٤٩﴾

هذه الرؤيا من مَلِكِ مصرَ مما قَدَّرَ اللهُ تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسفَ، عليه السلام، من السجن مُعَزَّزاً مكرماً، وذلك أن المَلِكَ رأى هذه الرؤيا، فهالته وتَعَجَّبَ من أمرها، وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة وكبراء دولته وأمرأه وَقَصَّ عليهم ما رأى، وسألهم عن تأويلها، فلم يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه بأنها ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ أى: أخلاط اقتضت رؤياك هذه ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ أى: ولو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط، لما كان لنا معرفة بتأويلها، وهو تعبيرها. فعند ذلك تَذَكَّرَ ذلك الذى نجا من ذينك الفتين اللذين كانا فى السجن مع يوسف، وكان الشيطان قد أنساه ما وصَّاه به يوسف، من ذكر أمره للملك، فعند ذلك تذكر ﴿ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ أى: مدة - وقرأ بعضهم: «بعد أمة» أى: بعد نسيان، فقال للملك والذين جمعهم لذلك: ﴿ أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ﴾ أى: بتأويل هذا المنام ﴿ فَأَرْسَلُونِ ﴾ أى: فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن. ومعنى الكلام: فبعثوا، فجاءه فقال: ﴿ يَوْسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ﴾، وذكر المنام الذى رآه الملك، فعند ذلك ذكر له يوسف، عليه السلام، تعبيرها من غير تعنيف لذلك الفتى فى نسيانه ما وصَّاه به، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك، بل قال: ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا ﴾ أى: يأتىكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات، ففسر البقر بالسنين؛ لأنها تثير الأرض التى تُسْتَغَلُّ منها الثمرات والزرع، وهن السنبلات الخضر

ثم أرشدهم إلى ما يعتمدونه فى تلك السنين فقال: ﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ أى: مهما استغللتم فى هذه السبع السنين الخصب فاخزنوه فى سنبله، ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه، إلا المقدار الذى تأكلونه، وليكن قليلاً قليلاً لا تسرفوا فيه، لتتفجروا فى السبع الشداد، وهن السبع السنين المُحَلُّ التى تعقب هذه السبع متواليات، وهن البقرات العجاف اللاتى يأكلن السَّمَانَ؛ لأن سنى الجَدْبِ يؤكل فيها ما جَمَعُوهُ فى سنى الخصب، وهن السنبلات اليابسات. وأخبرهم أنهم لا ينبتن شيئاً، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شئ؛ ولهذا قال: ﴿ يَا كَلِمَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصُونَ ﴾.

ثم بشرهم بعد الجَدْبِ العام المتوالى بأنه يعقبهم بعد ذلك ﴿ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ أى: يأتىهم الغيث، وهو المطر، وتُغَلُّ البلاد، ويعصرُ الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم، من زيت ونحوه، وسكر ونحوه حتى قال بعضهم: يدخل فيه حلب اللبن أيضاً. قال ابن عباس: ﴿ فِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾: يحلبون.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ آتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النَّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْقَنْتَنُ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه، التي كان رآها، بما أعجبه وأينقه، فعرف فضل يوسف، عليه السلام، وعلمه وحسن أخلاقه على من يبلده من رعاياه، فقال : ﴿ ائْتُونِي بِهِ ﴾ أى: أخرجوه من السجن وأحضروه. فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته، ونزاهة عرضه، مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه، بل كان ظلماً وعدواناً، فقال: ﴿ ارجعْ إِلَيَّ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾. وقد وردت السنة بمدحه على ذلك، والتبنيه على فضله وشرفه، وعُلُو قدره وصبره، صلوات الله وسلامه عليه، ففى المسند والصحيحين عن أبي هريرة، قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال ﴿ رَبِّ ائْتِنِي كَيْفَ تَخَيُّمَ الْمُوتَى قَالِ أَوْلَمْ تُوْمِن قَالِ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِن قَلْبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوى إلى ركن شديد، ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى » (١).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾: إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز، فقال مخاطباً لهن كلهن - وهو يريد امرأة العزيز: ﴿ مَا خَطْبُكُمْ ﴾ أى: شأنكن وخبركن ﴿ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ يعنى: يوم الضيافة؟ ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ أى: قالت النسوة جواباً للملك: حاش لله أن يكون يوسف متهماً، والله ما علمنا عليه من سوء. فعند ذلك ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: تقول الآن: تبين الحق وظهر وبرز. ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أى: فى قوله: ﴿ هِيَ رَاوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾. ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُهِ بِالْغَيْبِ ﴾ تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسى، ذلك ليعلم زوجى أن لم أخنه فى نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة، فامتنع؛ فلهذا اعترفت ليعلم أنى بريئة ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ . وَمَا أُبْرَأُ نَفْسِي ﴾ تقول المرأة: ولست أبرئ نفسى، فإن النفس تتحدث وتمتنى؛ ولهذا راودته لأنها أماره بالسوء ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ أى: إلا من عصمه الله تعالى ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾. وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعانى الكلام. وقد حكاه الماوردى فى تفسيره، وانتدب لنصره الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية، رحمه الله وقد قيل: إن ذلك من كلام يوسف، عليه السلام، من قوله: ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُهِ ﴾ فى زوجته ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾ الآيتين أى: إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتى وليعلم العزيز ﴿ أَنِّي لَمْ أَخْنُهِ ﴾ فى زوجته ﴿ بِالْغَيْبِ ﴾، ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ . وَمَا أُبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ وهذا القول هو الذى لم يحك ابن جرير ولا ابن أبى حاتم سواه. وهكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وقتادة، وغيرهم. والقول الأول أقوى وأظهر؛ لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك، ولم يكن يوسف، عليه السلام، عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك.

(١) المسند (٨٣١١)، والبخارى (٤٦٩٤)، ومسلم (٢٣٨/١٥١).

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَنْوِي بِهِ اسْتِخْلَافَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾
 ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف، عليه السلام، ونزاهة عرضه بما نسب إليه، قال: ﴿ اتنوبي به استخلفه لنفسي ﴾ أى: اجعله من خاصتى وأهل مشورتى ﴿ فلما كلمه ﴾ أى: خاطبه الملك وعرفه، ورأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خلق وخلق وكمال قال له الملك: ﴿ إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ أى: إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة، فقال يوسف، عليه السلام: ﴿ اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ مدح نفسه، ويجوز للرجل ذلك إذا جهل أمره، للحاجة. وذكر أنه ﴿ حفيظ ﴾ أى: خازن أمين ﴿ عليم ﴾ ذو علم وبصر بما يتولاه. وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه، ولما فى ذلك من المصالح للناس، وإنما سأل أن يجعل على خزائن الأرض، وهى الأهرام التى يجمع فيها الغلات، لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها، ليتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه، وتكرمة له؛ ولهذا قال تعالى:

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿٥٦﴾ وَلَا جُرْ الْأَخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى: ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾ أى: أرض مصر ﴿ يتبعوا منها حيث يشاء ﴾. قال السددي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يتصرف فيها كيف يشاء، وقال ابن جرير: يتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الضيق والحس والإسار ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ أى: وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته، وصبره على الحس بسبب امرأة العزيز؛ فلهذا أعقبه الله عز وجل السلامة والنصر والتأييد ﴿ ولا نضيع أجر المحسنين. ولا أجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ يخبر تعالى أن ما ادخره الله لنبيه يوسف، عليه السلام، فى الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل، مما حوله من التصرف والنفوذ فى الدنيا كما قال تعالى فى حق سليمان، عليه السلام: ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ . وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص: ٣٩، ٤٠].

والغرض: أن يوسف، عليه السلام، ولأه ملك مصر الريان بن الوليد الوزارة فى بلاد مصر، مكان الذى اشتراه من مصر زوج التى راودته، وأسلم الملك على يدى يوسف، عليه السلام. قاله مجاهد.

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَنْعَامِكُمْ الَّتِي تَرَوْنَ أَمْ لَا تَرَوْنَ أَنَّ فِي الْكَيْلِ وَآتَا خَيْرٌ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَتَرُوهُ عَنْهٗ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

ذكر السدّي، ومحمد بن إسحاق، وغيرهما من المفسرين: أن السبب الذي أقدم إخوة يوسف بلاد مصر، أن يوسف، عليه السلام، لما باشر الوزارة بمصر، ومضت السبع السنين المخضبة، ثم تلتها سنين الجذب، وعمّ القحط بلاد مصر بكمالها، ووصل إلى بلاد كنعان، وهى التى فيها يعقوب، عليه السلام، وأولاده. وحينئذ احتاط يوسف، عليه السلام، للناس فى غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، وكان رحمة من الله على أهل مصر.

والغرض: أنه كان فى جملة من ورد للميرة إخوة يوسف، عن أمر أبيهم لهم فى ذلك، فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطى الناس الطعام بثمنه، فأخذوا معهم بضاعة يعترضون بها طعاما، وركبوا عشرة نفر، واحتبس يعقوب، عليه السلام، عنده بنيامين شقيق يوسف، عليه السلام، وكان أحب ولده إليه بعد يوسف. فلما دخلوا على يوسف، وهو جالس فى أبيته ورياسته وسيادته، عرفهم حين نظر إليهم ﴿وَهُمْ لَهُ مُكْرُونَ﴾ أى: لا يعرفونه؛ لأنهم فارقوه وهو صغير حدث فباعوه للسيارة، ولم يدروا أين يذهبون به، ولا كانوا يستشعرون فى أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه، فهذا لم يعرفوه، وأما هو فعرفهم. فذكر السدّي وغيره: أنه شرع يخاطبهم، فقال لهم: من أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبي الله. قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم، كنا اثني عشر، فذهب أصغرنا، هلك فى البرية، وكان أحبنا إلى أبيه، وبقي شقيقة فاحتبس أبوه ليتسلى به عنه. فأمر بإنزالهم وإكرامهم.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ﴾ أى: وفأهم كيلهم، وحمل لهم أحمالهم قال: اتنوني بأخيكم هذا الذى ذكرتم، لأعلم صدقكم فيما ذكرتم ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ يرغبهم فى الرجوع إليه، ثم رهبهم فقال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُون﴾ أى: إن لم تقدموا به معكم فى المرة الثانية، فليس لكم عندى ميرة ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عِنْدَ آبَاءِ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ أى: سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ولا نبقى مجهودا لتعلم صدقنا فيما قلناه. ﴿وَقَالَ لِفَتِيهِ﴾ (١) أى: غلامانه ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾ وهى التى قدموا بها ليمتاروا عوضاً عنها ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ أى: فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ بها. قيل: خشى يوسف، عليه السلام، ألا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها. وقيل: أراد أن يردهم إذا وجدوها فى متاعهم تخرجاً وتورعاً لأنه يعلم ذلك منهم والله أعلم.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَمُحْفِظُونَ﴾ (١٢) قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٣)

(١) كذا فى المخطوطة، وهى قراءة المحافظ ابن كثير وبقية السبعة غير حفص وحزمة والكسائى فإنهم قرؤوها:

يخبر تعالى عنهم أنهم لما رجعوا إلى أبيهم ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ يعنون بعد هذه المرة، إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين، فأرسله معنا نكتل . ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ أى : لا تخف عليه فإنه سيرجع إليك . وهذا كما قالوا له فى يوسف : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا نَرْتَعِ وَنَلْعَبُ ﴾ (١) وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ؛ ولهذا قال لهم : ﴿ هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ أى : هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغيّبونه عنى ، وتحولون بينى وبينه ؟ ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ أى : هو أرحم الراحمين بى ، وسيرحم كبرى وضعفى ووجدى بولدى، وأرجو من الله أن يرده على، ويجمع شملى به، إنه أرحم الراحمين

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبِغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ سَيِّئٌ ﴿١٥﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول تعالى : ولما فتح إخوة يوسف متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، وهى التى كان أمر يوسف فتياته بوضعها فى رحالهم، فلما وجدوها فى متاعهم ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبِغِي ﴾ ؟ أى : ماذا نريد ؟ ﴿ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ كما قال قتادة . ما نبغى وراء هذا ؟ إن بضاعتنا ردت إلينا وقد أوفى لنا الكيل ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أى : إذا أرسلت أخانا معنا نأتى بالميرة إلى أهلنا ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ ﴾ وذلك أن يوسف، عليه السلام، كان يعطى كل رجل حمل بعير ﴿ ذَلِكَ كَيْلٌ سَيِّئٌ ﴾ : هذا من تمام الكلام وتحسينه ، أى : إن هذا يسير فى مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا . ﴿ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى : تحلفون بالعهد والمواثيق ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرتون على تخليصه ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ أكده عليهم فقال : ﴿ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ قال ابن إسحاق : وإنما فعل ذلك ؛ لأنه لم يجد بدا من بعثهم لأجل الميرة، التى لا غنى لهم عنها، فبعثه معهم .

﴿ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلَيْهِ لَمَّا عَلَّمَنَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول تعالى إخبارا عن يعقوب، عليه السلام: إنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر، ألا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة، فإنه كما قال ابن عباس، وقتادة، والسدّي وغيرهم: إنه خشى عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوى جمال وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، فخشى عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم؛ فإن العين حق، تستنزل الفارس عن فرسه.

وقوله: ﴿وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أى: هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضائه؛ فإن الله إذا أراد شيئا لا يخالف ولا يمانع ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾. ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوه ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها ﴿قالوا: هى دفع إصابة العين لهم﴾ وإِنَّهُ لُدُو عِلْمٍ لَمَّا عَلَّمْنَاهُ ﴿قال قتادة والثورى: لدو عمل بعلمه. وقال ابن جرير: لدو علم لتعليمنا إياه﴾ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَأْوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين، فأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الصلة والإلطف والإحسان، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه، وما جرى له، وعرفه أنه أخوه، وقال له: لا تبتئس، أى: لا تأسف على ما صنعوا بى، وأمره بكتمان ذلك عنهم، وألا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده، مُعَزِّزًا مَكْرَمًا مَعْظَمًا.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧٨﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُورَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٩﴾

لما جهزهم وحمل لهم أبعرتهم طعاما، أمر بعض فتياته أن يضع ﴿السَّقَايَةَ﴾ وهى: إناء من فضة، فى قول الأكثرين. وقيل: من ذهب كان يشرب فيه، ويكيل للناس به من عزة الطعام، فوضعها فى متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد، ثم نادى مناد بينهم: ﴿أَيُّهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ فالتفتوا إلى المنادى وقالوا: ﴿مَاذَا تَفْقَدُونَ. قَالُوا نَفَقْدُ صُورَاعَ الْمَلِكِ﴾ أى: صاعه الذى يكيل به ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ وهذا من باب الجعالة ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ وهذا من باب الضمان والكفالة.

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ ﴿٧٣﴾ قَالُوا
فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ
نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ
كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ
دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٦﴾

لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة، قال لهم إخوة يوسف: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا ، لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة ، أنا ما جئنا للفساد فى الأرض ﴿ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ أى : ليست سجايانا تقتضى هذه الصفة، فقال لهم الفتيان: ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ ﴾ أى: السارق، إن كان فيكم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ أى: أى شىء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه؟ ﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ . وهكذا كانت شريعة إبراهيم عليه السلام : أن السارق يدفع إلى المسروق منه. وهذا هو الذى أراد يوسف، عليه السلام؛ ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، أى: فنشأها قبله، تورية ﴿ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم والزاما لهم بما يعتقدونه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ وهذا من الكيد المحبوب المراد الذى يحبه الله ويرضاه، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة.

وقوله: ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ أى: لم يكن له أخذه فى حكم ملك مصر، وإنما قبض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم؛ ولهذا مدحه تعالى فقال: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١١]. ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ قال الحسن البصرى: ليس عالم إلا فوقه عالم، حتى ينتهى إلى الله عز وجل. وعن ابن عباس قال: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله فوق كل عالم.

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُّوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿٧٧﴾

وقال إخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أخرج من متاع بنيامين : ﴿ إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ يتصلون إلى العزيز من التشبه به، ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل، يعنون به يوسف ، عليه السلام . قال سعيد بن جبير وقتادة : كان يوسف قد سرق صنما لجده، أبى أمه، فكسره. وقوله: ﴿ فَأَسْرَهَا يُّوسُفُ فِي نَفْسِهِ ﴾ يعنى: الكلمة التى بعدها، وهى قوله: ﴿ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَّانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ أى: تذكرون. قال هذا فى نفسه، ولم يبدئه لهم، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر . وله شواهد كثيرة من القرآن والحديث واللغة .

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا نَظَرْنَا لَهُمْ لَنُنْفِئُهُمْ كَمَا قَلَّمْ وَاعْتَرَفْتُمُ ﴿٧٩﴾ إِنَّا إِذَا نَظَرْنَا لَهُمْ لَنُنْفِئُهُمْ كَمَا قَلَّمْ وَاعْتَرَفْتُمُ ﴿٨٠﴾

لما تعين أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم، شرعوا يترققون له ويعطفونه عليهم، ف ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ يعنون: وهو يحبه حبا شديدا ويتسلى به عن ولده الذى فقده ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ أى : بدله ، يكون عندك عوضاً عنه ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى: من العادلين المنصفين القابلين للخير ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ ﴾ كما قَلَّمْ وَاعْتَرَفْتُمُ ﴿ إِنَّا إِذَا نَظَرْنَا لَهُمْ ﴾ إن اخذنا برئنا بسقيم.

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ﴿٨١﴾ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾ وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٣﴾

يخبر تعالى عن إخوة يوسف: أنهم لما يشسوا من تخلص أخيهم بنيامين، الذى قد التزموا لآبئهم برده إليه، وعاهدوه على ذلك، فامتنع عليهم ذلك ﴿ خَلَصُوا ﴾ أى: انفردوا عن الناس ﴿ نَجِيًّا ﴾ يتناجون فيما بينهم. ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ وهو رؤوبيل ، وهو الذى أشار عليهم بإلقائه فى البئر عندما هموا بقتله ، قال لهم : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ﴾ لتردنه إليه ، فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ ﴾ أى: لن أفارق هذه البلدة ﴿ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ فى الرجوع إليه راضياً عنى ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ قيل: بالسيف. وقيل : بأن يمكننى من أخذ أخى ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾.

ثم أمرهم أن يخبروا آباءهم بصورة ما وقع، حتى يكون عذرا لهم عنده ويتصلوا إليه، ويبرؤوا مما وقع بقولهم. وقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ قال عكرمة وقاتدة : ما نعلم أن ابنك سرق . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ما علمنا فى الغيب أنه يسرق له شيئا ، إنما سألنا ما جزاء السارق ؟

﴿ وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ : قيل: المراد مصر. قاله قاتدة، وقيل: غيرها ﴿ وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ أى: التى رافقناها، عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فيما أخبرناك به، من أنه سرق وأخذوه بسرقتة.

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَنُوا تَذَكَّرُ يُونُسَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

قال لهم كما قال لهم حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ قال ابن إسحاق: لما جاؤوا يعقوب وأخبروه بما جرى اتهمهم، وظن أنها كفعلتهم بيوسف ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾. ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف وأخاه بنيامين، وروبييل الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه، إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية؛ ولهذا قال: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ أي: العليم بحالي، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في أفعاله وقضائه وقدره.

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ أي: أعرض عن بنيه وقال متذكراً حُزْنَ يُونُسَ القديم الأول: ﴿ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ جَدَّدَ لَهُ حُزْنَ الْإِبْنِينَ الْحُزْنَ الدِّفِينِ . قال سعيد بن جبير: لم يعط أحد غير هذه الأمة الاسترجاع، ألا تسمعون إلى قول يعقوب، عليه السلام: ﴿ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي: ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق. قاله قتادة وغيره. وقال الضحاك: ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾: كמיד حزين. فعند ذلك رق له بنوه، وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَنُوا تَذَكَّرُ يُونُسَ ﴾ أي: لا تفارق تَذَكَّرُ يُونُسَ ﴿ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا ﴾ أي: ضعيف الجسم، ضعيف القوة ﴿ أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ يقولون: وإن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف.

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أي: أجابهم عما قالوا بقوله: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي ﴾ أي: همي وما أنا فيه ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ وحده ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي: أرجو منه كل خير. وعن ابن عباس: أعلم أن رؤيا يوسف صادقة، وأناى سوف أسجد له.

﴿ يَبْنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن يعقوب، عليه السلام، أنه ندب بنيه على الذهاب في الأرض، يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين. والتحسس يكون في الخير، والتجسس يستعمل في الشر. ونهضهم وبشرهم وأمرهم ألا يياسوا من روح الله، أي: لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله

فيما يرومونه ويقصدونه، فإنه لا يقطع الرجاء، ويقطع الإياس من الله إلا القوم الكافرون.

وقوله : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ تقدير الكلام : فذهبوا فدخلوا بلد مصر، ودخلوا على يوسف ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرُّ ﴾ يعنون من الجذب والقحط وقلة الطعام ﴿ وَجِئْنَا بِيضَاعَ مُزْجَاةٍ ﴾ أى : ومعنا ثمن الطعام الذى نمتاره ، وهو ثمن قليل . قاله مجاهد ، والحسن ، وغير واحد .
وقوله إخبارا عنهم : ﴿ فَأَوْفَ لَنَا الْكَيْلَ ﴾ أى : أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك . وقال ابن جريج : ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ بردٌ آخينا إلينا . وقال سعيد بن جبير والسدى : تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة ، وتجاوز فيها .

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَوَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرْنَاكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ تَقْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوسف ، عليه السلام : أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام ، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه ، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة ، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته ، فتعرف إليهم ، وقال : ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ ؟ يعنى : كيف فرقوا بينه وبينه ﴿ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ أى : إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذى ارتكبتموه ، كما قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل ، وقرأ : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٩] .

والظاهر - والله أعلم - أن يوسف ، عليه السلام ، إنما تعرف إليهم بنفسه ، بإذن الله له فى ذلك ، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه فى المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له فى ذلك ، والله أعلم ، ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر ، فرج الله تعالى من ذلك الضيق ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥ ، ٦] ، فعند ذلك قالوا : ﴿ أَنْتَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ﴾ ؟ أى : إنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من ستين وأكثر ، وهم لا يعرفونه ، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه ، فلماذا قالوا على سبيل الاستفهام : ﴿ أَنْتَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ أى : بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرْنَاكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم فى الخلق والخلق ، والسعة والملك ، والتصرف والنبوة ، وأقروا له بأنهم أسأؤوا إليه وأخطؤوا فى حقه . ﴿ قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ يقول : لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم ، ولا أعيد ذنبكم فى حقى بعد اليوم . ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال : ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ . قال السدى : اعتذروا إلى يوسف ، فقال : ﴿ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ يقول : لا أذكر

لكم ذنبيكم . وقال ابن إسحاق والثوري : أى : لا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتكم ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أى : يستر الله عليكم فيما فعلتم ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ .

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَقْنَدُونَ﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ ﴿٩٥﴾

يقول: اذهبوا بهذا القميص ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ وكان قد عمى من كثرة البكاء ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى : بجميع بنى يعقوب . ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أى : خرجت من مصر ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ يعنى : يعقوب ، عليه السلام ، لمن بقى عنده من بنيه : ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَقْنَدُونَ﴾ : تنسبونى إلى الفئدة والكبر . وقوله : ﴿لَوْلَا أَن تَقْنَدُونَ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعطاء ، وقتادة ، وسعيد بن جبير : تُسْفَهون . وقال مجاهد والحسن : تُهرمون .

وقولهم : ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ قال ابن عباس : لفى خطتك القديم . وقال قتادة : أى من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه ، قالوا لوالدهم كلمة غليظة ، لم يكن ينبغى لهم أن يقولوها لوالدهم ، ولا لبنى الله عليه السلام .

﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٩٦﴾

قال ابن عباس والضحاك : ﴿البشير﴾ : البريد . وقال مجاهد والسدى : كان يهوذا بن يعقوب . قال السدى : إنما جاء به لانه هو الذى جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب ، فأراد أن يغسل ذاك بهذا ، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه ، فرجع بصيرا . وقال لبيبة عند ذلك : ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى : أعلم أن الله سيرده إلى ، وقلت لكم : ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَقْنَدُونَ﴾ ؟ فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفين له : ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ . قال سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿أى : من تاب إليه تاب عليه .

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَىٰ أَبِيهِ وَقَالَ أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَزَّغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١٠٠﴾

يخبر تعالى عن ورود يعقوب على يوسف عليهما السلام ، وقدمه بلاد مصر ، لما كان يوسف قد تقدم إلى إخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين ، فتحملوا عن آخرهم وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر ، فلما أخبر يوسف ، عليه السلام ، باقترابهم خرج لتلقيهم ، وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقى نبي الله يعقوب ، عليه السلام ، ويقال : إن الملك خرج أيضا لتلقيه ، وهو الأشبه .

وقوله : ﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ آبَاؤُهُ ﴾ قال السدي ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إنما كان أباه وخالته ، وكانت أمه قد ماتت قديما . وقال ابن إسحاق وابن جرير : كان أبوه وأمّه يعيشان . قال ابن جرير : ولم يبق دليل على موت أمه ، وظاهر القرآن يدل على حياتها . وهذا الذي نصره هو المنصور الذي يدل عليه السياق .

وقوله : ﴿ وَرَفَعَ آبَاؤُهُ عَلَى الْفَرْشِ ﴾ أى : اجلسهما معه على سريره . ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ أى : سجد له أبواه وإخوته الباقون ، وكانوا أحد عشر رجلا ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : التى كان قصها على أبيه ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : ٤] . وقد كان هذا سائغا فى شرائعهم إذا سلّموا على الكبير يسجدون له ، ولم يزل هذا جائزا من لدن آدم إلى شريعة عيسى ، عليه السلام ، فحرم هذا فى هذه الملة ، وجعل السجود مختصا بجناب الرب سبحانه وتعالى . هذا مضمون قول قتادة وغيره . والغرض : أن هذا كان جائزا فى شريعتهم ؛ ولهذا خروا له سجدا ، فعندها قال يوسف : ﴿ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ أى : هذا ما آل إليه الأمر ، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر ، كما قال تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ ﴾ [الاعراف : ٥٣] أى : يوم القيامة يأتهم ما وعدوا من خير وشر .

وقوله : ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ أى : صحيحة صدقا ، يذكر نعم الله عليه ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾ أى : البادية . قال ابن جرير وغيره : كانوا أهل بادية وماشية . وقال : كانوا يسكنون بالعربيات من أرض فلسطين ، من غور الشام . ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نُزِعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴾ أى : إذا أراد أمرا قبيحا له أسبابا ويسره وقدره ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بمصالح عباده ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أفعاله وأقواله ، وقضائه وقدره ، وما يختاره ويريده .

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ الْإِنْسَانِ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

هذا دعاء من يوسف الصديق ، دعا به ربه عز وجل ، لما تمت النعمة عليه ، باجماعه بأبويه وإخوته ، وما من الله به عليه من النبوة والملك ، سأل ربه عز وجل ، كما أتم نعمته عليه فى الدنيا أن يستمر بها عليه فى الآخرة ، وأن يتوفاه مسلما حين يتوفاه ، وأن يلحقه بال صالحين ،

وهم إخوانه من النبيين والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .
وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف، عليه السلام، قاله عند احتضاره، كما ثبت فى الصحيحين عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت، ويقول: «اللهم فى الرفيق الأعلى، اللهم فى الرفيق الأعلى، اللهم فى الرفيق الأعلى» (١) .

ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بال صالحين إذا حان أجله، وانقضى عمره؛ لا أنه سأل ذلك منجزاً، كما يقول الداعى لغيره : « أمتك الله على الإسلام » . ويقول الداعى : « اللهم أحيينا مسلمين وتوفنا مسلمين وألحقنا بال صالحين » . ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً ، وكان ذلك سائغاً فى ملتهم ، كما قال قتادة : قوله : « تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » : لما جمع الله شمله وأقر عينه، وهو يومئذ مغمور فى الدنيا وملكها وغضارتها، فاشتاق إلى الصالحين قبله ، عن ابن عباس: أنه أول نبي دعا بذلك . ولكن هذا لا يجوز فى شريعتنا .
روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنين أحدكم الموت لضرٍّ نزل به ، فإن كان لابد متمنيا الموت فليقل: اللهم أحيى ما كانت الحياة خيراً لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى » . ورواه البخارى ومسلم، وعندهما: « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به إما محسناً فيزداد، وإما مسيئاً فلعله يستعجب، ولكن ليقول: اللهم، أحيى ما كانت الحياة خيراً لى، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى » (٢) .

وهذا فيما إذا كان الضر خاصاً به، أما إذا كان فتنة فى الدين فيجوز سؤال الموت، كما قال الله تعالى إخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهدهم بالقتل قالوا : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الاعراف: ١٢٦] ، وقالت مريم لما أجاها المخاض، وهو الطلق، إلى جذع النخلة ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٣]، لما تعلم من أن الناس يقذفونها بالفاحشة؛ لأنها لم تكن ذات زوج وقد حملت وولدت، فيقول القائل أنى لها هذا ؟ ولهذا واجهوها أولاً بأن قالوا: ﴿ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا . يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴾ [مريم: ٢٧، ٢٨] فجعل الله لها من ذلك الحال فرجاً ومخرجاً، وأنطق الصبى فى المهد بأنه عبد الله ورسوله، وكان آية عظيمة ومعجزة باهرة صلوات الله وسلامه عليه . وفى حديث معاذ، الذى رواه الإمام أحمد والترمذى، فى قصة المنام والدعاء الذى فيه: «وإذا أردت بقوم فتنة، فتوفنى إليك غير مفتون» (٣) .

فعند حلول الفتن فى الدين يجوز سؤال الموت؛ ولهذا قال على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فى آخر إمارته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له، ولا يزداد الأمر إلا شدة قال: اللهم، خذنى

(١) البخارى (٤٤٣٧) ، ومسلم (٨٧/٢٤٤) .

(٢) المسند (١٠١/٣) ، والبخارى (٦٣٥١) ، ومسلم (١٠/٢٦٨٠) .

(٣) المسند (٢٤٣/٥) ، والترمذى (٣٢٣٥) ، وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

إليك، فقد ستمتهم وستموني. وقال البخاري لما وقعت له تلك المحن وجرى له ما جرى مع أمير خراسان: اللهم، توفني إليك. وفي الحديث: «إن الرجل ليمر بالقبر - أي في زمان الدجال - فيقول: يا ليتني مكانك» (١)، لما يرى من الفتن والزلازل والبلابل والأمور الهائلة التي هي فتنة لكل مفتون.

﴿ ذَلِكْ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

يقول تعالى لمحمد ﷺ لما قص عليه نبا إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام: هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ ونعلمك به لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ ﴾ حاضراً عندهم ولا مشاهدا لهم ﴿ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ أي: على إلقائه في الجب ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ به ، ولكننا أعلمناك به وحيا إليك، وإنزالا عليك ، كقوله: ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ ﴾ الآية [آل عمران: ٤٤] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغُرُبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ الآية [القصص: ٤٤] . إلى قوله: ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ الآية [القصص: ٤٦] ، وقال: ﴿ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [القصص: ٤٥] ، وقال: ﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ . إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا نَمْنًا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [ص: ٦٩ ، ٧٠] .

يقول تعالى: إنه رسوله، وأنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم وديناهم؛ ومع هذا ما آمن أكثر الناس؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وقال: ﴿ وَإِنْ تَطَعْتَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦] ، إلى غير ذلك من الآيات. وقوله: ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي: وما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر ، بل تفعله ابتغاء وجه الله ، ونصحا لخلقك . ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي: يتذكرون به ويهتدون، وينجون به في الدنيا والآخرة.

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَاتٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكير في آيات الله ودلائل توحيده، بما خلقه الله في

السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت ، وسيارات وأفلاك دائرات ، والجميع مسخرات ، وكم فى الأرض من قطع متجاورات وحدائق وجنات وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وأمواج متلاطومات ، وقفار شاسعات ، وكم من أحياء وأموات ، وحيوانات ونبات ، وثمرات متشابهة ومختلفات ، فى الطعوم والروائح والألوان والصفات ، فسبحان الواحد الأحد ، خالق أنواع المخلوقات ، المتفرد بالدوام والبقاء .

وقوله : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ قال ابن عباس : من إيمانهم ، أنهم إذا قيل لهم : من خلق السموات ؟ ومن خلق الأرض ؟ ومن خلق الجبال ؟ قالوا : « الله » ، وهم مشركون به . وكذا قال مجاهد ، والشعبي ، وقتادة . وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] ، وهذا هو الشرك الأعظم الذى يعبد مع الله غيره ، كما فى الصحيحين . عن ابن مسعود قلت : يا رسول الله ، أى الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله ندا وهو خالقك » (١) . وقال الحسن البصرى فى قوله : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ قال : ذاك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس ، وهو مشرك بعمله ذاك ، يعنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٤٢] . وثم شرك آخر خفى لا يشعر به غالباً فاعله ، كما روى عن عروة قال : دخل حذيفة على مريض ، فرأى فى عضده سيراً فقطعه - أو : انتزعه - ثم قال : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ . وفى الحديث : « من حلف بغير الله فقد أشرك » . رواه الترمذى وحسنه (٢) . وفى الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود وغيره ، عن ابن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرقى والتمايم والتوكة شرك » (٣) . عن أبى هريرة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، ومن عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه » . رواه مسلم (٤) .

وقوله : ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴾ الآية ، أى : أفأمن هؤلاء المشركون أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون ، كقوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ . أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل : ٤٥-٤٧] ، وقال تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ . أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ . أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الاعراف : ٩٧ - ٩٩] .

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلُ اللَّهِ أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ

الشركين

(١) البخارى (٤٤٧٧) ، ومسلم (١٢٢/٦٨) . (٢) الترمذى (١٥٣٥) ، وصححه الالبانى .

(٣) المسند (٣٦/٥) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده حسن » ، وأبو داود (٣٨٨٣) ، وابن ماجه (٣٥٣٠) .

(٤) مسلم (٤٦/٢٩٨٥) .

يقول تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقلين : الجن والإنس ، أمراً له أن يخبر الناس : أن هذه سبيله ، أى طريقه ومسلكه وستته ، وهى الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ، ويقين وبرهان ، هو وكل من اتبعه ، يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلى وشرعى . وقوله : ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ أى : وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدسه ، عن أن يكون له شريك أو نظير ، أو عدل أو نديد ، أو ولد أو والد أو صاحبة ، أو وزير أو مشير ، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه عن ذلك كله علواً كبيراً ، ﴿ تَسْبِحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء . وهذا قول جمهور العلماء ، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة : أن الله تعالى لم يُوحِ إلى امرأة من بنات بنى آدم وحى تشريع . وإنما فيهن صديقات ، كما قال تعالى مخبراً عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال : ﴿ مَا الْمَسِيْحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِكُلَانِ الطَّعَامِ ﴾ [المائدة : ٧٥] ، فوصفها فى أشرف مقاماتها بالصديقية ، فلو كانت نبيّة لذكر ذلك فى مقام التشريف والإعظام ، فهى صديقة بنص القرآن . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ أى : ليسوا من أهل السماء كما قلتم . وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ الآية [الفرقان : ٢٠] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ . ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الانبيا : ٨ ، ٩] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ الآية [الحقاف : ٩] .

وقوله : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ : المراد بالقرى : المدن ، لا أنهم من أهل البوادي ، الذين هم أجنفى الناس طباعاً وأخلاقاً . وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرقّ طباعاً ، وألطف من أهل سوادهم ، وأهل الريف والسواد أقرب حالا من الذين يسكنون فى البوادي ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ الآية [التوبة : ٩٧] .

وقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ [يعنى : هؤلاء المكذبين لك يا محمد ﴿ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى : من الأمم المكذبة للرسول ، كيف دمر الله عليهم ، وللكافرين أمثالها ، كقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] ، فإذا استمعوا خبر ذلك ، رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين ، وهذه كانت سنته تعالى فى خلقه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ

اتَّقُوا ﴿ أى : وكما أُنجينا المؤمنين فى الدنيا ، كذلك كتبنا لهم النجاة فى الدار الآخرة أيضا ، وهى خير لهم من الدنيا بكثير ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر : ٥٠ ، ٥١] .

﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى مَنْ نَشَاءُ وَلَا يَرُدُّ بِأَسْنَانِهِ الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾

يذكر تعالى أن نصره ينزل على رسله ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله تعالى فى أحوج الأوقات إلى ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ وَزَلَّوْا حَتَّى يَقُولَ الرُّسُلُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ ﴾ الآية [البقرة : ٢١٤] .

وفى قوله : ﴿ كَذَّبُوا ﴾ قراءتان ، إحداهما بالتشديد : « قد كَذَّبُوا » ، وكذلك كانت عائشة تقرؤها ، روى البخارى عن عروة بن الزبير ، عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ ﴾ ، قال : قلت : أكذَّبوا أم كَذَّبُوا ؟ فقالت عائشة : كَذَّبُوا . فقلت : فقد استيقنوا أن قومهم قد كذَّبوهم فما هو بالظن ؟ قالت : أجل ، لعمري لقد استيقنوا بذلك . فقلت لها : وظنوا أنهم قد كذبوا ؟ قالت : معاذ الله ، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها . قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم ، فطال عليهم البلاء ، واستأخر عنهم النصر ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ ﴾ ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك . قال عروة : فقلت : لعلها « قد كَذَّبُوا » مخففة ؟ قالت : معاذ الله . انتهى ما ذكره (١) . والقراءة الثانية بالتخفيف ، واختلفوا فى تفسيرها ، فقال ابن عباس فى قوله : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا ﴾ ، قال : لما أيسر الرسل أن يستجيب لهم قومهم ، وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم ، جاءهم النصر على ذلك ، ﴿ فَجُجِّى مَنْ نَشَاءُ ﴾ .

وقال ابن جرير عن إبراهيم بن أبى حُرَّة الجزرى قال : سأل فتى من قریش سعيد بن جبیر فقال له : يا أبا عبد الله ، كيف هذا الحرف ، فإنى إذا أتيت عليه تمنيت أنى لا أقرأ هذه السورة : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا ﴾ ؟ قال : نعم ، حتى إذا استيسس الرسل من قومهم أن يصدقوهم ، وظن المرسل إليهم أن الرسل كذبوا . فقال الضحاک بن مزاحم : ما رأيت كالיום قط رجلا يدعى إلى علم فيتلک ! لو رحلت فى هذه إلى اليمن كان قليلا . ثم روى ابن جرير أن مسلم بن يسار سأل سعيد ابن جبیر عن ذلك ، فأجابه بهذا الجواب ، فقام إلى سعيد فاعتقه ، وقال : فرج الله عنك كما فرجت عنى .

﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى: لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم، وكيف أنحننا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وهى العقول ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أى: وما كان لهذا القرآن أن يفتري من دون الله، أى: يكذب ويخترق ﴿وَلَكِن تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى: من الكتب المنزلة من السماء، وهو يصدق ما فيها من الصحيح، وينفى ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من تحليل وتحريم، ومحجوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهى عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الغيوب المستقبلية والمجتملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقات، فلهذا كان: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ تهتدى به قلوبهم من الغى إلى الرشاد، ومن الضلالة إلى السداد، ويتغنون به الرحمة من رب العباد، فى هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد. فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم فى الدنيا والآخرة، يوم يفوز بالريح المبيضة وجوههم الناضرة، ويرجع المسودة وجوههم بالصفقة الخاسرة.

تفسير سورة الرعد

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَرَّةَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور، فقد تقدم فى أول سورة البقرة، وقدمنا أن كل سورة تبدأ بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب ؛ ولهذا قال : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ أى : هذه آيات الكتاب ، وهو القرآن ، ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال : ﴿ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أى : يا محمد ، ﴿ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، كقوله : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] أى : مع هذا البيان والجلاء والوضوح ، لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق .

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾

يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه : أنه الذى بإذنه وأمره رفع السموات بغير عمد ، بل بإذنه وأمره ، وتسخييره رفعها عن الأرض بعداً لا تنال ولا يدرك مداها . وقوله : ﴿ بغير عمدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ قال إياس بن معاوية : السماء على الأرض مثل القبة ، يعنى بلا عمد . وهو الظاهر من قوله تعالى : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج : ٦٥] ، فعلى هذا يكون قوله : ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ تأكيداً لئفى ذلك ، أى : هى مرفوعة بغير عمد كما ترونها . هذا هو الأكمل فى القدرة . وقوله : ﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ : تقدم تفسير ذلك فى سورة « الأعراف » (١) ، وأنه يمرر كما جاء من غير تكييف ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل ، ولا تمثيل ، تعالى الله علواً كبيراً .

وقوله : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ : قيل : المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة ، كقوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [يس : ٣٨] . وقيل : المراد إلى مستقرهما ، وهو تحت العرش مما يلى بطن الأرض من الجانب الآخر ، فإنهما وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك ، يكونون أبعد ما يكون عن العرش ؛ لأنه - على

الصحيح الذي تقومُ عليه الأدلة - قبة مما يلي العالم من هذا الوجه ، وليس بمحيط كسائر الأفلاك ؛ لأنه له قوائم وحَمَلَةٌ يحملونه. ولا يتصورُ هذا في الفلك المستدير، وهذا واضح لمن تدبَّر ما وردت به الآيات والأحاديث الصحيحة، والله الحمد والمنة. وذكر الشمس والقمر؛ لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة، التي هي أشرف وأعظم من الثوابت، فإذا كان قد سخر هذه، فلأن يدخل في التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأخرى ، كما نبه بقوله تعالى : ﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧] . مع أنه قد صرح بذلك بقوله : ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤]

وقوله : ﴿ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ أى : يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو ، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما ابتداء خلقه .

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿١﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢﴾

لما ذكر تعالى العالم العلوى، شرع فى ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلى، فقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ أى : جعلها متسعة ممتدة فى الطول والعرض، وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون لسقى ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح، من كل زوجين اثنين، أى : من كل شكل صنفان ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ أى : جعل كلا منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا، فإذا ذهب هذا غشيه هذا ، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضا فى الزمان كما تصرف فى المكان والسكان ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أى : فى آلاء الله وحكمته ودلائله .

وقوله : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ﴾ أى : أراضٍ يجاور بعضها بعضا، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينتفع به الناس، وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئا. هكذا روى عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير وغيرهم. وكذا يدخل فى هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء ، وهذه محجرة ، وهذه سهلة ، وهذه مرملة ، وهذه سميكة ، وهذه رقيقة، والكل متجاورات. فهذه بصفتها، وهذه بصفتها الأخرى، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار، لا إله إلا هو، ولا رب سواه .

وقوله : ﴿ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴾ : يحتمل أن تكون عاطفة على ﴿ جَنَّاتٌ ﴾ فيكون ﴿ زُرْعٌ وَنَخِيلٌ ﴾ مرفوعين . ويحتمل أن يكون معطوفا على أعناب، فيكون مجرورا؛ ولهذا قرأ

بكل منهما طائفة من الأئمة. وقوله: ﴿ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ ﴾: الصنوان: هي الأصول المجتمعة في منبت واحد، كالرمان والتين وبعض النخيل ، ونحو ذلك . وغير الصنوان: ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار، ومنه سمي عم الرجل صنو أبيه ، كما جاء في الحديث الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال لعمر : « أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه ؟ » (١) .

وقوله: ﴿ تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لُبُّ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ ﴾ أى : هذا الاختلاف فى أجناس الثمرات والزرورع، فى أشكالها وألوانها، وطعومها وروائحها، وأوراقها وأزهارها ، فهذا فى غاية الحلاوة وذا فى غاية الحموضة ، وذا فى غاية المرارة وذا عَفِصٌ، وهذا عذب وهذا جمع هذا وهذا ، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى . وهذا أصفر وهذا أحمر ، وهذا أبيض وهذا أسود وهذا أزرق. ففى ذلك آيات لمن كان واعياً، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار، الذى بقدرته فادت بين الأشياء وخلقها على ما يريد؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ وَإِن تَعَجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ آءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْنَا لَنِي خَلَقَ جَدِيدًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : ﴿ وَإِن تَعَجَبَ ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بأمر المعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلالاته فى خلقه على أنه القادر على ما يشاء ، ومع ما يعترفون به من أنه ابتداء خلق الأشياء ، فكونها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً ، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره فى أنه سيعيد العالم خلقاً جديداً ، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به ، فالعجب من قولهم : ﴿ أَلَمْ نَكُنَّا تُرَابًا أَوْنَا لَنِي خَلَقَ جَدِيدًا ﴾ ، وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فالإعادة سهلة عليه، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُمُ الْجَبَلُ قَدِيرٌ عَلَيْهِمْ أَن يُبْحِثَ الْمُوتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الاحقاف: ٣٣] .

ثم نعت المكذبين بهذا فقال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ أى : يُسْحَبُونَ بها فى النار ﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أى : ماكنون فيها أبداً ، لا يحولون عنها ولا يزولون .

﴿ وَسَتَعْلَمُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمُثَلَّثَةُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَسَتَعْلَمُونَكَ ﴾ أى : هؤلاء المكذبون ﴿ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ أى :

بالعقوبة ، كما أخبر عنهم في قوله : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُظْتَرِينَ ﴾ [الحجر: ٦ - ٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ الآيتين [المنكوت: ٥٣ ، ٥٤] ، وقال : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ [المعارج: ١] ، وقال : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ [الشورى: ١٨] ، ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قَطْنَا ﴾ الآية [ص: ١٦] أى : حسابنا وعقابنا ، كما قال مخبراً عنهم : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الانفال: ٣٢] ، فكانوا يطلبون من الرسول أن يأتيهم بعذاب الله ، وذلك من شدة تكذيبهم وكفرهم وعنادهم . قال الله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمُثَلَّثَاتُ ﴾ أى : قد أوقعتنا نعمتنا بالأمم الخالية وجعلناهم مثلة وعبرة وعظة لمن اتعظ بهم .

ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه ورفوه لعاجلهم بالعقوبة ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ [فاطر : ٤٥] ، وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة : ﴿ وَإِنْ رَيْكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظَلْمِهِمْ ﴾ أى : إنه ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار . ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ، ليعتدل الرجاء والخوف ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الانعام: ١٤٧] ، وقال : ﴿ إِنْ رَيْكَ لَسَرِيعِ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٦٧] ، وقال : ﴿ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩ ، ٥٠] ، إلى أمثال ذلك من الآيات التى تجمع الرجاء والخوف .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنْمَأَ أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين أنهم يقولون كفراً وعناداً: لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون ، كما تعتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن يزيل عنهم الجبال ، ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ الآية [الإسراء: ٥٩] . قال الله تعالى : ﴿ إِنْمَأَ أَنْتَ مُنذِرٌ ﴾ أى : إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التى أمرك بها ، ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢] .

وقوله : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ قال ابن عباس فى تفسيرها : يقول الله تعالى : أنت يا محمد منذر ، وأنا هادى كل قوم ، وكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبیر . وعن مجاهد : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أى : نبى . كما قال : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤] . وبه قال قتادة ، رعبد الرحمن بن زيد . وقال مالك : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ : من يدعوهم إلى الله ، عز وجل .

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا يَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ عَلَيْهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿ ١ ﴾

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء ، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ [لقمان : ٣٤] أى : ما حملت من ذكر أو أنثى ، أو حسن أو قبيح ، أو شقى أو سعيد ، أو طويل العمر أو قصيره ، كقوله تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ ﴾ [الأنبياء : ٣٢] . وقال تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ [الزمر : ٦] أى : خلقكم طورا من بعد طور ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفًا فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْثَةَ عِلْقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٢ - ١٤] ، وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنْ خَلَقَ أَحَدُكُمْ يَجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَبْعَثُ إِلَيْهِ مَلِكٌ فَيُؤَمِّرُ بَارِعَ كَلِمَاتٍ : يَكْتُبُ رِزْقَهُ ، وَعَمْرَهُ ، وَعَمَلَهُ ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ » (١) . وفى الحديث الآخر : « يَقُولُ الْمَلِكُ : أَيْ رَبِّ ، أَذْكَرُ أَمْ أُنْثَى ؟ أَيْ رَبِّ ، أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ ؟ فَمَا الرِّزْقُ ؟ فَمَا لِأَجْلِ ؟ فَيَقُولُ اللَّهُ ، وَيَكْتُبُ الْمَلِكُ » (٢) .

وقوله : ﴿ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ : روى البخارى عن ابن عمر ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ : لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدِّ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطْرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ » (٣) . وقال ابن عباس : ﴿ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ ﴾ : يعنى : السَّقْطُ ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ يقول : ما زادت الرحم فى الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماما . وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ، ومنهن من تحمل تسعة أشهر ، ومنهن من تزيد فى الحمل ، ومنهن من تنقص ، فذلك الغيظ والزيادة التى ذكر الله تعالى ، وكل ذلك بعلمه تعالى . وقال مجاهد : ﴿ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ قال : ما ترى من الدم فى حملها ، وما تزداد على تسعة أشهر . وبه قال عطية العوفى وقتادة ، والحسن البصرى ، والضحاك . وقال مكحول : الجنين فى بطن أمه لا يطلب ، ولا يحزن ولا يغتم ، وإنما يأتيه رزقه فى بطن أمه من دم حيضتها ، فمن ثم لا تحيض الحامل . فإذا وقع إلى الأرض استهل ، واستهلاله استنكار لمكانه ، فإذا قطعت سرتة حول الله رزقه إلى ثدى أمه حتى لا يطلب ولا يحزن ولا يغتم ، ثم يصير طفلا يتناول الشيء بكفه فيأكله ، فإذا هو بلغ قال : هو الموت أو القتل ، أنى لى بالرزق ؟ فيقول مكحول : يا ويلك ! عَذَابُكَ وَأَنْتَ فِي بَطْنِ أُمِّكَ ، وَأَنْتَ طِفْلٌ صَغِيرٌ ، حَتَّى إِذَا اشْتَدَّتْ وَعَقَلْتَ قُلْتَ : هُوَ الْمَوْتُ أَوْ الْقَتْلُ ، أَنَّى لى بِالرِّزْقِ ؟ ثُمَّ قَرَأَ مَكْحُولٌ : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ . وقال قتادة : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ : أى : بأجل ، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم ، وجعل لذلك أجلا معلوماً . وفى الحديث الصحيح : أن إحدى بنات

(٢) مسلم (٣/٢٦٤٥) .

(١) البخارى (٣٢٠٨) ، ومسلم (١/٢٦٤٣) .

(٣) البخارى (٤٦٩٧) .

النبي ﷺ بعثت إليه : أن ابناً لها في الموت ، وأنها تحب أن يحضره . فبعثت إليها يقول : «إن لله ما أخذ ، وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى فمروها فلتصبر ولتحتسب» الحديث بتمامه (١) .

وقوله : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى : يعلم كل شيء مما يشاهده العباد وما يغيب عنهم ، ولا يخفى عليه منه شيء ﴿الْكَبِيرُ﴾ الذى هو أكبر من كل شيء ﴿الْمُعْتَالِ﴾ أى : على كل شيء ، قد أحاط بكل شيء علماً ، وقهر كل شيء ، فخضعت له الرقاب ودان له العباد ، طوعاً وكرهاً .

﴿سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ لَمْ تُعْقِبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (١١)

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه ، وأنه سواء منهم من أسر قوله أو جهر به ، فإنه يسمعه ، لا يخفى عليه شيء كقوله : ﴿وَأَنْ تَجْهَرُوا بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه : ٧] ، وقال : ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل : ٢٥] ، وقالت عائشة : سبحان الذى وسع سمعه الأصوات ، والله لقد جاءت المجادلة تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وأنا فى جنب البيت ، وإنه ليخفى على بعض كلامها ، فأنزل الله : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١] (٢) .

وقوله : ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ أى : مخفى فى قعر بيته فى ظلام الليل ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أى : ظاهر ماش فى بياض النهار وضيائه ، فإن كليهما فى علم الله على السواء ، كقوله تعالى : ﴿أَلْحَيْنَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود : ٥] ، وقال تعالى : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس : ٦١] .

وقوله : ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أى : للعبد ملائكة يتعاقبون عليه ، حرس بالليل وحرس بالنهار ، يحفظونه من الأسواء والحادثات ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، فائتان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات ، وصاحب الشمال يكتب السيئات ، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه ، واحدا من ورائه وآخر من قدامه ، فهو بين أربعة أملاك بالنهار ، وأربعة آخرين بالليل بدلا ، حافظان وكاتبان ، كما جاء فى الصحيح : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصلدون إليه الذين

(١) البخارى (١٢٨٤) ، ومسلم (١١/٩٢٣) .

(٢) البخارى معلقاً (الفتح ٣٧٢/١٣) ، وابن ماجه (١٨٨) ، وصححه الألبانى .

باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم: كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون « (١) . وقال ابن عباس : ﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ : المعقبات من أمر الله ، وهى الملائكة ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ قال : ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله خلّوا عنه . وقال مجاهد: ما من عبد إلا له ملك موكل، يحفظه فى نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شىء يأتيه يريده إلا قال الملك: وراءك إلا شىء يأذن الله فيه فيصيبه .

روى الإمام أحمد عن عبد الله [بن مسعود] قال: قال رسول الله ﷺ: « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة » . قالوا: وإياك يا رسول الله ، قال: « وإياى ، ولكن أعاننى الله عليه ، فلا يأمرنى إلا بخير » . انفرد بإخراجه مسلم (٢) .

وقوله: ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ : قيل: المراد حفظهم له من أمر الله . رواه على بن أبى طلحة، وغيره، عن ابن عباس . وإليه ذهب مجاهد، وسعيد بن جبیر، وإبراهيم النخعى، وغيرهم . وقال كعب الأحبار: لو تجلّى لابن آدم كل سهل وحزن، لرأى كل شىء من ذلك شياطين لولا أن الله وكّل بكم ملائكة عنكم فى مطعمكم ومشربكم وعوراتكم، إذا لتخطّتم . وقال أبو أمامة : ما من آدمى إلا ومعه ملك يدّود عنه، حتى يسلمه للذى قدّر له . وقال بعضهم: ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ : بأمر الله ، كما جاء فى الحديث أنهم قالوا : يا رسول الله ، أرايت رقى نسترقى بها ، هل ترد من قدر الله شيئا ؟ فقال : « هى من قدر الله » (٣) .

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ ﴿ وَيَسْجِعُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴾

يخبر تعالى أنه هو الذى يسخر البرق ، وهو ما يرى من النور اللامع ساطعا من خلل السحاب . وقوله: ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ : قال قتادة: خوفا للمسافر ، يخاف أذاه ومشقته ، وطمعا للمقيم يرجو بركته ومنفعته ، ويطمع فى رزق الله ﴿ وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ أى : ويخلقها منشاء جديدة ، وهى لكثرة ماها ثقيلة قريبة إلى الأرض . قال مجاهد: والسحاب الثقال: الذى فيه الماء . ﴿ وَيَسْجِعُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسْجِعُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء: ٤٤] . وروى عن على، رضى الله عنه، أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال: سبحان من سبحت له . وكذا روى عن ابن عباس، والأسود بن يزيد، وطاوس: أنهم كانوا يقولون كذلك . وعن عبد الله ابن الزبير : أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: سبحان الذى يسبح الرعد بحمده

(١) البخارى (٥٥٥ ، ٧٤٢٩) ، ومسلم (٦٣٢ / ٢١٠)

(٢) الترمذى (٢٠٦٥) وقال : « حديث حسن » .

(٣) المسند (١ / ٣٩٧) ، ومسلم (٦٩ / ٢٨١٤) .

والملائكة من خيفته ، ويقول : إن هذا لوعيد شديد لأهل الأرض. رواه مالك في الموطأ، والبخارى (١).

وقوله: ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ ﴾ أى: يرسلها نعمةً ينتقم بها من يشاء، ولهذا تكثر في آخر الزمان . وقوله : ﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ ﴾ أى: يشكون في عظمته، وأنه لا إله إلا هو ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾. قال ابن جرير: شديدة محالته في عقوبة من طغى عليه وعتا وتمادى في كفره. وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿ وَمَكْرُوهًا مَّكْرًا وَمَكْرًا مَّكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِمِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ . وعن على : ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ أى: شديد الأخذ. وقال مجاهد: شديد القوة.

﴿ لَمْ دَعْوَةٌ لِّلْعَقِيبِ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾

قال على بن أبى طالب: ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ قال: التوحيد. وقال ابن عباس: لا إله إلا الله . ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ أى: ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله ﴿ كَبَسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ ﴾: قال على بن أبى طالب: كمثل الذى يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يناله أبدا بيده، فكيف يبلغ فاه؟ وقال مجاهد: يدعو الماء بلسانه، ويشير إليه بيده ، فلا يأتيه أبدا. وقيل: المراد كقابض يده على الماء، فإنه لا يحكم منه على شيء .

ومعنى الكلام : أن هذا الذى يبسط يده إلى الماء ، إما قابضا وإما متناولاً له من بعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذى لم يصل إلى فيه ، الذى جعله محلاً للشرب ، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره ، لا ينتفعون بهم أبداً فى الدنيا ولا فى الآخرة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾.

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾

سجدة

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذى قهر كل شيء، ودان له كل شيء ، ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين، وكرهاً من الكافرين ﴿ وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ ﴾ أى: البكرات ﴿ وَالْآصَالِ ﴾ ، وهو جمع أصيل وهو آخر النهار، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَّبِعُهُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٨].

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ نَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو؛ لأنهم معترفون بأنه هو الذى خلق السموات والأرض، وهو ربها ومدبرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لأنفسها، ولا لعابديها بطريق الأولى ﴿ تَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ أى: لا تحصل لهم منفعة، ولا تدفع عنهم مضرة. فهل يستوى من عبد هذه الآلهة مع الله، ومن عبد الله وحده لا شريك له، فهو على نور من ربه؟ ولهذا قال: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ أى: اجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتمثله فى الخلق، فخلقوا كخلقه، فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره؟ أى: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله، ولا ند له ولا عدل له، ولا وزير له، ولا ولد ولا صاحبة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم يعترفون أنها مخلوقة له عبيد له، كما كانوا يقولون فى تليتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك. وكما أخبر تعالى عنهم فى قوله: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر: ٣]، فإنكر تعالى ذلك عليهم، حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يشفع عنده أحداً إلا بإذنه ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبا: ٢٣]، ﴿ وَكَمْ مِنْ مُلْكٍ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ الآية [النجم: ٢٦]، وقال: ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا. لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا. وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مریم: ٩٣ - ٩٥]، فإذا كان الجميع عبيدا، فلم يعبد بعضهم بعضا بلا دليل ولا برهان، بل بمجرد الرأى والاختراع والابتداع؟ ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تترجمهم عن ذلك، وتنهاهم عن عبادة من سوى الله، فكذبوهم وخالفوهم، فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة ﴿ وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حَلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ مَثَلٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق فى ثباته وبقائه، والباطل فى اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أى: مطرا ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ أى: أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيرا من الماء، وهذا صغير فوسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علما كثيرا، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها ﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ﴾ أى: فجاء على وجه الماء الذى سال فى هذه الأودية زبد عال عليه، هذا مثل، وقوله: ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ﴾، هذا هو المثل الثانى، وهو ما يسبك فى النار من ذهب أو فضة ﴿ ابْتِغَاءَ حَلِيَّةٍ ﴾ أى: ليجعل حلية نحاس أو حديد، فيجعل متاعا فإنه يعلوه زبد منه، كما يعلو ذلك زبد منه. ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾ أى: إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب ونحوه مما يسبك فى النار، بل يذهب

ويضمحل؛ ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ أى: لا ينتفع به، بل يتفرق ويتمزق ويذهب فى جانبى الوادى، ويعلق بالشجر وتنسف الرياح. وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب، لا يرجع منه شىء، ولا يبقى إلا الماء، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به؛ ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكُّ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. قال بعض السلف: كنت إذا قرأتُ مثلاً من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسى؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ .

وقال ابن عباس قوله: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ يقول: احتتمل السيل ما فى الوادى من عود ودمنة ﴿وَمِمَّا تُوَقِّدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾، فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد، فللنحاس والحديد خبث، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبت. فجعل ذلك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيئ يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد، فكذلك الهدى والحق جاء من عند الله، فمن عمل بالحق كان له، ويبقى كما يبقى ما ينفع الناس فى الأرض. وكذلك الحديد لا يستطيع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل فى النار فتأكل خبثه، ويخرج جوده فينتفع به. كذلك يضمحل الباطل إذا كان يوم القيامة، وأقيم الناس، وعرضت الأعمال، فيزيغ الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق. وكذلك روى فى تفسيرها عن مجاهد، والحسن البصرى، وعطاء، وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف.

وقد ضرب الله، سبحانه وتعالى، فى أول سورة البقرة للمنافقين مثلين نارياً ومائياً، وهما قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ الآية [البقرة: ١٧]، ثم قال: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ الآية [البقرة: ١٩]. وهكذا ضرب للكافرين فى سورة النور مثلين، أحدهما: قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمآنُ مَاءً﴾ الآية [النور: ٣٩]، والسراب إنما يكون فى شدة الحر؛ ولهذا جاء فى الصحيحين: «يقال لليهود يوم القيامة: فما تريدون؟ فيقولون: أى ربنا، عطشنا فاسقنا. فيقال: ألا تردون؟ فيردون النار فإذا هى كالسراب يحطم بعضها بعضاً». ثم قال فى المثل الآخر: ﴿أَوْ كظلماتٍ فى بحرٍ لججٍ يغشاها موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحابٌ﴾ الآية [النور: ٤٠]. وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبت الكلاً والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا ورعوا زرعوا وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها [أخرى]، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه الله بما بعثنى ونفع به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به» (١). فهذا مثل مائى، وقال فى الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مثلى

(١) البخارى (٧٩)، ومسلم (١٥/٢٢٨٢)، وما بين المعقوفين ليس فى المخطوطة، وأثبتناه من الصحيحين والمطبوعة.

ومثلكم ، كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله ، جعل الفَرَّاشَ وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها ، وجعل يحجّزُهُنَّ ويغلبنه فيقتحمن فيها . قال : « فذلکم مثلی ومثلکم ، أنا أخذ بحجّزکم عن النار ، هلّم عن النار [هلّم عن النار ، هلّم] ، فتغلبونى فتقتحمون فيها » . وأخرجاه في الصحيحين أيضا (١) ، فهذا مثل نارى .

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّثْلَهُ مَعَهُ لَاقْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ السُّوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال : ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ أى : أطاعوا الله ورسوله ، وانقادوا لأوامره ، وصدقوا أخباره الماضية والآتية ، فلهم ﴿ الْحُسْنَى ﴾ وهو الجزء الحسن ، كقوله تعالى مخبراً عن ذى القرنين أنه قال : ﴿ أَمَا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا . وَأَمَا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [الكهف : ٨٧ ، ٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ ﴾ أى لم : يطيعوا الله ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ أى : فى الدار الآخرة ، لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لافتدوا به ، ولكن لا يتقبل منهم ؛ لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ﴾ أى : فى الدار الآخرة ، أى : يناقشون على النقيير والقطمير ، والجليل والحقير ، ومن نوقش الحساب عذب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ .

﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

يقول تعالى : لا يستوى من يعلم من الناس أن الذى ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ مِنْ رَبِّكَ ﴾ هو ﴿ الْحَقُّ ﴾ الذى لا شك فيه ولا مرية ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه ، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضاً ، لا يضاد شيئاً منه شيئاً آخر ، فأخبره كلها حق ، وأوامره ونواهيها عدل ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الانعام : ١١٥] أى : صدقاً فى الأخبار ، وعدلاً فى الطلب ، فلا يستوى من تحقق صدق ما جئت به يا محمد ، ومن هو أعمى لا يهتدى إلى خير ولا يفهمه ، ولو فهمه ما انقاد له ، ولا صدقه ولا اتبعه ، كقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر : ٢٠] ، وقال فى هذه الآية الكريمة : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ﴾ ؟ أى : أفهذا كهذا ؟ لا استواء . وقوله : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أى : إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة ، جعلنا الله منهم .

(١) المسند (٣١٢/٢) ، والبخارى (٦٤٨٢) ، ومسلم (١٧/٢٢٨٤) ، وما بين المعقوفتين ليس فى المطبوعة والمخطوطة ، وأثبتناه من المسند .

﴿ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَقْضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ ٢٠ ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ ٢١ ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَمْ نُغْفِبْ لَهُمُ الدَّارِ الْآخِرَةَ ۖ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ ٢٤ ﴿

يقول تعالى مخبراً عن اتصف بهذه الصفات الحميدة ، بأن لهم ﴿عقبي الدار﴾ وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة ﴿الذين يؤفون بعهد الله ولا يقضون الميثاق﴾ وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب، وإذا اتمن خان. ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ من صلة الأرحام ، والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج ، وبذل المعروف ﴿ويخشون ربهم﴾ أى: فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، يراقبون الله في ذلك، ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة. فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة فى جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية. ﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم﴾ أى: عن المحارم والمآثم، ففظموا نفوسهم عن ذلك لله عز وجل؛ ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ﴿واقاموا الصلاة﴾ يحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى ﴿وانفقوا مما رزقناهم﴾ أى: على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب، من فقراء ومحاويج ومساكين ﴿سراً وعلانية﴾ أى: فى السر والجهر، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال ، فى آناء الليل وأطراف النهار ﴿ويدرءون بالحسنة السيئة﴾ أى: يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابله بالجميل صبوا واحتمالا وصفحاً وعفوا، كما قال تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]؛ ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبي الدار، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿جنت عدن﴾ والعدن: الإقامة، أى: جنت إقامة يخلدون فيها.

وقوله: ﴿ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم﴾ أى: يجمع بينهم وبين أحبائهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين ؛ لتقر أعينهم بهم، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى ، من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته ، بل امتناناً من الله وإحساناً، كما قال تعالى: ﴿والذين آمنوا وآتبعناهم ذرياتهم بإيمان آلفناهم ذرياتهم وما آلتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين﴾ [الطور: ٢١].

وقوله: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ أى: وتدخل عليهم الملائكة من هاهنا وهاهنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تغد عليهم الملائكة مسلمين مهتئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام، والإقامة فى دار السلام،

في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضى الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تُسَدُّ بهم الثغور ، وتَتَقَى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته : اتوهم فحيوهم . فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك ، وخيرتك من خلقك ، أقتأمرنا أن نأتى هؤلاء فنسلم عليهم ؟ قال : إنهم كانوا عباداً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، وتُسَدُّ بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره فلا يستطيع لها قضاء . قال : « فتأتيهم الملائكة عند ذلك ، فيدخلون عليهم من كل باب ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ » (١) .

﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ (٢٥)

هذا حال الأشقياء وصفاتهم ، وذكر مآلهم في الدار الآخرة ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون ، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا ، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ويصلون ما أمر الله به أن يوصل ، وهؤلاء ﴿ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ، كما ثبت في الحديث : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » (٢) . وفي رواية : « وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » (٣) .

ولهذا قال : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ وهي الإبعاد عن الرحمة ، ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ وهي سوء العاقبة والمآل ، ومآواهم جهنم وبئس القرار . وقال أبو العالية في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ ﴾ الآية ، قال : هي ست خصال في المنافقين إذا كان فيهم الظُّهْرَةُ على الناس أظهروا هذه الخصال : إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا اتتمنوا خانوا ، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، وأفسدوا في الأرض . وإذا كانت الظُّهْرَةُ عليهم أظهروا الثلاث الخصال : إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا اتتمنوا خانوا .

﴿ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ (٢٦)

يذكر تعالى أنه هو الذى يوسع الرزق على من يشاء ، ويقتصر على من يشاء ، لما له فى ذلك

(١) المسند (٦٥٧١) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وقال الهيثمى فى الزوائد (٢٥٩/١٠) : « رجاله ثقات » .

(٢) البخارى (٣٣) ، ومسلم (١٠٧/٥٩) . (٣) البخارى (٣٤) ، ومسلم (١٠٦/٥٨) .

من الحكمة والعدل . وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا في الحياة الدنيا استدراجاً لهم وإمهالاً ، كما قال : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦] .

ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ ، كما قال : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تَتْلَمُونَ فَيَلًا ﴾ [النساء : ٧٧] ، وقال : ﴿ بَلْ تُوْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الاعلى : ١٦ ، ١٧] . وروى الإمام أحمد عن المستورد أخى بنى فهر قال : قال رسول الله ﷺ : « ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليم ، فلينظر بسم ترجع » وأشار بالسبابة . ورواه مسلم فى صحيحه (١) . وفى الحديث الآخر : أن رسول الله ﷺ مر بجدي أسك ميت - والأسك : الصغير الأذنين - فقال : « والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين القوه » (٢) .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴾ (٧) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (٨) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا فِي

يخبر تعالى عن قيل المشركين : ﴿ لَوْلَا ﴾ أى : هلا ﴿ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ كما قالوا : ﴿ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ [الانبيا : ٥] ، وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة ، وإن الله قادر على إجابة ما سألوا . وفى الحديث : أن الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهباً ، وأن يجرى لهم ينبوعاً ، وأن يزيح الجبال من حول مكة فيصير مكانها مروج وبساتين : إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك ، فإن كفروا فإنى أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة ، فقال : « بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة » (٣) ؛ ولهذا قال لرسوله : ﴿ قُلْ إِنْ أَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴾ أى : هو المضل والهادى ، سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا ، أو لم يجبههم إلى سؤالهم ؛ فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك ولا عدمه ، كما قال : ﴿ وَمَا تَفْنِي الْآيَاتِ وَالنُّدُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : ١٠١] ، وقال : ﴿ إِنْ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] . وقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الانعام : ١١١] ؛ ولهذا قال : ﴿ قُلْ إِنْ أَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴾ أى : ويهذى من أناب إلى الله ، ورجع إليه ، واستعان به ، وتضرع لديه .

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى : تطيب وتركن إلى جانب الله ، وتسكن عند ذكره ، وترضى به مولى ونصيراً ؛ ولهذا قال : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ أى : هو حقيق بذلك .

(١) المسند (٤/٢٢٨) ، ومسلم (٥٥/٢٨٥٨) . (٢) مسلم (٢/٢٩٥٧) .

(٣) المسند (٢١٦٦) وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده صحيح » .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسَنُ مَقَابٍ ﴾ ، قال ابن عباس : فرح وقرة عين . وقال عكرمة : نعم ما لهم . وقال الضحاك : غبطة لهم . وقال إبراهيم النخعي : خير لهم . وقال قتادة : ﴿ طُوبَىٰ لَهُمْ ﴾ : حسنى لهم . ﴿ وَحَسَنُ مَقَابٍ ﴾ أى : مرجع . وهذه الأقوال شىء واحد لا منافاة بينها .

وقال شهر بن حوشب : ﴿ طُوبَىٰ ﴾ شجرة فى الجنة ، كل شجر الجنة منها ، أغصانها من وراء سور الجنة . وهكذا روى عن أبى هريرة ، وابن عباس ، وغير واحد من السلف : أن طوبى شجرة فى الجنة ، فى كل دار منها غصن منها .

وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ : أن رجلا قال : يا رسول الله ، طوبى لمن رآك وآمن بك . قال : « طوبى لمن رآنى وآمن بى ، ثم طوبى ، ثم طوبى ، ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى » . قال له رجل : وما طوبى ؟ قال : « شجرة فى الجنة مسيرة مائة عام ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها » (١) . وروى البخارى ومسلم جميعاً ، عن إسحاق بن راهويه ، عن مغيرة المخزومى ، عن وهيب ، عن أبى حازم ، عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها » قال : فَحَدَّثَتْ به النعمان بن أبى عياش الزرقى ، فقال : حدثنى أبو سعيد الخدرى ، عن النبى ﷺ قال : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمراً السريع مائة عام ما يقطعها » (٢) . وفى صحيح البخارى عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ فى قول الله : ﴿ وَظِلٌّ مُمْدُودٌ ﴾ [الواقعة : ٣٠] ، قال : « فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها » (٣) .

وفى صحيح مسلم ، عن أبى ذر ، عن رسول الله ﷺ ، عن الله ، عز وجل : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا فى صعيد واحد ، فسألونى ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل فى البحر » الحديث بطوله (٤) .

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتَلَّوْا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول تعالى : وكما أرسلناك يا محمد فى هذه الأمة ﴿ لِيَتَلَّوْا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى : تبلغهم رسالة الله إليهم ، كذلك أرسلنا فى الأمم الماضية الكافرة بالله ، وقد كذب الرسل من قبلك ، فلك بهم أسوة ، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك ، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم ، فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين ، قال الله تعالى : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ الآية [النحل : ٦٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدَوْا حَتَّىٰ آتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الانعام : ٣٤] أى : كيف

(١) البخارى (٣٢٥١) .

(٢) البخارى (٦٥٥٢) ، ومسلم (٨/٢٨٢٧) .

(٣) مسلم (٥٥/٢٥٧٧) .

(٤) البخارى (٣٢٥١) .

نصرناهم ، وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم فى الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرُّحْمَنِ ﴾ أى : هذه الأمة التى بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن ، لا يقرون به ؛ لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم ؛ ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم» وقالوا : ما ندرى ما الرحمن الرحيم . قاله قتادة ، والحديث فى صحيح البخارى (١) ، وقد قال الله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء : ١١٠] ، وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » (٢) . ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى : هذا الذى تكفرون به أنا مؤمن به ، معترف مقر له بالربوبية والإلهية ، هو ربى لا إله هو ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أى : فى جميع أمورى ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ أى : إليه أرجع وأنيب ، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه .

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّمَ بِهِ الْمَوْقِفُ بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْأَيْمَانَ ﴾

يقول تعالى مادحا للقرآن الذى أنزله على محمد ﷺ ، ومفضلا له على سائر الكتب المنزلة قبله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ أى : لو كان فى الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها ، أو تقطع به الأرض وتنشق ، أو تكلم به الموتى فى قبورها ، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره ، أو بطريق الاولى أن يكون كذلك ؛ لما فيه من الإعجاز الذى لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ، ولا بسورة من مثله ، ومع هذا فهو لاء المشركون كافرون به ، جاحدون له ﴿ بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ أى : مرجع الأمور كلها إلى الله ، عز وجل ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ومن يضل فلا هادى له ، ومن يهد الله فلا مضل له . وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة ؛ لأنه مشتق من الجميع ، روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « خُفِّقَتْ عَلَى دَاوُدَ الْقِرَاءَةُ ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَابَّتِهِ أَنْ تُسْرَجَ ، فَكَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُسْرَجَ دَابَّتُهُ ، وَكَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ » . انفراد بإخراجه البخارى (٣) . والمراد بالقرآن هنا الزبور .

وقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَنَاسِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى : من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا ﴿ أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجح فى النفوس والعقول من هذا القرآن ، الذى لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله . وثبت فى الصحيح

(٢) مسلم (٢/٢١٣٢) .

(١) البخارى (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

(٣) المسند (٢/٣١٤) ، والبخارى (٣٤١٧) .

أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي إلا وقد أوتى ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» (١). معناه: أن معجزة كل نبي انقضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد، لا تنقض عجائبه، ولا يخلت عن كثرة الرد، ولا يشيع منه العلماء، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله.

وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرْيَةً مِّن دَارِهِمْ﴾ أى: بسبب تكذيبهم، لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا، أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِّنَ الْقَرْيِ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الاحقاف: ٢٧]، وقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤]. قال الحسن: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرْيَةً مِّن دَارِهِمْ﴾ أى: القارعة. وهذا هو الظاهر من السياق. ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ﴾ يعنى: فتح مكة. وقال الحسن البصرى: يوم القيامة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخَلِّفُ الْوَعْدَ﴾ أى: لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولا تباعهم في الدنيا والآخرة، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلِّفًا وَعْدَهُ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٧].

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أى: فلك فيهم أسوة ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: أنظرتهم وأجلتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ﴾ أخذه رابية، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم؟ كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتَهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٤٨]، وفي الصحيحين: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَةَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] (٢).

﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُل سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يظَاهِرُونَ مِنَ الْقَوْلِ بَل زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾

يقول تعالى: ﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أى: حفيظ عليهم رقيب على كل نفس منفوسة، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر، ولا يخفى عليه خافية ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو﴾

(١) البخارى (٤٩٨١)، ومسلم (٢٣٩/١٥٢).

(٢) البخارى (٤٦٨٦)، ومسلم (٦١/٢٥٨٣).

منهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴿ [يونس: ٦١] ، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩] ، وقال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦] ، وقال: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] ، وقال: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْأَخْفَى﴾ [طه: ٧] . وقال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] أفمن هو كذلك كالأصنام التي يعبدونها ، لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ، ولا تملك نفعا لأنفسها ولا لعباديتها ، ولا كشف ضرر عنها ولا عن عابديها ؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه ، وهو قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أى: عبدوها معه ، من أصنام وأنداد وأوثان .

﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ أى: أعلمونا بهم ، واكشفوا عنهم حتى يُعرفوا ، فإنهم لا حقيقة لهم ؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ تَتَّبِعُونَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: لا وجود له ؛ لأنه لو كان له وجود في الأرض لعلمها ؛ لأنه لا تخفى عليه خافية . ﴿أَمْ بَظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ قال مجاهد: بظن من القول . وقال الضحاك وقتادة: بباطل من القول . أى: إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر ، وسميتوها آلهة ، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم: ٢٣] .

﴿ بَلْ زَيْنَ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾ قال مجاهد: قولهم ، أى: ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آتاء الليل وأطراف النهار ، كما قال تعالى: ﴿وَقَيْضًا لَهُمْ قُرْآنًا فَرِيقًا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ رَحَقَ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥] . ﴿وَصُدُّوا﴾ أى: بما زين لهم من صحة ما هم عليه ، صُدُّوا به عن سبيل الله ؛ ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ، كما قال: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١] ، وقال: ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧] .

﴿ هُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾
 ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾

ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار: فقال - بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك: ﴿ هُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى: بأيدي المؤمنين قتلوا وأسرنا ﴿ وَعَذَابُ الْآخِرَةِ ﴾ أى: المدخر مع هذا الخزي في الدنيا ﴿ أَشَقُّ ﴾ أى: من هذا بكثير ، كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين : « إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة » (١) . فإن عذاب الدنيا له انقضاء ، وذاك دائم أبدا في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفا ، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته ، كما

قال تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا . وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدًا ﴾ [الفجر : ٢٥ ، ٢٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا . إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا . وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقْرَّبِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا . لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا . قُلْ أَذَلِكُمْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴾ [الفرقان : ١١ - ١٥] . ولهذا قرن هذا بهذا؛ فقال : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ أى : صفتها ونعتها ﴿ تَجْرِي مِنَ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أى : سارحة فى أرجائها وجوانبها ، وحيث شاء أهلها ، يفجرونها تفجيرًا ، أى : يصرفونها كيف شاؤوا وأين شاؤوا ، كقوله : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَّذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ الآية [محمد : ١٥] .

وقوله : ﴿ أَكَلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ أى : فيها المطاعم والفواكه والمشارب ، لا انقطاع ولا فناء . وفى الصحيحين ، من حديث ابن عباس فى صلاة الكسوف ، وفيه : قالوا : يا رسول الله ، رأيناك تناولت شيئًا فى مقامك هذا ، ثم رأيناك تكعكتك فقال : « إني رأيت الجنة - أو : أريت الجنة - فتناولت منها عنقودا ، ولو أخذته لأكلت منه ما بقيت الدنيا » (١) .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « يأكل أهل الجنة ويشربون ، ولا يمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون ، طعامهم جُشَاءٌ كريح المسك ، ويلهمون التسبيح والتقدیس كما يلهمون النفس » . رواه مسلم (٢) . وقد قال تعالى : ﴿ وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ . لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : ٣٢ ، ٣٣] ، وقال : ﴿ وَدَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذَلَّتْ قُطُوفُهَا تَذِيلًا ﴾ [الإنسان : ١٤] . وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا فِيهَا أَيْدِيُ لَهُمْ فِيهَا أَنْهَارٌ زَاجِحَةٌ مُّطَهَّرَةٌ وَسَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [النساء : ٥٧] . وقد تقدم فى الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : « إن فى الجنة شجرة ، يسير الراكب المجد الجواد المضمهر السريع فى ظلها مائة عام لا يقطعها » ، ثم قرأ : ﴿ وَظِلٌّ مُّمدودٌ ﴾ [الواقعة : ٣٠] (٣) .

وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار ، ليرغب فى الجنة ويحذر من النار ؛ ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر ، قال بعده : ﴿ تِلْكَ عِقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعِقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر : ٢٠] .

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنْكِرُ بَعْضَهُمْ قُلْ إِنَّمَا أُنزِلَتْ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكُ بِهِ إِلَهًا أَدْعُوا إِلَيْهِ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٦١﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حَكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وِليٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٦٢﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ وهم قانمون بمقتضاه ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أى :

(١) البخارى (٧٤٨) ، ومسلم (١٧/٩٠٧) .

(٢) مسلم (١٨/٢٨٣٥) .

(٣) تقدم تخريجه عند الآية (٢٩) من هذه السورة .

من القرآن لما فى كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [البقرة: ١٢١] . وقال تعالى : ﴿ قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧ ، ١٠٨] أى : إن كان ما وعدنا الله به فى كتبنا من إرسال محمد ﷺ لحقا وصدقا مفعولا لا محالة ، وكائنا ، فسبحانه ما أصدق وعده ، فله الحمد وحده ، ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ بَيْنَهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٩] .

وقوله : ﴿ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يَنْكُرُ بَعْضَهُ ﴾ أى : ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك . وقال مجاهد : اليهود والنصارى ، من ينكر بعض ما جاءك من الحق . وكذا قال قتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وهذا كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٩] .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ أى : إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له ، كما أرسل الأنبياء من قبلى ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُو ﴾ أى : إلى سبيله أَدْعُو الناس ، ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴾ أى : مرجعى ومصيرى . وقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ أى : وكما أرسلنا قبلك المرسلين ، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء ، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكما معربا ، شرفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلى الذى ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ١١] .

وقوله : ﴿ وَلَتَنْ اتَّبِعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى : آراءهم ﴿ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ أى : من الله تعالى ﴿ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ أى : من الله تعالى . وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبيل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية ، على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام .

﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ ﴿ ٣٨ ﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿ ٣٩ ﴾

يقول تعالى : وكما أرسلناك ، يا محمد ، رسولا بشريا كذلك بعثنا المرسلين قبلك بشرا يأكلون الطعام ، ويمشون فى الأسواق ويأتون الزوجات ، ويولد لهم ، وجعلنا لهم أزواجا وذرية ، وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ [الكهف: ١١٠] ، وفى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال : «أنا فأصوم وأفطر ، وأقوم وأنا ، وأكل الدسم وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى» (١) .

(١) البخارى (٥٠٦٣) ، ومسلم (٥٥/١٤٠١) ، بدون : «وأكل الدسم» وهى بالمخطوطة ، وفى المطبوعة : «وأكل اللحم» .

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى: لم يكن يأتى قومَه بخارق إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه، بل إلى الله، عز وجل، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أى: لكل مدة مضروبة كتاب مكتوب بها، وكل شىء عنده بمقدار ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]. وكان الضحاك يقول فى قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أى: لكل كتاب أجل يعنى لكل كتاب أنزله من السماء مدة مضروبة عند الله ومقدار معين، فلهذا يحمو ما يشاء منها ويثبت، يعنى حتى نسخت كلها. بالقرآن الذى أنزله الله على رسوله، صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ : اختلف فى ذلك ، فقال عن ابن عباس: يدبر أمر السنة، فيمحو ما يشاء، إلا الشقاء والسعادة، والحياة والموت. وقال مجاهد: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة، فإنهما لا يتغيران. وقال منصور: سألت مجاهداً فقلت: أرايت دعاء أحدنا يقول: اللهم، إن كان اسمى فى السعداء فأثبته فيهم، وإن كان فى الأشقياء فامحه عنهم واجعله فى السعداء. فقال: حسن. ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر، فسألته عن ذلك، فقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ. فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان ٣، ٤]، قال: يقضى فى ليلة القدر ما يكن فى السنة من رزق أو مصيبة، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، فأما كتاب الشقاوة والسعادة فهو ثابت لا يُغير. وروى ابن جرير عن أبى عثمان النهدي؛ أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال وهو يطوف بالبيت وهو يبكى: اللهم، إن كنت كتبت على شقوة أو ذنباً فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة. ومعنى هذه الأقوال: أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويثبت منها ما يشاء. وثبت فى الصحيح أن صلة الرحم تزيد فى العمر (١). وروى عن سعيد بن جبير: أنها بمعنى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. وقال الحسن البصرى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ قال: من جاء أجله، فذهب، ويثبت الذى هو حى يجرى إلى أجله. وقد اختار هذا القول ابن جرير رحمه الله.

وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال قتادة: أى جملة الكتاب وأصله. وقال الضحاك: كتاب عند رب العالمين. وقال ابن عباس: الذكر، والله أعلم.

﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَفَّيْنَاكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَكِرٌ عِجُّ الْحِسَابِ﴾ (٤١)

يقول تعالى لرسوله: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمد بعض الذى نعد أعداءك من الخزي والنكال فى الدنيا ﴿أَوْ تَوَفَّيْنَاكَ﴾ أى: قبل ذلك ﴿لِإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ أى: إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله

وقد فعلت ما أمرت به ﴿ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ أى : حسابهم وجزاؤهم ، كقوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٌ . إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ . فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ . إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ [الغاشية: ٢١ - ٢٦].

وقوله : ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ قال ابن عباس : أو لم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض ؟ وقال عكرمة : ﴿ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ قال : خرابها . وقال الحسن والضحاك : هو ظهور المسلمين على المشركين . وقال مجاهد : نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض . وقال ابن عباس فى رواية : خرابها بموت فقائها وعلمائها وأهل الخير منها . وكذا قال مجاهد أيضاً : هو موت العلماء . والقول الأول أولى ، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى ﴾ الآية [الاحقاف: ٢٧] وهذا اختيار ابن جرير ، رحمه الله .

﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِبِيَ الدَّارِ ﴾

يقول : ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ برسلهم ، وأرادوا إخراجهم من بلادهم ، فمكر الله بهم ، وجعل العاقبة للمتقين ، كقوله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَكُرُوا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ . فَلَيْكَ يَوْمَهُمْ خَاوِبَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ﴾ الآية [النمل: ٥٠ - ٥٢].

وقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ أى : إنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر ، وسيجزى كل عامل بعمله . ﴿ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقِبِيَ الدَّارِ ﴾ أى : لمن تكون الدائرة والعاقبة ، لهم أو لأتباع الرسل ؟ كلا ، بل هى لأتباع الرسل فى الدنيا والآخرة ، والله الحمد والمنة .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾

يقول تعالى : يكذبك هؤلاء الكفار ويقولون : ﴿ لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾ أى : ما أرسلك الله ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أى : حسبى الله ، هو الشاهد على وعليكم ، شاهد على فيما بلغت عنه من الرسالة ، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان . وقوله : ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ عن ابن عباس قال : هم من اليهود والنصارى . وقال مجاهد : هو الله تعالى . والصحيح فى هذا : أن ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته فى

كتبهم المتقدمة، من بشارات الأنبياء به، كما قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٦ ، ١٥٧] ، وقال تعالى: ﴿ أَوْلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ الآية [الشعراء: ١٩٧] . وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل: أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة .

تفسير سورة إبراهيم عليه السلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الرَّكَّاتِ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور. ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ ﴾ أى: هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم، الذى هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله فى الأرض، إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم . ﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أى: إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب؛ لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي إلى الهدى والرشد، كما قال: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ الآية [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ الآية [الحديد: ٩]. وقوله: ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أى: هو الهادى لمن قدر له الهداية على يدى رسوله المبعوث عن أمره يهديهم ﴿ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ ﴾ أى: العزيز الذى لا يمانع ولا يُغالب، بل هو القاهر لكل ما سواه، ﴿ الْحَمِيدِ ﴾ أى: المحمود فى جميع أفعاله وأقواله، وشرعه وأمره ونهيه، الصادق فى خبره.

وقوله: ﴿ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ صفة للجلالة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الاعراف: ١٥٨]. ﴿ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ أى: ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد وكذبوك.

ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، أى: يقدمونها ويؤثرونها عليها، ويعملون للدنيا ونسوا الآخرة، وتركوها وراء ظهورهم ﴿ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وهى اتباع الرسل ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أى: ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عاتلة، وهى مستقيمة فى نفسها، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها، فهم فى ابتغائهم ذلك فى جهل وضلال بعيد من الحق، لا يرجى لهم - والحالة هذه - صلاح.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِئُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

هذا من لطفه تعالى بخلقه : أنه يرسل إليهم رسلا منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم ، وقوله : ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى : بعد البيان وإقامة الحجة عليهم يضل تعالى من يشاء عن وجه الهدى ، ويهدى من يشاء إلى الحق ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذى ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أفعاله ، فيضل من يستحق الإضلال ، ويهدى من هو أهل لذلك . وقد كانت هذه سنة الله فى خلقه : أنه ما بعث نبيا فى أمة إلا أن يكون بلغتهم ، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم ، واختص محمد بن عبد الله رسول الله بعموم الرسالة إلى سائر الناس ، كما ثبت فى الصحيحين عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : «أَعْطَيْتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ مَسْجِدًا وَطَهْرًا ، وَأَحَلَّتْ لِي الْغَنَائِمَ وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأَعْطَيْتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يَبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ ، وَيَبْعَثُ إِلَى النَّاسِ عَامَةً» (١) . وله شواهد من وجوه كثيرة ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

يقول تعالى : وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب ، لتخرج الناس كلهم ، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور ، كذلك أرسلنا موسى إلى بنى إسرائيل بآياتنا ، قال مجاهد : وهى التسع الآيات ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ أى : أمرناه قائلين له : ﴿ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أى : ادعهم إلى الخير ، ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان . ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا ﴾ أى : بأياديه ونعمه عليهم فى إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه ، وإنجائه إياهم من عدوهم ، وقلقه لهم البحر ، وتظليله إياهم بالغمام ، وإنزاله عليهم المن والسلوى ، إلى غير ذلك من النعم . قال ذلك مجاهد ، وفتادة ، وغير واحد .

وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى : إن فيما صنعنا بأوليائنا بنى إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون ، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين ، لعلهم لكل ﴿ صَبَّارٍ ﴾ أى : فى الضراء ﴿ شَكُورٍ ﴾ أى : فى السراء ، كما جاء فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلُّهُ عَجَبٌ ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قِضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» (٢) .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبِعُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ بَلَاءٌ مِمَّنْ رَزَقَكُمْ عَظِيمًا ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى، حين ذكّر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال، حديث كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم، ويتركون إناثهم، فانقذهم الله من ذلك، وهذه نعمة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿ وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيمٌ ﴾ أي: نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها. وقيل: وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿ بلاءٌ ﴾ أي: اختبار عظيم. ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿ وبلّوهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ [الاعراف: ١٦٨].

وقوله: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ أي: آذنتكم وأعلمكم بوعده لكم. ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه كما قال: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [الاعراف: ١٦٧]. وقوله: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ أي: لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ ﴾ أي: كفرتم النعم واسترتموها وجحدتموها ﴿ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم على كفرها. وقد جاء في الحديث: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه» (١).

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أي: هو غني عن شكر عباده، وهو الحميد الم محمود، وإن كفره من كفره، كما قال: ﴿ إِنَّ تَكْفُرًا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ الآية [الزمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿ فَكْفُرُوا وَقُولُوا وَأَسْتَفْتَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن: ٦]. وفي صحيح مسلم، عن أبي ذر، عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه، عز وجل، أنه قال: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، ما نقص ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، إلا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر» (٢). فسبحانه وتعالى الغني الحميد.

(٢) مسلم (٥٥/٢٥٧٧).

(١) المسند (٨٠/٥)، وابن ماجه (٩٠)، وحسنه الألباني.

﴿ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نَبَأَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾

هذا خبر من الله تعالى لهذه الأمة ؛ خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسول، مما لا يحصى عددهم إلا الله عز وجل أتتهم رسلهم بالبينات، أى: بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات. وقال عبد الله [بن مسعود] فى قوله: ﴿ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾: كذب النسابون. وقال عروة بن الزبير: ما وجدنا أحدا يعرف ما بعد معد بن عدنان.

وقوله: ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾: اختلف المفسرون فى معناه، فقيل: معناه: أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرونهم بالسكوت عنهم، لما دعوهم إلى الله، عز وجل. وقيل: بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم. وقال مجاهد، ومحمد بن كعب، وقاتدة: معناه: أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم. قلت: ويؤيد قول مجاهد تفسير ذلك بتمام الكلام: ﴿ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ فكان هذا تفسير لمعنى رد أيديهم فى أفواههم. وقال ابن عباس: لما سمعوا كتاب الله عجبوا، ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم وقالوا: ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به؛ فإن عدنا فيه شكاً قويا.

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَلِىَ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَنَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنْصِرِيكَ عَلَىٰ مَا عَادِيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أهمهم لما واجهوهم بالشك فيما جاؤهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: ﴿ أَلِىَ اللَّهِ شَكٌّ ﴾: أى: وجوده شك؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة على الإقرار به، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، فحتاج إلى النظر فى الدليل الموصول إلى وجوده؛ ولهذا قالت لهم الرسل ترشدكم إلى طريق معرفته بأنه ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الذى خلقها وابتدعها على غير مثال سبق.

وقالت لهم الرسل: ندعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم، أى: فى الدار الآخرة ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى: فى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾: الآية [هود: ٣]، فقالت لهم الأمم محاجين فى مقام

الرسالة، بعد تقدير تسليمهم للمقام الأول، وحاصل ما قالوه: ﴿إِن أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أى: كيف نتبعكم بمجرد قولكم، ولما نر منكم معجزة ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى: خارق نقترحه عليكم. قالت لهم رسلهم: ﴿إِن نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أى: صحيح أنا بشر مثلكم فى البشرية ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أى: بالرسالة والنبوة ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ﴾ على وفق ما سألتهم ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى: بعد سؤالنا إياه، وإذنه لنا فى ذلك ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: فى جميع أمورهم. ثم قالت الرسل: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ أى: وما يمنعنا من التوكل عليه، وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ أى: من الكلام السيئ، والأفعال السخيفة ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَأَسْقَمْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَسُئِنُ مِنْ مَّاءٍ صَٰدِيغٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَحِيَّتٍ وَمِنْ وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم ، من الإخراج من أرضهم ، والنفى من بين أظهرهم ، كما قال قوم شعيب له ولن آمن به : ﴿لنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾ الآية [الأعراف: ٨٨] ، وقال قوم لوط : ﴿أخرجوا آل لوط من قريبتكم﴾ الآية [النمل: ٥٦] ، وقال تعالى إخباراً عن مشركى قريش : ﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلاً﴾ [الإسراء: ٧٦] ، وقال تعالى : ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ [الأنفال: ٣٠].

وكان من صنعه تعالى: أنه أظهر رسوله ونصره، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصاراً وأعاوناً وجندا، يقاتلون فى سبيل الله، ولم يزل يرقبه ، حتى فتح له مكة التى أخرجته، ومكّن له فيها، وأرغم آلاف أعدائه منهم، وسائر الأرض ، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان، فى مشارق الأرض ومغاربها فى أيسر زمان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣] ، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] ، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الانبيا: ١٠٥] ، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] ، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أى: وعيد هذا لمن خاف مقامه بين يدي يوم القيامة، وخشى من وعيدي، وهو تخويفي وعذابي، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى . وَأَثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى . وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٣٧- ٤١]، وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقوله: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا﴾ أى: استنصرت الرسل ربها على قومها. قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: استفتحت الأمم على أنفسها، كما قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بَعْدَابٍ أَلَيْمٌ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ويحتمل أن يكون هذا مراداً وهذا مراداً، كما أنهم استفتحووا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله واستنصر، وقال الله تعالى للمشركين: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ الآية [الأنفال: ١٩]، والله أعلم. ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أى: متجبر فى نفسه معاند للحق، كما قال تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . مُنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق: ٢٤- ٢٦]، وفى الحديث: «إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة، فتنادى الخلائق فتقول: إني وكلت بكل جبار عنيد» الحديث (١).

وقوله: ﴿مِنْ وِرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾: و«وراء» هاهنا بمعنى «أمام»، أى: من وراء الجبار العنيد جهنم، أى: هى له بالمرصاد، يسكنها مخلدا يوم المعاد، ويعرض عليها غدواً وغشياً إلى يوم التناد. ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ أى: فى النار ليس له شراب إلا من حميم أو غساق، فهذا فى غاية الحرارة، وهذا فى غاية البرد والنتن، قال مجاهد: الصديد: من القيح والدم. وقال قتادة: هو ما يسيل من لحمه وجلده. وفى رواية عنه: الصديد: ما يخرج من جوف الكافر، قد خالط القيح والدم.

وقوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ أى: يتغصصه ويتكرهه، أى: يشربه قهراً وقسراً، لا يضعه فى فيه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ٢١]. ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ أى: يزدرده لسوء لونه وطعمه وريحه، وحرارته أو برده الذى لا يستطيع ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أى: يالم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه. وقال ابن عباس: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ قال: أنواع العذاب الذى يعذبه الله بها يوم القيامة فى نار جهنم، وليس منها نوع إلا الموت يأتية منه لو كان يموت، ولكن لا يموت؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]. ومعنى كلام ابن عباس: أنه ما من نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت، ولكنه لا يموت ليخلد فى دوام العذاب والنكال؛ ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

وقوله: ﴿وَمِنْ وِرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أى: وله من بعد هذا الحال عذاب آخر غليظ، أى: مؤلم

صعب شديد أغلظ من الذى قبله وأدهى وأمر. وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رَعُوسُ الشَّيَاطِينِ . فَإِنَّهُمْ لَا كَلُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْنُ مِنْهَا الطُّونُ . ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ . ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ [الصفوات: ٦٤ - ٦٨] ، فأخبر أنهم تارة يكونون فى أكل زقوم ، وتارة فى شرب حميم ، وتارة يردون إلى الجحيم ، عباداً بالله من ذلك ، وهكذا قال تعالى : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آناً ﴾ [الرحمن: ٤٣ ، ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ . طَعَامُ الْأَيْمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ . خَدُّهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ . ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٥٠] ، وقال : ﴿ وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ . فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظَلْمٍ يُسْهِمُ . لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِيْنَ لَشَرَّ مَا بٍ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسِفُ الْمِهَادِ . هَذَا فَلْيَذُقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ . وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ [ص: ٥٥ - ٥٨] ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم ، وتكراره وأنواعه وأشكاله ، مما لا يحصيه إلا الله ، عز وجل ، جزاء وفاقاً ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦] .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلَهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره ، وكذبوا رسله ، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح ؛ فانهارت وعمدوها أحوج ما كانوا إليها ، فقال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ أى : مثل أعمال الذين كفروا يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى ؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم على شيء ، فلم يجدوا شيئاً ، ولا ألفوا حاصلًا إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ أى : ذى ريح عاصفة قوية ، فلا يقدرّون على شيء من أعمالهم التى كسبوها فى الدنيا ، إلا كما يقدرّون على جمع هذا الرماد فى هذا اليوم ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣] ، وقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾ [آل عمران: ١١٧] ، وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُبْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] .

وقال فى هذه الآية : ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ أى : سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما هم إليه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، أفليس الذي قدر على خلق هذه السموات، في ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد، وبرارى وصحارى وقفار، وبحار وأشجار، ونبات وحيوان، على اختلاف أصنافها ومنافعها ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَغْيِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الاحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ. أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ. إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧-٨٣].

وقوله: ﴿إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أى: بعظيم ولا ممتنع، بل هو سهل عليه إذا خالفتكم أمره، أن يذهبكم ويأت بأخرين على غير صفتكم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ. إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ. وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥- ١٧]، وقال: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال: ﴿إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾

يقول تعالى: ﴿وَبَرَزُوا﴾ أى: برزت الخلائق كلها، برها وفاجرها لله وحده الواحد القهار، أى: اجتمعوا له فى براز من الأرض، وهو المكان الذى ليس فيه شيء يستر أحدا. ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ وهم الاتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل، فقالوا لهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أى: مهما أمرتمونا اتمرنا وفعلنا ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أى: فهل تدفعون عنا شيئا من عذاب الله، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا؟ فقالت القادة لهم: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ ولكن حق علينا قول ربنا، وسبق فينا وفيكم قدر الله، وحق كلمة العذاب على الكافرين ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ أى: ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوا، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بيكائهم وتضرعهم إلى الله، عز وجل، تعالوا نيك وتضرع إلى الله، فبكوا وتضرعوا، فلما رأو ذلك لا ينفعهم

قالوا: تعالوا، فإنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر، تعالوا حتى نصبر، فصبروا صبراً لم ير مثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند ذلك قالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ .

قلت: والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَنُونَ فِي النَّارِ يَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَا نَصِيحًا مِنَ النَّارِ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨]، وقال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونَا فآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ. وَقَالَتْ أَوْلَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾ [الاعراف: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَقَلَّبَ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ. وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَصْلُونَا السَّبِيلَا. رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨].

وأما تخاصمهم في المحشر، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنْعَنْ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرَأُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبا: ٣١ - ٣٣].

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقَّ وَعَدَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢﴾ وَأَدْخَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿١٣﴾﴾

يخبر تعالى عما خطب به إبليس أتباعه، بعد ما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس - لعنه الله - حينئذ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم، وغيباً إلى غيبهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقَّ﴾ أي: على السنة رسله، ووعدهم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعداً حقاً، وخيراً صدقاً، وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم، كما قال الله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما

أنتم فيه ﴿ فَلَا تَلْمُؤُنِي ﴾ اليوم ﴿ وَتُؤْمُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ فإن الذنب لكم، لكونكم خالفتم الحجة واتبعتوني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ أى: بنافعكم ومتقدمكم ومخلصكم مما أنتم فيه ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي ﴾ أى: بنافعى بإنقاذى مما أنا فيه من العذاب والنكال ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ ﴾ قال قتادة: أى بسبب ما أشركتمونى من قبل. وقال ابن جرير: يقول: إني جحدت أن أكون شريكا لله عز وجل. وهذا الذى قاله هو الراجح، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَأُسْتَجِيبَ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الاحقاف: ٥، ٦]، وقال: ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨٢]

وقوله: ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ أى: فى إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . والظاهر من سياق الآية: أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار. وقال محمد بن كعب القرظى: لما قال أهل النار: ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾ قال لهم إبليس: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ ﴾ الآية، فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم، فنودوا: ﴿ لَمَقَّتْ اللَّهُ أَكْبْرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ فَكُفِّرُونَ ﴾ [غافر: ١٠] .

ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنكال، وأن خطيهم إبليس، عطف بحال السعداء وأنهم يدخلون يوم القيامة جنات تجري من تحتها الأنهار سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ماكين أبدا لا يحولون ولا يزولون ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَهَا وَقِيَّتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [الزمر: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ وَيُلْقُونَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠] .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٤﴾ تُوِّقَ أَكْلُهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿١٦﴾ ﴾

قال ابن عباس: قوله: ﴿ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾: شهادة أن لا إله إلا الله، ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ وهو المؤمن ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ يقول: لا إله إلا الله فى قلب المؤمن ﴿ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ يقول: يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء. وهكذا قال الضحاك، وسعيد بن جبیر، وعكرمة وقتادة وغير واحد: إن ذلك عبارة عن المؤمن وقوله الطيب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كالشجرة من النخل، لا يزال يرفع له عمل صالح فى كل حين ووقت، وصباح ومساء. وعن ابن مسعود قال: هى النخلة. وروى البخارى عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أخبرونى عن شجرة

تشبه - أو: كالرجل - المسلم، لا يتحات ورقها [ولا، ولا، ولا] تؤتى أكلها كل حين». قال ابن عمر: فوقع في نفسى أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً، قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة». فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتا، والله لقد كان وقع في نفسى أنها النخلة. قال: ما منعك أن تكلم؟ قال: لم أركم تتكلمون، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً. قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا (١). وروى أحمد عن ابن عمر قال: كنا عند رسول الله ﷺ فأتى بجُمَارٍ. فقال: «من الشجر شجرة مثلها مثل الرجل المسلم». فأردت أن أقول: هي النخلة، فنظرت فإذا أنا أصغر القوم، [فسكتُ]، فقال رسول الله ﷺ: «هي النخلة» أخرجاه (٢). وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه «إن من الشجر شجرة لا يطرح ورقها، مثل المؤمن». قال: فوقع الناس في شجر البوادي، ووقع في قلبى أنها النخلة، فاستحييت، حتى قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة». أخرجاه أيضاً (٣).

وقوله: ﴿تُؤْتِي أكلها كُلَّ حِينٍ﴾ قيل: غُدوة وعَسْبًا. وقيل: كل شهر. وقيل: كل شهرين. وقيل: كل ستة أشهر. وقيل: كل سبعة أشهر. وقيل: كل سنة. والظاهر من السياق: أن المؤمن مثله كمثل شجرة، لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف أو شتاء، أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين ﴿إِذْ نَرَى رَبَّهَا﴾ أى: كاملاً حسناً كثيراً طيباً ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾: هذا مثل كفر الكافر، لا أصل له ولا ثبات، وشبه بشجرة الحنظل ﴿اجْتَثَّتْ﴾ أى: استؤصلت ﴿مِنَ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أى: لا أصل لها ولا ثبات، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع، ولا يصعد للكافر عمل، ولا يتقبل منه شيء.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾

روى البخارى عن البراء بن عازب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾». ورواه مسلم أيضاً وبقيّة الجماعة كلهم (٤). وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا وضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، إنه ليسمق قرع نعالهم». قال: «فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟» قال: «فأما المؤمن

(١) البخارى (٤٦٩٨)، وما بين المعقوفين ليس فى المطبوعة ولا المخطوطة، وأثبتته من البخارى .

(٢) المسند (١٢/٢)، والبخارى (٧٢)، ومسلم (٦٣/٢٨١١)، وما بين المعقوفين ليس فى المطبوعة ولا المخطوطة، وأثبتته من البخارى والمسند .

(٣) البخارى (١٣١)، ومسلم (٦٣/٢٨١١) .

(٤) البخارى (٤٦٩٩)، ومسلم (٧٣/٢٨٧١)، وأبو داود (٤٧٥٠)، والترمذى (٣١٢٠) .

فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله». قال: «فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة». قال نبي الله ﷺ: «فيراهما جميعا». قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعا، ويملا عليه خضراً إلى يوم القيامة. رواه مسلم وأخرجه النسائي (١).

وروى الإمام أحمد عن أبي الزبير، أنه سأل جابر بن عبد الله عن فتأني القبر فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن هذه الأمة تُبْتَلَى في قبورها، فإذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه، جاء ملك شديد الانتهار، فيقول له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول المؤمن: أقول: إنه رسول الله وعبده. فيقول له الملك: انظر إلى مقعدك الذي كان لك في النار، قد أنجأك الله منه، وأبدلك بمقعدك الذي ترى من النار مقعدك الذي ترى من الجنة، فيراهما كليهما. فيقول المؤمن: دعوني أبشر أهلي. فيقال له: اسكن. وأما المنافق فيقعده إذا تولى عنه أهله، فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، أقول كما يقول الناس. فيقال له: لا دريتَ، هذا مقعدك الذي كان لك في الجنة، قد أبدلت مكانه مقعدك من النار». قال جابر: فسمعت النبي ﷺ يقول: «يبعث كل عبد في القبر على ما مات، المؤمن على إيمانه، والمنافق على نفاقه». إسناده صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه (٢).

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس المطمئنة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان». قال: «فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان. فيقولون: مرحبا بالروح الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان» قال: فلا يزال يقال لها ذلك، حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل. وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج. فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعْرَج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحبا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا تفتح لك أبواب السماء. فيرسل من السماء، ثم يصير إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول. ورواه النسائي وابن ماجه (٣).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة، قال: إذا خرجت روح العبد المؤمن، تلقاها ملكان يصعدان بها. قال حماد: فذكر من طيب ريحها وذكر المسك. قال: ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض، صلى الله عليك وعلى جسدك كنت تعمريه، فينطلق به إلى

(١) مسلم (٧٠/٢٨٧٠)، والنسائي في سننه (٢٠٥٠).

(٢) المسند (٣٦٤/٢)، والنسائي في الكبرى (١١٤٤٢)، وابن ماجه (٤٢٦٢)، وفي الزوائد: «هذا إسناده

صحيح رجاله ثقات».

ربه عز وجل، فيقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل. وإن الكافر إذا خرجت روحه. قال حماد: وذكر من تننّها وذكر مقتا، ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قبل الأرض. قال: فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل. قال أبو هريرة: فردّ رسول الله ﷺ رِبْطَةً كانت عليه على أنفه، هكذا (١).

وروى ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن إذا قبض، أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجى إلى روح الله. فتخرج كأطيب ريح مسك، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً يشمونّه حتى يأتوا به باب السماء، فيقولون ما هذا الريح الطيبة التي جاءت من قبل الأرض؟ ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك، حتى يأتوا به أرواح المؤمنين، فلهم أشدّ فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم، فيقولون: ما فعل فلان؟ فيقولون: دعوه حتى يستريح، فإنه كان في غم! فيقول: قد مات، أما أناكم؟ فيقولون: ذهب به إلى أمه الهاوية. وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح فيقولون: اخرجى إلى غضب الله، فتخرج كأنّ ريح جيفة، فيذهب به إلى باب الأرض» (٢). وقد روى أيضاً عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه. قال: «فيسأل: ما فعل فلان، ما فعل فلان؟ ما فعلت فلانة؟» قال: «وأما الكافر فإذا قبضت نفسه، وذهب بها إلى باب الأرض تقول خزنة الأرض: ما وجدنا ريحاً أنتن من هذه. فيبلغ بها الأرض السفلى» (٣).

وروى الحافظ أبو عيسى الترمذى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قبر الميت - أو قال: أحدكم - أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما: منكر، والآخر: نكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا. ثم يُسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين. وينور له فيه، ثم يقال له: نَم. فيقول: أرجع إلى أهلى فأخبرهم؟ فيقولان: نَم نومة العروس الذى لا يوقظه إلا أحبّ أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك. وإن كان منافقاً قال: سمعت الناس يقولون فقلت مثلهم، لا أدرى. فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض: التثمي عليه. فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك». ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب (٤).

وقال ابن عباس في هذه الآية قال: إن المؤمن إذا حضره الموت شهدته الملائكة، فسلموا عليه وبشروه بالجنة، فإذا مات مشواً مع جنازته، ثم صلّوا عليه مع الناس، فإذا دفن أجلس في قبره فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقال له: من رسولك؟ فيقول: محمد ﷺ. فيقال له: ما شهادتك؟ فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. فيوسع له في

(١) مسلم (٧٥/٢٨٧٢) . (٢) ابن حبان (٧٣٣ موارد) .

(٣) ابن حبان (٧٣١ موارد) . ورواه الحاكم في المستدرک (٣٥١/١) وصححه .

(٤) الترمذى (١٠٧١) ، وقال : «حسن غريب» .

قبره مد بصره . وأما الكافر فتتزل عليه الملائكة ، فيسطون أيديهم - «والبسط» : هو الضرب - يضربون وجوههم وأدبارهم عند الموت . فإذا أدخل قبره أقعد ، فقيل له : من ربك؟ فلم يرجع إليهم شيئاً ، وأنساه الله ذكر ذلك . وإذا قيل : من الرسول الذي بعث إليك؟ لم يهتد له ، ولم يرجع إليه شيئاً ، كذلك يضل الله الظالمين . وقال عبد الرزاق عن ابن طاوس ، عن أبيه : «بُيِّتَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٢٨﴾ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ : المسألة في القبر . وقال قتادة : أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ في القبر . وكذا روى عن غير واحد من السلف .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَنَسَّ الْفَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾

قال البخارى : قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ : ألم تعلم؟ كقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ﴾ [إبراهيم: ٢٤] ، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا ﴾ [البقرة: ٢٤٣] ، البوار: الهلاك ، بار بيور بوراً ، و ﴿ قَوْمًا بُورًا ﴾ [الفرقان: ١٨ ، الفتح: ٤١٢] : هالكين . عن ابن عباس : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ قال : هم كفار أهل مكة (١) . وقال العوفى ، عن ابن عباس فى هذه الآية : هو جبلة بن الايهم ، والذين اتبعوه من العرب ، فلحقوا بالروم . والمشهور الصحيح عن ابن عباس هو القول الأول ، وإن كان المعنى يعم جميع الكفار؛ فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين ، ونعمة للناس ، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة ، ومن ردّها وكفرها دخل النار .

وقوله : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى : جعلوا له شركاء عبدوهم معه ، ودعوا الناس إلى ذلك . ثم قال تعالى مهتداً لهم ومتوعداً لهم على لسان نبيه ﷺ : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ أى : مهما قدرتم عليه فى الدنيا فافعلوا ، فمهما يكن من شىء ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ أى : مرجعكم وموئلكم إليها ، كما قال تعالى : ﴿ نَمَتَّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٧٠]

﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا زَكَاةً وَسِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ ﴿٣١﴾ ﴾

يقول تعالى أمرأ عباده بطاعته والقيام بحقه ، والإحسان إلى خلقه ، بأن يقيموا الصلاة وهى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات ، والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب . والمراد بإقامتها هو : المحافظة على وقتها وحدودها ، وركوعها وخشوعها وسجودها .

وأمر تعالى بالإفناق مما رزق في السر، أى: فى الخفية، والعلانية وهى: الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ وهو يوم القيامة، وهو يوم ﴿لَا يَبْعُ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾ أى: لا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه، كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: ١٥].

وقوله: ﴿وَلَا خِلَالَ﴾ قال ابن جرير: يقول: ليس هناك مُحَاَلَةٌ خليل، فيصغح عمن استوجب العقوبة، عن العقاب مُحَاَلَتُهُ، بل هنالك العدل والقسط. وقال قتادة: إن الله قد علم أن فى الدنيا بيوعاً وخلالاً يتخالون بها فى الدنيا، فينظر رجل من يخالل وعلام صاحب، فإن كان لله فليداوم، وإن كان لغير الله فسيقطع عنه. قلت: والمراد من هذا أنه يخير تعالى أنه لا ينفق أحداً ببيع ولا فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً لو وجده، ولا ينفقه صداقة أحد ولا شفاعه أحد إذ لقي الله كافراً، قال الله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبْعُ فِيهِ وَلَا خِلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْآنَهَارَ ﴿٢١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٢٢﴾ وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٢٣﴾﴾

يعدد تعالى نعمه على خلقه، بأن خلق لهم السموات سقفاً محفوظاً، والأرض فراشاً، وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجاً من نبات شتى، ما بين ثمار وزروع، مختلفة الألوان والأشكال، والطعوم والروائح والمنافع، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر، تجرى عليه بأمر الله تعالى، وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر، لجلب ما هنا إلى هناك، وما هناك إلى هنا، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر، رزقا للعباد من شرب وسقى وغير ذلك من أنواع المنافع. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ﴾ أى: يسيران لا يفتران ليلاً ولا نهاراً ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، ﴿يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ وَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ وَالنَّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الاعراف: ٥٤]، فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتعارضان، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصّر، ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ] (١) [لقمان: ٢٩]، وقوله: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الزمر: ٥]

(١) فى المطبوعة والمخطوطة: «ألا هو العزيز الغفار» والصواب ما أثبتناه.

وقوله: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾: يقول: هيا لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم وقالكم. وقوله: ﴿وَأَنْ تَعْبُدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْضُوهَا﴾: يخبر عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلا عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين. وفي صحيح البخارى: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم، لك الحمد غير مكفَى ولا مودَع، ولا مستغنى عنه ربنا»^(١). وقال الشافعى، رحمه الله: الحمد لله الذى لا يؤدى شكر نعمة من نعمه، إلا بنعمة تُوجب على مُؤدى ماضى نعمه بأدائها، نعمة حادثة تُوجب عليه شكره بها. وقال القائل فى ذلك:

لو كل جارحة منى لها لعةٌ تُثنى عليك بما أوليت من حسن
 لكان ما زاد شكرى إذ شكرتُ به إليك أبلغ فى الإحسان والمنين

❖ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ
 رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلَنى كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُمْ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ
 رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾

يذكر تعالى فى هذا المقام محتجاً على مشركى العرب، بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذى كانت عامرة بسببه، آهلة تبرا من عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾. وقد استجاب الله له، فقال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُنَظَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنْ أَوْلَىٰ بَيْتٍ وَضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال فى هذه القصة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾، فعرفه لأنه دعا به بعد بنائها؛ ولهذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة، فإنه دعا أيضا فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، كما ذكرناه هنالك فى سورة البقرة مستقصى مطولا. وقال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾: ينبغى لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته.

ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلانق من الناس وأنه برىء ممن عبدها، ورد أمرهم إلى الله، إن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم، كما قال عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَزِيُّ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وليس فى هذا أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى، لا تجويز وقوع ذلك.

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ عَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٧﴾

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه، تأكيداً ورغبة إلى الله، عز وجل؛ ولهذا قال: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ . وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ قال ابن جرير: هو متعلق بقوله: ﴿الْمُحَرَّمِ﴾ أى: إنما جعلته محرماً ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده ﴿فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾: قال ابن عباس: لو قال: «أفئدة الناس» لآزدهم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ فاخص به المسلمون.

وقوله: ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أى: ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك وكما أنه ﴿وَأَدِغِيرِ ذِي زَرْعٍ﴾ فاجعل لهم ثماراً يأكلونها. وقد استجاب الله ذلك، كما قال: ﴿أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧]، وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته: أنه ليس فى البلد الحرام مكة شجرة مثمرة، وهى تجبى إليها ثمرات ما حولها، استجابة لخليله إبراهيم، عليه الصلاة والسلام.

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا نُخْفِي وَمَا نُعَلِّنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ ﴿١٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٢١﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ﴿٢٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٢١﴾

قال ابن جرير: يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم خليله أنه قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَا نُخْفِي وَمَا نُعَلِّنُ﴾ أى: أنت تعلم قصدى فى دعائى وما أردت بدعائى لأهل هذا البلد، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهراً وباطناً، ولا يخفى عليك منها شيء فى الأرض ولا فى السماء.

ثم حمد ربه، عز وجل، على ما رزقه من الولد بعد الكبر، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ، أى: إنه ليستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لى فيما سألته من الولد. ثم قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ أى: محافظاً عليها مقيماً لحدودها ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أى: واجعلهم كذلك مقيمين الصلاة ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ أى: فيما سألتك فيه كله ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾: وقرأ بعضهم: «على الأفراد»، وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله، عز وجل، ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: كلهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أى: يوم تحاسب عبادك فتجزئهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدْتَهُمْ هَوَاءً ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾

يقول تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ ﴾ يا محمد ﴿ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى: لا تحسبه إذا انظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم، لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصى ذلك عليهم ويعدّه عدا: ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ أى: من شدة الاهوال يوم القيامة.

ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم ومجيئهم إلى قيام المحشر فقال: ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أى: مسرعين، كما قال تعالى: ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ الآية [القمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ﴾ [طه: ١٩٨ - ١١١]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا ﴾ الآية [المعارج: ٤٣]. ﴿ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: رافعى رؤوسهم ﴿ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ أى: أبصارهم طائرة شاخصة، يدمعون النظر لا يطفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة، لما يحل بهم، عياداً بالله العظيم من ذلك؛ ولهذا قال: ﴿ وَأَفْتَدْتَهُمْ هَوَاءً ﴾ أى: وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجع والخوف. وقال بعضهم: ﴿ هَوَاءً ﴾: خراب لا تعى شيئا. ولشدة ما أخبر الله تعالى عنهم، قال لرسوله: ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾.

﴿ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُبِغْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ الْوَلِيمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قيل الذين ظلموا أنفسهم، عند معاينة العذاب: ﴿ رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُبِغْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَلْهَمُوا أَمْوَالَكُمُ وَلَا أَوْلَادَكُمُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنْفَقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِي أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقُ وَأَكْنُ مِنْ الصَّالِحِينَ ﴾ [المنافقون: ٩، ١٠]، وقال تعالى مخبراً عنهم فى حال محشرهم: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكَسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. بَلْ بَدَأ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لَمَّا نَهَوَّا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الانعام: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ

يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبِّنا أَخْرَجْنا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نَعْمَلْ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾ [فاطر: ٣٧].

وقال تعالى رادا عليهم فى قولهم هذا: ﴿أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ ما لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ أى: أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحال: أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معاد ولا جزاء، فذوقوا هذا بذاك. قال مجاهد وغيره: ﴿ما لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ أى: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، كما أخبر عنهم تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يبعثُ اللهُ مَنْ يموتُ بلىً وَعَداءُ عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨]. ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثالَ﴾ أى: قد رأيتم وبلغتمكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر، ولم يكن فيما أوقعنا بهم مزدجر لكم ﴿حِكْمَةً بِاللِّغَةِ فَمَا تَعْنِ النَّذِيرُ﴾ [القمم: ٥]. وعن ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِنْ كانَ مَكْرَهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ يقول: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال. وكذا قال الحسن البصرى، ووجهه ابن جرير بأن هذا الذى فعلوه بأنفسهم من كفرهم بالله وشركهم به، ما ضر ذلك شيئا من الجبال ولا غيرها، وإنما عاد وبال ذلك على أنفسهم. قلت: ويشبه هذا إذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ [الإسراء: ٣٧]. والقول الثانى فى تفسيرها: ما رواه على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَإِنْ كانَ مَكْرَهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾: يقول شركهم، كقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًّا﴾ [مريم: ٩٩، ٩١]، وهكذا قال الضحاك، وقتادة.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهُ مُخْلِفاً وَعَدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تَبَدَّلَ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى مقررًا لوعده ومؤكداً: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهُ مُخْلِفاً وَعَدِهِ رُسُلُهُ﴾ أى: من نصرتهم فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شىء أراد، ولا يغالب، وذو انتقام ممن كفر به وجحدته ﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١]؛ ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تَبَدَّلَ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ أى: وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض، وهى هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما جاء فى الصحيحين عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصة النقى، ليس فيها معلّم لأحد» (١). وروى الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت: أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَبَدَّلَ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ قالت: قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط». رواه مسلم والترمذى، وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن صحيح.

(١) المسند (٣٥/٦)، ومسلم (٢٩/٢٧٩١)، والترمذى (٣١٢١)، وابن ماجه (٤٢٧٩).

وروى الإمام مسلم عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: كنت قائما عند رسول الله ﷺ، فجاءه حبر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد. فدفعته دفعةً كاد يُصرع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول: يا رسول الله؟! فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سمَّاه به أهله! فقال رسول الله ﷺ: «إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي». فقال اليهودي: جئت أسألك. فقال رسول الله ﷺ: «أينفعك شيء إن حدثتكَ؟» فقال: أسمع بأذني. فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: «سل». فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظلمة دون الجسر». قال: فمن أول الناس إجازة؟ فقال: «فقراء المهاجرين». قال اليهودي: فما تحفَّتْهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد النون» قال: فما غذاؤهم في أثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها». قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسيلا». قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان؟ قال: «ينفعك إن حدثتكَ؟» قال: أسمع بأذني. قال: جئت أسألك عن الولد. قال: «ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعَا فعَلَا مني الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله - تعالى - وإذا علا مني المرأة مني الرجل أنثا بإذن الله». قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبي. ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألتني هذا عن الذي سألتني عنه، وما لى علم بشيء منه، حتى أتاني الله به» (١).

وفي حديث الصور المشهور المروي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «تبدل الأرض غير الأرض والسموات، فيسطها ويمدها مد الأديم العكاظي، لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً، ثم يزجر الله الخلق زجرة، فإذا هم في هذه المبدلة» (٢).

وقوله: ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ آيٌ ۖ خَرَجْتَ الْخَلَائِقَ جَمِيعَهَا مِنْ قُبُورِهِمْ لِلَّهِ ۖ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۖ آيٌ ۖ الَّذِي قَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَغَلَبَهُ، وَدَانَتْ لَهُ الرِّقَابُ، وَخَضَعَتْ لَهُ الْآلِيَابُ.

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَشْتَبِي ۖ وَجُوهُهُمْ نَارٌ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾، وتبرز الخلائق لديانها، ترى يا محمد يومئذ المجرمين، وهم الذين أجزموا بكفرهم وفسادهم ﴿ مُّقْرَّنِينَ ﴾ أي: بعضهم إلى بعض، كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿ احشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [الصافات: ٢٢]، وقال: ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير: ٧]، وقال: ﴿ وَإِذَا ألقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضيقًا مُّقْرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفرقان: ١٣]، وقال: ﴿ وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بِنَاءٍ وَغَوَاصٍ. وَآخَرِينَ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ [ص: ٣٧، ٣٨].

(١) مسلم (٣٤ / ٣١٥).

(٢) سبق تخريجه عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأنعام.

والأصفاد: هي القيود، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، والأعمش، وعبد الرحمن بن زيد. وهو مشهور في اللغة.

وقوله: ﴿سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانٍ﴾ أي: ثيابهم التي يلبسونها عليهم من قطران، وهو الذي تظلى به الإبل، وهو الصق شيء بالنار. وكان ابن عباس يقول: القطران هو: النحاس المذاب، وربما قرأها: «سَرَابِلِهِمْ مِنْ قَطْرِ أَنْ» أي: من نحاس حار قد انتهى حره. وكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة.

وقوله: ﴿وَتَقَشْنِي وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾، كقوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤]. وروى الإمام أحمد عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركون: الفخر بالأحساب، والظعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب». انفرد بإخراجه مسلم (١).

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ﴾ أي: يوم القيامة، كما قال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ الَّذِينَ أَسَأُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: يحتمل أن يكون كقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الانباء: ١]، ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع التجاز؛ لأنه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْظُمُكُمْ إِلَّا كَفْئِيسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وهذا معنى قول مجاهد: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾: إحصاء. ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين، والله أعلم.

﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ ﴾

يقول تعالى: هذا القرآن بلاغ للناس، كقوله: ﴿لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الانعام: ١٩] أي: هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن، كما قال في أول السورة: ﴿الْقُرْآنُ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾. ﴿وَلِيُنذِرُوا بِهِ﴾ أي: ليتعظوا به ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أي: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو. ﴿وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ﴾ أي: ذوو العقول.

تفسير سورة الحجر

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجزء ١٤ ﴿الرَّتِّكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رَبِّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَمْتَعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور.

وقوله تعالى: ﴿ رَبِّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية: إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا مع المسلمين فى الدار الدنيا مع المسلمين. وقيل: المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمنا. وقيل: هذا إخبار عن يوم القيامة، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنُكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٧]. وقال ابن جرير كان ابن عباس وأنس بن مالك كان يتأولان هذه الآية: ﴿ رَبِّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾: يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين فى النار. فيقول لهم المشركون: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون فى الدنيا. فيغضب الله لهم بفضل رحمته، فيخرجهم، فذلك حين يقول: ﴿ رَبِّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾.

وعن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع أهل النار فى النار، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى. قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام! فقد صرتم معنا فى النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها. فسمع الله ما قالوا، فأمر بمن كان فى النار من أهل القبلة فأخرجوا، فلما رأى ذلك من بقى من الكفار قالوا: يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا». قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿الرَّتِّكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ . رَبِّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (١).

وقوله: ﴿ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَمْتَعُوا ﴾: تهديد لهم شديد، ووعيد أكيد، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَّصِيرِكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٣٠] ، وقوله: ﴿ كَلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ﴾ [المرسلات: ٤٦]؛ ولهذا قال: ﴿ وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ ﴾ أى: عن التوبة والإنابة ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أى: عاقبة أمرهم.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرَبَةٍ إِلَّا وَهَلَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْتِرُونَ ﴿٥﴾﴾

(١) الحاكم (٢/٢٤٢)، وقال: « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، ووافقه الذهبي .

يخبر تعالى: أنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها، وإنه لا يؤخر أمة حان هلاكها عن ميقاتها ولا يتقدمون عن مدتهم. وهذا تنبيه لأهل مكة، وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم فيه من الشرك والعناد والإلحاد، الذي يستحقون به الهلاك.

﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم في قولهم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ أى: الذى تدعى ذلك ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ أى: فى دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا ﴿ لَوْ مَا ﴾ أى: هلاً ﴿ تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ ﴾ أى: يشهدون لك بصحة ما جئت به ، كما قال فرعون: ﴿ فَقُلْ لَأَقْبِيَّ عَلَيْهِ رَسُولٌ مِّنْ رَبِّى أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٣] ، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا . يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ يَقُولُونَ هَجْرًا مَّجْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٢١، ٢٢] . وكذا قال فى هذه الآية: ﴿ مَا نُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴾ . وقال مجاهد فى قوله: ﴿ مَا نُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾: بالرسالة والعذاب. ثم قرر تعالى أنه هو الذى أنزل عليه الذكر، وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ فى تكذيب من كذبه من كفار قريش: إنه أرسل من قبله فى الأمم الماضية، وإنه ما أتى أمة رسول إلا كذبوه واستهزؤوا به، ثم أخبر أنه سلك التكذيب فى قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى. قال أنس، والحسن البصرى: ﴿ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾: يعنى: الشرك.

وقوله: ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى: قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم فى الدنيا والآخرة.

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق: أنه لو فتح لهم باباً من السماء، فجعلوا يصعدون فيه، لما صدقوا بذلك، بل قالوا: ﴿ إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا ﴾ قال مجاهد: سدت أبصارنا، وقال ابن عباس: أخذت أبصارنا، وقال الكلبي: عميت أبصارنا.

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مِنْ أَسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشًا وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُمْ بَرَزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يذكر تعالى خلقه السماء فى ارتفاعها وما زينها به من الكواكب الثواقب لمن تأملها، وكرر النظر فيها، يرى فيها من العجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه. ولهذا قال مجاهد وقتادة: البروج هاهنا هى: الكواكب، قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]. ومنهم من قال: البروج هى: منازل الشمس والقمر.

وجعل الشهب حرساً لها من مردة الشياطين، لئلا يسمعوها إلى الملاء الأعلى، فمن تمرد منهم وتقدم لاستراق السمع، جاءه ﴿شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ فأتلفه، وربما يكون قد ألقى الكلمة التى سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذى هو دونه، فيأخذها الآخر، ويأتى بها إلى وليه، كما جاء مصرحاً به فى الصحيح، كما روى البخارى عن أبى هريرة، يبلغ به النبى ﷺ، قال: «إذا قضى الله الأمر فى السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان». قال على، وقال غيره: صفوان يتفذهم ذلك، فإذا فرغ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الذى قال: الحق، وهو العلى الكبير. فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع، هكذا واحد فوق آخر - ووصف سفيان بيده فقترج بين أصابع يده اليمنى، نصبها بعضها فوق بعض - وربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمى بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمى بها إلى الذى يليه، إلى الذى هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الأرض - وربما قال سفيان: حتى تنتهى إلى الأرض فتلقى على فم الساحر - أو: الكاهن - فيكذب معها مائة كذبة فيصدق، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فوجدناه حقاً؟ للكلمة التى سمعت من السماء» (١).

ثم ذكر، تعالى خلقه الأرض، ومدته إياها وتوسيعها وبسطها، وما جعل فيها من الجبال الرواسى، والأودية والأراضى والرمال، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة. وقال ابن عباس: ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ أى: معلوم. وكذا قال سعيد بن جبیر، وعكرمة، وقتادة وغيرهم. ومنهم من يقول: مقدر بقدر. وقال ابن زيد: من كل شىء يؤزن ويقدر بقدر.

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾: يذكر تعالى أنه صرفهم فى الأرض فى صنوف الأسباب والمعاش، وهى جمع معيشة ﴿ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُمْ بَرَزِقِينَ ﴾: قال مجاهد: وهى الدواب والأنعام. وقال ابن جرير: هم العبيد والإماء والدواب والأنعام. والقصد: أنه تعالى يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعاش، وبما سخر لهم من الدواب التى يركبونها والأنعام التى يأكلونها، والعبيد والإماء التى يستخدمونها، ورزقهم على خالقهم لا عليهم فلهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى.

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا
الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ
نَحْيِي وَيُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ
﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِحَشْرِهِمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

يخبر تعالى أنه مالك كل شيء، وأن كل شيء سهل عليه، يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف ﴿ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾، كما يشاء وكما يريد، ولما له في ذلك من الحكمة البالغة، والرحمة بعباده، لا على الوجوب، بل هو كتب على نفسه الرحمة. قال عبد الله [بن مسعود]: ما من عام بأمر من عام، ولكن الله يقسمه حيث شاء، عاماً هاهنا، و عاماً هاهنا. ثم قرأ: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾.

وقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ ﴾ أى: تلقح السحاب فتُدر ماء، وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها. وعن عبد الله بن مسعود فى قوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ ﴾ قال: ترسل الريح، فتحمل الماء من السماء، ثم تمرى السحاب، حتى تدر كما تدر اللقحة. وكذا قال ابن عباس.

وقوله: ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ أى: أنزلناه لكم عذبا يمكنكم أن تشربوا منه، ولو نشاء لجعلناه أجاجا كما ينه الله على ذلك فى الآية الأخرى فى سورة «الواقعة»، وهو قوله: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ. أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ. لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٨-٧٠]، وفى قوله: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ [النحل: ١٠].

وقوله: ﴿ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾: قال سفيان الثورى: بمنعين. ويحتمل أن المراد: وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم، ونجعله معينا وينابيع فى الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذبا، وحفظه فى العيون والآبار والأنهار وغير ذلك، ليبقى لهم فى طول السنة، يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم.

وقوله: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾: إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته، وأنه هو الذى أحيا الخلق من العدم، ثم يميتهم ثم يعيهم كلهم ليوم الجمع. وأخبر أنه تعالى يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون.

ثم قال مخبراً عن تمام علمه بهم، أولهم وآخرهم: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾: قال ابن عباس: المستقدمون: كل من هلك من لدن آدم، عليه السلام، والمستأخرون: من هو حى ومن سيأتى إلى يوم القيامة. وروى نحوه عن عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وغيرهم. وهو اختيار ابن جرير.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: المراد بالصلصال هاهنا: التراب اليابس. والظاهر أنه كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ . وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥]. وعن مجاهد أيضاً: الصلصال: المنتن. وتفسير الآية بالآية أولى.

وقوله: ﴿مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ أى: الصلصال من حمأ، وهو: الطين. والمسنون: الأملس، ولهذا روى عن ابن عباس: أنه قال: هو التراب الرطب. وعن ابن عباس، ومجاهد، أيضاً: أن الحمأ المسنون هو المنتن. وقيل: المراد بالمسنون هاهنا: المصبوب.

وقوله: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أى: من قبل الإنسان ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾: هى السموم التى تقتل، وعن ابن عباس: أن الجان خلق من لهب النار، وفى رواية: من أحسن النار. وقد ورد فى الصحيح: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَتِ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ بَنُو آدَمَ مِمَّا وَصَفَ لَكُمْ»^(١) ومقصود الآية: التنبيه على شرف آدم، عليه السلام، وطيب عنصره، وطهارة مَحْتَدِهِ.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِمْ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنُ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَتَّبِعُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾

يذكر تعالى تنويبه بذكر آدم فى ملائكته قبل خلقه له، وتشريفه إياه بأمره الملائكة بالسجود له. ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة، حسداً وكفراً، وعناداً واستكباراً، وافتخاراً بالباطل، ولهذا قال: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ كقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الاعراف: ١٢]، وقوله: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أُخْرَتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَكِنَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾

يذكر تعالى أنه أمر إبليس أمراً كونياً لا يخالف ولا يمانع، بالخروج من المنزلة التى كان فيها من الملائكة الأعلى، وأنه ﴿رَجِيمٌ﴾ أى: مرجوم. وأنه قد اتبعته لعنة لا تزال متصلة به، للاحقة له، متواترة عليه إلى يوم القيامة. وإنه لما تحقق الغضب الذى لا مردَّ له، سأل من تمام حسده لآدم

وذريته النظرة إلى يوم القيامة، وهو يوم البعث وأنه أجيب إلى ذلك استدارجاً له وإمهالاً، فلما تحقق النظرة قبحه الله:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤١﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤٣﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٤﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٥﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وعمرده وعتوه أنه قال للرب: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ قال بعضهم: أقسم ياغواء الله له. قلت: ويحتمل أنه بسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ﴾ أي: لذرية آدم، عليه السلام ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أحب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها، وأؤزهم إليها، وأزعجهم إزعاجاً ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ أي: كما أغويتني ونذرت على ذلك ﴿أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ كما قال: ﴿وَأَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِن أُخْرِجْتَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَكِنَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

قال الله تعالى له متهدداً ومتوعداً: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: مرجعكم كلكم إلي، فأجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]. وقيل: طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى، وإليه تنتهي. قاله مجاهد، والحسن، وقاتدة كما قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩].

وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي: الذين قدرت لهم الهداية، فلا سبيل لك عليهم، ولا وصول لك إليهم ﴿إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ استثناء منقطع.
وقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، كما قال عن القرآن: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧].

ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب: ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ أي: قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه، لا محيد لهم عنه - أجازنا الله منها - وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في درك بقدر فعله. وقال عكرمة: ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾: سبعة أطباق. وقال ابن جريج: أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم سعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. وروى عن ابن عباس، نحوه. وقال قتادة: وهى والله منازل بأعمالهم.

﴿ إِنَّكَ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِخْرَانًا عَلَى سُورٍ مُنْقَلَبِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حال أهل النار، عطف على ذكر أهل الجنة، وأنهم في جنات وعيون.

وقوله: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أى: سالمين من الآفات، مسلماً عليكم ﴿آمِنِينَ﴾ من كل خوف وفضع، ولا تخشوا من إخراج، ولا انقطاع، ولا فناء.

وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾: عن أبى أمامة قال: لا يدخل مؤمن الجنة حتى ينزع الله ما فى صدورهم من غل، حتى ينزع منه مثل السبع الضارى. وهذا موافق لما فى الصحيح، أن أبا سعيد الخدرى حدثهم: أن رسول الله ﷺ قال: «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَىٰ قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِهِمْ، مِظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّىٰ إِذَا هُدُّبُوا وَنُقُوا، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ» (١). وروى ابن جرير عن محمد بن سيرين: استأذن الأشرع على على، رضى الله عنه، وعنده ابن لطلحة، فحبسه ثم أذن له. فلما دخل قال: إني لأراك إنما احتبستنى لهذا؟ قال: أجل. قال: إني لأراه لو كان عندك ابن لعثمان لحبستنى؟ قال: أجل، إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان عن قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ [إِخْوَانًا] عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ (٢). وقال أبو صالح فى قوله: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾، قال: هم عشرة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن مسعود، رضى الله عنهم أجمعين.

وقوله: ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾: قال مجاهد: لا ينظر بعضهم فى قفا بعض. روى ابن أبى حاتم عن زيد بن أبى أوفى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، فتلا هذه الآية: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ فى الله، ينظر بعضهم إلى بعض» (٣). وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ يعنى: المشقة والأذى، كما جاء فى الصحيحين: «إن الله أمرنى أن أبشر خديجة ببيت فى الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب» (٤).

وقوله: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾، كما قال الله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَتَّوْنَ عَنْهَا حَوْلًا﴾

[الكهف: ١٠٨]

وقوله: ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ أى: أخبر يا محمد عبادى أنى ذو رحمة وذو عقاب أليم وهى دالة على مقامى الرجاء والخوف.

﴿وَنَبِّئْتَهُمْ عَنْ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلِّمْ عَلَيْنَا إِنَّا مِنَكَ وَحِدُونَ
 ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ٥٢﴾ قَالَ أَبَشْرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ
 فِيمَ تَبْشُرُونَ ﴿قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ٥٣﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ
 مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٤﴾

(٢) ابن جرير فى التفسير (٢٦/١٤).

(١) البخارى (٦٥٣٥).

(٤) البخارى (٧١/٢٤٣٢).

(٣) البخارى فى التاريخ الكبير (٣٨٦/٣).

يقول تعالى: وأخبرهم يا محمد عن قصة ﴿ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ والضيف: يطلق على الواحد والجمع، وكيف ﴿ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجَلُونَ ﴾ أى: خائفون. وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه لهم ضيافة، وهو العجل السمين الخنيز. ﴿ قَالُوا لَا تَوَجَّلْ ﴾ أى: لا تخف ﴿ وبشروه بغلام عليم ﴾ [الذاريات: ٢٨] وهو إسحاق، عليه السلام، كما تقدم فى سورة هود. ثم قال متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد: ﴿ ابشروني على أن مسني الكبر فيم تبشرون ﴾ فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة ﴿ قَالُوا بَشْرُنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَاطِنِينَ ﴾ فأجابهم بأنه ليس يقنط، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأسنّت امرأته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمَنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرَاتَهُ فَدَرْنَا إِنهِنَّ لَمِنَ الْغَآبِرِينَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى إخباراً عن إبراهيم، عليه السلام، لما ذهب عنه الروح وجاءته البشرى: إنه شرع يسألهم عما جاؤوا له، فقالوا: ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ يعنون: قوم لوط. وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من المهلكين؛ ولهذا قالوا: ﴿ إِلَّا أَمْرَاتَهُ فَدَرْنَا إِنهِنَّ لَمِنَ الْغَآبِرِينَ ﴾ أى: الباقين المهلكين.

﴿ فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة فى صورة شباب حسان الوجوه، فدخلوا عليه داره، قال: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ. قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ يعنون: بعدابهم وهلاكهم ودمارهم الذى كانوا يشكون فى وقوعه بهم، وحلوله بساحتهم ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ مَا نَنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الحجر: ٨]. وقوله: ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به، من نجاته وإهلاك قومه.

﴿ فَاسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هُوَلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْحِحِينَ ﴿٦٦﴾

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يسرى بأهله بعد مضى جانب من الليل، وأن يكون لوط، عليه السلام، يمشى وراءهم، ليكون أحفظ لهم. وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشى فى الغزو، وإنما يكون ساقه، يزجى الضعيف، ويحمل المنقطع.

وقوله: ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ﴾ أى: إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم، وذروهم

فيما حل بهم من العذاب والنكال ﴿ وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ كأنه كان معهم من يهديهم السبيل، ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ ﴾ أى: تقدمنا إليه فى هذا ﴿ أَنْ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ أى: وقت الصباح، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود: ٨١].

﴿ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ ﴿ ١٧ ﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿ ١٨ ﴾
 ﴿ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ ﴾ ﴿ ١٩ ﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نُنْهَكْ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿ ٢٠ ﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ
 كُنْتُمْ فَعَلِينَ ﴿ ٢١ ﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿ ٢٢ ﴾

يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم، وأنهم جاؤوا مستبشرين بهم فرحين، ﴿ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ . وَأَتَقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ ﴾ . وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم بأنهم رسل الله كما فى سياق سورة هود، وأما هاهنا فتقدم ذكر أنهم رسل الله، وعطف بذكر مجيء قومه ومحاجته لهم . ولكن الواو لا تقتضى الترتيب، ولا سيما إذا دل دليل على خلافه، فقالوا له مجيبين: ﴿ أَوْلَمْ نُنْهَكْ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ أى: أو ما نهيناك أن تضيف أحدا؟ فأرشدهم إلى نساتهم، وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة. وقد تقدم أيضا القول فى ذلك، بما أغنى عن إعادته.

هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم، وما قد أحاط بهم من البلاء، وماذا يُصبحهم من العذاب المستقر؛ ولهذا قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾، أقسم تعالى بحياة نبيه ﷺ وفى هذا تشريف عظيم، ومقام رفيع وجاه عريض. قال ابن عباس، أنه قال: ما خلق الله وما ذرا وما برا نفسا أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يقول: وحياتك وعمرك وبقائك فى الدنيا إنهم لفى سكرتهم يعمهون. وقال قتادة: ﴿ فِي سَكْرَتِهِمْ ﴾ أى: فى ضلالتهم ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أى: يلعبون. وقال ابن عباس: ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾: لعيشك ﴿ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ قال: يتمادون.

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ ﴿ ٢٣ ﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ
 سِجِّيلٍ ﴿ ٢٤ ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿ ٢٥ ﴾ وَإِنَّهَا لَيْسَبِيلٌ مُّقِيمٍ ﴿ ٢٦ ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿ ٢٧ ﴾

يقول تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾، وهى ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس، وهو طلوعها، وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء ثم قلبها، وجعل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السجيل عليهم. وقد تقدم الكلام على السجيل فى سورة هود بما فيه كفاية.

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ أى: إن آثار هذه التقم ظاهرة على تلك البلاد لمن

تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته، كما قال مجاهد في قوله: ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال: المتفرسين. وعن ابن عباس: للناظرين. وقال قتادة: للمعتبرين .

وقوله: ﴿وَأَنَّهَا لَبَسِيلٌ مُّقِيمٌ﴾ أى: وإن قرية سدوم التى أصابها ما أصابها من القلب الصورى والمعنوى، والقذف بالحجارة، حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة لطريق مهيج مسالكة، مستمرة إلى اليوم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾ [الصفات: ١٣٧، ١٣٨].

وقال مجاهد والضحاك: ﴿وَأَنَّهَا لَبَسِيلٌ مُّقِيمٌ﴾ قال: معلّم. وقال قتادة: بطريق واضح. وقال قتادة أيضاً: بصقع من الأرض واحد.

وقوله: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: إن الذى صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجائنا لوطا وأهله، لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله.

﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ ﴾ (٧٨) ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ (٧٩)

أصحاب الأيكة: هم قوم شعيب. قال الضحاك، وقاتة، وغيرهما: الأيكة: الشجر الملتف. وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان. فانقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة، وقد كانوا قريباً من قوم لوط، بعدهم فى الزمان، ومسامتين لهم فى المكان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أى: طريق مبين. قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: طريق ظاهر؛ ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال فى نذارته إياهم: ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمَجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٨٠) ﴿ وَءَايَاتُنَّهُمْ ءآيَاتُنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ (٨١) ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِينَ ﴾ (٨٢) ﴿ فَأَخَذْتُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ ﴾ (٨٣) ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٨٤)

أصحاب الحجر هم: ثمود الذين كذبوا صالحا نبياهم، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين؛ ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين.

وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح، كالناقة التى أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء فكانت تسرح فى بلادهم، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم. فلما عتوا وعقروها قال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدَّ غَيْرُ مَكْدُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

وذكر تعالى: أنهم ﴿كَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِينَ﴾ أى: من غير خوف ولا احتياج إليها، بل أشرا وبطرا وعبثا، كما هو المشاهد من صنيعهم فى بيوتهم بوادى الحجر، الذى مر

به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تيوك فَنَقَعَ رأسه وأسرع دابته، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت القوم المعذنين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم»^(١).

وقوله: ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ ﴾ أى: وقت الصباح من اليوم الرابع ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى: ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقة، حتى عقروها لثلا تضيق عليهم فى المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال، ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَإِنَّيَّةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى: بالعدل ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِإِطْلَاقٍ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص: ٢٧]، وقال: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

ثم أخبر نبيه بقيام الساعة، وإنها كائنة لا محالة، ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين، فى أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به، كما قال تعالى: ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٩]. وقال مجاهد وقتادة وغيرهما: كان هذا قبل القتال. وهو كما قالا، فإن هذه مكية، والقتال إنما شرع بعد الهجرة.

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾: تقرير للمعاد، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة، فإنه الخلاق الذى لا يعجزه خلق ما يشاء، وهو العليم بما تمزق من الأجساد، وتفرق فى سائر أقطار الأرض، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٨١-٨٣].

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَأخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

يقول تعالى لنبيه: كما آتيناك القرآن العظيم، فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه، فلا تغبطهم بما هم فيه، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزنا عليهم فى تكذيبهم لك، ومخالفتهم دينك ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥] أى: ألن لهم جانبك، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا

عَنْهُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾. [التوبة: ١٢٨]. وقد اختلف فى السبع المثنى: ما هى؟ فقال ابن مسعود وابن عمر وغير واحد: هى السبع الطُول. يعنون: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس. وقال مجاهد: هى السبع الطُول. ويقال: هى القرآن العظيم. والقول الثانى: أنها الفاتحة، وهى سبع آيات. روى ذلك عن عمر وعلى وابن عباس. قال ابن عباس: وبالسملة هى الآية السابعة، وقد خصمك الله بها. وقال قتادة: ذكر لنا أنهم فاتحة الكتاب، وأنهم يثنيون فى كل قراءة. وفى رواية: فى كل ركعة مكتوبة أو تطوع. واختاره ابن جرير، واحتج بالأحاديث الواردة فى ذلك، وقد قدمناها فى فضائل سورة «الفاتحة» فى أول التفسير، والله الحمد. وقد أورد البخارى هاهنا حديثين:

أحدهما: عن أبى سعيد بن المعلى قال: مر بى النبى ﷺ وأنا أصلى، فدعانى فلم آته حتى صليت، ثم أتته فقال: «ما منعك أن تأتيني؟». فقلت: كنت أصلى. فقال: «ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ألا أعلمك أعظم سورة فى القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟» فذهب النبى ﷺ ليخرج، فذكرته فقال: «﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، هى السبع المثنى والقرآن العظيم الذى أوتيته» (١).

والثانى: عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هى: السبع المثنى والقرآن العظيم» (٢). فهذا نص فى أن الفاتحة السبع المثنى والقرآن العظيم، ولكن لا ينافى وصف غيرها من السبع الطُول بذلك، لما فيها من هذه الصفة، كما لا ينافى وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي﴾ [الزمر: ٢٣]، فهو مثنى من وجه، ومتشابه من وجه، وهو القرآن العظيم أيضاً، كما أنه، عليه السلام، لما سئل عن المسجد الذى أسس على التقوى، فأشار إلى مسجده، والآية نزلت فى مسجد قباء، فلا تنافى، فإن ذكر الشيء لا ينفى ذكر ما عداه إذا اشتركا فى تلك الصفة، والله أعلم.

وقوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أى: استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع. والزهرة الفانية. عن ابن عباس: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَكَ﴾ قال: نهى الرجل أن يتمنى مال صاحبه، وقال مجاهد: ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾: هم الأغنياء.

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسَلْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول للناس: ﴿إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ بين النذارة، نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تكذيبه كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسولها، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام. وقوله: ﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾ أى: المتحالفين، أى: تحالفوا

على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم، كما قال تعالى إخباراً عن قوم صالح أنهم: ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَهُ وَأَهْلَهُ ﴾ [النمل: ٤٩]، أى: نقتلهم ليلاً، قال مجاهد: تقاسموا: تحالفوا، ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ مَنْ بَمُوتِ ﴾ [النحل: ٣٨]، ﴿ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، ﴿ أَهْوَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَبَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ [الاعراف: ٤٩]، فكانهم كانوا لا يكذبون بشيء إلا أقسموا عليه، فسموا مقتسمين.

وقوله: ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ أى: جَزَّؤُوا كتبهم المنزلة عليهم، فأمنوا ببعض وكفروا ببعض روى البخارى عن ابن عباس: ﴿ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ قال: هم أهل الكتاب، جَزَّؤوه أجزاء، فأمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه (١). وروى عن ابن عباس أيضاً: ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ قال: آمنوا ببعض، وكفروا ببعض: اليهود والنصارى (٢). وقال ابن عمر فى قوله: ﴿ نَسَأَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ قال: عن لا إله إلا الله. وقال مجاهد. وقال أبو العالية: قال: يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة، عما كانوا يعبدون، وماذا أجابوا المرسلين. وقال ابن عيينة: عن عمك، وعن مالك. وقال ابن عباس: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾، ثم قال: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ ﴾ [الرحمن: ٣٩] قال: لا يسألهم: هل عملتم كذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴿﴾

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ بإبلاغ ما بعثه به وإنفاذه والصدع به، وهو مواجهة المشركين به، كما قال ابن عباس: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أى: أمضه. وفى رواية: افعل ما تؤمر. وقال مجاهد: هو الجهر بالقرآن فى الصلاة. وقال عبد الله بن مسعود: ما زال النبى ﷺ مستخفياً، حتى نزلت: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾، فخرج هو وأصحابه.

وقوله: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ أى: بلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِىٰ فَيْدُهُنَّ ﴾ [القلم: ٩]، ولا تخفهم؛ فإن الله كافيك إياهم، وحافظك منهم، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧]. وقوله: ﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾: تهديد شديد، ووعيد أكيد، لمن جعل مع الله معبوداً آخر.

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ. فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ أى: وإنا

لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم لك انقباض وضيق صدر فلا يهيدنك ذلك، ولا يشينك عن إبلاغك رسالة الله، وتوكل على الله فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسيبحة وعبادته التى هى الصلاة؛ ولهذا قال: ﴿ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صَلَّى .

وقوله: ﴿ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾: قال سالم بن عبد الله بن عمر: الموت، والدليل على ذلك قوله تعالى إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّى آتَانَا الْيَقِينُ ﴾ [المدثر: ٤٦-٤٧]. وفى الصحيح عن أم العلاء أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون - وقد مات - قلت: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتى عليك لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه ؟» فقلت: بأبى وأمى يا رسول الله، فمن؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، وإنى لأرجو له الخير»^(١).

ويستدل من هذه الآية الكريمة - وهى قوله: ﴿ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ - على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً فيصلى بحسب حاله، كما ثبت فى صحيح البخارى، عن عمران بن حصين، رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «صَلِّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»^(٢).

ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم. وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء، عليهم السلام، كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد الناس وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة. وإنما المراد باليقين هاهنا الموت، كما قدمناه. والله الحمد والمنة، والحمد لله على الهداية، وعليه الاستعانة والتوكل، وهو المسؤول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها .

تفسير سورة النحل

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ آتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقيق والوقوع لا محالة كقوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الانبيا: ١] ، وقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] .

وقوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أى: قرب ما تباعد فلا تستعجلوه. يحتمل أن يعود الضمير على الله، ويحتمل أن يعود على العذاب، وكلاهما متلازم، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلِيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤]. وروى ابن أبي حاتم عن عقبه بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ «تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الترس، فما تزال ترتفع فى السماء، ثم ينادى مناد فيها: يا أيها الناس. فيقبل الناس بعضهم على بعض: هل سمعتم؟ فمنهم من يقول: نعم. ومنهم من يشك. ثم ينادى الثانية: يا أيها الناس. فيقول الناس بعضهم لبعض: هل سمعتم؟ فيقولون: نعم. ثم ينادى الثالثة: يا أيها الناس، أتى أمر الله فلا تستعجلوه. قال رسول الله ﷺ: «فوالذى نفسى بيده، إن الرجلين لينشران الثوب فما يطويانه أبداً ، وإن الرجل ليمدّن حوضه فما يسقى فيه شيئاً أبداً، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبداً - قال - ويستغل الناس» (١).

ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علواً كبيراً، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة، قال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

﴿ يُزِيلُ الْمَلٰٓئِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾

يقول تعالى: ﴿يُزِيلُ الْمَلٰٓئِكَةُ بِالرُّوحِ﴾ أى: الوحي كقوله: ﴿وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم الأنبياء ، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ

(١) رواه الحاكم فى المستدرک (٤/٥٣٩) بنحوه ، وقال : « صحیح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه » .

رَسَّالَتَهُ ﴿الأنعام: ١٢٤﴾ ، وقال: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] ، وقال: ﴿يَلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ . يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٥، ١٦] .

وقوله: ﴿أَنْ أُنذِرُوا﴾ أى: لينذروا ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أى: فاتقوا عقوبتى لمن خالف امرى وعبد غيرى .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿١﴾ خَلَقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ حَصِيمٌ مَبِينٌ ﴿٢﴾

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوى وهو السموات، والعالم السفلى وهو الأرض بما حوت، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث، بل ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١] .

ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره ، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له. ثم نبه على خلق جنس الإنسان ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أى: ضعيفة مهينة، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه، ويحارب رسله، وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضدّاً، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا . وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَفْعَلُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤، ٥٥] ، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانَ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ حَصِيمٌ مَبِينٌ . وَضَرَبْنَا لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ - ٧٩] . وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن بسر بن جحاش قال: بصق رسول الله فى كفه، ثم قال: «يقول الله: ابن آدم، أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت، حتى إذا بلغت الخلقوم قلت: أتصدق. وأنى أوان الصدقة؟» (١) .

﴿ وَاللَّعْنَةُ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ﴿١﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٢﴾ وَتَحْمِلُ أَنْفُسَكُمْ إِلَىٰ بُلَدِكُمْ لَتَرَوْا كَثُورًا بَلِيغِيهِ إِلَّا يُشِيقَ الْآنَفِيسَ إِنْ رَبَّكُمْ لَرَوْفٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾

يمتت تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام، وهى الإبل والبقر والغنم، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع، من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون، ويأكلون من أولادها، وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا

(١) المسند (٤/ ٢١٠) ، وابن ماجه (٢٧٠٧) وفى الزوائد : «إسناده صحيح» .

جَمَالَ حِينَ تُرِيحُونَ ﴿٨﴾ وهو وقت رجوعها عشياً من المرعى، فإنها تكون أمدّه خواصر، وأعظمه ضروراً، وأعلاه أسنمة، ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أى: غدوة حين تبعثونها إلى المرعى ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾: وهى الأحمال المثقلة التى تعجزون عن نقلها وحملها ﴿إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْفَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ وذلك فى الحج والعمرة والغزو والتجارة، وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها فى أنواع الاستعمال، من ركوب وتحميل، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّسَعْيِكُمْ مِمَّا فِي بَطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢١، ٢٢]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ. وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ [غافر: ٧٩ - ٨١]؛ ولهذا قال هاهنا بعد تعداد هذه النعم: ﴿إِنْ رَبِّكُمْ لَرُءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: ربكم الذى قيض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ. وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ. لَنَسْتَرُوا عَلَى ظَهْرِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مَقْرِنِينَ. وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤].

قال ابن عباس: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أى: ثياب، والمنافع: ما تنتفعون به من الأاطعمة والأشربة. وقال مجاهد: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ قال: لباس ينسج، ومنافع تركب، ولحم ولبن. وقال قتادة: ﴿دِفْءٌ وَمَنَافِعٌ﴾ يقول: لكم فيها لباس، ومنفعة، وبُلغة. وكذا قال غير واحد من المفسرين، بالفاظ متقاربة.

﴿وَالْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ لَتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده، يمتن به عليهم، وهو: الخيل والبغال والحمير، التى جعلها للركوب والزينة بها، وذلك أكبر المقاصد منها، ولما فصلها من الأنعام وأفردها بالذكر استدلت من العلماء - ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل - بذلك على ما ذهب إليه فيها، كالإمام أبى حنيفة، رحمه الله، ومن وافقه من الفقهاء؛ لأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير، وهى حرام. ولكن لا يقاوم ما ثبت فى الصحيحين، عن جابر بن عبد الله قال: نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحمير الأهلية، وأذن فى لحوم الخيل (١). ورواه أحمد وأبو داود بإسنادين، كل منهما على شرط مسلم، عن جابر قال: ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير، فنهانا رسول الله ﷺ عن البغال والحمير، ولم ينهنا عن الخيل (٢). وفى صحيح مسلم، عن أسماء بنت أبى بكر، رضى الله عنهما، قالت: نحرنا على عهد رسول الله ﷺ فرسا فأكلناه ونحن بالمدينة (٣). فهذه أدل وأقوى وأثبت، وإلى ذلك صار جمهور العلماء: مالك والشافعى وأحمد وأصحابهم، وأكثر السلف والخلف، والله أعلم.

(١) البخارى (٤٢١٩، ٥٥٢٤)، ومسلم (٣٦/١٩٤١).

(٢) المسند (٣/٣٥٦)، وأبو داود (٣٧٨٩)، وصححه الألبانى.

(٣) مسلم (٣٨/١٩٤٢).

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿٩﴾

لما ذكر في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها، التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة- شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه ، فبين أن الحق منها ما هي موصلة إليه ، فقال : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ ، كما قال : ﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] . قال مجاهد: في قوله : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ قال: طريق الحق على الله ، وقال السدي : الإسلام. وقول مجاهد أقوى ؛ لأنه تعالى أخبر أن ثم طرقاً تسلك إليه ، فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق، وهي الطريق التي شرعها ورضيها وما عداها مسدودة ، والأعمال فيها مردودة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ أى: حائد مائل زائغ عن الحق.

ثم أخبر أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيته، فقال: ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، كما قال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩] ، وقال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةَ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [مود: ١١٨ ، ١١٩] .

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ ﴿١٠﴾

﴿ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿١١﴾

لما ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب، شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء ، مما لهم فيه بُلغَةٌ ومتاع لهم ولأنعامهم، فقال: ﴿ لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ ﴾ أى: جعله عذبا زلالا، يسوغ لكم شرابه، ولم يجعله ملحا أجابا ﴿ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ أى: وأخرج لكم به شجراً ترعون فيه أنعامكم. ومنه الإبل السائمة، والسوم: الرعى. وقوله: ﴿ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ أى: يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد، على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أى: دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله. ثم قال تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ ﴿١٢﴾

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿١٣﴾

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ ﴿١٤﴾

يبه تعالى عباده على آياته العظام، ومنته الجسم، في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات في أرجاء السموات نورا وضياء للمهتدين بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مقدرة، لا يزيد

عليها ولا ينقص منها ، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسييره ، كما قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الاعراف: ٥٤]؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أى: لدلالات على قدرته الباهرة وسلطانه العظيم ، لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه .

وقوله : ﴿ وَمَا ذَرَأْنَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ : لما نبه سبحانه على معالم السموات ، نبه على ما خلق فى الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة ، من الحيوانات والمعادن والنباتات على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وما فيها من المنافع والخواص ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أى: آلاء الله ونعمه فيشكرونها .

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالَّذِي فِي الْأَرْضِ رَوَىٰ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَنَّاكَ وَبِالتَّجْمِيمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج ، ويمتن على عباده بتذليله لهم ، وتسييرهم للركوب فيه ، وجعله السمك والحيتان فيه ، وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها ، فى الحل والإحرام ، وما يخلقه فيه من اللآلىء والجواهر النفيسة ، وتسهيله للعباد استخراجها من قرارها حلية يلبسونها ، وتسخيره البحر لحمل السفن التى تمخره ، أى: تشقه ، بجوئنها وهو صدرها المسنم - الذى أرشد العباد إلى صنعتها ، وهداهم إلى ذلك ، إرثا عن أبيهم نوح ، عليه السلام - ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى: نعمه وإحسانه. ثم ذكر تعالى الأرض ، وما جعل فيها من الرواسى الشامخات والجبال الراسيات ، لتقر الأرض ولا تميد ، أى: تضطرب بما عليها من الحيوان فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا ﴾ [النارعات: ٣٢] .

وقوله : ﴿ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا ﴾ أى: وجعل فيها أنهاراً تجرى من مكان إلى مكان آخر ، رزقاً للعباد ، ينبع فى موضع وهو رزق لأهل موضع آخر ، فيقطع البقاع والبرارى والقفار ، ويخترق الجبال والآكام ، فيصل إلى البلد الذى سُخِّرَ لأهله . وهى سائرة فى الأرض يمئة ويسرة ، وجنوبا وشمالا ، وشرقا وغربا ، ما بين صغار وكبار ، وأودية تجرى حيناً وتقطع فى وقت ، وما بين نبع وجمع ، وقوى السير وبيطئه ، بحسب ما أراد وقدر ، وسخر ويسر فلا إله إلا هو ، ولا رب سواه . وكذلك جعل فى الأرض سبلا ، أى: طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد ، حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سَبِيلًا ﴾ [الانبيا: ٣١] . وقوله : ﴿ وَعَلَامَاتٍ ﴾ أى: دلائل من جبال كبار وآكام صغار ، ونحو ذلك ، يستدل بها

المسافرون برأً وبحراً إذا ضلوا الطريق ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أى: فى ظلام الليل، قاله ابن عباس. ثم قال تعالى منها على عظمته، وأنه لا تنبغى العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان، التى لا تخلق شيئاً بل هم يخلقون؛ ولهذا قال: ﴿أَقْمَنُ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم، فقال: ﴿وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى: يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير، ويجازى على اليسير. وقال ابن جرير: يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لما كان منكم من تقصير فى شكر بعض ذلك، إذا تبتم وأنبتتم إلى طاعته واتباع مرضاته ﴿رَحِيمٌ﴾ بكم أن يعذبكم بعد الإنابة والتوبة.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ ﴿١٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿٢١﴾

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ثم أخبر أن الأصنام التى يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، كما قال الخليل: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ. وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦]. وقوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أى: هى جمادات لا أرواح فيها، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أى: لا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما يرتجى ذلك من الذى يعلم كل شىء، وهو خالق كل شىء.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِتْرَافِيًّا﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِتْرَافِيًّا﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِتْرَافِيًّا﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِتْرَافِيًّا﴾ ﴿٢٥﴾

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [ص: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]. وقوله: ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ أى: عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَدِّخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أى: حقاً ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أى: وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الذُّرُّ وَقَالُوا لَنْ نَحْمِلَهُمْ إِنْ نَزَلَ بِرَبِّنَا﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الذُّرُّ وَقَالُوا لَنْ نَحْمِلَهُمْ إِنْ نَزَلَ بِرَبِّنَا﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الذُّرُّ وَقَالُوا لَنْ نَحْمِلَهُمْ إِنْ نَزَلَ بِرَبِّنَا﴾ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى : وإذا قيل لهؤلاء المكذبين : ﴿ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا ﴾ معرضين عن الجواب : ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى : لم ينزل شيئاً، إنما هذا الذى يتلى علينا أساطير الأولين، أى : مأخوذ من كتب المتقدمين، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَبَتْهَا فَبِئْسَ تَمَلُّ عَلَىٰ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥] أى : يفترون على الرسول، ويقولون فيه أقوالاً مختلفة متضادة ، كلها باطلة ، كما قال تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٩]، وذلك أن كل من خرج عن الحق فمهما قال أخطأ .

قال الله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أى : إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك فيتحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم، أى : يصير عليهم خطيئة ضلالهم فى أنفسهم ، وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم، كما جاء فى الحديث: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» (١). وقال مجاهد: يحملون أفعالهم: ذنوبهم وذنوب من أطاعهم، ولا يخفف عن أطاعهم من العذاب شيئاً.

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١١) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْآخِرَىٰ أَلْوَمُ وَالسَّوَاءُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾

قال ابن عباس فى قوله : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ قال : هو عمرو الذى بنى الصرح . وقال آخرون: بل هو بختنصر . وقال آخرون: هذا من باب المثل، لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا فى عبادته غيره، كما قال نوح، عليه السلام: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ﴾ [نوح: ٢٢] أى : احتالوا فى إضلال الناس بكل حيلة وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة : ﴿ بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ﴾ [الآية [سبا: ٣٣] .

وقوله : ﴿ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ أى : اجتته من أصله، وأبطل عملهم، وأصلها كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾ [المائدة: ٦٤] .

وقوله : ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢] ، وقال هاهنا : ﴿ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ . ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ ﴾ أى : يظهر فضائحهم، وما كانت تُجنته ضمائرهم، فيجعله علانية، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ [الطارق: ٩] أى : تظهر وتشتهر ، كما فى الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ينصب لكل غادر

لواء يوم القيامة عند استه بقدر عَدْرَتِهِ، فيقال: هذه عَدْرَةُ فلان بن فلان (١). وهكذا هؤلاء، يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر، ويخزيهم الله على رؤوس الخلائق، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مقرعا لهم وموبخا: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ﴾: تحاربون وتعادون في سبيلهم، أين هم عن نصركم وخلاصكم هاهنا؟ ﴿هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣] ، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠]. فإذا توجهت عليهم الحجة، وقامت عليهم الدلالة، وحقت عليهم الكلمة، وأسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة، والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة، فيقولون حيثئذ: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أى: الفضيحة والعذاب اليوم بمن كفر بالله ، وأشرك به مالا يضره ولا ينفعه.

﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ فَاَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فليئسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿١٩﴾﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمى أنفسهم عند احتضارهم ومجىء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم: ﴿فَاَلْقَوْا السَّلَامَ﴾ أى: أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ ، كما يقولون يوم المعاد: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الانعام: ٢٣] ، ﴿يَوْمَ يَعْثَبُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨] .

قال الله مكذبا لهم فى قيلهم ذلك: ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فليئسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أى: بشس المقيال والمقام والمكان من دار هوان، لمن كان متكبرا عن آيات الله واتباع رسله. وهم يدخلون جهنم من يوم ماتهم بأرواحهم، ويأتى أجسادهم فى قبورها من حرها وسمومها، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم فى أجسادهم، وخلدت فى نار جهنم ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦] ، كما قال الله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِدَارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٠﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٢١﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

هذا خبر عن السعداء، بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء، فإن أولئك قيل لهم: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾، فقالوا معرضين عن الجواب: لم ينزل شيئا، إنما هذا أساطير الأولين. وهؤلاء ﴿قَالُوا﴾

خَيْرًا ﴿٣٣﴾ أى : أنزل خيرا ، أى : رحمة وبركة وحسناً لمن اتبعه وآمن به . ثم أخبروا عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسله فقالوا : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِدَارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] ، أى : من أحسن عمله فى الدنيا أحسن الله إليه فى الدنيا والآخرة . ثم أخبروا بأن دار الآخرة خير ، أى : من الحياة الدنيا ، والجزاء فيها أتم من الجزاء فى الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ [القصص : ٨٠] وقال تعالى : ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٨] وقال تعالى ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى : ١٧] ، وقال لرسوله ﷺ : ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ [الضحى : ٤] . ثم وصفوا الدار الآخرة فقالوا : ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ بدل من ﴿ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى : لهم فى الآخرة ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ أى : إقامة يدخلونها ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أى : بين أشجارها وقصورها ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الزخرف : ٧١] ، ﴿ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى : كذلك يجزى الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله . ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار ، أنهم طيبون ، أى : مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء ، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] .

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٢﴾ فَاصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

يقول تعالى متهدداً للمشركين على تماديهم فى الباطل واغترارهم بالدنيا : هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم بقبض أرواحهم ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ ﴾ أى : يوم القيامة وما يعاينونه من الأحوال . وقوله : ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى : هكذا تمادى فى شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله ، وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ﴾ ؛ لأنه تعالى أعذر إليهم ، وأقام حججه عليهم بإرسال رسله وإنزال كتبه ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أى : بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاؤوا به ، فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك ، ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أى : أحاط بهم من العذاب الاليم ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى : يستخرون من الرسل إذا توعدهم بعقاب الله ؛ فلهذا يقال يوم القيامة : ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴾ [الطور : ١٤] .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الشرك واعتذارهم محتجين بالقدر، في قولهم : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى : من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك، مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم، ما لم ينزل الله به سلطانا.

ومضمون كلامهم : أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا، لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكنا منه . قال الله راداً عليهم شبهتهم : ﴿ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ ؟ أى : ليس الأمر كما تزعمون أنه لم يعيره عليكم ولم ينكره، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار، ونهاكم عنه أكد النهى، وبعث فى كل أمة رسولا، أى : فى كل قرن من الناس وطائفة رسولا، وكلهم يدعو إلى عبادة الله، وينهى عن عبادة ما سواه : ﴿ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ ، فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك، منذ حدث الشرك فى بنى آدم، فى قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذى طبقت دعوته الإنس والجن فى المشارق والمغرب، وكلهم كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الانبيا: ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَنْجَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥] ، وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ ، فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ، فمشيئته تعالى الشرعية متفية ؛ لأنه نهاهم عن ذلك على السنة رسله، وأما مشيئته الكونية، وهى تمكينهم من ذلك قدرا، فلا حجة لهم فيها ؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله فى ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة .

ثم إنه تعالى قد أخبر أنه غير عليهم، وأنكر عليهم بالعقوبة فى الدنيا بعد إنذار الرسل ؛ فلهذا قال : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴾ أى : اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ [محمد: ١٠] ، ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الملك: ١٨] . ثم أخبر تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم، إذا كان الله قد أراد إضلالهم، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ [المائدة: ٤١] ، وقال نوح لقومه : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ

نُصِحِي إِنْ أَرَدْتِ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴿ هود: ٣٤ ﴾ ، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٦] ، وقال تعالى: ﴿ إِنْ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦ ، ٩٧] .

فقوله: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ ﴾ أى: شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ فلهذا قال: ﴿ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾ أى: من أضله فمن الذى يهديه من بعد الله؟ أى: لا أحد ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ أى: يتقذرونهم من عذابه ووثاقه، ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤] .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٠﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: أنهم حلفوا فأقسموا ﴿ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ أى: اجتهدوا فى الحلف وغلظوا الأيمان على أنه ﴿ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ﴾ أى: استبعدوا ذلك، فكذبوا الرسل فى إخبارهم لهم بذلك، وحلفوا على نقيضه ، فقال تعالى مكذباً لهم وراداً عليهم: ﴿ بَلَىٰ ﴾ أى: بلى سيكون ذلك ﴿ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ أى: لا بد منه ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى: فَلَجَهْلُهُمْ يخالفون الرسل ويقعون فى الكفر. ثم ذكر تعالى حكمته فى المعاد وقيام الأجساد يوم التناد، فقال: ﴿ لَيْسَ لَهُمْ ﴾ أى: للناس ﴿ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ ﴾ أى: من كل شىء ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ أى: فى أيمانهم وأقسامهم: لا يبعث الله من يموت؛ ولهذا يدعون يوم القيامة إلى نار جهنم دعا، وتقول لهم الزبانية: ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [الطور: ١٤] .

ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: «كن»، فيكون، والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء، كما قال: ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلِمَةً بَالْبَصُرِ ﴾ [القمر: ٥٠] ، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠] أى: أن يأمر به دفعة واحدة فإذا هو كائن ، أى: أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به، فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف، لأنه الواحد القهار العظيم ، الذى قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شىء ، فلا إله إلا هو ولا رب سواه .

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين فى سبيله ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان

والخلان، رجاء ثواب الله وجزائه. ويحتمل أن يكون سبب نزول هذه الآية الكريمة في مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة، ليتمكنوا من عبادة ربهم . وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدنيا والآخرة فقال: ﴿لَنُبَوِّئَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قال ابن عباس : المدينة. وقيل: الرزق الطيب، قاله مجاهد. ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم الله خيراً منها في الدنيا، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هو خير له منه ، وكذلك وقع فإنهم مكن الله لهم في البلاد وحكمهم على رقاب العباد، فصاروا أمراء حكاما، وكل منهم للمتقين إماما، وأخبر أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا، فقال: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أى: مما أعطيناهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أى: لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله ؛ ولهذا كان عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاهه يقول: خذ، بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ادخر لك في الآخرة أفضل، ثم قرأ هذه الآية: ﴿لَنُبَوِّئَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ .

ثم وصفهم تعالى فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: صبروا على أذى من آذاهم من قومهم، متوكلين على الله الذى أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسَتَلَوْا أَهْلَ الدِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

قال ابن عباس: لما بعث الله محمداً ﷺ رسولا، أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا، فانزل الله: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ ﴾ [يونس: ٢] ، وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الدِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يعنى: أهل الكتب الماضية: أبشر كانت الرسل التى أتتكم أم ملائكة ؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم ، وإن كانوا بشرا فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولا ؟ وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ [يوسف: ١٠٩] ، ليسوا من أهل السماء كما قلتكم. وعن ابن عباس، أن المراد بأهل الذكر: أهل الكتاب. والغرض : أن هذه الآية الكريمة أخبرت أن الرسل الماضين قبل محمد ﷺ كانوا بشرا كما هو بشر، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا. وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٣] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٢٠] وقال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨، ٩]، وقال: ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الاحقاف: ٩]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [الكهف: ١١٠].

ثم أرشد الله تعالى من شك فى كون الرسل كانوا بشراً، إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا: هل كان أنبيأؤهم بشراً أو ملائكة؟ ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى: بالدلالات والحجج ﴿وَالزُّبُرِ﴾ وهى الكتب. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم. والزبر: جمع زبور، تقول العرب: زبرت الكتاب إذا كتبته، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يعنى: القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من ربهم، أى: لعلمك بمعنى ما أنزل عليك، وحرصك عليه، واتباعك له، لعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم، ففصل لهم ما أجمل، وتبين لهم ما أشكل ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أى: ينظرون لأنفسهم فيهدتون، فيفوزون بالنجاة فى الدارين.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾

يخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس فى دعائهم إياهم وحملهم عليها، مع قدرته على ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أى: من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم، كما قال تعالى: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورُ. أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ [الملك: ١٦، ١٧]

وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ﴾ أى: فى تقلبهم فى المعاش واشتغالهم بها، من أسفار ونحوها من الأشغال الملهية. وقوله: ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أى: لا يُعْجِزُونَ اللَّهَ عَلَى أَى حَالٍ كانوا عليه. وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أى: أو يأخذهم الله فى حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد حالة الأخذ؛ فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد؛ ولهذا قال ابن عباس: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ يقول: إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك. وكذا روى عن مجاهد، والضحاك، وقتادة وغيرهم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أى: حيث لم يعاجلكم بالعقوبة، كما ثبت فى الصحيحين: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافهم» (١).

﴿ أَوْلَتْ بَرَوًا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَيْتُوهُ ظِلْمُهُمْ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

سجدة

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها: جمادها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتفياً ذات اليمين وذات الشمال، أى: بكرة وعشيا، فإنه ساجد بظله لله تعالى. قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عز وجل. وكذا قال قتادة، والضحاك، وغيرهم.

وقوله: ﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أى: صاغرون، وقال مجاهد أيضاً: سجد كل شيء فيه. وذكر الجبال قال: سجودها فيها. ثم قال: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ ﴾، كما قال: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْعُدْوِ وَالْأَصَالِ ﴾ [الرعد: ١٥]، وقوله: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى: تسجد لله أى غير مستكبرين عن عبادته ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ أى: يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ أى: مثابرين على طاعته تعالى، وامثال أوامره، وترك زواجه.

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا لِلْهَيْنِ آتِينَ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارِهَبُونَ ﴿٥١﴾ وَلَمْ يَكُن لَكُمْ الْهُنَاءُ وَلَا الْإِنصَابُ وَلَا يُغْنِي عَنْكُمْ كَيْفُ مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ كُنْتُمْ فِي الْغَيْثِ يَنْصُرُ مِنْكُمْ ذُؤَالِقُنًا وَلَكُمْ فِي الْقُرْآنِ حِكْمٌ وَإِذْ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

ربع

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ فإنه مالك كل شيء وخالقه وربيه. ﴿ وَلَهُ الدِّينُ وَأَصَابُ ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وقاتادة، وغير واحد: أى دائماً. وعن ابن عباس أيضاً: واجباً. وقال مجاهد: خالصاً. أى: له العبادة وحده ممن فى السموات والأرض، كقوله: ﴿ أَفَغَيْرِ دِينِ اللَّهِ يَغْفُونَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [آل عمران: ٨٣]

ثم أخبر أنه مالك النفع والضرب، وأن ما بالعبد من رزق، ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليه، وإحسانه إليه، ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوَرُونَ ﴾ أى: لعلمكم أنه لا يتدر على إزالته إلا هو، فإنكم عند الضرورات تلجؤون إليه، وتسالونه وتلحون فى الرغبة مستغيثين به، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّأكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال هاهنا: ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ قيل: «اللام» هاهنا لام العاقبة. وقيل: لام التعليل، بمعنى: قيصنا لهم ذلك ليكفروا، أى:

يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم، وأنه المسدئ إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم. ثم توعدهم قاتلاً: ﴿ قَتَمُوا ﴾ أى: اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أى: عاقبة ذلك.

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتَسْتَأْنِفَنَّ عَمَّا كُتِبَ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد، وجعلوا لها نصيباً مما رزقهم الله، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه، واتفكروه، وليقابلنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء فى نار جهنم، فقال: ﴿ تَاللَّهِ لَتَسْأَلُنَّ عَمَّا كُتِبَ تَفْتَرُونَ ﴾. ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، وجعلوها بنات الله، وعبدوها معه، فأخطؤوا خطأ كبيراً فى كل مقام من هذه المقامات الثلاث، فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً، ولا ولد له! ثم أعطوه أحسن القسمين من الأولاد وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، كما قال: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذَا قَسَمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢] وقال هاهنا: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ﴾ أى: عن قولهم وإفكهم، ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ أَفْكَهِمْ لَيَقُولُونَ. وَلَدَّ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ. مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [الصفات: ١٥١-١٥٤]. وقوله: ﴿ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ أى: يختارون لأنفسهم الذكور ويأفنون لأنفسهم من البنات التى نسبوها إلى الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، فإنه ﴿ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ أى: كئيباً من الهم ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾، ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ ﴾ أى: يكره أن يراه الناس ﴿ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾ أى: إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها، ولا يعتنى بها، ويفضل أولاده الذكور عليها ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾ أى: يثدّها: وهو: أن يدفنها فيه حية، كما كانوا يصنعون فى الجاهلية، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأفنون لأنفسهم عنه يجعلونه لله ؟ ﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى: بشس ما قالوا، وبشس ما قسموا، وبشس ما نسبوا إليه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف: ١٧]، وقال هاهنا: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾ أى: النقص إنما ينسب إليهم ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ﴾ أى: الكمال المطلق من كل وجه، وهو منسوب إليه ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾.

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَجِزُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ السِّتْنَهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْمُسَمَّىٰ لَا جَرَءَ أَنْ هُمْ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة، أى: لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لإهلاك بنى آدم، ولكن الرب، جل جلاله، يحلم ويستر، وينظر ﴿إِلَىٰ أَجْرٍ مُّسْمًّى﴾ أى: لا يعاجلهم بالعقوبة؛ إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً.

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أى: من البنات ومن الشركاء الذين هم عبیده، وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له فى ماله.

وقوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتَهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾: إنكار عليهم فى دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى فى الدنيا، وإن كان ثم معاد ففيه أيضا لهم الحسنى، وإخبار عن قيل من قال منهم، كقوله: ﴿وَلَئِن أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَا مِنْهُ إِنِّهٖ لَيُتُوْسُ كُفُوْرًا. وَلَئِن أَدَقْنَا نَعْمًاۤ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَّسْتَهٗ لَيَقُوْلُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهٗ لَفَرِحَ فَخُوْرًا﴾ [هود: ٩، ١٠]، وكقول: ﴿وَلَئِن أَدَقْنَا رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسْتَهٗ لَيَقُوْلُنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهٗ لِلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بِمَا عَمَلُوْا وَلَنَذِيْقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيْظٍ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيْنَ مَالًا وَلَوْلَاۤ اذْهَبَ الْغَیْبُۤ اَمْ اَتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٧، ٧٨] وقال إخبارا عن أحد الرجلين: أنه ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهٗ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهٖ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيْدَ هَٰذِهِۦ أَبَدًا. وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦] - فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمنى الباطل، بأن يجازوا على ذلك حسنا وهذا مستحيل.

ولهذا قال الله تعالى رادا عليهم فى تمنيهم: ﴿لَا جْرَمَ﴾ أى: حقا لا بد منه ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أى: يوم القيامة ﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾. قال مجاهد، وسعيد بن جبیر، وقتادة وغيرهم: منسيون فيها مضيعون. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الاعراف: ٥١]، وعن قتادة أيضا: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ أى: معجلون إلى النار، من الفرط وهو السابق إلى الورد ولا منافاة لانهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار، وينسون فيها، أى: يخلدون.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطٰنُ أَعْمَلَهُمْ فهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي أَخْتَلَفُوا فِيهِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٤﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً، فكذبت الرسل، فلك يا محمد فى إخوانك من المرسلين أسوة، فلا يهيدنك تكذيب قومك لك، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل، فإمّا حملهم على ذلك تزوين الشيطان لهم ما فعلوه ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أى: هم تحت العقوبة والنكال، والشيطان وليهم، ولا يملك لهم خلاصا، ولا صريخ لهم، ولهم عذاب أليم.

ثم قال تعالى لرسوله: إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذى يختلفون فيه، فالقرآن

فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه ﴿ وَهَدَى ﴾ أى : للقلوب ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ أى : لمن تمسك به ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ . وكما جعل تعالى القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يحيى الأرض بعد موتها بما ينزله عليها من السماء من ماء ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أى : يفهمون الكلام ومعناه .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنْقِضُوا بِهَا فِي بَطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ ﴿١١﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ فِي الْأَنْعَامِ ﴾ وهي: الإبل والبقر والغنم ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ أى: لآية ودلالة على قدرة خالقها وحكمته ولطفه ورحمته ﴿ تَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بَطُونِهِ ﴾ ، وأفرد هاهنا الضمير عائد على الحيوان؛ فإن الأنعام حيوانات، أى: نسقيكم مما فى بطن هذا الحيوان. ﴿ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا ﴾ أى: يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم فى باطن الحيوان، فيسرى كل إلى موطنه، إذا نضج الغذاء فى معدته تصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع ، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه، ولا يتغير به، وقوله: ﴿ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ أى: لا يغص به أحد .

ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شرابا للناس سائغا ، ثنى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة، من ثمرات النخيل والأعناب، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه؛ ولهذا امتن به عليهم فقال: ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ ، قال ابن عباس فى قوله: ﴿ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ : السُّكَّرُ: ما حرم من ثمرتيهما ، والرِّزْقُ الحسن ما أحل من ثمرتيهما ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ : ناسب ذكر العقل هاهنا، فإنه أشرف ما فى الإنسان ؛ ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ . لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ . سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٤ - ٣٦].

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذْ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ ﴿١٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٩﴾

المراد بالوحي هاهنا: الإلهام والهداية والإرشاد إلى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتا تاوى إليها، ومن الشجر، وبما يعرشون. ثم هى محكمة فى غاية الإتقان فى تسديسها ورضعها، بحيث لا يكون بينها خلل .

ثم أذن لها تعالى إذنا قدريا تسخيريا أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى لها مذلة، أى: سهلة عليها حيث شاءت فى هذا الجو العظيم والبرارى الشاسعة، والأودية والجبال الشاهقة، ثم تعود كل واحدة منها إلى موضعها وبيتها، لا تحيد عنه يمينا ولا يسرة، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل، فتبنى الشمع من أجنحتها، وتقوى العسل من فيها، وتبيض الفراخ من دبرها، ثم تصبح إلى مراعيها. وقال قتادة، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم: ﴿ فَاسْلُكِي سَبْلَ رَبِّكَ ذُلًّا ﴾، أى: مطيعة. فجعلناه حالا من السالكة. قال ابن زيد: وهو كقول الله تعالى: ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس: ٧٢] قال: ألا ترى أنهم ينقلون النحل من بيوته من بلد إلى بلد وهو يصحبهم. والقول الأول أظهر، وهو أنه حال من الطريق، أى: فاسلكيها مذلة لك، نص عليه مجاهد. وقال ابن جرير: كلا القولين صحيح .

وقوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ أى: ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة، على اختلاف مراعيها ومآكلها منها وقوله: ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ أى: فى العسل شفاء للناس من أدواء تعرض لهم. قال بعض من تكلم على الطب النبوى: لو قال فيه: «الشفاء للناس» لكان دواء لكل داء، ولكن قال ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ أى: يصلح لكل أحد من أدواء باردة، فإنه حار، والشىء يداوى بضده. والدليل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ هو العسل - الحديث الذى رواه البخارى ومسلم فى صحيحهما عن أبى سعيد الخدرى ، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أختى استطلقت بطنه. فقال: «اسقه عسلا». فسقاه عسلا، ثم جاء فقال: يا رسول الله، سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا! قال: «اذهب فاسقه عسلا». فذهب فسقاه، ثم جاء فقال: يا رسول الله، ما زاده إلا استطلاقا! فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله، وكذب بطن أخيك! اذهب فاسقه عسلا». فذهب فسقاه فبرئ^(١). قال بعض العلماء بالطب: كان هذا الرجل عنده فضلات، فلما سقاه عسلا وهو حار تحللت، فأسرعت فى الاندفاع، فزاد إسهاله، فاعتقد الأعرابى أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه، ثم سقاه فزاد التحليل والدفع، ثم سقاه فكدلك، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه، وصلح مزاجه، واندفعت الأسقام والألام ببركة إشارته، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام .

وفى الصحيحين عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الخلواء والعسل. هذا لفظ البخارى^(٢). وفى صحيح البخارى عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشفاء فى ثلاثة: فى شُرْطَةِ مِحْجَمٍ، أو شربة عسل، أو كِيَّةِ بِنَارٍ، وأنهى أمتى عن الكى»^(٣). وروى البخارى عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كان فى شىء من أدويتكم، أو يكون فى شىء من أدويتكم خير: ففى شُرْطَةِ مِحْجَمٍ، أو شربة عسل، أو لذعة بنار توافق الداء، وما أحب أن أكتوى». ورواه مسلم^(٤).

(٢) البخارى (٥٦٨٢) ، ومسلم (١٤٧٤/٢١) .

(١) البخارى (٥٧١٦) ، ومسلم (٩١/٢٢١٧) .

(٤) البخارى (٥٦٨٣) ، ومسلم (٧١/٢٢٠٥) .

(٣) البخارى (٥٦٨٠ ، ٥٦٨١) .

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أى: إن فى إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقه إلى السلوك فى هذه المهامة والاجتناء من سائر الثمار، ثم جمعها للشمع والعسل، وهو من أطيب الأشياء ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فى عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها، فيستدلون بذلك على أنه القادر الحكيم العليم، الكريم الرحيم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمَنَّ بِنُورِكُمْ وَمَنَّ عَلَيْكُمْ مِنْ بَرْدِ الْإِلَهِ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾

يخبر تعالى عن تصرفه فى عباده، وأنه هو الذى أنشأهم من العدم، ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم - وهو الضعف فى الخلقه - كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]. وقد روى عن على، رضى الله عنه، فى أزدل العمر: خمس وسبعون سنة. وفى هذا السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم؛ ولهذا قال: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أى: بعد ما كان عالماً أصبح لا يدرى شيئاً من الفند والخرف؛ ولهذا روى البخارى عند تفسير هذه الآية عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «أعوذ بك من البخل والكسل، والهرم وأزدل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات». ورواه مسلم (١).

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾

يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه الله من الشركاء، وهم يعترفون أنها عبيد له، فقال تعالى منكر عليهم: إنكم لا ترضون أن تساوا عبيدكم فيما رزقناكم، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيده له فى الإلهية والتعظيم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]. قال ابن عباس فى هذه الآية: لم يكونوا يشركوا عبيدهم فى أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون عبيدى معى فى سلطانى، فذلك قوله: ﴿أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، وقال فى الرواية الأخرى، عنه: فكيف ترضون لى ما لا ترضون لأنفسكم. وقال قتادة: هذا مثل ضربه الله، فهل منكم من أحد شارك مملوكه فى زوجته وفى فراشه، فتعدلون بالله خلقه وعباده؟ فإن لم ترض لنفسك هذا، فالله أحق أن ينزهه منك.

وقوله: ﴿أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أى: إنهم جعلوا الله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً، فجحدوا نعمته، وأشركوا معه غيره.

(١) البخارى (٤٧٠٧)، ومسلم (٥٢/٢٧٠٦) بدون «والهرم».

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَلَيْسَ الْبَاطِلُ يُؤْمِنُونَ وَيَنْعَمَتِ اللَّهُ بِهِمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (٧٢)

يذكر تعالى نعمه على عبده، بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجا من جنسهم وشكلهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر لما حصل ائتلاف ومودة ورحمة ، ولكن من رحمته خلق من بنى آدم ذكورا وإناثا، وجعل الإناث أزواجا للذكور.

ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة، وهم أولاد البنين. قاله ابن عباس، وعكرمة، والحسن، والضحاك، وابن زيد. قال ابن عباس: ﴿ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ : هم الولد وولد الولد. وقال مجاهد : ابنه وخادمه. وقال فى رواية: الحفدة: الأنصار والأعوان والخدام. وقال عكرمة : الحفدة: مَنْ خَدَمَكَ من ولدك وولد ولدك. قال ابن جرير: وهذه الأقوال كلها داخله فى معنى: «الحفد» وهو الخدمة، ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والأصهار والخدم ، فالنعمه حاصله بهذا كله ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ .

﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ : من المطاعم والمشارب. ثم قال تعالى منكرا على من أشرك فى عبادة المنعم غيره: ﴿ أَلَيْسَ الْبَاطِلُ يُؤْمِنُونَ ﴾ وهم : الأصنام والأنداد ﴿ وَيَنْعَمَتِ اللَّهُ بِهِمْ يَكْفُرُونَ ﴾ أى : يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره، وفى الحديث الصحيح: «إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ممتنا عليه: ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟» (١).

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ (٧٢) ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٧٤)

يقول تعالى إخبارا عن المشركين الذين عبدوا معه غيره، مع أنه هو المنعم المفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ﴿ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا ﴾ أى: لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر، ولا يملكون ذلك، أى: ليس لهم ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ أى: لا تجعلوا له أندادا وأشباهها وأمثالا ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى: إنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا الله ، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره.

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٥)

ربع

قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن . وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير. فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر ، والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سرا وجهرا هو المؤمن . وقال مجاهد : هو مثل مضروب للوثن والحق تعالى، فهل يستوى هذا وهذا؟ ولما كان الفرق ما بينهما بينا واضحا ظاهراً لا يجهره إلا كل غبي، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

قال مجاهد: وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى، يعنى: أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ، ولا يقدر على شيء بالكلية، فلا مقال، ولا فعال، وهو مع هذا ﴿كَلٌّ﴾ أى: عيال وكلفة على مولاه ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُ﴾ أى: بعثه ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ ولا ينجح مسعاه ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾ من هذه صفاته ﴿وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أى: بالقسط، فقاله حق وفعاله مستقيمة ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وبهذا قال السدى، وقاتدة وعطاء الخراسانى. واختار هذا القول ابن جرير. وقال ابن عباس: هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً، كما تقدم. وعن ابن عباس فى قوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾: نزلت فى رجل من قريش وعبدته. وفى قوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، قال هو عثمان بن عفان. قال: والأبكم الذى أينما يوجهه لا يأت بخير قال هو: مولى لعثمان بن عفان، كان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المئونة، وكان الآخر يكره الإسلام وبأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٧٦﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٨﴾

يخبر تعالى عن كماله وقدرته على الأشياء، فى علمه غيب السموات والأرض، واختصاصه بذلك، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء، وفى قدرته التامة التى لا تخالف ولا تمنع، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن، فيكون، كما قال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحِ بِالْبَصَرِ﴾ [القدر: ٥٠] أى: فيكون ما يريد كطرف العين. وهكذا قال هاهنا: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، كما قال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِحُكْمٍ إِلَّا كَفَسٍ وَاحِدَةً﴾

[لقمان: ٢٨]

ثم ذكر تعالى منته على عباده، فى إخراجهم إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم

بعد هذا يرزقهم تعالى السمع الذى به يدركون الأصوات، والأبصار اللاتى بها يحسون المرئيات، والأفتدة - وهى العقول - التى مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها. وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدرج قليلا قليلا، كلما كبر زيد فى سمعه وبصره وقوى عقله حتى يبلغ أشده.

وإنما جعل تعالى هذه فى الإنسان، ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه، كما جاء فى صحيح البخارى، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول تعالى: من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه. ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألتنى لأعطيته، ولئن دعانى لأجيبته، ولئن استعاذ بى لأعيذنه، وما ترددت فى شيء أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا يد له منه» (١). فمعنى الحديث: أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل، فلا يسمع إلا الله، ولا يبصر إلا الله، أى: ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشى إلا فى طاعة الله عز وجل، مستعينا بالله فى ذلك كله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ. قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الملك: ٢٣، ٢٤].

ثم نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض، كيف جعله يطير بجناحيه بين السماء والأرض، فى جو السماء ما يسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى، الذى جعل فيها قوى تفعل ذلك، وسخر الهواء يحملها ويسر الطير لذلك، كما قال تعالى فى سورة الملك: ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ [الملك: ١٩]، وقال هاهنا: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْمًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾
 وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتَرِّقُ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمَمِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُوهَا وَأَكْثُرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبده، بما جعل لهم من البيوت التى هى سكن لهم، يأوون إليها، ويستترون بها، وينتفعون بها سائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضاً ﴿ مِّنْ جُلُودِ

الأنعام بيوتاً ﴿ أى : من الأدم ، يستخفون حملها فى أسفارهم ، ليضربوها لهم فى إقامتهم فى السفر والحضر ؛ ولهذا قال : ﴿ تَسْتَخْفُونَهَا يَوْمَ طَفَعْنَا بِكُمْ وَيَوْمَ إقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا ﴾ أى : الغنم ﴿ وَأَوْبَارِهَا ﴾ أى : الإبل ، ﴿ وَأَشْعَارِهَا ﴾ أى : المعز ، والضمير عائد على الأنعام ﴿ أَنثَانَا ﴾ أى : تتخذون منه اثناً ، وهو المال . وقيل : المتاع . وقيل : الثياب والصحيح أعم من هذا كله ، فإنه يتخذ من الأثاث البسط والثياب ، وغير ذلك ، ويتخذ مالا وتجارة ﴿ إِلَى حِينٍ ﴾ أى : إلى أجل مسمى ووقت معلوم .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظَلالًا ﴾ قال قتادة : يعنى : الشجر ﴿ وجعل لكم مِنَ الْجِبَالِ أَنثَانَا ﴾ أى : حصونا ومعاقل ، كما ﴿ جَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ ، وهى الثياب من القطن والكتان والصوف ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ ﴾ كالدرع من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك ﴿ كَذَلِكَ يُعَمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أى : هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم ، وما تحتاجون إليه ، ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته ﴿ نَعْلَكُمْ تَسْلُمُونَ ﴾ . أى : من الإسلام .

وقوله : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أى : بعد هذا البيان وهذا الامتنان ، فلا عليك منهم ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ وقد أدبته إليهم . ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ أى : يعرفون أن الله تعالى هو المسدى إليهم ذلك ، وهو المتفضل به عليهم ، ومع هذا ينكرون ذلك ، ويعبدون معه غيره ، ويسندون النصر والرزق إلى غيره ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفْ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿ ٨٥ ﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿ ٨٦ ﴾ وَالْقَوْلُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامُ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿ ٨٧ ﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿ ٨٨ ﴾

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم فى الدار الآخرة ، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً ، وهو نبيها ، يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى ، ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : فى الاعتذار ؛ لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه ، كما قال : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : ٣٥ ، ٣٦] . ولهذا قال : ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ . وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى : أشركوا ﴿ الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ ﴾ أى : لا يفتقر عنهم ساعة واحدة ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أى : لا يؤخر عنهم ، بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب .

ثم أخبر تعالى عن تبرئ آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها ، فقال : ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ ﴾ أى : الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا ﴿ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ

ذُنُوبِكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٩﴾ أى: قالت لهم الآلهة: كذبتم، ما نحن أمرناكم بعبادتنا. كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿ [لاحقاف: ٥، ٦] وقال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿ [مریم: ٨١]، ٨٢]. وقال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿ [العنكبوت: ٢٥] وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿ [الكهف: ٥٢] والآيات فى هذا كثيرة.

وقوله: ﴿ وَأَتَقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ ﴿ قال قتادة وعكرمة: ذلوا واستسلموا يومئذ، أى: استسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مطيع، كما قال: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴿ [مریم: ٣٨] أى: ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ! وقال تعالى: ﴿ وَتَلَوْتُمْ نَارًا إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿ [السجدة: ١٢]، وقال: ﴿ رَعَيْتَ الْجُوهَ لَلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴿ [طه: ١١١] أى: خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿ [أى: ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجبر.

ثم قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَا لَهُمُ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿ أى: عذابا على كفرهم، وعذابا على صدهم الناس عن اتباع الحق، كما قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ عَنَّهُ وَيَتَّبِعُونَ عَنَّهُ ﴿ [الأنعام: ٢٦] أى: ينهون الناس، عن اتباعه، ويتبعونهم منه أيضاً ﴿ وَإِن يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿ . [الأنعام: ٢٦] . وهذا دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة ودرجاتهم، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿ [الأعراف: ٣٨].

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿ [٨٩] ﴾

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ ﴾ يعنى: أمته، أى: اذكر ذلك اليوم وهوله وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع .

وقوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ قال ابن مسعود: قد بين لنا فى هذا القرآن كل علم، وكل شىء. وقال مجاهد: كل حلال وحرام. وقول ابن مسعود: أعم وأشمل؛ فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خير ما سبق، وعلم ما سياتى، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون فى أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم ومعادهم ﴿ وَهُدًى ﴾ أى: للقلوب ﴿ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ . ووجه اقتران قوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ مع قوله: ﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا

عَلَى هَؤُلَاءِ ﴿ أَنْ الْمُرَادِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - : إِنْ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ تَبْلِيغَ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْكَ ، سَأَلْتُكَ عَنْ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ﴿ فَلَنَسْتَلُنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلُنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الاعراف: ٦] ، ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢ ، ٩٣] ، ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجْتُمُّ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة: ١٠٩] ، وقال تعالى : ﴿ إِنْ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص: ٨٥] أى : إِنْ الَّذِي أَوْجِبَ عَلَيْكَ تَبْلِيغَ الْقُرْآنِ لَرَادُّكَ إِلَيْهِ ، وَمَعِيدِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَسَأَلْتُكَ عَنْ آدَاءِ مَا فَرَضَ عَلَيْكَ . هَذَا أَحَدُ الْأَقْوَالِ ، وَهُوَ مُتَّجِهٌ حَسَنٌ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل، وهو القسط والموازنة، ويندب إلى الإحسان، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ لِمَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل : ١٢٦] ، وقال : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠] ، وقال : ﴿ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ [المائدة: ٤٥] ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا، من شرعية العدل والندب إلى الفضل. وقال ابن عباس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله. وقال سفيان بن عيينة : العدل فى هذا الموضع : استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملاً. والإحسان : أن تكون سريرته أحسن من علانيته، والفحشاء والمنكر : أن تكون علانيته أحسن من سريرته.

وقوله : ﴿ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ أى : يأمر بصلة الأرحام ، كما قال : ﴿ وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْدِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٦] . وقوله : ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ فالفواحش : المحرمات ، والمنكرات : ما ظهر منها من فاعلها ؛ ولهذا قال فى الموضع الآخر : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ﴾ [الاعراف: ٣٣] . وأما البغى فهو : العدوان على الناس . وقد جاء فى الحديث : « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا ، مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة ، من البغى وقطيعة الرحم » (١) .

وقوله : ﴿ يَعِظُكُمْ ﴾ أى : يأمركم بما يأمركم به من الخير ، وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

قال ابن مسعود : إن أجمع آية فى القرآن فى سورة النحل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ الآية .

عن قتادة : قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ الآية ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنون إلا أمر الله به ، وليس من خلق سيئ كانوا يتعابرونه بينهم إلا نهى الله عنه

وقدم فيه . وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها . وقد ورد في نزول هذه الآية الكريمة حديث حسن ، رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس قال : بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته جالس ، إذ مر به عثمان ابن مظعون ، فكشر إلى رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : « ألا تجلس ؟ » فقال : بلى . قال : فجلس رسول الله ﷺ مستقبله ، فبينما هو يحدثه إذ شَخَصَ رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء ، فنظر ساعة إلى السماء فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يَمَنِّته في الأرض ، فتحرف رسول الله ﷺ عن جلسه عثمان إلى حيث وضع بصره فأخذ ينغض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له ، وابن مظعون ينظر فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له ، شَخَصَ بصر رسول الله ﷺ إلى السماء كما شَخَصَ أول مرة . فأتبعه بصره حتى توارى في السماء . فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى فقال : يا محمد ، فيم كنت أجالسك ؟ ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة ! قال : « وما رأيتني فعلت ؟ » قال : رأيتك شَخَصَ بصرك إلى السماء ثم وضعته حيث وضعته على يمينك ، فتحرفت إليه وتركتني ، فأخذت تُنغِضُ رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك . قال : « وفطنت لذلك ؟ » فقال عثمان : نعم . قال رسول الله ﷺ : « أتاني رسول الله أنفا وأنت جالس » . قال : رسول الله ؟ قال : « نعم » . قال : فما قال لك ؟ قال : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » قال عثمان : فذلك حين استقر الإيمان في قلبي ، وأحببت محمداً ﷺ . إسناده جيد متصل حسن (١) .

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَالِفُونَ ﴿٩٢﴾

وهذا مما يأمر الله تعالى به ، وهو : الوفاء بالعهود والمواثيق ، والمحافظة على الأيمان المؤكدة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ . ولا تعارض بين هذا وبين قوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُوا وَتَقُوا وَتَصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [البقرة : ٢٢٤] وبين قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ كَفَّارَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ [المائدة : ٨٩] أى : لا تتركوها بلا تكفير ، لا تعارض بين هذا ولا بين الآية المذكورة هاهنا وهى قوله : ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ ؛ لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة فى العهود والمواثيق ، لا الأيمان التى هى واردة على حث أو منع ؛ ولهذا قال مجاهد فى قوله : ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ . يعنى : الحلف ، أى : حلف الجاهلية ؛ ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ : « لا حلف فى الإسلام ، وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة » . وكذا رواه مسلم (٢) . ومعناه : أن الإسلام لا يحتاج معه

(١) المسند (٢٩٢٢) ، وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) المسند (٨٣/٤) ، ومسلم (٢٥٣٠/٦) .

إلى الحلف الذى كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن فى التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه . وأما ما ورد فى الصحيحين عن أنس، أنه قال: حالف رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار فى دارنا (١) - فمعناه: أنه آخى بينهم، فكانوا يتوارثون به، حتى نسخ الله ذلك، والله أعلم. وروى الإمام أحمد عن نافع قال: لما خلع الناس يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر بنيه وأهله، ثم شهد، ثم قال: أما بعد، فإننا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الغادر يُنصب له لواء يوم القيامة، فيقال: هذه غدرة فلان وإن من أعظم الغدر - إلا أن يكون الإشراك بالله - أن يبايع رجل رجلا على بيع الله ورسوله، ثم ينكث بيعته، فلا يخلعن أحد منكم يزيد ولا يسرفن أحد منكم فى هذا الأمر، فيكون صيِّلم بينى وبينه». المرفوع منه فى الصحيحين (٢).

وقوله: ﴿ إِنْ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها.

وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزَلَهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا ﴾ قال مجاهد، وقاتدة: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده ﴿ أَنْكَاثًا ﴾: يحتمل أن يكون اسم مصدر: نقضت غزلها أنكاثا، أى: أنقاضا. ويحتمل أن يكون بدلا عن خبر كان، أى: لا تكونوا أنكاثا، جمع نكث من ناكث؛ ولهذا قال بعده: ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ أى: خديعة ومكرا ﴿ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ أى: يحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتُم. فهى الله عن ذلك، لينبه بالأدنى على الأعلى؛ إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه، فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى. قال ابن عباس: ﴿ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ أى: أكثر. وقال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء، فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز. فنهوا عن ذلك.

وقوله: ﴿ إِنَّمَا يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ بَعْضُهُمْ ﴾ قال سعيد بن جبير: يعنى بالكثرة، وقال ابن جرير: أى: بأمره إياكم بالوفاء والعهد. ﴿ وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ فيجازى كل عامل بعمله، من خير وشر.

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
وَلَتُنزِّلَنَّ عَلَيْنَا مَاءً كَثِيرًا تَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا
وَتَذُوقُوا أَلْسِنَةَ السَّوْءِ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكِنَّ عَذَابَ عَظِيمٍ ﴿٩٨﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ
ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٩﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ
اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

(١) البخارى (٢٢٩٤)، ومسلم (٢٠٤/٢٥٢٩).

(٢) المسند (٥٠٨٨)، والبخارى (٣١٨٨) ومسلم (٩/١٧٣٥).

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩] أى: لوفق بينكم، ولما جعل اختلافا ولا تباعض ولا شحنا. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم، فيجازيكم عليها على القليل والتقير والقطمير.

ثم حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلا، أى: خديعة ومكرآ، لثلا تزل قدم بعد ثبوتها: مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها وزل عن طريق الهدى، بسبب الأيمان الخائنة المشتملة على الصد عن سبيل الله، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين، فانصد بسببه عن الدخول فى الإسلام؛ ولهذا قال: ﴿وَتَذُقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أى: لا تعاضوا عن الأيمان بالله عرَض الحياة الدنيا وزينتها، فإنها قليلة، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خير له، أى: جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وطلبه، وحفظ عهده رجاه موعوده؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. مَا عِنْدَكُمْ يَفْدَىٰ﴾ أى: يفرغ وينقضى، فإنه إلى أجل محدود محصور مقدر متناه ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ أى: وثوابه لكم فى الجنة باق لا انقطاع ولا نفاذ له فإنه دائم لا يحول ولا يزول ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: قسم من الرب عز وجل، أنه يجازى الصابرين بأحسن أعمالهم، أى: ويتجاوز عن سيئها.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧)

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحا - وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه، من ذكر أو أنثى من بنى آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله، وأن هذا العمل المأمور به مشروع عند الله - بأن يحييه الله حياة طيبة فى الدنيا وأن يجزيه بأحسن ما عمله فى الدار الآخرة. والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أى جهة كانت. وقد روى عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب. وعن على بن أبى طالب أنه فسرها بالقناعة. وكذا قال ابن عباس، وعكرمة، ووهب بن منبه. وقال الحسن، وقتادة: لا يطيب لأحد الحياة إلا فى الجنة. وقال الضحاك: هى العمل بالطاعة والانسراح بها.

والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافا، وقنعه الله بما آتاه».

ورواه مسلم^(١). وروى الترمذى والنسائى عن فضالة بن عبيد؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قد أفلح من هدى إلى الإسلام، وكان عيشه كفافاً، وقنع به». وقال الترمذى: هذا حديث صحيح^(٢).

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة وأما الكافر فيعطيه حسناته فى الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً». انفرد بإخراجه مسلم^(٣).

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٨﴾ إِنَّكُمْ لَيْسَ لَكُمْ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُم وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

هذا أمر من الله لعباده على لسان نبيه ﷺ: إذا أرادوا قراءة القرآن: أن يستعينوا بالله من الشيطان الرجيم. وهو أمرٌ نذِبٌ ليس بواجب، والمعنى فى الاستعاذة عند ابتداء القراءة: لئلا يلبس على القارئ قراءته ويخلط عليه، ويمنعه من التدبر والتفكر، ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة.

وقوله: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾: قال الثورى: ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم فى ذنب لا يتوبون منه، وقال آخرون: معناه لا حجة له عليهم ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾: قال مجاهد: يطعمونه، وقال آخرون: اتخذوه ولياً من دون الله ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾: أى: أشركوه فى عبادة الله تعالى، ويحتمل أن تكون الباء سببية، أى: صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى.

﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُرْفِقُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم، وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمسوخها قالوا للرسول: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ﴾: أى: كذاب، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. فقال تعالى مجيباً لهم: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ﴾: أى: جبريل ﴿ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾: أى: بالصدق والعدل ﴿ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾: فيصدقوا بما نزل أولاً وثانياً وتختب له قلوبهم ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾: أى: وجعله هادياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله.

(١) المسند (٦٥٧٢)، ومسلم (١٠٥٤/١٢٥).

(٢) الترمذى (٢٣٤٩)، وعزاه صاحب التحفة (٨/٢٦١) إلى الترمذى والنسائى فى الرقائق فى الكبرى تم استدرك وقال: حديث النسائى ليس فى الرواية ولم يذكره أبو القاسم.

(٣) المسند (١٢١/٣)، ومسلم (٥٦/٢٨٠٨).

﴿وَلَقَدْ نَعَلُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت: إن محمداً إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم، غلام لبعض بطون قريش، وكان يباعا يبيع عند الصفا، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء، وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه؛ فلهذا قال الله تعالى راداً عليهم في افتراءهم ذلك: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ يعني: القرآن، أى: فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن، فى فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟! لا يقول هذا من له أدنى مُسكة من العقل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٧﴾﴾
﴿يَقْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

يخبر تعالى أنه لا يهدى من أعرض عن ذكره وتغافل عما أنزله على رسوله، ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسله فى الدنيا، ولهم عذاب أليم موجع فى الآخرة. ثم أخبر تعالى أن رسوله ليس بمفتر ولا كذاب؛ لأنه ﴿إِنَّمَا يَقْتَرِي الْكُذِبَ﴾ على الله وعلى رسوله شرار الخلق ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ من الكفرة والملحدین المعروفين بالكذب عند الناس. والرسول محمد ﷺ، كان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً وإيقاناً، معروفاً بالصدق فى قومه، لا يشك فى ذلك أحد منهم بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد.

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْتُمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفٰلِقُونَ ﴿١١٨﴾﴾ لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخسِرُونَ ﴿١١٩﴾

أخبر تعالى عن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به: أنه قد غضب عليه، لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذاباً عظيماً فى الدار الآخرة؛ لأنهم استحَبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم ويشتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم فلا يعقلون بها شيئاً ينفعهم وختم على

سمعهم وأبصارهم فلا يتتفون بها، ولا أغنت عنهم شيئا، فهم غافلون عما يراد بهم. ﴿ لا جرم ﴾ أي: لا بد ولا عجب أن هذه صفته ﴿ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أي: الذين خسروا أنفسهم وأهاليهم يوم القيامة.

وأما قوله: ﴿ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ قَلْبٌ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾: فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرها لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله. وعن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في عمّار بن ياسر، حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ، فوافقهم على ذلك مكرها، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ، فأنزل الله هذه الآية ولهذا اتفق العلماء على أنه يجوز أن يوآلى المكره على الكفر، إبقاءً لمهجته، ويجوز له أن يستقتل، كما كان بلال رضى الله عنه يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر، ويأمرونه أن يشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول: أحد، أحد. ويقول: والله لو أعلم كلمة هي أغيب لكم منها لقلتها، رضى الله عنه وأرضاه.

والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله، كما قال الحافظ ابن عساكر، في ترجمة عبد الله بن حذافة السهمي أحد الصحابة: أنه أسرته الروم، فجاؤوا به إلى ملكهم، فقال له: تنصر وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي. فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب، على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين، ما فعلت! فقال: إذا أقتلك. قال: أنت وذاك! فأمر به فصلب، وأمر الرماة فرموه قريبا من يديه ورجليه، وهو يعرض عليه دين النصرانية، فيأبى، ثم أمر به فأنزل، ثم أمر بقدْر. وفي رواية: ببقرة من نحاس، فأحميت، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر، فإذا هو عظام تلوح. وعرض عليه فأبى، فأمر به أن يلقي فيها، فرفع في البكرة ليلقى فيها، فبكى فطمع فيه ودعاه فقال له: إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة، تُلقى في هذه القدر الساعة في الله، فأحببت أن يكون لى بعدد كل شعرة في جسدى نفس تعذب هذا العذاب في الله. وفي بعض الروايات: أنه سجنه ومنع عنه الطعام والشراب أياما، ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير، فلم يقربه، ثم استدعاه فقال: ما منعك أن تأكل؟ فقال: أما إنه قد حلّ لى، ولكن لم أكن لأشمتك فى. فقال له الملك: فقبّل رأسى وأنا أطلقك. فقال: وتطلق معى جميع أسارى المسلمين؟ قال: نعم. فقبل رأسه، فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده، فلما رجع قال عمر بن الخطاب: حقّ على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدا. فقام فقبل رأسه.

﴿ ثُمَّ إِنَّكَ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَدُّوْا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿١١٠﴾ ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجَدِيدٍ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ﴿١١١﴾

ربع

هؤلاء ضنف آخر كانوا مستضعفين بمكة، مهانين في قومهم قد اتوهم على الفتنة، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة، فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين، وصبروا، فأخبر الله تعالى أنه ﴿ مِنْ بَعْدِهَا ﴾ أى: تلك الفعل، وهى الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم، رحيم بهم يوم معادهم. ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ ﴾ أى: تحاجّ ﴿ عَنْ نَفْسِهَا ﴾ ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة ﴿ وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أى: من خير وشر ﴿ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴾ أى: لا ينقص من ثواب الخير ولا يزداد على ثواب الشر، ولا يظلمون نقيراً.

﴿ وَضَرِبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾

﴿ ١١٢ ﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿ ١١٣ ﴾

هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يُتخطَّف الناس من حولها، ومن دخلها آمن لا يخاف، كما قال تعالى: ﴿ أَوْ لَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ﴾ [القصص: ٥٧] وهكذا قال ها هنا: ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ﴾ أى: هنيئها سهلاً ﴿ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ ﴾ أى: جحدت آلاء الله عليها وأعظم ذلك بعثة محمد ﷺ إليهم، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ. جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَنَسَ الْقُرْآنَ ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]. ولهذا بدلهم الله بحالهم الأولين خلافهما، فقال: ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ ﴾ أى: البسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يُجبي إليهم ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان.

وقوله: ﴿ وَالْخَوْفِ ﴾ وذلك بأنهم بدّلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه، حين هاجروا إلى المدينة، من سطوة سراياه وجيوشه، وجعلوا كل ما لهم فى سَفَالٍ ودمار، حتى فتحها الله عليهم، وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول الذى بعثه الله فيهم منهم، وامتن به عليهم فى قوله: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا. رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مَبِينَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١] الآية وقوله: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَا تَكْفُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢]. وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم، فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد، بدّل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً، ورزقهم بعد العيئة، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم، وسادتهم وقادتهم وأئمتهم. وهذا الذى قلناه من أن هذا المثل مضروب لمكة، قاله العوفى، عن ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وحكاه مالك عن الزهري، رحمهم الله.

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أِهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتَكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾

يقول تعالى أمرا عباده المؤمنين باكل رزقه الحلال الطيب، وشكره على ذلك، فإنه المنعم المتفضل به ابتداء، الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، ثم ذكر ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم، من الميتة والدم، ولحم الخنزير ﴿ وَمَا أِهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ أى: ذبح على غير اسم الله، ومع هذا ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ ﴾ أى: احتاج فى غير بغى ولا عدوان ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية فى سورة «البقرة» (١) بما فيه كفاية عن إعادته

ثم نهى تعالى عن سلوك سبيل المشركين، الذين حللوا وحرّموا بمجرد ما وضعوه واصطلحوا عليه من الأسماء بأرائهم، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وغير ذلك مما كان شرعا لهم ابتدعوه فى جاهليتهم، فقال: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتَكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ ﴾ . ويدخل فى هذا كل من ابتدع بدعة ليس فيها مستند شرعى، أو حلل شيئا مما حرم الله، أو حرم شيئا مما أباح الله، بمجرد رأيه وتشهيه. ثم توعد على ذلك فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ أى: فى الدنيا ولا فى الآخرة. أما فى الدنيا فمتاع قليل، وأما فى الآخرة فلهم عذاب أليم، كما قال: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤] وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَدْبِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلٍ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَنَّمَ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، وأنه أرحص فيه عند الضرورة وفى ذلك توسعة لهذه الأمة ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرمه على اليهود فى شريعتهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الأصار والأغلال والخرج والتضييق، فقال: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلٍ ﴾ يعنى قوله: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلِّ ذِي ظْفَرٍ مِنَ الْبَقَرِ وَالنَّمْرِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٦]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أى: فيما ضيقنا عليهم

﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أى: فاستحقوا ذلك، كما قال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠].

ثم أخبر تعالى تكرباً وامتناناً فى حق العصاة المؤمنين: أن من تاب منهم إليه تاب عليه، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أى: أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصى، وأقبلوا على فعل الطاعات ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أى: تلك الفعلية والذلة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١١﴾ وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لَئِنَّ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم، إمام الخفاء ووالد الأنبياء، ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾، فاما «الامة»، فهو الإمام الذى يقتدى به. والقانت: هو الخاشع المطيع. والحنيف: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وقوله: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ أى: قائماً بشكر نعم الله عليه، كما قال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٢٧]، أى: قام بجميع ما أمره الله تعالى به ﴿اجْتَبَاهُ﴾ أى: اختاره واصطفاه ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضى. وقوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أى: جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه فى إكمال حياته الطيبة ﴿وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَئِنَّ الصَّالِحِينَ﴾. وقال مجاهد فى قوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أى: لسان صدق. وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أى: ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه، أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء: ﴿أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، كما قال: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الانعام: ١٦١]، ثم قال تعالى منكراً على اليهود:

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

لا شك أن الله شرع فى كل ملة يوماً من الأسبوع، يجتمع الناس فيه للعبادة، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة؛ لأنه اليوم السادس الذى أكمل الله فيه الخليقة، وتمت النعمة على عباده. ويقال: إنه تعالى شرع ذلك لبنى إسرائيل على لسان موسى، فعدلوا عنه واختاروا السبت؛ لأنه اليوم الذى لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات الذى كمل خلقها يوم الجمعة، فألزمهم

تعالى به في شريعة التوراة، ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه، مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه، وأخذة موثيقهم وعهودهم على ذلك؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾. قال مجاهد: اتبعوه وتركوا الجمعة. وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالتاس لنا فيه تبع، اليهود غدا، والنصارى بعد غد». لفظ البخارى (١).

وعن أبي هريرة، وحذيفة، قالا: قال رسول الله ﷺ: «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة، والمقضى بينهم قبل الخلاق». رواه مسلم [والله أعلم] (٢).

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

يقول تعالى أمراً رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله ﴿ بِالْحُكْمَةِ ﴾ قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة ﴿ وَالْمَوْعِظَةَ الْحَسَنَةَ ﴾ أى: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم بها، ليحذروا بأس الله تعالى. وقوله: ﴿ وَجَدِّ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أى: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كما قال: ﴿ وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت: ٤٦] فأمره تعالى بلين الجانب، كما أمر موسى وهارون، عليهما السلام، حين بعثهما إلى فرعون فقال: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِيْنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه: ٤٤].

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ أى: قد علم الشقى منهم والسعيد، وكتب ذلك عنده وفرغ منه، فادعهم إلى الله، ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حشرات، فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير، عليك البلاغ، وعلينا الحساب، ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [الفصص: ٥٦].

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾

يأمر تعالى بالعدل في الاقتصاص والمماثلة في استيفاء الحق، كما قال ابن سيرين في قوله

تعالى : ﴿ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ : إن أخذ منك رجل شيئاً، فخذ منه مثله. وكذا قال مجاهد، وإبراهيم، والحسن البصرى، وغيرهم. واختاره ابن جرير. وهذه الآية الكريمة لها أمثال في القرآن، فإنها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل، كما في قوله : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ ، ثم قال : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال : ﴿ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ ، ثم قال : ﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ : تأكيد للأمر بالصبر، وإخبار بأن ذلك إنما ينال بمشيئة الله وإعانتة، وحوله وقوته ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : على من خالفك، لا تحزن عليهم؛ فإن الله قادر ذلك، ﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ ﴾ أى : غم ﴿ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أى : مما يجهدون فى عداوتك وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك وناصرك، ومؤيدك، ومظفرك ومظفرك بهم.

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ أى : معهم بتأييده ونصره ومعونته وهذه معية خاصة، كقوله : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَبَيَّعُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقوله لموسى وهارون : ﴿ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه: ٤٦]، وقول النبي ﷺ للصديق وهما فى الغار : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] وأما المعية العامة فالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد: ٤]، وكقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ [المجادلة: ٧]، وكما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا [إذ نفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين] ﴾ [يونس: ٦١].

ومعنى ﴿ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ أى : تركوا المحرمات، ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ أى : فعلوا الطاعات، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلؤهم، وينصرهم ويؤيدهم، ويظفرهم على أعدائهم ومخالفهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة سبحان

وهي مكة

روى الإمام البخارى عن ابن مسعود، رضى الله عنه، قال فى بنى إسرائيل والكهف ومريم: إنهن من العتاق الأول وهن من تлады (١).

وروى الإمام أحمد عن أبى لبابة، سمعت عائشة تقول: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة «بنى إسرائيل»، و«الزمر» (٢).

سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجزء ١٥
 ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

يمجد تعالى نفسه ، ويعظم شأنه ، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه ، فلا إله غيره ولا رب سواه ﴿الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ يعنى محمدا ﷺ ﴿لَيْلًا﴾ أى فى جنح الليل ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وهو مسجد مكة ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ وهو بيت المقدس الذى يبلياء، معدن الانبياء من لدن إبراهيم الخليل؛ ولهذا جمعوا له هناك كلهم، فآتهم فى محلّتهم ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقوله تعالى : ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أى: فى الزروع والثمار ﴿لِنُرِيَهُ﴾ أى: محمداً ﴿مِنَ آيَاتِنَا﴾ أى: العظام كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٨]. وسنذكر من ذلك ما وردت به السنة من الأحاديث عنه، صلوات الله عليه وسلامه. وقوله : ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أى: السميع لأقوال عباده، مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم ومكذبهم ، البصير بهم فيعطى كلاً منهم ما يستحقه فى الدنيا والآخرة .

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته فسار بى حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التى يربط فيها الأنبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت. فأتانى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن. فقال جبريل: أصبت الفطرة» قال: «ثم عرج بى إلى السماء الدنيا، فاستفتح جبريل، فقيل له: من أنت؟ قال:

(١) البخارى (٤٧٠٨) . (٢) المسند (٦ / ١٨٩) ، ورواه ابن خزيمة فى صحيحه (١١٦٣) .

جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ [قال : قد أرسل إليه] (١) . ففتح لنا ، فإذا أنا بآدم ، فرحب بى ودعا لى بخير . ثم عَرَجَ بنا إلى السماء الثانية ، فاستفتح جبريل ، فقيل له : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : قد أرسل إليه . ففتح لنا ، فإذا أنا بابنى الخالة يحيى وعيسى ، فرحبا بى ودعوا لى بخير . ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة ، فاستفتح جبريل ، فقيل له : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : قد أرسل إليه . ففتح لنا ، فإذا أنا بيوسف عليه السلام ، وإذا هو قد أعطى شطر الحسن ، فرحب بى ودعا لى بخير . ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة ، فاستفتح جبريل ، فقيل له : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . فقيل : وقد أرسل إليه ؟ قال : بعث إليه . ففتح لنا ، فإذا أنا بإدريس ، فرحب بى ودعا لى بخير . ثم يقول الله : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٧] . ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . فقيل : ومن معك ؟ قال : محمد . فقيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه . ففتح لنا ، فإذا أنا بهارون ، فرحب بى ودعا لى بخير . ثم عرج بنا إلى السماء السادسة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . فقيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه . ففتح لنا ، فإذا أنا بموسى فرحب بى ودعا لى بخير . ثم عرج بنا إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل ، فقيل : من أنت ؟ قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . فقيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه . ففتح لنا ، فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام ، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه .

ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى ، فإذا ورقها كآذان الفيلة ، وإذا ثمرها كالقلال . فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت ، فما أحد من خلق الله ، تعالى ، يستطيع أن يصفها من حسنها . قال : « فأوحى الله إليّ ما أوحى ، وفرض علىّ فى كل يوم وليلة خمسين صلاة ، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى » . قال : « ما فرض ربك على أمّتك ؟ » قال : « قلت : خمسين صلاة فى كل يوم وليلة » . قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمّتك ؛ فإن أمّتك لا تطيق ذلك ، وإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخيرتهم » . قال : « فرجعت إلى ربى ، فقلت : أى رب ، خفف عن أمّتى ، فحطّ عنى خمساً . فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فقال : ما فعلت ؟ فقلت : قد حطّ عنى خمساً » . قال : « إن أمّتك لا تطيق ذلك ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمّتك » قال : « فلم أزل أرجع بين ربى وبين موسى ، ويحطّ عنى خمساً خمساً حتى قال : يا محمد ، هى خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، بكل صلاة عشر ، فتلك خمسون صلاة ، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت حسنة ، فإن عملها كتبت عشراً . ومن همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة . فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته ، فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف

(١) ساقطة من المخطوطة ، وأثبتناها من المطبوعة والمسند .

لَأَمْتِكَ، فَإِنَّ أَمْتِكَ لَا تَطِيقُ ذَلِكَ». فقال رسول الله ﷺ: «لقد رجعت إلى ربي حتى استحييت». ورواه مسلم، وهو أصح من سياق شريك (١). قال البيهقي: وفي هذا السياق دليل على أن المعراج كان ليلة أسرى به، عليه الصلاة والسلام، من مكة إلى بيت المقدس. وهذا الذي قاله هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية.

وروى الإمام أحمد عن أنس، أن النبي ﷺ أتى بالبراق ليلة أسرى به مُسْرَجاً ملجماً ليركبه، فاستصعب عليه، فقال له جبريل: ما يحملك على هذا؟ فوالله ما ركبت قط أكرم على الله منه. قال: فارفض عرقاً. ورواه الترمذي وقال: غريب لانعرفه إلا من حديثه (٢).

رواية أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة:

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك: أن مالك بن صعصعة حدثه: أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به، قال: «بينما أنا في الحطيم - وربما قال قتادة: في الحجر - مضطجعاً إذ أتاني آت» فجعل يقول لصاحبه الأوسط بين الثلاثة، قال: «فأتاني فقد - وسمعت قتادة يقول: فشق - ما بين هذه إلى هذه». وقال قتادة: فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني؟ قال: من ثغرة نحره إلى شعرتة، وقد سمعته يقول: من قصته إلى شعرتة قال: «فاستخرج قلبي» قال: «فأتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً وحكمة فغسل قلبي ثم حشى، ثم أعيد. ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض». قال: فقال الجارود: وهو البراق يا أبا حمزة؟ قال: نعم، يقع خطوه عند أقصى طرفه. قال: «فحملت عليه، فانطلق بي جبريل، عليه السلام، حتى أتى بي إلى السماء الدنيا، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. فقيل: مرحباً به، ولنعم المجيء جاء». قال: «ففتح فلما خلصت، فإذا فيها آدم، عليه السلام، فقال: هذا أبوك آدم، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح. ثم صعد حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح فقيل: من هذا؟ فقال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء»، قال: «ففتح لنا، فلما خلصت، فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة. قال: هذا يحيى وعيسى، فسلم عليهما. قال: فسلمت فردا السلام ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء». قال: «ففتح لنا فلما خلصت، فإذا يوسف، عليه السلام، قال: هذا يوسف قال: «فسلمت عليه، فرد السلام ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنعم المجيء

(١) المسند (٣ / ١٤٨) ومسلم (١٦٢ / ٢٥٩) ورواية أنس عن شريك إنما هي في البخاري برقم (٧٥١٧).

(٢) المسند (٣ / ١٦٤) والترمذي (٣١٣١) وقال: «حسن غريب».

جاء» قال: «ففتح لنا، فلما خلصت فإذا إدريس عليه السلام، قال: هذا إدريس فسلم عليه». قال: «فسلمت عليه. فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح». قال: «ثم صعد حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء». «ففتح لنا، فلما خلصت، فإذا هارون، عليه السلام، قال: هذا هارون فسلم عليه. قال: فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ والنبى الصالح».

قال: «ثم صعد حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء. ففتح لنا، فلما خلصت، فإذا أنا بموسى عليه السلام، قال: هذا موسى، عليه السلام، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح». قال: «فلما تجاوزته بكى. قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكى لأن غلاماً بعث بعدى، يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي». قال: «ثم صعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد بعث إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء». قال: «ففتح لنا، فلما خلصت، فإذا إبراهيم، عليه السلام، فقال: هذا إبراهيم، فسلم عليه». قال: «فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح». قال: ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، فقال: هذه سدرة المنتهى». قال: «وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران فى الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات». قال: ثم رفع إلى البيت المعمور. قال قتادة: وحدثنا الحسن، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون فيه. ثم رجع إلى حديث أنس قال: «ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل». قال: «فأخذت اللبن، قال: هذه الفطرة أنت عليها وأمتك». قال: «ثم فرضت على الصلاة خمسين صلاة كل يوم». قال: «فنزلت حتى أتيت موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟» قال: «فقلت: خمسين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة، وإنى قد خيرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال: «فرجعت فوضع عنى عشرًا آخر، قال: فرجعت إلى موسى، فقال: بم أمرت؟ فقلت: بأربعين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاة كل يوم، وإنى قد خيرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال: «فرجعت فوضع عنى عشرًا آخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم

أمرت ؟ قلت: بعشرين صلاة كل يوم. فقال: إن أمتك لا تستطيع العشرين صلاة كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال: «فرجعت فوضع عنى عشرأً آخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بعشر صلوات فى كل يوم. فقال: إن أمتك لا تستطيع العشر صلوات كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال: «فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم. فقال: إن أمتك لا تستطيع الخمس صلوات كل يوم وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال: «قلت: قد سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى وأسلم. فنفذت، فننادانى مناد: قد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى». وأخرجاه فى الصحيحين ، بنحوه (١).

رواية أنس عن أبى ذر:

روى البخارى عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فرج سقف بيتى وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدرى ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئاً حكمة وإيماناً، فأفرغه فى صدرى، ثم أطبقه. ثم أخذ بيدي فخرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء، قال جبريل لخازن السماء: افتح. قال: من هذا؟ قال: جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معى محمد ﷺ. قال: أرسل إليه ؟ قال: نعم. فلما فتح علونا السماء الدنيا وإذا رجل قاعد على يمينه أسودَةٌ وعلى يساره أسودة، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى. فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قال: قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم. وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نَسَمَ بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التى عن شماله أهل النار. فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى. «ثم عرج بى إلى السماء الثانية فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال له الأول، ففتح». قال أنس: فذكر أنه وجد فى السموات آدم، وإدريس، وموسى، وعيسى، وإبراهيم، ولم يثبت كيف منازلهم، غير أنه ذكر أنه وجد آدم فى السماء الدنيا، وإبراهيم فى السماء السادسة. قال أنس: فلما مرَّ جبريل بالنبي ﷺ بإدريس قال: «مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. فقلت: من هذا؟ قال: هذا إدريس. ثم مررت بموسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا موسى. ثم مررت بعيسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا؟ قال: عيسى هذا. ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم». قال الزهرى:

فأخبرني ابن حزم: أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان: قال النبي ﷺ: «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام». قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «ففرض الله على أمي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى عليه السلام، فقال: ما فرض الله على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة. قال: فارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها. فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فرجعت فوضع شطرها. فرجعت إليه فقال: [ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعتة] فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يبدل القول لدى. فرجعت إلى موسى فقال: ارجع إلى ربك. قلت: قد استحيت من ربي. ثم انطلق بي حتى انتهى إلى سدره المنتهى فغشيها ألوان لا أدري ما هي، ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جبال اللؤلؤ وإذا ترابها المسك». هذا لفظ البخاري في «كتاب الصلاة»^(١).

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته. قال: وما كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأى ربه؟ فقال: إني قد سألته فقال: «إني قد رأيته نوراً أنى أراه». هكذا قد وقع في رواية الإمام أحمد. وأخرجه مسلم عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه»^(٢).

وعن عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته. فقال: عن أي شيء كنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت فقال: «رأيت نوراً»^(٣).

رواية أنس عن أبي بن كعب الأنصاري:

روى عبد الله بن الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: كان أبي بن كعب يحدث: أن رسول الله ﷺ قال: «فرج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري، ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغها في صدري ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فخرج بي إلى السماء. فلما جاء السماء الدنيا إذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، فإذا نظر قبل يمينه تبسم، وإذا نظر قبل يساره بكى قال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح». قال: «قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسمة بني، فأهل اليمن هم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله هم أهل النار. فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يساره بكى». قال: «ثم عرج بي جبريل حتى أتى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا ففتح له». قال أنس: فذكر أنه وجد في السموات: آدم، وإدريس، وموسى، وإبراهيم، وعيسى، ولم يثبت لى كيف منازلهم، غير أنه

(١) البخاري (٣٤٩) وما بين المعقوفين منه .

(٢) المسند (٥ / ١٤٧) ومسلم (١٧٨ / ٢٩١) .

(٣) المسند (٥ / ١٤٧) ومسلم (١٧٨ / ٢٩٢) .

ذكر أنه وجد آدم، عليه السلام، في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السادسة. قال أنس: فلما مرّ جبريل عليه السلام، ورسول الله ﷺ بإدريس قال: «مرحباً بالنبي الصالح والأخ والصالح». قال: «قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا إدريس»، قال: «ثم مررت بموسى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. فقلت: من هذا؟ قال: هذا موسى، ثم مررت بعيسى فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا. قال: هذا عيسى ابن مريم» قال: «ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم». قال ابن شهاب: وأخبرني ابن حزم: أن ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان: قال رسول الله ﷺ: «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع صريف الأقدام» قال ابن حزم وأنس ابن مالك: قال رسول الله ﷺ: «فرض الله على أمتي خمسين صلاة» قال: «فرجعت بذلك حتى أمر على موسى، فقال موسى: ماذا فرض ربك على أمتك؟ قلت: فرض عليهم خمسين صلاة. فقال لى موسى: راجع ربك؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك» قال: «فرجعت ربي. فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يبدل القول لدى». قال: «فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك. فقلت: قد استحيت من ربي» قال: «ثم انطلق بي حتى أتى سدره المنتهى». قال: «فغشيها ألوان ما أدرى ماهي؟» قال: «ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها جناز اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك». هكذا رواه عبد الله بن أحمد في مسند أبيه وليس هو في شيء من الكتب الستة، وقد تقدم في الصحيحين عن أبي ذر، مثل هذا السياق سواء، فالله أعلم^(١).

رواية جابر بن عبد الله، رضى الله عنه :

روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبتى قريش حين أسرى بى إلى بيت المقدس، قمت فى الحجر فجلى الله لى بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه». أخرجاه فى الصحيحين (٢) .

رواية عبد الله بن عباس:

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: ليلة أسرى بنى الله ﷺ دخل الجنة، فسمع فى جانبها وجساً (٣) فقال: «يا جبريل، ما هذا؟» قال: «هذا بلال المؤذن». فقال النبى ﷺ حين جاء إلى الناس: «قد أفلح بلال، قد رأيت له كذا وكذا». قال: فلقية موسى، عليه السلام، فرحب به ، وقال : « مرحباً بالنبى الأمى»، قال: «وهو رجل آدم طويل، سبط شعره مع أذنيه أو فوقهما، فقال: « من هذا يا جبريل ؟» قال: «هذا موسى. فمضى فلقية شيخ جليل متهيب فرحب

(١) المسند (٥ / ١٤٣ ، ١٤٤) .

(٢) المسند (٣ / ٣٧٧) والبخارى (٤٧١٠) ومسلم (١٧٠ / ٢٧٦) .

(٣) فى المطبوعة والمخطوطة الأزهرية : « وخشا » والمثبت من المسند .

به وسلم عليه وكلهم يسلم عليه، قال: «من هذا يا جبريل؟». قال: «هذا أبوك إبراهيم»، قال: ونظر في النار، فإذا قوم يأكلون الجيف، قال: «من هؤلاء يا جبريل؟» قال: «هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس»، ورأى رجلاً أحمر أزرق جداً، قال: «من هذا يا جبريل؟». قال: «هذا عاقر الناقة»، قال: فلما أتى رسول الله ﷺ المسجد الأقصى قام يصلى، فإذا النبيون أجمعون يصلون معه. فلما انصرف جرى بقدحين، أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال، فى أحدهما لبن وفى الآخر عسل، فأخذ اللبن فشرب منه، فقال الذى كان معه القدح: أصبت الفطرة. إسناده صحيح ولم يخرجوه (١).

طريق أخرى: روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: أسرى برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته فحدثهم بمسيره وبعلامة بيت المقدس وبغيرهم، فقال ناس: نحن لا نصدق محمداً بما يقول! فارتدوا كفاراً، فضرب الله رقابهم مع أبى جهل، وقال أبو جهل: يخوفنا محمد بشجرة الزقوم، هاتوا تمراً وزبدا فترقموا، ورأى الدجال فى صورته رؤيا عين ليس برؤيا منام، وعيسى وموسى وإبراهيم. وسئل النبي ﷺ عن الدجال فقال: «رأيت فيلماً نياً أقمر هجان، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب درى، كان شعر رأسه أغصان شجرة. ورأيت عيسى عليه السلام أبيض، جعد الرأس، حديد البصر، مبطن الخلق. ورأيت موسى عليه السلام أسحم آدم، كثير الشعر، شديد الخلق. ونظرت إلى إبراهيم عليه السلام فلم أنظر إلى أرب منه إلا نظرت إليه منى، حتى كأنه صاحبكم. قال جبريل: سلم على مالك (٢) فسلمت عليه». ورواه النسائي وإسناده صحيح (٣).

طريق أخرى: روى البيهقي عن أبى العالية قال: حدثنا ابن عم نبيكم ﷺ ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسرى بى موسى بن عمران، رجلاً طوالاً جعداً، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم مربع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس». وأرى مالكا خازن جهنم والدجال، فى آيات أراهن الله إياه، قال: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مَرِيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ﴾ [السجدة: ٢٣] فكان قتادة يفسرها: أن نبي الله ﷺ قد لقي موسى عليه السلام ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قال: جعل الله موسى هدى لبني إسرائيل. وأخرجه (٤).

طريق أخرى: وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كان ليلة أسرى بى»، فأصبحت بمكة، فظعت وعرفت أن الناس مكذبي، فقعدت معتزلاً حزيناً، فمرَّ به أبو جهل فجاء حتى جلس إليه، فقال كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم» قال: وما هو؟ قال «إني أسرى بى الليلة» قال: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس»

(١) المسند (٢٣٢٣) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

(٢) فى المطبوعة: «أبيك» والمثبت من المخطوطة والمسند.

(٣) المسند (٣٥٤٦) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» والنسائي فى الكبرى (١١٤٨٤).

(٤) البيهقي فى الدلائل (٢ / ٣٨٦) والبخارى (٣٢٣٩) ومسلم (١٦٥ / ٢٦٦).

قال: ثم أصبحت بين ظهرائنا؟! قال: «نعم». قال: فلم ير أن يكذبه مخافة أن يجحد الحديث إن دعا قومه إليه ، فقال: أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتني؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم». فقال: يا معشر بنى كعب بن لؤى، قال: فانتفضت إليه المجالس وجاؤوا حتى جلسوا إليهما. قال: حدث قومك بما حدثتني. فقال رسول الله ﷺ: «إني أسرى بي الليلة». فقالوا: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس» قالوا: ثم أصبحت بين ظهرائنا؟ قال: «نعم». قال: فمن بين مصفق، ومن بين واضح يده على رأسه متعجباً للكذب، قالوا: وتستطيع أن تنتع لنا المسجد وفيهم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد؟ فقال رسول الله ﷺ: «فما زلت أنتع حتى التبس عليّ بعض النعت» قال: «فجئء بالمسجد وأنا أنظر إليه، حتى وضع دون دار عقيل - أو عقال - فتعته وأنا أنظر إليه». قال: وكان مع هذا نعت لم أحفظه، قال: فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب فيه . وأخرجه النسائي ورواه البيهقي (١) .

رواية عبد الله بن مسعود:

روى الحافظ أبو بكر البيهقي عن عبد الله بن مسعود قال: لما أسرى برسول الله ﷺ، فأنتهى إلى سدره المنتهى، وهى فى السماء السادسة، وإليها ينتهى ما يصعد به حتى يقبض منها، وإليها ينتهى ما يهبط به من فوقها حتى يقبض ﴿إِذْ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم: ١٦] قال: غشيها فراش من ذهب، وأعطى رسول الله ﷺ الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً المقحّمات، يعنى الكبائر. ورواه مسلم (٢) . ثم قال البيهقي: «وهذا الذى ذكره عبد الله بن مسعود طرف من حديث المعراج ، وقد رواه أنس بن مالك، عن مالك ابن صَعَصَعَةَ، عن النبي ﷺ، ثم عن أبى ذر، عن النبي ﷺ، ثم رواه مرة مرسلأً دون ذكرهما» (٣) ، ثم إن البيهقي ساق الأحاديث الثلاثة كما تقدّم . والمشهور فى الصحاح كما تقدم: أن جبريل كان يعلمه بهم أولاً ليسلم عليهم سلام معرفة. وفيه أنه اجتمع بالأنبياء عليهم السلام قبل دخوله المسجد الأقصى، والصحيح أنه إنما اجتمع بهم فى السموات، ثم نزل إلى بيت المقدس ثانياً وهم معه، وصلى بهم فيه، ثم إنه ركب البراق وكر راجعاً إلى مكة، والله أعلم .

طريق أخرى : روى الإمام أحمد عن مؤثر بن عفازة، عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، فتذكروا أمر الساعة» قال: «فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام فقال: لا علم لى بها. فردوا أمرهم إلى موسى. فقال: لا علم لى بها ، فردوا أمرهم إلى عيسى فقال: ما أوحيتها فلا يعلم بها أحد إلا الله عزوجل، وفيما عهد إلى ريبى أن الدجال خارج». قال: «ومعى قضيبان، فإذا رأيتى ذاب كما يذوب الرصاص». قال: «فهلكه الله إذا رأيتى، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم، إن تحتى كافراً، فتعال

(١) المسند (٢٨٢٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح» ، والنسائي فى الكبرى (١١٢٥٨) ، والبيهقي فى دلائل النبوة (٢ / ٣٦٣) .

(٢) دلائل النبوة (٢ / ٣٧٢) ومسلم (١٧٣ / ٢٧٩) . (٣) دلائل النبوة (٢ / ٣٧٣) .

فاقتله. قال: « فيهلكهم الله، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم ». قال « فعند ذلك يخرج يا جوج ومأجوج وهم من كل حذب ينسلون فيطؤون بلادهم، فلا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يبرون على ماء إلا شربوه » قال: « ثم يرجع الناس إلى فيشكونهم. فادعوا الله عليهم، فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم - أي: نتنن » قال: « فينزل الله المطر، فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر. ففيما عهد إلى ربي: « أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتم، لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادها، ليلاً أو نهاراً » وأخرجه ابن ماجه (١).

وقد روى البخارى ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « حين أسرى بى لقيت موسى » قال: فنتعته فإذا رجل - حسبته قال: - مضطرب، رجُل الرأس، كأنه من رجال شنوءة. قال: « ولقيت عيسى » - فنتعته النبي ﷺ قال: - ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس - يعنى حمام. قال: « ولقيت إبراهيم، وأنا أشبه ولده به ». قال: « وأتيت بإناءين فى أحدهما لبن وفى الآخر خمر، قيل لى: خذ أيهما شئت، فأخذت اللبن، فشربت، فقيل لى: هديت الفطرة - أو: أصبت الفطرة - أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك » (٢). وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: « لقد رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى، فسألونى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كرباً ما كربت مثله قط، فرفعه الله لى أنظر إليه، ما سألونى عن شيء إلا أنبأتهم به، وقد رأيتنى فى جماعة من الأنبياء، وإذا موسى قائم يصلى، وإذا هو رجل جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى قائم يصلى أقرب الناس شبيهاً به عروة بن مسعود الثقفى، وإذا إبراهيم قائم يصلى أقرب الناس شبيهاً به صاحبكم - يعنى نفسه - فحانت الصلاة فأمتهم، فلما فرغت قال قائل: يا محمد، هذا مالك خازن جهنم، فالتفت إليه فبدأنى بالسلام » (٣).

رواية عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها:

روى البيهقى عن عائشة، قالت: لما أسرى برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى، أصبح يحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبى بكر، فقالوا: هل لك فى صاحبك؟ يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس! فقال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: فتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه فى خبر السماء فى غدوة أو روحة. فلذلك سمي أبو بكر: الصديق (٤).

(١) المسند (٣٥٥٦) وابن ماجه (٤٠٨١)، وفى الزوائد: « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات ».

قلت: وصحح إسناده الشيخ أحمد شاکر، ثم قال: « والحديث ذكره ابن كثير فى التفسير (١٣٠ / ٥) عند هذا الموضع، ووقع فى التفسير بدل « موثر بن عفازة » « مرثد بن جنادة »، وهو تحريف عجيب من الناسخين، وليس فى الرواة المترجمين من يسمى بهذا ».

(٢) البخارى (٣٣٩٤) ومسلم (١٦٨ / ٢٧٢). (٣) مسلم (١٧٢ / ٢٧٨).

(٤) دلائل النبوة (٢ / ٣٦٠) ورواه الحاكم فى المستدرک (٣ / ٦٢) وقال: « هذا حديث صحيح الإسناد ولم

يخرجه »، ووافقه الذهبى.

فصل: وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها، فحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه مرة واحدة، وإن اختلفت عبارات الرواة في أداؤه، أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء، عليهم السلام. ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة، فأثبت إسرءات متعددة فقد أبعد وأغرب، وهرب إلى غير مهرب ولم يتحصل على مطلب. وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه، عليه السلام، أسرى به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط، ومرة من مكة إلى السماء فقط، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء. وفرح بهذا المسلك، وأنه قد ظفر بشيء يخلص به من الإشكالات. وهذا بعيد جداً، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف، ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبي ﷺ به أمته، ولنقله الناس على التعدد والتكرار. قال الزهري: كان الإسراء قبل الهجرة بسنة. وكذا قال عروة. وقال السدي: بستة عشر شهراً.

والحق: أنه، عليه السلام، أسرى به يقظة لا مناماً من مكة إلى بيت المقدس، ركباً البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب، ودخله فضلى في قبلته تحية المسجد ركعتين. ثم أتى المعراج - وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها - فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع، فتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم عليه الأنبياء الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مرّ بموسى الكليم فى السادسة، وإبراهيم الخليل فى السابعة، ثم جاوز منزلتيهما ﷺ وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أى: أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى، وغشيتها من أمر الله، تعالى، عظمة عظيمة، من فراش من ذهب، وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هنالك جبريل على صورته، وله ستمائة جناح، ورأى ررفراً أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه؛ لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة. ورأى الجنة والنار، وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس؛ رحمة منه ولطفاً بعباده. وفى هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها. ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء فضلى بهم فيه لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح من يومئذ. ومن الناس من يزعم أنه أهمهم فى السماء. والذى تظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس، ولكن فى بعضها أنه كان أول دخوله إليه. والظاهر أنه بعد رجوعه إليه؛ لأنه لما مرّ بهم فى منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق؛ لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوى ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله، تعالى. ثم لما فرغ من الذى أريد به، اجتمع هو وإخوانه من النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه فى الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له فى ذلك. ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس، والله سبحانه وتعالى أعلم. وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل، أو اللبن والخمر،

أو اللبن والماء، أو الجميع - فقد ورد أنه في بيت المقدس، وجاء أنه في السماء. ويحتمل أن يكون ههنا وههنا؛ لأنه كالضيفاة للقدام، واللّه أعلم. ثم اختلف الناس: هل كان الإسراء ببدنه عليه السلام وروحه؟ أو بروحه فقط؟ على قولين، فالأكثر من العلماء على أنه أسرى ببدنه وروحه يقظة لا مناماً، ولا ينكر أن يكون رسول الله ﷺ رأى قبل ذلك مناماً، ثم رآه بعده يقظة؛ لأنه عليه السلام كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح؛ والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾، فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء ولم يكن مستعظماً، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتد جماعة ممن كان قد أسلم. وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، وقد قال: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ وقد قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧]، والبصر من آلات الذات لا الروح. وأيضاً فإنه حمل على البراق، وهو دابة بيضاء براق لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح؛ لأنها لا تحتاج في حركتها إلى مركب تركب عليه، واللّه أعلم.

وقال آخرون: بل أسرى برسول الله ﷺ بروحه لا بجسده. وقد تعقبه ابن جرير في تفسيره بالرد والإنكار والتشنيع، بأن هذا خلاف ظاهر سياق القرآن، واللّه أعلم.

فائدة: قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية في كتابه «التنوير في مولد السراج المنير» وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس، وتكلم عليه فأجاد وأفاد - ثم قال: وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب، وعلى، وابن مسعود، وأبي ذر، ومالك بن صعصعة، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وابن عباس، وشداد بن أوس، وأبي بن كعب، وعبد الرحمن بن قُرْط، وأبي حبة وأبي ليلي الأنصاريين، وعبد الله بن عمرو، وجابر، وحذيفة، وبريدة، وأبي أيوب، وأبي أمامة، وسمرة بن جندب، وأبي الحمراء، وصهيب الرومي، وأم هانئ، وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق، رضى الله عنهم أجمعين. منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، وأعرض عنه الزنادقة الملحدون ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ﴿١﴾ ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانُوا عَبْدًا شَكُورًا ﴿٢﴾﴾

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبد محمد ﷺ عطف بذكر موسى عبده وكليمه أيضاً، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما السلام وبين ذكر التوراة والقرآن؛ ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعنى التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أى الكتاب ﴿هُدًى﴾ أى هادياً ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ أى لئلا تتخذوا ﴿مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ أى ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً

دونى؛ لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبده وحده لا شريك له .

ثم قال: ﴿ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح . فيه تهيج وتنبه على المنة، أى: يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح فى السفينة، تشبهوا بأبيكم ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فاذكروا أنتم نعمتى عليكم بإرسالى إليكم محمداً ﷺ . وقد ورد فى الحديث وفى الأثر عن السلف: أن نوحاً، عليه السلام، كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله؛ فلهذا سمى عبداً شكوراً . روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها» . وهكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى^(١) . وقال مالك، عن زيد بن أسلم: كان يحمد الله على كل حال . وقد روى البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة» بطوله، وفيه: «فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح، إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، فاشفع لنا إلى ربك» وذكر الحديث بكامله^(٢) .

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ١ ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ ٢ ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ ٣ ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْسُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّوْا مَا عَلَوُا تَتْبِيرًا﴾ ٤ ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَإِنْ عُدتُّمْ عَدْنَا وَحَمَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ ٥

يخبر تعالى أنه قضى إلى بنى إسرائيل فى الكتاب، أى: تقدم إليهم وأخبرهم فى الكتاب الذى أنزله عليهم أنهم سيفسدون فى الأرض مرتين ويعلون علواً كبيراً، أى: يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦] أى: تقدمنا إليه وأخبرناه بذلك وأعلمناه به . وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أى: أولى الإفسادتين ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أى: سلطنا عليكم جنداً من خلقنا أولى بأس شديد، أى: قوة وعدة وسلطنة شديدة ﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ أى: تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، أى: بينها ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحداً ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ . وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف فى هؤلاء المسلطين عليهم: من هم؟ فعن ابن

(١) المسند (٣ / ١١٧) ومسلم (٢٧٣٤ / ٨٩) والترمذى (١٨١٦) والنسائى فى الكبرى (٦٨٩٩) .

(٢) البخارى (٤٧١٢) .

عباس وقتادة: أنه جالوت الجزري وجنوده، سلط عليهم أولاً، ثم أدلوا عليه بعد ذلك. وقتل داود جالوت؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية. وعن سعيد بن جبير: أنه ملك الموصل سنجاريب وجنوده. وعنه أيضاً، وعن غيره: أنه بختنصر ملك بابل. وقد أخبر الله عنهم أنهم لما بغوا وطغوا سلط الله عليهم عدوهم، فاستباح بيضتهم، وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم، جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد؛ فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء. وقد روى ابن جرير عن سعيد بن المسيب قال: ظهر بختنصر على الشام، فحرب بيت المقدس وقتلهم، ثم أي دمشق فقتل سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم (١). وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب، وهذا هو المشهور، وأنه قتل أشرفهم وعلماءهم، حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ معه منهم خلقاً كثيراً أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها. ولو وجدنا ماهو صحيح أو ما يقاربه، لجاز كتابته وروايته، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِن أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي: فعليها، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي: الكرة الآخرة، أي: إذا أفسدتم الكرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿لِيَسْؤُرُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي: يهينوكم ويقهروكم ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ أي بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: في التي جاسوا فيها خلال الديار ﴿وَلِيَتَّبِعُوا﴾ أي: يدمروا ويخربوا ﴿مَا عَلَّمُوا﴾ أي: ما ظهروا عليه ﴿تَتَّبِعُوا. عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ أي: فيصرفهم عنكم ﴿وَإِن عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ أي: متى عدتم إلى الإفساد ﴿عُدْنَا﴾ إلى الإزالة عليكم في الدنيا مع ماندخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي: مستقراً ومحصراً وسجناً لا محيد لهم عنه. وقال قتادة: قد عاد بنو إسرائيل، فسلط الله عليهم هذا الحى، محمداً ﷺ وأصحابه، يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ ﴿١﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢﴾ ﴿١﴾

يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن، بأنه يهدي لأقوم الطرق، وأوضح السبل ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ به ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ على مقتضاه ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن ﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ مَجْهُولًا﴾ ﴿١١﴾

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان، ودعائه فى بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله ﴿بِالشَّرِّ﴾ أى: بالموت أو الهلاك والدمار واللعة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعْجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ الآية [يونس: ١١]، وكذا فسره ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وإنما يحمل ابن آدم على ذلك عجلته وقلقه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾.

﴿وَجَعَلْنَا أَلِيلَ وَالنَّهَارَ عَآئِنَيْنِ فَحَوْنًا ءَايَةَ أَلِيلٍ وَجَعَلْنَا ءَايَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَنَاهُ تَفْصِيلًا﴾

يمتّن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار، ليسكنوا فى الليل ويتشروا فى النهار للمعايش والصنائع والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضى الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجازات وغير ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: فى معاشكم وأسفاركم ونحو ذلك ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً وأسلوباً متساوياً لما عرف شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ . وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١ - ٧٣]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦١، ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [المؤمنون: ٨٠]، وقال: ﴿يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَالِقَ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلَ (١) اللَّيْلِ سَكْنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حَسْبَانَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلَمُونَ . وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧، ٣٨].

ثم إنه تعالى جعل لليل آية، أى: علامة يعرف بها وهى الظلام وظهور القمر فيه، وللنهار علامة، وهى النور وطلوع الشمس النيرة فيه، وفاوت بين نور القمر وضياء الشمس ليعرف هذا من هذا، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُتَّقُونَ﴾ [يونس: ٥، ٦]، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَمْثَلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ الآية [البقرة: ١٨٩]. قال عبد الله بن كثير فى قوله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ قال: ظلمة الليل وسُدفة النهار. وقال مجاهد: الشمس آية النهار، والقمر آية الليل ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ قال: السواد الذى فى القمر، وكذلك خلقه الله تعالى. وقال ابن عباس: كان القمر يضىء كما تضىء الشمس، والقمر آية الليل، والشمس آية

(١) وهكذا قرأها الحافظ ابن كثير، كما فى المخطوطة، وهى قراءة يعقوب وأهل المدينة وقرأ الحسن وعيسى بن عمر وحزمة والكسائى: «جَعَلَ» وفى المطبوعة: «جعل» وهو تحريف.

النهار ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾: السواد الذي في القمر. وقد روى ابن جرير من طرق متعددة جيدة: أن ابن الكوّاء سأل علي بن أبي طالب فقال: يا أمير المؤمنين، ما هذه اللطخة التي في القمر؟ فقال: ويحك. أما تقرأ القرآن؟ ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ فهذه محوه. وقال قتادة في قوله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾: كنا نحدث أن محو آية الليل سواد القمر الذي فيه، ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾، أى: منيرة، وخلق الشمس أنور من القمر وأعظم. وقال ابن عباس: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ قال: ليلاً ونهاراً، كذلك خلقهما الله، عز وجل.

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾
﴿١٦﴾ أَقْرَأَ كِتَابِكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ حَسِيبًا ﴿١٧﴾

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بنى آدم: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ وطائره: هو ما طار عنه من عمله، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: من خير وشر، ويلزم به ويجازى عليه ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨]، وقال: ﴿وَإِن عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، وقال: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه، قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً.

وقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ أى: نجمع له عمله كله فى كتاب يعطاه يوم القيامة، إما بيمينه إن كان سعيداً، أو بشماله إن كان شقيماً ﴿مَنشُورًا﴾ أى: مفتوحاً يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَ قَدَمِهِ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ . بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٣ - ١٥]، ولهذا قال تعالى: ﴿أَقْرَأَ كِتَابِكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أى: إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت؛ لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمى.

وقوله: ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ إنما ذكر العنق؛ لأنه عضو من الأعضاء لا نظير له فى الجسد، ومن ألزم بشيء فيه فلا محيد له عنه. وروى الإمام أحمد عن عقبه بن عامر عن النبى ﷺ قال: «ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة: ياربنا، عبدك فلان، قد حبسته؟ فيقول الرب جل جلاله: اأختموا له على مثل عمله، حتى ييرا أو يموت». إسناده جيد قوى، ولم يخرجوه (١). وعن قتادة: ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ قال: عمله ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال: نخرج ذلك العمل ﴿كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ قال معمر: وتلا الحسن

البصرى ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧] يا بن آدم، بسطت لك صحيفتك، ووكل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذى عن شمالك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت فى عنقك معك فى قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً ﴿أَفْرَأَ كِتَابَكَ﴾ الآية، فقد عدل - والله - من جعلك حسيب نفسك. هذا من أحسن كلام الحسن، رحمه الله .

﴿مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَأَنْزِرُ وَرَزَّ وَرُزِّ وَرَزَّ وَرُزِّ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتضى آثار النبوة ، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ أى: عن الحق، وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجنى على نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه. ثم قال: ﴿وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةٌ وَرَزَّ أُخْرَىٰ﴾ أى: لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجنى جانٍ إلا على نفسه ، كما قال تعالى : ﴿وَأَن تَدْعُ مَثَلَةً إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ [فاطر: ١٨].

ولا منافاة بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣] ، وقوله : ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]، فإن الدعاة عليهم إثم ضلالهم فى انفسهم ، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك، ولا يحملوا عنهم شيئاً . وهذا من عدل الله ورحمته بعباده .

وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إخبار عن عدله تعالى ، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، كقوله تعالى: ﴿كَلَّمَا أَنفَجْنَا فِيهَا فَوْجَ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٨، ٩]، وكذا قوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يُصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرٍ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسول إليه .

ومن ثم طعن جماعة من العلماء فى اللفظة التى جاءت مقحمة فى صحيح البخارى عند قوله تعالى: ﴿إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «اختصمت الجنة والنار» فذكر الحديث إلى أن قال: «وأما الجنة فلا يظلم الله من خلقه أحداً، وأنه ينشئ للنار خلقاً فيلقون فيها، فتقول: هل من مزيد؟» ثلاثاً ، وذكر تمام الحديث (١). فهذا إنما جاء فى الجنة لأنها دار فضل ، وأما النار فإنها دار عدل، لا يدخلها أحد إلا بعد

الإعذار إليه وقيام الحجّة عليه . وقد تكلم جماعة من الحفاظ في هذه اللفظة وقالوا: لعله انقلب على الراوى بدليل ما أخرجاه في الصحيحين واللفظ للبخارى عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ: «تحتاج الجنة والنار» فذكر الحديث إلى أن قال: «فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع فيها قدمه، فتقول: قط، قط، فهنالك تمتلئ وينزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً» (١).

بقى ههنا مسألة قد اختلف الأئمة، رحمهم الله تعالى، فيها قديماً وحديثاً وهى: الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآبائهم كفار، ماذا حكمهم؟ وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف، ومن مات فى الفترة ولم تبلغه الدعوة. وقد ورد فى شأنهم أحاديث، فروى الإمام أحمد عن الأسود بن سريع، أن نبى الله ﷺ قال: «أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرّم، ورجل مات فى فترة، فأما الأصم فيقول: رب، قد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: رب، لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفونى بالبعر، وأما الهرّم فيقول: رب، لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذى مات فى الفترة فيقول: رب، ما أتانى لك رسول . فياخذ موثيقهم ليطعنه فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، فوالذى نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً» (٢).

وفى الصحيحين، عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرّانه أو يمجّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟»، وفى رواية: قالوا: يا رسول الله، أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» (٣). وفى صحيح مسلم، عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ، عن الله، عز وجل، أنه قال: «إنى خلقت عبادى حنفاء» (٤).

وروى الإمام أحمد، عن حسناء (٥) بنت معاوية من بنى صريم قالت: حدثنى عمى قال: قلت: يا رسول الله، من فى الجنة؟ قال: «النبى فى الجنة، والشهيد فى الجنة، والمولود فى الجنة، والوئيد فى الجنة» (٦).

فمن العلماء من ذهب إلى التوقف فيهم لهذا الحديث، ومنهم من جزم لهم بالجنة، لحديث سمرة بن جندب فى صحيح البخارى: أنه عليه الصلاة والسلام قال فى جملة ذلك المنام، حين مرّ على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان، فقال له جبريل: هذا إبراهيم، عليه السلام،

(١) البخارى (٤٨٥٠) ومسلم (٢٨٤٦ / ٣٥) .

(٢) المسند (٤ / ٢٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٧ / ٢١٨) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٣) البخارى (١٣٨٥) ومسلم (٢٦٥٨ / ٢٢) . (٤) مسلم (٢٨٦٥ / ٦٣) .

(٥) فى المطبوعة والمخطوطة : « خنساء » والمثبت من المسند .

(٦) المسند (٥ / ٤٠٩) ، وقال ابن حجر فى الفتح (٣ / ٢٤٦) : « إسناده حسن » .

وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين، قالوا: يارسول الله، وأولاد المشركين؟ قال «نعم، وأولاد المشركين» (١). ومنهم من جزم لهم بالنار، لقوله عليه السلام: «هم مع آبائهم» (٢). ومنهم من ذهب إلى أنهم يمتحنون يوم القيامة في العرصات، فمن أطاع دخل الجنة وانكشف علم الله فيهم بسابق السعادة، ومن عصى دخل النار داخراً، وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة. وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرحت به الأحاديث. وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعري، عن أهل السنة والجماعة، وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في «كتاب الاعتقاد» وكذلك غيره من محققى العلماء والحفاظ والنقاد.

فصل: وليعلم أن هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء كما حكاه القاضى أبو يعلى بن الفراء الحنبلى، عن الإمام أحمد أنه قال: لا يختلف فيهم أنهم من أهل الجنة. وهذا هو المشهور بين الناس، وهو الذى نقطع به إن شاء الله، عز وجل.

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنَدْمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾

اختلف القراء فى قراءة قوله: ﴿أَمَرْنَا﴾ فالمشهور قراءة التخفيف، واختلف المفسرون فى معناها، فقيل: معناها أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمراً قديماً، كقوله تعالى: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤]، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، قالوا: معناه: أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب. وقيل: معناه: أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة. قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير أيضاً. وقال ابن جرير: وقد يحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء.

قلت: إنما يجيء على قراءة من قرأ ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ قال ابن عباس قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم بالعذاب، وهو قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وكذا قال مجاهد والربيع بن أنس. وقال ابن عباس: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ يقول: أكثرنا عددهم، وكذا قال عكرمة، والحسن، والضحاك، وقتادة، وعن مالك عن الزهري: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾: أكثرنا.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾

يقول تعالى منذراً كفار قريش فى تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ بأنه قد أهلك أمماً من المكذبين للرسول من بعد نوح، ودل هذا على أن القرون التى كانت بين آدم ونوح على الإسلام، كما قاله ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام. ومعناه: أنكم أيها

المكذبون لستم أكرم على الله منهم، وقد كذبتكم أشرف الرسل وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولى وأحرى. وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أى: هو عالم بجميع أعمالهم، خيرها وشرها، لا يخفى عليه منها خافية سبحانه وتعالى .

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له، بل إنما يحصل لمن أراد الله وما يشاء. وهذه مقيدة لإطلاق ماسواها من الآيات فإنه قال: ﴿عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا﴾ أى: فى الآخرة ﴿يَصَلُّهَا﴾ أى: يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه ﴿مَذْمُومًا﴾ أى: فى حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه، إذ اختار الفانى على الباقى ﴿مَدْحُورًا﴾: مبعداً مقصياً حقيراً ذليلاً مهاناً. روى الإمام أحمد عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له» (١).

وقوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ أى: أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أى: طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أى: مصدق بالشواب والجزاء ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ .

﴿كُلًّا نُمِدُّ هُنُوًا وَهَنُورًا مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۗ وَاللَّآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿كُلًّا﴾ أى كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة، ندمهم فيما هم فيه ﴿مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ أى: هو المتصرف الحاكم الذى لا يجور، فيعطى كلًّا ما يستحقه من الشقاوة والسعادة فلا راد لحكمه ولا مانع لما أعطى، ولا مغير لما أراد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أى: لا يمنع أحد ولا يرده راد. قال قتادة: ﴿مَحْظُورًا﴾ أى: منقوصاً. وقال الحسن وغيره: ممنوعاً.

ثم قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أى: فى الدنيا، فمنهم الغنى والفقير وبين ذلك، والحسن والقبيح وبين ذلك، ومن يموت صغيراً، ومن يعمر حتى يبقى شيخاً كبيراً، وبين ذلك ﴿وَاللَّآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أى: ولتفاوتهم فى الدار الآخرة أكبر من الدنيا؛ فإن منهم من يكون فى الدرجات فى جهنم وسلسلها وأغلالها، ومنهم من يكون فى الدرجات العلىٰ ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدرجات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل

(١) المسند (٦ / ٧١) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠ / ٢٩١): «رجالهم رجال الصحيح غير دويد وهو ثقة» .

الدرجات يتفاوتون، فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض . وفي الصحيحين: « إن أهل الدرجات العلا ليرون أهل عليين ، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء» (١) ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَاللَّخِزَّةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ .

﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴾ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى - والمراد المكلفون من الأمة: لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكاً ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ على إشراكك به ﴿مَخْذُولًا﴾ لأن الرب تعالى لا ينصرك، بل يكللك إلى الذي عبت معه، وهو لا يملك لك ضرراً ولا نفعاً؛ لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له . وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ، ومن أنزلها بالله أرسل الله له بالغنى، إما أجلاً وإما عاجلاً» . ورواه أبو داود، والترمذى، وقال : حسن صحيح غريب (٢) .

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ ﴿٢٣﴾
وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

يقول تعالى أمراً بعبادته وحده لا شريك له؛ فإن القضاء ههنا بمعنى الأمر. قال مجاهد : ﴿وَقَضَىٰ﴾ يعنى: وصى، ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أى: وأمر بالوالدين إحساناً ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤] . وقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ﴾ أى: لا تسمعهما قولاً سيئاً، حتى ولا التأفيف الذى هو أدنى مراتب القول السيئ ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ أى: ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء فى قوله: ﴿وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾ أى: لا تنفض يدك عليهما .

ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن فقال: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أى: لينا طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أى: تواضع لهما بفعلك ﴿وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا﴾ أى: فى كبرهما وعند وفاتهما ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ . قال ابن عباس : ثم أنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَا قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣] . وقد جاء فى بر الوالدين أحاديث كثيرة، منها ما رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف رجل أدرك والديه أحدهما أو كلاهما عند الكبر ولم يدخل الجنة» . ورواه مسلم (٣) .

(١) تقدم تخريجه عند الآية (٦٩) من سورة النساء .

(٢) المسند (٣٨٦٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح» وأبو داود (١٦٤٥) والترمذى (٢٣٢٦) .

(٣) المسند (٢ / ٣٦٤) ومسلم (٢٥٥١ / ٩) .

﴿ زَيْكُمُ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُمْ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ ﴿١٥﴾

قال سعيد بن جبير: هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبيه، وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به - وفي رواية: لا يريد إلا الخير بذلك - فقال: ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ ﴾. وقوله: ﴿ فَإِنَّهُمْ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة. وعن ابن عباس: المسيحين. وفي رواية عنه: المطيعين المحسنين. وقال بعضهم: هم الذين يصلون بين العشاءين. وقال بعضهم: هم الذين يصلون الضحى.

وقال سعيد بن المسيب فى قوله: ﴿ فَإِنَّهُمْ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ قال: الذين يصيبون الذنب ثم الذنب ثم يتوبون، ويصيبون الذنب ثم يتوبون. وكذا رواه ابن جرير عن ابن المسيب، به. وقال عطاء بن يسار وسعيد بن جبير ومجاهد: هم الراجعون إلى الخير. وقال مجاهد عن عبيد بن عمير فى الآية: هو الذى إذا ذكر ذنوبه فى الخلاء فيستغفر الله منها. ووافقه مجاهد فى ذلك. وقال عبد الرزاق عن عبيد ابن عمير، فى قوله: ﴿ فَإِنَّهُمْ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ قال: كنا نعد الأواب الحفيظ، أن يقول: اللهم اغفر لى ما أصبت فى مجلسى هذا.

قال ابن جرير: والأولى فى ذلك قول من قال: هو التائب من الذنب، الراجع عن المعصية إلى الطاعة، مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه. وهذا الذى قاله هو الصواب؛ لأن الأواب مشتق من الأوب وهو الرجوع، يقال: أب فلان إذا رجع، قال تعالى: ﴿ إِنْ لَبِثْنَا إِلَّا بِهَمٍّ ﴾ [الغاشية: ٢٥]، وفى الحديث الصحيح، أن رسول الله ﷺ كان إذا رجع من سفر قال: « آيئون تائبون عابدون، لربنا حامدون » (١).

﴿ وَعَاتِ يَا أَخْيَرَ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ ﴿١٦﴾ إِنْ
الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿١٧﴾ وَإِنَّمَا تَعْرِضَنَّ عَنْهُمْ
أَيْغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿١٨﴾

لما ذكر تعالى بر الوالدين، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام. وفى الحديث: « من أحب أن ييسر له فى رزقه وينسأ له فى أجله، فليصل رحمه » (٢).

وقد تقدم الكلام على المساكين وابن السبيل فى «سورة براءة» بما أغنى عن إعادته ههنا. قوله: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطاً، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧].

ثم قال منفراً عن التبذير والسرف: ﴿ إِنْ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ﴾ أى: أشباههم فى ذلك. وقال ابن مسعود: التبذير: الإنفاق فى غير حق، وكذا قال ابن عباس. وقال مجاهد: لو

أنفق إنسان ماله كله في الحق، لم يكن مبدراً، ولو أنفق مداً في غير حقه كان مبدراً. وقال قتادة: التبذير: النفقة في معصية الله تعالى، وفي غير الحق والفساد. روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أنه قال: أتى رجل من بنى تميم إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني ذو مال كثير، وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرني كيف أنفق وكيف أصنع؟ فقال رسول الله ﷺ: «تخرج الزكاة من مالك، فإنها طهرة تطهرك، وتصل أقباءك، وتعرف حق السائل والجار والمسكين». فقال: يا رسول الله، أقلل لي؟ فقال: «وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا». فقال: حسبى يا رسول الله، إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله وإلى رسوله؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، إذا أديتها إلى رسولى فقد برئت منها، ولك أجرها، وإثمها على من بدلها» (١).

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أى: فى التبذير والسفه وترك طاعة الله وارتكاب معصيته؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أى: جحوداً؛ لأنه أنكر نعمة الله عليه ولم يعمل بطاعته؛ بل أقبل على معصيته ومخالفته. وقوله: ﴿وَأَمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ أى: إذا سألك أقاربك ومن أمرناك بإعطائهم وليس عندك شيء، وأعرضت عنهم لفقدهم النفقة ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ أى: عداهم وعدأ بسهولة ولين إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله .

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾
 ﴿١٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُمْ كَانُوا بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

يقول تعالى آمراً بالاقتصاد فى العيش ذاماً للبخل ناهياً عن السرف: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أى: لا تكن بخيلاً منوعاً، لا تعطى أحداً شيئاً، كما قالت اليهود عليهم لعائن الله: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] أى نسبوه إلى البخل، تعالى وتقدس الكريم الوهاب.

وقوله: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ أى: ولا تسرف فى الإنفاق فتعطى فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، فتقعد ملوماً محسوراً. ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شيء تنفقه، فتكون كالحسير، وهو كالدابة التى قد عجزت عن المسير، فوقفت ضعفاً وعجزاً، فإنها تسمى الحسير، وهو مأخوذ من الكلال، كما قال: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤] أى: كليل عن أن يرى عيباً. هكذا فسره هذه الآية - بأن المراد هنا البخل والسرف - ابن عباس والحسن وقتادة وغيرهم. وقد جاء فى الصحيحين، عن أبى هريرة؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مثل البخيل والمنفق، كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما. فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت - أو: وفرت - على

جلده، حتى تُخفى بنانه وتعفو أثره. وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة منها مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع» (١). وفى الصحيحين عن أسماء بنت أبى بكر، قالت: قال رسول الله ﷺ: «أنفقى هكذا وهكذا وهكذا، ولا تُوعى فِوعى الله عليك، ولا توكى فيوكى الله عليك» وفى لفظ: «ولا تُحصى فيحصى الله عليك» (٢). وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال لى: أنفق أنفق عليك» (٣). وفى الصحيحين عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً» (٤).

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ إخبار أنه تعالى هو الرزاق، القابض الباسط، المتصرف فى خلقه بما يشاء، فيغنى من يشاء، ويفقر من يشاء، بما له فى ذلك من الحكمة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أى: خبير بصير بمن يستحق الغنى ومن يستحق الفقر، وقد يكون الغنى فى حق بعض الناس استدراجاً، والفقر عقوبة، عياداً بالله من هذا وهذا.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ مِّنْ نَّرْزُقِهِمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (١١)

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده؛ لأنه نهى عن قتل الأولاد، كما أوصى الآباء بالأولاد فى الميراث، وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لثلاث تكثر عيلته، فنهى الله تعالى عن ذلك وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ أى: خوف أن تفتقروا فى ثانى الحال؛ ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾. وفى الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ أى: من فقر ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾

[الأنعام: ١٥١]

وقوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ أى: ذنباً عظيماً. وقرأ بعضهم: «كان خطأ كبيراً» وهو بمعناه. وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود: قلت: يارسول الله، أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قلت: ثم أى؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك». قلت: ثم أى؟ قال: «أن تزانى بحليلة جارك» (٥).

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ فِي حَسْرَةٍ وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (١٢)

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا وعن مقاربتة، وهو مخالطة أسبابه ودواعيه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ أى: ذنباً عظيماً ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أى: وبئس طريقاً ومسلكاً.

وقد روى الإمام أحمد عن أبى أمامة قال: إن فتى شاباً أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله،

(١) البخارى (١٤٤٣) ومسلم (١٠٢١ / ٧٦).

(٢) البخارى (١٤٣٣) ومسلم (١٠٢٩ / ٨٨).

(٣) مسلم (٩٩٣ / ٣٧).

(٤) البخارى (١٤٤٢) ومسلم (١٠١٠ / ٥٧).

(٥) البخارى (٤٤٧٧) ومسلم (٨٦ / ١٤١).

اِذْن لِي بِالزَّنَا . فَأَقْبَلَ الْقَوْمَ عَلَيْهِ فزَجَرُوهُ ، وَقَالُوا : مَهْ مَهْ . فَقَالَ : «ادنه» . فدنا منه قريباً ، فقال : « اجلس » . فجلس ، قال : « أتحبه لأمك؟ » قال : لا والله ، جعلني الله فداك . قال : « ولا الناس يحبونه لأمهاتهم » . قال : « أفتحبه لابنتك؟ » . قال : لا والله يارسول الله ، جعلني الله فداك . قال : « ولا الناس يحبونه لبناتهم » ، قال : « أتحبه لأختك؟ » قال : لا والله ، جعلني الله فداك . قال : « ولا الناس يحبونه لأخواتهم » ، قال : « أفتحبه لعمتك؟ » قال : لا والله ، جعلني الله فداك . قال : « ولا الناس يحبونه لعماتهم » قال : « أفتحبه لخالتك؟ » قال : لا والله ، جعلني الله فداك . قال : « ولا الناس يحبونه لخالاتهم » . قال : فوضع يده عليه وقال : « اللهم اغفر ذنبه ، وطهر قلبه ، أحصن فرجه » . قال : فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء (١) .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعى ، كما ثبت فى الصحيحين ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والزانى المحصن ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » (٢) . وفى السنن : « لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مسلم » (٣) .

وقوله : « وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا » أى : سلطة على القاتل ، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله قوداً ، وإن شاء عفا عنه على الدية ، وإن شاء عفا عنه مجاناً ، كما ثبتت السنة بذلك . وقول تعالى : « فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ » قالوا : معناه : فلا يسرف الولي فى قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل « إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا » أى أن الولي منصور على القاتل شرعاً ، وغالباً قدراً .

﴿ وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَشْهُورًا ﴾ ﴿٢٥﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٢٥﴾

يقول تعالى : « وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ » أى : لا تتصرفوا فى مال اليتيم إلا بالغبطة « وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ » [النساء : ٦] ، وقد جاء فى صحيح مسلم ؛ أن رسول الله ﷺ قال لأبى ذر : « يا أبا ذر ، إنى أراك ضعيفاً ، وإنى أحب لك ما أحب لنفسي : لا تأمرن على اثنين ، ولا تولين مال يتيم » (٤) .

(١) المسند (٥ / ٢٥٧) ، ورواه الطبرانى فى الكبير (٨ / ١٩٠) (٧٦٧٩) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (١ / ١٣٢) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٢) البخارى (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦ / ٢٥) .

(٣) الترمذى (١٣٩٥) ، وقال : « وهذا أصح من حديث ابن عدى » ، والنسائى (٣٩٨٦) ، وصححه الألبانى .

(٤) مسلم (١٨٢٦ / ١٧) .

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ أى: الذى تعاهدون عليه الناس والعقود التى تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ أى: عنه. وقوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ أى: من غير تطفيف، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾ قرئ: بضم القاف وكسرهما، كالقسطاس وهو الميزان. قال مجاهد: هو العدل بالرومية ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ أى: الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أى: لكم فى معاشكم ومعادكم؛ ولهذا قال: ﴿وَأَحْسِنُ تَأْوِيلًا﴾ أى: مآلا ومنقلباً فى آخرتكم.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ﴿٣٦﴾

قال ابن عباس: يقول: لا تقل، وقال قتادة: لا تقل: رأيت، ولم تر، وسمعت، ولم تسمع، وعلمت، ولم تعلم؛ فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله. ومضمون ما ذكره: أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذى هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وفى الحديث: «ياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث» (١).
وقوله: ﴿كُلُّ أُولَئِكَ﴾ أى: هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ أى: سيسأل العبد عنها يوم القيامة، وعما عمل فيها.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ ﴿٣٨﴾

يقول تعالى ناهياً عباده عن التَّجَبُّرِ والتَّبَخُّرِ فى المشية: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أى: متبخرًا متميلاً مشى الجبارين ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ أى: لن تقطع الأرض بمشيك، ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ أى: بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك، بل قد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده. كما ثبت فى الصحيح: «بيننا رجل يمشى فيمن كان قبلكم، وعليه بُردان يتبختر فيهما إذ خُسِفَ به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة» (٢). وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه فى زينتته، وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ معناه: كل هذا الذى ذكرناه من قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ إلى ههنا فسيئته، أى: فقيحه مكروه عند الله.

﴿ذَلِكَ مِنَّا آوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ ﴿٣٩﴾

(١) البخارى (٦٠٦٦) ومسلم (٢٥٦٣ / ٢٨).

(٢) البخارى (٥٧٩٠) ومسلم (٢٠٨٨ / ٥٠).

يقول تعالى: هذا الذى أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس. ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُنْفِقُوا فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ أى: تلومك نفسك ويلومك الله والخلق. ﴿مَدْحُورًا﴾ أى: مبعدا من كل خير. والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ؛ فإنه ﷺ معصوم.

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾

يقول تعالى راداً على المشركين الكاذبين الزاعمين - عليهم لعائن الله - أن الملائكة بناتُ الله، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إنثاء، ثم ادَّعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطؤوا فى كل من المقامات الثلاث خطأ عظيماً، فقال تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾ أى: خصصكم بالذكور ﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا﴾ أى: اختار لنفسه على زعمكم البنات؟ ثم شدد الإنكار عليهم فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ أى: فى زعمكم أن الله ولدًا، ثم جعلكم ولده الإنثاء التى تأنفون أن يكنَّ لكم، وربما قتلتموهن بالوَأد، فتلك إذا قسمة ضيزى، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَطَفَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مریم: ٨٨ - ٩٥].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا﴾ أى: صرفنا فيه من الوعيد لعلمهم يذكرون ما فيه من الحجج والبيانات والمواعظ، فينزجروا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أى: الظالمين منهم ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ أى: عن الحق، وبعداً منه.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَآتَبَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾

﴿وَتَعَلَّىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوقًا كَبِيرًا﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن الله شريكاً من خلقه، العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفى: لو كان الأمر كما يقولون، وأن معه آلهة تُعبد لتقرب إليه وتشفع لديه - لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويتغنون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبد من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه. وقد نهى عن ذلك على السنة جميع رسله وأنبيائه. ثم نزه نفسه الكريمة وقدسها فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أى: هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون فى زعمهم أن معه آلهة أخرى ﴿عُلُوقًا كَبِيرًا﴾ أى: تعالياً كبيراً، بل هو الله الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى: تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن، أى: من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتبجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية فى ربوبيته وإلهيته:

فَقَى كُلُّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

كما قال تعالى: ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتْفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٩٠ - ٩١].

وقوله: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ أى: وما من شىء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ أى: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغاتكم. وهذا عام فى الحيوانات والجمادات والنباتات، وهذا أشهر القولين، كما ثبت فى صحيح البخارى، عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل (١). وقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ أى: أنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يؤجله وينظره، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر، كما جاء فى الصحيحين: «إن الله ليملى للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ الآية [هود: ١٠٢] (٢)، وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَمَلَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ الآية [الحج: ٤٨]. ومن أفلح عما هو فيه من كفر أو عصيان، ورجع إلى الله وتاب إليه، تاب عليه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ فَيَغْفِرِ اللَّهُ ﴾ الآية [النساء: ١١٠]. وقال ههنا: ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ كما قال فى آخر فاطر: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ إلى أن قال: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ ﴾ إلى آخر السورة [فاطر: ٤١ - ٤٥].

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّثَ وَلَوْ عَلَىٰ آدْبُرِهِ نُورًا ﴾ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وإذا قرأت - يامحمد - على هؤلاء المشركين القرآن، جعلنا بينك وبينهم حجابا مستورا. قال قتادة، وابن زيد: هو الاكنة على قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت: ٥] أى: مانع حائل أن يصل إلينا مما تقول شىء.

وقوله: ﴿ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ أى: بمعنى ساتر، وقيل: مستورا عن الأبصار فلا تراه، وهو مع

ذلك حجاب بينهم وبين الهدى، ومال إلى ترجيحه ابن جرير، رحمه الله. وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [سورة المسد] جاءت العوراء أم جميل ولها ولولكة، وفي يدها فُهر وهي تقول: مُذَمَّمًا آتِينَا - أو: آتِينَا - ودينه قَلْبَيْنَا، وأمره عصينا. ورسول الله ﷺ جالس، وأبو بكر إلى جنبه، فقال أبو بكر: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: «إنها لن تراني»، وقرأ قرآنا اعتصم به منها: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾. قال: فجاءت حتى قامت على أبي بكر، فلم تر النبي ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، بلغني أن صاحبك هجانى. فقال أبو بكر: لا ورب هذا البيت ما هجاك. قال: فانصرفت وهي تقول: لقد علمت قريش أنى بنت سيدها (١).

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ : وهي جمع «كنان»، الذى يغشى القلب ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أى: لئلا يفهموا القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وهو الثقل الذى يمنعه من سماع القرآن سماعاً يفهمهم ويهتدون به. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَتْ بِكَ فِي الْقُرْآنِ حَدَثَةٌ﴾ أى: إذا حدثت الله فى تلاوتك، وقلت: «لا إله إلا الله» ﴿وَلَوْ﴾ أى: أدبروا راجعين ﴿عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ ونفور: جمع نافر، كعود جمع قاعد، ويجوز أن يكون مصدرًا من غير الفعل، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]

﴿يَنْحَنُّ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ ﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

يخبر تعالى نبيه محمداً ﷺ بما يتناجى به رؤساء كفار قريش، حين جاؤوا يستمعون قراءته ﷺ سراً من قومهم، بما قالوا من أنه رجل مسحور، من السحر على المشهور، أو من «السحر»، وهو الرثة، أى: إن تتبعون - إن اتبعتم محمداً - «إلا بشراً» يأكل ويشرب، وقد صوب هذا القول ابن جرير، وفيه نظر؛ لأنهم إنما أرادوا ههنا أنه مسحور له رثى يأتيه بما استمعوه من الكلام الذى يتلوه، ومنهم من قال: «شاعر»، ومنهم من قال: «كاهن»، ومنهم من قال: «مجنون»، ومنهم من قال: «ساحر»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أى: فلا يهتدون إلى الحق، ولا يجدون إليه مخلصاً.

قال ابن إسحاق: حدثنى ابن شهاب الزهري، أنه حدث أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلى بالليل فى بيته، فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. حتى إذا جمعتهم الطريق، تلاوموا، وقال بعضهم

(١) أبو يعلى فى مسنده (٥٣) وحسنه ابن حجر فى الفتح (٧/ ١٦٩).

لبعض: لا تعودوا، فلو رأيكم بعض سفهائكم لأوقعتكم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجل مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لنعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأحنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يُراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها. قال الأحنس: وأنا والذي حلفت به. قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟! قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثنا على الركب، وكنا كقرسى رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا تؤمن به أبداً ولا تصدقه. قال: فقام عنه الأحنس وتركه.

﴿ وَقَالُوا آءَآذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا إِيَّانَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْزِلُونَ عَلَيْكُم مِّمَّا رَأَوْنَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾

ربع

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبدين وقوع المعاد، القائلين استفهام إنكار منهم لذلك: ﴿ آءَآذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ﴾ أى: تراباً، قاله مجاهد، وقال ابن عباس: غباراً ﴿ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ أى: يوم القيامة ﴿ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ أى: بعد ما بلينا وصرنا عدماً لا نذكر. كما أخبر عنهم فى الموضوع الآخر: ﴿ يَقُولُونَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ . آءَآذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً . قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ [النازعات: ١٠-١٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ [الآيتين: ٧٨، ٧٩].

فأمر الله سبحانه رسول الله ﷺ أن يجيبهم فقال: ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ إذ هما أشد امتناعاً من العظام والرفات ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ قال مجاهد: سألت ابن عباس عن ذلك فقال: هو الموت. وعن ابن عمر أنه قال فى تفسير هذه الآية: لو كنتم موتى لأحييتكم. وكذا قال سعيد بن جبير، وأبو صالح، والحسن، وقتادة، والضحاك. ومعنى ذلك: أنكم لو فرضتم أنكم لو صرتم إلى الموت الذى هو ضد الحياة، لأحياكم الله إذا شاء، فإنه لا يمتنع عليه شئ إذا أَرَادَهُ. وقال مجاهد: ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ يعنى: السماء والأرض والجبال. وفى رواية: ما شئتم فكونوا، فسيعيدكم الله بعد موتكم.

وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا﴾ أى: من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر شديداً ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى: الذى خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، ثم صرتم بشراً تتشرون؛ فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أى حال ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ الآية [الروم: ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿فَسَيَنْفِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ﴾: قال ابن عباس وقتادة: يحركونها استهزاء. وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَنْ تَعْبُدُ﴾ إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَنْ تَعْبُدُ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]. وقوله: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾ أى: احذروا ذلك، فإنه قريب إليكم، سيايتكم لا محالة، فكل ما هو آت آت.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ أى: الرب تعالى ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥] أى: إذا أمركم بالخروج منها فإنه لا يخالف ولا يمانع، بل كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا بِأَحَدَةٍ مَلَكَمٍ بِالْبَصْرِ﴾ [القمر: ٥٠]، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤] أى: إنما هو أمر واحد بانتهار، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أى: تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته. قال ابن عباس: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أى: بأمره. وكذا قال ابن جريج. وقال قتادة: بمعرفته وطاعته. وقوله: ﴿وَتَتَّظُنُّونَ﴾ أى: يوم تقومون من قبوركم ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ﴾ أى: فى الدار الدنيا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، وكقوله تعالى ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا . يَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢ - ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ . قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤].

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ

لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٣﴾

يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا فى مخاطبتهم ومحاورتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة؛ فإنهم إذ لم يفعلوا ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينة؛ ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزغ فى يده، أى: فرمبا أصابه بها. وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قال

رسول الله ﷺ: « لايشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزع في يده ، فيقع في حفرة من النار». أخرجاه (١).

﴿ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَمَا تَأْتِينَا دَاوُدَ ذُبُورًا ﴿٥٥﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أيها الناس، أي أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق ﴿إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ﴾ بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه ﴿أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي: إنما أرسلناك نذيرًا، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار. وقوله: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: بمراتبهم في الطاعة والمعصية ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ وكما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وهذا لا ينافي ما في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا تفضلوا بين الأنبياء» (٢)؛ فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصية، لا بمقتضى الدليل، فإذا دل الدليل على شيء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولى العزم منهم أفضل، وهم الخمسة المذكورون نصا في آيتين من القرآن في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وفي الشورى في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى ثم عيسى عليه السلام على المشهور، وقد بسطنا هذا بدلائله في غير هذا الموضع، والله الموفق.

وقوله تعالى: ﴿وَأْتَيْنَا دَاوُدَ ذُبُورًا﴾ تنبيه على فضله وشرفه. روى البخارى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال: «خُفَّ عَلَى دَاوُدَ الْقُرْآنَ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِهِ فَيَسْرَجُ، فَكَانَ يَقْرَأُ قَبْلَ أَنْ يَفْرَغَ». يعنى القرآن (٣).

﴿ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشَفَ الضُّبُرِ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُمْ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ

(١) المسند (٢ / ٣١٧) والبخارى (٧٠٧٢) ومسلم (٢٦١٧ / ١٢٦) .

(٢) البخارى (٣٤١٤) ومسلم (٢٣٧٣ / ١٥٩) .

(٣) البخارى (٤٧١٣) .

زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ ﴿٥٨﴾ من الأصنام والأنداد، فارغبوا إليهم، فإنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ﴾ أى: بالكلية ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أى: أن يحولوه إلى غيركم. والمعنى: أن الذى يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذى له الخلق والأمر. قال ابن عباس فى قوله: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ الآية قال: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيرا، وهم الذين يدعون، يعنى الملائكة والمسيح وعزيراً. وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ الآية. روى البخارى عن عبد الله فى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَتَّخِذُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الوسيلة﴾ قال: ناس من الجن، كانوا يعبدون، فأسلموا. وفى رواية قال: كان ناس من الإنس، يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم^(١). وقال ابن مسعود فى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَتَّخِذُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الوسيلة﴾ قال: نزلت فى نفر من العرب، كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم، فنزلت هذه الآية. وفى رواية عن ابن مسعود: كانوا يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم: الجن، فذكره. وقال مجاهد: عيسى، والعزير، والملائكة. واختار ابن جرير قول ابن مسعود؛ لقوله: ﴿يَتَّخِذُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الوسيلة﴾، وهذا لا يعبر به عن الماضى، فلا يدخل فيه عيسى والعزير. قال: والوسيلة هى القربة، كما قال قتادة؛ ولهذا قال: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾: لاتمم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف يتكف عن المناهى، وبالرجاء يكثر من الطاعات. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحذُورًا﴾ أى: ينبغى أن يحذر منه، ويخاف من وقوعه وحصوله، عياداً بالله منه.

﴿ وَإِنْ مِّن قَرْبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الرِّقْمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾

هذا إخبار من الله عز وجل بأنه قد حتم وقضى بما قد كتبه عنده فى اللوح المحفوظ: أنه ما من قرية إلا سيهلكها، بأن يبئد أهلها جميعهم أو يعذبهم ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال تعالى عن الأمم الماضين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١] وقال تعالى: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٨]

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ وَءَاثِنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾

عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبى ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن نستأنى بهم، وإن شئت أن نُؤتِيهم الذى سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من كان قبلهم من الأمم: قال: «لا، بل استأن بهم». وأنزل الله:

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَآتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ . رواه النسائي (١) .

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ أي: نبعث الآيات ونأتى بها على ما سأل قومك منك، فإنه سهل علينا يسير لدينا، إلا أنه قد كذب بها الأولون بعدما سألوها، وجرت سنتنا فيهم وفي أمثالهم أنهم لا يؤخرون إن كذبوا بها بعد نزولها، كما قال الله تعالى في المائدة: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥]. وقال تعالى عن ثمود، حين سألوها آية: ناقة تخرج من صخرة عينوها، فدعا صالح ربه، فأخرج له منها ناقة على ما سألوها ﴿فَطَلَّمُوا بِهَا﴾ أي: كفروا بمن خلقها، وكذبوا رسوله وعقروا الناقة فقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ﴾ أي: دالة على وحدانية من خلقها وصدق الرسول الذي أحيب دعاؤه فيها ﴿فَطَلَّمُوا بِهَا﴾ أي: كفروا بها ومنعوا شربها وقتلوا، فأبادهم الله عن آخرهم، وانتقم منهم، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ قال قتادة: إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلمهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون. وكذا قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله، عز وجل، يرسلهما يخوف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره». ثم قال: «يا أمة محمد، والله ما أحد أغير من الله أن يزنى عبده أو تزنى أمته، يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» (٢).

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحُوفُهُمْ مَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ محرّضاً له على إبلاغ رسالته، ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس، فإنه القادر عليهم، وهم في قبضته وتحت قهره وغلبته. قال مجاهد، والحسن، وقاتدة، وغيرهم في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أي: عصمك منهم.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ روى البخارى عن ابن عباس: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ قال: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ شجرة الزقوم (٣). وقد تقدمت أحاديث الإسراء في أول السورة، وتقدم أن ناساً رجعوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق؛ لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ أي: اختباراً وامتحاناً. وأما «الشجرة الملعونة»، فهي شجرة الزقوم، كما حكي

(١) المسند (٢٣٣٣) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» والنسائي في الكبرى (١١٢٩٠).

(٢) البخارى (١٠٤٤) ومسلم (١/٩٠١). (٣) البخارى (٤٧١٦).

ذلك ابن عباس .

وقوله : ﴿ وَنَحْوَهُمْ ﴾ أى : الكفار بالوعيد والعذاب والنكال ﴿ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ أى : تمادياً فيما هم فيه من الكفر والضلال . وذلك من خذلان الله لهم .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ مَا أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَخْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾

يذكر تعالى عداوة إبليس - لعنه الله - لآدم، وذريته، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له؛ افتخاراً عليه واحتقاراً له ﴿ قَالَ أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الاعراف: ١٢] . وقال أيضاً : ﴿ أَرَأَيْتَكَ ﴾ يقول للرب جراءة وكفراً، والرب يحلم وينظر ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَخْتَنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ قال ابن عباس : يقول : لاستولين على ذريته إلا قليلاً . وقال مجاهد : لأحتوين . وقال ابن زيد : لأضلنهم . وكلها متقاربة، والمعنى : أنه يقول : أرايتك هذا الذى شرفته وعظمته على، لئن أنظرتنى لأضلن ذريته إلا قليلاً منهم !

﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِرْ مِنْ أَسْتَفْزَرَ مَنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكِهِمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾

لما سأل إبليس النظرة قال الله له : ﴿ أَذْهَبَ ﴾ فقد أنظرتك، كما قال فى الآية الأخرى قال : ﴿ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ ﴾ [الحجر : ٣٧ ، ٣٨] ثم أوعده ومن اتبعه من ذرية آدم جهنم ﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ ﴾ أى : على أعمالكم ﴿ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ قال مجاهد : وافراً . وقال قتادة : موفورا عليكم، لا ينقص لكم منه .

وقوله : ﴿ وَاسْتَفْزِرْ مِنْ أَسْتَفْزَرَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ قيل : هو الغناء . قال مجاهد : باللهو والغناء، أى : استخفهم بذلك . وقال ابن عباس : كل داع دعا إلى معصية الله ، عز وجل ، واختاره ابن جرير . وقوله : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمُ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ يقول : واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم؛ فإن «الرجل» جمع «راجل»، كما أن «الركب» جمع «راكب» و «صحب» جمع «صاحب» . ومعناه : تسلط عليهم لكل ما تقدر عليه . وهذا أمر قدرى، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى

الْكَافِرِينَ تَوَزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ [مریم: ٨٣] أى: تزعجهم إلى المعاصى إزعاجاً، وتسوقهم إليها سوقاً. وقال ابن عباس، ومجاهد فى قوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَبْلِكَ وَرَجِّلِكَ﴾ قال: كل راكب وماش فى معصية الله. تقول العرب: «أجلب فلان على فلان»: إذا صاح عليه. ومنه اشتقاق «الجلبة»، وهى ارتفاع الأصوات.

وقوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال فى معاصى الله. وقال عطاء: هو الربا. وقال الحسن: جمعها من خبيث، وإنفاقها فى حرام. وكذا قال قتادة. وقال ابن عباس: أما مشاركته إياهم فى أموالهم، فهو ما حرموه من أنعامهم، يعنى: من البحائر والسوائب ونحوها. وكذا قال الضحاک وقتادة. قال ابن جرير: والأولى أن يقال: إن الآية تعم ذلك كله.

وقوله: ﴿وَالْأَوْلَادِ﴾ قال مجاهد، والضحاک: يعنى أولاد الزنا. وقال ابن عباس: هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفها بغير علم. وقال قتادة، عن الحسن البصرى: قد والله شاركهم فى الأموال والأولاد مَجْسُوماً وهودوا وَتَصَرَّوا وصبغوا غير صبغة الإسلام، وَجَزَّؤُوا من أموالهم جزءاً للشياطين. قال ابن جرير: وأولى الأقوال بالصواب أن يقال: كل مولود ولدته أنثى، عصى الله فيه، بتسميته ما يكرهه الله، أو بإدخاله فى غير الدين الذى ارتضاه الله، أو بالزنا بأمه، أو بقتله أو وأده، أو غير ذلك من الأمور التى يعصى الله بفعله به أو فيه، فقد دخل فى مشاركة إبليس فيه من ولد ذلك الولد له أو منه؛ لأن الله لم يخص بقوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ معنى الشركة فيه بمعنى دون معنى، فكل ما عصى الله فيه أو به، وأطبع فيه الشيطان أو به، فهو مشاركة. وهذا الذى قاله متجه، وكل من السلف، فسر بعض المشاركة، فقد ثبت فى صحيح مسلم، عن عياض بن حمار، أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: إني خلقت عبادى حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم»^(١). وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتى أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد فى ذلك، لم يضره الشيطان أبداً»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول إذا حصحص الحق يوم يقضى بالحق: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾: إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين، وحفظه إياهم، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بَرِّكَتِكَ وَكَيْلًا﴾ أى: حافظاً ومؤيداً وناصرًا.

﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزِيحُ لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا بِكُمْ رَحِيمًا﴾



يخبر تعالى عن لطفه بخلقه فى تسخيره لعباده الفلك فى البحر، وتسهيله لمصالح عباده، لا يتغاثم من فضله فى التجارة من إقليم إلى إقليم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أى: إنما

(٢) البخارى (١٤١) ومسلم (١٤٣٤ / ١١٦) .

(١) مسلم (٢٨٦٥ / ٦٣) .

فعل هذا بكم من فضله عليكم، ورحمته بكم.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ
وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾

يخبر تعالى أن الناس إذا مسهم ضرٌّ، دعوه منييين إليه، مخلصين له الدين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ﴾ أى: ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى، كما اتفق لعكرمة بن أبى جهل لما ذهب فاراً من رسول الله ﷺ حين فتح مكة، فذهب هارباً، فركب فى البحر ليدخل الحبيشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغنى عنكم إلا أن تدعوا الله وحده. فقال عكرمة فى نفسه: والله لئن كان لا ينفع فى البحر غيره، فإنه لا ينفع فى البر غيره، اللهم لك على عهد، لئن أخرجتنى منه لأذهبن فأضعن يدى فى يد محمد، فلاجدنه رؤوفاً رحيماً. فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه، رضى الله عنه وأرضاه.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أى: نسيتم ماعرفتم من توحيدته فى البحر، وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ أى: سَجِيَّتُهُ هَذَا، ينسى النعم ويجهدها، إلا من عصم الله .

﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ
وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾

يقول تعالى: أفحسبتم بخروجكم إلى البر أمنتهم من انتقامه وعذابه!

﴿أَنْ نُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ نُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ وهو: المطر الذى فيه حجارة . قاله مجاهد، وغير واحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ . نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا﴾ [القم: ٣٤، ٣٥] وقد قال فى الآية الأخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَجِيلٍ (١)﴾ [هود: ٨٢]، وقال: ﴿أَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورُ . أَمْ أَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ [الملك: ١٦، ١٧].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَاكِيلًا﴾ أى: ناصرأ يرد ذلك عنكم، ويتقدم منه .

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا
كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ﴾ أيها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا فى البحر ، وخرجوا

إلى البر ﴿أَنْ يُعِيدَكُمْ﴾ فى البحر مرة ثانية ﴿فُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾ أى: يقصف الصوارى ويغرق المراكب. قال ابن عباس وغيره: القاصف: ريح البحار التى تكسر المراكب وتغرقها. وقوله: ﴿فَيُغْرِقُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أى: بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى. ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ قال ابن عباس: نصيراً، وقال مجاهد: نصيراً ثائراً، أى: يأخذ بثأركم بعدكم.

رَبِّ ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَيْلِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم، وتكريمه إياهم، فى خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [النين: ٤] أى: يمشى قائماً منتصباً على رجلية، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشى على أربع ويأكل بفمه، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً، يفقه بذلك كله ويتنفع به، ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها فى الأمور الدينية والدنيوية والدينية. ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَيْلِ﴾ أى: على الدواب من الأنعام والخليل والبغال، وفى ﴿الْبَحْرِ﴾ أيضاً على السفن الكبار والصغار ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى: من زروع وثمار، ولحوم وألبان، من سائر أنواع الطعوم والألوان، المشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها، مما يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أى: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات.

وقد استدل بهذه الآية على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة .

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ يَمِينِهِ فَاُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿٧٢﴾

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة: أنه يحاسب كل أمة بإمامهم. وقد اختلفوا فى ذلك، فقال مجاهد وقتادة: أى بنبيهم. وهذا كقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قَضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ الآية [يونس: ٤٧]. وقال بعض السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث؛ لأن إمامهم النبى ﷺ. وقال ابن زيد: بكتابهم الذى أنزل على نبيهم، من التشريع. واختاره ابن جرير، وعن مجاهد أنه قال: بكتبهم. فيحتمل أن يكون أراد هذا، وأن يكون أراد مارواه العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ﴾ أى: بكتاب أعمالهم، وكذا قال أبو العالية، والحسن، والضحاك. وهذا القول هو الأرجح؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ

لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ [الكهف: ٤٩]. ويحتمل أن المراد بإمامهم : أى كل قوم بمن يأتمون به ، فاهل الإيمان ائتموا بالانبياء عليهم السلام ، واهل الكفر ائتموا بأئمتهم، كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ . وفى الصحيحين : « لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فيتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت » الحديث (١).

وقال تعالى : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٨ ، ٢٩].

وهذا لا ينافى أن يجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمته، فإنه لا بد أن يكون شاهداً عليها بأعمالها، كما قال : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ ، [الزمر: ٦٩] ، وقاله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]. ولكن المراد ههنا بالإمام هو كتاب الأعمال؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ ﴾ أى : من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، يقرؤه ويحب قراءته، كقوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَبُوا مِنِّي ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴾ [الحاقة: ١٩ - ٢٥]

وقوله : ﴿ وَلَا يَظْلَمُونَ فَيَلًا ﴾ قد تقدم أن «الفتيل» هو الخيط المستطيل فى شق النواة.

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ ﴾ أى : فى الحياة الدنيا ﴿ أَعْمَى ﴾ عن حجج الله وآياته وبيناته ﴿ فَيَهْوَى فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى ﴾ أى : كذلك يكون ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ أى : وأضل منه كما كان فى الدنيا، عياداً بالله من ذلك .

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرَى عَلَيْنَا غَيْرًا وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٦﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٧﴾ إِذَا لَأَذْنَفْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن تأييد رسوله، صلوات الله عليه وسلامه، وتثبيتته، وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الضغار، وأنه تعالى هو المتولى أمره ونصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناواه، فى مشارق الأرض ومغاربها .

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةً مِنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾

نزلت فى كفار قريش، هموا بإخراج الرسول من بين أظهرهم، فتوعدهم الله بهذه الآية،

وأنتهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً. وكذلك وقع؛ فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم، بعد ما اشتد أذاهم له، إلا سنة ونصف، حتى جمعهم الله وإياه بيدراً على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم، وسبى ذراريهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سُنَّةٌ مِّن قَدْ أَرْسَلْنَا﴾ الآية، أي: هكذا عادتنا في الذين كفروا برسولنا وأذوهم: بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتيهم العذاب. ولولا أنه رسول الرحمة، لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ الآية [الأنفال: ٣٣].

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾

يقول تبارك تعالى لرسوله ﷺ أمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ عن ابن عباس: « دلوكها »: زوالها . ورواه نافع، عن ابن عمر. ورواه مالك في تفسيره، عن الزهري، عن ابن عمر. وقاله أبو بَرزَةَ الأسلمي وهو رواية أيضاً عن ابن مسعود. ومجاهد. واختاره ابن جرير.

فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلاة الخمسة فمن قوله: ﴿لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ وهو: ظلامه، وقيل: غروب الشمس، أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وقوله: ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ يعني: صلاة الفجر. وقد بينت السنة عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله تفاصيل هذه الأوقات، على ما عليه أهل الإسلام اليوم، مما تلقوه خلفاً عن سلف، وقرناً بعد قرن، كما هو مقرر في مواضعه، ولله الحمد. ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾. روى البخاري عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر». يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ (١).

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود، وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: « تشهد ملائكة الليل، وملائكة النهار». ورواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح (٢). وفي لفظ في الصحيحين عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر، فيعرجُ الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم - وهو أعلم بكم - كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون» (٣).

(١) البخاري (٤٧١٧).

(٢) المسند (٢ / ٤٧٤) والترمذي (٣١٣٥) والنسائي في الكبرى (١١٢٩٣) وابن ماجه (٦٧٠).

(٣) البخاري (٥٥٥) ومسلم (٦٣٢ / ٢١٠).

وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ : أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة ، كما ورد فى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ ، أنه سئل : أى الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال : « صلاة الليل » (١). ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل ، فإن التهجد : ما كان بعد نوم . وكذلك ثبت الأحاديث عن رسول الله ﷺ : أنه كان يتهجد بعد نومه ، عن ابن عباس ، وعائشة ، وغير واحد من الصحابة ، رضى الله عنهم ، كما هو مبسوط فى موضعه ، ولله الحمد والمنة . واختلف فى معنى قوله تعالى : ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فقيل : معناه : أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك ، فجعلوا قيام الليل واجباً فى حقه دون الأمة . وهو أحد قولى الشافعى ، واختاره ابن جرير . وقيل : إنما جعل قيام الليل فى حقه نافلة على الخصوص ؛ لأنه قد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، وغيره من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التى عليه ، قاله مجاهد .

وقوله : ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ أى : افعل هذا الذى أمرتك به ، لتقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً يحمدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم ، تبارك وتعالى . قال ابن جرير : قال أكثر أهل التأويل : ذلك هو المقام الذى يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم . قلت : لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد ، وتشريفات لا يساويه فيها أحد؛ فهو أول من تنشق عنه الأرض ، ويبعث ركباً إلى المحشر ، وله اللواء الذى آدم فمن دونه تحت لوائه ، وله الخوض الذى ليس فى الموقف أكثر وارداً منه ، وله الشفاعة العظمى عند الله لىأتى لفصل القضاء بين الخلائق ، وذلك بعد ما يسأل الناس آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ، فكل يقول : «لست لها» حتى يأتوا إلى محمد ﷺ فيقول : «أنا لها ، أنا لها» كما سنذكر ذلك مفصلاً فى هذا الموضع ، إن شاء الله تعالى . ومن ذلك أنه يشفع فى أقوام قد أمر بهم إلى النار ، فيردون عنها . وهو أول الأنبياء يقضى بين أمته ، وأولهم إجازة على الصراط بأمته . وهو أول شفيع فى الجنة ، كما ثبت فى صحيح مسلم . وفى حديث الصور : أن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته . وهو أول داخل إليها وأمته قبل الأمم كلهم . ويشفع فى رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم . وهو صاحب الوسيلة التى هى أعلى منزلة فى الجنة ، لا تليق إلا له . وإذا أذن الله تعالى فى الشفاعة للعصاة شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون ، فيشفع هو فى خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله ، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه فى ذلك . وقد بسطت ذلك مستقصى فى آخر كتاب «السيرة» فى باب الخصائص ، ولله الحمد والمنة .

ولنذكر الآن الأحاديث الواردة فى المقام المحمود ، وبالله المستعان :

روى البخارى عن ابن عمر قال : إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاً ، كل أمة تتبع نبياها ، يقولون : يا فلان اشفع ، يا فلان اشفع حتى تنتهى الشفاعة إلى محمد ﷺ ، فذلك يوم

يبعثه الله مقاماً محموداً (١).

وروى البخارى عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع ائداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته، حلّت له شفاعتى يوم القيامة». انفراد به دون مسلم (٢).

وروى الإمام أحمد عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «يجتمع المؤمنون يوم القيامة، فيلهمون ذلك فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فأراحنا من مكاننا هذا. فيأتون آدم فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا. فيقول لهم آدم: لست هناك، ويذكر ذنبه الذى أصاب، فيستحى ربه، عز وجل، من ذلك، ويقول: ولكن اتوا نوحاً، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض. فيأتون نوحاً فيقول: لست هناك، ويذكر خطيئة سؤاله ربه ما ليس له به علم، فيستحى ربه من ذلك، ولكن اتوا إبراهيم خليل الرحمن. فيأتونه فيقول: لست هناك، ولكن اتوا موسى، عبداً كلمه الله، وأعطاه التوراة. فيأتون موسى فيقول: لست هناك، ويذكر لهم النفس التى قتل بغير نفس، فيستحى ربه من ذلك، ولكن اتوا عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته وروحه، فيأتون عيسى فيقول: لست هناك، ولكن اتوا محمداً عبداً غفراً له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتونى». قال الحسن هذا الحرف: «فأقوم فأمشى بين سباطين من المؤمنين». قال أنس: «حتى أستاذن على ربي، فإذا رأيت ربي وقعت له - أو: خررت - ساجداً لربي، فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى». قال: «ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، واشفع تشفع، وسل تعطه. فأرفع رأسى، فأحمده بتحميد يُعلمنيهِ، ثم أشفع فيحدّ لى حدّاً، فأدخلهم الجنة»: «ثم أعود إليه الثانية، فإذا رأيت ربي وقعت - أو: خررت - ساجداً لربي، فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى. ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يُعلمنيهِ، ثم أشفع فيحدّ لى حدّاً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود فى الثالثة؛ فإذا رأيت ربي وقعت - أو: خررت - ساجداً لربي، فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يُعلمنيهِ، ثم أشفع فيحدّ لى حدّاً، فأدخلهم الجنة. ثم أعود الرابعة فأقول: يارب، ما بقى إلا من حبسه القرآن». فحدثنا أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «فيخرج من النار من قال: «لا إله إلا الله» وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: «لا إله إلا الله» وكان فى قلبه من الخير ما يزن برّة، ثم يخرج من النار من قال: «لا إله إلا الله» وكان فى قلبه من الخير ما يزن ذرة». أخرجاه (٣).

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، قال: أتى رسول الله ﷺ بلحم، فَرُفِعَ إليه الذراع

(١) البخارى (٤٧١٨) .

(٢) البخارى (٤٧١٩) .

(٣) المسند (٣ / ١١٦) والبخارى (٤٤٧٦) ومسلم (١٩٣ / ٣٢٢) .

- وكانت تعجبه - فَتَهَسَ مِنْهَا تَهَسَةً، ثم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون ممّ ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد، يُسْمِعُهُم الداعى وَيَنْفِذُهُم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكره ما لا يظنون ولا يحتملون. فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون إلى ما أنتم فيه مما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم. فيأتون آدم عليه السلام، فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقتك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك؛ فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيته، نفسى، نفسى، نفسى! اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لى دعوة دعوتها على قومى، نفسى، نفسى، نفسى! اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى إبراهيم. فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، فذكر كذباته، نفسى، نفسى، نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى موسى. فيأتون موسى عليه السلام فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، اصطفاك الله برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنى قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها، نفسى، نفسى، نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى عيسى. فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى، أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس فى المهد، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى محمد ﷺ. فيأتون محمداً ﷺ فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأقوم فأتى تحت العرش، فأقع ساجداً لربي، عز وجل، ثم يفتح الله علىّ، ويلهمنى من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلى. فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسى فأقول: أمتى يارب، أمتى يارب، أمتى يارب، فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب». ثم قال: «والذى نفس محمد بيده، إن ما بين المصرعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهَجَرَ، أو كما بين مكة وبُصْرَى». أخرجاه فى الصحيحين^(١).

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر يوم القيامة، وأول شافع، وأول مُشَفَّع» (١).

﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾. وقال الترمذي: حسن صحيح (٢).

وقال قتادة: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ يعني: المدينة ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يعني: مكة. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا القول هو أشهر الأقوال. وهو اختيار ابن جرير.

وقوله: ﴿وَاجْعَل لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ قال الحسن البصري: وعده ربه لينزع عن ملك فارس، وعز فارس، وليجعلنه له، وملك الروم، وعز الروم. وقال قتادة فيها: إن نبي الله ﷺ، علم الأمانة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله؛ فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم، على بعض، فأكل شديدهم ضعيفهم. قال مجاهد: ﴿سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾: حجة بينة. واختار ابن جرير قول الحسن وقتادة، وهو الأرجح؛ لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناواه؛ ولهذا يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ الآية [الحديد: ٢٥]، وفي الحديث: «إن الله لَيَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن» أي: ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام، ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد، والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع.

وقوله: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ الآية: تهديد ووعيد لكفار قريش؛ فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مربة فيه ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع. وَزَهَقَ بِالطَّلْمِ، أي: اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ﴿بَلْ نَقْدِفْ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ٤١٨]. وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصْبٍ، فجعل يطعنهما يعود في يده، ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]. وكذا رواه البخاري أيضاً في غير هذا الموضع، ومسلم، والترمذي، والنسائي (٣).

(١) مسلم (٢٢٧٨ / ٣).

(٢) المسند (١٩٤٨) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح»، والترمذي (٣١٣٩).

(٣) البخاري (٤٧٢٠، ٤٤٧٨، ٤٢٨٧) ومسلم (١٧٨١ / ٨٧) والترمذي (٣١٣٨) والنسائي في الكبرى (١١٢٩٧).

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ ﴿٨٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذى أنزله على رسوله محمد ﷺ - وهو القرآن - إنه: ﴿ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: يذهب ما فى القلوب من أمراض، من شك ونفاق، وشرك وزيف وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله. وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه، فإنه يكون شفاء فى حقه ورحمة. وأما الكافر الظالم نفسه بذلك، فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعداً وتكذيباً وكفراً. والآفة من الكافر لا من القرآن، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤] وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أَنزَلْنَا سُورَةً فَفَمَنَّهُمْ مَّن يَقُولُ أَكُنَّم زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. والآيات فى ذلك كثيرة. قال قتادة فى قوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾: إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ إنه لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء، ورحمة للمؤمنين .

﴿ وَإِذَا أَنعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَتُوسَّأُ ﴾ ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلُّ

يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَن هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ ﴿٨٤﴾

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو، إلا من عصم الله تعالى فى حالته السراء والضراء فإنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية، وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد، أعرض عن طاعة الله وعبادته ﴿ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ﴾ قال مجاهد: بُعد عنا .

قلت : وهذا كقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضْرَهُ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضَرْمِهِ ﴾ [يونس: ١٢]، وقوله: ﴿ فَلَمَّا نَجَّأكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وبأنه ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ وهو المصائب والحوادث والنوائب ﴿ كَانَ يَتُوسَّأُ ﴾ أى: قنط أن يعود يحصل له بعد ذلك خير ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن أَدْقَاهُ نَعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَّسَتْهُ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ . إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [هود: ١٠، ١١].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾ قال ابن عباس: على ناحيته. وقال مجاهد: على حدته وطبيعته. وهذه الآية - والله أعلم - تهديد للمشركين ووعيد لهم، كقوله تعالى: ﴿ وَقُلْ لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ الآية [هود: ١٢١]؛ ولهذا قال: ﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَن هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ أى: منا ومنكم، سيجزى كل عامل بعمله، فإنه لا يخفى عليه خافية .

﴿ وَتَسْتَلُونَا عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِن أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿٨٥﴾

روى الإمام أحمد عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : كنت أمشى مع النبى ﷺ فى

حرث المدينة، وهو متوكئ على عسيب، فمر بقوم من اليهود، وقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح. وقال بعضهم: لا تسألوه. قال: فسألوه عن الروح، فقالوا: يا محمد، ما الروح؟ فما زال متوكئاً على العسيب، قال: فظننت أنه يوحى إليه، فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه. وهكذا رواه البخاري ومسلم (١).

وهذا السياق يقتضى فيما يظهر بادی الرأي: أن هذه الآية مدنية، وأنها نزلت حين سألته اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية. وقد يجاب عن هذا: بأنه قد يكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهى هذه الآية: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ وما يدل على نزول هذه الآية بمكة ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل. فقالوا: سلوه عن الروح. فنزلت: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيراً كثيراً. قال: وأنزل الله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ﴾ الآية [الكهف: ١٠٩] (٢). وقد اختلف المفسرون فى المراد بالروح ههنا على أقوال: أحدها: أن المراد: أرواح بنى آدم. وقيل: المراد بالروح ههنا: جبريل. قاله قتادة. وقيل: المراد به ههنا: ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها.

وقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أى: من شأنه، وما استأثر بعلمه دونكم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى: وما أطلعكم من علمه إلا على القليل، فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى. والمعنى: أن علمكم فى علم الله قليل، وهذا الذى تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى، ولم يطلعكم عليه، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى؛ ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. ذكر السهيلي الخلاف بين العلماء فى أن الروح هى النفس، أو غيرها، وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء، سارية فى الجسد كسريان الماء فى عروق الشجر. وقرر أن الروح التى ينفخها الملك فى الجنين هى النفس بشرط اتصالها بالبدن، واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم، فهى إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء. قال: كما أن الماء هو حياة الشجر، ثم يكسب بسبب اختلاطه معها اسماً خاصاً، فإذا اتصل بالعنبة وعصر منها صار ماء مُصْطَرَّاراً أو خمراً، ولا يقال له: «ماء» حيثئذ إلا على سبيل المجاز، وهكذا لا يقال للنفس: «روح» إلا على هذا النحو، وكذلك لا يقال للروح: نفس إلا باعتبار ما تؤول إليه. فحاصل ما نقول: إن الروح هى أسل النفس ومادتها، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن، فهى من وجه لا من كل وجه. وهذا معنى حسن، والله أعلم.

(١) المسند (٣٦٨٨) والبخارى (١٢٥، ٧٤٦٢) ومسلم (٢٧٩٤/ ٣٢).

(٢) المسند (٢٣٠٩) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

قلت: وقد تكلم الناس في ماهية الروح وأحكامها وصفنوا في ذلك كتباً. ومن أحسن من تكلم على ذلك الحافظ ابن منده، في كتاب سمعناه في: الروح.

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾
 إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ
 أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ
 صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم، فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم، فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله، لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا، فإن هذا أمر لا يستطيع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق، الذي لا نظير له، ولا مثال له، ولا عديل له؟!

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ﴾ الآية ، أي: بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق وشرحنه وبسطناه، ومع هذا ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي: جحوداً ورداً للصواب.

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ
 جَنَّةٌ مِّن تَحْتِهَا نَاجِيَةٌ فَتُنْفِجِرَ الْأَنْهَارَ حِثْلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا
 زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِنَارٍ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن
 زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ
 رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

قال ابن جرير عن عكرمة، عن ابن عباس: أن عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، ورجلاً من بني عبد الدار، وأبا البختري أخا بني أسد، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، ونُبَيْهَا ومُنْبَهَا ابني الحجاج السهميين، اجتمعوا، أو: من اجتمع منهم، بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه. فبعثوا إليه: أن أشرف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك. فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء، وكان عليهم حريصاً، يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لنُعذَرَ فِئِكَ، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك! لقد شتمت الآباء،

وعبتَ الدين، وسَفَّهتَ الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما بقى من أمر قبيح إلا وقد جثته فيما بيننا وبينك! فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا، سوّدناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك بما يأتيك ريثاً تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن: الرئى - فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا فى طلب الطب، حتى نبرتك منه، أو نُعذّر فيك . فقال رسول الله ﷺ: «ما بى ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن بعثنى الله إليكم رسولا، وأنزل على كتاباً، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بينى وبينكم». أو كما قال رسول الله ﷺ تسليماً.

فقالوا: يا محمد، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيّق منا بلاداً، ولا أقل مالا، ولا أشدّ عيشاً منا، فاسأل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيّقت علينا، وليبسّط لنا بلادنا، وليفجّر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا قصى بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول، حق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقك، صدقتك، وعرفنا منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولا كما تقول! فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من عند الله بما بعثنى به، فقد بلغتكم ما أرسلت به، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بينى وبينكم».

قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك، فاسأل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وتساله فيجعل لك جناناً، وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة، ويغنيك بها عما نراك تبتغى، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك، إن كنت رسولا كما تزعم . فقال لهم رسول الله ﷺ: « ما أنا بفاعل، ما أنا بالذى يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثنى بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم».

قالوا: فأسقط السماء، كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك، فإننا لن نؤمن لك إلا أن تفعل.

فقال لهم رسول الله ﷺ: « ذلك إلى الله إن شاء فعل بكم ذلك». فقالوا: يا محمد، أما علم ربك أنا سنجلس معك، ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع فى ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة، يقال له: الرحمن، وأنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرتنا إليك يا محمد، أما والله لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا. وقال

قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهى بنات الله. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلاً.

فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم، وقام معه عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته، ابن عاتكة ابنة عبد المطلب، فقال: يا محمد، عرض عليك قومك ماعرضوا، فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله، فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً، ثم ترقى فيه، وأنا أنظر حتى تأتيها، وتأتى معك بنسخة منشورة، معك أربعة من الملائكة، يشهدون أنك كما تقول. وإيم الله، لو فعلت ذلك لظننت أنى لا أصدقك. ثم انصرف عن رسول الله ﷺ، وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزياً أسفاً لما فاتته، مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مبادعتهم إياه. وهكذا رواه زياد بن عبد الله البكائي عن سعيد بن جبير وعكرمة، عن ابن عباس، فذكر مثله سواء.

وهذا المجلس الذى اجتمع هؤلاء له، لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لأجيبوا إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفراً وعناداً، فقبل للرسول: إن شئت أعطيناهم ما سألوا فإن كفروا عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: «بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة» كما تقدم ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ مُبْصِرَةً فَلَطَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَهُهُ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكْوِينٌ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُسْحُورًا . انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا . تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا . بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَجِيرًا﴾ [الفرقان: ٧-١١].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَفْجُرْنَا مِنَ الْأَرْضِ يَتَّبِعَا﴾ الينبوع: العين الجارية، سألوه أن يجرى لهم عينونا معيناً فى أرض الحجاز ههنا وههنا، وذلك سهل يسير على الله تعالى، لو شاء لفعله ولاجبابهم إلى جميع ما سألوا وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبِلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ الآية [الانعام: ١١١].

وقوله تعالى ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ﴾ أى: أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء وتهى، وتدلى أطرافها، فعجل ذلك فى الدنيا، وأسقطها كسفاً، أى: قطعاً، كقولهم: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢]، وكذلك سأل قوم شعيب

منه فقالوا: ﴿أَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]. فعاقبهم الرب بعذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم. وأما نبي الرحمة، ونبي التوبة المبعوث رحمة للعالمين، فسأل إنظارهم وتأجيلهم، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعيده لا يشرك به شيئاً. وكذلك وقع، فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه حتى «عبد الله بن أبي أمية» الذي تبع النبي ﷺ وقال له ما قال، أسلم إسلاماً تاماً، وأتاب إلى الله عز وجل .

﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُرُوفٍ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: هو الذهب. ﴿أَوْ تَرَقَّى فِي السَّمَاءِ﴾ أى: تصعد فى سلم ونحن ننظر إليك ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُوقِكَ حَتَّى تُنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾ قال مجاهد: أى مكتوب فيه إلى كل واحد واحد صحيفة: هذا كتاب من الله لفلان ابن فلان، تصيح موضوعة عند رأسه. وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ أى: سبحانه وتعالى وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه فى أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء، إن شاء أجابكم إلى ما سألتكم، وإن شاء لم يجيبكم، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم، وقد فعلت ذلك، وأمركم فيما سألتكم إلى الله عز وجل .

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿١٤﴾ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمَشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿١٥﴾

يقول تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ أى: أكثرهم ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ ويتابعوا الرسل، إلا استعجابهم من البشر رسلاً، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [يونس: ٢]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرًا يَهُدُونَنَا﴾ [التخاين: ٦]؟ وقال فرعون وملؤه: ﴿أَنزُومِن لِّبَشَرِينَ مِثْلَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]؟ وكذلك قالت الأمم لرسولهم: ﴿إِن أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]، والآيات فى هذا كثيرة.

ثم قال تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده: أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم، ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولا من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ. فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمَشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أى: كما أنتم فيها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ أى: من جنسهم، ولما كنتم أنتم بشراً، بعثنا فيكم رسلاً منكم لطفاً ورحمة.

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ بِعِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا ﴾ ﴿٩٦﴾

يقول تعالى مرشداً نبيه ﷺ إلى الحجّة على قومه، في صدق ما جاءهم به: أنه شاهد علىّ وعليكم، عالم بما جتكم به، فلو كنت كاذباً عليه انتقم مني أشد الانتقام، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦]. وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا﴾ أي: عليهم بهم بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية، ممن يستحق الشقاء والإضلال والإزاعة؛ ولهذا قال:

﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ يُنْفِرُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَٰ وَبِكُمَا وَصَمًا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ ﴿٩٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه في خلقه، ونفوذ حكمه، وأنه لا معقب له، بأنه من يهده فلا مضلّ له ﴿وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: يهدونهم، كما قال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قيل: يا رسول الله، كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يشبههم على وجوههم». وأخرجاه في الصحيحين^(١). وقوله: ﴿عُمِيَٰ وَبِكُمَا﴾ أي: لا يبصرون ﴿وَبِكُمَا﴾ يعني: لا ينطقون ﴿وَصَمًا﴾ أي: لا يسمعون. وهذا يكون في حال دون حال جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكماً وعمياً وصماً عن الحق فجزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ أي: منقلبهم ومصيرهم ﴿جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ قال ابن عباس: سكنت. وقال مجاهد: طفت ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: لهاً ووهجاً وجمراً، كما قال: ﴿فَلْدُقُوا فَلَنْ نُزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠].

﴿ ذَٰلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفَتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ ﴿٩٩﴾

يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم به، من البعث على العمى والبكم والصمم، جزاءهم الذي يستحقونه؛ لأنهم كذبوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي: بأدلتنا وحججنا، واستبعدوا وقسوا البعث ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا﴾ أي: بالية نخرة ﴿أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك، والتفرق والذهاب في الأرض نعاد مرة ثانية؟. فاحتج تعالى

عليهم، ونبهم على قدرته على ذلك، بأنه خلق السموات والأرض، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك كما قال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُمُ خَلْقُهُمْ بَقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [الاحقاف: ٢٣]، وقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ إلى آخر السورة [يس: ٨١، ٨٢]. وقال ههنا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي: يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى كما بدأهم.

وقوله: ﴿وَجَعَلْ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدرة لا بد من انقضائها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ﴾ [هود: ١٠٤]. وقوله: ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ﴾ أي: بعد قيام الحجة عليهم ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾: إلا تمادياً في باطلهم وضلالهم.

﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ: قل لهم يا محمد: لو أنكم - أيها الناس - تملكون التصرف في خزائن الله، لأمسكتم خشية الإنفاق. أي الفقر، أي: خشية أن تذهبوا، مع أنها لا تفرغ ولا تنفذ أبداً؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ أي: بخيلاً منوعاً. وقال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣] أي: لو أن لهم نصيباً في ملك الله لما أعطوا أحداً شيئاً، ولا مقدار نقير، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وهداه؛ فإن البخل والجزع والهلع صفة له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلِيقٌ هَلُوعٌ . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا . إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢]. ولهذا نظائر كثيرة في القرآن العزيز، ويدل هذا على كرمه وجوده وإحسانه، وقد جاء في الصحيحين: «يد الله ملأى لا يعقبها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه» (١).

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَقَّ لِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ ﴿١٣١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنزَلَ هَذِهِ السُّورَةَ الْإِنشَاءِ الْإِلَهِيَّةِ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنٍ مُّسَبِّحًا ﴿١٣٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَقِزَهُمْ مِّنَ الْأَرْضِ فَأَعْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٣٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٣٤﴾

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته

وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون، وهى: العصا، واليد، والسنين، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات . وهذا القول ظاهر جلى حسن قوى. أى: ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها، كفروا بها وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً، وما نجحت فيهم، فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألو منك ما سألوا، وقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى آخرها، لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء الله، كما قال فرعون لموسى - وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ قيل: بمعنى ساحر. والله تعالى أعلم. فهذه الآيات التسع التى ذكرها هؤلاء الأئمة هى المرادة ههنا، وهى المعنية فى قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ إلى قوله: ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل: ١٠ - ١٢]. فذكر هاتين الآيتين: العصا واليد، وبين الآيات الباقيات فى «سورة الأعراف» وفصلها.

وقد أوتى موسى، عليه السلام، آيات أخر كثيرة، منها ضربهُ الحجر بالعصا، وخروج الماء منه، ومنها تظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر ههنا التسع الآيات التى شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر، فكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفرًا وجحودًا. ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ﴾ أى: حججاً وأدلة على صدق ما جئتكم به ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أى: هالكاً، قاله مجاهد وقتادة . وقال ابن عباس : ملعوناً . وقال أيضاً هو والضحاك : مغلوباً . والهالك يشمل هذا كله .

وقوله: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أى: يخليهم منها ويزيلهم عنها ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا . وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ وفى هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع؛ فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: ﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: ٧٦، ٧٧]؛ ولهذا أورث الله رسوله مكة، فدخلها عنوة على أشهر القولين، وقهر أهلها، ثم أطلقهم حلماً وكرماً، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بنى إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم، كما قال: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بنى إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] وقال ههنا: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدَ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أى: جميعاً، أى: جميعكم أنتم وعدوكم.

﴿وَيَالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ لِلنَّاسِ عَلَىٰ النَّاسِ عَلَىٰ مُكَبِّ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلاً ﴿١٠٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وهو القرآن المجيد، أنه بالحق نزل، أى: متضمناً للحق، كما قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦] أى: متضمناً علم

الله الذي أراد أن يُطَلِّعَكُم عليه، من أحكامه وأمره ونهيه.

وقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ﴾ أي: ونزل إليك - يا محمد - محفوظاً محروساً، لم يُشَبَّ بغيره، ولا زيدَ فيه ولا نُقص منه، بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديد القوى، الأمين المكين المطاع في الملاء الأعلى. وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أي: يا محمد ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعك من المؤمنين ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاك من الكافرين. وقوله: ﴿وَقَرَأْنَا فَرَقَانَهُ﴾ معناه: فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مُفرقاً منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة. قاله ابن عباس. ﴿لَتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: لتبلغه الناس وتتلوه عليهم ﴿عَلَى مَكَّةَ﴾ أي: مهَلْ ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ أي: شيئاً بعد شيء.

﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ لِلَّذِينَ يُحَدِّثُونَ كِتَابَ اللَّهِ يُخِرُّونَ لِلَّذِينَ يَلْقَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ ﴿١٠٧﴾ ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ ﴿١٠٨﴾

سجدة

يقول تعالى لنبية محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جتتهم به من هذا القرآن العظيم: ﴿ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ أي: سواء أمتم به أم لا، هو حق في نفسه، أنزله الله ونوه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: من صالحى أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم وقيمونه، ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ هذا القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ جمع ذقن، وهو أسفل الوجه ﴿سُجَّدًا﴾ أي: لله، عز وجل، شكراً على ما أنعم به عليهم، من جعله إياهم أهلاً، إن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه الكتاب؛ ولهذا يقولون: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ أي: تعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على السنة الأنبياء المتقدمين عن بعثة محمد ﷺ؛ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾.

وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ﴾ أي: خضوعاً لله عز وجل وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله، ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ أي: إيماناً وتسليماً كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوا يَهَىٰ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ﴿١٠٩﴾ ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذَ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلَكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِنَ الدَّلِيلِ وَكَرِهَهُ النَّاسُ لِكِبْرِهِ﴾ ﴿١١٠﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمن لله، عز وجل، المانعين من تسميته بالرحمن: ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: لا فرق بين

دعائكم له باسم «الله» أو باسم «الرحمن»، فإنه ذو الأسماء الحسنی، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ إلى أن قال: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [الحشر: ٢٢ - ٢٤].

وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ الآية ، روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية وهو متوار بمكة ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾ قال: كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن، وسبوا من أنزله، ومن جاء به. قال: فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ أى: بقراءتك فيسمع المشركون فيسبون القرآن ﴿وَلَا تُخَافِتُ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿وَأَبْتَعُ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾. أخرجاه في الصحيحين^(١). وهكذا قال عكرمة، والحسن البصرى، وقتادة: نزلت هذه الآية فى القراءة فى الصلاة.

وقوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾: لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنی، نزه نفسه عن النقائص فقال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ بل هو الله الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الذَّلِّ﴾ أى: ليس بذليل فيحتاج أن يكون له ولى أو وزير أو مشير، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له، ومدبرها ومقدرها بمشيئته وحده، لا شريك له. قال مجاهد فى قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الذَّلِّ﴾: لم يحالف أحدا ولم يبتغ نصر أحد. ﴿وَكَبِيرَةٌ تَكْبِيرًا﴾ أى: عظمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.

قلت: وقد جاء فى حديث أن رسول الله ﷺ سُمى هذه الآية: آية العز. وفى بعض الآثار: أنها ما قرئت بيت فى ليلة فيصيبه سرق أو آفة. والله أعلم .

تفسير سورة الكهف

وهي مكية

ذكر ما ورد في فضلها، والعشر الآيات من أولها وآخرها، وأنها عصمة من الدجال:

روى الإمام أحمد عن البراء قال: قرأ رجل الكهف، وفي الدار دابة، فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة - أو: سحابة - غشيت، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «اقرأ فلان، فإنها السكينة تنزل عند القرآن، أو تنزلت للقرآن». أخرجاه في الصحيحين^(١). وهذا الرجل الذي كان يتلو هو: أسيدُ بن الحُضَيْر، كما تقدم في تفسير البقرة.

وروى الإمام أحمد عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف، عُصِمَ من الدجال». رواه مسلم، وأبو داود، والنسائي، والترمذي. ولفظ الترمذي: «من حفظ الثلاث الآيات من أول الكهف»، وقال: حسن صحيح^(٢)، وفي لفظ لأحمد ومسلم: «من قرأ العشر الأواخر»^(٣)، ورواه النسائي عن ثوبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف، فإنه عصمة له من الدجال»^(٤).

وقد روى الحاكم عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين»، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه^(٥).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا ﴿١﴾ قِيمًا
لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ
أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَكِينٍ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا
﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ
يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾

قد تقدم في أول التفسير أنه تعالى يحمده نفسه المقدسة عند فواتح الأمور وخواتيمها، فإنه المحمود على كل حال، وله الحمد في الأولى والآخرة؛ ولهذا حمده نفسه على إنزاله كتابه العزيز

(١) المسند (٤ / ٢٨١) والبخارى (٣٦١٤) ومسلم (٧٩٥ / ٢٤٠).

(٢) المسند (٥ / ١٩٦) ومسلم (٨٠٩ / ٢٥٧) وأبو داود (٤٣٢٣) والنسائي في الكبرى (٨٠٢٥) والترمذي (٢٨٨٦).

(٣) المسند (٦ / ٤٤٦) ومسلم (٨٠٩ / ٢٥٧).

(٤) النسائي في الكبرى (١٠٧٨٤).

(٥) الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٦٨).

على رسوله الكريم محمد ﷺ؛ فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض؛ إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ، بل يهdy إلى صراط مستقيم، واضحا بينا جلياً، نذيراً للكافرين وبشيراً للمؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ أى: لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا زيغاً ولا ميلاً، بل جعله معتدلاً مستقيماً؛ ولهذا قال: ﴿قِيَمًا﴾ أى: مستقيماً ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أى: لمن خالفه وكذبه ولم يؤمن به، ينذره ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾ عقوبة عاجلة فى الدنيا وآجلة فى الآخرة ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾ أى: من عند الله الذى لا يُعَذِّبُ عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: بهذا القرآن الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿أَن لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أى: مثوبة عند الله جميلة ﴿مَا كُنِينَ فِيهِ﴾ فى ثوابهم عند الله، وهو الجنة، خالدين فيه ﴿أَبَدًا﴾ دائماً لازوال له ولا انقضاء .

وقوله: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ قال ابن إسحاق: وهم مشركو العرب فى قولهم: نحن نعبد الملائكة، وهم بنات الله ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى: بهذا القول الذى افتروه واتفكوه من علم ﴿وَلَا لآبَائِهِمْ﴾ أى: لآسلافهم. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ : أعظم بكلمتهم كلمة، وهذا تشيع لمقاتلتهم واستعظام لإفكهم؛ ولهذا قال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أى: ليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافترؤهم؛ ولهذا قال: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ .

وقد ذكر إسحاق سبب نزول هذه السورة الكريمة عن ابن عباس قال: بعثت قريش النضر ابن الحارث، وعقبة بن أبى معيط، إلى أحبار اليهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، فخرجا حتى قدما المدينة، فسألوا أحبار يهود فقالت لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن، فهو نبى مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول فَرَوَا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح، ماهو؟ فجاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا: فسأله عما أمرهم به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم غدا بما سألتم عنه». ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة، ثم جاءه جبريل، عليه السلام، من عند الله، عز وجل، بسورة أصحاب الكهف، فيها خبر مأسأله عنه من أمر الفتية والرجل الطواف، وقول الله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ﴾ الآية [الإسراء: ٨٥] .

﴿فَلَمَّا كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٦] ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ﴾ [الإسراء: ٨٥] .

يقول تعالى مسلماً لرسوله ﷺ فى حزنه على المشركين، لتركهم الإيمان وبعدهم عنه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذَهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَاحِعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]. باخع: أى مهلك نفسك بحزنك عليهم؛ ولهذا

قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاحِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِدَا الْحَدِيثِ﴾، يعنى: القرآن ﴿أَسْفًا﴾ يقول: لا تهلك نفسك أسفًا. قال قتادة: قَاتَلَ نَفْسَكَ غَضَبًا وَحَزَنًا عَلَيْهِمْ. أى: لا تأسف عليهم، بل أبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.

ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية مُزَيَّنَةً بزينة زائلة، وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء» (١). ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها، وفراغها وانقضائها، وذهابها وخرابها، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أى: وإنا لمصيروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار، فنجعل كل شيء عليها هالكاً ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾: لا يُبْنَى ولا ينتفع به، كما قال ابن عباس: يهلك كل شيء عليها ويبس. وقال قتادة: الصعيد: الأرض التى ليس فيها شجر ولا نبات.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةَ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحِمَةٌ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾

هذا إخبار عن قصة أصحاب الكهف، على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ يعنى: يا محمد ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ أى: ليس أمرهم عجيبياً فى قدرتنا وسلطاننا، فإن خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والقمر والكواكب، وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله ٤٦٣ وتسخير الشم تعالى، وأنه على ما يشاء قادر، ولا يعجزه شيء - أعجب من أخبار أصحاب الكهف. وقال ابن عباس: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ يقول: الذى آيتك من العلم والسنة والكتاب، أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم.

وأما «الكهف» فهو: الغار فى الجبل، وهو الذى لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون. وأما «الرقيم» فقال ابن عباس: الكتاب. وقال سعيد بن جبیر: لوح من حجارة، كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف، ثم وضعوه على باب الكهف. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرقيم: الكتاب. ثم قرأ: ﴿كِتَابٌ مُرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٩]. وهذا هو الظاهر من الآية، وهو اختيار ابن جرير قال: «الرقيم» فعيل بمعنى مرقوم، كما يقال للمقتول: قَتِيلٌ، وللمجروح: جَرِيحٌ. والله أعلم.

وقوله: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةَ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحِمَةٌ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾: يخبر

تعالى عن أولئك الفتية، الذين فروا بدينهم من قومهم لثلاثا يفتنهم عنه، فهربوا منهم فلجؤوا إلى غار في جبل ليخفوا عن قومهم، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولفظه بهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أى: هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِن أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أى: وقدر لنا من أمرنا هذا رشداً، أى: اجعل عاقبتنا رشداً، وفى المسند من حديث بسر بن أبى أرطاة، عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو: «اللهم، أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة» (١).

وقوله: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ أى: القينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنين كثيرة ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أى: من رقدتهم تلك، وخرج أحدهم بدرهم معه ليشتري لهم بها طعاماً يأكلونه، كما سيأتى بيانه وتفصيله؛ ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَى الْحِزْبَيْنِ ﴾ أى: المختلفين فيهم ﴿ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمْدًا ﴾ قيل: عدداً، وقيل: غاية، فإن الأمد الغاية .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرِذْنَهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَّطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوهُ مِن دُونِهِ إِنَّهَا لَقد قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطٰنٍ بَيِّنٍ فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذْ أَعْرَضْتُمُوهُمْ وَمَا يعبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِّن أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٦﴾

من ههنا شرع فى بسط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتية - وهم الشباب - وهم أقبل للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ، الذين قد عتوا وانغمسوا فى دين الباطل؛ ولهذا كان أكثرهم المستجيبين لله ولرسوله ﷺ شباباً، وأما المشايخ من قريش، فعامتهم بقوا على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل. وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً. قال مجاهد: بلغنى أنه كان فى آذان بعضهم القرطة يعنى: الحلق، فآلهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم ﴿ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ أى: اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو. ﴿ وَرِذْنَهُمْ هُدًى ﴾: استدلل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخارى وغيره، ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيد وينقص؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَرِذْنَهُمْ هُدًى ﴾ كما قال: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد: ١٧]، وقال: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال: ﴿ لِيَزِدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [الفتح: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك. وقد ذكر أنهم كانوا على دين عيسى ابن مريم، فالله أعلم، والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية، فإنهم لو كانوا على دين النصرانية، لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم، لمبايئتهم لهم.

وقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول تعالى: وصبرناهم على مخالفة قومهم ومدببتهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذي جمع قلوبهم على الإيمان، كما جاء في الحديث الذي رواه البخارى تعليقاً، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». وأخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ (١).

والغرض: أنه جعل كل أحد منهم يكتب ما هو عليه عن أصحابه، خوفاً منهم، ولا يدري أنهم مثله، حتى قال أحدهم: تعلمون - والله يا قوم - أنه ما أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم، إلا شيء فليظهر كل واحد منكم بأمره. فقال آخر: أما أنا فإني رأيت ما قومي عليه، فعرفت أنه باطل، وإنما الذي يستحق أن يعبد ولا يشرك به شيء (٢) هو الله الذي خلق كل شيء: السموات والأرض وما بينهما. وقال الآخر: وأنا والله وقع لى كذلك. وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة، فصاروا يداً واحدة وإخوان صدق، فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم، فوشوا بأمرهم إلى ملكهم، فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وماهم عليه، فأجابوه بالحق، ودعوه إلى الله عز وجل؛ ولهذا أخبر تعالى بقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُو مِن دُونِهِ إِنَّهَا﴾ ولن: لنفي التأييد، أى: لا يقع منا هذا أبداً؛ لأننا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً؛ ولهذا قال عنهم: ﴿لَقَدْ قَلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ أى: باطلاً وكذباً وبهتاناً.

﴿هَؤُلَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أى: هلاً أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً؟! ﴿فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يقولون: بل هم ظالمون كاذبون فى قولهم ذلك، فيقال: إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله، أبى عليهم، وتهددهم وتوعدهم، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذى كان عليهم من زينة قومهم، وأجلهم لينظروا فى أمرهم، لعلهم يرجعون عن دينهم الذى كانوا عليه. وكان هذا من لطف الله بهم، فإنهم فى تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه. والفرار بدينهم من الفتنة. وهذا هو المشروع عند وقوع الفتنة فى الناس، أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه، كما جاء فى الحديث: «يوشك أن يكون خير مال أحدكم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتنة» (٣) ففى هذه الحال تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع.

فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم، واختار الله تعالى لهم ذلك، وأخبر

(١) البخارى (٣٣٣٦) ومسلم (٢٦٣٨ / ١٥٩) .

(٢) جاءت فى المطبوعة والمخطوطة على النصب « شيئاً » وهو خطأ .

(٣) البخارى (١٩) .

عنهم بذلك في قوله : ﴿وَإِذِ اعْتَرَضْتُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي : وإذ فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتهم غير الله ، ففارقوهم أيضاً بأديانكم ﴿فَأَوْرُوا إِلَى الْكَهْفِ نَبَشْرَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي : ييسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم ﴿وَيَهَيِّ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ﴾ الذي أنتم فيه ، ﴿مِرْقَفًا﴾ أي : أمراً ترتفقون به . فعند ذلك خرجوا هراباً إلى الكهف ، فأوروا إليه ، ففقدهم قومهم من بين أظهرهم ، وتطلبهم الملك فيقال : إنه لم يظفر بهم ، وعمى الله عليه خبرهم . كما فعل بنبيه محمد ﷺ وصاحبه الصديق ، حين لجأ إلى غار ثور ، وجاء المشركون من قريش في الطلب ، فلم يهتدوا إليه مع أنهم يملكون عليه ، وعندها قال النبي ﷺ حين رأى جزع الصديق في قوله : يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا ، فقال : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ » (١) ، وقد قال تعالى : ﴿لَا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة : ٤٠] فقصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب الكهف .

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوَّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لِيَهْدِيَ اللَّهُ الْبَالِغِينَ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًا مُرْتَدًّا﴾

أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أي : يتقلص الفء يمناً ، كما قال ابن عباس ، وسعيد بن جبيرة ، وقتادة : ﴿تَزَّوَّرُ﴾ أي : تميل ؛ وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان ؛ ولهذا قال : ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي : تدخل إلى غارهم من شمال باب ، وهو من ناحية المشرق ، فدل على صحة ما قلناه ، وهذا بين لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة ، وسير الشمس والقمر والكواكب ، وبيانه : أنه لو كان باب الغار من ناحية المشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب ، ولو كان من ناحية القبلة لما دخله منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب ، ولا تزاور الفء يمناً ولا شمالاً ، ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع ، بل بعد الزوال ولم تزل فيه إلى الغروب . فتعين ما ذكرناه ولله الحمد . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : ﴿تَقْرِضُهُمْ﴾ : تتركهم .

وقد أخبر الله تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبره ، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف في أي البلاد من الأرض ؛ إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد شرعى . وقد تكلف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالاً والله أعلم بأى بلاد الله هو . ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله ورسوله إليه ،

فقد قال ﷺ: « ماتركت شيئاً يقربكم إلى الجنة ويباعدكم من النار، إلا وقد أعلمتكم به» (١). فأعلمنا تعالى بصفته، ولم يعلمنا بمكانه، فقال: «وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوَّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ﴿١﴾ تَمِيلُ ﴿٢﴾ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴿٣﴾ أَى: فى متسع منه داخلاً، بحيث لا تمسهم؛ إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم، قاله ابن عباس. ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذى جعلهم فيه أحياء، والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾.

ثم قال: «مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴿٤﴾ الآية، أى: هو الذى أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم، فإنه من هداه الله اهتدى، ومن أضله فلا هادى له.

﴿وَتَحْسِبُهُمْ أَيْقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلْتُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَسِيطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾

ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على أذانهم بالنوم، لم تنطبق أعينهم؛ لئلا يسرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَحْسِبُهُمْ أَيْقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَنُقِلْتُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ قال ابن عباس: لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض.

وقوله: ﴿وَكَلْبُهُمْ بِاسِطٍ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ﴾ الفناء، وهو التراب. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾ [الهمزة: ٨] أى: مطبقة مغلقة. ويقال: «وصيد» و«أصيد».

ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب.

وكان جلوسه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب - كما ورد فى الصحيح (٢) - وشملت كلبهم بركتهم، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال. وهذا فائدة صحيحة الاختيار؛ فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن. واختلفوا فى لونه على أقوال لا حاصل لها، ولا طائل تحتها ولا دليل عليها، ولا حاجة إليها، بل هى مما ينهى عنه، فإن مستندها رجم بالغيب.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أى: أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم؛ لما ألبسوا من المهابة والذعر. لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم يد لأمس، حتى يبلغ الكتاب أجله، وتنقضى رقدتهم التى شاء تبارك وتعالى فيهم، لما له فى ذلك من الحجة والحكمة البالغة، والرحمة الواسعة.

(٢) مصنف عبد الرزاق (٢٠١٠٠).

(١) البخارى (٣٢٢٧).

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول تعالى: وكما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبصارهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهياتهم شيئاً، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين؛ ولهذا تساءلوا بينهم: ﴿ كَمْ لَبِئْتُمْ ﴾؟ أى: رقدتم ﴿ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ كانه كان دخولهم إلى الكهف فى أول نهار، واستيقاظهم كان آخر نهار؛ ولهذا استدركوا فقالوا: ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ ﴾ أى: الله أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تردد فى كثرة نومهم، فالله أعلم، ثم عدلوا إلى الأهم فى أمرهم إذ ذاك، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا: ﴿ فابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ ﴾ أى: فضتكم هذه. وذلك أنهم كانوا قد استصبحوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها، فتصدقوا منها وبقي منها؛ فلماذا قالوا: ﴿ فابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ أى: مدينتكم التى خرجتم منها. ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا ﴾ أى: أطيب طعاماً، كقوله: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور: ٢١] وقوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ﴾ [الأعلى: ١٤]، ومنه الزكاة التى تُطَيِّبُ المَال وتطهره. وقيل: أكثر طعاماً، ومنه زكا الزرع إذا كثر، والصحيح الأول؛ لأن مقصودهم إنما هو الطيب الحلال، سواء كان قليلاً أو كثيراً.

وقوله: ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ أى: فى خروجه وذهابه، وشرائه وإيابه، يقولون: وليختف كل ما يقدر عليه ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ ﴾ أى: ولا يعلمن ﴿ بِكُمْ أَحَدًا ﴾. إنهم إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ أى: إن علموا بمكانكم ﴿ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ يعنون أصحاب دقيانوس، يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم، فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدهم فى ملتهم التى هم عليها أو يموتوا، وإن وافقتهم على العود فى الدين فلا فلاح لكم فى الدنيا ولا فى الآخرة، ولهذا قال: ﴿ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴾ .

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْكُمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ ﴾ أى: أطلعنا عليهم الناس ﴿ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك فى البعث وفى أمر القيامة، وقال عكرمة: كان منهم طائفة قد قالوا: تبعث الأرواح ولا تبعث

الأجساد. فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك. قال قتادة: غزا ابن عباس مع حبيب بن مسلمة، فمروا بكهف فى بلاد الروم، فأروا فيه عظاماً، فقال قائل: هذه عظام أهل الكهف؟ فقال ابن عباس: لقد بليت عظامهم من أكثر من ثلاثمائة سنة. رواه ابن جرير .

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ﴾ أى: كما أرقدناهم وأيقظناهم بهياتهم، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ﴾ أى: فى أمر القيامة، فمن مثبت لها ومن منكر، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رُبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ أى: سدوا عليهم باب كهفهم، وذروهم على حالهم ﴿قَالَ الَّذِينَ عَلِمُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَتَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمُ مَسْجِدًا﴾. حكى ابن جرير فى القائلين ذلك قولين: أحدهما: أنهم المسلمون منهم. والثانى: أهل الشرك منهم، فالله أعلم. والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ. ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر؛ لأن النبى ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحهم مساجد» (١) يحذر ما فعلوا. وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، أنه لما وجد قبر دانيال فى زمانه بالعراق، أمر أن يخفى عن الناس، وأن تدفن تلك الرقعة التى وجدوها عنده، فيها شيء من الملاحم وغيرها .

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تَحْمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾

يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس فى عدة أصحاب الكهف، فحكى ثلاثة أقوال، فدل على أنه لا قائل برابع، ولما ضَعَفَ القولين الأولين بقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أى: قول بلا علم، كمن يرمى إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصاب فبلا قصد، ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فدل على صحته، وأنه هو الواقع فى نفس الأمر.

وقوله: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ﴾ إرشاد إلى أن الأحسن فى مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض فى مثل ذلك بلا علم، لكن إذا اطلعنا على أمر قلنا به، وإلا وَقَفْنَا حيث وقفنا. وقوله: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أى: من الناس. قال قتادة: قال ابن عباس: أنا من القليل الذى استثنى الله، عز وجل، كانوا سبعة. وكذا روى ابن جرير، عز عطاء الخراسانى عنه، أنه كان يقول: أنا ممن استثنى الله، ويقول: عدتهم سبعة. وقال ابن جرير عن ابن عباس: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال: أنا من القليل، كانوا سبعة. فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس: أنهم كانوا سبعة، وهو موافق لما قدمناه .

وفى تسميتهم بهذه الأسماء واسم كلهم نظر فى صحته ، والله أعلم ؛ فإن غالب ذلك مُتَلَقًى من أهل الكتاب ، وقد قال تعالى : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ أى : سهلاً هيناً ؛ فإن الأمر فى معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أى : فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب ، من غير استناد إلى كلام معصوم ، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذى لاشك فيه ولا مرية ، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال .

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنْى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿١٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادُّرُ رَبِّكَ إِذْ أَنْسَيْتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿١٤﴾ ﴾

هذا إرشاد من الله تعالى لرسوله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شىء ليفعله فى المستقبل ، أن يرد ذلك إلى مشيئة الله ، عز وجل ، علام الغيوب ، الذى يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « قال سليمان ابن داود عليهما السلام : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة - وفى رواية : تسعين امرأة . وفى رواية : مائة امرأة - تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل فى سبيل الله ، فقبيل له - وفى رواية : فقال له الملك - قل : إن شاء الله . فلم يقل ، فطاف بهن فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان » ، فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لو قال : « إن شاء الله » لم يحنث ، وكان دركاً لحاجته » ، وفى رواية : « ولقاتلوا فى سبيل الله فرساناً أجمعون (١) .

وقد تقدم فى أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية فى قول النبى ﷺ ، لما سئل عن قصة أصحاب الكهف : « غداً أجيئكم » . فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً ، وقد ذكرناه بطوله فى أول السورة ، فأغنى عن إعادته .

وقوله : ﴿ وَادُّرُ رَبِّكَ إِذْ أَنْسَيْتَ ﴾ قيل : معناه : إذا نسيت الاستثناء ، فاستثنى عند ذكرك له . وعن ابن عباس فى الرجل يحلف ؟ قال : له أن يستثنى ولو إلى سنة ، وكان يقول : ﴿ وَادُّرُ رَبِّكَ إِذْ أَنْسَيْتَ ﴾ فى ذلك . ومعنى قول ابن عباس : « أنه يستثنى ولو بعد سنة » أى : إذا نسى أن يقول فى حلفه أو كلامه « إن شاء الله » وذكر ولو بعد سنة ، فالسنة له أن يقول ذلك ، ليكون آتياً بسنة الاستثناء ، حتى لو كان بعد الحنث . قال ابن جرير ، ونص على ذلك : لا أن يكون رافعاً لحنث اليمين ومسقطاً للكفارة . وهذا الذى قاله ابن جرير ، رحمه الله ، هو الصحيح ، وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه ، والله أعلم .

ويحتمل فى الآية وجه آخر ، وهو أن يكون الله تعالى قد أرشد من نسى الشىء فى كلامه إلى ذكر الله تعالى ؛ لأن النسيان منشؤه من الشيطان ، كما قال فتى موسى : ﴿ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ [الكهف : ٦٣] ، وذكر الله تعالى يطرد الشيطان ، فإذا ذهب الشيطان ذهب

النسيان، فذكر الله تعالى سبب للذكر؛ ولهذا قال: ﴿وَأَذْكُرُ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتُ﴾ . وقوله: ﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ أي: إذا سئلت عن شيء لا تعلمه، فاسأل الله فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك، وقيل في تفسيره غير ذلك، والله أعلم .

﴿وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ ﴿١٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُمْ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ ﴿١٦﴾

هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة وتسع سنين بالهلالية ، وهى ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة بالقمريه إلى الشمسية ثلاث سنين؛ فهذا قال بعد الثلاثمائة: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ .

وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا﴾ أي: إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك وتوقيف من الله تعالى، فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: لا يعلم ذلك إلا هو أو من أطلعه الله عليه من خلقه، وهذا الذى قلناه، عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد، وغير واحد من السلف والخلف .

والظاهر من الآية إنما هو إخبار من الله ، لا حكاية عنهم. وهذا اختيار ابن جرير. وقوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أي: إنه لبصير بهم سميع لهم. قال ابن جرير: وذلك فى معنى المبالغة فى المدح، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه، وتأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء. وقوله: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ أي: إنه تعالى هو الذى له الخلق والأمر، الذى لا معقب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير، تعالى وتقدس .

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ ﴿١٧﴾ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْفَدْوَةِ وَالْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ ﴿١٨﴾

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أي: لا مغير لها ولا محرف ولا مزيل .

وقوله: ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ ملجأ. قال ابن جرير: يقول: إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحى إليك من كتب ربك، فإنه لا ملجأ لك من الله. كما قال تعالى: ﴿يَأْيُهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] أي: سائلك عما فرض عليك من إبلاغ

الرسالة. وقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أى: اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه، ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه، ويسألونه بكرة وعشياً من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء. يقال: إنها نزلت فى أشرف قريش، حين طلبوا من النبى ﷺ أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود، وليفرد أولئك بمجلس على حدة. فنهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ الآية [الانعام: ٥٢]، وأمره أن يصبر نفسه فى الجلوس مع هؤلاء فقال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

وقال مسلم فى صحيحه: عن سعد - هو ابن أبى وقاص - قال: كنا مع النبى ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبى ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترثون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان نسيتهما اسميهما، فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾. انفرد بإخراجه مسلم دون البخارى (١).

وقوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال ابن عباس: ولا تجاوزهم إلى غيرهم: يعنى: تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أى: شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ أى: أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع، ولا تكن مطيعاً له ولا محباً لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَزَقْنَاكَ مِنْ خَيْرِ مَا بَقِيَ﴾ [طه: ١٣١].

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وقل يا محمد للناس: هذا الذى جنتكم به من ربكم هو الحق الذى لا مرية فيه ولا شك ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أى: أَرَصَدْنَا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أى: سورها .

وقوله: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ الآية، قال ابن عباس: «المهل»: الماء الغليظ مثل دردى الزيت. وقال مجاهد: هو كالدّم والقحج. وهذه الأقوال ليس شىء منها ينقى الآخر، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها، فهو أسود منتن غليظ حار؛ ولهذا قال: ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ أى: من حره، إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه، شواه حتى يسقط جلد وجهه فيه، ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة: ﴿بِئْسَ

الشَّرَابِ ﴿ أَى : بَشَسَ هَذَا الشَّرَابِ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى : ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ أَنبِيَّةٍ ﴾ [الغاشية: ٥] أَى : حَارَةً ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَبَيْنَ حَمِيمٍ أَنِ ﴾ [الرحمن: ٤٤] ، ﴿ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أَى : وَسَاءَتْ النَّارُ مَنْزِلًا وَمَقِيلًا وَمَجْتَمَعًا وَمَوْضِعًا لِلرَّتْفَاقِ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى : ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٦] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٥٠﴾
 أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٥١﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الْأَشْقِيَاءِ ، ثَنَى بِذِكْرِ السَّعْدَاءِ ، الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ فِيمَا جَاوَزُوا بِهِ ، وَعَمِلُوا بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، فَلَهُمْ ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ وَالْعَدْنُ : الْإِقَامَةُ ﴿ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ أَى : مِنْ تَحْتِ غُرْفِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ ، قَالَ فِرْعَوْنُ : ﴿ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِي ﴾ [الزخرف: ٥١] . ﴿ يُحَلَّوْنَ ﴾ أَى : مِنَ الْحَلِيَّةِ ﴿ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ وَقَالَ فِي الْمَكَانِ الْآخَرَ : ﴿ وَلَوْ لَوَا وَلَبَّاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [الحج: ٢٣] وَفَصَلَّهُ هَهُنَا فَقَالَ : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ فَالسُّنْدُسُ : ثِيَابٌ رِفَاعٌ رِقَاقٌ كَالْقَمِصَانِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا ، وَأَمَّا الْإِسْتَبْرَقُ فَعَلِيظُ الدَّبِياجِ وَفِيهِ بَرِيقٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ : الْإِتِّكَاءُ قِيلَ : الْإِضْطِجَاعُ . وَقِيلَ : التَّرْبِيعُ فِي الْجُلُوسِ . وَهُوَ أَشْبَهُ بِالْمُرَادِ هَا هُنَا وَمِنَهُ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ : « أَمَا أَنَا فَلَا أَكُلُ مُتَكِنًا » (١) فِيهِ الْقَوْلَانِ . وَالْأَرَائِكُ : جَمْعُ أَرِيكَةٍ ، وَهِيَ السَّرِيرُ تَحْتَ الْحِجَلَةِ ، وَالْحِجَلَةُ كَمَا يَعْرِفُهُ النَّاسُ فِي زَمَانِنَا هَذَا بِالشِّخَانَةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . ﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أَى : نِعْمَتِ الْجَنَّةِ ثَوَابًا عَلَى أَعْمَالِهِمْ ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أَى : حَسُنَتْ مَنْزِلًا وَمَقِيلًا وَمُقَامًا ، كَمَا قَالَ فِي النَّارِ : ﴿ بَشَسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩] . وَهَكَذَا قَابِلٌ بَيْنَهُمَا فِي سُورَةِ الْفِرْقَانِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٦] ، ثُمَّ ذَكَرَ صِفَاتَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ : ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا . خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٥ ، ٧٦] .

﴿ وَأَصْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٥٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ مِائَتٌ أَكْطَابٌ وَلَمْ تَظَلِرْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٥٣﴾ وَكَانَ لَمْ نُرْ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا ﴿٥٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٥٦﴾

ربيع

يقول الله تعالى بعد ذكر المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم ولهم مثلاً برجلين، جعل الله ﴿لأحدهما جنتين﴾ أى: بستانين من أعناب، محفوفتين بالنخيل المحدقة فى جنباتهما، وفى خلألهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مُقبل فى غاية الجودة؛ ولهذا قال: ﴿كلتا الجنتين آتت أكلها﴾ أى: أخرجت ثمرها ﴿ولم تظلم منه شيئاً﴾ أى: ولم تنقص منه شيئاً ﴿وفجرنا خلألهما نهراً﴾ أى: والأنهار متفرقة فيهما ههنا وههنا. ﴿وكان له نمر﴾ قيل: المراد به: المال. وقيل: الثمار وهو أظهر ههنا ﴿فقال﴾ أى صاحب هاتين الجنتين: ﴿لصاحبه وهو يحاوره﴾ أى: يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويتأس: ﴿أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾ أى: أكثر خدماً وحشماً وولداً. قال قتادة: تلك - و الله - أمنية الفاجر: كثرة المال وعزة النفس.

وقوله: ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه﴾ أى: بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد ﴿قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً﴾ وذلك اغترار منه، لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة فى جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفتنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف، وذلك لقله عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجاب به بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة؛ ولهذا قال: ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ أى: كائنه ﴿ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً﴾ أى: ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله، ليكونن لى هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي، ولولا كرامتى عليه ما أعطانى هذا، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ولئن رجعت إلى ربي إن لى عنده للحسنى﴾ [فصلت: ٥٠] وقال: ﴿أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً﴾ [مريم: ٧٧] أى: فى الدار الآخرة، تألى على الله، عز وجل.

﴿قال لهم صاحبهم وهو يحاوره﴾ أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٤٧﴾ لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَّا أَقْلٌ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٤٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُّوتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٥٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُمْ طَلَبًا ﴿٥١﴾

يقول تعالى مخبراً عما أجابه صاحبه المؤمن، واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاعترار: ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ الآية؟ وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه، الذى خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢٨٠]، أى: كيف تجحدون ربكم، ودلالته عليكم ظاهرة جلية، كل أحد يعلمها من نفسه، فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوماً ثم وجد، وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شىء من المخلوقات؛ لأنه بمثابة، فعلم إسناد إيجاده إلى خالقه، وهو الله، لا إله إلا هو، خالق كل

شئ؛ ولذا قال: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ أى: أنا لا أقول بمقاتلك، بل اعترف لله بالوحدانية والربوبية ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أى: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ﴾ الآية، هذا تخصيص وحث على ذلك، أى: هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعط غيرك، وقلت: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾؛ ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شئ من حاله أو ماله أو ولده، فليقل: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة. وقد ثبت فى الصحيح، عن أبى موسى أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله» (١).

وقوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ﴾ أى: فى الدار الآخرة ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أى: على جنتك فى الدنيا التى ظننت أنها لا تبيد ولا تبنى ﴿حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الظاهر أنه مطر عظيم مزعج، يقلع زرعها وأشجارها؛ ولهذا قال: ﴿فَتَصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أى: بلقعا تراباأملس، لا يثبت فيه قدم. وقوله: ﴿أَوْ يُصْبِحُ مَأْوَاهَا غَوْرًا﴾ أى: غائرا فى الأرض، وهو ضد النابج الذى يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَأْوَكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠] أى: جار وسائح. وقال ههنا: ﴿أَوْ يُصْبِحُ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلْبًا﴾ والغور: مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه.

﴿وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبَحَ يَقْلَبُ كَفْيَهُ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤١﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٢﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ﴾: بأمواله، أو بشماره على القول الآخر. والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر، مما خوّفه به المؤمن من إرسال الحسابان على جنته، التى اغتر بها وألهته عن الله، عز وجل ﴿فَاصْبَحَ يَقْلَبُ كَفْيَهُ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾: يُصَفِّقُ كَفِيهِ مَتَأَسِّفًا مَتَلَهْفًا عَلَى الْأَمْوَالِ الَّتِي أَذْهَبَهَا عَلَيْهَا ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾. ولم تكن له فتنة: أى: عشيرة أو ولد، كما افتخر بهم واستعز ﴿يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾. هنالك الولاية لله الحق: المعنى: هنالك المولاة لله، أى: هنالك كل أحد من مؤمن أو كافر، يرجع إلى الله وإلى مولاته والخضوع له إذا وقع العذاب، و ﴿الحق﴾ نعت لله عز وجل، كقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الانعام: ٦٢]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أى: جزاء ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أى: الاعمال التى تكون لله، عز وجل، ثوابها خير، وعاقبتها حميدة رشيدة، كلها خير.

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ أَمْالٌ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ﴾ يا محمد للناس ﴿مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في زوالها وفنائها وانقضائها ﴿كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أى: ما فيها من الحب، فشب وحسن، وعلاه الزهر والنور والنضرة ثم بعد هذا كله ﴿أَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يابساً ﴿تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ أى: تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أى: هو قادر على هذه الحال، وهذه الحال، وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما فى سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ الآية [يونس: ٢٤]، وقال فى الزمر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعُ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ الآية [الزمر: ٢١]. وقال فى سورة الحديد: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ الآية [الحديد: ٢٠]. وفى الحديث الصحيح: «الدنيا حلوة خضرة» (١).

وقوله: ﴿أَمْالٌ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، كقوله: ﴿زِينٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ﴾ الآية [آل عمران: ١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥] أى: الإقبال عليه والتفرغ لعبادته، خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم، والشفقة المفرطة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا﴾ قال ابن عباس: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وهكذا سئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان، عن: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ ما هى؟ فقال: هى لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. رواه الإمام أحمد عن الحارث مولى عثمان قال: جلس عثمان يوماً وجلسنا معه، فجاءه المؤذن، فدعا بماء فى إناء، أظنه أنه سيكون فيه مد، فتوضأ ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئى هذا، ثم قال: «من توضأ وضوئى هذا، ثم قام فصلى صلاة الظهر، غُفِرَ له ما كان بينها وبين الصبح، ثم صلى العصر غُفِرَ له ما بينها وبين الظهر، ثم صلى المغرب غُفِرَ له ما بينها وبين العصر، ثم صلى العشاء غُفِرَ له ما بينها وبين العشاء وهى الحسنات يذهبن السيئات» قالوا: هذه الحسنات فما الباقيات الصالحات يا عثمان؟ قال: هى لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم. تفرد به (٢). وقال الحسن وقتادة فى قوله: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله،

(١) تقدم تخريجه عند الآية ٨ من هذه السورة.

(٢) المسند (٥١٣)، وقال الشيخ أحمد شاکر: «إسناده صحيح».

هُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ. روى الإمام أحمد عن مولى لرسول الله ﷺ ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « يخ بيخ لخمس ما أثقلن في الميزان : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله والحمد لله ، والولد الصالح يتوفى فيحسبه والده ». وقال : « يخ بيخ لخمس من لقي الله مستيقناً بهن ، دخل الجنة : يؤمن بالله ، واليوم الآخر ، وبالجنة والنار ، وبالبعث بعد الموت ، وبالحساب » (١).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هي الأعمال الصالحة كلها . واختاره ابن جرير ، رحمه الله .

﴿ وَيَوْمَ نُسِرُّ إِلَيْكَ الْجِبَالَ وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَفَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظام ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا . وَنَسِيرُ الْجِبَالِ سِيرًا ﴾ [الطور: ٩ ، ١٠] أى : تذهب من أماكنها وتزول ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَمَادَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ [النمل: ٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ المنفوش ﴾ [القارعة: ٥] ، وقال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لَا تَبْقَى فِيهَا فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧] . يذكر تعالى أنه تذهب الجبال ، وتتساوى المهاد ، وتبقى الأرض ﴿ قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ أى : سطحاً مستوياً لا عوج فيه ﴿ وَلَا أَمْتًا ﴾ أى : لا وادى ولا جبل ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [أى : بادية ظاهرة ، ليس فيها معلّم لأحد ولا مكان يوارى أحداً ، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية .

وقوله : ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أى : وجمعناهم ، الأولين منهم والآخرين ، فلم نترك منهم أحداً ، لا صغيراً ولا كبيراً ، كما قال : ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الواقعة: ٤٩ ، ٥٠] ، وقال : ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ [هود: ١٠٣] . وقوله : ﴿ وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ : يحتمل أن يكون المراد : أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفًّا واحداً ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبا: ٣٨] ، ويحتمل أنهم يقومون صفوفاً صفوفاً ، كما قال : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢] . وقوله : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ : هذا تفرغ للمتكبرين للمعاد ، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد ؛ ولهذا قال مخاطباً لهم : ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾ أى : ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم ، ولا أن هذا كائن .

(١) المسند (٤ / ٢٣٧) وقال الهيثمي في المجمع (١٠ / ٩١) : « رجاله رجال الصحيح » .

وقوله: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ﴾ أى: كتاب الأعمال، الذى فيه الجليل والحقير، والفتيل والقطمير، والصغير والكبير ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أى: من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة، ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾ أى: يا حسرتنا وويلنا على ما فرط فى أعمارنا ﴿مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَقَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أى: لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً وإن صغر ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أى: ضبطها، وحفظها. وقوله: ﴿وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ أى: من خير أو شر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحَضَّرًا﴾ الآية [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ بِوَعْدِهِ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] أى: تظهر المخبآت والضمائر. روى الإمام أحمد عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به». أخرجاه فى الصحيحين (١).

وقوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أى: فيحكم بين عباده فى أعمالهم جميعاً، ولا يظلم أحداً من خلقه، بل يغفر ويصفح ويرحم ويعذب من يشاء، بقدرته وحكمته وعدله، ويملا النار من الكفار وأصحاب المعاصى، ثم ينجى أصحاب المعاصى، ويؤخذ فيها الكافرين، وهو الحاكم الذى لا يجوز ولا يظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا﴾ الآية [النساء: ٤٠]، وقال: ﴿وَتَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ إلى قوله: ﴿حَاسِبِينَ﴾ [الانبيا: ٤٧] والآيات فى هذا كثيرة.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَسَتَّخَذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾

يقول تعالى منبهاً بنى آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومقرعاً لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه، الذى أنشأه وابتداه، وبإلطف رزقه غذاه، ثم بعد هذا كله والى إبليس وعادى الله، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ أى: لجميع الملائكة، كما تقدم تقريره فى أول سورة «البقرة» (٢) ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ أى: سجود تشريف وتكريم وتعظيم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩].

وقوله: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ أى: خانه أصله؛ فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «خلقت الملائكة من نور، وخلق إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم» (٣). فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة، وذلك أنه كان قد توسم بأفعال

(١) المسند (٣ / ١٤٢) والبخارى (٣١٨٦) ومسلم (١٧٣٧ / ١٥).

(٢) عند الآية رقم (٣٤). (٣) مسلم (٢٩٩٦ / ٦٠).

الملائكة وتشبه بهم، وتعبد وتنسك، فلهذا دخل في خطابهم، وعصى بالمخالفة .

ونبه تعالى ههنا على أنه ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾ أى: إنه خُلِقَ من نار، كما قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الاعراف: ١٢، وص: ٧٦]. قال الحسن البصرى: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم، عليه السلام، أصل البشر. رواه ابن جرير بإسناد صحيح عنه. وقد روى فى هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التى تنقل لينظر فيها، واللّه أعلم بحال كثير منها. ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذى بأيدينا، وفى القرآن غنيّة عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقين الذين يَنْفُونَ عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، كما لهذه الأمة من الأئمة العلماء، والسادة الأتقياء والبررة والنجباء، من الجهابذة النقاد، والحفاظ الجياد، الذين دونوا الحديث وحرروه، وبيّنوا صحيحه من حسنه، من ضعيفه، من منكره وموضوعه، ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال، كل ذلك صيانة للجناب النبوى والمقام المحمدي، خاتم الرسل، وسيد البشر ﷺ أن ينسب إليه كذب، أو يحدث عنه بما ليس منه، فرضى الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فَعَلَ.

وقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أى: فخرج عن طاعة الله؛ فإن الفسق هو الخروج، يقال: فَسَقَتِ الرَّطْبَةُ: إذا خرجت من أكمامها، وفسقت الفأرة من جحرها: إذا خرجت منه للعيث والفساد. ثم قال تعالى مقرعاً وموبخاً لمن اتبعه وأطاعه: ﴿اتَّخِذُوهُ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ الآية، أى: بدلاً عنى؛ ولهذا قال: ﴿بئسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾. وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأحوالها ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياء فى سورة يس: ﴿وَأَمَّا زُوا أَيْهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٥٩ - ٦٢].

رب ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ تُخَذِّلِينَ

عَضُدًا ﴿٥١﴾

يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذوهم أولياء من دُونى عبيد أمثالكم، لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتهم خلق السموات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقل بخلق الأشياء كلها، ومدبرها ومقدرها وحدى، ليس معى فى ذلك شريك ولا وزير، ولا مشير ولا نظير، كما قال: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ. وَلَا تَتَفَعَّلُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ الآية [سبا: ٢٢، ٢٣]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تُخَذِّلِينَ عَضُدًا﴾ قال مالك: أعواناً .

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يُخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريباً لهم وتوبيخاً: ﴿ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أى: فى دار الدنيا، ادعوهم اليوم، ينقذونكم مما أنتم فيه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقوله: ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ كما قال: ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ الآية [القصص: ٦٤]، وقال: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ ﴾ الآيتين [الاحقاف: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مریم: ٨١، ٨٢]. وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴾ مهلكاً. والمعنى: أن الله تعالى بين أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين، ولا وصول لهم إلى آلهتهم التى كانوا يزعمون فى الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها فى الآخرة، فلا خلاص لاحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير.

وقوله: ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أى: إنهم لما عاينوا جهنم حين جىء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فإذا رأى المجرمون النار، تحققوا لا محالة أنهم موافقوها، ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه، عذاب ناجز ﴿ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أى: ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ولا بد لهم منها .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾

يقول تعالى: ولقد بينا للناس فى هذا القرآن، ووضحنا لهم الأمور، وفصلناها، كيلا يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى. ومع هذا البيان وهذا الفرقان، الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة . روى الإمام أحمد عن على بن أبى طالب، أن رسول الله ﷺ طرقة وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة، فقال: «ألا تصليان؟» فقلت: يارسول الله، إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا. فانصرف حين قلت ذلك، ولم يرجع إلى شيئاً، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذة ويقول: ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾. أخرجاه فى الصحيحين (١).

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأُولَىٰ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مَبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَمُجَادِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴾ ﴿٥٦﴾

يخبر تعالى عن تمرد الكفرة في قديم الزمان وحديثه، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والدلالات الواضحات، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً، كما قال أولئك لنبيهم: ﴿فَأَسْقُطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، وآخرون قالوا: ﴿إِنَّا بَعْدَآبِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [المنكيات: ٢٩]، وقالت قريش: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ إِنَّا بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ. لَوْ مَا تَأْتِيْنَا بِالْمَلَآئِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر: ٦، ٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

ثم قال: ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأُولَىٰ﴾ من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أى: يرونه عياناً مواجهة، ثم قال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مَبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أى: قبل العذاب مبشرين من صدقهم وآمن بهم، ومنذرين لمن كذبهم وخالفهم. ثم أخبر عن الكفار بأنهم يجادلون بالباطل ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ﴾ أى: ليضعفوا به ﴿الْحَقَّ﴾ الذى جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ أى: اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التى بعث بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿هُزُوًا﴾ أى: سخروا منهم فى ذلك، وهو أشد التكذيب.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسَىٰ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِلَّا إِذَا أَبَدًا ﴾ ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَّهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا ﴾ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴾ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى: وأى عباد الله أظلم ممن ذكر بآيات الله ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أى: تناساها وأعرض عنها، ولم يصيغ لها، ولا ألقى إليها بالاً ﴿وَنَسَىٰ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ﴾ أى: من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أى: قلوب هؤلاء ﴿أَكِنَّةً﴾ أى: أغطية وغشاوة أن يفقهوه ﴿أى: لئلا يفهموا هذا القرآن والبيان ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أى: صمما معنوياً عن الرشاد ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِلَّا إِذَا أَبَدًا﴾. وقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أى: ربك - يا محمد - غفور ذو رحمة واسعة ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَّهُمُ الْعَذَابُ﴾، كما قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال: ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبُّكَ لَشَدِيدٌ

العُقَاب ﴿الرعد:٦٠﴾. والآيات في هذا كثيرة. ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر، وربما هدى بعضهم من الغى إلى الرشاد، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد، وتضع كل ذات حمل حملها؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مُوْتَلَا﴾ أى: ليس لهم عنه محيد ولا محيص ولا معدل.

وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أى: الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكتناهم بسبب كفرهم وعنادهم ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ أى: جعلناه إلى مدة معلومة ووقت معين، لا يزيد ولا ينقص، أى: وكذلك أنتم أيها المشركون، احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتهم أشرف رسول وأعظم نبي، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابي ونذر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ لَآ أُبْرِحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا ﴿١١﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَإِنَّا غَدَاءُنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿١٣﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَّيْنَا إِلَى الْصَخْرَةِ فَوَئِي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿١٤﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿١٥﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَإِيْنَهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنَ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿١٥﴾﴾

سبب قول موسى لفتاه - وهو: يوشع بن نون - هذا الكلام: أنه ذكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين، عنده من العلم ما لم يحط به موسى، فأحب الذهاب إليه، وقال لفتاه ذلك: ﴿لَا أُبْرِحُ﴾ أى لا أزال سائراً ﴿حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أى: هذا المكان الذى فيه مجمع البحرين، قال قتادة وغير واحد: وهما بحر فارس مما يلى المشرق، وبحر الروم مما يلى المغرب. وقال محمد بن كعب القرظى: مجمع البحرين عند طنجة، يعنى فى أقصى بلاد المغرب، فالله أعلم. وقوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا﴾ أى: ولو أنى أسير حقباً من الزمان. قال ابن جرير: ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحُقْبُ فى لغة قيس: سنة. ثم قد روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال: الحُقْبُ ثمانون سنة. وقال ابن عباس قوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقْبًا﴾ قال: دهرأ .

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه، وقيل له: متى فقدت الحوت فهو ثمة. فسارا حتى بلغا مجمع البحرين؛ وهناك عين يقال لها: «عين الحياة»، فناما هنالك، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء، فاضطرب، وكان فى مكثل مع يوشع عليه السلام، وطَفَر من المكثل إلى البحر، فاستيقظ يوشع، عليه السلام، وسقط الحوت فى البحر فجعل يسير فيه، والماء له مثل الطاق لا يلتصم بعده؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أى: مثل السَّرَب فى الأرض. قال ابن عباس: صار أثره كأنه حَجَرٌ.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أى: المكان الذى نسيا الحوت فيه، ونُسب النسيان إليهما وإن كان

يُوشَع هو الذى نسيه، كقوله تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، وإنما يخرج من المالح فى أحد القولين .

فلما ذهب عن المكان الذى نسيه فيه مَرَحَلَةً ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَاهُ أَتَيْنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا﴾ أى : الذى جاوزا فيه المكان ﴿نَصَبًا﴾ يعنى : تعباً ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ وقرأ ابن مسعود : « أن أذكر له »، ولهذا قال : ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ﴾ أى : طريقه ﴿فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ . قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ ﴿ أى : هذا الذى نطلب ﴿فَارْتَدَّا﴾ أى : رجعا ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمَا﴾ أى : طريقهما ﴿قَصَصًا﴾ أى : يقصان آثار مشيها ، ويقفوان أثرهما . ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِبْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ وهذا هو الخضر، عليه السلام، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ . روى البخارى عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : أن نوحاً الْبِكَالِيَّ يزعم أن موسى صاحب الخضر، عليه السلام، ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل . قال ابن عباس : كذب عدو الله، حدثنا أبى بن كعب، رضى الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن موسى قام خطيباً فى بنى إسرائيل فُسئِلَ : أى الناس أعلم؟ قال : أنا . فعتب الله عليه إذ لم يرِدْ العلم إليه ، فأوحى الله إليه : إن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى : يارب، وكيف لى به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً، تجعله بمكثل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم . فأخذ حوتاً، فجعله بمكثل، ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون عليه السلام، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت فى المكثل ، فخرج منه ، فسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق . فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتها، حتى إذا كان من الغداة قال موسى لفتاه : ﴿أَتَيْنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ ولم يجد موسى النَّصَبَ حتى جاوز المكان الذى أمره الله به . قال له فتاه : ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قال : «فكان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً ، فقال : ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ . قال : «فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مُسَجَّى بثوب، فسلم عليه موسى، فقال الخضر : وأنى بآرضك السلام! . فقال : أنا موسى . فقال : موسى بنى إسرائيل؟ قال : نعم، أتيتك لتعلمنى مما علّمت شداً . ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ، ياموسى إنى على علم من علم الله علمنيه ، لاتعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه . فقال موسى : ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ قال له الخضر : ﴿فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ . فانطلقا يمسيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلهمم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر، فحملوهم بغير نول، فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى : قد حملونا بغير نول فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إمرأ . ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ . قَالَ لَا تَأْخُذْ بِنِهَايَةِ مَا نَسِيتُ

وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٦٦﴾ قال: وقال رسول الله ﷺ: «فكانت الأولى من موسى نسياناً». قال: وجاء عصفور فوق على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرَةً، أو نقرتين، فقال له الخضر: ما علمى وعلمك فى علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر. ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: ﴿أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؟! قال: «وهذه أشد من الأولى»، ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتِكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا. فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَأَبْرَأَ أَنْ يَضَيَّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُصَ مِنْهُ آيٌ: مائلاً فقال الخضر بيده: ﴿فَأَقَامَهُ﴾، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا. قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾. فقال رسول الله ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما». قال سعيد بن جبير: كان ابن عباس يقرأ: « وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً » وكان يقرأ: «وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين» (١).

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَيَّ أَنْ تَعْلَمَ مِمَّا عَلِمْتَ رُشْدًا﴾ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٨﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٧٠﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَتَسَلَّنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧١﴾

يخبر تعالى عن قيل موسى، عليه السلام، لذلك العالم، وهو الخضر، الذى خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتَكَ﴾ سؤال تطف، لا على وجه الإلزام والإجبار. وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم. وقوله: ﴿أَتَيْتَكَ﴾ أى: أصحبك وأرافقت ﴿عَلَى أَنْ تَعْلَمَ مِمَّا عَلِمْتَ رُشْدًا﴾ أى: مما علمك الله شيئاً، أسترشد به فى أمرى، من علم نافع وعمل صالح. فعندها ﴿قَالَ﴾ الخضر لموسى: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أى: إنك لا تقدر على مصاحبتى لما ترى منى من الأفعال التى تخالف شريعتك، لأنى على علم من علم الله، ما علمك الله، وأنت على علم من علم الله، ما علمنيه الله، فكل منا مكلف بأمر من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدر على صحبتي ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾، فأنا أعرف أنك ستنكر على ما أنت معذور فيه، ولكن ما اطلعت على حكمته ومصالحته الباطنة التى اطلعت أنا عليها دونك ﴿قَالَ﴾ أى: موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ أى: على ما أرى من أمورك ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ أى: ولا أخالفك فى شيء. فعند ذلك شارطه الخضر ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ أى: ابتداءً ﴿حَتَّى أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أى: حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألنى .

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه، وهو الخضر، أنهما انطلقا لما توافقا واصطحبا، واشترط عليه ألا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذي يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه، فركبا في السفينة. فلما استقلت بهم السفينة في البحر، ولججت، أى: دخلت اللجة، قام الخضر فخرقها، واستخرج لوحاً من الواحها، ثم رقعها. فلم يملك موسى، عليه السلام، نفسه أن قال منكرأ عليه: ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾. وهذه اللام لام العاقبة لا لام التعليل ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾: منكرأ. فعندها قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ يعنى وهذا الصنيع فعلته قصدأ، وهو من الأمور التى اشترطت معك ألا تنكر على فيها، لأنك لم تحط بها خيراً، ولها دخل هو مصلحة، ولم تعلمه أنت ﴿ قَالَ ﴾ أى موسى: ﴿ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ أى: لا تضيق علىّ وتشدد علىّ.

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ ﴾

الجزء
١٦

يقول تعالى: ﴿ فَانْطَلَقَا ﴾ أى: بعد ذلك ﴿ حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ﴾ فلما شاهد موسى، عليه السلام، هذا أنكره أشد من الأول، وبادر فقال: ﴿ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً ﴾ أى صغيرة لم تعمل الحنث، ولا عملت إثماً بعد، فقتلته؟! ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أى: بغير مستند لقتله ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ أى: ظاهر النكارة ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ فأكد أيضاً فى التذكار بالشرط الأول؛ فلهذا قال له موسى: ﴿ إِنْ سَأَلْتكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا ﴾ أى: إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة ﴿ فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ أى: قد أعدرت إلىّ مرة بعد مرة.

﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنَّىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَآقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عنهما: إنهما انطلقا بعد المرتين الاولتين ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَنَّىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ عن ابن سيرين أنها الايلة ﴿ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ ﴾ إسناد الإرادة ههنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة، فإن الإرادة فى المحدثات بمعنى الميل. والانقضاض هو: السقوط. وقوله:

﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ أي: فردّه إلى حالة الاستقامة، وهذا خارق ، فعند ذلك قال موسى له: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أي: لأجل أنهم لم يضيفونا كان ينبغي ألاّ تعمل لهم مجاناً ﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ﴾ أي: لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تصاحبني، فهو فراق بيني وبينك ، ﴿ سَأْتِيكَ بِتَأْوِيلٍ ﴾ أي: بتفسير ﴿ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ .

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ ﴿٧٩﴾

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى، عليه السلام، وما كان أنكر ظاهره وقد أظهر الله الخضر ، عليه السلام ، على باطنه فقال: إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها؛ لأنهم كانوا يرون بها على ملك من الظلمة ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحة، أي: جيدة ﴿غَصْبًا﴾ فأردت أن أعيبها ، لأرده عنها لعيبها، فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها .

﴿ وَأَمَّا الْفُلُّ فَكَانَ آبَاءَ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ ﴿٨٠﴾
﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَّوْهُ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ ﴿٨١﴾

عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: « الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً » .
رواه ابن جرير (١) ؛ ولهذا قال: ﴿ فَكَانَ آبَاءَهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ أي: يحملهما حبه على متابعتة على الكفر . قال قتادة: قد فرح به آباءه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب . وصح في الحديث: « لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له » . وقال تعالى: ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦] .

وقوله: ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَّاهُ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ أي: ولدأ أركى من هذا، وهما أرحم به منه .

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ ﴿٨٢﴾

في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة؛ لأنه قال أولاً: ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ [الكهف: ٧٧] وقال ههنا: ﴿ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ

﴿قُوَّةٌ مِّن قُرَيْشِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِيِّينَ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يعنى: مكة والطائف. ومعنى الآية: أن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كتز لهما. قال عكرمة، وقتادة، وغير واحد: كان تحته مال مدفون لهما. وهذا ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله.

وقوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة، بشفاعته فيهم ورفع درجاتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم، كما جاء في القرآن ووردت السنة به. قال ابن عباس: حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهما صلاحا، فالله أعلم. وقوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزُهُمَا﴾: هنا أسند الإرادة إلى الله تعالى؛ لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله؛ وقال في الغلام: ﴿فَأَرَادْنَا أَنْ يُدِّلَهُمَا فِيهِمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ وقال في السفينة: ﴿فَأَرَادْتُ أَنْ أُعِيْبَهُمَا﴾، فالله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أى: هذا الذى فعلته فى هذه الأحوال الثلاثة، إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، والذى الغلام، وولدى الرجل الصالح ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ لكنى أمرت به ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر، عليه السلام، مع ما تقدم من قوله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عَيْنِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾، وقال آخرون: كان رسولاً. وحكى النووى وغيره فى كونه باقياً إلى الآن ثم إلى يوم القيامة قولين، ومال هو وابن الصلاح إلى بقاءه، وذكروا فى ذلك حكايات وأثاراً عن السلف وغيرهم وجاء ذكره فى بعض الأحاديث، ولا يصح شىء من ذلك. ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الانبيا: ٣٤] ويقول النبى ﷺ يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة، لا تعبد فى الأرض» (١)، وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول الله ﷺ ولا حضر عنده، ولا قاتل معه. ولو كان حياً لكان من أتباع النبى ﷺ وأصحابه؛ لأنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى جميع الثقيلين: الجن والإنس، وأخبر قبل موته بقليل: أنه لا يبقى من هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف، إلى غير ذلك من الدلائل. وقد ثبت فى صحيح البخارى، عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «إنما سمى الخضر؛ لأنه جلس على قروة، فإذا هى تهز من تحته خضراء» (٢).

والمراد بالفروة ههنا: الحشيش اليابس، وهو الهشيم من النبات، قاله عبد الرزاق. وقيل: المراد بذلك وجه الأرض.

وقوله: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ أى: هذا تفسير ما ضقت به ذرعاً، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداءً، ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال: ﴿تَسْطِعُ﴾ وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقیلاً فقال: ﴿تَسْتَطِعُ﴾ فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف، بالأخف كما قال

تعالى : ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ وهو الصعود إلى أعلاه ، ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧] ، وهو أشق من ذلك ، فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى ، والله أعلم . فإن قيل : فما بال فتى موسى ذكر فى أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك ؟ فالجواب : أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر وذكر ما كان بينهما ، وفتى موسى معه تبع .

﴿وَسَأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾

يقول تعالى لنبىه ﷺ : ﴿وَسَأَلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ﴾ أى : عن خبره . وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألون منهم ما يمتحنون به النبى ﷺ ، فقالوا : سلوه عن رجل طواف فى الأرض ، وعن فتية لا يدرى ما صنعوا ، وعن الروح ، فنزلت سورة الكهف . كما ذكر الأزرقى وغيره ، أنه طاف مع الخليل بالبيت العتيق لما بناه إبراهيم ، عليه السلام ، وقرب إلى الله قرباناً ، وقد ذكرنا طرفاً من أخباره فى كتاب «البداية والنهاية بما فيه كفاية ، ولله الحمد . قال وهب بن منبه : كان ملكاً ، وإنما سُمى ذا القرنين لأن صفحتى رأسه كانتا من نحاس ، قال : وقال بعض أهل الكتاب : لأنه ملك الروم وفارس . وقال بعضهم : كان فى رأسه شبه القرنين ، وقد سئل على ، رضى الله عنه ، عن ذى القرنين ، فقال : كان عبداً ناصحاً الله فناصره ، دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات ، فأحياه الله ، فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات ، فسمى ذا القرنين . ويقال : إنما سُمى ذا القرنين ؛ لأنه بلغ المشارق والمغرب ، من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب .

وقوله : ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أى : أعطيناه ملكاً عظيماً ممكناً ، فيه له من جميع ما يؤتى الملوك ، من التمكين والجنود ، وآلات الحرب والحصارات ؛ ولهذا ملك المشارق والمغرب من الأرض ، ودانت له البلاد ، وخضعت له ملوك العباد ، وخدمته الأمم ، من العرب والعجم ؛ ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سُمى ذا القرنين ؛ لأنه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها . وقوله : ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ : يعنى علماً . وقال معاوية بن أبى سفيان لكعب الأحبار : أنت تقول : إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثرى ؟ ! فقال له كعب : إن كنت قلت ذلك ، فإن الله تعالى قال : ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ . وهذا الذى أنكره معاوية ، على كعب الأحبار هو الصواب ، والحق مع معاوية فى الإنكار ؛ فإنه لا سبيل للبشر إلى شىء من ذلك ، ولا إلى الترقيفى أسباب السموات . وقد قال الله فى حق بلقيس : ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] أى : مما يؤتى مثلها من الملوك ، وهكذا ذو القرنين يسر الله له الأسباب ، أى : الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرّسائيق والبلاد والأراضى وكسر الأعداء ، وكبت ملوك الأرض ، وإذلال أهل الشرك . قد أوتى من كل شىء مما يحتاج إليه مثله سبباً ، والله أعلم .

﴿ فَاتَّبَعَ سَبِيًّا ﴾ ٨٥ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا الْقَارِئِينَ إِنَّمَا أَنْتَ تُعَذِّبُ وَإِنَّمَا أَنْتَ تُنذِرُ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾

قال ابن عباس: ﴿ فَاتَّبَعَ سَبِيًّا ﴾ يعني بالسبب: [المنزل]. وقال مجاهد: ﴿ فَاتَّبَعَ سَبِيًّا ﴾: منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب. وفي رواية عن مجاهد: قال: طرفى الأرض. وقال قتادة: أى اتبع منازل الأرض ومعالمها. وقال سعيد بن جبير فى قوله: ﴿ فَاتَّبَعَ سَبِيًّا ﴾ قال: علماء. وهكذا قال عكرمة والسدى. وقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ أى: فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب، وهو مغرب الأرض. وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتعذر، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار فى الأرض مدة والشمس تغرب من ورائه فشىء لا حقيقة له. وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب، واختلاق زنادقتهم وكذبهم.

وقوله: ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أى: رأى الشمس فى منظره تغرب فى البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه، وهى لا تفارق الفلك الرابع الذى هى مثبتة فيه لا تفارقه. والحمة مشتقة - على إحدى القراءتين - من «الحمأة» وهو الطين، كما قال تعالى: ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مُسْتَوٍ ﴾ [الحجر: ٢٨] أى: طين أملس. وقد تقدم بيانه. وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: «وجدتها تغرب فى عين حامية» يعنى: حارة. وكذا قال الحسن البصرى. وقال ابن جرير: والصواب أنهما قراءتان مشهورتان، فأيهما قرأ القارئ فهو مصيب. قلت: ولا منافاة بين معنييهما، إذ قد تكون حارة لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها، وملاقاتها الشعاع بلا حائل و﴿ حَمِئَةٍ ﴾ فى ماء وطين أسود، كما قال كعب الأخبار وغيره.

وقوله: ﴿ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ﴾ أى: أمة من الأمم. ﴿ قُلْنَا يَا الْقَارِئِينَ إِنَّمَا أَنْتَ تُعَذِّبُ وَإِنَّمَا أَنْتَ تُنذِرُ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ معنى هذا: أن الله تعالى مكنه منهم، وحكمه فيهم، وأظفره بهم وخيره: إن شاء قتل وسبى، وإن شاء من أو فدى. فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه فى قوله: ﴿ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ أى: استمر على كفره وشركه بربه ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ قال قتادة: بالقتل. وقوله: ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴾ أى: شديداً بليغاً وجيماً أليماً. وفى إثبات المعاد والجزاء.

وقوله: ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ ﴾ أى: تابعنا على ماندهوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ أى: فى الدار الآخرة عند الله، عز وجل ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ قال مجاهد: معروفاً.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهَا مِن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ﴾

يقول تعالى: ثم سلك طريقاً فصار من مغرب الشمس إلى مطلعها . ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال تعالى: ﴿ وَجَدَهَا تَطَّلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ ﴾ أى: أمة ﴿ لَمْ يَجْعَلْ لَهَا مِن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ أى: ليس لهم بناء يكنهم، ولا أشجار تظلمهم وتستترهم من حر الشمس . وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ قال مجاهد، والسدى : علماً، أى: نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه، لا يخفى علينا منها شيء، وإن تفرقت أمهم وتقطعت بهم الأرض، فإنه تعالى: ﴿ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [آل عمران: ٥].

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَأَتُونِي أَعْرِضًا عَلَيْهِ قَطْرًا ﴿٩٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن ذى القرنين: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أى: ثم سلك طريقاً من مشارق الأرض ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ وهما جبلان متناوحيان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيها فساداً، ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم، عليه السلام، كما ثبت فى الصحيحين: « إن الله تعالى يقول: يا آدم . فيقول: لبيك وسعديك . فيقول: ابعت بَعَثَ النار . فيقول: وما بَعَثَ النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة؟ فيحسبذ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فيقال: إن فيكم أمتين، ما كانتا فى شيء إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج»^(١).

روى الإمام أحمد، عن سمرّة؛ أن رسول الله ﷺ قال: « وكَدُّ نوح ثلاثة: سام أبو العرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك»^(٢). فقال بعض العلماء: هؤلاء من نسل يافث أبى الترك، قال: إنما سموا هؤلاء تركاً؛ لأنهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة، وإلا فهم أقرباء أولئك، ولكن كان فى أولئك بغى وفساد وجراءة.

وقوله: ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ أى: لاستعجاب كلامهم وبعدهم عن الناس ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ قال ابن

(١) البخارى (٦٥٣٠) ومسلم (٢٢٢٢ / ٣٧٩) .

(٢) المسند (٥ / ٩) والترمذى (٣٩٣١) ، وقال: « حسن » .

عباس: أجراً عظيماً، يعني: أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم ما لا يعطونه إياه، حتى يجعل بينه وبينهم سداً. فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير: ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ أى: إن الذى أعطانى الله من الملك والتمكين خير لى من الذى تجمعونه ، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿ أَمْتِدُونِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ ﴾ الآية [النمل: ٣٦]. وهكذا قال ذو القرنين: الذى أنا فيه خير من الذى تبدلونه، ولكن ساعدونى ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ أى: بعملكم وآلات البناء ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا . آتُونِي زُبُرَ الْحَدِيدِ ﴾ والزبر: جمع زبرة، وهى القطعة منه، وهى كاللبنة ﴿ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدْقَيْنِ ﴾ أى: وضع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً . واختلفوا فى مساحة عرضه وطوله على أقوال ﴿ قَالَ انْفُخُوا ﴾ أى: أبعج عليه النار حتى صار كله ناراً ﴿ قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، والسدى: هو النحاس. وزاد بعضهم: المذاب. ويستشهد بقوله تعالى: ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ [سبا: ١٢] ولهذا يشبه بالبرد المحبر. وقد بعث الخليفة الواثق فى دولته بعض أمرائه، ووجه معه جيشاً سرية، لينظروا إلى السد ويعاينوه ويتعته له إذا رجعوا. فتوصلوا من بلاد إلى بلاد، ومن ملك إلى ملك، حتى وصلوا إليه، ورأوا بناء من الحديد ومن النحاس، وذكروا أنهم رأوا فيه باباً عظيماً، وعليه أقفال عظيمة، ورأوا بقية اللبن والعمل فى برج هناك. وأن عنده حرساً من الملوك المتاخمة له، وأنه عال منيف شاق، لا يستطيع ولا ما حوله من الجبال. ثم رجعوا إلى بلادهم، وكانت غيبتهم أكثر من ستين، وشاهدوا أهوالاً وعجائب. ثم قال الله تعالى :

﴿ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُمْ نَقْبًا ﴾ ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّي إِذَا جَاءَ وَعَدُّ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَبَعْتَهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾

ربع

يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج أنهم ما ندروا على أن يصعدوا فوق هذا السد ولا قدروا على نقيه من أسفله. ولما كان الظهور عليه أسهل من نقيه قابل كلاً بما يناسبه فقال: ﴿ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقيه، ولا على شيء منه. روى الإمام أحمد عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ قالت: استيقظ النبي ﷺ من نومه وهو محمر وجهه، وهو يقول: « لا إله إلا الله! ويل للعرب من شر قد اقترب! فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا ». وحلَّق. قلت: يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: « نعم إذا كثر الخبث ». هذا حديث صحيح، اتفق البخارى ومسلم على إخراجه (١).

وقوله: ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّي ﴾ أى: لما بناء ذو القرنين ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّي ﴾ أى:

بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العيث فى الأرض والفساد ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ أى : إذا اقترب الوعد الحق ﴿ جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ أى : ساواه بالأرض . تقول العرب : ناقة دكاء : إذا كان ظهرها مستويًا لا سنام لها ، وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] أى : مساوياً للأرض ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ أى : كائناً لا محالة .

وقوله : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ ﴾ أى : الناس يومئذ : أى : يوم يدك هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون فى الناس ويفسدون على الناس أموالهم ويتلفون أشياءهم ، وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال ، كما سيأتى بيانه عند قوله : ﴿ حَتَّى إِذَا فَصَحْتِ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ . وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ الآية [الانباء : ٩٦ ، ٩٧] وهكذا قال ههنا : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ قال : هذا أول يوم القيامة ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ على أثر ذلك ﴿ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ . وقال آخرون : بل المراد بقوله : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ أى : يوم القيامة يختلط الإنس والجن .

وقوله : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ : والصور كما جاء فى الحديث : « قرن ينفخ فيه » (١) ، والذى ينفخ فيه إسرافيل ، عليه السلام ، وفى الحديث عن ابن عباس وأبى سعيد مرفوعاً : « كيف أنعم ، وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته واستمع متى يؤمر » . قالوا : كيف نقول ؟ قال : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » (٢) . وقوله : ﴿ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ أى : أحضرنا الجميع للحساب ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ [الواقعة : ٤٩ ، ٥٠] ، « وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا » .

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾ ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي ﴾
 ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ ﴿ أَحْسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ نَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ آلِهَاءِ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة : أنه يعرض عليهم جهنم ، أى : يبرزها لهم ويظهرها ، ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها ، ليكون ذلك أبلغ فى تعجيل لهم والحزن لهم . وفى صحيح مسلم ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك [يجرونها] » (٣) .

ثم قال مخبراً عنهم : ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي ﴾ أى : تغافلوا وتعاموا وتصامعوا عن قبول الهدى واتباع الحق ، كما قال : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف : ٣٦] ، وقال ههنا : ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ أى : لا يعقلون عن الله أمره ونهيه .

(١) الترمذى (٢٤٣٠) ، وقال : « حديث حسن » .

(٢) الترمذى (٢٤٣١) وقال : « حديث حسن »

(٣) مسلم (٢٨٤٢ / ٢٩) وما بين المعقوفين ليس فى المطبوعة والمخطوطة ، وأثبتناه من مسلم .

ثم قال ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾ أى: اعتقدوا أنهم يصلح لهم ذلك، ويتنفعون به ﴿ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مریم: ٨٢]؛ ولهذا أخبر أنه قد أعد لهم جهنم يوم القيامة منزلاً .

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٤﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

روى البخارى عن مُصْعَبِ قَالَ : سألت أبى - يعنى سعد بن أبى وقاص - عن قول الله: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾: أهم الحرورية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى فكفروا بالجنة، وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب. والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه. وكان سعد رضى الله عنه، يسميهم الفاسقين (١). وقال على بن أبى طالب، والضحاك، وغير واحد: هم الحرورية. ومعنى هذا عن على: أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت فى هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء، بل هى أعم من هذا؛ فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل وجود الخوارج بالكلية، وإنما هى عامة فى كل من عبد الله على غير طريقة مرضية بحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ، وعمله مردود، كما قال تعالى: ﴿ وَجُودَ يُؤْمِنُ خَاشِعَةً . عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ . تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴾ [الغاشية: ٢ - ٤] وقوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيعةٍ يَحْسَبُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ [النور: ٣٩]. وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ ﴾ أى: نخبركم ﴿ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾؟ ثم فسره فقال: ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى: عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ أى: يعتقدون أنهم على شىء، وأنهم مقبولون محبوبون.

وقوله: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ ﴾ أى: جحدوا آيات الله فى الدنيا، وبراهينه التى أقام على وحدانيته، وصدق رسله، وكذبوا بالدار الآخرة ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴾ أى: لا نثقل موازينهم؛ لأنها خالية عن الخير. روى البخارى عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنه لياتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة» وقال: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴾» ورواه مسلم (٢). وقوله: ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا ﴾ أى: إنما جازيناهم بهذا الجزاء، بسبب كفرهم واتخاذهم آيات الله ورسله هزواً، استهزؤا بهم، وكذبوهم أشد التكذيب.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن عباده السعداء، وهم الذين آمنوا بالله ورسوله ، وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به أن لهم جنات الفردوس. قال مجاهد: الفردوس هو: البستان بالرومية ، وقال قتادة: الفردوس: ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها، وفي الصحيحين: « إذ سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تُفَجَّرُ أنهار الجنة » (١) . وقوله: ﴿ نُزُلًا ﴾ أى : ضيافة، فإن النزول هو الضيافة . وقوله: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى: مقيمين ساكنين فيها، لا يظعنون عنها أبدا ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ أى : لا يختارون غيرها ، ولا يحبون سواها ، وفى قوله : ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ تنبيه على رغبتهم فيها، وحبهم لها، مع أنه قد يتوهم فيمن هو مقيم فى المكان دائما أنه يسأمه أو يمله، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدى، لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولا ولا ظعنأ ولا رحلة ولا بدلا .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾

يقول تعالى: قل يا محمد: لو كان ماء البحر مدادا للقلم الذى يكتب به كلمات الله وحكمه وآياته الدالات ﴿ لَنَفِدَ الْبَحْرُ ﴾ قبل أن يفرغ كتابة ذلك ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ ﴾ أى: بمثل البحر آخر، ثم آخر، وهلم جرا، بحور تمده ويكتب بها، لما نفدت كلمات الله، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٢٧]. وقال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم فى علم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ . يقول: لو كانت تلك البحور مدادا لكلمات الله، والشجر كله أقلام، لانكسرت الأقلام وفنى ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء؛ لأن أحدا لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثنى عليه كما ينبغى ، حتى يكون هو الذى يثنى على نفسه ، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها فى نعيم الآخرة كحبة من خردل فى خلال الأرض كلها.

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَان كَان يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴾

يقول لرسوله محمد ﷺ: ﴿ قُلْ ﴾ لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم: ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ فمن زعم أنه كاذب، فليأت بمثل ما جئت به، فإنى لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من

الماضى، عما سألتهم من قصة أصحاب الكهف، وخبر ذى القرنين، مما هو مطابق فى نفس الأمر، لولا ما أطلعنى الله عليه، وإنما أخبركم ﴿أَتَمَّا إِلَهُكُمْ﴾ الذى أدعوكم إلى عبادته ﴿إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ لا شريك له ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أى: ثوابه وجزاءه الصالح ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ وهو ما كان موافقاً لشرع الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وهو الذى يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل. لا بد أن يكون خالصاً لله، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ. روى الإمام أحمد عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، يرويه عن الله، عز وجل، أنه قال: «أنا خير الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى، فأنا برىء منه، وهو للذى أشرك». تفرّد به من هذا الوجه (١). وروى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون فى الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء» (٢).

(١) المسند (٧٩٨٦) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» .

(٢) المسند (٤٢٨ / ٥) وقال الهيثمى فى الزوائد (١ / ١٠٢): «رجاله رجال الصحيح» .

تفسير سورة مريم عليها السلام

وهي مكية

وقد روى أحمد بن حنبل عن ابن مسعود، في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة: أن جعفر بن أبي طالب، قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ كَهَيْعَتِ ﴾ ﴿ ١ ﴾ ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ﴿ ٢ ﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ
 نِدَاءً خَفِيًّا ﴿ ٣ ﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ
 بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿ ٤ ﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ
 لِي مِنْ لَدُنْكَ وَاتَّخِذْ لِي ذُرِّيًّا ذَكَرْتُ وَيَرْثُ مِنِّي وَإِلَى يَوْمِئِذٍ نَعْتَبُ ﴿ ٥ ﴾ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿ ٦ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة .

وقوله: ﴿ ذَكَرْ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ أى : هذا ذكر رحمة الله بعبده زكريا وكان نبياً عظيماً من أنبياء بنى إسرائيل . وفي صحيح البخارى: أنه كان نجاراً، أى: كان يأكل من عمل يديه فى التجارة (٢) .
 وقوله: ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ : قال بعض المفسرين: إنما أخفى دعاءه، لئلا ينسب فى طلب الولد إلى الرعونة لكبره . حكاه الماوردى . وقال آخرون : إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله .
 كما قال قتادة فى هذه الآية ﴿ خَفِيًّا ﴾ : إن الله يعلم القلب التقي ، ويسمع الصوت الخفى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ أى : ضعفت وخارت القوى ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ أى: اضطرم المشيب فى السواد، والمراد من هذا: الإخبار عن الضعف والكبر، ودلائله الظاهرة والباطنة .

وقوله: ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ أى: ولم أعهد منك إلا الإجابة فى الدعاء، ولم تردنى قط فيما سألتك . وقوله: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي ﴾ قال مجاهد، وقاتدة، والسدى: أراد بالموالى العصابة . وقال أبو صالح: الكلاله . ووجه خوفه أنه خشى أن يتصرفوا بعده فى الناس تصرفاً سيئاً، فسأل الله ولدأ، يكون نبياً من بعده، ليسوسهم بنبوته ما يوحى إليه . فأجيب فى ذلك، لا أنه خشى من وراثتهم له ماله، فإن النبى أعظم منزلة وأجل قدراً من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده أن يأنف من وراثة عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد ، ليحوز ميراثه دونهم . هذا وجه .

(١) المسند (٤٤٠٠) ، وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده حسن » .

(٢) مسلم (٢٣٧٩ / ١٦٩) ، ولم يعزه صاحب التحفة (١٠ / ٣٨٦) للبخارى .

الثاني: أنه لم يذكر أنه كان ذا مال، بل كان نجاراً يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالاً ولا سيما الأنبياء، فإنهم كانوا أزهق شيء في الدنيا. الثالث: أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه: أن رسول الله ﷺ قال: « لا نُورَث ، ما تركنا فهو صدقة» (١). وعلى هذا فتعين حمل قوله: ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَبِئْسَ بِرِثٍ ﴾ على ميراث النبوة؛ ولهذا قال: ﴿ وَبِئْسَ مِنْ آلٍ يَعْقُبُونَ ﴾، كقوله: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ [النمل: ١٦] أى: فى النبوة؛ إذ لو كان فى المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان فى الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر فى جميع الشرائع والمثل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها، وكل هذا يقرره ويشته ما صح فى الحديث: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة».

وقوله: ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ أى مرضياً عندك وعند خلقك، تحبه وتحبه إلى خلقك فى دينه وخلقه .

﴿ يَنْزِكْرِيًّا إِنَّا نَنْشُرُكَ بِعَلْمِهِ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾

هذا الكلام يتضمن محذوفاً، وهو أنه أجيب إلى ما سأل فى دعائه فقيل له: ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى ﴾، كما قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ . فَدَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٨، ٣٩].

وقوله: ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾: أى: لم يسم أحد قبله بهذا الاسم، وهذا دليل على أن زكريا، عليه السلام، كان لا يولد له، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها، بخلاف إبراهيم وسارة، عليهما السلام، فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق لكبرهما لا لعقرهما؛ ولهذا قال: ﴿ أَبَشِّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسْنِي الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر: ٥٤] مع أنه كان قد ولد له قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة وقالت امرأته: ﴿ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْطِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ . قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةً لِلَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ ﴾ [هود: ٧٢، ٧٣].

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾

﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾

هذا تعجب من زكريا، عليه السلام، حين أجيب إلى ما سأل، وبُشِّر بالولد، ففرح فرحاً شديداً، وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذى يأتيه منه الولد، مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها، ومع أنه قد كبر وعتا، أى عسا عظمه ونحل ولم يبق فيه لقاح ولا جماع. وقال مجاهد: ﴿ عِتِيًّا ﴾ يعنى: نحول العظم. وقال ابن عباس وغيره: الكبر، والظاهر

(١) البخارى (٣٠٩٤، ٦٧٢٨، ٧٣٠٥) ومسلم (١٧٥٧، ١٧٥٨ / ٤٨ - ٥١) .

أنه أخص من الكبير . ﴿قَالَ﴾ أى: الملك مجيباً لذكرها عما استعجب منه: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلِيُّ هَيْنَ﴾ أى: إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها ﴿هَيْنَ﴾ أى: يسير سهل على الله. ثم ذكر له ما هو أعجب مما سال عنه، فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾
﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾

يقول تعالى مخبراً عن زكريا، عليه السلام، أنه ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أى: علامة ودليلاً على وجود ما وعدتني، لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني كما قال إبراهيم، عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ الآية [البقرة: ٢٦٠]. ﴿قَالَ آيَتُكَ﴾ أى: علامتك ﴿الْأُتُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أى: أن تحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال وأنت صحيح سوى من غير مرض ولا علة، كما قال تعالى في آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَأَذْكُرُ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحُ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤١]. وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها ﴿الْإِرْمَازُ﴾ أى: إشارة؛ ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ أى: الذى بشر فيه بالولد، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ أى: أشار إشارة خفية سريعة: ﴿أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أى: موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله، شكراً لله على ما أولاه .

﴿يَبْحَثُ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾
﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾
﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَوْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾
﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُعْرَثُ حِوًّا﴾

وهذا أيضاً تضمن محذوفاً، تقديره: أنه وجد هذا الغلام المبشر به، وهو يحيى، عليه السلام، وأن الله علمه الكتاب، وهو التوراة التى كانوا يتدارسونها بينهم، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والريانيون والأحبار . وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً، فلهذا نوه بذكره، وبما أنعم به عليه وعلى والده، فقال: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ﴾ أى: تعلم الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أى: بجد وحرص واجتهاد ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أى: الفهم والعلم والجد والعزم، والإقبال على الخير، والإكباب عليه، والاجتهاد فيه وهو صغير حدث .

وقوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ قال ابن عباس: ورحمة من عندنا لا يقدر عليها غيرنا .

والظاهر من هذا السياق أن: ﴿وَحَنَانًا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أى: وآتيناه الحكم وحناناً، ﴿وَرِزْقًا﴾ أى: وجعلناه ذا حنان وزكاة، فالحنان هو المحبة فى شفقة وميل كما تقول العرب: حنَّ الناقة على ولدها، وحنَّت المرأة على زوجها. ومنه سميت المرأة «حَنَّة» من الحنية، وحن الرجل إلى وطنه، ومنه التعطف والرحمة . وقوله: ﴿وَرِزْقًا﴾ معطوف

على ﴿وَحَسَنًا﴾ فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾: ذا طهر، فلم يهجم بذنوب.
وقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾: لما ذكر تعالى طاعته لربه، وأنه خلقه ذا رحمة
وزكاة وتقى، عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما، ومجانبته عقوقهما، قولاً وفعلاً، أمراً
ونهيًا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾. ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على
ذلك: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُعْرَثُ حِثًّا﴾ أي: له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ
دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ
مِنْكَ إِن كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾
قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ
هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَاتَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾

لما ذكر تعالى قصة زكريا، عليه السلام، وأنه أوجد منه، في حال كبره وعقم زوجته، ولداً
زكياً طاهراً مباركاً - عطف بذكر قصة مريم في إيجاده ولدها عيسى، عليه السلام، منها من غير
أب، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة؛ ولهذا ذكرهما في آل عمران وههنا وفي سورة الأنبياء،
يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى، ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه، وأنه على
ما يشاء قادر، فقال: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ وهي مريم بنت عمران، من سلالة داود، عليه
السلام، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل. وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها
في سورة «آل عمران»، وأنها نذرت محررة، أي: تخدم مسجد بيت المقدس، وكانوا يتقربون
بذلك ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧] ونشأت في بني إسرائيل نشأة
عظيمة، فكانت إحدى العابדות الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة والتبتل والدؤوب،
وكانت في كفالة زوج أختها زكريا نبي بني إسرائيل إذ ذاك وعظيمهم، الذي يرجعون إليه في
دينهم. ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره ﴿كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا
رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] فذكر أنه
كان يجد عندها ثمر الشتاء في الصيف وثمر الصيف في الشتاء، فلما أراد الله تعالى أن يوجد
منها عبده ورسوله عيسى، عليه السلام، أحد الرسل أولى العزم الخمسة العظام ﴿انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا
مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أي: اعتزلتهم وتحت عنهم، وذهبت إلى شرق المسجد المقدس.

وقوله: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي: استترت منهم وتوارت، فأرسل الله تعالى إليها
جبريل، عليه السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي: على صورة إنسان تام كامل. ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ
بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِن كُنْتَ تَقِيًّا﴾ أي: لما تبدى لها الملك في صورة بشر، وهي في مكان منفرد وبينها
وبين قومها حجاب، خافته وظنت أنه يريد لها على نفسها، فقالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِن
كُنْتَ تَقِيًّا﴾ أي: إن كنت تخاف الله. تذكير له بالله، وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون

بالأسهل فالأسهل، فخوفته أولاً بالله، عز وجل . ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ أى: فقال لها الملك مجيباً لها ومزيلاً لها حصل عندها من الخوف على نفسها: لست بما تظنين، ولكنى رسول ربك، أى: بعثنى إليك ﴿ لَأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ . ﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ أى: فتعجبت مريم من هذا وقالت: كيف يكون لى غلام؟ أى: على أى صفة يوجد هذا الغلام منى، ولست بذات زوج، ولا يتصور منى الفجور؛ ولهذا قالت: ﴿ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ والبغى: هى الزانية ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلِيمٌ هَيِّنٌ ﴾ أى: فقال لها الملك مجيباً لها عما سألت: إن الله قد قال: إنه سيوجد منك غلاماً، وإن لم يكن لك بعل ولا يوجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ أى: دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم، الذى نوع فى خلقهم، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه فلا إله غيره ولا رب سواه .

وقوله : ﴿ وَرَحْمَةً مِنَّا ﴾ أى : ونجعل هذا الغلام رحمة من الله نبياً من الأنبياء يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦] أى: يدعو إلى عبادة ربه فى مهده وكهولته .

وقوله: ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مُقْضِيًّا ﴾ يحتمل أن هذا من كلام جبريل لمريم، يخبرها أن هذا أمر مقدر فى علم الله تعالى وقدره ومشيئته . ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وأنه كنى بهذا عن النفخ فى فرجها، كما قال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ [التحریم: ١٢]، وقال: ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ﴾ [الانبياء: ٩١] . قال ابن إسحاق: ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مُقْضِيًّا ﴾ أى: أن الله قد عزم على هذا، فليس منه بد، واختار هذا أيضاً ابن جرير فى تفسيره، ولم يحك غيره، والله أعلم .

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ ﴿ فَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلْتَنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴾ ﴿ فَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال، أنها استسلمت لقضاء الله تعالى . ثم اختلف المفسرون فى مدة حمل عيسى، عليه السلام، فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر . وقال عكرمة: ثمانية أشهر . فالمشهور الظاهر- والله على كل شىء قدير- أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن . وقوله: ﴿ فَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أى: فاضطرها وأجأها الطلق إلى جذع نخلة فى المكان التى تنحت إليه . قلت: المشهور الذى تلقاه

الناس بعضهم عن بعض، ولا تشك فيه النصارى أنه بيت لحم.

وقوله تعالى إخباراً عنها: ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مُنْسِيًّا﴾: فيه دليل على جواز تمنى الموت عند الفتنة؛ فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها في خيرها، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية، فقالت: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ أي: قبل هذا الحال، ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مُنْسِيًّا﴾ أي: لم أخلق ولم أكن شيئاً. قاله ابن عباس. وقال قتادة: أي: شيئاً لا يعرف، ولا يذكر، ولا يدري من أنا. وقد قدمنا الأحاديث الدالة على النهي عن تمنى الموت إلا عند الفتنة، عند قوله: ﴿تَوَلَّى مُسْلِمًا وَالْحَفِيظِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿١٤﴾ وَهَزَيْتِ إِلَيْكَ جِجْرًا أَلْتَخَلَّةً تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿١٥﴾ فَكَلِمِي وَأَشْرِبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿١٦﴾﴾

قرأ بعضهم: ﴿مَنْ تَحْتَهَا﴾ بمعنى: الذي تحتها. وقرأ آخرون: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ على أنه حرف جر. واختلف المفسرون في المراد بذلك من هو؟ فقال ابن عباس: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾: جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها. وكذا قال سعيد بن جبیر، والسدى، وقاتدة وغيرهم: إنه الملك جبريل، عليه الصلاة والسلام، أي: ناداها من أسفل الوادي. وقال مجاهد: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ قال: عيسى ابن مريم. وكذا قال الحسن: هو ابنها. قال: أو لم تسمع الله يقول: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [مريم: ٢٩] واختاره ابن زيد، وابن جرير في تفسيره. وقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ أي: ناداها قائلاً: لا تحزني ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ عن البراء بن عازب قال: الجدول. وكذا قال ابن عباس: السرى: النهر. والظاهر أنها لم تكن في إبان ثمرها؛ ولهذا امتن عليها بذلك، أن جعل عندها طعاماً وشراباً، فقال: ﴿تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾. فكلمني وأشربي وقري عينا: أي: طيبني نفساً؛ ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة.

وقوله: ﴿فَأِمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي: مهما رأيت من أحد ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ المراد بهذا القول: الإشارة إليه بذلك. لا أن المراد به القول اللفظي، لئلا ينافي: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾. قال أنس بن مالك في قوله: ﴿صَوْمًا﴾ أي: صمتاً. وكذا قال ابن عباس، والضحاك.

﴿ فَآتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿١٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿١١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿١٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٣﴾ ﴿١٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك، وألا تكلم أحداً من البشر، فإنها ستكفي أمرها ويقام بحجتها، فسلمت لأمر الله، عز وجل، واستسلمت لقضائه، فأخذت ولدها ﴿فَآتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ فلما رأوها كذلك، أعظموا أمرها واستكروه جداً، وقالوا: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أي: امرأة عظيماً. ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ أي: يا شبيهة هارون في العبادة ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ أي: أنت من بيت طيب طاهر، معروف بالصلاح والعبادة والزهادة، فكيف صدر هذا منك؟

روى الإمام أحمد عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران، فقالوا: أرايت ماتقروون: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يتسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم؟». انفراد بإخراجه مسلم، والترمذي، والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس (١).

وقوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أي: أنهم لما استرابوا في أمرها واستنكروا قضيتها، وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية، وقد كانت يومها ذلك صائمة، صامته فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متهمين بها، ظانين أنها تزدرى بهم وتلعب بهم: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أي: من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾: أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى، وبرأه عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه. وقوله: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾: تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة. وقال عكرمة: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ أي: قضى أنه يؤتيني الكتاب فيما قضى.

وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ قال مجاهد، وعمرو بن قيس، والثوري: وجعلني معلماً للخير. وقوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ كقولته تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَأَعِذْ رَبِّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. وقال مالك بن أنس في قوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ قال: أخبره بما هو كائن من أمره إلى أن يموت، ما أبينها لأهل القدر. وقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدِي﴾

أى: وأمرني ببر والدي، ذكره بعد طاعة ربه؛ لأن الله تعالى كثيراً ما يقرب بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]. وقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أى: ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبر والدي، فأشقى بذلك. وقال بعض السلف: لا تجد أحداً عاقاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً، ثم قرأ: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ قال: ولا تجد سبى الملكة إلا وجدته مختلاً فخوراً، ثم قرأ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾: إثبات منه لعبوديته لله عز وجل، وأنه مخلوق من خلق الله يحيا، ويمت ويبعث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد، صلوات الله وسلامه عليه.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سَبْحَتَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ذلك الذي قصصناه عليك من خبر عيسى ﴿قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أى: يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به. ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبياً، نزه نفسه المقدسة فقال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سَبْحَانَهُ﴾ أى: عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علواً كبيراً ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أى: إذا أراد شيئاً فإنما يأمُر به، فيصير كما يشاء، كما قال تعالى: ﴿إِنْ مَثَلٌ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩، ٦٠].

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ أى: ومما أمر عيسى به قومه وهو في مهده، أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربهم وربهم، وأمرهم بعبادته، فقال: ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أى: هذا الذي جتتكم به عن الله صراط مستقيم، أى: قويم، من اتبعه رشد وهدى، ومن خالفه ضل وغوى .

وقوله: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أى: اختلفت أقوال أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فصممت طائفة - وهم جمهور اليهود، عليهم لعائن الله - على أنه ولد زنيّة، وقالوا: كلامه هذا سحر. وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم الله. وقال آخرون: هو ابن الله. وقال آخرون: ثالث ثلاثة. وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله. وهذا هو قول الحق، الذي أرشد الله إليه المؤمنين. وقد روى عن عمرو بن ميمون، وابن جريج، وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف. وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾: تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله، وافترى، وزعم أن له ولداً.

ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة وأجلهم حتماً وثقة بقدرته عليهم؛ فإنه الذى لا يعجل على من عساه، كما جاء فى الصحيحين: « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] (١). وفى الصحيحين أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافهم » (٢). وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَايِنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٤٨] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أى: يوم القيامة. وقد جاء فى الحديث الصحيح عن عبادة بن الصامت، قال: قال رسول الله ﷺ: « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » (٣).

﴿ أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿٢٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار يوم القيامة أنهم يكونون أسمع شىء وأبصره كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ الآية [السجدة: ١٧٢] أى: يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يجدى عنهم شيئاً، ولو كان هذا قبل معاينة العذاب لكان نافعاً لهم ومنقذاً من عذاب الله؛ لهذا قال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أى: ما أسمعهم وأبصرهم ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أى: يوم القيامة ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ﴾ أى: فى الدنيا ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى: لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ أى: أنذر الخلائق يوم الحسرة ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أى: فصل بين أهل الجنة وأهل النار، ودخل كل إلى ما صار إليه مخلداً فيه ﴿وَهُمْ﴾ أى: اليوم ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ عما أنذروا به ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: لا يصدقون به. روى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا؟ قال: «فيشربون فينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت». قال: «فيقال: يا أهل النار، هل تعرفون

(١) البخارى (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣ / ٦١) .

(٢) البخارى (٦٠٩٩) ومسلم (٤ / ٢٨٠٤) .

(٣) البخارى (٣٤٣٥) ومسلم (٢٩ / ٤٧) .

هذا؟ قال: «فيشربون فينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت» قال: «فيؤمر به فيذبح» قال: «ويقال: يا أهل الجنة، خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت» قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وأشار بيده. قال: «أهل الدنيا في غفلة الدنيا». وقد أخرجه البخارى ومسلم ولفظهما قريب من ذلك^(١). وفى سنن ابن ماجه وغيره عن أبى هريرة، بنحوه^(٢). وهو فى الصحيحين عن ابن عمر^(٣).

وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ﴾: يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف، وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو، تعالى وتقدس ولا أحد يدعى ملكاً ولا تصرفاً، بل هو الوارث لجميع خلقه، الباقي بعدهم، الحاكم فيهم، فلا تظلم نفس شيئاً ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾

يقول تعالى لنبية محمد ﷺ: واذكر فى الكتاب إبراهيم واتل على قومك، هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، واذكر لهم ما كان من خير إبراهيم خليل الرحمن الذين هم من ذريته، ويدعون أنهم على ملته، وقد كان صديقاً نبياً - مع أبيه - كيف نهاه عن عبادة الأصنام، فقال: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ أى: لا ينفعك ولا يدفع عنك ضرراً. ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ يقول: إن كنت من صلبك وترى أنى أصغر منك، لأنى ولدك، فاعلم أنى قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ولا جاءك بعد ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أى: طريقاً مستقيماً موصلاً إلى نيل المطلوب، والنجاة من المهوب.

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ أى: لا تطعه فى عبادتك هذه الأصنام، فإنه هو الداعى إلى ذلك، والراضى به، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠] وقال: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثَانًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [النساء: ١١٧].

وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ أى: مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه، فطرده وأبعده، فلا تتبعه تصر مثله ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أى: على شركك وعصيانك لما

(١) المسند (٣ / ٩) والبخارى (٤٧٣٠) ومسلم (٢٨٤٩ / ٤٠).

(٢) ابن ماجه (٤٣٢٧)، وفى الزوائد: «إسناده صحيح»، رجاله ثقات، وصححه الألبانى.

(٣) البخارى (٦٥٤٨) ومسلم (٢٨٥٠ / ٤٣).

أمرك به، ﴿فَتَكُونُ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ يعني: فلا يكون لك مولى ولا ناصرًا ولا مغيثًا إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء، بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك، كما قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرِئِن لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣]

﴿قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنِّ إِلَهِي يَتَّبِعُهُمُ الْيَهُودُ﴾ لَمَّا تَنَبَّهَ لِأَرْجَمَكَ وَأَهْجَرَنِي مَلِيًّا
﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّكَ كَانَتْ فِي حَفِيًّا﴾ ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَرَلَكُمْ
وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن جواب أبي إبراهيم لولده إبراهيم فيما دعاه إليه أنه قال: ﴿أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنِّ إِلَهِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ يعني: إن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها، فانته عن سبها وشتمها وعبئها، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصت منك وشتمتك وسبتك، وهو قوله: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، قاله ابن عباس . وقوله: ﴿وَأَهْجَرَنِي مَلِيًّا﴾ قال مجاهد : يعني : دهرأ . وقال الحسن البصري : زماناً طويلاً ، وقال ابن عباس : ﴿وَأَهْجَرَنِي مَلِيًّا﴾ قال : سوياً سالماً، قبل أن تصيبك منى عقوبة . وكذا قال الضحاك وقتادة ، واختاره ابن جرير .

فعندها قال إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ كما قال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

ومعنى قول إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ يعني: أما أنا فلا ينالك منى مكروه ولا أذى، وذلك لحرمه الأبوة ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ أي: ولكن سأسال الله تعالى فيك أن يهديك ويغفر ذنبك ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ قال ابن عباس وغيره: لطيفاً، أي: في أن هداني لعبادته والإخلاص له . وقد استغفر إبراهيم لأبيه مدة طويلة، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق ، عليهما السلام ، في قوله : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]. وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهلهم من المشركين في ابتداء الإسلام، وذلك اقتداءً بإبراهيم الخليل في ذلك حتى أنزل الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ الآية [المتنحة: ٤] ، يعني إلا في هذا القول، فلا تناسوا به . ثم بين تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك، ورجع عنه، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

وقوله: ﴿وَأَعْتَرَلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ أي: اجتنبكم وأتبرأ منكم ومن

آلهتكم التي تعبدونها من دون الله، ﴿وَأَذْعُرِّيَّ﴾ أي: وأعبد ربي وحده لا شريك له، ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ و«عسى» هذه موجبة لا محالة، فإنه، عليه السلام، سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ.

﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلْتُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى: فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله، أبدله الله من هو خير منهم، وهب له إسحاق ويعقوب، يعنى ابنه وابن إسحاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢]، وقال: ﴿وَمِن رَّوَّاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب، وهو نص القرآن في سورة البقرة: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣]. ولهذا ذكر هاهنا إسحاق ويعقوب، أي: جعلنا له نسلا وعقباً أنبياء، أقر الله بهم عينه في حياته؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾، فلو لم يكن يعقوب قد نبئ في حياة إبراهيم، لما اقتصر عليه، ولذكر ولده يوسف، فإنه نبى أيضاً كما قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته، حين سئل عن خير الناس، فقال: «يوسف نبى الله، ابن يعقوب نبى الله، ابن إسحاق نبى الله، ابن إبراهيم خليل الله» (١). وفي اللفظ الآخر: «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم» (٢).

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ قال ابن عباس: يعنى الشئ الحسن. وقال ابن جرير: إنما قال: ﴿عَلِيًّا﴾؛ لأن جميع الملل والأديان يشنون عليهم ويمدحونهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّكُمْ كَانَ مُخْلِصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَذَرْنَاهُ مِنَ الْجَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَوَرَيْتَهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾

لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه، عطف بذكر الكليم، فقال: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصًا﴾ قرأ بعضهم بكسر اللام، من الإخلاص في العبادة. وقرأ الآخرون بفتحها، بمعنى أنه كان مصطفى، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الاعراف: ١٤٤]. ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾، جمع له بين الوصفين، فإنه كان من المرسلين الكبار أولى العزم الخمسة، وهم: نوح وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين.

وقوله : ﴿ وَنَادَيْتَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ ﴾ أي : الجبل ﴿ الْأَيْمَنِ ﴾ من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار جذوة ، فرآها تلوح فقصدتها ، فوجدها في جانب الطور الايمن منه ، غربية عند شاطئ الوادى . فكلمه الله تعالى ، وناداه وقربه فناجاه . روى ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ قال : أذني حتى سمع صريف القلم .

وقوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ أي : وأجينا سؤاله وشفاعته في أخيه ، فجعلناه نبياً ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْنَا مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص : ٣٤] ، وقال : ﴿ قَدْ أَوْتَيْتَ سؤُوكَ يَا مُوسَى ﴾ [طه : ٣٦] ، وقال : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَى هَارُونَ . وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ [الشعراء : ١٣ ، ١٤] ؛ ولهذا قال بعض السلف : ما شفع أحد في أحد شفاعته في الدنيا أعظم من شفاعته موسى في هارون أن يكون نبياً ، قال الله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ .

﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل ، عليهما السلام ، وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه ﴿ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ . وقال بعضهم : إنما قيل له : ﴿ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ ؛ لأنه قال لآبيه : ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] ، فصدق في ذلك .

فَصَدَّقَ الوعد من الصفات الحميدة ، كما أن خُلِقَ من الصفات الذميمة ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : ٢ ، ٣] ، وقال رسول الله ﷺ : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » (١) .

ولما كانت هذه صفات المنافقين ، كان التلبس بضعها من صفات المؤمنين ، ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد ، وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضاً ، لا يعد أحداً شيئاً إلا وفى له به ، وقد أثنى على أبى العاص بن الربيع زوج ابنته زينب ، فقال : « حدثني فصدقني ، ووعدني فوفى لي » (٢) . ولما توفى النبي ﷺ قال الخليفة أبو بكر الصديق : من كان له عند رسول الله ﷺ عِدَّةٌ أو دِينَ فليأتني أنجز له ، فجاء جابر بن عبد الله ، فقال : إن رسول الله ﷺ كان قال : « لو جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا » ، يعنى : ملء كفيه ، فلما جاء مال البحرين أمر الصديق جابراً ، فغرف بيديه من المال ، ثم أمره بَعْدَهُ ، فإذا هو خمسمائة درهم ، فأعطاه مثليها معها (٣) .

وقوله : ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ : فى هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق ؛ لأنه إنما

(٢) البخارى (٣٧٢٩) ومسلم (٢٤٤٩ / ٩٥) .

(١) البخارى (٣٣) ومسلم (١٠٧ / ٥٩) .

(٣) البخارى (٢٦٨٣) ومسلم (٢٣١٤ / ٦٠) .

وصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة. وقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل » وذكر تمام الحديث (١)، فدل على صحة ما قلناه.

وقوله: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾: هذا أيضاً من الثناء الجميل، والصفة الحميدة، والخلة السديدة، حيث كان مثابراً على طاعة ربه أمراً بها لأهله، كما قال تعالى لرسوله: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ الآية [طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ ﴾ الآية [التحريم: ٦] أى: مروهم بالمعروف، وانهوهم عن المنكر، ولا تدعوهم هملاً فتاكلهم النار يوم القيامة، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى، وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء. رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت، وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء » أخرجه أبو داود، وابن ماجه (٢).

﴿ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ ﴿٥١﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٢﴾

ذكر إدريس، عليه السلام، بالثناء عليه، بأنه كان صديقاً نبياً، وأن الله رفعه مكاناً علياً. وقد تقدم في الصحيح: أن رسول الله ﷺ مرّ به في ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة (٣).

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبْتِنَا إِذَا نُنزلنَا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ ﴿٥٨﴾

سجدة

يقول تعالى: هؤلاء النبيون - وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط، بل جنس الأنبياء، عليهم السلام، استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس - ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ ﴾ الآية. قال السدي وابن جرير: فالذي عنى به من ذرية آدم: إدريس، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح: إبراهيم، والذي عنى به من ذرية إسرائيل: موسى، وهارون، وزكريا، ويحيى وعيسى ابن مريم. قال ابن جرير: ولذلك فرق أنسابهم، وإن كان يجمع جميعهم آدم؛ لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة، وهو إدريس، فإنه جد نوح. قلت: هذا هو الأظهر أن إدريس في عمود نسب نوح، وعليهما السلام. وقد قيل: إنه من أنبياء بنى إسرائيل، أخذنا من حديث الإسراء، حيث قال في سلامه على النبي ﷺ: «مرحباً بالنبي الصالح، والأخ الصالح» (٤)، ولم يقل: «والولد الصالح»، كما قال آدم وإبراهيم، عليهما السلام.

(١) مسلم (٢٢٧٦ / ١).

(٢) أبو داود (١٤٥٠) وابن ماجه (١٣٣٦) وصححه الألباني.

(٣) البخارى (٣٤٩) ومسلم (١٦٢ / ٢٥٩). (٤) البخارى (٤٨٠٧).

وعما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنس الأنبياء، أنها كقوله تعالى فى سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نُّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ . وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ إلى أن قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٨٣-٩٠] وقال تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَّنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [عافر: ٧٨] .
وفى صحيح البخارى، عن مجاهد: أنه سأل ابن عباس: أفى «ص» سجدة؟ قال: نعم، ثم تلا هذه الآية: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ﴾، فنبهكم عن أمر أن يقتدى بهم، قال: وهو منهم، يعنى داود.

وقال الله تعالى فى هذه الآية الكريمة: ﴿إِذَا تَقَالَىٰ عَلَيْهِم آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ أى: إذا سمعوا كلام الله المتضمن حُجَّجِه ودلائله وبراهينه، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة، وحمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة. «والبكى»: جمع بك، فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود هاهنا، اقتداء بهم، واتباعاً لمنوالهم.

قرأ عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، سورة مريم، فسجد وقال: هذا السجود، فأين البكى؟ يريد البكاء.

رَبِيع ﴿خَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ (٥٩)
﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (٦٠)

لما ذكر تعالى حزب السعداء، وهم الأنبياء، عليهم السلام، ومن اتبعهم، من القائميين بحدود الله وأوامره، المؤدين فرائض الله، التاركين لزواجه - ذكر أنه ﴿خَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ أى: قرون آخر، ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع؛ لأنها عماد الدين وقوامه، وخير أعمال العباد، وأقبلوا على شهوات الدنيا وملذاتها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمانوا بها، فهؤلاء سيلقون غيا، أى: خساراً يوم القيامة. وقد اختلفوا فى المراد بإضاعة الصلاة هاهنا، فقال قائلون: المراد بإضاعتها تركها بالكلية، واختاره ابن جرير. ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو المشهور عن الإمام أحمد، وقول عن الشافعى إلى تكفير تارك الصلاة، للحديث: « بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة » (١)، والحديث الآخر: « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر » (٢). وقال القاسم بن مخيمرة فى قوله: ﴿فَخَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾، قال: إنما أضاعوا المواقيت، ولو كان تركاً كان كضراً. وعن ابن مسعود أنه قيل له: إن الله يكثر ذكر الصلاة فى القرآن: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ

(١) مسلم (٨٢ / ١٣٤).

(٢) الترمذى (٢٦٢١) وقال: « حديث حسن صحيح غريب ».

سَاهُونَ ﴿ وَعَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ و ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾؟ فقال ابن مسعود: على مواقيتها. قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على الترك؟ قال: ذلك الكفر. وقال عمر بن عبد العزيز: لم تكن إضاعتهم تركها، ولكن أضاعوا الوقت. وقال مجاهد: ﴿فَحَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ رَاتِبَعُوا الشُّهُوتَ﴾ قال: عند قيام الساعة، وذهب صالحى أمة محمد ﷺ، ينزو بعضهم على بعض فى الأزقة. وقال الحسن البصرى: عطلوا المساجد، ولزموا الضيعات. وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ قال ابن عباس: خسراناً. وقال قتادة: شراً.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾، أى: إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات، فإن الله يقبل توبته، ويحسن عاقبته، ويجعله من ورثة جنة النعيم؛ ولهذا قال: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ شَيْئًا﴾، وذلك؛ لأن التوبة تجب ما قبلها. ولهذا لا ينقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التى عملوها شيئاً، ولا قوبلوا بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوه بعدها؛ لأن ذلك ذهب هدرأً وترك نسيأً، وذهب مجانأً، من كرم الكريم، وحلم الخليم. وهذا الاستثناء ههنا كقوله فى سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخَلَّدُ فِيهَا مُهَانًا . إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالَّتَيْبِ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعَدُّهُمْ مَأْتِيًا ﴿١١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾﴾

يقول تعالى: الجنات التى يدخلها التائبون من ذنوبهم هى ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أى: إقامة ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ﴾ بظهر الغيب، أى: هى من الغيب الذى يؤمنون به وما رأوه؛ وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا وَعَدُّهُمْ مَأْتِيًّا﴾ تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره؛ فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله، كقوله: ﴿كَانُوا وَعَدُّهُمْ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٨] أى: كائنا لا محالة. وقوله ههنا: ﴿مَأْتِيًّا﴾ أى: العباد صائرون إليه، وسيأتونه. ومنهم من قال: ﴿مَأْتِيًّا﴾ بمعنى: آتيا؛ لأن كل ما أتاك فقد أتيت، كما تقول العرب: أتت على خمسون سنة، وأتيت على خمسين سنة، كلاهما بمعنى واحد.

وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أى: هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له، كما قد يوجد فى الدنيا ﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ استثناء منقطع، كقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]. وقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أى: فى مثل وقت البكرات ووقت العشيات، لا أن هناك ليلاً ونهاراً، ولكنهم فى أوقات تتعاقب، يعرفون مضيها بأضواء وأنوار، كما قال الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يتمخطون فيها، ولا يتغوطون،

آيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الأثوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مَخُ ساقيهما من وراء اللحم؛ من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيا. أخرجاه في الصحيحين^(١). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة، في قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا». تفرد به أحمد من هذا الوجه^(٢). وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال: مقادير الليل والنهار.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾: فيها ساعتان: بكرة وعسى: ليس ثم ليل ولا نهار، وإنما هو ضوء ونور. وقال مجاهد: ليس بكرة ولا عشى، ولكن يؤتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا.

وقوله: ﴿تِلْكَ أَلْحُتَةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ أي: هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة هي التي نورثها عبادنا المتقين، وهم المطيعون لله - عز وجل - في السراء والضراء، والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس، وكما قال تعالى في أول سورة المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ. الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠-١١].

﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَمَّا يَبْسُتُ أَيُّدِينَا وَمَا خَلَفْنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لِمَ سَمِيًّا﴾

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟» قال: فنزلت ﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية. انفرد بإخراجه البخاري^(٣).

وقوله: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ قيل: المراد: ما بين أيدينا: أمر الدنيا، وما خلفنا: أمر الآخرة ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾: ما بين النفتين. هذا قول أبي العالية، وقيل: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾: ما نستقبل من أمر الآخرة ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ أي: ما مضى من الدنيا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي: ما بين الدنيا والآخرة. يروى نحوه عن ابن عباس، واختاره ابن جرير أيضاً، والله أعلم. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾: قال مجاهد والسدي: معناه: ما نسيك ربك. وعن أبي الدرداء يرفعه قال: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾^(٤).

(١) المسند (٨١٨٣) والبخاري (٣٢٢٥) ومسلم (٢٨٣٤/١٧).

(٢) المسند (٢٣٩٠) وقال الشيخ أحمد شاکر: «إسناده صحيح».

(٣) المسند (٢٠٤٣) والبخاري (٤٧٣١).

(٤) الحاكم في المستدرک (٢ / ٣٧٥) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي.

وقوله: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: خالق ذلك ومدبره، والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقب لحكمه ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ قال ابن عباس: هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً. وكذلك قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن جريج وغيرهم. وقال عكرمة، عن ابن عباس: ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى، وتقدس اسمه.

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿١٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتُهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿١٧﴾ فَوَرَّيْكَ لَنَحْشُرَنَّهِنَّ وَالشَّيَاطِينَ ثَمَّ لَنَحْضُرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿١٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿١٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٢٠﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ يَتَعَجَّبُ وَيَسْتَعْبِدُ إِعَادَتَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَتَدْرَأُونَ أَنَّا لَمَنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا هُوَ حَصِيمٌ مِّينَ . وَضَرَبْنَا لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ - ٧٩]، وقال ههنا: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا . أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ يستدل، تعالى، بالبداءة على الإعادة، يعنى أنه، تعالى خلق الإنسان ولم يك شيئاً، أفلا يعيده وقد صار شيئاً، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وفى الصحيح: «يقول الله تعالى: كذبنى ابن آدم ولم يكن له أن يكذبنى، وأذانى ابن آدم ولم يكن له أن يؤذنى، أما تكذبيه إياى فقولته: لن يعيدنى كما بدأنى، وليس أول الخلق بأهون على من آخره، وأما آذاه إياى فقولته: إن لى ولداً، وأنا الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد» (١).

وقوله: ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَحْشُرَنَّهِنَّ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أقسم الرب، تبارك وتعالى، بنفسه الكريمة، أنه لا بد أن يحشرهم جميعاً وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله ﴿ثُمَّ لَنَحْضُرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ قعوداً، كقوله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَانِيَةً﴾ [الحج: ٢٨]. ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ يعنى: من كل أمة، قاله مجاهد ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ قال ابن مسعود: يحبس الأول على الآخر، حتى إذا تكاملت العدة، أتاهم جميعاً، ثم بدأ بالأكابر، فالأكابر جرماً، وقال قتادة: ثم لنزعن من أهل كل دين قادتهم فى الشر. وكذا قال ابن جريج، وغير واحد من السلف. وهذا كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ . وَقَالَتْ أَوْلَاهُم لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الاعراف: ٣٨، ٣٩].

وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾: «ثم» ههنا لعطف الخير على الخير، والمراد: أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصى بنار جهنم ويخلد فيها، وبمن يستحق تضعيف

العذاب، كما قال في الآية المتقدمة: ﴿ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ ﴿٧١﴾ ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا ﴿٧٢﴾

روى الإمام أحمد عن أبي سُميَّة قال: اختلفنا في الورود، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن. وقال بعضهم: يدخلونها جميعاً، ثم ينجي الله الذين اتقوا. فلقيت جابر بن عبد الله، فقلت له: إنا اختلفنا في الورود، فقال: يردونها جميعاً - وقال سليمان مرة^(١): يدخلونها جميعاً - وأهوى بأصبعه إلى أذنيه، وقال: صمتا، إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً، كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم، ثم ينجي الله الذين اتقوا، ويذر الظالمين فيها جثياً ». غريب ولم يخرجوه^(٢). وقال الحسن البصرى: قال رجل لأخيه: هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم. قال: فهل أتاك أنك صادر عنها؟ قال: لا. قال: فقيم الضحك؟ قال فما رُئي ضاحكاً حتى لحق بالله. وقال مجاهد قال: كنت عند ابن عباس، فأتاه رجل يقال له: أبو راشد، وهو نافع بن الأزرق، فقال له: يا ابن عباس، أرايت قول الله: ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾؟ قال: أما أنا وأنت يا أبا راشد فسزدها، فانظر: هل نصرر عنها أم لا.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله - هو ابن مسعود ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ : قال رسول الله ﷺ: « يرد الناس النار كلهم، ثم يصدرون عنها بأعمالهم ». ورواه الترمذى، هكذا وقع هذا الحديث ههنا مرفوعاً^(٣). وروى ابن جرير: عن عبد الله: قوله: ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ قال: الصراط على جهنم مثل حد السيف، فتمر الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم، ثم يمرون والملائكة يقولون: اللهم سلّم سلّم. ولهذا شواهد فى الصحيحين وغيرهما، من رواية أنس، وأبى سعيد، وأبى هريرة، وجابر، وغيرهم، من الصحابة، رضى الله عنهم^(٤). وروى الإمام أحمد عن حفصة قالت: قال رسول الله ﷺ: « إنى لأرجو ألا يدخل النار - إن شاء الله - أحد شهد بداراً والحديبية » قالت: فقلت: ليس الله يقول: ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾؟ قالت: فسمعتة يقول: ﴿ ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا ﴾^(٥).

وروى أحمد عن أم مبشر- امرأة زيد بن حارثة - قالت: كان رسول الله ﷺ فى بيت

(١) فى المطبوعة: « سليمان بن مرة » وهو خطأ . وصوابه المثبت كما فى المخطوطة .

(٢) المسند (٣ / ٣٢٨) وقال الهيثمى فى الزوائد (٧ / ٥٨) : « رجاله ثقات » .

(٣) المسند (٤١٢٨) وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده صحيح » . و الترمذى (٣١٥٩) وقال : « حديث حسن » .

(٤) البخارى (٦٥٧٣) ومسلم (١٨٢ / ٢٩٩ ، ١٨٣ / ٣٠٢) .

(٥) المسند (٦ / ٢٨٥) ومسلم (٢٤٩٦ / ١٦٣) .

حفصة، فقال: « لا يدخل النار أحد شهد بداراً والحديبية » قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿وَأَنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾^(١). وفى الصحيحين عن أبى هريرة، قال: قال رسول ﷺ: « لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار، إلا تَحَلَّهَ الْقَسَمُ »^(٢).

وقال عبد الرزاق: يعنى الورود. وقال أبو داود الطيالسى: قال الزهرى: كانه يريد هذه الآية: ﴿وَأَنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾.

وعن ابن مسعود فى قوله: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ قال: قسماً واجباً، وقال مجاهد: ﴿حَتْمًا﴾: قضاء.

وقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أى: إذا مرّ الخلائق كلهم على النار، وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوى المعاصى، بحسبهم، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم. فجازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التى كانت فى الدنيا، ثم يشفعون فى أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيخرجون خلقاً كثيراً قد أكلتهم النار، إلا دارات وجوههم - وهى مواضع السجود - وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما فى قلوبهم من الإيمان، فيخرجون أولاً من كان فى قلبه مثقال دينار من إيمان، ثم الذى يليه، ثم الذى يليه، حتى يخرجوا من كان فى قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ثم يخرج الله من النار من قال يوماً من الدهر: « لا إله إلا الله » وإن لم يعمل خيراً قط، ولا يبقى فى النار إلا من وجب عليه الخلود، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا﴾.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ ﴿٧٣﴾ وَكَرَّاهَلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا ﴿٧٤﴾

يخبر تعالى عن الكفار حين تلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان: أنهم يصدون عن ذلك، ويعرضون ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أى: أحسن منازل وأرفع دوراً وأحسن ندياً، وهو مجمع الرجال للحديث، أى: ناديهم أعمر وأكثر واردة وطارقاً، يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل، وأولئك الذين هم مختفون مستترون فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ونحوها من الدور على الحق؟. كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الاحقاف: ١١]. وقال قوم نوح:

(١) المسند (٣٦٢/٦) وقال الهيثمى فى الزوائد (٣٠٧/٩): «رجال أحمد رجال الصحيح» والحديث رواه مسلم (١٦٣/٢٤٩٦).

(٢) البخارى (٦٦٥٦) ومسلم (٢٦٣٢ / ١٥).

﴿ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَبْنَا فِيهَا الْهَاجِرَةَ فَجَاءَ النَّاسُ بِالْحَبَرِ فَأَعْرَضْنَا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣]؛ ولهذا قال تعالى راداً عليهم شبهتهم: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ أَى: وكـم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكتناهم بكفرهم ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَتَانَا وَرَبِّياً ﴾ أى: كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً وأمتعة ومناظر وأشكالا. وقال ابن عباس: المقام: المسكن، والندى: المجلس والنعمة والهبة التي كانوا فيها، وهو كما قال الله لقوم فرعون حين أهلكتهم وقص شأنهم فى القرآن: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ [الدخان: ٢٥، ٢٦]، فالمقام: المسكن والنعيم، والندى: المجلس والمجمع الذى كانوا يجتمعون فيه، وقال فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط: ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، والعرب تسمى المجلس: النادى.

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾

يقول تعالى: ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم المدعين، أنهم على الحق وأنكم على الباطل: ﴿ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ ﴾ أى: منا ومنكم ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ أى: فأمهله الرحمن فيما هو فيه، حتى يلقي ربه وينقض أجله، ﴿ إِمَّا الْعَذَابَ ﴾ يصيبه ﴿ وَإِمَّا السَّاعَةَ ﴾ بغتة تأتيه، ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ حينئذ ﴿ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾ أى: فى مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندى. قال مجاهد فى قوله: ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾: فليدعه الله فى طغيانه. هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير، رحمه الله.

وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه، كما ذكر تعالى مباهلة اليهود فى قوله: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الجمعة: ٦] أى: ادعوا على المبطل منا ومنكم بالموت إن كنتم تدعون أنكم على الحق، فإنه لا يضركم الدعاء، فنكلوا عن ذلك، وقد تقدم تقرير ذلك فى سورة «البقرة» مبسوطاً، ولله الحمد. وكما ذكر تعالى المباهلة مع النصارى فى سورة «آل عمران» حين صمموا على الكفر، واستمروا على الطغيان والغلو فى دعواهم أن عيسى ولد الله، وقد ذكر الله حججه وبراهينه على عبودية عيسى، وأنه مخلوق كآدم، قال بعد ذلك: ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١] فنكلوا أيضاً عن ذلك.

﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتِ الصَّلِيحَتِ حَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَحَيْرٌ مَرَدًّا ﴾

لما ذكر تعالى إمداد من هو فى الضلالة فيما هو فيه وزيادته على ما هو عليه، أخبر بزيادة المهتدين هدى كما قلل تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾ الآيتين

[التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. وقوله: ﴿وَأْتَايَاتُ الصَّالِحَاتِ﴾: قد تقدم تفسيرها، والكلام عليها، وإيراد الأحاديث المتعلقة بها في سورة «الكهف» ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: جزاء ﴿وَخَيْرٌ مُرَدًّا﴾ أي: عاقبة ومراداً على صاحبها.

﴿أَفْرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ آتَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنُرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾

روى الإمام أحمد عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً، وكان لى على العاص بن وائل دين، فأتيته أنتقاضاه. فقال: لا، والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد فقلت: لا، والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث. قال: فأني إذا مت ثم بعثت جنتني ولى ثم مال وولد، فأعطيتك. فانزل الله: ﴿أَفْرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾. أخرجه صاحبنا الصحيح وغيرهما، وفي لفظ البخارى: كنت قيناً بمكة، فعملت للعاص بن وائل سيفاً، فجئت أنتقاضاه. فذكر الحديث، وقال: ﴿أَمْ آتَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: موثقاً (١). وهكذا قال مجاهد، وقاتدة، وغيرهم: إنها نزلت في العاص بن وائل.

وقوله: ﴿لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾: قرأ بعضهم بفتح «الواو» من «ولداً» وقرأ آخرون بضمها، وهو بمعناه، وقيل: إن «الولد» بالضم جمع، «والولد» بالفتح مفرد، وهى لغة قيس، والله أعلم. وقوله: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾: إنكار على هذا القائل «لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا» يعنى: يوم القيامة، أى: أعلم ماله فى الآخرة حتى تألى وحلف على ذلك، ﴿أَمْ آتَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾: أم له عند الله عهد سيؤتيه ذلك؟ وقد تقدم عند البخارى: أنه الموثق. وقال ابن عباس: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ آتَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ قال: لا إله إلا الله، فيرجو بها. ﴿كَلَّا﴾: هى حرف رَدَع لما قبلها وتأكيد لما بعدها «سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ» أى: من طلبه ذلك وحكمه لنفسه بما تمناه، وكفره بالله العظيم «وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا» أى: فى الدار الآخرة، على قوله ذلك، وكفره فى الدنيا «وَنُرِثُهُ مَا يَقُولُ» أى: من مال وولد، نسلبه منه، عكس ما قال: إنه يُؤْتَى فى الدار الآخرة مالا وولداً، زيادة على الذى له فى الدنيا، بل فى الآخرة يُسَلَبُ مِنَ الذى كان له فى الدنيا؛ ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أى: من المال والولد، لا يتبعه قليل ولا كثير.

﴿وَآتَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكٰفِرِينَ تَوْرَهُمْ آزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾﴾

يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم: أنهم اتخذوا من دونه آلهة، لتكون تلك الآلهة

﴿عزاً﴾ يعتزون بها ويستنصرونها . ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا ، ولا يكون ما طمعوا ، فقال : ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي : يوم القيامة ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ صِدْأً﴾ أي : بخلاف ما ظنوا فيهم ، كما قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَآ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الاحقاف : ٥ ، ٦] . وقرأ أبو نَهيك : «كل سيكفرون بعبادتهم» . وقال السدي : ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أي : بعبادة الأوثان . وقوله : ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ صِدْأً﴾ أي : بخلاف ما رجوا منهم .

وقوله : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَرَاهُمْ أَرَأَى﴾ قال ابن عباس : تغويهم إغواء ، وقال العوفي عنه : تحرضهم على محمد وأصحابه ، وقال قتادة : تزعجهم إزعاجاً إلى معاصي الله . وقوله : ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ أي : لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ أي : إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط ، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم : ٤٢] ، ﴿فَمَهَلِ الْكَافِرِينَ أَنهَلَهُمْ رُؤْيَا﴾ [الطارق : ١٧] ، ﴿إِنَّمَا نُعَلِّمُهُمْ لِيزَادُوا إِنَّمَا﴾ [آل عمران : ١٧٨] ، ﴿نَمَتَّعَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان : ٢٤] ، ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم : ٣٠] . قال السدي : ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ : السنين ، والشهور ، والأيام ، والساعات . وقال ابن عباس : نعد أنفسهم في الدنيا .

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ﴾ ﴿وَسَوْقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِذَا﴾ ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين ، الذين خافوه في الدار الدنيا ، واتبعوا رسله وصدقوهم فيما أخبروهم ، وأطاعوهم فيما أمروهم به ، وانتهوا عما زجروهم : أنه يحشرهم يوم القيامة وفداً إليه . والوفد : هم القادمون ركباناً ، ومنه الوفود وركوبهم على نجائب من نور ، من مراكب الدار الآخرة ، وهم قادمون على خير موفود إليه ، إلى دار كرامته ورضوانه . وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم ، فإنهم يساقون عنفاً إلى النار ﴿وَرِذَا﴾ : عطاء ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد . وههنا يقال : ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم : ٧٣] . وقال ابن عباس : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدْ﴾ قال : ركباناً .

وقوله : ﴿وَسَوْقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِذَا﴾ أي : عطاء ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ أي : ليس لهم من يشفع لهم ، كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض ، كما قال تعالى مخبراً عنهم : ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء : ١٠٠ ، ١٠١] .

﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ : هذا الاستثناء منقطع ، بمعنى : لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، والقيام بحقها . قال ابن عباس : العهد : شهادة أن لا إله

إلا الله، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة، ولا يرجو إلا الله، عز وجل.

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٨﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٨٩﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩١﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٢﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٣﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٤﴾ ﴾

لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى، عليه السلام، وذكر خلقه من مريم بلا أب، شرع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً - تعالى وتقدس وتزهر عن ذلك علواً كبيراً - فقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ . لقد جئتم ﴿أى﴾ : فى قولكم هذا ﴿شَيْئًا إِدًّا﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ومالك: أى عظيماً .

وقوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ . أن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿أى﴾ : يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بنى آدم، إعظاماً للرب وإجلالاً؛ لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا صاحبة له، ولا كفاء له، بل هو الأحد الصمد .

وفى كُلِّ شَيْءٍ لَه آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

وروى الإمام أحمد: عن أبى موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، إنه يشرك به، ويجعل له ولداً، وهو يعافيه ويدفع عنهم، ويرزقهم». أخرجاه فى الصحيحين. وفى لفظ: «إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيه» (١) .

وقوله: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أى: لا يصلح له، ولا يليق به لجلاله وعظمته؛ لأنه لا كفاء له من خلقه؛ لأن جميع الخلائق عبيد له؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ . لقد أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿أى﴾ : قد علم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ذكرهم وأنتاهم، وصغيرهم وكبيرهم ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ أى: لا ناصر له ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له، فيحكم فى خلقه بما يشاء، وهو العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة، ولا يظلم أحداً.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٥﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ سَمِعَ لَهُمْ رِكْرًا ﴿٩٧﴾ ﴾

(١) المسند (٤ / ٤٠٥) والبخارى (٦٠٩٩) ومسلم (٤ / ٢٨٠ - ٤٩) .

يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وهى الأعمال التى ترضى الله، عز وجل، لمتابعتها الشريعة المحمدية - يغرس لهم فى قلوب عباده الصالحين مودة، وهذا أمر لا بد منه، ولا محيد عنه. وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه. روى الإمام أحمد: عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل، إنى أحب فلاناً فأحبه. قال: فيحبه جبريل». قال: «ثم ينادى فى أهل السماء: إن الله يحب فلاناً». قال: «فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول فى الأرض، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل، إنى أبغض فلاناً فأبغضه». قال: «فيبغضه جبريل، ثم ينادى فى أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه». قال: «فيبغضه أهل السماء، ثم يوضع له البغضاء فى الأرض».

ورواه مسلم^(١). ورواه أحمد والبخارى عن نافع مولى ابن عمر، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، بنحوه^(٢). وروى ابن أبى حاتم: عن أبى هريرة؛ أن النبى ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إنى قد أحببت فلاناً، فأحبه، فينادى فى السماء، ثم ينزل له المحبة فى أهل الأرض، فذلك قول الله، عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾». رواه مسلم والترمذى. وقال الترمذى: حسن صحيح^(٣).

وقال ابن عباس: الود من المسلمين فى الدنيا، والرزق الحسن، واللسان الصادق. وقد روى ابن جرير أثراً أن هذه الآية نزلت فى هجرة عبد الرحمن بن عوف. وهو خطأ، فإن هذه السورة بتمامها مكية لم ينزل منها شيء بعد الهجرة، ولم يصح سند ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتُرْنَا﴾ يعنى: القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أى: يا محمد، وهو اللسان العربى المبين الفصيح الكامل ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ أى: المستجيبين لله المصدقين لرسوله ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ أى: عوجاً عن الحق مائلين إلى الباطل.

وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ﴾ أى: من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أى: هل ترى منهم أحداً، أو تسمع لهم ركزاً، قال ابن عباس، وأبو العالية، وعكرمة، والحسن البصرى، وسعيد بن جببر، والضحاك، وابن زيد: يعنى: صوتاً. والركز فى أصل اللغة: هو الصوت الخفى.

(٢) المسند (٢ / ٥١٤) والبخارى (٦٠٤٠).

(١) المسند (٢ / ٤١٣) ومسلم (٢٦٣٧ / ١٥٧).

(٣) مسلم (٣٦٣٧ / ١٥٧)، والترمذى (٣١٦١).

تفسير سورة طه

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ طه ﴿٢﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٣﴾ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٤﴾ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٥﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٦﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٧﴾ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٨﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٩﴾

تقدم الكلام على الحروف المقطعة .

وقوله: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ قال الضحاك: لما أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ، قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى! فأنزل الله تعالى: ﴿طه. مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى. إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾. فليس الأمر كما زعمه المبطلون، بل من أتاه الله العلم فقد أراد به خيراً كثيراً، كما ثبت في الصحيحين، عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين» (١). وما أحسن الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني في ذلك حيث قال: عن ثعلبة بن الحكم قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لقضاء عباده: إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم، ولا أبالي». إسناده جيد وثعلبة بن الحكم هذا هو الليثي (٢). وقال قتادة: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾: لا، والله ما جعله شقاء، ولكن جعله رحمة ونوراً، ودليلاً إلى الجنة. ﴿إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾: إن الله أنزل كتابه، وبعث رحمة، رحم بها العباد، ليتذكر ذاكر، وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله، وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه.

وقوله: ﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ أي: هذا القرآن الذي جاءك يا محمد تنزيل من ربك رب كل شيء ومليكه، القادر على ما يشاء، الذي خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السموات العلى في ارتفاعها ولطافتها. وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾: تقدم الكلام على ذلك في سورة الأعراف، بما أغنى عن إعادته أيضاً، وأن المسلك الأسلم في ذلك

(١) البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧ / ١٠٠).

(٢) الطبراني في الكبير (٢ / ٨٤) (١٣٨١)، وقال الهيثمي في الزوائد (١ / ١٣١): «رجاله موثقون»

طريقة السلف : إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكيف ولا تحريف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل.

وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ أى: الجميع ملكه وفي قبضته، وتحت تصرفه ومشيتته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكة وإلهه، لا إله سواه، ولا رب غيره. وقوله: ﴿وَأَنْ تَجْهَرُوا بِالْقَوْلِ فَيَكْفُرُوا بِهِ لَعْنَةُ اللَّهِ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا غَقْبًا﴾ أى: أنزل هذا القرآن الذى خلق الأرض والسماوات العلى، الذى يعلم السر وأخفى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦]. وقال الضحاك: السر: ما تحدث به نفسك، وأخفى: ما لم تحدث به نفسك بعد. وقال سعيد بن جبیر: أنت تعلم ما أسر اليوم، ولا تعلم ما أسر غداً، واللّه يعلم ما أسر اليوم، وما أسر غداً. وقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أى: الذى أنزل القرآن عليك هو اللّه الذى لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنی والصفات العلى.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٦﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٌ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾

من ههنا شرع ، تبارك وتعالى ، فى ذكر قصة موسى ، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه، وذلك بعد ما قضى موسى الأجل الذى كان بينه وبين صهره فى رعاية الغنم وسار بأهله ، قيل: قاصداً بلاد مصر، بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته، فأضل الطريق، وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال، فى برد وشتاء، وسحاب وظلام وضباب، وجعل يقدح بزند معه ليورى ناراً، كما جرت له العادة به، فجعل لا يقدح شيئاً، ولا يخرج منه شرر ولا شيء. فبينما هو كذلك، إذ آنس من جانب الطور ناراً، أى: ظهرت له نار من جانب الجبل الذى هناك عن يمينه، فقال لأهله يبشرهم: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾، أى: شهاب من نار. وفى الآية الأخرى: ﴿أَوْ جَدْوَةٌ مِّنَ النَّارِ﴾ [القصص: ٢٩]، وهى: الجمر الذى معه لهب، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩]، دل على وجود البرد، وقوله: ﴿بِقَبَسٍ﴾ دل على وجود الظلام.

وقوله: ﴿أَوْ أَجْدٌ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أى: من يهدينى الطريق، دل على أنه قد تاه عن الطريق، كما قال ابن عباس فى قوله: ﴿أَوْ أَجْدٌ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ قال: من يهدينى إلى الطريق. وكانوا شاتين وصلوا الطريق، فلما رأى النار قال: إن لم أجد أحداً يهدينى إلى الطريق آتكم بنار توقدون بها.

﴿فَلَمَّا أَنهَا تُودَى بِمُوسَى ﴿١٧﴾ إِنْ أَنَا رَبُّكَ فَاحْطَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٨﴾ وَأَنَا أَخْرَجْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٩﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿٢٠﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿٢١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهَا﴾ أى: النار واقترب منها ﴿نُودَىٰ يَا مُوسَىٰ﴾ وفى الآية الأخرى: ﴿نُودِي مِّن شَاطِئِ الرَّادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠]، وقال هاهنا ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ أى: الذى يكلمك ويخاطبك ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ قال سعيد بن جبير: كما يؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد أن يدخل الكعبة . وقيل: ليطأ الأرض المقدسة بقدميه حافياً غير متعل . وقيل: غير ذلك، واللّه أعلم. وقوله: ﴿طُوى﴾ قال ابن عباس: هو اسم للوادي. وكذا قال غير واحد، فعلى هذا يكون عطف بيان، كقوله: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوى﴾ [التازعات: ١٦] .

وقوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ كقوله: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الاعراف: ١٤٤] أى: على جميع الناس من الموجودين فى زمانه. وقوله: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ أى: اسمع الآن ما أقول لك وأوحى إليك ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله، وحده لا شريك له. وقوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ أى: وحدنى وقم بعبادتى من غير شريك ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ قيل: معناه: صلّ لتذكرنى. وقيل: معناه: وأقم الصلاة عند ذكرك لى ، ويشهد لهذا الثانى ما رواه الإمام أحمد عن أنس، عن النبى ﷺ قال: «إذا رقد أحدكم عن الصلاة، أو غفل عنها، فليصلها إذا ذكرها؛ فإن الله تعالى قال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾» (١). وفى الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من نام عن صلاة أو نسيها، فكفارتها أن يصلها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك» (٢).

وقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ أى: قائمة لا محالة، وكائنة لا بد منها. وقوله: ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس: أنه كان يقرؤها: «أكاد أخفيها من نفسى»، يقول: لأنها لا تخفى من نفس الله أبداً. وقال ابن عباس لا أطلع عليها أحداً غيرى . وقال السدى: ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا قد أخفى الله عنه علم الساعة، ولعمري لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين، ومن الأنبياء والمرسلين. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال: ﴿ثَقُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَعْتَةٌ﴾ [الاعراف: ١٨٧] أى: ثقل علمها على أهل السموات والأرض.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾، أى: أقيمها لا محالة، لأجزى كل عامل بعمله ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] ، و﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦] . وقوله: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾: المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين، أى: لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة، وأقبل على ملاذة فى دنياه، وعصى مولاه، واتبع هواه، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أى: تهلك وتعطب ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرْدَىٰ﴾ [الليل: ١١] .

(١) المسند (٣ / ١٨٤) ورواه مسلم (٦٨٤ / ٣١٦) .

(٢) البخارى (٥٩٧) ومسلم (٦٨٤ / ٣١٤) .

﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْضُحْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾

هذا برهان من الله تعالى لموسى، عليه السلام، ومعجزة عظيمة، وخرق للعادة باهر، دل على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله عز وجل، وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل، وقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ قال بعض المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له. وقيل: إنما قال له ذلك على وجه التقرير، أى: أما هذه التى فى يمينك عصاك التى تعرفها، فسترى ما نضع بها الآن، ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ استفهام تقرير. ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ أى: أعتمد عليها فى حال المشى ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ أى: أهرز بها الشجرة ليسقط ورقها، لترعاه غنمى. قال الإمام مالك: والهش: أن يضع الرجل المحجن فى الغصن، ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثمره، ولا يكسر العود، فهذا الهش، ولا يخبط.

وقوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ أى: مصالح ومنافع وحاجات آخر غير ذلك. وقد تكلف بعضهم لذكر شيء من تلك المآرب التى أبهت.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ أى: هذه العصا التى فى يدك يا موسى، ألقها ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ﴾ أى: صارت فى الحال حية عظيمة، ثعباناً طويلاً، يتحرك حركة سريعة، فإذا هى تهتز كأنها جان، وهو أسرع الحيات حركة، ولكنه صغير، فهذه فى غاية الكبر، وفى غاية سرعة الحركة، ﴿تَسْعَى﴾ أى: تمشى وتضطرب. فكشف عن يده ثم قبض فإذا هى عصاه التى عهدا، وإذا يده فى موضعها الذى كان يضعها إذا توكأ بين الشعبتين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ أى: إلى حالها التى تعرف قبل ذلك.

﴿ وَأَضْمَمْنَا يَدَكَ إِيَّائِنَا الْكُبْرَى ﴾ ﴿٢٢﴾ وَتَضْمَنَّا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ تَسْبَحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَتَذَكَّرَكْ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾

وهذا برهان ثان لموسى، عليه السلام، وهو أن الله أمره أن يدخل يده فى جيبه، كما صرح به فى الآية الأخرى، وهاهنا عبر عن ذلك بقوله: ﴿وَأَضْمَمْنَا يَدَكَ إِيَّائِنَا الْكُبْرَى﴾، وقال فى مكان آخر: ﴿وَأَضْمَمْنَا إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرُّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِّنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَكِهِ﴾ [التقصص: ٣٢]. وقال مجاهد: ﴿وَأَضْمَمْنَا يَدَكَ إِيَّائِنَا الْكُبْرَى﴾: كفك تحت عضدك. وقوله: ﴿تَضْمَنَّا الْكُبْرَى﴾: كفك تحت عضدك. وقوله: ﴿وَأَضْمَمْنَا يَدَكَ إِيَّائِنَا الْكُبْرَى﴾: كفك تحت عضدك.

من غير برّص ولا أذى، ومن غير شين. قاله ابن عباس، ولهذا قال تعالى: ﴿لِتُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ .

وقوله: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أى: اذهب إلى فرعون ملك مصر، الذى خرّجت فاراً منه وهارباً، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ومره فليُحسِن إلى بنى إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبغى، وآثر الحياة الدنيا، ونسى الرب الأعلى. ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي. وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾: هذا سؤال من موسى، عليه السلام، لربه عز وجل، أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم، وخطب جسيم. بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم، وأشدّهم كفراً، وأكثرهم جنوداً، وأعمرهم ملكاً، وأطغاهم وأبلغهم تمرداً، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلم لرعاياه إلهاً غيره. هذا وقد مكث موسى فى داره مدة وليداً عندهم، فى حجر فرعون، على فراشه، ثم قتل منهم نفساً فخافهم أن يقتلوه، فهرب منهم هذه المدة بكما لها. ثم بعد هذا بعثه ربه عز وجل إليهم نذيراً يدعوهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي. وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ أى: إن لم تكن أنت عونى ونصيرى، وعضدى وظهيرى، وإلا فلا طاقة لى بذلك.

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ وذلك لما كان أصابه من اللثغ، حين عرض عليه التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، كما سيأتى بيانه، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث يزول العى، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة. ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال الله تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] أى: يفصح بالكلام. وقال ابن عباس: شكّا موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون فى القتل، وعقدة لسانه، فإنه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له رداءً ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فأتاه سؤاله، فحل عقدة من لسانه.

وقوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزيراً مِّنْ أَهْلِي. هَرُونَ أَخِي﴾: وهذا أيضاً سؤال من موسى، عليه السلام، فى أمر خارجى عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له. قال عن ابن عباس: نُبئ هارون ساعتئذ حين نبئ موسى، عليهما السلام. وقوله: ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ قال مجاهد: ظهري ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ أى: فى مشاورتى ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً. وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾ قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً، حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً. وقوله: ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنًا بَصِيراً﴾ أى: فى اصطفاك لنا، وإعطائك إيانا النبوة، وبعثك لنا إلى عدوك فرعون، فلك الحمد على ذلك.

﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَكَ مَا بُوحِيحُ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي الْتَابُوتِ فَأَقْذِفِهِ فِي آلِيهِ فَيَلْقَاهُ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَا حَذْرُوهُ عَدُوُّ لِي وَعَدُوُّ لَكُمْ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مَنِيٌّ وَلِتُنصَعَ عَلَيَّ عَيْبِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَيَّ مَنْ يَكْفُلُهُمْ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَلَّتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ﴿٤٠﴾

هذه إجابة من الله لرسوله موسى، عليه السلام، فيما سأل من ربه عز وجل، وتذكير له بنعمه السالفة عليه، فيما كان من أمر أمه حين كانت ترضعه، وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه؛ لأنه كان قد ولد في السنة التي يقتلون فيها الغلمان. فاتخذت له تابوتا، فكانت ترضعه ثم تضعه فيه، وترسله في البحر - وهو النيل - وتمسكه إلى منزلها بحبل، فذهبت مرة لتربطه فانفلت منها وذهب به البحر، فحصل لها من الغم والههم ما ذكره الله عنها في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠]، فذهب به البحر إلى دار فرعون ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، أي قدراً مقدوراً من الله، حيث كانوا هم يقتلون الغلمان من بني إسرائيل، حذراً من وجود موسى، فحكم الله - وله السلطان العظيم، والقدرة التامة - ألا يربى إلا على فراش فرعون، ويغذى بطعامه وشرابه، مع محبته وزوجته له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَأْخُذُهُ عَدُوُّ لِي وَعَدُوُّ لَهُ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مَنِيٌّ﴾ أي: عند عدوك، جعلته يحبك ﴿وَلِتُنصَعَ عَلَيَّ عَيْبِي﴾ قال أبو عمران الجوني: تربي بعين الله، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني أبعده في بيت الملك ينعم ويترف، غذاؤه عندهم غذاء الملك، فتلك الصنعة.

وقوله: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَيَّ مَنْ يَكْفُلُهُمْ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون، عرضوا عليه المراضع، فأباهما، قال الله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ فجات أخته وقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَيَّ أَهْلَ بَيْتِ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢].
تعنى: هل أدلكم على من ترضعه لكم بالأجرة؟ فذهبت به وهم معها إلى أمه، فعرضت عليه ثديها، فقبله، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، واستأجروها على إرضاعه فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة في الدنيا وفي الآخرة أغنم وأجزل. وقال تعالى ها هنا: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي: عليك ﴿وَقَلَّتَ نَفْسًا﴾ يعني: القبطى ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾: وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله، ففر منهم هارباً، حتى ورد ماء مدين، وقال له ذلك الرجل الصالح: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥]. وقوله: ﴿وَقَتْنَاكَ فُتُونًا﴾ (١).

(١) ذكر الحافظ ابن كثير بعدها « حديث الفتون » الطويل ، وعلّق الشيخ أحمد شاكر هنا بقوله : « حديث الفتون أشار إليه المؤلف في تفسير الآية ٤٩ - ٥٠ من سورة البقرة وتكلمنا عليه هناك وذكرنا أننا حذفناه » .

﴿ فَلَيْتَ سَيْنٍ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَأَصْطَفَيْتَكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقَوْلَا لَهُ قَوْلَا لَيْنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول تعالى مخاطباً لموسى، عليه السلام: إنه لبث مقيماً في أهل «مدین» فإراً من فرعون وملئه، يرعى على صهره، حتى انتهت المدة وانقضى الأجل، ثم جاء موافقاً لقدر الله وإرادته من غير ميعاد، والأمر كله لله تبارك وتعالى، وهو المسير عباده وخلقه فيما يشاء؛ ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴾ قال مجاهد: أى على موعد، وقال قتادة على قدر الرسالة والنبوة.

وقوله: ﴿ وَأَصْطَفَيْتَكَ لِنَفْسِي ﴾ أى: اصطفتك واجتبتك رسولاً لنفسى، أى: كما أريد وأشاء. وروى البخارى عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «التقى آدم وموسى، فقال موسى: أنت الذى أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة؟ فقال آدم: وأنت الذى اصطفاك الله برسالته واصطفاك لنفسه، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم. قال: فوجدته قد كتب علىّ قبل أن يخلقنى؟ قال: نعم. فحج آدم موسى» (١).

وقوله: ﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي ﴾ أى: بحججى وبراهينى ومعجزاتى ﴿ وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي ﴾ قال ابن عباس: لا تبطنوا. وقال: لا تَضَعُفَا. والمراد: أنهما لا يفتران فى ذكر الله، بل يذكران الله فى حال مواجهة فرعون، ليكون ذكرُ الله عوناً لهما عليه، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له. ﴿ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ أى: تمرد وعتا وتجهّم على الله وعصاه ﴿ فَقَوْلَا لَهُ قَوْلَا لَيْنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون فى غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر الا يخاطب فرعون إلا بالملطفة واللين، وأن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين قريب سهل، ليكون أوقع فى النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ الآية [النحل: ١٢٥].

وقوله: ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ أى: لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة ﴿ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ أى: يوجد طاعة من خشية ربه، فالتذكر: الرجوع عن المحذور، والخشية: تحصيل الطاعة.

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأَنبَأَهُ قَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِنَ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مِنْ أَتْبَعِ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون، عليهما السلام، أنهما قالا مستجيرين بالله تعالى شاكين إليه: ﴿ إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴾ يعنى أن يبدُر إليهما بعقوبة، أو يعتدى

عليهما، فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك. ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ أى: لا تخافا منه، فإننى معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى على من أمركم شىء، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذنى وبعد أمرى، وأنا معكما بحفظى ونصرى وتأييدى.

وقوله: ﴿فَاتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّنْ رَبِّكَ﴾ أى: بدلالة ومعجزة من ربك ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ أى: والسلام عليك إن اتبعت الهدى؛ ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتاباً، كان أوله: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين»، وكذلك كتب رسول الله ﷺ: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

ولهذا قال موسى وهارون، عليهما السلام، لفرعون: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى. إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أى: قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم أن العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ. وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النارعات: ٣٧ - ٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى. لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى. الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [الليل: ١٤ - ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَا صَدْقَ وَلَا صَلَّىٰ. وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]. أى: كذب بقلبه وتولى بفعله.

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ﴾ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَصِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى منكراً وجود الصانع الخالق، إله كل شىء وربّه ومليكه، قال: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ أى: الذى بعثك وأرسلك من هو؟ فإنى لا أعرفه، وما علمت لكم من إله غيرى، ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ قال سعيد بن جبیر: أعطى كل ذى خلق ما يصلحه من خلقه، ولم يجعل للإنسان من خلق الدابة، ولا للدابة من خلق الكلب، ولا للكلب من خلق الشاة، وأعطى كل شىء ما ينبغى له من النكاح، وهياً كل شىء على ذلك، ليس شىء منها يشبه شيئاً من أفعاله فى الخلق والرزق والنكاح. وقال بعض المفسرين: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الاعلى: ٣] أى: قدر قدرًا، وهدى الخلائق إليه، أى: كتب الأعمال والأجال والأرزاق، ثم الخلائق ماشون على ذلك، لا يحيدون عنه، ولا يقدر أحد على الخروج منه. يقول: ربنا الذى خلق الخلق، وقدر القدر، وجعل الخليقة على ما أراد.

﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾: أصح الأقوال في معنى ذلك: أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق وقدر فهدي، شرع يحتج بالقرون الأولى، أي: الذين لم يعبدوا الله، أي: فما بالهم إذا كان الأمر كما تقول، لم يعبدوا ربك، بل عبدوا غيره؟ فقال له موسى في جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم، وسيجزئهم بعملهم في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال، ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾، أي: لا يشذ عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئاً. يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئاً، تبارك وتعالى وتقدس، فإن علم المخلوق يعتره نقصانان أحدهما: عدم الإحاطة بالشيء، والآخر نسيانه بعد علمه، فتره نفسه عن ذلك.

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٥٤﴾ وَمِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٦﴾ ﴾

ربع

هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه، عز وجل، حين سأله فرعون عنه، فقال: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، ثم اعترض الكلام بين ذلك، ثم قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾، وفي قراءة بعضه: «مهادا» أي: قراراً تستقرون عليها وتقومون وتنامون عليها وتسافرون على ظهرها ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: جعل لكم طرقاً تمشون في مناكبها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لِّمَنْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ أي: من ألوان النباتات من زروع، وثمار، من حامض وحلو، وسائر الأنواع. ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ أي: شيء لطعامكم وفاكهتكم، وشيء لأنعامكم لأقواتها خضراً ويابساً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: للدلالات وحججاً وبراهين ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: لذوى العقول السليمة المستقيمة على أنه لا إله إلا الله، ولا رب سواه. ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ أي: من الأرض مبدؤكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي: وإليها تصيرون إذا متم وبليتم، ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢]. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ يعني: فرعون، أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات، وعاین ذلك وأبصره، فكذب بها وأبأها كفرًا وعنادًا وبغيًا، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ الآية [النمل: ١٤].

﴿ قَالَ أَحِثْنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا تَبْنَاكَ يَا سِحْرٍ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحَىٰ ﴿٥٩﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى، وهى إلقاء عصاه فصارت ثعباناً عظيماً ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء فقال: هذا سحر، جئت به لتسحرنا وتستولى به على الناس، فيتبعونك وتكاثروا بهم، ولا يتم هذا معك، فإن عندنا سحراً مثل سحرِكَ، فلا يغررك ما أنت فيه ﴿فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أى: يوماً نجتمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر فى مكان معين ووقت معين فنعد ذلك ﴿قَالَ﴾ لهم موسى ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ وهو يوم عيدهم ونوروزهم وتفرغهم من أعمالهم واجتماعهم جميعهم؛ ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء، ومعجزات الأنبياء، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية، ولهذا قال: ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ﴾ أى: جميعهم ﴿ضَحَى﴾ أى: ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم واضح، بين، ليس فيه خفاء ولا ترويح؛ ولهذا لم يقل «ليلاً» ولكن نهاراً ضحى. وقال مجاهد، وفتادة: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾: منصفًا. وقال السدى: عدلاً. وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: مستو بين الناس وما فيه، لا يكون صوت ولا شيء يتغيب بعض ذلك عن بعض مستو حين يرى.

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ وَرَبُّكُمْ لَا تَفَرُّوا عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْجِتْكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ آفَتَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمُ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰؤُلَاءِ لَسَاحِرُونَ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمَعُوا كَيْدَهُمْ ثُمَّ اتَّوَا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعَلَىٰ ﴿٦٤﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه لما تواعد هو وموسى، عليه السلام، إلى وقت ومكان معلومين، تولى، أى: شرع فى جمع السحرة من مدائن مملكته، كل من ينسب إلى سحر فى ذلك الزمان. وقد كان السحر فيهم كثيراً نافقاً جداً، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس: ٧٩]. ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ أى: اجتمع الناس لميقات يوم معلوم وهو يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمنة ويسرة وأقبل موسى، عليه السلام، يتوكأ على عصاه ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدى فرعون صفوفاً، وهو يحرضهم ويحثهم، ويرغبهم فى إجادة عملهم فى ذلك اليوم، ويتمنون عليه، وهو يعد لهم ويمنيهم، فيقولون: ﴿أَنْ لَّنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ. قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١، ٤٢]. ﴿قَالَ

لَهُمْ مُوسَىٰ وَيُلْكُمُ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٦٥﴾ أى: لا تُخِيلُوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها، وأنها مخلوقة، وليست مخلوقة، فتكونون قد كذبتهم على الله ﴿فَيَسْحِكُمْ بِعَذَابِ﴾ أى: يهلككم بعقوبة هلاكًا لا بقية له، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ اقْتَرَىٰ. فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ قيل: معناه: أنهم تشاجروا فيما بينهم، فقاتل يقول: ليس هذا بكلام ساحر، إنما هذا كلام نبي. وقاتل يقول: بل هو ساحر. وقيل غير ذلك، والله أعلم. وقوله: ﴿وَأَسْرَأُوا النَّجْوَىٰ﴾ أى: تناجروا فيما بينهم ﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرَانِ﴾ يعنون: موسى وهارون - ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر، يريدان فى هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده، فينتصرا عليه ويخرجاكم من أرضكم.

وقوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّىٰ﴾ أى: ويستبدا بهذه الطريقة، وهى السحر، فإنهم كانوا معظمين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون: إذا غلب هذان أهلناكم وأخرجاكم من الأرض، وتفردا بذلك، وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم. وقوله: ﴿فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا صَفًّا ﴿٦٦﴾ أى اجتمعوا كلكم صفًا واحدًا، وألقوا ما فى أيديكم مرة واحدة، لتبهروا الأبصار، وتغلبوا هذا وأخاه ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَىٰ﴾ أى: منا ومنه، أما نحن فقد وعدنا هذا الملك العطاء الجزيل، وأما هو فينال الرياسة العظيمة.

﴿قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تَلْقَىٰ وَوَيْمًا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفَ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى مخبرًا عن السحرة حين توافقوا هم وموسى، عليه السلام، أنهم قالوا لموسى: ﴿إِمَّا أَنْ تَلْقَىٰ﴾ أى: أنت أولا ﴿وَوَيْمًا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ أى: أنتم أولا ليرى ماذا تصنعون من السحر، وليظهر للناس جلية أمرهم ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُا تَسْعَىٰ﴾. وفى الآية الأخرى أنهم لما ألقوا ﴿قَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤٤] وقال تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرَهُبَهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الاعراف: ١١٦]، وقال هاهنا: ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُا تَسْعَىٰ﴾. وذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتמיד، بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها، وإنما كانت حيلة، وكانوا جمًا غفيرًا وجمعًا كثيرًا، فألقى كل منهم عصا وحبلًا، حتى صار الوادى ملآن حيات يركب بعضها بعضًا.

وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ﴾ أى: خاف على الناس أن يفتتنوا بسحريهم ويغفروا بهم قبل أن يلقى ما فى يمينه، فأوحى الله تعالى إليه فى الساعة الراهنة أن ﴿وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ﴾

يعنى: عصاه، فإذا هي ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ﴾ وذلك أنها صارت تيناً عظيماً هائلاً، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصى حتى لم تبق منها شيئاً إلا تلتفته وابتلعتها، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عياناً جهرة، نهاراً ضحوة. فقامت المعجزة، واتضح البرهان، وبطل ما كانوا يعملون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾. فلما عين السحرة ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه، علموا علم اليقين أن هذا الذى فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذى يقول للشئء كن فيكون، فعند ذلك وقعوا سجداً لله وقالوا: ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨]. ولهذا قال ابن عباس، وعبيد بن عمير: كانوا أول النهار سحرة، وفى آخر النهار شهداء برة.

﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لِمُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُقَطِّعُوا أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا تُصَلِّبْتُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلْتَعْلَمَنَّ آيَاتُنَا أَسَدُ عَذَابًا وَابْقَى ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَابْقَى ﴿٧٣﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وعناده وبغيه ومكابرتة الحق بالباطل، حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم وغلب كل الغلب - شرع فى المكابرة والبهت، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه فى السحرة، فتهددهم وتوعدهم، وقال ﴿ آمَنْتُمْ لَهُ ﴾ أى: صدقتموه ﴿ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ أى: وما أمرتكم بذلك، وقال قولاً يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بهت وكذب: ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ أى: أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه على وعلى رعبتي، لتظهوره، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٣]. ثم أخذ يتهددهم فقال: ﴿ فَلَا تُقَطِّعُوا أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا تُصَلِّبْتُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ أى: لأجعلنكم مثلة ولاقتلكنم ولأشهرنكم. قال ابن عباس: فكان أول من فعل ذلك. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿ وَلْتَعْلَمَنَّ آيَاتُنَا أَسَدُ عَذَابًا وَابْقَى ﴾ أى أنتم تقولون: إني وقومى على ضلالة، وأنتم مع موسى وقومه على الهدى. فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه. فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم، هانت عليهم أنفسهم فى الله عز وجل، و ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ أى: لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين ﴿ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ يحتمل أن يكون قسماً، ويحتمل أن يكون معطوفاً على البيئات، يعنون: لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذى أنشأنا من العدم، المبتدئ خلقنا من الطين، فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت .

﴿فَأَقْضِي مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ أى: فافعل ما شئت وما وصّلت إليه يدك ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أى: إنما لك تسلّط في هذه الدار، وهى دار الزوال ونحن قد رغبتنا فى دار القرار ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ أى: ما كان منا من الآثام، خصوصاً ما أكرهتنا عليه من السحر لنعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه. وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ أى: خير لنا منك ﴿وَأَبْقَى﴾ أى: أدام ثوابنا ما كنت وعدتنا ومينتنا. وهو رواية عن ابن إسحاق. وقال محمد بن كعب القرظى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ أى: لنا منك إن أطيع، ﴿وَأَبْقَى﴾ أى: منك عذاباً إن عصى. وروى نحوه عن ابن إسحاق أيضاً. والظاهر أن فرعون - لعنه الله - صمم على ذلك وفعله بهم، رحمهم الله؛ ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف: أصبحوا سحرة، وأمسوا شهداء.

﴿إِنَّكُمْ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٦﴾

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون، يحذرونه من نعمة الله وعذابه الدائم السرمدى، ويرغبونه فى ثوابه الأبدى المخلد، فقالوا: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ أى: يلقى الله يوم القيامة وهو مجرم، ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ كقوله: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦]، وقال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصَلَّى النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [الاعلى: ١١ - ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَادُوا يَا مَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا تُكْفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]. وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن الناس تصيبهم النار بذنوبهم، فتميتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحمًا، أذن فى الشفاعة، جرى بهم ضباطر، ضباطر، فبثو على أنهار الجنة، فيقال: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحبة تكون فى حميل السيل» فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية. وهكذا أخرجه مسلم (١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ أى: ومن لقى ربه يوم المعاد مؤمن القلب، قد صدق ضميره بقوله وعمله، ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ أى: الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمنات، والمسكن الطيبات. وفى الصحيحين: «أن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء، لتفاضل ما بينهم». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء؟ قال: «بلى والذى نفسى بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» (٢).

وقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أى: إقامة وهو بدل من الدرجات العلى ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

خَالِدِينَ فِيهَا ﴿٧٦﴾ أى: ماكثين أبدا، ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ أى: طهر نفسه من الدنس والخبث والشرك، وعبد الله وحده لا شريك له، وصدق المرسلين فيما جاؤوا به من خبر وطلب.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ ﴿٧٩﴾

يقول تعالى مخبراً أنه أمر موسى، عليه السلام، حين أبى فرعون أن يرسل معه بنى إسرائيل، أن يسرى بهم فى الليل، ويذهب بهم من قبضة فرعون. وقد بسط الله هذا المقام فى غير هذه السورة الكريمة. وذلك أن موسى لما خرج ببني إسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب، فغضب فرعون غضباً شديداً وأرسل فى المدائن حاشرين، أى: من يجمعون له الجند من بلدانه ورسايقه، يقول: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ. وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤، ٥٥] ثم لما جمع جنده واستوسق له جيشه، ساق فى طلبهم ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠] أى: عند طلوع الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ أى: نظر كل من الفريقين إلى الآخر ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ. قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢]، ووقف موسى ببني إسرائيل، البحر أمامهم، وفرعون وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه: ﴿فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا﴾ أى: من فرعون ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ يعنى: من البحر أن يغرق قومك .

ثم قال تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ﴾ أى: البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ أى: الذى هو معروف ومشهور. وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُوتَفِكَةُ أَهْوَىٰ. فَغَشَاهَا مَا غَشَىٰ﴾ [النجم: ٥٣، ٥٤]. وكما تقدمهم فرعون فسلك بهم فى اليم فأضلهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد، كذلك ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُورَدُهُمُ النَّارَ وَيُسَّ الْوَرْدُ الْمُرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

﴿يَنْبِئِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ ﴿٨١﴾ ﴿وَإِنِّي لَفَقَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ ﴿٨٢﴾

يذكر تعالى نعمه على بنى إسرائيل العظام، ومننه الجسام، حيث نجَّاهم من عدوهم فرعون، وأقر أعينهم منه، وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرقوا فى صبيحة واحدة، لم ينج منهم أحد، كما قال: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠].

وروى البخارى عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة واليهود تصوم عاشوراء،

فسألهم فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى على فرعون، فقال: «نحن أولى بموسى فصوموه» ورواه مسلم (١). ثم إنه تعالى واعد موسى وبنى إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن، وهو الذي كلمه تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هنالك وفي غُضُونِ ذلك عبد بنو إسرائيل العجل، كما يقصه تعالى قريبا.

وأما المن والسلوى، فقد تقدم الكلام على ذلك في سورة «البقرة» (٢) وغيرها. فالمن: حلوى كانت تنزل عليهم من السماء. والسلوى: طائر يسقط عليهم، فيأخذون من كل قدر الحاجة إلى الغد، لطفًا من الله، ورحمةً بهم، وإحسانًا إليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أي: كلوا من هذا الذي رزقتكم، ولا تطغوا في رزقي، فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما أمركم به ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أي: أغضب عليكم ﴿وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوِيَ﴾ قال ابن عباس: أي: فقد شقى.

وقوله: ﴿وَأَنِّي لَفَقَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: كل من تاب إلى تبت عليه من أي ذنب كان، حتى إنه تعالى تاب على من عبد العجل من بنى إسرائيل.

وقوله: ﴿تَابَ﴾ أي: رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو نفاق أو معصية ﴿وَأَمَنَ﴾ أي: بقلبه ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: بجوارحه ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ قال ابن عباس: أي ثم لم يشكك وقال سعيد ابن جبير: ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أي: استقام على السنة والجماعة. وروى نحوه عن مجاهد، والضحاك، وغير واحد من السلف. وثم هاهنا لرتيب الخير على الخير، كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧].

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ ﴿٨٢﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلِنَكِنَّا حُمَلَانًا أَوْ زَارًا مِّن زِينَةِ الْقُورِ فَقَدَفْتَهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُمْ خُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُرْجَعُونَ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ لِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ بِذُنُوبِهَا وَأَنَّهُمْ لِيَوْمَئِذٍ لَّعِينُونَ ﴿٨٩﴾

لما سار موسى، عليه السلام، ببنى إسرائيل بعد هلاك فرعون، وأتوا ﴿عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامِهِمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . إِنَّ هَؤُلَاءِ مِثْرًا مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الاعراف: ١٣٨، ١٣٩] وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها له عشرا، فتمت أربعين ليلة، فسارع موسى، عليه السلام، مبادرًا إلى الطور، واستخلف على بنى إسرائيل أخاه هارون؛ ولهذا

قال تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى . قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَيَّ أُتْرَى﴾ أى: قادمون ينزلون قريباً من الطور ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ أى: لتزداد عنى رضا، ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث فى بنى إسرائيل، وعبادتهم العجل الذى عمله لهم ذلك السامرى . وكتب الله تعالى له فى هذه المدة الألواح المتضمنة التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُوعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسِنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥] أى: عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمرى .

وقوله ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أى: بعد ما أخبره تعالى بذلك، فى غاية الغضب والحنق عليهم، هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم، وتسلم التوراة التى فيها شريعتهم، وفيها شرف لهم . وهم قوم قد عبدوا غير الله ما يعلم كل عاقل له لب بطلان وسخافة عقولهم وأذهانهم؛ ولهذا رجع إليهم غضبان أسفاً، والأسف: شدة الغضب وقال مجاهد: ﴿غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أى: جزعاً . وقال قتادة، والسدى: ﴿أَسِفًا﴾ أى: حزيتاً على ما صنع قومه من بعده . ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَا حَسَنًا﴾ أى: أما وعدكم على لسانى كل خير فى الدنيا والآخرة، وحسن العاقبة كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم، وإظهاركم عليه، وغير ذلك من أياديه عندكم؟ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ ، أى: فى انتظار ما وعدكم الله . ونسيان ما سلف من نعمه ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ «أم هاهنا بمعنى «بل»، وهى للإضراب عن الكلام الأول، وعدول إلى الثانى ، كأنه يقول : بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم ﴿فَأَخَلَقْتُمْ مُّوعِدِي . قَالُوا﴾ أى: بنو إسرائيل فى جواب ما أنبههم موسى وقرعهم: ﴿مَا أَخْلَقْنَا مُّوعِدَكُمْ بِمَلَكِنَا﴾ أى: عن قدرتنا واختيارنا .

ثم شرعوا يعتذرون بالعدو البارد، يخبرونه عن تورعهم كما كان بأيديهم من حلى القبط الذى كانوا قد استعاروه منهم، حين خرجوا من مصر ﴿فَقَدَفْنَاهَا﴾ أى: ألقيناها عنا . ثم جاء ذلك السامرى فالقى عليها تلك القبضة التى أخذها من أثر الرسول، ولهذا قال: ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ . فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خَوَارٍ﴾ . ﴿فَقَالُوا﴾ أى: الضلال منهم، الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ نَسِي﴾ أى: نسيه هاهنا، وذهب يتطلبه . وبه قال مجاهد . وقال سيماك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿نَسِي﴾ أى: نسى أن يذكركم أن هذا إلهكم . وقال ابن عباس : فقالوا: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ﴾ ، قال: فعكفوا عليه وأحبوه حباً لم يحبوا شيئاً قط يعنى مثله، يقول الله: ﴿نَسِي﴾ أى: ترك ما كان عليه من الإسلام، يعنى: السامرى . قال الله تعالى رداً عليهم، وتقريباً لهم، وبيانا لفضيحتهم وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أى: العجل ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ أنه لا يجيبهم إذا سألوه، ولا إذا خاطبوه ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أى: فى دنياهم ولا فى آخرهم . قال ابن عباس: لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريح فى دبره فيخرج من فيه، فيسمع له صوت .

وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط، فألقوها عنهم، وعبدوا العجل. فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير، كما جاء في الحديث الصحيح عن ابن عمر: أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب - يعني: هل يصلى فيه أم لا؟ - فقال ابن عمر، رضى الله عنه: انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ - يعنى: الحسين - وهم يسألون عن دم البعوض؟ (١).

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾﴾

يخبر تعالى عما كان من نهي هارون، عليه السلام، لهم عن عبادة العجل، وإخباره إياهم: إنما هذا فتنة لكم ﴿وَأَنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ الذى خلق كل شىء فقدره تقديراً، ذو العرش المجيد، الفعال لما يريد ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ أى: فيما أمركم به، واتركوا ما نهاكم عنه. ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ أى: لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه. وخالفوا هارون فى ذلك وحاربه، وكادوا أن يقتلوه.

﴿قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴿٩٤﴾ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٥﴾﴾

يخبر تعالى عن موسى، عليه السلام، حين رجع إلى قومه، فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم، فامتلاً عند ذلك غضباً، وألقى ما كان فى يده من الألواح الإلهية، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وقد قدما فى «الأعراف» بسط ذلك. وشرع يلوم أخاه هارون فقال: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا. أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أى: فتخبرنى بهذا الأمر أول ما وقع ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ أى: فيما كنت تقدمت إليك، وهو قوله: ﴿اخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

﴿قَالَ يَا بَنُؤُمْ﴾ : ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه؛ لأن ذكر الأم هاهنا أرق وأبلغ فى الحنو والعطف؛ ولهذا قال: ﴿يَا بَنُؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ الآية. هذا اعتذار من هارون عند موسى فى سبب تأخره عنه، حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم ﴿قَالَ إِنِّي خَشِيتُ﴾ أن أتبعك فأخبرك بهذا، فتقول لى: لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ أى: وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم. قال ابن عباس: وكان هارون هائباً له مطيعاً.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَمِيرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ ﴾

يقول موسى، عليه السلام، للسامري: ما حملك على ما صنعت؟ وما الذي عرض لك حتى فعلت ما فعلت؟ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أى: رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أى: من أثر فرسه. وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أى: ألقيتها مع من القي، ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أى: حسنته وأعجبها إذ ذاك ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ﴾ أى: كما أخذت ومسست ما لم يكن أخذه ومسه من أثر الرسول، فعقوبتك فى الدنيا أن تقول: «لا مساس»، أى: لا تماس الناس ولا يمسونك ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ أى: يوم القيامة ﴿لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ أى: لا محيد لك عنه. وقال قتادة: ﴿أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ﴾ قال: عقوبة لهم، وبقاياهم اليوم يقولون: لا مساس. وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ قال الحسن، وقتادة، وأبو نعيم: لن تغيب عنه. وقوله: ﴿وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ﴾ أى: معبودك ﴿الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أى: أقممت على عبادته، يعنى: العجل ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ يقول لهم موسى، عليه السلام: ليس هذا إلهكم، إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو، أى: لا يستحق ذلك على العباد إلا هو، ولا تنبغى العبادة إلا له، فإن كل شىء فقير إليه، عبد لربه. وقوله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أى: هو عالم بكل شىء ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]، فلا ﴿يَعْرَبُ عَنْهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [سبا: ٣]، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقْرَفًا مُّسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦] والآيات فى هذا كثيرة جداً.

﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَلِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ ﴾

يقول تعالى لنبىه محمد ﷺ: كما قصصنا عليك خبر موسى، وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجلية والأمر الواقع، كذلك نقص عليك الاخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص، هذا ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا﴾ أى: عندنا ﴿ذِكْرًا﴾ وهو القرآن العظيم، الذى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، الذى لم يعط نبى من الانبياء منذ

بعثوا إلى أن ختموا، بمحمد ﷺ تسليماً، كتاباً مثله ولا أكمل منه، ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن، وحكمُ الفصل بين الناس منه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أى: كذب به وأعرض عن اتباعه أمراً وطلباً، وابتغى الهدى فى غيره، فإن الله يضلّه ويهديه إلى سواء الجحيم؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ أى: إنّما، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧]. وهذا عام فى كل من بلغه القرآن من العرب والعجم، أهل الكتاب وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]. فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع، فمن اتبعه هدى، ومن خالفه وأعرض عنه ضلّ وشقى فى الدنيا، والنار موعده يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا. خَالِدِينَ فِيهِ﴾ أى: لا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ وَلَا انْفِكَاءَ ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ أى: بشس الحمل حملهم.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ﴿١٠١﴾ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٢﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٣﴾

ثبت فى الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن الصور، فقال: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ» (١). وقد جاء فى حديث «الصور» من رواية أبى هريرة: أنه قرن عظيم، الدّارة منه بقدر السموات والأرض، ينفخ فيه إسرافيل، عليه السلام. وجاء فى الحديث: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له» فقالوا: يارسول الله، كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا» (٢).

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ قيل: معناه زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال «يتخافتون بينهم»: قال ابن عباس: يتسارون بينهم، أى: يقول بعضهم لبعض: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أى: فى الدار الدنيا، لقد كان لبثكم فيها قليلاً، عشرة أيام أو نحوها.

قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أى: فى حال تناجيهم بينهم «إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أى: العاقل الكامل فيهم «إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أى: لقصر مدة الدنيا فى أنفسهم يوم المعاد؛ لأن الدنيا كلّها وإن تكررت أوقاتها وتعاقت لياليها وأيامها وساعاتها كأنها يوم واحد؛ ولهذا تستقصر مدة الحياة الدنيا يوم القيامة: وكان غرضهم فى ذلك درء قيام الحجة عليهم، لقصر المدة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ إلى قوله ﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرِكُمْ مَا يَنْذُرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ الآية [فاطر: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ. قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ. قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤] أى: إنّما كان لبثكم فيها قليلاً، لو كنتم تعلمون لآثرتم الباقى على الفانى، ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف، قدّمتم

(١) المسند (٦٥٠٧، ٦٨٠٥) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» .

(٢) تقدم تخريجه عند الآية (٧٣) من سورة الأنعام .

الحاضر الفانى على الدائم الباقي .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴿١٠٨﴾ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾

يقول تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ﴾ أى: هل تبقى يوم القيامة أو تزول؟ ﴿ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ أى: يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييراً ﴿ فَيَذَرُهَا ﴾ أى: الأرض ﴿ قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ أى: بساطاً واحداً . والقاع : هو المستوى من الأرض . والصفصف تأكيد لمعنى ذلك، وقيل: الذى لا نبات فيه . والأول أولى، وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم؛ ولهذا قال: ﴿ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ أى: لا ترى فى الأرض يومئذ وادياً ولا رابية، ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً، كذلك قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحسن البصرى، والضحاك، وقتادة، وغير واحد من السلف .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ أى: يوم يرون هذه الأحوال والأحوال، يستجيبون مسارعين إلى الداعى، حيثما أمروا بادروا إليه، ولو كان هذا فى الدنيا لكان أنفع لهم، ولكن حيث لا ينفعهم، كما قال تعالى: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونا ﴾ [مريم: ٣٨]، وقال: ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ [القم: ٨]. وقال محمد بن كعب القرظى: يحشر الله الناس يوم القيامة فى ظلمة، ويطوى السماء، وتتناثر النجوم، وتذهب الشمس والقمر، وينادى مناد، فيتبع الناس الصوت يؤمونه، فذلك قوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ . وقال قتادة: ﴿ لا عِوَجَ لَهُ ﴾ لا يميلون عنه .

وقوله: ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ ﴾: قال ابن عباس: سكنت: وكذا قال السدى .

﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾: قال ابن عباس: الصوت الخفى . وقال سعيد بن جبیر: ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾: الحديث، وسره، ووطء الأقدام . أما وطاء الأقدام فالمراد سعى الناس إلى المحشر، وهو مشيهم فى سكون وخضوع . وأما الكلام الخفى فقد يكون فى حال دون حال، فقد قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُعِيدٌ وَسُعِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٥] .

﴿ يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ أَدَانَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴿١١١﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١٢﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٣﴾

يقول تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى: يوم القيامة ﴿ لَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةَ ﴾ أى: عنده ﴿ إِلَّا مَنْ أَدَانَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ كقوله: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ [النجم: ٢٦]، وقال: ﴿ وَلَا

يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى ﴿ [الأنبياء: ٢٨] وقال: ﴿وَلَا تَفْعَلُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣]، وقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨]. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ، وهو سيد ولد آدم، وأكرم الخلائق على الله عز وجل أنه قال: «أتى تحت العرش، وأخر لله ساجداً، ويفتح على بمحمد لا أحصيها الآن، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقول: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، واشفع تشفع». قال: «فيحذ لي حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود» (١)، فذكر أربع مرات، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: يحيط علماً بالخلائق كلهم ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقوله: ﴿وَعَسَى أَنْ يَكُونَ الْقِيَوْمَ﴾ قال ابن عباس، وغير واحد: خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لجبارها الحى الذى لا يموت، القيوم: الذى لا ينام، وهو قيم على كل شيء، يديره ويحفظه، فهو الكامل فى نفسه، الذى كل شيء فقير إليه، لا قوام له إلا به. وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أي: يوم القيامة، فإن الله سيؤدى كل حق إلى صاحبه، حتى يقتصص للشاة الجماء من الشاة القراء. وفي الصحيح: «إياكم والظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة» (٢). والحية كل الحية لمن لقي الله وهو مشرك به؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾: لما ذكر الظالمين ووعيدهم، ثنى بالمتقين وحكمهم، وهو أنهم لا يظلمون ولا يهضمون، أى: لا يزداد فى سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وقتادة، وغير واحد. فالظلم: الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره، والهضم: النقص.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾

يقول تعالى: ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعاً لا محالة، أنزلنا القرآن بشيراً ونذيراً، بلسان عربى مبين فصيح، لا لیس فيه ولا عى ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى: يتركون المآثم والمحارم والفواحش ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ وهو إيجاد الطاعة وفعل القربات ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أى: تنزهه وتقدس الملك الحق، الذى هو حق، ووعده حق، ووعيده حق، ورسله حق، والجنة حق، والنار حق، وكل شيء منه حق. وعدله تعالى ألا يعذب أحداً قبل الإنذار وبعثة الرسل والإعذار إلى خلقه؛ لثلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ كقوله تعالى فى سورة ﴿لَا أُنسِمُ يَوْمَ﴾

(٢) مسلم (٥٦/٢٥٧٨).

(١) سبق تخريجه عند تفسير الآية: ٧٩ من سورة الإسراء.

الْقِيَامَةِ ﴿١١٦﴾ : ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَّعَلَّ بِهٖ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩] ، وثبت في الصحيح عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ كان يعالج من الوحي شدة، فكان مما يحرك لسانه، فأنزل الله هذه الآية (١). يعنى: أنه ، عليه السلام، كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه، من شدة حرصه على حفظ القرآن، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه؛ لئلا يشق عليه، فقال: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَّعَلَّ بِهٖ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أى: أن نجمعه في صدرك، ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئاً، ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ وقال في هذه الآية: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أى: بل أنصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقراه بعده ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أى: زدنى منك علماً.

﴿وَلَقَدْ عٰهَدْنَا اِلٰى اٰدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسٰى وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَاِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اَسْجُدُوْا لِاٰدَمَ فَسَجَدُوْا اِلَّا اِبٰلٰسَ اَبٰى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يٰۤاٰدَمُ اِنَّ هٰذَا عَدُوُّكَ وَاَزْوَاجُكَ فَلَا تَخْرُجَنَّ مَعًا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقٰى ﴿١١٧﴾ اِنَّ لَكَ اَلَّا تَجُوْعَ فِيْهَا وَلَا تَعْرٰى ﴿١١٨﴾ وَاَنْتَ لَا تَظْمَؤُا فِيْهَا وَلَا تَضْحٰى ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ اِلَيْهِ الشَّيْطٰنُ قَالَ يٰۤاٰدَمُ هَلْ اَدْرٰكُ عَلٰى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبٰى ﴿١٢٠﴾ فَاَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْضَعَانِ عَلَیْهِمَا مِنْ وَّرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصٰى اٰدَمُ رَبَّهُ فَغَوٰى ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اٰجْنَبَهُ رَبُّهُ فَاَبٰى عَلَيْهِ وَهَدٰى ﴿١٢٢﴾﴾

قال ابن ابي حاتم عن ابن عباس: إنما سمي الإنسان لأنه عهد إليه فَنَسِيَ . وكذا رواه على ابن أبي طلحة، عنه . وقال مجاهد والحسن: تَرَكَ .

وقوله: ﴿وَاِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اَسْجُدُوْا لِاٰدَمَ﴾: يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه، وما فضله به على كثير ممن خلق تفضيلاً . وقد تقدم الكلام على هذه القصة في سورة «البقرة»، وفي «الأعراف»، وفي «الحجر»، و«الكهف»، وسبأني في آخر سورة «ص» . يذكر فيها تعالى خلق آدم وأمره الملائكة بالسجود له تشريفاً وتكريماً، وبين عداوة إبليس لبني آدم ولأبيهم قديماً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوا اِلَّا اِبٰلٰسَ اَبٰى﴾ أى: امتنع واستكبر ﴿فَقُلْنَا يٰۤاٰدَمُ اِنَّ هٰذَا عَدُوُّكَ وَاَزْوَاجُكَ﴾ يعنى: حواء، عليهما السلام ﴿فَلَا تَخْرُجَنَّ مَعًا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقٰى﴾ أى: إياك أن يسعى في إخراجك منها، فتتعبد وتتعنى وتشقى في طلب رزقك، فإنك ههنا في عيش رغيد هنيء، لا كلفة ولا مشقة. ﴿اِنَّ لَكَ اَلَّا تَجُوْعَ فِيْهَا وَلَا تَعْرٰى﴾: إنما قرن بين الجوع والعرى؛ لأن الجوع ذل الباطن، والعرى ذل الظاهر ﴿وَاَنْتَ لَا تَظْمَؤُا فِيْهَا وَلَا تَضْحٰى﴾: وهذان أيضاً متقابلان، فالظمأ: حر الباطن، وهو العطش . والضحى: حر الظاهر .

وقوله: ﴿فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْغُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾: قد تقدم أنه ﴿دلأهما بغرور﴾ [الأعراف: ٢٢]. ﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾ [الأعراف: ٢١]. وقد تقدم أن الله تعالى أوحى إلى آدم وزوجته أن يأكلا من كل الثمار، ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة. فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها، وكانت شجرة الخلد - بمعنى: التي من أكل منها خلد ودام مكثه. وقول: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾: قال مجاهد: يرقعان كهيئة الثوب. وكذا قال قتادة، والسدي.

وقوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى. ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ روى البخارى عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «حاج موسى آدم، فقال له: أنت الذى أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى، أنت الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتولمنى على أمر قد كتبه الله على قلبى أن يخلقنى - أو: قدره الله على قلبى أن يخلقنى» قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى» (١).

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٢٦﴾﴾

يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس: اهبطوا منها جميعاً، أى: من الجنة كلكم، وقد بسطنا ذلك فى سورة البقرة ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: قال: آدم وذريته، وإبليس وذريته وقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾، قال أبو العالية: الأنبياء والرسل والبيان ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾: قال ابن عباس: لا يضل فى الدنيا، ولا يشقى فى الآخرة .

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أى: خالف أمرى، وما أنزلته على رسولى، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداية ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أى: فى الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو فى قلق وحيرة وشك، فلا يزال فى ريبة يتردد. فهذا من ضنك المعيشة. عن أبى سعيد فى قوله: ﴿مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ قال: يضيق عليه قبره، حتى تختلف أضلاعه فيه. وقال ابن أبى حاتم عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ فى قول الله عز وجل: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ قال: «ضمنة القبر». الموقف أصح.

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾: قال مجاهد، وأبو صالح، والسدي: لا حجة له. وقال عكرمة: عمى عليه كل شىء إلا جهنم. ويحتمل أن يكون المراد: أنه يُحشَرُ أو يبعث إلى النار

أعمى البصر والبصيرة أيضاً، كما قال تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمياً وَبُكْماً وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعيراً ﴾ [الإسراء: ٩٧]. ولهذا يقول: ﴿ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً ﴾ أى: فى الدنيا ﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴾ أى: لما عرضت عن آيات الله، وعاملتها معاملة من لم يذكرها، بعد بلاغها إليك تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها، كذلك تعاملك اليوم معاملة من نسيك ﴿ فَالْيَوْمَ نَسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ [الأعراف: ٥١] فإن الجزء من جنس العمل. فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه، فليس داخلاً فى هذا الوعيد الخاص.

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ ﴿١٢٧﴾

يقول تعالى: وهكذا نجازى المسرفين المكذبين بآيات الله فى الدنيا والآخرة ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ [الرعد: ٣٤] ولهذا قال: ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ أى: أشد أماً من عذاب الدنيا، وأدوم عليهم، فهم مخلدون فيه؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة».

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿١٣٠﴾

يقول تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ لهؤلاء المكذبين بما جنتهم به: يا محمد، كم أهلكتنا من الأمم المكذبين بالرسول قبلهم، فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التى خلفوهم فيها، يمشون فيها ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾ أى: العقول الصحيحة والألباب المستقيمة، كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال فى سورة «الم السجدة»: ﴿ أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي السَّمْعِ ﴾ [السجدة: ٢٦].

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ أى: لولا الكلمة السابقة من الله وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والأجل المسمى الذى ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة، لجاهم العذاب بغتة؛ ولهذا قال لنبيه مسلماً له: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أى: من تكذيبهم لك ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ يعنى: صلاة الفجر، ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ يعنى: صلاة العصر، كما جاء فى الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي، رضى الله عنه،

قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر ، فقال : « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا»، ثم قرأ هذه الآية (١). وروى الإمام أحمد عن عمارة بن رُوَيْبَةَ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يَلْجَأَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا». رواه مسلم (٢).

وقوله : ﴿وَمِنَ آثَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ أى: من ساعاته فتسجد به . وحمله بعضهم على المغرب والعشاء ، ﴿ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ ﴾ فى مقابلة آتاء الليل ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥]. وفى الصحيح: «يقول الله: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: إنى أعطيتكم أفضل من ذلك. فيقولون: وأى شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضوانى، فلا أسخط عليكم بعده أبداً» (٣). وفى الحديث: «يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن يُنجزكموه. فيقولون: وما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويزحزحنا عن النار، ويدخلنا الجنة؟ فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم خيراً من النظر إليه، وهى الزيادة» (٤).

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَرِّقْ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [١٣١] وَأَمْرَ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْتَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ [١٣٢]

يقول تعالى لنبىه محمد ﷺ: لا تنظر إلى هؤلاء المترفين وأشباههم ونظرائهم، وما هم فيه من النعم، فإنما هو زهرة زائلة، ونعمة حائلة، لنختبرهم بذلك، وقليل من عبادى الشكور. وقال مجاهد: «أزواجاً منهم» يعنى: الأغنياء، فقد آتاك الله خيراً مما آتاهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ . لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٧، ٨٨]، وكذلك ما ادخره تعالى لرسوله فى الدار الآخرة أمر عظيم لا يُحَدِّد ولا يوصف، كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥] ولهذا قال: ﴿وَرَرِّقْ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾. وفى الصحيح: أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ فى تلك المشربة التى كان قد اعتزل فيها نساء، حين آلى منهن، فرآه متوسداً مضطجعاً على رمال حصير. وليس فى البيت إلا صبرة من قرظ، وأهب معلقة، فابتدرت عيننا عمر بالبكاء، فقال رسول الله: «ما يبكيك؟» فقال: يا رسول الله، إن كسرى وقبصر فيما هما فيه، وأنت صفة الله من خلقه؟ فقال: «أوفى شك أنت يا بن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت طبيائهم فى حياتهم الدنيا» (٥).

(١) البخارى (٥٥٤) ومسلم (٦٣٣/٢١١) . (٢) المسند (١٣٦/٤) ومسلم (٦٣٤/٢١٣) .

(٣) البخارى (٦٥٤٩) . (٤) مسلم (٢٩٧/١٨١) .

(٥) البخارى (٤٩١٣) .

فكان، صلوات الله وسلامه عليه، أزهّد الناس في الدنيا مع القدرة عليها، إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا، في عباد الله، ولم يدخر لنفسه شيئاً لغد. فعن أبي سعيد؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم، ما يفتح الله من زهرة الدنيا». قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله؟ قال: «بركات الأرض»^(١). ﴿لِنَفْسِهِمْ فِيهِ﴾: لتبليهم .

وقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة، واصطبر أنت على فعلها، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].
وقوله: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ يعني: إذا أقيمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨] ولهذا قال: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾، وقال الثوري: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ أي: لا نكلفك الطلب. وقد روى الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلاً، ولم أسد فقرك»^(٢). وروى ابن ماجه عن ابن مسعود: سمعت نبيكم ﷺ يقول: «مَنْ جَعَلَ الْهَمُومَ هَمًّا وَاحِدًا، هَمَّ الْمَعَادِ، كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ. وَمَنْ تَشَعَّبَ بِهِ الْهَمُومَ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا، لَمْ يَبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهِ هَلَكَ»^(٣). وروى أيضاً عن زيد بن ثابت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كانت الدنيا همّه، فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له. ومن كانت الآخرة نيته، جمع له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»^(٤).

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ أي: وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، وهي الجنة، لمن اتقى الله. وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت الليلة كأننا في دار عقبة بن رافع، وأنا أتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولت ذلك أن العاقبة لنا في الدنيا، والرفعة وأن ديننا قد طاب»^(٥).

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّهِ أَوْلَمِ تَأْتِيهِمْ بَيْنَهُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾^(١٢٧)
﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَّذَلَ وَنُخْزَى﴾^(١٢٨)
﴿قُلْ كُلُّ مُرْتَبِصٍ فَارْتَبِصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنِ أَصْحَابُ الضَّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾^(١٢٩)

يقول تعالى مخبراً عن الكفار في قولهم: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلا ﴿يَأْتِينَا﴾ محمد ﴿بآية من ربه﴾

(١) البخارى (٢٨٤٢) ومسلم (١٠٥٢/١٢١) بنحوه .
(٢) الترمذى (٢٤٦٦) وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » ، ابن ماجه (٤١٠٧) وصححه الالبانى .
(٣) ابن ماجه (٤١٠٦) وقال الالبانى : « حسن » .
(٤) ابن ماجه (٤١٠٥) وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/٢٧٧): « هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات » وصححه الالبانى .
(٥) مسلم (١٨/٢٧٠) .

أى: بعلامة دالة على صدقه فى أنه رسول الله؟ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ يعنى: القرآن العظيم الذى أنزله عليه وهو أسمى، لا يحسن الكتابة، ولم يدارس أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين، بما كان منهم فى سالف الدهور، بما يوافق عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها؛ فإن القرآن مهيمن عليها، يصدق الصحيح، ويبين خطأ المكذوب فيها وعليها. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ. أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ آيَاتُنَا عِنْدَ الْكُتُبِ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَرُحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١] وفى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلی، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» (١). وإنما ذكر هاهنا أعظم الآيات التى أعطيتها، عليه السلام، وهو القرآن، وله من المعجزات ما لا يحد ولا يحصر، كما هو مقرر فى مواضعه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا إِنَّمَا كُنَّا نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيًا كُنَّا﴾ أى: لو أنا أهلكتنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم، ونزل عليهم هذا الكتاب العظيم لكانوا قالوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ قبل أن تهلكنا، حتى نؤمن به ونتبعه؟ كما قال: ﴿فَتَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكَ قَدِيمًا مُّبِينًا وَتَكْفُرُ بِالرَّبِّ إِن شَاءَ عِبَادُكَ فَكُلٌّ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٩٧]، كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبْرُورًا فَآتِيهِمْ بِطَبَعٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ١٠٩، ١١٠]. ثم قال تعالى ﴿قُلْ﴾ أى: يا محمد لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره وعناده ﴿كُلُّ مَرْتَبِصٍ﴾ أى: منا ومنكم ﴿فَتَرْتَبِصُوا﴾ أى: فانظروا ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مِّنْ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أى: الطريق المستقيم ﴿وَمَنْ اهْتَدَىٰ﴾ إلى الحق وسبيل الرشاد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢]، وقال: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِّنَ الْكُذَّابِ الْأَشْرِ﴾ [القمر: ٢٦].

سورة الأنبياء

وهي مكية

روى البخارى عن عبد الله قال: بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هن من العتاق الأول، وهن من تلادى (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَثُ آخِلَمٍ بَلِ أَقْرَبُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْنِسْنَا مِثَابَهُ كَمَا أَرْسَلْنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُوْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾

هذا تنبيه من الله، عز وجل، على اقتراب الساعة ودنوها، وأن الناس في غفلة عنها، أى: لا يعملون لها، ولا يستعدون من أجلها، وقال تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقال: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ . وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا﴾ الآية [القمر: ١، ٢].

ثم أخبر تعالى أنهم لا يُصغون إلى الوحي الذى أنزل الله على رسوله، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار، فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ﴾ أى: جديد إنزاله ﴿إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ كما قال ابن عباس: مالكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابتكم أحدث الكتب بالله تقرأونه محضاً لم يشب. رواه البخارى بنحوه (٢). وقوله: ﴿وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى: قائلين فيما بينهم خفية ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ يعنون رسول الله ﷺ، يستعدون كونه نبياً؛ لأنه بشرٌ مثلهم، فكيف اختص بالوحي دونهم؛ ولهذا قال: ﴿أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾؟ أى: أفستبعونه فتكونون كمن يأتى السحر وهو يعلم أنه سحر. فقال تعالى مجيباً لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: الذى يعلم ذلك، لا يخفى عليه خافية، وهو الذى أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين، الذى لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله، إلا الذى يعلم السر فى السموات والأرض ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ بأحوالكم. وفى هذا تهديد لهم ووعيد.

وقوله: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاتٌ أَحْلَامٍ بَلِ اقْرَأْهُ﴾: هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم، واختلافهم فيما يصفون به القرآن، وحيرتهم فيه، وضلالهم عنه. فتارة يجعلونه سحراً، وتارة يجعلونه شعراً، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه مفترى، كما قال: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَظْهِرُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨، والفرقان: ٩].

وقوله: ﴿فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾: يعنون كفاية صالح، وآيات موسى وعيسى. وقد قال الله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ﴾ الآية [الإسراء: ٥٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَهْمُ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: ما آتينا قرية من القرى الذين بعث فيهم الرسل آية على يدى نبيها فآمنوا بها، بل كذبوا، فأهلكناهم بذلك، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو رأوها دون أولئك؟ كلا، بل ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. هذا كله، وقد شاهدوا من الآيات الباهرات، والحجج القاطعات، والدلائل البينات، على يدى رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى، وأبهر وأقطع وأقهر، مما شوهد مع غيره من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْتَهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾

يقول تعالى راداً على من أنكر بعثة الرسل من البشر: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا يُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ أى: جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالاً من البشر، لم يكن فيهم أحد من الملائكة، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوْحِي (١) إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الاحقاف: ٩]، وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم أنهم أنكروا ذلك فقالوا: ﴿أَبَشْرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى: اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة؟ إنما كانوا بشراً، وذلك من تمام نعم الله على خلقه؛ إذ بعث فيهم رسلا منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ أى: بل قد كانوا أجساداً يأكلون الطعام، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] أى: قد كانوا بشرا من البشر، يأكلون ويشربون مثل الناس، ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بضرار لهم ولا ناقص منهم شيئاً، كما توهمه المشركون فى قولهم: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ

(١) «يوحى» - بضم الياء التحتية وفتح الحاء المهملة، قراءة الجمهور. وهى هكذا بالمخطوطة وقرأ حفص وحزمة والكسائى: «نوحى» .

يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْسِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَلَكًا فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكْوِينٌ لَهُ حِجَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مُسْحُورًا ﴿١٠﴾ الآية [الفرقان: ٧، ٨] . وقوله : ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ أى : فى الدنيا ، بل كانوا يعيشون ثم يموتون ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] ، وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله عز وجل ، تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكم فى خلقه مما يأمر به وينهى عنه . وقوله : ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ أى : الذى وعدهم ربهم : ليهلكن الظالمين ، صدقهم الله وعده ففعل ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿فَأَجْمِنَاهُمْ وَمَنْ نُشَاءُ﴾ أى : أتباعهم من المؤمنين ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ أى : المكذبين بما جاءت به الرسل .

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ
كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَآئِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ
﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا بُولَاقْنَا إِنَّا
كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى منها على شرف القرآن : ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ قال ابن عباس : شرفكم ، وقال مجاهد : حديثكم ، وقال الحسن : دينكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أى : هذه النعمة ، وتلقونها بالقبول ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤] .

وقوله : ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ : هذه صيغة تكثير ، كما قال : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧] . وقال تعالى : ﴿فَكَأَيِّنْ (١) مِنْ قَبْرَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْعَثُ مُعْتَلَّةً وَاقْصِرْ مُشِيدًا﴾ [الحج: ٤٥] . وقوله : ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أى : أمة أخرى بعدهم ﴿فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَآئِنَا﴾ أى : تيقنوا أن العذاب واقع بهم ، كما وعدهم نبيهم ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أى : يفرّون هاربين ، ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ﴾ : هذا تهكم بهم قدرأى : قيل لهم قدرأ : لا تركضوا هاربين من نزول العذاب ، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور ، والعيشة والمسكن الطيبة قال قتادة : استهزاء بهم . ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ أى : عما كنتم فيه من أداء شكر النعمة . ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ : اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ أى : ما زالت تلك المقالة ، وهى الاعتراف بالظلم ، هجيراًهم (٢) حتى حصدناهم حصدا وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً .

(١) فى المطبوعة والمخطوطة : « وكأين » وهو خطأ .

(٢) أى : عاذتهم وشأنهم .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَأَتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَكُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق، أى: بالعدل والقسط ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١]، وأنه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعباً، كما قال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَأَتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا ﴾: قال مجاهد: يعنى: من عندنا، يقول: وما خلقنا جنة ولا ناراً، ولا موتاً، ولا بعثاً، ولا حساباً. وقال الحسن، وقتادة، وغيرهما: اللهو: المرأة بلسان أهل اليمن، وقال عكرمة والسدى: المراد باللهو هاهنا: الولد. وهذا والذي قبله متلازمان، وهو كقوله تعالى: ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ لَدًّا لَأَصْطَفِي مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الزمر: ٤]، فتره نفسه عن اتخاذ الولد مطلقاً، لا سيما عما يقولون من الإفك والباطل، من اتخاذ عيسى، أو العزيز، أو الملائكة ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٤٣]. وقوله: ﴿ إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ قال قتادة، وإبراهيم النخعي: أى: ما كنا فاعلين. وقال مجاهد: كل شيء فى القرآن «إن» فهو إنكار.

وقوله: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ﴾ أى: نبين الحق فيدحض الباطل؛ ولهذا قال: ﴿ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ أى: ذاهب مضمحل ﴿ وَلَكُمُْ الْوَيْلُ ﴾ أى: أيها القائلون: لله ولد ﴿ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ أى: تقولون وتفترون.

ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له، ودأبهم فى طاعته ليلاً ونهاراً، فقال: ﴿ وَهَلْ مِنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ يعنى: الملائكة ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ أى: لا يستكفون عنها، كما قال: ﴿ لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكْفِرْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٧٢]. وقوله: ﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ أى: لا يتعبون ولا يملون ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ فهم دائبون فى العمل ليلاً ونهاراً، مطيعون قصداً وعملاً، قادرون عليه، كما قال تعالى: ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

﴿ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يَسْتَلْ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة، فقال: ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ أى: أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؟ أى: لا يقدرون على شيء من ذلك، فكيف جعلوها لله

ندأ وعبدوها معه. ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السموات والأرض، فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ﴾ أي: في السماء والأرض ﴿لَفَسَدَتَا﴾، كقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لُدَّ هَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقال هاهنا: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي: عما يقولون إن له ولداً أو شريكاً، سبحانه وتعالى وتقدس وتنزه عن الذين يفترون ويأفكون علواً كبيراً.

وقوله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ أي: هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد، لعظمته وجلاله وكبريائه، وعلوه وحكمته وعدله ولطفه ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ أي: وهو سائل خلقه عما يعملون، كقوله: ﴿فَرَوَيْكَ لِنِسَائِهِمْ آجَمِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿١٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ﴾ يا محمد: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: دليلكم على ماتقولون ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ﴾ يعني: القرآن ﴿وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ يعني: الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمون، فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل، ناطق بأنه لا إله إلا الله، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق، فانتم معرضون عنه؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُوحى (١) إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، كما قال: ﴿وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَنْ جَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفترة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا يبرهان لهم، وحققتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿١٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿١٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِيَّتَ إِلَهٌُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى رداً على من زعم أن له - تعالى وتقدس - ولداً من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب: إن الملائكة بنات الله، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ أي: الملائكة عباد الله مكرمون عنده، في منازل عالية ومقامات سامية، وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلاً ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ

بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ أى: لا يتقدمون بين يديه بأمر، ولا يخالفونه فيما أمرهم به بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى علمه محيط بهم، فلا يخفى عليه منهم خافية، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ .

وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ ، كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، وقوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣] ، فى آيات كثيرة فى معنى ذلك ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ﴾ أى: من خوفه ورهبته ﴿مُشْفِقُونَ﴾ . وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ ﴿أى: من ادعى منهم أنه إله من دون الله، أى: مع الله، ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أى: كل من قال ذلك، وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه، كقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] ، وقوله: ﴿لَنْ أَسْرُكَتْ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] .

﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفًّا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣١﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴿٣٢﴾ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يقول تعالى منبهاً على قدرته التامة، وسلطانه العظيم فى خلقه الأشياء، وقهره لجميع المخلوقات، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: الجاحدون لإلهيته العابدون معه غيره، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق، المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يعبد غيره أو يشرك به ما سواه، ألم يروا ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ أى: كان الجميع متصلاً ببعضه ببعض متلاصق متراكم، بعضه فوق بعض فى ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعل السموات سبعا، والأرض سبعا، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئا فشيئا عياناً، وذلك دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء. وعن ابن عمر؛ أن رجلاً أتاه يسأله عن السموات والأرض ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾؟. قال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله، ثم تعال فأخبرنى بما قال لك. قال: فذهب إلى ابن عباس فسأله. فقال ابن عباس: نعم، كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت. فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات. فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآن قد علمت أن ابن عباس قد أوتى فى القرآن علماً، صدق - هكذا كانت. قال ابن عمر: قد كنت أقول: ما يعجبنى جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه قد أوتى فى القرآن علماً.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ أى: أصل كل الأحياء منه. وروى الإمام أحمد عن أبى ميمونة، عن أبى هريرة قال: قلت: يارسول الله، إنى إذا رأيتك طابت نفسى، وقرت عيني، فأنبئتنى عن كل شيء. قال: «كل شيء خلق من ماء» قال: قلت: أنبئتنى عن أمر إذا عملتُ به

دخلت الجنة . قال : « أفش السلام ، وأطعم الطعام ، وصل الأرحام ، وقم بالليل والناس نيام ، ثم ادخل الجنة بسلام » . تفرد به أحمد (١) ، وهذا إسناد على شرط الصحيحين ، إلا أن أبا ميمونة من رجال السنن ، واسمه سليم ، والترمذي يصحح له . والله أعلم .

وقوله : « وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا » أي : جبلاً أرسى الأرض بها وقررها وثقلها ؛ لئلا تميد بالناس ، أي : تضطرب وتتحرك ، فلا يحصل لهم قرار عليها لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الريح ، فإنه باد للهواء والشمس ، ليشهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات ، والحكم والدلالات ؛ ولهذا قال : « أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ » أي : لئلا تميد بهم . « وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سَبِيلًا » أي : ثغراً في الجبال ، يسلكون فيها طرقاً من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ، كما هو المشاهد في الأرض ، يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد ، فيجعل الله فيه فجوة - ثغرة - يسلك الناس فيها من هاهنا إلى هاهنا ؛ ولهذا قال : « لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ » .

وقوله : « وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفَافًا » أي : على الأرض وهي كالقبة عليها ، كما قال : « وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ » [الذاريات: ٤٧] ، وقال : « وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا » [الشمس: ٥] ، « أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوَاقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ » [ق: ٦] ، والبناء هو نصب القبة ، كما قال رسول الله ﷺ : « بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ » (٢) أي : خمس دعائم ، وهذا لا يكون إلا في الخيام ، على ما تعهده العرب « مَحْفُوظًا » أي : عالياً محروساً أن يُنال . وقال مجاهد : مرفوعاً . وقوله : « وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ » ، كقوله : « وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » [يوسف: ١٠٥] أي : لا يفتكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم ، والارتفاع الباهر ، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات في ليلها ، وفي نهارها من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكماله ، في يوم وليلة فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله الذي قدرها وسخرها وسيرها .

ثم قال منها عن بعض آياته : « وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ » أي : هذا في ظلامه وسكونه ، وهذا بضياؤه وأنسه ، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى ، وعكسه الآخر « وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ » هذه لها نور يخصصها ، وفلك بذاته ، وزمان على حدة ، وحركة وسير خاص ، وهذا بنور آخر ، وفلك آخر ، وسير آخر ، وتقدير آخر « كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » [يس: ٤٠] ، أي : يدورون . قال ابن عباس : يدورون كما يدور المغزل في الفلكة . وكذا قال مجاهد : فلا يدور المغزل إلا بالفلكة ، ولا الفلكة إلا بالمغزل ، كذلك النجوم والشمس والقمر ، لا يدورون إلا به ، ولا يدور إلا بهن ، كما قال تعالى : « فَالِقَ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » [الأنعام: ٩٦] .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِإِنْسٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مَتَّ فَهُمْ لَمَخْلَدُونَ ﴾ ﴿٤٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبِّئُكُمْ بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ فَتَنَةٌ وَإِنَّا لَمُتْرِعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى : « وَمَا جَعَلْنَا لِإِنْسٍ مِنْ قَبْلِكَ » أي : يا محمد « الْخُلْدَ » أي : في الدنيا بل « كُلُّ مَنْ

(١) المسند (٧٩١٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) البخاري (٨) ، ومسلم (١٩/١٦) .

عَلَيْهَا فَاَنْ وَيَقْنَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]. وقد استدلت بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر، عليه السلام، مات وليس بحى إلى الآن؛ لأنه بشر، سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾. وقوله: ﴿ أَفَأَنْ مِتَّ ﴾ أى: يا محمد ﴿ فَهُمْ الْخَالِدُونَ؟! ﴾ أى: يؤملون أن يعيشوا بعدك، لا يكون هذا، بل كل إلى الفناء؛ ولهذا قال: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾.

وقوله: ﴿ وَنَبِّئُوكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ أى: نخبركم بالمصائب تارة، وبالنعم أخرى، فننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط، كما قال ابن عباس: ﴿ وَنَبِّئُوكُمْ ﴾، يقول: نتليكم بالشر والخير فتنة، بالشدة والرخاء، بالصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية والهدى والضلال وقوله: ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أى: فنجازيكم بأعمالكم .

﴿ وَإِذَا رَأَىكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتِكُمْ وَهُمْ يَذِكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ ءَايَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿١٧﴾ ﴾

يقول تعالى لنبية ﷺ ﴿ وَإِذَا رَأَىكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يعنى: كفار قريش كابى جهل وأشبايه ﴿ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ أى: يستهزئون بك وينقصونك، يقولون: ﴿ أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتِكُمْ ﴾ يعنون: أهذا الذى يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم، قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَذِكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ أى: وهم كافرون بالله، ومع هذا يستهزئون برسول الله، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا . إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢].

وقوله ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ ﴾، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء: ١١] أى: فى الأمور. والحكمة فى ذكر عجلة الإنسان هاهنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول ﷺ، وقع فى النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت، فقال الله تعالى: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ ﴾؛ لأنه تعالى يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر؛ ولهذا قال: ﴿ سَأُورِيكُمْ ءَايَاتِي ﴾ أى: نلقى وحكمى واقتدارى على من عصانى ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُصْرُونَ ﴿١٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم، تكذيباً وجحوداً وكفراً وعناداً واستبعاداً، فقال: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾، قال الله تعالى: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ أى: لو يتقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما

استعجلوا به، ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٌ﴾ [الاعراف: ٤١]، وقال في هذه الآية: ﴿حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ وقال: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ تَعْشَى وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم ﴿وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ أى: لا ناصر لهم كما قال: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ آقٍ﴾ [الرعد: ٣٤].

وقوله: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾ أى: تأتاهم النار بغتة، أى: فجأة ﴿فَتَهْتَمُّهُمْ﴾ أى: تدعهم فيستسلمون لها حائرين، لا يدرون ما يصنعون ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أى: ليس لهم حيلة فى ذلك، ﴿وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أى: ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة .

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٤١﴾ قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى مسلماً لرسوله عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من العذاب الذى كانوا يستعدون وقوعه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى آتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الانعام: ٣٤].

ثم ذكر تعالى نعمته على عبده فى حفظه لهم بالليل والنهار، وكلاءه وحراسه لهم بعينه التى لاتنام، فقال: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾؟ أى: بدل الرحمن يعنى غيره .
وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ أى: لا يعترفون بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه، ثم قال: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ، أى: الهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا؟ ليس الأمر كما توهموا ولا كما زعموا؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أى: هذه الآلهة التى استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم. وقوله: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ قال ابن عباس: أى: يجارون، وقال قتادة لا يصحبون من الله بخير، وقال غيره: يمتعون .

﴿بَلْ مَنَعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا نُونَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِسَاحِسِينَ﴾ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال، أنهم متعوا في الحياة الدنيا، ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شيء.

ثم قال واعظاً لهم: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾، اختلف المفسرون في معناه، وقد أسلفناه في سورة «الرعد»، وأحسن ما فسر بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوَّلْتُمْ مِنْ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الاحقاف: ٢٧]. وقال الحسن البصري: يعنى بذلك ظهور الإسلام على الكفر. والمعنى: أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة، وإجائه لعباده المؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ يعنى: بل هم المغلوبون الأسفلون الأخرسون الأردلون.

وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾ أى: إنما أنا مبلغ عن الله ما أئذركم به من العذاب والنكال، ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إليّ، ولكن لا يجدى هذا عمن أعمى الله بصيرته، وختم على سمعه وقلبه؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾.

وقوله: ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمُ نَفْعَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أى: ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله، ليعترفن بذنوبهم، وأنهم كانوا ظالمين أنفسهم في الدنيا. وقوله: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ أى: ونضع الموازين العدل ليوم القيامة. الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه.

وقوله: ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِهَا حَاسِبِينَ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يُظْلَمُ رِيكٌ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يُظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال لقمان: ﴿ يَا بَنِيَّ إِنِّي إِذَا مَا تَكَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنْ اللَّهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ١٦]. وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»^(١). وروى الإمام أحمد عن أبى عبد الرحمن الخبلى، قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مد البصر، ثم يقول أنتكر من هذا شيئاً؟ أظلمتكم كتبى الحافظون؟ قال: لا يارب، قال: أفلك عذر، أو حسنة؟ قال: فيبهت الرجل فيقول: لا، يارب. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك. فنخرج له بطاقة فيها: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله» فيقول: أحضروه، فيقول: يارب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، قال: «فتوضع السجلات فى كفة»، قال: «فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» قال: «ولا يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم». ورواه الترمذى

وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن غريب (١).

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَمْ تُنْكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرون بين ذكر موسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهما، وبين كتابيهما؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾. قال قتادة: التوراة، حلالها وحرامها، وما فرق الله بين الحق والباطل. وجامع القول في ذلك: أن الكتب السماوية مشتملة على التفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام، وعلى ما يحصل نوراً في القلوب، وهداية وخوفاً وإنابة وخشية؛ ولهذا قال: ﴿الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أى: تذكيراً لهم وعظة.

ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾، كقوله: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]، ﴿وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أى: خائفون وجلون.

ثم قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعنى: القرآن العظيم، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ أى: أفتنكرونه وهو فى غاية الجلاء والظهور؟

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَشْرَكَاءَ آبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا آجِبْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبِّيَ كَرِيمٌ ﴿٥٦﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عن خليفه إبراهيم، عليه السلام، أنه آتاه رشفه من قبل، أى: من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣]، والمقصود: أن الله تعالى أخير أنه قد آتى إبراهيم رشفه، من قبل، أى: من قبل ذلك، وقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ أى: وكان أهلاً لذلك.

ثم قال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ هذا هو الرشد الذى أوتيه من صغره، الإنكار على قومه فى عبادة الأصنام من دون الله، عز وجل، فقال: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ أى: معتكفون على عبادتها. ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾: لم يكن لهم حجة

سوى صنيع آبائهم الضلال؛ ولهذا قال: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم.

فلما سفه أحلامهم، وضلل آباءهم، واحتقر آلهتهم ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ﴾ يقولون: هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاجباً أو محقاً فيه؟ فإننا لم نسمع به قبلك ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ أي: ربكم الذي لا إله غيره، هو الذي خلق السموات والأرض وما حوت من المخلوقات الذي ابتداء خلقهن، وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: وأنا أشهد أنه لا إله غيره، ولا رب سواه.

﴿وَتَأْتِيهِمْ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَانُكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدْيَنَ ۖ فَجَعَلَهُمْ جُذَاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلىٰ عَينِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ ﴿٦١﴾ ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَشَكُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ ﴿٦٢﴾

ثم أقسم الخليل قسماً أسمع به بعض قومه ليكيدن أصنامهم، أي: ليحرصن على أذهاب وتكسيرهم بعد أن يولوا مديين.

وقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاً﴾ أي: حطاماً، كسرهما كلها ﴿إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ﴾ يعني: إلا الصنم الكبير عندهم كما قال: ﴿فَرَأَىٰ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصفافات: ٩٣]. وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾: ذكروا أنه وضع القدم في يد كبيرهم، لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار، فكسرها. ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدال على قدم إلهيتها، وعلى سخافة عقول عابديها ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُمْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: في صنيعه هذا ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ أي: قال من سمعه يحلف أنه ليكيدنهم: ﴿سَمِعْنَا فَتَىٰ﴾ أي: شاباً ﴿يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ قال ابن عباس قال: ما بعث الله نبياً إلا شاباً، ولا أوتى العلم عالم إلا وهو شاب، وتلا هذه الآية: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

وقوله: ﴿تَأْتُوا فَأْتُوا بِهِ عَلىٰ عَينِ النَّاسِ﴾ أي: على رؤوس الأشهاد في الملاء الأكبر بحضرة الناس كلهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم أن يتبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام التي لاتدفع عن نفسها ضراً، ولا تملك لها نصراً، فكيف يطلب منها شيء من ذلك؟

﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ قال بل فعله كبيرهم هذا﴾ يعني: الذي تركه لم يكسره

﴿فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظِقُونَ﴾ وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم، فيعترفوا أنهم لا ينطقون، فإن هذا لا يصدر عن هذا الصنم؛ لأنه جماد. وفي الصحيحين عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم، عليه السلام، لم يكذب غير ثلاث: ثنتين في ذات الله، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾» قال: «وبينا هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة، إذ نزل منزلاً، فأتى الجبار رجل، فقال: إنه قد نزل بأرضك رجل معه امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه فجاء، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: هي أختي. قال: فاذهب فأرسل بها إلي، فانطلق إلى سارة فقال: إن هذا الجبار سألني عنك فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده، فإنك أختي في كتاب الله، وأنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي. فلما أن دخلت عليه فرأها أهوى إليها، فتناولها، فأخذ أخذاً شديداً، فقال: ادعى الله لي ولا أضرك، فدعت له فأرسل، فأهوى إليها فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد. ففعل ذلك الثالثة فأخذ، فذكر مثل المرتين الأولين، فقال: ادعى الله فلا أضرك. فدعت، له فأرسل، ثم دعا أدنى حجابيه، فقال: إنك لم تأتني بإنسان، وإنما أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر، فأخرجت وأعطيت هاجر، فأقبلت، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته، قال: مهيم؟ قالت: كفى الله كيد الكافر الفاجر، وأخذمني هاجر» قال محمد بن سيرين: وكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال: فتلك أمكم يابني ماء السماء (١).

﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْظِقُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿١٦﴾ أَمْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم، فقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: في ترككم لها مهملة لا حافظ عندها، ﴿ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أي: ثم أطرقوا في الأرض فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْظِقُونَ﴾ قال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء؛ ولهذا قالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْظِقُونَ﴾ فكيف تقول لنا: سلوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لا تنطق، فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ أي: إذا كانت لا تنطق، وهي لا تضر ولا تنفع، فلم تعبدونها من دون الله ﴿أَمْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ، الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر؟ فأقام عليهم الحجة، وألزمهم بها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ الآية [الأنعام: ٨٣].

﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنْتَازُ كُوْنِي بَرْدًا
وَسَلَمًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

لما دحضت حججهم، وبان عجزهم، وظهر الحق، واندفع الباطل، عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ فلما ألقوه قال: «حسبي الله ونعم الوكيل»، كما رواه البخارى، عن ابن عباس أنه قال: «حسبي الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم حين ألقى في النار، وقالها محمد حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] (١). قال الله: ﴿يَا نَارُ كُوْنِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ عن علي بن أبي طالب: قال: لا تضربيه. وقال ابن عباس، وأبو العالية: لولا أن الله عز وجل قال: ﴿وَسَلَامًا﴾ لأذى إبراهيم بردها. وقوله: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ أى: المغلوبين الأسفلين؛ لأنهم أرادوا بنى الله كيداً، فكادهم الله ونجاه من النار، فغلبوا هنالك.

﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۗ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم، أنه سلمه الله من نار قومه، وأخرجه من بين أظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام، إلى الأرض المقدسة منها، كما قال أبى بن كعب وأبو العالية .
وقوله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ قال عطاء، ومجاهد: عطية، وقال ابن عباس، وقتادة، والحكم بن عيينة: النافلة ولد الولد، يعنى: أن يعقوب ولد إسحاق، كما قال: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: سأل واحداً فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصفات: ١٠٠]، فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة .
﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أى: الجميع أهل خير وصلاح ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً﴾ أى: يقتدى بهم ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أى: يدعون إلى الله بإذنه؛ ولهذا قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ من باب عطف الخاص على العام ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ أى: فاعلين لما يأمرون الناس به .

ثم عطف بذكر لوط ، كان قد آمن بإبراهيم، واتبعه، وهاجر معه، كما قال تعالى: ﴿قَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [النسبوت: ٢٦] ، فاتاه الله حكماً وعلماً، وأوحى إليه، وجعله نبياً، وبعثه إلى سدوم وأعمالها، فخالقوه وكذبوه، فأهلكهم الله ودمر عليهم ، كما قص خبرهم فى غير موضع من كتابه العزيز ؛ ولهذا قال : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ إِنَّهُمْ

كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ . وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿

﴿٧٦﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصْرَتَهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴿

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح، عليه السلام، حين دعا على قومه لما كذبوه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القم: ١٠] ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيئَارًا . إِنَّكَ إِنْ تَذَرْنَهُمْ يُضَلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧] ولهذا قال هاهنا: ﴿إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ أى: الذين آمنوا به كما قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] . وقوله: ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أى: من الشدة والتكذيب والأذى، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل، فلم يؤمن به منهم إلا القليل، وكانوا يتصدون لأذاه، ويتواصون قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل على خلافه .

وقوله: ﴿وَنَصْرَتَاهُ﴾ أى: ونجيانه وخلصناه منتصراً ﴿مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى: أهلكهم الله بعامه، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحداً؛ إذ دعا عليهم نبيهم .

﴿٧٨﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَتْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَفُوضُونَ لَهُمْ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴿

قال ابن عباس: النَّفْسُ: الرعى. وقال شريح، والزهرى، وقناة: النَّفْسُ بالليل. زاد قناة: والهمل بالنهار. وقال ابن جرير عن ابن مسعود فى قوله: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ قال: كرم قد أنبتت عناقيدته، فأفسدته. قال: ففضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله! قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه، ودفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ .

وقوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قال حميد: إن إياس بن معاوية لما استقضى أياه الحسن فبكى، قال: ما يبكيك؟ قال: يا أبا سعيد، بلغنى أن القضاة: رجل اجتهد

فأخطأ، فهو في النار، ورجل مال به الهوى فهو في النار، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة. فقال الحسن البصرى: إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان، عليهما السلام، والأنبياء حكماً يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم، قال الله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ غَمٌّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ فأننى الله على سليمان ولم يذم داود. ثم قال - يعنى: الحسن : إن الله اتخذ على الحكماء ثلاثاً: لا يشتركون به ثمناً قليلاً، ولا يتبعون فيه الهوى، ولا يخشون فيه أحداً، ثم تلا: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَخَشَوُا اللَّهَ﴾ [المائدة: ٤٤] ، وقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة: ٤٤].

قلت: أما الأنبياء، عليهم السلام، فكلهم معصومون مؤيدون من الله عز وجل. وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف، وأما من سواهم فقد ثبت فى صحيح البخارى، عن عمرو بن العاص أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» (١)، فهذا الحديث يرد نصاً ما توهمه «إياس» من أن القاضى إذا اجتهد فأخطأ فهو فى النار، والله أعلم. وفى السنن : «القضاة ثلاثة: قاض فى الجنة، وقاضيان فى النار: رجل علم الحق وقضى به فهو فى الجنة، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو فى النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه، فهو فى النار» (٢). وقريب من هذه القصة المذكورة فى القرآن ما رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما امرأتان معهما ابنان لهما، جاء الذئب فأخذ أحد الابنين، فتحاكما إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا. فدعاهما سليمان فقال: هاتوا السكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابنها، لا تشقه، فقضى به للصغرى». وأخرجه البخارى ومسلم (٣).

وقوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا ترنم به تقف الطير فى الهواء، فتجاوبه، وترد عليه الجبال تأويهاً؛ ولهذا لما مرَّ النبى ﷺ على أبى موسى الأشعرى، وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيب، فوقف واستمع لقراءته، وقال: «لقد أوتى هذا من مزامير آل داود». قال يارسول الله، لو علمت أنك تسمع خبرته لك تحبيراً (٤).

وقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيَحْنِتَكُمْ مِنْ أَسْكُم﴾ يعنى صنعة الدروع. قال قتادة: إنما كانت الدروع قبله صفائح، وهو أول من سردها حلقاتاً. كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّنَا لَهُ الْحَدِيدَ. أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ [سبا: ١٠، ١١] أى: لا توسع الحلقة فتقلق المسمار، ولا تغلظ المسمار فتقد

(١) البخارى (٧٣٥٢). (٢) أبو داود (٣٥٧٣) وابن ماجه (٢٣١٥)، وصححه الألبانى .

(٣) المسند (٨٢٦٣)، والبخارى (٦٧٦٩) ومسلم (١٧٢٠ / ٢٠).

(٤) البخارى (٥٠٤٨).

الْحَلْفَةَ ؛ ولهذا قال : ﴿لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ يعنى : فى القتال ، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ أى : نعم الله عليكم ، لما ألهم به عبده داود ، فعلمه ذلك من أجلكم .

وقوله : ﴿وَلَسَلِيمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ أى : وسخرنا لسليمان الريح العاصفة ﴿تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ يعنى أرض الشام ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ . وقوله : ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَفُوضُونَ لَهُ﴾ أى : فى الماء يستخرجون اللآلىء [وغير ذلك . ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أى : غير ذلك ، كما قال تعالى : ﴿وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بِنَاءٍ وَغَوَاصٍ . وَآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص : ٣٧ ، ٣٨] . وقوله : ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ أى : يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء ، بل كل فى قبضته وتحت قهره لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه ، بل هو مُحَكَّمٌ فيهم ، إن شاء أطلق ، وإن شاء حبس منهم من يشاء ؛ ولهذا قال : ﴿وَآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ .

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ربيع
فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾

يذكر تعالى عن أيوب ، عليه السلام ، ما كان أصابه من البلاء ، فى ماله وولده وجسده ، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحراث شئ كثير ، وأولاد كثيرة ، ومنازل مرضية . فابتلى فى ذلك كله ، وذهب عن آخره ، ثم ابتلى فى جسده يقال : بالجدام فى سائر بدنه ، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه ، يذكر بهما الله عز وجل ، حتى عافه الجليس ، وأفرد فى ناحية من البلد ، ولم يبق من الناس أحد يحنو عليه سوى زوجته ، كانت تقوم بأمره ، ويقال : إنها احتاجت فصار تخدم الناس من أجله ، وقد قال النبى ﷺ : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل » (١) وفى الحديث الآخر : « يبتلى الرجل على قدر دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه » (٢) . وقد كان نبى الله أيوب ، عليه السلام ، غاية فى الصبر ، وبه يضرب المثل فى ذلك . عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « لما عافى الله أيوب ، أمطر عليه جرأداً من ذهب ، فجعل يأخذ بيده ويجعله فى ثوبه . قال : « فقيل له : يا أيوب ، أما تشبع ؟ قال : يا رب ، ومن يشبع من رحمتك » . أصله فى الصحيحين (٣) .

وقوله : ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ عن ابن عباس أنه قال : ردوا عليه بأعيانهم . وروى مثله عن ابن مسعود ومجاهد ، وبه قال الحسن وقتادة . وقد زعم بعضهم أن اسم زوجته رحمة ، فإن كان أخذ ذلك من سياق الآية فقد أبعد النجعة ، وإن كان أخذه من نقل أهل الكتاب ، وصح ذلك عنهم ، فهو مما لا يصدق ولا يكذب . وقوله : ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ أى : فعلنا به ذلك رحمة

(١ ، ٢) المسند (١٤٨١) وقال أحمد شاكر : « إسناده صحيح » . والترمذى (٢٣٩٨) وقال : « حديث حسن صحيح » .
(٣) الحاكم فى المستدرک (٢ / ٥٨٢) ، وقال : « حديث صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه » . والبخارى (٣٣٩١) ، ولم أقف عليه فى مسلم ورواه أحمد فى المسند (٧٣٠٧) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح وذكره ابن كثير ... ثم ذكر أن البخارى رواه من هذا الوجه » .

من الله به ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ أى: وجعلناه فى ذلك قدوة، لثلا يظن أهل البلاء أننا فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا، وليتأسوا به فى الصبر على مقدرات الله وابتلائه لعباده بما يشاء، وله الحكمة البالغة فى ذلك.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْحَانَهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾

أما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل، عليهما السلام، وقد تقدم ذكره فى سورة مريم، وكذلك إدريس، عليه السلام. وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي. وقال آخرون: إنما كان رجلاً صالحاً، وكان ملكاً عادلاً، وحكماً مقسطاً، وتوقف ابن جرير فى ذلك، فالله أعلم. وقال ابن جرير، عن مجاهد فى قوله: ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ قال: رجل صالح غير نبي، تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضى بينهم بالعدل، ففعل ذلك، فسمى: ذا الكفل. وكذا روى ابن أبى نجیح، عن مجاهد أيضاً.

﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنشِئُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

هذه القصة مذكورة ها هنا وفى سورة «الصفات» وفى سورة «ن» وذلك أن يونس بن متى، عليه السلام، بعثه الله إلى أهل قرية «نينوى»، وهى قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث. فلما تحققوا منه ذلك، وعلموا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وفرقوا بين الأمهات وأولادها، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل، وجأروا إليه، ورغت الإبل وفُضِّلَناها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحُمِّلَناها، فرغ الله عنهم العذاب، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

وأما يونس، عليه السلام، فإنه ذهب فركب مع قوم فى سفينة فلججت بهم، وخافوا أن يغرقوا. فافترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخفون منه، فوقعت القرعة على يونس، فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضاً، فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، قال الله تعالى: ﴿فَسَاءَ مَا كَانُوا مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصفات: ١٤١]، أى: وقعت عليه القرعة، فقام يونس، عليه السلام، وتجرد من ثيابه، ثم ألقى نفسه فى البحر، وقد أرسل الله، سبحانه حوتاً فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة، فأوحى الله إلى ذلك الحوت ألا تأكل له لحماً، ولا تهشم له عظماً؛ فإن يونس ليس لك رزقا، وإنما بطنك تكون له سجنًا.

وقوله: ﴿وَذَا التُّونِ﴾ يعني: الحوت، صحت الإضافة إليه بهذه النسبة ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾ قال الضحاك: لقومه ﴿فَظَنُّ أَنْ لَنْ نُقَدِّرَ عَلَيْهِ﴾ أى: نضيق عليه فى بطن الحوت. يروى نحو هذا عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم، واختاره ابن جرير، واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]. وقال عطية العوفى: ﴿فَظَنُّ أَنْ لَنْ نُقَدِّرَ عَلَيْهِ﴾ أى: نقضى عليه، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير، فإن العرب تقول: قدَّرَ وقدَّرَ بمعنى واحد ومنه قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِّرَ﴾ [القمر: ١٢]، أى: قدَّر. وقوله: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَأِ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قال ابن مسعود: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل. وكذا روى عن ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، والحسن، وقتادة.

وقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ﴾ أى: أخرجناه من بطن الحوت، وتلك الظلمات ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: إذا كانوا فى الشدائد ودَعَوْنَا مَنِينِينَ إِلَيْنَا، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء فى حال البلاء، فقد جاء الترغيب فى الدعاء بها عن سيد الأنبياء، روى الإمام أحمد عن سعد بن أبى وقاص قال: مررت بعثمان بن عفان فى المسجد، فسلمت عليه، فملا عينيه منى ثم لم يردد على السلام، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت: يا أمير المؤمنين، هل حدث فى الإسلام شيء؟ مرتين، قال: لا، وما ذاك؟ قلت: لا، إلا أنى مررت بعثمان أنفا فى المسجد، فسلمت عليه، فملا عينيه منى، ثم لم يردد على السلام. قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه، فقال: ما منعك ألا تكون رددت على أخيك السلام؟ قال: ما فعلت. قال سعد: قلت: بلى. حتى حلف وحلفت، قال: ثم إن عثمان ذكر فقال: بلى، وأستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بى أنفا وأنا أحدث نفسى بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ لا والله ما ذكرت قط إلا تغشى بصرى وقلبى غشاوة. قال سعد: فأنا أثبتك بها، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ثم جاء أعرابى فشغله، حتى قام رسول الله ﷺ فاتبعته، فلما أشفقت أن يسقنى إلى منزله ضربت بقدمى الأرض، فالتفت إلى رسول الله ﷺ فقال: «من هذا؟ أبو إسحاق؟» قال قلت: نعم، يا رسول الله. قال: «فمه؟» قلت: لا والله، إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابى فشغلك. قال: «نعم، دعوة ذى النون، إذ هو فى بطن الحوت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فإنه لم يدع بها مسلم ربه فى شيء قط إلا استجاب له». ورواه الترمذى، والنسائى (١).

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (٨٩)
 ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُمْ زَوْجًا إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْئِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ (٩٠)

يخبر تعالى عن عبده زكريا، حين طلب أن يهبه الله ولدا، يكون من بعده نبيا. وقد تقدمت القصة مبسوطه فى أول سورة «مريم» وفى سورة «آل عمران» أيضا، وها هنا أخصر

(١) المسند (١٤٦٢) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» والترمذى (٣٥٠٥) والنسائى فى الكبرى (١٠٤٩٢).

منهما ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ أى: خفية عن قومه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أى: لا ولد لى ولا وارث يقوم بعدي فى الناس، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ دعاء وثناء مناسب للمسألة. قال الله تعالى: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يُحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أى: امرأته. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة: كانت عاقراً لا تلد، فولدت.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أى: فى عمل القربات وفعل الطاعات ﴿وَيَدْعُونَ نَارًا رَغْبًا وَرَهْبًا﴾ قال الثورى: ﴿رَغْبًا﴾ فيما عندنا، و﴿رَهْبًا﴾ مما عندنا ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ قال ابن عباس: أى مصدقين بما أنزل الله. وقال مجاهد: مؤمنين حقاً. وقال أبو العالية: خائفين. وقال أبو سنان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب، لا يفارقه أبداً. وقال الحسن، وقادة، والضحاك: ﴿خَاشِعِينَ﴾ أى: متذللين لله عز وجل. وكل هذه الأقوال متقاربة. وروى ابن أبى حاتم: عن عبد الله ابن حكيم قال: خطبنا أبو بكر، رضى الله عنه، ثم قال: أما بعد، فإنى أوصيكم بتقوى الله، وتشتوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَ نَارًا رَغْبًا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾

﴿٩١﴾

هكذا يذكر تعالى قصة مريم وابنها عيسى، عليه السلام، مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى، عليهما السلام، فيذكر أولاً قصة زكريا، ثم يتبعها بقصة مريم؛ لأن تلك مربوطة بهذه، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن فى السن، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد فى حال شبابها، ثم يذكر قصة مريم وهى أعجب، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر. هكذا وقع فى سورة «آل عمران»، وفى سورة «مريم»، وها هنا ذكر قصة زكريا، ثم أتبعها بقصة مريم، بقوله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ يعنى: مريم، عليها السلام، كما قال فى سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أى: دلالة على أن الله على كل شىء قدير، وأنه يخلق ما يشاء، و﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. وهذا كقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١]

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ الْإِنسَانِ رَجِعُوتٌ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُوبٌ ﴿٩٤﴾

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، يقول: دينكم دين واحد. وقال الحسن البصرى فى هذه الآية: بين

لهم ما يتقون وما يأتون ثم قال: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى : سنتكم سنة واحدة . فقوله : ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ : إن واسمها، و﴿أُمَّتُكُمْ﴾ خبر إن، أى: هذه شريعتكم التى بينت لكم ووضحت لكم، وقوله : ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ نصب على الحال؛ ولهذا قال : ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾ ، كما قال : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون﴾ [المؤمنون : ٥١ ، ٥٢] ، وقال رسول الله ﷺ : « نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» (١) ، يعنى: أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أى: اختلفت الأمم على رسلها، فمن بين مَصَدَق لهم ومكذب؛ ولهذا قال: ﴿كُلُّ إِنَّا رَاجِعُونَ﴾ أى: يوم القيامة، فيجازى كل بحسب عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؛ ولهذا قال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أى: قلبه مصدق، وعمل عملاً صالحاً ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ كقوله: ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أجرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] أى: لا يكفر سعيه، وهو عمله، بل يشكر، فلا يظلم مثقال ذرة؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ أى: يكتب جميع عمله، فلا يضيع عليه منه شيء.

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٩٥﴾ حَقٌّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِبْرِيكَ قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾

يقول تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ قال ابن عباس: قد قدر أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة . هكذا صرح به ابن عباس ، وقتادة، وغير واحد . وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ : قد قدمنا أنهم من سلالة آدم، عليه السلام، بل هم من نسل نوح أيضاً، من أولاد يافث أبى الترك، والترك شردمة منهم، تركوا من وراء السد الذى بناه ذو القرنى وقال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا . وَتَرَكَنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٨ ، ٩٩]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ أى: يسرعون فى المشى إلى الفساد.

والحدب: هو المرتفع من الأرض، قاله ابن عباس، وعكرمة، والثورى وغيرهم، وهذه صفتهم فى حال خروجهم، كأن السامع مشاهد لذلك، ﴿وَلَا يُبْنِكُ مِثْلَ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]: هذا إخبار عالم ما كان وما يكون، الذى يعلم غيب السموات والأرض، لا إله إلا هو .

وقد ورد ذكر خروجهم فى أحاديث متعددة من السنة النبوية:

روى الإمام أحمد: عن أبى سعيد الخدرى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يُفْتَحُ

يأجوجُ ومأجوجُ، فيخرجون [على الناس] كما قال الله عز وجل: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَسْأَلُونَ﴾، فيغشون الناس، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، ويشربون مياه الأرض، حتى إن بعضهم ليمر بالنهر، فيشربون ما فيه حتى يتركوه يبسا، حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول: قد كان ها هنا ماء مرة، حتى إذا لم يبق من الناس أحد إلا أحد في حصن أو مدينة قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض، قد فرغنا منهم، بقي أهل السماء. قال: «ثم يهزأ أحدهم حربته، ثم يرمى بها إلى السماء، فترجع إليه مُخْتَضِبَةً دما؛ للبلاء والقتلة. فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل دودا في أعناقهم كَنَغْفِ الجراد الذي يخرج في أعناقه، فيصبحون موتى لا يُسْمَعُ لهم حِس، فيقول المسلمون: ألا رجل يَشْرِى نفسه، فينظر ما فعل هذا العدو؟» قال: «فيتجرد رجل منهم محتسبا نفسه، قد أوطنها على أنه مقتول، فينزل فيجدهم موتى، بعضهم على بعض، فينادى: يا معشر المسلمين، ألا أبشروا، إن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويُسَرِّحُونَ مواشيهم، فما يكون لها رعى إلا لحومهم، فَتَشْكُرُ عنه كاحسن ما شكرت عن شيء من النبات أصابته قط. ورواه ابن ماجه (١).

وروى الإمام أحمد أيضا عن النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الكلابي قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فحَفَّضَ فيه ورفَع، حتى ظنناه في طائفة النخل فقال: «غير الدجال أخوفنى عليكم، فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حَجِيجُهُ دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم: إنه شاب جَعْدٌ قَطَطٌ عينه طافية، وإنه يخرج خَلَّةً بين الشام والعراق، فعات يمينا وشمالا، يا عباد الله اثبتوا». قلنا: يا رسول الله، ما لبثه في الأرض؟ قال: «أربعين يوما، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم». قلنا: يا رسول الله، فذاك اليوم الذي هو كسنة، أتكفيناه فيه صلاة يوم وليلة؟ قال: «لا، اقدروا له قدره». قلنا: يا رسول الله، فما إسرعه في الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح». قال: «فيمر بالحي فيدعوهم فيستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، وتروح عليهم سارحتهم وهي أطول ما كانت ذُرَى، وأمدته خواصر، وأسبغه ضروعا. ويمر بالحي فيدعوهم فيردون عليه قوله، فتتبعه أموالهم، فيصبحون مُمَحْلِلِينَ، ليس لهم من أموالهم. ويمر بالخرية فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها كيغاسيب النحل». قال: «ويأمر برجل فيقتل، فيضربه بالسيف فيقطعه جَزَلَتَيْنِ رَمِيَّةَ الغَرَضِ، ثم يدعوه فيقبل إليه يتهلل وجهه. فبينما هم على ذلك، إذ بعث الله عز وجل المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء، شرقي دمشق، بين مَهْرُودَتَيْنِ واضعا يده على أجنحة ملكين، فيتبعه فيدركه، فيقتله عند باب لُدَّ الشرقي».

قال: «فبينما هم كذلك، إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم: أنى قد أخرجت عابادا من عبادى لا يدان لك بقتالهم، فَحَوَّزَ عبادى إلى الطور، فبيعت الله عز وجل يأجوج

(١) المسند (٣ / ٧٧) وابن ماجه (٤٠٧٩)، وقال الالباني: «حسن صحيح»، وما بين المعقوفين ليس فى المطبوعة أو للمخطوطة، وأثبتناه من المسند.

ومأجوج، وهم كما قال الله: ﴿مَنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل، فيرسل الله عليهم نَفْعًا في رقابهم، فيصبحون فَرَسِي، كموت نفس واحدة. فيهبط عيسى وأصحابه، فلا يجدون في الأرض بيتاً إلا قد ملاءه زَهْمُهُم وتَنْتُهُم، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل عليهم طيراً كأعناق البُخْت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله.

قال ابن جابر: فحدثني عطاء بن يزيد السُّكْسُكِي، عن كعب - أو غيره - قال: فتطرحهم بالمُهَيْل. [قال ابن جابر: فقلت: يا أبا يزيد، وأين المُهَيْل؟ (١)، قال: مطلع الشمس. قال: «ويرسل الله مطراً لا يَكُنُّ منه بيت مدَّر ولا وِبَرَّ أربعين يوماً، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلَقَةِ، ويقال للأرض: أنبتى ثمرتك، ورُدَى بركتك». قال: «فيومئذ يأكل النفر من الرمانة ويستظلون بقحفها، ويُبَارِكُ في الرِّسْلِ، حتى إن اللَّقْحَةَ من الإبل لتكفي الفَتَامَ من الناس، واللَّقْحَةَ من البقر تكفي الفخذ، والشاة من الغنم تكفي أهل البيت». قال: «فبينما هم على ذلك، إذ بعث الله عز وجل ريحا طيبة تحت آباطهم، فتقبض روح كل مسلم - أو قال: كل مؤمن - ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمير، وعليهم تقوم الساعة». انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري، ورواه أهل السنن. وقال الترمذی: حسن صحيح (٢).

وقد تقدم في سورة الأعراف من رواية الإمام أحمد، عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: «لقيت ليلة أسرى بي إبراهيم وموسى وعيسى، عليهم السلام، قال: فتذاكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم، فقال: لا علم لي بها، فردوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا علم لي بها. أما وَجَبَتْهَا فلا يعلم بها أحد إلا الله، وفيها عهد إلى ربي أن الدجال خارج». قال: «ومعى قضيبان، فإذا رأني ذاب كما يذوب الرصاص» قال: «فيهلكه الله إذا رأني، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم إن تحتي كافراً، فتعال فاقتله». قال: «فيهلكهم الله، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم». قال: «فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فيطؤون بلادهم، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يبرون على ماء إلا شربوه». قال: «ثم يرجع الناس إلى يشكونهم، فادعوا الله عليهم، فيهلكهم ويميتهم، حتى تجوى الأرض من نَّتْنِ ريحهم، وينزل الله المطر فيجترف أجسادهم، حتى يقذفهم في البحر. ففيما عهد إلى ربي أن ذلك إذا كان كذلك، أن الساعة كالحامل المْتَمِّ، لا يدري أهلها متى تَفْجُوهُمْ بولدها ليلاً أو نهاراً». ورواه ابن ماجه، ورواه ابن جرير (٣) والأحاديث في هذا كثيرة جدا، والآثار عن السلف كذلك. وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لِيُحَجَّنَ هذا البيت، وليُعْتَمَرَ بعد خروج يأجوج ومأجوج». انفرد بإخراجه البخاري (٤).

(١) في المطبوعة في الموضعين: «المهليل» بالياء المثناة التحتية بعد الهاء، وهو خطأ، والصحيح ما أثبتته من المسند والمخطوطة، بالياء الموحدة. ، وانظر النهاية في غريب الحديث (٥ / ٢٤١) .
(٢) المسند (٤ / ١٨١) ومسلم (٢٩٣٧ / ١١٠) وأبو داود (٤٣٢١) والترمذی (٢٢٤٠) .
(٣) تفسير الطبري (١٧ / ٧٢) .
(٤) المسند (٣ / ٢٧) والبخاري (١٥٩٣) .

وقوله: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ يعني: يوم القيامة، إذا حصلت هذه الأهوال والزلازل والبلابل، أزفت الساعة واقتربت، فإذا كانت وقعت قال الكافرون: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨]. ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ أي: يقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ أي: في الدنيا ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ يعترفون بظلمهم لأنفسهم، حيث لا ينفعهم ذلك.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾
 ﴿لَوْ كَانَ هُوَ آلَاءَ إِلَهَةٍ مَا وَّرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ
 وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ
 لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَحْزَنُهُمْ
 الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقْنَاهُم مِّلَئِكَةً هُنَا يَوْمَ كُنَّا الَّذِينَ كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٢﴾

يقول تعالى مخاطبا لأهل مكة من مشركي قريش، ومن دان بدينهم من عبدة الأصنام والوثان: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قال ابن عباس: أي وقودها، يعني كقوله: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ [التحريم: ٦]. وقال مجاهد، وعكرمة، وقناة: حطبها. وقال الضحاك: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: ما يرمى به فيها. وكذا قال غيره. والجميع قريب. وقوله: ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ أي: داخلون ﴿لَوْ كَانَ هُوَ آلَاءَ إِلَهَةٍ مَا وَّرَدُوهَا﴾ يعني: لو كانت هذه الأصنام والأنداد التي اتخذتموها من دون الله آلهة صحيحة لما وردوا النار، وما دخلوها ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: العابدون ومعبوداتهم، كلهم فيها خالدون، ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ كما قال: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦]، والزفير: خروج أنفاسهم، والشهيق: ولوج أنفاسهم ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾: قال عكرمة: الرحمة. وقال غيره: السعادة ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله، عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسوله، وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة، وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا، كما قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. وقال ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فكما أحسنوا العمل في الدنيا، أحسن الله مآلهم وثوابهم، فنجاهم من العذاب، وحصل لهم جزيل الثواب، فقال: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ. لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي: حريقها في الأجساد.

وقوله: ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾: فسلمهم من المحذور والمرهوب، وحصل لهم المطلوب والمحبوب. روى ابن أبي حاتم عن النعمان بن بشير قال - وسمر مع علي ذات ليلة، فقرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ قال: أنا منهم، وعمر منهم، وعثمان منهم، والزبير منهم، وطلحة منهم، وعبد الرحمن منهم - أو قال: سعد منهم - قال: وأقيمت الصلاة فقام، وأظنه يجر ثوبه، وهو يقول: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾. وقال آخرون: بل نزلت

استثناء من المعبودين، وخرج منهم عزير والمسيح، كما قال ابن عباس: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، ثم استثنى فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾، فيقال: هم الملائكة، وعيسى، ونحو ذلك مما يعبد من دون الله عز وجل. وكذا قال عكرمة، والحسن، وابن جريج. وقوله: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ قيل المراد بذلك الموت. وقيل: المراد بالفزع الأكبر: النفخة في الصور. وقيل: حين يُدْبَح الموت بين الجنة والنار. ﴿وَتَتَلَفَأَهُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ يعني: تقول لهم الملائكة، تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أى: فأملوا ما يسركم.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾

يقول تعالى: هذا كائن يوم القيامة ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] وقد روى البخارى عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ، قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين، وتكون السموات بيمينه». انفرد به من هذا الوجه البخارى (١). وقوله: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾: قيل: المراد بالسجل الكتاب. وقيل: المراد بالسجل هاهنا: ملك من الملائكة. وقيل: المراد به اسم رجل صحابى، كان يكتب للنبي ﷺ الوحى . وقال ابن جرير: لا يُعْرَفُ فى الصحابة أحد اسمه السِّجِلُّ، وكتاب النبي ﷺ معروفون، وليس فيهم أحد اسمه السجل، وصدق رحمه الله فى ذلك، والله أعلم. والصحيح عن ابن عباس أن السجل هى الصحيفة، ونص على ذلك مجاهد، وقتادة، وغير واحد. واختاره ابن جرير؛ لأنه المعروف فى اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أى: على الكتاب، بمعنى المكتوب، كقوله: ﴿قَلَمًا أَسْلَمًا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصفات: ١٠٣]، أى: على الجبين، وله نظائر فى اللغة، والله أعلم.

وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ معنى: هذا كائن لا محالة، يوم يعيد الله الخلائق خلقاً جديداً، كما بدأهم هو القادر على إعادتهم، وذلك واجب الوقوع، لأنه من جملة وعد الله الذى لا يخلف ولا يبدل، وهو القادر على ذلك؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾. وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده، وعدأ علينا إنا كنا فاعلين»؛ وذكر تمام الحديث، أخرجاه فى الصحيحين (٢).

(١) البخارى (٧٤١٢).

(٢) المسند (٢٠٩٦) والبخارى (٤٦٢٥) ومسلم (٢٨٦٠ / ٥٨).

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ
الصَّالِحُونَ ﴾ [١٠٥] إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَكِيدٍ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا
رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾

يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين، من السعادة في الدنيا والآخرة، ووراثه الأرض في الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. وقال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]. وقال: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥].

وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لا محالة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ قال سعيد بن جبيرة الزبور: التوراة، والإنجيل، والقرآن وقال ابن عباس وقتادة، وغير واحد: الزبور: الذي أنزل على داود، والذكر: التوراة، وعن ابن عباس: الزبور: القرآن. وقال مجاهد: الزبور: الكتب بعد الذكر، والذكر: أم الكتاب عند الله. واختار ذلك ابن جرير رحمه الله.

وقال ابن عباس: أخبر الله سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض، أن يورث أمة محمد ﷺ الأرض ويدخلهم الجنة، وهم الصالحون. وعن ابن عباس: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ قال: أرض الجنة. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، والشعبي، وقتادة، وغيرهم.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أي: إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ لبلاغاً: لمنفعة وكفاية لقوم عابدين، وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم. وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾: يخبر تعالى أن الله جعل محمداً ﷺ رحمة للعالمين، أي: أرسله رحمة لهم كلهم، فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة، سعد في الدنيا والآخرة، ومن ردّها وجحدّها خسر في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ. جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَبَسَّ الْقِرَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]، وقال تعالى في صفة القرآن: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنُوا هُدًى وَنُورًا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]. وقال مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين، قال: «إني لم أبعث لعناً، وإنما بعثت رحمة». انفراد بإخراجه مسلم (١).

فإن قيل: فأى رحمة حصلت لمن كفر به؟ فالجواب ما رواه ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ قال: من آمن بالله واليوم الآخر، كتبت له الرحمة في الدنيا

والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عُوفِيَ مما أصاب الأمم من الحسف والقذف .

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾
 فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ
 يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ
 وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قُلْ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: متبعون على ذلك، مستسلمون منقادون له ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: تركوا ما دعوتهم إليه ﴿فَقُلْ أَذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: أعلمتكم أنني حرب لكم، كما أنكم حرب لي، برىء منكم كما أنكم برآء مني، كقوله: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِنَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] وقال: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] أي: ليكن علمك وعلمهم بنيد اليهود على السواء، وهكذا ها هنا ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ أَذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: أعلمتكم ببراءتي منكم، وبراءتكم مني؛ لعلمي بذلك.

وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي: هو واقع لا محالة، ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ أي: إن الله يعلم الغيب جميعه، ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون، يعلم الظواهر والضمائر، ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون في أجهارهم وأسرارهم، وسيجزئهم على ذلك، على القليل والجليل. وقوله: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: وما أدري لعل هذا فتنة لكم ومنع إلى حين، قال ابن جرير: لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم، ومنع إلى أجل مسمى. وحكاه عون، عن ابن عباس، والله أعلم. ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ أي: افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق، قال قتادة: كان الأنبياء، عليهم السلام، يقولون: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: على ما يقولون ويفترون من الكذب، ويتنوعون في مقامات التكذيب والإفك، والله المستعان عليكم في ذلك.

تفسير سورة الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾

ربع

يقول تعالى أمرا عباده بتقواه، ومخبرا لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها. وقد اختلف المفسرون في زلزلة الساعة: هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة؟ أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجدانهم؟ كما قال تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة: ١ ، ٢]، وقال تعالى: ﴿ وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَذُكَّتَا ذَكَّةً وَاحِدَةً . فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ [الحاقة: ١٤ ، ١٥]، وقال تعالى: ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا . وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴾ [الواقعة: ٤ ، ٥]. فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا، وأول أحوال الساعة. وقال ابن جرير: عن علقمة في قوله: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾، قال: قبل الساعة.

وقال الشعبي: هذا في الدنيا قبل يوم القيامة. وقد أورد ابن جرير مُسْتَنَدَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ فِي حَدِيثِ الصُّورِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا فَرَّغَ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ خَلَقَ الصُّورَ، فَأَعْطَاهُ إِسْرَافِيلَ، فَهُوَ وَاضِعُهُ عَلَىٰ فِيهِ، شَاحِصٌ بِبَصَرِهِ إِلَى الْعَرْشِ، يَنْتَظِرُ مَتَى يَوْمُهُ». [وفيه]: « يَأْمُرُ اللَّهُ إِسْرَافِيلَ بِالنَّفْخَةِ الْأُولَى فَيَقُولُ: انْفِخْ نَفْخَةَ الْفَرْعِ . فَيَفْرَعُ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَأَهْلَ الْأَرْضِ، إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، وَيَأْمُرُهُ فِيمَدَاهَا وَيَطْوِلُهَا وَلَا يَفْتَرُ، وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مِمَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ [ص: ١٥] فَيَسِيرُ اللَّهُ الْجِبَالَ، فَتَكُونُ سَرَابًا وَتُرْجُ الْأَرْضُ بِأَهْلِهَا رَجًا، وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتَّبِعُنَّهَا الرَّادِفَةُ . قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ [النازعات: ٦-٨] قال أبو هريرة: فمن استثنى الله حين يقول: ﴿ فَفَرِّعْ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ [النمل: ٨٧]؟ قال: أولئك الشهداء، وإنما يصل الفرع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون، وقاهم الله شر ذلك اليوم وآمنهم، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه، وهو الذي يقول الله: ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (١). والغرض منه: أنه دل على أن هذه الزلزلة كائنة قبل يوم الساعة، وأضيفت إلى

(١) تقدم الحديث وتخريجه عند الآية (٧٣) من سورة الأنعام .

الساعة لقربها منها، كما يقال: أشرط الساعة، ونحو ذلك، والله أعلم.

وقال آخرون: بل ذلك هول وفرع وزلزال وبلبال، كائن يوم القيامة فى العرصات، بعد القيام من القبور. واختار ذلك ابن جرير. واحتجوا بأحاديث: روى الإمام أحمد: عن عمران ابن حصين؛ أن رسول الله ﷺ قال وهو فى بعض أسفاره، وقد تفاوت بين أصحابه السير، رفع بهاتين الآيتين صوتة: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تُرَوَّنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۖ﴾، فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطى، وعرفوا أنه عند قول يقوله، فلما تأشهو حوله قال: «أتدرون أى يوم ذاك؟ يوم ينادى آدم، عليه السلام، فيناديه ربه عز وجل، فيقول: يا آدم، ابعث بعثك إلى النار فيقول: يارب، وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فى النار، وواحد فى الجنة». قال فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلما رأى ذلك قال: «أبشروا واعملوا، فالذى نفس محمد بيده، إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج، ومن هلك من بنى آدم وبنى إبليس» قال: فسرى عنهم، ثم قال: اعملوا وأبشروا، فالذى نفس محمد بيده، ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى جنب البعيرة، أو الرقمة فى ذراع الدابة». رواه الترمذى والنسائى . وقال الترمذى: حسن صحيح (١).

طريق أخرى لهذا الحديث: روى الترمذى عن عمران بن حصين؛ أن النبى ﷺ قال: لما نزلت: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾، قال: أنزلت عليه هذه، وهو فى سفر، فقال: «أتدرون أى يوم ذلك؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذلك يوم يقول الله لأدم: ابعث بعث النار. قال: يارب، وما بعث النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة» فأنشأ المسلمون يبيكون، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسددوا، فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية» قال: «فيؤخذ العدد من الجاهلية، فإن تمت وإلا كملت من المنافقين، وما مثلكم والامم إلا كمثل الرقمة فى ذراع الدابة، أو كالشامة فى جنب البعير» ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا» ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة» فكبروا، ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة» فكبروا، قال: ولا أدرى أقال الثلثين أم لا؟ ورواه الإمام أحمد، ثم قال الترمذى أيضا: هذا حديث حسن صحيح (٢).

وروى البخارى عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك. فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار. قال: يارب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف - أراه قال - تسعمائة وتسعة وتسعين. فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ﴾

(١) المسند (٤/٤٣٥) والترمذى (٣١٦٩) والنسائى فى الكبرى (١١٣٤٠).

(٢) الترمذى (٣١٦٨). وهو فى المسند (٤/٤٣٢).

عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿ فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم ، قال النبي ﷺ : « من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين ، ومنكم واحد ، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود ، وإنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة » . فكبرنا ، ثم قال : « ثلث أهل الجنة » . فكبرنا ، ثم قال : « شطر أهل الجنة » فكبرنا . وقد رواه مسلم ، والنسائي في تفسيره (١) .

وروى الإمام أحمد عن عائشة ، عن النبي ﷺ قال : « إنكم تحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلا » . قالت عائشة : يارسول الله ، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : « يا عائشة ، إن الأمر أشد من أن يهتمهم ذاك » . أخرجاه في الصحيحين (٢) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ أى : أمر كبير ، وخطب جليل ، وطارق مقطع ، وحادث هائل ، وكائن عجيب . والزلازل : هو ما يحصل للنفس من الفزع ، والرعب كما قال تعالى : ﴿ هَٰئِلِكِ ابْتَلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب : ١١] .

ثم قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا ﴾ : هذا من باب ضمير الشأن ؛ ولهذا قال مفسراً له : ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ أى : تشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها ، والتي هى أشفق الناس عليه ، تدهش عنه فى حال إرضاعها له ؛ ولهذا قال : ﴿ كُلُّ مُرْضِعَةٍ ﴾ ، ولم يقل : « مرضع » وقال : ﴿ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ أى : عن رضيعها قبل فطامه . ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ أى : قبل تمامه لشدة الهول ﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى ﴾ أى : من شدة الأمر الذى صاروا فيه قد دهشت عقولهم ، وغابت أذهانهم ، فمن رآهم حسب أنهم سُكَارَى ، ﴿ وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾
﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَآنَهُ يُضِلَّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾

يقول تعالى ذاماً لمن كذب بالبعث ، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى ، معرضاً عما أنزل الله على أنبيائه ، متبعاً فى قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مرید ، من الإنس والجن ، وهذا حال أهل الضلال والبدع ، المعرضين عن الحق ، المتبعين للباطل ، يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين ، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة ، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء ، ولهذا قال فى شأنهم وأشباههم : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أى : علم صحيح ﴿ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ . كُتِبَ عَلَيْهِ ﴿ قال مجاهد : يعنى الشيطان ، يعنى : كتب عليه كتابة قدرية ﴿ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ ﴾ أى : اتبعه وقلده ﴿ فَآنَهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ أى : يضلّه فى الدنيا ويقوده فى الآخرة إلى عذاب السعير ، وهو الحار المؤلم المزعج المقلق .

(١) البخارى (٣٣٤٨ ، ٤٧٤١ ، ٧٤٨٣) ومسلم (٣٧٩/٢٢٢) والنسائي فى الكبرى (١١٣٣٩) .

(٢) المسند (٥٣/٦) والبخارى (٦٥٢٧) ومسلم (٥٦/٢٨٥٩) .

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُسَبِّنَ لَكُمْ وَنُقَرِّرَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾

لما ذكر تعالى المخالف للبعث، المنكر للمعاد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد، بما يشاهد من بدئه للخلق، فقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أي: في شك ﴿مِنَ الْبَعْثِ﴾ وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تَرَابٍ﴾ أي: أصل برئه لكم من تراب، وهو الذي خلق منه آدم، عليه السلام ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي: ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾ وذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة، مكثت أربعين يوما كذلك، يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله، فتمكث كذلك أربعين يوما، ثم تستحيل فتصير مضغة - قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط - ثم يشرع في التشكيل والتخطيط، فيصور منها رأس ويدان، وصدر وبطن، وفخذان ورجلان، وسائر الأعضاء. فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي: كما تشاهدونها ﴿لِّنُسَبِّنَ لَكُمْ وَنُقَرِّرَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: وتارة تستقر في الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها، عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق -: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ليلة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات: بكتب عمله وأجله ورزقه، وشقى أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح»^(١). وروى ابن أبي حاتم عن حذيفة بن أسيد - يبلغ به النبي ﷺ - قال: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين، فيقول: أي رب، أشقى أم سعيد؟ فيقول الله، ويكتبان، فيقول: أذكر أم أنثى؟ فيقول الله ويكتبان، ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله، ثم تطوى الصحف، فلا يزال على ما فيها ولا يتقص». ورواه مسلم بنحو معناه^(٢).

وقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: ضعيفا في بدنه، وسمعه وبصره وحواسه، وبطشه وعقله. ثم يعطيه الله القوة شيئا فشيئا، ويلطفه، ويحزن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ أي: يتكامل القوى ويتزايد، ويصل إلى عنفوان الشباب

(٢) مسلم (٢/٢٦٤٤).

(١) البخارى (٦٥٩٤) ومسلم (١/٢٦٤٣).

وحسن المنظر ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَقَّى﴾ أى: فى حال شبابه وقواه ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُودُّ إِلَىٰ أَرْضِ الْعُمُرِ﴾، وهو الشيخوخة والهَرَمَ وضعف القوة والعقل والفهم، وتناقص الأحوال من الحَرْفَ وضعف الفكر؛ ولهذا قال: ﴿لَكَيْلًا يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْئًا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

وقوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾: هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، كما يحيى الأرض الميتة الهامدة، وهى القحلة التى لا نبت فيها ولا شىء ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أى: فإذا أنزل الله عليها المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ أى: تحركت وحييت بعد موتها ﴿وَرَبَّتْ﴾ أى: ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبت ما فيها من الألوان والفنون، من ثمار وزروع، وأشتات النباتات فى اختلاف ألوانها وطعومها، وروائحها وأشكالها ومنافعها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أى: حسن المنظر طيب الريح.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أى: الخالق المدبر الفعال لما يشاء ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [أى: كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٢٣٩]، ف ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أى: كائنة لا شك فيها ولا مرية ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أى: يعيدهم بعد ما صاروا فى قبورهم ربما، ويوجدتهم بعد العدم، كما قال تعالى: ﴿وَضُرْبٌ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ﴾ [يس: ٧٨ - ٨٠] والآيات فى هذا كثيرة. وروى الإمام أحمد عن أبى رزین العقيلى - واسمه لَقِيطُ بن عامر - أنه قال: يا رسول الله، أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة؟ وما آية ذلك فى خلقه؟ فقال رسول الله ﷺ: «اليس كلكم ينظر إلى القمر مخلصاً به؟» قلنا: بلى. قال: «فالله أعظم». قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيى الله الموتى، وما آية ذلك فى خلقه؟ قال: «أما مررت بوادى أهلِكَ ممحلاً» قال: بلى. قال: «ثم مررت به يهتز خضراً؟». قال: بلى. قال: «فكذلك يحيى الله الموتى، وذلك آيته فى خلقه». ورواه أبو داود وابن ماجه (١).

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ ثَانِي ﴿عَظِيمِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَمَّا فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ثَالِثٌ ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ﴾

لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلدين فى قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مُرِيدٍ﴾ ذكر فى هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾، أى: بلا عقل صحيح، ولا نقل

صريح ، بل بمجرد الرأى والهوى .

وقوله : ﴿ثَانِي عَظْمِهِ﴾ قال ابن عباس وغيره : مستكبراً عن الحق إذا دعى إليه ، وقال مجاهد ، وقتادة : لاوى عتقه ، وهى رقبته ، يعنى : يعرض عما يدعى إليه من الحق رقبته استكباراً ، كقوله تعالى : ﴿وَلِي مَوْسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات : ٣٨ ، ٣٩] ، وقال تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتِ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء : ٦١] ، وقال : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون : ٥] : وقال لقمان لابنه : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان : ١٨] أى : تميله عنهم استكباراً عليهم ، وقال تعالى : ﴿وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِ آيَاتِنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرْبًا مُبَشِّرًا بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [لقمان : ٧] . وقوله : ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال بعضهم : هذه لام العاقبة ؛ لأنه قد لا يقصد ذلك ، ويحتمل أن تكون لام التعليل . ثم إما أن يكون المراد بها المعاندين ، أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جبلناه على هذا الخلق الذى يجعله ممن يضل عن سبيل الله .

ثم قال تعالى : ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وهو الإهانة والذل ، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لَقَّاهُ اللهُ المذلة فى الدنيا ، وعاقبه فيها قبل الآخرة ؛ لأنها أكبر هممه ومبلغ علمه ﴿وَوَدَّيْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ . ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ﴾ أى : يقال له هذا تقريماً وتوبيخاً ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿خُدُودُهُمْ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ . ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان : ٤٧ - ٥٠] .

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لِمَن ضَرَّهُمْ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِمْ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَكَيْفَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾

قال مجاهد ، وقتادة ، وغيرهما : ﴿عَلَى حَرْفٍ﴾ : على شك ، وقال غيرهم : على طرف . ومنه حرف الجبل ، أى : طرفه ، أى : دخل فى الدين على طرف ، فإن وجد ما يحبه استقر ، وإلا انشمر . وروى البخارى عن ابن عباس قال : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ قال : كان الرجل يقدّم المدينة ، فإن ولدت امرأته غلاماً ، وتنجت خيله ، قال : هذا دين صالح . وإن لم تلد امرأته ، ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء (١) . وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كان ناس من الأعراب يأتون النبى ﷺ فيسلمون ، فإذا رجعوا إلى بلادهم ، فإن وجدوا عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن ، قالوا : «إن ديننا هذا لصالح ، فتمسكوا به» . وإن وجدوا عام جدوبة وعام ولاد

سوء وعام قحط، قالوا: «ما في ديننا هذا خير». فأنزل الله على نبيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ الآية. وهكذا ذكر قتادة، والضحاك، وابن جرير، وغير واحد من السلف، في تفسير هذه الآية. وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: هو المنافق، إن صلحت له دنياه أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت، انقلب فلا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه، فإن أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق، ترك دينه ورجع إلى الكفر. وقال مجاهد في قوله: ﴿انْقَلَبَ عَلَيَّ وَجْهِي﴾ أى: ارتد كافراً. وقوله: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ أى: فلا هو حصّل من الدنيا على شيء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أى: هذه هي الخسارة العظيمة، والصفقة الخاسرة.

وقوله: ﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ﴾ أى: من الأصنام والأنداد، يستغيث بها ويستنصرها ويستترزقها، وهى لا تنفعه ولا تضره ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البَعِيدُ. يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَفْعِهِ﴾ أى: ضرره فى الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما فى الآخرة فضرره محقق متيقن. وقوله: ﴿لَبِئْسَ المَوْلَى﴾ قال مجاهد: يعنى الوثن، يعنى: بشس هذا الذى دعا به من دون الله مولى، يعنى: ولياً وناصرأ، ﴿وَلَبِئْسَ العَشِيرُ﴾ وهو المخالط والمعاشر. واختار ابن جرير أن المراد: لبئس ابن العم والصاحب من يعبد الله على حرف، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَيَّ وَجْهِي﴾. وقول مجاهد: إن المراد به الوثن، أولى وأقرب إلى سياق الكلام، والله أعلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء، عطف بذكر الأبرار السعداء، من الذين آمنوا بقلوبهم، وصدقوا إيمانهم بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات، وتركوا المنكرات، فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات، فى روضات الجنات. ولما ذكر أنه أضل أولئك، وهدى هؤلاء، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَن لَّنْ يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ
ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهَبَ كَيْدُهُ مَا يَعْبُطُ﴾ ﴿١٥﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ ءَايَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ
وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾

قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصره الله محمداً ﷺ فى الدنيا والآخرة ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أى: بحبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ أى: سماء بيته ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ يقول: ثم ليختنق به. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وأبو الجوزاء، وقتادة، وغيرهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أى: ليتوصل إلى بلوغ السماء، فإن النصر إنما يأتى محمداً من

السماء، ﴿ثُمَّ لَيَقَطَعَنَّ﴾ ذلك عنه، إن قدر على ذلك .

وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى، وأبلغ في التهكم؛ فإن المعنى: من ظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه، إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]؛ ولهذا قال: ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيبُ﴾ قال السدي: معنى: من شأن محمد ﷺ، وقال عطاء الخراساني: فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ .

وقوله: ﴿وكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي: القرآن ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: واضحات في لفظها ومعناها، حجة من الله على الناس ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ أي: يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، وله الحكمة التامة والحجة القاطعة في ذلك، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الانبيا: ٢٣]، أما هو فلحكيمته ورحمته وعدله، وعلمه وقهره وعظمته، لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾
إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين، ومن سواهم من اليهود والصابئين - وقد قدمنا في سورة «البقرة» التعريف بهم، واختلاف الناس فيهم - والنصارى والمجوس، والذين أشركوا فعبدوا مع الله غيره؛ فإنه تعالى ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ويحكم بينهم بالعدل، فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به النار، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم، وما تكن ضمائرهم .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يَمُنْ بِاللَّهِ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿١٨﴾

سجدة

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً وسجود كل شيء مما يختص به، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَّبِعُهُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨] . وقال ها هنا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي: من الملائكة في أقطار السموات، والحيوانات في جميع الجهات، من الإنس والجن والدواب والطيور ﴿وَأَن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] .

وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾: إنما ذكر هذه على التنصيص؛ لأنها قد عُبِدت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي

خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]. وفي الصحيحين عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدري أين تذهب هذه الشمس؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت»^(١). وقال أبو العالية: ما فى السماء نجم ولا شمس ولا قمر، إلا يقع لله ساجداً حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعته.

وأما الجبال والشجر فسجودهما بقاء ظللتهما عن اليمين والشمال: وعن ابن عباس قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، إنى رأيتنى الليلة وأنا نائم، كأنى أصلى خلف شجرة، فسجدت فسجدت الشجرة لسجودى، فسمعتها وهي تقول: اللهم، اكتب لى بها عندك أجراً، وضع عنى بها وزراً، واجعلها لى عندك ذخراً، وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود. قال ابن عباس: فقرأ النبي ﷺ سجدة ثم سجد، فسمعتة وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة. رواه الترمذى، وابن ماجه، وابن حبان فى صحيحه^(٢).

وقوله: ﴿وَالدُّوَابُّ﴾ أى: الحيوانات كلها. وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ أى: يسجد لله طوعاً مختاراً متعبداً بذلك، ﴿وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أى: ممن امتنع وأبى واستكبر ﴿وَمَنْ يَهِنُ اللَّهُ فَعَمَلُهُ مِن مَّكْرَمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ قيل لعلى: إن ها هنا رجلاً يتكلم فى المشيئة. فقال له على: يا عبد الله، خلقت الله كما يشاء أو كما شئت؟ قال: بل كما شاء. قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء؟ قال: بل حيث يشاء. قال: والله لو قلت غير ذلك لضربت الذى فيه عينك بالسيف. وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكى يقول: يا ويله. أمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت، فلى النار» رواه مسلم^(٣).

﴿هَذَا خِصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١١﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿١٢﴾ وَهُمْ مَقْلَعُونَ مِّن حَدِيدٍ ﴿١٣﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٤﴾﴾

ثبت فى الصحيحين عن أبى ذر؛ أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية: ﴿هَذَا خِصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ نزلت فى حمزة وصاحبيه، وعتبة وصاحبيه، يوم برزوا فى بدر^(٤) - لفظ البخارى عند تفسيرها، ثم روى البخارى عن على بن أبى طالب أنه قال: أنا أول من يجتو بين يدى الرحمن

(١) البخارى (٤٨٠٣) ومسلم (٢٥٠/١٥٩).

(٢) الترمذى (٥٧٩) وابن ماجه (١٠٥٣) وابن حبان (٦٩١ موارد).

(٣) مسلم (١٣٣/٨١). (٤) البخارى (٤٧٤٣) ومسلم (٣٣٠٣٣/٣٤).

للخصومة يوم القيامة. قال قيس: وفيهم نزلت: ﴿هَذَا نِ حَصْمَانِ اِحْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾، قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: على وحمزة وعبيدة، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. انفرد به البخارى^(١). وقال مجاهد فى هذه الآية: مثل الكافر والمؤمن اختصما فى البعث. وقال - فى رواية: هو وعطاء فى هذه الآية - هم المؤمنون والكافرون. وقول مجاهد وعطاء: إن المراد بهذا الكافرون والمؤمنون، يشمل الأقوال كلها، ويتنظم فى قصة يوم بدر وغيرها؛ فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلان الحق وظهور الباطل. وهذا اختيار ابن جرير، وهو حسن؛ ولهذا قال: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ﴾ أى: فصلت لهم مقطعات من نار. قال سعيد بن جبيرة: من نحاس وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمى.

﴿يُصَّبُ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ. يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ أى: إذا صب على رؤوسهم الحميم، وهو الماء الحار فى غاية الحرارة. وقال سعيد بن جبيرة: هو النحاس المذاب، أذاب ما فى بطونهم من الشحم والأمعاء. قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وغيرهم. وكذلك تذوب جلودهم. وسعيد: تساقط. وروى ابن جرير عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «إن الحميم ليُصب على رؤوسهم، فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت ما فى جوفه، حتى يبلغ قدميه، وهو الصهر، ثم يعاد كما كان». ورواه الترمذى، وقال: حسن صحيح^(٢).

وقوله: ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ﴾ وقال ابن عباس يضربون بها، فيقع كل عضو على حياله، فيدعون بالشبور.

وقوله: ﴿كَلِمًا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ قال سلمان: النار سوداء مظلمة، لا يضىء لها ولا جمرها، ثم قرأ: ﴿كَلِمًا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾. وقال الفضيل بن عياض: والله ما طمعوا فى الخروج، إن الأرجل لمقيدة، وإن الأيدي لموثقة، ولكن يرفعهم لها، وتردهم مقامعها. وقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ كقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠] ومعنى الكلام: أنهم يهانون بالعذاب قولاً وفعلاً.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُكَلِّمُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿١٢﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴿١٣﴾﴾

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار، عياداً بالله من حالهم، وما هم فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال، وما أعد لهم من الثياب من النار، ذكر حال أهل الجنة - نسأل الله من فضله وكرمه أن يدخلنا الجنة - فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

(١) البخارى (٤٧٤٤).

(٢) الطبرى (١٧/١٠٠) والترمذى (٢٥٨٢) وقال: «حسن صحيح غريب».

الأنهار ﴿ أى: تتخرق فى أكنافها وأرجائها وجوانبها، وتحت أشجارها وقصورها، يصرفونها حيث شاؤوا وأين أرادوا ﴾ **يُحَلُونَ فِيهَا** ﴿ من الحلية ﴾ **مِنَ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا** ﴿ أى: فى أيديهم، كما قال النبى ﷺ : **«تبلغ الحليّة من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»** (١). وقوله: **﴿وَلِبَاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾** فى مقابلة ثياب أهل النار التى فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير، إستبرقه وسننسه، كما قال: **﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾** [الإنسان: ٢١، ٢٢]، وفى الصحيح: **«لا تلبسوا الحرير ولا الديقاج فى الدنيا، فإنه من لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة»** (٢).

وقوله: **﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾**، كقوله: **﴿وَأَدْخِلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾** [إبراهيم: ٢٣]، وقوله: **﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾** [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقوله: **﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾** [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، فهدوا إلى المكان الذى يسمعون فيه الكلام الطيب، **﴿وَيُلْقُونَ فِيهَا تَحيَةً وَسَلَامًا﴾** [الفرقان: ٧٥]، لا كما يهان أهل النار بالكلام الذى يروعون به ويقرعون به، يقال لهم: **﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾**.

وقوله: **﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾** أى: إلى المكان الذى يحمدون فيه ربهم، على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسدها إليهم، كما جاء فى الصحيح: **«إنهم يلهمون التسيح والتحميد، كما يلهمون النفس»** (٣). وقد قال بعض المفسرين فى قوله: **﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾** أى: القرآن. وقيل: لا إله إلا الله. وقيل: الأذكار المشروعة، **﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾** أى: الطريق المستقيم فى الدنيا. وكل هذا لا ينافى ما ذكرناه، والله أعلم.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكْمِ يُظَلَمِ نُذُوقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾

يقول تعالى منكرأ على الكفار فى صدّهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام، وقضاء مناسكهم فيه: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾** أى: ومن صفتهم مع كفرهم أنهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام، أى: ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به فى نفس الأمر.

وقوله: **﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾** أى: يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله شرعاً سواء، لا فرق فيه بين المقيم فيه والناتى عنه البعيد الدار منه، **﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾** ومن ذلك استواء الناس فى رباح مكة وسكناها، كما قال ابن عباس فى

(٢) البخارى (٥٤٢٦) ومسلم (٤/٢٠٦٧).

(١) مسلم (٤٠/٢٥٠).

(٣) مسلم (١٨/٢٨٣٥).

قوله: ﴿سَوَاءُ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ قال: ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام. وقال مجاهد: ﴿سَوَاءُ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾: أهل مكة وغيرهم فيه سواء في المنازل. وكذا قال أبو صالح، وعبد الرحمن بن سابط، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وقال قتادة: سواء فيه أهله وغير أهله. وهذه المسألة اختلف فيها الشافعي وإسحاق بن راهويه بمسجد الخيف، وأحمد بن حنبل حاضر أيضاً، فذهب الشافعي إلى أن رباع مكة تملك وتورث وتؤجر، وبه قال طاوس، وعمرو بن دينار. وذهب إسحاق بن راهويه إلا أنها تورث ولا تؤجر. وهو مذهب طائفة من السلف، ونص عليه مجاهد وعطاء. وتوسط الإمام أحمد فقال: تملك وتورث ولا تؤجر، جمعاً بين الأدلة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُؤَدِّ فِيهِ بِالْحَادِ يَظْلَمُ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾: ﴿يَظْلَمُ﴾ أى: عامداً قاصداً أنه ظلم ليس بمتأول. قال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَظْلَمُ﴾: بشرك، وقال مجاهد: أن يعبد فيه غير الله. وكذا قال قتادة، وغير واحد، وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿يَظْلَمُ﴾: هو أن تستحل من الحرام ما حرم الله عليك من لسان أو قتل، فتظلم من لا يظلمك، وتقتل من لا يقتلك، فإذا فعل ذلك فقد وجب له العذاب الأليم. وقال سعيد بن جبيرة: شتم الخادم ظلم فما فوقه. وهذه الآثار، وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكن هو أعم من ذلك، بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها، ولهذا لما هم أصحاب القيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ﴿تُرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٤، ٥]، أى: دمرهم

وجعلهم عبرة ونكالا لكل من أراد به سوء؛ ولذلك ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «يغزو هذا البيت جيش، حتى إذا كانوا ببداء من الأرض خسف بأولهم وآخرهم» الحديث (١). وروى الإمام أحمد عن إسحاق بن سعيد، عن أبيه قال: أتى عبد الله بن عمر عبد الله بن الزبير، فقال: يا بن الزبير، إياك والإلحاد فى حرم الله، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيلحد فيه رجل من قريش، لو توزن ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت»، فانظر لا تكن هو (٢). وروى أيضاً عن سعيد بن عمرو قال: أتى عبد الله بن عمرو بن الزبير، وهو جالس فى الحجر فقال: يا بن الزبير، إياك والإلحاد فى الحرم، فإني أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «يلحها ويحل به رجل من قريش، ولو وزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها». قال: فانظر لا تكن هو (٣).

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١١﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿١٢﴾﴾

هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله، وأشرك به من قريش، فى البقعة التى أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت،

(١) البخارى (٢١١٨) .

(٢) المسند (٦٢٠٠) وقال الشيخ أحمد شاکر : «إسناده صحيح على علة فيه» .

(٣) المسند (٧٠٤٣) وقال الشيخ أحمد شاکر : «إسناده صحيح» .

أى: أرشده إليه، وسلمه له، وأذن له فى بنائه. واستدل به كثير من قال: «إن إبراهيم، عليه السلام، هو أول من بنى البيت العتيق، وأنه لم يبن قبله»، كما ثبت فى الصحيح عن أبى ذر قلت: يا رسول الله، أى مسجد وُضع أول؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أى؟ قال: «بيت المقدس». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة» (١).

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]. وقد قدمنا ذكر ما ورد فى بناء البيت من الصحاح والآثار، بما أغنى عن إعادته هاهنا (٢). وقال تعالى هاهنا: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي﴾ أى: ابنه على اسمى وحدى ﴿وَوَطَّهَّرْ بَيْتِي﴾ قال مجاهد وقتادة: من الشرك ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أى: اجعله خالصا لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، فالطائف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها، ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ أى: فى الصلاة؛ ولهذا قال: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، فقرن الطواف بالصلاة؛ لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف عنده، والصلاة إليه فى غالب الأحوال، إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة وفى الحرب، وفى النافلة فى السفر، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أى: ناد فى الناس داعيا لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذى أمرناك ببنائه. فذكر أنه قال: يارب، وكيف أبلغ الناس وصوتى لا ينفذهم؟ قيل: ناد وعلينا البلاغ. فقام على مقامه، وقيل: على الحجر، وقيل: على الصفا، وقيل: على أبى قُبَيْس، وقال: يأبها الناس، إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمع من فى الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شىء سمعه من حَجَرٍ ومَدَرٍ وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة: «لييك اللهم لييك». هذا مضمون ما روى عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وغير واحد من السلف، والله أعلم.

وقوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ الآية: قد يستدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشيا، لمن قدر عليه، أفضل من الحج راكبا؛ لأنه قدمهم فى الذكر، فدل على الاهتمام بهم وقوة همهم وشدة عزمهم، والذى عليه الأكثرون أن الحج راكبا أفضل؛ اقتداء برسول الله ﷺ، فإنه حج راكبا مع كمال قوته، عليه السلام. وقوله: ﴿يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَنِي﴾ أى: طريق، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سِيلًا﴾ [الانبيا: ٣١]. وقوله: ﴿عَمِيقٍ﴾ أى: بعيد. قاله مجاهد، وعطاء، وغير واحد. وهذه الآية كقوله تعالى إخبارا عن إبراهيم، حيث قال فى دعائه: ﴿فَأَجْعَلْ أُمَّتِي مِن النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار.

﴿ لِشَهْدُوا مَنْفَعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ
مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ
وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾

قال ابن عباس: ﴿لِشَهْدُوا مَنْفَعَ لَهُمْ﴾ قال: منافع الدنيا والآخرة؛ أما منافع الآخرة فرضوان تعالى الله، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والذبائح والتجارات. وكذا قال مجاهد، وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة، كقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ قال ابن عباس: الأيام المعلومات: أيام العشر، وروى مثله عن أبي موسى الأشعري، ومجاهد، وعطاء، وسعيد ابن جبير، وهو مذهب الشافعي، والمشهور عن أحمد بن حنبل. وروى البخاري عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل، يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء» (١). وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة الذي ثبت في صحيح مسلم عن أبي قتادة قال: سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة، فقال: «أحسب على الله أن يكفر السنة الماضية والآتية» (٢). ويشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر، وقد ورد في حديث أنه أفضل الأيام عند الله (٣). وبالجملة: فهذا العشر قد قيل: إنه أفضل أيام السنة، كما نطق به الحديث، ففضله كثير على عشر رمضان الأخير؛ لأن هذا يشرع فيه ما يشرع في ذلك، من صيام وصلاة وصدقة وغيره، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه. وقيل: ذاك أفضل لاشتماله على ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر. وتوسط آخرون فقالوا: أيام هذا أفضل، وليالي ذاك أفضل. وبهذا يجتمع شمل الأدلة، والله أعلم.

قول ثان في الأيام المعلومات: قال ابن عباس: الأيام المعلومات: يوم النحر وثلاثة أيام بعده. ويروى هذا عن ابن عمر، وإبراهيم النخعي، وإليه ذهب أحمد بن حنبل في رواية عنه. قول ثالث: أن ابن عمر كان يقول: الأيام المعلومات والمعدودات هن جميعهن أربعة أيام، فالأيام المعلومات يوم النحر ويومان بعده، والأيام المعدودات ثلاثة أيام بعد يوم النحر. هذا إسناد صحيح إليه، وقاله السدي: وهو مذهب الإمام مالك بن أنس، ويعضد هذا القول والذي قبله قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ يعني به: ذكر الله عند ذبحها.

قول رابع: إنها يوم عرفة، ويوم النحر، ويوم آخر بعده. وهو مذهب أبي حنيفة.

(٢) مسلم (١١٦٢/١٩٧).

(١) البخاري (٩٦٩).

(٣) المسند (٣٥٠/٤) وأبو داود (١٧٦٥)، وصححه الألباني.

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ يعنى: الإبل والبقر والغنم، كما فصلها تعالى في سورة الأنعام وأنها ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ الآية [الأنعام: ١٤٣] . وقوله ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ استدل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب الأكل من الأضاحى وهو قول غريب، والذي عليه الأكثرون أنه من باب الرخصة أو الاستحباب، كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ، فأكل من لحمها، وحسا من مرقها (١). قال مالك: أحب أن يأكل من أضحيته؛ لأن الله يقول: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ : قال ابن وهب: وسألت الليث، فقال لى مثل ذلك . وقال مجاهد فى قوله ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ : هى كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢٠]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]. وهذا اختيار ابن جرير فى تفسيره، واستدل من نصر القول بأن الأضاحى يتصدق منها بالنصف بقوله فى هذه الآية: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ فجزأها نصفين: نصف للمضحى، ونصف للفقراء. والقول الآخر: أنها تجزأ ثلاثة أجزاء: ثلث له، وثلث يهديه، وثلث يتصدق به؛ لقوله تعالى فى الآية الأخرى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦] وسيأتى الكلام عليها عندها، إن شاء الله، وبه الثقة.

وقوله: ﴿الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ قال عكرمة: هو المضطر الذى عليه البؤس، والفقير المتعفف. وقال مجاهد: هو الذى لا ييسط يده. وقال قتادة: هو الزمّن. وقال مقاتل بن حيان: هو الضرير. وقوله: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال ابن عباس: هو وضع الإحرام، من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظفار، ونحو ذلك. وهكذا روى عطاء ومجاهد، عنه. وكذا قال عكرمة، ومحمد بن كعب القرظى. وقال عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال: التفت: المناسك. وقوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال ابن عباس: يعنى: نحر ما نذر من أمر البدن. وقال مجاهد: نذر الحج والهدى وما نذر الإنسان من شىء يكون فى الحج. وقال عكرمة: حجهم.

وقوله: ﴿وَلْيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ : قال مجاهد: يعنى: الطواف الواجب يوم النحر. قلت: وهكذا صنع رسول الله ﷺ، فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ يرمى الجمرة، فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه، وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت. وفى الصحيح عن ابن عباس أنه قال: أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض (٢).

وقوله: ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾: فيه مستدل لمن ذهب إلى أنه يجب الطواف من وراء الحجر؛ لأنه من أصل البيت الذى بناه إبراهيم، وإن كانت قريش قد أخرجه من البيت، حين قصرت بهم النفقة؛ ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحجر، وأخبر أن الحجر من البيت، ولم يستلم الركبتين الشاميين؛ لأنهما لم يتمما على قواعد إبراهيم العتيقة. وعن عكرمة أنه قال: إنما سُمى البيت العتيق؛ لأنه أعتق يوم الغرق زمان نوح. وقال خصيف: إنما سُمى البيت العتيق؛ لأنه لم

(١) مسلم (١٢١٨ / ١٤٧) .

(٢) البخارى (٣٢٩) ومسلم (١٣٢٨ / ٣٨٠) .

يظهر عليه جبار قط . وقال مجاهد: أعتق من الجبارة أن يسلطوا عليه . وكذا قال قتادة .

﴿ ذَلِكُمْ وَمَنْ يُعْظِمَ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ
الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ
الزُّورِ ﴿١٠﴾ حَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَفَطَهُ
الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿١١﴾ ﴾

يقول تعالى: هذا الذي أمرنا به من الطاعات في أداء المناسك، وما لفاعلها من الثواب الجزيل ﴿وَمَنْ يُعْظِمَ حُرْمَاتِ اللَّهِ﴾ أى: ومن يجتنب معاصيه ومحارمه ويكون ارتكابها عظيما فى نفسه ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أى: فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل، فكما على فعل الطاعات ثواب كثير وأجر جزيل، كذلك على ترك المحرمات واجتناب المحظورات. قال مجاهد الحرمة: مكة والحج والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها. وكذا قال ابن زيد.

وقوله: ﴿وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أى: أحللنا لكم جميع الأنعام، وما جعل الله من بحيرة، ولا سائبة، ولا وصيلة، ولا حام. وقوله: ﴿إِلَّا مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أى: من تحريم ﴿الْمَيْتَةِ وَالْدَّمِ وَلَحْمِ الْخِنزِيرِ وَمَا أِهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ﴾ الآية [المائدة: ٣]، قال ذلك ابن جرير، وحكاه عن قتادة.

وقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾: «من» هاهنا لبيان الجنس، أى: اجتنبوا الرجس الذى هو الأوثان. وقرن الشرك بالله بقول الزور، كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَإِثْمَ وَالْبَغْيِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الاعراف: ٣٣]، ومنه شهادة الزور. وفى الصحيحين عن أبى بكر، أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى، يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين» وكان متكئا فجلس، فقال: - «ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور». فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت (١). وقوله: ﴿حَفَاءَ لِلَّهِ﴾ أى: مخلصين له الدين، منحرفين عن الباطل قصدا إلى الحق؛ ولهذا قال ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾.

ثم ضرب للمشرك مثلا فى ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى فقال: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أى: سقط منها، ﴿فَتَخَفَطَهُ الطَّيْرُ﴾ أى: تقطعه الطيور فى الهواء ﴿أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أى: بعيد مهلك لمن هوى فيه؛ ولهذا جاء فى حديث البراء: «إن الكافر إذا توفته ملائكة الموت، وصعدوا بروحه إلى السماء، فلا تفتح له أبواب السماء، بل تطرح روحه طرعا من هناك». ثم قرأ هذه الآية، وقد تقدم الحديث فى سورة «إبراهيم» بحروفه وألفاظه وطرقه (٢).

(١) البخارى (٢٦٥٤) ومسلم (٨٧ / ١٤٣) .

(٢) وذلك عند الآية رقم (٢٧) .

وقد ضرب تعالى للمشرك مثلاً آخر في سورة «الأنعام»، وهو قوله: ﴿قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ امْتَثِلْ لَنْ هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ الآية [الأنعام: ٧١].

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ﴿٢١﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى: هذا ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ أى: أوامره ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن، كما قال ابن عباس: تعظيمها: استسمانها واستحسانها. وقال أبو أمامة ابن سهل: كنا نسمن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يُسمنون. رواه البخارى (١).

وعن أبي سعيد: أن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن فحليل يأكل فى سواد، وينظر فى سواد، ويمشى فى سواد. رواه أهل السنن، وصححه الترمذى (٢)، أى: بكبش أسود فى هذه الأماكن. وعن على، قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن، وألا نضحى بمقابلة، ولا مدابرة، ولا شرقاء، ولا خرقاء. رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذى (٣). وأما المقابلة: فهى التى قطع مقدم أذنها، والمدابرة: من مؤخر أذنها. والشرقاء: هى التى قطعت أذنها طولاً. والخرقاء: هى التى خرقت السمة أذنها خرقاً مدوراً، والله أعلم. وعن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع لا تجوز فى الأضاحى: العوراء البين عورها، والمريضة البين مرصها، والعرجاء البين ظلعاها، والكسيرة التى لا تنقى». رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذى (٤). وهذه العيوب تنقص اللحم، لضعفها وعجزها عن استكمال الرعى؛ لأن الشاء يسبقونها إلى المرعى، فلهدا لا تجزئ التضحية بها عند الشافعى وغيره من الأئمة، كما هو ظاهر الحديث. واختلف قول الشافعى فى المريضة مرضاً يسيراً، على قولين. وقال ابن عباس: البدن من شعائر الله. وقال ابن عمر: أعظم الشعائر البيت. وقوله: «لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أى: لكم فى البدن منافع، من لبنها، وصوفها وأوبارها وأشعارها، وركوبها «إلى أجل مسمى» قال ابن عباس: ما لم يسم بدناً. وقال آخرون: بل له أن ينتفع بها وإن كانت هدياً، إذا احتاج إلى ذلك، كما ثبت فى الصحيحين عن أنس: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة، قال: «اركبها». قال: إنها بدنة. قال: «اركبها، ويحك»، فى الثانية أو الثالثة. وفى رواية لمسلم، عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اركبها بالمعروف إذا ألجئت إليها» (٥).

(١) البخارى (١٠ / ١١ فتح) معلقاً. وفى المطبوعة: «أبو أمامة عن سهل» وهو خطأ.

(٢) أبو داود (٢٧٩٦) والترمذى (١٤٩٦) وابن ماجه (٣١٢٨).

(٣) المسند (١ / ٨٠) وأبو داود (٢٨٠٤) والترمذى (١٤٩٨).

(٤) المسند (٤ / ٢٨٤) والترمذى (١٤٩٧).

(٥) البخارى (١٦٩٠) ومسلم (١٣٢٤ / ٣٧٥).

وقوله: ﴿ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أى: محل الهدى وانتهاهؤه إلى البيت العتيق، وهو الكعبة، كما قال تعالى: ﴿هُدًى بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال ﴿وَالْهُدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ﴾ [الفتح: ٢٥]. وقد تقدم الكلام على معنى «البيت العتيق» قريبا (١). وقال ابن عباس: كل من طاف بالبيت، فقد حل، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِنَّهُمْ كَانُوا إِلَى اللَّهِ وَجِدًّا ۗ فَلَهُمْ أَسْلَامٌ أُبَيِّرُ الْمُخْبِتِينَ ﴿٢٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل. قال ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ قال: عيداً. وقال عكرمة: ذبحاً. ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين، فسَمَى وكبر، ووضع رجله على صِفَاحِهما (٢).

وقوله: ﴿فَالَهُمْ اللَّهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلَمُوا﴾ أى: معبودكم واحد، وإن تَوَعَّت شرائع الأنبياء ونَسَخ بعضها بعضاً، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده، لا شريك له ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ولهذا قال: ﴿فَلَهُ أَسْلَمُوا﴾ أى: اخلصوا واستسلموا لحكمه وطاعته. ﴿وَأُبَيِّرُ الْمُخْبِتِينَ﴾ قال مجاهد: المطمئنين، وقال الضحاک، وقاتدة: المتواضعين، وقال السدى: الوجلين. وأحسن ما يفسر بما بعده وهو قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ﴾ أى: خافت منه قلوبهم، ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ أى: من المصابين «وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ أى: المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أى: وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهلهم وأرقاتهم وقرباتهم، وفقرائهم ومحاوليهم، ويحسنون إلى خلق الله مع محافظتهم على حدود الله.

﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعْتِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعمُوا الْقَانِعَ وَالْمَعْتَرَّ ۚ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يقول تعالى ممتنا على عبده فيما خلق لهم من البدن، وجعلها من شعائره، وهو أنه جعلها تهدي إلى بيته الحرام، بل هي أفضل ما يهدى إليه، كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهُدَىٰ وَلَا الْقَلَائِدَ [وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ]﴾ الآية: [المائدة: ٢]. قال عطاء:

(١) عند الآية (٢٩) من هذه السورة .

(٢) سبق تخريجه عند الآيتين (٣٢ ، ٣٤) من هذه السورة .

﴿وَأَبْدَنُ﴾: البقرة، والبعير. وكذا روى عن ابن عمر، وسعيد بن المسيب، والحسن البصرى. وقال مجاهد: إنما البدن من الإبل. قلت: أما إطلاق البدنة على البعير فمتفق عليه، واختلفوا فى صحة إطلاق البدنة على البقرة، على قولين، أصحهما أنه يطلق عليها ذلك ثم جمهور العلماء على أنه تُجزئ البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة، كما ثبت به الحديث عند مسلم من رواية جابر بن عبد الله قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك فى الأضاحى، البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة^(١).

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾، أى: ثواب فى الدار الآخرة. وعن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحبَّ إلى الله من هراقه دم، وإنه ليأتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان، قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا بها نفساً». رواه ابن ماجه، والترمذى وحسنه^(٢). وقال مجاهد: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ قال: أجر ومنافع. وقال إبراهيم النخعي: يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها.

وقوله: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ﴾: عن جابر بن عبد الله قال: صليتُ مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه، فقال: «باسم الله والله أكبر، اللهم هذا عنى وعن من لم يُضحَّ من أمتى». رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى^(٣). وروى ابن إسحاق عن جابر قال: ضحى رسول الله ﷺ بكبشين فى يوم عيد، فقال حين وجههما: «وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً، وما أنا من المشركين، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين. لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين، اللهم منك ولك، وعن محمد وأمه». ثم سُمى الله وكبر وذبح^(٤).

وقال ابن عباس: ﴿صَوَافٍ﴾: قياماً على ثلاث قوائم، معقولة يدها اليسرى، يقول: «باسم الله والله أكبر، اللهم منك ولك». وفى الصحيحين عن ابن عمر: أنه أتى على رجل قد أناخ بدنته وهو ينحرها، فقال: ابعتها قياماً مقيدة سنة أبى القاسم ﷺ^(٥). وفى صحيح مسلم، عن جابر، فى صفة حجة الوداع، قال فيه: فنحر رسول الله ﷺ بيده ثلاثاً وستين بدنة، جعل يطعنُها بحربة فى يده^(٦). وقال ابن مسعود: «صوافن»، أى: مُعقَّلة قياماً. وقال سفيان الثورى، عن منصور، عن مجاهد: مَنْ قرأها «صوافن» قال: معقولة. ومن قرأها «صَوَافٍ»، قال: تصف بين يديها.

وقوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ قال مجاهد: يعنى: سقطت إلى الأرض. وهو رواية عن ابن عباس، وكذا قال مقاتل. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يعنى:

(١) مسلم (١٣١٨ / ٣٥٠) .

(٢) المسند (٣ / ٣٥٦) وأبو داود (٢٨١٠) والترمذى (١٥٢١) .

(٤) تقدم تخريجه عند الآية (١٦٢) من سورة الأنعام .

(٥) البخارى (١٧١٣) ومسلم (١٣٢٠ / ٣٥٨) .

(٦) مسلم (١٢١٨ / ١٤٧) .

ماتت. وهذا القول هو مرادُ ابن عباس ومجاهد، فإنه لا يجوز الأكل من البدن إذا نُحرت حتى تموت وتبرّد حركتها. وقد جاء فى صحيح مسلم: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليُحدَّ أحدكم شفرته، وليُريحَ ذبيحته»^(١). وعن أبيه وأقد الليثى قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قطع من البهيمة وهى حية، فهو ميتة». رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى وصححه^(٢).

وقوله: «فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ» قال بعض السلف: قوله: «فَكُلُوا مِنْهَا» أمر بإباحة. وقال مالك: يستحب ذلك. وقال غيره: يجب. وهو وجه لبعض الشافعية.

واختلف فى المراد بالقانع والمعتر، فقال ابن عباس: القانع: المستغنى بما أعطيته، وهو فى بيته. والمعتر: الذى يتعرض لك، ويُلِمُّ بك أن تعطيه من اللحم، ولا يسأل. وكذا قال مجاهد، ومحمد بن كعب القرظى. عن ابن عباس: القانع: المتعفف. والمعتر: السائل. وهذا قول قتادة، وإبراهيم النخعى. وقال ابن عباس، وزيد بن أسلم وعكرمة، والحسن البصرى، وابن الكلبي، ومقاتل بن حيان، ومالك ابن أنس: القانع: هو الذى يَقْنَعُ إليك ويسألك. والمعتر: الذى يعتريك، يتضرع ولا يسألك. وهذا لفظ الحسن. وقال سعيد بن جبير: القانع: هو السائل، وقال زيد بن أسلم: القانع: المسكين الذى يطوف. والمعتر: الصديق والضعيف الذى يزور. وعن مجاهد: القانع: جارك الغنى الذى يبصر ما يدخل بيتك. والمعتر: الذى يعتريك من الناس. وعنه: أن القانع: هو الطامع. والمعتر: هو الذى يَعْتَرُّ بالبدن من غنى أو فقير. واختار ابن جرير أن القانع: هو السائل؛ لأنه من أفتح بيده إذا رفعها للسؤال، والمعتر من الاعتزار، وهو: الذى يتعرض لأكل اللحم.

وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تُجزأ ثلاثة أجزاء: فثلث لصاحبها يأكله منها، وثلث يهديه لأصحابه، وثلث يتصدق به على الفقراء؛ لأنه تعالى قال: «فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ». والقول الثانى: أن المضحى يأكل النصف ويتصدق بالنصف، لقوله فى الآية المتقدمة: «فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ» [الحج: ٢٨]. فإن أكل الكل فقيل: لا يضمن شيئا. وبه قال ابن سريج من الشافعية. وقال بعضهم: يضمنها كلها بمثلها أو قيمتها. وقيل: يضمن نصفها. وقيل: ثلثها. وقيل: أدنى جزء منها. وهو المشهور من مذهب الشافعى.

وأما الجلود، ففى مسند أحمد عن قتادة بن النعمان فى حديث الأضحى: «فكلوا وتصدقوا، واستمتعوا بجلودها، ولا تبيعوها»^(٣). ومن العلماء من رخص فى ذلك، ومنهم من قال: يقاسم الفقراء ثمنها، والله أعلم.

(١) مسلم (١٩٥٥ / ٥٧).

(٢) المسند (٥ / ٢١٨) وأبو داود (٢٨٥٨) والترمذى (١٤٨٠).

(٣) المسند (٤ / ١٥) وقال الهيثمى فى الزوائد (٤ / ٢٩): «وهو مرسل صحيح».

مسألة:

عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما نبدأ به فى يومنا هذا أن نصلى، ثم نرجع فننحر. فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم لأهله، ليس هو من النسك فى شيء» أخرجاه (١). فلهذا قال الشافعى وجماعة من العلماء: إن أول وقت الأضحى إذا طلعت الشمس يوم النحر، ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين. زاد أحمد: وأن يذبح الإمام بعد ذلك، لما جاء فى صحيح مسلم: «وَأَلَا تَذْبَحُوا حَتَّى يَذْبَحَ الْإِمَامُ» (٢). وقال أبو حنيفة: أما أهل السواد من القرى ونحوهم، فلهم أن يذبحوا بعد طلوع الفجر، إذ لا صلاة عيد عنده لهم. وأما أهل الأمصار فلا يذبحوا حتى يصلى الإمام، والله أعلم. ثم قيل: لا يشرع الذبح إلا يوم النحر وحده. وقيل: يوم النحر لأهل الأمصار، لتيسر الأضاحى عندهم، وأما أهل القرى فيوم النحر وأيام التشريق بعده، وبه قال سعيد بن جبير. وقيل: يوم النحر، ويوم بعده للجميع. وقيل: ويومان بعده، وبه قال أحمد. وقيل: يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده، وبه قال الشافعى.

وقوله: «كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»: يقول تعالى: من أجل هذا «سَخَرْنَاهَا لَكُمْ» أى: ذللناها لكم، أى: جعلناها منقادة لكم خاضعة، إن شئتم ركبتم، وإن شئتم حلبتم، وإن شئتم ذبحتم، كما قال تعالى: «أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ. وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ» إلى قوله: «أَفَلَا يَشْكُرُونَ» [يس: ٧١-٧٣]، وقال فى هذه الآية الكريمة: «كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ النُّقُوعُ مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَيُبَشِّرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

يقول تعالى: إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا، لتذكروه عند ذبحها، فإنه الخالق الرازق لا أنه يناله شيء من لحومها ولا دماؤها، فإنه تعالى هو الغنى عما سواه. وقد كانوا فى جاهليتهم إذا ذبحوها لألهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابتهم، ونضحوا عليها من دماؤها، فقال تعالى: «لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا» أى: يتقبل ذلك ويجزى عليه. كما جاء فى الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» (٣) وما جاء فى الحديث: «إن الصدقة لتقع فى يد الرحمن قبل أن تقع فى يد السائل، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض» كما تقدم الحديث (٤). رواه ابن ماجه، والترمذى وحسنه عن عائشة مرفوعا. فمعناه: أنه سيق لتحقيق القبول من الله لمن أخلص فى عمله، وليس له معنى

(١) البخارى (٥٥٤٥) ومسلم (١٩٦١ / ٧).

(٢) انظر: مسلم (١٩٦٠ / ٣ - ١ / ٩ - ١).

(٣) مسلم (٢٥٦٤ / ٣٣). (٤) تقدم تخريجه عند الآية (٣٦) من هذه السورة.

يتبادر عند العلماء المحققين سوى هذا، والله أعلم .

وقوله: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ أى: من أجل ذلك سخر لكم البدن ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ أى: لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحبه، وما يرضاه، ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه . وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى: وبشر يا محمد المحسنين، أى: فى عملهم، القائمين بحدود الله، المتبعين ما شرع لهم، المصدقين الرسول فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه عز وجل .

وأما مقدار سنِّ الأضحية، فقد روى مسلم عن جابر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تذبحوا إلا مُسَنَّةً، إلا أن يعسر عليكم، فتذبحوا جذعة من الضأن» (١) . والذي عليه الجمهور: إنما يجزئ الثنئى من الإبل والبقر والمعز أو والجذع من الضأن، فأما الثنى من الإبل: فهو الذى له خمس سنين ، ودخل فى السادسة . ومن البقر: ما له ستان ودخل فى الثالثة، وقيل: ما له ثلاث ودخل فى الرابعة . ومن المعز: ما له ستان . وأما الجذع من الضأن فقيل: ما له سنة، وقيل: عشرة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر، وقيل: ستة أشهر، وهو أقل ما قيل فى سنِّه، وما دونه فهو حَمَلٌ، والفرق بينهما: أن الحمل شعر ظهره قائم، والجذع شعر ظهره نائم، قد انعدل صدعين، والله أعلم .

رَبِيعُ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ ﴿٣٨﴾

يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه شر الأشرار وكيد الفجار، ويحفظهم ويكلوهم وينصرهم، كما قال تعالى : ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] وقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣] . وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ أى: لا يحب من عباده من اتصف بهذا، وهو الخيانة فى العهود والمواثيق، لا يفى بما قال . والكفور: الجحد للنعم، فلا يعترف بها .

﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بغيرِ حَقِّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ هَلْ دَمَّتْ صَوْمِعٌ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿٤٠﴾

قال ابن عباس: نزلت فى محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة . وقال غير واحد من السلف كابن عباس ومجاهد وعروة بن الزبير وغيرهم: هذه أول آية نزلت فى الجهاد، واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية ، وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: لما أخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم . إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن . قال ابن عباس:

فأنزل الله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، قال أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: فعرفت أنه سيكون قتال. ورواه الإمام أحمد، وزاد: قال ابن عباس: وهى أول آية نزلت فى القتال. ورواه الترمذى، والنسائى وقال الترمذى: حديث حسن (١).

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أى: هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبلى جهدهم فى طاعته، كما قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَأْبُودٌ وَإِمَّا فَدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَرْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بِأَلْهِمُ وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ - ٦]، وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال: ﴿وَلَنبَلِّوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]. والآيات فى هذا كثيرة؛ ولهذا قال ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾: وقد فَعَلَ.

وإنما شرع الله تعالى الجهادَ فى الوقت الأليق به؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً، فلو أمر المسلمون، وهم أقل من العشر، بقتال الباقيين لَشَقَّ عليهم؛ ولهذا لما بايع أهلُ يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ، وكانوا نيفاً وثمانين، قالوا: يا رسول الله، ألا نغيب على أهل الوادى - يعنون أهل مِثَى - ليالى منى فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنى لم أومر بهذا». فلما بَغَى المشركون، وأخرجوا النبى ﷺ من بين أظهرهم، وهموا بقتله، وشردوا أصحابه شَدَرَ مَدْرَ، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة. فلما استقروا بالمدينة، ووافاهم رسولُ الله ﷺ، واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره، وصارت لهم دار إسلام ومَعْقلاً يلجؤون إليه - شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل فى ذلك، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بغيرِ حقٍ﴾. قال ابن عباس: أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق، يعنى: محمداً وأصحابه.

﴿إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ أى: ما كان لهم إلى قومهم إساءة، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم عبدوا الله وحده لا شريك له. وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما فى نفس الأمر، وأما عند المشركين فهو أكبر الذنوب، كما قال تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [المتحنة: ١]، وقال تعالى فى قصة أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

(١) الطبرى (١٧ / ١٢٣) والمسند (١٨٦٥) وقال الشيخ أحمد شاكر «إسناده صحيح» والترمذى (٣١٧١) والنسائى فى الكبرى (١١٣٤٥).

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أى: لولا أنه يدفع عن قوم بقوم، ويكشف شرّ أناس عن غيرهم، بما يخلقه ويقدره من الأسباب، لفسدت الأرض، وأهلك القوى الضعيف ﴿لَهْدِمَتْ صَوَامِعُ﴾: وهى المعابد الصغار للرهبان، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وغيرهم. وقال قتادة: هى معابد الصابئين. وفى رواية عنه: صوامع المجوس، وقال مقاتل بن حيان: هى البيوت التى على الطرق. ﴿وَبِيعُ﴾: وهى أوسع منها، وأكثر عابدين فيها، وهى للنصارى أيضا، قاله أبو العالية، وقاتة، والضحاك وغيرهم. وحكى عن مجاهد وغيره: أنها كنائس اليهود. والله أعلم. وقوله: ﴿وَصَلَوَاتُ﴾ قال ابن عباس: الصلوات: الكنائس، وكذا قال عكرمة، والضحاك، وقاتة: إنها كنائس اليهود. وهم يسمونها صلوات. وقال أبو العالية، وغيره: الصلوات: معابد الصابئين. وقال ابن أبى نجيح، عن مجاهد: الصلوات: مساجد لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطرق. وأما المساجد فهى للمسلمين. وقوله: ﴿يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾: فقد قيل: الضمير فى قوله: ﴿يُذَكَّرُ فِيهَا﴾ عائد إلى المساجد؛ لأنها أقرب المذكورات. وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها اسم الله كثيرا. وقال ابن جرير: الصواب: لهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات اليهود، وهى كنائسهم، ومساجد المسلمين التى يذكر فيها اسم الله كثيرا؛ لأن هذا هو المستعمل المعروف فى كلام العرب.

وقوله: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَصْرُوهَا اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلُ أَعْمَالِهِمْ﴾ [محمد: ٧، ٨]. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾: وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْقُوَّةِ وَالْعِزَّةِ، فَبَقُوته خلق كل شىء فقدره تقديرا، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شىء ذليل لديه، فقير إليه. ومن كان القوى العزيز ناصره فهو المنصور، وعدوه هو المقهور، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات ١٧١ - ١٧٣] وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

[المجادلة: ٢١]

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾

قال عثمان بن عفان : فىنا نزلت : ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ، فأخرجنا من ديارنا بغير حق ، إلا أن قلنا : « ربنا الله » ، ثم مكَّنَّا فى الأرض ، فأقمنا الصلاة ، وآتينا الزكاة ، وأمرنا بالمعروف ، ونهينا عن المنكر ، والله عاقبة الأمور ، فهى لى ولأصحابى . وقال الصباح بن سودة الكندى : سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول : ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية ، ثم قال : ألا إنها ليست على الوالى وحده ، ولكنها على الوالى والمولى عليه ، ألا أنبئكم بما لكم على الوالى من ذلكم ، وبما للوالى عليكم منه ؟ إن لكم على الوالى من ذلكم أن يأخذكم بحقوق الله عليكم ،

وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم للتي هي أقوم ما استطاع، وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبزوزة ولا المستكره بها، ولا المخالف سرها علانيتها. وقال عطية العوفى: هذه الآية كقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾، كقوله تعالى ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، وقال زيد بن أسلم: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ وعند الله ثواب ما صنعوا.

﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّنْ مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ وَاقْصَرِ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى مسلماً لنبى محمد ﷺ فى تكذيب من خالفه من قومه: ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ﴾ إلى أن قال: ﴿وَكَذَّبَ مُوسَىٰ﴾ أى: مع ما جاء به من الآيات البينات والدلائل الواضحات ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أى: انظرتهم واخرتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أى: فكيف كان إنكارى عليهم، ومعاقبتى لهم؟! وفى الصحيحين عن أبى موسى، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [١٠٠: ٢]» (١).

ثم قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أى: كم من قرية أهلكتها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أى: مكذبة لرسولها، ﴿فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ قال الضحاك: سقفها، أى: قد خربت منازلها وتعطلت حواضرها. ﴿وَيَبْرٌ مَعْطَلٌ﴾ أى: لا يستقى منها، ولا يردّها أحد بعد كثرة واردتها والازدحام عليها ﴿وَاقْصَرِ مَشِيدٌ﴾ قال عكرمة: يعنى المبيض بالخص. وروى عن على بن أبى طالب، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، وأبى المليلح، والضحاك، نحو ذلك وقال آخرون: هو المنيق المرتفع. وقال آخرون: الشديد المنيع الحصين. وكل هذه الأقوال متقاربة، ولا منافاة بينها، فإنه لم يحم أهله شدة بنائه ولا ارتفاعه، ولا إحكامه ولا حصانته، عن حلول بأس الله بهم، كما قال تعالى: ﴿أَيَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: بأبدانهم وبفكرهم أيضاً، وذلك كاف ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أى: فيعتبرون بها، ﴿فإنها لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أى: ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة

سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر، ولا تدرى ما الخبر.

﴿ وَدَسْتَعِجِلُونَكُمْ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ وَعَدَمُ وَإِنَّكَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ ﴿٤٧﴾ وَكَأَنِّ مِّن قَرِيَةٍ أَمَلَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتَهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَدَسْتَعِجِلُونَكُمْ بِالْعَذَابِ﴾ أي: هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

وقوله: ﴿وَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ وَعَدَهُ﴾ أي: الذي قد وعد، من إقامة الساعة والانتقام من أعدائه، والإكرام لأوليائه ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي: هو تعالى لا يعجل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه، لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شيء، وإن أجَلَ وأنظَرَ وأملَى؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَكَأَنِّ مِّن قَرِيَةٍ أَمَلَيْتَ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتَهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾.

روى ابن أبي حاتم: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، خمسمائة عام». ورواه الترمذى والنسائى وقال الترمذى: حسن صحيح (١). وروى أبو داود عن سعد بن أبي وقاص، عن النبي ﷺ أنه قال: «إني لأرجو ألا تعجز أمتي عند ربها، أن يؤخرهم نصف يوم». قيل لسعد: وما نصف يوم؟ قال: خمسمائة سنة (٢).

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا كَارِهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُدْجِرِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وقوع العذاب، واستعجلوه به: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا كَارِهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إنما أرسلني الله إليكم نذيراً لكم بين يدي عذاب شديد، وليس إلى من حسابكم من شيء، أمركم إلى الله، إن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخره عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار ﴿لَا مَعْشَرَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١] و﴿إِنَّمَا أَنَا كَارِهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ فالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: آمنت قلوبهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومجازاة حسنة على القليل من حسناتهم قال محمد بن كعب القرظي: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فهو الجنة.

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾ : قال مجاهد : يُبْطِطُونَ النَّاسَ عَنْ مَتَابَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ : وهى النار الحارة الموجعة الشديدة عذابها ونكالها، أجازنا الله منها . قال الله تعالى : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل : ٨٨]

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾

قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرائيق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبش ، ظنا منهم أن مشركى قريش قد أسلموا . ولكنها من طرق كلها مرسله ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح ، والله أعلم . وقد ذكرها محمد بن إسحاق فى السيرة والله أعلم . وقد ساقها البغوى فى تفسيره مجموعة من كلام ابن عباس ، ومحمد بن كعب القرظى ، وغيرهما بنحو من ذلك ، ثم سأل هاهنا سؤالا : كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله لرسوله ، صلوات الله وسلامه عليه؟ ثم حكى أجوبة عن الناس ، من الطفها : أن الشيطان أوقع فى مسامع المشركين ذلك ، فتوهموا أنه صدر عن رسول الله ﷺ ، وليس كذلك فى نفس الأمر ، بل إنما كان من صنيع الشيطان لا عن رسول الرحمن ﷺ ، والله أعلم .

وقوله : ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ : هذا فيه تسلية له ، صلوات الله وسلامه عليه ، أى : لا يهدئك ذلك ، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء . قال ابن عباس : ﴿فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ إذا حَدَّثَ الْقَى الشَّيْطَانُ فِي حَدِيثِهِ ، فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته . وقال مجاهد : ﴿إِذَا تَمَنَّى﴾ يعنى : إذا قال . وقال الضحاك : إذا تلا . قال ابن جرير : هذا القول أشبه بتأويل الكلام . وقوله : ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ : حقيقة النسخ لغة : الإزالة والرفع . قال ابن عباس : أى فيبطل الله - سبحانه وتعالى - ما ألقى الشيطان . وقال الضحاك : نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم الله آياته .

وقوله : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أى : بما يكون من الأمور والحوادث ، لا تخفى عليه خافية ﴿حَكِيمٌ﴾ أى : فى تقديره وخلقه وأمره ، له الحكمة التامة والحجة البالغة ؛ ولهذا قال : ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أى : شك وشرك وكفر ونفاق ، كالمشركين حين فرحوا بذلك ، واعتقدوا أنه صحيح ، وإنما كان من الشيطان .

قال ابن جريج : ﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ هم : المنافقون ﴿وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ﴾ : المشركون . وقال مقاتل ابن حيان : هم اليهود .

﴿وَأِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أى: فى ضلال ومخالفة وعناد بعيد، أى: من الحق والصواب. ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أى: وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذى يفرقون به بين الحق والباطل، المؤمنون بالله ورسوله، أن ما أوحينا إليك هو الحق من ربك، الذى أنزله بعلمه وحفظه وحرسه أن يختلط به غيره، بل هو كتاب حكيم ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقوله: ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أى: يصدقوه ويتقادوا له ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أى: تخضع وتذل ﴿وَأِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفى الآخرة يهديهم إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الاليم والدركات.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيْرٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار: أنهم لا يزالون فى مرية، أى: فى شك وريب من هذا القرآن، قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير. وقال سعيد بن جبير، وابن زيد: ﴿منه﴾ أى: مما ألقى الشيطان. ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾: قال مجاهد: فجأة. وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾: قال أبى بن كعب: هو يوم بدر، وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة وغير واحد. واختاره ابن جرير. وقال عكرمة، ومجاهد - فى رواية عنهما: هو يوم القيامة لا ليلة له. وكذا قال الضحاك، والحسن البصرى. وهذا القول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به، لكن هذا هو المراد؛ ولهذا قال: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، كقوله ﴿مَالِكُ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وقوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: آمنت قلوبهم، وصدقوا بالله ورسوله، وعملوا بمقتضى ما علموا، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أى: لهم النعيم المقيم، الذى لا يحول ولا يزول ولا يبسد.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أى: كفرت قلوبهم بالحق، وجحدوا به وكذبوا به، وخالفوا الرسل، واستكبروا عن اتباعهم ﴿فَأُولَٰئِكَ نَهْمُ عَذَابٍ مُّهِينٍ﴾ أى: مقابلة استكبارهم وإعراضهم عن الحق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أى: صاغرين.

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قَتَلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوِقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

ربع

يخبر تعالى عن من هاجر في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وطلباً لما عنده، وترك الأوطان والأهلين والخلائن، وفارق بلاده في الله ورسوله، ونصرة لدين الله ﴿ثُمَّ قَتَلُوا﴾ أى: فى الجهاد ﴿أَوْ مَاتُوا﴾ أى: حتف أنفسهم، أى: من غير قتال على فرسهم، فقد حصلوا على الأجر الجزيل، والثناء الجميل، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وقوله: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أى: ليُجْرَبَ عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ﴿أى: الجنة، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ﴾ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩] فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق وجنة نعيم، كما قال مهنا: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، ثم قال: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ أى: بمن يهاجر ويجاهد فى سبيله، وبمن يستحق ذلك ﴿حَلِيمٌ﴾ أى: يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه، وتوكلهم عليه. فاما من قتل فى سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فإنه حتى عند ربه يرزق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُحْسِبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرِزُقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، والأحاديث فى هذا كثيرة، وأما من توفى فى سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه، وعظيم إحسان الله إليه.

وقوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوِقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ ذكر مقاتل وابن جريج أنها نزلت فى سرية من الصحابة، لقوا جمعاً من المشركين فى شهر محرم، فناشدهم المسلمون لثلاث يقاتلوهم فى الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا قتالهم وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمون، فنصرهم الله عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾.

﴿ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾

يقول تعالى منها على أنه الخالق المتصرف فى خلقه بما يشاء، كما قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُذَلِّلُ مِمَّنْ تَشَاءُ بِإِذْنِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مِمَّنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧] ومعنى إيلاجه الليل فى النهار، والنهار فى الليل: إدخاله من

هذا في هذا، ومن هذا في هذا، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، كما في الشتاء، وتارة يطول النهار ويقصر الليل، كما في الصيف. وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أى: سميع بأقوال عباده، بصير بهم، لا يخفى عليه منهم خافية في أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم.

ولما بين أنه المتصرف فى الوجود، الحاكم الذى لا معقب لحكمه، قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أى: الإله الحق الذى لا تنبغى العبادة إلا له؛ لأنه ذو السلطان العظيم، الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكل شيء فقير إليه، ذليل لديه ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ أى: من الأصنام والأنداد والأوثان، وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل؛ لأنه لا يملك ضراً ولا نفعاً.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ كما قال: ﴿رُوهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى﴾ [الرعد: ٩]، فكل شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته، لا إله إلا هو، ولا رب سواه؛ لأنه العظيم الذى لا أعظم منه، العلى الذى لا أعلى منه، الكبير الذى لا أكبر منه، تعالى وتقدس وتزهر، وعز وجل عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ ﴿١٦﴾

وهذا أيضاً من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه، وإنه يرسل الرياح، فتثير سحباً، فتمطر على الأرض الجُرُزُ التى لا نبات فيها، وهى هامة يابسة سوداء فمحلة ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥]. وقوله: ﴿تُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً﴾ أى: خضراء بعد يسها ومُحوَله. وقد ذكر عن بعض أهل الحجاز: أنها تصبح عقب المطر خضراء، فالله أعلم. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أى: عليم بما فى أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحب وإن صغر، لا يخفى عليه خافية، فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبته به، كما قال لقمان: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي جَاءْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَارْتَبِعُوا آيَاتِي لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [لقمان: ١٦] وقال: ﴿أَلَمْ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رَدَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابَسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ الآية [يونس: ٦١]. وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أى: ملكه جميع الأشياء، وهو غنى عما سواه، وكل شيء فقير إليه، عبد لديه.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: من حيوان، وجماد، وزروع، وثمار، كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] أى: من إحسانه وفضله وامتنانه ﴿وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أى: بتسخيره وتسييره، أى: فى البحر العجَّاج، وتلاطم

الأمواج، تجرى الفلك بأهلها بريح طيبة، ورفق وتؤدة، فيحملون فيها ما شاؤوا من تجائر وبضائع ومنافع، من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء، كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك، مما يحتاجون إليه، ويطلبونه ويريدونه ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أى: لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض، فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَوُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أى: مع ظلمهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظَلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾، كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٦]، وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيِثْنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] ومعنى الكلام: كيف تجعلون مع الله أندادا وتعبدون معه غيره، وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ أى: خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئا يذكر، فأوجدكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أى: يوم القيامة ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ أى: جحود.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنذِرُكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ ﴿١٧﴾ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكا. قال ابن جرير: يعنى: لكل أمة نبي منسكا. قال: وأصل المنسك فى كلام العرب: هو الموضع الذى يعتاده الإنسان، ويتردد إليه، إما لخير أو شر. قال: ولهذا سميت مناسك الحج بذلك، لترداد الناس إليها وعكوفهم عليها. فإن كان كما قال من أن المراد: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ فيكون المراد بقوله: ﴿فَلَا يُنذِرُكَ فِي الْأَمْرِ﴾ أى: هؤلاء المشركون. وإن كان المراد: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ فاعلوه - فالضمير هاهنا عائد على هؤلاء الذين [البقرة: ١٤٨] ولهذا قال هاهنا: ﴿هُم نَاسِكُوهُ﴾، أى: فاعلوه - فالضمير هاهنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق، أى: هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته، فلا تتأثر بمنارعتهم لك، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق؛ ولهذا قال: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود. وهذه كقوله: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بِعَدُوٍّ إِذْ أَنْزَلْتَ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٧].

وقوله: ﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، كقوله: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلِ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد، كقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ

شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الاحقاف: ٨]؛ ولهذا قال: ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾. وهذه كقوله: ﴿فَلِلَّذِكِّ فَادَعُ وَأَسْتَقِيمُ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ الآية [الشورى: ١٥]

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه، وأنه محيط بما في السموات وما في الأرض، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ، كما ثبت في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء» (١). وفي السنن، من حديث جماعة من الصحابة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن. فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة» (٢). وهذا من تمام علمه تعالى أنه علم الأشياء قبل كونها، وقدرها وكتبها أيضاً، فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك، على الوجه الذي يفعلونه، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطبع باختياره، وهذا يعصى باختياره، وكتب ذلك عنده، وأحاط بكل شيء علماً، وهو سهل عليه، يسير لديه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ (٦١) وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ تَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّهِمْ مِنْ ذَلِكَُمْ أَلْتَأْتُونَ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسِّرُ الْمَصِيرَ﴾ (٦١)

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما جهلوا وكفروا، وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً، يعني: حجة وبرهانا، كقوله: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]. ولهذا قال هاهنا: ﴿مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: ولا علم لهم فيما اختلقوه واتفكوه، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا حجة، وأعمله مما سول لهم الشيطان وزينه لهم؛ ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أي: من ناصر ينصرهم من الله، فيما يحل بهم من العذاب والنكال.

ثم قال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي: وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل

(١) مسلم (٢٦٥٣ / ١٦).

(٢) أبو داود (٤٧٠٠) والترمذي (٣٣١٩) وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وصححه الألباني.

الواضحات على توحيد الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رسله الكرام حق وصدق ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أى: يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويسطون إليهم أيديهم والستهم بالسوء ﴿قُلْ﴾ أى: يا محمد لهؤلاء: ﴿أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ مَن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين فى الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم، إن نلتهم بزعمكم وإرادتكم. وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمَصِيرَةَ﴾ أى: وبشِّر النار منزلاً ومرجعاً وموتلاً ومقاماً ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مِّثْلَ مَا سَمِعُوا لَهُ﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْأَلْتَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٢﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى منها على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مِّثْلَ﴾ أى: لما يعبد الجاهلون بالله المشركون به ﴿فَأَسْمِعُوا لَهُ﴾ أى: أنصتوا وتفهموا ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أى: لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك. كما روى الإمام أحمد

عن أبى هريرة - مرفوعاً - قال: «ومن أظلم ممن ذهب عن خلق كخلقى، فليخلقوا مثل خلقى ذرة، أو ذبابة، أو حبة» (١) وأخرجه صاحبها الصحيح «قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى؟ فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة» (٢).

ثم قال تعالى أيضاً: ﴿وَإِن يَسْأَلْتَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أى: هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سلبها شيئاً من الذى عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه، لما قدرت على ذلك. هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ولهذا قال: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾. قال ابن عباس: الطالب: الصنم، والمطلوب: الذباب. واختاره ابن جرير، وهو ظاهر السياق. وقال السدى وغيره: الطالب: العابد، والمطلوب: الصنم.

ثم قال: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أى: ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره، من هذه التى لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أى: هو القوى الذى بقدرته وقوته خلق كل شئ «وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه» [الروم: ٢٧]، ﴿إِن بَطَشَ رَبُّكَ تَشْدِيدٌ. إِنَّهُ هُوَ يَدِي وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٢، ١٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرُّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]. وقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾

(١) المسند (٧٥١٣)، وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

(٢) البخارى (٥٩٥٣) ومسلم (٢١١١ / ١٠١).

أى: قد عز كل شيء فقهره وغلبه، فلا يمانع ولا يغالب، لعظمته وسلطانه، وهو الواحد القهار.

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾
﴿ ٧٥ ﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿ ٧٦ ﴾

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلا فيما يشاء من شرعه وقدره، ومن الناس لإبلاغ رسالاته، ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ أى : سميع لأقوال عباده، بصير بهم ، عليم بمن يستحق ذلك منهم ، كما قال : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الانعام: ١٢٤]. وقوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أى : يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به، فلا يخفى عليه من أمورهم شيء، كما قال : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾ إلى قوله ﴿ وَأَخْضَى كُلَّ شَيْءٍ عِدْدًا ﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٨]، فهو سبحانه رقيب عليهم، شهيد على ما يقال لهم، حافظ لهم، ناصر لجنابهم؛ ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ الآية [المائدة: ٦٧].

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ﴿ ٧٧ ﴾ ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ﴿ ٧٨ ﴾

سجدة

اختلف الأئمة ، فى هذه السجدة الثانية من سورة الحج : هل هو مشروع السجود فيها أم لا؟ على قولين .

وقوله : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ أى : بأموالكم وألستكم وأنفسكم، كما قال تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. وقوله : ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ﴾ أى : يا هذه الأمة، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصكم باكرم رسول، وأكمل شرع ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أى : ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجا ومخرجا، فالصلاة - التى هى أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين - تجب فى الحضر أربعاً وفى السفر تُقصر إلى ثنتين، وفى الخوف ركعة، وتُصلى رجالاً وركبانا، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها. والقيام فيها يسقط بعذر المرض، فيصلحها المريض جالسا، فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات، فى سائر الفرائض والواجبات؛ ولهذا قال ﷺ لمعاذ وأبى موسى، حين بعثهما أميرين إلى اليمن: «بَشْرًا وَلَا تَفْرَا، وَيَسْرًا وَلَا تُعَسِّرَا» (١).

والأحاديث فى هذا كثيرة؛ ولهذا قال ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾
يعنى: من ضيق.

وقوله: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾: حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول، صلوات الله وسلامه
عليه، بأنه ملة أبيهم إبراهيم الخليل، ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة بما نوه به من ذكرها
والثناء عليها فى سالف الدهر وقديم الزمان، فى كتب الأنبياء، يتلى على الأحيار والرهبان،
فقال: ﴿هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أى: من قبل هذا القرآن ﴿وَفِي هَذَا﴾ أى القرآن ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ
شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أى: إنما جعلناكم هكذا أمة وسطا عدولا خيارا، مشهودا
بعدالتكم عند جميع الأمم، لتكونوا يوم القيامة ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ
بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها؛ فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة، فى أن الرسل
بلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك.

وقوله: ﴿فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أى: قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها، وأدوا
حق الله عليكم فى أداء ما افترض، وطاعة ما أوجب، وترك ما حرم. ومن أهم ذلك إقام
الصلاة وإيتاء الزكاة، وهو الإحسان إلى خلق الله، بما أوجب للفقير على الغنى، من إخراج
جزء نزر من ماله فى السنّة للضعفاء والمحاييج. ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ أى: اعتضدوا
بالله، واستعينوا به، وتوكلوا عليه، وتأيدوا به ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ أى: حافظكم وناصركم ومُظفركم
على أعدائكم، ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ يعنى: نعم الولى ونعم الناصر من الأعداء.

تفسير سورة المؤمنون

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجزء
١٨

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلرِّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ قال ابن عباس: خائفون ساكنون. وكذا روى عن مجاهد، والحسن، وقتادة، والزهرى وعن على بن أبى طالب: الخشوع: خشوع القلب. وقال الحسن البصرى: كان خشوعهم فى قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم، وخَفَضُوا الجناح. والخشوع فى الصلاة إنما يحصل بمن فَرَّغَ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وأثرها على غيرها، وحيث تكون راحة له وقرة عين، كما قال النبى ﷺ، فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والنسائى، عن أنس، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حَبَّبَ إِلَى الطَّيِّبِ وَالنِّسَاءِ، وَجَعَلَتْ قِرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» (١). ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أى: عن الباطل، وهو يشمل: الشرك - كما قاله بعضهم - والمعاصى وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلرِّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾: الاكثرون على أن المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال. وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة هاهنا: زكاة النفس من الشرك والذنس، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠] وكقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ. الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧] ، على أحد القولين فى تفسيرها، وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال ؛ فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذى يتعاطى هذا وهذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾

(١) المسند (٣ / ١٢٨) والنسائى (٣٩٤٠) ، وصححه الألبانى .

ابْتغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأَوْلَتْكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿١﴾ أى: والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام، فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا أو لواط، ولا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم، وما ملكت أيمانهم من السرارى، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج؛ ولهذا قال: ﴿فَأَيْنَهُمْ غَيْرُ مُلْتَمِسِينَ . فَمَنْ ابْتغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أى: غير الأزواج والإماء ﴿فَأَوْلَتْكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أى: المعتدون. وقد استدل الإمام الشافعى، رحمه الله، ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قال: فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين، وقد قال: ﴿فَمَنْ ابْتغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأَوْلَتْكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ .

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أى: إذا أوتمنوا لم يخونوا، بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عقادوا أوفوا بذلك، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوتمن خان» (١).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أى: يواظبون عليها فى مواعيتها، كما قال ابن مسعود: سألت النبى ﷺ فقلت: يا رسول الله، أى العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أى؟ قال: «برُّ الوالدين». قلت: ثم أى؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله». أخرجاه فى الصحيحين. وفى مستدرک الحاكم قال: «الصلاة فى أول وقتها» (٢). وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة، واختتمها بالصلاة، فدل على أفضليتها.

ولما وصّفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال: ﴿أَوْلَتْكَ هُمُ الْوَارِثُونَ . الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتكم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تَفَجَّرَ أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن» (٣). وروى ابن أبى حاتم عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل فى الجنة ومنزل فى النار، فإن مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿أَوْلَتْكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾» (٤). فالؤمنون يرثون منازل الكفار؛ لأنهم خلقوا لعبادة الله تعالى، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة، وترك أولئك ما أمرُوا به مما خلُقوا له - أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل، بل أبلغ من هذا أيضاً، وهو ما ثبت فى صحيح مسلم، عن أبى بُرْدَةَ، عن أبىه، عن النبى ﷺ قال: «يجىء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم، ويضعها على اليهود والنصارى». وفى لفظ له: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دَفَعَ الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً، فيقال: هذا

(١) البخارى (٣٣)، ومسلم (٥٩ / ١٠٧).

(٢) البخارى (٥٩٧٠) ومسلم (٨٥ / ١٣٧)، والحاكم (١ / ١٨٨) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» .

(٣) البخارى (٢٧٩٠، ٧٤٢٣) ولم يعزه صاحب التحفة (١٠ / ٢٧٨) إلا للبخارى .

(٤) ابن ماجه (٤٣٤١) وفى الزوائد: « هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين » ، وصححه الالبانى .

فَكَأَكُّكَ مِنَ النَّارِ». فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبا بردة بالله الذي لا إله إلا هو، ثلاث مرات، أن أباه حدّثه عن رسول الله ﷺ، قال: فحلف له (١).

قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]، وكقوله: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٣]. وقد قال مجاهد، وسعيد بن جبير: الجنة بالرومية هي الفردوس. وقال بعض السلف: لا يسمى البستان فردوساً إلا إذا كان فيه عنب، فالله أعلم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيْتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين، وهو آدم، عليه السلام، خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون. وقال ابن عباس: ﴿مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ قال: صفوة الماء. وقال مجاهد: ﴿مِنْ سُلَالَةٍ﴾ أى: من منى آدم. قال ابن جرير: وإنما سُمي آدم طينياً لأنه مخلوق منه. وقال قتادة: استلّ آدم من الطين. وهذا أظهر في المعنى، وأقرب إلى السياق، فإنه آدم، عليه السلام، خلق من طين لازب، وهو الصلصال من الحمأ المسنون، وذلك مخلوق من التراب، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]. روى الإمام أحمد عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأسود والأبيض، وبين ذلك، والخبث والطيب، وبين ذلك». وقد رواه أبو داود والترمذى، وقال الترمذى: حسن صحيح (٢).

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً﴾: هذا الضمير عائد على جنس الإنسان، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مُهِينٍ﴾ [السجدة: ٧، ٨] أى: ضعيف، كما قال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مُهِينٍ. فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾، يعنى: الرحم معد لذلك مهياً له ﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ. فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٢، ٢٣]، أى: إلى مدة معلومة وأجل معين حتى استحکم وتنقل من حال إلى حال، وصفة إلى صفة؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أى: ثم صيرنا النطفة، وهى الماء الدافق الذى يخرج من صلب الرجل - وهو ظهره - وترائب المرأة - وهى عظام صدرها ما بين الترقوة إلى التندوة - فصارت علقه حمراء على شكل العلقه مستطيلة. قال عكرمة: وهى دم. ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾: وهى قطعة كالبضعة من اللحم، لا شكل فيها ولا تخطيط ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ يعنى: شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها

(١) مسلم (٢٧٦٧ / ٤٩).

(٢) المسند (٤ / ٤٠٠) وأبو داود (٤٦٩٣) والترمذى (٢٩٥٥).

وعروقتها. ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ أى: وجعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه، ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أى: ثم نفخنا فيه الروح، فتحرك وصار ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾ ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

روى الإمام أحمد عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم ليُجمع خلقه بطن أمه فى أربعين يوماً، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغاً مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وهل هو شقى أو سعيد، فوالذى لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها». أخرجاه^(١). وروى الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين ليلة، فيقول: يا رب، ماذا؟ أشقى سعيداً؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الله، فيكتب عمله، وأثره، ومصيبته، ورزقه، ثم تطوى الصحيفة، فلا يُزاد على ما فيها ولا ينقص». وقد رواه مسلم فى صحيحه نحوه^(٢).

وروى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله وكل بالرحم ملكاً فيقول: أى رب، نطفة. أى رب، علقة أى رب، مضغة. فإذا أراد الله خلقها قال: يا رب، ذكر أو أنثى؟ شقى أو سعيداً؟ فما الرزق والأجل؟» قال: «فذلك يكتب فى بطن أمه». أخرجاه فى الصحيحين^(٣).

وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ يعنى: حين ذكر قدرته ولطفه فى خلق هذه النطفة من حال إلى حال، وشكل إلى شكل، حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوى الكامل الخلق، قال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾. وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ يعنى: بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبْعُونَ﴾ يعنى: النشأة الآخرة، ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النُّشَاءَ الْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] يعنى: يوم المعاد، وقيام الأرواح والأجساد، فيحاسب الخلائق، ويوفى كل عامل عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾

لما ذكر تعالى خلق الإنسان، عطف بذكر خلق السموات السبع، وكثيراً ما يذكر تعالى خلق السموات والأرض مع خلق الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ

(١) المسند (٣٦٢٤) والبخارى (٦٥٩٤) ومسلم (٢٦٤٣ / ١).

(٢) المسند (٦/٤) ومسلم (٢٦٤٤، ٢٦٤٥ / ٢، ٣).

(٣) البخارى (٣١٨) ومسلم (٢٦٤٦).

الناس﴾ [غافر: ٥٧]. وهكذا في أول ﴿آم﴾ السجدة، التي كان رسول الله ﷺ يقرأ بها صبيحة يوم الجمعة، في أولها خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، ثم بيان خلق الإنسان من سلاله من طين، وفيها أمر المعاد والجزاء، وغير ذلك من المقاصد.

وقوله: ﴿سَبَّحَ طَرَاتِقَ﴾: قال مجاهد: يعنى السموات السبع، وهذه كقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. وهكذا قال ههنا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أى: ويعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وهو معكم أينما كنتم، والله بما تعملون بصير. وهو - سبحانه - لا يحجب عنه سماء سماء، ولا أرض أرضاً، ولا جبل إلا يعلم ما فى وعره، ولا بحر إلا يعلم ما فى قعره، يعلم عدد ما فى الجبال والتلال والرمال، والبحار والقفار والأشجار، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ ١٨ ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ١٩ ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلآكِلِينَ﴾ ٢٠ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لَتُسْفِكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ٢١ ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ ٢٢

يذكر تعالى نعمه على عبده التى لا تعد ولا تحصى، فى إنزاله القَطْرَ من السماء ﴿بِقَدَرٍ﴾ أى: بحسب الحاجة، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلاً فلا يكفى الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقى والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضى التى تحتاج ماء كثيراً لزرعها ولا تحتمل دمنتها إنزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى، كما فى أرض مصر، ويقال لها: «الأرض الجرز»، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة فى زمان أمطارها، فيأتى الماء يحمل طينا أحمر، فيسقى أرض مصر، ويقر الطين على أرضهم ليزدروا فيه، لأن أرضهم سباح يغلب عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور.

وقوله: ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد فى الأرض، وجعلنا فى الأرض قابلية له، تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى. وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ أى: لو شئنا ألا تمطر لفعلنا، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى السباح والبرارى والبحار والقفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاجاً لا ينتفع به لشرب ولا لسقى لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل فى الأرض، بل ينبجر على وجهها لفعلنا. ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تتصفون به لفعلنا. ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذباً

فراثاً زللاً، فيسكنه في الأرض ويسلُكُه ينابيع في الأرض، فيفتح العيون والأنهار، فيسقى به الزروع والثمار، وتشربون منه ودوابكم وأنعامكم، وتغتسلون منه وتطهرون وتنظفون، فله الحمد والمنة .

وقوله: ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نُخَيْلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ يعني: فأخرجنا لكم بما أنزلنا من الماء ﴿جَنَّاتٍ﴾ أى: بساتين وحدائق ذات بهجة، أى: ذات منظر حسن. وقوله: ﴿مِنْ نُخَيْلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أى: فيها نخيل وأعنانب. وهذا ما كان يألف أهل الحجاز، ولا فرق بين الشىء وبين نظيره، وكذلك فى حق كل أهل إقليم، عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يعجزون عن القيام بشكره. وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ أى: من جميع الثمار، كما قال: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١١]. وقوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كأنه معطوف على شىء مقدر، تقديره: تنظرون إلى حسنه ونضجه، ومنه تأكلون.

وقوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ يعنى: الزيتون. والطور: هو الجبل. وقال بعضهم: إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإن عرى عنها سُمى جبلاً لا طوراً، والله أعلم. وطور سيناء: هو طور سينين، وهو الجبل الذى كَلَّمَ الله عليه موسى بن عمران، عليه السلام، وما حوله من الجبال التى فيها شجر الزيتون. وقوله: ﴿تَنْبِتُ بِالذَّهْنِ﴾ أى: تخرج بالدهن، أو تأتى بالدهن ﴿وَصَيْغٌ﴾ أى: آدم ﴿لِللَّالِكِينَ﴾ أى: فيها ما يتفجع به من الدهن والاصطباغ .

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بَطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ : يذكر تعالى ما جعل لخلقه فى الانعام من المنافع ، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين قرث ودم ، ويأكلون من حَمَلانها ، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، ويركبون ظهورها ويحملونها الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْمَلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ لِأَبْشَقِ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧]، وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ يَرَوْنَ أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمَلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ. وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ. وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ - ٧٣].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْتِيكُمْ بِهِ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٤﴾

﴿فَقَالَ الْمَلَأُو الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَىٰ﴾ ﴿١٥﴾

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فترَبِّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ﴿١٥﴾

يخبر تعالى عن نوح ، عليه السلام ، حين بعثه إلى قومه ، لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أى: ألا تخافون من الله فى إشراككم به؟! فقال الملأ - وهم السادة والأكابر منهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ يعنون: يترفع عليكم ويتعاضم بدعوى النبوة، وهو بشر

مثلكم، فكيف أوحى إليه دونكم ؟ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أى : لو أراد أن يبعث نبياً، لبعث ملكاً من عنده ولم يكن بشراً! ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أى : ببعثة البشر فى آبائنا الأولين. يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم والأمم الماضية. وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أى : مجنون فيما يزعمه، من أن الله أرسله إليكم، واختصه من بينكم بالوحي ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أى : انتظروا به ريب المنون، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحَيْنَا فِإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا
مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِطِ بِنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فِإِذَا
اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلِ رَبِّ
أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

يخبر تعالى عن نوح، عليه السلام، أنه دعا ربه ليستنصره على قومه، كما قال تعالى مخبراً عنه فى الآية الأخرى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القم: ١٠]، وقال ههنا: ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ﴾ فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعه السفينة وإحكامها وإتقانها، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، أى: ذكراً وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار، وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أى: سبق فيه القول من الله بالهلاك، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله، كابنه وزوجته، والله أعلم. وقوله: ﴿وَلَا تَخْطِطِ بِنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ أى: عند معاينة إنزال المطر العظيم، لا تأخذنك رافة بقومك، وشفقة عليهم، وطمع فى تأخيرهم لعلهم يؤمنون، فإنى قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان. وقد تقدمت القصة مبسوطه فى سورة هود (١).

وقوله: ﴿فِإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، كما قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ. لَتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ. وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤]. وقد امثل نوح، عليه السلام، هذا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١]. فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أى: إن فى هذا الصنيع - وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين - ﴿لآياتٍ﴾ أى: لحججا ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاؤوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعل لما يشاء، وقادر على كل شيء، عليم بكل شيء ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أى: لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْفَقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الْآخِرَةِ وَآتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَعِيدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ﴿ هِيَآتَ هِيَآتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴾ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حِكْمَانَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ عُثَاءً لِقَوْمٍ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴿

ربع

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين - قيل: المراد بهم عاد، فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم. وقيل: المراد بهؤلاء ثمود؛ لقوله: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ - وأنه تعالى أرسل فيهم رسولا منهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له. فكذبوه وخالفوه، وأبوا عن اتباعه لكونه بشراً مثلهم، واستنكفوا عن اتباع رسول بشري، وكذبوا بقاء الله في القيامة، وأنكروا المعاد الجسماني، وقالوا: ﴿أَعِيدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ﴾. هِيَآتَ هِيَآتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿أى: بعيد بعيد ذلك. ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أى: فيما جاءكم به من الرسالة والنذارة والإخبار بالمعاد ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾. قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿أى: استفتح عليهم الرسول واستنصر ربه عليهم، فأجاب دعاءه ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ أى: بمخالفتك وعنادك فيما جنتهم به، ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ أى: وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم. والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوى الباردة ﴿تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ﴾ [الاحقاف: ٢٥].

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ عُثَاءً﴾ أى: صرعى هلكى كعثناء السيل، وهو الشيء الحقيقير النافه الهالك الذى لا ينتفع بشيء منه. ﴿فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، كقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦] أى: بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرًا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَعَادِيثًا فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴿

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أى: أما وخلائق ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾ يعن: بل يُؤخِّدُونَ حَسَبَ مَا قَدَّرَ لَهُمْ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْمَحْفُوظِ وَعَلِمَهُ قَبْلَ كَوْنِهِمْ،

أمة بعد أمة، وقرنا بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وخلفاً بعد سلف ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَاءً﴾: قال ابن عباس: يعنى يتبع بعضهم بعضاً، وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رُسُلًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةٌ رُسُلُهَا كَذَّبُوهُ﴾ يعنى: جمهورهم وأكثرهم، كقوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠]. وقوله: ﴿فَأَتَيْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ أى: أهلكناهم، كقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أى: أخباراً وأحاديث للناس، كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ الآية [سبا: ١٩] ﴿فَبَعْدُ لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى، عليه السلام، وأخاه هارون إلى فرعون وملته بالآيات والحجج الدامغات، والبراهين القاطعات، وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما، والانقياد لأمرهما، لكونهما بشرين كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر، تشابهت قلوبهم، فأهلك الله فرعون وملاه، وأغرقهم فى يوم واحد أجمعين، وأنزل على موسى الكتاب - وهو التوراة - فيها أحكامه وأوامره ونواهيته، وذلك بعد ما قسم الله فرعون والقبط، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر؛ وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامته، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم، عليهما السلام، أنه جعلهما آية للناس: أى حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى.

وقوله: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾: قال ابن عباس: الربوة: المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وقاتدة. قال ابن عباس: وقوله: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ يقول: ذات خصب ﴿وَمَعِينٍ﴾ يعنى: ماء ظاهراً. وروى ابن أبى حاتم: عن ابن عباس: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: أنهار دمشق. وقال مجاهد: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾، قال: عيسى ابن مريم وأمه، حين أويا إلى غوطة دمشق وما

حولها: وأقرب الأقوال فى ذلك ما رواه العوفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَأَوْتَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رُبُوعَةٍ ذَاتِ قُرْأَرٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: المعين الماء الجارى، وهو النهر الذى قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلْنَا لَكَ ذَاتَ سُرٍّ﴾ [مريم: ٢٤]. وكذا قال الضحاك، وقتادة: هو بيت المقدس. فهذا والله أعلم هو الأظهر؛ لأنه المذكور فى الآية الأخرى. والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرَهُمْ فِي عَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُضَاهُهُمْ بِهِمْ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

يأمر تعالى عباده المرسلين، عليهم الصلاة والسلام أجمعين، بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء، عليهم السلام، بهذا أتم القيام، وجمعوا بين كل خير، قولاً وعملاً ودلالة ونصحاً، فجزاهم الله عن العباد خيراً. قال الحسن البصرى فى قوله: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ قال: أما والله ما أمروا بأصفركم ولا أحمركم، ولا حلوكم ولا حامضكم، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه. وقال سعيد بن جبير، والضحاك: ﴿كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعنى: الحلال. وفى الصحيح: «ما من نبى إلا رعى الغنم». قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم، كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة» (١). وفى الصحيح: أن داود، عليه السلام، كان يأكل من كسب يده (٢). وفى الصحيحين: «إن أحب الصيام إلى الله صيام داود، وأحب القيام إلى الله قيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى» (٣).

وقد ثبت فى صحيح مسلم، وجامع الترمذى، ومسنَد الإمام أحمد - واللفظ له - عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْيِهَ النَّاسِ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَأْيِهَ الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾. وقال: «يَأْيِهَ الَّذِينَ آمَنُوا كُلُّوْا مِنَ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ» [البقرة: ١٧٢]. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، فأنى يستجاب لذلك». وقال الترمذى: حسن غريب (٤).

وقوله: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى: دينكم - يامعشر الأنبياء - دين واحد، وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾، وقد تقدم

(٢) البخارى (٢٠٧٤) .

(١) البخارى (٢٢٦٢)

(٣) البخارى (١١٣١) ومسلم (١١٥٩ / ١٨١) .

(٤) مسلم (١٠١٥ / ٦٥) والترمذى (٢٩٨٩) والسند (٦ / ١٥٩) .

الكلام على ذلك في سورة «الأنبياء».

وقوله: ﴿نَقَطَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي: الأمم الذين بُعث إليهم الأنبياء ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: يفرحون بما هم فيه من الضلال؛ لأنهم يحسبون أنهم مهتدون؛ ولهذا قال متهدداً لهم ومتوعداً: ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ﴾ أي: في غيهم وضلالهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى حين حينهم وهلاكهم، كما قال تعالى: ﴿فَمَهَلٌ الْكَافِرِينَ أَمَلُهُمْ رُؤِيدًا﴾ [الطارق: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَمْتَعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَيْنٍ. نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا؟ اكلا، ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبا: ٣٥]، لقد أخطؤوا في ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نعمل بهم ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاءً؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية [التوبة: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهِذَا النِّحْدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمَلِّي لَهُمْ﴾ الآية [القلم: ٤٤ ، ٤٥] وقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَّفْتُ وَحِيدًا﴾ إلى ﴿عَبِيدًا﴾ [المدثر: ١١- ١٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ الآية [سبا: ٣٧] والآيات في هذا كثيرة.

قال قتادة في قوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَيْنٍ. نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال: مكرَ الله والقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم، فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح.

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أي: هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح، مشفقون من الله خائفون منه، وجلون من مكره بهم، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة، وإن الكافر جمع إساءة وأمنا ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخباراً عن مريم، عليها السلام: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ﴾ [التحریم: ١٢]، أي: أيقنت أن ما كان إنما هو عن قدر الله وقضائه، ومشرعه الله فهو إن كان أمراً فمما يحبه ويرضاه، وإن كان نهياً فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خيراً فهو حق، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أي: لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه

ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحداً صمداً، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه لا نظير له ولا كفاء له .

وقوله : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أي : يعطون العطاء وهم خائفون ألا يتقبل منهم ، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشرط الإعطاء . وهذا من باب الإشفاق والاحتياط ، كما روى الإمام أحمد عن عائشة ؛ أنها قالت : يارسول الله ، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ ، هو الذي يسرق ويزنى ويشرب الخمر ، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال : «لا يابنت أبي بكر ، يابنت الصديق ، ولكنه الذي يصلى ويصوم ويتصدق ، وهو يخاف الله عز وجل» . وهكذا رواه الترمذى وقال : «لا يابنت الصديق ، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون ، وهم يخافون ألا يقبل منهم ، ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾» (١) . وقد قرأ آخرون هذه الآية : «والذين يأتون ما أتوا وقلوبهم وجلة» أي : يفعلون ما يفعلون وهم خائفون والمعنى على القراءة الأولى - وهى قراءة الجمهور : السبعة وغيرهم - أظهر ؛ لأنه قال : ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ ، فجعلهم من السابقين . ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك ألا يكونوا من السابقين ، بل من المتقصدين أو المقصرين ، والله تعالى أعلم .

﴿وَلَا تَكُلْفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١٠) ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلُ مِن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ (١٢) ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ﴾ (١٤) ﴿لَا يَجْتَرُوا يَوْمَئِذٍ الْيَوْمَ إِنَّا لَنُصْرُونَ﴾ (١٥) ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتلىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ نَكِصُونَ﴾ (١٦) ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِرًا تَهْتَجِرُونَ﴾ (١٧)

يقول تعالى مخبراً عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا : أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها ، أي : إلا ما تطيق حمله والقيام به ، وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء ؛ ولهذا قال : ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ يعني : كتاب الأعمال ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي : لا يبخسون من الخير شيئاً ، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين . ثم قال منكرًا على الكفار والمشركين من قريش : ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ أي : غفلة وضلالة ﴿مِنْ هَذَا﴾ أي : القرآن الذى أنزله على رسوله ﷺ .

وقوله : ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ : عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ﴾ أي : سيئة من دون ذلك ، يعنى : الشرك ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ قال : لا بد أن يعملوها . وكذا روى عن مجاهد ، والحسن ، وغير واحد . وقال آخرون : ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ أي : قد كتب عليهم أعمال سيئة لا بد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة ، لتحقق عليهم كلمة العذاب . وروى نحو هذا عن مقاتل بن حيان والسُّدِّي ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وهو ظاهر قوى حسن .
وقوله : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ يعنى : حتى إذا جاء مترفيهم - وهم

(١) المسند (٦ / ١٥٩) والترمذى (٣١٧٥) ، والحديث رواه ابن ماجه (٤١٩٨) وقال الألبانى : «حسن» .

السعداء المنعمون في الدنيا - عذابُ الله وبأسه ونقمته بهم ﴿إِذَا هُمْ يَجَارُونَ﴾ أى: يصرخون ويستغيثون، كما قال تعالى: ﴿وَذُرِّيَّ وَالْمُكْدِيَّيْنِ أُولِي النِّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا . إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾ الآية [الزمل: ١١ - ١٣]، وقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلا تِجَارَةً حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣]. وقوله: ﴿لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ مِنْكُمْ مَنْ لا تُنصرون﴾ أى: لا يجيركم أحد مما حل بكم، سواء جأرتكم أو سكتكم، لا محيد ولا مناص ولا وزر، لزم الأمر ووجب العذاب.

ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تَتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِبُونَ﴾ أى: إذا دعيتم أبيتم، وإن طلبتم امتنعتم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢]. وقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾: فى تفسيره قولان، أحدهما: أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه، استكباراً عليه واحتقاراً له ولأهله، فعلى هذا الضمير فى ﴿بِهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الحرم، أى: مكة، ذموا لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام. والثانى: أنه ضمير للقرآن، كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام: «إنه سحر، إنه شعر، إنه كهانة» إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة. والثالث: أنه محمد ﷺ، كانوا يذكرونه فى سمرهم بالأقوال الفاسدة، ويضربون له الأمثال الباطلة، من أنه شاعر، أو كاهن، أو ساحر، أو كذاب، أو مجنون. وكل ذلك باطل، بل هو عبد الله ورسوله، الذى أظهره الله عليهم، وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء. وقيل: المراد بقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أى: بالبيت، يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه، وليسوا به .

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُمْ مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَذَّبُوهُ لَاحِقٌ لِّكُرْهُنَ ﴿٧٠﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَيْسَّرْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرَضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَجَ رَيْكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَأَيُّومُنَا بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُنَكِبُوكَ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرِّ لَلْجُؤِ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾

ربع

يقول تعالى منكراً على المشركين فى عدم تفهمهم للقرآن العظيم، وتدبرهم له وإعراضهم عنه، مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذى لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف، لا سيما آباؤهم الذين ماتوا فى الجاهلية، حيث لم يبلغهم كتاب ولا أتاهاهم نذير، فكان اللاتق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التى أسداها الله عليهم بقبولها، والقيام بشكرها وتفهمها، والعمل بمقتضاها آتاء الليل وأطراف النهار، كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول ﷺ ورضى عنهم. وقال قتادة: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾: إذا والله يجدون فى القرآن زاجراً عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه، ولكنهم أخذوا بما تشابه، فهلكوا عند ذلك.

ثم قال منكراً على الكافرين من قريش : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ أى : أفهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانيته التى نشأ بها فيهم ، أفقدرون على إنكار ذلك والمباهتة فيه؟ ولهذا قال جعفر بن أبى طالب للنجاشى ملك الحبشة : أيها الملك ، إن الله بعث فينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته . وهكذا قال المغيرة بن شعبة لثائب كسرى حين بارزهم وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل ، حين سأله وأصحابه عن صفات النبى ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته ، وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا ، ومع هذا لم يمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك .

وقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ : يحكى قول المشركين عن النبى ﷺ أنه تقول القرآن ، أى : افتراه من عنده ، أو أن به جنونا لا يدرى ما يقول . وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به ، وهم يعلمون بطلان ما يقولونه فى القرآن ، فإنه قد أتاهم من كلام الله ما لا يطاق ولا يدافع ، وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله ، فما استطاعوا ولا يستطيعون أبد الأبدىين ؛ ولهذا قال : ﴿ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ : يحتمل أن تكون هذه جملة حالية ، أى : فى حال كراهة أكثرهم للحق ، ويحتمل أن تكون خبرية مستأنفة ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ : قال مجاهد ، وأبو صالح والسدى : الحق هو الله عز وجل ، والمراد : لو أجابهم الله إلى ما فى أنفسهم من الهوى ، وشرع الأمور على وفق ذلك ﴿ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ أى : لفساد أهوائهم واختلافها ، كما أخبر عنهم فى قولهم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ ، ثم قال : ﴿ أَهْمُ يَقْسُمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف : ٣١ ، ٣٢] وقال تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾ [الإسراء : ١٠٠] وقال : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَمْلَكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾ [النساء : ٥٣] ، ففى هذا كله تبيين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم ، وأنه تعالى هو الكامل فى جميع صفاته وأقواله وأفعاله ، وشرعه وقدره ، وتدبيره لخلقه ، تعالى وتقدس ، فلا إله غيره ، ولا رب سواه . ثم قال : ﴿ بَلْ آتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ ﴾ يعنى : القرآن ﴿ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا ﴾ : قال الحسن : أجرا ﴿ فَخَرَجَ رِبْكَ خَيْرٌ ﴾ أى : أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلاً ولا شيئاً على دعوتك إياهم إلى الهدى ، بل أنت فى ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه ، كما قال : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيْ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ [سبأ : ٤٧] ، وقال : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص : ٨٦] ، وقال : ﴿ قُلْ لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ [الشورى : ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ [يس : ٢٠ ، ٢١] .

وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . وَإِنَّ الدِّينَ لَأُيْمُونُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاكِبُونَ ﴾ روى الإمام أحمد عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ أتاه - فيما يرى النائم - ملكان ، فقعده أحدهما

عند رجله، والآخر عند رأسه، فقال الذى عند رجله للذى عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته. فقال: إن مثله ومثل أمته، كمثل قوم سَفَرُ انتهوا إلى رأس مَفَاة، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفاة ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل فى حلة حبرة، فقال: رأيتم إن أوردتكم رياضاً معشبة، وحياضاً رواء تتبعونى؟ فقالوا: نعم: قال. فانطلق، فأوردهم رياضاً معشبة وحياضاً رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم: ألم ألكم على تلك الحال، فجعلتم لى إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعونى؟ قالوا: بلى قال: فإن بين أيديكم رياضاً أعشب من هذه، وحياضاً هى أروى من هذه، فاتبعونى. قال: فقالت طائفة: صدق والله، لتتبعنه. وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه (١).

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى: عن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى ممسك بحجزكم: هلم عن النار، هلم عن النار، وتغلبونى وتتقاحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب، فأوشك أن أرسل حجزكم وأنا قرطكم على الحوض، فتزدون على معا وأشتاتا، أعرفكم بسيماكم وأسمائكم، كما يعرف الرجل الغريب من الإبل فى إبله، فيذهب بكم ذات اليمين وذات الشمال، فأناشد فيكم رب العالمين: أى رب، قومى، أى رب أمتى. فيقال: يامحمد، إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم كانوا يمشون بعدك القهقرى على أعقابهم، فلأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء، ينادى: يا محمد، يا محمد. فأقول: لا أملك لك شيئاً. قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل بعيراً له رغاء، ينادى: يامحمد، يامحمد. فأقول: لا أملك شيئاً، قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل فرساً لها حمحمة، فينادى: يامحمد، يا محمد، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل سقاء من آدم، ينادى: يامحمد، يامحمد. فأقول: لا أملك لك شيئاً قد بلغت» (٢).

وقوله: «وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاكِبُونَ» أى: لعادلون جاثرون منحرفون. تقول العرب: نكب فلان عن الطريق: إذا زاغ عنها.

وقوله: «وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَّجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» : يخبر تعالى عن غلظهم فى كفرهم بأنه لو أراح علكهم وأفهمهم القرآن، لما انقادوا له ولاستمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم، كما قال تعالى: «وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ» [الأنفال: ٢٣]، وقال: «وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ قَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلٍ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . وَقَالُوا إِنَّمَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ» [الأنعام: ٢٧ - ٢٩] فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون لو كان كيف يكون.

(١) المسند (٢٤٠٢) ، وقال الشيخ أحمد شاکر : «إسناده صحيح» .

(٢) كشف الأستار (٩٠٠) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (٨٥/٣) : « رواه أبو يعلى والبزار ، ورجال الجميع ثقات » .

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا نَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ أى: ابتليناهم بالمصائب والشدائد ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ﴾ أى: فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة، بل استمروا على ضلالهم وغيهم ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا﴾ أى: ما خشعوا ﴿وَمَا يَضُرُّعُونَ﴾ أى: ما دعوا، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٤٣].

عن ابن عباس، أنه قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العلهز - يعنى: الوبر والدم - فأنزل الله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا﴾ الآية. وهكذا رواه النسائي (١) وأصله فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال: «اللهم أعنى عليهم بسبع كسبج يوسف» (٢).

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أى: حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة وأخذهم من عقاب الله ما لم يكونوا يحتسبون، فعند ذلك أبلسوا من كل خير، وأيسوا من كل راحة، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم.

ثم ذكر تعالى نعمه على عباده أن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وهى العقول والفهوم، التى يدركون بها الأشياء، ويعتبرون بما فى الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله، وأنه الفاعل المختار لما يشاء. وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أى: ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم، كقوله ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر، فى بركة الخليفة وذريته لهم فى سائر أقطار الأرض، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم، فلا يترك منهم صغيرا ولا كبيرا، ولا ذكرا ولا أنثى، ولا جليلا ولا حقيرا، إلا أعاده كما بدأه؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أى: يحيى الرمم ويميت الأمم، ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أى: وعن أمره تسخير الليل والنهار، كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا، يتعاقبان لا يفتران، ولا يفترقان بزمان غيرهما، كقوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ الآية [يس: ٤٠]. وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أى: أفليس لكم عقول تدلكم

على العزيز العليم، الذي قد قهر كل شيء، وعز كل شيء، وخضع له كل شيء.

ثم قال مخبراً عن منكرى البعث، الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ . قَالُوا أَتُذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ يعني يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى، ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعنون: الإعادة محال، إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلافهم. وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نُخِرَةً . قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ . فإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١١ - ١٤]، وقال تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرِ الْإِنْسَانَ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وَضَرَبْنَا لَنَا مِثْلًا نَسِيَّ خَلْقِهِ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ - ٧٩].

﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٨٤ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ٨٥ ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ٨٦ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْفِئُكَ﴾ ٨٧ ﴿قُلْ مَنْ مِنْ يَدَيْهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٨٨ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ ٨٩ ﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ٩٠

يقرر تعالى وحدانيته، واستقلاله بالخلق والتصرف والملك، ليرشد إلى أن الله الذي لا إله إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره، المعترفين له بالربوبية، وأنه لا شريك له فيها، ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية، فعبدوا غيره معه، مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئاً، ولا يملكون شيئاً، ولا يستبدون بشيء، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، فقال: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا؟ أَى: من مالكاها الذي خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والشمرات، وسائر صنوف المخلوقات ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أى: فيعرفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له، فإذا كان ذلك ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أى: لا تذكرون] أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرازق لا لغيره.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أى: من هو خالق العالم العلوى بما فيه من الكواكب والنيرات، والملائكة الخاضعين له فى سائر الأقطار منها والجهات، ومن هو رب العرش العظيم، يعنى: الذى هو سقف المخلوقات . وقال الضحاك، عن ابن عباس: إنما سُمى عرشاً لارتفاعه. وقال مجاهد: ما السموات والأرض فى العرش إلا كحلقة فى أرض فلاة. وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: العرش لا يقدر أحد قدره. وفى رواية: إلا الله عز وجل^(١). ولهذا قال ها هنا: ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ يعنى: الكبير، وقال فى آخر السورة: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ أى: الحسن البهى. فقد جمع العرش بين العظمة فى الاتساع والعلو، والحسن الباهر؛ ولهذا قال من

(١) الحاكم فى المستدرک (٢ / ٢٨٢) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه». ووافقه الذهبى.

قال: إنه من ياقوته حمراء. وقال ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه. وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أى: إذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم، أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه، فى عبادتكم معه غيره وإشراككم به؟

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى: بيده الملك ﴿مَنْ مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦] أى: متصرف فيها. وكان رسول الله ﷺ يقول: «لا، والذى نفسى بيده»، وكان إذا اجتهد فى اليمين قال: «لا، ومقلب القلوب»، فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف، ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً، لا يُخَفَّرُ فى جواره، وليس لمن دونه أن يجير عليه، لثلا يفتات عليه، ولهذا قال الله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أى: وهو السيد العظيم الذى لا أعظم منه، الذى له الخلق والأمر، ولا معقب لحكمه، الذى لا يمانع ولا يخالف، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وقال الله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الانباء: ٢٣]، أى: لا يسئل عما يفعل؛ لعظمته وكبريائه، وقهره وغللبته، وعزته وحكمته، والخلق كلهم يسألون عن أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿قَوْمِ رَبِّكُمْ أَنْتُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أى: سيعترفون أن السيد العظيم الذى يجير ولا يجار عليه، هو الله تعالى، وحده لا شريك له ﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْعَرُونَ﴾ أى: فكيف تذهب عقولكم فى عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ﴾، وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك، ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَادِبُونَ﴾ أى: فى عبادتهم مع الله غيره، ولا دليل لهم على ذلك، كما قال فى آخر السورة: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾، فالمشركون لا يفعلون ذلك [عن دليل قادهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال، وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لآبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال، كما قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك فى الملك، فقال والتصرف والعبادة فقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أى: لو قُدِّرَ تعدد الآلهة، لانفرد كل منهم بما خلق، فما كان ينتظم الوجود. والمشهد أن الوجود منتظم متسق، كل من العالم العلوى والسفلى مرتبط ببعضه بعض، فى غاية الكمال، ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣] ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض؛ ولهذا قال: ﴿وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أى: عما يقول الظالمون المعتدون فى دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً. ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: يعلم ما يغيب عن

المخلوقات وما يشاهدونه، ﴿فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى: تقدس وتنزه وتعالى وعز وجل عما يقول الظالمون والجاحدون.

﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٤﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٦﴾ أَدْفَعْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٧﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٩٨﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٩﴾﴾

يقول تعالى أمرًا نبيه محمداً ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم: ﴿رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ﴾ أى: إن عاقبتهم - وأنا أشاهد ذلك - فلا تجعلنى فيهم، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والترمذى - وصححه: «وإذا أردت بقوم فتنه فتوفنى إليك غير مفتون» (١). وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ أى: لو شئنا لأريناك ما نحل بهم من النقم والبلاء والمحن.

ثم قال تعالى مرشداً له إلى التَّرياق النافع فى مخالطة الناس، وهو الإحسان إلى من يسيء، ليستجلب خاطره، فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة، فقال: ﴿أَدْفَعْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾، وهذا كما قال فى الآية الأخرى: ﴿أَدْفَعْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ الآية [فصلت: ٣٤، ٣٥]: أى ما يلهم هذه الوصية أو الخصلة أو الصفة ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أى: على أذى الناس، فعاملوهم بالجميل مع إسدانهم إليهم القبيح ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾: أمره أن يستعيذ من الشياطين، لأنهم لا تفتح معهم الخيل، ولا يتقادون بالمعروف. وقوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ أى: فى شىء من أمرى؛ ولهذا أمر بذكر الله فى ابتداء الأمور، وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح، وغير ذلك من الأمور؛ ولهذا روى أبو داود أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهرم، وأعوذ بك من الهدم ومن الغرق، وأعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت» (٢). وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم، من الفزع: «باسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» قال: فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها، كتبها له، فعلقها فى عنقه. ورواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، قال الترمذى: حسن غريب (٣).

(١) المسند (٥ / ٢٤٣) والترمذى (٣٢٣٥). (٢) أبو داود (١٥٥٢)، وصححه الألبانى.

(٣) المسند (٦٦٩٦) وأبو داود (٣٨٩٣) الترمذى (٣٥٢٨) والنسائى فى السنن الكبرى (١٠٦٠١).

﴿ حَقًّا إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت، من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى، وقيلهم عند ذلك، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا، ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته؛ ولهذا قال: ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ إلى قوله ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون: ١٠، ١١]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾ إلى قوله ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسَوْهُ مِنْ قَبْلِ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلُ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [الاعراف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكَسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بَيِّنَاتٍ رَبَّنَا ﴾ إلى قوله ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ لِي مِنْ مَرَدٍ مِنْ سَبِيلِ ﴾ [الشورى: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنِيكَ أَتَيْنِيكَ فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ والآية بعدها [غافر: ١١، ١٢]، وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧]، فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة، فلا يجابون، عند الاحتضار، ويوم النشور وقت العرض على الجبار، وحين يعرضون على النار، وهم في غمرات عذاب الجحيم. وقوله هاهنا: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ كلا: حرف ردع وزجر، أى: لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه.

وقوله: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أى لا بد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم. ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله: «كلا»، أى: لأنها كلمة، أى: سؤاله الرجوع ليعمل صالحا هو كلام منه، وقول لا عمل معه، ولو رد لما عمل صالحا، ولكان يكذب في مقالته هذه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾. وقال قتادة: والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فرحم الله امرأ عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب إلى النار. وقال أبو صالح وغيره فى قوله تعالى: ﴿ وَمِن وَرَائِهِم ﴾ : يعنى: أمامهم، وقال مجاهد: البرزخ: الحاجز ما بين الدنيا والآخرة.

وفى قوله: ﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ ﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ، كما قال: ﴿ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ [الجاثية: ١٠] وقال: ﴿ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم: ١٧]. وقوله: ﴿ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أى: يستمر به العذاب إلى يوم البعث، كما جاء فى الحديث: «فلا يزال معدبا فيها» (١) أى: فى الأرض.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ﴿١٠١﴾ فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾

يخبر تعالى أنه إذا نفخ في الصور نفخة النشور، وقام الناس من القبور ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون ﴾ أى: لا تنفع الأنساب يومئذ، ولا يرى والد لولده، ولا يلوى عليه، قال الله تعالى: ﴿ ولا يسأل حميمٌ حميماً. يُنصرونهم ﴾ [المعارج: ١٠، ١١] أى: لا يسأل القريب قريبه وهو يبصره، ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره، وهو كان أعز الناس عليه في الدنيا، ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة، قال الله تعالى: ﴿ يومَ يقرُ المرءُ من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبه وبنيه ﴾ الآية [عبس: ٣٤ - ٣٦] .

وقال ابن مسعود: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد: ألا من كان له مظلمة فليجيئ فليأخذ حقه: قال: فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيراً، ومصدق ذلك في كتاب الله: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ . وروى الإمام أحمد: عن المسور - هو ابن مخزومة - قال: قال رسول الله ﷺ: فاطمة بضعة مني، يقبضني ما يقبضها، ويسطني ما يبسطها، وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي وسببي وصهري^(١). هذا الحديث له أصل في الصحيحين عن المسور بن مخزومة أن رسول الله ﷺ قال: «فاطمة بضعة مني، يريني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها»^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ أى: من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة، قاله ابن عباس ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى: الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة. وقال ابن عباس: أولئك الذين فازوا بما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا. ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ أى: ثقلت سيئاته على حسنات ﴿ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ أى: خابوا وهلكوا، وباؤوا بالصفقة الخاسرة؛ ولهذا قال: ﴿ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ أى: ماكثون، دائمون مقيمون لا يطعنون. ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَتَعَشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارَ ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقال: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [الانباء: ٣٩].

وقوله: ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ قال ابن عباس: يعنى عابسون. وقال عبد الله بن مسعود: ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾، قال: ألم تر إلى الرأس والمشيط الذي قد بدا أسنانه وقاصت شفتاه. وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾، قال: «تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرتة» . ورواه الترمذى، وقال: حسن غريب^(٣).

(١) المسند (٤ / ٣٢٣) ، والحاكم (٣ / ١٥٨) بنحوه وقال : « حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي » .

(٢) البخارى (٣٧١٤) ومسلم (٢٤٤٩ / ٩٣) . (٣) المسند (٣ / ٨٨) والترمذى (٣١٧٦) .

﴿ أَلَمْ تَكُنْ مِنْ آيَاتِنَا تُنَلِّىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾

هذا تقرير من الله وتوبيخ لأهل النار، على ما ارتكبه من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم، التى أوبقتهم فى ذلك، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مِنْ آيَاتِنَا تُنَلِّىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أى: قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت عليكم الكتب، وأزلت شبهكم، ولم يبق لكم حجة كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهُمْ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨ - ١١]، ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أى: قد قامت علينا الحجة، ولكن كنا أشقى من أن ننفاد لها ونتبعها، فضللنا عنها ولم نرزقها.

ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ أى: رُدنا إلى الدار الدنيا، فإن عدنا إلى ما سلف منا، فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة، كما قالوا: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ إلى قوله ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١١، ١٢] أى: لا سبيل إلى الخروج؛ لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحده المؤمنون.

﴿ قَالَ أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ﴾ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمِنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَٰئِزُونَ ﴿١١١﴾

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار، يقول: ﴿أَحْسَبُوا فِيهَا﴾ أى: امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء ﴿وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ أى: لا تعودوا إلى سؤالكم هذا، فإنه لا جواب لكم عندى. قال ابن عباس: ﴿أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ قال: هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه.

ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنوبهم فى الدنيا، وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمِنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ. فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أى: فسخرتم منهم فى دعائهم إياى وتضرعهم إلى ﴿حَتَّىٰ أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي﴾ أى: حملكم بغضهم على أن نسيتم معاملتى ﴿وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ أى: من صنيعهم وعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ. وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٢٩، ٣٠] أى: يلمزونهم استهزاء. ثم أخبر عما جازى به أولياءه وعباده الصالحين، فقال تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أى: على أذاكم لهم واستهزائكم منهم ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالسعادة والسلامة والجنة، والنجاة من النار.

﴿ قُلْ كَمْ لِيَشْرَ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٦﴾ قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَشَلَّى الْعَادِينَ ﴿١١٧﴾ قُلْ إِنْ لِيَشْرَ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٨﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لَا تَرْجِعُونَ ﴿١١٩﴾ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١٢٠﴾ ﴾

يقول تعالى منها لهم على ما أضاعوه فى عمرهم القصير فى الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده، لو صبروا فى مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون، ﴿قَالَ كَمْ لِيَشْرَ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ أى: كم كانت إقامتكم فى الدنيا؟ ﴿قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَتَشَلَّى الْعَادِينَ﴾ أى: الحاسبين ﴿قَالَ إِنْ لِيَشْرَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى: مدة يسيرة على كل تقدير ﴿لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى: لما آثرتم الفانى على الباقي، ولما تصرّفتم لأنفسكم هذا التصرف السيئ، ولا استحققتم من الله سخطة فى تلك المدة اليسيرة، فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته - كما فعل المؤمنون - لفرتم كما فازوا.

وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أى: أفظننتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا، وقيل: للعبث، أى لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم، لا ثواب لها ولا عقاب، وإنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ﴾ أى: لا تعودون فى الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَبَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، يعنى هملاً. وقوله: ﴿فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أى: تقدس أن يخلق شيئاً عبثاً، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾، فذكر العرش؛ لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم، أى: حسن المنظر بهى الشكل، كما قال تعالى: ﴿فَأَنْبِئْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [القمان: ١٠].

﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

يقول تعالى متوعداً من أشرك به غيره، وعبد معه سواه، ومخبراً أن من أشرك بالله ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ﴾ أى: لا دليل له على قوله، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ وهذه جملة معترضة، وجواب الشرط فى قوله: ﴿فَأِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أى: الله يحاسبه على ذلك. ثم أخبر: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أى: لديه يوم القيامة، لا فلاح لهم ولا نجاة. وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾: هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء، فالغفر - إذا أطلق - معناه: محو الذنب وستره عن الناس، والرحمة معناها: أن يسدده ويوفقه فى الأقوال والأفعال.

تفسير سورة النور

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُوْرَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَدَايَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾

ربع

يقول تعالى : هذه ﴿ سُوْرَةٌ أَنْزَلْنَاهَا ﴾ فيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفى ما عداها ﴿ وَفَرَضْنَاهَا ﴾ قال مجاهد وقادة: أى : بينا الحلال والحرام ، والأمر والنهى ، والحدود ﴿ وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أى : مفسرات واضحات ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ : هذه الآية الكريمة فيها حكم الزانى فى الحد ، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع ؛ فإن الزانى لا يخلو إما أن يكون بكرًا ، وهو الذى لم يتزوج ، أو محصنا ، وهو الذى قد وطئ فى نكاح صحيح ، وهو حر بالغ عاقل . فأما إذا كان بكرًا لم يتزوج ، فإن حده مائة جلدة ، كما فى الآية ، ويزاد على ذلك أن يُغْرَبَ عاما عن بلده عند جمهور العلماء ، خلافاً لأبى حنيفة ، رحمه الله ؛ فإن عنده أن التغريب إلى رأى الإمام ، إن شاء غرَّبَ وإن شاء لم يغرَّبَ .

وحجة الجمهور فى ذلك ما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة وزيد بن خالد الجهنيّ ، فى الأعرابيين اللذين أتيا رسولَ الله ﷺ ، فقال أحدهما : يا رسولَ الله ، إن ابنى كان عسيفا - يعنى : أجيّرا - على هذا ، فزنى بامراته ، فافتديت ابنى منه بمائة شاةٍ ووكيدةٍ ، فسألت أهل العلم ، فأخبرونى أن على ابنى جلد مائة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم . فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لأقضين بينكما بكتاب الله : الوليدة والغنم ردّ عليك ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام . واغد يا أنيس - لرجل من أسلم - إلى امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها » . فغدا عليها ، فاعترفت ، فرجمها (١) . وفى هذا دلالة على تغريب الزانى مع جلد مائة إذا كان بكرًا لم يتزوج ، فأما إن كان محصنا فإنه يرجم ، كما روى الإمام مالك عن ابن عباس ، أن عمر ، قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، أيها الناس ، فإن الله بعث محمداً بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم ، فقرأناها

(١) البخارى (٢٣١٤ ، ٦٦٣٣) ومسلم (١٦٩٧ ، ١٦٩٨ / ٢٥) .

وَوَعَيْنَاهَا ، وَرَجَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ ، فَأَخْشَى أَنْ يَطُولَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ : لا نجد آية الرجم في كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله ، فالرجم في كتاب الله حق على من زنى ، إذا أحصن ، من الرجال والنساء ، إذا قامت البينة ، أو الحبل ، أو الاعتراف . أخرجاه في الصحيحين مطولا ، وهذه قطعة منه ، فيها مقصودنا ههنا (١) .

وقد أمر رسول الله ﷺ بوجع هذه المرأة ، وهى زوجة الرجل الذى استأجر الأجير لما زنت مع الأجير . ورجم النبى ﷺ ماعزاً والغامدية . وكل هؤلاء لم يُنقل عن رسول الله ﷺ أنه جلداهم قبل الرجم . وإنما وردت الأحاديث الصَّحاح المتعددة الطرق والألفاظ ، بالاقتصار على رجمهم ، وليس فيها ذكر الجلد؛ ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء ، وإليه ذهب أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعى ، رحمهم الله . وذهب الإمام أحمد ، رحمه الله ، إلى أنه يجب أن يجمع على الزانى المحصن بين الجلد للآية ، والرجم للسنة ، كما روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، أنه لما أتى بشرأحة ، وكانت قد زنت وهى مُحَصَّنَةٌ ، فجلدها يوم الخميس ، ورجمها يوم الجمعة ، ثم قال : جلدتها بكتاب الله ، ورجمها بسنة رسول الله ﷺ . وقد روى الإمام أحمد ومسلم ، وأهل السنن عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « خذوا عنى ، خذوا عنى ، قد جعل الله لهن سبيلا : البكر بالبكر ، جلد مائة وتغريب سنة ، والثيب بالثيب ، جلد مائة والرجم » (٢) .

وقوله : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ أى : فى حكم الله . لا ترجموهما وترأفوا بهما فى شرع الله ، وليس المنهى عنه الرأفة الطبيعية على ترك الحد ، وإنما هى الرأفة التى تحمل الحاكم على ترك الحد ، فلا يجوز له ذلك .

قال مجاهد : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ قال : إقامة الحدود إذا رُفعت إلى السلطان ، فتقام ولا تعطل . وكذا روى عن سعيد بن جبيرة ، وعطاء بن أبى رباح . وقيل : المراد : فلا تقيموا الحد كما ينبغى ، من شدة الضرب الزاجر عن المأثم ، وليس المراد الضرب المبرح . وقال عامر الشعبي : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ قال : رحمة فى شدة الضرب . وقال عطاء : ضرب ليس بالمبرح . وعن عبيد الله بن عبد الله بن عمر : أن جارية لابن عمر زنت ، فضرب رجلها - قال نافع : أراه قال : وظهرها - قال : قلت : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ ، قال : يا بنى ، ورأيتنى أخذتني بها رأفة ؟ إن الله لم يأمرنى أن أقتلها ، ولا أن أجعل جلدتها فى رأسها ، وقد أوجعت حيث ضربت .

وقوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أى : فافعلوا ذلك ؛ أقيموا الحدود على من زنى ، وشددوا عليه الضرب ، ولكن ليس مبرحاً ؛ ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك . وقد

(١) الموطأ (٢ / ٨٢٣) والبخارى (٦٨٢٩ ، ٦٨٣٠) ومسلم (١٦٩١ / ١٥) .

(٢) المسند (٥ / ٣١٧) ومسلم (١٦٩٠ / ١٢) وأبو داود (٤٤١٦) والترمذى (١٤٣٤) .

جاء فى المسند عن بعض الصحابة أنه قال : يا رسول الله ، إنى لأذبح الشاة وأنا أرحمها ، فقال : « ولك فى ذلك أجر » (١) . وقوله : « وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » : هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جُلِدوا بحضرة الناس ، فإن ذلك يكون أبلغ فى زجرهما ، وأنجع فى ردهما ، فإن فى ذلك تقريباً وتوبيخاً وفضيحة إذا كان الناس حضوراً . قال الحسن البصرى فى قوله : « وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » يعنى : علانية . ثم قال ابن عباس : الطائفة : الرجل فما فوقه . وقال مجاهد : الطائفة : رجل إلى الألف . وكذا قال عكرمة ؛ ولهذا قال الإمام أحمد : إن الطائفة تصدق على واحد . وقال عطاء بن أبى رباح : اثنان . وقال الزهرى : ثلاثة نفر فصاعداً . وقال الإمام مالك : الطائفة : أربعة نفر فصاعداً ؛ لأنه لا يكون شهادة فى الزنا دون أربعة شهداء فصاعداً . وبه قال الشافعى . وقال ربيعة : خمسة . وقال الحسن البصرى : عشرة . وقال قتادة : أمر الله أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ، أى : نفر من المسلمين ؛ ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالا .

﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾

هذا خبر من الله تعالى بأن الزانى لا يطأ إلا زانية أو مشركة ، أى : لا يطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عاصية أو مشركة ، لا ترى حرمة ذلك ، وكذلك : « الزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ » أى : عاص بزناه « أَوْ مُشْرِكٌ » لا يعتقد تحريمه .

قال ابن عباس : « الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً » : ليس هذا بالنكاح ، إنما هو الجماع ، لا يبنى بها إلا زانٍ أو مشرك . وهذا إسناد صحيح عنه ، وقد روى عنه من غير وجه أيضاً . وقد روى عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبيرة وغير واحد ، نحو ذلك .

وقوله تعالى : « وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » أى : تعاطيه والتزويج بالبغايا ، أو تزويج العفائف بالفجار من الرجال . وعن ابن عباس قال : حرّم الله الزنا على المؤمنين . وهذه الآية كقوله تعالى : « مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ » [النساء : ٢٥] ، وقوله : « مُحْصَنِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ » الآية [المائدة : ٥] . ومن ههنا ذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغى ما دامت كذلك حتى تستتاب ، فإن تاب صح العقد عليها وإلا فلا ، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح ، حتى يتوب توبة صحيحة ؛ لقوله تعالى : « وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة ، وهي الحرة البالغة العفيفة ، فإذا كان المقدوف رجلا فكذلك يجلد قاذفه أيضاً ، وليس فى هذا نزاع بين العلماء . فاما إن أقام القاذف بيعة على صحة ما قاله ، ردّ عنه الحد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ، فأوجب على القاذف إذا لم يقيم بيعة على صحة ما قاله ثلاثة أحكام : أحدها : أن يجلد ثمانين جلدة . الثانى : أنه ترد شهادته دائما . الثالث : أن يكون فاسقاً ليس يعدل ، لا عند الله ولا عند الناس .

ثم قال تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ الآية ، اختلف العلماء فى هذا الاستثناء : هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط فترفع التوبة الفسق فقط ، ويبقى مردود الشهادة دائما وإن تاب ، أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة ؟ أما الجلد فقد ذهب وانقضى ، سواء تاب أو أصر ، ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف ، فذهب الإمام مالك والشافعى وأحمد بن حنبل إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته ، وارتفع عنه حكم الفسق . ونص عليه سعيد بن المسيب وجماعة من السلف أيضاً . وقال الإمام أبو حنيفة : إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط ، فيرتفع الفسق بالتوبة ، ويبقى مردود الشهادة أبداً . وعن ذهب إليه من السلف القاضى شريح ، وإبراهيم النخعى ، وسعيد بن جبّير ، ومكحول ، وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر . وقال الشعبى والضحاك : لا تقبل شهادته وإن تاب ، إلا أن يعترف على نفسه بأنه قد قال البهتان ، فحينئذ تقبل شهادته ، والله أعلم .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحْدِهِمْ أَرْبَعٌ شَهَدَاتٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُنَّ لَمِنَ الصَّادِقَاتِ ﴿٦﴾ وَالْخَمِيسَةَ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرُؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعٌ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَمِيسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة فيها فرج للأزواج وزيادة مخرج ، إذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البيعة ، أن يلاعنها ، كما أمر الله ، عز وجل ، وهو أن يحضرها إلى الإمام ، فيدعى عليها بما رماها به ، فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله فى مقابلة أربعة شهداء ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أى : فيما رماها به من الزنا ، ﴿وَالْخَمِيسَةَ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ . فإذا قال ذلك ، بانث منه بنفس هذا اللعان عند الشافعى وطائفة كثيرة من العلماء ، وحرمت عليه أبداً ،

ويعطيها مهرها ، ويتوجه عليها حد الزنا ، ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تلاعن ، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، أى: فيما رماها به ، ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ولهذا قال : ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ يعنى : الحد ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فخصها بالغضب ، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور ، وهى تعلم صدقه فيما رماها به . ولهذا كانت الخامسة فى حقها أن غضب الله عليها . والمغضوب عليه هو الذى يعلم الحق ثم يحيد عنه .

ثم ذكر تعالى لطفه بخلقه ، ورأفته بهم ، فى شرعه لهم الفرج والمخرج من شدة ما يكون فيه من الضيق ، فقال : ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أى : لخرجتم ولشق عليكم كثير من أموركم ، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ أى: على عباده - وإن كان بعد الحلف والأيمان المغلظة - ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرعه ويأمر به وفيما ينهى عنه . وقد وردت الأحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية ، وذكر سبب نزولها ، وفيمن نزلت فيه من الصحابة ، فروى الإمام أحمد عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ قال سعد بن عبادة- وهو سيد الأنصار- : هكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « يا معشر الأنصار، ألا تسمعون ما يقول سيدكم ؟ » قالوا : يا رسول الله ، لا تلمه فإنه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرًا ، وما طلق امرأة له قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها، من شدة غيرته . فقال سعد: والله - يا رسول الله - إنى لأعلم أنها حق، وأنها من الله ، ولكنى قد تعجبت أنى لو وجدت لكاعًا قد تفخّذها رجل ، لم يكن لى أن أهيجه ولا أحرکه حتى أتى بأربعة شهداء ، فوالله لا أتى بهم حتى يقضى حاجته . قال : فما لبثوا إلا يسيرًا حتى جاء هلال بن أمية - وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم - فجاء من أرضه عشاء ، فوجد عند أهله رجلا ، فرأى بعينه، وسمع بأذنيه، فلم يهيجه حتى أصبح، فغدا على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى جئت أهلى عشاء، فوجدت عندها رجلا، فرأيت بعينى، وسمعت بأذنى . ففكر رسول الله ﷺ ما جاء به ، واشتد عليه ، واجتمعت الأنصار فقالوا : قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة ، الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ، ويبطل شهادته فى المسلمين . فقال هلال : والله إنى لأرجو أن يجعل الله لى منها مخرجًا . وقال هلال : يا رسول الله ، إنى قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به ، والله يعلم إنى لصادق . فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه ، إذا أنزل الله على رسول الله ﷺ الوحى - وكان إذا نزل عليه الوحى عرفوا ذلك، فى تربّد وجهه . يعنى : فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحى - فنزلت : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ﴾ الآية، فسرى عن رسول الله ﷺ ، فقال : « أبشر يا هلال ، قد جعل الله لك فرجًا ومخرجًا » . فقال هلال : قد كنت أرجو ذلك من ربى ، عز وجل . فقال رسول الله ﷺ : « أرسلوا إليها » . فأرسلوا إليها ، فجاءت ،

فتلاها رسول الله ﷺ عليهما ، وذكرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا . فقال هلال : والله - يا رسول الله - لقد صدقتُ عليها . فقالت : كذب . فقال رسول الله ﷺ : « لا عنوا بينهما » . فقيل لهلال : اشهد . فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، فلما كان فى الخامسة قيل له : يا هلال ، اتق الله ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبة التى توجب عليك العذاب . فقال : والله لا يعذبنى الله عليها ، كما لم يجلدنى عليها . فشهد فى الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ثم قيل لها : اشهدى أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، فلما كانت الخامسة قيل لها : اتقى الله ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبة التى توجب عليك العذاب . فتلكأت ساعة ، ثم قالت : والله لا أفضح قومى . فشهدت فى الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين . ففرق رسول الله ﷺ بينهما ، وقضى ألا يدعى ولدها لأب ولا يرمى ولدها ، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد ، وقضى ألا بيت لها عليه ولا قوت لها ، من أجل أنهما يتفرقان من غير طلاق ، ولا متوفى عنها . وقال : « إن جاءت به أصيِّب أريِّسح حمش الساقين فهو لهلال ، وإن جاءت به أورك جعداً جمالياً خدلج الساقين سايب الأليتين ، فهو الذى رميت به » . فجاءت به أورك جعداً جمالياً خدلج الساقين سايب الأليتين ، فقال رسول الله ﷺ : « لولا الأيمان لكان لى ولها شأن » . قال عكرمة : فكان بعد ذلك أميراً على مصر ، وكان يدعى لأمه ولا يدعى لأب . ورواه أبو داود نحوه مختصراً (١) .

ولهذا الحديث شواهد كثيرة فى الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة ، فمنها ما روى البخارى عن ابن عباس ؛ أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى ﷺ بشريك بن سحماء ، فقال النبى ﷺ : « البينة وإلا حد فى ظهرك » . فقال : يا رسول الله ، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل النبى ﷺ يقول : « البينة وإلا حد فى ظهرك » . فقال هلال : والذى بعثك بالحق إنى لصادق ، ولينزلن الله ما يُبرئ ظهرى من الحد . فنزل جبريل ، وأنزل عليه : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ ، فقرأ حتى بلغ : « إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . فانصرف النبى ﷺ ، فأرسل إليهما ، فجاء هلال فشهد ، والنبى ﷺ يقول : « إن الله يعلم أن أحدكما كاذب ، فهل منكما تائب ؟ » ثم قامت فشهدت ، فلما كانت عند الخامسة وقَّوها وقالوا : إنها موجبة . قال ابن عباس : فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ، ثم قالت : لا أفضح قومى سائر اليوم . فمضت ، فقال النبى ﷺ : « أبصروها ، فإن جاءت به أكحل العينين ، سايب الأليتين ، خدلج الساقين ، فهو لشريك بن سحماء » . فجاءت به كذلك ، فقال النبى ﷺ : « لولا ما مضى من كتاب الله ، لكان لى ولها شأن » . انفرد به البخارى من هذا الوجه (٢) .

وروى الإمام أحمد عن سعيد بن جبير قال : سُئِلْتُ عن المتلاعنين أيفرق بينهما - فى إمارة

(١) المسند (٢١٣١) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » وأبو داود (٢٢٥٦) .

(٢) البخارى (٤٧٤٧) .

ابن الزبير ؟ فما دَرَيْتُ ما أقول ، فقمتم من مكاني إلى منزل ابن عمر فقلتُ : يا أبا عبد الرحمن ، المتلاعنان أيفرق بينهما ؟ فقال : سبحان الله ، إن أول من سأل عن ذلك فلان بن فلان فقال : يا رسول الله ، رأيت الرجل يرى امرأته على فاحشة فإن تكلمت بأمير عظيم ، وإن سكت سكت على مثل ذلك . فسكت فلم يجبه ، فلما كان بعد ذلك أتاه فقال : الذي سألتك عنه قد ابتليت به . فأنزل الله تعالى هذه الآيات في سورة النور : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ حتى بلغ : ﴿ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . فبدأ بالرجل فوعظه وذكره ، وأخبره أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، فقال : والذي بعثك بالحق ما كذبتك . ثم ثنى بالمرأة فوعظها وذكرها ، وأخبرها أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، فقالت : والذي بعثك بالحق ، إنه لكاذب . قال : فبدأ بالرجل ، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ثم ثنى بالمرأة فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، ثم فرَّق بينهما . رواه النسائي . وأخرجاه في الصحيحين (١) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله [بن مسعود] قال : كنا جلوساً عشية الجمعة في المسجد ، فقال رجل من الأنصار : أهدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً إن قتلته قتلتموه ، وإن تكلم جلدتموه ، وإن سكت سكت على غيظ ؟ والله لئن أصبحت صحيحاً لأسألن رسول الله ﷺ . قال : فسأله . فقال : يا رسول الله ، إن أهدنا إذا رأى مع امرأته رجلاً إن قتلته قتلتموه ، وإن تكلم جلدتموه ، وإن سكت سكت على غيظ ؟ اللهم احكم . قال : فنزلت آية اللعان ، فكان ذلك الرجل أول من ابتلى به . انفرد بإخراجه مسلم (٢) . وروى الإمام أحمد أيضاً عن سهل بن سعد ، قال : جاء عويمر إلى عاصم بن عدى فقال : سل رسول الله ﷺ : رأيت رجلاً وجد رجلاً مع امرأته فقتله ، أيقتل به أم كيف يصنع ؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ ، فعاب رسول الله ﷺ المسائل . قال : فلقبه عويمر فقال : ما صنعت ؟ قال : ما صنعت ! إنك لم تأتني بخير ؟ سألت رسول الله ﷺ فعاب المسائل . فقال عويمر : والله لآتين رسول الله ﷺ فلا سأله . فاتاه فوجده قد أنزل عليه فيهما . قال : فدعا بهما فلا عن بينهما . قال عويمر : لئن انطلقتُ بها يا رسول الله لقد كذبت عليها . قال : ففارقها قبل أن يأمره رسول الله ﷺ ، فصارت سنة المتلاعنين ، فقال رسول الله ﷺ : « أبصروها ، فإن جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الأليتين ، فلا أراه إلا قد صدق ، وإن جاءت به أحيمر كأنه وحرّة فلا أراه إلا كاذباً » . فجاءت به على النعت المكروه . أخرجاه في الصحيحين وبقيّة الجماعة إلا الترمذي (٣) .

وروى الحافظ أبو يعلى عن أنس بن مالك ، قال : لأول لعان كان في الإسلام أن شريك

(١) المسند (٤٦٩٣) والبخارى (٥٣١٢) ومسلم (١٤٩٣ / ٤) والنسائي في الكبرى (١١٣٥٧) .

(٢) المسند (٤٠٠١) ومسلم (١٤٩٥ / ١٠) .

(٣) المسند (٣٣٤ / ٥) والبخارى (٤٧٤٥) ومسلم (١٤٩٢ / ١) وأبو داود (٢٢٤٥) .

ابن سَحْمَاءَ قَذَفَهُ هَلَالٌ بِنِ امِيَّةَ بِنِ امِيَّةَ ، فَرَفَعَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَرْبَعَةٌ شُهُودٌ وَإِلَّا فَحَدٌّ فِي ظَهْرِكَ » . فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنْ اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَصَادِقٌ ، وَلِيَنْزِلَنَّ اللَّهُ عَلَيْكَ مَا يَبْرِيءُ بِهِ ظَهْرِي مِنَ الْجُلْدِ . فَانزَلَ اللَّهُ آيَةَ اللِّعَانِ : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ » إِلَى آخِرِ آيَةِ . قَالَ : فَدَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : « أَشْهَدُ بِاللَّهِ إِنَّكَ لَمِنَ الصَّادِقِينَ فِيمَا رَمَيْتَهَا بِهِ مِنَ الزَّانِ » فَشَهِدَ بِذَلِكَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ فِي الْخَامِسَةِ : « وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ إِنْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ فِيمَا رَمَيْتَهَا بِهِ مِنَ الزَّانِ » ، فَفَعَلَ . ثُمَّ دَعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « قَوْمِي فَاشْهَدِي بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ فِيمَا رَمَاكَ بِهِ مِنَ الزَّانِ » . فَشَهِدَتْ بِذَلِكَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهَا فِي الْخَامِسَةِ : « وَعَظَبَ اللَّهُ عَلَيْكَ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ فِيمَا رَمَاكَ بِهِ مِنَ الزَّانِ » ، فَقَالَتْ : فَلَمَّا كَانَتْ الرَّابِعَةَ أَوْ الْخَامِسَةَ سَكَتَتْ سَكْتَةً ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهَا سَتَعْتَرِفُ ، ثُمَّ قَالَتْ : لَا أَفْضَحُ قَوْمِي سَائِرَ الْيَوْمِ . فَضَمَّتْ عَلَى الْقَوْلِ ، فَفَرَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهُمَا ، وَقَالَ : « انظُرُوا ، فَإِذَا جَاءَتْ بِهَ جَعْدًا حَمَشَ السَّاقِينَ ، فَهُوَ لِشَرِيكَ بِنِ سَحْمَاءَ ، وَإِنْ جَاءَتْ بِهَ أَيْضًا سَبَطًا ضَبِيقَ الْعَيْنِينَ فَهُوَ لَهَلَالِ بِنِ امِيَّةَ » . فَجَاءَتْ بِهَ جَعْدًا حَمَشَ السَّاقِينَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَوْلَا مَا نَزَلَ فِيهِمَا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ، لَكَانَ لِي وَلِهَا شَانٌ » (١) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسَبُهُمْ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَبِيرٌ لَّكُم لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين ، رضى الله عنها ، حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التي غار الله عز وجل لها ولنبيه ، صلوات الله وسلامه عليه ، فانزل الله تعالى براءتها صيانة لعرض الرسول ﷺ ، فقال : « إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ » أى : جماعة منكم ، يعنى : ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة ، فكان المقدم في هذه اللعنة عبد الله بن أبى سلول رأس المنافقين ، فإنه كان يجمعه ويستوشيه ، حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين ، فتكلموا به ، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر ، حتى نزل القرآن ، وسياق ذلك في الأحاديث الصحيحة .

وروى الإمام أحمد عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سقراً أفرع بين نسائه ، فإيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه ، قالت عائشة : فأقرع بيننا في غزوة غزاهما ، فخرج فيها سهمي ، وخرجت مع رسول الله ﷺ ، وذلك بعدما أنزل الحجاب ، فانا أحمل في هودجى وأنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة ، أذن ليلة بالرحيل ، فقمنا حين أذن بالرحيل ، فمشيت حتى جاوزت الجليش ، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى الرحل فلمست صدرى ، فإذا عقد من جَزَعِ ظَفَارٍ قَدْ انْقَطَعَ ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عَقْدِي ، فَحَبَسْنِي ابْتِغَاؤُهُ . وَأَقْبَلَ الرَّهْطَ الَّذِينَ كَانُوا

يرحلوننى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب - وهم يحسبون أنى فيه - قالت : وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن ولم يغشهن اللحم ، إنما يأكلن العُلقة من الطعام . فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رفعوه وحملوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ، ووجدت عقدى بعدما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلى الذى كنت فيه ، وظننت أن القوم سيفقدونى فيرجعون إلى . فبينما أنا جالسة فى منزلى ، غلبتنى عينى فمتم - وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكوانى قد عرس من وراء الجيش - فأدلىج فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتانى فعرفنى حين رأتى . وقد كان رأتى قبل أن يضرّب علىّ الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى ، فحمرّت وجهى بجلبابى ، واللّه ما كلمنى كلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، حتى أناخ راحلته ، فوطئ على يدها فركبتها ، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا مؤغرين فى نحر الظهيرة . فهلك من هلك فى شأنى ، وكان الذى تولى كبره عبد الله بن أبى ابن سلول . فقدمت المدينة فاشتكيت حين قدمناها شهرا ، والناس يُقيضون فى قول أهل الإفك ، ولا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يرينى فى وجعى أنى لا أرى من رسول الله ﷺ اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ، ثم يقول : « كيف تيكُم ؟ » فذلك الذى يرينى ولا أشعر بالشر ، حتى خرجت بعد ما نَقَهْتُ وخرَجْتُ معى أم مسطح قبل المناصع - وهو مُتَبَرِّزٌنا - ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل ، وذلك قبل أن تتخذ الكُف قريباً من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول فى التنزه ، وكنا ننادى بالكُف أن نتخذها فى بيوتنا . فانطلقت أنا وأم مسطح - وهى ابنة أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف ، وأمها ابنة ضخر ابن عامر، خالة أبى بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثانة بن عبّاد بن المطلب - فأقبلت أنا وابنة أبى رهم قبيل بيتى حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت : « تمس مسطح » . فقلت لها : بشما قلت . تسبين رجلا قد شهد بدرًا ؟ قالت : أى هتاه ، ألم تسمعى ما قال ؟ قلت : وماذا قال ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك ، فازددت مرضاً إلى مرضى . فلما رجعت إلى بيتى دخل على رسول الله ﷺ فسلم ، ثم قال : « كيف تيكُم ؟ » فقلت له : أتأذن لى أن أتى أبوى ؟ - قالت : وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما - فأذن لى رسول الله ﷺ ، فجئت أبوى فقلت لأمى : يا أمّاه ، ما يتحدث الناس ؟ فقالت : أى بُنية ، هوئى عليك ، فواللّه لقلما كانت امرأة قَطّ وضيئة ، عند رجل يحبها ، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . قالت : فقلت : سبحان الله أو قد تحدث الناس بهذا ؟ قالت : فبكيك تلك الليلة حتى أصبحت ، لا يرقا لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكى . فدعا رسول الله ﷺ علياً ، وأسامة بن زيد حين استلبت الوحى ، يستشيرهما فى فراق أهله ، قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم فى نفسه له من الود ، فقال : يا رسول الله ، هم أهلك ، ولا نعلم إلا خيراً . وأما على بن أبى طالب فقال : لم يضيّق الله

عليك ، والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر . قالت : فدعا رسول الله ﷺ بـريرة ، فقال : « أئى بريرة ، هل رأيت من شئ يربيك من عائشة؟ » فقالت له بريرة : والذى بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قط أغمصه عليها ، أكثر من أنها جارية حديثة السن ، تنام عن عجين أهلها ، فتأتى الداجن فتأكله ، فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبى بن سلؤل . قالت : فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : « يا معشر المسلمين ، من يعذرني من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى ، فوالله ما علمت على أهلى إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلى إلا معى » . فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال : أنا أعذرک منه يا رسول الله ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج ، أمرتنا ففعلنا أمرک . قالت : فقام سعد بن عبادة - وهو سيد الخزرج ، وكان رجلاً صالحاً ، ولكن احتملته الحمية - فقال لسعد بن معاذ : لعمر الله لا تقتله ، ولا تقدر على قتله . فقام أسيد بن حضير - وهو ابن عم سعد بن معاذ - فقال لسعد بن عبادة : كذبت ! لعمر الله لنقتلنه ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين . فتأور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا ، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر . فلم يزل رسول الله ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حتى سكتوا وسكت رسول الله ﷺ ، قالت : وبكى يومى ذلك ، لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، وأبواى يظنان أن البكاء فالتى كبدى . قالت : فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى ، استأذنت على امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ، فجلست تبكى معى ، فبينما نحن على ذلك ، إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس - قالت : ولم يجلس عندى منذ قيل لى ما قيل ، وقد لبث شهراً لا يُوحى إليه فى شأنى شئ - قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ، ثم قال : أما بعد يا عائشة ، فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله ثم توبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب ، تاب الله عليه . قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله ﷺ . فقال : والله ما أدرى ما أقول للرسول . فقلت لأمى : أجيبى عنى رسول الله . فقالت : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله . قالت : فقلت - وأنا جارية حديثة السن ، لا أحفظ كثيراً من القرآن - : إنى والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا ، حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به ، ولئن قلت لكم إنى بريئة - والله يعلم إنى بريئة - لا تصدقونى بذلك . ولئن اعترفت لكم بأمر والله عز وجل يعلم أنى بريئة تصدقونى ، وإنى والله ما أجد لى ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف : ﴿ فَصِيرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ١٨] . قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشى ، قالت : وأنا والله حينئذ أعلم أنى بريئة ، وأن الله مبرئى ببراءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يتلى ، ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فى بامر يتلى . ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها . قالت : فوالله ما رام رسول الله ﷺ من مجلسه ، ولا خرج من أهل البيت أحد ، حتى أنزل الله على

نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى ، حتى إنه لينحدر منه مثل الجمان من العرق فى اليوم الشاتى ، من ثقل القول الذى أنزل عليه . قالت : فلما سُرَى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، كان أول كلمة تكلم بها أن قال : «أبشرى يا عائشة ، أما الله فقد برأك» . فقالت لى أمى : قومى إليه . والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل ، هو الذى أنزل براءتى ، وأنزل الله عز وجل : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ عشر آيات . فأنزل الله هذه الآيات براءتى قالت : فقال أبو بكر ، رضى الله عنه - وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره - : والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذى قال لعائشة . فأنزل الله عز وجل : ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إلى قوله : ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور : ٢٢] ، فقال أبو بكر : والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ، فَرَجَعَ إِلَى مَسْطَحِ النَّفَقَةِ الَّتِي كَانَ يَنْفِقُ عَلَيْهِ . وقال : لا أنزعها منه أبداً . قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش - زوجة النبى ﷺ - عن أمرى فقال : يا زينب ، ما علمت ، أو رأيت فقالت : يا رسول الله ، أحمى سمعى وبصرى ، والله ما علمت إلا خيراً . قالت عائشة : وهى التى كانت تُسَامِنِي مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ ، فعصمها الله تعالى بالورع . وَطَفِقَتْ أُخْتَهَا حَمَنَةَ بِنْتَ جَحْشٍ تُحَارِبُ لَهَا ، فَهَلَكْتَ فِيمَنْ هَلَكَ . أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، من حديث الزهري (١) .

ثم روى البخارى عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : لما ذُكِرَ مِنْ شَأْنِي الَّذِي ذُكِرَ وَمَا عَلِمْتُ بِهِ ، قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيَّ خَطِيْبًا ، فَتَشْهَدُ فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، ثُمَّ قَالَ : «أما بعد ، أشيروا عليّ فى أناس أبتوا أهلى ، وأيمُ الله ما علمت على أهلى إلا خيراً ، وما علمت على أهلى من سوء ، وأبتوهم بمنّ والله ما علمتُ عليه من سوء قطّ ، ولا يدخل بيتى قط إلا وأنا حاضر ، ولا غبت فى سفر إلا غاب معى» . فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال : يا رسول الله ائذن أن تضرب أعناقهم ، فقام رجل من الخزرج - وكانت أمّ حسان بنت ثابت من رهط ذلك الرجل - فقال : كذبت ، أما والله لو كانوا من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم . حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شرّاً فى المسجد ، وما علمتُ . فلما كان مساء ذلك اليوم ، خرجت لبعض حاجتى ومعى أم مسطح ، فعثرتُ فقالت : تعس مسطح ، فقلت : أى أم ، تسين ابنك ؟ فسكتت ، ثم عثرتُ الثانية فقالت : تعس مسطح . فقلت لها : أى أم ، تسين ابنك ؟ ثم عثرتُ الثالثة فقالت : تعس مسطح . فانتهرتها فقالت : والله ما أسبه إلا فيك ، فقلت : فى أى شأنى ؟ قالت : فَبَقَرْتُ لِي الْحَدِيثَ . فقلت : وقد كان هذا ؟ قالت : نعم والله . فرجعتُ إلى بيتى كان الذى خرجت له لا أجد منه قليلاً ولا كثيراً . ووُعِكت ، وقلت لرسول الله ﷺ : أرسلنى إلى بيت أبى . فأرسل معى الغلام ، فدخلتُ الدار ، فوجدت أم رومان فى السفل ، وأبا بكر فوق البيت يقرأ ، فقالت أمى : ما جاء بك يا بنية ؟ فأخبرتها ، وذكرتُ لها الحديث ، وإذا هو لم يبلغ منها مثل ما بلغ منى ، فقالت : يا بنية ،

خَفَّفِي عَلَيْكَ الشَّانَ ؛ فَإِنَّهُ - وَاللَّهِ - لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ حَسَنَاءَ ، عِنْدَ رَجُلٍ يَجِبُهَا ، لَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا حَسَدْنَاهَا ، وَقِيلَ فِيهَا وَإِذَا هُوَ لَمْ يَبْلُغْ مِنْهَا مَا بَلَغَ مِنِّي ، فَقُلْتُ : وَقَدْ عَلِمَ بِهِ أَبِي ؟ قَالَتْ : نَعَمْ . قُلْتُ : وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ . فَاسْتَعْبَرْتُ وَبِكَيْتَ ، فَسَمِعَ أَبُو بَكْرٍ صَوْتِي ، وَهُوَ فَوْقَ الْبَيْتِ يَقْرَأُ ، فَتَزَلَّ فَقَالَ لِأُمِّي : مَا شَأْنُهَا ؟ قَالَتْ : بَلَغَهَا الَّذِي ذَكَرَ مِنْ شَأْنِهَا . فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ وَقَالَ : أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ - أَيُّ بُيْتَةٍ - إِلَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِكَ . فَرَجَعْتُ ، وَلَقَدْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْتِي ، فَسَأَلَ عَنِّي خَادِمَتِي ، فَقَالَتْ : لَا ، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا عَيْبًا ، إِلَّا أَنَّهَُا كَانَتْ تَرْتَدُّ حَتَّى تَدْخُلَ الشَّاةُ فَتَأْكُلُ خَمِيرَهَا - أَوْ عَجِينَهَا - وَاتْتَهَرَهَا بَعْضُ أَصْحَابِهِ فَقَالَ : اصْدُقْنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، حَتَّى أَسْقُطُوا لَهَا بِهِ ، فَقَالَتْ : سُبْحَانَ اللَّهِ . وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا يَعْلَمُ الصَّائِغُ عَلَى تَبْرِ الذَّهَبِ الْأَحْمَرِ . وَبَلَغَ الْأَمْرَ ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي قِيلَ لَهُ ، فَقَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ . وَاللَّهِ مَا كَشَفْتُ كَنْفَ أَنْثَى قَطْ - قَالَتْ عَائِشَةُ : فَقَتَلَ شَهِيدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ - قَالَتْ : وَأَصْبَحَ أَبُو بَكْرٍ عِنْدِي ، فَلَمْ يَزَالَا حَتَّى دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ صَلَّى الْعَصْرَ ، ثُمَّ دَخَلَ وَقَدْ اِكْتَفَيْتُ أَبُو بَكْرٍ عَن يَمِينِي وَعَن شِمَالِي ، فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : « أَمَا بَعْدَ يَا عَائِشَةُ ، إِنْ كُنْتُ قَارِفْتُ سُوءًا أَوْ ظَلَمْتُ فَتَوَبْتُ إِلَى اللَّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَن عِبَادِهِ » . قَالَتْ : وَقَدْ جَاءَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَهِيَ جَالِسَةٌ بِالْبَابِ ، فَقُلْتُ : أَلَا تَسْتَحِي مِنْ هَذِهِ الْمَرْأَةِ أَنْ تَذَكَرَ شَيْئًا ؟ فَوَعَّظَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَالْتَفَتَ إِلَى أَبِي ، فَقُلْتُ لَهُ : أَجِبْهُ . قَالَ : فَمَاذَا أَقُولُ ؟ فَالْتَفَتُ إِلَى أُمِّي فَقُلْتُ : أَجِيبِيهِ . قَالَتْ : أَقُولُ مَاذَا ؟ فَلَمَّا لَمْ يَجِيبْهَا ، تَشَهَّدْتُ فَحَمَدْتُ اللَّهَ وَأَثْنَيْتُ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، ثُمَّ قُلْتُ : أَمَا بَعْدَ ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي لَمْ أَفْعَلْ - وَاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَشْهَدُ إِنِّي لَصَادِقَةٌ - مَا ذَاكَ بِنَافِعِي عِنْدَكُمْ ، لَقَدْ تَكَلَّمْتُ بِهِ ، وَأَشْرَبْتَهُ قُلُوبَكُمْ ، وَإِنْ قُلْتُ : إِنِّي قَدْ فَعَلْتُ - وَاللَّهِ يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَفْعَلْ - لَتَقُولُنَّ : قَدْ بَاءَتْ بِهِ عَلَى نَفْسِهَا ، وَإِنِّي - وَاللَّهِ - مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مِثْلًا - وَالتَّمَسْتُ اسْمَ يَعْقُوبَ فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْهِ - إِلَّا أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ : « فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ » [يوسف : ١٨] ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مِنْ سَاعَتِهِ ، فَسَكَنَّا ، فَرَفَعَ عَنْهُ وَإِنِّي لِأَتَّبِعُ السَّرُورَ فِي وَجْهِهِ ، وَهُوَ يَمْسَحُ جَبِينَهُ وَيَقُولُ : « أَبْشُرِي يَا عَائِشَةُ ، فَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ بِرَاءَتَكَ » ، قَالَتْ : وَكُنْتُ أَشَدَّ مَا كُنْتُ غَضَبًا ، فَقَالَ لِي أَبُو بَكْرٍ : قَوْمِي إِلَيْهِ . فَقُلْتُ : لَا ، وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ وَلَا أَحْمَدُهُ وَلَا أَحْمَدُكُمْ ، وَلَكِنْ أَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي أَنْزَلَ بِرَاءَتِي ، لَقَدْ سَمِعْتُمُوهُ فَمَا أَنْكَرْتُمُوهُ وَلَا غَيَّرْتُمُوهُ ، وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ : أَمَا زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ فَقَدْ عَصَمَهَا اللَّهُ بِدَيْنِهَا ، فَلَمْ تَقُلْ إِلَّا خَيْرًا . وَأَمَا أُخْتُهَا حَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ ، فَهَلَكْتَ فِيمَنْ هَلَكَ . وَكَانَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيهِ مَسْطَحٌ وَحَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ . وَأَمَا الْمُنَافِقُ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ سَلُولُ فَهُوَ الَّذِي كَانَ يَسْتَوْشِيهِ وَيَجْمَعُهُ ، وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ هُوَ وَحَمْنَةُ . قَالَتْ : وَحَلَفَ أَبُو بَكْرٍ أَلَّا يَنْفَعُ مَسْطَحًا بِنَافِعَةٍ أَبَدًا ، فَانزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ » ، يَعْنِي : أَبَا بَكْرٍ « وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ » يَعْنِي : مَسْطَحًا ، إِلَى قَوْلِهِ : « أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » [النور : ٢٢] . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : بَلَى وَاللَّهِ يَا رَبَّنَا ،

إِنَّا لَنُحِبُّ أَنْ تَغْفِرَ لَنَا وَعَادَ لَه بِمَا كَانَ يَصْنَعُ . هَكَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ مُعَلِّقًا بِصِيغَةِ الْجَزْمِ (١) . وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : لَمَّا نَزَلَ عُنْدِي قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ ، وَتَلَا الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا نَزَلَ أَمَرَ بِرَجُلَيْنِ وَامْرَأَةٍ فَضْرَبُوا حُدُومَهُمْ . وَأَخْرَجَهُ أَهْلَ السَّنَنِ الْأَرْبَعَةَ ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ . وَوَقَعَ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ تَسْمِيَتَهُمْ : حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ ، وَمَسْطُحُ بْنُ أَثَاثَةَ ، وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ (٢) .

فهذه طرق متعددة عن أم المؤمنين عائشة، رضى الله عنها، فى المسانيد والصحاح والسنن وغيرها . وقد روى من حديث أمها أم رومان ، رضى الله عنها ، فروى الإمام أحمد عن أم رومان قالت : بينا أنا عند عائشة ، إذ دخلت علينا امرأة من الأنصار فقالت : فعل الله - بابنها - وفعل . فقالت : ولم ؟ قالت : إنه كان فيمن حدث الحديث . قالت : وأى حديث ؟ قالت : كذا وكذا . قالت : وقد بلغ ذلك رسول الله ﷺ ؟ قالت : نعم ، وبلغ أبا بكر ؟ قالت : نعم ، فخرت عائشة ، رضى الله عنها ، مغشياً عليها ، فما أفاقت إلا وعليها حمى بنافض . قالت : فقيمت فدفترتها ، قالت : وجاء النبى ﷺ فقال : « ما شأن هذه ؟ » قلت : يا رسول الله ، أخذتها حمى بنافض . قال : فلعله فى حديث تحدثت به . قالت : فاستوت له عائشة قاعدة فقالت : والله لئن حلفت لكم لا تصدقونى ، ولئن اعتذرت إليكم لا تُعذرونى ، فمثلى ومثلكم كمثلى يعقوب وبنيه حين قال « فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ » [يوسف : ١٨] . قالت : فخرج رسول الله ﷺ ، وأنزل الله عذرها ، فرجع رسول الله ﷺ معه أبو بكر ، فدخل فقال : « يا عائشة ، إن الله تعالى قد أنزل عذرك » . فقالت : بحمد الله لا بحمدك . فقال لها أبو بكر : تقولين هذا لرسول الله ﷺ ؟ قالت : نعم . قالت : وكان فيمن حدث هذا الحديث رجل كان يعوله أبو بكر ، فحلف ألا يصله ، فأنزل الله : « وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ » إلى آخر الآية [النور : ٢٢] ، فقال أبو بكر : بلى . فوصله . تفرد به البخارى دون مسلم (٣) .

فقوله : «إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ» أى : بالكذب والبهت والافتراء «عُصْبَةٌ» أى : جماعة منكم «لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ» أى : يا آل أبى بكر «بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» أى : فى الدنيا والآخرة ، لسان صدق فى الدنيا ورفعة منازل فى الآخرة ، وإظهار شرف لهم باعتبار الله بعائشة أم المؤمنين ، حيث أنزل الله تعالى براءتها فى القرآن العظيم الذى «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ» [فصلت : ٤٢] ؛ ولهذا لما دخل عليها ابن عباس ، رضى الله عنه، وهى فى سياق الموت ، قال لها : أبشرى ، فإنك زوجة رسول الله ﷺ ، وكان يحبك ، ولم يتزوج بكراً غيرك ، ونزلت براءتك من السماء (٤) .

(١) البخارى (٤٧٥٧) .

(٢) المسند (٦ / ٣٥) وأبو داود (٤٤٧٤) والترمىذى (٣١٨١) وحسنه الألبانى .

(٣) المسند (٦ / ٣٦٧) والبخارى (٤٧٥١) . (٤) البخارى (٤٧٥٣) .

وقوله : ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ آى : لكل من تكلم فى هذه القضية ورمى أم المؤمنين عائشة ، رضى الله عنها ، بشيء من الفاحشة ، نصيب عظيم من العذاب ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ قيل : ابتداء به . وقيل : الذى كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ آى : على ذلك . ثم الاكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أبى ابن سؤل - قبحه الله ولعنه - وقيل : بل المراد به حسان بن ثابت ، وهو قول غريب ، ولولا أنه وقع فى صحيح البخارى ما قد يدل على ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة ، فإنه من الصحابة الذين كان لهم فضائل ومناقب ومآثر ، وأحسن محاسنه أنه كان يذّب عن رسول الله ﷺ بشعره ، وهو الذى قال له رسول الله ﷺ : « هاجهم وجبريل معك » (١) .

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾
﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾

هذا تأديب من الله للمؤمنين فى قصة عائشة ، رضى الله عنها ، حين أفاض بعضهم فى ذلك الكلام السوء ، وما ذكر من شأن الإفك ، فقال تعالى : ﴿لَوْلَا﴾ يعنى : هلا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ آى : ذلك الكلام الذى رميت به أم المؤمنين ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ آى : قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم ، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأخرى . وقد قيل : إنها نزلت فى أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى وامراته ، رضى الله عنهما ، كما قال الإمام محمد ابن إسحاق ؛ أن أبى أيوب خالد بن زيد قالت له امراته أم أيوب : يا أبى أيوب ، أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة ، رضى الله عنها ؟ قال : نعم ، وذلك الكذب . أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا ، والله ما كنت لأفعله . قال : فعائشة والله خير منك . قال : فلما نزل القرآن ذكر الله ، عز وجل ، من قال فى الفاحشة ما قال من أهل الإفك : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ [النور : ١١] ، وذلك حسان وأصحابه ، الذين قالوا ما قالوا ، ثم قال تعالى : ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية ، آى : كما قال أبو أيوب وصاحبه .

وقوله : ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلخ ، آى : هلا ظنوا الخير ، فإن أم المؤمنين أهله وأولى به ، هذا ما يتعلق بالباطن ﴿وَقَالُوا﴾ آى : بالسنتهم ﴿هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ آى : كذب ظاهر على أم المؤمنين ، فإن الذى وقع لم يكن ريبة ، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راجبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل فى وقت الظهيرة ، والجيش بكماله يشاهدون ذلك ، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم ، لو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هذا جهرة ، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد ، بل كان يكون هذا - لو قدر - خفية مستورا ، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت ، والقول الزور ، والرعونة الفاحشة ، والصفقة الخاسرة . قال الله تعالى :

﴿لَوْلَا﴾ أى : هلا ﴿جَاءُوا عَلَيْهِ﴾ أى : على ما قالوه ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءٍ﴾ يشهدون على صحة ما جاؤوا به ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأَوَّلَتْكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أى : فى حكم الله كاذبون فاجرون .

﴿لَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ١٤ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ ١٥

يقول تعالى : ﴿لَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أيها الخائضون فى شأن عائشة ، بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه فى الدنيا ، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ من قضية الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ . وهذا فىمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة ، كمسطح ، وحسان ، وحمئة بنت جحش . فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبى ابن سلول وأضرابه ، فليس أولئك مرادين فى هذه الآية ؛ لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه . وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين ، يكون مطلقاً مشروطاً بعدم التوبة ، أو ما يقابله من عمل صالح يوازئهُ أو يرجح عليه .

ثم قال تعالى : ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ قال مجاهد ، وسعيد بن جبير : أى : يرويه بعضكم عن بعض ، يقول هذا: سمعته من فلان ، وقال فلان كذا، وذكر بعضهم كذا ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أى : تقولون ما لا تعلمون . ثم قال تعالى : ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أى : تقولون ما تقولون فى شأن أم المؤمنين، وتحسبون ذلك يسيراً، ولو لم تكن زوجة النبى ﷺ لما كان هيناً ، فكيف وهى زوجة النبى الأُمى ، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ، فعظيم عند الله أن يقال فى زوجة رسوله ما قيل ! الله يغار لهذا ، وهو ، سبحانه وتعالى ، لا يُقدَّر على زوجة نبى من أنبيائه ذلك، حاشا وكلاً ، ولما لم يكن ذلك ، فكيف يكون هذا فى سيدة نساء الأنبياء ، وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق فى الدنيا والآخرة !؟ ولهذا قال تعالى : ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ ، وفى الصحيحين : «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ، لا يدرى ما تبلىغ ، يهوى بها فى النار أبعد ما بين السماء والأرض» . وفى رواية : «لا يلقى لها بالاً» (١) .

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ ١٦ ﴿يَعِظُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٧ ﴿وَبَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ آيَاتٍ﴾ ١٨

هذا تأديب آخر بعد الأول : الأمر بالظن خيراً ، أى : إذا ذكر ما لا يليق من القول فى شأن الخيرة ، فأولى ينبغى الظن بهم خيراً ، والا يشعر نفسه سوى ذلك ، ثم إن علق بنفسه

شئ من ذلك - وسوسة أو خيالاً - فلا ينبغي أن يتكلم به ، فإن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ، ما لم تقل أو تعمل » . أخرجه فى الصحيحين (١) . وقال الله تعالى : « **وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا** » أى : ما ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد « **سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ** » أى : سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسوله وحليلة خليله .

ثم قال تعالى : « **يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا** » أى : ينهاكم الله متوعداً أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً ، أى : فيما يستقبل . ولهذا قال : « **إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** » أى : إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه ، وتعظمون رسوله ﷺ ، فأما من كان متصفاً بالكفر فذاك له حكم آخر .

ثم قال تعالى : « **وَيُؤَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ** » أى : يوضح لكم الأحكام الشرعية والحكم القدرية « **وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** » أى : عليم بما يصلح عباده ، حكيم فى شرعه وقدره .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴿١٩﴾ ﴾

هذا تأديب ثالث لمن سمع شيئاً من الكلام السيئ ، فقام بذهنه شئ منه ، وتكلم به ، فلا يكثر منه ولا يشيعه ويذيعه ، فقد قال تعالى : « **إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا** » أى : يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح « **لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا** » أى : بالحد ، وفى الآخرة بالعذاب « **وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** » أى : فردوا الأمور إليه ترشّدوا .

﴿ **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ** ﴿٢٠﴾ ﴾ **يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا** رِيع **لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴿٢١﴾ ﴾

يقول الله تعالى : « **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ** » أى : لولا هذا لكان أمر آخر ، ولكنه تعالى رؤوف بعباده ، رحيم بهم ، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية ، وطهر من طهر منهم بالحد الذى أقيم عليه . ثم قال تعالى : « **يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ** » يعنى : طرائقه ومسالكه وما يأمر به « **وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ** » هذا تنفير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة وأوجزها وأبلغها وأحسنها . قال ابن عباس : « **خُطُوتَ الشَّيْطَانِ** » عمله . وقال عكرمة : نزغاته . وقال قتادة : كل معصية فهى من خطوات الشيطان .

ثم قال تعالى : « **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا** » أى : لولا هو يرزق

من يشاء التوبة والرجوع إليه ، ويزكى النفوس من شركها وفجورها وفسادها وما فيها من أخلاق رديئة ، كل بحسبه ، لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيرا ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ أى : من خلقه ، ويضل من يشاء ويرديه فى مهالك الضلال والغى . ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أى : سميع لأقوال عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق منهم الهدى والضلال .

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١٤﴾

يقول تعالى : ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ من الآلية ، وهى : الحلف ، أى : لا يحلف ﴿أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ أى : الطول والصدقة والإحسان ﴿وَالسَّعَةِ﴾ أى : الجدة ﴿أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى : لا تحلفوا ألا تصلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين . وهذه فى غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ أى : عما تقدم منهم من الإساءة والأذى ، وهذا من حلمه تعالى وكرمه وطفه بخلقهم مع ظلمهم لأنفسهم .

وهذه الآية نزلت فى الصديق ، حين حلف ألا ينفع مسطح بن أثانة بنافعة أبدا بعد ما قال فى عائشة ما قال ، كما تقدم فى الحديث . فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة ، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت ، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين فى ذلك ، وأقيم الحد على من أقيم عليه ، شرع تبارك وتعالى ، يعطف الصديق على قريبه ونسيبه ، وهو مسطح بن أثانة ، فإنه كان ابن خالة الصديق ، وكان مسكيتا لا مال له إلا ما يتفق عليه أبو بكر ، رضى الله عنه ، وكان من المهاجرين فى سبيل الله ، وقد وكتى ولفقه (١) تاب الله عليه منها ، وضرب الحد عليها . وكان الصديق ، رضى الله عنه ، معروفا بالمعروف ، له الفضل والأيدى على الأقارب والأجانب . فلما نزلت هذه الآية إلى قوله : ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية ، أى : فإن الجزء من جنس العمل ، فكما تغفر ذنب من أذنب إليك يغفر الله لك ، وكما تصفح يصفح عنك . فعند ذلك قال الصديق : بلى ، والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا . ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة ، وقال : والله لا أنزعها منه أبداً ، فى مقابلة ما كان قال ، والله لا أنفعه بنافعة أبداً ، فلهذا كان الصديق هو الصديق رضى الله عنه وعن بنته .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٤﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ يُقِيمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات - خرج مخرج الغالب -

فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة ، ولاسيما التي كانت سبب النزول ، وهى عائشة بنت الصديق ، رضى الله عنهما . وقد أجمع العلماء ، رحمهم الله ، قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورمأها بما رمأها به بعد هذا الذى ذكر فى هذه الآية ، فإنه كافر ؛ لأنه معاند للقرآن . وفى بقية أمهات المؤمنين قولان : أصحهما أنهن كهى ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ الآية ، كقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية [الأحزاب : ٥٧] . وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة . وقد اختار ابن جرير عمومها ، وهو الصحيح ، ويعضد العموم ما رواه ابن أبى حاتم عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات » . قيل : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » . أخرجاه فى الصحيحين (١) .

وقوله : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ عن أنس بن مالك قال : كنا عند النبى ﷺ فضحك حتى بدت نواجذهُ ، ثم قال : « أتدرون ممّ أضحك ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : « من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول : يا رب ، ألم تُجرّنى من الظلم ؟ فيقول : بلى . فيقول : لا أجزى علىّ شاهداً إلا من نفسى . فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا ، وبالكرام عليك شهودا . فيختم على فيه ، ويقال لأركانهِ : انطقى ، فتتطق بعمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بُعداً لكنّ وسُحُفاً ، فعنكُنّ كنتُ أناضلُ » . وقد رواه مسلم والنسائى (٢) . وقال قتادة : ابن آدم ، والله إن عليك لشهوداً غير متهمة فى بدنك ، فراقبهم واتق الله فى سرّك وعلانيتك ، فإنه لا يخفى عليه خافية ، الظلمة عنده ضوء ، والسر عنده علانية ، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن ، فليفعل ولا قوة إلا بالله .

وقوله : ﴿يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ ، قال ابن عباس : أى : حسابهم ، وكل ما فى القرآن ﴿دِينَهُمُ﴾ أى : حسابهم . وكذا قال غير واحد . ثم إن قراءة الجمهور بنصب ﴿الْحَقَّ﴾ على أنه صفة لدينهم ، وقرأ مجاهد بالرفع ، على أنه نعت الجلالة . وقوله : ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ أى : وعده ووعيدهِ وحسابه هو العدل ، الذى لا جور فيه .

﴿الْخَيْثُوثُ لِلْخَيْثِثِينَ وَالْخَيْثُورُ لِلْخَيْثِثِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ
أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

قال ابن عباس : الخيثات من القول للخبيثين من الرجال ، والخيثون من الرجال للخبيثات من القول . والطيبات من القول للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات

(١) البخارى (٢٧٦٦) ومسلم (١٤٥ / ٨٩) .

(٢) مسلم (٢٩٦٩ / ١٧) والنسائى فى الكبرى (١١٦٥٣) .

من القول . قال : ونزلت في عائشة وأهل الإفك . وهكذا روى عن مجاهد ، وعطاء ، وسعيد ابن جبير وغيرهم ، واختاره ابن جرير ، ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس ، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس ، فما نسبته أهل النفاق إلى عائشة هم أولى به ، وهي أولى بالبراءة والتزاهة منهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء ، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء . وهذا - أيضاً - يرجع إلى ما قاله أولئك باللازم ، أى : ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهى طيبة ؛ لأنه أطيّب من كل طيب من البشر ، ولو كانت خبيثة لما صلحت له ، لا شرعاً ولا قدراً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أى : هم بُعداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أى : بسبب ما قيل فيهم من الكذب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أى : عند الله فى جنات النعيم . وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ فى الجنة .

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩﴾﴾

هذه آداب شرعية ، أدب الله بها عباده المؤمنين ، وذلك فى الاستئذان ، أمرهم ألا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأمنوا ، أى : يستأذنون قبل الدخول ويسلموا بعده . وينبغى أن يستأذن ثلاثاً ، فإن أذن له ، وإلا انصرف ، كما ثبت فى الصحيح : أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثاً ، فلم يؤذن له ، انصرف . ثم قال عمر : ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له . فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال : ما أرجعك؟ قال : إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لى ، وإني سمعت النبى ﷺ يقول : « إذا استأذن أحدكم ثلاثاً ، فلم يؤذن له ، فليانصرف » . فقال عمر : لَتَأْتِيَنَّ عَلَىٰ هَذَا بَيْنَهُ وَإِلَّا أوجعتك ضرباً . فذهب إلى ملا من الأنصار ، فذكر لهم ما قال عمر ، فقالوا : لا يشهد لك إلا أصغرنا . فقام معه أبو سعيد الخدرى فأخبر عمر بذلك ، فقال : الهانى عنه الصَّفْقُ بِالسَّوَابِ (١) .

ثم ليُعلم أنه ينبغى للمستأذن على أهل المنزل ألا يقف لتقاء الباب بوجهه ، ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره ؛ لما رواه أبو داود عن عبد الله بن بسر ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم ، لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ، ويقول :

« السلام عليكم ، السلام عليكم » . وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور . تَفَرَّدَ به أبو داود (١) . وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لو أن امرأً اطّلع عليك بغير إذن فَخَذَفْتَهُ بحصاة ، ففقت عينه ، ما كان عليك من جُنَاحٍ » (٢) . وأخرج الجماعة عن جابر قال : أتيْتُ النبي ﷺ في دَيْنٍ كان على أبي ، فدققتُ الباب ، فقال : « من ذا » ؟ قلت : أنا . قال : « أنا ، أنا » ، كأنه كرهه (٣) .

وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يُعرَف صاحبها حتى يُفصح باسمه أو كنيته التي هو مشهور بها، وإلا ، فكل أحد يُعبر عن نفسه بـ « أنا » ، فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان ، الذي هو الاستئناس بالمأمور به في الآية . وقد روى الإمام أحمد عن كَلْدَةَ بن الحنبل ، أن صفوان بن أمية بعثه في الفتح بِلَبِّاً وَجَدَايَةَ وَضَعَايِسَ ، والنبي ﷺ بأعلى الوادي . قال : فدخلتُ عليه ولم أسلم ولم أستأذن ، فقال النبي ﷺ : « ارجع فقل : السلام عليكم ، أَدْخَلَ ؟ » ، وذلك بعدما أسلم صفوان . ورواه أبو داود والترمذى ، وقال الترمذى : حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديثه (٤) .

وقال ابن عباس : ثلاث آيات جَعَدَهَا الناس : قال الله : ﴿ إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَأْتِكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، قال : ويقولون : إن أكرمهم عند الله أعظمهم بيتاً . قال : والإذن كله قد جعده الناس . قال : قلت : استأذن على أخواتي أيتام في حجرى ، معى فى بيت واحد ؟ قال : نعم . فرددت ليرخص لى ، فأبى . قال : تحب أن تراها عريانة؟ قلت : لا . قال : فاستأذن . قال : فراجعته أيضاً ، فقال : أحب أن تطيع الله ؟ قلت : نعم . قال : فاستأذن . وقال طاووس : ما من امرأة أكره إلى أن أرى عريتها من ذات محرم . قال : وكان يشدد فى ذلك . وقال ابن مسعود : عليكم الإذن على أمهاتكم . وقال ابن جريج : قلت لعطاء : أيستأذن الرجل على امرأته ؟ قال : لا . وهذا محمول على عدم الوجوب ، وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به ، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها . وروى ابن جرير عن زينب - امرأة عبد الله بن مسعود - قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب ، تنحنح ويزق ؛ كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه . إسناده صحيح .

وقال مجاهد : ﴿ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا ﴾ قال : تنحنحوا - أو : تَنَنَّمُوا . وعن الإمام أحمد بن حنبل ، أنه قال : إذا دخل الرجل بيته ، استحَب له أن يتنحنح ، أو يحرك نعليه . ولهذا جاء فى الصحيح عن رسول الله ﷺ : أنه نَسِيَ أن يطرق الرجل أهله طُرُقاً - وفى رواية :

(١) أبو داود (٥١٨٦) .

(٢) البخارى (٦٩٠٢) ومسلم (٢١٥٨ / ٤٣) .

(٣) البخارى (٦٢٥٠) ومسلم (٢١٥٥ / ٣٨) وأبو داود (٥١٨٧) والترمذى (٢٧١١) .

(٤) المسند (٤١٤ / ٣) وأبو داود (٥١٧٦) والترمذى (٢٧١٠) وصححه الألبانى .

« لَيْلًا يَتَخَوَّنُهُمْ » (١) . وفي الحديث الآخر : أن رسول الله ﷺ قدم المدينة نهاراً ، فأناخ بظاهرها ، وقال : « انتظروا حتى تدخل عشاء - يعني : آخر النهار - حتى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة » (٢) . وقال قتادة في قوله : « حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا » ، قال : هو الاستئذان ثلاثاً ، فمن لم يؤذن له فيهن ، فليرجع . أما الأولى : فليسمع الحى ، وأما الثانية : فليأخذوا حذرهم ، وأما الثالثة : فإن شاؤوا أذنوا وإن شاؤوا ردّوا . ولا تَقْفَنَّ على باب قوم ردوك عن بابهم ؛ فإن للناس حاجات ولهم أشغال ، والله أولى بالعدر . وقال مقاتل بن حيان في قوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا » : كان الرجل فى الجاهلية إذا لقي صاحبه ، لا يسلم عليه ، ويقول : حَيِّتْ صَبَاحًا وَحَيِّت مَسَاءً كان ذلك تحية القوم بينهم . وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم ، ويقول : « قد دخلت » . فيشق ذلك على الرجل ، ولعله يكون مع أهله ، فعَبَّرَ اللهُ ذلك كله ، فى ستر وعفة ، وجعله نقيًا نزهًا من الدنس والقذر والدرن ، فقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا » . وهذا الذى قاله مقاتل حسن ؛ ولهذا قال : « ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ » ، يعنى : الاستئذان خير لكم ، بمعنى : هو خير للطرفين : للمستأذن ولأهل البيت « لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » .

وقوله : « فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ » : وذلك لما فيه من التصرف فى ملك الغير بغير إذنه ، فإن شاء أذن ، وإن شاء لم يأذن « وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ » أى : إذا ردّوكم من الباب قبل الإذن أو بعده « فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ » أى : رجوعكم أزكى لكم وأظهر « وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » . وقال قتادة : قال بعض المهاجرين : لقد طلبتُ عمري كلّه هذه الآية فما أدركتها : أن أستأذن على بعض إخوانى ، فيقول لى : « ارجع » ، فأرجع وأنا مغتبط لقوله : « وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » . وقال سعيد بن جبير : « وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا » أى : لا تقفوا على أبواب الناس .

وقوله : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ » : هذه الآية الكريمة أخص من التى قبلها ، وذلك أنها تقتضى جواز الدخول إلى البيوت التى ليس فيها أحد ، إذا كان له فيها متاع ، بغير إذن ، كالبيت المعد للضيف ، إذا أذن له فيه أول مرة ، كفى .

وقال آخرون : هى بيوت التجار ، كالحانات ، ومنازل الأسفار ، وبيوت مكة ، وغير ذلك . واختار ذلك ابن جرير ، وحكاه عن جماعة . والأول أظهر ، والله أعلم .

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ

بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾

(١) البخارى (٥٢٤٣ ، ٥٢٤٤) ومسلم (٧١٥ / ١٨٤) .

(٢) البخارى (٥٢٤٧) ومسلم (٧١٥ / ١٨١) .

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم ، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه ، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم ، فإن اتفق أن وقع البصر على مُحَرَّمٍ من غير قصد ، فليصرف بصره عنه سريعاً ، كما رواه مسلم عن جرير بن عبد الله البجلي قال : سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة ، فأمرني أن أصرف بَصْرِي . وكذا رواه الإمام أحمد ورواه أبو داود والترمذي والنسائي ، وقال الترمذي : حسن صحيح (١) . وفى الصحيح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم والجلوس على الطرقات » . قالوا : يا رسول الله ، لا بد لنا من مجالسنا ، نتحدث فيها . فقال رسول الله ﷺ : « إن أبيتم ، فأعطوا الطريق حقَّه » . قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال : « غَضُّ البصر ، وكَفُّ الأذى ، وردّ السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر » (٢) . وفى صحيح البخارى : « من يكفل لى ما بين لَحْيَيْهِ و ما بين رجليه ، أكفل له الجنة » (٣) .

ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب ، كما قال بعض السلف : « النظر سهام سم إلى القلب » ؛ ولذلك أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الأبصار التى هى بواعث إلى ذلك ، فقال : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ . وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا ، كما قال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَالِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المعارج : ٢٩ ، ٣٠] وتارة يكون بحفظه من النظر إليه ، كما جاء فى الحديث : « احفظ عورتك ، إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك » (٤) . ﴿ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ أى : أظهر لقلوبهم وأتقى لدينهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] . وفى الصحيح ، عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « كَتَبَ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّانِ ، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ . فَزَنَا الْعَيْنَيْنِ : النَّظْرُ ، وَزَنَا اللِّسَانِ : النَّطْقُ ، وَزَنَا الْأَذْنَيْنِ : الْاسْتِمَاعُ ، وَزَنَا الْيَدَيْنِ : الْبَطْشُ ، وَزَنَا الرَّجْلَيْنِ : الْخَطْيُ ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّىٰ وَتَشْتَهَىٰ ، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ » . رواه البخارى تعليقاً ، ومسلم بنحو ما تقدم (٥) . وقد قال كثير من السلف : إنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل بصره إلى الأرمدة . وقد شدّد كثير من أئمة الصوفية فى ذلك ، وحرّمه طائفة من أهل العلم ، لما فيه من الافتتان ، وشدّد آخرون فى ذلك كثيراً جداً .

(١) مسلم (٢١٥٩ / ٤٥) والمسند (٤ / ٣٦١) وأبو داود (٢١٤٨) والترمذي (٢٧٧٦) .

(٢) البخارى (٢٤٦٥) ومسلم (٢١٢١ / ١١٤) . (٣) البخارى (٦٤٧٤) .

(٤) المسند (٥ / ٣ ، ٤) ، وأبو داود (٤٠١٧) وابن ماجه (١٩٢٠) وصححه الألبانى .

(٥) البخارى (٦٣٤٣) ومسلم (٢٦٥٧ / ٢٠) .

﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا يَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوَاتِبِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

هذا أمرٌ من الله تعالى للنساء المؤمنات ، وغيره منه لأزواجهن ، عبادته المؤمنين ، وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات . وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيان قال : بلغنا - والله أعلم - أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدث : أن « أسماء بنت مرثدة » (١) كانت في محل لها في بنى حارثة ، فجعل النساء يدخلن عليها غير مُتزرات فيبدو ما في أرجلهن من الخلاخل ، وتبدو صدورهن وذواتهن ، فقالت أسماء : ما أقبح هذا . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ الآية .

فقوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ أى : عما حرمَّ الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن . ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أنه : لا يجوز للمرأة النظر إلى الرجال الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلاً . واحتج كثير منهم بما رواه أبو داود والترمذى ، عن أم سلمة : أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة ، قالت : فينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم ، فدخل عليه ، وذلك بعدما أمرنا بالحجاب ، فقال رسول الله ﷺ : « احتجبا منه » . فقلت : يا رسول الله ، أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أو عماوان أنتما؟ ألستما تبصرانه » . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح (٢) . وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة ، كما ثبت في الصحيح : أن رسول الله ﷺ جعلَ ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد ، وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه : وهو يسترها منهم حتى ملَّت ورجعت (٣) .

وقوله : ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ : قال سعيد بن جبيرة : عن الفواحش . وقال قتادة وسفيان : عما لا يحل لهن . وقال مقاتل : عن الزنا . وقال أبو العالية : كل آية أنزلت في القرآن يذكر فيها حفظ الفروج ، فهو من الزنا ، إلا هذه الآية : ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ ألا يراها أحد . وقال تعالى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ أى : ولا يُظْهَرَنَّ شيئاً من الزينة للأجانب ،

(١) في المطبوعة : « أسماء بنت مرثدة » وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه .

(٢) أبو داود (٤١١٢) والترمذى (٢٧٧٨) . (٣) البخارى (٤٥٤) .

إلا ما لا يمكن إخفاؤه . قال ابن مسعود : كالرداء والثياب . وقال ابن عباس : وجهها وكفيها والخاتم . وروى عن ابن عمر ، وعطاء ، وعكرمة وغيرهم نحو ذلك . ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين ، وهذا هو المشهور عند الجمهور ، ويستأنس له بالحديث الذى رواه أبو داود فى سننه عن عائشة ، أن أسماء بنت أبى بكر دخلت على النبى ﷺ وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها وقال : « يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرى منها إلا هذا » وأشار إلى وجهه وكفيه . لكن قال أبو داود: هذا. مرسل؛ خالد بن ذريك لم يسمع من عائشة (١) ، فالله أعلم.

وقوله : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ يعنى : المقانع يعمل لها صنفات ضاربات على صدور النساء ، لتوارى ما تحتها من صدرها وتراثبها ؛ ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية ، فإنهن لم يكن يفعلن ذلك ، بل كانت المرأة تمر بين الرجال مسفحة بصدرها ، لا يواريه شيء ، وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها . فأمر الله المؤمنات أن يستترن فى هيئاتهن وأحوالهن ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ [الاحزاب : ٥٩] . وقال فى هذه الآية الكريمة : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ والخبير : جمع خمار ، وهو ما يُخمر به ، أى : يغطى به الرأس ، وهى التى تسميها الناس المقانع . قال سعيد بن جبير : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ ﴾ : وليشددن ﴿ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ يعنى : على النحر والصدر، فلا يرى منه شيء . وروى البخارى عن عائشة ، قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ شققن مروطنهن فاختمرن بها (٢) .

وروى أيضا عن عائشة أنها كانت تقول : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ أخذن أزهرن فشققنهن من قبل الحواشى ، فاختمرن بها (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُدْنِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ يعنى : أزواجهن ﴿ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ ﴾ كل هؤلاء محارم المرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزيتتها ، ولكن من غير اقتصاد وتبهرج . وقال عكرمة فى هذه الآية : ﴿ وَلَا يُدْنِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ ﴾ - حتى فرغ منها قال : لم يذكر العم ولا الخال؛ لأنهما ينعتان لأبنائهما ، ولا تضع خمارها عند العم والخال فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله ، فتتضع له ما لا يكون بحضرة غيره .

(١) أبو داود (٤١٠٤) . قلت : والحديث قد قواه البيهقى (٢ / ٢٢٦ ، ٧ / ٨٦) ، وقد جرى العمل عليه من النساء فى عهد النبى ﷺ ، حيث كن يكشفن عن وجوههن وأيديهن بحضرة ﷺ ولا ينكر ذلك عليهن وفى ذلك عدة أحاديث . بتصرف عن : حجاب المرأة المسلمة لفضيلة الشيخ الالبانى ، وقد أفاد وأجاد فى التدليل على هذا . فليراجع .

(٣) البخارى (٤٧٥٩) .

(٢) البخارى (٤٧٥٨) .

وقوله : ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ يعني : تُظْهَرُ زَيْبَتُهَا أَيْضًا لِلنِّسَاءِ الْمُسْلِمَاتِ دُونَ نِسَاءِ أَهْلِ الذِّمَّةِ ؛ لثَلَا تَصْفِهِنَّ لِرَجَالِهِنَّ ، وَذَلِكَ - وَإِنْ كَانَ مَحْذُورًا فِي جَمِيعِ النِّسَاءِ - إِلَّا أَنَّهُ فِي نِسَاءِ أَهْلِ الذِّمَّةِ أَشَدَّ ، فَإِنَّهُنَّ لَا يَمْنَعُهُنَّ مِنْ ذَلِكَ مَانِعٌ ، وَأَمَّا الْمُسْلِمَةُ فَإِنَّهَا تَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ حَرَامٌ فَتَنْزَجِرُ عَنْهُ . وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَبَاشِرِ الْمَرْأَةَ الْمَرْأَةَ ، تَنْعَتَهَا لَزَوْجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا » . أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِينَ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ يعني : مِنْ نِسَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، فَيَجُوزُ لَهَا أَنْ تَظْهَرَ زَيْبَتَهَا لَهَا وَإِنْ كَانَتْ مُشْرِكَةً ؛ لِأَنَّهَا أُمَّتُهَا . وَإِلَيْهِ ذَهَبَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ . وَقَالَ الْكَثْرُونَ : بَلْ يَجُوزُ لَهَا أَنْ تَظْهَرَ عَلَى رَقِيقِهَا مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ، وَاسْتَدَلُّوا بِالْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَى فَاطِمَةَ بَعْدَ قَدْ وَهَبَهَا . قَالَ : وَعَلَى فَاطِمَةَ ثَوْبٌ إِذَا قَنَعَتْ بِهِ رَأْسَهَا لَمْ يَبْلُغْ رِجْلَيْهَا ، وَإِذَا غَطَّتْ بِهِ رِجْلَيْهَا لَمْ يَبْلُغْ رَأْسَهَا ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيُّ ﷺ مَا تَلْقَى قَالَ : « إِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْكَ بَأْسٌ ، إِنَّمَا هُوَ أَبُوكَ وَغَلَامُكَ » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ التَّائِبِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ ﴾ يعني : كَالْأَجْرَاءِ وَالْآتِبَاعِ الَّذِينَ لَيْسُوا بِأَكْفَاءٍ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي عَقُولِهِمْ وَكَلِمَاتِهِمْ وَخَوَاتِمِهِمْ ، وَلَا هُمْ لَهُمْ إِلَى النِّسَاءِ وَلَا يَشْتَهَوْنَهُنَّ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هُوَ الْمَغْفَلُ الَّذِي لَا شَهْوَةَ لَهُ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : هُوَ الْأَبْلَهُ . وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ ؛ أَنَّ مَخْتَنًا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَكَانُوا يَعُدُّونَهُ مِنْ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَنْعَتُ امْرَأَةً : إِنَّهَا إِذَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلْتُ بِأَرْبَعٍ ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ أَدْبَرْتُ بِثَمَانٍ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَلَا أَرَى هَذَا يَعْلَمُ مَا هَاهُنَا ، لَا يَدْخُلُنَّ عَلَيْكُنَّ » فَأَخْرَجَهُ ، فَكَانَ بِالْبَيْدَاءِ يَدْخُلُ يَوْمَ كُلِّ جُمُعَةٍ يَسْتَطْعِمُ (٣) . وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أُمِّ سَلْمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ : دَخَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهَا مَخْنَثٌ ، وَعِنْدَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمِيَّةٍ يَعْنِي أَخَاهَا ، وَالْمَخْنَثُ يَقُولُ : يَا عَبْدَ اللَّهِ ، إِنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ الطَّائِفَ غَدًا ، فَعَلَيْكَ بِابْنَةِ غِيلَانَ ، فَإِنَّهَا تَقْبَلُ بِأَرْبَعٍ وَتَدْبِرُ بِثَمَانٍ . قَالَ : فَسَمِعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِأُمِّ سَلْمَةَ : « لَا يَدْخُلُنَّ هَذَا عَلَيْكَ » . أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِينَ (٤) . وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ ، قَالَتْ : كَانَ رَجُلٌ يَدْخُلُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ مَخْنَثٌ ، وَكَانُوا يَعُدُّونَهُ مِنْ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا وَهُوَ عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ ، وَهُوَ يَنْعَتُ امْرَأَةً . فَقَالَ : إِنَّهَا إِذَا أَقْبَلَتْ أَقْبَلْتُ بِأَرْبَعٍ ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ أَدْبَرْتُ بِثَمَانٍ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَلَا أَرَى هَذَا يَعْلَمُ مَا هَاهُنَا ؟ لَا يَدْخُلُنَّ عَلَيْكُمْ هَذَا » ، فَحَجَّبُوهُ . وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ ، وَأَبُو دَاوُدَ ، وَالنَّسَائِيُّ (٥) .

وقوله : ﴿ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ يعني : لِصَغَرِهِمْ لَا يَفْهَمُونَ أَحْوَالَ

(١) البخارى (٥٢٤١) ولم يعزه صاحب التحفة (٧ / ٤٠) لمسلم .

(٢) أبو داود (٤١٠٦) وصححه الألبانى . (٣) مسلم (٢١٨١ / ٣٣) .

(٤) المسند (٦ / ٢٩٠) والبخارى (٥٨٨٧) ومسلم (٢١٨٠ / ٣٢) .

(٥) المسند (٦ / ١٥٢) ومسلم (٢١٨١ / ٣٣) وأبو داود (٤١٠٨) .

النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم ، وتعطفهن في المشية وحركاتهن ، فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك ، فلا بأس بدخوله على النساء . فأما إن كان مراهقاً أو قريباً منه ، بحيث يعرف ذلك ويدريه ، ويفرق بين الشوهاء والحسنة ، فلا يمكن من الدخول على النساء . وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إياكم والدخول على النساء » . قيل : يا رسول الله ، أفرأيت الحموم؟ قال : « الحموم الموت » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ ﴾ الآية : كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت - لا يعلم صوته - ضربت برجلها الأرض ، فيسمع الرجال طنينه ، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك . وكذلك إذا كان شيء من زيتها مستوراً ، فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفى ، دخل في هذا النهي ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ ﴾ إلى آخره . ومن ذلك أيضاً أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها فيشم الرجال طيبها ، فقد روى أبو عيسى الترمذى عن أبي موسى ، عن النبي ﷺ قال : « كل عين زانية ، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا » يعنى زانية . قال : وفي الباب عن أبي هريرة ، وهذا حسن صحيح . رواه أبو داود والنسائي (٢) . وقوله : ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أى : افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة ، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة ، فإن الفلاح كل الفلاح فى فعل ما أمر الله به ورسوله ، وترك ما نهى عنه ، والله تعالى هو المستعان .

﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِن عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٤) **وَلَيْسَتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكُتُبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَةَ اللَّهِ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّبَتْنَعُوا عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (٢٥) **وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَمَثَلًا لِّلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** (٢٦)

اشتملت هذه الآيات الكريمة المبينة على جمل من الأحكام المحكمة ، والأوامر المبرمة ، فقوله تعالى : ﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمْ ﴾ إلى آخره : هذا أمر بالتزويج . وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه ، على كل من قدر عليه . واحتجوا بظاهر قوله ﷺ : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه

(١) البخارى (٥٢٣٢) ومسلم (٢١٧٢ / ٢٠) .

(٢) الترمذى (٢٧٨٦) وأبو داود (٤١٧٣) والنسائي (٥١٢٦) ، وصححه الألبانى .

بالصوم، فإنه له وجاء . أخرجاه (١) . الأياى: جمع أيم ، ويقال ذلك للمرأة التى لا زوج لها ، وللرجل الذى لا زوجة له . وسواء كان قد تزوج ثم فارق ، أو لم يتزوج واحد منهما .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ قال ابن عباس : رغبتهم الله فى التزويج ، وأمر به الأحرار والعبيد ، ووعدهم عليه الغنى ، فقال : ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ . وعن ابن مسعود : التمسوا الغنى فى النكاح ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ . وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة حق على الله عونهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، والغازى فى سبيل الله » . رواه الإمام أحمد ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه (٢) .

وقوله : ﴿ وَتَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ : هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً بالتعفف عن الحرام ، كما قال ﷺ : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج . ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » . وهذه الآية مطلقة ، والتى فى سورة النساء أخص منها ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [النساء : ٢٥] ، أى صبركم عن تزويج الإمام خير ؛ لأن الولد يجيء رقيقاً ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ : هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب منهم عبيدهم الكتابة أن يكتبوا ، بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدى إلى سيده المال الذى شارطه على أدائه . وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمر إرشاد واستحباب ، لا أمر تحتم وإيجاب ، بل السيد مخير ، إذا طلب منه عبده الكتابة إن شاء كاتبه ، وإن شاء لم يكتبه . وذهب آخرون إلى أنه يجب على السيد إذا طلب منه عبده ذلك ، أن يجيبه إلى ما طلب ؛ أخذاً بظاهر هذا الأمر . وقال ابن وهب : قال مالك : الأمر عندنا أن ليس على سيد العبد أن يكتبه إذا سأله ذلك ، ولم أسمع أحداً من الأئمة أكره أحداً على أن يكتب عبده . قال مالك : وإنما ذلك أمر من الله ، وإذن منه للناس ، وليس بواجب . وكذا قال الثورى ، وأبو حنيفة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم . واختار ابن جرير قول الوجوب لظاهر الآية .

وقوله : ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ قال بعضهم : أمانة . وقال بعضهم : صدقا . وقال بعضهم : مالا . وقال بعضهم : حيلة وكسب . وقوله : ﴿ وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ اختلف المفسرون فيه ، فقال قائلون : معناه : اطرحوا لهم من الكتابة بعضها ، ثم قال بعضهم :

(١) البخارى (٥٠٦٦) ومسلم (١٤٠٠ / ١) .

(٢) المسند (٢ / ٢٥١) والترمذى (١٦٥٥) والنسائى (٣٢١٨) وابن ماجه (٢٥١٨) وحسنه الألبانى .

مقدار الربع . وقيل : الثلث . وقيل : النصف . وقيل : جزء من الكتابة من غير واحد . وقال آخرون : بل المراد من قوله : ﴿ وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ : هو النصيب الذى فرض الله لهم من أموال الزكوات . وهذا قول الحسن ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وأبيه ، ومقاتل واختاره ابن جرير .

وقوله : ﴿ وَلَا تُكْرَهُوا قِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الآية : كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة ، أرسلها تزنى ، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت . فلما جاء الإسلام ، نهى الله المسلمين عن ذلك . وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة - فيما ذكره غير واحد من المفسرين ، من السلف والخلف - فى شأن عبد الله بن أبى بن سلول المنافق ، فإنه كان له إماء ، فكان يكرهن على البغاء طلباً لخراجهن ، ورغبة فى أولادهن ، ورياسة منه فيما يزعم . قال السدى : أنزلت هذه الآية الكريمة فى عبد الله بن أبى ابن سلول رأس المنافقين ، وكانت له جارية تدعى معاذة ، وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليواقعها ، إرادة الثواب منه والكرامة له . فاقبلت الجارية إلى أبى بكر ، رضى الله عنه ، فشكت إليه ذلك ، فذكره أبو بكر للنبي ﷺ ، فأمره بقبضها . فصاح عبد الله بن أبى : من يعذرنى من محمد ، يغلبنا على ملوكتنا ؟ فأنزل الله فيهم هذا .

وقوله : ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ : هذا خرج مخرج الغالب ، فلا مفهوم له . وقوله : ﴿ لِيَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى : من خراجهن ومهورهن وأولادهن . وقد نهى رسول الله ﷺ عن كسب الحجام ، ومهر البغى ، وحلوان الكاهن (١) . وقوله : ﴿ وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى : لهن ، وقال ابن عباس : فإن فعلتم فإن الله لهن غفور رحيم ، وإثمهن على من أكرههن . وفى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « رُفِعَ عَنِ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ ، وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ » (٢) .

ولما فصل تعالى هذه الأحكام وبينها قال : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ يعنى : القرآن فيه آيات واضحة مفسرات ﴿ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أى : خبراً عن الأمم الماضية ، وما حل بهم فى مخالفتهم أوامر الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٦] . ﴿ وَمَوْعِظَةً ﴾ أى : زاجراً عن ارتكاب المآثم والمحارم ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أى : لمن اتقى الله وخافه .

(١) البخارى (٢٢٣٧) ومسلم (١٥٦٧ / ٣٩) .

(٢) ابن ماجه (٢٠٤٣) وصححه الألبانى .

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ﴿١٥﴾

قال ابن عباس : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يقول : هادى أهل السموات والأرض . قال مجاهد وابن عباس فى قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ : يدبر الأمر فيهما ، نجومهما وشمسهما وقمرهما . وقال أنس بن مالك : إن إلهى يقول : نورى هداى . واختار هذا القول ابن جرير . وقال السدى فى قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ : فبنوره أضاءت السموات والأرض . وفى الصحيحين عن ابن عباس : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول : « اللهم لك الحمد ، أنت قِيمَ السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن » الحديث (١) .

وقوله : ﴿ مِثْلُ نُورِهِ ﴾ : فى هذا الضمير قولان : أحدهما : أنه عائد إلى الله ، عز وجل ، أى : مثل هداه فى قلب المؤمن ، قاله ابن عباس ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ . والثانى : أن الضمير عائد إلى المؤمن الذى دل عليه سياق الكلام : تقديره : مثل نور المؤمن الذى فى قلبه كمشكاة . فشبّه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى ، وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه ، كما قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود : ١٧] ، فشبّه قلب المؤمن فى صفاته فى نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهرى ، وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافى المشرق المعتدل ، الذى لا كدر فيه ولا انحراف .

فقوله : ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ : قال ابن عباس وغير واحد : هو موضع الفتيلة من القنديل . هذا هو المشهور ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ ، وهو الذبالة التى تضىء ﴿ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ أى : هذا الضوء مشرق فى زجاجة صافية . قال أبى بن كعب وغير واحد : وهى نظير قلب المؤمن ﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ من الدر ، أى : كأنها كوكب من در . قال أبى بن كعب : كوكب مضىء . وقال قتادة : مضىء مبین ضخم . ﴿ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ أى : يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة ﴿ زَيْتُونَةٍ ﴾ بدل أو عطف بيان ﴿ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ أى : ليست فى شرقى بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار، ولا فى غربها فيتقلّب عنها الفىء قبل الغروب ، بل هى فى مكان وسط ، تفرّعه الشمس من أول النهار إلى آخره ، فيجىء زيتها معتدلا صافيا مشرقا . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال : شجرة بالصحراء ، لا يظلمها جبل ولا شجر ولا كهف ، ولا يوارىها شىء ، وهو أجود لزيتها . وقال السدى :

ليست بشرقية يحوزها المشرق ، ولا غربية يحوزها المغرب دون المشرق ، ولكنها على رأس جبل ، أو فى صحراء ، تصيبها الشمس النهار كله . وقيل : المراد بقوله : ﴿ زَيْتُونَةٌ لَّا شَرْقِيَّةٌ وَلَا غَرْبِيَّةٌ ﴾ : إنها فى وسط الشجر ، وليست بادية للمشرق ولا للمغرب . وأولى هذه الأقوال القول الأول ، وهو أنها فى مستوى من الأرض ، فى مكان فسيح بارز ظاهر ضاح للشمس ، تفرعه من أول النهار إلى آخره ، ليكون ذلك أصفى لزيتها وألطف ، كما قال غير واحد ممن تقدم ؛ ولهذا قال : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى : لضوء إشراق الزيت .

وقوله : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ قال ابن عباس : يعنى بذلك إيمان العبد وعمله . وقال مجاهد ، والسدى : يعنى نور النار ونور الزيت . وقال أبى بن كعب : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ : فهو يتقلب فى خمسة من النور ، فكلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، ومصيره إلى النور يوم القيامة إلى الجنة . وقال السدى فى قوله : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ قال : نور النار ونور الزيت ، حين اجتماعا أعضاء ، ولا يضىء واحد بغير صاحبه ، كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتماعا ، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه . ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ أى : يرشد الله إلى هدايته من يختاره ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ : لما ذكر تعالى هذا مثلا لنور هداة فى قلب المؤمن ، ختم الآية بقوله : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى : هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال . روى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مُصْفَح : فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن ، سراج فيه نوره . وأما القلب الأغلف فقلب الكافر . وأما القلب المنكوس فقلب المنافق ، عَرَفَ ثم أنكر . وأما القلب المُصْفَح فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح والدم ، فأى المدين غلبت على الأخرى غلبت عليه . »

إسناد جيد ولم يخرجوه (١) .

﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ
 رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا
 تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ (١٧)
 ﴿ لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ
 وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١٨)

لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن ، وما فيه من الهدى والعلم ، بالمصباح فى الزجاجاة الصافية المتوقد من زيت طيب ، وذلك كالقنديل ، ذكر محلها وهى المساجد ، التى هى أحب

البقاء إلى الله تعالى من الأرض ، وهى بيوتها التى يعبد فيها ويوحّد ، فقال : ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ ﴾ أى : أمر الله تعالى بتعاهدتها وتطهيرها من الدنس واللغو ، والأفعال والأقوال التى لا تليق فيها ، كما قال ابن عباس فى هذه الآية الكريمة: نهى الله سبحانه عن اللغو فيها. وكذا قال عكرمة ، وأبو صالح ، والضحاك ، وغيرهم من علماء المفسرين . وقال قتادة : هى هذه المساجد ، أمر الله ، سبحانه ، ببنائها وعمارتها ورفعها وتطهيرها .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى بناء المساجد ، واحترامها وتوقيرها ، وتطيبها وتبخيرها . وذلك له محل مفرد يذكر فيه ، وقد كتبت فى ذلك جزءاً على حدة ، ولله الحمد والمنة . ونحن بعون الله تعالى نذكر هاهنا طرفاً من ذلك ، إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان : فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « من بنى مسجداً يبتغى به وجه الله ، بنى الله له مثله فى الجنة » . أخرجاه فى الصحيحين (١) .

وعن بُرَيْدَةَ أَنَّ رَجُلًا أَشَدَّ فِي الْمَسْجِدِ ، فَقَالَ : مَنْ دَعَا إِلَى الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَا وَجِدْتُ ، إِنَّمَا بُنِيَ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَ لَهُ » . رواه مسلم (٢) . وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : نهى رسول الله ﷺ عن البيع والابتاع ، وعن تناشد الأشعار فى المساجد . رواه أحمد وأهل السنن ، وقال الترمذى : حسن (٣) . وعن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ يَبِيعُ أَوْ يَبْتَاعُ فِي الْمَسْجِدِ ، فَقُولُوا : لَا أُرِيحُ اللَّهَ تِجَارَتِكَ . وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ يَنْشُدُ ضَالَّةً فِي الْمَسْجِدِ ، فَقُولُوا : لَا رَدَّ اللَّهُ عَلَيْكَ » . رواه الترمذى ، وقال : حسن غريب (٤) .

وأما أنه لا يشهر فيه سلاح ، ولا ينبض فيه بقوس ، ولا ينثر فيه نبل ، فلما يخشى من إصابة بعض الناس به ، لكثرة المصلين فيه ؛ ولهذا أمر رسول الله ﷺ إذا مر أحد بسهام أن يقبض على نصالها ؛ لئلا يؤذى أحداً ، كما ثبت فى الصحيح (٥) . وأما أنه لا يتخذ سوقاً ، فلما تقدم من النهى عن البيع والشراء فيه ، فإنه إنما بنى لذكر الله والصلاة كما قال النبى ، عليه الصلاة والسلام ، لذلك الأعرابى الذى بال فى طائفة المسجد : « إن المساجد لم تبن لهذا ، إنما بنيت لذكر الله والصلاة فيها » . ثم أمر بسجّل من ماء ، فأهريق على بوله (٦) .

وروى البخارى عن السائب بن يزيد الكندى قال : كنت قائماً فى المسجد ، فحصبنى رجل ، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب ، فقال : اذهب فائتنى بهذين . فجثته بهما ، فقال : من أنتما ؟ أو : من أين أنتما ؟ قال : من أهل الطائف . قال : لو كتتما من أهل البلد لأوجعتكما . ترفعان أصواتكما فى مسجد رسول الله ﷺ (٧) . وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ

(١) البخارى (٤٥٠) ومسلم (٥٣٣ / ٢٤) . (٢) مسلم (٥٦٩ / ٨٠) .

(٣) المسند (٦٦٧٦) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » وأبو داود (٤٤٩) والترمذى (٣٢٢) .

(٤) الترمذى (١٣٢١) وصححه الألبانى . (٥) مسلم (٢٦١٥ / ١٢٤) .

(٦) مسلم (٢٨٤ / ١٠٠) . (٧) البخارى (٤٧٠) .

أنه قال : « صلاة الرجل فى الجماعة تُصَعَّف على صلاته فى بيته وفى سوقة ، خمساً وعشرين ضعفاً . وذلك أنه إذا توضأ فأحسن وضوءه ، ثم خرج إلى المسجد ، لا يخرجها إلا الصلاة ، لم يخطُ خطوة إلا رُفِع له بها درجة ، وحطَّ عنه بها خطيئته ، فإذا صلى لم تنزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مُصلَّاه : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال فى صلاة ما انتظر الصلاة » (١) .

وروى مسلم عن أبى حميد - أو : أبى أسيد - قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل : اللهم افتح لى أبواب رحمتك ، وإذا خرج فليقل : اللهم إنى أسألك من فضلك » . ورواه النسائى (٢) . وعن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخل أحدكم المسجد ، فليسلم على النبى ﷺ وليقل : اللهم افتح لى أبواب رحمتك . وإذا خرج فليسلم على النبى ﷺ وليقل : اللهم اعصمنى من الشيطان الرجيم » . ورواه ابن ماجه ، وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما (٣) . فهذا الذى ذكرناه ، مع ما تركناه من الأحاديث الواردة فى ذلك كله محاذرة الطول داخل فى قوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ أى : اسم الله ، كقوله : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف : ٣١] ، وقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [الأعراف : ٢٩] ، وقوله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن : ١٨] . قال ابن عباس : ﴿ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ يعنى : يتلى فيها كتابه .

وقوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ أى : فى البُكرات والعشيَّات . والآصال : جمع أصيل ، وهو آخر النهار . وقال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : كل تسبيح فى القرآن هو الصلاة . وقال ابن عباس : يعنى بالغدو : صلاة الغداة ، ويعنى بالآصال : صلاة العصر ، وهما أول ما افترض الله من الصلاة ، فأحب أن يذكرهما وأن يُذكَرَ بهما عباده . وكذا قال الحسن ، والضحاك : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ يعنى : الصلاة . فقوله : ﴿ رِجَالٌ ﴾ فيه إشعار بهمهم السامية ، ونياتهم وعزائمهم العالية ، التى بها صاروا عمَّاراً للمساجد ، التى هى بيوت الله فى أرضه ، ومواطن عبادته وشكره ، وتوحيده وتنزيهه ، كما قال تعالى : ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

فأما النساء فصَلَّاتهن فى بيوتهن أفضل لهن ؛ لما رواه أبو داود ، عن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال : « صلاة المرأة فى بيتها أفضل من صلاتها فى حجرتها ، وصلاتها فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها » (٤) . هذا ويجوز لها شهود جماعة الرجال ، بشرط ألا تؤذى أحدًا من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب ، كما ثبت فى الصحيحين عن عبد الله بن

(١) البخارى (٦٤٧) ومسلم (٦٤٩ / ٢٧٢) .

(٢) مسلم (٧١٣ / ٦٨) والنسائى (٧٢٩) .

(٣) ابن ماجه (٧٧٣) وابن خزيمة (٤٥٢) وابن حبان (٢٠٤٨ إحصان) وصححه الألبانى .

(٤) أبو داود (٥٧٠) وصححه الألبانى .

عمر أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ». رواه البخارى ومسلم (١) ،
ولأحمد وأبى داود : « بيوتهن خير لهن » (٢) ، وفى رواية : « وليخرجن وهن ثقلات » (٣) ،
أى : لا ربح لهن .

وقد ثبت فى صحيح مسلم ، عن زينب - امرأة ابن مسعود - قالت : قال لنا رسول الله ﷺ :
« إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيباً » (٤) . وفى الصحيحين عن عائشة ، أنها
قالت : كان نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله ﷺ ، ثم يرجعن متلفعات بمروطهن ،
ما يعرفن من الغلس (٥) . وفى الصحيحين أيضاً عنها أنها قالت : لو أدرك رسول الله ﷺ ما
أحدث النساء لمنعهن المساجد ، كما منعت نساء بنى إسرائيل (٦) .

وقوله : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » ، كقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا
تلهيكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » الآية [المنافقون : ٩] ، وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا
نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسموا إلى ذكر الله وذروا البيع » الآية [الجمعة : ٩] .

يقول تعالى : لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملاذ بيعها وريحها ، عن ذكر ربهم
الذى هو خالقهم ورازقهم ، والذين يعلمون أن الذى عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم ؛
لأن ما عندهم ينفد وما عند الله باق ؛ ولهذا قال : « لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام
الصلاة وإيتاء الزكاة » أى : يقدمون طاعته ومُرادَه ومحبته على مرادهم ومحبتهم . عن عبد الله بن
عمر ، أنه كان فى السوق فأقيمت الصلاة ، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد ، فقال ابن عمر :
فيهم نزلت : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » . وقال عمرو بن دينار الأعور : كنت
مع سالم بن عبد الله ونحن نريد المسجد ، فمرنا بسوق المدينة وقد قاموا إلى الصلاة وخمروا
متاعهم ، فنظر سالم إلى أمتعتهم ليس معها أحد ، فتلا سالم هذه الآية : « رجال لا تلهيهم
تجارة ولا بيع عن ذكر الله » ، ثم قال : هم هؤلاء . وقال ابن عباس : « لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن
ذكر الله » يقول : عن الصلاة المكتوبة . وقال السدى : عن الصلاة فى جماعة .

وقوله : « يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار » أى : يوم القيامة الذى تتقلب فيه القلوب
والأبصار ، أى : من شدة الفزع وعظمة الأهوال ، كما قال تعالى : « وأنذرهم يوم الآفة إذ
القلوب لدى النجاجر كاطمين » [غافر : ١٨] ، وقال تعالى : « إنما يؤخروهم ليوم تشخص فيه الأبصار »
[إبراهيم : ٤٢] ، وقال تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا
نريد منكم جزاء ولا شكوراً . إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً . فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة

(١) البخارى (٩٠٠) ومسلم (٤٤٢ / ١٣٦) .

(٢) المسند (٤٥٦٨) وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده صحيح » .

(٣) المسند (٤٣٨ / ٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٣٦ / ٢) : « إسناده حسن » .

(٤) مسلم (٤٤٣ / ١٤٢) . (٥) البخارى (٥٧٨) ومسلم (٦٤٥ / ٢٣١) .

(٦) البخارى (٨٦٩) ومسلم (٤٤٥ / ١٤٤) .

وَسُرُورًا . وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿ [الإنسان : ٨ - ١٢] . وقال هاهنا : ﴿ لِيَجْزِيَهِمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ أى : هؤلاء من الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم .

وقوله : ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ أى : يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا ﴾ [الأنعام : ١٦٠] ، وقال : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة : ٢٤٥] ، وقال : ﴿ وَاللَّهُ يُّضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٣٦١] ، كما قال هاهنا : ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلْتُم كُرْبًا بِقِيَعةٍ يَحْسَبُ الْأَطْمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمَّ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُمْ فَوْقَ حِسَابِهِمُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ أَوْ كَظَلَمْتُمْ فِي بَحْرِ لَيْجِي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمْتُمْ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكُدُّ لَمْ يَكُدَّ بِرَبِّهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

هذان مثالان ضربهما الله تعالى لنوعى الكفار ، فاما الأول من هذين المثلين : فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم ، الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات ، وليسوا فى نفس الأمر على شيء ، فمثلهم فى ذلك كالسراب الذى يرى فى القيعان من الأرض عن بعد كأنه بحر طام . والقيعة : جمع قاع ، كجار وجيرة . والقاع أيضاً : واحد القيعان ، كما يقال : جار وجيران . وهى : الأرض المستوية المتسعة المنبسطة ، وفيه يكون السراب ، يرى كأنه ماء بين السماء والأرض ، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء ، حسبه ماءً فقصده ليشرب منه ، فلما انتهى إليه ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ ، فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملاً ، وأنه قد حصل شيئاً ، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها ، ونوقش على أفعاله ، لم يجد له شيئاً بالكلية قد قبل ، إما لعدم الإخلاص ، وإما لعدم سلوك الشرع ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] . وقال هاهنا : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَ حِسَابِهِمُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ . وهكذا روى عن أبى بن كعب ، وابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة وغير واحد . وفى الصحيحين : أنه يقال يوم القيامة لليهود : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد عزير ابن الله . فيقال : كذبتم ، ما اتخذ الله من ولد ، ماذا تبغون ؟ فيقولون : أى ربنا ، عطشنا فاسقنا . فيقال : ألا ترون ؟ فتمثل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً ، فينطلقون فيتهافتون فيها (١) .

وهذا المثال مثال لذوى الجهل المركب . فاما أصحاب الجهل البسيط ، وهم الأغشام المقلدون

(١) البخارى (٤٥٨١) ومسلم (١٨٣ / ٣٠٢) .

لائمة الكفر، الصم البكم الذين لا يعقلون ، فمثلهم كما قال تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ﴾ قال قتادة : وهو العميق ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ أى : لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام ، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذى لا يدري أين يذهب ، ولا يعرف حال من يقوده ، بل كما يقال فى المثل للجاهل : أين تذهب ؟ قال : معهم . قيل : فإلى أين يذهبون ؟ قال : لا أدري . وقال ابن عباس : ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ : يعنى بذلك : الغشاوة التى على القلب والسمع والبصر ، وهى كقوله : ﴿ خَمَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : ٧] ، وكقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجنابة : ٢٣] . وقال أبى بن كعب فى قوله : ﴿ ظَلَمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ : فهو يتقلب فى خمسة من الظلم : كلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات ، إلى النار . وقال الربيع بن أنس ، والسدى نحو ذلك أيضاً .

وقوله : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ أى : من لم يهده الله فهو هالك جاهل حائر باثر كافر ، كما قال تعالى : ﴿ مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾ [الاعراف : ١٨٦] ، وهذا فى مقابلة ما قال فى مثل المؤمنين : ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ : فنسال الله العظيم أن يجعل فى قلوبنا نوراً ، وعن إيماننا نوراً ، وعن شمائلنا نوراً ، وأن يعظم لنا نوراً .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجِجُ لَهُمْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَقَاتٍ كُلِّ قَدٍ عَلِمَ صَلَاتَهُمْ وَتَسْبِيحَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ ﴿٤١﴾ **وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ** ﴿٤٢﴾

يخبر تعالى أنه يسبح له من فى السموات والأرض ، أى : من الملائكة والأناسى ، والجان والحيوان ، حتى الجماد ، كما قال تعالى : ﴿ تَسْبِجُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ الآية [الإسراء : ٤٤] . وقوله : ﴿ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ ﴾ أى : فى حال طيرانها تسبح ربها وتعبد بتسبح الهمها وأرشدها إليه ، وهو يعلم ما هى فاعلة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ كُلُّ قَدٍ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ أى : كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه فى عبادة الله ، عز وجل . ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض ، فهو الحاكم المتصرف الذى لا معقب لحكمه ، وهو الإله المعبود الذى لا تنبغى العبادة إلا له ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى : يوم القيامة ، فيحكم فيه بما يشاء ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم : ٣١] ، فهو الخالق المالك ، ألا له الحكم فى الدنيا والأخرى ، وله الحمد فى الأولى والآخرة ؟ !

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يُجْعَلُهُمْ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبَ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ ﴾

يذكر تعالى أنه يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئها وهى ضعيفة ، وهو الإرجاء ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ أى : يجمعه بعد تفرقه ﴿ ثُمَّ يُجْعَلُهُمْ رُكَّامًا ﴾ أى : متراكماً ، أى : يركب بعضه بعضاً ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ ﴾ أى المطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ أى : من خلله . وكذا قرأها ابن عباس والضحاك .

وقوله : ﴿ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ : قال بعض النحاة : « من » الأولى لابتداء الغاية ، والثانية للتبعض ، والثالثة لبيان الجنس . وهذا إنما يجيء على قول من ذهب من المفسرين إلى أن قوله : ﴿ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ ﴾ ومعناه : أن فى السماء جبال برد ينزل الله منها البرد . وأما من جعل الجبال هاهنا كناية عن السحاب ، فإن « من » الثانية عند هذا لابتداء الغاية أيضاً ، لكنها بذكر من الأولى ، والله أعلم . وقوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ : يحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ ﴾ أى : بما ينزل من السماء من نوعى البرد والمطر ، فيكون قوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ رحمة لهم ، ﴿ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى : يؤخر عنهم الغيث . ويحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ ﴾ أى : بالبرد نقمة على من يشاء لما فيه من نثر ثمارهم وإتلاف زروعهم وأشجارهم . ويصرفه عن من يشاء رحمة بهم . وقوله : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ أى : يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته .

وقوله : ﴿ يَقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى : يتصرف فيهما ، فيأخذ من طول هذا فى قصر هذا حتى يعتدلا ، ثم يأخذ من هذا فى هذا ، فيطول الذى كان قصيراً ، ويقصر الذى كان طويلاً . والله هو المتصرف فى ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ أى : للدليل على عظمته تعالى ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠] ، وما بعدها من الآيات الكريمة .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾

يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم ، فى خلقه أنواع المخلوقات ، على اختلاف أشكالها وألوانها ، وحركاتها وسكناتها ، من ماء واحد ، ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ﴾ كالحية وما شاكلها ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ﴾ كالإنسان والطير ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات ؛ ولهذا قال : ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ أى : بقدرته ؛ لأنه ما شاء كان ، وما لم

يشأ لم يكن ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿٤٦﴾

يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحكم والحكم والأمثال البينة المحكمة، كثيراً جداً ، وأنه يرشد إلى تفهمها وتعليلها أولى الأبواب والبصائر والنهي ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

﴿ وَيَقُولُونَ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَسَيِّئَةً فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾

يخبر تعالى عن صفات المنافقين ، الذين يظهرون خلاف ما يظنون ، يقولون قولاً بالستهم : ﴿ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أى : يخالفون أقوالهم بأعمالهم ، فيقولون ما لا يفعلون ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ الآية ، أى : إذا طلبوا إلى اتباع الهدى ، فيما أنزل الله على رسوله ، عرضوا عنه واستكبروا فى أنفسهم عن اتباعه . وهذه كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَرَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء : ٦٠ ، ٦١] . وقوله : ﴿ وَإِن يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ أى : إذا كانت الحكومة لهم لا عليهم ، جاؤا سامعين مطيعين وهو معنى قوله : ﴿ مُذْعِنِينَ ﴾ ، وإذا كانت الحكومة عليه عرض ودعا إلى غير الحق ، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبى ﷺ ليروج باطله ثم . فإذا عانه أولاً لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق ، بل لأنه موافق لهواه ؛ ولهذا لما خالف الحق قصده ، عدل عنه إلى غيره ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ ﴾ يعنى : لا يخرج أمرهم عن أن يكون فى القلوب مرض لازم لها ، أو قد عرض لها شك فى الدين ، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم فى الحكم . وأيا ما كان فهو كفر محض ، والله عليهم بكل منهم ، وما هو عليه منطو من هذه الصفات . وقوله : ﴿ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى : بل هم الظالمون الفاجرون ، والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور ، تعالى الله ورسوله عن ذلك .

ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ، الذين لا يبغون دينا سوى كتاب الله وسنة رسوله ، فقال : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ أى : سمعاً وطاعة ؛ ولهذا وصفهم تعالى بفلاح ، وهو نيل المطلوب والسلامة من المهروب ، فقال : ﴿ وَأُوتِيتُكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . والأحاديث والآثار فى وجوب الطاعة لكتاب الله وسنة رسوله ، وللخلفاء الراشدين ، والأئمة إذا أمروا بطاعة الله أكثر من أن تحصر فى هذا المكان .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ قال قتادة : يطع الله ورسوله فيما أمراه به وترك ما نهياه عنه ﴿ وَيَخْشَى اللَّهَ ﴾ فيما مضى من ذنوبه ﴿ وَيَتَّقَهُ ﴾ فيما يستقبل . وقوله : ﴿ فَأُوتِيتُكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ يعنى : الذين فازوا بكل خير ، وأمنوا من كل شر فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةٍ إِنَّ رِيعَ اللَّهِ خَيْرٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن أهل النفاق ، الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ : لئن أمرتم بالخروج فى الغزو ليخرجن ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ لَا تُفْسِمُوا ﴾ أى : لا تحلفوا . وقوله : ﴿ طَاعَةَ مَعْرُوفَةٍ ﴾ قيل : معناه : طاعتكم طاعة معروفة ، أى : قد علم طاعتكم ، إنما هى قول لا فعل معه ، وكلما حلفتكم كذبتهم ، كما قال تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَ اللَّهُ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٩٦] ، وقال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون : ٢] ، فهم من سجيتهم الكذب حتى فيما يختارونه ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ شَهِيدٌ لِّإِثْمِهِمْ كَذَابُونَ . لَئِن أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِن نُّصِرُوهُمْ لَيُوَلِّنَنَّ الْأُذُنُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴾ [الحشر : ١١ ، ١٢] . وقيل : المعنى فى قوله : ﴿ طَاعَةَ مَعْرُوفَةٍ ﴾ أى : ليكن أمركم طاعة معروفة ، أى : بالمعروف من غير حلف ولا إقسام ، كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغير حلف ، فكونوا أنتم مثلهم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى : هو خير بكم وبمن يطيع عن يعصى ، فالحلف وإظهار الطاعة - والباطن بخلافه ، وإن راج على المخلوق - فالخالق ، تعالى ، يعلم السر وأخفى ، لا يروج عليه شيء من التدليس ، بل هو خير بضمائر عبادته ، وإن أظهرها خلافها .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ أى : اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أى : تتولوا عنه وتركوا ما جاءكم به ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ ﴾ أى : إبلاغ الرسالة وأداء الامانة ﴿ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ﴾ أى : من ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ وذلك

لأنه يدعو إلى صراط مستقيم ﴿ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٣] . وقوله: ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ كقولهِ: ﴿ فَأَتَمْنَا عَلَيْكَ الْبَلَاغَ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠] ، وقوله: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّرٍ ﴾ [الغاشية: ٢١ ، ٢٢] .

﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

هذا وعد من الله لرسوله ﷺ ، بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض ، أى : أئمة الناس والولاية عليهم ، وبهم تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد ، وليبدلهم من بعد خوفهم أمنا وحكما فيهم ، وقد فعله تبارك وتعالى ، وله الحمد والمنة ، فإنه ﷺ لم يميت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين ، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكما لها . وأخذ الجزية من مجوس هجر ، ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية - وهو المقوقس - وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة ، الذى تملك بعد أضحمة ، رحمه الله وأكرمه . ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة ، قام بالأمر بعده خليفته أبوبكر الصديق ، فلم شعث ما وهى عند موته ، عليه الصلاة والسلام ، وأطد جزيرة العرب ومهداها ، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد ابن الوليد ، رضى الله عنه ، ففتحوا طرفا منها ، وقتلوا خلقا من أهلها . وجيشا آخر صحبة أبى عبيدة ، رضى الله عنه ، ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام ، وثالثا صحبة عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، إلى بلاد مصر ، ففتح الله للجيش الشامى فى أيامه بصرى ودمشق ومخالفهما من بلاد حوران وما والاها ، وتوفاه الله ، عزوجل ، واختار له ما عنده من الكرامة . ومن على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق ، فقام فى الأمر بعده قياما تاما ، لم يدُر الفلك بعد الأنبياء عليهم السلام على مثله ، فى قوة سيرته وكمال عدله . وتم فى أيامه فتح البلاد الشامية بكما لها ، وديار مصر إلى آخرها ، وأكثر إقليم فارس ، وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان ، وتقهرق إلى أقصى مملكته ، وقصر قيصر ، وانتزع يده عن بلاد الشام فانحاز إلى قسطنطينية ، وأنفق أموالهما فى سبيل الله ، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله ، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة .

ثم لما كانت الدولة العثمانية ، أمتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك : الأندلس ، وقبرص ، وبلاد القيروان ، وبلاد سبته مما يلى البحر المحيط ، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين ، وقتل كسرى ، وباد ملكه بالكلية . وفتحت مدائن العراق ، وخراسان ، والأهواز ، وقتل المسلمون من الترك

مقتلة عظيمة جدا ، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان ، وجبى الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضى الله عنه . وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن ؛ ولهذا ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله زوى لى الأرض ، فأريت مشارقتها ومغاربها ، وسيلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » (١) . فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، فنسأل الله الإيمان به ، وبرسوله ، والقيام بشكره على الوجه الذى يرضيه عنا .

روى الإمام مسلم عن جابر بن سمرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يزال أمر الناس ما ضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا » . ثم تكلم النبى ﷺ بكلمة خفيت عنى فسألت أبى : ماذا قال رسول الله ﷺ ؟ فقال : « كلهم من قریش » . ورواه البخارى (٢) . وهذا الحديث فيه دلالة على أنه لا بد من وجود اثنى عشر خليفة عادلا ، وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثنى عشر فإن كثيرا من أولئك لم يكن إليهم من الأمر شىء ؛ فأما هؤلاء فإنهم يكونون من قریش ، يَلُون فيعدلون . وقد وقعت البشارة بهم فى الكتب المتقدمة ، ثم لا يشترط أن يكونوا متابعين ، بل يكون وجودهم فى الأمة متتابعاً ومتفرقا ، وقد وُجِد منهم أربعة على الولاة ، وهم : أبوبكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على ، رضى الله عنهم . ثم كانت بعدهم فترة ، ثم وُجِد منهم ما شاء الله ، ثم قد يُوْجِد منهم من بقى فى وقت يعلمه الله . ومنهم المهدي الذى يطابق اسمه اسم رسول الله ﷺ ، وكنيته كنيته ، يملا الأرض عدلا وقسطا ، كما ملئت جوراً وظلما .

وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى : « **وَإِذْ كُرُوا إِذْ أَنْتُمْ لَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَفَتَكُمْ النَّاسُ فَاوَاكُمُ وَيَأْتِكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** » [الانفال : ٢٦] .

وقوله : « **كَمَا اسْتَخَلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ** » كما قال تعالى عن موسى ، عليه السلام ، أنه قال لقومه : « **عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلَفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** » [الاعراف : ١٢٩] ، وقال تعالى : « **وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنَمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ** » [القصص : ٥ ، ٦] . وقوله : « **وَلْيَمَكِّنْ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ** » الآية ، كما قال رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم ، حين وفد عليه : « **أتعرف الحيرة ؟** » قال : لم أعرفها ، ولكن قد سمعت بها . قال : « **فوالذى نفسى بيده ، ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الطعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز** . قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : « **نعم ، كسرى بن هرمز ، وليبدكن المال حتى لا يقبله أحد** . قال عدى بن حاتم : فهذه الطعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذى نفسى بيده ، لتكون الثالثة ؛ لأن رسول الله ﷺ قد قالها (٣) .

(١) مسلم (٢٨٨٩ / ١٩) .

(٢) البخارى (٣٥٩٥) .

(٣) البخارى (٧٢٢٢) ومسلم (١٨٢١ / ٦) .

وقوله: ﴿يَعْبُدُونِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ روى الإمام أحمد عن أنس ، أن معاذ بن جبل حدثه قال : بينا أنا رديف رسول الله ﷺ ليس بينى وبينه إلا آخرة الرجل ، قال : « يا معاذ » ، قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال : ثم سار ساعة ثم قال : « يا معاذ بن جبل » ، قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك . ثم سار ساعة ، ثم قال : « يا معاذ بن جبل » ، قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال : « هل تدرى ما حق الله على العباد » ، قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » . قال : ثم سار ساعة . ثم قال : « يا معاذ بن جبل » ، قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال : « فهل تدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ » ، قال : قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن حق العباد على الله ألا يعذبهم » . أخرجاه فى الصحيحين (١) .

وقوله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أى : فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك ، فقد فسقَ عن أمر ربه وكفى بذلك ذنباً عظيماً . فالصحابا ، رضى الله عنهم ، لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله ، عز وجل ، وأطوعهم لله - كان نصرهم بحسبهم ، وأظهروا كلمة الله فى المشارق والمغارب ، وأيدهم تأييداً عظيماً ، وتحكموا فى سائر العباد والبلاد . ولما قصرَ الناس بعدهم فى بعض الأوامر ، نقص ظهورهم بحسبهم ، ولكن قد ثبت فى الصحيحين ، من غير وجه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة » (٢) .

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا أُولَئِكَ إِلَّا فِي الْأَرْضِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بإقام الصلاة ، وهى عبادة الله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة ، وهى : الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم ، وأن يكونوا فى ذلك مطيعين لرسول الله ﷺ ، أى : سالكين وراءه فيما به أمرهم ، وتاركين ما عنه رجزهم ، لعل الله يرحمهم بذلك . ولا شك أن من فعل ذلك أن الله سيرحمهم ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ [التوبة : ٧١] . وقوله : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ﴾ ، أى : لا تظنن يا محمد ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : خالفوك وكذبوك ﴿ مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : لا يعجزون الله ، بل الله قادر عليهم ، وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا أُولَئِكَ ﴾ فى الدار الآخرة ﴿ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى : بس المآل مآل الكافرين ، وبس القرار وبس المهاد .

(١) المسند (٥ / ٢٤٢) والبخارى (٥٩٦٧) ومسلم (٣٠ / ٤٨) .

(٢) البخارى (٧٣١١) ومسلم (١٩٢٠ / ١٧٠) .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعْتِدْنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُوتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَعْتِدُوا كَمَا اسْتَعْتَدَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَغْفِرْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض . وما تقدم في أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض . فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدْمهم بما مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحُلُمَ منهم في ثلاثة أحوال : الأول من قبل صلاة الغداة ؛ لأن الناس إذ ذاك يكونون نياماً في فرشهم ، ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ ﴾ أى : فى وقت القيلولة ؛ لأن الإنسان قد يضع ثيابه فى تلك الحال مع أهله ، ﴿ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴾ ؛ لأنه وقت النوم ، فيؤمّر الخدم والأطفال ألا يهجموا على أهل البيت فى هذه الأحوال ، لما يخشى أن يكون الرجل على أهله ، أو نحو ذلك من الأعمال ؛ ولهذا قال : ﴿ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾ أى : إذا دخلوا فى حال غير هذه الأحوال فلا جناح عليكم فى تمكينكم إياهم من ذلك ، ولا عليهم إن رأوا شيئاً فى غير تلك الأحوال ؛ لأنه قد أذن لهم فى الهجوم ، ولأنهم ﴿ طَوَافُونَ ﴾ عليكم ، أى : فى الخدمة وغير ذلك ، ويغتفر فى الطوافين ما لا يغتفر فى غيرهم ؛ ولهذا روى الإمام مالك وأحمد بن حنبل وأهل السنن أن رسول الله ﷺ قال فى الهرة : « إنها ليست بنجس ؛ إنها من الطوافين عليكم - أو - والطوافات » (١) .

ولما كانت هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشيء ، وكان عمل الناس بها قليلاً جداً ، أنكر عبد الله بن عباس ذلك على الناس ، [فعن] سعيد بن جبّير قال : قال ابن عباس : ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ ﴾ إلى آخر الآية ، والآية التى فى سورة النساء : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ فَأَرِزُوهُمْ مِنْهُ ﴾ [النساء : ٨] ، والآية التى فى الحجرات : ﴿ إِنْ أَمْرَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَقِمَ ﴾ [الحجرات : ١٣] . وقال السُدِّيّ : كان أناس من الصحابة ، رضى الله عنهم ، يحبون أن يواقعوا نساءهم فى هذه الساعات ليتغسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة ، فأمرهم الله أن يأمروا المملوكين والغلمان ألا يدخلوا عليهم فى تلك الساعات إلا بإذن .

(١) الموطأ (١ / ٢٣) والمسند (٥ / ٢٩٦) والترمذى (٩٢) وصححه الألبانى .

ومما يدل على أنها محكمة لم تنسخ ، قوله : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .
 ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ .
 بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون في العورات الثلاث ، إذا بلغوا الحلم ، وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال ، يعنى بالنسبة إلى أجانبيهم وإلى الأحوال التي يكون الرجل على امرأته ، وإن لم يكن في الأحوال الثلاث . قال يحيى بن أبى كثير : إذا كان الغلام رباعياً فإنه يستأذن في العورات الثلاث على أبويه ، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال . وهكذا قال سعيد بن جبيرة . وقال في قوله : ﴿ كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يعنى : كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه .
 وقوله : ﴿ وَالْفَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ : قال سعيد بن جبيرة ، ومقاتل بن حيان ، وقتادة ، والضحاك : هن اللواتي انقطع عنهن الحيض ويشن من الولد ﴿ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ أى : لم يبق لهن تشوق إلى التزويج ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ أى : ليس عليها من الحرج فى التستر كما على غيرها من النساء . قال ابن مسعود فى قوله : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ قال : الجلباب ، أو الرداء ، وكذا روى عن ابن عباس ، وابن عمر ، ومجاهد ، وغيرهم . وقال سعيد بن جبيرة : ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ يقول : لا يتبرجن بوضع الجلباب ، أن يرى ما عليها من الزينة . وقوله : ﴿ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ ﴾ أى : وترك وضعهن لثيابهن - وإن كان جائزاً - خيراً وأفضل لهن ، والله سميع عليم .

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالَكُمْ أَوْ بُيُوتِ حَمَلَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُمُ مَفَاحِجُهُمْ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

اختلف المفسرون - رحمهم الله - فى المعنى الذى رفع من أجله الحرج عن الأعمى والأعرج والمرضى هاهنا ، فقال عطاء الخراسانى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : نزلت فى الجهاد . وجعلوا هذه الآية هاهنا كالتى فى سورة الفتح . وتلك فى الجهاد لا محالة ، أى : أنهم لا إثم عليهم فى ترك الجهاد ؛ لضعفهم وعجزهم ، وكما قال تعالى فى سورة براءة : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون ﴿ [التوبة : ٩١ ، ٩٢] . وقيل : المراد هاهنا أنهم كانوا يتخرجون من

الأكل مع الأعمى ؛ لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات ، فربما سبقه غيره إلى ذلك . ولا مع الأعرج ؛ لأنه لا يتمكن من الجلوس ، فيفتات عليه جلسه . والمريض لا يستوفى من الطعام كغيره ، فكروها أن يؤاكلوهم لثلا يظلموهم ، فانزل الله هذه الآية رخصة فى ذلك . وهذا قول سعيد بن جبير ، ومقسم . وقال الضحاك : كانوا قبل المبعث يتخرجون من الأكل مع هؤلاء تقذراً وتقزراً ، ولثلا يتفضلوا عليهم ، فانزل الله هذه الآية .

وقال السدى : كان الرجل يدخل بيت أبيه ، أو أخيه أو ابنه ، فتتحفه المرأة بالشىء من الطعام ، فلا يأكل من أجل أن رب البيت ليس ثم . فقال الله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴾ إنما ذكر هذا - وهو معلوم - ليعطف عليه غيره فى اللفظ ، وليساوية ما بعده فى الحكم . وتضمن هذا بيوت الأبناء ؛ لأنه لم ينص عليهم . ولهذا استدل بهذا من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه ، وقد جاء فى المسند والسنن ، من غير وجه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أنت ومالك لأبيك » (١) .

وقوله : ﴿ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ ، هذا ظاهر . وقد استدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض ، كما هو مذهب أبى حنيفة والإمام أحمد بن حنبل ، فى المشهور عنهما .

وأما قوله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ : فقال سعيد بن جبير ، والسدى : هو خادم الرجل من عبد وقهرمان ، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف . وعن عائشة قالت : كان المسلمون يرغبون فى النفير مع رسول الله ﷺ ، فيدفعون مفاتيحهم إلى ضمنائهم ، ويقولون : قد أحللتنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه . فكانوا يقولون : إنه لا يحل لنا أن نأكل ؛ إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم ، وإنما نحن أمناء . فانزل الله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ . وقوله : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ أى : بيوت أصدقائكم وأصحابكم ، فلا جناح عليكم فى الأكل منها ، إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهون ذلك . وقال قتادة : إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه .

وقوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ قال ابن عباس فى هذه الآية : وذلك لما أنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ [النساء : ٢٩] ، قال المسلمون : إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، والطعام هو أفضل من الأموال ، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد . فكف الناس عن ذلك ، فانزل الله : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى ﴾ إلى قوله : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ . وكانوا أيضاً يأنفون ويتخرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده ، حتى يكون معه غيره ، فرخص الله لهم فى ذلك ، فقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ . فهذه رخصة من الله تعالى فى أن يأكل الرجل وحده ، ومع الجماعة ، وإن كان الأكل مع الجماعة أفضل وأبرك ، كما رواه الإمام أحمد

(١) المسند (٦٦٧٨) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » وأبو داود (٣٥٣٠) وابن ماجه (٢٢٩٢) .

عن وَحْشَى بْنِ حَرْبٍ، عن أبيه، عن جده؛ أَنَّ رجلاً قال للنبي ﷺ: «إنا نأكل ولا نشبع». قال: «فلعلكم تأكلون متفرقين، اجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه» (١).

وقوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ قال سعيد بن جبير، والحسن البصرى: فليسلم بعضهم على بعض. وقال جابر بن عبد الله: إذا دخلت على أهلك، فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة. وقال مجاهد: إذا دخلت المسجد فقل: السلام على رسول الله. وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

وقوله: ﴿تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مَبْرُوكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ عن ابن عباس أنه كان يقول: ما أخذت التشهد إلا من كتاب الله، سمعت الله يقول: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مَبْرُوكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾. وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: لما ذكر تعالى ما فى هذه السورة الكريمة من الأحكام المحكمة والشرائع المتقنة المبرمة، نبه تعالى على أنه يبين لعباده الآيات بياناً شافياً، ليتدبروها ويتعللوا لعلهم يعقلون.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

وهذا أيضاً أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف - لا سيما إذا كانوا فى أمر جامع مع الرسول ﷺ من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة، أو اجتماع فى مشورة ونحو ذلك - أمرهم الله تعالى ألا يفرقوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته. وإن من يفعل ذلك فإنه من المؤمنين الكاملين. ثم أمر رسوله ﷺ إذا استأذنه أحد منهم فى ذلك أن يأذن له، إن شاء؛ ولهذا قال: ﴿فَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ﴾ الآية. وقد روى أبو داود عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم، فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة». وهكذا رواه الترمذى والنسائى، وقال الترمذى: حسن (٢).

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْطُونَ مِنْكُمْ لِيُؤَاذِنُوا فَالْحَضَرَ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

(١) المسند (٣ / ٥٠١) وأبو داود (٣٧٦٤) وابن ماجه (٣٢٨٦) وصححه الالبانى.

(٢) أبو داود (٥٢٠٨) والترمذى (٢٧٠٦) والنسائى فى الكبرى (١٠٢٠١) وصححه الالبانى.

قال ابن عباس : كانوا يقولون : يا محمد ، يا أبا القاسم ، فنهاهم الله عز وجل ، عن ذلك ، إعظاماً لنبية ﷺ . قال : فقالوا : يا رسول الله ، يا نبي الله . وهكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير . وقال قتادة : أمر الله أن يهاب نبيه ﷺ ، وأن يُجَلَّ وأن يعظم وأن يسود . هذا قول . وهو الظاهر من السياق ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ﴾ [البقرة : ١٠٤] ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ [الحجرات : ٢ - ٥] . فهذا كله من باب الأدب فى مخاطبة النبي ﷺ والكلام معه وعنده كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته . والقول الثانى فى ذلك : أن المعنى : لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره ، فإن دعاءه مستجاب ، فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا . حكاه ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس ، والحسن البصرى ، وعطية العوفى ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آذَأ ﴾ قال مقاتل بن حيان : هم المنافقون ، كان ينقل عليهم الحديث فى يوم الجمعة - ويعنى بالحديث الخطبة - فيلذون ببعض أصحاب محمد ﷺ حتى يخرجوا من المسجد ، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبي ﷺ فى يوم الجمعة ، بعدما يأخذ فى الخطبة ، وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بإصبعه إلى النبي ﷺ ، فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل ، لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبي ﷺ يخطب ، بطلت جمعته . قال السدئى : كانوا إذا كانوا معه فى جماعة ، لاذ بعضهم ببعض ، حتى يتغيبوا عنه ، فلا يراهم . وقال قتادة فى قوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آذَأ ﴾ يعنى : لو آذأ عن نبي الله وعن كتابه . وقال سفيان : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آذَأ ﴾ ، قال : من الصف . وقال مجاهد فى الآية : ﴿ لَوْ آذَأ ﴾ : خلافاً .

وقوله : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره ﴾ أى : عن أمر رسول الله ﷺ ، وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وشريعته فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله ، فما وافق ذلك قبل ، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله ، كائنا ما كان ، كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » (١) . أى : فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطناً أو ظاهراً ﴿ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أى : فى قلوبهم ، من كفر أو نفاق أو بدعة ، ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : فى الدنيا ، بقتل ، أو حد ، أو حبس ، أو نحو ذلك . روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حولها ، جعل الفراش وهذه الدواب اللاتى يقعن فى النار يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبهن ويتقحمن فيها » قال : « فذلك مثلى ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم

عن النار هلم عن النار ، فتغلبوني وتقتحمون فيها . أخرجه (١).

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ
يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [٦٤]

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، وهو عالم بما
العباد عاملون في سرهم وجهرهم ، فقال: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ و « قد » للتحقيق ، كما قال
قلها: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آذًا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعْرِفِينَ مِنْكُمْ
وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ [الاحزاب : ١٨] . وقال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا
وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١] : وقال : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحِزَنَّكَ
الَّذِي يَقُولُونَ لِإِنَّهُمْ لَا يُكْذِبُونَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الانعام : ٣٣] ، وقال : ﴿ قَدْ نَرَى
تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ [البقرة : ١٤٤] . فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بـ
« قد » ، كما يقول المؤذن تحقيقًا وثبوتًا: « قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة »: فقولته تعالى :
﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أى : هو عالم به ، مشاهد له ، لا يعزب عنه مثقال ذرة ، كما قال تعالى :
﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّجْدِينَ . إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء :
٢١٧ - ٢٢٠] . وقال : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا
إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ
مُبِينٍ ﴾ [يونس : ٦١] وقال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : ٣٣]
أى : هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر . وقال تعالى : ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَفْشِقُونَ ثِيَابَهُمْ
يَعْلَمُ مَا يَسْرُونَ وَمَا يُخْفُونَ ﴾ [هود : ٥] وقال تعالى : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ
مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد : ١٠] : وقال تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا
وَيَعْلَمُ مُسْتَقْرَمًا وَمُسْتَوْدَعًا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [هود : ٦] ، وقال : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ
وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ
مُبِينٍ ﴾ [الانعام : ٥٩] . والآيات والأحاديث فى هذا كثيرة جدًا .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أى : ويوم يرجع الخلائق إلى الله - وهو يوم القيامة ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ
بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى : يخبرهم بما فعلوا فى الدنيا ، من جليل وحقيق ، وصغير وكبير ، كما قال
تعالى : ﴿ نَبِّئِ الْإِنْسَانَ يَوْمَ قَدَمٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة : ١٣] . وقال : ﴿ وَوَضِعَ الْكِتَابِ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ
مُسْتَفْزِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا
يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الفرقان

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ ﴿ الَّذِي لَهُ مَلِكٌ رِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴾

يقول تعالى حامداً لنفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم، كما قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُنشِرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْشُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ الآية [الكهف : ١ - ٣] . وقال ههنا : ﴿ تَبَارَكَ ﴾ ، وهو تفاعل من البركة المستقرة الدائمة الثابتة ﴿ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ﴾ نزل : فَعَلٌ ، من التكرار والتكسر ، كما قال : ﴿ وَالْكِتَابَ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [النساء : ١٣٦] ؛ لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة ، والقرآن نزل منجماً مفرقاً مفصلاً ، آيات بعد آيات ، وأحكاماً بعد أحكام ، وسوراً بعد سور . وهذا أشد وأبلغ ، وأشد اعتناء بمن أنزل عليه ، كما قال في أثناء هذه السورة : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا . وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣٢ ، ٣٣] . ولهذا سماه ههنا الفرقان ؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغي والرشاد ، والحلال والحرام .

وقوله : ﴿ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ : هذه صفة مدح وثناء ؛ لأنه أضافه إلى عبوديته ، كما وصفه بها في أشرف أحواله ، وهي ليلة الإسراء ، فقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ [الإسراء : ١] ، وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إليه : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن : ١٩] ، وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه ، فقال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ . وقوله : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ أي : إنما خصه بهذا الكتاب العظيم المبين المفصل المحكم الذي ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] ، الذي جعله فرقاناً عظيماً - إنما خصه به ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء ، ويستقل على الغبراء ، كما قال ﷺ : « بعثت إلى الأحمر والأسود » (١) . وقال : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي » ، فذكر منهن : أنه « كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » (٢) ، وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ الآية [الاعراف : ١٥٨] ، أي : الذي أرسلني هو مالك السموات والأرض ، الذي يقول للشئ كن

فيكون. وهو الذى يحيى ويميت، وهكذا قال ههنا: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾، فنزّه نفسه عن الولد، وعن الشريك. ثم أخبر أنه: ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ أى: كل شيء مما سواه مخلوق مربوب، وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه وإلهه، وكل شيء تحت قهره، وتدييره وتقديره.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله، الخالق لكل شيء، المالك لازمة الأمور، الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ومع هذا عبدوا معه من الأصنام ما لا يقدر على خلق جناح بعوضة، بل هم مخلوقون، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، فكيف يملكون لعباديتهم؟ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ أى: ليس لهم من ذلك شيء، بل ذلك مرجعه كله إلى الله عز وجل، الذى هو يحيى ويميت، وهو الذى يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم، ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَحْيِيكُمْ إِلَّا نُفُوسٌ وَاحِدَةٌ﴾ [لقمان: ٢٨]، ﴿وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةً بِالْبَصْرِ﴾ [القمر: ٥٠]، ﴿إِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ. فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النارعات: ١٣، ١٤]، ﴿إِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الصفافات: ١٩]، ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، فهو الله الذى لا إله غيره ولا رب سواه، ولا تنبغى العبادة إلا له؛ لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وهو الذى لا ولد له ولا والد، ولا عدل ولا نديد ولا وزير ولا نظير، بل هو الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢١﴾ أَكْتَتَبَهَا فِيهِ تَمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٢٢﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن سخافة عقول الجهلة من الكفار، فى قولهم عن القرآن: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ﴾ أى: كذب ﴿افْتَرَاهُ﴾ يعنون: النبى ﷺ، ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ أى: واستعان على جمعه بقوم آخرين، قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ أى: فقد افتروا هم قولاً باطلاً، هم يعلمون أنه باطل، ويعرفون كذب أنفسهم فيما يزعمون.

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَبَهَا﴾ يعنون: كتب الأوائل استنسخها، ﴿فِيهِ تَمَلَّى عَلَيْهِ﴾ أى: تُقرأ عليه ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أى: فى أول النهار وآخره. وهذا الكلام - لسخافته وكذبه وبهته منهم - كل أحد يعلم بطلانه، فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة: أن محمداً رسول الله لم يكن يعانى شيئاً من الكتابة، لا فى أول عمره ولا فى آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه، وصدقه، وبره وأمانته

ونزاهته من الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة ، حتى إنهم لم يكونوا يسمونه فى صغره إلى أن بعث إلا الأمين ، لما يعلمون من صدقه وبره . فلما أكرمه الله بما أكرمه به ، نصبوا له العداوة ، ورموه بهذه الأقوال التى يعلم كل عاقل براءته منها ، وحاروا ماذا يقذفونه به ، فتارة من إنفكهم يقولون : ساحر ، وتارة يقولون : شاعر ، وتارة يقولون : مجنون ، وتارة يقولون : كذاب ، قال الله تعالى : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٤٨] .

وقال تعالى فى جواب ما عاندوا ها هنا وافتروا : ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين إخباراً حقاً صدقاً مطابقاً للواقع فى الخارج ، ماضياً ومستقبلاً ﴿ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ ﴾ أى : الله الذى يعلم غيب السموات والأرض ، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر . وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ : دعاء لهم إلى التوبة والإنابة ، وإخبار بأن رحمته واسعة ، وأن حلمه عظيم ، وأن من تاب إليه تاب عليه . فهؤلاء مع كذبهم وافتراءهم وفجورهم وبهتهم وكفرهم وعنادهم ، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا ، يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٧٣ ، ٧٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهِمْ جَلْدٌ وَعَلَىٰ ذُنُوبِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ جَزِئٌ ﴾ [البروج : ١٠] ، قال الحسن البصرى : انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة .

﴿ وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْنَا كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُمْ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم ، وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم ، وإنما تعللوا بقوله : ﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ﴾ يعنون : كما نأكله ، ويحتاج إليه كما نحتاج ﴿ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ ، أى : يتردد فيها وإليها طلباً للتكسب والتجارة ، ﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ يقولون : هلا أنزل إليه ملك من عند الله ، فيكون له شاهداً على صدق ما يدعيه ! وهذا كما قال فرعون : ﴿ فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّرِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٣] . وكذلك قال هؤلاء على السواء تشابهت قلوبهم ؛ ولهذا قال : ﴿ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْنَا كَنْزٌ ﴾ أى : علم كنت ينفق

منه ، ﴿ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةً يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ أى : تسير معه حيث سار . وهذا كله سهل يسير على الله ، ولكن الحكمة فى ترك ذلك ، وله الحجة البالغة . ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَبِينُونَ إِلَّا رَجُلًا مُّسْحُورًا ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ أى : جاؤوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك ، من قولهم: « ساحر ، مسحور ، مجنون ، كذاب ، شاعر » . وكلها أقوال باطلة ، كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم فى ذلك . ولهذا قال: ﴿ فَضَلُّوا ﴾ أى : عن طريق الهدى ، ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ وذلك لأن كل من خرج عن الحق فإنه ضال حيثما توجه ؛ لأن الحق واحد ومنهج متحد ، يُصَدِّقُ بعضه بعضاً .

ثم قال تعالى مخبراً نبيه أنه لو شاء لآتاه خيراً مما يقولون فى الدنيا وأفضل وأحسن ، فقال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قَصُورًا ﴾ . قال مجاهد : يعنى فى الدنيا ، قال : وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصراً سواء كان كبيراً أو صغيراً . وقوله : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ أى : إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيباً وعناداً ، لا أنهم يطلبون ذلك تبصراً واسترشادا ، بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال ، ﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ أى : وأرصدنا ﴿ لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ أى : عذاباً أليماً حاراً لا يطاق فى نار جهنم . وقال سعيد بن جبير: « السعير » : واد من فيح جهنم .

وقوله: ﴿ إِذَا رَأَتْهُمْ ﴾ أى: جهنم ﴿ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ ، يعنى: فى مقام المحشر . قال السدى : من مسيرة مائة عام ﴿ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا ﴾ أى: حنقاً عليهم ، كما قال تعالى: ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورُ . تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ [الملك : ٧ ، ٨] ، أى يكاد ينفصل بعضها من بعض ، من شدة غيظها على من كفر بالله . عن ابن عباس قال : إن الرجل ليُجْرَّ إلى النار ، فتنزوى وتنقبض بعضها إلى بعض ، فيقول لها الرحمن: مالك ؟ قالت : إنه يستجير منى . فيقول : أرسلوا عبدى . وإن الرجل ليُجْرَّ إلى النار ، فيقول : يارب ، ما كان هذا الظن بك؟ فيقول : فما كان ظنك ؟ فيقول : أن تَسْعَى رحمتك . فيقول : أرسلوا عبدى . وإن الرجل ليُجْرَّ إلى النار ، فتشهى إليه النار شهوق البغلة إلى الشعير ، وترفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف . وهذا إسناد صحيح .

وقوله: ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا ﴾ قال عبد الله بن عمرو: مثل الزج فى الرمح ، أى: من ضيقه . ﴿ مُقْرَبِينَ ﴾ قال أبو صالح: يعنى: مكتفين ﴿ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ أى : بالويل والحسرة والخيبة ﴿ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ . وقال ابن عباس: أى: لا تدعوا اليوم ويلاً واحداً ، وادعوا ويلاً كثيراً . وقال الضحاك : الثبور : الهلاك . والأظهر : أن الثبور يجمع الهلاك والويل والحسار والدمار ، كما قال موسى لفرعون: ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢] ، أى: هالكا .

﴿ قُلْ أَدْرَأَيْكُمْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا

﴿ ١٥ ﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُورًا ﴿ ١١ ﴾

يقول تعالى : يا محمد ، هذا الذى وصفناه من حال أولئك الأشقياء ، الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم ، فتلقاهم بوجه عبوس وتغيظ وزفير ، ويلقون فى أماكنها الضيقة مقرنين ، لا يستطيعون حراكا ، ولا انتصارا ولا فكاكا مما هم فيه - : أهذا خير أم جنة الخلد التى وعدنا الله المتقين من عباده ، التى أعدها لهم ، وجعلها لهم جزاء على ما أطاعوه فى الدنيا ، وجعل مآلهم إليها ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ من الملاذ: من مآكل ومشارب وملابس ومسكن ، ومراكب ومناظر ، وغير ذلك ، مما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب أحد . وهم فى ذلك خالدون أبدا دائما سرمدا بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء ، لا يبعثون عنها حولا . وهذا من وعد الله الذى تفضل به عليهم ، وأحسن به إليهم ، ولهذا قال : ﴿ كَانَ عَلَى رِبِّكَ وَعْدًا مُّسْتَوْلاً ﴾ أى : لا بد أن يقع وإن يكون ، كما حكاه أبو جعفر بن جرير عن بعض علماء العربية أن معنى قوله : ﴿ وَعْدًا مُّسْتَوْلاً ﴾ أى : وعدا واجبا . وقال ابن عباس : ﴿ كَانَ عَلَى رِبِّكَ وَعْدًا مُّسْتَوْلاً ﴾ يقول : سلوا الذى وعدتكم - أو قال : واعدناكم نتجز .

وهذا المقام فى هذه السورة من ذكر النار، ثم التنبيه على حال أهل الجنة ، كما ذكر تعالى فى «سورة الصافات» حال أهل الجنة، وما فيها من النضرة والحبور، ثم قال : ﴿ أَذْكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّرُّومِ . إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ . إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فى أَصْلِ الْجَحِيمِ . طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئَوسُ الشَّيَاطِينِ . فَإِنَّهُمْ لَآكُلُونَ مِنْهَا فَمَا لَئُونٌ مِنْهَا الْبَطُونُ . ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ . ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ . إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِينَ . فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ [الصافات: ٦٢ - ٧٠] .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِى هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعِبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾

يقول تعالى مخبراً عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار فى عبادتهم من عبدوا من دون الله من الملائكة وغيرهم ، فقال : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ، قال مجاهد : عيسى ، والعزير ، والملائكة ﴿ فَيَقُولُ أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِى هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ ، أى : يقول الرب تبارك وتعالى للمعبودين : أنتم دعوتهم هؤلاء إلى عبادتكم من دونى ، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم ، من غير دعوة منكم لهم ؟ كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمَّى إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لى بِحَقِّ إِنْ كُنْتَ قُلْتَهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنى بِهِ ﴾ الآية [المائدة: ١١٦ ، ١١٧] . ولهذا قال تعالى مخبراً عما يجيب به المعبودون يوم القيامة : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ - قرأ الاكثرون بفتح « النون » من قوله : ﴿ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾

أى : ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحدا سواك ، لا نحن ولا هم ، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك ، بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ونحن برآء منهم ومن عبادتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلَاءَ إِبْرَاهِيمَ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ ﴾ الآية [سبأ : ٤٠ ، ٤١] ، وقرأ آخرون : ﴿ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ ، أى : ما ينبغى لأحد أن يعبدنا ، فإننا عبيد لك ، فقراء إليك . وهى قريبة المعنى من الأولى . ﴿ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَأَبَاءَهُمْ ﴾ أى : طال عليهم العمر ﴿ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ ﴾ أى : نسوا ما أنزلته إليهم على السنة رسلك ، من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك . ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ قال ابن عباس : أى هلكى . وقال الحسن البصرى ، ومالك عن الزهرى : أى لا خير فيهم .

قال الله تعالى : ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ أى : فقد كذبكم الذين عبدتكم فيما زعمتم أنهم لكم أولياء ، وأنكم اتخذتموهم قرباناً يقربونكم إليه زلفى ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَأِ يَسْتَجِيبَ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الاحقاف : ٥ ، ٦] . وقوله : ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾ أى : لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم ، ﴿ وَمَنْ يَظْلِمِ مَنكُم ﴾ أى : يشرك بالله ﴿ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين : أنهم كانوا يأكلون الطعام ، ويحتاجون إلى التغذية به ﴿ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ للتكسب والتجارة ، وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم ، فإن الله جعل لهم من السمات الحسنة ، والصفات الجميلة ، والأقوال الفاضلة ، والأعمال الكاملة ، والخوارق الباهرة ، والأدلة القاهرة ، ما يستدل به كل ذى لب سليم ، وبصيرة مستقيمة ، على صدق ما جاؤوا به من الله عز وجل . ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ [يوسف : ١٠٩] ، ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَأَيَّاكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨] .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ ﴾ أى : اخترنا بعضهم ببعض ، وبلونا بعضهم ببعض ، لنعلم من يطيع عن يعصى ، ولهذا قال : ﴿ أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ أى : يمين يستحق أن يوحى إليه ، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الانعام : ١٢٤] ، ومن يستحق أن يهديه الله لما أرسلهم به ، ومن لا يستحق ذلك . وقال محمد بن إسحاق فى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ ﴾ قال : يقول الله : لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى فلا يخالفون ، لفعلت ، ولكنى قد أردت أن ابتلى العباد بهم ، وأبتليهم بهم .

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار، عن رسول الله ﷺ : « يقول الله : إني مُبتليكَ ومُبتل بك » (١). وفى الصحيح أنه - عليه أفضل الصلاة والسلام - خير بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً رسولاً (٢) ، فاختار أن يكون عبداً رسولاً .

الجزء

١٩

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿١١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿١٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿١٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن تَعَنَّت الكفار فى كفرهم ، وعنادهم فى قولهم : ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ ﴾ أى : بالرسالة كما نزل على الانبياء ، كما أخبر عنهم تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ تُنزِلَ عَلَيْنَا مِثْلَ مَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ [الانعام : ١٢٤] ، ويحتمل أن يكون مرادهم ههنا : ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلٰٓئِكَةُ ﴾ فتراهم عياناً ، فيخبرونا أن محمداً رسول الله ، كقولهم : ﴿ أَوْ تَأْتِي بَالِهًا وَالْمَلٰٓئِكَةُ قَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٩٢] . وقد تقدم تفسيرها فى « سورة سبحان » ، ولهذا قال : ﴿ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ ؛ ولهذا قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ . وقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الانعام : ١١١] .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أى : هم لا يرون الملائكة فى يوم خير لهم ، بل يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ لهم ، وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار، وغضب الجبار ، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه : اخرجى أيتها النفس الخبيثة فى الجسد الخبيث ، اخرجى إلى سموم وحميم ، وظل من يحموم . فتأبى الخروج وتفرق فى البدن ، فيضربونه ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَلَّىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ [الانفال : ٥٠] . وقال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلٰٓئِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ ﴾ ، أى : بالضرب ، ﴿ أَخْرَجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الانعام : ٩٣] . ولهذا قال فى هذه الآية الكريمة : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ ، وهذا بخلاف حال المؤمنين فى وقت احتضارهم ، فإنهم يشرون بالخيرات ، وحصول المسرات . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَٰكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَىٰ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ . نَزَّلْنَا مِن غُفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٠ - ٣٢] .

وفى الحديث الصحيح عن البراء بن عازب : أن الملائكة تقول لروح المؤمن : « اخرجى أيتها

(١) مسلم (٢٨٦٥ / ٦٣) . (٢) المسند (٧١٦٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح »

النفس الطيبة فى الجسد الطيب، كنت تعمريته، اخرجى إلى روح وريحان ورب غير غضبان .
وقد تقدم الحديث فى سورة « إبراهيم » . عند قوله تعالى : ﴿ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الآية : ٢٧] . وقال آخرون: بل المراد بقوله : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ ﴾ يعنى: يوم القيامة ، قاله مجاهد، والضحاك ، وغيرهما . ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدم ، فإن الملائكة فى هذين اليومين يوم الممات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين ، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان، وتخبّر الكافرين بالخيبة والخسران ، فلا بشرى يومئذ للمجرمين .

﴿ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ أى : وتقول الملائكة للكافرين حَرَامٌ محرم عليكم الفلاح اليوم . وأصل « الحجر » : المنع ، ومنه يقال : حَجَرَ القاضى على فلان ، إذا منعه التصرف إما لسفَهه ، أو فقس ، أو صغر ، أو نحو ذلك . ومنه سُمى « الحجر » عند البيت الحرام ؛ لأنه يمنع الطُوفَ أن يطوفوا فيه ، وإنما يطاف من ورائه . ومنه يقال للعقل : « حجر » ؛ لأنه يمنع صاحبه عن تعاطى ما لا يليق . والغرض أن الضمير فى قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ عائد على الملائكة . هذا قول مجاهد ، وعكرمة ، وقد حكى ابن جرير، عن ابن جريج أنه قال: ذلك من كلام المشركين: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ ﴾ أى : يتعوذون من الملائكة ؛ وذلك أن العرب كانوا إذا نزل بأحدهم نازلة أو شدة يقول : ﴿ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ . وهذا القول - وإن كان له مأخذ ووجه - ولكنه بالنسبة إلى السياق فى الآية بعيد ، ولا سيما قد نص الجمهور على خلافه .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ وهذا يوم القيامة ، حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من خير وشر ، فأخبر أنه لا يتحصّل لهؤلاء المشركين من الأعمال - التى ظنوا أنها منجاة لهم - شىء ؛ وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعى ، إما الإخلاص فيها ، وإما المتابعة لشرع الله . فكل عمل لا يكون خالصا وعلى الشريعة المرضية ، فهو باطل . فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين ، وقد نجمعهما معا ، فتكون أبعد من القبول حيثئذ ؛ ولهذا قال تعالى ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ . قال مجاهد ، والثورى : ﴿ وَقَدِمْنَا ﴾ أى : عمَدنا . وقال السدى : ﴿ قَدِمْنَا ﴾ : وعمَدنا . وبعضهم يقول: أتينا عليه .

وقوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ عن على ، قال : شعاع الشمس إذا دخل فى الكوة . وروى مثله عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وغيرهم . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ قال : هو الماء المهرق . وعن الحارث ، عن على : ﴿ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ قال : الهباء وهبج الدواب . وروى مثله عن ابن عباس أيضا ، والضحاك ، وقال قتادة فى قوله : ﴿ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ قال : أما رأيت يَبَسُّ الشجر إذا ذرته الريح ؟ فهو ذلك الورق . وحاصل هذه الأقوال التنبية على مضمون الآية ، وذلك أنهم عملوا أعمالا اعتقدوا أنها شىء ، فلما عرضت على الملك الحكيم العدل الذى لا يجور ولا يظلم أحدا ، إذا إنها لا شىء بالكلية . وشبهت فى ذلك بالشىء التافه

الحقير المتفرق ، الذى لا يقدر منه صاحبه على شىء بالكلية ، كما قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ﴾ الآية [إبراهيم : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ إلى قوله : ﴿ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾ [البقرة : ٢٦٤] . وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يُحْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ [النور : ٣٩] ، وتقدم الكلام على تفسير ذلك ، والله الحمد والمنة .

وقوله : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ أى : يوم القيامة : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر : ٢٠] ، وذلك لأن أهل الجنة يصيرون إلى الدرجات العاليات ، والغرفات الأمنات ، فهم فى مقام أمين ، حسن المنظر ، طيب المقام ، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٦] ، وأهل النار يصيرون إلى الدرجات السافلات ، والحسرات المتتابعات ، وأنواع العذاب والعقوبات ، ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٦] أى : بشئ المنزل منظرًا ، وبشئ المقييل مقاما ؛ ولهذا قال : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ أى : بما عملوه من الأعمال المتقبلة ، ناولوا ما نالوا ، وصاروا إلى ما صاروا إليه ، بخلاف أهل النار فإنه ليس لهم عمل واحد يقتضى لهم دخول الجنة والنجاة من النار ، فنبه - تعالى - بحال السعداء على حال الأشقياء ، وأنه لا خير عندهم بالكلية ، فقال : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ . قال ابن عباس : إنما هى ضحوة ، فيقيل أولياء الله على الأسرة مع الحور العين ، ويقيل أعداء الله مع الشياطين مقرنين . وقال سعيد بن جبير : يفرغ الله من الحساب نصف النهار ، فيقيل أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النار فى النار ، قال الله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ . وقال عبد الله بن مسعود : لا يتتصف النهار حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء ، ثم قرأ : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ وقرأ : ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرَجِعُهُمْ إِلَىٰ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات : ٦٨] . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ قال : قالوا : فى الغرف من الجنة ، وكان حسابهم أن عرضوا على ربهم عرضة واحدة ، وذلك الحساب اليسير ، وهو مثل قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ . فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا . وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مُسْرُورًا ﴾ [الانشقاق : ٧ - ٩] . وقال قتادة فى قوله : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ ، أى ماوى ومنزلا .

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَيُزَلُّ الْمَلَكُ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ﴿٢٧﴾ يَتَوَلَّىٰ لَيْتَنِي لِمَ أَخَذْتُ فَأَتَانَا حَٰلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا ﴿٢٩﴾﴾

يخبر تعالى عن هول يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظيمة ، فمنها انشقاق السماء

وتفطرها وانفراجها بالغمام ، وهو ظلُّ النور العظيم الذى يبهر الابصار، ونزول ملائكة السموات يومئذ ، فيحيطون بالخلائق فى مقام المحشر . ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء . قال مجاهد : وهكذا كما قال تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ الآية [البقرة : ٢١٠] . وقد قال الله تعالى : ﴿ قِيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ . وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٥ - ١٧] ، قال شهر بن حوشب : حملة العرش ثمانية ، أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على حلمك بعد علمك . وأربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك .

وقوله تعالى : ﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦] . وفى الصحيح : « إن الله يطوى السموات بيمينه ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ، ثم يقول : أنا الملك ، أنا الديان ، أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون » (١) . ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ أى : شديداً صعباً ؛ لأنه يوم عدل وقضاء فصل ، كما قال تعالى ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المدثر : ٩ ، ١٠] ، فهذا حال الكافرين فى ذلك اليوم . وأما المؤمنون فكما قال تعالى : ﴿ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الانبياء : ١٠٣] .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِ اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ يخبر تعالى عن ندم الظالم الذى فارق طريق الرسول وما جاء به من عند الله من الحق المبين ، الذى لا مرية فيه ، وسلك طريقاً أخرى غير سبيل الرسول ، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم ، وعض على يديه حسرة وأسفا .

وسواء كان سبب نزولها فى عقبة بن أبى معيط أو غيره من الأشقياء ، فإنها عامة فى كل ظالم ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ . وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ . رَبَّنَا آتِنَاهُمْ صِغْفِيرًا مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَنَا كَبِيرًا ﴾ [الاحزاب : ٦٦ - ٦٨] . فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ، ويعض على يديه قاتلاً : ﴿ يَا لَيْتَنِ اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا . يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِ لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا ﴾ ، يعنى : من صرفه عن الهدى ، وعدل به إلى طريق الضلالة من دعاة الضلالة ، وسواء فى ذلك أمية بن خلف ، أو أخوه أبى ابن خلف ، أو غيرهما . ﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ ﴾ وهو القرآن ﴿ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴾ أى : بعد بلوغه إلى ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ أى : يخذله عن الحق ، ويصرفه عنه ، ويستعمله فى الباطل ، ويدعوه إليه .

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ ﴿ ٢٠ ﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿ ٢١ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد ﷺ أنه قال : ﴿ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ ، وذلك أن المشركين كانوا لا يُصغون للقرآن ولا يسمعونه ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْقُرْآنُ فِيهِ ﴾ الآية [فصلت: ٢٦] ، وكانوا إذا تلى عليهم القرآن أكثروا اللغظ والكلام في غيره ، حتى لا يسمعه ، فهذا من هجرانه ، وترك الإيمان به وتصديقه من هجرانه ، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه ، وترك العمل به وامثال أوامره واجتباب زواجره من هجرانه ، والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره من هجرانه ، فنسأل الله الكريم المنان القادر على ما يشاء ، أن يخلصنا مما يُسخطه ، ويستعملنا فيما يرضيه ، من حفظ كتابه وفهمه ، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار ، على الوجه الذى يحبه ويرضاه ، إنه كريم وهاب .

وقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى : كما حصل لك - يا محمد - فى قومك من الذين هجروا القرآن ، كذلك كان فى الأمم الماضين ؛ لأن الله جعل لكل نبيّ عدوا من المجرمين ، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ الآيتين [الانعام : ١١٢ ، ١١٣] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ أى : لمن اتبع رسوله وآمن بكتابه وصدقته واتبعه ، فإن الله هاديه وناصره فى الدنيا والآخرة ، وإنما قال : ﴿ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن ؛ لئلا يهتدى أحد به ، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن ؛ فلهذا قال : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ الآية .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٢٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُورًا مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم وكلامهم فيما لا يعنيه ، حيث قالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ أى : هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذى أوحى إليه جملة واحدة ، كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة ، كالتوراة والإنجيل والزبور ، وغيرها من الكتب الإلهية . فأجابهم الله عن ذلك بأنه إنما أنزل منجماً فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث ، وما يحتاج إليه من الأحكام لتثبيت قلوب المؤمنين به كما قال : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْتٍ وَنُزْلَانَهُ تَنْزِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٠٦] ؛ ولهذا قال : ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ قال قتادة : وبيناه تبييناً . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : وفسرناه تفسيراً . ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أى بحجة وشبهة ﴿ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ أى : ولا يقولون قولاً يعارضون به الحق ، إلا أجابناهم بما هو الحق فى نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم . قال ابن عباس : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ أى : بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول ﴿ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ أى :

إلا نزل جبريلُ من الله بجوابهم . ثم في هذا اعتناء كبير؛ لشرف الرسول ﷺ حيث كان يأتيه الوحي من الله بالقرآن صباحا ومساء ، ليلا ونهارا ، سفرا وحضرا ، فكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن كإنزال كتاب مما قبله من الكتب المتقدمة ، فهذا المقام أعلى وأجل ، وأعظم من سائر إخوانه من الأنبياء ﷺ . فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله ، ومحمد ﷺ أعظم نبي أرسله الله ، وقد جمع الله تعالى للقرآن الصفتين معا ، ففي الملائكة الأعلى أنزل جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا ، ثم نزل بعد ذلك إلى الأرض منجما بحسب الوقائع والحوادث .

ثم قال تعالى مخبرا عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة وحشرهم إلى جهنم ، في أسوأ الحالات وأقبح الصفات: ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ . وفي الصحيح عن أنس : أن رجلا قال : يا رسول الله ، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ فقال : « إن الذي أمشاه على رجليه قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة » (١) .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا
 اذْهَبْ إِلَىٰ آلِ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَذَمِّرْنَهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمٌ نُوْحٌ لَّمَّا
 كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾
 وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ
 الْأَمْثَلَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمِطْرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ
 أَفْكَمَ يَكُونُوا يَكُونُوا يَكُونُوا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ شُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾

يقول تعالى متوعداً من كذب رسوله محمداً ﷺ من مشركي قومه ومن خالقه ، ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه ، مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله ، فبدأ بذكر موسى ، عليه السلام ، وأنه ابتعثه وجعل معه أخاه هارون وزيراً ، أى : نبياً مؤازراً ومؤيداً وناصراً ، فكذبهما فرعون وجنوده ، ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ [محمد : ١٠] ، وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحاً ، عليه السلام ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل ؛ إذ لا فرق بين رسول ورسول ، ولو فرض أن الله بعث إليهم كل رسول فإنهم كانوا يكذبونه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَقَوْمٌ نُوْحٌ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ ﴾ ، ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط ، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يدعوهم إلى الله ، ويحذرهم تقمه ، فما آمن معه إلا قليل . ولهذا أغرقهم الله جميعاً ، ولم يبق منهم أحد ، ولم يبق على وجه الأرض من بنى آدم سوى أصحاب السفينة فقط . ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ﴾ أى : عبرة يعتبرون بها ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ لَنَجْعَلَنَّكُمْ تَذَكْرًا وَتَعْيِبًا أَدْنَىٰ وَأَعْيَابًا ﴾ [الحاقة : ١١ ، ١٢] أى : وأبقينا لكم من السفن ما تركبون في لُجج البحار ، لتذكروا نعمة الله عليكم في إنجائكم من الغرق ، وجعلكم من ذرية من آمن به وصدق أمره .

وقوله : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ ﴾ قد تقدم الكلام على قصتيهما فى غير ما سورة ، منها فى «سورة الأعراف» بما أغنى عن الإعادة . وأما أصحاب الرس فقال ابن جرير ، عن ابن عباس : هم أهل قرية من قرى ثمود . وقال عكرمة : أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب يس . وقال قتادة : فلج من قرى اليمامة . وقال عكرمة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ ﴾ قال : بئر بأذربيجان . وقال عكرمة : الرس بئر رسوا فيها نبهم . أى : دفنوه فيها . واختار ابن جرير أن المراد بأصحاب الرس هم أصحاب الأخدود ، الذين ذكروا فى سورة البروج ، فالله أعلم .

وقوله : ﴿ وَفُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ أى : وأما بين أضعاف من ذكر أهلكتهم كثيرة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ﴾ أى : بينا لهم الحجج ، ووضحنا لهم الأدلة - كما قال قتادة : أرحننا عنهم الأعدار ﴿ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا ﴾ أى : أهلكتنا إهلاكًا ، كقوله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء : ١٧] . والقرن : هو الأمة من الناس ، كقوله : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [المؤمنون : ٣١] . وحده بعضهم مائة وعشرين سنة ، وقيل : بمائة سنة . وقيل : بشمانين سنة . وقيل : أربعين . وقيل غير ذلك . والأظهر : أن القرن هم الأمة المتعاصرون فى الزمن الواحد ؛ فإذا ذهبوا وخلفهم جيل آخر فهم قرن ثان ، كما ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ - أنه قال : « خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » الحديث (١) .

وقوله : ﴿ وَتَقَدَّرْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَنْفَطَرَتْ مَطَرُ السُّوءِ ﴾ يعنى : قرية قوم لوط ، وهى سدوم ومعاملتها التى أهلكتها الله بالقلب ، وبالمطر الحجارة من سجيل ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٧٣] ، وقال : ﴿ وَإِن كُمْ لَتَمُرُونَ عَلَيْهِمْ مُصْحِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَيْسَبِيلٌ مُّقِيمٌ ﴾ [الحجر : ٧٦] ، وقال : ﴿ وَإِنَّهَا لِيَأْمُرُ مُبِينٌ ﴾ [الحجر : ٧٩] ؛ ولهذا قال : ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾ ، أى : فيعتبروا بما حلّ بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول ومخالفتهم أوامر الله . وقوله : ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ يعنى : المارين بها من الكفار لا يعتبرون لأنهم لا يرجون نشورًا ، أى : معادًا يوم القيامة .

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَنْخِذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهْذَا الَّذِي بِعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾
 إِن كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ
 الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَدَّ إِلَهُهُ هُوَنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ
 وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ
 بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ إذا رآه ، كما قال : ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا
 إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهْدَىٰ الَّذِي يَذُكُرُ إِلَيْكُمْ ﴾ [الأنبياء : ٣٦] ، يعنون بالعييب والنقص ، وقال ههنا :
 ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهْدَىٰ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾ ؟ أى : على سبيل التنقص والازدراء -
 قبحهم الله - كما قال : ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُمْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾
 [الرعد : ٣٢]

وقوله : ﴿ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ يعنون : أنه كاد يشيهم عن عبادة
 أصنامهم ، لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا على عبادتها . قال الله تعالى متوعداً لهم مهتدداً :
 ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ ﴾ الآية . ثم قال تعالى لنبية ، منبهاً له أن من كتب الله عليه
 الشقاوة والضلال ، فإنه لا يهديه أحد إلا الله ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ أى : مهما استحسنت من
 شيء ورآه حسناً فى هوى نفسه ، كان دينه ومذهبه ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ
 فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ لَمْ يَضِلُّ مِنْ بَشَاءٍ مِنْ بَشَاءٍ ﴾ الآية [فاطر : ٨] . ولهذا قال ههنا : ﴿ أَفَأَنْتَ تَكُونُ
 عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ ، قال ابن عباس : كان الرجل فى الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً ، فإذا رأى
 غيره أحسن منه عبدَ الثانى وترك الأول .

ثم قال : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ ، أى :
 أسوأ حالا من الأنعام السارحة ، فإن تلك تعقل ما خلقت له . وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده
 لا شريك له ، وهم يعبدون غيره ويشركون به ، مع قيام الحجة عليهم ، وإرسال الرسل إليهم .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ
 عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيَالٍ
 لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾

من ههنا شرع تعالى فى بيان الأدلة الدالة على وجوده ، وقدرته التامة على خلق الأشياء
 المختلفة والمتضادة ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ ؟ قال ابن عباس ، وابن عمر ،
 ومجاهد ، وسعيد بن جبير: هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴾
 أى : دائماً لا يزول ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ، ﴿ قُلْ
 أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [القصص : ٧١ ، ٧٢] .

وقوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ أى : لولا أن الشمس تطلع عليه ، لما عرف ، فإن الضد
 لا يعرف إلا بضده . وقال قتادة ، والسدى : دليلًا يتلوه ويتبعه حتى يأتى عليه كله . وقوله : ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ
 إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ ، أى : الظل . وقيل : الشمس . ﴿ يَسِيرًا ﴾ أى : سهلاً . قال ابن عباس : سريعاً .
 وقال السدى : قبضاً خفياً ، حتى لا يبقى فى الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة ، وقد
 أظلت الشمس ما فوقه . وقال أيوب بن موسى : ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ ، أى : قليلاً قليلاً .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِيَأْسَ ﴾ أى : يلبس الوجود ويُعَشِيهِ ، كما قال : ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ﴾ [الليل : ١] ، ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ [الشمس : ٤] . ﴿ وَالنُّومُ سُبَاتًا ﴾ أى : قَطْعًا للحركة لراحة الأبدان ، فإن الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة فى الانتشار بالنهار فى المعاش ، فإذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات ، فاستراحت فحصل النوم الذى فيه راحة البدن والروح معاً . ﴿ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ ، أى : يتشرب الناس فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم ، كما قال تعالى ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ الآية [القصص : ٧٣] .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ ﴿ ٤٨ ﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْاسٍ كَثِيرًا ﴿ ٤٩ ﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿ ٥٠ ﴾

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم ، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات ، أى : بمجيء السحاب بعدها، والرياح أنواع ، فى صفات كثيرة من التسخير ، فمنها ما يثير السحاب ، ومنها ما يحمله ، ومنها ما يسوقه ، ومنها ما يكون بين يدى السحاب مبشراً ، ومنها ما يكون قبل ذلك يَقُمُّ الأرض ، ومنها ما يلقح السحاب ليمطر؛ ولهذا قال : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ أى : آلة يتطهر بها ، كالسحور والوقود وما جرى مجراه . فهذا أصح ما يقال فى ذلك . وقوله : ﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا ﴾ أى : أرضاً قد طال انتظارها للغيث ، فهى هامة لا نبات فيها ولا شىء . فلما جاءها الحيا عاشت واكتست رباها أنواع الأزاهير والألوان، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَبْتَتَ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥] . ﴿ وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْاسٍ كَثِيرًا ﴾ أى : وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسٍ محتاجين إليه غاية الحاجة ، لشربهم وزروعهم وثمارهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قُنُطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [الشورى : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْحَى الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم : ٥٠] .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمْ لِيَذَكَّرُوا ﴾ أى : أمطرنا هذه الأرض دون هذه ، وسقنا السحاب فمر على الأرض وتعداها وجاوزها إلى الأرض الأخرى فأمطرتها وكفتها فجعلتها عذقا، والتي وراءها لم ينزل فيها قطرة من ماء، وله فى ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة . قال ابن مسعود وابن عباس : ليس عام باكثير مطراً من عام ، ولكن الله يصرفه كيف يشاء ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيهِمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ . أى : ليذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات والعظام الرفات . أو : ليذكر من منع القطر أنما أصابه ذلك بذنب أصابه ، فيقلع عما هو فيه .

وقوله : ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ قال عكرمة : يعنى : الذين يقولون : مطرنا بنوء كذا

وكذا . وهذا الذى قاله كما صحَّحَ فى الحديث المخرج فى صحيح مسلم ، عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوماً ، على أثر سماء أصابتهم من الليل : « أتدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا: الله ورسوله أعلم . قال : « قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال : مُطَرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فِذَكَ مُؤْمِنٌ بى كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ . وأما من قال : مُطَرْنَا بِبُؤَى كَذَا وَكَذَا . فِذَكَ كَافِرٌ بى ، مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ » (١) .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾

ربع

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴾ يدعوهم إلى الله عز وجل ، ولكننا خصصناك - يا محمد - بالبعثة إلى جميع أهل الأرض ، وأمرناك أن تبلغ الناس هذا القرآن ، ﴿ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الانعام : ١٩] ، ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : ١٧] ، ﴿ لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الانعام : ٩٢] ، ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الاعراف : ١٥٨] . وفى الصحيحين : « بعثت إلى الأحمر والأسود » (٢) ، وفيهما : « وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » (٣) ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ ﴾ ، يعنى : بالقرآن ، قاله ابن عباس ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ٧٣ ، التحريم : ٩] .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أى : خلق الماءين : الحلو والمالح ، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار ، وهذا هو البحر الحلو الفرات العذب الزلال ، قاله ابن جريج ، واختاره ابن جرير ، وهذا الذى لا شك فيه ، فإنه ليس فى الوجود بحر ساكن وهو عذب فرات . والله سبحانه إنما أخبر بالواقع لينبه العباد على نعمه عليهم ليشكروه ، فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس ، فرقه تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهارا وعيونًا فى كل أرض بحسب حاجتهم وكفائتهم لأنفسهم وأراضيهم .

وقوله : ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أى : مالح مرزعاق لا يستساغ ، وذلك كالبحار المعروفة فى المشارق والمغارب : البحر المحيط وما يتصل به من الزقاق ، وبحر القلزم ، وبحر اليمن ، وبحر البصرة ، وبحر فارس وبحر الصين والهند وبحر الروم وبحر الخزر ، وما شاكلها وشابهها من البحار الساكنة التى لا تجرى ، ولكن تموج وتضطرب وتغتلم فى زمن الشتاء وشدة الرياح ، ومنها ما فيه مد وجزر ، ففى أول كل شهر يحصل منها مد وفيض ، فإذا شرع الشهر فى التقصان جزرت ، حتى ترجع إلى غايتها الأولى ، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت فى المد إلى الليلة الرابعة عشرة ثم تشرع فى النقص ،

(١) مسلم (٧١ / ١٢٥) . (٢) ، (٣) سبق تخريجهما عند الآيتين (١ ، ٢) من سورة الفرقان .

فأجرى الله سبحانه وتعالى - وله القدرة التامة - العادة بذلك . فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله سبحانه وتعالى مالحة الماء ، لثلا يحصل بسببها نتن الهواء، فيفسد الوجود بذلك ، ولثلا تجوى الأرض بما يموت فيها من الحيوان . ولما كان ماؤها ملحاً كان هواؤها صحيحاً وميتها طيبة ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ وقد سئل عن ماء البحر : أتوضأ به ؟ فقال : « هو الطهور ماؤه ، الحل ميتته » . رواه الأئمة : مالك ، والشافعي ، وأحمد ، وأهل السنن بإسناد جيد (١) .

وقوله : ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا ﴾ أي : بين العذب والمالح ﴿ بَرْزَخًا ﴾ أي : حاجزاً ، وهو اليَس من الأرض ، ﴿ وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ أي : مانعاً أن يصل أحدهما إلى الآخر ، كما قال : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَتَّصِيَانِ . فَبأَى آلَاءِ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ ﴾ [الرحمن : ١٩ - ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِنْ لَّمْ يَكْثُرْ لَّهُمْ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [النمل : ٦١] .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ ، أي : خلق الإنسان من نطفة ضعيفة ، فسواه وعدله ، وجعله كامل الخلقة ، ذكراً أو أنثى ، كما يشاء ، ﴿ فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ ، فهو في ابتداء أمره ولد نسيب ، ثم يتزوج فيصير صهراً ، ثم يصير له أصهار وأختان وقربات . وكل ذلك من ماء مهين ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَيْنَا سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾﴾

سجدة

يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام، التي لا تملك لهم ضرا ولا نفعاً ، بلا دليل قادهم إلى ذلك ، ولا حجة أدتهم إليه ، بل بمجرد الآراء ، والتشهى والأهواء ، فهم يوالونهم ويقاتلون في سبيلهم ، ويعادون الله ورسوله والمؤمنون فيهم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ أي : عوناً في سبيل الشيطان على حزب الله ، وحزب الله هم الغالبون ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّهُمْ يُنصَرُونَ . لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحَضَّرُونَ ﴾ [يس : ٧٤ ، ٧٥] أي : آلهتهم التي اتخذوها من دون الله لا تملك لهم نصراً ، وهؤلاء الجهلة للأصنام جند محضرون يقاتلون عنهم ، ويذُبُّون عن حوزتهم ، ولكن العاقبة والنصرة لله ولرسوله وللمؤمنين في الدنيا والآخرة . قال مجاهد : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ ، قال : يظاهر الشيطان

(١) سبق تخريجه عند تفسير الآية (٣٠) من سورة المائدة .

على معصية الله، يُعينه. وقال سعيد بن جبير: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيْرًا﴾ يقول: عونًا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك. وقال زيد بن أسلم: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيْرًا﴾ قال: موليًا. ثم قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيْرًا﴾ أى: بشرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين، مبشرًا بالجنة لمن أطاع الله، ونذيرًا بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله. ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أى: على هذا البلاغ وهذا الإنذار من أجرة أطلبها من أموالكم، وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله، ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيْمَ﴾ [التكوير: ٢٨] ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيْلًا﴾ أى: طريقًا ومسلكا ومنهجًا يقتدى فيها بما جئت به.

ثم قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ النَّحْيِ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ أى: فى أمورك كلها كُن متوكلا على الله الحى الذى لا يموت أبدا، الذى هو: ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيْمٌ﴾ [الحديد: ٣]، الدائم الباقي السرمدى الأبدى، الحى القيوم رب كل شىء ومليكه، اجعله ذُخْرًا وملجأك، وهو الذى يتوكل عليه ويفزع إليه، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. عن شهر ابن حوشب قال: لقي سلمان رسول الله ﷺ فى بعض فجاج المدينة، فسجد له، فقال: «لا تسجد لى يا سلمان، واسجد للحى الذى لا يموت». وهذا مرسل حسن.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾، أى: اقرن بين حمده وتسيحه؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك» (١)، أى: أخلص له العبادة والتوكل، كما قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [الزمل: ٩]. وقال: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]. وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِهِ بَدْنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ أى: لعلمه التام الذى لا يخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة.

وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أى: هو الحى الذى لا يموت، وهو خالق كل شىء وربّه ومليكه، الذى خلق بقدرته وسلطانه السموات السبع، فى ارتفاعها واتساعها، والأرضين السبع فى سفولها وكثافتها، ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾، أى: يدبر الأمر، ويقضى الحق، وهو خير الفاصلين.

وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْتَلْبِ بِهِ خَبِيرًا﴾ أى: استعلم عنه من هو خبير به عالم به فاتبعه واقتد به، وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله به من عبده ورسوله محمد ﷺ سيد ولد آدم على الإطلاق، فى الدنيا والآخرة، الذى، لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى، فما قاله فهو حق، وما أجبر به فهو صدق، وهو الإمام المحكم الذى إذا تنازع الناس فى شىء وجب ردّ نزاعهم إليه، فما يوافق أقواله وأفعاله فهو الحق، وما يخالفها فهو مردود على قائله وفاعله، كائنا من كان، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. وقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَوَعَّتْ كَلِمَتُ

رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴿ [الانعام : ١١٥] أى : صدقا فى الإخبار وعدلا فى الأوامر والنواهى ؛ ولهذا قال : ﴿ فَاسْتَلِّ بِهِ خَيْرًا ﴾ ، قال مجاهد فى قوله : ﴿ فَاسْتَلِّ بِهِ خَيْرًا ﴾ ، قال : ما أخبرتك من شىء فهو كما أخبرتك . وكذا قال ابن جرير . وقال شمر بن عطية فى قوله : ﴿ فَاسْتَلِّ بِهِ خَيْرًا ﴾ ، قال : هذا القرآن خير به .

ثم قال تعالى منكرا على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد : ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ؟ أَى : لا نعرف الرحمن . وكانوا ينكرون أن يسمّى الله باسمه الرحمن ، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبى ﷺ للكاتب : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقالوا : لا نعرف الرحمن ولا الرحيم ، ولكن اكتب كما كنت تكتب : باسمك اللهم ؛ ولهذا أنزل الله : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء : ١١٠] أى : هو الله وهو الرحمن . وقال فى هذه الآية : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ؟ أَى : لا نعرفه ولا نُقرّبه ، ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ ؟ ، أى : لمجرد قولك ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ . أما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذى هو الرحمن الرحيم ، ويُقرّدونه بالإلهية ويسجدون له . وقد اتفق العلماء - رحمهم الله - على أن هذه السجدة التى فى الفرقان مشروع السجودُ عندها لقارئها ومستمعها ، كما هو مقرر فى موضعه ، والله أعلم .

﴿ نَبَارَكُ الَّذِى جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَنۢ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾

يقول تعالى مجدا نفسه ، ومعظما على جميل ما خلق فى السماء من البروج - وهى الكواكب العظام - فى قول مجاهد ، وسعيد بن جبير . وقيل : هى قصور فى السماء للحرس ، يروى هذا عن على ، وابن عباس ، والقول الأول أظهر . اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام هى قصور للحرس ، فيجتمع القولان ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك : ٥] ؛ ولهذا قال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا ﴾ وهى الشمس المنيرة التى هى كالسراج فى الوجود ، كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴾ [النبا : ١٣] . ﴿ وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ أى : مضيئًا مشرقا بنور آخر ونوع آخر وفن آخر ، غير نور الشمس ، كما قال : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس : ٥] ، وقال مخبرا عن نوح ، عليه السلام ، أنه قال لقومه : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴾ [نوح : ١٥ ، ١٦]

ثم قال : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ أى : يخلف كل واحد منهما الآخر ، يتعاقبان لا يفتران ، إذا ذهب هذا جاء هذا ، وإذا جاء هذا ذهب ذلك ، كما قال : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم : ٣٣] ، وقال : ﴿ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ [الاعراف : ٥٤] ، وقال : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ

الْقَمَرِ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ [يس : ٤٠] .

وقوله: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذُكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ ، أى : جعلهما يتعاقبان ، توقيتاً لعبادة عباده له ، فمن فاته عمل فى الليل استدركه فى النهار ، ومن فاته عمل فى النهار استدركه فى الليل . وقد جاء فى الحديث الصحيح : « إن الله تعالى ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، وييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » (١) . وقال ابن عباس : قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ يقول : من فاته شيء من الليل أن يعمل ، أدركه النهار ، أو من النهار أدركه بالليل . وكذا قال عكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسن . وقال مجاهد ، وقتادة : ﴿خِلْفَةً﴾ أى : مختلفين ، هذا بسواده ، وهذا بضيائه .

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٣٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٣٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٣٧﴾﴾

هذه صفات عباد الله ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أى : بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار ، كما قال : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء : ٣٧] ، فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ، ولا أشر ولا بطر ، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من التصانع تصنعاً ورياء ، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صَبَب ، وكأنما الأرض تطوى له . وقد كره بعض السلف المشى بتضعف وتصنع ، حتى روى عن عمر أنه رأى شاباً يمشى رويداً ، فقال: ما بالك ؟ أنت مريض ؟ قال : لا ، يا أمير المؤمنين ، فعلاه بالدرّة ، وأمره أن يمشى بقوة ، وإنما المراد بالهون هاهنا السكينة والوقار ، كما قال رسول الله ﷺ : « إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها وعليكم السكينة ، فما أدركتم منها فصلوا ، وما فاتكم فاتموا » (٢) .

وقال الحسن البصرى فى قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ ، قال : إن المؤمنين قوم ذُلل ، ذلت منهم - والله - الأسماع والأبصار والجوارح ، حتى تحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ، وإنهم لأصحاء ، ولكنهم دخلهم من الخوف مالم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة ، فقالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن . أما والله ما أحزنهم حزن الناس ، ولا تعاضم فى نفوسهم شيء طلبوا به الجنة ، أبكاهم الخوف من النار ، وإنه من لم يتعز بعزاء الله تَقَطَّعَ نَفْسُهُ عَلَى الدُّنْيَا حَسْرَاتٍ ، ومن لم ير الله نعمة إلا فى مطعم أو فى مشرب ،

(١) مسلم (٢٧٥٩ / ٣١) .

(٢) البخارى (٦٣٥) ومسلم (٦٠٣ / ١٥٥) .

فقد قل علمه وحضّر عذابه .

وقوله : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ أى : إذا سَفِه عليهم الجاهل بالسئى ، لم يقابلوهم عليه بمثله ، بل يعفون ويصفحون ، ولا يقولون إلا خيراً ، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلماً ، وكما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبَغَى الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص : ٥٥] . وروى الإمام أحمد عن النعمان بن مقرن المزنى قال : قال رسول الله ﷺ - وسب رجل رجلاً عنده ، قال : فجعل الرجل المسبوب يقول : عليك السلام - قال : فقال رسول الله ﷺ : « أما إن ملكا بينكما يذب عنك ، كلما شتمك هذا قال له : بل أنت وأنت أحق به . وإذا قال له : عليك السلام ، قال : لا ، بل عليك ، وأنت أحق به » . إسناده حسن ولم يخرجوه (١) . وقال مجاهد : ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ ، يعنى : قالوا : سداداً . وقال سعيد بن جبير : ردوا معروفاً من القول . وقال الحسن البصرى : ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ قال : حلماً لا يجهلون ، وإن جهل عليهم حلموا : يصاحبون عباد الله نهارهم بما تسمعون ، ثم ذكر أن ليلهم خير ليل .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سَجْدًا وَاقِيًا ﴾ أى : فى عبادته وطاعته ، كما قال تعالى : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٧ ، ١٨] ، وقال : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة : ١٦] ، وقال : ﴿ أَمِنْ هُوَ قَائِلٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ الآية [الزمر : ٩] ، ولهذا قال : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ أى : ملازمًا دائماً . ولهذا قال الحسن فى قوله : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ كل شئ يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام ، وإنما الغرام اللارم ما دامت السموات والأرض . وكذا قال سليمان التيمى . وقال محمد بن كعب : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ يعنى : ما نعموا فى الدنيا؛ إن الله سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها إليه ، فأغرمهم فأدخلهم النار . ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ ، أى : بئس المنزل منظرًا ، وبئس المقيلاً مقامًا .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ أى : ليسوا بمبذرين فى إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهلهم فيقتصرون فى حقهم فلا يكفونهم، بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا، ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ ، كما قال : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٩] . وقال إياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله فهو سرف . وقال غيره : السرف : النفقة فى معصية الله . وقال الحسن البصرى : ليس النفقة فى سبيل الله سرف .

(١) المسند (٥/٤٤٥) وقال الهيثمى فى الزوائد (٧٨/٨) : «رجاله رجال الصحيح، غير أبى خالد الوالى وهو ثقة» .

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود ، قال : سئل رسول الله ﷺ : أى الذنب أكبر ؟ قال : « أن نجعل لله نداً وهو خالقك » . قال : ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » . قال : ثم أى ؟ قال : « أن تزاني حليلة جارك » ، قال عبد الله : وأنزل الله تصديق ذلك : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ . وهكذا رواه النسائي ؟ (١) . وقد أخرجه البخارى ومسلم ، ولفظهما عن ابن مسعود قال : قلت : يا رسول الله ، أى الذنب أعظم ؟ الحديث (٢) . وروى الإمام أحمد عن المقداد بن الأسود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « ما تقولون فى الزنا ؟ » . قالوا : حرّمه الله ورسوله ، فهو حرام إلى يوم القيامة ، فقال رسول الله ﷺ : « لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره » . قال : « ما تقولون فى السرقة ؟ » قالوا : حرّمها الله ورسوله ، فهى حرام . قال : « لأن يسرق الرجل من عشرة آيات أيسر عليه من أن يسرق بيت من جاره » (٣) .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ : روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : ﴿ أَثَامًا ﴾ : واد فى جهنم . وقال عكرمة : ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ : أودية فى جهنم يعذب فيها الزناة . وكذا روى عن سعيد بن جبير ، ومجاهد . وقال قتادة : ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ : نكالا ، كنا نحدث أنه واد فى جهنم . وقد ذكر لنا أن لقمان كان يقول : يا بنى ، إياك والزنا ، فإن أوله مخافة ، وآخره ندامة . وقال السدى : ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ جزاء . وهذا أشبه بظاهر الآية ؛ ولهذا فسره بما بعده مبدلاً منه ، وهو قوله : ﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ، أى : يكرر عليه ويغلظ ، ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ : أى : حقيراً ذليلاً . وقوله : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ : أى : جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ ﴾ فى الدنيا إلى الله من جميع ذلك ، فإن الله يتوب عليه . وفى ذلك دلالة على صحة توبة القاتل ، ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣] . فإن هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة ، فتحمل على من لم يتب ؛ لأن هذه مقيدة بالتوبة ، ثم قد قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء: ٤٨ ، ١١٦] . وقد ثبتت السنة

(١) المسند (٣٦١٢) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » والنسائي فى الكبرى (١١٣٨) .

(٢) البخارى (٦٨١١) ومسلم (٦٨ / ١٢٢) .

(٣) المسند (٨ / ٦) وقال الهيثمى فى الزوائد (٨ / ١٧١) : « رجاله ثقات » .

الصحيحة ، عن رسول الله ﷺ بصحة توبة القاتل ، كما ذكر مقررا من قصة الذى قتل مائة رجل ثم تاب ، وقبل منه . وغير ذلك من الأحاديث .

وقوله : ﴿ فَأُوْتِكَ يَدِلُّ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ : فى معنى قوله : ﴿ يُدِلُّ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قولان :

أحدهما: أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات ، قال ابن عباس فى قوله : ﴿ فَأُوْتِكَ يَدِلُّ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قال : هم المؤمنون ، كانوا من قبل إيمانهم على السيئات ، فرغب الله بهم عن السيئات فحولهم إلى الحسنات ، فأبدلهم مكان السيئات الحسنات . وقال عطاء بن أبى رباح : هذا فى الدنيا ، يكون الرجل على هيئة قبيحة ، ثم يبدله الله بها خيرا . وقال سعيد بن جبير : أبدلهم بعبادة الأوثان عبادة الله ، وأبدلهم بقتال المسلمين قتالا مع المسلمين للمشركين ، وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات . وقال الحسن البصرى : أبدلهم الله بالعمل السئى العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك إخلاصا ، وأبدلهم بالفجور إحصانا وبالكفر إسلاما . وهذا قول أبى العالية ، وقتادة ، وجماعة آخرين .

والقول الثانى : أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات ، وما ذاك إلا أنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر ، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار ، فيوم القيامة وإن وجده مكتوبا عليه لكنه لا يضره وينقلب حسنة فى صحيفته ، كما ثبتت السنة بذلك ، وصحت به الآثار المروية عن السلف رحمهم الله تعالى ، وهذا سياق الحديث : روى قال الإمام أحمد عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إبنى لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار ، وآخر أهل الجنة دخولا إلى الجنة : يؤتى برجل فيقول : نَحْوًا كَبَارَ ذُنُوبِهِ وَسَلْوَهُ عَنْ صِغَارِهَا ، قال : فيقال له : عملت يوم كذا وكذا كذا ، وعملت يوم كذا وكذا كذا ؟ فيقول : نعم - لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئا - فيقال : فإن لك بكل سيئة حسنة . فيقول : يارب ، عملت أشياء لا أراها ههنا . قال فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه . وانفرد به مسلم (١) .

وقال على بن الحسين زين العابدين : ﴿ يُدِلُّ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ قال : فى الآخرة .

وقال مكحول : يغفرها لهم فيجعلها حسنات .

ثم قال تعالى مخبرا عن عموم رحمته بعباده ، وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أى ذنب كان ، جليل أو حقير ، كبير أو صغير : فقال : ﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ أى : فإن الله يقبل توبته ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠] ، وقال : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١٠٤] ، وقال : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر : ٥٣] ، أى : الذنب لمن تاب إليه .

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (٧٤) ﴿

وهذه أيضًا من صفات عباد الرحمن، أنهم: ﴿ لا يشهدون الزور ﴾ قيل: هو الشرك وعبادة الأصنام، وقيل: الكذب، والفسق، واللغو، والباطل. وقال محمد بن الحنفية: هو اللغو والغناء. وقال أبو العالية والضحاك، والربيع بن أنس، وغيرهم: هي أعياد المشركين. وقال عمرو بن قيس: هي مجالس السوء والحنا. وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿ لا يشهدون الزور ﴾ أى: شهادة الزور، وهى الكذب متمدًا على غيره، كما ثبت فى الصحيحين عن أبى بكره قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» ثلاثا، قلنا: بلى، يا رسول الله. قال: «الشرك بالله وعقوق الوالدين». وكان متكئا فجلس، فقال «ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور» فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت (١). والأظهر من السياق أن المراد: لا يشهدون الزور، أى: لا يحضرونه؛ ولهذا قال: ﴿ وإذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ أى: لا يحضرون الزور، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء، ولهذا قال: ﴿ مَرُّوا كِرَامًا ﴾.

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ وهذه من صفات المؤمنين ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٠]، بخلاف الكافر، فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يقصر عما كان عليه، بل يبقى مستمرا على كفره وطغيانه وجهله وضلاله، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

فقوله: ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ أى: بخلاف الكافر الذى ذكر آيات ربه، فاستمر على حاله، كان لم يسمعها أصم أعمى. قال مجاهد: قوله: ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ لم يسمعوا ولم يبصروا، ولم يفقهوا شيئا. وقال الحسن البصرى: كم من رجل يقرأها ويخر عليها أصم أعمى. وقال قتادة: قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ يقول: لم يسموا عن الحق ولم يعموا فيه، فهم - والله - قوم عقلوا عن الله وانتفعوا بما سمعوا من كتابه.

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ يعنى: الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم وذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له. قال ابن عباس: يعنون: من يعمل بالطاعة، فتقر به أعينهم فى الدنيا والآخرة. وقال عكرمة: لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين. وقال الحسن البصرى - وسئل عن هذه الآية - فقال:

أن يُرى الله العبدَ المسلم من زوجته ، ومن أخيه ، ومن حميمه طاعة الله . لا والله ما شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدا ، أو ولد ولد ، أو أخا ، أو حميماً مطيعاً لله عزوجل . وقال ابن جريج فى قوله : ﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ قال: يعبدونك ويحسنون عبادتك، ولا يجرون علينا الجرائر. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعنى : يسألون الله لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام .

وروى الإمام أحمد عن جبير بن نفير قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً ، فمر به رجل فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ ! لوددنا أنا رأينا ما رأيت ، وشهدنا ما شهدت . فاستغضب المقداد ، فجعلت أعجب ، ما قال إلا خيراً ! ثم أقبل إليه فقال : ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضراً غيبه الله عنه ، لا يدري لو شهده كيف كان يكون فيه ؟ والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام أكههم الله على مناخرهم فى جهنم ، لم يجيئوه ولم يصدقوه ، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين لما جاء به نبيكم ، قد كفتيم البلاء بغيركم؟ لقد بعث الله النبي ﷺ على أشد حال بعث عليها نبياً من الأنبياء فى فترة من جاهلية ، ما يرون أن ديننا أفضل من عبادة الأوثان . فجاء بفرقان فرقَ به بين الحق والباطل ، وفرقَ بين الوالد وولده ، حتى إن كان الرجل ليرى والده وولده ، أو أخاه كافراً ، وقد فتح الله قُفْل قلبه للإيمان ، بعلم أنه إن هلك دخل النار ، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه فى النار ، وإنها التى قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ . وهذا إسناد صحيح ، ولم يخرجوه (١) .

وقوله: ﴿ وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ ، قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، والربيع بن أنس : أئمة يقتدى بنا فى الخير . وقال غيرهم : هداة مهتدين ودعاة إلى الخير ، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم، وأن يكون هداهم متعدياً إلى غيرهم بالنفع، وذلك أكثر ثواباً ، وأحسن مآباً ؛ ولهذا ورد فى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: ولد صالح يدعو له ، أو علم ينتفع به من بعده ، أو صدقة جارية » (٢) .

﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا نَجْوَةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من الصفات الجميلة ، والأفعال والأقوال الجليلة قال بعد ذلك كله : ﴿ أُولَئِكَ ﴾ أى : المتصفون بهذه ﴿ يُجْزَوْنَ ﴾ أى : يوم

القيامة ﴿ الْفُرْقَةَ ﴾ وهى الجنة . قال أبو جعفر الباقر ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، والسدى : سميت بذلك لارتفاعها ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى : على القيام بذلك ﴿ وَيُلْقُونَ فِيهَا ﴾ أى : فى الجنة : ﴿ تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴾ أى : يُتَدَرُونَ فِيهَا بالتحية والإكرام . ويلقون فيها التوقير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام ، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبى الدار . وقوله : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى : مقيمين ، لا يظعنون ولا يحولون ، ولا يموتون ، ولا يزولون عنها ولا يبعثون عنها حولاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ ﴾ [هود: ١٠٨] . وقوله : ﴿ حَسَنَتْ مَسَافِرُهُمْ وَمَقَامُهُمْ ﴾ ، أى : حسنت منظرا وطابت مقبلا ومنزلا .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّى ﴾ أى : لا يبالى ولا يكثرث بكم إذا لم تعبدوه ، فإنه إنما خلق الخلق ليعبده ويوحده ويسبحوه بكرة وأصيلا . وقال مجاهد ، وعمرو بن شعيب : ﴿ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّى ﴾ ، يقول : ما يفعل بكم ربه . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ قُلْ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّى لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ يقول : لولا إيمانكم ، وأخبر الله الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين ، ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين .

وقوله : ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ أى : أيها الكافرون ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ أى : فسوف يكون تكذيبكم لزاما لكم ، يعنى : مقتضيا لهلاككم وعذابكم ودماركم فى الدنيا والآخرة ، ويدخل فى ذلك يوم بدر ، كما فسره بذلك عبد الله بن مسعود ، وأبى بن كعب ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم . وقال الحسن البصرى : ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ أى : يوم القيامة . ولا منافاة بينهما .

تفسير سورة الشعراء

وهي مكية . ووقع في تفسير مالك المروي عنه تسميتها : سورة الجامعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسّر ﴾ ﴿ ١ ﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿ ٢ ﴾ لَعَلَّكَ بَاحِعٌ بِفَسْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿ ٣ ﴾ وَإِن شَأْنُ نَزْلِ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿ ٤ ﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنَ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثًا إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿ ٥ ﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مِمَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿ ٦ ﴾ أُولَئِكَ يَرَوْنَ إِلَى الْأَرْضِ كَرَاهًا فَلَمْ يَرْوُا إِلَّا إِلَى السَّمَاءِ نَارًا ﴿ ٧ ﴾ وَإِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿ ٨ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ ٩ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة ، فقد تكلمنا عليه في أول سورة البقرة .

وقوله : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ أي : هذه آيات القرآن المبين ، أي : البين الواضح ، الذي يفصل بين الحق والباطل ، والغى والرشاد .

وقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاحِعٌ بِفَسْكَ ﴾ أي : مهلك ﴿ نَفْسِكَ ﴾ أي : بما تحرص وتحزن عليهم ﴿ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ، وهذه تسليية من الله لرسوله ﷺ في عدم إيمان من لم يؤمن به من الكفار ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ﴾ [فاطر : ٨] ، وقال : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاحِعٌ بِفَسْكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِدَا الْحَدِيثِ آسَفًا ﴾ [الكهف : ٦] . قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، وغيرهم : ﴿ لَعَلَّكَ بَاحِعٌ بِفَسْكَ ﴾ أي : قاتل نفسك .

ثم قال الله تعالى : ﴿ إِنْ شَأْنُ نَزْلِ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ أي : لو شئنا لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهرا ، ولكن لا نفعل ذلك ؛ لأننا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري ؛ وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْفِرُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود : ١١٨ ، ١١٩] ، فنفذ قدره ، ومضت حكمته ، وقامت حجة البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم ، وإنزال الكتب عليهم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنَ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثًا إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ أي : كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس ، كما قال : ﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] ، وقال : ﴿ يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [يس : ٣٠] ، وقال : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَجْدَادًا لِقَوْمٍ لَا

يُؤْمِنُونَ ﴿ [المؤمنون : ٤٤] ؛ ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَاتِهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي : فقد كذبوا بما جاءهم من الحق ، فسيعلمون نبا هذا التكذيب بعد حين ﴿ وَسِعَلِمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٧] .

ثم نبه تعالى على عظمته في سلطانه وجلالة قدره وشأنه ، الذين اجترأوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه ، وهو القاهر العظيم القادر ، الذي خلق الأرض وأنبث فيها من كل زوج كريم ، من زروع وثمار وحيوان ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أي : دلالة على قدرة الخالق للأشياء ، الذي بسط الأرض ورفع بناء السماء ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس ، بل كذبوا به وبرسله وكتبه ، وخالفوا أمره وارتكبوا زواجره . وقوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أي : الذي عزَّ كلَّ شيء وقهره وغلبه ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ أي : بخلقه ، فلا يعجل على من عصاه ، بل ينظره ويؤجله ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر . قال أبو العالية ، وقتادة : العزيز في نعمته وانتصاره من خالف أمره وعبد غيره . وقال سعيد بن جبير : الرحيم بمن تاب إليه وأتاب .

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَإِذْ مَا بَايَعْتُنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَك الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَرَّهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّا عَلَيْهَا تَرَىٰ بِنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران ، عليه السلام ، حين ناداه من جانب الطور الأيمن ، وكلمه وناجاه ، وأرسله واصطفاه ، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ . وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ . وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ هذه أعدار سأل من الله إزاحتها عنه ، كما قال في سورة طه : ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . واحلل عقدة من لساني . يفقهوا قولي . واجعل لي وزيراً من أهلي . هَارُونَ أَخِي . اشدد به أزري . وأشركه في أمري . كني نسبحك كثيراً . ونذكرك كثيراً . إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا . قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه : ٢٥ - ٣٦] .

وقوله : ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ أي : بسبب ماكان من قتل ذلك القبطى الذى كان سبب خروجه من بلاد مصر ﴿ قَالَ كَلَّا ﴾ أي : قال الله له : لا تخف من شيء من ذلك كما قال : ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ أي : برهانا ﴿ فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا ﴾

الْعَالَمِينَ ﴿ [القصص: ٣٥] . ﴿ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه: ٤٦] أى : إننى معكما بحفظى وكلاءتى ونصرى وتأييدى . ﴿ فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، وقال فى الآية الأخرى : ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ [طه : ٤٧] أى : كل منا رسول الله إليك ، ﴿ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى : أطلقهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك ، فإنهم عباد الله المؤمنون ، وحزبه المخلصون، وهم معك فى العذاب المهين . فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون عما هنالك بالكلية، ونظر بعين الازدراء والغمص فقال: ﴿ أَلَمْ نُزَيِّدْكَ فِينَا وَلِيَدًا وَبَلَّغْنَا فِينَا مِنْ عَمْرِكَ سِنِينَ. وَقَعَلْتَ لَعْنَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى: أما أنت الذى ربيناه فىنا، وفى بيتنا وعلى فراشنا وغذينا، وأنعمنا عليه مدة من السنين، ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة ، أن قتلت منا رجلا ، وجحدت نعمتنا عليك ؛ ولهذا قال : ﴿ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾

أى : الجاحدين . قاله ابن عباس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، واختاره ابن جرير .

﴿ قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا ﴾ أى : فى تلك الحال ، ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أى : قبل أن يوحى إلى وينعم الله على بالرسالة والنبوة . قال ابن عباس ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم : ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أى : الجاهلين . ﴿ فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أى : انفصل الحال الأول وجاء أمر آخر ، فقد أرسلنى الله إليك ، فإن أطعته سلمت ، وإن خالفته عطبت .

ثم قال موسى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى : وما أحسنت إلى وريثتى مقابل ما أسأت إلى بنى إسرائيل ، فجعلتهم عبيداً وخداماً ، تصرفهم فى أعمالك ومشاق رعيتك ، أفقى إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم ؟ أى : ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلت بهم .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ ١٢ ﴾ قَالَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿ ١٤ ﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَعِينُونَ ﴿ ١٥ ﴾ قَالَ رَبِّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿ ١٦ ﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿ ١٧ ﴾ قَالَ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿ ١٨ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون ، وتمرده وطغيانه وجحوده ، فى قوله : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ؟ وذلك أنه كان يقول لقومه : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٣٨] ، ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ ﴾ [الزخرف : ٥٤] ، وكانوا يجحدون الصانع - تعالى - ويعتقدون أنه لارب لهم سوى فرعون ، فلما قال له موسى : ﴿ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الزخرف : ٤٦] ، قال له : ومن هذا الذى تزعم أنه رب العالمين غيرى ؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف ، حتى قال السدى : هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَنْ رُبُّكُمْ يَا مُوسَى . قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه: ٤٩ ، ٥٠] فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين : ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَمَا بَيْنَهُمَا ﴿٢٩﴾ أى : خالق جميع ذلك ومالكة ، والمتصرف فيه وإلهه ، لاشريك له ، هو الله الذى خلق الأشياء كلها، العالم العلوى وما فيه من الكواكب الثابت والسيارات النيرات ، والعالم السفلى وما فيه من بحار وقفار ، وجبال وأشجار ، وحيوان ونبات وثمار ، وما بين ذلك من الهواء والطيور ، وما يحتوى عليه الجو ، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون . ﴿٣٠﴾ **إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٣٠﴾** أى : إن كانت لكم قلوب موقنة ، وأبصار نافذة .

فعند ذلك التفت فرعون إلى مَنْ حوله من مَلَكه ورؤساء دولته قائلاً لهم ، على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله : ﴿٣١﴾ **أَلَا تَسْتَمْعُونَ ﴿٣١﴾** أى : ألا تعجبون بما يقول هذا فى زعمه : أن لكم إلهاً غيرى ؟ فقال لهم موسى : ﴿٣٢﴾ **رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿٣٢﴾** أى : خالقكم وخالق آبائكم الأولين ، الذين كانوا قبل فرعون وزمانه . ﴿٣٣﴾ **قَالَ ﴿٣٣﴾** أى : فرعون لقومه : ﴿٣٤﴾ **إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٣٤﴾** أى : ليس له عقل فى دعواه أن ثم ربا غيرى . ﴿٣٥﴾ **قَالَ ﴿٣٥﴾** أى : موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة ، فأجاب موسى بقوله : ﴿٣٦﴾ **رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴿٣٦﴾** أى : هو الذى جعل المشرق مشرقاً وتطلع منه الكواكب ، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب ، ثوابتها وسياراتها ، مع هذا النظام الذى سخرها فيه وقدرها ، فإن كان هذا الذى يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقا فليعكس الأمر ، وليجعل المشرق مغرباً ، والمغرب مشرقاً ، كما أخبر تعالى عن ﴿٣٧﴾ **الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٧﴾** [البقرة: ٢٥٨] ؛ ولهذا لما غلب فرعون وانقطعت حجته ، عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه ، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ فى موسى ، عليه السلام ، فقال ما أخبر الله تعالى عنه :

﴿٣٨﴾ **قَالَ لَئِنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٣٨﴾** قَالَ أَوْلَوْ جِثَّتْ بِشْيءٍ مِّنْ مِّمِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٤٠﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْبَعْتَ فِي الدَّيْنِ حَشِيرِينَ ﴿٤٤﴾ يَا تَوَكَّلْ بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ ﴿٤٥﴾

لما قامت الحجة على فرعون بالبيان والعقل ، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه ، فظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال ، فقال : ﴿٣٨﴾ **لَئِنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٣٨﴾** . فعند ذلك قال موسى : ﴿٣٩﴾ **أَوْلَوْ جِثَّتْ بِشْيءٍ مِّنْ مِّمِينَ ﴿٣٩﴾** أى : بغيره إن قاطع واضح ﴿٤٠﴾ **قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٤٠﴾** فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٤١﴾ أى : ظاهر واضح فى غاية الجلاء والوضوح والعظمة ، ذات قوائم وفم كبير ، وشكل هائل مزعج ﴿٤٢﴾ **وَنَزَعَ يَدَهُ ﴿٤٢﴾** أى : من جيبه ﴿٤٣﴾ **فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٤٣﴾**

أى : تتلألاً كقطعة من القمر . فبادر فرعون بشقاوته إلى التكذيب والعدا ، فقال للملأ حوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أى : فاضل بارع فى السحر . فَرَوَّجَ عَلَيْهِمُ فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة ، ثم هيجهم وحرصهم على مخالفته ، والكفر به . فقال : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ أى : أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا ، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم ، فيأخذ البلاد منكم ، فأشيروا على فيه ماذا أصنع به ؟ ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَا تُوكَّ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٌ ﴾ أى : أخره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكته وأقاليم دولتك كل سحار عليم يقابلونه ، ويأتون بنظير ما جاء به ، فتغلبه أنت وتكون لك النصره والتأييد . فأجابهم إلى ذلك . وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم فى ذلك ؛ ليجتمع الناس فى صعيد واحد ، ولتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس فى النهار جهرة .

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْجُرُكَ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمَقْرِبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِهْدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ الْمَالِيَيْنِ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

ذكر تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى عليه السلام والقبط فى « سورة الأعراف » وفى « سورة طه » ، وفى هذه السورة : وذلك أن القبط أرادوا أن يطفثوا نور الله بأفواههم ، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . وهذا شأن الكفر والإيمان ، ما تواجهها وتقابلا إلا غلبه الإيمان ، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٨] ، ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] ، ولهذا لما جاء السحرة ، وقد جمعوه من أقاليم بلاد مصر ، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخيلاً فى ذلك ، وكان السحرة جمعاً كثيراً ، وجملاً غفيراً ، والله أعلم بعدتهم .

واجتهد الناس فى الاجتماع ذلك اليوم ، وقال قائلهم : ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ ، ولم يقولوا : نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى ، بل الرعية على دين ملكهم ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ ﴾ أى : إلى مجلس فرعون وقد ضرب له وطاقاً ، وجمع حشمه وخدمه ووزراءه ورؤساء دولته وجنود مملكته ، فقام السحرة بين يدي فرعون ، يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا ، أى هذا الذى جمعتنا من أجله ، فقالوا : ﴿ أَإِنَّا لَنَأْجُرُكَ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمَقْرِبِينَ ﴾ أى : وأخصص مما تطلبون أجعلكم من المقربين عندي وجلسائى . فعادوا إلى مقام المناظرة ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى . قَالَ

بَلْ أَلْقُوا ﴿ طه: ٦٥ ، ٦٦ ﴾ ، وقد اختصر هذا ههنا . فقال لهم موسى : ﴿ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ . فَأَلْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيهِمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ ، وهذا كما يقوله الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئاً : هذا بثواب فلان . وقد ذكر الله في «سورة الأعراف» : أنهم ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١١٦] ، وقال في «سورة طه» : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى . فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى . فَلَمَّا لَا تَخَفُ إِلَّا نَكَتُ الْأَعْلَى . وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ [طه: ٦٦ - ٦٩] . وقال ههنا : ﴿ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلَقَّفَ مَا يَأْكُفُونَ ﴾ أى : تختطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئاً ، قال تعالى : ﴿ فَوَقَّعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . فَلَقُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ . وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ . قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٨-١٢٢] وكان هذا أمراً عظيماً جداً ، وبرهاناً قاطعاً للعذر وحجة دامغة ، وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا ، قد غلبوا وخضعوا وآمنوا بموسى فى الساعة الراهنة ، وسجدوا لله رب العالمين ، الذى أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة ، فغلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله ، وكان وقحاً جريئاً عليه لعنة الله ، فعدل إلى المكابرة والعداوة ودعوى الباطل ، فشرع يتهددهم ويتوعددهم ، ويقول : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ [طه: ٧١] ، وقال : ﴿ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُ فِي الْمَدِينَةِ لَتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَمَنْ سَوَّفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٣] .

﴿ قَالَ أَمَأَمْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ أَاذَنَ لَكُمْ إِنَّكُمْ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْمَلُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَتِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِنَّا رِبَّانَا مُتَقَلَّبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

تهددهم فلم ينفع ذلك فيهم ، وتوعددهم فما زادهم إلا إيماناً وتسلماً . وذلك أنه قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر ، وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم ، من أن هذا الذى جاء به موسى لا يصدر عن بشر ، إلا أن يكون الله قد أيده به ، وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه ؛ ولهذا لما قال لهم فرعون : ﴿ أَمَأَمْتُمْ لَمْ قَبْلَ أَنْ أَاذَنَ لَكُمْ ﴾ ؟ أى : كان ينبغى أن تستاذنوني فيما فعلتم ، ولا تفتاتوا على فى ذلك ، فإن أذنت لكم فعلتم ، وإن منعتكم امتنعتم ، فإنى أنا الحاكم المطاع ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون كبيرهم الذى أفادهم صناعة السحر ؟ هذا لا يقوله عاقل .

ثم توعددهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب ، فقالوا : ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ أى : لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالي به ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُتَقَلَّبُونَ ﴾ أى : المرجع إلى الله ، وهو لا يضع أجر من أحسن عملاً ، ولا يخفى عليه ما فعلت بنا ، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء ؛ ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا ﴾ أى : ما قارفناه من الذنوب ، وما أكرهتنا عليه من السحر ﴿ أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : بسبب أننا بادرننا قومنا من القبط إلى الإيمان . فقتلهم كلهم .

﴿ ٥١ ﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴿ ٥٢ ﴾ فَارْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَلَأَيْنِ رِيعَ حَاشِرِينَ ﴿ ٥٣ ﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿ ٥٤ ﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ﴿ ٥٥ ﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿ ٥٦ ﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿ ٥٧ ﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامِرٍ كَرِيمٍ ﴿ ٥٨ ﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْزَيْنَاهَا بِئْتِ إِسْرَءِيلَ ﴿ ٥٩ ﴾

لما طال مقام موسى ، عليه السلام ، ببلاد مصر ، وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه ، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون ، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال ، فأمر الله موسى ، عليه السلام ، أن يخرج بني إسرائيل ليلا من مصر ، وأن يمضى بهم حيث يؤمر ، ففعل موسى ، عليه السلام ، ما أمره به ربه ، عز وجل . خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً . وأن موسى ، عليه السلام ، سأل عن قبر يوسف ، عليه السلام ، فدلته امرأة عجوز من بني إسرائيل عليه ، فاحتمل تابوته معهم ، ويقال : إنه هو الذى حملة بنفسه ، عليهما السلام ، وكان يوسف قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يحملوه معهم .

فلما أصبحوا وليس فى ناديبهم داع ولا محبيب ، غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بنى إسرائيل ؛ لما يريد الله به من الدمار ، فأرسل سريعا فى بلاده حاشرين ، أى : من يحشر الجند ويجمعه ، كالنقباء والحجباب ، ونادى فيهم : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ ﴾ يعنى : بنى إسرائيل ﴿ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ أى : لطائفة قليلة ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ﴾ أى : كل وقت يصل لنا منهم ما يغيظنا ، ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴾ أى : نحن كل وقت نحذر من غائلتهم وإنى أريد أن أستأصل شأفتهم ، وأبهد خضراءهم . فجوزى فى نفسه وجنده بما أراد لهم ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَكُنُوزٍ وَمَقَامِرٍ كَرِيمٍ ﴾ أى : فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم ، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر فى الدنيا ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْزَيْنَاهَا بِئْتِ إِسْرَءِيلَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْزَيْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ الآية [الأعراف : ١٣٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ الآيتين [القصص : ٥ ، ٦] .

﴿ ٦٠ ﴾ فَأَتَّبَعُوهُمْ مُّشْرِقِينَ ﴿ ٦١ ﴾ فَلَمَّا تَرَاهُ الْجَمْعَانِ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمَدْرَكُونَ ﴿ ٦٢ ﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿ ٦٣ ﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿ ٦٤ ﴾ وَأَزْلَفْنَا نَمَّ الْآخِرِينَ ﴿ ٦٥ ﴾ وَأَجْنَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمِينَ ﴿ ٦٦ ﴾ ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ ﴿ ٦٧ ﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿ ٦٨ ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ ٦٩ ﴾

ذكر غير واحد من المفسرين : أن فرعون خرج فى محفل عظيم وجمع كبير ، هو عبارة

عن مملكة الديار المصرية في زمانه ، أولى الحل والعقد والدول ، من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود ﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ أى : وصلوا إليهم عند شروق الشمس ، وهو طلوعها ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ ﴾ أى : رأى كل من الفريقين صاحبه ، فعند ذلك ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ ، وذلك أنه انتهى بهم السير إلى سيف البحر ، وهو بحر القلزم ، فصار أمامهم البحر ، وفرعون قد أدركهم بجنوده ، فهذا قالوا : ﴿ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ . قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ أى : لا يصل إليكم شيء مما تحذرون ، فإن الله ، سبحانه ، هو الذى أمرنى أن أسير ههنا بكم ، وهو لا يخلف الميعاد . وكان هارون ، عليه السلام ، فى المقدمة ، ومعه يوشع بن نون ، ومؤمن آل فرعون وموسى ، عليه السلام ، فى الساقة .

وأوحى الله إلى موسى : ﴿ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾ ، فضربه بها ، ففجرت فيها سلطان الله الذى أعطاه ﴿ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ أى : كالجبل الكبير . قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، وقتادة ، وغيرهم . وقال عطاء الخراسانى : هو الفج بين الجبلين . وقال ابن عباس : صار البحر اثنى عشر طريقاً ، لكل سبط طريق ، وبعث الله الريح على قعر البحر فلفحته ، فسار ييساً كوجه الأرض ، قال الله تعالى : ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَى ﴾ [طه : ٧٧] ، وقال فى هذه القصة : ﴿ وَأَزَلَفْنَا ﴾ أى : هنالك ﴿ الْآخِرِينَ ﴾ . قال ابن عباس ، وعطاء الخراسانى ، وقتادة ، والسدى : ﴿ وَأَزَلَفْنَا ﴾ أى : قربنا فرعون وجنوده من البحر وأدنيناهم إليه ﴿ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴾ أى : أنجينا موسى وبنى إسرائيل ومن معهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد ، وأغرق فرعون وجنوده ، فلم يبق منهم رجل إلا هلك . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أى : فى هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين ؛ للدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ تقدم تفسيره .

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُخَدِّعًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَمْنَعَكُمُ الْغَوَابُ وَكُنَّ عَلَيْكُمْ أَهْلًا مِّنْ دُونِ الذُّكْرِ ﴾ ﴿ ٧٥ ﴾

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُخَدِّعًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَمْنَعَكُمُ الْغَوَابُ وَكُنَّ عَلَيْكُمْ أَهْلًا مِّنْ دُونِ الذُّكْرِ ﴾ ﴿ ٧٦ ﴾

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُخَدِّعًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَمْنَعَكُمُ الْغَوَابُ وَكُنَّ عَلَيْكُمْ أَهْلًا مِّنْ دُونِ الذُّكْرِ ﴾ ﴿ ٧٧ ﴾

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُخَدِّعًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَمْنَعَكُمُ الْغَوَابُ وَكُنَّ عَلَيْكُمْ أَهْلًا مِّنْ دُونِ الذُّكْرِ ﴾ ﴿ ٧٨ ﴾

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُخَدِّعًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَمْنَعَكُمُ الْغَوَابُ وَكُنَّ عَلَيْكُمْ أَهْلًا مِّنْ دُونِ الذُّكْرِ ﴾ ﴿ ٧٩ ﴾

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُخَدِّعًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَمْنَعَكُمُ الْغَوَابُ وَكُنَّ عَلَيْكُمْ أَهْلًا مِّنْ دُونِ الذُّكْرِ ﴾ ﴿ ٨٠ ﴾

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُخَدِّعًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَمْنَعَكُمُ الْغَوَابُ وَكُنَّ عَلَيْكُمْ أَهْلًا مِّنْ دُونِ الذُّكْرِ ﴾ ﴿ ٨١ ﴾

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُخَدِّعًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَمْنَعَكُمُ الْغَوَابُ وَكُنَّ عَلَيْكُمْ أَهْلًا مِّنْ دُونِ الذُّكْرِ ﴾ ﴿ ٨٢ ﴾

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُخَدِّعًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَمْنَعَكُمُ الْغَوَابُ وَكُنَّ عَلَيْكُمْ أَهْلًا مِّنْ دُونِ الذُّكْرِ ﴾ ﴿ ٨٣ ﴾

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُخَدِّعًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَمْنَعَكُمُ الْغَوَابُ وَكُنَّ عَلَيْكُمْ أَهْلًا مِّنْ دُونِ الذُّكْرِ ﴾ ﴿ ٨٤ ﴾

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُخَدِّعًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَمْنَعَكُمُ الْغَوَابُ وَكُنَّ عَلَيْكُمْ أَهْلًا مِّنْ دُونِ الذُّكْرِ ﴾ ﴿ ٨٥ ﴾

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُخَدِّعًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَمْنَعَكُمُ الْغَوَابُ وَكُنَّ عَلَيْكُمْ أَهْلًا مِّنْ دُونِ الذُّكْرِ ﴾ ﴿ ٨٦ ﴾

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُخَدِّعًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَمْنَعَكُمُ الْغَوَابُ وَكُنَّ عَلَيْكُمْ أَهْلًا مِّنْ دُونِ الذُّكْرِ ﴾ ﴿ ٨٧ ﴾

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُخَدِّعًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَمْنَعَكُمُ الْغَوَابُ وَكُنَّ عَلَيْكُمْ أَهْلًا مِّنْ دُونِ الذُّكْرِ ﴾ ﴿ ٨٨ ﴾

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُخَدِّعًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَمْنَعَكُمُ الْغَوَابُ وَكُنَّ عَلَيْكُمْ أَهْلًا مِّنْ دُونِ الذُّكْرِ ﴾ ﴿ ٨٩ ﴾

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُخَدِّعًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَمْنَعَكُمُ الْغَوَابُ وَكُنَّ عَلَيْكُمْ أَهْلًا مِّنْ دُونِ الذُّكْرِ ﴾ ﴿ ٩٠ ﴾

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُخَدِّعًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَمْنَعَكُمُ الْغَوَابُ وَكُنَّ عَلَيْكُمْ أَهْلًا مِّنْ دُونِ الذُّكْرِ ﴾ ﴿ ٩١ ﴾

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُخَدِّعًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَمْنَعَكُمُ الْغَوَابُ وَكُنَّ عَلَيْكُمْ أَهْلًا مِّنْ دُونِ الذُّكْرِ ﴾ ﴿ ٩٢ ﴾

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُخَدِّعًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَمْنَعَكُمُ الْغَوَابُ وَكُنَّ عَلَيْكُمْ أَهْلًا مِّنْ دُونِ الذُّكْرِ ﴾ ﴿ ٩٣ ﴾

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُخَدِّعًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَمْنَعَكُمُ الْغَوَابُ وَكُنَّ عَلَيْكُمْ أَهْلًا مِّنْ دُونِ الذُّكْرِ ﴾ ﴿ ٩٤ ﴾

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُخَدِّعًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَمْنَعَكُمُ الْغَوَابُ وَكُنَّ عَلَيْكُمْ أَهْلًا مِّنْ دُونِ الذُّكْرِ ﴾ ﴿ ٩٥ ﴾

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُخَدِّعًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَمْنَعَكُمُ الْغَوَابُ وَكُنَّ عَلَيْكُمْ أَهْلًا مِّنْ دُونِ الذُّكْرِ ﴾ ﴿ ٩٦ ﴾

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُخَدِّعًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَمْنَعَكُمُ الْغَوَابُ وَكُنَّ عَلَيْكُمْ أَهْلًا مِّنْ دُونِ الذُّكْرِ ﴾ ﴿ ٩٧ ﴾

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُخَدِّعًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَمْنَعَكُمُ الْغَوَابُ وَكُنَّ عَلَيْكُمْ أَهْلًا مِّنْ دُونِ الذُّكْرِ ﴾ ﴿ ٩٨ ﴾

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُخَدِّعًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَمْنَعَكُمُ الْغَوَابُ وَكُنَّ عَلَيْكُمْ أَهْلًا مِّنْ دُونِ الذُّكْرِ ﴾ ﴿ ٩٩ ﴾

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُخَدِّعًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَمْنَعَكُمُ الْغَوَابُ وَكُنَّ عَلَيْكُمْ أَهْلًا مِّنْ دُونِ الذُّكْرِ ﴾ ﴿ ١٠٠ ﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليته إبراهيم إمام الخفاء ، أمر الله رسوله محمداً ، ﷺ أن يتلوه على أمته ، ليقننوا به فى الإخلاص والتوكل ، وعبادة الله وحده لا شريك له ، والتبرى من الشرك وأهله ؛ فإن الله تعالى أتى إبراهيم رشده من قبل ، أى : من صغره إلى كبره ، فإنه من وقت نشأ وشب ، أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله ، عز وجل ، فقال : ﴿ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أى : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا

فَنظَلُ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧٨﴾ أى : مقيمين على عبادتها ودعائها ، ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ . أَوْ يَنْفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ . قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ يعنى : اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك ، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون ، فهم على آثارهم يُهرعون . فعند ذلك قال لهم إبراهيم : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير ، فلتتخلص إلى بالمساءة ، فإنى عدو لها لا أباليها ولا أفكر فيها . وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح ، عليه السلام : ﴿ فَاجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [يونس : ٧١] ، وقال هود ، عليه السلام : ﴿ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٤ - ٥٦] . وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم وقال : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾ [الانعام : ٨١] . وقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ﴾ [المتحنة : ٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يُرجِعُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٦ - ٢٨] يعنى : لا إله إلا الله .

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ (٧٨) ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾

يعنى : لا أعبد إلا الذى يفعل هذه الأشياء ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ أى : هو الخالق الذى قدر قدراً ، وهدى الخلائق إليه ، فكل يجرى على ما قدر ، وهو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ أى : هو خالقي ورازقى ، بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية ، فساق الممزن ، وأنزل الماء ، وأحيا به الأرض ، وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد ، وأنزل الماء عذبا زلالا لـ ﴿ نَسْفِيهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِي كَثِيرًا ﴾ [الفرقان : ٤٩] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أسند المرض إلى نفسه ، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه ، ولكن أضافه إلى نفسه أدبا ، كما قال تعالى أمراً للمصلى أن يقول : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينِ ﴾ [الفاتحة : ٦ ، ٧] فأسند الإنعام إلى الله ، سبحانه وتعالى ، والغضب حذف فاعله أدبا ، وأسند الضلال إلى العبيد ، كما قالت الجن : ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدُ بِعِن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشْدًا ﴾ [الجن : ١٠] ؛ وكذا قال إبراهيم : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أى : إذا وقعت فى مرض فإنه لا يقدر على شفائى أحد غيره ، بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه ، ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ أى : هو الذى يحيى ويميت ، لا يقدر على ذلك أحد سواه ، فإنه هو الذى يبدئ ويعيد ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي ﴾

حَطِيبَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٦﴾ أى : هو الذى لا يقدر على غَفْرِ الذُّنُوبِ فى الدنيا والآخرة ، إلا هو ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، وهو الفعال لما يشاء .

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقِ بِالصَّالِحِينَ ﴾ ﴿٨٦﴾ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴿٨٦﴾
 ﴿٨٦﴾ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَغْفِرْ لِأَيِّئِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨١﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُعْتَبُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴿٨٩﴾

وهذا سؤال من إبراهيم ، عليه السلام ، أن يؤتبه ربه حُكْمًا . قال ابن عباس : وهو العلم . وقال عكرمة : هو اللب . وقال مجاهد : هو القرآن . وقال السدى : هو النبوة . وقوله : ﴿ وَالْحَقِّقِ بِالصَّالِحِينَ ﴾ أى : اجعلنى مع الصالحين فى الدنيا والآخرة ، كما قال النبى ﷺ عند الاحتضار : « اللهم الرفيق الأعلى » قالها ثلاثاً (١) .

وقوله : ﴿ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾ أى : واجعل لى ذكراً جميلاً بعدى أذكر به ، ويقتدى بى فى الخير ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٨ - ١١٠] . قال مجاهد ، وقتادة : ﴿ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾ يعنى : الثناء الحسن . قال مجاهد : وهو كقوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٧] ، وكقوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النحل : ١٢٢] . قال ليث ابن أبى سليم : كل ملة تحبه وتتولاه . وكذا قال عكرمة . وقوله : ﴿ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ أى : أنعم علىّ فى الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدى ، وفى الآخرة بأن تجعلنى من ورثة جنة النعيم .

وقوله : ﴿ وَأَغْفِرْ لِأَيِّئِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ كقوله : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ [إبراهيم : ٤١] ، وهذا مما رجح عنه إبراهيم ، عليه السلام ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤] . وقد قطع تعالى الإلحاق فى استغفاره لأبيه ، فقال : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا أَمْلَكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الممتحنة : ٤] .

وقوله : ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُعْتَبُونَ ﴾ أى : أجرنى من الخزى يوم القيامة ويوم بيعت الخلائق أولهم وآخرهم . روى البخارى عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « يلقى إبراهيم يوم القيامة أباه عليه العبرة والفترة » (٢) . وفى رواية أخرى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « يلقى إبراهيم أباه ، فيقول : يا رب ، إنك وعدتني أن لا تخزني يوم يعثون . فيقول الله تعالى : إنى حرمت الجنة على الكافرين » . هكذا رواه عند هذه الآية (٣) . وفى أحاديث الأنبياء بهذا

(١) البخارى (٦٥٠٩) ومسلم (٢١٩١ / ٤٦) . (٢) البخارى (٤٧٦٩) . (٣) البخارى (٤٧٦٩) .

الإسناد بعينه منفرداً به ، ولفظه : يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترّةً وغبرةً ، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لاتعصني ؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يا رب ، إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون ، فأى خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين . ثم يُقول: يا إبراهيم ، انظر تحت رجلك ؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطح ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار (١) .

والذيخ: هو الذكر من الضباع، كأنه حول أذر إلى صورة ذيخ متلطح بَعذرتَه، فيلقى في النار كذلك .

وقوله : ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ أى : لا يبقى المرء من عذاب الله ماله ، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ، ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ ولو افتدى بمن فى الأرض جميعاً ، ولا ينفَعُ يومئذ إلا الإيمان بالله ، وإخلاص الدين له ، والتبرى من الشرك ؛ ولهذا قال : ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أى : سالم من الدنس والشرك . قال محمد بن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور . وقال ابن عباس: ﴿إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ يعنى: يشهد أن لا إله إلا الله . وقال مجاهد ، والحسن ، وغيرهما : ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ يعنى : من الشرك . وقال سعيد بن المسيب : القلب السليم : هو القلب الصحيح ، وهو قلب المؤمن ؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض ، قال الله : ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة : ١٠] . وقال أبو عثمان النيسابورى : هو القلب الخالى من البدعة ، المطمئن على السنة .

﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُفْسِقِينَ﴾ ٩٠ ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ ٩١ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ٩٢ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ ٩٣ ﴿فَكَبِّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ ٩٤ ﴿وَحَنُودٌ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ ٩٥ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ٩٦ ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ٩٧ ﴿إِذْ نُسُوبِكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٩٨ ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ ٩٩ ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ ١٠٠ ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ ١٠١ ﴿قُلُوا أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٠٢ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٠٣ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ١٠٤

﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ﴾ أى : قربت وأدنت من أهلها مزخرفة مزينة لناظرها ، وهم المتقون الذين رغبوا فيها ، وعملوا لها على ما فى الدنيا فى الدنيا ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ أى : أظهرت وكُشف عنها ، وبدت منها عُنُقٌ ، فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر ، وقيل لأهلها تقريبا وتوبيخا : ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ﴾ ؟ أى : ليست الآلهة التى عبدتموها من دون الله، من تلك الأصنام والأنداد تغنى عنكم اليوم شيئاً ، ولا تدفع عن أنفسها ؛

فإنكم وإياها اليوم حصَبُ جهنم أنتم لها واردون .

وقوله : ﴿ فَكُتِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ قال مجاهد: يعنى: قد هوروا فيها . وقال غيره : كبروا فيها . والكاف مكررة ، والمراد : أنه ألقى بعضهم على بعض ، من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك ﴿ وَجُنُودٌ يُبَلِّسُ أَجْمَعُونَ ﴾ أى: ألقوا فيها عن آخرهم ﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ . تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . إِذْ نَسُواكُمْ بَرَبَ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : يقول الضعفاء الذين استكبروا : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَبَلَّغْنَا مَكْرَهُنَّ لَنَا لَلَّهِ الْكِبْرُ الْوَاحِدُ لَنَا وَلِلَّهِ الْحُسْبَانُ ﴾ . ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة : ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . إِذْ نَسُواكُمْ بَرَبَ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : نجعل أمركم مطاعاً كما يطاع أمر رب العالمين ، وعبدناكم مع رب العالمين ﴿ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴾ أى : ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴾ قال بعضهم : يعنى من الملائكة، كما يقولون: ﴿ فَبَلَّغْنَا لَنَا مِنْ شُعْعَاءَ قَيْشِفُوا لَنَا أَوْ نُرْدُ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [الاعراف: ٥٣] . وكذا قالوا : ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ أى : قريب . قال قتادة : يعلمون - والله - أن الصديق إذا كان صالحاً نفع ، وأن الحميم إذا كان صالحاً شفع . ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وذلك أنهم يتمنون أنهم يردون إلى الدار الدنيا ، ليعملوا بطاعة ربهم - فيما يزعمون - وهو ، سبحانه وتعالى ، يعلم أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . وقد أخبر تعالى عن تخاصم أهل النار فى سورة « ص » ، ثم قال : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ [ص : ٦٤] .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى : إن فى محاجة إبراهيم لقومه وإقامته الحجج عليهم فى التوحيد آية ودلالة واضحة جلية على أنه لا إله إلا الله ، ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾ ﴾

هذا إخبار من الله ، عز وجل ، عن عبده ورسوله نوح ، عليه السلام ، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد ما عبدت الأصنام والأنداد ، فبعثه الله ناهياً عن ذلك ، ومحذراً من وبيل عقابه ، فكذب قومه فاستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة فى عبادتهم أصنامهم مع الله تعالى ، ونزل الله تعالى تكذيبهم له منزلة تكذيبهم جميع الرسل؛ ولهذا قال: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أى : ألا تخافون الله فى عبادتكم غيره؟ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أى : أنى رسول من الله إليكم ، أمين فيما بعثنى به ، أبلغكم رسالة الله لا أزيد فيها ولا أنتقص منها ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى: لا أطلب منكم جزاء على نصحى لكم، بل أدخر ثواب ذلك عند الله ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾

فقد وضح لكم وبان صدقى ونصحى وأمانتى فيما بعثنى الله به واطمئنى عليه .

﴿ قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾
 ﴿١١٣﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٤﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٥﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٦﴾

يقولون : لا تؤمن لك ولا تتبعك ، ونتأسى فى ذلك بهؤلاء الأردلین الذين اتبعوك وصدقوك، وهم أراذلنا ؛ ولهذا قالوا : ﴿ أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ . قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ؟
 أى : وأى شىء يلزمنى من اتباع هؤلاء لى ، ولو كانوا على أى شىء كانوا عليه لا يلزمنى التنقيب عنه والبحث والفحص ، إنما على أن أقبل منهم تصديقهم إياى ، وأكل سرائرهم إلى الله ، عز وجل ، ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ . وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ليتابعوه ، فأبى عليهم ذلك ، وقال : ﴿ مَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ . إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى : إنما بعثت نذيراً ، فمن أطاعنى واتبعنى وصدقنى كان منى وكنت منه ، سواء كان شريفاً أو وضعياً ، جليلاً أو حقيراً .

﴿ قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهَ يَلْنُوحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ ﴿١١٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٨﴾ فَانْفُتِحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾ فَانْفُتِحَتْ مِنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ ﴿١٢٠﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٣﴾

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً ، وجهراً وإسراراً ، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ ، والامتناع الشديد ، وقالوا فى الآخر : ﴿ لَيْنَ لَمْ تَنْتَهَ ﴾ أى : عن دعوتك إيانا إلى دينك يا نوح ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ أى : لترجمتك . فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه ، فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ . فَانْفُتِحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ لَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ . فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قُدْرٍ . وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوَّاحِ وَدُوسِرٍ . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر : ١٠ - ١٤] ، وقال ههنا : ﴿ فَانْفُتِحَتْ مِنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾ والمشحون : هو المملوء بالأمته والأزواج التى حمل فيه من كل زوجين اثنين ، أى : أنجينا نوحا ومن اتبعه كلهم ، وأغرقنا من كفر به وخالف أمره ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١١٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَأَيَّةٌ تَعْبَثُونَ ﴿١١٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١١٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَارِينَ ﴿١٢٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٢١﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ ﴿١٢٢﴾ وَجَنَّتِ وَعْيُونُ ﴿١٢٣﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٢٥﴾ ﴾

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود ، عليه السلام ، أنه دعا قومه عاداً ، وكانوا قوموا يسكنون الأحقاف ، وهي : جبال الرمل قريباً من بلاد حضرموت من جهة بلاد اليمن ، وكان زمانهم بعد قوم نوح ، وكانوا في غاية من قوة التركيب ، والقوة والبطش الشديد ، والطول المديد ، والأرزاق الدارة ، والأموال والجنات ، والأبناء والزروع والشمار ، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه ، فبعث الله إليهم رجلاً منهم رسولاً وبشيراً ونذيراً ، فدعاهم إلى الله وحده ، وحذرهم نعمته وعذابه في مخالفته ، فقال لهم كما قال نوح لقومه ، إلى أن قال : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَأَيَّةٌ تَعْبَثُونَ ﴾ ، اختلف المفسرون في الريع بما حاصله : أنه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة . تبثون هناك بانياً محكما باهراً هائلاً ؛ ولهذا قال : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَأَيَّةٌ ﴾ أي : معلما بناء مشهوراً ﴿ تَعْبَثُونَ ﴾ وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه ؛ بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة ؛ ولهذا أنكروا عليهم نبيهم ، عليه السلام ، ذلك ؛ لأنه تضييع للزمان وإتعاث للأبدان في غير فائدة ، واشتغال بما لا يجدى في الدنيا ولا في الآخرة .

ولهذا قال : ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ قال مجاهد : المصانع : البروج المشيدة ، والبنيان المخلد . وفي رواية عنه : بروج الحمام . وقال قتادة : هي مأخذ الماء . قال قتادة : وقرأ بعض القراء : « وتتخذون مصانع كأنكم خالدون » . وفي القراءة المشهورة : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ أي : لكي تقيموا فيها أبداً ، وليس ذلك بحاصل لكم ، بل زائل عنكم ، كما زال عن من كان قبلكم . وروى ابن أبي حاتم ، أن أبا الدرداء ، لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة من البنيان ونصب الشجر ، قام في مسجدهم فنأدى : يا أهل دمشق ، فاجتمعوا إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ألا تستحيون ! ألا تستحيون ! تجمعون مالا تأكلون ، وتبثون ما لا تسكنون ، وتأملون ما لا تدركون ، قد كانت قبلكم قرون ، يجمعون فيوعون ، ويبثون فيوثقون ، ويأملون فيطيلون ، فأصبح أملمهم غروراً ، وجمعهم بوراً ، وأصبحت مساكنهم قبوراً ، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً ، فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين ؟

وقوله : ﴿ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَارِينَ ﴾ : يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ أي : اعبدوا ربكم ، وأطيعوا رسولكم . ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ . وَجَنَّتِ وَعْيُونُ . إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي : إن

كذبتهم ومخالفتهم ، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب ، فما نفع فيهم .

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ ﴿١٣٦﴾ **إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ**
 ﴿١٣٧﴾ **وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ** ﴿١٣٨﴾ **فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ** **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ**
مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴿١٤٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن جواب قوم هود له ، بعدما حذرهم وأنذرهم ، ورغَّبهم ورهيبهم ، وبين لهم الحق ووضحه : ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ أى : لا نرجع عما نحن فيه ، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود : ٥٣] . وهكذا الأمر ؛ فإن الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : ٦] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] .

وقولهم : ﴿ **إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ** ﴾ قرأ بعضهم : « إن هذا إلا خلقى » بفتح الخاء وتسكين اللام . قال ابن مسعود وابن عباس ، وعلقمة ، ومجاهد : يعنون ما هذا الذى جئتنا به إلا أخلاق الأولين . كما قال المشركون من قريش : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَبَتْهَا فِيهَا تَمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان : ٥] ، وقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ اقْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الفرقان : ٤ ، ٥] ، وقال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [النحل : ٢٤] . وقرأ آخرون : ﴿ **إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ** ﴾ بضم الخاء واللام ، يعنون : دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأوائل من الآباء والأجداد . ونحن تابعون لهم ، سالكون وراءهم ، نعيش كما عاشوا ، ونموت كما ماتوا ، ولا بعث ولا معاد ؛ ولهذا قالوا : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ قال ابن عباس : ﴿ **إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ** ﴾ يقول : دين الأولين . وقاله عكرمة ، وعطاء الخراسانى ، وقتادة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، واختاره ابن جرير .

قال الله تعالى : ﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ** ﴾ أى : فاستمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده ، فأهلكهم الله ، وقد بين سبب إهلاكه إيهم فى غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، أى : ريحاً شديدة الهبوب ذات برد شديد جداً ، فكان إهلاكهم من جنسهم ، فإنهم كانوا أعتى شىء وأجبره ، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة ، كما قال : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ** ﴾ [الفجر : ٦ ، ٧] ، وقال تعالى : ﴿ **وَأَمَّا عَادُ فَاهْلَكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا** ﴾ [الحاقة : ٦ ، ٧] ، أى : كاملة ، ﴿ **فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ** ﴾ [الحاقة : ٧] ، أى : بقوا أبداناً بلا رؤوس ؛ وذلك أن الريح كانت تاتى الرجل منهم فتقتلعه وترفعه فى الهواء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخ دماغه ، وتنكسر رأسه ، وتلقيه ، كأنهم أعجاز نخل منقعر . وقد كانوا تحصنوا فى الجبال والكهوف والمغارات ، وحفروا لهم فى الأرض إلى أنصافهم ، فلم يغن عنهم ذلك من أمر الله شيئاً

﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ [نوح : ٤] ؛ ولهذا قال : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ الآية .

﴿ أَتَرَكُونَ فِي مَا هَنَأْنَا مِنْكُمْ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعَيْوُنِ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنَحُّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يُّوتًا فَدَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ ﴿١٥١﴾

وهذا إخبار من الله ، عز وجل ، عن عبده ورسوله صالح ، عليه السلام : أنه بعثه إلى قوم ثمود ، وكانوا عرباً يسكنون مدينة الحجر ، التي بين وادي القرى وبلاد الشام ، فدعاهم نبهم صالح إلى الله ، عز وجل ، أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة ، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه . فأخبرهم أنه لا يتبغى بدعوتهم أجرا منهم ، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله ، عز وجل . ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

يقول لهم واعظاً لهم ومحذراً إياهم نعم الله أن تحل بهم ، ومذكراً بانعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة ، وجعلهم في أمن من المحذورات ، وأنبت لهم من الجنات ، وفجر لهم من العيون الجاريات ، وأخرج لهم من الزروع والثمار ؛ ولهذا قال : ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ قال العوفى ، عن ابن عباس : أئبع وبلغ ، فهو هضيم . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ يقول : معشبة . وقال عن ابن عباس ، فى قوله : ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ قال : إذا رطب واسترخى . رواه ابن أبى حاتم . وقال أبو العلاء : ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ قال : هو المذنب من الرطب . وقال مجاهد : هو الذى إذا يبس تهشم وتفتت وتناثر . وقال مجاهد : ﴿ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ قال : حين يطلع تقبض عليه فتهضمه ، فهو من الرطب الهضيم ، ومن اليباس الهشيم ، تقبض عليه فتهشمه . وقال عكرمة ، وقتادة : الهضيم : الرطب اللين . وقال الضحاك : إذا كثر حمل الشمة ، وركب بعضه بعضاً ، فهو هضيم . وقال مرة : هو الطلع حين يفرق ويخضر . وقال الحسن البصرى : هو الذى لا نوى له . وقال أبو صخر : ما رأيت الطلع حين ينشق عنه الكم ، فترى الطلع قد لصق بعضه ببعض ، فهو الهضيم .

وقوله : ﴿ وَتَنَحُّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يُّوتًا فَارِهِينَ ﴾ قال ابن عباس ، وغير واحد : يعنى : حاذقين . وفى رواية عنه : شرهين أشرين . وهو اختيار مجاهد وجماعة . ولا منافاة بينهما ؛ فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة فى الجبال أشراً وبطراً وعبثاً ، من غير حاجة إلى سكنها ، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها ، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم ؛ ولهذا قال :

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا﴾ : أى : أقبِلوا على عَمَلٍ ما يعود نفعه عليكم فى الدنيا والآخرة ، من عبادة ربكم الذى خلقكم ورزقكم لتوحده وتعبده وتسبحوه بكرة وأصيلا ، ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يعنى : رؤساءهم وكبراءهم ، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ، ومخالفة الحق .

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ﴾ (١٥٧) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ (١٥٥) وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يُومِرُ عَظِيمٌ﴾ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١٥٩)

يقول تعالى مخبراً عن ثمودَ فى جوابهم لنبىهم صالح ، عليه السلام ، حين دعاهم إلى عبادة ربهم أنهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ﴾ قال مجاهد ، وقتادة : يعنون من المسحورين . وروى أبو صالح ، عن ابن عباس : ﴿مِنَ الْمُسْحَرِينَ﴾ : يعنى من المخلوقين ، يعنى الذين لهم سُحُور ، والسُّحْر : هو الرثة . والأظهر فى هذا قول مجاهد وقتادة : أنهم يقولون : إنما أنت فى قولك هذا مسحور لا عقل لك .

ثم قالوا : ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ يعنى : فكيف أوحى إليك دوننا ؟ كما قالوا فى الآية الأخرى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَيْهِمْ مِنَ النَّارِ نَارٌ لَّاهُوتٌ مُّشْتَبِهَةٌ وَلَهُمْ لُجُجٌ مِّنْ نَّارٍ تُنْفِثُونَ فِي الْآبَارِ﴾ [الجم: ٢٥ ، ٢٦] .

ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ، ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم ، وقد اجتمع ملؤهم وطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عُشْرَاء - وأشاروا إلى صخرة عندهم - من صفتها كذا وكذا . فعند ذلك أخذ عليهم نبى الله صالح العهود والمواثيق ، لئن أجابهم إلى ما سألوا لَيُؤْمِنَنَّ به ، وليتبعنه ، فأنعموا بذلك . فقام نبى الله صالح ، عليه السلام ، فصلى ، ثم دعا الله ، عز وجل ، أن يجيبهم إلى سؤالهم ، فانفطرت تلك الصخرة التى أشاروا إليها عن ناقة عُشْرَاء ، على الصفة التى وصفوها . فآمن بعضهم وكفر آخرون ، ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ يعنى : ترد ماءكم يوماً ، ويوماً تردونه أنتم ، ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يُومِرُ عَظِيمٌ﴾ فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء ، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ترد الماء ، وتاكل الورق والمرعى . ويتنفعون بلبنها ، يحتلبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً ، فلما طال عليهم الأمد وحضر شقاؤهم ، تمالؤوا على قتلها وعقرها ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ . فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ وهو أن أرضهم زلزلت زلزلاً شديداً ، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالها ، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون ، وأصبحوا فى ديارهم جاثمين ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٤﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا نُنْقُونَ ﴿١١٥﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١١٦﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٧﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط ، عليه السلام ، وهو : لوط بن هاران بن آزر ، وهو ابن أخى إبراهيم الخليل ، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة فى حياة إبراهيم عليهما السلام ، وكانوا يسكنون « سدوم » وأعمالها التى أهلكتها الله بها ، وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة ، وهى مشهورة ببلاد الغور ، بناحية جبال البيت المقدس ، فدعاهم إلى الله ، عز وجل ، أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوا رسولهم الذى بعثه الله إليهم ، ونهاهم عن معصية الله ، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه فى العالم ، مما لم يسبقهم أحد من الخلائق إلى فعله ، من إتيان الذكران دون الإناث ؛ ولهذا قال تعالى :

﴿ اتَّاتَوْا الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١١٦﴾ قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهَ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١١٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١١٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١١٩﴾ فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٢٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٥﴾ ﴾

لما نهاهم نبي الله عن ارتكاب الفواحش ، وغشيانهم الذكور ، وأرشدهم إلى إتيان نسائهم اللاتي خلقهن الله لهم - ما كان جوابهم له إلا أن قالوا : ﴿ لَيْنَ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ ﴾ أى : عما جئنا به ، ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ أى : نضفك من بين أظهرنا ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْظَهَرُونَ ﴾ [النمل : ٥٦] ، فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمررون على ضلالتهم ، تبرأ منهم وقال : ﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴾ أى : المبغضين ، لا أحبه ولا أرضى به ؛ فأناب برىء منكم . ثم دعا الله عليهم فقال : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾ أى : كلهم ﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾ وهى امرأته ، وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع من بقى من قومها ، حين أمره الله أن يسرى بأهله إلا امرأته ، وأنهم لا يلتفتون إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه ، فصبروا لأمر الله واستمروا ، وأنزل الله على أولئك العذاب الذى عم جميعهم ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمِرْثَلِ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا عَمْرَأَهُ وَاتَّقُوا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

هؤلاء يعنى أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح . وكان نبي الله شعيب من أنفسهم ، وإنما لم يقل هنا أخوهم شعيب ؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة ، وهى شجرة . وقيل : شجر ملتف كالغيضة ، كانوا يعبدونها ؛ فهذا لما قال : ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، لم يقل : « إذ قال لهم أخوهم شعيب » ، وإنما قال : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴾ ، فقطع نسبة الأخوة بينهم ؛ للمعنى الذى نسبوا إليه ، وإن كان أخاهم نسباً . ومن الناس من لم يفتن لهذه النكتة ، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين ، فزعم أن شعيباً ، عليه السلام ، بعثه الله إلى أمتين ، ومنهم من قال : ثلاث أمم .

والصحيح أنهم أمة واحدة ، وصفوا فى كل مقام بشيء ؛ ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان ، كما فى قصة مدين سواء بسواء ، فدل ذلك على أنهم أمة واحدة .

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَةَ الْأُولَى ﴿١٨٤﴾ ﴾

يأمرهم عليه السلام بإفءاء المكيال والميزان ، وبنهاهم عن التطفيف فيهما ، فقال : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾ أى : إذا دفعتم إلى الناس فكمّلوا الكيل لهم ، ولا تبخسوا الكيل فتعطوه ناقصاً ، وتأخذوه - إذا كان لكم - تاماً وافياً ، ولكن خذوا كما تعطون ، وأعطوا كما تأخذون ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ والقسطاس هو : الميزان ، وقيل : القبان . وقال قتادة : القسطاس : العدل . وقوله : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أى : لا تنقصوهم أموالهم ، ﴿ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ يعنى : قطع الطريق ، كما فى الآية الأخرى : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ [الاعراف : ٨٦] . وقوله : ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَةَ الْأُولَى ﴾ : يخوفهم بأس الله الذى خلقهم وخلق آباءهم الأوائل ، كما قال موسى ، عليه السلام : ﴿ رَبِّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولَى ﴾ [الصفات : ١٢٦] . قال ابن عباس ، ومجاهد : ﴿ وَالْجِيلَةَ الْأُولَى ﴾ يقول : خلق الأولين .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَطْنُكَ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيَ عَلَّمَ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها حيث قالوا: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴾ يعنون : من المسحورين ﴿ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نُنْظِقُ لَكِنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى : تتعمد الكذب فيما تقوله ، لا أن الله أرسلك إلينا ، ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ قال الضحاك : جانباً من السماء . وقال قتادة : قطعاً من السماء . وقال السدى : عذاباً من السماء . وهذا شبيه بما قالت قريش فيما أخبر الله عنهم فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ ، إلى أن قالوا : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالَهُ الْمَلَائِكَةُ قَبِيلاً ﴾ [الإسراء : ٩٠ - ٩٢] . وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] ، وهكذا قال هؤلاء الكفرة الجهلة : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . ﴿ قَالَ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يقول : الله أعلم بكم ، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به غير ظالم لكم ، وكذلك وقع بهم كما سألوا ، جزاءً وفاقاً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهذا من جنس ما سألوا ، من إسقاط الكسف عليهم ، فإن الله ، سبحانه وتعالى ، جعل عقوبتهم أن أصابهم حر شديد جداً مدة سبعة أيام لا يكفهم منه شيء ، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم ، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر ، فلما اجتمعوا تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شرراً من نار ، ولهباً ووهجاً عظيماً ، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة عظيمة أزهدت أرواحهم ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم فى ثلاثة مواطن ، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق ، ففى الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جائمين ؛ وذلك لأنهم قالوا : ﴿ نُخْرِجُكَ يَا شَعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف : ٨٨] ، فأرجفوا بنى الله ومن اتبعه ، فأخذتهم الرجفة . وفى سورة هود قال : ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴾ [الآية ٩٤] (١) ؛ وذلك لأنهم استهزؤوا بنى الله فى قولهم : ﴿ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود : ٨٧] . قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء ، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم ، فقال : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ ﴾ . وههنا قالوا : ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ على وجه التعنت والعناد ، فناسب أن يحق عليهم ما استعدوا وقوعه : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ . ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أى : العزيز فى انتقامه من الكافرين ، الرحيم بعباده المؤمنين .

﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾

(١) فى المطبوعة والمخطوطة : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ ﴾ وهى فى سورة الحجر ، الآية (٧٣) و (٨٣) . وليست فى سورة هود كما ذكر الحافظ . واطنه وقع سهواً من الناسخ ، ولم يستدرکه الطابع ! فالله المستعان .

يقول تعالى مخبراً عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ: ﴿وَأَنَّهُ﴾ أي : القرآن الذي تقدم ذكره في أول السورة في قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ (١) مُحْدَثٍ﴾ [الآية : ٥] ﴿لِنُنزِّلَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أنزله الله عليك وأوحاه إليك، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ وهو جبريل، عليه السلام ، قاله غير واحد من السلف : ابن عباس ، ومحمد بن كعب، وقتادة ، وعطية العوفى ، والسدى ، والضحاك ، والزهرى ، وابن جريج . وهذا ما لا نزاع فيه . قال الزهرى: وهذه كقوله : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٩٧] . وقال مجاهد : من كلمه الروح الامين لا تاكله الارض . ﴿ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ أي: نزل به ملك كريم أمين ، ذو مكانة عند الله، مطاع فى الملأ الأعلى ، ﴿ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ يا محمد ، سالماً من الدنس والزيادة والنقص؛ ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ أي : لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه ، وتبشر به المؤمنين المتبعين له .

وقوله: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ أي: هذا القرآن الذى أنزلناه إليك أنزلناه بلسانك العربى الفصحى الكامل الشامل ، ليكون بيتاً واضحاً ظاهراً ، قاطعاً للعدر ، مقيماً للحجة ، دليلاً إلى المحجة .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي زُجْرٍ الْأُولِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوْ لَوْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٩٩﴾

يقول تعالى : وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود فى كتب الأولين الماثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به فى قديم الدهر وحديثه ، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك ، حتى قام آخرهم خطيباً فى ملته بالبشارة بأحمد : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِيهِ مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦] ، والزبر ههنا هى الكتب وهى جمع زبرة ، وكذلك الزبور ، وهو كتاب داود . وقال تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر: ٥٢] أى : مكتوب عليهم فى صحف الملائكة . ثم قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى : أو ليس يكفهم من الشاهد الصادق على ذلك : أن العلماء من بنى إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن فى كتبهم التى يدرسونها ؟ والمراد : العدول منهم ، الذين يعترفون بما فى أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمته ، كما أخبر بذلك من آمن منهم كعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسى ، عمن أدركه منهم ومن شاكلهم . وقال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ [الاعراف : ١٥٧] .

ثم قال تعالى مخبراً عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن ؛ أنه لو أنزله على رجل من الأعاجم، ممن لا يدري من العربية كلمة ، وأنزل عليه هذا الكتاب بيانه وفصاحته ، لا يؤمنون به؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، كما أخبر

عَنَّهُمْ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر : ١٤ ، ١٥] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَسْمُوتِينَ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الأنعام : ١١١] ، وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] .

﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٩٦﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٨﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٩٩﴾ أَفِعْدَابِنَا يُسْتَعْجِلُونَ ﴿١٠٠﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿١٠١﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٠٢﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرِيْبَةٍ إِلَّا لَهَا مُنَدِرُونَ ﴿١٠٤﴾ ذَكَرْنَاهُ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

يقول تعالى : كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعداء ، أى : أدخلناه فى قلوب المجرمين ، ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أى : بالحقى ﴿ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ أى : حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴿ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً ﴾ أى : عذاب الله بغتة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ أى : يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أنظروا قليلا ليعملوا بطاعة الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم : ٤٤] ، فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته ، ندم ندماً شديداً هذا فرعون لما دعا عليه الكليم بقوله : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ إلى قوله : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتِ دَعْوَتُكُمَا ﴾ [يونس : ٨٨] ، [٨٩] ، فأثرت هذه الدعوة فى فرعون ، فما آمن حتى رأى العذاب الاليم ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ . الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٩٠ ، ٩١] ، وقال : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكُفِّرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ الآية [غافر : ٨٤ ، ٨٥] .

وقوله تعالى : ﴿ أَفِعْدَابِنَا يُسْتَعْجِلُونَ ﴾ : إنكار عليهم ، وتهديد لهم ؛ فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيباً واستبعاداً : ﴿ إِنَّمَا يَعَذَابُ اللَّهِ ﴾ [العنكبوت : ٢٩] ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ [الآيات] [العنكبوت : ٥٣] . ثم قال : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴾ أى : لو أخرناهم وأنظرناهم ، وأملىنا لهم برهة من الزمان وحيناً من الدهر وإن طال ، ثم جاءهم أمر الله ، أى شىء يجدى عنهم ما كانوا فيه من النعم ، ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النارعات : ٤٦] ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ أُحْذِرُهُمْ لَوْ يَعْمُرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعْمَرَ ﴾ [البقرة : ٩٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ [الليل : ١١] ؛ ولهذا قال : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴾ . وفى الحديث الصحيح : « يؤتى

بالكافر فيغمس في النار غمسة ، ثم يقال له : هل رأيت خيراً قط ؟ هل رأيت نعيماً قط ؟ فيقول : لا والله يا رب . ويؤتى بأشد الناس بؤساً كان في الدنيا ، فيصبغ في الجنة صبغة ، ثم يقال له : هل رأيت بؤساً قط ؟ فيقول : لا والله يا رب « أى : ما كان شيئاً كان (١) . ولهذا كان عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه يتمثل بهذا البيت :

كَأَنَّكَ لَمْ تُوتِرِ مِنَ الدَّهْرِ لَيْلَةً إِذَا أَنْتَ أَدْرَكْتَ الذِّى كُنْتَ تَطْلُبُ

ثم قال الله تعالى مخبراً عن عدله فى خلقه : أَنَّهُ مَا أَهْلَكَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَعْدَ الْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ ، وَالْإِنْذَارِ لَهُمْ وَبِعَثَةِ الرِّسْلِ إِلَيْهِمْ وَقِيَامِ الْحُجُجِ عَلَيْهِمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ . ذِكْرِي وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمِهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ إلى قوله ﴿ وَأَهْلَاهَا ظَالِمُونَ ﴾ [القصص : ٥٩] .

﴿ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز ، الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد: أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله ﴿ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ . ثم ذكر أنه يمتنع عليهم ذلك من ثلاثة أوجه ، أحدها : أنه ما ينبغى لهم ، أى : ليس هو من بُغْيَتِهِمْ ولا من طلبتهم ؛ لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد ، وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ونور وهدى وبرهان عظيم ، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ ﴾ . وقوله : ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أى : ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر : ٢١] .

ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته ، لما وصلوا إلى ذلك ؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله ؛ لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً فى مدة إنزال القرآن على رسوله ، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه ، لثلا يشتهب الأمر . وهذا من رحمة الله بعباده ، وحفظه لشرعه ، وتأيينه لكتابه ولرسوله ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُونَ ﴾ كما قال تعالى مخبراً عن الجن : ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً حَرَساً شَدِيداً وَشُهَباً . وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَاباً رَصِداً . وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشْداً ﴾ [الجن : ٨ - ١٠] .

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونُ مِنَ الْمَعذِبِينَ ﴾ (١١٤) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿١١٥﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٦﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١١٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿١١٨﴾ الَّذِي يَرْزُقُكَ حِينَ تَقُومُ ﴿١١٩﴾ وَتَقَلِّبَكَ فِي السَّجَدِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢١﴾

يقول تعالى أمراً بعبادته وحده لا شريك له ، ومخبراً أن من أشرك به عذبه . ثم قال تعالى أمراً لرسوله ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين ، أى : الأذنين إليه ، وأنه لا يخلص أحداً منهم إلا إيمانه بربه ، عز وجل ، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين . ومن عصاه من خلق الله كائناً من كان فليتبرأ منه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . وهذه النذارة الخاصة لا تنافى العامة ، بل هى فرد من أجزائها ، كما قال : ﴿ لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [يس : ٦] ، وقال : ﴿ لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الشورى : ٧] ، وقال : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام : ٥١] ، وقال : ﴿ لَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ [مريم : ٩٧] ، وقال : ﴿ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] ، كما قال : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : ١٧] . وفى صحيح مسلم : « والذى نفسى بيده ، لا يسمع بى أحد من هذه الأمة ، يهودى ولا نصرانى ، ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار » (١) . وقد وردت أحاديث كثيرة فى نزول هذه الآية الكريمة ، فلنذكرها :

الحديث الأول : روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : لما أنزل الله ، عز وجل : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، أتى النبى ﷺ الصفا فصعد عليه ، ثم نادى : « يا صباحاه » . فاجتمع الناس إليه بين رجل يجرى إليه ، وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، يا بنى لؤى ، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل ، تريد أن تغير عليكم ، صدقتموني ؟ » . قالوا : نعم . قال : « فإنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد » . فقال أبو لهب : تبأ لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا ؟ وأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [سورة المسد] . ورواه البخارى ومسلم والنسائى والترمذى (٢) .

الحديث الثانى : روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : لما نزلت : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، قام رسول الله ﷺ فقال : « يا فاطمة ابنة محمد ، يا صفية ابنة عبد المطلب ، يا بنى عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئاً ، سلونى من مالى ما شئتم » . انفرد بإخراجه مسلم (٣) .

الحديث الثالث : روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنْذِرْ

(١) مسلم (١٥٣ / ٢٤٠) .

(٢) البخارى (٤٨٠١) ومسلم (٢٠٨ / ٣٥٦) والنسائى فى الكبرى (١١٧١٤) والترمذى (٣٣٦٣) .

(٣) المسند (٦ / ١٨٧) ومسلم (٢٠٥ / ٣٥٠) .

عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿١﴾ ، دعا رسول الله ﷺ قريشاً ، فعم وخص ، فقال : « يا معشر قريش ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا معشر بنى كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا معشر بنى هاشم ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا معشر بنى عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا فاطمة بنت محمد ، أنقذى نفسك من النار ، فإنى - والله - ما أملك لكم من الله شيئاً ، إلا أن لكم رَحِمًا سَأْبِلُهَا بِبِلَالِهَا » . ورواه مسلم (١) .

الحديث الرابع : روى الإمام أحمد عن قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ وَزُهَيْرِ بْنِ عَمْرٍو قَالَا: لما نزلت : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ، صعد رسول الله ﷺ من جبل على أعلاها حجر ، فجعل ينادى : « يا بنى عبد مناف ، إنما أنا نذير ، إنما مثلى ومثلكم كرجل رأى العدو ، فذهب يربأ أهله ، يخشى أن يسبقوه ، فجعل ينادى ويهتف : يا صباحاه » . ورواه مسلم والنسائي (٢) .

الحديث الخامس : روى الإمام أحمد عن علي قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ، جمع النبي ﷺ من أهل بيته ، فاجتمع ثلاثون ، فأكلوا وشربوا قال : وقال لهم : « من يَضْمَنُ عَنِّي دِينِي وَمَوَاعِيدِي ، وَيَكُونُ مَعِيَ فِي الْجَنَّةِ ، وَيَكُونُ خَلِيفَتِي فِي أَهْلِي ؟ » . فقال رجل - لم يسمه شريك : يا رسول الله ، أنت كنت بحراً ، من يقوم بهذا ؟ قال : ثم قال الآخر ، قال : فعرض ذلك على أهل بيته ، فقال عليٌّ : أنا (٣) .

طريق أخرى بأبسط من هذا السياق : روى أحمد عن علي قال : جمع رسول الله ﷺ - أو دعا رسول الله ﷺ - بنى عبد المطلب ، وهم رَهْطٌ ، كلهم يأكل الجذعة ويشرب الفَرْقَ ، فصنع لهم مداً من طعام فأكلوا حتى شبعوا ، قال : وبقي الطعام كما هو كأنه لم يمس . ثم دعا بغمير فشربوا حتى رووا ، وبقي الشراب كأنه لم يمس - أو لم يشرب - وقال : « يا بنى عبد المطلب ، إنى بعثت إليكم خاصة وإلى الناس عامة ، وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم ، فأيكم يبايعنى على أن يكون أخى وصاحبى ؟ » . قال : فلم يقم إليه أحد . قال : فقمتُ إليه - وكنت أصغر القوم - قال : فقال : « اجلس » . ثم قال ثلاث مرات ، كل ذلك أقوم إليه فيقول لى : « اجلس » . حتى كان فى الثالثة ضرب بيده على يدي (٤) .

(١) المسند (٨٧١١) ومسلم (٢٠٤ / ٣٤٨) .

(٢) المسند (٦٠ / ٥) ومسلم (٢٠٧ / ٣٥٣) والنسائي فى الكبرى (١١٣٧٩) .

(٣) المسند (٨٨٣) وقال الشيخ شاكر : « إسناده حسن » .

وقوله : « أنت كنت بحرا » هو فى المخطوطة هكذا : « إن كنت بحرى » وفى المطبوعة : « أنت كنت بحراء » وكلاهما خطأ لا معنى له ، صوابه ما أثبتناه كما فى المسند ، وهو - كما قال شاكر - كناية عن واسع كرمه وجوده ﷺ .

(٤) المسند (١٣٧١) وقال الشيخ شاكر : « إسناده صحيح » . و « الفَرْقَ » - بفتح الفاء والراء : مكيال يسع ستة عشر رطلا ، وهى إثنا عشر مداً أو ثلاثة أصع عند أهل الحجاز كذا فى النهاية . و « الغُمْرُ » - بضم الغين وفتح الميم : القدح الصغير .

ومعنى سؤاله ﷺ لأعمامه وأولادهم أن يقضوا عنه دينه ، ويخلفوه فى أهله ، يعنى : إن قتل فى سبيل الله ، كانه خشى إذا قام بأعباء الإنذار أن يقتل ، فلما أنزل الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] ، فعند ذلك أمن . وكان أولا يحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ . ولم يكن أحد فى بنى هاشم إذ ذاك أشد إيمانا وإيقانا وتصديقا لرسول الله ﷺ من على ، رضى الله عنه ؛ ولهذا بدرهم إلى التزام ما طلب منهم رسول الله ﷺ ، ثم كان بعد هذا - والله أعلم - دعاؤه الناس جهرة على الصفا ، وإنذاره لبطون قريش عموما وخصوصا ، حتى سمى من سمى من أعمامه وعماته وبناته ، لينبه بالأدنى على الأعلى ، أى : إنما أنا نذير ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

وقوله : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ أى : فى جميع أمورك ؛ فإنه مؤيدك وحافظك ومظفرك ومعل كلمتك . وقوله : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أى : هو معتن بك ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ ۗ (١) لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : ٤٨] . قال ابن عباس : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ يعنى : إلى الصلاة . وقال عكرمة : يرى قيامه وركوعه وسجوده . وقال الحسن : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ : إذا صليت وحدك . وقال الضحاك : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أى : من فراشك أو مجلسك . وقال قتادة : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ ﴾ : قائما وجالسا وعلى حالائك . وقوله : ﴿ وَتَقَلِّبْ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ قال قتادة : فى الصلاة ، يراك وحدك ويراك فى الجمع . وهذا قول عكرمة ، وعطاء الخراسانى ، والحسن البصرى . وقال مجاهد : كان رسول الله ﷺ يرى من خلفه كما يرى من أمامه ؛ ويشهد لهذا ما صح فى الحديث : « سَوَّوْا صُفُوفَكُمْ ؛ فَإِنِى أَرَاكُمْ مِنْ وِرَاءِ ظَهْرِى » (٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ الآية [يونس : ٦١] .

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿١١١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿١١٢﴾ يُنْفِقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿١١٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ ﴿١١٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿١١٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿١١٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

يقول تعالى مخاطبا لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ليس بحق ، وأنه شىء

(٢) البخارى (٧٢٣) .

(١) فى المطبوعة والمخطوطة : « فاصبر » وهو خطأ واضح .

افتعله من تلقاء نفسه ، أو أنه أتاه به رثى من الجن ، فتره الله ، سبحانه ، جناب رسوله عن قولهم واقترائهم ، ونبه أن ما جاء به إنما هو من عند الله ، وأنه تنزيله ووحيه ، نزل به ملك كريم أمين عظيم ، وأنه ليس من قبَل الشياطين ، فإنهم ليس لهم رغبة فى مثل هذا القرآن العظيم ، وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة ؛ ولهذا قال الله : ﴿ هَلْ أَنْبَيْتُمْ ﴾ أى : أخبركم ﴿ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ . نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ أى : كذوب فى قوله ، وهو الأفاك ، الأثيم ، أى : الفاجر فى أفعاله . فهذا هو الذى تنزل عليه الشياطين كالكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة ، فإن الشياطين أيضا كذبة فسقة .

﴿ يُلْقُونَ السَّمْعَ ﴾ أى : يسترقون السمع من السماء ، فيسمعون الكلمة من علم الغيب ، فيزيدون معها مائة كذبة ، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيتحدثون بها ، فيصدقهم الناس فى كل ما قالوه ، بسبب صدقهم فى تلك الكلمة التى سمعت من السماء ، كما صح بذلك الحديث ، كما رواه البخارى ، عن عائشة قالت : سألت ناس النبى ﷺ عن الكهان ، فقال : « إنهم ليسوا بشيء » . قالوا : يا رسول الله ، فإنهم يحدثون بالشئ يكون حقا ؟ فقال النبى ﷺ : « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى ، فيقرقرها فى أذن وليه كقرقرة الدجاجة ، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة » (١) . وروى البخارى عن أبى هريرة قال : إن نبى الله ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله ، كأنها سلسلة على صفوان ، حتى إذا فرغ عن قلبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال : الحق وهو العلى الكبير . فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع ، هكذا بعضهم فوق بعض » . ووصف سفيان بيده فحرفها ، وبدد بين أصابعه « فيسمع الكلمة ، فيلقها إلى من تحته ، ثم يلقها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقها على لسان الساحر - أو الكاهن - وربما أدركه الشهاب قبل أن يلقها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة . فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا : كذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء » . انفرد به البخارى (٢) . وروى البخارى عن عائشة ، عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الملائكة تحدث فى العنان - والعنان : الغمام - بالأمر فى الأرض ، فتسمع الشياطين الكلمة ، فتقرها فى أذن الكاهن كما تقر القارورة ، فيزيدون معها مائة كذبة » (٣) .

وقوله : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوُونَ ﴾ : قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : يعنى : الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن . وكذا قال مجاهد ، رحمه الله ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهما . وقال عكرمة : كان الشاعران يتهاجيان ، فينتصر لهذا فنأى من الناس ، ولهذا فنأى من الناس ، فأنزل الله : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ قال ابن عباس : فى كل لغو يخوضون . وقال الضحاك عن ابن عباس : فى كل فن من الكلام . وكذا قال مجاهد وغيره . وقال الحسن البصرى : قد - والله - رأينا أوديتهم التى يهيمون فيها ،

(٣) البخارى (٣٢٨٨) .

(٢) البخارى (٤٨٠٠) .

(١) البخارى (٧٥٦١) .

مرة في شتيمة فلان ، ومرة في مديحة فلان . وقال قتادة : الشاعر يمدح قوماً بباطل ، ويذم قوماً بباطل . وقوله : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ قال ابن عباس : أكثر قولهم يكذبون فيه . وهذا الذي قاله ابن عباس هو الواقع في نفس الأمر ؛ فإن الشعراء يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم ، فيتكثرون بما ليس لهم . والمراد من هذا : أن الرسول ﷺ الذي أنزل عليه القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر ؛ لأن حاله مناف لحالهم من وجوه ظاهرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ [يس : ٦٩] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ . نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الخاقية : ٤٠ - ٤٣] ، وهكذا قال ههنا : ﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظْهِرُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴾ إلى أن قال : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن نَّزَّلُ الشَّيَاطِينُ . نَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ . وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وقاتدة ، وزيد ابن أسلم ، وغير واحد : إن هذا استثناء مما تقدم . ولا شك أنه استثناء ، ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم ، حتى يدخل فيه من كان متلبساً من شعراء الجاهلية بدم الإسلام وأهله ، ثم تاب وأناب ، ورجع وأقلع ، وعمل صالحاً ، وذكر الله كثيراً في مقابلة ما تقدم من الكلام السيئ ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وامتنح الإسلام وأهله في مقابلة ما كذب بدمه ، كما قال عبد الله بن الزبير حين أسلم :

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ ، إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ
إِذْ أَجَارَى الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْغَدَاةِ سَى ، وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورٌ

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، كان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ ، وهو ابن عمه ، وأكثرهم له هجواً ، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ ، وكان يمدح رسول الله ﷺ بعد ما كان يهجوهُ ، ويتولاه بعد ما كان قد عاداه . وهكذا روى مسلم في صحيحه ، عن ابن عباس : أن أبا سفيان صخر بن حرب لما أسلم قال : يا رسول الله ، ثلاث أعطنين قال : « نعم » . قال : معاوية تجعله كاتباً بين يديك . قال : « نعم » . قال : وتؤمرني حتى أقاتل الكفار ، كما كنت أقاتل المسلمين . قال : « نعم » . وذكر الثلاثة (١) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ قيل : معناه : ذكروا الله كثيراً في كلامهم . وقيل : في شعرهم ، وكلاهما صحيح مكفّر لما سبق .

وقوله : ﴿ وَأَنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴾ قال ابن عباس : يردون على الكفار الذين كانوا

يهجون به المؤمنين . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، وغير واحد . وهذا كما ثبت فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال لحسان : « اهجهم - أو قال : هاجهم - وجبريل معك » (١) . وقوله : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر : ٥٢] وفى الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » (٢) . وقال قتادة بن دَعَامَةَ فى قوله : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ يعنى : من الشعراء وغيرهم . وقال عبد الله بن رِبَّاح ، عن صفوان بن مُحَرَّز : أنه كان إذا قرأ هذه الآية - بكى حتى أقول : قد اندق قَضِيبُ زوره - : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ . وقيل : المراد بهم أهل مكة . وقيل : الذين ظلموا من المشركين . والصحيح أن هذه الآية عامة فى كل ظالم ، كما روى ابن أبى حاتم عن عائشة ، قالت : كتب أبى وصيته سطرين : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به أبو بكر بن أبى قُحَافَةَ ، عند خروجه من الدنيا ، حين يؤمن الكافر ، وينتهى الفاجر ، ويصدق الكاذب : إنى استخلفت عليكم عُمَرُ بن الخطاب ، فإن يعدل فذاك ظنى به ، ورجائى فيه ، وإن يَجُرُ ويبدل فلا أعلم الغيب ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ .

(١) البخارى (٦١٥٣) ومسلم (٢٤٨٦ / ١٥٣) .

(٢) مسلم (٢٥٧٨ / ٢٥٦) .

تفسير سورة النمل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيْنًا لَمْ أَعْمَلْتَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِالْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾

ربع

قد تقدم الكلام في « سورة البقرة » على الحروف المقطعة في أوائل السور .

وقوله : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ ﴾ أى : هذه آيات ﴿ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ أى : بين واضح ﴿ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقته ، وعمل بما فيه ، وأقام الصلاة المكتوبة ، وآتى الزكاة المفروضة ، وأيقن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت ، والجزاء على الأعمال ، خيرها وشرها ، والجنة والنار ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ الآية [فصلت : ٤٤] . وقال : ﴿ لَتُبَشِّرَنَّ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ [مريم : ٩٧] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى : يكذبون بها ، ويستبعدون وقوعها ﴿ زَيْنًا لَمْ أَعْمَلْتَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أى : حسنا لهم ما هم فيه ، ومددنا لهم فى غيهم يتبهون فى ضلالهم . وكان هذا جزاء على ما كذبوا به من الدار الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَقَلَّبُ أَفْعِدَتُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ ﴾ الآية [الانعام : ١١٠] ، ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِالْعَذَابِ ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة ﴿ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴾ أى : ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر .

وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أى : ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ يامحمد - قال قتادة : ﴿ لَتَلْقَى ﴾ أى : لتأخذ ﴿ الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ أى : من عند حكيم عليم ، أى : حكيم فى أوامره ونواهيه ، عليم بالأمور جليلها وحقيرها ، فخيرها هو الصدق المحض ، وحكمه هو العدل التام ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الانعام : ١١٥] .

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نَارًا سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبْرٍ أَوْ آيَاتِكُمْ بِشَهَابٍ مِّنَ السَّمَاءِ فَاصْبِرُوا لِحُكْمِ رَبِّكُمْ ۚ إِنَّكُمْ بِنِعْمَةِ رَبِّكُمْ كَانْتُمْ ۝٧﴾
 ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٨﴾
 ﴿ يٰمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْمِرًا
 ﴿ وَرَبُّكَ يَخِيبُ يُخِيبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِّي لَا يَخِيفُ لَدَى الْمَرْسُولِ ۝١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حِسَابًا بَعْدَ سُوءِ
 فَأْتِي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
 وَقَوْمِهِ إِذْ لَهُمْ كَأَنُورًا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾
 وَحَمَدُوا بِهَا وَأَسْتَيْقَنَتَهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَطُلُوعًا فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مذكراً له ما كان من أمر موسى عليه السلام ، كيف اصطفاه الله وكلمه ، وناجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة ، والأدلة القاهرة ، وابتعثه إلى فرعون وملئه ، فجحدها بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له ، فقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ ﴾ أى : اذكر حين سار موسى بأهله ، فأضل الطريق ، وذلك فى ليل وظلام ، فأنس من جانب الطور نارا ، أى : رأى نارا تاجج وتضطرم ، فقال ﴿ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نَارًا سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبْرٍ ﴾ أى : عن الطريق ﴿ أَوْ آيَاتِكُمْ بِشَهَابٍ مِّنَ السَّمَاءِ فَاصْبِرُوا لِحُكْمِ رَبِّكُمْ ﴾ أى : تستدفنون به . وكان كما قال ، فإنه رجع منها بخبر عظيم ، واقتبس منها نوراً عظيماً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أى : فلما أتاها رأى منظراً هائلاً عظيماً ، حيث انتهى إليها ، والنار تضطرم فى شجرة خضراء ، لا تزداد النار إلا توقداً ، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة ، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء . قال ابن عباس وغيره : لم تكن نارا ، إنما كانت نوراً يتوهج . وفى رواية عن ابن عباس : نور رب العالمين . فوقف موسى متعجباً مما رأى ﴿ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ ﴾ قال ابن عباس : تقدس . ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أى : من الملائكة . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير . وروى ابن أبى حاتم عن أبى موسى ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَنَامُ ، وَلَا يَنبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ، يَخْفِضُ الْقَسَطَ وَيَرْفَعُهُ ، يَرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلَ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ ، وَعَمَلَ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ . ﴾ زاد المسعودى : « وحجابه النور - أو النار لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل شئ أدركه بصره » . ثم قرأ أبو عبيدة : ﴿ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ . وأصل هذا الحديث مخرج فى الصحيح لمسلم (١) .

وقوله : ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : الذى يفعل ما يشاء ولا يشبه شيئاً من مخلوقاته ، ولا يحيط به شئ من مصنوعاته ، وهو العلى العظيم ، المبين لجميع المخلوقات ، ولا يكتنفه الأرض والسموات ، بل هو الأحد الصمد ، المنزه عن مماثلة المحدثات . وقوله : ﴿ يٰمُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ

الحكيم ﴿: أعلمه أن الذى يخاطبه ويتاجيه هو ربه الله العزيز، الذى عز كل شىء وقهره وغلبه، الحكيم فى أفعاله وأقواله .

ثم أمره أن يلقى عصاه من يده؛ ليظهر له دليلاً واضحاً على أنه الفاعل المختار، القادر على كل شىء. فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت فى الحال حية عظيمة هائلة فى غاية الكبر، وسرعة الحركة مع ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ ﴾ والجان: ضرب من الحيات، أسرعه حركة ، وأكثره اضطراباً - وفى الحديث : نهى عن قتل جنان البيوت (١) - فلما عاين موسى ذلك ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ أى: لم يلتفت من شدة فرقه ، ﴿ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴾ أى: لا تخف مما ترى، فإنى أريد أن أصطفيك رسولا، وأجعلك نبياً وجيهاً .

وقوله : ﴿ إِنْ مِنْ ظَلَمٍ ثُمَّ بَدَلْ حَسَنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾: هذا استثناء منقطع ، وفيه بشارة عظيمة للبشر، وذلك أن من كان على عمل شىء ثم أقلع عنه ، ورجع وأناب ، فإن الله يتوب عليه، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ [طه : ٨٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠] والآيات فى هذا كثيرة جداً . وقوله : ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضًا مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ : هذه آية أخرى، ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار، وصدق من جعل له معجزة ، وذلك أن الله - تعالى - أمره أن يدخل يده فى جيب درعه ، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة، كأنها قطعة قمر، لها لمعان يتلألأ كالبرق الخاطف . وقوله : ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ ﴾ أى: هاتان ثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن، وأجعلهن برهاناً لك إلى فرعون وقومه ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ . وهذه هى الآيات التسع التى قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ [الإسراء: ١٠١] كما تقدم تقرير ذلك هنالك .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ أى: بينة واضحة ظاهرة ، ﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وأرادوا معارضته بسحرمهم فغلبوا وانقلبوا صاغرين ﴿ وَجَعَدُوا بِهَا ﴾ أى: فى ظاهر أمرهم ﴿ وَأَسْتَفْتَتُهَا أَنفُسُهُمْ ﴾ أى : علموا فى أنفسهم أنها حق من عند الله ، ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ﴿ ظَلَمًا وَعُلُوًّا ﴾ أى: ظلما من أنفسهم ، سجية ملعونة ﴿ وَعُلُوًّا ﴾ أى: استكباراً عن اتباع الحق ؛ ولهذا قال : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ أى: انظر يا محمد كيف كان عاقبة كفرهم ، فى إهلاك الله إياهم ، وإغراقهم عن آخرهم فى صبيحة واحدة . وفحوى الخطاب يقول : احذروا أيها المكذبون بمحمد، الجاحدون لما جاء به من ربه، أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأخرى ؛ فإن محمداً ﷺ أشرف وأعظم من موسى، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى، بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده فى نفسه وشمائله، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به، وأخذ الموثيق له ، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام .

﴿ وَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَاطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْأَمِينُ ﴿١٦﴾ وَحِشْرَ لِّسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْبِحْرِ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُم لَّا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَنَبَسَهُ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبيه داود وابنه سليمان ، عليهما من الله السلام ، من النعم الجزيلة ، والمواهب الجليلة ، والصفات الجميلة ، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة ، والملك والتمكين التام في الدنيا ، والنبوة والرسالة في الدين ؛ ولهذا قال : ﴿ وَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . قال ابن أبي حاتم : كتب عمر ابن عبد العزيز : إن الله لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها ، إلا كان حمده أفضل من نعمه ، لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وأي نعمة أفضل مما أوتى داود وسليمان ، عليهما السلام .

وقوله : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ أي : في الملك والنبوة ، وليس المراد وراثة المال ؛ إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود ، فإنه قد كان لداود مائة امرأة . ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة ؛ فإن الأنبياء لا تورث أموالهم ، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في قوله : « نحن معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة » (١) .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَاطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، أي : أخبر سليمان بنعم الله عليه ، فيما وهبه له من الملك التام ، والتمكين العظيم ، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير . وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً ، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر - فيما علمناه - مما أخبر الله به ورسوله . ومن زعم من الجهلة والرعاغ أن الحيوانات كانت تتطق كتنطق بنى آدم قبل سليمان بن دواود - كما يتفوه به كثير من الناس - فهو قول بلا علم . ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة ؛ إذ لم كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ، ويعرف ما تقول ، فليس الأمر كما زعموا ، ولا كما قالوا ، بل لم تنزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال . ولكن الله ، سبحانه وتعالى ، كان

قد أفهم سليمان، عليه السلام، ما يتخاطب به الطيور في الهواء، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها؛ ولهذا قال: ﴿عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: بما يحتاج إليه الملك ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أي: الظاهر البين لله علينا. روى الإمام أحمد عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «كان داود، عليه السلام، فيه غيرة شديدة، فكان إذا خرج أغلقت الأبواب، فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع». قال: «فخرج ذات يوم وأغلقت الأبواب، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار، فإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل، والدار مغلقة؟ والله لنتفضحن بداود، فجاء داود، عليه السلام، فإذا الرجل قائم وسط الدار، فقال له داود: من أنت؟ قال: الذي لا يهاب الملوك، ولا يمتنع من الحجاب. فقال داود: أنت والله إذاً ملك الموت. مرحباً بأمر الله، فتزمل داود، عليه السلام، مكانه حتى قبضت نفسه، حتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس، فقال سليمان، عليه السلام، للطير: أظلى على داود، فأظلت عليه الطير حتى أظلمت عليهما الأرض، فقال لها سليمان: اقبضي جناحا جناحا» قال أبو هريرة: يارسول الله، كيف فعلت الطير؟ فقبض رسول الله ﷺ يده، وغلبت عليه يومئذ المضحية (١). قال أبو الفرج بن الجوزي: المضحية: النسور الحمراء.

وقوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير، يعني: ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة في الإنس، وكانوا هم الذين يلونه، والجن وهم بعدهم في المنزلة، والطير ومنزلتها فوق رأسه، فإن كان حر أظلتته منه بأجنحتها. وقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يكف أولهم على آخرهم؛ لكثلا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له. قال مجاهد: جعل على كل صنف وزعة، يردون أولها على آخرها؛ لكثلا يتقدموا في المسير، كما يفعل الملوك اليوم. وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اتَّوَا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾ أي: حتى إذا مر سليمان، عليه السلام، ممن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل، ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم، ففهم ذلك سليمان، عليه السلام، منها ﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدِي﴾ أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها علي، من تعليمي منطق الطير والحيوان، وعلى والدي بالإسلام لك، والإيمان بك ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي: عملاً تحبه وترضاه ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك. ومن قال من المفسرين: إن هذا الوادي كان بأرض الشام أو بغيره، وإن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب، أو غير ذلك من الأقاويل، فلا حاصل لها.

(١) المسند (٢ / ٤١٩) وقال الهيثمي في الزوائد (٨ / ٢٠٦): «فيه المطلب بن عبد الله بن حنطب وثقه أبو زرعة وغيره، وبقية رجاله رجال الصحيح».

والغرض : أن سليمان ، عليه السلام ، فهم قولها، وتبسم ضاحكاً من ذلك ، وهذا أمر عظيم جداً. وقد ثبت في الصحيح - عند مسلم - عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « قرصت نيبا من الأنبياء غملة ، فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله إليه ، أفي أن قرصتك غملة أهلكت أمة من الأمم تسبح ؟ فهلا غملة واحدة ! » (١) .

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿١٠﴾
لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١١﴾ ﴾

قال مجاهد ، وسعيد بن جبير، وغيرهما، عن ابن عباس وغيره: كان الهدهد مهندساً ، يدل سليمان عليه السلام على الماء ، إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض ، كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض، فإذا دلهم عليه أمر سليمان ، عليه السلام ، الجان حفروا له ذلك المكان ، حتى يستنبط الماء من قراره ، فنزل سليمان ، عليه السلام يوماً ، بفلاة من الأرض، فتفقد الطير ليرى الهدهد ، فلم يره ﴿ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ . حدث يوماً عبد الله بن عباس بنحو هذا ، وفي القوم رجل من الخوارج، يقال له: « نافع ابن الأزرق » ، وكان كثير الاعتراض على ابن عباس ، فقال له : قف يا بن عباس ، غلبت اليوم ! قال: ولم؟ قال: إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تخوم الأرض، وإن الصبى ليضع له الحبة في الفخ ، ويحثو على الفخ تراباً ، فيجىء الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ ، فيصيده الصبى . فقال ابن عباس : لولا أن يذهب هذا فيقول: رددت على ابن عباس ، لما أجبته . فقال له : ويحك ! إنه إذا نزل القدر عمى البصر، وذهب الحذر . فقال له نافع: والله لا أجادلك في شيء من القرآن أبداً .

وقوله: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ : قال ابن عباس: يعني نتف ريشه . وقوله: ﴿ أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ﴾ يعني : أقتله ﴿ أَوْ لِيَأْتِنِي سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴾ بعذر واضح بين .

﴿ فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ﴿١٢﴾
إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمَلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾
وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿١٤﴾
أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٥﴾
اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ فَمَكَتْ ﴾ الهدهد ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أى : غاب زماناً يسيراً ، ثم جاء فقال

لسليمان: ﴿ أَحْطَتْ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ أى : اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنِيٍّ يَقِينٍ ﴾ أى : بخبر صدق حق يقين . وسبأ: هم حمير ، وهم ملوك اليمن . ثم قال : ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ قال الحسن البصرى: وهى بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ . وقوله : ﴿ وَأَوْتَيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى: من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ يعنى: سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب ، وأنواع الجواهر واللآلئ . قال علماء التاريخ: وكان هذا السرير فى قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة، تغرب من مقابقتها، فيسجدون لها صباحاً ومساءً؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى: عن طريق الحق ﴿ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ الْأَيْسَجُدُوا لِلَّهِ ﴾ معناه : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ ﴾ أى: لا يعرفون سبيل الحق التى هى إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من شىء من الكواكب وغيرها، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٧] . وقوله : ﴿ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ : قال ابن عباس : يعلم كل خبيثة فى السماء والأرض . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد، وسعيد ابن جبير، وقتادة ، وغير واحد . وقال سعيد بن المسيب: الخبء: الماء . وكذا قال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: خبء السموات والأرض: ما جعل فيها من الأرزاق: المطر من السماء، والنبات من الأرض . وهذا مناسب من كلام الهدهد، الذى جعل الله فيه من الخاصية ما ذكره ابن عباس وغيره، من أنه يرى الماء يجرى فى تخوم الأرض ودواخلها .

وقوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أى: يعلم ما يخفيه العباد، وما يعلنونه من الأقوال والأفعال . وهذا كقوله تعالى: ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد: ١٠] . وقوله: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أى: هو المدعو الله ، وهو الذى لا إله إلا هو رب العرش العظيم، الذى ليس فى المخلوقات أعظم منه . ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير، وعبادة الله وحده والسجود له، نهى عن قتله ، كما روى عن أبى هريرة ، قال: نهى النبى ﷺ عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصراد . وإسناده صحيح (١) .

﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ﴿٧﴾ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَيْتَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا إِلَيَّ الْغَيْبِ إِلَيَّ كَيْتُبْ كَرِيمٌ ﴿٩﴾ إِنَّكُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١٠﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأَتَوْهُ مُسْلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴿١٢﴾

ربيع

(١) المسند (٣٠٦٧) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » وأبو داود (٥٢٦٧) وابن ماجه (٣٢٢٤) .

يقول تعالى مخبراً عن قيل سليمان، عليه السلام، للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم: ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أي أصدقت في إخبارك هذا ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ في مقاتلك، فتخلص من الوعيد الذي أوعدتك؟ ﴿ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْفَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ وذلك أن سليمان، عليه السلام، كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها. وأعطاه لذلك الهدهد فحملة، وجاء إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس، إلى الخلوة التي كانت تختلى فيها بنفسها، فآلقها إليها من كوة هنالك بين يديها، ثم تولى ناحية أدب رياسة، فتحيرت مما رأت، وهالها ذلك، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته، ففتحت ختمه وقراته، فإذا فيه: ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلِيُّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها، ثم قالت لهم: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّ إِلَهِي إِلَهِي كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ تعنى بكرمه: ما رأيته من عجيب أمره، كون طائر أتى به فآلقها إليها، ثم تولى عنها أديباً. وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك، ولا سبيل لهم إلى ذلك، ثم قرأته عليهم: ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلِيُّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾. فعرفوا أنه من نبي الله سليمان، وأنه لا قبل لهم به. وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها، قال العلماء: ولم يكتب أحد ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ قبل سليمان، عليه السلام. وقال ميمون بن مهران: كان رسول الله ﷺ يكتب: باسمك اللهم، حتى نزلت هذه الآية، فكتب: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾. وقوله: ﴿ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلِيُّ ﴾ قال قتادة: يقول: لا تجبروا على ﴿ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾. قال ابن عباس: موحدين. وقال سفيان بن عيينة: طائعين.

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أمرها، وما قد نزل بها؛ ولهذا قالت: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ أي: حتى تحضرون وتشيرون ﴿ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ ﴾ أي: منوا عليها بعددهم وعددهم وقوتهم، ثم فوضوا إليها بعد ذلك الأمر فقالوا: ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ أي: نحن ليس لنا عاقبة ولا بنا بأس، إن شئت أن تقصديه وتحاربيه، فما لنا عاقبة عنه. وبعد هذا فالأمر إليك، مرى فينا برأيك نمتثله ونطيعه. قال الحسن البصري، رحمه الله: فوضوا أمرهم إلى علة تضرط ثديها، فلما قالوا لها ما قالوا، كانت هي أحزم رأياً منهم، وأعلم بأمر سليمان، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه، وما سخر له من الجن والإنس والطير، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمراً عجيباً

بديعاً، فقالت لهم: إنى أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه، فيقصدنا بجنوده، ويهلكنا بمن معه ، ويخلص إلى واليكم الهلاك والدمار دون غيرنا ؛ ولهذا قالت : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ﴾ قال ابن عباس: أى إذا دخلوا بلداً عنوة أفسدوه، أى: خربوه ﴿ وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذْلَةً ﴾ أى: وقصدوا من فيها من الولاة والجنود، فأهانوهم غاية الهوان، إما بالقتل أو بالأسر . وقال ابن عباس: قالت بلقيس: ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذْلَةً ﴾ قال الرب، عز وجل: ﴿ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ . ثم عدلت إلى المهادنة والمصالحة والمسائلة والمخادعة والمصانعة، فقالت : ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاطِرَةٌ بِمَنْ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ أى : سأبعث إليه بهدية تليق به وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك، فلعله يقبل ذلك ويكف عنا، أو يضرب علينا خراجاً نحمله إليه فى كل عام ، ونلتزم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا. قال قتادة : رحمها الله ورضى عنها، ما كان أعقلها فى إسلامها وفى شركها !! علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس . وقال ابن عباس وغير واحد: قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَيْنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾
﴿ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾

ذكر غير واحد من المفسرين، من السلف وغيرهم : أنها بعثت إليه بهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلى وغير ذلك . والظاهر أن سليمان، عليه السلام، لم ينظر إلى ما جاؤوا به بالكلية، ولا اعتنى به، بل أعرض عنه، وقال منكراً عليهم: ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ أى: أتصانعونى بمال لا تركمكم على شرككم وملككم؟! ﴿ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ ﴾ أى: الذى أعطانى الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه ﴿ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ أى : أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف . قال ابن عباس : أمر سليمان الشياطين فموهوا له ألف قصر من ذهب وفضة. فلما رأت رسلها ذلك قالوا: ما يصنع هذا بهديتنا . وفى هذا دلالة على جواز تهيو الملوك وإظهارهم الزينة للرسول والقصاد .

﴿ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ أى: بهديتهم، ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ﴾ أى : لا طاقة لهم بقتالهم ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا ﴾ أى: من بلدهم، ﴿ أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ أى: مهانون مدحورون .

فلما رجعت إليها رسلها بهديتها، وبما قال سليمان، سمعت وأطاعت هى وقومها، وأقبلت تسير إليه فى جنودها خاضعة ذليلة ، معظمة لسليمان ، نأوية متابعته فى الإسلام . ولما تحقق سليمان ، عليه السلام، قدومهم عليه ووفودهم إليه ، فرح بذلك وسره .

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْاْ إِلَيْكُمْ يَا بُنِيَّ بِعَرْشِيَّ قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ ﴿٣٨﴾ قَالَ عَفْرِيْتُ مَنْ لِّجِنِّ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُوْمَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِيْنٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَايِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيْمٌ ﴿٤٠﴾

قال قتادة: لما بلغ سليمان أنها جاثية ، وكان قد ذكر له عرشها فاعجبه ، فكره أن يأخذه بعد إسلامهم . وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم مع دماثهم فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْاْ إِلَيْكُمْ يَا بُنِيَّ بِعَرْشِيَّ قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ . وهكذا قال عطاء الخراساني . ﴿ قَالَ عَفْرِيْتُ مَنْ لِّجِنِّ ﴾ قال مجاهد: أى مارد من الجن ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُوْمَ مِنْ مَّقَامِكَ ﴾ قال ابن عباس: يعنى: قبل أن تقوم من مجلسك . وقال مجاهد: مقعدك ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِيْنٌ ﴾ قال ابن عباس: أى قوى على حملة، أمين على ما فيه من الجوهر . فقال سليمان، عليه السلام : أريد أعجل من ذلك . ومن ههنا يظهر أن النبي سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهبه الله له من الملك ، وسخر له من الجنود ، الذى لم يعطه أحد قبله، ولا يكون لأحد من بعده . وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتى بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه فلما قال سليمان: أريد أعجل من ذلك ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ قال ابن عباس: وهو آصف كاتب سليمان .

وقوله: ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ أى: ارفع بصرك وانظر مد بصرك مما تقدر عليه ، فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، لم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه فلما عاين سليمان وملؤه ذلك ، ورآه مستقراً عنده ، ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾ أى: هذا من نعم الله على ﴿ لِيَبْلُوَنِي ﴾ أى: ليختبرنى ﴿ أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ ، كقوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت : ٤٦] ، وكقوله : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلْأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم: ٤٤] . وقوله: ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ ﴾ أى: هو غنى عن العباد وعبادتهم ﴿ كَرِيْمٌ ﴾ أى: كريم فى نفسه، وإن لم يعبه أحد، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد، هذا كما قال موسى: ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٨] . وفى صحيح مسلم: « يقول الله تعالى : يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل منكم، ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً . يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . يا عبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (١) .

﴿ قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴿

لما جىء سليمان، عليه السلام، بعرش بلقيس قبل قدموها، أمر به أن يغير بعض صفاته ، ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته، هل تقدم على أنه عرشها أو أنه ليس به، فقال: ﴿ قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ قال ابن عباس : نزع عنه فصوصه ومراقفه. وقال مجاهد: أمر به بغير ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ أى: عرض عليها عرشها ، وقد غير ونكر، وزيد فيه ونقص منه، فكان فيها ثبات وعقل، ولها لب ودهاء وحزم، فلم تقدم على أنه هو لبعده مسافته عنها، ولا أنه غيره، لما رأت من آثاره وصفاته وإن غير وبدل ونكر، فقالت: ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ أى: يشبهه ويقاربه. وهذا غاية فى الذكاء والحزم . وقوله: ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ قال مجاهد: سليمان يقول .

وقوله: ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ : هذا من تمام كلام سليمان، عليه السلام - فى قول مجاهد، وسعيد بن جبیر - أى: قال سليمان: ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ ، وهى كانت قد صدّها، أى: منعها من عبادة الله وحده ﴿ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ . وهذا الذى قاله مجاهد وسعيد حسن، وقاله ابن جرير أيضا. ثم قال ابن جرير: ويحتمل أن يكون فى قوله: ﴿ وَصَدَّهَا ﴾ ضمير يعود إلى سليمان، أو إلى الله ، عزوجل ، تقديره: ومنعها ﴿ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى: صدّها عن عبادة غير الله ﴿ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ . قلت: ويؤيده قول مجاهد: أنها إنما أظهرت الإسلام بعد دخولها إلى الصرح، كما سيأتى .

وقوله: ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا ﴾ وذلك أن سليمان، عليه السلام، أمر الشياطين فبنوا لها قصرأ عظيما من قوارير، أى: من زجاج، وأجرى تحته الماء، فالذى لا يعرف أمره يحسب أنه ماء، ولكن يحول بين الماشى وبينه . فلما دخلت وكشفت عن ساقها، رأى أحسن الناس وأحسنه قدماً، ولكن رأى على رجليها شعراً ؛ لأنها ملكة ليس لها بعل ، فأحب أن يذهب ذلك عنها فقبل لها: موسى؟ فقالت: لا أستطيع ذلك. وكره سليمان ذلك، وقال للجن: اصنعوا شيئاً غير موسى يذهب به هذا الشعر ، فصنعوا له النورة . وكان أول من اتخذت له النورة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة وابن جريج ، وغيرهم . ﴿ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا ﴾ ، لاتشك أنه ماء تخوضه ، قيل لها : ﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ﴾ أصل الصرح فى كلام العرب : هو القصر، وكل بناء مرتفع، قال الله، سبحانه وتعالى، إخباراً

عن فرعون - لعنه الله - أنه قال لوزير هامان: ﴿ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَاطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ الآية [غافر : ٣٦ ، ٣٧] ، والصرح : قصر فى اليمن على البناء ، والممرد ، أى : المبنى بناء محكما أملس ﴿ مِنْ قَوَارِيرَ ﴾ أى : زجاج . وتمريد البناء تمليسه . ومارد : حصن بدومة الجندل . والغرض أن سليمان ، عليه السلام ، اتخذ قصرًا عظيمًا منيماً من زجاج لهذه الملكة ؛ ليربها عظمة سلطانه وتمكنه ، فلما رأت ما آتاه الله ، تعالى ، وجلالة ما هو فيه ، وتبصرت فى أمره انقادت لأمر الله وعرفت أنه نبي كريم ، وملك عظيم ، فأسلمت لله ، عز وجل ، وقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ أى : بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها الشمس من دون الله ، ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : متابعة لدين سليمان فى عبادته لله وحده ، لا شريك له ، الذى خلق كل شىء فقدره تقديراً .

﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْقُورِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُكْفِرُونَ ﴿٤٧﴾

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح ، عليه السلام ، حين بعثه الله إليهم ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ قال مجاهد : مؤمن وكافر ، كقوله تعالى : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْفِقُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَاْفِرُونَ ﴾ [الاعراف : ٧٥ ، ٧٦] . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ أى : لم تدعون بحضور العذاب ، ولا تطلبون من الله رحمته ؟ ولهذا قال : ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ ﴾ أى : مارأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً . وذلك أنهم - لشقائهم - كان لا يصيب أحداً منهم سوء إلا قال : هذا من قبل صالح وأصحابه . قال مجاهد : تشاءموا بهم . وهذا كما قال تعالى إخباراً عن قوم فرعون : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [الاعراف : ١٣١] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [النساء : ٧٨] أى : بقضاء الله وقدره . وقال مخبراً عن أهل القرية إذ جاءها المرسلون : ﴿ قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَمْ نَنْتَهُوا لَنَرَجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ [يس : ١٨ ، ١٩] . وقال هؤلاء : ﴿ اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى : الله يجازيكم على ذلك ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُكْفِرُونَ ﴾ قال قتادة : تبتلون بالطاعة والمعصية . والظاهر أن المراد بقوله : ﴿ تُكْفِرُونَ ﴾ أى : تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال .

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَانًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْرِهِمْ إِنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فِتْلِكَ يَبُوتُهُمْ خَاوِبَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم، الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلالة والكفر وتكذيب صالح، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة، وهموا بقتل صالح أيضاً، بأن يبيتوه في أهله ليلاً فيقتلوه غيلة، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه: إنهم ما علموا بشيء من أمره، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به، من أنهم لم يشاهدوا ذلك، فقال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أى: مدينة ثمود ﴿تِسْعَةَ رَهْطٍ﴾ أى: تسعة نفر ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود؛ لأنهم كانوا كباراً فيهم ورؤساءهم . قال ابن عباس: هؤلاء هم الذين عقروا الناقة، أى: الذين صدر ذلك عن آرائهم ومشورتهم - فبجهم الله ولعنهم - وقد فعل ذلك . قال الله تعالى: ﴿فَقَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [القمر : ٢٩] ، وقال تعالى: ﴿ إِذْ أَنْبَعَتْ أَشْقَاهَا ﴾ [الشمس : ١٢] . وقال عطاء بن أبى رباح: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ قال: كانوا يقرضون الدراهم ، يعنى: أنهم كانوا يأخذون منها، وكانهم كانوا يتعاملون بها عدداً، كما كان العرب يتعاملون . وقال سعيد بن المسيب: قطع الذهب والورق من الفساد فى الأرض . والغرض: أن هؤلاء الكفرة الفسقة، كان من صفاتهم الإفساد فى الأرض بكل طريق يقدرُونَ عليها، فمنها ما ذكره هؤلاء الأئمة وغير ذلك .

وقوله: ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ أى: تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح، عليه السلام، من لقيه ليلاً غيلة. فكادهم الله ، وجعل الدائرة عليهم . قال مجاهد: تقاسموا وتحالفوا على هلاكه، فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين . وقال ابن عباس: هم الذين عقروا الناقة، قالوا حين عقروها: لنبيتنَّ صالحاً وأهله فنقتلهم، ثم نقول لأوليائه صالح: ما شهدنا من هذا شيئاً، وما لنا به علم. فدمرهم الله أجمعين . وقال عبد الرحمن بن أبى حاتم: لما عقروا الناقة وقال لهم صالح: ﴿ تَصْعَوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرِ مُكَذَّبٍ ﴾ [هود : ٦٥] ، قالوا: زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام، فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث. وكان لصالح مسجد فى الحجر عند شعب هناك يصلي فيه، فخرجوا إلى كهف، أى: غار هناك ليلاً، فقالوا: إذا جاء يصلى قتلناه، ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله، وفرغنا منهم. فبعث الله صخرة من الهضب حيالهم، فخشوا أن تشدهم فتبادروا فانطبقت عليهم الصخرة وهم فى ذلك الغار، فلا يدرى قومهم أين هم. ولا يدرون ما فعل بقومهم. فعذب الله هؤلاء ههنا، وهؤلاء ههنا، وأنجى الله صالحاً ومن معه، ثم قرأ: ﴿ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرَانًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْرِهِمْ إِنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فِتْلِكَ يَبُوتُهُمْ خَاوِبَةٌ لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ ﴾ أى: فارغة ليس فيها أحد ﴿ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَأَنجَيْنَا

الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٤﴾ .

﴿٥٤﴾ وَلَوْ طَآءَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٥﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ
الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا
أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْأَسُ يَنْظَهُرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا
أُمَّرَأَتَهُ فَذَرَّهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴿٥٨﴾

الجزء

٢٠

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط، عليه السلام، أنه أنذر قومه نقمة الله بهم، في فعلهم
الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من نبي آدم، وهي إتيان الذكور دون الإناث، وذلك فاحشة
عظيمة ، استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء ، فقال: ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أي :
يرى بعضكم بعضاً، وتأتون في ناديكم المنكر؟ ﴿ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ
تَجْهَلُونَ ﴾ أي : لا تعرفون شيئاً لا طبعاً ولا شرعاً، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ أَتَأْتُونَ
الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ [الشعراء : ١٦٥ ،
١٦٦] . ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْأَسُ يَنْظَهُرُونَ ﴾ أي : يتخرجون
من فعل ما تفعلون، ومن إقراركم على صنيعكم، فأخرجوهم من بين أظهركم فإنهم لا يصلحون
لمجاورتكم في بلادكم فعزموا على ذلك ، فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، قال الله تعالى :
﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ فَذَرَّهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أي : من الهالكين مع قومها ؛ لأنها كانت رداء لهم على
دينهم، وعلى طريقتهم في رضاها بأفعالهم القبيحة، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط ، ليأتوا
إليهم، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرامة لنبي الله ﷺ لا كرامة لها .

وقوله : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴾ أي : حجارة من سجيل منصود مسومة عند ربك وما هي
من الظالمين يبعيد ؛ ولهذا قال : ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ أي : الذين قامت عليهم الحجة، ووصل
إليهم الإنذار ، فخالفوا الرسول وكذبوه، وهموا بإخراجه من بينهم .

﴿٥٩﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرُكُونَ ﴿٥٩﴾ آمَنَ
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ بَارِدًا وَجَعَلَ لَكُمْ
مِنْهَا أَنْهَارًا ﴿٦٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أي : على نعمه على عباده، من النعم
التي لا تعد ولا تحصى، وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى، وأن يسلم على
عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم ، وهم رسله وأنبيأؤه الكرام ، عليهم من الله الصلاة
والسلام ، هكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيره : إن المراد بعباده الذين اصطفى :

هم الانبياء ، قال : وهو كقوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات : ١٨٠ - ١٨٢] . وقال الثوري ، والسدي : هم أصحاب محمد ﷺ ورضى عنهم أجمعين ، وروى نحوه عن ابن عباس . ولا منافاة ، فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى ، فالانبياء بطريق الأولى والأخرى ، والقصد أن الله تعالى أمر رسوله ومن اتبعه بعد ما ذكر لهم ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد ، وما أحل بأعدائه من الخزي والنكال والقهر ، أن يحمده على جميع أفعاله ، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار . وقوله : ﴿ اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ : استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى .

ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره ، فقال : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أى : تلك السموات بارتفاعها وصفائها ، وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والافلاك الدائرة ، والأرض باستفالتها وكثافتها ، وما جعل فيها من الجبال والأوعار والسهول ، والفيافي والقفار ، والأشجار والزرور ، والثمار والبحور ، والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك .

وقوله : ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أى : جعله رزقاً للعباد ﴿ فَأَنْتِنَا بِهِ حَدَائِقَ ﴾ أى : بساتين ﴿ ذَاتِ بَهْجَةٍ ﴾ أى : منظر حسن وشكل بهي ﴿ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُتَبَّعُوا شَجَرَهَا ﴾ أى : لم تكونوا تقدرون على إنبات شجرها ، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق ، المستقل بذلك المنفرد به دون ما سواه من الأصنام والأنداد ، كما يعترف به هؤلاء المشركون ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزحرف : ٨٧] ، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [العنكبوت : ٦٣] أى : هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له ، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق ، وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة من هو المنفرد بالخلق والرزق ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى : إله مع الله يعبد . وقد تبين لكم ولكل ذى لب مما يعرفون به أيضاً أنه الخالق الرازق . ومن المفسرين من يقول : معنى قوله : ﴿ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى : إله مع الله فعل هذا . وهو يرجع إلى معنى الأول ؛ لأن تقدير الجواب أنهم يقولون : ليس ثم أحد فعل هذا معه ، بل هو المنفرد به . فيقال : فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المنفرد بالخلق والتدبير ؟ كما قال : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ [النحل : ١٧] . وقوله ههنا : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ : ﴿ أَمَّنْ ﴾ فى هذه الآيات كلها تقديره : أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها ؟ هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر .

ثم قال : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ أى : يجعلون لله عدلاً ونظيراً . وهكذا قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر : ٩] أى : أمن هو هكذا كمن ليس كذلك ؟ ولهذا قال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو

الْأَبَابِ ﴿ [الزمر : ٩] ، ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر : ٢٢] ، وقال : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَانِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : ٣٣]
 أى : أمن هو شهيد على أفعال الخلق، حركاتهم وسكناتهم، يعلم الغيب جليله وحقيقه ، كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التى عبدوها ؟ ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبًا سَمُومًا ﴾ [الرعد : ٣٣] ، وهكذا هذه الآيات الكريمة كلاً .

﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ ١١ ﴾

يقول تعالى : ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ أى : قارة ساكنة ثابتة ، لا تميد ولا تتحرك لأهلها ولا ترجف بهم ، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة ، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً بساطاً ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ [غافر : ٦٤] . ﴿ وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ﴾ أى : جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة تشقها فى خلالها، وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، بحسب مصالح عباده فى أقاليمهم وأقطارهم حيث زرأهم فى أرجاء الأرض ، سير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه ، ﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴾ أى : جبالاً شامخة ترسى الأرض وتثبتها ؛ لثلا تميد بكم ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴾ أى : جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزاً، أى : مانعاً يمنعها من الاختلاط، لثلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا، فإن الحكمة الإلهية تقتضى بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس . والمقصود منها: أن تكون عذبة زلالاً لا تسقى الحيوان والنبات والشمار منها. والبحار المالحة هى المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب ، والمقصود منها: أن يكون ماؤها ملحاً أحاجاً؛ لثلا يفسد الهواء بريحتها ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٥٣] ؛ ولهذا قال : ﴿ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى : فعل هذا ؟ أو يعبد على القول الأول والآخر؟ وكلاهما متلازم صحيح ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : فى عبادتهم غيره .

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ ﴿ ١٢ ﴾

ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، كما قال : ﴿ وَإِذَا سَأَلَ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُوْنَ إِلَّا إِلَهُهُ ﴾ [الإسراء : ٦٧] ، وهكذا قال هنا : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ أى : من هو الذى لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذى لا يكشف ضر المضرورين سواه .

روى الإمام أحمد عن رجل من بلهجم^(١) قال : قلت : يا رسول الله ، إلام تدعو ؟ قال : « أدعو إلى الله وحده ، الذى إن مسك ضر فدعوته كشف عنك ، والذى إن أضللت بأرض كفر فدعوته رد عليك ، والذى إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك » . قال : قلت : أوصنى . قال : « لا تسبن أحداً ، ولا تزهدن فى المعروف ، ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهك ، ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستقى ، واتزر إلى نصف الساق ، فإن أبيت فإلى الكعبين . وإياك وإسبال الإزار ، فإن إسبال الإزار من المخيلة ، وإن الله - تبارك وتعالى - لا يحب المخيلة » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ أى : يخلف قرنا لقرن قبلهم وخلفاً لسلف ، كما قال تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلَفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ [الأنعام : ١٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] ، أى قوماً يخلف بعضهم بعضاً . وهكذا هذه الآية : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ أى : أمة بعد أمة ، وجيلاً بعد جيل ، وقوماً بعد قوم . ولو شاء لأوجدهم كلهم فى وقت واحد ، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض ، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين ، كما خلق آدم من تراب . ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض ولكن لا يبيت أحداً حتى تكون وفاة الجميع فى وقت واحد ، فكانت تضيق عليهم الأرض ، وتضيق عليهم معاشهم وأكسابهم ، ويتضرر بعضهم ببعض . ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ، ثم يكثروهم غاية الكثرة ، ويذراهم فى الأرض ، ويجعلهم قروناً بعد قرون ، وأما بعد أمم ، حتى ينتضى الأجل وتفرغ البرية ، كما قدر ذلك تبارك وتعالى ، وكما أحصاهم وعدهم عدداً ، ثم يقيم القيامة ، ويوفى كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى : يقدر على ذلك ، أو إله مع الله يعبد ، وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أى : أقل تذكروهم فيما يرشدكم إلى الحق ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم .

﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

يقول : ﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أى : بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية ، كما قال : ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل : ١٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ الآية [الأنعام : ٩٧] . ﴿ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾

(١) وهو : جابر بن سليم الهجيمي ، كما صرح به فى المسند (٥ / ٦٣) .

(٢) المسند (٥ / ٦٤) وأبو داود (٤٠٨٤) وصححه الألبانى .

أى: بين يدي السحاب الذى فيه مطر، يغيث به عباده المجدين الأزلين القنطين ﴿ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلٌّ كَاتِبُونَ بُرْهَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿١٤﴾

أى: هو الذى بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده، كما قال تعالى فى الآية الأخرى: ﴿ إِنْ بَطَشَ رَبِّكَ لِشَدِيدٍ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ [البروج: ١٢، ١٣]، وقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧] . ﴿ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى: بما ينزل من مطر السماء، وينبت من بركات الأرض، كما قال: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴾ [الطارق: ١١، ١٢]، وقال: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ [الحديد: ٤]، فهو تبارك وتعالى، ينزل من السماء ماء مباركا فيسكنه فى الأرض، ثم يخرج به منها أنواع الزروع والشمار والأزاهير ، وغير ذلك من ألوان شتى ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾ [طه : ٥٤]؛ ولهذا قال: ﴿ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ ﴾ أى: فعل هذا . وعلى القول الآخر: يعبد ؟ ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ على صحة ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فى ذلك، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان، كما قال الله : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٧] .

﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ ﴿١٥﴾ بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق: أنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب. وقوله: ﴿ إِلَّا اللَّهُ ﴾ استثناء منقطع، أى: لا يعلم أحد ذلك إلا الله، عز وجل، فإنه المنفرد بذلك وحده، لا شريك له ، كما قال: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ الآية [الانعام : ٥٩] ، وقال : ﴿ إِنْ اللَّهُ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٣٤]، والآيات فى هذا كثيرة .

وقوله: ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أى: وما يشعر الخلائق الساكنون فى السموات والأرض بوقت الساعة ، كما قال: ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ [الاعراف : ١٨٧] ، أى: ثقل علمها على أهل السموات والأرض . وروى ابن أبى حاتم عن عائشة قالت: من زعم أنه يعلم - يعنى النبى ﷺ - ما يكون فى غد فقد أعظم على الله الفرية؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ (١) . وقال قتادة: إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصلات: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها ، وجعلها رجوماً للشياطين ، فمن تعاطى فيها غير

ذلك فقد قال برأيه ، وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به . وإن ناساً جهلة بأمر الله ، قد أحدثوا من هذه النجوم كهانة : من أعرس بنجم كذا وكذا ، كان كذا كذا . ومن سافر بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا . ومن ولد بنجم كذا وكذا ، كان كذا وكذا . ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود ، والقصير والطويل ، والحسن والدميم ، وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشيء من الغيب ! وقضى الله : أنه لا يعلم من السموات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون أيان يعثون . رواه ابن أبي حاتم عنه بحروفه ، وهو كلام جليل متين صحيح .

وقوله : ﴿ بَلِ ادَّارِكْ عَلَيْهِمْ فِي الآخِرَةِ بَلٌ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ﴾ أى : انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها . وقرأ آخرون : « بل أدرك (١) علمهم » أى : تساوى علمهم فى ذلك ، كما فى الصحيح لمسلم : أن رسول الله ﷺ قال لجبريل - وقد سأله عن وقت الساعة : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل (٢) أى : تساوى فى العجز عن درك ذلك علم المسؤول والسائل . قال ابن عباس : ﴿ بَلِ ادَّارِكْ عَلَيْهِمْ فِي الآخِرَةِ ﴾ أى : غاب . وقال قتادة : ﴿ بَلِ ادَّارِكْ عَلَيْهِمْ فِي الآخِرَةِ ﴾ يعنى : يجهلهم ربهم ، يقول : لم ينفذ لهم إلى الآخرة علم ، هذا قول . وقال ابن جريج ، عن عطاء الخراسانى ، عن ابن عباس : ﴿ بَلِ ادَّارِكْ عَلَيْهِمْ فِي الآخِرَةِ ﴾ حين لم ينفع العلم ، وبه قال عطاء الخراسانى ، والسدى : أن علمهم إنما يدرك ويكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [مريم : ٣٨] .

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ﴾ عائد على الجنس ، والمراد الكافرون ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمونا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً ﴾ [الكهف : ٤٨] أى : الكافرون منكم . وهكذا قال ههنا : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ﴾ أى : شاكون فى وجودها ووقوعها ، ﴿ بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴾ أى : فى عماية وجهل كبير فى أمرها وشأنها .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْا كُنَّا تَرابًا وَءِآبائُنَا إِنبَتًا لَمُخْرَجُونَ ﴿١٧﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءِآبائُنَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَٰذَا إِلاَّ أَساطِيرُ الْاَوَّلِينَ ﴿١٨﴾ قَدْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن منكرى البعث من المشركين : أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظاماً ورفاتاً وتراباً ، ثم قال : ﴿ لَقَدْ وَعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءِآبائُنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : ما زلنا نسمع بهذا نحن وآبائنا ، ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً . وقولهم : ﴿ إِنَّ هَٰذَا إِلاَّ أَساطِيرُ الْاَوَّلِينَ ﴾ : يعنون : ما هذا الوعد بإعادة الأبدان ﴿ إِلاَّ أَساطِيرُ الْاَوَّلِينَ ﴾ أى : أخذه قوم عنمن قبلهم ، من كتبهم يتلقاه بعض عن بعض ، وليس له حقيقة . قال الله تعالى مجيباً لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد :

(٢) مسلم (٩ / ٥) .

(١) قراءة أبى جعفر وابن كثير وأبى عمرو بن حميد .

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء : ﴿ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي : المكذبين بالرسول وما جاؤوهم به من أمر المعاد وغيره ، كيف حلت بهم نقم الله وعذابه ونكاله ونجى الله من بينهم رسله الكرام ومن اتبعهم من المؤمنين ، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته .

ثم قال تعالى مسلماً لنبيه ﷺ : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : المكذبين بما جئت به ، ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات ﴿ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أي : في كيدك ورد ما جئت به ، فإن الله مؤيدك وناصرك ، ومظهر دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ، في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قال الله مجيباً لهم : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ قال ابن عباس : أن يكون قرب - أو : أن يقرب - لكم بعض الذي تستعجلون . وهكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والسدى . وهذا هو المراد بقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ [الإسراء : ٥١] ، وقال تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٥٤] .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ أي : في إسباغته نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم ، وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي : يعلم السرائر والضمائر ، كما يعلم الظواهر ، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [الرعد : ١٠] ، ﴿ يَلْعَلُ السِّرُّ وَأَخْفَى ﴾ [طه : ٧] ، ﴿ مِنْهُ أَلَّا حِينَ يَسْتَفْشِنُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [هود : ٥] . ثم أخبر تعالى بأنه عالم غيب السموات والأرض ، وأنه عالم الغيب والشهادة - وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه - فقال : ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس : يعنى : وما من شيء ﴿ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنْ ذُكِرَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٠] .

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمَعُ الْأَلْهَمَ الْأَدْعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِنَّ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَن يُوْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وما اشتمل عليه من الهدى والبيئات والفرقان: أنه يقص على بنى إسرائيل - وهم حملة التوراة والإنجيل ﴿ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ، كاختلافهم في عيسى وتباينهم فيه ، فاليهود افتروا، والنصارى غلوا، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل: أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام، عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ [مريم: ٣٤] .

قوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: هدى لقلوب المؤمنين، ورحمة لهم . ثم قال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أى: يوم القيامة ﴿ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ فى انتقامه ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم . ﴿ فَتَرَكْنَا عَلَى اللَّهِ ﴾ أى: فى أمورك ، وبلغ رسالة ربك ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ أى : أنت على الحق المبين وإن خالفك ، ممن كتبت عليه الشقاوة وحققت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى ﴾ أى لا تسمعهم شيئاً ينفعهم ، فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة ، وفى آذانهم وقر الكفر؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أى : إنما يستجيب لك من هو سميع بصير، السمع والبصر النافع فى القلب والبصيرة ، الخاضع لله ، ولما جاء عنه على السنة الرسل ، عليهم السلام .

﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ ﴿ ٨٢ ﴾

ربع

هذه الدابة تخرج فى آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق ، يخرج الله لهم دابة من الأرض - قيل : من مكة . وقيل: من غيرها - فتكلم الناس على ذلك . قال ابن عباس، والحسن، وقتادة - وروى عن على : تكلمهم كلاما ، أى : تخاطبهم مخاطبة . وقال عطاء الخراسانى : تكلمهم فتقول لهم : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون . ويروى هذا عن على، واختاره ابن جرير. وفى هذا القول نظر لا يخفى ، والله أعلم . وقال ابن عباس - فى رواية - : تجرحهم . وعنه رواية، قال : كلاً تفعل يعنى هذا وهذا، وهو قول حسن ، ولا منافاة ، والله أعلم .

وقد ورد فى ذكر الدابة أحاديث وآثار كثيرة ، منها : روى الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال : لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب ، وخسف بالمشرق ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق - أو : تحشر - الناس ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقبل معهم حيث قالوا . وهكذا رواه مسلم وأهل السنن ،

وقال الترمذى : حسن صحيح . ورواه مسلم موقوفاً والله أعلم (١) . وروى مسلم عن عبد الله ابن عمرو قال : حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيتهما ما كانت قبل صاحبتهما ، فالأخرى على أثرها قريباً » (٢) . وروى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال ستا : طلوع الشمس من مغربها ، أو الدخان ، أو الدجال ، أو الدابة ، أو خاصة أحدكم ، أو أمر العامة » . وفى رواية : « بادروا بالأعمال ستا : الدجال ، والدخان ، ودابة الأرض ، وطلوع الشمس من مغربها ، وأمر العامة وخويصة أحدكم » (٣) .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ دَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِن فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوم القيامة ، وحشر الظالمين المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدى الله ، عز وجل ، ليسألهم عما فعلوه فى الدار الدنيا ، تقريباً وتوبيخاً ، وتصغيراً وتحقيراً فقال : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ﴾ أى : من كل قوم وقرن فوجاً ، أى : جماعة ﴿ مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَاهُمْ ﴾ [الصفات: ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير: ٧] . وقوله : ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ قال ابن عباس : يدفنون . وقال قتادة : وزعة ترد أولهم على آخرهم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يساقون .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ ﴾ أى : أوقفوا بين يدى الله ، عز وجل ، فى مقام المساءلة ﴿ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ دَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : ويسألون عن اعتقادهم ، وأعمالهم فلما لم يكونوا من أهل السعادة ، وكانوا كما قال الله تعالى عنهم : ﴿ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ وَلَكِنْ كَذَّبُوتُوا ﴾ [القيامة : ٣١ ، ٣٢] ، فحينئذ قامت عليهم الحجة ، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به ، كما قال تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ . وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ٣٥ - ٣٧] ، وهكذا قال ههنا : ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ أى : بهتوا فلم يكن لهم جواب ؛ لأنهم كانوا فى الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم ، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذى لا تخفى عليه خافية .

ثم قال تعالى منهاً على قدرته التامة ، وسلطاناه العظيم ، وشأنه الرفيع الذى تجب طاعته والانقياد لأوامره ، وتصديق أنبيائه فيما جاؤوا به من الحق الذى لا محيد عنه ، فقال : ﴿ أَلَمْ

(١) المسند (٤ / ٦ ، ٧) ومسلم (٢٩٠١ / ٣٩) والترمذى (٢١٨٣) .

(٢) مسلم (٢٩٤١ / ١١٨) . (٣) مسلم (٢٩٤٧ / ١٢٨) .

يَرَوْنَ أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ ﴿٨٧﴾ أَى: فيه ظلام تسكن بسببه حركاتهم ، وتهدا أنفاسهم ، ويستريحون من نصب التعب فى نهارهم ﴿٨٨﴾ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴿٨٩﴾ أَى: منيراً مشرقاً، فبسبب ذلك يتصرفون فى المعاش والمكاسب، والأسفار والتجارات ، وغير ذلك من شؤونهم التى يحتاجون إليها ﴿٩٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٠﴾ .

﴿٨٧﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوِّهٍ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَرَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُمْ خَيْرٌ إِمَّا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّمَّا وَهَمَّ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمِذٍ ءَأَمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع فى الصُّور، وهو كما جاء فى الحديث: « قرن ينفخ فيه» (١). وفى حديث (الصُّور) أن إسرائيل هو الذى ينفخ فيه بأمر الله تعالى ، فينفخ فيه أولاً نفخة الفزع ويطولها ، وذلك فى آخر عمر الدنيا ، حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء ، فيفزع من فى السموات ومن فى الأرض ﴿٨٧﴾ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴿٨٨﴾، وهم الشهداء، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون . روى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو ، وجاءه رجل فقال : ما هذا الحديث الذى تحدث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ؟ فقال : سبحان الله - أو : لا إله إلا الله - أو كلمة نحوهما - لقد هممت ألا أحدث أحداً شيئاً أبداً ، إنما قلت : إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً يخرب البيت ، ويكون ويكون . ثم قال: قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال فى أمتى فيمكث أربعين - لا أدرى أربعين يوماً ، أو أربعين شهراً ، أو أربعين عاماً - فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود ، فيطلبه فيهلكه . ثم يمكث الناس سبع سنين ، ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدهم دخل فى كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه » . قال : سمعتها من رسول الله ﷺ ، قال : « فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستحيون ؟ فيقولون: فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم فى ذلك دار رزقهم ، حسن عيشهم . ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتها ورفع لينا » . قال : « وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله » . قال : « فَيَصْعَقُ وَيَصْعَقُ النَّاسُ ، ثم يرسل الله - أو قال : ينزل الله مطراً كأنه الطل - أو قال : الظل - نعمان الشاك - فتبتت منه أجساد الناس ، ثم يُنْفَخُ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . ثم يقال : يا أيها الناس ، هلموا إلى ربكم ، وقفوهم إنهم مسؤولون . ثم يقال: أخرجوا بعث النار . فيقال : من كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة

(١) المسند (٦٥٠٧) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

وتسعة وتسعين . قال : « فذلك يوم يجعل الولدان شيبا ، وذلك يوم يكشف عن ساق » (١) .
 وقوله : « ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لينا ورفع لينا » ، الليت : هو
 صفحة العنق ، أى : أمال عنقه ليستمعه من السماء جيدا . فهذه نفخة الفزع . ثم بعد ذلك
 نفخة الصعق ، وهو الموت . ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين ، وهو النشور من القبور لجميع
 الخلائق ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكُلُّ أُنُوفٍ دَاخِرِينَ ﴾ أى : صاغرين مطيعين ، لا يتخلف أحد عن أمره ،
 كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : ٥٢] ، وقال : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً
 مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم : ٢٥] . وفى حديث الصور : أنه فى النفخة الثالثة يأمر الله
 الأرواح ، فتوضع فى ثقب فى الصور ، ثم ينفخ إسرافيل فيه بعد ما تثبت الأجساد فى قبورها
 وأماكنها ، فإذا نفخ فى الصور طارت الأرواح ، تتوهج أرواح المؤمنين نورا ، وأرواح الكافرين
 ظلمة ، فيقول الله ، عز وجل : وعزتى وجلالى لترجعن كل روح إلى جسدها . فتجىء
 الأرواح إلى أجسادها ، فتدب فيها كما يدب السم فى اللديغ ، ثم يقومون فيفضون التراب من
 قبورهم ، قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج : ٤٣] .
 وقوله : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَمَادًا وَهِيَ تَمْرٌ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ أى : تراها كأنها ثابتة باقية على ما
 كانت عليه ، وهى تمر مر السحاب ، أى : تزول عن أماكنها ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا .
 وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا ﴾ [الطور : ٩ ، ١٠] ، وقال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا
 صَفْصَفًا . لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه : ١٠٥ - ١٠٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَسِيرُ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ
 بَارِزَةً ﴾ [الكهف : ٤٧] . وقوله : ﴿ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أى : يفعل ذلك بقدرته العظيمة
 الذى قد أنتن كل ما خلق ، وأودع فيه من الحكمة ما أودع ﴿ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ أى : هو عليم
 بما يفعل عباده من خير وشر فيجازيهم عليه .

ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذ فقال : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ قال قتادة :
 بالإخلاص . وقال زين العابدين : هى لا إله إلا الله ، وقد بين فى المكان الآخر أن له عشر أمثالها
 ﴿ وَهُمْ مِنْ فِرْعَ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفِرْعُ الْأَكْبَرُ ﴾ [الانبياء : ١٠٣] ،
 وقال : ﴿ أَلَمْ نَلْقَ فِي النَّارِ خَيْرًا مِمَّنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [فصلت : ٤٠] ، وقال : ﴿ وَهُمْ فِي الْعُرْفَاتِ
 آمِنُونَ ﴾ [سبا : ٣٧] . وقوله : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ أى : من لقى الله مسيئا لا
 حسنة له ، أو : قد رجحت سيئاته على حسناته ، كل بحسبه ؛ ولهذا قال : ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا
 كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . وقال ابن مسعود وأبو هريرة وابن عباس ، وأنس بن مالك ، وعطاء ، وسعيد
 ابن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد فى قوله : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ ﴾ يعنى : بالشرك .

﴿ إِنَّمَا أَمْرٌ أَنْ أُعْبَدَ رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً رسوله وأمرأ له أن يقول : ﴿ إِنَّمَا أَمْرٌ أَنْ أُعْبَدَ رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ ، كما قال : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّأكُمْ ﴾ [يونس : ١٠٤] . وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها ، كما قال : ﴿ فليَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : ٣ ، ٤] . وقوله : ﴿ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ أى : الذى إنما صارت حراماً قدراً وشرعاً ، بتحريمه لها ، كما ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكة ، ولا ينفر صيده ، ولا يلتقط لقطته إلا لمن عرفها ، ولا يتخلى خلاها » الحديث بتمامه . وقد ثبت فى الصحاح والحسان والمسانيد من طرق جماعة تفيد القطع (١) .

وقوله : ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ : من باب عطف العام على الخاص ، أى : هو رب هذه البلدة ، ورب كل شىء ومليكه ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى : الموحدين المخلصين المنقادين لأمره المطيعين له . وقوله : ﴿ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ ﴾ أى : على الناس أبلغهم إياه ، كقوله : ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران : ٥٨] ، وكقوله : ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [القصص : ٣] أى : أنا مبلغ ومنذر ، ﴿ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ أى : لى سوية الرسل الذين أنذروا قومهم ، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم ، وخلصوا من عهدتهم ، وحساب أمهم على الله ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠] ، وقال : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود : ١٢] .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ أى : لله الحمد الذى لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والإعذار إليه ؛ ولهذا قال : ﴿ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] . وقوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى : بل هو شهيد على كل شىء . وقد ذكر عن الإمام أحمد أنه كان ينشد هذين البيتين ، إما له أو لغيره

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَىٰ رَقِيبُ
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً وَلَا أَنْ مَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ يَغِيبُ

(١) البخارى (١٨٣٤) ومسلم (١٣٥٣ / ٤٤٥) وأبو دارد (٢٠١٨) . وهو فى المسند (٢٣٥٣) .

تفسير سورة القصص

وهى مكية

روى الإمام أحمد عن معد يكره قال : أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ علينا ﴿طسم﴾ المائتين ، فقال: ما هى معى ، ولكن عليكم من أخذها من رسول الله ﷺ : خبّاب بن الارت . قال : فاتينا خبّاب بن الارت ، فقرأها علينا (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسّم ﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذَّيْبُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣﴾ وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٤﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٥﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة .

وقوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ أى : هذه ﴿ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ أى : الواضح الجلى الكاشف عن حقائق الأمور ، وعلم ما قد كان وما هو كائن . وقوله : ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [يوسف: ٣] أى : نذكر لك الأمر على ما كان عليه ، كأنك تشاهد وكأنك حاضر .

ثم قال : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : تكبر وتجبّر وطغى ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ أى : أصنافاً ، قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته . ﴿ يَسْتَضِعُّ مِنْهُمْ ﴾ يعنى : بنى إسرائيل . وكانوا فى ذلك الوقت خيار أهل زمانهم . هذا وقد سلب عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم فى أخص الأعمال ، ويكذّبهم ليلاً ونهاراً فى أشغاله وأشغال رعيته ، ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيى نساءهم ، إهانة لهم واحتقاراً ، وخوفاً من أن يوجد منهم الغلام الذى كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام ، يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه . وكانت القبط قد تلقوا هذا من بنى إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل ، حين ورد الديار المصرية ، وجرى له مع جبارها ما جرى ، حين أخذ سارة

(١) المسند (٣٩٨٠) . وقال الشيخ شاکر : « إسناده صحيح » . ثم قال « طسم المائتين » هى سورة الشعراء ، وعدد آياتها ٢٢٧ آية فذكر عددها مع ترك كسر المائة .

ليتخذها جارية ، فصانها الله منه ، ومنعه منها بقدرته وسلطانه . فبشر إبراهيم ، عليه السلام ، ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك ملك مصر على يديه ، فكانت القبط تتحدث بهذا عند فرعون ، فاحترز فرعون من ذلك ، وأمر بقتل ذكور بنى إسرائيل ، ولن ينفع حذر من قدر ؛ لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، ولكل أجل كتاب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُكَلِّمُهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ . وقد فعل تعالى ذلك بهم ، كما قال : ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا رَبِّكَ الْهُسْنَى عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الاعراف : ١٣٧] ، وقال : ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بِنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : ٥٩] ، أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى ، فما نفعه ذلك مع قَدْرَ الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدرى ، بل نفذ حكمه وجرى قلمه فى القدم بأن يكون إهلاك فرعون على يديه ، بل يكون هذا الغلام الذى احترزت من وجوده ، وقتلت بسببه الوفا من الولدان إنما منشؤه ومرباه على فراشك، وفى دارك ، وغذاؤه من طعامك ، وأنت تربيته وتدله وتتفاده ، وحفتك ، وهلاكك وهلاك جنودك على يديه ، لتعلم أن رب السموات العلاء هو القادر الغالب العظيم، العزيز القوى الشديد المحال، الذى ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فِإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿٧﴾ فَالْقَطْعَةُ ٥٤٤ أَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتْ أُمَّرَأَتُ فِرْعَوْنَ قَرَّتْ عَيْنِي لِىَ وَلَكَ لَا نَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بنى إسرائيل ، خافت القبط أن يفنى بنى إسرائيل، فيلُون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة . فقالوا لفرعون : إنه يوشك - إن استمر هذا الحال - أن يموت شيوخهم ، وغلمانهم لا يعيشون ، ونساؤهم لا يمكن أن يقمن بما يقوم به رجالهم من الأعمال، فيخلص إلينا ذلك . فأمر بقتل الولدان عاماً وتركهم عاماً ، فولد هارون ، عليه السلام ، فى السنة التى يتركون فيها الولدان ، وولد موسى ، عليه السلام ، فى السنة التى يقتلون فيها الولدان، فلما ضاقت ذرعاً به ألهمت فى سرها ، وألقى فى خلدتها ، ونفت فى روعها ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فِإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ . وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل ، فاتخذت تابوتاً، ومهدت فيه مهداً، وجعلت ترضع ولدها، فإذا دخل عليها أحد ممن تخاف جعلته فى ذلك التابوت، وسيرته فى البحر، وربطته بحبل عندها. فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه، فذهبت

فوضعت في ذلك التابوت، وأرسلته في البحر وذهلت عن أن تربطه، فذهب مع الماء واحتمله، حتى مر به على دار فرعون ، فالتقطه الجوارى فاحتملته ، فذهبن به إلى امرأة فرعون، ولا يدربن ما فيه، وخشين أن يفتتن عليهما في فتحه دونها . فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه ، وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها ؛ ولهذا قال : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ معناه: أن الله ، تعالى ، قيضهم لالتقاطه ليجعل لهم عدواً وحزناً فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ . يعنى: أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفاً من أن يكون من بنى إسرائيل فجعلت امرأته آسية بنت مزاحم تُحاجُّ عنه وتُدبُّ دونه ، وتحببه إلى فرعون ، فقالت: ﴿ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ ﴾ فقال: أما لك فَنَعَم، وأما لى فلا . فكان كذلك ، وهداها الله به ، وأهلكه الله على يديه . وقوله : ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا ﴾ وقد حصل لها ذلك، وهداها الله به، وأسكنها الجنة بسببه . وقولها : ﴿ أَوْ نَتَّخِذُهُ وَلَدًا ﴾ أى : أرادت أن تتخذه ولداً وتبناه ، وذلك أنه لم يكن لها ولد منه . وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى : لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه ، من الحكمة العظيمة البالغة ، والحجة القاطعة .

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُمْ نَصِيحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آتِيهِ كَىٰ نَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِنَعْلَمَ أَنَّكَ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

ربع

يقول تعالى مخبراً عن فؤاد أم موسى، حين ذهب ولدها في البحر، أنه أصبح فارغاً ، أى: من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وغيرهم . ﴿ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ أى : إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لتُظهر أنه ذهب لها ولد، وتخبر بحالها، لولا أن الله بُتَّها وصبرها ، قال الله تعالى : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ أى : أمرت ابنتها - وكانت كبيرة تعى ما يقال لها - فقالت لها: ﴿ قُصِّيهِ ﴾ أى : اتبعى أثره ، وخذى خبره ، وتطلَّبي شأنه من نواحي البلد . فخرجت لذلك، ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ ﴾ قال ابن عباس : عن جانب . وقال مجاهد: عن بعيد .

قال الله تعالى : ﴿ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ ﴾ أى : تحريماً قَدَرِيَا ، وذلك لكرامة الله له صانه عن أن يرتضع غير ثدى أمه؛ ولأن الله - سبحانه - جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه ، لترضعه وهى أمته، بعدما كانت خائفة . فلما رأتهم أخته حائرين فيمن يرضعه قالت : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ

عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتِ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٤﴾ . فأرسلوها ، فلما قالت لهم ذلك وخالصت من أذاهم ، ذهبوا معها إلى منزلهم ، فدخلوا به على أمه ، فأعطته ثديها فالتقمه ، ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه ، فأبت عليها وقالت : إن لى بعلأ وأولادأ ، ولا أقدر على المقام عندك . ولكن إن أحببت أن أرضعه فى بيتى فعلت . فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك ، وأجرت عليها النفقة والصلات والكساوى والإحسان الجزيل . فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية ، قد أبدلها الله من بعد خوفها أمناً ، فى عز وجاه ورزق دار . فسبحان من بيديه الأمر ! ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ، الذى يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجأ ، وبعد كل ضيق مخرجأ . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَمَا تَفَرَّقْنَا عَنْهَا ﴾ أى : به ، ﴿ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ أى : عليه ﴿ وَتَعْلَمُ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى : فيما وعدها من رده إليها ، وجعله من المرسلين . فحيثئذ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين ، فعاملته فى تربيته ما ينبغى له طبعأ وشرعأ .

وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : حكمَ الله فى أفعاله وعواقبها المحموده ، التى هو المحمود عليها فى الدنيا والآخرة ، فرميا يقع الأمر كرها إلى النفوس ، وعاقبته محموده فى نفس الأمر ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦] وقال تعالى : ﴿ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٩] .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَأَنبَنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿١٥﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَنَفَّهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى ، عليه السلام ، ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى ، آناه الله حكماً وعلماً ، قال مجاهد : يعنى النبوة ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قدّر له من النبوة والتكليم فى قضية قتله ذلك القبطى ، الذى كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين ، فقال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ ﴾ أى : يتضاربان ويتنازعان ﴿ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ ﴾ أى : إسرائيلى ﴿ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ أى : قبطى ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والسدى ، ومحمد بن إسحاق . فاستغاث الإسرائيلي بموسى ، عليه السلام ، ووجد موسى فرصة ، وهى غفلة الناس ، فعمد إلى القبطى ﴿ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ ﴾ . قال مجاهد : وكزه ، أى : طعنه بجمع كفه ، وقال قتادة : وكزه بعضا كانت معه . ﴿ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أى : كان فيها حتفه فمات ﴿ قَالَ ﴾ موسى : ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ . قال ربّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال ربّ بما

أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴿١٧﴾ أَي: بما جعلت لي من الجاه والعزة والمنعة ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا ﴾ أَي : معينا ﴿ لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ أَي: الكافرين بك ، المخالفين لأمرك .

﴿ فَاصْبِحْ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرُمُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى لما قتل ذلك القبطي أنه أصبح ﴿ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا ﴾ أَي : من مَعْرَةَ ما فعل ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ أَي : يتلفت ويتوقع ما يكون من هذا الأمر ، فمر في بعض الطرق ، فإذا ذاك الذي استنصره بالأمس على ذلك القبطي يقاتل آخر ، فلما مر موسى ، استصرخه على الآخر ، فقال له موسى : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ أَي : ظاهر الغواية كثير الشر . ثم عزم على البطش بذلك القبطي ، فاعتقد الإسرائيلي لخوره وضعفه وذلته أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك ، فقال يدفع عن نفسه: ﴿ يَا مُوسَى أَتْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴾ وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى، عليه السلام ، فلما سمعها ذلك القبطي لقفها من فمه ، ثم ذهب بها إلى باب فرعون فألقاها عنده ، فعلم بذلك ، فاشتد حنقه ، وعزم على قتل موسى ، فطلبوه وبعثوا وراءه ليحضره لذلك .

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ ﴾ وصفه بالرَجُولِيَّةِ لأنه خالف الطريق ، فسلك طريقاً أقرب من طريق الذين بعثوا وراءه ، فسبق إلى موسى ، فقال له : يا موسى ﴿ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ أَي : يتشاورون فيك ﴿ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ ﴾ أَي : من البلد ﴿ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ .

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾

لما أخبره ذلك الرجل بما عملاً عليه فرعون ودولته في أمره ، خرج من مصر وحده ، ولم

يألف ذلك قلبه ، بل كان فى رفاهية ونعمة ورياسة ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أى : يتلفت ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أى : من فرعون وملكه . فالله أعلم . ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أى : أخذ طريقاً سالكاً مهيباً فرح بذلك ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أى : إلى الطريق الأقوم . ففعل الله به ذلك، وهداه إلى الطريق المستقيم فى الدنيا والآخرة، فجعله هادياً مهدياً . ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ أى : ولما وصل إلى مدين وورد ماءها ، وكان لها بئر ترده رعاء الشاء ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ﴾ أى : جماعة ﴿يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أى : تكفكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لثلاثاً يؤذيان . فلما رأهما موسى ، عليه السلام ، رق لهما ورحمهما ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أى : ما خبركما لا تردان مع هؤلاء ؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أى : لا يحصل لنا سقى إلا بعد فراغ هؤلاء ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أى : فهذا الحال الملجئ لنا إلى ما ترى .

قال الله تعالى : ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ : روى أبو بكر بن أبى شيبة عن عمر بن الخطاب ، أن موسى ، عليه السلام ، لما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ، قال : فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطبق رفعها إلا عشرة رجال ، فإذا هو بامرأتين تذودان ، قال : ما خطبكما ؟ فحدثناه ، فأتى الحجر فرفعه ، ثم لم يستق إلا ذنوباً واحداً حتى رويت الغنم . إسناد صحيح (١) . وقوله : ﴿إِلَى الظِّلِّ﴾ : قال ابن عباس ، وابن مسعود ، والسدى : جلس تحت شجرة .

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ ابْنِي يَدْعُوكَ لِجَزْيِكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَتْهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأْتِيكِ اسْتَجْرَةٌ إِنَّكِ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجْرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿١١﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَجًا فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿١٨﴾﴾

لما رجعت المرأتان سريعاً بالغنم إلى أبيهما ، أنكر حالهما ومجيئهما سريعاً ، فسألتهما عن خبرهما ، فقصتا عليه ما فعل موسى ، عليه السلام . فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها قال الله تعالى : ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ﴾ أى : مشى الحائر ، كما روى عن أمير المؤمنين عمر ، رضى الله عنه ، أنه قال : كانت مستترّة بكم درعها . روى ابن أبى حاتم عن عمرو بن ميمون قال : قال عمر : جاءت تمشى على استحياء ، قائلة بثوبها على وجهها ، ليست بسلفع خراجة ولاجة . هذا إسناد صحيح . قال الجوهري : السلفع من الرجال :

(١) ابن أبى شيبة فى مصنفه (١١ / ٥٣٠) .

الجسور ، ومن النساء : الجريئة السليطة ، ومن النوق : الشديدة .

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرًا مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ وهذا تأدب فى العبارة ، لم تطلبه طلبا مطلقا لثلا يوهم ربية ، بل قالت : ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرًا مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ يعنى : ليثيبك ويكافئك على سقيك لغنمنا ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ أى : ذكر له ما كان من أمره ، وما جرى له من السبب الذى خرج من أجله من بلده ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يقول : طب نفسا وقر عيننا ، فقد خرجت من مملكتهم فلا حُكْمَ لهم فى بلادنا ؛ ولهذا قال : ﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ . وقد اختلف المفسرون فى هذا الرجل : من هو ؟ على أقوال : أحدها أنه شعيب النبى ، عليه السلام ، الذى أرسل إلى أهل مدين . وهذا هو المشهور عند كثيرين ، وقد قاله الحسن البصرى وغير واحد وقال آخرون : بل كان ابن أخى شعيب . وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب . وقال آخرون : كان شعيب قبل زمان موسى ، عليه السلام ، بمدة طويلة ؛ لأنه قال لقومه : ﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود : ٩٥] . وقد كان هلاك قوم لوط فى زمن الخليل ، عليه السلام ، بنص القرآن ، وقد علم أنه كان بين موسى والخليل ، عليهما السلام ، مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة ، كما ذكره غير واحد الإشكال ، ثم من المقوى لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه فى القرآن هاهنا . وما جاء فى بعض الأحاديث من التصريح بذكره فى قصة موسى ، لم يصح إسناده ، والله أعلم .

وقوله : ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ أى : قالت إحدى ابنتى هذا الرجل . قيل : هى التى ذهبت وراء موسى ، عليه السلام ، قالت لأبيها : ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ أى : لرعية هذه الغنم . قال عمر ، وابن عباس ، وشريح القاضى ، وقتادة ، وغير واحد : لما قالت : ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ قال لها أبوها : وما علمك بذلك ؟ قالت : إنه رفع الصخرة التى لا يطيق حملها إلا عشرة رجال ، وإنه لما جثت معه تقدمت أمامه ، فقال لى : كونى من ورائى ، فإذا اجتنبت الطريق فاحذفى لى بحصاة أعلم بها كيف الطريق لاهتدى إليه . وعن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : أفرس الناس ثلاثة : أبو بكر حين تفرس فى عمر ، وصاحب يوسف حين قال : ﴿أَكْرَمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف : ٢١] ، وصاحبة موسى حين قالت : ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ .

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ وَإِنِّي هَاتِنِ﴾ أى : طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعى عنه ويوجه إحدى ابنتيه هاتين . وقوله : ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ أى : على أن ترعى على ثمانى سنين ، فإن تبرعت بزيادة ستين فهو إليك ، وإلا ففى ثمان كفاية ، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ عَلَيْكَ سَعْدِيْنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أى : لا أشاقتك ، ولا أواديتك ، ولا أماريتك .

وقوله تعالى إخباراً عن موسى ، عليه السلام : ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ ، يقول : إن موسى قال لصهره : الأمر على ما قلت من

أنتك استأجرتنى على ثمان سنين ، فإن أتممت عشراً فمن عندى ، فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئت من العهد ، وخرجت من الشرط ؛ ولهذا قال : ﴿أَيُّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أى : فلا حرج على مع أن الكامل - وإن كان مباحاً لكنه فاضل من جهة أخرى ، بدليل من خارج . كما قال الله تعالى : ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة : ٢٠٣] . هذا وقد دل الدليل على أن موسى ، عليه السلام ، إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما ؛ روى البخارى عن سعيد بن جبير قال : سألتى يهودى من أهل الحيرة : أى الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدرى حتى أقدم على حبر العرب فأسأله . فقدمت فسألت ابن عباس ، رضى الله عنه ، فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول الله إذا قال فعل (١) .

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَمْسُكْ إِيَّتِ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْسُكٌ أَقْبَلُ وَلَا يَخْفُفُ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿١٣﴾ أَسَلَكِ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَتَخْرِجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلِكَ بُرْهَانُكَ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٤﴾﴾

قد تقدم فى تفسير الآية قبلها أن موسى ، عليه السلام ، قضى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما وأنقاهما ، وقد يستفاد هذا أيضاً من الآية الكريمة حيث قال تعالى : ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ أى : الأكمل منهما ، والله أعلم .

وقوله : ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ قالوا : كان موسى قد اشتاق إلى بلاده وأهله ، فعزم على زيارتهم فى خفية من فرعون وقومه ، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التى وهبها له صهره ، فسلك بهم فى ليلة مطيرة مظلمة باردة ، فنزل منزلاً فجعل كلما أورى زنده لا يضىء شيئاً ، فتعجب من ذلك ، فبينما هو كذلك إذ ﴿آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ أى : رأى ناراً تضىء له على بعد ، ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أى : حتى أذهب إليها ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ . وذلك لأنه كان قد أضل الطريق ، ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ أى : قطعة منها ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أى : تتدفؤون بها من البرد . قال الله تعالى : ﴿فَلَمَّا أَنهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ أى : من جانب الوادى مما يلى الجبل عن يمينه من ناحية الغرب ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ ، فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة ، والجبل الغربى عن

يمينه ، والنار وجدها تضطرم فى شجرة خضراء فى لحف الجبل مما يلى الوادى ، فوقف باهتاً فى أمرها ، فناده ربه : ﴿مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ روى ابن جرير عن عبد الله قال : رأيت الشجرة التى نودى منها موسى ، عليه السلام ، سمرة خضراء ترف . إسناده مقارب . وقوله تعالى : ﴿أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أى : الذى يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين ، الفعال لما يشاء ، لا إله غيره ، ولا رب سواه ، تعالى وتقدس وتنزه عن ممانلة المخلوقات فى ذاته وصفاته ، وأقواله وأفعاله سبحانه !

وقوله : ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ أى : التى فى يدك . كما قرره على ذلك فى قوله : ﴿وَمَا تَلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى . قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ [طه : ١٧ ، ١٨] . والمعنى : أما هذه عصاك التى تعرفها ألقها ﴿فَأَلْقَاهَا فِإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ ، ففرف وتحقق أن الذى يخاطبه ويكلمه هو الذى يقول للشيء : كن ، فيكون . وقال هاهنا : ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ﴾ أى : تضطرب ﴿كَأَنَّهُمَا جَانٌّ﴾ أى : فى حركتها السريعة مع عظم خلق قوائمها واتساع فمها ، واصطكاك أنيابها وأضراسها ، بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعها ، فتتحدر فى فيها تتقعقع ، كأنها حادرة فى واد فعند ذلك ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أى : ولم يكن يلتفت ؛ لأن طبع البشرية ينفر من ذلك . فلما قال الله له : ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ رجع فوقف فى مقامه الأول ، ثم قال الله له : ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ أى : إذا أدخلت يدك فى جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألا ، كأنها قطعة قمر فى لمعان البرق ؛ ولهذا قال : ﴿مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ أى : من غير برص .

وقوله : ﴿وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ قال مجاهد : من الفرع . وقال قتادة : من الرعب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير : مما حصل لك من خوفك من الحية . والظاهر أن المراد أعم من هذا ، وهو أنه أمر ، عليه السلام ، إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب ، وهى يده ، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف . وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يديه على فؤاده ، فإنه يزول عنه ما يجد أو يخف ، إن شاء الله ، وبه الثقة . وقوله : ﴿فَدَانِكَ بِرَهَانَانٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ يعنى : إلقاء العصا وجعلها حية تسعى ، وإدخاله يده فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء - دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار ، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه ؛ ولهذا قال : ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ﴾ أى : وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أى : خارجين عن طاعة الله ، مخالفين لأمر دينه .

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ ﴿١١﴾ وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ ﴿١٢﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أُنْتَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ﴾ ﴿١٥﴾

لما أمره الله تعالى بالذهاب إلى فرعون ، الذى إنما خرج من ديار مصر فراراً منه وخوفاً

من سطوته ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا ﴾ يعنى : ذلك القبطى ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ أى : إذا رأونى . ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ وذلك أن موسى ، عليه السلام ، كان فى لسانه لثغة ، بسبب ما كان تناول تلك الجمره ، حين خيّر بينها وبين التمره أو الدرّة ، فأخذ الجمره فوضعهما على لسانه ، فحصل فيه شدة فى التعبير ؛ ولهذا قال : ﴿وَأَحْتَلِلُ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي . يَقْفَهُوا قَوْلِي . وَاجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي . هَارُونُ أَخِي . اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي . وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه : ٢٧ - ٣٢] ، أى : يؤنسنى فيما أمرتنى به من هذا المقام العظيم ، وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة إلى هذا الملك المتكبر الجبار العنيد . ولهذا قال : ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ ، أى : وزيراً ومعيناً ومقرباً لأمرى ، يصدقنى فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل ؛ لأن خبر اثنين أشجع فى النفوس من خبر واحد ؛ ولهذا قال : ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ وقال محمد بن إسحاق : ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ أى : يبين لهم عنى ما أكلمهم به ، فإنه يفهم عنى ما لا يفهمون .

فلما سأل ذلك قال الله تعالى : ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أى : سنقوى أمرك ، ونعز جانبك بأخيك ، الذى سألت له أن يكون نبياً معك . كما قال فى الآية الأخرى : ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه : ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم : ٥٣] . ولهذا قال بعض السلف : ليس أحد أعظم منةً على أخيه ، من موسى على هارون ، عليهما السلام ، فإنه شفع فيه حتى جعله الله نبياً ورسولاً معه إلى فرعون وملته ، ولهذا قال الله تعالى فى حق موسى : ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الاحزاب : ٦٩] .

وقوله تعالى : ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أى : حجة قاهرة ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾ أى : لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله ، كما قال الله تعالى لرسوله محمد ﷺ : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة : ٦٧] . وقال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَلْفُفُونَ رِisَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الاحزاب : ٣٩] ، أى : وكفى بالله ناصرًا ومعيناً ومؤيداً . ولهذا أخيرهما أن العاقبة لهما ولمن اتبعهما فى الدنيا والآخرة ، فقال : ﴿أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿كُتِبَ اللَّهُ لَإِغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذرتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر : ٥١ ، ٥٢] . ووجه ابن جرير على أن المعنى : ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ ، ثم يتدبى فيقول : ﴿بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمُ الْغَالِبُونَ﴾ ، تقديره : أنتم ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا . ولا شك أن هذا المعنى صحيح ، وهو حاصل من التوجيه الأول ، فلا حاجة إلى هذا ، والله أعلم .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا يَبْتَئِنُونَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَى وَمَا سَعَجْنَا بِهِذَا فِي مَا بَايَعْنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿١٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه ، وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة والدلالة القاهرة ، على صدقهما فيما أخبر عن الله عز وجل من توحيده واتباع أوامره . فلما عين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه ، وأيقنوا أنه من الله ، عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهة ، وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق ، فقالوا : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرٍ ﴾ أى : مفتعل مصنوع . وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه ، فما صعد معهم ذلك . وقوله : ﴿ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى ﴾ يعنون : عبادة الله وحده لا شريك له ، يقولون : ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين ، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى . فقال موسى ، عليه السلام ، مجيباً لهم : ﴿ رَبِّیْ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ ﴾ يعنى : منى ومنكم ، وسيفصل بينى وبينكم . ولهذا قال : ﴿ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾ أى : المشركون بالله عز وجل .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيهِمَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُنَّ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلَ لِي صَرَخًا لَعَلِّي أُطْعَمُ إِلَٰهَ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾
 وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾
 فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾
 وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يُدْعَوْنَ إِلَى التَّوْبَةِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافتراءه فى دعوى الإلهية لنفسه القبيحة - لعنه الله - قال الله تعالى : ﴿ فاستخف قومهُ فأطاعوه ﴾ الآية [الزخرف : ٥٤] ، وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالإلهية ، فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم ؛ ولهذا قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي ﴾ ، وقال تعالى إخباراً عنه : ﴿ فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ [النازعات : ٢٣ - ٢٦] يعنى : أنه جمع قومه ونادى فيهم بصوته العالى مُصْرَحًا لهم بذلك ، فأجابوه سامعين مطيعين . ولهذا انتقم الله تعالى منه ، فجعله عبرة لغيره فى الدنيا والآخرة ، وحتى إنه واجه موسى الكليم بذلك فقال : ﴿ لئن اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٩] .

وقوله : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلَ لِي صَرَخًا لَعَلِّي أُطْعَمُ إِلَٰهَ مُوسَى ﴾ أى : أمر وزيره هامان ومدبر رعيته ومشير دولته أن يوقد له على الطين ، ليتخذ له آجرًا لبناء الصرح ، وهو القصر المنيف الرفيع - كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرَخًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِّفِرْعَوْنَ سَوْءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ [غافر : ٣٦ ، ٣٧] ، وذلك لأن فرعون بنى هذا الصرح الذى لم ير فى الدنيا بناء أعلى منه ، إنما أراد بهذا أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى إله غير

فرعون؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنبِي لَأُظَنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أى: فى قوله إنَّمَا رَبًّا غَيْرِي، لا أنه كذبه فى أن الله أرسله؛ لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع، فإنه قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، وقال: ﴿لَئِن أَخَذْتُمُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وهذا قول ابن جرير.

وقوله: ﴿وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أى: طغوا وتجبروا، وأكثروا فى الأرض الفساد، واعتقدوا أنه لا معاد ولا قيامة، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ. إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٣، ١٤]، ولهذا قال هاهنا: ﴿فَأَخَذْنَا هُوَ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ أى: أغرقناهم فى البحر فى صبيحة واحدة، فلم يبق منهم أحد، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ. وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أى: لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم، فى تكذيب الرسل وتعطيل الصانع ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أى: فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣]. وقوله: ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أى: وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على السنة المؤمنين من عباده المتبعين رسله، وكما أنهم فى الدنيا ملعونون على السنة الأنبياء وأتباعهم، كذلك، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾. قال قتادة: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْسِ الرِّفْدَ الْمَرْفُودَ﴾ [هود: ٩٩].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم، من إنزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وملاه.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ يعنى: أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين، كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْحَاطِطَةِ. فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ [الحاقة: ٩، ١٠].

وعن أبى سعيد - رفعه إلى النبى ﷺ - قال: « ما أهلك الله قوما بعد ذاب من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى »، ثم قرأ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ (١). وقوله: ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أى: من العمى والغى ﴿وَهُدًى﴾ إلى الحق ﴿وَرَحْمَةً﴾ أى: إرشادا إلى الأعمال الصالحة ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أى: لعل الناس يتذكرون به، ويهتدون بسببه.

(١) البزار فى مسنده (٢٢٤٨) وقال الهيثمى فى الزوائد (٧ / ٩١): « رواه البزار موقوفا ومرفوعا ورجالهما رجال الصحيح ».

﴿٤٤﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ
وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ
تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ
نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن نُّصِيبَهُمْ مُّصِيبَةً يَمَّا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ لَفِيقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا
أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُنَبِّئَ بِآيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب الماضية ، خبراً كان سامعه شاهد ورأه لما تقدم ، وهو رجل أمي لا يقرأ شيئاً من الكتب ، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك ، كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَاهُمْ أَنَّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] ، أى : ما كنت حاضراً لذلك ، ولكن الله أوحاه إليك . وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه ، وما كان من إنجاء الله له وإغراق قومه . ثم قال تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ آيَاتِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود : ٤٩] وقال فى آخر السورة : ﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾ [هود : ١٠٠] ، وقال بعد ذكر قصة يوسف : ﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٢] ، وقال فى سورة طه : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ آيَاتِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴾ [طه : ٩٩] ، وقال هاهنا - بعد ما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها ، وكيف كان ابتداء إحياء الله إليه وتكليمه له - : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ يعنى : يا محمد ، ما كنت بجانب الجبل الغربى الذى كلم الله موسى من الشجرة التى هى شرقية على شاطئ الوادى ، ﴿ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ لذلك ، ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك ، ليجعله حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدا ، ونسوا حجج الله عليهم ، وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ أى : وما كنت مقيماً فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، حين أخبرت عن نبيها شعيب ، وما قال لقومه ، وما ردوا عليه ﴿ وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أى : ولكن نحن أوحينا إليك ذلك ، وأرسلناك للناس رسولا . ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ قال مقاتل بن حيان : ﴿ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ أمتك فى أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بعثت . وقال قتادة : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ موسى . وهذا - والله أعلم - أشبه بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ ﴾ .

ثم أخبر هاهنا بصيغة أخرى أخص من ذلك ، وهو النداء ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ ﴾ [الشعراء : ١٠] ، وقال : ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [النازعات : ١٦] ، وقال : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ [مريم : ٥٢] . وقوله : ﴿ وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾

أى : ما كنت مشاهداً لشيء من ذلك، ولكن الله أوحاه إليك وأخبرك به، رحمة منه لك وبالعباد يرسلك إليهم ﴿لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أى : لعلهم يهتدون بما جنتهم به من الله عز وجل ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى : وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة ولتقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم، فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير، كما قال تعالى بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن : ﴿أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَيْنَا طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُم مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام : ١٥٦، ١٥٧]، وقال : ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء : ١٦٥] ، وقال تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة : ١٩] ، والآيات فى هذا كثيرة .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِن عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْلَمَ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَاتَوْا يَكْتُوبَ مِن عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنَّمَا أَتَيْتُمُوهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْ هُدَىٰ مِنَ اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

ربع

يقول تعالى مخبراً عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم ، لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول : أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ ، قالوا على وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والإلحاد : ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ الآية ، يعنون - والله أعلم : من الآيات الكثيرة، مثل العصا واليد ، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وتنقيص الزروع والثمار، مما يضيق على أعداء الله، وكفلق البحر وتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى ، إلى غير ذلك من الآيات الباهرة ، والحجج القاهرة ، التى أجراها الله على يدى موسى ، عليه السلام ، حجة وبراهين له على فرعون وملئه وبنى إسرائيل ، ومع هذا كله لم ينجع فى فرعون وملئه ، بل كفروا بموسى وأخيه هارون ، كما قالوا لهما : ﴿أَجْتَنَّا لِنُلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس : ٧٨] ، وقال تعالى : ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون : ٤٨] . ولهذا قال هاهنا : ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أى : أو لم يكفر البشر بما أوتى موسى من تلك الآيات العظيمة . ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أى : تعاونا ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾ أى : بكل منهما كافرون . قال مجاهد بن جبر : أمرت اليهود قريشا أن يقولوا لمحمد ﷺ ذلك ، فقال الله : ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾

قال: يعنى : موسى وهارون عليهما السلام ﴿ تَظَاهَرَا ﴾ أى : تعاونا وتناصرا وصدق كل منهما الآخر . وبهذا قال سعيد بن جبير وأبو رزين فى قوله: ﴿ سَاحِرَانِ ﴾ يعنون: موسى وهارون. وهذا قول جيد قوى ، والله أعلم .

وأما من قرأ ﴿ سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا ﴾ فقال ابن عباس : يعنون : التوراة والقرآن . قال السدى : يعنى صدق كل واحد منهما الآخر . وقال عكرمة : يعنون : التوراة والإنجيل . واختاره ابن جرير . والظاهر على قراءة : ﴿ سَاحِرَانِ ﴾ أنهم يعنون : التوراة والقرآن ؛ لأنه قال بعده : ﴿ قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَنْتَ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ، وكثيراً ما يقرون الله بين التوراة والقرآن ، كما فى قوله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام: ٩١ ، ٩٢] ، وقال فى آخر السورة : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٥] ، وقد علم بالضرورة لذوى الألباب أن الله لم ينزل كتاباً من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذى أنزل على محمد عليه السلام ، وهو القرآن ، وبعده فى الشرف والعظمة الكتاب الذى أنزله على موسى بن عمران ، عليه السلام ، وهو التوراة التى قال الله تعالى فيها : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة : ٤٤] ، والإنجيل إنما نزل متمماً للتوراة ومُحلاً لبعض ما حُرِّم على بنى إسرائيل ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَنْتَ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى : فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ ﴾ أى : فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى : بلا دليل ولا حجة ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيَ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ أى : بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ ، قال مجاهد: فصلنا لهم القول ، وقال السدى : بينا لهم القول . وقال قتادة : يقول تعالى : أخبرهم كيف صنع بمن مضى وكيف هو صانع ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [البقرة : ١٢١] ، وقال : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٩٩] ، وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوْتُوا

الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يَتْلَى عَلَيْهِمْ يَخْرُونُ لِلأَذْقَانِ سَجْدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿ [الإسراء : ١٠٧ ، ١٠٨] ، وقال : ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوْدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٢ ، ٨٣] . قال سعيد بن جبیر : نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي ، فلما قدموا على النبي ﷺ قرأ عليهم : ﴿ يَس . وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴾ ، حتى ختمها ، فجعلوا يبكون وأسلموا ، ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَّا وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يَتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ . يعنى : من قبل هذا القرآن كنا مسلمين ، أى : موحدين مخلصين لله مستحيين له .

قال الله : ﴿ أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى : هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثانى يؤتون أجرهم مرتين بإيمانهم بالرسول الأول ثم بالثانى ؛ ولهذا قال : ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى : على اتباع الحق ؛ فإن تحشم مثل هذا شديد على النفوس . وقد ورد فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بى ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فزوجها » (١) .

وقوله : ﴿ وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أى : لا يقابلون السيئ بمثله ، ولكن يعفون ويصفحون ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أى : ومن الذى رزقهم من الحلال ينفقون على خلق الله فى النفقات الواجبة لأهلهم وأقاربهم ، والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات ، وصدقات النفل والقربات . وقوله : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾ أى : لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم ، بل كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٢] . ﴿ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ أى : إذا سَفِهَ عليهم سَفِيه ، وكَلَّمَهُم بما لا يليق بهم الجوابُ عنه ، أَعْرَضُوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح ، ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب ؛ ولهذا قال عنهم : إنهم قالوا : ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ أى : لا نريد طريق الجاهلين ولا نُحِبُّهَا .

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾
 ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ تَنَخُّطُفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِوِّعُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ وَرِزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ : إنك يا محمد ﴿ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ أى : ليس إليك ذلك ، إنما عليك البلاغ ، والله يهدى من يشاء ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، كما قال تعالى :

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] ، وقال : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] .

وهذه الآية أخص من هذا كله ؛ فإنه قال : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ أى : هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية ، وقد ثبت فى الصحيحين أنها نزلت فى أبى طالب عمّ رسول الله ﷺ ، وقد كان يحوطه وينصره ، ويقوم فى صفه ويحبه حباً شديداً طبعياً لا شريعياً ، فلما حضرته الوفاة وحن أجله ، دعاه رسول الله ﷺ إلى الإيمان والدخول فى الإسلام ، فسبق القدر فيه ، واختطف من يده ، فاستمر على ما كان عليه من الكفر ، ولله الحكمة التامة . وعن المسيب بن حزن المخزومى قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ ، فوجد عنده أبا جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبى أمية ابن المغيرة . فقال رسول الله ﷺ : « يا عم ، قل : لا إله إلا الله ، كلمة أشهد لك بها عند الله » . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ، ويعودان له بتلك المقالة ، حتى قال آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول : لا إله إلا الله . فقال رسول الله ﷺ : « أما لأستغفرون لك ما لم أنه عنك » . فأنزل الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَا قُرْبَى ﴾ [التوبة : ١١٣] ، وأنزل فى أبى طالب : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ . أخرجاه (١) . ورواه مسلم ، والترمذى ، عن أبى هريرة قال : لما حضرت وفاة أبى طالب أتاه رسول الله ﷺ فقال : « يا عمّاه ، قل : لا إله إلا الله ، أشهد لك بها يوم القيامة » . فقال : لولا أن تعبرنى بها قريش ، يقولون : ما حملة عليه إلا جزع الموت ، لا قررت بها عينك ، لا أقولها إلا لأقر بها عينك . فأنزل الله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ . وقال الترمذى : حسن غريب (٢) ورواه الإمام أحمد عن أبى هريرة ، فذكره بنحوه (٣) . وهكذا قال ابن عباس ، وابن عمر ، ومجاهد ، والشعبي ، وقتادة : إنها نزلت فى أبى طالب .

وقوله : ﴿ وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ تَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ : يقول تعالى مخبراً عن اعتذار بعض الكفار فى عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ : ﴿ إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ تَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ ، أى : نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى ، وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين ، أن يقصدونا بالأذى والمحاربة ، ويتخطفونا أينما كنا ، فقال الله تعالى مجيباً لهم : ﴿ أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا ﴾ يعنى : هذا الذى اعتذروا به كذب وباطل ؛ لأن الله جعلهم فى بلد أمين ، وحرّم معظم آمن منذ وُضع ، فكيف يكون هذا الحرم آمناً فى حال كفرهم وشركهم ، ولا يكون آمناً لهم وقد أسلموا وتابعوا الحق ؟

(٢) مسلم (٢٥ / ٤١) والترمذى (٣١٨٨) .

(١) البخارى (١٣٦٠) ومسلم (٢٤ / ٣٩) .

(٣) المسند (٢ / ٤٣٤) .

وقوله : ﴿يُجِنِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي : من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي : من عندنا ﴿وَلَكِن أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولهذا قالوا ما قالوا .

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَغَتْ مَسْكَانَهُمْ لَمَّ تَسْكُن مِن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكِ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِ الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى مُعْرِضًا بأهل مكة في قوله تعالى : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي : طغت وأشربت وكفرت نعمة الله، فيما أنعم به عليهم من الأرزاق ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقًا رَّغَدًا مِن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل : ١١٢ ، ١١٣] ولهذا قال : ﴿فَبَلَغَتْ مَسْكَانَهُمْ لَمَّ تَسْكُن مِن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي : ذُتَّت ديارهم فلا ترى إلا مساكنهم ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أي : رجعت خراباً ليس فيها أحد .

ثم قال الله مخبراً عن عدله ، وأنه لا يهلك أحداً ظالماً له ، وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم ، ولهذا قال : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكِ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَّسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ فيه دلالة على أن النبي الأمي ، وهو محمد ﷺ المبعوث من أم القرى ، رسول إلى جميع القرى ، من عرب وأعجم ، كما قال تعالى : ﴿لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَن حَوْلَهَا﴾ [الشورى : ٧] ، وقال تعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف : ١٥٨] ، وقال : ﴿لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام : ١٩] ، وقال : ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود : ١٧] . وتقام الدليل : ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء : ٥٨] . فأخبر أنه سيهلك كل قرية قبل يوم القيامة ، وقد قال : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء : ١٥] . فجعل تعالى بعثة النبي الأمي شاملة لجميع القرى ؛ لأنه مبعوث إلى أمها وأصلها التي ترجع إليها . وثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : «بعثت إلى الأحمر والأسود» (١) . ولهذا ختم به الرسالة والنبوة ، فلا نبى بعده ولا رسول ، بل شرعه باق بقاء الليل والنهار إلى يوم القيامة .

﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ فَمَتَّعُوهَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَنَقِيهِ كَمَن مَّنَعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا ، وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعدّه الله لعباده الصالحين فى الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم ، كما قال تعالى : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : ٩٦] ، وقال : ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٨] ، وقال : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ [الرعد : ٢٦] ، وقال : ﴿ بَلْ تُؤْتِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى : ١٦ ، ١٧] ، وقال رسول الله ﷺ : « والله ما الدنيا فى الآخرة ، إلا كما يغمس أحدكم إصبعه فى اليم ، فليُنظر ماذا يرجع إليه » (١) . وقوله : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أى : أفلا يعقل من يقدم الدنيا على الآخرة ؟

وقوله : ﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ يقول : أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح أعماله من الثواب الذى هو صائر إليه لا محالة ، كمن هو كافر مكذب بلقاء الله ووعدده ووعيده ، فهو ممتع فى الحياة الدنيا أياماً قلائل ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ قال مجاهد ، وقتادة : من المعذبين . ثم قد قيل : إنها نزلت فى رسول الله ﷺ وفى أبى جهل . وقيل : فى حمزة وعلى وأبى جهل ، وكلاهما عن مجاهد . والظاهر أنها عامة ، وهذا كقوله تعالى إخباراً عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه ، وهو فى الدرجات وذاك فى الدرجات : ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ [الصافات : ٥٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةَ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ [الصافات : ١٥٨] .

﴿ وَيَوْمَ يناديهِمْ فيقولُ أئنَ شركاءِى الذينَ كنتمَ ترعُمونَ ﴿١١﴾ قالَ الذينَ حقَّ عليهمَ القولُ ربنا هؤلاءِ الذينَ أغويَنا أغويَناهمُ كما غويَنا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدونَ ﴿١٢﴾ وقيلَ ادعوا شركاءَكمُ فدعوهم فترَ يستجيبوا لهمُ وراوا العذابَ لو أنهم كانوا يهتدونَ ﴿١٣﴾ ويومَ يناديهِمْ فيقولُ ماذا أجبتمُ المرسلينَ ﴿١٤﴾ فعصيتَ عليهمُ الأنبياءُ يومَئذٍ فهمُ لا ينسأونَ ﴿١٥﴾ فاما من تاب وامن وعملَ صالحاً فعسى أن يكونَ من المفلحينَ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة ، حيث يناديهم فيقول : ﴿ أئنَ شركائى الذينَ كنتمَ ترعُمونَ ﴾ يعنى : أين الآلهة التى كنتم تعبدونها فى الدار الدنيا ، من الأصنام والأنداد ، هل ينصروكم أو ينتصرون ؟ وهذا على سبيل التقرير والتهديد ، كما قال : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَرَعُمُونَ ﴾ [الانعام : ٩٤] .

وقوله : ﴿ قالَ الذينَ حقَّ عليهمَ القولُ ﴾ يعنى : من الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ، ﴿ ربنا هؤلاءِ الذينَ أغويَنا أغويَناهمُ كما غويَنا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدونَ ﴾ ، فشهدوا عليهم أنهم أغووهم فاتبعوهم ، ثم تبرأوا من عبادتهم ، كما قال تعالى : ﴿ واتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا .

كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨١﴾ [مريم : ٨١ ، ٨٢] ، وقال : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الاحقاف : ٥ ، ٦] ، وقال الخليل لقومه : ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٥] ، وقال الله : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِي مَا كُنَّا كَذِبًا لَكُنَّا كَذِبًا كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة : ١٦٦ ، ١٦٧] ؛ ولهذا قال : ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ أى : ليخلصوكم مما أنتم فيه ، كما كنتم ترجون منهم فى الدار الدنيا ، ﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أى : وتيقنوا أنهم صابرون إلى النار لا محالة . وقوله : ﴿ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ أى : فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين فى الدار الدنيا . وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا . وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف : ٥٢ ، ٥٣] .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾ : النداء الأول عن سؤال التوحيد ، وهذا فيه إثبات النبوات : ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم؟ وكيف كان حالكم معهم؟ وهذا كما يسأل العبد فى قبره : من ربك؟ ومن نبيك؟ وما دينك؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبد الله ورسوله . وأما الكافر فيقول : هاه ، هاه . لا أدري ؛ ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت ؛ لأن من كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ . وقال مجاهد : فعميت عليهم الحجج ، فهم لا يتساءلون بالانساب . وقوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أى : فى الدنيا ﴿ فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ أى : يوم القيامة ، و « عسى » من الله موجبة ، فإن هذا واقع بفضل الله ومنه لا محالة .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار ، وأنه ليس له فى ذلك منازع ولا معقب ، قال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ أى : ما يشاء ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فالأمور كلها خيرها وشرها بيده ، ومرجعها إليه . وقوله : ﴿ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ نفى على أصح القولين ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الاحزاب : ٣٦] وقد اختار ابن جرير أن ﴿ مَا ﴾ هاهنا بمعنى « الذى » ، تقديره : ويختار الذى لهم فيه خيرة . والصحيح أنها نافية ، فإن المقام فى بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار ، وأنه لا نظير له فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

أى : من الأصنام والأنداد ، التى لا تخلق ولا تختار شيئاً .

ثم قال : ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أى : يعلم ما تكن الضمائر ، وما تنطوى عليه السرائر ، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد : ١٠] . وقوله : ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى : هو المنفرد بالإلهية ، فلا معبود سواه ، كما لا رب يخلق ويختار سواه ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ أى : فى جميع ما يفعله هو المحمود عليه ، لعدله وحكمته ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ أى : الذى لا معقب له ، لقهره وغلبته وحكمته ورحمته ﴿وَالِإِلَهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى : جميعكم يوم القيامة فيجازى كل عامل بعمله ، من خير وشر ، ولا يخفى عليه منهم خافية فى سائر الأعمال .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ آيَاتٍ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَظَلْمٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَوْ لَظَلْمٍ تَبْصُرُونَ﴾ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٣﴾

يقول تعالى ممتناً على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار، اللذين لا قوامَ لهم بدونهما . وبين أنه لو جعل الليل دائماً عليهم سرمداً إلى يوم القيامة ، لأضر ذلك بهم ، ولسئمته النفوس وانحصرت منه ، ولهذا قال تعالى : ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ﴾ أى : تبصرون به وتستأنسون بسببه ، ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ .

ثم أخبر أنه لو جعل النهار سرمداً دائماً إلى يوم القيامة ، لأضر ذلك بهم ، ولتعبت الأبدان وكثرت من كثرة الحركات والأشغال ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أى : تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ﴿أَفَلَا تَبْصُرُونَ . وَمِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أى : بكم ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أى : خلق هذا وهذا ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أى : فى الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أى : فى النهار بالسفار والترحال ، والحركات والأشغال . وقوله : ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى : تشكرون الله بأنواع العبادات فى الليل والنهار ، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار ، أو بالنهار استدركه بالليل ، كما قال تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان : ٦٢] ، والآيات فى هذا كثيرة .

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِي الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٧٥﴾

وهذا أيضاً نداء ثان على سبيل التقرير والتوبيخ لمن عبد مع الله إلهاً آخر ، يناديهم الرب - تبارك وتعالى - على رؤوس الأشهاد فيقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أى: فى الدار الدنيا ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ قال مجاهد : يعنى: رسولا ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أى : على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ أى : لا إله غيره ، أى: فلم ينطقوا ولم يحيروا جوابا ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أى: ذهبوا فلم ينفعوهم .

﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَعَثْنَا عَلَيْهِمْ وَعَائِنَهُ مِنَ الْكُفْرِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَنُنَوِّسُ بِالْمَعْصِبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾

عن ابن عباس قال : ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ ، قال : كان ابن عمه . وهكذا قال إبراهيم النخعي ، وقتادة ، وابن جرير ، وغيرهم : أنه كان ابن عم موسى ، عليه السلام . وزعم محمد بن إسحاق بن يسار : أن قارون كان عم موسى ، عليه السلام . قال ابن جرير : وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه ، والله أعلم . وقوله : ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُفْرِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتُنَوِّسُ بِالْمَعْصِبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ أى : ليثقل حملها الفتنام من الناس لكثرتها ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أى : وعظه فيما هو فيه صالح قومه ، فقالوا على سبيل النصح والإرشاد : لا تفرح بما أنت فيه ، يعنون : لا تبطر بما أنت فيه من الأموال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ قال ابن عباس : يعنى : المرحين . وقال مجاهد : يعنى : الأشرين البطرين ، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم .

وقوله : ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أى : استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة ، فى طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات ، التى يحصل لك بها الثواب فى الدار الآخرة . ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أى : بما أباح الله فيها من المأكول والمشرب والملابس والمسكن والمناكح ، فإن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولاهلك عليك حقاً ، ولزورك عليك حقاً ، فأت كل ذى حق حقه ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أى : أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ أى : لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به الأرض ، وتساء إلى خلق الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ .

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقومه ، حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير ﴿قَالَ إِنَّمَا

أُوتِيْتُهُ عَلَيَّ عَلِيمٌ عِنْدِي ﴿٧٩﴾ أى : أنا لا أفترق إلى ما تقولون ، فإن الله تعالى إنما أعطانى هذا المال لعلمه بأنى أستحقه ، ولحبه لى ، فتقديره : إنما أعطيته لعلم الله فى أنى أهل له ، وكقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَيَّ ﴾ [الزمر : ٤٩] أى : على علم من الله بى ، وكقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ أَذْقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَأٍ مَسَّتَهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ [فصلت : ٥٠] أى : هذا أستحقه ؛ ولهذا قال الله تعالى - راداً عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال : ﴿ أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ أى : قد كان من هو أكثر منه مالا وما كان ذلك عن محبة منا له ، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أى : لكثرة ذنوبهم . وقد أجاد فى تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، فإنه قال فى قوله : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَيَّ ﴾ قال : لولا رضا الله عنى ، ومعرفته بفضلى ما أعطانى هذا المال ، وقرأ : ﴿ أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع الله عليه يقول : لولا أنه يستحق ذلك لما أعطى .

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن قارون : إنه خرج ذات يوم على قومه فى زينة عظيمة ، وتجمل باهر ، من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه ، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخارفها وزينتها ، تمنوا أن لو كان لهم مثل الذى أعطى ، قالوا : ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أى : ذو حظ وافر من الدنيا . فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم : ﴿ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أى : جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين فى الدار الآخرة خير مما ترون . كما فى الحديث الصحيح : « يقول الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، واقروا إن شئتم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : ١٧] » (١) .

وقوله : ﴿ وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ : قال السدى : ولا يلقى الجنة إلا الصابرون . كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم . قال ابن جرير : وما يلقى هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا ، الراغبون فى الدار الآخرة . وكأنه جعل ذلك مقطوعاً من كلام أولئك ، وجعله من كلام الله عز وجل وإخباره بذلك .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُتَنَصِّرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَافِّرُ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُكَافِّرُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينتته ، وفخره على قومه وبغيه عليهم ، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض ، كما روى البخارى عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به ، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة » . ثم رواه عن أبى هريرة ، عن النبي ﷺ ، نحوه (١) . وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ : « بينا رجل فيمن كان قبلكم ، خرج في بُرْدَيْنِ أخضرين يختال فيهما ، أمر الله الأرض فأخذته ، فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة » . تفرد به أحمد (٢) ، وإسناده حسن .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَنَصِّرِينَ ﴾ أى : ما أغنى عنه ماله وما جمعه ، ولا خدمه وحشمه . ولا دفعوا عنه نعمة الله وعذابه ونكاله ، ولا كان هو فى نفسه منتصراً لنفسه ، فلا ناصر له من نفسه ، ولا من غيره .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ ﴾ أى : الذين لما رأوه فى زينتته ﴿ قَالُوا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ ، فلما خسف به أصبحوا يقولون : ﴿ وَيُكَافِّرُ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ﴾ أى : ليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه ؛ فإن الله يعطى ويمنع ، ويضيق ويوسع ، ويخفض ويرفع ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة . ﴿ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ﴾ أى : لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا ، كما خسف به ، لانا وددنا أن نكون مثله ﴿ وَيُكَافِّرُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ : يعنون : أنه كان كافراً ، ولا يفلح الكافرون عند الله ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة . وقد اختلف فى معنى ﴿ وَيُكَافِّرُ ﴾ ، فقال بعضهم : معناها : «ويلك اعلم أن » ، وقيل : معناها : ويكاف ، أى : ألم تر أن . قاله قتادة . وقيل : معناها : « وى كان » ، قال ابن جرير : وأقوى الأقوال فى هذا قول قتادة .

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا مَتَّهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذى لا يحول ولا يزول ، جعلها لعبادة المؤمنين

المتواضعين، الذين لا يريدون علواً في الأرض، أى : ترفعاً على خلق الله وتعاضماً عليهم وتجبراً بهم، ولا فساداً فيهم. كما قال عكرمة : العلو: التجبر. وقال سعيد بن جبير: العلو : البغى .
وقال ابن جرير: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ تعظماً وتجبراً ﴿وَلَا فَسَادًا﴾: عملاً بالمعاصى .
وقال علي: إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك صاحبه ، فيدخل في قوله : ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ . وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره ؛ فإن ذلك مذموم ، كما ثبت في الصحيح ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إنه أوحى إلى أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد » (١) ، وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجميل فهذا لا بأس به ، فقد ثبت أن رجلاً قال : يارسول الله ، إنى أحب أن يكون رداى حسناً ونعلى حسنة ، أفمن الكبر ذلك ؟ فقال : « لا ، إن الله جميل يحب الجمال » (٢) .

وقوله : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ أى : يوم القيامة ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ أى : ثواب الله خير من حسنة العبد ، فكيف والله يضاعفه أضعافاً كثيرة ، فهذا مقام الفضل . ثم قال : ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠] وهذا مقام الفضل والعدل .

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهَدْيِ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ ببلاغ الرسالة وتلاوة القرآن على الناس ، ومخبراً له بأنه سيرده إلى معاد، وهو يوم القيامة، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أى : افترض عليك أداءه إلى الناس ﴿لَرَادُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أى : إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك ، كما قال تعالى : ﴿فَلَنَسْتَلْنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلْنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الاعراف : ٦] ، وقال : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة : ١٠٩] ، وقال : ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشَّاهِدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩]. وقال ابن عباس: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ يقول : لرادك إلى الجنة ، ثم سائلك عن القرآن وقال : إلى يوم القيامة. وقال: إلى الموت. ولهذا طُرِّقَ عن ابن عباس ، وفى بعضها : لرادك إلى معدنك من الجنة . وقال مجاهد : يحييك يوم القيامة . وكذا روى عن عكرمة، وعطاء ، وسعيد بن جبير ، وقال الحسن البصرى: أى والله ، إن له لمعاداً ، فيبعثه الله

يوم القيامة ثم يدخله الجنة . وقد روى عن ابن عباس غير ذلك ، كما روى البخارى عن ابن عباس : ﴿لَرَأَدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قال : إلى مكة . وهكذا رواه النسائي وابن جرير (١) . وهكذا روى العوفي ، عن ابن عباس : ﴿لَرَأَدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أى : لرادك إلى مكة كما أخرجك منها . وقال ابن إسحاق ، عن مجاهد فى قوله : ﴿لَرَأَدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ : إلى مولدك بمكة . قال ابن أبى حاتم : وقد روى عن ابن عباس ، ويحيى بن الجزار ، وسعيد بن جبير ، وعطية ، والضحاك ، نحو ذلك .

ووجه الجمع بين هذه الأقوال أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة ، وهو الفتح الذى هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجله ﷺ ، كما فسره ابن عباس بسورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ أنه أجل رسول الله ﷺ نعى إليه ، وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب ، ووافقه عمر على ذلك ، وقال : لا أعلم منها غير الذى تعلم . ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله : ﴿لَرَأَدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ بالموت ، وتارة بيوم القيامة الذى هو بعد الموت ، وتارة بالجنة التى هى جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين : الجن والإنس ، ولأنه أكمل خلق الله ، وأفصح خلق الله ، وأشرف خلق الله على الإطلاق .

وقوله : ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى : قل محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم : ربي أعلم بالمهتدى منكم ومنى ، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار ، ولمن تكون العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى مذكراً لنبيه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذ أرسله إليهم : ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أى : ما كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾ أى : إنما نزل الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك ، فإذا منحك بهذه النعمة العظيمة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾ أى : معيناً ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ ، ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم . ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ أى : لا تتأثر لمخالفتهم لك وصددهم الناس عن طريقك ، لا تلوى على ذلك ولا تباله ؛ فإن الله مُعَلِّمُ كَلِمَاتِكَ ، ومؤيدُ دينك ، ومظهر ما أرسلت ، به على سائر الأديان ؛ ولهذا قال : ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أى : إلى عبادة ربك وحده لا شريك له ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

وقوله : ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى : لا تليق العبادة إلا له ولا تتبغى الإلهية إلا لعظمته ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ : إخبار بأنه الدائم الباقي الحى القيوم ، الذى تموت الخلائق ولا يموت ، كما قال تعالى : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن : ٢٦ ، ٢٧] ، فعبر بالوجه عن الذات ، وهكذا قوله هاهنا : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾

أى: إلا إياه وقد ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد:

ألا كلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ » (١)

وقال مجاهد والثورى فى قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أى: إلا ما أريد به وجهه ، وهذا القول لا ينافى القول الأول ، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد بها وجه الله عز وجل من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة . والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وهالكة وزائلة إلا ذاته تعالى ، فإنه الأول الآخر الذى هو قبل كل شىء وبعد كل شىء .
وقوله: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ أى: الملك والتصرف ، ولا معقب لحكمه ﴿وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى: يوم معادكم ، فيجزىكم بأعمالكم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

تفسير سورة العنكبوت

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ١ ﴾ اللَّهُمَّ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَتْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿ ٢ ﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿ ٣ ﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿ ٤ ﴾

ربع

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة « البقرة » .

وقوله : ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ استفهام إنكار ، ومعناه : أن الله سبحانه وتعالى لا بد أن يبتلى عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان ، كما جاء في الحديث الصحيح : « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمتل فالأمتل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء » (١) وهذه الآية كقوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٢] ، وقال في البقرة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبِينَ ﴾ [البقرة : ٢١٤] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ أى : الذين صدقوا فى دعواهم الإيمان من هو كاذب فى قوله ودعواه . والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون . وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة .

وقوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى : لا يحسن الذين لم يدخلوا فى الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان ، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هذا وأطم ؛ ولهذا قال : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ﴾ أى : يفوتونا ، ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى : بشس ما يظنون .

﴿ ٥ ﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّجِيحُ الْعَلِيمُ ﴿ ٦ ﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿ ٧ ﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ ٨ ﴾

(١) المسند (١٤٨١) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » والترمذى (٢٣٩٨) .

(٢) فى المخطوطة : « أن تركوا » وهو خطأ ، وإنما موضعها الآية (١٦) من سورة التوبة .

يقول تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ ﴾ أى : فى الدار الآخرة ، وعمل الصالحات رجاء ما عند الله من الثواب الجزيل ، فإن الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله كاملاً موفوراً ، فإن ذلك كائن لا محالة ؛ لأنه سميع الدعاء ، بصير بكل الكائنات ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ ، كقوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ [فصلت : ٤٦] أى : من عمل صالحاً فإنما يعود نفع عمله على نفسه ، فإن الله غنى عن أفعال العباد ، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل منهم ، ما زاد ذلك فى ملكه شيئاً ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ . قال الحسن البصرى : إن الرجل ليجاهد ، وما ضرب يوماً من الدهر بسيف .

ثم أخبر أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم من إحسانه وبره بهم يجازى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء ، وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذى عملوا ، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ، فيقبل القليل من الحسنات ، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ويجزى على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يضاعفها وَيؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ [النساء : ٤٠] ، وقال هاهنا : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾

يقول تعالى أمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده، فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإسفاق؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَأَخْفِصْ لَهُمَا جَنَاحَ الدُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٣ ، ٢٤] .

ومع هذه الوصية بالرفقة والرحمة والإحسان إليهما ، فى مقابلة إحسانهما المتقدم ، قال : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ أى : وإن حرضا عليك أن تتابعهما فى دينهما إذا كانا مشركين ، فإياك وإياهما ، لا تطعهما فى ذلك ، فإن مرجعكم إلى يوم القيامة ، فأجزيك بإحسانك إليهما، وصبرك على دينك ، وأحشرك مع الصالحين لا فى زمرة والديك ، وإن كنت أقرب الناس إليهما فى الدنيا ، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب ، أى : حباً دينياً ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾ . وروى الترمذى عن سعد ، قال : نزلت فى أربع آيات . فذكر قصة ، وقالت أم سعد : أليس قد

أمرك الله بالبر ؟ والله لا أطعمُ طعاماً ولا أشربُ شرباً حتى أموت أو تكفر ، قال : فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شَجَرُوا فاهها ، فأنزل الله ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ ﴾ الآية. وهذا الحديث رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، وقال الترمذى : حسن صحيح (١) .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾
﴿ وَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَأَمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من المكذبين الذين يدعون الإيمان بالسنتهم ، ولم يثبت الإيمان فى قلوبهم ، بأنهم إذا جاءتهم فتنة ومحنة فى الدنيا ، اعتقدوا أن هذا من نعمة الله تعالى بهم ، فارتدوا عن الإسلام؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ قال ابن عباس : يعنى : فتنته أن يرتد عن دينه إذا أُوذِيَ فى الله . وكذا قال غيره من علماء السلف . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعِدُّ اللَّهُ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الحج : ١١] .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ أى : ولئن جاء نصر قريب من ربك - يا محمد - وفتح ومغانم، ليقولن هؤلاء لكم : ﴿ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ أى : كنا إخوانكم فى الدين ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْتَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء : ١٤١] ، وقال تعالى : ﴿ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَّ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ [المائدة : ٥٢] .

وقال تعالى مخبراً عنهم هاهنا : ﴿ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : أو ليس الله بأعلم بما فى قلوبهم ، وما نُكِنَتْ ضمائرهم ، وإن أظهروا لكم الموافقة ؟

وقوله : ﴿ وَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَأَمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ أى : وليختبرن الله الناس بالضراء والسراء ؛ لتمييز هؤلاء من هؤلاء ، ومن يطيع الله فى الضراء والسراء ، إنما يطيعه فى حظ نفسه ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَبِّئُوهُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُغُوا أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] ، وقال تعالى بعد وقعة أحد ، التى كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ الآية [آل عمران : ١٧٩] .

(١) المسند (١٥٦٧) ومسلم (١٧٤٨ / ٣٣) والترمذى (٣٠٧٩) وأبو داود (٢٧٤٠) وسعد : هو ابن أبى وقاص . وقوله : « شجروا فاهها » : الشَّجْرُ : مَفْتَحُ الفم ، والمعنى : ادخلوا فى مفتح فمها عودا حتى يفتحوه به . انظر : النهاية لابن الأثير ، مادة « شجر » .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْتَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفار قريش : أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى : ارجعوا عن دينكم إلى ديننا ، واتبعوا سبيلنا ﴿ وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾ أى : وآثامكم - إن كانت لكم آثام فى ذلك - علينا وفى رقابنا ، كما يقول القائل : « افعِلْ هذا وخطيبتك فى رقبتي » . قال الله تكذيباً لهم : ﴿ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى : فيما قالوه : إنهم يحملون عن أولئك خطاياهم ، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [فاطر : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يُصْرُونَهُمْ ﴾ [المعارج : ١٠ ، ١١] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ : إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة ، أنهم يوم القيامة يحملون أوزار أنفسهم ، وأوزاراً آخر بسبب من أضلوا من الناس ، من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً ، كما قال تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴾ [النحل : ٢٥] . وفى الصحيح : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً » (١) وفى الصحيح : « ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ؛ لأنه أول من سنَّ القتل » (٢) . وقوله : ﴿ وَلَيَسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى : يكذبون ويختلقون من البهتان . وفى الصحيح : « إن الرجل لياتى يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال وقد ظلم هذا ، وأخذ مال هذا ، وأخذ من عرض هذا ، فيأخذ هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإذا لم يبق له حسنة ، أخذ من سيئاتهم ، فطرح عليه » (٣) .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَجْنَبْنَهُ وَاصْحَبْ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

هذه تسليية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ يخبره عن نوح ، عليه السلام ، : أنه مكث فى قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً عن الحق ، وإعراضاً عنه وتكذيباً له ، وما آمن معه منهم إلا قليل ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ أى : بعد هذه المدة الطويلة ما نجح فيهم البلاغ والإنذار ، فانت - يا محمد - لا تأسف على من كفر بك من قومك ، ولا تحزن عليهم ؛

(١) تقدم تخريجه عند الآية (٢) من المائدة .

(٢) تقدم تخريجه عند الآية (٣٠) من المائدة .

(٣) مسلم (٢٥٨١ / ٩٩) .

فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وييده الأمر وإليه ترجع الأمور ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] ، واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك ، ويدل عدوك ، ويكتبهم ويجعلهم أسفل السافلين . قال ابن عباس قال : بعث نوح وهو لأربعين سنة ، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وعاش بعد الطوفان ستين عاما ، حتى كثر الناس وفشوا . وظاهر السياق من الآية أنه مكث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاما . وعن مجاهد قال : قال لى ابن عمر : كم لبث نوح في قومه ؟ قال : قلت : ألف سنة إلا خمسين عاما . قال : فإن الناس لم يزالوا في نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَجْنِبْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ ﴾ أى : الذين آمنوا بنوح عليه السلام . وقد تقدم ذكر ذلك مفصلا فى سورة « هود » ، وتقدم تفسيره بما أغنى عن إعادته . وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ أى : وجعلنا تلك السفينة باقية ، إما عينها كما قال قتادة : إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي ، أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق ، كيف نجّاهم من الطوفان ، كما قال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ . وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَدُونَ . إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾ [يس : ٤١ - ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَعَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِبَهَا أذُنٌ وَعَیَّةٌ ﴾ [الحاقة : ١١] ، [١٢] ، وقال هاهنا : ﴿ فَأَجْنِبْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

﴿ وَإِذْ هَبْنَا دُورَهُمْ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ ١٦ ﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِنَّ إِلَهًا لِرُجْعَتِهِمْ ﴿ ١٧ ﴾ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبْتُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿ ١٨ ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الخنفاء : أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والإخلاص له فى التقوى ، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له ، وتوحيده فى الشكر ، فإنه المشكور على النعم ، لا يسدى لها غيره ، فقال لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾ أى : اخلصوا له العبادة والخوف ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير فى الدنيا والآخرة ، واندفع عنكم الشر فى الدنيا والآخرة . ثم أخبرهم أن الأصنام التى يعبدونها والأوثان ، لا تضر ولا تنفع ، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء ، سميتموها آلهة ، وإنما هى مخلوقة مثلكم . هكذا روى العوفى عن ابن عباس . وبه قال مجاهد ، والسدى . وروى الوالى ، عن ابن عباس : وتصنعون إفكا ، أى : تحتونها أصناماً . وبه قال مجاهد - فى رواية - وعكرمة ، والحسن ، وقاتدة وغيرهم ، واختاره ابن جرير .

وهى لا تملك لكم رزقا ﴿ فَاتَّبِعُوا عِنْدَ اللَّهِ الرَّزْقَ ﴾ وهذا أبلغ فى الحصر، كقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] ، ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ [التحريم : ١١] ؛ ولهذا قال : ﴿ فَاتَّبِعُوا ﴾ أى فاطلبوا ﴿ عِنْدَ اللَّهِ الرَّزْقَ ﴾ أى : لا عند غيره ، فإن غيره لا يملك شيئاً ، ﴿ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ ﴾ أى : كلوا من رزقه واعبدوه وحده ، واشكروا له على ما أنعم به عليكم ، ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى : يوم القيامة ، فيجازى كل عامل بعمله .

وقوله : ﴿ وَإِنْ تَكْذَبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَّمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ أى : فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال فى مخالفة الرسل ، ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ يعنى : إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة ، والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايِنِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الخليل، عليه السلام ، أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذى ينكرونه ، بما يشاهدونه فى أنفسهم من خلق الله إياهم ، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين ، فالذى بدأ هذا قادر على إعادته ؛ فإنه سهل عليه يسير لديه . ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما فى الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء : السماوات وما فيها من الكواكب النيرة : الثوابت ، والسيارات ، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال ، وأودية وبرارى وقفار ، وأشجار وأنهار ، وثمار وبحار ، كل ذلك دال على حدوثها فى أنفسها ، وعلى وجود صانعها ، الذى يقول للشئ : كن ، فيكون ؛ ولهذا قال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ، كقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُبْدِئُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] ، وكقوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِن غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَئِي يُوقِنُونَ ﴾ [الطور : ٣٥ ، ٣٦] . وقوله : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ﴾ أى : هو الحاكم المتصرف ، الذى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فله الخلق والأمر ، مهما فعل فعُدل ؛ لأنه المالك الذى لا يظلم مثقال ذرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ أى :

ترجعون يوم القيامة .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ أى : لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه ، بل هو القاهر فوق عباده ، وكل شيء خائف منه ، فقير إليه ، وهو الغنى عما سواه ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكْفُرُوا بِالْمَعَادِ ﴾ أولئك يسؤوا من رحمتي ﴿ أى : لا نصيب لهم فيها ﴾ وأولئك لهم عذاب أليم ﴿ أى : موجع فى الدنيا والآخرة .

﴿ فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِثْلَهُ مِثْلَهُ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴾ (١٥)

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم فى كفرهم وعنادهم ومكابرتهم ، ودفعهم الحق بالباطل : أنهم ما كان لهم جواب بعد مقالة إبراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ وذلك لأنهم قام عليهم البرهان ، وتوجهت عليهم الحجة ، فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم ﴿ قَالُوا ابْنَاهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ . فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ [الصفات : ٩٧ ، ٩٨] ، وذلك أنهم حشدوا فى جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة ، وحوطوا حولها ، ثم أضرموها فيها النار ، فارتفع لها لهب إلى عنان السماء ، ولم توقد نار قط أعظم منها ، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه فى كفة المنجنيق ، ثم قذفوا به فيها ﴿ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ أى : سلمه منها ، بأن جعلها عليه برداً وسلاماً ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِثْلَهُ مِثْلَهُ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يقول لقومه مقرعاً لهم وموبخاً على سوء صنيعهم ، فى عبادتهم الأوثان : إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها فى الدنيا ، صداقة وألفة منكم ، بعضكم لبعض فى الحياة الدنيا . وهذا على قراءة من نصب ﴿ مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ ﴾ ، على أنه مفعول له ، وأما على قراءة الرفع فمعناه : إنما اتخذكم هذا يحصل لكم المودة فى الدنيا فقط ، ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ، ينعكس هذا الحال ، فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضةً وشنائاً ، ف ﴿ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ أى : تتجاهدون ما كان بينكم ، ﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ أى : يلعن الاتباع المتبوعين ، والمتبوعون الاتباع ، ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الاعراف : ٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٦٧] ، وقال هاهنا : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴾ أى : ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار ، وما لكم من ناصر ينصركم ، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله . وهذا حال الكافرين ، فأما المؤمنون فبخلاف ذلك .

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿١١﴾
 وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْكَتَّابَ وَعَآيَتِنَا أَجْرًا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّمَا
 فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم : أنه آمن له لوط ، يقال : إنه ابن أخى إبراهيم ، يعنى : ولم يؤمن به من قومه سواه ، وسارة امرأة الخليل . لكن يقال : كيف الجمع بين هذه الآية ، وبين الحديث الوارد فى الصحيح (١) : أن إبراهيم حين مرَّ على ذلك الجبار ، فسأل إبراهيم عن سارة : ما هى منه ؟ فقال : أختى ، ثم جاء إليها فقال لها : إنى قد قلت له : « إنك : أختى » ، فلا تكذبنى ، فإنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيرك وغيرى ، فأنت أختى فى الدين . وكان المراد من هذا - والله وأعلم - أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيرى وغيرك ، فإن لوطاً ، عليه السلام ، آمن به من قومه ، وهاجر معه إلى بلاد الشام . وقوله : ﴿ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ : يحتمل عود الضمير فى قوله : ﴿ وَقَالَ ﴾ ، على لوط ، لأنه أقرب المذكورين ، ويحتمل عوده إلى إبراهيم - قال ابن عباس ، والضحاك : هو المكنى عنه بقوله : ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ أى : من قومه .

ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم ، ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : له العزة ولرسوله وللمؤمنين به ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ ، فى أقواله وأفعاله وأحكامه القدريّة والشريعة . روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنها ستكون هجرة بعد هجرة ، فينحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم ، لا يبقى فى الأرض إلا شرار أهلها ، فتلفظهم أرضوهم ، تقدّروهم نفس الرحمن ، تحشرهم النار مع القردة والخنازير فتبيت معهم إذا باتوا ، وتقبّل معهم إذا قالوا ، وتاكل منهم من تخلف » . قال : و سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيخرج أناس من أمتى من قبل المشرق ، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، كلما خرج منهم قرن قطع ، كلما خرج منهم قرن قطع » حتى يخرج الدجال فى بقيتهم « (٢) .

وقوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٤٩] أى : إنه لما فارق قومه أقرّ الله عينه بوجود ولد صالح نبى وولد له ولد صالح فى حياة جده . وكذلك قال الله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ [الانبياء : ٧٢] أى : زيادة ، كما قال : ﴿ قَبَشْنَاَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ أى : ويولد لهذا الولد ولد فى حياتكما ، تقر به عينكما . وكون يعقوب ولد لإسحاق نص عليه

(١) مسلم (٢٣٧١ / ١٥٤) .

(٢) المسند (٦٨٧١ ، ٦٩٥٢) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » . وانظر تفصيل ذلك هناك .

القرآن ، وثبتت به السنة النبوية ، قال الله : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٣] ، وفي الصحيحين : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » (١) .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ : هذه خلعة سنية عظيمة ، مع اتخاذ الله إياه خليلاً ، وجعله للناس إماماً ، أن جعل في ذريته النبوة والكتاب ، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام ، إلا وهو من سلالة ، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، حتى كان آخرهم عيسى ابن مريم ، فقام في ملتهم مبشراً بالنبي العربي القرشي الهاشمي ، خاتم الرسل على الإطلاق ، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة ، الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء ، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم ، عليهم السلام : ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه ، عليه أفضل الصلاة والسلام .

وقوله : ﴿ وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أى : جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة ، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهنيئ والمنزل الرحب ، والمورد العذب ، والزوجة الحسنة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن ، فكل أحد يحبه ويتولاه ، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم ، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [النجم : ٣٧] ، أى : قام بجميع ما أمر به ، وكمل طاعة ربه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠ - ١٢٢] .

﴿ وَلَوْ كُنَّا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَنَا تُؤْمِنُونَ فَادِّعُوا مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٨) أَيْنَكُمْ لَنَا تُؤْمِنُونَ الرِّجَالُ وَقَطَّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى مخيراً عن نبيه لوط ، عليه السلام ، أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم ، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال ، في إتيانهم الذكران من العالمين ، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم وكانوا مع هذا يكفرون بالله ، ويكذبون رسوله ويخالفون ويقطعون السبيل ، أى : يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ أى : يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها ، لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك ، فمن قائل : كانوا يأتون بعضهم بعضاً في الملا ، قاله

(١) البخارى (٤٦٨٨) ولم يعزه صاحب التحفة (٥ / ٤٥٧) إلا للبخارى .

مجاهد . ومن قائل : كانوا يتضارطون ويتضاحكون ؛ قالته عائشة ، والقاسم . ومن قائل : كانوا يناطحون بين الكباش ، ويناقرون بين الديوك ، وكل ذلك كان يصدر عنهم ، وكانوا شراً من ذلك . وروى الإمام أحمد عن أم هانئ قالت : سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل : ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ ، قال : « يحذفون أهل الطريق ، ويسخرون منهم ، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه » . ورواه الترمذى ، ثم قال : هذا حديث حسن .

وقوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم ؛ ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال : ﴿ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ ﴿٢١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِوَى يَوْمِ وَصَافٍ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٢٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٥﴾

لما استنصر لوط ، عليه السلام ، الله عليهم ، بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم ، عليه السلام ، في هيئة أضياف ، فجاءهم بما ينبغى للضيف ، فلما رأى أنه لا همة لهم إلى الطعام نكروهم وأوجس منهم خيفة ، فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة - وكانت حاضرة - فتعجبت من ذلك ، كما تقدم بيانه في سورة « هود » و « الحجر » . فلما جاءت إبراهيم بالبشرى ، وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط ، أخذ يدافع لعلهم يُنظرون ، لعل الله أن يهديهم ، ولما قالوا : ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ قال : ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أى : من الهالكين ؛ لأنها كانت تماثلهم على كفرهم وبيعهم ودبرهم . ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شباب حسان ، فلما رأهم كذلك ﴿ سِوَى بِهِمْ وَصَافٍ بِهِمْ ذُرْعًا ﴾ أى : اغتم بأمرهم ، إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه ، وإن لم يصفهم خشى عليهم منهم ، ولم يعلم بأمرهم فى الساعة الراهنة ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ . إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ ، وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عتآن السماء ، ثم قلبها عليهم . وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة ، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذابا يوم المعاد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً ﴾ أى : واضحة ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ، كما قال : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨] .

﴿ وَإِلَىٰ مَدِينَةِٰ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُورُوا عِبَادُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب، عليه السلام، أنه أنذر قومه أهل مدين، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة، فقال: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ معناه: واخشوا اليوم الآخر، وهذا كقوله تعالى: ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ [المتحة: ٦]. ثم نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وهو السعى فيها والبنى على أهلها، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان، ويقطعون الطريق على الناس، هذا مع كفرهم بالله ورسوله، فأهلكهم الله برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها، وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها، إنه كان عذاب يوم عظيم. وقوله: ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴾ قال قتادة: ميتين. وقال غيره: قد ألقى بعضهم على بعض.

﴿ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقُرُونِ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسول كيف أبادهم وتنوع في عذابهم، وأخذهم بالانتقام منهم؛ فعاد قوم هود، وكانوا يسكنون الأحقاف وهي قريبة من حضرموت بلاد اليمن، وثمود قوم صالح، وكانوا يسكنون الحجر قريباً من وادي القرى. وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً، وتمر عليها كثيراً. وقارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة. وفرعون ملك مصر في زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله ورسوله، ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ ﴾ أي: كانت عقوبته بما يناسبه ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾، وهم عاد، وذلك أنهم قالوا: من أشد منا قوة؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد، عاتية شديدة الهبوب جداً، تحمل عليهم حصباء الأرض فتقلبها عليهم، وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم إلى عتات السماء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى بدنأ بلا رأس، كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾، وهم ثمود، قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة، من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة، مثل ما سألوا سواء بسواء، ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم، وتهددوا نبي الله صالحاً ومن آمن معه، وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم،

فجاءتهم صبيحة أخدمت الأصوات منهم والحركات . ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ وهو قارون الذى طغى وبغى وعتا ، وعصى الرب الأعلى ، ومشى فى الأرض مرحاً ، وفرح ومرح وتاه بنفسه ، واعتقد أنه أفضل من غيره ، واختال فى مشيته ، فخسف الله به وبداره الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَقْنَا ﴾ ، وهم فرعون ووزيره هامان ، وجنوده عن آخرهم ، أغرقوا فى صبيحة واحدة ، فلم ينج منهم مخبر ، ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ ﴾ أى : فيما فعل بهم ، ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أى : إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقا بما كسبت أيديهم . وهذا الذى ذكرناه ظاهر سياق الآية ، وهو من باب اللف والنشر ، وهو أنه ذكر الأمم المكذبة ، ثم قال : ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ ﴾ الآية ، أى : من هؤلاء المذكورين .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله ، يرجون نصرهم ورزقهم ، ويتمسكون بهم فى الشدائد ، فهم فى ذلك كبيت العنكبوت فى ضعفه ووهنه فليس فى أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت ، فإنه لا يجدى عنه شيئاً ، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء ، وهذا بخلاف المسلم المؤمن لله ، وهو مع ذلك يحسن العمل فى اتباع الشرع فإنه مستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، لقوتها وثباتها . ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به : إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ، ويعلم ما يشركون به من الأنداد ، وسيجزئهم وصفهم إنه حكيم عليم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ أى : وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون فى العلم المتضلعون منه . روى الإمام أحمد عن عمرو بن العاص ، قال : عَقَلْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَلْفَ مَثَلٍ (١) . وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص - رضى الله عنه - حيث يقول الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ .

﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ أَتَى مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْبِرَ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة : أنه خلق السموات والأرض بالحق ، يعنى : لا

(١) المسند (٤ / ٢٠٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (٨ / ٢٦٧) : « إسناده حسن » .

على وجه العبث واللعب ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه : ١٥] ، ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ ﴾ [النجم : ٣١] . وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية .

ثم قال تعالى أمرا رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن، وهو قراءته وإبلاغه للناس : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ . يعنى : أن الصلاة تشتمل على شيئين : على ترك الفواحش والمنكرات ، أى : إن مواظبتها تحمل على ترك ذلك . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إن فلانا يصلى بالليل فإذا أصبح سرق ؟ فقال : « إنه سينهاه ما يقول » (١) . وتشتمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى ، وهو المطلوب الأكبر ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أى : أعظم من الاول ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ أى : يعلم جميع أقوالكم وأعمالكم .

وقال أبو العالية فى قوله : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ قال : إن الصلاة فيها ثلاث خلال ، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة : الإخلاص ، والخشية ، وذكر الله . فالإخلاص يأمره بالمعروف ، والخشية تنهاه عن المنكر ، وذكر القرآن يأمره وينهاه . وقال ابن عَوْنُ الأنصارى : إذا كنت فى صلاة فأنت فى معروف ، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر ، والذى أنت فيه من ذكر الله أكبر . وقال حماد بن أبى سليمان : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ يعنى : ما دمت فيها . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ، يقول : ولذكر الله لعباده أكبر ، إذا ذكروه من ذكرهم إياه . وكذا روى غير واحد عن ابن عباس . وبه قال مجاهد ، وغيره . وعن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ، قال : لها وجهان ، قال : ذكر الله عندما حرمه ، قال : وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه . وقال ابن جرير عن عبد الله بن ربيعة قال : قال لى ابن عباس : هل تدرى ما قوله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ ؟ قال : قلت : نعم . قال : فما هو ؟ قلت : التسبيح والتحميد والتكبير فى الصلاة ، وقراءة القرآن ، ونحو ذلك . قال : لقد قلت قولاً عجباً ، وما هو كذلك ، ولكنه إنما يقول : ذكر الله إياكم عند ما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه ، أكبر من ذكركم إياه . وقد روى هذا من غير وجه عن ابن عباس . وروى أيضاً عن ابن مسعود ، وأبى الدرداء ، وسلمان الفارسى ، وغيرهم . واختاره ابن جرير .

﴿ وَلَا تَجْدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا عَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (١)

قال قتادة وغير واحد : هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولم يبق معهم مجادلة ، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف . وقال آخرون : بل هى باقية أو محكمة لمن أراد الاستبصار منهم

(١) المسند (٢ / ٤٤٧) وقال الهيثمى فى الزوائد (٢ / ٢٦١) : « رجاله رجال الصحيح » .

فى الدين ، فيجادل بالتي هى أحسن ، ليكون أنجع فيه ، كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه : ٤٤] . وهذا القول اختاره ابن جرير ، وحكاه عن ابن زيد . وقوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ أى : حادوا عن وجه الحق ، وعموا عن واضح المحجة ، وعاندوا وكابروا ، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد ، ويقاثلون بما يردعهم ويمنعهم ، قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ بَصُرِهِ وَسُلْطَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد : ٢٥] . قال مجاهد : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ ، يعنى : أهل الحرب ، ومن امتنع منهم عن أداء الجزية .

وقوله : ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ ﴾ يعنى : إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه ، فهذا لا تقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً ، ولا على تصديقه ، فلعله أن يكون باطلا ، ولكن نؤمن به إيمانا مجملا معلقا على شرط وهو أن يكون منزلا ، لا مبدلاً ولا مؤولاً . وروى البخارى عن أبى هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم ، وإلهانا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » : وهذا الحديث تفرد به البخارى (١) .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبِطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْتَظِرُ فِي سُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

قال ابن جرير : يقول الله تعالى : كما أنزلنا الكتب على من قبلك - يا محمد - من الرسل ، كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب . وهذا الذى قاله حسن ومناسبة وارتباط جيد .

وقوله : ﴿ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أى : الذين أخذوه فتلوه حتى تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء ، كعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي ، وأشباههما . وقوله : ﴿ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ يعنى : العرب من قريش وغيرهم ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ﴾ أى : ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ، ويغشى ضوء الشمس بالوصائل ، وهيهات . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ أى : قد لبثت فى قومك - يا محمد - ومن قبل أن تأتى بهذا القرآن عمراً لا تقرأ كتابا ولا تحسن الكتابة ، بل كل أحد من قومك

وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب . وهكذا صفته في الكتب المتقدمة ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ الآية [الاعراف : ١٥٧] .

وقوله : ﴿ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أى : لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول : إنما تعلم هذا من كُتُب قبله ماثورة عن الأنبياء ، مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان : ٥] ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٦] ، وقال هاهنا : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ أى : القرآن آيات بينة واضحة فى الدلالة على الحق ، أمرا ونهيا وخبرا ، يحفظه العلماء ، يسره الله عليهم حفظاً وتلاوةً وتفسيراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر : ١٧] ، وقال رسول الله ﷺ : « ما من نبي إلا وقد أعطى ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا » (١) . وفى حديث عياض بن حمار ، فى صحيح مسلم : « يقول الله تعالى : إني مبتليك ومبتل بك ، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء ، تقرؤه نائماً ويقظان » .

أى : لو غسل الماء المحل المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك المحل ، كما جاء فى الحديث الآخر : « لو كان القرآن فى إهاب ، ما أحرقته النار » لأنه محفوظ فى الصدور ، ميسر على الألسنة ، مهيمن على القلوب ، معجز لفظاً ومعنى ؛ ولهذا جاء فى الكتب المتقدمة ، فى صفة هذه الأمة : « أناجيلهم فى صدورهم » .

واختار ابن جرير أن المعنى فى قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ ، بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتاباً ولا تخطه يمينك ، آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب . ونقله عن قتادة ، وابن جرير . وحكى الأول عن الحسن البصرى فقط . قلت : وهو الذى رواه العوفى عن عبد الله بن عباس ، وقاله الضحاك ، وهو الأظهر ، والله أعلم . وقوله : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ أى : ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون ، أى : المعتدون المكابرون ، الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَطْلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات - يعنون - ترشدكم إلى أن محمداً رسول الله كما جاء صالح بناقته، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد : ﴿ إِنَّمَا الآياتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى : إنما أمر ذلك إلى الله، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم؛ لأن ذلك سهل عليه ، يسير لديه، ولكنه يعلم منكم أنما قصدكم التعنت والامتحان، فلا يجيبكم إلى ذلك، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ [الإسراء : ٥٩] . وقوله : ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى : إنما بعثت نذيراً لكم بين النذارة فعلى أن أبلغكم رسالة الله و ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ [الكهف : ١٧] ، وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] .

ثم قال تعالى مبينا كثرة جهلهم ، وسخافة عقلمهم ، حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد فيما جاءهم به - وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، الذى هو أعظم من كل معجزة ، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته ، بل عن معارضة عشر سور من مثله ، بل عن معارضة سورة منه - فقال تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : أو لم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم، الذى فيه خبر ما قبلهم، ونبا ما بعدهم ، وحكم ما بينهم ، وأنت رجل أسمى لا تقرأ ولا تكتب ، ولم تخالط أحدا من أهل الكتاب، فجتتهم بأخبار ما فى الصحف الأولى ، ببيان الصواب مما اختلفوا فيه ، وبالحق الواضح البين الجلى ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : ١٩٧] وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ (١) مِنْ رَبِّهِ أَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴾ [طه : ١٣٣] . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة » . أخرجاه من حديث الليث (٢) . وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : إن فى هذا القرآن ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ أى : بياناً للحق ، وإزاحة للباطل ﴿ وَذِكْرَىٰ ﴾ بما فيه حلول النقمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ أى : هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب، ويعلم ما أقول لكم من إخبارى عنه، بأنه أرسلنى، فلو كنت كاذبا عليه لانتقم منى ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤ - ٤٧] ، وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به ، ولهذا أيدنى بالمعجزات الواضحات ، والدلائل القاطعات . ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : لا تخفى عليه خافية ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أى : يوم معادهم سيجزيهم

(١) فى المخطوطة : « وقالوا لولا أنزل عليه آية » وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه .

(٢) مضى تخريجه فى الصفحة السابقة .

على ما فعلوا، ويقابلهم على ما صنعوا ، من تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل ، كذبوا برسول الله مع قيام الأدلة على صدقهم ، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل ، سيجازيهم على ذلك ، إنه حكيم عليهم .

﴿ وَسَتَعْلَمُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ يَسْتَعْلَمُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٧﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم ، وبأس الله أن يحل عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الانفال : ٣٢] ، وقال هاهنا : ﴿ وَسَتَعْلَمُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أى : لولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه . ثم قال ﴿ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً ﴾ أى : فجأة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . يَسْتَعْلَمُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ أى : يستعجلون بالعذاب ، وهو واقع بهم لا محالة . قال شعبة ، عن سماك ، عن عكرمة قال في قوله : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ ، قال : البحر .

ثم قال عز وجل : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الاعراف : ٤١] ، وقال تعالى : ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر : ١٦] ، وقال تعالى : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ [الانبياء : ٣٩] ، فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم ، وهذا أبلغ في العذاب الحسى .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ ذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ تهديد وتقريع وتوبيخ ، وهذا عذاب معنوى على النفوس ، كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٨ ، ٤٩] ، وقال : ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ . أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ . اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور : ١٣ - ١٦]

﴿ يَبْعَادَى الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِ ارْتَضَىٰ وَسِيعَةٌ فَاِتَنَىٰ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ اِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا يُجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذى لا يقدرين فيه على إقامة الدين ،

إلى أرض الله الواسعة، حيث يمكن إقامة الدين، بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُون﴾. ولهذا ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها ، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ، ليؤمنوا ، على دينهم هناك ، فوجدوا هناك خير المنزلين، أصحمة النجاشي ملك الحبشة، رحمها الله ، آواهم وأيدهم بنصره ، وجعلهم سيوما ببلاده . ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة .

ثم قال تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أي : أينما كنتم يدرككم الموت ، فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله، فهو خير لكم ، فإن الموت لا بد منه ، ولا محيد عنه ، ثم إلى الله المرجع ، فمن كان مطيعا له جازاه أفضل الجزاء ، ووفاه أتم الثواب ؛ ولهذا قال : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي : لنسكنهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار، على اختلاف أصنافها ، من ماء وخمر ، وعسل ولبن ، يصفونها ويجرونها حيث شاؤوا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي : ماكين فيها أبدا لا يبغون عنها حولا ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ : نعمت هذه الغرف أجرا على أعمال المؤمنين، ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي : على دينهم ، وهاجروا إلى الله ، ونابذوا الأعداء ، وفارقوا الأهل والأقرباء ، ابتغاء وجه الله ، ورجاء ما عنده وتصديق موعوده ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في أحوالهم كلها ، في دينهم ودنياهم .

ثم أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا ، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب ، فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الاقطار والأمصار؛ ولهذا قال : ﴿وَكَايِنٍ مِنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي : لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تدخر شيئا لغد ، ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي : الله يقيض لها رزقها على ضعفها ، ويسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه ، حتى الذر في قرار الأرض ، والطير في الهواء والحيتان في الماء، قال الله تعالى : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود : ٦] . وقوله تعالى : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي : السميع لاقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم .

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿١١﴾ **اللَّهُ يَسِطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**

﴿١٢﴾ **وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** ﴿١٣﴾

يقول تعالى مقرا أنه لا إله إلا هو ؛ لأن المشركين - الذين يعبدون معه غيره - معترفون بأنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر، وتسخير الليل والنهار ، وأنه الخالق الرازق لعباده، ومقدر آجالهم، واختلافها واختلاف أرزاقهم ففاوت بينهم، فمنهم الغنى والفقير ،

وهو العليم بما يصلح كلا منهم ، ومن يستحق الغنى بمن يستحق الفقر ، فذكر أنه المستبد بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها ، فإذا كان الأمر كذلك فلم يُعبد غيره ؟ ولم يتوكل على غيره ؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته ، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية . وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تليبتهم: « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك » .

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَخَسَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿١٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ، وأنها لا دوام لها ، وغاية ما فيها لهو ولعب : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ أى : الحياة الدائمة الحق الذى لا زوال لها ولا انقضاء ، بل هى مستمرة أبد الآباد ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : لآثروا ما يقضى على ما يفنى . ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطراب يدعونه وحده لا شريك له ، فهلا يكون هذا منهم دائماً ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ، كقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهِهَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ [الإسراء : ٦٧] . وقال هاهنا : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ . وقد ذكر محمد بن إسحاق ، عن عكرمة بن أبى جهل : أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فارأى منها ، فلما ركب فى البحر ليذهب إلى الحبيشة ، اضطربت بهم السفينة ، فقال أهلها : يا قوم ، اخلصوا لربكم الدعاء ، فإنه لا ينجى ههنا إلا هو . فقال عكرمة : والله إن كان لا ينجى فى البحر غيره ، فإنه لا ينجى غيره فى البر أيضاً ، اللهم لك على عهد لئن خرجت لأذهبن فلاضعن يدي فى يد محمد فلاجدنه رؤوفاً رحيماً ، وكان كذلك .

وقوله : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّعُوا ﴾ : هذه اللام لام العاقبة ؛ لأنهم لا يقصدون ذلك ، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم ، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقيضه إياهم لذلك فهى لام التعليل . وقد قدمنا تقرير ذلك فى قوله : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص : ٨] .

﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَبُخَّطَفُ النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِيَا لَبِطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَبِعِصْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

يقول تعالى ممتناً على قریش فيما أحلهم من حرمة ، الذى جعله للناس سواء العاكف فيه والباد ، ومن دخله كان آمناً ، فهم فى أمن عظيم ، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً

ويقتل بعضهم بعضا، كما قال تعالى ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ إلى آخر السورة [قريش : ١ - ٤] .
 وقوله تعالى : ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ أى : أفكان شكرهم على هذه النعمة
 العظيمة أن أشركوا به ، وعبدوا معه الأصنام والأنداد ، و ﴿ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ
 الْبُورِ ﴾ [إبراهيم : ٢٨] ، وكفروا بنبى الله وعبده ورسوله، فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله ،
 وألا يشركوا به ، وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره ، فكذبوه وقتلوه وأخرجوه من بين
 ظهرهم ؛ ولهذا سلبهم الله ما كان أنعم به عليهم ، وقتل من قتل منهم بيدى ، وصارت الدولة
 لله ولرسوله وللمؤمنين ، ففتح الله على رسوله مكة ، وأرغم أنافهم وأذل رقابهم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ﴾ أى : لا أحد أشد
 عقوبة ممن كذب على الله فقال : إن الله أوحى إليه شىء ولم يوح إليه شىء . ومن قال :
 سأنزل مثل ما أنزل الله . وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه ، فالأول مفتر ،
 والثانى مكذب ؛ ولهذا قال : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ . ثم قال ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾
 يعنى : الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ، ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ
 سُبُلَنَا ﴾ أى : لنُبصِّرَنَّهُمْ سبُلَنَا ، أى : طرقتنا فى الدنيا والآخرة ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ قال ابن
 عباس : الذين يعملون بما يعلمون ، يهديهم لما لا يعلمون . قال أحمد بن أبى الحوارى :
 فحدثت به أبا سليمان الدارانى فأعجبه ، وقال : ليس ينبغى لمن ألهم شيئا من الخير أن يعمل به
 حتى يسمعه فى الأثر ، فإذا سمعه فى الأثر عمل به ، وحمد الله حين وافق ما فى قلبه .

تفسير سورة الروم

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ربع

﴿ ١ ﴾ اَلَمْ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿ ٢ ﴾ فِي اَدْنٰى اَلْاَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿ ٣ ﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴿ ٤ ﴾ لِلّٰهِ اَلْاَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿ ٥ ﴾ يَنْصُرُ اللّٰهُ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ ٦ ﴾ وَعَدَّ اللّٰهُ لَا يُخْلِفُ اللّٰهُ وَعْدَهُ وَلٰكِنَّ اَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ ٧ ﴾ يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غٰفِلُونَ ﴿ ٧ ﴾

نزلت هذه الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصى بلاد الروم ، فاضطر هرقل ملك الروم حتى أجهأ إلى القسطنطينية ، وحاصره فيها مدة طويلة ، ثم عادت الدولة لهرقل كما سيأتى .

روى الإمام أحمد عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ اَلَمْ غَلَبَتِ الرُّومُ . فِي اَدْنٰى اَلْاَرْضِ ﴾ ، قال : غَلَبَتْ وَغَلَبَتْ . قال : كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ؛ لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ؛ لأنهم أهل كتاب ، فذكر ذلك لأبى بكر ، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنهم سيغلبون » . فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلا ، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا . فجعل أجلا خمس سنين ، فلم يظهروا ، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال : « ألا جعلتها إلى دُونِ » أراه قال : « العشر » . قال سعيد بن جبیر : البضع ما دون العشر . ثم ظهرت الروم بعد ، قال : فذلك قوله : ﴿ اَلَمْ غَلَبَتِ الرُّومُ . فِي اَدْنٰى اَلْاَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ . هكذا رواه الترمذى والنسائى جميعا ، وقال الترمذى : حسن غريب (١) .

وعن مسروق قال : قال عبد الله : خمس قد مضين : الدخان ، واللزام ، والبطشة ، والقمر ، والروم . أخرجاه (٢) .

وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود قال : كانت فارس ظاهرة على الروم ، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ؛ لأنهم أهل كتاب وهم أقرب إلى دينهم ، فلما نزلت : ﴿ اَلَمْ غَلَبَتِ الرُّومُ . فِي اَدْنٰى اَلْاَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

(١) المسند (٢٧٦/١) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » والترمذى (٣١٩٣) والنسائى فى الكبرى (١١٣٨٩) .

(٢) البخارى (٤٧٦٧) ومسلم (٢٧٩٨ / ٣٩) .

بَعْدَ غَلْبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴿ ، قالوا : يا أبا بكر، إن صاحبك يقول: إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين؟! قال : صدق . وقالوا : هل لك إلى أن نقامرك؟ فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين ، فمضت السبع ولم يكن شيء ففرح المشركون بذلك وشق على المسلمين ، فذكر ذلك للنبي ﷺ ، فقال : « ما بضع سنين عندكم ؟ » قالوا : دون العشر . قال : « اذهب فزايدهم وازدد سنتين في الأجل » . قال : فما مضت الستين حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس ، ففرح المؤمنون بذلك ، وأنزل الله تعالى : ﴿ آتَمَّ . غَلَبَتِ الرُّومُ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ (١) .

وروى أبو عيسى الترمذى عن نيار بن مكرم الأسلمى قال : لما نزلت ﴿ آتَمَّ . غَلَبَتِ الرُّومُ ﴾ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلْبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴿ ، فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم ، وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم ؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب ، وفي ذلك قوله : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصِرُ مَنْ يُشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ ، وكانت قریش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان بيعت ، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة : ﴿ آتَمَّ . غَلَبَتِ الرُّومُ ﴾ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلْبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿ فقال ناس من قریش لأبى بكر: فذاك بيننا وبينكم؟ زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين ، أفلا نراهنك على ذلك؟ قال : بلى - وذلك قبل تحريم الرهان - فارتهن أبو بكر والمشركون ، وتواضعوا الرهان، وقالوا لأبى بكر : كم تجعل البضع : ثلاث سنين إلى تسع سنين ، فسمّ بيننا وبينك وسطاً تنتهى إليه . قال : فسموا بينهم ست سنين . قال : فمضت ست السنين قبل أن يظهروا ، فأخذ المشركون رهن أبى بكر ، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس ، فعاب المسلمون على أبى بكر تسمية ست سنين ، قال : لأن الله قال : في بضع سنين . قال : فأسلم عند ذلك ناس كثير . هكذا ساقه الترمذى، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح (٢) ، وقد روى نحو هذا مرسلا عن جماعة من التابعين، مثل عكرمة، والشعبي، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم .

ولتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمة، فقله تعالى: ﴿ آتَمَّ . غَلَبَتِ الرُّومُ ﴾ قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور ، في أول سورة « البقرة » . وأما الروم فهم من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم، وهم أبناء عم بنى إسرائيل ، ويقال لهم : بنو الأصفر . وكانوا على دين اليونان ، واليونان من سلالة يافث بن نوح، أبناء عم الترك . وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة، ويقال لها : المتحيرة ، ويصلون إلى القطب الشمالي، وهم الذين أسسوا دمشق ، وبنوا معبدها ، وفيه محاريب إلى جهة الشمال ، فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة، وكان من ملك الشام مع الجزيرة منهم يقال له: قيصر . فكان أول من دخل في دين النصرى من الملوك قسطنطين بن قسطنس ، وأمه مريم الهيلانية الشدقانية من أرض

حران ، كانت قد تنصرت قبله ، فدعته إلى دينها ، وكان قبل ذلك فيلسوفا ، فتابعها - يقال : تَقِيَّةٌ - واجتمعت به النصارى ، وتناظروا في زمانه مع عبد الله بن أريوس ، واختلفوا اختلافا كثيرا منتشرًا منتشرًا لا ينضب ، إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا ، فوضعوا لقسطنطين العقيدة ، وهي التي يسمونها الأمانة الكبيرة ، وإنما هي الخيانة الحقيرة ، ووضعوا له القوانين - يعنون : كتب الأحكام من تحليل وتحريم وغير ذلك مما يحتاجون إليه ، وغيروا دين المسيح عليه السلام ، وزادوا فيه ونقصوا منه . وفصلوا إلى المشرق واعتاضوا عن السبت بالأحد ، وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير . واتخذوا أعيادا أحدثوها كعيد الصليب والقداس والغطاس ، وغير ذلك من البواعيث والشعائين ، وجعلوا له الباب وهو كبيرهم ، ثم البتاركة ، ثم المطارنة ، ثم الأساقفة والقساوسة ، ثم الشمامسة . وابتدعوا الرهبانية . وبنى لهم الملك الكنائس والمعابد ، وأسس المدينة المنسوبة إليه وهي القسطنطينية ، يقال : إنه بنى في أيامه اثني عشر ألف كنيسة ، وبنى بيت لحم بثلاثة محاريب ، وبنيت أمه القمامة ، وهؤلاء هم الملكية ، يعنون الذين هم على دين الملك .

ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الإسكاف ، ثم النسطورية أصحاب نسطورا ، وهم فرق وطوائف كثيرة ، كما قال رسول الله ﷺ : « إنهم افرقوا على اثنتين وسبعين فرقة » (١) . والغرض أنهم استمروا على النصرانية ، كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده ، حتى كان آخرهم هرقل . وكان من عقلاء الرجال ، ومن أحزم الملوك وأدهاهم ، وأبعدهم غورا وأقصاهم رأيا ، فتملك عليهم في رياسة عظيمة وأبهة كبيرة فناواه كسرى ملك الفرس ، وملك البلاد كالعراق وخراسان والري ، وجميع بلاد العجم ، وهو سابور ذو الأكتاف . وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر . وله رياسة العجم وحماقة الفرس ، وكانوا مجوسا يعبدون النار . والمشهور أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده فقهره وكسره وقصره ، وحتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية . فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه ، وكانت النصارى تعظمه تعظيمًا زائدًا ، ولم يقدر كسرى على فتح البلد ، ولا أمكنه ذلك لحصانتها ؛ لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر ، فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هنالك ، فلما طال الأمر دبر قيصر مكيدة ، ورأى في نفسه خديعة ، فطلب من كسرى أن يقلع عن بلاده على مال يصلحه عليه ، ويشترط عليه ما شاء . فأجابته إلى ذلك ، وطلب منه أموالا عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا ، من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة . فطاوعه قيصر ، وأوهمه أن عنده جميع ما طلب ، واستقل عقله لما طلب منه ما طلب ، ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عُشره ، وسأل كسرى أن يمكنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته ، ليسعى في تحصيل ذلك من

(١) أبو داود (٤٥٩٦) وابن ماجه (٣٩٩٢) وفي الزوائد : « إسناده عوف بن مالك فيه مقال ، وراشد بن سعد قال فيه أبو حاتم : صدوق . وعبادة بن يوسف لم يخرج له أحد سوى ابن ماجه ، وليس له عندي سوى هذا الحديث ، قال ابن عدى : روى أحاديث تفرد بها . وذكره ابن حبان في الثقات وبقى رجال الإسناد ثقات » .

ذخائره وحواصله ودفائنه ، فأطلق سراحه ، فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية ، جمع أهل ملته وقال : إني خارج فى أمر قد أبرمته ، فى جند قد عينته من جيشى ، فإن رجعت إليكم قبل الحول فأنا ملككم ، وإن لم أرجع إليكم قبلها فأنتم بالخيار ، إن شئتم استمررتم على بيعتى ، وإن شئتم وليتم عليكم غيرى . فأجابوه بأنك ملكنا ما دمت حياً ، ولو غبت عشرة أعوام . فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة فى جيش متوسط ، هذا وكسرى مُخيم على القسطنطينية ينتظره ليرجع ، فركب قيصر من فوره وسار مسرعاً حتى انتهى إلى بلاد فارس ، فعاث فى بلادهم قتلاً لرجالها ومن بها من المقاتلة ، أولاً فأولاً ، ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن ، وهى كرسى مملكة كسرى ، فقتل من بها وأخذ جميع حواصله وأمواله ، وأسر نساءه وحريمه ، وحلق رأس ولده ، وركبه على حمار وبعث معه من الأساورة من قومه فى غاية الهوان والذلة ، وكتب إلى كسرى يقول : هذا ما طلبتَ فخذهُ . فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم ما لا يحصيه إلا الله عز وجل ، واشتد حنقه على البلد ، فاشتد فى حصارها بكل ممكن قلم يقدر على ذلك . فلما عجز ركب لياخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون ، التى لا سبيل لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها ، فلما علم قيصر بذلك احتال بحيلة عظيمة لم يسبق إليها ، وهو أنه أرصد جنده وحواصله التى معه عند فم المخاضة ، وركب فى بعض الجيش ، وأمر بأحمال من التبن والبعر والروث فحملت معه ، وسار إلى قريب من يوم فى الماء مصعداً ، ثم أمر باللقاء تلك الأحمال فى النهر ، فلما مرت بكسرى ظن هو وجنده أنهم قد خاضوا من هنالك ، فركبوا فى طلبهم فشغرت المخاضة عن الفرس ، وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض فى الخوض ، فخاضوا وأسرعوا السير ففاتوا كسرى وجنوده ، ودخلوا القسطنطينية . وكان ذلك يوماً مشهوداً عند النصارى ، وبقي كسرى وجيوشه حائرين لا يدرون ماذا يصنعون لم يحصلوا على بلاد قيصر ، وبلادهم قد خربت بها الروم وأخذوا حواصلهم ، وسبوا ذراريهم ونساءهم . فكان هذا من غلب الروم فارس ، وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب الفرس الروم .

وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبصرى ، على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما ، وهى طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز . وقال مجاهد : كان ذلك فى الجزيرة ، وهى أقرب إلى بلاد الروم من فارس ، فالله أعلم . ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين ، وهى تسع ؛ فإن البضع فى كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع : وكذلك جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن جرير وغيرهما عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر فى مُناجبة ﴿ اَلَمْ . غَلِبَتِ الرُّومُ ﴾ : « ألا احتطت يا أبا بكر ، فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع ؟ » ثم قال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه (١) . وروى عن عبد الله ابن عمرو أنه قال ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ لِلّٰهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ أى : من قبل ذلك ومن بعده ، فبنى على الضم

لما قُطِعَ المضاف ، وهو قوله ﴿ قَبْلُ ﴾ عن الإضافة ، ونُوتت . ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ أى : للروم أصحاب قيصر ملك الشام ، على فارس أصحاب كسرى ، وهم المجوس ، وقد كانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر فى قول طائفة كبيرة من العلماء ، كابن عباس ، والثورى ، والسدى ، وغيرهم . وقال آخرون : بل كان نصرة الروم على فارس عام الحديبية ؛ قاله عكرمة ، والزهرى ، وقتادة ، وغيرهم . ووجه بعضهم هذا القول بأن قيصر كان قد نذر لئن أظفره الله بكسرى ليمشين من حمص إلى إيليا - وهو بيت المقدس - شكراً لله - عز وجل - ففعل ، فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول الله ﷺ ، الذى بعثه مع دحية بن خليفة . فأعطاه دحية لعظيم بصرى ، فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر . فلما وصل إليه سأل من بالشام من عرب الحجاز ، فأحضر له أبو سفيان صخر بن حرب الأموى فى جماعة من كفار قريش كانوا فى غزة ، فجىء بهم إليه ، فجلسوا بين يديه ، فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبي ؟ فقال أبو سفيان : أنا ، فقال لأصحابه - وأجلسهم خلفه - : إني سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذب فكذبوه . فقال أبو سفيان : فوالله لولا أن يأتروا على الكذب لكذبت . فسأله هرقل عن نسبه وصفته ، فكان فيما سأله أن قال : فهل يغدر ؟ قال : قلت : لا ، ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو صانع فيها - يعنى بذلك الهدنة التى كانت قد وقعت بين رسول الله ﷺ وكفار قريش يوم الحديبية على وضع الحرب بينهم عشر سنين ، فاستدلوا بهذا على أن نصر الروم على فارس كان عام الحديبية ؛ لأن قيصر إنما وفى بنذره بعد الحديبية ، والله أعلم .

ولأصحاب القول الأول أن يجيبوا عن هذا بأن بلاده كانت قد خربت وتشعثت ، فما تمكن من وفاء نذره حتى أصلح ما ينبغى إصلاحه وتفقد بلاده ، ثم بعد أربع سنين من نصرته وفى بنذره ، والله أعلم . والأمر فى هذا سهل قريب ، إلا أنه لما انتصرت فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين ، فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك ، لأن الروم أهل كتاب فى الجملة ، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس ، كما قال تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ﴾ إلى قوله : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٢ ، ٨٣] ، وقال تعالى ها هنا : ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : فى انتصاره وانتقامه من أعدائه ، ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بعباده المؤمنين . وقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ أى : هذا الذى أخبرناك به - يا محمد - من أنا سننصر الروم على فارس ، وعد من الله حق ، وخير صدق لا يخلف ، ولا بد من كونه ووقوعه ؛ لأن الله قد جرت سننه أن ينصر أقرب الطائفتين المقتلتين إلى الحق ، ويجعل لها العاقبة ، ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : بحكم الله فى كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل .

وقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ أى : أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها ، فهم حذاق أذكاء فى تحصيلها ووجوه مكاسبها ،

وهم غافلون في أمور الدنيا عما يفهمهم في الدار الآخرة، كأن أحدهم مُغفل لا ذهن له ولا فكرة. قال الحسن البصري : والله ليلعب من أحدهم بديناه أنه يقلب الدرهم على ظهره ، فيخبرك بوزنه ، وما يحسن أن يصلى . وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ ، يعنى : الكفار ، يعرفون عمران الدنيا ، وهم في أمر الدين جهال .

﴿ **أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾** **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾** **ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوَاءَ إِنَّ كَذِبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾** ﴾

يقول تعالى منها على التفكير في مخلوقاته ، الدالة على وجوده وانفراذه بخلقها ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، فقال : ﴿ **أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ** ﴾ يعنى به : النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوى والسفلى ، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة ، والأجناس المختلفة ، فيعلمون أنها ما خلقت سدئى ولا باطلا ، بل بالحق ، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى ، وهو يوم القيامة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ** ﴾ .

ثم نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه ، بما أيدهم به من المعجزات ، والدلائل الواضحات ، من إهلاك من كفر بهم ، ونجاة من صدقهم ، فقال تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ** ﴾ أى : بأفهامهم وعقولهم ونظرمهم وسماع أخبار الماضين ؛ ولهذا قال : ﴿ **فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً** ﴾ ، أى : كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم - أيها الميعوث إليهم محمد ﷺ وأكثر أموالا وأولادا ، وما أوتيتم معشار ما أوتوا ، ومكنوا في الدنيا تمكيناً لم تبلغوا إليه ، وعمروا فيها أعماراً طوالاً ، فعمروها أكثر منكم ، واستغلوها أكثر من استغلالكم ، ومع هذا لما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا ، أخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واق ، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس الله ، ولا دفعوا عنهم مثال ذرة ، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال ، ﴿ **وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ أى : وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله ، واستهزؤوا بها ، وما ذلك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ اسْتَوُوا السُّوَاءَ إِنَّ كَذِبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ **وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَنزِلُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾ [الأنعام : ١١٠] ، وقوله : ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾ [الصف : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْا فَعَلَّمَ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِعَظْمِ ذُنُوبِهِمْ** ﴾ [المائدة : ٤٩] . وعلى هذا تكون السوأي

منصوبة مفعولا لاساؤوا ، وقيل : بل المعنى فى ذلك : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأى ﴾ ،
أى : كانت السوأى عاقبتهم ، لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون .

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْسِئُ
الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاتٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ
﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ
الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

يقول تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أى: كما هو قادر على بدءته فهو قادر على إعادته ،
﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى : يوم القيامة ، فيجازى كل عامل بعمله . ثم قال : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ
يُبْسِئُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ، قال ابن عباس : يبأس المجرمون . وقال مجاهد : يفتضح المجرمون . وفى
رواية : يكتب المجرمون . ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ﴾ أى : ما شفعت فيهم الآلهة التى
كانوا يعبدونها من دون الله تعالى ، وكفروا بهم وخانواهم أحوج ما كانوا إليهم . ثم قال تعالى :
﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ﴾ قال قتادة : هى - والله - الفرقة التى لا اجتماع بعدها . يعنى :
إذا رفع هذا إلى عليين ، وخفض هذا إلى أسفل السافلين ، فذلك آخر العهد بينهما ؛ ولهذا قال
تعالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ ، قال مجاهد وقتادة : ينعمون .

﴿ فَسَبَّحَنَّا اللَّهَ حِينَ نُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

هذا تسييح منه تعالى لنفسه المقدسة ، وإرشاده لعباده إلى تسييحه وتحميده ، فى هذه الأوقات
المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه : عند المساء ، وهو إقبال الليل بظلامه ، وعند
الصباح وهو إسفار النهار عن ضيائه . ثم اعترض بحمده ، مناسبة للتسييح وهو التحميد ، فقال
تعالى : ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى : هو المحمود على ما خلق فى السموات والأرض .
ثم قال تعالى : ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ ، فالعشاء هو : شدة الظلام ، والإظهار : قوة الضياء .
فسبحان خالق هذا وهذا ، فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا ، كما قال تعالى : ﴿وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّاهَا .
وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس : ٣ ، ٤] ، وقال تعالى : ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَى . وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل : ١
- ٢] ، وقال تعالى : ﴿وَالضُّحَى . وَاللَّيْلَ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى : ١ ، ٢] ، والآيات فى هذا كثيرة .
وروى الإمام أحمد عن معاذ بن أنس الجهنى عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : «ألا أخبركم لم سمى
الله إبراهيم خليله الذى وفى ؟ لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى : سبحان الله حين تمسون

وحين تصبحون، وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون» (١). وروى الطبراني عن عبد الله بن عباس، عن رسول الله ﷺ قال: « من قال حين يصبح : ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ . وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ الآية بكاملها ، أدرك ما فاته في يومه ، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته » إسناد جيد ، ورواه أبو داود في سننه (٢).

وقوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ : هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة ، وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هذا النمط ، فإنه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها ، ليدل خلقه على كمال قدرته ، فمن ذلك إخراج النبات من الحب ، والحب من النبات . والبيض من الدجاج ، والدجاج من البيض ، والإنسان من النطفة ، والنطفة من الإنسان ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن . وقوله تعالى : ﴿ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَقَفَّجْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ [يس : ٣٣ ، ٣٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ [الحج : ٥ - ٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا ﴾ إلى قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الاعراف : ٥٧] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ ﴿ ١١ ﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿ ١٢ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب ، ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ ، فأصلكم من تراب ، ثم من ماء مهين ، ثم تصور فكان علقة ، ثم مضغة ، ثم صار عظاماً شكله على شكل الإنسان ثم كسا الله تلك العظام لحماً ، ثم نفخ فيه الروح ، فإذا هو سمع بصير . ثم خرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوى والحركة ، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار بيني المدائن والحصون ، ويسافر في أقطار الأقاليم ، ويركب متن البحور ، ويدور أقطار الأرض ويتكسب ويجمع الأموال ، وله فكرة وغور ، ودهاء ومكر ، ورأى وعلم ، واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه . فسبحان من أقدرهم وسيّرهم وسخرهم وصرفهم في فنون المعاش والمكاسب، وفأوت بينهم في العلوم والفكرة ، والحسن والقيبح ، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ . وروى الإمام أحمد عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ،

(١) المسند (٣ / ٤٣٩) .

(٢) الطبراني في المعجم الكبير (١٢ / ٢٣٩) وأبو داود (٥٠٧٦) .

جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والخبيث والطيب ، والسهل والحزن ، وبين ذلك « . ورواه أبو داود والترمذى . وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ ، أى : خلق لكم من جنسكم إناثًا يَكُنْ لَكُمْ أَزْوَاجًا ، ﴿ لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الاعراف : ١٨٩] ، يعنى بذلك : حواء ، خلقها الله من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر . ولو أنه تعالى جعل بنى آدم كلهم ذكورا وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم من جان أو حيوان ، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس . ثم من تمام رحمته بنى آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم ، وجعل بينهم وبينهن مودة : وهى المحبة ، ورحمة : وهى الرأفة ، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبتة لها أو لرحمة بها ، بأن يكون لها منه ولد ، أو محتاجه إليه فى الإنفاق ، أو للألفة بينهما ، وغير ذلك ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴾ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ السِّنِّكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١١) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ ﴿ (١٢) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على قدرته العظيمة ﴿ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : خلق السموات فى ارتفاعها واتساعها ، وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثابتة والسيارات ، والأرض فى انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية ، وبحار وقفار ، وحيوان وأشجار .

وقوله تعالى : ﴿ وَاخْتِلَافِ السِّنِّكُمْ ﴾ يعنى: اللغات، فهؤلاء بلغة العرب، وهؤلاء تتر لهم لغة أخرى، وهؤلاء كرج، وهؤلاء روم، وهؤلاء إفرنج، وهؤلاء بربر، وهؤلاء تكرر، وهؤلاء حبشة، وهؤلاء هنود، وهؤلاء عجم ، وهؤلاء صقالبة ، وهؤلاء خزر ، وهؤلاء أرمن ، وهؤلاء أكراد ، إلى غير ذلك مما لا يعملها إلا الله تعالى فى اختلاف بنى آدم ، واختلاف ألوانهم وهى حلاهم ، فجميع أهل الأرض بل أهل الدنيا - منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة: كل له عينان وحاجبان، وأنف وجبين ، وفم وخدان ، وليس يشبه واحد منهم الآخر ، بل لا بد أن يفارقه بشيء من السمات أو الهيئة أو الكلام، ظاهرا كان أو خفيا ، يظهر عند التأمل ، كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه الأخرى . ولو توافق جماعة فى صفة من جمال أو قبح ، لا بد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ . وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى: ومن الآيات ما جعل لكم فى صفة النوم فى الليل والنهار، فيه تحصل الراحة وسكون الحركة ، وذهاب الكلال والتعب . وجعل لكم الانتشار والسعى فى الأسباب والأسفار فى النهار ، وهذا ضد النوم ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ ﴾ أى : يعون .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ، أى : تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة ، أو صواعق متلفة ، وتارة ترجون وميضه وما يأتى بعده من المطر المحتاج إليه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ، أى : بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شئ ، فلما جاءها الماء ﴿ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥] . وفى ذلك عبرة ودلالة واضحة على المعاد وقيام الساعة ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ وَيُسَبِّحُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج : ٦٥] ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا ﴾ [فاطر : ٤١] وكان عمر بن الخطاب إذا اجتهد فى اليمين يقول: « لا ، الذى تقوم السماء والأرض بأمره » . أى : هى قائمة بأمره وتسخيرها إياها ، ثم إذا كان يوم القيامة بُدلت الأرض غير الأرض والسماوات ، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٥٢] . وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس : ٥٣] .

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمٍ قَانِتُونَ ﴿١٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٧﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : ملكه وعبيده ، ﴿ كُلُّ لَمٍ قَانِتُونَ ﴾ أى : خاضعون خاشعون طوعا وكرها .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ قال ابن عباس : يعنى أيسر عليه . وقال مجاهد : الإعادة أهون عليه من البداءة ، والبداءة عليه هين . وكذا قال عكرمة وغيره . وروى البخارى عن النبى ﷺ قال : « قال الله تعالى : كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشْتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ . فأما تكذيبه إياى فقولته : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته . وأما شتمه إياى فقولته : اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم

يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » . منفردا بإخراجه البخارى (١) . وقد رواه الإمام أحمد منفردا به بنحوه ، أو مثله (٢) . وقال آخرون : كلاهما بالنسبة إلى القدرة على السواء . وقال العوفى ، عن ابن عباس : كل عليه هين . وكذا قال الربيع بن خثيم . ومال إليه ابن جرير ، وذكر عليه شواهد كثيرة ، قال : ويحتمل أن يعود الضمير فى قوله : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ إلى الخلق ، أى : وهو أهون على الخلق .

وقوله : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال ابن عباس كقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] . وقال قتادة : مثله أنه لا إله إلا هو ، ولا رب غيره . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذى لا يغالب ولا يمانع ، بل قد غلب كل شىء ، وقهر كل شىء بقدرته وسلطانه ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أفعاله وأقواله ، شرعاً وقَدراً . وعن مالك فى تفسيره المروى عنه ، عن محمد بن المنكدر ، فى قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ﴾ قال : لا إله إلا الله .

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَّا رَزَقْنَكُمْ فَإِنَّهُ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مِّنْ أَضَلِّ أَلَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

هذا مثل ضربه الله - تعالى - للمشركين به ، العابدين معه غيره ، الجاعلين له شركاء وهم مع ذلك معترفون أن شركاءهم من الأصنام والأنداد عبيد له ، ملك له ، كما كانوا فى تلبيتهم يقولون : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك . فقال تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أى : تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم : ﴿ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَّا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ أى : لا يرتضى أحد منكم أن يكون عبده شريكاً له فى ماله ، فهو وهو فيه على السواء ، ﴿ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ أى : تخافون أن يقاسموكم الأموال . قال أبو مجلز : إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك ، وليس له ذاك ، كذلك الله لا شريك له . والمعنى : أن أحدكم يأنف من ذلك ، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه . وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لَّهُ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ [النحل : ٦٢] ، أى : من البنات ، حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، وجعلوها بنات الله ، وقد كان أحدهم إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، فهم يأنفون من البنات وجعلوا الملائكة بنات الله ، فنسبوا إليه مالا يرتضونه لأنفسهم ، فهذا أغلظ الكفر . وهكذا فى هذا المقام جعلوا له شركاء من عبيده وخلقته ، وأحدهم يأبى غاية الإباء ويأنف غاية الأنفة من ذلك ، أن يكون عبده شريكه فى ماله ، يساويه فيه ، ولو شاء لقاومه عليه . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ولما كان التنبيه بهذا المثل على براءته تعالى ونزاهته بطريق الأولى والأحرى ، قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ . ثم قال تعالى مبيناً أن المشركين إنما عبدوا غيره سَفَهًا من أنفسهم وجهلاً ﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى : المشركون ﴿ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى : فى عبادتهم الأنداد بغير علم ، ﴿ فَمَنْ يَهْدِي مِنَ أَضَلِّ اللَّهُ ﴾ أى : فلا أحد يهديهم إذا كَتَبَ اللهُ إضلالهم ، ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ أى : ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير ، ولا محيد لهم عنه ؛ لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ فَأَوَمَّ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ لِيُنذِرَ الْكَافِرِينَ ۖ لَئِنْ لَمْ يَرْجِعُوا إِلَىٰ اللَّهِ وَأَطَاعُوا لَأَعَذَّبُنَا بِهِمْ عَذَابًا ذَلِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بِمَا لَعُنُوا ﴾

رَبِيع

ذَلِكَ الَّذِي كَفَرْنَا بِهِ نَدْرِئُهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَابًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿١٧٢﴾

يقول تعالى : فسدد وجهك واستمر على الدين الذى شرعه الله لك ، من الخيفية ملة إبراهيم ، الذى هداك الله لها ، وكملها لك غاية الكمال ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة ، التى فطر الله الخلق عليها ، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده ، وأنه لا إله غيره ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ [الاعراف : ١٧٢] . وفى الحديث : « إني خلقت عبادى حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم » (١) . وسنذكر فى الأحاديث أن الله - تعالى - فطر خلقه على الإسلام ، ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة كاليهودية أو النصرانية أو المجوسية .

وقوله تعالى : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ ، قال بعضهم : معناه لا تبدلوا خلق الله ، فتغيروا الناس عن فطرتهم التى فطرهم الله عليها . فيكون خبرا بمعنى الطلب ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ [آل عمران : ٩٧] ، وهذا معنى حسن صحيح . وقال آخرون : هو خبر على بابه ، ومعناه : أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم فى الفطرة على الجبلَّة المستقيمة ، لا يولد أحد إلا على ذلك ، ولا تفاوت بين الناس فى ذلك ؛ ولهذا قال ابن عباس ، وإبراهيم النخعى ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة فى قوله : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ ، أى : لدين الله . وقال البخارى : قوله : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ : لدين الله ، خَلَقُ الأولين : دين الأولين ، والدين والفطرة : الإسلام . وعن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ » ، ثم يقول : ﴿ فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيَّهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ . ورواه مسلم (٢) .

وفى معنى هذا الحديث قد وردت أحاديث عن جماعة من الصحابة : روى الإمام أحمد عن

(١) مسلم (٢٨٦٥ / ٦٣) وأحمد ٤ / ١٦٢ .

(٢) البخارى (٤٧٧٥ ، ٦٥٩٩) ومسلم (٢٦٥٨ / ٢٢) .

جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: « كل مولود يولد على الفطرة، حتى يعرب عنه لسانه، فإذا عبر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً » (١). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ سئل عن أولاد المشركين فقال: « الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم ». أخرجاه (٢).

وقد روى أحمد أيضاً عن ابن عباس قال: أتى على زمان وأنا أقول: « أولاد المسلمين مع أولاد المسلمين، وأولاد المشركين مع المشركين »، حتى حدثنى فلان عن فلان: أن رسول الله ﷺ سئل عنهم فقال: « الله أعلم بما كانوا عاملين » قال: فلقيت الرجل فأخبرنى فأمسكت عن قولى (٣).

وروى الإمام أحمد عن عياض بن حمار، أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال فى خطبته: « إن ربي عز وجل أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى فى يومى هذا: كل مال نحلته عبادى حلال. وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً، ثم إن الله عز وجل نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظان. ثم إن الله أمرنى أن أحرق قريشاً، فقلت: يارب، إذا يئثلغوا رأسى فيدعوه حُجزةً. قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نُغزك، وأنفق عليهم فسنفق عليك، وابعث جيشاً تبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك ». قال: « وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مُقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق بكل ذى قرىبى ومسلم، ورجل عفيف فقير متصدق. وأهل النار خمسة: الضعيف الذى لا زبر له، الذين هم فيكم تبعاً، لا يبتغون أهلاً ولا مالاً، والحائن الذى لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسى إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك »، وذكر البخيل، أو الكذاب، والشنظير: الفحاش ». انفرد بإخراجه مسلم (٤).

وقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ الَّذِينَ نُقِئُ ﴾ أى: التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القويم المستقيم ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى: فلهذا لا يعرفه أكثر الناس. فهم عنه ناكبون، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿ وَإِنْ تَطَّعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الآية [الأنعام: ١١٦]. وقوله تعالى: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ قال ابن زيد، وابن جريج: أى راجعين إليه، ﴿ وَأَتَّقُوهُ ﴾ أى: خافوه وراقبوه. ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ وهى الطاعة العظيمة، ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى: بل من الموحدین المخلصين له العبادة، لا يريدون بها سواه.

(١) المسند (٣/ ٣٥٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (٧/ ٢١٨): « وفيه أبو جعفر الرازى وهو ثقة وفيه خلاف، وبقية رجاله ثقات ».

(٢) المسند (١/ ٣٢٨) والبخارى (١٣٨٣) ومسلم (٢٦٦٠).

(٣) المسند (٥/ ٧٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (٧/ ٢٢١): « رجاله رجال الصحيح ».

(٤) المسند (٤/ ١٦٢) ومسلم (٢٨٦٥/ ٦٣).

وقوله تعالى : ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْمًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أى : لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم ، أى : بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض . وقرأ بعضهم : « فارقوا دينهم » ، أى : تركوه وراء ظهورهم ، وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان ، وسائر أهل الأديان الباطلة ، مما عدا أهل الإسلام ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعْمًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [الانعام : ١٥٩] ، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء وممل باطلة ، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شىء .

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَاوَاهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (٢٢) ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَلَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٤) أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا يؤيدون ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَا قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ (٢٦) ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٧)

يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم فى حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له ، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم فى حالة الاختيار يشركون بالله ، ويعبدون معه غيره .

وقوله تعالى : ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ هى لام العاقبة عند بعضهم ، ولام التعليل عند آخرين ولكنها تعليل لتقيض الله لهم ذلك . ثم توعدهم بقوله : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ قال بعضهم : والله لو توعدنى حارس درب لحفت منه ، فكيف والمتوعد ها هنا الذى يقول للشىء : كن ، فيكون . ثم قال تعالى منكرآ على المشركين فيما اختلفوه من عبادة الأوثان بلا دليل ولا حجة ولا برهان : ﴿ أم أنزلنا عليهم سلطاناً ﴾ أى : حجة ، ﴿ فهو يتكلم ﴾ أى : ينطق : ﴿ بما كانوا به يشركون ﴾ ؟ وهذا استفهام إنكار ، أى : لم يكن لهم شىء من ذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَا قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله ووفقه؛ فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال : ﴿ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴾ [هود: ١٠] ، أى : يفرح فى نفسه ويفخر على غيره ، وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية ، قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [هود: ١١] ، أى : صبروا فى الضراء ، وعملوا الصالحات فى الرخاء ، كما ثبت فى الصحيح : « عجباً للمؤمن . لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » (١) . وقوله تعالى : ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ ، أى : هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله ، فيوسع على قوم ويضيق على آخرين ، ﴿ إن فى ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون ﴾ .

﴿ فَتَاتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقْمُ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢٨) ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لَيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ ذَكْوَرٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ (٢٩) ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيْثُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيْكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٤٠)

يقول تعالى آمراً بإعطاء ذى ﴿ الْقُرْبَىٰ حَقْمُ ﴾ أى : من البر والصلة ﴿ وَالْمَسْكِينِ ﴾ وهو : الذى لا شىء له ينفق عليه ، أو له شىء لا يقوم بكفايته ، ﴿ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ﴾ وهو المسافر المحتاج إلى نفقة وما يحتاج إليه فى سفره ، ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ أى : النظر إليه يوم القيامة ، وهو الغاية القصوى ، ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى : فى الدنيا وفى الآخرة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لَيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُوا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى : من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم ، فهذا لا ثواب له عند الله - بهذا فسرہ ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب ، والشعبى - وهذا الصنيع مباح ، وإن كان لا ثواب فيه ، إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة ، قاله الضحاك ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُنَّ بِتَسْكِينِ ﴾ [المدثر : ٦] أى : لا تعط العطاء تريد أكثر منه . وقال ابن عباس : الربا ربا وان ، فربا لا يصح ، يعنى : ربا البيع وربا لا بأس به ، وهو هدية الرجل يريد فضلها وأضعافها . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبِّا لَيْرَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُوا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ . وإنما الثواب عند الله فى الزكاة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ أى : الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء ، كما جاء فى الصحيح : « وما تصدق أحد بعدل تمر من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه ، فيرببها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله ، حتى تصير التمرة أعظم من أحد » (١) .

وقوله عز وجل : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾ أى : هو الخالق الرازق ، يخرج الإنسان من بطن أمه عرياناً لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قوى ، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك ، والرياش واللباس والمال والأملك والمكاسب . ﴿ ثُمَّ يُعِيْثُكُمْ ﴾ أى : بعد هذه الحياة ، ﴿ ثُمَّ يُحْيِيْكُمْ ﴾ أى : يوم القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ ﴾ أى : الذين تعبدونهم من دون الله ، ﴿ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى : لا يقدر أحد منهم على فعل شىء من ذلك ، بل الله - سبحانه وتعالى - هو المستقل بالخلق والرزق ، والإحياء والإماتة ، ثم يعث الخلائق يوم القيامة ؛ ولهذا قال بعد هذا كله : ﴿ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أى : تعالى وتقدس وتنزه وتعظم وجل وعز عن أن يكون له شريك أو نظير

أو مساو ، أو ولد أو والد ، بل هو الأحد الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَتْ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾

قال ابن عباس ، وعكرمة ، والضحاك ، والسدى ، وغيرهم : المراد بالبر ها هنا : النيافى ، وبالبحر : الأمصار والقرى . وفى رواية عن ابن عباس وعكرمة : البحر : الأمصار ، والقرى : ما كان منها على جانب نهر . وقال آخرون : بل المراد بالبر : هو البر المعروف ، وبالبحر : البحر المعروف . وقال زيد بن رُفيع : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ ﴾ يعنى : انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط، وعن البحر تعمى دوابه . وعن مجاهد : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ قال : فساد البر : قتل ابن آدم ، وفساد البحر : أخذ السفينة غضبا . وقال عطاء الخراسانى : المراد بالبر : ما فيه من المدائن والقرى ، وبالبحر : جزائره . والقول الأول أظهر ، وعليه الأكثر ، ويؤيده ما ذكره محمد بن إسحاق فى السيرة : أن رسول الله ﷺ صَالَحَ مَلِكَ أَيْلَةَ ، وكتب له ببحره يعنى : ببلده . ومعنى قوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ أى : بان النقص فى الثمار والزروع بسبب المعاصى . وقال أبو العالية : من عصى الله فى الأرض فقد أفسد فى الأرض ، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة، ولهذا إذا نزل عيسى ، عليه السلام ، فى آخر الزمان فحكم بهذه الشريعة المطهرة فى ذلك الوقت ، من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية ، وهو تركها - فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف، فإذا أهلك الله فى زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج، قيل للأرض : أخرجى بركاتك . فياكل من الرمانة الفثام من الناس ، ويستظلون بقحفها ، ويكفى لبن اللقحة الجماعة من الناس . وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة رسول الله ﷺ ، فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير. ولهذا ثبت فى الصحيح : « إن الفاجر إذا مات تستريح العباد والبلاد ، والشجر والدواب » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أى : يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات ، اختباراً منه ، ومجازاة على صنيعهم ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أى : عن المعاصى ، كما قال تعالى ﴿ وَبَلَّوْنَاَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الاعراف : ١٦٨] . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، أى : من قبلكم ، ﴿ كَانَتْ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴾ أى : فانظروا ماذا حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم .

﴿ فَأَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَنِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَهُ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول تعالى أمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته ، والمبادرة إلى الخيرات : ﴿ فَأَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَنِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى : يوم القيامة ، إذا أراد كونه فلا راد له ، ﴿ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ ﴾ أى : يتفرقون ، ففريق فى الجنة وفريق فى السعير ، ولهذا قال تعالى : ﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَهُ يَمْهَدُونَ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى : يجازيهم مجازاة الفضل : الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى ما يشاء الله ، ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ . ومع هذا هو العادل فيهم ، الذى لا يجور .

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

يذكر تعالى نعمه على خلقه ، فى إرساله الرياح مبشرات بين يدى رحمته ، بمجىء الغيث عقبها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى : المطر الذى ينزله فيحى به العباد والبلاد ﴿ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ ﴾ ، أى : فى البحر ، وإنما سيرها بالريح ، ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى : فى التجارات والمعاش ، والسير من إقليم إلى إقليم ، وقطر إلى قطر ، ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى : تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة ، التى لا تعد ولا تحصى .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ ، هذه تسلية لله لعبده ورسوله محمد ﷺ ، بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس ، فقد كذبت الرسل المتقدمون مع ماجاؤوا أمهم به من الدلائل الواضحات ، ولكن الله انتقم . من كذبهم وخالفهم ، وأنجى المؤمنين بهم ، ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هو حق أوجبه على نفسه الكريمة ، تكراً وتفضلاً ، كقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الانعام : ٥٤] .

﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَى ءَاتِرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْحَى الْمَوْقُوتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَإِن أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

يبين تعالى كيف يخلق السحاب الذى ينزل منه الماء فقال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ ، إما من البحر على ما ذكره غير واحد ، أو مما يشاء الله عز وجل ، ﴿ فَيَسْطُوهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ ، أى : يَمُدُّهُ فَيَكثُرُهُ وَيَنْمِيهِ ، ويجعل من القليل كثيراً ، ينشئُ سحابه فترى فى رأى العين مثل الترس ، ثم يسطها حتى تملأ أرجاء الأفق ، وتارة يأتى السحاب من نحو البحر ثقالا مملوءة ماء ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الاعراف : ٥٧] ، وكذلك قال هاهنا : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَسْطُوهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا ﴾ . قال مجاهد ، وأبو عمرو بن العلاء ، ومطر الوراق ، وقتادة : يعنى قطعاً . وقال غيره : متراكماً ؛ قاله الضحاك . وقال غيره : أسود من كثرة الماء ، تراه مدلهما ثقيلًا قريباً من الأرض . وقوله تعالى : ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ أى : فترى المطر - وهو القطر - يخرج من بين ذلك السحاب ، ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَشِيرُونَ ﴾ أى : لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْسِلِينَ ﴾ ، معنى الكلام : أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قنطين أزليين من نزول المطر إليهم قبل ذلك ، فلما جاءهم ، جاءهم على فاقة ، فوقع منهم موقعاً عظيماً . ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ أى : إن الذى فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات ، ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ ، يقول تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا ﴾ يابسة على الزرع الذى زرعه ، ونبت وشب واستوى على سوقه ، ﴿ فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ﴾ أى : قد اصفر وشرع فى الفساد ، لظلوا من بعده ، أى : بعد هذا الحال يكفرون ، أى : يجحدون ما تقدم إليهم من النعم ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٣ - ٦٧]

﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْبِرِينَ ﴿٥١﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعَمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

يقول تعالى : كما أنك ليس فى قدرتك أن تسمع الأموات فى أجدانها ، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون ، وهم مع ذلك مُدْبِرُونَ عَنْكَ ، كذلك لا تقدر على هداية العميان على الحق ، وردهم عن ضلالتهم ، بل ذلك إلى الله تعالى ، فإنه بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء ، ويهذى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وليس ذلك لأحد سواه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أى : خاضعون مستجيبون مطيعون ، فأولئك هم الذين يستمعون الحق ويتبعونه ، وهذا حلال المؤمنين ، والأول مثل الكافرين ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الانعام : ٣٦] .

وقد استدلت أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - بهذه الآية : ﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى ﴾ على توهيم عبد الله بن عمر فى روايته مخاطبة النبى ﷺ القتلى للذين ألقوا فى قلب بدر ، بعد ثلاثة أيام ، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم ، حتى قال له عمر : يا رسول الله ، ما تخاطب من قوم قد جِئُوا ؟ فقال : « والذى نفسى بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يجيبون » . وتأولته عائشة على أنه قال : « إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق » . وقال قتادة : أحياهم الله حتى سمعوا مقالته وتوبيخاً ونقمة . والصحيح عند العلماء رواية ابن عمر ، لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة ، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصححاً له ، عن ابن عباس مرفوعاً : « ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم ، كان يعرفه فى الدنيا ، فيسلم عليه ، إلا رد الله عليه روحه ، حتى يرد عليه السلام » (١) . وثبت عنه ﷺ أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له ، إذا انصرفوا عنه (٢) ، وقد شرع النبى ﷺ لأمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه فيقول المسلم : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين » (٣) ، وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد ، والسلف مجمعون على هذا .

وقد شرع السلام على الموتى ، والسلام على من لا يشعر ولا يعلم بالمسلم محال ، وقد علم النبى ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا : « سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين ، وإننا إن شاء الله بكم لاحقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية » ، فهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد ، وإن لم يسمع المسلم الرد ، والله أعلم .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾

ربع

بنيه تعالى على تنقل الإنسان فى أطوار الخلق حالا بعد حال ، فأصله من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، ثم يصير عظاماً ثم تكسى لحماً ، وينفخ فيه الروح ، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفاً نحيفاً واهن القوى ، ثم يشب قليلاً قليلاً حتى يكون صغيراً ، ثم حدثاً ، ثم مراهقاً ، ثم شاباً . وهو القوة بعد الضعف ، ثم يشرع فى النقص فيكتهل . ثم يشيخ ثم يهرم ، وهو الضعف بعد القوة ، فتضعف الهمة والحركة والبطش ، وتشيب اللمة ، وتتغير

(١) الاستذكار (٢ / ١٦٥) ، ونصه : « ما من أحد يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه فى الدنيا ، فسلم عليه ، إلا عرفه ورد عليه السلام » .

(٢) مسلم (٢٨٧٠ / ٧٠ ، ٧١) وأبو داود (٣٢٣١) وأحمد (٢ / ٣٤٧ ، ٤٤٥) .

(٣) مسلم (٢٤٩ / ٣٩) وأبو داود (٣٢٣٧) وأحمد (٢ / ٣٠٠ ، ٣٧٥) .

الصفات الظاهرة والباطنة ، ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْ بَعْدِ ضَعْفِ قُوَّةٍ ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أى : يفعل ما يشاء ويتصرف فى عبده بما يريد ، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

يخبر تعالى عن جهل الكفار فى الدنيا والآخرة ، وفى الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان ، وفى الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً ، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا فى الدنيا إلا ساعة واحدة ، ومقصودهم هم بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم يُنظروا حتى يُعذَر إليهم . قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ أى : فإرد عليهم المؤمنون العلماء فى الآخرة ، كما أقاموا عليهم حجة الله فى الدنيا ، فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعة : ﴿ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أى : فى كتاب الأعمال ﴿ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ أى : من يوم خلقتم إلى أن بعثتم ، ﴿ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . قال الله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ ﴾ أى : اعتذارهم عما فعلوا ، ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أى : ولا هم يرجعون فى الدنيا . كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يُسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت : ٢٤] .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطَلُونَ ﴾ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى : قد بينا لهم الحق ، ووضحناه لهم ، وضربنا لهم فيه الأمثال ليتبينوا الحق ويتبعوه . ﴿ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطَلُونَ ﴾ أى : لو رأوا أى آية كانت ، سواء كانت باقتراحهم أو غيره ، لا يؤمنون بها ، ويعتقدون أنها سحر وباطل ، كما قالوا فى انشقاق القمر ونحوه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] ، ولهذا قال هاهنا : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى : اصبر على مخالفتهم وعنادهم ، فإن الله منجز لك ما وعدك من نصره إياك ، وجعله العاقبة لك وعن اتباعك فى الدنيا والآخرة ، ﴿ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ أى : بل اثبت على ما بعثك الله به ، فإنه الحق الذى لا مرية فيه ، ولا تعدل عنه وليس فيما سواه هدى يتبع ، بل الحق كله منحصر فيه .

ما روى فى فضل هذه السورة الشريفة ، واستحباب قراءتها فى الفجر : روى الإمام أحمد

عن شبيب أبي روح ، يحدث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح فقرأ فيها الروم فأوهم ، فلما انصرف ، قال : « إنه يلبس علينا القرآن ، فإن أقواماً منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء ، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء » (١) . وهذا إسناد حسن ومتم حسن ، فيه سر عجيب . ونبأ غريب . وهو أنه ﷺ تأثر بنقصان وضوء من ائتم به ، فدل ذلك أن صلاة المأموم متعلقة بصلاة الإمام .

فهرس الموضوعات

الصفحة

الموضوع

الصفحة	الموضوع
	سورة الأعراف (٧)
٥	ربع : ﴿ اَلَمْحَصَّ ۝ كِتَابٌ اُنزِلَ اِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ لِي حُدُوكَ حَرَجٌ مِنْهُ ﴾
٥	إهلاك القرى لما كذبوا رسلهم
٧	وزن الأعمال يوم القيامة
٨	﴿ لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْاَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾
٨	شرف آدم ، وعداوة إبليس
٩	امتناع إبليس من السجود لآدم
١٠	هبوط إبليس وإنذار الله له
١٠	معاندة إبليس وتمرده وإغواؤه بنى البشر
١١	﴿ اَخْرَجْنَا مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ اَجْمَعِينَ ﴾
١٢	إباحة الله تعالى لآدم ﷺ وزوجته سكنى الجنة والاكل من جميع ثمارها
	أكل آدم ﷺ وزوجته من ثمار الجنة وظهور عورتها وتغطيتها لها ، ونهى الله لهما عن
١٢	الاكل من الشجرة وندمهما على ذلك
١٣	امتنان الله تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والرياش
١٤	تحذير الله بنى آدم من إبليس وقبيله
١٤	طواف المشركين بالبيت عراة وقولهم: ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ اَمْرًا نَبِيهَا ﴾
١٦	ربع: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾
١٦	أمر الله بنى آدم بأخذ الزينة عند كل مسجد وبالاكل والشرب دون إسراف
١٨	﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّٰهِ الَّتِي اَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾
١٨	﴿ قُلْ اِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ﴾
١٩	﴿ نَكَلِكُمْ اُمَّةً اَجَلٍ ﴾ وإنذار الله تعالى بنى آدم ببعثه إليهم رسلا مبشرين ومنذرين
١٩	﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي اُمَّمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْاِنْسِ فِي النَّارِ ﴾
	المكذبون بآيات الله والمستكبرون عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج
٢٠	الجمل فى سم الحيايط
٢٣	ذكر حال السعداء فى الجنة
٢٤	خطاب أهل الجنة أهل النار إذا استقروا فى الجنة
٢٥	بين الجنة والنار حجاب ومخاطبة أهل الأعراف أصحاب الجنة

- ٢٥ _____ ربيع : ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾
- ٢٦ _____ مخاطبة أهل الأعراف صناديد قريش وقادتهم
- ٢٧ _____ سؤال أهل النار أهل الجنة شرابهم وطعامهم
- ٢٧ _____ ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾
- ٢٨ _____ خلق الله تعالى السموات والأرض في ستة أيام واستوازه على العرش
- ٢٩ _____ ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾
- ٣١ _____ الله تعالى هو الذى يرسل الرياح وأنه وحده الرزاق ، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة
- ٣٢ _____ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾
- ٣٣ _____ ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾
- ٣٣ _____ ربيع : ﴿وَأَلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾
- ٣٣ _____ دعوة هود عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده
- ٣٥ _____ تمرد وعناد وطغيان عاد على هود عليه السلام
- ٣٦ _____ دعوة صالح عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده
- ٣٨ _____ عقر ثمود ناقة صالح عليه السلام
- ٣٩ _____ تقريع صالح عليه السلام لقومه بعد هلاكهم
- ٣٩ _____ ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾
- ٤٠ _____ جواب قوم لوط له ، وإنجاء الله إياه وقومه إلا امرأته
- ٤١ _____ دعوة شعيب عليه السلام قومه إلى عبادة الله وحده
- ٤٢ _____ نهى شعيب عليه السلام قومه عن قطع الطريق الحسى والمعنوى
- ٤٢ _____ الجزء - ٩ : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ﴾
- ٤٣ _____ إخبار الله تعالى عن شدة قوم شعيب وتمردهم وعتوهم
- ٤٤ _____ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾
- ٤٥ _____ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾
- ٤٥ _____ ﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَأَهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾
- ٤٦ _____ قصص الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أخبار القرى بعد إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين
- ٤٧ _____ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾
- ٤٨ _____ مناظرة موسى عليه السلام لفرعون
- ٤٨ _____ عصا موسى عليه السلام تنقلب إلى ثعبان ، والملا من قوم فرعون يتهمون موسى بالسحر
- ٤٩ _____ ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾
- ٤٩ _____ السحرة يسألون فرعون الأجر إن هم غلبوا ، ومبارزتهم موسى كلاميا
- ٥٠ _____ عصا موسى عليه السلام تلقف ما يأفكون ، وهزيمة منكرة للسحرة وإيمانهم بالله تعالى
- ٥٠ _____ ربيع : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾
- ٥٠ _____ وعيد فرعون لسحرته لما آمنوا بالله ربا وبموسى عليه السلام نبيا

- ٥٠ ما تمالا عليه فرعون وملؤه وما أضمره موسى ﷺ
- ٥٢ ﴿ وَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّتِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾
- ٥٢ إخبار الله تعالى عن تمرد قوم فرعون وعتوهم وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل
- ٥٣ إغراق الله تعالى لفرعون وجنوده في اليم، وإيراث الله بنى إسرائيل مشارق الأرض ومغاريها
- ٥٤ بعض أصحاب موسى ﷺ يطلبون منه أن يجعل لهم آلهة بعد أن أنجاهم الله من فرعون وقهره
- ٥٤ ﴿ قَالَ أَغْيِرَ اللَّهُ أَيْدِيَكُمْ إِلَيْهَا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾
- ٥٤ ربيع: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِبَشَرٍ﴾
- ٥٥ موسى ﷺ يسأل ربه الرؤيا
- ٥٧ اصطفاء الله تعالى لموسى ﷺ برسالته وبكلامه
- ٥٨ ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾
- ٥٩ ضلال من ضل من بنى إسرائيل في عبادتهم العجل
- ٥٩ ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾
- ٦٠ الذين عبدوا العجل من بنى إسرائيل لم يقبل الله لهم توبة وكتب عليهم الذل والصغار
- ٦١ سكوت الغضب عن موسى ﷺ، واختياره سبعين رجلا
- ٦١ ربيع: ﴿وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾
- ٦٢ رحمة الله تعالى وسعت كل شيء
- ٦٣ صفة الرسول النبي الأمي ﷺ في التوراة والإنجيل
- ٦٥ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾
- ٦٧ من قوم موسى ﷺ أمة يتبعون الحق ويعدلون به
- ٦٧ ﴿ وَقَطَعْنَا لَهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيطًا بِأَمْرٍ ﴾
- ٦٨ اليهود يحتالون على المخالفة لأمر الله تعالى في الصيد يوم السبت
- ٦٨ ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّوكُمْ شَيْئًا ﴾
- ٧٠ ﴿ وَقَطَعْنَا لَهُمُ فِي الْأَرْضِ أُمَّةً ﴾
- ٧١ ربيع: ﴿ وَإِذْ نَفَخْنَا الْجِبَلُ فَأَوْقَهُمُ كَأَنَّ ظُلْمًا ﴾
- ٧٢ استخراج الله تعالى ذرية بنى آدم من أصلابهم وشهودهم أن الله ربهم ومليكمهم
- ٧٥ ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا ﴾
- ٧٧ من هداه الله فإنه لا مضل له، ومن أضله فقد خاب وخسر
- ٧٧ ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾
- ٧٩ أسماء الله الحسنى
- ٨٠ توبيخ الله للمكذبين الذين لا ينظرون في ملكوت السموات والأرض
- ٨١ ﴿ مَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾
- ٨١ علم الساعة لا يعلمه إلا الله
- ٨٥ ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾

- ٨٦ ربيع: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾
 ٨٨ إنكار الله تعالى على المشركين الذين عبدوا غيره
 ٨٩ ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾
 ٩١ المتقون إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا الله فاستقاموا وصحوا
 ٩٣ أمر الله تعالى المسلمين بالإنصات عند تلاوة القرآن إعظماً له واحتراماً
 ٩٥ ذكر الله تعالى أول النهار وآخره

سورة الأنفال (٨)

- ٩٦ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾
 ٩٩ صفات المؤمنين
 ١٠٠ ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾
 ١٠٤ مناقشة النبي ﷺ ربه في غزوة بدر
 ١٠٦ نعم الله تعالى على المؤمنين في غزوة بدر
 ١٠٩ توعد الله تعالى للفارين من الزحف بالنار
 ١١١ أفعال العباد مخلوقة ، والله تعالى المحمود على جميع ما صدر عنهم من خير
 ١١٢ ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾
 ١١٢ ربيع: ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ﴾
 ١١٣ نداء الله تعالى للمؤمنين بالاستجابة له ولرسوله ﷺ
 ١١٤ ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾
 ١١٥ تكثير الله للمؤمنين بعد قتلهم وتقويته ونصره لهم بعد ضعفهم وخوفهم
 ١١٦ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾
 ١١٧ تقوى الله تعالى تجعل للإنسان مخرجاً من كل ضيق وتكفر السيئات وتغفر الذنوب
 ١١٨ محاولة تقييد النبي ﷺ أو قتله أو إخراجه من مكة
 ١١٩ تمرد قريش وعتوهم عند سماع آيات القرآن الكريم
 ١١٩ لم يعذب الله قريشاً لبركة مقام الرسول ﷺ بين أظهرهم
 ١٢٣ الكافرون ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله
 ١٢٤ ﴿قُلِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّهَمُوا يُفْتَرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾
 الجزء - ١٠ : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾
 ١٢٩ المسلمون بالعدوة الدنيا والمشركون بالعدوة القصوى
 ١٣١ المشركون قليل في أعين المسلمين والمسلمون كثير في أعين المشركين
 ١٣٢ طريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء
 أمر الله المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله وكثرة ذكره، ناهيهم عن التشبه بالمشركين في
 خروجهم من ديارهم

- فهرس الموضوعات _____ ١٣٣
- ١٣٤ _____ الملائكة تضرب وجوه الكفار وأدبارهم حين تتوفاهم
- ١٣٥ _____ ﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ _____
- ١٣٥ _____ الله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم
- ١٣٦ _____ شر الدواب على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون
- ١٣٦ _____ ﴿وَأَمَّا تَخَافُنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ _____
- ١٣٧ _____ الكفار تحت قهر قدرة الله تعالى وفي قبضة مشيئته فلا يعجزونه
- ١٣٨ _____ ربع : ﴿وَأَنْ جَحُوا لِلْسَّلَامِ فَاجْتَحِ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ _____
- ١٣٩ _____ تحريض الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال فهو كافيهم وناصرهم
- ١٤٠ _____ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يَبْغِيَنَّ فِي الْأَرْضِ﴾ _____
- ١٤٠ _____ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾ _____
- ١٤٢ _____ المؤمنون صنفان : مهاجرون وأنصار
- ١٤٣ _____ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ _____
- ١٤٤ _____ جزاء الله تعالى للمؤمنين بالمغفرة والصفح عن الذنوب وبالرزق الكريم فى الآخرة _____

سورة التوبة (٩)

- ١٤٥ _____ ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ _____
- ١٤٦ _____ ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ _____
- ١٤٧ _____ ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ _____
- ١٤٨ _____ الأشهر الحرم ، وانسلاخها وقتال المشركين بعدها
- ١٤٩ _____ إن طلب المشرك الأمان فى بلاد الإسلام فأجره حتى يسمع كلام الله
- ١٥٠ _____ ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ _____
- المشركون لا يراعون للمسلمين قرابة ولا عهدا، ويشترون بآيات الله ثمنا قليلا ، وعلى المؤمنين
- ١٥٠ _____ قتالهم إن نكثوا إيمانهم وطعنوا فى الدين
- ١٥١ _____ تهيج وتحضيض المؤمنين على قتال المشركين الناكثين لإيمانهم
- ١٥٣ _____ لا ينبغي للمشركين أن يعمروا مساجد الله
- ١٥٣ _____ ربع : ﴿أَجْعَلْتُمْ مَقَابِلَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ _____
- ١٥٤ _____ النهى عن موالاة الكفار ومبايعتهم وإن كانوا آباء أو أبناء
- ١٥٥ _____ فضل الله وإحسانه على المؤمنين فى غزوة حنين
- ١٥٧ _____ المشركون نجس ديناً لا يحل لهم أن يقربوا المسجد الحرام بعد سنة تسع
- ١٦٠ _____ إغراء الله للمؤمنين على قتال الكفار حينما قالوا : عزيز ابن الله والمسيح ابن الله
- ١٦١ _____ الكفار يريدون إطفاء نور الله بأفواههم ولن يستطيعوا
- ١٦٢ _____ ربع : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْيَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ _____
- ١٦٤ _____ عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا

- ١٦٦ ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾
- ١٦٧ عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك
- ١٦٨ ﴿إِلَّا تَتَصَرَّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾
- ١٦٩ نفير المؤمنين العام مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك
- ١٧٠ توبيخ الله تعالى للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك
- ١٧٠ ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ ﴾
- ١٧١ ريع: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لِأَعْدَا لَهُ عُدَّةٌ ﴾
- ١٧٢ تحريض الله تعالى لنبيه ﷺ على المنافقين
- ١٧٢ الجذ بن قيس يسأل رسول الله ﷺ عدم الخروج معه في غزوة تبوك
- ١٧٣ المنافقون يسوؤهم فتح ونصر وظفر المسلمين على أعدائهم ، ويفرحون بمصائبهم
- ١٧٣ ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنِ ﴾
- ١٧٤ ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴾
- ١٧٤ المنافقون يحلفون أنهم من المؤمنين وما هم كذلك
- ١٧٤ ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾
- ١٧٥ ريع: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾
- ١٧٧ المنافقون يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام ويقولون: هو أذن
- ١٧٨ ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ ﴾
- ١٧٨ ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ ﴾
- اثنان من المنافقين هما: ودیعة بن ثابت ومخشن بن حمير وما قالاه في أثناء خروجه ﷺ
- ١٧٨ إلى تبوك
- ١٧٩ المنافقون والمنافقات وصفاتهم المذمومة
- ١٧٩ ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً ﴾
- وعظ الله تعالى للمنافقين المكذبين بإهلاكه المكذبين من قوم نوح وعاد وثمود وإبراهيم ومدين
- ١٨٠ والمؤتفكات
- ١٨٠ المؤمنون والمؤمنات وصفاتهم المحمودة ومكانتهم في الجنة
- ١٨٢ أمر الله تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم
- ١٨٤ ريع: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾
- ١٨٤ من صفات المنافقين: اللمز من المتفقين المؤمنين والسخرية منهم
- ١٨٥ المنافقون ليسوا أهلاً للاستغفار
- ١٨٦ ذم الله تعالى للمنافقين المختلفين عن غزوة تبوك
- ١٨٧ عدم الإذن للمنافقين بالمشاركة في غزوة أخرى مع الرسول ﷺ وإن طلبوا ذلك
- ١٨٧ أمر الله تعالى إلى رسوله ﷺ بالبراء من المنافقين إلا يصلى على أحدهم إذا مات
- ١٨٩ ﴿ وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ ﴾

- فهرس الموضوعات ٨٣٥
- ١٩٠ ثناء الله تعالى للمؤمنين المشاركين في غزوة تبوك
- ١٩٠ ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾
- ١٩٠ الجزء - ١١ : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنَاءُ ﴾
- ١٩٢ ﴿ يَحْتَدِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾
- ١٩٢ في الأعراب كفار و منافقون و مؤمنون
- ١٩٣ رضا الله عز وجل عن المهاجرين و الأنصار و التابعين لهم بإحسان
- ١٩٣ ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ﴾
- ١٩٤ بيان حال المذنبين المتأخرين عن الجهاد كسلاً و ميلاً إلى الراحة مع إيمانهم و تصديقهم بالحق
- ١٩٥ ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾
- ١٩٦ ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾
- ١٩٦ الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك
- ١٩٧ مسجد الضرار و الهدف من بنائه
- ١٩٩ ﴿ أَقْمِنَ أُنْسٌ بِبَيَاتِهِ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ ﴾
- ١٩٩ ربيع : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾
- ٢٠٠ صفات المؤمنين الذين اشترى الله تعالى منهم أنفسهم و أموالهم
- ٢٠١ نهى الله تعالى للمؤمنين عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولى قربى
- ٢٠٢ ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ﴾
- ٢٠٢ ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾
- ٢٠٣ ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلْفُوا ﴾
- ٢٠٧ عتاب الله تعالى للمتخلفين عن غزوة تبوك من أهل المدينة و من حولها
- ٢٠٧ ﴿ وَلَا يُظْفَرُونَ لَفْفَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُنِبَ لَهُمْ ﴾
- ٢٠٧ ربيع : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآلَةً ﴾
- ٢٠٨ أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً بأول و الغلظة عليهم
- ٢١٠ ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَهْكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾
- ٢١٠ المنافقون اختبروا مرة أو مرتين في كل عام ثم لا يتوبون من ذنوبهم
- ٢١١ ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾

سورة يونس (١٠)

- ٢١٢ خلق الله تعالى السموات و الأرض في ستة أيام و استوازه على العرش
- ٢١٣ مرجع الخلائق كلهم يوم القيامة إلى الله تعالى
- ٢١٣ ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾
- ٢١٤ حال الأشقياء الذين كفروا بقاء الله يوم القيامة و الذين لا يرجون لقاءه
- ٢١٥ حال السعداء الذين آمنوا بالله تعالى فصدقوا المرسلين و عملوا الصالحات

- ٢١٥ ربيع: ﴿ وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْمَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ ﴾
- ٢١٦ ضجر الإنسان وقلقه إذا مسه الشر
- ٢١٦ ما حل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل بالرغم من وضوح البينات والحجج
- ٢١٧ الكفار والجاحدون الحق إذا قرئ عليهم القرآن قالوا للنبي ﷺ: اثنا بغيره
- ٢١٧ المفترون على الله تعالى كذباً لا يفلحون
- ٢١٩ المشركون يظنون أن آلهتهم تنفعهم شفاعتها عند الله تعالى ورد ذلك عليهم
- ٢٢٠ ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾
- ٢٢١ الناس إذا أصابتهم رحمة من الله تعالى بعد ضراء استهزؤوا وكذبوا
- ٢٢٢ ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَطَبَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾
- ٢٢٣ ربيع: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾
- ٢٢٤ عدل الله تعالى في الأشقياء فإنه يجازيهم على السيئة بمثلها
- ٢٢٤ ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ ﴾
- ٢٢٥ ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾
- ٢٢٦ ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعْبُدُ ﴾
- ٢٢٧ القرآن الكريم معجز ، عجز البشر على أن يأتوا بمثل سورة منه
- ٢٢٩ ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ ﴾
- ٢٢٩ ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ ﴾
- ٢٣٠ ﴿ وَإِنَّمَا نُزِّيكَ بِغَضِّ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَعُوقِكَ ﴾
- ٢٣٠ المشركون يستعجلون العذاب وسؤالهم عن وقته قبل التعمين مما لا فائدة لهم فيه
- ٢٣١ ربيع: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَنَقِي ﴾
- ٢٣١ الله تعالى مالك السموات والأرض ووعده حق واقع لا محالة
- ٢٣٢ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ﴾
- ٢٣٣ أحوال جميع الخلائق يعلمها الله تعالى في كل ساعة وأوان ولحظة
- ٢٣٣ صفات أولياء الله
- ٢٣٥ ﴿ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾
- ٢٣٥ ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ هُوَ الْعَلِيِّ ﴾
- ٢٣٦ ربيع: ﴿ وَأَتَىٰ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ ﴾
- ٢٣٧ ﴿ ثُمَّ بَحَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾
- ٢٣٧ ﴿ ثُمَّ بَحَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ ﴾
- ٢٣٨ سحرة فرعون وموسى عليه السلام
- ٢٣٩ ما آمن بموسى عليه السلام إلا قليل من قوم فرعون
- ٢٣٩ ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ﴾
- ٢٤٠ ﴿ وَأَرْحَمِنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبُوءَا لِلْقَوْمِكُمْ بِمِصْرَ بَهْتًا ﴾

- ٢٤٠ دعاء موسى عليه السلام على فرعون وملئه لما استمروا على ضلالهم وكفرهم
- ٢٤١ ربيع: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودَهُ ﴾
- ٢٤٢ نعم الله تعالى على بني إسرائيل الدينية والدنيوية
- ٢٤٤ ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾
- ٢٤٤ ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً آمَنَتْ فَأَفْعَمَها إِيْمَانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾
- ٢٤٥ ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾
- ٢٤٦ دعوة الله تعالى إلى خلقه للنظر في آلائه وما في السموات والأرض
- ٢٤٦ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شكٍ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾
- ٢٤٧ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

سورة هود (١١)

- ٢٤٨ ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾
- ٢٤٩ الجزء - ١٢: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾
- ٢٤٩ الله تعالى متكفل بأرزاق جميع الدواب
- ٢٥٠ ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾
- ياس الإنسان وقنوطه إذا أصابته شدة بعد نعمة وكفره وجحوده لماضى الحال كأنه لم ير
- ٢٥٢ خيراً قط
- ٢٥٢ ﴿ فَلَمَّا تَرَى تَارِكًا بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقًا بِهِ صَدْرُكَ ﴾
- ٢٥٣ المرازون يعطون بحسناتهم في الدنيا
- ٢٥٤ ﴿ أَقْمَنَ كَانَ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدًا مِنْهُ ﴾
- ٢٥٥ حال المفترين وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق
- ٢٥٦ ربيع: ﴿ مِثْلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ﴾
- ٢٥٧ نوح عليه السلام ودعوة قومه إلى عبادة الله تعالى الواحد
- ٢٥٨ إخبار نوح عليه السلام قومه بأنه على نبوة صادقة ورحمة عظيمة
- ٢٥٨ ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ﴾
- نوح عليه السلام يخبر قومه أنه لا يقدر على التصرف في خزائن الله تعالى ولا يعلم الغيب
- ٢٥٨ إلا ما أطلعه الله عليه، وليس بملك من الملائكة
- ٢٥٩ استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه
- ٢٥٩ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْ قُلْ إِنْ اقْرَأْتَهُ لَعَلِّي أْجْرًا مِی ﴾
- ٢٥٩ ﴿ وَأَوْحِي إِلَيَّ نُوحَ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾
- ٢٦٠ مواءمة الله تعالى لعبده نوح عليه السلام إذا جاء أمره من الامطار المتتابعة
- ٢٦٠ ربيع: ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾
- ٢٦٠ نوح عليه السلام وسفيته وولده الغريق

- ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾ ٢٦١
- نوح ﷺ يسأل ربه ولده ، ورد الله تعالى عليه في ذلك ٢٦٢
- سلام الله تعالى على نوح عليه السلام حين رست السفينة على الجودي ٢٦٢
- ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾ ٢٦٣
- هود ﷺ يدعو قومه إلى عباده الواحد الأحد ٢٦٣
- ﴿ قَالُوا يَا هُوْدُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَاتِنَا عَنْ قَوْلِكَ ﴾ ٢٦٣
- ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ ٢٦٤
- ريع : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ ٢٦٥
- مناظرة بين صالح عليه السلام وبين قومه ٢٦٥
- ﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةٌ لَكُمْ آيَةٌ فذُرُّوْهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ ﴾ ٢٦٥
- ﴿ وَوَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾ ٢٦٦
- ذهاب الروح عن إبراهيم عليه السلام وبشرى الملائكة له بالولد ٢٦٧
- ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيسَى بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ ٢٦٧
- لوط عليه السلام يتوعد قومه ، وإخبار الملائكة له بأنهم عضده من الله تعالى ٢٦٨
- ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ ٢٦٩
- ريع : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ ٢٦٩
- نهى شعيب عليه السلام قومه عن نقص المكيال والميزان ، وأمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط ٢٧٠
- ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبدُ آبَاؤُنَا ﴾ ٢٧١
- ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ ٢٧١
- ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ﴾ ٢٧٢
- قوم شعيب يتهمونه بالذلة والصغار ، وردة عليه السلام عليهم ٢٧٢
- ﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ٢٧٣
- رسالة موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه ٢٧٣
- ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرْآنِ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ ٢٧٤
- ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ ٢٧٤
- ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ ٢٧٥
- حال الأشقياء في الآخرة ٢٧٥
- ريع : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ٢٧٦
- ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ ٢٧٧
- أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة ٢٧٧
- الحسنات يذهبن السيئات ٢٧٨
- ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ﴾ ٢٧٩
- ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ ٢٧٩

٨٣٩	فهرس الموضوعات
٢٨٠	الغرض من قص أبناء الرسل تثبيت الفؤاد
٢٨٠	﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾
٢٨١	لا يعلم الغيب إلا الله وإليه يرجع الأمر كله

سورة يوسف (١٢)

٢٨٢	رؤيا يوسف عليه السلام وقصها على أبيه
٢٨٣	يعقوب عليه السلام ينصح يوسف بعدم قص رؤياه على إخوته
٢٨٣	اختيار الله تعالى ليوسف عليه السلام وتعليمه من تأويل الأحاديث
٢٨٤	ربع: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَائِلِينَ﴾
٢٨٤	حسد إخوة يوسف ليوسف عليه السلام
٢٨٤	﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾
٢٨٥	﴿قَالَ إِنِّي لَمَحْزُونٌ أَنْ تُذْهِبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ﴾
٢٨٥	﴿فَلَمَّا ذُهِبُوا بِهِ وَآجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ النَّجْبِ﴾
٢٨٦	أخوة يوسف يفترون على أبيهم يعقوب أكل الذئب لأخيهم يوسف
٢٨٧	بيع يوسف عليه السلام بثمن بخس
٢٨٧	عزير مصر يأمر امرأته بإكرام مثنوى يوسف عليه السلام
٢٨٨	امراة العزيز تراود يوسف عليه السلام عن نفسه فى بيتها بمصر
٢٨٩	﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾
٢٨٩	امراة العزيز تقد قميص يوسف عليه السلام من دبر ، وشهادة الشاهد
٢٩٠	ربع: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾
٢٩٢	تصميم القوم على سجن يوسف عليه السلام بعد علمهم براءته
٢٩٢	ساقى الملك وخبازه يدخلان السجن ورؤياهما
٢٩٣	يوسف عليه السلام يدعو الفتیان إلى عبادة الله وحده
٢٩٤	تأويل يوسف عليه السلام لرؤيا ساقى الملك وخبازه
٢٩٤	ملك مصر يرى رؤيا كانت سبباً فى خروج يوسف عليه السلام من السجن
٢٩٥	يوسف عليه السلام يمتنع من الخروج من السجن حتى يرى ساحته من حال النسوة وظهور براءته
٢٩٥	﴿وَمَا أَهْرَىٰ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾
٢٩٧	ملك مصر جعل يوسف عليه السلام من خاصته وأهل مشورته
٢٩٧	﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾
٢٩٧	أخوة يوسف يدخلون عليه وقصة الوزن
٢٩٨	﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾
٢٩٩	﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَهُمْ وُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾
٢٩٩	يعقوب عليه السلام يخاف على أولاده الحسد من أهل مصر

- ٢٩٩ ————— إخوة يوسف يدخلون عليه ومعهم أخوهم بنيامين
- ٣٠٠ ————— ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ﴾
- ٣٠٠ ————— الفتيان يتهمان إخوة يوسف بالسرقة ودرء ذلك
- ٣٠١ ————— ربيع: ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾
- ٣٠٢ ————— ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾
- ٣٠٢ ————— ﴿ فَلَمَّا اسْتَأْذَنُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾
- ٣٠٣ ————— ترجى يعقوب ﷺ عودة بنيه الثلاثة : يوسف وبنيامين وروبييل
- ٣٠٣ ————— ﴿ يَا بَنِي إِدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾
- ٣٠٤ ————— ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾
- يوسف ﷺ يعطى إخوته القميص ويأمرهم بإلقائه على وجه أبيهم الذي عمى من كثرة البكاء
- ٣٠٥ —————
- ٣٠٥ ————— ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ آتَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾
- ٣٠٥ ————— ورود يعقوب ﷺ وتقدمه بلاد مصر
- ٣٠٦ ————— ربيع: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾
- ٣٠٨ ————— ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾
- ٣٠٨ ————— ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾
- ٣٠٩ ————— ﴿ قُلْ هُدَىٰ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾
- ٣١٠ ————— رسل الله تعالى من الرجال لا من النساء وأنه سبحانه لم يوح إلى امرأة من بنات آدم
- ٣١١ ————— نصر الله تعالى ينزل على رسله عليهم السلام عند ضيق الحال
- ٣١٢ ————— ﴿ لَقَدْ كَانَ لِمِ قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

سورة الرعد (١٣)

- ٣١٣ ————— رفع السموات بغير عمد من كمال قدرة الله تعالى وعظيم سلطانه
- ذكر قدرته تعالى وحكمته وإحكامه للعالم السفلى بمداه الأرض وإرسائه الجبال وإجرائه الأنهار والعيون
- ٣١٤ —————
- ٣١٥ ————— ربيع: ﴿ وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾
- ٣١٥ ————— ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾
- ٣١٦ ————— كفر وعناد المشركين في قولهم : لولا يأتينا بأية من ربه كما أرسل الأولون
- ٣١٦ ————— ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾
- ٣١٨ ————— إحاطة علمه تعالى بجميع خلقه
- ٣١٩ ————— ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾
- ٣٢٠ ————— ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾
- ٣٢١ ————— ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾

- ٣٢١ الألهة المزعومة لا تملك لانفسها ولا لعابديها نفعاً ولا ضرراً ؛ لان الله تعالى هو النافع الضار —
- ٣٢١ الحق دائماً فى ثبات وبقاء والباطل دائماً فى اضمحلال وفناء _____
- ٣٢٣ مآل السعداء والاشقياء فى الآخرة _____
- ٣٢٣ ريع : ﴿ أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّكَ أَنْزَلْتَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ _____
- ٣٢٤ ﴿ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَقْضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ _____
- ٣٢٥ حال الاشقياء فى الآخرة وذكر مآلهم ومصيرهم _____
- ٣٢٥ الرزق بيده سبحانه يوسعه على من يشاء من عباده ويقتره على من يشاء _____
- ٣٢٦ ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ _____
- ٣٢٧ ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾ _____
- ٣٢٨ منزلة القرآن الكريم وفضله على سائر الكتب المنزلة قبله _____
- ٣٢٩ ﴿ وَتَقَدَّرَ اسْتَهْزَؤُا بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ _____
- ٣٢٩ ﴿ أَلَمْ نَكُنْ هُوَ قَائِمًا عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ _____
- ٣٣٠ ريع : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ _____
- ٣٣١ ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴾ _____
- ٣٣٢ ﴿ وَتَقَدَّرَ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ _____
- ٣٣٣ ﴿ وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بِمَعْضِ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تُرِيدُكَ ﴾ _____
- ٣٣٤ ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ _____
- ٣٣٤ ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ﴾ _____

سورة إبراهيم (١٤)

- ٣٣٦ من لطف الله تعالى على عباده أن أرسل إليهم رسله بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون _____
- ٣٣٧ ﴿ وَتَقَدَّرَ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ _____
- ٣٣٨ موسى عليه السلام يذكر قومه بأيام الله ونعمه عليهم _____
- ٣٣٩ ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ _____
- ٣٣٩ ريع : ﴿ قَالَتْ رَسُولُهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ شَكَّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ _____
- ٣٤٠ الأمم الكافرة تتوعد الرسل بالإخراج من أرضهم والنفى من بين أظهرهم _____
- ٣٤٢ مثل أعمال الكفار يوم القيامة كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف _____
- ٣٤٢ قدرة الله تعالى فى إعادة الأبدان يوم القيامة وخلقه السموات والأرض _____
- ٣٤٣ ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ _____
- ٣٤٤ إبليس لعنه الله يخاطب أتباعه بعد قضاء الله تعالى بين عباده يوم القيامة _____
- ٣٤٥ مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة _____
- ٣٤٦ ﴿ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ _____
- ٣٤٩ ريع : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ _____

- ٣٤٩ _____ الأمر بإقامة الصلاة والإنفاق في السر والعلانية
- ٣٥٠ _____ الله تعالى يُعِدُّ نِعْمَهُ عَلَى خَلْقِهِ _____
- ٣٥١ _____ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ﴾ _____
- ٣٥٢ _____ ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُرَادًا غَيْرَ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ _____
- ٣٥٢ _____ ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ﴾ _____
- ٣٥٣ _____ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ _____
- ٣٥٣ _____ ﴿ فَيَقُولَ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ _____
- ٣٥٤ _____ ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ مُخَلَّفًا وَعَدْدَهُ رُسُلَهُ ﴾ _____
- ٣٥٥ _____ ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ _____
- ٣٥٦ _____ ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَيَلْعَلُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ _____

سورة الحجر (١٥)

- ٣٥٧ _____ الجزء - ١٤ : ﴿ الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ﴾ _____
- ٣٥٧ _____ ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴾ _____
- ٣٥٨ _____ ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ _____
- ٣٥٨ _____ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعْبِ الْأَوَّلِينَ ﴾ _____
- ٣٥٨ _____ لو فتح الله تعالى للكافرين المكذبين باباً من السماء فصعدوا فيه لما صدقوا بذلك السماء جعلها الله تعالى بروجاً وحفظها من الشياطين ومد الأرض وجعل فيها رواسي وأثبت فيها كل شيء _____
- ٣٦٠ _____ ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ _____
- ٣٦١ _____ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْتَوِينَ ﴾ _____
- ٣٦١ _____ خلق الله تعالى لآدم عليه السلام وسجود الملائكة له وطرد إبليس من الجنة ووعد الله تعالى له _____
- ٣٦٢ _____ ربيع : ﴿ نَبِيَّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ _____
- ٣٦٣ _____ إبراهيم عليه السلام وخبر ضيفه _____
- ٣٦٤ _____ ﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴾ _____
- ٣٦٥ _____ لوط عليه السلام وأصحاب اللوطية وما حل بهم _____
- ٣٦٦ _____ انتقام الله تعالى من قوم شعيب عليه السلام (أصحاب الأيكة) _____
- ٣٦٦ _____ انتقام الله تعالى من قوم صالح (ثمود) _____
- ٣٦٧ _____ ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ _____
- ٣٦٧ _____ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ _____
- ٣٦٨ _____ ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ _____
- ٣٦٩ _____ الصدع بالحق والجهر بالدعوة _____

سورة النحل (١٦)

- ٣٧١ ربيع: ﴿ أَنَّى أَمَرَ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعِجَلُوهُ سُبْحَانَهُ ﴾
- ٣٧١ ﴿ يَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾
- ٣٧٢ خلق الله تعالى للعالمين العلوى والسفلى
- ٣٧٢ خلق الله تعالى للأنعام وما فيها من المصالح والمنافع
- ٣٧٣ ﴿ وَالْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾
- ٣٧٤ ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾
- ٣٧٤ نعمة الله تعالى على عباده فى إنزاله المطر عليهم من السماء
- ٣٧٤ تسخير الله تعالى الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم
- ٣٧٥ تذليل الله تعالى البحر المتلاطم الامواج للناس وتسخيره للركوب فيه والاكل منه
- الله تعالى يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر وسيجزي على الخير خيرا وعلى الشر شرا
- ٣٧٦ ﴿ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ ﴾
- ٣٧٦ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾
- ٣٧٧ ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ ﴾
- ٣٧٨ ﴿ الَّذِينَ تَوَلَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾
- ٣٧٨ ربيع: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ﴾
- ٣٧٩ ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾
- ٣٨٠ اغترار المشركين بما هم فيه من الشرك واعتذارهم محتجين بالقدر
- ٣٨١ المشركون يغلظون الايمان بالله: لا يبعث الله من يموت
- ٣٨١ ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾
- ٣٨٢ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾
- ٣٨٣ إنظار الله تعالى وحلمه بالعصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها
- ٣٨٤ عظمة الله تعالى وجلاله وكبرياؤه الذى خضع له كل شىء ودانت له كل المخلوقات
- ٣٨٤ ربيع: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهِينَ اثْنَيْنِ إِذْ مَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾
- ٣٨٥ ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَفْعَلُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾
- حلم الله تعالى بخلقهم مع ظلمهم ، وأنه سبحانه لو يؤاخذ الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها
- ٣٨٦ من دابة
- ٣٨٦ ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَوَجَدْنَاهُمْ لِشَيْطَانٍ أَغْمَالَهُمْ ﴾
- ٣٨٧ ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ﴾
- ٣٨٧ إلهام الله تعالى إلى النحل باتخاذ الجبال والشجر والعُرش بيوتا
- ٣٨٩ ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّاهُمْ ﴾

- ٣٨٩ _____ تفضيل الله تعالى بعض عباده على بعض فى الرزق
- ٣٩٠ _____ من نعم الله تعالى على الإنسان أن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من شكلهم وجنسهم
- ٣٩٠ _____ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾
- ٣٩٠ _____ ربيع: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾
- ٣٩١ _____ ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾
- ٣٩١ _____ اختصاص الله تعالى بعلم غيب السموات والأرض
- ٣٩٢ _____ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾
- ٣٩٣ _____ ﴿وَيَوْمَ نَبِّئُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا لِمَ لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾
- ٣٩٤ _____ ﴿وَيَوْمَ نَبِّئُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾
- ٣٩٥ _____ ربيع: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾
- ٣٩٦ _____ الوفاء بالمهود والمواثيق والمحافظة على الإيمان المؤكدة
- ٣٩٧ _____ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾
- ٣٩٨ _____ ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾
- ٣٩٩ _____ الأمر بالاستعادة بالله من الشيطان الرجيم لمن أراد قراءة القرآن الكريم
- ٣٩٩ _____ ﴿وَإِذَا بَدَأْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِلُ﴾
- ٤٠٠ _____ المشركون يتهمون النبي ﷺ بأن الذى يعلمه بشر
- ٤٠٠ _____ الله تعالى لا يهدى من اعرض عن ذكره وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ
- ٤٠١ _____ عمار بن ياسر رضِيَ اللهُ عَنْهُ لما نطق بكلمة الكفر مكرهاً
- ٤٠١ _____ ربيع: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تَجَادُلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾
- ٤٠٢ _____ ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾
- ٤٠٣ _____ أمر الله تعالى عباده المؤمنين بأكل رزقه الطيب الحلال وشكره على ذلك
- ٤٠٣ _____ ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾
- ٤٠٤ _____ مدح الله تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم عليه السلام
- ٤٠٤ _____ ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾
- ٤٠٥ _____ الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن
- ٤٠٥ _____ العدل فى الاقتصاص والمائلة فى استيفاء الحق

سورة سبحان (١٧)

- ٤٠٧ _____ الجزء - ١٥: ﴿سَبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾
- ٤٠٩ _____ رواية أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة فى الإسراء
- ٤١١ _____ رواية أنس بن مالك عن أبى ذر فى الإسراء
- ٤١٢ _____ رواية أنس بن مالك عن أبى بن كعب الأنصارى فى الإسراء
- ٤١٣ _____ رواية جابر بن عبد الله رضِيَ اللهُ عَنْهُ فى الإسراء

- ٤١٣ رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنه في الإسراء
- ٤١٥ رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في الإسراء
- ٤١٦ رواية عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في الإسراء
- ٤١٨ التوراة جعلها الله هدى لبني إسرائيل وهي كتاب موسى عليه السلام
- ٤١٩ ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّةً مَّرَّةً ﴾
- ٤٢٠ القرآن الكريم يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل
- ٤٢١ عجلة الإنسان ودعاؤه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالموت أو الهلاك
- ٤٢١ الليل والنهار آيتان من آيات الله تعالى لعباده
- ٤٢٢ ﴿ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْمَنَاتُهُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ ﴾
- ٤٢٣ ﴿ مَن اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾
- ٤٢٥ ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَلِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾
- ٤٢٥ ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ﴾
- ٤٢٦ من أراد الدنيا سعى إليها ونالها ومن أراد الآخرة سعى لها ونالها
- ٤٢٧ ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾
- ٤٢٧ ربيع: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾
- ٤٢٨ ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾
- ٤٢٨ الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام
- ٤٢٩ الاقتصاد في العيش ودم البخل
- ٤٣٠ ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾
- ٤٣٠ نهى الله عباده عن الزنا وعن مقاربتة وأسبابه ودواعيه
- ٤٣١ النهى عن قتل النفس بغير حق شرعى
- ٤٣١ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾
- ٤٣٢ ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾
- ٤٣٢ النهى عن التجبر والتبختر في المشية
- ٤٣٢ ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَرْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾
- ٤٣٣ رد الله تعالى على المشركين زعمهم أن الملائكة بنات الله
- ٤٣٣ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا ﴾
- ٤٣٣ ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَآتَيْنَا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ مَنبِلًا ﴾
- ٤٣٤ السموات السبع والأرض وما فيهن تسبح له تعالى
- ٤٣٤ ﴿ وَإِذَا قُرَأَتِ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسُورًا ﴾
- ٤٣٥ رؤساء قريش يصفون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسحر حين سماعهم القرآن
- ٤٣٦ ربيع: ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾
- ٤٣٧ ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

- ٤٣٨ ﴿ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأُ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حُمْرًا مُّطَوَّرًا ﴾
- ٤٣٨ ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾
- ٤٣٩ ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾
- ٤٤٠ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾
- ٤٤١ عداوة إبليس لعنه الله لأدم عليه السلام وذريته قديمة منذ خلق آدم
- ٤٤١ ﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ ﴾
- ٤٤٣ تسخير الله تعالى لعباده الفلك في البحر وتسهيله لمصالحهم
- ٤٤٣ ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ ﴾
- ٤٤٣ ﴿ فَأَمَّا نِسْوَةٌ فِي الْبَعْرِ أَنَّهَا تُغْتَابُ بِكُمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ بِهَا مُشْتَبُونَ ﴾
- ٤٤٣ ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى ﴾
- ٤٤٤ ربع : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَعْرِ وَالْبَحْرِ ﴾
- ٤٤٤ ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِسْمِهِمْ ﴾
- ٤٤٥ عصمة الله تعالى وتبشيره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم من شر الأشرار وكيد الفجار
- ٤٤٥ هم كفار قريش بإخراج الرسول صلى الله عليه وسلم من بين أظهرهم
- ٤٤٦ ﴿ أَمِ السَّلَاةُ لِلذَّكَاءِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾
- ٤٤٧ الأحاديث الواردة في المقام المحمود
- ٤٥٠ ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾
- ٤٥١ القرآن الكريم شفاء ورحمة للمؤمنين
- ٤٥١ نقص الإنسان من حيث هو في حالة السراء والضراء
- ٤٥٢ الروح من أمر الله تعالى
- ٤٥٣ ﴿ وَتَنْ نُنْفِثُهَا بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾
- ٤٥٣ ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبْرُوعًا ﴾
- ٤٥٦ ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾
- ٤٥٧ ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾
- ٤٥٧ الله تعالى هو الهادي وحده فمن هداه فلا مضل له
- ٤٥٧ ربع : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾
- ٤٥٨ ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾
- ٤٥٨ آيات موسى عليه السلام التسع
- ٤٥٩ ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلَ ﴾
- ٤٦٠ ﴿ قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ﴾
- ٤٦٠ ﴿ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾

سورة الكهف (١٨)

- ٤٦٢ ذكر ما ورد في فضلها والعشر الآيات من أولها وآخرها وأنها عصمة من الدجال
- ٤٦٢ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾
- ٤٦٣ ﴿ فَلَمَّا بَايَعْتَ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾
- ٤٦٤ قصة أصحاب الكهف
- ٤٦٧ ربيع : ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوِرُّ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ﴾
- ٤٦٨ ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ آيَاتًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾
- ٤٦٩ ﴿ وَكَذَلِكَ بَخَّسْنَا لَيْسَاءَ لَوْلَا بَيْنَهُمْ ﴾
- ٤٦٩ ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْرَجْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾
- ٤٧٠ ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾
- ٤٧١ ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكِ غَدًا ﴾
- ٤٧٢ مقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم منذ رقدتهم إلى أن بعثهم الله تعالى
- ٤٧٢ ﴿ وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾
- ٤٧٣ ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ﴾
- ٤٧٣ ثناء الله تعالى على السعداء الذين آمنوا به وصدقوا رسله
- ٤٧٤ ربيع : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾
- ٤٧٥ ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ﴾
- ٤٧٦ ﴿ وَأَحْيَطَ بِشَمْرِهٖ فَاصْبِرْ يَقْبُ كَذِبِهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا ﴾
- ٤٧٧ مثل الحياة الدنيا كماء أنزل من السماء فاختلط به نبات الأرض
- ٤٧٨ أهوال يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظام
- ٤٧٩ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾
- ٤٨٠ ربيع : ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾
- مخاطبة الله تعالى المشركين يوم القيامة موبخا ومقرعا لهم : نادوا شركائى الذين اتخذتموهم
- ٤٨١ آلهة دونى
- ٤٨١ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾
- ٤٨٢ تمرد الكفار فى قديم الزمان وحديثه وتكذيبهم بالحق بالرغم من وضوح الدلالات لهم
- ٤٨٢ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾
- ٤٨٣ موسى عليه السلام وفتاه يوشع بن نون
- ٤٨٥ موسى عليه السلام ومصاحبة الخضر
- ٤٨٦ ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾
- ٤٨٦ الجزء - ١٦ : ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾
- ٤٨٦ ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلِهَا فَابْرَأَ أَنْ يَضَيَّرَهُمَا ﴾

- ٤٨٧ _____ تفسير ما أشكل على موسى من أمر السفينة والغلام والجدار
- ٤٨٩ _____ خبر ذى القرنين
- ٤٩٠ _____ ﴿ فَاتَّعِ سَبِيًّا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَرْغَبَ الشَّمْسِ ﴾
- ٤٩١ _____ ﴿ ثُمَّ اتَّعِ سَبِيًّا (٨٦) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ﴾
- ٤٩١ _____ ﴿ ثُمَّ اتَّعِ سَبِيًّا (٨٧) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾
- ٤٩٢ _____ ربع: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾
- ٤٩٣ _____ جهنم تعرض على الكافرين عرضا يوم القيامة
- ٤٩٤ _____ ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾
- ٤٩٥ _____ السعداء لهم جنات الفردوس فى الآخرة
- ٤٩٥ _____ لو جعلت مياه البحر مدادا للقلم الذى يكتب به كلمات الله وحكمه لنفد الماء قبل أن تنفذ
- ٤٩٥ _____ بشرية الرسول ﷺ

سورة مريم (١٩)

- ٤٩٧ _____ ﴿ كَتَبْنَا مَرِيَمَ (١) ذِكْرَ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِيَّا ﴾
- ٤٩٨ _____ زكريا عليه السلا وبشرى الملائكة له يحيى عليه السلا وتعجبه من ذلك وعلامته
- ٤٩٩ _____ ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾
- ٥٠٠ _____ مريم عليها السلام ومعجزة عيسى
- ٥٠١ _____ ربع: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾
- ٥٠٢ _____ ﴿ فَأَادَاهَا مِنَ تَحْتِهَا الْأُتْرُقَ ﴾
- ٥٠٣ _____ مريم عليها السلام تأتى بصبيها ، ومعجزة عيسى عليه السلام بكلامه وهو صبي
- ٥٠٤ _____ ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾
- ٥٠٥ _____ ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾
- ٥٠٦ _____ إبراهيم عليه السلام ونصحه لآبيه واستغفاره له
- ٥٠٧ _____ هبة الله تعالى نبيه إبراهيم عليه السلام إسحاق ويعقوب بعد أن اعتزل أباه
- ٥٠٨ _____ تعضيد الله تعالى لموسى بأخيه هارون بعد مناداته تعالى له وإخلاصه
- ٥٠٩ _____ ثناء الله تعالى على عبده ورسوله إسماعيل عليه السلام
- ٥١٠ _____ ثناء الله تعالى على عبده ورسوله إدريس عليه السلام
- ٥١٠ _____ ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ ﴾
- ٥١١ _____ ربع: ﴿ فَخَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفَ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ ﴾
- ٥١٢ _____ التائبون إلى الله تعالى يدخلون جنات عدن ، ولا يسمعون فيها لغوا
- ٥١٣ _____ ﴿ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾
- ٥١٤ _____ تعجب الإنسان واستعباده إعادته بعد الموت وقسم الله تعالى بحشره وإعادته
- ٥١٥ _____ بنو البشر واردون كلهم على ظهر جهنم

- فهرس الموضوعات ٨٤٩
- ﴿ وَإِذَا تَطَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ ﴾ ٥١٦
- ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ ٥١٧
- المهتدون يزيدهم الله هدى ٥١٧
- ﴿ أفرعيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا ﴾ ٥١٨
- الكفار المشركون يوهمون أنفسهم بأن الآلهة المزعومة عز لهم ونصر ورد ذلك عليهم ٥١٨
- المتقون يحشرون يوم القيامة ركبانا ، والمجرمون يساقون عضا ٥١٩
- ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ ٥٢٠
- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ ٥٢٠

سورة طه (٢٠)

- ربع: ﴿ طه ١٠٠ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ ٥٢٢
- ذكر قصة موسى عليه السلام ٥٢٣
- عصا موسى عليه السلام وانقلابها حية تسعى ٥٢٣
- إرسال الله تعالى موسى إلى فرعون وتعضيده بهارون له ويرا ٥٢٥
- ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ ٥٢٧
- ﴿ فَلَبِثَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلِيَّ قَدْرِيَا مُوسَى ﴾ ٥٢٨
- خوف موسى وهارون عليهما السلام من بطش فرعون ، وحماية الله تعالى لهما ٥٢٨
- بين موسى عليه السلام وبين فرعون في شأن الله تعالى ٥٢٩
- ربع: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ ٥٣٠
- فرعون يتهم موسى عليه السلام بالسحر ، وتوعده له بالإتيان بسحر مثله ٥٣١
- ﴿ قَوْلِي لِرَعْوَنَ فَجَمْعُ كَيْدِهِ ثَمَّ أَتَى ﴾ ٥٣١
- بين موسى عليه السلام وبين سحرة فرعون وإيمانهم برب هارون وموسى ٥٣٢
- فرعون يهدد سحرته بتقطيع الأيدي والأرجل وبالعذاب الشديد ، وتحدى السحرة لتهديده ،
وتفضيلهم الله تعالى عليه ٥٣٣
- وعظ السحرة لفرعون ٥٣٤
- ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ ٥٣٥
- نجاة الله تعالى لبني إسرائيل من بطش فرعون وإنزاله عليهم المن والسلوى ٥٣٥
- ربع: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴾ ٥٣٦
- ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ﴾ ٥٣٨
- ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴾ ٥٣٨
- موسى عليه السلام والسامري ٥٣٩
- ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾ ٥٣٩
- ﴿ يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ ٥٤٠

- ٥٤١ _____ ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾
 ٥٤١ _____ ربع: ﴿ وَعَسَىٰ أَنزَلَهُ لِتَكْفُرَ الْفُجُورِ ﴾
 ٥٤٢ _____ ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾
 ٥٤٣ _____ سجود الملائكة لآدم عليه السلام واستكبار إبليس، وأكل آدم وزوجته من شجرة الجنة
 ٥٤٤ _____ ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾
 ٥٤٥ _____ ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾
 ٥٤٥ _____ ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ ﴾
 ٥٤٦ _____ ﴿ وَلَا تُمَدِّدْ عَيْنِيكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾
 ٥٤٧ _____ ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَا آتِنَا بآيَةً مِنْ رَبِّهِ ﴾

سورة الأنبياء (٢١)

- الجزء - ١٧ : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ ٥٤٩ _____
 ٥٥٠ _____ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ ﴾
 ٥٥١ _____ ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾
 ٥٥٢ _____ المشركون لا يحيون موتى ولا ينشرونهم من الأرض
 ٥٥٣ _____ ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾
 ٥٥٣ _____ ربع: ﴿ وَمَنْ يُقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلَذِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾
 ٥٥٤ _____ قدرة الله تعالى وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء وقهره لجميع المخلوقات
 ٥٥٥ _____ ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّهِمْ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ ﴾
 ٥٥٦ _____ ﴿ وَإِذَا رَأَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾
 ٥٥٦ _____ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾
 ٥٥٧ _____ ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِنا مِنْ قَبْلِكَ ﴾
 ٥٥٧ _____ ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾
 ٥٥٩ _____ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّطِنِينَ ﴾
 ٥٥٩ _____ ربع: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلِنا وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾
 ٥٦٠ _____ إبراهيم عليه السلام يقسم على تكسير الأصنام، وذكر ما دار بينه وبين قومه
 ٥٦١ _____ إبراهيم عليه السلام يتأفف مما يعبد قومه
 ٥٦٢ _____ قوم إبراهيم عليه السلام يلقونه في النار، وإعجاز الله تعالى في ذلك
 ٥٦٣ _____ ﴿ وَنَجِّنَاهُ نُوحًا وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ﴾
 ٥٦٣ _____ استجابة الله تعالى لعبده ونبيه نوح عليه السلام حين دعا على قومه لما كذبوه
 ٥٦٣ _____ داود وسليمان عليهما السلام وحكهما في الحرب
 ٥٦٥ _____ ربع: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ﴾
 ٥٦٦ _____ ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ﴾

- ٥٦٦ يونس بن متى عليه السلام واستجابة الله تعالى لدعائه _____
- ٥٦٧ ﴿وَوَكِّرِيَا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ _____
- ٥٦٨ مريم البتول وابنها عيسى عليه السلام _____
- ٥٦٨ ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾ _____
- ٥٦٩ ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ _____
- ٥٦٩ أحاديث متعددة فى ذكر يأجوج ومأجوج _____
- ٥٧٢ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ _____
- ٥٧٣ يوم القيامة تطوى السماء كطى السجل للكتب _____
- ٥٧٤ ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ _____
- ٥٧٥ ﴿قُلْ إِنَّمَا يُرِثُهَا إِلَهِي إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ _____

سورة الحج (٢٢)

- ٥٧٦ أهوال يوم القيامة _____
- ٥٧٨ ذم الله تعالى للمكذبين بالبعث والمنكرين قدرته على إحياء الموتى _____
- ٥٧٩ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ﴾ _____
- ٥٨٠ حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع _____
- ٥٨١ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ _____
- ٥٨٢ الأبرار السعداء وسكنى الدرجات العاليات فى رياضات الجنات _____
- ٥٨٢ ﴿مَن كَانَ يَظُنْ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ _____
- ٥٨٣ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ﴾ _____
- ٥٨٣ كل من فى السموات والارض يسجد لله تعالى _____
- ٥٨٤ ربع: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ _____
- ٥٨٥ ذكر حال أهل الجنة _____
- ٥٨٦ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ _____
- ٥٨٧ ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ _____
- ٥٨٩ ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ _____
- ٥٩١ ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعْظِمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ _____
- ٥٩٢ ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعْظِمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ _____
- ٥٩٣ لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً فى جميع الملل _____
- ٥٩٣ ذبح البدن من شعائر الله _____
- ٥٩٦ ﴿لَن يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِن يَبَالُ تَقْوَىٰ مَنِكُمْ﴾ _____
- ٥٩٧ ربع: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ _____
- ٥٩٧ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ _____

- ٥٩٩ ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾
- ٦٠٠ ﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾
- ٦٠١ ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾
- ٦٠١ الكفار يستعجلون وقوع العذاب بهم
- ٦٠٢ قصة الغرانيق
- ٦٠٣ ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾
- ٦٠٤ ربيع: ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عَرَّفَ بِهِ ثُمَّ بَغِيَ عَلَيْهِ لَيَصْرَثَهُ اللَّهُ ﴾
- ٦٠٤ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾
- ٦٠٥ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً ﴾
- ٦٠٦ جعل الله تعالى لكل قوم منسكا
- ٦٠٧ إحاطة علم الله تعالى بمن في السموات ومن في الأرض
- ٦٠٧ ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾
- ٦٠٨ حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها
- ٦٠٩ ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾
- ٦٠٩ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾

سورة المؤمنون (٢٣)

- الجزء - ١٨: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ٦١١
- ٦١١ صفات المؤمنين
- ٦١٣ ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين
- ٦١٤ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا قَوْمَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقٍ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾
- ٦١٥ تذكير الله تعالى عباده بنعمه التي لا تعد ولا تحصى فى إنزاله المطر
- ٦١٦ نوح ﷺ ودعوته قومه إلى عبادة الله وحده
- ٦١٧ صنع نوح ﷺ السفينة وإنجاءه الله تعالى المؤمنين معه وإهلاك الكافرين
- ٦١٨ ربيع: ﴿ هِيَئَاتِ هِيَئَاتٍ لَمَّا تُوَعَّدُونَ ﴾
- ٦١٨ ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرُونًا آخَرِينَ ﴾
- ٦١٩ موسى وهارون عليهما السلام وبعثهما إلى فرعون وقومه
- ٦١٩ جعل الله تعالى عيسى ابن مريم وأمه آية للناس
- ٦٢٠ أمر الله تعالى عباده المرسلين عليهم السلام بالاكل من الحلال والقيام بصالح الأعمال
- ٦٢١ من صفات المؤمنين
- ٦٢٢ من عدل الله تعالى أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها
- ٦٢٣ ربيع: ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ بِعَمَهُونَ ﴾
- ٦٢٦ ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾

- ٦٢٧ وحدانيته تعالى واستقلاله وتصرفه فى الخلق
- ٦٢٨ ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾
- ٦٢٩ صيغة الدعاء إلى الله تعالى عند حلول النقم
- ٦٣٠ حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين فى أمر الله تعالى وقيلهم عند ذلك
- ٦٣١ ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾
- ٦٣٢ تقريع الله تعالى وتوبيخه لأهل النار على ما ارتكبه من الكفر فى الدنيا
- ٦٣٢ سؤال الكفار الله تعالى الخروج من النار والرجعة إلى الدنيا ورد الله تعالى على ذلك
- ٦٣٣ ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾
- ٦٣٣ ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾

سورة النور (٢٤)

- ٦٣٤ ريع : ﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾
- ٦٣٦ ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً ﴾
- ٦٣٧ حكم جلد القاذف للمحصنة
- ٦٣٧ حكم قذف الزوج لزوجته (الملاعة)
- ٦٤١ حديث الإفك
- ٦٤٧ تأديب الله تعالى للمؤمنين فى حديث الإفك
- ٦٤٨ ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾
- ٦٤٨ تأديب آخر من الله تعالى للمؤمنين
- ٦٤٩ ريع : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾
- ٦٥٠ ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولَئِكَ الْفُضْلَ مِنْكُمْ وَالسَّمْعَ أَنْ يُوتُوا أُولَى الْقُرْبَى ﴾
- ٦٥٠ وعيد الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالزنا
- ٦٥١ ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾
- ٦٥٢ آداب شرعية فى الاستئذان
- ٦٥٤ أمر الله تعالى لعباده المؤمنين بغض البصر عما حرم عليهم
- ٦٥٦ أمر الله تعالى للنساء المؤمنات بغض البصر وعدم إبداء زينتهن إلا لأصناف معينة
- ٦٥٩ ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾
- ٦٦٢ ريع : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾
- ٦٦٣ ﴿ فِي بَيْتِ أَوْسٍ أَوْ كِنَانٍ ﴾
- ٦٦٧ ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً ﴾
- ٦٦٨ كل من فى السموات والأرض يسبح لله تعالى
- ٦٦٩ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾
- ٦٦٩ ذكر قدرة الله تعالى فى خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها

- ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ٦٧٠
- صفات المنافقين ٦٧٠
- ربع : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ﴾ ٦٧١
- وعد الله تعالى لامة الرسول ﷺ بأنهم خلفاؤه فى الارض وبهم تصلح البلاد وتخضع لهم العباد وليبدلتهم من بعد خوفهم أمنا ٦٧٢
- ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ ٦٧٤
- استئذان الاقارب بعضهم على بعض ٦٧٥
- ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ ﴾ ٦٧٦
- الاستئذان عند الانصراف ٦٧٨
- ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ ٦٧٨
- الله تعالى مالك السموات والارض وأنه عالم الغيب والشهادة ٦٨٠

سورة الفرقان (٢٥)

- ربع : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ ٦٨١
- ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ ٦٨٢
- سخافة عقول الجهلة من الكفار فى قولهم عن القرآن: إنه إفك ٦٨٢
- تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ٦٨٣
- ﴿ قُلْ أَذْكَاءٌ خَيْرٌ أَمْ جِنَّةٌ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُظَنُّونَ ﴾ ٦٨٤
- ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ٦٨٥
- ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ ٦٨٦
- الجزء - ١٩ : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا تَوَلَّوْنَا نَزَّلْنَا عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾ ٦٨٧
- من أهوال يوم القيامة : تشقق السماء وتفطرها وانفراجها بالغمام ٦٨٩
- ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ ٦٩٠
- كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم وكلامهم فيما لا يعنيههم ٦٩١
- ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴾ ٦٩٢
- استهزاء المشركين بالرسول ﷺ إذا رآه ٦٩٣
- ذكر الأدلة الدالة على وجوده سبحانه على خلقه الاشياء المختلفة والمتضادة ٦٩٤
- ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ ٦٩٥
- ربع : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ ٦٩٦
- ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ ٦٩٧
- ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ ٦٩٩
- صفات عباد الرحمن ٧٠٠
- جزاء عباد الرحمن فى الآخرة ٧٠٥

سورة الشعراء (٢٦)

- ٧٠٧ ريع : ﴿ طَسَمَ ١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾
- ٧٠٨ موسى عليه السلام وفرعون والمحاورة التي دارت بينهما
- ٧٠٩ كفر فرعون وتمرده وطغيانه وجحوده
- ٧١٠ فرعون يهدد موسى عليه السلام بالسجن ومعجزة العصا واليد
- ٧١١ مناظرة فعلية بين موسى عليه السلام وبين سحرة فرعون، وسجود السحرة وإيمانهم بالله تعالى
- ٧١٢ تهديد ووعيد فرعون لسحرته المؤمنين حديثا وتحذيرهم له
- ٧١٣ ريع : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ﴾
- ٧١٣ ضرب موسى عليه السلام البحر وعصاه وإنجاء الله تعالى للمؤمنين وإغراقه لفرعون وجنده
- ٧١٤ ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾
- ٧١٥ ﴿ الَّذِي خَلَقْنَاهُ مِن نُّورٍ يُهْدِينِ ﴾
- ٧١٦ سؤال إبراهيم عليه السلام ربه أن يؤتيه حكماً
- ٧١٧ ﴿ وَأَزَلَّكَ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ ٢٥ وَبَرَزْتَ الْجَحِيمَ لِلْغَاوِينَ ﴾
- ٧١٨ دعوة نوح عليه السلام قومه إلى تقوى الله تعالى
- ٧١٩ ريع : ﴿ قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾
- ٧١٩ ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾
- ٧٢٠ دعوة هود عليه السلام قومه إلى تقوى الله تعالى وتذكيره لهم بنعم الله تعالى عليهم
- ٧٢١ جواب قوم هود له بعدما حذرهم وأنذرهم ورغبهم ورهبهم
- ٧٢٢ دعوة صالح عليه السلام قومه إلى تقوى الله تعالى ووعظه وتحذيره إياهم
- ٧٢٣ جواب قوم صالح له ووصفهم له بأنه من المسحرين وقصة الناقة وعقرها
- ٧٢٤ دعوة لوط عليه السلام قومه إلى تقوى الله تعالى
- ٧٢٤ لوط عليه السلام ينهى قومه عن ارتكاب الفواحش وغشيانهم الذكور
- ٧٢٥ دعوة شعيب عليه السلام قومه إلى تقوى الله تعالى
- ٧٢٥ ريع : ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴾
- ٧٢٦ جواب قوم شعيب له بعد نصحه لهم بإيفاء الكيل والميزان
- ٧٢٦ ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾
- ٧٢٧ ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأُولَىٰ ﴾
- ٧٢٨ ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾
- ٧٢٩ ﴿ وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾
- ٧٣٠ ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ﴾
- ٧٣٢ ﴿ هَلْ أَنْتُمْ عَلَىٰ مِنَ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ ﴾

سورة النمل (٢٧)

- ٧٣٦ ريع : ﴿ طَسَّتْ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابِ مُبِينٍ ﴾
- ٧٣٧ ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاءَتِ كَلِمَاتُهَا يُبْخِرُ ﴾
- النعيم الجزيلة والمواهب الجليلة والصفات الجميلة التي أعطاها الله لعبده ونبيه داود وابنه سليمان عليهما السلام
- ٧٣٩ ﴿ وَتَقَفَّ الطَّيْرُ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ ﴾
- ٧٤١ الهدهد يأتي سليمان عليه السلام بأخبار ملكة سبأ وسجودها وقومها للشمس من دون الله
- ٧٤٢ ريع : ﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾
- ٧٤٣ ملكة سبأ تطلب الفتوى من أهل حاشيتها لما قرأت كتاب سليمان عليه السلام عليهم
- ٧٤٤ ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالِ اللَّهِ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرًا مِمَّا آتَاكُمْ ﴾
- ٧٤٥ ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾
- ٧٤٦ ﴿ قَالَ نَكْرَهُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾
- ٧٤٧ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ نُمُودٍ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾
- ٧٤٨ ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْمَةٌ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾
- ٧٤٩ الجزء - ٢٠ : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ ﴾
- ٧٤٩ ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ﴾
- ٧٥١ ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلْ خَلَالَهَا أَنْهَارًا ﴾
- ٧٥١ الله تعالى هو المدعو عند الشدائد ، المرجو عند النوازل
- ٧٥٢ ﴿ أَمْ نَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾
- ٧٥٣ ﴿ أَمْ نَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ نُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾
- ٧٥٣ ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾
- ٧٥٤ استبعاد منكرى البعث إعادة الأجساد ورد الله تعالى عليهم ذلك
- ٧٥٥ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾
- ٧٥٥ ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنُ يَنْقُصُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَفُونَ ﴾
- ٧٥٦ ريع : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾
- ٧٥٧ ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بَيِّنَاتِنَا ﴾
- ٧٥٨ ﴿ وَيَوْمَ يَفْخُ فِي الصُّورِ فَفَرَعٌ مِّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾
- ٧٦٠ ﴿ إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ﴾

سورة القصص (٢٨)

- ٧٦١ ﴿ طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾
- ٧٦٢ ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾

- فهرس الموضوعات ٨٥٧
- ٧٦٣ ريع: ﴿ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلَ ﴾
- ٧٦٤ إعطاء الله تعالى موسى الحكمة والعلم وقصة القبطى الذى قتله موسى عليه السلام
- ٧٦٥ ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾
- ٧٦٥ ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾
- ٧٦٦ ﴿ فَبَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾
- ٧٦٨ ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾
- ٧٦٩ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾
- ٧٧٠ ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى ﴾
- ٧٧١ كفر فرعون وافتراؤه وطغيانه فى دعوى الإلهية لنفسه القبيحة
- ٧٧٣ ﴿ وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الْغُرُبَى إِذْ قَضَيْتُنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتُ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾
- ٧٧٤ ريع: ﴿ وَلَقَدْ وَّصَلْنَا لَهُمْ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾
- ٧٧٥ العلماء الاولياء من أهل الكتاب آمنوا بالقرآن
- ٧٧٦ ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾
- ٧٧٨ تعريض الله تعالى بأهل مكة
- ٧٧٩ حقارة الدنيا بالنسبة لما أعده الله تعالى لعباده الصالحين فى الآخرة من النعيم العظيم المقيم
- ٧٧٩ ﴿ وَيَوْمَ يناديهِمْ لِقَوْلِ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾
- ٧٨٠ الله تعالى هو المنفرد بالخلق والاختيار ليس له فى ذلك منازع ولا معقب
- ٧٨١ امتنان الله تعالى على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار اللذين لا قوام لهم بدونهما
- ٧٨٢ ريع: ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ﴾
- ٧٨٢ ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾
- ٧٨٣ ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾
- أمر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ بإبلاغه الرسالة وتلاوة القرآن على الناس ، وأنه سيرده إلى
- ٧٨٥ معاد وهو يوم القيامة

سورة العنكبوت (٢٩)

- ٧٨٨ ريع: ﴿ أَلَمْ نَحْصِبِ النَّاسَ أَنْ يَتَزَكَّوْا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾
- ٧٨٨ ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ﴾
- ٧٨٩ الإحسان إلى الوالدين
- ٧٩٠ صفات قوم من المكذبين ادعوا الإيمان بالسنتهم ولم يثبت الإيمان فى قلوبهم
- ٧٩١ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ ﴾
- ٧٩١ تسلية الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ بقصة نوح عليه السلام وطول فترة مكثه فى قومه
- ٧٩٢ ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ﴾
- ٧٩٣ ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾

- ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ﴾ ٧٩٤
- ربع : ﴿ قَاتِنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ ٧٩٥
- إنكار لوط عليه السلام على قومه سوء صنيعهم في إتيانهم الذكوان من العالمين ٧٩٦
- ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ ٧٩٧
- شعيب عليه السلام يأمر قومه (مدين) بعبادة الله وحده ، ويحذرهم بأسه ونقمته سبحانه ٧٩٨
- ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَآئِبِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ٧٩٨
- مثل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله لا ينصرونهم ولا يرزقونهم كمثل بيت العنكبوت
- في ضعفه ٧٩٩
- ﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ ٧٩٩
- الجزء - ٢١ : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ٨٠٠
- ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ ٨٠١
- ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ ٨٠٢
- استعجال جهلة المشركين وقوع العذاب بهم ٨٠٤
- أمر الله تعالى للمؤمنين المضطهدين بالهجرة إلى أرضه الواسعة ٨٠٤
- ﴿ وَكَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ٨٠٥
- غاية ما في الدنيا لهو ولعب ومصيرها إلى زوال وانقضاء ٨٠٦
- ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَحْرَمًا آمِنًا وَتَحْتَفِلُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ ٨٠٦

سورة الروم (٣٠)

- ربع : ﴿ أَلَمْ يَغْلِبِ الرُّومَ ﴾ ٨٠٨
- ﴿ أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ ٨١٣
- ﴿ اللَّهُ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ٨١٤
- تسبيح الله تعالى لنفسه المقدسة وإرشاد عباده إلى تسيحه وتحميده ليلا ونهارا ٨١٤
- ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ ٨١٥
- من آيات الله تعالى خلق السموات والأرض واختلاف الألوان والانسنة والالوان ومتامكم بالليل والنهار ٨١٦
- ﴿ مِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ٨١٧
- ﴿ وَلَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٌ قَانِتُونَ ﴾ ٨١٧
- ﴿ حَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ ٨١٨
- ربع : ﴿ مُبِينٍ إِلَيْهِ وَثِقُوا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ ٨١٩
- الناس في حالة الاضطراب يدعون الله وحده فإذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم يشركون بالله ٨٢١
- ﴿ قَاتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ ٨٢٢
- ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ ٨٢٣
- المبادرة إلى الاستقامة في طاعة الله تعالى والمبادرة إلى الخيرات ٨٢٤

٨٥٩	فهرس الموضوعات
٨٢٤	من نعم الله تعالى على خلقه إرسال الرياح مبشرات بين يدي رحمته
٨٢٤	﴿ اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا ﴾
٨٢٥	﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ ﴾
٨٢٦	ربع : ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾
٨٢٧	جهل الكفار في الدنيا والآخرة
٨٢٧	﴿ وَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾
٨٢٧	فضل سورة الزوم واستحباب قراءتها في الفجر
٨٢٩	فهرس الموضوعات

عُمْدَةُ النَّفْسِيرِ

عَنْ الْحَافِظِ ابْنِ كَثِيرٍ

مَجْمُوعَةُ نَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

لِلْعَلَّامَةِ الْمُحَقِّقِ

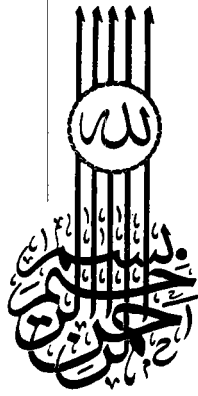
السَّيِّدِ أَحْمَدَ شَاكِرًا

أَعَدَّهُ

أَفْرَاقُ الْبَازِ

الْمَجْزُوءُ الثَّلَاثُ

تَلَاوُفُ الْوَقْتِ



عُمْدَةُ النَّفْسِيِّ

عَنْ الْحَافِظِ ابْنِ كَثِيرٍ

مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَثِيرٍ

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الثانية
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ج.م.ع. - المنصورة

الإدارة: ش. الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب ص.ب: ٢٣٠

ت: ٢٢٥٦٢٢٠ / ٢٢٥٦٢٣ - فاكس: ٢٢٦٠٩٧٤ / ٠٥٠

المحاسبة: أمام كلية الطب ٢٢٤٩٥١٣ / ٠٥٠

E-Mail: DAR ELWAF@HOTMAIL.COM



تفسير سورة لقمان

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ١ ﴾ اَللّٰهُمَّ اِنِّتَ الْكَاتِبُ الْحَكِيْمُ ﴿ ٢ ﴾ هُدٰى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِيْنَ ﴿ ٣ ﴾ الَّذِيْنَ يُقِيْمُوْنَ الصَّلٰوةَ وَيُوْتُوْنَ الزَّكٰوةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُوْنَ ﴿ ٤ ﴾ اُولٰٓئِكَ عَلٰى هُدٰى مِّنْ رَّبِّهِمْ ۗ وَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ ﴿ ٥ ﴾

تقدم في أول سورة « البقرة » عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة ، وهو أنه تعالى جعل هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين ، وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة ، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها ، وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها ، ووصلوا قرباناتهم وأرحامهم ، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة ، فرغبوا إلى الله في ثواب ذلك ، لم يراؤوا به ولا أرادوا جزءاً من الناس ولا شكورا ، فمن فعل ذلك كذلك فهو من الذين قال الله تعالى : ﴿ اُولٰٓئِكَ عَلٰى هُدٰى مِّنْ رَّبِّهِمْ ﴾ أى : على بصيرة وبينة ومنهج واضح وجلى ﴿ وَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة .

﴿ ٦ ﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِ لَهٗوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۗ اُولٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿ ٧ ﴾ وَاِذَا نَتَلٰى عَلَيْهِ ءَايٰتُنَا وَلٰكِن مُّسْتَكْبِرًا كٰنَ لَمْ يَسْمَعْهَا كٰنَ فِيْ اُذُنَيْهِ وَقَرٰٓ فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ اَلِيْمٍ ﴿ ٨ ﴾

لما ذكر تعالى حال السعداء ، وهم الذين يهتدون بكتاب الله ويتفنون بسماعه ، كما قال تعالى : ﴿ اللّٰهُ نَزَّلَ اَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتٰبًا مُّشٰبِهًا مَّثٰنِي تَفْشِيْرٌ مِّنْهُ جُلُوْدٌ لِّلَّذِيْنَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ ثَلٰثٌ جُلُوْدٌ مِّنْهُمْ وَقُلُوْبُهُمْ اِلٰى ذِكْرِ اللّٰهِ ﴾ الآية [الزمر: ٢٣] ، عطف بذكر حال الاشقياء ، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالالخان وآلات الطرب ، كما روى عن أبي الصهباء البكرى ، أنه سمع عبد الله بن مسعود - وهو يسأل عن هذه الآية : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِ لَهٗوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللّٰهِ ﴾ - فقال عبد الله : الغناء ، والله الذى لا إله إلا هو ، يرددها ثلاث مرات . وكذا قال ابن عباس ، وجابر ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، ومكحول ، وعمرو بن شعيب . وقال الحسن البصرى : أنزلت هذه الآية : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِ لَهٗوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ فى الغناء والمزامير . وقال قتادة : قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِ لَهٗوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ : والله لعله لا ينفق فيه مالا ، ولكن شراؤه استحبابه ، بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق ، وما يضر على

ما ينفع. وقيل: عنى بقوله: ﴿ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾: اشتراء المغنيات من الجوارى. وقال الضحاك فى قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ يعنى: الشرك. وبه قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ واختار ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله واتباع سبيله.

وقوله: ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى: إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ قال مجاهد: ويتخذ سبيل الله هزوا، يستهزئ بها وقال قتادة: يعنى: ويتخذ آيات الله هزوا. وقول مجاهد أولى.

وقوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أى: كما استهانوا بآيات الله وسبيله، أهينوا يوم القيامة فى العذاب الدائم المستمر.

ثم قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَكُنِيَ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ أى: هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب، إذا تليت عليه الآيات القرآنية، ولى عنها وأعرض وأدبر وتَصَامَمَ وما به من صَمَمَ، كأنه ما يسمعا؛ لأنه يتأذى بسماعها، إذ لا انتفاع له بها، ولا أرب له فيها ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى: يوم القيامة يؤلمه، كما تألم بسماع كتاب الله وآياته.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَلِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء فى الدار الآخرة، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وعملوا الأعمال الصالحة المتابعة لشريعة الله ﴿ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾ أى: يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسار، من المآكل والمشرب، والملابس والمسكن، والمراكب والنساء، والنضرة والسماع الذى لم يخطر ببال أحد، وهم فى ذلك مقيمون دائما فيها، لا يظعنون ولا يبعثون عنها حولا.

وقوله: ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا ﴾ أى: هذا كائن لا محالة؛ لأنه من وعد الله، والله لا يخلف الميعاد؛ لأنه الكريم المنان، الفعال لما يشاء، القادر على كل شيء ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾، الذى قد قهر كل شيء، ودان له كل شيء ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أقواله وأفعاله، الذى جعل القرآن هدى للمؤمنين ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت: ٤٤]، ﴿ وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءً وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوًىٰ أَنْ تَحْمِلَ بِكُمْ وَسَبَّحَ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلَقُ اللَّهِ فَأَرَوِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾

بين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض، وما فيهما وما بينهما، فقال: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾ قال الحسن وقاتدة: ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية ﴿ وَأَلْقَىٰ

فِي الْأَرْضِ رَوَّاسِي ﴿ يعنى : الجبال أرسى الأرض وثقلتها لثلاثا تضطرب بأهلها على وجه الماء ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أى : لثلاثا تميد بكم ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ أى : وذرا فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذى خلقها .

ولما قرر أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ أى : من كل زوج من النبات كريم ، أى : حسن المنظر . وقال الشعبي : والناس - أيضاً - من نبات الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لثيم .

وقوله : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾ أى : هذا الذى ذكره تعالى من خلق السموات ، والأرض وما بينهما ، صادر عن فعل الله وخلقته وتقديره، وحده لا شريك له فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى : مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد ﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ ﴾ يعنى : المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿ فِي ضَلَالٍ ﴾ أى : جهل وعمى ﴿ مُبِينٍ ﴾ أى : واضح ظاهر لا خفاء به .

﴿ وَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

اختلف السلف فى لقمان : هل كان نبياً ، أو عبداً صالحاً من غير نبوة ؟ على قولين ، الاكثرون على الثانى . وعن ابن عباس قال : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً . وعن عبد الله بن الزبير ، قلت لجابر بن عبد الله : ما انتهى إليكم من شأن لقمان ؟ قال : كان قصيراً أفتس من النبوة . مضغتين فيها فأخرجتهما ، وأمرت أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما . فقال لقمان : إنه ليس من شىء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبئا . ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً ، وإنما ينقل كونه نبياً عن عكرمة - إن صح السند إليه ، فإنه رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم من حديث وكيع ، عن إسرائيل ، عن جابر ، عن عكرمة فقال : كان لقمان نبياً . وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفى ، وهو ضعيف ، والله أعلم . والذى رواه سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة ، فى قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ أى : الفقه فى الإسلام ، ولم يكن نبياً ، ولم يوح إليه . وقوله : ﴿ وَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ أى : الفهم والعلم والتعبير ﴿ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ أى : أمرناه أن يشكر الله ، عز وجل ، على ما آتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل ، الذى خصه به عن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أى : إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم : ٤٤] .

وقوله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أى : غنى عن العباد ، لا يتضرر بذلك ، ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً ، فإنه الغنى عما سواه ؛ فلا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه .

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَنٌ لِابْنِهِ وَهُوَ يُعْطَمُ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده - وقد ذكره تعالى بأحسن الذكر ، فإنه آتاه الحكمة ، وهو يوصى ولده الذي هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه ، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ؛ ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً ، ثم قال محذراً له : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ أي : هو اعظم الظلم . روى البخارى عن عبد الله [بن مسعود] قال : لما نزلت : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ [الانعام : ٨٢] ، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، وقالوا : أين لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنه ليس بذلك ، ألا تسمع إلى قول لقمان : ﴿ يَا بَنِيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ . » . ورواه مسلم من حديث الأعمش ، به (١) .

ثم قرآن بوصيته إياه بعبادة الله وحده البر بالوالدين ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] . وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن وقال ههنا : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ قال مجاهد : مشقة وهن الولد . وقال قتادة : جهداً على جهد . وقال عطاء الخراساني : ضعفاً على ضعف .

وقوله : ﴿ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ أي : تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين ، كما قال تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرُّضَاعَةَ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] . ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ؛ لأنه قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ [الاحقاف : ١٥] . وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً ونهاراً ، ليذكر الولد بإحسانها المستقدم إليه ، كما قال تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْنَاهُمَا كَمَا رَحِمْتَنِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٤] ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ اشْكُرْ لِي وَوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرِ ﴾ أي : فإنى سأجزيك على ذلك أوفر الجزاء .

وقوله : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ أي : إن حرصاً عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما ، فلا تقبل منهما ذلك ، ولا يمنعتك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً ، أي : محسناً إليهما ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ يعني : المؤمنين ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . روى الطبراني في كتاب العشرة : أن سعد بن مالك

قال : أنزلت في هذه الآية : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ الآية ، وقال : كنت رجلاً برأ بأبي ، فلما أسلمت قالت : يا سعد ، ما هذا الذي أراك قد أحدثت ؟ لَتَدَعَنَّ دِينَكَ هَذَا أَوْ لَا أَكُلْ وَلَا أَشْرَبُ حَتَّىٰ أَمُوتَ ، فَتُعَيِّرَ بِي ، فيقال : «ياقاتل أمه» . فقلت : لا تفعلوا يا أمه ، فإنني لا أدع ديني هذا لشيء . فمكثت يوماً وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوماً وليلة أخرى لا تأكل ، فأصبحت قد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت : يا أمه ، تعلمين والله لو كانت لكى مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ، ما تركت ديني هذا لشيء ، فإن شئت فكلى ، وإن شئت لا تأكلى . فاكلت .

﴿ يَبْنِيٰ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَبْنِيٰ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضِضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم ؛ ليمثلها الناس ويقتدوا بها ، فقال : ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ أى : إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة خردل ﴿ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ ﴾ أى : أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط ، وجازى عليها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . كما قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنَّا بِمَا حَاسِبِينَ ﴾ [الانبياء : ٤٧] ، وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] ، ولو كانت تلك الذرة محصنة محجة في داخل صخرة صماء ، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السموات أو الأرض ، فإن الله يأتى بها ؛ لأنه لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ أى : لطيف العلم ، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت ، ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بدبيب النمل فى الليل البهيم .

ثم قال : ﴿ يَا بَنِيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ أى : بحدودها وفروضها وأوقاتها ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ أى : بحسب طاقتك وجهدك ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾ علم أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لا بد أن يناله من الناس أذى ، فأمره بالصبر ﴿ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ أى : إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور .

وقوله : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ يقول : لا تُعْرِضْ بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك ، احتقاراً منك لهم ، واستكباراً عليهم ولكن ألن جانبك ، وابسط وجهك إليهم ، كما جاء فى الحديث : « ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط ، وإياك وإسبال الإزار فإنها من

المخيلة ، والمخيلة لا يحبها الله . قال ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ يقول : لا تتكبر فتحقر عباد الله ، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلموك . وكذا روى العوفي وعكرمة عنه . وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ : لا تكلم وأنت معرض . وكذا روى عن مجاهد ، وعكرمة ، ويزيد بن الأصم ، وأبي الجوزاء ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، وابن يزيد ، وغيرهم . وقال إبراهيم النخعي : معنى بذلك : التشديق في الكلام . والصواب القول الأول . قال ابن جرير : وأصل الصعر : داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها ، حتى تُلقت أعناقها عن رؤوسها ، فشبه به الرجل المتكبر .

وقوله : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا ﴾ أي : جذلاً متكبراً جباراً عنيداً ، لا تفعل ذلك يبغضك الله ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أي : مختال معجب في نفسه ، فخور : أى على غيره .

وقوله : ﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ أي : امش مشياً مقتصداً ليس بالبطيء المتشط ، ولا بالسريع المفرط ، بل عدلاً وسطاً بين بين .

وقوله : ﴿ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾ أي : لا تبالغ في الكلام ، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد : إن أقيح الأصوات لصوت الحمير ، أى : غاية من رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه ورفع ، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى . وهذا التشبيه في هذا بالحمير يقتضى تحريمه وذمه غاية الذم ؛ لأن رسول الله ﷺ قال : « ليس لنا مثل السوء ، العائد في هبته كالكلب يقىء ثم يعود في قيئه » (١) . وروى النسائي عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله ، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان ، فإنها رأت شيطاناً » . وقد أخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجه (٢) وفي بعض الالفاظ : « بالليل » ، فالله أعلم .

فهذه وصايا نافعة جداً ، وهى من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم . وقد روى عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة . روى الإمام أحمد عن ابن عمر ، قال : أخبرنا رسول الله ﷺ قال : « إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئاً حفظه » (٣) .

وروى ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري ، أن رسول الله ﷺ قال : « قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بني ، إياك والتقنع فإنه مخوفة بالليل ، مذلة بالنهار » (٤) .

(١) مسلم (١٦٢٠ / ٢) .

(٢) النسائي في الكبرى (١١٣٩١) ، والبخارى (٣٣٠١) ، ومسلم (٢٧٢٩ / ٨٢) ، وأبو داود (٥١٠٢) .

(٣) المسند (٥٦٠٥ ، ٥٦٠٦) وقال الشيخ شاكر : « إسناده صحيح » .

(٤) رواه الحاكم في المستدرک (٤١١ / ٢) وقال : « هذا متن شاهده إسناده صحيح » ووافقه الذهبي .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنْبِئُكَ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ ﴿١١﴾

يقول تعالى منبها خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة، بأنه سخر لهم ما في السموات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم ، وما يخلق فيها من سحب وأمطار وثلج وبرد ، وجعله إياها لهم سقفا محفوظا ، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار . وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب ، وإزاحة الشبه والعلل ، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم ، بل منهم من يجادل في الله ، أى : فى توحيدهِ وإرسال الرسل ، ومجادلته فى ذلك بغير علم، ولا مستند من حجة صحيحة ، ولا كتاب ماثور صحيح ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ﴾ أى : مبين يضىء . ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أى : لهؤلاء المجادلين فى توحيد الله : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أى : على رسوله من الشرائع المطهرة ﴿ قَالُوا بَلْ نَنْبِئُكَ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ أى : لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين ، قال الله : ﴿ أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠] أى : فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم ، أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه ؛ ولهذا قال : ﴿ أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَرِيبُهُ الْأُمُورِ ﴾ ﴿١٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُمْ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ ثُمَّ نَضَّطَّرَّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿١٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن أسلم وجهه لله، أى: أخلص له العمل وانقاد لامره واتبع شرعه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أى: فى عمله، باتباع ما به أمر، وترك ما عنه زجر ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ أى: فقد أخذ موثقا من الله متينا أنه لا يعذبه ﴿ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ. وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ ﴾ أى : لا تحزن يا محمد عليهم فى كفرهم بالله وبما جئت به ؛ فإن قدر الله نافذ فيهم ، إلى الله مرجعهم فنبئهم بما عملوا ، أى : فى جزيهم عليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ فلا تخفى عليه خافية. ثم قال : ﴿ ثُمَّ نَضَّطَّرَّهُمْ ﴾ أى: فى الدنيا ، ﴿ ثُمَّ نَضَّطَّرَّهُمْ ﴾ أى: نلجئهم ﴿ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أى : فظيع صعب مشق على النفوس ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ. مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿١٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين به : إنهم يعرفون أن الله خالق السموات والأرض ، وحده لا شريك له ، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أى : إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم ، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . ثم قال : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : هو خلقه وملكه ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أى : الغنى عما سواه ، وكل شيء فقير إليه ، الحميد فى جميع ما خلق ، له الحمد فى السموات والأرض على ما خلق وشرع ، وهو المحمود فى الأمور كلها .

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفْسًا وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٨﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وجلاله ، وأسمائه الحسنى وصفاته العلا وكلماته الثابتة التى لا يحيط بها أحد ، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ أى : ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاما ، وجعل البحر مدادا ومداه سبعة أبحر معه ، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ، ونفذ ماء البحر ، ولو جاء أمثالها مددا . وإنما ذكرت « السبعة » على وجه المبالغة ، ولم يرد الحصر . وقال الحسن البصرى : لو جعل شجر الأرض أقلاما ، وجعل البحر مدادا ، وقال الله : « إن من أمرى كذا ، ومن أمرى كذا » لنفد ما فى البحور ، وتكسرت الأقلام . وقال قتادة : قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفد ، فقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ أى : لو كان شجر الأرض أقلاما ، ومع البحر سبعة أبحر ، ما كان لتنفذ عجائب ربه وحكمته وخلقته وعلمه . وقال الربيع بن أنس : إن مثل علم العباد كلهم فى علم الله كقطرة من ماء البحور كلها ، وقد أنزل الله ذلك : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ الآية ، يقول : لو كان ذلك البحر مدادا لكلمات الله والأشجار كلها أقلاما ، لا تكسرت الأقلام ، وفنى ماء البحر ، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنىها شيء ؛ لأن أحدا لا يستطيع أن يقدر قدره ، ولا يثنى عليه كما ينبغى ، حتى يكون هو الذى يثنى على نفسه . إن ربنا كما يقول ، وفوق ما نقول . وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أى : عزيز قد عز كل شيء وقهره وغلبه ، فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى خلقه وأمره ، وأقواله وأفعاله ، وشرعه وجميع شؤونه . وقوله : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفْسًا وَاحِدَةً ﴾ أى : ما خلق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة ، الجميع هين عليه و﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] ، ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمَةً بِالْبَصْرِ ﴾ [القمر : ٥٠] أى : لا يأمر بالشيء إلا مرة واحدة ، فيكون ذلك الشيء لا يحتاج إلى تكرره وتوكده ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤] . وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ

سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٩﴾ أى : كما هو سميع لاقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة ؛ ولهذا قال : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَحْكُمُ إِلَّا كَفَسٌ وَاحِدَةٌ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣١﴾ ﴾

يخبر تبارك وتعالى أنه ﴿ يُولِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ يعنى : يأخذ منه فى النهار ، فيطولُ ذاك ويقصر هذا، وهذا يكون زمن الصيف يطول النهار إلى الغاية، ثم يشرع فى النقص فيطول الليل ويقصر النهار، وهذا يكون فى الشتاء ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ قيل : إلى غاية محدودة . وقيل : إلى يوم القيامة . وكلا المعنيين صحيح .

وقوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ كقوله : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الحج : ٧٠] . ومعنى هذا : أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء، كقوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ أى : إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق ، أى : الموجود الحق ، الإله الحق ، وأن كل ما سواه باطل ؟ فإنه الغنى عما سواه، وكل شيء فقير إليه ؛ لأن كل ما فى السموات والأرض الجميع خلقه وعبده، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرة إلا بإذنه، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذبابا لعجزوا عن ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ أى : العلى : الذى لا أعلى منه ، الكبير : الذى هو أكبر من كل شيء ، فكل شيء خاضع حقير بالنسبة إليه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلْمِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه هو الذى سَخَّرَ البحر لتجرى فيه الفلك بأمره ، أى : بلطفه وتسخيره ؛ فإنه لولا ما جعل فى الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت ؛ ولهذا قال : ﴿ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ﴾ أى : من قدرته ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى : صبار فى الضراء ، شكور فى الرخاء . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلْمِ ﴾ أى : كالجبال والغمم ﴿ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ،

كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ ﴾ [الإسراء : ٦٧] ، وقال : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] .

ثم قال : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ قال مجاهد : أى كافر . كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] . وقال ابن زيد : هو المتوسط فى العمل . وهذا الذى قاله ابن زيد هو المراد فى قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ [فاطر : ٣٢] ، فالمقتصد ههنا هو : المتوسط فى العمل . ويحتمل أن يكون مراداً هنا أيضاً ، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأحوال والأمور العظام والآيات الباهرات فى البحر ، ثم بعد ما أنعم الله عليه من الخلاص ، كان ينبغى أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والدؤوب فى العبادة ، والمبادرة إلى الخيرات . فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والحالة هذه ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَمَا يَجْعَدُ بَأْيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ : فالخَتَّار : هو الغَدَّار ، وهو الذى كلما عاهد نقض عهده ، والخَتْر : أتم الغدر وأبلغه ﴿ كَفُورٍ ﴾ أى : جحود للنعم لا يشكرها ، بل يتناساها ولا يذكرها .

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾

يقول تعالى منذرا للناس يوم المعاد ، وأمرأ لهم بتقواه والخوف منه ، والخشية من يوم القيامة حيث ﴿ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ﴾ أى : لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه . وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يتقبل منه . ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى : لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ يعنى : الشيطان . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة . فإنه يغر ابن آدم ويَعِدُه ويمينه ، وليس من ذلك شيء ، بل كما قال تعالى : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء : ١٢٠] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

هذه مفاتيح الغيب التى استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها؛ فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الاعراف : ١٨٧] ، وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله ، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه . وكذلك لا يعلم ما فى الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواء ، ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أو أنثى ، أو شقيا أو سعيدا علم الملائكة الموكلون بذلك ، ومن شاء الله

من خلقه . وكذلك لا تدري نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وأخرها ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ في بلدها أو غيره من أى بلاد الله كان ، لا علم لأحد بذلك . وهذه شبيهة بقوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ الآية [الانعام : ٥٩] . وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس : مفاتيح الغيب . روى الإمام أحمد عن أبي بريدة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خمس لا يعلمهن إلا الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » . هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجه (١) . وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » . انفراد بإخراجه البخارى (٢) . ورواه من وجه آخر عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مفاتيح الغيب خمس » . ثم قرأ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ ، انفراد به أيضا (٣) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله [بن مسعود] قال : أوتى نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء غير خمس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٤) .

وروى البخارى عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ كان يوماً بارزاً للناس ، إذ أتاه رجل يمشى ، فقال : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : « الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله ولقائه ، وتؤمن بالبعث الآخر » . قال : يا رسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : « الإسلام : أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان » . فقال : يا رسول الله ، ما الإحسان ؟ قال : « الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . قال : يا رسول الله ، متى الساعة ؟ قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، ولكن سأحدثك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربّتها ، فذاك من أشراطها . وإذا كان الحفاة العرأة رؤوس الناس ، فذاك من أشراطها ، فى خمس لا يعلمهن إلا الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ » الآية ، ثم انصرف الرجل فقال : « ردوه علىّ » . فأخذوا ليردوه ، فلم يروا شيئاً ، فقال : « هذا جبريل ، جاء ليعلم الناس دينهم » (٥) . ورواه البخارى ومسلم (٦) .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس قال : جلس رسول الله ﷺ مجلساً له ، فاتاه جبريل فجلس بين يدي رسول الله ﷺ واضعاً كفيه على ركبتي النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ،

(١) المسند (٥ / ٣٥٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (٧ / ٩٣) : « رجال أحمد رجال الصحيح » .

(٢) المسند (٤٧٦٦) والبخارى (١٠٣٥) . (٣) البخارى (٤٦٩٧) .

(٤) المسند (٣٦٥٩) وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده صحيح » .

(٥) البخارى (٤٧٧٧) . (٦) البخارى (٥٠) ومسلم (٥ / ٩) .

ما الإسلام ؟ قال رسول الله ﷺ : « الإسلام : أن تسلم وجهك لله عز وجل ، وتشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله » . قال : فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت ؟ قال : « إذا فعلت ذلك فقد أسلمت » . قال : يا رسول الله ، فحدثني ما الإيمان ؟ قال : « الإيمان : أن تؤمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين ، وتؤمن بالموت ، وبالحياة بعد الموت ، وتؤمن بالجنة والنار ، والحساب والميزان ، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره » . قال : فإذا فعلت ذلك فقد آمنت ؟ قال : « إذا فعلت ذلك فقد آمنت » . قال : يا رسول الله ، حدثني ما الإحسان ؟ قال رسول الله ﷺ : « الإحسان : أن تعمل لله كأنك تراه ، فإن كنت لا تراه فإنه يراك » . قال : يا رسول الله ، فحدثني متى الساعة ؟ قال رسول الله ﷺ : « سبحان الله . في خمس لا يعلمهن إلا هو : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ، ولكن إن شئت حدثتك بمعالم لها دون ذلك ؟ » . قال : أجل ، يا رسول الله ، فحدثني . قال رسول الله ﷺ : « إذا رأيت الأمة ولدت ربتها - أو : ربتها - ورأيت أصحاب الشاء يتناولون في البنيان ، ورأيت الحفاة الجياع العالة [كانوا رؤوس الناس ، فذلك من معالم الساعة وأشراتها] . قال : يا رسول الله ، ومن أصحاب الشاء والحفاة الجياع العالة ؟ قال : « العرب » (١) .

وروى الإمام أحمد عن رجل من بنى عامر ؛ أنه استأذن على النبي ﷺ فقال : أألج ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه : « اخرجني إليه ، فإنه لا يحسن الاستئذان فقول لي : فليقل : السلام عليكم ، أدخل ؟ » قال : فسمعتُه يقول ذلك ، فقلت : السلام عليكم ، أدخل ؟ فأذن ، فدخلت ، فقلت : بم آتيتنا به ؟ قال : « لم آتكم إلا بخير ، آتيتكم أن تعبدوا الله وحده لا شريك له ، وأن تدعوا اللات والعزى ، وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات ؛ وأن تصوموا من السنة شهراً ، وأن تحجوا البيت ، وأن تأخذوا الزكاة من مال أغنيائكم فتردوها على فقرائكم » . قال : فقال : فهل بقى من العلم شيء لا تعلمه ؟ قال : « قد علم الله عز وجل خيراً ، وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل : الخمس : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » (٢) . وهذا إسناد صحيح .

وقوله : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ قال قتادة : أشياء استأثر الله بهن ، فلم يُطلع عليهن ملكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلًا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ فلا يدرى أحد من الناس متى تقوم الساعة ، في أى سنة أو فى أى شهر ، أو ليل أو نهار ، ﴿ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ، ليلاً أو نهاراً ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ فلا يعلم أحد ما فى الأرحام ، أذكر أم أنثى ، أحمر أو أسود ، وما هو ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ أخير أم شر ، ولا تدرى يا بن

(١) المسند (٢٩٢٦) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) المسند (٥ / ٣٦٨) .

آدم متى تموت ؟ لعلك الميت غدا ، لعلك المصاب غدا ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ ليس أحد من الناس يدرى أين مضجعه من الأرض ، أفي بحر أم بر ، أو سهل أو جبل ؟ عن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : « ما جعل الله منية عبد بأرض إلا جعل له فيها حاجة » (١) . وروى الإمام أحمد عن أبي عزة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها - أو قال : بها - حاجة » . وأخرجه الترمذي وقال : صحيح (٢) . وروى ابن ماجه عن عمر بن علي (٣) مرفوعا : « إذا كان أجل أحدكم بأرض أو ثبتت إليها حاجة ، فإذا بلغ أقصى أثره ، قبضه الله عز وجل ، فتقول الأرض يوم القيامة : رب ، هذا ما أودعتني » (٤) .

(١) الطبراني في المعجم الكبير (١ / ١٧٨) (٤٦١) ، وقال الهيثمي في الزوائد (٧ / ١٩٩) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٢) المسند (٣ / ٤٢٩) والترمذي (٢١٤٧) .

(٣) في المطبوعة والمخطوطة : « عمر بن عكرمة » والصواب ما أثبتناه من ابن ماجه .

(٤) ابن ماجه (٤٢٦٣) وفي الزوائد للبوصيري : « هذا إسناد صحيح ورجالته ثقات » وصححه الألباني .

تفسير سورة السجدة

وهي مكية

روى البخارى عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : كان النبى ﷺ يقرأ فى الفجر يوم الجمعة : ﴿ اَلَمْ . تَنْزِيلِ ﴾ السجدة و ﴿ هَلْ اُنْزِلَ عَلَى الْاِنْسَانِ ﴾ . ورواه مسلم (١) . وروى الإمام أحمد عن جابر قال : كان النبى ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿ اَلَمْ . تَنْزِيلِ ﴾ السجدة ، و ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ تفرد به أحمد (٢) .

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

﴿ اَلَمْ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ اَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا اُنْتَهُمْ مِنْ نَّذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢﴾ ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أول سورة «البقرة» بما أغنى عن إعادته . وقوله : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أى : لا شك فيه ولا مرية أنه منزل ﴿ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . ثم قال مخبراً عن المشركين : ﴿ اَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ بل يقولون ﴿ افْتَرَاهُ ﴾ أى : اختلقه من تلقاء نفسه ، ﴿ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا اُنْتَهُمْ مِنْ نَّذِيرٍ مِّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أى : يتبعون الحق .

﴿ اللّٰهُ الَّذِیْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ وَمَا بَیْنَهُمَا فِی سِتَّةِ اَیَّامٍ ثُمَّ اَسْتَوٰی عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُوْنِهِ مِنْ وَّلِیٍّ وَّ لَا شَفِیْعٍ اَفَلَا تَتَذَكَّرُوْنَ ﴿٣﴾ یُدْرِیُّ الْاَمْرَ مِنَ السَّمٰوٰتِ اِلَى الْاَرْضِ ثُمَّ یَعْرُجُ اِلَیْهِ فِی یَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ اَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّوْنَ ﴿٤﴾ ذٰلِكَ عَلَیْمُ الْغَیْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِیْزُ الرَّحِیْمُ ﴿٥﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه الخالق للأشياء ، فخلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، وقد تقدم الكلام على ذلك ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دُوْنِهِ مِنْ وَّلِیٍّ وَّ لَا شَفِیْعٍ ﴾ أى : بل هو المالك لأزمة الأمور ، الخالق لكل شيء ، المدبر لكل شيء ، القادر على كل شيء ، فلا ولى لخالقه سواه ، ولا شفيع إلا من بعد إذنه ﴿ اَفَلَا تَتَذَكَّرُوْنَ ﴾ يعنى : أيها العابدون غيره ، المتوكلون على من عداه - تعالى وتقدس وتنزه أن يكون له نظير أو شريك أو تديد ، أو وزير أو عدل ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

(١) البخارى (٨٩١) ومسلم (٨٨٠ / ٦٥) .

(٢) المسند (٣ / ٣٤٠) والحديث رواه الترمذى (٢٨٩٢) وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى والسلسلة الصحيحة (٥٨٥) .

وقوله : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ ﴾ أى : يتنزل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرض السابعة ، كما قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: ١٢] . وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا ، ومسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة ، وسمك السماء خمسمائة سنة . وقال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك : النزول من الملك فى مسيرة خمسمائة عام ، وصعوده فى مسيرة خمسمائة عام ، ولكنه يقطعها فى طرفة عين ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ .

﴿ ذَلِكُمْ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أى : المدبر لهذه الأمور الذى هو شهيد على أعمال عباده ، يرفع إليه جليلها وحقيرها ، وصغيرها وكبيرها هو ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الذى قد عز كل شىء فقهره وغلبه ، ودانت له العباد والرقاب ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بعباده المؤمنين . فهو عزيز فى رحمته ، رحيم فى عزته ، وهذا هو الكمال : العزة مع الرحمة ، والرحمة مع العزة ، فهو رحيم بلا ذل .

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ ﴾ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى مخبراً أنه الذى أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها . وقال مالك . عن زيد بن أسلم : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ قال : أحسن خلق كل شىء كأنه جعله من المقدم والمؤخر . ثم لما ذكر خلق السموات والأرض ، شرع فى ذكر خلق الإنسان فقال : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ ﴾ ، يعنى : خلق أبا البشر آدم من طين ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ أى : يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ يعنى : آدم ، لما خلقه من تراب خلقه سوياً مستقيماً ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ يعنى : العقول ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أى : بهذه القوى رزقكموها الله عز وجل . فالسعيد من استعملها فى طاعة ربه عز وجل .

﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿ قُلْ يَتُوبُ لَكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرَ لَكُمْ ثُمَّ إِلَيْ رَبِّكُمْ تَرْجَعُونَ ﴾ ﴿١١﴾

رب

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فى استبعادهم المعاد حيث قالوا : ﴿ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أى : أننا لنعود بعد تلك الحال ؟! يستبعدون ذلك ، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرتهم العاجزة ، لا بالنسبة إلى قدرة الذى بدأهم وخلقهم من العدم ، الذى إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ؛

ولهذا قال: ﴿ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ .

ثم قال: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ : الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة ، وقد سُمى في بعض الآثار بعزرائيل ، وهو المشهور ، قاله قتادة وغير واحد ، وله أعوان . وهكذا ورد في الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد ، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت . قال مجاهد: حُوت له الأرض فجعلت له مثل الطست ، يتناول منها حيث يشاء . وقال كعب الأحبار: واللّه ما من بيت فيه أحد من أهل الدنيا إلا وملك الموت يقوم على بابه كل يوم سبع مرات . ينظر هل فيه أحد أمر أن يتوفاه .

وقوله: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُرْسَلُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ وَلَكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا يَمَّا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة، وحالهم حين عاينوا البعث، وقاموا بين يدي الله حقيرين ذليلين ، ناكسى رؤوسهم ، أى : من الحياء والخجل ، يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ أى : نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك ، كما قال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصُرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مریم: ٣٨] . وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم: ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠] . وهكذا هؤلاء يقولون: ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا ﴾ أى : إلى الدار الدنيا ﴿ نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ أى : قد أيقنا وتحققنا أن وعدك حق ولقائك حق ، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى الدار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون آيات الله ويخالفون رسله ، كما قال : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَأ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لِمَا نَهَوْا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٧ - ٢٩] . وقال ههنا: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩] . ﴿ وَلَكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أى : من الصنفين ، فدارهم النار لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها ، نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك . ﴿ فَذُوقُوا يَمَّا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ أى : يقال لأهل النار على سبيل التقرير والتوبيخ: ذوقوا العذاب بسبب تكذيبكم به ، واستبعادكم وقوعه ، وتناسيكم له؛ إذ عاملتموه معاملته من هو ناس له، ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ أى : سنعاملكم معاملة الناسي؛ لأنه تعالى لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء ، بل من باب المقابلة ، كما قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ نَسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ [الجاثية: ٣٤] .

وقوله : ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : بسبب كفركم وتكذيبكم ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا . إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا . جَزَاءً وَفَاقًا . إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا . وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا . وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا . فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبا : ٢٤ - ٣٠] .

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ﴿١٥﴾ تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

سجدة

يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أى : إنما يصدق بها ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ أى : استمعوا لها وأطاعوها قولاً وفعلاً ، ﴿ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى : عن اتباعها والانقياد لها ، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] .

ثم قال تعالى : ﴿ تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ يعنى بذلك : قيام الليل ، وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة . قال مجاهد والحسن فى قوله تعالى : ﴿ تَجَافَى جُنُوبُهُمْ ﴾ ، يعنى بذلك : قيام الليل . وعن أنس ، وعكرمة ، ومحمد بن المنكدر ، وأبى حازم ، وقتادة : هو الصلاة بين العشاءين . وعن أنس أيضاً : هو انتظار صلاة العتمة . رواه ابن جرير بإسناد جيد . وقال الضحاك : هو صلاة العشاء فى جماعة ، وصلاة الغداة فى جماعة . ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أى : خوفاً من وبال عقابه ، وطمعاً فى جزيل ثوابه ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية ، ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم فى الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ ، كما قال عبد الله بن رَوَاحَةَ رضى الله عنه :

وفينَا رسولُ الله يتلُو كتابه
إذا انشقَّ معروفٌ من الصُّبحِ ساطعُ
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا
به موقناتٌ أن مآ قال واقع
بيتٌ يُجافى جنبه عن فراشه
إذا استثقلتُ بالمُشركين المضاجعُ

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود ، عن النبى ﷺ قال : « عجب ربنا من رجلين : رجل ثار من وطائه ولخافه ، ومن بين أهله وحيه (١) إلى صلاته ، [فيقول ربنا : أيا ملائكتى ، انظروا إلى عبدى ، ثار من فراشه ووطائه ، ومن بين حيه وأهله إلى صلاته] (٢) رغبة فيما عندى ، وشفقة مما عندى . ورجل غزا فى سبيل الله ، عز وجل ، فانهزموا ، فعلم ما عليه من

(١) فى المطبوعة : « وحيه » بالياء الموحدة ، وغير منقوطة بالمخطوطة والمثبت من المسند .

(٢) ما بين المعقوفين ليس فى المخطوطة ، وأثبتناه من المسند والمطبوعة .

الفرار، وما له في الرجوع ، فرجع حتى أهرق دمه ، رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى . فيقول الله ، عز وجل للملائكة : انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما عندى ، ورهبة مما عندى ، حتى أهرق دمه . » وهكذا رواه أبو داود في « الجهاد » ، عن موسى بن إسماعيل ، عن حماد بن سلمة ، به بنحوه (١) . وروى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبي ﷺ في سفر ، فأصبحت يوماً قريباً منه ، ونحن نسير ، فقلت : يا نبي الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار . قال : « لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت » . ثم قال : « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل فى جوف الليل » . ثم قرأ : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ حتى بلغ ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ . ثم قال : « ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ » فقلت : بلى ، يا رسول الله . فقال : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله » . ثم قال : « ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ » فقلت : بلى ، يا نبي الله . فأخذ بلسانه ثم قال : « كَفَّ عَلَيْكَ هَذَا » فقلت : يا رسول الله ، وإننا لمواخذون بما نتكلم به . فقال : « ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم - أو قال : على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم » . رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه . وقال الترمذى : حسن صحيح (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى : فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم فى الجنات من النعيم المقيم ، واللذات التى لم يطلع على مثلها أحد ، لَمَّا أخفوا أعمالهم أخفى الله لهم من الثواب ، جزاء وفاقاً ؛ فإن الجزاء من جنس العمل . قال الحسن البصرى : أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين ولم يخطر ، على قلب بشر . روى البخارى : قوله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ الآية ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « قال الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . قال أبو هريرة : فاقروا إن شئتم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ . ورواه مسلم والترمذى . وقال الترمذى : حسن صحيح (٣) . ثم روى البخارى عن أبى هريرة ، عن النبي ﷺ : « يقول الله تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ذُخْرًا مِّنْ بَلَهٍ مَا أُطْلِعْتُمْ عَلَيْهِ » ، ثم قرأ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . قرأ أبو هريرة : « قُرَاتٍ أَعْيُنٍ » . انفرد به البخارى من هذا الوجه (٤) .

(١) المسند (٣٩٤٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (٥٢٣٦) .

(٢) المسند (٥ / ٢٣١) والترمذى (٢٦١٦) وابن ماجه (٣٩٧٣) وصححه الالبانى .

(٣) البخارى (٤٧٧٩) ومسلم (٢٨٢٤ / ٢) والترمذى (٣١٩٧) .

(٤) البخارى (٤٧٨٠) .

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى قال : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . أخرجه فى الصحيحين . قال ورواه الترمذى بمثله . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح (١) . وعن أبى هريرة ، قال حماد : أحسبه عن النبى ﷺ قال : « من يدخل الجنة ينعم لا يبأس ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه ، فى الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . رواه مسلم (٢) . وروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد الساعدى ، قال : شهدت من رسول الله ﷺ مجلسا وصف فيه الجنة ، حتى انتهى ، ثم قال فى آخر حديثه : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَمَعُونَ ﴾ . وأخرجه مسلم (٣) . وروى مسلم عن المغيرة بن شعبة - يرفعه إلى النبى ﷺ - قال : « سألت موسى ، عليه السلام ربه عز وجل : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة . فيقول : أى رب ، كيف وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب . فيقول : لك ذلك ، ومثله ، ومثله ، ومثله ، ومثله ، فقال فى الخامسة : رضيت رب . فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتئت نفسك ولذت عينك فيقول : رضيت رب . قال : رب ، فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدي ، وختمت عليها ، فلن تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر » ، قال : ومصادقه من كتاب الله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . ورواه الترمذى ، وقال : حسن صحيح ، قال : ورواه بعضهم ولم يرفعه ، والمرفوع أصح (٤) .

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِء مُّكَذِّبِينَ ﴿٢٠﴾ وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الَّاَذَى دُونَ الْعَذَابِ الَّاكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن عدله أنه لا يساوى فى حكمه يوم القيامة من كان مؤمناً بآياته متبعاً لرسوله ، بمن كان فاسقاً ، أى : خارجاً عن طاعة ربه مكذباً لرسوله إليه ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُم كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

(١) المسند (٢ / ٣١٣) والبخارى (٨٤٩٨) ومسلم (٢٨٢٤ / ٤) والترمذى (٣٢٩٢) .

(٢) مسلم (٢٨٣٦ / ٢١) .

(٣) المسند (٥ / ٣٣٤) ومسلم (٢٨٢٥ / ٥) .

(٤) مسلم (١٨٩ / ٢٩٣) والترمذى (٣١٩٨) .

[الجاثية : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر : ٢٠] ؛ ولهذا قال تعالى : ههنا : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ أى : عند الله يوم القيامة . وقد ذكر عطاء بن يسار والسُّدِّي وغيرهما : أنها نزلت فى على بن أبى طالب ، وعقبة بن أبى معيط ؛ ولهذا فَصَّلَ حكمهم فقال : ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أى : صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها ، وهى الصالحات ﴿ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى ﴾ أى : التى فيها المساكن والدور والغرف العالية ﴿ نَزَلًا ﴾ أى : ضيافة وكرامة ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾ أى : خرجوا عن الطاعة ﴿ فَمَا وَهُمْ نَارًا كَلَّمَآ أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ كقوله : ﴿ كَلَّمَآ أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ الآية [الحج : ٢٢] . قال الفضيل بن عياض : والله إن الأيدي لموثقة ، وإن الأرجل لمقيدة ، وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تمصعهم . ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴾ أى : يقال لهم ذلك تقريعا وتوبييخا . وقوله : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ قال : ابن عباس : يعنى بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتنا ، وما يحل بأهلها مما يتلى الله به عباده ليتوبوا إليه . وروى مثله عن أبى بن كعب ، والحسن ، ومجاهد ، وقتادة . وقال ابن عباس - فى رواية عنه : يعنى به إقامة الحدود عليهم . وقال : البراء بن عازب ، ومجاهد ، وأبو عبيدة : يعنى به عذاب القبر .

وروى عبد الله بن الإمام أحمد عن أبى بن كعب فى هذه الآية : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ﴾ قال : المصيبات والدخان قد مضيا ، والبطشة واللزام . ورواه مسلم موقوفا نحوه (١) وعند البخارى عن ابن مسعود ، نحوه (٢) . وقال عبد الله بن مسعود أيضا ، فى رواية عنه : العذاب الأدنى : ما أصابهم من القتل والسبى يوم بدر . وكذا قال مالك ، عن زيد بن أسلم . قال السُّدِّي وغيره : لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير ، فأصيبوا أو غرموا ، ومنهم من جمع له الأمران . وقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أى : لا أظلم ممن ذكره الله بآياته وبينها له ووضحها ، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها ، كأنه لا يعرفها . قال قتادة : إياكم الإعراض عن ذكر الله ، فإن من أعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرّة ، وأعوز أشد العوز ، وعظم من أعظم الذنوب . ولهذا قال تعالى متهددا لمن فعل ذلك : ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ أى : سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ﴿١٤﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى ، عليه السلام ، أنه أتاه الكتاب وهو التوراة .
 وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ﴾ قال قتادة : يعنى به ليلة الإسراء . ثم روى عن
 أبي العالية الرياحي قال : حدثني ابن عم نبيكم - يعنى ابن عباس - قال : قال رسول الله ﷺ :
 « أريت ليلة أسرى بى موسى بن عمران ، رجلاً آدم طويلاً جعداً ، كأنه من رجال شنوءة .
 وأريت عيسى رجلاً موبوع الخلق ، إلى الحمرة والبياض ، مبسط الرأس ، وأريت مالكا خازن
 النار والدجال ، فى آيات أراهن الله إياه » ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ﴾ : أنه قد رأى موسى ،
 ولقى موسى ليلة أسرى به (١) .

وروى الطبراني عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ فى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾
 قال : جعل موسى هدى لبني إسرائيل ، وفى قوله : ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ﴾ قال : من لقاء
 موسى ربه عز وجل (٢) .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ ﴾ أى : الكتاب الذى آتينا به ﴿ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ كما قال تعالى فى سورة
 الإسراء : ﴿ وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكَيْلًا ﴾ [الإسراء : ٢] .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ أى : لما كانوا صابرين
 على أوامر الله وترك نواهيه وزواجه وتصدق رسله واتباعهم فيما جاؤوهم به ، كان منهم أئمة
 يهدون إلى الحق بأمر الله ، ويدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر . ثم
 لما بدلوا وحرّفوا وأولوا ، سلبوا ذلك المقام ، وصارت قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن
 مواضعه ، فلا عمل صالحاً ، ولا اعتقاد صحيحاً ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا
 صَبَرُوا ﴾ قال قتادة وسفيان : لما صبروا عن الدنيا ، وكذلك قال الحسن بن صالح . قال سفيان :
 هكذا كان هؤلاء ، ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يقتدى به حتى يتحامى عن الدنيا . قال
 وكيع : قال سفيان : لا بد للدين من العلم ، كما لا بد للجسد من الخبز . وقال ابن بنت
 الشافعي : قرأ أبى على عمى - أو عمى على أبى - سئل سفيان عن قول على : الصبر من الإيمان
 بمنزلة الرأس من الجسد ، ألم تسمع قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ قال : لما
 أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوساً . قال بعض العلماء : بالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ [وَوَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ
 عَلَى الْعَالَمِينَ . وَأَتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ] الآية [الجاثية : ١٦ ، ١٧] ، كما قال هنا : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يُفَصِّلُ
 بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أى : من الاعتقادات والأعمال .

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء .

(٢) الطبراني فى المعجم الكبير (١٢ / ١٦٠) (١٢٧٥٨) وقال الهيثمى فى الزوائد (٧ / ٩٣) : « رجاله رجال
 الصحيح » .

﴿ أَوْلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ ﴿٢٦﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى: أو لم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسل ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية ، بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به من قويم السبل ، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر ﴿ هل تحس منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزاً ﴾ [مريم : ٩٨] ؛ ولهذا قال : ﴿ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ ﴾ أى: وهؤلاء المكذبون يمشون فى مساكن أولئك المكذبين فلا يرون فيها أحداً من كان يسكنها ويعمرها، ذهبوا منها ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْتُوا فِيهَا ﴾ [الاعراف: ٩٢] ، كما قال: ﴿ فَتَلَكُ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ﴾ [النمل: ٥٢] ، وقال: ﴿ فَكَايِنٌ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرُ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٥ ، ٤٦] ؛ ولهذا قال ههنا: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أى: إن فى ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل ، ونجاة من آمن بهم ، لآيات وعبراً ومواعظ ودلائل متظاهرة ﴿ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ أى: أخبار من تقدم ، كيف كان أمرهم ؟

وقوله: ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ يبين تعالى لطفه بخلقه ، وإحسانه إليهم فى إرساله الماء إما من السماء أو من السبخ ، وهو : ما تحمله الأنهار وينحدر من الجبال إلى الاراضى المحتاجة إليه فى أوقاته ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ ، وهى التى لانبات فيها، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾ [الكهف : ٨] ، أى : ييسأ لا تنبت شيئاً .

وليس المراد من قوله : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ أرض مصر فقط ، بل هى بعض المقصود، وإن مثل بها كثير من المفسرين فليست المقصودة وحدها ، ولكنها مرادة قطعاً من هذه الآية ، فإنها فى نفسها أرض رخوة غليظة محتاج من الماء ما لو نزل عليها مطراً لتهدمت أبنيتها ، فيسوق الله إليها النيل بما يتحملة من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة ، وفيه طين أحمر ، فيغشى أرض مصر، وهى أرض سبخة مرملة محتاجة إلى ذلك الماء ، وذلك الطين أيضاً لينبت الزرع فيه ، فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطور فى غير بلادهم ، وطين جديد من غير أرضهم ، فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود أبداً .

ولهذا قال تعالى: ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ . أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا . ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا . فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعَبَا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدائقَ غَلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢] ؛ ولهذا قال ههنا : ﴿ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ﴾ قال : هى التى لا

تُمْطَرُ إِلَّا مَطَرًا لَا يَغْنَىٰ عَنْهَا شَيْئًا ، إِلَّا مَا يَأْتِيهَا مِنَ السَّيُولِ . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَمُجَاهِدٍ : هِيَ أَرْضُ الْيَمَنِ . وَقَالَ الْحَسَنُ : هِيَ قَرَىٰ فِيمَا بَيْنَ الْيَمَنِ وَالشَّامِ . وَقَالَ عِكْرِمَةُ ، وَالضَّحَّاكُ ، وَقَتَادَةُ ، وَالسُّدِّيُّ ، وَابْنُ زَيْدٍ ، الْأَرْضُ الْجُرْزُ : الَّتِي لَا نَبَاتَ فِيهَا وَهِيَ مَغْبِرَةٌ . قُلْتُ : وَهَذَا كَقَوْلِهِ : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ . وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ . لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يس: ٣٣ - ٣٥] .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانْتَظَرِ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار ووقوع بأس الله بهم، وحلول غضبه ونقمته عليهم، استبعاداً وتكذيباً وعناداً : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ ﴾ أى: متى تنصر علينا يا محمد؟ كما تزعم أن لك وقتاً تدال علينا، ويتنقم لك منا، فمتى يكون هذا؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين ! قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ ﴾ أى: إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه فى الدنيا وفى الآخرة ﴿ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٣ - ٨٥] ، ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعد النجعة ، وأخطأ فأفحش، فإن يوم الفتح قد قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء، وقد كانوا قريباً من الفين، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم؛ لقوله: ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ ، وإنما المراد الفتح الذى هو القضاء والفصل، كقوله تعالى: ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٨] ، وكقوله: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبأ: ٢٦] ، وقال تعالى: ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ١٥] ، وقال: ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [البقرة: ٨٩] ، وقال: ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ [الأنفال: ١٩] . ثم قال: ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانْتَظَرِ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴾ أى: أعرض عن هؤلاء المشركين وبلغ ما أنزل إليك من ربك، كقوله: ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٠٦] ، وانتظر فإن الله سينجز لك ما وعدك، وسينصرك على من خالفك ، إنه لا يخلف الميعاد .

وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴾ أى: أنت منتظر، وهم منتظرون، ويتدربون بكم الدوائر ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبُّ الْعُنُونِ ﴾ [الطور: ٣٠] ، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله، فى نصرتك وتأييدك ، وسيجدون غم ما ينتظرونه فيك وفى أصحابك ، من وبيل عقاب الله لهم ، وحلول عذابه بهم، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

تفسير سورة الاحزاب

وهي مدنية

روى الإمام أحمد عن زرّ قال : قال لى أبا بن كعب : كآين تقرا سورة الاحزاب ؟ او كآين تعدما ؟ قال : قلت : ثلاثا وسبعين آية . فقال : قَط ! لقد رأيتها وإنها لتعادل « سورة البقرة » ، ولقد قرأنا فيها : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ، نكالا من الله ، والله عليم (١) حكيم » . ورواه النسائي (٢) . وهذا إسناد حسن ، وهو يقتضى أنه كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه وحكمه أيضا ، والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ ﴾

ربع

هذا تنبيه بالاعلى على الأدنى ، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا ، فلأن يأمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأخرى . وقد قال طلح بن حبيب : التقوى : أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله ، على نور من الله ، مخافة عذاب الله . قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ أى : لا تسمع منهم ولا تستشرهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أى : فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه ، فإنه عليم بعواقب الأمور ، حكيم فى أقواله وأفعاله . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى : من قرآن وسنة ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ أى : فلا تخفى عليه خافية ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى : فى جميع أمورك وأحوالك ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أى : وكفى به وكيلاً لمن توكل عليه وأتاب إليه .

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾

(١) فى المطبوعة : « عزيز حكيم » ، وما أثبتناه من المسند والمخطوطة .

(٢) المسند (٥ / ١٣٢) والنسائي فى الكبرى (٧١٥٠) .

يقول تعالى موطئاً قبل المقصود المعنوي أمراً معروفاً حسياً ، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ، ولا تصير زوجته التي يظهر منها بقوله : أنت على كظهر أمي أمًا له ، كذلك لا يصير الدعوى ولدًا للرجل إذا تبناه فدعاه ابناً له ، فقال : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ ، كقوله : ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ [المجادلة : ٢] . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ : هذا هو المقصود بالنفي ؛ فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ ، كان النبي ﷺ قد تبناه قبل النبوة ، وكان يقال له : « زيد ابن محمد » ، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق وهذه النسبة بقوله : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ ، كما قال تعالى في أثناء السورة : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ، وقال وهنا : ﴿ ذَلِكَم قولكم بأفواهكم ﴾ يعنى : تبنيكم لهم قول لا يقتضى أن يكون ابناً حقيقياً ، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر ، فما يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان .

﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ قال سعيد بن جبير : ﴿ يَقُولُ الْحَقَّ ﴾ أى : العدل . وقال قتادة : ﴿ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ أى : الصراط المستقيم . وقد ذكر غير واحد : أن هذه الآية نزلت في رجل من قريش ، كان يقال له : « ذو القلبين » ، وأنه كان يزعم أن له قلبين ، كل منهما بعقل وافر . فأنزل الله هذه الآية ردّاً عليه . هكذا روى العوفى عن ابن عباس . وقاله مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، واختاره ابن جرير . وروى الإمام أحمد عن ابن أبى ظبيان قال : قلت لابن عباس : رأيت قول الله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ ، ما عنى بذلك ؟ قال : قام رسول الله ﷺ يوماً يصلى ، فحَطَّرَ حَظْرَةَ ، فقال المنافقون الذين يصلون معه : ألا ترون له قلبين ، قلباً معكم وقلباً معهم ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ . وهكذا رواه الترمذى ثم قال : وهذا حديث حسن (١) .

وقال الزهرى ، فى قوله : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ قال : بلغنا أن ذلك كان فى زيد بن حارثة ، ضُرب له مثل ، يقول : ليس ابن رجل آخر ابنك . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : أنها نزلت فى زيد بن حارثة . وهذا يوافق ما قدمناه من التفسير ، والله أعلم . وقوله : ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ : هذا أمر ناسخ لما كان فى ابتداء الإسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب ، وهم الأديعاء ، فأمر تعالى برد نسبهم إلى آبائهم فى الحقيقة ، وأن هذا هو العدل والقسط . روى البخارى عن عبد الله بن عمر ؛ أن زيداً بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كُنَّا ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن : ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ . وأخرجه مسلم والترمذى والنسائى (٢) .

(١) المسند (٢٤١٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » والترمذى (٣١٩٩) .

(٢) البخارى (٤٧٨٢) ومسلم (٢٤٢٥ / ٦٢) والترمذى (٣٢٠٩) والنسائى فى الكبرى (١١٣٩٧) .

وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه ، فى الخلوة بالمحارم وغير ذلك ؛ ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبى حذيفة: يا رسول الله ، كنا ندعو سالماً ابناً ، وإن الله قد أنزل ما أنزل ، وإنه كان يدخل علىّ ، وإنى أجد فى نفس أبى حذيفة من ذلك شيئاً فقال ﷺ : «أرضعيه تحرمى عليه» الحديث (١) . ولهذا لما نسخ هذا الحكم ، أباح تعالى زوجة الدعى ، وتزوج رسول الله ﷺ بزَيْنَب بنت جحش زوجة زيد بن حارثة ، وقال : ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطْراً ﴾ [الأحزاب : ٣٧] ، وقال فى آية التحريم : ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ [النساء : ٢٣] ، احترازاً عن زوجة الدعى ، فإنه ليس من الصلب ، فأما الابن من الرضاعة ، فمَنْزِل منزلة ابن الصلب شرعاً ، بقوله ، عليه السلام ، فى الصحيحين : « حرموا من الرضاعة ما يحرم من النسب » (٢) . فأما دعوة الغير ابناً على سبيل التكريم والتحيب ، فليس مما نهى عنه فى هذه الآية ، بدليل ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا الترمذى عن ابن عباس ، قال : قدمنا على رسول الله ﷺ أغيلمة بنى عبد المطلب على حُمُرَات لنا من جَمْع ، فجعل يَلَطِّخُ أفخاذنا ويقول: « أُبَيِّنِي لا ترموا الجمره حتى تطلع الشمس » (٣) . قال أبو عبيدة وغيره : « أُبَيِّنِي » : تصغير ابنى . وهذا ظاهر الدلالة ، فإن هذا كان فى حجة الوداع سنة عشر ، وقوله : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ ﴾ فى شأن زيد بن حارثة ، وقد قتل فى يوم مؤتة سنة ثمان ، وأيضاً فى صحيح مسلم عن أنس بن مالك ، قال : قال لى رسول الله ﷺ : « يا بُنَى » ، ورواه أبو داود والترمذى (٤) .

وقوله : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ : أمر تعالى برد أنساب الأدياء إلى آبائهم ، إن عرفوا ، فإن لم يعرفوا آباءهم ، فهم إخوانهم فى الدين ومواليهم ، أى : عوضاً عما فاتهم من النسب ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ يوم خرج من مكة عام عمرة القضاء ، وتبعتهم ابنة حمزة تنادى: يا عم ، يا عم . فأخذها على وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك فاحتملتها . فاختصم فيها على ، وزيد ، وجعفر فى أيهم يكفلها ، فكل أدلى بحجة ؛ فقال على : أنا أحق بها وهى ابنة عمى - وقال زيد: ابنة أختى . وقال جعفر بن أبى طالب: ابنة عمى، وخالتها تحتى - يعنى أسماء بنت عميس - فقضى النبى ﷺ لخالتها ، وقال : « الخالة بمنزلة الام » . وقال لعلى : « أنت منى ، وأنا منك » . وقال لجعفر : « أشبهت خلقى وخلقى » . وقال لزيد: « أنت أخونا ومولانا » (٥) . ففى هذا الحديث أحكام كثيرة من أحسنها: أنه ، عليه الصلاة والسلام ، حكم بالحق ، وأرضى كلاً من المتنازعين ، وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا » ، كما قال تعالى : ﴿ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ .

(١) مسلم (١٤٥٣ / ٢٦) . (٢) البخارى (٤٧٩٦) ومسلم (١٤٤٥ / ٣) .

(٣) المسند (٣١١ / ١) وأبو داود (١٩٤٠) وابن ماجه (٣٠٢٥) وصححه الألبانى .

(٤) مسلم (٢١٥١ / ٣١) وأبو داود (٤٩٦٤) والترمذى (٤٨٣١) .

(٥) البخارى (٢٦٩٩) .

وقد جاء في الحديث: « من ادعى لغير أبيه ، وهو يعلمه كفر » (١). وهذا تشديد وتهديد ووعيد أكيد ، في التبري من النسب المعلوم ؛ ولهذا قال : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فِإِخْوَانَكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِكُمْ ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ﴾ أى : إذا نسبتهم بعضهم إلى غير أبيه فى الحقيقة خطأ ، بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع ؛ فإن الله قد وضع الحرج فى الخطأ ورفع إثمه ، كما أرشد إليه فى قوله أمرًا عباده أن يقولوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تَأْخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] . وثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله : قد فعلت » (٢) . وفى صحيح البخارى ، عن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب ، فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ ، فله أجر » (٣) . وقال هاهنا : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أى : وإنما الإثم على من تعمد الباطل كما قال تعالى : ﴿ لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِاللُّغُوبِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ ﴾ .

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَآئِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾

قد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته ، ونصحه لهم ، فجعله أولى بهم من أنفسهم ، وحكمه فيهم مقدمًا على اختيارهم لأنفسهم ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] . وفى الصحيح : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين » (٤) . وفى الصحيح أيضًا أن عمر قال : يا رسول الله ، والله لانت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى . فقال : « لا يا عمر ، حتى أكون أحب إليك من نفسك » : فقال : يا رسول الله ، والله لانت أحب إلى من كل شيء حتى من نفسى . فقال ﷺ : « الآن يا عمر » (٥) .

ولهذا قال تعالى فى هذه الآية : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ . وروى البخارى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ فأيا مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا . وإن ترك دينًا أو ضياعًا ، فليأتنى فانا مولاة » . تفرد به البخارى (٦) .

(٢) مسلم (١٢٦ / ٢٠٠) .

(٤) البخارى (١٤) .

(٦) البخارى (٤٧٨١) .

(١) البخارى (٣٥٠٨) .

(٣) البخارى (٧٣٥٢) .

(٥) البخارى (١٦٣٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ أى : فى الحرمة والاحترام، والإكرام والتوقير والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن ، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع ، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم .

وقوله : ﴿ وَأَوْلُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ أى : فى حكم الله ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ أى : القرابات أولى بالتوراث من المهاجرين والأنصار ، وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوراث بالخلف والمؤاخاة التى كانت بينهم ، كما قال ابن عباس وغيره : كان المهاجرى يرث الأنصارى دون قراباته وذوى رحمه ، للأخوة التى آخى بينهما رسول الله ﷺ ، وكذا قال سعيد بن جبير ، وغير واحد من السلف والخلف .

وقوله : ﴿ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ﴾ أى : ذهب الميراث ، وبقي النصر والبر والصلة والإحسان والوصية . وقوله : ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ أى : هذا الحكم ، وهو أن أولى الأحام بعضهم أولى ببعض ، حكم من الله مقدر مكتوب فى الكتاب الأول ، الذى لا يبدل ، ولا يغير . قاله مجاهد وغير واحد . وإن كان تعالى : قد شرع خلافه فى وقت لما له فى ذلك من الحكمة البالغة، وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار فى قدره الأزلى ، وقضائه القدرى الشرعى .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن أولى العزم الخمسة ، وبقية الأنبياء : أنه أخذ عليهم العهد والميثاق فى إقامة دين الله ، وإبلاغ رسالته ، والتعاون والتناصر والاتفاق ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران : ٨١] . فهذا العهد والميثاق أخذ عليهم بعد إرسالهم ، وكذلك هذا . ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة ، وهم أولو العزم ، وهو من باب عطف الخاص على العام ، وقد صرح بذكرهم أيضاً فى هذه الآية ، وفى قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى : ١٣] ، فذكر الطرفين والوسط ، الفاتح والخاتم، ومن بينهما على هذا الترتيب . فهذه هى الوصية التى أخذ عليهم الميثاق بها ، كما قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ ، فبدأ فى هذه الآية بالخاتم ؛ لشرفه - صلوات الله عليه - ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم .

وقوله : ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ ﴾ قال مجاهد : المبلغين المؤدين عن الرسل . وقوله : ﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أى : من أمهم ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى : موجعاً ، فنحن نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم، ونصحوا الأمم وأفصحوا لهم عن الحق المبين ، الواضح الجلى ، الذى لا

لبس فيه ، ولا شك ، ولا امتراء ، وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة والمعاندين والمارقين والقاسطين ، فما جاءت به الرسل هو الحق ، ومن خالفهم فهو على الضلال .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١٠﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَظَنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١١﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين ، في صرفه أعداءهم وهزمه إياهم عام تاليوا عليهم وتحزبوا وذلك عام الخندق ، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور .

وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفرًا من أشرف يهود بني النضير ، الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر، منهم: سلام بن أبي الحقيق، وسلام بن مشكم، وكنانة بن الربيع، خرجوا إلى مكة واجتمعوا بأشرف قريش ، وأبوهم على حرب النبي ﷺ ووعدهم من أنفسهم النصر والإعانة . فأجابوهم إلى ذلك ، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضًا . وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها، وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب ، وعلى غطفان عيينة بن حصن بن بدر ، والجميع قريب من عشرة آلاف ، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق ، وذلك بإشارة سلمان الفارسي ، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا ، ونقل معهم رسول الله ﷺ التراب وحفر ، وكان في حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحات .

وجاء المشركون فنزلوا شرقي المدينة قريبًا من أحد، ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ ، وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، وهم نحو ثلاثة آلاف ، وقيل : سبعمائة ، وأسندوا ظهورهم إلى سلع وجوههم إلى نحو العدو ، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الرجالة والخيالة أن تصل إليهم ، وجعل النساء والذراري في أطام المدينة، وكانت بنو قريظة - وهم طائفة من اليهود - لهم حصن شرقي المدينة ، ولهم عهد من النبي ﷺ وذمة ، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل فذهب إليهم حبي بن أخطب النَّصْرِي اليهودي ، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد ، ومالوا الأحزاب على رسول الله ﷺ ، فعظَّم الخطب واشتد الأمر، وضاق الحال، كما قال الله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ . ومكثوا محاصرين للنبي ﷺ وأصحابه قريبًا من شهر، إلا أنهم لا يصلون إليهم، ولم يقع بينهم قتال، إلا أن عمرو بن عبد ود العامري - وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهلية - ركب ومعه فوارس فاقتحموا الخندق، وخلصوا إلى ناحية المسلمين، فندب رسول الله ﷺ خيل المسلمين إليه ، فلم يبرز إليه أحد ، فأمر عليا فخرج إليه، فتجاولا ساعة، ثم قتله على ، رضى الله عنه ، فكان علامة على

النصر . ثم أرسل الله ، عز وجل ، على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية ، حتى لم تبق لهم خيمة ولا شيء ولا تَوَقَّدَ لهم نار ، ولم يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ﴾ . قال مجاهد : وهى الصبا ، ويؤيده الحديث الآخر : « نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور » (١) .

وقوله : ﴿ وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ : وهم الملائكة ، زلزلتهم وألقت فى قلوبهم الرعب والخوف ، فكان رئيس كل قبيلة يقول : يا بنى فلان إلى . فيجتمعون إليه فيقول : النجاء ، النجاء . لما ألقى الله تعالى فى قلوبهم من الرعب . وقال ابن إسحاق عن محمد بن كعب القرظى قال : قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان : يا أبا عبد الله ، رأيت رسول الله ﷺ وصحبتموه ؟ قال : نعم يا بن أخى . قال : وكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنا نحهد . قال الفتى : والله لو أدركناه ما تركناه يمشى على الأرض ولحملناه على أعناقنا . قال : قال حذيفة : يا بن أخى ، والله لو رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله ﷺ هُويًا من الليل ، ثم التفت فقال : « مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ ؟ - يَشْرَطُ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ يَرْجِعُ - أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ » . قال : فما قام رجل . ثم صلى رسول الله ﷺ هُويًا من الليل ثم التفت إلينا ، فقال مثله ، فما قام منا رجل . ثم صلى رسول الله ﷺ هُويًا من الليل ثم التفت إلينا فقال : « مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ - يَشْرَطُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّجْعَةَ - أَسْأَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ » . فما قام رجل من القوم ؛ من شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد . فلما لم يبق أحد ، دعانى رسول الله ﷺ . فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى فقال : « يا حذيفة ، اذهب فادخل فى القوم فانظر ما يفعلون ، ولا تُحَدِّثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنَا » . قال : فذهبت فدخلت فى القوم ، والريح وجنود الله ، عز وجل ، تفعل بهم ما تفعل ، لا تُقَرَّ لهم قَدْرًا ولا نَارًا ولا بناءً ، فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش ، لينظر كل امرئٍ مَنْ جليسه . قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذى إلى جنبى ، فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا فلان بن فلان ، ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبَحْتُمْ بدارِ مقام ، لقد هلك الكُرَاعُ والحُفَّ ، وأخلفتنا بنو قُرَيْظَةَ ، وبلَغْنَا عنهم الذى نكره ، ولقينا من هذه الريح الذى ترون . والله ما تطمئن لنا قدر ، ولا تَقُومُ لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا ، فإنى مُرْتَحِلٌ ، ثم قام إلى جَمَلِهِ وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه ، فوثب به على ثلاث ، فما أطلق عقَّالَهُ إلا هو قائم . ولولا عهد رسول الله ﷺ إلى : « ألا تحدث شيئًا حتى تأتيني » ثم شئت ، لقتلته بسهم .

قال حذيفة : فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلى فى مِرْطٍ لبعض نسيائه مُرْحَلٌ ، فلما رأتى أدخلنى بين رجله ، وطرح على طرف المِرْطِ ، ثم ركع ، وسجد وإنى لفيه ، فلما

سلم أخبرته الخبر ، وسمعت غَطَفَان بما فعلت قريش ، فانشمروا راجعين إلى بلادهم . وقد رواه مسلم في صحيحه عن إبراهيم التيمي ، عن أبيه قال : كنا عند حذيفة بن اليمان فقال له رجل : لو أدركت رسول الله ﷺ ، قاتلتُ معه وأبليتُ . فقال له حذيفة : أنت كنتَ تفعل ذلك ؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقرّ ، فقال رسول الله ﷺ : « ألا رجل يأتي بخير القوم ، يكون معي يوم القيامة ؟ » . فلم يجبه منا أحد ، ثم الثانية ، ثم الثالثة مثله . ثم قال : « يا حذيفة ، قم فأتنا بخير من القوم » . فلم أجد بدأ إذ دعاني باسمي أن أقوم ، فقال : « اتتني بخير القوم ، ولا تدعهم عليّ » . قال : فمضيت كأنما أمشي في حمّام حتى أتيتهم ، فإذا أبو سفيان يصلي ظهره بالنار ، فوضعت سهما في كبِد قوسي ، وأردت أن أرميه ، ثم ذكرتُ قولَ رسول الله ﷺ : « لا تدعهم عليّ » ، ولو رميته لأصبت . قال : فرجعت كأنما أمشي في حمّام ، فأتيت رسول الله ﷺ ، ثم أصابني البرد حين فرغتُ وقررتُ فأخبرتُ رسول الله ﷺ ، وألبسني من فضل عبّاءة كانت عليه يصلي فيها ، فلم أزل نائما حتى الصباح ، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ : « قم يا نومان » (١) .

وقوله : « إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ » أي : الأحزاب « وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ » بنو قريظة « وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ » أي : من شدة الخوف والفرع « وَتَطَّوَّنَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا » . قال ابن جرير : ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين ، وأن الله سيفعل ذلك . وقال ابن إسحاق في قوله : « وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَطَّوَّنَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا » : ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق حتى قال معتب بن قشير - أخو بني عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن ناكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط . وقال الحسن في قوله : « وَتَطَّوَّنَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا » : ظنون مختلفة ، ظن المنافقون أن محمدا وأصحابه يستأصلون ، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق ، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن ذلك الحال ، حين نزلت الأحزاب حول المدينة ، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضييق ، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم : أنهم ابتلوا واختبروا وزلزلوا زلزالاً شديداً ، فحينئذ ظهر النفاق ، وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في نفوسهم « وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا » أما المنافق ، فنجم نفاقه ،

والذى فى قلبه شبهة أو حسكة ، لضعف حاله فتنفس بما يجده من الوسواس فى نفسه ؛ لضعف إيمانه ، وشدة ما هو فيه من ضيق الحال . وقوم آخرون قالوا كما قال الله : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ﴾ يعنى : المدينة ، كما جاء فى الصحيح : « أريت [فى المنام] دارَ هجرتكم ، أرض بين حرتين فذهب وهلى أنها هجر ، فإذا هى يثرب » ، وفى لفظ : « المدينة » (١) .

وقوله : ﴿ لَا مَقَامَ لَكُمْ ﴾ أى : ها هنا ، يعنون عند النبي ﷺ فى مقام المرابطة ﴿ فَارْجِعُوا ﴾ أى : إلى بيوتكم ومنازلكم ﴿ وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ ﴾ قال ابن عباس : هم بنو حارثة قالوا : بيوتنا نخاف عليها السرقة . وكذا قال غير واحد . وذكر ابن إسحاق أن القائل لذلك : هو أوس بن قَيْظَى ، يعنى : اعتذروا فى الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة ، أى : ليس دونها ما يحجبها عن العدو ، فهم يخشون عليها منهم . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ بِعُورَةٍ ﴾ أى : ليست كما يزعمون ﴿ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ أى : هرباً من الزحف .

﴿ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَأَنوَاهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤَلِّفَهُمُ الْبُرْجَانِ وَالْأَنْبُرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿ يَقُولُونَ إِنْ بُوئْنَا عُورَةً وَمَا هِيَ بِعُورَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ : أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة ، وقطر من أقطارها ، ثم سئلوا الفتنة ، وهى الدخول فى الكفر ، لكفروا سريعاً . وهم لا يحافظون على الإيمان ، ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفتح . هكذا فسرها قتادة ، وعبد الرحمن بن زيد ، وابن جرير ، وهذا ذم لهم فى غاية الذم .

ثم قال تعالى : يذكرهم بما كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف ، ألا يولوا الأعداء ولا يفروا من الزحف ﴿ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴾ أى : وإن الله سيسألهم عن ذلك العهد ، لا بد من ذلك . ثم أحبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم ، ولا يطول أعمارهم ، بل ربما كان ذلك سبباً فى تعجيل أخذهم غرة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى : بعد هربكم وفراكم ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى ﴾ [النساء : ٧٧] .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى : يمنعكم ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أى : ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا مغيث .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعُوقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾
 ﴿ ١٨ ﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه
 مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا
 فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿ ١٩ ﴾

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب ﴿ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ ﴾ أى : أصحابهم وعُشْرَانِهِمْ واخلطائهم ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ أى : إلى ما نحن فيه من الإقامة فى الظلال والثمار ، وهم مع ذلك ﴿ لَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . أشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ أى : بخلاء بالمودة ، والشفقة عليكم .
 ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه مِنَ الْمَوْتِ ﴾ أى : من شدة خوفه وجزعه ، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ ﴾ أى : فإذا كان الأمن ، تكلموا كلاماً بليغاً فصيحاً عالياً ، وادَّعَوْا لأنفسهم المقامات العالية فى الشجاعة والنجدة ، وهم يكذبون فى ذلك . وقال ابن عباس : ﴿ سَلَفُوكُمْ ﴾ أى : استقبلوكم . وقال قتادة : أما عند الغنيمة فأشح قوم ، وأسوأه مقاسمة : أعطونا ، أعطونا ، قد شهدنا معكم . وأما عند البأس فأجبن قوم ، وأخذله للحق . وهم مع ذلك أشحه على الخير ، أى : ليس فيهم خير ، قد جَمَعُوا الجبن والكذب وقلة الخير ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أى : سهلا هينا عنده .

﴿ يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿ ٢٠ ﴾

وهذا أيضا من صفاتهم القبيحة فى الجبن والخوف والخور ﴿ يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾ بل هم قريب منهم ، وإن لهم عودة إليهم ﴿ وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ ﴾ أى : ويودون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم فى المدينة بل فى البادية ، يسألون عن أخبارك ، وما كان من أمركم مع عدوكم ﴿ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى : ولو كانوا بين أظهركم ، لما قاتلوا معكم إلا قليلاً ؛ لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ ﴿ ٢١ ﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿ ٢٢ ﴾

هذه الآية الكريمة أصل كبير فى التأسى برسول الله ﷺ فى أقواله وأفعاله وأحواله ؛ ولهذا أمر الناس بالتأسى بالنبى ﷺ يوم الأحزاب ، فى صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره

الفرج من ربه ، عز وجل ، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين ؛ ولهذا قال تعالى للذين تقلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أى : هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ؟ ولهذا قال : ﴿ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ .

ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين المصدقين بموعود الله لهم ، وجعله العاقبة حاصلة لهم فى الدنيا والآخرة ، فقال : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ قال ابن عباس وقتادة : يعنون قوله تعالى فى « سورة البقرة » : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْأَسَاءِ وَالضَّرَّاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤] . أى : هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذى يعقبه النصر القريب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ : دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم ، كما قاله جمهور الأئمة : إنه يزيد وينقص .

ومعنى قوله : ﴿ وَمَا زَادَهُمْ ﴾ أى : ذلك الحال والضيق والشدة ﴿ إِلَّا إِيمَانًا ﴾ بالله ﴿ وَتَسْلِيمًا ﴾ أى : انقيادا لأوامره ، وطاعة لرسوله .

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ ﴿١٤﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥﴾

لما ذكر عز وجل عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذى كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأدبار ، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق ، و ﴿ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ ﴾ قال بعضهم : أجله . وقال البخارى : عهده . وهو يرجع إلى الأول ﴿ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ أى : وما غيروا عهد الله ، ولا نقضوه ولا بدلوه .

روى البخارى عن زيد بن ثابت ، قال : لما نسخنا الصُّحُفَ ، فَقَدْتُ آيَةً مِنْ « سورة الأحزاب » كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها ، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصارى ، الذى جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ . وأخرجه أحمد ، والترمذى والنسائى . وقال الترمذى : « حسن صحيح » (١) .

وروى البخارى أيضا عن أنس بن مالك قال : نرى هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ . انفرد به البخارى من هذا الوجه (٢) ، ولكن له

(١) البخارى (٤٧٨٤) ، والمسند (١٨٨/٥) ، والترمذى (٣١٠٤) ، والنسائى فى الكبرى (١١٤/١) .

(٢) البخارى (٤٧٨٣) .

شواهد من طرق أخر. روى الإمام أحمد عن أنس قال : عمى أنس بن النضر سُميت به ، لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر ، فشق عليه وقال : أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غيبت عنه ، لئن أراني الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها ، فشهد مع رسول الله ﷺ [يوم] (١) أحد ، فاستقبل سعد بن معاذ فقال له أنس : يا أبا عمرو أين ؟ واهأ لريح الجنة أجده دون أحد ، قال : فقاتلهم حتى قُتل قال : فوجد في جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية ، فقالت أخته - عمتي الربيع ابنة النضر - : فما عرفت أخى إلا بينانه . قال : فنزلت هذه الآية : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلاً ﴾ . قال : فكانوا يُرون أنها نزلت فيه ، وفي أصحابه . ورواه مسلم والترمذى والنسائي .

وروى ابن أبي حاتم عن أنس أن عمه - يعنى : أنس بن النضر - غاب عن قتال بدر ، فقال : غيبت عن أول قتال قاتله رسول الله ﷺ المشركين ، لئن الله أشهدنى قتالاً للمشركين ، ليرين الله ما أصنع . قال : فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون ، فقال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعنى : أصحابه - وأبرأ إليك مما جاء هؤلاء - يعنى : المشركين - ثم تقدم فلقى سعد - يعنى : ابن معاذ - دون أحد ، فقال : أنا معك . قال سعد : فلم أستطع أن أصنع ما صنع . قال : فوجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف ، وطعنة رمح ، ورمية سهم . وكانوا يقولون : فيه وفي أصحابه نزلت : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ . وأخرجه الترمذى والنسائي . وقال الترمذى : حسن (٢) . ولم يذكر نزول الآية (٣) . قال مجاهد فى قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ﴾ قال : عهده ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ قال : يوماً فيه القتال فيصدق فى اللقاء . وقال الحسن : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ﴾ يعنى : موته على الصدق والوفاء ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ﴾ الموت على مثل ذلك ، ومنهم من لم يبدل تبديلاً . وكذا قال قتادة ، وابن زيد وقال بعضهم : ﴿ نَحْبَهُ ﴾ : نذره .

وقوله : ﴿ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلاً ﴾ أى : وما غيروا عهدهم ، وبدلوا الوفاء بالعدو ، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه ، وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا : ﴿ إِنْ بُوِتْنَا عِوَرَةً وَمَا هِيَ بِعِوَرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُولَئِكَ بِأَدْبَارٍ ﴾ .

وقوله : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أى : إنما يختبر عباده بالخوف والزلال ليميز الخبيث من الطيب ، فيظهر أمر هذا بالفعل ، وأمر هذا بالفعل ،

(١) المسند (٣/١٩٣) ، ومسلم (١٤٨/١٩٠٣) ، والترمذى (٣٢٠٠) .

وفى المخطوطة : « فشهد مع رسول الله ﷺ أحد » هكذا بدون نصب « أحد » مما يدل على سقوط « يوم » منها ، والذي أثبتناه من البخارى والمطبوعة .

(٢) الترمذى (٣٢٠١) والنسائي فى الكبرى (١١٤٠٣) وصححه الالبانى .

(٣) البخارى (٤٠٤٨) .

مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم ، حتى يعملوا بما يعلمه فيهم ، كما قال تعالى: ﴿ وَتَلْبَسُونَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَلْبَسُوا آخِبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١] ، فهذا علم بالشيء بعد كونه ، وإن كان العلم السابق حاصلاً به قبل وجوده . وكذا قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطَّلِعَ عَلَيْكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] ، ولهذا قال هاهنا : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ أي : بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه، وقيامهم به، ومحافظةهم عليه ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ ﴾ : وهم الناقضون لعهد الله، المخالفون لأوامره ، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه ، ولكن هم تحت مشيئته فى الدنيا ، إن شاء استمر بهم على ما فعلوه حتى يلقوه به فيعذبهم عليه، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان، وعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان . ولما كانت رحمته ورأفته بخلقه هى الغالبة لغضبه قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة ، بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية، ولولا أن جعل الله رسوله رحمة للعالمين ، لكانت هذه الريح عليهم أشد من الريح العقيم على عاد، ولكن قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : ٣٣] ، فسلط عليهم هواء فرق شملهم ، كما كان سبب اجتماعهم من الهوى ، وهم أخلاط من قبائل شتى، أحزاب وآراء ، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذى فرق جماعتهم ، وردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحققتهم ، لم ينالوا خيراً لا فى الدنيا ، بما كان فى أنفسهم من الظفر والمغرم، ولا فى الآخرة بما تحملوه من الآثام فى مبارزة الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه، بالعداوة ، وهمهم بقتله، واستئصال جيشه، ومن همّ بشيء وصدق همّه بفعله ، فهو فى الحقيقة كفاعله .

وقوله : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ أي : لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم ، بل كفى الله وحده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ : « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده » . أخرجاه من حديث أبى هريرة (١) . وفى الصحيحين عن عبد الله بن أبى أوفى قال : دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب . اللهم ، اهزمهم وزلزلهم » (٢) .

وفى قوله : ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش ، وهكذا وقع بعدها ، لم يغزهم المشركون ، بل غزاهم المسلمون فى بلادهم . قال ابن إسحاق : لما

(٢) البخارى (٢٩٣٣) ، ومسلم (١٧٤٢/٢١) .

(١) البخارى (٤١١٤) ، ومسلم (٧٧/٢٧٢٤) .

انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله ﷺ فيما بلغنا: « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم » ، فلم تغز قريش بعد ذلك ، وكان هو يغزوهم بعد ذلك ، حتى فتح الله عليه مكة . وهذا حديث صحيح ، كما روى الإمام أحمد عن سليمان بن صرد قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: « الآن نغزوهم ولا يغزونا » . وهكذا رواه البخارى (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ أى: بحوله وقوته ، ردهم خائبين ، لم ينالوا خيراً ، وأعز الله الإسلام وأهله ، وصدق وعده ، ونصر رسوله وعبده ، فله الحمد والمنة .

﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَنْطُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾

قد تقدم أن بنى قريظة لما قدمت جنود الأحزاب ، ونزلوا على المدينة ، نقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد ، وكان ذلك بسفارة حبي بن أخطب النضرى - لعنه الله - دخل حصنهم ، ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد ، وقال له فيما قال: ويحك ، قد جئتك بعز الدهر ، أتيتك بقريش وأحايشها ، وغطفان وأتباعها ، ولا يزالون هاهنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه . فقال له كعب : بل والله أتيتنى بذلك الدهر . ويحك يا حبي ، إنك مشؤوم ، فدعنا منك . فلم يزل يقتل فى الذروة والغارب حتى أجابه ، واشترط له حبي إن ذهب الأحزاب ، ولم يكن من أمرهم شيء ، أن يدخل معهم فى الحصن ، فيكون له أسوتهم . فلما نقضت قريظة ، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ساءه ، وشق عليه وعلى المسلمين جداً ، فلما أيد لله ونصر ، وكبت الأعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيداً منصوراً ، ووضع الناس السلاح . فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من عشاء تلك المرابطة فى بيت أم سلمة إذ تبدى له جبريل معتجراً بعمامة من إستبرق ، على بغلة عليها قطيفة ديباج ، فقال: أوضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال : « نعم » . قال : لكن الملائكة لم تضع أسلحتها ، وهذا الآن رجوعى من طلب القوم . ثم قال : إن الله يأمرك أن تنهض إلى بنى قريظة . فنهض رسول الله ﷺ من فوره ، وأمر الناس بالسير إلى بنى قريظة ، وكانت على أميال من المدينة ، وذلك بعد صلاة الظهر ، وقال : « لا يصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة » . فسار الناس ، فأدركتهم الصلاة فى الطريق ، فصلى بعضهم فى الطريق وقالوا : لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل السير ، وقال آخرون : لا نصليها إلا فى بنى قريظة . فلم يُعَنَّفَ واحداً من الفريقين . وتبعهم رسول الله ﷺ ، وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وأعطى الراية لعلى بن أبى طالب . ثم نزلهم رسول الله ﷺ وحاصرهم خمسا وعشرين

ليلة ، فلما طال عليهم الحال ، نزلوا على حكم سعد بن معاذ - سيد الأوس - لأنهم كانوا حلفاءهم فى الجاهلية ، واعتقدوا أنه يحسن إليهم فى ذلك ، كما فعل عبد الله بن أبى ابن سلول فى مواليه بنى قينقاع ، حين استطلقهم من رسول الله ﷺ ، فظن هؤلاء أن سعداً سيفعل فيهم كما فعل ابن أبى فى أولئك ، ولم يعلموا أن سعداً ، رضى الله عنه ، كان قد أصابه سهم فى أكحلّه أيام الخندق ، فكواه رسول الله ﷺ فى أكحلّه ، وأنزله فى قبة فى المسجد ليعوده من قريب . وقال سعد فيما دعا به : اللهم ، إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقنى لها . وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فافجرها ولا تمتنى حتى تُقرّ عينى من بنى قريظة . فاستجاب الله دعاءه ، وقَدَّرَ عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلباً من تلقاء أنفسهم ، فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة ليحكم فيهم ، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطَّأوا له عليه ، جعل الأوس يلوذون به ويقولون : يا سعد ، إنهم مواليك ، فأحسن فيهم . ويرققونه عليهم ويعطفونه ، وهو ساكت لا يرد عليهم . فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد الا تأخذه فى الله لومة لائم . فعرفوا أنه غير مستبقيهم ، فلما دنا من الخيمة التى فيها رسول الله ﷺ قال رسول الله : « قوموا إلى سيدكم » . فقام إليه المسلمون ، فأنزلوه إعظاماً وإكراماً واحتراماً له فى محل ولايته ، ليكون أنفذ لحكمه فيهم . فلما جلس قال له رسول الله ﷺ : « إن هؤلاء - وأشار إليهم - قد نزلوا على حكمك ، فاحكم فيهم بما شئت » . قال : وحكى نافذ عليهم ؟ قال : « نعم » . قال : وعلى من فى هذه الخيمة ؟ قال : « نعم » . قال : وعلى من هاهنا . وأشار إلى الجانب الذى فيه رسول الله ﷺ - وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ - إجلالاً وإكراماً وإعظاماً - فقال له رسول الله ﷺ : « نعم » . فقال : إني أحكم أن تقتل مقاتلتهم ، وتُسبى ذريتهم وأموالهم . فقال له رسول الله ﷺ : « لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة » (١) ، وفى رواية : « لقد حكمت بحكم الملك » . ثم أمر رسول الله ﷺ بالاخاديد فحُدَّتْ فى الأرض ، وجيء بهم مكثفين ، فضرب أعناقهم ، وكانوا ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة ، وسبى من لم يُنبت منهم مع النساء وأموالهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ ﴾ أى : عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعنى : بنى قريظة من اليهود ، من بعض أسباط بنى إسرائيل ، كان قد نزل أبائهم الحجاز قديماً ، طَمَعًا فى اتباع النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ [البقرة : ٨٩] ، فعليهم لعنة الله .

وقوله : ﴿ مِنْ صِيَانِهِمْ ﴾ يعنى : حصونهم . كذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وعطاء ، وقاتادة ، والسُّدِّيُّ ، وغيرهم ، ومنه سميت صياصى البقر ، وهى قرونها ؛ لأنها أعلى شىء فيها ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ وهو الخوف ؛ لأنهم كانوا مالؤوا المشركين على حرب رسول الله ﷺ ، فأخافوا المسلمین وراموا قتلهم ليعزوا فى الدنيا ، فانعكس عليهم الحال ؛ ولهذا قال تعالى :

﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ ، فالذين قتلوا هم المقاتلة ، والأسراء هم الأصاغر والنساء . روى الإمام أحمد عن عطية القرظى قال : عُرِضَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ قَرِيظَةَ فَشَكَوَا فِيَّ ، فَأَمَرَ بِي النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَنْظُرُوا : هل أنبت بعد ؟ فنظروا فلم يجدوني أنبت ، فخلى عنى وألحقنى بالسبى . وكذا رواه أهل السنن . وقال الترمذى : حسن صحيح (١) . ورواه النسائى بنحوه (٢) .

وقوله : ﴿ وَأَوْزَتْكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ أى : جعلها لكم من قتلكم لهم ﴿ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُوهَا ﴾ : قيل : خيبر . وقيل : مكة . وقيل : فارس والروم . وقال ابن جرير : يجوز أن يكون الجميع مراداً . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ روى الإمام أحمد عن علقمة بن وقاص قال : أخبرتنى عائشة قالت : خرجت يوم الخندق أقفوا الناس ، فسمعت وثيد الأرض ورائى ، فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجنه ، قالت : فجلست إلى الأرض ، فمر سعد وعليه درع من حديد قد خرجت منه أطرافه ، فأنا أتخوف على أطراف سعد ، قالت : وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم ، فمر وهو يرتجز ويقول :

لَبِثْتُ قَلِيلًا يَشْهَدُ الْهَيْجَا حَمَلٌ
مَا أَحْسَنَ الْمَوْتَ إِذَا حَانَ الْأَجَلُ

قالت : ففقت فافتحمت حديقة ، فإذا فيها نفر من المسلمين ، وإذا فيها عمر بن الخطاب ، وفيهم رجل عليه تَسْبِغَةٌ له - تعنى المغفر - فقال عمر : ما جاء بك ؟ لعمرى والله إنك لجرئئة ، وما يؤمنك أن يكون بلاء أو يكون تَحَوَّزٌ . قالت : فما زال يلومنى حتى تمتيت أن الأرض انشقت بى ساعتئذ ، فدخلت فيها ، فرفع الرجل التسبغة عن وجهه ، فإذا هو طلحة بن عبيد الله فقال : يا عمر ، ويحك ، إنك قد أكثرت منذ اليوم ، وأين التَحَوَّزُ أو الفرار إلا إلى الله تعالى ؟ قالت : ويرمى سعداً رجل من قريش ، يقال له : ابن العرقة بسهم ، وقال له : خذها وأنا ابن العرقة فأصابَ أَكْحَلَهُ فقطعه ، فدعا الله سعد فقال : اللهم ، لا تمتنى حتى تُقَرَّ عيني من قريظة . قالت : وكانوا حلفاءه ومواليه فى الجاهلية ، قالت : فرقا كَلْمُهُ ، وبعث الله الريح على المشركين ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً . فلحق أبو سفيان ومن معه بتهامة ، ولحق عيينة بن بدر ومن معه بنجد ، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا فى صياصبيهم ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وأمر بقبة من آدم فضربت على سعد فى المسجد ، قالت : فجاءه جبريل ، عليه السلام ، وإن على ثناياه لنقع الغبار ، فقال : أو قد وضعت السلاح ؟ لا ، والله ما وضعت الملائكة بعد السلاح ، أخرج إلى بنى قريظة فقاتلهم . قالت : فليس رسول الله ، لأمته ، وأذن فى الناس بالرحيل أن يخرجوا ، فخرج رسول الله ﷺ فمر على بنى غنم وهم جيران المسجد حوله فقال : ومن مر بكم ؟ قالوا : مر بنا دحية الكلبي - وكان دحية الكلبي تشبه لحيته ، وسنه ووجهه جبريل ، عليه الصلاة والسلام ، فاتاهم رسول الله ﷺ

(١) المسند (٣١١/٥) ، وأبو داود (٤٤٠٤) ، والترمذى (١٥٨٤) ، والنسائى (٤٩٨١) ، وابن ماجه (٢٥٤٢) وصححه الألبانى .

(٢) النسائى فى الكبرى (٨٦١٩) .

فحاصره خمسا وعشرين ليلة ، فلما اشتد حصارهم واشتد البلاء قيل لهم : انزلوا على حكم رسول الله ﷺ . فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر ، فأشار إليهم أنه الذبح . قالوا : ننزل على حكم سعد بن معاذ [فقال رسول الله ﷺ : « انزلوا على حكم سعد بن معاذ » . فنزلوا وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ] (١) فأتى به على حمار عليه إكاف من ليف قد حمل عليه ، وحفّ به قومه ، فقالوا : يا أبا عمرو ، حلفاؤك ومواليك وأهل النكايه ، ومن قد علمت ، قالت : ولا يرجع إليهم شيئا ، ولا يلتفت إليهم ، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال : قد آن لى ألا أبالي فى الله لومة لائم . قال : قال أبو سعيد: فلما طلع قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى سيدكم فأنزلوه » . فقال عمر : سيدنا الله . قال : « أنزلوه » . فأنزلوه ، قال رسول الله ﷺ : « احكم فيهم » . قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ، وتقسم أموالهم ، فقال رسول الله : « لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله » . ثم دعا سعد فقال : اللهم ، إن كنت أبقيت على نبيك من حرب قريش شيئا ، فأبقني لها . وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم ، فاقبضنى إليك . قال : فانفجر كلمه ، وكان قد برئ منه إلا مثل الخرص ، ورجع إلى قبته التى ضرب عليه رسول الله .

قالت عائشة : فحصره رسول الله ﷺ وأبو بكر ، وعمر: قالت : فوالذى نفس محمد بيده ، إنى لأعرف بكاء أبى بكر من بكاء عمر ، وأنا فى حجرتى . وكانوا كما قال الله تعالى : ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ . قال علقمة : فقلت : أى أمه ، فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع ؟ قالت : كانت عينه لا تدمع على أحد ، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلمحيته . وقد أخرج البخارى ومسلم عن عائشة نحو ما هذا ، ولكنه أخصر منه ، وفيه دعاء سعد ، رضى الله عنه (٢) .

﴿ يَتَأَيَّمُ النَّبِيُّ قُلُوبَ لَأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَأَنَّ يَكُنَّ آتِيَةً بِسُرْمَةٍ وَأَنْ يَسْرَحَ عَلَيْكَ سَرْمًا جَمِيلًا ﴾ (٢٨) ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢٩)

هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ بأن يخير نساءه بين أن يفارقهن ، فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها ، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله فى ذلك الثواب الجزيل ، فاخترن ، رضى الله عنهن وأرضاهن ، الله ورسوله والدار الآخرة ، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة .

روى البخارى عن عائشة ، زوج النبي ﷺ : أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله أن يخير أزواجه ، فبدأ بى رسول الله ﷺ فقال : « إني ذاك لك أمرا ، فلا عليك أن تستعجلي

(١) ما بين المعقوفين ليس فى المخطوطة ، وأثبتناه من المطبوعة والمسند .

(٢) المسند (٦/١٤١) ، والبخارى (٤١١٧) ، ومسلم (١٧٦٩/٦٥) .

حتى تستأمرى أبويك » ، وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه . قالت : ثم قال : « وإن الله قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ ﴾ » إلى تمام الآيتين ، فقلت له : ففى أى هذا أستأمر أبوي ؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة (١) . وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : قالت عائشة : أنزلت آية التخيير فبدأ بى أول امرأة من نسائه ، فقال : « إنى ذاك لك أمراً ، فلا عليك ألا تعجلى حتى تستأمرى أبويك » . قالت : قد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه . قالت : ثم قال : « إن الله قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ ﴾ » الآيتين . قالت عائشة : فقلت : أفى هذا أستأمر أبوي ؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة . ثم خير نساء كلهن ، فقلن مثل ما قالت عائشة ، رضى الله عنهن . وأخرجه البخارى ومسلم مثله (٢) . وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت : خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه ، فلم يعدها علينا شيئاً . أخرجاه (٣) . وروى الإمام أحمد عن جابر قال : أقبل أبو بكر ، يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس ، والنبي ﷺ جالس : فلم يؤذن له . ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له . ثم أذن لأبى بكر وعمر فدخلوا والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه ، وهو ساكت ، فقال عمر : لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك ، فقال عمر : يا رسول الله ، لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتنى النفقة أنفاً ، فوجأت عنقها . فضحك النبي ﷺ حتى بدا ناجذه وقال : « هن حولى يسألننى النفقة » . فقام أبو بكر ، رضى الله عنه ، إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر ، رضى الله عنه ، إلى حفصة ، كلاهما يقولان : تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده . فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن نساؤه : والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده . قال : وأنزل الله ، عز وجل ، الخيار ، فبدأ بعائشة فقال : « إنى أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك » . قالت : وما هو ؟ قال : فتلا عليها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ ﴾ الآية ، قالت عائشة ، رضى الله عنها : أفيك أستأمر أبوي ؟ بل أختار الله ورسوله ، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نساءك ما اخترت . فقال : « إن الله تعالى لم يبعثنى معنفاً ، ولكن بعثنى معلماً ميسراً ، لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها » . انفرد بإخراجه مسلم (٤) .

وقد اختلف العلماء فى جواز تزويج غيره لهن لو طلقهن ، على قولين ، وأصحهما نعم لو وقع ، ليحصل المقصود من السراح ، والله أعلم . قال عكرمة : وكان تحته يومئذ تسع نساء ، خمس من قريش : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة ، وكانت تحته ﷺ صفية بنت حيى النَّضْرِيَّة ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية ، رضى الله عنهن وأرضاهن .

(١) البخارى (٤٧٨٥) .

(٢) البخارى (٤٧٨٦) ، ومسلم (٢٢/١٤٧٥) .

(٣) المسند (٤٥/٦) ، والبخارى (٥٢٦٢) ، ومسلم (٢٤/١٤٧٧) .

(٤) المسند (٣٢٨/٣) ، ومسلم (٢٩/١٤٧٨) .

﴿ يَلِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ لِيُرْسِلْهُ اللَّهُ بِرَسُولِهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرًا مَّرْتَيْنٍ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ ﴿٣١﴾

الجزء
٢٢

يقول تعالى واعظا نساء النبي ﷺ ، اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء، بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة - قال ابن عباس: وهي النشوز وسوء الخلق. وعلى كل تقدير فهو شرط ، والشرط لا يقتضى الوقوع كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : ٦٥] ، وكقوله : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الانعام : ٨٨] ، ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ [الزخرف : ٨١] ، ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الزمر : ٤] . فلما كانت محلتهن رفيعة ، ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظا ، صيانة لجنابهن وحجابهن الرفيع ؛ ولهذا قال : ﴿ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ قال زيد بن أسلم: فى الدنيا والآخرة ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ أى : سهلا هينا . ثم ذكر عدله وفضله فى قوله : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ لِيُرْسِلْهُ اللَّهُ بِرَسُولِهِ ﴾ أى : يطع الله ورسوله ويستجيب ﴿ نُؤْتِيهَا أَجْرًا مَّرْتَيْنٍ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ أى: فى الجنة ، فإنهن فى منازل رسول الله ﷺ فى أعلى عليين ، فوق منازل جميع الخلائق ، فى الوسيلة التى هى أقرب منازل الجنة إلى العرش .

﴿ يَلِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ۚ إِنَّ أُنْتَقِيَنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ ﴿٣١﴾ ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿ وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ ﴿٣٣﴾

هذه آداب أمر الله بها نساء النبي ﷺ ، ونساء الأمة تبع لهن فى ذلك ، فقال مخاطبا لنساء النبي ﷺ بأنهن إذا اتقين الله عز وجل كما أمرهن ، فإنه لا يشبههن أحد من النساء ، ولا يلحقهن فى الفضيلة والمنزلة ، ثم قال : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾ قال السددي وغيره : يعنى بذلك : تزيق الكلام إذا خاطبن الرجال ؛ ولهذا قال : ﴿ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ أى: دغل ﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ قال ابن زيد : قولاحسنا جميلا معروفا فى الخير. ومعنى هذا : أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم، أى: لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها. وقوله : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ أى : الزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة . ومن الحوائج

الشرعية : الصلاة في المسجد بشرطه ، كما قال رسول الله ﷺ : « لا تمنعوا إمام الله مساجد الله ، وليخرجن وهن تغلات » (١) ، وفي رواية : « وبيوتهن خير لهن » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَبْرَجْنَ تَبْرُجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ قال مجاهد : كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال ، فذلك تبرج الجاهلية . وقال قتادة : ﴿ وَلَا تَبْرَجْنَ تَبْرُجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ يقول : إذا خرجتن من بيوتكن - وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج - فهى الله عن ذلك . وقال مقاتل بن حيان : ﴿ وَلَا تَبْرَجْنَ تَبْرُجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ : والتبرج : أنها تلقى الخمار على رأسها ، ولا تشده فيوارى فلاتدها وقرطها وعنقها ، ويبدو ذلك كله منها ، وذلك التبرج ، ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج .

وقوله : ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ : نهان أولاً عن الشر ثم أمرهن بالخير ، من إقامة الصلاة ، وهى : عبادة الله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة ، وهى : الإحسان إلى المخلوقين ﴿ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وهذا من باب عطف العام على الخاص .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ : وهذا نص فى دخول أزواج النبى ﷺ فى أهل البيت هاهنا ؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية ، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً ، إما وحده على قول أو مع غيره على الصحيح .

فإن كان المراد أنهم كُنَّ سبب النزول دون غيرهن فصحيح ، وإن أريد أنهم المراد فقط دون غيرهن ، ففي هذا نظر ؛ فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك .

روى ابن جرير عن صفية بنت شيبة قالت : قالت عائشة : خرج رسول الله ﷺ ذات غداة ، وعليه مرط مُرْحَلٌ من شعر أسود ، فجاء الحسن فأدخله معه ، ثم جاء الحسين فأدخله معه ، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه ، ثم جاء على فأدخله معه ، ثم قال : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ . ورواه مسلم (٣) .

وروى مسلم فى صحيحه عن يزيد بن حيان قال : انطلقت أنا وحُصَيْنُ بن سَبْرَةَ وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم ، فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه ، وغزوت معه ، وصليت خلفه ، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً ؛ حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ . قال : يا بن أخى ، والله لقد كبرت سنّى ، وقدم عهدى ، ونسيتُ بعض الذى كنتُ أعمى من رسول الله ﷺ ، فما حدثتكم فاقبلوا ، وما لا فلا تُكَلِّفُونِيهِ . ثم قال : قام فينا رسول الله ﷺ يوماً خطيباً بماء يدعى حُما - بين مكة والمدينة - فحمد الله وأثنى عليه ، ووعظ وذكّر ، ثم قال : « أما بعد ، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتى رسول ربى فأجيب ، وأنا تارك فيكم ثقلين ، وأولهما كتاب الله ، فيه الهدى

(٢) أبو داود (٥٦٧) وصححه الألبانى .

(١) أبو داود (٥٦٥) وصححه الألبانى .

(٣) الطبرى (٥/٢٢) ، ومسلم (٣٦/٢٠٨١) .

والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به». فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: « وَأَهْلُ بَيْتِي ، أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي » ثلاثاً. فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِّمِ الصَّدَقَةِ بعده. قال: ومن هم؟ قال هم آل علي، وآل عقیل، وآل جعفر، وآل عباس. قال: كل هؤلاء حُرِّمِ الصَّدَقَةِ؟ قال: نعم (١).

ثم الذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ ، فإن سياق الكلام معهن؛ ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿ وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ أى: اعملن بما ينزل الله على رسوله في بيوتكن من الكتاب والسنة. قاله قتادة وغير واحد. واذكرن هذه النعمة التي خصصتن بها من بين الناس، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس، وعائشة الصديقة بنت الصديق أولاهن بهذه النعمة، وأحظاهن بهذه الغنيمة، وأخصهن من هذه الرحمة العميمة، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها، كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه. قال بعض العلماء، رحمه الله: لأنه لم يتزوج بكراً سواها، ولم ينم معها رجل في فراشها سواه، فناسب أن تخصص بهذه المزية، وأن تفرد بهذه الرتبة العلية. ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته، فقربته أحق بهذه التسمية، كما تقدم في الحديث: « وأهل بيتي أحق ».

وهذا يشبه ما ثبت في صحيح مسلم: أن رسول الله ﷺ لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم. فقال: « هو مسجدي هذا » (٢). فهذا من هذا القبيل؛ فإن الآية إنما نزلت في مسجد قباء. كما ورد في الأحاديث الأخرى. ولكن إذا كان ذلك أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ أولى بتسميته بذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ أى: بلطفه يكن بلغتن هذه المنزلة، وبخبيرت يكن وأنكن أهل لذلك، أعطاكم ذلك وخصكن بذلك.

قال ابن جرير رحمه الله: واذكرن نعمة الله عليكم بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة، فاشكرن الله على ذلك واحمدنه ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ أى: ذا لطف بكن، إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آياته والحكمة؛ وهى السنة، خبيراً بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجاً. وقال قتادة: ﴿ وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ قال: يمتن عليهن بذلك. رواه ابن جرير. وقال عطية العوفى في قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ يعنى: لطيف باستخراجها، خبير بموضعها. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وكذا روى عن الربيع بن أنس، عن قتادة.

(١) مسلم (٣٦٠/٢٤٠٨).

(٢) مسلم (٥١٤/١٣٩٨).

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّاتِمِينَ وَالصَّاتِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ﴿٣٥﴾

روى الإمام أحمد عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: قلت للنبي ﷺ: ما لنا لا نذكرُ في القرآن كما يذكر الرجال؟ قالت: فلم يرعنى منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر، قالت: وأنا أسرح شعري، فلففت شعري، ثم خرجت إلى حجرتي، حجرة بيتي، فجعلت سمعي عند الجريد، فإذا هو يقول عند المنبر: «يا أيها الناس، إن الله يقول: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى آخر الآية. وهكذا رواه النسائي وابن جرير (١).

فقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ دليل على أن الإيمان غير الإسلام، وهو أخص منه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]. وفي الصحيحين: «لا يزنى الزاني حين يزنى وهو مؤمن». فيسلبه الإيمان، ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين.

وقوله: ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾ القنوت: هو الطاعة في سكون ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦]، ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، ﴿وَقَوْمًا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، فالإسلام بعده مرتبة يرتقى إليها، ثم القنوت ناشيء عنهما. ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾: هذا في الأقوال، فإن الصدق خصلة محمودة؛ ولهذا كان بعض الصحابة لم تجرب عليه كذبة لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وهو علامة على الإيمان، كما أن الكذب أمانة على النفاق، ومن صدق نجا.

﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾: هذه سجية الأثبات، وهي الصبر على المصائب، والعلم بأن المقدور كائن لا محالة، وتلقى ذلك بالصبر والثبات، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى، أي: أصعبه في أول وهلة، ثم ما بعده أسهل منه، وهو صدق السجية وثباتها. ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ الخشوع: السكون والطمأنينة، والتؤدة والوقار والتواضع. والحامل عليه الخوف من الله ومراقبته. ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ الصدقة: هي الإحسان إلى الناس المحاييج الضعفاء، الذين لا كسب لهم ولا كاسب، يعطون من فضول الأموال طاعة لله، وإحسانا إلى خلقه، وقد ثبت في الصحيحين: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» فذكر منهم: «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» (٢). وفي

(١) المسند (٦/٣٠٥)، والنسائي في الكبرى (١٤٠٥)، والطبري (١٠/٢٢).

(٢) البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (٩١/١٠٣١).

الحديث الآخر : « والصدقة تطفي الخطيئة ، كما يطفى الماء النار » (١) . والأحاديث في الحث عليها كثيرة جداً ، له موضع بذاته .

﴿ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ﴾ : قال سعيد بن جبير : من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر ، دخل في قوله : ﴿ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ ﴾ .

ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة - كما قال رسول الله ﷺ : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » (٢) - ناسب أن يذكر بعده : ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ ﴾ أى : عن المحارم والمآثم إلا عن المباح ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنْ ابْتغى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥ - ٧] .

وقوله : ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ روى الإمام أحمد عن أبي هريرة ، قال : كان النبي ﷺ يسير في طريق مكة ، فأتى على جُمْدَانِ فقال : « هذا جُمْدَانِ ، سيروا فقد سبق المُفْرَدُونَ » . قالوا : وما المُفْرَدُونَ ؟ قال : « الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ » . ثم قال : « اللهم اغفر للمحلقين » . قالوا : والمقصرين ؟ قال : « اللهم ، اغفر للمحلقين » . قالوا : والمقصرين ؟ قال : « والمقصرين » . تفرد به من هذا الوجه ، ورواه مسلم دون آخره (٣) .

وقوله : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ خبر عن هؤلاء المذكورين كلهم ، أن الله تعالى قد أعد لهم أى : هيا لهم منه لذنوبهم مغفرة وأجرًا عظيمًا وهو الجنة .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مِؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾

عن ابن عباس قال : خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة ، فاستنكفت منه ، وقالت : أنا خير منه حسباً - وكانت امرأة فيها حدة - فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مِؤْمِنَةٍ ﴾ الآية كلها . وهكذا قال مجاهد ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان : أنها نزلت فى زينب بنت جحش حين خطبها رسول الله ﷺ على مولاه زيد بن حارثة ، فامتنعت ثم أجابت . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : نزلت فى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، وكانت أول من هاجر من النساء - يعنى : بعد صلح الحديبية - فوهبت نفسها للنبي ﷺ ، فقال : قد قبلت فزوجها زيد بن حارثة - يعنى والله أعلم بعد فراقه زينب - فسخطت هى وأخوها

(١) الترمذى (٦١٤) ، وقال : « هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه » ، وقال الشيخ أحمد شاکر : « الحديث صحيح فله شواهد تؤيد صحته » .

(٢) البخارى (٥٠٦٦) ، ومسلم (١/١٤٠٠) .

(٣) المسند (٤١١/٢) ، ومسلم (٣٢٠/١٣٠٢) .

وقالا: إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوجنا عبده . قال: فنزل القرآن : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمِئَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا ﴾ إلى آخر الآية .

وروى الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد - يعني : ابن سلمة - عن ثابت ، عن كنانة بن نعيم العدوي ، عن أبي برزة الأسلمي أن جلييبا كان امرأ يدخل على النساء يمر بهن ويلعبهن ، فقلت لامراتي: لا يدخلن اليوم عليكم جلييب فإنه إن دخل عليكم لأفعلن ولأفعلن . قال : وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أيم لم يزوجها حتى يعلم : هل لنبي الله ﷺ فيها حاجة أم لا . فقال رسول الله ﷺ لرجل من الأنصار : « زوجني ابتك » . قال : نعم ، وكرامة يا رسول الله ، ونعمة عين . فقال : « إني لست أريدها لنفسى » . قال : فلمن يا رسول الله ؟ قال : « جلييب » .

فقال : يا رسول الله ، أشاور أمها . فأتى أمها فقال: رسول الله ﷺ يخطب ابتك ؟ فقالت نعم ونعمة عين . فقال: إنه ليس يخطبها لنفسه ، إنما يخطبها جلييب . فقالت: أجلييب إني ؟ أجلييب إني ؟ لا لعمر الله لا تزوجه . فلما أراد أن يقوم ليأتي رسول الله ﷺ فيخبره بما قالت أمها ، قالت الجارية: من خطبني إليكم ؟ فأخبرتها أمها . قالت: أتردون على رسول الله ﷺ أمره ؟! ادفعوني إليه ، فإنه لن يضيعني . فانطلق أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال: شأنك بها . فزوجها جلييبا . قال : فخرج رسول الله ﷺ في غزاة له ، فلما أفاء الله عليه قال لأصحابه : « هل تفقدون من أحد ؟ » قالوا: نفقد فلانا ونفقد فلانا . قال: « انظروا هل تفقدون من أحد ؟ » قالوا: لا . قال: « لكنني أفقد جلييبا » . قال : « فاطلبوه في القتلى » . فطلبوه فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه . فقالوا: يا رسول الله ، ها هو ذا إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه . فأتاه رسول الله ﷺ فقام عليه ، فقال : « قتل سبعة وقتلوه ، هذا منى وأنا منه » . مرتين أو ثلاثا ، ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه وحفرله ، ما له سرير إلا ساعد النبي ﷺ . ثم وضعه في قبره ، ولم يذكر أنه غسله ، رضى الله عنه . قال ثابت : فما كان في الأنصار أيم أنفق منها . وحدث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ثابتا: هل تعلم ما دعا لها رسول الله ﷺ ؟ فقال: « اللهم ، صب عليها الخير صبا ، ولا تجعل عيشها كدًا » كذا قال ، فما كان في الأنصار أيم أنفق منها . هكذا أورده الإمام أحمد بطوله ، وأخرج منه مسلم والنسائي في الفضائل قصة قتله (١) .

وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر في « الاستيعاب » أن الجارية لما قالت في خدرها : أتردون على رسول الله ﷺ أمره ؟ تلت هذه الآية : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمِئَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (٢) . عن طاوس قال : إنه سأل ابن عباس عن ركعتين بعد

(١) المسند (٤/٤٢٢) ، ومسلم (٢٤٨٢/١٤٥) ، والنسائي في الكبرى (٨٢٤٦) .

(٢) الاستيعاب (١/٢٥٩) .

العصر ، فنهاه ، وقرأ ابن عباس ، رضى الله عنه : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ .

فهذه الآية عامة فى جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشىء ، فليس لأحد مخالفتة ولا اختيار لأحد هاهنا ، ولا رأى ولا قول ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] ، ولهذا شدد فى خلاف ذلك ، فقال : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ [النور : ٦٣] .

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه ، صلوات الله وسلامه عليه ، أنه قال لمولاه زيد بن حارثة وهو الذى ﴿ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ أى : بالإسلام ومتابعة الرسول ، عليه أفضل الصلاة والسلام ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ أى : بالعتق من الرق ، وكان سيدا كبير الشأن جليل القدر ، حبيباً إلى النبي ﷺ ، يقال له : الحب ، ويقال لابنه أسامة : الحب ابن الحب . عن أسامة بن زيد قال : كنت فى المسجد ، فأتاني العباس وعلى بن أبي طالب ، رضى الله عنهما ، فقالا : يا أسامة ، استأذن لنا على رسول الله ﷺ . قال : فأتيت رسول الله فأخبرته ، فقلت : على والعباس يستأذنان ؟ فقال : « أتدرى ما حاجتهما ؟ » فقلت : لا يا رسول الله . فقال : « لكنى أدرى » ، قال : فأذن لهما . قالوا : يا رسول الله ، جئتك لتخبرنا : أى أهلك أحب إليك ؟ فقال : « أحب أهلى إلى فاطمة بنت محمد » ، قالوا : يا رسول الله ، ما نسألك عن فاطمة . قال « فأسامة بن زيد بن حارثة ، الذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه » (١) .

وكان رسول الله ﷺ قد زوجه بابنة عمته زينب بنت جحش الأسدية - وأمها أميمة بنت عبد المطلب - وأصدقها عشرة دنانير ، وستين درهماً ، وخماراً ، وملحقةً ، ودرعاً ، وخمسين مئداً من طعام ، وعشرة أمداد من تمر ، فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها ، ثم وقع بينهما ، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له : « أمسك عليك زوجك ، واتق الله » . قال الله تعالى : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ . وقد روى البخارى أيضاً بعضه مختصراً عن أنس بن مالك قال : إن هذه الآية : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ نزلت فى شأن زينب بنت جحش ، وزيد بن حارثة ، رضى الله عنهما (٢) .

(١) الترمذى (٣٨١٩) بنحوه ، وقال : « حديث حسن صحيح » .

(٢) البخارى (٤٧٨٧) .

وروى ابن جرير عن عائشة ، أنها قالت : لو كنتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحى إليه من كتاب الله ، لكنتم : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ : الوطر: هو الحاجة والأرب ، أى : لما فرغ منها ، وفارقها ، زوّجناكها ، وكان الذى ولى تزويجها منه هو الله ، عز وجل ، بمعنى : أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولى ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر . وروى الإمام أحمد عن أنس ، رضى الله عنه ، قال : لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : « اذهب فاذكرها على » . فانطلق حتى أتاها وهى تُحَمَّرُ عجبتها ، قال : فلما رأيتها عظمت فى صدرى - حتى ما أستطيع أن أنظر إليها - أن رسول الله ﷺ ذكرها ، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي ، وقلت : يا زينب ، أبشرى ، أرسلنى رسول الله ﷺ يذكرك . قالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي ، عز وجل . فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن ، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن . ولقد رأيتنا حين دَخَلْتُ على رسول الله ﷺ أطعمنا عليها الخبز واللحم ، فخرج الناس وبقى رجال يتحدثون فى البيت بعد الطعام ، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته فجعل يتبع حُجْر نساته يسلم عليهن ، ويقولن : يا رسول الله ، كيف وجدت أهلك ؟ فما أدرى أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر . قال : فانطلق حتى دخل البيت ، فذهبت أدخل معه ، فألقى الستر بينى وبينه ، ونزل الحجاب ، ووعظ القوم بما وعظوا به : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ الآية . ورواه مسلم والنسائى (٢) .

وقد روى البخارى عن أنس بن مالك ، أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبى ﷺ فتقول : زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات (٣) .

وقوله : ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ أى : إنما أبحننا لك تزويجها وفعلنا ذلك ؛ لئلا يبقى حرج على المؤمنين فى تزويج مطلقات الأديعاء ، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة ، فكان يقال له : « زيد بن محمد » ، فلما قطع الله هذه النسبة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَائَكُمْ أَوْلَادَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ . ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ زاد ذلك بياناً وتأكيداً بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزَيْنَب بنت جحش لما طلقها زيد بن حارثة ؛ ولهذا قال فى آية التحريم : ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَانِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ [النساء : ٢٣] ليحترز من الابن الدعى ؛ فإن ذلك كان كثيراً فيهم .

وقوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ أى : وكان هذا الأمر الذى وقع قد قدره الله تعالى وحتّمه ، وهو كائن لا محالة ، كانت زينب فى علم الله ستصير من أزواج النبى ﷺ .

(١) ابن جرير فى التفسير (١١/٢٢) .

(٢) المسند (٣/١٩٥) ، ومسلم (٨٩/١٤٢٨) ، والنسائى (٣٢٥٢) .

(٣) البخارى (٧٤٢٠) .

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى : ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾ أى : فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب التي طلقها دعيه زيد بن حارثة .

وقوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : هذا حكم الله فى الانبياء قبله ، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم فى ذلك حرج ، وهذا رد على من توهم من المنافقين نقصاً فى تزويجه امرأة زيد مولاة ودعيه ، الذى كان قد تبناه ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ أى : وكان أمره الذى يقدره كائنًا لا محالة ، وواقعًا لا محيد عنه ولا معدل ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ ﴿٢٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَحَاتَرَ النَّبِيتِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٠﴾

مدح تبارك وتعالى ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ ﴾ أى : إلى خلقه ويؤدونها بأمانتها ﴿ وَيَخْشَوْنَ ﴾ أى : يخافونه ولا يخافون أحدًا سواه فلا تمتعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أى : وكفى بالله ناصرًا ومعينًا . وسيد الناس فى هذا المقام - بل وفى كل مقام - محمد رسول الله ﷺ ؛ فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغرب ، إلى جميع أنواع بنى آدم ، وأظهر الله كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع ، فإنه قد كان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وأما هو ، صلوات الله عليه ، فإنه بعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الاعراف : ١٥٨] ، ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده ، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه ، بلغوا عنه كما أمرهم به فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله ، فى ليله ونهاره ، وحضره وسفره ، وسره وعلايته ، فرضى الله عنهم وأرضاهم . ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا ، فبنورهم يقتدى المهتدون ، وعلى منهجهم يسلك الموفقون . فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم .

وقوله : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ نهى تعالى أن يقال بعد هذا : « زيد بن محمد » أى : لم يكن أباه وإن كان قد تبناه ، فإنه ، صلوات الله عليه وسلامه ، لم يعيش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم ؛ فإنه ولد له القاسم ، والطيب ، والظاهر ، من خديجة فماتوا صغارًا ، وولد له إبراهيم من مارية القبطية ، فمات أيضا رضيعا ، وكان له من خديجة أربع بنات : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، رضى الله عنهم أجمعين ، فمات فى حياته ثلاث وتأخرت فاطمة حتى أصيبت به ، صلوات الله وسلامه عليه ، ثم ماتت بعده لسته أشهر .

وقوله : ﴿ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ كقولهِ : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الانعام : ١٢٤] فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده ، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بطريق الأولى والأحرى ؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبي ، ولا ينعكس . وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة . روى الإمام أحمد عن أبي بن كعب ، عن النبي ﷺ قال : « مثلى في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها ، وترك فيها موضع لَبْنَةٍ لم يَضَعْهَا ، فجعل الناس يطوفون بالبنين ويعجبون منه ، ويقولون : لو تم موضع هذه اللبنة ! فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة » .

ورواه الترمذى ، وقال : حسن صحيح (١) . وروى أبو داود الطيالسى عن عبد الله [بن مسعود] قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لَبْنَةٍ ، فكان من دخلها فنظر إليها قال : ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة ! فأنا موضع اللبنة ، ختم بي الأنبياء ، عليهم السلام » . ورواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، وقال الترمذى : صحيح غريب من هذا الوجه (٢) . وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدرى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلى ومثل النبيين من قبلى كمثل رجل بنى داراً فأتمها إلا لَبْنَةً واحدة ، فبحثت أنا فأتممت تلك اللبنة » . انفرد بإخراجه مسلم من رواية الأعمش ، به (٣) . وروى الإمام مسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بَسْتِ : أُعْطِيتُ جِوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرَّعْبِ ، وَأَحْلَلْتُ لِي الْغَنَائِمَ ، وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ طَهُورًا وَمَسْجِدًا ، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً ، وَخْتَمَ بِي النَّبِيُّونَ » . ورواه الترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح (٤) . وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ، كمثل رجل بنى داراً فأتمها إلا موضع لبنة واحدة ، فبحثت أنا فأتممت تلك اللبنة » . ورواه مسلم (٥) .

والأحاديث في هذا كثيرة ، فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد ﷺ ، إليهم ، ثم من تشریفه له ختم الأنبياء والمرسلين به ، وإكمال الدين الخفيف له . وقد أخبر تعالى في كتابه ، ورسوله في السنة المتواترة عنه : أنه لا نبي بعده ؛ ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك ، دجال ضال ، مضل ، ولو تخرق وشعبذ ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرجيات ، فكلها محال وضلال عند أولى الألباب ، كما أجرى الله ، سبحانه وتعالى ، على يد الأسود العنسى باليمن ، ومسيلمة الكذاب باليمامة ، من الأحوال الفاسدة والأقوال

(١) المسند (٥/١٣٦) ، والترمذى (٣٦١٣) .

(٢) أبو داود في مسنده (١٧٨٥) ، والبخارى (٣٥٣٤) ، ومسلم (٢٣/٢٢٨٧) ، والترمذى (٢٨٦٢) .

(٣) المسند (٣/٩) ، ومسلم (٢٠/٢٢٨٦) .

(٤) مسلم (٥/٥٢٣) ، والترمذى (١٥٥٣) ، وابن ماجه (٥٦٧) .

(٥) انظر هامش (٢) بالصفحة .

الباردة ، ما علم كل ذى لب وفهم وحجى أنهما كاذبان ضالان ، لعنهما الله . وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال ، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها . وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه ، فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرن بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق ، أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره ، ويكون فى غاية الإفك والفجور فى أقوالهم وأفعالهم ، كما قال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٢٢١ ، ٢٢٢] . وهذا بخلاف الأنبياء ، عليهم السلام ، فإنهم فى غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرن به وينهون عنه ، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات ، والأدلة الواضحات ، والبراهين الباهرات ، فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستمراً ما دامت الأرض والسموات .

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسِيِّئُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيٰ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمٰتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ نَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ؕ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تعالى ، المنعم عليهم بأنواع النعم وصنوف المنن ، لما لهم فى ذلك من جزيل الثواب ، وجميل المآب .

روى الإمام أحمد عن أبى الدرداء ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ؟ » قالوا : وما هو يا رسول الله ؟ قال : « ذكر الله ، عز وجل » . وهكذا رواه الترمذى وابن ماجه (١) .

وروى الإمام أحمد عن عمرو بن قيس قال : سمعت عبد الله بن بسر يقول : جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ ، فقال أحدهما : يا رسول الله ، أى الناس خير؟ قال : « من طال عمره وحسن عمله » . وقال الآخر : يا رسول الله ، إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا ، فمرنى بأمر أتشبه به . قال : « لا يزال لسانك رطباً بذكر الله » . وروى الترمذى وابن ماجه الفصل الثانى ، وقال الترمذى : حسن غريب (٢) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من قوم جلسوا مجلساً لم يذكروا الله فيه ، إلا رأوه حسرة يوم القيامة » (٣) .

(١) المسند (٥/١٩٥) ، والترمذى (٣٣٧٧) ، وابن ماجه (٣٧٩٠) وصححه الالبانى .
 (٢) المسند (٤/١٩٠) ، والترمذى (٣٣٧٥) ، وابن ماجه (٣٧٩٣) ، وصححه الالبانى .
 (٣) المسند (٢/٢٢٤) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/٨٣) : « رجاله رجال الصحيح » .

وقال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ : إن الله لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما ، ثم عذر أهلها فى حال عذر ، غير الذكر ، فإن الله لم يجعل له حدا ينتهى إليه ، ولم يعذر أحدا فى تركه ، إلا مغلوبا على تركه ، فقال : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء : ١٠٣] ، بالليل والنهار ، فى البر والبحر ، وفى السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والصحة والسقم ، والسر والعلائية ، وعلى كل حال ، وقال : ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ ، فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته .

والاحاديث والآيات والآثار فى الحث على ذكر الله كثيرة جدا ، وفى هذه الآية الكريمة الحث على الإكثار من ذلك . وقد صنف الناس فى الأذكار المتعلقة بآداء الليل والنهار كالنسائي والمعمري وغيرهما ، ومن أحسن الكتب المؤلفة فى ذلك كتاب الأذكار للشيخ محيى الدين النوى .

وقوله : ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أى : عند الصباح والمساء ، كقوله : ﴿ فَسَبِّحَانَ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ . وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ [الروم : ١٧ ، ١٨] .

وقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ : هذا تهييج إلى الذكر ، أى : إنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم ، كقوله تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ . فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴾ [البقرة : ١٥١ ، ١٥٢] . وقال النبى ﷺ : « يقول الله : من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملاء خير منهم » (١) .

والصلاة من الله ثناؤه على العبد عند الملائكة ، حكاه البخارى عن أبى العالية . ورواه أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عنه . وقال غيره : الصلاة من الله : الرحمة . وقد يقال : لا منافاة بين القولين والله أعلم .

وأما الصلاة من الملائكة ، فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار ، كقوله : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَجِيمِ . رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾ الآية [غافر : ٧ - ٩] .

وقوله : ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أى : سبب رحمته بكم وثناؤه عليكم ، ودعاء ملائكته لكم ، يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين . ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا : فإنه هداهم إلى الحق الذى جهله غيرهم ، وبصّرهم الطريق الذى ضل عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة وأشياءهم من الطغام . وأما رحمته بهم فى الآخرة : فآمنهم من الفزع الأكبر ، وأمر ملائكته بثلقتونهم

(١) البخارى (٧٤٠٥) ، ومسلم (١/٢٦٧٥) .

بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار، وما ذاك إلا لمحبتهم لهم ورافته بهم . روى الإمام أحمد عن أنس، رضى الله عنه ، قال : مر رسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه وصبى فى الطريق ، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ ، فأقبلت تسعى وتقول : ابنى ، ابنى ، وسعت فأخذته ، فقال القوم : يا رسول الله ، ما كانت هذه لتلقى ابنتها فى النار . قال فَخَفَّضَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وقال : « ولا الله ، لا يلقى حبيبه فى النار » (١) . إسناده على شرط الصحيحين ، ولم يخرجها أحد من أصحاب الكتب الستة ، ولكن فى صحيح الإمام البخارى ، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبى قد أخذت صبيا لها ، فألصقته إلى صدرها ، وأرضعته فقال : « أترون هذه تلقى ولدها فى النار وهى تقدر على ذلك ؟ » قالوا : لا . قال : « فوالله ، لله أرحم بعباده من هذه بولدها » (٢) .

وقوله : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ : الظاهر أن المراد - والله أعلم - ﴿ تَحِيَّتُهُمْ ﴾ أى : من الله تعالى يوم يلقونه ﴿ سَلَامٌ ﴾ أى : يوم يسلم عليهم كما قال تعالى : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ [يس : ٥٨] . وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيى بعضهم بعضا بالسلام ، يوم يلقون الله فى الدار الآخرة . واختاره ابن جرير . قلت : وقد يستدل بقوله تعالى : ﴿ دَعَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس : ١٠] .

وقوله : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ يعنى : الجنة وما فيها من المآكل والمشرب ، والملابس والمسكن ، والمتاح والملاذ والمناظر وما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَيُبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا يُطِيعُ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ وَدَعَّ أٰذُنَهُمْ تَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

روى الإمام أحمد عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة . قال : أجل ، والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ وحرزا للأمين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، لست بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح به أعينا عميا ، وأذانا صما ، وقلوبا غلفا » . وقد رواه البخارى (٣) .

وقوله : ﴿ شَاهِدًا ﴾ أى : لله بالوحدانية ، وأنه لا إله غيره ، وعلى الناس بأعمالهم يوم

(٢) البخارى (٥٩٩٩) .

(١) المسند (١٠٤/٣) .

(٣) المسند (٦٦٢٢) ، والبخارى (٢١٢٥) ، (٤٨٣٨) .

القيامة، ﴿ وَجِنَّا بِكَ عَلَى هَوْلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٤١] .

وقوله عز وجل : ﴿ وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى : بشيراً للمؤمنين بجزيل الثواب ، ونذيراً للكافرين من وبيل العقاب .

وقوله : ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ﴾ أى : داعياً للخلق إلى عبادة ربه عن أمره لك بذلك ، ﴿ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ أى : وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق ، كالشمس فى إشراقها وإضاءتها ، لا يجحدها إلا معاند .

وقوله : ﴿ وَلَا تَطْعَمُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعَّ أَذَاهُمْ ﴾ أى : لا تطعمهم وتسمع منهم فى الذى يقولونه ﴿ وَدَعَّ أَذَاهُمْ ﴾ ، أى : اصفح وتجاوز عنهم، وكل أمرهم إلى الله ، فإن فيه كفاية لهم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمِيعَتُهُنَّ وَسِرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ [٤٩]

هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة . منها: إطلاق النكاح على العقد وحده، وليس فى القرآن آية أصرح فى ذلك منها ، وقد اختلفوا فى النكاح : هل هو حقيقة فى العقد وحده ، أو فى الوطء ، أو فيهما ؟ على ثلاثة أقوال، واستعمال القرآن إنما هو فى العقد والوطء بعده ، إلا فى هذه الآية فإنه استعمل فى العقد وحده ؛ لقوله : ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ ﴾ . وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها .

وقوله : ﴿ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ : خرج مخرج الغالب ؛ إذ لا فرق فى الحكم بين المؤمنة والكتيبة فى ذلك بالاتفاق . وقد استدل ابن عباس ، وسعيد بن المسيب وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ ﴾ ، فعقب النكاح بالطلاق ، فدل على أنه لا يصح ولا يقع قبله . وهذا مذهب الشافعى ، وأحمد بن حنبل ، وطائفة كثيرة من السلف والخلف .

وذهب مالك وأبو حنيفة إلى صحة الطلاق قبل النكاح ؛ فيما إذا قال : « إن تزوجت فلانة فهى طالق » : فعندهما متى تزوجها طلقت منه . واختلفا فيما إذا قال : « كل امرأة أتزوجها فهى طالق » . فقال مالك : لا تطلق حتى يعين المرأة . وقال أبو حنيفة : كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه ، فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية .

عن ابن عباس قال : إذا قال : كل امرأة أتزوجها فهى طالق ، قال : ليس بشيء من أجل أن الله تعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ ﴾ الآية . وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك » . رواه الإمام أحمد والترمذى ، وأبو داود ، وابن ماجه . وقال الترمذى :

« هذا حديث حسن » (١) .

وقوله عز وجل : ﴿ لَمَّا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا ﴾ : هذا أمر مجمع عليه بين العلماء : أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فتذهب فتتزوج في فورها من شاءت ، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها ، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشرًا ، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضًا .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَتَّوهُنَّ وَسَرَحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ : المتعة هاهنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى ، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمي لها ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصَفْ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] . وقال : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣٦] . وفي صحيح البخارى ، عن سهل بن سعد وأبى أسيد ؛ أن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت سراحيل ، فلما أن دخلت عليه ﷺ بسط يده إليها ، فكانها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقين (٢) .

قال ابن عباس : إن كان سمي لها صداقا ، فليس لها إلا النصف ، وإن لم يكن سمي لها صداقا فامتعتها على قدر عسره ويسره ، وهو السراح الجميل .

﴿ يَتَّأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِنْ نِسَاءِ اللَّهِ عَلَيْكَ وَبَنَاتٍ عَمِكَ وَبَنَاتٍ عَمَّتِكَ وَبَنَاتٍ خَالَكِ وَبَنَاتٍ خَالَكِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

يقول تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهرهن ، وهى الأجور هاهنا . كما قاله مجاهد وغير واحد ، وقد كان مهره لسنائه اثنتى عشرة أوقية ونشًا (٣) وهو نصف أوقية ، فالجميع خمسمائة درهم ، إلا أم حبيبة بنت أبى سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشى أربعمائة دينار ، وإلا صفية بنت حبي فإنه اصطفاها من سبى خيبر ، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها . وكذلك جويرية بنت الحارث المطلقية ، أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شماس وتزوجها ، رضى الله عن جميعهن .

(١) المسند (٦٧٦٩) ، والترمذى (١١٨١) ، وأبو داود (٢١٩١) ، وابن ماجه (٢٠٤٧) . وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده صحيح » .

(٢) البخارى (٥٢٥٦ ، ٥٢٥٧) .

(٣) فى المطبوعة : « ونشز » وهو خطأ . وفى المصباح المنير : « والنشُّ : نصف الأوقية » مادة (ن ش ش) .

وقوله: ﴿ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ أى: وأباح لك التسرى مما أخذت من المغانم، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقتهما وتزوجهما. وملك ريحانة بنت شمعون النضرية، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم، عليه السلام، وكانتا من السراى .

وقوله: ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكِ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّائِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ : هذا عدل وسط بين الإفراط والتفريط ؛ فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى فأباح بنت العم والعمة ، وبنت الخال والخالة ، وتحريم ما قرطت فيه اليهود من إباحت بنت الأخ والأخت ، وهذا بشع فظيع . وإنما قال: ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكِ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ ﴾ فَوَحَّدَ لفظ الذكر لشرفه ، وجمع الإناث لتقصهن كقوله: ﴿ عَنِ اليمينِ والشَّمَالِ ﴾ [النحل : ٤٨] ، ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] ، ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ ﴾ [الانعام : ١] ، وله نظائر كثيرة . وقوله : ﴿ اللَّائِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ : قال أبو رزین وقتادة : إن المراد : من هاجر معه إلى المدينة . وفى رواية عن قتادة : ﴿ اللَّائِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ أى : أسلمن .

وقوله : ﴿ وَامْرَأَةٌ مُّؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَكْحِبَهَا ﴾ أى: ويحل لك - يأيها النبى - المرأة المؤمنة إذا وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك . وهذه الآية توالى فيها شرطان ، كقوله تعالى إخباراً عن نوح ، عليه السلام ، أنه قال لقومه: ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود : ٣٤] ، وكقول موسى: ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٨٤] . وقال هاهنا : ﴿ وَامْرَأَةٌ مُّؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَكْحِبَهَا ﴾ ، وقد روى الإمام أحمد عن سهل بن سعد الساعدي ؛ أن رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت : يا رسول الله ، إنى قد وهبت نفسى لك . فقامت قياماً طويلاً ، فقام رجلاً فقال: يا رسول الله ، زوّجنيها إن لم يكن لك بها حاجة . فقال رسول الله ﷺ : « هل عندك من شىء تُصدقها إياه ؟ » فقال : ما عندى إلا إزارى هذا . فقال رسول الله ﷺ : « إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك ، فالتمس شيئاً » . فقال : لا أجد شيئاً . فقال : « التمس ولو خاتماً من حديد » فالتمس فلم يجد شيئاً ، فقال له النبى ﷺ : « هل معك من القرآن شىء ؟ » قال : نعم ؛ سورة كذا ، وسورة كذا - لسور يسميها - فقال له رسول الله ﷺ : « زوجتكها بما معك من القرآن » . أخرجاه (١) . وروى الإمام أحمد عن أنس قال: جاءت امرأة إلى النبى ﷺ فقالت: يا نبى الله، هل لك فى حاجة ؟ فقالت ابنته: ما كان أقل حياءها . فقال : « هى خير منك ، رغبت فى النبى ، فعرضت عليه نفسها » . انفراد بإخراجه البخارى (٢) .

(١) المسند (٣٣٦/٥) ، والبخارى (٥١٣٥) ، ومسلم (٨٦/١٤٢٥) .

(٢) المسند (٢٦٨/٣) ، والبخارى (٥١٢٠) .

وقوله : ﴿ خَالِصَةً لِّكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال عكرمة : أى لا تحل الموهوبة لغيرك ، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئاً . أى : أنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل ، فإنه متى دخل بها وجب لها عليه مهر مثلها ، ولهذا قال قتادة فى قوله : ﴿ خَالِصَةً لِّكَ مِنَ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، يقول : ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولى ولا مهر إلا للنبى ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ أى : من حصرهم فى أربع نسوة حرائر وما شاؤوا من الإماء ، واشترط الولى والمهر والشهود عليه ، وهم الأمة ، وقد رخصنا لك فى ذلك ، فلم نوجب عليك شيئاً منه ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

﴿ تَرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمِن أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْفَىٰ أَنْ تَقْرَأَ عَيْتُهُنَّ وَلَا تَحْزَبَ وَبِرِّضَتِكُمْ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ ﴿٥١﴾

ربع

روى الإمام أحمد عن عائشة ؛ أنها كانت تُعَبِّرُ النساء اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ ، قالت : ألا تستحى المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق ؟ فانزل الله ، عز وجل : ﴿ تَرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمِن أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ ، قالت : إني أرى ربك يسارع لك فى هواك (١) .

قوله : ﴿ تَرْجِي ﴾ أى : تؤخر ﴿ مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ ﴾ أى : من الواهبات ﴿ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ﴾ أى : من شئت قبلتها ، ومز : شئت رددتها ، ومن رددتها فأنت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك ، إن شئت عدت فيها فأويتها ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمِن أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ .

وقال آخرون : بل المراد بقوله : ﴿ تَرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ﴾ أى : من أزواجك ، لا حرج عليك أن تترك القسم لهن ، فتقدم من شئت ، وتؤخر من شئت ، وتجامع من شئت ، وتترك من شئت . هكذا يروى عن ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم ، ومع هذا كان ، صلوات الله وسلامه عليه ، يقسم لهن ؛ ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجباً عليه ، وصلوات الله وسلامه عليه ، واحتجوا بهذه الآية الكريمة . وروى البخارى عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يستأذن فى يوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية : ﴿ تَرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمِن أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ ، فقلت لها : ما كنت تقولين ؟ فقالت : كنت أقول : إن كان ذاك إلى فإنى لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحداً (٢) . فهذا الحديث عنها يدل على عدم وجوب القسم ، ومن هاهنا اختار ابن جرير أن الآية عامة فى الواهبات وفى النساء اللاتى عنده ، أنه مخير فيهن إن شاء قسم وإن شاء لم يقسم . وهذا الذى اختاره حسن جيد قوى ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ

(٢) البخارى (٤٧٨٩) .

(١) المسند (١٥٨/٦) ، والبخارى (٤٧٨٨) .

أَدْتَىٰ أَنْ تَقْرَأَ عَيْنُهُنَّ وَلَا يَحْرَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ﴿٥٢﴾ أى : إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج فى القسم ، فإن شئت قسمت ، وإن شئت لم تقسم ، لا جناح عليك فى أى ذلك فعلت ، ثم مع هذا أنت تقسم لهن اختياراً منك لا أنه على سبيل الوجوب ، فرحن بذلك واستبشرن به وحملن جميلك فى ذلك ، واعترفن بمتك عليهن فى قسمك لهن وتسويتك بينهن وإنصافك لهن وعدلك فيهن .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أى : من الميل إلى بعضهن دون بعض ، مما لا يمكن دفعه ، كما روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : « اللهم هذا فعلى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » . ورواه أهل السنن الأربعة ، وزاد أبو داود بعد قوله : « فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » : يعنى القلب . وإسناده صحيح ، ورجاله كلهم ثقات (١) . ولهذا عقب ذلك بقوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ أى : بضمائر السرائر ، ﴿ حَلِيمًا ﴾ أى : يحلم ويغفر .

﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حَسَنُهنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴾ ﴿٥١﴾

ذكر غير واحد من العلماء - كابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وابن زيد ، وابن جرير ، وغيرهم - أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ ورضاً عنهن ، على حسن صنعتهن فى اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة ، لما خيرهن رسول الله ﷺ ، كما تقدم فى الآية . فلما اخترن رسول الله ﷺ ، كان جزاؤهن أن الله قصره عليهن ، وحرّم عليه أن يتزوج بغيرهن ، أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن ، ولو أعجبه حسنهن إلا الإماء والسراير فلا حجر عليه فيهن . ثم إنه تعالى رفع عنه الحجر فى ذلك ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوّج لتكون المنّة للرسول ﷺ عليهن .

وقال آخرون : بل معنى الآية : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدُ ﴾ أى : بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتى أحللتنا لك من نساك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك ، وبنات العم والعمات والحال والحالات والواهبه وما سوى ذلك من أصناف النساء فلا يحل لك . هذا مروى عن أبى بن كعب ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك وغيرهم . واختار ابن جرير أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء ، وفى النساء اللواتى فى عصمته وكن تسعاً . وهذا الذى قاله جيد ، ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف ؛ فإن كثيراً منهم روى عنه هذا وهذا ، ولا منافاة ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حَسَنُهنَّ ﴾ : فنهاه عن الزيادة عليهن ، أو طلاق واحدة منهن واستبدال غيرها بها إلا ما ملكت يمينه .

(١) المسند (٤١/٦) . وأبو داود (٢١٣٤) ، والترمذى (١١٤٠) ، والنسائى (٣٩٤٣) ، وابن ماجه (١٩٧١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَظِيرِ بْنِ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَقْسِمِينَ لِخَبَرِ اللَّهِ إِنَّا دَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيُّ فَيَسْتَعِجِ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَعِجِ مِنْ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَرْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾

هذه آية الحجاب، وفيها أحكام وآداب شرعية ، وهى مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب، كما ثبت ذلك فى الصحيحين عنه أنه قال : وافقت ربي فى ثلاث ، قلت : يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؟ فأنزل الله : ﴿ وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : ١٢٥] . وقلت : يا رسول الله ، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو حجبتهن ؟ فأنزل الله آية الحجاب . وقلت لأزواج النبى ﷺ لما تمالأن عليه فى الغيرة : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِمَّنْ كَانَ عِنْدَهُ ﴾ [التحريم : ٥] ، فنزلت كذلك (١) .

وكان وقت نزولها فى صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزینب بنت جحش ، التى تولى الله تعالى تزويجها بنفسه ، فعن أنس بن مالك ، قال : لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش ، دعا القوم فَطَعَمُوا ثم جلسوا يتحدثون ، فإذا هو كأنه يتهاى للقيام فلم يقوموا . فلما رأى ذلك قام ، فلما قام قام من قام ، وقعد ثلاثة نفر . فجاء النبى ﷺ ليدخل ، فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا فانطلقت ، فجئت فأخبرت النبى ﷺ أنهم قد انطلقوا . فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل ، فألقى الحجاب بينى وبينه ، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ الآية (٢) .

فقوله : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ : حَظَرَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَدْخُلُوا مَنَازِلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِغَيْرِ إِذْنٍ ، كَمَا كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَصْنَعُونَ فِي بُيُوتِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ ، حَتَّى غَارَ اللَّهُ لَهُذِهِ الْأُمَّةِ ، فَأَمَرَهُمْ بِذَلِكَ ، وَذَلِكَ مِنْ إِكْرَامِهِ تَعَالَىٰ هَذِهِ الْأُمَّةَ ؛ وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ﴿ إِيَّاكُمْ وَالدَّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ (٣) .

ثم استثنى من ذلك فقال : ﴿ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَظِيرِ بْنِ إِنَّهُ ﴾ قال مجاهد وقتادة وغيرهما : أى غير متحيين نضجه واستواءه ، أى : لا ترقبوا الطعام حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول ، فإن هذا يكرهه الله ويذمه . وهذا دليل على تحريم التطفيل .

(٢) البخارى (٤٧٩١) ، ومسلم (٩٢/١٤٢٨) .

(١) البخارى (٤٠٢) .

(٣) البخارى (٥٢٣٢) ، ومسلم (٢٠/٢١٧٢) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا إِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ . وفى صحيح مسلم عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا أحدكم أخاه فليجب ، عرساً كان أو غيره » (١) . وأصله فى الصحيحين ، وفى الصحيح أيضاً عن رسول الله ﷺ : « لو دُعيت إلى ذراع لأجبت ، ولو أهدى إلى كُرَاعٍ لقبلت ، فإذا فرغتم من الذى دُعيتُم إليه فخففوا عن أهل المنزل ، وانتشروا فى الأرض » (٢) ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَا مُسْتَسْبِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ ، أى : كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث ، ونسوا أنفسهم ، حتى شقَّ ذلك على رسول الله ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ﴾ . وقيل : المراد أن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه ويتأذى به ، لكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حياته ، عليه السلام ، حتى أنزل الله عليه النهى عن ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ أى : ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ أى : وكما نهيتكم عن الدخول عليهن ، كذلك لا تنتظروا إليهن بالكلية ، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن ، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب ﴿ ذَلِكَمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ أى : هذا الذى أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكُحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ قال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴾ قال : نزلت فى رجلٍ همَّ أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ . قال رجل لسفيان : أهى عائشة ؟ قال : قد ذكروا ذلك . وكذا قال مقاتل بن حيان ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، والسدى : أن الذى عزم على ذلك طلحة بن عبيد الله ، حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك ؛ ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفى عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزويجها من بعده ؛ لأنهن أزواجه فى الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين . واختلفوا فىمن دخل بها ثم طلقها فى حياته هل يحل لغيره أن يتزوجها ؟ على قولين ، مأخذهما : هل دخلت هذه فى عموم قوله : ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أم لا ؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها ، فما نعلم فى حلها لغيره - والحالة هذه - نزاعاً ، والله أعلم .

وقد عظم تبارك وتعالى ذلك ، وشدد فيه وتوعد عليه بقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ ، ثم قال : ﴿ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تَخَفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ أى : مهما تكنه ضمائرهم وتنطوى عليه سرائرهم ، فإن الله يعلمه ؛ فإنه لا تخفى عليه خافية ، ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩] .

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيءِءَابَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أُنْتَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا نِسَاءَهُنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَاءَهُنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَأَتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾

لما أمر تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجانب ، بين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم ، كما استثناهم في سورة النور ، عند قوله : ﴿ وَلَا يُدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ إلى آخرها [النور : ٣١] ، وفيها زيادات على هذه . وقد تقدم تفسيرها والكلام عليها بما أغنى عن إعادته . وقد سأل بعض السلف فقال : لِمَ لَمْ يذكر العم والحال في هاتين الآيتين ؟ فأجاب عكرمة والشعبي : بأنهما لم يذكرنا ؛ لأنهما قد يصفان ذلك لنيهما .

وقوله : ﴿ وَلَا نِسَائِهِنَّ ﴾ : يعني بذلك : عَدَم الاحتجاب من النساء المؤمنات ﴿ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ يعني به : أرقاءهن من الذكور والإناث ، قال سعيد بن المسيب : إنما يعني به : الإماء فقط . رواه ابن أبي حاتم . وقوله : ﴿ وَأَتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ أى : واخشينه في الخلوة والعلائية ، فإنه شهيد على كل شيء ، لا تخفى عليه خافية ، فراقبن الرقيب .

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

قال البخارى : قال أبو العالية : صلاة الله : ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة : الدعاء . وقال ابن عباس : يصلون : يبركون . هكذا علقه البخارى عنهما (١) . وروى عن سفيان الثورى وغير واحد من أهل العلم قالوا : صلاة الرب : الرحمة ، وصلاة الملائكة : الاستغفار . والمقصود من هذه الآية : أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبهه عنده فى الملا الأعلى ، بأنه يشئ عليه عند الملائكة المقربين ، وأن الملائكة تصلئ عليه . ثم أمر تعالى أهل العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه ، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوى والسفلى جميعاً .

وقد أخبر أنه ، سبحانه وتعالى ، يصلئ على عباده المؤمنين فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ الآية [الأحزاب : ٤١ - ٤٣] . وقال تعالى : ﴿ وَيَشِيرُ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابْتَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ الآية [البقرة : ١٥٥ - ١٥٧] . وفى الحديث : « اللهم ، صل على آل أبى أوفى » (٢) . وقال رسول الله ﷺ لامرأة جابر - وقد سألته أن يصلئ عليها وعلى زوجها : « صلى الله عليك ، وعلى زوجك » (٣) .

(١) فتح البارى (٥٣٢/٨) .

(٢) البخارى (١٤٩٧) ، ومسلم (١٠٧٨/١٧٦) .

(٣) المسند (٣٩٨/٣) ، وابن حبان فى صحيحه (١٩٥١ موارد) .

وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه ، وكيفية الصلاة عليه ، ونحن نذكر منها إن شاء الله تعالى ما تيسر ، والله المستعان .

روى البخارى عن كعب بن عُجرَةَ قال : قيل : يا رسول الله ، أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة ؟ قال : « قولوا : اللهم ، صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد . اللهم ، بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » (١) .

وروى الإمام أحمد عن ابن أبى ليلى قال : لقيني كعب بن عُجرَةَ فقال : ألا أهدى لك هدية ؟ خرج علينا رسول الله ﷺ فقلنا : يا رسول الله ، قد علمنا - أو : عرفنا - كيف السلام عليك ، فكيف الصلاة ؟ قال : « قولوا : اللهم ، صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم ، بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » . وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة (٢) .

ومعنى قولهم : « أما السلام عليك فقد عرفناه » : هو الذى فى التشهد الذى كان يعلمهم إياه ، كما كان يعلمهم السورة من القرآن ، وفيه : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » .

وروى البخارى عن أبى سعيد الخدرى ، قال : قلنا : يا رسول الله ، هذا السلام ، فكيف نصلى عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم صل على محمد عبدك ورسولك ، كما صليت على آل إبراهيم . وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم » . قال أبو صالح ، عن الليث : « على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم » . وأخرجه النسائى (٣) .

وروى الإمام أحمد عن عمرو بن سُلَيم أنه قال : أخبرنى أبو حميد الساعدى أنهم قالوا : يا رسول الله ، كيف نصلى عليك ؟ قال : « قولوا : اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته ، كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وأزواجه وذريته ، كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » . وقد أخرجه بقية الجماعة ، سوى الترمذى (٤) . وروى مسلم عن أبى مسعود الأنصارى - قال : أنا رسول الله ﷺ ونحن فى مجلس سعد بن عبَّادة ، فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلى عليك يا رسول الله ، فكيف نصلى عليك ؟ قال : فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأل ، ثم قال رسول الله ﷺ : « قولوا : اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل

(١) البخارى (٤٧٩٧) .

(٢) المسند (٢٤١/٤) ، والبخارى (٣٣٧٠ ، ٦٣٥٧ ، ٤٧٩٧) ، ومسلم (٦٦/٤٠٦) .

(٣) البخارى (٤٧٩٨) .

(٤) المسند (٤٢٤/٥) ، والبخارى (٣٣٦٩) ، ومسلم (٦٩/٤٠٧) .

إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم ». وقد رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى . وقال الترمذى : حسن صحيح (١) . وروى الترمذى عن أبي بن كعب، قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : « يا أيها الناس ، اذكروا الله ، اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه ، جاء الموت بما فيه » . قال أبى : قلت : يا رسول الله ، إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي ؟ قال: « ما شئت » . قلت: الربع ؟ قال: « ما شئت، فإن زدت فهو خير لك » . قلت: فالنصف ؟ قال: « ما شئت، فإن زدت فهو خير لك » . قلت: فالثلثين ؟ قال: « ما شئت ، فإن زدت فهو خير لك » . قلت: أجعل لك صلاتي كلها ؟ قال : « إذن تكفى همك ، ويغفر لك ذنبك » . ثم قال : هذا حديث حسن (٢) .

وروى الإمام أحمد عن أبي طلحة الأنصارى قال : أصبح رسول الله ﷺ يوماً طيب النفس ، يرى فى وجهه البشر ، قالوا : يا رسول الله ، أصبحت اليوم طيب النفس ، يرى فى وجهك البشر ؟ قال : « أجل ، أتانى آت من ربي ، عز وجل ، فقال : من صلى عليك من أمتك صلاة ، كتَبَ الله له بها عشر حسنات ، ومحا عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات ، ورد عليه مثلها » . هذا إسناد جيد ، ولم يخرجوه (٣) . وروى مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى، من حديث إسماعيل بن جعفر، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من صلى علىّ واحدة ، صلى الله عليه بها عشراً » . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح (٤) .

وروى الإمام أحمد عن الحسين [بن علىّ] ، أن رسول الله ﷺ قال: « البخيل من ذُكرت عنده، ثم لم يصل على » . وقال أبو سعيد : « فلم يصل على » . ورواه الترمذى ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب صحيح (٥) . وروى الترمذى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على . ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ، ثم انسلخ قبل أن يغفر له ، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة » . ثم قال : حسن غريب (٦) . قلت : وقد رواه البخارى فى الأدب بنحوه (٧) . ورويناه من حديث محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة ، به . قال الترمذى : وفى الباب عن جابر وأنس .

-
- (١) مسلم (٦٥/٤٠٥) ، وأبو داود (٩٨٠) ، والترمذى (٣٢٢٠) ، والنسائى (١٢٨٥) .
 (٢) الترمذى (٢٤٥٧) ، وقال : « حسن صحيح » .
 (٣) المسند (٢٩/٤) .
 (٤) مسلم (٧٠/٤٠٨) ، وأبو داود (١٥٣٠) ، والترمذى (٤٨٥) ، والنسائى (١٢٩٦) .
 (٥) المسند (١٧٣٦) وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده صحيح » ، والترمذى (٣٥٤٦) .
 (٦) الترمذى (٣٥٤٥) وقال الألبانى : « حسن صحيح » .
 (٧) البخارى فى الأدب المفرد (٢١) .

قلت : وابن عباس ، وكعب بن عُجْرَةَ ، وقد ذكرت طرق هذا الحديث فى أول كتاب الصيام وعند قوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَلْتَمِسُنَّ عِنْدَكَ الْكِبْرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ [الإسراء : ٢٣] .

وهذا الحديث دليل على وجوب الصلاة عليه ﷺ كلما ذكر ، وهو مذهب طائفة من العلماء منهم الطحاوى والحليمى ، وذهب آخرون إلى أنه تجب الصلاة فى المجلس مرة واحدة ، ثم لا تجب فى بقية ذلك المجلس ، بل تستحب . نقله الترمذى عن بعضهم ، ويتأيد بالحديث الذى رواه الترمذى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترةٌ ، فإن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم » . تفرد به الترمذى من هذا الوجه . ورواه الإمام أحمد عن أبى هريرة ، مرفوعا مثله . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن (١) .

وحكى عن بعضهم أنه إنما تجب الصلاة عليه ، عليه السلام ، فى العمر مرة واحدة ، امثالاً لأمر الآية ، ثم هى مستحبة فى كل حال ، وهذا هو الذى نصره القاضى عياض بعدما حكى الإجماع على وجوب الصلاة عليه ﷺ فى الجملة . قال : وقد حكى الطبرى أن محمل الآية على الندب ، وادعى فيه الإجماع . قال : ولعله فيما زاد على المرة ، والواجب منه مرة كالشهادة له بالنبوة ، وما زاد على ذلك فمندوب مُرَغَّب فيه من سنن الإسلام ، وشعار أهله . قلت : وهذا قول غريب ، فإنه قد ورد الأمر بالصلاة عليه فى أوقات كثيرة ، فمنها واجب ، ومنها مستحب على ما نبينه .

فمنه : بعد النداء للصلاة ؛ للحديث الذى رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إذا سمعتم مؤذنا فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على ؛ فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » . وأخرجه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى (٢) . وروى الإمام أحمد عن رُوَيْفِع بن ثابت الأنصارى ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « من صلى على محمد وقال : اللهم ، أنزله المقعد المقرب عندك يوم القيامة ، وجبت له شفاعتى » . وهذا إسناد لا بأس به ، ولم يخرجوه (٣) .

ومن ذلك : الصلاة عليه ﷺ فى صلاة الجنائز : فإن السنة أن يقرأ فى التكبير الأولى فاتحة الكتاب ، وفى الثانية يصلى على النبى ﷺ ، وفى الثالثة يدعو للميت ، وفى الرابعة يقول : اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده . روى الشافعى عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف أنه أخبره رجل من أصحاب النبى ﷺ : أن السنة فى الصلاة على الجنائز أن يكبر الإمام ، ثم

(١) الترمذى (٣٣٨٠) وقال : « حسن صحيح » وصححه الألبانى ، وهو فى المسند (٤٥٣/٢) .

(٢) المسند (٦٥٦٨) ، ومسلم (١١/٣٨٤) ، وأبو داود (٥٢٣) ، والترمذى (٣٦١٤) ، والنسائى (٦٧٨) .

(٣) المسند (١٠٨/٤) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/١٦٦) : « رواه البزار والطبرانى فى الكبير والأوسط وأسانيدهم

حسنة » ولم يعزه لأحمد .

يقراً بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرا في نفسه ثم يصلى على النبي ﷺ ويخلص الدعاء للجنائز ، وفي التكبيرات لا يقرأ فى شيء منها ، ثم يسلم سرا فى نفسه . ورواه النسائي ، عن أبى أمامة نفسه أنه قال : من السنة ، فذكره (١) . وهذا من الصحابى فى حكم المرفوع على الصحيح .

ومن ذلك : فى صلاة العيد : عن علقمة : أن ابن مسعود وأبا موسى وحذيفة خرج عليهم الوليد بن عقبة يوماً قبل العيد ، فقال لهم : إن هذا العيد قد دنا ، فكيف التكبير فيه ؟ قال عبد الله : تبدأ فتكبر تكبيرة تفتتح بها الصلاة ، وتحمد ربك وتصلى على النبي ﷺ ، ثم تدعو ، وتكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تكبر وتفعل مثل ذلك ، ثم تقرأ ثم تكبر وتركع ، ثم تقوم فتقرأ وتحمد ربك وتصلى على النبي ﷺ ثم تدعو وتكبر ، وتفعل مثل ذلك ، ثم تركع . فقال حذيفة وأبو موسى : صدق أبو عبد الرحمن . إسناده صحيح (٢) .

ومن ذلك : أنه يستحب ختم الدعاء بالصلاة عليه ﷺ روى الترمذى عن عمر بن الخطاب قال : الدعاء موقوف بين السماء والأرض ، لا يصعد منه شيء حتى تصلى على نبيك (٣) .

ومن أكد ذلك : دعاء القنوت لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، والحاكم ، عن الحسن بن على ، قال : علمنى رسول الله ﷺ كلمات أقولهن فى الوتر : « اللهم اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يَقْضِي عَلَيْكَ ، إِنَّهُ لَا يَذُلُّ مَنْ وَالَيْتَ ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ » (٤) . وزاد النسائي فى سننه بعد هذا : وصلى الله على النبي محمد .

ومن ذلك : أنه يستحب الإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة وليلة الجمعة : روى الإمام أحمد عن أوس بن أوس الثقفى ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا على من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة على » . قالوا : يارسول الله ، وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أَرَمْتَ ؟ -

(١) الأم (٢٣٩/١) ، والنسائي (١٩٨٩) .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى (٢٠٨/٢) والحديث صححه الألبانى فى إرواء الغليل (٦٤٢) .

(٣) الترمذى (٤٨٦) وقال الشيخ أحمد شاكر : « هذا موقوف فى حكم المرفوع . قال القاضى أبو بكر بن العربى (٢) / ٢٧٣ ، ٢٧٤ : « مثل هذا إذ قاله عمر لا يكون إلا توقيفاً ، لأنه لا يدرك بنظر . ويعضده ما خرج مسلم قال النبى عليه السلام : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا على ، فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة ، لا تنبغى إلا لعيد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » . والحديث الذى أشار إليه هو فى صحيح مسلم (١١٣ / ١) .

(٤) المسند (١٧/٨) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (١٤٢٥) ، والترمذى (٤٦٤) ، وابن خزيمة فى صحيحه (١٠٩٥) ، وابن حبان فى الإحسان (٩٤١) ، والمستدرک (١٧١/٣) .

يعنى : وقد بليت - قال : « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » . ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجه (١) . وقد صحح هذا الحديث ابن خزيمة وابن حبان والدارقطنى ، والنوى فى الأذكار .

وهكذا يجب على الخطيب أن يصلى على النبى ﷺ يوم الجمعة على المنبر فى الخطبتين ، ولا تصح الخطبتان إلا بذلك ؛ لأنها عبادة ، وذكر الله فيها شرط ، فوجب ذكر الرسول ﷺ فيها كالأذان والصلاة . هذا مذهب الشافعى وأحمد .

ومن ذلك : أنه يستحب الصلاة والسلام عليه عند زيارة قبره ﷺ : روى أبو داود عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « ما من أحد يسلم علىّ إلا رد الله علىّ روحى ، حتى أرد عليه السلام » . تفرد به أبو داود ، وصححه النوى فى الأذكار (٢) .

مسألة : وقد استحب أهل الكتابة أن يكرر الكاتب الصلاة على النبى ﷺ كلما كتبه ، وقد ذكر الخطيب البغدادى فى كتابه : « الجامع لأدب الراوى والسامع » ، قال : رأيت بخط الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه الله : كثيراً ما يكتب اسم النبى ﷺ من غير ذكر الصلاة عليه كتابة ، قال : وبلغنى أنه كان يصلى عليه لفظاً .

فصل : وأما الصلاة على غير الأنبياء ، فإن كانت على سبيل التبعية كما تقدم فى الحديث : « اللهم ، صل على محمد وآله وأزواجه وذريته » (٣) ، فهذا جائز بالإجماع ، وإنما وقع النزاع فيما إذا أفرد غير الأنبياء بالصلاة عليهم :

فقال قائلون : يجوز ذلك ، واحتجوا بقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ ، وبقوله : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة : ١٥٧] ، وبقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣] ، وبحديث عبد الله بن أبى أوفى قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : « اللهم صل عليهم » (٤) . وأتاه أبى بصدقته فقال : « اللهم صل على آل أبى أوفى » . أخرجاه فى الصحيحين (٥) . وبحديث جابر : أن امرأته قالت : يا رسول الله ، صل علىّ وعلى زوجى . فقال : « صلى الله عليك وعلى زوجك » (٦) .

وقال الجمهور من العلماء : لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة ؛ لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء إذا ذكروا ، فلا يلحق بهم غيرهم ، فلا يقال : « قال أبو بكر صلى الله عليه » و« قال علىّ صلى الله عليه » . وإن كان المعنى صحيحاً ، كما لا يقال : « قال محمد ، عز وجل » ،

(١) المسند (٨/٤) ، وأبو داود (١٠٤٧) ، وابن ماجه (١٦٣٦) ، وصححه الألبانى .

(٢) أبو داود (٢٠٤١) .

(٣) البخارى (٣٣٦٩) ، ومسلم (٦٩/٤٠٧) .

(٤ - ٦) تقدم تخريجها ص ٦٦ ، ٦٧ .

وإن كان عزيزاً جليلاً؛ لأن هذا من شعار ذكر الله، عز وجل . وحملوا ما ورد في ذلك من الكتاب والسنة على الدعاء لهم ؛ ولهذا لم يثبت شعارا لآل أبي أوفى، ولا لجابر وامراته . وهذا مسلك حسن . وقال آخرون : لا يجوز ذلك ؛ لأن الصلاة على غير الأنبياء قد صارت من شعار أهل الأهواء، يصلون على من يعتقدون فيهم ، فلا يقتدى بهم في ذلك ، والله أعلم .

ثم اختلف المانعون من ذلك : هل هو من باب التحريم ، أو الكراهة التنزيهية ، أو خلاف الأولى؟ على ثلاثة أقوال ، حكاها الشيخ أبو زكريا النووى فى كتاب الأذكار . ثم قال : والصحيح الذى عليه الأكثرون أنه مكروه كراهة تنزيه ؛ لأنه شعار أهل البدع، وقد نهينا عن شعارهم ، والمكروه هو ما ورد فيه نهى مقصود . قال أصحابنا : والمعتمد فى ذلك أن الصلاة صارت مخصوصة فى لسان السلف بالأنبياء ، كما أن قولنا : « عز وجل » ، مخصوص بالله تعالى ، فكما لا يقال : « محمد عز وجل » ، وإن كان عزيزاً جليلاً ، لا يقال : « أبو بكر - أو : على - صلى الله عليه » . هذا لفظه بحروفه . قال : وأما السلام فقال الشيخ أبو محمد الجوينى : هو فى معنى الصلاة ، فلا يستعمل فى الغائب ، ولا يفرد به غير الأنبياء ، فلا يقال : « على عليه السلام » ، وسواء فى هذا الأحياء والأموات ، وأما الحاضر فيخاطب به ، يقال : سلام عليك ، أو السلام عليك أو عليكم . وهذا مجمع عليه . انتهى ما ذكره .

قلت : وقد غلب هذا فى عبارة كثير من النساخ للكتب ، أن يفرد على ، بأن يقال : « عليه السلام » ، من دون سائر الصحابة ، أو : « كرم الله وجهه » وهذا وإن كان معناه صحيحاً ، لكن ينبغى أن يسوى بين الصحابة فى ذلك ؛ فإن هذا من باب التعظيم والتكريم ، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان أولى بذلك منه ، رضى الله عنهم أجمعين .

عن ابن عباس أنه قال : لا تصح الصلاة على أحد إلا على النبي ﷺ ، ولكن يدعى للمسلمين والمسلمات بالمغفرة . وعن جعفر بن برقان قال : كتب عمر بن عبد العزيز ، رحمه الله : أما بعد ، فإن أناساً من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة ، وإن ناساً من القصاص قد أحدثوا فى الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل الصلاة على النبي ﷺ ، فإذا جاءك كتابى هذا فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعاؤهم للمسلمين عامة ، ويدعوا ما سوى ذلك .

فرع : قال النووى : إذا صلى على النبي ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم ، فلا يقتصر على أحدهما فلا يقول : « صلى الله عليه » فقط ، ولا : « عليه السلام » فقط ، وهذا الذى قاله منتزع من هذه الآية الكريمة ، وهى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ، فالأولى أن يقال : صلى الله عليه وسلم تسليماً .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾
 ﴿ ٥٧ ﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بُهْتَانَنَا
 وَإِنَّمَا سُبْحَانَا ﴿ ٥٨ ﴾

يقول تعالى : متهدداً ومتوعداً من آذاه ، بمخالفة أوامره وارتكاب زواجه وإصراره على ذلك ، وإيذاء رسوله بعبث أو بنقص ، عياداً بالله من ذلك . قال عِكْرِمَةُ في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ : نزلت في المصورين . وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله ، عز وجل : يؤذيني ابن آدم ، يَسْبُ الدهر ، وأنا الدهر ، أقلب ليله ونهاره » (١) . ومعنى هذا : أن الجاهلية كانوا يقولون : يا خيبة الدهر ، فعل بنا كذا وكذا . فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ، ويسبونه ، وإنما الفاعل لذلك هو الله ، عز وجل ، فنهى عن ذلك . هكذا قرره الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من العلماء . وقال ابن عباس في قوله : ﴿ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ : نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت حيي بن أخطب . والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء ، ومن آذاه فقد آذى الله ، ومن أطاعه فقد أطاع الله .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغيرِ مَا اكْتَسَبُوا ﴾ أى : ينسبون إليهم ما هم برآء منه لم يعملوه ولم يفعلوه ﴿ فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ وهذا هو البهت البين أن يحكى أو يتقلد عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه ، على سبيل العيب والتنقص لهم ، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله ، ثم الرافضة الذين يتنقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برأهم الله منه ، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم ؛ فإن الله ، عز وجل ، قد أخبر أنه قد رضى عن المهاجرين والأنصار ومدحهم ، وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبونهم ويتنقصونهم ، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبداً ، فهم في الحقيقة منكوسو القلوب ، يذمون الممدوحين ويمدحون المذمومين . وروى أبو داود عن أبي هريرة ، أنه قيل : يا رسول الله ، ما الغيبة ؟ قال : « ذكرك أخاك بما يكره » . قيل : أفرأيت إن كان في أخى ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » . وهكذا رواه الترمذى ، ثم قال : حسن صحيح (٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكِ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْنَّ مِنْ جَلْبَيْبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْفَةً أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿ لَنْ لَرَبِّنَّه الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثَقِفُوا أَخِذُوا وَقْتَهُمْ لِقَاتِيلاً ﴾ ﴿٦١﴾ ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ ﴿٦٢﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات المسلمات - خاصة أزواجه وبناته

(١) البخارى (٤٨٢٦) ، ومسلم (٢/٢٢٤٦) .

(٢) أبو داود (٤٨٧٤) ، والترمذى (١٩٣٤) ، وصححه الالبانى .

لشرفهن - بأن يدين عليهن من جلابيهن ؛ ليميزن عن سمات نساء الجاهلية وسمات الإماء . والجلباب هو: الرداء فوق الخمار . قاله ابن مسعود، وعبيدة، وقتادة، والحسن البصرى ، وسعيد ابن جبير ، وإبراهيم النَّخَعِي ، وعطاء الخراسانى ، وغير واحد . وهو بمنزلة الإزار اليوم .
قال الجوهري : الجلباب : الملحفة .

قال ابن عباس : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن فى حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ، ويبدين عيناً واحدة . وقال محمد بن سيرين: سألت عبيدة السلماني عن قول الله تعالى: ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيهِنَّ ﴾ ، فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى . وقال عكرمة : تغطى نُغْرَةَ نحرها بجلبابها تدنيه عليها . وروى ابن أبى حاتم عن أم سلمة قالت لما نزلت هذه الآية: ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيهِنَّ ﴾ ، خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة ، وعليهن أكسية سود يلبسنها (١) . وروى عن سفیان الثورى أنه قال: لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذمة ، إنما ينهى عن ذلك لخوف الفتنة ؛ لا لحرمتهن، واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ أى : إذا فعلن ذلك عُرِفْنَ أَنَّهُنَّ حرائر ، لسن بإماء ولا عواهر ، قال السدى فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ قال : كان ناس من فساق أهل المدينة يخرجون بالليل حين يختلط الظلام إلى طرق المدينة ، يتعرضون للنساء ، وكانت مساكن أهل المدينة ضيقة ، فإذا كان الليل خرج النساء إلى الطرق يقضين حاجتهن ، فكان أولئك الفساق يتغنون ذلك منهن ، فإذا رأوا امرأة عليها جلباب قالوا: هذه حرة، كفوا عنها . وإذا رأوا المرأة ليس عليها جلباب ، قالوا :هذه أمة . فوثبوا إليها . وقال مجاهد : يتجلببن فيعلم أنهن حرائر، فلا يعرض لهن فاسق بأذى ولا ريبة . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أى: لما سلف فى أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهم علم بذلك .

ثم قال تعالى متوعداً للمنافقين ، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر : ﴿ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ قال عكرمة وغيره: هم الزناة هاهنا ﴿ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ يعنى : الذين يقولون : « جاء الأعداء » و « جاءت الحروب » ، وهو كذب وافتراء ، لئن لم ينتهوا عن ذلك ويرجعوا إلى الحق ﴿ تُعْرِضَنَّ بِهِمْ ﴾ قال ابن عباس : أى : لنسلطنك عليهم . وقال قتادة ، رحمه الله : لنحرضنك بهم . وقال السدى : لنعلمنك بهم ﴿ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا ﴾ أى : فى المدينة ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مَلْعُونِينَ ﴾ حال منهم فى مدة إقامتهم فى المدينة مدة قريبة مطرودين مبعدين ، ﴿ أَيُّمًا تُقْفُوا ﴾ أى : وجدوا ﴿ أَخَذُوا ﴾ لذلتهم وقتلهم ﴿ وَقَتَلُوا تَقْتِيلًا ﴾ .

ثم قال : ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : هذه سنته فى المنافقين إذا تمردوا على

نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه ، أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم ﴿ وتَنَجِدُ لِسَنَةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أى : وسنة الله فى ذلك لا تبدل ولا تغير .

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾
 ﴿٦٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٥﴾ خٰلِدِينَ فِيهَا اَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلِيًا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا اَطَعْنَا اللَّهَ وَاَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا اِنَّا اَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَاَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

يقول تعالى مخبراً لرسوله ﷺ : أنه لا علم له بالساعة ، وإن سأله الناس عن ذلك ، وأرشده أن يرد علمها إلى الله ، عز وجل ، كما قال الله تعالى فى سورة « الأعراف » ، وهى مكية وهذه مدنية ، فاستمر الحال فى ردِّ علمها إلى الذى يقيمها ، لكن أخبره أنها قريبة بقوله : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَاَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر : ١] ، وقال : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الانبياء : ١] ، وقال : ﴿ اَتَىٰ اَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : ١] . ثم قال : ﴿ اِنَّ اللّٰهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ ﴾ أى : أبعدهم من رحمته ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ أى : فى الدار الآخرة : ﴿ خٰلِدِينَ فِيهَا اَبَدًا ﴾ أى : ماكثين مستمرين ، فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها ، ﴿ لَا يَجِدُونَ وِلِيًا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أى : وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه .

ثم قال : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا اَطَعْنَا اللَّهَ وَاَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴾ أى : يسحبون فى النار على وجوههم ، وتلوى وجوههم على جهنم ، يقولون وهم كذلك ، يتمنون أن لو كانوا فى الدار الدنيا من أطاع الله وأطاع الرسول ، كما أخبر عنهم فى حال العرصات بقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا . يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ اَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا . لَقَدْ اَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ اِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطٰنُ لِلْاِنْسٰنِ خَدُوْلًا ﴾ [الفرقان : ٢٧ - ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ رَبُّمَا يُوَدُّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا لَوْ كَانُوْا مُسْلِمِيْنَ ﴾ [الحجر : ٢] . وهكذا أخبر عنهم فى حالتهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول فى الدنيا ، ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا اِنَّا اَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَاَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ أى : اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة ، وخالفنا الرسل واعتقدنا أن عندهم شيئاً ، وأنهم على شىء فإذا هم ليسوا على شىء ﴿ رَبَّنَا اْتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ أى : بكفرهم ، وإغوائهم إيانا ، ﴿ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ . قرأ بعض القراء بالباء الموحدة . وقرأ آخرون بالثاء المثلثة ، وهما قريباً المعنى ، كما فى حديث عبد الله بن عمرو : أن أباً بكر قال : يا رسول الله ، علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى . قال : « قل اللهم ، إنى ظلمت نفسى ظلاماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ،

فاغفر لى مغفرة من عندك، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم». أخرجاه فى الصحيحين (١)، يروى «كبيراً» و«كثيراً»، وكلاهما بمعنى صحيح. واستحب بعضهم أن يجمع الداعى بين اللفظين فى دعائه، وفى ذلك نظر، بل الأولى أن يقول هذا تارة، وهذا تارة، كما أن القارئ مخير بين القراءتين أيتهما قرأ فَحَسَنَ، وليس له الجمع بينهما، والله أعلم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾

روى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسى ، عليه السلام ، كان رجلاً حياً ستيراً ، لا يرى من جلده شىء استحياء منه ، فأذاه من آذاه من بنى إسرائيل ، فقالوا : ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده ، إما برص وإما أذرة وإما آفة ، وإن الله ، عز وجل ، أراد أن يُبرِّهَ مما قالوا لموسى ، عليه السلام ، فخلا يوماً وحده ، فخلع ثيابه على حجر ، ثم اغتسل ، فلماً فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبى حجْر ، ثوبى حجْر ، حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل ، فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله ، عز وجل ، وأبراه مما يقولون ، وقام الحجر ، فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً - قال : فذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ . وهذا الحديث من أفراد البخارى دون مسلم (٢) . وعن ابن عباس فى قوله : ﴿ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى ﴾ قال : قال قومه له : إنك أدر . فخرج ذات يوم يغتسل ، فوضع ثيابه على صخرة ، فخرجت الصخرة تشتد بثيابه ، وخرج يتبعها عرياناً حتى انتهت به مجالس بنى إسرائيل ، قال : فرأوه ليس بأدر ، فذلك قوله : ﴿ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ . وروى الإمام أحمد عن عبد الله [بن مسعود] قال : قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسماً ، فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله . قال : فقلت : يا عدو الله ، أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت . قال : فذكر ذلك للنبي ﷺ فاحمر وجهه ، ثم قال : « رحمة الله على موسى ، لقد أودى بأكثر من هذا فصبر » . أخرجاه فى الصحيحين (٣) . وقوله : ﴿ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ أى : له وجهة وجاه عند ربه ، عز وجل . قال الحسن البصرى : كان مستجاب الدعوة عند الله . وقال غيره من السلف : لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه ، ولكن منع الرؤية لما يشاء الله ، عز وجل . وقال بعضهم : من وجاهته العظيمة عند الله أنه شفع فى أخيه هارون أن يرسله الله معه ، فأجاب الله سؤاله ، وقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًا ﴾ [مريم : ٥٣] .

(١) البخارى (٨٣٤) ، ومسلم (٤٨/٢٧٠٥) . (٢) البخارى (٣٤٠٤) .

(٣) المسند (٣٦٠٨) ، والبخارى (٣٤٠٥) ، ومسلم (١٠٦٢/١٤٠) .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بتقواه ، وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه ، وأن يقولوا ﴿ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ أى : مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف . ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك ، أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم ، أى : يوفقهم للأعمال الصالحة ، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية . وما قد يقع منهم فى المستقبل يلهمهم التوبة منها .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ وذلك أنه يجازى نار الجحيم ، ويصير إلى النعيم المقيم . قال عكرمة : القول السديد : لا إله إلا الله . وقال غيره : السديد : الصدق . وقال مجاهد : هو السداد . وقال غيره : هو الصواب . والكل حق .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾

قال العرفى ، عن ابن عباس : يعنى بالأمانة : الطاعة ، التى عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم ، فلم يطقنها . فقال لآدم : إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها ، فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يا رب ، وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت . فأخذها آدم فتحملها ، فذلك قوله : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : الأمانة : الفرائض ، عرضها الله على السموات والأرض والجبال ، إن أدوها أثابهم . وإن ضيعوها عذبهم ، فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية ، ولكن تعظيماً لدين الله ألا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ يعنى : غراً بأمر الله . وقال ابن جرير عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ قال : عرضت على آدم فقال : خذها بما فيها ، فإن أطعت غفرت لك ، وإن عصيت عذبتك . قال : قلت ، فما كان إلا قدر ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم ، حتى أصاب الخطيئة . وهكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبير وغير واحد : إن الأمانة هى الفرائض . وقال آخرون : هى الطاعة . وقال أبى بن كعب : من الأمانة أن المرأة أوتمنت على فرجها . وقال قتادة : الأمانة : الدين والفرائض والحدود . وقال بعضهم : « الغسل من الجنابة » . وقال مالك ، عن زيد بن أسلم قال : الأمانة ثلاثة : الصلاة ، والصوم ، والاعتسال من الجنابة . وكل هذه الأقوال لا تنافى بينها ، بل هى متفقة وراجعة إلى أنها التكليف ، وقبول الأوامر والنواهى بشرطها ، وهو أنه إن قام بذلك أثيب ، وإن تركها عوقب ، فقبلها الإنسان

على ضعفه وجهله وظلمه ، إلا من وفق الله ، وبالله المستعان .

ومما يتعلق بالأمانة الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن حذيفة قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا « أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة » . ثم حدثنا عن رفع الأمانة ، فقال : « ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر [الوكت ، فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر] المجل كجمر دحرجته على رجلك ، تراه مُتَبَرِّباً وليس فيه شئ » . قال : ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله ، قال : « فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة ، حتى يقال : إن فى بنى فلان رجالاً أميناً ، حتى يقال للرجل : ما أجلده وأظرفه وأعقله . وما فى قلبه حبة من خردل من إيمان . ولقد أتى علىَّ زمان وما أبالى أيكم بايعت ، إن كان مسلماً ليردنه على دينه ، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه على ساعيه ، فأما اليوم فما كنت أبايح منكم إلا فلانا وفلانا » . وأخرجاه فى الصحيحين (١) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال : « أربيع إذا كُنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة طعمة » (٢) .

وقد ورد النهى عن الحلف بالأمانة ، روى أبو داود عن بُرَيْدَةَ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من حلف بالأمانة فليس منا » ، تفرد به أبو داود ، رحمه الله (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ أى : إنما حمل ابن آدم الأمانة وهى التكليف ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات ، وهم الذين يظهرن الإيمان خوفاً من أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله ﴿ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ، عز وجل ، ومخالفة رسله ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أى : وليرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ .

(١) المسند (٣٨٣/٥) ، والبخارى (٦٤٩٧) ، ومسلم (١٤٣/٢٣٠) . وما بين المعقوفين من المسند .

(٢) المسند (٦٦٥٢) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٣) أبو داود (٣٢٥٣) ، وصححه الألبانى ، وانظر السلسلة الصحيحة (٩٤) .

تفسير سورة سبأ

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ
الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا
وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة : أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة ؛ لأنه المنعم
المفضل على أهل الدنيا والآخرة ، المالك لجميع ذلك ، الحاكم في جميع ذلك ، كما قال
تعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٧٠] ؛
ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : الجميع ملكه
وعبيده وتحته قهره وتصرفه ، قال تعالى : ﴿ وَإِن لَّنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ [الليل : ١٣] . ثم قال عز وجل :
﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ﴾ ، فهو المعبود أبداً ، المحمود على طول المدى ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ أي : في
أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه شيء .

وقال الزهري : خبير بخلقه ، حكيم بأمره ؛ ولهذا قال : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ
مِنْهَا ﴾ أي : يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض ، والحب المبدور والكامن فيها ، ويعلم ما
يخرج من ذلك : عدده وكيفيته وصفاته ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي : من قطر ورزق ﴿ وَمَا يَعْرُجُ
فِيهَا ﴾ أي : من الأعمال الصالحة وغير ذلك ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ أي : الرحيم بعباده فلا
يعاجل عصاتهم بالعقوبة ، الغفور عن ذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يُعْرَبُ
عَنَّهُ مَثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي
كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ
﴿٥﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ
الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾

هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لها ، مما أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه
العظيم على وقوع المعاد لَمَّا أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد ، فإحداهن في سورة يونس

عليه السلام ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ أَحَقَّ هُوَ قُلْ إِي رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ [يونس : ٥٣] ، والثانية هذه : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ ، والثالثة فى التغابن وهى قوله تعالى : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُعْثُنَّ ثُمَّ لَتَنْبُؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [التغابن : ٧] ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ ، ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره فقال : ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْفَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ . قال مجاهد وقتادة : ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ ﴾ : لا يغييب عنه ، أى : الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه منه شىء ، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت ، فهو عالم أين ذهب وأين تفرقت ، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة ، فإنه بكل شىء عليم .

ثم بين حكمته فى إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾ أى : سعوا فى الصد عن سبيل الله وتكذيب رسله ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴾ أى : لينعم السعداء من المؤمنين ، ويعذب الأشقياء من الكافرين ، كما قال : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر : ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص : ٢٨] .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ : هذه حكمة أخرى معطوفة على التى قبلها ، وهى أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذى كانوا قد علموه من كتب الله فى الدنيا رأوه حينئذ عين اليقين ، ويقولون يومئذ أيضاً : ﴿ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ [الاعراف : ٤٣] ، ويقال أيضاً : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس : ٥٢] ، ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ﴾ [الروم : ٥٦] ، ﴿ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ العزيز هو : المنيع الجنب ، الذى لا يُغالب ولا يُمانع ، بل قد قهر كل شىء ، الحميد فى جميع أقواله وأفعاله وشرعه ، وقدره ، وهو المحمود فى ذلك كله .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لِنَبِيِّ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ﴿٧﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِمْ جِنَّةٌ بَلَىٰ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخَسِفَ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾

هذا إخبار من الله عن استبعاد الكفرة الملحدِين قيام الساعة واستهزائهم بالرسول ﷺ فى إخباره بذلك : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ ﴾ أى : تفرقت أجسادكم فى الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ أى : بعد هذا الحال

﴿ نَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أى : تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك ، وهو فى هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين : إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله أنه قد أوحى إليه ذلك ، أو أنه لم يتعمد لكن لبس عليه كما يلبس على المعتوه والمجنون ؛ ولهذا قالوا : ﴿ أَفَتُرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ قال الله عز وجل رادًا عليهم : ﴿ يَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾ أى : ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه ، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذى جاء بالحق ، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء ﴿ فِي الْعَذَابِ ﴾ أى : الكفر المفضى بهم إلى عذاب الله ﴿ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾ من الحق فى الدنيا .

ثم قال منبهاً لهم على قدرته فى خلق السموات والأرض ، فقال تعالى : ﴿ أَقَلَّمْ يَرَوُا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : حيثما توجهوا وذهبوا فالسماء مُظَلَّةٌ عليهم ، والأرض تحتهم ، كما قال : ﴿ وَالسَّمَاءُ بَنِينًا هَامِيَةً وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ . وَالْأَرْضُ قَرَشًا هَامِيَةً فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧ ، ٤٨] . عن قتادة : ﴿ أَقَلَّمْ يَرَوُا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال : إنك إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك ، أو من بين يديك أو من خلفك ، رأيت السماء والأرض .

وقوله تعالى : ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْقِطُ عَلَيْهِمُ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : لو شئنا لفعلنا بهم ذلك وقدرتنا عليهم ، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا . ثم قال : ﴿ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ قال قتادة : المنيب : المقبل إلى الله عز وجل . أى : إن فى النظر إلى خلق السماء والأرض لدلالة لكل عبد فطن لبيب رجاع إلى الله ، على قدرة الله تعالى على بعث الأجساد ووقوع المعاد ؛ لأن من قدر على خلق هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها ، وهذه الأرضين فى انخفاضها وأطوالها وأعراضها ، إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام ، كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ (١) بلى ﴿ ليس : [٨١] ، وقال : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : ٥٧] .

﴿ وَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوْبِيٍّ مَعَهُمُ وَالطَّيْرُ وَالنَّالَةُ الْحَدِيدُ ﴾ (١٠) ﴿ أَنْ أَعْمَلَ سَدِغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرِّ وَأَعْمَلُوا صَاحِحًا ﴾ (١١) ﴿ إِنَّمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود ، صلوات الله وسلامه عليه ، ، مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك الممكن ، والجنود ذوى العدد والعدد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم ، الذى كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات ، الصم الشامخات ، وتقف له الطيور السارحات ، والغاديات والرائحات ، وتجابهه بأنواع اللغات . وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبى موسى الأشعرى يقرأ من الليل ، فوقف فاستمع

(١) فى المخطوطة : « على أن يحيى الموتى » وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه .

لقراءته، ثم قال ﷺ «لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود» (١) . وقال أبو عثمان النهدي: ما سمعت صوت صنّج ولا برّيط ولا وتر أحسن من صوت أبي موسى الأشعري . ومعنى قوله: ﴿أُوبِي﴾ التأويب فى اللغة هو الترجيع ، فأمرت الجبال والطيور أن ترجع معه بأصواتها .
أى : رَجَعِي مُسَبِّحَةً مَعَهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ قال الحسن البصرى ، وقتادة ، والأعمش وغيرهم : كان لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة ، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط ، ولهذا قال : ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ﴾ وهى: الدرود . قال قتادة: وهو أول من عملها من الخلق، وإنما كانت قبل ذلك صفائح ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ : هذا إرشاد من الله تعالى لنبىه داود، عليه السلام، فى تعليمه صنعة الدرود . قال مجاهد فى قوله: ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ : لا تُدَقُّ الْمَسَامِرَ فَيَقْلَقُ فِى الْحَلْقَةِ، وَلَا تُغْلَظُهُ فَيَفْصِمُهَا، وَاجْعَلْهُ بِقَدْرٍ . وقال الحكم بن عتيبة: لا تُغْلَظُهُ فَيَفْصِمُ، وَلَا تُدَقُّهُ فَيَقْلَقُ . وهكذا روى عن قتادة، وغير واحد . وقال ابن عباس: السرد: حَلَقُ الْحَدِيدِ . وقال بعضهم : يقال : درع مسرودة : إذا كانت مسمورة الخلق .

وقوله تعالى : ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحاً﴾ أى : فى الذى أعطاكم الله من النعم ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أى : مراقب لكم ، بصير بأعمالكم وأقوالكم ، لا يخفى على من ذلك شىء .

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنَ أَمْرِنَا نُدِقْهُ مِن عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾

يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ إِحْفَانٍ كَأَجْوَابٍ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود ، عطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام ، من تسخير الريح له تحمل بساطه ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾ .

قال الحسن البصرى : كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصطخر يتغذى بها ، ويذهب رائحا من إصطخر فيبيت بكابل ، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع ، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع . وقوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وغير واحد : القطر: النحاس . قال قتادة : وكانت باليمن ، فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان ، عليه السلام . قال السدى : وإنما أسيلت له ثلاثة أيام .

وقوله تعالى : ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أى : وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن الله ، أى : بقدره ، وتسخيره لهم بمشيئته ما يشاء من البنائيات وغير ذلك ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنَ أَمْرِنَا﴾ أى : ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿نُدِقْهُ مِن عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ وهو الحريق .

وقال الحسن : الجن ولد إبليس ، والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء مؤمنون ، وهم شركاؤهم فى الثواب والعقاب ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً فهو ولى الله ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان . وقوله تعالى : ﴿ يَمْلُؤُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ ﴾ : أما المحارِبُ فهى البناء الحسن ، وهو أشرف شىء فى المسكن وصدرة . وقال مجاهد : المحارِبُ بنيان دون القصور . وقال الضحاك : هى المساجد . وقال قتادة : هى المساجد والقصور ، وقال ابن زيد : هى المساكن . وأما التماثيل فقال عطية العوفى ، والضحاك والسدى : التماثيل: الصور . قال مجاهد : وكانت من نحاس . وقال قتادة : من طين وزجاج .

وقوله تعالى : ﴿ وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ﴾ الجواب : جمع جابية ، وهى الخوض الذى يجبى فيه الماء ، وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ كَالْجَوَابِ ﴾ أى : كالجوبة من الأرض . وقال العوفى ، عنه : كالحياض . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقاتدة ، والضحاك وغيرهم . والقُدور الراسيات : أى الثابتات ، فى أماكنها لا تتحول ولا تتحرك عن أماكنها لعظمتها . كذا قال مجاهد ، والضحاك ، وغيرهما . وقال عكرمة : أثنائها منها .

وقوله تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ أى : وقلنا لهم اعملوا شكرًا على ما أنعم به عليكم فى الدنيا والدين . وشكرًا : مصدر من غير الفعل ، أو أنه مفعول له ، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول وبالنية . قال أبو عبد الرحمن السلمى : الصلاة شكر ، والصيام شكر ، وكل خير تعمله لله شكر . وأفضل الشكر الحمد . رواه ابن جرير . وروى هو وابن أبى حاتم ، عن محمد بن كعب القرظى قال : الشكر تقوى الله والعمل الصالح . وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل ، وقد كان آل داود ، عليه السلام ، كذلك قائمين بشكر الله قولاً وعملاً . وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً . ولا يقر إذا لاقى » (١) . وقوله : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ : إخبار عن الواقع .

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّكُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةٌ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾

يذكر تعالى كيفية موت سليمان ، عليه السلام ، وكيف عمى الله موته على الجنّ المسخرين له فى الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكئاً على عصاه - وهى منسأته - كما قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقاتدة وغير واحد - مدة طويلة نحواً من سنة ، فلما أكلتها دابة الأرض ،

وهى الأرضة، ضعفت وسقط إلى الأرض ، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة - تبينت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب ، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك .

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ
وَأَشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدَهُ طَيِّبَةً وَرَبِّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَلْنَاهُم
بِحَبْنَتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ خَمَطٍ وَاتْلٍ وَشَىءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا
كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها، وكانت التابعة منهم ، وبلقيس - صاحبة سليمان - منهم، وكانوا فى نعمة وغبطة فى بلادهم ، وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم . وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ، ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق فى البلاد أيدى سبأ ، شذر مذر .

روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن وعلّة قال : سمعت ابن عباس يقول : إن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن سبأ : ما هو ؟ رجل أم امرأة أم أرض ؟ قال : « بل هو رجل ، ولد عشرة ، فسكن اليمن منهم ستة ، وبالشام منهم أربعة ، فأما اليمانيون : فمذحج ، وكندة ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير . وأما الشامية فلخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسان » وهذا إسناد حسن ، ولم يخرجوه (١) ، وقد رواه الحافظ أبو عمر بن عبد البر فى كتاب «القصص والأمم» بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم » عن ابن عباس فذكر نحوه . وروى ابن جرير عن قروة بن مسيك العطيفى قال : قال رجل : يا رسول الله ، أخبرنى عن سبأ : ما هو ؟ أرض ، أم امرأة ؟ قال : « ليس بأرض ولا امرأة ، ولكنه رجل ولد عشرة من الولد ، فتيامن ستة وتشاءم أربعة ، فأما الذين تشاءموا : فلخم وجذام وعاملة وغسان ، وأما الذين تيامنوا : فكندة : والأشعريون ، والأزد ، ومذحج ، وحمير ، وأنمار . فقال رجل : ما أنمار ؟ قال : « الذين منهم خثعم وبجيلة » . ورواه الترمذى أبسط من هذا ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب (٢) . وروى أبو عمر بن عبد البر : عن تميم الدارى ؛ أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فسأله عن سبأ ، فذكر مثله ، فقوى هذا الحديث وحسن . قال علماء النسب ، منهم محمد بن إسحاق : اسم سبأ : عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وإنما سمى سبأ لأنه أول من سبأ فى العرب ، وكان يقال له : الرائش ؛ لأنه أول من غنم فى الغزو فأعطى قومه ، فسمى الرائش ، والعرب تسمى المال : ريشا ورياشا .

(١) المسند (٢٩٠٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) ابن جرير فى التفسير (٥٣/٢٢) ، والترمذى (٣٢٢٢) وقال الألبانى : « حسن صحيح » .

ومعنى قوله عليه السلام: « كان رجلا من العرب » يعنى : العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل، عليه السلام ، من سلالة سام بن نوح . وفى صحيح البخارى : أن رسول الله ﷺ مر بنفر من « أسلم » ينتضلون ، فقال : « ارموا بنى إسماعيل ، فإن أباكم كان راميا » (١) . فأسلم قبيلة من الأنصار ، والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ ، نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ فى البلاد ، حين بعث الله عليهم سيل العرم ، ونزلت طائفة منهم بالشام ، وإنما قيل لهم : غَسَّانُ بَما نزلوا عليه قَيْلٌ : باليمن . وقيل : إنه قريب من المُشَلَّل .

ومعنى قوله : « ولد له عشرة من العرب » أى : كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن ، لا أنهم ولدوا من صلبه ، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر ، كما هو مقرر مبين فى مواضعه من كتب النسب .

ومعنى قوله : « فتيا من منهم ستة ، وتشاءم منهم أربعة » أى : بعد ما أرسل الله عليهم سيل العرم ، منهم من أقام ببلادهم ، ومنهم من نرح عنها إلى غيرها ، وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعمدَ ملوكهم الأقدام ، فبنوا بينهما سداً عظيماً محكما حتى ارتفع الماء ، وحكم على حافات ذينك الجبلين ، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار فى غاية ما يكون من الكثرة والحسن ، كما ذكر غير واحد من السلف ، منهم قتادة : أن المرأة كانت تمشى تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل ، وهو الذى تخترف فيه الثمار ، فيتساقط من الأشجار فى ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قُطَاف ، لكثرتِه ونضجه واستوائه ، وكان هذا السد بمأرب : بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ، ويعرف بسد مأرب .

وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شىء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ، ولا شىء من الهوام ، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم ، ليوحده ويعبده ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِينِهِمْ آيَةٌ ﴾ ، ثم فسرها بقوله : ﴿ جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ أى : من ناحيتى الجبلين والبلدة بين ذلك ، ﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ أى : غفور لكم إن استمررتم على التوحيد . وقوله : ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ أى : عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم ، وعدلوا إلى عبادة الشمس ، كما قال هدهد سليمان : ﴿ وَجَنَّاتٍ مِنْ سَبَأٍ بِنِيَّاقِينَ . إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : ٢٢ - ٢٤] .

وقوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْمِ ﴾ : قيل : المراد بالعرم المياه . وقيل : الوادى . وقيل : الجُرْدُ . وقيل : الماء الغزير . فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته ، مثل : « مسجد الجامع » . و« سعيد كُرْز » حكى ذلك السهلى . وذكر غير واحد منهم ابن عباس ، ووهب بن منبه ، وقاتدة ،

والضحالك ؛ أن الله ، عز وجل ، لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم ، بعث على السد دابة من الأرض ، يقال لها : « الجُرْدُ » نقبته - قال وهب بن منبه : وقد كانوا يجدون في كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجُرْدُ فكانوا يرصدون عنده السنائير برهة من الزمان ، فلما جاء القدر غلبت الفأر السنائير ، وولجت إلى السدّ فنقبته ، فانهار عليهم .

وقال قتادة وغيره : الجُرْدُ : هو الخُلْدُ ، نقبت أسافله حتى إذا ضَعَفَ ووَهَى ، وجاءت أيام السيول ، صَدَمَ الماءُ البناءَ فسقط ، فانساب الماء في أسفل الوادى ، وخرَّبَ ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ، ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال ، فبيست وتحطمت ، وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعطاء الخراساني ، والحسن ، وقاتدة ، والسُدِّي : وهو الأراك ، وأكلة البرير . ﴿ وَأَثْرُ ﴾ : قال العوفي ، عن ابن عباس : هو الطَّرْفَاءُ . وقال غيره : هو شجر يشبه الطرفاء . وقيل : هو السَّمُرُ . فالله أعلم .

وقوله : ﴿ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ : لما كان أجودَ هذه الأشجار المبدل بها هو السدْرُ قال : ﴿ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ ، فهذا الذي صار أمر تَبَيَّنَكَ الجنتين إليه ، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة ، والظلال العميقة والأنهار الجارية ، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدْرُ ذى الشوك الكثير والثمر القليل . وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله ، وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ ﴾ أى : عاقبناهم بكفرهم . قال مجاهد : ولا يعاقب إلا الكفور . وقال الحسن البصرى : صدق الله العظيم . لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور . وقال طاوس : لا يناقش إلا الكفور . وعن ابن خيرة - وكان من أصحاب على ، رضى الله عنه - قال : جزاء المعصية الوهن فى العبادة ، والضيق فى المعيشة ، والتعسر فى اللذة . قيل : وما التعسر فى اللذة ؟ قال : لا يصادف لذة حلال إلا جاءه من يَنْغَصُهَ إياها .

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَىٰ ظَهْرَةَ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَبِيلًا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرْقَمَاتٍ كُلَّ مَرْقَمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾

يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغبطة والنعمة ، والعيش الهنى الرغيد ، والبلاد الرخية ، والأماكن الآمنة ، والقرى المتواصلة المتقاربة ، بعضها من بعض ، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها ، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلا حمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماء وثمرًا ، ويقبل فى قرية ويبست فى أخرى ، بمقدار ما يحتاجون إليه فى سيرهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ ، قال وهب بن منبه : هى قرى بصنعاء . وكذا قال

أبو مالك . وقال مجاهد ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، زيد بن أسلم ، وقتادة ، والضحاك ، والسُدِّي ، وابن زيد وغيره : يعنى : قرى الشام . يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام فى قرى ظاهرة متواصلة . وقال ابن عباس : القرى التى باركنا فيها : بيت المقدس . وقال أيضا : هى قرى عربية بين المدينة والشام .

﴿ قُرَى ظَاهِرَةٌ ﴾ أى : بينة واضحة ، يعرفها المسافرون ، يَقِيلُونَ فى واحدة ، ويبيتون فى أخرى ؛ ولهذا قال : ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ ، أى : جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ﴿ سَيَرُوا فِيهَا لَيَالِيًا وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ أى : الأمن حاصل لهم فى سيرهم ليلا ونهارا .

﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ وذلك أنهم بطروا هذه النعمة - كما قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وغير واحد - وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون فى قطعها إلى الزاد والرواحل والسير فى الحُرُورِ والمخاوف ، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض ، من بقلها وقتائها وفومها وعدسها وبصلها ، مع أنهم كانوا فى عيش رغيد فى مَنْ وَسْلَوِي وَمَا يَشْتَهُونَ من مآكل ومشرب وملابس مرتفعة ؛ ولهذا قال لهم : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَأْسَأَتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٦١] ، وقال عز وجل : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِشَتَهَا ﴾ [القصص : ٥٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] . وقال فى حق هؤلاء : ﴿ وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ، أى : بكفروهم ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أى : جعلناهم حديثا للناس ، وَسَمَرًا يتحدثون به من خبرهم ، وكيف مكر الله بهم ، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنىء تفرقوا فى البلاد هاهنا وهاهنا ؛ ولهذا تقول العرب فى القوم إذا تفرقوا : « تفرقوا أيدى سبأ » و « تفرقوا شَدَرَ مَدَرَ » .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى : إن فى هذا الذى حل بهؤلاء من النقمة والعذاب ، وتبديل النعمة وتحويل العافية ، عقوبة على ما ارتكبه من الكفر والآثام - لعبرة ودلالة لكل عبد صبار على المصائب ، شكور على النعم . وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة : « عجبًا للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له . وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » (١) .

قال قتادة : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ قال : كان مطرّف يقول : نعم العبد الصبار الشكور ، الذى إذا أعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر .

(١) مسلم (٦٤/٢٩٩٩) ، وأحمد (٤/٣٣٢) عن صهيب رضى الله عنه ولم نقف على رواية أبى هريرة .

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُمْ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿١١﴾

لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشيطان ، أخبر عنهم وعن أمثالهم من اتباع إبليس والهوى ، وخالف الرشاد والهدى ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ . قال ابن عباس وغيره : هذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم ، ثم قال : ﴿ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لِنِ اٰخِرَتَيْنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْسَبُنُكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٢] ، وقال : ﴿ ثُمَّ لَأَنبِتُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الاعراف : ١٧] والآيات في هذا كثيرة .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ قال ابن عباس : أى من حجة . وقال الحسن البصرى : واللّه ما ضربهم بعضاً ، ولا أكرههم على شيء ، وما كان إلا غرورا وأمانى دعاهم إليها فأجابوه .

وقوله : ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِآخِرَةٍ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾ أى : إنما سلطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء ، فيحسن عبادة ربه عز وجل في الدنيا ، ممن هو منها فى شك ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أى : ومع حفظه ضلّ من ضلّ من أتباع إبليس ، وبحفظه وكلاءته سلّم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل .

﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ ﴿١٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أُوذِيَ لَمْ يَأْتِ إِذَا فُرِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿١٣﴾

يبين تبارك وتعالى أنه الإله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى لا نظير له ولا شريك له، بل هو المستقل بالأمر وحده ، من غير مشارك ولا منازع ولا معارض ، فقال : ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى : من الآلهة التى عبدت من دونه ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكٍ ﴾ أى : لا يملكون شيئاً استقلالاً ولا على سبيل الشركة ، ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ أى : وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به فى الأمور ، بل الخلق كلهم فقراء إليه ، عبيد لديه . قال قتادة فى قوله : ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ : من عون يعينه بشيء . قال قتادة فى قوله : ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ ، من عون يعينه بشيء .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَفْعُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أذِنَ لَهُ ﴾ أى : لعظمته وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى فى شىء إلا بعد إذنه له فى الشفاعة ، كما قال تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقال : ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذِنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ [النجم : ٢٦] ، وقال : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الانبياء : ٢٨] . ولهذا ثبت فى الصحيحين ، من غير وجه عن رسول الله ﷺ - وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شفيع عند الله : أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع فى الخلق كلهم أن يأتى ربهم لفصل القضاء ، قال : « فأسجد لله فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ، ويفتح على بمحامد لا أحصيها الآن ، ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعطه واشفع تشفع » الحديث بتمامه (١) . وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ ﴾ : وهذا أيضا مقام رفيع فى العظمة ، وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السموات كلامه ، أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشى . قاله ابن مسعود ومسروق ، وغيرهما .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ أى : زال الفزع عنها . قال ابن عباس ، وابن عمر وأبو عبد الرحمن السلمى والشعبى ، وقتادة فى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ يقول : جُلِّيَ عن قلوبهم ، وقرأ بعض السلف - وجاء مرفوعا - : « حَتَّىٰ إِذَا فَرِغَ » بالغين المعجمة ، ويرجع إلى الأول . فإذا كان كذلك سأل بعضهم بعضا : ماذا قال ربكم ؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم ، حتى ينتهى الخبر إلى أهل السماء الدنيا ؛ ولهذا قال : ﴿ قَالُوا الْحَقُّ ﴾ أى : أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ .

وقال آخرون : بل معنى قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى : المشركين عند الاحتضار ، ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة فى الدنيا ، ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة ، قالوا : ماذا قال ربكم ؟ فقيل لهم : الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين فى الدنيا . قال مجاهد : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ : كشف عنها الغطاء يوم القيامة . وقال الحسن : يعنى : ما فيها من الشك والتكذيب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى : ما فيها من الشك ، قال : فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانيتهم وما كان يضلهم ، ﴿ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ قال : وهذا فى بنى آدم ، هذا عند الموت ، أقروا حين لا ينفعهم الإقرار . وقد اختار ابن جرير القول الأول : أن الضمير عائد على الملائكة . هذا هو الحق الذى لا مرية فيه ، لصحة الأحاديث فيه والآثار :

روى البخارى عن أبى هريرة قال : إن نبي الله ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاء لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان ، فإذا فُزِعَ عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال : الحق ، وهو العلى الكبير فيسمعها مُسْتَرَق

(١) مضى تخريجه عند الآية ٧٩ من سورة الإسراء .

السمع ، ومسترق السمع - هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بيده فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ ، فيلقبها إلى من تحته ، ثم يلقبها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقبها على لسان الساحر أو الكاهن : فربما أدركه الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يَلْقِيَهَا ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال : أليس قد قال لنا يومَ كذا وكذا: كذا وكذا ؟ فيصدِّقُ بتلك الكلمة التي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ . انفراد بإخراجه البخارى دون مسلم من هذا الوجه ، ورواه أبو داود والترمذى وابن ماجه (١) . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ جالساَ فى نفر من أصحابه - قال عبد الرزاق : « من الأنصار » - فَرُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ ، قال : « ما كنتم تقولون إذا كان مثلُ هذا فى الجاهلية ؟ » قالوا : كنا نقول يُوكَّدُ عَظِيمٌ ، أو يموت عظيم - قلت للزهري : أكان يرمى بها فى الجاهلية ؟ قال : نعم ، ولكن غَلَطْتَ حين بعث النبي ﷺ - قال : فقال رسول الله ﷺ : « فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا ، تبارك وتعالى ، إذا قضى أمرا سبِحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ [ثم سبِحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، حتى يبلغ التسبيح هذه السماء الدنيا ، ثم يستخبر أهل السماء الذين يَلُونُ حَمَلَةَ الْعَرْشِ ، فيقول الذين يَلُونُ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ] : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ويخبر أهل كل سماء سماء ؛ حتى ينتهى الخبر إلى هذه السماء ، وتخطف الجن السمع فيرمون ، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون . ورواه مسلم والنسائى والترمذى (٢) . وعن ابن عباس وقتادة : أنهما فسرا هذه الآية بابتداء إحياء الله سبحانه إلى محمد ﷺ بعد الفترة التي كانت بينه وبين عيسى ، ولا شك أن هذا أولى ما دخل فى هذه الآية .

رَبِيعٌ ﴿١٤﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَعْرَمْنَا وَلَا تَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَحَقُّنَّ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٧﴾

يقول تعالى مقررًا تفرده بالخلق والرزق ، وانفراده بالإلهية أيضا ، فكما كانوا يعترفون بأنه لا يرزقهم من السماء والأرض - أى : بما ينزل من المطر وينبت من الزرع - إلا الله ، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره . وقوله : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : واحد من الفريقين مبطل ، والآخر محق ، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال ، بل واحد منا مصيب ، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد ، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ . قال قتادة : قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين : والله ما نحن وإياكم على أمر واحد ، إن أحد

(١) البخارى (٤٨٠٠) ، وأبو داود (٣٩٨٩) ، والترمذى (٣٢٢٣) ، وابن ماجه (١٩٤) .

(٢) المسند (١٨٨٣) ، ومسلم (١٢٤/٢٢٢٩) ، والنسائى فى الكبرى (١١٢٧٢) ، والترمذى (٣٢٢٤) .

الفريقين لمهتد . وقال عكرمة : معناها : إنا نحن لعلى هدى ، وإنكم لفى ضلال ميين . وقوله : ﴿ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ معناه : التبرى منهم ، أى : لستم منا ولا نحن منكم ، بل ندعوكم إلى الله وإلى توحيدهِ وإفراد العبادة له ، فإن أحببتم فأنتم منا ونحن منكم ، وإن كذبتهم فنحن برآء منكم وأنتم برآء منا ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ (١) كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ٤١] ، وقال : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَإِلَى دِينِ ﴾ [سورة الكافرون] .

وقوله : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ أى : يوم القيامة ، يجمع بين الخلائق فى صعيد واحد ، ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ أى : يحكم بيننا بالعدل ، فيجزى كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومئذٍ يفرقون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون . وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون ﴾ [الروم : ١٤ - ١٦] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْفَتْاحُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور .

وقوله : ﴿ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَنْحَنُوا بِكُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ﴾ أى : أرونى هذه الآلهة التى جعلتموها لله أندادا وصيرتموها له عدلا ﴿ كَلَّا ﴾ أى : ليس له نظير ولا نديد ، ولا شريك ولا عديل ، ولهذا قال : ﴿ بَلْ هُوَ اللَّهُ ﴾ أى : الواحد الأحد الذى لا شريك له ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : ذو العزة التى قد قهر بها كل شىء ، وَعَلَّبت كل شىء ، الحكيم فى أفعاله وأقواله ، وشرعه وقدره ، تعالى وتقدس .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾
 ﴿ ١٨ ﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ ١٩ ﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْرِفُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿ ٢٠ ﴾

يقول تعالى لعبدِهِ ورسوله محمد ﷺ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ : أى : إلا إلى جميع الخلق من المكلفين ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الاعراف : ١٥٨] ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] . ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى تبشر من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، كقوله عز وجل : ﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] ﴿ وَإِنْ تَطَّعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الانعام : ١١٦] . وقال ابن عباس : إن الله فضل محمدا ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء . قالوا : يا بن عباس ، فمفضل الله على الأنبياء ؟ قال : إن الله قال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبينَ لَهُمْ ﴾ ، وقال للنبي ﷺ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ ، فأرسله الله إلى الجن والإنس . وهذا

(١) فى المخطوطة والمطبوعة : « فإن » وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه .

الذى قاله ابن عباس قد ثبت فى الصحيحين رفعه عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا، فأما رجل من امتى أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى الغنائم، ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعث إلى الناس عامة» (١). وفى الصحيح أيضا أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت إلى الأسود والأحمر» (٢). قال مجاهد: يعنى: الجن والإنس. وقال غيره: يعنى: العرب والعجم. والكل صحيح.

ثم قال تعالى مخبرا عن الكفار فى استبعادهم قيام الساعة: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ، كقوله عز وجل: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ الآية [الشورى : ١٨] . ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ لَكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أى : لكم ميعاد مؤجل محدود محدد ، لا يزداد ولا ينقص ، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ [نوح : ٤] ، وقال : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ . يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقِيَ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٤ ، ١٠٥] .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُمْ أَدْنَاءَ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

يخبر تعالى عن تمادى الكفار فى طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن وما أخبر به من أمر المعاد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ قال الله تعالى متهددا لهم ومتوعدا ، ومخبرا عن مواقفهم الدلييلة بين يديه فى حال تخصصهم وتحاجهم : ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا ﴾ وهم الاتباع ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ منهم وهم قادتهم وسادتهم : ﴿ لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ أى : لولا أنتم تصدونا ، لكننا اتبعنا الرسل وأما بما جاؤونا به . فقال لهم القادة والسادة ، وهم الذين استكبروا : ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ﴾ أى : نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنَّا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان ، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التى جاءت بها الرسل ، لشهوتكم واختياركم لذلك ؛ ولهذا قالوا : ﴿ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أى : بل كنتم تمكرون بنا ليلا ونهارا ، وتغرّبونا وتؤمنونا ، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شيء ، فإذا جميع ذلك باطل وكذبٌ ومين . قال قتادة ، وابن زيد : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ يقول : بل مكرهم بالليل والنهار ﴿ إِذْ تَأْمُرُونَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ﴾ أى نظراء وآلهة معه ، وتقيموا لنا شُبهًا وأشياء من المحال ، تضلوننا بها ﴿ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أى : الجميع من السادة والأتباع ، كلٌ ندم على ما سلف منه . ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ : وهى السلاسل التى تجمع أيديهم مع أعناقهم ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى : إنما نجازيكم بأعمالكم ، كلٌ بحسبه ، للقيادة عذاب بحسبهم ، وللأتباع بحسبهم ﴿ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الاعراف : ٢٨] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ ﴿ ٢٤ ﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿ ٢٥ ﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ ٢٦ ﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ ضَعِيفٌ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْعُرْفَةِ أَمْتُونَ ﴿ ٢٧ ﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿ ٢٨ ﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿ ٢٩ ﴾

يقول تعالى مسلينا لنبية ﷺ ، وأمراله بالتأسي بمن قبله من الرسل ، ومخبره بأنه ما بعث نبيا في قرية إلا كذبه متترفوها ، واتبعه ضعفاؤهم ، كما قال قوم نوح : ﴿ أَنْزَمْنَا لَكَ وَأَتَعَلَّكَ الْأُرْدُلُونَ ﴾ [الشعراء : ١١١] ﴿ وَمَا تَرَكَ أَتَيْكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِآدِي الرَّأْيِ ﴾ [هود : ٢٧] ، وقال الكبراء من قوم صالح : ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ آتَعْلَمُونَ أَنْ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الاعراف : ٧٥ ، ٧٦] وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الانعام : ٥٣] ؟ وقال : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارًا مَّجْرُمِينَ لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾ [الانعام : ١٢٢] ، وقال : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ﴾ [الإسراء : ١٦] . وقال هاهنا : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ ﴾ أى : نبي أو رسول ﴿ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة .

قال قتادة : هم جبارتهم وقادتهم ورؤوسهم فى الشر . ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ أى : لا تؤمن به ولا تتبعه . وهكذا قال هرقل لأبى سفيان حين سأله عن تلك المسائل ، قال فيها : وسألتك : أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم فزعمت : بل ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل . وقوله تعالى إخبارا عن المترفين المكذبين : ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ أى : افتخروا بكثرة الأموال والأولاد ، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم واعتنائه بهم ، وأنه

ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ، ثم يعذبهم في الآخرة ، وهيهات لهم ذلك . قال الله : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ . نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦] وقال : ﴿ فَلَا تَعْجَبْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة : ٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَيْنَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا . سَأَرَّهُنَّ صَمُودًا ﴾ [المدثر : ١١ - ١٧] .

وقد أخبر الله عن صاحب تينك الجنة : أنه كان ذا مال وولد وثمر ، ثم لم تُغن عنه شيئاً ، بل سلب ذلك كله في الدنيا قبل الآخرة ؛ ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أى : يعطى المال لمن يحب ومن لا يحب ، فيفقر من يشاء ويغنى من يشاء ، وله الحكمة التامة البالغة ، والحجة الدامغة القاطعة ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . ثم قال : ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى ﴾ أى : ليست هذه دليلاً على محبتنا لكم ، ولا اعتنائنا بكم . روى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، قال : قال سول الله ﷺ : « إِنْ اللَّهُ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » . ورواه مسلم وابن ماجه (١) .

ولهذا قال : ﴿ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أى : إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح ، ﴿ فَأُولَئِكَ لَهُمْ جِزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى : تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ ﴾ أى : فى منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ، ومن كل شر يُحذَر منه . ﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾ أى : يسعون فى الصد عن سبيل الله ، واتباع الرسل والتصديق بآياته ﴿ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ أى : جميعهم مجزيون بأعمالهم فيها بحسبهم . وقوله : ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ أى : بحسب ما له فى ذلك من الحكمة ، يسط على هذا من المال كثيرا ، ويضيق على هذا ويقتصر عليه رزقه جداً ، وله فى ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره ، كما قال تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٢١] أى : كما هم متفاوتون فى الدنيا : هذا فقير مدقع ، وهذا غنى موسع عليه ، فكذلك هم فى الآخرة : هذا فى الغُرَفَاتِ فى أعلى الدرجات ، وهذا فى الغَمَرَاتِ فى أسفل الدرجات . وأطيب الناس فى الدنيا كما قال رسول الله ﷺ : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ وَرُزِقَ كَفَافًا ، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ » . ورواه مسلم من حديث ابن عمرو (٢) .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ أى : مهما أنفقتم من شىء فيما أمركم به وأباحه لكم ، فهو يخلفه عليكم فى الدنيا بالبدل ، وفى الآخرة بالجزاء والثواب ، كما ثبت فى

(١) المسند (٢/٥٣٩) ، ومسلم (٢٥٦٤/٣٣) ، وابن ماجه (٤١٤٣) .

(٢) مسلم (١٠٥٤/١٢٥) ، وفى المخطوطة والطبوعة : « من حديث ابن عمر » وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه من مسلم .

الحديث: « يقول الله تعالى : أنفق أنفق عليك » (١) . وفي الحديث : أن ملكين يصيحان كل يوم ، يقول أحدهما : « اللهم أعط مُمْسِكًا تَلْفًا ، ويقول الآخر : اللهم أعط متنفقا خَلْفًا » (٢) . وقال مجاهد : لا يتأولن أحدكم هذه الآية : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ : إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه ، فإن الرزق مقسوم .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءُ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ قَالِيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صور الملائكة ليقربوهم إلى الله زلفى ، فيقول للملائكة : ﴿ أَهْتُولَاءُ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ أى : أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم ؟ كما قال فى سورة الفرقان : ﴿ أَنْتُمْ أَضَلُّتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ [الفرقان : ١٧] ، وكما يقول لعيسى عليه السلام : ﴿ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ [المائدة : ١١٦] . وهكذا تقول الملائكة : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ أى : تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ ﴾ أى : نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء ﴿ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ يعنون : الشياطين ؛ لأنهم هم الذين يزبنون لهم عبادة الأوثان ويضلونهم ﴿ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴾ [النساء : ١١٧] . قال الله تعالى : ﴿ قَالِيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ أى : لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان ، التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكُرْبِكُمْ ، اليوم لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً ﴿ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ وهم المشركون ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أى : يقال لهم ذلك ، تقريباً وتوبيخاً .

﴿ وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا سَيَّئَتْ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ءَابَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا ءَايَاتُنْهُمْ مِنْ كِتَابٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا ءَايَاتُنْهُمْ فَكَذَّبُوا رَسُولِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والاليم من العذاب ؛ لأنهم كانوا إذا

تتلى عليهم آياته بينات يسمعونها غَصَةً طرية من لسان رسوله ﷺ ﴿ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ ﴾ يعنون أن دين آبائهم هو الحق ، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل - عليهم وعلى آبائهم لعائن الله - ﴿ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرَى ﴾ يعنون : القرآن ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كِتَابٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ أى : ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن ، وما أرسل إليهم نبيًا قبل محمد ﷺ ، وقد كانوا يودون ذلك ويقولون : لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب ، لكننا أهدى من غيرنا ، فلما من الله عليهم بذلك كذبوه وعاندوه وجحدوه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى : من الأمم ﴿ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ قال ابن عباس : أى من القوة فى الدنيا . وكذا قال قتادة ، والسدى ، وابن زيد . كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً لَمَّا أُغْنِيَ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الاحقاف : ٢٦] ، ﴿ أَقَلَّمْ سِيرًا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً ﴾ [غافر : ٨٢] ، أى : وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده ، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله ؛ ولهذا قال : ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى : كيف كان نكالى وعقابي وانتصارى لرسلى ؟

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِرِحْدٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ ﴿ ٤٦ ﴾

ربع

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون ﴿ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بَوَاحِدَةٍ ﴾ أى : إنما أمركم بواحدة ، وهى : ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ أى : تقوموا قيامًا خالصًا لله ، من غير هوى ولا عصبية ، فيسال بعضكم بعضا : هل بمحمد من جنون ؟ فينصح بعضكم بعضا ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ أى : ينظر الرجل لنفسه فى أمر محمد ﷺ ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ، ويتفكر فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ . هذا معنى ما ذكره مجاهد وقتادة ، وغيرهم ، وهذا هو المراد من الآية .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ : روى البخارى عن ابن عباس قال : صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم ، فقال : « يا صباحاه » . فاجتمعت إليه قريش ، فقالوا : ما لك ؟ فقال : « أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يُصَبِّحكم أو يُمَسِّيكُم ، أما كنتم تصدقونى ؟ » قالوا : بلى . قال : « فإننى نذير لكم بين يدي عذاب شديد » . فقال أبو لهب : تبأ لك ! ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ [المسد] (١) . وروى الإمام أحمد عن

بريدة قال : خرج إلينا رسول الله ﷺ يوماً فنأدى ثلاث مرات فقال : « أيها الناس ، تدرّون ما مثلى ومثلكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « إنّما مثلى ومثلكم مثل قوم خافوا عدواً يأتيهم ، فبعثوا رجلاً يتراءى لهم ، فيبينما هو كذلك أبصر العدو ، فأقبل لينذرهم وخشى أن يدرکه العدو قبل أن ينذر قومه ، فأهوى بثوبه : أيها الناس ، أوتيتم . أيها الناس ، أوتيتم » - ثلاث مرات (١) .

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٤٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْفِئُ بِالْحَقِّ عَلَٰمَ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ﴾ أي : لا أريد منكم جُعلاً ولا عطاءً على أداء رسالة الله إليكم ، ونصحى إياكم ، وأمركم بعبادة الله ﴿ إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ أي : إنّما أطلب ثواب ذلك عند الله ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي : عالم بجميع الأمور ، بما أنا عليه من إخباري عنه بإرساله إياي إليكم ، وما أنتم عليه . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْفِئُ بِالْحَقِّ عَلَٰمَ الْغُيُوبِ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [غافر : ١٥] . أي : يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض ، وهو علام الغيوب ، فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض . وقوله تعالى : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ ﴾ أي : جاء الحق من الله والشرع العظيم ، وذهب الباطل وزهق واضمحل ، كقوله : ﴿ بَلْ نَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الانبياء : ١٨] ، ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح ، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة ، جعل يطعن الصنم بسية قوسه ، ويقرأ : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ ، ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ ﴾ . رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن ابن مسعود ، به (٢) . أي : لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾ أي : الخير كله من عند الله ، وفيما أنزله عز وجل من الوحي والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد ، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ أي : سميع لأقوال عباده ، قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه . وقد روى النسائي هاهنا حديث أبي موسى الذي في الصحيحين : « إنكم لا تدعون أصم ولا غابياً ، إنّما تدعون سميعاً قريباً مجيباً » (٣) .

(١) المسند (٣٤٨/٥) وإسناده صحيح .

(٢) البخاري (٢٤٧٨ ، ٤٢٨٧) ، ومسلم (١٧٨١/٨٧) ، والترمذي (٣١٣٨) ، والنسائي في الكبرى (١١٤٢٨) .

(٣) النسائي في الكبرى (١١٤٢٧) ، والبخاري (٤٢٠٥) ، ومسلم (٤٥٠٤/٢٧٠٤) .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا ءَأَمْنَا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِفُونَ بِالْقَلْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

يقول تعالى : ولو ترى - يا محمد - إذ فرغ هؤلاء المكذبون يوم القيامة ﴿ فلا قوت ﴾ أي : فلا مفر لهم ، ولا وزر ولا ملجأ ﴿ وأخذوا من مكان قريب ﴾ أي : لم يمكنوا أن يمنعوا في الهرب ، بل أخذوا من أول وهلة . قال الحسن البصرى : حين خرجوا من قبورهم . وقال عبد الرحمن بن زيد : يعنى : قتلهم يوم بدر . والصحيح : أن المراد بذلك يوم القيامة ، وهو الطامة العظمى ، وإن كان ما ذكر متصلا بذلك .

﴿ وقالوا أمنا به ﴾ أي : يوم القيامة يقولون : أمنا بالله وبكتبه ورسله ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ١٢] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أي : وكيف لهم تعاطى الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة ، وهى دار الجزاء لا دار الابتلاء ، فلو كانوا آمنوا فى الدنيا لكان ذلك نافعهم ، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان ، كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد . قال مجاهد : ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ ﴾ قال : التناول لذلك . وقال الزهرى : التناوش : تناولهم الإيمان وهم فى الآخرة ، وقد انقطعت عنهم الدنيا . وقال الحسن البصرى : أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال ، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد . وقال ابن عباس : طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه ، وليس بحين رجعة ولا توبة . وكذا قال محمد بن كعب القرظى . وقوله : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : كيف يحصل لهم الإيمان فى الآخرة ، وقد كفروا بالحق فى الدنيا وكذبوا بالرسول ؟ ﴿ وَيَقْدِفُونَ بِالْقَلْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ قال زيد بن أسلم : ﴿ وَيَقْدِفُونَ بِالْقَلْبِ ﴾ قال : بالظن . قلت : كما قال تعالى : ﴿ رَجْمًا بِالْقَلْبِ ﴾ [الكهف : ٢٢] ، فتارة يقولون : شاعر . وتارة يقولون : كاهن . وتارة يقولون : ساحر . وتارة يقولون : مجنون . إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة ، ويكذبون بالغيب والنشور والمعاد ، ويقولون : ﴿ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية : ٣٢] . قال قتادة : يرحمون بالظن ، لا بعث ولا جنة ولا نار .

وقوله : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ قال الحسن البصرى ، والضحاك ، وغيرهما : يعنى : الإيمان . وقال السدى : هى : التوبة . وهذا اختيار ابن جرير ، رحمه الله . وقال مجاهد : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ من هذه الدنيا ، من مال وزهرة وأهل . وروى نحوه عن ابن عباس وابن عمر والربيع بن أنس . وهو قول البخارى وجماعة . والصحيح : أنه لا منافاة بين القولين ؛ فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم فى الدنيا وبين ما طلبوه فى الآخرة ، فمنعوا

منه . وقوله تعالى : ﴿ كَمَا فَعَلْ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ ﴾ أى : كما جرى للأمم الماضية المكذبة للرسل ، لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمَّ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَتَّ اللَّهُ النَّبِيَّ قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٤ ، ٨٥] . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكِّ مُرِيبٍ ﴾ أى : كانوا فى الدنيا فى شك وريبة ، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب . قال قتادة : إياكم والشك والريبة ، فإنه من مات على شك بُعِثَ عليه ، ومن مات على يقين بعث عليه .

تفسير سورة فاطر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قال ابن عباس قال : كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض ، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما لصاحبه : أنا فطرتها ، أنا بدأتها . وقال ابن عباس أيضاً : ﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ : بديع السموات والأرض . وقال الضحاك : كل شيء في القرآن « فاطر السموات والأرض » فهو : خالق السموات والأرض .

وقوله تعالى : ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾ أى : بينه وبين أنبيائه ﴿ أُولِي أَجْنِحَةٍ ﴾ أى : يطيرون بها ليلبغوا ما أمروا به سريعاً ﴿ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعٌ ﴾ أى : منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك ، كما جاء في الحديث : أن رسول الله ﷺ رأى جبريل ليلة الإسراء وله ستمائة جناح ، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ؛ ولهذا قال : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قال السدى : يزيد فى الأجنحة وخلقهم ما يشاء . وقال الزهرى ، وابن جرير فى قوله : ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ يعنى : حسن الصوت .

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

يخبر تعالى أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع . روى الإمام أحمد عن وراد (١) - مولى المغيرة بن شعبة - قال : كتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة : اكتب إلى بما سمعت من رسول الله ﷺ . فدعاني المغيرة فكتبت إليه : إني سمعت رسول الله ﷺ إذا انصرف من الصلاة قال : « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » ، وسمعتة ينهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ،

(١) فى المخطوطة : « وارد » وهو خطأ ، صوابه كما أثبتنا من المطبوعة ومصادر التخريج . وفى رواية البخارى والمطبوعة : « كاتب المغيرة » .

وعن وأد البنات ، وعقوق الأمهات ، ومنع وهات . وأخرجاه (١) . وثبت فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى ، أن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : « سمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ، ملء السماء والأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد . اللهم ، أهل الثناء والمجد . أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد . اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » (٢) . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمْسُكِ اللَّهُ بُضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ ﴾ [يونس : ١٠٧] . ولهذا نظائر كثيرة . كان أبو هريرة إذا مطروا يقول : مطرنا بنوء الفتح ، ثم يقرأ هذه الآية : ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يَمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

﴿ بَيِّنَاتٍ لِّلنَّاسِ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴾

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده فى إفراد العبادة له ، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فليفرد بالعبادة ، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴾ أى : فكيف تؤفكون بعد هذا البيان ، ووضوح هذا البرهان ، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان ؟

﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ ﴿ بَيِّنَاتٍ لِّلنَّاسِ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُوءُ ﴾ ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُذَّوبٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

يقول تبارك وتعالى : وإن يكذبوك - يامحمد - هؤلاء المشركون بالله ويخالفوك فيما جنتهم به من التوحيد ، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة ؛ فإنهم كذلك جاؤوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ أى : وسنجزئهم على ذلك أوفر الجزاء .

ثم قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى : المعاد كائن لا محالة ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا ﴾ أى : العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأولياته وأتباع رسله من الخير العظيم فلا تتلهوا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية ، ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُوءُ ﴾ وهو الشيطان . قاله ابن عباس . أى : لا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته فإنه غرَّار كذاب أفك . وهذه

(١) المسند (٤/٢٥٤) ، والبخارى (٨٤٤) ، ومسلم (١٣٧/٥٩٣) .

(٢) مسلم (٤٧٧/٢٠٥) .

الآية كآلية التي فى آخر لقمان: ﴿فَلَا تَفْرَنَكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يُفْرَنَكُمُ بِاللَّهِ الْفُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]. قال زيد بن أسلم: هو الشيطان. كما قال: يقول المؤمنون للمنافقين يوم القيامة حين يضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم قالوا: ﴿ بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْفُرُورُ ﴾ [الحديد: ١٣، ١٤].

ثم بين تعالى عداوة إبليس لابن آدم فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أى : هو مبارز لكم بالعداوة ، فعادوه أنتم أشد العداوة ، وخالفوه وكذبوه فيما يفركم به ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّمِيرِ﴾ أى : إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير ، فهذا هو العدو المبين. فنسأل الله القوى العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان، وأن يرزقنا اتباع كتابه، والافتقار بطريق رسوله ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالاجابة جدير . وهذه كقوله : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَمَنْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف : ٥٠].

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾
 ﴿يُؤْمِنُ زَيْنٌ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾

لما ذكر تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى السعير ، ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد ؛ لأنهم أطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن ، وأن الذين آمنوا بالله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أى : لما كان منهم من ذنب ، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ على ما عملوه من خير .

ثم قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ زَيْنٌ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ يعنى : كالكفار والفجار ، يعملون أعمالا سيئة ، وهم فى ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعا ، أى : أؤمن كان هكذا قد أضله الله ، ألك فيه حيلة ؟ لا حيلة لك فيه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ أى : بقدره كان ذلك ﴿فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٌ﴾ أى : لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم فى قدره ، إنما يضل من يضل ويهدى من يهدى ، لما له فى ذلك من الحجة البالغة ، والعلم التام ؛ ولهذا قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ . وعن عبد الله بن الديلمى قال : أتيت عبد الله بن عمرو ، وهو فى حائط بالطائف يقال له: الوهط ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى ، ومن أخطأه منه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على ما علم الله عز وجل » (١) .

(١) الترمذى (٢٦٤٢) وقال : « هذا حديث حسن » وصححه الألبانى .

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا فُسْفَنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ ﴿١﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبُورُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَمَا يَعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُقْضَى مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

كثيرا ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ينبه عباده أن يعتبروا بهذا على ذلك ، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها ، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها ﴿ اهتزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج : ٥] ، كذلك الأجساد ، إذا أراد الله تعالى بعثها ونشورها ، أنزل من تحت العرش مطرا يعم الأرض جميعا فتنبت الأجساد في قبورها كما تنبت الحبة في الأرض ؛ ولهذا جاء في الصحيح : « كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب ، منه خلق ومنه يركب » (١) ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ أى : من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة ، فليلزم طاعة الله ، فإنه يحصل له مقصوده ؛ لأن الله مالك الدنيا والآخرة ، وله العزة جميعها ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَسِئَفُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٣٩] .

وقال عز وجل : ﴿ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [يونس : ٦٥] ، وقال : ﴿ وَاللَّهُ الْعِزَّةُ وَرَسُولُهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون : ٨] . وقوله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ يعنى: الذكر والتلاوة والدعاء . قاله غير واحد من السلف . روى ابن جرير عن المخارق بن سليم قال : قال لنا عبد الله - هو ابن مسعود - إذا حدثناكم حديثا أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله : إن العبد المسلم إذا قال : « سبحان الله وبحمده ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، تبارك الله » ، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ، ثم صعد بهن إلى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن ، حتى يجيء بهن وجه الرحمن عز وجل ، ثم قرأ عبد الله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (٢) . روى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : « الذين يذكرون من جلال الله ، من تسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله ، يتعاطفن حول العرش ، لهن دوى كدوى النحل ، يذكرن بصاحبهن ألا يحب أحدكم ألا يزال له عند الله شيء يذكر به ؟ » . وهكذا رواه ابن ماجه (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ قال ابن عباس : الكلم الطيب : ذكر الله ، يصعد

(٢) ابن جرير فى التفسير (٢٢/ ٨٠) .

(١) مسلم (٢٩٥٥/ ١٤٢) .

(٣) المسند (٤/ ٢٦٨) وابن ماجه (٩/ ٣٨٠) وفى الزوائد للبوصيرى : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » وصححه

به إلى الله، عز وجل، والعمل الصالح : أداء الفريضة . ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه ، رد كلامه على عمله ، فكان أولى به . وكذا قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلام الطيب . وكذا قال أبو العالية، وعكرمة، وغير واحد . وقال إياس بن معاوية القاضي : لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام . وقال الحسن ، وقتادة : لا يقبل قولٌ إلا بعمل .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وشهر بن حوشب : هم المراؤون بأعمالهم ، يعنى : يمكرون بالناس ، يوهمون أنهم فى طاعة الله ، وهم بغيضاء إلى الله عز وجل ، يراؤون بأعمالهم ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٤٢] . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المشركون . الصحيح أنها عامة ، والمشركون داخلون بطريق الأولى ؛ ولهذا قال : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورٌ ﴾ أى : يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولى البصائر والنهى ، فإنه ما أسر عبد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفتات لسانه، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداءها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر . فالمرأى لا يروج أمره ويستمر إلا على غيبى ، أما المؤمنون المتفردون فلا يروج ذلك عليهم ، بل يكشف لهم عن قريب ، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ أى : ابتداء خلق أبيكم آدم من تراب ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أى : ذكراً وأنثى ، لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجاً من جنسكم ، لتسكنوا إليها ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ ﴾ أى : هو عالم بذلك ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ، بل ﴿ مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الانعام : ٥٩] . وقد تقدم الكلام على قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد : ٨ ، ٩] .

وقوله : ﴿ وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ أى : ما يعطى بعد النطف من العمر الطويل يعلمه ، وهو عنده فى الكتاب الأول ﴿ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ الضمير عائد على الجنس ، لا على العين ؛ لأن العين : الطويل العمر فى الكتاب وفى علم الله لا ينقص من عمره، وإنما عاد الضمير على الجنس . قال ابن جرير : وهذا كقولهم : « عندى ثوب ونصفه » أى : ونصف آخر . وعن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ، يقول : ليس أحد قضيت له طول عُمُرٍ وحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك له ، فإنما ينتهى إلى الكتاب الذى قدرت لا يزداد عليه، وليس أحد قضيت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ للعمر، ولكن ينتهى إلى الكتاب الذى كتبت له ، فذلك قوله : ﴿ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ، يقول : كل ذلك فى كتاب عنده . وهكذا قال الضحاك بن مزاحم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه : ﴿ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ قال : ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام . وقال

عبد الرحمن فى تفسيرها: ألا ترى الناس ، يعيش الإنسان مائة سنة ، وآخر يموت حين يولد ، فهذا هذا . وقال قتادة : والذى ينقص من عمره : فالذى يموت قبل ستين سنة . وقال مجاهد: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ أى : فى بطن أمه يكتب له ذلك ، لم يخلق الخلق على عمر واحد ، بل لهذا عمر ، ولهذا عمر هو أنقص من عمره ، وكل ذلك مكتوب لصاحبه ، بالغ ما بلغ . وقال بعضهم : بل معناه : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ ﴾ أى : ما يكتب من الأجل ﴿ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ ، وهو ذهابه قليلا قليلا ، الجميع معلوم عند الله سنة بعد سنة ، وشهراً بعد شهر ، وجمعة بعد جمعة ، ويوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، الجميع مكتوب عند الله فى كتاب . واختار ابن جرير القول الأول ، وهو كما قال . وروى النسائي عن أنس ابن مالك ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من سره أن يُسَِّطَ له فى رزقه ، ويُنَسَّأَ له فى أثره فليصل رحمه » . وقد رواه البخارى ومسلم وأبو داود (١) .

وقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أى : سهل عليه ، يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله فى جميع مخلوقاته ، فإن علمه شامل للجميع لا يخفى عليه شىء منها .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَآخِرَ لَتَبْنَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى منها على قدرته العظيمة فى خلقه الأشياء المختلفة : خلق البحرين العذب الزلال ، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس ، من كبار وصغار ، بحسب الحاجة إليها فى الأقاليم والأمصار، والعمران والبرارى والقفار ، وهى عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ وهو البحر الساكن الذى تسير فيه السفن الكبار ، وإنما تكون مالحة زعاقاً مرة ، ولهذا قال : ﴿ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ أى : مر . ثم قال : ﴿ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ يعنى : السمك ﴿ وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ . فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : ٢٢ ، ٢٣] .

وقوله : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَآخِرَ ﴾ (٢) أى : تمخره وتشقه بحيزومها ، وهو مقدمها المُسَنَّم الذى يشبه جَوْجُو الطير - وهو : صدره . وقال مجاهد : تمخر الريح السفن ، ولا يمحخر الريح من السفن إلا العظام . وقوله : ﴿ لَتَبْنَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى : بأسفاركم بالتجارة ، من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ﴿ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى : تشكرون ربكم على تسخيرها لكم هذا الخلق العظيم ، وهو البحر ، تتصرفون فيه كيف شئتم ، وتذهبون أين أردتم ، ولا يمتنع عليكم شىء منه ، بل

(١) النسائي فى الكبرى (١١٤٢٩) . ورواه البخارى برقم (٢٠٦٧) ، ومسلم (٢٠٠/٢٥٥٧) ، وأبو داود (١٦٩٣) .

(٢) فى المخطوطة : « مواخر فيه » . وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه .

بقدرته قد سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض ، الجميع من فضله ومن رحمته .

﴿ يُولِجُ أَيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي أَيْلٍ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَتَوَلَّوْا سَمِعُوا مَا أَسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾

وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم ، فى تسخيره الليل بظلامه والنهار بضياءه ، وبأخذ من طول هذا فيزيده فى قصر هذا فيعتدلان . ثم يأخذ من هذا فى هذا ، فيطول هذا ويقصر هذا، ثم يتقارضان صيفاً وشتاء، ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أى : والنجوم السيارات ، والثوابت الثاقبات بأضوائهن أجرام السموات ، الجميع يسيرون بمقدار معين ، وعلى منهاج مقنن محرر ، تقديراً من عزيز عليم ﴿ كُلُّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى : إلى يوم القيامة ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أى : الذى فعل هذا هو الرب العظيم ، الذى لا إله غيره ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى : من الأنداد والأصنام التى هى على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم : القطمير : هو اللفافة التى تكون على نواة التمرة ، أى : لا يملكون من السموات والأرض شيئاً ، ولا بمقدار هذا القطمير .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ ﴾ يعنى : الآلهة التى تدعونها من دون الله لا يسمعون دعاءكم ؛ لأنها جماد لا أرواح فيها ﴿ وَتَوَلَّوْا سَمِعُوا مَا أَسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ أى : لا يقدرُونَ على ما تطلبون منها ، ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ أى : يتبرؤون منكم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دَعْوَانِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الاحقاف : ٥ ، ٦] ، وقال : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم : ٨١ ، ٨٢] .

وقوله : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ أى : ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه ، مثل خبير بها . قال قتادة : يعنى نفسه تبارك وتعالى ، فإنه أخبر بالواقع لا محالة .

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ رِيعَ يَسْأَلُ يَدْهَبِكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكْنَا بَأْسًا تَرْكًا لِنَفْسِهِ ۗ ﴿١٨﴾ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

يخبر تعالى بغنائه عما سواه ، وبافتقار المخلوقات كلها إليه ، وتذللها بين يديه ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أى : هم محتاجون إليه فى جميع الحركات والسكنات ، وهو الغنى عنهم بالذات ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أى : هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له ، وهو الحميد فى جميع ما يفعله ويقوله ، ويقدره ويشعره .

وقوله : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أى : لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم ، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَا تَرَوْا وَرْدَهُ رِذَاذًا آخَرًا ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ وَإِنْ تَدْعُ ثِقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا ﴾ أى : وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تساعد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ﴿ لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ أى : ولو كان قريباً إليها ، حتى ولو كان أباهاً أو ابنها ، كل مشغول بنفسه وحاله .

ثم قال : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ أى : إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهى ، الخائفون من ربهم ، الفاعلون ما أمرهم به ﴿ وَمَنْ تَرَكْنِي فإِنَّمَا يَتْرَكْنِي لِنَفْسِهِ ﴾ أى : ومن عمل صالحاً فإنما يعود نفعه على نفسه ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى : وإليه المرجع والمآب ، وهو سريع الحساب ، وسيجزى كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى : كما لا تستوى هذه الأشياء المتباينة المختلفة ، كالأعمى والبصير لا يستويان ، بل بينهما فرق وبنون كثير ، وكما لا تستوى الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، كذلك لا تستوى الأحياء ولا الأموات . وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين وهم الأحياء ، وللكافرين وهم الأموات ، كقوله تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ [الانعام : ١٢٢] ، وقال عز وجل : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ [هود : ٢٤] فالؤمن سميع بصير فى نور يمشى ، على صراط مستقيم فى الدنيا والآخرة ، حتى يستقر به الحال فى الجنات ذات الظلال والعيون ، والكافر أعمى أصم ، فى ظلمات يمشى ، لا خروج له منها ، بل هو يتيه فى غيه وضلاله فى الدنيا والآخرة ، حتى يفضى به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم ﴿ وَظَلٌّ مِنْ يَحْمُومٍ . لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ ﴾ [الواقعة : ٤٣ ، ٤٤] .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى : يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها ﴿ وَمَا

أَنْتَ بِمُسْمَعٍ مِّنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢٧﴾ أى : كما لا يتتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم ، وهم كفار بالهداية والدعوة إليها ، كذلك هؤلاء المشركون الذين كُتِبَ عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم ، ولا تستطيع هدايتهم . ﴿ إِنَّ أَنْتَ الْإِنذِيرُ ﴾ أى : إنما عليك البلاغ والإنذار ، والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء . ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى : بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين ﴿ وَإِنَّ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ أى : وما من أمة خلت من بنى آدم إلا وقد بعث الله إليهم النذير ، وأزاح عنهم العلل ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد : ٧] ، وكما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ الآية [النحل : ٣٦] ، والآيات فى هذا كثيرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ وهى : المعجزات الباهرات ، والأدلة القاطعات ﴿ وَبِالزُّبُرِ ﴾ وهى الكتب ﴿ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ أى : الواضح البين ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاؤوهم به ، فأخذتهم ، أى : بالعقاب والنكال ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى : فكيف رأيت إنكارى عليهم عظيما شديدا بليغا ، والله أعلم ؟

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقول تعالى منها على كمال قدرته فى خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد ، وهو الماء الذى ينزله من السماء ، يخرج به ثمرات مختلفة ألوانها ، من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض ، إلى غير ذلك من ألوان الثمار ، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ ﴾ الآية [الرعد : ٤] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ﴾ أى : وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان ، كما هو المشاهد أيضا من بيض وحمرة ، وفى بعضها طرائق - وهى : الجُدَدُ ، جمع جُدَّة - مختلفة الألوان أيضا . قال ابن عباس : الجُدَدُ : الطرائق . وكذا قال أبو مالك ، والحسن ، وقتادة ، والسدى . ومنها ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ قال عكرمة : الغرابيب : الجبال الطوال السود . وكذا قال أبو مالك ، وعطاء الخراسانى وقتادة . وقال ابن جرير : والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد ، قالوا : أسود غريب . وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ﴾ أى : كذلك الحيوانات من الأناسى والدواب - وهو : كل ما دب على قوائم - والأنعام ، من باب عطف الخاص على العام . كذلك هى مختلفة أيضا ، فالناس منهم بربر

وحبوش وطمطم فى غاية السواد ، وصقالبة وروم فى غاية البياض ، والعرب بين ذلك ، والهنود دون ذلك . ولهذا قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الروم : ٢٢] . وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان ، حتى فى الجنس الواحد ، بل النوع الواحد منهم مختلف الألوان ، بل الحيوان الواحد يكون أبلق ، فيه من هذا اللون وهذا اللون ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

ولهذا قال تعالى بعد هذا : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ أى : إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى - كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل ، كانت الخشية له أعظم وأكثر . قال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ قال : الذين يعلمون أن الله على كل شىء قدير . وقال : العالم بالرحمن من لم يشرك به شيئاً ، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، وحفظ وصيته ، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله . وقال سعيد بن جبير : الخشية هى التى تحول بينك وبين معصية الله عز وجل . وقال الحسن البصرى : الإيمان من خشى الرحمن بالغيب ، ورغب فيما رغب الله فيه ، وزهد فيما سخط الله فيه ، ثم تلا الحسن : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ .

وعن ابن مسعود ، أنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث ، ولكن العلم عن كثرة الخشية . وعن أبى حيان التيمى ، عن رجل قال : كان يقال : العلماء ثلاثة : عالم بالله عالم بأمر الله ، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله . فالعالم بالله وبأمر الله : الذى يخشى الله ويعلم الحدود والفرائض . والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله : الذى يخشى الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض . والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله : الذى يعلم الحدود والفرائض ، ولا يخشى الله عز وجل .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿١٩﴾ لِيُوفِيَهُمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه ، من إقام الصلاة ، والإنفاق بما رزقهم الله فى الأوقات المشروعة ليلاً ونهاراً ، سرا وعلانية ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ أى : يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لِيُوفِيَهُمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ أى : ليوفيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ ﴾ أى : لذنوبهم ﴿ شَكُورٌ ﴾ للقليل من أعمالهم . قال قتادة : كان مطرّف ، رحمه الله ، إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه آية القراء .

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ ﴿٣١﴾

يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ وهو القرآن ﴿ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أى : من الكتب المتقدمة يصدقها، كما شهدت له بالتنويه ، وأنه منزل من رب العالمين ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ أى : هو خبير بهم ، بصير بمن يستحق ما يفعله به على من سواه. ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر ، وفضل النبيين بعضهم على بعض ، ورفع بعضهم درجات ، وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم ، صلوات الله عليهم أجمعين .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى : ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم ، المصدق لما بين يديه من الكتب ، الذين اصطفينا من عبادنا، وهم هذه الأمة، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع ، فقال تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ وهو : المفرط فى فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات ﴿ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ وهو : المؤدى للواجبات ، التارك للمحرمات ، وقد يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات ﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ﴾ وهو : الفاعل للواجبات والمستحبات ، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات .

قال ابن عباس فى قوله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ قال : هم أمة محمد ﷺ ، ورثهم الله كل كتاب أنزله، فظالمهم يُغْفَرُ له، ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب . وقال آخرون : بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ، ولا من المصطفين الوارثين الكتاب . وقال مجاهد فى قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ قال : هم أصحاب المشأمة .

وقال مالك عن زيد بن أسلم ، والحسن ، وقتادة : هو المنافق . ثم قد قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة : وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة فى أول سورة « الواقعة » وآخرها . والصحيح : أن الظالم لنفسه من هذه الأمة . وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية ، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ .

روى الإمام أحمد عن أبى الدرداء ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ﴾ ، فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حسابا يسيرا ، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون فى طول المحشر ، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته، فهم الذين يقولون : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ

شُكُورِ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿١﴾ . وعن عبد الله بن مسعود؛ أنه قال : هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة : ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول : ما هؤلاء ؟ - وهو أعلم تبارك وتعالى - فتقول الملائكة : هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام ، إلا أنهم لم يشركوا بك فيقول الرب عز وجل : أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي : وتلا عبد الله هذه الآية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الآية . وعن عقبة بن صُهَيْبِ بْنِ هَنْثَالٍ قَالَ : سألت عائشة ، عن قول الله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ الآية ، فقالت لى : يا بنى ، هؤلاء فى الجنة ، أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ ، شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق ، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فمثلى ومثلكم . قال : فجعلت نفسها معنا . وهذا منها ، رضى الله عنها ، من باب الهضم والتواضع ، وإلا فهى من أكبر السابقين بالخيرات ؛ لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام .

وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة فى جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة ، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة ، وأولى الناس بهذه الرحمة ، فإنهم كما روى الإمام أحمد عن قيس بن كثير قال : قدم رجل من المدينة إلى أبى الدرداء - وهو بدمشق - فقال : ما أقدمك أى أخى ؟ قال : حديث بلغنى أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ . قال أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا . قال : أما قدمت لحاجة ؟ قال : لا ؟ قال : أما قدمت إلا فى طلب هذا الحديث ؟ قال : نعم . قال : فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقا يطلب فيه علماً ، سلك الله به طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم ، وإنه ليستغفر للعالم من فى السموات والأرض حتى الحيتان فى الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب . إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر » . وأخرجه أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه (٢) . وعن ثعلبة بن الحكم ، عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء : إني لم أضع علمى وحكمى فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم ، على ما كان منكم ، ولا أبالى » (٣) .

﴿ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده ، الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين

(١) المسند (١٩٨/٥) والحديث إسناده صحيح .

(٢) المسند (١٩٦/٥) ، وأبو داود (٣٦٤١) ، والترمذى (٢٦٨٢) ، وابن ماجه (٢٢٣) وصححه الألبانى .

(٣) الطبرانى فى الكبير (٨٤/٢) (١٣٨١) ، وقال الهيمى فى الزوائد (١٢٩/١) : « رجاله موثقون » .

يوم القيامة مأواهم ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ أى : جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدمهم على الله عز وجل : ﴿ يُحَلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسْوَرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ كما ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » (١) .

﴿ وَلبأسهم فيها حَرِيرٌ ﴾ ، ولهذا كان محظوراً عليهم فى الدنيا ، فأباحه الله لهم فى الدار الآخرة ، وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « من لبس الحرير فى الدنيا ، لم يلبسه فى الآخرة » (٢) .

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ﴾ : وهو الخوف من المحذور ، أزاحه عنا ، وأراحنا بما كنا نتخوفه ، ونحذره من هموم الدنيا والآخرة .

قال ابن عباس ، وغيره : غفر لهم الكثير من السيئات ، وشكر لهم اليسير من الحسنات . ﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ ﴾ يقولون : الذى أعطانا هذه المنزلة ، وهذا المقام من فضله ومنّ ورحمته ، لم تكن أعمالنا تساوى ذلك . كما ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « لمن يدخل أحداً منكم عمله الجنة » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » (٣) .

﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ أى : لا يمسننا فيها عناء ولا إعياء . والنصب واللغوب : كل منهما يستعمل فى التعب . وكان المراد ينفى هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم ، والله أعلم . فمن ذلك أنهم كانوا يذنبون أنفسهم فى الدنيا ، فسقط عنهم التكليف بدخولها ، وصاروا فى راحة دائمة مستمرة ، قال الله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْغَالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢٤] .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٦٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٦٧﴾ ﴾

لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء ، شرع فى بيان مآل الأشقياء ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ [طه : ٧٤] . وثبت

(٢) مسلم (٢٠٧٣/٢١) .

(١) مسلم (٤٠/٢٥٠) .

(٣) البخارى (٥٦٧٣) ، ومسلم (٧١/٢٨١٦) .

فى صحيح مسلم : أن رسول الله ﷺ قال : « أما أهل النار الذين هم أهلها ، فلا يموتون فيها ولا يحيون » (١) . وقال الله عز وجل : ﴿ وَنَادَاوَا يَا مَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٧] . فهم فى حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ، ولكن لا سبيل إلى ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٤ ، ٧٥] ، وقال : ﴿ كُلَّمَا حَبَّتْ زِدَانُهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء : ٩٧] ، ﴿ فَذُوقُوا فَلَئِنْ تَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبا : ٣٠] .

ثم قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ أى : هذا جزاء كل من كفر بربه ، وكذب بالحق . وقوله : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ أى : ينادون فيها ، يجأرون إلى الله ، عز وجل ، بأصواتهم : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أى : يسألون الرجعة إلى الدنيا ، ليعملوا غير عملهم الأول ، وقد علم الرب ، جل جلاله ، أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون . فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم ، كما قال تعالى مخبراً عنهم فى قولهم : ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ ﴾ (٢) مِنْ سَبِيلٍ . ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ [غافر : ١١ ، ١٢] ، أى : لا يجيبكم إلى ذلك ، لأنكم كنتم كذلك ، ولو رددتم لعدتكم إلى ما نهيتم عنه ؛ ولهذا قال ها هنا : ﴿ أَوْلَمْ نَعْمِرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ أى : أو ما عشتم فى الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق به فى مدة عمركم ؟

وقد اختلف المفسرون فى مقدار العمر المراد ها هنا ، فروى عن على بن الحسين زين العابدين أنه قال : مقدار سبع عشرة سنة . وقال قتادة : اعلموا أن طول العمر حجة ، فنعوذ بالله أن نغتر بطول العمر ، قد نزلت هذه الآية : ﴿ أَوْلَمْ نَعْمِرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ ، وإن فيهم لإين ثمانى عشرة سنة . وعن الحسن قال : أربعين سنة . وعن مسروق أنه كان يقول : إذا بلغ أحدكم أربعين سنة ، فليأخذ حذره من الله عز وجل . وهذه رواية عن ابن عباس - فيما رواه ابن جرير - قال : العمر الذى أعذر الله إلى ابن آدم : ﴿ أَوْلَمْ نَعْمِرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ أربعون سنة . وهذا القول هو اختيار ابن جرير . ثم رواه عن ابن عباس قال : العمر الذى أعذر الله فيه لابن آدم فى قوله : ﴿ أَوْلَمْ نَعْمِرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ ستون سنة . فهذه الرواية أصح عن ابن عباس ، وهى الصحيحة فى نفس الأمر أيضاً ، لما ثبت فى ذلك من الحديث . وقد روى أصبغ بن نباتة ، عن على ، أنه قال : العمر الذى عيّرهم الله به فى قوله : ﴿ أَوْلَمْ نَعْمِرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ﴾ ستون سنة .

(١) مسلم (٣٠٦/١٨٥) .

(٢) فى المخطوطة والمطبوعة : « مرد » وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه .

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ أنه قال : « لقد أعذر الله إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين سنة ، لقد أعذر الله إليه ، لقد أعذر الله إليه » (١) . وهكذا رواه الإمام البخارى عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أعذر الله عز وجل إلى امرئٍ آخر عمره حتى بلغه ستين سنة » (٢) .

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثة وستين سنة . وقيل : ستين . وقيل : خمسا وستين سنة . والمشهور الأول ، والله أعلم . وقوله : ﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ روى عن ابن عباس ، وعكرمة ، وقاتدة ، أنهم قالوا : يعنى : الشيب . وقال السُّدِّى ، وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم : يعنى به الرسول ﷺ وقرأ ابن زيد : ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأُولَى ﴾ [النجم : ٥٦] . وهذا هو الصحيح عن قتادة ، فيما رواه شيبان ، عنه أنه قال : احتج عليهم بالعمر والرسول . وهذا اختيار ابن جرير ، وهو الأظهر ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَنَادَاوَا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَيْكُ قَالَ إِنَكُم مَّا كُنْتُمْ . لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٧ ، ٧٨] ، أى : لقد بينا لكم الحق على السنة الرسل ، فأيتهم وخالفتم ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ [الملك : ٨ ، ٩] .

وقوله : ﴿ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ أى : فذوقوا عذاب النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء فى مدة أعمالكم ، فما لكم اليوم ناصر يتقدمكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٣٨)
هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿ (٣٩)

يخبر تعالى بعلمه غيب السموات والأرض ، وأنه يعلم ما تكنه السرائر وتنطوى عليه الضمائر ، وسيجازى كل عامل بعمله .

ثم قال عز وجل : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : يخلف قوم الآخرين قبلهم ، وجيل لجيل قبلهم ، كما قال : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ [النمل : ٦٢] ، ﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أى : فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره ﴿ وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ﴾ أى : كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله ، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة ، بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله ، ارتفعت درجته ومنزله فى الجنة ، وزاد أجره ، وأحبه خالقه وبارئته رب العالمين .

(١) المسند (٧٦٩٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) البخارى (٦٤١٩) .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَدْعُوا الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى : من الأصنام والأنداد ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ أى : ليس لهم شىء من ذلك ، ما يملكون من قطمير . وقوله : ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ ﴾ أى : أم أنزلنا عليهم كتابا بما يقولون من الشرك والكفر؟ ليس الأمر كذلك ، ﴿ بَلْ إِنْ يَدْعُوا الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ أى : بل إنما اتبعوا فى ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيتهم التى تمنوها لأنفسهم ، وهى غرور وباطل وزور .

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التى بها تقوم السماء والأرض عن أمره ، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما ، فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ أى : أن تضطربا عن أماكنهما ، كما قال : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج : ٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ [الروم : ٢٥] ، ﴿ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى : لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو ، وهو مع ذلك حلِيمٌ غفور ، أى : يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه ، وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يعجل ، ويستتر آخرين ويغفر؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ نَحْدِثَ اللَّهُ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم ، قبل إرسال الرسول إليهم : ﴿ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ﴾ أى : من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل . قاله الضحاک وغيره ، كقوله تعالى : ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ [الانعام : ١٥٦ ، ١٥٧] ، وكقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُنَّ لَوْ أَنَّا عِدْنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ . لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ . فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الصافات :

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ ﴾ وهو : محمد ﷺ ، بما أنزل معه من الكتاب العظيم ، وهو القرآن المبين ﴿ مَا زَادَهُمْ إِلَّا تَفُورًا ﴾ أى : ما ازدادوا إلا كفرة إلى كفرهم ، ثم بين ذلك بقوله : ﴿ اسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : استكبروا عن اتباع آيات الله ﴿ وَمَكَرَ السَّيِّئُ ﴾ أى : ومكروا بالناس فى صدهم إياهم عن سبيل الله ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ أى : وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم . وقال محمد بن كعب القرظى : ثلاث من فعلهن لم ينجح حتى ينزل به من مكر أو بغى أو نكت ، وتصديقها فى كتاب الله : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ ، ﴿ إِنَّمَا يَغِيبُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ [يونس : ٢٣] ، ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ [الفتح : ١٠] . وقوله : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى : يعقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره ﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أى : لا تغير ولا تبدل ، بل هى جارية كذلك فى كل مكذب ، ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ أى : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ [الرعد : ١١] ، ولا يكشف ذلك عنهم ، ويحوله عنهم أحد والله أعلم .

﴿ أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جنتهم به من الرسالة : سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل ، كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، فخلت منهم منازلهم ، وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد كمال القوة ، وكثرة العدد والعُدَد ، وكثرة الأموال والأولاد ، فما أغنى ذلك شيئا ، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء ، لما جاء أمر ربك لأنه تعالى لا يعجزه شيء ، إذا أراد كونه فى السموات والأرض ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ أى : عليم بجميع الكائنات ، قدير على مجموعها . ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ أى : لو أخذهم بجميع ذنوبهم ، لاهلك جميع أهل الأرض ، وما يملكونه من دواب وأرزاق . عن عبد الله [بن مسعود] قال : كاد الجعل أن يعذب فى جحره بذنب ابن آدم ، ثم قرأ : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ . وقال سعيد ابن جبير ، والسدى : أى : لما سقاهم المطر ، فماتت جميع الدواب .

﴿ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى : ولكن يُنظرهم إلى يوم القيامة ، فيحاسبهم يومئذ ، ويوفى كل عامل بعمله ، فيجازى بالثواب أهل الطاعة ، وبالعقاب أهل المعصية ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ .

تفسير سورة يس

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ يَسَّ ﴿٢﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٣﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٤﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٦﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول « سورة البقرة » .

﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ : أى : المحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿ إِنَّكَ ﴾ : أى : يا محمد ﴿ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ : أى : على منهج ودين قويم ، وشرع مستقيم ﴿ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ : أى : هذا الصراط والمنهج والدين الذى جئت به تنزيل من رب العزة ، الرحيم بعباده المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشورى : ٥٢ ، ٥٣] .

وقوله تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ : يعنى بهم : العرب ؛ فإنه ما أتاهم من نذير من قبله . وذكرهم وحدهم لا ينفى من عداهم ، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفى العموم . وقد تقدم ذكر الآيات والأحاديث المتواترة فى عموم بعثته ﷺ عند قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الاعراف : ١٥٨] . وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ ﴾ قال ابن جرير : لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله قد حتم عليهم فى أم الكتاب أنهم لا يؤمنون ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بالله ، ولا يصدقون رسله .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلًا فِئِي إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِيرَةٌ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ الْمَوْتُفِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاخِرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾

يقول تعالى : إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جعل فى عنقه غل ، فجمع يديه مع عنقه تحت ذقنه ، فارتفع رأسه ، فصار مقمحا ؛ ولهذا قال : ﴿ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ والمقمح : هو الرافع رأسه ، كما قالت أم زرع فى كلامها : « وأشرب

فَاتَمَّحْ « أَى : أَشْرَبَ فَارُوى ، وَأَرْفَعُ رَأْسَى تَهْنِئَةً وَتَرْوِيًا . وَاكْتَفَى بِذَكَرِ الْغُلِّ فِى الْعِنَقِ عَنِ ذَكَرِ الْيَدَيْنِ ، وَإِنْ كَانَتَا مَرَادَتَيْنِ ، وَالْغُلُّ إِنَّمَا يَعْرِفُ فِيمَا جَمَعَ الْيَدَيْنِ مَعَ الْعِنَقِ .

قال ابن عباس فى قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ قال : هو كقوله عز وجل : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ [الإسراء : ٢٩] يعنى بذلك : أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم ، لا يستطيعون أن يبسطوها بخير . وقال مجاهد : ﴿ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾ قال : رافعو رؤوسهم ، وأيديهم موضوعة على أفواههم ، فهم مغلولون عن كل خير .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ﴾ قال مجاهد : عن الحق ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ قال مجاهد : عن الحق ، فهم مترددون . وقال قتادة : الضلالات .

وقوله : ﴿ فَأَعْشَيْنَاهُمْ ﴾ أَى : أَعْشَيْنَا أَبْصَارَهُمْ عَنِ الْحَقِّ ﴿ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ أَى : لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه . قال ابن جرير : وروى عن ابن عباس أنه كان يقرأ : «فأعشيناهم» بالعين المهملة ، من العشا وهو داء فى العين . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : جعل الله هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان ، فهم لا يخلصون إليه ، وقرأ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] ثم قال : من منعه الله لا يستطيع . وقال عكرمة : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً لأفعلن ولافعلن ، فأنزلت : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا ﴾ إلى قوله : ﴿ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ، قال : وكانوا يقولون : هذا محمد . فيقول : أين هو ؟ أين هو ؟ لا يبصره . رواه ابن جرير . وقال ابن إسحاق عن محمد بن كعب : قال أبو جهل وهم جلوس : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكا ، فإذا متم بعثتم بعد موتكم ، وكانت لكم جنانٌ خير من جنان الأردن . وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح ، ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نارٌ تُعذَّبون بها . وخرج عليهم رسول الله ﷺ عند ذلك ، وفى يده حفنة من تراب ، وقد أخذ الله على أعينهم دونه ، فجعل يذرها على رؤوسهم ، ويقرأ : ﴿ يَس . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ حتى انتهى إلى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ ، وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته ، وباتوا رُصداء على بابه ، حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار ، فقال : ما لكم ؟ قالوا : نتظر محمداً . قال : قد خرج عليكم ، فما بقى منكم من رجل إلا وضع على رأسه ترابا ، ثم ذهب لحاجته . فجعل كل رجل منهم ينفض ما على رأسه من التراب . قال : وقد بلغ النبى ﷺ قول أبى جهل فقال : « وأنا أقول ذلك : إن لهم منى لذبحا ، وإنه أحدهم » (١) .

وقوله : ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَى : قد ختم الله عليهم بالضلالة ، فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثرون به . وقد تقدم نظيرها فى أول سورة البقرة (٢) ، وكما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾

(٢) عند الآية رقم (٦) .

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/١٢٤) .

[يونس : ٩٦ ، ٩٧] . ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ﴾ أى : إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر ، وهو القرآن العظيم ﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ ﴾ أى : حيث لا يراه أحد إلا الله ، يعلم أن الله مطلع عليه ، وعالم بما يفعله ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ﴾ أى : لذنوبه ، ﴿ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ أى : كبير واسع حسن جميل ، كما قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك : ١٢] .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ أى : يوم القيامة ، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيى قلب من يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة ، فيهديهم بعد ذلك إلى الحق ، كما قال بعد ذكر قسوة القلوب : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد : ١٧] .

وقوله : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا ﴾ أى : من الاعمال . وفى قوله : ﴿ وَأَثَارُهُمْ ﴾ قولان :

أحدهما : نكتب أعمالهم التى باشروها بأنفسهم ، وأثارهم التى أثروها من بعدهم ، فنجزبهم على ذلك أيضاً ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، كقوله ﷺ : « من سن فى الإسلام سنة حسنة ، كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً » . رواه مسلم (١) . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم ، انقطع عمله إلا من ثلاث : من علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده » (٢) . وقال سفيان الثورى ، عن أبى سعيد قال : سمعت مجاهداً يقول فى قوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَأَثَارُهُمْ ﴾ قال : ما أوروها من الضلالة . وقال سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَأَثَارُهُمْ ﴾ يعنى : ما أثروا . يقول : ما سنوا من سنة ، فعمل بها قوم من بعد موتهم ، فإن كان خيراً فله مثل أجورهم ، لا ينقص من أجر من عمله شيئاً ، وإن كانت شراً فعليه مثل أوزارهم ، ولا ينقص من أوزار من عمله شيئاً .

والقول الثانى : أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية . قال مجاهد : ﴿ مَا قَدَّمُوا ﴾ : أعمالهم ﴿ وَأَثَارُهُمْ ﴾ قال : خطاهم بأرجلهم . وكذا قال الحسن وقتادة : ﴿ وَأَثَارُهُمْ ﴾ يعنى : خطاهم . قال قتادة : لو كان الله تعالى مغفلاً شيئاً من شأنك يا بن آدم ، أغفل ما تعفى الرياح من هذه الآثار ، ولكن أحصى على ابن آدم أثره وعمله كله ، حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله أو من معصيته ، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره فى طاعة الله ، فليفعل . روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال : خلت البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فقال لهم : « إنه بلغنى أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد » . قالوا : نعم ، يا رسول الله ، قد أردنا ذلك . فقال : « يا بنى

(٢) مسلم (١٦٣١/١٤) .

(١) مسلم (١٧/٦٩) .

سلمة ، دياركم تكتب آثاركم ، دياركم تكتب آثاركم » . وهكذا رواه مسلم (١) .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : توفي رجل بالمدينة ، فصلى عليه النبي ﷺ وقال : « يا ليت مات في غير مولده » . فقال رجل من الناس : ولم يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن الرجل إذا توفي في غير مولده ، قيس له من مولده إلى منقطع أثره في الجنة » . ورواه النسائي ، وابن ماجه (٢) . وهذا القول لا تنافى بينه وبين الأول ، بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأحرى ، فإنه إذا كانت هذه الآثار تُكْتَب ، فلأن تُكْتَب تلك التي فيها قُدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : جميع الكائنات مكتوب فى كتاب مسطور مضبوط فى لوح محفوظ ، والإمام المبين هنا هو أم الكتاب . قاله مجاهد ، وقتادة ، وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم ، وكذا فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِأَمَامِهِمْ ﴾ [الإسراء : ٧١] أى : بكتاب أعمالهم الشاهد عليهم بما عملوه من خير وشر ، كما قال تعالى : ﴿ وَوَضِعَ الْكِتَابَ وَجِيءَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ [الزمر : ٦٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] .

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٨﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٩﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول تعالى : واضرب - يا محمد - لقومك الذين كذبوك ﴿ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ . قال ابن إسحاق - فيما بلغه عن ابن عباس - : إنها مدينة أنطاكية ، وهكذا روى عن بريدة بن الحصيب ، وعكرمة ، وقتادة ، والزهرى : أنها أنطاكية . وقد استشكل بعض الأئمة كونها أنطاكية ، بما سنذكره بعد تمام القصة ، إن شاء الله تعالى .

وقوله : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا ﴾ أى : بادروهما بالكذب ﴿ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ أى : قويناهم وشددنا أزرهما برسول ثالث . ﴿ فَقَالُوا ﴾ أى : لأهل تلك القرية : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴾ أى : من ربكم الذى خلقكم ، نأمركم بعبادته وحده لا شريك له ﴿ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ أى : فكيف أوحى إليكم وأنتم بشر ونحن بشر ، فلم لا أوحى إلينا مثلكم ؟ ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة . وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة ، كما أخبر الله تعالى عنهم فى قوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ

(١) المسند (٣/٣٣٢) ، ومسلم (٦٦٥/٢٨٠) .

(٢) المسند (٦٦٥٦) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، والنسائي (١٨٣٢) ، وابن ماجه (١٦١٤) .

كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثْلُ مَا بَشَرْنَا نَبَسْنَا بِئْسَ الْوَعْدَ الَّذِي نُوْعِدُونَ ﴿٦﴾ [التغابن : ٦] ، فاستعجبوا من ذلك وأنكروه ، وقوله : ﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشْرٌ مِثْلَانَا تَرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَنَا عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ [إبراهيم : ١٠] . وقوله حكاية عنهم في قوله : ﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشْرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٣٤] ، ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشْرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء : ٩٤] . ولهذا قال هؤلاء : ﴿ مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشْرٌ مِثْلَانَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ . قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ [أى : أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين : الله يعلم أنا رسله إليكم ، ولو كنا كذبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام ، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم ، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بِنبِيِّكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٢] . ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ يقولون : إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم ، فإن أطعتم كانت لكم السعادة في الدنيا والآخرة ، وإن لم تطيعوا فستعلمون غيب ذلك ، والله أعلم .

﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

فعند ذلك قال لهم أهل القرية : ﴿ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ [أى : لم نر على وجوهكم خيراً فى عيشنا . وقال قتادة : يقولون : إن أصابنا شر فإمنا هو من أجلكم . وقال مجاهد : يقولون : لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها ﴿ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ ﴾ قال قتادة : بالحجارة . وقال مجاهد : بالشمم ﴿ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [أى : عقوبة شديدة . فقالت لهم رسلهم : ﴿ طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ [أى : مردود عليكم ، كقوله تعالى فى قوم فرعون : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [الاعراف : ١٣١] ، وقال قوم صالح : ﴿ اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [النمل : ٤٧] . وقال قتادة ، وهب بن منبه : أى أعمالكم معكم . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٧٨] .

وقوله : ﴿ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [أى : من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له ، قابلتمونا بهذا الكلام ، وتوعدتمونا وتهددتمونا ؟ بل أنتم قوم مسرفون . وقال قتادة : أى إن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا ، بل أنتم قوم مسرفون .

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مِنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِيدِ الْرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنْ أَرَادْتُ لَأَمْنُكُمْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴿٢٤﴾ ﴾

قال ابن إسحاق - فيما بلغه عن ابن عباس : إن أهل القرية همّوا بقتل رسلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى ، أى : لينصرهم من قومه ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ : يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ﴿ أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ أى : على إبلاغ الرسالة ﴿ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ فيما يدعونكم إليه ، من عبادة الله وحده لا شريك له .

﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ أى : وما يمنعنى من إخلاص العبادة للذى خلقنى وحده لا شريك له ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى : يوم المعاد ، فيجازيكم على أعمالكم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

﴿ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ ؟ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ﴿ إِنْ يَرُدُّنَ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُون ﴾ أى : هذه الآلهة التى تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئا ، فإن الله لو أرادنى بسوء ﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ ﴾ [يونس : ١٠٧] . وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه ، ولا ينقذونى مما أنا فيه ﴿ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : إن اتخذتها آلهة من دون الله .

وقوله : ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴾ قال ابن إسحاق - فيما بلغه عن ابن عباس - يقول لقومه : ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ الذى كفرتم به ، ﴿ فَاسْمِعُونِ ﴾ أى : فاسمعوا قولى .

ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله : ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ أى : الذى أرسلكم ، ﴿ فَاسْمِعُونِ ﴾ أى : فاشهدوا لى بذلك عنده . وقد حكاه ابن جرير فقال : وقال آخرون : بل خاطب بذلك الرسل ، وقال لهم : اسمعوا قولى ، لتشهدوا لى بما أقول لكم عند ربى ، أنى آمنت بربكم واتبعتكم . وهذا القول الذى حكاه هؤلاء أظهر فى المعنى ، والله أعلم .

﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿١٧﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

الجزء ٢٣

قال ابن مسعود : إنهم وطئوه بأرجلهم فوجبت له ، فلما رأى الثواب ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ . قال قتادة : لا تلقى المؤمن إلا ناصحا ، لا تلقاه غاشا ؛ لَمَّا عاين ما عاين من كرامة الله ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ . تمنى على الله أن يعلم قومه ما عاين من كرامة الله ، وما هجم عليه .

وقال ابن عباس : نصح قومه فى حياته بقوله : ﴿ يَا قَوْمِ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس : ٢٠] ، وبعد مماته فى قوله : ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ . وقال أبو مجلز : ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ : بإيمانى بربى ، وتصديقى المرسلين . ومقصوده : أنهم لو اطلعوا على ما حصل من هذا الثواب والجزاء والتعظيم المقيم ، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل ، فرحمه الله ورضى عنه ، فلقد كان حريصا على هداية قومه .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ : يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه ، غضباً منه تعالى عليهم ؛ لأنهم كذبوا رسله ، وقتلوا وليه . ويذكر تعالى أنه ما أنزل عليهم ، وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة عليهم ، بل الأمر كان أيسر من ذلك . قاله ابن مسعود ، فيما رواه ابن إسحاق ، عن بعض أصحابه ، عنه أنه قال في قوله : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ أى : ما كاثرتهم بالجموع ، الأمر كان أيسر علينا من ذلك ، ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ قال : فأهلك الله ذلك الملك ، وأهلك أهل أنطاكية ، فبادوا عن وجه الأرض ، فلم يبق منهم باقية . وقيل : ﴿ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ أى : وما كنا ننزل الملائكة على الأمم إذا أهلكتناهم ، بل نبعث عليهم عذاباً يدمرهم . وقيل : المعنى فى قوله : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : من رسالة أخرى إليهم . قاله مجاهد وقتادة . قال قتادة : فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله ، ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ . قال ابن جرير : والأول أصح ؛ لأن الرسالة لا تسمى جنداً .

قال المفسرون : بعث الله إليهم جبريل ، عليه السلام ، فأخذ بعضادتي باب بلدهم ، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون عن آخرهم ، لم تبق بهم روح تردد فى جسد . وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هى أنطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلاً من عند المسيح ، عليه السلام ، كما نص عليه قتادة وغيره ، وهو الذى لم يذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره ، وفى ذلك نظر من وجوه :

أحدها : أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله ، عز وجل ، لا من جهة المسيح ، كما قال تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴾ إلى أن قالوا : ﴿ رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ . وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِين ﴾ [يس : ١٤ - ١٧] . ولو كان هؤلاء من الخواريق لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح ، عليه السلام ، والله أعلم . ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : ﴿ مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [يس : ١٥] .

الثانى : أن أهل أنطاكية آمنوا برسول المسيح إليهم ، وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح ؛ ولهذا كانت عند النصرارى إحدى المدائن الأربعة اللاتى فيهن بتاركة ، وهن القدس لأنها بلد المسيح ، وأنطاكية لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها ، والإسكندرية لأن فيها اصطلاحوا على اتخاذ البتاركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة والشمامسة والراهبين . ثم رومية لأنها مدينة الملك قسطنطين الذى نصر دينهم وأطدّه . ولما ابنتى القسطنطينية نقلوا البترك من رومية إليها ، كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين ، فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت ، فأهل هذه القرية قد ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله ، وأنه أهلكتهم بصيحة واحدة أخدمتهم ، فالله أعلم .

الثالث : أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدرى وغير واحد من السلف : أن الله تعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين ، ذكروه عند قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴾ [القصص : ٤٣] . فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة فى القرآن العظيم قرية أخرى غير أنطاكية ، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضا . أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظا فى هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة ، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا فى الملة النصرانية ولا قبل ذلك ، والله ، سبحانه وتعالى ، أعلم .

﴿ يَحْضَرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾

قال ابن عباس فى قوله : ﴿ يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ ﴾ أى : يا ويل العباد . وقال قتادة : أى : يا حسرة العباد على أنفسهم ، على ما ضيعت من أمر الله ، فرطت فى جنب الله . ومعنى هذا : يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عابنوا العذاب ، كيف كذبوا رسل الله ، وخالفوا أمر الله ، فإنهم كانوا فى الدار الدنيا المكذبون منهم ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أى : يكذبونه ويستهزئون به ، ويجحدون ما أرسل به من الحق . ثم قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أى : ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل ، كيف لم تكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة ، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم وفجرتهم من قولهم : ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ [المؤمنون ٣٧] ، وهم القائلون بالدور من الدهرية ، وهم الذين يعتقدون جهلا منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها ، فرد الله تعالى عليهم باطلهم ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أى : وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدى الله ، جل وعلا ، فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرا وشرها ، ومعنى هذه كقوله جل وعلا : ﴿ وَإِنْ كُلا لَمَّا لِيُوقِنْتُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [هود : ١١١] .

﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

يقول تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ ﴾ أى : دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى ﴿ الْأَرْضُ الْمَيْتَةَ ﴾ أى : إذا كانت ميتة هامة لا شيء فيها من النبات ، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ؛ ولهذا قال : ﴿ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ أى : جعلناه رزقا لهم ولانعامهم ، ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾ أى : جعلنا فيها أنهاراً سارحة فى أمكنة ، يحتاجون إليها لياكلوا من ثمره . لما امتن على خلقه ببيجاد الزروع لهم عَطَفَ بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها .

وقوله : ﴿ وَمَا عَمِلْتُمْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى : وما ذاك كله إلا من رحمة الله بهم ، لا بسعيهم ولا كدهم ، ولا بحولهم وقوتهم . قاله ابن عباس وقتادة ؛ ولهذا قال : ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ ؟ أى : فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التى لا تعد ولا تحصى ؟ واختار ابن جرير - بل جزم به ، ولم يحك غيره إلا احتمالا - أن « ما » فى قوله : ﴿ وَمَا عَمِلْتُمْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بمعنى : « الذى » ، تقديره : لياكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أى : غرسوه ونصبوه ، قال : وهى كذلك فى قراءة ابن مسعود « لياكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون » .

ثم قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ ﴾ أى : من زروع وثمار ونبات ﴿ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ فجعلهم ذكراً وأنثى ، ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : من مخلوقات شتى لا يعرفونها ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٩] .

﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ الْيَلُّ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَارِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الْيَلُّ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)

يقول تعالى : ومن الدلالة لهم على قدرته تعالى العظيمة خلق الليل والنهار ، هذا بظلامه وهذا بضياؤه ، وجعلهما يتعاقبان ، يجيء هذا فيذهب هذا ، ويذهب هذا فيجىء هذا ، كما قال : ﴿ يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ [الاعراف : ٥٤] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ أى : نصرمه منه فيذهب ، فيقبل الليل ؛ ولهذا قال : ﴿ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ ، كما جاء فى الحديث : « إذا أقبل الليل من هاهنا ، وأدبر النهار من هاهنا ، وغربت الشمس ، فقد أظفر الصائم » (١) .

وقوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ فى معنى قوله : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ قولان :

(١) البخارى (١٩٥٤) ، ومسلم (٥١/١١٠٠) .

أحدهما : أن المراد : مستقرها المكانى ، وهو تحت العرش مما يلي الأرض من ذلك الجانب ، وهى أينما كانت فهى تحت العرش هى وجميع المخلوقات ؛ لأنه سقفها ، وليس بكزة كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة ، وإنما هو قبة ذات قوائم تحمله الملائكة ، وهو فوق العالم مما يلي رؤوس الناس ، فالشمس إذا كانت فى قبة الفلك وقت الظهيرة تكون أقرب ما تكون إلى العرش ، فإذا استدارت فى فلكها الرابع إلى مقابلة هذا المقام ، وهو وقت نصف الليل ، صارت أبعد ما تكون من العرش ، فحينئذ تسجد وتستأذن فى الطلوع ، كما جاءت بذلك الأحاديث .

روى البخارى عن أبى ذر ، قال : كنت مع النبى ﷺ فى المسجد عند غروب الشمس ، فقال : « يا أبا ذر ، أتدرى أين تغرب الشمس ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ، فذلك قوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ . » وعن أبى ذر قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ ، قال : « مستقرها تحت العرش » . كذا أورده هاهنا . وقد أخرجها فى أماكن متعددة ، ورواه بقية الجماعة إلا ابن ماجه (١) .

وروى الإمام أحمد عن أبى ذر قال : كنت مع رسول الله ﷺ فى المسجد حين وجبت الشمس ، فقال : « يا أبا ذر ، تدرى أين تذهب الشمس ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنها تذهب حتى تسجد بين يدى ربها عز وجل ، فتستأذن فى الرجوع فيؤذن لها ، وكأنها قد قيل لها : ارجعى من حيث جئت . فترجع إلى مطلعها ، وذلك مستقرها ، ثم قرأ : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ » (٢) .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ : هو انتهاء سيرها وهو غاية ارتفاعها فى السماء فى الصيف وهو أوجها ، ثم غاية انخفاضها فى الشتاء وهو الحضيض .

والقول الثانى : أن المراد بمسقرها هو : منتهى سيرها ، وهو يوم القيامة ، يبطل سيرها وتسكن حركتها وتكور ، وينتهى هذا العالم إلى غايته ، وهذا هو مستقرها الزمانى . قال قتادة : ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ أى : لوقتها ولأجل لا تعدوه .

وقيل : المراد : أنها لا تزال تنتقل فى مطالعها الصيفية إلى مدة لا تزيد عليها ، ثم تنتقل من مطالع الشتاء إلى مدة لا تزيد عليه ، يروى هذا عن عبد الله بن عمرو . وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس : « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » أى : لا قرار لها ولا سكون ، بل هى سائرة ليلا ونهاراً ، لا تفتقر ولا تقف ، كما قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ ﴾ [إبراهيم :

(١) البخارى (٣١٩٩ ، ٤٨٠٢ ، ٤٨٠٣ ، ٧٤٢٤ ، ٧٤٣٣) ، ومسلم (١١٥٩ / ٢٥٠) ، وأبو داود (٤٠٠٢) ، والترمذى (٣٢٢٧) .

(٢) المسند (١٥٢/٥) والحديث إسناده صحيح .

[٣٣] أى : لا يفتران ولا يقفان إلى يوم القيامة .

﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ ﴾ أى : الذى لا يخالف ولا يُمانع ﴿ الْعَلِيمِ ﴾ بجميع الحركات والسكنات ، وقد قدر ذلك وقتنه على منوال لا اختلاف فيه ولا تعاكس ، كما قال تعالى : ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ (١) اللَّيْلِ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام : ٩٦] . وهكذا ختم آية «حم السجدة» بقوله : ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فصلت : ١٢] .

ثم قال : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ ﴾ أى : جعلناه يسير سيرا آخر يستدل به على مضى الشهور ، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار ، كما قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجَّ ﴾ [البقرة : ١٨٩] ، وقال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ ﴾ الآية [يونس : ٥] ، وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتِينَ فَمَحْوَتَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّيَتَّبِعُوا فُضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٢] ، فجعل الشمس لها ضوء يخصها ، والقمر له نور يخصه ، وفاوت بين سير هذه وهذا ، فالشمس تطلع كل يوم وتغرب فى آخره على ضوء واحد ، ولكن تتقل فى مطالعها ومغاربها صيفاً وشتاء ، يطول بسبب ذلك النهار ويقصر الليل ، ثم يطول الليل ويقصر النهار ، وجعل سلطانها بالنهار ، فهى كوكب نهارى . وأما القمر ، فقدره منازل ، يطلع فى أول ليلة من الشهر ضئلاً قليل النور ، ثم يزداد نوراً فى الليلة الثانية ، ويرتفع منزلة ، ثم كلما ارتفع ازداد ضياءً ، وإن كان مقتبساً من الشمس ، حتى يتكامل نوره فى الليلة الرابعة عشرة ، ثم يشرع فى النقص إلى آخر الشهر ، حتى يصير كالمرجون القديم . قال ابن عباس : وهو أصل العذق . وقال مجاهد : العرجون القديم : أى العذق اليابس . يعنى ابن عباس : أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى ، وكذا قال غيرهما . ثم بعد هذا بيده الله جديداً فى أول الشهر الآخر ، والعرب تسمى كل ثلاث ليال من الشهر باسم باعتبار القمر ، فيسمون الثلاث الأولى «غُرر» واللواتى بعدها «نُفُل» ، واللواتى بعدها «تُسُع» ؛ لأن آخرهن التاسعة ، واللواتى بعدها «عُشْر» ؛ لأن أولاهن العاشرة ، واللواتى بعدها «البيض» ؛ لأن ضوء القمر فيهن إلى آخرهن ، واللواتى بعدهن «دُرْع» جمع دَرَعَاء ؛ لأن أولهن سُود ؛ لتأخر القمر فى أولهن ، ومنه الشاة الدرعاء وهى التى رأسها أسود . وبعدهن ثلاث «ظَلَم» ثم ثلاث «حَنَادَس» ، وثلاث «دَادئ» ، وثلاث «مَحَاق» ؛ لأن محاق القمر أواخر الشهر فيهن .

وقوله : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ ﴾ قال مجاهد : لكل منهما حد لا يعدوه ولا يُقصر دونه ، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا . وقال عكرمة : يعنى : أن لكل منهما سلطانا ، فلا ينبغى للشمس أن تطلع بالليل .

وقوله : ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ يقول : لا ينبغى إذا كان الليل أن يكون ليل آخر حتى

(١) هى قراءة كما سبق بيانه .

يكون النهار، فسلطان الشمس بالنهار ، وسلطان القمر بالليل. وقال الضحاك: لا يذهب الليل من هاهنا حتى يجيء النهار من هاهنا. وأوماً بيده إلى المشرق. وقال مجاهد: ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ : يَطْلُبَانِ حَيْثُينِ ، ينسلخ أحدهما من الآخر . والمعنى فى هذا : أنه لا فترة بين الليل والنهار ، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ ؛ لأنهما مسخران دائبين يتطلبان طلباً حثيثاً .

وقوله : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يعنى : الليل والنهار ، والشمس والقمر ، كلهم يسبحون ، أى : يدورون فى فلك السماء . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة .

وقال ابن عباس وغير واحد من السلف : فى فلكة كفلكة المغزل . وقال مجاهد : الفلك كحديدة الرّحى ، أو كفلكة المغزل ، لا يدور المغزل إلا بها ، ولا تدور إلا به .

﴿ وَمَا يَكُونُ لَكُمْ أَعْيُنٌ عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ فَلَا شَرَّ قَوْلَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ ﴾ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نُّشَأْ نُفُوقَهُمْ فَلَا ضَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَدُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى : ودلالة لهم أيضا على قدرته تعالى : تسخيره البحر ليحمل السفن ، فمن ذلك - بل أوله - سفينة نوح ، عليه السلام ، التى أنجاه الله فيها بمن معه من المؤمنين ، الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم غيرهم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَكُمْ أَعْيُنٌ عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ﴾ فى السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات ، التى أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين . قال ابن عباس : المشحون : الموقر . وكذا قال سعيد بن جبير ، والشعبى ، وقتادة . وقال الضحاك ، وقتادة ، وابن زيد : وهى سفينة نوح ، عليه السلام .

وقوله : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ قال العوفى عن ابن عباس : يعنى بذلك : الإبل ، فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبوها . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والحسن وغيرهم . وقال السدى - فى رواية : هى الأنعام . وقال ابن جرير عن ابن عباس قال : تدرون ما ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ ؟ قلنا : لا . قال : هى السفن ، جعلت من بعد سفينة نوح على مثلها . وكذا قال أبو مالك ، والضحاك ، وقتادة ، وأبو صالح ، والسدى أيضاً : المراد بقوله : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ : أى السفن . ويقوى هذا المذهب فى المعنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِبَهَا أُنْزُوعًا ﴾ [الحاقة : ١١ ، ١٢] .

وقوله : ﴿ وَإِن نُّشَأْ نُفُوقَهُمْ ﴾ يعنى : الذين فى السفن ﴿ فَلَا ضَرِيحَ لَهُمْ ﴾ أى : فلا مغيث لهم مما هم فيه ﴿ وَلَا هُمْ يُنقَدُونَ ﴾ أى : مما أصابهم ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا ﴾ وهذا استثناء منقطع ، تقديره : لكن برحمتنا نسيركم فى البر والبحر ، ونسلمكم إلى أجل مسمى ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ أى : إلى وقت معلوم عند الله .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ آيَةٍ

مَنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أطعمه: إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن تمادى المشركين في غيهم وضلالهم ، وعدم اكرانهم بذنوبهم التي أسلفوها ، وما يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَمَا خَلَقَكُمْ ﴾ مجاهد : من الذنوب . وقال غيره بالعكس ﴿ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴾ أى : لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمّنكم من عذابه . وتقدير كلامه : أنهم لا يجيبون إلى ذلك ويعرضون عنه . واكتفى عن ذلك بقوله : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أى : على التوحيد وصدق الرسل ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ أى : لا يتأملونها ولا ينتفعون بها . وقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أى : وإذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى : عن الذين آمنوا من الفقراء ، أى : قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق محاجين لهم فيما أمرهم به : ﴿ أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أطعمه ﴾ أى : هؤلاء الذين أمرتونا بالإنفاق عليهم ، لو شاء الله لاغناهم ولاطعمهم من رزقه ، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم ، ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى : فى أمركم لنا بذلك .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة فى قولهم : ﴿ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ ﴾ ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ [الشورى : ١٨] ، قال الله عز وجل : ﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ أى : ما ينتظرون إلا صيحة واحدة ، وهذه - والله أعلم - نفخة الفزع ، ينفخ فى الصور نفخة الفزع ، والناس فى أسواقهم ومعاشهم يختصمون ويتشاجرون على عاداتهم ، فبينما هم كذلك إذ أمر الله تعالى إسرافيل فنفخ فى الصور نفخة يطولها ويمدّها ، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتها ، ورفع ليتها - وهى صفحة العتق - يسمع الصوت من قبل السماء . ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار ، تحيط بهم من جوانبهم ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ أى : على ما يملكونه ، الأمر أهم من ذلك ﴿ وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ . ثم تكون بعد هذا نفخة الصعق ، التى تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحى القيوم ، ثم بعد ذلك نفخة البعث .

﴿ وَيُنْفِخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا بُولَاقَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ قَالِيَوْمَ لَا تُظَلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا يُحْزَنُ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

هذه هي النفخة الثالثة، وهي نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداد والقبور؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاتِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ ، والنَّسْلَانُ هو : المشى السريع ، كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاتِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُؤْفِضُونَ﴾ [المارج : ٤٣] .

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ ؟ يعنون : قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها ، فلما عاينوا ما كذبوه في محشرهم ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ ، وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم ؛ لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد . قال أبي بن كعب ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة : ينامون نومة قبل البعث . قال قتادة : وذلك بين النفتختين . فلذلك يقولون : ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ ، فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون - قاله غير واحد من السلف : ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ . وقال الحسن : إنما يجيبهم بذلك الملائكة . ولا منافاة إذ الجمع ممكن ، والله أعلم . وقال عبد الرحمن بن زيد : الجميع من قول الكفار : ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ . نقله ابن جرير ، واختار الأول ، وهو أصح ، وذلك كقوله تعالى في الصافات : ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ . هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكذِّبُونَ﴾ [الصافات : ٢٠ ، ٢١] ، وقال تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِنُسُوِّكُمْ سَاعَةَ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم : ٥٥ ، ٥٦] .

وقوله : ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ ، كقوله : ﴿إِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤] ، وقال تعالى : ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل : ٧٧] ، وقال : ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء : ٥٢] . أى : إنما تأمرهم أمراً واحداً ، فإذا الجميع محضرون ، ﴿فَالْيَوْمَ لَا تَظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أى : من عملها ، ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ

مُسْكِينُونَ ﴿٥٦﴾ هَلُمَّ فِيهَا فَتَكْفَهُهُ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ﴿٥٨﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة : أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات فتزلوا في روضات الجنات أنهم في شغل عن غيرهم ، بما هم فيه من النعيم المقيم ، والفوز العظيم . قال الحسن البصرى وإسماعيل بن أبى خالد : ﴿في شغلٍ﴾ عما فيه أهل النار من العذاب . وقال مجاهد : ﴿في شغلٍ فأكهون﴾ أى : فى نعيم معجبون ، أى : به . وكذا قال قتادة . وقال ابن عباس : ﴿فأكهون﴾ : أى فرحون . وقال عبد الله بن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، فى قوله : ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ﴾ قالوا : شغلهم اقتضاض الأبقار . وقال ابن عباس - فى رواية عنه : ﴿في شغلٍ فأكهون﴾ : أى بسماع الأوتار . وقال أبو حاتم : لعله غلط من المستمع ، وإنما هو اقتضاض الأبقار .

وقوله : ﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ ﴾ قال مجاهد : وحلائلهم ﴿ فِي ظِلَالٍ ﴾ أى : فى ظلال الأشجار ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكُونَ ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد وعكرمة وغيرهم : ﴿ الْأَرَائِكِ ﴾ : هى السرر تحت الحجال . قلت : نظيره فى الدنيا هذه التخوت تحت الشاخين ، والله أعلم . وقوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ أى : من جميع أنواعها ﴿ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴾ أى : مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ .

وقوله : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ قال ابن عباس : فإن الله نفسه سلام على أهل الجنة . وهذا الذى قاله ابن عباس كقوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ [الاحزاب : ٤٤] .

﴿ وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ ﴿ ٥٩ ﴾ ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ﴿ ٦٠ ﴾ ﴿ وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ ﴿ ٦١ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ ٦٢ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا ، بمعنى : يميزون عن المؤمنين فى موقفهم ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلِيلًا بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ ﴾ [الروم : ١٤] ، ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ ﴾ [الروم : ٤٣] أى : يصيرون صدعين فرقتين ، ﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات : ٢٢ ، ٢٣] .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ : هذا تقرير من الله للكفرة من بنى آدم ، الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين ، وعصوا الرحمن وهو الذى خلقهم ورزقهم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أى : قد أمرتكم فى دار الدنيا بعصيان الشيطان ، وأمرتكم بعبادتى ، وهذا هو الصراط المستقيم ، فسلكتم غير ذلك واتبعتم الشيطان فيما أمركم به ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ والمراد بذلك الخلق الكثير ، قاله مجاهد ، والسُّدَى ، وفتادة .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ ؟ أى : أفما كان لكم عقل فى مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لا شريك له ، وعدوكم إلى اتباع الشيطان !؟

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ ﴿ ٦٣ ﴾ ﴿ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ﴿ ٦٤ ﴾ ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ﴿ ٦٥ ﴾ ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْتَ يُبْصِرُونَ ﴾ ﴿ ٦٦ ﴾ ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿ ٦٧ ﴾

يقال للكفرة من بنى آدم يوم القيامة ، وقد برزت الجحيم لهم تقريباً وتوبيخاً : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ أى : هذه التى حذرتكم الرسل فكذبتموهم ﴿ اَصْلُهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذَّبُونَ . اَفْسَحِرْ هَذَا اَمْ اَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ ﴾ [الطور : ١٣ - ١٥] .

وقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ اَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا اَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ اَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ : هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة ، حين ينكرون ما اجتمروه فى الدنيا ، ويحلفون ما فعلوه ، فيختم الله على افواههم ، ويستنطق جوارحهم بما عملت .

عن انس بن مالك قال : كنا عند النبي ﷺ ، فضحك حتى بدت نواجذه ، ثم قال : « أتدرون مم أضحك ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : « من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول : رب ألم تجرنى من الظلم ؟ فيقول : بلى . فيقول : لا أحيز على إلا شاهداً من نفسى . فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، وبالكرام الكاتين شهدوا . فيختم على فيه ، ويقال لأركانه : انطقى . فتنتطق بعمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بعداً لكن وسحقاً ، فعنك كنت أناضل » . رواه مسلم والنسائى (١) .

وعن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ فى حديث القيامة الطويل ، قال فيه : « ثم يلقى الثالث فيقول : ما أنت ؟ فيقول : أنا عبدك ، أمنت بك وبنبيك وبكتابك ، وصمت واصلت وتصدقت - وينشئ بخير ما استطاع - قال : يقال له : ألا نبعث عليك شاهداً ؟ قال : فيفكر فى نفسه ، من الذى يشهد عليه ، فيختم على فيه ، ويقال لفخذه : انطقى . فتنتطق فخذة ولحمه وعظامه بما كان يعمل ، وذلك المنافق ، وذلك ليعذر من نفسه . وذلك الذى سخط الله عليه » . رواه مسلم وأبو داود بطوله (٢) . وروى ابن أبى حاتم عن عقبة بن عامر ؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُختم على الأفواه ، فخذهُ من الرجل اليسرى » . وقد جَوَّدَ إسناده الإمام أحمد فروى عن عقبة بن عامر ؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يُختم على الأفواه ، فخذهُ من الرجل الشمال » (٣) .

وقوله : ﴿ وَكَلِمَاتٍ لِّطَمْسًا عَلَىٰ اَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ قال ابن عباس : يقول : ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى ، فكيف يهتدون ؟ وقال مرة : أعميناهم . وقال الحسن البصرى : لو شاء الله لطمس على أعينهم ، فجعلهم عمياً يترددون . وقال السدى : لو شئنا أعمينا أبصارهم . قال مجاهد ، وأبو صالح ، وقتادة ، والسدى : ﴿ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ ﴾ يعنى : الطريق . وقال ابن زيد : يعنى بالصراط هاهنا : الحق ، ﴿ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ وقد طمسنا على أعينهم ؟ وقال ابن عباس : ﴿ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ : لا يبصرون الحق .

(١) مسلم (١٧/٢٩٦٩) ، والنسائى فى الكبرى (١١٦٥٣) .

(٢) مسلم (١٦/٢٩٦٨) وأبو داود (٤٧٣٠) .

(٣) المسند (١٥١/٤) وقال الهيثمى فى الزوائد (٣٥١/١) : « إسناده جيد » .

وقوله : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ قال ابن عباس : أهلكتناهم . وقال السدى :
يعنى : لغيرنا خلقهم . وقال أبو صالح : جعلناهم حجارة . وقال الحسن البصرى ، وقتادة :
لأقعدهم على أرجلهم .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا ﴾ أى : إلى أمام ﴿ وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ أى : إلى وراء ،
بل يلزمون حالا واحداً ، لا يتقدمون ولا يتأخرون .

﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿١٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا
يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿١٩﴾ لِيُنذِرَ مَنِ كَانَ حَيًّا وَيَحْيِيَ الْقَوْلَ عَلَى
الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره ردّ إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط ،
كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم : ٥٤] . وقال عز وجل : ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا
يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ [الحج : ٥] . والمراد من هذا - والله أعلم - الإخبار عن هذه الدار بأنها دار
زوال وانتقال ، لا دار دوام واستقرار؛ ولهذا قال : ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ أى : يتفكرون بعقولهم فى
ابتداء خلقهم ثم صيرورتهم إلى سن الشيبية ، ثم إلى الشيخوخة ؛ ليعلموا أنهم خلقوا لدار
أخرى ، لا زوال لها ولا انتقال منها ، ولا محيد عنها ، وهى الدار الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ : يقول تعالى مخبراً عن نبيه محمد ﷺ أنه
ما علمه الشعر ، ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ أى : وما هو فى طبعه ، فلا يحسنه ولا يحبه ، ولا تقتضيه جبلته .
وثبت فى الصحيحين أنه ﷺ ، تمثل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة ، ولكن
تبعاً لقول أصحابه ، فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون ، فيقولون :

لَاهُمْ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبَّتَ الْأَقْدَامَ إِنْ لَأَقَيْنَا
إِنَّ الْأُلَىٰ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةَ أَيْبِنَا

ويرفع صوته بقوله : « أَيْنَا » ويمدها (١) .

وكذلك ثبت أنه قال يوم حنين وهو راكب البغلة ، يُقدم بها فى نحور العدو :

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب (٢)

لكن قالوا : هذا وقع اتفاقاً من غير قصد لوزن شعر ، بل جرى على اللسان من غير قصد

إليه .

وكذلك ما ثبت فى الصحيحين عن جُنْدَب بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى غار فنكبت أصبعه ، فقال :

هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيَتْ وفى سبيلِ الله ما لَقِيتِ (١)

وكل هذا لا ينافى كونه ﷺ ما عُلِّم شعراً ولا ينبغى له ؛ فإن الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم ، ﴿ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ [فصلت : ٤٢] . وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش ، ولا كهانة ، ولا مفتعل ، ولا سحر يؤثر ، كما تنوعت فيه أقوال الضلال وآراء الجهال . وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعاً وشرعاً .

روى الإمام أحمد عن أبى نوفل قال : سألت عائشة : أكان رسول الله ﷺ يتسامع عنده الشعر ؟ فقالت : كان أبغض الحديث إليه . وقال عن عائشة : كان رسول الله ﷺ يعجبه الجوامع من الدعاء ، ويدع ما بين ذلك (٢) .

وروى أبو داود عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : « لأن يمتلى جوف أحدكم قيحاً ، خير له من أن يمتلى شعراً » . تفرد به من هذا الوجه ، وإسناده على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه (٣) .

والمراد بذلك نظمه لا إنشاده ، والله أعلم . على أن الشعر فيه ما هو مشروع ، وهو هجاء المشركين الذى كان يتعاطاه شعراء الإسلام ، كحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رَوَاحَة ، وأمثالهم وأضرابهم . ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب ، كما يوجد فى شعر جماعة من الجاهلية ، وقد أنشد بعض الصحابة منه للنبى ﷺ مائة بيت ، يقول عقب كل بيت : « هيه » . يعنى يستطعمه ، فيزيده من ذلك (٤) . وقد روى أبو داود من حديث أبى ابن كعب ، وعبد الله بن عباس ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن من البيان سحراً ، وإن من الشعر حكماً » (٥) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ﴾ يعنى : محمداً ﷺ ما علمه الله شعراً ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ أى : وما يصلح له ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ أى : ما هذا الذى علمناه ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾ أى : بين واضح جلى لمن تأمله وتدبره . ولهذا قال : ﴿ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ﴾ أى : لينذر هذا القرآن البين كلَّ حى على وجه الأرض ، كقوله : ﴿ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] ، وقال : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : ١٧] . وإنما يتنفع بنذارته من هو حى القلب ، مستنير البصيرة ، كما قال قتادة : حى القلب ، حى البصر . وقال الضحاك : يعنى : عاقلاً ﴿ وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أى : هو رحمة للمؤمن ، وحجة على الكافر .

(١) البخارى (٢٨٠٢) ، ومسلم (١٧٩٦/١١٢) . (٢) المسند (١٤٨/٦) وإسناده صحيح .

(٣) أبو داود (٥٠٠٩) . (٤) رواه مسلم (١/٢٢٥٥) .

(٥) أبو داود (٥٠١٠ ، ٥٠١١) .

﴿ أَوْلَتْ يَرَوْنَا أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمْنَا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾ ﴿٧٦﴾ وَذَلَّلْنَاهَا
لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٦﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ ﴾ قال قتادة : مطبقون ، أى : جعلهم يقهرونها وهى ذليلة لهم ، لا تمتنع منهم ، بل لو جاء صغير إلى بعير لاناخه ، ولو شاء لأقامه وساقه ، وذاك دليل منقاد معه . وكذا لو كان القطار مائة بعير أو أكثر ، لسار الجميع بسير صغير .

وقوله : ﴿ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ أى : منها ما يركبون فى الأسفار ، ويحملون عليه الأثقال ، إلى سائر الجهات والأقطار ﴿ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ إذا شأوا ونحروا واجتزروا ، ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ ﴾ أى : من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴿ وَمَشَارِبٌ ﴾ أى : من اللبنها وأبوالها لمن يتداوى ، ونحو ذلك ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ ؟ أى : أفلا يوحدون خالق ذلك ومسخره ، ولا يشكرون به غيره ؟

﴿ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهاتٌ لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ﴿٧٥﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْحَضُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

يقول تعالى منكرأ على المشركين فى اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله ، يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى . قال الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ أى : لا تقدر الآلهة على نصر عابديها ، بل هى أضعف من ذلك وأقل وأذل وأحقر وأدحر ، بل لا تقدر على الانتصار لأنفسها ، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء ؛ لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل .

وقوله : ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْحَضُونَ ﴾ قال مجاهد : يعنى : عند الحساب ، يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة ، محضرة عند حساب عابديها ؛ ليكون ذلك أبلغ فى خزيهم ، وأدل عليهم فى إقامة الحجة عليهم . وقال قتادة : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾ يعنى : الآلهة ﴿ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْحَضُونَ ﴾ والمشركون يغضبون للآلهة فى الدنيا وهى لا تسوق إليهم خيراً ، ولا تدفع عنهم سوءاً ، إنما هى أصنام . وهكذا قال الحسن البصرى . وهذا القول حسن ، وهو اختيار ابن جرير ، رحمه الله .

وقوله : ﴿ فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ ﴾ أى : تكذيبهم لك وكفرهم بالله ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أى : نحن نعلم جميع ما هم عليه ، وسنجزيهم وصفتهم ونعاملهم على ذلك ، يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلاً ولا حقيراً ، ولا صغيراً ولا كبيراً ، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً .

﴿ **أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ** ﴾ ﴿٧٧﴾ **وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِى الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ** ﴿٧٨﴾ **قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** ﴿٧٩﴾ **الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ** ﴿٨٠﴾

قال مجاهد ، وعكرمة ، وعروة بن الزبير ، والسُّدِّي ، و قتادة : جاء أبا بن خلف - لعنه الله - إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يُفْتَتَهُ ويذريه فى الهواء ، وهو يقول : يا محمد ، أتزعم أن الله يعث هذا ؟ فقال : « نعم ، يبيتك الله ثم يبعثك ، ثم يحشرك إلى النار » . ونزلت هذه الآيات من آخر « يس » : ﴿ **أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ** ﴾ إلى آخرهن . وعن ابن عباس ، أن العاص بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتته بيده ، ثم قال لرسول الله ﷺ : أحيى الله تعالى هذا بعد ما أرى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم ، يبيتك الله ثم يحييك ، ثم يدخلك جهنم » . قال : ونزلت الآيات من آخر « يس » . وعلى كل تقدير سواء كانت هذه الآيات نزلت فى أبى بن خلف ، أو العاص بن وائل ، أو فيهما ، فهى عامة فى كل من أنكر البعث .

والالف واللام فى قوله : ﴿ **أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ** ﴾ للجنس ، يعم كل منكر للبعث . ﴿ **أَنَا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ** ﴾ أى : أو لم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة ، فإن الله ابتداء خلق الإنسان من سلاله من ماء مهين ، فخلقه من شىء حقير ضعيف مهين ، كما قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ . فَجَعَلْنَا فِي قَرَارِكُمْ مِّمِينَ . إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ** ﴾ [المراتل : ٢٠ - ٢٢] ، وقال : ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ** ﴾ [الإنسان : ٢] أى : من نطفة من أخلاط متفرقة ، فالذى خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته ؟ كما روى الإمام أحمد عن بسُر بن جَحَّاش ؛ أن رسول الله ﷺ بَصَقَ يوماً فى كفه ، فوضع عليها أصبعه ، ثم قال : « قال الله تعالى : ابن آدم ، أنى تُعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سَوَيْتَكَ وَعَدَلْتُكَ ، مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بَلَغْتَ التراقي قلت : أتصدق وأنى أوان الصدقة ؟ » . ورواه ابن ماجه (١) .

ولهذا قال : ﴿ **وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِى الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ** ﴾ ؟ أى : استبعد إعادة الله تعالى - ذى القدرة العظيمة التى خلقت السموات والأرض - للأجساد والعظام الرميمة ، ونسى نفسه ، وأن الله خلقه من العدم ، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** ﴾ أى : يعلم العظام فى

(١) المسند (٤/ ٣١٠) وابن ماجه (٢٧٠٧) وفى زوائد البوصيرى : « إسناده حديثه صحيح ورجاله ثقات » وحسنه الألبانى .

سائر أقطار الأرض وأرجائها ، أين ذهبت ، وأين تفرقت وتمزقت . روى الإمام أحمد عن ربّيعي قال : قال عقبة بن عمرو لحذيفة : ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ ؟ فقال : سمعته يقول : « إن رجلاً حضره الموت ، فلما أيس من الحياة أوصى أهله : إذا أنا مت فاجمعوا لي حطباً كثيراً جزلاً ، ثم أوقدوا فيه ناراً ، حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي فامتحنشت ، فخذوها فذروها في اليم . ففعلوا ، فجمعه الله إليه فقال له : لم فعلت ذلك ؟ قال : من خشيتك . فغفر الله له » . فقال عقبة بن عمرو : وأنا سمعته يقول ذلك ، وكان نباشاً . وقد أخرجاه في الصحيحين بالفاظ كثيرة ، منها : أنه أمر بنبيه أن يحرقوه ثم يسحقوه ، ثم يذروا نصفه في البر ونصفه في البحر ، في يوم راتح ، أي : كثير الهواء - ففعلوا ذلك . فأمر الله البحر فجمع ما فيه ، وأمر البر فجمع ما فيه ، ثم قال له : كن . فإذا هو رجل قائم . فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : مخافتك وأنت أعلم . فما تلافاه أن غفر له « (١) .

وقوله : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا إِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ أي : الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضراً نضراً ذا ثمر وينع ، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً ، توقد به النار ، كذلك هو فعال لما يشاء ، قادر على ما يريد لا يمنعه شيء . قال قتادة في قوله : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا إِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ يقول : الذي أخرج هذه النار من هذا الشجر قادر أن يبعثه . وقيل : المراد بذلك سرح المرخ والعقار ، ينبت في أرض الحجاز فيأتي من أراد قذح نار وليس معه زناد ، فيأخذ منه عودين أخضرين ، ويقدح أحدهما بالآخر ، فتولد النار من بينهما ، كالزناد سواء . روى هذا عن ابن عباس .

﴿ أَوْلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدِينُهُ مَلَكُوتٌ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة في خلق السموات السبع ، بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت ، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال ، وبحار وقفار ، وما بين ذلك ، ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة ، كقوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غانر : ٥٧] . وقال هاهنا : ﴿ أَوْلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ أي : مثل البشر ، فيعيدهم كما بدأهم . قاله ابن جرير .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُمُ خَلْقُهُمْ بَقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الاحقاف : ٣٣] ، وقال : ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أي : يأمر بالشيء أمراً واحداً ، لا يحتاج إلى تكرار .

وروى الإمام أحمد عن أبي ذر ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يقول : يا عبدي ، كلكم مذنب إلا من عافيت ، فاستغفروني أغفر لكم . وكلكم فقير إلا من أغنيت ، إني جواد ماجد واجد أفعل ما أشاء ، عطائي كلام ، وعذابي كلام ، إذا أردت شيئاً فإنما أقول له كن فيكون » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي : تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحى القيوم ، الذى بيده مقاليد السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، وله الخلق والأمر ، وإليه يرجع العباد يوم المعاد ، فيجازى كل عامل بعمله ، وهو المنعم المتفضل .

ومعنى قوله : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ كقوله عز وجل : ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [المؤمنون : ٨٨] ، وكقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ [الملك : ١] ، فالملك والملكوت واحد فى المعنى ، كرحمة ورحموت ، ورهبة ورهبوت ، وجبر وجبروت . ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجساد ، والملكوت هو عالم الأرواح ، والأول هو الصحيح ، وهو الذى عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم .

وقد روى أبو داود ، والترمذى فى الشمائل ، والنسائى ، عن حذيفة ؛ أنه رأى رسول الله ﷺ من الليل ، وكان يقول : « الله أكبر - ثلاثاً - ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة » . ثم استفتح فقرأ البقرة ، ثم ركع فكان ركوعه نحواً من قيامه ، وكان يقول فى ركوعه : « سبحان ربى العظيم » . ثم رفع رأسه من الركوع ، فكان قيامه نحواً من ركوعه ، وكان يقول فى قيامه : « لربى الحمد » . ثم سجد ، فكان سجوده نحواً من قيامه ، وكان يقول فى سجوده : « سبحان ربى الأعلى » . ثم رفع رأسه من السجود ، وكان يقعد فيما بين السجدين نحواً من سجوده ، وكان يقول : « رب ، اغفر لى ، رب اغفر لى » . فصلى أربع ركعات ، فقرأ فيهن البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة - أو الأنعام - شك شعبة - هذا لفظ أبى داود (٢) . وروى أبو داود عن عوف بن مالك الأشجعى قال : قمت مع رسول الله ﷺ ليلة فقام فقرأ سورة البقرة ، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل ، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ . قال : ثم ركع بقدر قيامه ، يقول فى ركوعه : « سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة » . ثم سجد بقدر قيامه ، ثم قال فى سجوده مثل ذلك ، ثم قام فقرأ بآل عمران ، ثم قرأ سورة سورة . ورواه الترمذى فى الشمائل ، والنسائى (٣) .

(١) المسند (١٧٧/٥) وإسناده حسن .

(٢) أبو داود (٨٧٤) ، والترمذى فى الشمائل (٢٦٠) ، والنسائى (١٠٦٩) وضححه الألبانى .

(٣) أبو داود (٨٧٣) ، والترمذى فى الشمائل (٢٩٦) ، والنسائى (١٠٤٩) وضححه الألبانى .

تفسير سورة الصفات

وهي مكية

روى النسائي عن عبد الله بن عمر قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف، ويؤمنا بالصفات. تفرد به النسائي (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالصَّفَاتِ صَفًا ﴾ ﴿ فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا ﴾ ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ ﴾

عن عبد الله بن مسعود، أنه قال: ﴿ وَالصَّفَاتِ صَفًا ﴾ وهي: الملائكة ﴿ فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا ﴾ وهي: الملائكة ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ هي: الملائكة. وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، ومجاهد، وقتادة. قال قتادة: الملائكة صفوف في السماء. وروى مسلم عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صَفُونَا كَصَفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تَرْبَتُنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ» (٢). وقد روى مسلم أيضاً، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا تَصْفُونَ كَمَا تَصِفُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟» قلنا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: «يُتِمُّونَ الصَّفُوفَ الْمُتَقَدِّمَةَ وَيَتَرَاوُونَ فِي الصَّفِ» (٣).

وقال السدي وغيره: معنى قوله: ﴿ فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا ﴾ : أنها تزجر السحاب. وقال الربيع بن أنس: ﴿ فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا ﴾ : ما زجر الله عنه في القرآن. وكذا روى مالك، عن زيد بن أسلم. ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴾ قال السدي: الملائكة يجيئون بالكتاب، والقرآن من عند الله إلى الناس. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا. عُذْرًا أَوْ نَذْرًا ﴾ [المرسلات: ٥، ٦].

وقوله: ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ هذا هو المقسم عليه؛ أنه تعالى لا إله إلا هو ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أى: من المخلوقات ﴿ وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ أى: هو المالك المتصرف فى الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثابتة، وسيارات تبدو من المشرق، وتغرب من المغرب. واكتفى بذكر المشرق عن المغرب لدلالاتها عليه. وقد صرح بذلك فى قوله: ﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴾ [المعارج: ٤٠]. وقال فى الآية الأخرى: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِينَ وَرَبُّ الْمَغْرِبِينَ ﴾ [الرحمن: ١٧]، يعنى: فى الشتاء والصيف، للشمس والقمر.

(١) النسائي فى سننه (٨٢٦) وصححه الألبانى . (٢) مسلم (٥٥٢ / ٤) .

(٣) مسلم (٤٣٠ / ١١٩) وأبو داود (٦٦١) والنسائي فى سننه (٨١٦) وابن ماجه (٩٢٢) .

﴿ إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَكِبِ ﴿١٠﴾ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٩﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ وَيُقَذَّفُونَ مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ ﴿١﴾ إِلَّا مَن خَظِفَ الْخُظْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١١﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض ﴿بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾، قرئ بالإضافة وبالبديل، وكلاهما بمعنى واحد، فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضوءها جرم السماء الشفاف، فتضئ لأهل الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾، وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ. إِلَّا مَن اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٦ - ١٨﴾. وقوله هاهنا: ﴿وَحِفْظًا﴾ تقديره: وحفظناها حفظًا ﴿مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ يعني: المتمرد العاتى إذا أراد أن يسترق السمع آتاه شهاب ثاقب فأحرقه؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ﴾ أى: لئلا يصلوا إلى الملأ الأعلى، وهى السموات ومن فيها من الملائكة، إذا تكلموا بما يوحىه الله بما يقوله من شرعه وقدره. ولهذا قال: ﴿وَيُقَذَّفُونَ﴾ أى: يرمون ﴿مِّنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ أى: من كل جهة يقصدون السماء منها ﴿دُحُورًا﴾ أى: رجما يدحرون به ويزجرون، ويمنعون من الوصول إلى ذلك ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ﴾ أى: فى الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجه مستمر، كما قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].

وقوله: ﴿إِلَّا مَن خَظِفَ الْخُظْفَةَ﴾ أى: إلا من اختطف من الشياطين الخطفة، وهى الكلمة يسمعها من السماء فيلقىها إلى الذى تحته، ويلقىها الآخر إلى الذى تحته، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقىها وربما ألقاها بقدر الله قبل أن يأتية الشهاب فيحرقه، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَن خَظِفَ الْخُظْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أى: مستتير. روى ابن جرير عن ابن عباس قال: كانت للشياطين مقاعد فى السماء فكانوا يستمعون الوحى. قال: وكانت النجوم لا تجرى، وكانت الشياطين لا ترمى. قال: فإذا سمعوا الوحى نزلوا إلى الأرض، فزادوا فى الكلمة تسعاً. قال: فلما بعث رسول الله ﷺ، جعل الشيطان إذا قعد مقعده جاء شهاب فلم يُخْطِطْهُ حتى يُحْرَقَهُ. قال: فشكوا ذلك إلى إبليس، فقال: ما هو إلا من أمر حدث. قال: فَبَثَّ جنوده، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى بين جبلى نخلة - قال وكيع: يعنى بطن نخلة - قال: فرجعوا إلى إبليس فأخبروه، فقال: هذا الذى حدث (١). وستأتى الأحاديث الواردة مع الآثار فى هذا المعنى عند قوله تعالى إخباراً عن الجن أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَابًا. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا. وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨ - ١٠].

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنِ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا رَأَوْنَا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ لَهُذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوْلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾

يقول تعالى: فسأل هؤلاء المنكرين للبعث: أيما أشد خلقاً هم أم السموات والأرض، وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة؟ - وقرأ ابن مسعود: «أم من عددنا» - فإنهم يُقرون أن هذه المخلوقات أشد خلقاً منهم، وإذا كان الأمر كذلك فلم ينكرون البعث؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]. ثم بين أنهم خلقوا من شيء ضعيف، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ قال مجاهد، وسعيد بن جبيرة، والضحاك: هو الجيد الذي يلتزق ببعضه ببعض. وقال ابن عباس، وعكرمة: هو اللزج. وقال قتادة: هو الذي يلزق باليد.

وقوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ أي: بل عجبت - يا محمد - من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله به من الأمر العجيب، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها. وهم بخلاف أمرك، من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم من ذلك. ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ أي: دلالة واضحة على ذلك ﴿يَسْتَسْخَرُونَ﴾ قال مجاهد، وقاتادة: يستهزئون. ﴿وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إن هذا الذي جئت به إلا سحر مبين، ﴿أَلَمْ نَأْتِ بِكُنُوزٍ لَكُمْ مِنْ سَمَوَاتِنَا وَمِنْ بَرِّئِنَا وَرَأَوْا آيَاتِنَا﴾ أو أبائنا الأولون ﴿يَسْتَعْبِدُونَ ذَلِكَ وَيَكْذِبُونَ بِهِ﴾، ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: قل لهم يا محمد: نعم تبعثون يوم القيامة بعد ما تصيرون ترابا وعظاما، ﴿وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: حقيقرون تحت القدرة العظيمة، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ أُنُوفٍ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. ثم قال: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أي: إنما هو أمر واحد من الله عز وجل، يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض، فإذا هم قيام بين يديه، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة.

﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴿ أَحْسَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَرْوَجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمْ آيَوْمَ مُسْتَسْمِعُونَ ﴿٢٦﴾

يخبر تعالى عن قيل الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم باللامامة، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدار الدنيا، فإذا عاينوا أهوال القيامة ندموا كلَّ الندم حيث لا

ينفعهم الندم، ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ ، فتقول لهم الملائكة والمؤمنون : ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ . وهذا يقال لهم على وجه التقرير والتوبيخ ، ويأمر الله الملائكة أن تُميِّز الكفار من المؤمنين في الموقف في محشرهم ومنشرهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال النعمان بن بشير: يعنى بأزواجهم أشباههم وأمثالهم . وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعن عمر: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قال: أشباههم . يجيء صاحب الربا مع أصحاب الربا، وصاحب الزنا مع أصحاب الزنا، وصاحب الخمر مع أصحاب الخمر. ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أى: من الأصنام والأنداد، تحشر معهم فى أماكنهم .

وقوله : ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أى : ارشدوهم إلى طريق جهنم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمُقًا وَيُكْمَأُ وَيُكْمَأُ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧] . وقوله : ﴿وَقَفُّوهُمْ إِنَّهُمْ مُسْتَوْلُونَ﴾ أى: قفوهم حتى يسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التى صدرت عنهم فى الدار الدنيا كما قال الضحاك، عن ابن عباس: يعنى احبسوهم إنهم محاسبون . وقال عبد الله بن المبارك: سمعت عثمان بن زائدة يقول: إن أول ما يسأل عنه الرجل جلساؤه، ثم يقال لهم على سبيل التقرير والتوبيخ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ﴾ أى: كما زعمتم أنكم جميع متصرف، ﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أى: منقادون لأمر الله، لا يخالفونه ولا يحدون عنه .

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿١٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِيَةً ﴿٢٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰبِقُونَ ﴿٢١﴾ فَأَعْوَبْتَكُمْ إِنَّا كُنَّا غٰلِبِينَ ﴿٢٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّا كَذٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٢٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَا نَرٰكُوا إِلَّا الْهَيْتَنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٢٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٧﴾﴾

يذكر تعالى أن الكفار يتلامون فى عرصات القيامة، كما يتخاصمون فى دركات النار ﴿فَيَقُولُ الضُّعْفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا نَصِيًّا مِنَ النَّارِ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨] . وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أَنْتُمْ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرَوْنَا لَمَّا رَأَوْنَا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبا: ٣١-٣٣] . وهكذا قالوا لهم هاهنا: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ قال ابن عباس: يقولون: كنتم تقهرونا بالقدرة منكم علينا؛ لأننا كنا أذلاء وكنتم أعزاء . وقال مجاهد: يعنى: عن الحق، الكفار تقوله للشياطين . وقال قتادة: قالت الإنس

للجن : ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ قال : من قبل الخير ، فتنهونا عنه وتبطلونا عنه . وقال السدي : تأتوننا من قبل الحق ، تزينون لنا الباطل ، وتصدوننا عن الحق . وقال الحسن في قوله : ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ : إى والله ، يأتيه عند كل خير يريده فيصده عنه . وقال ابن زيد : معناه تحولون بيننا وبين الخير ، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذى أمرنا به . وقال يزيد الرشك : من قبل «لا إله إلا الله» . وقال خصيف : يعنون من قبل ميامنهم . وقال عكرمة : ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ قال : من حيث نامنكم . وقوله : ﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ : تقول القادة من الجن والإنس للاتباع : ما الأمر كما تزعمون ، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان ، قابلة للكفر والعصيان ، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أى : من حجة على صحة ما دعوناكم إليه ، ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَآغِينَ﴾ أى : بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق ؛ فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحق الذى جاءكم به الأنبياء ، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاؤوكم به ، فخالقتموهم . ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ . فَأَعْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ يقول الكبراء للمستضعفين : حقت علينا كلمة الله : أنا من الأشقياء الذائقين العذاب يوم القيامة ، ﴿فَأَعْوَيْنَاكُمْ﴾ أى : دعوناكم إلى الضلالة ، ﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ أى : دعوناكم إلى ما نحن فيه ، فاستجبتم لنا .

قال الله تعالى : ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أى : الجميع فى النار ، كل بحسبه ، ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ . إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ أى : فى الدار الدنيا ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى : يستكبرون أن يقولوها ، كما يقولها المؤمنون . عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فمن قال : لا إله إلا الله ، فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه ، وحسابه على الله ، وأنزل الله فى كتابه - وذكر قوما استكبروا - فقال : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾» (١) . «ويقولون أننا لتأركو ألهتنا لشاعر مجنون» أى : ونحن نترك عبادة ألهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون ، يعنون رسول الله ﷺ ! قال الله تعالى تكذبا لهم ، وردا عليهم : ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾ يعنى رسول الله ﷺ جاء بالحق فى جميع شرعة الله له من الإخبار والطلب ، ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ أى : صدقهم فيما أخبروه عنه من الصفات الحميدة ، والمناهج السديدة ، وأخبر عن الله فى شرعه وأمره كما أخبروا ، ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية [فصلت : ٤٣] .

﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ ٢٨ ﴿وَمَا يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ٢٩ ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ٣٠ ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ ٣١ ﴿فَوَرَكَةٌ وَهُمْ مَكْرُمُونَ﴾ ٣٢ ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ ٣٣ ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ ٣٤ ﴿يَطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ ٣٥ ﴿بِيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّرِيبِينَ﴾ ٣٦ ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ ٣٧ ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ ٣٨ ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ ٣٩

يقول تعالى مخاطباً للناس: ﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ . وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، ثم استثنى من ذلك عباده المخلصين، كما قال تعالى: ﴿ وَالْعَصْرُ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [العصر: ٣-١] . وقال: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [التين: ٦-٤] ، وقال: ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا . ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مریم: ٧١، ٧٢] ، وقال: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينًا . إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ [المدثر: ٣٨، ٣٩] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴾ أى: ليسوا يذوقون العذاب الأليم، ولا يناقشون فى الحساب، بل يتجاوز عن سيئاتهم، إن كان لهم سيئات، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، إلى ما يشاء الله من التضعيف .

وقوله جل وعلا: ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴾ قال قتادة، والسدى: يعنى الجنة . ثم فسره بقوله تعالى: ﴿ فَوَاكِهِ ﴾ أى: متنوعة ﴿ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴾ أى: يُخْدَمُونَ ويرفَهون وينعمون ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ قال مجاهد: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض .

وقوله: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ . بِيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ . لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾ ، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ مُخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ . لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ ﴾ [الواقعة: ١٧ - ١٩] ، فنزه الله خمر الجنة عن الآفات التى فى خمر الدنيا، من صداع الرأس ووجع البطن - وهو الغول - وذهابها بالعقل جملة، فقال هاهنا: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾ أى: بخمر من أنهار جارئة، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها. قال زيد بن أسلم: خمر جارئة بيضاء، أى: لونها مشرق حسن بهى لا كخمر الدنيا فى منظرها البشع الردىء، من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة ، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم .

وقوله: ﴿ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ ﴾ أى: طعمها طيب كلونها، وطيب الطعم دليل على طيب الريح، بخلاف خمر الدنيا فى جميع ذلك . وقوله: ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ يعنى: لا تؤثر فيهم غولا، وهو وجع البطن - قاله ابن عباس ، مجاهد، وقتادة، وابن زيد - كما تفعله خمر الدنيا من القولنج ونحوه، لكثرة مائيتها. وقال قتادة: هو صداع الرأس، ووجع البطن . ، وعن السدى: لا تغتال عقولهم، وقال سعيد بن جبیر: لا مكروه فيها ولا أذى . والصحيح قول مجاهد: أنه وجع البطن . وقوله: ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾ قال مجاهد: لا تذهب عقولهم، وكذا قال ابن عباس ، والحسن، وعطاء الخراسانى، وغيرهم . وقال الضحاک، عن ابن عباس: فى الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقىء، والبول . فذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال، كما ذكر فى سورة «الصافات» .

وقوله: ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ أى: عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن . كذا قال ابن عباس ، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم . وقوله: ﴿ عَيْنٍ ﴾ أى: حسان العين . وقيل: ضخام الأعين . وهو يرجع إلى الأول، وهى النجلاء العيناء، فوصف عيونهن بالحسن والعفة، كقول زليخا فى يوسف

عليه السلام حين جملته وأخرجته على تلك النسوة، فأعظمته وأكبرنه، وظن أنه ملك من الملائكة لحسنه وبهاء منظره، قالت: ﴿فَدَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتَهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢] أى : هو مع هذا الجمال عفيف تقى نفى ، وهكذا الحور العين ﴿خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠]، ولهذا قال: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ .

وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾: وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان. قال ابن عباس: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ يقول: اللؤلؤ المكنون. وقال الحسن: يعنى: محصنون لم تمسه الأيدي. وقال السدى: البيض فى عشه مكنون. وقال سعيد بن جبير: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾، يعنى: بطن البيض. وقال عطاء الخراسانى: هو السحاء الذى يكون بين قشرته العليا ولباب البيضة. وقال السدى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ يقول: بياض البيض حين يتزع قشره. واختاره ابن جرير لقوله: ﴿مَكْنُونٌ﴾، قال: والقشرة العليا يسها جناح الطير والعش، وتناها الأيدي بخلاف داخلها، والله اعلم.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ٥٠ ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ ٥١
 يَقُولُ أَهْلَ تَاكَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ ٥١ ﴿أَوَإِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْ نَا لَمَدِينُونَ﴾ ٥٢ ﴿قَالَ هَلْ أَتَىٰ
 مُّطَلِعُونَ﴾ ٥٣ ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ ٥٤ ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرِينِ﴾ ٥٥ ﴿وَلَوْلَا
 نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ ٥٦ ﴿أَمَا نَحْنُ بِمَبْتِئِينَ﴾ ٥٧ ﴿إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلُ وَمَا نَحْنُ
 بِمُعَذَّبِينَ﴾ ٥٨ ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ٥٩ ﴿لِيُمِثِلَ هَذَا فَا لِيَعْمَلَ الْعَمِلُونَ﴾ ٦٠ ﴿

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون، أى: عن أحوالهم، وكيف كانوا فى الدنيا، وماذا كانوا يعانون فيها ؛ وذلك من حديثهم على شرابهم، واجتماعهم فى تنادهم وعشرتهم فى مجالسهم، وهم جلوس على السرر، والخدم بين أيديهم، يسعون ويحيؤون بكل خير عظيم، من مآكل ومشارب وملابس، وغير ذلك مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ قال مجاهد: يعنى شيطاناً. وقال ابن عباس: هو الرجل المشرك، يكون له صاحب من أهل الإيمان فى الدنيا. ولا تنافى بين كلام مجاهد، وابن عباس؛ فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس فى النفس، ويكون من الإنس فيقول كلاماً تسمعه الأذنان، وكلاهما متعاونان، قال الله تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الانعام: ١١٢]. وكل منهما يوسوس، كما قال تعالى: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ . الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٤ - ٦] ؛ ولهذا ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ . يَقُولُ أَتُنْكَلُ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ﴾ أى: أنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء؟! يعنى: يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد، والكفر والعناد، ﴿أَوَلَمْ نَكُنْ لَكُمْ قُرْبَىٰ وَوَضَعْنَاكَ وَإِسْمًا وَنُفْسًا وَجَسَدًا مِّنْ عِظْمِ الْفُلْجِ أَوْ نَكُنَّا تَرَابًا وَعِظْمًا أَوْ نَكُنَّا لَمَدِينُونَ﴾ قال مجاهد، والسدى: لمحاسبون ؟ وقال ابن عباس، ومحمد بن كعب

القرظى : لمجزيون بأعمالنا ؟ وكلاهما صحيح .

قال تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴾ أى : مشرفون . يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة ﴿ فَاطَّلِعْ فِرَآءَ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ قال ابن عباس ، وسعيد بن جبيرة ، وقاتادة ، يعنى فى وسط الجحيم . وقال الحسن البصرى : فى وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد . ﴿ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لِتُرْدِينَ ﴾ ، يقول المؤمن مخاطباً للكافر : والله إن كدت لتهلكنى لو أطعتك ، ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِّينَ ﴾ أى : ولولا فضل الله على لكنت مثلك فى سواء الجحيم حيث أنت ، محضر معك فى العذاب ، ولكنه تفضل ورحمنى فهدانى للإيمان ، وأرشدنى إلى توحيدى ، ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الاعراف : ٤٣] .

وقوله : ﴿ أَلَمْأَ نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ ﴾ : هذا من كلام المؤمن مغبطاً نفسه بما أعطاه الله من الخلد فى الجنة والإقامة فى دار الكرامة ، لا موت فيها ولا عذاب ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ . قال ابن عباس ، فى قول الله تبارك وتعالى لأهل الجنة : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور : ١٩] ، قال ابن عباس : قوله : ﴿ هَنِيئًا ﴾ أى : لا يموتون فيها . فعندها قالوا : ﴿ أَلَمْأَ نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ ﴾ . وقال الحسن البصرى : علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه ، فقالوا : ﴿ أَلَمْأَ نَحْنُ بِمَيِّتِينَ . إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ ﴾ ، قيل : لا . قالوا : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ . وقوله : ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ قال قتادة : هذا من كلام أهل الجنة . وقال ابن جرير : هو من كلام الله تعالى ، ومعناه : لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون فى الدنيا ، ليصبروا إليه فى الآخرة .

﴿ أذْكَرُ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾ ١٤ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴾ ١٥ ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴾ ١٦ ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ ﴾ ١٧ ﴿ فَاتَّهَمُوا لَأَكُلُونَهَا مِنْهَا فَمَا لَئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ ١٨ ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴾ ١٩ ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجَعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ ٢٠ ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَاؤُا آيَاءُ فَهُمْ صَالِينَ ﴾ ٢١ ﴿ فَهُمْ عَلَىٰ عَائِدِهِمْ مِهْرَعُونَ ﴾ ٢٢ ﴿

يقول الله تعالى : أهذا الذى ذكره من الجنة وما فيها من مأكّل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ ، خير ضيافة وعطاء ﴿ أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾ ؟ أى : التى فى جهنم . وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة ، وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر ، يقال له : الزقوم ، كقوله تعالى : ﴿ وَشَجَرَةٌ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبِتُ بِالذَّهْنِ وَصِغٌ لِّلْكَالِينِ ﴾ [المؤمنون : ٢٠] ، يعنى الزيتون . ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . لَأَكُلُونَهَا مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ﴾ [الواقعة : ٥١ ، ٥٢] .

وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴾ قال قتادة : ذكرت شجرة الزقوم ، فافتتن بها أهل الضلالة ، وقالوا : صاحبكم ينبئكم أن فى النار شجرة ، والنار تأكل الشجر ، فأنزل الله عز

وجل : ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ غدت من النار، ومنها خلقت. وقال مجاهد: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾، قال أبو جهل - لعنه الله - : إنما الزقوم التمر والزبد أتزقمه. قلت: ومعنى الآية: إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختباراً نختبر به الناس، من يصدق منهم ممن يكذب، كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء : ٦٠].

وقوله: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أى: أصل منبتها فى قرار النار، ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ تشبيح لها وتكريه لذكرها. وإنما شبهها برؤوس الشياطين وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين؛ لأنه قد استقر فى النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر.

وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا كَلْبُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْنَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾: ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التى لا أبشع منها، ولا أقبح من منظرها، مع ما هى عليه من سوء الطعم والريح والطبع، فإنهم ليضطرون إلى الأكل منها، لأنهم لا يجدون إلا إياها، وما فى معناها، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ . لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦، ٧]. وروى ابن أبى حاتم، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية، وقال: «اتقوا الله حق تقاته، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحار الدنيا، لأفسدت على أهل الأرض معاشهم، فكيف بمن يكون طعامه؟». ورواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن صحيح (١). وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ قال ابن عباس: يعنى شرب الحميم على الزقوم. وقال فى رواية عنه: ﴿شَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾: مزجا من حميم. وقال غيره: يعنى يمزج لهم الحميم بصديد وغساق، مما يسيل من فروجهم وعيونهم.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرَجَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ﴾ أى: ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لى نار تتأجج، وجحيم تتوقد، وسعير تتوهج، فتارة فى هذا وتارة فى هذا، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]. هكذا تلا فتادة هذه الآية، وهو تفسير حسن قوى. وقال السدى فى قراءة عبد الله: «ثم إن مقيلمهم لى الجحيم» وكان عبد الله يقول: والذى نفسى بيده لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة فى الجنة، وأهل النار فى النار. ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقْرَأً وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]. وعن عبد الله قال: لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء ويقيل هؤلاء. قال سفيان: أراه، ثم قرأ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقْرَأً وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾، «ثم إن مقيلمهم لى الجحيم». قلت: على هذا التفسير تكون «ثم» عاطفة لخبر على خبر. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ أى: إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك، من غير دليل ولا برهان؛ ولهذا قال: ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ قال مجاهد: شبيهة بالهولة. وقال سعيد بن جبيرة: يسفون.

(١) مضى تخريجه عند الآية (١٠٢) من آل عمران .

﴿ وَقَدْ صَدَّقَ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُولِينَ ﴾ ﴿٧١﴾ وَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ ﴿٧١﴾
فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى. وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين، يندرون بأس الله، ويحذرونهم سطوته ونقمته، ممن كفر به وعبد غيره، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم. فأهلك المكذبين ودمرهم، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم؛ ولهذا قال: ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ . إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

﴿ وَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾
وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾
إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨١﴾

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة، شرع يبين ذلك مفصلاً، فذكر نوحاً، عليه السلام، وما لقي من قومه من التكذيب، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة. لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة، فدعى ربه أنى مغلوب فاتصر، فغضب الله لغضبه عليهم؛ ولهذا قال: ﴿ وَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ . أى: فلنعلم المجيبون له، ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ وهو التكذيب والأذى، ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ قال ابن عباس يقول: لم تبق إلا ذرية نوح عليه السلام. وقال قتادة فى قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ قال: الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام. وروى الإمام أحمد: عن سمرة؛ أن نبى الله ﷺ قال: «سام أبو العرب، وحام أبو الحبش، ويافث أبو الروم». ورواه الترمذى (١). والمراد بالروم هاهنا: هم الروم الأوّل، وهم اليونان المنتسبون إلى رومى بن ليطى بن يونان بن يافث بن نوح، عليه السلام.

وقوله: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾، قال ابن عباس: يذكر بخير. وقال مجاهد: يعنى لسان صدق للأنبياء كلهم. وقال قتادة والسدى: أبقى الله عليه الشاء الحسن فى الآخريين. قال الضحاك: السلام والثناء الحسن. وقوله تعالى: ﴿ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ مفسر لما أبقى عليه من الذكر الجميل والثناء الحسن أنه يسلم عليه فى جميع الطوائف والأمم. ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى: هكذا نجزي من أحسن من العباد فى طاعة الله، نجعل له لسان صدق يذكر به بعده بحسب مرتبته فى ذلك. ثم قال: ﴿ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: المصدقين الموحدون الموقنين، ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴾ أى: أهلكتناهم، فلم يبق منهم عين تطرف، ولا ذكر لهم ولا عين ولا أثر، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة.

(١) المسند (٩/٥) والترمذى (٣٩٣١) وقال: « حديث حسن » .

رَبِّهِمْ مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ
لَأُبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفَبِكُمْ أَلِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾

قال ابن عباس: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ ﴾ يقول: من أهل دينه. وقال مجاهد: على منهاجه
وسنته. ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ قال ابن عباس: يعنى: شهادة أن لا إله إلا الله.
وقال الحسن: سليم من الشرك، وقال عروة: لا يكون لعانا.

وقوله: ﴿ إِذْ قَالَ لَأُبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾: أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد؛ ولهذا قال:
﴿ أَفَبِكُمْ أَلِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ . فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال قتادة: يعنى: ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا
لقيتموه وقد عبدتم معه غيره !؟

﴿ فَظَنَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ
إِلَىٰ آلِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا نَطْفُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾
فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرِفُونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ اتَّعَبُدُونَ مَا تَنجُحُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا
أَبْنَاؤُا لَمْ يَتَّيْنُوا فَآلِقُوهُمْ فِي الْجَنَّةِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾

إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك؛ ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم، فإنه
كان قد أرف خروجهم إلى عيد لهم، فأحب أن يختلى بألتهم فيكسرهما، فقال لهم كلاما هو
حق في نفس الأمر، فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه، ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ قال قتادة:
والعرب تقول لمن تفكر: نظر في النجوم: يعنى قتادة: أنه نظر في السماء متفكرا فيما يلهمهم به،
فقال: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ أى: ضعيف. فأما الحديث الذى رواه ابن جرير عن أبى هريرة؛ أن رسول الله
ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، غير ثلاث كذبات: ثنتين فى ذات الله،
وقوله: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾، وقوله: ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ [الانبيا: ٦٣]، وقوله فى سارة: هى أختى» (١).
فهو حديث مخرج فى الصحاح والسنن من طرق، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقى
الذى يذم فاعله، حاشا وكلا وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزا، وإنما هو من المعارض فى
الكلام لمقصد شرعى دينى، كما جاء فى الحديث: «إن فى المعارض مندوحة عن الكذب» (٢).
قال سفيان فى قوله: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ يعنى: طعين. وكانوا يفرون من المطعون، فأراد أن يخلو
بألتهم. وقال آخرون: فقال: ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ بالنسبة إلى ما يستقبل، يعنى: مرض الموت. وقيل:
أراد ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ أى: مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله تعالى.

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٣ / ٤٥). وهو فى البخارى (٣٣٥٨) والترمذى (٣١٦٦).

(٢) البيهقى فى السنن الكبرى (١٠ / ١٩٩) عن عمران بن الحصين، مرفوعا وموقوفا، والموقوف أصح.

ولهذا قال تعالى: ﴿ قَتَلُوا عَنْهُ مُذْبَرِينَ ﴾ أى: إلى عيدهم، ﴿ فَرَاغَ إِلَى آلِهِمْ ﴾ أى: ذهب إليها بعد أن خرجوا فى سرعة واختفاء، ﴿ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاما قربانا لتبارك لهم فيه.

وقوله: ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ قال الفراء: معناه: مال عليهم ضربا باليمين. وقال قتادة والجوهري: فأقبل عليهم ضربا باليمين. وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى؛ ولهذا تركهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون، كما تقدم فى سورة الأنبياء تفسير ذلك. وقوله هاهنا: ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴾ قال مجاهد وغير واحد: أى يسرعون. وهذه القصة هاهنا مختصرة، وفى سورة الأنبياء مبسطة، فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة من فعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا، فعرفوا أن إبراهيم، عليه السلام، هو الذى فعل ذلك. فلما جاؤوا ليعاتبوه أخذ فى تانيبهم وعيبيهم، فقال: ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْتُونَ ﴾؟! أى: أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم؟! ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ يحتمل أن تكون «ما» مصدرية، فيكون تقدير الكلام: والله خلقكم وعملكم. ويحتمل أن تكون بمعنى «الذى» تقديره: والله خلقكم والذى تعملونه. وكلا القولين متلازم، والأول أظهر. فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر، فقالوا: ﴿ ابْنَا لَهُ بَيْنَانًا فَاَلْقَاهُ فِي الْحَجِيمِ ﴾ وكان من أمرهم ما تقدم بيانه فى سورة الأنبياء، ونجاة الله من النار وأظهره عليهم، وأعلى حجته ونصرها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾.

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَى قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَارِ آيَاتِ الذَّبْحِ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ ﴿ قَالَ يَتَّبِعُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمْنَا وَكَلَّمَ لِلْجَبِينِ ﴾ ﴿ وَوَدَّيْنَاهُ أَنْ يَتَّيْرَهُمُ ﴾ ﴿ قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ ﴿ وَوَدَّيْنَاهُ بِذَنبِ عَظِيمٍ ﴾ ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ ﴿ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَعَقَالٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن خليله إبراهيم عليه السلام: أنه بعد ما نصره الله على قومه وأيس من إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة، هاجر من بين أظهرهم، وقال: ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ ﴾. رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿. يعنى: أولادا مطيعين عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم. قال الله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، فإنه أول

ولد بشر به إبراهيم، عليه السلام، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل في نص كتابهم أن إسماعيل وُلِدَ لإبراهيم، عليه السلام، ست وثمانون سنة، وولد إسحاق وعمر إبراهيم تسع وتسعون سنة. وعندهم أن الله تعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيداً، وفي نسخة: بكره، فأقحموا هاهنا كذباً وبهتاناً «إسحاق»، ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم، وإنما أقحموا «إسحاق» لأنه أبوهم، وإسماعيل أبو العرب، فحسدوهم، فزادوا ذلك وحرفوا وحيدك، بمعنى الذى ليس عندك غيره، فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى جنب مكة . وهذا تأويل وتحريف باطل، فإنه لا يقال: «وحيد» إلا لمن ليس له غيره، وأيضاً فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد، فالأمر بذبحه أبلغ فى الابتلاء والاختبار.

وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الذبيح هو إسحاق، وحكى ذلك عن طائفة من السلف، حتى نقل عن بعض الصحابة أيضاً، وليس ذلك فى كتاب ولا سنة، وما أظن ذلك تلقى إلا عن أحبار أهل الكتاب، وأخذ ذلك مسلماً من غير حجة. وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل، فإنه ذكر البشارة بالغلام الحليم، وذكر أنه الذبيح، ثم قال بعد ذلك: ﴿ وَبَشِّرْنَا بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ . ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا: ﴿ إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ [الحجر: ٥٣] . وقال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١] ، أى : يولد له فى حياتهما ولد يسمى يعقوب ، فيكون من ذريته عقب ونسل . وقوله: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ أى : كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشى معه . وقد كان إبراهيم، عليه السلام، يذهب فى كل وقت يتفقده ولده وأم ولده ببلاد «فاران» وينظر فى أمرهما، وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعاً إلى هناك، فالله أعلم. وعن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة وغيرهم: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ يعنى : شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعى والعمل، ﴿ فَلَمَّا قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ قال عبيد بن عمير: رؤيا الأنبياء وحى، ثم تلا هذه الآية: ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ . وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه من صغره على طاعة الله وطاعة أبيه.

﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴾ أى : امض لما أمرك الله من ذبحى ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ أى : سأصبر وأحسب ذلك عند الله عز وجل . وصدق ، صلوات الله وسلامه عليه ، فيما وعد ؛ ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا . وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ [مريم : ٥٤ ، ٥٥] . قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا ﴾ أى : فلما تشهدا وذكرنا الله تعالى: إبراهيم على الذبيح والولد على شهادة الموت . وقيل : ﴿ أَسْلَمَا ﴾ ، يعنى : استسلما وانقادا ؛ إبراهيم امثال أمر الله ، وإسماعيل طاعة الله وأبيه . قاله مجاهد ، وعكرمة والسدى وغيرهم . ومعنى ﴿ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ أى : صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه ، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ، ليكون أهون عليه ، قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير، والضحاك ، وقتادة : ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ : أكبه على وجهه . وروى

الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال : لما أمر إبراهيم بالمناسك عرض له الشيطان عند المسعى ، فسابقه فسبقه إبراهيم ، ثم ذهب به جبريل إلى جمرة العقبة ، فعرض له الشيطان ، فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات ، وثم تله للجبين ، وعلى إسماعيل قميص أبيض ، فقال له : يا أبت ، إنه ليس لى ثوب تكفنى فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفنى فيه . فعالجه ليخلعه ، فنودى من خلفه : ﴿ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا ﴾ ، فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين . قال ابن عباس : لقد رأينا تتبع ذلك الضرب من الكباش (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا ﴾ أى : قد حصل المقصود من رؤياك وإضجاعك ولدك للذبح . وذكر السدى وغيره أنه أمر السكين على رقبة فلم تقطع شيئاً ، بل حال بينها وبينه صفيحة من نحاس ، ونودى إبراهيم ، عليه السلام ، عند ذلك : ﴿ قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا ﴾ . وقوله : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى : هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد ، ونجعل لهم من أمرهم فرجا ومخرجا ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣] . قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ أى : الاختبار الواضح الجلى ؛ حيث أمر بذبح ولده ، فسارع إلى ذلك مستسلما لأمر الله ، متقادا لطاعته ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [النجم : ٢٧] .

وقوله : ﴿ وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ عن ابن عباس قال : الصخرة التى بمبنى بأصل ثبير هى الصخرة التى ذبح عليها إبراهيم فداء ابنه ، وقال مجاهد : ذبحه بمبنى عند المنحر . وعن ابن عباس : كان أفتى الذى جعل عليه نذراً أن ينحر نفسه ، فأمره بمائة من الإبل . ثم قال بعد ذلك : لو كنت أفتيته بكبش لأجزأه أن يذبح كبشاً ، فإن الله تعالى قال فى كتابه : ﴿ وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ . والصحيح الذى عليه الأكثرون أنه فدى بكبش . وقد روى الإمام أحمد عن صفة بنت شيبه قالت : أخبرتنى امرأة من بنى سليم - وكادت عامة أهل دارنا - أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة - وقال مرة : إنها سألت عثمان : لم دعاك النبي ﷺ؟ قال : قال : «إني كنت رأيت قرنى الكبش ، حين دخلت البيت ، فنسيت أن أمرك أن تخمرهما ، فخرمهما ، فإنه لا ينبغي أن يكون فى البيت شئ يشغل المصلى» . قال سفيان : لم يزل قرنا الكبش معلقين فى البيت حتى احترق البيت ، فاحترقا (٢) . وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل ، عليه السلام ، فإن قريشا توارثوا قرنى الكبش الذى فدى به إبراهيم خلفا عن سلف وجيلا بعد جيل ، إلى أن بعث الله رسوله ﷺ .

وقوله : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ : لما تقدمت البشارة بالذبيح - وهو إسماعيل - عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق . وقوله : ﴿ نَبِيًّا ﴾ حال مقدرة ، أى : سيصير منه نبي من الصالحين . وقوله : ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ كقوله تعالى :

(١) المسند (٢٧٠٧) وقال الشيخ شاکر : «إسناده صحيح» .

(٢) المسند (٤ / ٦٨) ، وأبو داود (٢٠٣٠) ، وصححه الألبانى .

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنَمَتِيهِمْ ثُمَّ يُمَسِّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود: ٤٨].

﴿ وَقَدْ مَنَّآ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَبَيَّنَّتُهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَصَرَّرْنَاهُمْ فَاكُونُوا هُمُ الْفَالِقِينَ ﴿١١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنَ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمد في حقهم من الإساءة العظيمة، من قتل الأبناء واستحياء النساء، واستعمالهم في أخس الأشياء. ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم، وأقر أعينهم منهم، وغلبهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعه طول حياتهم. ثم أنزل الله عز وجل على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلي المستبين، وهو التوراة، كما قال تعالى: ﴿ وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً ﴾ [الانبيا: ٤٨]، وقال هاهنا: ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ. وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أى: فى الأقوال والأفعال ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴾ أى: أبقينا لهما من بعدهما ذكرا جميلا وثناء حسنا، ثم فسره بقوله: ﴿ سَلَّمْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُمَا مِنَ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَأَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴿١٢٥﴾ وَتَذُرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٦﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿١٢٧﴾ فَكَذَّبُوهٗ فَأَتَانَهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٨﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٩﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٣٠﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٣١﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

قال قتادة، وابن إسحاق، يقال: إلياس هو إدريس. وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال: إلياس هو إدريس. وكذا قال الضحاك. ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَأَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أى: ألا تخافون الله فى عبادتكم غيره؟ ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذُرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقاتدة: ﴿ بَعْلًا ﴾ يعنى: ربا. قال قتادة وعكرمة: وهى لغة أهل اليمن. وفى رواية عن قتادة قال: هى لغة أزد شنوءة. وقال ابن إسحاق: أخبرنى بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها: «بعل». وقال زيد بن أسلم: هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها: «بعلبك»، غربى دمشق. وقال الضحاك: هو صنم كانوا يعبدونه.

وقوله: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أى: أتعبدون صنما؟ ﴿ وَتَذُرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴾ أى: هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له. قال الله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهٗ فَأَتَانَهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾

أى للعداب يوم الحساب ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى : الموحدين منهم . وقوله : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أى : ثناء جميلا ، ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ ﴾ كما يقال فى إسماعيل : إسماعيلين . وهى لغة بنى أسد . وقرأ آخرون : «سلام على إدراسين» ، وهى قراءة ابن مسعود . وآخرون : «سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ» ، يعنى : آل محمد ﷺ . وقوله : ﴿ إِنَّا كَذَلِكْ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قد تقدم تفسيره .

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٦﴾ إِذْ بَجَّيْنَتْهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٥﴾ إِلَّا جَحُورًا فِي الْفَعْرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّا لَنَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط ، عليه السلام ، أنه بعثه إلى قومه فكذوبه ، فنجاه الله من بين أظهرهم هو وأهله ، إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها ، فإن الله تعالى أهلكتهم بأنواع من العقوبات ، وجعل محلثهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح ، وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلا ونهارا ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّا لَنَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أى : أفلا تعتبرون بهم ، كيف دمر الله عليهم ، وتعلمون أن للكافرين أمثالها؟

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْقَمَمَةُ الْحَوْثُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤١﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٢﴾ لَلِيتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴿ فَبَدَّدَتْهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ زَيْدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

قد تقدمت قصة يونس ، عليه السلام ، فى سورة الأنبياء . وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : «ما ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى» ونسبه إلى أمه (١) ، وفى رواية قيل : إلى أبيه . وقوله : ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ قال ابن عباس : هو الموقر ، أى : المملوء بالامتنعة ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ أى : قارع ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ أى : المغلوبين . وذلك أن السفينة تلعبت بها الأمواج من كل جانب ، وأشرفوا على الغرق ، فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقى فى البحر ، لتخف بهم السفينة ، فوقعت القرعة على نبي الله يونس ، عليه الصلاة والسلام ، ثلاث مرات ، وهم يظنون به أن يلقى من بينهم ، فتجرد من ثيابه ليلقى نفسه وهم يأبون عليه ذلك . وأمر الله تعالى حوتا من البحر الأخضر أن يشق البحار ، وأن يلتقم يونس ، عليه السلام ، فلا يهشم له لحما ، ولا يكسر له عظما . فجاء ذلك الحوت وألقى يونس ، عليه السلام ، نفسه ،

فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها. ولما استقر يونس فى بطن الحوت، حسب أنه قد مات، ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حى، فقام يصلى فى بطن الحوت، وكان من جملة دعائه: «يا رب، اتخذتُ لك مسجداً فى موضع لم يبلغه أحد من الناس» واختلفوا فى مقدار ما لبث فى بطن الحوت، فقيل: ثلاثة أيام، وقيل: سبعة، وقيل: أربعين يوماً. وقال الشعبى: التقمه ضحى، وقذفه عشية. والله أعلم بمقدار ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾، قيل: لولا ما تقدم له من العمل فى الرخاء. قاله الضحاک بن قيس، وقتادة، وغير واحد. واختاره ابن جرير. وفى حديث عن ابن عباس: «تَعَرَّفَ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفُكَ فِي الشَّدَةِ» (١). وقال ابن عباس، وسعيد بن جبیر، وعطاء بن السائب، وقتادة: ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ يعنى: المصلين. وصرح بعضهم بأنه كان من المصلين قبل ذلك. وقال بعضهم: كان من المسبحين فى جوف أبيه. وقيل: المراد: ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ هو قوله: ﴿ فَادَّأَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَأِلهُ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]، قاله سعيد بن جبیر وغيره.

ولهذا قال تعالى: ﴿ فَبَيِّنْنَا لَهُ ﴾ أى: ألقيناه ﴿ بِالرَّغَاءِ ﴾ قال ابن عباس وغيره: وهى الأرض التى ليس بها نبت ولا بناء. قيل: على جانب دجلة. وقيل: بأرض اليمن. فالله أعلم. ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ أى: ضعيف البدن. قال ابن مسعود، كهيئة الفرخ ليس عليه ريش. وقال السدى: كهيئة الصبى حين يولد، وهو المنفوس. وقاله ابن عباس، وابن زيد أيضا. ﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴾ قال ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، وغير واحد قالوا كلهم: اليقطين هو القرع. وعن سعيد ابن جبیر: وكل شجرة لا ساق لها فهى من اليقطين. وفى رواية عنه: كل شجرة تهلك من عامها فهى من اليقطين. وذكر بعضهم فى القرع فوائد، منها: سرعة نباته، وتظليل ورقه لكبره، ونعومته، وأنه لا يقربها الذباب، وجودة أغذية ثمره، وأنه يؤكل نيئا ومطبوخا بلبه وقشره أيضا. وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يُحِبُّ الدَّبَّاءَ، ويتبعه من نواحي الصَّحْفَةِ (٢).

وقوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ عن ابن عباس أنه قال: إنما كانت رسالة يونس بعد ما نبذه الحوت. رواه ابن جرير. وقال مجاهد: أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت. قلت: ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولا، أمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت، فصدقوه كلهم وأمَّنوا به.

وقوله تعالى: ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ قال ابن عباس - فى رواية عنه: بل يزيدون، وكانوا مائة

(١) المسند (٢٦٦٩)، وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح»، والترمذى (٢٥١٦)، وقال: «حسن صحيح».

(٢) البخارى (٥٤٣٩).

وثلاثين ألفاً. وعنه: مائة ألف وبضعة وثلاثين ألفاً. قال ابن جرير: وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول في ذلك: معناه إلى المائة الألف ، أو كانوا يزيدون عندكم، يقول: كذلك كانوا عندكم. ولهذا سلك ابن جرير هاهنا ما سلكه عند قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤] ، وقوله: ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ [النساء: ٧٧] ، وقوله: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ [النجم: ٩] أن المراد ليس أنقص من ذلك ، بل أزيد . وقوله: ﴿ فَأَمِنُوا ﴾ أى : فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس ، عليه السلام ، جميعهم ﴿ فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ أى : إلى وقت آجالهم، كقوله: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨] .

﴿ فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَشُوتُ ﴾ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفِكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَتُوا بِكِسْفٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْإِنْتِ سَبْأً وَقَدْ عَلِمَتِ الْإِنْتِ إِيْتَهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلُصِينَ ﴿١٦٠﴾

يقول تعالى منكرأ على هؤلاء المشركين فى جعلهم لله البنات، سبحانه، ولهم ما يشتهون، أى: من الذكور، أى: يودون لأنفسهم الجيد. ﴿ وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل: ٥٨] أى: يسوؤه ذلك، ولا يختار لنفسه إلا البنين. يقول عز وجل: فكيف نسبوا إلى الله تعالى القسم الذى لا يختارونه لأنفسهم؟ ولهذا قال: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴾ أى: سلهم على سبيل الإنكار عليهم: ﴿ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ كقوله: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى. تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢] .

وقوله: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ أى: كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم ؟ كقوله: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩] أى: يسألون عن ذلك يوم القيامة. وقوله: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفِكِهِمْ ﴾ أى: من كذبهم ﴿ لَيَقُولُونَ. وَلَدَ اللَّهُ ﴾ أى: صدر منه الولد ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ، فذكر الله عنهم فى الملائكة ثلاثة أقوال فى غاية الكفر والكذب، فأولا جعلوهم بنات الله، فجعلوا لله ولداً. وجعلوا ذلك الولد أنثى، ثم عبدوهم من دون الله. وكل منها كاف فى التخليد فى نار جهنم. ثم قال منكرأ عليهم: ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ أى: أى شىء يحمله عن أن يختار البنات دون البنين ؟ كقوله: ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ [الإسراء: ٤٠] ؛ ولهذا قال: ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أى : ما لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون ؟ ﴿ أَفَلَا

تَذَكَّرُونَ . أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٦١﴾ : أى : حجة على ما تقولونه ﴿ فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ : أى : هاتوا برهاناً على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب مُنَزَّل من السماء عن الله : أنه اتخذ ما تقولونه ، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل ، بل لا يُجَوِّزُه العقل بالكلية .

وقوله : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا ﴾ قال مجاهد : قال المشركون : الملائكة بنات الله . فسأل أبو بكر : فمن أمهاتهن ؟ قالوا : بنات سرّوات الجن . وكذا قال قتادة ، وابن زيد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةُ ﴾ : أى : الذين نسبوا إليهم ذلك : ﴿ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ : أى : إن الذين قالوا ذلك لمحضرون فى العذاب يوم الحساب لكذبهم فى ذلك واقترائهم ، وقولهم الباطل بلا علم .
وقوله : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ : أى : تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد ، وعمّا يصفه به الظالمون الملحدون علواً كبيراً . وقوله : ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ وهم التابعون للحق المنزل على كل نبي ومرسل .

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسِيحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

يقول تعالى مخاطباً للمشركين : ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ . مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ . إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴾ : أى : إنما يتقاد لمقالتكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة من هو أصل منكم عن ذرى للنار ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الاعراف : ١٧٩] . فهذا الضرب من الناس هو الذى يتقاد لدين الشرك والكفر والضلالة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ . يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ الْفِكْرِ ﴾ [الذاريات : ٨ ، ٩] : أى : إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل .

ثم قال تعالى مُتَزَهِّباً للملائكة مما نسبوا إليهم من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ : أى : له موضع مخصوص فى السماوات ومقامات العبادة لا يتجاوزها ولا يتعداه . وقال الضحاك فى تفسيره : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ : قال : كان مسروق يروى عن عائشة ، رضى الله عنها ، أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم » . فذلك قوله : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ (١) . ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴾ : أى : نقف صفواً فى الطاعة ، كما تقدم عند قوله : ﴿ وَالصَّافَاتُ صَفًّا ﴾ قال الوليد بن عبد الله بن أبى مغيث : كانوا لا يصفون فى الصلاة حتى نزلت : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴾ ،

(١) مشكل الآثار للطحاوى (٤٣/٢) ، والحديث رواه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٨٥٢) ، وقال : « إسناد صحيح على شرط مسلم ، وفى ابن عطاء كلام لا يضر » .

فصفوا. وقال أبو نضرة: كان عمر إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه، ثم قال: أقيموا صفوفكم، استوتوا قياماً، يريد الله بكم هدى الملائكة، ثم يقول: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴾ ، تأخر يا فلان، تقدم يا فلان ، ثم يتقدم فيكبر. وفي صحيح مسلم عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ مَسْجِداً، وَتَرْتَبُهَا طَهُوراً» الحديث (١).

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ أى: نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقدسه ونزفه عن النقائص، فنحن عبيد له، فقراء إليه، خاضعون لديه . وقال ابن عباس ، ومجاهد : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ : الملائكة ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴾ : الملائكة ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ : الملائكة يسبحون الله عز وجل . وقال قتادة: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ يعنى: المصلون، يشنون بمكانهم من العبادة، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ لَدَا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكُمْ نَجْرِيهِمْ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الانبياء : ٢٦ - ٢٩] .

وقوله : ﴿ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ . لَوْ أَنَّا عُنِدْنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ . لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى: قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله، وما كان من أمر القرون الأولى، ويأتيهم بكتاب الله، كما قال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنُجَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [فاطر: ٤٢] ، وقال: ﴿ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لِعَافِينَ . أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْرِي الَّذِينَ يَصْدَفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدَفُونَ ﴾ [الانعام : ١٥٦ ، ١٥٧] ؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ، وعيد أكيد وتهديد شديد، على كفرهم بربهم - عز وجل - وتكذيبهم - رسوله ﷺ .

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِن جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ قَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَنْصِرَهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفِعْدَايَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَنْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ أى: تقدم فى الكتاب الأول أن العاقبة للرسول وأتباعهم فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لِلْعَالَمِينَ أَنَا وَرَسُولِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١] ؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾ أى: فى الدنيا

والآخرة. كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم من كذبهم وخالفهم، وكيف أهلك الله الكافرين، ونجى عباده المؤمنين: ﴿ وَإِنْ جُندنا لَهُمُ الْعَالُونَ ﴾ أى: تكون لهم العقابة. وقوله جل وعلا: ﴿ قَوْلُ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴾ أى: اصبر على أذاهم لك، وانتظر إلى وقت مؤجل، فإننا سنجعل لك العقابة والنصرة والظفر؛ ولهذا قال بعضهم: نسا ذلك إلى يوم بدر. وما بعدها أيضاً فى معناها.

وقوله: ﴿ وَأَبْصِرُهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ أى: أنظرهم وارقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال بمخالفتك وتكذيبك؛ ولهذا قال على وجه التهديد والوعيد: ﴿ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ . ثم قال عز وجل: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أى: هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم، فإن الله يغضب عليهم بذلك، ويعجل لهم العقوبة، ومع هذا أيضاً كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة، قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذِرِينَ ﴾ أى: فإذا نزل العذاب بمحلتهم، فبئس ذلك اليوم يومهم، بإهلاكهم ودمارهم . قال السدى: ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ يعنى: بدارهم ﴿ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذِرِينَ ﴾ أى: فبئس ما يتصبحون، أى: بئس الصباح صباحهم؛ ولهذا ثبت فى الصحيحين عن أنس، قال: صَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْرًا، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش، رجعوا وهم يقولون: محمد والله، محمد والخميس. فقال النبى ﷺ: «الله أكبر، خربت خير، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» (١). وروى الإمام أحمد عن أبى طلحة قال: لما صَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْرًا، وقد أخذوا مساحيهم وغدوا إلى حروثهم وأرضيهم، فلما رأوا النبى ﷺ نكصوا مدبرين، فقال نبى الله ﷺ: «الله أكبر، الله أكبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» (٢). لم يخرجوه من هذه الوجهة، وهو صحيح على شرط الشيخين.

وقوله: ﴿ وَقَوْلُ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ . وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك.

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

ينزه تعالى نفسه ويقدها ويرثها عما يقول الظالمون المكذبون المعتدون - تعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً - ولهذا قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ ﴾ أى: ذى العزة التى لا تُرَامُ ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أى: عن قول هؤلاء المعتدين المفتريين، ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ أى: سلام الله عليهم فى الدنيا والآخرة، لسلامة ما قالوه فى ربهم، وصحته وحقيقته، ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى: له الحمد فى الاولى والآخرة فى كل حال. ولما كان التسييح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة،

(١) البخارى (٣٧١، ٤١٩٧) ومسلم (١٣٦٥ / ١٢٠).

(٢) المسند (٢٨ / ٤).

ويستلزم التنزيه من النقص - قرن بينهما في هذا الموضع ، وفي مواضع كثيرة من القرآن ؛ ولهذا قال : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . وقد وردت أحاديث في كفارة المجلس : « سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » (١) . وقد أفردت لها جزءا على حدة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(١) انظر على سبيل المثال : المسند (٣ / ٤٥٠) والترمذى (٣٤٣٣) وأبو داود (٤٨٥٨) والحاكم في المستدرک (٥٣٦ / ١ ، ٥٣٧) .

تفسير سورة ص

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ ﴿١﴾ بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَرَّ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَوَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة « البقرة » بما أغنى عن إعادته هاهنا .

وقوله تعالى : ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ أى : والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد، ونفع لهم فى المعاش والمعاد . قال الضحاك فى قوله : ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ كقوله : ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الانبيا : ١٠] أى : تذكيركم . وكذا قال قتادة ، واختاره ابن جرير . وقال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وإسماعيل بن أبى خالد : ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ : ذى الشرف ، أى : ذى الشأن والمكانة . ولا منافاة بين القولين ، فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار . واختلفوا فى جواب هذا القسم ، فقال بعضهم : هو قوله : ﴿إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٍ﴾ [ص : ١٤] . وقال قتادة : جوابه : ﴿بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ ، واختاره ابن جرير .

وقوله : ﴿بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ أى : إن فى هذا القرآن لذكرًا لمن يتذكر ، وعبرة لمن يعتبر . وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ أى : استكبار عنه وحمية ، ﴿وَشِقَاقٍ﴾ أى : ومخالفة له ومعاندة ومفارقة .

ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسول وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء ، فقال : ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أى : من أمة مكذبة ، ﴿فَنَادَوا﴾ أى : حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله . وليس ذلك بمجد عنهم شيئاً . كما قال تعالى : ﴿فَلَمَّا أَحْسَوا بِأَسَنا إِذا هُمْ مِنْها يركُضونَ﴾ [الانبيا : ١٢] أى : يهربون ، ﴿لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلى ما أترقتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسألونَ﴾ [الانبيا : ١٣] .

وقال ابن عباس : ليس بحين مغاث . وقال محمد بن كعب فى قوله : ﴿فَنَادَوا وَوَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ ، يقول : نادوا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم ، واستنصوا للتوبة حين تولت الدنيا عنهم . وقال قتادة : لما رأوا العذاب أرادوا التوبة فى غير حين النداء . وقال مجاهد : ليس بحين فرار ولا إجابة . وقد روى نحو هذا عن عكرمة ، وسعيد بن جبير ، وأبى مالك ، والضحاك ، وزيد بن أسلم ، والحسن ، وقتادة .

وهذه الكلمة وهى «لات»، هى «لا» التى للنفى، زيدت معها «التاء»، كما تزداد فى «ثم»، فيقولون: «ثمت»، و«رب» فيقولون: «ربت». وهى مفصولة، والوقف عليها. ومنهم من حكى عن المصحف الإمام فيما ذكره ابن جرير أنها متصلة بحين: «ولا تحين مناص». والمشهور الأول. ثم قرأ الجمهور بنصب «حين»، تقديره: وليس الحين حين مناص. ومنهم من جوز النصب بها، ومنهم من جوز الجر بها. وأهل اللغة يقولون: النوص: التأخر، والبوص: التقدم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَاتِ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أى: ليس الحين حين فرار ولا ذهاب.

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا سَاحِرٌ كٰذٰبٌ ﴿٤﴾ اٰجْعَلِ الْاٰلِهَةَ اِلٰهًا وَاَحَدًا ﴿٥﴾ اِنْ هٰذَا اِلَّا نَسِيٌّ عَجَابٌ ﴿٦﴾ وَاَنْطَلَقَ الْمَلٰٓئِمِنْهُمْ اَنْ اَمْشُوا وَاَصْبِرْ وَاَعْلٰى اِلٰهَتِكُمْ اِنْ هٰذَا اِلَّا نَسِيٌّ يُّرَادُ ﴿٧﴾ مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِى الْاٰخِرَةِ اِنْ هٰذَا اِلَّا اَخْتِلَاقٌ ﴿٨﴾ اَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِيْ بَلْ لَمَّا يَذُوْعًا عَذَابٍ ﴿٩﴾ اَمْ عِنْدَهُمْ خَزَاۓِنٌ رَّحْمَةً رَّبِّكَ اَلْعَزِيْزِ الْوَعَابِ ﴿١٠﴾ اَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَاَلْاَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِى الْاَسْبَابِ ﴿١١﴾ جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْاَحْزَابِ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فى تعجبهم من بعثة الرسول الله ﷺ بشيراً ونذيراً، كما قال عز وجل: ﴿اَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا اَنْ اَوْحَيْنَا اِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ اَنْ اَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا اَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صٰدِقٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكٰفِرُونَ اِنْ هٰذَا اِلَّا سَاحِرٌ مَّبِيْنٌ﴾ [يونس: ٢٢]. وقال هاهنا: ﴿وَعَجِبُوْا اَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أى: بشر مثلهم، ﴿وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هٰذَا سَاحِرٌ كٰذٰبٌ. اٰجْعَلِ الْاٰلِهَةَ اِلٰهًا وَاَحَدًا﴾ أى: أزعجهم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟! أنكر المشركون ذلك - قبحهم الله تعالى - وتعجبوا من ترك الشرك بالله، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم، وإفراد الإله بالوحدانية، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا: ﴿اٰجْعَلِ الْاٰلِهَةَ اِلٰهًا وَاَحَدًا اِنْ هٰذَا اِلَّا نَسِيٌّ عَجَابٌ. وَاَنْطَلَقَ الْمَلٰٓئِمِنْهُمْ﴾ وهم ساداتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم قائلين: ﴿اَمْشُوا﴾ أى: استمروا على دينكم ﴿وَاَصْبِرْ وَاَعْلٰى اِلٰهَتِكُمْ﴾ ، ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد.

وقوله: ﴿اِنْ هٰذَا اِلَّا نَسِيٌّ يُّرَادُ﴾ قال ابن جرير: إن هذا الذى يدعوننا إليه محمد من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم، والاستعلاء، وأن يكون له منكم أتباع، ولسنا نحبيه إليه.

ذكر سبب نزول هذه الآيات :

روى ابن جرير عن ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب، دخل عليه رهط من قريش، فيهم أبو جهل، فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنيهته؟ فبعث إليه، فجاء النبي ﷺ فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل، قال: فخشى أبو جهل إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق له عليه. فوثب فجلس فى ذلك المجلس، ولم يجد رسول الله ﷺ مجلساً قرب عمه، فجلس عند الباب. فقال له أبو طالب:

أى ابن أخى، ما بال قومك يشكونك، يزعمون أنك تشتم آلهتهم، تقول وتقول؟ قال: وأكثروا عليه من القول، وتكلم رسول الله ﷺ فقال: « يا عم، إني أريدهم على كلمة واحدة! يقولونها تدين لهم بها العرب، وتؤدى إليهم بها العجم الجزية»، فزغوا لكلمته ولقوله، فقال القوم: كلمة واحدة! نعم وأبيك عشرا، فقالوا: وما هي؟ وقال أبو طالب: وأى كلمة هي يا ابن أخى؟ فقال: « لا إله إلا الله»، فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾، قال: ونزلت من هذا الموضع إلى قوله: ﴿ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابَ ﴾. وهكذا رواه الإمام أحمد والنسائي نحوه، ورواه الترمذى، نحوه. وقال الترمذى: حسن (١). وقولهم: ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ﴾ أى: ما سمعنا بهذا الذى يدعوننا إليه محمد من التوحيد فى الملة الآخرة. قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد: يعنون دين قريش. وقال غيرهم: يعنون النصرانية، قاله محمد بن كعب، والسدى. وقال ابن عباس: يعنى: النصرانية، قالوا: لو كان هذا القرآن حقا أخبرتنا به النصارى. ﴿ إِنَّ هَذَا إِلاَّ اخْتِلَاقٌ ﴾: قال مجاهد، وقتادة: كذب، وقال ابن عباس: تخرص.

وقولهم: ﴿ أُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ يعنى: أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم، كما قالوا فى الآية الأخرى: ﴿ لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١] قال الله تعالى: ﴿ أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ [الزخرف: ٣٢]؛ ولهذا لما قالوا هذا الذى دل على جهلهم وقلة عقلهم، فى استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم، قال الله تعالى: ﴿ بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابَ ﴾ أى: إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذاب الله ونقمته، سيعلمون غيب ما قالوا، وما كذبوا به، يوم يُدْعَوْنَ إلى نار جهنم دَعَاً.

ثم قال مبينا أنه المتصرف فى ملكه، الفعال لما يشاء، الذى يعطى من يشاء ما يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده، ويختتم على قلب من يشاء، فلا يهديه أحد من بعد الله، وإن العباد لا يملكون شيئا من الأمر، وليس إليهم من التصرف فى الملك ولا مثقال ذرة، وما يملكون من قطيعير؛ ولهذا قال تعالى منكرًا عليهم: ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾ أى: العزيز الذى لا يرام جنباه، الوهاب الذى يعطى ما يريد لمن يريد. وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا . أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا . فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكُفِيَ بِهِمْ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ٥٣-٥٥]، وقوله: ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠]، وذلك بعد الحكاية عن الكفار أنهم أنكروا بعثة الرسول البشرى، وكما أخبر تعالى عن قوم صالح عليه السلام حين قالوا: ﴿ أَلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ . سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْأَشْرِ ﴾ [القمر: ٢٥، ٢٦] .

(١) ابن جرير فى التفسير (٧٩/٢٣) والنسائي فى الكبرى (١١٤٣٦، ١١٤٣٧) والترمذى (٣٢٣٢).

وقوله : ﴿ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴾ أى : إن كان لهم ذلك فليصعدوا فى الأسباب. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم : يعنى طرق السماء. وقال الضحاك : فليصعدوا إلى السماء السابعة. ثم قال : ﴿ جُئِدَ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ أى : هؤلاء الجند المكذبون الذين هم فى عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويكبتون، كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين، وهذه كقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ وكان ذلك يوم بدر، ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ ﴾ [القمر : ٤٤ - ٤٦] .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ﴿١١﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٢﴾ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٣﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٥﴾ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية ، وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات فى مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقد تقدمت قصصهم مبسطة فى أماكن متعددة.

وقوله : ﴿ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ﴾ أى : كانوا أكثر منكم وأشد قوة ، وأكثر أموالاً وأولاداً، فما دفع ذلك عنهم من عذاب الله من شىء، لما جاء أمر ربك؛ ولهذا قال : ﴿ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ فجعل علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسل، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر. وقوله : ﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ قال زيد بن أسلم : أى ليس لها مثنوية، أى : ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها، أى : فقد اقتربت وندت وأزفت، وهذه الصيحة هى نفخة الفزع التى يأمر الله إسرائيل أن يطولها، فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع، إلا من استثنى الله عز وجل.

قوله : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ هذا إنكار من الله على المشركين فى دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب، فإن القبط هو الكتاب ، وقيل : هو الحظ والنصيب. قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد : سألو تعجيل العذاب - زاد قتادة : كما قالوا : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] . وقيل : سألو تعجيل نصيبهم من الجنة، إن كانت موجودة أن يلقوا ذاك فى الدنيا. وإنما خرج هذا منهم مخرج الاستبعاد والتكذيب. وقال ابن جرير : سألو تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر فى الدنيا. وهذا الذى قاله جيد ، والله أعلم.

ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد، قال الله تعالى لرسوله ﷺ أما بالصبر على أذاهم، ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر :

﴿ ١٧ ﴾ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿ ١٨ ﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿ ١٩ ﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿ ٢٠ ﴾

يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود ، عليه السلام : أنه كان ذا أيد ، والأيد : القوة في العلم والعمل . قال ابن عباس وابن زيد والسدي : الأيد : القوة ، وقرأ ابن زيد : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِمُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧] . وقال مجاهد : الأيد : القوة في الطاعة . وقال قتادة : أعطى داود عليه السلام ، قوة في العبادة ، وفقها في الإسلام ، وقد ذكر لنا أنه ، عليه السلام ، كان يقوم ثلث الليل ، ويصوم نصف الدهر . وهذا ثابت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفر إذا لاقى » (١) . وإنه كان أواباً ، وهو الرجوع إلى الله عز وجل في جميع أموره وشؤونه .

وقوله : ﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ أى : إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار ، كما قال تعالى : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ [سبأ : ١٠] . وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه ، وترجع بترجيعه ، إذا مر به الطير وهو سابح في الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور ، لا تستطيع الذهاب ، بل تقف في الهواء ، وتسبح معه وتحييه الجبال الشامخات ، ترجع معه ، وتسبح تبعاً له . ولهذا قال : ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ أى : محبوسة في الهواء ﴿ كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ أى : مطيع يسبح تبعاً له . قال سعيد بن جبير ، و قتادة ، زيد بن أسلم ، وابن زيد : ﴿ كُلُّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ أى : مطيع .

وقوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ ﴾ أى : جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك . قال مجاهد : كان أشد أهل الدنيا سلطاناً . ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ قال مجاهد : يعنى : الفهم والعقل والفطنة . وقال مرة : الحكمة والعدل . وقال مرة : الصواب . وقال قتادة : كتاب الله واتباع ما فيه . وقال السدي : ﴿ الْحِكْمَةَ ﴾ : النبوة . ﴿ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴾ قال شريح القاضي ، والشعبي : فصل الخطاب : الشهود والأيان . وقال قتادة : شاهدان على المدعى ، أو يمين المدعى عليه ، هو فصل الخطاب الذى فصل به الأنبياء والرسل - أو قال : المؤمنون والصالحون - وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة ، وكذا قال أبو عبد الرحمن السلمى . وقال مجاهد ، والسدي : هو إصابة القضاء وفهم ذلك . وقال مجاهد أيضاً : هو الفصل في الكلام وفى الحكم . وهذا يشمل هذا كله ، وهو المراد ، واختاره ابن جرير . وكذا قال الشعبي : فصل الخطاب : « أما بعد » .

﴿ وَهَلْ أُنذِرَكَ نَبَأَ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ ﴿١١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿١٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْعَةً وَلِيَ نَجْعَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿١٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِيَّاكَ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿١٤﴾ فَفَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّآبٍ ﴿١٥﴾

وقوله: ﴿ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾: إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه، وهو أشرف مكان في داره، وكان قد أمر ألا يدخل عليه أحد ذلك اليوم، فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب، أى: احتاطا به يسألانه عن شأنهما. وقوله: ﴿ وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾ أى: غلبنى. يقال: عز يعز: إذا قهر وغلب. وقوله: ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ قال ابن عباس: أى اختبرناه. وقوله: ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ أى: ساجدا ﴿ وَأَنَابَ ﴾ ويحتمل أنه ركع أولا، ثم سجد بعد ذلك ﴿ فَفَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ أى: ما كان منه مما يقال فيه: إن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وقد اختلف الأئمة فى سجدة «ص»، هل هى من عزائم السجود؟ على قولين، الجديد من مذهب الشافعى أنها ليست من عزائم السجود، بل هى سجدة شكر. والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال فى السجود فى «ص»: ليست من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها. ورواه البخارى، وأبو داود، والترمذى، والنسائى. وقال الترمذى: حسن صحيح (١). وروى البخارى عن العوام قال: سألت مجاهدا عن سجدة «ص» فقال: سألت ابن عباس: من أين سجدت؟ فقال: أو ما تقرأ: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ [الأنعام: ٨٤]، ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فكان داود، عليه السلام، ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدى به، فسجدها داود، عليه السلام، فسجدها رسول الله ﷺ (٢). وروى أبو داود: عن أبى سعيد الخدرى، قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر «ص»، فلما بلغ السجدة نزل فسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تشزّن الناس للسجود، فقال: « إنما هى توبة نبي، ولكنى رأيتمكم تشزّنتم ». فنزل وسجد، وسجدوا. تفرد به أبو داود (٣)، وإسناده على شرط الصحيح.

وقوله: ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّآبٍ ﴾ أى: وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله عز وجل بها، وحسن مرجع، وهو الدرجات العالية فى الجنة، لتوبته وعدله التام فى ملكه، كما جاء فى

(١) المسند (٣٣٨٧) والبخارى (١٠٦٩) وأبو داود (١٤٠٩) والترمذى (٥٧٧).

(٢) البخارى (٤٨٠٧). (٣) أبو داود (١٤١٠).

الصحيح: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين، الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا» (١) .

﴿ يَنْدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ (١١)

هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله. وقد توعد تعالى من ضل عن سبيله، وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد. روى ابن أبي حاتم عن إبراهيم أبي زرعة - وكان قد قرأ الكتاب - أن الوليد بن عبد الملك قال له: أيحاسب الخليفة، فإنك قد قرأت الكتاب الأول، وقرأت القرآن وفقهت؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أقول؟ قال: قل في أمان. قلت: يا أمير المؤمنين، أنت أكرم على الله أو داود؟ إن الله - عز وجل - جمع له النبوة والخلافة، ثم توعد في كتابه فقال: ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ ﴾ الآية. وقال عكرمة: ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾: هذا من المقدم والمؤخر، لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا. وقال السدي: لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب. وهذا القول أمشى على ظاهر الآية، والله سبحانه الموفق للصواب .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ (١٧) ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفَجَّارِ ﴾ (١٨) ﴿ كَتَبَ أَمْرُنَا إِلَيْكَ يَا مَرْكُوبٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِنَا وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (١٩)

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثا، وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحده، ثم يجمعهم يوم الجمع، فيثيب المطيع ويعذب الكافر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى: الذين لا يرون عبثا ولا معادا، وإنما يعتقدون هذه الدار فقط ﴿ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ أى: ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم.

ثم بين تعالى أنه من عدله وحكمته لا يساوى بين المؤمنين والكافرين ، فقال: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفَجَّارِ ﴾ أى: لا نفعل ذلك، ولا يستون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى، يثاب فيها هذا المطيع، ويعاقب فيها هذا الفاجر. وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء، فإننا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم

يموت بكمده، فلا بد في حكمة الحكيم العليم العادل، الذي لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا. وإذا لم يقع هذا في هذه الدار، فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزء والمواساة . ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة ، قال : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أي : ذوو العقول ، وهى الألبياب، جمع لب، وهو العقل. قال الحسن البصرى: والله ما تدبَّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله ، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل.

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿١١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿١٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿١٣﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود سليمان ، أى: نبيا، كما قال عز وجل: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ [النمل: ١٦] أى: فى النبوة، وإلا فقد كان له بنون غيره، فإنه قد كان عنده مائة امرأة حرائر. وقوله تعالى: ﴿ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ، ثناء على سليمان، عليه السلام، بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عز وجل.

وقوله: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ أى: إذ عرض على سليمان فى حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات. قال مجاهد : وهى التى تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة، والجياد: السراع. وكذا قال غير واحد من السلف . عن عائشة قالت : قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك - أو خيبر - وفى سهوتها ستر، فهبت الريح، فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة - لُعب - فقال: « ما هذا يا عائشة ؟ » قالت: بناتى. ورأى بينهن فرسا له جناحان من رفاع، فقال رسول الله ﷺ : « ما هذا الذى أرى وسطهن ؟ ». قالت: فرس. قال: « وما هذا الذى عليه ؟ ». قالت: جناحان قال: « فرس له جناحان! » قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة؟ قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ (١) .

وقوله: ﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ : ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمدا بل نسيانا، كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب، وذلك ثابت فى الصحيحين من غير وجه، من ذلك عن جابر قال: جاء عمر، يوم الخندق بعد ما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش، ويقول: يا رسول الله، والله ما كدت أصلى العصر حتى كادت الشمس تغرب. فقال رسول الله ﷺ : « والله ما صليتها ». فقال: فقمنا إلى بَطْحَانَ فتوضأ نبي الله ﷺ للصلاة وتوضأنا لها ، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب (٢) . ويحتمل أنه كان سائغا فى ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال.

والخيل تتراد للقتال. وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعا فنسخ ذلك بصلاة الخوف، ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسابقة والمضايقة، حيث لا يمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود، كما فعل الصحابة في فتح تستر، وهو منقول عن مكحول، والأوزاعي، وغيرهما. والأول أقرب؛ لأنه قال بعدها: ﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ لَفَطْفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ قال الحسن البصرى. قال: لا، والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك. ثم أمر بها فعمرت. وكذا قال قتادة. وقال السدى: ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف. وقال ابن عباس: جعل يمسح أعراف الخيل، وعراقيبها حبالها. وهذا القول اختاره ابن جرير، قال: لأنه لم يكن ليعذب حيوانا بالعرقبة، ويهلك مالا من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلواته بالنظر إليها ولا ذنب لها.

وهذا الذى رجح به ابن جرير فيه نظر؛ لأنه قد يكون فى شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيما إذا كان غضبا لله عز وجل بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة؛ ولهذا لما خرج عنها لله تعالى عوضه الله تعالى ما هو خير منها، وهى الريح التى تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، غدوها شهر ورواحها شهر، فهذا أسرع وخير من الخيل. وروى الإمام أحمد عن أبى قتادة وأبى الدهماء - وكانا يكثران السفر نحو البيت - قالوا: أتينا على رجل من أهل البادية، فقال البدوى: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمنى مما علمه الله تعالى، وقال: « إنك لا تدع شيئا اتقاء الله - تعالى - إلا أعطاك الله خيرا منه » (١).

﴿ وَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ الْوَهَّابُ ﴿٢٥﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٢٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ ﴿٢٧﴾ وَعَآخِرِينَ مُؤْمِرِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٢٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٩﴾ وَإِن لَّمْ عِندَنَا لُزْفٌ وَحُسْنٌ مَّآبٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ أى: اختبرناه بأن سلبناه الملك مرة ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ : قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهم: يعنى شيطانا ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ أى: رجع إلى ملكه وسلطانه وأبهته. ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ قال بعضهم: معناه: لا ينبغى لأحد من بعدى، أى: لا يصلح لأحد أن يسلبني بعدى، كما كان من قضية الجسد الذى ألقى على كرسيه، لا أنه يحجر على من بعده من الناس. والصحيح أنه سأل من الله تعالى ملكا لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله، وهذا هو ظاهر السياق من الآية، وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ.

روى البخارى عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: « إن عفريتا من الجن تفلت على البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع على الصلاة، فأمكننى الله منه، وأردت أن أربطه إلى سارية

(١) المسند (٥ / ٧٨)، وقال الهيثمى فى الزوائد (٢٩٩/١٠): « رجاله رجال الصحيح ».

من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم ، فذكرت قول أخى سليمان ، عليه السلام : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ . قال روح : فرده خاسئاً . وكذا رواه مسلم والنسائي ، من حديث شعبة ، به (١) . وروى مسلم عن أبى الدرداء قال : قام رسول الله ﷺ يصلى ، فسمعناه يقول : « أعوذ بالله منك » . ثم قال : « ألعنك بلعنة الله » - ثلاثاً - وبسط يده كأنه يتناول شيئاً ، فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله ، قد سمعناك تقول فى الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك ؟ قال : « إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليحعله فى وجهى ، فقلت : أعوذ بالله منك - ثلاث مرات - ثم قلت : ألعنك بلعنة الله التامة . فلم يتأخر - ثلاث مرات - ثم اردت أخذه والله لولا دعوة أخينا سليمان ، لأصبح موثقا يلعب به صبيان أهل المدينة » (٢) . وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى ، أن رسول الله ﷺ قام يصلى صلاة الصبح وهو خلفه ، فقرأ ، فالتبست عليه القراءة ، فلما فرغ من صلاته قال : « لو رأيتموني وإبليس ، فأهويت بيدي ، فما زلت أحتقه حتى وجدت برد لعابه بين إصبعى هاتين - الإبهام والتي تليها - ولولا دعوة أخى سليمان لأصبح مربوطا بسارية من سواري المسجد ، يتلاعب به صبيان المدينة ، فمن استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل » . وقد روى أبو داود منه : « من استطاع منكم ألا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل » (٣) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله الديلمى قال : دخلت على عبد الله بن عمرو ، وهو فى حائط له بالطائف يقال له : « الوهط » ، وهو مخاصر فتى من قريش يزن بشرب الخمر ، فقلت : بلغنى عنك حديث أنه « من شرب شربة خمر لم يقبل الله ، عز وجل ، له توبة أربعين صباحا ، وإن الشقى من شقى فى بطن أمه ، وإنه من أتى بيت المقدس لا ينهزه إلا الصلاة فيه ، خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه » ، فلما سمع الفتى ذكر الخمر اجتذب يده من يده ، ثم انطلق . فقال عبد الله بن عمرو : إنى لا أحل لأحد أن يقول على ما لم أقل ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من شرب من الخمر شربة ، لم تقبل له صلاة أربعين صباحا ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحا ، فإن عاد كان حقا على الله أن يسقيه من رذغة الخبث يوم القيامة » . قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى ، ومن أخطأه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على علم الله عز وجل » . وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن سليمان سأل الله تعالى ثلاثا ، فأعطاه اثنتين ، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة : سألها حكما يصادف حكمه ،

(١) البخارى (٤٨٠٨) ومسلم (٣٩/٥٤١) والنسائى فى الكبرى (١١٤٤٠) .

(٢) مسلم (٤٠/٥٤٢) .

(٣) المسند (٨٣/٣) وأبو داود (٦٩٩) ، وصححه الألبانى .

فأعطاه إياه ، وسأله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ، فأعطاه إياه ، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد ، خرج من خطبته كيوم ولدته أمه ، فنحن نرجو أن يكون الله تعالى قد أعطانا إياها » (١) . وقد روى هذا الفصل الأخير من هذا الحديث النسائي وابن ماجه عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه ، عز وجل ، خللا ثلاثا » وذكره (٢) . وروى الإمام أحمد عن سلمة بن الأكوع ، عن أبيه قال : ما سمعت رسول الله ﷺ دعا دعاء إلا استفتحته « سبحان الله ربى الأعلى العلى الوهاب » (٣) .

وقوله : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَاب ﴾ قال الحسن البصرى : لما عقر سليمان الخيل غضبا لله ، عز وجل ، عوضه الله ما هو خير منها وأسرع ، الريح التى غدوها شهر ورواحها شهر . وقوله : ﴿ حَيْثُ أَصَاب ﴾ أى : حيث أراد من البلاد . وقوله : ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴾ أى : منهم من هو مستعمل فى الأبنية الهائلة من محاريب وثمانيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التى لا يقدر عليها البشر ، وطائفة غواصون فى البحار يستخرجون ما فيها من اللآلى والجواهر والأشياء النفيسة التى لا توجد إلا فيها ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ أى : موثوقون فى الأغلال والأكبال ، ممن قد تمرد وعصى وامتنع من العمل وأبى ، أو قد أساء فى صنيعه واعتدى .

وقوله : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أى : هذا الذى أعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألتنا ، فأعط من شئت واحرم من شئت ، لا حساب عليك ، أى : مهما فعلت فهو جائز لك ، احكم بما شئت فهو صواب . وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خير بين أن يكون عبداً رسولا - وهو الذى يفعل ما يؤمر به ، وإنما هو قاسم يقسم بين الناس كما أمره الله به - وبين أن يكون ملكا نبيا ، يعطى من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح ، اختار المنزلة الأولى بعدما استشار جبريل ، فقال له : تواضع . فاختار المنزلة الأولى ؛ لأنها أرفع قدرا عند الله وأعلى منزلة فى المعاد . وإن كانت المنزلة الثانية وهى النبوة مع الملك عظيمة أيضا فى الدنيا وفى الآخرة ؛ ولهذا لما ذكر تعالى ما أعطى سليمان فى الدنيا نبه على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضا ، فقال : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحَسَنَ مَّآبٍ ﴾ أى : فى الدار الآخرة .

(١) المسند (٦٦٤٤) وقال الشيخ شاكر : « إسناده صحيح » . والحديث فى المخطوطة والمطبوعة عن « ربيعة بن يزيد بن عبد الله الديلمي » . وهو خطأ ، فإنهما اسمان ، وربيعه إنما يروى عن عبد الله . والصواب ما أثبتناه « كما هو فى المسند » .

(٢) النسائي (٦٩٣) وابن ماجه (١٤٠٨) ، وصححه الألبانى وحرف « ابن عمرو » فى المطبوعة إلى « ابن عمر » .

(٣) المسند (٥٤/٤) قال الهيثمى فى الزوائد (١٥٩/١٠) : « فيه عمر بن راشد اليمامى وثقه غير واحد ، وبقيه رجاله رجال الصحيح » .

﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدًا نَّوْبًا إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرْكُضْ بِرَجْلِكَ هَذَا مَغْتَسِلًا بَارِدًا وَشَرَابًا ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

يذكر تعالى عبده ورسوله أيوب ، عليه السلام ، وما كان ابتلاءه تعالى به من الضر في جسده وماله وولده ، حتى لم يبق من جسده مغرز إبرة سليما سوى قلبه ، ولم يبق له من حال الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه، غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله ورسوله ، فكانت تخدم الناس بالآجرة وتطعمه ، وتخدمه نحو من ثمانى عشرة سنة . وقد كان قبل ذلك فى مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا ، فسلم جميع ذلك ، حتى آل به الحال إلى أن ألقى على مزبلة من مزايل البلدة هذه المدة بكمالها ، ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته ، فإنها كانت لا تفارقه صباحاً ومساءً إلا بسبب خدمة الناس ، ثم تعود إليه قريباً . فلما طال المطال ، واشتد الحال ، وانتهى القدر المقدور ، وتم الأجل المقدر ، تضرع إلى رب العالمين وإله المرسلين ، فقال : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضَّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الانبياء : ٨٣] ، وفى هذه الآية الكريمة قال : ﴿ رَبِّ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ قيل : بنصب فى بدنى وعذاب فى مالى وولدى . فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين ، وأمره أن يقوم من مقامه ، وأن يركض الأرض برجله . ففعل فأنبع الله عينا وأمره أن يغتسل منها ، فأذهب جميع ما كان فى بدنه من الأذى . ثم أمره فضرب الأرض فى مكان آخر ، فأنبع له عينا أخرى وأمره أن يشرب منها ، فأذهبت جميع ما كان فى باطنه من السوء ، وتكاملت العافية ظاهرا وباطنا ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَرْكُضْ بِرَجْلِكَ هَذَا مَغْتَسِلًا بَارِدًا وَشَرَابًا ﴾ .

روى ابن جرير ، وابن أبى حاتم جميعاً عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « إن نبي الله أيوب ، عليه السلام ، لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد ، إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به ، كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم - والله - لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين . قال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال : من ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله ، فيكشف ما به . فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له . فقال أيوب : لا أدري ما تقول ، غير أن الله يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان ، فيذكران الله ، عز وجل ، فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما ، كراهية أن يذكر الله إلا فى حق . قال : وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها ، وأوحى الله تعالى إلى أيوب ، عليه السلام ، أن ﴿ أَرْكُضْ بِرَجْلِكَ هَذَا مَغْتَسِلًا بَارِدًا وَشَرَابًا ﴾ ، فاستبأته ، فالتفت تنظر ، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء ، وهو على أحسن ما كان . فلما رآته قالت : أى بارك الله فيك ، هل رأيت نبي الله المبتلى ؟ فوالله على ذلك ، ما رأيت رجلا أشبه به منك إذ كان صحيحا . قال : فإنى أنا هو . قال : وكان له

أندران ، أندر للقمح وأندر للشعير ، فبعث الله سبحانه ، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير حتى فاض . هذا لفظ ابن جرير (١) . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما أيوب يغتسل عريانا ، خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحثو فى ثوبه ، فناداه ربه : يا أيوب ، ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى يا رب ، ولكن لا غنى بى عن بركتك » . انفراد بإخراجه البخارى ، من حديث عبد الرزاق ، به (٢) .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ، قال الحسن ، وقتادة : أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم . وقوله : ﴿ رَحْمَةً مِنَّا ﴾ أى : به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته ، ﴿ وَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أى : لذوى العقول ، ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة .

وقوله : ﴿ وَخَذُ بِيَدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبَ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ ، وذلك أن أيوب ، عليه السلام ، كان قد غضب على زوجته ، ووجد عليها فى أمر فعلته . قيل : باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه ، فلما على ذلك ، وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة . وقيل : لغير ذلك من الأسباب . فلما شفاه الله وعافاه ، ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب ، فأثناه الله ، عز وجل ، أن يأخذ ضغثاً - وهو : الشمراخ - فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة ، وقد برت يمينه ، وخرج من حنثه ووفى بنذره ، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأناب إليه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ، أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه ﴿ نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أى : رجاع منيب ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣] .

﴿ وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى مخبرا عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين : ﴿ وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ ، أى : العمل الصالح والعلم النافع والقوة فى العبادة والبصيرة النافذة . قال ابن عباس : ﴿ أُولَى الْأَيْدِي ﴾ يقول : أولى القوة ﴿ وَالْأَبْصَارِ ﴾ يقول : الفقه فى الدين . وقال مجاهد : ﴿ أُولَى الْأَيْدِي ﴾ أى : القوة فى طاعة الله ﴿ وَالْأَبْصَارِ ﴾ أى : البصر فى الحق . وقال قتادة والسدى : أعطوا قوة فى العبادة وبصراً فى الدين .

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٣ / ١٠٧) ورواه البزار فى مسند (٢٣٥٧) وقال الهيثمى فى الزوائد (٢٠٨ / ٨) :

«رجال البزار رجال الصحيح» .

(٢) المسند (٨١٤٤) والبخارى (٢٧٨) .

وقوله: ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ قال مجاهد: أى جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم هم غيرها. وكذا قال السدى: ذكروهم للآخرة وعملهم لها. وقال مالك بن دينار: نزع الله من قلوبهم حب الدنيا وذكرها، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها. وقال سعيد بن جبيرة: يعنى بالدار الجنة، يقول: أخلصناها لهم بذكرهم لها، وقال فى رواية أخرى: ﴿ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ : عقبى الدار . وقال قتادة : كانوا يذكرون الناس الدار الآخرة والعمل لها. وقال ابن زيد: جعل لهم خاصة أفضل شىء فى الدار الآخرة.

وقوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ﴾ أى: لمن المختارين المجتبيين الأخيار، فهم أختيار مختارون. وقوله: ﴿ وَأَذْكَرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴾ : قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستقصاة فى سورة «الأنبياء» بما أغنى عن إعادته هاهنا. وقوله: ﴿ هَذَا ذِكْرٌ ﴾ أى: هذا فضل فيه ذكر لمن يتذكر. وقال السدى: يعنى القرآن.

﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مِّنْ مَّوْجٍ مُّطَهَّرَةٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا

يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ الْأَرْبَابُ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا رِبع

تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٤﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء، أن لهم فى الدار الآخرة ﴿لِحُسْنِ مَآبٍ﴾ وهو: المرجع والمقلب. ثم فسره بقوله: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أى: جنات إقامة مفتحة لهم الأبواب. والألف واللام هنا بمعنى الإضافة، كأنه يقول: «مفتحة لهم أبوابها» أى: إذا جاؤوها فتحت لهم أبوابها. وقد ورد فى ذكر أبواب الجنة الثمانية أحاديث كثيرة من وجوه عديدة. وقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ قيل: مرتبعين فيها على سرر تحت الحجال ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أى: مهما طلبوا وجدوا، وحضر كما أرادوا ﴿وَشَرَابٍ﴾ أى: من أى أنواعه شاؤوا أتتهم به الخدام ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٨]. ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أى: عن غير أزواجهن، فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ﴿أَتْرَابٍ﴾ أى: متساويات فى السن والعمر. هذا معنى قول ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أى: هذا الذى ذكرنا من صفة الجنة هى التى وعدنا لعباده المتقين، التى يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار.

ثم أخبر تعالى عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا انقضاء ولا زوال ولا انتهاء، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾، كقوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، وكقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٌ﴾ [هود: ١٠٨]، وكقوله: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨] أى: غير مقطوع، وكقوله: ﴿أَكَلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥] والآيات فى هذا كثيرة جدا.

﴿ هَذَا وَابْرَأَ لِلطَّغِينِ لَشْرَمَابٍ ﴾ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَمِنَسَ الْمِهَادِ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ
 حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾ وَعَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ
 صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَمَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدِمْتُمُوهُ لَنَا فَمِنَسَ الْقَرَارِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ
 قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرِزْدَهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ
 ﴿٦٢﴾ اتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾

لما ذكر تعالى مآل السعداء ، ثنى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم فى دار معادهم وحسابهم ، فقال عز وجل : ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّغِينِ ﴾ وهم : الخارجون عن طاعة الله ، المخالفون لرسول الله ﴿ لَشْرَمَابٍ ﴾ أى : لسوء منقلب ومرجع . ثم فسره بقوله : ﴿ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا ﴾ أى : يدخلونها فتعمرهم من جميع جوانبهم ، ﴿ فَمِنَسَ الْمِهَادِ . هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴾ أما الحميم فهو : الحار الذى قد انتهى حره ، وأما العساق فهو : ضده ، وهو البارد الذى لا يستطيع من شدة برده المؤلم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَعَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ أى : وأشياء من هذا القبيل ، الشئ وضده يعاقبون بها . روى الإمام أحمد عن أبى سعيد ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لو أن ذلوا من عَسَاقٍ يهراق فى الدنيا ، لانتن أهل الدنيا » ورواه الترمذى (١) . وقال الحسن البصرى فى قوله : ﴿ وَعَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ : ألوان من العذاب . وقال غيره : كالزهرير ، والسموم ، وشرب الحميم ، وأكل الزقوم ، والصعود والهوى ، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة والمتضادة ، والجميع مما يعذبون به ، ويهانون بسببه .

وقوله : ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ : هذا إخبار عن قيل أهل النار بعضهم لبعض ، كما قال تعالى : ﴿ كَلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف : ٣٨] ، يعنى بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون ، ويكفر بعضهم ببعض ، فتقول الطائفة التى تدخل قبل الأخرى ، إذا أقبلت التى بعدها مع الخزنة من الزبانية : ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ ﴾ أى : داخل معكم ، ﴿ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ أى : لأنهم من أهل جهنم ﴿ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَمَرْحَبًا بِكُمْ ﴾ أى : فيقول لهم الداخلون : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ لَمَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدِمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ أى : أنتم دعوتونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ، ﴿ فَمِنَسَ الْقَرَارِ ﴾ أى : فبنس المنزل والمستقر والمصير . ﴿ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرِزْدَهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ ، كما قال عز وجل : ﴿ قَالَتْ أَخْرَاهُمُ لِلْأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا قَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٨] ، أى : لكل منكم عذاب بحسبه .

﴿ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ . اتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴾ ، هذا إخبار عن الكفار فى النار أنهم يفقدون رجالا كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة ، وهم المؤمنون

(١) المسند (٢٨ / ٣) والترمذى (٢٥٨٤) ، والحاكم فى المستدرک (٦٠٢ / ٤) وقال : « صحیح الإسناد ولم یخرجاه » ووافقه الذهبى .

في زعمهم، قالوا: ما لنا لا نراهم معنا في النار؟ قال مجاهد: هذا قول أبي جهل، يقول: ما لي لا أرى بلالا وعمارا وصهيبا وفلانا وفلانا. وهذا مثل ضرب، وإلا فكل الكفار هذا حالهم: يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدهم، فقالوا: ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ . أَتُخَذُّنَاهُمْ سَخِرِيًّا ﴾ أي: في الدنيا، ﴿ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴾ يسلون أنفسهم بالحال، يقولون: أو لعلهم معنا في جهنم، ولكن لم يقع بصرنا عليهم. فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات، وهو قوله: ﴿ وَتَادَى أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الاعراف: ٤٤ - ٤٩]. وقوله: ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ أي: إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد، من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض، ولعن بعضهم لبعض، لحق لا مرية فيه ولا شك.

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنَّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ ﴿١٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿١٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿١٨﴾ مَا كَانَ لِي مِنِّ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿١٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنْتُمْ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى أمرا رسوله ﷺ أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله: إنما أنا منذر لست كما تزعمون، ﴿ وَمَا مِنَّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ أي: هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي: هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه، ﴿ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ أي: غفار مع عزته وعظمته. ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ أي: خبر عظيم وشأن بليغ، وهو إرسال الله إياي إليكم، ﴿ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ أي: غافلون. قال مجاهد، وشريح القاضي، والسدي في قوله: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ يعني: القرآن.

وقوله: ﴿ مَا كَانَ لِي مِنِّ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ أي: لولا الوحي من أين كنت أدرى باختلاف الملأ الأعلى؟ يعني: في شأن آدم وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجته ربه في تفضيله عليه. فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن معاذ، قال: احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح، حتى كدنا نترأى قرن الشمس. فخرج رسول الله ﷺ سريعا، فتَوَّبَ بالصلاة فصلى، وتَجَوَّزَ في صلاته، فلما سلم قال: «كما أنتم على مصافكم». ثم أقبل إلينا فقال: «إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة، إنني قمت من الليل فصليت ما قُدِّرَ لي، فنعست في صلاتي حتى استيقظت، فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة، فقال: يا محمد، أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدرى رب - أعادها ثلاثا - فرأيت وضع كفه بين كتفي، حتى وجدت برد أنامله بين صدرى، فتجلى لي كل شيء وعرفت، فقال: يا محمد، فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: في الكفارات. قال: وما الكفارات؟ قلت: نقل الأقدام إلى

الجمعات (١) ، والجلوس فى المساجد بعد الصلوات ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات . قال : وما الدرجات ؟ قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة والناس نيام . قال : سل . قلت : اللهم ، إنى أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لى وترحمنى ، وإذا أردت فتنة بقوم فتوفى غير مفتون ، وأسألك حبك وحب من يحبك ، وحب عمل يقربنى إلى حبك . وقال رسول الله ﷺ : «إنها حق فادرسوها وتعلموها» ، فهو حديث المنام المشهور ، ومن جعله يقظة فقد غلط ، وهو فى السنن من طرق . وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذى وقال : «حسن صحيح» (٢) وليس هذا الاختصاص هو الاختصاص المذكور فى القرآن فإن هذا قد فسر ، وأما الاختصاص الذى فى القرآن فقد فسر بعد هذا ، وهو قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّىْ خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِيْنٍ ﴿٧١﴾ فَاِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُّوْحِىْ فَقَعُوْا لَهٗمْ سٰجِدِيْنَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ اٰجْمَعُوْنَ ﴿٧٣﴾ اِلَّا اِبٰلِیْسَ اَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يٰٓاِبٰلِیْسَ مَا مَنَعَكَ اَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِیَدِیْ اَسْتَكْبَرْتَ اَمْ كُنْتَ مِنَ الْعٰلِيْنَ ﴿٧٥﴾ قَالَ اَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِیْ مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُمْ مِنْ طِيْنٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرِجْ مِنْهَا فَاِنَّكَ رَحِيْمٌ ﴿٧٧﴾ وَاِنَّ عَلٰیكَ لَعْنَتِیْ اِلٰى یَوْمِ الدِّیْنِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ اَنْظِرْنِیْ اِلٰى یَوْمِ یُبْعَثُوْنَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَاِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِيْنَ ﴿٨٠﴾ اِلٰى یَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُوْمِ ﴿٨١﴾ قَالَ فِعِزَّتِكَ لَأَعُوْبَنَّهُمْ اٰجْمَعِيْنَ ﴿٨٢﴾ اِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَصِيْنَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ اَقُوْلُ ﴿٨٤﴾ لَاۤ اَمْلَآءَ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ یَّبَعُكَ مِنْهُمْ اٰجْمَعِيْنَ ﴿٨٥﴾ ﴿

هذه القصة ذكرها الله تعالى ، فى سورة « البقرة » ، وفى أول « الأعراف » ، وفى سورة « الحجر » ، و « سبحان » ، و « الكهف » ، وهاهنا . وهى أن الله ، سبحانه ، أعلم الملائكة قبل خلق آدم ، عليه السلام ، بأنه سيخلق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ، وتقدم إليهم بالأمر : متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراما وإعظاما واحتراما ، وامثالا لأمر الله عز وجل . فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس ، ولم يكن منهم جنسا ؟ كان من الجن فخانه طبعه وجبلته أحوج ما كان إليه ، فاستنكف عن السجود لآدم ، وخاصم ربه عز وجل فيه ، وادعى أنه خير من آدم ؛ فإنه مخلوق من نار وآدم خلق من طين ، والنار خير من الطين ، فى زعمه . وقد أخطأ فى ذلك ، وخالف أمر الله ، وكفر بذلك ، فأبعده الله وأرغم أنفه ، وطرده عن باب رحمته ومحل أنسه ، وحضرة قدسه ، وسماه « إبليس » ، إعلاما له بأنه قد أبلس من الرحمة ، وأنزله من السماء مذموما مدحورا إلى الأرض ، فسأل الله النظرة إلى يوم البعث ، فأنظره الحليم الذى لا يعجل على

(١) فى المطبوعة : « الجماعات » والثبت من المسند والمخطوطة .

(٢) المسند (٢٤٣/٥) والترمذى (٣٢٣٥) .

من عصاه . فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى ، وقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ كما قال : ﴿ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَكِنَ ذُرِّيَّتَهُ إلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : ٦٢] ، وهؤلاء هم المستثنون فى الآية الأخرى ، وهى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ [الإسراء : ٦٥] .

وقوله : ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ . لأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ : قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع «الحق» الأولى ، وفسره مجاهد بأن معناه : أنا الحق ، والحق أقول . وفى رواية عنه : الحق منى ، وأقول الحق . وقرأ آخرون بنصبهما . قال السدى : هو قسم أقسم الله به . قلت : وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة : ١٣] ، وكقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً ﴾ [الإسراء : ٦٣] .

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿ وَإِن هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾
﴿ وَتَتَعَلَّمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ ﴿٨٧﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجرا تعطونه من عرض الحياة الدنيا ، ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ أى : وما أزيد على ما أرسلنى الله به ، ولا أبتغى زيادة عليه ، بل ما أمرت به أدبته لا أزيد عليه ولا أنقص منه ، وإنما أبتغى بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة . عن مسروق قال : أتينا عبد الله بن مسعود قال : يأبها الناس ، من علم شيئا فليقل به ، ومن لا يعلم فليقل : الله أعلم ؛ فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم : الله أعلم ، فإن الله قال لنيبكم ﷺ : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ . أخرجاه (١) .

وقوله : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ يعنى : القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن ، قاله ابن عباس . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الانعام : ١٩] ، وكقوله : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود : ١٧] . وقوله : ﴿ وَتَتَعَلَّمَنَّ نَبَأَهُ ﴾ أى : خبره وصدقه ﴿ بَعْدَ حِينٍ ﴾ أى : عن قريب . قال قتادة : بعد الموت . وقال عكرمة : يعنى يوم القيامة . ولا منافاة بين القولين ؛ فإن من مات فقد دخل فى حكم القيامة . وقال قتادة فى قوله تعالى : ﴿ وَتَتَعَلَّمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ : قال الحسن : يا بن آدم ، عند الموت يأتيك الخبر اليقين .

تفسير سورة الزمر

وهي مكية

روى النسائي عن عائشة ، قالت : كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول : ما يريد أن يفطر . ويفطر حتى نقول : ما يريد أن يصوم . وكان يقرأ في كل ليلة بنى إسرائيل والزمر (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٤﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحٰنَهُ هُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٥﴾ ﴾

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب - وهو القرآن العظيم - من عنده، تبارك وتعالى، فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، كما قال عز وجل: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥] . وقال: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢] . وقال هاهنا: ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ ﴾ أى: المنيع الجنب، ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ أى: فى أقواله وأفعاله، وشرعه، وقدره. ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ أى: فاعبد الله وحده لا شريك له، وادع الخلق إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده ، وأنه ليس له شريك ولا عدل ولا نديد؛ ولهذا قال: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ أى: لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده، لا شريك له. وقال قتادة فى قوله: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ : شهادة أن لا إله إلا الله .

ثم أخبر عز وجل عن عبادة الأصنام من المشركين أنهم يقولون: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ أى: إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين فى زعمهم، فعبدوا تلك الصور تنزيلا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة؛ ليشفعوا لهم عند الله فى نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمر الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به . قال قتادة، والسدى، وزيد بن أسلم: ﴿ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ أى: ليشفعوا لنا، ويقربونا عنده منزلة . ولهذا كانوا يقولون فى تلبيتهم إذا حجوا فى جاهليتهم: «لييك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك» . وهذه الشبهة هى التى اعتمدها المشركون فى قديم الدهر وحديثه،

وجاءتهم الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، بردها والنهى عنها ، والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له ، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه ولا رضى به ، بل أبغضه ونهى عنه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الانبياء: ٢٥]. وأخبر أن الملائكة التى فى السموات من المقربين وغيرهم، كلهم عبيد خاضعون لله، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم، يشفعون عندهم بغير إذنه فيما أحبه الملوك وأبوه، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، تعالى الله عن ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أى: سيفصل بين الخلائق يوم معادهم، ويجزى كل عامل بعمله، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهؤلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبا: ٤٠]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ أى: لا يرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله، وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه.

ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين فى الملائكة، والمعاندون من اليهود والنصارى فى العزير وعيسى، فقال: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أى: لكان الأمر على خلاف ما يزعمون. وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه، كما قال: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الانبياء: ١٧]، ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، كل هذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم. وقوله: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أى: تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد، فإنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى كل شيء عبد لديه، فقير إليه، وهو الغنى عما سواه، الذى قد قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت.

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَرْوَجُ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنَّ تُصْرَفُونَ ﴿١﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه الخالق لما فى السموات والأرض، وما بين ذلك من الأشياء، وأنه مالك الملك المتصرف فيه، يقلب ليله ونهاره، ﴿يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أى: سخرهما بيجريان متعاقبين لا يفتران، كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا، كقوله: ﴿يُغْمِشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الاعراف: ٥٤] هذا معنى ما روى عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم.

وقوله : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى : إلى مدة معلومة عند الله ثم تنقضى يوم القيامة ﴿ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ أى : مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه . وقوله : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ أى : خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم والستكم والوانكم من نفس واحدة، وهو آدم، عليه السلام، ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْهَا رِجَالًا وَنِسَاءً ﴾ ، وهى حواء، عليهما السلام، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا رِجَالَكُمْ وَنِسَاءً مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النساء : ١] . وقوله : ﴿ وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ أى : وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج ، وهى المذكورة فى سورة الأنعام : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ﴾ [الأنعام : ١٤٣] ، ﴿ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ﴾ [الأنعام : ١٤٤] .

وقوله : ﴿ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ أى : قدركم فى بطون أمهاتكم ﴿ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ أى : يكون أحدكم أولا نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة، ثم يخلق فيكون لحما وعظما وعصبا وعروفا، وينفخ فيه الروح فيصير خلقا آخر، ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤] . وقوله : ﴿ فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ يعنى : ظلمة الرحم، وظلمة المشيمة - التى هى كالغشاوة والوقاية على الولد - وظلمة البطن . كذا قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة . وقوله : ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أى : هذا الذى خلق السموات والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق آباءكم، هو الرب له الملك والتصرف فى جميع ذلك، ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى : الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده، ﴿ فَأَتَى تَصْرُفُونَ ﴾ أى : فكيف تعبدون معه غيره؟ أين يذهب بقولكم !؟

﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنَىٰ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّكُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ﴿ ٧ ﴾ ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَنَّعَ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ ﴿ ٨ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن نفسه تعالى : أنه الغنى عما سواه من المخلوقات، كما قال موسى عليه السلام : ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٨] . وفى صحيح مسلم : « يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك من ملكى شيئا » (١) . وقوله ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ أى : لا يحبه ولا يأمر به، ﴿ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ أى : يحبه منكم ويزدكم من فضله. ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أى : لا تحمل نفس عن نفس شيئا، بل كل مطالب بأمر نفسه، ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى : فلا تخفى عليه خافية .

وقوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ أي: عند الحاجة يضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلُّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧]. ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْ نَّسِيِّ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِّن قَبْلٍ ﴾ أي: في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ ﴾ [يونس: ١٢].

وقوله: ﴿ وَجَعَلَ اللَّهُ أُنْدَادًا لِّبُضْلِ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أي: في حال العافية يشرك بالله، ويجعل له أندادا ﴿ قُلْ لَّمْ تَمْتَعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِّنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ أي: قل لمن هذه حاله وطريقته ومسلكه: تمتع بكفرِكَ قليلا. وهو تهديد شديد ووعيد أكيد، كقوله: ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَّصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وقوله: ﴿ نَمَتَّعَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّزَّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤].

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَأَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

يقول عز وجل: أمن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أندادا؟ لا يستون عند الله، كما قال تعالى: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال هاهنا: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَأَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا ﴾ أي: في حال سجوده وفي حال قيامه؛ ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع في الصلاة، ليس هو القيام وحده، كما ذهب إليه آخرون. قال ابن مسعود: القانت: المطيع لله ولرسوله. وقال ابن عباس، والحسن: ﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾: جوف الليل. وقال منصور: بلغنا أن ذلك بين المغرب والعشاء. وقال الحسن، وقناة: ﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾: أوله وأوسطه وآخره.

وقوله: ﴿ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ أي: في حال عبادته خائف راج، ولا يد في العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب؛ ولهذا قال: ﴿ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾، فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه. عن يحيى البكاء، أنه سمع ابن عمر قرأ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَأَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾؛ قال ابن عمر: ذاك عثمان بن عفان. وإنما قال ابن عمر ذلك؛ لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان بالليل وقراءته، حتى إنه ربما قرأ القرآن في ركعة، كما روى ذلك أبو عبيدة عنه.

وقوله: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي: هل يستوي هذا والذي قبله من جعل لله أندادا ليضل عن سبيله؟! ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أي: إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل.

﴿ قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿ وَإِنِّي لَأَكُونُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

يقول تعالى أمرا عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ أى : لمن أحسن العمل فى هذه الدنيا حسنة فى دنياهم وأخراهم .
 ﴿ وَأَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ قال مجاهد : فهاجروا فيها ، وجاهدوا ، واعتزلوا الأوثان . وقال عطاء فى قوله : ﴿ وَأَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ قال : إذا دعيتم إلى المعصية فاهربوا ، ثم قرأ : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ [النساء : ٩٧] . ﴿ إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قال الأوزاعى : ليس يوزن لهم ولا يكال ، إنما يغرف لهم غرفا . وقال ابن جريج : بلغنى أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط ، ولكن يزدون على ذلك . وقال السدى : ﴿ إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ : يعنى فى الجنة .
 وقوله : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ أى : إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ، قال السدى : يعنى من أمته ﷺ .

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ﴿ ١٣ ﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْهُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿ ١٤ ﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿ ١٥ ﴾ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادُهُ يَعْجَبُونَ فَاتَّقُوا ﴿ ١٦ ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد وأنت رسول الله : ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهو يوم القيامة . وهذا شرط ، ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأحرى ، ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْهُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي . فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ ، وهذا أيضا تهديد وتبر منهم ، ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ ﴾ أى : إنما الخاسرون كل الخسران ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى : تفارقوا فلا التقاء لهم أبدا ، وسواء ذهب أهلوهم إلى الجنة وقد ذهبوا هم إلى النار ، أو أن الجميع أسكنوا النار ، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور ، ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ أى : هذا هو الخسار البين الظاهر الواضح .

ثم وصف حالهم فى النار فقال : ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ ، كما قال : ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الاعراف : ٤١] ، وقال : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٥] . وقوله : ﴿ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ ﴾ أى : إنما يقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده ، لينتجروا عن المحارم والمآثم ﴿ يَا عِبَادِ فَاتَّقُوا ﴾ أى : اخشوا بأسى وسطوتى ، وعذابى ونقمتى .

﴿ وَالَّذِينَ آجَبْتُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿ ١٧ ﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْأُولَاءُ ﴿ ١٨ ﴾

قال زيد بن أسلم : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا ﴾ نزلت في زيد بن عمرو بن نُفَيْل ، وأبى ذر ، وسلمان الفارسي . والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم ، ممن اجتنب عبادة الأوثان ، وأناب إلى عبادة الرحمن . فهؤلاء هم الذين لهم البشرية في الحياة الدنيا وفي الآخرة .
ثم قال : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادَ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ أى : يفهمونه ويعملون بما فيه ، كقوله تعالى لموسى حين أتاه التوراة : ﴿ فَخَذَّهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكِ بِأِخْتِيارِهَا ﴾ [الاعراف : ١٤٥] . ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ﴾ أى : المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة ، أى : ذوو العقول الصحيحة ، والفطر المستقيمة .

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مَالَهُمْ مِنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخَلِّفُ اللَّهُ الْمِيْعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول تعالى : أفمن كتب الله أنه شقى تُقَدَّرُ تُنقِذُهُ مما هو فيه من الضلال والهلاك؟ أى : لا يهديه أحد من بعد الله ؛ لأنه من يضل الله فلا هادى له ، ومن يهده فلا مضل له .

ثم أخبر عن عباده السعداء أن لهم غرفا في الجنة ، وهى القصور الشاهقة ، ﴿ مِنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَبْنِيَّةٌ ﴾ أى : طباق فوق طباق ، مَبْنِيَّاتٌ محكمات مزخرفات عاليات . روى الإمام أحمد عن أبى مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « إن فى الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام ، وألان الكلام ، وتابع الصيام ، وصلى والناس نيام . » تفرد به أحمد (١) . وروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة فى الجنة كما تراءون الكوكب فى السماء » . قال : فحدثت بذلك النعمان بن أبى عياش ، فقال : سمعت أبا سعيد الخدرى يقول : « كما تراءون الكوكب الدرى فى الأفق الشرقى أو الغربى » . أخرجاه فى الصحيحين (٢) ، وأخرجاه أيضاً فى الصحيحين عن أبى سعيد ، عن النبى ﷺ (٣) . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل الجنة ليتراءون فى الجنة أهل الغرف ، كما تراءون الكوكب الدرى الغارب فى الأفق الطالع ، فى تفاضل أهل الدرجات » . فقالوا : يا رسول الله ، أولئك النبيون؟ فقال : « بلى ، والذى نفسى بيده ، وأقوام آمنوا بالله وصدقوا الرسل » . ورواه الترمذى ، وقال : حسن صحيح .

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قلنا : يا رسول الله ، إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا ، وكنا من أهل الآخرة ، فإذا فارقناك أعجبنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد . قال : « لو أنكم

(١) المسند (٣٤٣/٥) . ورواه الحاكم فى مستدركه (٨٠/١) وصححه ، ووافقه الذهبى .

(٢) المسند (٣٤٠/٥) والبخارى (٦٥٥٥) ومسلم (٢٨٣٠ ، ٢٨٣١/١١) .

(٣) البخارى (٦٥٥٦) ومسلم (٢٨٣١/١١) .

تكونون على كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي، لصافحتكم الملائكة بأكنفهم، ولزارتكم في بيوتكم. ولو لم تُذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم» قلنا: يا رسول الله، حَدَّثْنَا عَنْ الْجَنَّةِ، مَا بَنَّاوْهَا؟ قَالَ: «لَبِنَةٌ ذَهَبٌ وَلَبِنَةٌ فِضَّةٌ، وَمَلَاطُهَا الْمَسْكُ الْأَذْفَرُ، وَحَصْبَاوْهَا اللَّوْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتَرَابُهَا الزُّعْفَرَانُ، مِنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ وَلَا يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ وَلَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ. ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يَفْطُرَ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَى الْعَمَامِ، وَتَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاوَاتِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي لِأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ.» .
ورواه الترمذى، وابن ماجه (١).

وقوله : ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أى : تسلك الأنهار بين خلال ذلك ، كما يشاؤوا وأين أرادوا ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ ﴾ أى : هذا الذى ذكرناه وَعَدَّ وَعَدَّهُ اللهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴾ .
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهَيِّجُ فَتْرَتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى أن أصل الماء فى الأرض من السماء كما قال عز وجل : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٨] ، فإذا أنزل الماء من السماء كمن فى الأرض، ثم يصرفه تعالى فى أجزاء الأرض كما يشاء، وَيُنْبِغُهُ عَيْونًا ما بين صغار وكبار، بحسب الحاجة إليها؛ ولهذا قال : ﴿ فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾ . عن ابن عباس فى قوله عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال : ليس فى الأرض ماء إلا نزل من السماء ، ولكن عروق فى الأرض تغيره ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾ فمن سره أن يعود الملح عذبا فليصعده . وكذا قال سعيد بن جبير، وعامر الشعبى : أن كل ماء فى الأرض فاصله من السماء . وقال سعيد بن جبير : أصله من الثلج ، يعنى : أن الثلج يتراكم على الجبال ، فيسكن فى قرارها ، فتنبع العيون من أسافلها.

وقوله : ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ أى : ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعاً ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ أى : أشكاله وطعومه وروائحها ومنافعه، ﴿ ثُمَّ يَهَيِّجُ ﴾ أى : بعد نضارته وشبابه يكتهل ﴿ فَتْرَتَهُ مُصْفَرًّا ﴾ قد خالطه اليبس ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ﴾ أى : ثم يعود يابساً يتحطم ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أى : الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا، تكون خضرةً نضرةً حسناء، ثم تعود عَجُوزًا شوهاء، والشباب يعود شيخاً هرماً كبيراً ضعيفاً، وبعد ذلك كله الموت. فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير ، وكثيراً ما يضرب الله تعالى مثل

(١) المسند (٨٠٣٠) وصحح شاکر إسناده، والترمذى (٣٥٩٨) وابن ماجه (١٧٥٢) وقال الترمذى : «حديث حسن» .

الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء ، ونبت به زروعا وثمارا ، ثم يكون بعد ذلك حطاما ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتَ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ [الكهف : ٤٥] .

وقوله : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ ﴾ أى : هل يستوى هذا ومن هو قاسى القلب بعيد من الحق؟! كقوله عز وجل : ﴿ أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ [الانعام : ١٢٢] ؛ ولهذا قال : ﴿ فَوَيْلٌ لِلنَّاسِ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى : فلا تلين عند ذكره ، ولا تخشع ولا تعى ولا تفهم ﴿ أَوْلَيْكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَفْشَعُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴾

هذا مَدْحٌ من الله - عز وجل - لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم ، قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي ﴾ قال مجاهد : يعنى القرآن كله متشابه مثنائي . وقال قتادة : الآية تشبه الآية ، والحرف يشبه الحرف . وقال الضحاك : ﴿ مَّثَانِي ﴾ : ترديد القول ليفهموا عن ربهم عز وجل . وقال عكرمة ، والحسن : ثنى الله فيه القضاء - زاد الحسن : تكون السورة فيها آية ، وفى السورة الأخرى آية تشبهها . وقال ابن عباس : ﴿ مَّثَانِي ﴾ : القرآن يشبه بعضه بعضا ، ويرد بعضه على بعض . وقال بعض العلماء - ويروى عن سفيان بن عيينة : معنى قوله : ﴿ مُتَشَابِهًا مَّثَانِي ﴾ : أن سياقات القرآن تارة تكون فى معنى واحد ، فهذا من المتشابه ، وتارة تكون يذكر الشئ وضده ، كذكر المؤمنين ثم الكافرين ، وكصفة الجنة ثم صفة النار ، وما أشبه هذا ، فهذا من المثنائي ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : ١٣ ، ١٤] ، وكقوله : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سَجِينٍ ﴾ [المطففين : ٧] ، إلى أن قال : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ [المطففين : ١٨] ﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّآبٍ ﴾ [ص : ٤٩] . إلى أن قال : ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِيْنَ لَشَرَّ مَّآبٍ ﴾ [ص : ٥٥] ، ونحو هذا من السياقات ، فهذا كله من المثنائي ، أى : فى معنيين اثنين ، وأما إذا كان السياق كله فى معنى واحد يشبه بعضه بعضا ، فهو المتشابه وليس هذا من المتشابه المذكور فى قوله : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ [آل عمران : ٧] ، ذلك معنى آخر .

وقوله : ﴿ تَفْشَعُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى : هذه صفة الأبرار ، عند سماع كلام الجبار ، المهيمن العزيز الغفار ، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد ، والتخويف والتهديد ، تفشع منه جلودهم من الخشية والخوف ، ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ لما يرجون ويؤمنون من رحمته ولطفه ، فهم مخالفون لغيرهم من الكفار من وجوه :

أحدها : أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات ، وسماع أولئك نَعَمَاتٌ لأبيات ، من أصوات القَيْنَات .

الثانى : أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا، بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤] وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفرقان: ٧٣] أى : لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغين إليها، فاهمين بصيرين بمعانيها؛ فلهذا إنما يعملون بها، ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم .

الثالث : أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة ؓ، عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم ، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله . لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلمون بما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد فى ذلك؛ ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى فى الدنيا والآخرة .

قال معمر : تلا قتادة : ﴿ تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ قال : هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم، وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا فى أهل البدع، وهذا من الشيطان . وقال السدى : ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى : إلى وعد الله .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أى : هذه صفة من هداه الله، ومن كان على خلاف ذلك فهو من أضله الله، ﴿ وَمَن يَضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٣٣] .

﴿ أَفَمَن يَتَّبِعِ بَوَّجْهَهُ سَوْءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ ﴿ ١٤ ﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآلَنَّهُمْ الْعَذَابَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿ ١٥ ﴾ فَآذَاهُمْ اللَّهُ لِلْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿ ١٦ ﴾

يقول تعالى : ﴿ أَفَمَن يَتَّبِعِ بَوَّجْهَهُ سَوْءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾، ويُقرَعُ فيقال له ولا مثاله من الظالمين : ﴿ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾، كمن يأتى آمنة يوم القيامة؟! كما قال عز وجل : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكَبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك: ٢٢]، وقال : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر: ٤٨]، وقال تعالى : ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرًا مِّن مَّن يَأْتِي آمنة يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [فصلت: ٤٠]، واكتفى فى هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر . وقوله : ﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَاهُمْ الْعَذَابَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ يعنى : القرون الماضية المكذبة للرسول، أهلكتهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق .

وقوله : ﴿ فَآذَاهُمْ اللَّهُ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى : بما أنزل بهم من العذاب والنكال وتشفى المؤمنين بهم، فليحذر المخاطبون من ذلك، فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل، وخاتم الأنبياء ﷺ،

والذى أعده الله لهم فى الآخرة من العذاب الشديد أعظم مما أصابهم فى الدنيا ؛ ولهذا قال : ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ .

﴿ وَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَنْذَكُرُونَ ﴾ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مِثُّ وِلْدَانِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكَمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

يقول تعالى : ﴿ وَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى : بينا للناس فيه بضرب الأمثال ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَنْذَكُرُونَ ﴾ ، فإن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان ، كما قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [الروم: ٢٨] أى : تعلمونه من أنفسكم ، وقال : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [التكوير: ٤٣] . وقوله : ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ أى : هو قرآن بلسان عربى مبين ، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس ، بل هو بيان ووضوح وبرهان ، وإنما جعله الله تعالى كذلك ، وأنزله بذلك ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أى : يحذرون ما فيه من الوعيد ، ويعملون بما فيه من الوعد .

ثم قال : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ أى : يتنازعون فى ذلك العبد المشترك بينهم ، ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ ﴾ أى : خالصا لرجل ، لا يملكه أحد غيره ، ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ ؟ أى : لا يستوى هذا وهذا . كذلك لا يستوى المشرك الذى يعبد آلهة مع الله ، والمؤمن المخلص الذى لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له . فأين هذا من هذا؟ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : هذه الآية ضربت مثلا للمشرك والمخلص ، ولما كان هذا المثل ظاهرا بيننا جليا ، قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أى : على إقامة الحجة عليهم ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : فلهذا يشركون بالله .

وقوله : ﴿ إِنَّكَ مِثُّ وِلْدَانِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ : هذه الآية من الآيات التى استشهد بها الصديق عند موت الرسول ﷺ ، حتى تحقق الناس موته ، مع قوله : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] .

ومعنى هذه الآية : ستنقلون من هذه الدار لا محالة ، وستجتمعون عند الله فى الدار الآخرة ، وتختصمون فيما أنتم فيه فى الدنيا من التوحيد والشرك بين يدى الله عز وجل ، فيفصل بينكم ، ويفتح بالحق وهو الفتح العليم ، فينجى المؤمنين المخلصين الموحدين ، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذابين .

ثم إن هذه الآية - وإن كان سياقها فى المؤمنين والكافرين ، وذكر الخصومة بينهم فى الدار الآخرة - فإنها شاملة لكل متنازعين فى الدنيا ، فإنه تعاد عليهم الخصومة فى الدار الآخرة .

روى ابن أبي حاتم عن الزبير قال: لما نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزبير: يا رسول الله، أتكرر علينا الخصومة؟ قال: «نعم». قال: إن الأمر إذاً لشديد. وكذا رواه الإمام أحمد، وعنده زيادة: ولما نزلت: ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] قال الزبير: أى رسول الله، أى نعيم نسأل عنه؟ وإنما - يعنى - هما الأسودان: التمر والماء؟ قال: «أما إن ذلك سيكون». وقد روى هذه الزيادة الترمذى وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن (١). وروى الإمام أحمد عن الزبير بن العوام قال: لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ. ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ قال الزبير: أى رسول الله، أكرر علينا ما كان بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب؟ قال: «نعم، ليكررن عليكم، حتى يؤدئى إلى كل ذى حق حقه». قال الزبير: والله إن الأمر لشديد. ورواه الترمذى وقال: حسن صحيح (٢). وروى الإمام أحمد عن عقبه بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «أول الخصمين يوم القيامة جاران». تفرد به أحمد (٣).

وقال ابن عباس: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ : يخاصم الصادق الكاذب ، والمظلوم الظالم، والمهتدى الضال، والضعيف المستكبر. وقال أبو العالية: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ : يعنى أهل القبلة . وقال ابن زيد : يعنى أهل الإسلام وأهل الكفر . وقد قدمننا أن الصحيح العموم ، والله أعلم .

الجزء
٢٤

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُهُ الْبَيِّنَاتُ فِي جَهَنَّمَ مَتَوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٢١﴾ وَالَّذِي جَاءَهُ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٢٢﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى مخاطبا للمشركين الذين افتروا على الله، وجعلوا معه آلهة أخرى، وادعوا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا لله ولدا - تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا - ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على السنة رسل الله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولهذا قال : ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُهُ﴾ أى : لا أحد أظلم من هذا؛ لأنه جمع بين طرفى الباطل، كذب على الله، وكذب رسول الله، قالوا الباطل وردوا الحق؛ ولهذا قال متوعدا لهم: ﴿أليس في جهنم متوى للكافرين﴾ وهم الجاحدون المكذبون.

ثم قال: ﴿وَالَّذِي جَاءَهُ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال مجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، وابن زيد:

(١) المسند (١٤٠٥) والترمذى (٣٣٥٦) وابن ماجه (٤١٥٩) . وقال الشيخ شاکر : «إسناده صحيح» .

(٢) المسند (١٤٣٤) والترمذى (٣٢٣٦) . وقال الشيخ شاکر : «إسناده صحيح» .

(٣) المسند (١٥١/٤) وقال الهيمى فى الزوائد (٣٣٩/١٠) : «رواه أحمد بإسناد حسن» .

﴿ الَّذِي جَاءَ بِالصَّدْقِ ﴾ : هو رسول الله ﷺ . وقال السدي : هو جبريل عليه السلام ، ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾
يعنى : محمدا ﷺ . وقال ابن عباس : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدْقِ ﴾ : من جاء بلا إله إلا الله ﴿ وَصَدَّقَ
بِهِ ﴾ يعنى : محمدا ﷺ . وقرأ الربيع بن أنس : ﴿ الَّذِينَ جَاءُوا بِالصَّدْقِ ﴾ يعنى : الأنبياء ،
« وصدقوا به » يعنى : الأتباع . وقال مجاهد : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ قال : أصحاب
القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة ، فيقولون : هذا ما أعطيتمونا ، فعملنا فيه بما أمرتمونا . وهذا
القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين ؛ فإن المؤمن يقول الحق ويعمل به ، والرسول ﷺ أولى
الناس بالدخول فى هذه الآية على هذا التفسير ، فإنه جاء بالصدق ، وصدق المرسلين ، وأمن بما
أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . وقال عبد الرحمن بن زيد بن
أسلم : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدْقِ ﴾ هو رسول الله ﷺ ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ : المسلمون .

﴿ أَوْلَيْكَ هُمْ الْمُتَّقُونَ ﴾ قال ابن عباس : اتقوا الشرك . ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ يعنى : فى
الجنة ، مهما طلبوا وجدوا ، ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ . لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ
بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ تَحِبُّهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ
سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ [الاحقاف : ١٦] .

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا
لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾
وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ
مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا
عَلَى مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ
وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ - وقرأ بعضهم : «عباده» - يعنى : أنه تعالى يكفى
من عبده وتوكل عليه . ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ يعنى : المشركين يخوفون الرسول ويتوعدونه
بأصنامهم وآلهتهم التى يدعونها من دونه ؛ جهلا منهم وضلالا ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُضِلِّ
اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴾ أى : منيع الجناب لا يضام ،
من استند إلى جنبه ولجأ إلى بابه ، فإنه العزيز الذى لا أعز منه ، ولا أشد انتقاما منه ، من كفر
به وأشرك وعاند رسوله ﷺ .

وقوله : ﴿ وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ يعنى : أن المشركين كانوا يعترفون
بأن الله هو الخالق للأشياء كلها ، ومع هذا يعبدون معه غيره ، بما لا يملك لهم ضرا ولا نفعا ؛
ولهذا قال : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ

هُنَّ مُسْكَاةٌ رَحْمَتُهُ أَي: لا تستطيع شيئا من الأمر. عن ابن عباس مرفوعا: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، جفت الصحف، ورفعت الأقلام، واعمل لله بالشكر في اليقين، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا» (١).

﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ أَي : الله كافي ، عليه توكلت وعليه يتوكل المتوكلون ، كما قال هود ، عليه السلام ، حين قال له قومه : ﴿ إِن نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ . مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦] . وقوله : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَانَتَكُمْ ﴾ أَي : على طريقتكم ، وهذا تهديد ووعيد ﴿ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ أَي : على طريقتي ومنهجي ، ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أَي : ستعلمون غب ذلك ووباله ﴿ مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أَي : في الدنيا ﴿ وَيَجْلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّهِمٌ ﴾ أَي : دائم مستمر ، لا محيد له عنه . وذلك يوم القيامة - أعاذنا الله منها .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

يقول تعالى مخاطبا رسوله محمدا ﷺ: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ يعني: القرآن ﴿ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ أَي : لجميع الخلق من الإنس والجن لتندرهم به ، ﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ﴾ أَي : فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه ، ﴿ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أَي : إنما يرجع وبال ذلك على نفسه ، ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أَي : بموكل أن يهتدوا ، ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود: ١٢] ، ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠] .

ثم قال تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء، وأنه يتوقى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرَطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٠ ، ٦١] . فذكر الوفاة الصغرى ثم الكبرى. وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى؛ ولهذا قال: ﴿ اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا

فَمَسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٤٣﴾ فيه دلالة على أنها تجتمع في الملا الأعلى. وفي صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فليَنفُضْهُ بداخله إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم ليقل: باسمك ربى وضعت جنبنى، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسى فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين» (١). وقال بعض السلف: يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف، ﴿فَمَسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ التى قد ماتت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى. قال السدى: إلى بقية أجلها. وقال ابن عباس: يمسك أنفس الأموات، ويرسل أنفس الأحياء، ولا يغلط ﴿إِن فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿٤٤﴾ أَرِ الْأَنْحَادُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلُوبِ أَوْلَادِهِمْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ
﴿٤٥﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
﴿٤٦﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى ذاما للمشركين فى اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد، التى اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حادهم على ذلك، وهى لا تملك شيئا من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هى جمادات أسوأ حالا من الحيوان بكثير. ثم قال: قل يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له، فمرجعها كلها إليه، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: هو المتصرف فى جميع ذلك، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى: يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجزى كلا بعمله.

ثم قال تعالى ذاما للمشركين أيضا: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أى: إذا قيل: لا إله إلا الله ﴿اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾. ﴿اشْمَأَزَّتْ﴾: نفرت وكفرت واستكبرت. كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، أى: عن المتابعة والانقياد لها. فقلوبهم لا تقبل الخير، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ أى: من الأصنام والأنداد ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أى: يفرحون ويسرون.

﴿٤٨﴾ قُلْ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَ اللَّهُ مِنَّا اللَّهُ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٥٠﴾ وَبَدَأَ اللَّهُمَّ سَيِّئَاتِ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥١﴾

يقول تعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر، من المذمة لهم في حبهام الشرك، ونفرتهم عن التوحيد: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: ادع أنت الله وحده لا شريك له، الذى خلق السموات والأرض وفطرها، أى: جعلها على غير مثال سبق، ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: السر والعلانية، ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أى: فى دنياهم، ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم، وقيامهم من قبورهم. روى مسلم عن أبى سلمة ابن عبد الرحمن قال: سألت عائشة: بأى شىء كان رسول الله ﷺ يفتح صلواته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلواته: «اللهم، رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم»^(١). وروى الإمام أحمد عن أبى عبد الرحمن قال: أخرج لنا عبد الله بن عمرو قرطاسا وقال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا يقول: «اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت رب كل شىء، وإله كل شىء، أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأن محمدا عبدك ورسولك، والملائكة يشهدون، أعوذ بك من الشيطان وشركه، وأعوذ بك أن أقترف على نفسى إثما، أو أجره إلى مسلم». تفرد به أحمد^(٢). وروى أحمد عن أبى راشد الحبرانى قال: أتيت عبد الله ابن عمرو فقلت له: حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ. فألقى بين يدي صحيفة فقال: هذا ما كتب لى رسول الله ﷺ، فنظرت فيها فإذا فيها أن أبا بكر الصديق قال: يا رسول الله، علمنى، ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت. فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، لا إله إلا أنت، رب كل شىء ومليكه، أعوذ بك من شر نفسى، وشر الشيطان وشركه، أو أقترف على نفسى سوءا، أو أجره إلى مسلم». ورواه الترمذى، وقال: حسن غريب من هذا الوجه^(٣).

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم المشركون، ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أى: ولو أن جميع ملك الأرض وضعفه معه ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ﴾ أى: الذى أوجهه الله لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يتقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهباً، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أى: وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن فى بالهم ولا فى حسابهم، ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أى: وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا فى الدار الدنيا من المحارم والمآثم، ﴿وَوَحَّاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى: وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به فى الدار الدنيا.

(١) مسلم (٧٧٠ / ٢٠٠).

(٢) المسند (٦٥٩٧) وقال الشيخ شاکر: «إسناده صحيح».

(٣) المسند (٦٨٥١) والترمذى (٣٥٢٩). وقال الشيخ شاکر: «إسناده صحيح».

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوْلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن الإنسان أنه في حال الضراء يتضرع إلى الله، عز وجل، وينيب إليه ويدعوه، وإذا خوله منه نعمة بغى وطغى، وقال: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أى: لما يعلم الله من استحقاقى له، ولولا أنى عند الله تعالى خصيص لما خولنى هذا قال قتادة: ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾: على خير عندى. قال الله عز وجل: ﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾ أى: ليس الامر كما زعم، بل أنعمنا عليه بهذه النعمة لنتخبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصى؟ مع علمنا المتقدم بذلك، فهى فتنة أى: اختبار، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، فلهذا يقولون ما يقولون، ويدعون ما يدعون. ﴿ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أى: قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى، كثير ممن سلف من الامم، ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى: فما صح قولهم ولا منعهم جمعهم وما كانوا يكسبون، ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَؤُلَاءِ ﴾ أى: من المخاطبين ﴿ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ أى: كما أصاب أولئك، ﴿ وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ كما قال تعالى مخبرا عن قارون أنه قال له قومه: ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَاتَّبِعْ فِيمَا أَنَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبِغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ . قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَو لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [القصص: ٧٦ - ٧٨]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعْذِبِينَ ﴾ [سبا: ٣٥] . وقوله: ﴿ أَوْلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أى: يوسع على قوم ويضيقه على آخرين، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى: لعبرا وحججا.

﴿ قُلْ يٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لِمِمَّنْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَأَسْبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَصْرَتِي عَلَىٰ مَا قَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ ﴾

ربع

تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ
لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَ ءَايَتِي فَكَذَّبْتَ
بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر. ولا يصح حمل هذه على غير توبة؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه.

روى البخارى عن ابن عباس؛ أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا. فأتوا محمدا ﷺ فقالوا: إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة. فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ونزل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾. وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي (١). والمراد من الآية الأولى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ الآية [الفرقان: ٧٠].

فالمراد: أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة، ولا يقنطن عبد من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه وكثرت؛ فإن باب التوبة والرحمة واسع، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وقال تعالى فى حق المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا. إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦]، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَتَّهَمُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، ثم قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج: ١٠]. قال الحسن البصرى: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة أو الآيات فى هذا كثيرة جدا. وفى الصحيحين عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ، حديث الذى قتل تسعا وتسعين نفسا، ثم ندم وسأل عابدا من عبّاد بنى إسرائيل: هل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله وأكمل به مائة. ثم سأل عالما من علمائهم: هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها، فقصدتها فأتاه الموت فى أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمر الله أن يقيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيهما كان أقرب فهو منها. فوجدوه أقرب إلى الأرض التى هاجر إليها بشبر، فقبضته ملائكة الرحمة. وذكر أنه نأى بصدره عند الموت، وأن الله أمر البلدة الخيرة أن تقترب، وأمر تلك البلدة أن تتباعد (٢) هذا معنى الحديث.

(١) البخارى (٤٨١٠)، ومسلم (١٩٣/١٢٢)، وأبو داود (٧٢٧٤)، والنسائي (٨٦/٧).

(٢) البخارى (٣٤٧٠)، ومسلم (٤٦/٢٧٦٦).

وقال ابن عباس في قوله: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ إلى آخر الآية، قال: قد دعا الله إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومن زعم أن عزيزا ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٤] ثم دعا إلى التوبة من هو أعظم قولاً من هؤلاء، من قال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٣٨]. قال ابن عباس: من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه.

وعن شتير بن شكل أنه قال: سمعت ابن مسعود يقول: إن أعظم آية في كتاب الله: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وإن أجمع آية في القرآن بخير وشر: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [النحل: ٩٠]، وإن أكثر آية في القرآن فرجا في سورة الغفر: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾، وإن أشد آية في كتاب الله تفويضا: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. فقال له مسروق: صدقت. وعن أبي الكنود قال: مر عبد الله - يعني ابن مسعود - على قاص، وهو يذكر الناس، فقال: يا مذكر، لم تقنط الناس؟ ثم قرأ: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾.

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذى نفسى بيده، لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتم الله لغفر لكم، والذى نفس محمد بيده، لو لم تخطئوا لجاء الله بقوم يخطئون، ثم يستغفرون الله فيغفر لهم». تفرد به أحمد (١). وروى الإمام أحمد عن أبي أيوب الأنصارى، أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت منكم شيئا سمعته من رسول الله ﷺ، يقول: «لولا أنكم تذبون، لخلق الله قوما يذبون فيغفر لهم». وأخرجه مسلم والترمذى (٢).

ثم استحث تعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة، فقال: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ ﴾ أى: ارجعوا إلى الله واستسلموا له، ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴾ أى: بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النعمة، ﴿ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ وهو القرآن العظيم، ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بُغْفَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أى: من حيث لا تعلمون ولا تشعرون.

ثم قال: ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾ أى: يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإنابة، ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عز وجل ﴿ وَإِنْ كُنْتَ لِمَنِ السَّخِرِينَ ﴾ أى: إنما كان عملى في الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقن مصدق.

(١) المسند (٢٣٨/٣). وقال الهيثمى فى الزوائد (٢١٨/١٠): «رواه أحمد وأبو يعلى ورجاله ثقات».

(٢) المسند (٤١٤/٥) ومسلم (٩/٢٧٤٨) والترمذى (٣٥٣٩).

﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾
 أى: تود أن لو أعيدت إلى الدار فتحسن العمل. قال ابن عباس: أخبر الله سبحانه، ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه. وقال: ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٤] ، ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي حَنَبِ اللَّهِ وَإِن كُنْتُ لَمِنَ السَّآخِرِينَ . أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فأخبر الله تعالى: أن لو ردوا لما قدروا على الهدى، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨] . وقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة ، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني؟! فتكون عليه حسرة». قال: « وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني!» قال: «فيكون له الشكر». ورواه النسائي (١) .

ولما تمنى أهل الجرائم العود إلى الدنيا، وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله، قال سبحانه وتعالى: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى: قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتى فى الدار الدنيا، وقامت حججى عليك، فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها، وكنت من الكافرين بها، الجاحدين لها.

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ ﴿١٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِقَاتِ تِهْتِمِ لَا يَمْسُهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١﴾ ﴿١١﴾

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود في وجوه، وتبيض فيه وجوه، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة، قال تعالى هاهنا: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ أى: فى دعواهم له شريكا وولداً ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ أى: بكذبهم وافتراءهم.

وقوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أى: أليست جهنم كافية لهم سجنا وموتلا، لهم فيها الخزي والهوان، بسبب تكبرهم وتجيرهم وإبائهم عن الانقياد للحق. عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر فى صور الناس، يعلوهم كل شئ من الصغار، حتى يدخلوا سجنا من النار فى واد يقال له بولس، من نار الأنبار، ويسقون عصارة أهل النار، من طينة الخبال» (٢) .

وقوله: ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِقَاتِ تِهْتِمِ ﴾ أى: مما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله ﴿ لَا يَمْسُهُمُ السُّوءُ ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أى: ولا يحزنهم الفزع الأكبر، بل هم آمنون من كل فزع، مزحزون عن كل شر، مؤمنون كل خير.

(١) المسند (٥١٢/٢) والنسائي (٢/١١٤٥٤) . وروى نحوه البخارى (٣٢٤٠) ومسلم (٢٨٦٦/٦٥ ، ٦٦) .

(٢) المسند (٦٦٥٩)، والترمذى (٢٤٩٢) . وقال الترمذى: « حديث حسن صحيح » . وضح إسناده الشيخ شاکر .

﴿ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ
تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ
لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها ، وربها ومليكيها والمتصرف فيها ، وكل تحت تدبيره
وقهره وكلاءته . وقوله : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال مجاهد : المقاليد هي : المفاتيح . وكذا
قال قتادة . وقال السدي : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : خزائن السموات والأرض . والمعنى على
كلا القولين : أن أزمة الأمور بيده ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ؛ ولهذا قال :
﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أى : حججه وبراهينه ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ : ذكروا فى سبب نزولها ما رواه ابن أبى
حاتم وغيره ، عن ابن عباس : إن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ،
ويعبدوا معه إلهه ، فنزلت : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ . وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن
قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ . وهذه كقوله : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴾ [الانعام : ٨٨] . وقوله : ﴿ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أى : أخلص العبادة لله وحده ،
لا شريك له ، أنت ومن معك ، أنت ومن اتبعك وصدقك .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا بِقَيْمَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ
مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحٰنَهُ وَقَعْلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

يقول تعالى : وما قدر المشركون الله حق قدره ، حين عبدوا معه غيره ، وهو العظيم الذى لا
أعظم منه ، القادر على كل شيء ، المالك لكل شيء ، وكل شيء تحت قهره وقدرته . قال مجاهد :
نزلت فى قريش . وقال السدي : ما عظموه حق تعظيمه . وقال محمد بن كعب : لو قدره حق
قدره ما كذبوه . وقال ابن عباس : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ : هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدره
الله عليهم ، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير ، فقد قدر الله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك
فلم يقدر الله حق قدره . وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة ، والطريق فيها وفى
أمثالها مذهب السلف ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكيف ولا تحريف .

روى البخارى : عن عبد الله بن مسعود قال : جاء خبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ
فقال : يا محمد : إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ،
والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلائق على إصبع . فيقول : أنا الملك .
فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ، تصديقا لقول الخبر ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَمَا
قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا بِقَيْمَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ الآية . ورواه الإمام أحمد ، ومسلم ، والترمذى

والنسائي بنحوه (١) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله ، قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ من أهل الكتاب ، فقال : يا أبا القاسم ، أبلغك أن الله يحمل الخلائق على إصبع ، والسموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والثرى على إصبع ؟ قال : فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه . قال : وأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ إلى آخر الآية . وهكذا رواه البخارى ومسلم والنسائي (٢) . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : مر يهودى برسول الله ﷺ وهو جالس فقال : كيف تقول يا أبا القاسم : يوم يجعل الله السماء على ذه - وأشار بالسبابة - والأرض على ذه ، والجبال على ذه ، وسائر الخلق على ذه - كل ذلك يشير بإصبعه - قال : فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ الآية . وكذا رواه الترمذى ، وقال : حسن صحيح غريب (٣) . ثم روى البخارى عن أبى هريرة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يقبض الله الأرض ، ويطوى السماء يمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض » . ورواه مسلم (٤) . وروى البخارى عن ابن عمر ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع ، وتكون السموات يمينه ، ثم يقول : أنا الملك » . ورواه مسلم (٥) . وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى بلفظ آخر أبسط من هذا السياق وأطول عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده ، يحركها يقبل بها ويدبر : « يمجذ الرب نفسه : أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم » . فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا : لِيَحْرِقَنَّ بِهِ . ورواه مسلم والنسائي وابن ماجه نحوه (٦) .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿١٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتِ بِالنِّبْتِينِ وَالشَّهَادَاتِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن هول يوم القيامة ، وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة ، فقوله : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ هذه النفخة هى الثانية ، وهى نفخة الصعق ، وهى التى يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض ، إلا من

(١) البخارى (٤٨١١ ، ٧٤١٤ ، ٧٤١٥ ، ٧٤٥١) والمسند (٤٠٨٧) ومسلم (١٩ / ٢٧٨٦) والترمذى (٣٢٣٨) والنسائي فى الكبرى (١١٤٥١) .

(٢) المسند (٣٥٩٠) والبخارى (٧٤٥١) ومسلم (٢١ / ٢٧٨٦ ، ٢٢) والنسائي فى الكبرى (١١٤٥٢) .

(٣) المسند (٢٩٩٠) والترمذى (٣٢٤٠) . (٤) البخارى (٤٨١٢) ومسلم (٢٣ / ٢٧٨٧) .

(٥) البخارى (٧٤١٢) ومسلم (٢٥ / ٢٧٨٨) .

(٦) المسند (٥٤١٤) ومسلم (٢٥ / ٢٧٨٨) والنسائي فى الكبرى (٧٦٨٩) وابن ماجه (٤٢٧٥) .

شاء الله كما جاء مصرحا به مفسرا في حديث الصور المشهور . ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وينفرد الحى القيوم الذى كان أولا ، وهو الباقي آخرًا بالديمومة والبقاء ، ويقول : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ [غافر: ١٦] ثلاث مرات . ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول : ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ أنا : الذى كنت وحدى وقد قهرت كل شىء ، وحكمت بالفناء على كل شىء . ثم يحيى أول من يحيى إسرأفيل ، ويأمره أن ينفخ فى الصور أخرى ، وهى النفخة الثالثة نفخة البعث ، قال الله عز وجل : ﴿ ثُمَّ نَفْخُ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ أى : أحياء بعد ما كانوا عظاما ورفاتا ، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [التارعات : ١٣ ، ١٤] ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَمِن آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم : ٢٥] .

روى الإمام أحمد عن النعمان بن سالم قال : سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود قال : سمعت رجلا قال لعبد الله بن عمرو : إنك تقول : الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ قال : لقد هممت ألا أحدثكم شيئا ، إنما قلت : سترون بعد قليل أمرا عظيما . ثم قال عبد الله ابن عمرو : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال فى أمتى ، فيمكث فيهم أربعين - لا أدرى أربعين يوما أو أربعين عاما أو أربعين شهرا أو أربعين ليلة - فيبعث الله عيسى ابن مريم ، كأنه عروة بن مسعود الثقفى ، فيظهر فيهلكه الله . ثم يلبث الناس بعده سنين سبعا ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام ، فلا يبقى أحد فى قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدهم كان فى كبد جبل لدخلت عليه» . قال : سمعتها من رسول الله ﷺ : « ويبقى شرار الناس فى خفة الطير ، وأحلام السباع ، لا يعرفون معروفا ، ولا ينكرون منكرا» . قال : « فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون؟ فيأمرهم بالأوثان فيعبدونها ، وهم فى ذلك دارة أرزاقهم ، حسن عيشتهم . ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى له ، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه ، فيصعق ، ثم لا يبقى أحد إلا صعق . ثم يرسل الله - أو : ينزل الله مطرا كأنه الظل - أو الظل ، شك نعمان - فتنبت منه أجساد الناس . ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : يا أيها الناس ، هلموا إلى ربكم : ﴿ وَقَفُّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ ﴾ [الصفات : ٢٤] ، قال : « ثم يقال : أخرجوا بعث النار» . قال : « يقال : كم؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين . فيومئذ تبعث الولدان شييا ، ويومئذ يكشف عن ساق » . انفراد بإخراجه مسلم (١) . وروى البخارى عن أبى هريرة يحدث عن النبى ﷺ قال : « بين النفختين أربعون » . قالوا : يا أبا هريرة ، أربعون يوما؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعون سنة؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعون شهرا؟ قال : أبيت ، ويلى كل شىء من الإنسان إلا عَجِبُ ذنبه ، فيه يركب الخلق (٢) .

وقوله: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ أى: أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق، تبارك وتعالى، للخلائق لفصل القضاء ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ قال قتادة: كتاب الأعمال، ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ﴾ قال ابن عباس: يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم، ﴿وَالشُّهَدَاءُ﴾ أى: الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر، ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أى: بالعدل، ﴿وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ﴾. قال الله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الانباء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، ولهذا قال: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أى: من خير أو شر، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّارًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا كَفَرْتُمْ ﴿٧٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن حال الاشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار، وإنما يساقون سوقا عنيفا بزجر وتهديد ووعيد، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ [الطور: ١٣] أى: يدفعون إليها دفعا. هذا وهم عطاش ظماء، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا . وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ رُودًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]. وهم فى تلك الحال صم وبكم وعمى، منهم من يمشى على وجهه ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَ وَبُكْمًا وَصُمًّا مَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أى: بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعا، لتعجل لهم العقوبة، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية - الذين هم غلاظ الأخلاق، شداد القوى، على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ أى: من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم، ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ أى: يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أى: ويحذرونكم من شر هذا اليوم، فيقول الكفار لهم: ﴿بلى﴾ أى: قد جاؤونا وأنذرونا، وأقاموا علينا الحجج والبراهين ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أى: ولكن كذبناهم وخالفناهم، لما سبق إلينا من الشقوة التى كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل، كما قال تعالى مخبرا عنهم فى الآية الأخرى: ﴿كُلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ . وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨ - ١٠] أى: رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١]

أى: بعدا لهم وخسارا. وقوله هاهنا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب؛ ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم مستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به؛ ولهذا قال جل وعلا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكنين فيها لا خروج لكم منها، ولا زوال لكم عنها، ﴿فَبئسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أى: فبئس المصير وبئس المقيل لكم، بسبب تكبركم فى الدنيا، وإبائكم عن اتباع الحق، فهو الذى صيركم إلى ما أنتم فيه، فبئس الحال وبئس المآل.

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَقُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ رَبِّكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفدا إلى الجنة ﴿زُمَرًا﴾ أى: جماعة بعد جماعة: المقربون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، كل طائفة مع من يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصديقون مع أشكالهم، والشهداء مع أضرابهم، والعلماء مع أقرانهم، وكل صنف مع صنف، كل زمرة تناسب بعضها بعضا. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا﴾ أى: وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط، حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقصص لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هُذِبُوا ونُقُوا أذن لهم فى دخول الجنة، وقد ورد فى حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم بالدخول، فيقصدون آدم، ثم نوحا، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمدا، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما فعلوا فى العرصات عند استشفاعهم إلى الله، عز وجل، أن يأتى لفصل القضاء، ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر فى المواطن كلها. وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أنس ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ: « أنا أول شفيع فى الجنة » وفى لفظ لمسلم: « وأنا أول من يقرع باب الجنة » (١) . وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ﷺ: « أتى باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. قال: يقول: بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك ». ورواه مسلم (٢) .

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: « أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، ولا يبصقون فيها، ولا يمتخطون فيها، ولا يتغيطون فيها. آيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة ، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم

(٢) المسند (٣ / ١٣٦) ومسلم (١٩٧ / ٣٣٣) .

(١) مسلم (١٩٦ / ٣٣٠) .

زوجتان، يرى مخ ساقهما من وراء اللحم، من الحسن. لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيا». وروى البخارى ومسلم نحوه (١).

وروى الحافظ أبو يعلى عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب درى فى السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الالوة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعا فى السماء». وأخرجاه أيضا (٢). وعن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الجنة من أمتى زمرة، هم سبعون ألفا، تضىء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر». فقام عكاشة بن محصن فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى منهم: فقال: «اللهم اجعله منهم». ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلنى منهم. فقال ﷺ: «سبقك بها عكاشة». أخرجاه (٣). ولهما عن سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال: «ليدخلن الجنة من أمتى سبعون ألفا - أو: سبعمائة ألف - آخذ بعضهم ببعض، حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر» (٤).

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾: لم يذكر الجواب هاهنا، وتقديره: حتى إذا جاؤوها، وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراما وتعظيما، وتلقته الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء، لا كما تلقى الزبانية الكفرة بالثريب والتأنيب، فتقديره: إذا كان هذا سعدوا وطابوا، وسرّوا وفرحوا، بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم. وإذا حذف الجواب هاهنا ذهب الذهن كل مذهب فى الرجاء والأمل. ومن زعم أن «الواو» فى قوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ واو الثمانية، واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية، فقد أبعد النجعة، وأغرق فى النزاع. وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة.

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجين من ماله فى سبيل الله، دعى من أبواب الجنة، وللجنة أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريان» فقال أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: يا رسول الله، ما على أحد من ضرورة دعى، من أيها دعى، فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم». ورواه البخارى ومسلم بنحوه (٥). وفيهما عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة ثمانية أبواب، باب منها يسمى الريان،

(١) المسند (٨١٨٣) والبخارى (٣٢٢٥) ومسلم (١٤/٢٨٣٤).

(٢) أبو يعلى فى مسنده (١٠/٤٧٠) والبخارى (٣٣٢٧) ومسلم (١٥/٢٨٣٤).

(٣) البخارى (٦٥٤٢) ومسلم (٣٦٩/٢١٦). (٤) البخارى (٦٥٥٤) ومسلم (٣٧٣/٢١٩).

(٥) المسند (٧٦٢١) والبخارى (٣٦٦٦) ومسلم (٢٧/٨٥).

لا يدخله إلا الصائمون» (١) . وفي صحيح مسلم، عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ - أو: فيسبغ الوضوء - ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء» (٢) .

ذكر سعة أبواب الجنة - نسأل الله العظيم من فضله أن يجعلنا من أهلها :

في الصحيحين عن أبي هريرة في حديث الشفاعة الطويل: «يقول الله: يا محمد، أدخل من لا حساب عليه من أمتك من الباب الأيمن، وهم شركاء الناس في الأبواب الأخرى. والذي نفس محمد بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة - ما بين عضادتي الباب - لكما بين مكة وهجر - أو: هجر ومكة». وفي رواية: «مكة وبصرى» (٣) .

وفي صحيح مسلم، عن عتبة ابن غزوان أنه خطبهم خطبة فقال فيها: «ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة، مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام» وفي المسند مثله (٤) .

وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ أى: طابت أعمالكم وأقوالكم، وطاب سعيكم فطاب جزاؤكم ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ أى: ماكنين فيها أبدا، لا ييغون عنها حولا. ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أى: يقول المؤمنون إذا عابنوا في الجنة ذلك الثواب الوافر، والعطاء العظيم، والنعيم المقيم، والمملك الكبير، يقولون عند ذلك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أى: الذى كان وعدنا على السنة رسله الكرام، كما دعا في الدنيا: ﴿رَبَّنَا وَأَتْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ مِنَّا بِالْحَقِّ﴾ [الاعراف: ٤٣]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥] .

وقولهم: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ قال أبو العالية، وأبو صالح، وقتادة، والسدى، وابن زيد: أى أرض الجنة. وهذه الآية كقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] ، ولهذا قالوا: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أى: أين شئنا حللنا، فنعم الأجر أجرنا على عملنا. وفي الصحيحين عن أنس فى قصة المعراج قال النبى ﷺ: «أدخلت الجنة، فإذا فيها جنايد اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك» (٥) .

وعن أبى سعيد ، أن رسول الله ﷺ سأل ابن صائد عن تربة الجنة؟ فقال: درمكة بيضاء مسك خالص: فقال رسول الله ﷺ: «صدق». رواه مسلم (٦) .

(١) البخارى (١٨٩٦) ومسلم (١٦٦/١١٥٢) . (٢) مسلم (١٧/٢٣٤) .

(٣) البخارى (٤٧١٢) ومسلم (٣٢٧/١٩٤) . (٤) مسلم (١٤/٢٩٦٧) والمسند (٣/٥) .

(٥) مضى بطوله عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء ، وخرجناه هناك .

(٦) مسلم (٩٢/٢٩٢٨) .

﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ
بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٧٥﴾

لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار، وأنه نَزَلَ كُلًّا فِي الْمَحَلِّ الَّذِي يَلِيقُ بِهِ وَيُصَلِّحُ لَهُ، وَهُوَ الْعَادِلُ فِي ذَلِكَ الَّذِي لَا يَجُورُ - أَخْبَرَ عَنْ مَلَائِكَتِهِ أَنَّهُمْ مُحَدِّقُونَ مِنْ حَوْلِ عَرْشِهِ الْمَجِيدِ ، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، وَيُجَدِّدُونَهُ وَيُعْظَمُونَهُ وَيُقَدِّسُونَهُ وَيَنْزَهُونَهُ عَنِ النِّقَاطِصِ وَالْجُورِ، وَقَدْ فَصَّلَ الْقَضِيَّةَ، وَقَضَى الْأَمْرَ، وَحَكَمَ بِالْعَدْلِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أَيْ: بَيْنَ الْخِلَاطِقِ ﴿بِالْحَقِّ﴾. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيْ: وَنَطَقَ الْكُونُ أَجْمَعَهُ - نَاطِقَهُ وَبَهِيمَهُ - اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، بِالْحَمْدِ فِي حُكْمِهِ وَعَدْلِهِ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَسْنِدِ الْقَوْلَ إِلَى قَائِلٍ بَلْ أَطْلَقَهُ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ شَهِدَتْ لَهُ بِالْحَمْدِ. قَالَ قَتَادَةَ: افْتَتَحَ الْخَلْقُ بِالْحَمْدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، وَاخْتَتَمَ بِالْحَمْدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

تفسير سورة غافر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمَّ ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٢﴾

ربع

أما الكلام على الحروف المقطعة، فقد تقدم في أول «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته هاهنا.

وقوله: ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ أى: تنزيل هذا الكتاب - وهو القرآن - من الله ذى العزة والعلم، فلا يرام جنباه، ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابيه. وقوله: ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ أى: يغفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة فى المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه. وقوله: ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ أى: لمن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، وعتا عن أوامر الله، وبغى. وهذه كقوله تعالى: ﴿ نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، يقرن هذين الوصفين كثيراً فى مواضع متعددة من القرآن؛ ليبقى العبد بين الرجاء والخوف. وقوله: ﴿ ذِي الطُّوْلِ ﴾ قال ابن عباس: يعنى: السعة والغنى. وهكذا قال مجاهد، وقتادة.

وقال يزيد بن الأصم: يعنى: الخير الكثير. وقال عكرمة: ذى المن. وقال قتادة: ذى النعم والفواضل. والمعنى: أنه المتفضل على عباده، المتطول عليهم بما هم فيه من المن والأنعام، التى لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها، ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ الآية [إبراهيم: ٣٤].

وقوله: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى: لا نظير له فى جميع صفاته، فلا إله غيره، ولا رب سواه ﴿ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى: المرجع والمآب، فيجازى كل عامل بعمله، ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [الرعد: ٤١]. جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، إنى قتلتُ، فهل لى من توبة؟ فقراً عليه: ﴿ حَمَّ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ وقال: اعمل ولا تيأس. رواه ابن أبى حاتم - واللفظ له - وابن جرير (١). وروى ابن أبى حاتم عن يزيد بن الأصم قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس، وكان يفد إلى عمر بن الخطاب ففقد عمر فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، تتابع فى هذا الشراب. قال: فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب: «من عمر بن الخطاب إلى فلان ابن فلان، سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، ذى الطول، لا إله إلا هو

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٤ / ٢٧) .

إليه المصير». ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأحكيكم أن يُقبل بقلبه، وأن يتوب الله عليه. فلما بلغ الرجل كتابُ عمر جعل يقرؤه ويردده، ويقول: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، قد حذرنى عقوبته، ووعدنى أن يغفر لى. ورواه الحافظ أبو نعيم وزاد: «فلم يزل يُرددها على نفسه، ثم بكى، ثم نزع فأحسن النزع فلما بلغ عمر خبره قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخوا لكم زل زلةً فسددوه ووثقوه، وادعوا الله له أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه^(١).

﴿ مَا يُجَدِّلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٤﴾
 كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ
 وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ
 كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾

يقول تعالى: ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه ، ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ أى: فى أموالها ونعيمها وزهرتها ، كما قال : ﴿لَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاؤَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦ ، ١٩٧] ، وقال عز وجل: ﴿نَمَتَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّضْتُمُ إِلَيْهِ عَذَابًا غَلِيظًا﴾ [لقمان: ٢٤] . ثم قال تعالى مسلماً لنبيه محمد ﷺ فى تكذيب من كذبه من قومه، بأن له أسوة من سلف من الأنبياء؛ فإنه قد كذبهم أمهم وخالفوهم، وما آمن بهم منهم إلا قليل، فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ وهو أول رسول بعثه الله ينهى عن عبادة الأوثان ﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أى: من كل أمة ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أى: حرصوا على قتله بكل ممكن، ومنهم من قتل رسوله ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ أى: مآحلوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلى. وقوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أى: أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أى: فكيف بلغك عذابي لهم ، ونكالى بهم ؟ قد كان شديداً موجعاً مؤلماً. قال قتادة : كان والله شديداً. وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أى: كما حقت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة، كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريق الأولى والأخرى؛ لأن من كذبتك فلا وثوق له بتصديق غيرك .

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ
 آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ
 عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ
 وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ
 السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

يخبر تعالى عن الملائكة المقرين من حَمَلَةِ العرش الأربعة ، ومن حوله من الكرويين ، بأنهم يسبحون بحمد ربهم ، أى : يقرنون بين التسبيح الدال على نفى النقائص ، والتحميد المقتضى لإثبات صفات المدح ، ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أى : خاشعون له أذلاء بين يديه ، وأنهم ﴿ يَسْتَفْقِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى : من أهل الأرض ممن آمن بالغيب ، فقيض الله سبحانه ملائكته المقرين أن يَدْعُوا للمؤمنين بظهر الغيب ، ولما كان هذا من سجايا الملائكة ، عليهم الصلاة والسلام ، كانوا يُؤْمِنُونَ على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب ، كما ثبت فى صحيح مسلم : « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك : آمين ، ولك بمثل » (١) .

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ صدق أمية فى شىء من شعره ، فقال :

رَجُلٌ وَتَوَّرَ تَحْتَ رِجْلِ يَمِينِهِ	وَالنَّسْرُ لِلْأُخْرَى وَكَيْتٌ مُرْصَدٌ
فقال رسول الله ﷺ : « صدق » . فقال :	
وَالشَّمْسُ تَطْلُعُ كُلَّ آخِرِ لَيْلَةٍ	حَمْرَاءُ يُصْبِحُ لَوْنُهَا يَتَوَرَّدُ
تَأبَى فَمَا تَطْلُعُ لَنَا فِى رِسْلِهَا	إِلَّا مَعْدَبَةٌ وَإِلَّا تُجْلَدُ

فقال النبى ﷺ : « صدق » (٢) . وهذا إسناد جيد : وهو يقتضى أن حملة العرش اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٧] .

وهنا سؤال ، وهو أن يقال : ما الجمع بين المفهوم من هذه الآية ، ودلالة هذا الحديث ؟ وبين الحديث الذى رواه أبو داود عن العباس بن عبد المطلب ، قال : كنت بالبطحاء فى عصابة فيهم رسول الله ﷺ فمرت بهم سحابة ، فنظر إليها فقال : « ما تسمون هذه ؟ » قالوا : السحاب . قال : « والمزن ؟ » قالوا : والمزن . قال : « والعنآن ؟ » قالوا : والعنآن - قال أبو داود : ولم أتقن العنآن جيداً - قال : « هل تدرؤن بعد ما بين السماء والأرض ؟ » قالوا : لا ندرى . قال : « بعد ما بينهما إما واحدة ، أو اثنتان ، أو ثلاث وسبعون سنة ، ثم السماء فوقها كذلك » حتى عد سبع سموات « ثم فوق السماء السابعة بحر ، بين أسفله وأعلاه مثل بين سماء إلى سماء ، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال ، بين أظلافهن وركبهن مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم على ظهورهن العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء ، ثم الله ، تبارك وتعالى ، فوق ذلك » ثم رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن غريب . وهذا يقتضى أن حملة العرش ثمانية ،

(١) مسلم (٢٧٣٢ / ٨٦) .

(٢) المسند (٢٣١٤) وقال الشيخ شاكر : « إسناده صحيح » .

كما قال شهر بن حوشب: حملة العرش ثمانية، أربعة يقولون: «سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك». وأربعة يقولون: «سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك».

ولهذا يقولون إذا استغفروا للذين آمنوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أى: رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم، ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ أى: فاصفح عن المسيئين إذا تابوا وأنبأوا وأقنعوا عما كانوا فيه، واتبعوا ما أمرتهم به، من فعل الخيرات وترك المنكرات، ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أى: وزحزحهم عن عذاب الجحيم، وهو العذاب الموجع الأليم ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أى: اجمع بينهم وبينهم، لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع فى منازل متجاورة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ (١) بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] أى: ساوينا بين الكل فى المنزلة، لتقر أعينهم، وما نقصنا العالى حتى يساوى الدانى، بل رفعنا ناقص العمل، فساوينا به بكثير العمل، تفضلا منا ومنه. قال سعيد بن جبير: إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه، وأين هم؟ فيقال: إنهم لم يبلغوا طبقتك فى العمل. فيقول: إنى إنما عملت لى ولهم. فيلحقون به فى الدرجة، ثم تلا سعيد بن جبير هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير: أنصح عباد الله للمؤمنين الملائكة، ثم تلا هذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ ، وأعش عباد الله للمؤمنين الشياطين.

وقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أى: الذى لا يمانع ولا يغالب، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، الحكيم فى أقوالك وأفعالك، من شرعك وقدرك. ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أى: فعلها أو وبالها ممن وقعت منه، ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أى: لطفت به ونحيته من العقوبة، ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾
 ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنَاكَ وَوَعَدْتَنَا آتَيْنَاكَ فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾
 ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَلَّيْتُمْ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾
 ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾
 ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

(١) هى قراءة ، كما مضى بيانه عند تفسير الآية (١٦٤) من سورة الأنعام .

يقول تعالى مخبرا عن الكفار: إنهم يُنَادُونَ يوم القيامة وهم في غَمَرَات النيران يتلظون، وذلك عندما باسروا من عذاب الله ما لا قِيلَ لأحد به، فمقتوا عند ذلك أنفسهم وأبغضوها غاية البغض، بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة، التي كانت سبب دخولهم إلى النار، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخبارا عاليا، نادوهم نداء بأن مقت الله لهم في الدنيا حين كان يُعرض عليهم الإيمان، فيكفرون، أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم في هذه الحالة. قال قتادة في قوله: ﴿ لَمَقَّتْ اللهُ أَكْبَرَ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ يقول: لملت الله أهل الضلالة حين عُرض عليهم الإيمان في الدنيا، فتركوه وأبوا أن يقبلوه، أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عابونا عذاب الله يوم القيامة . وهكذا قال الحسن البصرى ، ومجاهد ، والسدى ، وذر بن عبد الله الهمداني، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وابن جرير الطبرى، رحمة الله عليهم أجمعين .

وقوله: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ قال ابن مسعود: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨] وكذا قال ابن عباس، والضحاك، وقاتدة، وهذا هو الصواب الذى لا شك فيه ولا مرية .

والمقصود من هذا كله: أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله، عز وجل، فى عرصات القيامة، كما قال: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢] ، فلا يجابون . ثم إذا رأوا النار وعابنوها ووقفوا عليها، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال، سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة، فلا يجابون، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْفُقَرَاءِ عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَأ لَهُمْ مَا كَانُوا يُحْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨] فإذا دخلوا النار وذاقوا مسها وحسبها ومقامها وأغلالها، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم، ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لِمَ نَعْمُرُكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧]، ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٧، ١٠٨] ، وفى هذه الآية الكريمة تلتطفوا فى السؤال، وقدموا بين يدي كلامهم مقدمة، وهى قولهم: ﴿ رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ أى: قدرتك عظيمة، فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتا، ثم أمتنا ثم أحييتنا، فأنت قادر على ما تشاء، وقد اعترفنا بذنوبنا، وإننا كنا ظالمين لأنفسنا فى الدار الدنيا، ﴿ فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ أى: فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا؟ فإنك قادر على ذلك؛ لنعمل غير الذى كنا نعمل، فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإننا ظالمون. فأجيبوا ألا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا. ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه بل تجحده وتنفيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ ، أى: أنتم هكذا تكونون، وإن رددتم إلى الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٨] . وقوله: ﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ أى: هو الحاكم فى خلقه، العادل الذى لا يجور، فيهدى من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، لا إله إلا هو .

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أى: يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه فى خلقه العلوى والسفلى من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها، ﴿وَيُنزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ وهو المطر الذى يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس، من اختلاف ألوانه وطعمه، وروائح وأشكاله وألوانه، وهو ماء واحد، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ أى: يعتبر ويتفكر فى هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿إِلَّا مَنْ يَنْسِي﴾ أى: من هو بصير منيب إلى الله، عز وجل.

وقوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أى: فأخلصوا الله وحده العبادة والدعاء، وخالفوا المشركين فى مسلكهم ومذهبهم. روى الإمام أحمد عن أبى الزبير قال: كان عبد الله بن الزبير يقول فى دبر كل صلاة حين يسلم: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» قال: وكان رسول الله ﷺ يهتلى بهن دبر كل صلاة. ورواه مسلم وأبو داود والنسائى (١). وقد ثبت فى الصحيح عن ابن الزبير؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير. لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» (٢).

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورُونَ لَا يُخَفُونَ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴿١٦﴾ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٧﴾ أَلْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى مخبرا عن عظمته وكبريائه، وارتفاع عرشه العظيم العالى على جميع مخلوقاته كالسقف لها، كما قال تعالى: ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٣، ٤]، وهذه مسافة ما بين العرش إلى الأرض السابعة، فى قول جماعة من السلف والخلف، وهو الأرجح إن شاء الله تعالى. وقوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، كقوله تعالى: ﴿يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]، وكقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤] ؛ ولهذا قال: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ قال ابن عباس: ﴿يَوْمَ

(١) المسند (٤/٤) ومسلم (١٣٩/٥٩٤) وأبو داود (١٥٠٦) والنسائى فى الكبرى (١٢٦٢).

(٢) مسلم (١٣٩/٥٩٤).

التَّلَاقِ ﴿١٨﴾ : اسم من أسماء يوم القيامة، حذر منه عباده. وقال: يلتقى فيه آدم وآخر ولده. وقال ابن زيد: يلتقى فيه العباد. وقال قتادة، والسدى وغيرهما : يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض. وقال قتادة أيضاً: يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض، والخالق والخلق. وقد يقال: إن يوم التلاق هو يشمل هذا كله، ويشمل أن كل عامل سيلقى ما عمل من خير وشر . كما قاله آخرون .

وقوله : ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ أى : ظاهرون بادون كلهم، لا شيء يكنهم ولا يظلمهم ولا يستترهم . ولهذا قال : ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ : أى : الجميع فى علمه على السواء . ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ قد تقدم فى حديث ابن عمر: أنه تعالى يطوى السموات والأرض بيده، ثم يقول: أنا الملك، أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ (١) . وفى حديث الصور: أنه تعالى إذا قبض أرواح جميع خلقه، فلم يبق سواه، وحده لا شريك له، حينئذ يقول: لمن الملك اليوم؟ ثلاث مرات، ثم يجيب نفسه قائلاً : ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أى : الذى هو وحده قد قَهَّرَ كل شيء وغلبه (٢) .

وقوله : ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ : يخبر تعالى عن عدله فى حكمه بين خلقه، أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر، بل يجزى بالحسنة عشر أمثالها، وبالسيئة واحدة ؛ ولهذا قال : ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ كما ثبت فى صحيح مسلم، عن أبى ذر، عن رسول الله ﷺ - فيما يحكى عن ربه عز وجل - أنه قال : «يا عبادى، إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا - إلى أن قال :- يا عبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (٣) . وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أى : يحاسب الخلائق كلهم، كما يحاسب نفساً واحدة، كما قال : ﴿مَخْلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفْسٍ وَاحِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال : ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَّمَحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠] .

﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾

يوم الأرزاق هو: اسم من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لاقترابها، كما قال تعالى : ﴿أَرْزَقْتِ الْأَرْزَاقَ . لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨] وقال : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، وقال : ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] وقال : ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] وقال : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَتْ وَجُوهَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ [الملك: ٢٧] .

(١) مضى تخريجه عند الآية (٦٧) من سورة الزمر .

(٢) مضى بتمامه وتخريجه عند الآية (٧٣) من سورة الأنعام . (٣) مسلم (٥٥ / ٢٥٧٧) .

وقوله: ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينَ ﴾ قال قتادة: وقفت القلوب في الحناجر من الخوف، فلا تخرج ولا تعود إلى أماكنها وكذا قال عكرمة، والسدى، وغير واحد. ومعنى ﴿ كَاطْمِينَ ﴾ أى: ساكتين، لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبا: ٣٨]. وقال ابن جرير: ﴿ كَاطْمِينَ ﴾ أى: باكين. وقوله: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاع ﴾ أى: ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم، ولا شفيع يشفع فيهم، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير.

وقوله: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾: يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله حقَّ الحياء، ويتقوه حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، وأنه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوى عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر. قال ابن عباس فى قوله: ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ﴾: وهو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، وفيهم المرأة الحسنة، أو تمر به وبهم المرأة الحسنة، فإذا غفلوا لحظ إليها، فإذا فطنوا غَضَّ، فإذا غفلوا لحظ، فإذا فطنوا غض، وقد اطلع الله من قلبه أنه ودَّ لو اطلع على فرجها. وقال الضحاك: ﴿ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ﴾: هو الغمز، وقول الرجل: رأيت، ولم يره؛ أو: لم أر، وقد رأى. وقال ابن عباس: يعلم تعالى من العين فى نظرها، هل تريد الخيانة أم لا؟ وكذا قال مجاهد، وقتادة. وقال ابن عباس فى قوله: ﴿ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾: يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزنى بها أم لا؟ وقال السدى: ﴿ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ أى: من الوسوسة.

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾ أى: يحكم بالعدل. قال ابن عباس: قادر على أن يجزى بالحسنة الحسنة، وبالسئية السئية ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾. وهذا الذى فسر به ابن عباس فى هذه الآية كقوله تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١]. وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ أى: من الأصنام والأوثان والأنداد، ﴿ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ أى: لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشيء ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ أى: سميع لأقوال خلقه، بصير بهم، فيهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحاكم العادل فى جميع ذلك.

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُمْ قَوْمٌ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٢﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ هؤلاء المكذبون برسالتك يا محمد ﴿ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أى: من الأمم المكذبة بالأنبياء، ما حل بهم من العذاب والنكال، مع

أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة ﴿وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: أثروا فى الأرض من البنيات والمعالم والديارات، ما لا يقدر عليه هؤلاء، كما قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيهَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهَا﴾ [الاحقاف: ٢٦]، وقال: ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩] أى: ومع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد، أخذهم الله بذنوبهم، وهى كفرهم برسلمهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ أى: وما دفع عنهم عذاب الله أحد، ولا رده عنهم راد، ولا وقاهم واق.

ثم ذكر علة أخذه إياهم وذنوبهم التى ارتكبوها واجتروها، فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى: بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات ﴿فَكَفَرُوا﴾ أى: مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ أى: أهلكتهم ودمر عليهم وللكافرين أمثالها، ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى: ذو قوة عظيمة وبطش شديد، وهو ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أى: عقابه اليم شديد وجيع. أعادنا الله منه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٤﴾﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَزَنَ وَقُرُونِ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿١٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنَ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالى مسلماً لنبيه ﷺ فى تكذيب من كذبه من قومه، ومبشراً له بأن العقاب والنصرة له فى الدنيا والآخرة، كما جرى لموسى بن عمران، عليه السلام، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات، والدلائل الواضحات؛ ولهذا قال: ﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ﴾ والسلطان هو: الحجّة والبرهان ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ هو: ملك القبط بالديار المصرية ﴿وَهَامَانَ﴾ وهو: وزيره فى مملكته ﴿وَقَارُونَ﴾ وكان أكثر الناس فى زمانه مالا وتجارة ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَابٌ﴾ أى: كذبوه وجعلوه ساحراً مجنوناً مموهاً كذاباً فى أن الله أرسله. وهذه كقولته: ﴿كَذٰلِكَ مَا أَتَىٰ الدِّينَ مِنْ قِبَلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ. أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طٰغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أى: بالبرهان القاطع الدال على أن الله تعالى أرسله إليهم ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بنى إسرائيل. أما الأول: فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم، أو لمجموع الأمرين. وأما الأمر الثانى: فللعلة الثانية، لإهانة هذا الشعب، ولكى يتشاءموا بموسى، عليه السلام؛ ولهذا قالوا: ﴿أَوْفِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الاعراف: ١٢٩]. قال قتادة: هذا أمر بعد

أمر. قال الله عز وجل : ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أى : وما مكرهم وقصدهم الذى هو تقليل عدد بنى إسرائيل لثلاث يُنصرون عليهم ، إلا ذاهب وهالك فى ضلال .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ : وهذا عزمٌ من فرعون - لعنه الله - على قتل موسى ، عليه السلام ، أى : قال لقومه : دعونى حتى أقتل لكم هذا ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ أى : لا أبالى منه . وهذا فى غاية الجحد والتجهرم والعناد . وقوله - قبحه الله : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ ﴾ يعنى : موسى ، يخشى فرعون أن يُضِلَّ موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم . وهذا كما يقال فى المثل : « صار فرعون مُذْكَرًا » ، يعنى : واعظا ، يشفق على الناس من موسى ، عليه السلام . وقرأ الأكثرون : « أن يبدل دينكم وأن يُظْهِرَ فى الأرض الفساد » وقرأ آخرون : ﴿ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ ﴾ وقرأ بعضهم : « يُظْهِرَ فى الأرض الفساد » ، بالضم .

﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أى : لما بلغه قول فرعون : ﴿ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ قال موسى : استجرت بالله وعُذْتُ به من شره وشر أمثاله ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ أيها المخاطبون ﴿ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أى : عن الحق ، مجرم ﴿ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ ؛ ولهذا جاء فى الحديث عن أبى موسى ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوما قال : « اللهم ، إنا نعوذ بك من شرورهم ، وندرا بك فى نحورهم » (١) .

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٢٨﴾ يَقَوْمَ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا آرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون . واختاره ابن جرير ، وردَّ قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً ؛ لأن فرعون انفعل لكلامه واستمعه ، وكف عن قتل موسى ، عليه السلام ، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل بالعقوبة ؛ لأنه منهم . وقال ابن عباس : لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون ، والذى قال : ﴿ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ [القصص : ٢٠] . وقد كان هذا الرجل يكتُمُ إيمانه عن قومه القبط ، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون : ﴿ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ ، فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل ، و«أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» (٢) ، كما ثبت بذلك الحديث ، ولا أعظم من هذه الكلمة

(١) المسند (٤/٤١٤) ، والحاكم فى المستدرک (٢/١٤٢) وقال : « حديث صحيح على شرط الشيخين وأكبر ظنى أنهما لم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

(٢) أبو داود (٤٣٤٤) والترمذى (٢١٧٤) وقال : « غريب من هذا الوجه » ، وصححه الالبانى .

عند فرعون، وهى قوله: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ ، اللهم إلا ما رواه البخارى عن عروة ابن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرنى بأشد شئ مما صنعه المشركون برسول الله ﷺ، قال: بينا رسول الله ﷺ يصلى بفناء الكعبة، إذ أقبل عقبه بن أبى معيط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه فى عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر، رضى الله عنه، فأخذ بمنكبه ودفعه عن النبى ﷺ، ثم قال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ . انفرد به البخارى (١) .

وقوله: ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أى: كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول: «ربى الله»، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟ ثم تنزل معهم فى المخاطبة فقال: ﴿ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ ﴾ . يعنى: إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به، فمن العقل والرأى التام والحزم أن تتركوه ونفسه، فلا تؤذوه، فإن يك كاذباً فإن الله سيجازيه على كذبه بالعقوبة فى الدنيا والآخرة، وإن يك صادقاً وقد أديتموه يصيبكم بعض الذى يعدكم، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب فى الدنيا والآخرة، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقاً، فينبغى على هذا ألا تتعرضوا له، بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه .

وهكذا أخبر الله عز وجل عن موسى، عليه السلام، أنه طلب من فرعون وقومه الموادة فى قوله: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ . أَنْ أَدُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . وَإِنِّي عِدْتُ رَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ . وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُونِ ﴾ [الدخان : ١٧ - ٢١] وهكذا قال رسول الله ﷺ لقريش أن يتركوه يدعو إلى الله عباد الله، ولا يمسه بسوء، و يصلوا ما بينه وبينهم من القرابة فى ترك أذيته، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ [الشورى: ٢٣] أى: إلا ألا تؤذونى فيما بينى وبينكم من القرابة، فلا تؤذونى وتتركوا بينى وبين الناس . وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية، وكان فتحاً مبيئاً . وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ أى: لو كان هذا الذى يزعم أن الله أرسله إليكم كاذباً كما تزعمون، لكان أمره بينا، يظهر لكل أحد فى أقواله وأفعاله، كانت تكون فى غاية الاختلاف والاضطراب، وهذا نرى أمره سديداً ومنهجه مستقيماً، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله، وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله .

ثم قال المؤمن محذراً قومه زوال نعمة الله عنهم وحلول نعمة الله بهم: ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى: قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور فى الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض، فراعوا هذه النعمة بشكر الله، وتصديق رسوله ﷺ، واحذروا نعمة الله إن كذبتم رسوله، ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ أى: لا تغنى عنكم هذه الجنود وهذه العساكر، ولا ترد عنا شيئاً من بأس الله إن أردنا بسوء ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ لقومه، راداً على ما أشار به هذا

الرجل الصالح البار الراشد الذى كان أحق بالملك من فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ أى: ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسى وقد كذب فرعون، فإنه كان يتحقق صدق موسى فيما جاء به من الرسالة ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

فقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ كذب فيه وافترى، وخان الله ورسوله ورعيته، فغشهم وما نصحهم وكذا قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أى: وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد وقد كذب أيضا فى ذلك، وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه، قال الله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه: ٧٩]، وفى الحديث: «ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام» (١).

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَلْقَوْنَ إِيَّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ ﴿٢٥﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٢٦﴾ وَيَتَقَوَّمُ إِيَّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٢٧﴾ يَوْمَ تَكُونُونَ مَدْبِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ قَدْ زَلَّمْتُمْ فِي شَكِّكُمْ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهٖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٢٩﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ وَيَعْتَرِ سُلْطٰنِينَ أَنَّهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّكْتَبِرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾

هذا إخبار من الله، عز وجل، عن هذا الرجل الصالح، مؤمن آل فرعون: أنه حذر قومه بأس الله فى الدنيا والآخرة فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِيَّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ أى: الذين كذبوا رسل الله فى قديم الدهر، كقوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حل بهم بأس الله، وما رده عنهم راد، ولا صده عنهم صاد ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أى: إنما أهلكهم الله بذنوبهم، وتكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره. فأنفذ فيهم قدره.

ثم قال: ﴿وَيَا قَوْمِ إِيَّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ يعنى: يوم القيامة وسمى بذلك، قال بعضهم: لما جاء فى حديث الصور: إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر، وماجت وارتجت، فنظر الناس إلى ذلك، ذهبوا هارين ينادى بعضهم بعضا. وقال آخرون، منهم الضحاك: بل ذلك إذا جىء بجهنم، ذهب الناس هرابا، فتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام

المحشر، وهو قوله تعالى: ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ﴾ [الحاقة: ١٧]، وقوله: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن: ٢٣]. وقد روى عن ابن عباس، والحسن، والضحاك: أنهم قرؤوا: «يوم التناد»، بتشديد الدال، من ند البعير: إذا شرد وذهب. وقيل: لأن الميزان عنده ملك، وإذا وزن عمل العبد فرجح نادى بأعلى صوته: ألا قد سعد فلان بن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا. وإن خف عمله نادى: ألا قد شقى فلان بن فلان. وقال قتادة: ينادى كل قوم بأعمالهم: ينادى أهل الجنة أهل الجنة، وأهل النار أهل النار. وقيل: سمي بذلك لمناداة أهل الجنة أهل النار: ﴿ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ ﴾ [الأعراف: ٤٤]. ومناداة أهل النار أهل الجنة: ﴿ أَنْ أفيضوا علينا من الماء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٠]، ولناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار، كما هو مذكور في سورة الأعراف. واختار البغوي وغيره: أنه سمي بذلك لمجموع ذلك. وهو قول حسن جيد، والله أعلم.

وقوله: ﴿ يَوْمَ تُولَدُونَ مُدْبِرِينَ ﴾ أي: ذاهبين هارين، ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ. إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ [القيامة: ١١، ١٢]، ولهذا قال: ﴿ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ أي: ما لكم مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه ﴿ وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أي: من أضله الله فلا هادي له غيره .

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ يعني: أهل مصر، قد بعث الله فيهم رسولا من قبل موسى، وهو يوسف، عليه السلام، كان عزيز أهل مصر، وكان رسولا يدعو إلى الله أمته القبط (١)، فما أطاعوه تلك الطاعة إلا لمجرد الوزارة والجاه الدنيوى؛ ولهذا قال: ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ أي: يشتم فقلتم طامعين: ﴿ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿ كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ مِنْهُ مَسْرِفٌ مُرْتَابًا ﴾ أي: كحالكم هذا يكون حال من يضلله الله لإسرافه في أفعاله وارتباب قلبه .

ثم قال: ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ أي: الذين يدفعون الحق بالباطل، ويجادلون الحجة بغير دليل وحجة معهم من الله، فإن الله يمقت على ذلك أشد المقت؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي: والمؤمنون أيضا يبغضون من تكون هذه صفته، فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه، فلا يعرف بعد ذلك معروفا، ولا ينكر منكرا؛ ولهذا قال: ﴿ كَذَلِكَ يَطَّعَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ ﴾ أي: على اتباع الحق ﴿ جَبَّارًا ﴾ .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَمُنُّ ابْنِي لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَتْلُجُ الْأَسْبَابَ ﴾ ﴿ ٦١ ﴾ أَسْبَابُ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿ ٦٢ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن فرعون، وعتوه، وتمرده، وافتراءه في تكذيبه موسى، عليه السلام،

(١) حرفت في المطبوعة إلى: «بالقسط»، والمثبت من المخطوطة .

أنه أمر وزيره هامان أن يبني له صرحا ، وهو: القصر العالى المنيف الشاهق. وكان اتخاذه من الأجر المصروب من الطين المشوى، كما قال تعالى : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا ﴾ [الفصص: ٣٨].

وقوله : ﴿ لَعَلِّي أَبْلُغَ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ ﴾ قال سعيد بن جبير ، وأبو صالح : أبواب السموات . وقيل : طرق السموات ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأُظَنُّ كَاذِبًا ﴾ وهذا من كفره وتمرده ، أنه كذب موسى ، عليه السلام فى أن الله ، عز وجل ، أرسله إليه ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدُّهُ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى : بصنيعه هذا الذى أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئا يتوصل به إلى تكذيب موسى ، عليه السلام ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ يعنى : إلا فى خسار .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَنْقُومِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾
يَنْقُومِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَن
عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنفَى وَهُوَ
مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

يقول المؤمن لقومه من ترمد وطغى وآثر الحياة الدنيا، ونسى الجبار الأعلى، فقال لهم : ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ ، لا كما كذب فرعون فى قوله : ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ . ثم زهدهم فى الدنيا التى آتوها على الأخرى ، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه السلام ، فقال : ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾ أى : قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب وتضمحل ﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ أى : الدار التى لا زوال لها ، ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها ، بل إما نعيم وإما جحيم ، ولهذا قال : ﴿ مَن عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ أى : واحدة مثلها ، ﴿ وَمَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنفَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أى : لا يتقدر بجزاء بل يشبهه الله ثوابا كثيرا لا انقضاء له ولا نفاذ .

﴿ وَيَنْقُومِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي
لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَقْرِ
﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا
إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ
وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَدَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا
مَكَرُوا وَحَاقَ بِقَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا
وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

يقول لهم المؤمن: ما بالي أدعوكم إلى النجاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله الذي بعثه ﴿وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ. تَدْعُونِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ ؟ أى: جهل بلا دليل ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ أى: هو فى عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه، ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ يقول: حقا. قال السدى، وابن جرير: معنى قوله: ﴿لَا جَرَمَ﴾: حقا. وقال الضحاك: ﴿لَا جَرَمَ﴾: لا كذب. وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَا جَرَمَ﴾، يقول: بلى، إن الذى تدعونى إليه من الأصنام والأنداد ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ﴾ قال مجاهد: الوثن ليس بشيء. وقال قتادة: يعنى الوثن، لا ينفع ولا يضر. وقال السدى: لا يجيب داعيه، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَأ يَسْتَجِيبَ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الاحقاف: ٥، ٦]، ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] .

وقوله: ﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ أى: فى الدار الآخرة، فيجازى كلا بعمله؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنْ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أى: خالدين فيها بإسرافهم، وهو شركهم بالله. ﴿فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ أى: سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم، وتذكرونه، وتندمون حيث لا ينفعكم الندم، ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أى: وأتوكل على الله وأستعينه، وأقاطعكم وأبعدكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أى: هو بصير بهم، فيهدى من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، والقدر النافذ.

وقوله: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا﴾ أى: فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فنجاه الله مع موسى، عليه السلام، وأما فى الآخرة فبالجنة ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ وهو: الغرق فى اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم. فإن أرواحهم تعرض على النار صباحا ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم فى النار؛ ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أى: أشده ألما وأعظمه نكالا. وهذه الآية أصل كبير فى استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ فى القبور، وهى قوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ .

ولكن هاهنا سؤال، وهو أنه لاشك أن هذه الآية مكية، وقد استدلوا بها على عذاب القبر فى البرزخ، وقد روى الإمام أحمد عن عائشة؛ أن يهودية كانت تخدمها، فلا تصنع عائشة إليها شيئا من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وفاق الله عذاب القبر. قالت: فدخل رسول الله ﷺ على فقالت: يا رسول الله، هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة؟ قال: «لا، وعم ذلك؟». قالت: هذه اليهودية، لا تصنع إليها شيئا من المعروف إلا قالت: وفاق الله عذاب القبر. قال: «كذبت يهود. وهم على الله أكذب، لا عذاب دون يوم القيامة». ثم مكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملا بثوبه، محمرة عيناه، وهو ينادى بأعلى صوته: «القبر كقطع الليل المظلم. أيها الناس، لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيرا وضحكتكم قليلا. أيها الناس، استعيذوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق». وهذا إسناد صحيح على شرط

البخارى ومسلم، ولم يخرجاه (١). وروى أحمد عن عائشة - قال: سألتها امرأة يهودية فأعطتها، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر. فأنكرت عائشة ذلك، فلما رأت رسول الله ﷺ قالت له، فقال: «لا». قالت عائشة: ثم قال لنا رسول الله ﷺ بعد ذلك: «وإنه أوحى إلى أنكم تفتنون فى قبوركم». وهذا أيضا على شرطهما (٢). فيقال: فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية، وفيها الدليل على عذاب البرزخ؟ والجواب: أن الآية دلت على عرض الأرواح إلى النار غدوا وعشيا فى البرزخ، وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها فى القبور، إذ قد يكون ذلك مختصا بالروح، فأما حصول ذلك للجسد وتألمه بسببه، فلم يدل عليه إلا السنة فى الأحاديث المرضية الآتى ذكرها. وقد يقال: إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار فى البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن فى قبره بذنب، ومما يدل على هذا ما رواه الإمام أحمد عن عائشة، أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود، وهى تقول: أشعرت أنكم تفتنون فى قبوركم؟ فارتاع رسول الله ﷺ وقال: «إنما يفتن يهود». قالت عائشة: فلبينا لىالى، ثم قال رسول الله ﷺ: «أشعرت أنه أوحى إلى أنكم تفتنون فى القبور؟». وقالت عائشة: سمعت رسول الله ﷺ بعد يستعيز من عذاب القبر. وهكذا رواه مسلم (٣).

وقد يقال: إن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح فى البرزخ، ولا يلزم من ذلك أن يتصل بالأجساد فى قبورها، فلما أوحى إليه فى ذلك بخصوصيته استعاذ منه، والله، سبحانه وتعالى، أعلم. وقد روى البخارى، عن عائشة، أن يهودية دخلت عليها فقالت: نعوذ بالله من عذاب القبر. فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر؟ فقال: «نعم، عذاب القبر حق». قالت عائشة: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر (٤). فهذا يدل على أنه بادر إلى تصديق اليهودية فى هذا الخبر، وقرر عليه. وفى الأخبار المتقدمة: أنه أنكر ذلك حتى جاءه الوحى، فلعلهما قضيتان، والله أعلم، وأحاديث عذاب القبر كثيرة جدا.

وقال قتادة فى قوله: «غُدُورًا وَعَشِيًّا»: صباحا ومساء، ما بقيت الدنيا، يقال لهم: يا آل فرعون، هذه منازلكم، توبيخا ونقمة وصغارا لهم. وقال ابن زيد: هم فيها اليوم، يُغْدَى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة. وروى الإمام أحمد عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار. فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله، عز وجل، إلى يوم القيامة». أخرجاه فى الصحيحين (٥).

(٢) المسند (٢٣٨/٦)

(١) المسند (٥٣ / ٦)

(٣) المسند (٢٤٨/٦) مسلم (٥٨٤ / ١٢٣)

(٤) البخارى (١٣٧٢)

(٥) المسند (٥٩٢٦) والبخارى (١٣٧٩) ومسلم (٦٥ / ٢٨٦٦)

﴿ وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عن تحاج أهل النار في النار وتخاصمهم، وفرعون وقومه من جملتهم ﴿ فيقول الضُّعفاء ﴾ وهم: الأتباع ﴿ للذين استكبروا ﴾ وهم: القادة والسادة والكبراء : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ أى: أطعناكم فيما دعوتونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال ﴿ فهل أنتم مغنون عنا نصيبًا من النار ﴾ أى: قسطا تتحملونه عنا. ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾ أى: لا تتحمل عنكم شيئاً، كفى بنا ما عندنا، وما حملنا من العذاب والنكال ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ أى: يقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الاعراف: ٣٨].

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴾ : لما علموا أن الله، سبحانه، لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم، بل قد قال: ﴿ اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] سألو الخزنة - وهم كالبوابين (١) لأهل النار - أن يدعوا لهم الله أن يخفف عن الكافرين ولو يوماً واحداً من العذاب، فقالت لهم الخزنة رادين عليهم: ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى: أو ما قامت عليكم الحجج في الدنيا على السنة الرسل؟ ﴿ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا ﴾ أى: أنتم لأنفسكم، فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم، ونحن منكم برآء، ثم نخبركم أنه سواء دعوتهم أو لم تدعوا، لا يستجاب لكم ولا يخفف عنكم؛ ولهذا قالوا: ﴿ وَمَا دُعَاؤُا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أى: إلا من ذهاب، لا يتقبل ولا يستجاب.

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذرتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَزْرَأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَأَصِدْرَ إِتٍ وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَأَسْتَعْفَرَ لِدُنْيَاكَ وَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِيغِيهِ ءَأَسْتَعِذُ بِاللَّهِ إِنَّكَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾

(١) فى المطبوعة : « كالسجانين » والمثبت من المخطوطة .

قد أورد أبو جعفر بن جرير عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ سؤالاً فقال: قد علم أن بعض الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعيا (١).

ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً كإبراهيم، وإما إلى السماء كعيسى، فأين النصرة في الدنيا؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين:

أحدهما: أن يكون الخبر خرج عاماً، والمراد به البعض، قال: وهذا سائغ في اللغة.

الثاني: أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن أذاهم، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم، كما فعل بقتله يحيى وزكريا وشعيا (٢)، سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم، وقد ذكر أن النمرود أخذ الله أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح، عليه السلام، من اليهود، فسلط الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم، وأظهرهم الله عليهم. ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم إماماً عادلاً، وحكماً مقسطاً، فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام. وهذه نصرة عظيمة، وهذه سنة الله في خلقه في قديم الدهر وحديثه: أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا، ويقر أعينهم ممن أذاهم، ففي صحيح البخارى عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب» (٣)؛ ولهذا أهلك تعالى قوم نوح وعاد وثمود، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وأهل مدين، وأشباهم وأضرابهم، من كذب الرسل وخالف الحق. وأنجى الله من بينهم المؤمنين، فلم يهلك منهم أحداً، وعذب الكافرين، فلم يفلت منهم أحداً. قال السدى: لم يبعث الله رسولا قط إلى قوم فيقتلونه، أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله لهم من ينصرهم، فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا. قال: فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا، وهم منصورون فيها.

وهكذا نصر الله سبحانه نبيه محمداً ﷺ وأصحابه على من خالفه وناوأه، وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هى العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان. وأمره بالهجرة من بين ظهرانى قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر، فنصره عليهم وخذلهم له، وقتل صناديدهم، وأسر سراتهم، فاستاقهم مقرنين فى الأصفاد، ثم من عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة، فقرت عينه ببلده، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم، فأنقذه الله به مما كان فيه من الشرك والكفر، وفتح له اليمن، ودانت له جزيرة العرب بكما لها، ودخل الناس فى دين الله أفواجا. ثم قبضه الله، تعالى، إليه، لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله، ودعوا

(١) فى المطبوعة حرفت إلى « شعيا » والمثبت من المخطوطة .

(٢) فى المطبوعة حرفت إلى « شعيا » والمثبت من المخطوطة . (٣) البخارى (٦٥٠٢) .

عباد الله إلى الله . وفتحوا البلاد والرساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب ، حتى انتشرت الدعوة المحمدية فى مشارق الأرض ومغاربها . ثم لا يزال هذا الدين قائما منصورا ظاهرا إلى قيام الساعة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ أى : يوم القيامة تكون النصره أعظم وأكبر وأجل . قال مجاهد : الأشهاد : الملائكة (١) .

وقوله : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ ﴾ بدل من قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ . وقرأ آخرون : «يَوْمٌ» بالرفع ، كانه فسر به ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ ﴾ ، وهم المشركون ﴿ مَعذِرَتُهُمْ ﴾ أى : لا يقبل منهم عذر ولا فدية ، ﴿ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ أى : الإبعاد والطرده من الرحمة ، ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ وهى النار . قاله السدى ، بشئ المنزل والمقيل . وقال ابن عباس : ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ أى : سوء العاقبة .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى ﴾ : وهو ما بعثه الله به من الهدى والنور ، ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴾ أى : جعلنا لهم العاقبة ، وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه ، بما صبروا على طاعة الله واتباع رسوله موسى ، عليه السلام ، وفى الكتاب الذى أورثوه - وهو التوراة - ﴿ هُدًى وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ وهى : العقول الصحيحة السليمة .

وقوله : ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ أى : يا محمد ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ أى : وعدناك أنا سنعلى كلمتك ، ونجعل العاقبة لك ولن اتبعك ، والله لا يخلف الميعاد . وهذا الذى أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك . وقوله : ﴿ وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنُوبِكَ ﴾ : هذا تهيج للأمة على الاستغفار ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ ﴾ أى : فى أواخر النهار وأوائل الليل ، ﴿ وَالْإِبْكَارِ ﴾ وهى أوائل النهار وأواخر الليل .

وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنَّهُمْ ﴾ أى : يدفعون الحق بالباطل ، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله ﴿ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾ أى : ما فى صدورهم إلا كبر على اتباع الحق ، واحتقار لمن جاءهم به ، وليس ما يرومونه من إخمال الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم ، بل الحق هو المرفوع ، وقولهم وقصدهم هو الموضوع ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ أى : من حال مثل هؤلاء ، ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ أو : من شر مثل هؤلاء المجادلين فى آيات الله بغير سلطان . هذا تفسير ابن جرير .

(١) قلت : أين المسلمون الآن من هذه الآية ؟ لقد ضاعت كل هذه الانتصارات والفتوحات من أيدي المسلمين ، ونُحى الإسلام من هذه الديار ، وترأس الإلحاد وماذاك إلا بتكالب المسلمين على الدنيا ، وجهها ، وما ألقى فى قلوبهم من الوهن ، فكانوا لقمة سائغة فى يد أعدائهم ، وتكالبت عليهم الأمم حتى أهون خلق الله على الله وهم اليهود !! ولن تصلح هذه الأمة إلا بما صلح به أولها من التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ونبذ الفرقة والتعاون على البر والتقوى ، وعدم موالات أعداء الله ، والاخذ بأسباب التمكين فى الأرض ، ولينصرون الله من ينصره ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

﴿ لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى منها على أنه بعيد الخلاق يوم القيامة، وأن ذلك سهل عليه، يسير لديه - بأنه خلق السموات والأرض، وخلقهما أكبر من خلق الناس بدءاً وإعادة، فمن قدر على ذلك فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأخرى، كما قال تعالى: ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ [وَلَمْ يَمَيِّ بِخَلْقِهِنَّ] (١) بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الاحقاف: ٢٣]. وقال هاهنا: ﴿ لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾؛ فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها، كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله خلق السموات والأرض، وينكرون المعاد، استبعادا وكفرا وعنادا، وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا.

ثم قال: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ﴾ أى: كما لا يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئا، والبصير الذى يرى ما انتهى إليه بصره، بل بينهما فرق عظيم، كذلك لا يستوى المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار ﴿ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى: ما أقل ما يتذكر كثير من الناس. ثم قال: ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ ﴾ أى: لكائنة وواقعة، ﴿ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى: لا يصدقون بها، بل يكذبون بوجودها.

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ ﴿٦٠﴾

هذا من فضله، تبارك وتعالى، وكرمه: أنه ندب عباده إلى دعائه، وتكفل لهم بالإجابة، كما كان سفيان الثوري يقول: يا من أحب عباده إليه من سأله فأكثر سؤاله، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله، وليس أحد كذلك غيرك يارب. روى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾. ورواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وابن أبى حاتم، وابن جرير، وقال الترمذى: حسن صحيح. رواه أبو داود، وابن حبان والحاكم فى صحيحيهما، وقال الحاكم: صحيح الإسناد (٢). وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يدع الله، عز وجل، غضب الله عليه» (٣). وهذا إسناد لا بأس به.

(١) ما بين المعقوفين سقط من المخطوطة .

(٢) المسند (٢٧١ / ٤) والترمذى (٢٩٦٩ ، ٣٣٧٢) والنسائى فى الكبرى (١١٤٦٤) وابن ماجه (٣٨٢٨) وابن حبان فى صحيحه (٢٣٩٦ موارد) والحاكم فى المستدرک (٤٩١ / ١) وابن جرير فى التفسير (٥١ / ٢٤) .

(٣) المسند (٢ / ٤٧٧) .

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أى: عن دعائى وتوحيدي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أى: صاغرين حقيرين ، كما روى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبى ﷺ قال : « يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ ، فِي صُورِ النَّاسِ ، يَعْلَهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ ، حَتَّى يَدْخُلُوا سَجْنَا فِي جَهَنَّمَ - يُقَالُ لَهُ : بُولَس - تَعْلَهُمْ نَارُ الْأَنْبِيَارِ ، يَسْقُونَ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ : عَصَاةُ أَهْلِ النَّارِ » (١) .

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَدُوٌّ فَضَّلَ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١١﴾ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿١٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَّيَبَتِ اللَّهُ بِجَحْدُونَ ﴿١٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

يقول تعالى ممثنا على خلقه، بما جعل لهم من الليل الذى يسكنون فيه ويستريحون من حركات ترددهم فى المعاش بالنيهار، وجعل النهار مبصرا، أى: مضيئا، ليتصرفوا فيه بالأسفار، وقطع الاقطار، والتمكن من الصناعات ﴿إِنَّ اللَّهَ لَدُوٌّ فَضَّلَ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أى: لا يقومون بشكر نعم الله عليهم.

ثم قال: ﴿ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى: الذى فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد، خالق الأشياء، الذى لا إله غيره، ولا رب سواه ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أى: فكيف تعبدون غيره من الأصنام، التى لا تخلق شيئا، بل هى مخلوقة منحوتة. وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَّيَبَتِ اللَّهُ بِجَحْدُونَ﴾ أى: كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله، كذلك أفك الذين من قبلهم، فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الجهل والهوى، وجحدوا حجج الله وآياته.

وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أى: جعلها مستقرا لكم، بساطا مهادا تعيشون عليها، وتتصرفون فيها، وتمشون فى مناكبها، وأرساها بالجبال لثلا تميد بكم، ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أى: سقفا للعالم محفوظا، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ أى: فخلقكم فى أحسن الأشكال، ومنحكم أكمل الصور فى أحسن تقويم، ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى: من المأكلى والمشارب فى الدنيا. فذكر أنه خلق الدار، والسكان، والأرزاق - فهو الخالق الرازق، كما قال فى سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ

بِنَاءٍ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْمَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ٢٠، ٢١﴾
وقال هاهنا بعد خلق هذه الأشياء: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: أى: فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين كلهم.

ثم قال: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى: هو الحى أزلاً وأبداً، لم يزل ولا يزال، وهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أى: لا نظير له ولا عدل له، ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أى: موحدين له مقرين بأنه لا إله إلا هو ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. قال ابن جرير: كان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال: «لا إله إلا الله» أن يتبعها بالحمد لله رب العالمين، عملاً بهذه الآية. ثم روى عن ابن عباس قال: من قال: «لا إله إلا الله» فليقل على أثرها: «الحمد لله رب العالمين» فذلك قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. روى الإمام أحمد عن محمد بن مسلم بن بدر المكي قال: كان عبد الله بن الزبير يقول فى دبر كل صلاة حين يسلم: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون». قال: وكان رسول الله ﷺ يهل بهن دبر كل صلاة. ورواه مسلم وأبو داود والنسائي (١).

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِربِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِنَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَوْنَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله ينهى أن يُعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان. وقد بين تعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه، فى قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ أى: هو الذى يخلقكم فى هذه الأطوار كلها، وحده لا شريك له، وعن أمره وتدييره وتقديره يكون ذلك كله، ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ﴾ أى: من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم، بل تسقطه أمه سقطاً، ومنهم من يتوفى صغيراً، وشاباً، وكهلاً قبل الشيخوخة، كقوله ﴿لَبِيبٌ لَكُمْ وَنَقَرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥] وقال هاهنا: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: تتذكرون البعث.

ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أى: هو المتفرد بذلك، لا يقدر على ذلك أحد سواه،

(١) مضى تخريجه عند الآية (١٤) من هذه السورة.

﴿ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أى : لا يخالف ولا يمانع ، بل ما شاء كان .
 ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَجْعَلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَكْثَابًا وَيَصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا
 بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ
 وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ
 كُنتُمْ تَشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ
 يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنتُمْ
 تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾

يقول تعالى : ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله ، ويجادلون في الحق بالباطل ، كيف تُصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال ، ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ من الهدى والبيان ، ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ : هذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، من الرب ، جل جلاله ، لهؤلاء ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات : ١٥] .

وقوله : ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ ﴾ أى : متصلة بالأغلال ، بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم ، تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم ؛ ولهذا قال : ﴿ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ ، كما قال : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ . يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ ﴾ [الرحمن : ٤٣ ، ٤٤] . وقال بعد ذكره أكلهم الزقوم وشربهم الحميم : ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ [الصفات : ٦٨] وقال : ﴿ وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظَلٍ مِنْ يَحْمُومٍ . لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ إلى أن قال : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . لَأَكَلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ . فَمَأْوِيَّتُنَّ مِنَهَا الْبُطُونَ . فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ . فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ هَذَا نَزَلْنَاهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الواقعة : ٤١- ٥٦] . وقال : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ . طَعَامُ الْأَثِيمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كَغَلْيِ الْحَمِيمِ . خَذُوهُ فاعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ . ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . إِنَّ هَذَا مَا كُنتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ [الدخان : ٤٣ - ٥٠] ، أى : قال لهم ذلك على وجه التقرير والتوبيخ ، والتحقير والتصغير ، والتهمك والاستهزاء بهم .

وقوله : ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ تَشْرِكُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى : قيل لهم : أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله ؟ هل ينصرونكم اليوم ؟ ﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ أى : ذهبوا فلم ينفعونا ، ﴿ بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ﴾ أى : جحدوا عبادتهم ، كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ نَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الانعام : ٢٣] ؛ ولهذا قال : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ أى : تقول لهم الملائكة : هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق ، ومرحكم وأشركم وبطركم ، ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أى : فبئس المنزل والمقيل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد ، لمن استكبر عن آيات الله ، واتباع دلائله وحججه .

﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْمَا نُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَتَوَقَّفَنَّكَ فَإِنَّا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

يقول تعالى أمرا رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه؛ فإن الله سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك، وجعل العاقبة لك ولن اتبعك في الدنيا والآخرة، ﴿فَمَا نُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ﴾ أي: في الدنيا. وكذلك وقع، فإن الله أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم، أيدوا في يوم بدر. ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في أيام حياته ﷺ وقوله: ﴿أَوْ تَتَوَقَّفَنَّكَ فَإِنَّا يُرْجَعُونَ﴾ أي: فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة.

ثم قال مسليا له: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ كما قال في «سورة النساء» سواء، أي: منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ثم كانت للرسول العاقبة والنصرة، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف، كما تقدم التنبيه على ذلك في سورة النساء (١)، والله الحمد والمنة. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات، إلا أن يأذن الله له في ذلك، فبدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿فُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ فينجو المؤمنون، ويهلك الكافرون؛ ولهذا قال: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

يقول تعالى ممتنا على عباده، بما خلق لهم من الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢]، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب، ويحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة. والبقر تؤكل، ويشرب لبنها، وتحترق عليها الأرض. والغنم تؤكل، ويشرب لبنها. والجميع تحز أصوافها وأشعارها وأوبارها، فيتخذ منه الأثاث والثياب والامتعة، ولهذا قال هاهنا: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾. ولَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ. وقوله: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: حججه وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم، ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾؟ أي: لا تقدرون على إنكار شيء من آياته،

إلا أن تعاندوا وتكابروا.

﴿ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءِثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَأَمْنَا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَاكَ الْكٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسول في قديم الدهر، وماذا حل بهم من العذاب الشديد، مع شدة قواهم، وما أثاره في الأرض، وجمعه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئا، ولا رد عنهم ذرة من بأس الله؛ وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات، والحجج القاطعات، والبراهين الدامغات، لم يلتفتوا إليهم، ولا أقبلوا عليهم، واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل. قال مجاهد: قالوا: نحن أعلم منهم، لن نبعث ولن نعذب. وقال السدي: فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم، فاتاهم من بأس الله ما لا قبل لهم به. ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أى: أحاط بهم ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى: يكذبون ويستبعدون وقوعه. ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ أى: عاينوا وقوع العذاب بهم، ﴿ قَالُوا ءَأَمْنَا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ أى: وحدوا الله وكفروا بالطاغوت، ولكن حيث لا تقال العثرات، ولا تنفع المعذرة. وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق: ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠]، قال الله تعالى: ﴿ الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ؟ [يونس: ٩١] أى: فلم يقبل الله منه؛ لأنه قد استجاب لنبيه موسى دعاءه عليه حين قال: ﴿ وَأَشَدُّ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٨٨]. وها هنا قال: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ أى: هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب: أنه لا يقبل؛ ولهذا جاء في الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» (١) أى: فإذا غرغر وبلغت الروح الخنجرة، وعاین الملك، فلا توبة حينئذ؛ ولهذا قال: ﴿ وَخَسِرَ هُنَاكَ الْكٰفِرُونَ ﴾.

(١) الترمذی (٣٥٣٧) وابن ماجه (٤٢٥٣)، وحسنه الألبانی .

تفسير سورة فصلت

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ١ ﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ ٢ ﴾ كِتَابٌ فَصِّلْتَ آيَاتَهُ لِنَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿ ٣ ﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿ ٤ ﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا نَعْمَلُونَ ﴿ ٥ ﴾

يقول تعالى: ﴿ ١ ﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ ٢ ﴾ كِتَابٌ فَصِّلْتَ آيَاتَهُ لِنَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿ ٣ ﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿ ٤ ﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا نَعْمَلُونَ ﴿ ٥ ﴾

يقول تعالى: ﴿ ١ ﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ ٢ ﴾ كِتَابٌ فَصِّلْتَ آيَاتَهُ لِنَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿ ٣ ﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿ ٤ ﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا نَعْمَلُونَ ﴿ ٥ ﴾

يقول تعالى: ﴿ ١ ﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ ٢ ﴾ كِتَابٌ فَصِّلْتَ آيَاتَهُ لِنَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿ ٣ ﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿ ٤ ﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا نَعْمَلُونَ ﴿ ٥ ﴾

قوله: ﴿ ١ ﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ ٢ ﴾ كِتَابٌ فَصِّلْتَ آيَاتَهُ لِنَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿ ٣ ﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿ ٤ ﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا نَعْمَلُونَ ﴿ ٥ ﴾

قوله: ﴿ ١ ﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ ٢ ﴾ كِتَابٌ فَصِّلْتَ آيَاتَهُ لِنَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿ ٣ ﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿ ٤ ﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا نَعْمَلُونَ ﴿ ٥ ﴾

قوله: ﴿ ١ ﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ ٢ ﴾ كِتَابٌ فَصِّلْتَ آيَاتَهُ لِنَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿ ٣ ﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿ ٤ ﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا نَعْمَلُونَ ﴿ ٥ ﴾

قوله: ﴿ ١ ﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ ٢ ﴾ كِتَابٌ فَصِّلْتَ آيَاتَهُ لِنَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿ ٣ ﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿ ٤ ﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا نَعْمَلُونَ ﴿ ٥ ﴾

عن محمد بن كعب القرظي قال: حَدَّثْتُ أَنَّ عْتَبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ - وَكَانَ سَيِّدًا - قَالَ يَوْمًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادِي قَرِيشٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحْدَهُ: يَا مَعْشَرَ قَرِيشِ أَلَا أَقُومُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَأَكَلِمُهُ وَأَعْرِضُ عَلَيْهِ أُمُورًا لَعَلَّهُ يَقْبَلُ بَعْضُهَا، فَنُعْطِيهِ أَيُّهَا شَاءَ وَيَكْفِ عَنَّا؟ وَذَلِكَ حِينَ أَسْلَمَ حَمْزَةَ، وَرَأَوْا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَزِيدُونَ وَيُكْثِرُونَ، فَقَالُوا: بَلَى يَا أَبَا الْوَلِيدِ، فَقُمْ إِلَيْهِ فَكَلِمُهُ. فَقَامَ إِلَيْهِ عْتَبَةُ حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّكَ مِنَّا حَيْثُ قَدِ عَلِمْتَ مِنَ السُّطَّةِ فِي الْعَشِيرَةِ، وَالْمَكَانِ فِي النَّسَبِ، وَإِنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ قَوْمَكَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، فَفَرَقْتَ بِهِ جَمَاعَتَهُمْ، وَسَفَهْتَ بِهِ أَحْلَامَهُمْ، وَعَبْتَ بِهِ آلِهَتَهُمْ وَدِينَهُمْ، وَكَفَرْتَ بِهِ مِنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ، فَاسْمَعْ مِنِّي أَعْرِضْ عَلَيْكَ أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا لَعَلَّكَ تَقْبَلُ مِنَّا بَعْضُهَا. قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ، أَسْمَعْ». قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنْ كُنْتُ إِذَا تَرِيدُ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَا لَا، جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ مِنْ أَكْثَرِنَا أَمْوَالًا. وَإِنْ كُنْتُ تَرِيدُ بِهِ شَرْفًا

سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك. وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا. وإن كان هذا الذى يأتيك ربياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبدلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يدأوى منه - أو كما قال له - حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟». قال: نعم. قال: «فاستمع منى» قال: أفعل. قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. حَمَّ. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾. ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه. فلما سمع عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك»، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: أقسم - يحلف بالله - لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائى أنى قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعونى واجعلوها لى، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزمكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأى فيه، فاصنعوا ما بدا لكم (١).

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا ۗ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لا كما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين، إنما الله إله واحد، ﴿فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ أى: أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على السنة الرسل، ﴿وَاسْتَغْفِرُوا﴾ أى: لسالف الذنوب، ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أى: دمار لهم وهلاك عليهم، ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ قال ابن عباس: يعنى: الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله. وهذا كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وكقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، وقوله: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزَكَّى﴾ [النازعات: ١٨].

والمراد بالزكاة هاهنا: طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك. وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام، وتكون سبباً لزيادته وبركته وكثرة نفعه، وتوفيقاً إلى استعماله فى الطاعات. وقال قتادة: يمنعون زكاة أموالهم. وهذا هو الظاهر عند

كثير من المفسرين، واختاره ابن جرير. وفيه نظر؛ لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة، على ما ذكره غير واحد، وهذه الآية مكية، اللهم إلا أن يقال: لا يبعد أن يكون أصل الزكاة الصدقة كان مأمورا به في ابتداء البعثة، كقوله تعالى: ﴿ وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بين أمرها بالمدينة، ويكون هذا جمعا بين القولين، كما أن أصل الصلاة كان واجبا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في ابتداء البعثة، فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف، فرض الله على رسوله ﷺ الصلوات الخمس، وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك، شيئا فشيئا، والله أعلم.

ثم قال بعد ذلك: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قال مجاهد وغيره: لا مقطوع ولا محبوب، كقوله: ﴿ مَا كُنْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [الكهف: ٣]، وكقوله تعالى: ﴿ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُودٍ ﴾ [هود: ١٠٨].

ربيع ﴿ قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١١﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتِمَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١٢﴾ فَقَضَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوعٍ وَحَفِظْنَا ذَلِكَ تَقْدِيرَ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٣﴾

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا معه غيره، وهو الخالق لكل شيء، القاهر لكل شيء، المقدر لكل شيء، فقال: ﴿ قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ﴾ أى: نظراء وأمثالا تعبدونها معه، ﴿ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى: الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم. وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ففصل هاهنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولا لأنها كالأساس، والأصل أن يُبَدَأَ بالأساس، ثم بعده بالسقف، كما قال: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ الآية [البقرة: ٢٩]. فأما قوله: ﴿ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا. وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا. وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالِ أَرْسَاهَا. مَتَاعًا لَكُمْ وَالْأَنْعَامِ كُمْ ﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٣] ففي هذه الآية أن دحى الأرض كان بعد خلق السماء، فالدحى هو مفسر بقوله: ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾، وكان هذا بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص، وبهذا أجاب ابن عباس فيما ذكره البخارى عند تفسير هذه الآية من صحيحه، فإنه قال رجل لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف على، قال: ﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [الصفافات: ٢٧]، ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٤٢]، ﴿ وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣]؛ فقد

كتموا في هذه الآية ؟ وقال : ﴿ أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ ، إلى قوله : ﴿ دَحَاهَا ﴾ [النازعات : ٢٧ - ٣٠] ، فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض ثم قال : ﴿ قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ إلى قوله : ﴿ طَائِعِينَ ﴾ ، فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء ؟ وقال : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٩٦] ، ﴿ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ٥٦] ، ﴿ سَمِيمًا بَصِيرًا ﴾ [النساء : ٥٨] ، فكأنه كان ثم مضى . فقال ابن عباس : ﴿ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ في النفخة الأولى ، ثم ينفخ في الصور ﴿ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الزمر : ٦٨] ، فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون ، ثم في النفخة الأخرى ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ .

وأما قوله : ﴿ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ، ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهُ حَدِيثًا ﴾ ، فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم ، فقال المشركون : تعالوا نقول : « لم نكن مشركين » ، فيختم على أفواههم ، فتتلق أيديهم ، فعند ذلك يعرف أن الله لا يكتتم حديثا ، وعنده ﴿ يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية [الحجر : ٢] . وخلق الأرض في يومين ، ثم خلق السماء ، ثم استوى إلى السماء ، فسواهن في يومين آخرين ، ثم دَحَى الأرض ، ودَحِيهَا : أن أخرج منها الماء والمرعى ، وخلق الجبال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين ، فذلك قوله : ﴿ دَحَاهَا ﴾ ، وقوله : ﴿ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ ، فَخَلَقَتِ الْأَرْضُ وَمَا فِيهَا مِنْ شَيْءٍ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ، وخلقَتِ السَّمَوَاتِ فِي يَوْمَيْنِ . ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٩٦] ، سمى نفسه بذلك ، وذلك قوله ، أى : لم يزل كذلك ؛ فإن الله لم يرد شيئا إلا أصاب به الذى أراد ، فلا يختلفن عليك القرآن ، فإن كلا من عند الله عز وجل .

فقوله : ﴿ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ معنى : يوم الأحد ويوم الاثنين ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا ﴾ أى : جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس ، ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ وهو : ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التى تزرع وتغرس ، معنى : يوم الثلاثاء والأربعاء ، فهما مع اليومين السابقين أربعة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ أى : لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه . وقال مجاهد وعكرمة فى قوله : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ : جعل فى كل أرض ما لا يصلح فى غيرها . وقال ابن عباس ، وقتادة ، فى قوله تعالى : ﴿ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ أى : لمن أراد السؤال عن ذلك . وقال ابن زيد : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ أى : على وفق مراد من له حاجة إلى رزق أو حاجة ، فإن الله قدر له ما هو محتاج إليه . وهذا القول يشبه ما ذكره فى قوله تعالى : ﴿ وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دَخَانٌ ﴾ وهو : بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض ، ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ أى : استجيبيا لأمرى ، وانفعلا لفعلى ، طائعتين أو مكرهتين . قال ابن عباس : قال الله تعالى للسَّمَوَاتِ : أطلعي شمسي وقمرى ونجومى . وقال للأرض : شققي أنهارك ، وأخرجى ثمارك : فقالتا : ﴿ أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ . واختاره ابن جرير . ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ أى : بل نستجيب لك مطيعين بما فينا ، مما تريد خلقه من الملائكة والإنس والجن جميعا مطيعين لك . حكاه ابن جرير عن بعض أهل العربية ، قال : وقيل : تنزيلا لهن معاملة من يعقل

بكلامهما . ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أى : ففرغ من تسويتهن سبع سموات فى يومين ،
أى : آخرين ، وهما يوم الخميس ويوم الجمعة ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَّمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أى : ورتب مقررا فى
كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة ، وما فيها من الأشياء التى لا يعلمها إلا هو ، ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ
الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ ، وهن الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض ، ﴿وَحِفْظًا﴾ أى : حرسا من
الشياطين أن تستمع إلى الملائكة الأعلى ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أى : العزيز الذى قد عز كل شئ
فعله وقهره ، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم .

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ
بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ
كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا
أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا
صَرَّصَةً فِي أَيَّامٍ مَّحْسَبَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْحِزْبِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرِضٌ وَهُمْ لَا
يُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَبَجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ﴿١٨﴾﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جنتهم به من الحق : إن أعرضتم
عما جنتكم به من عند الله ، فإنى أنذركم حلول نقمة الله بكم ، كما حلت بالأمم الماضين من
المكذبين بالرسلين ﴿صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ أى : ومن شاكلهما ممن فعل كفضلهما ، ﴿إِذْ
جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ
خَلَّتِ النَّدْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الاحقاف : ٢١] أى : فى القرى المجاورة لبلادهم ، بعث الله إليهم
الرسل يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، ومبشرين ومنذرين ، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من
النقم ، وما ألبس أوليائه من النعم ، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا ، بل كذبوا وجحدوا ، وقالوا :
﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أى : لو أرسل الله رسلا لكانوا ملائكة من عنده ، ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾
أى : أيها البشر ﴿كَافِرُونَ﴾ أى : لا تتبعكم وأنتم بشر مثلنا .

قال الله تعالى : ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أى : بغوا وعتوا وعصوا ، ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا
قُوَّةً﴾ أى : منوا بشدة تركيبيهم وقواهم ، واعتقدوا أنهم يمتنعون به من بأس الله ! ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ
اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أى : أنما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة ؟ فإنه العظيم الذى
خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها ، وإن بطشه شديد ، كما قال تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا
بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات : ٤٧] ، فبارزوا الجبار بالعداوة ، وجحدوا بآياته وعصوا رسوله ، فلهذا
قال : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرَّصَةً﴾ قال بعضهم : وهى الشديدة الهبوب . وقيل : الباردة . وقيل :
هى التى لها صوت . والحق أنها متصفة بجميع ذلك ، فإنها كانت ريحا شديدة قوية ؛ لتكون

عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة البرد جدا، كقوله تعالى: ﴿بَرِيحٌ صَرْصَرٌ عَاتِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٦] أى: باردة شديدة، وكانت ذات صوت مزعج، ومنه سُمي النهر المشهور ببلاد المشرق «صرصرا»، لقوة صوت جريه.

وقوله: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾ أى: متتابعات، ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]، كقوله: ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩] أى: ابتدئوا بهذا العذاب فى يوم نحس عليهم، واستمر بهم هذا النحس سبع ليالٍ وثمانية أيام، حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَنذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾ أى: أشد خزيا لهم، ﴿وَهُمْ لَا يُنصِرُونَ﴾ أى: فى الآخرة، كما لم ينصروا فى الدنيا، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب ويدراً عنهم النكال.

وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة: : بينا لهم. وقال الثورى: دعوناهم. ﴿فَاسْتَجَبُوا لِعَمِّي عَلَى الْهُدَى﴾ أى: بصرناهم، وبيننا لهم، ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه السلام، فخالفوه وكذبوه، وعقروا ناقة الله التى جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم، ﴿فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ أى: بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلا وهوانا وعذابا ونكالا، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: من التكذيب والجحود. ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: من بين أظهرهم، لم يمسهم سوء، ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله مع نبيهم صالح عليه السلام بإيمانهم، وتقواهم لله، عز وجل.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا جُودُوهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصِيرُوا فَاَلنَّارِ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أى: اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار ﴿يُوزَعُونَ﴾ أى: تجمع الزبانية أولهم على آخرهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَسُوقَ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مریم: ٨٦] أى: عطاشا.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاؤُوهَا﴾ أى: وقفوا عليها، ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: بأعمالهم مما قدموه وأخروه، لا يكتفم منه حرف. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا جُودُوهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾؟ أى: لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم، فعند ذلك أجاتهم الأعضاء:

﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى : فهو لا يخالف ولا يمانع ، وإليه ترجعون . عن أنس بن مالك ، قال : ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسم ، فقال : «ألا تسألونى عن أى شىء ضحكت ؟ » قالوا : يا رسول الله ، من أى شىء ضحكت؟ قال : «عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول : أى ربي ، أليس وعدتنى ألا تظلمنى؟ قال : بلى ، فيقول : فإنى لا أقبل علىّ شاهدا إلا من نفسى . فيقول الله تبارك وتعالى : أو ليس كفى بى شهيدا ، وبالملائكة الكرام الكاتبين !؟ قال : فيردد هذا الكلام مرارا». قال : «فيختم على فيه ، وتتكلم أركانه بما كان يعمل ، فيقول : بُعداً لكنّ وسُحُقا ، عنكن كنت أجادل». أخرجه مسلم والنسائى (١) . وقد تقدم أحاديث كثيرة ، وأثار عند قوله فى سورة يس : ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الآية : ٦٥] ، بما أغنى عن إعادته ها هنا .

وقوله : ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أى : تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم : ما كنتم تتكتمون منا الذى كنتم تفعلونه ، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصى ، ولا تبالون منه فى زعمكم ؛ لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم ؛ ولهذا قال : ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ . وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ أى : هذا الظن الفاسد - وهو اعتقادكم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون - هو الذى أتلّفكم وأرداكم عند ربكم ، ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أى : فى مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهلكم . روى الإمام أحمد عن عبد الله قال : كنت مستتراً بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر : قرشى ، وختناه ثقفيان - أو : ثقفى وختناه قرشيان - كثير شحم بطونهم ، قليل فقه قلوبهم ، فتكلموا بكلام لم أسمعهم ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا هذا ؟ فقال الآخر : إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه ، وإذا لم نرفعه لم يسمعه ، فقال الآخر : إن سمع منه شيئاً سمعه كله . قال : فذكرت ذلك للنبي ﷺ ، فأنزل الله عز وجل : ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ إلى قوله : ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ . وكذا رواه الترمذى ومسلم بنحوه والبخارى (٢) . وروى الإمام أحمد عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يموتن أحد منكم إلا وهو يحسن بالله الظن ، فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم بالله ، فقال الله تعالى : ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ » (٣) .

وقوله : ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أى : سواء عليهم أصبروا أم لم يصبروا هم فى النار ، لا محيد لهم عنها ، ولا خروج لهم منها . وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعدارا فما لهم أعدار ، ولا تُقال لهم عشرات . قال ابن جرير : ومعنى قوله : ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا﴾ أى : يسألوا الرجعة إلى الدنيا ، فلا جواب لهم - قال : وهذه كقوله تعالى إخبارا

(١) مسلم (١٧/٢٩٦٩) والنسائى فى الكبرى (١١٦٥٣) بنحوه .

(٢) المسند (٣٨٧٥) والبخارى (٤٨١٧) ومسلم (٥/٢٧٧٥) والترمذى (٣٢٤٩) .

(٣) المسند (٣/٣٩٠) .

عنهم : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠٦ - ١٠٨].

ربع

﴿ وَقِصَّصْنَا لَهُمْ قُرْآنَهُ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدِ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالنَّوْءِ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

يذكر تعالى أنه هو الذى أضل المشركين، وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته، وهو الحكيم فى أفعاله، بما قيض لهم من القرءان من شياطين الإنس والجن ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أى: حسَّنوا لهم أعمالهم فى الماضى، وبالنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف : ٣٦، ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أى: كلمة العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم، ممن فعل كفعالهم، من الجن والإنس ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أى: استَوَّوْا هم وإياهم فى الخسار والدمار. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالنَّوْءِ فِيهِ﴾ أى: تواصلوا فيما بينهم ألا يطيعوا للقرآن، ولا يتقادوا لأوامره ﴿وَالنَّوْءِ فِيهِ﴾ أى: إذا تلى لا تستمعوا له. قال مجاهد: ﴿وَالنَّوْءِ فِيهِ﴾ يعنى: بالمكاء والصفير والتخليط فى المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن قريش تفعله. وقال ابن عباس: ﴿وَالنَّوْءِ فِيهِ﴾: عيوه. وقال قتادة: اجحدوا به، وأنكروه وعادوه. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾: هذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار، ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن. وقد أمر الله - سبحانه - عباده المؤمنين بخلاف ذلك فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الاعراف : ٢٠٤].

ثم قال تعالى: منتصرا للقرآن، ومنتقما ممن عاداه من أهل الكفران: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أى: فى مقابلة ما اعتمدوه فى القرآن وعند سماعه، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: بشر أعمالهم، وسيئ أفعالهم ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾. قال سفيان الثورى عن على فى قوله: ﴿الَّذِينَ ضَلَّانَا﴾ قال: إبليس وابن آدم الذى قتل أخاه. وقال السدى، عنه: فإبليس يدعو به كل صاحب شرك، وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة، فإبليس - لعنه الله - هو الداعى إلى كل شر من شرك فما دونه، وابن آدم الأول. كما

ثبت في الحديث: « ما قتلت نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ؛ لأنه أول من سن القتل » (١).

وقوله: ﴿ نَجْمَلُهُمَا تَحْتَ أَفْدَانِنَا ﴾ أى: أسفل منا في العذاب ليكونا أشد عذابا منا؛ ولهذا قالوا: ﴿ لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ أى: فى الدرك الأسفل من النار، كما تقدم فى «الأعراف» من سؤال الأتباع من الله أن يعذب قادتهم أضعاف عذابهم ، قال: ﴿ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨] أى: إنه تعالى قد أعطى كلا منهم ما يستحقه من العذاب والنكال، بحسب عمله وإفساده، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٠﴾ تَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٢١﴾ تَزَلَا مِنْ غَفْوَةٍ رَحِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ أى: أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم. عن عكرمة قال: سئل ابن عباس: أى آية فى كتاب الله أرخص؟ قال قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله. وقال الزهرى: تلا عمر هذه الآية على المنبر، ثم قال: استقاموا - والله - الله بطاعته، ولم يروغوا وروغان الثعالب. وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ على أداء فرائضه. وكذا قال قتادة، قال: وكان الحسن يقول: اللهم، أنت ربنا، فارتزقنا الاستقامة. وقال أبو العالية: ﴿ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾: أخلصوا له العمل والدين. وروى الإمام أحمد عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال: قلت: يا رسول الله، حدثنى بأمر اعتصم به. قال: « قل: ربى الله، ثم استقم ». قلت: يا رسول الله، ما أكثر ما تخاف على؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه، ثم قال: « هذا ». رواه الترمذى وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن صحيح (٢). وقد أخرجه مسلم فى صحيحه والنسائى عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال: قلت: يا رسول الله، قل لى فى الإسلام قولاً، لا أسأل عنه أحدا بعدك. قال: « قل: آمنت بالله، ثم استقم ». وذكر تمام الحديث (٣).

وقوله: ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ قال مجاهد، والسدى، وزيد بن أسلم: يعنى عند الموت قائلين: ﴿ أَلَّا تَخَافُوا ﴾ أى: مما تقدمون عليه من أمر الآخرة، ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ أى: على ما خلفتموه من أمر الدنيا، من ولد وأهل، ومال أو دين، فإننا نخلفكم فيه، ﴿ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾

(١) مضى تخريجه عند الآية (٢٩) من سورة المائدة .

(٢) المسند (٤١٣/٣) ، والترمذى (٢٤١٠) وابن ماجه (٣٩٧٢) ، وصححه الألبانى .

(٣) مسلم (٣٨) والنسائى (١/١١٤٨٩) .

فيشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير. وهذا كما في حديث البراء: «إن الملائكة تقول لروح المؤمن: اخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمرينه، اخرجي إلى روح وريحان، ورب غير غضبان» (١). وقيل: إن الملائكة تنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم. حكاه ابن جرير عن ابن عباس، والسدي. وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته، وفي قبره، وحين يبعث. وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جدا. وهو الواقع.

وقوله: ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ أي: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم، أي: قرناءكم في الحياة الدنيا، نسددكم ونوفقكم، ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ أي: في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهي النفوس، وتقر به العيون، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ أي: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم، كما اخترتم، ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أي: ضيافة وعطاء وإنعاما من غفور لذنوبكم، رحيم بكم رؤوف، حيث غفر، وستر، ورحم، ولطف. وروى الإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». قلنا: يا رسول الله، كلنا نكره الموت؟ قال: «ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله بما هو صائر إليه، فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله فأحب لقاءه» قال: «وإن الفاجر - أو الكافر - إذا حضر جاءه بما هو صائر إليه من الشر - أو: ما يلقي من الشر - فكره لقاء الله، فكره الله لقاءه» .

وهذا حديث صحيح، وقد ورد في الصحيح من غير هذا الوجه (٢).

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾
 ﴿٢٢﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾

يقول عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ أي: دعا عباد الله إليه ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿ أي: وهو في نفسه مهتد بما يقوله، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومُتَعَدٍّ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ويأتونه، بل يأتمر بالخير ويترك الشر، ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى. وهذه عامة في كل من دعا إلى خير، وهو في

(١) مضى الحديث وتخريجه عند الآية (٤٠) من سورة الأعراف .

(٢) المسند (١٠٧/٣) والبخارى (٦٥٠٧) ومسلم (١٤/٢٦٨٣) .

نفسه مهتد ، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك ، كما قال محمد بن سيرين ، والسدى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وقيل : المراد بها المؤذنون الصلحاء . والصحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم ، فأما حال نزول هذه الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعاً بالكلية ؛ لأنها مكية ، والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة ، حين أريه عبد الله بن زيد بن عبدربه الأنصارى فى منامه ، فقصه على رسول الله ﷺ ، فأمره أن يلقيه على بلال فإنه أئدى صوتاً ، كما هو مقرر فى موضعه ، فالصحيح إذاً أنها عامة ، كما قال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الحسن البصرى : أنه تلا هذه الآية : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ، فقال : هذا حبيب الله ، هذا ولى الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله فى دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته ، وعمل صالحاً فى إجابته ، وقال : إننى من المسلمين ، هذا خليفة الله .

وقوله : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾ أى : فرق عظيم بين هذه وهذه ، وهذه ، ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أى : من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه ، كما قال عمر : ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه . ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ وهو الصديق ، أى : إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادتة تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك ، والحنو عليك ، حتى يصير كأنه ولى لك حميم ، أى : قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك . ثم قال : ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أى : وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك ، فإنه يشق على النفوس ، ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أى : ذو نصيب وافر من السعادة فى الدنيا والأخرى . قال ابن عباس فى تفسير هذه الآية : أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة ، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوهم كأنه ولى حميم .

وقوله : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ أى : إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه ، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذى سلطه عليك ، فإذا استعدت بالله ولجأت إليه ، كفه عنك ورد كيده .

وقد كان رسول الله ﷺ : إذا قام إلى الصلاة يقول : «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه» (١) . وقد قدمنا أن هذا المقام لا نظير له فى القرآن إلا فى «سورة الأعراف» عند قوله : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین . وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٩٩ ، ٢٠٠] ، وفى سورة المؤمنين عند قوله : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ . وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون : ٩٦ - ٩٨] .

(١) ابن ماجه (٨٠٨) وصححه الالبانى .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا
لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِن
اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْعَوْنَ ﴿٣٨﴾
﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴿٣٩﴾
الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

سجدة

يقول تعالى منها خلقه على قدرته العظيمة، وأنه الذي لا نظير له، وأنه على ما يشاء قادر، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أى: أنه خلق الليل بظلامه، والنهار بضياءه، وهما متعاقبان لا يفتران، والشمس ونورها وإشراقها، والقمر وضياءه وتقدير منازلها في فلكه، واختلاف سيره في سمائه، ليُعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار، والجُمع والشهور والأعوام، ويتبين بذلك حلول الحقوق، وأوقات العبادات والمعاملات. ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة في العالم العلوي والسفلي، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبده، تحت قهره وتسخيره، فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أى: ولا تشركوا به، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به؛ ولهذا قال: ﴿فإِن اسْتَكْبَرُوا﴾ أى: عن أفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره، ﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعنى: الملائكة، ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾، كقوله: ﴿فإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الانعام: ٨٩]. وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ أى: على قدرته على إعادة الموتى ﴿أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ أى: هامة لا نبات فيها، بل هى ميتة، ﴿فإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أى: أخرجت من جميل ألوان الزروع والثمار، ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ عَزِيزٌ ﴿٤٢﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٣﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَد قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ قال ابن عباس: الإلحاد: وضع الكلام على غير مواضعه. وقال قتادة، وغيره: هو الكفر والعناد. وقوله: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ فيه تهديد شديد، ووعيد أكيد، أى: أنه تعالى عالم بمن يلحد فى آياته وأسمائه وصفاته، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال؛ ولهذا قال: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؟ أى: أيستوى هذا وهذا؟ لا يستويان. ثم قال - عز وجل - تهديداً للكفرة: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ قال مجاهد، والضحاك، وعطاء: وعيد، أى: من خير أو شر، إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم؛ ولهذا

قال : ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

ثم قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ قال الضحاك ، والسدى ، وقتادة : وهو القرآن ، ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴾ أى : منبع الجناب ، لا يرام أن يأتى أحد بمثله ، ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ أى : ليس للبطلان إليه سبيل ؛ لأنه منزل من رب العالمين ؛ ولهذا قال : ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ أى : حكيم فى أقواله وأفعاله ، حميد بمعنى محمود ، أى : فى جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع محمودة عواقبه وغاياته .

ثم قال : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ قال قتادة ، والسدى ، وغيرهما : ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسول من قبلك ، فكما قد كذبت فقد كذبوا ، وكما صبروا على أذى قومهم لهم ، فاصبر أنت على أذى قومك لك . وهذا اختيار ابن جرير . وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ أى : لمن تاب إليه ، ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى : لمن استمر على كفره ، وطغيانه ، وعناده ، وشقاقه ، ومخالفته .

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ؕ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ ﴾

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته ، وإحكامه فى لفظه ومعناه ، ومع هذا لم يؤمن به المشركون ، نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت ، كما قال عزوجل : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٨ ، ١٩٩] . وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم ، لقالوا على وجه التعنت والعناد : ﴿ لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ أى : لقالوا : هلا أنزل مفصلا بلغة العرب ، ولأنكروا ذلك فقالوا : أعجمى وعربى؟ أى : كيف ينزل كلام أعجمى على مخاطب عربى لا يفهمه؟ هكذا روى هذا المعنى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة وغيرهم . وقيل : المراد بقولهم : ﴿ لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ أى : هلا أنزل بعضها بالأعجمى ، وبعضها بالعربى . هذا قول الحسن البصرى ، وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام فى قوله : ﴿ أَعْجَمِيٌّ ﴾ ، وهو رواية عن سعيد بن جبير . وهو فى التعنت والعناد أبلغ .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ أى : قل يا محمد : هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه ، وشفاء لما فى الصدور من الشكوك والريب ، ﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ ﴾ أى : لا يفهمون ما فيه ، ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ أى : لا يهتمدون إلى ما فيه من البيان ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢] . ﴿ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ قال مجاهد : يعنى بعيد من قلوبهم . قال ابن جرير : معناه : كأن من يخاطبهم

يناديهم من مكان بعيد، لا يفهمون ما يقول. قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَمِي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١]. وقال الضحاک: ينادون يوم القيامة بأشنع أسمائهم.

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ ﴾ أى: كُذِّبَ وَأُوذِيَ، ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرِّسْلِ ﴾ [الاحقاف: ٣٥]. ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الشورى: ١٤] بتأخير الحساب إلى يوم المعاد، ﴿ لَقَضِي بَيْنَهُمْ ﴾ أى: لعجل لهم العذاب، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً، ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُّرِيبٌ ﴾ أى: وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا، بل كانوا شاكين فيما قالوا، غير محققين لشيء كانوا فيه. هكذا وجهه ابن جرير، وهو محتمل، والله أعلم.

﴿ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ ﴿٤٦﴾ **إِلَيْهِ** يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا لِأَبْلِغَمِهَا وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آئِنُ شُرَكَائِي قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ حِسَابٍ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى: ﴿ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ أى: إنما يعود نفع ذلك على نفسه، ﴿ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ أى: إنما يرجع وبال ذلك عليه، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أى: لا يعاقب أحداً إلا بذنبه، ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه.

ثم قال: ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أى: لا يعلم ذلك أحد سواه، كما قال محمد ﷺ، وهو سيد البشر لجبريل وهو من سادات الملائكة - حين سأله عن الساعة، فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» (١)، وكما قال تعالى: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴾ [النازعات: ٤٤]، وقال: ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الاعراف: ١٨٧]. وقوله: ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَةٍ (٢) مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا لِأَبْلِغَمِهَا ﴾ أى: الجميع بعلمه، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء. وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال جلّت عظمته: ﴿ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨]، وقال: ﴿ وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُّعْمَرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر: ١١].

وقوله: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آئِنُ شُرَكَائِي ﴾ أى: يوم القيامة ينادى الله المشركين على رؤوس الخلائق: آين شركائى الذين عبدتموهم معى؟ ﴿ قَالُوا آذَنَّاكَ ﴾ أى: أعلمناك، ﴿ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴾ أى: ليس أحد منا اليوم يشهد أن معك شريكا، ﴿ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى: ذهبوا فلم ينفعوهم، ﴿ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ حِسَابٍ ﴾ أى: وظن المشركون يوم القيامة، وهذا بمعنى اليقين،

(١) مسلم (١ / ٨).

(٢) «ثمرة»: قراءة الجمهور، وكذا قراءة الحافظ ابن كثير.

﴿ مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِصٍ ﴾ أى : لا محيد لهم عن عذاب الله ، كقوله تعالى : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف : ٥٣].

﴿ لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ ﴿٤٩﴾
 وَلَئِنْ أَدْقَنْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً
 وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا
 وَلَنُذَيِّقَنَّهُمْ مِمَّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أُنْعِمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا
 مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾

يقول تعالى : لا يَملَ الإنسان من دعائه ربّه بالخير وهو : المال ، وصحة الجسم ، وغير ذلك ، وإن مسه الشر وهو : البلاء أو الفقر ﴿ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴾ أى : يقع فى ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير . ﴿ وَلَئِنْ أَدْقَنْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ أى : إذا أصابه خير ورزق بعد ما كان فى شدة ليقولن : هذا لى ، إني كنت أستحقه عند ربى ، ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ أى : يكفر بقيام الساعة ، أى : لأجل أنه خوّل نعمة يفخر ، ويبطر ، ويكفر ، كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ . أَن رَأَاهُ اسْتَغْنَى ﴾ [العلق : ٦ ، ٧] . ﴿ وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى ﴾ أى : ولئن كان ثمّ معاد فليحسننّ إلى ربى ، كما أحسن إلى فى هذه الدار ، يتمنى على الله ، عز وجل ، مع إساءته العمل وعدم اليقين . قال تعالى : ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذَيِّقَنَّهُمْ مِمَّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال .

ثم قال : ﴿ وَإِذَا أُنْعِمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَىٰ بِجَانِبِهِ ﴾ أى : أعرض عن الطاعة ، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله ، عز وجل ، كقوله تعالى : ﴿ قَتَلْتَنِي بَرَكْنِهِ ﴾ [الذاريات : ٣٩] . ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ أى : الشدة ، ﴿ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ أى : يطيل المسألة فى الشىء الواحد ، فالكلام العريض : ما طال لفظه وقل معناه ، والوجيز : عكسه ، وهو : ما قل ودل . وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ ﴾ الآية [يونس : ١٢] .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴾ ﴿٥٢﴾ سَرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ
 أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ءَأَلَا
 إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُونَ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن : ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ أى : كيف تُروون حالكم عند الذى أنزله على رسوله ؟ ولهذا قال :

﴿ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴾ ؟ أى : فى كفر وعناد ومشاقة للحق، ومَسَلِّكَ بعيد من الهدى .

ثم قال : ﴿ سَتْرِبِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى : سنظهر لهم دلائلنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله ، عز وجل ، على رسوله ﷺ بدلائل خارجية ﴿ فِي الْأَفَاقِ ﴾ من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان . قال مجاهد ، والحسن ، والسدى : ودلائل فى أنفسهم ، قالوا : وقعة بَدْر ، وفتح مكة ، ونحو ذلك من الوقائع التى حَلَّتْ بهم ، نصر الله فيها محمداً وصحبه ، وخذل فيها الباطل وحزبه . ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاق والهيئات العجيبة ، كما هو مبسوط فى علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى . وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة ، من حَسَنٍ وقبيحٍ وبين ذلك ، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التى لا يقدر بحوله ، وقوته ، وحيلِهِ ، وحذره أن يجوزها ، ولا يتعدها .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى : كفى بالله شهيداً على أفعال عباده وأقوالهم ، وهو يشهد أن محمداً صادق فيما أخبر به عنه ، كما قال : ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ [النساء : ١٦٦] .

وقوله : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ أى : فى شك من قيام الساعة ؛ ولهذا لا يتفكرون فيه ، ولا يعملون له ، ولا يحذرون منه ، بل هو عندهم هَدْرٌ لا يعبؤون به وهو واقع لا ريب فيه وكائن لا محالة . روى ابن أبى الدنيا عن عمر بن عبد العزيز أنه صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، أيها الناس ، فإنى لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم ، ولكن فكرت فى هذا الأمر الذى أنتم إليه صائرون ، فعلمت أن المصدق بهذا الأمر أحمق ، والمكذب به هالك ثم نزل . ومعنى قوله : « أن المصدق به أحمق » أى : لأنه لا يعمل له عمل مثله ، ولا يحذر منه ولا يخاف من هوله ، وهو مع ذلك مصدق به ، موقن بوقوعه ، وهو مع ذلك يتمادى فى لعبه وغفلته وشهوته وذنوبه ، فهو أحمق بهذا الاعتبار ، والأحمق فى اللغة : ضعيف العقل . وقوله : « والمكذب به هالك » : هذا واضح ، والله أعلم .

ثم قال تعالى - مقررًا على أنه على كل شيء قدير ، وبكل شيء محيط ، وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ أى : المخلوقات كلها تحت قهره وفى قبضته ، وتحت طى علمه ، وهو المتصرف فيها كلها بحكمه ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

تفسير سورة الشورى

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمْدٌ ﴾ عَسَى ﴿ ١ ﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ
 الْحَكِيمُ ﴿ ٢ ﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿ ٣ ﴾ تَكَادُ
 السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي
 الْأَرْضِ أَلَّا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿ ٤ ﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ
 حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿ ٥ ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة .

وقوله : ﴿ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ : أى : كما أنزل إليك هذا القرآن ، كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك . وقوله : ﴿ اللَّهُ الْعَزِيزُ ﴾ : أى : فى انتقامه ، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ : فى أقواله وأفعاله . روى الإمام مالك عن عائشة : أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله ، كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علىّ فيفصم عنى قد وعيت ما قال . وأحياناً يأتينى الملك رجلاً فيكلمنى ، فأعى ما يقول » . قالت عائشة : فلقد رأيته ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقاً . أخرجه فى الصحيحين ، ولفظه للبخارى (١) . وقد رواه الطبرانى عن الحارث بن هشام ؛ أنه سأل رسول الله ﷺ : كيف ينزل عليك الوحي ؟ فقال : « مثل صلصلة الجرس ، فيفصم عنى وقد وعيت ما قاله » قال : « وهو أشده علىّ » قال : « وأحياناً يأتينى الملك فيتمثل لى فيكلمنى ، فأعى ما يقول » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ : أى : الجميع عبيد له وملك له ، تحت قهره وتصريفه ، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى ﴾ [الرعد : ٩] ، ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [سبأ : ٢٣] ، والآيات فى هذا كثيرة . وقوله : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ ﴾ قال ابن عباس ، وقتادة ، والسدى ، أى فرقاً ، من العظمة ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ كقوله : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا

(١) الموطأ (٢٠٢/١) والبخارى (٢) ومسلم (٢٣٣٣/٢١٠) .

(٢) الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٥٩/٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (٢٥٩/٨) : « رواه الطبرانى بإسنادين ورجال أحدهما ثقات » .

رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴿ [غافر: ٧] . وقوله: ﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ : إعلام بذلك وتنويه به .

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعنى: المشركين، ﴿ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أى: شهيد على أعمالهم، يحصيها ويعدها عداءً، وسيجزئهم بها أوفر الجزاء ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أى: إنما أنت نذير، والله على كل شىء وكيل .

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ ﴾

يقول تعالى: وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أى: واضحا جليا بينا ﴿ لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى ﴾ وهى مكة ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أى: من سائر البلاد شرقا وغربا، وسميت مكة «أم القرى»؛ لأنها أشرف من سائر البلاد، لأدلة كثيرة مذكورة فى مواضعها. ومن أوجز ذلك وأدله ما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عدى بن الحمراء الزهرى: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول - وهو واقف بالجزرة فى سوق مكة: « والله ، إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أنى أُخْرِجَتْ منك ما خرجت » . وهكذا رواية الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن صحيح (١) .

وقوله: ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ ﴾ وهو يوم القيامة، يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ﴿ لَا رَبَّ فِيهِ ﴾ أى: لا شك فى وقوعه ، وأنه كائن لا محالة ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ ، كقوله: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجُمُعِ ذَلِكَ يَوْمَ التَّغَابُنِ ﴾ [التغابن: ٩] أى: يغيب أهل الجنة أهل النار، وكقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ . وَمَا تُوخَّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدَّدٍ . يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٣-١٠٥] . روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو ، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفى يده كتابان، فقال: «أتدرون ما هذان الكتابان؟» قال: قلنا: لا، إلا أن تخبرنا يا رسول الله . قال للذى فى يده اليمنى: « هذا كتاب من رب العالمين، بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم - لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبدا» ثم قال للذى فى يساره: « هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم - لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبدا» فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فلأى شىء إذا نعمل إن كان هذا أمر قد فرغ منه؟ فقال رسول الله ﷺ: «سَدَّدُوا وَقَارِبُوا، فَإِنْ صَاحِبَ الْجَنَّةِ يَخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ عَمِلَ أَى عَمَلٍ، وَإِنْ صَاحِبَ النَّارِ لِيَخْتَمَ لَهُ بِعَمَلِ النَّارِ، وَإِنْ عَمِلَ أَى عَمَلٍ» ثم قال بيده فقبضها، ثم قال: « فرغ ربكم عز وجل من العباد» ثم قال

باليمنى فنبذ بها فقال: «فريق فى الجنة»، ونبذ باليسرى فقال: «فريق فى السعير». وهكذا رواه الترمذى والنسائى. وقال الترمذى: حسن صحيح غريب^(١). وروى الإمام أحمد عن أبى نضرة، أن رجلا من أصحاب النبى ﷺ يقال له: أبو عبد الله - دخل عليه أصحابه يعودونه وهو يبكى، فقالوا له: ما يبكيك؟، ألم يقل لك رسول الله ﷺ: «خذ من شاربك ثم أقره حتى تلقانى» قال: بلى، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله قبض بيمينه قبضة، وأخرى باليد الأخرى، قال: هذه لهذه، وهذه لهذه ولا أبالى» فلا أدرى فى أى القبضتين أنا^(٢). وأحاديث القدر فى الصحاح والسنن والمسانيد كثيرة جدا.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى: إما على الهداية أو على الضلالة، ولكنه تعالى فاوت بينهم، فهدى من يشاء إلى الحق، وأضل من يشاء عنه، وله الحكمة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ يَدْخُلُ مِنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَالَ اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى منكرأ على المشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله، ومخبرأ أنه الولى الحق الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده، فإنه القادر على إحياء الموتى وهو على كل شىء قدير.

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى: مهما اختلفتم فيه من الأمور، وهذا عام فى جميع الأشياء، ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أى: هو الحاكم فيه بكتابه، وسنة نبى ﷺ، كقوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. ﴿ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبِّي﴾ أى: الحاكم فى كل شىء، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أى: أرجع إليه فى جميع الأمور.

وقوله: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: خالقهما وما بينهما، ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أى: من جنسكم وشكلكم، منةً عليكم وتفضلا جعل من جنسكم ذكرا وأنثى، ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أى: وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج. ﴿يَذُرُّكُمْ فِيهِ﴾ أى: يخلقكم فيه، أى: فى ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذروكم فيه ذكورا وإناثا، خلقا من بعد خلق، وجيلا بعد جيل، ونسلا بعد نسل، من الناس والأنعام. وقال البغوى: ﴿يَذُرُّكُمْ فِيهِ﴾ أى: فى الرحم.

(١) المسند (٦٥٦٣) والترمذى (٢١٤١) والنسائى فى الكبرى (١١٤٧٣). وقال الشيخ شاکر: «إسناده صحيح».

(٢) المسند (١٧٦/٤)، وقال الهيثمى فى الزوائد (١٨٨/٧): «رجال رجال الصحيح».

وقيل: في البطن. وقيل: في هذا الوجه من الخلق. قال مجاهد: ونسلا بعد نسل من الناس والأنعام ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي: ليس كخالق الأزواج كلها شيء؛ لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وقوله: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقدم تفسيره في «سورة الزمر»، وحاصل ذلك: أنه المتصرف الحاكم فيهما، ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسع على من يشاء، ويضيق على من يشاء، وله الحكمة والعدل التام، ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا نَفَرْنَا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِّى بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾

ربع

يقول تعالى لهذه الأمة: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ فذكر أول الرسل بعد آدم، عليه السلام، وهو نوح، عليه السلام، وآخرهم وهو محمد ﷺ، ثم ذكر من بين ذلك من أولى العزم وهم: إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، عليهم السلام. وهذه الآية انضمت ذكر الخمسة، كما اشتملت آية «الأحزاب» عليهم في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ الآية [الأحزاب: ٧].

والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو: عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُوحَىٰ (١) إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وفي الحديث: «نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد» (٢) أي: القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم، كقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ أي: وصى الله تعالى جميع الأنبياء، عليهم السلام، بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف.

وقوله: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد. ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي: هو الذي يقدر الهداية لمن يستحقها، ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم، وقيام الحجة عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغى والعناد والمشاقة.

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى : لولا الكلمة السابقة من الله بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد ، لعجل لهم العقوبة فى الدنيا سريعا : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوثِرُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ يعنى : الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذب للحق ﴿ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ ﴾ أى : ليسوا على يقين من أمرهم ، وإنما هم مقلدون لأبائهم وأسلافهم ، بلا دليل ولا برهان ، وهم فى حيرة من أمرهم ، وشك مرِيب ، وشقاق بعيد .

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلَكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات ، كل منها منفصلة عن التى قبلها ، حكم برأسها ، قالوا : ولا نظير لها سوى آية الكرسي ، فإنها أيضا عشرة فصول كهذه . قوله : ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ ﴾ أى : فللذى أوحينا إليك من الدين الذى وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولى العزم وغيرهم ، فادعُ الناس إليه ﴿ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ أى : واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله ، كما أمركم الله عز وجل ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ يعنى : المشركين فيما اختلقوه ، وكذبوه ، وافتروه من عبادة الأوثان . ﴿ وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ﴾ أى : صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء ، لا نفرق بين أحد منهم .

وقوله : ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ أى : فى الحكم كما أمرنى الله ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ أى : هو المعبود ، لا إله غيره ، فنحن نقر بذلك اختيارا ، وأنتم وإن لم تفعلوه اختيارا ، فله يسجد من فى العالمين طوعا واختيارا ﴿ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلَكُمْ ﴾ أى : نحن برآء منكم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ٤١] . وقوله : ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ قال مجاهد : أى لا خصومة . قال السدى : وذلك قبل نزول آية السيف . وهذا متجَه ؛ لأن هذه الآية مكية ، وآية السيف بعد الهجرة ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ أى : يوم القيامة ، كقوله : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبا : ٢٦] . وقوله : ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى : المرجع والمآب يوم الحساب .

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحِيشَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَأَمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارِقُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول تعالى - متوعدا الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به : ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ

بَعْدَ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ ﴿١٩﴾ أَى : يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ، ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى ، ﴿حُجَّتْهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ﴿٢٠﴾ أَى : باطلة عند الله ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ ﴿٢١﴾ أَى : منه ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿٢٢﴾ أَى : يوم القيامة . قال ابن عباس ، ومجاهد : جادلوا المؤمنين بعد ما استجابوا لله ولرسوله ، ليصدوهم عن الهدى ، وطمعوا أن تعود الجاهلية . وقال قتادة : هم اليهود والنصارى ، قالوا لهم : ديننا خير من دينكم ، ونبينا قبل نبيكم ، ونحن خير منكم ، وأولى بالله منكم . وقد كذبوا فى ذلك . ثم قال : ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ يعنى : الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وهو : العدل والإنصاف ، قاله مجاهد ، وقاتادة . وهذه كقوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد : ٢٥] ، وقوله : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ . أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ . وَأَقِيمُوا الزُّنْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن : ٧ - ٩] . وقوله : ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ : فيه ترغيب فيها ، وترهيب منها ، وترهيد فى الدنيا .

وقوله : ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ أَى : يقولون : ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سبا : ٢٩] ، وإنما يقولون ذلك تكذيبا واستعبادا ، وكفرا وعنادا ، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أَى : خائفون وجِلون من وقوعها ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ أَى : كائنه لا محالة ، فهم مستعدون لها عاملون من أجلها . وقد روى من طرق تبلغ درجة التواتر ، فى الصحاح والحسان ، والسنن والمسانيد ، وفى بعض ألفاظه : أن رجلا سأل رسول الله ﷺ بصوت جهورى ، وهو فى بعض أسفاره ، فناداه فقال : يا محمد . فقال له النبى ﷺ نحو من صوته «هاؤم» . فقال : متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ : «ويحك ، إنها كائنه ، فما أعددت لها ؟» . فقال : حب الله ورسوله . فقال : «أنت مع من أحببت» (١) . فقوله فى الحديث : «المرء مع من أحب» ، هذا متواتر لا محالة ، والغرض : أنه لم يجبه عن وقت الساعة ، بل أمره بالاستعداد لها .

وقوله : ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يَمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ أَى : يحاجون فى وجودها ويدفعون وقوعها ، ﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أَى : فى جهل بين ؛ لأن الذى خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى ، كما قال : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم : ٢٧] .

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ ﴿١٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾

(١) انظر مثلا : البخارى (٦١٦٧) ومسلم (٢٦٣٩/١٦١) .

يقول تعالى مخبراً عن لطفه بخلقه في رزقه إياهم عن آخرهم، لا ينسى أحدا منهم، سواء في رزقه البرِّ والفاجر، كقوله عز وجل: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [هود:٦]. ولها نظائر كثيرة وقوله: ﴿ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى: يوسع على من يشاء، ﴿ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ أى: لا يعجزه شيء.

ثم قال: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ ﴾ أى: عمل الآخرة، ﴿ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ أى: نقويه ونعينه على ما هو بصدده، ونكثر ثمائه، ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما يشاء الله ﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ أى: ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا، وليس له إلى الآخرة هم البتة بالكلية، حرّمه الله الآخرة، والدنيا إن شاء أعطاه منها، وإن لم يشأ لم يحصل له لا هذه ولا هذه، وفاز هذا الساعى بهذه النية بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة. والدليل على هذا أن هذه الآية هاهنا مقيدة بالآية التي في «سبحان» وهي قوله تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا . وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا . كُلًّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢١].

عن أبي بن كعب ، قال : قال رسول الله ﷺ : «بشر هذه الأمة بالسَّئَاءِ والرفعة ، والنصر والتمكين فى الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا ، لم يكن له فى الآخرة من نصيب» (١) .

وقوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ ﴾ أى: هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، من تحريم ما حرموا عليهم، من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل الميتة والدم والقمار، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة، التي كانوا قد اخترعوها فى جاهليتهم، من التحليل والتحريم، والعبادات الباطلة، والأقوال الفاسدة. وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت عمرو بن لُحَيَّ بن قَمَعَةَ يَجْرُ قُصْبَهُ فى النار» (٢). لأنه أول من سيب السوائب. وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذى حَمَلَ قريشا على عبادة الأصنام، لعنه الله وقبحه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ ، أى: لعوجلوا بالعقوبة، لولا ما تقدم من الإِنظار إلى يوم المعاد، ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى: شديد موجه فى جهنم ويش المصير.

ثم قال تعالى: ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ أى: فى عرصات القيامة، ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾

(١) المسند (٥/١٣٤) والحاكم فى المستدرک (٤/٣١١) وصححه ووافقه الذهبى . ورواه البغوى فى شرح السنة (٤١٤٤) .

(٢) مضى الحديث وتخريجه عند الآية (١٠٣) من سورة المائدة .

أى: الذى يخافون منه واقع بهم لا محالة، هذا حالهم يوم معادهم، وهم فى هذا الخوف والوجل، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، فأين هذا من هذا؟ أين من هو فى العرصات فى الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه، ممن هو فى روضات الجنات، فيما يشاء من مآكل ومشرب وملابس ومسكن ومناظر ومناكح وملاذ، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؟ ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أى: الفوز العظيم، والنعمة التامة السابعة الشاملة العامة.

﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كِذْبًا فَإِنِ يَشَاءِ اللَّهُ لَيُنزِلَنَّ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَبِمِثْلِ الَّذِي كَذَّبْتَ عَلَيْهِمْ يَنزِلُ الْوَعْدَ عَلَىٰ قُلُوبِنَا إِنَّهُمْ عَلَىٰ صُدُورِهِمْ

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنة لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: هذا حاصل لهم، كائن لا محالة، ببشارة الله لهم به.

وقوله: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش: لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالا تعطوني، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عنى، وتذرونى أبلغ رسالات ربي، إن لم تصبروني فلا تؤذوني بما بينى وبينكم من القرابة. روى البخارى عن ابن عباس: أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾، فقال سعيد بن جبيرة: قريبي آل محمد. فقال ابن عباس: عجلت، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة، فقال: إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة. انفراد به البخارى. ورواه الإمام أحمد (١). وبه قال مجاهد، وعكرمة، وقتادة، والسدى، وغيرهم. وقول ثان يقول: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أى: إلا أن تعملوا بالطاعة التى تقربكم عند الله زلفى. وروى عن الحسن البصرى مثله. وقول ثالث عن سعيد بن جبيرة، ما معناه، أنه قال: معنى ذلك أن تودونى فى قرابتى، أى: تحسنوا إليهم وتبروهم.

والحق تفسير الآية بما فسرها به الإمام حبر الأمة، وترجمان القرآن، عبد الله بن عباس، كما رواه عنه البخارى، ولا ننكر الوصاة بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض، فخراً وحسباً ونسباً، ولاسيما إذا كانوا متبعين للسنن النبوية الصحيحة الواضحة الجليلة، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبنيه، وعلى وأهل بيته وذريته، رضى الله عنهم أجمعين. وفى الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته بغير خم: «إنى تارك فىكم الثقلين: كتاب الله وعترتى، وإنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض» (٢). وروى الإمام أحمد عن العباس بن عبد المطلب قال:

(٢) مسلم (٢٤٠٨).

(١) البخارى (٤٨١٨). وهو فى المسند (٢٠٢٤).

قلت : يا رسول الله ، إن قريشا إذا لقي بعضهم بعضا لقوهم ببشر حسن ، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها ؟ قال : فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً ، وقال : « والذى نفسى بيده ، لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم الله ولرسوله »^(١) . وروى البخارى عن أبى بكر الصديق ، قال : ارقبوا محمداً ﷺ فى أهل بيته ^(٢) . وفى الصحيح : أن الصديق قال لعلى : والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلى أن أصل من قرابتي ^(٣) . وقال عمر بن الخطاب للعباس ، رضى الله عنهما : والله لإسلامك يوم أسلمت ، كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم ؛ لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب .

فحال الشيخين ، رضى الله عنهما ، هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك ؛ ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين ، رضى الله عنهما ، وعن سائر الصحابة أجمعين .

وروى الإمام أحمد عن يزيد بن حيان قال : انطلقت أنا وحسين بن ميسرة ، وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم ، فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً ، رأيت رسول الله ﷺ ، وسمعت حديثه ، وغزوت معه ، وصليت معه . لقد رأيت يا زيد خيراً كثيراً . حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ . فقال : يا بن أخى ، والله كبرت سنى ، وقدم عهدى ، ونسيت بعض الذى كنت أعمى من رسول الله ﷺ ، فما حدثتكم فاقبلوه ، وما لا فلا تكلفونيهِ . ثم قال : قام رسول الله ﷺ يوماً خطيباً فينا ، بماء يدعى خمماً - بين مكة والمدينة - فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر ووعظ ، ثم قال : « أما بعد ، ألا أيها الناس ، إنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب ، وإنى تارك فيكم الثقلين ، أولهما : كتاب الله ، فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحث على كتاب الله ورغب فيه ، وقال : « وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى » . فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال : إن نساءه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده . قال : ومن هم؟ قال : هم آل على ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل العباس . قال : أكل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال : نعم . وهكذا رواه مسلم ^(٤) . وروى الترمذى عن زيد بن أرقم ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى ، أحدهما أعظم من الآخر : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، والآخر عترتى : أهل بيتى ، ولن يتفرقاً حتى يردا على الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما » . تفرد بروايته الترمذى ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب ^(٥) . وروى الترمذى أيضاً عن جابر بن عبد الله ، قال : رأيت رسول الله ﷺ فى حجته يوم عرفة ، وهو على ناقته القصواء يخطب ، فسمعتة يقول : « يا أيها الناس ، إنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن

(١) المسند (١٧٧٢ ، ١٧٧٣) وقال الشيخ شاکر : « إسناده صحيح » .

(٢) البخارى (٣٧١٣) .

(٣) المسند (٣٦٦ / ٤) ومسلم (٣٦ / ٢٤٠٨) .

(٤) الترمذى (٣٧٨٨) وصححه الألبانى .

تضلوا: كتاب الله، وعترتى: أهل بيتى». تفرد به الترمذى أيضاً، وقال: حسن غريب (١). ثم روى الترمذى عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه، وأحبونى بحب الله، وأحبوا أهل بيتى بحبى». ثم قال: حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه (٢). وقد أوردنا أحاديث أخر عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، بما أغنى عن إعادتها ها هنا، والله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّوَدَّ لَهُ فِيهَا حَسَنًا ﴾ أى: ومن يعمل حسنة ﴿ نَزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا ﴾ أى: أجرا وثوابا، كقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠]. وقال بعض السلف: من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ أى: يغفر الكثير من السيئات، ويكثر القليل من الحسنات، فيستر ويغفر، ويضاعف فيشكر.

وقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأُ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ أى: لو افتريت عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ أى: لطبع على قلبك وسلبك ما كان آتاك من القرآن، كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧] أى: لانتقمنا منه أشد الانتقام، وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه. وقوله: ﴿ وَيَمِحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ ﴾ أى: يحققه ويثبتة ويبينه ويوضحه ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أى بحججه وبراهينه، ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى: بما تكنه الضمائر، وتنطوى عليه السرائر.

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾
 ﴿ ١٥ ﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ؕ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿ ١٦ ﴾ ﴿ ١٧ ﴾ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿ ١٧ ﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْقَيْتَمَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿ ١٨ ﴾

ربع

يقول تعالى ممثنا على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه: أنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح ويستر ويغفر، كقوله عز وجل: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمُ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠] ، وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم، أنت عبدى وأنا ربك - أخطأ من شدة الفرح» (٣).

(١) الترمذى (٣٧٨٦) وصححه الالبانى .
 (٢) الترمذى (٣٧٨٩) وصححه الالبانى .
 (٣) مسلم (٧ / ٢٧٤٧) .

وقوله: ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ أى : يقبل التوبة فى المستقبل، ويعفو عن السيئات فى الماضى، ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أى: هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقتتم، ومع هذا يتوب على من تاب إليه.

وقوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال السدى: يعنى يستجيب لهم. وكذا قال ابن جرير: معناه يستجيب لهم الدعاء ولأصحابهم وإخوانهم. وحكاه عن بعض النحاة، وأنه جعلها كقوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. ثم روى هو وابن أبى حاتم عن سلمة بن سيرة قال: خطبنا معاذ بالشام فقال: أنتم المؤمنون، وأنتم أهل الجنة. والله إنى أرجو أن يدخل الله من تَسْبُونَ من فارس والروم الجنة، وذلك بأن أحدكم إذا عمل له - يعنى أحدهم عملا - قال: أحسنت رحمك الله، أحسنت بارك الله فيك، ثم قرأ: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾. وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية أنه جعل قوله: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ [الزمر: ١٨] أى: هم الذين يستجيبون للحق ويتبعونه، كقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦] والمعنى الأول أظهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أى: يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك.

وقال قتادة عن إبراهيم النخعى اللخمي فى قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، قال: يشفعون فى إخوانهم، ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال: يشفعون فى إخوان إخوانهم. وقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾: لما ذكر المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل، ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجه المؤلم يوم معادهم وحسابهم. وقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق، لحملهم ذلك على البغى والطغيان من بعضهم على بعض، أشرا ويطرا. وقال قتادة: كان يقال: خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك. وقوله: ﴿وَلَكِنْ يُنَزَّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ أى: ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم، وهو أعلم بذلك، فيغنى من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ أى: من بعد إياس الناس من نزول المطر، ينزله عليهم فى وقت حاجتهم وفقرهم إليه، كقوله: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِينَ﴾ [الروم: ٤٩]. وقوله: ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ أى: يعم بها الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية. قال قتادة: ذكر لنا أن رجلا قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، قُحِطَ المطر وقنط الناس؟ فقال عمر: مطرتم، ثم قرأ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾. ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أى: هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم، وهو المحمود العاقبة فى جميع ما يقدره ويفعله.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتْ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر ﴿ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَتْ فِيهِمَا ﴾ أى: ذراً فيهما، أى: فى السموات والأرض، ﴿ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ وهذا يشمل الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوانات، على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم، وطباعهم وأجناسهم، وأنواعهم، وقد فرقهم فى أرجاء أقطار الأرض والسموات، ﴿ وَهُوَ ﴾ مع هذا كله ﴿ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ أى: يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق فى صعيد واحد، يسمعهم الداعى، ويُفْقِذهم البصر، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق .

وقوله: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أى: مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما عن سيئات تقدمت لكم، ﴿ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ أى: من السيئات، فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها، ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ [فاطر: ٤٥]. وفى الحديث الصحيح: «والذى نفسى بيده، ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن، إلا كفر الله عنه بها من خطاياها، حتى الشوكة يشاكها» (١). عن على، قال: ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله عز وجل، وحدثنا به رسول الله ﷺ، قال: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ . وسأفسرها لك يا على: «ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا، فيما كسبت أيديكم، والله تعالى أحلم من أن يثنى عليه العقوبة فى الآخرة، وما عفا الله عنه فى الدنيا فالله تعالى أكرم من أن يعود بعد عفوهِ». رواه الإمام أحمد (٢). وروى الإمام أحمد عن معاوية - هو ابن أبى سفيان - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من شئ يصيب المؤمن فى جسده يؤذيه إلا كفر الله عنه به من سيئاته » (٣) .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلَنَّ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجِدِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيسٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول تعالى: ومن آياته الدالة على قدرته وسلطانه، تسخيره البحر لتجرى فيه الفلك بأمره، وهى الجوارى فى البحر كالأعلام، أى: كالجبال، قاله مجاهد، والحسن، والسدى، والضحاك،

(١) البخارى (٥٦٤١ ، ٥٦٤٢) ومسلم (٥٢ / ٢٥٧٣) .

(٢) المسند (٦٤٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده حسن » .

(٣) المسند (٩٨ / ٤) وقال الهيثمى فى الزوائد (٣٠٤ / ٢) : « رجال أحمد رجال الصحيح » .

أى: هذه فى البحر كالجبال فى البر، ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ أى: التى تسير بالسفن، لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك السفن، بل تبقى راكدة لا تحيىء ولا تذهب، بل واقفة على ظهره، أى: على وجه الماء ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ آيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أى: فى الشدائد ﴿شُكُورٍ﴾ أى: إن فى تسخيره البحر وإجرائه الهوى بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم، لدلالات على نعمه تعالى على خلقه ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أى: فى الشدائد، ﴿شُكُورٍ﴾ فى الرخاء.

وقوله: ﴿أَوْ يُوقِعُهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أى: ولو شاء لأهلك السفن وغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون فيها، ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ أى: من ذنوبهم. ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر. وقال بعض علماء التفسير: معنى قوله: ﴿أَوْ يُوقِعُهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ أى: لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية، فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم، فصرفت ذات اليمين أو ذات الشمال، أبقة لا تسير على طريق، ولا إلى جهة مقصد. وهذا القول هو يتضمن هلاكها، وهو مناسب للأول، وهو أنه تعالى لو شاء لسكن الريح فوقفت، أو لقواه فشردت وأبقت وهلكت. ولكن من لطف ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة، كما يرسل المطر بقدر الكفاية، ولو أنزله كثيرا جدا لهدم البنيان، أو قليلا لما أنبت الزرع والثمار، حتى إنه يرسل إلى مثل بلاد مصر سيحا من أرض أخرى غيرها؛ لأنهم لا يحتاجون إلى مطر، ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم، وأسقط جدرانهم. وقوله: ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ﴾ أى: لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا، فإنهم مقهورون بقدرتنا.

﴿فَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَخُذُوهُ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللّٰهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْاِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلٰوةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا اَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَبُونَ ﴿٢٩﴾﴾

يقول تعالى محقرا لشأن الحياة الدنيا وزينتها، وما فيها من الزهرة والنعيم الفانى، بقوله: ﴿فَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَخُذُوهُ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا﴾ أى: مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به، فإنما هو متاع الحياة الدنيا، وهى دار دنيئة فانية زائلة لا محالة، ﴿وَمَا عِنْدَ اللّٰهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أى: وثواب الله خير من الدنيا، وهو باق سرمدى، فلا تقدموا الفانى على الباقي؛ ولهذا قال: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أى: للذين صبروا على ترك الملاذ فى الدنيا، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى: ليعينهم على الصبر فى أداء الواجبات وترك المحرمات.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْاِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾ وقد قدمنا الكلام على الإثم والفواحش فى «سورة الاعراف» ﴿وَأِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أى: سجتهم تقتضى الصفح والعفو عن الناس، ليس سجتهم الانتقام من الناس. وقد ثبت فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط،

إلا أن تنتهك حرمت الله (١) . وفى حديث آخر: كان يقول لأحدنا عند المعتبة: « ماله ؟ تربت جبينه » (٢) .

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أى: اتبعوا رسله وأطاعوا أمره، واجتنبوا زجره، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ وهى أعظم العبادات لله عز وجل، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ أى: لا يرمون أمرا حتى يتشاوروا فيه، ليتساعدوا بأرائهم فى مثل الحروب وما جرى مجراها، كما قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ولهذا كان عليه الصلاة والسلام ، يشاورهم فى الحروب ونحوها ، لطيب بذلك قلوبهم. وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب الوفاة حين طعن، جعل الأمر بعده شورى فى ستة نفر، وهم: عثمان، وعلى، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، فاجتمع رأى الصحابة كلهم على تقديم عثمان عليهم، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ، وذلك بالإحسان إلى خلق الله، الأقرب إليهم منهم فالأقرب .

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ أى: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بعاجزين ولا أذلة، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا وعفوا، كما قال يوسف، عليه السلام، لإخوته: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢] ، مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه، وكما عفا رسول الله ﷺ عن أولئك نفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية، ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم من عليهم مع قدرته على الانتقام، وكذلك عفوه عن غورث بن الحارث، الذى أراد الفتك به عليه السلام حين اخترط سيفه وهو نائم، فاستيقظ، عليه السلام، وهو فى يده صلّتا، فانتهره، فوضعه من يده، وأخذ رسول الله ﷺ السيف من يده، ودعا أصحابه، ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل، وعفا عنه. وكذلك عفا عن لبيد بن الأعصم، الذى سحره، عليه السلام، ومع هذا لم يعرض له، ولا عاتبه، مع قدرته عليه. وكذلك عفوه، عليه السلام، عن المرأة اليهودية - وهى زينب أخت مرحب اليهودى الحبيرى الذى قتله محمود بن مسلمة - التى سمت الذراع يوم خيبر، فأخبره الذراع بذلك، فدعاها فاعترفت فقال: «ماحملك على ذلك» قالت: أردت إن كنت نبيا لم يضرك، وإن لم تكن نبيا استرحنا منك، فأطلقها، عليه الصلاة والسلام، ولكن لما مات منه بشر بن البراء قتلها به، والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جدا، والحمد لله .

﴿وَحَزْرًا وَسَيْتَةً سَيْتَةً مِثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الظَّالِمِينَ﴾
 ﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ﴿٤١﴾ ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِعَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ لِإِنَّ ذَلِكَ لِمَنْ عَزِمَ الْأُمُورَ﴾ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]. وكقوله ﴿وَأَنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقِبْتُمْ بِهِ﴾ الآية [النحل: ١٢٩]، فشرع العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، كقوله: ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ [المائدة: ٤٥]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أى: لا يضيع ذلك عند الله كما صح فى الحديث: «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا» (١). وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أى: المعتدين، وهو المبتدئ بالسئية.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَنْ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أى: ليس عليهم جناح فى الانتصار ممن ظلمهم. روى النسائى وابن ماجه عن عروة قال: قالت عائشة: ما علمت حتى دخلت على زينب بغير إذن وهى غضبى، ثم قالت لرسول الله ﷺ: حسبك إذا قلبت لك ابنة أبى بكر ذريعتيها ثم أقبلت على فأعرضت عنها، حتى قال النبى ﷺ: «دونك فانتصرى» فأقبلت عليها حتى رأيتها وقد يبس ريقها فى فمها، ما ترد على شيئا. فرأيت النبى ﷺ يتهلل وجهه. وهذا لفظ النسائى (٢).

وقوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ أى: إنما الحرج والعنت ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أى: يبدؤون الناس بالظلم. كما جاء فى الحديث الصحيح: «المُسْتَبَانَ ما قالا، فعلى البادئ ما لم يعتد المظلوم» (٣). ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: شديد موجه.

ثم إن الله تعالى لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص، قال نادياً إلى العفو والصفح: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ أى: صبر على الأذى وستر السئية، ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ قال سعيد بن جبير: يعنى: لمن حق الأمور التى أمر الله بها، أى: لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة التى عليها ثواب جزيل وثناء جميل. وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة، أن رجلا شتم أبى بكر والنبى ﷺ جالس، فجعل النبى ﷺ يعجب ويتبسم، فلما أكثر رد عليه بعض قوله، فغضب النبى ﷺ وقام، فلحقه أبو بكر فقال: يا رسول الله، إنه كان يشتمنى وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقلت! قال: «إنه كان معك ملك يرد عنك، فلما رددت عليه بعض قوله وقع الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان». ثم قال: «يا أبى بكر، ثلاث كلهن حق، ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضى عنها الله، إلا أعز الله بها نصره، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة، إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة، إلا زاده الله بها قلة». وكذا رواه أبو داود (٤). وهذا الحديث فى غاية الحسن فى المعنى، وهو مناسب للصديق رضى الله عنه.

(١) الترمذى (٢٠٢٩) وقال: «حسن صحيح».

(٢) النسائى فى الكبرى (١١٤٧٦) وابن ماجه (١٩٨١) وفى زوائد البوصيرى: «هذا إسناد صحيح على شرط

مسلم»، وصححه الألبانى.

(٣) مسلم (٢٥٨٧ / ٦٨).

(٤) المسند (٤٣٦/٢) وأبو داود (٤٨٩٧) وصححه الألبانى.

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَدْيٍ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ ﴿٤٤﴾ وَتَرَنَّهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الدُّنْيِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة: إنه ما شاء كان ولا راد له، وما لم يشأ لم يكن فلا يوجد له، وأنه من هده فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، كما قال: ﴿ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وِلياً مُرْشِداً ﴾ [الكهف: ١٧]. ثم قال عز وجل مخبراً عن الظالمين، وهم المشركون بالله ﴿ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ ﴾ أى: يوم القيامة تمنا الرجعة إلى الدنيا، ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ ، كما قال جل وعلا: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لَمَّا نَهَوَّا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

وقوله: ﴿ وَتَرَنَّهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أى: على النار ﴿ خَشِيعَاتٍ مِنَ الدُّنْيِ ﴾، أى: الذى قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله، ﴿ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ قال مجاهد: يعنى ذليل، أى ينظرون إليها مسارقة خوفاً منها، والذى يحذرون منه واقع بهم لا محالة، وما هو أعظم مما فى نفوسهم، أجازنا الله من ذلك ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى: يقولون يوم القيامة: ﴿ إِنَّ الْخَاسِرِينَ ﴾ أى: الخسار الأكبر ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى: ذهب بهم إلى النار، فعدموا لذتهم فى دار الأبد، وخسروا أنفسهم، وفرق بينهم وبين أصحابهم وأحبابهم وأهاليهم وقرباتهم، فخسروهم، ﴿ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴾ أى: دائم سرمدى أبدي، لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها. وقوله: ﴿ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى: ينقدونهم مما هم فيه من العذاب والنكال، ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ أى: ليس له خلاص.

﴿ أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴾ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِلَّا أَلْبَاسٌ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَبًا وَإِنْ نَصَبْنَاهُمْ سَبِيلًا يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

لما ذكر تعالى ما يكون فى يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة، حذّر منه وأمر بالاستعداد له، فقال: ﴿ أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى: إذا أمر بكونه فإنه كلمح البصر يكون، وليس له دافع ولا مانع. وقوله: ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴾ أى: ليس لكم حصن تحصنون فيه، ولا مكان يستركم وتتنكرون فيه، فتغيبون عن بصره، تبارك

وتعالى، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته، فلا ملجأ منه إلا إليه، ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ . كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠ - ١٢]. وقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ يعنى: المشركين ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أى: لست عليهم بمصيطر . وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] ، وقال تعالى: ﴿فَأَنمَّا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]. وقال هاهنا: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ أى: إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَرِئًا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرِحَ بِهَا﴾ أى: إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك، ﴿وَأِنْ تُصِيبْهُمْ﴾ يعنى الناس ﴿سَيِّئَةً﴾ أى: جذب ونقمة وبلاء وشدة، ﴿فَأِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ أى: يجحد ما تقدم من النعم ولا يعرف إلا الساعة الراهنة، فإن أصابته نعمة أشر وبطر، وإن أصابته محنة يشس وقتظ، كما قال رسول الله ﷺ للنساء: « يا معشر النساء ، تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار » فقالت امرأة: ولم يارسول الله ؟ قال: «لأنكن تكثرن الشكاية، وتكفرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم تركت يوما قالت: ما رأيت منك خيرا قط » (١) . وهذا حال أكثر الناس إلا من هداه الله وألهمه رشده، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالؤمن كما قال رسول الله ﷺ: « إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » (٢) .

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴿٤١﴾ أَوْ يَزُوجَهُمْ ذَكَرًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مِنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

يخير تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يعطى من يشاء، ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، وأنه يخلق ما يشاء، و﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا﴾ أى: يرزقه البنات فقط ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾ أى: يرزقه البنين فقط لم يولد له أنثى، ﴿أَوْ يَزُوجَهُمْ ذَكَرًا وَإِنثًا﴾ أى: ويعطى من يشاء من الناس الزوجين الذكر والانثى، أى: من هذا وهذا ﴿وَيَجْعَلُ مِنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ أى: لا يولد له. فجعل الناس أربعة أقسام، منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه البنين، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورا وإنثا، ومنهم من يمنعه هذا وهذا، فيجعله عقيما لا نسل له ولا يولد له، ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ قَدِيرٌ﴾ أى: بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام، ﴿قَدِيرٌ﴾ أى: على من يشاء، من تفاوت الناس فى ذلك.

وهذا المقام شبيهه بقوله تعالى عن عيسى: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةَ لِلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١] أى: دلالة لهم على قدرته، تعالى وتقدس، حيث خلق الخلق على أربعة أقسام، فآدم، عليه السلام، مخلوق من تراب، لا من ذكر ولا أنثى، وحواء، عليها السلام، مخلوقة من ذكر بلا أنثى، وسائر الخلق

سوى عيسى، عليه السلام، من ذكر وأنثى، وعيسى، عليه السلام، من أنثى بلا ذكر فتتمت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم، عليهما السلام؛ ولهذا قال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ فهذا المقام فى الآباء، والمقام الأول فى الأبناء، وكل منهما أربعة أقسام، فسبحان العليم القدير.

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْتُمَ اللَّهُ إِلًّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُمْ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكُتُبُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمَّْا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَىٰ اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾

ربع

هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله، عز وجل، وهو أنه تعالى تارة يقذف فى روع النبى شيئا لا يتماهى فيه أنه من الله عز وجل، كما جاء فى صحيح ابن حبان، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «إن رُوحَ القُدُسِ نفث فى رُوعى: أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب» (١). وقوله: ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾، كما كلم موسى، عليه السلام، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم، فحجب عنها. وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله: «ما كلم الله أحدا إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أبك كفاحا» الحديث (٢)، وكان قد قتل يوم أحد، ولكن هذا فى عالم البرزخ، والآية إنما هى فى الدار الدنيا. وقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾، كما ينزل جبريل، عليه السلام، وغيره من الملائكة على الأنبياء، عليهم السلام ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ﴾، فهو على عليم خبير حكيم.

وقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ يعنى : القرآن ، ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكُتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ أى : على التفصيل الذى شرع لك فى القرآن ، ﴿ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ ﴾ أى : القرآن ﴿ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ، كقوله : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤]. وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ يامحمد ﴿ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ، وهو الحق القويم ، ثم فسره بقوله : ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ أى : شرعه الذى أمر به الله ، ﴿ الَّذِي لَمْ يَلَمَّْا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما، الحاكم الذى لا معقب لحكمه ، ﴿ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ أى : ترجع الامور، فيفصلها ويحكم فيها .

(١) لم آقف عليه عند ابن حبان ، وهو فى شرح السنة للبخارى (٣٠٤/١٤) ، رقم (٤١١١) .

(٢) الترمذى (٣٠١٠) ، وابن ماجه (١٩٠) وحسنه الألبانى .

تفسير سورة الزخرف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ حَمْ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُمْ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَمْرِفُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

يقول تعالى: ﴿حَمْ . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أى: البين الواضح الجلى المعانى والألفاظ؛ لأنه نزل بلغة العرب التى هى أفصح اللغات للتخاطب بين الناس؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ أى: أنزلناه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى: بلغة العرب فصيحا واضحا، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أى: تفهمونه وتدبرونه، كما قال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾: بين شرفه فى الملأ الأعلى، ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أى: القرآن ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ أى: اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس، ومجاهد، ﴿لَدَيْنَا﴾ أى: عندنا، قاله قتادة وغيره، ﴿لَعَلِيٌّ﴾ أى: ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل، قاله قتادة، ﴿حَكِيمٌ﴾ أى: محكم برىء من اللبس والزيغ. وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله، كما قال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ . تَنْزِيلٍ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٨٠] وقال: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ . فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١١ - ١٦]؛ ولهذا استنبط العلماء، رحمهم الله، من هاتين الآيتين: أن المحدث لا يمس المصحف؛ لأن الملائكة يعظمون المصحف المشتملة على القرآن فى الملأ الأعلى، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى، لأنه نزل عليهم، وخطابه متوجه إليهم، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم، والانقياد له بالقبول والتسليم، لقوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾: اختلف المفسرون فى معناها، فقيل: معناها: أتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعدبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به؟ قاله ابن عباس، ومجاهد والسدى، واختاره ابن جرير. وقال قتادة فى قوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾: والله لو أن هذا القرآن رفع حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله عاد بعائده ورحمته، وكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة، أو ما شاء الله من ذلك. وقول قتادة لطيف المعنى جدا، وحاصله أنه يقول فى معناه: أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم

إلى الخير والذكر الحكيم - وهو القرآن - وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل أمر به ليتهدى من قَدَر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته. ثم قال تعالى - مسلماً لنبيه في تكذيب من كذبه من قومه، وأمر له بالصبر عليهم -: ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴾ أى: فى شيع الأولين، ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى: يكذبونه ويسخرون به.

وقوله : ﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴾ أى: فأهلكنا المكذبين بالرسول، وقد كانوا أشد بطشاً من هؤلاء المكذبين لك يا محمد. كقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ [غافر: ٨٢] والآيات فى ذلك كثيرة. وقوله: ﴿ وَمَضَىٰ مِثْلَ الْأَوَّلِينَ ﴾: قال مجاهد: ستمهم. وقال قتادة: عقوبتهم. وقال غيرهما: عبرتهم، أى: جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم، كقوله فى آخر هذه السورة: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٦]. وكقوله: ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ [غافر: ٨٥] وقال : ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الاحزاب: ٦٢].

﴿ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ
 ١ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ
 ٢ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشُرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ
 ٣ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْفَالِكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ
 ٤ لَتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحٰنَ الَّذِي سَخَّرَ
 لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٢﴾ وَإِنَّا إِلٰك رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

يقول تعالى: ولئن سألت - يا محمد - هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره: ﴿ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ أى: ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد. ثم قال: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهَادًا (١) ﴾ أى: فراشاً قراراً ثابتة، يسرون عليها ويقومون وينامون وينصرفون، مع أنها مخلوقة على تيار الماء، لكنه أرساها بالجبال لثلا تميد هكذا ولا هكذا، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أى: طرقاً بين الجبال والأودية ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أى: فى سيركم من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم. ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ ﴾ أى: بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم، لأنفسكم ولأنعامكم. ﴿ فَأَنْشُرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا ﴾ أى: أرضاً ميتة، فلما جاءها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج ثم نبه بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها، فقال: ﴿ كَذٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾.

ثم قال عز وجل: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أى: مما تنبت الأرض من سائر الأصناف، من نبات وزروع وثمار وأزاهير، وغير ذلك، ومن الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الظُّلُكِ﴾ أى: السفن ﴿وَالْأَنْعَامَ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أى: ذللها لكم وسخرها ويسرها لآكلكم لحومها، وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها؛ ولهذا قال: ﴿لَتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أى: لتستروا متمكين مرتفقين ﴿عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أى: على ظهور هذا الجنس، ﴿ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ أى: فيما سخر لكم ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقَوْلُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أى: مقاومين. ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه. قال ابن عباس، وقتادة، والسدى، وابن زيد: ﴿مُقْرِنِينَ﴾ أى: مطيقين. ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أى: لصاترون إليه بعد ممانتنا، وإليه سيرنا الأكبر. وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبه بالزاد الدنيوى على الزاد الآخروى فى قوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، وباللباس الدنيوى على الآخروى فى قوله تعالى: ﴿وَرِيشًا وَلبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الاعراف: ٢٦].

ذكر الأحاديث الواردة عند ركوب الدابة :

روى الإمام أحمد عن على بن ربيعة قال: رأيت عليا أتى بدابة، فلما وضع رجله فى الركاب قال: بسم الله. فلما استوى عليها قال: الحمد لله، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ. وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾، ثم حمد الله ثلاثا، وكبر ثلاثا، ثم قال: سبحانك، لا إله إلا أنت، قد ظلمت نفسى فاغفر لى. ثم ضحك، فقلت له: مم ضحكت يا أمير المؤمنين؟ فقال: رأيت رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلت، ثم ضحك. فقلت: مم ضحكت يا رسول الله؟ فقال: «يعجب الرب من عبده إذا قال: رب، اغفر لى. ويقول: علم عبدى أنه لا يغفر الذنوب غيرى». وهكذا رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، وقال الترمذى: حسن صحيح (١). وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر، أن النبى ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثا ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ. وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾. ثم يقول: «اللهم إنى أسألك فى سفرى هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى. اللهم، هون علينا السفر واطو لنا البعيد. اللهم، أنت الصاحب فى السفر، والخليفة فى الأهل. اللهم، اصحبنا فى سفرنا، واخلفنا فى أهلنا». وكان إذا رجع إلى أهله قال: «آيئون تائبون إن شاء الله، عابدون، لربنا حامدون». وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائى والترمذى (٢). وروى أحمد عن محمد بن حمزة؛ أنه سمع أباه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «على ظهر كل بعير شيطان، فإن ركبتموها فسموا الله، عز وجل، ثم لا تقصروا عن حاجاتكم» (٣).

(١) المسند (٧٥٣) وأبو داود (٢٦٠٢) والترمذى (٣٤٤٦) والنسائى فى الكبرى (٨٨٠٠).

(٢) المسند (٦٣١١) ومسلم (٤٢٥/١٣٤٢) وأبو داود (٢٥٩٩) والنسائى فى الكبرى (١٠٣٨٢) والترمذى (٣٤٤٧).

(٣) المسند (٤٩٤/٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/١٣١): «رجال الصحيح غير محمد بن حمزة وهو ثقة».

﴿ وَجَعَلُوا لَهُمْ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَرَأَيْتُمْ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مَنْ يَنْشِئُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْتَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما افتروه وكذبوه في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها لله، كما ذكر الله عنهم في سورة «الأنعام»، في قوله: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٦]. وكذلك جعلوا له من قسمة البنات والبنين أحسهما وأردأهما وهو البنات، كما قال تعالى: ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]. وقال هاهنا: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾ .

ثم قال: ﴿ أَمْ أَتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ﴾ ؟ وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار. ثم ذكر تمام الإنكار فقال: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي: إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به، ويتوارى من القوم من حجله من ذلك، يقول تعالى: فكيف تأنفون أنتم من ذلك، وتنسونه إلى الله عز وجل؟

ثم قال: ﴿ أَوْ مَنْ يَنْشِئُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ أي: المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلوى منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هي عاجزة عبيّة، أو من يكون هكذا ينسب إلى جناب الله عز وجل؟!، فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن، في الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلوى وما في معناها، ليجبر ما فيها من نقص وأما نقص معناها، فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار، لا عبارة لها ولا همة، كما قال بعض العرب وقد بشر بينت: «ما هي بنعم الولد: نصرها بالباء، وبرها سرقة».

وقوله: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا ﴾ أي: اعتقدوا فيهم ذلك، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك، فقال: ﴿ أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ أي: شاهده وقد خلقهم الله إنثا، ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ ﴾ أي: بذلك، ﴿ وَيُسْأَلُونَ ﴾ عن ذلك يوم القيامة. وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد. ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ أي: لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام، التي هي على صور الملائكة التي هي بنات الله، فإنه عالم بذلك وهو يقررنا عليه، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ:

أحدها: جعلهم لله ولدا، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوا كبيرا.

الثاني: دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً.

الثالث: عبادتهم لهم مع ذلك كله، بلا دليل ولا برهان، ولا إذن من الله عز وجل، بل بمجرد الآراء والأهواء، والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء، والخطب في الجاهلية الجهلاء.

الرابع: احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قدرًا، وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلاً كبيراً، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار، فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

وقال في هذه الآية - بعد أن ذكر حججتهم هذه -: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى: بصحة ما قالوه واحتجوا به ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، أى: يكذبون ويتقولون. وقال مجاهد فى قوله: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أى: ما يعلمون قدرة الله على ذلك.

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ ﴿١١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا
 آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿١٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرِيْبٍ مِّنْ
 نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ
 أُولُو حِجَّتِكُمْ بَاهِدِي مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾
 فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرْنَا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٥﴾

ربع

يقول تعالى منكراً على المشركين فى عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ﴾؟ أى: من قبل شركهم، ﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أى: فيما هم فيه، أى: ليس الأمر كذلك، كقوله: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهَوْا يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥] أى: لم يكن ذلك. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ أى: ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد، بأنهم كانوا على أمة، والمراد بها الدين ها هنا، وفى قوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وقولهم: ﴿وَأَنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ أى: وراءهم ﴿مُهْتَدُونَ﴾ دعوى منهم بلا دليل.

ثم بين تعالى أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسول، تشابهت قلوبهم، فقالوا مثل مقاتلهم: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْتَنِبٌ. أَتَوَصَّوْا بِهِ بِلِ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]، وهكذا قال ها هنا: ﴿وَكَذَلِكَ

مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٣٥﴾ . ثم قال تعالى : ﴿قُلْ﴾ أَيْ : يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلاءِ الْمَشْرِكِينَ : ﴿أَوْ لَوْ جِئْتُمْكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ؟ أَيْ : وَلَوْ عَلِمُوا وَتَيَقَّنُوا صِحَّةَ مَا جِئْتُمْ بِهِ ، لَمَا انْقَادُوا لِذَلِكَ بِسُوءِ قَصْدِهِمْ وَمَكَابِرَتِهِمْ لِلْحَقِّ وَأَهْلِهِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أَيْ : مِنَ الْأُمَّةِ الْمَكْذُوبَةِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ ، كَمَا فَضَّلَهُ تَعَالَى فِي قِصَصِهِمْ ، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ أَيْ : كَيْفَ بَادُوا وَهَلَكُوا ، وَكَيْفَ نَجَّى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ ؟

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأبيه وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٣٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٣٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ ﴿٣٨﴾ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٤٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٤١﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٤٢﴾ أَهَرَأَيْسَمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ إِذْ نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَسْخَدَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سُخْرِيًّا وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٤٤﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتْكَلَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليته إمام الخلفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها: أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان، فقال: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي . وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ أَيْ : هَذِهِ الْكَلِمَةُ ، وَهِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَخَلَعَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ ، وَهِيَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ، أَيْ : جَعَلَهَا دَائِمَةً فِي ذَرِيَّتِهِ يَقْتَدِي بِهَا فِيهَا مِنْ هِدَاةِ اللَّهِ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أَيْ : إِلَيْهَا . وَقَالَ عِكْرَمَةُ ، وَمُجَاهِدٌ ، وَقَتَادَةُ ، وَغَيْرُهُمْ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ﴾ يَعْنِي : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، لَا يَزَالُ فِي ذَرِيَّتِهِ مَنْ يَقُولُهَا . وَرَوَى نَحْوَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : كَلِمَةُ الْإِسْلَامِ . وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى مَا قَالَهُ الْجَمَاعَةُ .

ثم قال تعالى : ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ﴾ يَعْنِي : الْمَشْرِكِينَ ، ﴿وَآبَاءَهُمْ﴾ أَيْ : فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ فِي ضَلَالَتِهِمْ ، ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أَيْ : بَيْنَ الرِّسَالَةِ وَالنَّذَارَةِ . ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ أَيْ : كَابُرُوهُ وَعَانَدُوهُ وَدَفَعُوا بِالْصُّدُورِ وَالرُّوْحِ كَفْرًا وَحَسَدًا وَبَغْيًا ، ﴿وَقَالُوا﴾ أَيْ : الْمَالِعِطْرِضِينَ عَلَى الَّذِي أَنْزَلَهُ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ : ﴿لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أَيْ : هَلَا كَانَ أَنْزَالَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ عَظِيمٍ كَبِيرٍ فِي أَعْيُنِهِمْ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ؟ يَعْنُونَ مَكَّةَ

والطائف . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب القرظي ، وقتادة ، وقد ذكر غير واحد ، منهم قتادة : أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفي . وقال زيد بن أسلم ، والضحاك ، والسدي : يعنون الوليد بن المغيرة ، ومسعود بن عمرو الثقفي . وعن مجاهد : عمير ابن عمرو بن مسعود الثقفي . وعنه أيضا : أنهم يعنون الوليد بن المغيرة ، وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي . وعن مجاهد : يعنون عتبة بن ربيعة بمكة ، وابن عبد ياليل بالطائف . وقال السدي : عنوا الوليد بن المغيرة ، وكنانة بن عبد عمرو بن عمير الثقفي . والظاهر : أن مرادهم رجل كبير من أى البلدين كان . قال الله تعالى رادا عليهم فى هذا الاعتراض : ﴿أَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ ؟ أى : ليس الأمر مردودا إليهم ، بل إلى الله ، عز وجل ، والله أعلم حيث يجعل رسالاته ، فإنه لا يترلها إلا على أزكى الخلق قلبا ونفسا ، وأشرفهم بيتا ، وأطهرهم أصلا .

ثم قال تعالى مبينا أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم ، وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة ، فقال : ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ . وقوله : ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ قيل : معناه : ليسخر بعضهم بعضا فى الأعمال ، لاحتياج هذا إلى هذا ، وهذا إلى هذا ، قاله السدي وغيره . وقال قتادة ، والضحاك : ليملك بعضهم بعضا . وهو راجع إلى الأول . ثم قال : ﴿وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرًا مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أى : رحمة الله بخلقه خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا .

ثم قال تعالى : ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى : لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه ، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال هذا معنى قول ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدي ، وغيرهم ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرْ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سَقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أى : سلالم ودرجا من فضة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أى : يصعدون ، ﴿وَلِيُوتِيَهُمْ أَبْوَابًا﴾ أى : أغلاقا على أبوابهم ﴿وَسُرُورًا عَلَيْهَا يَتَكُونَ﴾ أى : جميع ذلك يكون فضة ، ﴿وَزُخْرَفًا﴾ أى : وذهبا قاله ابن عباس ، وقتادة ، والسدي ، وابن زيد . ثم قال تعالى : ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى : إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تعالى ، أى : يعجل لهم بحسناتهم التى يعملونها فى الدنيا مآكل ومشارب ، ليوفوا الآخرة وليس لهم عند الله حسنة يجزيهم بها ، كما ورد به الحديث الصحيح (١) . ثم قال سبحانه : ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أى : هى لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد غيرهم . وفى الصحيحين وغيرهما : أن رسول الله ﷺ قال : «لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ، ولا تأكلوا فى صحافها ، فإنها لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة» (٢) . وإنما خولهم الله تعالى فى الدنيا لحقارتها ، كما روى الترمذى وابن ماجه عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ، ما سقى كافرا شربة ماء أبدا» ، قال الترمذى : حسن صحيح (٣) .

(٢) البخارى (٥٦٣٣) ، ومسلم (٤/٢٠٦٧) .

(١) مسلم (٥٦/٢٨٠٨) .

(٣) الترمذى (٢٣٢٠) وقال : «صحيح غريب من هذا الوجه» وابن ماجه (٤١١٠) .

﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسَى الْقَرِينَ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّمَا نَذَهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْتَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُمْ لَذَكَرُكَ لَكَ وَقَلُومِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسَأَلْنَا مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴿﴾

يقول تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعِشْ ﴾ أى: يتعامى ويتغافل ويعرض، ﴿ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ والعشا فى العين: ضعف بصرها. والمراد هاهنا: عشا البصيرة، ﴿ نَقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ كقوله: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥] ، وكقوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥] ، وكقوله: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٥] ؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ . حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا ﴾ أى: هذا الذى تغافل عن الهدى نقيض له من الشياطين من يضلّه، ويهديه إلى صراط الجحيم. فإذا وافى الله يوم القيامة يتبرم بالشيطان الذى وكل به، ﴿ قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسَى الْقَرِينَ ﴾ أى: فبئس القرين كنت لى فى الدنيا. وقرأ بعضهم: «حتى إذا جاءنا» يعنى: القرين والمقارن. والمراد بالمشرقين هنا هو ما بين المشرق والمغرب. وإنما استعمل هاهنا تغليباً، كما يقال: القمزان، والعمران، والأبوان، . قاله ابن جرير وغيره.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ أى: لا يعنى عنكم اجتماعكم فى النار واشتراككم فى العذاب الأليم. وقوله: ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى: ليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ، وليس عليك هداهم، ولكن الله يهذى من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحكم العدل فى ذلك. ثم قال: ﴿ فَإِنَّمَا نَذَهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴾ أى: لا بد أن ننتقم منهم ونعاقبهم، ولو ذهب أنت، ﴿ أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَا لَهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴾ أى: نحن قادرون على هذا وعلى هذا. ولم يقبض الله رسوله حتى أقر عينه من أعدائه، وحكمه فى نواصيهم، وملكه ما تضمنته صياصيمهم. هذا معنى قول السدى، واختاره ابن جرير. وفى الحديث: « النجوم أمانة للسماء ، فإذا ذهب النجوم أتى السماء ما تُوعَدُ ، وأنا أمانة لأصحابي ، فإذا ذهب أتى أصحابي ما يوعدون » (١).

ثم قال تعالى : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أى : خذ بالقرآن المنزل على قلبك ، فإنه هو الحق ، وما يهدى إليه هو الحق المفضى إلى صراط الله المستقيم ، الموصل إلى جنات النعيم ، والخير الدائم المقيم .

ثم قال جل جلاله : ﴿ وَإِنَّهُ لَدِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ قيل : معناه : لشرف لك ولقومك ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدى ، وابن زيد . واختاره ابن جرير ، ولم يحك سواه . و عن معاوية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن هذا الأمر فى قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا أكبه الله على وجهه ما أقاموا الدين » . رواه البخارى (١) . وقيل : معناه : أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم ، فهم أفهم الناس له ، فينبغى أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه ، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخُلص من المهاجرين السابقين الأولين ، ومن شابههم وتابعهم . وقيل : معناه : ﴿ وَإِنَّهُ لَدِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ أى : لتذكير لك ولقومك ، وتخصيصهم بالذكر لا ينفى من سواهم ، كقوله : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الانبيا : ١٠] ، وكقوله : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] .

﴿ وَسَوْفَ تَسْأَلُونَ ﴾ أى : عن هذا القرآن وكيف كنتم فى العمل به والاستجابة له . وقوله : ﴿ وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مَنْ رُسُلُنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ أى : جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد ، كقوله : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بَيِّنَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا تَأْتِيهِ السَّاحِرُ أَدْعَىٰ لَنَا رَبَّنَا بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله موسى ، عليه السلام ، أنه ابتعثه إلى فرعون وملته من الأمراء والوزراء والقادة ، والأتباع والرعايا ، من القبط وبنى إسرائيل ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهاهم عن عبادة ما سواه ، وأنه بعث معه آيات عظاما ، كيده وعصاه ، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات ، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها ، وكذبوها وسخروا منها ، وضحكوا من جاءهم بها . ﴿ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ ، ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم ، وجهلهم وخبالهم . وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى ، عليه السلام ، ويتلطفون له فى العبارة بقولهم : ﴿ يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ﴾ أى : العالم ، قاله ابن جرير . وكان علماء زمانهم هم

السحرة . ولم يكن السحر عندهم في زمانهم مذموماً ، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم ؛ لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك ، وإنما هو تعظيم في زعمهم ، ففى كل مرة يَعدُّون موسى ، عليه السلام ، إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا ويرسلوا معه بنى إسرائيل . وفى كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ . وَلَمَّا رَفِعْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ . فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُورِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ [الاعراف : ١٣٣ - ١٣٥] .

﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جِلَّةٍ مَّعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِبِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انقَمْنَا مِنْهُم فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده: أنه جمع قومه، فنادى فيهم متبجحاً مفتخراً بملك مصر وتصرفه فيها: ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ قال قتادة: قد كانت لهم جنان وأنهار ماء، ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ؟ أى: أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، يعنى: وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء . وهذا كقوله تعالى: ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى . فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ [النازعات: ٢٣ - ٢٥] .

وقوله: ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴾ يعنى فرعون - عليه اللعنة - أنه خير من موسى ، عليه السلام ، وقد كذب فى قوله هذا كذباً بيناً واضحاً، فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة . ويعنى بقوله: ﴿ مَهِينٌ ﴾ كما قال سفيان: حقير . وقال قتادة، والسدى: يعنى: ضعيف . وقال ابن جرير: يعنى: لا ملك له ولا سلطان ولا مال . ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ يعنى: لا يكاد يفصح عن كلامه، فهو عيبى حصر . قال السدى: أى: لا يكاد يفهم . وقال قتادة، والسدى، وابن جرير: يعنى عيبى اللسان . وقال سفيان: يعنى فى لسانه شىء من الجمره حين وضعها فى فيه وهو صغير . وهذا الذى قاله فرعون - لعنه الله - كذب واختلاق ، وإنما حملة على هذا الكفر والعناد ، وهو ينظر إلى موسى ، عليه السلام ، بعين كافرة شقية ، وقد كان موسى ، عليه السلام ، من الجلالة والعظمة والبهاء فى صورة يبهى أبصار ذوى الألباب .

وقوله: ﴿ مَهِينٌ ﴾ كذب ، بل هو المهين الحقيق خَلْقَةً وخلقاً وديناً . وموسى عليه السلام هو الشريف الرئيس الصادق البار الراشد . وقوله: ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ افتراء أيضاً، فإنه وإن كان قد أصاب لسانه فى حال صغره شىء من جهة تلك الجمره، فقد سأل الله، عز وجل، أن يحل عقدة

من لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله له فى قوله: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه: ٢٦]،
وبتقدير أن يكون قد بقى شيء لم يسأل إزالته، كما قاله الحسن البصرى، وإنما سأل زوال ما
يحصل معه الإبلاغ والإفهام، فالأشياء الخلقية التى ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم
عليها، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل فهو يدرى هذا، وإنما أراد الترويج على رعيته، فإنهم
كانوا جهلة أغبياء، وهكذا قوله: ﴿ فَلَوْلَا أَلْقِيَا عَلَيْهِ آسَاورَةٌ ۙ ﴾ (١) من ذهب ﴿ أى: وهى ما يجعل فى
الأيدي من الخلى، قاله ابن عباس وقتادة وغير واحد ﴾ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴿ أى: يكتفونه
خدمة له ويشهدون بتصديقه، نظر إلى الشكل الظاهر، ولم يفهم السر المعنوى الذى هو أظهر مما
نظر إليه، لو كان يعلم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾ أى: استخف عقولهم،
فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ .

قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُم فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، قال ابن عباس: ﴿ آسَفُونَا ﴾ :
أسخطونا. وقال الضحاك عنه: أغضبونا. وهكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر،
وغيرهم. عن عقبه بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيت الله عز وجل يعطى العبد ما
شاء، وهو مقيم على معاصيه، وإنما ذلك استدراج منه له»، ثم تلا: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمُ
فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٢) . وقال عمر بن عبد العزيز: وجدت النعمة مع الغفلة، يعنى قوله: ﴿ فَلَمَّا
آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمُ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ . وقوله: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ قال أبو مجلز: ﴿ سَلَفًا ﴾
لمثل من عمل بعملهم. وقال هو ومجاهد: ﴿ وَمَثَلًا ﴾ أى: عبرة لمن بعدهم.

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۙ ﴾ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا
ءَأَلهْتُنَا خَيْرًا أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِن هُوَ إِلاَّ
عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَكُوْنَشَاءُ لِّجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي
الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّكُمْ لَعَلَّمْتُمُ السَّاعَةَ فَلَا تَمْتَرُونَ بِهَا وَأَتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ
مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُرٌّ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى
بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ
الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾
يقول تعالى مخبراً عن تعنت قريش فى كفرهم وتعمدهم العناد والجدل: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ

(١) «أسورة»: قراءة السبعة سوى حفص، وهى أيضاً قراءة الحافظ ابن كثير.

(٢) المسند (١٤٥/٤) غير أن الآية عنده: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [الانعام: ٤٤] . وصححه الالبانى فى صحيح

الجامع الصغير (٥٦١) وفى السلسلة الصحيحة (٤١٣) وقال: «هو عندى صحيح» .

مَرِيْمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿١٠٠﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، يضحكون، أى: أعجبوا بذلك. وقال قتادة: يجزعون ويضحكون. وقال إبراهيم النخعي: يعرضون.

وكان السبب فى ذلك ما ذكره ابن إسحاق فى السيرة حيث قال: وجلس رسول الله ﷺ - فيما بلغنى - يوما مع الوليد بن المغيرة فى المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفى المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ، فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ الآيات [الانبيا: ٩٨]. ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبد الله بن الزبيرى السهمى، حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبيرى: أما والله لو وجدته لخصمته، سلوا محمدا: أكل ما يعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده، فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيزا، والنصارى تعبد المسيح عيسى ابن مريم؟ فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قول عبد الله بن الزبيرى، ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «كل من أحب أن يعبد من دون الله، فهو مع من عبده، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته»، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الانبيا: ١٠١] أى: عيسى وعزيز ومن عبد معهما من الأحرار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، عز وجل، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله. ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ الآيات [الانبيا: ٢٦]، ونزل فيما يذكر من أمر عيسى وأنه يعبد من دون الله. وعجب الوليد ومن حضره من حجته وخصومته: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أى: يصدون عن أمرك بذلك من قوله. ثم ذكر عيسى فقال: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ. وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ. وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أى: ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام، فكفى به دليلا على علم الساعة، يقول: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (١).

وروى الإمام أحمد عن أبى يحيى - مولى ابن عقيل الأنصارى - قال: قال ابن عباس: لقد علمت آية من القرآن ما سألتنى عنها رجل قط، فما أدرى أعلمها الناس فلم يسألوا عنها، أم لم يفظنوا لها فيسألوا عنها. قال: ثم طفق يحدثنا، فلما قام تلاومنا ألا نكون سألناه عنها. فقلت: أنا لها إذا راح غدا. فلما راح الغد قلت: يا ابن عباس، ذكرت أمس أن آية من القرآن لم يسالك عنها رجل قط، فلا تدري أعلمها الناس فلم يسألوا عنها أم لم يفظنوا لها؟ فقلت: أخبرنى عنها وعن اللاتى قرأت قبلها. قال: نعم، إن رسول الله ﷺ قال لقريش: «يا معشر قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير»، وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى ابن مريم، وما تقول

فى محمد، فقالوا: يا محمد، ألسـت تزعم أن عيسى كان نبيا وعيدا من عباد الله صالحا، فإن كنت صادقا كان آلهتهم كما تقولون ؟ قال: فأنزل الله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ﴾ . قلت: ما يصدون ؟ قال: يضحكون، ﴿وَإِنَّهُ لَعَلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ قال: هو خروج عيسى ابن مريم قبل القيامة (١) . وقال مجاهد فى قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ﴾: قالت قريش: إنما يريد محمد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عيسى . ونحو هذا قال قتادة .

وقوله: ﴿وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ قال قتادة : يقولون: آلهتنا خير منه . يعنون محمدا ﷺ .
وقوله : ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلًا﴾ أى: مراء، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية؛ لأنها لما لا يعقل، وهى قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الانباء: ٩٨] . ثم هى خطاب لقريش، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه، فتعين أن مقالتهم إنما كانت جدلا منهم، ليسوا يعتقدون صحتها . وقد روى الإمام أحمد عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أوتوا الجدل » ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ . وقد رواه الترمذى، وابن ماجه، وابن جرير . ثم قال الترمذى: حسن صحيح (٢) .

وقوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلاَّ عِبْدٌ أُنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ يعنى: عيسى، عليه السلام، ما هو إلا عبد أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة، ﴿وجعلناه مثلا لبني إسرائيل﴾ أى: دلالة وحجة وبرهاننا على قدرتنا على ما نشاء . وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ أى : بدلكم ﴿ملائكة في الأرض يخلفون﴾ قال السدى: يخلفونكم فيها . وقال ابن عباس، وقاتدة: يخلف بعضهم بعضا، كما يخلف بعضهم بعضا . وهذا القول يستلزم الأول . وقال مجاهد: يعمرن الأرض بدلكم .

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ الضمير فى ﴿وَإِنَّهُ﴾ على الصحيح أنه عائد على عيسى عليه السلام، فإن السياق فى ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أى : قبل موت ، عيسى ، عليه الصلاة والسلام ، ثم ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩]، ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى: « وإِنَّهُ لَعَلْمٌ للِسَّاعَةِ» أى: أمارة ودليل على وقوع الساعة، قال مجاهد: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ أى: آية للساعة خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة . وهكذا روى عن أبى هريرة ، وابن عباس ، والحسن ، وقاتدة، وغيرهم . وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ، أنه أخبر بنزول عيسى ، عليه السلام، قبل يوم القيامة إماما عادلا ، وحكما مقسطا .

وقوله : ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بَهَا﴾ أى: لا تشكوا فيها، إنها واقعة وكائنة لا محالة، ﴿وَأَتَّبِعُونَ﴾ أى: فيما أخبركم به ﴿ هذا صراط مستقيم . ولا يصدنكم الشيطان﴾ أى: عن اتباع الحق ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ

(١) المسند (٢٩٢١) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) المسند (٢٥٦/٥) والترمذى (٣٢٥٣) وابن ماجه (٤٨) وابن جرير فى التفسير (٥٣ / ٢٥) .

عَدُوٌّ مُّبِينٌ . وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ ﴿٦٦﴾ أى : بالنبوة ﴿وَلَأَبِينٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قال ابن جرير: يعنى من الامور الدينية لا الدنيوية . وهذا الذى قاله حسن جيد، ثم رد قول من زعم أن «بعض» هاهنا بمعنى «كل» . وقوله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى : فيما أمركم به ، ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما جئتكم به ، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أى : أنا وأنتم عبيد له ، فقرأء إليه ، مشتركون فى عبادته وحده لا شريك له ، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أى : هذا الذى جئتكم به هو الصراط المستقيم ، وهو عبادة الرب ، عز وجل ، وحده . وقوله ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أى : اختلفت الفرق وصاروا شيعا فيه ، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله - وهو الحق - ومنهم من يدعى أنه ولد الله ، ومنهم من يقول : إنه الله - تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا - ولهذا قال : ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ .

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾
 الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَلْعَابِدِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ
 الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا
 الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا
 مَا شَتَّهِهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي
 أَوْفَتْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

يقول تعالى : هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسول ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ؟ أى : فإنها كائنة لا محالة وواقعة ، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين ، فإذا جاءت إنما تحيء وهم لا يشعرون بها ، فحينئذ يندمون كل الندم ، حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم . وقوله ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ أى : كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله ، عز وجل ، فإنه دائم بدوامه . وهذا كما قال إبراهيم ، عليه السلام ، لقومه : ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَأَكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥] . وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين .

وقوله ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ثم بشرهم فقال : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أى : آمنت قلوبهم وبواطنهم ، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم . قال المعتمر بن سليمان ، عن أبيه : إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع ، فينادى مناد : ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ فيرجوها الناس كلهم ، قال : فيتبعها : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ قال : فيياس الناس منها غير المؤمنين ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ أى : يقال لهم : ادخلوا الجنة ﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ أى : نظراؤكم ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أى تنعمون وتسعدون .

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ ﴾ أى : زيادى آية الطعام، ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ وهى : آية الشراب، أى : من ذهب لا خراطيم لها ولا عرى ، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْبَهُهُ الْأَنْفُسُ﴾ - وقرا بعضهم : «تشبهه الأنفس» - ﴿وَتَلَدُّ الْأَعْيُنُ﴾ أى : طيب الطعم والريح وحسن المنظر. ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا﴾ أى : فى الجنة ﴿خَالِدُونَ﴾ أى : لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولا. ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان : ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى : أعمالكم الصالحة كانت سببا لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يدخل أحدا عمله الجنة، ولكن بفضل من الله ورحمته. وإنما الدرجات تفاوتها بحسب عمل الصالحات. وقوله : ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أى : من جميع الانواع ، ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أى : مهما اخترتم وأردتم. ولما ذكر الله تعالى الطعام والشراب، ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة.

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ ﴾ ﴿٧٤﴾ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسُونَ ﴿٧٥﴾
 وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَا مَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُومُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أُبْرِمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلْ أُرْسِلْنَا لَدَيْهِمْ بِكُتُوبٍ ﴿٨٠﴾

لما ذكر تعالى حال السعداء، نبي بذكر الأشقياء، فقال : ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّهِينٍ خَالِدُونَ﴾. لا يُفْتَرُ عَنْهُمْ﴾ أى : ساعة واحدة ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْسُونَ﴾ أى : آيسون من كل خير، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ أى : بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجج عليهم وإرسال الرسل إليهم، فكذبوا وعصوا، فجوزوا بذلك جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد. ﴿وَنَادَوْا يَا مَلِكُ﴾ وهو : خازن النار. روى البخارى عن صفوان بن يعلى، عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر : ﴿وَنَادَوْا يَا مَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ (١) أى : ليقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى : ﴿لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]. وقال : ﴿وَيَجْنِبُهَا الْأَشْقَى . الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [الاعلى : ١١ - ١٣]، فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك، ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُومُونَ﴾ قال ابن عباس : مكث ألف سنة، ثم قال : إنكم ماكنون. أى : لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها.

ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال : ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ﴾ أى : بيناه لكم ووضحناه وفسرناه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ أى : ولكن كانت سجايكم لا تقبله ولا تقبل عليه، وإنما تنقاد للباطل وتمظمه، وتصد عن الحق وتأباه، وتبغض أهله، فعودوا على أنفسكم بالملامة، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة. ثم قال تعالى : ﴿أَمْ أُبْرِمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ قال مجاهد : أرادوا كيد شر فكدناهم. وهذا الذى قاله مجاهد كما قال تعالى : ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرْنَا

مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ [النمل: ٥٠]، وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون في رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه، فكادهم الله، ورد وبال ذلك عليهم؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أى: سرهم وعلانيتهم، ﴿بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أى: نحن نعلم ما هم عليه، والملائكة أيضا يكتبون أعمالهم، صغيرها وكبيرها.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرَهُمْ يَخُضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَمَلِكْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴿٨٩﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: لو فرض هذا لعبده على ذلك؛ لانى عبد من عبيده، مطيع لجميع ما يأمرنى به، ليس عندى استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فرض كان هذا، ولكن هذا ممتنع فى حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضا، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]. وقال بعض المفسرين فى قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: الأنفين. ومنهم سفيان الثورى، والبخارى حكاه فقال: ويقال: ﴿أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾: الجاحدين، من عبد يعبد. وقال قتادة: هى كلمة من كلام العرب: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: إن ذلك لم يكن فلا ينبغى. وقال مجاهد: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: أول من عبده ووحده وكذبكم. وقال البخارى: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾: الأنفين. وهما لغتان، رجل عابد وعبد. والأول أقرب على أنه شرط وجزاء، ولكن هو ممتنع.

ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أى: تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد، فإنه فرد أحد صمد، لا نظير له ولا كفاء له، فلا ولد له. وقوله: ﴿فَذَرَهُمْ يَخُضُوا﴾ أى: فى جهلهم وضلالهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ فى دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة، أى: فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم، ومآلهم، وحالهم فى ذلك اليوم.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ أى: هو إله من فى السماء، وإله من فى الأرض، يعبده أهلها، وكلهم خاضعون له، أدلاء بين يديه ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾. وهذه الآية

كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرِّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٣] أى: هو المدعو الله فى السموات والأرض. ﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أى: هو خالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما، بلا مدافعة ولا ممانعة، فسبحانه وتعالى عن الولد، وتبارك: أى استقر له السلامة من العيوب والنقائص؛ لأنه الرب العلى العظيم، المالك للأشياء، الذى بيده أزمة الأمور نقضا وإبراما، ﴿ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أى: لا يجليها لوقتها إلا هو، ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى: فيجازى كلا بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى: من الأصنام والأوثان ﴿ الشَّفَاعَةَ ﴾ أى: لا يقدرون على الشفاعة لهم، ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أى: لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له.

ثم قال: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أى: ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ أى: هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها، وحده لا شريك له فى ذلك، ومع هذا يعبدون معه غيره، ممن لا يملك شيئا ولا يقدر على شئ، فهم فى ذلك فى غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل؛ ولهذا قال: ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾.

وقوله: ﴿ وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى: وقال محمد: قيله، أى: شكوا إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه، فقال: يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، كما أخبر تعالى فى الآية الأخرى: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠] وهذا الذى قلناه هو قول ابن مسعود، ومجاهد، وقاتدة، وعليه فسر ابن جرير. قال البخارى: وقرأ عبد الله - يعنى ابن مسعود -: « وقال الرسول يارب » (١). وقال مجاهد فى قوله: ﴿ وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، قال: فأبر الله قول محمد. وقال قتادة: هو قول نبيكم ﷺ، يشكو قومه إلى ربه عز وجل. وقوله: ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ أى: المشركين، ﴿ وَقُلْ سَلَامٌ ﴾ أى: لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلا وقولا، ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾، هذا تهديد منه تعالى لهم، ولهذا أحل بهم بأسه الذى لا يرد، وأعلى دينه وكلمته، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا، وانتشر الإسلام فى المشارق والمغارب.

تفسير سورة الدخان

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ١ ﴾ حَمِّ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿ ٢ ﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿ ٣ ﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿ ٤ ﴾ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿ ٥ ﴾ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ ٦ ﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿ ٧ ﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿ ٨ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم: أنه أنزله في ليلة مباركة، وهي ليلة القدر، كما قال عز وجل: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر : ١] وكان ذلك في شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، وقد ذكرنا الأحاديث الواردة في ذلك في «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته. ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان - كما روى عن عكرمة - فقد أبعدهم النجعة، فإن نص القرآن أنها في رمضان. وقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ أى: معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً، لتقوم حجة الله على عباده. وقوله: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ أى: في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتابة أمر السنة، وما يكون فيها من الأجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا روى عن ابن عمر، ومجاهد، وغير واحد من السلف. وقوله: ﴿ حَكِيمٍ ﴾ أى: محكم، لا يبدل ولا يغير؛ ولهذا قال: ﴿ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا ﴾ أى: جميع ما يكون ويقدره الله تعالى وما يوحيه بأمره وإذنه وعلمه، ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أى: إلى الناس رسولا يتلو عليهم آيات الله مبينات، فإن الحاجة كانت ماسة إليه؛ ولهذا قال: ﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أى: الذى أنزل هذا القرآن هو رب السموات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما، ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ أى: إن كنتم متحققين. ثم قال: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ ﴾ ، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ الآية [الاعراف: ١٥٨].

﴿ ٩ ﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿ ١٠ ﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُبِينٍ ﴿ ١١ ﴾ يَغشى النَّاسُ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿ ١٢ ﴾ رَبَّنَا أَكْرِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿ ١٣ ﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿ ١٤ ﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ لِمَنْ يَخُونُ ﴿ ١٥ ﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿ ١٦ ﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴿ ١٧ ﴾

يقول تعالى: بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون، أي: قد جاءهم اليقين، وهم يشكون فيه ويمترون، ولا يصدقون به، ثم قال متوعدا لهم ومهدداً: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾. عن مسروق قال: دخلنا المسجد - يعني مسجد الكوفة - عند أبواب كندة، فإذا رجل يقص على أصحابه: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾، تدرّون ما ذلك الدخان؟ ذلك دخان يأتي يوم القيامة، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام. قال: فأتينا ابن مسعود فذكرنا ذلك له، وكان مضطجعاً ففزع فقعد، وقال: إن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: «الله أعلم»، سأحدثكم عن ذلك، إن قريشا لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله ﷺ، دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان - وفي رواية: فجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد - قال الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ. يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فأتى رسول الله ﷺ فقيل: يارسول الله، استسقى الله لمضر، فإنها قد هلكت. فاستسقى لهم فسقوا، فأنزل الله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ قال ابن مسعود: فيكشف العذاب عنهم يوم القيامة، فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل الله: ﴿يَوْمَ نَبْطِثُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾، قال: يعني يوم بدر. قال ابن مسعود: فقد مضى خمسة: الدخان، والروم، والقمر، والبطشة، واللزام.

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين. ورواه الإمام أحمد و الترمذى والنسائى و ابن جرير وابن أبى حاتم (١). وقد وافق ابن مسعود على تفسير الآية بهذا، وأن الدخان مضى، جماعة من السلف كمجاهد، وأبى العالية، وإبراهيم النخعى، والضحاك، وعطية العوفى، وهو اختيار ابن جرير.

وقال آخرون: لم يمض الدخان بعد، بل هو من أمارات الساعة، كما فى حديث أبى حذيفة بن أسيد الغفارى، قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس - أو: تحشر الناس - تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا». تفرد بإخراجه مسلم فى صحيحه (٢).

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لابن الصياد: «إني خبأت لك خبأً»، قال:

(١) المسند (٣٦١٣) والبخارى (٤٨٢٠) ومسلم (٣٩/٢٧٩٨) والترمذى (٣٢٥٤) وابن جرير فى التفسير (٦٦/٢٥).

(٢) مسلم (٣٩/٢٩٠١).

هو الدُّخ . فقال له : « اِخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُو قَدْرَكَ » . قال : وخبأ له رسول الله ﷺ : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) . وهذا فيه إشعار بأنه من المنتظر المرتقب ، وابن صياد كاشف على طريقة الكهان بلسان الجان ، وهم يُقرطمون العبارة ؛ ولهذا قال : « هو الدُّخ » ، يعنى : الدخان . فعندها عرف رسول الله ﷺ مادته وأنها شيطانية ، فقاله له : « اِخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُو قَدْرَكَ » . وعن عبد الله بن أبي مليكة قال : غدوت على ابن عباس ، ذات يوم فقال : ما نمت الليلة حتى أصبحت . قلت : لم ؟ قال : قالوا : طلع الكوكب ذو الذنب ، فخشيت أن يكون الدخان قد طرقت ، فما نمت حتى أصبحت . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن . وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين أجمعين ، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما ، التي أوردناها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة ، مع أنه ظاهر القرآن .

قال الله تعالى : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : بين واضح يراه كل أحد . وعلى ما فسره ابن مسعود : إنما هو خيال رآه فى أعينهم من شدة الجوع والجهد . وهكذا قوله : ﴿ يَفْشَى النَّاسَ ﴾ أى : يتغشاهم ويعمهم ، ولو كان أمرا خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه : ﴿ يَفْشَى النَّاسَ ﴾ . وقوله : ﴿ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً ، كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [الطور: ١٣ ، ١٤] ، أو يقول بعضهم لبعض ذلك .

وقوله : ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ أى : يقول الكافرون إذا عابوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم ، كقوله : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ آيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الانعام: ٢٧] . وكذا قوله : ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبِ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٤] . وهكذا قال هاهنا : ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ يقول : كيف لهم بالتذكر ، وقد أرسلنا إليهم رسولا بين الرسالة والندارة ، ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه ، بل كذبوه وقالوا : معلم مجنون . وهذا كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ . يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ [الفجر: ٢٣ ، ٢٤] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فِرَعُوعُ فَلَاقَتْ وَأَخَذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ . وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ . وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ . وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلِ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾ [سبا: ٥١ - ٥٤] .

وقوله : ﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ يحتمل معنيين :

أحدهما : أنه يقول تعالى : ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا ، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب ، كقوله : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُؤُا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٥] ، وكقوله : ﴿ وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الانعام: ٢٨] .

والثاني: أن يكون المراد: إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلا بعد انعقاد سببه ووصوله إليكم، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]، ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم، بل كان قد انعقد سببه عليهم، ولا يلزم أيضاً أن يكونوا قد أفلحوا عن كفرهم ثم عادوا إليه، قال الله تعالى إخباراً عن شعيب أنه قال لقومه حين قالوا: ﴿لنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَو كُنَّا كَارِهِينَ. قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ [الاعراف: ٨٨، ٨٩]، وشعيب عليه السلام لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم. وقال قتادة: ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾: إلى عذاب الله.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾: فسر ذلك ابن مسعود بيوم بدر. وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود على تفسيره الدخان بما تقدم، وروى أيضاً عن ابن عباس من رواية العوفي عنه وعن أبي بن كعب وجماعة، وهو محتمل. والظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً. وروى ابن جرير عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى: يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة (١). وهذا إسناد صحيح عنه، وبه يقول الحسن البصري، وعكرمة في أصح الروايتين، عنه.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ إِيكُمُ عَبَادَ اللَّهِ ﴿١٨﴾ إِي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٩﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴿٢٠﴾ إِي فِي آتِيكُمْ سُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ وَإِنِّي عٰذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزُّ لِي ﴿٢٣﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَبْ لِي قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٤﴾ فَأَسْرِبِعَادِي لِيَلَا إِيكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٢٥﴾ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًا وَإِيَّهُمْ جُنْدٌ مُّعْرَفُونَ ﴿٢٦﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّتٍ وَعَيْبُونِ ﴿٢٧﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٨﴾ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكٰهِنِينَ ﴿٢٩﴾ كَذٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا لِيٰسْرَةَ يَلٍ مِنَ الْعَذَابِ أَلْمِهِينَ ﴿٣٢﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلِيَّيْنَ ﴿٣٤﴾ وَعَآئِنَهُمْ مِنَ الْآيٰتِ مَا فِيهِ بَلٰكٌ مُّبِينٌ ﴿٣٥﴾﴾

يقول تعالى: ولقد اخترنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون، وهم قبط مصر ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: موسى كلمه، عليه السلام ﴿أَنْ أَذُوا إِلَىٰ إِيكُمُ عَبَادَ اللَّهِ﴾، كقوله: ﴿فَأَرْسِلْ (٢) مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ آتِيهِ الْهُدَىٰ﴾ [طه: ٤٧]. وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: مأمون على ما أبلغكموه. وقوله: ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا تستكبروا على اتباع

آياته، والانتقياذ لحججه والإيمان ببراهينه، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. ﴿إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى: بحجة ظاهرة واضحة، وهى ما أرسله الله به من الآيات البيّنات والأدلة القاطعة .

﴿وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ قال ابن عباس: هو الرجم باللسان وهو الشتم. وقال قتادة: الرجم بالحجارة . أى: أعوذ بالله الذى خلقنى وخلقكم من أن تصلوا إلىّ بسوء من قول أو فعل. ﴿وَأَنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاَعْتَرِلُونِ﴾ أى: فلا تعرضوا لى، ودعوا الأمر بينى وبينكم مسألة إلى أن يقضى الله بيننا. فلما طال مقامه بين أظهرهم، وأقام حجج الله عليهم، كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفرأ وعناداً، دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوَا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . قَالَ قَدْ أُجِيبْتُ دَعْوَتِكُمَْا فَاَسْتَقِيمَا﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]. وهكذا قال هاهنا: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَ لَآ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾، فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج بنى إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه ؛ ولهذا قال: ﴿فَأَسْرِبِعَادِي لِيَلَا إِنْكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾، كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧].

وقوله هاهنا: ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ وذلك أن موسى، عليه السلام، لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان، ليصير حائلاً بينهم وبين فرعون، فلا يصل إليهم. فأمره الله أن يتركه على حاله ساكناً، وبشره بأنهم جند مغرقون فيه، وأنه لا يخاف دركاً ولا يخشى. قال ابن عباس: ﴿وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ كهيئته وامضه. وقال مجاهد ﴿رَهْوًا﴾: طريقاً يبساً كهيئته، يقول: لا تأمره يرجع، اتركه حتى يرجع آخرهم. وكذا قال عكرمة، وقتادة، وغير واحد .

ثم قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ﴾ وهى البساتين ﴿وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ﴾ والمراد بها الأنهار والآبار، ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ وهى المساكن الكريمة الأنيقة والأماكن الحسنة . وقال مجاهد ، وسعيد بن جبير : ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾: المنابر. وقال عبد الله بن عمرو فى قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ﴾ ، قال: كانت الجنان بحافى هذا النيل من أوله إلى آخره فى الشقين جميعاً، ما بين أسوان إلى رشيد، وكان له تسعة خلج: خليج الإسكندرية، وخليج دمياط، وخليج سردوس، وخليج منف، وخليج الفيوم، وخليج المنهى، متصلة لا ينقطع منها شىء عن شىء، وزروع ما بين الجبلين كله من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء، وكانت جميع أرض مصر تروى من ستة عشر ذراعاً، لما قدروا ودبروا من قناطرها وجسورها وخلجها . ﴿وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ﴾ أى: عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاؤوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم فى البلاد، فسلبوا ذلك جميعه فى صبيحة واحدة، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير، واستولى على البلاد المصرية وتلك الحواصل الفرعونية

والممالك القبطية بنو إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] في الآية الأخرى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الاعراف: ١٣٧]. وقال هاهنا: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ وهم بنو إسرائيل، كما تقدم.

وقوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أى: لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد فى أبواب السماء فتبكي على فقدهم، ولا لهم فى الأرض بقاع عبدوا الله فيها فقدتهم؛ فهذا استحقوا ألا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم، وعتوهم وعنادهم. وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾: يمتن عليهم تعالى بذلك، حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم، وتسخيره إياهم فى الأعمال المهينة الشاقة.

وقوله: ﴿مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا﴾ أى: مستكبراً جباراً عنيداً، كقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤٤]، وقوله: ﴿مِن الْمُسْرِفِينَ﴾ أى: مسرف فى أمره، سخييف الرأى على نفسه. وقوله: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ - قال مجاهد: ﴿اخْتَرْنَاَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: على من هم بين ظهريه. وقال قتادة: اختيروا على أهل زمانهم ذلك. وكان يقال: إن لكل زمان عالماً. وهذه كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الاعراف: ١٤٤] أى: أهل زمانه، وكقوله لمريم: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] أى: فى زمانها؛ فإن خديجة أفضل منها، وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، أو مساوية لها فى الفضل، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام. وقوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ﴾ أى: الحجج والبراهين وخوارق العادات ﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾ أى: اختبار ظاهر جلى لمن اهتدى به.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٢٤﴾

﴿فَأْتُوا بِآيَاتِنَا﴾ ﴿٢٦﴾ فَأْتُوا بِآيَاتِنَا ﴿٢٦﴾ فَأْتُوا بِآيَاتِنَا ﴿٢٦﴾ فَأْتُوا بِآيَاتِنَا ﴿٢٦﴾

﴿مُجْرِمِينَ﴾ ﴿٢٧﴾﴾ مُجْرِمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ مُجْرِمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ مُجْرِمِينَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول تعالى منكرًا على المشركين فى إنكارهم البعث والمعاد، وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور. ويحتجون بآياتهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا، فإن كان البعث حقاً ﴿فَأْتُوا بِآيَاتِنَا﴾ إن كنتم صادقين ﴿٢٦﴾. وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا فى هذه الدار، بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها بعيد الله العالمين خلقاً جديداً، ويجعل الظالمين لئار جهنم وقوداً، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً.

ثم قال تعالى متهدداً لهم ، ومتوعداً ومنذراً لهم بأسه الذى لا يرد، كما حل بأشباهم ونظرائهم من المشركين والمنكرين للبعث وكقوم تبع - وهم سبأ - حيث أهلكهم الله وخرَّب

بلادهم، وشردهم في البلاد، وفرقهم شذر مذر ، كما تقدم ذلك في سورة سبأ ، وهى مُصَدَّرَةٌ بإنكار المشركين للمعاد . وكذلك هاهنا شبههم بأولئك ، وقد كانوا عرباً من قحطان كما أن هؤلاء عرب من عدنان ، وقد كانت حمير - وهم سبأ - كلما ملك فيهم رجل سموه تَبَعاً ، كما يقال : كسرى لمن ملك الفرس ، وقيصر لمن ملك الروم، وفرعون لمن ملك مصر كافراً، والنجاشى لمن ملك الحبشة ، وغير ذلك من أعلام الأجناس . ولكن اتفق أن بعض تبايعتهم خرج من اليمن وسار في البلاد حتى وصل إلى سمرقند، واشتد ملكه وعظم سلطانه وجيشه، واتسعت مملكته وبلاده ، وكثرت رعاياه وهو الذى مَصَّرَ الحيرة فاتفق أنه مرَّ بالمدينة النبوية وذلك فى أيام الجاهلية ، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقتلوه بالنهار ، وجعلوا يَقْرُونَهُ بالليل، فاستحيا منهم وكف عنهم، واستصحب معه حبرين من أحبار يهود كانا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه البلدة؛ فإنها مُهَاجِرٌ نَبِيٌّ يكون فى آخر الزمان، فرجع عنها وأخذها معه إلى بلاد اليمن ، فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة فنهاه عن ذلك أيضاً، وأخبراه بعظمة هذا البيت، وأنه من بنىة إبراهيم الخليل وأنه سيكون له شأن عظيم على يدى ذلك النبى المبعوث فى آخر الزمان، فعظمها وطاق بها، وكساها الملاء والوصائل والحِجْرَ . ثم كر راجعاً إلى اليمن ودعا أهلها إلى التهود معه، وكان إذ ذاك دين موسى، عليه السلام، فيه من يكون على الهداية قبل بعثة المسيح، عليه السلام، فتهود معه عامة أهل اليمن. وكأنه - والله أعلم - كان كافراً ثم أسلم، وتابح دين الخليل على يدى من كان من أحبار اليهود فى ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح، عليه السلام، وحج البيت فى زمن الجُرْهُمِيِّين، وكساه الملاء والوصائل من الحرير والحبر ونحر عنده ستة آلاف بدنة وعظمه وأكرمه. ثم عاد إلى اليمن.

وتَبِعَ هذا هو تَبِعَ الأوسط، واسمه أسعد أبو كُرَيْبِ بن مَلِكِيكَرْب اليمانى، ذكروا أنه ملك على قومه ثلاثمائة سنة وستا وعشرين سنة، ولم يكن فى حمير أطول مدة منه، وتوفى قبل مبعث رسول الله ﷺ بنحو من سبعمائة عام.

وذكر ابن أبى الدنيا أنه حُفِرَ قبر بصنعاء فى الإسلام، فوجدوا فيه امرأتين صحيحتين، وعند رؤوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب: « هذا قبر حبى وليس - وروى: حبى وقماضر - ابنتى تَبِعَ ، ماتتا وهما شهدان أن لا إله إلا الله ولا تشركان به شيئاً، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما. قال قتادة: ذكر لنا أن كعباً كان يقول فى تبع: نُعْتُ نُعْتُ الرجل الصالح، ذم الله تعالى قومه ولم يذمه ، قال : وكانت عائشة تقول: لا تسبوا تَبِعاً ؛ فإنه قد كان رجلاً صالحاً.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعِيبِ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عدله وتزيهه نفسه عن اللعب والعبث والباطل، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ﴾ وهو يوم القيامة، يفصل الله فيه بين الخلائق، فيعذب الكافرين ويشيب المؤمنين وقوله: ﴿مِيقَاتِهِمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى: يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا﴾ أى: لا ينفع قريب قريباً، كقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وكقوله: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يَنْصُرُونَهُمْ﴾ [المعارج: ١٠، ١١] أى: لا يسأل أحداً له عن حاله وهو يراه عياناً وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أى: لا ينصر القريب قريبه، ولا يأتيه نصره من خارج.

ثم قال: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ أى: لا ينفع يومئذ إلا من رحمه الله، عز وجل، خلّقه ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أى: هو عزيز ذو رحمة واسعة.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الرَّزْقِ ﴿٤٤﴾ طَعَامُ الْأَيْمِ ﴿٤٥﴾ كَالْمُهَلِّ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٦﴾ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴿٤٧﴾ خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٩﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٥٠﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عما يعذب به الكافرين الجاحدين للقاته: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الرَّزْقِ . طَعَامُ الْأَيْمِ﴾ والأئيم: أى فى قوله وفعله، وهو الكافر. وذكر غير واحد أنه أبو جهل، ولا شك فى دخوله فى هذه الآية، ولكن ليست خاصة به روى ابن جرير عن همام بن الحارث؛ أن أبا الدرداء كان يقرئ رجلاً: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الرَّزْقِ . طَعَامُ الْأَيْمِ﴾ ، فقال: طعام اليتيم. فقال أبو الدرداء قل: إن شجرة الزقوم طعام الفاجر. أى: ليس له طعام غيرها.

وقوله: ﴿كَالْمُهَلِّ﴾ قالوا: كعكر الزيت ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كَغَلِي الْحَمِيمِ﴾ أى: من حرارتها ورداءتها. وقوله: ﴿خَذُوهُ﴾ أى: الكافر، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية: ﴿خَذُوهُ﴾ ابتدره سبعون ألفاً منهم ﴿فَأَعْتَلُوهُ﴾ أى: سوقوه سحبا ودفعوا فى ظهره. قال مجاهد: ﴿خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ﴾ أى: خذوه فادفعوه. ﴿إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أى: وسطها، ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾، كقوله: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ . يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠]. وقد تقدم أن الملك يضربه بمقعدة من حديد، تفتح دماغه، ثم يصب الحميم على رأسه فينزل فى بدنه، فيسلت ما فى بطنه من أمعائه، حتى تترق من كعبيه - أعادنا الله تعالى من ذلك.

وقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أى: قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ. وقال

الضحاك، عن ابن عباس: أى لست بعزيز ولا كريم.

وقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ ، كقوله : ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ ﴾ [الطور: ١٣ - ١٥] ، ولهذا قال هاهنا : ﴿ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَرَوَّجْتُهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّهَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلَّامِينَ رَبَّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْتَهُ لِيَسَاءَلَكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَأَرْزَقْتِ إِيَّاهُمْ مَرْيَقِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر السعداء - ولهذا سُمِّي القرآن مثاني - فقال : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى : لله فى الدنيا ﴿ فى مقام أمين ﴾ أى : فى الآخرة وهو الجنة، قد آمنوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب، ومن الشيطان وكيد، وسائر الآفات والمصائب ﴿ فى جنات وعيون ﴾ . وهذا فى مقابلة ما أولئك فيه من شجرة الزقوم، وشرب الحميم .
وقوله تعالى : ﴿ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ ﴾ وهو: رفيع الحرير، كالقمصان ونحوها، ﴿ وإسْتَبْرَقٍ ﴾ وهو ما فيه بريق ولمعان وذلك كالرياش، وما يلبس على أعالي القماش، ﴿ متقَابِلِينَ ﴾ أى : على السرر، لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره .

وقوله : ﴿ كَذَلِكَ وَرَوَّجْتُهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أى : هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحور العين الحسان اللاتي ﴿ لَمْ يَطْمِئُنَّ بِإِنْسٍ قَبْلَهُمْ وَلَا بِنَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٥٦ ، ٧٤] ، ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: ٥٨] ، ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن: ٦٠] .

وقوله : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴾ أى : مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه، بل يحضر إليهم كلما أرادوا .

وقوله : ﴿ لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ﴾ معناه: أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً، كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار ثم يذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت» وقد تقدم الحديث فى سورة مريم (١) . وعن أبى سعيد وأبى هريرة، قال: قال رسول الله : «يقال لأهل الجنة: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تَبَّأسوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً» . رواه مسلم (٢) .

وروى أبو بكر البزار عن جابر قال : قيل : يا رسول الله ، هل ينام أهل الجنة ؟ قال : « لا ، النوم أخو الموت » (١) .

وقوله : ﴿ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ أى : مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم ، وسلمهم ونجاهم وزحزحهم من العذاب الأليم فى دركات الجحيم ، فحصل لهم المطلوب ، ونجاهم من المرهوب ؛ ولهذا قال : ﴿ فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى : إنما كان هذا بفضلهم وإحسانه إليهم ، كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : «اعملوا وسددوا وقاربوا ، واعلموا أن أحداً لن يدخله عمله الجنة» . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » (٢) .

وقوله : ﴿ فَإِنَّمَا يَسْرِنَاهُ لِبَلْسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى : إنما يسرنا هذا القرآن الذى أنزلناه سهلاً واضحاً بيناً جلياً بلسانك الذى هو أفصح اللغات وأجلاها وأحلاها وأعلاها ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى : يتفهمون ويعملون .

ثم لما كان مع هذا البيان والوضوح من الناس من كفر وخالف وعاند ، قال الله تعالى لرسوله مسلماً له وواعداً له بالنصر ، ومتوعداً لمن كذبه بالعطب والهلاك : ﴿ فَارْتَقِبْ ﴾ أى : انتظر ﴿ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴾ أى : فسيعلمون لمن يكون النصر والظفر وعلو الكلمة فى الدنيا والآخرة ، فإنها لك يا محمد وإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: ٥١] ، [٥٢] .

(١) كشف الأستار (٣٥١٧) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (٤١٨ / ١٠) : « رجال البزار رجال الصحيح » .

(٢) البخارى (٦٤٦٧) .

تفسير سورة الجاثية

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَم ﴾ تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ وَأَخْتِلَافِ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

يُرشد تعالى خلقه إلى التفكر في آلائه ونعمه، وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات والارض، وما فيهما من المخلوقات المختلفة الاجناس والانواع، من الملائكة والجن والانس، والدواب والطيور والوحوش والسياع والحشرات، وما في البحر من الاصناف المتنوعة، واختلاف الليل والنهار، في تعاقبها دائبين لا يفتران، هذا بظلامه وهذا بضيائه، وما أنزل الله تعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة إليه، وسماه رزقاً؛ لأن به يحصل الرزق، ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أى: بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شىء.

وقوله: ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ﴾ أى: جنوباً وشمالاً، ودبوراً وصباً، بحرية وبرية، ليلية ونهارية. ومنها ما هو للمطر، ومنها ما هو للقحاح، ومنها ما هو غذاء الأرواح، ومنها ما هو عقيم لا ينتج. وقال أولاً: ﴿ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ثم ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ ثم ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ وهو تَرَقُّقٌ من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى. وهذه الآيات شبيهة بآية «البقرة» وهى قوله: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبَأَى حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٥﴾ وَيَلِكُلُ أَفْأَكُ أَتْمِيمٍ ﴿٦﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تَتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٨﴾ مِمَّنْ وَرَأَيْتَهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٌ ﴿١٠﴾

يقول تعالى: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ ﴾ يعنى القرآن بما فيه من الحجج والبيانات ﴿ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى: متضمنة الحق من الحق، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها، فبأى حديث بعد الله

وآياته يؤمنون؟! ثم قال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أى: أفاك فى قوله كذاب، حلاف مهين أثيم فى فعله وقيله كافر بآيات الله؛ ولهذا قال: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أى: تقرأ عليه ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ أى: على كفره وجحوده استكباراً وعناداً ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أى: كأنه ما سمعها، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى: فأخبره أن له عند الله يوم القيامة عذاباً ألماً موجعاً. ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ أى: إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به واتخذهُ سخرياً وهزواً، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أى: فى مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به؛ ولهذا روى مسلم فى صحيحه عن ابن عمر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو (١).

ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أى: كل من اتصف بذلك سيصرون إلى جهنم يوم القيامة، ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا﴾ أى: لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم، ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أى: ولا تغنى عنهم الآلهة التى عبدوها من دون الله شيئاً، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. ثم قال تعالى: ﴿هَذَا هُدًى﴾ يعنى القرآن، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ﴾: وهو المؤلم الموجع.

ربيع ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾
 ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾
 ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾
 ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾

يذكر تعالى نعمه على عبده فيما سخر لهم من البحر ﴿لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ﴾ وهى السفن فيه بأمره تعالى، فإنه هو الذى أمر البحر أن يحملها ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أى: فى المتاجر والمكاسب، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى: على حصول المنافع المجلوبة إليكم من الأقاليم النائية والآفاق القاصية. ثم قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى: من الكواكب والجبال، والبحار والأنهار، وجميع ما تنتفعون به، أى: الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه؛ ولهذا قال: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أى: من عنده وحده لا شريك له فى ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَاوَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

وقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ أى: يصفحوا عنهم ويحتملوا الأذى منهم. وهذا كان فى ابتداء الإسلام، أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب، ليكون ذلك لتلايف قلوبهم، ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلال والجهاد. هكذا روى عن ابن عباس، وقاتدة. وقال مجاهد: ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾: لا يبالون نعم الله. وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: إذا صفحوا عنهم فى الدنيا، فإن الله مجازيهم بأعمالهم السيئة فى

الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم عليه، فيجزىكم بأعمالكم خيرا وشرها.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَأَيَّدْنَاهُمْ بِبَنَاتٍ مِنَ الْأُمَمِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل من إنزال الكتاب عليهم وإرسال الرسل إليهم، وجعله الملك فيهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: من المآكل والمشرب، ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ أي: في زمانهم، ﴿وَأَيَّدْنَاهُمْ بِبَنَاتٍ مِنَ الْأُمَمِ﴾ أي: حججا وبراهين وأدلة قاطعات، فقامت عليهم الحجج، ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحججة، وإنما كان ذلك بغيا منهم على بعضهم بعضا، ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: سيفصل بينهم بحكمه العدل. وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ أي: اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو، وأعرض عن المشركين، وقال هاهنا: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض﴾ أي: وماذا تغنى عنهم ولايتهم لبعضهم بعضا، فإنهم لا يزيدونهم إلا خسارا ودمارا وهلاكًا، ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾، وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات. ثم قال: ﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ﴾ يعني: القرآن ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَحَمَّ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشْنَوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى: لا يستوي المؤمنون والكافرون، كما قال عز وجل: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال هاهنا: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: عملوها وكسبوها ﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ أي:

نساويهم بهم فى الدنيا والآخرة ! ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى : ساء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نساوى بين الأبرار والفجار فى الدار الآخرة ، وفى هذه الدار ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ ، وقال : ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أى : بالعدل ، ﴿ وَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ أى : إنما يأتمر بهواه ، فمهما رآه حسنا فعله ، ومهما رآه قبيحا تركه وعن مالك : لا يهوى شيئا إلا عبده .

وقوله : ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ ، يحتمل قولين : أحدهما وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك . والآخر : وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه ، وقيام الحجة عليه . والثانى يستلزم الأول ، ولا يعكس . ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً ﴾ أى : فلا يسمع ما ينفعه ، ولا يعي شيئا يهتدى به ، ولا يرى حجة يستضىء بها ؛ ولهذا قال : ﴿ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ كقوله : ﴿ مَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الاعراف : ١٨٦] .

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنْتَوِيحُوا مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُخَيِّبُكُمْ ثُمَّ يُمَسِّكُكُمْ ثُمَّ يَجْعَلُ لِكُلِّ يَوْمٍ أَلْفَيْنَا لَا رَبَّ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركى العرب فى إنكار المعاد : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ أى : ما ثم إلا هذه الدار ، يموت قوم ويعيش آخرون ، وما ثم معاد ولا قيامة وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد ، وتقوله الفلاسفة الإلهيون منهم ، وهم ينكرون البداء والرجعة ، وتقوله الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع المعتقدون أن فى كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شىء إلى ما كان عليه . وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى ، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول ، ولهذا قالوا : ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ ، أى : يتوهمون ويتخيلون . فأما الحديث الذى أخرجه صاحبنا الصحيح ، وأبو داود ، والنسائى عن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : يؤذنى ابن آدم ؛ يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب ليله ونهاره » . وفى رواية : « لا تسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر » (١) قال الشافعى وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة فى تفسير قوله ﷺ : « لا تسبوا الدهر ؛ فإن الله هو الدهر » : كانت العرب فى جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة ، قالوا : يا خيبة الدهر . فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه ، وإنما فاعلها هو الله عز وجل ، فكانهم إنما سبوا ، الله عز وجل ؛ لأنه فاعل ذلك فى الحقيقة ، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار ؛ لأن الله هو الدهر الذى

(١) البخارى (٤٨٢٦ ، ٦١٨١) ومسلم (٥ / ٢٢٤٦) وأبو داود (٥٢٧٤) والنسائى فى الكبرى (١١٦٨٧) .

يعنونه، ويسندون إليه تلك الأفعال . هذا أحسن ما قيل فى تفسيره، وهو المراد ، والله أعلم . وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية فى عددهم الدهر من الأسماء الحسنى، أخذوا من هذا الحديث .

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ﴾ أى: إذا استدل عليهم وبين لهم الحق، وأن الله قادر على إعادة الأبدان بعد فناؤها وافتراقها، ﴿مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبَعْنَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: أحيوهم إن كان ما تقولونه حقا. قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ أى: كما تشاهدون ذلك، يخرجكم من العدم إلى الوجود، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] أى: الذى قدر على البداء قادر على الإعادة بطريق الأولى والأخرى. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى: إنما يجمعكم ليوم القيامة لا يعيدكم فى الدنيا حتى تقولوا: ﴿اتَّبَعْنَا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩]، ﴿لَا يَوْمَ يُؤْتَىٰ مِنْ أَجَلٍ مُّجْتَمِعٍ﴾ [الفصل: ١٢، ١٣]، ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّددودٍ﴾ [هود: ٤٠] وقال هاهنا: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى: لا شك فيه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: فلهذا ينكرون المعاد، ويستبعدون قيام الأجساد، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦، ٧] أى: يرون وقوعه بعيدا، والمؤمنون يرون ذلك سهلا قريبا.

﴿وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمَبْطُلُونَ ﴿١٧﴾ وَتَرَىٰ كُلُّ أُمَّةٍ جَائِئَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، والحاكم فيهما فى الدنيا والآخرة ؛ ولهذا قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أى: يوم القيامة ﴿يُحْسِرُ الْمَبْطُلُونَ﴾ وهم الكافرون بالله الجاحدون ما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات. وقال ابن أبى حاتم: قدم سفیان الثورى المدينة ، فسمع الغاضرى يتكلم ببعض ما يضحك به الناس . فقال له: يا شيخ ، أما علمت أن لله يوماً يخسر فيه المبتلون ؟ قال : فما زالت تعرف فى الغاضرى حتى لحق بالله ، عز وجل. ذكره ابن أبى حاتم.

ثم قال: ﴿وَتَرَىٰ كُلُّ أُمَّةٍ جَائِئَةً﴾ أى: على ركبها من الشدة والعظمة، ويقال: إن هذا إذا جرى بجهنم فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبته، حتى إبراهيم الخليل، ويقول: نفسى، نفسى، نفسى، لا أسألك اليوم إلا نفسى، وحتى إن عيسى ليقول: لا أسألك اليوم إلا نفسى، لا أسألك مريم التى ولدتنى. قال مجاهد، وكعب الأحبار، والحسن البصرى: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ جَائِئَةٌ﴾ أى: على الركب . وقال عكرمة : ﴿جَائِئَةٌ﴾ : متميزة على ناحيتها ، وليس على الركب . والأول أولى.

وقوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ يعنى: كتاب أعمالها، كقوله: ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ وَجِئَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩] ؛ ولهذا قال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: تجازون بأعمالكم خيرها وشرها، كقوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ . بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٣ - ١٥].

ثم قال: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أى: يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص، كقوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَرَىٰ الْمُجْرِمِينَ مَشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم. قال ابن عباس وغيره: تكتب الملائكة أعمال العباد، ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابلون الملائكة الذين فى ديوان الأعمال على ما بأيديهم مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ فى كل ليلة قدر، مما كتبه الله فى القدم على العباد قبل أن يخلقه، فلا يزيد حرفا ولا ينقص حرفا، ثم قرأ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ (٢٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقْبِينَ ﴿٢٧﴾ وَبَدَأْتُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٨﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكَ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكَ هَذَا وَمَأْوَأُكَ النَّارُ وَمَا لَكَ مِنَ نَصْرِينَ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَعَرَوْنَهَا كَلِمَةً طَائِفًا قَالِيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَفُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَهُوَ الْكَبِيرُ ﴿٣٧﴾ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

يخبر تعالى عن حكمه فى خلقه يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة، وهى الخالصة الموافقة للشرع ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾، وهى الجنة، كما ثبت فى الصحيح أن الله تعالى قال للجنة: «أنت رحمتى، أرحم بك من أشياء» (١). ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أى: البين الواضح.

ثم قال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريبا وتوبيخا: أما قرئت عليكم آيات الرحمن فاستكبرتم عن اتباعها، وأعرضتم سماعها، ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا

مُجْرِمِينَ ﴿ فِي أفعالكم، مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب ؟ ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أى : إذا قال لكم المؤمنون ذلك ﴿ قُلْتُمْ مَا نَدْرَى مَا السَّاعَةُ ﴾ أى : لا نعرفها، ﴿ إِنَّ نُظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾ أى : إن نتوهم وقوعها إلا توهمًا، أى مرجوحًا ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ ﴾ أى : بمتحققين، قال الله تعالى : ﴿ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا ﴾ أى : وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة، ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أى : أحاط بهم ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى : من العذاب والنكال، ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَسَاكُمْ ﴾ أى : نعاملكم معاملة الناسى لكم فى نار جهنم ﴿ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ أى : فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به، ﴿ وَمَا وَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ . وقد ثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة : « ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأدرك ترأس وتربع؟ فيقول : بلى، يارب . فيقول : أظننت أنك ملاقى؟ فيقول : لا . فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتنى » (١) .

قال الله تعالى : ﴿ ذَلِكَم بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ﴾ أى : إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخريًا، تسخرون وتستهزئون بها، ﴿ وَغَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى : خدعتكم فاطمأنتم إليها، فأصبحتم من الخاسرين؛ ولهذا قال : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ أى : من النار ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أى : لا يطلب منهم العتبي، بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب .

ثم لما ذكر حكمه فى المؤمنين والكافرين قال : ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ ﴾ أى : المالك لهما وما فيهما؛ ولهذا قال : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ . ثم قال : ﴿ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال مجاهد : يعنى السلطان . أى : هو العظيم الممجّد، الذى كل شىء خاضع لديه فقير إليه . وقد ورد فى الحديث الصحيح : « يقول الله تعالى : العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى، فمن نازعنى واحداً منهما أسكنته نارى » . رواه مسلم عن أبى هريرة وأبى سعيد بنحوه (٢) . وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : الذى لا يغالب ولا يمانع، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، تعالى وتقدس، لا إله إلا هو .

(١) مسلم (١٦/٢٩٦٨) .

(٢) مسلم (١٣٦/٢٦٢٠) .

تفسير سورة الأحقاف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجزء
٢٦

﴿ حَم ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ
أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتَثْنُونِ بِكِتَابٍ
مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْزَرْنَا مِنْ عِلْمِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ
دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ
كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾

يخبر تعالى أنه نزل الكتاب على عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين، ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام، والحكمة في الأقوال والأفعال، ثم قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أى: لا على وجه العبث والباطل، ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: إلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾ أى: لاهون عما يراد بهم، وقد أنزل الله تعالى إليهم كتابا وأرسل إليهم رسولا، وهم معرضون عن ذلك كله، أى: وسيعلمون غب ذلك.

ثم قال: ﴿قُلْ﴾ أى: لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره: ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أى: أرشدوني إلى المكان الذى استقلوا بخلقه من الأرض، ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أى: ولا شرك لهم فى السموات ولا فى الأرض، وما يملكون من قطمير، إن الملك والتصرف كله إلا الله، عز وجل، فكيف تعبدون معه غيره، وتشركون به؟ من أرشدكم إلى هذا؟ من دعاكم إليه؟ أهو أمركم به؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم؟ ولهذا قال: ﴿أَتَثْنُونِ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أى: هاتوا كتابا من كتب الله المنزلة على الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، يأمركم بعبادة هذه الأصنام، ﴿أَوْ أَنْزَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى: دليل بين على هذا المسلك الذى سلكتموه ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: لا دليل لكم نقليا ولا عقليا على ذلك؛ ولهذا قرأ آخرون: ﴿أَوْ أَنْزَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى: أو علم صحيح يأترونه عن أحد ممن قبلهم، كما قال مجاهد فى قوله: ﴿أَوْ أَنْزَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾: أو أحد يأتى علما. قال ابن عباس: أو بينة من الأمر. وقال أبو بكر بن عياش: أو بقية من علم. وقال الحسن البصرى: ﴿أَوْ أَنْزَارَةٍ﴾: شيء يستخرجه فيثيره. وقال ابن عباس، ومجاهد، وأبو بكر بن عياش أيضا: ﴿أَوْ أَنْزَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾: أى: أو أنزارة من علم. وقال قتادة: ﴿أَوْ أَنْزَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾: خاصة من علم.

وكل هذه الأقوال متقاربة ، وهي راجعة إلى ما قلناه ، وهو اختيار ابن جرير .

وقوله : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾
 أى : لا أضل ممن يدعو أصناما ، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة ، وهي غافلة عما
 يقول ، لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش ؛ لأنها جماد ، حجارة ، صم . وقوله : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا
 لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا
 سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مریم : ٨١ ، ٨٢] أى : سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم ،
 وقال الخليل : ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ
 بِبَعْضٍ مِّمَّنْ كَفَرُوا وَبِأَسْمَائِهِمْ وَوَعَادِهِمْ يُرَدُّونَ إِلَى آثَانِهِمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ مِمَّنْ كَفَرُوا وَبِأَسْمَائِهِمْ وَوَعَادِهِمْ يُرَدُّونَ
 وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٥] .

﴿ وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بِيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾
 ﴿ ٧ ﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ
 فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿ ٨ ﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ
 وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿ ٩ ﴾

يقول عز وجل مخبرا عن المشركين فى كفرهم وعنادهم : إنهم إذا تلى عليهم آيات الله
 بينات ، أى : فى حال بيانها ووضوحها وجلالها ، يقولون : ﴿ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى : سحر واضح ،
 وقد كذبوا وافتروا وضلوا وكفروا ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَاهُ ﴾ يعنون : محمدا ﷺ . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ
 أَفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أى : لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلنى - وليس كذلك -
 لعاقبنى أشد العقوبة ، ولم يقدر أحد من أهل الأرض ، لا أنتم ولا غيركم ، أن يجيرنى منه ،
 كقوله : ﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا . إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ﴾ [الجن : ٢٢ ،
 ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ
 مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤ - ٤٧] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ
 أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ ، هذا تهديد لهم ، ووعد أكيد ، وترهيب
 شديد . وقوله : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ : ترغيب لهم إلى التوبة والإنابة ، أى : ومع هذا كله إن
 رجعتم وتبتم ، تاب عليكم وعفا عنكم ، وغفر لكم ورحم . وهذه الآية كقوله فى سورة
 الفرقان : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٥ ، ٦] .

وقوله : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ أى : لست بأول رسول طرق العالم ، بل قد جاءت
 الرسل من قبلى ، فما أنا بالأمر الذى لا نظير له حتى تستكرونى وتستبعدوا بعثتى إليكم ، فإنه
 قد أرسل الله قبلى جميع الأنبياء إلى الأمم . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ
 مِنَ الرُّسُلِ ﴾ : ما أنا بأول رسول . ولم يحك ابن جرير ولا ابن أبى حاتم غير ذلك . ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا

يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴿ قال ابن عباس فى هذه الآية: نزل بعدها ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. وهكذا قال عكرمة، والحسن، وقتادة: إنها منسوخة بقوله: ﴿لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، قالوا: ولما نزلت هذه الآية قال رجل من المسلمين: هذا قد بين الله ما هو فاعل بك يا رسول الله، فما هو فاعل بنا؟ فأنزل الله: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ [الفتح: ٥]. هكذا قال، والذي هو ثابت فى الصحيح أن المؤمنين قالوا: هنيئا لك يا رسول الله، فما لنا؟ فأنزل الله هذه الآية. وقال الضحاك: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾: ما أدرى بماذا أومر، وبماذا أنهى بعد هذا؟

وقال الحسن البصرى فى قوله: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ قال: أما فى الآخرة فمعاذ الله، قد علم أنه فى الجنة، ولكن قال: لا أدرى ما يفعل بى ولا بكم فى الدنيا، أخرج كما أخرجت الأنبياء من قبلى؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلى؟ ولا أدرى أيعسف بكم أو تُرمون بالحجارة؟ وهذا القول هو الذى عوّل عليه ابن جرير، وأنه لا يجوز غيره، ولا شك أن هذا هو اللائق به، صلوات الله وسلامه عليه، فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه، وأما فى الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركى قريش إلى ماذا: أيؤمنون أم يكفرون، فيعذبون فيستأصلون بكفرهم؟

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن أم العلاء - وهى امرأة من نسائهم - أخبرته - وكانت بايعت رسول الله ﷺ - قالت: طار لهم فى السكنى حين أقرعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمان بن مظعون. فاشتكى عثمان عندنا فمرّضناه، حتى إذا توفى أدرجناه فى أثوابه، فدخل علينا رسول الله ﷺ فقلت: رحمة الله عليك أبا السائب، شهادتى عليك، لقد أكرمك الله. فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمهم؟» فقلت: بأبى أنت وأمى! فقال رسول الله ﷺ: «أما هو فقد جاءه اليقين من ربه، وإنى لأرجو له الخير، والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل بى!» قالت: فقلت: والله لا أزكى أحداً بعده أبداً. وأحزنتى ذلك، فتمت فرأيت لعثمان عينا تجرى، فجئت إلى رسل الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك عمله». فقد انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم، وفى لفظ له: «ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل به» (١).

وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ، بدليل قولها: «فأحزنتى ذلك». وفى هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذين نص الشارع على تعيينهم، كالعشرة، وابن سلام، والغميصاء، وبلال، وسراقة، وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر، والقراء السبعين الذين قتلوا بئر معونة، وزيد بن حارثة، وجعفر، وابن رواحة، وما أشبه هؤلاء.

وقوله: ﴿إِن تَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أى: إنما أتبع ما ينزله الله على من الوحي، ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أى: بين التذارة، وأمرى ظاهر لكل ذى لب وعقل.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانَا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن: ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ ﴾ هذا القرآن ﴿ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ أى : ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذى جتتكم به قد أنزله على لا بلغكموه وقد كفرتم به وكذبتموه ، ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ ﴾ أى: وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء قبلى، بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به. وقوله: ﴿ فَأَمَنَ ﴾ أى: هذا الذى شهد بصدقه من بنى إسرائيل لمعرفته بحقيقته ﴿ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أنتم عن اتباعه. وقال مسروق: فأمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه، وكفرتم أنتم ببنبيكم وكتابكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾. وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام وغيره، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبدالله بن سلام. وهذه كقوله: ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٣]، وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] قال مسروق، والشعبي: ليس بعبد الله بن سلام، هذه الآية مكية، وإسلام عبد الله بن سلام كان بالمدينة. رواه عنهما ابن جرير وابن أبي حاتم، واختاره ابن جرير . وعن عامر بن سعد، عن أبيه قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشى على وجه الأرض: «إنه من أهل الجنة»، إلا لعبد الله بن سلام، قال: وفيه نزلت: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ ﴾ . رواه البخارى ومسلم والنسائى^(١). وكذا قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعكرمة، ويوسف بن عبد الله بن سلام، وهلال بن يساف، والسدى، والثورى، ومالك بن أنس وابن زيد ؛ أنهم كلهم قالوا: إنه عبد الله بن سلام.

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ أى: قالوا عن المؤمنين بالقرآن: لو كان القرآن خيرا ما سبقنا هؤلاء إليه. يعنون: بلالا وعمارا وصهيبا وخبابا وأشباهم وأقرانهم من المستضعفين والعيبد والإماء، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجهة وله بهم عناية. وقد غلطوا فى ذلك غلطا فاحشا، وأخطؤوا خطأ بينا، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤَٰلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ [الانعام: ٥٣] أى :

(١) البخارى (٣٨١٢) ومسلم (١٤٧ / ٢٤٨٣) والنسائى فى الكبرى (٨٢٥٢) .

يتعجبون : كيف اهتدى هؤلاء دوننا؛ ولهذا قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة : هو بدعة ؛ لأنه لو كان خيرا لسبقونا إليه ، لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها . وقوله: ﴿وَأَذِّمُوا يَهُتَدُوا بِهِ﴾ أى : بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا فِكْ﴾ أى : كذب ﴿قَدِيمٌ﴾ أى : مأثور عن الأقدمين ، فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبير الذى قال رسول ﷺ: «بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ» (١) . ثم قال: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾ وهو التوراة ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾ وهو التوراة ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾ أى: لما قبله من الكتب ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أى: فصيحاً بينا واضحاً، ﴿لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ أى: مشتمل على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين .

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْهَمُوا﴾: تقدم تفسيرها فى سورة «حم، السجدة» (٢) . ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أى: فيما يستقبلون، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسبوغها عليهم .

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصَّلَتْهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي اتَّبْتُ إِبَتِكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

لما ذكر تعالى فى الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه ، عطف بالوصية بالوالدين، كما هو مقرون فى غير ما آية من القرآن، كقوله : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وقال: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [لقمان: ١٤] ، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة . وقال هاهنا : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ (٣) أى : أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما . وروى أبو داود الطيالسى يحدث عن سعد قال: قالت أم سعد لسعد: أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين، فلا أكل طعاما، ولا أشرب شرابا حتى تكفر بالله . فامتعت من الطعام الشراب، حتى جعلوا يفتحون فاهما بالعصا، ونزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ الآية . ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه نحوه وأطول منه (٤) .

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ أى: قاست بسببه فى حال حملة مشقة وتعبا، من وحام وغشيان وثقل وكرب، إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة، ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أى: بمشقة أيضا

(١) مسلم (٩١ / ١٤٧) . (٢) الآية رقم (٣٠) من سورة فصلت .

(٣) «حسنا» قراءة الجمهور ، وبها قرأ الخافظ ابن كثير .

(٤) المسند للطيالسى (٢٠٨) ومسلم (٣٣ / ١٧٤٨) وأبو داود (٢٧٤٠) والترمذى (٣٠٧٩) .

من الطلق وشدته، ﴿ وَحَمَلُهُ وَفَصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ . وقد استدل على بهذه الآية مع التي في لقمان : ﴿ وَفَصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ [لقمان: ١٤]، وقوله : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِيَ الرُّضَاعَةَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوى صحيح. ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة، رضى الله عنهم.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ أى : قوى وشب وارتمج **﴿ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾** أى : تنهى عقله وكمل فهمه وحلمه . ويقال : إنه لا يتغير غالبا عما يكون عليه ابن الأربعين **﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي ﴾** أى : اللهمنى **﴿ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾** أى : فى المستقبل ، **﴿ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ﴾** أى نسلى وعقبى ، **﴿ إِنِّي نَبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾** هذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله، عز وجل، ويعزم عليها.

قال الله تعالى : **﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ ﴾** (١) **﴿ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾** أى : هؤلاء المتصفون بما ذكرنا، الثابون إلى الله المنيون إليه، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار، هم الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا، ويتجاوز عن سيئاتهم، فيغفر لهم الكثير من الزلل، ويتقبل منهم اليسير من العمل، **﴿ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾** أى : هم فى جملة أصحاب الجنة، وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله من تاب إليه وأتاب ؛ ولهذا قال : **﴿ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾** . روى ابن جرير عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ ، عن الروح الأمين، عليه السلام، قال : « يؤتى بحسنات العبد وسيئاته، فيقتص بعضها ببعض، فإن بقيت حسنة وسع الله له فى الجنة » قال : فدخلت على يزيداد فحدثت بمثل هذا الحديث قال : قلت : فإن ذهبت الحسنة؟ قال : **﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾** . وهكذا رواه ابن أبى حاتم وزاد : « عن الروح الأمين . قال : قال الرب ، جل جلاله : يؤتى بحسنات العبد وسيئاته » (٢) فذكره، وإسناده جيد لا بأس به .

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَنْتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِihanِ اللَّهِ وَبِلكَ آمِنَ إِنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ **﴿ ٧ ﴾**
﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴾ **﴿ ٨ ﴾** **﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوقِفِيهم أَعْمَلُهُم وَهُمْ لَا يظْمُون ﴾** **﴿ ٩ ﴾** **﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أذهبتم طيبنتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحقِّ وبما كنتم نفسقون ﴾** **﴿ ١٠ ﴾**

(١) « يتقبل - يتجاوز » : قراءة الجمهور ، وأيضا الحافظ ابن كثير .

(٢) ابن جرير فى التفسير (٢٦ / ١٢) .

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الفوز والنجاة، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفِ لَكُمْ﴾ وهذا عام في كل من قال هذا، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر فقوله ضعيف ؛ لأن عبد الرحمن بن أبي بكر أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان من خيار أهل زمانه. وإنما هذا عام في كل من عاق والده وكذب بالحق، فقال لوالديه: ﴿أَفِ لَكُمْ﴾ عقهما. وروى البخارى عن يوسف بن مَاهَك قال : كان مروان على الحجاز ، استعمله معاوية بن أبى سفيان ، فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكى يبايع له بعد أبيه ، فقال له عبد الرحمن بن أبى بكر شيئا، فقال: خذوه. فدخل بيت عائشة، فلم يقدروا عليه، فقال مروان: إن هذا الذى أنزل فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفِ لَكُمْ أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب: ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن، إلا أن الله أنزل عُدْرِي (١).

وقوله: ﴿أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ أى: أبعث ﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ أى: قد مضى الناس فلم يرجع منهم مخبر، ﴿وَهُمَا يَسْتَفِيئَانِ اللَّهُ﴾ أى: يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما: ﴿وَيْلَكَ أَمِنْ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ قال الله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أى: دخلوا فى زمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة. وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ بعد قوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ﴾ دليل على ما ذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك. وقال الحسن، وقتادة: هو الكافر الفاجر العاق لوالديه، المكذب بالبعث.

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ أى: لكل عذاب بحسب عمله، ﴿وَلِيُؤْفِكِهِمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أى: لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها. قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: درجات النار تذهب سفلا، ودرجات الجنة تذهب علوا. وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريبا وتوييخا. وقد تورع عمر بن الخطاب، عن كثير من طيبات المآكل والمشارب، وتزهر عنها، ويقول: إنى أخاف أن أكون كالذين قال الله تعالى لهم وَقَرَعَهُمْ: ﴿أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾. وقال أبو مجلز: ليتفقدن أوقام حَسَنَاتٍ كانت لهم فى الدنيا، فيقال لهم: ﴿أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾.

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ فجوزوا من جنس عملهم، فكما نَعَمُوا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق، وتعاطوا الفسق والمعاصى، جازاهم الله بعذاب الهون، وهو الإهانة والخزى والآلام الموجهة، والحسرات المتتابعة، والمنازل فى الدرجات المفضطة، أجازنا الله من ذلك كله.

﴿وَأَذَكَّرَ أَخَا عَادٍ إِذْ أُنذِرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١١﴾ قَالُوا أَجِئْنَا بِتَأْفِكِنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَإِنَّا بِمَا نَعْبُدُونَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِنُكُمْ قَوْمًا بِجَهْلُوهُمْ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرًا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٥﴾

يقول تعالى مسلينا لئيبه في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿وَأَذَكَّرَ أَخَا عَادٍ﴾ وهو هود، عليه السلام، بعثه الله إلى عاد الأولى، وكانوا يسكنون الأحقاف - جمع حقف وهو: الجبل من الرمل - قاله ابن زيد. وقال عكرمة: الأحقاف: الجبل والغار. وقال علي بن أبي طالب: الأحقاف: واد بحضرموت، يدعى برهوت، تلقى فيه أرواح الكفار. وقال قتادة: ذُكر لنا أن عاداً كانوا حياً باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها: الشحر. روى ابن ماجه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يرحمنا الله، وأخا عاد» (١).

وقوله: ﴿وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعني: وقد أرسل الله إلى من حول بلادهم من القرى مرسلين ومنذرين، كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة: ٦٦]، وكقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودٍ. إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلْنَا مِنْ سَمَواتِنَا مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ١٣، ١٤] أى: قال لهم هود ذلك، فأجابه قومه قائلين: ﴿أَجِئْنَا بِتَأْفِكِنَا﴾ أى: لتصدنا ﴿عَنْ آلِهَتِنَا فَإِنَّا بِمَا نَعْبُدُونَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبته، استبعاداً منهم وقوعه، كقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]. ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أى: الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فيفعل ذلك بكم، وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به، ﴿وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَعْبَهُونَ﴾ أى: لا تعقلون ولا تفهمون.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾ أى: لما رأوا العذاب مستقبلهم، اعتقدوا أنه عارض مطر، ففرحوا به واستبشروا به، وقد كانوا محللين محتاجين إلى المطر، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى: هو العذاب الذي قلت: ﴿فَأَنَّا بِمَا نَعْبُدُونَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. ﴿تَدْمِرُ﴾ أى: تخرب ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ من بلادهم، مما من شأنه الخراب ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أى: بإذن الله لها في ذلك، كقوله: ﴿مَا تَدْرِي مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢] أى: كالمشيء البالي. ولهذا قال: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ﴾ (٢) أى: قد بادوا كلهم عن

(١) ابن ماجه (٣٨٥٢) وقال البوصيري في الزوائد (٢٠٤/٣): «هذا إسناد صحيح وله شواهد في صحيح مسلم وغيره من حديث أبي بن كعب».

(٢) «تري»: قراءة الجمهور، وكذا الحافظ ابن كثير.

آخروهم ولم تبق لهم باقية، ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى: هذا حكمتنا فيمن كذب رسلنا، وخالف أمرنا.

وقد ورد حديث فى قصتهم وهو غريب جداً من غرائب الحديث وأفراده، روى الإمام أحمد عن الحارث البكرى قال: خرجت أشكو العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله ﷺ، فمررت بالربذة، فإذا عجوز من بنى تميم منقطع بها، فقالت لى: يا عبد الله، إن لى إلى رسول الله ﷺ حاجة، فهل أنت مبلغى إليه؟ قال: فحملتها فأتيت بها المدينة، فإذا المسجد غاص بأهله، وإذا راية سوداء تخفق، وإذا بلال متقلد السيف بين يدى رسول الله ﷺ، فقلت: ما شأن الناس؟ قالوا: يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها. قال: فجلست، فدخل منزله - أو قال: رحله - فاستأذنت عليه، فأذن لى، فدخلت فسلمت، فقال: «هل كان بينكم وبين تميم شىء؟ قلت: نعم، وكانت لنا الدبرة عليهم، ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها، فسألتنى أن أحملها إليك، وما هى الباب: فأذن لها فدخلت، فقلت: يا رسول الله، إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزا فاجعل الدهناء، فحميت العجوز واستوفزت، وقالت: يا رسول الله، فإلى أين يضطر مضطرك؟ قال: قلت: إن مثلى ما قال الأول: «مِعْزَى حَمَلَتْ حَتْفَهَا»، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لى خصما، أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد. قال: «هيه، وما وافد عاد؟» - وهو أعلم بالحديث منه، ولكن يستطعمه قلت: إن عاداً قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له: قَيْل، فمر بمعاوية بن بكر، فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما «الجرادتان»- فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة فقال: اللهم، إنك تعلم أنى لم أجدى إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه، اللهم اسق عادا ما كنت تسقيه. فمرت به سحابات سود، فنودى منها: «اختر»، فأوماً إلى سحابة منها سوداء، فنودى منها: «خذها رماداً رمدا، لا تبقى من عاد أحداً». قال: فما بلغنى أنه أرسل عليهم من الريح إلا كقدر ما يجزى فى خاتمى هذا، حتى هلكوا - قال أبو وائل: وصدق - وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا: «لا تكن كوافد عاد». رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه، كما تقدم فى سورة «الأعراف» (١).

وروى الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجعماً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم. قالت: وكان إذا رأى غيما - أو ريحا - عرف ذلك فى وجهه، قالت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت فى وجهك الكراهية؟ فقال: «يا عائشة، ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا». وأخرجاه (٢). وروى مسلم فى صحيحه عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهم، إنى أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به». قالت: وإذا تحيّلت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سرى

(١) مضى تخريجه هناك عند الآية (٧٣).

(٢) المسند (٦٦/٦) والبخارى (٤٨٢٨، ٤٨٢٩) ومسلم (١٤/٨٩٩).

عنه، فعرفت ذلك عائشة، فسألته، فقال: «لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾» (١). وقد ذكرنا قصة هلاك عاد في سورتي «الأعراف» و«هود» بما أغنى عن إعادته هاهنا، والله الحمد والمنة.

﴿ وَلَقَدْ مَكَنْتَهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَنْتَكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

يقول تعالى: ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد، وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله ولا قريبا منه، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: وأحاط بهم العذاب والنكال الذي كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه، أي: فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم، فيصيبيكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ﴾ يعني: أهل مكة، قد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها كعاد، وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن وثمود، وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ وهم أهل اليمن، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط، كانوا يبرون بها أيضا. ﴿وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: بيناها ووضحناها، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ أي: فهلا نصرهم عند احتياجهم إليهم، ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أي: بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم، ﴿وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ أي: كذبهم، ﴿وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: وافترأؤهم في اتخاذهم إياهم آلهة، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها، واعتمادهم عليها.

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجَزِّقْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٧١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٢﴾ ﴾

روى الإمام أحمد والحافظ أبو بكر البيهقي فى كتابه «دلائل النبوة» عن ابن عباس قال : ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب. قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شئ حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها وانظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء. فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ، وهو بنخلة عامدا إلى سوق عكاظ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا - والله - الذى حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك حين رجعوا إلى قومهم ، قالوا: يا قومنا، إنا سمعنا قرآنا عجبا، يهدى إلى الرشد فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحدا، وأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿ قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ [الجن: ١] ، وإنما أوحى إليه قول الجن. رواه البخارى بنحوه، وأخرجه مسلم ورواه الترمذى والنسائى (١) .

وروى الإمام أحمد أيضا عن ابن عباس، قال: كان الجن يستمعون الوحي، فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشرا، فيكون ما سمعوا حقاً وما زادوا باطلا، وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك، فلما بعث رسول الله ﷺ كان أحدهم لا يأتى مقعده إلا رمى بشهاب يحرق ما أصاب، فشكوا ذلك إلى إبليس فقال: ما هذا إلا من أمر قد حدث. فبث جنوده، فإذا بالنبي ﷺ يصلى بين جبلى نخلة، فأتوه فأخبروه، فقال: هذا الحدث الذى حدث فى الأرض. رواه الترمذى والنسائى. وقال الترمذى: حسن صحيح (٢) . وذكر محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان، عن محمد بن كعب القرظى قصة خروج رسول الله ﷺ إلى الطائف ودعائه إياهم إلى الله عز وجل، وإبائهم عليه. فذكر القصة بطولها، وأورد ذلك الدعاء الحسن: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي» إلى آخره. قال: فلما انصرف عنهم بات بنخلة، فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعه الجن من أهل نصيبين. وهذا صحيح، ولكن قوله: «إن الجن كان استماعهم تلك الليلة». فيه نظر؛ لأن الجن كان استماعهم فى ابتداء الإيحاء، كما دل عليه حديث ابن عباس المذكور، وخروجه، عليه السلام، إلى الطائف كان بعد موت عمه، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين، كما قرره ابن إسحاق وغيره والله أعلم.

وروى أبو بكر بن أبى شيبة عن عبد الله بن مسعود قال: هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: أنصتوا. قالوا: صه، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى

(١) المسند (٢٢٧١) والبيهقى (٢/٢٢٥) والبخارى (٧٧٣) ومسلم (١٤٩/٤٤٩) والنسائى فى الكبرى (١/١١٦٢٤) .

(٢) المسند (٢٤٨٢) والترمذى (٣٣٢٤) والنسائى فى الكبرى (٤/١١٦٢٦) .

قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿١﴾ إِلَى ﴿ ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١). فهذا مع الأول من رواية ابن عباس يقتضى أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم فى هذه المرة وإنما استمعوا قراءته، ثم رجعوا إلى قومهم، ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالا قوما بعد قوم، وفوجا بعد فوج .

فأما ما رواه البخارى ومسلم عن معن بن عبد الرحمن قال : سمعت أبى قال : سألت مسروقا: من أذن النبى ﷺ ليلة استمعوا القرآن؟ فقال: حدثنى أبوك يعنى ابن مسعود - أنه أذنته بهم شجرة (٢) فيحتمل أن يكون هذا فى المرة الأولى ، ويكون إثباتا مقدما على نفى ابن عباس ، ويحتمل أن يكون هذا فى بعض المرات المتأخرات، والله أعلم. ويحتمل أن يكون فى الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى أذنته بهم الشجرة ، أى: أعلمته باستماعهم، والله أعلم. قال الحافظ البيهقى: وهذا الذى حكاه ابن عباس إنما هو فى أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ وعلمت حاله، وفى ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرههم، ثم بعد ذلك أتاه داعى الجن فقرأ عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله، عز وجل، كما رواه عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه (٣) .

ذكر الرواية عنه بذلك :

روى الإمام أحمد عن علقمة قال: قلت لعبد الله بن مسعود: هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحدا؟ فقال: ما صحبه منا أحد، ولكننا فقدناه ذات ليلة بمكة، فقلنا: اغتيل؟ استطير؟ ما فعل؟ قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما كان فى وجه الصبح - أو قال: فى السحر - إذا نحن به يجيء من قبل حراء، فقلنا : يا رسول الله - فذكروا له الذى كانوا فيه - فقال : « إنه أتانى داعى الجن، فأتيتهم فقرأت عليهم » . قال : فانطلق، فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم - قال: وقال الشعبي: سألوه الزاد - قال عامر: سألوه بمكة، وكانوا من جن الجزيرة، فقال : « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما كان عليه لحما ، وكل بعة أو روثة علف لدوابكم - قال - فلا تستنجوا بهما، فإنهما زاد إخوانكم من الجن » . وهكذا رواه مسلم نحوه (٤) . وروى مسلم أيضا عن عامر قال : سألت علقمة: هل كان ابن مسعود ، شهد مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال : فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود ؛ فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله ﷺ ليلة الجن ؟ قال : لا ، ولكننا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناه فالتمسناه فى الأودية والشعاب ، فقلنا : استطير ؟ اغتيل ؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء ، قال : فقلنا : يا رسول الله ، فقدناك فطلبناك فلم نجدك ، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم. فقال : « أتانى داعى الجن ، فذهبت معهم ،

(١) المستدرک (٤٥٦/٢) من طريق أبى بكر بن شيبه به ، وقال الحاكم : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى .

(٢) البخارى (٣٨٥٩) ومسلم (٤٥٠ / ١٥٠) .

(٣) البيهقى فى الدلائل (٢٢٧/٢) .

(٤) المسند (٤١٤٩) ومسلم (٤٥٠ / ١٥٠) .

فقرأت عليهم القرآن» . قال : فانطلق بنا فارانا آثارهم وآثار نيرانهم ، وسألوه الزاد فقال : « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما ، وكل بكرة أو روثة علف لدوابكم» . قال رسول الله ﷺ : « فلا تستنجوا بهما ، فإنهما طعام إخوانكم » (١) .

فهذه تدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصدا ، فتلا عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله ، عز وجل ، وشرع الله لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت . وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم ، كما قاله ابن عباس ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود . وأما ابن مسعود فإنه لم يكن مع رسول الله ﷺ حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم ، وإنما كان بعيدا منه ، ولم يخرج مع النبي ﷺ أحد سواه ، ومع هذا لم يشهد حال المخاطبة ، هذه طريقة البيهقي . وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه ابن مسعود ولا غيره ، ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى والله أعلم .

وقد روى الحافظ أبو بكر البيهقي ، عن سعيد بن عمرو ، قال : كان أبو هريرة يتبع رسول الله ﷺ بإداوة لوضوئه وحاجته ، فأدرکه يوما فقال : « من هذا؟ » قال : أنا أبو هريرة . قال : « اتنتى بأحجار أستنج بها ، ولا تأتنى بعظم ولا روثة » . فأتيته بأحجار في ثوبى ، فوضعتها إلى جنبه حتى إذا فرغ وقام اتبعته ، فقلت : يا رسول الله ، ما بال العظم والروثة ؟ قال : « أتانى وفد جن نصيبين ، فسألونى الزاد ، فدعوت الله لهم ألا يمروا بعظم ولا بروثة إلا وجدوا طعاما» . أخرجه البخارى قريبا منه (٢) . فهذا يدل مع ما تقدم على أنهم وفدوا عليه بعد ذلك . وقد روى عن ابن عباس غير ما روى عنه أولا من وجه جيد ، فروى ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ ﴾ الآية ، قال : كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين ، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلا إلى قومهم (٣) . فهذا يدل على أنه قد روى القصتين .

ومما يدل على ذلك ما رواه البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن عمر قال : ما سمعت عمر يقول لشيء قط : « إنى لأظنه كذا» إلا كان كما يظن ، بينما عمر بن الخطاب جالس ، إذ مر به رجل جميل ، فقال : لقد أخطأ ظنى - أو : إن هذا على دينه فى الجاهلية - أو لقد كان كاهنهم - على بالرجل ، فدعى له ، فقال له ذلك ، فقال : ما رأيت كالיום استقبل له رجل مسلم . قال : فإنى أعزم عليك إلا ما أخبرتنى . قال : كنت كاهنهم فى الجاهلية . قال : فما أعجب ما جاءتك به جنتك . قال : بينما أنا يوما فى السوق جاءتنى أعرف فيها الفزع ، فقالت :

ألم ترَ الجنَّ وبإلباسها ويأسها من بعد إنكاسها

ولحوقها بالقلاص وأحلاسها

قال عمر : صدق ، بينما أنا نائم عند آلهم ، إذ جاء رجل بعجل فذبحه ، فصرخ به

(٢) البيهقي فى الدلائل (٢٣٣/٢) والبخارى (٣٨٦٠) .

(١) مسلم (١٥٠/٤٥٠) .

(٣) ابن جرير فى التفسير (٢٢/٢٦) .

صارخ، لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه، يقول: يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: «لا إله إلا الله» فوثب القوم، فقلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا؟ ثم نادى يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح يقول: «لا إله إلا الله». فقامت، فما نشبنا أن قيل: هذا نبي. هذا سياق البخارى (١)، وقد رواه البيهقي من حديث ابن وهب، بنحوه، ثم قال: «وظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذى ذبح، وكذلك هو صريح فى رواية ضعيفة عن عمر فى إسلامه، وسائر الروايات تدل على أن هذا الكاهن هو الذى أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه، والله أعلم» (٢). وهذا الذى قاله البيهقي هو المتجه، وهذا الرجل هو سواد بن قارب، وقد ذكرت هذا مستقصى فى سيرة عمر.

وقوله تعالى: ﴿وَأِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ أى : طائفة من الجن، ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصُرُوا﴾ أى : استمعوا وهذا أدب منهم. وقوله : ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أى : فرغ، كقوله : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ﴾ [الجمعة: ١٠]، ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِمْ مَنَاسِكُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠] ﴿وَوَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أى : رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ، كقوله: ﴿لِيَفْقَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. وقد استدلل بهذه الآية على أنه فى الجن نذُرٌ، وليس فيهم رسل: ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم رسولا؛ لقوله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوْحَىٰ (٣) إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال عن إبراهيم الخليل : ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]. فكل نبي بعثه الله بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته، فأما قوله تعالى فى الأنعام: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فالمراد من مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما وهو الإنسان، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] أى : أحدهما. ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبراً عنهم: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ ولم يذكروا عيسى؛ لأن عيسى، عليه السلام، أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيقات وقليل من التحليل والتحريم، وهو فى الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة، فالعمدة هو التوراة؛ فلهذا قالوا: أنزل من بعد موسى. وهكذا قال ورقة بن نوفل، حين أخبره النبي ﷺ بقصة نزول جبريل عليه السلام عليه أول مرة، فقال: بَخْ بَخْ، هذا الناموس الذى كان يأتى موسى، يا ليتنى أكون فيها جَدْعًا.

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى : من الكتب المنزلة قبله على الأنبياء. وقولهم: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ أى : فى الاعتقاد والإخبار، ﴿وَأِلَىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ : فى الأعمال، فإن القرآن مشتمل على شيئين خبر وطلب، فخبيره صدق، وطلبه عدل، كما قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ (٤) رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:

(١) البخارى (٣٨٦٦).

(٢) البيهقي فى الدلائل (٢/٢٤٥).

(٣) «يوحى» : هى قراءة كما مضى بيانه .

(٤) «كلمات» : قراءه سبعة كما مضى بيانه .

[١١٥]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، فالهدى هو: العلم النافع، ودين الحق: هو العمل الصالح. وهكذا قالت الجن: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ في الاعتقادات، ﴿وَأَلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: فى العمليات. ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾: فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين الإنس والجن حيث دعاهم إلى الله، وقرأ عليهم السورة التى فيها خطاب الفريقين، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم، وهى سورة الرحمن؛ ولهذا قال: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾.

وقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾: قيل: إن «من» هاهنا زائدة، وفيه نظر؛ لأن زيادتها فى الإثبات قليل. وقيل: إنها على بابها للتبويض، ﴿وَيَجْرِمُكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أى: ويقيكم من عذابه الأليم. وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة، وإنما جزاء صالحهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة؛ ولهذا قالوا هذا فى هذا المقام، وهو مقام تبجح ومبالغة، فلو كان لهم جزاء على الإيمان أعلى من هذا لأوشك أن يذكروه. عن ابن عباس قال: لا يدخل مؤمنو الجن الجنة؛ لأنهم من ذرية إبليس، ولا تدخل ذرية إبليس الجنة.

والحق أن مؤمنهم كمؤمنى الإنس يدخلون الجنة، كما هو مذهب جماعة من السلف، وقد استدل بعضهم لهذا بقوله: ﴿لَمْ يَظْمَنُوهَا إِنْ سَأَلْتَهُمْ وَلَا جَانَ﴾ [الرحمن: ٧٤]، وفى هذا الاستدلال نظر، وأحسن منه قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ. فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، [٤٧]، فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة، وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولى أبلغ من الإنس، فقالوا: «ولا بشئ» من الآثك ربنا نكذب، فلك الحمد» فلم يكن تعالى ليمتن عليهم بجزاء لا يحصل لهم، وأيضاً فإنه إذا كان يجازى كافرهم بالنار - وهو مقام عدل - فلأن يجازى مؤمنهم بالجنة - وهو مقام فضل - بطريق الأولى والأحرى. وما يدل أيضاً على ذلك عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]، وما أشبه ذلك من الآيات. وقد أفردت هذه المسألة فى جزء على حدة، والله الحمد والمنة. وهذه الجنة لا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً، أفلا يسكنها من آمن به وعمل له صالحاً؟ وما ذكروه هاهنا من الجزاء على الإيمان من تكفير الذنوب والإجارة من العذاب الأليم، هو يستلزم دخول الجنة؛ لأنه ليس فى الآخرة إلا الجنة أو النار، فمن أجبر من النار دخل الجنة لا محالة. ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع أن مؤمنى الجن لا يدخلون الجنة وإن أجبروا من النار، ولو صح لقلنا به، والله أعلم. وهذا نوح، عليه السلام، يقول لقومه: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخِرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٤]، ولا خلاف أن مؤمنى قومه فى الجنة، فكذلك هؤلاء.

ثم قال مخبراً عنه: ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: بل قدرة الله شاملة له ومحيطه به، ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ أى: لا يجيرهم منه أحدٌ ﴿أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا مقام تهديد وترهيب، فدعوا قومهم بالترغيب والترهيب؛ ولهذا نجح فى كثير منهم، وجاؤوا إلى

رسول الله ﷺ وفودا وفودا، كما تقدم بيانه .

﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدْرِ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّكُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَمَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا﴾ أى: هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة، المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ﴾ أى: ولم يكرهه خلقهن، بل قال لها: «كوني» فكانت، بلا ممانعة ولا مخالفة، بل طائعة مجيبة خائفة وجللة، أفليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى؟ كما قال فى الآية الأخرى: ﴿لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [عافر: ٥٧] ، ولهذا قال: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

ثم قال متهددا ومتوعدا من كفر به: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أى: يقال لهم: أما هذا حق، أفسحر هذا، أم أنتم لا تبصرون؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أى: لا يسعهم إلا الاعتراف، ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ، ثم قال تعالى أمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أى: على تكذيب قومهم لهم . وقد اختلفوا فى تعداد أولى العزم على أقوال، وأشهرها أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ، قد نص الله على أسمائهم من بين الأنبياء فى آيتين من سورتي «الأحزاب» و«الشورى»، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولى العزم جميع الرسل، وتكون ﴿مِنَ﴾ فى قوله: ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ لبيان الجنس، والله أعلم . ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ أى: لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم ، كقوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهْلِكُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١] ، وكقوله: ﴿فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُيْدًا﴾ [الطارق: ١٧] . ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ ، كقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦] ، وكقوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية [يونس: ٤٥] . وقوله: ﴿بَلَاغٌ﴾ قال ابن جرير: يحتمل معنيين، أحدهما: أن يكون تقديره: وذلك لبث بلاغ . والآخر: أن يكون تقديره: هذا القرآن بلاغ . وقوله: ﴿فَمَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ أى: لا يهلك على الله إلا هالك، وهذا من عدله تعالى أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب .

تفسير سورة القتال

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَتَّبِعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَّبِعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾

يقول تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى: بآيات الله، ﴿ وَصَدُّوا ﴾ غيرهم ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى: أبطلها وأذهبها، ولم يجعل لها جزاء ولا ثوابا، كقوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

ثم قال: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أى: آمنت قلوبهم وسرائرهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم، ﴿ وَأَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴾، عطف خاص على عام، وهو دليل على أنه شرط فى صحة الإيمان بعد ﷺ. ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ جملة معترضة حسنة؛ ولهذا قال: ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ قال ابن عباس: أى أمرهم. وقال مجاهد: شأنهم. وقال قتادة وابن زيد: حالهم. والكل متقارب. وقد جاء فى حديث تسميت العاطس: «يهديكم الله، ويصلح بالكم» (١). ثم قال عز وجل: ﴿ ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَتَّبِعُوا الْبَاطِلَ ﴾ أى: إنما أبطلنا أعمال الكفار، وتجاوزنا عن سيئات الأبرار، وأصلحنا شؤونهم؛ لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل، أى: اختاروا الباطل على الحق، ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَّبِعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ أى: يبين لهم مآل أعمالهم، وما يصيرون إليه فى معادهم.

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَانَ فِإِذَا مَا مَنَا بَعْدُ وَإِنَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَبِلُوا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قِيلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ﴿٤﴾ سَيِّئَاتِهِمْ وَيُصْلِحَ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَمْ ﴿٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَصَرُّوا اللَّهُ يَصْرِفْكُمْ وَيُنَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾

(١) الترمذى (٢٧٣٩) وقال: « هذا حديث حسن صحيح » .

يقول تعالى مرشدا للمؤمنين إلى ما يعتمدون في حروبهم مع المشركين : ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أى : إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصدا بالسيوف ، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَنْخَسْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا﴾ أى : أهلكتموهم قتلا ﴿فَشُدُّوا﴾ وثاق الأسارى الذين تأسرونها ، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون فى أمرهم ، إن شئتم منتقم عليهم فأطلقتم أسراهم مجانا ، وإن شئتم فاديتموهم بما تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه . والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر ، فإن الله ، سبحانه ، عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء ، والتقليل من القتل يومئذ فقال : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ لَوْ كَانَتْ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧ ، ٦٨] .

ثم ادعى بعض العلماء أن هذه الآية - المخيرة بين مفاداة الأسير والمن عليه - منسوخة بقوله تعالى : ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ الآية [التوبة: ٥] ، رواه العوفى عن ابن عباس . وقال قتادة ، والضحاك ، والسدى ، وابن جرير . وقال الآخرون - وهم الأكثرون : ليست منسوخة . ثم قال بعضهم : إنما الإمام مُخَيَّرٌ بين المن على الأسير ومفاداته فقط ، ولا يجوز له قتله . وقال آخرون منهم : بل له أن يقتله إن شاء ، لحديث قتل النبى ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط من أسارى بدر ، وقال ثمامة بن أثال لرسول الله ﷺ حين قال له : «ما عندك يا ثمامة؟» فقال : إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تمنى تمنى على شاكرك ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت (١) . وزاد الشافعى ، رحمه الله ، فقال : الإمام مخير بين قتله أو المن عليه ، أو مفاداته أو استرقاقه أيضا . وهذه المسألة محررة فى علم الفروع ، وقد دللنا على ذلك فى كتابنا «الأحكام» ، والله الحمد والمنة .

وقوله : ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ قال مجاهد : حتى ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام . وكأنه أخذه من قوله ﷺ : «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال» (٢) . وقال قتادة : ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ : حتى لا يبقى شرك . وهذا كقوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِئْتَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] . ثم قال بعضهم : ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ أى : أوزار المحاربين ، وهم المشركون ، بأن يتوبوا إلى الله عز وجل . وقيل : أوزار أهلها بأن يبذلوا الوسع فى طاعة الله ، عز وجل .

وقوله : ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أى : هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده ، ﴿وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ أى : ولكن شرع لكم الجهاد وقاتل الأعداء ليختبركم ، ويبلو أخباركم . كما ذكر حكمته فى شرعية الجهاد فى سورتي «آل عمران» و«براءة» فى قوله : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] . وقال فى

(٢) أبو داود (٢٤٨٤) ، وصححه الألبانى .

(١) البخارى (٤٣٧٢) .

سورة براءة: ﴿فَاتْلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخِزُّهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبَ غِيظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥] .

ثم لما كان من شأن القتال أن يُقتل كثيرٌ من المؤمنين، قال: ﴿وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى: لن يذهبها بل يكثرها وينميها ويضاعفها. ومنهم من يجرى عليه عمله فى طول برزخه، كما ورد بذلك الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن المقدام بن معد يكرب الكندى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشهيد عند الله ست خصال: أن يغفر له فى أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشقق فى سبعين إنسانا من آقاربه». وقد أخرجه الترمذى وصححه وابن ماجه (١) . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو، وعن أبى قتادة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا الدِّينَ» (٢) . وروى من حديث جماعة من الصحابة، وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته». ورواه أبو داود (٣) . والأحاديث فى فضل الشهيد كثيرة جدا.

وقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ أى: إلى الجنة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩] . وقوله: ﴿وَيُصَلِّحُ بِأَلْمِهِمْ﴾ أى: أمرهم وحالهم، ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ أى: عرفهم بها وهداهم إليها وروى البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار، يتقاصون مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هُذِّبُوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة، والذى نفسى بيده، إن أحدهم بمنزله فى الجنة أهدى منه بمنزله كان فى الدنيا» (٤) .

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصَرُوهَا اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، كقوله: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، فإن الجزء من جنس العمل؛ ولهذا قال: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَّأْ لَهُمْ﴾ عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله ولرسوله ﷺ. وقد ثبت فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تَعَسَّ عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش» (٥)، أى: فلا شفاه الله. وقوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى: أحبطها وأبطلها؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أى: لا يريدونه ولا يحبونه، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

(١) المسند (٤/١٣١) والترمذى (١٦٦٣) وابن ماجه (٢٧٩٩)، وصححه الألبانى .

(٢) مسلم (١١٩/١٨٨٦) .

(٣) أبو داود (٢٥٢٢) .

(٤) البخارى (٦٥٣٥) .

(٥) البخارى (٢٨٨٦) .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ
وَالْكَافِرِينَ أَمَثَلَهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ
اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ
وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ
الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾

يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ يعنى: المشركين بالله المكذبين لرسوله ﴿فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أى: عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم، أى: ونجى المؤمنين من
بين أظهرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَالْكَافِرِينَ أَمَثَلَهَا﴾، ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ
لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾، ولهذا قال أبو سفيان صخر بن حرب رئيس المشركين يوم أحد حين سأل عن
النبي ﷺ، وعن أبى بكر وعمر فلم يجب، وقال: أما هؤلاء فقد هلكوا، وأجابه عمر بن
الخطاب فقال: كذبت يا عدو الله، بل أبقى الله لك ما يسوؤك، وإن الذين عدت لأحياء
كلهم. فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، أما إنكم ستجدون مثله لم أمر بها ولم
تسوئنى، ثم ذهب يرتجز ويقول: اعل هبل، اعل هبل. فقال رسول الله ﷺ: «ألا تحببوه؟»
قالوا: يا رسول الله، وما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل» ثم قال أبو سفيان: لنا العزى،
ولا عزى لكم. فقال: «ألا تحببوه؟» قالوا: وما نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: الله مولانا
ولا مولى لكم» (١).

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى: يوم
القيامة، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ أى: فى دنياهم، يتمتعون بها ويأكلون
منها كآكل الأنعام، خضماً وقضماً ليس لهم همة إلا فى ذلك. ولهذا ثبت فى الصحيح:
«المؤمن يأكل فى معى واحد، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء» (٢). ثم قال: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾
أى: يوم جزائهم.

وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ يعنى: مكة، ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ
لَهُمْ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لأهل مكة، فى تكذيبهم لرسول الله ﷺ، وهو سيد
الرسل وخاتم الأنبياء، فإذا كان الله، عز وجل، قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله،
بسببهم، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم فى الدنيا والأخرى؟
فإن رفع عن كثير منهم العقوبة فى الدنيا لبركة وجود الرسول نبي الرحمة، فإن العذاب يوفر
على الكافرين به فى معادهم، ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود:
٢٠]. وقوله: ﴿مِن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ أى: الذين أخرجوك من بين أظهرهم. عن ابن عباس:

أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار أراه قال: التفت إلى مكة - وقال: «أنت أحب بلاد الله إلى الله، وأنت أحب بلاد الله إلى»، ولو أن المشركين لم يخرجوني لم أخرج منك» (١) . فأعدى الأعداء من عدا على الله في حرمه، أو قتل غير قاتله، أو قتل بذحول الجاهلية، فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلِكَانَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ .

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن حَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَن هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ ﴿١٥﴾

يقول: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ أى: على بصيرة ويقين فى أمر الله ودينه، بما أنزل الله فى كتابه من الهدى والعلم، وبما جبَّله الله عليه من الفطرة المستقيمة ﴿كَمَن زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ ؟ أى: ليس هذا، كهذا ، كقوله: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقَّ كَمَن هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩] ، وكقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠] .

ثم قال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ قال عكرمة: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أى: نعمتها ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: يعنى غير متغير. والعرب تقول: أسن الماء ، إذا تَغَيَّرَ ريحه . ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ﴾ أى: بل فى غاية البياض والحلاوة واللدوسمة ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن حَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ أى: ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا، بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل، ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصفات: ٤٧] ، ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزَفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩] ، ﴿بَيْضَاءَ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ [الصفات: ٤٦] ﴿وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ أى: وهو فى غاية الصفاء، وحسن اللون والطعم والريح ، وروى الإمام أحمد عن حكيم بن معاوية، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «فى الجنة بحر اللبن، وبحر الماء، وبحر العسل، وبحر الخمر، ثم تشقق الأنهار منها بعد». ورواه الترمذى . وقال: حسن صحيح (٢) . وفى الصحيح: «إذا سألت الله فاسأله الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، ومنه تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وفوقه عرش الرحمن» (٣) .

وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ، كقوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥] . وقوله: ﴿فِيهَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ رُزْجَانٌ﴾ [الرحمن: ٥٢] . وقوله: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أى: مع ذلك كله . وقوله: ﴿كَمَن هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾ أى: أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد

(١) ابن جرير فى التفسير (٣١/٢٦) .

(٢) المسند (٥/٥) والترمذى (٢٥٧١) .

(٣) مضى تخريجه عند الآية (١٣٣) من آل عمران .

في النار؟ ليس هؤلاء كهؤلاء، أى: ليس من هو في الدرجات كمن هو في الدرجات، ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أى: حارا شديدا الحرا، لا يستطيع. ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أى: قطع ما فى بطونهم من الامعاء والاحشاء، عياذا بالله من ذلك.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِن عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنفَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًىٰ وَوَسَّعَتْ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ فَقَدْ حَقَّتْ لَهُمْ وَعْدَهُمْ وَقَوْمِهِمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿١٨﴾ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَمُتَوَكِّرِكُمْ ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى مخبرا عن المنافقين فى بلادتهم وقلة فهمهم ، حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويستمعون كلامه فلا يفهمون منه شيئا ، فإذا خرجوا من عنده ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ من الصحابة: ﴿مَاذَا قَالَ أَنفَا﴾ أى: الساعة، لا يعقلون ما قال، ولا يكثرثون له. قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى: فلا فهم صحيح، ولا قصد صحيح. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًىٰ﴾ أى: والذين قصدوا الهداية وفقهم الله لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها وزادهم منها، ﴿وَأَتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أى: الهمهم رشدهم.

وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أى: وهم غافلون عنها، ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أى: أمارات اقترابها، كقوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأُولَىٰ. أَلَزِفَتِ الْأَازِفَةُ﴾ [النجم: ٥٦، ٥٧]، وكقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] وقوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الانبيا: ١]، فبعثه رسول الله ﷺ من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم الرسل الذى أكمل الله به الدين، وأقام به الحجة على العالمين. وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله، كما هو مبسوط فى موضعه. وقال الحسن البصرى: بعثه محمد ﷺ من أشراط الساعة. وهو كما قال؛ ولهذا جاء فى أسمائه، عليه السلام، أنه نبي التوبة، ونبي الملحمة، والحاشر الذى يُحْشِرُ النَّاسَ عَلَىٰ قَدَمِيهِ، والعاقب الذى ليس بعده نبي. وروى البخارى [عن] سهل بن سعد قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا، بالوسطى والى تليها: «بعثت أنا والساعة كهاتين» (١). ثم قال تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ أى: فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة، حيث ينفعهم ذلك، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣]، ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبا: ٥٢].

وقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾: هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله، ولا ينافى كونه أمرا بعلم

ذلك ؛ ولهذا عطف عليه بقوله : ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول : «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي ، وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به مني . اللهم اغفر لي هزلي وجدلي ، وخطئي وعمدي ، وكل ذلك عندي » (١) . وفي الصحيح أنه كان يقول في آخر الصلاة : «اللهم اغفر لي ما تدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به مني ، أنت إلهي لا إله إلا أنت » (٢) . وفي الصحيح أنه قال : «يا أيها الناس ، توبوا إلى ربكم ، فإنني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» (٣) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن سرجس قال : أتيت رسول الله ﷺ فأكلت معه من طعامه ، فقلت : غفر الله لك يا رسول الله . فقلت : أستغفر لك ؟ فقال : «نعم ، ولكم» ، وقرأ : ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ، ثم نظرت إلى نغض كتفه الأيمن - أو : كتفه الأيسر ، شعبة الذي شك - فإذا هو كهيئة الجمع عليه التائب . رواه مسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن جرير (٤) . والأحاديث في فضل الاستغفار كثيرة جدا .

وقوله : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ أي : يعلم تصرفكم في نهاركم ومستقركم في ليلكم ، كقوله : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الانعام : ٦٠] ، وكقوله : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود : ٦] . وهذا القول ذهب إليه ابن جريج ، وهو اختيار ابن جرير . وعن ابن عباس : متقلبكم في الدنيا ، ومثواكم في الآخرة . والأول أولى وأظهر ، والله أعلم .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُتَّكِمَةٌ وَذِكْرٌ فِيهَا
الْقِتَالِ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ
فَأَوْكٍ لَهُمْ ﴿١٥﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوَّ صَدَقُوا اللَّهُ لَكَانَ خَيْرًا
لَهُمْ ﴿١٦﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿١٧﴾
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد ، فلما فرضه الله ، عز وجل ، وأمر به نكل عنه كثير من الناس ، كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ اللَّهَ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تظلمون فبيلا ﴾ [النساء : ٧٧] . وقال عز وجل هاهنا : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ ﴾ أي : مشتملة على حكم القتال ؛

(٢) مسلم (١٩٩/٧٦٩) .

(١) البخارى (٦٣٩٨) .

(٣) البخارى (٦٣٠٧) .

(٤) المسند (٨٤/٥) ومسلم (١١٢/٢٣٤٦) والترمذى فى الشمائل (ص ٣٨) والنسائى فى الكبرى (١/١١٤٩٦) .

وابن جرير فى التفسير (٣٤/٢٦) .

ولهذا قال : ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ مُحْكَمَةً وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالَ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَفْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ أى : من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء . ثم قال مشجعا لهم : ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ . طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ أى : وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا ، أى : فى الحالة الراهنة ، ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ ﴾ أى : جد الحال ، وحضر القتال ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ ﴾ أى : أخلصوا له النية ، ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أى : عن الجهاد ونكلتم عنه ، ﴿ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ أى : تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجاهلاء ، تسفكون الدماء ، وتقطعون الأرحام ؛ ولهذا قال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ ، وهذا نهى عن الإفساد فى الأرض عموما ، وعن قطع الأرحام خصوصا ، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح فى الأرض وصلة الأرحام ، وهو الإحسان إلى الأقارب فى المقال والفعال وبذل الأموال . وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ ، من طرق عديدة ، ووجوه كثيرة .

روى البخارى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « خلق الله الخلق ، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن عز وجل ، فقال : مه ! فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة . فقال : ألا ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى . قال : فذاك » . قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ . ورواه مسلم (١) . وروى الإمام أحمد عن أبى بكره قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من ذنب أحرى أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا ، مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة ، من البغى وقطيعة الرحم » . رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : هذا حديث صحيح (٢) . وروى الإمام أحمد عن ثوبان ، عن رسول الله ﷺ قال : « من سره النساء فى الأجل ، والزيادة فى الرزق ، فليصل رحمه » . تفرد به أحمد ، وله شاهد فى الصحيح (٣) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرحم معلقة بالعرش ، وليس الواصل بالمكافئ ، ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها » ، رواه البخارى (٤) . وروى أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « توضع الرحم يوم القيامة لها حُجَّةٌ كحججة المغزل ، تتكلم بلسان طُلُقٍ ذُلُقٍ ، فتصل من وصلها وتقطع من قطعها » (٥) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو - يبلغ به النبى ﷺ - قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء ، والرحم شُجَّةٌ من الرحمن ، من وصلها وصلته ، ومن قطعها بتته » . وقد رواه أبو داود والترمذى ، وقال الترمذى : حسن صحيح (٦) .

(١) البخارى (٤٨٣٠ ، ٤٨٣١) ومسلم (١٦/٢٥٥٤) .

(٢) المسند (٣٨/٥) وأبو داود (٤٩٠٢) والترمذى (٢٥١١) وابن ماجه (٤٢١١) .

(٣) المسند (٢٧٩/٥) . وشاهده رواه البخارى (٥٩٨٦) ومسلم (٢٠/٢٥٥٧) .

(٤) المسند (٦٥٢٤) والبخارى (٥٩٩١) .

(٥) المسند (٦٧٧٤) وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده صحيح » .

(٦) المسند (٦٤٩٤) ، وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده صحيح » . وأبو داود (٤٩٤١) والترمذى (١٩٢٤) .

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا ﴿١٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ ﴿١٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول تعالى أمراً بتدبر القرآن وتفهمه، وناهيا عن الإعراض عنه، فقال: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا ﴾ أي: بل على قلوب أقفالها، فهي مُطَبَّقة لا يخلص إليها شيء من معانيه. ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ ﴾ أي: فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر، ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ أي: زين لهم ذلك وحسنه، ﴿ وَأَمَلَى لَهُمْ ﴾ أي: غرهم وخدعهم، ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ﴾ أي: مالؤوهم وناصحوهم في الباطن على الباطل، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبتنون؛ ولهذا قال الله عز وجل: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ أي: ما يسرون وما يخفون، الله مطلع عليه وعالم به، كقوله: ﴿ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ ﴾ [النساء: ٨١].

ثم قال: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ أي: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعصت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ الآية [الأنفال: ٥٠]، وقال: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ ﴾ أي: بالضرب ﴿ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾.

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴿١٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعَرَّفْنَاهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعَرَّفْنَاهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٢٠﴾ وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَبْلُوَنَّكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾

يقول تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴾ ؟ أي: أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر، وقد أنزل تعالى في ذلك سورة «براءة»، فبين فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم؛ ولهذا إنما كانت تسمى الفاضحة. والأضغان: جمع ضغن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره.

وقوله: ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعَرَّفْنَاهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ يقول تعالى: ولو نشاء يا محمد لأريناك

أشخاصهم، فعرفتهم عيانا، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين سترنا منه على خلقه، وحملا للأمر على ظاهر السلامة، ورد السرائر إلى عالمها، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أى: فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أى الحزبين هو بمعانى كلامه وفجواه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفتلات لسانه.

وقوله: ﴿وَلَتَبْلُوَنَكُمْ﴾ أى: ولنختبرنكم بالأوامر والنواهي، ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾. وليس فى تقدم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب، فالمراد: حتى نعلم وقوعه؛ ولهذا يقول ابن عباس فى مثل هذا: إلا لنعلم، أى: لنرى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ﴾ ﴿٢٢﴾ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْآخِلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكَ أَعْمَالَكُمْ﴾ ﴿٢٥﴾

يخبر تعالى عن كفر وصد عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى: أنه لن يضر الله شيئا، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذى عقبه برده ميثاق بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات. ثم أمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته واطاعة رسوله التى هى سعادتهم فى الدنيا والآخرة، ونهاهم عن الارتداد الذى هو مبطل للأعمال؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ أى: بالردة؛ ولهذا قال بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ الآية .

ثم قال جل علا لعباده المؤمنين: ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ أى: لا تضعفوا عن الأعداء، ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾ أى: المهادنة والمسالمة، ووضع القتال بينكم وبين الكفار فى حال قوتكم وكثرة عددكم وعددكم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْآخِلُونَ﴾ أى: فى حال علوكم على عدوكم، فإما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين، ورأى الإمام فى المعاهدة والمهادنة مصلحة، فله أن يفعل ذلك، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة، ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، فأجابهم ﷺ إلى ذلك. وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾: فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء، ﴿وَلَنْ يَتْرُكَ أَعْمَالَكُمْ﴾ أى: ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها، بل يوفىكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئا.

﴿ إِنَّمَا لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ ۖ وَلَا يَسْأَلُكُمْ ۖ أَمْوَالَكُمْ ﴾ ﴿٣٦﴾ **إِن يَسْأَلْكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ فَبِحِفْظِكُمْ تَوَخَّوْا وَيُخْرِجْ أَضْعَانَكُمْ ۖ هَٰئِنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَن يَبْخُلُ وَمَن يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ ۗ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ۗ وَأَنتُمْ الْفُقَرَاءُ ۗ وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ** ﴿٣٨﴾

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتهويها لسانها: ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ ﴾ أى: حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله عز وجل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ أى: هو غنى عنكم لا يطلب منكم شيئاً، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لإخوانكم الفقراء، ليعود نفع ذلك عليكم، ويرجع ثوابه إليكم. ثم قال: ﴿ إِن يَسْأَلْكُمْ فَبِحِفْظِكُمْ تَوَخَّوْا ﴾ أى: يحوجكم تبخلوا: ﴿ وَيُخْرِجْ أَضْعَانَكُمْ ﴾ قال قتادة: قد علم الله أن فى إخراج الأموال إخراج الأضغان. وصدق قتادة فإن المال محبوب، ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه.

وقوله: ﴿ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَن يَبْخُلُ ﴾ أى: لا يجيب إلى ذلك ﴿ وَمَن يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ ﴾ أى: إنما نقص نفسه من الأجر، وإنما يعود وبال ذلك عليه، ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ﴾ أى: عن كل ما سواه، وكل شىء فقير إليه دائماً؛ ولهذا قال: ﴿ وَأَنتُمْ الْفُقَرَاءُ ﴾ أى: بالذات إليه. فوصفه بالغنى وصف لازم له، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم، لا ينفكون عنه. وقوله: ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أى: عن طاعته واتباع شرعه ﴿ يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ أى: ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولاوامره.

تفسير سورة الفتح

وهي مدنية

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مغفل قال: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته فرجع فيها - قال معاوية: لولا أنى أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت لكم قراءته. أخرجاه (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتَذَكَّرَ ﴿٢﴾ وَنِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٣﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ﴿٤﴾ ﴾

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذى القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام ليقضى عمرته فيه، وحالوا بينه وبين ذلك، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتى من قابل، فأجابهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب، كما سيأتى تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله. فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع، أنزل الله، عز وجل، هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم، وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه، كما روى عن ابن مسعود، وغيره أنه قال: إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية. وقال جابر: ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية.

وروى البخارى عن البراء قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة، والحديبية بشر. فنزحناها فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء فتوضأ، ثم تمضمض ودعا، ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا (٢). وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، قال: فسألته عن شيء - ثلاث مرات - فلم يرد على، قال: فقلت لنفسى: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، نزلت رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك؟ قال: فركبت راحلتي فنقدمت مخافة أن يكون نزل في شيء، قال: فإذا أنا بمناد ينادى: يا عمر، أين عمر؟ قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء، قال: فقال النبي ﷺ: «نزلت على البارحة سورة هي أحب إلى من الدنيا وما فيها: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا

(١) المسند (٢٤/٥) والبخارى (٤٨٣٥) ومسلم (٧٩٤/٢٣٧).

(٢) البخارى (٤١٥٠).

تَأَخَّرَ ﴿١﴾ . ورواه البخارى، والترمذى، والنسائى (١) ، وقال على بن المدينى: هذا إسناد مدينى جيد لم نجد له إلا عندهم . وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك ، قال: نزلت على النبى ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مرجعه من الحديدية ، قال النبى ﷺ: « لقد أنزلت على آية أحب إلى مما على الأرض» ، ثم قرأها عليهم النبى ﷺ فقالوا: هنيئا مريثا يا نبى الله، لقد بين الله، عز وجل، ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ حتى بلغ: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥] ، أخرجاه فى الصحيحين (٢) . وروى ابن جرير عن عبد الله ابن مسعود قال: لما أقبلنا من الحديدية أعرسنا فنمنا، فلم نستيقظ إلا بالشمس قد طلعت، فاستيقظنا ورسول الله ﷺ نائم، قال: فقلنا: «امضوا» . فاستيقظ رسول الله ﷺ: فقال: «افعلوا كما كنتم تفعلون وكذلك من نام أو نسي» . قال: وفقدنا ناقة رسول الله ﷺ، فطلبناها فوجدناها قد تعلق خطامها بشجرة، فأتيته بها فركبها، فبينما نحن نسير إذ أتاه الوحي، قال: وكان إذا أتاه الوحي اشتد عليه، فلما سرى عنه أخبرنا أنه أنزل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ . وقد رواه أحمد وأبو داود، والنسائى (٣) . وروى الإمام أحمد عن المغيرة بن شعبه قال: كان النبى ﷺ يصلى حتى ترم قدماءه، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً» . أخرجاه وبقية الجماعة إلا أبو داود (٤) . وروى الإمام أحمد عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تنفطر رجلاه . فقالت له عائشة: يا رسول الله، أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً؟» . أخرجه مسلم (٥) .

فقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ أى: بينا ظاهراً، والمراد به صلح الحديدية فإنه حصل بسببه خير جزيل، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان .

وقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ : هذا من خصائصه ﷺ - التى لا يشاركه فيها غيره . وليس فى حديث صحيح فى ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو ﷺ فى جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التى لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو ﷺ أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم فى الدنيا والآخرة . ولما كان أطوع خلق الله تعالى وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه،

(١) المسند (٢٠٩) والبخارى (٤٨٣٣) والترمذى (٣٢٦٢) والنسائى فى الكبرى (١١٤٩٩) .

(٢) المسند (١٩٧/٣) والبخارى (٤١٤٨) ومسلم (٩٧/١٧٨٦) .

(٣) ابن جرير فى التفسير (٤٣/٢٦) والمسند (٤٤٢١) وأبو داود (٤٤٧) والنسائى فى الكبرى (٨٨٥٣) . وقال الشيخ

أحمد شاکر : «إسناده صحيح» .

(٤) المسند (٥٥/٤) والبخارى (٤٨٣٦) ومسلم (٧٩/٢٨١٩) والترمذى (٤١٢) وابن ماجه (١٤١٩) .

(٥) المسند (١١٥/٦) ومسلم (٨١/٢٨٢٠) .

قال حين بركت به الناقة: «حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذى نفسى بيده، لا يسألونى اليوم شيئا يعظمون به حرمت الله إلا أحببتهم إليها» (١). فلما أطاع الله فى ذلك وأجاب إلى الصلح، قال الله له: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا. لِيَفْقَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ ﴾ فى الدنيا والآخرة، ﴿ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ أى: بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم، ﴿ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ﴾ أى: بسبب خضوعك لأمر الله يرفعك الله وينصرك على أعدائك، كما جاء فى الحديث الصحيح: «وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» (٢). وعن عمر بن الخطاب أنه قال: ما عاقبت - أى فى الدنيا والآخرة - أحدا عصى الله تعالى فىك بمثل أن تطيع الله فيه.

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ﴿١﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَلَّتْ السَّوْءُ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيمًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ أى: جعل الطمأنينة ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم الصحابة يوم الحديبية، الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلما اطمأنت قلوبهم لذلك، واستقرت، زادهم إيمانًا مع إيمانهم. وقد استدلل بها البخارى وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان فى القلوب.

ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين، فقال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: ولو أرسل عليهم ملكا واحدا لأباد حضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال، لما له فى ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة، والبراهين الدامغة؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. ثم قال تعالى: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى: ماكين فيها أبدا، ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أى: خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يعفو ويصفح ويغفر، ويستر ويرحم ويشكر، ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، كقوله: ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَاعٌ الْفُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقوله: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ أى: يهتمون الله فى حكمه، ويظنون بالرسول وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية؛ ولهذا قال: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ

السُّوءِ وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ﴿٨﴾ أى : أبعدهم من رحمته ، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ . ثم قال مؤكداً لقدرته على الانتقام من الأعداء - أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين : ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَزِيرًا حَكِيمًا﴾ .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ ﴿٩﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا ﴾ أى : على الخلق ، ﴿ وَمُبَشِّرًا ﴾ أى : للمؤمنين ، ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ أى : للكافرين . وقد تقدم تفسيرها فى سورة «الأحزاب» (١) ﴿ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : يعظموه ، ﴿ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام ، ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ ﴾ أى : يسبحون الله ، ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أى : أول النهار وآخره . ثم قال تعالى لرسوله ﷺ تشريفًا له وتعظيمًا وتكريمًا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ ، كقولہ : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء : ٨٠] ، ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى : هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم ، فهو تعالى هو المبايع بواسطه رسوله ﷺ ، كقولہ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفُرْقَانُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١١١] .

ولهذا قال هاهنا : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾ أى : إنما يعود وبال ذلك على الناكث ، والله غنى عنه ، ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أى : ثوابًا جزيلاً . وهذه البيعة هى بيعة الرضوان ، وكانت تحت شجرة سمر بالحديبية ، وكان الصحابة الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ قيل : ألف وثلثمائة . وقيل : أربعمائة . وقيل : وخمسمائة . والأوسط أصح .

ذكر الأحاديث الواردة فى ذلك :

روى البخارى عن جابر قال : كنا يوم الحديبية ألفًا وأربعمائة . ورواه مسلم (٢) . وأخرجه عن جابر قال : كنا يومئذ ألفًا وأربعمائة ، ووضع يده فى ذلك الماء ، فنبع الماء من بين أصابعه ، حتى رويوا كلهم (٣) . وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية ، وأن رسول الله ﷺ أعطاهم سهما من كنانته ، فوضعه فى بئر الحديبية ، فجاشت بالماء ، حتى كفتهم ، فقيل لجابر : كم كنتم يومئذ ؟ قال : كنا ألفًا وأربعمائة ، ولو كنا مائة ألف لكفانا (٤) .

(١) عند الآية (٤٥) .

(٢) البخارى (٤٨٤٠) ومسلم (٦٧/١٨٥٦) .

(٣) البخارى (٤١٥٤) ومسلم (٧٢/١٨٥٦) .

(٤) البخارى (٥٦٣٩) .

وفى رواية فى الصحيحين عن جابر: أنهم كانوا خمس عشرة مائة (١) . وروى البخارى من حديث قتادة، قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة. قلت: فإن جابر بن عبد الله، رضى الله عنهما، قال: كانوا أربع عشرة مائة. قال رحمه الله: وهم، هو حدثنى أنهم كانوا خمس عشرة مائة (٢). قال البيهقى: هذه الرواية تدل على أنه كان فى القديم يقول: خمس عشرة مائة، ثم ذكر الوهم فقال: أربع عشرة مائة. الذى رواه البيهقى عن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفا وأربعمائة (٣). وكذلك هو فى رواية سلمة بن الأكوع، ومعقل بن يسار، والبراء ابن عازب. وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازى والسير. وقد أخرج صاحبها الصحيح من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة قال: سمعت عبد الله بن أبى أوفى يقول: كان أصحاب الشجرة ألفا وأربعمائة، وكانت أسلم يومئذ ثمن المهاجرين (٤).

ذكر سبب هذه البيعة العظيمة:

قال ابن إسحاق: ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب لبيعته إلى مكة ليلبغ عنه أشرف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إنى أخاف قريشا على نفسى، وليس بمكة من بنى عدى ابن كعب من يمنعى، وقد عرفت قريش عداوتى إياها، وغلطى عليها، ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى، عثمان بن عفان، فبعته إلى أبى سفيان وأشرف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه جاء زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته. فخرج عثمان إلى مكة، فلقبه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبى سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ. واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل.

قال ابن إسحاق: فحدثنى عبد الله بن أبى بكر: أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: « لا نبرح حتى نناجز القوم ». ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة. فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت. وكان جابر بن عبد الله يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت، ولكن بايعنا على الألف نفر. فبايع الناس، ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخو بنى سلمة، فكان جابر يقول: والله لكأنى أنظر إليه لاصقا بإبط ناقته، قد ضبا إليها يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذى كان من أمر عثمان باطل (٥).

(١) البخارى (٤١٥٢) ومسلم (٧٣/١٨٥٦). (٢) البخارى (٤١٥٣).

(٣) البيهقى فى الدلائل (٩٧/٤، ٩٨).

(٤) البخارى (٤١٥٥) ومسلم (٧٥/١٨٥٧). وفيها: « ألفا وثلاثمائة ».

(٥) سيرة ابن هشام (٢٦١/٣٠، ٢٦٢).

وروى البخارى عن نافع، قال: إن الناس يتحدثون أن ابن عمر أسلم قبل عمر، وليس كذلك، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار أن يأتى به ليقاتل عليه، ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة، وعمر لا يدرى بذلك، فبايعه عبد الله، ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر، وعمر يستلثم للقتال، فأخبره أن رسول الله ﷺ يبايع تحت الشجرة، فانطلق، فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ، وهى التى يتحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر. ثم روى البخارى عن ابن عمر، أن الناس كانوا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية قد تفرقوا فى ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ فقال - يعنى عمر -: يا عبد الله، انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ. فوجدهم يبايعون، فبايع ثم رجع إلى عمر فخرج فبايع (١). وعن جابر، قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة فبايعناه، وعمر آخذ بيده تحت الشجرة وهى سمرة، وقال: بايعناه على ألا نفر، ولم نبايعه على الموت. رواه مسلم، عن قتيبة، عنه (٢). وروى مسلم عن معقل بن يسار، قال: لقد رأيتنى يوم الشجرة والنبي ﷺ يبايع الناس، وأنا رافع غصنا من أغصانها عن رأسه، ونحن أربع عشرة مائة، قال: ولم نبايعه على الموت، ولكن بايعناه على ألا نفر (٣). وروى البخارى عن يزيد بن أبى عبيد، عن سلمة ابن الأكوع، قال: بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال يزيد: قلت: يا أبا مسلم، على أى شىء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال: على الموت (٤). وروى البخارى أيضا عن سلمة، قال: بايعت رسول الله ﷺ يوم الحديبية ثم تنحيت، فقال: «يا سلمة، ألا تبايع؟» قلت: بايعت، قال: «أقبل فبايع». فدنوت فبايعته. قلت: علام بايعته يا سلمة؟ قال: على الموت. وأخرجه مسلم (٥). وكذا روى البخارى عن عباد بن تميم، أنهم بايعوه على الموت (٦).

وروى البيهقى عن سلمة بن الأكوع قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة، وعليها خمسون شاة لا ترويهما، فقعد رسول الله ﷺ على جباها - يعنى الركى - فإما دعا وإما بصق فيها، فجاشت، فسقينا واستقينا. قال: ثم إن رسول الله ﷺ دعا إلى البيعة فى أصل الشجرة. فبايعته أول الناس، ثم بايع وبايع، حتى إذا كان فى وسط الناس قال ﷺ: «بايعنى يا سلمة». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك فى أول الناس. قال: «وأىضا». قال: ورأتى رسول الله ﷺ عزلا فأعطانى حجة - أو درقة - ثم بايع حتى إذا كان فى آخر الناس قال ﷺ: «ألا تبايع يا سلمة؟». قال: قلت: يا رسول الله، قد بايعتك فى أول الناس وأوسطهم. قال: «وأىضا». فبايعته الثالثة، فقال: «يا سلمة، أين حجفتك أو درقتك التى أعطيتك؟». قال: قلت: يا رسول الله، لقينى عامر عزلا فأعطيته إياه: فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «إنك كالذى قال الأول: اللهم أبغنى حبيبا هو أحب إلى من نفسى» قال: ثم إن المشركين من

(٢) مسلم (٦٧/١٨٥٦).

(٤) البخارى (٢٩٦٠).

(٦) البخارى (٢٩٥٩).

(١) البخارى (٤١٨٧).

(٣) مسلم (٧٦/١٨٥٨).

(٥) مسلم (٨٠/١٨٦٠).

أهل مكة راسلونا فى الصلح حتى مشى بعضنا فى بعض فاصطلحنا. قال: وكنت خادما لطلحة ابن عبيد الله، رضى الله عنه، أسقى فرسه وأحسه وأكل من طعامه، وتركت أهلى ومألى مهاجرا إلى الله ورسوله. فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة، واختلط بعضنا ببعض، أتيت شجرة فكسحت شوكها، ثم اضطجعت فى أصلها فى ظلها، فأتانى أربعة من مشركى أهل مكة، فجعلوا يقعون فى رسول الله ﷺ فأبغضتهم، وتحولت إلى شجرة أخرى فعلقوا سلاحهم واضطجعوا، فبينما هم كذلك إذا نادى مناد من أسفل الوادى: يا للمهاجرين، قتل ابن زنيم. فاخترطت سيفى، فشددت على أولئك الأربعة وهم رقود، فأخذت سلاحهم وجعلته ضعفا فى يدى، ثم قلت: والذى كرم وجه محمد ﷺ، لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذى فيه عيناه، قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ، قال: وجاء عمى عامر برجل من العبلات يقال له: «مركز» من المشركين يقوده، حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ فى سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ وقال: «دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه»، فعفا عنهم رسول الله ﷺ، وأنزل الله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ الآية [الفتح: ٢٤]. وهكذا رواه مسلم بنحوه، أو قريبا منه (١).

وثبت فى الصحيحين عن سعيد بن المسيب، قال: كان أبى ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فانطلقنا من قابل حاجين، فخفى علينا مكانها، فإن كان تبينت لكم، فأنتم أعلم(٢). وروى أبو بكر الحميدى عن جابر، قال: لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، وجدنا رجلا منا يقال له «الجد بن قيس» مختبئا تحت إبط بعيره. رواه مسلم(٣). وروى الحميدى أيضا عن عمرو، سمع جابرا، قال: كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة، فقال لنا رسول الله ﷺ «أنتم خير أهل الأرض اليوم». قال جابر: لو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة. قال سفيان: إنهم اختلفوا فى موضعها. أخرجاه(٤). وعن جابر، عن النبى ﷺ أنه قال: «من يصعد الثنية، ثنية المرار، فإنه يحط عنه ما حط عن بنى إسرائيل». فكان أول من صعد خيل بنى الخزرج، ثم تبادر الناس بعد، فقال رسول الله ﷺ: «كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر». فقلنا: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ. فقال: والله لأن أجد ضالتى أحب إلى من أن يستغفر لى صاحبكم. فإذا هو رجل ينشد ضالة. رواه مسلم(٥). وعن أم مبشر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النار - إن شاء الله - من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد». قالت: بلى يا رسول الله. فاتهرها، فقالت لحفصة: ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١]، فقال النبى ﷺ: «قد قال الله: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًا ﴾»

(١) البيهقى فى الدلائل (١٣٨/٤) ومسلم (١٣٢/١٨٠٧).

(٢) البخارى (٤١٦٤) ومسلم (٧٧/١٨٥٩).

(٣) الحميدى فى المسند (٥٣٧/٢) ومسلم (٦٩/١٨٥٦).

(٤) الحميدى فى المسند (٥١٤/٢) والبخارى (٤١٥٤) ومسلم (٧١/١٨٥٦).

(٥) مسلم (١٢/٢٧٨٠).

[مریم: ٧٢]، رواه: مسلم (١) . وفيه أيضا عن جابر؛ أن عبداً لحاطب بن أبى بلتعة جاء يشكو حاطباً، فقال: يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ: «كذبت، لا يدخلها؛ فإنه قد شهد بدرا والحديبية» (٢) .

ولهذا قال تعالى فى الشئاء عليهم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَرْقٌ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ١٠] ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح : ١٨] .

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ طَرَفَ السَّوِّءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِرْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾

يقول تعالى مخبراً رسوله ﷺ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام فى أهليهم وشغلهم، وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ، فاعتذروا بشغلهم بذلك، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ، وذلك قول منهم لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ أى: لا يقدر أحد أن يرد ما أَرَادَهُ فيكم تعالى وتقدس، وهو العليم بسر أئركم وضمائرهم، وإن صانعتونا وتابعتونا؛ ولهذا قال: ﴿ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ . ثم قال: ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ أى: لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص، بل تخلف نفاق، ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ أى: اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم، وتستباد خضراؤهم، ولا يرجع منهم مخبر، ﴿ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوِّءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ أى: هلكى. قاله ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد. وقال قتادة: فاسدين.

ثم قال: ﴿ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِرْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [الآية] أى: من لم يخلص العمل فى الظاهر والباطن لله، فإن الله تعالى سيعذبه فى السعير، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه فى نفس الأمر. ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف فى أهل السموات والأرض: ﴿ يُغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أى: لمن تاب إليه وأتاب، وخضع لديه.

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَفَاذِهِمْ لِتَأْخُذُوهُمْ ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالِ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَبِقُوا اللَّهَ بِمَا كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿١٥﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه إلى خيبر يفتحونها : أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المنعم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم ، فأمر الله رسوله ﷺ ألا يأذن لهم في ذلك ، معاقبة لهم من جنس ذنبهم . فإن الله تعالى وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يشركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين ، فلا يقع غير ذلك شرعاً وقدراً ؛ ولهذا قال : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ ﴾ قال مجاهد ، وقتادة : وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية . واختاره ابن جرير . وقال ابن جريج : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ ﴾ يعنى : بتبسيطهم المسلمين عن الجهاد .

﴿ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالِ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم ، ﴿ فَسَبِقُوا اللَّهَ بِمَا كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى : ليس الأمر كما زعموا، ولكن لا فهم لهم .

﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرَةٌ إِلَى قَوْمِ أُولَىٰ بِأْسِ شَدِيدٍ فَأُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطَّيَعُوا يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ﴿١٦﴾

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

اختلف المفسرون فى هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم، الذين هم أولو بأس شديد، على أقوال: أحدها: أنهم هوازن. عن سعيد بن جبيرة أو عكرمة، أو جميعاً، وبه يقول قتادة فى رواية عنه. الثانى: ثقف، قاله الضحاك الثالث: بنو حنيفة، قاله جويرير والزهرى. الرابع: هم أهل فارس. عن ابن عباس، وبه يقول عطاء، ومجاهد، وعكرمة. وعن ابن أبى ليلى، وعطاء، والحسن، وقتادة: هم فارس والروم. وعن مجاهد: هم أهل الأوثان. وعنه أيضاً: هم رجال أولو بأس شديد، ولم يعين فرقة. وبه يقول ابن جريج ، وهو اختيار ابن جرير. وعن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما صغار الأعين، ذلف الأنوف، كأن وجوههم المجان المطرقة » . قال سفيان : هم الترك (١) .

وقوله: ﴿ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ ﴾ يعنى : يشرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمرا

عليهم، ولكم النصره عليهم، أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار ﴿ فَإِنْ تَطِيعُوا ﴾ أى: تستجيبوا وتنفروا فى الجهاد وتؤدوا الذى عليكم فيه، ﴿ يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعنى: زمن الحديبية، حيث دعيتم فتحلفتن، ﴿ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ . ثم ذكر الأعدار فى ترك الجهاد، فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر، وعارض كالمرض الذى يطرأ أيما ثم يزول، فهو فى حال مرضه ملحق بدوى الأعدار اللازمة حتى يبرأ. ثم قال تعالى مرغبا فى الجهاد وطاعة الله ورسوله: ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ أى: ينكل عن الجهاد، ويقبل على المعاش ﴿ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فى الدنيا بالمذلة، وفى الآخرة بالنار.

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ رِيعَ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وقد تقدم ذكر عدتهم، وأنهم كانوا ألفا وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية. روى البخارى عن طارق بن عبد الرحمن قال: انطلقت حاجاً فمررت بقوم يصلون، فقلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة، حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان. فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال سعيد: حدثنى أبى أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة. قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم (١). وقوله: ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أى: من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة، ﴿ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ ﴾ وهى الطمأنينة، ﴿ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ وهو ما أجرى الله على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة فى الدنيا والآخرة؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ .

﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَجْدُونَ وِلْيًا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾

قال مجاهد فى قوله : ﴿ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ : هى جميع المغانم إلى اليوم ، ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ يعنى : فتح خيبر . وعن ابن عباس : ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ يعنى : صلح الحديبية . ﴿ وَكَفَّ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ ﴾ أى : لم ينلكنم سوء مما كان أعداؤكم أضمره لكم من المحاربة والقتال . وكذلك كف أيدى الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء أظهركم عن عيالكم وحرىكم ، ﴿ وَلَتَكُونَ آيَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : يعتبرون بذلك ، فإن الله حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء ، مع قلة عددهم ، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العليم بعواقب الأمور ، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه فى الظاهر ، كما قال : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦] . ﴿ وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ أى : بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته ، وموافقتكم رسوله ﷺ .

وقوله : ﴿ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدَرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ أى : وغنيمة أخرى وفتحا آخر معنا لم تكونوا تقدرون عليها ، قد يسرها الله عليكم ، وأحاط بها لكم ، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون . وقد اختلف المفسرون فى هذه الغنيمة ، ما المراد بها؟ فقال ابن عباس : هى خيبر . وهذا على قوله فى قوله تعالى : ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ : إنها صلح الحديبية . وقاله الضحاك ، وابن إسحاق ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وقال قتادة : هى مكة . واختاره ابن جرير . وقال ابن أبى ليلى ، والحسن البصرى : هى فارس والروم . وقال مجاهد : هى كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة .

وقوله : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا الْأَذْبَارُتُمْ لَا يُجِدُونَ وِلْيًا وَلَا نَصِيرًا ﴾ : يقول تعالى مبشرا لعباده المؤمنين : بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم ، ولأنهزم جيش الكفار فآرا مدبرا لا يجدون وليا ولا نصيرا ؛ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولخزبه المؤمنين . ثم قال : ﴿ سِنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسِنََّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ أى : هذه سنة الله وعادته فى خلقه ، ما تقابل الكفر والإيمان فى موطن فيصل إلى نصر الله الإيمان على الكفر ، فرفع الحق ووضع الباطل ، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائه من المشركين ، مع قلة عدد المسلمين وعددهم ، وكثرة المشركين وعددهم .

وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ : هذا امتنان من الله على عباده المؤمنين حين كف أيدى المشركين عنهم ، فلم يصل إليهم منهم سوء ، وكف أيدى المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، بل صان كللاً من الفريقين ، وأوجد بينهم صلحا فيه خيرة للمؤمنين ، وعاقبة لهم فى الدنيا والآخرة . وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة فى السلاح ، من قبل جبل التنعيم ، يريدن غرة رسول الله ﷺ ، فدعا عليهم فأخذوا - قال عفان : فعفا عنهم - ونزلت هذه الآية : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ . ورواه مسلم وأبو داود والترمذى

والنسائي (١) . وروى أحمد عن عبد الله بن مَعْقِلِ بْنِ الْمُرْتَبِي قال : كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن ، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ ، وعلى بن أبي طالب . وسهيل بن عمرو بين يديه ، فقال رسول الله ﷺ لعلي : « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم » ، فأخذ سهيل بيده وقال : ما نعرف الرحمن الرحيم . اكتب في قضيتنا ما نعرف . قال : « اكتب بسمك اللهم » ، وكتب : « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة » . فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال : لقد ظلمناك إن كنت رسوله ، اكتب في قضيتنا ما نعرف . فقال : « اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله » . فبينما نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح ، فثاروا في وجوهنا ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ ، فأخذ الله بأسماعهم ، فقمنا إليهم فأخذناهم ، فقال رسول الله ﷺ : « هل جئتم في عهد أحد ؟ أو : هل جعل لكم أحد أمانا ؟ » . فقالوا : لا . فخلى سبيلهم ، فأنزل الله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ . رواه النسائي (٢) .

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيْبِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بِغَيْرِ عَلْمٍ لِيُنْخَلَّ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركى العرب من قريش ومن مالا هم على نصرتهم على رسول الله ﷺ : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : هم الكفار دون غيرهم ﴿ وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أى : وأنتم أحق به ، وأنتم أهله فى نفس الأمر ، ﴿ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ ﴾ أى : وصدوا الهدى أن يصل إلى محله ، وهذا من بغيتهم وعنادهم .

وقوله : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ ﴾ أى : بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم ، لكننا سلطناكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم ، ولكن بين أفتائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل ؛ ولهذا قل : ﴿ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ ﴾ .

(١) المسند (١٢٢/٣) ومسلم (١٣٣/١٨٠٨) وأبو داود (٢٦٨٨) والترمذى (٣٢٦٤) والنسائي فى الكبرى (١١٥١٠) .

(٢) المسند (٨٦/٤) والنسائي فى الكبرى (١١٥١١) . وقال الهيثمى فى الزوائد (١٤٥/٦) : « رجال أحمد رجال الصحيح » .

فَتُصِيبُكُمْ مِنْهُمُ مَعْرَةٌ ﴿٢٥﴾ أى : إثم وغرامة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿٢٦﴾ أى : يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين ، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام . ثم قال تعالى : ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أى : لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أى : لسلطانكم عليهم فلقتلتموهم قتلا ذريعا . روى الطبرانى : عن جنيد بن سبغ قال : قاتلت رسول الله ﷺ أول النهار كافرا ، وقاتلت معه آخر النهار مسلما ، وفيما نزلت : ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ الْمُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ . قال : كنا تسعة نفر : سبعة رجال وامرأتين (١) . وعن ابن عباس : ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يقول : لو تزيل الكفار من المؤمنين ، لعذبهم الله عذابا أليما بقتلهم إياهم .

وقوله : ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ﴾ : وذلك حين أبوا أن يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم» ، وأبوا أن يكتبوا : «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » ، ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ ، وهى قول : « لا إله إلا الله » . وقال مجاهد : ﴿كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ : الإخلاص ، وقال عطاء بن أبى رباح : هى لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير . وقال على : لا إله إلا الله ، والله أكبر . وكذا قال ابن عمر ، رضى الله عنهما . وقال ابن عباس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وهى رأس كل تقوى . وقال سعيد بن جبير لا إله إلا الله ، والجهاد فى سبيله . وقال عطاء الخراسانى : هى : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . وقال الزهري : بسم الله الرحمن الرحيم . وقال قتادة : لا إله إلا الله .

﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ : كان المسلمون أحق بها ، وكانوا أهلها . ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أى : هو عليم بمن يستحق الخير من يستحق الشر . وقد روى النسائى عن أبى بن كعب أنه كان يقرأ : ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ﴾ [الفتح : ٢٦] ، ولو حميتم كما حموا لفسد المسجد الحرام . فبلغ ذلك عمر فأغلظ له ، فقال : إنك لتعلم أنى كنت أدخل على رسول الله ﷺ فيعلمنى مما علمه الله . فقال عمر : بل أنت رجل عندك علم وقرآن ، فاقرا وعلم مما علمك الله ورسوله (٢) .

وهذا ذكر الأحاديث الواردة فى قصة الحديبية وقضية الصلح :

روى الإمام أحمد عن المسور بن مخزوم ومروان بن الحكم قالوا : خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت ، لا يريد قتالا ، وساق معه الهدى سبعين بدنة ، وكان الناس سبعمائة رجل ، فكانت كل بدنة عن عشرة ، وخرج رسول الله ﷺ حتى إذ كان بعسفان لقيه بشر بن

(١) الطبرانى فى المعجم الكبير (٢/ ٢٩٠) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (٧/ ١١٠) : « رواه الطبرانى بإسنادين رجال أحدهما ثقات » .

(٢) النسائى فى الكبرى (١/ ١١٥٠) .

سفيان الكعبي، فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجت معها العوذ المطافيل، قد لبست جلود النمرور، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموه إلى كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش! قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهدكم على الذي بعثني الله به حتى يظهرني الله أو تنفرد هذه السالفة». ثم أمر الناس فسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمض على طريق تخرجه على ثنية المرار والحديبية من أسفل مكة. قال: فسلك بالجيش تلك الطريق، فلما رأت خيل قريش قفرة الجيش قد خالفوا عن طريقهم، ركضوا راجعين إلى قريش، فخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا سلك ثنية المرار، بركت ناقته، فقال الناس: خلأت. فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت، وما ذلك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، والله لا تدعونني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها». ثم قال ﷺ للناس: «انزلوا». قالوا: يا رسول الله، ما بالوادي من ماء ينزل عليه الناس. فأخرج رسول الله ﷺ سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل في قلب من تلك القلب، فغرزه فيه فجاش بالماء حتى ضرب الناس عنه بعبطن. فلما اطمأن رسول الله ﷺ، إذا بُدِيل بن ورقاء في رجال من خزاعة، فقال لهم كقولہ لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، وإن محمداً لم يأت لقتال، إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحقه، فاتهموهم.

قال محمد بن إسحاق: قال الزهري: وكانت خزاعة في عيبة نصح لرسول الله ﷺ مشركها ومسلمها، لا يخفون على رسول الله ﷺ شيئاً كان بمكة، فقالوا: وإن كان إنما جاء لذلك فوالله لا يدخلها أبداً علينا عنوة، ولا يتحدث بذلك العرب. ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص، أحد بني عامر بن لؤي، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا رجل غادر». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه رسول الله ﷺ بنحو ما كلم به أصحابه، ثم رجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ؛ فبعثوا إليه الحليس بن علقمة الكناني، وهو يومئذ سيد الأحابيش، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا من قوم يتألهون، فابعثوا الهدى»، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله، رجع ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى، فقال: يا معشر قريش، قد رأيت ما لا يحل صدّه، الهدى في قلائده قد أكل أوتاره من طول الحبس عن محله. قالوا: اجلس، إنما أنت أعرابي لا علم لك. فبعثوا إليه عروة بن مسعود الثقفي، فقال: يا معشر قريش، إن قد رأيت ما يلقي منكم من تبعثون إلى محمد إذا جاءكم، من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم إلى والد وأنا ولد، وقد سمعت بالذي نابكم، فجمعت من أطاعني من قومي، ثم جئت حتى آسيكم بنفسي. قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم. فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه، فقال: يا محمد، جمعت أوباش الناس، ثم جئت بهم لبيضتك لتفضها، إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد

لبسوا جلود النمرور، يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبدا، وإيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا. قال: وأبو بكر قاعد خلف رسول الله ﷺ، فقال: امصص بظر اللات! نحن نكشف عنه؟! قال: من هذا يا محمدا؟ قال: «هذا ابن أبي حنيفة». قال: أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها، ولكن هذه بها. ثم تناول لحية رسول الله ﷺ، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ بالحديد، قال: فقرع يده. ثم قال: أمسك يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل - والله - لا تصل إليك. قال: ويحك! ما أظفلك وأغلظك! فتبسم رسول الله ﷺ. قال: من هذا يا محمدا؟ قال ﷺ: «هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة». قال: أغدر، وهل غسلت سواتك إلا بالأمس؟! قال فكلمه رسول الله ﷺ بمثل ما كلم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حربا. قال: فقام من عند رسول الله ﷺ وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ وضوءاً إلا ابتدره، ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدره، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه. فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش، إني جئت كسرى في ملكه، وجئت قيصر والنجاشي في ملكهما، والله ما رأيت ملكاً قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا، فروا رأيكم. قال: وقد كان رسول الله ﷺ قبل ذلك قد بعث خراش بن أمية الخزاعي إلى مكة، وحمله على جمل له يقال له: «الثعلب»، فلما دخل مكة عقرت به قريش، وأرادوا قتل خراش، فمنعتهم الأحابيش، حتى أتى رسول الله ﷺ، فدعا عمر ليعثه إلى مكة، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بها من بني عدى أحد يمنعي، وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها، ولكن أدلك على رجل هو أعز مني: عثمان بن عفان. قال: فدعاه رسول الله ﷺ، فبعثه إلى قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب أحد، وإنما جاء زائراً لهذا البيت، معظماً لحرمته. فخرج عثمان حتى أتى مكة، فلقى أبان بن سعيد بن العاص، فترز عن دابته وحمله بين يديه وردفه خلفه، وأجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به، فقالوا لعثمان: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف به، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ قال: واحتبسته قريش عندها، قال: وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل.

قال محمد: فحدثني الزهري: أن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو، وقالوا: ائت محمداً فصالحه ولا تكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً. فاتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ تكلموا وأطالا الكلام، وتراجعا حتى جرى بينهما الصلح، فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أو ليس برسول الله؟ أو لسنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الذلة في ديننا؟ فقال أبو بكر: الزم غرزه حيث كان، فإنني أشهد أنه رسول الله. فقال عمر: وأنا أشهد. ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أو لسنا بالمسلمين أو ليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى». قال: فعلام نعطي الذلة في ديننا؟ فقال: «أنا عبد الله ورسوله، لن

أخالف أمره ولن يضيعني». ثم قال عمر: مازلت أصوم وأصلي وأتصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيراً. قال: ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبي طالب فقال: اكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال سهيل بن عمرو: ولا أعرف هذا، ولكن اكتب: «باسمك اللهم»، فقال رسول الله: «اكتب باسمك اللهم. هذا ما صالح عليه محمد رسول الله»، فقال سهيل بن عمر: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، سهيل بن عمرو، على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى رسول الله من أصحابه بغير إذن وليه، رده عليهم، ومن أتى قريشاً ممن مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليه وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا أسلال ولا أغلال، وكان في شرطهم حين كتبوا الكتاب: أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده، دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد رسول الله ﷺ وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم، وأنت ترجع عنا عامنا هذا فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فتدخلها بأصحابك، وأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف في القرب. فبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب، إذا جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو في الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ قال: وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكون في الفتح، لرؤيا رآها رسول الله ﷺ، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع، وما تحمل رسول الله ﷺ على نفسه، دخل الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا أن يهلكوا. فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وقال: يا محمد، قد تمت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا. قال: «صدقت». فقام إليه فأخذ بتلابيبه. قال: وصرخ أبو جندل بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أتردونني إلى أهل الشرك فيفتنونني في ديني؟ قال: فزاد الناس شراً إلى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً فأعطيناهم على ذلك وأعطينا عليه عهداً، وإنا لن نغدر بهم». قال: فوثب إليه عمر بن الخطاب فجعل يمشى مع أبي جندل إلى جنبه وهو يقول: اصبر أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، قال: ويدنى قائم السيف منه، قال: يقول: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه، قال: فضن الرجل بأبيه. قال: ونفذت القضية، فلما فرغاً من الكتاب، وكان رسول الله ﷺ يصلي في الحرم، وهو مضطرب في الحل، قال: فقام رسول الله ﷺ فقال: «يأيها الناس، انحروا واحلقوا». قال: فما قام أحد. قال: ثم عاد بمثلها فما قام رجل، ثم عاد ﷺ بمثلها، فما قام رجل. فرجع رسول الله ﷺ فدخل على أم سلمة فقال: «يا أم سلمة، ما شأن الناس؟». قالت: يا رسول الله، قد دخلهم ما رأيت، فلا تكلمن منهم إنساناً، واعمد إلى هديك حيث كان فانحروا وحلقوا، فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك. فخرج رسول الله ﷺ لا يكلم أحداً حتى

إذا أتى هديه فنحره، ثم جلس فخلق، قال: فقام الناس ينحرون ويحلقون. قال: حتى إذا كان بين مكة والمدينة في وسط الطريق نزلت سورة الفتح.

هكذا ساقه أحمد من هذا الوجه، وقد رواه البخارى في صحيحه، فساقه بسياسة حسنة مطولة بزيادات جيدة، فروى في كتاب الشروط من صحيحه عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه، قالوا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدى وأشعره، وأحرم منها بعمرة وبعث عيناً له من خزاعة، وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينه، فقال: إن قريشاً قد جمعوا لك جمعوا، وقد جمعوا لك الأحابيش وهم مقاتلوك وصادوك ومانعوك. فقال ﷺ: « أشيروا أيها الناس على، أترون أن نميل على عيالهم، وذراى هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت؟»، وفي لفظ: «أترون أن نميل على ذراى هؤلاء الذين أعانوهم. فإن يأتونا كان الله قد قطع عنقنا من المشركين وإلا تركناهم محزونين»، وفي لفظ: «فإن قعدوا قعدوا موتورين مجهودين محروبين وإن نجوا يكن عنقاً قطعها الله، أم ترون أن تؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟». فقال أبو بكر: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت، لا نريد قتل أحد ولا حرباً، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه. وفي لفظ: فقال أبو بكر: الله ورسوله علم إنما جئنا معتمرين، ولم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه. فقال النبي ﷺ: «فروحوا إذن»، وفي لفظ: «فامضوا على اسم الله».

حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين». فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها، بركت به راحلته فقال الناس: حل حل فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل» ثم قال: «والذى نفسى بيده، لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمة الله، إلا أعطيتهم إياها». ثم زجرها فوثبت، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشكى إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع ﷺ من كنانته سهماً ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء بدليل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى، نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت. فقال النبي ﷺ: «إننا لم نجئ لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب فأضرت بهم، فإن شاؤوا ماددناهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن هم أبوا فالذى نفسى بيده لاقاتلهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى، أو لينفذن الله أمره». قال

بدليل : سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشا فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن نخبرنا عنه بشيء . وقال: ذو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول. قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال: أى قوم، أستم بالوالد؟ قالوا: بلى. قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى. قال: فهل تتهمونى؟ قالوا: لا. قال: أستم تعلمون أنى استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا على جنتكم بأهلى وولدى ومن أطاعنى؟ قالوا: بلى. قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعونى آتة. قالوا: آتة. فاتاه فجعل يكلم النبى ﷺ، فقال النبى ﷺ له نحواً من قوله لبديل بن ورقاء. فقال عروة عند ذلك: أى محمد، رأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك؟ وإن تك الأخرى فإنى والله لأرى وجوهاً، وإنى لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك، فقال أبو بكر: امصص بظُر اللات! أنحن نفر وندعه؟! قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذى نفسى بيده لولا يد كانت لك عندى لم أجرك بها، لأجبتك. قال: وجعل يكلم النبى ﷺ فكلما كلمه أخذ بلحيته ﷺ، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبى ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبى ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال: آخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ. فرجع عروة رأسه وقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أى غدر، ألتست أسعى فى غدرتك؟! وكان المغيرة بن شعبة صحب قوما فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبى ﷺ: «أما الإسلام فاقبل، وأما المال فلست منه فى شىء». ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبى ﷺ بعينيه، قال: فوالله ما تنخم رسول الله نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا تواصوا كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه، تعظيماً له ﷺ، فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أى قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشى، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا تواصوا كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها. فقال رجل منهم من بنى كنانة: دعونى آتة. فقالوا: آتة، فلما أشرف على النبى ﷺ وأصحابه، قال النبى ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها له» فبعثت له، واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت. فقام رجل منهم يقال له: «مكرز بن حفص»، فقال: دعونى آتة. فقالوا: آتة. فلما أشرف عليهم قال النبى ﷺ: «هذا مكرز وهو رجل فاجر»، فجعل يكلم النبى ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو. وقال معمر: أخبرنى أيوب،

عن عِكْرِمَةَ أَنَّهُ قَالَ: لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: « قد سهّل لكم من أمركم ».

قال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينك كتابا فدعا النبي ﷺ بعلَى وقال: « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم »، فقال سهيل بن عمرو: أما «الرحمن» فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: «باسمك اللهم»، كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا: «بسم الله الرحمن الرحيم». فقال النبي ﷺ: «اكتب: باسمك اللهم». ثم قال: «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله». فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولاقاتلناك، ولكن اكتب: «محمد بن عبد الله»، فقال النبي ﷺ: «والله إنى لرسول الله وإن كذبتمنى. اكتب: محمد بن عبد الله» قال الزهري: وذلك لقوله: «والله لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمت الله إلا أعطيتهم إياها». فقال النبي ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به». فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضُغْطَةً، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: «وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا». فقال المسلمون: سبحان الله! كيف يردُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟! فينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسفُ فى قيوده، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أفاضيك عليه أن ترُدّه إلى، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد». قال: فوالله إذا لا أصالحك على شىء أبدا. فقال النبي ﷺ: «فأجزه لى» فقال: ما أنا بمجيز ذلك لك، قال: «بلى فافعل». قال: ما أنا بفاعل. قال مكرز: بلى قد أجزناه لك. قال أبو جندل: أى معشر المسلمين، أردُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما قد لقيت؟! وكان قد عذَّبَ عذاباً شديداً فى الله عز وجل قال عمر: فأتيت نبي الله ﷺ، فقلت: ألسنت نبي الله حقا؟ قال ﷺ: «بلى». قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى». قلت: فلم نعطي الدنيا فى ديننا إذا؟ قال: «إنى رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصرى»، قلت: أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرتكم أنا تأتية العام؟». قلت: لا، قال: «فإنك أتية ومطوفٌ به» قال: فأتيت أبا بكر فقلت: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنيا فى ديننا إذا؟ قال: أيها الرجل، إنه رسول الله، وليس يعصى ربه، وهو ناصره، فاستمسك بعُرْزِهِ، فوالله إنه على الحق. قلت: أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به؟ قال: بلى، قال: فأخبرك أنك تأتية العام؟ قلت: لا. قال: فإنك تأتية ونطوف به.

قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالا. قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فأنحروا ثم احلقوا». قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات!! فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، قالت له أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنك

وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحدا منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما، ثم جاءه نسوة مؤمنات، فأنزل الله، عز جل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ حتى بلغ: ﴿بِعِصْمِ الْكُوفِرِ﴾ [المتحنة: ١٠]. فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية. ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير - رجل من قريش - وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنى لأرى سيفك هذا يا فلان جيدا، فاستله الآخر، فقال: أجل! والله إنه لجيد، لقد جربت منه ثم جربت، فقال أبو بصير: أرنى أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى يرد، وقرّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذُعرا»، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي، وإنى لمقتول. فجاء أبو بصير فقال: يا رسول الله، قد - والله - أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم نجاني الله منهم، فقال النبي ﷺ: «ويل أمه مسعرا حرب! لو كان له أحد». فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وتلفت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبى بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم، وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ، تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم: «فمن أتاه منهم فهو آمن». فأرسل النبي ﷺ إليهم، وأنزل الله عز جل: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ حتى بلغ: ﴿حَمِيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه رسول الله، ولم يقروا بيسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت. وهكذا ساقه البخارى هاهنا، وقد أخرج في التفسير، وفي عمرة الحديبية، وفي الحج، وغير ذلك (١) ووقع في بعض الأماكن عن الزهري، عن عروة، عن مروان والمِسُور بن، عن رجال من أصحاب النبي ﷺ بذلك (٢). وهذا أشبه والله أعلم، ولم يسقه أبسط من هاهنا، وبينه وبين سياق ابن إسحاق تباين في مواضع، وهناك فوائد ينبغي إضافتها إلى ما هاهنا، ولذلك سقنا تلك الرواية وهذه، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

وروى البخارى في التفسير عن حبيب بن أبي ثابت، قال: أتيت أبا وائل أسأله فقال: كنا بصفين، فقال رجل: ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله؟ فقال على بن أبي طالب: نعم. فقال سهل بن حنيف: اتهموا أنفسكم، فلقد رأيتنا يوم الحديبية - يعنى: الصلح الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين ولو نرى قتالا لقاتلنا، فجاء عمر فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ فقال: «بلى». قال: فقيم نعطى الدنيا في ديننا،

ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال ﷺ: «يا ابن الخطاب، إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبدا»، فرجع متغيظا، فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال: يا ابن الخطاب، إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبدا، فنزلت سورة الفتح. وقد رواه البخاري أيضا في مواضع أخر ومسلم والنسائي، وفي بعض ألفاظه: «أيها الناس، اتهموا الرأي، فلقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أقدر على أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددته»، وفي رواية: فنزلت سورة الفتح، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب فقرأها عليه (١).

وروى الإمام أحمد عن أنس، أن قريشا صالحوا النبي ﷺ، فإيهام سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ لعلي: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: لا ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب: «باسمك اللهم». فقال ﷺ: «اكتب: من محمد رسول الله». قال: لو نعلم أنك رسول الله لا تبعناك، ولكن اكتب: اسمك واسم أبيك. فقال النبي ﷺ: «اكتب: من محمد بن عبد الله». واشترطوا على النبي ﷺ أن من جاء منكم لا نرده عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه علينا، فقال: يا رسول الله، أنت كتب هذا؟ قال: «نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله». رواه مسلم (٢). وروى أحمد أيضا عن عبد الله بن عباس قال: لما خرجت الحزورية اعتزلوا، فقلت لهم: إن رسول الله ﷺ يوم الحديبية صالح المشركين، فقال لعلي: «اكتب يا علي: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» قالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فقال رسول الله: «امح يا علي، اللهم إنك تعلم أتى رسولك، امح يا علي، واكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله». والله لرسول الله خير من علي، وقد محا نفسه، ولم يكن محوه ذلك يحاه من النبوة، أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم. ورواه أبو داود بنحوه (٣).

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس، قال: نحر رسول الله ﷺ يوم الحديبية سبعين بدنة فيها جمل لأبي جهل، فلما صدت عن البيت حنت كما تحن إلى أولادها (٤).

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۗ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام،

(١) البخاري (٣١٨١، ٣١٨٢، ٤١٨٩، ٤٨٤٤، ٧٣٠٨) ومسلم (٩٤/١٧٨٥) والنسائي في الكبرى (٤-١١٥٠).

(٢) المسند (٢٦٨/٣) ومسلم (٩٣/١٧٨٤).

(٣) المسند (٣١٨٧) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» وأبو داود (٤٠٣٧).

(٤) المسند (٢٨٨٢) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده حسن».

فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع في نفوس بعض الصحابة من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب ، فى ذلك، فقال له فيما قال : أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال : « بلى، أفأخبرتكَ أنك تأتية عامك هذا » قال : لا، قال : «فإنك أتية ومطوف به». وبهذا أجاب الصديق، أيضا حَدَوُ الْقُدَّةَ بِالْقُدَّةِ ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ : هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء فى شيء. وقوله: ﴿ آمِينَ ﴾ أى: فى حال دخولكم . وقوله : ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ حال مقدره ؛ لأنهم فى حال دخولهم لم يكونوا محلّقين ومقصرين، وإنما كان هذا فى ثانى الحال، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره، وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله المحلقين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: « رحم الله المحلقين ». قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «المقصرين» فى الثالثة أو الرابعة (١) .

وقوله : ﴿ لَا تَخَافُونَ ﴾ : حال مؤكدة فى المعنى، فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم فى البلد لا يخافون من أحد. وهذا كان فى عمرة القضاء فى ذى القعدة سنة سبع، فإن النبى ﷺ لما رجع من الحديبية فى ذى القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج فى صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه بعضها عنوة وبعضها صلحا، وهى إقليم عظيم كثير النخل والزروع، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر، وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم، ولم يشهدا أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة، جعفر بن أبى طالب وأصحابه، وأبو موسى الأشعرى وأصحابه، ولم يغيب منهم أحد، قال ابن زيد: إلا أبا دجانة سمّك بن خرشة، ثم رجع إلى المدينة، فلما كان فى ذى القعدة من سنة سبع خرج إلى مكة معتمرا هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذى الحليفة، وساق معه الهدى، قيل: كان ستين بدنة، فلبى وسار وأصحابه يلبون. فلما كان قريبا من مر الظهران بعث محمد ابن مسلمة بالخيال والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعبا شديدا، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم، وأنه قد نكث العهد الذى بينه وبينهم من وضع القتال عشر سنين، وذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسى والنبل والرماح إلى بطن يأجج، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة فى قربها، كما شارطهم عليه. فلما كان فى أثناء الطريق بعث قريش مكرز بن حفص فقال: يا محمد، ما عرفناك تنقض العهد. فقال ﷺ: «وما ذاك؟». قال: دخلت علينا بالسلاح والقسى والرماح. فقال: «لم يكن ذلك، وقد بعثنا به إلى يأجج»، فقال: بهذا عرفناك، بالبر والوفاء. وخرجت رؤوس الكفار من مكة لثلا ينظروا إلى رسول الله ﷺ و إلى أصحابه غيظا وحنقا، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا فى الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها

عليه الصلاة والسلام، وبين يديه أصحابه يلبنون، والهدى قد بعثه إلى ذى طوى، وهو راكب ناقته القصواء التى كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصارى أخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها، وهو يقول:

باسم الذى لا دين إلا دينه	باسم الذى محمدٌ رسوله
خلُّوا بنى الكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ	اليوم نضربكم على تَأْوِيلِهِ
كما ضربناكم على تنزيله	ضربًا يزيل الهام عن مَقِيلِهِ
ويذهل الخليل على خليله	قد أنزل الرحمن فى تنزيله
فى صُحُفٍ تُتلى على رسوله	بأن خير القتل فى سبيله

يا رب إنى مؤمن بقبيله

فهذا مجموع من روايات متفرقة .

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ لما نزل مرّ الظهران فى عمرته، بلغ أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشا تقول: ما يتباعثون من العَجَفِ . فقال أصحابه: لو انتحرنّا من ظهرنا، فأكلنا من لحمه، وحَسَوْنَا من مرّقه، أصبحنا غدا حين ندخل على القوم وبنّا جَمَامَةً . قال ﷺ: «لا تفعلوا، ولكن اجمعوا لى من أزوادكم». فجمعوا له وبسطوا الأنطاع، فأكلوا حتى تركوا وحثا كل واحد منهم فى جرابه، ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل المسجد، وقعدت قريش نحو الحجر، فاضطجع بردائه، ثم قال: «لا يرى القوم فيكم غميرة» فاستلم الركن ثم رمّل، حتى إذا تغيب بالركن اليمانى مشى إلى الركن الأسود، فقالت قريش: ما ترضون بالمشى أما إنكم لتنقزُونَ نَقَزَ الظباء، ففعل ذلك ثلاثة أشواط، فكانت سَنَةً . قال أبو الطفيل: فأخبرنى ابن عباس: أن رسول الله ﷺ فعل ذلك فى حجة الوداع (١) . وروى أحمد أيضا عن ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة، وقد وهنتهم حُمى يثرب، ولقوا منها سوءا، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب، ولقوا منها شرا، وجلس المشركون من الناحية التى تلى الحجر، فأطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة؛ ليرى المشركون جلدهم، قال: فرملوا ثلاثة أشواط، وأمرهم أن يمشوا بين الركنين حيث لا يراهم المشركون، ولم يمنع النبى ﷺ أن يرملوا الأشواط كلها إلا إبقاء عليهم، فقال المشركون: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا. أخرجاه فى الصحيحين (٢) . وفى لفظ: قدم النبى ﷺ وأصحابه صبيحة رابعة، أى من ذى القعدة، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم وفد قد وهنتهم حمى يثرب، فأمرهم النبى ﷺ أن

(١) المسند (٢٧٨٢) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» .

(٢) المسند (٨٦٨٦) والبخارى (٤٢٥٦) ومسلم (١٢٦٦/٢٤٠) .

يرملوا الأشواط الثلاثة، ولم يمنعهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم.

وروى البخارى عن ابن عباس قال: لما قدم النبي ﷺ لعامة الذى استأمن قال: «ارملوا». ليرى المشركون قوتهم، والمشركون من قبل قعقعان (١). وعن ابن عباس قال: إنما سعى النبي ﷺ بالبيت وبالصفا والمروة، ليرى المشركون قوته (٢). ورواه مسلم والنسائى، من طرق، عن سفيان بن عيينة، به (٣). وروى أيضا عن ابن أبى أوفى قال: لما اعتمر رسول الله ﷺ سترناه من غلمان المشركين ومنهم؛ أن يؤذوا رسول الله ﷺ. انفرد به البخارى دون مسلم (٤). وروى البخارى أيضا عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ خرج معتمرا، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحا عليهم إلا سيوفا، ولا يقيم بها إلا ما أحيوا. فاعتمر من العام المقبل، فدخلها كما كان صالحهم، فلما أن قام بها ثلاثا، أمره أن يخرج فخرج. وهو فى صحيح مسلم (٥). وروى البخارى أيضا عن البراء، قال: اعتمر النبي ﷺ فى ذى القعدة، فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب كتبوا: «هذا ما قاضانا عليه محمد رسول الله». قالوا: لا نقر بهذا، ولو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئا، ولكن أنت محمد بن عبد الله. قال: «أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله». ثم قال لعلى بن أبى طالب: «امح رسول الله». قال: لا، والله لا أمحوك أبدا. فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب، وليس يحسن يكتب، فكتب: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله: لا يدخل مكة السلاح إلا السيف فى القراب، وألا يخرج من أهلها بأحد أزداد أن يتبعه، وألا يمنع من أصحابه أحدا إن أراد أن يقيم بها» فلما دخلها ومضى الأجل، أتوا عليا فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادى: يا عم، يا عم. فتناولها على فأخذ بيدها، وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك فحملتها، فاختصم فيها على وزيد وجعفر، فقال على: أنا أخذتها وهى ابنة عمى، وقال جعفر: ابنة عمى وخالتها تحتى، وقال زيد: ابنة أخى، ف قضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: «الحالة بمنزلة الأم»، وقال لعلى: «أنت منى وأنا منك»، وقال لجعفر: «أشبهت خلقى وخلقى» وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا». قال على: ألا تتزوج ابنة حمزة؟ قال: «إنها ابنة أخى من الرضاة» انفرد به من هذا الوجه (٦).

وقوله: «فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا» أى: فعلم الله تعالى من الخير والمصلحة فى صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموه أنتم، «فَجَعَلَ مِنْ دُونِ

(١) فى المطبوعة حرفت إلى: «قنقاع» . (٢) البخارى (٤٢٥٧).

(٣) البخارى (١٦٤٩ ، ٤٢٥٦) ومسلم (١٢٦٦/٢٤٠) والنسائى فى الكبرى (٣٩٧٣).

(٤) البخارى (٥٢٥٥).

(٥) البخارى (٤٢٥٢) ولم يعزه صاحب التحفة (١٩٣/٦) إلا للبخارى .

(٦) البخارى (٤٢٥١).

ذَلِكَ ﴿ أَى : قبل دخولكم الذى وعدتم به فى رؤيا النبى ﷺ ، ﴿فَتَحَا قَرِيْبًا﴾ : وهو الصلح الذى كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين . ثم قال تعالى ، مبشرا للمؤمنين بنصرة الرسول صلوات الله [وسلامه] عليه على عدوه وعلى سائر أهل الأرض : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أَى : بالعلم النافع والعمل الصالح ؛ فإن الشريعة تشتمل على شيئين : علم وعمل ، فالعلم الشرعى صحيح ، والعمل الشرعى مقبول ، فإخباراتها حق وإنشاءاتها عدل ، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أَى : على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض ، من عرب وعجم ، وملين ومشركون ، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أَى : أنه رسوله ، وهو ناصره .

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجَدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرزِيعٍ أَخْرَجَ شَطْهَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦١﴾ ﴾

يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقا بلا شك ولا ريب ، فقال : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ ، وهذا مبتدأ وخبر ، وهو مشتمل على كل وصف جميل ، ثم ثنى بالثناء على أصحابه فقال : ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدا عنيقا على الكفار ، رحيفا برا بالأخيار ، غضوبا عبوسا فى وجه الكافر ، ضحوكا بشوشا فى وجه أخيه المؤمن ، كما قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣] ، وقال النبى ﷺ : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحلمى والسهر » (١) ، وقال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وشبك بين أصابعه (٢) . كلا الحديثين فى الصحيح .

وقوله : ﴿ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجَدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ : وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة ، وهى خير الأعمال ، ووصفهم بالإخلاص فيها لله ، عز جل ، والاحتساب عند الله جزيل الثواب ، وهو الجنة المشتملة على فضل الله ، وهو سعة الرزق عليهم ، ورضاه ، تعالى ، عنهم وهو أكبر من الأول ، كما قال : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة: ٧٢] .

وقوله : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ قال ابن عباس : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ ﴾ يعنى : السمات الحسن . وقال مجاهد وغير واحد : يعنى : الخشوع والتواضع . وقال السدى : الصلاة تحسن وجوههم . وقال بعض السلف : من كثرت صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار . وقال بعضهم : إن

للحسنة نورا في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس. وقال أمير المؤمنين عثمان: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وقلتات لسانه. والغرض: أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله أصلح الله ظاهره للناس، كما روى عن عمر بن الخطاب، أنه قال: من أصلح سريرته أصلح الله علانيته. وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة، لخرج عمله للناس كائنا ما كان» (١). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال: «إن الهدى الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة» ورواه أبو داود عن عبد الله بن محمد النفيلي، عن زهير، به (٢).

فالصحابة رضى الله عنهم خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديمهم. وقال مالك: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: «والله لهؤلاء خير من الخواريين فيما بلغنا». وصدقوا في ذلك، فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوه الله بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾، ثم قال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ أى: فراخه، ﴿فَأَزْرَهُ﴾ أى: شده ﴿فَاسْتَعْلَطَ﴾ أى: شب وطل، ﴿فَاسْتَرَى عَلَى سَوَاقِهِ يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ﴾ أى: فكذلك أصحاب محمد ﷺ أزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطاء مع الزرع، ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾. ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك - فى رواية عنه - بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، قال: لأنهم يغيطونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية. ووافق طائفة من العلماء على ذلك. والأحاديث فى فضائل الصحابة والنهى عن التعرض لهم بمساءة كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم.

ثم قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ﴾ «من» هذه لبيان الجنس ﴿مَغْفِرَةً﴾ أى: لذنوبهم ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أى: ثوابا جزيلا ورزقا كريما، ووعد الله حق وصدق، لا يخلف ولا يبدل، وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو فى حكمهم، ولهم الفضل والسبق والكمال الذى لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضى الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل. روى مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابى، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه» (٣).

(١) المسند (٢٨١٣)، وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/٢٨٨): «إسناده حسن».

(٢) المسند (٢٦٩٨) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح»، وأبو داود (٤٧٧٦).

(٣) مسلم (٢٥٤٠/٢٢١).

تفسير سورة الحجرات

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾
 ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

هذه آداب، أدب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام، فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾، أى: لا تسرعوا فى الأشياء بين يديه، أى: قبله، بل كونوا تبعاً له فى جميع الأمور. قال ابن عباس: ﴿ لا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة. وقال الضحاك: لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم. ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى: فيما أمركم به ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ أى: لا تقولوا لكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ ببنياتكم.

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾: هذا أدب ثان أدب الله به المؤمنين ألا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته. وقد روى أنها نزلت فى الشيخين أبى بكر وعمر. وروى البخارى عن ابن أبى مليكة قال: كاد الخيران أن يهلكا، أبو بكر وعمر، رفعاً أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بنى تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخى بنى مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر - قال نافع: لا أحفظ اسمه - فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافى. قال: ما أردت خلافاً. فارتفعت أصواتهما فى ذلك، فأنزل الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ الآية، قال ابن الزبير: فما كان عمر يُسمعُ رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك عن أبيه: يعنى أبى بكر، انفرد به دون مسلم (١). ثم قال البخارى عن عبد الله بن الزبير: أنه قدم ركب من بنى تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: أمر الفقعاق بن مَعْبُد. وقال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافى. فقال عمر: ما أردت خلافاً، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت فى ذلك: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ

(١) البخارى (٤٨٤٥).

اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿ حَتَّى انْقَضَتِ الْآيَةُ ﴾ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ ﴾ الآية [الحجرات: ٥]. وهكذا رواه هاهنا منفردا به أيضا (١) .

وروى البخارى عن أنس بن مالك، أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل : يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه . فأتاه فوجده فى بيته مُنكسًا رأسه، فقال له : ما شأنك؟ فقال : شر، كان يرفعُ صوته فوق صوت النبي ﷺ، فقد حبط عمله، فهو من أهل النار . فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا، قال موسى : فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال : « اذهب إليه فقل له : إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة » تفرد به البخارى من هذا الوجه (٢) . وروى الإمام أحمد عن أنس قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ إلى : ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ ، وكان ثابت بن قيس بن شماس رفيع الصوت فقال : أنا الذى كنت أرفع صوتى على رسول الله ﷺ حبط عملى، أنا من أهل النار، وجلس فى أهله حزينا، ففقدته رسول الله ﷺ، فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له : تفقدك رسول الله ﷺ، ما لك؟ قال : أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبي ﷺ، وأجهر له بالقول، حبط عملى، أنا من أهل النار . فأتوا النبي ﷺ فأخبروه بما قال، فقال : « لا، بل هو من أهل الجنة » . قال أنس : فكنا نراه يمشى بين أظهرنا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة . فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس، وقد تحنط ولبس كفته، فقال : بشما تُعودون أقرانكم . فقاتلهم حتى قُتل (٣) .

وروى مسلم عن أنس بن مالك قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ إلى آخر الآية، جلس ثابت فى بيته، قال : أنا من أهل النار . واحتبس عن النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ لسعد بن معاذ : « يا أبا عمرو، ما شأن ثابت؟ أشتكى؟ » فقال سعد : إنه لجارى، وما علمت له بشكوى . قال : فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله ﷺ، فقال ثابت : أنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أنى من أرفعكم صوتا على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار . فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ : « بل، هو من أهل الجنة » (٤) . فهذه الطرق الثلاث مُعلّلة لرواية حماد بن سلمة، فيما تفرد به من ذكر سعد بن معاذ . والصحيح : أن حال نزول هذه الآية لم يكن سعد بن معاذ موجوداً؛ لأنه كان قد مات بعد بنى قريظة بأيام قلائل سنة خمس، وهذه الآية نزلت فى وفد بنى تميم، والوفود إنما تواتروا فى سنة تسع من الهجرة، والله أعلم .

وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين كذلك، فقد نهى الله عز وجل، عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله ﷺ، وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه سمع صوت

(٢) البخارى (٤٨٤٦) .

(١) البخارى (٤٨٤٧) .

(٣) المسند (١٣٧/٣) ، وهو عند البخارى ، انظر السابق .

(٤) مسلم (١٨٧/١١٩) .

رجلين فى مسجد رسول الله ﷺ قد ارتفعت أصواتهما ، فجاء ، فقال : أتدريان أين أنتما ؟ ثم قال : من أين أنتما ؟ قال : من أهل الطائف . فقال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً (١) . وقال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ ، كما كان يكره فى حياته ؛ لأنه محترم حياً وفى قبره ﷺ ، دائماً . ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه عن عداه ، بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ ، كما قال : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ [النور : ٦٣] .

وقوله عز وجل : ﴿ أَنْ تَجْهَرُوا بِأَعْمَالِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أى : إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك ، فيغضب الله لغضبه ، فيحبط الله عمل من أغضبه وهو لا يدري ، كما جاء فى الصحيح : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالاً يكتب له بها الجنة . وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً يهوى بها فى النار أبعد ما بين السموات والأرض » (٢) .

ثم نذب الله عز وجل ، إلى خفض الصوت عنده ، وحث على ذلك ، وأرشد إليه ، ورغب فيه ، فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾ أى : أخلصها لها وجعلها أهلاً ومحلاً ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ . وقد روى الإمام أحمد فى كتاب الزهد عن مجاهد ، قال : كتب إلى عمر : يا أمير المؤمنين ، رجل لا يشتهى المعصية ولا يعمل بها أفضل ، أم رجل يشتهى المعصية ولا يعمل بها ؟ فكتب : إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴾ ولَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿

ثم إنه تعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات ، وهى بيوت نساءه ، كما يصنع أجلاف الأعراب ، فقال : ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ . ثم أرشد إلى الأدب فى ذلك فقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ أى : لكان لهم فى ذلك الخير والمصلحة فى الدنيا والآخرة . ثم قال داعياً لهم إلى التوبة والإنابة : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وقد ذكر أنها نزلت فى الأقرع بن حابس التميمي ، فيما أورده غير واحد ، روى الإمام أحمد عن الأقرع بن حابس ؛ أنه نادى رسول الله ﷺ من وراء الحجرات ، فقال : يا محمد ، يا محمد - وفى رواية : يا رسول الله - فلم يجبه . فقال : يا رسول الله ، إن حمدى لزين ، وإن

. (٢) البخارى (٦٤٧٨) .

. (١) البخارى (٤٧٠) .

. (٣) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٥٥٢/٧) لأحمد فى الزهد .

ذمى لشين، فقال: «ذاك الله، عز وجل» (١).

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ يَنْبِئُ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهَلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَتَذَمِينِ ﴿٦﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّامِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾

يأمر تعالى بالثبوت في خبر الفاسق ليحتاط له، لئلا يحكم بقوله فيكون - في نفس الأمر - كاذباً أو مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه، وقد نهى الله عز وجل عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر، وقبلها آخرون لأننا إنما أمرنا بالثبوت عند خبر الفاسق، وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: اعلما أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه، وتأدبوا معه، وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ [الاحزاب: ٦]. ثم بين أن رأيهم سخيף بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي: لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرَجكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: حببه إلى نفوسكم وحسنه في قلوبكم. ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ أي: وبغض إليكم الكفر والفسوق، وهي: الذنوب الكبار. والعصيان وهي جميع المعاصي. وهذا تدرج لكمال النعمة. وقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ أي: المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون، الذين قد آتاهم الله رشدهم. روى الإمام أحمد عن ابن (٢) رفاعة الزرقى، عن أبيه قال: لما كان يوم أحد وانكفاً المشركون، قال رسول الله ﷺ: «استووا حتى أثنى على ربي، عز وجل» فصاروا خلفه صفوفاً، فقال: «اللهم، لك الحمد كله. اللهم، لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت. ولا معطى لما منعت، ولا مانع لما أعطيت. ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت. اللهم، ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك. اللهم، إنى أسألك النعيم المقيم

(١) المسند (٣/٤٨٨)، وقال الهيثمي في الزوائد (٧/٨٠٨): «إسناد أحمد رجاله رجال الصحيح إن كان أبو سلمة

سمع من الأقرع بن حابس، وإلا فهو مرسل».

(٢) في المخطوطة والمطبوعة: «أبي رفاعة» صوابه ما أثبتناه من المسند والنسائي، وابن رفاعة هو: عبيد.

الذى لا يحول ولا يزول. اللهم، إني أسألك النعيم يوم العَيْلَة، والأمن يوم الخوف. اللهم، إني عائد بك من شر ما أعطيتنا، ومن شر ما منعنا. اللهم، حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين. اللهم، توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين. اللهم، قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك. اللهم، قاتل الكفرة الذين أتوا الكتاب، إله الحق». ورواه النسائي في اليوم والليلة (١). وفي الحديث المرفوع: «من سرته حسنته، وساءته سيئته، فهو مؤمن» (٢).

ثم قال: ﴿ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ أى: هذا العطاء الذى منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى: عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم فى أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره.

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢﴾﴾

يقول تعالى أمراً بالإصلاح بين الفئتين الباغيتين بعضهم على بعض : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ ، فسامهم مؤمنين مع الاقتتال. وبهذا استدل البخارى وغيره على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم. وهكذا ثبت فى صحيح البخارى عن أبى بكر، أن رسول الله ﷺ خطب يوماً ومعه على المنبر الحسن بن على، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» (٣). فكان كما قال ﷺ، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق، بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِن بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أى: حتى ترجع إلى أمر الله ورسوله، وتسمع للحق وتطيعه، كما ثبت فى الصحيح عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوما». قلت: يا رسول الله، هذا نصرته مظلوما فكيف أنصره ظالماً؟ قال ﷺ: «تمنعه من الظلم، فذاك نصرتك إياه» (٤). وروى الإمام أحمد، أن أنساً قال: قيل للنبي ﷺ، لو أتيت عبد الله بن أبى؟ فانطلق إليه نبي الله ﷺ وركب

(١) المسند (٤٢٤/٣) وقال الهشمى فى الزوائد (١٢٥/٦): «رجال رجال الصحيح». والنسائي فى عمل اليوم والليلة (١٠٤٤٥)، وصححه الحاكم فى المستدرک ووافقه الذهبي (٢٣/٣).

(٢) المسند (١١٤) والترمذى (٢١٦٥) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه» وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

(٤) البخارى (٢٤٤٣).

(٣) البخارى (٢٧٠٤).

حماراً، وانطلق المسلمون يمشون، وهى أرض سبخة، فلما انطلق إليه النبى ﷺ قال: «إليك عنى، فوالله لقد آذاني ريح حمارك» فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله أطيّب ريحا منك. قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدى والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾. ورواه البخارى ومسلم بنحوه (١).

وقوله: ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أى: اعدلوا بينهما فيما كان أصاب بعضهم لبعض، بالقسط، وهو العدل، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. روى ابن أبى حاتم عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن المقسطين فى الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدى الرحمن، بما أقسطوا فى الدنيا». ورواه النسائى (٢). وهذا إسناد جيد قوى، رجاله على شرط الصحيح. عن عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش، الذين يعدلون فى حكمهم وأهاليهم وما ولّوا». ورواه مسلم والنسائى (٣).

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أى: الجميع إخوة فى الدين، كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» (٤). وفى الصحيح: «والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه» (٥). وفى الصحيح أيضا: «إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين، ولك بمثله» (٦). والأحاديث فى هذا كثيرة، وفى الصحيح: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحُمى والسهر» (٧). وفى الصحيح أيضا: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضا» وشبك بين أصابعه (٨). وروى أحمد عن سهل بن سعد الساعدى، عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان، كما يألم الجسد لما فى الرأس» (٩). تفرد به ولا بأس بإسناده. وقوله: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوِيكُمْ﴾ أى: الفئتين المقتتلين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: فى جميع أموركم ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾، وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ ءَسَوْا أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ ءَسَوْا أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نَلْمِزُوا أَنْفُسَنَا وَلَا نَنَابِرُوا بِالْأَلْقَابِ يَسْسُ الْأَسْمَاءُ الْمَسْهُوقَةُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾



(١) المسند (١٥٧/٣) والبخارى (٢٦٩١) ومسلم (١١٧/١٧٩٩).

(٢) النسائى (٥٣٧٩).

(٣) مسلم (١٨/١٨٢٧) والنسائى (٥٣٧٩).

(٤) البخارى (٢٤٤٢) ومسلم (٥٨/٢٥٨٠).

(٥) مسلم (٣٨/٢٦٩٩).

(٦) مسلم (٨٧/٢٧٣٢).

(٨) البخارى (٦٠١١) ومسلم (٦٥/٢٥٨٥).

(٩) المسند (٣٤٠/٥) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٩٠/٨): «رجال أحمد رجال الصحيح».

ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الكِبْر بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمْصُ النَّاسِ» وروى: «وغمط الناس» (١). والمراد من ذلك: احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرا عند الله وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ ، فنص على نهى الرجال وعطف بنهى النساء.

وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أى: لا تلمزوا الناس. والهمَّاز اللَّماز من الرجال مذموم ملعون، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهزعة: ١]، والهمز بالفعل واللمز بالقول، كما قال: ﴿هُمَّازٌ مِّثْلُ نَسِيمٍ﴾ [القلم: ١١] أى: يحقر الناس ويهمزهم طاغياً عليهم، ويمشى بينهم بالنميمة وهى: اللمز بالمقال؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾، كما قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] أى: لا يقتل بعضكم بعضا. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أى: لا يطعن بعضكم على بعض.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أى: لا تدعوا بالألقاب، وهى التى يسوء الشخص سماعها. روى الإمام أحمد عن أبى جبيرة بن الضحاك قال: فىنا نزلت فى بنى سلمة: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فىنا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة، فكان إذا دُعِيَ أحد منهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله، إنه بغضب من هذا. فنزلت: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾. ورواه أبو داود (٢).

وقوله: ﴿بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أى: بئس الصفة والاسم الفسوق وهو: التنابر بالألقاب، كما كان أهل الجاهلية يتناعتون، بعدما دخلتم فى الإسلام وعقلتموه، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ﴾ أى: من هذا ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿يَتَأَيَّبُوا الَّذِينَ آمَنُوا أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا يَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَئْسَ الظَّنُّ بَعْضًا أَيْحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾

يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس فى غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثما محضا، فليجتنب كثير منه احتياطا، وروى مالك عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله

(١) مسلم (١٤٧/٩١).

(٢) المسند (٤/٢٦٠) وأبو داود (٤٩٦٢). ورواه الترمذى (٣٢٦٨) وقال: «حديث حسن صحيح».

إخوانا». رواه البخارى ومسلم وأبو داود (١). وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام». رواه مسلم والترمذى - وصححه (٢).

وقوله: ﴿وَلَا تَجَسَّوْا﴾ أى: على بعضكم بعضا. والتجسس غالبا يطلق فى الشر، ومنه الجاسوس. وأما التجسس فيكون غالبا فى الخير، كما قال تعالى إخبارا عن يعقوب أنه قال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّوْا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُؤْا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقد يستعمل كل منهما فى الشر، كما ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا» (٣). وقال الأوزاعى: التجسس: البحث عن الشيء. والتجسس: الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون، أو يتسمع على أبوابهم. والتدابير: الصرْم.

وقوله: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾: فيه نهى عن الغيبة، وقد فسرها الشارع كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود عن أبى هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قيل: أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته». ورواه الترمذى. وقال: حسن صحيح (٤). وروى أبو داود عن عائشة قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفة كذا وكذا! قال غير مسدد: تعنى قصيرة - فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته». قالت: وحكيت له إنسانا، فقال ﷺ: «ما أحب أنى حكيت إنسانا، وإن لى كذا وكذا». ورواه الترمذى. وقال: حسن صحيح (٥).

والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته، كما فى الجرح والتعديل والنصيحة، كقوله ﷺ، لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: «اأذنوا له، بشس أخو العشيبة» (٦)، وكقوله لفاطمة بنت قيس - وقد خطبها معاوية وأبو الجهم: «أما معاوية فصعلوك، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه» (٧). وكذا ما جرى مجرى ذلك. ثم بقيتها على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد؛ ولهذا شبهها تعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت، كما قال تعالى: ﴿أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾؟ أى: كما تكرهون هذا طبعاً، فآكروهوا ذاك شرعاً؛ فإن عقوبته أشد من هذا وهذا من التنفير عنها والتحذير منها، كما قال، عليه السلام، فى العائد فى هبته: «كالكلب يقىء ثم يرجع فى

(١) الموطأ (٩٠٨/٢) والبخارى (٦٠٦٦) ومسلم (٢٨/٢٥٦٣) وأبو داود (٤٩١٧).

(٢) مسلم (٢٣/٢٥٥٩) والترمذى (١٩٣٥). (٣) البخارى (٢٤٤٢).

(٤) أبو داود (٤٨٧٤) والترمذى (١٩٣٥).

(٥) أبو داود (٤٨٧٥) والترمذى (٢٥٠٢، ٢٥٠٣).

(٦) البخارى (٣١٣٢). (٧) مسلم (٣٦/١٤٨٠).

قيته» (١) ، وقد قال: «ليس لنا مثل السوء» (٢) . وثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من غير وجه أنه، عليه السلام، قال في خطبة حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا» (٣) . وروى أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام: ماله وعرضه ودمه ، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم». ورواه الترمذى . وقال: حسن غريب (٤) . وروى أبو يعلى عن البراء بن عازب قال: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتها - أو قال: في خدورها - فقال: «يا معشر من آمن بلسانه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته» (٥) .

وروى الحافظ أبو يعلى عن ابن عمّ لأبي هريرة أن ما عزا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد زنت فأعرض عنه - قالها أربعا - فلما كان في الخامسة قال: «زنت؟» قال: نعم . قال: «وتدرى ما الزنا؟» قال: نعم، أتيت منها حراما ما يأتي الرجل من امرأته حلالا . قال: «ما تريد إلى هذا القول؟» قال: أريد أن تطهرنى . قال: فقال رسول الله ﷺ: «أدخلت ذلك منك في ذلك منها كما يغيب الميل في المكحلة والرشاء في البثر؟» قال: نعم، يا رسول الله . قال: فأمر برجمه فرجم، فسمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجمَ رجم الكلب . ثم سار النبي ﷺ حتى مرَّ بجيفة حمار فقال: «أين فلان وفلان؟ أنزلا فكلا من جيفة هذا الحمار» قالا: غفر الله لك يا رسول الله، وهل يُؤكل هذا؟ قال: فما نلتما من أخيكما أنفا أشد أكلا من، والذى نفسى بيده، إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها» (٦) إسناده صحيح . وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع النبي ﷺ فارتفعت ريح جيفة منتنة، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين» (٧) .

وقوله: ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ أى: فيما أمركم به ونهاكم عنه، فراقبوه فى ذلك واخشوا منه، ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ أى: تواب على من تاب إليه، رحيم لمن رجع إليه، واعتمد عليه .

قال الجمهور من العلماء: طريق المغتاب للناس فى توبته أن يُقلع عن ذلك، ويعزم على ألا يعود . وهل يشترط الندم على ما فات؟ فيه نزاع، وأن يتحلل من الذى اغتابه . وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله فإنه إذا علمه بذلك ربما تاذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه، فطريقه إذاً أن يشئ عليه بما فيه فى المجالس التى كان يذمه فيها، وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته، فتكون تلك بتلك، كما روى الإمام أحمد عن معاذ بن أنس الجهنيّ ، عن النبي ﷺ قال: « من حمى

(١) البخارى (٢٦٢١) .

(٢) البخارى (٢٦٢٢) .

(٣) مسلم (١٤٧/١٢١٨) .

(٤) أبو داود (٤٨٨٢) والترمذى (١٩٢٧) .

(٥) أبو يعلى فى مسنده (٢٣٧/٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (٩٦/٨) : « رجاله ثقات » .

(٦) أبو يعلى فى مسنده (٥٢٤/١٠) .

(٧) المسند (٣٥١/٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (٩٤/٨) : « رجاله ثقات » .

مؤمناً من منافق يعيبه ، بعث الله إليه ملكاً يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم . ومن رمى مؤمناً بشيء يريد شينه ، حسبه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال . وكذا رواه أبو داود من حديث عبد الله - وهو ابن المبارك - به بنحوه (١) .

﴿ يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً للناس أنه خلقهم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ، وهما آدم وحواء ، وجعلهم شعوباً ، وهى أعم من القبائل ، وبعد القبائل مراتب أخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك . وقيل : المراد بالشعوب بطون العجم ، وبالقبائل بطون العرب ، كما أن الأسباط بطون بنى إسرائيل . فجميع الناس فى الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء ، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية ، وهى طاعة الله ومتابعة رسوله ﷺ ؛ ولهذا قال تعالى بعد النهى عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً ، منها على تساويهم فى البشرية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ أى : ليحصل التعارف بينهم ، كل يرجع إلى قبيلته .

وقوله : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى ﴾ أى : إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب . وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ : روى البخارى عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أى الناس أكرم ؟ قال : « أكرمهم عند الله أتقاهم » . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : « فأكرم الناس يوسف نبي الله ، ابن نبي الله ، ابن خليل الله » . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : « فمعدن العرب تسألونى ؟ » قالوا : نعم . قال : « فخيركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا » . ورواه النسائى (٢) . وروى مسلم عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . ورواه ابن ماجه (٣) . وروى الإمام أحمد عن أبى ذر قال : إن النبي ﷺ قال له : « انظر ، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضلته بتقوى » . تفرد به أحمد (٤) . وروى الإمام أحمد عن درة بنت أبى لهب قالت : قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر ، فقال : يا رسول الله ، أى الناس خير ؟ فقال ﷺ : « خير الناس أقرؤهم ، وأتقاهم لله ، عز وجل ، وأمرهم بالمعروف ، وأنهاهم عن المنكر ، وأوصلهم للرحم » (٥) .

(١) المسند (٤٤١/٣) وأبو داود (٤٨٨٣) ، وصححه الألبانى .

(٢) البخارى (٣٣٧٤ ، ٣٣٨٣ ، ٤٦٨٩) ، والنسائى فى الكبرى (١١٢٥) .

(٣) مسلم (٣٤/٢٥٦٤) وابن ماجه (٤١٤٣) .

(٤) المسند (١٥٨/٥) ، وقال الهيمى فى الزوائد (٨٧/٨) : « رجاله ثقات » .

(٥) المسند (٤٣٢/٦) ، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٤/٢٥٧) ، ٢٥٨ (٦٥٧) من طريق شريك به ، وقال

الهيمى فى الزوائد (٧/٢٦٦) : « رجاله ثقات ، وفى بعضهم كلام لا يضر » .

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ أى: عليم بكم، خبير بأموركم، فيهدى من يشاء، ويضل من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعذب من يشاء، ويفضل من يشاء على من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير فى ذلك كله. وقد استدلل بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة، من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة فى النكاح لا تشترط، ولا يشترط سوى الدين، لقوله: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ ﴾. وذهب الآخرون إلى أدلة أخرى مذكورة فى كتب الفقه، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك فى «كتاب الاحكام»، والله الحمد والمنة.

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾
 إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾
 قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾
 قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾
 إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِيمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى منكرأ على الأعراب الذين أول ما دخلوا فى الإسلام ادعوا لانفسهم مقام الإيمان، ولم يتمكن الإيمان فى قلوبهم بعد: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾. وقد استفيد من هذه الآية الكريمة: أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل، عليه السلام، حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه. روى الإمام أحمد عن سعد بن أبى وقاص، قال: أعطى رسول الله ﷺ رجلاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً، فقال سعد: يا رسول الله، أعطيت فلاناً وفلاناً ولم تعط فلاناً شيئاً، وهو مؤمن؟ فقال النبى ﷺ: «أو مسلم» حتى أعادها سعد ثلاثاً، والنبى ﷺ يقول: «أو مسلم» ثم قال النبى ﷺ: «إنى لأعطي رجلاً وأدع من هو أحب إلىّ منهم فلا أعطيه شيئاً؛ مخافة أن يكبوا فى النار على وجوههم». أخرجاه فى الصحيحين (١).

فقد فرق النبى ﷺ بين المسلم والمؤمن، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام. ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً؛ لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين فى هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحکم الإيمان فى قلوبهم، فادعوا لانفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فادبوا فى

ذلك . وهذا معنى قول ابن عباس وإبراهيم النخعي ، وقتادة ، واختاره ابن جرير . وإنما قلنا هذا لأن البخارى ، ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يُظهرون الإيمان وليسوا كذلك . وقد روى عن سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وابن زيد أنهم قالوا فى قوله : ﴿ وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ أى : استسلمنا خوف القتل والسبى . قال مجاهد : نزلت فى بنى أسد بن خزيمه . وقال قتادة : نزلت فى قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ . والصحيح الأول ؛ أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ، ولم يحصل لهم بعد ، فأدبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد ، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا ، كما ذكر المنافقون فى سورة براءة . وإنما قيل لهؤلاء تأديباً : ﴿ قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أى : لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً ﴾ أى : لا ينقصكم من أجوركم شيئاً ، كقوله : ﴿ وَمَا أَلْتَأَهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الطور: ٢١] . وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى : لمن تاب إليه وأتاب .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أى : إنما المؤمنون الكُمَّل ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ أى : لم يشكوا ولا تزلزلوا ، بل ثبتوا على حال واحدة ، وهى التصديق المحض ﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى : وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم فى طاعة الله ورضوانه ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ أى : فى قولهم إذا قالوا : « إنهم مؤمنون » ، لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة .

وقوله : ﴿ قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ أى : أتخبرونه بما فى ضمائركم ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : لا يخفى عليه من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . ثم قال : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ يعنى : الأعراب الذين يمينون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول ، يقول الله رداً عليهم : ﴿ قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمُ ﴾ ، فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم ، والله المنة عليكم فيه ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى : فى دعاكم ذلك ، كما قال النبى ﷺ للأنصار يوم حنين : « يا معشر الأنصار ، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بى ؟ وكنتم متفرقين فآلفكم الله بى ؟ وعالة فأغناكم الله بى ؟ » . كلما قال شيئاً قالوا : الله ورسوله آمن^(١) . ثم كرر الإخبار بعلمه بجميع الكائنات ، وبصره بأعمال المخلوقات فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

تفسير سورة ق

وهي مكية

هذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح، وقيل: من الحجرات. وأما ما يقوله العوام: إنه من (عم) فلا أصل له، ولم يقله أحد من العلماء المعبرين فيما نعلم. والدليل على أن هذه السورة هي أول المفصل ما رواه أبو داود عن أوس بن حذيفة قال: قدمنا على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف، قال: فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة، وأنزل رسول الله ﷺ بني مالك في قبة له - قال مسدد: وكان في الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف، قال: كان رسول الله ﷺ كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا - قال أبو سعيد: قائما على رجله حتى يراوح بين رجله من طول القيام - فأكثر ما يحدثنا ما لقي من قومه قريش، ثم يقول: لا سواء وكنا مستضعفين مستذلين - قال مسدد: بمكة - فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم، ندال عليهم ويدالون علينا. فلما كانت ليلة أبطأ عنا ﷺ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأت علينا الليلة! قال: «إنه طرأ على حزبي من القرآن، فكرهت أن أجيء حتى أمه». قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف يحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده. ورواه ابن ماجه والإمام أحمد (١).

إذا علم هذا، فإذا عدت ثمانيا وأربعين سورة، فالتى بعدهن سورة «ق». بيانه: ثلاث: البقرة، وآل عمران، والنساء. وخمس: المائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، وبراءة. وسبع: يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنحل. وتسع: سبحان، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والنور، والفرقان. وإحدى عشرة: الشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والم السجدة، والأحزاب، وسبأ، وفاطر، ويس. وثلاث عشرة: الصافات، وص، والزمر، وغافر، وحُم السجدة، وحَم عسق، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف، والقتال، والفتح، والحجرات. ثم بعد ذلك الحزب المفصل كما قاله الصحابة، فتعين أن أوله سورة «ق» وهو الذي قلناه، والله الحمد والمنة.

روى الإمام أحمد؛ أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي: ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد؟ قال: بقاف، واقتربت. ورواه مسلم وأهل السنن الأربعة (٢).

وروى أحمد عن أم هشام بنت حارثة قالت: لقد كان تنورنا وتنور النبي ﷺ واحداً سنتين، أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ،

(١) مضي مختصراً (٤٧/١).

(٢) المسند (٢١٧/٥) ومسلم (١٤/٨٩١) وأبو داود (١١٥٤).

كان يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس. رواه مسلم وأبو داود والنسائي (١).
والقصد: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجمع الكبار، كالعيد والجمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب، والله أعلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ إِنْزِيلًا مِنْ سَمَاءٍ رُؤُوسًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيعٍ ﴿٥﴾﴾

﴿ق﴾: حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور، كقوله: (ص، ن، الم، حم، طس) ونحو ذلك، قاله مجاهد وغيره. وقد أسلفنا الكلام عليها، في أول «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته. وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا: ﴿ق﴾: جبل محيط بجميع الأرض، يقال له جبل قاف. وكان هذا - والله أعلم - من خرافات بنى إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس، لما رأى من جواز الرواية عنهم فيما لا يصدق ولا يكذب. وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبسون به على الناس أمر دينهم، كما افتروا في هذه الأمة - مع جلالة قدر علمائهم وحفاظها وأئمتها - أحاديث عن النبي ﷺ وما بالعهد من قدم، فكيف بأمة بنى إسرائيل مع طول المدى، وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمر، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته! وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله: «وحدثوا عن بنى إسرائيل، ولا حرج» (٢) فيما قد يجوزه العقل، فأما فيما تحيله العقول ويحكم عليه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل - والله أعلم. وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخلف، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، ولله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ أى : الكريم العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. واختلفوا فى جواب القسم ما هو ؟ فحكى ابن جرير عن بعض النحاة أنه: قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ﴾. وفى هذا نظر، بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم، وهو إثبات النبوة، وإثبات المعاد، وتقريره وتحقيقه وإن لم يكن القسم متلقى لفظاً، وهذا كثير فى أقسام القرآن كما تقدم فى قوله: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ١، ٢]، وهكذا قال هانئا: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ. بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أى: تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر كقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢] أى: وليس هذا

(١) المسند (٤٣٥/٦) ومسلم (٥٢/٨٧٣) وأبو داود (١١٠٠) والنسائي (٩٤٩).

(٢) البخارى (٣٤٦١).

بعجيب؛ فإن الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس.

ثم قال مخبراً عنهم في عجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه: ﴿أُنذَا مَنَا وَكُنَّا تَرَابًا ذَلِكَ رَجَعٌ بَعِيدٌ﴾ ؟ أى: يقولون: أنذا متنا وبلينا، وتقطعت الأوصال منا، وصرنا تراباً، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ﴿ذَلِكَ رَجَعٌ بَعِيدٌ﴾ أى: بعيد الوقوع، ومعنى هذا: أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه، قال الله تعالى راداً عليهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أى: ما تأكل من أجسادهم فى البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان؟ وأين ذهبت؟ وإلى أين صارت؟ ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أى: حافظ لذلك، فالعلم شامل، والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة. ثم بين تعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أى: وهذا حال كل من خرج عن الحق، مهما قال بعد ذلك فهو باطل. والمريج: المختلف المضطرب الملتبس المنكر خلاله، كقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ. يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ الْأَفْكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩].

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَزَقْنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝١﴾
 وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٢ تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَىٰ
 لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۝٣ وَرَزَقْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٤
 وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝٥ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا
 كَذَلِكَ الْفُرُوجُ ۝٦﴾

يقول تعالى منها للعباد على قدرته العظيمة التى أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبشرين لوقوعه: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَزَقْنَاهَا﴾ ؟ أى: بالمصاييح ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾. قال مجاهد: يعنى من شقوق. وقال غيره: فتوق. وقال غيره: من صدوع. والمعنى متقارب، كقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤] أى: كليل، أى: عن أن يرى عيباً أو نقصاً.

وقوله: ﴿وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا﴾ أى: وسعناها وفرشناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ وهى: الجبال؛ لثلا تميد بأهلها وتضطرب ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أى: من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، وقوله: ﴿بَهِيجٍ﴾ أى: حسن نصر ﴿تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ أى: ومشاهدة خلق السموات والأرض وما جعل فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب، أى: خاضع خائف وجل رجأع إلى الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ أى: نافعاً ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ أى: حدائق من

بساتين ونحوها ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ وهو: الزرع الذي يراد لحبه وادخاره. ﴿وَالنَّخْلُ بِسِقَاتٍ﴾ أى: طولا شاهقات. قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدى، وغيرهم: الباسقات الطوال ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ أى: منضود ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ أى: للخلق ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا﴾، وهى الأرض التى كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، من أزاهير وغير ذلك، مما يحار الطرف فى حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها، فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيى الله الموتى. وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُنَّ بِقَادِرٌ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الاحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [نصفت: ٣٩].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾
 ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ ﴿١٤﴾ أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ
 مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

يقول تعالى متهددا لكفار قريش بما أحله بأشباههم ونظرانهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم، من النقمات والعذاب الأليم فى الدنيا، كقوم نوح وما عذبهم الله به من الغرق العام لجميع أهل الأرض، وأصحاب الرس وقد تقدمت قصتهم فى سورة «الفرقان». ﴿وَتَمُودُ. وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ وهم أمته الذين بعث إليهم من أهل سدوم ومعاملتها من الغور، وكيف خسف الله بهم الأرض، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة؛ بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام ﴿وَقَوْمُ تَبَّعٍ﴾ وهو اليمانى. وقد ذكرنا من شأنه فى سورة الدخان» بما أغنى عن إعادته هاهنا والله الحمد. ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أى: كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذبت رسولهم، ومن كذب رسولا فكأنما كذب جميع الرسل، كقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] ، وإنما جاءهم رسول واحد، فهم فى نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم ﴿فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ أى: فحق عليهم ما أوعدهم الله على التكذيب من العذاب والنكال فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك.

وقوله تعالى: ﴿أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ أى: أفأعجزنا ابتداء الخلق حتى هم فى شك من الإعادة؟ ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ والمعنى: أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل منه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] ، وقال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ

خَلَقَ عَلِيمٌ ﴿٧٨﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]. وقد تقدم في الصحيح: «يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يقول: لن يعيدني كما بداني، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته» (١).

﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ فَفَسَّمْهُ وَّحْنٌ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾
 إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾
 وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ مَحِيدٌ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾
 وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه، وعلمه محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل» (٢).

وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ يعني: ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه. ومن تأوله على العلم فإنما فر لثلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما متفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، كما قال في المحاضر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥]، يعني ملائكته. وكما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فالملائكة نزلت بالذكر - وهو القرآن - بإذن الله، عز وجل. وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار الله لهم على ذلك، فللملك لمة في الإنسان كما أن للشيطان لمة؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِيَانِ﴾ يعني: الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان. ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي: مترصد ﴿مَا يَلْفِظُ﴾ أي: ابن آدم ﴿مِنْ قَوْلٍ﴾ أي: ما يتلکم بكلمة ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: إلا ولها من يراقبها معداً لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ. كِرَامًا كَاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

وقد اختلف العلماء: هل يكتب الملك كل شيء من الكلام؟ وهو قول الحسن وقتادة، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب كما هو قول ابن عباس، على قولين، وظاهر الآية الأولى، لعموم قوله: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾. وقد روى الإمام أحمد عن بلال بن الحارث المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه». قال: فكان علقمة يقول: كم

(١) البخارى (٤٩٧٤).

(٢) البخارى (٥٢٦٩) ومسلم (٢٠٢/١٢٧).

من كلام قد معنيه حديث بلال بن الحارث. ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجه، وقال الترمذى: حسن صحيح.

قال الحسن البصرى وتلا هذه الآية: ﴿عَنِ اليمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٍ﴾: يا بن آدم ، بسطت لك صحيفة، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك، وجعلت فى عنقك معك فى قبرك، حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول: ﴿وَكُلُّ إِنسَانٍ أَلزَمناه طَائِرُهُ فى عُنُقِهِ وَنُخِرُجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا. أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾. [الإسراء: ١٣، ١٤] ثم يقول: عدل - والله - فيك من جعلك حسيب نفسك. وقال ابن عباس: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر، حتى إنه ليكتب قوله: «أكلت، شربت، ذهبت، جئت، رأيت»، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله، فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر، وألقى سائرته، وذلك قوله: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُنثِقُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩] ، وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يثن فى مرضه، فبلغه عن طاوس أنه قال: يكتب الملك كل شيء حتى الأنين. فلم يثن أحمد حتى مات رحمه الله.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، يقول عز وجل: وجاءت - أيها الإنسان - سكرة الموت بالحق، أى: كشفت لك عن اليقين الذى كنت تمتري فيه، ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أى: هذا هو الذى كنت تفر منه قد جاءك، فلا محيد ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص. وقد اختلف المفسرون فى المخاطب بقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو. وقيل: الكافر، وقيل: غير ذلك. وعن البهى قال: لما أن نقل أبو بكر جاءت عائشة، فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فكشفت عن وجهه وقال: ليس كذلك، ولكن قولى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾. وقد ثبت فى الصحيح عن النبي ﷺ: لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: « سبحان الله! إن للموت لسكرات » (١). وفى قوله: ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ قولان: أحدهما: أن «ما» هاهنا موصولة، أى: الذى كنت منه تحيد - بمعنى: تتبعد وتناهى وتفر - قد حل بك ونزل بساحتك. والقول الثانى: أن «ما» نافية بمعنى: ذلك ما كنت تقدر على الفرار منه ولا الحيد عنه.

وقوله: ﴿وَنُفِخَ فى الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ﴾. قد تقدم الكلام على حديث النفخ فى الصور للفرع والصعق والبعث، وذلك يوم القيامة. وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنعم

وصاحب القرن قد التقم القرن وحتى جبهته، وانتظر أن يؤذن له». قالوا: يا رسول الله كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل». فقال القوم: حسبنا الله ونعم الوكيل (١).
 ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أى: ملك يسوقه إلى المحشر، وملك يشهد عليه بأعماله. هذا هو الظاهر من الآية الكريمة. وهو اختيار ابن جرير، ثم روى عن عثمان بن عفان أنه خطب، فقرأ هذه الآية: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، فقال: سائق يسوقها إلى الله، وشاهد يشهد عليها بما عملت. وكذا قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد. عن أبي هريرة: السائق: الملك، والشهيد: العمل. وكذا قال الضحاك والسدى. وقال ابن عباس: السائق من الملائكة، والشهيد: الإنسان نفسه، يشهد على نفسه. وبه قال الضحاك بن مزاحم أيضا.

وحكى ابن جرير ثلاثة أقوال فى المراد بهذا الخطاب فى قوله: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾: أحدها: أن المراد بذلك الكافر. عن ابن عباس. وبه يقول الضحاك بن مزاحم وصالح بن كيسان. والثانى: أن المراد بذلك كل أحد من: بر وفاجر؛ لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كالليقظة والدنيا كالنام. وهذا اختيار ابن جرير، ونقله عن عبد الله ابن عباس. والثالث: أن المخاطب بذلك النبى ﷺ. وبه يقول زيد بن أسلم، وابنه. والمعنى على قولهما: لقد كنت فى غفلة من هذا القرآن قبل أن يوحى إليك، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك، فبصرك اليوم حديد. والظاهر من السياق خلاف هذا، بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقوله: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ يعنى: من هذا اليوم، ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أى: قوى؛ لأن كل واحد يوم القيامة يكون مستبصرا، حتى الكفار فى الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك. قال الله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّا﴾ [مریم: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي ﴿١٤﴾ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارٍ عَيْنِي ﴿١٥﴾ مَتَّاعٍ

لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿١٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿١٦﴾

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ رَبَّنَا مَا أَطْعِمْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىٰ وَقَدْ قَدَّمْتُ

إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿١٨﴾ مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٩﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن الملك الموكل بعمل آدم: أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل، ويقول: ﴿هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي﴾ أى: معتد محضر بلا زيادة ولا نقصان. وقال مجاهد: هذا كلام الملك السائق يقول: هذا ابن آدم الذى وكلتني به، قد أحضرته. وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد، وله اتجاه وقوة. فعند ذلك يحكم الله، تعالى، فى الخليقة بالعدل فيقول: ﴿أَلْقِيَا فِي

جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٣﴾. وقد اختلف النحاة في قوله: ﴿أَلْقِيَا﴾، فقال بعضهم: هي لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالثنائية، كما روى عن الحجاج أنه كان يقول: يا حرسى، اضربا عنقه، وقيل: بل هي نون التوكيد، سهلت إلى الألف. وهذا بعيد؛ لأن هذا إنما يكون في الوقف، والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب، فلما أدى الشهيد عليه، أمرهما الله تعالى بإلقائه في نار جهنم وبئس المصير.

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أى: كثير الكفر والتكذيب بالحق ﴿عَنِيدٍ﴾: معاند للحق، معارض له بالباطل مع علمه بذلك. ﴿مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ﴾ أى: لا يؤدي ما عليه من الحقوق، ولا يبر فيه ولا صلة ولا صدقة ﴿مُعْتَدٍ﴾ أى: فيما ينفقه ويصرفه، يتجاوز فيه الحد. وقال قتادة: معتد فى منطقته وسيرته وأمره. ﴿مُرِيبٌ﴾ أى: شاك فى أمره، مريب لمن نظر فى أمره ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أى: أشرك بالله فبعد معه غيره ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾. وقد تقدم فى الحديث: أن عنقاً من النار يبرز للخلائق فينادى بصوت يسمع الخلائق: إني وكلت بثلاثة، بكل جبار عنيد، ومن جعل مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين ثم تنطوى عليهم (١). روى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى عن نبي الله ﷺ أنه قال: «يخرج عنق من النار يتكلم، يقول: وكلت اليوم بثلاثة: بكل جبار، ومن جعل مع الله إلهاً آخر، ومن قتل نفساً بغير نفس. فتنتوى عليهم، فتقذفهم فى غمرات جهنم» (٢).

﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة، وغيرهم: هو الشيطان الذى وكل به: ﴿رَبَّنَا مَا أَطَفَيْتَهُ﴾ أى: يقول عن الإنسان الذى قد وافى القيامة كافراً، يتبرأ منه شيطانه، فيقول: ﴿رَبَّنَا مَا أَطَفَيْتَهُ﴾ أى: ما أضلته ﴿وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أى: بل كان هو فى نفسه ضالاً قابلاً للباطل معانداً للحق. كما أخبر تعالى فى الآية الأخرى فى قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمُزُونِي وَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ يقول الرب عز وجل للإنسى وقرينه من الجن، وذلك أنهمما يختصمان بين يدى الحق فيقول الإنسى: يا رب، هذا أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى. ويقول الشيطان: ﴿رَبَّنَا مَا أَطَفَيْتَهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أى: عن منهج الحق. فيقول الرب عز وجل لهما: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ أى: عنى ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ أى: قد أعذرت إليكم على السنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبيئات والبراهين. ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ﴾: قال مجاهد: يعنى قد قضيت ما أنا قاض ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أى: لست أعذب أحداً بذنب أحد، ولكن لا أعذب أحداً إلا بذنبه، بعد قيام الحجة عليه.

(١) المسند (٣/ ٤٠) والترمذى (٢٥٧٤) وصححه الألبانى .

(٢) المسند (٣/ ٤٠) وصححه الألبانى .

﴿ ١٠ ﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتَ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿ ١١ ﴾ وَأَزَلْنَا الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ
 ﴿ ١٢ ﴾ هَذَا مَا تَدْعُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿ ١٣ ﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ
 ﴿ ١٤ ﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلْوٍ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُلُودِ ﴿ ١٥ ﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿ ١٦ ﴾

يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت؟ وذلك أنه وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو سبحانه يأمر بمن يأمر به إليها، ويلقى وهى تقول: ﴿هل من مزيد﴾ أى: هل بقى شىء تزيدونى؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية، وعليه تدل الأحاديث:

روى البخارى عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ قال: «يلقى فى النار، وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع قدمه فيها، فتقول: قط قط» (١). وروى الإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال جهنم يلقي فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط، وعزتك وكرمك ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا آخر فيسكنهم فى فضول الجنة». ثم رواه مسلم (٢). وروى البخارى عن أبى هريرة - رفعه، وأكثر ما كان يوقفه أبو سفيان -: «يقال لجهنم: هل امتلأت، وتقول: هل من مزيد، فيضع الرب، عز وجل، قدمه عليها، فتقول: قط قط» (٣).

وروى البخارى، عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ: «تحتاج الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. وقالت الجنة: مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم. قال الله، عز وجل، للجنة: أنت رحمتى، أرحم بك من أشياء من عبادى. وقال للنار: إنما أنت عذابى، أعذب بك من أشياء من عبادى، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله، فتقول: قط قط، فهناك تمتلئ وينزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحدا، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقا آخر» (٤). وروى مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فى الجبارون والمتكبرون. وقالت الجنة: فى ضعفاء الناس ومساكينهم. ففضى بينهما، فقال للجنة: إنما أنت رحمتى، أرحم بك من أشياء من عبادى. وقال للنار: إنما أنت عذابى، أعذب بك من أشياء من عبادى، ولكل واحدة منكما ملؤها» انفرد به مسلم دون البخارى من هذا الوجه (٥). والله، سبحانه وتعالى، أعلم. وقد رواه الإمام أحمد عن أبى سعيد بأبسط من هذا السياق فقال: عن أبى سعيد الخدرى؛ أن رسول الله ﷺ قال: «افتخرت الجنة والنار، فقالت النار: يا رب، يدخلنى الجبابرة والمتكبرون والملوك والأشراف. وقالت الجنة: أى رب، يدخلنى الضعفاء والفقراء والمساكين. فيقول الله، عز وجل، للنار: أنت عذابى، أصيب بك من أشياء. وقال للجنة: أنت رحمتى،

(٢) المسند (٣/٢٣٤) ومسلم (٢٨٤٨/٣٨).

(٤) البخارى (٤٨٥٠).

(١) البخارى (٤٨٤٨).

(٣) البخارى (٤٨٤٩).

(٥) مسلم (٢٨٤٧).

وسعت كل شيء ، ولكل واحدة منكما ملؤها ، فيلقى في النار أهلها فتقول : هل من مزيد ؟ قال : ويلقى فيها وتقول : هل من مزيد؟ ويلقى فيها وتقول : هل من مزيد؟ حتى يأتيها عز وجل ، فيضع قدمه عليها ، فتزوى وتقول : قدنى ، قدنى . وأما الجنة فيبقى فيها ما شاء الله أن يبقى ، فينشئ الله لها خلقا ما يشاء « (١) . وعن ابن عباس ، ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لَجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأت ﴾ قال : ما امتلأت ، قال : تقول : هل في من مكان يزداد في ﴿ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ : وهل في مدخل واحد؟ قد امتلأت . فعند هؤلاء أن قوله تعالى : ﴿ هَلِ امْتَلأت ﴾ إنما هو بعدما يضع عليها قدمه ، فتزوى وتقول حينئذ : هل بقى في مزيد ؟ يسع شيئا . قال ابن عباس : وذلك حين لا يبقى فيها موضع يسع إبرة . فالله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَزْلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ قال قتادة ، وأبو مالك ، والسدى : ﴿ أَزْلَفْتِ ﴾ : أدنيت وقربت من المتقين ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ ، وذلك يوم القيامة ، وليس ببعيد ؛ لأنه واقع لا محالة ، وكل ما هو آت قريب . ﴿ هَذَا مَا توعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ أى : رجاع تائب مقلع ﴿ حَفِيفٍ ﴾ أى : يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكته . وقال عبيد بن عمير : الأواب : الحفيظ الذى لا يجلس مجلسا فيقوم حتى يستغفر الله ، عز وجل . ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ أى : من خاف الله فى سره حيث لا يراه أحد إلا الله . كقوله ﷺ : «ورجل ذكر الله خاليا ، ففاضت عيناه » (٢) . ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ أى : ولقى الله يوم القيامة بقلب سليم منيب إليه خاضع لديه . ﴿ ادْخُلُوهَا ﴾ أى : الجنة ﴿ بِسَلَامٍ ﴾ قال قتادة : سلموا من عذاب الله ، وسلم عليهم ملائكة الله ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ أى : يخلدون فى الجنة فلا يموتون أبداً ، ولا يظعنون أبداً ، ولا يبغون عنها حولا . وقوله : ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا ﴾ أى : مهما اختاروا وجدوا ، من أى أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم . وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «إذا اشتهى المؤمن الولد فى الجنة ، كان حمله ووضع وسنه فى ساعة واحدة» . ورواه الترمذى . وقال الترمذى : حسن غريب ، وزاد «كما يشتهى» (٣) . وقوله : ﴿ وَوَلَدْنَا مَزِيدَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] . وقد تقدم فى صحيح مسلم عن صهيب بن سنان الرومى : أنها النظر إلى وجه الله الكريم (٤) .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾
 ﴿ ٢٦ ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿ ٢٧ ﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿ ٢٨ ﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿ ٢٩ ﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَادْبُرَ النُّجُودِ ﴿ ٣٠ ﴾

(٢) البخارى (٦٦٠) .

(١) المسند (١٣ / ٣) .

(٤) مسلم (٢٩٧ / ١٨١) .

(٣) المسند (٩ / ٣) ، والترمذى (٢٥٦٣) وصححه الألبانى .

يقول تعالى: **﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ ﴿٣٦﴾ مِنْ قَرْنِهِمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴿٣٧﴾ أَمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ قُوَّةً، وَأَتَارَوْا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا؛ وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿فَتَقَبَّحُوا فِي الْبِلَادِ﴾** قال ابن عباس: أثروا فيها. وقال مجاهد: ضربوا في الأرض. وقال قتادة: فساروا في البلاد، أي ساروا فيها يتتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم أنتم فيها، ويقال لمن طوف في البلاد: نقب فيها. وقوله: **﴿هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴿٣٨﴾﴾** أي: هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره؟ وهل نفعهم ما جمعوه ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل؟ فأنتم أيضاً لا مفر لكم ولا محيد ولا مناص ولا محيص.

وقوله: **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى ﴿٣٩﴾﴾** أي: لعبرة **﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴿٤٠﴾﴾** أي: لب يعي به. وقال مجاهد: عقل **﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٤١﴾﴾** أي: استمع الكلام فوعاه، وتعلقه بقلبه وتفهمه بلبه. وقال مجاهد: **﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴿٤٢﴾﴾** يعني: لا يحدث نفسه في هذا بقلب. وقال الضحك: العرب تقول: ألقى فلان سمعه: إذا استمع بأذنيه وهو شاهد يقول غير غائب. وهكذا قال الثوري وغير واحد.

وقوله: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٤٣﴾﴾** فيه تقرير المعاد؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن، قادر على أن يحيى الموتى بطريق الأولى والأخرى. وقال قتادة: قالت اليهود - عليهم لعائن الله: خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع، وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة، فأنزل الله تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه: **﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٤٤﴾﴾** أي: من إعياء ولا نصب ولا تعب، كما قال في الآية الأخرى: **﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُ بَقَاؤُهُمْ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾** [الأحاف: ٣٣]، وكما قال: **﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴿٤٦﴾﴾** [غافر: ٥٧] وقال: **﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بِنَاهَا ﴿٤٧﴾﴾** [النازعات: ٢٧].

وقوله: **﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴿٤٨﴾﴾** يعني: المكذبين، اصبر عليهم واهجرهم هجراً جميلاً، **﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٤٩﴾﴾**، وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسرائئتين قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجباً على النبي ﷺ وعلى أمته حولاً، ثم نسخ في حق الأمة وجوبه. ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسرائئ بخمس صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب.

وقد روى الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر، لا تضامون فيه، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فاعلموا». ثم قرأ: **﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٥٠﴾﴾**. ورواه البخاري ومسلم وبقية الجماعة، من

حديث إسماعيل، به (١).

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أى: فصل له، كقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. ﴿وَأَذْبَارَ السُّجُودِ﴾ قال ابن عباس: هو التسبيح بعد الصلاة. ويؤيد هذا ما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلىٰ والنعيم المقيم. فقال: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلىٰ، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق! قال: «أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين». قال: فقالوا: يا رسول الله، سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله. قال: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء» (٢). والقول الثانى: أن المراد بقوله: ﴿وَأَذْبَارَ السُّجُودِ﴾: هما الركعتان بعد المغرب، روى ذلك عن عمر وعلى، وابنه الحسن وابن عباس، وأبى هريرة، وأبى أمامة، وبه يقول مجاهد، وعكرمة، والشعبى، والنخعى والحسن وقتادة، وغيرهم. روى الإمام أحمد عن على قال: كان رسول الله ﷺ يصلىٰ علىٰ أثر كل صلاة مكتوبة ركعتين إلا الفجر والعصر. وقال عبد الرحمن: دبر كل صلاة. ورواه أبو داود والنسائى (٣).

﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴿٤٤﴾ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَا سِيرُ ﴿٤٥﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ﴾ يا محمد ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قال قتادة: قال كعب الأحبار: يأمر الله تعالى ملكاً أن ينادى على صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء. ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ يعنى: النفخة فى الصور التى تأتى بالحق الذى كان أكثرهم فيه يمترون. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ أى: من الأجدات ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ أى: هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه، وإليه مصير الخلائق كلهم، فيجازى كلا بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾: وذلك أن الله تعالى ينزل مطراً من السماء تنبت به أجساد الخلائق فى قبورها، كما ينبت الحب فى الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أمر

(١) المسند (٣٦٥/٤) والبخارى (٤٨٥١) ومسلم (٢١١/٦٣٣).

(٢) البخارى (٦٣٢٩) ومسلم (١٤٢/٥٩٥).

(٣) المسند (١٠١٢) وأبو داود (١٢٧٥) والنسائى فى الكبرى (٣٤١) وقال الشيخ شاکر: «إسناده صحيح».

الله إسرائيل فينفتح فى الصور، وقد أودعت الأرواح فى ثقب فى الصور، فإذا نفخ إسرائيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض، فيقول الله، عز وجل: وعزتى وجلالى، لترجعن كل روح إلى الجسد الذى كانت تعمره، فترجع كل روح إلى جسدها، فتدب فيه كما يدب السم فى اللدبغ وتنشق الأرض عنهم، فيقومون إلى موقف الحساب سراعا، مبادرين إلى أمر الله، عز وجل، ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسِيرٍ﴾ [القمر: ٨]، وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢]، وفى صحيح مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من تنشق عنه الأرض» (١). وقوله: ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَا سَيِّرُ﴾ أى: تلك إعادة سهلة علينا، يسيرة لدينا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمَحٍ بِالبَصْرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا بَعَثْنَاكُمْ إِلَّا كَفَّةً وَاحِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨].

وقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أى: نحن علمنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يهيدنك ذلك، كقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ . وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩]. ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أى: ولست بالذى تجبر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك مما كلفت به. ثم قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أى: بلغ أنت رسالة ربك، فأما يتذكر من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ كان فتادة يقول: اللهم، اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك، يا بار، يا رحيم .

تفسير سورة الذاريات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَنِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أُوْكَ ﴿٩﴾ قِيلَ الْخَفْرَ صَوْنَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرٍ وَسَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْتَأْذِنُونَ آيَانَ يَوْمِ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفَنَّنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فَنَّتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تَسْتَعِجُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

ثبت من غير وجه، عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب: أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألوني عن آية في كتاب الله، ولا عن سنة عن رسول الله، إلا أنبأتكم بذلك. فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا ﴾؟ قال: الريح قال: ﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴾؟ قال: السحاب. قال: ﴿ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴾؟ قال: السفن. قال: ﴿ فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا ﴾؟ قال: الملائكة. وهكذا فسرها ابن عباس، وابن عمر، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والسدي، وغير واحد. ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم غير ذلك. وقد قيل: إن المراد بالذاريات: الريح كما تقدم، وبالحاملات وقرأ: السحاب كما تقدم؛ لأنها تحمل الماء. فأما الجاريات يسرا، فالشهور عن الجمهور - كما تقدم: أنها السفن، تجري ميسرة في الماء جريا سهلا. وقال بعضهم: هي النجوم تجري يسرا في أفلاكها، ليكون ذلك ترقيا من الأدنى إلى الأعلى، إلى ما هو أعلى منه، فالرياح فوقها السحاب، والنجوم فوق ذلك، والمقسمات أمرا الملائكة فوق ذلك، تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية. وهذا قسم من الله عز وجل على وقوع المعاد؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ ﴾ أي: لخبر صدق ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ ﴾ وهو: الحساب ﴿ لَوَاقِعٍ ﴾ أي: لكائن لا محالة.

ثم قال: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوكِ ﴾ قال ابن عباس: ذات البهاء والجمال والحسن والاستواء. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وغيرهم. وقال الضحاك، والمنهال بن عمرو، وغيرهما: مثل تجعد الماء والرمل والزرع إذا ضربته الريح، فينسج بعضه بعضا طرائق طرائق، فذلك الحبك. وعن أبي صالح: ﴿ ذَاتِ الْحُبُوكِ ﴾: الشدة. وقال خصيف: ﴿ ذَاتِ الْحُبُوكِ ﴾: ذات الصفاقة. وقال الحسن بن أبي الحسن البصرى: ﴿ ذَاتِ الْحُبُوكِ ﴾: حبكت بالنجوم. وقال عبدالله ابن عمرو: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوكِ ﴾ يعني: السماء السابعة. وكأنه - والله أعلم - أراد بذلك السماء التي فيها الكواكب الثابتة، وهي عند كثير من علماء الهيئة في الفلك الثامن الذي فوق السابع،

والله أعلم. وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، وهو الحسن والبهاء، كما قال ابن عباس، فإنها من حسنها مرتفعة شفاقة صفيقة، شديدة البناء، متسعة الأرجاء، أنيقة البهاء، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ أى: إنكم أيها المشركون المكذبون للرسول لفي قول مختلف مضطرب، لا يلتزم ولا يجتمع. وقال قتادة: إنكم لفي قول مختلف ما بين مصدق بالقرآن ومكذب به. ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ﴾ أى: إنما يروج على من هو ضال فى نفسه؛ لأنه قول باطل وإنما ينقاد له ويضل بسببه ويؤفك عنه من هو مأفوك ضال غمراً، لا فهم له، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ. مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ. لَأَمِّنُ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: ١٦١ - ١٦٣]. قال ابن عباس، والسدى: ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ﴾: يضل عنه من ضل. وقال مجاهد: ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ﴾ يؤفن عنه من أفن. وقال الحسن البصرى: يصرف عن هذا القرآن من كذب به.

وقوله: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ قال مجاهد: الكذابون. قال: وهى مثل التى فى عبس: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ١٧]، والخراصون الذين يقولون لا نبعث ولا يوقنون. وقال ابن عباس: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ أى: لعن المرتابون. وهكذا كان معاذ، يقول فى خطبه: هلك المرتابون. وقال قتادة: الخراصون أهل الغرة والظنون. وقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: فى الكفر والشك غافلون لاهون. ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ﴾: وإنما يقولون هذا تكديبا وعنادا وشكا واستبعادا. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد: ﴿يُفْتَنُونَ﴾: يعذبون، كما يفتن الذهب على النار. وقال جماعة آخرون كمجاهد أيضا، وعكرمة، وإبراهيم النخعى: ﴿يُفْتَنُونَ﴾: يحرقون. ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ قال مجاهد: حريقكم. وقال غيره: عذابكم ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أى: يقال لهم ذلك تقريحا وتوبيخا وتحقيرا وتصغيرا.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاجِزِينَ مِمَّا ءَاتَتْهُمْ رَبُّهُمْ إِتْمَهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْمَارِ هُمْ يَسْتَعْفِفُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تَعْدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

يقول تعالى مخبرا عن المتقين لله، عز وجل: إنهم يوم معادهم يكونون فى جنات وعيون، بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال، والحريق والأغلال.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ أى: فى الدار الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾، كقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] ثم إنه تعالى بين إحسانهم فى العمل فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، اختلف المفسرون فى ذلك على قولين:

أحدهما: أن «ما» نافية، تقديره: كانوا قليلا من الليل لا يهجعونه. قال ابن عباس: لم تكن تمضى عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئا. وقال مطرف بن عبد الله: قلّ ليلة تأتي عليهم لا يصلون فيها لله، عز وجل، إما من أولها وإما من أوسطها. وقال مجاهد: قلّ ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتهجدون. وكذا قال قتادة. وقال أنس بن مالك، وأبو العالية: كانوا يصلون بين المغرب والعشاء. وقال أبو جعفر الباقر، كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة.

والقول الثاني: أن «ما» مصدرية، تقديره: كانوا قليلا من الليل هجوعهم ونومهم. واختاره ابن جرير.

وقال الحسن البصرى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: كابدوا قيام الليل، فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدّوا إلى السحر، حتى كان الاستغفار بسحر. وقال الأحنف بن قيس: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: كانوا لا ينامون إلا قليلا، ثم يقول: لست من أهل هذه الآية. وقال الحسن البصرى: كان الأحنف بن قيس يقول: عرضت عملى على عمل أهل الجنة، فإذا قوم قد باينونا بونا بعيدا، إذا قوم لا تبلغ أعمالهم، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وعرضت عملى على عمل أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم يكذبون بكتاب الله وبرسل الله، يكذبون بالبعث بعد الموت، فوجدت من خيرنا منزلة قوما خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال رجل من بنى تميم لأبى: يا أبا أسامة، صفة لا أجدها فينا، ذكر الله قوما فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾، ونحن والله قليلا من الليل ما نقوم. فقال له أبى: طوبى لمن رقد إذا نعس، واتقى الله إذا استيقظ. وقال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، انجفل الناس إليه، فكنت فيمن انجفل. فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «يا أيها الناس، أطعموا الطعام، وصلّوا الأرحام، وأفشوا السلام، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام» (١). وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها». فقال أبو موسى الأشعري: لمن هى يارسول الله؟ قال: «لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وبات لله قائما، والناس نيام» (٢). وقال معمر فى قوله: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾: كان الزهرى والحسن يقولان: كانوا كثيرا من الليل ما يصلون. وقال ابن عباس: ما ينامون.

وقوله عز وجل: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال مجاهد وغير واحد: يصلون. وقال آخرون: قاموا الليل، وأخروا الاستغفار إلى الأسحار. كما قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ آل عمران: ٤١٧، فإن كان الاستغفار فى صلاة فهو أحسن. وقد ثبت فى الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث

(١) المسند (٤٥١/٥) والترمذى (٢٤٨٥) وقال: «حسن صحيح».

(٢) المسند (٦٦١٥) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

الليل الأخير، فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فيعطى سؤله؟ حتى يطلع الفجر» (١). وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخبارا عن يعقوب: أنه قال لبيته: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨] قالوا: أخرهم إلى وقت السحر.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾: لما وصفهم بالصلاة ثنى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة، فقال: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ أى: جزء مقسوم قد أفرزوه ﴿لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ أما السائل: فمعروف، وهو الذى يتدنى بالسؤال، وله حق.

وأما المحروم: فقال ابن عباس، ومجاهد: هو المحارف الذى ليس له فى الإسلام سهم. يعنى: لا سهم له فى بيت المال، ولا كسب له، ولا حرفة يتقوت منها. وقالت أم المؤمنين عائشة: هو المحارف الذى لا يكاد يتيسر له مكسبه. وقال الضحاك: هو الذى لا يكون له مال إلا ذهب، قضى الله له ذلك. وقال أبو قلابة: جاء سيل باليمامة فذهب بمال رجل، فقال رجل من الصحابة: هذا المحروم. وقال قتادة، والزهرى: ﴿الْمَحْرُومُ﴾: الذى لا يسأل الناس شيئا، قال الزهرى: وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين بالطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان، والتمررة والتمرتان، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يُقطن له فيتصدق عليه» (٢). واختار ابن جرير أن المحروم: هو الذى لا مال له بأى سبب كان، قد ذهب ماله، سواء كان لا يقدر على الكسب، أو قد هلك ماله أو نحوه بأفة أو نحوها. وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِ﴾ أى: فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال، والفقار والأنهار والبحار، واختلاف السنة الناس واللوانهم، وما جبلوا عليه من الإيرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت فى العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما فى تركيبهم من الحكم فى وضع كل عضو من أعضائهم فى المحل الذى هو محتاج إليه فيه؛ ولهذا قال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ قال قتادة: من تفكر فى خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة. ثم قال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ يعنى: المطر، ﴿وَمَا تُوَعْدُونَ﴾ يعنى: الجنة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد. وقوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾: يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء، كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا فى نطقكم حين تنطقون. وكان معاذ، إذا حدث بالشىء يقول لصاحبه: إن هذا لحق كما أنك هاهنا.

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿١٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿١٥﴾ فَرَأَى إِلَهَ آهْلِيهِ فَجَاءَ يُعَجِّلُ سَمِينَ ﴿١٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿١٧﴾ فَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿١٨﴾ فَأَقْبَلَتْ آمْرَانُهُ فِي صَرْفٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿١٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٢٠﴾ ﴾

هذه القصة قد تقدمت في سورة «هود» و«الحجر» (١) أيضا. وقوله: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ أى: الذين أرصد لهم الكرامة. وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للتزليل، وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل.

وقوله: ﴿ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾: الرفع أقوى وأثبت من النصب، فرده أفضل من التسليم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ [النساء: ٨٦] ، فالخليل اختار الأفضل.

وقوله: ﴿ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾: وذلك أن الملائكة وهم: جبريل وإسرافيل وميكائيل قدموا عليه فى صور شباب حسان عليهم مهابة عظيمة؛ ولهذا قال: ﴿ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾. وقوله: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ ﴾ أى: انسل خفية فى سرعة ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ أى: من خيار ماله. وفى الآية الأخرى: ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود: ٦٩] أى: مشوى على الرضف، ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ أى: أدناه منهم ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾: تلتطف فى العبارة وعرض حسن.

وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة؛ فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولا فقال: «نأتيكم بطعام؟» بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتى سمين مشوى، فقربه إليهم، لم يضعه، وقال: اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق، فافعل.

وقوله: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾: هذا محال على ما تقدم فى القصة فى السورة الأخرى ، وهو قوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ لُّوطِيٍّ . وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ ﴾ [هود: ٧٠ ، ٧١] أى: استبشرت بهلاكهم؛ لتمردهم وعتوهم على الله، فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ . قَالُوا أَنْعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتِ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود: ٧٢ ، ٧٣] ؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾، فالبشارة له هى بشارة لها؛ لأن الولد منها، فكل منهما بشر به.

وقوله: ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَةٍ ﴾ أى: فى صرخة عظيمة ورنة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وهى قولها: ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ ﴾ ﴿ فَصَكَتَ وَجْهَهَا ﴾ أى: ضربت بيدها على جبينها ، قاله مجاهد . وقال ابن عباس: لطمت ، أى تعجبا كما تتعجب النساء من الأمر الغريب، ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أى: كيف ألد وأنا عجوز ، وقد كنت فى حال الصبا عقيما لا أحبل؟ ﴿ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ أى: عليم بما تستحقون من الكرامة، حكيم فى أقواله وأفعاله .

﴿٣١﴾ قَالَ فَاخْطَبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٢﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٣﴾
لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٤﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٦﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ
يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٨﴾

قال الله مخبراً عن إبراهيم، عليه الصلاة والسلام: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرُ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ. إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ. يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مُرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٤ - ٧٦]. وقال هاهنا: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أى: ما شأنكم وفيهم جتتم؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعنون: قوم لوط ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ. مُسَوِّمَةً﴾ أى: معلمة ﴿عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أى: مكتتبه عنده بأسمائهم، كل حجر عليه اسم صاحبه، فقال فى سورة العنكبوت: ﴿قَالَ إِنْ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَةً كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢]. وقال هاهنا: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته، ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. احتج بهذه من ذهب إلى رأى المعتزلة، ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام؛ لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين. وهذا الاستدلال ضعيف؛ لأن هؤلاء كانوا قوماً مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس، فاتفق الاسمان هاهنا لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك فى كل حال.

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أى: جعلناها عبرة، لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا محلهم بحيرة متنته خبيثة، ففى ذلك عبرة للمؤمنين ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

﴿٣٩﴾ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَتَوَلَّىٰ بُرْكَانِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ
مَجْنُونٌ ﴿٤١﴾ فَأَخَذْتَهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْتَهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ
الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤٣﴾ مَا تَلَدُّ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ ﴿٤٤﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ
قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٥﴾ فَعَمَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّيهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٦﴾
فَمَا اسْتَظَلُّوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِفِينَ ﴿٤٧﴾ وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ
كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٨﴾

يقول تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى: بدليل باهر وحجة قاطعة ﴿فَتَوَلَّىٰ بُرْكَانِهِ﴾ أى: فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق المبين، استكباراً وعناداً. وقال مجاهد: تمزز بأصحابه. وقال قتادة: غلب عدو الله على قومه. وقال ابن زيد: ﴿فَتَوَلَّىٰ بُرْكَانِهِ﴾

أى : بجموعه التى معه ، ثم قرأ : ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود : ٨٠] . والمعنى الأول قوى كقوله : ﴿ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج : ٩] أى : معرض عن الحق مستكبر ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أى : لا يخلو أمرك فيما جئتنى به من أن تكون ساحرا أو مجنونا ، قال الله تعالى : ﴿فَأَخَذْنَا هُوْدَهُ وَقَبْذَنَاهُمْ﴾ أى : ألقيناهم فى اليم ، وهو البحر ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أى : وهو ملوم كافر جاحد فاجر معاند .

ثم قال عز وجل : ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ أى : المفسدة التى لا تنتج شيئا . قاله الضحاك ، وقتادة ، وغيرهما . ولهذا قال : ﴿مَا تَذُرُّ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أى : مما تفسده الريح ﴿وَالْأَجَلُ عَلَيْهِمْ كَالرِّمِيمِ﴾ أى : كالشئ الهالك البالى . قال سعيد بن المسيب وغيره فى قوله : ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ قالوا : هى الجنوب . وقد ثبت فى الصحيح عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور» (١) . ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ قال ابن جرير : يعنى إلى وقت فناء آجالكم . والظاهر أن هذه كقوله : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَنَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ فَآخَذْتَهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ [فصلت : ١٧] . وهكذا قال هاهنا : ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ . فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَآخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ، وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام وجاءهم فى صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ أى : من هرب ولا نهوض ﴿وَمَا كَانُوا مُتَّصِرِينَ﴾ أى : ولا يقدرين على أن يتصروا مما هم فيه .

وقوله عز وجل : ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ﴾ أى : وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وكل هذه القصص قد تقدمت مبسوطه فى أماكن كثيرة ، من سور متعددة .

﴿ وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِأَيِّدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَرِمَةٌ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكَرِمَةٌ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾ ﴾

يقول تعالى منها على خلق العالم العلوى والسفلى : ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا﴾ أى : جعلناها سقفا محفوظا رفيعا ﴿بِأَيِّدٍ﴾ أى : بقرة . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والثورى ، وغير واحد ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أى : قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد ، حتى استقلت كما هى ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أى : جعلناها فراشا للمخلوقات ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أى : وجعلناها مهذا لأهلها ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أى : جميع المخلوقات أزواج : سماء وأرض ، ليل ونهار ، وشمس وقمر ، وبر وبحر ، وضياء وظلام ، وإيمان وكفر ، وموت وحياة ، وشقاء وسعادة ، وجنة ونار ، حتى الحيوانات

والنباتات؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أى: لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أى: الجئوا إليه، واعتمدوا فى أموركم عليه ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ . ﴿وَلَا تَجْمَلُوا مَعَ اللَّهِ إِنَّهَا أَخْرَى﴾ أى: لا تشركوا به شيئا ، ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ .

﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿وَذَكَرْنَا لِلذِّكْرِ نَفْعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿قَوْلٍ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى مسلينا لنبيه ﷺ: وكما قال لك هؤلاء المشركون، قال المكذوبون الأولون لرسولهم: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾! قال الله عز وجل: ﴿أَتَوَصَّوْا بِهِمْ﴾ أى: أوصى بعضهم بعضا بهذه المقالة ؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ﴾ أى: لكن هم قوم طغاة، تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم. قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أى: فأعرض عنهم يا محمد ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ يعنى: فما نلومك على ذلك ﴿وَذَكَرْنَا لِلذِّكْرِ نَفْعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: إنما يتنفع بها القلوب المؤمنة.

ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أى: إنما خلقتهم لأمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم. وقال ابن عباس: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أى: إلا ليقروا بعبادتي طوعا أو كرها ، وهذا اختيار ابن جرير. وقال ابن جرير: إلا ليعرفون. وقال الربيع بن أنس: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أى: إلا للعبادة. وقال السدى: من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع، ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] هذا منهم عبادة، وليس ينفعهم مع الشرك. وقال الضحاك: المراد بذلك المؤمنون. وقوله: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِ﴾. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ: روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: أقرأني رسول الله ﷺ: ﴿إِنِّي لَأَنَا الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾. ورواه أبو داود، والترمذى، وقال الترمذى: حسن صحيح (١).

ومعنى الآية: أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم. روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « قال الله: يا بن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسدّ فرك، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسدّ فركك ». ورواه الترمذى وابن ماجه وقال الترمذى: حسن غريب (٢).

(١) المسند (٣٧٤١) وأبو داود (٣٩٩٣) والترمذى (٢٩٤٠).

(٢) المسند (٣٥٨/٢) والترمذى (٢٤٦٦) وابن ماجه (٤١٠٧) وصححه الألبانى.

وقد روى الإمام أحمد عن حبة وسوء ابني خالد يقولان : أتينا رسول الله ﷺ وهو يعمل عملا أو يبني بناء - وقال أبو معاوية : يصلح شيئا - فأعناه عليه ، فلما فرغ دعا لنا وقال : « لا تيأسا من الرزق ما تهزرت رؤوسكما ، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة ، ثم يعطيه الله ويرزقه » (١) .

وقوله : ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا﴾ أى : نصيبا من العذاب ﴿مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أى : فلا يستعجلون ذلك ، فإنه واقع لا محالة ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ يعنى : يوم القيامة .

تفسير سورة الطور

وهي مكية

عن جبير بن مطعم، قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحدا أحسن صوتا - أو: قراءة - منه. أخرجاه (١)، وروى البخارى عن أم سلمة قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أنى أشتكى، فقال: «طوفى من وراء الناس وأنت راكبة» فطقت، ورسول الله ﷺ يصلى إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور (٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ وَالطُّورِ ﴿٢﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ﴿٣﴾ فِي رَقٍ مَّنشُورٍ ﴿٤﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٥﴾
 وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٦﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوْفَعٌ ﴿٨﴾
 يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ قَوْلٌ لَّيْمٌ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾
 الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ
 الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصَلُّوْهَا قَاصِرُونَ أَوْ
 لَا تَبْصِرُونَ سِوَاهُ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة: أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم. فالطور هو: الجبل الذى يكون فيه أشجار، مثل الذى كلم الله عليه موسى، وأرسل منه عيسى، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طورا، إنما يقال له: جبل. ﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ قيل: هو اللوح المحفوظ. وقيل: الكتب المنزلة المكتوبة التى تقرأ على الناس جهارا؛ ولهذا قال: ﴿فِي رَقٍ مَّنشُورٍ﴾ ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال فى حديث الإسراء - بعد مجاوزته إلى السماء السابعة: «ثم رفع بى إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم» (٣) يعنى: يتعبدون فيه ويطوفون، كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم كذلك ذاك البيت، هو كعبة أهل السماء السابعة؛ ولهذا وجد إبراهيم الخليل، عليه السلام، مسندا ظهره إلى البيت المعمور؛ لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفى كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها، ويصلون إليه، والذى فى السماء الدنيا يقال له: بيت العزة. والله أعلم. وقال ابن عباس: هو بيت حذاء العرش، تعمره الملائكة، يصلى فيه كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ثم لا يعودون إليه. وكذا قال عكرمة،

(١) البخارى (٤٨٥٤) ومسلم (١٧٤/٤٦٣). وسيأتى عند الآية (٣٦) من هذه السورة مطولا.

(٢) البخارى (٣٢٠٧) ومسلم (٢٥٩/١٦٢).

(٣) البخارى (٤٨٥٣).

ومجاهد، والربيع بن أنس، والسدى، وغير واحد من السلف.

وقوله: ﴿وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعَ﴾ قال سفيان الثوري، وشعبة، وأبو الأحوص، عن سمك، عن خالد بن عرعر، عن علي: ﴿وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعَ﴾ يعني: السماء، قال سفيان: ثم تلا: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والسدى، وابن جرير، وابن زيد، واختاره ابن جرير. وقال الربيع بن أنس: هو العرش، يعني: أنه سقف لجميع المخلوقات، وله اتجاه، وهو يُراد مع غيره كما قاله الجمهور.

وقوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرَ الْمَسْجُورَ﴾ قال الربيع بن أنس: هو الماء الذي تحت العرش، الذي ينزل الله منه المطر الذي يحيى به الأجساد في قبورها يوم معادها. وقال الجمهور: هو هذا البحر. واختلف في معنى قوله: ﴿الْمَسْجُورَ﴾، فقال بعضهم: المراد أنه يوحد يوم القيامة نارا كقوله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] أى: أضمرت فتصير نارا تتأجج، محيطة بأهل الموقف. رواه سعيد بن المسيب عن علي بن أبي طالب، وروى عن ابن عباس. وبه يقول سعيد بن جبير، ومجاهد، وغيرهم. وقال العلاء بن بدر: إنما سمي البحر المسجور لأنه لا يُشرب منه ماء، ولا يسقى به زرع، وكذلك البحار يوم القيامة. وعن سعيد بن جبير: ﴿وَالْبَحْرَ الْمَسْجُورَ﴾ يعني: المرسل. وقال قتادة: ﴿الْمَسْجُورَ﴾: المملوء. واختاره ابن جرير ووجهه بأنه ليس موقدا اليوم فهو مملوء. وقيل: المراد به: الفارغ، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالْبَحْرَ الْمَسْجُورَ﴾ قال: الفارغ؛ خرجت أمة تستسقى فرجعت فقالت: «إن الخوض مسجور»، تعنى: فارغا. وقيل: المراد بالمسجور: المنوع المكفوف عن الأرض؛ لثلا يغمرها فيغرق أهلها. قاله علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وبه يقول السدى وغيره.

وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾: هذا هو المقسم عليه، أى: لواقع بالكافرين، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ أى: ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك. وروى الإمام أبو عبيد فى «فضائل القرآن» عن الحسن: أن عمر قرأ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾، فربا لها ربوة، عيد منها عشرين يوما (١).

وقوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مُمْرًا﴾ قال ابن عباس وقتادة: تتحرك تحريكا. وعن ابن عباس: هو تشققها، وقال مجاهد: تدور دورا. وقال الضحاك: استدارتها وتحركها لأمر الله، وموج بعضها فى بعض. وهذا اختيار ابن جرير أنه التحرك فى استدارة. ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أى: تذهب فتصير هباء منبثا، وتسف نسفا، ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُكذِبِينَ﴾ أى: ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم، وعقابة لهم، ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أى: هم فى الدنيا يخوضون فى الباطل، ويتخذون دينهم هزوا ولعبا، ﴿يَوْمَ يَدْعُونَ﴾ أى: يدفون ويساقون، ﴿إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ وقال مجاهد، والشعبى، والسدى، وغيرهم: يدفون فيها دفعا ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذِبُونَ﴾

(١) فضائل القرآن لأبى عبيد ص ٦٤ .

أى: تقول لهم الزبانية ذلك تقريرا وتوبيخا، ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾. اصلوها: أى: ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته ﴿فَأَصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أى: سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا، لا محيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها، ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: ولا يظلم الله أحدا، بل يجازى كلا بعمله.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَكِهِينَ بِمَا آتَاهُمُ رَبُّهُمْ وَوَقَدَّهَمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴿٢٠﴾ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢١﴾﴾

أخبر الله تعالى عن حال السعداء فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال، ﴿فَكَهِينَ بِمَا آتَاهُمُ رَبُّهُمْ﴾ أى: يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ، من مآكل ومشرب وملابس ومساكن ومرائب وغير ذلك، ﴿وَوَقَدَّهَمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أى: وقد نجاهم من عذاب النار، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حداثها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة، التي فيها من السرور ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، كقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]. أى: هذا بذاك، تفضلا منه وإحسانا.

وقوله: ﴿مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ قال ابن عباس: السرر فى الجبال. ومعنى ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ أى: وجوه بعضهم إلى بعض، كقوله: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الصفات: ٤٤]. ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أى: وجعلناهم قرينات صالحات، وزوجات حسانا من الحور العين. وقال مجاهد: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم﴾: أنكحناهم بحور عين، وقد تقدم وصفهن فى غير موضع بما أغنى عن إعادته.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ قَالُوا رَبُّنَا الَّذِي أَمَدَدْنَاهُمْ فِيكِهِمْ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَنْتَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكَوْنٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدَّهَمُ عَذَابَ السَّمُورِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

يخبر تعالى عن فضله وكرمه، وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه: أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم فى الإيمان يُلحقهم بأبائهم فى المنزلة وإن لم يبلغوا عملهم ، لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم فى منازلهم ، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه ، بأن يرفع الناقص العمل بكامل

العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزله ، للتساوى بينه وبين ذاك ؛ ولهذا قال : ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ (١) وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴿ . وهكذا يقول الشعبي، وسعيد بن جبير، وإبراهيم، وقتادة. وهو اختيار ابن جرير. وقد روى عبد الله ابن الإمام أحمد عن علي قال: سألت خديجة النبي ﷺ عن ولدين ماتا لها في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «هما في النار». فلما رأى الكراهة في وجهها قال: «لو رأيت مكانهما لأبغضتهما» . قالت : يا رسول الله، فولدى منك. قال: «في الجنة». قال: ثم قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم في النار». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ الآية (٢) .

هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء، فقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول: يا رب ، أنى لى هذه ؟ فيقول : باستغفار ولدك لك » (٣) . إسناده صحيح، ولم يخرجوه من هذا الوجه، ولكن له شاهد في صحيح مسلم، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له » (٤) .

وقوله: ﴿ كُلُّ أُمَّرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ ﴾ : لما أخبر عن مقام الفضل ، وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضى ذلك، أخبر عن مقام العدل، وهو أنه لا يؤاخذ أحدا بذنب أحد، بل ﴿ كُلُّ أُمَّرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِيْنٌ ﴾ أى: مرتبه بعمله، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس، سواء كان أبا أو ابنا، كما قال: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ . إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِيْنِ . فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُوْنَ . عَنِ الْمُجْرِمِيْنَ ﴾ [المدثر: ٣٨ - ٤١] . وقوله: ﴿ وَأَمْدَدْنَاَهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُوْنَ ﴾ أى: وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى، مما يستطاب ويشتهى .

وقوله: ﴿ يَتَنَزَّعُوْنَ فِيْهَا كَاسًا ﴾ أى: يتعاطون فيها كأسا، أى: من الخمر. قاله الضحاك. ﴿ لَا لَعَفُوْ فِيْهَا وَلَا تَأْتِيْمٌ ﴾ أى: لا يتكلمون عنها بكلام لاغ، أى: هذيان، ولا إثم، أى: فحش، كما تتكلم به الشربة من أهل الدنيا. وقال ابن عباس: اللغو: الباطل. والتأئيم: الكذب. وقال مجاهد: لا يستبون ولا يؤثمون. وقال قتادة: كان ذلك فى الدنيا مع الشيطان. فتره الله خمر

(١) « ذرياتهم » بالجمع : قراءة ثابته أيضا . وانظر تخريج القراءتين فى تعليق الشيخ شاكِر على الحديث رقم (١١٣١) من المستند .

(٢) المسند (١١٣١) وقال الشيخ شاكِر : «إسناده حسن » والحديث من زيادات عبد الله بن الإمام أحمد . وانظر تخريجه مفصلا هناك ، وكذا توجيه القراءتين « ذرياتهم » و « زريتهم » . وقد أشار أيضا إلى ذلك عند تفسير الآية (١٦١) من سورة الأنعام .

(٣) المسند (٥٠٩/٢) وابن ماجه (٣٦٦) وفى الزوائد : «إسناده صحيح رجاله ثقات» .

(٤) مسلم (١٤/١٦٣١) .

الأخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفى عنها - كما تقدم - صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل بالكلية، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيئ الفارغ عن الفائدة المتضمن هديانا وفحشا، وأخبر بحسن منظرها، وطيب طعمها ومخبرها فقال: ﴿بَيْضَاءُ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ. لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٦، ٤٧]، وقال: ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩]، وقال هاهنا: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَعْنٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمُ﴾.

وقوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾: إخبار عن خدامهم وحشمهم فى الجنة كأنهم اللؤلؤ الرطب، المكنون فى حشمتهم وبهائهم ونظافتهم وحسن ملابسهم، كما قال: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨]. وقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أى: أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم فى الدنيا، وهذا كما يتحادث أهل الشراب على شرابهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم، ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أى: قد كنا فى الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه، ﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السُّمُومِ﴾ أى: فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف، ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أى: نتضرع إليه، فاستجاب لنا وأعطانا سؤلنا، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾.

﴿ فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِعَمَّتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرْتَبِصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قَلِيلًا تَوَّابًا يُحْدِثُ مِثْلَهُ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ بأن يبلغ رسالته إلى عباده، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه. ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال: ﴿فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِعَمَّتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ أى: لست بحمد الله بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريش. والكاهن: الذى يأتية الرئى من الجان بالكلمة يتلقاها من خبير السماء ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾: وهو الذى يتخبطه الشيطان من المس.

ثم قال تعالى منكرها عليهم فى قولهم فى الرسول ﷺ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبِ الْمَنُونِ﴾ أى: قوارع الدهر. والمنون: الموت، يقولون: نتظره ونصبر عليه حتى يأتية الموت فستريح منه ومن شأنه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرْتَبِصِينَ﴾ أى: انتظروا فإنى منتظر معكم، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة فى الدنيا والأخرة.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا﴾ أى: عقولهم تأمرهم بهذا الذى يقولونه فيك من الأقوال الباطلة التى يعلمون فى أنفسهم أنها كذب وزور؟ ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أى: ولكن هم قوم ضلال معاندون، فهذا هو الذى يحملهم على ما قالوه فيك.

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴾ أى : اختلقه وافتراه من عند نفسه، يعنون القرآن، قال الله : ﴿ بَلْ لَأَيُّمُونَ ﴾ أى : كفرهم هو الذى يحملهم على هذه المقالة ﴿ فليأتوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ أى : إن كانوا صادقين فى قولهم : «تَقَوَّلَهُ وافتراه» فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هذا القرآن، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس، ما جاؤوا بمثله، ولا بعشر سور من مثله، ولا بسورة من مثله.

﴿ أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾

هذا المقام فى إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، فقال تعالى : ﴿ أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ أى : أوجدوا من غير موجد ؟ أم هم أوجدوا أنفسهم ؟ أى : لا هذا ولا هذا ، بل الله هو الذى خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا . روى البخارى عن جبير بن مطعم ، قال : سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية : ﴿ أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ . أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَأَيُّمُونَ . أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّرُونَ ﴾ كاد قلبى أن يطير. وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين (١) . وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبى ﷺ بعد وقعة بدر فى فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركا ، وكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول فى الإسلام بعد ذلك .

ثم قال تعالى : ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَأَيُّمُونَ ﴾ أى : أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ وهذا إنكار عليهم فى شركهم بالله، وهم يعلمون أنه الخالق وحده، لا شريك له . ولكن عدم إيقانهم هو الذى يحملهم على ذلك، ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّرُونَ ﴾ أى : أَمْ يَتَصَرَّفُونَ فى الملك وييدهم مفاتيح الخزائن؟ ﴿ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّرُونَ ﴾ المحاسبون للخلائق؟ ليس الأمر كذلك، بل الله ، عز وجل ، هو المالك المتصرف الفعال لما يريد . وقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ ؟ أى : مرقاة إلى الملأ الأعلى ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أى : فليأت الذى يستمع لهم بحجة ظاهرة على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال، أى : ليس لهم سبيل إلى ذلك، فليسوا على شيء، ولا لهم دليل .

ثم قال منكرا عليهم فيما نسبوه إليه من البنات، وجعلهم الملائكة إناثا، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الإناث، بحيث إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . هذا وقد

(١) مضى فى مقدمة هذه السورة مختصرا ، وخرج هناك .

جعلوا الملائكة بنات الله، وعبدهم مع الله، فقال: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ؟﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا؟﴾ أى: أجره على إبلاغك إياهم رسالة الله؟ أى: لست تسألهم على ذلك شيئاً، ﴿فَهُمْ مِنْ مَّعْرُومٍ مُثْقَلُونَ﴾ أى: فهم من أدنى شئ يتبرمون منه، ويشقلهم ويشق عليهم، ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أى: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله، ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ يقول تعالى: أم يريد هؤلاء بقولهم هذا فى الرسول وفى الدين غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم، فالذين كفروا هم المكيدون، ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ؟﴾ وهذا إنكار شديد على المشركين فى عبادتهم الأصنام والانداد مع الله. ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون، فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُورِ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين بالعناد والمكابرة للمحسوس: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ أى: عليهم يعذبون به، لما صدقوا ولما أيقنوا، بل يقولون: هذا «سحاب مَرْكُومٍ» أى: متراكم. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سَكِرَاتُ أَبْصَارِنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]. قال الله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ﴾ أى: دعهم - يا محمد - «حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ» وذلك يوم القيامة ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أى: لا ينفعهم كيدهم ولا مكرهم الذى استعملوه فى الدنيا، لا يُجدى عنهم يوم القيامة شيئاً، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾. ثم قال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أى: قبل ذلك فى الدار الدنيا، كقوله: ﴿وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى: نعذبهم فى الدنيا، ونبتليهم فيها بالمصائب، لعلهم يرجعون وينيبون، فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جلى عنهم مما كانوا فيه، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه.

وقوله: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أى: اصبر على أذاهم ولا تبالهم، فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا، والله يعصمك من الناس ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ قال الضحاك: أى إلى الصلاة: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك. وقد روى مثله عن الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهما. وروى مسلم فى صحيحه، عن عمر: أنه كان يقول هذا فى ابتداء الصلاة (١). ورواه أحمد وأهل السنن، عن أبى سعيد

وغيره، عن النبي ﷺ أنه كان يقول ذلك (١). وقال أبو الجوزاء : «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ» أي: من نومك من فراشك. واختاره ابن جرير: ويتأيد هذا القول بما رواه الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال: «من تعار من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: رب اغفر لي - أو قال: ثم دعا - استجيب له، فإن عزم فتوضأ، ثم صلى تقبلت صلاته». وأخرجه البخاري في صحيحه، وأهل السنن (٢). وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ» قال: من كل مجلس. وقال أبو الأحوص: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ» قال: إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال: سبحانك اللهم وبحمدك.

وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، استغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك». رواه الترمذی - وهذا لفظه - والنسائي في اليوم والليلة، وقال الترمذی: حسن صحيح. وأخرجه الحاكم في مستدرکه وقال: إسناد على شرط مسلم (٣). وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو؛ أنه قال: «كلمات لا يتكلم بهن أحد في مجلسه عند قيامه ثلاث مرات، إلا كفر بهن عنه، ولا يقولهن في مجلس خير ومجلس ذكر، إلا ختم له بهن كما يختم بالخاتم على الصحيفة: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»، وأخرجه الحاكم من حديث أم المؤمنين عائشة، وصححه، ومن رواية جبير بن مطعم (٤). ورواه أبو بكر الإسماعيلي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، كلهم عن النبي ﷺ. وقد أفردت لذلك جزءا على حدة بذكر طرقه وألفاظه وعلله، وما يتعلق به، والله الحمد والمنة.

وقوله: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ» أي: اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة في الليل، كما قال: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مُمُودًا» [الإسراء: ٧٩]. وقوله: «وَإِدْبَارَ النُّجُومِ» قد تقدم في حديث ابن عباس أنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر، فإنهما مشروعتان عند إدبار النجوم، أي: عند جنوحها للغيبوبة. وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة، أنها قالت: لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر (٥). وفي لفظ لمسلم: «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها» (٦).

(١) المسند (٥٠/٣) وأبو داود (٧٧٥) والترمذی (٢٤٢) وصححه الألباني.

(٢) المسند (٣١٣/٥) والبخاری (١١٥٤) وأبو داود (٥٦٠) والترمذی (٣٤١٤).

(٣) الترمذی (٣٤٣٣) والنسائي (١٠٢٣٠) والحاكم (٥٣٦/١).

(٤) أبو داود (٤٨٥٧) والحاكم في المستدرک (٥٣٧/١).

(٥) مسلم (٩٦/٧٢٥).

(٦) البخاری (١١٦٩) ومسلم (٩٤/٧٢٤).

تفسير سورة النجم

وهي مكية

روى البخارى عن عبد الله قال: أولُ سورة أنزلت فيها سجدة: ﴿وَالنَّجْمِ﴾، قال: فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه، إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قُتِلَ كافرًا، وهو أمية بن خلف. وقد رواه مسلم وأبو داود والنسائي (١) وقوله فى الممتنع: إنه أمية بن خلف فى هذه الرواية مشكل، فإنه قد جاء من غير هذه الطريق أنه عتبة بن ربيعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾

قال الشعبى وغيره: الخالق يُقسِمُ بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق. واختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ فقال مجاهد: يعنى بالنجم: الثريا إذا سقطت مع الفجر. وكذا روى عن ابن عباس، وسفيان الثورى. واختاره ابن جرير. وزعم السدى أنها الزهرة. وقال الضحاك: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾: إذا رمى به الشياطين. وعن مجاهد [أيضاً]: يعنى: القرآن إذا نزل. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَلَا أَسْمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ. لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٨٠].

وقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾: هذا هو المقسم عليه، وهو الشهادة للرسول، ﷺ بأنه بار راشد تابع للحق، ليس بضال، وهو: الجاهل الذى يسلك على غير طريق بغير علم، والغاوى: هو العالم بالحق العادل عنه قصداً إلى غيره، فنزه الله رسوله وشرعه عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود، وهى علم الشئ وكتمانه والعمل بخلافه، بل هو ﷺ وما بعثه الله به من الشرع العظيم فى غاية الاستقامة والاعتدال والسداد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أى: ما يقول قولاً عن هوى وغرض، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أى: إنما يقول ما أمر به، يبلغه إلى الناس كاملاً موقراً من غير زيادة ولا نقصان، كما رواه الإمام أحمد عن أبى أمامة؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ليدخلن الجنة بشفاعة رجل ليس بنبى مثل الحيين - أو: مثل أحد الحيين : ربيعة ومضرم». فقال رجل: يا رسول الله، أو ما ربيعة من مضرم؟ قال: «إنما

(١) البخارى (١٠٧٠، ٣٨٥٣، ٣٩٧٢، ٤٨٦٣) ومسلم (١٠٥/٥٧٦) وأبو داود (١٤٠٦) والنسائي (٩٥٩).

أقول ما أقول « (١) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ، ورسول الله ﷺ بشر ، يتكلم في الغضب. فأمسكتُ عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال : « اكتب ، فوالذي نفسى بيده، ما خرج منى إلا حق » . ورواه أبو داود (٢) . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: « لا أقول إلا حقا » . قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله ؟ قال: « إنى لا أقول إلا حقا » (٣) .

﴿ عِلْمُهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتَسْمُرُونَ عَلَىٰ مَا بَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله محمد ﷺ أنه علمه الذى جاء به إلى الناس ﴿شديدهُ القوى﴾ وهو جبريل، عليه السلام، كما قال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٌ ثُمَّ آمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١] . وقال هاهنا: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ ذو قوة . قاله مجاهد، والحسن، وابن زيد . وقال ابن عباس: ذو منظر حسن . وقال قتادة: ذو خلق طويل حسن . ولا منافاة بين القولين؛ فإنه، عليه السلام، ذو منظر حسن، وقوة شديدة . وقد ورد الحديث الصحيح من رواية أبي هريرة وابن عمرو (٤) أن النبي ﷺ قال: « لا تحمل الصدقة لغنى، ولا لذي مرة سوى » (٥) .

وقوله: ﴿فَاسْتَوَى﴾ يعنى: جبريل، عليه السلام . قاله مجاهد والحسن وقاتدة، والربيع بن أنس ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ يعنى: جبريل، استوى فى الأفق الأعلى . قاله عكرمة وغير واحد . قال عكرمة: والأفق الأعلى: الذى يأتى منه الصبح . وقال مجاهد: هو مطلع الشمس . وقال قتادة: هو الذى يأتى منه النهار . وكذا قال ابن زيد، وغيرهم . روى الإمام أحمد عن عبد الله [بن مسعود] قال: رأى رسول الله ﷺ جبريل فى صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سدّ الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليهم . انفراد به أحمد (٦) .

(١) المسند (٥/٢٥٧) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/٣٨٤): رجال أحمد رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن ميسرة وهو ثقة .

(٢) المسند (٢/١٦٢) وأبو داود (٣٦٤٦) .

(٣) المسند (٢/٣٤٠) والترمذى (١٩٩٠) وقال: « هذا حديث حسن صحيح » .

(٤) فى المطبوعة والمخطوطة: « ابن عمر » صوابه ما أثبتناه .

(٥) أبو داود (١٦٣٤) والترمذى (٦٥٢) عن ابن عمرو ، وابن ماجه (١٨٣٩) عن أبي هريرة .

(٦) المسند (٣٧٤٨) وقال الشيخ أحمد شاكر: « إسناده صحيح » .

وروى أحمد عن ابن عباس قال: سأل النبي ﷺ جبريل أن يراه في صورته، فقال: ادع ربك. فدعا ربه، عز وجل، فطلع عليه سواد من قبل المشرق، فجعل يرتفع ويتشر، فلما رآه النبي ﷺ صعق، فاتاه فَنَعَسَهُ ومسح البزاق عن شدقه. انفرد به أحمد (١).

وقوله: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ أى: فاقترب جبريل إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض، حتى كان بينه وبين محمد ﷺ قاب قوسين، أى: بقدرهما إذا مَدًّا. قاله مجاهد، وقناة. وقد قيل: إن المراد بذلك بُعد ما بين وتر القوس إلى كبدها. وقوله: ﴿ أَوْ أَدْنَى ﴾ قد تقدم أن هذه الصيغة تستعمل فى اللغة لإثبات المخبر عنه ونفى ما زاد عليه، كقوله: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤]، أى: ما هى بألين من الحجارة، بل هى مثلها أو تزيد عليها فى الشدة والقسوة. وكذا قوله: ﴿ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصفات: ١٤٧]، أى: ليسوا أقل منها بل هم مائة ألف حقيقة، أو يزيدون عليها. فهذا تحقيق للمخبر به لا شك ولا تردد، فإن هذا ممتنع هاهنا، وهكذا هذه الآية: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾. وهذا الذى قلناه، من أن هذا المقرب الدانى الذى صار بينه وبين محمد ﷺ، إنما هو جبريل، عليه السلام، هو قول أم المؤمنين عائشة، وابن مسعود، وأبى ذر، وأبى هريرة، وروى مسلم فى صحيحه، عن ابن عباس أنه قال: « رأى محمد ربه بفؤاده مرتين » (٢). فجعل هذه إحداهما.

وعن عائشة قالت: كان أول شأن رسول الله ﷺ أنه رأى فى منامه جبريل بأجباد، ثم إنه خرج ليقضى حاجته فصرخ به جبريل: يا محمد، يا محمد. فنظر رسول الله ﷺ يمينا وشمالا فلم ير شيئا - ثلاثا - ثم رفع بصره فإذا هو ثان إحدى رجله مع الأخرى على أفق السماء فقال: يا محمد، جبريل، جبريل - يسكته - فهرب النبي ﷺ حتى دخل فى الناس، فنظر فلم ير شيئا، ثم خرج من الناس، ثم نظر فرآه، فدخل فى الناس فلم ير شيئا، ثم خرج فنظر فرآه، فذلك قول الله عز وجل: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ إلى قوله: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ يعنى جبريل إلى محمد ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾: ويقولون: القاب نصف الإصبع. وقال بعضهم: ذراعين كان بينهما. رواه ابن جرير وابن أبى حاتم (٣). وروى البخارى عن طلق بن غنم، عن زائدة، عن الشيبانى قال: سألت زراً عن قوله: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ فأوحى إلى عبده ما أوحى. قال: حدثنا عبد الله أن محمداً ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح (٤).

فعلى ما ذكرناه يكون قوله: ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ معناه: فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى. أو: فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى بواسطة جبريل وكلا المعنيين صحيح.

(١) المسند (٢٩٦٧) وقال الشيخ أحمد شاكر: « إسناده صحيح ». وسأيت عند تفسير الآية (١٣).

(٢) مسلم (٢٨٥/١٧٦).

(٣) ابن جرير فى التفسير (٢٧/٢٧).

(٤) البخارى (٤٨٥٧).

وقوله : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى . أَتُمْأَرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ روى مسلم عن ابن عباس : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ رَأَىٰ نَزْلَةَ أُخْرَىٰ ﴾ قال : رآه بفؤاده مرتين (١) . وكذا قال أبو صالح والسدي وغيرهما : إنه رآه بفؤاده مرتين أو مرة ، وقد خالفه ابن مسعود وغيره ، وفي رواية عنه أنه أطلق الرؤية ، وهي محمولة على المقيدة بالفؤاد . ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب ، فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة . وفي صحيح مسلم ، عن أبي ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : هل رأيت ربك ؟ فقال : « نور أنى أراه » . وفي رواية : « رأيت نورا » (٢) .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ رَأَىٰ نَزْلَةَ أُخْرَىٰ . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾ : هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التي خلقه الله عليها ، وكانت ليلة الإسراء . وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الإسراء بطرقها وألفاظها في أول سورة « سبحان » بما أغنى عن إعادته هاهنا ، وتقدم أن ابن عباس كان يثبت الرؤية ليلة الإسراء ، ويستشهد بهذه الآية . وتابعه جماعة من السلف والخلف ، وقد خالفه جماعات من الصحابة والتابعين وغيرهم . وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود في هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ رَأَىٰ نَزْلَةَ أُخْرَىٰ . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت جبريل وله ستمائة جناح ، ينتثر من ريشه التهاويل : الدر والياقوت » (٣) . وهذا إسناد جيد قوى . وروى أحمد أيضا عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت جبريل على سدره المنتهى ، وله ستمائة جناح » سألت عاصمًا عن الأجنحة ، فأبى أن يخبرنى ، قال : فأخبرنى بعض أصحابه أن الجناح ما بين المشرق والمغرب (٤) . وهذا أيضا إسناد جيد . وروى أحمد عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « أتانى جبريل ، عليه السلام ، فى خُضْرٍ معلق به الدر » (٥) . إسناد جيد أيضا .

وروى أحمد أيضا عن مسروق قال : كنت عند عائشة فقلت : أليس الله يقول : ﴿ وَلَقَدْ رَأَىٰ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ﴾ [التكوير: ٢٣] ، ﴿ وَلَقَدْ رَأَىٰ نَزْلَةَ أُخْرَىٰ ﴾ ؟ فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله ﷺ عنها ، فقال : « إنما ذلك جبريل » . لم يره فى صورته التى خلق عليها إلا مرتين ، رآه منهبطا من السماء إلى الأرض ، سادًا عَظْمُ خلقه ما بين السماء والأرض . أخرجاه فى الصحيحين (٦) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن شقيق قال : قلت لأبى ذر : لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته . قال : وما كنت تسأله ؟ قال : كنت أسأله : هل رأى ربه ، عز وجل ؟ فقال : إنى قد سألته فقال : « قد رأيت نورا ، أنى أراه » (٧) . وقد أخرجاه مسلم من طريقين بلفظين عن أبى ذر قال : سألت رسول الله ﷺ : هل رأيت ربك ؟ فقال : « نور أنى أراه » . وعن

(١) مسلم (٢٨٥/١٧٦) .

(٢) مسلم (٢٩٢/١٧٨) .

(٣) مضى تخريجه عند الآية (٧) من السورة .

(٤) المسند (٣٨٦٢) وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده صحيح » .

(٥) المسند (٣٨٦٣) وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده صحيح » .

(٦) المسند : ٦/٢٤١ والبخارى (٤٨٥٥) ومسلم (٢٨٧/١٧٧) .

(٧) المسند (١٤٧/٥) .

عبد الله بن شقيق قال: قلت لأبي ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته. فقال: عن أى شىء كنت تسأله؟ قال: قلت: كنت أسأله: هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت فقال: «رأيت نورا» (١). وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة، أنه قال فى قوله: ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾، قال: رأى جبريل، عليه السلام (٢).

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾: روى الإمام أحمد عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدره المنتهى، وهى فى السماء السادسة، إليها ينتهى ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهى ما يهبط من فوقها فيقبض منها، ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ قال: فراش من ذهب، قال: وأعطى رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطى الصلوات الخمس، وأعطى خواتيم سورة البقرة، وغُفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المُفححات. انفرد به مسلم (٣).

وقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ قال ابن عباس: ما ذهب يمينا ولا شمالا، ﴿وَمَا طَغَى﴾: ما جاوز ما أمر به. وهذه صفة عظيمة فى الثبات والطاعة، فإنه ما فعل إلا ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطى. وقوله: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾، كقوله: ﴿لِنُرْيِكَ﴾ (٤) من آياتنا ﴿طه: ٢٣﴾ أى: الدالة على قدرتنا وعظمتنا. وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع؛ لانه قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾، ولو كان رأى ربه لآخبر بذلك ولقال ذلك للناس، وقد روى الإمام أحمد عن ابن مسعود، أنه قال: إن محمدا لم ير جبريل فى صورته إلا مرتين، أما مرة فإنه سأله أن يريه نفسه فى صورته، فأراه صورته فسد الأفق. وأما الأخرى فإنه صعد معه حين صعد به. وقوله: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ قال: فلما أحس (٥) جبريل ربه، عز وجل، عاد فى صورته وسجد. فقوله: ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى. عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى. مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى. لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ قال: خلق جبريل، عليه السلام (٦).

﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعِزَّى﴾ ﴿١١﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَى ﴿١٢﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى ﴿١٣﴾ تِلْكَ إِذْ أَسْمَعُ ضَبِيرٍ ﴿١٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أُسْمٌ وَعَابَا وَقَرَأَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴿١٥﴾ آم لِلْإِنْسَانِ مَا تَنَسَّى ﴿١٦﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴿١٧﴾ وَكَرَّمْنَا مَلَكًا فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴿١٨﴾

(١) مسلم (٢٨٣/١٧٨).

(٢) مسلم (٢٨٣/١٧٥).

(٣) المسند (٤٠١١) ومسلم (٢٧٩/١٧٣).

(٤) فى المخطوطة والطبعة: «أخبر» والمثبت من المسند.

(٥) فى المخطوطة والطبعة: «أخبر» والمثبت من المسند.

(٦) المسند (٣٨٦٤) وقال الشيخ شاكر: «إسناده صحيح».

يقول تعالى مُقَرَّعًا للمشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان، واتخاذهم لها البيوت مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمن، عليه السلام: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ﴾ ؟ وكانت «اللات» صخرة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش. قال ابن جرير: وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله ، فقالوا: اللات، يعنون مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا . وحكى عن ابن عباس، ومجاهد، والربيع بن أنس: أنهم قرؤوا «اللات» بتشديد التاء، وفسروه بأنه كان رجلا يَلْتُ للحجيج في الجاهلية السويق، فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه. وروى البخارى عن ابن عباس في قوله: ﴿اللَّاتُ وَالْعُزَّى﴾ قال: كان اللات رجلا يلت السويق، سويق الحاج (١) .

قال ابن جرير: وكذا العزى من العزيز. وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، وهى بين مكة والطائف ، كانت قريش يعظمونها ، كما قال أبو سفيان يوم أحد : لنا العزى ولا عزى لكم فقال رسول الله ﷺ : « قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم» (٢) . وروى البخارى من حديث الزهرى، عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف فقال فى حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله. ومن قال لصاحبه: تعال أقامرك، فليصدق» (٣) . وهذا محمول على من سبق لسانه إلى ذلك.

وأما «مناة» فكانت بالمشلل - عند قُديد، بين مكة والمدينة - وكانت خزاعة والأوس والخزرج فى جاهليتها يعظمونها ، ويهلون منها للحج إلى الكعبة. وروى البخارى عن عائشة نحوه (٤) . وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التى نص عليها فى كتابه العزيز، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها . قال ابن إسحاق فى السيرة: وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت، وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، وتهدى لها كما تهدى للكعبة، وتطوف بها كطوافاتها بها، وتنحر عندها، وهى تعرف فضل الكعبة عليها؛ لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم، عليه السلام، ومسجده. ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ ؟ .

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ الذَّكَّرُوا لَهُ الْآثَنَى﴾ ؟ أى: أتجعلون له ولدا، وتجعلون ولده أنثى، وتختارون لأنفسكم الذكور، فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت ﴿قِسْمَةً ضَيْرَى﴾ أى: جورا باطله، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التى لو كانت بين مخلوقين كانت جورا وسفها. ثم قال منكرنا عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر، من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ﴾ أى: من تلقاء أنفسكم ﴿مَا أَنْزَلَ

(٢) البخارى (٤٠٤٣) .

(١) البخارى (٤٨٥٩) .

(٤) البخارى (٤٨٦١) .

(٣) البخارى (٤٨٦٠) .

اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴿٢٧﴾ أى: من حجة، ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ أى: ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بأبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم، وإلا حظ نفوسهم فى رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين، ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ أى: ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤهم به، ولا اتقادوا له.

ثم قال: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾ أى: ليس كل من تمنى خيرا حصل له، ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء: ١٢٣]، ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال، ولا كل من ود شيئا يحصل له. روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى، فإنه لا يدرى ما يكتب له من أمنيته». تفرد به أحمد (١).

وقوله: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ أى: إنما الأمر كله لله، مالك الدنيا والآخرة، والمتصرف فى الدنيا والآخرة، فهو الذى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. وقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾، كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣]، فإذا كان هذا فى حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله، وهم لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها، بل قد نهى عنها على السنة جميع رسله، وأنزل بالنهى عن ذلك جميع كتبه؟

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرَدُّ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى منكرا على المشركين فى تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى، وجعلهم لها أنها بنات الله - تعالى الله عن ذلك - كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أى: ليس لهم علم صحيح يصدق ما قالوه، بل هو كذب وزور وافتراء، وكفر شنيع ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أى: لا يجدى شيئا، ولا يقوم أبدا مقام الحق. وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث» (٢).

وقوله: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أى: أعرض عن الذى أعرض عن الحق وهجره ﴿وَلَمْ

(١) المسند (٣٥٧/٢) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠٤/١٠): «رجاله رجال الصحيح».

(٢) البخارى (٥١٤٣) ومسلم (٢٨/٢٥٦٣).

يُرَدُّ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣١﴾ أى: وإنما أكثر همه ومبلغ علمه الدنيا، فذاك هو غاية ما لا خير فيه. ولذلك قال: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أى: طلب الدنيا والسعى لها هو غاية ما وصلوا إليه. وقد روى الإمام أحمد عن أم المؤمنين عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له» (١) وفى الدعاء المأثور: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا». وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى﴾ أى: هو الخالق لجميع المخلوقات، وللعالم بمصالح عباده، وهو الذى يهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته، وهو العادل الذى لا يجور أبداً، لا فى شرعه ولا فى قدره.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى ﴿٣٢﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَتَقَى ﴿٣٣﴾﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنه الغنى عما سواه، الحاكم فى خلقه بالعدل، وخلق الخلق بالحق، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى﴾ أى: يجازى كلا بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، أى: لا يتعاطون المحرمات والكبائر، وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستتر عليهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكَفَرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]. وقال هاهنا: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾. وهذا استثناء منقطع؛ لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبى ﷺ، قال: «إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزناً العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تمنى وتشتهى، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه». أخرجاه فى الصحيحين (٢). وعن ابن مسعود قال: زنا العينين النظر، وزنا الشفتين التقبيل، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين المشى، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه، فإن تقدم بفرجه كان زانياً، وإلا فهو اللمم. وكذا قال مسروق، والشعبى. وقال عبد الرحمن بن نافع - الذى يقال له: ابن لبابة الطائفى - قال: سألت أبا هريرة عن قول الله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: القبله، والغمزة، والنظرة، والمباشرة، فإذا مس الحتان الحتان فقد وجب الغسل، وهو الزنا. وقال ابن عباس: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾: إلا ما سلف. وكذا قال زيد بن أسلم. وقال مجاهد فى هذه الآية: ﴿إِلَّا

(١) المسند (٧١/٦)، وقال الهيثمى فى الزوائد (٢٩١/١٠): «رجال رجال الصحيح غير زويد بن نافع وهو ثقة».

(٢) المسند (٧٧٠٥) والبخارى (٦٦١٢) ومسلم (٢٠/٢٦٥٧).

اللَّمَمُ ﴿ قال: الذى يلم بالذنب ثم يدعه. وعن ابن عباس: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب وقال: قال رسول الله ﷺ:

«إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك ما ألما؟!»

رواه الترمذى، ثم قال: هذا حديث حسن صحيح غريب (١). وعن الحسن قال: اللمم من الزنا أو السرقة أو شرب الخمر، ثم لا يعود وعنه. قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: هو الرجل يصيب اللمة من الزنا، واللمة من شرب الخمر، فيجتنبها ويتوب منها. وعن ابن الزبير: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ قال: ما بين الحدين: حد الدنيا وعذاب الآخرة. وقال ابن عباس فى قوله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾: كل شيء بين الحدين: حد الدنيا وحد الآخرة، تكفره الصلوات، وهو اللمم، وهو دون كل موجب، فأما حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته فى الدنيا، وأما حد الآخرة فكل شيء ختمه الله بالنار، وأخر عقوبته إلى الآخرة. وكذا قال عكرمة، وقاتدة، والضحاك.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَأَسْحُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أى: رحمته وَسَعَتْ كل شيء، ومغفرته تَسَعُ الذنوب كلها لمن تاب منها، كقوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. وقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أى: هو بصير بكم، عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التى تصدر عنكم وتقع منكم، حين أنشأ أبابكم آدم من الأرض، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذر، ثم قسمهم فريقين: فريقا للجنة، وفريقا للسعير. وكذا قوله: ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾: قد كتب الملك الذى يُوكَّلُ به رزقه وأجله وعمله، وشقى أم سعيد.

وقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوْا أَنفُسَكُمْ﴾ أى: تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾، كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يظْلُمُونَ فَيْلًا﴾ [النساء: ٤٩]. وروى مسلم فى صحيحه عن محمد بن عمرو بن عطاء، قال: سميت ابنتى برة، فقالت لى زينب بنت أبى سلمة: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم، وسميت برة، فقال رسول الله ﷺ: «لا تزكوا أنفسكم، إن الله أعلم بأهل البر منكم». فقالوا: بم نسميها؟ قال: «سموها زينب» (٢). وقد ثبت أيضا فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن أبى بكر، قال: مدح رجل رجلاً عند النبى ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ويلك! قطعت عُنُقَ صاحبك - مراراً - إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل: أحسب فلانا - والله حسيبه، ولا أركى على الله أحدا - أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك». وكذا رواه البخارى، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه (٣). وروى الإمام أحمد عن همام بن الحارث قال: جاء رجل إلى عثمان فأنى عليه فى وجهه، قال: فجعل

(١) الترمذى (٣٢٨٤). (٢) مسلم (١٨/٢١٤٢).

(٣) المسند (٥/٤١، ٤٥) والبخارى (٢٦٦٢) ومسلم (٦٥/٣٠٠) وأبو داود (٤٨٠٥) وابن ماجه (٣٧٤٤).

المقداد بن الأسود يحثو في وجهه التراب ويقول: أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المداحين أن نحثو في وجوههم التراب. ورواه مسلم وأبو داود (١).

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٢﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهوَ يَرَى ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعَيْهِمْ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾ ﴾

يقول تعالى ذمًا لمن تولى عن طاعة الله، ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى. وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]: ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ قال ابن عباس: أطاع قليلا ثم قطعته. وكذا قال مجاهد، وسعيد ابن جبير، وعكرمة، وقتادة، وغير واحد. قال عكرمة، وسعيد: كمثل القوم إذا كانوا يحضرون بترأ، فيجدون في أثناء الحضر صخرة تمنعهم من تمام العمل، فيقولون: «اكدينا»، ويتركون العمل. وقوله: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهوَ يَرَى﴾؟ أى: أعند هذا الذى قد أمسك يده خشية الإنفاق، وقطع معروفه، أعنده علم الغيب أنه سينفذ ما فى يده، حتى قد أمسك عن معروفه، فهو يرى ذلك عيانا؟! أى: ليس الأمر كذلك، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلا وشحا وهلعا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبا: ٣٩].

وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يُبَيِّنْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى. وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ قال سعيد بن جبير، والثورى: أى بلغ جميع ما أمر به. وقال ابن عباس: ﴿وَفَّى﴾ لله بالبلاغ. وقال سعيد بن جبير: ﴿وَفَّى﴾ ما أمر به. وقال قتادة: ﴿وَفَّى﴾ طاعة الله، وأدى رسالته إلى خلقه. وهذا القول هو اختيار ابن جرير، وهو يشمل الذى قبله، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، فقام بجميع الأوامر، وترك جميع النواهي، وبلغ الرسالة على التمام والكمال، فاستحق بهذا أن يكون للناس إماما يُقْتَدَى به فى جميع أحواله وأفعاله وأقواله، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]. وروى الترمذى عن أبى الدرداء وأبى ذر، عن رسول الله ﷺ عن الله، عز وجل، أنه قال: «ابن آدم، اركع لى أربع ركعات من أول النهار، أكفك آخره» (٢).

ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه فى صحف إبراهيم وموسى فقال: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أى: كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها، لا يحملها عنها أحد كما قال: ﴿وَأَنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]، ﴿وَأَنْ

(١) المسند (٥/٦) ومسلم (٦٨/٣٠٠٢) وأبو داود (٤٨٠٤).

(٢) الترمذى (٤٧٥) وقال: «حديث حسن غريب»، وصححه الألبانى.

لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿١﴾ أى: كما لا يحمل عليه وزر غيره ، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه . ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعى ومن اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى؛ لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم؛ ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة، ولو كان خيرا لسبقونا إليه، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما ، ومنصوص من الشارع عليهما (١).

وأما الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية من بعده، أو علم ينتفع به» (٢)، فهذه الثلاثة فى الحقيقة هى من سعيه وكده وعمله، كما جاء فى الحديث: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه» (٣). والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هى من آثار عمله ووقفه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ﴾ الآية [يس: ١٢]. والعلم الذى نشره فى الناس فاقتدى به الناس بعده، هو أيضا من سعيه وعمله، وثبت فى الصحيح: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا» (٤).

وقوله: ﴿وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَى﴾ أى: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْقَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] أى: فيخبركم به ، ويجزيكم عليه أتم الجزاء ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وهكذا قال هاهنا : ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ أى: الأوفر .

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ (٤٤) وَأَنَّ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّ هُوَ آمَاتٌ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّ هُوَ خَلَقَ الرَّجْمَانَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ ﴿٤٤﴾

(١) وللإمام ابن تيمية - رحمه الله - جواب شاف ، فى بيان هذه المسألة ، وقد سئل عنها فأجاب : «أما الصدقة عن الميت فإنه ينتفع بها باتفاق المسلمين . وكذلك ينفعه الحج عنه ، والأضحية عنه ، والعتق عنه ، والدعاء والاستغفار له بلا نزاع بين الأئمة . وأما الصيام عنه وصلاة التطوع عنه ، وقراءة القرآن عنه ، فهذا فيه قولان للعلماء : أحدهما : ينتفع به ، وهو مذهب أحمد وأبى حنيفة وغيرهما ، وبعض أصحاب الشافعى وغيرهم . والثانى : لا تصل إليه وهو المشهور فى مذهب مالك والشافعى . وأما الاستئجار لنفس القراءة والإهداء فلا يصح ذلك » (مجموعة الفتاوى ١٧٥/٢٤ ط: الوفاء).

وفى موضع آخر قال : «والأئمة اتفقوا على أن الصدقة تصل إلى الميت ، وكذلك العبادات المالية كالعتق . وإنما تنازعوا فى العبادات البدنية كالصلاة والصيام والقراءة » ثم رجح الإمام ابن تيمية بالدليل قول من قال بوصول العبادات البدنية إلى الميت . (انظر بالتفصيل : مجموعة الفتاوى ١٧٠/٢٤ - ١٧٤ ط . الوفاء) .

(٢) مسلم (١٤/١٦٣١) .

(٣) أحمد (٣١/٦) والترمذى (١٣٥٨) وقال : «حديث حسن صحيح» .

(٤) مسلم (١٦/٢٦٧٤) .

الْأُخْرَى ﴿٤٧﴾ وَأَنْتُمْ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنْتُمْ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنْتُمْ أَهْلَكَ عَادًا
الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَتَمُودًا فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطَىٰ ﴿٥٢﴾
وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا عَشَىٰ ﴿٥٤﴾ فَبَآئِيَ آلَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى : ﴿وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ أي : المعاد يوم القيامة . عن عمرو بن ميمون الأودي قال : قام فينا معاذ بن جبل فقال : يا بني أود ، إنني رسول الله إليكم ، تعلمون أن المعاد إلى الله ، إلى الجنة أو إلى النار . وقوله تعالى : ﴿وَأَنْتُمْ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ أي : خلق في عباده الضحك والبكاء وسببهما وهما مختلفان ﴿وَأَنْتُمْ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ ، كقوله : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك : ٢] ، ﴿وَأَنْتُمْ خَلَقَ الزُّوجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ . مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ ، كقوله : ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكْ نُطْفَعًا مِّن مَّنِي يَمْنَىٰ . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ . فَجَعَلَ مِنْهُ الزُّوجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ . أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة : ٣٦ - ٤٠] .

وقوله : ﴿وَأَنْ عَلَيْهِ النُّشْأَةُ الْآخِرَىٰ﴾ أي : كما خلق البداية هو قادر على الإعادة ، وهي النشأة الآخرة يوم القيامة . ﴿وَأَنْتُمْ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أي : مَلَّكَ عباده المال ، وجعله لهم قَنِيَةً مقيما عندهم ، لا يحتاجون إلى بيعه ، فهذا تمام النعمة عليهم . وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين ، منهم أبو صالح ، وابن جرير ، وغيرهما . وعن مجاهد : ﴿أَغْنَىٰ﴾ : مَوْلٌ ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ : أخدم . وكذا قال قتادة . وقال ابن عباس ، ومجاهد : ﴿أَغْنَىٰ﴾ : أعطى ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ : رَضِيَ .

وقوله : ﴿وَأَنْتُمْ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقاتدة ، وابن زيد وغيرهم : هو هذا النجم الوقار الذي يقال له : «مِرْزَمُ الْجُرُزَاءِ» ، كانت طائفة من العرب يعبدونه . ﴿وَأَنْتُمْ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ وهم : قوم هود . ويقال لهم : عاد بن إرم بن سام بن نوح ، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر : ٦ - ٨] ، فكانوا من أشد الناس وأقواهم وأعتاهم على الله وعلى رسوله ، فأهلكهم الله ﴿بِرِيحٍ صَّارِصٍ عَاتِيَةٍ . سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة : ٦ ، ٧] .

وقوله : ﴿وَتَمُودًا فَمَا أَبْقَىٰ﴾ أي : دمرهم فلم يبق منهم أحدا ، ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي : من قبل هؤلاء ، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطَىٰ﴾ أي : أشد تمردا من الذين من بعدهم ، ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ يعني : مدائن لوط ، قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها ، وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود ؛ ولهذا قال : ﴿فَغَشَّاهَا مَا عَشَىٰ﴾ يعني : من الحجارة التي أرسلها عليهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فِئْسَاءً مَّطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء : ١٧٣] . ﴿فَبَآئِيَ آلَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أي : ففى أى نعم الله عليك أيها الإنسان تترى؟ قاله قتادة . وقال ابن جرير : ﴿فَبَآئِيَ آلَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ يا محمد . والأول أولى ، وهو اختيار ابن جرير .

﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَرَفَتِ الْأَزْفَةَ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفِنَّ هَذَا الْمَدِيثَ تَعَجُّبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاعْبُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿٦٢﴾ ﴾

سجدة

﴿هَذَا نَذِيرٌ﴾ يعنى: محمدا ﷺ ﴿مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى﴾ أى: من جنسهم، أرسل كما أرسلوا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرَّسْلِ﴾ [الاحقاف: ٩]. ﴿أَرَفَتِ الْأَزْفَةَ﴾ أى: اقتربت القرية، وهى القيامة ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أى: لا يدفعها إذا من دون الله أحد، ولا يطلع على علمها سواه. ثم قال تعالى منكرا على المشركين فى استماعهم القرآن وإعراضهم عنه وتلهيهم: ﴿تَعَجُّبُونَ﴾ من أن يكون صحيحا ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ منه استهزاء وسخرية ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ أى: كما يفعل الموقنون به، كما أخير عنهم: ﴿وَيَخِرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ بِيَدِهِمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ قال ابن عباس: الغناء، هى يمانية، اسم لنا: غن لنا. وكذا قال عكرمة. وفى رواية عن ابن عباس: ﴿سَامِدُونَ﴾: معرضون. وكذا قال مجاهد، وعكرمة. وقال الحسن: غافلون. وهو رواية عن على بن أبى طالب. وفى رواية عن ابن عباس: تستكبرون. وبه يقول السدى. ثم قال أمرا لعباده بالسجود له والعبادة المتابعة لرسوله ﷺ والتوحيد والإخلاص: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ أى: فاخضعوا له وأخلصوا ووجدوا. روى البخارى عن ابن عباس قال: سجد النبى ﷺ بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس. انفرد به دون مسلم (١).

تفسير سورة القمر

وهي مكية

قد تقدم في حديث أبي واقد (١) : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقاف، واقتربت الساعة، في الأضحى والفقير، وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار، لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد وبدء الخلق وإعادته، والتوحيد وإثبات النبوت، وغير ذلك من المقاصد العظيمة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمَرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأُنذُرَ ﴿٥﴾ ﴿٥﴾

يخير تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها، كما قال تعالى: ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل: ١]، وقال: ﴿ أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١]، وقد وردت الأحاديث بذلك، روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال: كنا جلوسا عند النبي ﷺ والشمس على قُبَيْعَانَ بعد العصر، فقال: « ما أعماركم في أعمار من مضى إلا كما بقى من النهار فيما مضى » (٢). وروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « بُعِثْتُ والساعة هكذا ». وأشار بإصبعيه: السبابة والوسطى. أخرجاه (٣). وروى الإمام أحمد عن خالد ابن عمير قال: خطب عتبة بن غزوان - قال بهز: وقال قبل هذه المرة - خطبنا رسول الله ﷺ قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإن الدنيا قد آذنت بصبرم وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يُلقى من شفير جهنم فيهوى فيها سبعين عاما ما يدرك لها قعرًا، والله لثملونه، أفعجبتم! والله لقد ذكر لنا أن ما بين مصرَاعَى الجنة مسيرة أربعين عاما، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ الزحام » وذكر تمام الحديث، انفرد به مسلم (٤).

وقوله: ﴿ وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ : قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ، كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: «خمس

(١) وذلك عند تفسير سورة « ق » في أولها .

(٢) المسند (٥٩٦٦) وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح » .

(٣) المسند (٣٣٨/٥) والبخارى (٦٥٠٣) ومسلم (١٣٢/٢٩٥٠) .

(٤) المسند (١٧٤/٤) ومسلم (١٤/٢٩٦٧) .

قد مضين: الروم، والدخان، واللزام، والبطشة، والقمر» (١). وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات. روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: سألت أهل مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة مرتين، فقال: ﴿اَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾. ورواه مسلم (٢). وروى البخارى عن أنس بن مالك: أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقيين، حتى رأوا حراءَ بينهما (٣). وروى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين: فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد. فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه (٤). وروى البخارى عن ابن عباس قال: انشق القمر في زمان رسول الله ﷺ. ورواه مسلم (٥). وروى الحافظ أبو بكر البيهقي عن عبد الله بن عمر في قوله تعالى: ﴿اَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ قال: وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فلقَتَيْنِ: فِلَقَةٌ من دون الجبل، وفلقة من خلف الجبل، فقال النبي ﷺ: «اللهم اشهد». رواه مسلم والترمذى، وقال الترمذى: حسن صحيح (٦). وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود، قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين حتى نظروا إليه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا». رواه البخارى ومسلم (٧).

وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً﴾ أى: دليلا وحجة وبرهانا ﴿يُعْرِضُوا﴾ أى: لا ينقادون له، بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم، ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أى: ويقولون: هذا الذى شاهدناه من الحجاج، سحر سحرنا به. ومعنى ﴿مُسْتَمِرٌّ﴾ أى: ذاهب. قاله مجاهد، وقتادة، وغيرهما، أى: باطل مضمحل، لا دوام له. ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ أى: كذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا ما أمرتهم به آرائهم وأهوائهم من جهلهم وسخافة عقولهم. وقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ قال قتادة: معناه: أن الخير واقع بأهل الخير، والشر واقع بأهل الشر. وقال ابن جريج: مستقر بأهله. وقال مجاهد: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أى: يوم القيامة. وقال السدى: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ أى: واقع.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾ أى: من الأخبار عن قصص الأمم المكذبة بالرسول، وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب، مما يتلى عليهم فى هذا القرآن، ﴿مَا فِيهِ مُذَجَّرٌ﴾ أى: ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادى على التكذيب. وقوله: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ أى: فى هدايته تعالى لمن هداه وإضلاله لمن أضله ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ يعنى: أى شىء تغنى النذر عن من كتب الله عليه الشقاوة، وختم على قلبه؟ فمن الذى يهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ

(١) البخارى (٤٧٦٧) .

(٢) المسند (١٦٥/٣) ومسلم (٤٦/٢٨٠٢) .

(٣) البخارى (٣٨٦٨) .

(٤) المسند (٨١/٤) .

(٥) البخارى (٣٦٣٨ ، ٤٨٦٦) ومسلم (٤٨/٢٨٠٣) .

(٦) البيهقى فى الدلائل (٢٦٧/٢) ومسلم (٢٨٠١) والترمذى (٣٢٨٨) .

(٧) المسند (٣٥٨٣) والبخارى (٤٨٦٤) ومسلم (٤٣/٢٨٠٠) .

الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْنَى﴾ (١) الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥١﴾ [يونس: ١٥١].

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِيَ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكْرٍ ﴿١٥١﴾ حُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿١٥٢﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِيَ يَقُولُ الْكَاْفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿١٥٣﴾﴾

يقول تعالى: فتولوا عنهم يوم يدع الداعي إلى شيء نكروا: أي: إلى شيء منكر فظيع، وهو موقف الحساب، وما فيه من البلاء، بل والزلازل والأهوال ﴿حُشْعًا أَبْصَرُهُمْ﴾ أي: ذليلة أبصارهم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ وهي: القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ أي: كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي ﴿جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ في الآفاق؛ ولهذا قال: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين ﴿إِلَى الدَّاعِي﴾، لا يخالفون ولا يتأخرون ﴿يَقُولُ الْكَاْفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ أي: يوم شديد الهول عيوس قمطير ﴿فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَاْفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٩، ١٠].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿١٥٤﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴿١٥٥﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١٥٦﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٥٧﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِرَ ﴿١٥٨﴾ تَجْرَىٰ بِأَعْيُنِنَا جَرَاءً لَمَنِ كَانَ كَافِرٌ ﴿١٥٩﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٦٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٦١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٦٢﴾﴾

يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ﴾ قبل قومك يا محمد ﴿قَوْمٌ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ أي: صرحوا له بالكذب واتهموه بالجنون، ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ قال مجاهد: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أي: استطير جنونا. وقيل: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أي: انتهروه وزجروه وتواعده: ﴿لَمَنِ لَمْ يَنْتَهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]. قاله ابن زيد، وهذا متوجه حسن. ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ﴾ أي: إني ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم ﴿فَانْتَصِرَ﴾ أنت لدينك.

قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ قال السدي: هو الكثير ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي: نبعث جميع أرجاء الأرض، حتى التناير التي هي محال النيران نبعث عيوننا ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أي: من السماء والأرض ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: أمر مقدر. قال ابن عباس: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾: كثير، لم تطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده، ولا من السحاب؛ فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم، فالتقى الماء على أمر قد قدر. ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ

(١) في المطبوعة والمخطوطة: «فما تفتنى» وهو خطأ، صوابه ما أثبتناه.

أَلْوَجْهِ وَدُسْرِهِ ﴿ قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، والقرظي، وقاتدة، وابن زيد: هي المسامير، واختاره ابن جرير، قال: وواحدها دسار، ويقال: دَسِير. وقال مجاهد: الدسر: أضلاع السفينة. وقال عكرمة والحسن: هو صدرها الذي يضرب به الموج. وقال الضحاك: الدسر: طرفها وأصلها. وقال العوفي، عن ابن عباس: هو كَلْكَلُهَا.

وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أى: بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ﴿جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرًا﴾ أى: جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصاراً لنوح، عليه السلام. وقوله: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾ قال قتادة: أبقي الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة. والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن، كقوله تعالى: ﴿وآيَةً لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١، ٤٢]. وقال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ . لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أذُنٌ وَأَعْيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ أى: فهل من يتذكر ويتعظ؟ روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: أقرأني رسول الله ﷺ: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ فقال رجل: يا أبا عبد الرحمن، مُدْكِرٌ أو مُدْكِرٌ؟ قال: أقرأني رسول الله ﷺ: ﴿مُدْكِرٍ﴾ (١). وهكذا رواه البخاري عن عبد الله قال: قرأت على النبي ﷺ: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾. فقال النبي ﷺ: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ (٢). وعن أبي إسحاق؛ أنه سمع رجلاً يسأل الأسود: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾، أو: ﴿مُدْكِرٍ﴾؟ قال: سمعت عبد الله يقرأ: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾. وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ دالاً. وقد أخرج مسلم هذا الحديث وأهل السنن إلا ابن ماجه (٣). وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ أى: كيف كان عذابي لمن كفر بى وكذب رسلى ولم يتعظ بما جاءت به نُذْرِي، وكيف انتصرت لهم، وأخذت لهم بالثأر.

﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أى: سهلنا لفظه، ويسرنا معناه لمن أرادته، ليتذكر الناس. كما قال: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] ، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسْرُنَاهُ لِبَلْسَانِكَ لِيُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧]. قال مجاهد: ﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ يعنى: هوئنا قراءته. وقال السدي: يسرنا تلاوته على الألسن. وقال ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان آدميين، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله، عز وجل. قلت: ومن تيسيره، تعالى، على الناس تلاوة القرآن ما تقدم عن النبي ﷺ أنه قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف» (٤).

وقوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾ أى: فهل من متذكر بهذا القرآن الذى قد يسر الله حفظه ومعناه؟ وقال محمد بن كعب القرظي: فهل من منزجر عن المعاصي؟ وعن مطر الوراق فى قوله

(١) المسند (٣٧٥٥) وقال الشيخ شاکر: «إسناده صحيح» .

(٢) البخارى (٤٨٦٩ ، ٤٨٧٤) .

(٣) البخارى (٤٨٧١) ومسلم (٢٨٠ / ٨٢٣) وأبو داود (٣٩٩٤) والترمذى (٢٩٣٧) .

(٤) البخارى (٤٩٩٢) .

تعالى: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ﴾: هل من طالب علم فيعان عليه؟ وروى عن قتادة مثله.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايِ وَنُذِرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايِ وَنُذِرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عاد قوم هود: إنهم كذبوا رسولهم أيضاً، كما صنع قوم نوح، وأنه تعالى أرسل ﴿عليهم ريحاً صرصراً﴾، وهى الباردة الشديدة البرد، ﴿في يوم نحس﴾ أى: عليهم. قاله الضحاك، وقتادة، والسدى ﴿مستمر﴾ عليهم نحسه ودماره؛ لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوى بالأخروى.

وقوله تعالى: ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ وذلك أن الريح كانت تأتى أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار، ثم تنكسه على أم رأسه، فيسقط إلى الأرض، فتثلج رأسه فيبقى جثة بلا رأس؛ ولهذا قال: ﴿كأنهم أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾. فكيف كان عداي ونذير. ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَحَدَّا تَبِعَهُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ﴿٢٤﴾ أَهْلَفِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مَرْسَلُوا النَّاقَةَ فَنَنَّةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايِ وَنُذِرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْحُمْظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾

وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحاً ﴿فقالوا أبشراً مما وحدنا تبعه﴾ إننا إذا لفي ضلال وسعير يقولون: لقد خبنا وخسرنا إن سلمنا كلنا قيادنا لواحد منا! ثم تعجبوا من إلقاء الوحي عليه خاصة من دونهم، ثم رموه بالكذب فقالوا: ﴿بل هو كذاب أشير﴾ أى: متجاوز فى حد الكذب. قال الله تعالى: ﴿سيعلمون غداً من الكذاب الأشير﴾ وهذا تهديد لهم شديد ووعد أكيد. ثم قال تعالى: ﴿إننا مرسلوا الناقة فننة لهم فارتقبهم واصطبر﴾ أى: اختبارا لهم؛ أخرج الله لهم ناقه عظيمة عشاء من صخرة صماء طبق ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم فى تصديق صالح، عليه السلام، فيما جاءهم به.

ثم قال تعالى أمراً لعبده ورسوله صالح: ﴿فارتقبهم واصطبر﴾ أى: انتظر ما يؤول إليه أمرهم، واصبر عليهم، فإن العاقبة والنصر لك فى الدنيا والآخرة ﴿ونبئهم أن الماء قسمة بينهم﴾ أى: يوم لهم ويوم للناقة؛ كقوله: ﴿قال هذه ناقه لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾ [الشعراء: ١٥٥].

وقوله: ﴿كُلُّ شَرْبٍ مُّحْتَضِرٌ﴾ قال مجاهد: إذا غابت حضروا الماء، وإذا جاءت حضروا اللبن. ثم قال تعالى: ﴿فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ قال المفسرون: هو عاقر الناقة، واسمه قُدَّار بن سالف، وكان أشقى قومه. كقوله: ﴿إِذْ أَنْبَأْتُ شَقَاهَا﴾ [الشمس: ١٢]، ﴿فَتَعَاطَى﴾ أى: خسر ﴿فَعَقَرَ﴾ فكيف كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي؟ أى: فعاقتهم، فكيف كان عقابي لهم على كفرهم بى وتكذيبهم رسولى؟ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ أى: فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية، وخمدوا وهمدوا كما يهمد يبيس الزرع والنبات. قاله غير واحد من المفسرين. والمحتظر قال السدى: هو المرعى بالصحراء حين يبيس ويحترق وتسفيه الريح. وقال ابن زيد: كانت العرب يجعلون حظراً على الإبل والمواشى من يبيس الشوك، فهو المراد من قوله: ﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذْرِ﴾ ﴿٢٢﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٢٣﴾ نِعْمَةً مِنَّا عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذْرِ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٢٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم وخالفوه، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور، وهى الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين؛ ولهذا أهلكهم الله هلاكاً لم يهلكه أمة من الأمم، فإنه تعالى أمر جبريل، عليه السلام، فحمل مدانتهم حتى وصل بها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم وأرسلها، وأتبع بحجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ وهى: الحجارة ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ أى: خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد حتى ولا امرأته، أصابها ما أصاب قومها، وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالماً لم يمسه سوء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ. وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا﴾ أى: ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس الله وعذابه، فما التفتوا إلى ذلك، ولا أصغوا إليه، بل شكوا فيه وتماروا به، ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ صَيْفِهِ﴾ وذلك ليلة ورد عليه الملائكة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل فى صورة شباب مُرد حسان محنّة من الله بهم، فأضافهم لوط عليه السلام، وبعث امرأته العجوز السوء إلى قومها، فأعلمتهم بأضياف لوط، فأقبلوا يُهرعون إليه من كل مكان، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، وذلك عشية، ولوط، عليه السلام، يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه، ويقول لهم: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ يعنى: نساءهم ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١]، ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أى: ليس لنا فيهن أرب ﴿وَأَنْتَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]، فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدخول، خرج عليهم جبريل، عليه السلام، فضرب أعينهم بطرف جناحه، فانطمست أعينهم. يقال: إنها غارت من وجوههم. وقيل: إنه لم تبق لهم عيون بالكلية، فرجعوا على

أديارهم يتحسسون بالحيطان، ويتوعدون لوطا، عليه السلام، إلى الصباح. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ أى : لا محيد لهم عنه ، ولا انفكك لهم منه ، ﴿فَدُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ .

﴿وَلَقَدْ جَاءَ إِهْلَاقُ فَرَعُونَ النَّذِيرُ﴾ ﴿٤١﴾ كَذَبُوا بِعَائِنَا كُلِّهَا فَاعْلَنْتُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾
 أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾
 سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّقُونَ الذُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى مخبرا عن فرعون وقومه أنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون بالبشارة إن آمنوا، والندارة إن كفروا، وأيدهما بمعجزات عظيمة وآيات متعددة، فكذبوا بها كلها، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، أى: فأبادهم الله ولم يُبق منهم مخبرا ولا عيناً ولا أثراً. ثم قال تعالى: ﴿أَكْفَارِكُمْ﴾ أى: أيها المشركون من كفار قريش ﴿خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيئِكُمْ﴾ يعنى: من الذين تقدم ذكرهم ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل، وكفرهم بالكتب: أأنتم خير أم أولئكم؟ ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ أى: أم معكم من الله براءة إلا ينالكم عذاب ولا نکال؟

ثم قال تعالى مخبرا عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ أى: يعتقدون أنهم يتناصرون بعضهم بعضا، وأن جمعهم يغنى عنهم من أرادهم بسوء، قال الله تعالى: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّقُونَ الذُّبُرَ﴾ أى: سيتفرق شملهم ويغلبون. عن ابن عباس؛ أن النبي ﷺ قال - وهو فى قبة له يوم بدر: « أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم فى الأرض أبدا ». فأخذ أبو بكر بيده وقال : حسبك يا رسول الله! ألححت على ربك. فخرج وهو يشب فى الدرع وهو يقول: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّقُونَ الذُّبُرَ﴾ . بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ . رواه البخارى والنسائى (١).
 وروى البخارى عن يوسف بن ماهك قال : إنى عند عائشة أم المؤمنين ، قالت : نزل على محمد ﷺ بمكة - وإنى لجارية العب - ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ هكذا رواه هاهنا مختصراً (٢). ورواه فى فضائل القرآن مطولا (٣) ، ولم يخرج مسلم .

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْجَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مَسَّ سَقَرٍ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْتَهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾
 وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾
 وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الْتَقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾

(١) البخارى (٢٩١٥ ، ٣٩٥٣ ، ٤٨٧٥ ، ٤٨٧٧) والنسائى فى الكبرى (١١٥٥٧) .
 (٢) البخارى (٤٨٧٦) .
 (٣) البخارى (٤٩٩٣) .

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم فى ضلال عن الحق، وسُعُر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب فى الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق.

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أى: كما كانوا فى سُعُرٍ وشك وتردد أورثهم ذلك النار، وكما كانوا ضلالاً، يسحبون فيها على وجوههم، ولا يدرون أين يذهبون، ويقال لهم تقريبا وتوبيخا: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ كقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] وكقوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ . الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١-٣] أى: قدر قدرا، وهدى الخلائق إليه؛ ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قَدَرِ الله السابق لخلقته، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابتها لها قبل برئها، وردوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات، وما ورد فى معناها من الأحاديث الثابتات على الفرقة القدرية الذين نبغوا فى أواخر عصر الصحابة. ولنذكر هاهنا الأحاديث المتعلقة بهذه الآية الكريمة: روى أحمد عن أبى هريرة قال: جاء مشركو قريش إلى النبى ﷺ يخاصمونهم فى القدر، فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾. رواه مسلم والترمذى وابن ماجه (١). وروى الإمام أحمد عن نافع قال: كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكتبه، فكتب إليه عبد الله بن عمر: إنه بلغنى أنك تكلمت فى شيء من القدر، فإياك أن تكتب إلى، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون فى أمتى أقوام يكذبون بالقدر». ورواه أبو داود (٢). وروى أحمد عن طاوس اليماني قال: سمعت ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس». ورواه مسلم (٣).

وفى الحديث الصحيح: «استعن بالله ولا تعجز، فإن أصابك أمر فقل: قَدَّرَ اللهُ وما شاء فعل، ولا تقل: لو أنى فعلت لكان كذا، فإن لو تفتح عمل الشيطان» (٤). وفى حديث ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال له: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء، لم يكتبه الله لك، لم ينفعوك. ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يكتبه الله عليك، لم يضروك. جفت الأقلام وطويت الصحف» (٥). وروى الإمام أحمد عن الوليد بن عباد، قال: دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه، أوصنى واجتهد لى. فقال: أجلسونى. فلما أجلسوه قال: يا بنى، إنك لم تطعم طعم الإيمان، ولم تبلغ حق حقيقة العلم بالله، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره. قلت: يا أبتاه، وكيف لى أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك. يا بنى، إنى

(١) المسند (٤٤٤/٢) ومسلم (٢٦٥٦) والترمذى (٣٢٩٠) وابن ماجه (٨٣).

(٢) المسند (٥٦٣٩) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح» وأبو داود (٤٦١٣).

(٣) المسند (٥٨٩٣) ومسلم (١٨/٢٦٥٥). (٤) مسلم (٣٤/٢٦٦٤).

(٥) المسند (٢٦٦٩) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم. ثم قال له: اكتب. فجري في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» يابني، إن مت ولست على ذلك دخلت النار. ورواه الترمذى. وقال: حسن صحيح غريب (١). وقد ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة» زاد ابن وهب: «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» [هود:٧]. ورواه الترمذى وقال: حسن صحيح غريب (٢).

وقوله: ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾: وهو إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه كما أخبر بنفوذ قدره فيهم، فقال: ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ ﴾ أى: إنما نأمر بالشىء مرة واحدة، لا نحتاج إلى تأكيد بثانية، فيكون ذلك الذى نأمر به حاصلًا موجودًا كلمح البصر، لا يتأخر طرفه عين. وقوله: ﴿ وَوَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ ﴾ يعنى: أمثالكم وسلفكم من الأمم السالفة المكذبين بالرسول، ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴾ أى: فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك، وقدر لهم من العذاب، كما قال: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلٍ ﴾ [سبا: ٥٤]. وقوله: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ أى: مكتوب عليهم فى الكتب التى بأيدى الملائكة، عليهم السلام ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ﴾ أى: من أعمالهم ﴿ مُسْتَطَرٌّ ﴾ أى: مجموع عليهم، ومسطر فى صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. وقد قال الإمام أحمد عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشة، إياك ومحقرات الذنوب، فإن لها من الله طالبا». ورواه النسائى وابن ماجه (٣).

وقوله: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ أى: بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر، والسحب فى النار على وجوههم، مع التريخ والتقريع والتهديد. وقوله: ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ أى: فى دار كرامة الله ورضوانه وفضله، وامتنانه وجوده وإحسانه ﴿ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ أى: عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون؛ وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو (٤) - يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ - قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا». انفرد بإخراجه مسلم والنسائى (٥).

(١) المسند (٣١٧/٥) والترمذى (٣٣١٩). (٢) مسلم (١٦/٢٦٥٣) والترمذى (٢١٥٦).

(٣) المسند (١٥١/٦) وابن ماجه (٤٢٤٣)، وفى الزوائد: «إسناده صحيح، رجاله ثقات»، وعزاه صاحب التحفة (١٢/٢٥٠) للنسائى فى الكبرى وابن ماجه، ولكنه استدرك وقال: حديث النسائى ليس فى الرواية ولم يذكره أبو القاسم.

(٤) فى المطبوعة: «عبد الله أبى عمرو» وهو خطأ.

(٥) المسند (٦٤٩٢) ومسلم (١٨/١٨٢٧) والنسائى (٥٣٧٩).

تفسير سورة الرحمن

وهي مكية

روى الإمام أحمد عن زرّ، أن رجلا قال لابن مسعود: كيف تعرف هذا الحرف: «ماء غير ياسن أو آسن»؟ فقال: كل القرآن قد قرأت. قال: إني لأقرأ المفصل؛ أجمع في ركعة واحدة. فقال: أهدأ كهذا الشعر، لا أبالك؟ قد علمت قرائن النبي ﷺ التي كان يقرن قريتين قريتين من أول المفصل، وكان أول مفصل ابن مسعود: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ (١). وروى أبو عيسى الترمذى عن جابر، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم، سورة «الرحمن»، من أولها إلى آخرها، فسكتوا فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردودا منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، قالوا: لا بشيء من نعمك - ربنا - نكذب، فلك الحمد» (٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ﴾ ١ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ٢ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ ٣ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ ٤ ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ٥ ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ ٦ ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ ٧ ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ ٨ ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ ٩ ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ ١٠ ﴿فِيهَا فَكَّهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ ١١ ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ ١٢ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ١٣

يخبر تعالى عن فضله ورحمته بخلقه: أنه أنزل على عباده القرآن، ويسر حفظه وفهمه على من رحمه، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ قال الحسن: يعني: النطق. وقال الضحاك، وقادة، وغيرهما: يعني: الخير والشر. وقول الحسن هاهنا أحسن وأقوى؛ لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن، وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفقتين، على اختلاف مخرجها وأنواعها.

وقوله: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أى: يجريان متعاقبين بحساب مُقَنَّ لا يختلف ولا يضطرب، ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَالِقِ الْإِصْبَاحِ وَجَاعِلِ (٣) اللَّيْلِ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام:

(١) المسند (٣٩١٠) وقال الشيخ أحمد شاکر: «إسناده صحيح».

(٢) الترمذى (٣٢٩١)، وحسنه الألبانى. (٣) هي قراءة كما سبق بيانه.

٤٩٦]. وقوله: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ قال ابن جرير: اختلف المفسرون فى معنى قوله: ﴿وَالنَّجْمُ﴾ بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق، فروى عن ابن عباس قال: النجم ما انبسط على وجه الأرض - يعنى من النبات. وكذا قال سعيد بن جبير، والسدى، وسفيان الثورى. وقد اختاره ابن جرير. وقال مجاهد: النجم الذى فى السماء. وكذا قال الحسن، وقتادة. وهذا القول هو الأظهر، والله أعلم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ الآية [الحج: ١٨].

وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ يعنى: العدل، كما قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وهكذا قال هاهنا: ﴿أَلَا تَطْفَؤُا فِي الْمِيزَانِ﴾ أى: خلق السموات والأرض بالحق والعدل، لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل؛ ولهذا قال: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أى: لا تبخسوا الوزن، بل زنوا بالحق والقسط، كما قال: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء: ١٨٢].

وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ أى: كما رفع السماء وضع الأرض ومهداها، وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات، لتستقر لما على وجهها من الأنام، وهم: الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألوانهم، فى سائر أقطارها وأرجائها. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: الأنام: الخلق ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ أى: مختلفة الألوان والطعوم والروائح، ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾: أفردته بالذكر لشرفه ونفعه، رطباً ويابساً. والأكمام قال ابن عباس: هى أوعية الطلع. وهكذا قال غير واحد من المفسرين، وهو الذى يطلع فيه الفنو ثم ينشق عن العنقود، فىكون بسراً، ثم رطباً، ثم ينضج ويتناهى ينعه واستواؤه. وقيل: الأكمام: رفاتها، وهو: الليف الذى على عتق النخلة. وهو قول الحسن وقتادة. ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ يعنى: التين. وقال العوفى عن ابن عباس: ورق الزرع الأخضر الذى قطع رؤوسه، فهو يسمى العصف إذا يبس. وكذا قال قتادة، والضحاك، وأبو مالك: عصفه: تبته. وقال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ يعنى: الورد. وقال الحسن: هو ريحانكم هذا. وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾: خضرة الزرع. ومعنى هذا - والله أعلم - أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما له فى حال نباته عصف، وهو: ما على السنبل، وريحان، وهو: الورد الملتف على ساقها. وقيل: العصف: الورد أول ما ينبت الزرع بقلًا. والريحان: الورد، يعنى: إذا أدجن وانعقد فيه الحب.

وقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أى: فبأى الآلاء - يا معشر الثقيلين، من الإنس والجن - تكذبان؟ قاله مجاهد، وغير واحد. ويدل عليه السياق بعده، أى: النَّعْمُ ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها، لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها، فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون: «اللهم، ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد» (١). وكان ابن عباس يقول: «لا، بأبها

يا رب». أى: لا تكذب بشيء منها. روى الإمام أحمد عن أسماء بنت أبى بكر قالت: سمعت رسول الله ﷺ وهو يقرأ، وهو يصلى نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر، والمشركون يستمعون ﴿فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١).

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ۝١٥ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْتَهُمَا الْمَوْلُودُ وَالْمَرْحَمَاتُ ۝٢٢ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٣ وَاللَّهُ الْجَوَارِ الْمُشَاطَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۝٢٤ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٥ ﴾

يذكر تعالى خلقه الإنسان من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار، وهو: طرف لهبها. قاله الضحاك، عن ابن عباس. وبه يقول عكرمة، ومجاهد، والحسن، وابن زيد. وقال ابن عباس: ﴿ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾: من لهب النار، من أحسنها. وقال: من خالص النار. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم. وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: « خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم ». ورواه مسلم (٢).

وقوله: ﴿ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ تقدم تفسيره ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ بمعنى: مشرقى الصيف والشتاء، ومغربى الصيف والشتاء. وقال فى الآية الأخرى: ﴿ فَلَا أَسْمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ [المعارج: ٤٠]، وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها فى كل يوم، وبروزها منه إلى الناس. وقال فى الآية الأخرى: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل: ٩]. وهذا المراد منه جنس المشارق والمغرب، ولما كان فى اختلاف هذه المشارق والمغرب مصالح للخلق من الجن والإنس قال: ﴿ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾؟

وقوله: ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ قال ابن عباس: أى أرسلهما. وقوله: ﴿ يَلْتَقِيَانِ ﴾: قال ابن زيد: أى: منعهما أن يلتقيا، بما جعل بينهما من البرزخ الحاجز الفاصل بينهما. والمراد بقوله: ﴿ الْبَحْرَيْنِ ﴾: الملح والحلو، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس. وقد قدمنا الكلام على ذلك فى سورة «الفرقان» عند قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٥٣]. وقد اختار ابن جرير هاهنا أن المراد بالبحرين: بحر السماء وبحر الأرض، وهو مروى عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وعطية، وابن أبزى. قال

(١) المسند (٦/٣٤٩)، وقال الهيثمى فى الزوائد (٧/١٢٠): « فيه ابن لهيعة وفيه ضعف وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح ».

(٢) المسند (٦/١٦٨) ومسلم (٦٠/٢٩٩٦).

ابن جرير: لأن اللؤلؤ يتولد من ماء السماء، وأصداف بحر الأرض. وهذا وإن كان هكذا ليس المراد بذلك ما ذهب إليه، فإنه لا يساعده اللفظ؛ فإنه تعالى قد قال: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانُ﴾ أى: وجعل بينهما برزخا، وهو: الحاجز من الأرض، لثلا يبغي هذا على هذا، وهذا على هذا، فيفسد كل واحد منهما الآخر، ويزيله عن صفته التي هي مقصودة منه. وما بين السماء والأرض لا يسمى برزخا وحجرا محجورا.

وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ أى: من مجموعهما، فإذا وجد ذلك من أحدهما كفى، كما قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [الانعام: ١٣٠]. والرسل إنما كانوا فى الإنسان خاصة دون الجن، وقد صح هذا الإطلاق. واللؤلؤ معروف، وأما المرجان فقيل: هو صغار اللؤلؤ. قاله مجاهد وقتادة. وقيل: كباره وجيده. حكاه ابن جرير عن بعض السلف. وحكاه عن السدى عن حدثه، عن ابن عباس. وروى مثله عن على، ومجاهد أيضا. وقيل: هو نوع من الجواهر أحمر اللون. عن عبد الله [ابن مسعود] قال: المرجان: الخرز الأحمر. قال السدى وهو البُسْدُ بالفارسية.

وأما قوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢]، فاللحم من كل من الأجاج والعذب، والحلية، وإنما هى من الملح دون العذب. قال ابن عباس: ما سقطت قط قطرة من السماء فى البحر، فوقعت فى صدفة إلا صار منها لؤلؤة. وكذا قال عكرمة، وزاد: فإذا لم تقع فى صدفة نبتت بها عنبرة. وروى من غير وجه عن ابن عباس نحوه. وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس، قال: إذا أمطرت السماء، فتحت الأصداف فى البحر أفواهاها، فما وقع فيها - يعنى: من قطر- فهو اللؤلؤ. إسناده صحيح. ولما كان اتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض، امتن بها عليهم فقال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقوله: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ﴾ يعنى: السفن التى تجرى فى البحر، قال مجاهد: ما رفع قلعه من السفن فهى منشآت وما لم يرفع قلعه فليس بمنشآت، وقال قتادة: ﴿الْمُنشَآتُ﴾: يعنى المخلوقات. وقال غيره: المنشآت - بكسر الشين - يعنى: البادئات. ﴿كَأَلْأَعْلَامِ﴾ أى: كالجبال فى كبرها، وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، مما فيه من صلاح للناس فى جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع؛ ولهذا قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْنَا فَاِنٌ ﴿١٦﴾ وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَجُومٌ ذُرٌّ الْمَلَائِكَةِ وَالْإِكْرَارِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ يَسْتَلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿١٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٠﴾﴾

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السموات،

إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم؛ فإن الرب - تعالى وتقدس - لا يموت، بل هو الحى الذى لا يموت أبدا. قال قتادة: أنبأ بما خلق، ثم أنبأ أن ذلك كله فان. وفى الدعاء المأثور: يا حى، يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك نستغيث، أصلح لنا شأننا كله، ولا تكلنا إلا أنفسنا طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك (١). وقال الشعبي: إذا قرأت: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، فلا تسكت حتى تقرأ: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]. وقد نعت تعالى وجهه الكريم فى هذه الآية الكريمة بأنه ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أى: هو أهل أن يجل فلا يعصى، وأن يطاع فلا يخالف، كقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، وكقوله إخبارا عن المتصدقين: ﴿إِنَّمَا نُنْعِمُكُمْ لِرِجْوَةِ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩]. قال ابن عباس: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾: ذو العظمة والكبرياء.

ولما أخبر عن تساوى أهل الأرض كلهم فى الوفاة، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة، فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. وقوله: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾: وهذا إخبار عن غناه عما سواه، وافتقار الخلاق إليه فى جميع الأنات، وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم، وأنه كل يوم هو فى شأن. وقال مجاهد قال: كل يوم هو يجيب داعيا، ويكشف كربا، ويجيب مضطرا، ويغفر ذنبا. وقال قتادة: لا يستغنى عنه أهل السموات والأرض، يحيى حيا، ويميت ميتا، ويربى صغيرا، ويفك أسيرا، وهو منتهى حاجات الصالحين وصريرهم، ومنتهى شكواهم. وعن أبى الدرداء، عن النبى ﷺ قال: «قال الله عز وجل: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾» قال: «من شأنه أن يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويرفع قوما، ويضع آخرين» (٢). قلت: وقد روى موقوفا، كما علقه البخارى بصيغة الجزم، فجعله من كلام أبى الدرداء (٣)، فالله أعلم.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّةَ الثَّقَلَانِ﴾ ﴿٢١﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٢٢﴾ يَمَعَشَرَ الْجَمْرِ
وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَنِ
﴿٢٣﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٢٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْابٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصَرِينَ ﴿٢٥﴾
﴿٢٦﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٢٧﴾

قال ابن عباس فى قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّةَ الثَّقَلَانِ﴾ قال: وعيد من الله للعباد، وليس بالله شغل وهو فارغ. وكذا قال الضحاك: هذا وعيد. وقال قتادة: قد دنا من الله فراغ لخلقه. وقال

(١) الترمذى (٣٥٢٤) وحسنه الالبانى .

(٢) ابن ماجه (٢٠٢) وفى زوائد البوصيرى: «هذا إسناد حسن»، وحسنه الالبانى .

(٣) البخارى (٨ / ٦٢٠ فتح) .

ابن جريج: ﴿سَتَفْرُغُ لَكُمْ﴾ أى: سنقضى لكم . وقال البخارى: سنحاسبكم، لا يشغله شيء عن شيء، وهو معروف فى كلام العرب، يقال: «لأنفِرغن لك» وما به شغل، يقول: «لأخذنك على غرتك». وقوله: ﴿أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾ الثقلان: الإنس والجن ﴿فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثم قال: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتِطَعْتُمْ أَنْ تَفْقُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَفْقُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أى: لا تستطيعون هربا من أمر الله وقدره، بل هو محيط بكم، لا تقدرّون على التخلص من حكمه، ولا النفوذ عن حكمه فيكم، أينما ذهبتم أحيط بكم، وهذا فى مقام المحشر، الملائكة محدقة بالخلاق، سبع صفوف من كل جانب، فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أى: إلا بأمر الله، ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُؤُ. كَلَّا لَا وَزَرَ. إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠- ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧]؛ ولهذا قال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِّنْ نَّارٍ وَنَحَّاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾. قال ابن عباس: الشواظ: هو لهب النار. وقال: الشواظ: الدخان. وقال مجاهد: هو: اللهب الأخضر المنقطع. وقال أبو صالح: الشواظ: هو اللهب الذى فوق النار ودون الدخان. وقال الضحّاك: ﴿شَوَاظٌ مِّنْ نَّارٍ﴾: سيل من نار.

وقوله: ﴿وَنَحَّاسٌ﴾ قال ابن عباس: دخان النار. وروى مثله عن أبى صالح، وسعيد بن جبير، وأبى سنان. قال ابن جرير: والعرب تسمى الدخان نحاسا - بضم النون وكسرها - والقراء مجمعة على الضم. وقال مجاهد: النحاس: الصقر، يذاب فيصب على رؤوسهم. وكذا قال قتادة. وقال الضحّاك: ﴿وَنَحَّاسٌ﴾: سيل من نحاس. والمعنى على كل قول: لو ذهبتم هارين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لرجعوا؛ ولهذا قال: ﴿فَلَا تَنْتَصِرَانِ. فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ؟﴾.

﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾
 ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾
 ﴿يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسِمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾
 ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرُمُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿يَطُوفُونَ فِيهَا بَيْنَ ذَيْنِ حَمِيمٍ﴾
 ﴿فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٣١﴾

يقول تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ يوم القيامة، كما دلت عليه هذه الآية مع ما شاكلها من الآيات الواردة فى معناها، كقوله: ﴿وانشَقَّتِ السَّمَاءُ فِيهِ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦]، وقوله: ﴿ويومَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ. وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١، ٢]. وقوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ أى: تدوب كما يدوب الدردى والفضة فى السبك، وتتلون كما تتلون الأصباغ التى يدهن بها، فتارة حمراء وصفراء

وزرقاء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم. وقد روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يبعث الناس يوم القيامة والسماء تطش عليهم» (١). قال الجوهري: الطش: المطر الضعيف. وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَرَدَّةٌ كَالدَّهَانِ﴾ قال: هو الأديم الأحمر. وقال أبو كدينة عن قابوس، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدَّهَانِ﴾: كالفرس الورد. وقال العوفي، عن ابن عباس: تغير لونها. وقال أبو صالح: كالبرذون الورد، ثم كانت بعد كالدهان. وقال الحسن البصري: تكون ألوانا. وقال السدي: تكون كلون البغلة الوردية، وتكون كالمهل كدردي الزيت. وقال مجاهد: ﴿كَالدَّهَانِ﴾: كاللوان الدهان. وقال عطاء الخراساني: كلون دهن الورد في الصفرة. وقال قتادة: هي اليوم خضراء، ويومئذ لونها إلى الحمرة، يوم ذى ألوان.

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾، وهذه كقوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ. وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ﴾ [المسلمات: ٣٥، ٣٦]، فهذا في حال، وتمَّ حال يسأل الخلاق فيها عن جميع أعمالهم، قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]؛ ولهذه قال قتادة: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾، قال: قد كانت مسألة، ثم ختم على أفواه القوم، وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. قال ابن عباس: لا يسألهم: هل عملتم كذا وكذا؟ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يقول: لم عملتم كذا وكذا؟ فهو قول ثان. وقال مجاهد في هذه الآية: لا يسأل الملائكة عن المجرم، يُعرفون بسماهم. وهذا قول ثالث. وكأن هذا بعد ما يؤمر بهم إلى النار، فذلك الوقت لا يسألون عن ذنوبهم، بل يقادون إليها ويلقون فيها، كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي: بعلامات تظهر عليهم. وقال الحسن وقاتدة: يعرفونهم بأسوداد الوجوه وزرقة العيون. قلت: وهذا كما يعرف المؤمنون بالغيرة والتحجيل من آثار الوضوء.

وقوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ أي: تجمع الزبانية ناصيته مع قدميه، ويلقونه في النار كذلك. وقال ابن عباس: يؤخذ بناصيته وقدميه، فيكسر كما يكسر الخطب في التنوير. وقال الضحاك: يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره وقال السدي: يجمع بين ناصية الكافر وقدميه، فتربط ناصيته بقدمه، ويفتل ظهره. وقوله: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها ها هي حاضرة تشاهدونها عياناً، يقال لهم ذلك تقرعياً وتوبيخاً وتصغيراً وتحقيراً. وقوله: ﴿يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ﴾ أي: تارة يعذبون في الجحيم، وتارة يسقون من الحميم، وهو الشراب الذي هو كالنحاس المذاب، يقطع الأمعاء والأحشاء، وهذه كقوله تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ. فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

وقوله: ﴿آتٍ﴾ أي: حار، وقد بلغ الغاية في الحرارة، لا يستطيع من شدة ذلك. قال ابن

(١) المسند (٢٦٧/٣) وقال الهيثمي في الزوائد (٣٣٧/١٠، ٣٣٨): «فيه عبد الرحمن بن أبي الصهباء ذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحاً، وبقي رجاله ثقات».

عباس في قوله: ﴿حَمِيمٌ أَنْ﴾ : قد انتهى غليه، واشتد حره. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، والحسن، والثوري، والسدي. وقال قتادة: قد أتى طبعه منذ خلق الله السموات والأرض. وقال محمد بن كعب القرظي: يؤخذ العبد فيحركُ بناصيته في ذلك الحميم، حتى يذوب اللحم ويبقى العظم والعينان في الرأس. وهى كالتى يقول الله تعالى: ﴿فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ . والحميم الآن: يعنى الحار. وعن القرظي رواية أخرى: ﴿حَمِيمٌ أَنْ﴾ أى: حاضر. وهو قول ابن زيد أيضا، والحاضر، لا ينافى ما روى عن القرظي أولا أنه الحار، كقوله تعالى: ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنِ آيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥]، أى حارة شديدة الحر لا تستطاع. وكقوله: ﴿غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَاءً﴾ [الاحزاب: ٥٣] يعنى: استواءه ونضجه. فقوله: ﴿حَمِيمٌ أَنْ﴾ أى: حميم حار جدا. ولما كان معاقبة العصاة المجرمين وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه، وكان إنذاره لهم عذابه وبأسه مما يزرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصى وغير ذلك، قال ممتنا بذلك على بريته: ﴿فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ ؟

﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبُونَ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْئَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبُونَ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبُونَ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبُونَ ﴿٥٣﴾﴾

قال ابن شوذب، وعطاء الخراساني: نزلت هذه الآية: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ فى أبى بكر الصديق. والصحيح أن هذه الآية عامة كما قاله ابن عباس وغيره، يقول تعالى: ولمن خاف مقامه بين يدي الله، عز وجل، يوم القيامة ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [التازعات: ٤٠]، ولم يطغ ولا آثر الدنيا، وعلم أن الآخرة خير وأبقى، فآدى فرائض الله، واجتنب محارمه، فله يوم القيامة عند ربه جنتان، كما روى البخارى عن عبد الله بن قيس، أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة، آيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداءُ الكبرياء على وجهه فى جنة عدن». وأخرجه بقية الجماعة إلا أبا داود (١). وهذه الآية عامة فى الإنسان والجن، فهى من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا؛ ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبُونَ﴾. ثم نعت هاتين الجنتين فقال: ﴿ذَوَاتَا أَفْئَانٍ﴾ أى: أغصان نضرة حسنة، تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة، ﴿فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبُونَ﴾. هكذا قال عطاء الخراساني وجماعة: إن الأفئان أغصان الشجر، يمس بعضها بعضا. وحكى البغوى عن مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والكلبي: أنه الغصن المستقيم. وعن ابن عباس: ﴿ذَوَاتَا أَفْئَانٍ﴾ : ذواتا ألوان. وقد روى عن سعيد بن جبير، والحسن مثل ذلك. ومعنى هذا القول أن فيهما فنونا من الملاذ، واختاره ابن جرير. وقال عطاء: كل غصن يجمع فنونا من الفاكهة. وقال الربيع بن أنس:

﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ : واسعتا الفناء. وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا منافاة بينها، والله أعلم. وقال قتادة: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ يبنى بسعتها وفضلها ومزيتها على ما سواها. ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أى : تسرحان لسى تلك الأشجار والأغصان فتثمر من جميع الألوان ، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قال الحسن البصرى : إحداهما يقال لها: «تسنيم»، والأخرى «السلسيل». وقال عطية: إحداهما من ماء غير آسن، والأخرى من خمر لذة للشاربين.

ولهذا قال بعد هذا: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَرْجَانٍ﴾ أى: من جميع أنواع الثمار مما يعلمون وخير مما يعلمون، ومما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؟ عن ابن عباس: ما فى الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهى فى الجنة حتى الحظلة. وقال ابن عباس: ليس فى الدنيا مما فى الآخرة إلا الاسماء، يعنى: أن بين ذلك بوناً عظيماً، وفرقاً بينا فى التفاضل.

﴿مُتَكِّينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَّائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحِىَ الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْغُرَفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِلَيْهِنَّ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿مُتَكِّينَ﴾ يعنى: أهل الجنة. والمراد بالاتكاء هاهنا: الاضطجاع. ويقال: الجلوس على صفة التربع ﴿عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَّائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو: ما غلظ من الديباج. قاله عكرمة، والضحاك، وقاتدة. وقال أبو عمران الجونى: هو الديباج المزين بالذهب. فبه على شرف الظهارة بشرف البطانة. وهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى. وعن عبد الله بن مسعود قال: هذه البطائن فكيف لو رأيتهم الظواهر؟ وقال مالك بن دينار: بطائنها من إستبرق، وظواهرها من نور. وقال ابن شوذب، عن أبى عبد الله الشامى: ذكر الله البطائن ولم يذكر الظواهر، وعلى الظواهر المحابس، ولا يعلم ما تحت المحابس إلا الله. ﴿وَحِىَ الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أى: ثمرها قريب إليهم، متى شاقوا تناولوه، على أى صفة كانوا، كما قال: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣]، وقال: ﴿وَدَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤] أى: لا تمنع ممن تناولها، بل تنحط إليه من أغصانها، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك: ﴿فِيهِنَّ﴾ أى: فى الفرش ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أى غضيضات عن غير أزواجهن، فلا يرين شيئاً أحسن فى الجنة من أزواجهن. قاله ابن عباس، وقاتدة، وعطاء الخراسانى، وابن زيد. وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلاها: والله ما أرى فى الجنة شيئاً أحسن منك، ولا فى الجنة شىء أحب إلى منك، فالحمد لله الذى جعلك لى وجعلنى لك. ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِلَيْهِنَّ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ أى: بل هن أبكار عرب أتراب، لم يطأهن أحد

قبل أزواجهن من الإنس والجن . وهذه أيضا من الأدلة على دخول مؤمنى الجن الجنة . قال أرطاة ابن المنذر : سئل ضَمْرَةَ بن حبيب : هل يدخل الجن الجنة؟ قال : نعم ، وينكحون ، للجن جنيات ، وللإنس إنسيات . وذلك قوله : ﴿لَمْ يَطْمِئُنْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

ثم قال ينعتهن للخطاب : ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ قال مجاهد ، والحسن ، وابن زيد ، وغيرهم : فى صفاء الياقوت وبياض المرجان ، فجعلوا المرجان هاهنا اللؤلؤ . روى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ ، قال : «للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين ، على كل واحدة سبعون حلة ، يرى مخ ساقها من وراء الثياب» . تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه . وقد رواه مسلم عن محمد بن سيرين ، قال : إما تفاخروا وإما تذاكروا ، الرجال أكثر فى الجنة أم النساء؟ فقال أبو هريرة : أو لم يقل أبو القاسم ﷺ : «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والتي تليها على أضوء كوكب درى فى السماء ، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان ، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم ، وما فى الجنة أعزب» . وهذا الحديث مُخْرَجٌ فى الصحيحين (١) . وروى الإمام أحمد عن أنس ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «لَعْدُوَةٌ فى سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها ، ولَقَابُ قوس أحدكم - أو موضع رقده - يعنى : سوطه - من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لمألت ما بينهما ريحا ، ولطاب ما بينهما ، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها» . ورواه البخارى بنحوه (٢) .

وقوله : ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ أى : ما لمن أحسن فى الدنيا العمل إلا الإحسان إليه فى الدار الآخرة . كما قال تعالى : ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس : ٢٦] .

ولما كان فى الذى ذُكِرَ نعم عظيمة لا يقاومها عمل ، بل مجرد تفضل وامتنان ، قال بعد ذلك كله : ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَانٌ ﴿١٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ مَدَاهِمَاتَانِ ﴿١٢﴾﴾
 ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ ﴿١١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٤﴾﴾
 ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ فِيهِمَا فَنَكُهُمَا ﴿١٨﴾ وَنُفْلٌ وَرَمَانٌ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٥﴾﴾
 ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ حُرٌّ مَّقْصُورَةٌ فى الْحِيَابِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٥﴾﴾
 ﴿تَرَىٰ يَظْمِنُهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿١٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٥﴾﴾
 ﴿مُتَّكِبِينَ عَلَىٰ رَقَبِ خَضِرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿١٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٥﴾ تَبْرَكَ أَسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلْدِ وَالْإِكْرَامِ ﴿١٨﴾﴾

(١) المسند (٨٥٢٣) والبخارى (٣٢٤٥) ومسلم (١٤/٢٨٣٤) .

(٢) المسند (١٤١/٣) والبخارى (٢٧٩٦) .

هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما فى المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانٍ﴾. وقد تقدم فى الحديث: «جنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آتيتهما وما فيهما» (١) فالأوليان للمقربين، والأخريان لأصحاب اليمين. وقال أبو موسى: جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين. وقال ابن عباس: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانٍ﴾: من دونهما فى الدرج. وقال ابن زيد: من دونهما فى الفضل. والدليل على شرف الأولين على الآخرين وجوه: أحدها: أنه نعت الأولين قبل هاتين، والتقديم يدل على الاعتناء ثم قال: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانٍ﴾. وهذا ظاهر فى شرف التقدم وعلوه على الثانى.

وقال هناك: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾: وهى الأغصان أو الفنون فى الملاذ، وقال هاهنا: ﴿مُدْهَامَتَانٍ﴾ أى: سوداوان من شدة الرى من الماء. قال ابن عباس فى قوله: ﴿مُدْهَامَتَانٍ﴾: قد اسودتا من الخضرة، من شدة الرى من الماء. وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس: ﴿مُدْهَامَتَانٍ﴾: قال: خضراوان. وروى عن أبى أيوب الأنصارى، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن أبى أوفى، وعكرمة، وسعيد بن جبيرة، والحسن البصرى نحو ذلك. وقال محمد بن كعب: ﴿مُدْهَامَتَانٍ﴾: ممتلئتان من الخضرة. وقال قتادة: خضراوان من الرى ناعمتان. ولا شك فى نضارة الأغصان على الأشجار المشبكة بعضها فى بعض.

وقال هناك: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، وقال هاهنا: ﴿نَضَّاحَتَانِ﴾ قال ابن عباس: أى فياضتان. والجرى أقوى من النضخ. وقال الضحاك: ﴿نَضَّاحَتَانِ﴾ أى: ممتلئتان لا تنقطعان.

وقال هناك: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾، وقال هاهنا: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، ولا شك أن الأولى أعم وأكثر فى الأفراد والتنوع على فاكهة، وهى نكرة فى سياق الإثبات لا نعم؛ ولهذا فسر قوله: ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخارى وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما. ثم قال: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ قيل: المراد خيرات كثيرة حسنة فى الجنة، قاله قتادة. وقيل: خيرات جمع خيرة، وهى المرأة الصالحة الحسنة الخلق الحسنة الوجه، قاله الجمهور. وفى الحديث: أن الحور العين يغنين: نحن الخيرات الحسان، خلقنا لأزواج كرام. ولهذا قرأ بعضهم: «فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ» بالتشديد «حِسَانٌ» فبأي آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. ثم قال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾، وهناك قال: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾، ولا شك أن التى قد قُصِرَتْ طرفها بنفسها أفضل ممن قُصِرَتْ، وإن كان الجميع مخدرات.

وقوله: ﴿فِي الْخِيَامِ﴾ روى البخارى عن عبد الله بن قيس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلا، فى كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون» (٢). وأخرجه مسلم به، ولفظه: «إن للمؤمن فى

(١) مضى تخريجه عند الآية (٤٦) من السورة .

(٢) البخارى (٤٨٧٩) .

الجنة خيمةً من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلا، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن، فلا يرى بعضهم بعضا» (١).

وقوله: ﴿لَمْ يَطْمِئُنْ بِإِنْسٍ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٍ﴾: تقدم مثله سواء، إلا أنه زاد في وصف الأوائل بقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ. فَبِأَيِّ آيَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانُ﴾. وقوله: ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ حَسَانٍ﴾ قال ابن عباس: الرفرف: المحابس. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك، وغيرهما: هي المحابس. وقال العلاء بن زيد: الرفرف على السرير، كهيئة المحابس المتدلى. وقال عاصم الجحدري: ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ يعني: الوسائد. وهو قول الحسن البصرى فى رواية عنه. وقال سعيد بن جبير: الرفرف: رياض الجنة.

وقوله: ﴿وَعَبْقَرِيَّ حَسَانٍ﴾ قال ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدى: العبقرى: الزرابى. وقال سعيد بن جبير: هى عتاق الزرابى، يعنى: جياهاها. وقال مجاهد: العبقرى: الديقاج. وسئل الحسن البصرى عن قوله: ﴿وَعَبْقَرِيَّ حَسَانٍ﴾ فقال: هى بسط أهل الجنة - لا أبالكم - فاطلبوها. وعن الحسن رواية: أنها المرافق. وقال زيد بن أسلم: العبقرى: أحمر وأصفر وأخضر. وسئل العلاء بن زيد عن العبقرى، فقال: البسط أسفل من ذلك. وقال أبو العالية: العبقرى: الطنافس المحملة، إلى الرقة ما هى. وقال أبو عبيدة: هو منسوب إلى أرض يعمل بها الوشى. وقال الخليل بن أحمد: كل شىء نفيس من الرجال وغير ذلك يسمى عند العرب عبقرىا. ومنه قول النبى ﷺ فى عمر: «فلم أر عبقرىا يفرى فريه» (٢). وعلى كل تقدير فصفة مرافق أهل الجنتين الأوليين أرفع وأعلى من هذه الصفة؛ فإنه قد قال هناك: ﴿مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَانِيهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾، فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظواهرها، اكتفاء بما مدح به البطائن بطريق الأولى والأحرى. وتام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ فوصف أهلها بالإحسان وهو أعلى المراتب والنهايات، كما فى حديث جبريل لما سأل عن الإسلام، ثم الإيمان. فهذه وجوه عديدة فى تفضيل الجنتين الأوليين على هاتين الأخريين، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الأوليين.

ثم قال: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أى: هو أهل أن يجل فلا يعصي، وأن يكرم فيعبد، ويشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى. وقال ابن عباس: ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾: ذى العظمة والكبرياء. وروى الإمام أحمد عن ربيعة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألظوا بذي الجلال والإكرام». ورواه النسائى (٣). قال الجوهري: ألظ فلان بفلان: إذا لزمه. وقال ابن مسعود: «ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام» أى: الزموا. ويقال: الإلظاظ هو الإلحاح. قلت: وكلاهما قريب من الآخر - والله أعلم - وهو المداومة

(١) مسلم (٢٣/٢٨٣٨). (٢) البخارى (٣٦٨٢) ومسلم (١٩/٢٣٩٣).

(٣) المسند (١٧٧/٤) والنسائى فى الكبرى (١١٥٦٣)، وصححه الحاكم فى المستدرک (٤٩٨/١) وأقره الذهبى.

واللزوم والإلحاح . وفى صحيح مسلم والسنن الأربعة عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد - يعنى : بعد الصلاة - إلا قدر ما يقول : « اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت ذا الجلال والإكرام » (١) .

(١) مسلم (١٣٦/٥٩٢) وأبو داود (١٥١٢) والترمذى (٢٩٨) والنسائى (١٣٣٨) وابن ماجه (٩٢٤) .

تفسير سورة الواقعة

وهي مكية

قال ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، قد شئت؟ قال: «شيتنى هود، والواقعة، والمرسلات، وعمّ يتساءلون، وإذا الشمس كورت». رواه الترمذى وقال: حسن غريب (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿٢﴾ لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ﴿٣﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴿٤﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٥﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٦﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُتْبِنًا ﴿٧﴾ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٨﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٩﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ﴿١٠﴾ وَالسَّيِّئُونَ السَّيِّئُونَ ﴿١١﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١٢﴾ فِي جَنَّتِ النَّوْمِ ﴿١٣﴾

الواقعة: من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها، كما قال تعالى: ﴿فِيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٥]. وقوله: ﴿لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ﴾ أى: ليس لوقوعها - إذا أراد الله كونها - صارف يصرفها، ولا دافع يدفعها، كما قال: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٧]، وقال: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ [المعارج: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣]. ومعنى ﴿كَاذِبَةٌ﴾ - كما قال محمد بن كعب -: لا يبد أن تكون. وقال قتادة: ليس فيها مثوية ولا ارتداد ولا رجعة.

وقوله: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ أى: تخفض أوقاما إلى أسفل سافلين إلى الجحيم، وإن كانوا فى الدنيا أعزاء، وترفع آخرين إلى أعلى عليين، إلى النعيم المقيم، وإن كانوا فى الدنيا وضعاء. هكذا قال الحسن، وقتادة وغيرهما. وعن ابن عباس: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾: تخفض أناسا وترفع آخرين. وقال محمد بن كعب: تخفض رجالا كانوا فى الدنيا مرتفعين، وترفع رجالا كانوا فى الدنيا مخفوضين. وقال السدّى: خفضت المتكبرين، ورفعت المتواضعين. وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾: أسمعت القريب والبعيد. وقال عكرمة: خفضت فأسمعت الأدنى، ورفعت فأسمعت الأقصى. وكذا قال الضحاك، وقتادة.

وقوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ أى: حركت تحريكا فاهتزت واضطربت بطولها وعرضها. ولهذا قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغير واحد فى قوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ أى:

(١) الترمذى (٣٢٩٧) وصححه الألبانى .

زلزلت زلزالا . وقال الربيع بن أنس: ترج بما فيها كرج الغريال بما فيه . وهذه كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]، وقال تعالى: ﴿يَأْيُهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]. وقوله: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ أى: فُتَّتْ فُتًّا. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وغيرهم. وقال ابن زيد: صارت الجبال كما قال تعالى: ﴿كُنُيَا مَهِيلاً﴾ [المزمل: ١٤].

وقوله: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ قال على رضى الله عنه: كرهج الغبار يسطع ثم يذهب، فلا يبقى منه شيء. وقال ابن عباس: الهباء الذى يطير من النار، إذا اضطربت يطير منه الشرر، فإذا وقع لم يكن شيئا. وقال عكرمة: المنبث: الذى ذرته الريح وبثته. وقال قتادة: ﴿هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾: كيبس الشجر الذى تذروه الرياح. وهذه الآية كأخواتها الدالة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة، وذهابها وتسييرها ونسفها - أى قلعها - وصيرورتها كالهعن المنفوش.

وقوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أى: ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: قوم عن يمين العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن، ويؤتون كتبهم بأيمانهم، ويؤخذ بهم ذات اليمين. قال السدّى: وهم جمهور أهل الجنة. وآخرون عن يسار العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر، ويؤتون كتبهم بشمائلهم، ويؤخذ بهم ذات الشمال، وهم عامة أهل النار - عيادا بالله من صنيعهم - وطائفة سابقون بين يديه عز وجل، وهم أخص وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين الذين هم سادتهم، فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء، وهم أقل عددا من أصحاب اليمين؛ ولهذا قال: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ. وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ. وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ وهكذا قسمهم إلى هذه الأنواع الثلاثة فى آخر السورة وقت احتضارهم، وهكذا ذكرهم فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ﴾ الآية [فاطر: ٣٢]، وذلك على أحد القولين فى الظالم لنفسه كما تقدم بيانه. قال سفيان الثورى عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ قال: هى التى فى سورة الملائكة: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾. وقال ابن جرير، عن ابن عباس: هذه الأزواج الثلاثة هم المذكورون فى آخر السورة وفى سورة الملائكة. وقال مجاهد: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ يعنى: فرقا ثلاثة. وقال ميمون بن مهران: أفواجا ثلاثة. وقال عثمان بن سراقه: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾: اثنان فى الجنة، وواحد فى النار. روى أحمد عن عائشة، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «أندرون من السابقون إلى ظل يوم القيامة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «الذين إذا أعطوا الحق، قبلوه، وإذا سئلوه بذلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم» (١). وقال محمد بن كعب وأبو حرزة يعقوب بن مجاهد: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾: هم الأنبياء، عليهم السلام. وقال السدّى: هم أهل عليين. وقال ابن أبى نجیح، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ قال: يوشع بن نون، سبق إلى موسى، ومؤمن آل «يس»، سبق إلى عيسى، وعلى

ابن أبي طالب، سبق إلى محمد رسول الله ﷺ. وقال ابن سيرين: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾: الذين صلوا للقبلتين. وقال الحسن وقتادة: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ أى: من كل أمة.

وهذه الأقوال كلها صحيحة، فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢٢]، فمن سابق إلى هذه الدنيا وسبق إلى الخير، كان فى الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزء من جنس العمل، وكما تدين تدان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ١٦ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ١٧ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ١٥ مُتَّكِنِينَ ١٤ عَلَيْهَا مُتَّقِلِينَ ١١ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ١٨ لَا يَصُدُّونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٦ وَفَكَهَمَتِ مِمَّا يَتَخَبَّروُنَّ ١٥ وَلَمَّعَ طَلِيرٌ مِّمَّا يَشْتَبُونَ ١١ وَحُورٌ عِينٌ ١٢ كَأَمْثَلِ الثُّلُوبِ الْأَمْكُونِ ١٢ جَزَاءً يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا ١٥ إِلَّا قِيلًا سَلَكْنَا سَلَكًا ١١﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء السابقين المقربين أنهم ﴿ثَلَاثَةٌ﴾ أى: جماعة ﴿مِنَ الْأَوَّلِينَ. وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾. وقد اختلفوا فى المراد بقوله ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ و﴿الْآخِرِينَ﴾. فقيل: المراد بالأولين: الأمم الماضية، والآخريين: هذه الأمة. هذا رواية عن مجاهد، والحسن البصرى، وهو اختيار ابن جرير. وهذا الذى اختاره ابن جرير هاهنا، فيه نظر، بل هو قول ضعيف؛ لأن هذه الأمة هى خير الأمم بنص القرآن، فبيد أن يكون المقربون فى غيرها أكثر منها، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة. والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم، والله أعلم. فالقول الثانى فى هذا المقام، هو الراجح، وهو أن يكون المراد بقوله: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أى: من صدر هذه الأمة، ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ أى: من هذه الأمة.

قال عبد الله بن بكر المزنى سمعت الحسن أتى على هذه الآية: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ فقال: أما السابقون، فقد مضوا، ولكن اللهم اجعلنا من أهل اليمين. ثم قرأ الحسن ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ قال: ممن مضى من هذه الأمة. وعن محمد بن سيرين، أنه قال فى هذه الآية: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ. وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ قال: كانوا يقولون، أو يرجون، أن يكونوا كلهم من هذه الأمة. فهذا قول الحسن وابن سيرين أن الجميع من هذه الأمة. ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن يعم الأمر جميع الأمم كل أمة بحسبها؛ ولهذا ثبت فى الصحاح وغيرها، من غير وجه، أن رسول الله ﷺ قال: «خير القرون قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» (١) الحديث بتمامه.

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا زياد أبو عمر، عن الحسن، عن عمار بن ياسر، قال: قال رسول الله ﷺ: « مثل أمتى مثل المطر، لا يدرى أوله خير أم آخره » (١)، فهذا الحديث، بعد الحكم بصحة إسناده، محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة فى إبلاغه إلى من بعدهم، كذلك هو محتاج إلى القائمين به فى أواخرها، وتثبيت الناس على السنة وروايتها وإظهارها، والفضل للمتقدم. وكذلك الزرع الذى يحتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثانى، ولكن العمدة الكبرى على الأول، واحتياج الزرع إليه أكد، فإنه لولاه ما نبت فى الأرض، ولا تعلق أساسه فيها؛ ولهذا قال عليه السلام: « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، إلى قيام الساعة ». وفى لفظ: « حتى يأتى أمر الله وهم كذلك » (٢). والغرض: أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة؛ لشرف دينها، وعظم نبيها. ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر أن فى هذه الأمة سبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب. وفى لفظ: « مع كل ألف سبعون ألفا ». وفى آخر: « مع كل واحد سبعون ألفا » (٣).

وقوله: ﴿عَلَى سُرْرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ قال ابن عباس: أى مرمولة بالذهب، يعنى: منسوجة به. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، وغيرهم. وقال السدى: مرمولة بالذهب واللؤلؤ. وقال عكرمة: مشبكة بالدر والياقوت. وقال ابن جرير: ومنه سُمى وضيع الناقه الذى تحت بطنها؛ لأنه مضمفور، وكذلك السرر فى الجنة مضمفورة بالذهب واللالى. وقال: ﴿مُتَكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ أى: وجوه بعضهم إلى بعض، ليس أحد وراء أحد. ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أى: مخلدون على صفة واحدة، لا يكبرون عنها ولا يشيبون ولا يتغيرون، ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ﴾، أما الأكواب، فهى: الكيزان التى لا خراطيم لها ولا آذان. والأباريق: التى جمعت الوصفين. والكؤوس: الهنابات، والجميع من خمر من عين جارية معين، ليس من أوعية تنقطع وتفرغ، بل من عيون سارحة.

وقوله: ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يَنْزِفُونَ﴾ أى: لا تصدع رؤوسهم ولا تنزف عقولهم، بل هى ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة. وروى الضحاک، عن ابن عباس أنه قال: فى الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقىء والبول. فذكر الله خمر الجنة ونزهها عن هذه الخصال. وقال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبیر، وعطية، وقاتدة، والسدى: ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا﴾ يقول: ليس لهم فيها صداع رأس. وقالوا فى قوله: ﴿وَلَا يَنْزِفُونَ﴾ أى: لا تذهب بعقولهم. وقوله: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ. وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أى: ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار. وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها. روى الإمام أحمد وأبو يعلى عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ تعجبه الرؤيا، فربما رأى الرجل الرؤيا فسأل عنه إذا لم يكن يعرفه، فإذا أتى

(١) المسند (٤٠/٣٢٩)، والترمذى (٢٨٦٩) وقال: « حسن غريب ».

(٢) البخارى (٦٤٧٢).

(٣) البخارى (٣٦٤١).

عليه معروف، كان أعجب لرؤياه إليه. فأتته امرأة فقالت: يا رسول الله، رأيت كأنى أتيت فأخرجت من المدينة، فأدخلت الجنة فسمعت وجبة انتحبت لها الجنة، فنظرت فإذا فلان ابن فلان، وفلان ابن فلان، فسمت اثني عشر رجلا، كان النبي ﷺ قد بعث سرية قبل ذلك، فجىء بهم عليهم ثياب طلس تشخب أوداجهم، فقيل: اذهبوا بهم إلى نهر البيدخ - أو: البيدخ - قال: فغمسوا فيه، فخرجوا ووجوههم كالقمر ليلة البدر، فاتوا بصحفة من ذهب فيها بسر فأكلوا من يسره ما شاؤوا، فما يقبلونها من وجه إلا أكلوا من الفاكهة ما أرادوا، وأكلت معهم. فجاء البشير من تلك السرية، فقال: كان من أمرنا كذا وكذا، وأصيب فلان وفلان. حتى عد اثني عشر رجلا، فدعا رسول الله ﷺ المرأة فقال: «قصي رؤياك». فقصتها، وجعلت تقول: فجىء بفلان وفلان كما قال. هذا لفظ أبي يعلى، قال الحافظ الضياء: وهذا على شرط مسلم^(١).

وقوله: ﴿وَلَحْمَ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ روى الإمام أحمد عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن طير الجنة كأمثال البخت، ترعى في شجر الجنة». فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هذه لطير ناعمة، فقال: «أكلتها أنعم منها - قالها ثلاثا - وإنى لأرجو أن تكون ممن يأكل منها». تفرد به أحمد من هذا الوجه^(٢). وعن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ سئل عن الكوثر فقال: «نهر أعطانيه ربي، عز وجل، في الجنة، أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طيور أعناقها يعنى كعناق الجزر». فقال عمر: إنها لناعمة. قال رسول الله ﷺ: «أكلها أنعم منها». رواه الترمذى وقال: حسن^(٣).

وقوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ قرأ بعضهم بالرفع، وتقديره: ولهم فيها حور عين. وقراءة الجر تحتمل معنيين، أحدهما: أن يكون الإعراب على الاتباع بما قبله؛ لقوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَّعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ. وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ. وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ. وَحُورٌ عِينٌ﴾، كما قال: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾ [المائدة: ٦٦]، وكما قال: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان: ٢١]. والاحتمال الثاني: أن يكون مما يطوف به الولدان المخلدون عليهم الحور العين، ولكن يكون ذلك فى القصور، لا بين بعضهم بعضا، بل فى الخيام يطوف عليهم الخدام بالحور العين، والله أعلم.

وقوله: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ أى: كأنهن اللؤلؤ الرطب فى بياضه وصفائه؛ ولهذا قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى: هذا الذى تحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل. ثم قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا. إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ أى: لا يسمعون فى الجنة كلاما لاغيا،

(١) المسند (٣/١٣٥) وأبو يعلى فى مسنده (٤٤/٦) (٣٢٨٩). وقال الهيثمى فى الزوائد (٧/١٧٥): «رجاله رجال الصحيح».

(٢) المسند (٣/٢٢١) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/٤١٧): «رجاله رجال للصحيح غير سيار بن حاتم وهو ثقة».

(٣) الترمذى (٢٥٤٢).

أى : غثا خاليا عن المعنى ، أو مشتملا على معنى حقير أو ضعيف ، كما قال : ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ [الغاشية : ١١] أى : كلمة لاغية ﴿ وَلَا تَأْتِيَا ﴾ أى : ولا كلاماً فيه قبح ﴿ إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً ﴾ أى : إلا التسليم منهم بعضهم على بعض ، كما قال : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ [إبراهيم : ٢٣] وكلامهم أيضاً سالم من اللغو والإثم .

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٩﴾
 وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿١٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿١١﴾ وَفُكْهَمٍ كَثِيرٍ ﴿١٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ
 ﴿١٣﴾ وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿١٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنشَاءً ﴿١٥﴾ فَعَمَلْنَهُنَّ أَتْبَارًا ﴿١٦﴾ عَرَبِيًّا أَرَابًا
 ﴿١٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿١٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

لما ذكر تعالى مآل السابقين - وهم المقربون - عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين - وهم الأبرار - كما قال ميمون بن مهران : أصحاب اليمين منزلة دون المقربين ، فقال : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ أى : أى شيء أصحاب اليمين ؟ وما حالهم ؟ وكيف مآلهم ؟ ثم فسر ذلك فقال : ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وغيرهم : هو الذى لا شوك فيه . وعن ابن عباس : هو الموقر بالتمر . وهو رواية عن عكرمة ، ومجاهد . وكذا قال قتادة أيضا : كنا نحدث أنه الموقر الذى لا شوك فيه . والظاهر أن المراد هذا وهذا ؛ فإن سدر الدنيا كثير الشوك قليل الثمر ، وفى الآخرة على عكس من هذا ، لا شوك فيه ، وفيه الثمر الكثير الذى قد أثقل أصله . عن سليم بن عامر قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم ؛ قال : أقبل أعرابى يوماً فقال : يا رسول الله ، ذكر الله فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها ؟ فقال رسول الله ﷺ : « وما هى ؟ » . قال : السدر ، فإن له شوكة موزياً ، فقال رسول الله ﷺ : « أليس الله يقول : ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ ، خَصَّدَ اللَّهُ شُوكَهُ ، فَجَعَلَ مَكَانَ كُلِّ شُوكَةٍ ثَمْرَةً ، فَإِنَّهَا لَتَنْبِتُ ثَمْرًا تَفْتَقُ الثَّمْرَةَ مِنْهَا عَنِ اثْنِينَ وَسَبْعِينَ لُونًا مِنْ طَعَامٍ ، مَا فِيهَا لُونٌ يَشْبَهُ الْآخَرَ » (١) .

وعن عتبة بن عبد السلمي قال : كنت جالساً مع رسول الله ﷺ ، فجاء أعرابى فقال : يا رسول الله ، أسمعك تذكر فى الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكةً منها ؟ يعنى : الطلح ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله يجعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خصوة التيس الملبود ، فيها سبعون لونا من الطعام ، لا يشبه لونا آخر » (٢) .

وقوله : ﴿ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴾ الطلح : شجر عظام يكون بأرض الحجاز ، من شجر العضاه ، واحدته طلحة ، وهو شجر كثير الشوك ، قال مجاهد : ﴿ مَّنْضُودٍ ﴾ أى : متراكم الثمر ، يذكر

(١) رواه الحاكم فى المستدرک (٢/٤٧٦) عن سليم بن عامر عن أبى أمامة ، وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .
 (٢) الطبرانى الكبير (١٧/١٣٠) (٣١٨) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/٤٤٧) : « رجاله رجال الصحيح » .

بذلك قريشاً؛ لأنهم كانوا يعجبون من وَجِّ، وظلاله من طلح وسدر . وقال السدى : ﴿مَنْضُودٍ﴾ : مصفوف . قال ابن عباس : يشبه طلح الدنيا ، ولكن له ثمر أحلى من العسل . قال الجوهري : والطلح لغة فى الطلع . وعن أبى سعيد : ﴿وَطَلْحٌ مَنْضُودٌ﴾ قال : الموز . قال : وروى عن ابن عباس ، وأبى هريرة ، والحسن ، وعكرمة ، وقسامة بن زهير ، وقتادة ، وأبى حَزْرَةَ ، مثل ذلك ، وبه قال مجاهد ، وابن زيد - وزاد فقال : أهل اليمن يسمون الموز الطلح . ولم يحك ابن جرير غير هذا القول .

وقوله : ﴿وَطَلِّ مَمْدُودٍ﴾ روى البخارى عن أبى هريرة - يبلغُ به النبى ﷺ - قال : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿وَطَلِّ مَمْدُودٍ﴾ » . ورواه مسلم^(١) . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿وَطَلِّ مَمْدُودٍ﴾ » . وكذا رواه البخارى ، وعبد الرزاق والترمذى^(٢) . وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى عن أنس ، عن النبى ﷺ فى قول الله عز وجل : ﴿وَطَلِّ مَمْدُودٍ﴾ ، قال : « فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها » . وكذا رواه البخارى^(٣) . وقد أخرج البخارى ومسلم من حديث أبى سعيد وسهل بن سعد ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمَّرَ السريع مائة عام ما يقطعها »^(٤) . فهذا حديث ثابت عن رسول الله ﷺ ، بل متواتر مقطوع بصحته عند أئمة الحديث النقاد ، لتعدد طرقه ، وقوة أسانيد ، وثقة رجاله . فقد أبطل من يكذب بهذا الحديث ، مع ثبوته وصحته ورفعته إلى رسول الله ﷺ . وروى الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما فى الجنة شجرة إلا ساقها من ذهب » . ثم قال : حسن غريب^(٥) . وقال الضحاک ، والسدى فى قوله : ﴿وَطَلِّ مَمْدُودٍ﴾ : لا ينقطع ، ليس فيها شمس ولا حر ، مثل قبل طلوع الفجر . وقال ابن مسعود : الجنة سَجَسَجٌ ، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . وقد تقدمت الآيات كقوله : ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧] ، وقوله : ﴿أَكَلْهَا دَائِمًا وَظَلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] ، وقوله : ﴿فِي ظِلَالٍ وَعِیُونَ﴾ [المرسلات: ٤١] إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله : ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ قال الثورى : يجرى فى غير أخدود . وقد تقدم الكلام عند تفسير قوله تعالى : ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ الآية [محمد: ١٥] ، بما أغنى عن إعادته هاهنا .

(١) البخارى (٤٨٨١) ومسلم (٦/٢٨٢٦) .

(٢) المسند (١٠٢٠٨) والبخارى (٣٢٥٢) والترمذى (٣٢٩٢) وعبد الرزاق فى مصنفه (٢٠٨٧٧) .

(٣) أبو يعلى فى مسنده (٢٣٧/٢٩٩٢) والبخارى (٣٢٥١) ، وفى مسند أبى يعلى : « كان فى كتاب أبى يعلى ألف عام » .

(٤) البخارى (٦٥٥٢ ، ٦٥٥٣) ومسلم (٨/٢٨٢٨ ، ٢٨٢٧) .

(٥) الترمذى (٢٥٢٥) وصححه الألبانى .

وقوله : ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ . لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أى : وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة فى الألوان ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ﴿كُلَّمَا رَزَقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة: ٢٥] أى : يشبه الشكلُ الشكلَ ، ولكن الطعام غيرُ الطعام . وفى الصحيحين فى ذكر سدرة المنتهى قال : « فإذا رزقها كأذان الفيلة ونبقها مثل قلال هجر » (١) . وفيهما أيضاً عن ابن عباس قال : خُسِفَتِ الشمسُ ، فصلى رسولُ الله ﷺ والناس معه ، فذكر الصلاة . وفيه : قالوا : يا رسول الله ، رأيناك تناولت شيئاً فى مقامك هذا ، ثم رأيناك تكعكعت . قال : « إني رأيت الجنة ، فتناولت منها عنقوداً ، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا » (٢) . وروى الحافظ أبو يعلى عن جابر قال : بينا نحن فى صلاة الظهر ، إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا معه ، ثم تناول شيئاً ليأخذه ثم تأخر ، فلما قضى الصلاة قال له أبى بن كعب : يا رسول الله ، صنعتَ اليومَ فى الصلاة شيئاً ما كنت تصنعه ؟ قال : « إنه عُرِضَتْ عَلَى الْجَنَّةِ ، وما فيها من الزَّهْرَةِ وَالنُّضْرَةِ ، فتناولت منها قطعاً من عنب لآتيكم به ، فحِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، ولو آتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه » . وروى مسلم نحوه (٣) . وروى الإمام أحمد عن عامر بن زيد البكالى : أنه سمع عتبة بن عبد السلمي يقول : جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ ، فسأله عن الحوض وذكر الجنة ، ثم قال الأعرابى : فيها فاكهة ؟ قال : « نعم ، وفيها شجرة تدعى طوبى » ، فذكر شيئاً لا أدرى ما هو ، قال : أى شجر أرضنا تشبه ؟ قال : « ليست تشبه شيئاً من شجر أرضك » . فقال النبى ﷺ : « آتيت الشام ؟ » قال : لا . قال : « تشبه شجرة بالشام تدعى الجوزة ، تنبت على ساق واحد ، وينفرش أعلاها » . قال : ما عظم أصلها ؟ قال : « لو ارتحلت جذعة من إبل أهلك ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتها هرمأ » . قال : فيها عنب ؟ قال : « نعم » . قال : فما عظم العنقود ؟ قال : « مسيرة شهر للغراب الأبقع ، ولا يفتر » . قال : فما عظم الحبة ؟ قال : « هل ذبح أبوك تيساً من غنمه قط عظيماً ؟ » قال : نعم . قال : « فسلخ إهابه فأعطاه أمك ، فقال : اتخذى لنا منه دلوأ ؟ » . قال : نعم . قال الأعرابى : فإن تلك الحبة لتشبعنى وأهل بيتى ؟ قال : « نعم وعمامة عشيرتك » (٤) .

وقوله : ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أى : لا تنقطع شتاء ولا صيفاً ، بل أكلها دائم مستمر أبداً ، مهما طلبوا وجدوا ، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شىء . وقال قتادة : لا يمنعهم من تناولها عودٌ ولا شوكٌ ولا بُعدٌ . وقوله : ﴿وَفُورٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ أى : عالية وطيبة ناعمة . وقوله : ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا . غُرُبًا أَتْرَابًا . لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ : جرى الضمير على غير مذكور .

(١) البخارى (٣٢٠٧) ومسلم (٢٥٩/١٦٢) . (٢) البخارى (١٠٥٢) ومسلم (١٧/٩٠٧) .

(٣) انظر : مسلم (٩٠٧) .

(٤) المسند (١٨٣/٤) وقال الهيثمى فى الزوائد (٤١٦/١٠) : « فيه عامر بن زيد البكالى وقد ذكره ابن أبى حاتم ولم يجرحه ولم يوثقه وبقية رجاله ثقات » .

لكن لما دل السياق ، وهو ذكر الفرش ، على النساء اللاتي يضاجنن فيها ، اكتفى بذلك عن ذكرهن ، وعاد الضمير عليهن ، كما في قوله : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِيَاتُ الْجِيَادُ . فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ [ص: ٣١ ، ٣٢] يعنى : الشمس ، على المشهور من قول المفسرين . قال الأخفش في قوله : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴾ : أضمرهن ولم يذكرهن قبل ذلك . وقال أبو عبيدة : ذكرن في قوله : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ . كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ [الواقعة: ٢٢ ، ٢٣] .

فقوله : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ ﴾ أى : أعدناهن فى النشأة الآخرة بعدما كُنَّ عجائز رُمصاً ، صرن أباكاراً عربياً ، أى : بعد الثبوتية عدن أباكاراً عربياً ، أى : متحبيات إلى أزواجهن بالحلاوة والظرافة والملاحة . وقال بعضهم : ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ أى : غَنَجَاتٍ . وفى حديث الصور الطويل المشهور : أن رسول الله ﷺ يشفع للمؤمنين كلهم فى دخول الجنة فيقول الله : قد شفتك وأذنت لهم فى دخولها . فكان رسول الله ﷺ يقول : « والذى بعثنى بالحق ، ما أنتم فى الدنيا بأعرف بأزواجكم ومسكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومسكنهم ، فيدخل الرجل منهم على ثنتين وسبعين زوجة ، سبعين مما ينشئ الله ، وثنيتين من ولد آدم ، لهما فضل على من أنشأ الله ، بعبادتهما الله فى الدنيا ، يدخل على الأولى منهما فى غرفة من ياقوته ، على سرير من ذهب مَكَلَّلٌ باللؤلؤ ، عليه سبعون زوجاً من سُندُسٍ وإستبرق وإنه ليضع يده بين كتفيها ، ثم ينظر إلى يده من صدرها من وراء ثيابها وجلدها ولحمها ، وإنه لينظر إلى مخ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السلك فى قصبة الياقوت ، كيده لها مرآة - يعنى : وكيدها له مرآة - فيبينما هو عندها لا يملها ولا تملمه ، ولا يأتيها من مرة إلا وجدها عذراء ، ما يفتقر ذكره ولا تشتكى قُبُلها إلا أنه لا منى ولا منية ، فيبينما هو كذلك إذ نودى : إنا قد عرفنا أنك لا تمل ولا تملم ، إلا أن لك أزواجاً غيرها ، فيخرج ، فيأتيهن واحدة واحدة ، كلما جاء واحدة قالت : والله ما فى الجنة شئ أحسن منك ، وما فى الجنة شئ أحب إلى منك » (١) .

وروى أبو داود الطيالسى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يعطى المؤمن فى الجنة قوة كذا وكذا فى النساء » . قلت : يا رسول الله ، ويُطيق ذلك ؟ قال : « يعطى قوة مائة » . ورواه الترمذى وقال : صحيح غريب (٢) . وروى أبو القاسم الطبرانى عن أبى هريرة قال : قيل : يا رسول الله ، هل نصل إلى نسائنا فى الجنة ؟ قال : « إن الرجل ليصل فى اليوم إلى مائة عذراء » (٣) . قال الحافظ أبو عبد الله المقدسى : هذا الحديث عندى على شرط الصحيح ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ قال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : يعنى متحبيات إلى أزواجهن ،

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٧) من سورة الأنعام ، وتخريجه هناك .

(٢) أبو داود فى مسنده (٢٠١٢) والترمذى (٢٥٣٦) .

(٣) الروض الدانى (٦٨/٢) (٧٩٥) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠٠/٤٢٠) : « رجال هذه الرواية رجال الصحيح غير

محمد بن ثواب وهو ثقة » .

ألم تر إلى الناقة الضبعة ، هي كذلك . وقال الضحاك ، عن ابن عباس : العُربُ : العواشق لأزواجهن ، وأزواجهن لهن عاشقون . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وغيرهم . وعن عكرمة قال : سئل ابن عباس عن قوله : ﴿ عُرْبًا ﴾ قال : هي الملقَّةُ لزوجها . وعن عكرمة : هي الغنجة . وقال زيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن : العُربُ : حسنات الكلام . وقوله : ﴿ أترابًا ﴾ قال ابن عباس يعني : فى سن واحدة ، ثلاث وثلاثين سنة . وقال مجاهد : الأتراب : المستويات . وفى رواية عنه : الأمثال . وقال عطية : الأقران . وقال السدى : ﴿ أترابًا ﴾ أى : فى الأخلاق المتواخيات بينهم ، ليس بينهم تباغض ولا تحاسد ، معنى : لا كما كن فى الدنيا ضرائر متعاديات . وقوله : ﴿ لأصحاب اليمين ﴾ أى : خلقنا لأصحاب اليمين ، أو : ادخرن لأصحاب اليمين ، أو : زوجن لأصحاب اليمين . والأظهر أنه متعلق بقوله : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا . عُرْبًا أترابًا . لأصحاب اليمين ﴾ ، فتقديره : أنشأناهن لأصحاب اليمين . وهذا توجيه ابن جرير .

قلت : ويحتمل أن يكون قوله : ﴿ لأصحاب اليمين ﴾ متعلقاً بما قبله ، وهو قوله : ﴿ أترابًا . لأصحاب اليمين ﴾ أى : فى أسنانهم . كما جاء فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دُرّى فى السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون ، ولا يتفلون ، ولا يتمخطون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوّة ، وأزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خَلْقِ رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ، ستون ذراعاً فى السماء » (١) . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مردأً بيضاً جعاداً مكحلين ، أبناء ثلاث وثلاثين ، وهم على خلق آدم ستون ذراعاً فى عرض سبعة أذرع » (٢) . وروى الترمذى عن معاذ بن جبل ، أن رسول الله ﷺ قال : « يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مردأً مكحلين أبناء ثلاثين ، أو ثلاث وثلاثين سنة » . ثم قال : حسن غريب (٣) .

وقوله : ﴿ ثَلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثَلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ أى : جماعة من الأولين ، وجماعة من الآخرين . عن عبد الله بن مسعود ، قال - وكان بعضهم يأخذ عن بعض : أكرينا ذات ليلة عند رسول الله ﷺ ثم غدونا عليه ، فقال : « عُرِضَتْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهَا بِأَمِّهَا ، فِيمر عَلَى النَّبِيِّ ، وَالنَّبِيُّ فِي الْعَصَابَةِ ، وَالنَّبِيُّ فِي الثَّلَاثَةِ ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ - وَتَلَا قِتَادَةَ هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ [هود : ٧٨] - قال : حتى مرَّ عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ فِي كَبْكَبَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، قَالَ :

(١) البخارى (٣٣٢٧) ومسلم (١٥/٢٨٣٤) .

(٢) المسند (٧٩٢٠) وقال الشيخ شاکر : « إسناده صحيح » . قوله : « جعاداً » : هو بكسر الجيم وفتح العين المهمة مخففة ، جمع « جعد » وهو الذى شعره غير سبط ، وهى صفة مدح ؛ لأن جعودة الشعر هى الصفة الغالبة على شعور العرب . وسبوطه هى الغالبة على شعور العجم من الروم والفرس وأمثالهم من الأعاجم .

(٣) الترمذى (٢٥٤٥) .

« قلتُ : ربى ، من هذا ؟ . قال : هذا أخوك موسى بن عمران ومن معه من بنى إسرائيل » .
 قال : « قلتُ : رب ، فأين أمتى ؟ قال : انظر عن يمينك فى الطراب » . قال : « فإذا وجوه
 الرجال » . قال : « قال : أرضيت ؟ » . قال : قلت : « قد رضيت ، رب » . قال : انظر
 إلى الأفق عن يسارك . فإذا وجوه الرجال . قال : أرضيت؟ قلت : « رضيت ، رب » . قال :
 فإن مع هؤلاء سبعين ألفاً ، يدخلون الجنة بغير حساب » . قال : وأنشأ عكاشة بن محصن من
 بنى أسد - قال سعيد : وكان بَدْرِيًّا - قال : يا نبى الله ، ادع الله أن يجعلنى منهم . قال :
 فقال : « اللهم اجعله منهم » . قال : أنشأ رجل آخر ، قال : يا نبى الله ، ادع الله أن يجعلنى
 منهم . فقال : « سبقك بها عكاشة » . قال : فقال رسول الله ﷺ : « فإن استطعتم - فداكم
 أبى وأمى - أن تكونوا من أصحاب السبعين فافعلوا ، وإلا فكونوا من أصحاب الطراب ، وإلا
 فكونوا من أصحاب الأفق ، فإنى قد رأيت ناساً كثيراً قد تأشَّبوا حوله » . ثم قال : « إنى لأرجو
 أن تكونوا ربع أهل الجنة » . فكبرنا ، ثم قال : « إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة » .
 قال : فكبرنا ، قال : « إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » . قال : فكبرنا . ثم تلا
 رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ تِلْكَ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَتِلْكَ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ . قال : فقلنا بيننا : من هؤلاء
 السبعون ألفاً ؟ فقلنا : هم الذين ولدوا فى الإسلام ، ولم يشركوا . قال : فبلغه ذلك ،
 فقال : « بل هم الذين لا يكتون ولا يسترقون ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » . روى ابن
 جرير نحوه (١) . وهذا الحديث له طرق كثيرة من غير هذا الوجه فى الصحاح وغيرها (٢) .

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مِمَّا أَحْسَبُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سُمُورٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحَنِثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِهْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْتَانَا الْمَسْأَلُونَ الْمَكْذِبُونَ ﴿٥١﴾ لِأَكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَثَالِثُونَ مِمَّا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُوا شَرِبَ الْمِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نَزَلَتْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حال أصحاب اليمين ، عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال ، فقال :
 ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مِمَّا أَحْسَبُ الشِّمَالِ ﴾ أى : أى شىء هم أصحاب الشمال ؟ ثم فسّر ذلك فقال :
 ﴿ فِي سُمُورٍ ﴾ وهو : الهواء الحار ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ وهو : الماء الحار ﴿ وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ ﴾ قال ابن
 عباس : ظل الدخان . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة والسُدِّى ، وغيرهم . وهذه كقولته تعالى :
 ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظلٍ ذى ثلاثِ شُعَبٍ . لا ظليل ولا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ . إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّهِ كَالْقَصْرِ . كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صَفْرٌ . وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المسرات: ٢٩-٣٤] ، ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَظِلٍّ

مِنْ يَحْمُومٍ ﴿٥٧﴾ وهو الدخان الأسود ﴿لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾ أى : ليس طيب الهبوب ولا حسن المنظر ، كما قال الحسن وقتادة : ﴿وَلَا كَرِيمٌ﴾ أى : ولا كريم المنظر . وقال الضحاك : كل شراب ليس بعذب فليس بكريم .

ثم ذكر تعالى استحقاقهم لذلك ، فقال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أى : كانوا فى الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذات أنفسهم ، لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل . ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ﴾ أى : يُصَمِّمُونَ ولا ينوون توبة ﴿عَلَى الْحِنْتِ الْعَظِيمِ﴾ وهو الكفر بالله ، وجعل الأوثان والأنداد أرباباً من دون الله . قال ابن عباس : ﴿الْحِنْتِ الْعَظِيمِ﴾ : الشرك . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، وغيرهم . وقال الشعبي : هو اليمين الغموس . وكانوا يقولون : ﴿أَلَدًا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَا لَمَجُوعُونَ . أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوْلُونَ ؟﴾ يعنى : أنهم يقولون ذلك مكذبين به مستبعدين لوقوعه ، قال الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أى : أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين من بنى آدم سيجمعون إلى عرصات القيامة ، لا تغادر منهم أحداً ، كما قال : ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ . وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ . يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٣-١٠٥] . ولهذا قال هاهنا : ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أى : هو موقت بوقت مُحدَّد ، لا يتقدم ولا يتأخر ، ولا يزيد ولا ينقص .

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتَها الضَّالُّونَ الْمَكْذِبُونَ . لَا تَكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ . فَمَا لَتُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ : وذلك أنهم يقبضون ويُسَجِّرُونَ حتى يأكلوا من شجر الزقوم ، حتى يملؤوا منها بطونهم ، ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنْ الْحَمِيمِ . فَشَارِبُونَ شَرِبَ الْهَيْمِ﴾ وهى الإبل العطاش ، واحدها هييم ، والأثنى هيماء ، ويقال : هائم وهائمة . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة : الهيم : الإبل العطاش الظماء . وعن عكرمة أنه قال : الهيم : الإبل المراض ، تمص الماء مصاً ولا تروى . وقال السدى : الهيم : داء يأخذ الإبل فلا تروى أبداً حتى تموت ، فكذلك أهل جهنم لا يروون من الحميم أبداً .

ثم قال تعالى : ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أى : هذا الذى وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم ، كما قال فى حق المؤمنين : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧] أى : ضيافة وكرامة .

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ؕ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْفُوفِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَيَّ أَنْ تَبْدَلَ أَمْسَلَكُمْ وَنُدْبَتَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

يقول تعالى مُقررأ للمعاد ، ورادأ على المكذبين به من أهل الزيف والإلحاد ، من الذين قالوا :

﴿أَنْذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَا لَمَبْقُوتُونَ﴾ [الصفات: ١٦] ، وقولهم ذلك صدر منهم على وجه التكذيب والاستبعاد ، فقال : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ ﴾ أى : نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، أفليس الذى قدر على البداء بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى ؛ فلهذا قال : ﴿ فَلَوْلَا تُصَدَّقُونَ ﴾ أى : فهلا تصدقون بالبعث ! ثم قال مستدلاً عليهم بقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ . أَنَأْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ أى : أنتم تقرونه فى الأرحام وتخلقونه فيها ، أم الله الخالق لذلك ؟ ثم قال : ﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ ﴾ أى : صرفناه بينكم . وقال الضحاك : ساوى فيه بين أهل السماء والأرض .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أى : وما نحن بعاجزين ﴿ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ﴾ أى : نغير خلقكم يوم القيامة ، ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى : من الصفات والأحوال .

ثم قال : ﴿ وَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أى : قد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذى قدر على هذه النشأة - وهى البداء - قادر على النشأة الأخرى ، وهى الإعادة بطريق الأولى والأحرى ، وكما قال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧] ، وقال : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ﴾ [مریم: ٦٧] ، وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٧- ٧٩] ، وقال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى . أَلَمْ يَكْ نُطْفَةٍ مِنْ مِثْيِ يَمْنَىٰ . ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ . فَجَعَلَ مِنَ الذَّرِّجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ . أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ؟ ﴾ [القيامة: ٣٦- ٤٠] .

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ ﴿ ١٢ ﴾ ءَأَنْتُمْ تَرْزَعُونَهُۥۗ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿ ١٣ ﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿ ١٤ ﴾ إِنَّا لَمُعْرَمُونَ ﴿ ١٥ ﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿ ١٦ ﴾ أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿ ١٨ ﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿ ١٩ ﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿ ٢٠ ﴾ أَفَرَأَيْتُمْ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿ ٢١ ﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿ ٢٢ ﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَرَمْتًا لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ ٢٣ ﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿ ٢٤ ﴾

يقول تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ ؟ وهو شق الأرض وإثارتها والبذر فيها ﴿ أَنَأْتُمْ تَرْزَعُونَهُ ؟ ﴾ أى : تبتونه فى الأرض ﴿ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ أى : بل نحن الذين نقره قراره ونبته فى الأرض . وقوله : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ أى : نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا ، وأبقيناه لكم رحمة بكم ، ولو نشاء لجعلناه حطاماً ، أى : لا يبسناه قبل استوائه واستحصاده ، ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ . ثم فسر ذلك بقوله : ﴿ إِنَّا لَمُعْرَمُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أى : لو جعلناه حطاماً لظَلْتُمْ تفكّهون فى المقالة ، تنوعون كلامكم ، فتقولون تارة : ﴿ إِنَّا لَمُعْرَمُونَ ﴾ أى : لَمُفَقُونَ .

وقال مجاهد ، وعكرمة : إنا لمولع بنا . وقال قتادة : معذبون . وتارة تقولون : بل نحن محرومون . وقال مجاهد أيضاً : ﴿ إِنَّا لَمُعْرَمُونَ ﴾ ملقون للشر ، أى : بل نحن مُحَارَفُونَ ، قاله قتادة ، أى : لا يثبت لنا مال ، ولا ينتج لنا ربح . وقال مجاهد : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أى : محدودون ، يعنى : لا حظ لنا . قال ابن عباس ، ومجاهد : ﴿ فَظَلَّمْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ : تعجبون . وقال مجاهد أيضاً : تفجعون وتحزنون على ما فاتكم من زرعكم . وهذا يرجع إلى الأول ، وهو التعجب من السبب الذى من أجله أصيبوا فى مالهم . وهذا اختيار ابن جرير . وقال عكرمة : ﴿ فَظَلَّمْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ : تلاومون . وقال الحسن ، وقتادة ، والسدى : تندمون . ومعناه إما على ما أنفقتم ، أو على ما أسلفتم من الذنوب .

ثم قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ . أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ ﴾ يعنى : السحاب . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾ يقول : بل نحن المنزلون . ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجْحَابًا ﴾ أى : زعاقاً مراً لا يصلح لشرب ولا زرع ﴿ فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ أى : فهلا تشكرون نعمة الله عليكم فى إنزاله المطر عليكم عذبا زلالا ! ﴿ لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجْرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ . يُنَبِّئُكُمْ بِهِ الزُّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ١٠ ، ١١] .

ثم قال : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ أى : تقدحون من الزناد ، وتستخرجونها من أصلها ، ﴿ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾ أى : بل نحن الذين جعلناها مودعة فى موضعها ، وللعرب شجرتان ، إحداهما : المرخ ، والأخرى : العفّار ، إذا أخذ منهما غصنان أخضران ، فحك أحدهما بالآخر ، تناثر من بينهما شرر النار . وقوله : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا ﴾ : قال مجاهد ، وقتادة : أى تُذَكَّرُ النَّارَ الْكَبِيرَى . روى الإمام أحمد فى مسنده : عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، وضربت بالبحر مرتين ، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد » (١) . وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نار بنى آدم التى يوقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » . فقالوا : يا رسول الله ، إن كانت لكافية . فقال : « إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً » . رواه البخارى ومسلم وفى لفظ : «والذى نفسى بيده ، لقد فضّلت عليها بتسعة وستين جزءاً ، كلهن مثل حرها » (٢) . وروى الطبرانى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « أتدرون ما مثل ناركم هذه من نار جهنم ؟ لهى أشد سواداً من ناركم هذه بسبعين ضعفاً » (٣) . قال الضياء المقدسى : وهو عندى على شرط الصحيح .

وقوله : ﴿ وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، والنضر بن

(١) المسند (٧٣٢٣) وقال الشيخ شاکر : « إسناده صحيح » .

(٢) البخارى (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣ / ٣٠) .

(٣) الطبرانى فى الأوسط (١٥٥ / ١) (٤٨٥) وقال الهيثمى فى الزوائد (٣٩٠ / ١٠) : « رجاله رجال الصحيح » .

عربى : يعنى بالمقوين : المسافرين ، واختاره ابن جرير . وقال غيره : القى والقواء : القفر الخالى البعيد من العمران . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : المقوى هنا الجائع . وقال ليث ابن أبى سليم ، عن مجاهد : ﴿ وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴾ : للحاضر والمسافر ، لكل طعام لا يصلحه إلا النار . وقال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد قوله : ﴿ لِلْمُقْوِينَ ﴾ : المستمتعين ، الناس أجمعين . وكذا ذكر عن عكرمة . وهذا التفسير أعم من غيره ، فإن الحاضر والبادى من غنى وفقير ، الجميع محتاجون للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع . ثم من لطف الله تعالى أن أودعها فى الأحجار ، وخالص الحديد ، بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك فى متاعه وبين ثيابه ، فإذا احتاج إلى ذلك فى منزله أخرج زنده وأورى ، وأوقد ناره فأطبخ بها واصطلى ، واشتوى واستأنس بها ، وانتفع بها سائر الانتفاعات . فلهذا أفرد المسافرون وإن كان ذلك عاماً فى حق الناس كلهم . وقد يستدل له بما رواه الإمام أحمد وأبو داود من حديث أبى خدّاش حبان بن زيد الشّرعى الشّامى ، عن رجل من المهاجرين من قرآن ، أن رسول الله ﷺ قال : «المسلمون شركاء فى ثلاثة : النار والكأ والماء» (١) . وروى ابن ماجه بإسناد جيد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث لا يُمنعن : الماء والكأ والنار » (٢) .

وقوله : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أى : الذى بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة : الماء العذب الزلال البارد ، ولو شاء لجعله ملحاً أجاجاً كالبحار المغرقة . وخلق النار المحرقة ، وجعل ذلك مصلحة للعباد ، وجعل هذه منفعة لهم فى معاش دنياهم ، وزاجراً لهم فى المعاد .

﴿ فَلَآ أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُمْ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفِيهِذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَعْمَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكذِّبُونَ ﴿٨٢﴾

هذا قسم من الله عز وجل ، يقسم بما شاء من خلقه ، وهو دليل على عظمته . ثم قال بعض المفسرين : « لا » هاهنا زائدة ، وتقديره : أقسم بمواقع النجوم . ورواه ابن جرير ، عن سعيد بن جبير . ويكون جوابه : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ . وقال آخرون : ليست « لا » زائدة لا معنى لها ، بل يؤتى بها فى أول القسم إذا كان مقسماً به على منفى ، وتقدير الكلام : لا أقسم بمواقع النجوم ليس الأمر كما زعمتم فى القرآن أنه سحر أو كهانة ، بل هو قرآن كريم . وقال ابن جرير : وقال بعض أهل العربية : معنى قوله : ﴿ فَلَآ أَقْسِمُ ﴾ : فليس الأمر كما تقولون ، ثم استأنف القسم بعد فقيل : أقسم .

واختلفوا فى معنى قوله : ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ ، فقال ابن عباس : نزل القرآن جملة من

(١) المسند (٣٦٤/٥) وأبو داود (٣٤٧٧) وصححه الالبانى .

(٢) ابن ماجه (٢٤٧٣) .

عند الله من اللوح المحفوظ إلى السَّفَرَةِ الكرام الكاتبين فى السماء الدنيا ، فنجمته السفرة على جبريل عشرين ليلة ، ونجمه جبريل على محمد ﷺ عشرين سنة ، فهو قوله : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ : نجوم القرآن . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والسدى . وقال مجاهد أيضا : ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ فى السماء ، ويقال : مطالعها ومشارقها . وكذا قال الحسن ، وقتادة ، وهو اختيار ابن جرير . وعن قتادة : مواقعها : منازلها . وعن الحسن أيضا : أن المراد بذلك انتشارها يوم القيامة . وقال الضحاك : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ يعنى بذلك : الأنواء التى كان أهل الجاهلية إذا مطّروا قالوا : مطرنا بنوء كذا وكذا .

وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ أى : وإن هذا القسم الذى أقسمت به لقسم عظيم ، لو تعلمون عظيمته لعظمتكم المقسم به عليه ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ أى : إن هذا القرآن الذى نزل على محمد لكتاب عظيم ﴿ فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ أى : معظم فى كتاب معظم محفوظ موقر . عن ابن عباس : ﴿ لَا يَمَسُّهُ ﴾ قال : الكتاب الذى فى السماء ﴿ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ يعنى : الملائكة . وكذا قال أنس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبیر ، وغيرهم . وقال قتادة : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ قال : لا يمسه عند الله إلا المطهرون ، فأما فى الدنيا فإنه يمسه المجوسى النجس ، والمنافق الرجس . وقال ابن زيد : زعمت كفار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين ، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون كما قال : ﴿ وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴾ [الشعراء : ٢١٠ - ٢١٢] . وهذا القول قول جيد ، وهو لا يخرج عن الأقوال التى قبله . وقال آخرون : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ أى : من الجنابة والحديث . قالوا : ولفظ الآية خبر ومعناها الطلب ، قالوا : والمراد بالقرآن هاهنا المصحف ، كما روى مسلم عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو ، مخافة أن يناله العدو (١) .

وقوله : ﴿ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : هذا القرآن منزل من الله رب العالمين ، وليس هو كما يقولون : إنه سحر ، أو كهانة ، أو شعر ، بل هو الحق الذى لا مرية فيه ، وليس وراءه حق نافع . وقوله : ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴾ قال ابن عباس : أى مكذبون غير مصدقين . وكذا قال الضحاك ، والسدى . وقال مجاهد : ﴿ مُدْهِنُونَ ﴾ أى : تريدون أن تمالئوهم فيه وتركوا إليهم . ﴿ وَتَجْمَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكْذِبُونَ ﴾ قال بعضهم : يعنى : وتجعلون رزقكم بمعنى شكركم أنكم تكذبون ، أى : تكذبون بدل الشكر . وعن ابن عباس قال : ما مطر قوم قط إلا أصبح بعضهم كافراً ، يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا . وقرأ ابن عباس : « وتجعلون شكركم أنكم تكذبون » . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس .

وروى مالك فى الموطأ عن زيد بن خالد الجهنى أنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية فى أثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : « هل

(١) مسلم (٩٢ / ١٨٦٩) ، ورواه البخارى (٢٩٩٠) .

تدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . « قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بى وكافر بالكواكب . وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب » . أخرجاه فى الصحيحين ، وأبو داود ، والنسائى (١) . وروى مسلم عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ، ينزل الغيث ، فيقولون : بكوكب كذا وكذا » . تفرّد به مسلم من هذا الوجه (٢) .

وقال مجاهد : ﴿ وَتَجْمَعُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ ﴾ قال : قولهم فى الأنواء : مطرنا بنوء كذا ، وبنوء كذا ، يقول : قولوا : هو من عند الله ، وهو رزقه . وهكذا قال الضحاك وغير واحد . وقال قتادة : أما الحسن فكان يقول : بشس ما أخذ قوم لأنفسهم ، لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب . فمعنى قول الحسن هذا : وتجمعون حظكم من كتاب الله أنكم تكذبون به ؛ ولهذا قال قبله : ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهَبُونَ . وَتَجْمَعُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ ﴾ .

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٢﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَتَحْنُ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ ﴾ أى : الروح ﴿ الْحُلُقُومِ ﴾ أى : الحلق ، وذلك حين الاحتضار ، كما قال : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِي . وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ . وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ . وَالتَّفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ . إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ [القيامة : ٢٦ - ٣٠] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴾ أى : إلى المحتضر وما يكابده من سكرات الموت ﴿ وَتَحْنُ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾ أى : بملأئكتنا ﴿ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ أى : ولكن لا ترونهم . كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ . ثُمَّ رَدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ [الأنعام : ٦١ ، ٦٢] .

وقوله : ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . تَرْجِعُونَهَا ﴾ معناه : فهلا ترجعون هذه النفس التى بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول ، ومقرها فى الجسد إن كنتم غير مديين . قال ابن عباس : يعنى محاسبين . وروى عن مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقاتدة ، والضحاك ، والسدى مثله . وقال سعيد بن جبیر ، والحسن البصرى : ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ : غير مصدقين أنكم تدانون وتبعثون وتجزون ، فردوا هذه النفس . وعن مجاهد : ﴿ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ : غير موقنين .

﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ ﴾

(١) مالك فى الموطأ (١/١٩٢) والبخارى (٨٤٦) ومسلم (٧٢/١٢٥) وأبو داود (٣٩٠٦) والنسائى (٣/١٦٤) .

(٢) مسلم (٧٢/١٢٦) .

الضَّالِّينَ ﴿٩٦﴾ فَزُلْ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٧﴾ وَتَصَلِيَةُ جَبْرِيلَ ﴿٩٨﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٩﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿١٠٠﴾

هذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس عند احتضارهم : إما أن يكون من المقربين ، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين . وإما أن يكون من المكذبين بالحق الضالين عن الهدى ، الجاهلين بأمر الله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ ﴾ أى : المحتضر ﴿ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ، وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات و المكروهات وبعض المباحات ﴿ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ ﴾ أى : فلهم روح وريحان ، وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت ، كما تقدم فى حديث البراء : أن ملائكة الرحمة تقول : « أيتها الروح الطيبة فى الجسد الطيب كنت تعمريه ، اخرجى إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان » (١) . قال ابن عباس : ﴿ فَرُوحٌ ﴾ يقول : راحة وريحان ، يقول : مستراحة . وكذا قال مجاهد : إن الروح : الاستراحة . وقال سعيد بن جبير ، والسدى : الروح : الفرح . وعن مجاهد : ﴿ فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ ﴾ : جنة ورحاء . وقال قتادة : فروح : فرحة . وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير : ﴿ وَرِيحَانٌ ﴾ : ورزق . وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة ، فإن من مات مقرباً حصل له جميع ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة ، والفرح والسرور والرزق الحسن ، ﴿ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ ﴾ . وقد قدمنا أحاديث الاحتضار عند قوله تعالى فى سورة إبراهيم : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية: روى الإمام أحمد عن أم هانئ: أنها سألت رسول الله ﷺ: أنتزاور إذا متنا، ويرى بعضنا بعضاً؟ فقال رسول الله ﷺ: « تكون النسم طيراً يعلق بالشجر، حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس فى جسدها » (٢). هذا الحديث فيه بشارة لكل مؤمن ، ومعنى « يعلق » : يأكل ، ويشهد له بالصحة أيضاً ما رواه الإمام أحمد عن كعب بن مالك ، عن رسول الله ﷺ قال : « إنما نَسَمَةُ المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة ، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه » (٣) . وهذا إسناد عظيم ، ومتن قوي . وفى الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : « إن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر ، تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ثم تَأْرَى إلى قناديل معلقة بالعرش » (٤) الحديث .

وقوله : ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أى : وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين ، ﴿ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أى : تبشرهم الملائكة بذلك ، تقول لأحدهم : سلام لك ، أى : لا بأس عليك ، أنت إلى سلامة ، أنت من أصحاب اليمين . وقال قتادة ، وابن زيد :

(١) مسند أحمد (٨٧٥٤) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » وابن ماجه (٤٢٦٢) .

(٢) المسند (٤٢٤ / ٦) .

(٣) المسند (٤٥٥ / ٣) .

(٤) مضى الحديث عند تفسير الآية (١٦٩) من آل عمران ، وتخريجه هناك .

سَلِّمَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، وَسَلِّمْتَ عَلَيْهِ مَلَائِكَةُ اللَّهِ . كما قال عكرمة : تسلم عليه الملائكة ، وتخبره أنه من أصحاب اليمين . وهذا معنى حسن ، ويكون ذلك كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢] . وقال البخارى : ﴿ فَسَلَامٌ لَكَ ﴾ أى : مُسَلِّمٌ لَكَ ، إنك من أصحاب اليمين . وألغيت « إِنَّ » وبقي معناها .

وقوله : ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ . فَنُزِّلْ مِنْ حَمِيمٍ . وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ ﴾ أى : وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق ، الضالين عن الهدى ، ﴿ فَنُزِّلْ ﴾ أى : فضيافة ﴿ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ وهو المذاب الذى يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، ﴿ وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ ﴾ أى : وتقرير له فى النار التى تغمره من جميع جهاته . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ أى : إن هذا الخبر لهو الحق اليقين الذى لا مرية فيه ، ولا محيد لأحد عنه . ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ وروى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » . ورواه بقية الجماعة إلا أبا داود مثله (١) .

(١) البخارى (٧٥٦٣) ومسلم (٣١/٢٦٩٤) والترمذى (٣٤٦٧) والنسائى فى الكبرى (١٠٦٦٦) وابن ماجه (٣٨٠٦) .

تفسير سورة الحديد

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ
وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾

يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات والأرض ، أى : من الحيوانات والنباتات ، كما
قال فى الآية الأخرى : ﴿ تَسْبِحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ
لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] . وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : الذى قد
خضع له كل شىء ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى خلقه وأمره وشرعه ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾
أى : هو المالك المتصرف فى خلقه ، فيحى ويميت ، ويعطى من يشاء ما يشاء ، ﴿ وَهُوَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى : ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وقوله : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ : وهذه الآية هى المشار إليها فى حديث
العرباض بن سارية : أنها أفضل من ألف آية . وروى أبو داود عن أبى زُمَيْل قال : سألت ابن
عباس فقلت : ما شىء أجده فى صدرى ؟ قال : ما هو ؟ قلت : والله لا أتكلم به . قال :
فقال لى : أشىء من شك ؟ قال - وضحك - قال : ما نجا من ذلك أحد . قال : حتى أنزل
الله : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾
الآية [يونس : ٩٤] قال : وقال لى : إذا وجدت فى نفسك شيئاً فقل : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ
وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

وقد اختلفت عبارات المفسرين فى هذه الآية وأقوالهم على نحو من بضعة عشر قولاً . وقال
البخارى : قال يحيى : الظاهر على كل شىء علماً ، والباطن على كل شىء علماً (٢) . وقد
ورد فى ذلك أحاديث ، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ كان
يدعو عند النوم : « اللهم ، رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شىء ،
منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحب والنوى ، لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر كل
شىء أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء ،
وأنت الظاهر فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فليس دونك شىء . اقض عنا الدين ، وأغننا
من الفقر » . ورواه مسلم عن سهيل (٣) قال : كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام :

(١) أبو داود (٥١١٠) وصححه الألبانى . (٢) البخارى (١٣ / ٣٦١ فتح) .

(٣) فى المطبوعة : « سهل » وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه كما عند مسلم وأحمد وفى المخطوطة .

أن يضطجع على شقه الأيمن ، ثم يقول : اللهم ، ربّ السموات وربّ الأرض وربّ العرش العظيم ، ربّنا وربّ كل شيء ، فالق الحب والنوى ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته ، اللهم ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر . وكان يروى ذلك ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ (١) .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٥﴾ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ وَاللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورَ ﴿٦﴾ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١﴾ ﴾

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم أخبر باستوائه على العرش بعد خلقهن ، وقد تقدم الكلام على هذه الآية وأشباهاها في سورة « الأعراف » (٢) بما أغنى عن إعادته هاهنا . ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي : يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من زرع ونبات وثمار ، كما قال : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رَدَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] . وقوله : ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي : من الأمطار ، والثلوج والبرد ، والأقذار والأحكام مع الملائكة الكرام ، وقد تقدم في سورة « البقرة » أنه ما ينزل من قطرة من السماء إلا ومعها ملك يُقرّرها في المكان الذي يأمر الله به حيث يشاء تعالى . ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أي : من الملائكة والأعمال ، كما جاء في الصحيح : « يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ » (٣) .

وقوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أي : رقيب عليكم ، شهيد على أعمالكم حيث أنتم ، وأين كنتم ، من بر أو بحر ، في ليل أو نهار ، في البيوت أو القفار ، الجميع في علمه على السواء ، وتحت بصره وسمعه ، فيسمع كلامكم ويرى مكانكم ، ويعلم سركم ونجواكم ، كما قال : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَشْفُونَ لِيَأْبَهُمْ يَعْلَمُ مَا يَسِرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [هود : ٥] . وقال : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد : ١٠] ، فلا إله غيره ولا رب سواه . وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجبريل ، لما سأله عن الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٤) .

(١) المسند (٢ / ٤٠٤) ومسلم (٢٧١٣ / ٦١) .
 (٢) عند الآية (٥٤) .
 (٣) مسلم (١٧٩ / ٢٩٣) .
 (٤) البخاري (٥٠٠) ومسلم (١ / ٨) .

وكان الإمام أحمد ينشد هذين البيتين :

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ : عَلَى رَقِيبٍ
وَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً وَلَا أَنْ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

وقوله : ﴿ لَهْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أى : هو المالك للدنيا والآخرة ، كما قال : ﴿ وَإِنْ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ [الليل : ١٣] ، وهو المحمود على ذلك ، كما قال : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ﴾ [القصص : ٧٠] ، وقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [سبا : ١] . فجميع ما فى السموات والارض ﴿ الْآتَى الرَّحْمَنُ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكَلَّمَهُمْ آتِيَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم : ٩٣-٩٥] . ولهذا قال : ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أى : إليه المرجع يوم القيامة ، فيحكم فى خلقه بما يشاء ، وهو العادل الذى لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة ، بل إن يكن أحدهم عمل حسنة واحدة يضاعفها إلى عشر أمثالها ﴿ وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] . كما قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَاصِيئِينَ ﴾ [الانبياء : ٤٧] .

وقوله : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ أى : هو المتصرف فى الخلق ، يقبل الليل والنهار ويقدرهما بحكمته كما يشاء ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار ، وتارة بالعكس ، وتارة يتركهما معتدلين . وتارة يكون الفصل شتاء ثم ربيعاً ثم قيظاً ثم خريفاً ، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريد به بخلقه ، ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى : يعلم السرائر وإن دقت ، وإن خفيت .

﴿ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا هُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَنْ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبْنَوت لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ يَبِرتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَتِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَن ذَا الَّذِي يُرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فِضْضِعْفَهُ لَمْ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

أمر تعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الاكمل ، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار ، وحث على الإنفاق مما جعلكم مستخلفين فيه ، أى : مما هو معكم على سبيل العارية ، فإنه قد كان فى أيدي من قبلكم ثم صار إليكم ، فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال فى طاعته ، فإن يفعلوا وإلا حاسبهم عليه وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه .

وقوله: ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ﴾: فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك ، فلعل وارثك أن يطيع الله فيه ، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك ، أو يعصى الله فيه فتكون قد سعت في معاونته على الإثم والعدوان . روى الإمام أحمد ، عن عبد الله بن الشخير قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : ﴿ أَلِهَاتُكُمْ التَّكَاثُرُ ﴾ [التكاثر: ١] ، يقول ابن آدم : مالي مالي! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ؟ . ورواه مسلم ، وزاد : « وما سوى ذلك فذهاب وتاركة للناس » (١) .

وقوله: ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ترغيب في الإيمان والإنفاق في الطاعة ، ثم قال : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾ ؟ أى : وأى شيء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم ، يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به ؟ . وقد روينا في الحديث من طُرُق في أوائل شرح « كتاب الإيمان » من صحيح البخارى: أن رسول ﷺ قال يوماً لأصحابه : « أَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْجَبُ إِلَيْكُمْ إِيْمَانًا ؟ » قالوا : الملائكة . قال : « وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟ » قالوا : فالأنبياء . قال : « وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم؟ » . قالوا : فنحن ؟ قال : « وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماننا قوم يحييؤون بعدكم ، يجدون صُحُفاً يؤمنون بما فيها . وقد ذكرنا طرفاً من هذا في أول سورة « البقرة » (٢) عند قوله: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ [البقرة: ٣] . وقوله: ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَهُمْ ﴾ كما قال : ﴿ وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [المائدة: ٧] . ويعنى بذلك : بيعة الرسول ﷺ . وزعم ابن جرير : أن المراد بذلك الميثاق الذى أخذ عليهم فى صلب آدم ، وهو مذهب مجاهد ، فالله أعلم .

وقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ عِبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أى : حججاً واضحات ، ودلائل باهرات ، وبراهين قاطعات ، ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أى : من ظلمات الجهل والكفر ، والآراء المتضادة إلى نور الهدى واليقين والإيمان ، ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لِرُءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى : فى إنزاله الكتب وإرساله الرسل لهداية الناس ، وإزاحة العلل وإزالة الشُّبه .

ولما أمرهم أولاً بالإيمان والإنفاق ، ثم حثهم على الإيمان ، وبين أنه قد أزال عنهم موانعه ، حثهم أيضاً على الإنفاق فقال: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : أنفقوا ولا تخشوا فقراً وإقلاقاً ، فإن الذى أنفقتم فى سبيله هو مالك السموات والأرض ، ويده مقاليدهما ، وعنده خزائنهما ، وهو مالك العرش بما حوى ، وهو القائل : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سبا: ٣٩] ، وقال : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦] فمن توكل على الله أنفق ، ولم يخش من ذى العرش إقلاقاً ، وعلم أن الله سيخلفه عليه .

وقوله: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَّنْ أَنْفَقَ مِّن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلٌ ﴾ أى : لا يستوى هذا ومن لم يفعل

كفعله، وذلك أن قبل فتح مكة كان الحال شديداً ، فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً، ودخل الناس في دين الله أفواجا ؛ ولهذا قال : ﴿ أَوْلَيْكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ . والجمهور على أن المراد بالفتح هاهنا فتح مكة . وعن الشعبي وغيره أن المراد بالفتح هاهنا : صلح الحديبية ، وقد يُستدل لهذا القول بما روى الإمام أحمد : عن أنس قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ؟ فبلغنا أن ذلك ذُكر للنبي ﷺ فقال: « دعوا لى أصحابى ، فوالذى نفسى بيده، لو أنفقتم مثل أحد - أو : مثل الجبال - ذهباً ، ما بلغت أعمالهم » (١) . ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكة ، وكانت هذه المشاجرة بينهما فى بنى جذيمة الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد بعد الفتح، فجعلوا يقولون: « صبأنا ، صبأنا » ، فلم يحسنوا أن يقولوا: « أسلمنا » ، فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم، فخالفه عبد الرحمن ابن عوف ، وعبد الله بن عمر وغيرهما . فاختصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك (٢) . والذى فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده، لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ، ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه » (٣) .

وقوله : ﴿ وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ يعنى: المنفقين قبل الفتح وبعده ، كلهم لهم ثواب على ما عملوا، وإن كان بينهم تفاوت فى تفاضل الجزاء ، كما قال: ﴿ لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٥] . وهكذا الحديث الذى فى الصحيح : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير » (٤) ، وإنما نبه بهذا لئلا يُهدر جانب الآخر بمدح الأول دون الآخر ، فيتوهم متوهم ذمه؛ فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه ، مع تفضيل الأول عليه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أى : فلخبرته فارت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن فعل ذلك بعد ذلك ، وما ذلك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام ، وإنفاقه فى حال الجهد والقلة والضيقة . وفى الحديث: « سبق درهم مائة ألف » (٥) . ولا شك عند أهل الإيمان أن الصديق أبا بكر ، رضى الله عنه ، له الحظ الأوفر من هذه الآية ، فإنه سيّد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء ، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله ، عز وجل ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها .

وقوله : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهُ قرضاً حسناً ﴾ قال عمر بن الخطاب: هو الإنفاق فى سبيل الله،

(١) المسند (٣/ ٢٦٦) . وهو عند البخارى بلفظ قريب منه (٢٦٧٣) ومسلم (٢٥٤٠/ ٢٢١) .

(٢) البخارى (٧١٨٩) . (٣) البخارى (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤١/ ٢٢٢) .

(٤) مسلم (٣٤/ ٢٦٦٤) .

(٥) فى المخطوطة: « أضعافا كثيرة وله أجر كريم » وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه .

وقيل: هو النفقة على العيال . والصحيح أنه أعم من ذلك ، فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة وعزيمة صادقة ، دخل في عموم هذه الآية ؛ ولهذا قال : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللهُ قرضاً حسناً فيضاعفه له ﴾ ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ أضعافاً كثيرةً وَاللهُ يقبضُ وَيصطُ وَإليه ترجعون ﴾ [البقرة: ٢٤٥] أى : جزاء جميل ، ورزق باهر - وهو الجنة - يوم القيامة .

﴿ يَوْمَ تَرى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرانُهم بِشْرانِكُمْ أَلَيْسَ لِيَوْمِ جَنَّتُمْ تَجْرى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ لَلَّذِينَ آمَنُوا أَنْظَرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُمْ بَاطِنُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكُم فتنننا أنفسكم وتربصنم وازتبنتم وعزبنكم الأمانى حتى جاء أمر الله وعزبكم بالله العزور ﴿١٤﴾ فاللّوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ما أولئك إلا لنادى هم مولنكم ونيس المصير ﴿١٥﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين: أنهم يوم القيامة يسعون نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة بحسب أعمالهم ، كما قال عبد الله بن مسعود فى قوله : ﴿ يسعون نورهم بين أيديهم ﴾ قال: على قدر أعمالهم يمرون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، وأدانهم نوراً من نوره فى إبهامه يتقد مرة ويطلقاً مرة . ورواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير . وقال قتادة : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول : « من المؤمنين من يضىء نوره من المدينة إلى عدن أبين وصنعاء فدون ذلك ، حتى إن من المؤمنين من يضىء نوره موضع قدميه » (١) . وقال سفيان الثورى ، عن حصين ، عن مجاهد عن جنادة بن أمية قال: إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم ، وسيماكم وحلاكم ، ونجواكم ومجالسكم ، فإذا كان يوم القيامة قيل : يا فلان ، هذا نورك . يا فلان ، لا نور لك . وقرأ : ﴿ يسعون نورهم بين أيديهم ﴾ . وقال الضحاك : ليس أحد إلا يعطى نوراً يوم القيامة ، فإذا انتهوا إلى الصراط طفق نور المنافقين ، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفق نور المنافقين ، فقالوا : ربنا ، أتم لنا نورنا . وقال الحسن فى قوله : ﴿ يسعون نورهم بين أيديهم ﴾ : يعنى : على الصراط .

وقوله : ﴿ وبأيمانهم ﴾ قال الضحاك : أى وبأيمانهم كتبهم ، كما قال : ﴿ فمن أوتى كتابه بيمينه ﴾ [الإسراء: ٧١] . وقوله : ﴿ بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أى : يقال لهم : بشراكم اليوم جنات ، أى : لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار ، ﴿ خالدين فيها ﴾ أى : ماكتين فيها أبداً ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٧ / ١٢٨) .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِبَ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ : وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة فى العرصات من الأهوال المزعجة ، والزلازل العظيمة ، والأمور الفظيعة ، وإنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله ، وعمل بما أمر الله ، وترك ما عنه زجر . قال سليم بن عامر : خرجنا على جنازة فى باب دمشق ، ومعنا أبو أمامة الباهلى ، فلما صلى على الجنازة وأخذوا فى دفنها ، قال أبو أمامة : أيها الناس ، إنكم قد أصبحتم وأمسيتم فى منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات ، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر ، وهو هذا - يشير إلى القبر - بيت الوحدة ، وبيت الظلمة ، وبيت الدود ، وبيت الضيق ، إلا ما وسع الله ، تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة ، فإنكم فى بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله ، فتبيض وجوه وتسود وجوه ، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فتغشى الناس ظلمة شديدة ، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نوراً ، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً ، وهو المثل الذى ضربه الله فى كتابه ، قال : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور: ٤٠] ، فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضيء الأعمى بنور البصير ، ويقول المنافقون للذين آمنوا : ﴿ انظُرُونَا نَقْتِسِبَ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ ، وهى خدعة الله التى خدع بها المنافقين حيث قال : ﴿ يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٢] . فيرجعون إلى المكان الذى قسم فيه النور ، فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب ، ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ الآية . يقول سليم بن عامر : فما يزال المنافق معتزلاً حتى يقسم النور ، ويميز الله بين المؤمن والمنافق . وقال ابن عباس : بينما الناس فى ظلمة إذ بعث الله نوراً ، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه ، وكان النور دليلاً من الله إلى الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنین قد انطلقوا اتبعوهم ، فأظلم الله على المنافقين ، فقالوا حينئذ : ﴿ انظُرُونَا نَقْتِسِبَ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ ، فإننا كنا معكم فى الدنيا . قال المؤمنون : ﴿ ارْجِعُوا ﴾ من حيث جئتم من الظلمة ، فالتمسوا هنالك النور .

وقوله : ﴿ فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ : قال الحسن ، وقتادة : هو حائط بين الجنة والنار . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو الذى قال الله تعالى : ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ﴾ [الأعراف: ٤٦] . وهكذا روى عن مجاهد وغير واحد ، وهو الصحيح . ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ أى : الجنة وما فيها ﴿ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ أى : النار . قاله قتادة ، وابن زيد ، وغيرهما . قال ابن جرير : وقد قيل : إن ذلك السور سور بيت المقدس عند وادى جهنم . ثم روى عن عبادة بن الصامت ، وكعب الأخبار ، وعلى بن الحسين زين العابدين ، نحو ذلك . وهذا محمول منهم على أنهم أرادوا بهذا تقريب المعنى ومثالاً لذلك ، لا أن هذا هو الذى أريد من القرآن هذا الجدار المعين ونفس المسجد وما وراءه من الوادى المعروف بوادى جهنم ؛ فإن الجنة فى السموات فى أعلى عليين ، والنار فى الدركات أسفل سافلين . وإنما المراد بذلك : سورٌ يُضْرَبُ يوم القيامة ليحجز بين المؤمنین والمنافقين ، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه ، فإذا

استكملوا دخولهم أغلق الباب وبقى المنافقون من ورائه فى الحيرة والظلمة والعذاب ، كما كانوا فى الدار الدنيا فى كفر وجهل وشك وحيرة . ﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ أى : ينادى المنافقون المؤمنين : أما كنا معكم فى الدار الدنيا ، نشهد معكم الجمعات ، ونصلى معكم الجماعات ، ونقف معكم بعرفات ، ونحضر معكم الغزوات ، ونؤدى معكم سائر الواجبات ؟ ﴿ قَالُوا بَلَى ﴾ أى : فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين: بلى ، قد كنتم معنا ، ﴿ وَلَكِنَّكُمْ فَتِنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ قال بعض السلف : أى فتتم أنفسكم باللذات والمعاصى والشهوات ﴿ تَرَبَّصْتُمْ ﴾ أى : أخرتم التوبة من وقت إلى وقت .

وقال قتادة : ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بالحق وأهله ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ أى : بالبعث بعد الموت ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ أى : قلتم : سيغفر لنا . وقيل : غرتكم الدنيا ﴿ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أى : مازلتم فى هذا حتى جاء الموت ﴿ وَغَرَّتْكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ أى : الشيطان . قال قتادة : كانوا على خدعة من الشيطان ، والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله فى النار . ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين : أنكم كنتم معنا : بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها ، وإنما كنتم فى حيرة وشك ، فكنتم تراؤون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً . قال مجاهد : كان المنافقون مع المؤمنين أحياء يناكحونهم ويغشونهم ويعاشرونهم ، وكانوا معهم أمواتاً ، ويعطون النور جميعاً يوم القيامة ، ويطلقوا النور من المنافقين إذا بلغوا السور ، ويماز بينهم حيثئذ . وهذا القول من المؤمنين لا ينافى قولهم الذى أخبر الله به عنهم ، حيث يقول وهو أصدق القائلين : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ . فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ الْمُجْرِمِينَ . مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ . وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ . وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّى آتَانَا الْيَقِينَ ﴾ [المدثر: ٣٨ - ٤٧] ، فهذا إنما خرج منهم على وجه التقرير لهم والتوبيخ . ثم قال تعالى : ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر: ٤٨] ، كما قال تعالى ها هنا : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدى به من عذاب الله ، ما قبل منه .

وقوله : ﴿ مَاوَأَكُمُ النَّارُ ﴾ أى : هى مصيركم وإليها منقلبكم ﴿ هِيَ مَوْلَاكُمْ ﴾ أى : هى أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم ، وبئس المصير .

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (١٦)

﴿ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١٧)

يقول الله تعالى : أما أن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله ، أى : تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن ، فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه . عن ابن عباس أنه قال: إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن ، فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ

أَمْوَأ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لَذِكْرِ اللَّهِ ﴿ الآية ، رواه ابن أبي حاتم ، ثم روى هو ومسلم عن ابن مسعود ، رضى الله عنه ، قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لَذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الآية إلا أربع سنين (١) .

وقوله : ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ : نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى ، لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذى بأيديهم ، واشتروا به ثمناً قليلاً ، وبذوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المتفككة ، وقلدوا الرجال فى دين الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، فعند ذلك قست قلوبهم ، فلا يقبلون موعظة ، ولا تلين قلوبهم بوعده ولا وعيد . ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أى : فى الأعمال ، فقلوبهم فاسدة ، وأعمالهم باطلة . كما قال : ﴿ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [المائدة : ١٣] ، أى : فسدت قلوبهم فقست وصار من سجيئتهم تحريف الكلم عن مواضعه ، وتركوا الأعمال التى أمروا بها ، وارتكبوا مانهو عنه ؛ ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم فى شىء من الأمور الأصلية والفرعية .

وقوله : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ : فيه إشارة إلى أنه ، تعالى ، يلين القلوب بعد قسوتها ، ويهدى الحيارى بعد ضلكتها ، ويفرّج الكرب بعد شدتها ، فكما يحيى الأرض الميتة المجذبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل ، كذلك يهدى القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل ، ويولج إليها النور بعد ما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل ، فسبحان الهادى لمن يشاء بعد الإضلال ، والمضل لمن أراد بعد الكمال ، الذى هو لما يشاء فعال ، وهو الحكم العدل فى جميع الفعال ، اللطيف الخبير الكبير المتعال .

﴿ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّاهِدَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عما يثيب به المؤمن والمؤمنات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة ، ﴿ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ أى : دفعوه بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله ، لا يريدون جزاء ممن أعطوه ولا شكوراً ؛ ولهذا قال : ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ أى : يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها ، ويزداد على ذلك إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك ، ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أى : ثواب جزيل حسن ، ومرجع صالح ومآب حسن .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ : هذا تمام الجملة ، وصف المؤمنين

بالله ورسله بأنهم صديقون. قال ابن عباس قوله: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ : هذه مفصلة ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ . وقال أبو الضحى: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ ثم استأنف الكلام فقال: ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ . وهكذا قال مسروق ، والضحاك ، ومقاتل بن حيان ، وغيرهم . وقال الأعمش عن أبي الضحى ، عن مسروق ، عن عبد الله فى قوله: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ قال: هم ثلاثة أصناف : يعنى المصدقين ، والصدّيقين ، والشهداء ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ [النساء: ٦٩] ، ففرق بين الصدّيقين والشهداء ، فدل على أنهما صنفان . ولا شك أن الصديق أعلى مقاماً من الشهيد ، كما رواه الإمام مالك بن أنس عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم ، كما تراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم » . قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: « بلى ، والذى نفسى بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » . اتفق البخارى ومسلم على إخراجهم (١) . وقال آخرون : بل المراد من قوله: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ فأخبر عن المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون وشهداء . حكاه ابن جرير عن مجاهد .

وقال عمرو بن ميمون فى قوله: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ قال : يجيئون يوم القيامة معاً كالإصبعين .

وقوله : ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أى : فى جنات النعيم ، كما جاء فى الصحيحين : « إن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع عليهم ربك اطلاعاً فقال: ماذا تريدون ؟ فقالوا : نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فىك فنقتل كما قُتلنا أول مرة . فقال : إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون » (٢) . وقوله: ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ أى : لهم عند ربهم أجر جليل ونور عظيم يسعى بين أيديهم ، وهم فى ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا فى الدار الدنيا من الأعمال .

كما روى الإمام أحمد عن أبى يزيد الخولانى قال : سمعت فضالة بن عبيد يقول : سمعت عمر بن الخطاب يقول : سمعت النبى ﷺ يقول : « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان ، لقى العدو فصدق الله فقتل ، فذلك الذى ينظر الناس إليه هكذا - ورفع رأسه حتى سقطت قَلَنْسُوة رسول الله ﷺ أو قَلَنْسُوة عمر - والثانى مؤمن لقى العدو فكأنما يضرب ظهره بشوك الطلح ، جاءه سهم غرّب فقتله ، فذاك فى الدرجة الثانية ، والثالث رجل مؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً لقى العدو فصدق الله حتى قتل ، فذاك فى الدرجة الثالثة ، والرابع رجل مؤمن أسرف

(١) لم أعثر عليه فى الموطأ ورواه البخارى (٣٢٥٦) ومسلم (٢٨٣١ / ١١) .

(٢) مسلم (١٨٨٧ / ١٢١) ولم يعزه صاحب التحفة (١٤٥ / ٧) للبخارى .

على نفسه إسرافاً كثيراً، لقي العدو فصدق الله حتى قتل ، فذاك في الدرجة الرابعة » (١) .
 وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ : لما ذكر السعداء ومآلهم ، عطف
 بذكر الأشقياء وبين حالهم .

﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ فِي الْأَمْوَالِ
 وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ
 عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ
 مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ
 ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾

يقول تعالى مؤهناً أمر الحياة الدنيا ومحقرأ لها : ﴿ أَمَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ
 بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ أى : إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا ، كما قال : ﴿ زِينٌ لِلنَّاسِ
 حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ
 مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران: ١٤] . ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها
 زهرة فانية ونعمة زائلة فقال : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ وهو : المطر الذى يأتى بعد قنوط الناس ، كما قال :
 ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَطَوْا ﴾ [الشورى: ٢٨] .

وقوله : ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ أى : يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذى نبت بالغيث ؛
 وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار ، فإنهم أحرص شىء عليها وأميل
 الناس إليها ، ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ أى : يهيج ذلك الزرع فتراه مصفراً بعد ما
 كان خضراً نضراً ، ثم يكون بعد ذلك كله حطاماً ، أى : يصير يبساً متحطماً ، هكذا الحياة
 الدنيا تكون أولاً شابة ، ثم تكتهل ، ثم تكون عجوزاً شوهاء ، والإنسان كذلك يكون فى أول
 عمره وعنفوان شبابه غضباً طرياً لين الأعطاف ، بهى المنظر ، ثم إنه يشرع فى الكهولة فتتغير
 طباعه ويفقد بعض قواه ، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ، ضعيف القوى ، قليل الحركة ، يعجزه
 الشىء اليسير ، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ
 بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ [الروم: ٥٤] . ولما كان هذا المثل دالاً على زوال
 الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة ، وأن الآخرة كائنة لا محالة ، حذّر من أمرها ورغب فيما
 فيها من الخير ، فقال : ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾
 أى : وليس فى الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا : إما عذاب شديد ، وإما مغفرة من
 الله ورضوان .

(١) المسند (١٥٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده حسن » .

وقوله : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ أى : هى متاع فان غار لمن ركن إليه ، فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها ، وهى حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة . روى ابن جرير : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها » . اقرؤوا : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ . وهذا الحديث ثابت فى الصحيح بدون هذه الزيادة (١) ، والله أعلم . وروى الإمام أحمد عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لَلْجَنَّةِ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرْكَ نَعْلِهِ ، وَالنَّارِ مِثْلُ ذَلِكَ » . انفراد بإخراجه البخارى (٢) . ففى هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان ، وإذا كان الأمر كذلك ؛ فلهذا حثه الله على المبادرة إلى الخيرات ، من فعل الطاعات ، وترك المحرمات ، التى تكفر عنه الذنوب والزلات ، وتحصل له الثواب والدرجات ، فقال تعالى : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ والمراد جنس السماء والأرض ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١١٣٣] . وقال هاهنا : ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ أى : هذا الذى أهلهم الله له هو من فضله ومنه عليهم وإحسانه إليهم ، كما قدّمنا فى الصحيح : أن فقراء المهاجرين قالوا : يارسول الله ، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم . قال : « وما ذاك ؟ » . قالوا : يُصَلُّونَ كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويُعْتَقُونَ ولا نُعْتَقُ . قال : « أفلا أدلكم على شىء إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم : تسبحون وتكبرون وتحمدون دُبُرَ كل صلاة ثلاثاً وثلاثين » . قال : فرجعوا فقالوا : سمع إخواننا أهل الاموال ما فعلنا ، ففعلوا مثله ! فقال رسول الله ﷺ : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » (٣) .

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٣﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِأَمْوَالِهِمُ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٤﴾ ﴾

يخبر تعالى عن قدره السابق فى خلقه قبل أن يبرأ البرية ، فقال : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ أى : فى الآفاق وفى نفوسكم ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ أى : من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة . وقال بعضهم : ﴿ من قبل أن نبرأها ﴾ عائد على النفوس . وقيل : عائد على المصيبة . والأحسن عوده على الخليقة والبرية ؛ لدلالة الكلام عليها ، وقال

(١) ابن جرير فى التفسير (١٣٤/٢٧) والبخارى (٦٤١٥) .

(٢) المسند (٣٦٦٧) والبخارى (٦٤٨٨) .

(٣) البخارى (٨٤٣) رمسلم (٥٩٥ / ١٤٢) .

قتادة : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال : هي السنون . يعنى : الجَدْبُ ، ﴿ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ يقول : الأوجاع والأمراض . قال : وبلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود ولا نكبة قدم ، ولا خلجان عرق إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر . وهذه الآية الكريمة من أدل دليل على القَدْرِيَّة نُفَاة العلم السابق - قبهم الله - وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قَدَّرَ اللهُ الْمَقَادِيرَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » . ورواه مسلم : « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » . ورواه الترمذى وقال : حسن صحيح (١) . وقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ أى : إن علمه تعالى الأشياء قبل كونها وكتابتها لها طبق ما يوجد فى حينها ، سهل على الله ، عز وجل ؛ لأنه يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

وقوله : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أى : أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها ، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها ، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم ، وما أخطاكم لم يكن ليصيبكم ، فلا تأسوا على ما فاتكم ، لأنه لو قدر شئ لكان ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أى : جاءكم ، وقرأ : « آتَاكُمْ » أى : أعطاكم . وكلاهما متلازمان ، أى : لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم ، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم ، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم ، فلا تتخذوا نعم الله أشراً وبطراً ، تفخرون بها على الناس ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أى : مختال فى نفسه متكبر فخور ، أى : على غيره . وقال عكرمة : ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً .

ثم قال : ﴿ الَّذِينَ يَخْلُونِ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ أى : يفعلون المنكر ويحضون الناس عليه ، ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ أى : عن أمر الله وطاعته ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ كما قال موسى عليه السلام : ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٨] .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (١٥)

يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى : بالمعجزات ، والحجج الباهرات ، والدلائل القاطعات ، ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ وهو : النقل الصدق ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ وهو : العدل . قاله مجاهد ، وقاتدة ، وغيرهما . وهو الحق الذى تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للأراء السقيمة ، كما قال : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ [هود : ١٧] ، وقال : ﴿ فَطَرَتِ اللَّهُ التِّي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم : ٣٠] ، وقال : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن : ٧] ؛ ولهذا قال فى هذه

الآية : ﴿ لَيَقَوْمُ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ أى : بالحق والعدل وهو : اتباع الرسل فيما أخبروا به ، وطاعتهم فيما أمروا به ، فإن الذى جاؤوا به هو الحق الذى ليس وراءه حق ، كما قال : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ (١) رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥] أى : صدقاً فى الإخبار ، وعدلاً فى الأوامر والنواهي . ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوؤوا غرف الجنات ، والمنازل العاليات ، والسرر المصفوفات : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا مِنَّا بِالْحَقِّ ﴾ [الاعراف: ٤٣] .

وقوله : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ أى : وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه ؛ ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية ، وكلها جدال مع المشركين ، وبيان وإيضاح للتوحيد ، وتبيان ودلائل ، فلما قامت الحجة على من خالف ، شرع الله الهجرة ، وأمرهم بالقتال بالسيوف ، وضرب الرقاب والهوام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده . وقد روى الإمام أحمد وأبو داود عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « بُعِثْتُ بِالسِّيفِ بَيْنَ يَدَيَّ السَّاعَةِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي ، وَجُعِلَ الذَّلَّةُ وَالصُّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي ، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ » (٢) . ولهذا قال تعالى : ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ يعنى : السلاح كالسيوف ، والحراب ، والسنان ، والنصال ، واليدروع ، ونحوها ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ أى : فى معاشهم كالسكة والفأس والقدوم ، والمنشار ، والإزميل ، والمجرقة ، والآلات التى يستعان بها فى الحراثة والحياكة والطبخ والحزب وما لا قوام للناس بدونه ، وغير ذلك .

وقوله : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ أى : من نيته فى حمل السلاح نصره الله ورسله ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أى : هو قوى عزيز ، ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس ، وإنما شرع الجهاد ليلو بعضهم ببعض .

﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِثْمُ مِثْمُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسْتَفْتَوْا ﴿١١﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسْتَفْتَوْا ﴿١٢﴾ ﴾

يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً ، عليه السلام ، لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته ، وكذلك إبراهيم ، عليه السلام ، خليل الرحمن ، لم ينزل من السماء كتاباً ولا أرسل رسولاً ولا أوحى إلى بشر من بعده ، إلا وهو من سلالته ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي

(١) هى قراءة كما مضى بيانه .

(٢) المسند (٥١١٤ ، ٥١١٥) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (٤٠٣١) .

ذُرِّيَّتَهُمَا النَّبُوءَ وَالْكِتَابَ ﴿ حتى كان آخر أنبياء بنى إسرائيل عيسى ابن مريم الذى بشر بعده بمحمد، صلوات الله وسلامه عليهما ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ ﴾ وهو الكتاب الذى أوحاه الله إليه ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ وهم الحواريون ﴿ رَافَةَ وَرَحْمَةَ ﴾ أى : رافة وهى الخشية ﴿ وَرَحْمَةَ ﴾ بالخلق . وقوله : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾ أى : ابتدعها أمة النصارى ﴿ مَا كَتَبْنَا عَلَيْهَا ﴾ أى : ما شرعناها لهم ، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم .

وقوله : ﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ فيه قولان ، أحدهما : أنهم قصدوا بذلك رضوان الله ، قاله سعيد بن جبير ، وقتادة . والآخر : ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله .

وقوله : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَابَتِهَا ﴾ أى : فما قاموا بما التزموه حق القيام . وهذا ذم لهم من وجهين ، أحدهما : الابتداع فى دين الله مالم يأمر به الله . والثانى : فى عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله ، عز وجل . روى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى ، أن رجلاً جاءه فقال : أوصنى . فقال : سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك ، أوصيك بتقوى الله ، فإنه رأس كل شىء ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن ، فإنه روحك فى السماء وذكرك فى الأرض . تفرد به أحمد (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ إِنْ لَمْ يَعْلَمْ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَفْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

عن ابن عباس : أنه حمل هذه الآية على مؤمنى أهل الكتاب ، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين كما فى الآية التى فى القصص (٢) ، وكما فى حديث عن أبى موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق موآليه فله أجران ، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران » . أخرجاه فى الصحيحين . ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاك ، وعتبة بن أبى حكيم ، وغيرهما ، وهو اختيار ابن جرير . وقال سعيد بن جبير : لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله هذه الآية فى حق هذه الأمة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى : ضعفين ، وزادهم : ﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ يعنى : هدى يتبصر به من العمى والجهالة ، ويغفر لكم . فضلهم بالنور والمغفرة .

(١) المسند (٢٨/٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (٢١٥/٤) : « رجال أحمد ثقات » .

(٢) وهى رقم (٥٤) .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩]. وقال سعيد بن عبد العزيز: سأل عمر بن الخطاب حبراً من أحبار يهود: كم أفضل ما ضعفت لكم حسنة؟ قال: كفل ثلاثمائة وخمسون حسنة. قال: فحمد الله عمر على أنه أعطانا كفلين. [ثم] ذكر سعيد قول الله، عز وجل: ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ قال سعيد: والكفلان في الجمعة مثل ذلك. رواه ابن جرير (١). ومما يؤيد هذا القول ما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً، فقال: من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ ألا فعملت اليهود. ثم قال: من يعمل لى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ ألا فعملت النصارى. ثم قال: من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذى عملتم. فغضبت النصارى واليهود، وقالوا: نحن أكثر عمالاً وأقل عطاء. قال: هل ظلمتكم من أجركم شيئاً؟ قالوا: لا. قال: فإنما هو فضلى أوتيه من أشياء». انفراد بإخراجه البخارى (٢).

وروى البخارى عن أبى موسى، عن النبى ﷺ قال: «مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً يوماً إلى الليل على أجر معلوم، فعملوا إلى نصف النهار فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذى شرطت لنا، وما عملنا باطل. فقال لهم: لا تفعلوا، أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا وتركوا، واستأجر آخرين بعدهم فقال: أكملوا بقية يومكم ولكم الذى شرطت لهم من الأجر، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر قالوا: ما عملنا باطل، ولك الأجر الذى جعلت لنا فيه. فقال: أكملوا بقية عملكم؛ فإن ما بقى من النهار شيء يسير. فأبوا، فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، فاستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور» انفراد به البخارى (٣).

ولهذا قال تعالى ﴿ لَيْسَ لِمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ يُقَدِّرُوا عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ أى: ليتحققوا أنهم لا يقدرون على ردّ ما أعطاه الله ولا إعطاء ما منع الله، ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

(٢) المسند (٥٩٠٢) والبخارى (٢٢٦٨).

(١) ابن جرير فى التفسير (١٤١/٢٧).

(٣) البخارى (٣٤٥٩).

تفسير سورة المجادلة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾

الجزء
٢٨

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا فى ناحية البيت ، ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ إلى آخر الآية . وهكذا رواه البخارى . وأخرجه النسائى ، وابن ماجه ، وابن جرير . وفى رواية : أنها قالت : تبارك الذى أوعى سمعه كل شيء ، إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى على بعضه ، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وهى تقول : يا رسول الله ، أكل شبابى ، ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبرت سنّى ، وانقطع ولدى ، ظاهراً منى ، اللهم إنى أشكو إليك . قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ (١) . وقال عروة : وكان أوس امرأ به لم ، فكان إذا أخذه لممه واشتد به يظهر من امرأته ، وإذا ذهب لم يقل شيئاً . فأتت رسول الله تستفتيه فى ذلك ، وتشتكى إلى الله ، فأنزل الله : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ الآية .

﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكَ نُوعُظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢﴾

روى الإمام أحمد عن خولة بنت ثعلبة قالت : فى - والله - وفى أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة « المجادلة » ، قالت : كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه ، قالت : فدخل على يوماً فراجعت به بشيء فغضب فقال : أنت على كظهر أمى . قالت : ثم خرج فجلس فى

(١) مضى تخريجه عند الآية (١٠) من سورة الرعد .

نادى قومه ساعة ، ثم دخل عليّ فإذا هو يريدني عن نفسي . قالت : قلت : كلا ، والذي نفس خويلة بيده ، لا تخلص إليّ وقد قلت ما قلت ، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه . قالت : فوائبني وامتنعت منه ، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فآلقته عني ، قالت : ثم خرجتُ إلى بعض جاراتي ، فاستعرتُ منها ثياباً ، ثم خرجتُ حتى جئتُ رسول الله ﷺ ، فجلستُ بين يديه ، فذكرتُ له ما لقيتُ منه ، وجعلتُ أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه . قالت : فجعل رسول الله ﷺ يقول : « ياخويلة ، ابنُ عمك شيخ كبير ، فاتقى الله فيه » . قالت : فوالله ما برحت حتى نزل في القرآن ، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ، ثم سرّى عنه ، فقال لي : « يا خويلة ، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك » . ثم قرأ عليّ : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ سَمِعَ بِصِيرٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، قالت : فقال لي رسول الله ﷺ : « مُرِيهِ فليعتق رقبة » . قالت : فقلت : يا رسول الله ، ما عنده ما يعتق . قال : « فليصم شهرين متتابعين » . قالت : فقلت : والله إنه شيخ كبير ، ما به من صيام . قال : « فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر » . قالت : فقلت : يا رسول الله ، ما ذاك عنده . قالت : فقال رسول الله ﷺ : « فإننا سنعيه بعرق من تمر » . قالت : فقلت : يا رسول الله ، وأنا سأعيه بعرق آخر ، قال : « فقد أصبت وأحسنّت ، فاذهبي فتصدقِي به عنه ، ثم استوصي بابن عمك خيراً » . قالت : ففعلت . ورواه أبو داود (١) وعنده : خولة بنت ثعلبة ، ويقال فيها : خولة بنت مالك بن ثعلبة . وقد تصغر فيقال : خَوَيْلَة . ولا منافاة بين هذه الأقوال ، فالأمر فيها قريب ، والله أعلم .

هذا هو الصحيح في سبب نزول صدر هذه السورة ، فأما حديث سلمة بن صخر فليس فيه أنه كان سبب النزول ، ولكن أمر بما أنزل الله في هذه السورة ، من العتق أو الصيام ، أو الإطعام ، كما روى الإمام أحمد عن سلمة بن صخر الأنصاري قال : كنتُ امرأة قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري ، فلما دخل رمضان تظهرت من امرأتى حتى ينسلخ رمضان ، فرقاً من أن أصيب في ليلتي شيئاً فاتابع في ذلك إلى أن يدركني النهار ، وأنا لا أقدر أن أنزع ، فبينما هي تخدمني من الليل إذ تكشف لي منها شيء ، فوثبت عليها ، فلما أصبحتُ غدوتُ على قومي فأخبرتهم خبري وقلت : انطلقوا معي إلى النبي ﷺ فأخبره بأمرى . فقالوا : لا ، والله لا نفع ؛ نتخوف أن ينزل فينا أو يقول فينا رسول الله ﷺ - مقالة يبقى علينا عارها ، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك . قال : فخرجتُ حتى أتيت النبي ﷺ ، فأخبرته خبري . فقال لي : « أنت بذاك » . فقلت : أنا بذاك . فقال : « أنت بذاك » . فقلت : أنا بذاك . فقال : « أنت بذاك » . فقلت : أنا بذاك . قال « أنت بذاك » قلت : نعم ، ها أناذا فامض في حكم الله تعالى ، فإنني صابر له . قال : « أعتق رقبة » . قال : فضربت صفحة رقبتى بيدي وقلت : لا ، والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها . قال : « فصم شهرين » . قلت : يا رسول الله ، وهل أصابني ما أصابني

(١) المسند (٦/٤١٠) وأبو داود (٢٢١٤ ، ٢٢١٥) ، وقال الألباني : « حسن دون قوله : « والعرق » .

إلا فى الصيام ؟ قال : « فتصدق » . فقلت : والذى بعثك بالحق ، لقد بتنا ليلتنا هذه وحشَى مالنا عشاء . قال : « اذهب إلى صاحب صدقة بنى زُرَيْق فقل له فليدفعها إليك ، فأطعم عنك منها وسقاً من تمر ستين مسكيناً ، ثم استعن بسائره عليك وعلى عيالك » . قال : فرجعت إلى قومي فقلت : وجدت عندكم الضيقَ وسوءَ الرأى ، ووجدت عند رسول الله ﷺ السَّعةَ والبركةَ ، قد أمر لى بصدقتكم ، فادفعوها إلى . فدفعوها إلى . وهكذا رواه أبو داود ، وابن ماجه ، واختصره الترمذى وحسنه (١) . وظاهر السياق : أن هذه القصة كانت بعد قصة أوس بن الصامت وزوجته خُوَيْلة بنت ثعلبة ، كما دلَّ عليه سياق تلك وهذه بعد التأمل .

فقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنكُمْ مِّن نِّسَائِهِمْ ﴾ أصل الظهار مشتق من الظهر ، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا تظاهر أحد من امرأته قال لها : أنت على كظهرِ أمى ، ثم فى الشرع كان الظهار فى سائر الأعضاء قياساً على الظهر ، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً ، فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيه كفارة ، ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه فى جاهليتهم . هكذا قال غير واحد من السلف . وقد استدل الإمام مالك على أن الكافر لا يدخل فى هذه الآية بقوله : ﴿ مِنكُمْ ﴾ فالخطاب للمؤمنين ، وأجاب الجمهور بأن هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له ، واستدل الجمهور عليه بقوله : ﴿ مِّن نِّسَائِهِمْ ﴾ على أن الأمة لاظهار منها ، ولا تدخل فى هذا الخطاب .

وقوله : ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ﴾ أى : لا تصير المرأة بقول الرجل : « أنت على كأمى » أو « مثل أمى » أو « كظهر أمى » ، وما أشبه ذلك ، لا تصير أمه بذلك ، إنما أمه التى ولدتها ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ أى : كلاماً فاحشاً باطلاً ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴾ أى : عما كان منكماً فى حال الجاهلية . وهكذا أيضاً عما خرج من سبق اللسان ، ولم يقصد إليه المتكلم .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ : اختلف السلف والأئمة فى المراد بقوله : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ فقال بعض الناس : العود هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرره ، وهذا القول باطل ، وهو اختيار ابن حزم . وقال الشافعى : هو أن يمسكها بعد الظهار زماناً يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق . وقال أحمد بن حنبل : هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا يحل له حتى يكفر بهذه الكفارة .

وقد حكى عن مالك : أنه العزم على الجماع والإمساك ، وعنه أنه الجماع . وقال أبو حنيفة : هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه ، ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية ، فمتى تظاهر الرجل من امرأته فقد حرمها تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة . وإليه ذهب أصحابه ، والليث بن سعد . عن سعيد بن جبيرة : ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا ﴾ يعنى : يريدون أن يعودوا فى الجماع الذى

(١) المسند (٣٧/٤) وأبو داود (٢٢١٣) وابن ماجه (٢٠٢) والترمذى (٣٢٩٩) .

حرموه على أنفسهم . وقال الحسن البصرى : يعنى الغشيان فى الفرج . وكان لا يرى بأساً أن يغشى فيما دون الفرج قبل أن يكفر . وقال ابن عباس : ﴿ مَن قَبِلَ أَنْ يَتَمَاسًا ﴾ والمس : النكاح . وكذا قال عطاء ، والزهرى ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان . وقال الزهرى : ليس له أن يقبلها ولا يمسه حتى يكفر . وقد روى أهل السنن عن ابن عباس أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إنى ظهرت من امرأتى فوقعت عليها قبل أن أكفر . فقال : « ما حملك على هذا يرحمك الله ؟ » . قال : رأيت خلخالها فى ضوء القمر . قال : « فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله ، عز وجل » . وقال الترمذى : حسن غريب صحيح (١) . ورواه أبو داود والنسائى من حديث عكرمة مرسلأ . قال النسائى : وهو أولى بالصواب (٢) .

وقوله : ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أى : فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتماسا ، فهانئا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان ، وفى كفارة القتل مقيدة بالإيمان ، فحمل الشافعى ما أطلق هانئا على ما قيد هناك لاتحاد الموجب ، وهو عتق الرقبة ، واعتضد فى ذلك بما رواه عن مالك بسنده ، عن معاوية بن الحكم السلمى ، فى قصة الجارية السوداء ، وأن رسول الله ﷺ قال : « أعتقها فإنها مؤمنة » . وقد رواه أحمد فى مسنده ، ومسلم فى صحيحه (٣) . وقوله : ﴿ ذَلِكُمْ تُوَعِّظُونَ بِهِ ﴾ أى : تزجرون به ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أى : خبير بما يصلحكم ، عليم بأحوالكم .

وقوله : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ : وقد تقدمت الأحاديث الواردة بهذا على الترتيب ، كما ثبت فى الصحيحين فى قصة الذى جامع امرأته فى رمضان ﴿ ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى : شرعنا هذا لهذا .

وقوله : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أى : محارمه فلا تنتهكوها ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : الذين لم يؤمنوا ولا التزموا بأحكام هذه الشريعة ، لا تعتقدوا أنهم ناجون من البلاء ، كلا ، ليس الأمر كما زعموا ، بل لهم عذاب أليم ، أى : فى الدنيا والآخرة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَبُتُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ لِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عن شاقوا الله ورسوله وعاندوا شرعه ﴿ كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى :

(١) أبو داود (٢٢٣) والترمذى (١٩٩٠) .

(٢) أبو داود (٢٢١ ، ٢٢٢) والنسائى (٣٤٥٩) ، وصححه الألبانى .

(٣) الموطأ (٧٧٧/٢) والمسند (٤٤٧/٥) ومسلم (٣٣/٥٣٧) .

أهينوا ولعنوا وأخزوا ، كما فعل بن أشبههم من قبلهم ﴿ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أى : واضحات لا يخالفها ويعاندها إلا كافر فاجر مكابر ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ أى : فى مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع الله ، والالتقياد له ، والخضوع لديه . ثم قال : ﴿ يَوْمَ يَعْتَبُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ وذلك يوم القيامة ، يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ﴿ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى : فيخبرهم بالذى صنعوا من خير وشر ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ أى : ضبطه الله وحفظه عليهم ، وهم قد نسوا ما كانوا عليه ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى : لا يغيب عنه شيء ، ولا يخفى ولا ينسى شيئاً .

ثم قال تعالى مخبراً عن إحاطة علمه بخلقه واطلاعه عليهم ، وسماعه كلامهم ، ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأين كانوا ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ ﴾ أى : من سر ثلاثة ﴿ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ أى : يطلع عليهم ويسمع كلامهم وسرهم ونجواهم ، ورسله أيضاً مع ذلك تكتب ما يتناجون به ، مع علم الله به وسمعه لهم ، كما قال : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [التوبة : ٧٨] . وقال : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٠] ؛ ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علم الله تعالى ، ولا شك فى إرادة ذلك ولكن سمعه أيضاً مع علمه محيط بهم ، وبصره نافذ فيهم ، فهو ، سبحانه ، مطلع على خلقه ، لا يغيب عنه من أمورهم شيء . ثم قال : ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ قال الإمام أحمد : افتتح الآية بالعلم ، واختتمها بالعلم .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْنَا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءَكَ بِمَا لَمْ يَحِمْكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنسَوْنَ الْمَصِيرَ ﴿٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالْتَّقْوَىٰ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

قال مجاهد : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَىٰ ﴾ قال : اليهود . وكذا قال مقاتل بن حيان ، وزاد : كان بين النبي ﷺ وبين اليهود مودعة ، وكانوا إذا مر بهم رجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم ، حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله - أو : بما يكره المؤمن - فإذا رأى المؤمن ذلك خشيم ، فترك طريقه عليهم . فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى ، فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى ، فأنزل الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْنَا عَنْهُ ﴾ . وقوله : ﴿ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ أى : يتحدثون فيما بينهم بالإثم ، وهو ما يختص

بهم ، والعدوان ، وهو ما يتعلق بغيرهم ، ومنه معصية الرسول ومخالفته ، يُصِرُونَ عليها ويتواصون بها .

وقوله : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ : عن عائشة قالت : دخل على رسول الله ﷺ يهود فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم . فقالت عائشة : وعليكم السام . قالت : فقال رسول الله ﷺ : « يا عائشة ، إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش » . قلت : ألا تسمعهم يقولون : السام عليك ؟ فقال رسول الله : « أو ما سمعت أقول : وعليكم ؟ » . فأنزل الله : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ (١) . وفى رواية فى الصحيح أنها قالت لهم : عليكم السام والذام واللعنة . وأن رسول الله ﷺ قال : « إنه يستجاب لنا فيه ، ولا يستجاب لهم فينا » (٢) . وروى ابن جرير : عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس مع أصحابه ، إذ أتى عليهم يهودى فسلم عليهم ، فردوا عليه ، فقال نبي الله ﷺ : « هل تدرون ما قال ؟ » . قالوا : سلم يا رسول الله . قال : « بل قال : سام عليكم ، أى : تسامون دينكم » . قال رسول الله : « ردوه » . فردوه عليه . فقال نبي الله : « أقلت : سام عليكم ؟ » . قال : نعم . فقال رسول الله ﷺ : « إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا : عليك » أى : عليك ما قلت . وأصل حديث أنس مخرج فى الصحيح ، وهذا الحديث فى الصحيح عن عائشة ، بنحوه (٣) .

وقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ أى : يفعلون هذا ، ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام ، وإنما هو شتم فى الباطن ، ومع هذا يقولون فى أنفسهم : لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له فى الباطن ؛ لأن الله يعلم ما نسره ، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة فى الدنيا ، فقال الله تعالى : ﴿ حَسِبُهُمْ جَهَنَّمَ ﴾ أى : جهنم كفاتهم فى الدار الآخرة ﴿ يَصَلُونَهَا فِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ . وروى الإمام أحمد : عن عبد الله بن عمرو ؛ أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ : سام عليك ، ثم يقولون فى أنفسهم : ﴿ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ ؟ ، فنزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسِبُهُمْ جَهَنَّمَ يَصَلُونَهَا فِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ إسناده حسن ولم يخرجوه (٤) .

ثم قال الله مؤدباً عبادة المؤمنين ألا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ أى : كما يتناجى به الجهلة من كفره أهل الكتاب ومن مآلهم على ضلالهم من المنافقين ، ﴿ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أى : فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التى قد أحصاها عليكم ، وسيجزىكم بها . وروى الإمام أحمد : عن صفوان بن محرز قال : كنت آخذاً بيد ابن عمر ، إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله

(١) مسلم (٢١٦٥ / ١٠) . (٢) البخارى (٦٠٣٠) . ومسلم (٢١٦٦ / ١٢) .

(٣) ابن جرير فى التفسير (٢٧ / ١١) . ومسلم (٦ / ٢١٦٣) .

(٤) المسند (٦٥٨٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

ﷺ يقول : « إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستتره من الناس ، ويقرره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرّره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك ، قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يُعْطَى كتابَ حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين » . أخرجاه في الصحيحين (١) .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أى : إنما النجوى - وهى المسارة - حيث يتوهم مؤمن بها سوءاً ﴿ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يعنى : إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه ، ﴿ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى : ليسوءهم ، وليس ذلك بضارهم شيئاً إلا بإذن الله ، ومن أحسن من ذلك شيئاً فليستعد بالله وليتوكل على الله ، فإنه لا يضره شيء بإذن الله . وقد وردت السنة بالنهى عن التناجى حيث يكون فى ذلك تأذ على مؤمن ، كما روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما ، فإن ذلك يحزنه » . أخرجاه (٢) . وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه ؛ فإن ذلك يحزنه » . انفراد بإخراجه مسلم (٣) .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ فَفَسَحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

يقول تعالى مؤدباً عباده المؤمنين ، وأمرأ لهم أن يحسن بعضهم إلى بعض فى المجالس : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ فَفَسَحُوا فِي الْمَجَالِسِ ﴾ وقرئ : « فى المجالس » ، ﴿ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ وذلك أن الجزء من جنس العمل ، كما جاء فى الحديث الصحيح : « من بتى لله مسجداً بنى الله له بيتاً فى الجنة » (٤) وفى الحديث الآخر : « ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » (٥) . ولهذا أشباه كثيرة ؛ ولهذا قال : ﴿ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ .

قال قتادة : نزلت هذه الآية فى مجالس الذكر ، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلاً ضنوا بمجالسهم عند رسول الله ﷺ ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض . وقد روى الإمام أحمد عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه ،

(١) المسند (٥٤٣٦) والبخارى (٤٦٨٥) ومسلم (٢٧٦٨ / ٥٢) .

(٢) المسند (٤٠٩٣) والبخارى (٦٢٩٠) ومسلم (٢١٨٤ / ٣٧) .

(٣) مسلم (٢١٨٣ / ٣٦) . (٤) البخارى (٤٥٠) ومسلم (٥٣٣ / ٢٤) .

(٥) مسلم (٣٨ / ٢٦٩٩) .

ولكن تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا . وأخرجاه في الصحيحين (١) .

وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال : فمنهم من رخص في ذلك محتجاً بحديث : « قوموا إلى سيدكم » (٢) . ومنهم من منع ذلك محتجاً بحديث : « من أحبَّ أن يَتمثَّلَ له الرجال قياماً ، فَلْيَتَّبِعْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » (٣) ومنهم من فصل فقال : يجوز عند القدوم من سفر ، وللحاكم في محل ولايته ، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ ، فإنه لما استقدمه النبي ﷺ حاكماً في بنى قريظة فرآه مقبلاً قال للمسلمين : « قوموا إلى سيدكم » . وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه ، والله أعلم . فأما اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم . وقد جاء في السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ ، وكان إذا جاء لا يقومون له ، لما يعلمون من كراهته لذلك . وفي الحديث المروى في السنن : أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس ، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس ، وكان الصحابة يجلسون منه على مراتبهم ، فالصديق يجلسه عن يمينه ، وعمر عن يساره ، وبين يديه غالباً عثمان وعلى ؛ لانهما كانا ممن يكتب الوحى ، وكان يأمرهم بذلك ، كما رواه مسلم عن أبى مسعود ، أن رسول الله ﷺ كان يقول : « لِيَلِينِي مِنْكُمْ أَوْلُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ » (٤) . وما ذاك إلا ليعقلوا عنه ما يقوله ، صلوات الله وسلامه عليه . وروى الإمام أحمد : عن أبى مسعود قال : كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا فى الصلاة ويقول : « استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، ليليني منكم أولو الأحلام والنهى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » . قال أبو مسعود : فأنتم اليوم أشد اختلافاً . وكذا رواه مسلم وأهل السنن ، إلا الترمذى (٥) .

وإذا كان هذا أمره لهم فى الصلاة أن يليه العقلاء ثم العلماء ، فبطريق الأولى أن يكون ذلك فى غير الصلاة . ولهذا كان أبى بن كعب - سيد القراء - إذا انتهى إلى الصف الأول انتزع منه رجلاً يكون من أفناء الناس ، ويدخل هو فى الصف المقدم ، ويحتج بهذا الحديث : « ليليني منكم أولو الأحلام والنهى » . وأما عبد الله بن عمر فكان لا يجلس فى المكان الذى يقوم له صاحبه عنه ، عملاً بمقتضى ما تقدم من روايته الحديث الذى أوردناه . ولتقتصر على هذا المقدار من الأمثلة المتعلقة بهذه الآية ، وإلا فبسطه يحتاج إلى غير هذا الموضع ، وفى الحديث الصحيح : بينا رسول الله ﷺ جالس ، إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأما أحدهم فوجد فرجة فى الحلقة فدخل فيها ، وأما الآخر فجلس وراء الناس ، وأدبر الثالث ذاهباً . فقال رسول الله ﷺ : « ألا

(١) المسند (٤٧٣٥) والبخارى (٦٢٦٩) ، ومسلم (٢١٧٧/٢٨) .

(٢) البخارى (٣٠٤٣) ومسلم (١٧٦٨/٦٤) .

(٣) أبو داود (٥٢٢٩) والترمذى (٢٧٦٦) وقال : « إسناده حسن » .

(٤) مسلم (٤٣٢/١٢٢) .

(٥) المسند (١٢٢/٤) ومسلم (١٢٢/٤٣٢) وأبو داود (٦٧٤) وابن ماجه (٩٧٦) .

أنبئكم بخبر الثلاثة، أما الأول فأوى إلى الله فأواه الله ، وأما الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه» (١) . وروى الإمام أحمد : عن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما » . ورواه أبو داود والترمذى . وحسنه الترمذى (٢) .

وقوله : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أى : لا تعتقدوا أنه إذا فسح أحد منكم لأخيه إذا أقبل ، أو إذا أمر بالخروج فخرج ، أن يكون ذلك نقصاً فى حقه ، بل هو رفعة ومزية عند الله ، والله تعالى لا يضع ذلك له ، بل يجزيه بها فى الدنيا والآخرة ، فإن من تواضع لأمر الله رفع الله قدره ، ونشر ذكره ؛ ولهذا قال : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أى : خبير بمن يستحق ذلك وبمن لا يستحقه . وروى الإمام أحمد عن أبى الطفيل عامر بن وائلة ، أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعسفان ، وكان عمر استعمله على مكة ، فقال له عمر : من استخلفت على أهل الوادى ؟ قال : استخلفت عليهم ابن أبزى . قال : وما ابن أبزى ؟ فقال : رجل من موالينا . فقال عمر : استخلفت عليهم مولى ؟ . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه قارئ لكتاب الله ، عالم بالفرائض ، قاض . فقال عمر : أما إن نبيكم ﷺ قد قال : « إن الله يرفع بهذا الكتاب قوماً ويضع به آخرين » . وهكذا رواه مسلم (٣) .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَزَّجْتُمُ الرِّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جَعُونَكُمْ صَدَقَةٌ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرٌ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جَعُونَكُمْ صَدَقَتِ فَإِذ لَّمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يناجى رسول الله ﷺ ، أى : يساره فيما بينه وبينه ، أن يقدم بين يدى ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرٌ ﴾ . ثم قال : ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا ﴾ أى : إلا من عجز عن ذلك لفقره ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . فما أمر بها إلا من قدر عليها .

ثم قال : ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ أى : أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﴿ فَإِذ لَّمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فنسخ وجوب ذلك عنهم . وقد قيل : إنه لم يعمل

(١) البخارى (٦٦) ومسلم (٢١٧٦ / ٢٦) .

(٢) المسند (٦٩٩٩) وقال الشيخ شاکر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (٤٨٤٥) ، والترمذى (٢٧٥٢) .

(٣) المسند (٢٣٢) ومسلم (٢٦٩ / ٨١٧) .

بهذه الآية قبل نسخها سوى على بن أبي طالب، رضى الله عنه . قال مجاهد : نهوا عن مناجاة النبي ﷺ حتى يتصدقوا ، فلم يناجه إلا على بن أبي طالب ، قدم ديناراً صدقة تصدق به ، ثم ناجى النبي ﷺ فسأله عن عشر خصال ، ثم أنزلت الرخصة . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ﴾ إلى ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ : كان المسلمون يقدمون بين يدى النجوى صدقة ، فلما نزلت الزكاة نسخ هذا . وقال قتادة ومقاتل بن حيان : سأل الناس رسول الله ﷺ ، حتى أحفوه بالمسألة ، فقطعهم الله بهذه الآية ، فكان الرجل منهم إذا كانت له الحاجة إلى نبي الله ﷺ فلا يستطيع أن يقضيها حتى يقدم بين يديه صدقة ، فاشتد ذلك عليهم ، فأنزل الله الرخصة بعد ذلك : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ تَغْفِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُمْ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَالِسُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

يقول تعالى منكرأ على المنافقين موالاتهم الكفار فى الباطن ، وهم فى نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ مُدْبِدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٣] . وقال هاهنا : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يعنى : اليهود ، الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم فى الباطن . ثم قال : ﴿ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ أى : هؤلاء المنافقون ، ليسوا فى الحقيقة لا منكم أى المؤمنين ، ولا من الذين يوالونهم وهم اليهود . ثم قال : ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يعنى : المنافقين يحلفون على الكذب وهم عاملون بأنهم كاذبون فيما حلفوا ، وهى اليمين الغموس ، ولا سيما فى مثل حالهم اللعين ، عياداً بالله منه ، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا جاؤوا الرسول حلفوا له بالله أنهم مؤمنون ، وهم فى ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به ؛ لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه ، وإن كان فى نفس الأمر مطابقاً ؛ ولهذا شهد الله بكذبهم فى إيمانهم وشهادتهم لذلك .

ثم قال : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى : أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة ، وهى موالات الكافرين ونصحهم ، ومعاداة المؤمنين وغشهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى : أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، واتفقوا بالإيمان الكاذبة ، فظن كثير من لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاعتز بهم ، فحصل بهذا صد عن سبيل الله لبعض الناس ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ أى : فى مقابلة ما امتنوا

من الحلف باسم الله العظيم في الأيمان الكاذبة الخائفة .

ثم قال : ﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أى : لن يدفع ذلك عنهم بأساً إذا جاءهم ، ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . ثم قال : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ أى : يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا يغادر منهم أحداً ، ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ أى : يحلفون بالله ، عز وجل ، أنهم كانوا على الهدى والاستقامة ، كما كانوا يحلفون للناس في الدنيا ؛ لأن من عاش على شيء مات عليه وبعث عليه ، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس ، فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ أى : حلفهم ذلك لربهم ، عز وجل .

ثم قال منكرأ عليهم حسابانهم : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ فاكد الخبر عنهم بالكذب . عن سعيد بن جبير ؛ أن ابن عباس حدثه : أن النبي ﷺ كان في ظل حجرة من حجّره ، وعنده نفر من المسلمين قد كان يقلص عنهم الظل ، قال : « إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعيني شيطان ، فإذا أتاكم فلا تكلموه » . فجاء رجل أزرق ، فدعاه رسول الله ﷺ فكلمه ، فقال ؛ « علام تشمنى أنت وفلان وفلان ؟ » - نفر دعاهم بأسمائهم - قال : فانطلق الرجل فدعاهم ، فحلفوا له واعتذروا إليه ، قال : فانزل الله ، عز وجل : ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ . رواه الإمام أحمد وابن جرير بنحوه (١) . إسناده جيد ولم يخرجاه .

وحال هؤلاء كما أخبر تعالى عن المشركين حيث يقول : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فَسْتَحْبَبْهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٣ ، ٢٤] . ثم قال : ﴿ اسْتَحْوِذْ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ﴾ أى : استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا الله ، عز وجل ، وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه ؛ ولهذا روى أبو داود عن أبي الدرداء : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من ثلاثة في قرية ولا بدو ، لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان ، فعليك بالجماعة ، فإنما يأكل الذئب القاصية » . قال زائدة : قال السائب : يعني الصلاة في الجماعة (٢) .

ثم قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ﴾ يعنى : الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله . ثم قال : ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْيَانِ ﴾ ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَكُمْ أَنَا وَرَسُولِي إِنَّا اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ﴿ لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾

(١) المسند (٢١٤٧) وقال الشيخ أحمد شاكر « إسناده صحيح » وابن جرير في التفسير (١٧/٢٨) .

(٢) أبو داود (٥٤٧) ، وصححه الألباني .

أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين المحادين لله ورسوله، يعنى: الذى هم فى حدّ والشرع فى حدّ، أى: مجانبون للحق مشاقون له، هم فى ناحية والهدى فى ناحية، ﴿أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ أى: فى الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب، الأذلين فى الدنيا والآخرة. ﴿كَتَبَ اللَّهُ لِأَعْلِينَ أَنَا وَرُسُلِي﴾ أى: قد حكم وكتب فى كتابه الأول وقدره الذى لا يُخَالَفُ ولا يُمَانَعُ، ولا يبدل بأن النصر له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين فى الدنيا والآخرة، وأن العاقبة للمتقين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢] . وقال هاهنا: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لِأَعْلِينَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أى: كتب القوى العزيز أنه الغالب لأعدائه . وهذا قدر محكم وأمر مبرم، أن العاقبة والنصرة للمؤمنين فى الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أى: لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين، كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ الآية [آل عمران: ٢٨] ، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] . وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغيره: أنزلت هذه الآية: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى آخرها فى أبى عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح ، حين قتل أباه يوم بدر ؛ ولهذا قال عمر بن الخطاب حين جعل الأمر شورى بعده فى أولئك الستة: «ولو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته» .

وقيل فى قوله: ﴿لَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾: نزلت فى أبى عبيدة ، قتل أباه يوم بدر ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾: فى الصديق ، هم يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن ، ﴿أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾: فى مصعب بن عمير ، قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾: فى عمر ، قتل قريباً له يومئذ أيضاً، وفى حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ ، والله أعلم . قلت : ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ المسلمين فى أسارى بدر ، فأشار الصديق بأن يفادوا ، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين ، وهم بنو العم والعشيرة ، ولعل الله أن يهديهم . وقال عمر: لا أرى ما رأى يا رسول الله ، هل تمكنى من فلان - قريب لعمر - فأقتله ، وتمكن علياً من عقيل ، وتمكن فلاناً من فلان ، ليعلم الله أنه ليست فى قلوبنا هودة للمشركين ... القصة بكاملها .

وقوله : ﴿ أَوْلَيْكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ أى : من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه ، فهذا ممن كتب الله فى قلبه الإيمان ، أى : كتب له السعادة وقررها فى قلبه وزين الإيمان فى بصيرته . وقال السدى : ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ : جعل فى قلوبهم الإيمان . وقال ابن عباس : ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ أى : قواهم . وقوله : ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ : كل هذا تقدم تفسيره غير مرة . وفى قوله : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ : سر بديع ، وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر فى الله عَوَّضَهُمُ اللَّهُ بِالرِّضَا عَنْهُمْ ، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفوز العظيم ، والفضل العميم . وقوله : ﴿ أَوْلَيْكَ حِزْبُ اللَّهِ ﴾ أى : هؤلاء حزبُ الله ، أى : عباد الله وأهل كرامته ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ : تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرهم فى الدنيا والآخرة ، فى مقابلة ما أخبر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان . ثم قال : ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

تفسير سورة الحشر

وهى مدنية

وكان ابن عباس يقول : سورة بنى النضير . عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : أنزلت فى بنى النضير . رواه البخارى ومسلم (١) . وروى البخارى عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : قل : سورة النضير (٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنزَلَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْرِىَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾

يخبر تعالى أن جميع ما فى السموات وما فى الأرض من شىء يسبح له ويمجده ويقده ، ويصلى له ويوحده ، كقوله تعالى : ﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤] . وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : منيع الجناب ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى قدره وشرعه . وقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعنى : يهود بنى النضير . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والزهرى ، وغير واحد : كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادئهم وأعطاهم عهداً وذمة ، على ألا يقاتلهم ولا يقاتلوه ، فنقضوا العهد الذى كان بينهم وبينه ، فأحل الله بهم بأسه الذى لا يرد ، وأنزل عليهم قضاءه الذى لا يُصد ، فأجلاهم النبى ﷺ ، وأخرجهم من حصونهم الحصينة التى ما طمع فيها المسلمون ، وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله ، فما أغنى عنهم من الله شيئاً ، وجاءهم ما لم يكن ببالهم ، وسيّرهم رسول الله وأجلاهم من المدينة ، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالى الشام ، وهى أرض الحشر والمنشر ، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر . وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إيلهم ، فكانوا يخرّبون ما فى بيوتهم من المنقولات التى يمكن أن تحمل معهم ؛ ولهذا قال : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ

(٢) البخارى (٤٨٨٣) .

(١) البخارى (٤٨٨٢) ومسلم (٣١/٣٣١) .

بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴿١﴾ أى : تفكروا فى عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله ، وكذب كتابه ، كيف يحل به من بأسه المخزى له فى الدنيا ، مع ما يدخره له فى الآخرة من العذاب الأليم .

قال أبو داود : حدثنا محمد بن داود بن سفيان ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهري ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ ، أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي ، ومن كان معه يعبد الأوثان من الأوس والخزرج ، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر : إنكم أويتم أصحابنا ، وإنا نقسم بالله لنقاتلن ، أو لتخرجن ، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا ، حتى نقتل مقاتلتكم ونسبى نساءكم ، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان ، اجتمعوا لقتال النبي ﷺ ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم ، فقال : « لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريد أن تكيدوا به أنفسكم ، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم ؟ » ، فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا ، فبلغ ذلك كفار قريش ، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود : إنكم أهل الحلقة والحصون ، وإنكم لتقاتلن مع أصحابنا أو لنفعلن كذا وكذا ، ولا يحول بيننا وبين خدم نساءكم شيء - وهى الخلاخيل - فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ اجتمعت بنو النضير بالغدر ، فأرسلوا إلى النبي ﷺ : اخرج إلينا فى ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبراً ، حتى نلتقى بمكان المنصف فيسمعوا منك ، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنوا بك ، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم ، قال لهم : « إنكم والله لا تأمنوا عندى إلا بعهد تعاهدونى عليه » . فأبوا أن يعطوه عهداً ، فقاتلهم يومهم ذلك ، ثم غدا الغد على بنى قريظة بالكتائب ، وترك بنى النضير ، ودعاهم إلى أن يعاهدوه ، فعاهدوه ، فانصرف عنهم . وغدا إلى بنى النضير بالكتائب فقاتلهم ، حتى نزلوا على الجلاء . فجلت بنو النضر ، واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها ، وكان نخل بنى النضير لرسول الله ﷺ خاصة ، أعطاه الله إياها وخصه بها ، فقال : ﴿ وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أُوجِفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ يقول : بغير قتال ، فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين ، قسمها بينهم ، وقسم منها لرجلين من الأنصار وكانا ذوى حاجة ، ولم يقسم من الأنصار غيرهما ، وبقي منها صدقة رسول الله ﷺ التى فى أيدي بنى فاطمة (١) .

ولنذكر ملخص غزوة بنى النضير على وجه الاختصار ، وبالله المستعان :

وكان سبب ذلك فيما ذكره أصحاب المغازى والسير : أنه لما قُتل أصحابُ بئر معونة ، من أصحاب رسول الله ﷺ ، وكانوا سبعين ، وأقلت منهم عمرو بن أمية الضمري ، فلما كان فى أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة قتل رجلين من بنى عامر ، وكان معهما عهد من رسول الله

(١) أبو داود (٣٠٠٤) ، وصححه الألبانى .

ﷺ وأمان لم يعلم به عمرو، فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ : « لقد قتلت رجلين، لأدينيهما ». وكان بين بنى النضير وبنى عامر حلف وعهد، فخرج رسول الله ﷺ إلى بنى النضير يستعينهم فى دية ذينك الرجلين، وكان منازل بنى النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقها .

قال ابن إسحاق فى كتابه السيرة : ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بنى النضير، يستعينهم فى دية ذينك القتيلين من بنى عامر، اللذين قتلها عمرو بن أمية الضمري ؛ للجوار الذى كان رسول الله ﷺ عقد لهما، فيما حدثنى يزيد بن رومان، وكان بين بنى النضير وبنى عامر عقد وحلف . فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم فى دية ذينك القتيلين قالوا : نعم، يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت، مما استعنت بنا عليه . ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم - فَمَنْ رجل يعلو على هذا البيت، فيلقى عليه صخرة، فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش ابن كعب أحدهم، فقال : أنا لذلك، فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال، ورسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلى . فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة، فلما استلبث النبى ﷺ أصحابه قاموا فى طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسأله عنه، فقال : رأيته داخلاً المدينة . فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم . ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه فى الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل والتحريق فيها . فنادوه: أن يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها ؟

وقد كان رهط من بنى عوف بن الخزرج، منهم عبد الله بن أبى ابن سلول، ووديعة، ومالك ابن أبى قوقل، وسويد وداعس، قد بعثوا إلى بنى النضير : أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم فتربصوا ذلك من نصرهم، فلم يفعلوا، وقذف الله فى قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمانهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة، ففعل، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به . فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، واخلوا الأموال لرسول الله ﷺ، فكانت لرسول الله خاصة يضعها حيث شاء، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار . إلا أن سهل بن حنيف وأبا دُجانة سماك بن خَرَشَةَ ذكرا فقراً، فأعطاهما رسول الله ﷺ . قال: ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلا ن : يامين بن عمير بن كعب بن عمرو بن جحاش، وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فأحرزاهما .

قال ابن إسحاق : وقد حدثنى بعض آل يامين : أن رسول الله ﷺ قال ليامين : « ألم

تر ما لقيتُ من ابن عمك ، وما هم به من شأني » . فجعل يامين بن عمير لرجل جعل على أن يقتل عمرو بن جحاش ، فقتله فيما يزعمون . قال ابن إسحاق : ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها (١) .

ف قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يعني : بني النضير ﴿ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ عن ابن عباس قال : من شك في أن أرض المحشر هاهنا - يعني الشام فليقرأ هذه الآية : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ ، قال لهم رسول الله ﷺ : « اخرجوا » . قالوا : إلى أين ؟ قال : « إلى أرض المحشر » (٢) . وقوله : ﴿ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ﴾ أى : فى مدة حصاركم لهم وقصرها ، وكانت ستة أيام ، مع شدة حصونهم ومنعتها ؛ ولهذا قال : ﴿ وَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾ أى : جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم فى بال ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل : ٢٦] . وقوله : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ أى : الخوف والهلع والجزع ، وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصرهم الذى نصر بالربع مسيرة شهر ، صلوات الله وسلامه عليه . وقوله : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قد تقدم تفسير ابن إسحاق لذلك ، وهو نقض ما استحسونه من سقوفهم وأبوابهم ، وتحملها على الإبل ، وكذا قال عروة بن الزبير ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغير واحد . وقال مقاتل بن حيان : كان رسول الله ﷺ يقاتلهم ، فإذا ظهر على درب أو دار ، هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال . وكان اليهود إذا علوا مكاناً أو غلبوا على درب أو دار ، نقبوا من أدبارها ثم حصنوها ودربوها ، يقول الله تعالى : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴾ أى : لولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء ، وهو النفى من ديارهم وأموالهم ، لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسي ، ونحو ذلك ، قاله الزهرى ، عن عروة ، والسدى وابن زيد ؛ لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم فى الدار الدنيا مع ما أعد لهم فى الآخرة من العذاب فى نار جهنم . قال عروة بن الزبير : ثم كانت وقعة بني النضير ، وهم طائفة من اليهود ، على رأس ستة أشهر من وقعة بدر . وكان منزلهم بناحية من المدينة ، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء ، وأن لهم ما أقلت الإبل من الأموال والأمتعة إلا الحلقة ، وهى السلاح ، فأجلاهم رسول الله ﷺ قبل الشام . قال : والجلاء أنه كتب عليهم فى آى من التوراة ، وكانوا من سبط لم يصيبهم الجلاء قبل ما سلط عليه رسول الله ﷺ ، وأنزل الله فيهم : ﴿ سَبَّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ ﴾ . وقال عكرمة : الجلاء : القتل . وفى رواية عنه : الفناء . وقال قتادة : الجلاء : خروج الناس من البلد إلى البلد . وقال الضحاك : أجلاهم إلى الشام ، وأعصى كل ثلاثة بغيراً وسقاء ، فهذا الجلاء . وقوله : ﴿ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴾ أى : حتم لازم لا بد لهم منه .

(٢) الدر المنثور (٦ / ١٨٧) .

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣ / ١٤٥ ، ١٤٦) .

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى: إنما فعلَ الله بهم ذلك وسلط عليهم رسوله وعباده المؤمنين؛ لأنهم خالفوا الله ورسوله، وكذبوا بما أنزل الله على رسله المتقدمين فى البشارة بمحمد ﷺ، وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم. ثم قال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. وقوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ اللين: نوع من التمر، وهو جيد. قال أبو عبيدة: وهو ما خالف العجوة والبرنى من التمر. وقال كثيرون من المفسرين: اللينة: ألوان التمر سوى العجوة. قال ابن جرير: هو جميع النخل. ونقله عن مجاهد: وهو البؤيرة أيضاً؛ وذلك أن رسول الله ﷺ لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم إهانة لهم، وإرهاباً وإرعاباً لقلوبهم. فروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان، وقتادة، ومقاتل بن حيان أنهم قالوا: فبعث بنو النضير^(١) يقولون لرسول الله ﷺ: إنك تنهى عن الفساد، فما بالك تأمر بقطع الأشجار؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة، أى: ما قطعتم وما تركتم من الأشجار، فالجميع بإذن الله ومشئته وقدرته ورضاه، وفيه نكاية العدو، وخزى لهم، وإرغام لأنوفهم. وقال مجاهد: نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل، وقالوا: إنما هى مغنم المسلمين. فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه، وتحليل من قطعه من الإثم، وإنما قطعه وتركه بإذنه. وروى الإمام أحمد عن نافع، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قطع نخل بنى النضير وحرَّق. وأخرجه صاحبها الصحيح بنحوه^(٢)، ولفظ البخارى عن ابن عمر قال: حارب النضير وقريظة، فأجلى بنى النضير وأقر قريظة ومنَّ عليهم حتى حاربت قريظة فقتل من رجالهم وسبى وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين، إلا بعضهم لحق بالنبي ﷺ فأمنهم وأسلموا، وأجلى يهود المدينة كلهم بنى قينقاع، وهم رهط عبد الله بن سلام، ويهود بنى حارثة، وكلَّ يهود بالمدينة. ولهما عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ حرَّق نخل بنى النضير وقطع - وهى البؤيرة - فأنزل الله، عز وجل فيه: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٣). قال ابن إسحاق: كانت وقعة بنى النضير بعد وقعة أحد وبعد بئر معونة. وحكى البخارى، عن الزهري، عن عروة أنه قال: كانت وقعة بنى النضير بعد بدر بستة أشهر^(٤).

﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١﴾ مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَنْ لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا إِلَيْنَا أَلْتَمَسُ الْرُسُلُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ فَأَنْهَوْهُ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿٧﴾

(١) فى المطبوعة: « بنو قريظة » وهو خطأ .

(٢) المسند (٥٤٣٢) والبخارى (٣٠٢١) ومسلم (١٧٤٦ / ٢٩) .

(٣) البخارى (٤٨٨٤) ومسلم (٢٩ / ١٧٤) . (٤) البخارى (٣٢٩ / ٧) فتح .

يقول تعالى مبيناً ما الفىء ، وما صفته ؟ وما حكمه ؟ فالفىء : كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب ، كأموال بنى النضير هذه ، فإنها مما لم يُوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، أى : لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة ، بل نزل أولئك من الرعب الذى ألقى الله فى قلوبهم من هيبة رسول الله ﷺ ، فأفاءه الله على رسوله ؛ ولهذا تصرف فيه كما شاء ، فردّه على المسلمين فى وجوه البر والمصالح التى ذكرها الله ، عز وجل ، فى هذه الآيات ، فقال : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴾ أى : من بنى النضير ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ يعنى : الإبل ، ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَسْلُطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى : هو قدير لا يُغالب ولا يُمانع ، بل هو القاهر لكل شىء .

ثم قال : ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ أى : جميع البلدان التى تفتح هكذا ، فحكمها حكم أموال بنى النضير ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ إلى آخرها التى بعدها . فهذه مصارف أموال الفىء ووجوهه . روى الإمام أحمد : عن عمر ، قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته وقال مرّة : قوت سنته - وما بقى جعله فى الكراع والسلاح فى سبيل الله ، عز وجل . هكذا أخرجه أحمد هاهنا مختصراً ، وقد أخرجه الجماعة فى كتبهم إلا ابن ماجة (١) - حديث سفيان ، عن عمرو بن دينار ، عن الزهري ، به .

وقد رويناه مطولاً ، فروى أبو داود عن مالك بن أوس قال : أرسل إلى عمر بن الخطاب ، حين تعالى النهار ، فجثته فوجدته جالساً على سرير مفضياً إلى رُماله ، فقال حين دخلت عليه : يا مال ، إنه قد دَفَّ أهل أبيات من قومك ، وقد أمرت فيهم بشىء ، فاقسم فيهم . قلت : لو أمرت غيرى بذلك ؟ فقال : خذه . فجاءه يرفا ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هل لك فى عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن ابن عوف ، والزيبر بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ؟ فقال : نعم . فأذن لهم فدخلوا ، ثم جاءه يرفا فقال : يا أمير المؤمنين ، هل لك فى العباس وعلى ؟ قال : نعم . فأذن لهم فدخلوا ، فقال العباس : يا أمير المؤمنين ، اقض بينى وبين هذا - يعنى : علياً - فقال بعضهم : أجل يا أمير المؤمنين ، اقض بينهما وأرحهما .

قال مالك بن أوس : خيّل إلى أنهما قدّما أولئك النفر لذلك . فقال عمر : اتندا . ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال : « لا نُورث ، ما تركنا صدقة » . قالوا : نعم . ثم أقبل على العباس فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمان أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ، ما تركنا صدقة » . فقالا : نعم . فقال : فإن الله خص رسوله بخاصة لم يخص

(١) المسند (١٧١) والبخارى (٤٨٨٥) ومسلم (١٧٥٧ / ٤٨) وأبو داود (٢٩٦٥) والترمذى (١٧١٩) .

بها أحداً من الناس ، فقال : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . فكان الله أفاء على رسوله أموال بنى النضير ، فوالله ما استأثر بها عليكم ولا أحرزها دونكم ، فكان رسول الله ﷺ يأخذ منها نفقة سنة - أو : نفقته ونفقة أهله سنة - ويجعل ما بقى أسوة المال . ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذى يأذنه تقوم السماء والأرض : هل تعلمون ذلك ؟ قالوا : نعم . ثم أقبل على بنى النضير فقال : أنشدكم بالله الذى يأذنه تقوم السماء والأرض : هل تعلمان ذلك ؟ قالوا : نعم . فلما توفى رسول الله ﷺ قال أبو بكر : « أنا ولى رسول الله » ، فجئت أنت وهذا إلى أبى بكر ، تطلب أنت ميراثك من ابن أخيك ، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها ، فقال أبو بكر : قال رسول الله ﷺ : « لا نورث ، ما تركنا صدقة » . والله يعلم إنه لصادق بار راشد تابع للحق . فوليتها أبو بكر ، فلما توفى قلت : أنا ولى رسول الله ﷺ وولى أبى بكر ، فوليتها ما شاء الله أن إليها ، فجئت أنت وهذا ، وأنتما جميع وأمركما واحد ، فسألتمانيها ، فقلت : إن شئتما فأنا أدفعها إليكما على أن عليكما عهد الله أن تليها بالذى كان رسول الله ﷺ يليها ، فأخذتماها منى على ذلك ، ثم جئتماني لأقضى بينكما بغير ذلك . والله لا أقضى بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة ، فإن عجزتما عنها فرداها إلى أخرجه (١) .

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك ، عن نبي الله ﷺ أن الرجل كان يجعل له من ماله النخلات ، أو كما شاء الله ، حتى فُتحت عليه قريظة والنضير . قال : فجعل يردّ بعد ذلك ، قال : وإن أهلى أمروني أن أتى النبي ﷺ فأسأله الذى كان أهله أعطوه أو بعضه ، وكان نبي الله ﷺ قد أعطاه أم أيمن ، أو كما شاء الله ، قال : فسألت النبي ﷺ فأعطانيهن ، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب فى عنقى وجعلت تقول : كلا ، والله الذى لا إله إلا هو لا يُعطيكنهن وقد أعطانيهن ، أو كما قالت ، فقال نبي الله : « لك كذا وكذا » . قال : وتقول : كلا ، والله . قال : ويقول : « لك كذا وكذا » . قال : وتقول : كلا والله . قال : « ويقول : لك كذا وكذا » . قال : حتى أعطها ، حسب أنه قال : عشرة أمثال أو قال قريباً من عشرة أمثاله ، أو كما قال . رواه البخارى ومسلم (٢) .

وهذه المصارف المذكورة فى هذه الآية هى المصارف المذكورة فى خمس الغنيمة . وقد قدمنا الكلام عليها فى سورة « الأنفال » بما أغنى عن إعادته هاهنا ، ولله الحمد .

وقوله : ﴿ كَسَىٰ لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ أى : جعلنا هذه المصارف لمال الفء لثلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها ، بمحض الشهوات والآراء ، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء . وقوله : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ أى : مهما أمركم به فاعملوه ، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه ، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر . وروى الإمام

(١) أبو داود (٢٩٦٣) والبخارى (٣٠٩٤) ومسلم (١٧٥٧/٤٩) والنسائى (٤١٤٨) والترمذى (١٦١٠) .

(٢) المسند (٢١٩/٣) والبخارى (٣١٢٨ ، ٤٠٣٠ ، ٤١٢٠) ومسلم (٧٠/١٧٧١) .

أحمد عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : لعن الله الواشحات والمستوشحات ، والمتنمصات ، والمتفلجات للحسن ، المغيرات خلق الله ، عز وجل . قال : فبلغ امرأة في البيت يقال لها : « أم يعقوب » ، فجاءت إليه فقالت : بلغني أنك قلت كيت وكيت . قال : ما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ ، وفي كتاب الله . فقالت : إني لأقرأ ما بين لوجهي فما وجدته . فقال : إن كنت قرأته فقد وجدته . أما قرأت : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ ؟ قالت : بلى . قال : فإن النبي ﷺ نهى عنه . قالت : إني لأظن أهلك يفعلونه . قال : اذهبي فانظري . فذهبت فلم تر من حاجتها شيئاً ، فجاءت فقالت : ما رأيت شيئاً . قال : لو كانت كذلك لم تُجَامعنا . أخرجاه في الصحيحين (١) . وقد ثبت في الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » (٢) . وروى النسائي عن ابن عمر وابن عباس : أنهما شهدا على رسول الله ﷺ : أنه نهى عن الدبابة والحنتم والنقير والمزقت ، ثم تلا رسول الله ﷺ : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ . وقوله : ﴿ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أي : اتقوه في امتثال أوامره وترك زواجره ؛ فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وآياه ، وارتكب ما عنه زجره ونهاه .

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى مبيناً حال الفقراء المستحقين لمال الفداء أنهم : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ أي : خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿ وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ أي : هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم ، وهؤلاء هم سادات المهاجرين .

ثم قال تعالى مادحاً للأنصار ، ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حسدهم ، وإيثارهم مع الحاجة ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي : سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم . قال عمر : وأوصى الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم كرامتهم . وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوءوا الدار والإيمان

(١) المسند (٤١٢٩) والبخارى (٤٨٨٧) ومسلم (٢١٢٥ / ١٢٠) .

(٢) البخارى (٧٢٨٨) ومسلم (١٣٣٧ / ٤١٢) .

من قبل ، أن يقبل من محسنهم ، وأن يعفو عن مسيئهم . رواه البخارى هاهنا أيضا (١) .
 وقوله : ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ أى : مِنْ كَرَمِهِمْ وشرف أنفسهم ، يُحِبُّونَ المهاجرين ويواسونهم بأموالهم . روى الإمام أحمد عن أنس قال : قال المهاجرون : يا رسول الله ، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساةً فى قليل ولا أحسن بذلاً فى كثير ، لقد كفونا المؤنة ، وأشركونا فى المهنة ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله ! قال : « لا ، ما أنثيتم عليهم ودَعَوْتُمُ الله لهم » (٢) . وروى البخارى عن يحيى بن سعيد ، سمع أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال : دعا النبى ﷺ الأَنْصار أن يُقَطِّعَ لهم البحرين ، قالوا : لا ، إلا أن تُقَطِّعَ لإخواننا من المهاجرين مثلها . قال : « إما لا ، فاصبروا حتى تلقونى ، فإنه سيصيبكم [بعدى] أثره » . تفرد به البخارى من هذا الوجه (٣) .

وروى البخارى عن أبى هريرة قال : قالت الأنصار : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل . قال : لا . فقالوا : تكفونا المؤنة ونشرككم فى الثمرة ؟ قالوا : سمعنا وأطعنا . تفرد به دون مسلم (٤) .

﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ﴾ أى : ولا يجدون فى أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف ، والتقديم فى الذكر والرتبة . قال الحسن البصرى : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً ﴾ يعنى : الحسد . ﴿ مِمَّا أُوتُوا ﴾ قال قتادة : يعنى : فيما أعطى إخوانهم . وكذا قال ابن زيد . وما يستدل به على هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد عن أنس قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ ، فقال : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » . فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه ، قد تَعَلَّقَ نعليه بيده الشمال ، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى . فلما كان فى اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ مثل مقالته أيضاً ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى . فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقال : إني لاحيت أبى فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً ، فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تمضى فعلت . قال : نعم . قال أنس : فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليلية ، فلم يره يقوم من الليل شيئاً ، غير أنه إذا تعار وتقلب على فراشه ، ذكر الله وكبر ، حتى يقوم لصلاة الفجر . قال عبد الله : غير أنى لم أسمعهم يقول إلا خيراً ، فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحتقر عمله ، قلت : يا عبد الله ، لم يكن بينى وبين أبى غَضَبٌ ولا هَجْرٌ ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرار : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » . فطلعت أنت الثلاث المرار ، فأردت أن آوى إليك لأنظر

(١) البخارى (٤٨٨٨) .

(٢) المسند (٣/٢٠٠) ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى (٢٦١٧) .

(٣) البخارى (٣٧٩٤) وما بين المعقوفين منه .

(٤) البخارى (٢٣٢٥) .

ما عملك فأفتدى به ، فلم أرك تعمل كثير عمل ، فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت . فلما وليت دعائى فقال : ما هو إلا ما رأيت ، غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشاً ، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله : هذه التى بلغت بك ، وهى التى لا تطاق . رواه النسائى وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين (١) .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا ﴾ يعنى : ﴿ مِمَّا أُوتُوا ﴾ المهاجرون . قال : وتكلم فى أموال بنى النضير بعض من تكلم من الأنصار ، فعاتبهم الله فى ذلك ، فقال : ﴿ وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، قال : وقال رسول الله : « إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم » . فقالوا : أموالنا بيننا قطائع . فقال رسول الله ﷺ : « أو غير ذلك ؟ » . قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : « هم قوم لا يعرفون العمل ، فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر » . فقالوا : نعم يا رسول الله (٢) .

وقوله : ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ يعنى : حاجة ، أى : يقدمون المحاريج على حاجة أنفسهم ، ويبدؤون بالناس قبلهم فى حال احتياجهم إلى ذلك . وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أفضل الصدقة جهد المقل » (٣) . وهذا المقام أعلى من حال الذين وصّف الله بقوله : ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ [الإنسان: ٨] . وقوله : ﴿ وَأَتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ [البقرة: ١٧٧] . فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به ، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به ، وهؤلاء آتروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه . ومن هذا المقام تصدق الصديق بجميع ماله ، فقال له رسول الله ﷺ : « ما أبقيت لأهلك ؟ » . فقال : أبقيت لهم الله ورسوله (٤) . وهكذا الماء الذى عرّض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك ، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه ، وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء ، فرده الآخر إلى الثالث ، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم ، رضى الله عنهم وأرضاهم . وروى البخارى : عن أبى هريرة قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أصابنى الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً ، فقال النبى ﷺ : « ألا رجل يُصَيِّفُ هذا الليلة ، رحمه الله ؟ » . فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله . فذهب إلى أهله فقال لامرأته : هذا صَيِّفُ رسول الله ﷺ لا تدخره شيئاً . فقالت : والله ما عندى إلا قوتُ الصبية . قال : فإذا أراد الصبية العشاء فتوّميهم وتعالى فأطفئى السراج ونطوى بطوننا الليلة . ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ ، فقال : « لقد

(١) المسند (١٦٦/٣) والنسائى فى الكبرى (١٠٦٩٩) .

(٢) ابن جرير فى التفسير (٢٨/٢٨) .

(٣) أحمد (٤١١/٣) وقال الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٥٦٦) : « إسناد جيد رجاله ثقات على شرط مسلم » .

(٤) أبو داود (١٦٧٨) ، وصححه الألبانى .

عجب الله ، عز وجل - أو : ضحك - من فلان وفلانة » . وأنزل الله عز وجل : ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ . وكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى من طرق وفى رواية لمسلم تسمية هذا الأنصارى بأبى طلحة ، رضى الله عنه (١) .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أى : من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح . روى أحمد : عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشحَّ ، فإن الشحَّ أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » . انفرد بإخراجه مسلم (٢) . وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا الظلم ؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الفحش ، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش ، وإياكم والشح ؛ فإنه أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالفجور ففجروا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » . رواه أحمد وأبو داود والنسائى (٣) . وعن أبى هريرة ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى جوف عبد أبداً ، ولا يجتمع الشح والإيمان فى قلب عبد أبداً » (٤) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ : هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفىء ، وهم المهاجرون ثم الأنصار ، ثم التابعون لهم بإحسان ، كما قال فى آية براءة : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ [التوبة : ١٠٠] . فالتابعون لهم بإحسان هم : المتبعون لأثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة ، الداعون لهم فى السر والعلانية ؛ ولهذا قال فى هذه الآية الكريم : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ ﴾ أى : قائلين : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا ﴾ أى : بغضاً وحسداً ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ . وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة : أن الرافضى الذى يسب الصحابة ليس له فى مال الفىء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء فى قولهم : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ . عن عائشة قالت : أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ ، فسيبتموهم . سمعتُ نبيكم ﷺ يقول : « لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها » . رواه البغوى (٥) .

(١) البخارى (٣٧٩٨) ومسلم (٢٠٥٤ / ١٧٢) والترمذى (٣٣٠٤) والنسائى فى الكبرى (١١٥٨٢) .

(٢) المسند (٣٢٣ / ٣) ومسلم (٥٦ / ٢٥٧٨) .

(٣) المسند (٦٤٨٧) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (١٦٩٨) والنسائى فى الكبرى (١١٨٣) .

(٤) النسائى (٣١٠٩) ، وصححه الألبانى .

(٥) البغوى فى معالم التنزيل (٨٠ / ٨) ورواه مسلم (١٥ / ٣٠٢٢) بنحوه .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فَيْكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَّيْنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢﴾ لَا يَقْتُلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنْ بَرِئْتُ مِنْكَ فَإِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ فَكَانَ عِقَبَتُهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه ، حين بعثوا إلى يهود بنى النضير يعدونهم النصر من أنفسهم ، فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فَيْكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ﴾ ، قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى : لكاذبون فيما وعدوهم به إما لأنهم قالوا لهم قولاً ومن نيتهم ألا يفوا لهم به ، وإما لأنهم لا يقع منهم الذى قالوه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ﴾ أى : لا يقاتلون معهم ، ﴿ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ ﴾ أى : قاتلوا معهم ﴿ لَيُولَّيْنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴾ وهذه بشارة مستقلة بنفسها . ثم قال تعالى : ﴿ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى : يخافون منك أكثر من خوفهم من الله ، كقوله : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ [النساء : ١٧٧] ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ . ﴾

ثم قال : ﴿ لَا يَقْتُلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾ يعنى : أنهم من جنبهم وهلكهم لا يقدرّون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقاتلة ، بل إما فى حصون أو من وراء جدر محاصرين ، فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة . ثم قال : ﴿ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ أى : عداوتهم بينهم شديدة ، كما قال : ﴿ وَيَذِيقُ بَعْضُكُمُ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام : ٦٥] ؛ ولهذا قال : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ أى : تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين ، وهم مختلفون غاية الاختلاف . قال إبراهيم النخعي : يعنى : أهل الكتاب والمنافقين ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ . ثم قال : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال مجاهد ، والسدى ، ومقاتل بن حيان : يعنى : كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر . وقال ابن عباس : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يعنى : يهود بنى قينقاع . وكذا قال قتادة ، وابن إسحاق . وهذا القول أشبه بالصواب ، فإن يهود بنى قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا .

وقوله : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ ﴾ . معنى : مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين ، وقول المنافقين لهم : ﴿ وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرْكُمْ ﴾ . ثم لما حقت الحقائق وجدَّ بهم الحصار والقتال ، تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة ، مثالهم في هذا كمثل الشيطان إذ سول للإنسان - والعياذ بالله - الكفر ، فإذا دخل فيما سوله تبرا منه وتنصل ، وقال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ . وقوله : ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ . أى : فكانت عاقبة الأمر بالكفر والفاعل له ، مصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها ، ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ . أى : جزاء كل ظالم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَتَنظُرْ نَفْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

روى الإمام أحمد ، عن جرير ، قال : كنا عند رسول الله ﷺ فى صدر النهار ، قال : فجاءه قوم حفاة عراة مجتأى النار - أو : العباء - متقلدى السيوف عامتهم من مضر ، بل كلهم من مضر ، فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة ، قال : فدخل ثم خرج ، فأمر بلالا فأذن وأقام الصلاة ، فصلى ثم خطب ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ . إلى آخر الآية [النساء : ١] . وقرأ الآية التى فى الحشر : ﴿ وَتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ ، تصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بره ، من صاع تمره - حتى قال : ولو بشق تمره . قال : فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها ، بل قد عجزت ، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب ، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتהלل وجهه كأنه مذهبة ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ سَنَّ فى الإسلام سنة حسنة ، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده ، من غير أن ينقص من أجزائها شيء ، ومن سَنَّ فى الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » . انفراد بإخراجه مسلم (١) .

فقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ . أمر بتقواه ، وهو يشمل فعل ما به أمر ، وترك ما عنه زجر . وقوله : ﴿ وَتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ . أى : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم ، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ : تأكيد ثان ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ . أى : اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم ، لا تخفى عليه منكم خافية ، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير .

وقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ . أى : لا تنسوا ذكر الله فينسيكم العمل

الصالح الذى ينفعكم فى معادكم ، فإن الجزء من جنس العمل ؛ ولهذا قال : ﴿ أَوْلَيْكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أى : الخارجون عن طاعة الله ، الهالكون يوم القيامة ، الخاسرون يوم معادهم ، كما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَلْهَكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون : ٩] . وروى الحافظ أبو القاسم الطبرانى عن نعيم بن نَمْحَةَ قال : كان فى خطبة أبى بكر الصديق : أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم ؟ فمن استطاع أن يقضى الأجل وهو فى عمل الله ، عز وجل ، فليفعل ، ولن تنالوا ذلك إلا بالله ، عز وجل . إن قوماً جعلوا آجالهم لغيرهم ، فنهاكم الله أن تكونوا أمثالهم : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ أين من تعرفون من إخوانكم ؟ قدموا على ما قدموا فى أيام سلفهم ، وخلوا بالشقوة والسعادة ، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لا تفتى عجائبه فاستضيؤوا منه ليوم ظلمة ، واستضيئوا بسنائه وبيانه ، إن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الانبياء : ٩٠] ، لا خير فى قول لا يراد به وجه الله ، ولا خير فى مال لا يتفق فى سبيل الله ، ولا خير فىمن يغلب جهله حلمه ، ولا خير فىمن يخاف فى الله لومة لائم (١) . هذا إسناد جيد ، ورجاله كلهم ثقات .

وقوله : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ أى : لا يستوى هؤلاء وهؤلاء فى حكم الله يوم القيامة ، كما قال : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجنائفة : ٢١] ، وقال : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [غافر : ٥٨] . وقال : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص : ٢٨] ؟ فى آيات أخر دالات على أن الله تعالى ، يكرم الأبرار ، ويهين الفجار ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ أى : الناجون المسلمون من عذاب الله ، عز وجل .

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾

يقول تعالى معظماً لأمر القرآن ، ومبيناً علو قدره ، وأنه ينبغى أن تخشع له القلوب ،

وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد والوعيد الاكيد : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّصَدَعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ أى : فإذا كان الجبل فى غلظته وقساوته ، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه ، لخشع وتتصدع من خوف الله ، عز وجل ، فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع ، وتتصدع من خشية الله ، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . قال ابن عباس فى قوله : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ ﴾ إلى آخرها ، يقول : لو أنى أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه ، لتصدع وخشع من ثقله ، ومن خشية الله . فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع . ثم قال : كذلك يضرب الله الامثال للناس لعلهم يتفكرون . وكذا قال قتادة ، وابن جرير . وقد ثبت فى الحديث المتواتر : أن رسول الله ﷺ لما عمل له المنبر ، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد ، فلما وضع المنبر أول ما وضع ، وجاء النبي ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر ، فعند ذلك حَنَّ الجذع (١) وجعل يئن كما يئن الصبى الذى يُسَكِّنُ ، لما كان يُسَمَعُ من الذكر والوحى عنده . ففى بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصرى بعد إيراده : «فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله ﷺ من الجذع» . وهكذا هذه الآية الكريمة ، إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته ، لخشعت وتتصدعت من خشيته ، فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم ؟ وقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتَى ﴾ الآية [الرعد: ٣١] . وقد تقدم أن معنى ذلك : أى لكان هذا القرآن . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٧٤] .

ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ : أخبر تعالى أنه الذى لا إله إلا هو فلا رب غيره ، ولا إله للوجود سواه ، وكل ما يعبد من دونه فباطل ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، أى : يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا فلا يخفى عليه شئ فى الأرض ، ولا فى السماء من جليل وحقيق وصغير وكبير ، حتى الذر فى الظلمات . وقوله : ﴿ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ : قد تقدم الكلام على ذلك فى أول التفسير ، بما أغنى عن إعادته هاهنا . والمراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات ، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، وقد قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الاعراف : ١٥٦] ، وقال : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الانعام: ٥٤] ، وقال : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨] ، ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ ﴾ أى : المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة ﴿ الْقُدُّوسُ ﴾ قال وهب بن منبه : أى الطاهر . وقال مجاهد ، وقاتدة : أى المبارك وقال ابن جريج : تقدسه الملائكة الكرام ﴿ السَّلَامُ ﴾ أى : من جميع العيوب والنقائص ؛ لكماله فى ذاته وصفاته وأفعاله ﴿ الْمُؤْمِنُ ﴾ قال ابن عباس : أمن

خلقه من أن يظلمهم . وقال قتادة : أمن بقوله : إنه حق . وقال ابن زيد : صدق عباده المؤمنين فى إيمانهم به ﴿ الْمُهَيَّمِينَ ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : أى : الشاهد على خلقه بأعمالهم ، بمعنى : هو رقيب عليهم ، كقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [البروج : ٩] ، وقوله : ﴿ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس : ٤٦] ، وقوله : ﴿ أَقْمَنُ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ الآية [الرعد : ٣٣] .

وقوله : ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ أى : الذى قد عزّ كل شىء فقهره ، وغلب الأشياء فلا ينال جنباه ؛ لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه ؛ ولهذا قال : ﴿ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ أى : الذى لا تليق الجبرية إلا له ، ولا التكبر إلا لعظمته ، كما فى الصحيح : « العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى واحداً منهما عدّته » (١) . وقال قتادة : الجبار : الذى جبر خلقه على ما يشاء . وقال ابن جرير : الجبار : المصلحُ أمورَ خلقه ، المتصرفُ فيهم بما فيه صلاحهم . وقال قتادة : المتكبر : يعنى عن كل سوء . ثم قال : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ الخلق : التقدير ، والبراء : هو الفرى ، وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود ، وليس كل من قدر شيئاً ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله ، عز وجل . ومنه يقال : قدر الجلاد ثم قرأ ، أى : قطع على ما قدره بحسب ما يريده . وقوله تعالى : ﴿ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ أى : الذى إذا أراد شيئاً قال له : كن ، فيكون على الصفة التى يريد ، والصورة التى يختار . كقوله : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار : ٨] ولهذا قال : ﴿ الْمُصَوِّرُ ﴾ أى : الذى ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التى يريدها .

وقوله : ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ : قد تقدم الكلام على ذلك فى « سورة الأعراف » ، وذكر الحديث المروى فى الصحيحين عن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » . وتقدم سياق الترمذى وابن ماجه له ، عن أبى هريرة أيضا ، وزاد بعد قوله : « وهو وتر يحب الوتر » - واللفظ للترمذى - : « هو الله الذى لا إله إلا هو ، الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكيم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى ، الحميد ، المحصى ، المبدئ ، المعيد ، المحيى ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعالى ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال

والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور . « . وسياق ابن ماجة بزيادة ونقصان ، وتقديم وتأخير ، وقد قدمنا ذلك مبسوطاً مطولاً بطرقه والفاظه بما أغنى عن إعادته هنا (١) .

وقوله : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ كقوله : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] . وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : فلا يرام جنابه ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى شرعه وقدره .

(١) مضى تخريجه عند الآية (١٨٠) من سورة الاعراف .

تفسير سورة الممتحنة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآيَاتِي مَرْضِيًّا فَسُرُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَشْفِقُوا عَلَيْكُمْ إِنْ يَقُولُوا كُنْمْ أَعْدَاءُ وَيَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوِّ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُم وَلَا أَوْلَادَكُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْعَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ ﴾

كان سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة قصة حاطب بن أبى بلتعة ، وذلك أن حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين ، وكان من أهل بدر أيضاً ، وكان له بمكة أولاد ومال ، ولم يكن من قريش أنفسهم ، بل كان حليفاً لعثمان . فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة لما نقض أهلها العهد ، فأمر النبي ﷺ المسلمين بالتجهيز لغزوهم ، وقال : « اللهم ، عمّ عليهم خبرنا » . فعمد حاطب هذا فكتب كتاباً ، وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة ، يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ من غزوهم ، ليتخذ بذلك عندهم يداً ، فأطلع الله رسوله على ذلك ، استجابة لدعائه . فبعث في أثر المرأة فأخذ الكتاب منها ، وهذا بين في الحديث المتفق على صحته .

روى الإمام أحمد عن [على ، قال] بعثنى رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد ، فقال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب ، فخذوه منها » . فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، قلنا : أخرجى الكتاب . قالت : ما معى كتاب . قلنا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب . قال : فأخرجت الكتاب من عقاصها ، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله ﷺ ، فإذا فيه : من حاطب بن أبى بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة ، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : « يا حاطب ، ما هذا ؟ » . قال : لا تعجل علىّ ، إني كنت امرأة مخلصاً في قريش ، ولم أكن من أنفسهم ، وكان من كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني

ولا رضى بالكفر بعد الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « إنه صدقكم » . فقال عمر : دعنى أضرب عنق هذا المنافق . فقال : « إنه قد شهد بدرأ ، وما يدريك لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » . وهكذا أخرجه الجماعة إلا ابن ماجه (١) . وزاد البخارى فى كتاب « المغازى » : فأنزل الله السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ (٢) . وقال فى كتاب التفسير : قال عمرو : ونزلت فيه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ قال : « لا أدرى الآية فى الحديث أو قال عمرو » . قال البخارى : قال على - يعنى : ابن المدينى - : قيل لسفيان فى هذا : نزلت ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ ؟ فقال سفيان : هذا فى حديث الناس ، حفظته من عمرو ، ما تركت منه حرفاً ، وما أرى أحداً حفظه غيرى (٣) . وقد أخرجاه فى الصحيحين عن على قال : بعثنى رسول الله ﷺ وأبا مرثد ، والزبير بن العوام ، وكلنا فارس ، وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب إلى المشركين : فأدركناهما تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ﷺ فقلنا : الكتاب ؟ فقالت : ما معى كتاب . فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتاباً ، فقلنا : ما كذب رسول الله ﷺ ! لتخرجن الكتاب أو لتُجردنك . فلما رأت الجذ أهوت إلى حُجْزتها وهى مُحْتَجِزَةٌ بكساء فأخرجته . فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ ، فقال عمر : يا رسول الله ، قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعنى فلاضرب عنقه . فقال : « ما حملك على ما صنعت ؟ » . قال : والله ما بى إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله ، أردت أن تكون لى عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلى ومالى ، وليس أحد من أصحابك إلا له هنالك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله . فقال : « صدق ، لا تقولوا له إلا خيراً » . فقال عمر : إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعنى فلاضرب عنقه . فقال : « أليس من أهل بدر؟ » فقال : « لعل الله قد اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة - أو : قد غفرت لكم » . فدَمَعَت عينا عُمَرُ ، وقال : الله ورسوله أعلم . هذا لفظ البخارى فى « المغازى » فى غزوة بدر(٤) .

وقد ذكر ذلك أصحاب المغازى والسير ، فقال ابن إسحاق فى السيرة : حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عُرْوَةَ بين الزبير وغيره من علمائنا قال : لما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى مكة ، كتب حاطب بن أبى بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر فى السير إليهم ، ثم أعطاه امرأة - زعم محمد بن جعفر أنها من مزينة ، وزعم غيره أنها : سارة ، مولاة لبنى عبد المطلب - وجعل لها جُعلاً على أن تبلغه قُرَيْشاً فجعلته فى رأسها ، ثم قتلت عليه قرونها ، ثم خرجت به . وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع

(١) المسند (٦٠٠) والبخارى (٣٠٠٧ ، ٤٨٩٠) ومسلم (٢٤٩٤/١٦١) وأبو داود (٢٦٥٠) والترمذى (٣٣٠٥) .

(٢) البخارى (٤٢٧٤) .

(٣) البخارى (٤٨٩٠) .

(٤) البخارى (٣٩٨٣) ومسلم (٢٤٩٤ / ١٦١) .

حاطب ، فبعث على بن أبي طالب والزبير بن العوام فقال : « أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بكتاب إلى قريش ، يحذرهم ما قد أجمعنا له من أمرهم » . فخرجا حتى أدركاها بالحليفة - حليفة (١) بنى أبي أحمد - فاستنزلاها بالحليفة ، فالتمسا في رحلها فلم يجدا شيئا ، فقال لها على بن أبي طالب : إني أحلف بالله ما كذب رسول الله وما كذبنا، ولتُخرجن لنا هذا الكتاب أو لتكشفنك . فلما رأت الجد منه قالت : أعرض . فأعرض ، فحلت قرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليه . فأتى به رسول الله ﷺ فدعا رسول الله حاطباً فقال : « يا حاطب ما حملك على هذا ؟ » . فقال : يا رسول الله ، أما والله إني لمؤمن بالله وبرسوله ، ما غيرت ولا بدلت ، ولكن كنت امرأ ليس لى فى القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم وكّد وأهل فصانعتهم عليهم . فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، دعنى فلاضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق . فقال رسول الله ﷺ : « وما يدريك يا عمر ! لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم » . فأنزل الله ، عز وجل ، فى حاطب : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ ﴾ إلى قوله : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴾ [الممتحنة: ٤] إلى آخر القصة (٢) .

وروى عن عروة نحو ذلك . وهكذا ذكر مقاتل بن حيان : أن هذه الآيات نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة : أنه بعث سارة مولاة بنى هاشم ، وأنه أعطها عشرة دراهم ، وأن رسول الله ﷺ بعث فى أثرها عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، رضى الله عنهما ، فأدركاها بالجحفة ، وذكر تمام القصة كنعو ما تقدم . وعن السدى قريب منه . وهكذا قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغير واحد : إن هذه الآيات نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة .

فقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ يعنى : المشركين والكفار الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين ، الذين شرع الله عداوتهم ومصارمتهم ، ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاء ، كما قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة: ٥١] . وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٥٧] . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ [النساء: ١٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيَحْذَرِكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران: ٢٨] ؛ ولهذا قبل رسول الله ﷺ عذر حاطب لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش ، لأجل ما كان له عندهم من الأموال

(١) « بالحليفة » : بالحاء المهملة - وبالحاء أيضاً - وكلاهما صحيح : اسم موضع (انظر معجم البلدان) .

(٢) سيرة ابن هشام (٤ / ٣٩ ، ٤٠) .

والأولاد. ويذكر هاهنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن حذيفة قال: ضَرَبَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أمثالاً: واحداً وثلاثة وخمسة وسبعة وتسعة وأحد عشر - قال: فضرب لنا منها مثلاً وترك سائرهما، قال: « إن قوماً كانوا أهل ضعف ومسكنة ، قاتلهم أهل تجير وعداء ، فأظهر الله أهل الضعف عليهم ، فعمدوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم ، فأسخطوا الله عليهم إلى يوم يلقونه » (١).

وقوله: ﴿ يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ : هذا مع ما قبله من التهيج على عداوتهم وعدم موالاتهم ؛ لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم، كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده؛ ولهذا قال: ﴿ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ أى : لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين ، كقوله: ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج: ٨] ، وكقوله: ﴿ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بغيرِ حَقِّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ [الحج: ٤٠] .

وقوله: ﴿ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ﴾ أى: إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء، إن كنتم خرجتم مجاهدين فى سبيلى باغين لمرضاتى عنكم فلا تولوا أعدائى وأعداءكم، وقد أخرجوكم من دياركم وأمواكم حنقاً عليكم وسخطاً لدينكم . وقوله: ﴿ تُسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُؤَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ﴾ أى : تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . إِنْ يَتَّقُواكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ ﴾ أى: لو قدروا عليكم لما أبقوا فيكم من أذى ينالونكم به بالمقال والفعال ﴿ وَوَدَّوْا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ أى : ويحرصون على ألا تنالوا خيراً ، فهم عداوتهم لكم كامنة وظاهرة ، فكيف توالون مثل هؤلاء ؟ وهذا تهيج على عداوتهم أيضاً .

وقوله: ﴿ لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أى : قرباتكم لا تنفعكم عند الله إذا أراد الله بكم سوءاً ، ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما يسخط الله، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخسر وصل عمله ، ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد، ولو كان قريباً إلى نبي من الأنبياء . روى الإمام أحمد عن أنس ، أن رجلاً قال : يا رسول الله : أين أبى؟ قال : « فى النار » فلما قفى دعاه فقال: « إن أبى وأباك فى النار » . ورواه مسلم وأبو داود (٢) .

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَّاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا

(١) المسند (٤٠٧/٥) وقال الهيثمى فى الزوائد (٢٣٢/٥): « وفيه الأجلح الكندى وهو ثقة وقد ضعف ، وبقيه رجاله ثقات » .

(٢) المسند (٢٦٨/٣) ومسلم (٢٠٣ ، ٣٤٧) وأبو داود (٤٧١٨) .

عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ
وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾

يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين وعداوتهم ومجانبتهم والتبري منهم : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ أى : وأتباعه الذين آمنوا معه ﴿ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ ﴾ أى : تبرأنا منكم ﴿ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كُفْرًا بِكُمْ ﴾ أى : بدينكم وطريقكم ، ﴿ وَبَدَأَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ أَبَدًا ﴾ يعنى : وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم ، ما دتم على كفركم فنحن أبداً نتبرأ منكم ونبغضكم ﴿ حَتَّىٰ تَوَمَّنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ أى : إلى أن توحدوا الله فتعبده وحده لا شريك له ، وتخلعوا ما تعبدون معه من الأنداد والأوثان . وقوله : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ أى : لكم فى إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها ، إلا فى استغفار إبراهيم لأبيه ، فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه . وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يدعون لأبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم ، ويقولون : إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه ، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ . وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعَدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٣ ، ١١٤] . وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أى : ليس لكم فى ذلك أسوة ، أى : فى الاستغفار للمشركين ، هكذا قال ابن عباس ، وغير واحد .

ثم قال تعالى مخبراً عن قول إبراهيم والذين معه ، حين فارقوا قومهم وتبرؤوا منهم ، فلجؤوا إلى الله وتضرعوا إليه فقالوا : ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ أى : توكلنا عليك فى جميع الأمور ، وسلمنا أمورنا إليك ، وفوضناها إليك ﴿ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ أى : المعاد فى الدار الآخرة . ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قال مجاهد : معناه : لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا : لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا . وكذا قال الضحاك . وقال قتادة لا تُظهِرهم علينا فيفتنوا بذلك ، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه . واختاره ابن جرير . وقال ابن عباس : لا تسلطهم علينا فيفتنونا . وقوله : ﴿ وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : واستر ذنوبنا عن غيرك ، واعف عنها فيما بيننا وبينك ، ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : الذى لا يضام من لاذ بجنايبك ، ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك .

ثم قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ : وهذا تأكيد لما تقدم ومستثنى منه ما تقدم أيضاً لأن هذه الأسوة المثبتة هاهنا هى الأولى بعينها . وقوله :

﴿ لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ : تهيج إلى ذلك لكل مؤمن بالله والمعاد. وقوله : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ : أى : عما أمر الله به ، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ كقوله : ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٨] . وقال ابن عباس : ﴿ الْغَنِيُّ ﴾ : الذى قد كمل فى غناه ، وهو الله ، هذه صفته لا تنبغى إلا له ، ليس له كفاء ، وليس كمثلته شئ ، سبحانه الله الواحد القهار . ﴿ الْحَمِيدُ ﴾ : المستحمد إلى خلقه ، أى : هو المحمود فى جميع أفعاله وأقواله ، لا إله غيره ، ولا رب سواه .

ربيع ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ ﴾ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوا مِنْ دِينِكُمْ وَظَلَمُوا عَلَيْهِمْ أَنْ تُقَاتِلُوهُمْ وَمَنْ يُقَاتِلْهُمْ فَإِنَّهُمْ أَعْتَدُوا لَكُمْ

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَةً ﴾ أى : محبة بعد البغضة ، ومودة بعد النفرة ، والقة بعد الفرقة ﴿ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ﴾ أى : على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة والمتباينة والمختلفة ، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة ، فتصبح مجتمعة متفقة ، كما قال تعالى ممتناً على الأنصار : ﴿ وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِيَعْتَةً إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٣] . وكذا قال لهم النبي ﷺ : « ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ؟ » (١) . وقال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ بِالْمُؤْمِنِينَ . وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٢ ، ٦٣] . وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى : يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه وأتابوا إلى ربهم وأسلموا له ، وهو العفور الرحيم بكل من تاب إليه ، من أى ذنب كان .

وقوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ ﴾ أى : لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم فى الدين ، كالنساء والضعفة منهم ، ﴿ أَنْ تَبَرُّوهُمْ ﴾ أى : تحسنوا إليهم ﴿ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ أى : تعدلوا ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ . روى الإمام أحمد عن أسماء - هى بنت أبى بكر - قالت : قدمت أمى وهى مشركة فى عهد قريش إذ عاهدوا ، فأتيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إن أمى قدمت وهى راغبة ، أفأصلها ؟ قال : « نعم ، صلى أمك » أخرجاه (٢) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن الزبير ، قال :

(١) رواه البخارى (٤٣٣٠) .

(٢) المسند (٦ / ٣٤٤ ، ٣٤٧) والبخارى (٢٦٢٠ ، ٣١٨٣ ، ٥٩٧٨) .

قدمت قتيلة على ابنتها أسماء ابنة أبي بكر بهدايا: ضباب وقرظ وسمن ، وهى مشركة ، فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها . فسألت عائشة النبى ﷺ ، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ إلى آخر الآية ، فأمرها أن تقبل هديتها ، وأن تدخلها بيتها (١) . وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسَطِينَ ﴾ : تقدم تفسير ذلك فى سورة « الحجرات » ، وأورد الحديث الصحيح: « المقسطون على منابر من نور عن يمين العرش ، الذين يعدلون فى حكمهم ، وأهاليهم ، وما وكروا » (٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ ﴾ : أى : إنما ينهاكم عن موالة هؤلاء الذين ناصبوكم العداوة ، فقاتلوكم وأخرجوكم ، وعاونوا على إخراجكم ، ينهاكم الله عن موالاتهم ويأمركم بمعاداتهم . ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [المائدة : ٥١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ ۗ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا يَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنَفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا ءَايَنْتُمُوهُنَّ أُجْرَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُفَّارِ وَسَلُّوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلَسْتُمْ لَهُمْ ءَافِقُوهُمُ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شِقَّةٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَتَاوُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنَفَقُوا ۗ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِىَ أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

تقدم فى سورة « الفتح » ذكر صلح الحديبية الذى وقع بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش ، فكان فيه : « على الا يأتيك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا » . وفى رواية: «على أنه لا يأتيك منا أحد - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا». وهذا قول عروة ، والضحاك ، وعبد الرحمن ابن زيد ، والزهرى ، ومقاتل ، والسدى . فعلى هذه الرواية تكون هذه الآية مخصصة للسنة ، وهذا من أحسن أمثلة ذلك ، وعلى طريقة بعض السلف ناسخة، فإن الله، عز وجل ، أمر عباده المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات أن يمتحنوهن ، فإن علموهن مؤمنات فلا يرجعهن إلى الكفار ، لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ : كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبد الله ورسوله . وقال مجاهد : ﴿ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ : فاسألوهن ، ما جاء بهن ؟ فإن كان جاء بهن غضبٌ على أزواجهن أو سخطة أو غيره ، ولم

(٢) مضى تخريجه عند الآية (٩) من الحجرات .

يؤمنّ فارجعوهن إلى أزواجهن . وقال عكرمة : يقال لها : ما جاء بك إلا حب الله ورسوله ؟ وما جاء بك عشق رجل منا ، ولا فرار من زوجك ؟ فذلك قوله : ﴿ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ . وقال قتادة : كانت محنتهن أن يستحلفن بالله : ما أخرجكن النشوز ؟ وما أخرجكن إلا حب الإسلام وأهله وحرص عليه ؟ فإذا قلن ذلك قبل ذلك منهن .

وقوله : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ : فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقيناً . وقوله : ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ : هذه الآية هي التي حرّمت المسلمات على المشركين ، وقد كان جائزاً في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة ؛ ولهذا كان أبو العاص بن الربيع زوج ابنة النبي ﷺ زينب ، وقد كانت مسلمة وهو على دين قومه ، فلما وقع في الأسارى يوم بدر بعث امرأته زينب في فدائه بقلادة لها كانت لامها خديجة ، فلما رآها رسول الله ﷺ رقى لها رقّة شديدة ، وقال للمسلمين : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فافعلوا » . ففعلوا ، فأطلقه رسول الله ﷺ على أن يبعث ابنته إليه ، فوفى له بذلك وصدقه فيما وعده ، وبعثها إلى رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة ، فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر ، وكانت سنة اثنتين إلى أن أسلم زوجها العاص بن الربيع سنة ثمان فردها عليه بالنكاح الأول ، ولم يحدث لها صداقاً ، كما روى الإمام أحمد عن ابن عباس ، أن رسول الله ﷺ رد ابنته زينب على أبي العاص ، وكانت هجرتها قبل إسلامه بست سنين على النكاح الأول ، ولم يحدث شهادة ولا صداقاً . ورواه أبو داود والترمذى وابن ماجه (١) . ومنهم من يقول : « بعد سنتين » ، وهو صحيح ؛ لأن إسلامه كان بعد تحريم المسلمات على المشركين بستتين . وقال الترمذى : « ليس بإسناده بأس » ولا تعرف وجه هذا الحديث ، ولعله جاء من حفظ داود بن الحصين . وسمعت عبد بن حميد يقول : سمعت يزيد بن هارون يذكر عن ابن إسحاق هذا الحديث ، وحديث ابن الحجاج - يعنى ابن أرتاة - عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، أن رسول الله ﷺ رد ابنته على أبي العاص ابن الربيع بمهر جديد ونكاح جديد . فقال يزيد : حديث ابن عباس أجودُ إسناداً ، والعمل على حديث عمرو بن شعيب .

قلت : وقد روى حديث الحجاج بن أرتاة ، عن عمرو بن شعيب الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه (٢) ، وضعفه الإمام أحمد وغير واحد ، والله أعلم . وأجاب الجمهور عن حديث ابن عباس بأن ذلك كان قضية عين يحتمل أنه لم تنقض عدتها منه ؛ لأن الذى عليه الأكثرون أنها متى انقضت العدة ولم يسلم انفسخ نكاحها منه . وقال آخرون : بل إذا انقضت العدة هي بالخيار ، إن شاءت أقامت على النكاح واستمرت ، وإن شاءت فسخته وذهبت فتزوجت ، وحملوا عليه حديث ابن عباس ، والله أعلم .

(١) المسند (٢٣٦٦) ثم مختصراً برقم (١٨٧٦) وقال الشيخ شاکر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (٢٢٤٠) والترمذى (١١٤٣) وابن ماجه (٢٠٠٩) .

(٢) المسند (٦٩٣٨) والترمذى (١١٤٢) وابن ماجه (٢٠١٠) .

وقوله : ﴿ وَأَتَوْهُم مَّا أَنْفَقُوا ﴾ يعنى : أزواج المهاجرات من المشركين ، ادفعوا إليهم الذى غرموه عليهن من الأصدقة . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والزهرى ، وغير واحد .
 وقوله : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ﴾ يعنى : إذا أعطيتموهن أصدقتهن فانكحوهن ، أى : تزوجوهن بشرطه من انقضاء العدة والولى وغير ذلك . وقوله : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ ﴾ : تحريم من الله ، عز وجل ، على عباده المؤمنين نكاح المشركات ، والاستمرار معهن . وفى الصحيح عن المسور ومروان بن الحكم : أن رسول الله ﷺ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاء نساء من المؤمنات ، فأنزل الله ، عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ ﴾ ، فطلق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتين ، تزوج إحداهما معاوية بن أبى سفيان ، والأخرى صفوان بن أمية (١) . وقال الزهرى : أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ ، وهو بأسفل الحديبية ، حين صالحهم على أنه من أتاه منهم رده إليهم ، فلما جاءه النساء نزلت هذه الآية ، وأمره أن يرد الصداق إلى أزواجهن ، وحكم على المشركين مثل ذلك إذا جاءتهم امرأة من المسلمين أن يردوا الصداق إلى زوجها ، وقال : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ ﴾ . وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقال : وإنما حكم الله بينهم بذلك ، لأجل ما كان بينهم وبينهم من العهد .

وقوله : ﴿ وَأَسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ أَلْوَا مَا أَنْفَقُوا ﴾ أى : وطالبوا بما أنفقتم على أزواجكم اللاتي يذهبن إلى الكفار ، إن ذهبن ، وليطالبوا بما أنفقوا على أزواجهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين .
 وقوله : ﴿ ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ أى : فى الصلح واستثناء النساء منه ، والأمر بهذا كله هو حكم الله يحكم به بين خلقه : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى : عليم بما يصلح عباده ، حكيم فى ذلك .

ثم قال : ﴿ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ﴾ قال مجاهد ، وقتادة : هذا فى الكفار الذين ليس لهم عهد ، إذا فرت إليهم امرأة ولم يدفعوا إلى زوجها شيئاً ، فإذا جاءت منهم امرأة لا يدفع إلى زوجها شيء ، حتى يدفع إلى زوج الداهية إليهم مثل نفقته عليها . وقال الزهرى قال : أقر المؤمنون بحكم الله ، فأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين التى أنفقوا على نسايتهم ، وأبى المشركون أن يقرؤا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المشركين التى أنفقوا على نسايتهم ، وأبى المشركون أن يقرؤا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المسلمين ، فقال الله للمؤمنين به : ﴿ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ فلو أنها ذهبت بعد هذه الآية امرأة من أزواج المؤمنين إلى المشركين ، ردّ المؤمنون إلى زوجها النفقة التى أنفق عليها من العقب الذى بأيديهم ، الذى أمروا أن يردوه على المشركين من نفقاتهم التى أنفقوا على أزواجهم اللاتي آمن وهاجرن ، ثم ردوا إلى المشركين فضلاً إن كان بقى لهم .

والعقب : ما كان بقى من صداق نساء الكفار حين آمنّ وهاجرن . وقال ابن عباس فى هذه الآية : يعنى إن لحقت امرأة رجل من المهاجرين بالكفار ، أمر له رسول الله ﷺ أنه يعطى من الغنيمة مثل ما أنفق . وهكذا قال مجاهد : ﴿ فَعَاقِبْتُمْ ﴾ : أصبتم غنيمة من قريش أو غيرهم ﴿ فَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ﴾ يعنى : مهر مثلها . وهكذا قال مسروق ، وإبراهيم ، وقتادة ، ومقاتل ، والضحاك ، وسفيان ابن حسين ، والزهرى أيضاً . وهذا لا ينافى الأول ؛ لأنه إن أمكن الأول فهو أولى ، وإلا فمن الغنائم اللاتى تؤخذ من أيدي الكفار . وهذا أوسع ، وهو اختيار ابن جرير ، ولله الحمد والمنة .

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعْتَهُنَّ وَأَسْتَعْفِفْنَ لَهَنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

روى البخارى عن عروة ، أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته : أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايَعُكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . قال عروة : قالت عائشة : فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات ، قال لها رسول الله ﷺ : « قد بايعتك » ، كلاماً ، ولا والله ما مست يده يد امرأة قطّ فى المبايعة ، ما يبايعهن إلا بقوله : « قد بايعتك على ذلك » . هذا لفظ البخارى (١) . وروى الإمام أحمد عن أميمة بنت رقيقة قالت : أتيت رسول الله ﷺ فى نساء لنبايعه ، فأخذ علينا ما فى القرآن : ﴿ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا ﴾ الآية ، وقال : « فيما استطعتن وأطقتن » ، قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ، قلنا : يا رسول الله ، ألا تصافحنا ؟ قال : « إنى لا أصافح النساء ، إنما قولى لامرأة واحدة كقولى لمائة امرأة » . هذا إسناد صحيح ، وقد رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه وقال الترمذى : حسن صحيح ، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن المنكدر (٢) . وروى الإمام أحمد عن سلمى بنت قيس - وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ قد صلت معه القبلتين ، وكانت إحدى نساء بنى عدى بن النجار - قالت : جئت رسول الله ﷺ نبايعه فى نسوة من الأنصار ، فلما شرط علينا : ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف - قال : « ولا تغششن أزواجكن » . قالت : فبايعناه ، ثم انصرفنا ، فقلت لامرأة منهن : ارجعى فسلى رسول الله ﷺ : ما غش أزواجنا ؟ قال : فسألته فقال : « تأخذ ماله ، فتحابى به غيره » (٣) .

وروى البخارى عن أم عطية قالت : بايعتنا رسول الله ﷺ ، فقرأ علينا : ﴿ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ

(١) البخارى (٤٨٩١) .

(٢) المسند (٦ / ٣٥٧) والترمذى (١٥٩٧) والنسائى (٤١٨١) وابن ماجه (٢٨٧٤) .

(٣) المسند (٦ / ٣٧٩) وقال الهيثمى فى الزوائد (٦ / ٣٨) : « رجاله ثقات » .

شَيْئًا ﴿١﴾ ، ونهانا عن التِّيَاحَةِ ، فقبضت امرأة يدها ، فقالت : أسعدتني فلانة أريد أن أجزئها .
فما قال لها رسول الله شيئا ، فانطلقت ورجعت فبايعها . ورواه مسلم . وفي رواية : « فما وفى
منهن امرأة غيرها ، وغير أم سليم ابنة ملحان » (١) . وللبخارى عن أم عطية قالت : أخذ علينا
رسول الله ﷺ عند البيعة ألا ننوح ، فما وقّت منا امرأة غير خمس نسوة : أم سليم ، وأم
العلاء ، وابنة أبي سبرة امرأة معاذ ، وامرأتان - أو : ابنة أبي سبرة ، وامرأة معاذ ، وامرأة
أخرى (٢) .

وقد كان رسول الله ﷺ يتعاهدُ النساءَ بهذه البيعة يوم العيد ، كما روى البخارى عن ابن
عباس قال : شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان ، فكلهم
يصلونها قبل الخطبة ثم يخطب بعدُ ، فنزل نبي الله ﷺ ، فكانى أنظر إليه حين يجلس الرجال
بيده ، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعَنَّ عَلَى
أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِفْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ ،
حتى فرغ من الآية كلها . ثم قال حين فرغ : « أنتن على ذلك ؟ » . فقالت امرأة واحدة ، لم
يجبه غيرها : نعم يا رسول الله - لا يدري الحسن من هى - قال : « فتصدقن » ، قال :
وبسط بلال ثوبه فجعلن يلقين الفتخَ والخواتيم فى ثوب بلال (٣) . وروى الإمام أحمد عن
عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : جاءت أميمة بنت رقيقة إلى رسول الله ﷺ
تبايعه على الإسلام ، فقال : « أبايعك على ألا تشركى بالله شيئا ، ولا تسرقى ، ولا تزنى ،
ولا تقتلى ولدك ، ولا تأتى ببهتان تفتريه بين يديك ورجليك ، ولا تنوحى ، ولا تبرجى
تبرج الجاهلية الأولى » (٤) . وروى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال : كنا عند رسول الله
ﷺ فى مجلس فقال : « تبايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا
تقتلوا أولادكم - قرأ الآية التى أخذت على النساء ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ ﴾ - فمن وفى منكم فأجره
على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به ، فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا
فستره الله عليه ، فهو إلى الله ، إن شاء غفر له ، وإن شاء عذبه » . أخرجاه فى الصحيحين (٥) .

وقال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية يوم الفتح ، فبايع رسول الله ﷺ الرجال على
الصفاء ، وعمر يبايع النساء تحتها عن رسول الله ﷺ ، فذكر بقية كما تقدم وزاد : فلما قال :
﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ ، قالت هند : ربيناهم صغاراً فقتلتموهم كباراً . فضحك عمر بن الخطاب
حتى استلقى .

فقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعَنَّ ﴾ أى : من جاءك منهن يبايع على هذه

(١) البخارى (٤٨٩٢) ومسلم (٩٣٦ / ٣١) .

(٢) البخارى (٤٨٩٥) .

(٣) المسند (٦٨٥٠) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٤) المسند (٣١٤ / ٥) والبخارى (٤٨٩٤) ومسلم (١٧٠٩ / ٤١) .

الشروط ، فبايعها ، ﴿ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَنَّ ﴾ أى : أموال الناس الأجانب ، فأما إذا كان الزوج مقصراً فى نفقتها ، فلها أن تأكل من ماله بالمعروف ، ما جرت به عادة أمثالها ، وإن كان بغير علمه ، عملاً بحديث هند بنت عتبة أنها قالت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطينى من النفقة ما يكفينى ويكفى بنى ، فهل على جناح إن أخذت من ماله بغير علمه ؟ فقال رسول الله ﷺ : «خذى من ماله بالمعروف ما يكفىك ويكفى بنيك» . أخرجاه فى الصحيحين (١) . وقوله : ﴿ وَلَا يَزِينَنَّ ﴾ كقوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢] . وفى حديث سمرّة ذكر عقوبة الزناة بالعذاب الاليم فى نار الجحيم (٢) . وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت : جاءت فاطمة بنت عتبة تباع النبی ﷺ فأخذ عليها : ﴿ أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزِينَنَّ ﴾ الآية ، قالت : فوضعت يدها على رأسها حياء ، فأعجبه ما رأى منها ، فقالت عائشة : أقرى أيتها المرأة ، فوالله ما بايعنا إلا على هذا . قالت : فنعم إذا . فبايعها بالآية (٣) . وقوله : ﴿ وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ : وهذا يشمل قتله بعد وجوده ، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق ، ويعم قتله وهو جنين ، كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء ، تطرح نفسها لثلاث تحبل إما لغرض فاسد أو ما أشبهه . وقوله : ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بَهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ قال ابن عباس : يعنى لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم . وكذا قال مقاتل . وقوله : ﴿ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ يعنى : فما أمرتهن به من معروف ، ونهيتهن عنه من منكر . روى البخارى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ قال : إنما هو شرط شرطه الله للنساء (٤) . وقال ميمون بن مهران : لم يجعل الله لنبية طاعة إلا للمعروف ، والمعروف : طاعة . وقال ابن زيد : أمر الله بطاعة رسوله ، وهو خيرة الله من خلقه فى المعروف . وقد قال غيره عن ابن عباس ، وأنس بن مالك ، وسالم بن أبى الجعد ، وأبى صالح ، وغير واحد : نهاهن يومئذ عن النوح .

وروى ابن جرير عن أم عطية الأنصارية قالت : كان فيما اشترط علينا من المعروف حين بايعنا أبا نوح ، فقالت امرأة من بنى فلان : إن بنى فلان أسعدونى ، فلا حتى أجزئهم فانطلقت فأسعدتهم ، ثم جاءت فبايعت ، قالت : فما وفى منهن غيرها ، وغير أم سليم ابنة ملحان أم أنس بن مالك . وقد روى البخارى هذا الحديث (٥) . وروى ابن جرير عن أم سلمة ، عن رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ ، قال : «النوح» . ورواه الترمذى وابن ماجه . وقال الترمذى : حسن غريب (٦) .

(١) البخارى (٧١٨٠) ومسلم (١٧١٤ / ٧) .

(٢) المسند (١٥ / ٥) . والحديث رواه مسلم (٢٢٧٥ / ٢٣) .

(٣) المسند (١٥١ / ٦) وذكر الهيثمى فى الزوائد (٤٠ / ٦) أن رجاله رجال الصحيح .

(٤) البخارى (٤٨٩٣) .

(٥) ابن جرير فى التفسير (٥٢ / ٢٨) والبخارى (٤٨٩٢) .

(٦) ابن جرير فى التفسير (٥٣ / ٢٨) والترمذى (٣٣٠٧) وابن ماجه (١٥٧٩) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَدْسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَدْسِ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ ﴿١٣﴾

ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين في آخر « هذه السورة » كما نهى عنها في أولها فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني : اليهود والنصارى وسائر الكفار ، ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد ، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأحلاء وقد يسوا من الآخرة ، أى : من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله عز وجل . وقوله : ﴿ كَمَا يَدْسِ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : كما يش الكفار الأحياء من قراباتهم الذين فى القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك ؛ لأنهم لا يعتقدون بعثا ولا نشورا ، فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه . قال ابن عباس : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ إلى آخر السورة ، معنى : من مات من الذين كفروا فقد يش الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم أو يبعثهم الله عز وجل . وقال الحسن البصرى : ﴿ كَمَا يَدْسِ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ قال : الكفار الأحياء قد يسوا من الأموات . وقال قتادة : كما يش الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا . وكذا قال الضحاك . رواه ابن جرير .

والقول الثانى : معناه : كما يش الكفار الذين هم فى القبور من كل خير .

قال ابن مسعود : ﴿ كَمَا يَدْسِ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ قال : كما يش هذا الكافر إذا مات وعاین ثوابه واطلع عليه . وهذا قول مجاهد ، وعكرمة ، ومقاتل ، وابن زيد ، والكلبى ، ومنصور . وهو اختيار ابن جرير .

تفسير سورة الصف

وهي مدنية

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن سلام قال: تذاكرنا: أيكم يأتي رسول الله ﷺ فيسأله: أي الأعمال أحب إلى الله؟ فلم يبق أحد منا، فأرسل رسول الله ﷺ إلينا رجلاً، فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة، يعني سورة الصف كلها. هكذا رواه الإمام أحمد (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُتِنٌ مَرْصُومٌ ﴿٤﴾

تقدم الكلام على قوله: ﴿ سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ غير مرة، بما أغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ إنكار على من يعد وعدا، أو يقول قولاً لا يفى به، ولهذا استد بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً، سواء ترتب عليه غرم للموعود أم لا. واحتجوا أيضاً من السنة بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: « آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان » (٢). وفي الحديث الآخر في الصحيح: « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها » (٣) فذكر منهن إخلاف الوعد. ولهذا أكد تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾. وذهب الإمام مالك، رحمه الله، إلى أنه إذا تعلق بالوعد غرم على الموعود وجب الوفاء به، كما لو قال لغيره: « تزوج ولك على كل يوم كذا ». فتزوج، وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك، لأنه تعلق به حق آدمي، وهو مبنى على المضايقة. وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقاً، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا قرصية الجهاد عليهم، فلما فرض نكل عنه بعضهم، كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كَفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تظلمون فَيَلًا. أَيْنَمَا تُكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ﴾

(١) المسند (٥/ ٤٥٢) والحاكم في المستدرک (٢/ ٤٨٧) ووافقه الذهبي.

(٢) البخاری (٣٣) ومسلم (٥٦/ ١٠٧). (٣) البخاری (٣٤) ومسلم (٦١/ ١٠٦).

[النساء : ٧٧، ٧٨] . وقال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ [الآية : محمد : ٢٠] وهكذا هذه الآية معناها ، كما قال ابن عباس في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لَوَدِدْنَا أَن اللّٰهُ - عز وجل - دلنا على أحب الأعمال إليه ، فنعمل به . فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيماناً به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به . فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمره ، فقال الله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟ ﴾ . وهذا اختيار ابن جرير . وقال مقاتل بن حيان : قال المؤمنون : لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملنا به . فدلهم الله على أحب الأعمال إليه ، فقال : ﴿ إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ ، فبين لهم ، فابتلوا يوم أحد بذلك ، فولوا عن النبي ﷺ مدبرين ، فأنزل الله في ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟ ﴾ وقال : أحبكم إلى من قاتل في سبيلي .

ومنهم من يقول : أنزلت في شأن القتال ، يقول الرجل : قاتلت ، ولم يقاتل . وطعنت ، ولم يطعن وضربت ، ولم يضرب وصبرت ، ولم يصبر . وقال قتادة ، والضحاك : نزلت توبيخاً لِقَوْمٍ كانوا يقولون : « قتلنا ، ضربنا ، طعنا ، وفعلنا » . ولم يكونوا فعلوا ذلك . وقال ابن يزيد : نزلت في قوم من المنافقين ، كانوا يعدون المسلمين النصر ، ولا يقفون لهم بذلك . وقال زيد بن أسلم : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ، قال : في الجهاد . وقال مجاهد : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ كَانْتَهُم بُيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ فما بين ذلك : في نفر من الأنصار ، فيهم عبد الله ابن رواحة ، قالوا في مجلس : لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله ، لعملنا بها حتى نموت . فأنزل الله هذا فيهم . فقال عبد الله بن رواحة : لا أبرح حبيسا في سبيل الله حتى أموت . فقتل شهيداً .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانْتَهُم بُيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ ، فهذا إخبار من الله تعالى بمحبة عباده المؤمنين إذا اصطفوا مواجِهين لأعداء الله في حومة الوغى ، يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله ، لتكون كلمة الله هي العليا ، ودينه هو الظاهر العالى على سائر الأديان . وروى ابن أبى حاتم عن مطرف قال : كان يبلغنى عن أبى ذر حديث كنت أشتهى لقاءه ، فلقيته فقلت : يا أبا ذر ، كان يبلغنى عنك حديث ، فكنت أشتهى لقاءك ، فقال : لله أبوك ! فقد لقيت ، فهات . فقلت : كان يبلغنى عنك أنك تزعم أن رسول الله ﷺ حدثكم أن الله يحب ثلاثة ويغض ثلاثة ؟ قال : أجل ، فلا إخالنى أكذب على خليلى ﷺ . قلت : فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله ؟ قال : رجل غزا في سبيل الله ، خرج محتسبا مجاهدا فلقى العدو فقتل ، وأنتم تجدون في كتاب الله المنزل ، ثم قرأ ﴿ إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ

الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بِنِيانٍ مَّرْصُوصٌ ﴿٥﴾ وذكر الحديث . وقد أخرجه الترمذى والنسائى عن أبى ذرٍّ بأبسط من هذا السياق وأتم (١) .

وقال سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ قال : كان رسول الله ﷺ لا يقاتل العدو إلا أن يضافهم ، وهذا تعليم من الله للمؤمنين . قال : وقوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ بِنِيانٍ مَّرْصُوصٌ ﴾ : ملتصق بعضه فى بعض ، من الصف فى القتال . وقال مقاتل بن حيان : ملتصق بعضه إلى بعض . وقال ابن عباس : ﴿ كَأَنَّهُمْ بِنِيانٍ مَّرْصُوصٌ ﴾ : مُتَّبِعٌ ، لا يزول ، ملتصق بعضه ببعض . وقال قتادة : ﴿ كَأَنَّهُمْ بِنِيانٍ مَّرْصُوصٌ ﴾ : ألم تر إلى صاحب البنيان ، كيف لا يحب أن يختلف بنيانه ؟ فكذلك الله عز وجل لا يحب أن يختلف أمره ، وإن الله صف المؤمنين فى قتالهم وصفهم فى صلاتهم ، فعليكم بأمر الله ، فإنه عصمة لمن أخذ به .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَوَلَمْ يَأْتِكُمْ آيَاتُ الرَّسُولِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَلِمَ كَفَرْتُمْ قُلُوبُكُمْ أَزْوَاجٌ لِّقُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكنيسته موسى بن عمران عليه السلام أنه قال لقومه : ﴿ لِمَ تُوذَوْنَ وَيَقُولُونَ لِقَوْمِهِمْ أَلَمْ يَأْتِكُمْ آيَاتُ الرَّسُولِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَلِمَ كَفَرْتُمْ قُلُوبُكُمْ أَزْوَاجٌ لِّقُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم ، وأمر له بالصبر ؛ ولهذا قال : « رحمة الله على موسى : لقد أودى بأكثر من هذا فصبر » (٢) . وفيه نهى للمؤمنين أن ينالوا من النبي ﷺ أو يوصلوا إليه أذى ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴿٦﴾ [الاحزاب : ٦٩] .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أى : فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به ، أزاع الله قلوبهم عن الهدى ، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَقَلْبُ أَفْتَدْتَهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الانعام : ١١٠] وقال ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ١١٥] ولهذا قال الله تعالى فى هذه الآية : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ ﴾ يعنى : التوراة قد بشرت بى ، وأنا مصداق ما أخبرت عنه ، وأنا مبشّر بمن بعدى ، وهو الرسول النبى الأسمى العربى المكى أحمد . فعيسى ، عليه السلام ،

(١) الترمذى (٢٥٦٨) وقال الترمذى : « هذا حديث صحيح » والنسائى (٢٥٧٠) .

(٢) البخارى (٣٤٠٥) ومسلم (١٠٦٢ / ١٤٢) .

هو خاتم أنبياء بنى إسرائيل ، وقد أقام فى ملأ بنى إسرائيل مبشراً بمحمد ، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، الذى لا رسالة بعده ولا نبوة . وما أحسن ما أورد البخارى عن جبير بن مطعم ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن لى أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب » . ورواه مسلم (١) . وروى أبو داود الطيالسى عن أبى موسى قال : سمى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماء ، منها ما حفظنا فقال : « أنا محمد ، وأحمد ، والحاشر ، والمقفى ، ونبى الرحمة ، والتوبة ، والملمحة » . ورواه مسلم (٢) .

وقد قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ [الاعراف: ١٥٧] وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١] . قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد : لئن بعث محمد وهو حى ليتبعنه ، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه . وقال محمد بن إسحاق عن خالد بن معدان ، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا : يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك . قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبُشْرِى عيسى ، ورأت أمى حين حملت بى كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام » (٣) . وهذا إسناد جيد . وروى له شواهد من وجوه أخر ، فروى الإمام أحمد عن العرباض بن سارية قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى عند الله لخاتم النبیین ، وإن آدم لمنجدل فى طيئته ، وسأنبئكم بأول ذلك دَعْوَةُ أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى بى ، ورويا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات النبیین يرين » (٤) .

وروى أحمد أيضا عن أبى أمامة قال : قلت يا نبى الله ، ما كان بدء أمرك ؟ قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبُشْرِى عيسى ، ورأت أمى أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام » (٥) .

وروى أحمد أيضا عن عبد الله بن مسعود قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشى ونحن نحو من ثمانين رجلا ، منهم : عبد الله بن مسعود ، وجعفر ، وعبد الله بن [عُرْفُطَةَ] (٦) ، وعثمان بن مظعون ، وأبو موسى . فأتوا النجاشى ، وبعثت قريش عمرو بن العاص ، وعمارة

(١) البخارى (٤٨٩٦) ومسلم (٢٣٥٤ / ١٢٤) .

(٢) أبو داود الطيالسى فى مسنده (٤٩٢) ومسلم (٢٣٥٥ / ١٢٦) .

(٣) الحاكم فى المستدرک (٦٠٠ / ٢) .

(٤) المسند (١٢٧ / ٤) وقال الهيثمى فى الزوائد (٢٢٦ / ٨) « رواه أحمد بأسانيد وأحد رجالها رجال الصحيح غير

سعید بن سويد وقد وثقه ابن حبان » .

(٥) المسند (٢٦٢ / ٥) وحسنه الهيثمى فى الزوائد (٢٢٥ / ٨) .

(٦) فى المطبوع « روضة » ومكانها يابض بالمخطوطة ، والمثبت من المسند .

ابن الوليد بهدية ، فلما دخلا على النجاشي سَجَدَا له ، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ، ثم قالوا له : إن نقرأ من بنى عمنا نزلوا أرضك ، ورجبوا عنا وعن ملتنا . قال : فأين هم ؟ قالوا : هم فى أرضك ، فابعث إليهم . فبعث إليهم . فقال جعفر : أنا خطيبكم اليوم . فاتبعوه فسلمم ولم يسجد ، فقالوا له : ما لك لا تسجد للملك ؟ قال : إنا لا نسجد إلا لله عز وجل . قال : وما ذاك ؟ قال : إن الله بعث إلينا رسوله ، فأمرنا ألا نسجد لأحد إلا لله عز وجل ، وأمرنا بالصلاة والزكاة .

قال عمرو بن العاص : فإنهم يخالفونك فى عيسى ابن مريم . قال : ما تقولون فى عيسى ابن مريم وأمه ؟ قالوا : نقول كما قال الله عز وجل : هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البتول ، التى لم يمسهما بشر ولم يقرضها ولد . قال : فرفع عوداً من الأرض ثم قال : يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان ، والله ما يزيدون على الذى نقول فيه ، ما يساوى هذا . مرحبا بكم وبمن جتتم من عنده ، أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذى نجد فى الإنجيل ، وأنه الذى بشر به عيسى ابن مريم . انزلوا حيث شئتم ، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيت حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه . وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما ، ثم تعجل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بداراً ، وزعم أن النبى ﷺ استغفر له حين بلغه موته (١) .

وقد رويت هذه القصة عن جعفر وأم سلمة رضى الله عنهما ، وموضع ذلك كتاب السيرة . والمقصد أن الأنبياء عليهم السلام لم تنزل تنعته وتحكيه فى كتبها على أمها ، وتأمرهم باتباعه ونصره وموازرتة إذا بعث . وكان ما اشتهر الأمر فى أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده ، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم ، وكذا على لسان عيسى ابن مريم ؛ ولهذا قالوا : « أخبرنا عن بدء أمرك » يعنى : فى الأرض ، قال : « دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى ابن مريم ، ورؤيا أمى التى رأت » أى : ظهر فى أهل مكة أثر ذلك والإرهاص بذكره صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ قال ابن جرير وابن جرير : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم ﴾ أحمد ، أى : المبشر به فى الأعصار المتقدمة ، المنوه بذكره فى القرون السالفة ، لما ظهر أمره وجاء بالبينات قال الكفرة المخالفون : ﴿ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدَى الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ﴾ يُرِيدُونَ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْمُدَّةِ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿١﴾

يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ ﴾ أى : لا أحد

أظلم ممن يفتري الكذب على الله ، ويجعل له أندادا وشركاء ، وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ . ثم قال : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ أى : يحاولون أن يرُدُّوا الحق بالباطل ، ومثلهم فى ذلك كمثل من يريد أن يطفىئ شعاع الشمس بفيه ، وكما أن هذا مستحيل كذلك ذاك مستحيل ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ ، وقد تقدم الكلام على هاتين الآيتين فى سورة «براءة» ، بما فيه كفاية ، ولله الحمد والمنة (١).

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرُ عَلَىٰ تَجَرَّرٍ نُجِيحِكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٣﴾

تقدم فى حديث عبد الله بن سلام أن الصحابة ، أرادوا أن يسألوا عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ليفعلوه ، فأنزل الله هذه السورة ، ومن جملتها هذا الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرُ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُجِيحِكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ ثم فسر هذه التجارة العظيمة التى لا تبور ، التى هى محصلة للمقصود ومزيلة للمحذور فقال : ﴿ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : من تجارة الدنيا ، والكد لها والتصدى لها وحدها . ثم قال : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ أى : إن فعلتم ما أمرتكم به ودلتكم عليه ، غفرت لكم الزلات ، وأدخلتكم الجنات ، والمسكن الطيبات ، والدرجات العاليات ؛ ولهذا قال : ﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ﴾ أى : وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها ، وهى : ﴿ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أى : إذا قاتلتم فى سبيله ونصرتم دينه ، تكفل الله بنصركم . قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] . وقال تعالى : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] . وقوله : ﴿ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ أى : عاجل . فهذه الزيادة هى خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة ، لمن أطاع الله ورسوله ، ونصر الله ودينه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِّلْحَوَارِيِّينَ مَن أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَثَابَتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ ﴿١٤﴾

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم ، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم ، وأن يستجيبوا لله ولرسوله ، كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال : ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ؟ أى : من مُعِينِي فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟ ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام : ﴿ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ أى : نحن أنصارك على ما أرسلت به ومُؤازرك على ذلك ؛ ولهذا بعثهم دعاة إلى الناس في بلاد الشام في الإسرائيليين واليونانيين . وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج : « من رجل يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي ، فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي؟ » (١) . حتى قَبِضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ الأوس والخزرج من أهل المدينة ، فبايعوه ووازره ، وشارطوه أن يمنعه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم ، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وَقَوَّاهُ بِمَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ؛ ولهذا سماهم الله ورسوله : الأنصار ، وصار ذلك علما عليهم ، رضى الله عنهم ، وأرضاهم .

وقوله : ﴿ قَامَتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتَ طَائِفَةٌ ﴾ أى : لما بلغ عيسى ابن مريم عليه السلام رسالة ربه إلى قومه ، ووازره من وازره من الحواريين ، اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به ، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به ، وجحدوا نبوته ، ورموه وأمه بالعظائم، وهم اليهود - عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة - وغلت فيه طائفة ممن اتبعه ، حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة ، وافترقوا فرقا وشيعا ، فمن قائل منهم : إنه ابن الله . وقائل : إنه ثالث ثلاثة : الأب ، والابن ، وروح القدس . ومن قائل : إنه الله . وكل هذه الأقوال مفصلة في سورة النساء . وقوله : ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْنَا عِدُوهُمْ ﴾ أى : نصرناهم على من عاداهم من فرق النصارى ، ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ أى : عليهم ، وذلك بيعة محمد ﷺ ، كما روى جرير . عن ابن عباس ، قال : لما أراد الله عز وجل أن يرفع عيسى إلى السماء ، خرج إلى أصحابه وهم في بيت اثنا عشر رجلا ، من عين في البيت ، ورأسه يقطر ماء ، فقال : إن منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي . قال : ثم قال : أيكم يلقي عليه شبهي فيقتل مكاني ، ويكون معي في درجتي ؟ قال : فقام شاب من أحدثهم سنا فقال : أنا . قال : فقال له : اجلس . ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب فقال : أنا . فقال له : اجلس . ثم عاد عليهم فقام الشاب ، فقال : أنا . فقال : نعم ، أنت ذاك . قال : فألقى عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى عليه السلام من روضة في البيت إلى السماء ، قال : وجاء الطلب من اليهود ، فأخذوا شبهه فقتلوه وصلبوه ، وكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به ، ففترقوا ثلاث فرق . قالت فرقة : كان الله فينا ما شاء ، ثم صعد إلى السماء . وهؤلاء اليعقوبية . وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ، ثم رفعه إليه وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه إليه ، وهؤلاء المسلمون ، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة ، فقتلوا ، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا ﷺ ، ﴿ قَامَتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتَ طَائِفَةٌ ﴾

(١) المسند (٣/ ٣٢٢) والحاكم في المستدرک (٢/ ٦٢٤) وصححه ، ووافقه الذهبي .

يعنى : الطائفة التى كفرت من بنى إسرائيل فى زمن عيسى ، والطائفة التى آمنت فى زمن عيسى ، ﴿ فَأَيُّدُنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَاصْبِحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار ﴿ فَاصْبِحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ . هذا لفظه فى كتابه عند تفسير هذه الآية الكريمة . وهكذا رواه النسائى (١) .

فأمة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق ، حتى يأتى أمر الله وهم كذلك ، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح ، والله أعلم .

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٨ / ٦٠) والنسائى فى الكبرى (١١٥٩١) .

تفسير سورة الجمعة

وهي مدنية

عن ابن عباس ، وأبي هريرة : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمناققين . رواه مسلم في صحيحه (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبِّهِمْ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَعَاخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾

يخبر تعالى أنه يُسَبِّحُ له ما في السموات وما في الأرض ، أى : من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : ٤٤] . ثم قال تعالى : ﴿ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ ﴾ أى : هو مالك السموات والأرض المتصرف فيهما بحكمه ، وهو المقدس ، أى : المنزه عن النقائص ، الموصوف بصفات الكمال ﴿ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ تقدم تفسيره غير مرة .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ الأُمِّيُّون هم : العرب كما قال تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ إِذَا سَأَلْتُمُوهُمُ فَإِنْ سَأَلْتُمُوهُمُ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٢٠] وتخصيص الأُمِّيِّين بالذكر لا ينفي من عداهم ، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكد ، كما فى قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف: ٤٤] ، وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به . وكذا قوله : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] وهذا وأمثاله لا ينافي قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الاعراف: ١٥٨] ، وقوله : ﴿ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩] ، وقوله إخبارا عن القرآن : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [هود: ١٧] ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته ﷺ إلى جميع الخلق ، أحمرهم وأسودهم ، وقد قدمنا تفسير ذلك فى سورة الأنعام ، بالآيات والأحاديث الصحيحة ، ولله الحمد والمنة .

وهذه الآية هى مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم ، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . فبعثه الله سبحانه وتعالى

(١) مسلم (٨٧٧ / ٦١) عن أبي هريرة (٨٧٩ / ٦٤) عن ابن عباس .

وله الحمد والمنة، على حين فترة من الرسل ، وطُمُوس من السبل ، وقد اشتدت الحاجة إليه ، وقد مقت الله أهل الأرض عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب - أى : نذرا يسيرا - ممن تمسك بما بعث الله به عيسى ابن مريم عليه السلام ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ . وذلك أن العرب كانوا قديما متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام فبدلوه وغيروه ، وقلوبه وخالفوه ، واستبدلوا بالتوحيد شركا ، وباليقين شككا ، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله ، وكذلك أهل الكتابين قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها وأولوها ، فبعث الله محمدا صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق ، فيه هدايتهم ، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم ، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ، ورضا الله عنهم ، والنهي عما يقربهم إلى النار وسخط الله ، حاكم ، فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب فى الأصول والفروع . وجمع له تعالى ، وله الحمد والمنة ، جميع المحاسن ممن كان قبله ، وأعطاه ما لم يُعْطِ أحداً من الأولين ، ولا يعطيه أحداً من الآخرين ، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

وقوله : ﴿ وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ روى البخارى عن أبى هريرة ، قال : كنا جلوسا عند النبى ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة : ﴿ وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ ، قالوا : من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثا ، وفيها سلمان الفارسى ، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لنالته رجال - أو : رجلٌ - من هؤلاء » . ورواه مسلم ، والترمذى ، والنسائى وابن أبى حاتم ، وابن جرير (١) . ففى هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية ، وعلى عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس ؛ لأنه فسر قوله : ﴿ وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ ﴾ بفارس ؛ ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم ، يدعوهم إلى الله عز وجل ، وإلى اتباع ما جاء به ؛ ولهذا قال مجاهد وغير واحد فى قوله : ﴿ وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ قال : هم الأعاجم ، وكل من صدق النبى ﷺ من غير العرب . وعن سهل بن سعد الساعدى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن فى أصلاب أصلاب رجال ونساء من أمتى يدخلون الجنة بغير حساب » ، ثم قرأ : ﴿ وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ (٢) . يعنى : بقية من بقى من أمة محمد ﷺ . وقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : ذو العزة والحكمة فى شرعه وقدره . وقوله : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ يعنى : ما أعطاه الله محمدا ﷺ من النبوة العظيمة ، وما خصص به أمته من بعثته ﷺ .

(١) البخارى (٤٨٩٧) ومسلم (٢٥٤٦ / ٢٣٠) والترمذى (٣٣١٠) وابن جرير فى التفسير (٦٢ / ٢٨) .

(٢) الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٠١ / ٦) وقال الهيثمى فى الزوائد (٤٠٨ / ١٠) : « إسناده جيد » ، وقال الألبانى :

« إسناده صحيح ، رجاله كلهم ثقات » انظر : ضلال الجنة فى تخريج أحاديث السنة (٣٠٩) .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنِ الْمَوْتُ الَّذِي تَفْرُوتُ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّهِ وَالشَّهَادَةُ فَبَيْنَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾

يقول تعالى ذاماً لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها ، ثم لم يعملوا بها ، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارا ، أى : كمثل الحمار إذا حمل كتبا لا يدرى ما فيها ، فهو يحملها حملاً حسياً ولا يدرى ما عليه . وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذى أوتوه ، حفظوه لفظاً ولم يفهموه ، ولا عملوا بمقتضاه ، بل أولوه وحرفوه وبدلوه ، فهم أسوأ حالا من الحمير ؛ لأن الحمار لا يفهم له ، وهؤلاء لهم فهم لم يستعملوها ؛ ولهذا قال فى الآية الأخرى : ﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الاعراف : ١٧٩] . وقال هاهنا : ﴿ بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب ، فهو كمثل الحمار يحمل أسفارا ، والذى يقول له « أنصت » ، ليس له جمعة » (١) .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى : إن كنتم تزعمون أنكم على هدى ، وأن محمداً وأصحابه على ضلالة ، فادعوا بالموت على الضال من الفتنين ﴿ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فيما تزعمونه . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ ﴾ أى : بما يعملون لهم من الكفر والظلم والفجور ، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ . وقد قدمنا فى سورة « البقرة » الكلام على هذه المباهلة لليهود ، حيث قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ . وَلَن يَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يُوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْحَرَ حِيَةٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٩٤ - ٩٦] . وقد أسلفنا الكلام هناك ، وبيننا أن المراد أن يدعوا على الضلال من أنفسهم أو خصومهم ، كما تقدمت مباهلة النصرارى فى آل عمران : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَآبَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران : ٦١] ومباهلة المشركين فى سورة مريم : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ [مريم : ٧٥] . وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال أبو جهل لعنه الله : إن رأيت محمداً عند الكعبة لآتيته حتى أطأ على عنقه . قال : فقال رسول الله ﷺ : « لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ، ولو أن

(١) المسند (٢٠٣٣) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده حسن » .

اليهود تَمَنُّوا الموتَ لَمَاتُوا ورَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ . ولو خَرَجَ الَّذِينَ يَبَاهِلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِرَجْعُوا لَا يَجِدُونَ مَا لَا وَلَا أَهْلًا » . رواه البخارى والترمذى والنسائى (١) .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ كقوله تعالى فى سورة النساء : ﴿ أَلَيْسَ تَكُونُوا يَدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ [النساء : ٧٨] .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢﴾ ﴾

إنما سميت الجمعة جمعة ؛ لأنها مشتقة من الجمع ، فإن أهل الإسلام يجتمعون فيه فى كل أسبوع مرة بالمعابد الكبار وفيه كمل جميع الخلائق ، فإنه اليوم السادس من الستة التى خلق الله فيها السموات والأرض . وفيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، وفيه تقوم الساعة . وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه كما ثبتت بذلك الأحاديث الصحاح (٢) .

وقد كان يقال له فى اللغة القديمة يوم العروبة . وثبت أن الأمم قبلنا أمروا به فَصَلَّوْا عنه ، واختار اليهود يوم السبت الذى لم يقع فيه خلق ، واختار النصارى يوم الأحد الذى ابتدئ فيه الخلق ، واختار الله لهذه الأمة يوم الجمعة الذى أكمل الله فيه الخليفة ، كما أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا . ثم هذا يومهم الذى قرَضَ الله عليهم ، فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غداً ، والنصارى بعد غد » (٣) . لفظ البخارى . وفى لفظ لمسلم : « أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا . فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد . فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة ، فجعل الجمعة والسبت والأحد ، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة ، نحن الآخرون من أهل الدنيا ، والأولون يوم القيامة ، المقضى بينهم قبل الخلائق » (٤) .

وقد أمر الله المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى : أقصدوا واعمدوا واهتموا فى مسيركم إليها ، وليس المراد بالسعى هاهنا المشى السريع ، وإنما هو الاهتمام بها ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [الإسراء : ١٩] . وكان عمر بن الخطاب وابن مسعود يقرآنها : « فامضوا إلى

(١) المسند (٢٢٢٥) والبخارى (٤٩٥٨) والترمذى (٣٣٤٨) والنسائى فى الكبرى (١١٦٨٥) .

(٢) انظر - على سبيل المثال ما رواه مسلم (٨٥٢ / ١٣) عن أوس بن أوس ، (١٧ / ٨٥٤) عن أبى هريرة .

(٣) البخارى (٨٧٦ ، ٨٩٦) ومسلم (١٩ / ٨٥٥) . (٤) مسلم (٢٢ / ٨٥٦) .

ذكر الله». فأما المشى السريع إلى الصلاة فقد نهى عنه ، لما أخرجاه في الصحيحين ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة ، وعليكم السكينة والوقار ، ولا تسرعوا ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فاتموا ». لفظ البخارى (١) . وعن أبي قتادة قال : بينما نحن نصلى مع النبي ﷺ إذ سمع جلبة رجال ، فلما صلى قال : « ما شأنكم ؟ » . قالوا : استعجلنا إلى الصلاة . قال : « فلا تفعلوا ، إذا أتيتم الصلاة فامشوا وعليكم بالسكينة ، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فاتموا » . أخرجاه (٢) . قال الحسن : أما والله ما هو بالسعى على الأقدام ، ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ، ولكن بالقلوب والنية والخشوع . وقال قتادة فى قوله : ﴿ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ يعنى : أن تسعى بقلبك وعملك ، وهو المشى إليها ، وكان يتأولُ قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ﴾ [الصفات: ١٠٢] أى : المشى معه . روى عن محمد ابن كعب ، وزيد بن أسلم ، وغيرهما نحو ذلك .

ويستحب لمن جاء الجمعة أن يغتسل قبل مجيئه إليها ، لما ثبت فى الصحيحين عن عبد الله ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل » (٣) . ولهما عن أبى سعيد ، قال : قال رسول الله ﷺ « غُسلُ يوم الجمعة واجب على كل محتلم » (٤) . وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « حق لله على كل مسلم أن يغتسل فى كل سبعة أيام ، يغسل رأسه وجسده » . رواه مسلم (٥) . وروى الإمام أحمد عن أوس بن أوس الثقفى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من غَسَلَ واغتسل يوم الجمعة ، وبكر وابتكر ، ومشى ولم يركب ، ودنا من الإمام واستمع ولم يلغ كان له بكل خطوة أجر سنة ، أجر صيامها وقيامها » . وهذا الحديث له طرق وألفاظ ، وقد أخرجه أهل السنن الأربعة وحسنه الترمذى (٦) . وعن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « من اغتسل يوم الجمعة غُسلَ الجنابة ، ثم راح فكأنما قرب بدنة ، ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن ، ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر » أخرجاه (٧) .

ويستحب له أن يلبس أحسن ثيابه ، ويتطيب ويتسوك ، ويتنظف ويتطهر . وفى حديث أبى سعيد المتقدم : « غُسلُ يوم الجمعة واجب على كل محتلم ، والسواك ، وأن يمَس من طيب أهله » . وروى الإمام أحمد عن أبى أيوب الأنصارى : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من اغتسل يوم الجمعة ومَس من طيب أهله - إن كان عنده - ولبس من أحسن ثيابه ، ثم خرج

- (١) البخارى (٦٣٦) ومسلم (٦٠٢ / ١٥١) .
 (٢) البخارى (٦٣٥) ومسلم (٦٠٣ / ١٥٥) .
 (٣) البخارى (٨٧٧) ومسلم (٨٤٤ / ١) .
 (٤) البخارى (٨٧٩) ومسلم (٨٤٦ / ٧) .
 (٥) البخارى (٨٩٧) ومسلم (٨٤٩ / ٩) .
 (٦) المسند (١٠٤ / ٤) والترمذى (٤٩) وابن ماجه (١٠٨٧) .
 (٧) البخارى (٨٨١) ومسلم (٨٥٠ / ١٠) .

حتى يأتى المسجد فيركع - إن بدا له - ولم يؤذ أحداً، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلى ، كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى « (١). وعن عائشة : أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم الجمعة ، فرأى عليهم ثياب النمار، فقال: «ما على أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعته، سوى ثوبى مهنته». رواه ابن ماجه (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ ﴾ : المراد بهذا النداء هو النداء الثانى الذى كان يفعل بين يدى رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر ، فإنه كان حينئذ يؤذن بين يديه ، فهذا هو المراد ، فأما النداء الأول الذى زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فإنما كان هذا لكثرة الناس ، كما رواه البخارى عن السائب بن يزيد قال: كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر ، فلما كان عثمان بعد زمن ، وكثر الناس، زاد النداء الثانى على الزوراء (٣) . يعنى : يؤذن به على الدار التى تسمى بالزوراء ، وكانت أرفع دار بالمدينة ، بقرب المسجد. وإنما يؤمر بحضور الجمعة الرجال الأحرار دون النساء والعبيد والصبيان ، ويعذر المسافر والمريض ، وقِيم المريض، وما أشبه ذلك من الأعذار ، كما هو مقرر فى كتب الفروع . وقوله : ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ أى : اسعوا إلى ذكر الله واتركوا البيع إذا نودى للصلاة : ولهذا اتفق العلماء على تحريم البيع بعد النداء الثانى . واختلفوا : هل يصح إذا تعاطاه متعاط أم لا ؟ على قولين، وظاهر الآية عدم الصحة كما هو مقرر فى موضعه، والله أعلم. وقوله : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : ترككم البيع وإقبالكم إلى ذكر الله وإلى الصلاة خيرٌ لكم ، أى : فى الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون .

وقوله : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ ﴾ أى : فرغ منها ، ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ : لَمَّا حَجَرَ عَلَيْهِمْ فى التصرف بعد النداء وأمرهم بالاجتماع ، أذن لهم بعد الفراغ فى الانتشار فى الأرض والابتغاء من فضل الله . كان عراك بن مالك إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد ، فقال : اللهم ، أجبْتُ دعوتَكَ ، وصليتُ فريضتك ، وانتشرت كما أمرتني ، فارزقني من فضلك ، وأنت خير الرازقين. وروى عن بعض السلف أنه قال : من باع واشترى يوم الجمعة بعد الصلاة ، بارك الله له سبعين مرة، لقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ . وقوله : ﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أى : فى حال بيعكم وشرايتكم ، وأخذكم وعطائكم ، اذكروا الله ذكرا كثيرا ، ولا تشغلكم الدنيا عن الذى ينفعكم فى الدار الآخرة وقال مجاهد : لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيرا ، حتى يذكر الله قائما وقاعدا ومضطجعا .

(١) المسند (٥ / ٤٢٠) .

(٢) ابن ماجه (١٠٩٦) وفى الزوائد للبوصيرى : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » .

(٣) البخارى (٩١٢) .

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِو
وَمِنَ النَّجْرَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (١١)

يعاتب تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التي قدمت المدينة يومئذ ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ أى : على المنبر تخطب . هكذا ذكره غير واحد من التابعين ، منهم : أبو العالية ، والحسن ، وزيد ابن أسلم ، وقتادة . وزعم مقاتل بن حبان : أن التجارة كانت لحدية بن خليفة قبل أن يسلم ، وكان معها طبل ، فانصرفوا إليها وتركوا رسول الله ﷺ قائماً على المنبر إلا القليل منهم . وقد صحّ بذلك الخبر ، فروى الإمام أحمد عن جابر قال : قَدِمْتُ عِيرَ الْمَدِينَةِ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ ، فَخَرَجَ النَّاسُ وَيُقَى اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا ، فَنَزَلْتُ : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا ﴾ . أخرجاه فى الصحيحين (١) . وروى الحافظ أبو يعلى : عن جابر بن عبد الله قال : بينما النبى ﷺ يخطب يوم الجمعة ، فقدمت عيرٌ إلى المدينة ، فابتدراها أصحابُ رسول الله ﷺ ، حتى لم يبق مع رسول الله ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً ، فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لو تابعتهم حتى لم يبق منكم أحد ، لسال بكم الوادى ناراً » ، ونزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ ، وقال : كان فى الاثنى عشر الذين ثَبَّتُوا مع رسول الله ﷺ : أبو بكر ، وعمر ، رضى الله عنهما (٢) .

وفى قوله : ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ دليل على أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائماً . وقد روى مسلم فى صحيحه عن جابر بن سمرّة قال : كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما ، يقرأ القرآن ويذكر الناس (٣) . وقوله : ﴿ قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى : الذى عند الله من الثواب فى الدار الآخرة ﴿ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِو وَمِنَ النَّجْرَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ أى : لمن توكل عليه ، وطلب الرزق فى وقته .

(١) المسند (٣١٣/٣) والبخارى (٤٨٩٩) ومسلم (٣٦/٨٦٣) .

(٢) أبو يعلى فى مسنده (١٨٨٨) ، والحديث رواه مسلم (٣٦/٨٦٣) .

(٣) مسلم (٣٤/٨٦٢) .

تفسير سورة المنافقين

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ
 إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا
 كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾
 ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ
 صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَنَالَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾

ربع

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين : أنهم إنما يتفوهون بالإسلام إذا جاؤوا النبي ﷺ ، فأما في باطن الأمر فليسوا كذلك ، بل على الضد من ذلك ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ أي : إذا حضروا عندك واجهوك بذلك ، وأظهروا لك ذلك ، وليس كما يقولون : ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله ، فقال : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ . ثم قال : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي : فيما أخبروا به ، وإن كان مطابقاً للخارج ؛ لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه ؛ ولهذا كذبهم بالنسبة إلى اعتقادهم .

وقوله : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي : اتقوا الناس بالأيمن الكاذبة والحلفات الآثمة ، ليصدقوا فيما يقولون ، فاعتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم ، فاعتقد أنهم مسلمون ، وربما اقتدى بهم فيما يفعلون وصدقهم فيما يقولون ، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالاً ، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس . ولهذا قال تعالى : ﴿ فَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . ولهذا كان الضحاک بن مزاحم يقرؤها : « اتَّخَذُوا إِيْمَانَهُمْ جُنَّةً » أي : تصديقهم الظاهر جنة ، أي : تقية يتقون به القتل . والجمهور يقرؤها : ﴿ أَيْمَانَهُمْ ﴾ جميع يمين . وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أي : إنما قدر عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران ، واستبدالهم الضلالة بالهدى ﴿ فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أي : فلا يصل إلى قلوبهم هدى ، ولا يخلص إليها خير ، فلا تعى ولا تهتدى .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ﴾ أي : كانوا أشكالا حسنة وذوى فصاحة والسنة ، إذا سمعهم السامع يصغى إلى قولهم لبلاغتهم ، وهم مع ذلك في غاية الضعف والخور والهلع والجزع والجن ؛ ولهذا قال : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : كلما وقع أمر أو

كائنة أو خوف ، يعتقدون ، لجبنهم ، أنه نازل بهم ، كما قال تعالى : ﴿ أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ أَوْلَيْتُكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [الاحزاب : ١٩] ، فهم جهامات وصور بلا معاني . ولهذا قال : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ قَاتِلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أى : كيف يُصرفون عن الهدى إلى الضلال . وقد روى الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا عبد الملك بن قدامة الجُمحى ، عن إسحاق بن بكر بن أبي الفرات ، عن سعيد بن أبي سعيد المقبرى . عن أبيه ، عن أبي هريرة ، رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إن للمنافقين علامات يعرفون بها : تحيتهم لعنة ، وطعامهم نُهبَةٌ ، وغنيمتهم غلول ، ولا يقربون المساجد إلا هَجْرًا ولا يأتون الصلاة إلا دُبْرًا ، مستكبرين لا يَأْلَفُونَ ولا يُؤْلَفُونَ ، حُشْبٌ بالليل ، صُخْبٌ بالنهار » . وقال يزيد مرةً : سُخْبٌ بالنهار (١) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ ٥ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ حِزَابُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لِنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين - عليهم لعائن الله - أنهم ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُ رُءُوسَهُمْ ﴾ أى : صدوا وأعرضوا عما قيل لهم ، استكباراً عن ذلك ، واحتقاراً لما قيل لهم . ولهذا قال : ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ . ثم جازاهم على ذلك فقال : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ، كما قال فى سورة

(١) المسند (٧٩١٣) ، وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده حسن - ثم قال - : النهية - بضم النون وسكون الهاء : اسم الانتهاج ، كالنهي ، بالالف المقصورة ، وقوله : « لا يقربون المساجد إلا هَجْرًا » هو بفتح الهاء من « هَجْرًا » والهجر : الترك والإعراض عن الشيء . يعنى : أنهم لا يقربون المساجد ، بل يهجرونها . وقوله : « ولا يأتون الصلاة إلا دُبْرًا » : هو بفتح الدال المهملة وسكون الموحدة ، أى : آخرًا ، حين كاد الإمام أن يفرغ . « حُشْبٌ بالليل » : أى ينامون الليل لا يصلون . شبههم فى تمددهم نياماً بالحُشْبِ المطرحة . قال ابن الأثير : « تضم الشين ، وتسكن تخفيفاً » . « صُخْبٌ بالنهار » : بضم الصاد المهملة والحاء المعجمة . وفى الرواية الأخرى ليزيد فى الحديث « سُخْبٌ بالسين المهملة . والسُخْبُ والصُخْبُ : الضجة واضطراب الأصوات للخصام . قال الزمخشري فى الفائق : ٣٤٥ « والأصل السين . . . والصاد بدل . والذى أبدلت له وقوع الحاء ، بعدها ، كقولهم : « صخر » فى « سخر » . والغين والقاف والطاء أخوات الحاء فى ذلك . . . والمراد رفع أصواتهم وضجيجهم فى الجدالات والخصومات وغير ذلك » . وقال ابن الأثير : « أى إذا جن عليهم الليل سقطوا نياماً ، كأنهم حُشْبٌ ، فإذا أصبحوا تساخبوا على الدنيا شحاً وحرصاً » .

«براءة» ، وقد تقدم الكلام عن ذلك، وإيراد الأحاديث المروية هناك .

وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في عبد الله بن أبي ابن سلول ، كما سنورده قريباً إن شاء الله تعالى، وبه الثقة وعليه التكلان . وقد قال محمد (١) بن إسحاق في السيرة : ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة - يعنى مَرَجَعَهُ من أحد - وكان عبد الله بن أبي ابن سلول - كما حدثني ابن شهاب الزهري - له مقام يَقُومُهُ كل جُمُعَةٍ لا يُنكر، شَرَفًا له من نفسه ومن قومه، وكان فيهم شريفاً، إذا جلس النبي ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام ، فقال : أيها الناس، هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم، أكرمكم الله به، وأعزكم به، فانصروه وعزّروه، واسمعوا له وأطيعوا. ثم جلس، حتى إذا صَنَعَ يوم أحد ما صنع - يعنى مرجعه بثلاث الجيش - ورجع الناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله ، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا : اجلس ، أى عدو الله ، لست لذلك بأهل، وقد صنعت ما صنعت . فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلت بَجْرًا ؛ أن قُمتُ أشد أمره . فلقى رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا : ويلك . ما لك ؟ قال : قمتُ أشد أمره ، فوثب على رجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني ، لكأنما قلت بَجْرًا ، أن قمت أشد أمره . قالوا : ويلك . ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ . فقال : والله ما أبتغى أن يستغفر لى (٢) .

وقال قتادة والسدي : أنزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي ، وذلك أن غلاما من قرابته انطلق إلى رسول الله ﷺ فحدثه بحديث عنه وأمر شديد ، فدعاه رسول الله ﷺ ، فإذا هو يحلف بالله ويتبرأ من ذلك، وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعذّموه (٣) ، وأنزل الله فيه ما تسمعون، وقيل لعدو الله : لو أتيت رسول الله ﷺ ؟ فجعل يلوى رأسه ، أى : لست فاعلا وإن ذلك كان في غزوة المُرَيْسِع ، وهى غزوة بنى المصطلق .

قال يونس بن بُكَيْرٍ، عن ابن إسحاق: حدثني محمد بن يحيى بن حَبَّان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عَمْرٍ بن قتادة ، فى قصة بنى المصطلق : فبينما رسول الله مقيم هناك ، اقتتل على الماء جَهْجَاه بن سعيد الغفارى - وكان أجيرا - لعمر بن الخطاب ، وسان بن وَبْر قال ابن اسحاق: فحدثني محمد بن يحيى بن حَبَّان قال: ازدحما على الماء فاقتلا ، فقال سنان: يا معشر الأنصار. وقال الجهجاه : يا معشر المهاجرين - وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند عبد الله بن أبي - فلما سمعها قال: قد ثاورونا فى بلادنا. والله ما مثلنا وجلايب قریش هذه إلا كما قال القائل : «سَمَنَ كلبك يأكلك» . والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من عنده من قومه وقال : هذا ما صنعتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو كفتهم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها. فسمعها زيد بن الأرقم ، فذهب بها إلى رسول الله ﷺ وهو عُليْمٌ - وعنده ابن الخطاب -

(١) فى المطبوعة حُرِّفَ إلى : « عبد الله » . (٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٦٩) .

(٣) فى المطبوعة : « غرموه » وهو تصحيف . ومعنى « عذّموه » : أخذوه بالستهم .

فأخبره الخبر ، فقال عمر : يا رسول الله مرُّ عبّاد بن بشرٍ فليضرب عنقه . فقال ﷺ : « فكيف إذا تحدث الناس - يا عمر - أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ، ولكن ناد يا عمر في الرحيل » . فلما بلغ عبد الله بن أبي أن ذلك قد بلغ رسول الله ﷺ ، أتاه فاعتذر إليه ، وحلف بالله ما قال ما قال عليه زيد بن أرقم - وكان عند قومه بمكان - فقالوا : يا رسول الله ، عسى أن يكون هذا الغلام أوهم ولم يثبت ما قال . وراح رسول الله ﷺ مهجراً في ساعة كان لا يروح فيها ، فلقبه أسيد بن الحضير فسلم عليه بتحية النبوة ، ثم قال : والله لقد رُحّت في ساعة منكّرة ما كنت تروح فيها . فقال رسول الله ﷺ : « أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبي ؟ . زعم أنه إذا قدم المدينة أنه سيخرج الأعرز منها الأذل » . قال : فأنت - يا رسول الله - العزيز وهو الذليل . ثم قال : يا رسول الله ارفق به فوالله لقد جاء الله بك وإنا لننظم له الخرز لتُوجه ، فإنه ليرى أن قد استلبته ملكا . فسار رسول الله ﷺ بالناس حتى أمسوا ، وليلته حتى أصبحوا ، وصدرَ يومه حتى اشتد الضحى . ثم نزل بالناس ليشغلهم عما كان من الحديث ، فلم يأمن الناس أن وجدوا مس الأرض فناموا ، ونزلت سورة المنافقين (١) .

وروى الحافظ أبو بكر البيهقي عن جابر بن عبد الله قال : كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فكسَع رجلٌ من المهاجرين رجلا من الأنصار ، فقال الأنصاري : يالأنصار . وقال المهاجري : يا للمهاجرين . فقال رسول الله ﷺ : « ما بال دعوى الجاهلية ؟ دعواها فإنها منتنة » . وقال عبد الله بن أبي ابن سلول - وقد فعلوها - : والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل . قال جابر : وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ ثم كثر المهاجرون بعد ذلك ، فقال عمر : دعنى أضرب عنق هذا المنافق . فقال النبي ﷺ : « دعه ؛ لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » . ورواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم نحوه (٢) .

وروى الإمام أحمد عن زيد بن أرقم قال : كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فقال عبد الله ابن أبي : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل . قال : فاتيت النبي ﷺ فأخبرته ، قال : فحلف عبد الله بن أبي أنه لم يكن شيء من ذلك . قال : فلا منى قومي وقالوا : ما أردت إلى هذا؟ قال : فانطلقت فتمتُ كئيبا حزينا ، قال : فأرسل إلى نبي الله ﷺ فقال : « إن الله قد أنزل عذركَ وصدّقك » . قال : فنزلت هذه الآية ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تَنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ﴾ حتى بلغ : ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل ﴾ ورواه البخاري والترمذي والنسائي (٣) . ثم روى أحمد أيضا : عن زيد بن أرقم قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فأصاب الناس شدة ، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله . وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/٢٣٦ - ٢٣٨) .

(٢) البيهقي في الدلائل (٤/٥٣) ، والمسند (٣/٣٩٢) ، والبخاري (٧/٤٩٠) ، ومسلم (٤/٢٥٨٤) .

(٣) المسند (٤/٣٦٨) ، والبخاري (٢/٤٩٠) ، والترمذي (١٤/٣٣١٤) ، والنسائي في الكبرى (١١٩٤) .

الأذل . فأتيت النبي ﷺ فأخبرته بذلك ، فأرسل إلى عبد الله بن أبي فسأله ، فاجتهد يمينه ما فعل . فقالوا : كذب زيد يا رسول الله . فوقع في نفسى ما قالوا ، حتى أنزل الله تصديقى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ . قال : ودعاهم رسول الله ﷺ ليستغفر لهم ، فلجأوا رؤوسهم . وقوله تعالى : ﴿ كَانَهُمْ حُشْبٌ مُسْتَدَّةٌ ﴾ قال : كانوا رجالا أجمل شيء . وقد رواه البخارى ومسلم والنسائى والترمذى (١) .

وروى أبو عيسى الترمذى عن زيد بن أرقم قال : غزونا مع رسول الله ﷺ وكان معنا أناس من الأعراب ، فكنا نبتدر الماء ، وكان الأعراب يسبقوننا يسبق الأعرابى أصحابه يملأ الحوض ، ويجعل حوله حجارة ، ويجعل النطع عليه حتى يجىء أصحابه . قال : فأتى رجل من الأنصار الأعرابى ، فأرخصى زمام ناقته لتشرب ، فأبى أن يدعه ، فانتزع حجراً ففاض الماء ، فرفع الأعرابى خشبة ، فضرب بها رأس الأنصارى فشجّه ، فأتى عبد الله ابن أبى رأس المنافقين فأخبره - وكان من أصحابه - فغضب عبد الله بن أبى ، ثم قال : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله - يعنى الأعراب - وكانوا يحضرون رسول الله ﷺ عند الطعام . فقال عبد الله لأصحابه : إذا انفضوا من عند محمد فاتتوا محمداً بالطعام ، فليأكل هو ومن عنده ، ثم قال لأصحابه : إذا رجعتم إلى المدينة فليخرج الأعراب منها الأذل . قال زيد : وأنا ردفت عمى ، فسمعت عبد الله فأخبرت عمى ، فانطلق فأخبر رسول الله ﷺ ، فأرسل إليه رسول الله ، فحلف وجحد ، قال : فصدقه رسول الله ﷺ وكذبنى ، فجاء إلى عمى فقال : ما أردت إلا أن مقتك رسول الله ﷺ وكذبتك والمسلمون . فوقع على من الغم ما لم يقع على أحد قط ، فبينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ فى سفر وقد خفقت برأسى من الغم ، إذ أتانى رسول الله ﷺ فعرّك أذنى ، وضحك فى وجهى ، فما كان يسرنى أن لى بها الخلد فى الدنيا ، ثم إن أبا بكر لحقنى وقال : ما قال لك رسول الله ﷺ قلت : ما قال لى رسول الله ﷺ شيئاً ، غير أن عرك أذنى وضحك فى وجهى . فقال : أبشر . ثم لحقنى عمر فقلت له مثل قولى لأبى بكر . فلما أن أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين . انفرد بإخراجه الترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح . وهكذا رواه الحافظ البيهقى وزاد بعد قوله «سورة المنافقين» ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ حتى بلغ : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفِضُوا ﴾ حتى بلغ : ﴿ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ (٢) .

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة : أن عبد الله بن أبى - يعنى لما بلغه ما كان من أمر أبيه - أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا فمرنى به ، فانا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى ، إنى أخشى أن تأمر به غيرى

(١) المسند (٣٧٣/٤) والبخارى (٤٩٠٠ ، ٤٩٠٣) ومسلم (١/٢٧٧٢) والترمذى (٣٣١٢) .

(٢) الترمذى (٣٣١٣) والبيهقى فى الدلائل (٥٤/٤) .

فيقتله ، فلا تدعى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس ، فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار . فقال رسول الله ﷺ : « بل نترفق به ونحسن صحبته ، ما بقى معنا » (١) . وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما : أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة ، وقف عبدُ الله بن عبد الله هذا على باب المدينة ، واستل سيفه ، فجعل الناس يَمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبى قال له ابنه : وراءك . فقال : مالك ؟ وملك . فقال : والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ ، فإنه العزيز وأنت الدليل . فلما جاء رسول الله ﷺ - وكان إنما يسير ساقه - فشكا إليه عبدُ الله بن أبى ابنه ، فقال ابنه عبد الله : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له . فأذن له رسول الله ﷺ ، فقال : أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ فجزُ الآن .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ ﴾

يقول تعالى أمرأ لعباده المؤمنين بكثرة ذكره وناهيا لهم عن أن تشغلهم الأموال والاولاد عن ذلك ومخبراً لهم بأنه من التهيى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خلق له من طاعة ربه وذكره، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ثم حثهم على الإنفاق فى طاعته فقال : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِي أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ، فكل مفرط يندم عند الاحتضار ، ويسأل طول المدة ولو شيئاً يسيراً ، يستعتب ويستدرك ما فاته ، وهيئات ! كان ما كان ، وأتى ما هو آت ، وكل بحسب تفريطه ، أما الكفار فكما قال تعالى : ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِيبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْ لَمْ نَكُنْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٤] . وقال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٩ ، ١٠٠] .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أى : لا ينظر أحداً بعد حلول أجله ، وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقاً فى قوله وسؤاله ممن لو ردّ لعاد إلى شر مما كان عليه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

تفسير سورة التغابن

وهي مدنية ، وقيل : مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ ﴾

هذه السورة هي آخر المُسَبِّحات ، وقد تقدم الكلام على تسبيح المخلوقات لبارئها ومالكها ؛ ولهذا قال : ﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ أى : هو المتصرف فى جميع الكائنات ، المحمود على جميع ما يخلق ويقدر . وقوله : ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى : مهما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع ، وما لم يشأ لم يكن ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ أى : هو الخالق لكم على هذه الصفة ، وأراد منكم ذلك ، فلا بد من وجود مؤمن وكافر ، وهو البصير بمن يستحق الهداية من يستحق الضلال ، وهو شهيد على أعمال عباده ، وسيجزئهم بها أتم الجزاء ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

ثم قال : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أى : بالعدل والحكمة ، ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أى : أحسن أشكالكم ، كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ . فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانظار : ٦ - ٨] ، وكقوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ الآية [غافر : ٦٤] ، وقوله : ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى : المرجع والمآب . ثم أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السماوية والأرضية والنفسية ، فقال : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ففَقَالُوا أَأَبْشَرُ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَعْتَقَ اللَّهُ وَاللَّهُ عَنِّي حَمِيدٌ ﴿٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأمم الماضين ، وما حل بهم من العذاب والنكال ؛ فى مخالفة الرسل والتكذيب بالحق ، فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى : خبرهم وما كان من

أمرهم ، ﴿ فَدَأَفُوا وَيَلْأَمْرِهُمْ ﴾ : أى : وخيم تكذيبهم وردى أفعالهم ، وهو ما حل بهم فى الدنيا من العقوبة والحزى ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ : أى : فى الدار الآخرة مضاف إلى هذا الدنيا . ثم علل ذلك فقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ : أى : بالحجج والدلائل والبراهين ﴿ فَقَالُوا أَبَشْرُ يَهُدُونَنَا ﴾ ؟ : أى : استبعدوا أن تكون الرسالة فى البشر ، وأن يكون هداهم على يدى بشر مثلهم ، ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ﴾ : أى : كذبوا بالحق ونكلوا عن العمل ، ﴿ وَأَسْتَفْتَى اللَّهُ ﴾ : أى : عنهم ، ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِبَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعِنُنَّ ثُمَّ لَنُنَبِّئَنَّ بِمَا عَمَلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ﴿ ٧ ﴾ ﴿ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ﴿ ٨ ﴾ ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفَرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ﴿ ٩ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ ﴿ ١٠ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين والكفار والملحدن أنهم يزعمون أنهم لا يعيئون : ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعِنُنَّ ثُمَّ لَنُنَبِّئَنَّ بِمَا عَمَلْتُمْ ﴾ : أى : لتُخبرن بجميع أعمالكم ، جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ، ﴿ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ : أى : بعثكم ومجازاتكم . وهذه هى الآية الثالثة التى أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه ، عز وجل ، على وقوع المعاد ووجوده ، فالأولى فى سورة يونس : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ بِأَقْحَقِ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لِحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ [يونس: ٥٣] ، والثانية فى سورة سبأ : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ الآية [سبأ: ٣] ، والثالثة هى هذه : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِبَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعِنُنَّ ثُمَّ لَنُنَبِّئَنَّ بِمَا عَمَلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾ : يعنى : القرآن ، ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ : أى : فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾ : وهو يوم القيامة ، سُمى بذلك لأنه يجمع فيه الأولون والآخرين فى صعيد واحد ، يسمعهم الداعى وَيَنْفِذُهُمُ البصر ، كما قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَوْمَ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ [هود: ١٠٣] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ [الواقعة: ٤٩ ، ٥٠] . وقوله : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ قال ابن عباس : هو اسم من أسماء يوم القيامة . وذلك أن أهل الجنة يغيبون أهل النار . وكذا قال قتادة ومجاهد . وقال مقاتل بن حيان : لا غيب أعظم من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة ، ويذهب بأولئك إلى النار . قلت : وقد فسر ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفَرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ . وقد تقدم تفسير مثل هذه غير مرة .

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً بما أخبر به في سورة الحديد : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ [الحديد: ٢٢] ، وهكذا قال هاهنا : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ قال ابن عباس : بأمر الله ، يعنى : عن قدره ومشئته . ﴿ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى : ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره ، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله ، هدى الله قلبه ، وعوّضه عما فاته من الدنيا هدى فى قلبه ، وبقيناً صادقاً ، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه ، أو خيراً منه . قال ابن عباس : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ ﴾ يعنى : يهد قلبه لليقين ، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه . وقال سعيد ابن جبير ، ومقاتل بن حيان : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ ﴾ يعنى : يسترجع ، يقول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦] . وفى الحديث المتفق عليه : « عجباً للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته ضرراً صبر فكان خيراً له ، وإن أصابته سرّاً شكر فكان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » (١) .

وقوله : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ : أمر بطاعة الله ورسوله فيما شرع ، وفعل ما به أمر وترك ما عنه نهى وزجر ، ثم قال : ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أى : إن نكلتم عن العمل فإنما عليه ما حُمِّل من البلاغ ، وعليكم ما حُمِّلتم من السمع والطاعة . قال الزهرى : من الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم . ثم قال تعالى مخبراً أنه الأحد الصمد ، الذى لا إله غيره ، فقال : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، فالأول خبرٌ عن التوحيد، ومعناه معنى الطلب، أى: وحدوا الإلهية له، وأخلصوا لديه ، وتوكلوا عليه ، كما قال تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [الزمر: ٩] .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوَّكُمْ لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفَهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأزواج والأولاد : أن منهم من هو عدو الزوج والوالد ، بمعنى : أنه يلتهم به عن العمل الصالح ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَلْهَمُوا أَمْوَالَكُمُ وَلَا أَوْلَادَكُمُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المنافقون : ٩] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ قال ابن زيد : يعنى على دينكم . وقال مجاهد : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ ﴾ قال : يحمل الرجل على قطعة الرحم أو معصية ربه ، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه . وعن ابن عباس - وسأله رجل عن هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ - قال : فهؤلاء رجال أسلموا من مكة ، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوه ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقَّهوا في الدين ، فهموا أن يعاقبهم ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . رواه الترمذى وقال : حسن صحيح . ورواه ابن جرير والطبرانى (١) .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالَكُمُ وَأَوْلَادُكُمُ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ : يقول تعالى : إنما الأموال والأولاد فتنة ، أى : اختبار وابتلاء من الله لخلقه . ليعلم من يطيعه من يعصيه . وقوله : ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ كما قال : ﴿ زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَرْحَابِ [ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَأْتَبِ ﴾ والتي بعدها [آل عمران : ١٤، ١٥] . وروى الإمام أحمد : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنى حسين بن واقد ، حدثنى عبد الله بن بريدة ، عن أبى بريدة قال : كان رسول الله ﷺ يخطب ، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ، ثم قال : « صدق الله ورسوله ، إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما » . ورواه أهل السنن وقال الترمذى : حسن غريب (٢) . وروى الإمام أحمد : عن الأشعث بن قيس قال : قدمت على رسول الله ﷺ فى وفد كندة ، فقال لى : « هل لك من ولد ؟ » قلت : غلام وولد لى فى مخرجى إليك من ابنة جمد ، وكوددت أن بمكانه : شبع القوم . قال : « لا تقولن ذلك ، فإن فيهم قرعة عين ، وأجراً إذا قبضوا » ، ثم قال : « ولئن قلت ذلك : إنهم لمجينة محزنة ، إنهم لمجينة محزنة » تفرد به أحمد (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ أى : جهدكم وطاقتكم . كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه : فاجتنبوه » (٤) . وقد قال زيد بن أسلم : إن هذه الآية العظيمة ناسخة للتي فى

(١) الترمذى (٣٣١٧) وابن جرير فى التفسير (٨٠/٢٨) والطبرانى فى المعجم الكبير (٢٧٥/١١) .

(٢) المسند (٣٥٤/٥) ، وأبو داود (١١٠٩) ، والترمذى (٣٧٧٤) .

(٣) المسند (٢١١/٥) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٥٨/٨) : « رواه أحمد والطبرانى وفيه مجالد بن سعيد وهو ضعيف وقد وثق وبقية رجال أحمد رجال الصحيح » .

(٤) البخارى (٧٢٨٨) .

«آل عمران» وهى قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] .

وقال سعيد بن جبير فى قوله: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ قال : لما نزلت الآية اشتد على القوم العمل، فقاموا حتى رمت عراقبيهم وتقرحت جباههم ، فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ فنسخت الآية الأولى. وروى عن قتادة ، والربيع ابن أنس ، والسُّدِّىّ، ومُقاتل ، نحو ذلك .

وقوله: ﴿ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا ﴾ أى: كونوا منقادين لما يأمركم الله به ورسوله ، ولا تحيدوا عنه يمئة ولا يسرة ، ولا تقدموا بين يدى الله ورسوله ، ولا تتخلفوا عما به أمرتم ، ولا تركبوا ما عنه زُجرتم . ﴿ وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ ﴾ أى: وابدلوا مما رزقكم الله على الأثارب والفقراء والمساكين وذوى الحاجات، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن إليكم، يكن خيراً لكم فى الدنيا والآخرة ، وإن لا تفعلوا يكن شراً لكم فى الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَفِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾: تقدم تفسيره فى سورة « الحشر » وذكر الأحاديث الواردة فى معنى هذه الآية ، بما أغنى عن إعادته هاهنا ، ولله الحمد والمنة ، وقوله: ﴿ إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ أى: مهما أنفقتم من شىء فهو يخلفه ، ومهما تصدقتم من شىء فعليه جزاءه ، ونزل ذلك منزلة القرض له ، كما ثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول: «من يقرض غير ظلوم ولا عديم» (١) . ولهذا قال: ﴿ يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ ﴾ كما تقدم فى سورة البقرة : ﴿ فَيُّضَاعِفْهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة: ٢٤٥] . ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ أى : ويكفر عنكم السيئات. ولهذا قال: ﴿ وَاللَّهُ شَكُورٌ ﴾ أى: يجزى على القليل بالكثير ﴿ حَلِيمٌ ﴾ أى : يصفح ويغفر ويستر، ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات . ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾: تقدم تفسيره غير مرة .

تفسير سورة الطلاق

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبِّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَنْحِشَةٍ مُبِينَةٍ
وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ
ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾

خُوطب النبي ﷺ أولاً تشريعاً وتكريماً ، ثم خاطب الأمة تبعاً فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا
طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ .

وروى البخارى عن سالم : أن عبد الله بن عمر أخبره : أنه طلق امرأة له وهى حائض ،
فذكر عمرُ لرسول الله ﷺ ، فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال : « ليراجعها ، ثم يمسكها حتى
تطهر ، ثم تحيض فتطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها ، فتلك العدة
التي أمر الله ، عز وجل » (١) . هكذا رواه البخارى ومسلم ، ولفظه : « فتلك العدة التي أمر
الله أن يطلق لها النساء » (٢) . وأمسُ لفظ يورد هاهنا ما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى الزبير :
أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن - مولى عزة - يسأل ابن عمر وأبو الزبير يسمع ذلك : كيف
ترى فى رجل طلق امرأته حائضاً ؟ فقال : طلق ابن عمر امرأته حائضاً على عهد رسول الله
ﷺ ، فسأل عمر رسول الله ﷺ فقال : إن عبد الله بن عمر طلق امرأته وهى حائض ، فقال
رسول الله ﷺ : « ليراجعها » فردّها ، وقال : « إذا طهرت فليطلق أو يمسك » . قال ابن عمر :
وقرأ النبي ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ (٣) .

وقال عبد الله [بن مسعود] فى قوله : ﴿ فَطَلِقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ قال : الطهر من غير جماع .
وروى عن ابن عمر ، وعطاء ، ومجاهد ، والحسن ، وابن سيرين ، وقتادة ، وميمون بن مهران ،
ومقاتل بن حيان مثل ذلك . وهو رواية عن عكرمة ، والضحاك . وقال ابن عباس فى قوله
تعالى : ﴿ فَطَلِقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ قال : لا يطلقها وهى حائض ولا فى طهر قد جامعها فيه ، ولكن :
تركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة . وقال عكرمة : ﴿ فَطَلِقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ العدة :
الطهر ، والقرء : الحيضة ، أن يطلقها حبلى مستبيناً حملها ، ولا يطلقها وقد طاف عليها ، ولا

(٢) البخارى (٥٢٥١) ومسلم (١/١٤٧١) .

(١) البخارى (٤٩٠٨) .

(٣) مسلم (١٤/١٤٧١) .

يدرى حبلى هي أم لا . ومن هاهنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى: طلاق سنة، وطلاق بدعة، فطلاق السنة: أن يطلقها طاهراً من غير جماع، أو حاملاً قد استبان حملها . والبدعى: هو أن يطلقها في حال الحيض، أو في طهر قد جامعها فيه، ولا يدري أحملت أم لا؟ وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة، وهو طلاق الصغيرة والآيسة، وغير المدخول بها، وتحرير الكلام في ذلك وما يتعلق به مستقصى في كتب الفروع، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقوله: ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ أى: احفظوها واعرّفوا ابتداءها وانتهاءها؛ لثلاث تطول العدة على المرأة فتمتنع من الأزواج ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ أى: فى ذلك . وقوله: ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرِجَنَّ ﴾ أى: فى مدة العدة لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه، فليس للرجل أن يخرجها، ولا يجوز لها أيضاً الخروج لأنها معتقلة لحق الزوج أيضاً. وقوله: ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ ﴾ أى: لا يخرجن من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة، فتخرج من المنزل، والفاحشة المبيّنة: تشمل الزنا، كما قال ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسيّب، والشعبى، والحسن، وابن سيرين، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير وغيرهم. وتشمل ما إذا نشزت المرأة أو بدّت على أهل الرجل وآذتهم فى الكلام والفعال، كما قاله أبى ابن كعب، وابن عباس، وعكرمة، وغيرهم . وقوله: ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أى: شرائعه ومحارمه ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ ﴾ أى: يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا ياتمر بها ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ أى: بفعل ذلك .

وقوله: ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ أى: إنما أبقينا المطلقة فى منزل الزوج فى مدة العدة، لعل الزوج يندم على طلاقها ويخلق الله فى قلبه رجعتها، فيكون ذلك أيسر وأسهل. عن فاطمة بنت قيس فى قوله: ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ قالت: هى الرجعة. وكذا قال الشعبى، وعطاء، وقتادة، ومن هاهنا ذهب من ذهب من السلف ومن تابعهم، كالإمام أحمد بن حنبل، إلى أنه لا تجب السكنى للمبتوتة، وكذا المتوفى عنها زوجها، واعتمدوا أيضاً على حديث فاطمة بنت قيس الفهرية، حين طلقها زوجها أبو عمرو ابن حفص آخر ثلاث تطليقات، وكان غائباً عنها باليمن، فأرسل إليها بذلك، فأرسل إليها وكيله بشعير - يعنى: نفقة - فتنسخته فقال: والله ليس لك علينا نفقة . فأنت رسول الله ﷺ، فقال: « ليس لك عليه نفقة » . ولمسلم: « ولا سكنى »، وأمرها أن تعتد فى بيت أم شريك، ثم قال: « تلك امرأة يغشاها أصحابى، اعتدى عند ابن أم مكتوم، فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك » الحديث (١) .

وقد رواه الإمام أحمد عن عامر قال: قدمت المدينة فأنيت فاطمة بنت قيس، فحدثتني أن زوجها طلقها على عهد رسول الله ﷺ، فبعته رسول الله ﷺ فى سرية . قالت: فقال لى

أخوه : اخرجني من الدار . فقلت : إن لى نفقة وسكنى حتى يحل الأجل . قال : لا . قالت : فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : إن فلاناً طلقنى ، وإن أخاه أخرجنى ومنعنى السكنى والنفقة ، فأرسل إليه فقال : « مالك ولابنة آل قيس » ، قال : يا رسول الله ، إن أخى طلقها ثلاثاً جميعاً . قالت : فقال رسول الله ﷺ : « انظرى يا بنت آل قيس ، إنما النفقة والسكنى للمرأة على زوجها ما كان له عليها رجعة ، فإذا لم يكن له عليها رجعة فلا نفقة ولا سكنى . اخرجنى فانزلى على فلانة » . ثم قال : « إنه يُتحدّث إليها ، انزلى على ابن أم مكتوم ، فإنه أعمى لا يراك » وذكر تمام الحديث (١) . وروى أبو القاسم الطبرانى عن عامر الشعبي : أنه دخل على فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس القرشى ، وزوجها أبو عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومى ، فقالت : إن أبا عمرو بن حفص أرسل إلى وهو منطلق فى جيش إلى اليمن بطلاقى ، فسألت أولياءه النفقة على والسكنى ، فقالوا : ما أرسل إلينا فى ذلك شيئاً ، ولا أوصانا به . فانطلقت إلى رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إن أبا عمرو بن حفص أرسل إلى بطلاقى ، فطلبت السكنى والنفقة على ، فقال أولياؤه : لم يرسل إلينا فى ذلك بشيء . فقال رسول الله ﷺ : « إنما النفقة والسكنى للمرأة إذا كان لزوجها عليها رجعة ، فإذا كانت لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره فلا نفقة لها ولا سكنى » . وكذا رواه النسائى (٢) .

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوَعِّظُكُمْ بِهُ مَن كَانَ يَؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٦﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغٌ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٧﴾ ﴾

يقول تعالى : فإذا بلغت المعتدات أجلهن ، أى : شارفن على انقضاء العدة وقاربن ذلك ، ولكن لم تفرغ العدة بالكلية ، فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها ، وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أى : محسناً إليها فى صحبتها ، وإما أن يعزم على مفارقتها ﴿ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أى : من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف ، بل يطلقها على وجه جميل وسبيل حسن . وقوله : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ أى : على الرجعة إذا عزمتم عليها ﴿ ذَلِكَ يُوَعِّظُكُمْ بِهِ مَن كَانَ يَؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أى : هذا الذى أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة ، إنما يأتمر به من يؤمن بالله وأنه شرع هذا ، ويخاف عقاب الله فى الدار الآخرة . ومن هاهنا ذهب الشافعى - فى أحد قوليهِ - إلى وجوب الإشهاد

(١) المسند (٦/٣٧٣) ، ومسلم (٢٩٤٢/١١٩) .

(٢) الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٤/٣٨٢) والنسائى (٦/١٤٤) وصححه الألبانى .

فى الرجعة ، كما يجب عنده فى ابتداء النكاح . وقد قال بهذا طائفة من العلماء ، ومن قال بهذا يقول : إن الرجعة لا تصح إلا بالقول ليقع الإشهاد عليها (١) . وقوله : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ أى : ومن يتق الله فيما أمره به ، وترك ما نهاه عنه ، يجعل له من أمره مخرجًا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، أى : من جهة لا تخطر بباله . روى الإمام أحمد عن أبى ذر قال : جعل رسول الله ﷺ يتلو على هذه الآية : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ، حتى فرغ من الآية ، ثم قال : « يا أبا ذر ، لو أن الناس كلهم أخذوا بها كفهم » . قال : فجعل يتلوها ويردها على حتى نعتت ، ثم قال : « يا أبا ذر ، كيف تصنع إن أخرجت من المدينة ؟ » . قلت : إلى السعة والدعة أنطلق ، فأكون حمامة من حمام مكة . قال : « كيف تصنع إن أخرجت من مكة ؟ » . قال : قلت : إلى السعة والدعة ، وإلى الشام والأرض المقدسة . قال : « وكيف تصنع إن أخرجت من الشام ؟ » . قال : قلت : إذا - والذى بعثك بالحق - أضع سيفى على عاتقى . قال : « أو خير من ذلك ؟ » . قلت : أو خير من ذلك ؟ قال : « تسمع وتطيع ، وإن كان عبداً حبشياً » (٢) . وقال عبد الله ابن مسعود يقول : إن أجمع آية فى القرآن : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [النحل : ٩٠] ، وإن أكثر آية فى القرآن فرجاً : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ . وفى المسند : عن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » (٣) .

وقال ابن عباس : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ يقول : ينجيه من كل كرب فى الدنيا والآخرة ، ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ . وقال الربيع بن خثيم : ﴿ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ أى : من كل شىء ضاق على الناس . وقال عكرمة : من طلق كما أمره الله يجعل له مخرجاً . وكذا روى عن ابن عباس ، والضحاك . وقال ابن مسعود : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ : يعلم أن الله إن شاء منع ، وإن شاء أعطى ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ أى ، من حيث لا يدري . وقال قتادة : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ أى : من شبهات الأمور والكرب عند الموت ، ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ ومن حيث لا يرجو أو لا يأمل . وروى الإمام أحمد عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ، ولا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر » . ورواه النسائى وابن ماجه (٤) .

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « والإشهاد عليها - الرجعة - مأمور به باتفاق الأمة ، قيل : أمر إيجاب ، وقيل : أمر استحباب » (مجموعة الفتاوى ٢٣/٢٣ ط . دار الفواء) .

(٢) المسند (١٧٨/٥) .

(٣) المسند (٢٢٣٤) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٤) المسند (٢٧٧/٥) وابن ماجه (٤٠٢٢) . وفى زوائد البوصيرى : « إسناده حسن » ، وعزاه صاحب التحفة

(١٣٣/٢) إلى النسائى وابن ماجه ولكنه استدرك وقال : « حديث النسائى ليس فى الرواية ولم يذكره

أبو القاسم » .

وقال ابن إسحاق : جاء مالك الأشجعي إلى رسول الله ﷺ فقال له : أسر ابني عوف . فقال له رسول الله ﷺ : « أرسل إليه أن رسول الله يأمرك أن تكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله . » وكانوا قد شدوه بالقد فسقط القد عنه ، فخرج ، فإذا هو بناقة لهم فركبها ، وأقبل فإذا بسرح القوم الذين كانوا شدوه فصاح بهم ، فاتبع أولها آخرها ، فلم يفجأ أبويه إلا وهو ينادى بالبواب ، فقال أبوه : عوف ورب الكعبة . فقالت أمه : واسواتاه . وعوف كيف يقدم لما هو فيه من القد فاستبقا الباب والخدام ، فإذا عوف قد ملأ الفناء إيلا ، فقص على أبيه أمره وأمر الإبل ، فقال أبوه : قفا حتى أتى رسول الله ﷺ فأسأله عنها . فأتى رسول الله ﷺ فأخبره بخبر عوف وخبر الإبل ، فقال له رسول الله ﷺ : « اصنع بها ما أحببت ، وما كنت صانعاً بمالك » . ونزل : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ . رواه ابن أبي حاتم (١) .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس : أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً ، فقال له رسول الله ﷺ : « يا غلام ، إني معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف » . وقد رواه الترمذي . وقال : حسن صحيح (٢) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : قال رسول الله ﷺ : « من نزل به حاجة فأنزلها بالناس كان قمناً أن لا تسهل حاجته ، ومن أنزلها بالله أتاه الله برزق عاجل ، أو بموت أجل » (٣) . وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ﴾ أى : منفذ قضاياه وأحكامه فى خلقه بما يريد . ويشاؤه ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ كقوله : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : ٨] .

﴿ وَالَّتِي يَبْسَنَ مِنَ الْمَجِيزِ مِنْ نِسَائِكَ إِنْ أَرَبْتَهُ فَعَدْتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأَوْلَتْ الْأَحْمَالَ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿١﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ لِتَكْرُمِ مِنَ اللَّهِ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرَ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمَ لَهُ أَجْرًا ﴿٢﴾ ﴾

يقول تعالى مبيناً لعدة الآيسة وهى التى قد انقطع عنها الحيض لكبرها: أنها ثلاثة أشهر ، عوضاً عن الثلاثة قروء فى حق من تحيض ، كما دلت على ذلك آية « البقرة » (٤) ، وكذا الصغار اللاتى لم يبلغن سن الحيض أن عدتهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّائِي

(١) الدر المنثور للسيوطى (٦ / ٢٣٣) .

(٢) المسند (٢٦٦٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » والترمذى (٢٣٢٦) .

(٣) المسند (٣٨٤٦ ، ٣٨٦٩ ، ٤٢١٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٤) رقم (٢٢٨) .

لَمْ يَحِضْنَ ﴿ . وقوله: ﴿ إِنْ أَرَبْتُمْ ﴾ فيه قولان: أحدهما وهو قول طائفة من السلف ، كمجاهد ، والزهرى ، وابن زيد : أى إن رأين دما وشككتن فى كونه حيضاً أو استحاضة ، واربتن فيه . والقول الثانى : إن اربتم فى حكم عدتهن ، ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر . وهذا مروى عن سعيد بن جبير ، وهو اختيار ابن جرير .

وقوله : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ يقول تعالى : ومن كانت حاملا فعدتها بوضعه ، ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفوق ناقة ، فى قول جمهور العلماء من السلف والخلف ، كما هو نص هذه الآية الكريمة ، وكما وردت به السنة النبوية . وقد روى عن على ، وابن عباس أنهما ذهبا فى المتوفى عنها زوجها أنها تعتد بأبعد الأجلين من الوضع أو الأشهر ، عملا بهذه الآية الكريمة ، التى فى سورة « البقرة » . وقد روى البخارى عن أبى سلمة قال : جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالس فقال : أفتنى فى امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة . فقال ابن عباس : آخر الأجلين . قلت أنا : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ . قال أبو هريرة : أنا مع ابن أخى يعنى أبا سلمة فأرسل ابن عباس غلامه كريبا إلى أم سلمة يسألها ، فقالت : قُتِلَ زوج سُبَيْعة الأسلمية وهى حبلى ، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة ، فخطبت ، فأنكحها رسول الله ﷺ ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها . وقد رواه البخارى ومسلم وأصحاب الكتب مطولا من وجوه آخر (١) .

وروى الإمام أحمد عن المسور بن مخرمة ، أن سُبَيْعة الأسلمية تُوفى عنها زوجها وهى حامل ، فلم تمكث إلا ليالى حتى وضعت ، فلما تَعَلَّتْ من نفاسها خُطِبَتْ ، فاستأذنت رسول الله ﷺ فى النكاح ، فأذن لها أن تُنكح ، فنكحت . ورواه البخارى فى صحيحه ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه (٢) .

كما روى مسلم عن سبيعة ، أنها كانت تحت سعد بن خولة وكان ممن شهد بدرًا فتوفى عنها فى حجة الوداع وهى حامل ، فلم تَنسَبْ أن وضعت حملها بعد وفاته ، فلما تَعَلَّتْ من نفاسها تجملت للخطاب ، فدخل عليها أبو السنابل بن بَعَكَك فقال لها : ما لى أراك متجملة ؟ لعلك تَرَجِين النكاح ، إنك والله ما أنت بناكح حتى تَمُرَ عليك أربعة أشهر وعشر . قالت سُبَيْعة : فلما قال لى ذلك جَمَعْتُ على ثيابى حين أمسيتُ فأتيتُ رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك ، فأفتانى بأنى قد حَلَلْتُ حين وضعتُ حملى ، وأمرنى بالتزوج إن بدأ لى . هذا لفظ مسلم ، ورواه البخارى مختصراً (٣) ، ثم روى البخارى عن محمد - هو ابن سيرين - قال : كنت فى حلقة فيها عبد الرحمن بن أبى ليلى ، وكان أصحابه يعظمونه ، فذكر آخر الأجلين ، فحدثتُ بحديث سُبَيْعة بنت الحارث عن عبد الله بن عتبة ، قال : فضَمَرَّ لى بعض أصحابه ،

(١) البخارى (٩٠٩ ، ٥٣١٨) ، ومسلم (٥٧/١٤٨٥) .

(٢) المسند (٤ / ٣٢٧) والبخارى (٥٣٢٠) ، ومسلم (١٤٨٤ / ٥٦) وأبو داود (٢٣٠٦) وابن ماجه (٢٠٢٩) .

(٣) مسلم (٥٦ / ١٤٨٤) . وهو عند البخارى (٥٣١٩ ، ٣٩٩١) .

قال محمد : ففطنت له فقلت : إني لجرىءٌ أن أكذبَ على عبد الله وهو في ناحية الكوفة . قال : فاستحيا وقال : ولكن عمه لم يقل ذلك . فلقيت أبا عطية مالك بن عامر فسألته ، فذهب يحدثني بحديث سبعة ، فقلت : هل سمعت عن عبد الله فيها شيئا ؟ فقال : كنا عند عبد الله فقال : أتجعلون عليها التعليل ، ولا تجعلون عليها الرخصة ؟ فنزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ (١) . وروى ابن جرير عن علقمة بن قيس ؛ أن عبد الله بن مسعود قال : من شاء لاعتته ، ما نزلت : ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها . قال : وإذا وضعت المتوفى عنها زوجها فقد حلت . يريد بآية المتوفى عنها زوجها : ﴿ وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيُذِرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة: ٢٣٤] . وقد رواه النسائي (٢) .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ أى : يسهل له أمره ، ويسره عليه ، ويجعل له فرجا قريبا ومخرجاً عاجلاً . ثم قال : ﴿ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ﴾ أى : حكمه وشريعته أنزله إليكم بواسطة رسوله ﷺ ، ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمِ لَهُ أَجْرًا ﴾ أى : يذهب عنه المحذور ، ويجزل له الثواب على العمل اليسير .

﴿ اسْكُنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُوهُنَّ لِضَيْقِوْنَ عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أَوْلَاتٍ حَمْلٌ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بِبَيْنِكُمْ مِمَّا عَرَفْتُمْ وَإِنْ نَعَّسْتُمْ فَسَرِّضُوا لَهُنَّ أُخْرَى ﴿١﴾ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾

يقول تعالى أمراً عباده إذا طلق أحدكم المرأة أن يسكنها في منزل حتى تنقضى عدتها ، فقال : ﴿ اسْكُنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ ﴾ أى : عندكم ، ﴿ مِنْ وَجْدِكُمْ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد: يعنى سَعَتِكُمْ . حتى قال قتادة : وإن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه . وقوله : ﴿ وَلَا تُضَارُوهُنَّ لِضَيْقِوْنَ عَلَيْهِنَّ ﴾ قال مقاتل بن حيان: يعنى يضاجرها لتفتدى منه بمالها أو تخرج من مسكنه . وقال أبو الضحى : يطلقها ، فإذا بقى يومان راجعها .

وقوله : ﴿ وَإِنْ كُنَّ أَوْلَاتٍ حَمْلٌ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ قال كثير من العلماء منهم ابن عباس ، وطائفة من السلف ، وجماعات من الخلف : هذه فى البائن ، إن كانت حاملاً أنفق عليها حتى تضع حملها ، قالوا: بدليل أن الرجعية تجب نفقتها ، سواء كانت حاملاً أو حائلاً .

(١) البخارى (٤٩١٠) . وقوله : « فضمز لى » : قال ابن الأثير : « قد اختلف فى ضبط هذه اللفظة ، فقيل : هى بالضاد والزاي ؛ من ضَمَزَ إذا سَكَتَ ، وضمز غيره إذا أسكته ، وروى بدل اللام نونا : أى : سَكَنْتَى وهو أشبه . ورويت بالراء والنون . والأول أشبههما » النهاية (٣ / ١٠٠) .

(٢) ابن جرير فى التفسير (٢٨ / ٩٢) والنسائي (٣٥٢٢) وصححه الألبانى .

وقال آخرون : بل السياق كله فى الرجعيات ، وإنما نص على الإنفاق على الحامل وإن كانت رجعية ؛ لأن الحمل تطول مدته غالباً ، فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق إلى الوضع ؛ لثلاثا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة . واختلف العلماء : هل النفقة لها بواسطة الحمل ، أو للحمل وحده ؟ على قولين منصوصين عن الشافعى وغيره ، ويتفرع عليها مسائل مذكورة فى علم الفروع .

وقوله : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ ﴾ أى : إذا وضعن حملهن وهن طوالق ، فقد بين بانقضاء عدتهن ، ولها حينئذ أن ترضع الولد ، ولها أن تمتنع منه ، ولكن بعد أن تغذيه باللبأ وهو باكورة اللبن الذى لا قوام للولد غالباً إلا به فإن أرضعت استحققت أجره مثلها ، ولها أن تعاقد أباه أو وليه على ما يتفقان عليه من أجره ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَآمَرُوا بِبَيْنِكُمْ بِمَعْرُوفٍ ﴾ أى : ولتكن أموركم فيما بينكم بالمعروف ، من غير إضرار ولا مضارة ، كما قال فى سورة « البقرة » : ﴿ لَا تَضَارَّ وَالِدَةٌ بَوْلِدَهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بَوْلِدَهُ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] . وقوله : ﴿ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُم فَسْتَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى ﴾ أى : وإن اختلف الرجل والمرأة ، فطلبت المرأة أجره الرضاع كثيراً ولم يجبها الرجل إلى ذلك ، أو بذل الرجل قليلاً ولم توافقه عليه ، فليسترضع له غيرها . فلو رضيت الأم بما استؤجرت عليه الأجنبية فهى أحق بولدها .

وقوله : ﴿ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ﴾ أى : لينفق على المولود والده ، أو وليه ، بحسب قدرته ، ﴿ وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ كقوله : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] . روى ابن جرير عن أبى سنان قال : سأل عمر بن الخطاب عن أبى عبيدة ، فقيل : إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل أحسن الطعام ، فبعث إليه بألف دينار ، وقال للرسول : انظر ما يصنع بها إذا هو أخذها : فما لبث أن لبس اللين من الثياب ، وأكل أطيب الطعام ، فجاء الرسول فأخبره ، فقال : رحمه الله ، تأول هذه الآية : ﴿ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ : وعدهم الله تعالى ، ووعدته حق ، وهو لا يخلفه ، وهذه كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥ ، ٦] . وقد روى الإمام أحمد حديثاً يحسن أن نذكره هنا ، فقال أبو هريرة : بينا رجل وامرأة له فى السلف الخالى لا يقدران على شىء ، فجاء الرجل من سفره ، فدخل على امرأته جائعاً قد أصابته مسغبة شديدة ، فقال لامرأته : عندك شىء ؟ قالت : نعم ، أبشر ، أتاك رزق الله . فاستحشها ، فقال : ويحك ! ابتغى إن كان عندك شىء . قالت : نعم ، هنيئة - ترجو رحمة الله - حتى إذا طال عليه الطول قال : ويحك ! قومى فابتغى إن كان عندك شىء فائتنى به ، فإنى قد بلغت وجهت . فقالت : نعم ، الآن ينضج التنور فلا تعجل . فلما أن سكت عنها ساعة وتحينت أن يقول لها ،

قالت من عند نفسها : لو قمتُ فَنظرتُ إلى تنورى ؟ فقامتُ فَنظرتُ إلى تنورها ملائِ جنوبَ الغنم ، وَرَحِيهَا تَطْحَنَان . فقامت إلى الرحي فَنَفَضْتَهَا ، واستخرجت ما فى تنورها من جنوب الغنم . قال أبو هريرة : فو الذى نفس أبى القاسم بيده ، عن قول محمد ﷺ : « لو أخذت ما فى رَحِيهَا ولم تنفضها لطحتنها إلى يوم القيامة » (١).

وروى عن أبى هريرة قال : دخل رجل على أهله ، فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البرية ، فلما رأت امرأته قامت إلى الرحي فوضعتها ، وإلى التنور فسَجَرْتَهُ ، ثم قالت : اللهم ارزقنا . فنظرت ، فإذا الجفنة قد امتلأت ، قال : وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئاً ، قال : فرجع الزوج قال : أصبتم بعدى شيئاً ؟ قالت امرأته : نعم ، من ربنا . قام إلى الرحي ، فذكر ذلك للنبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ : « أما إنه لو لم ترفعها ، لم تزل تدور إلى يوم القيامة » (٢) .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَنَّتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأْتِوُلِيَ الْآلِيبِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ لِيُؤْمِنْتُمْ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَعَمِلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لِرَبِّرَقَا ﴿١١﴾ ﴾

يقول تعالى متوعداً لمن خالف أمره ، وكذب رسله ، وسلك غير ما شرعه ، ومخبراً عما حل بالأمم السالفة بسبب ذلك ، فقال : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَنَّتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ﴾ أى : تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله ، ﴿ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكَرًا ﴾ أى : منكرًا فظيماً ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾ أى : غب مخالفتها ، وندموا حيث لا ينفع الندم ، ﴿ وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا . أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أى : فى الدار الآخرة ، مع ما عَجَّلَ لَهُمْ فى الدنيا . ثم قال بعد ما قص من خبر هؤلاء : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾ أى : الأفهام المستقيمة ، لا تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم يا أولى الالباب ، ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى : صدقوا بالله ورسله ، ﴿ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ يعنى : القرآن . كقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] .

وقوله : ﴿ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ قال بعضهم : ﴿ رَسُولًا ﴾ منصوب على أنه بدل اشتمال وملاسة ؛ لأن الرسول هو الذى بلغ الذكر . وقال ابن جرير : الصواب أن الرسول

(١) المسند (٢ / ٤٢١) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠ / ٢٥٧) : « رجاله وثقوا » .

وقوله : « طال عليه الطول » : الطول : التمدادى فى الأمر والتراخى ، والمعنى : طال مكثه وتماديه فى الأمر أو تراضيه عنه . (اللسان) .

(٢) المسند (٢ / ٥١٣) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠ / ٢٥٦) : « رجاله رجال صحيح » .

ترجمة عن الذكر، يعنى: تفسيراً له؛ ولهذا قال: ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ أى: فى حال كونها بينة واضحة جلية ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ كقوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، أى: من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم. وقد سمى الله تعالى الوحي الذى أنزله نوراً؛ لما يحصل به من الهدى، كما سماه روحاً؛ لما يحصل به من حياة القلوب، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرَى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾: قد تقدم تفسير مثل هذا غير مرة، بما أغنى عن إعادته.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته التامة وسلطانه العظيم، ليكون ذلك باعثاً على تعظيم ما شرع من الدين القويم: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ كقوله إخباراً عن نوح أنه قال لقومه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥]. وقال تعالى: ﴿تَسْبِحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أى: سبعا أيضاً، كما ثبت فى الصحيحين: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوّقه من سبع أرضين» (١). وفى صحيح البخارى: «خُسِفَ به إلى سبع أرضين» (٢). وقد تقدم فى سورة «الحديد» عند قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الآية: ٣] ذكر الأرضين السبع، وبعد ما بينهن، وكثافة كل واحدة منهن خمسمائة عام. وهكذا قال ابن مسعود وغيره، وكذا الحديث الآخر: «ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن، والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن فى الكرى، إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة» (٣).

(٢) البخارى (٥٤٥٤).

(١) البخارى (٢٤٥٣) ومسلم (١٦١٢/١٤٢).

(٣) مضى تخريجه عند الآية (٢٥٥) من سورة البقرة.

تفسير سورة التحريم

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَىٰ مَرَضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿١﴾ قَدْ
 فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَىٰ
 بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُمُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ
 قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ نُبُؤًا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ
 تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ
 ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُنَّ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُؤْمِنَاتٍ مَوَدَّاتٍ تَبَسَّطَ بَيْنَهُنَّ
 سَلْجُوتٌ مَبِينَةٌ وَأَنْكَارًا ﴿٥﴾

اختلف في سبب نزول صدر هذه السورة، فقيل: نزلت في شأن مارية، وكان رسول الله ﷺ قد حرّمها، فنزل قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَىٰ مَرَضَاتِ أَزْوَاجِكَ ﴾ الآية.

روى النسائي عن أنس: أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرّمها، فأنزل الله، عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ ؟ إلى آخر الآية (١). وروى ابن جرير عن ابن عباس قال: قلت لعمر بن الخطاب: من المرأتان؟ قال: عائشة وحفصة. وكان بدء الحديث في شأن أم إبراهيم القبطية، أصابها النبي ﷺ في بيت حفصة في نوبتها، فوجدت حفصة، فقالت: يا نبي الله، لقد جئت إلى شيئاً ما جئت إلى أحد من أزواجك، في يومي، وفي دوري، وعلى فراشي. قال: « ألا ترضين أن أحرّمها فلا أقربها؟ ». قالت: بلى. فحرّمها وقال: « لا تذكرى ذلك لأحد ». فذكرته لعائشة، فأظهره الله عليه، فأنزل الله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَىٰ مَرَضَاتِ أَزْوَاجِكَ ﴾ الآيات فبلغنا أن رسول الله ﷺ كفر عن يمينه، وأصاب جاريته (٢).

وروى ابن جرير عن سعيد بن جبير: أن ابن عباس كان يقول في الحرام: يمين تكفرها، وقال ابن عباس: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١] يعني: أن رسول الله حرم جاريته فقال الله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ ؟ إلى قوله: ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ

(١) النسائي في الكبرى (١١٦٠٧).

(٢) ابن جرير في التفسير (١٠٢/٢٨)، وأصله في الصحيحين كما سيأتي بعد قليل.

تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴿١﴾ ، فكفر يمينه ، فصير الحرام يميناً (١) . ورواه البخارى عن ابن عباس: فى الحرام يمين تُكْفَرُ . وقال ابن عباس: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١] . ورواه مسلم من حديث هشام الدستوائى به (٢) .

وروى النسائى عن ابن عباس، أنه أتاه رجل فقال : إني جعلت امرأتى عَلَى حَرَامًا ؟ قال : كذبتَ لَيسَت عليك بحرام . ثم تلا هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ ؟ عليك أغلظ الكفارات ، عتق رقبة . تفرد به النسائى ، بهذا اللفظ (٣) .

ومن هاهنا ذهب من ذهب من الفقهاء ممن قال بوجود الكفارة على من حرم جاريته أو زوجته أو طعاماً أو شراباً أو ملبساً أو شيئاً من المباحات ، وهو مذهب الإمام أحمد وطائفة . وذهب الشافعى إلى أنه لا تجب الكفارة فيما عدا الزوجة والجارية ، إذا حَرَّمَ عينيها أو أطلق التحريم فيهما فى قوله ، فأما إن نوى بالتحريم طلاقَ الزوجة أو عتق الأمة ، نفذ فيهما .

والصحيح أن ذلك كان فى تحريمه العَسَلِ ، كما روى البخارى عند هذه الآية: عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، ويمكث عندها ، فتواطأت أنا وحفصة على : أيتنا دخلَ عليها ، فلتقل له : أكلتَ مَغَافِيرَ ؟ إني أجد منك ريح مغاير . قال : لا ، ولكنى كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، فلن أعود له ، وقد حلفت لا تخبرى بذلك أحداً ، ﴿ تَتَّبِعِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ . ثم قال: المغاير : شبيه بالصمغ ، يكون فى الرمث فيه حلاوة ، أغفر الرمث: إذا ظهر فيه . واحدها مُغْفور ، ويقال : مغاير . وهكذا قال الجوهري ، قال : وقد يكون المغفور أيضاً للعُشْر والثَّمَام والسَّلْم والطلح . قال : والرَّمث ، بالكسر : مرعى من مراعى الإبل ، وهو من الحَمْض . قال : والعرفط : شجر من العضاء ينضح المغفور ورواه مسلم (٤) .

ثم روى البخارى عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يحب الحَلْوَى والعَسَلِ ، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه ، فيدنون من إحداهن . فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس ، فَعُغِرْتُ فسألت عن ذلك ، فقيل لى : أهدت لها امرأة من قومها عُمَّةً عَسَل ، فسقت النبي ﷺ منه شربة ، فقلت : أما والله لنحتالَنَ له . فقلت لسودة بنت زمعة : إنه سيدنوك منك ، فإذا دنا منك فقولى : أكلت مغاير ؟ فإنه سيقول لك : لا . فقولى له : ما هذه الريح التى أجد؟ فإنه سيقول لك : سقتنى حفصة شربة عسل . فقولى : جَرَسَتْ نَحْلُهُ العُرْفُطَ . وسأقول ذلك ، وقولى أنت له يا صفية ذلك ، قالت - تقول سودة - : والله ما هو إلا أن قام على الباب ، فأردت أن أناديه بما أمرتنى فرقا منك ، فلما دنا منها قالت له سودة : يا رسول الله ، أكلت مغاير ؟ قال : « لا » . قالت : فما هذه الريح التى أجد منك ؟

(٢) البخارى (٤٩١١) ومسلم (١٤٧٣/ ١٨) .

(٤) البخارى (٤٩١٢ ، ٥٢٦٧ ، ٦٦٩١) .

(١) ابن جرير فى التفسير (١٠١/ ٢٨) .

(٣) النسائى فى الكبرى (١١٦٠٩) .

قال: « سقتنى حفصة شربة عسل ». قالت: جَرَسَتْ نَحْلُهُ العرفطَ . فلما دار إلى قلت نحو ذلك ، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك ، فلما دار إلى حفصة قالت له: يا رسول الله ، ألا أسقيك منه ؟ قال : « لا حاجة لى فيه » . قالت - تقول سودة - : والله لقد حَرَمْنَاهُ . قلت لها : اسكتى . هذا لفظ البخارى . وقد رواه مسلم (١) . وعنده قالت : وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح يعنى : الريح الخبيثة ؛ ولهذا قلن له : أكلت مغاير لأن ريحها فيه شيء . فلما قال : « بل شربت عسلا » . قلن: جَرَسَتْ نَحْلُهُ العرفطَ ، أى : رَعَتْ نَحْلَهُ شَجَر العرفط الذى صَمَعَهُ المغاير ؛ فلهذا ظهر ريحهُ فى العسل الذى شربته .

والغرض : أن هذا السياق فيه أن حفصة هى الساقية للعسل ، وعن عائشة أن زينب بنت جَحَش هى التى سقت العسل ، وأن عائشة وحفصة تواطأتا وتظاهرتا عليه ، فالله أعلم . وقد يقال : إنهما واقعتان ، ولا بُعْدَ فى ذلك ، إلا أن كونهما سبباً لتزول هذه الآية فيه نظر ، والله أعلم .

ومما يدل على أن عائشة وحفصة هما المتظاهرتان الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبى ﷺ اللتين قال الله تعالى : ﴿ إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ ، حتى حج عمر وحججت معه ، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة . فتبرز ثم أتانى ، فسكبت على يديه فتوضأ ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، من المرأتان من أزواج النبى ﷺ ، اللتان قال الله تعالى : ﴿ إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ ؟ فقال عمر: واعجبا لك يا بن عباس - قال الزهرى: كره - والله ما سألته عنه ولم يكتبه قال: هى حفصة وعائشة . قال : ثم أخذ يسوق الحديث . قال : كنا معشر قريش قوماً نَغْلِبُ النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تَغْلِبُهُمْ نساؤهم ، ففطق نساؤنا يتعلمن من نساتهم ، قال : وكان منزلى فى دار بنى أمية بن زيد بالعوالى . قال : فعضبت يوماً على امرأتى فإذا هى تراجعنى ، فأنكرت أن تُراجِعنى ، فقالت : ما تنكر أن أراجِعك ؟ فوالله إن أزواج رسول الله (٢) ﷺ ليراجعنه ، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل . قال: فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت : أتراجعين رسول الله ﷺ ؟ قالت : نعم . قلت : وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل ؟ قالت : نعم . قلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ، فإذا هى قد هلكت ؟ لا تراجعى رسول الله ولا تسأليه شيئاً ، وسلىنى من مالى ما بدا لك ، ولا يغرنك أن كانت جارتك هى أوسم وأحب إلى رسول الله ﷺ منك - يريد عائشة - قال: وكان لى جار من الأنصار ، وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ ينزل يوماً وأنزل يوماً ، فيأتينى بخبر الوحي وغيره ، وآتية بمثل ذلك . قال : وكنا نتحدث أن غَسَّانُ تُنْعَلُ الخليل لتغزونا ، فنزل صاحبى يوماً ثم أتى عشاء ، فضرب بابى ثم

(١) البخارى (٥٢٦٨) ومسلم (١٤٧٤ / ٢٠) .

(٢) فى المخطوطة والمطبوعة : « النبى » والمثبت من المسند .

ناداني ، فخرجت إليه فقال: حدث أمر عظيم ! فقلت : وما ذاك ؟ أجاءت غسان؟ قال : لا ، بل أعظم من ذلك وأطول ! طَلَّقَ رسول الله ﷺ نساءه ، فقلت : قد خابت حفصةُ وخسرت ، قد كنت أظن هذا كائنا . حتى إذا صليتُ الصبحَ شددتُ على ثيابي ثم نزلت ، فدخلتُ على حفصة وهي تبكي فقلت : أطلقكن رسول الله ﷺ فقالت : لا أدري ، هو هذا معتزل في هذه المشربة . فأتيت غلاماً له أسودٌ فقلت : استأذن لعمر . فدخل الغلام ثم خرج إلى فقال : ذكرتك له فصمت . فانطلقت حتى أتيت المنبر ، فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم ، فجلست قليلاً ، ثم غلبني ما أجد ، فأتيت الغلام فقلت : استأذن لعمر . فدخل ثم خرج فقال : فقد ذكرتك له فصمت . فخرجت فجلست إلى المنبر ، ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام فقلت : استأذن لعمر . فدخل ثم خرج إلى فقال : قد ذكرتك له فصمت . فوليت مديراً فإذا الغلام يدعوني فقال : ادخل ، قد أذن لك . فدخلتُ فسلمتُ على رسول الله ﷺ فإذا هو متكئ على رُمالٍ حصيرٍ قد أثر في جنبه ، فقلت : أطلقتُ يا رسول الله نساءك ؟ فرفع رأسه إلى وقال : « لا » . فقلت : الله أكبر ، لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوماً تغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم ، فطلق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، فغضبتُ على امرأتي يوما ، فإذا هي تراجعني ، فأنكرت أن تراجعني ، فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه ، وتهجره أحدهن اليوم إلى الليل . فقلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسرت ، أفتأمنن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ، فإذا هي قد هلكت . فتبسم رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ، قد دخلتُ على حفصة فقلت : لا يعُرتُك أن كانت جارتُك هي أوسمٌ - أو : أحب - إلى رسول الله ﷺ منك . فتبسم أخرى ، فقلت : أستأنس يا رسول الله . قال : « نعم » . فجلست فرفعت رأسي في البيت ، فوالله ما رأيت في البيت شيئاً يرد البصر إلا أهبةً ثلاثة (١) . فقلت : ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك ، فقد وسع على فارس والروم ، وهم لا يعبدون الله . فاستوى جالساً وقال : « أفي شك أنت يا بن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا » . فقلت : استغفر لي يا رسول الله . وكان أقسم ألا يدخل عليهن شهراً ؛ من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله ، عز وجل . وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي (٢) .

وروى مسلم عن عمر بن الخطاب قال: لما اعتزل نبي الله ﷺ نساءه ، دخلت المسجد ، فإذا الناس يَنكُتُون بالحصى ، ويقولون : طلق رسول الله ﷺ نساءه ! وذلك قبل أن يؤمر بالحجاب . فقلت : لأعلمن ذلك اليوم . . . فذكر الحديث في دخوله على عائشة وحفصة ، ووعظه

(١) في المطبوعة : « مقامه » وأثبت من المسند والمخطوطة .

(٢) المسند (٢٢٢) والبخاري (٤٩١٣ ، ٥١٩١ ، ٢٤٦٨) ومسلم (١٤٧٩ / ٣٠) والترمذي (٣٣١٨) والنسائي (٢١٣٢) . وقوله : « رمال حصير » : هو بضم الراء وتخفيف الميم ، وهو ما رُمِلَ ، أي : نسج . ويقال : « رُمِلَ الحصير » . وقال بعضهم : « الرمال » جمع « رمل » بمعنى مرمول . (من تعليق الشيخ أحمد شاکر على الحديث في شرحه للمسند) .

إياهما ، إلى أن قال : فدخلت ، فإذا أنا برباح غلام رسول الله ﷺ على أسكفة المشربة ، فنادت فقلت : يا رباح ، استأذن لى على رسول الله ﷺ . . . فذكر نحو ما تقدم ، إلى أن قال : فقلت يا رسول الله ما يشق عليك من أمر النساء ، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك ، وقلما تكلمتُ - وأحمد الله - بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولى ، فنزلت هذه الآية ، آية التخيير : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يَدُلَّهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَ ﴾ ، ﴿ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ . فقلت : أطلقتهن ؟ قال : « لا » . فقامت على باب المسجد فنادت بأعلى صوتي : لم يطلق نساءه ، ونزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣] . فكنت أنا استنبطت ذلك الامر (١) . وكذا قال سعيد بن جبیر ، وعكرمة ، ومقاتل بن حیان ، والضحاك ، وغيرهم : ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ : أبو بكر وعمر - زاد الحسن البصرى : عثمان . وقال ليث بن أبى سليم ، عن مجاهد : ﴿ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال : على بن أبى طالب .

وروى البخارى عن أنس ، قال : قال عمر: اجتمع نساء النبى ﷺ فى الغيرة عليه ، فقلت لهن : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يَدُلَّهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَ ﴾ فنزلت هذه الآية (٢) . وقد تقدم أنه وافق القرآن فى أماكن ، منها فى نزول الحجاب ، ومنها فى أسارى بدر ، ومنها قوله : لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؟ فأنزل الله : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥] . وقد تبين مما أوردناه تفسير هذه الآيات الكريمة .

ومعنى قوله : ﴿ مُسْلِمَاتٌ مُّؤْمِنَاتٌ قَانِتَاتٌ تَائِبَاتٌ عَابِدَاتٌ ﴾ ظاهر . وقوله ﴿ سَائِحَاتٌ ﴾ أى : صائحات ، قاله أبو هريرة ، وعائشة ، وابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وسعيد بن جبیر ، وقال زيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن : ﴿ سَائِحَاتٌ ﴾ أى : مهاجرات ، وتلا عبد الرحمن : ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ [التوبة: ١١٢] أى : المهاجرون . والقول الاول أولى ، والله أعلم . وقوله : ﴿ نَبِيَّاتٌ وَأَبْكَارًا ﴾ أى : منهن نبيات ، ومنهن أبكارا ، ليكون ذلك أشهى إلى النفس ، فإن التنوع يبسط النفس ؛ ولهذا قال : ﴿ نَبِيَّاتٌ وَأَبْكَارًا ﴾ .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوًّا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا نَعْتَدِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُؤْبَأُ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا

يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾

عن علي في قوله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ يقول: أدبهم، وعلموهم. وقال ابن عباس: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ يقول: اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصي الله، ومروا أهليكم بالذكر، ينجيكم الله من النار. وقال قتادة: يأمرهم بطاعة الله، وينهاهم عن معصية الله، وأن يقوم عليهم بأمر الله، ويأمرهم به ويساعدهم عليه، فإذا رأيت لله معصية، قدعتهم عنها وزجرتهم عنها. وهكذا قال الضحاك ومقاتل: حق على المسلم أن يعلم أهله، من قرابته وإمانته وعبيده، ما فرض الله عليهم، وما نهاهم الله عنه.

وفي معنى هذه الآية الحديث الذي رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي عن عبد الملك ابن الربيع بن سبرة، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها». هذا لفظ أبي داود، وقال الترمذي: هذا حديث حسن (١). وروى أبو داود، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ مثل ذلك (٢). قال الفقهاء: وهكذا في الصوم؛ ليكون ذلك تمريناً له على العبادة، لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية وترك المنكر، والله الموفق.

وقوله: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾: ﴿وَقُودُهَا﴾ أى: حطبها الذي يلقي فيها جثث بني آدم ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ قيل: المراد بذلك الأصنام التي كانت تعبد لقوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. وقوله: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ﴾ أى: طباعهم غليظة، قد نزعوا من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله، ﴿شِدَادٌ﴾ أى: تركيبهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج. وقوله: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أى: مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه، لا يتأخرون عنه طرفة عين، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه. وهؤلاء هم الزبانية عياداً بالله منهم. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تَجْزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: يقال للكفرة يوم القيامة: لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ أى: توبة صادقة جازمة، تحو ما قبلها من السيئات وتلم شعث التائب وتجمعه، وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات. قال عمر بن الخطاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ قال: يذنب الذنب ثم لا يرجع فيه. وقال: التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه، أو لا يعود فيه. وعن النعمان: سئل عمر عن التوبة النصوح، فقال: أن يتوب الرجل من العمل السيئ، ثم لا يعود إليه أبداً. وعن عبد الله [بن مسعود]: ﴿تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ قال: يتوب ثم لا يعود.

(١) المسند (٣/ ٤٠٤) وأبو داود (٤٩٤) والترمذي (٤٠٧)، وصححه الألباني.

(٢) أبو داود (٤٩٥)، وصححه الألباني.

ولهذا قال العلماء : التوبة النصوح هو أن يُقْلَعَ عن الذنب في الحاضر ، ويندمَ على ما سلف منه في الماضي ، ويعزمَ على ألا يفعل في المستقبل . ثم إن كان الحق لآدمى رده إليه بطريقه . روى الإمام أحمد عن عبد الله بن معقل قال : دخلت مع أبي عليّ عبد الله بن مسعود فقال : أنت سمعت النبي ﷺ يقول : «الندم توبة ؟» . قال : نعم . وقال مرة : نعم سمعته يقول : «الندم توبة» . ورواه ابن ماجه (١) . فأما إذا جزم بالتوبة وصمم عليها فإنها تَجِبُ ما قبلها من الخطيئات ، كما ثبتت في الصحيح : «الإسلام يَجِبُ ما قبله ، والتوبة تجب ما قبلها» (٢) . وهل من شرط التوبة النصوح الاستمرارُ على ذلك إلى الممات، أو يكفى العزم على ألا يعود في تكفير الماضي، بحيث لو وقع منه ذلك الذنب بعد ذلك لا يكون ذلك ضاراً في تكفير ما تقدم ، لعموم قوله، عليه السلام : «التوبة تجب ما قبلها ؟» . وللأول أن يحتج بما ثبت في الصحيح أيضاً : «مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ أَخَذَ بِالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ» (٣) . فإذا كان هذا في الإسلام الذي هو أقوى من التوبة، فالتوبة بطريق الأولى ، والله أعلم .

وقوله : ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ «وعسى» من الله موجبة ، ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي : ولا يخزيهم معه ، يعني : يوم القيامة ، ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ كما تقدم في سورة الحديد ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال مجاهد ، والضحاك ، والحسن البصري وغيرهم : هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نور المنافقين قد طغى .

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهَادَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿١﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتَ نُوحٍ وَأَمْرَاتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴿١﴾

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين ، هؤلاء بالسلاح والقتال ، وهؤلاء بإقامة الحدود عليهم ، ﴿وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ﴾ أي : في الدنيا ، ﴿وَمَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي : في الآخرة . ثم قال تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي : في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم ، أن ذلك لا يجدى عنهم شيئاً ، ولا ينفعهم عند الله ، إن لم يكن الإيمان حاصلًا في قلوبهم ، ثم ذكر المثل فقال : ﴿أَمْرَاتَ نُوحٍ وَأَمْرَاتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ﴾ أي : نبين رسولين عندهما في صحبتهما ليلا ونهاراً، يؤاكلانهما ويضاجعانهما

(١) المسند (٣٥٦٨) وابن ماجه (٤٢٥٢) وفي روايد البوصيري : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » وصحح إسناده

الشيخ أحمد شاکر .

(٣) البخارى (٦٩٢١) ومسلم (١٢٠ / ١٨٩) .

(٢) مسلم (١٢١ / ١٩٢) .

ويعاشرانها أشد العشرة والاختلاط ﴿فَخَانَتْهُمَا﴾ أي: في الإيمان، لم يوافقاهما على الإيمان ، ولا صدقاهما في الرسالة، فلم يُجَد ذلك كله شيئاً، ولا دفع عنهما محذورا؛ ولهذا قال: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ لكفرهما ، ﴿وقيل﴾ أي: للمرأتين: ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ .

وليس المراد: ﴿فَخَانَتْهُمَا﴾ في فاحشة ، بل في الدين ، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة؛ لحُرمة الأنبياء. قال ابن عباس في هذه الآية: ﴿فَخَانَتْهُمَا﴾ قال: ما زنتا ، أما امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه .

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَاتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا كُتُبٌ مِّنَ الْقُرْآنِ ﴿١٢﴾﴾

وهذا مثلٌ ضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضرمهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم، كما قال تعالى: ﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ [آل عمران: ٢٨] . قال قتادة : كان فرعون أعتى أهل الأرض وأبعده ، فوالله ما ضر امرأته كُفْر زوجها حين أطاعت ربها لتعلموا أن الله حكمٌ عدل ، لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه . فقولها: ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار ﴿ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ ﴾ أي : خلصني منه ، فإنني أبرأ إليك من عمله ، ﴿ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ . وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم .

وقوله : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أي : حفظته وصانته . الإحصان : هو العفاف والحرية ، ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ أي : بواسطة المَلَك ، وهو جبريل ، فإن الله بعثه إليها فتمثل لها في صورة بشر سوى ، وأمره الله تعالى أن ينفخ بفيه في جيب درعها ، فنزلت النفخة فوجلّت في فرجها، فكان منه الحمل بعيسى ، عليه السلام . ولهذا قال : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا كُتُبٌ مِّنَ الْقُرْآنِ ﴾ . روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: خطّ رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط، وقال : « أتدرون ما هذا ؟ » قالوا: الله ورسوله أعلم ، فقال رسول الله ﷺ : « أفضل نساء أهل الجنة : خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم ابنة عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون » (١) . وثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري ، عن النبي ﷺ أنه قال : « كَمَلٌ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ، وَلَمْ يَكْمَلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ، وَإِنْ فَضَّلَ عَائِشَةُ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضَّلَ الثَّرِيدُ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ » (٢) .

(١) المسند (٢٦٦٨) وقال الهيمى في الزوائد (٢٢٣/٩): « رجاله رجال صحيح » وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر .

(٢) البخارى (٥٤١٨) ومسلم (٢٤٣١) / ٧٠ .

تفسير سورة الملك

وهي مكية

روى أحمد عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن سورة في القرآن ثلاثين آية شفعت ل صاحبها حتى غفر له : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمَلِكُ ﴾ . ورواه أهل السنن الأربعة . وقال الترمذى : هذا حديث حسن (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجزء
٢٩

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمَلِكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَأَرَجَعَ الْبَصَرَ هَل تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ أَتَّجَعَ الْبَصَرَ كَرْتَيْنِ لِيَقْلِبَ إِلَيْكَ الْبَصَرَ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيدٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ ﴾

يمجد تعالى نفسه الكريمة ، ويخبر أنه بيده الملك ، أى : هو المتصرف فى جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ : ومعنى الآية : أنه أوجد الخلاق من العدم ، ليلوهم ويختبرهم أيهم أحسن عملا ؟ كما قال : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمُوتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨] . فسمى الحال الأول - وهو العدم - موتاً ، وسمى هذه النشأة حياة . ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨] . وقوله : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أى : خير عملا ، كما قال محمد بن عجلان : ولم يقل أكثر عملا ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ أى : هو العزيز العظيم المنيع الجتاب ، وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأتاب ، بعدما عصاه وخالف أمره ، وإن كان تعالى عزيزاً ، هو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز .

ثم قال : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ أى : طبقة بعد طبقة ، وهل هن متواصلات بمعنى أنهن علويات بعضهن على بعض ، أو متفاصلات بينهن خلاء ؟ فيه قولان ، أصحهما الثانى ، كما دل على ذلك حديث الإسراء وغيره .

وقوله : ﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ أى : بل هو مصطحب مستو ، ليس فيه

(١) المسند (٨٢٥٩) وأبو داود (١٤٠٠) والترمذى (٢٨٩١) وابن ماجه (٣٧٨) ، وصححه الألبانى .

اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة ، ولا نقص ولا عيب ولا خلل ؛ ولهذا قال : ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ﴾ أى : انظر إلى السماء فتأملها ، هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو فطوراً ؟ . قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وغيرهم فى قوله : ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ ﴾ أى : شقوق . وقال السدى : أى : من خروق . وقال قتادة : أى : هل ترى خللاً يا بن آدم ؟

وقوله : ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ قال : مرتين ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا ﴾ قال ابن عباس : ذليلاً ؟ وقال مجاهد ، وقتادة : صاغراً ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ قال ابن عباس : يعنى : وهو كليل . وقال مجاهد ، وقتادة ، والسدى : الحسير : المنقطع من الإعياء . ومعنى الآية : إنك لو كررت البصر ، مهما كررت ، لانقلب إليك ، أى : لرجع إليك البصر ، ﴿ خَاسِئًا ﴾ عن أن يرى عيباً أو خللاً ، ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ أى : كليل وقد انقطع من الإعياء من كثرة التكرار ، ولا يرى نقصاً . ولما نفى عنها فى خلقها النقص بين كمالها وزينتها فقال : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ ﴾ وهى الكواكب التى وضعت فيها من السيارات والثواب .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ : عاد الضمير فى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ على جنس المصابيح لا على عينها ؛ لأنه لا يرمى بالكواكب التى فى السماء ، بل بشهب من دونها ، وقد تكون مستمدة منها ، والله أعلم . وقوله : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ أى : جعلنا للشياطين هذا الخزى فى الدنيا ، وأعدنا لهم عذاب السعير فى الأخرى ، كما قال : فى أول الصفات : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ . لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ . إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصفات: ٦-١٠] . قال قتادة : إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال : خلقها زينة للسماء ، ورجوما للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به .

﴿ وَاللَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَأَعْرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا ﴿١١﴾ لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾

يقول تعالى : ﴿ و ﴾ ﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴾ أى : بشس المأل والمنقلب . ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا ﴾ قال ابن جرير : يعنى الصياح ﴿ وَهِيَ تَفُورٌ ﴾ قال الثورى : تغلى بهم كما يغلى الحَب القليل فى الماء الكثير .

وقوله : ﴿ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ أى : تكاد يفصل بعضها من بعض ، من شدة غيظها

عليهم وحقها بهم ، ﴿ كَلِمًا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۚ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۙ ﴾ : يذكر تعالى عدله في خلقه ، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه ، كما قال : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۙ ﴾ [الإسراء: ١٥] . وقال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا فَتَحَتْ أَبْوَابَهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۙ ﴾ [الزمر: ٧١] . وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة ، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة ، فقالوا : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۙ ﴾ أى : لو كانت لنا عقول نتفجع بها أو نسمع ما أنزل الله من الحق ، لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاعتزاز به ، ولكن لم يكن لنا فهم نعى به ما جاءت به الرسل ، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم ، قال الله تعالى : ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۙ ﴾ . روى الإمام أحمد عن أبي البَحْتَرِيِّ (١) الطائى قال : أخبرنى من سمعه من رسول الله ﷺ أنه قال : « لن يهلك الناس حتى يُعذِّروا من أنفسهم » (٢) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٢﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشَوْا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عنم يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائباً عن الناس ، فينكف عن المعاصى ويقوم بالطاعات ، حيث لا يراه أحد إلا الله ، بأنه له مغفرة وأجر كبير ، أى : يكفر عنه ذنوبه ، ويجازى بالثواب الجزيل ، كما ثبت فى الصحيحين : « سبعة يظلهم الله فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله » ، فذكر منهم : « رجلا دعت امرأه ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجلا تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » (٣) .

ثم قال تعالى منها على أنه مطلع على الضمائر والسرائر : ﴿ وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۙ ﴾ أى : بما يخطر فى القلوب ، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ۙ ﴾ ؟ أى : ألا يعلم الخالق . وقيل : معناه : ألا يعلم الله مخلوقه ؟ والأول أولى (٤) ، لقوله : ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۙ ﴾ .

ثم ذكر نعمته على خلقه فى تسخيرها لهم الأرض وتذليله إياها لهم ، بأن جعلها قارة ساكنة لا تميد ولا تضطرب ، بما جعل فيها من الجبال ، وأنبع فيها من العيون ، وسلك فيها من السبل ، وهياً فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار ، فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشَوْا فِي مَنَاكِبِهَا ۙ ﴾ أى : فسافروا حيث شئتم من أقطارها ، وترددوا فى أقاليمها وأرجائها

(١) فى المطبوعة : « البحترى » بالحاء المهملة ، وهو خطأ .

(٢) المسند (٤/ ٢٦٠) ، والحديث رواه أبو داود (٤٣٤٧) ، وصححه الألبانى .

(٣) البخارى (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١/ ٩١) .

(٤) « أولى » : ساقطة من المطبوعة .

فى أنواع المكاسب والتجارات ، واعلموا أن سعيكم لا يجدى عليكم شيئاً ، إلا أن يسره الله لكم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ ، فالسعى فى السبب لا ينافى التوكل ، كما روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال : إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تَغْدُو حِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا » . رواه الترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح (١) . فثبت لها رواحا وغدوا لطلب الرزق ، مع توكله على الله ، عز وجل ، وهو المسخر المسير المسبب . ﴿ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ أى : المرجع يوم القيامة . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدى : ﴿ مَنَاجِيهَا ﴾ : أطرافها وفجاجها ونواحيها . وقال ابن عباس وقتادة : ﴿ مَنَاجِيهَا ﴾ : الجبال . وقال أبو الدرداء : هى الجبال .

﴿ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ ﴿١٦﴾ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعَلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾

وهذا أيضاً من لطفه ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم ، بسبب كفر بعضهم به وعبادتهم معه غيره وهو مع هذا يحلم ويصفح ، ويؤجل ولا يعجل ، كما قال : ﴿ وَلَوْ يُوَاسِعُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٥] . وقال هاهنا : ﴿ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ أى : تذهب وتجيء وتضطرب ، ﴿ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ أى : ريحا فيها حصباء تدمغكم ، كما قال : ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٨] . وهكذا توعدهم هاهنا بقوله : ﴿ فَسَتَعَلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ أى : كيف يكون إنذارى وعاقبة من تخلف عنه وكذب به .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى : من الأمم السابقة والقرون الخالية ، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى : فكيف كان إنكارى عليهم ومعاقبتى لهم ؟ أى : عظيماً شديداً أليماً . ثم قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَائِتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ أى : تارة يصفن أجنحتهن فى الهواء ، وتارة تجمع جناحاً وتشر جناحاً ﴿ مَا يُمَسِّكُهُنَّ ﴾ أى : فى الجو ﴿ إِلَّا الرَّحْمَنُ ﴾ أى : بما سخر لهن من الهواء ، من رحمته ولطفه ، ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ أى : بما يصلح كل شىء من مخلوقاته . وهذه كقوله : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٧٩] .

(١) المسند (٢٠٥) والترمذى (٢٣٤٤) وابن ماجه (٤١٦٤) . وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر .

﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكُفْرَانَ إِيَّا فِي غُرُورٍ ﴿١﴾
 أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُمْ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢﴾ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ
 أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ
 وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٤﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٥﴾ وَيَقُولُونَ
 مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ فَلَمَّا
 رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا غيره ، يبتغون عندهم نصراً ورزقاً ، منكراً عليهم فيما اعتقدوه ، ومُخبراً لهم أنه لا يحصل لهم ما أملوه ، فقال : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ﴾ أى : ليس لكم من دونه من ولى ولا واق ، ولا ناصر لكم غيره ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنْ الْكُفْرَانَ إِيَّا فِي غُرُورٍ ﴾ . ثم قال : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ﴾ ؟ أى : من هذا الذى إذا قطع الله رزقه عنكم يرزقكم بعده ؟ ! أى : لا أحد يعطى ويمنع ويخلق ويرزق ، وينصر إلا الله ، عز وجل ، وحده لا شريك له ، أى : وهم يعلمون ذلك ، ومع هذا يعبدون غيره ؛ ولهذا قال : ﴿ بَلْ لَجُّوا ﴾ أى : استمروا فى طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ أى : معاندة واستكباراً ونفوراً على أديبارهم عن الحق ، لا يسمعون له ولا يتبعونه .

ثم قال : ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ؟ وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ ، أى : يمشى منحنيا لا مستويا على وجهه ، أى : لا يدرى أين يسلك ولا كيف يذهب ؟ بل تائه حائر ضال ، أهذا أهدى ﴿ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا ﴾ أى : منتصب القامة ﴿ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أى : على طريق واضح بين ، وهو فى نفسه مستقيم ، وطريقه مستقيمة . هذا مثلهم فى الدنيا ، وكذلك يكونون فى الآخرة . فالؤمن يحشر يمشى سويًّا على صراط مستقيم ، مُفَضَّسٌ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ الْفِيحَاءِ ، وأما الكافر فإنه يحشر يمشى على وجهه إلى نار جهنم ، ﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ . وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ . مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ . بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ [الصفات: ٢٢- ٢٦] . روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : قيل : يا رسول الله ، كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ فقال : « أليس الذى أمشاهم على أرجلهم قادراً على أن يمشيهم على وجوههم » . وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين (١) .

وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ ﴾ أى : ابتداء خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ أى : العقول والإدراك ، ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أى : قلما تستعملون هذه القوى التى أنعم الله بها عليكم فى طاعته وامتنال أوامره وترك زواجره . ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي

ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴿٢٨﴾ أى : بثكم ونشركم فى أقطار الأرض وأرجائها ، مع اختلاف ألسنتكم فى لغاتكم وألوانكم ، وحلاكم وأشكالكم وصوركم ، ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ﴿٢٩﴾ أى : تُجْمَعُونَ بعد هذا التفرق والشتات ، يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم .

ثم قال مخبراً عن الكفار المنكرين للمعاد المستبعدين وقوعه : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿٣٠﴾ أى : متى يقع هذا الذى تخبرنا بكونه من الاجتماع بعد هذا التفرق ؟ ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ﴿٣١﴾ أى : لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله ، عز وجل ، ولكنه أمرنى أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه ، ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ : وإنما على البلاغ ، وقد أديته إليكم .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ﴿٣٢﴾ أى : لما قامت القيامة وشاهدها الكفار ، ورأوا أن الأمر كان قريباً ؛ لأن كل ما هو آت آت وإن طال زمنه ، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك ، لما يعلمون ما لهم هناك من الشر ، أى : فأحاط بهم ذلك ، وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم فى بال ولا حساب ، ﴿ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ (١) وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿ [الزمر: ٤٨] ؛ ولهذا يقال لهم على وجه التقرير والتوبيخ : ﴿ هَذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ ﴿٣٣﴾ أى : تستعجلون .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي أَلَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ ﴿٣٤﴾
 ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسْتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿٣٥﴾
 ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَبَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ ﴿٣٦﴾

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ : يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه : ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي أَلَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ ﴿٣٤﴾ أى : خلصوا أنفسكم ، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا التوبة والإنابة ، والرجوع إلى دينه ، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنكال ، فسواء عذبنا الله أو رحمنا ، فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ ﴿٣٥﴾ أى : آمنا برب العالمين الرحمن الرحيم ، وعليه توكلتنا فى جميع أمورنا ، كما قال : ﴿ فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود: ١٢٣] . ولهذا قال : ﴿ فَسْتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ؟ أى : منا ومنكم ، ولمن تكون العاقبة فى الدنيا والآخرة ؟ . ثم قال : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَبَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ ﴿٣٦﴾ أى : ذاهبا فى الأرض إلى أسفل ، فلا يتأهل بالفتوس الحداد ، ولا السواعد الشداد ، والغائر عكس النابع ؛ ولهذا قال : ﴿ فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ ؟ أى : نابع سائح جار على وجه الأرض ، لا يقدر على ذلك إلا الله ، عز وجل ، فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه وأجراها فى سائر أقطار الأرض ، بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة ، فله الحمد والمنة .

(١) فى المطبوعة : « ما عملوا » وهو خطأ .

تفسير سورة «ن»

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبِّ الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتَبْصُرُ وَتُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَقْتُولُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول «سورة البقرة» وأن قوله ﴿ن﴾ كقوله ﴿ص﴾ ، ﴿ق﴾ ، ونحو ذلك من الحروف المقطعة في أوائل السور، وتحرير القول في ذلك بما أغنى عن إعادته .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْقَلَمِ ﴾ : الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به كقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الْأَكْرَمَ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٣ - ٥] . فهو قسم منه تعالى ، وتنبية لخلق على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : يعني : وما يكتبون . وقال عن ابن عباس : أى : وما يعملون . وقال السدى : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ : يعنى الملائكة وما تكتب من أعمال العباد . وقال آخرون : بل المراد هاهنا بالقلم الذى أجراه الله بالقدر حين كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرضين بخمسين ألف عام . وأوردوا فى ذلك الأحاديث الواردة فى ذكر القلم . وعن الوليد بن عباد بن الصامت قال : دعانى أبى حين حضره الموت فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب . قال : يا رب ما أكتب ؟ قال : اكتب القدر وما هو كائن إلى الأبد» . وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد (١) .

وقوله : ﴿ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أى : يكتبون ، كما تقدم . وقوله : ﴿ مَا أَنْتَ بِمَجْنُونٍ ﴾ أى : لست ، ولله الحمد ، مجنون ، كما قد يقوله الجهلة من قومك ، والمكذوبون بما جتتهم به من الهدى والحق المبين ، فنبسوك فيه إلى الجنون ، ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أى : بل لك الأجر العظيم ، والثواب الجزيل الذى لا ينقطع ولا يبديد على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق ، وصبرك على أذاهم . ومعنى ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أى : غير مقطوع كقوله : ﴿ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ ﴾ [هود: ١٠٨] ، ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين: ٦] أى : غير مقطوع عنهم . وقال مجاهد : ﴿ غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾ أى : غير محسوب ، وهو يرجع إلى ما قلناه .

(١) المسند (٥ / ٣١٧) والترمذى (٣٣١٩) وأبو داود (٤٧٠٠) .

وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قال العوفي ، عن ابن عباس : أى : وإنك لعلى دين عظيم ، وهو الإسلام . وكذلك قال مجاهد ، والسدى ، والربيع بن أنس ، وغيرهم . وروى عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن سعد بن هشام قال : سألت عائشة فقلت : أخبريني يا أم المؤمنين - عن خُلُقِ رسول الله ﷺ . فقالت : أتقرأ القرآن ؟ قلتُ : نعم . فقالت : كان خلقه القرآن . هذا حديث طويل . وقد رواه الإمام مسلم فى صحيحه (١) . وسيأتى فى سورة «المزمل» إن شاء الله تعالى . وروى الإمام أحمد عن الحسن قال : سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ ، فقالت : كان خلقه القرآن (٢) . وروى ابن جرير عن سعد (٣) بن هشام : قال : أتيت عائشة أم المؤمنين فقلت لها : أخبريني بخلق النبي ﷺ فقالت : كان خلقه القرآن . أما تقرأ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ . وقد روى أبو داود والنسائي نحوه (٤) . وروى ابن جرير عن جبير بن نفير قال : حججتُ فدخلتُ على عائشة ، فسألتها عن خُلُقِ رسول الله ﷺ . فقالت : كان خُلُقُ رسول الله ﷺ القرآن . هكذا رواه أحمد والنسائي عن معاوية بن صالح ، به (٥) .

ومعنى هذا : أنه ، عليه السلام ، صار امتثالُ القرآنُ أمراً ونهياً ، سجيةً له ، وخلقاً تَطَبَّعَهُ ، وترك طبعه الجبلى ، فمهما أمره القرآنُ فعله ، ومهما نهاه عنه تركه . هذا مع ما جبَّله الله عليه من الخلق العظيم ، من الحياء والكرم والشجاعة ، والصفح والحلم ، وكل خلق جميل . كما ثبت فى الصحيحين عن أنس قال : خدمتُ رسولَ الله ﷺ عشر سنين فما قال لى : « أف » قط ، ولا قال لشيء فعلته : لم فعلته ؟ ولا لشيء لم أفعله : ألا فعلته ؟ وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً ، ولا مَسَسْتُ خِزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ ، ولا شَمَمْتُ مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عَرَقِ رسول الله ﷺ (٦) . وروى البخارى عن البراء قال : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً ، وأحسن الناس خلقاً ، ليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير (٧) . والأحاديث فى هذا كثيرة ، ولأبى عيسى الترمذى فى هذا كتاب « الشمائل » .

وقوله : ﴿ فَسْتَبْرُوا وَيَنْتَظِرُوا . بِأَيْكُمْ الْمُفْتُونَ ﴾ أى : فتعلم يا محمد ، وسيعلم مخالفوك ومكذبوك : من المفتون الضال منك ومنهم ؟ وهذه كقوله تعالى : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشْرُكِ ﴾ [القمر: ٢٦] ، وكقوله : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٢٤] . قال ابن جريج : قال ابن عباس فى هذه الآية : ستعلم ويعلمون يوم القيامة . وقال العوفي ، عن ابن عباس : ﴿ بِأَيْكُمْ الْمُفْتُونَ ﴾ أى : الجنون . وكذا قال مجاهد ، وغيره . وقال قتادة وغيره : ﴿ بِأَيْكُمْ

(١) عبد الرزاق فى التفسير (٢/ ٢٤٥) ومسلم (٧٤٦/ ١٣٩) .

(٢) المسند (٦/ ٢١٦) ، وأبو داود (١٣٤٢) ، وصححه الألبانى .

(٣) فى المخطوطة والمطبوعة : « سعيد » وهو خطأ .

(٤) ابن جرير فى التفسير (٢٩/ ١٣) وأبو داود (١٣٥٢) والنسائي (١٦٥١) .

(٥) ابن جرير فى التفسير (٢٩/ ١٣) والمسند (٦/ ١٨٨) والنسائي فى الكبرى (٢/ ١١١٣٨) .

(٦) البخارى (٦٠٣٨) ومسلم (٥١/ ٢٣٠٩) .

(٧) البخارى (٣٥٤٩) .

الْمُفْتُونَ ﴿١﴾ أى: أولى بالشیطان. ومعنى المفتون ظاهر، أى: الذى قد افتتن عن الحق وضل عنه، وإنما دخلت الباء فى قوله: ﴿بِأَيْكُمُ الْمُفْتُونَ﴾ لتدل على تضمين الفعل فى قوله: ﴿فَسْتَبْصِرُ وَيَصْبُرُونَ﴾ وتقديره: فستعلم ويعلمون، أو: فستخبر ويخبرون بأیکم المفتون. والله أعلم. ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أى: هو يعلم تعالى أى الفريقين منكم ومنهم هو المهتدى، ويعلم الحزب الضال عن الحق.

﴿فَلَا تَطْعَمُ الْمُكْذِبِينَ﴾ ﴿٨﴾ وَدُوا لَوْ تَدَّهْنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تَطْعَمُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أُنِيمٍ ﴿١٢﴾ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْفَرْطُورِ ﴿١٦﴾

يقول تعالى: كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم والخلق العظيم ﴿فَلَا تَطْعَمُ الْمُكْذِبِينَ﴾. ﴿وَدُوا لَوْ تَدَّهْنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ قال ابن عباس: لو تَرَحَّصَ لَهُمْ فَيَرَحَّصُونَ. وقال مجاهد: ودوا لو تركن إلى آلهتهم وترك ما أنت عليه من الحق.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْعَمُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾: وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانتة وإنما يتقى بأيمانه الكاذبة التى يجترئ بها على أسماء الله تعالى، واستعمالها فى كل وقت فى غير محلها. قال ابن عباس: المهين: الكاذب. وقال مجاهد: هو الضعيف القلب. وقال الحسن: كل حلاف مكابر مهين ضعيف. وقوله: ﴿هَمَّازٍ﴾ قال ابن عباس وقتادة: يعنى الاغتيال. ﴿مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ يعنى: الذى يمشى بين الناس، ويحرش بينهم وينقل الحديث لفساد ذات البين، وهى الخالقة، وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال: مر رسول الله ﷺ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة» الحديث. وأخرجه بقية الجماعة (١). وروى أحمد عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قتات». رواه الجماعة إلا ابن ماجه (٢). وقوله: ﴿مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أُنِيمٍ﴾ أى: يمنع ما عليه وما لديه من الخير ﴿مُعْتَدٍ﴾ فى تناول ما أحل الله له، يتجاوز فيها الحد المشروع ﴿أُنِيمٍ﴾ أى: يتناول المحرمات. وقوله: ﴿عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾: أما العتل: الفظ الغليظ الصحيح، الجموع المتروك. وروى الإمام أحمد عن حارثة بن وهب قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أنبئكم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر». وقال وكيع: «كل جواظ جعظرى مستكبر». أخرجاه فى الصحيحين وبقية الجماعة، إلا أبى داود (٣). وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن

(١) البخارى (٢١٨) ومسلم (٢٩٢/١١١) وأبو داود (٢٠) والترمذى (٧٠).

(٢) المسند (٥/٣٨٢) والبخارى (٦٥٠٦) ومسلم (١٠٥/١٦٩) وأبو داود (٤٨٧١) والترمذى (٢٠٢٦).

(٣) المسند (٤/٣٠٦) والبخارى (٤٩١٨) ومسلم (٢٨٥٣/٤٦) والترمذى (٢٦٠٥) وابن ماجه (٤١١٦).

عمرو بن العاص ؛ أن النبي ﷺ قال عند ذكر أهل النار : « كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع » . تفرد به أحمد (١) . قال أهل اللغة : الجعظري : الفظُّ الغليظ ، والجواظ : الجموع المتنوع .

وأما الزنيم فروى البخارى عن ابن عباس : ﴿ عَتَلُ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ ﴾ قال: رجلٌ من قريش له زئمة مثل زئمة الشاة (٢) . ومعنى هذا : أنه كان مشهوراً بالسوء كشهرة الشاة ذات الزئمة من بين أخواتها . وإنما الزنيم فى لغة العرب : هو الدعىُّ فى القوم . قاله ابن جرير وغير واحد من الأئمة . وقال ابن عباس : الزنيم : الدعى . ويقال : الزنيم : رجل كانت به زئمة ، يعرف بها . ويقال : هو الأخنس ابن شريق الثقفى ، حليف بنى زهرة . وقال ابن أبى نجيح عن ابن عباس : أنه زعم أن الزنيم الملقح النسب . وقال سعيد بن المسيب فى هذه الآية : هو الملتصق فى القوم ، ليس منهم . وقال عكرمة: يعرف المؤمن من الكافر مثل الشاة الزئماء . والزئماء من الشياه : التى فى عتقها هتتان معلقتان فى حلقها . وقال سعيد بن جبيرة: الزنيم : الذى يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزئمتها . والزنيم : الملتصق . والأقوال فى هذا كثيرة ، وترجع إلى ما قلناه ، وهو أن الزنيم هو : المشهور بالشر ، الذى يعرف به من بين الناس ، وغالباً يكون دعياً ولد زناً ، فإنه فى الغالب يتسلط الشيطان عليه مالا يتسلط على غيره .

وقوله : ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ : يقول تعالى : هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين ، كفر بآيات الله وأعرض عنها ، وزعم أنها كذب مأخوذ من أساطير الأولين ، كقوله : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَدْتُ لَهُ مَهْيِدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا . سَأَرْفَهُ صَعُودًا . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ . إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ سَأُصَلِّهِ سَقَرًا ﴾ [المدثر: ١١ - ٢٦] . وقال تعالى هاهنا: ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ﴾ . قال ابن جرير : سننين أمره بياناً واضحاً ، حتى يعرفوه ولا يخفى عليهم ، كما لا تخفى السمة على الخراطيم . وهكذا قال قتادة : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ﴾ : شين لا يفارقه آخر ما عليه . وفى رواية عنه: سيما على أنفه . وكذا قال السدى . وقال ابن عباس : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ﴾ : يقاتل يوم بدر ، فيخطم بالسيف فى القتال . وقال آخرون : ﴿ سَنَسِمُهُ ﴾ : سمة أهل النار ، يعنى: نسود وجهه يوم القيامة ، وعبر عن الوجه بالخرطوم . وحكى ذلك كله أبو جعفر ابن جرير ، ومال إلى أنه لا مانع من اجتماع الجميع عليه فى الدنيا والآخرة ، وهو متجه .

(١) المسند (٦٥٨٠) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/ ٣٩٣) : « رجاله رجال الصحيح » . وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر .

(٢) ابن جرير فى التفسير (٢٩/ ١٧) .

﴿ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوْنَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَدِيرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسْمِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَبْرَأْنَا إِنَّا كُنَّا طَائِفِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

هذا مثل ضربته الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة ، وأعطاهم من النعم الجسيمة ، وهو بعثة محمد ﷺ إليهم ، فقابلوه بالكذب والرد والمحاربة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾ أى : اختبارناهم ، ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ وهى البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ أى : حلفوا فيما بينهم ليجذبن ثمرها ليلا ، لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ، ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء ، ﴿ وَلَا يَسْتَنْوْنَ ﴾ أى : فيما حلفوا به . ولهذا حثتهم الله فى أيمانهم ، فقال : ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ أى : أصابها آفة سماوية ، ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ قال ابن عباس : أى كالليل الأسود . وقال الثورى ، والسدى : مثل الزرع إذا حُصد ، أى : هشيماً يبساً . ﴿ فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ ﴾ أى : لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى الجذاذ ، أى : القطع ﴿ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى : تريدون الصرام . قال مجاهد : كان حرثهم عنباً ﴿ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَتُونَ ﴾ أى : يتناجون فيما بينهم بحيث لا يسمعون أحداً كلامهم . ثم فسر الله عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به ، فقال : ﴿ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَتُونَ . أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴾ أى : يقول بعضهم لبعض : لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم ! قال الله تعالى : ﴿ وَغَدُوا عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أى : قوة وشدة . وقال مجاهد : ﴿ وَغَدُوا عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ أى : جد . وقال عكرمة : غيظ . وقال الشعبى : ﴿ عَلَىٰ حَرْدٍ ﴾ : على المساكين .

﴿ قَادِرِينَ ﴾ أى : عليها فيما يزعمون ويرومون . ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴾ أى : فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها ، وهى على الحالة التى قال الله ، عز وجل ، قد استحالت عن تلك النظارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مُدْلَهَمَةً ، لا يُنتفع بشيء منها ، فاعتقدوا أنهم قد أخطؤوا الطريق ؛ ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا لَضَالُونَ ﴾ أى : قد سلكننا إليها غير الطريق فنهنا عنها . قاله ابن عباس وغيره . ثم رجعوا عما كانوا فيه ، وتيقنوا أنها هى فقالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أى : بل هذه هى ، ولكن نحن لا حظ لنا ولا نصيب . ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب ، والربيع بن أنس ،

والضحك ، وقتادة : أى : أعدلهم وخيرهم : ﴿ أَمْ أَفْلَ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ ! قال مجاهد ، والسدى ، وابن جريج : ﴿ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ أى : لولا تستنون . قال السدى : وكان استنواؤهم فى ذلك الزمان تسييحاً . وقال ابن جريج : هو قول القائل : إن شاء الله . وقيل : معناه : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَمْ أَفْلَ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ أى : هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم ، ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ، أتوا بالطاعة حيث لا تتفع ، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع ؛ ولهذا قالوا : ﴿ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَلَاؤُونَ ﴾ أى : يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاذ ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب ، ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ أى : اعتدنا وبغينا وطغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا ، ﴿ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُدَلِّنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ قيل : رغبوا فى بذلها لهم فى الدنيا . وقيل : احتسبوا ثوابها فى الدار الآخرة ، والله أعلم .

ثم قد ذكر بعض السلف أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن . وقيل : كانوا من أهل الحبشة ، وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة ، وكانوا من أهل الكتاب ، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة ، فكان ما استغله منها يرد فيها ما يحتاج إليها ويدخر لعياله قوت سنتهم ، ويتصدق بالفاضل . فلما مات ورثه بنوه ، قالوا : لقد كان أبونا أحقم إذ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء ، ولو أننا منعناهم لتوفر ذلك علينا . فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم ، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية ، ورأس المال والربح والصدقة ، فلم يبق لهم شيء .

قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ ﴾ أى : هكذا عذاب من خالف أمر الله ، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ، ومنع حق المسكين والفقير وذوى الحاجات ، وبدل نعمة الله كفراً ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم ، وعذاب الآخرة أشق .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ أَفَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٢٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٢٨﴾ أَمْ لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٢٩﴾ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٣٠﴾ أَمْ لَكُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حال أهل الجنة الدنيوية ، وما أصابهم فيها من النعمة حين عصوا الله ، عز وجل ، وخالفوا أمره ، بين أن لمن اتقاه وأطاعه فى الدار الآخرة جنات النعيم التى لا تبديد ولا تفرغ ولا ينقضى نعيمها . ثم قال : ﴿ أَفَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ ؟ أى : أنساوى بين هؤلاء وهؤلاء فى الجزاء ؟ كلا ورب الأرض والسماء ؛ ولهذا قال : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ! أى : كيف تظنون ذلك ؟ ثم قال : ﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ . إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴾ يقول : أبايديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه بنقل الخلف عن السلف ، متضمن

حكماً مؤكداً كما تدعون؟ ﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ . أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْعَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ أى: أمعكم عهود منا ومواثيق مؤكدة، ﴿ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾ أى: إنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتون ، ﴿ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴾ ؟ أى: قل لهم: من هو المتضمن المتكفل بهذا؟ ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ﴾ أى: من الأصنام والأنداد، ﴿ فليأتوا بشركتائهم إن كانوا صادقين ﴾ .

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْتَأْجُرُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَقَرِّمْ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

لما ذكر تعالى أن للمتقين عند ربهم جنات النعيم ، بين متى ذلك كائن وواقع ، فقال : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ يعنى : يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والزلازل والبلاء والامتحان والأمور العظام . وعن ابن عباس : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ قال: هو يوم كرب وشدة . رواه ابن جرير ، ثم روى عن ابن مسعود - أو: ابن عباس ، الشك من ابن جرير : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ قال : عن أمر عظيم . وقال مجاهد : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ قال: شدة الأمر . وقال ابن عباس: هي أشد ساعة تكون في يوم القيامة . وقال مجاهد : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ قال: شدة الأمر وجده . وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ : هو الأمر الشديد المُنْفَع من الهول يوم القيامة .

وقوله تعالى: ﴿ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أى: فى الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم فى الدنيا ، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه . ولما دعوا إلى السجود فى الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه فى الآخرة ، إذا تجلّى الرب ، عز وجل ، فسجد له المؤمنون ، لا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد ، بل يعود ظهر أحدهم طيقاً واحداً ، كلما أراد أحدهم أن يسجد خراً لقفاه ، عكس السجود ، كما كانوا فى الدنيا ، بخلاف ما عليه المؤمنون .

ثم قال تعالى: ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ يعنى: القرآن . وهذا تهديد شديد ، أى : دعنى وإياه منى ومنه ، أنا أعلم به كيف أستدرجه ، وأمدته فى غيه وأنظره ، ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر ؛ ولهذا قال: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى: وهم لا يشعرون ، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة ، وهو فى نفس الأمر إهانة ، كما قال: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ، ٥٦] ، وقال : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أى: وأؤخرهم وأنظرهم وأمدهم ، وذلك من

كيدى ومكرى بهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أى : عظيم لمن خالف أمرى ، وكذب رسلى ، واجترأ على معصيتى . وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إن الله ليملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته» . ثم قرأ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢] (١) .

وقوله : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُنْقَلُونَ . أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴾ : تقدم تفسيرهما فى سورة «الطور» (٢) . والمعنى فى ذلك : أنك يا محمد تدعوهم إلى الله ، عز وجل ، بلا أجر تأخذه منهم ، بل ترجوا ثواب ذلك عند الله ، عز وجل ، وهم يكذبون بما جنتهم به ، بمجرد الجهل والكفر والعناد .

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ تَوَلَّى أَنْ تَدْرِكُهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنْ يُبَدِّلَ الْعُرَاءَ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبِهْ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَنْجُوثٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم ؛ فإن الله سيحكم لك عليهم ، ويجعل العاقبة لك ولأتباعك فى الدنيا والآخرة ، ﴿ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ : يعنى : ذا النون ، وهو يونس بن متى ، عليه السلام ، حين ذهب مغاضباً على قومه ، فكان من أمره ما كان من ركوبه فى البحر والتقام الحوت له ، وشرود الحوت به فى البحار وظلمات غمرات اليم ، وسماعه تسيح البحر بما فيه للعلى القدير ، الذى لا يرد ما أنفذه من التقدير ، فحينئذ نادى فى الظلمات : ﴿ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧] . قال الله : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٣ ، ١٤٤] وقال ههنا : ﴿ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، والسدى : وهو مغموم . وقال عطاء الخراسانى ، وأبو مالك : مكروب . وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينبغي لأحد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » . ورواه البخارى . وهو فى الصحيحين من حديث أبى هريرة (٣) .

وقوله : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ﴾ : قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهما : لَيَنْفُذُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ، أى : يعينونك بأبصارهم ، بمعنى : يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك ، وحمايته إياك منهم . وفى هذه الآية دليل على أن العين إصابها وتأثيرها حق ، بأمر الله ، عز وجل ، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة : روى

(١) البخارى (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣/ ٦١) .

(٢) عند الآيتين (٤٠ ، ٤١) .

(٣) المسند (٣٧٠٣) والبخارى (٤٦٣١ ، ٤٦٣) ومسلم (٢٣٧٦/ ١٦٦) .

ابن ماجه عن بُرَيْدَةَ بن الحَصِيبِ قال: قال رسول الله ﷺ: « لا رقية إلا من عين أو حُمة ». هكذا رواه ابن ماجه ، وقد أخرجه مسلم عن بريدة موقوفاً ، وفيه قصة (١). وروى هذا الحديث الإمام البخارى وأبو داود والترمذى عن عمران بن حُصَيْنٍ موقوفاً (٢) . وروى مسلم عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : «العين حق ، ولو كان شيء سابقَ القَدَرِ سَبَقَتِ العين ، وإذا اغتسلتم فاغسلوا » . انفراد به دون البخارى (٣) . وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يُعوِّذُ الحسن والحسين ، يقول : « أعيذكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة » ، ويقول : « هكذا كان إبراهيم يُعوِّذُ إسحاق وإسماعيل ، عليهما السلام » . أخرجه البخارى وأهل السنن (٤) . وروى ابن ماجه عن أبى سعيد قال : كان رسول الله ﷺ يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنس . فلما نزلت المعوذتان أخذهما وترك ما سوى ذلك . ورواه الترمذى والنسائى وقال الترمذى : حسن (٥) . وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد : أن جبريل أتى رسول الله ﷺ فقال : اشتكيت يا محمد ؟ قال : « نعم » . قال : باسم الله أزيك ، من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس وعين يشفيك ، باسم الله أزيك . ورواه مسلم وأهل السنن إلا أبا داود (٦) . وروى الإمام أحمد عن هَمَّامِ بن مَنبِّه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ : « إن العين حق » . أخرجاه (٧) . وروى الإمام أحمد عن عبيد بن رفاعة الزُرُقَى قال : قالت أسماء : يا رسول الله ، إن بنى جعفر تصيبهم العين ، أفاسترقى لهم ؟ قال : « نعم ، فلو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين » . وكذا رواه الترمذى وقال: حسن صحيح (٨) . وروى ابن ماجه عن عائشة ؛ أن رسول الله ﷺ أمرها أن تسترقى من العين . ورواه البخارى ومسلم (٩) .

وقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ أى : يزدرونه بأعينهم ويؤذونه بالسنتهم ، ويقولون : ﴿ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ أى : لمجيئه بالقرآن ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

(١) ابن ماجه (٣٥١٣) ومسلم (٢٢٠ / ٣٧٤) .

(٢) البخارى (٥٧٠٥) وأبو داود (٣٨٨٤) والترمذى (٢٠٧٥) .

(٣) مسلم (٤٢ / ٢١٨٨) .

(٤) البخارى (٣٣٧١) وأبو داود (٤٧٣٧) والترمذى (٢٠٦٠) .

(٥) ابن ماجه (٣٥١١) والترمذى (٢٠٥٨) والنسائى (٥٤٩٤) .

(٦) المسند (٣ / ٢٨ ، ٥٦) ومسلم (٢١٨٦ / ٤٠) والترمذى (٩٧٥) وابن ماجه (٣٥٢٣) .

(٧) المسند (٢ / ٣١٨) والبخارى (٥٧٤٠) ومسلم (٢١٨٧ / ٤١) .

(٨) المسند (٦ / ٤٣٨) والترمذى (٢٠٥٩) .

(٩) ابن ماجه (٣٥١٠) والبخارى (٥٧٣٨) ومسلم (٢١٩٥ / ٥٥ ، ٥٦) .

تفسير سورة الحاقة

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ ﴿٥﴾ بِالْقَارِعَةِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٧﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴿٨﴾ عَاتِيَةٍ ﴿٩﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ ﴿١٠﴾ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿١١﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿١٢﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ ﴿١٣﴾ بِالْخَاطِئَةِ ﴿١٤﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُم مِّنْ آخِذَةٍ رَّابِيَةٍ ﴿١٥﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتِ كُرِّيَ ﴿١٦﴾ نَلَجْنَاهَا لَكُرٍّ نَّذِيرَةً وَتَبِيحًا أُذُنٌ وَنَعِيَةٌ ﴿١٧﴾

ربع

الحاقة من أسماء يوم القيامة ؛ لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد ؛ ولهذا عظم تعالى أمرها فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ؟ ﴾

ثم ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين بها فقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ ، وهي الصيحة التي أسكتتهم ، والزلزلة التي أسكتتهم . هكذا قال قتادة : الطاغية: الصيحة . وهو اختيار ابن جرير . وقال مجاهد : الطاغية: الذنوب . وكذا قال الربيع بن أنس ، وابن زيد : إنها الطغيان ، وقرأ ابن زيد : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَفْوَاهَا ﴾ [الشمس : ١١] . وقال السدّي : ﴿ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ قال : يعني : عاقرة الناقة . ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ ﴾ أي : باردة . قال قتادة ، والربيع ، والسدي ، والثوري : ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ أي : شديدة الهبوب . قال قتادة : عنت عليهم حتى نَقَبَتْ عن أفئدتهم . وقال الضحّاك : ﴿ صَرْصَرٍ ﴾ : باردة ﴿ عَاتِيَةٍ ﴾ : عنت عليهم بغير رحمة ولا بركة . وقال علي وغيره : عنت على الخزنة فخرجت بغير حساب .

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي : سلطها عليهم ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ أي : كوامل متتابعات مشائيم . قال ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : ﴿ حُسُومًا ﴾ : متتابعات . وعن عكرمة والربيع : مشائيم عليهم ، كقوله : ﴿ فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ ﴾ [فصلت : ١٦] قال الربيع : وكان أولها الجمعة . وقال غيره الأربعاء . ويقال : إنها التي تسميها الناس الأعجاز ؛ كأن الناس أخذوا ذلك من قوله تعالى : ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ . وقيل : لأنها تكون في عجز الشتاء . قال ابن عباس : ﴿ خَاوِيَةٍ ﴾ : خربة . وقال غيره : بالية ، أي : جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخر ميتاً على أم رأسه ، فينشدخ رأسه وتبقى جثته هامة كأنها قائمة النخلة إذا

خرت بلا أعصاب . وقد ثبت في الصحيحين ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نُصِرْتُ بِالصَّبَا ، واهلكت عاد بالدبور » (١) . ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ ؟ أى : هل تحس منهم من أحد من بقاياهم أو ممن ينتسب إليهم ؟ بل بادوا عن آخرهم ولم يجعل الله لهم خلفاً . ثم قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ ﴾ : قرئ بكسر القاف ، أى : ومن عنده فى زمانه من أتباعه من كفار القبط . وقرأ آخرون بفتحها ، أى : ومن قبله من الأمم المشبهين له . وقوله : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾ وهم المكذبون بالرسول ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ أى : بالفعلة الخاطئة ، وهى التكذيب بما أنزل الله . قال الربيع : ﴿ بِالْخَاطِئَةِ ﴾ أى : بالمعصية . وقال مجاهد : بالخطايا . ولهذا قال : ﴿ فَعَصَا رَسُولَ رَبِّهِمْ ﴾ وهذا جنس ، أى : كل كذب رسول الله إليهم . كما قال : ﴿ كُلُّ كَذَّبٍ رُسُلَ اللَّهِ فَحَقَّ وَعِيدٌ ﴾ [ق: ١٤] . ومن كذب رسول الله فقد كذب بالجميع ، كما قال : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نوحَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٥] ، ﴿ كَذَّبَتْ عادَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٢٣] ، ﴿ كَذَّبَتْ ثمودَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٤١] . وإنما جاء إلى كل أمة رسول واحد ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ فَعَصَا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴾ أى : عظيمة شديدة أليمة . قال مجاهد : ﴿ رَابِيَةً ﴾ : شديدة . وقال السدى : مهلكة .

ثم قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ ﴾ أى : زاد على الحد بإذن الله وارتفع على الوجود . قال ابن عباس وغيره : ﴿ طَغَا الْمَاءُ ﴾ : كثر - وذلك بسبب دعوة نوح ، عليه السلام ، على قومه حين كذبوه وخالفوه ، فعبدوا غير الله فاستجاب الله له وعم أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح فى السفينة ، فأناس كلهم من سلالة نوح وذريته .

ولهذا قال تعالى ممتناً على الناس : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ وهى السفينة الجارية على وجه الماء ، ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً ﴾ أى : وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء فى البحار ، كما قال : ﴿ وَجَعَلْ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . لَتَسْتَبْشِرُوا عَلَى ظَهْرِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ [الزخرف: ١٢، ١٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [يس: ٤١، ٤٢] . وقال قتادة : أبقى الله السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة . والأول أظهر ؛ ولهذا قال : ﴿ وَتَعِيهَا أذُنٌ وَاَعِيَةٌ ﴾ أى : وتفهم هذه النعمة ، وتذكرها أذن واعية . قال ابن عباس : حافظة سامعة . وقال قتادة : ﴿ أذُنٌ وَاَعِيَةٌ ﴾ : عقلت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله ، وقال الضحاك : ﴿ وَتَعِيهَا أذُنٌ وَاَعِيَةٌ ﴾ : سمعتها أذن ووعت . أى : من له سمع صحيح وعقل رجيح . وهذا عام فيمن فهم ووعى .

﴿ فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةً وَاحِدَةً ﴾ ﴿ ١٢ ﴾ وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿ ١٤ ﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿ ١٥ ﴾ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿ ١٦ ﴾ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ﴿ ١٧ ﴾ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ﴿ ١٧ ﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿ ١٨ ﴾

(١) البخارى (١٠٣٥) ومسلم (١٧/٩٠٠) .

(٢) فى المخطوطة والطبوعة : « إن كل إلا » وهو خطأ .

يقول تعالى مخبراً عن أهوال يوم القيامة ، وأول ذلك نفخة الفزع ، ثم يعقبها نفخة الصعق حين يُصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور ، وهى هذه النفخة . وقد أكدها ها هنا بأنها واحدة ؛ لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع ، ولا يحتاج إلى تكرار ولا تأكيد . وقال الربيع : هى النفخة الأخيرة . والظاهر ما قلناه ؛ ولهذا قال ها هنا : ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ أى : فمدت مدَّ الأديم العكاظي ، وتبدلت الأرض غير الأرض ، ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ أى : قامت القيامة . ﴿ وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾ وقال ابن جريج : هى كقوله : ﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ [النبا: ١٩] . وقال ابن عباس : منخرقة ، والعرش بحذائها .

﴿ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ﴾ : الملك : اسم جنس ، أى : الملائكة على أرجاء السماء . قال ابن عباس : على حافتها . وكذا قال سعيد بن جبير ، والأوزاعي . وقال الضحاك : أطرافها . وقال الحسن البصرى : أبوابها . وقال الربيع بن أنس فى قوله : ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ﴾ يقول : على ما استدق من السماء ، ينظرون إلى أهل الأرض .

وقوله : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ أى : يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة . ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش العرش العظيم ، أو : العرش الذى يوضع فى الأرض يوم القيامة لفصل القضاء ، والله أعلم بالصواب . وعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « أذن لى أن أحدثكم عن ملك من حملة العرش : بعد ما بين شحمة أذنه وعنقه بخفق الطير سبعمائة عام » . وهذا إسناد جيد ، رجاله ثقات . وقد رواه أبو داود (١) . وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ أى : تعرضون على عالم السر والنجوى الذى لا يخفى عليه شىء من أموركم ، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر ؛ ولهذا قال : ﴿ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَةَ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيَةَ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ اللَّالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾

يخبر تعالى عن سعادة من أوتى كتابه يوم القيامة بيمينه ، وفرحه بذلك ، وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه : ﴿ هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَةَ ﴾ أى : خذوا اقروا كتابي ؛ لأنه يعلم أن الذى فيه خير وحسنات محضة ؛ لأنه ممن بدل الله سيئاته حسنات . وقوله : ﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيَةَ ﴾ أى : قد كنت موقناً فى الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة ، كما قال : ﴿ الَّذِينَ يظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة: ٤٦] . قال الله : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ أى : مرضية ، ﴿ فِي جَنَّةٍ

(١) أبو داود (٤٧٢٧) ، وصححه الالبانى .

عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ أى : ربيعة قصورها ، حسان حورها ، نعيمة دورها ، دائم حبورها . وقد ثبت فى الصحيح : « إن الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » (١).

وقوله : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ قال البراء بن عازب : أى قريبة ، يتناولها أحدهم ، وهو نائم على سريره . وكذا قال غير واحد . وقوله : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْعَالِيَةِ ﴾ أى : يقال لهم ذلك ؛ تفضلا عليهم ، وامتنانا وإنعاما وإحسانا . وإلا فقد ثبت فى الصحيح ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « عملوا وسَدَّدُوا وقَارَبُوا واعلموا أن أحدا منكم لن يدخله عمله الجنة » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتَّعَمَدنى الله برحمة منه وفضل » (٢) .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهٗ ﴿١٥﴾ وَلَمْ أَدرِ مَا حِسَابِيَهٗ ﴿١٦﴾ يَا لَيْتَنِي كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿١٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ ﴿١٨﴾ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ ﴿١٩﴾ خُدُوهُ فَعُلُوهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ لَجَّجِمُ صَلُوهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٢٢﴾ إِنَّهُمْ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٢٣﴾ وَلَا يَحْضُرُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٢٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٢٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْفَاطِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطى أحدهم كتابه فى العرصات بشماله ، فحينئذ يندم غاية الندم : ﴿ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهٗ . وَلَمْ أَدرِ مَا حِسَابِيَهٗ . يَا لَيْتَنِي كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾ . قال الضحاك : يعنى مودة لا حياة بعدها . وكذا قال محمد بن كعب ، والربيع ، والسدى . وقال قتادة : تمنى الموت ، ولم يكن شئ فى الدنيا أكره إليه منه . ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهٗ . هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ ﴾ أى : لم يدفع عنى مالى ولا جاهى عذاب الله وبأسه ، بل خلص الأمر إلى وحدى ، فلا معين لى ولا مجير . فعندها يقول الله ، عز وجل : ﴿ خُدُوهُ فَعُلُوهُ . ثُمَّ لَجَّجِمُ صَلُوهُ ﴾ أى : يأمر الزبانية أن تأخذنه عَنَفًا من المحشر ، فَتَعَلَّهُ ، أى : تضع الأغلال فى عنقه ، ثم تُورده إلى جهنم فتصلبه إياها ، أى : تغمره فيها .

وقوله : ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ عن ابن عباس وابن جرير : بذراع الملك . وقال ابن عباس : ﴿ فَاسْلُكُوهُ ﴾ تدخل فى استه ثم تخرج من فيه ، ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد فى العود حين يشوى . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « لو أن رَصَاصَةَ مثل هذه - وأشار إلى مثل جُمُجْمَة - أرسلت من السماء إلى الأرض ، وهى مسيرة خمسمائة سنة ، لبلغت الأرض قبل الليل ، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة ، لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار ، قبل أن تبلغ قعرها أو أصلها » . وأخرجه

(١) البخارى (٢٧٩٠) .

(٢) البخارى (٥٦٧٣) ومسلم (٢٨١٦ / ٧١) .

الترمذى وقال : هذا حديث حسن (١) .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ . وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ أى : لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته ، ولا ينفع خلقه ويؤدى حقهم ؛ فإن لله على العباد أن يوحده ولا يشركوا به شيئا ، وللعباد بعضهم على بعض حق الإحسان والمعاونة على البر والتقوى ؛ ولهذا أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وقبض النبي ﷺ وهو يقول : « الصلاة ، وما ملكت أيمانكم » (٢) . وقوله : ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ . وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ . لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ أى : ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله ، لا حميم - وهو القريب - ولا شفيح يطاع ، ولا طعام له هاهنا إلا من غسلين . قال قتادة : هو شر طعام أهل النار . وقال الربيع ، والضحاك : هو شجرة فى جهنم . وقال ابن عباس : ما أدرى ما الغسلين ، ولكنى أظنه الزقوم . وقال : الغسلين : الدم والماء يسيل من لحومهم . وقال على بن أبى طلحة عنه : الغسلين : صديد أهل النار .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَا لَا تَبْصِرُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴿٣١﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٢﴾ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

يقول تعالى مقسماً لخلقهم بما يشاهدونه من آياته فى مخلوقاته الدالة على كماله فى أسمائه وصفاته ، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم : إن القرآن كلامه ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله ، الذى اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة ، فقال : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَا لَا تَبْصِرُونَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يعنى : محمداً ﷺ ، أضافه إليه على معنى التبليغ ؛ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل ؛ ولهذا أضافه فى سورة التكوير إلى الرسول الملكى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ وهذا جبريل ، عليه السلام .

ثم قال : ﴿ وَمَا صَاحِبِكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ يعنى : محمداً ﷺ ﴿ وَلَقَدْ رَأَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾ يعنى : أن محمداً ﷺ رأى جبريل على صورته التى خلقه الله عليها ، ﴿ وَمَا هُوَ عَلَىٰ الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ أى : بمتهم ﴿ وَمَا هُوَ يَقُولُ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ [التكوير: ١٩- ٢٥] ، وهكذا قال هاهنا : ﴿ وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ . وَلَا يَقُولُ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ، فأضافه تارة إلى قوله الرسول الملكى ، وتارة إلى الرسول البشرى ؛ لأن كلا منهما مبلغ عن الله ما استأمنه عليه من وحيه وكلامه ؛ ولهذا قال : ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

(١) المسند (٦٨٥٦) والترمذى (٢٥٨٨) وعنده : « إسناده حسن صحيح » . وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر .

(٢) المسند (٥٨٥) وأبو داود (٥١٥٤) . وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

﴿ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لِحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا ﴾ أى : محمد ﷺ لو كان كما يزعمون مفتريا علينا ، فزاد فى الرسالة أو نقص منها ، أو قال شيئا من عنده فنسبه إلينا ، وليس كذلك ، لعاجلناه بالعقوبة . ولهذا قال : ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾ قيل : معناه : لانتقمنا منه باليمين ؛ لأنها أشد فى البطش . وقيل : لأخذنا منه بيمينه . ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ قال ابن عباس : وهو نياط القلب ، وهو العرق الذى القلب معلق فيه . وكذا قال عكرمة ، وسعيد بن جبيرة . وقوله : ﴿ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ أى : فما يقدر أحد منكم على أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئا من ذلك . والمعنى فى هذا : بل هو صادق بار راشد ؛ لأن الله ، عز وجل ، مقرر له ما يبلغه عنه ، مؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات .

ثم قال : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يعنى : القرآن كما قال : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت: ٤٤] . ثم قال : ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴾ أى : مع هذا البيان والوضوح ، سيوجد منكم من يكذب بالقرآن . ثم قال : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ قال ابن جرير: وإن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة وحكاه عن قتادة بمثله . وعن أبى مالك : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ يقول : لندامة . ويحتمل عود الضمير على القرآن ، أى : وإن القرآن والإيمان به حسرة فى نفس الأمر على الكافرين ، كما قال : ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [الشعراء: ٢٠٠، ٢٠١] ، وقال تعالى : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ: ٥٤] ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَإِنَّهُ لِحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ أى : الخبر الصدق الحق الذى لا مرية فيه ، ولا شك ولا ريب . ثم قال : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أى : الذى أنزل هذا القرآن العظيم .

تفسير سورة سأل سائل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَرَأَيْنَهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ ﴾

﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ : فيه تضمين دل عليه حرف « الباء » ، كأنه مقدّر : يستعجل سائل بعذاب واقع . كقوله : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ [الحج: ٤٧] ، أى : وعذابه واقع لا محالة . عن ابن عباس فى قوله : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ قال : النضر بن الحارث بن كلدة . وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ قال : ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع . وقال مجاهد فى قوله : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ ﴾ دعا داع بعذاب واقع يقع فى الآخرة ، قال : وهو قولهم : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢] . وقال ابن زيد وغيره : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ أى : واد فى جهنم ، يسيل يوم القيامة بالعذاب . وهذا القول ضعيف ، بعيد عن المراد . والصحيح الأول لدلالة السياق عليه . وقوله : ﴿ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أى : مُرْصَدٌ مُعَدٌّ لِلْكَافِرِينَ . وقال ابن عباس : ﴿ وَاقِعٍ ﴾ : جاء ﴿ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴾ أى : لا دافع له إذا أراد الله كونه ؛ ولهذا قال : ﴿ مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ قال ابن عباس : ذو الدرجات . وقال : يعنى : العلو والفواضل . وقال مجاهد : ﴿ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ : معارج السماء . وقال قتادة : ذى الفواضل والنعم .

وقوله : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ قال قتادة : ﴿ تَعْرُجُ ﴾ : تصعد . وأما الروح فقال أبو صالح : هم خلق من خلق الله . يشبهون الناس ، وليسوا ناسا . قلت : ويحتمل أن يكون المراد به جبريل ، ويكون من باب عطف الخاص على العام . ويحتمل أن يكون اسم جنس لأرواح بنى آدم ، فإنها إذا قبضت يُصعد بها إلى السماء .

وقوله : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ : فيه أربعة أقوال :

أحدها : أن المراد بذلك مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين ، وهو قرار الأرض السابعة ، وذلك مسيرة خمسين ألف سنة ، هذا ارتفاع العرش عن المركز فى وسط الأرض السابعة . وذلك اتساع العرش من قطر إلى قطر مسيرة خمسين ألف سنة ، وأنه من ياقوتة حمراء .

القول الثاني : أن المراد بذلك مدة بقاء الدنيا منذ خلق الله هذا العالم إلى قيام الساعة .

القول الثالث: أنه اليوم الفاصل بين الدنيا والآخرة ، وهو قول غريب جداً .

القول الرابع : أن المراد بذلك يوم القيامة ، وقد وردت أحاديث في معنى ذلك .

روى الإمام أحمد عن أبي عمر العُداني (١) قال : كنت عند أبي هريرة فمر رجل من بني عامر بن صعصعة ، فقيل له : هذا أكثر عامري مالا . فقال أبو هريرة : ردوه إليّ . فقال : نبئت أنك ذو مال كثير ؟ فقال العامري : إي والله ، إن لى لمائة حُمراً ومائة أدماً ، حتى عد من ألوان الإبل ، وأفنان الرقيق ، ورباط الخيل فقال أبو هريرة : إياك وأخفاف الإبل وأظلاف الغنم - يُردّد ذلك عليه ، حتى جعل لونُ العامري يتغير - فقال : ما ذاك يا أبا هريرة ؟ قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « من كانت له إبلٌ لا يعطى حقها في نجاتها ورسُلها - قلنا : يا رسول الله ، ما نجاتُها ورسُلها ؟ قال : « في عُسرها ويسرها - » فإنها تأتي يوم القيامة كأغذ ما كانت وأكثره وأسمنه وأشره ، حتى يبطح لها بقاع قرقر ، فتطؤه بأخفافها ، فإذا جاوزته أخرجها أعيدت عليه أولها ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله ، وإذا كانت له بقر لا يعطى حقها في نجاتها ورسُلها ، فإنها تأتي يوم القيامة كأغذ ما كانت وأكثره وأسمنه وأشره ثم يبطح لها بقاع قرقر فتطؤه كل ذات ظلف بظلفها ، وتنطحه كل ذات قرن بقرنها ، إذا جاوزته أخرجها أعيدت عليه أولها ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين الناس فيرى سبيله . وإذا كانت له غنم لا يعطى حقها في نجاتها ورسُلها ، فإنها تأتي يوم القيامة كأغذ ما كانت وأشره ، حتى يبطح لها بقاع قرقر ، فتطؤه كل ذات ظلف بظلفها وتنطحه كل ذات قرن بقرنها ، إذا جاوزته أخرجها أعيدت عليه أولها ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضى بين الناس ، فيرى سبيله . » فقال العامري : وما حق الإبل يا أبا هريرة ؟ قال : أن تعطى الكريمة ، وتمنح الغزيرة ، وتفقر الظهر ، وتسقى اللبن (٢) ، وتُطرقَ الفحل . وقد رواه أبو داود ، والنسائي (٣) .

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من صاحب كنز لا يؤدي حقه إلا جعل صفائح يحمى عليها في نار جهنم ، فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره ، حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار . » وذكر بقية الحديث في الغنم والإبل كما تقدم ، وفيه : « الخيل لثلاثة ؛ لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر » إلى آخره . ورواه مسلم في صحيحه بتمامه منفرداً

(١) في المطبوعة : « العُداني » بالعين المهملة ، وهو خطأ ، والثبت من المسند (٤/ ٤٨٩) .

(٢) في المخطوطة والمطبوعة : « الإبل » وهو خطأ ، والثبت من المسند (٤/ ٤٨٩) .

(٣) المسند (٢/ ٤٨٩) وأبو داود (١٦٦٠) والنسائي (٢٤٤٢) .

به دون البخارى (١) ، والغرض من إيراد هاهنا قوله: « حتى يحكم الله بين عباده ، فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » .

وقوله : ﴿ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ أى : اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك ، واستعجالهم العذاب استبعاداً لوقوعه ، كقوله : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ [الشورى: ١٨] قال : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴾ أى : وقوع العذاب وقيام الساعة يراه الكفرة بعيد الوقوع ، بمعنى استحيل الوقوع ، ﴿ وَتَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ أى : المؤمنون يعتقدون كونه قريباً ، وإن كان له أمد لا يعلمه إلا الله ، عز وجل ، لكن كل ما هو آت فهو قريب وواقع لا محالة .

﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْتَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يَبْصُرُونَهُمْ يَوْمَ يَكُونُ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَلَاحِيَّتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّمَا لَطَفَى نَزَاعَةَ لِلشَّوَى ﴿١٥﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴿١٨﴾ ﴾

يقول تعالى : العذاب واقع بالكافرين ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعطاء وغير واحد ، كدردى الزيت ، ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾ أى : كالصوف المنفوش ، قاله مجاهد ، وقتادة ، والسدى . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ [القارعة: ٥] . وقوله : ﴿ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يَبْصُرُونَهُمْ ﴾ أى : لا يسأل القريب عن حاله ، وهو يراه فى أسوأ الأحوال ، فتشغله نفسه عن غيره . قال ابن عباس : يعرف بعضهم بعضاً ، ويتعارفون بينهم ، ثم يفر بعضهم من بعض بعد ذلك ، يقول : ﴿ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ .

وهذه الآية الكريمة كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارِعٌ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ﴾ [لقمان: ٣٣] . وكقوله : ﴿ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْئًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [فاطر: ١٨] . وكقوله : ﴿ فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١] . وكقوله : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧] .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمئِذٍ بِبَنِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ . وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ . وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ . كَلَّا ﴾ أى : لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض ، وبأعز ما يجده من المال ، ولو بملء الأرض ذهباً ، أو من ولده الذى كان فى الدنيا حشاشة كبده ، يود يوم القيامة إذا رأى الأحوال أن يفتدى من عذاب الله به ، ولا يقبل منه . قال مجاهد والسدى : ﴿ فَصِيلَتِهِ ﴾ : قبيلته وعشيرته . وقال عكرمة : فَخَذَهُ الذى هو منهم . وقال مالك : ﴿ فَصِيلَتِهِ ﴾ : أمه .

وقوله : ﴿ إِنهَا لَطْفٌ ﴾ يصف النار وشدة حرها ﴿ نَزَاعَةٌ لِلشَّوْئِ ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد : جلدة الرأس . وقال مجاهد: ما دون العظم من اللحم . وقال سعيد بن جبير : العصب . وقال أبو صالح : ﴿ نَزَاعَةٌ لِلشَّوْئِ ﴾ يعنى : أطراف اليدين والرجلين . وقال أيضا : نزاعة لحم الساقين . وقال الحسن البصرى ، وثابت البناني : ﴿ نَزَاعَةٌ لِلشَّوْئِ ﴾ أى : مكارم وجهه . وقال الحسن أيضا: تحرق كل شيء فيه ، ويبقى فؤاده يصيح . وقال قتادة: ﴿ نَزَاعَةٌ لِلشَّوْئِ ﴾ أى : نزاعة لهامته ومكارم وجهه وخلقه وأطرافه . فقوله: نزاعة، قال: تقطع عظامهم، ثم يُجَدِّدُ خلقهم وتبدل جلودهم . وقوله: ﴿ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى . وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ أى: تدعو النار إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها، وقدر لهم أنهم فى الدار الدنيا يعملون عملها، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذكّ ، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطير الحب . وذلك أنهم - كما قال الله ، عز وجل - كانوا ممن ﴿ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ﴾ أى : كذب بقلبه ، وترك العمل بجوارحه ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ أى : جمع المال بعضه على بعض فأوعاه ، أى : أوكاه ومنع حق الله منه من الواجب عليه فى النفقات ومن إخراج الزكاة . وقد ورد فى الحديث : « ولا تُوعى فيُوعى الله عليك » (١) وكان عبد الله بن عكيم لا يربط له كيسا ويقول : سمعت الله يقول : ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ . وقال الحسن البصرى : يا بن آدم ، سمعت وعيد الله ثم أوعيت الدنيا .

﴿ إِنَّا الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّنَاتِ اللَّهِ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِقُرُوبِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٨﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٢٩﴾ فَمَنْ أَبْغَىٰ ذِرَّةً مِنْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رِعُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٣﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدينية: ﴿ إِن الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ ، ثم فسره بقوله: ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ أى : إذا أصابه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير، ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ أى : إذا حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره ، ومنع حق الله فيها . ثم قال : ﴿ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ أى : الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم إلا من عصمه الله ووقفه ، وهده إلى الخير ويسر له أسبابه ، وهم المصلون : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ قيل: معناه: يحافظون على أوقاتهم

وواجباتهم . قاله ابن مسعود ، ومسروق ، وإبراهيم النخعي . وقيل : المراد بالدوام هاهنا السكون والخشوع ، كقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ ، ٢] . قاله عتبة بن عامر . ومنه الماء الدائم ، أى : الساكن الراكد « وهذا يدل على وجوب الطمأنينة فى الصلاة ، فإن الذى لا يطمئن فى ركوعه وسجوده ليس بدائم على صلاته ؛ لأنه لم يسكن فيها ولم يدم ، بل ينقرها نقر الغراب فلا يفلح فى صلاته » .

وقيل : المراد بذلك الذين إذا عملوا عملاً داوموا عليه وأثبتوه ، كما جاء فى الصحيح عن عائشة ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ » . وفى لفظ : « ما داوم عليه صاحبه » ، قالت : وكان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً داوم عليه . وفى لفظ : أثبته (١) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ . لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ أى : فى أموالهم نصيب مقرر لذوى الحاجات . وقد تقدم الكلام على ذلك فى « سورة الذاريات » . وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَاتِ الدِّينِ ﴾ أى : يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء ، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ أى : خائفون وجلون ، ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ أى : لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره إلا بأمان من الله تبارك وتعالى . وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ أى : يكفونها عن الحرام ويمنعونها أن توضع فى غير ما أذن الله فيه . ولهذا قال : ﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ أى : من الإماء ، ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنْ ابْتغىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ . وقد تقدم تفسير ذلك فى أول سورة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ بما أغنى عنى إعادته هاهنا .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ أى : إذا أوثمنوا لم يخونوا ، وإذا عاهدوا لم يغدروا . وهذه صفات المؤمنين ، وضدها صفات المنافقين ، كما ورد فى الحديث الصحيح : «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أوثمن خان » . وفى رواية : « إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » (٢) . وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ أى : محافظون عليها لا يزيدون فيها ، ولا ينقصون منها ، ولا يكتمونها ، ﴿ وَمَنْ يَكْتُمهَا فَإِنَّهُ أَتَمَّ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٣] . ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أى : على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها ، فافتتح الكلام بذكر الصلاة واحتتمه بذكرها ، فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها ، كما تقدم فى أول سورة : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، سواء ؛ ولهذا قال هناك : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ . الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠ ، ١١] ، وقال هاهنا : ﴿ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ أى : مكرمون بأنواع الملاذ والمسار .

(١) البخارى (٤٣ ، ٦٤٦٥) ومسلم (٧٨٥ / ٢١٨) .

(٢) مضى تخريج الحديث عند الآية (٨) من سورة « المؤمنون » .

﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٢٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٢٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٢٨﴾ كَلَّا ۗ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَا أَقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ ﴿٣٠﴾ عَلَيَّ أَنْ تَبْدَلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٣١﴾ فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْصِقُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِفُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

يقول تعالى منكرًا على الكفار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ وهم مشاهدون له ، ولما أرسله الله به من الهدى وأيده الله به من المعجزات الباهرات ، ثم هم مع هذا كله فارون منه ، متفرقون عنه ، شاردون يميناً وشمالاً ، فرقاً فرقاً ، وشيعاً شيعاً ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ . كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُسْتَفْرِفَةٌ . فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ الآية [المذثر: ٤٩ - ٥١] وهذه مثلها ؛ فإنه قال تعالى : ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ أى : فما لهؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أى : مسرعين نافرين منك ، كما قال الحسن البصرى : ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أى : منطلقين ، ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ واحداها عزة ، أى : متفرقين . وهو حال من مهطعين ، أى : فى حال تفرقهم واختلافهم ، كما قال الإمام أحمد فى أهل الأهواء : فهم مخالفون للكتاب ، مختلفون فى الكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب . وقال العوفى عن ابن عباس : ﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ قال : العزير : العصب من الناس ، عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به . وقال الحسن فى قوله : ﴿ عِزِينَ ﴾ متفرقين ، يأخذون يميناً وشمالاً يقولون : ما قال هذا الرجل ؟ وقال قتادة : ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ : عامدين ، ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ أى : فرقاً حول النبي ﷺ لا يرغبون فى كتاب الله ، ولا فى نبيه ﷺ . وعن جابر بن سمرة ؛ أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم حلق ، فقال : « ما لى أراكم عزيرين ؟ » رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن جرير (١) . وروى ابن جرير عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه وهم حلق حلق ، فقال : « ما لى أراكم عزيرين ؟ » (٢) . وهذا إسناد جيد ، ولم أره فى شىء من الكتب الستة من هذا الوجه .

وقوله : ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ أى : أيطمع هؤلاء - والحالة هذه - من فرارهم عن الرسول ونفارهم عن الحق - أن يدخلوا جنات النعيم ؟ بل ماوهم نار الجحيم . ثم قال تعالى مقررًا لوقوع المعاد والعذاب بهم الذى أنكروا كونه واستبعدوا وجوده ، مستدلاً عليهم

(١) المسند (٩٣/ ٥) ومسلم (٤٣٠/ ١١٩) وأبو داود (٤٨٢٣) والنسائى (١١٦٢٢/ ١) وابن جرير فى التفسير (٢٩/ ٥٤/) .

(٢) ابن جرير فى التفسير (٢٩/ ٥٤) .

بالبداءة التي الإعادة أهون منها وهم معترفون بها ، فقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : من المنى الضعيف ، كما قال : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ [المسرات: ٢٠] . وقال : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ . إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لِقَادِرٌ . يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ . فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق: ٥ - ١٠] .

ثم قال : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ أى : الذى خلق السموات والأرض ، وجعل مشرقا ومغربا، وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب فى مغاربها . وتقرير الكلام : ليس الأمر كما تزعمون أن لا معاد ولا حساب، ولا بعث ولا نشور ، بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة . ولهذا أتى بـ « لا » فى ابتداء القسم ليدل على أن المقسم عليه نفى ، وهو مضمون الكلام ، وهو الرد على زعمهم الفاسد فى نفى يوم القيامة ، وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله تعالى ما هو أبلغ من إقامة القيامة ، وهو خلق السموات والأرض ، وتسخير ما فيهما من المخلوقات من الحيوانات والجمادات، وسائر صنوف الموجودات ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧] وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَمَيِّ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الاحقاف: ٣٣] . وقال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨١ ، ٨٢] . وقال هاهنا : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ . عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ أى : يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه ، فإن قدرته صالحة لذلك ، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ أى : بعاجزين . كما قال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ . بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ [القيامة: ٣ ، ٤] . وقال تعالى : ﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٠ ، ٦١] . واختار ابن جرير ﴿ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ أى : أمة تطيعنا ولا تعصينا ، وجعلها كقوله : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨] . والمعنى الأول أظهر لدلالة الآيات الأخر عليه ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ فَذَرْنَهُمْ ﴾ أى : يا محمد ﴿ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾ أى : دعهم فى تكذيبهم وكفرهم وعنادهم ، ﴿ حَتَّىٰ يَلْفُتُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ أى : فسيعلمون غب ذلك ويدوقون وباله ، ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُؤْفَضُونَ ﴾ أى : يقومون من القبور إذا دعاهم الرب ، تبارك وتعالى ، لموقف الحساب ، ينهضون سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك : إلى عَلم يسعون . وقال أبو العالية : إلى غاية يسعون إليها .

وقد قرأ الجمهور : « نَصْبٌ » بفتح النون وإسكان الصاد، وهو مصدر بمعنى المنصب .
وقرأ الحسن البصرى : ﴿ نُسْبٌ ﴾ بضم النون والصاد، وهو الصنم ، أى : كأنهم فى إسراعهم
إلى الموقف كما كانوا فى الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه يوفضون ، يبتدرون ، أيهم
يستلمه أول. وهذا مروى عن مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم. وقوله : ﴿ خَاشِعَةً
أَبْصَارُهُمْ ﴾ أى : خاضعة ﴿ تَرَهَّقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ أى : فى مقابلة ما استكبروا فى الدنيا عن الطاعة ،
﴿ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ .

تفسير سورة نوح

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن نوح ، عليه السلام ، أنه أرسله إلى قومه أمرا له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم ، فإن تابوا وأنبأوا رفع عنهم ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ أى : بين النذارة ، ظاهر الأمر واضح ، ﴿ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ ﴾ أى : اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه ﴿ وَأَطِيعُوا ﴾ فيما أمركم به وأنهاكم عنه ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ أى : إذا فعلتم ما أمرتكم به وصدقتم ما أرسلت به إليكم ، غفر الله لكم ذنوبكم . و « من » هاهنا قيل : إنها بمعنى « عن » ، تقديره : يصفح لكم عن ذنوبكم . واختاره ابن جرير . وقيل : إنها للتبعض ، أى : يغفر لكم الذنوب العظام التي وعدكم على ارتكابكم إياها الانتقام . ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى : يمد فى أعماركم ويدرا عنكم العذاب الذى إن لم تنزجروا عما نهاكم عنه ، أوقعه بكم . وقد يستدل بهذه الآية من يقول : إن الطاعة والبر وصلة الرحم ، يزداد بها فى العمر حقيقة . وقوله : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : بادروا بالطاعة قبل حلول النعمة ، فإنه إذا أمر تعالى بكون ذلك لا يرد ولا يمانع ، فإنه العظيم الذى قهر كل شىء ، العزيز الذى دانت لعزته جميع المخلوقات .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاؤِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كَلِمًا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغُرَهُمْ فِي مَا ذُنُوبُهُمْ وَأَسْتَغْفِرُوا لِيَأْجِبَهُمْ وَأُصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدْكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجْكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ ﴾

يخير تعالى عن عبده ورسوله نوح ، عليه السلام ، أنه اشتكى إلى ربه ، عز وجل ، ما لقي من قومه ، وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عاما ، وما بين لقومه ووضح لهم ودعاهم إلى الرشد والسبيل الاقوم ، فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ أى : لم أترك دعاءهم فى ليل ولا نهار ، امتثالا لأمرك وابتغاء لطاعتك ، ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴾ أى : كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق قروا منه وحادوا عنه ، ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ أى : سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه . كما أخبر تعالى عن كفار قريش : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦].

﴿ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ قال ابن عباس : تنكروا له لئلا يعرفهم . وقال سعيد بن جبير ، والسدى : غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما يقول . ﴿ وَأَصْرُوا ﴾ أى : استمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم الفظيع ، ﴿ وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ أى : واستكفوا عن اتباع الحق والانقياد له . ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ أى : جهرة بين الناس ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ ﴾ أى : كلاما ظاهرا بصوت عال ، ﴿ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ أى : فيما بينى وبينهم ، فنوع عليهم الدعوة لتكون المنهج فيهم ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ أى : ارجعوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه وتوبوا إليه من قريب ، فإنه من تاب إليه تاب عليه ، ولو كانت ذنوبه مهما كانت فى الكفر والشرك ؛ ولهذا قال : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ أى : متواصلة الأمطار . ولهذا يستحب قراءة هذه السورة فى صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية . وهكذا روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : أنه صعد المنبر ليستسقى ، فلم يزد على الاستغفار ، وقرأ الآيات فى الاستغفار . ومنها هذه الآية : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ ثم قال : لقد طلبت الغيث بمجاديع السماء التى ستنزل بها المطر . وقال ابن عباس وغيره : يتبع بعضه بعضا .

وقوله : ﴿ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ أى : إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كثر الرزق عليكم ، وأسقاكم من بركات السماء ، وأنبت لكم من بركات الأرض ، وأنبت لكم الزرع ، وأدر لكم الضرع ، وأمدكم بأموال وبينين ، أى : أعطاكم الأموال والأولاد ، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار ، وخللها بالأنهار الجارية بينها .

هذا مقام الدعوة بالترغيب . ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب فقال : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ أى : عظمة . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقال ابن عباس : لا تعظمون الله حق عظمته ، أى : لا تخافون من بأسه ونقمته ، ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ قيل : معناه : من نقطة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة ، ويحيى ابن رافع ، والسدى ، وابن زيد .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ ؟ أى : واحدة فوق واحدة ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴾ أى : فاوت بينهما فى الاستنارة ، فجعل كلا منهما أمموذجا على حدة ، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها ، وقدر القمر منازل وبروجا ، وفاوت نوره ، فتارة يزداد حتى يتناهى ثم يشرع فى النقص حتى يستسر ، ليدل على مضى الشهور والأعوام ، كما قال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس : ٥] .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَنْتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ أى : إذا متم ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ أى : يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بَسَاطًا ﴾ أى : بسطها ومهدها وقررها وثبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات ﴿ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ أى : خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شتتم ، من نواحيها وأرجائها وأقطارها ، وكل هذا عما ينبتهم به نوح ، عليه السلام ، على قدرة الله وعظمته فى خلق السموات والأرض ، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية ، فهو الخالق الرازق ، جعل السماء بناءً ، والأرض مهادا ، وأوسع على خلقه من رزقه ، فهو الذى يجب أن يعبد ويوحى ولا يشرك به أحد ؛ لأنه لا نظير له ولا عدل له ، ولا نذ ولا كفاء ، ولا صاحبة ولا ولد ، ولا وزير ولا مشير ، بل هو العلى الكبير .

﴿ قَالَ نُوحُ رَبِّ إِنِّي مَكْرُؤًا ﴾ ﴿ وَقَالُوا لَا تَدْرِنَ ءَالِهَتِكُمْ وَلَا تَدْرِنَ وِدَا وَلَا سُوعَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ ﴿ ١٤ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن نوح ، عليه السلام ، أنه أنهى إليه ، وهو العليم الذى لا يعزب عنه شىء ، أنه مع البيان المتقدم ذكره ، والدعوة المتنوعة المشتملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى : أنهم عصوه وكذبوه وخالفوه ، واتبعوا أبناء الدنيا من غفل عن أمر الله ، ومتع بمال وأولاد ، وهى فى نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام ؛ ولهذا قال ﴿ وَاتَّبِعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ﴾ : قرئ ﴿ وَوَلَدَهُ ﴾ بالضم وبالفتح ، وكلاهما متقارب .

وقوله : ﴿ وَمَكْرُؤًا كَبِيرًا ﴾ قال مجاهد : ﴿ كَبِيرًا ﴾ أى : عظيماً . وقال ابن زيد : أى : كبيرا . والمعنى فى قوله : ﴿ وَمَكْرُؤًا كَبِيرًا ﴾ أى : بأنبايعهم فى تسويلهم لهم بأنهم على الحق والهدى ، كما يقولون لهم يوم القيامة : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ﴾ [سبأ : ٣٣] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَمَكْرُؤًا كَبِيرًا . وَقَالُوا لَا تَدْرِنَ ءَالِهَتِكُمْ وَلَا تَدْرِنَ وِدَا وَلَا سُوعَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ . وهذه أسماء أصنامهم التى كانوا يعبدونها من دون الله .

روى البخارى عن ابن عباس : صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد : أما ود : فكانت لكلب بدومة الجندل ؛ وأما سواع : فكانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمрад ، ثم لبنى غطيف بالجرف عند سبأ ، وأما يعوق : فكانت لهمدان ، وأما نسر : فكانت لحمير لآل ذى كلاع ، وهى أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، عليه السلام ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم . ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتَسَخَّ العلم عُبِدت (١) . وكذا روى عن عكرمة ، والضحاك ، وقتادة ، وابن إسحاق ، نحو هذا . وقال ابن عباس : هذه أصنام كانت تعبد فى زمن نوح .

وقوله : ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ يعنى : الأصنام التى اتخذوها أضلوا بها خلقا كثيرا ، فإنه استمرت عبادتها فى القرون إلى زماننا هذا فى العرب والعجم وسائر صنوف بنى آدم . وقد قال الخليل ، عليه السلام ، فى دعائه : ﴿ وَأَجِئْتِي وَبَنِيَّ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ . رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦] . وقوله : ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ : دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم ، كما دعا موسى على فرعون ومثله فى قوله : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٨٨] . وقد استجاب الله لكل من النبيين فى قومه ، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به .

﴿ مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أَغْرَقُوا فَأَدْحَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ (٥٥) وَقَالَ نُوْحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿ (٥٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاِجْرًا كَفَّارًا ﴿ (٥٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا ﴾ (٥٨) ﴿

يقول تعالى : ﴿ مِمَّا خَطَبْتَهُمْ ﴾ وقرئ : « خَطَايَاهُمْ » ﴿ أَغْرَقُوا ﴾ أى : من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿ أَغْرَقُوا فَأَدْحَلُوا نَارًا ﴾ أى : نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار ، ﴿ فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ أى : لم يكن لهم معين ولا مُغيث ولا مُجبر ينقذهم من عذاب الله كقوله : ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ [هود: ٤٣] . ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ أى : لا تترك على وجه الأرض منهم أحدا ، وهذه من صيغ تأكيد النفي . قال الضحاك : ﴿ دَيَّارًا ﴾ : واحدا . وقال السدِّى : الديار : الذى يسكن الدار .

فاستجاب الله له ، فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذى اعتزل عن أبيه ، وقال : ﴿ سَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ

رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿ [هود:٤٣]. وقوله : ﴿ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ أى :
 إنك إن أبقيت منهم أحداً أضلوا عبادك ، أى: الذين تخلقهم بعدهم ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾
 أى: فاجراً فى الأعمال كافر القلب ، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا
 خمسين عاماً .

ثم قال : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا ﴾ قال الضحاك : يعنى : مسجدي ،
 ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها ، وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن . وقوله :
 ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ : دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات ، وذلك يعم الأحياء منهم والأموات ؛
 ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء ، اقتداء بنوح ، عليه السلام ، وبما جاء فى الآثار ، والأدعية
 المشروعة . وقوله : ﴿ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ قال السدى : إلا هلاكاً . وقال مجاهد : إلا
 خساراً ، أى : فى الدنيا والآخرة .

تفسير سورة الجن

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ قَتَلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ ﴾

يقول تعالى أمرا رسوله ﷺ أن يخبر قومه : أن الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وصدقوه وانقادوا له ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾ أى : إلى السداد والنجاح ، ﴿ فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾ . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [الاحقاف: ٢٩] . وقد قدمنا الأحاديث الواردة فى ذلك بما أغنى عن إعادتها هاهنا .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ : قال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ أى : فعله وأمره وقدرته . وقال : جد الله : الآؤه وقدرته ونعمته على خلقه . وروى عن مجاهد وعكرمة : جلال ربنا . وقال قتادة : تعالى جلاله وعظمته وأمره . وقال السدى : تعالى أمر ربنا . وعن أبى الدرداء ، ومجاهد أيضا وابن جريج : تعالى ذكره . وقال سعيد ابن جبير : ﴿ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ أى : تعالى ربنا .

وقوله : ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ أى : تعالى عن اتخاذ الصاحبة والأولاد ، أى : قالت الجن : تنزه الرب جل جلاله ، حين أسلموا وآمنوا بالقرآن ، عن اتخاذ الصاحبة والولد .

ثم قالوا : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾ قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والسدى : ﴿ سَفِيهُنَا ﴾ يعنون : إبليس ، ﴿ شَطَطًا ﴾ قال أبو مالك : ﴿ شَطَطًا ﴾ أى : جورا . وقال ابن زيد : ظلما كبيرا . ويحتمل أن يكون المراد بقولهم : ﴿ سَفِيهُنَا ﴾ : اسم جنس لكل من زعم أن لله صاحبة أو ولدا . ولهذا قالوا : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ أى : قبل إسلامه ﴿ عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴾ أى : باطلا وزورا ؛ ولهذا قالوا : ﴿ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسَ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أى : ما حسبنا أن الإنس والجن يتمثلون على الكذب على الله فى نسبة الصاحبة والولد إليه . فلما سمعنا هذا

القرآن وآمنا به ، علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أى : كنا نرى أن لنا فضلا على الإنس ؛ لأنهم كانوا يعوذون بنا ، أى : إذا نزلوا واديا أو مكانا موحشا من البرارى وغيرها كما كان عادة العرب فى جاهليتها . يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجن ، أن يصيبهم بشيء يسوؤهم كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه فى جوار رجل كبير وذمامه وخفارتة ، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم ، ﴿ زَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أى : خوفا وإرهابا وذعرا ، حتى تبقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذا بهم ، كما قال قتادة : ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أى : إثما ، وازدادت الجن عليهم بذلك جراء . وقال السدى : كان الرجل يخرج بأهله فيأتى الأرض فينزلها فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادى من الجن أن أضرب أنا فيه أو مالى أو ولدى أو ماشيتى ، قال : فإذا عاذ بهم من دون الله ، رَهَقَتْهُمْ الجن الأذى عند ذلك .

وقال أبو العالية ، والربيع ، وزيد بن أسلم : ﴿ رَهَقًا ﴾ أى : خوفا . وقال ابن عباس : ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أى : إثما . وكذا قال قتادة . وقال مجاهد : زاد الكفار طغيانا .

وروى ابن أبى حاتم عن كردم بن أبى السائب الأنصارى قال : خرجت مع أبى من المدينة فى حاجة ، وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ بمكة ، فأوانا المبيت إلى راعى الغنم . فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملا من الغنم ، فوثب الراعى فقال : يا عامر الوادى ، جارك . فنادى مناد لا نراه ، يقول : يا سرحان ، أرسله . فأتى الحمل يشتد حتى دخل فى الغنم لم تصبه كدمة . وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ . ثم قال : ورؤى عن عبيد بن عمير ، ومجاهد ، وأبى العالية ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، وإبراهيم النخعى ، نحوه . وقد يكون هذا الذئب الذى أخذ الحمل - وهو ولد الشاة - كان جنيا حتى يهرب الإنسى ويخاف منه ، ثم رده عليه لما استجار به ، ليضله ويهينه ، ويخرجه عن دينه ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴾ أى : لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولا . قاله الكلبي ، وابن جرير .

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً فَخَرْنَا شَدِيدًا وَشَهَبًا ﴾ ﴿ ٨ ﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَحِدُّ لَمْ يَشْهَبَا رَصْدًا ﴿ ٩ ﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿ ١٠ ﴾

يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمدا ﷺ وأنزل عليه القرآن ، وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرسا شديدا ، وحفظت من سائر أركانها ، وطرقت الشياطين عن مقاعدها التى كانت تقعد فيها قبل ذلك ؛ لئلا يسترقوا شيئا من القرآن . فيلقوه على السنة

الكهنة ، فيلبس الأمر ويختلط ولا يدري من الصادق . وهذا من لطف الله بخلقه ، ورحمته بعباده ، وحفظه لكتابه العزيز ، ولهذا قالت الجن : ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُكْتُمْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا . وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا ﴾ أى : من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهاباً مرصداً له ، لا يتخطاه ولا يتعداه ، بل يحمقه ويهلكه ، ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ أى : ما ندري هذا الأمر الذى قد حدث فى السماء ، لا ندري أشراً أريد بمن فى الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشداً ؟ وهذا من أدبهم فى العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل ، والخير أضافوه إلى الله عز وجل . وقد ورد فى الصحيح : « والشر ليس إليك » . وقد كانت الكواكب يُرمى بها قبل ذلك ، ولكن ليس بكثير بل فى الأحيان بعد الأحيان ، كما فى حديث ابن عباس : بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذا رمى بنجم فاستنار ، فقال : « ما كنتم تقولون فى هذا ؟ » فقلنا : كنا نقول : يولد عظيم ، يموت عظيم . فقال : « ليس كذلك ، ولكن الله إذا قضى الأمر فى السماء » ، وذكر تمام الحديث ، وقد أوردناه فى سورة « سبأ » بتمامه (١) .

وهذا هو السبب الذى حملهم على تطلب السبب فى ذلك ، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاريها ، فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه فى الصلاة ، فعرفوا أن هذا هو الذى حُفِظت من أجله السماء ، فأمن من آمن منهم ، وتُرد فى طغيانه من بقى ، كما تقدم حديث ابن عباس فى ذلك ، عند قوله فى سورة « الأحقاف » : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٩] . ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر ، وهو كثرة الشهب فى السماء والرمى بها ، هال ذلك الإنس والجن وانزعجوا له وارتاعوا لذلك ، وظنوا أن ذلك لخراب العالم ، كما قال السدى : لم تكن السماء تحرس إلا أن يكون فى الأرض نبي أو دين لله ظاهر ، وكانت الشياطين قبل محمد ﷺ قد اتخذت المقاعد فى السماء الدنيا ، يستمعون ما يحدث فى السماء من أمر . فلما بعث الله محمداً نبياً ، رُجموا ليلة من الليالى ، ففرغ لذلك أهل الطائف ، فقالوا : هلك أهل السماء ، لما رأوا من شدة النار فى السماء واختلاف الشهب . فجعلوا يعتقدون أرقاءهم ويُسيبون مواشيهم ، فقال لهم عبد ياليل بن عمرو بن عمير : ويحكم يا معشر أهل الطائف . أمسكوا عن أموالكم ، وانظروا إلى معالم النجوم ، فإن رأيتموها مستقرة فى أمكنتها فلم يهلك أهل السماء ، إنما هذا من أجل ابن أبى كيشة - يعنى : محمداً ﷺ - وإن أنتم لم تروها فقد هلك أهل السماء . فنظروا فراوها ، فكفوا عن أموالهم . وفزعت الشياطين فى تلك الليلة ، فأتوا إبليس فحدثوه بالذى كان من أمرهم ، فقال : اتنوني من كل أرض بقبضة من تراب أشمها . فأتوه فشم فقال : صاحبكم بمكة . فبعث سبعة نفر من جن نصيبين ، فقدموا مكة فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلى فى المسجد الحرام يقرأ القرآن ، فدنوا منه حرصاً على القرآن حتى كادت كلالكلهم نصيبه ، ثم أسلموا . فأنزل الله تعالى أمرهم على نبيه ﷺ .

﴿ وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرِيقَ قَدَدَا ﴿١١﴾ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُدَىءَ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَالْوُ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾

يقول مخبراً عن الجن : إنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم : ﴿ وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أي : غير ذلك ، ﴿ كُنَّا طَرِيقَ قَدَدَا ﴾ أي : طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : ﴿ كُنَّا طَرِيقَ قَدَدَا ﴾ أي : منا المؤمن ، ومنا الكافر . وقوله : ﴿ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ أي : نعلم أن قدرة الله حاكمة علينا ، وأنا لا نعجزه في الأرض ، ولو أمعنا في الهرب ، فإنه علينا قادر ، لا يعجزه أحد منا . ﴿ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُدَىءَ آمَنَّا بِهِ ﴾ : يفتخرون بذلك ، وهو مفضل لهم ، وشرف رفيع ، وصفة حسنة .

وقولهم : ﴿ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ قال ابن عباس ، وقتادة ، وغيرهما : فلا يخاف أن ينقص من حسناته أو يحمل عليه غير سيئاته ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه : ١١٢] . ﴿ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَا الْقَاسِطُونَ ﴾ أي : منا المسلم ومنا القاسط ، وهو الجائر عن الحق الناكب عنه ، بخلاف المقسط فإنه العادل ، ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ أي : طلبوا لأنفسهم النجاة ، ﴿ وَأَمَا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ أي : وقوداً تُسعر بهم .

وقوله : ﴿ وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا . لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ اختلف المفسرون في معنى هذا على قولين :

أحدهما : وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها ، ﴿ لِأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ أي : كثيراً . والمراد بذلك سعة الرزق ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنَ الْكِتَابِ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [المائدة : ٦٦] ، وكقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ٩٦] . وعلى هذا يكون معنى قوله : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أي : لنختبرهم ، كما قال مالك ، عن زيد بن أسلم : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ ﴾ : لنتبليهم ، من يستمر على الهداية ممن يرد إلى الغواية ؟ .

ذكر من قال بهذا القول : قال ابن عباس : ﴿ وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ يعني بالاستقامة : الطاعة . وقال مجاهد : ﴿ وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ قال : الإسلام . وكذا قال سعيد بن جبير ، وسعيد بن المسيب ، وعطاء ، والسدي ، ومحمد بن كعب القرظي . وقال قتادة : ﴿ وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ يقول : لو آمنوا كلهم لأوسعنا عليهم من الدنيا . وقال مجاهد : ﴿ وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ أي : طريقة الحق . وكذا قال الضحاك ، واستشهد على ذلك بالآيتين

اللتين ذكرناهما ، وكل هؤلاء أو أكثرهم قالوا فى قوله : ﴿ لِنَفْسِنَهُمْ فِيهِ ﴾ أى : لنبتليهم به .
والقول الثانى : ﴿ وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ : الضلالة ﴿ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ أى :
لأوسعنا عليهم فى الرزق استدراجا ، كما قال : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ
حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الانعام: ٤٤] ، وكقوله : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ
مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ . نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ، ٥٦] ، وهذا قول أبى مجلز لاحق
ابن حميد ؛ فإنه قال فى قوله : ﴿ وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ ﴾ أى : طريقة الضلالة . وحكاه
البعغرى عن الربيع بن أنس ، وزيد بن أسلم ، والكلبى ، وابن كيسان . وله اتجاه ، ويتأيد
بقوله : ﴿ لِنَفْسِنَهُمْ فِيهِ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ أى : عذاباً شاقاً شديداً موجعاً مؤلماً .
قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، وابن زيد : ﴿ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ أى : مشقة لا
راحة معها .

﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ ﴿ ١٨ ﴾ وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا
يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿ ١٩ ﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿ ٢٠ ﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ
ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿ ٢١ ﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُخَيِّرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿ ٢٢ ﴾ إِلَّا
بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةًٍ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿ ٢٣ ﴾ حَتَّىٰ
إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعَفَ نَاصِرًا وَأَقَلَّ عَدَدًا ﴿ ٢٤ ﴾

يقول تعالى أمراً عباده أن يُوحِّدوه فى مجال عبادته ، ولا يُدعى معه أحد ولا يشرك به ،
كما قال قتادة فى قوله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ قال : كانت اليهود والنصارى
إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم ، أشركوا بالله ، فأمر الله نبيه ﷺ أن يوحدوه وحده . وعن ابن
عباس فى قوله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ قال : لم يكن يوم نزلت هذه الآية فى
الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ، ومسجد إيليا : بيت المقدس . وقال الأعمش : قالت الجن :
يا رسول الله ، ائذن لنا نشهد معك الصلوات فى مسجدك . فأنزل الله : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا
تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ يقول : صلوا ، لا تخالطوا الناس . وقال عكرمة : نزلت فى المساجد كلها .
وقال سعيد بن جبير . نزلت فى أعضاء السجود ، أى : هى لله فلا تسجدوا بها غيره .
وذكروا عند هذا القول الحديث الصحيح عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أمرت
أن أسجد على سبعة أعظم : على الجبهة - وأشار بيديه إلى أنفه - واليدين والركبتين وأطراف
القدمين » (١) .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ قال ابن عباس يقول : لما سمعوا النبي ﷺ يتلو القرآن كادوا يركبونه ؛ من الحرص ، لما سمعوه يتلو القرآن ، ودنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه : ﴿ قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ ، يستمعون القرآن . هذا قول ، وهو مروى عن الزبير بن العوام . وعن ابن عباس قال : قال الجن لقومهم : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ ، قال : لما رأوه يصلى وأصحابه ، يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده ، قالوا : عجبوا من طواعية أصحابه له ، قال : فقالوا لقومهم : ﴿ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ . وهذا قول ثان ، وهو مروى عن سعيد بن جبير أيضا . وقال الحسن : لما قام رسول الله ﷺ يقول : « لا إله إلا الله » ، ويدعو الناس إلى ربهم ، كادت العرب تلبّد عليه جميعاً . وقال قتادة فى قوله : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ قال : تلبّدت الإنس والجن على هذا الأمر ليظفثوه ، فأبى الله إلا أن ينصره ويُمضيه ويظهره على من ناوأه . وهذا قول ثالث ، وهو مروى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقول ابن زيد ، واختيار ابن جرير ، وهو الأظهر لقوله بعده : ﴿ قَالَ (١) إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ أى : قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ، ليبتلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته : ﴿ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي ﴾ أى : إنما أعبد ربى وحده لا شريك له ، وأستجير به وأتوكل عليه ، ﴿ وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ أى : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ ، وعبد من عباد الله ليس إلىّ من الأمر شيء فى هدايتكم ولا غوايتكم ، بل المرجع فى ذلك كله إلى الله عز وجل . ثم أخبر عن نفسه أيضا أنه لا يجيره من الله أحد ، أى : لو عصيته فإنه لا يقدر أحد على إنقاده من عذابه ، ﴿ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ قال مجاهد ، وقاتدة ، والسدى : لا ملجأ . وقال قتادة أيضا : أى : لا نصير ولا ملجأ . وفى رواية : لا ولى ولا مؤئل . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ﴾ قال بعضهم : هو مستثنى من قوله : ﴿ لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ ، ﴿ إِلَّا بَلَاغًا ﴾ ، ويحتمل أن يكون استثناء من قوله : ﴿ لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ ﴾ أى : لا يجيرنى منه ويخلصنى إلا إبلاغى الرسالة التى أوجب أداءها علىّ ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] .

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴾ أى : إنما أبلغكم رسالة الله ، فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم خالدين فيها أبداً ، لا محيد لهم عنها ، ولا خروج لهم منها . وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْئَلُونَ مَنْ أضعف ناصراً وأقل عدداً ﴾ أى : حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس ما يوعدون يوم القيامة فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصراً وأقل عدداً ، هم أم المؤمنون الموحدون لله عز وجل ، أى : بل المشركين لا

(١) قال : « هى قراءة الجمهور ، وكذا قراءة الحافظ ابن كثير .

ناصر لهم بالكلية ، وهم أقل عدداً من جنود الله عز وجل .

﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لِمُرَبِّيٓ أَمْدًا ۝١٥ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝١٦ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَٓ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ۝١٨ ﴾

يقول تعالى أمراً رسوله ﷺ أن يقول للناس : إنه لا علم له بوقت الساعة ، ولا يدرى أقرب وقتها أم بعيد ؟ ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لِمُرَبِّيٓ أَمْدًا ﴾ ؟ أى : مدة طويلة . وقد كان ﷺ يسأل عن وقت الساعة فلا يجيب عنها ، ولما تبدى له جبريل فى صورة أعرابى كان فيما سأله أن قال : يا محمد ، فأخبرنى عن الساعة ؟ قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » (١) . ولما ناداه ذلك الأعرابى بصوت جهورى فقال : يا محمد ، متى الساعة ؟ قال : « ويحك . إنها كائنة ، فما أعددت لها ؟ » . قال : أما إنى لم أعد لها كثير صلاة ولا صيام ، ولكنى أحب الله ورسوله . قال : « فانت مع من أحببت » . قال أنس : فمأ فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث (٢) .

وقوله : ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ﴾ ، هذه كقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] . وهكذا قال هاهنا : إنه يعلم الغيب والشهادة ، وإنه لا يطلع أحد من خلقه على شيء من علمه إلا بما أطلعه تعالى عليه ؛ ولهذا قال : ﴿ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ ﴾ ، وهذا يعم الرسول الملكى والبشرى .

ثم قال : ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ أى : يَخْتَصِمُهٗ بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من أمر الله ، ويساوقونه على ما معه من وحى الله ؛ ولهذا قال : ﴿ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ . وقد اختلف المفسرون فى الضمير الذى فى قوله : ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ ، إلى من يعود ؟ فقيل : إنه عائد على النبى ﷺ . عن سعيد بن جبیر فى قوله : ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ قال : أربعة حفظه من الملائكة مع جبريل ، ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ محمد ﷺ ﴿ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ . وقال قتادة : ﴿ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ ، قال : ليعلم نبى الله أن الرسل قد بلغت عن الله ، وأن الملائكة حفظتها ودفعت عنها . واختاره ابن جرير . ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله عز وجل ، وهو قول حكاة ابن الجوزى فى « زاد المسير » . ويكون المعنى فى ذلك : أنه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته ، ويحفظ ما بين إليهم من الوحي ؛ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، ويكون ذلك

(١) جزء من حديث طويل . انظر مسلم (١ / ٨) عن عمر بن الخطاب .

(٢) مسلم (٢٦٣٩ / ١٦٣) .

كقوله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ ﴾ [البقرة: ١٤٣] ،
وكقوله : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ [التكوير: ١١] ، إلى أمثال ذلك ، مع العلم
بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعا لا محالة ؛ ولهذا قال بعد هذا : ﴿ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ
وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ .

تفسير سورة المزمل

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ﴾ ﴿ ١ ﴾ ﴿ وَرَأَيْتَ لِإِلَهِ قَلِيلًا ﴾ ﴿ ٢ ﴾ ﴿ نِصْفَهُ أَوْ انْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴾ ﴿ ٣ ﴾ ﴿ أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ ﴿ ٤ ﴾ ﴿ إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا فَعِيلًا ﴾ ﴿ ٥ ﴾ ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ ﴿ ٦ ﴾ ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ ﴿ ٧ ﴾ ﴿ وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ ﴿ ٨ ﴾ ﴿ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ ﴿ ٩ ﴾

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمل ، وهو : التغطى فى الليل ، وينهض إلى القيام لربه عز وجل ، كما قال تعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦]. وكذلك كان ﷺ ممثلاً ما أمره الله تعالى به من قيام الليل ، وقد كان واجباً عليه وحده ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩] . وهاهنا بين له مقدار ما يقوم ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ . قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . قال ابن عباس ، والضحاك ، والسدى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ ﴾ يعنى : يا أيها النائم . وقال قتادة : المزمل فى ثيابه ، وقال إبراهيم النخعي : نزلت وهو متزمل بقטיפه . وقوله : ﴿ نِصْفَهُ ﴾ بدل من الليل ، ﴿ أَوْ انْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدَ عَلَيْهِ ﴾ أى : أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل ، لا حرج عليك فى ذلك .

وقوله : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ أى : اقرأه على تمهل ، فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره . وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه ، قالت عائشة : كان يقرأ السورة فيرتلها ، حتى تكون أطول من أطول منها . وفى صحيح البخارى ، عن أنس : أنه سُئِلَ عن قراءة رسول الله ﷺ ، فقال : كانت مدأ ، ثم قرأ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، يمد بسم الله ، ويمد الرحمن ، ويمد الرحيم (١) . وعن أم سلمة : أنها سُئِلَتْ عن قراءة رسول الله ﷺ ، فقالت : كان يقطع قراءته آية آية ، ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ . رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذى (٢) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو ، عن النبى ﷺ قال : « يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارْقَ ، ورتّل كما كنت ترتّل فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » . ورواه أبو داود ، والترمذى . وقال الترمذى :

(١) البخارى (٥٠٤٦) .

(٢) المسند (٦ / ٣٠٢) وأبو داود (٤٠٠١) والترمذى فى الشمائل ص ٢٠٩ .

حسن صحيح^(١). وقد قدمنا فى أول التفسير الأحاديث الدالة على استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة. وروى البخارى : عن أبى وائل قال : جاء رجل إلى ابن مسعود فقال : قرأت المفصل الليلة فى ركعة . فقال : هذا كهذا الشعر . لقد عرفت النظائر التى كان رسول الله ﷺ يقرن بينهما . فذكر عشرين سورة من المفصل ، سورتين فى ركعة^(٢) .

وقوله : ﴿ إِنَّا سَلَقْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ قال الحسن ، و قتادة : أى العمل به . وقيل : ثقیلٌ وقت نزوله ؛ من عظمته . كما قال زيد بن ثابت : أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذى ، فكادت تُرض فخذى^(٣) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : سألتُ النبى ﷺ فقلت : يا رسول الله ، هل تحس بالوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أسمعُ صلاصيلٌ ، ثم أسكتُ عند ذلك ، فما من مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسى تفيض » ، تفرد به أحمد^(٤) . وفى أول صحيح البخارى عن عائشة : أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ : كيف يأتىك الوحى ؟ فقال : « أحيانا يأتينى فى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علىّ ، فيفصمُ عنى وقد وعيتُ عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعنى ما يقول » . قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى ﷺ فى اليوم الشديد البرد ، فيفصمُ عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا . هذا لفظه^(٥) . واختار ابن جرير أنه ثقیل من الوجهين معا ، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كما ثقل فى الدنيا ثقل يوم القيامة فى الموازين .

وقوله : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ عن ابن عباس : نشأ : قام بالحبشة . وقال عمر ، وابن عباس ، وابن الزبير : الليل كله ناشئة . وكذا قال مجاهد ، وغير واحد ، يقال : نشأ : إذا قام من الليل . وفى رواية عن مجاهد : بعد العشاء . وكذا قال أبو مجلز ، و قتادة ، وسالم وأبو حازم ، ومحمد بن المنكدر . والغرض : أن ناشئة الليل هى : ساعاته وأوقاته ، وكل ساعة منه تسمى ناشئة ، وهى الآنات . والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان ، وأجمع على التلاوة ؛ ولهذا قال : ﴿ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ أى : أجمع للخاطر فى أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار؛ لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش .

ولهذا قال : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ قال ابن عباس ، وعكرمة ، وعطاء بن أبى مسلم : الفراغ والنوم . وقال أبو العالية ، ومجاهد ، والربيع بن أنس ، وغيرهم : فراغاً طويلاً . وقال قتادة : فراغاً وبغية ومُنْقَلَبًا . وقال السدى : ﴿ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ : تطوعاً كثيراً . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ قال : لحوائجك ،

(١) المسند (٦٧٩٩) وأبو داود (١٤٦٤) والترمذى (٢٩١٤) والنسائى (٨٠٥ / ١) . وصحح إسناده الشيخ أحمد شاکر .

(٢) البخارى (٧٧٥) .

(٣) البخارى (٥٩٢) .

(٤) المسند / (٧٠٧١) وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده صحيح » .

(٥) البخارى (٢) .

فَأَفْرَغَ لَدِينِكَ اللَّيْلَ . قال : وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة ، ثم إن الله مَنَّ عَلَى الْعِبَادِ فَخَفَّفَهَا وَوَضَعَهَا ، وَقَرَأَ : ﴿ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ ﴾ ، حَتَّىٰ بَلَغَ : ﴿ فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ ﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٤٩] . وهذا الذي قاله كما قاله .

والدليل عليه ما رواه الإمام أحمد عن سعد (١) بن هشام : أنه طلق امرأته ثم ارتحل إلى المدينة ليبيع عقاراً له بها ويجعله في الكُرَاعِ والسلاح ، ثم يجاهد الروم حتى يموت . فلقي رهطاً من قومه فحدثوه أن رهطاً من قومه ستة أرادوا ذلك على عهد رسول الله ﷺ فقال : « أليس لكم في أسوة ؟ » فنهاهم عن ذلك ، فاشهدهم على رجعتها ، ثم رجع إلينا فأخبرنا أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال : ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم . قال : انت عائشة فاسألها ثم ارجع إلي فأخبرني بردها عليك . قال : فأنبت على حكيم ابن أفلح فاستلحقته إليها ، فقال : ما أنا بقاربها ؛ إني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئاً ، فأبت فيهما إلا مُضِيًّا . فأقسمتُ عليه ، فجاء معي ، فدخلنا عليها فقالت : حكيم ؟ وعرفته ، قال : نعم . قالت : من هذا معك ؟ قال : سعد بن هشام . قالت : من هشام ؟ قال : ابن عامر . قال : فترحمت عليه وقالت : نعم المرء كان عامر . قلت : يا أم المؤمنين ، أنبئني عن خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : ألسن تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قالت : فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن . فهمتُ أن أقوم ، ثم بدا لي قيام رسول الله ﷺ ، قلت : يا أم المؤمنين ، أنبئني عن قيام رسول الله ﷺ . قالت : ألسن تقرأ هذه السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ ﴾ ؟ قلت : بلى . قالت : فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة ، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم ، وأمسك الله خاتمها في السماء اثني عشر شهراً ، ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة . فهمتُ أن أقوم ، ثم بدا لي وتر رسول الله ﷺ ، قلت : يا أم المؤمنين ، أنبئني عن وتر رسول الله ﷺ . قالت : كنا نعد له سواكه وطهوره ، فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل ، فيتسوك ثم يتوضأ ثم يصلي ثمانى ركعات لا يجلس فيهن إلا عند الثامنة ، فيجلس ويذكر ربه ويدعو ثم ينهض وما يسلم . ثم يقوم ليصلى التاسعة ثم يقعد فيذكر الله وحده ثم يدعو ثم يسلم تسليماً يسمعنا ، ثم يصلى ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم . فتلك إحدى عشر ركعة يا بنى . فلما أسن رسول الله ﷺ وأخذ اللحم ، أوتر بسبع ، ثم صلى ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم ، فتلك تسع يا بنى . وكان رسول الله ﷺ إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها ، وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض ، صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة ، ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة ، ولا قام ليلة حتى أصبح ، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان . فأنبت ابن عباس فحدثته بحديثها ، فقال : صدقت ، أما لو كنت أدخل عليها لأتيتها حتى

(١) في المطبوعة : « سعيد » وهو خطأ . وكذا في الموضوع التالي من الحديث .

تشافهني مشافهة . هكذا رواه الإمام أحمد بتمامه . وقد أخرجه مسلم بنحوه (١) .

وروى ابن جرير عن أبي عبد الرحمن قال: لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ﴾ ، قاموا حولاً حتى ورمت أقدامهم وسوقهم ، حتى نزلت: ﴿فَاقْرَأْ وَامَّا تَسِرَّ مِنْهُ﴾ ، قال: فاستراح الناس (٢) . وكذا قال الحسن البصري .

وقال قتادة: ﴿قُمِ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ : قاموا حولاً أو حولين ، حتى انتفخت سوقهم وأقدامهم فأنزل الله تخفيفها بعد في آخر السورة . وقال ابن عباس في قوله: ﴿قُمِ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلاً . نَصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ ، فأمر الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلاً ، فشق ذلك على المؤمنين ، ثم خفف الله عنهم ورحمهم ، فأنزل بعد هذا: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ ، إلى قوله: ﴿فَاقْرَأْ وَامَّا تَسِرَّ مِنْهُ﴾ ، فوسع الله - وله الحمد - ولم يضيق .

وقوله: ﴿وَأذْكَرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ : أى : أكثر من ذكره ، وانقطع إليه ، وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك ، وما تحتاج إليه من أمور دنياك ، كما قال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشرح: ٧] : أى : إذا فرغت من مهامك فانصب في طاعته وعبادته ، لتكون فارغ البال . قال ابن عباس ومجاهد ، والسدى : ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ : أى : أخلص له العبادة . وقال الحسن : اجتهد وتبتل إليه نفسك . وقال ابن جرير: يقال للعابد : متبتل ، ومنه الحديث المروى : أنه نهى عن التبتل ، يعنى : الانقطاع إلى العبادة وترك التزوج (٣) .

وقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ : أى : هو المالك المتصرف في المشارق والمغرب الذي لا إله إلا هو ، وكما أفردته بالعبادة فأفردته بالتوكل ، ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود : ١٢٣] ، وكقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، وآيات كثيرة في هذا المعنى ، فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة لله ، وتخصيصه بالتوكل عليه .

﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرِنِ الْمُكذِبِينَ أُولَىٰ النَّعْمَةِ وَمَهَلًا قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَحَجِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُ مَقْعُولًا ﴿١٨﴾﴾

(٢) ابن جرير في التفسير (٢٩ / ٧٩) .

(١) المسند (٦ / ٥٤) ومسلم (٧٤٦ / ١٣٩) .

(٣) ابن جرير في التفسير (٢٩ / ٨٣) .

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على ما يقوله من كذبه من سفهاء قومه ، وأن يهجرهم هجراً جميلاً ، وهو الذى لا عتاب معه . ثم قال له متوعداً لكفار قومه ومتهدداً وهو العظيم الذى لا يقرم لغضبه شيء : ﴿ وَذُرِّيِّىِ الْمَكْذِبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ ﴾ أى : دعنى والمكذبين المترفين أصحاب الأموال ، فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم ، ﴿ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلاً ﴾ أى : رويدا ، كما قال : ﴿ نَمْتَعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً ﴾ وهى : القيود . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة وغير واحد ، ﴿ وَجَحِيماً ﴾ : وهى السعير المضطربة ﴿ وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ ﴾ قال ابن عباس : ينشب فى الحلق فلا يدخل ولا يخرج ، ﴿ وَعَذَاباً أَلِيماً . يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ أى : تزلزل ، ﴿ وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً ﴾ أى : تصير ككتبان الرمل بعد ما كانت حجارة صماء ، ثم إنها تسف نسفا فلا يبقى منها شيء إلا ذهب ، حتى تصير الأرض قاعاً صافصفاً ، لا ترى فيها عوجاً ، أى : واديا ، ولا أمثا ، أى : رابية ، ومعناه : لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع .

ثم قال مخاطباً لكفار قريش ، والمراد سائر الناس : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِداً عَلَيْكُمْ ﴾ أى : بأعمالكم ، ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا . فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴾ قال ابن عباس ، وقتادة ، والسدى : ﴿ أَخْذًا وَبِيلاً ﴾ أى : شديداً ، أى : فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول ، فيصيبكم ما أصاب فرعون ، حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٥] ، وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتم ؛ لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران . ويروى عن ابن عباس ومجاهد .

وقوله : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ : يحتمل أن يكون ﴿ يَوْمًا ﴾ معمولاً لتتقون ، كما حكاه ابن جرير عن قراءة ابن مسعود : « فكيف تخافون أيها الناس يوما يجعل الولدان شيبا إن كفرتم بالله ولم تصدقوا به » ؟ ويحتمل أن يكون معمولاً لكفرتم ، فعلى الأول : كيف يحصل لكم أمان من يوم هذا الفزع العظيم إن كفرتم ؟ وعلى الثانى : كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه ؟ وكلاهما معنى حسن ، ولكن الأول أولى ، والله أعلم . ومعنى قوله : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ أى : من شدة أهواله وزلازله وبلابله ، وذلك حين يقول الله لآدم : ابعث بعث النار . فيقول : من كم ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة . وقوله : ﴿ السَّمَاءُ مَفْطُورَةٌ بِهٖ ﴾ قال الحسن ، وقتادة : أى بسببه من شدته وهوله ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾ أى : كان وعد هذا اليوم مفعولاً ، أى : واقعاً لا محالة ، وكائنا لا محيد عنه .

﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ انْخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ ﴿ ١٦ ﴾ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْفَىٰ مِنْ ثُلِيِّ الثَّلِثِ وَيَصْفَعُ وَيُلْثِمُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَّرْضَىٰ وَءَاخِرُونَ يَصْرِيحُونَ فِي

الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاآخَرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْرَعُوا مَا يَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
وآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا نُقِذُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ
أَجْرًا وَأَسْتَعْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩﴾ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ ﴾ أي : السورة ﴿ تَذَكُّرَةٌ ﴾ أي : يتذكر بها أولو الألباب ؛ ولهذا
قال : ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ أي : فمن شاء الله هدايته ، كما قيده في السورة الأخرى :
﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان: ٣٠] .

ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلْثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ أي : تارة
هكذا ، وتارة هكذا ، وذلك كله من غير قصد منكم ، ولكن لا تقدرُونَ على المواظبة على ما
أمركم به من قيام الليل ؛ لأنه يشق عليكم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أي : تارة
يعتدلان ، وتارة يأخذ هذا من هذا ، وهذا من هذا ، ﴿ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ ﴾ أي : الفرض الذي
أوجبه عليكم ﴿ فَأَقْرَعُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ أي : من غير تحديد بوقت ، أي : ولكن قوموا من
الليل ما تيسر . وعبر عن الصلاة بالقراءة ، كما قال في سورة سبحان : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ ﴾
أي : بقرائكك ، ﴿ وَلَا تُخَافَتْ بِهَا ﴾ . وقد استدلل أصحاب الإمام أبي حنيفة بهذه الآية ، وهي
قوله : ﴿ فَأَقْرَعُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ على أنه لا يتعين قراءة الفاتحة في الصلاة ، بل لو قرأ بها
أو غيرها من القرآن ، ولو بأية ، أجزاءه ؛ واعتضدوا بحديث المسيء صلواته الذي في
الصحيحين : « ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن » (١) . وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة ابن
الصامت ، وهو في الصحيحين أيضا : أن رسول الله ﷺ قال : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة
الكتاب » (٢) . وفي صحيح مسلم ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كل صلاة لا يقرأ
فيها بأم الكتاب فهي خِدَاجٌ ، فهي خِدَاجٌ ، فهي خِدَاجٌ ، غير تمام » (٣) . وفي صحيح ابن خزيمة
عن أبي هريرة مرفوعاً : « لا تجزئ صلاة من لم يقرأ بأم القرآن » (٤) .

وقوله : ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي : علم أن سيكون منكم مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ
لا يستطيعون ذلك ، ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر ، وآخرين
مشغولين بما هو الأهم في حقهم من الغزو في سبيل الله . وهذه الآية - بل السورة كلها - مكية ،
ولم يكن القتال شرع بعد ، فهي من أكبر دلائل النبوة ، لأنه من باب الإخبار بالمغيبات
المستقبلية . ولهذا قال : ﴿ فَأَقْرَعُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ ﴾ أي : قوموا بما تيسر عليكم .

وقوله : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ أي : أقيموا صلواتكم الواجبة عليكم ، وآتوا الزكاة

(٢) البخارى (٧٥٦) ومسلم (٣٩٤ / ٣٤) .

(٤) ابن خزيمة في صحيحه (٤٩٠) .

(١) مسلم (٣٩٧ / ٤٥) .

(٣) مسلم (٣٨ / ٣٩٥) .

المفروضة. وهذا يدل لمن قال : إن فرض الزكاة نزل بمكة ، لكن مقادير النصب والمخرج لم تُبين إلا بالمدينة. والله أعلم. وقد قال ابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة ، وغير واحد من السلف: إن هذه الآية نَسَخَتْ الذي كان الله قد أوجبه على المسلمين أولاً من قيام الليل . واختلفوا فى المدة التى بينهما على أقوال كما تقدم . وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لذلك الرجل : «خمس صلوات فى اليوم والليلة» . قال : هل على غيرها ؟ قال : « لا ، إلا أن تَطَوَّعَ » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ يعنى : من الصدقات ، فإن الله يجازى على ذلك أحسن الجزاء وأوفره ، كما قال : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة: ٢٤٥] . وقوله : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ أى : جميع ما تقدموه بين أيديكم فهو لكم حاصل ، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم فى الدنيا . وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى عن عبد الله : قال رسول الله ﷺ : « أياكم ماله أحب إليه من مال وارثه ؟ » قالوا : يا رسول الله ، ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه . قال : «اعلموا ما تقولون» . قالوا : ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله ؟ قال : « إنما مال أحدكم ما قَدَّمَ ومال وارثه ما أخر » . ورواه البخارى (٢) . ثم قال تعالى : ﴿ وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى : أكثروا من ذكره واستغفاره فى أموركم كلها ؛ فإنه غفور رحيم لمن استغفره .

(١) البخارى (٤٦) ومسلم (١١ / ٨) .

(٢) أبو يعلى فى مسنده (٩ / ٩٧) والبخارى (٦٤٤٢) .

تفسير سورة المدثر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَيَا أَيُّهَا فَطَّهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّحْرُزْ ﴿٥﴾ فَاهْجُرْ ﴿٦﴾ وَلَا تَمَسْنِ تَسْتَكْبِرُ ﴿٧﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٨﴾ فَإِذَا نَقَرْتُمْ فِي الْقَأْوَرِ ﴿٩﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿١٠﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١١﴾

ثبت في صحيح البخارى عن جابر أنه كان يقول : أول شيء نزل من القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ . وخالفه الجمهور فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولا قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ، كم سيأتى بيان ذلك هناك . وروى البخارى عن يحيى بن أبى كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن ، قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ . قلت : يقولون : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ؟ فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك ، وقلت له مثل ما قلت لى ، فقال جابر : لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال : « جاورت بحراء ، فلما قضيت جوارى هبطت فتوديت فنظرت عن يمينى فلم أر شيئا ، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئا ، ونظرت أمامى فلم أر شيئا ، ونظرت خلفى فلم أر شيئا . فرفعت رأسى فرأيت شيئا ، فأتيت خديجة فقلت : ذكرونى . وصبوا على ماء باردا . قال : فدثرونى وصبوا على ماء باردا قال : فنزلت ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴾ » (١) . هكذا ساقه من هذا الوجه ، وقد رواه مسلم عن أبى سلمة قال : أخبرنى جابر بن عبد الله : أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي : « فبينما أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء ، فرفعت بصرى قبل السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض ، فجنثت منه حتى هويت إلى الأرض ، فجنثت إلى أهلى ، فقلت : زملونى زملونى . فزملونى ، فأنزل الله ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ إلى : ﴿ فَاهْجُرْ ﴾ - قال أبو سلمة : والرجز : الأوثان - ثم حمى الوحي وتتابع . هذا لفظ البخارى (٢) . وهذا السياق هو المحفوظ ، وهو يقتضى أنه قد نزل الوحي قبل هذا ، بقوله : « فإذا الملك الذى جاءنى بحراء » ، وهو جبريل حين أتاه بقوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . ثم إنه حصل بعد هذا فترة ، ثم نزل الملك بعد هذا . ووجه الجمع أن أول شيء نزل بعد فترة الوحي هذه السورة ، كما روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

(٢) البخارى (٤٩٢٦) .

(١) البخارى (٤٩٢٢) .

«ثم فتر الوحي عنى فترة ، فبينما أنا أمشى سمعتُ صوتاً من السماء ، فرفعت بصري قبيل السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض، فَجِئْتُ مِنْهُ فَرَقاً ، حتى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ ، فَجِئْتُ أَهْلِي فَقُلْتُ لَهُمْ : زَمَلُونِي زَمَلُونِي . فزَمَلُونِي ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ . ثم حمى الوحي وتتابع . أخرجاه (١) .

فقلوه : ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ أى : شمر عن ساق العزم ، وأنذر الناس . وبهذا حصل الإرسال ، كما حصل بالأول النبوة ﴿ وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ ﴾ أى : عظيم . وقوله : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ، عن ابن عباس : أنه أتاه رجل فسأله عن هذه الآية : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ، قال : لا تلبسها على معصية ولا على غَدْرَةٍ . ثم قال : أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفى :

فَأِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ لَا تَوْبَ فَاجِرٌ لَبِسْتُ ، وَلَا مِنْ غَدْرَةٍ أَتَقَعُ

وقال ابن جريج عن ابن عباس فى هذه الآية : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : فى كلام العرب : نَقَى الثِيَابَ . وقال الثورى ، عن رجل ، عن عطاء ، عن ابن عباس فى هذه الآية : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : من الإثم . وكذا قال إبراهيم النخعى . وقال مجاهد : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ قال : نفسك ، ليس ثيابه . وفى رواية عنه : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ : عملك فأصلح ، وكذا قال أبو رزين . وقال قتادة : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أى : طهرها من المعاصى ، وكانت العرب تسمى الرجل إذا نكث ولم يف بعهد الله إنه لَمُدْنَس الثِيَابَ . وإذا وفى وأصلح : إنه لمطهر الثياب . وقال عكرمة ، والضحاك : لا تلبسها على معصية . وقال العوفى عن ابن عباس : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ يعنى : لا تك ثيابك التى تلبس من مكسب غير طائب ، ويقال : لا تلبس ثيابك على معصية . وقال محمد بن سيرين : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ أى : اغسلها بالماء . وقال ابن زيد : كان المشركون لا يتطهرون ، فأمره الله أن يتطهر ، وأن يظهر ثيابه . وهذا القول اختاره ابن جرير ، وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب ، فإن العرب تطلق الثياب عليه .

وقوله : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ قال ابن عباس : ﴿ وَالرُّجْزَ ﴾ وهو الأصنام ، فاهجر . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وقاتدة : إنها الأوثان . وقال إبراهيم ، والضحاك : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ أى : اترك المعصية . وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ [الاحزاب : ١] . ﴾ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ [الاعراف : ١٤٢] .

وقوله : ﴿ وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَمُنَّ ﴾ قال ابن عباس : لا تعط العطية تلتبس أكثر منها . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، وغيرهم . وقال الحسن البصرى : لا تمنن بعملك على ربك تستكثره . وكذا قال الربيع بن أنس ، واختاره ابن جرير . وقال خُصَيْفٌ ، عن مجاهد فى قوله : ﴿ وَلَا تَمَنَّ ﴾

تَسْتَكْبِرُ ﴿١٠﴾ قال : لا تضعف أن تستكثر من الخير ، قال : تمنن في كلام العرب : تضعف . وقال ابن زيد : لا تمنن بالنبوة على الناس ، تستكثرهم بها ، تأخذ عليه عوضاً من الدنيا . فهذه أربعة أقوال ، والأظهر القول الأول ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ ﴿١١﴾ أى : اجعل صبرك على أذاهم لوجه الله عز وجل ، قاله مجاهد . وقال إبراهيم النخعي : اصبر على عطيتك لله تعالى .

وقوله : ﴿ فَإِذَا نَقَرْنَا فِي النَّاقُورِ . فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ ، قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة : وغيرهم ﴿ النَّاقُورُ ﴾ : الصور . قال مجاهد : وهو كهيئة القرن . وروى ابن أبي حاتم : عن ابن عباس : ﴿ فَإِذَا نَقَرْنَا فِي النَّاقُورِ ﴾ ، فقال : قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ، ينتظر متى يؤمر فينفتح ؟ » فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » . وهكذا رواه الإمام (١) .

وقوله : ﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ ﴿١٢﴾ أى : شديد ، ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ ﴿١٣﴾ أى : غير سهل عليهم . كما قال تعالى : ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ [القمر : ٨] . وقد روينا عن زرارة بن أوفى - قاضى البصرة : أنه صلى بهم الصبح ، فقرأ هذه السورة ، فلما وصل إلى قوله : ﴿ فَإِذَا نَقَرْنَا فِي النَّاقُورِ . فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ : شهق شهقة ، ثم خر ميتاً ، رحمه الله .

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ﴿١٦﴾ سَاءَ هُفُوهُ ﴿١٧﴾ صَعُودًا ﴿١٨﴾ إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ ﴿١٩﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٣﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٥﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٦﴾ سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢٨﴾ لَا يَقِي وَلَا نَدْرُ ﴿٢٩﴾ لَوَاعِثُ لَلْبَشَرِ ﴿٣٠﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ ﴿٣١﴾

يقول تعالى متوردا لهذا الخبيث الذى أنعم الله عليه بنعم الدنيا ، فكفر بأنعم الله ، وبدلها كفرا ، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها ، وجعلها من قول البشر . وقد عدد الله عليه نعمه حيث قال : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ ﴿١١﴾ أى : خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد ، ثم رزقه الله ، ﴿ مَالًا مَمْدُودًا ﴾ ﴿١٢﴾ أى : واسعا كثيرا . قيل : ألف دينار . وقيل : مائة ألف دينار . وقيل : أرضا يستغلها . وقيل غير ذلك . وجعل له ﴿ بَيْنَ شُهُودًا ﴾ ﴿١٣﴾ قال مجاهد : لا يغيبون ، أى : حضورا عنده لا يسافرون بالتجارات ، بل مواليتهم وأجراهم يتولون ذلك

(١) مضى تخريجها عند الآية (١٧٣) من آل عمران .

عنهم وهم قعود عند أبيهم، يتمتع بهم ويتملى بهم. وكانوا - فيما ذكره السدى ، وأبو مالك ، وعاصم بن عمر بن قتادة - ثلاثة عشر. وقال ابن عباس ، ومجاهد : كانوا عشرة. وهذا أبلغ فى النعمة وهو إقامتهم عنده. ﴿ وَمَهَّدَتْ لَهُ تَمْهِيدًا ﴾ أى : مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك ، ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾ أى : معاندا ، وهو الكفر على نعمه بعد العلم . قال الله : ﴿ سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا ﴾ قال ابن عباس : صعود : صخرة فى جهنم عظيمة يسحب عليها الكافر على وجهه . وقال السدى : صعودا : صخرة ملساء فى جهنم ، يكلف أن يصعدها . وقال مجاهد : ﴿ سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا ﴾ أى : مشقة من العذاب . وقال قتادة : عذابا لا راحة فيه . واختاره ابن جرير .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ أى : إنما أرهقناه صعودا ، أى : قربناه من العذاب الشاق ؛ لبعده عن الإيمان ، لأنه فكر وقدر ، أى : تروى ماذا يقول فى القرآن حين سُئِلَ عن القرآن ، ففكر ماذا يختلق من المقال ، ﴿ وَقَدَّرَ ﴾ أى : تروى ، ﴿ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَرَ . ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَرَ ﴾ دعاء عليه ، ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ أى : أعاد النظرة والتروى ، ﴿ ثُمَّ عَبَسَ ﴾ أى : قبض بين عينيه وقطب ، ﴿ وَبَسَرَ ﴾ أى : كلح وكره . وقوله : ﴿ ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ أى : صُرف عن الحق ، ورجع القهقرى مستكبرا عن الانقياد للقرآن ، ﴿ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴾ أى : هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ أى : ليس بكلام الله .

وهذا المذكور فى هذا السياق هو : الوليد بن المغيرة المخزومى ، أحد رؤساء قريش - لعنه الله - وكان من خبره فى هذا ما رواه العوفى ، عن ابن عباس قال : دخل الوليد بن المغيرة على أبى بكر بن أبى قحافة فسأله عن القرآن ، فلما أخبره خرج على قريش فقال : يا عجباً لما يقول ابن أبى كبشة . فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذى من الجنون ، وإن قوله لمن كلام الله . فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا فقالوا : والله لئن صبا الوليد لتصبون قريش . فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال : أنا والله أكفيكم شأنه . فانطلق حتى دخل عليه بيته فقال للوليد : ألم تر قومك قد جمعوا لك الصدقة ؟ فقال : ألتست أكثرهم مالا ولدا . فقال له أبو جهل : يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبى قحافة لتصيب من طعامه . فقال الوليد : أقد تحدث به عشيرتى ؟ فلا والله لا أقرب ابن أبى قحافة ، ولا عمر ، ولا ابن أبى كبشة ، وما قوله إلا سحر يؤثر . فأنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ إلى قوله : ﴿ لا تَبْقَى وَلا تَدْرُ ﴾ . وقال قتادة : زعموا أنه قال : والله لقد نظرت فيما قال الرجل فإذا هو ليس بشعر ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يُعلَى ، وما أشك أنه سحر . فأنزل الله : ﴿ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَرَ ﴾ الآية ، ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ : قبض ما بين عينيه وكلح .

وروى ابن جرير : عن عكرمة : أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى ﷺ فقرأ عليه القرآن ، فكانه رقى له . فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام ، فاتاه فقال : أى عم ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا . قال : لم ؟ قال : يعطونك ، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله . قال :

قد علمت قريش أنى أكثرها مالا. قال : فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكر لما قال ، وأنك كاره له . قال : فماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار منى ، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من ذلك . والله إن لقوله الذى يقول لحلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يعلى . قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه . قال : فدعنى حتى أفكر فيه . فلما فكر قال : هذا سحر يآثره عن غيره . فنزلت : ﴿ ذُرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ ، حتى بلغ : ﴿ تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ (١) .

وقد ذكر ابن إسحاق وغير واحد نحوه من هذا . وقد زعم السدى أنهم لما اجتمعوا فى دار الندوة ليجمعوا رأيهم على قول يقولونه فيه ، قبل أن يقدم عليهم وفودُ العرب للحج ليصدهم عنه ، فقال قائلون : شاعر . وقال آخرون : ساحر . وقال آخرون : كاهن . وقال آخرون : مجنون . كما قال تعالى : ﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٨] ، كل هذا والوليد يفكر فيما يقوله فيه ، ففكر وقدر ، ونظر وعبس وبسر ، فقال : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ . إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ ، قال الله عز وجل : ﴿ سَأُصَلِّيهُ سَقَرًا ﴾ أى : سأعمره فيها من جميع جهاته . ثم قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴾ ؟ وهذا تهويل لامرأها وتفخيم . ثم فسر ذلك بقوله : ﴿ لَا تَبْقَى وَلَا تَذَرُ ﴾ أى : تأكل لحومهم وعروقهم وعصَبهم وجلودهم ، ثم تبدل غير ذلك ، وهم فى ذلك لا يموتون ولا يحيون .

وقوله : ﴿ لَوْأَحَةَ لِلْبَشَرِ ﴾ قال مجاهد : للجلد ، وقال أبو رزين : تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل . وقال زيد بن أسلم : تلوح أجسادهم عليها . وقال قتادة : ﴿ لَوْأَحَةُ لِلْبَشَرِ ﴾ أى : حراقة للجلد . وقال ابن عباس : تحرق بشرة الإنسان . وقوله : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ أى : من مقدّمى الزبانية ، عظيم خلفهم ، غليظ خلفهم .

﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْثَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴾ ﴿ ٢١ ﴾ كَلَّا وَالْقَمَرَ ﴿ ٢٢ ﴾ وَاللَّيْلَ إِذَا دَبَّرَ ﴿ ٢٣ ﴾ وَالصَّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ ﴿ ٢٤ ﴾ إِنَّهَا لِأَحَدَى الْأَكْبَرِ ﴿ ٢٥ ﴾ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿ ٢٦ ﴾ لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَتَّقَى أَن يُتَّخَرَ ﴿ ٢٧ ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ أى : خزائنها ، ﴿ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾ أى : زبانية غلاظا شدادا . وذلك رد على مشركى قريش حين ذكروا عدد الخزنة ، فقال أبو جهل : يا معشر قريش ، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم ؟ فقال الله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا

مَلَائِكَةٌ ﴿ أَى : شديدى الخلق لا يقاومون ولا يغالبون . وقد قيل : إن أبا الأشدين (١) - واسمه : كَلْدَةَ بن أسيد بن خلف - قال : يا معشر قريش ، اكفونى منهم اثنين وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر ، إعجاباً منه بنفسه ، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينتزعه من تحت قدميه ، فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه . قال السهيلي : وهو الذى دعا رسول الله ﷺ إلى مصارعته وقال : إن صرعتنى آمنت بك ، فصرعه النبى ﷺ مراراً ، فلم يؤمن . قال : وقد نَسَبَ ابنُ إسحاقَ خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد ابن هاشم بن المطلب . قلت : ولا منافاة بين ما ذكره ، والله أعلم . ﴿ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمُ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَى : إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر اختباراً مناً للناس ، ﴿ لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ أَى : يعلمون أن هذا الرسول حق ؛ فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله . ﴿ وَيَزَادُ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ أَى : إلى إيمانهم . أَى : بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمد ﷺ ، ﴿ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أَى : من المنافقين ﴿ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ ؟ أَى : يقولون : ما الحكمة فى ذكرها هذا هاهنا ؟ قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ أَى : من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان فى قلوب أقوام ، ويتزلزل عند آخرين ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة .

وقوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَى : ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى ، لثلاث يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط ، كما قد قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة من الفلاسفة اليونانيين . ومن شايهم من الملتين الذين سمعوا هذه الآية ، فأرادوا تنزيلها على العقول العشرة والنفوس التسعة ، التى اخترعوا دعواها وعجزوا عن إقامة الدلالة على مقتضاها ، فأفهموا صدر هذه الآية وقد كفروا بأخرها ، وهو قوله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ . وقد ثبت فى حديث الإسراء المروى فى الصحيحين وغيرهما . عن رسول الله ﷺ أنه قال فى صفة البيت المعمور الذى فى السماء السابعة : « فإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه آخر ما عليهم » (٢) .

وقوله : ﴿ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴾ قال مجاهد وغير واحد : ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ أَى : النار التى وصفت ، ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ﴾ . ثم قال : ﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ . وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴾ أَى : ولى ، ﴿ وَالصُّحُحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴾ أَى : أشرق ، ﴿ إِنَّهَا لِإِحْدَى الْكُبَرِ ﴾ أَى : العظام ، يعنى : النار ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وغير واحد من السلف : ﴿ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ أَى :

(١) فى المطبوعة : « أبا الأشدين » بالسین المهملة ، وهو خطأ ، والمثبت من المخطوطة والطبرى والدر المنثور عند تفسيرهما لهذه الآية .

(٢) جزء من حديث طويل . رواه البخارى (٧٥١٧) ومسلم (٢٥٩ / ١٦٢) . وانظر أحاديث الإسراء عند أول تفسير سورة الإسراء .

لمن شاء أن يقبل التذارة ويهتدى للحق ، أو يتأخر عنها ويولى ويردها .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَوْ نَكُنَّ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ نَكُنَّ نَاطِعِينَ الْمُسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَفْعَلُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مِّنْشَرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكُرْ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النُّقُولِ وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ ﴿٥٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً أن : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ أى : معتقلة بعملها يوم القيامة ، قاله ابن عباس وغيره ﴿ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ ، فإنهم ﴿ فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ . عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى : يسألون المجرمين وهم فى الغرفات وأولئك فى الدرجات قائلين لهم : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ . قَالُوا لَوْ نَكُنَّ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَوْ نَكُنَّ نَاطِعِينَ الْمُسْكِينِ ﴾ أى : ما عبدنا ربنا ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا ، ﴿ وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ أى : نتكلم فيما لا نعلم . وقال قتادة : كلما غوى غاوغونا معه ، ﴿ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ . حَتَّىٰ آتَانَا الْيَقِينَ ﴾ أى : الموت . كقوله : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينَ ﴾ [الحجر : ٩٩] ، وقال رسول الله ﷺ : « أما هو - يعنى عثمان بن مظعون - فقد جاءه اليقين من ربه » (١) .

قال الله تعالى : ﴿ فَمَا تَفْعَلُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ أى : من كان متصفاً بمثل هذه الصفات فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعتة شافع ؛ لأن الشفاعة إنما تنجح إذا كان المحل قابلاً ، فأما من وافى الله كافراً يوم القيامة فإنه له النار لا محالة ، خالداً فيها . ثم قال تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ أى : فما لهؤلاء الكفرة الذين قبلك عما تدعوهم إليه وتذكروهم به معرضين ، ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ . فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ أى : كأنهم فى نفرهم عن الحق ، وإعراضهم عنه حُمُرٌ من حمير الوحش إذا فرت ممن يريد صيدها من أسد ، قاله أبو هريرة ، وابن عباس - فى رواية عنه - وزيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن . أو : رام ، وهو رواية عن ابن عباس ، وهو قول الجمهور . وقال ابن عباس : الأسد ، بالعربية ، ويقال له بالحبشية : قسورة ، وبالفارسية : شير ، وبالبنطية : أويا .

وقوله : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مِّنْشَرَةً ﴾ أى : بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاباً كما أنزل على النبى . قاله مجاهد وغيره ، كقوله : ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ

آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴿ [الأنعام: ١٢٤] ، وفى رواية عن قتادة : يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل . فقوله: ﴿ كَلَّا بَلْ لَأَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴾ أى : إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها ، وتكذيبهم بوقوعها .

ثم قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكِّرَةٌ ﴾ أى : حقاً إن القرآن تذكرة ، ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ . وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ ، كقوله : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الإنسان: ٣٠] . وقوله: ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ أى: هو أهل أن يُخَافَ منه، وهو أهل أن يَغْفِرَ ذنب من تاب إليه وأُتَابَ .
قاله قتادة .

تفسير سورة القيامة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ ﴿٢﴾ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَنْ الْمُرُّ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١٠﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١١﴾ يَبْتَئِنُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٢﴾ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٣﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٤﴾ ﴾ ﴿١٥﴾

ربع

قد تقدم غير مرة أن المقسم عليه متى كان متنفياً ، جاز الإتيان بلا قبل القسم لتأكيد النفي . والمقسم عليه هاهنا هو إثبات الميعاد ، والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بعث الأجساد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ ﴾ ، قال الحسن : أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة . وقال قتادة : بل أقسم بهما جميعاً . والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً كما قاله قتادة رحمه الله ، وهو المروي عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، واختاره ابن جرير .

فأما يوم القيامة فمعروف ، وأما النفس اللوامة ، فقال الحسن البصري في هذه الآية : إن المؤمن - والله - ما نراه إلا يلوم نفسه : ما أردت بكلمتي ؟ ما أردت بأكلتي ؟ ما أردت بحديث نفسي ؟ وإن الفاجر يمضي قُدماً ما يعاتب نفسه . وقال جُوَيْرٍ : بلغنا عن الحسن أنه قال في قوله : ﴿ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ ﴾ ، قال : ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا يلوم نفسه يوم القيامة . وقال سعيد بن جبير تلوم على الخير والشر . وقال مجاهد : تندم على ما فات وتلوم عليه . وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : اللوامة : المذمومة . وقال قتادة : ﴿ اللوامة ﴾ : الفاجرة . قال ابن جرير : وكل هذه الأقوال متقاربة بالمعنى ، والأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر ، وتندم على ما فات .

وقوله : ﴿ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نُجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ أي : يوم القيامة ، أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة؟ ﴿ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ قال ابن عباس : أن نجعله خفياً أو حافراً . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقاتادة ، والضحاك ، وابن جرير . ووجهه ابن جرير بأنه تعالى لو شاء لجعل ذلك في الدنيا . والظاهر من الآية أن قوله : ﴿ قَادِرِينَ ﴾ حال من قوله : ﴿ نَجْمَعُ ﴾ أي : أيظن الإنسان أنا لا نجتمع عظامه ؟ بل سنجمعها

قادرين على أن نُسوَّى بنانه ، أى : قدرتنا صالحة لجمعها ، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان ، فنجعل بنانه - وهى أطراف أصابعه - مستوية . وهذا معنى قول ابن قتيبة ، والزجاج .

وقوله : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ قال ابن عباس : يعنى يمضى قدما . وقال : يعنى : الأمل ، يقول الإنسان : أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة ، ويقال : هو الكفر بالحق بين يدي القيامة . وقال مجاهد : ﴿ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ : يمضى أمامه راكبا رأسه . وقال الحسن : لا يلقى ابن آدم إلا تنزع نفسه إلى معصية الله قُدَمَا قُدَمَا ، إلا من عصمه الله . وروى عن عكرمة ، وسعيد بن جبير ، وغير واحد من السلف : هو الذى يَعَجِّلُ الذنوبَ وَيُسَوِّفُ التوبة . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : هو الكافر يكذب بيوم الحساب . وكذا قال ابن زيد ، وهذا هو الأظهر من المراد ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ ؟ أى : يقول متى يكون يوم القيامة ؟ وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه ، وتكذيب لوجوده ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدُمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٩ ، ٣٠] .

وقال تعالى ها هنا : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴾ ، قال أبو عمرو بن العلاء : ﴿ بَرَقَ ﴾ بكسر الراء ، أى : حار . وهذا الذى قاله شبيهه بقوله تعالى : ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤٣] ، بل ينظرون من الفزع هكذا وهكذا ، لا يستقر لهم بصر على شىء ؛ من شدة الرعب . وقرأ آخرون : « بَرَقَ » بالفتح ، وهو قريب فى المعنى من الأول . والمقصود : أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخضع وتحار وتذل من شدة الأهوال ، ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من الأمور .

وقوله : ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ أى : ذهب ضوءه ، ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ قال مجاهد : كورا . وقرأ ابن زيد عند تفسير هذه الآية : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ [التكوير: ١ ، ٢] وروى عن ابن مسعود أنه قرأ : « وَجُمِعَ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ » . وقوله : ﴿ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَقَرُّ ﴾ أى : إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة ، حينئذ يريد أن يفر ويقول : أين المفر ؟ أى : هل من ملجأ أو موئل ؟ قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ . قال ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وغير واحد من السلف : أى لا نجاة . وهذه كقوله : ﴿ مَا لَكُمْ مِّنْ مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَّكِيرٍ ﴾ [الشورى: ٤٧] أى : ليس لكم مكان تتكرون فيه ، وكذا قال ها هنا : ﴿ لَا وَزَرَ ﴾ أى : ليس لكم مكان تعتصمون فيه ؛ ولهذا قال : ﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ أى : المرجع والمصير .

ثم قال تعالى : ﴿ يَبْئُتُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ أى : يخبر بجميع أعماله قديما وحديثها ، أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها ، كما قال تعالى : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩] . وهكذا قال ها هنا : ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ أى : هو شهيد على نفسه ، عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر ، كما قال تعالى : ﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤] . قال ابن عباس : ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ يقول :

سمعُه وبصرُه ويداه ورجلاه وجوارحُه . وقال قتادة : شاهد على نفسه . وفي رواية قال : إذا شئت - والله - رأيته بصيرا بعيوب الناس وذنوبهم غافلا عن ذنوبه ، وكان يقال : إن في الإنجيل مكتوبا: يا ابن آدم ، تبصر القذاة في عين أخيك ، وتترك الجذع في عينك لا تبصره . وقال مجاهد : ﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ : ولو جادل عنها فهو بصير عليها . وقال قتادة : ﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ : ولو اعتذر يومئذ بباطل لا يقبل منه . وقال السدي : ﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ : حجته . وكذا قال ابن زيد ، والحسن البصرى ، وغيرهم . واختاره ابن جرير . وقال ابن عباس : ﴿ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ : لو ألقى ثيابه . والصحيح قول مجاهد وأصحابه ، كقوله : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣] ، وكقوله : ﴿ يَوْمَ يَعْتَبُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [المجادلة: ١٨] .

﴿ لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُمْ وَقُرْآنَهُ ﴿ (١٧) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبِعْ قُرْآنَهُ ﴿ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿ (١٩) كَلَّا بَلْ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿ (٢٠) وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ ﴿ (٢١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿ (٢٣) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿ (٢٤) تَلْفُظُونَ أَن يَقُولَ لَهَا قَافِرَةٌ ﴿ (٢٥)

هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك ، فإنه كان يبادر إلى أخذه، ويسابق الملك في قراءته ، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له، وتكفل له أن يجمعه في صدره ، وأن يسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه ، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه . فالحالة الأولى جمعه في صدره ، والثانية تلاوته ، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه ؛ ولهذا قال : ﴿ لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ أى : بالقرآن ، كما قال : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤] .

ثم قال : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ أى : فى صدرك ، ﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾ أى : أن تقرأه ، ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَهُ ﴾ أى : إذا تلاه عليك الملك عن الله عز وجل ، ﴿ فَانْبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ أى : فاستمع له ، ثم اقرأه كما أقرأك ، ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أى : بعد حفظه وتلاوته يبينه لك ونوضحه ، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا . وروى الإمام أحمد : عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة، فكان يحرك شفتيه قال : فقال لى ابن عباس: أنا أحرك شفتي كما كان رسول الله ﷺ يحرك شفتيه . وقال لى سعيد : وأنا أحرك شفتي كما رأيت ابن عباس يحرك شفتيه - فأنزل الله عز وجل : ﴿ لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ ، قال : جمعه فى صدرك ، ثم تقرأه ، ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ : فاستمع له وأنصت ، ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ . فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما أقرأه . وقد رواه البخارى ومسلم ، ولفظ البخارى : فكان إذا أتاه جبريل أطرق ، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عز وجل (١) . وهكذا قال الشعبى ، والحسن

البصرى ، وقتادة ، ومجاهد ، والضحاك ، وغير واحد : إن هذه الآية نزلت فى ذلك . وقد روى ابن جرير من طريق العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ قال : كان لا يفتر من القراءة مخافة أن ينساه ، فقال الله : ﴿ لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا ﴾ أن نجعله لك ﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾ : أن نفرئك فلا تنسى . وقال ابن عباس وعطية العوفى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ : تبين حلاله وحرامه . وكذا قال قتادة .

وقوله : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ . وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ ﴾ أى : إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ من الوحي الحق والقرآن العظيم : أنهم إنما همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة ، وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ من النضارة ، أى حسنة بهيئة مشرقة مسرورة ، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ أى : تراه عيانا ، كما رواه البخارى ، فى صحيحه : « إنكم سترون ربكم عيانا » (١) . وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل فى الدار الآخرة فى الأحاديث الصحاح ، من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ولا منعها ؛ لحديث أبى سعيد وأبى هريرة - وما فى الصحيحين : أن ناسا قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : « هل تَصَارُونَ فى رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سَحَاب ؟ » قالوا : لا . قال : « فإنكم تَرَوْنَ ربكم كذلك » (٢) . وفى الصحيحين عن جرير قال : نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال : « إنكم تَرَوْنَ ربكم كما تَرَوْنَ هذا القمر ، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا » (٣) . وفى الصحيحين عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « جَنَّاتٍ من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » (٤) . وفى أفراد مسلم ، عن صهيب ، عن النبى ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة » قال : « يقول الله تعالى : تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ » قال : « فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ، وهى الزيادة » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] (٥) . وفى أفراد مسلم ، عن جابر فى حديثه : « إن الله يَتَجَلَّىٰ للمؤمنين يضحك » (٦) . يعنى فى عرصات القيامة ، وفى هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم عز وجل فى العرصات ، وفى روضات الجنات . ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن ، ولكن ذكرنا

(١) البخارى (٤٨٥ ، ٥٥٤ ، ٥٧٣) .

(٢) البخارى (٧٤٣٧ ، ٧٤٣٨) ، ومسلم (٢٩٩ / ١٨٢) .

(٣) البخارى (٧٤٣٤ ، ٧٤٣٦) ، ومسلم (٦٣٣ / ٢١١) .

(٤) البخارى (٧٤٤٤) ، ومسلم (٢٩٦ / ١٨٠) .

(٦) مسلم (٣١٦ / ١٩١) .

(٥) مسلم (٢٩٧ / ١٨١) .

ذلك مفرداً في مواضع من هذا التفسير، وبالله التوفيق. وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام. وهُدَاة الأنام .

وقوله : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ . تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ : هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة . قال قتادة: كالحة . وقال السدي: تغير ألوانها . وقال ابن زيد : ﴿بَاسِرَةٌ ﴾ أى : عابسة . ﴿ تَظُنُّ ﴾ أى : تستيقن ، ﴿ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ قال مجاهد: داهية . وقال قتادة: شر . وقال السدي : تستيقن أنها هالكة . وقال ابن زيد: تظن أن ستدخل النار . وهذا المقام كقوله : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٦] ، وكقوله : ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ . وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ . تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ . أُولَئِكَ هُمُ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ ﴾ [عس: ٣٨- ٤٢] ، وكقوله : ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ . عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ . تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴾ ، إلى قوله : ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ . لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ [الغاشية: ٢- ١٠] ، فى أشباه ذلك من الآيات والسيقات .

﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٦٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٦٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٦٨﴾ وَاللَّفْتِ السَّاقِ ﴿٦٩﴾ إِلَى رَيْكِ يَوْمِئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٧٠﴾ فَلَا صَلْقَ وَلَا صَلَى ﴿٧١﴾ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٧٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴿٧٣﴾ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴿٧٤﴾ ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴿٧٥﴾ ائْتَسَبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٧٦﴾ أَلَمْ يَكُ نَظْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴿٧٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَحَلَقَ فَسَوَّى ﴿٧٨﴾ جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٧٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقْدِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴿٨٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عن حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال - ثبتنا الله هناك بالقول الثابت - فقال تعالى: ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ ، إن جعلنا ﴿ كَلَّا ﴾ رادعة فمعناها : لست يا ابن آدم تكذب هناك بما أخبرت به ، بل صار ذلك عندك عيانا . وإن جعلناها بمعنى (حقا) فظاهر ، أى : حقا بلغت التراقي ، أى : انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك . والتراقي : جمع ترقوة ، وهى العظام التى بين ثغرة النحر والعاتق ، كقوله : ﴿ فُلُولًا (١) إِذَا بَلَغَتِ الْحَلْقُومَ . وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ . وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ . فُلُولًا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ . تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الواقعة : ٨٣ - ٨٧] . وهكذا قال هاهنا : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ ، والتراقي : جمع ترقوة ، وهى قريبة من الحلقوم . ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ ؟ قال ابن عباس : أى من راق يرقى ؟ وكذا قال أبو قلابة : ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ أى : من طيب شاف . وكذا قال قتادة ، والضحاك ، وابن زيد . وعن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَاللَّفْتِ السَّاقِ بِالسَّاقِ ﴾ قال : التفت عليه الدنيا والآخرة . وكذا: قال آخر يوم من أيام الدنيا ، وأول يوم من أيام الآخرة ، فتلقى الشدة بالشدة إلا من رحم الله . وقال عكرمة : ﴿ وَاللَّفْتِ السَّاقِ بِالسَّاقِ ﴾ : الأمر العظيم بالأمر العظيم . وقال مجاهد : بلاء بلاء . وقال الحسن البصرى: هما ساقاك إذا التفتا . وفى رواية عنه : ماتت رجلاه فلم تحملاه ، وقد كان

(١) فى المخطوطة : « كَلَّا » وهو خطأ واضح .

عليهما جوالا . وكذا قال السدى ، عن أبي مالك . وفى رواية عن الحسن : هو لهما فى الكفن . وقوله : ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ أى : المرجع والمآب ، وذلك أن الروح ترفع إلى السموات ، فيقول الله عز وجل : ردوا عبدى إلى الأرض ، فإنى منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى . كما ورد فى حديث البراء الطويل . وقد قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ . ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢] .

وقوله : ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ . وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ : هذا إخبار عن الكافر الذى كان فى الدار الدنيا مكذبا للحق بقلبه ، متوليا عن العمل بقلبه ، فلا خير فيه باطنا ولا ظاهرا ، ولهذا قال : ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ . وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ . ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمْتَطِي﴾ أى : جَدَلَانِ أَشْرًا بَطْرًا كَسَلْنَا ، لا همة له ولا عمل ، كما قال : ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٣٤] ، وقال : ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا . إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحُورَ﴾ أى : يرجع ، ﴿بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٣-١٥] . وقال الضحاک : عن ابن عباس ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمْتَطِي﴾ : أى : يختال . وقال قتادة ، وزيد بن أسلم : يتبختر . قال الله تعالى : ﴿أُولَئِكَ لَئِكَ فَاوَلَىٰ . ثُمَّ أُولَئِكَ لَئِكَ فَاوَلَىٰ﴾ : وهذا تهديد ووعد أكيد من الله تعالى للكافر به المتبختر فى مشيه ، أى : يحق لك أن تمشى هكذا وقد كفرت بخالفك وبارئك ، كما يقال فى مثل هذا على سبيل التهكم والتهديد كقوله : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] ، وكقوله : ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مَجْرُمُونَ﴾ [المسرات: ٤٦] ، وكقوله : ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٥] ، وكقوله : ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] إلى غير ذلك .

وقوله : ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ قال السدى : يعنى : لا بيعث . وقال مجاهد ، والشافعى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى لا يؤمر ولا ينهى . والظاهر أن الآية تعم الحالين ، أى : ليس يترك فى هذه الدنيا مهملا لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك فى قبره سدى لا بيعث ، بل هو مأمور منهى فى الدنيا ، محشور إلى الله فى الدار الآخرة . والمقصود هنا إثبات المعاد ، والرد على من أنكروه من أهل الزيغ والجهل والعناد ، ولهذا قال مستدلا على الإعادة بالبداة فقال : ﴿أَلَمْ يَكْ نَظْفَةً مِّن مَّيِّ يَمْتَنِي﴾ ؟ أى : أما كان الإنسان نظفة ضعيفة من ماء مهين ، يمتنى يراق من الأصلاب فى الأرحام . ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ فَخَلَقَ فَسْوَىٰ﴾ أى : فصار علقة ، ثم مضعة ، ثم شكّل ونفخ فيه الروح ، فصار خلقا آخر سويا سليم الأعضاء ، ذكرا أو أنثى بإذن الله وتقديره ؛ ولهذا قال : ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ . ثم قال : ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ أى : أما هذا الذى أنشأ هذا الخلق السوى من هذه النظفة الضعيفة بقادر على أن يعيده كما بدأه ؟ وتناول القدرة للإعادة إما بطريق الأولى بالنسبة إلى البداء ، وإما مساوية على القولين فى قوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧] . والأول أشهر ، والله أعلم . عن ابن عباس أنه مر بهذه الآية : ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ ؟ قال : سبحانك ؛ فبلى .

تفسير سورة الإنسان

وهي مكية

في صحيح مسلم ، عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿ آلم . تنزيل ﴾ السجدة ، و ﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً بذكر ، لحقارته وضعفه ، فقال : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ ؟

ثم بين ذلك فقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ أى : أخلط . والمشج والمشيح : الشيء المختلط ، بعضه فى بعض . قال ابن عباس فى قوله : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ يعنى : ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتماعا واختلطا ، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور ، وحال إلى حال . وهكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، والربيع بن أنس : الأمشاج : هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة . وقوله : ﴿ نَّبْتَلِيهِ ﴾ أى : نختبره ، كقوله : ﴿ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢] . ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ أى : جعلنا له سمعا وبصراً يتمكن بهما من الطاعة والمعصية .

وقوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ أى : بيناه له ووضحناه وبصرناه به ، كقوله : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [فصلت: ١٧] ، وكقوله : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠] ، أى : بينا له طريق الخير وطريق الشر . وهذا قول عكرمة ، وعطية ، وابن زيد ، ومجاهد - فى المشهور عنه - والجمهور . وقوله : ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ : منصوب على الحال من « الهاء » فى قوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ تقديره : فهو فى ذلك إما شقى وإما سعيد ، كما جاء فى الحديث الذى رواه مسلم ، عن أبى مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « كل الناس يَغْدُو ، فبائع نفسه فموبقها أو مُعْتَقُهَا » (٢) . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « ما من خارج يخرج إلا ببابه رايتان : راية بيد ملك ، وراية بيد شيطان ، فإن خرج لما يُحِبُّ الله

(٢) مسلم (١/٢٢٣) .

(١) مسلم (٨٧٩ / ٦٤) .

اتبعه الملك برأيته ، فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته . وإن خرج لما يُسخط الله اتبعه الشيطان برأيته ، فلم يزل تحت راية الشيطان ، حتى يرجع إلى بيته » (١) . وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله : أن النبي ﷺ قال لكعب بن عُجْرَةَ : « أعاذك الله من إمارة السفهاء » . قال : وما إمارة السفهاء ؟ قال : « أمراء يكونون من بعدى ، لا يهتدون بهدأى ، ولا يستنون بستى ، فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم ، فأولئك ليسوا منى ولست منهم ، ولا يردون على حوضى . ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يُعِنهم على ظلمهم ، فأولئك منى وأنا منهم ، وسيردون على حوضى . يا كعب بن عُجْرَةَ ، الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، والصلاة قربان - أو قال : برهان . يا كعب بن عُجْرَةَ ، إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت ، النار أولى به - يا كعب ، الناس غاديان ، فمبتاع نفسه فمعتقها ، وبائع نفسه فموبقها » (٢) .

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالْإِذْرِ وَيخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسَكِينَتِهِمْ وَإِنَّمَا وَاسِعًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَّعَهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعَهُمْ نَقْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّوهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عما أُرصد له للكافرين من خلقه به من السلاسل والأغلال والسعير ، وهو اللهب والحريق في نار جهنم ، كما قال : ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ . فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧١ ، ٧٢] .

ولما ذكر ما أعد لهؤلاء الأشقياء من السعير قال بعده : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ ، وقد علم ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيبة ، مع ما يضاف إلى ذلك من اللذادة في الجنة . قال الحسن : برد الكافور في طيب الزنجبيل ؛ ولهذا قال : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أى : هذا الذى مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفا بلا مزج ويروون بها . قال بعضهم : هذا الشراب فى طيبه كالكافور . وقال بعضهم : هو من عين كافور .

وقوله : ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ أى : يتصرفون فيها حيث شاؤوا وأين شاؤوا ، من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم . والتفجير هو الإنباع ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴾ [الإسراء: ٩٠] . وقال : ﴿ وَقَفَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴾ [الكهف: ٣٣] . قال مجاهد : ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ : يقودونها حيث شاؤوا ، وكذا قال عكرمة ، وقتادة . وقال الثورى :

(١) المسند (٨٢٦٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) المسند (٣/٣٢١) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠ / ٢٣٤) : « رجال أحمد رجال الصحيح » .

بصرفونها حيث شاؤوا .

وقوله: ﴿يُؤْفُونَ بِالَّذِرِّ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ أى: يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبه على أنفسهم بطريق النذر. روى الإمام مالك، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه»، رواه البخارى من حديث مالك (١).

ويتروكون المحرمات التى نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد، وهو اليوم الذى شره مستطير، أى: منتشر عام على الناس إلا من رحِمَ الله. قال ابن عباس: فاشياً. وقال قتادة: استطار - والله - شر ذلك اليوم حتى مَلَأَ السموات والأرض. قال ابن جرير: ومنه قولهم: استطار الصدع فى الزجاجاة واستطال.

وقوله: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حِبِّهِ﴾ قيل: على حب الله تعالى. وجعلوا الضمير عائداً إلى الله عز وجل للدلالة السياق عليه. والأظهر أن الضمير عائد على الطعام، أى: ويطعمون الطعام فى حال محبتهم وشهوتهم له، قاله مجاهد، ومقاتل، واختاره ابن جرير، كقوله تعالى: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَىٰ حِبِّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وكقوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]. وفى الصحيح: «أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح، شحيح، تأمل الغنى، وتخشى الفقر» (٢)، أى: فى حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حِبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾. أما المسكين واليتيم، فقد تقدم بيانهما وصفتهما. وأما الأسير: فقال سعيد بن جبیر، والحسن، والضحاك: الأسير: من أهل القبلة. وقال ابن عباس: كان أسراؤهم يومئذ مشركين. ويشهد لهذا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء، وهكذا قال سعيد بن جبیر، وعطاء، والحسن، وقاتدة.

وقد وصى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأرقاء فى غير ما حديث، حتى إنه كان آخر ما أوصى أن جعل يقول: «الصلاة وما ملكت أيمانكم» (٣). وقال عكرمة: هم العبيد - واختاره ابن جرير - لعموم الآية للمسلم والمشرك. وقال مجاهد: هو المحبوس، أى: يطعمون لهؤلاء الطعام وهم يشتهونه ويحبونه، قائلين بلسان الحال: ﴿إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ﴾ أى: رجاء ثواب الله ورضاه، ﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ أى: لا نطلب منكم مجازاة تكافئونا بها ولا أن تشكرونا عند الناس. قال مجاهد وسعيد بن جبیر: أما والله ما قالوه بالستهم، ولكن علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم به ليرغب فى ذلك راغب.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غَمُوسًا قَمَطِرِيًّا﴾ أى: إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا

(٢) مسلم (١٠٣٢/٩٢).

(١) البخارى (٦٦٩٦، ٦٧٠٠).

(٣) المسند (٥٨٥) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

بلطفه، فى اليوم العبوس القمطيرير. قال ابن عباس: ﴿عَبُوسًا﴾: ضيقًا، ﴿قَمَطِيرِيًّا﴾: طويلًا. وقال عكرمة وغيره، عنه، فى قوله: ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَمَطِيرِيًّا﴾ أى: يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عَرَقٌ مثل القَطْرَانِ. وقال سعيد بن جبير، وقتادة: تعبس فيه الوجوه من الهول، ﴿قَمَطِيرِيًّا﴾: تقليص الجبين وما بين العينين، من الهول. وقال ابن زيد: العبوس: الشر. والقمطيرير: الشديد.

وأوضح العبارات وأجلاها وأحلاها، وأعلاها وأولاها، قولُ ابن عباس رضى الله عنه.

قال ابن جرير: والقمطيرير هو: الشديد؛ يقال: هو يوم قمطيرير ويوم قُمَاطِرٍ، ويوم عَصِيبٍ وَعَصْبُصَبٍ، وقد اقمطرَ اليومُ يقمطرُ اقمطرارًا، وذلك أشد الأيام وأطولها فى البلاء والشدة.

قال الله تعالى: ﴿فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾، وهذا من باب التجانس البليغ، ﴿فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ أى: آمنهم مما خافوا منه، ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً﴾ أى: فى وجوههم، ﴿وَسُرُورًا﴾ أى: فى قلوبهم. قاله الحسن البصرى، وقتادة، وأبو العالية، والربيع بن أنس. وهذه كقوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ. ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]. وذلك أن القلب إذا سُرَّ استنار الوجه، قال كعب بن مالك فى حديثه الطويل: وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ، استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر. وقالت عائشة: دخل على رسول الله ﷺ مسرورًا تبرق أسارير وجهه - الحديث (١). وقوله: ﴿وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا﴾ أى: بسبب صبرهم أعطاهم ونولهم ويوآهم ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أى: منزلا رحبا، وعيشا رَغَدًا، ولباسًا حَسَنًا.

﴿مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا نَذِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِتَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا نَقِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوفٌ أُسَاوِرٌ مِّنْ فِضَّةٍ وَسَقَمْتُهُمْ رُحْمًا شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم، وما أسبغ عليهم من الفضل العميم فقال: ﴿مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾. وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة «الصفات»، وذكر الخلاف فى الاتكاء: هل هو الاضطجاع، أو التمرق، أو التربع، أو التمكن فى الجلوس؟ وأن الأرائك هى السرر تحت الحجال. ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أى: ليس

عندهم حرّ مزعج ، ولا برد مؤلم ، بل هى مزاج واحد دائم سَرْمَدَى ، ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ [الكهف: ١٠٨] ﴿ وَدَانِيَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا ﴾ أى: قريبة إليهم أغصانها ، ﴿ وَذَلَّلَتْ قُطُوفُهَا تَدْلِيلًا ﴾ أى : متى تعاطاه دنا القطفُ إليه وتدلى من أعلى غصنه ، كأنه سامع طائع ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَجَنَّتِ الْجَنَّتَيْنِ دَانًا ﴾ [الرحمن: ٥٤] . وقال تعالى : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ٢٣] .

وقوله : ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أى: يطوف عليهم الخدم بأوانى الطعام ، وهى من فضة ، وأكواب الشراب وهى الكيزان التى لا عرى لها ولا خراطيم . وقوله : ﴿ قَوَارِيرَ . قَوَارِيرٍ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ : فالأول منصوب بخير « كان » أى: كانت قوارير . والثانى منصوب إما على البدلية ، أو تمييز ؛ لأنه بينه بقوله : ﴿ قَوَارِيرٍ مِنْ فِضَّةٍ ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن البصرى ، وغير واحد : بياض الفضة فى صفاء الزجاج ، والقوارير لا تكون إلا من زجاج . فهذه الأكواب هى من فضة ، وهى مع هذا شفاقة يرى ما فى باطنها من ظاهرها ، وهذا بما لا نظير له فى الدنيا . وعن ابن عباس : ليس فى الجنة شىء إلا قد أعطيتم فى الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة . وقوله : ﴿ قَدَرُواْ تَقْدِيرًا ﴾ أى : على قدر ربهم ، لا تزيد عنه ولا تنقص ، بل هى معدة لذلك ، مقدرة بحسب رى صاحبها . هذا معنى قول ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة وقاله ابن جرير وغير واحد . وهذا أبلغ فى الاعتناء والشرف والكرامة . وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ قَدَرُواْ تَقْدِيرًا ﴾ : قدرت للكف . وهكذا قال الربيع ابن أنس . وقال الضحاك : على قدر أكف الخدام . وهذا لا ينافى القول الأول ، فإنها مقدرة فى القدر والرئى .

وقوله : ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴾ أى: ويسقون - يعنى الأبرار أيضا - فى هذه الاكواب ﴿ كَأْسًا ﴾ أى: خمراً ، ﴿ كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴾ فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد ، وتارة بالزنجبيل وهو حار ، ليعتدل الأمر ، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة . وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صرفاً ، كما قاله قتادة وغير واحد . وقد تقدم فى قوله : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ﴾ ، وقال ههنا : ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا ﴾ أى: الزنجبيل عين فى الجنة تسمى سلسيلا . قال عكرمة: اسم عين فى الجنة . وقال مجاهد: سميت بذلك لسلاسة سيلها وحدة جريها . وحكى ابن جرير عن بعضهم أنها سميت بذلك لسلاستها فى الخلق . واختار هو أنها تعم ذلك كله ، وهو كما قال .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ أى: يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان الجنة ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أى: على حالة واحدة مخلدون عليها ، لا يتغيرون عنها ، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن . ومن فسروهم بأنهم مخرصون فى آذانهم الأقرطة ، فإنما عبر عن المعنى بذلك ؛ لأن الصغير هو الذى يليق له ذلك دون الكبير . ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ أى : إذا رأيتهم فى انتشارهم فى قضاء حوائج السادة ، وكثرتهم ، وصباحة وجوههم ، وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم ، حسبتهم لؤلؤا منثورا . ولا يكون فى

التشبيه أحسن من هذا، ولا فى المنظر أحسن من اللؤلؤ المثور على المكان الحسن . قال عبد الله ابن عمرو : ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف خادم ، كل خادم على عمل ما عليه صاحبه .

وقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ﴾ أى : وإذا رأيت يا محمد ، ﴿ ثُمَّ ﴾ أى : هناك ، يعنى فى الجنة ونعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الحبرة والسرور ، ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ﴾ أى : مملكة لله هناك عظيمة وسلطاناً باهراً . وثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجا منها ، وآخر أهل الجنة دخولا إليها : « إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها » (١) . فإذا كان هذا عطاؤه تعالى لأدنى من يكون فى الجنة ، فما ظنك بما هو أعلى منزلة ، وأحظى عنده تعالى .

وقوله : ﴿ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ أى : لباس أهل الجنة فيها الحرير ، ومنه سندس ، وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلى أبدانهم ، والإستبرق منه ما فيه بريق ولمعان ، وهو مما يلى الظاهر ، كما هو المعهود فى اللباس ، ﴿ وَحُلُورٌ أَسْوَرٌ مِنْ فِصَّةٍ ﴾ وهذه صفة الأبرار ، وأما المقربون فكما قال : ﴿ يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [الحج : ٢٣] .

ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلى قال بعده : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ أى : طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة ، فأخبر سبحانه وتعالى بحاله الظاهر وجمالهم الباطن . وقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا ﴾ أى : يقال لهم ذلك تكريماً لهم وإحساناً إليهم كما قال تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢٤] ، وكقوله : ﴿ وَنُودُوا أَنْ تَتَكَّمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الاعراف : ٤٣] . وقوله : ﴿ وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا ﴾ أى : جزاكم الله على القليل بالكثير .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿١٢﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آيَاتًا أَوْ كُفُورًا ﴿١٤﴾ وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿١٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿١٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿١٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْتَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ أَخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢١﴾

يقول تعالى ممتناً على رسوله ﷺ بما نزله عليه من القرآن العظيم تنزيلاً : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ أى : كما أكرمك بما أنزل عليك ، فاصبر على قضاائه وقدره ، واعلم أنه سيدبرك بحسن

تدبيره ، ﴿ وَلَا تَطْعَمُهُمْ إِلَّا مَا أَوْ كَفُورًا ﴾ أى : لا تطعم الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عما أنزل إليك ، بل بلِّغ ما أنزل إليك من ربك ، وتوكل على الله ؛ فإن الله يعصمك من الناس . فالآثم هو الفاجر فى أفعاله ، والكفور هو الكافر قلبه . ﴿ وَأَذْكَرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أى : أول النهار وآخره . ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ ، كقوله : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَمَنَّكَ رَبُّكَ مَقَامًا مُّحْمَدًا ﴾ [الإسراء: ٧٩] ، وكقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ١ - ٤] . ثم قال تعالى منكرًا على الكفار ومن أشبههم فى حُبِّ الدنيا والإقبال عليها والانصباب إليها ، وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ يَجِبُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا قَلِيلًا ﴾ .

ثم قال : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : يعنى خَلَقَهُمْ ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ أى : وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة ، وبدلناهم فأعدناهم خلقًا جديدًا . وهذا استدلال بالبداة على الرجعة . وقال ابن زيد ، وابن جرير : ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾ أى : وإذا شئنا أتينا بقوم آخرين غيرهم ، كقوله : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٣] ، وكقوله : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَٰلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [إبراهيم: ١٩ ، ٢٠ ، وفاطر: ١٦ ، ١٧] .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنْ هَٰذِهِ ﴾ يعنى : هذه السورة ﴿ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ أى : طريقًا ومسلكا ، أى : من شاء اهتدى بالقرآن ، كقوله : ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ٣٩] . ثم قال : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أى : لا يقدر أحد أن يهتدى نفسه ، ولا يدخل فى الإيمان ولا يجر لنفسه نفعًا ، ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ . إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أى : عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له ، ويقبض له أسبابها ، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ . ثم قال : ﴿ يُدْخِلْ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى : يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، فمن يهده فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادى له .

تفسير سورة المرسلات

وهي مكية

روى البخارى عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ فى غار بمنى ، إذ نزلت عليه : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ ﴾ ، فإنه ليلتوها وإنى لألتقاها من فيه ، وإن فاه لرطب بها ، إذ وثبت علينا حية ، فقال النبى ﷺ : « اقلوها » . فابتدرناها فذهبت ، فقال النبى ﷺ : « وَقُيِّتُ شُرْكَكُمْ كَمَا وَقُيِّتُمْ شُرْهَآ » . وأخرجه مسلم (١) . وعن ابن عباس : أن أم الفضل سمعته يقرأ : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴾ ، فقالت : يا بنى ، ذكّرتنى بقراءةك هذه السورة ، إنها لآخر ما سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقرأُ بها فى المغرب . أخرجاه فى الصحيحين (٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴾ ١ ﴿ فَأَلْعَصَفَاتِ عَصْفًا ﴾ ٢ ﴿ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴾ ٣ ﴿ فَأَلْفَرْقَاتِ فَرْقًا ﴾ ٤ ﴿ فَأَلْمَلَقَاتِ ذِكْرًا ﴾ ٥ ﴿ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ﴾ ٦ ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعَ ﴾ ٧ ﴿ فَإِذَا التَّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ ٨ ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾ ٩ ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ ﴾ ١٠ ﴿ وَإِذَا الرَّسُلُ أُنْفِتَتْ ﴾ ١١ ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ ﴾ ١٢ ﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾ ١٣ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ ١٤ ﴿ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ١٥

عن أبى هريرة : ﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴾ قال : الملائكة . وروى عن مسروق ، وأبى الضحى ، ومجاهد - فى إحدى الروايات - والسدى ، والربيع بن أنس ، مثل ذلك . وروى عن أبى صالح أنه قال : هى الرسل . وفى رواية عنه : هى الملائكة . وهكذا قال أبو صالح فى ﴿ الْعَاصِفَاتِ ﴾ و﴿ النَّاشِرَاتِ ﴾ و﴿ الْفَارِقَاتِ ﴾ و﴿ الْمَلَقَاتِ ﴾ : أنها الملائكة .

قال ابن مسعود عن ﴿ الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴾ قال : الريح . وكذا قال فى : ﴿ الْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴾ و﴿ النَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴾ : إنها الريح . وكذا قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وأبو صالح - فى رواية عنه - وعن أبى صالح : أن الناشرات نشرا : المطر . والأظهر أن : ﴿ الْمُرْسَلَاتِ ﴾ هى الرياح ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِعَ ﴾ [الحجر : ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الاعراف : ٥٧] ، وهكذا العاصفات هى : الرياح ، يقال : عصفت الريح إذا هبت بتصويت ، وكذا الناشرات هى : الرياح التى تنشر السحاب فى آفاق السماء ، كما يشاء الرب عز وجل .

(٢) البخارى (٧٦٣) ومسلم (١٧٣/٤٦٢) .

(١) البخارى (١٨٣٠) ومسلم (٢٢٣٤/١٣٧) .

وقوله : ﴿ فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا . فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا . عُذْرًا أَوْ نَذْرًا ﴾ . يعنى : الملائكة . قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق ، ومجاهد . ولا خلاف ها هنا ؛ فإنها تنزل بأمر الله على الرسل ، تفرق بين الحق والباطل ، والهدى والغى ، والحلال والحرام ، وتلقى إلى الرسل وحيها فيه إعدار إلى الخلق ، وإنذار لهم عقاب الله إن خالفوا أمره . وقوله : ﴿ إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَوَاقِعَ ﴾ : هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام ، أى : ما وعدتم به من قيام الساعة ، والنفخ فى الصور ، وبعث الأجساد ، وجمع الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، ومجازاة كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، إن هذا كله ﴿ لَوَاقِعَ ﴾ أى : لكائن لا محالة .

ثم قال : ﴿ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴾ أى : ذهب ضوءها ، كقوله : ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ [التكوير : ٢] ، وكقوله : ﴿ وَإِذَا الْكُرُوكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾ [الانفطار : ٢] . ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴾ أى : انفتحت وانسقت ، وتدلّت أرجاؤها ، ووهت أطرافها . ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴾ أى : ذهب بها ، فلا يبقى لها عين ولا أثر ، كقوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه : ١٠٥-١٠٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَسِیرَ الْجِبَالِ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَأَمَّتْ فُلْمُ نَقَادِرٍ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٧] .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْتَتْ ﴾ قال العوفي ، عن ابن عباس : جمعت . وقال ابن زيد : وهذه كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ ﴾ [المائدة : ١٠٩] . وقال مجاهد : ﴿ أَقْتَتْ ﴾ : أجلت . ثم قال : ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أَجَلْتِ . لِيَوْمِ الْفَصْلِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ . وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ : يقول تعالى : لأى يوم أجلت الرسل وأرجئ أمرها ؟ حتى تقوم الساعة ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهُ مَخْلُفًا وَعِدَّهُ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ . يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم : ٤٧ ، ٤٨] . وهو يوم الفصل ، كما قال : ﴿ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴾ . ثم قال تعالى معظما لشأنه : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ . وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى : ويل لهم من عذاب الله غدا .

﴿ أَلَمْ نُهِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نَبَّهْنَهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِنَّكَ قَدَرٌ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوْسَى شَمِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ نُهِكِ الْأَوَّلِينَ ﴾ ؟ يعنى : من المكذبين للرسل المخالفين لما جاؤوهم به ، ﴿ ثُمَّ نَبَّهْنَهُمُ الْآخِرِينَ ﴾ أى : ممن أشبههم ؛ ولهذا قال : ﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ . وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ . ثم قال ممتنا على خلقه ومحتجا على الإعادة بالبداة : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ﴾ ؟ أى : ضعيف حقير بالنسبة إلى قُدرة البارى عز وجل ، ﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ يعنى : جمعناه

فى الرِّحْمِ ، وهو قرار الماء من الرجل والمرأة ، والرحم معد لذلك ، حافظ لما أودع فيه من الماء .
وقوله : ﴿ إِنِّي قَدَرْتُ مَعْلُومٌ ﴾ يعنى : إلى مدة معينة من ستة أشهر أو تسعة أشهر ؛ ولهذا قال :
﴿ قَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ . وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا . أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴾ قال ابن عباس : ﴿ كِفَاتًا ﴾ : كَنَّا . وقال
مجاهد : يُكْفِتُ الْمَيِّتُ فَلَا يُرَى مِنْهُ شَيْءٌ . وقال الشعبي : بطنها لأمواتكم ، وظهرها لأحيائكم .
وكذا قال مجاهد وقتادة . ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَّ شَامِخَاتٍ ﴾ يعنى : الجبال ، أرسى بها الأرض لثلا
تميد وتضطرب . ﴿ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴾ : عذبا زلالا من السحاب ، أو مما أنبعه الله من عيون
الأرض . ﴿ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى : ويل لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها ،
ثم بعد هذا يستمر على تكذيبه وكفره .

﴿ أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا
ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾
وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤَدِّنُ لَهُمْ فَيَعْنِدُونَ ﴿٣٦﴾
وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعُنَاكَ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكَ
كَيْدٌ فَيَكِيدُونَ ﴿٣٩﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى مخبرا عن الكفار المكذبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار ، أنهم يقال لهم يوم
القيامة : ﴿ أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ . انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴾ يعنى : لَهَبِ النَّارِ إِذَا
ارْتَفَعَ وَصَعِدَ مَعَهُ دُخَانٌ ، فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب ، ﴿ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾
أى : ظل الدخان المقابل للهيب لا ظليل هو فى نفسه ، ولا يغنى من اللهيب ، يعنى : ولا
يقبهم حر اللهيب .

وقوله : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ أى : يتطاير الشرر من لهبها كالقصر . قال ابن مسعود :
كالحصون . وقال ابن عباس وقتادة ، ومجاهد ، وغيرهم : يعنى أصول الشجر . ﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ ﴾ (١)
صُفْرٌ أى : كالإبل السود . قاله مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، واختاره ابن جرير . وعن ابن عباس ،
ومجاهد ، وسعيد بن جبير : ﴿ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ يعنى : جبال السفن . وعنه - أعنى ابن عباس :
﴿ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ : قطع نحاس . وروى البخارى عن عبد الرحمن بن عباس قال : سمعت ابن
عباس : ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ قال : كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك ، فترفعه
للشئاء (٢) ، فنسميه القَصْرَ ، ﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴾ : جبال السفن ، تجمع حتى تكون كأوساط
الرجال (٣) ، ﴿ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

(١) « جِمَالَتٌ » : قراءة الجمهور ، وكذا هى قراءة الحافظ ابن كثير .

(٢) فى المطبوعة والمخطوطة : « للبناء » والمثبت من البخارى .

(٣) البخارى (٤٩٣٣) .

ثم قال تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ أى : لا يتكلمون ﴿ وَلَا يُؤذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَرُونَ ﴾ أى : لا يقدرون على الكلام ، ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا ، بل قد قامت عليهم الحجة ، ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون . وعرضات القيامة حالات ، والرب تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة ، وعن هذه الحالة تارة ؛ ليدل على شدة الأهوال والزلازل يومئذ . ولهذا يقول بعد كل فصل من هذا الكلام : ﴿ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ هَذَا يَوْمٌ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولَىٰ . فَإِن كَان لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴾ : وهذه مخاطبة من الخالق لعباده يقول لهم : ﴿ هَذَا يَوْمٌ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولَىٰ ﴾ يعنى : أنه جمعهم بقدرته فى صعيد واحد ، يُسْمِعُهُم الداعى وَيَنْفُذُهُم البصر . ﴿ فَإِن كَان لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴾ : تهديد شديد ووعيد أكيد ، أى : إن قدرتم على أن تتخلصوا من قبضتى ، وتنجوا من حكمى فافعلوا ، فإنكم لا تقدرُونَ على ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن: ٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَصْرُوهٗ شَيْئًا ﴾ [هود: ٥٧] ، وفى الحديث : « يا عبادى ، إنكم لن تبلغوا تقى فتفنعونى ، ولن تبلغوا ضرى فتضرونى » (١) .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَآكِهِ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كَلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا ﴿٤٣﴾ بِمَا كَسَبْتُمْ فَعْمَلُونَ ﴿٤٤﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٥﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٦﴾ كَلُوا ﴿٤٧﴾ وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ ﴿٤٨﴾ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عباده المتقين الذين عبدهه بأداء الواجبات ، وترك المحرمات : أنهم يوم القيامة يكونون فى جنات وعيون ، أى : بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه ، من ظل اليعقوم ، وهو الدخان الأسود المنق . ﴿ وَفَوَآكِهِ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أى : ومن سائر أنواع الثمار ، مهما طلبوا وجدوا ﴿ كَلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كَسَبْتُمْ فَعْمَلُونَ ﴾ أى : يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم . ثم قال تعالى مخبراً خيراً مستأنفاً : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى : هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل ، ﴿ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

وقوله : ﴿ كَلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ ﴾ : خطاب للمكذبين بيوم الدين ، وأمرهم أمر تهديد ووعيد فقال تعالى : ﴿ كَلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا ﴾ أى : مدة قليلة قريبة قصيرة ، ﴿ إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ ﴾ أى : ثم تساقون إلى نار جهنم التى تقدم ذكرها ، ﴿ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس:

(١) الترمذى (٢٥١٦) وقال : « حسن صحيح » .

[٧٠، ٦٩] . وقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴾ أي : إذا أمر هؤلاء الجهلة من [الكفار] (١) أن يكونوا من المصلين مع الجماعة ، امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَيَلَّيْ يَوْمئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ . ثم قال : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ ؟ أي : إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن ، فبأي كلام يؤمنون به ؟! كقوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية : ٦] .

(١) سقطت من المطبوعة ، وأثبتناها من المخطوطة .

تفسير سورة النبأ

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَابًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلْنَا أَلْفَاظًا ﴿١٦﴾ ﴾

الجزء
٣٠

يقول تعالى منكراً على المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعها : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ﴾ أى : عن أى شيء يتساءلون ؟ عن أمر القيامة ، وهو النبأ العظيم ، يعنى : الخبر الهائل المفظع الباهر . قال قتادة ، وابن زيد : النبأ العظيم : البعث بعد الموت . وقال مجاهد : هو القرآن . والأظهر الأول لقوله : ﴿ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ يعنى : الناس فيه على قولين : مؤمن به وكافر . ثم قال تعالى متوعداً للمكرى القيامة : ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ ، وهذا تهديدٌ شديدٌ ووعيد أكيد . ثم شرع تعالى يبين قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة ، الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره ، فقال : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴾ ؟ أى : مهادة للخلائق ذلّولا لهم ، قارة ساكنة ثابتة ، ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ أى : جعلها لها أوتادا أرساها بها وثبتها وقررها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها .

ثم قال : ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ يعنى : ذكراً وأنثى ، يستمتع كل منهما بالآخر ، ويحصل التناسل بذلك ، كقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم : ٢١] .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ أى : قطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد والسعى فى المعاش فى عرض النهار . وقد تقدم مثل هذه الآية فى سورة « الفرقان » (١) . ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أى : يغشى الناس ظلامه وسواده ، كما قال : ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَفْشَاهَا ﴾ [الشمس : ٤] ، وقال قتادة فى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أى : سكتاً . وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ أى : جعلناه مشرقاً منيراً مضيئاً ، ليتمكن الناس من التصرف فيه والذهاب والمجيء للمعاش والتكسب والتجارات ،

(١) لعله يقصد الآية (٤٧) .

وغير ذلك . وقوله : ﴿ وَبَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شَدِيدًا ﴾ يعني : السموات السبع ، فى اتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها ، وتزيينها بالكواكب الثوابت والسيارات ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴾ يعنى : الشمس المنيرة على جميع العالم التى يتوهج ضوءها لأهل الأرض كلهم .
وقوله : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ قال ابن عباس : ﴿ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ : الرياح . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، وقتادة : إنها الرياح . ومعنى هذا القول أنها تستدر المطر من السحاب .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ مِنَ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ أى : من السحاب . وكذا قال عكرمة أيضا ، وأبو العالية ، والضحاك ، والحسن . واختاره ابن جرير . والأظهر أن المراد بالمعصرات : السحاب ، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَيَنْزِلُ الرِّيحَ بِمَنْزِلٍ يُخْرِجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ [الروم: ٤٨] أى : من بينه . وقوله : ﴿ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ قال مجاهد ، وقتادة ، والربيع بن أنس : ﴿ ثَجَّاجًا ﴾ : منصبا . وقال الثورى : متتابعاً . وقال ابن زيد : كثيرا . قال ابن جرير : ولا يعرف فى كلام العرب فى صفة الكثرة الثج ، وإنما الثج : الصبب المتتابع . ومنه قول النبى ﷺ : « أَفْضَلُ الْحَجِّ الْعَجَّ وَالثَّجَّ » (١) . يعنى : صبّ دماء البُدن . هكذا قال . قلت : وفى حديث المستحاضة حين قال لها رسول الله ﷺ : « أَنْعَتِ لَكَ الْكُرْسُفَ » - يعنى : أن تحشى بالظطن : قالت : يا رسول الله ، هو أكثر من ذلك ، إنما أئج ثجا (٢) . وهذا فيه دلالة على استعمال الثج فى الصبب المتتابع الكثير ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا . وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ أى : لنخرج بهذا الماء الكثير الطيب النافع المبارك ﴿ حَبًّا ﴾ يدخر للإنسانى والأنعام ، ﴿ وَنَبَاتًا ﴾ أى : خضراً يؤكل رطباً ، ﴿ وَجَنَّاتٍ ﴾ أى : بساتين وحدائق من ثمرات متنوعة ، وألوان مختلفة ، وطعوم وروائح متفاوتة ، وإن كان ذلك فى بقعة واحدة من الأرض مجتمعاً ؛ ولهذا قال : ﴿ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ قال ابن عباس ، وغيره : مجتمعاً . وهذه كقوله تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مِّنْجَاوِرَاتٍ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ وَصِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضِلَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤] .

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا ﴿٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَقْوَابًا ﴿٨﴾ وَفُتِحَتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْمَجَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿١٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿١١﴾ لِلظَّالِمِينَ مَنَابًا ﴿١٢﴾ لَيْتِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿١٣﴾ لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا بِرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿١٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿١٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿١٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿١٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿١٨﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿١٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾

(١) ابن جرير فى التفسير (٥ / ٣٠) .

(٢) المسند (٦ / ٤٣٩) وأبو داود (٢٨٧) والترمذى (١٢٨) وقال : « حسن صحيح » .

يخبر تعالى عن يوم الفصل ، وهو يوم القيامة ، أنه مؤقت بأجل معدود ، لا يزداد عليه ولا ينقص منه ، ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله عز وجل ، كما قال : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدَّدٍ ﴾ [هود: ١٠٤] . ﴿ يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ قال مجاهد : زُمَرًا زُمَرًا . قال ابن جرير : يعنى تأتى كل أمة مع رسولها ، كقوله : ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ ﴾ [الإسراء: ٣١] . وقال البخارى : ﴿ يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بين النفختين أربعون » . قالوا : أربعون يوماً ؟ قال : « آبيت » . قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : « آبيت » . قالوا : أربعون سنة ؟ قال : « آبيت » . قال : « ثم يُنزلُ الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل ، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى ، إلا عظماً واحداً ، وهو عَجَبُ الذنْب ، ومنه يُركَّبُ الخلقُ يومَ القيامة » (١) .

﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ أى : طرقاً ومسالك لنزول الملائكة ، ﴿ وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ ، كقوله : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ [النمل: ٨٨] ، وكقوله : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ [الفارعة: ٥] . وقال هاهنا : ﴿ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ أى : يخيل إلى الناظر أنها شيء ، وليست بشيء ، وبعد هذا تذهب بالكلية ، فلا عين ولا أثر ، كما قال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧] ، وقال : ﴿ وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالِ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [الكهف: ٤٧] .

وقوله : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ أى : مرصدة مُعَدَّة ، ﴿ لِلطَّاغِينَ ﴾ وهم : المرءة العصاة المخالفون للرسول ، ﴿ مَأْبًا ﴾ أى : مرجعاً ومنقلباً ومصيراً ونزلاً . وقال الحسن ، وفتادة فى قوله : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴾ يعنى : أنه لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز بالنار ، فإن كان معه جواز نجا ، وإلا احتبس . وقال سفيان الثورى : عليها ثلاث فتاطر . وقوله : ﴿ لَا يَشِينُ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ أى : ما كثرين فيها أحقاباً ، وهى جمع « حُقب » ، وهو : المدة من الزمان . وقد اختلفوا فى مقداره ، فقال ابن جرير قال على بن أبى طالب لهلال الهجرى : ما تجدون الحُقبَ فى كتاب الله المنزل ؟ قال : نجده ثمانين سنة ، كل سنة اثنا عشر شهراً ، كل شهر ثلاثون يوماً ، كل يوم ألف سنة (٢) . وهكذا روى عن أبى هريرة ، وعبد الله بن عمرو ، وابن عباس ، وسعيد بن جبيرة ، وعمرو بن ميمون ، والحسن ، وفتادة ، والربيع بن أنس ، والضحاك . وعن الحسن والسدى أيضا : سبعون سنة كذلك . وعن عبد الله بن عمرو : الحُقبُ أربعون سنة ، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون . وقال السدى : ﴿ لَا يَشِينُ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ : سبعمائة حُقب ، كل حُقب سبعون سنة ، كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً ، كل يوم كألف سنة مما تعدون . وقد قال مقاتل ابن حيان : إن هذه الآية منسوخة بقوله : ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ . وقال خالد بن معدان : هذه الآية وقوله : ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ [هود: ١٠٧] فى أهل التوحيد . رواهما ابن جرير .

(١) البخارى (٤٩٣٥) .

(٢) ابن جرير فى التفسير (٣٠ / ٨) .

ثم قال : يحتمل أن يكون قوله : ﴿ لَا يَبِثْنَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ متعلقاً بقوله : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ ، ثم يحدث الله لهم بعد ذلك عذاباً من شكل آخر ونوع آخر . ثم قال : والصحيح أنها لا انقضاء لها ، كما قال قتادة والربيع بن أنس .

وقوله : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ أى : لا يجدون فى جَهَنَّمَ برداً لقلوبهم ، ولا شراباً طيباً يتغذون به . ولهذا قال : ﴿ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ قال أبو العالية : استثنى من البرد الحميم ومن الشراب الغساق . وكذا قال الربيع بن أنس . فأما الحميم : فهو الحار الذى قد انتهى حره وحُموه . والغساق : هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم ، فهو بارد لا يستطيع من برده ، ولا يواجه من نتته . وقد قدمنا الكلام على الغساق فى سورة « ص » (١) بما أغنى عن إعادته ، أجازنا الله من ذلك ، بمنه وكرمه . قال ابن جرير : وقيل : المراد بقوله : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا ﴾ معنى : النوم .

وقوله : ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ أى : هذا الذى صاروا إليه من هذه العقوبة وفق أعمالهم الفاسدة التى كانوا يعملونها فى الدنيا . قاله مجاهد ، وقتادة ، وغير واحد . ثم قال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ أى : لم يكونوا يعتقدون أن ثم داراً يجازون فيها ويحاسبون ، ﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴾ أى : وكانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التى أنزلها على رسله ، فيقابلونها بالكذب والمعاندة . وقوله : ﴿ كَذَابًا ﴾ أى : تكذيباً ، وهو مصدر من غير الفعل . قالوا : وقد سُمع أعرابى يستفتى الفراء على المروة : الخلق أحب إليك أو القصار ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ أى : وقد علمنا أعمال العباد كلهم ، وكتبناها عليهم ، وسنجزئهم على ذلك ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . وقوله : ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ أى : يقال لأهل النار : ذوقوا ما أنتم فيه ، فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه ، ﴿ وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا ﴾ [ص: ٥٨] . عن عبد الله بن عمرو قال : لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه : ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ . قال : فهم فى مزيد من العذاب أبداً .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٢١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٢٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٢٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن السعداء وما أعد لهم تعالى من الكرامة والنعيم المقيم ، فقال : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ قال ابن عباس والضحاك : متنزها . وقال مجاهد ، وقتادة : فازوا ، فنجوا من النار . والأظهر هاهنا قول ابن عباس ؛ لأنه قال بعده : ﴿ حَدَائِقَ ﴾ ، وهى البساتين من النخيل وغيرها ﴿ وَأَعْنَابًا . وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ أى : حوراً كواعب . قال ابن عباس ومجاهد ، وغير واحد : ﴿ كَوَاعِبَ ﴾ أى : نواهد ، يعنون أن تُدَيِّهَن نواهد لم يتدلين لأنهن أبكار عُرب أتراب ، أى :

فى سن واحدة ، كما تقدم بيانه فى سورة « الواقعة » .

وقوله : ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ قال ابن عباس : مملوءة متتابعة . وقال عكرمة : صافية . وقال مجاهد ، والحسن وقتادة ، وابن زيد : ﴿ دِهَاقًا ﴾ : الملقى المترعة . وقال مجاهد ، وسعيد بن جبیر : هى المتتابعة . وقوله : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا ﴾ ، كقوله : ﴿ لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمًا ﴾ [الطور: ٢٣] أى : ليس فيها كلام لاغ عار عن الفائدة ، ولا إثم كذب ، بل هى دار السلام ، وكل كلام فيها سالم من النقص . وقوله : ﴿ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴾ أى : هذا الذى ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهموه ، بفضلله ومنه وإحسانه ورحمته ؛ ﴿ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴾ أى : كافياً وافراً شاملاً كثيراً ؛ تقول العرب : « أعطاني فأحسبني » أى : كفاني . ومنه « حسبي الله » ، أى : الله كافى .

﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ ﴿ ٣٧ ﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ
وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿ ٣٨ ﴾ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ
فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿ ٣٩ ﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ
يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿ ٤٠ ﴾

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله ، وأنه رب السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ، وأنه الرحمن الذى شملت رحمته كل شيء . وقوله : ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ أى : لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه ، كقوله : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، وكقوله : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [هود: ١٠٥] .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ ﴾ : اختلف المفسرون فى المراد بالروح هاهنا ، ما هو ؟ على أقوال : أحدها : رواه العوفى ، عن ابن عباس : أنهم أرواح بنى آدم . الثانى : هم بنو آدم . قاله الحسن ، وقتادة ، وقال قتادة : هذا مما كان ابن عباس يكتبه . الثالث : أنهم خلق من خلق الله ، على صور بنى آدم ، وليسوا بملائكة ولا ببشر ، وهم يأكلون ويشربون . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وأبو صالح والأعمش . الرابع : هو جبريل . قاله الشعبى ، وسعيد بن جبیر ، والضحاك . ويستشهد لهذا القول بقوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ، ١٩٤] . وقال مقاتل بن حيان : الروح : أشرف الملائكة ، وأقرب إلى الرب عز وجل ، وصاحب الوحى . والخامس : أنه القرآن . قاله ابن زيد ، كقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ الآية [الشورى: ٥٢] . والسادس : أنه ملك من الملائكة بقدر جميع المخلوقات ؛ قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : قوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ ﴾ ، قال : هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً . وتوقف ابن جرير فلم يقطع بواحد من هذه الأقوال كلها ، والأشبه - والله أعلم - أنهم بنو آدم .

وقوله : ﴿ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ ، كقوله : ﴿ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [هود: ١٠٥] . وكما

ثبت فى الصحيح : « ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل » (١) . وقوله : ﴿ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ أى : حقا ، ومن الحق : « لا إله إلا الله » ، كما قاله أبو صالح ، وعكرمة . وقوله : ﴿ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ ﴾ أى : الكائن لا محالة ، ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءَ ﴾ أى : مرجعا وطريقا يهتدى إليه ومنهجيا يمر به عليه .

وقوله : ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ يعنى : يوم القيامة لتأكد وقوعه صار قريبا ، لأن كل ما هو آت آت . ﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أى : يعرض عليه جميع أعماله ، خيرها وشرها ، قديمها وحديثها ، كقوله : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ [الكهف: ٤٩] ، وكقوله : ﴿ يُبَيِّنُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة: ١٣] . ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ أى : يود الكافر يومئذ أنه كان فى الدار الدنيا ترابا ، ولم يكن خلق ، ولا خرج إلى الوجود . وذلك حين عاين عذاب الله ، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سَطُرَتْ عليه بأيدى الملائكة السَّفَرَةَ الكرام البَرَّة . وقيل : إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التى كانت فى الدنيا ، فيفصل بينها بحكمه العدل الذى لا يجور ، حتى إنه ليقصص للشاة الجماء من القرناء . فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها : كونى ترابا ، فتصير ترابا . فعند ذلك يقول الكافر : ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ أى : كنت حيوانا فأرجع إلى التراب . وقد ورد معنى هذا فى حديث الصَّوَر المشهور (٢) .

(١) البخارى (٨٠٦) ، ومسلم (١٨٢/ ٢٩٩) .

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأنعام ، وكذلك تخريجه هناك .

تفسير سورة النازعات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّيِّقَاتِ ﴿٤﴾ فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ ﴿٨﴾ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٩﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿١٠﴾ يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْخَافِرَةِ ﴿١١﴾ أَيْنَا كُنَّا عِظْمًا نَحْرَةً ﴿١٢﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٤﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٥﴾ ﴾

قال ابن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق ، وسعيد بن جبير : ﴿ النَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ : الملائكة ، يعنون حين تنزع أرواح بني آدم ، فمنهم من تأخذ روحه بعنف فتغرق في نزعها ، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلته من نشاط ، وهو قوله : ﴿ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾ قاله ابن عباس .

وعن ابن عباس : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ ﴾ : هي أنفس الكفار ، تُنَزَعُ ثم تُنَشِطُ ، ثم تغرق في النار . رواه ابن أبي حاتم . وقال مجاهد : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴾ : الموت . وقال الحسن ، وقتادة : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا . وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾ : هي النجوم . وقال عطاء بن أبي رباح في قوله : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ ﴾ و ﴿ وَالنَّاشِطَاتِ ﴾ : هي القسي في القتال . والصحيح الأول ، وعليه الأكثرون .

وأما قوله : ﴿ وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا ﴾ ، فقال ابن مسعود : هي الملائكة . ورؤى عن علي ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير مثل ذلك . وعن مجاهد : ﴿ وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا ﴾ : الموت . وقال قتادة : هي النجوم . وقال عطاء بن أبي رباح : هي السفن . وقوله : ﴿ فَالسَّيِّقَاتِ سَبْقًا ﴾ : رؤى عن علي ، ومسروق ، ومجاهد : يعنى الملائكة ؛ قال الحسن : سبقت إلى الإيمان والتصديق به . وعن مجاهد : الموت . وقال قتادة : هي النجوم . وقال عطاء : هي الخيل في سبيل الله . وقوله : ﴿ فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا ﴾ قال علي ، ومجاهد ، وعطاء : هي الملائكة ، زاد الحسن : تدبر الأمر من السماء إلى الأرض . يعنى : بأمر ربها عز وجل . ولم يختلفوا في هذا ، ولم يقطع ابن جرير بالمراد في شيء من ذلك ، إلا أنه حكى في ﴿ الْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا ﴾ : أنها الملائكة ، ولا أثبت ولا نفى .

وقوله : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ قال ابن عباس : هما النفختان الأولى والثانية .

وهكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وغير واحد . وعن مجاهد : أما الأولى - وهى قوله : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾ - فكقوله جلت عظمتة : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ ﴾ [المزمّل: ١٤] ، والثانية - وهى الرادفة - فهى كقوله : ﴿ وَحَمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الحاقة: ١٤] . وقد روى الإمام أحمد عن أبى بن كعب ، قال : قال رسول الله ﷺ : « جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » . فقال رجل : يا رسول الله ، أريت إن جعلت صلواتى كلها عليك ؟ قال : « إذا يكفك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك » . وقد رواه الترمذى ، وابن جرير ، ولفظ الترمذى : كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : « يا أيها الناس ، اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » (١) .

وقوله : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ قال ابن عباس : يعنى خائفة . وكذا قال مجاهد ، وقتادة . ﴿ أَبْصَارُهُا خَاشِعَةٌ ﴾ أى : أبصار أصحابها . وإنما أضيف إليها ، للملاسة ، أى : ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال . وقوله : ﴿ يَقُولُونَ أَنَّنَا لَمَرَدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ ؟ يعنى : مشركى قريش ومن قال بقولهم فى إنكار المعاد ، يستبعدون وقوع البعث بعد المصير إلى الحافرة ، وهى القبور ، قاله مجاهد . وبعد تمزق أجسادهم وتفتت عظامهم ونخورها ، ولهذا قالوا : ﴿ أَعِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ﴾ ؟ وقرى : « ناخرة » . وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : أى بالية . قال ابن عباس : وهو العظم إذا بلى ودخلت الريح فيه ﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ . وعن ابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وعكرمة ، وسعيد بن جبیر : الحافرة : الحياة بعد الموت . وقال ابن زيد : الحافرة : النار . وما أكثر أسماءها ! هى النار ، والجحيم ، وسقر ، وجهنم ، والهاوية ، والحافرة ، ولظى ، والخطمة . وأما قولهم : ﴿ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ ، فقال محمد بن كعب : قالت قريش : لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرن .

قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ أى : فإنما هو أمر من الله لا مثنوية فيه ولا تأكيد ، فإذا الناس قيام ينظرون ، وهو أن يأمر تعالى إسرافيل فينفخ فى الصور نفخة البعث ، فإذا الأولون والآخرون قيام بين يدى الرب عز وجل ينظرون ، كما قال : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلِمَةً بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلِمَةٍ بَصِيرَةٍ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [النحل: ٧٧] . قال مجاهد : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ : صيحة واحدة . وقال الحسن البصرى : زجرة من الغضب . وقال أبو مالك ، والربيع بن أنس : زجرة واحدة : هى النفخة الآخرة .

وقوله : ﴿ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ قال ابن عباس : ﴿ السَّاهِرَةُ ﴾ : الأرض كلها . وكذا قال سعيد بن جبیر ، وقتادة . وقال عكرمة ، والحسن ، والضحاك ، وابن زيد : ﴿ السَّاهِرَةُ ﴾ : وجه الأرض . وقال مجاهد : كانوا بأسفلها فأخرجوا إلى أعلاها . قال : و﴿ السَّاهِرَةُ ﴾ :

(١) المسند (٥ / ١٣٦) ، والترمذى (٢٤٥٧) ، وابن جرير فى التفسير (٣٠ / ٢١) وقال الترمذى : « حسن صحيح » .

المكان المستوى . وقال الربيع بن أنس : ﴿ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ ، يقول الله عز وجل : ﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨] ، ويقول : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥، ١٠٦] . وقال : ﴿ وَيَوْمَ نُسِرَ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ [الكهف: ٤٧] : وبرزت الأرض التي عليها الجبال ، وهى لا تعد من هذه الأرض ، وهى أرض لم يعمل عليها خطيئة ، ولم يهراق عليها دم .

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ مُوسَى ﴾ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبُنَا ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى ﴿٢٦﴾

يخبر تعالى رسوله محمداً ﷺ عن عبده ورسوله موسى ، عليه السلام ، أنه ابتعثه إلى فرعون ، وأيده بالمعجزات ، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه ، حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر . وكذلك عاقبة من خالفك وكذب بما جئت به ؛ ولهذا قال فى آخر القصة: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى ﴾ .

فقوله : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ مُوسَى ﴾ ؟ أى: هل سمعت بخبره ؟ ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ ﴾ أى : كلمة نداء ، ﴿ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ ﴾ أى : المطهر ، ﴿ طُوًى ﴾ : وهو اسم الوادى على الصحيح ، كما تقدم فى سورة «طه» . فقال له : ﴿ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ أى : تحبب وتمرد وعتا ، ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبُنَا ﴾ ؟ أى : قل له : هل لك أن تحبب إلى طريقة ومسلك تركبى به ، أى : تسلم وتطيع . ﴿ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ ﴾ أى : أدلك إلى عبادة ربك ، ﴿ فَتَخْشَى ﴾ أى : فيصير قلبك خاضعا له مطيعا خاشعاً بعد ما كان قاسيا خبيثا بعيدا من الخير . ﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴾ يعنى : فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجة قوية ، ودليلا واضحا على صدق ما جاءه به من عند الله ، ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴾ أى : فكذب بالحق وخائف ما أمره به من الطاعة . وحاصله أنه كفر قلبه فلم يفعل لموسى بباطنه ولا بظاهره ، وعلمه بأن ما جاءه به حق لا يلزم منه أنه مؤمن به ؛ لأن المعرفة علم القلب ، والإيمان عمله ، وهو الانقياد للحق والخضوع له .

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴾ أى : فى مقابلة الحق بالباطل ، وهو جمعه السحرة ليقابلوا ما جاء به موسى ، عليه السلام ، من المعجزة الباهرة ، ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴾ أى : فى قومه ، ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ أى : انتقم الله منه انتقاما جعله به عبرة ونكالا لأمثاله من المتسرفين فى الدنيا ، ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ نُسِ الرِّقْدُ الْمَرْفُودُ ﴾ [هود: ٩٩] ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَمَلَانَاهُمْ أَنْمَةٌ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [القصص: ٤١] . هذا هو الصحيح

في معنى الآية، أن المراد بقوله: ﴿ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ أى : الدنيا والآخرة ، وقيل : المراد بذلك كلمته الأولى والثانية . وقيل : كفره وعصيانه . والصحيح الذى لا شك فيه الأول . وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى ﴾ أى : لمن يتعظ وينتزر .

﴿ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءِ بَنَاهَا ﴾ (٧) ﴿ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَهَا ﴾ (٨) ﴿ وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ (٩) ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ (١٠) ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ (١١) ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ (١٢) ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ (١٣)

يقول تعالى محتجاً على منكرى البعث فى إعادة الخلق بعد بدئه : ﴿ أَنْتُمْ ﴾ : أيها الناس ﴿ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءِ ﴾ ؟ يعنى: بل السماء أشد خلقاً منكم ، كما قال تعالى : ﴿ لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧] ، وقال : ﴿ أَوْلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١] ، فقوله : ﴿ بَنَاهَا ﴾ ، فسرهُ بقوله : ﴿ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ أى : جعلها عالية البناء ، بعيدة الفناء ، مستوية الأرجاء ، مكللة بالكواكب فى الليلة الظلماء . وقوله : ﴿ وَأَعْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أى : جعل ليلها مظلماً أسود حالكا، ونهارها مضيئاً مشرقاً نيراً واضحاً . قال ابن عباس : أعطش ليلها : أظلمه . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد ابن جبیر ، وجماعة كثيرون . ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾ أى : أثار نهارها . وقوله : ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ ، فسرهُ بقوله : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾ . وقد تقدم فى سورة « حم السجدة » (١) أن الأرض خلقت قبل السماء ، ولكن إنما دُحيت بعد خلق السماء ، بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل . وهذا معنى قول ابن عباس ، وغير واحد ، واختاره ابن جرير . وقوله : ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ أى : قررها وأثبتها وأكدها فى أماكنها، وهو الحكيم العليم ، الرؤوف بخلقه الرحيم . وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ أى : دحا الأرض فأنبع عيونها ، وأظهر مكنونها ، وأجرى أنهارها ، وأثبت زروعها وأشجارها وثمارها ، وثبت جبالها ، لتستقر بأهلها ويقر قرارها ، كل ذلك متاعاً لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام التى يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها فى هذه الدار إلى أن ينتهى الأمد ، وينقضى الأجل .

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴾ (١٤) ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴾ (١٥) ﴿ وَبُرُزَّتِ السَّجْدَةُ ﴾ (١٦) ﴿ لِمَن يَرَى ﴾ (١٧) ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴾ (١٨) ﴿ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (١٩) ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ (٢٠) ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ (٢١) ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ (٢٢) ﴿ يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ (٢٣) ﴿ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا ﴾ (٢٤) ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَى ﴾ (٢٥) ﴿ إِنَّمَّا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَى ﴾ (٢٦) ﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ (٢٧)

يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴾ وهو يوم القيامة . قاله ابن عباس ، سميت بذلك لأنها تطم على كل أمر هائل مفتح ، كما قال تعالى : ﴿ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ ﴾ [القمر: ٤٦] .
 ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴾ أى : حينئذ يتذكر ابن آدم جميع عمله خيره وشره ، كما قال تعالى :
 ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ [الفجر: ٢٣] . ﴿ وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ﴾ أى : أظهرت للناظرين فرأها الناس عيانا ، ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴾ أى : تمرد وعتا ، ﴿ وَأَثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى : قدمها على أمر دينه وأخراه ، ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ أى : فإن مصيره إلى الجحيم ، وإن مطعمه من الزقوم ، ومشربه من الحميم . ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ أى : خاف القيام بين يدي الله عز وجل ، وخاف حكم الله فيه ، ونهى نفسه عن هواها ، وردّها إلى طاعة مولاهما ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ أى : منقلبه ومصيره ومرجه إلى الجنة الفيحاء .

ثم قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا . إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴾ أى : ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق ، بل مردّها ومرجعها إلى الله عز وجل ، فهو الذى يعلم وقتها على التعيين ، ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [الأعراف : ١٨٧] ، وقال هاهنا : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴾ . ولهذا لما سأل جبريلُ رسولَ الله ﷺ عن وقت الساعة قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » (١) . وقوله : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا ﴾ أى : إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذّره من بأس الله وعذابه ، فمن خشى الله وخاف مقامه ووعيده ، اتبعك فأفلح وأنجح ، والخيبة والخسار على من كذبتك وخالفك .
 وقوله : ﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ أى : إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصبون مدة الحياة الدنيا ، حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو ضحى من يوم . قال جُوَيْرٍ ، عن الضحّاك ، عن ابن عباس : ﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ ، أما ﴿ عَشِيَّةً ﴾ : فما بين الظهر إلى غروب الشمس ، ﴿ أَوْ ضُحَاهَا ﴾ : ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار .

وقال قتادة : وقت الدنيا فى أعين القوم حين عاينوا الآخرة .

(١) جزء من حديث طويل ، رواه مسلم (١ / ٨) .

تفسير سورة عبس

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يُزَكَّى ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ ﴿٤﴾ الذِّكْرَى ﴿٥﴾ أَمَّا مَنْ اسْتَفْتَى ﴿٦﴾ فَأَنْتَ لَمْ تَصَدَّقْ ﴿٧﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّيَ ﴿٨﴾ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ﴿٩﴾ وَهُوَ يَخْشَى ﴿١٠﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي مِصْحَفٍ مُّكْرَمٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾

ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يوماً يخاطبُ بعض عظماء قريش ، وقد طَمَع في إسلامه ، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابنُ أم مكتوم - وكان ممن أسلم قديماً - فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء ويلح عليه ، وودَّ النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك ليمكن من مخاطبة ذلك الرجل ؛ طمعا ورغبة في هدايته . وعَبَسَ في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه ، وأقبل على الآخر ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يُزَكَّى ؟ أَى : يحصل له زكاة وطهارة في نفسه ، ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾ أَى : يحصل له اتعاظ وانزجار عن المحارم ، ﴿ أَمَّا مَنْ اسْتَفْتَى . فَأَنْتَ لَمْ تَصَدَّقْ ﴾ أَى : أما الغنى فأنت تتعرض له لعله يهتدى ، ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّيَ ﴾ ؟ أَى : ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة . ﴿ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى . وَهُوَ يَخْشَى ﴾ أَى : يقصدك ويؤمك ليتهتدى بما تقول له ، ﴿ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ أَى : تتشاغل . ومن هاهنا أمر الله عز وجل رسوله ﷺ ألا يخص بالإنذار أحداً ، بل يساوى فيه بين الشريف والضعيف ، والفقير والغنى ، والسادة والعبيد ، والرجال والنساء ، والصغار والكبار . ثم الله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة . وروى أبو يعلى وابن جرير عن عائشة قالت : أنزلت : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى ، أتى إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول : أرشدنى . قالت : وعند رسول الله ﷺ من عظماء المشركين . قالت : فجعل النبي ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر ، ويقول : « أترى بما أقول بأساً ؟ » . فيقول : لا . ففى هذا أنزلت : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ . وقد روى الترمذى مثله (١) .

وهكذا ذكر عروة بن الزبير ، ومجاهد ، وأبو مالك ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، وغير واحد من السلف والخلف : أنها نزلت في ابن أم مكتوم . والمشهور أن اسمه عبد الله ،

(١) أبو يعلى في المسند (٥ / ٤٣١) وابن جرير في التفسير (٣٠ / ٣٢) والترمذى (٣٣٣١) ، وصححه الألبانى .

ويقال: عمرو . والله أعلم .

وقوله : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ أى : هذه السورة ، أو الوصية بالمساواة بين الناس فى إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم . وقال قتادة والسدى : ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ يعنى : القرآن ، ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴾ أى : فمن شاء ذكر الله فى جميع أموره . ويحتمل عود الضمير على الوحى ؛ لدلالة الكلام عليه .

وقوله : ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ أى : هذه السورة أو العظة ، وكلاهما متلازم ، بل جميع القرآن ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ﴾ أى : معظمة موقرة ﴿ مَرْفُوعَةٍ ﴾ أى : عالية القدر ، ﴿ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ أى : من الدنس والزيادة والنقص . وقوله : ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وابن زيد : هى الملائكة . وقال وهب بن منبه : هم أصحاب محمد ﷺ ، وقال قتادة : هم القراء . وقال ابن جريج ، عن ابن عباس : السفارة بالنبطية : القراء . وقال ابن جرير : الصحيح أن السفارة الملائكة ، والسفيرة يعنى بين الله وبين خلقه ، ومنه يقال : السفير : الذى يسعى بين الناس فى الصلح والخير . وقال البخارى : سَفَرَةٌ : الملائكة . سَفَرَتْ : أصلحت بينهم . وجعلت الملائكة إذا نزلت بوَحَى الله وتأديته كالسفير الذى يصلح بين القوم (١) .

وقوله : ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ أى : خلقهم كريم حسن شريف ، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة . ومن هاهنا ينبغى لحامل القرآن أن يكون فى أفعاله وأقواله على السداد والرشاد . روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرؤه وهو عليه شاق له أجران » . أخرجه الجماعة (٢) .

﴿ قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَى شَيْءٍ خَلَقْتُمْ ﴿١٨﴾ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقْتُمْ فَقَدَرْتُمْ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرْتُمْ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَانَةً فَأَقْبَرْتُمْ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرْتُمْ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرْتُمْ ﴿٢٣﴾ فَلِنُظَرِ الْإِنْسَانِ إِلَّا طَمَإِمْزًا ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَبْيَأْنَا فِيهَا جَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَيْنًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَكَّهُمَّ وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَّعْنَا لَكَ زِينَةً وَلَا نَمْسِكُ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول تعالى ذاماً لمن أنكر البعث والنشور من بنى آدم : ﴿ قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ ﴾ قال الضحاك ، عن ابن عباس : ﴿ قُلِ الْإِنْسَانُ ﴾ : لعن الإنسان . وكذا قال أبو مالك . وهذا جنس الإنسان المكذب ؛ لكثرة تكذيبه بلا مستند ، بل بمجرد الاستبعاد وعدم العلم . قال ابن جريج :

(١) البخارى (٨ / ٦٩١ فتح) .

(٢) المسند (٦ / ٤٨) والبخارى (٤٩٣٧) ومسلم (٧٩٨ / ٢٤٤) وأبو داود (١٤٥٤) والترمذى (٢٩٠٤) ، والنسائى فى الكبرى (٨٠٤٧) وابن ماجه (٣٧٧٩) .

﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ : ما أشد كفره ! وقال ابن جرير : ويحتمل أن يكون المراد : أى شيء جعله كافراً ؟ أى : ما حملته على التكذيب بالمعاد . وقال قتادة : ﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ : ما ألعنه .

ثم بين تعالى له كيف خلّقه الله من الشيء الحقيق ، وأنه قادر على إعادته كما بدأه ، فقال : ﴿ مِنْ أَى شَىءٍ خَلَقَهُ . مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴾ أى : قدر أجله ورزقه وعمله وشقى أو سعيد . ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ ﴾ قال ابن عباس : ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه . وكذا قال عكرمة ، والضحاك ، وأبو صالح ، وقاتدة ، والسدى ، واختاره ابن جرير . وقال مجاهد : هذه كقوله : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣] أى : بيناه وأوضحناه وسهلنا عليه عمله ، وهكذا قال الحسن ، وابن زيد . وهذا هو الأرجح ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أى : إنه بعد خلقه له ﴿ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ أى : جعله ذا قبر . والعرب تقول : « قبرت الرجل » : إذا وكى ذلك منه ، وأقبره الله . وعصبت قرن الثور ، وأعضبه الله ، وبترت ذنب البعير وأبتره الله . وقوله : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ أى : بعثه بعد موته ، ومنه يقال : البعث والنشور ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْشُرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠] ، ﴿ وَأَنْظِرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِرُهَا (١) ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ [البقرة: ٢٥٩] . وروى ابن أبى حاتم عن أبى سعيد ، عن النبى ﷺ قال : « يأكل التراب كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه » . قيل : وما هو يا رسول الله ؟ قال : « مثل حبة خردل منه ينشؤون » . وهذا الحديث ثابت فى الصحيح عن أبى هريرة ، بدون هذه الزيادة ، ولفظه : « كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب ، منه خلق وفيه يركب » (٢) .

وقوله : ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ قال ابن جرير : يقول : كلا ، ليس الأمر بقول هذا الإنسان الكافر ؛ من أنه قد أدى حق الله عليه فى نفسه وماله ، ﴿ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ يقول : لم يؤد ما فُرض عليه من الفرائض لربه عز وجل . ثم روى - هو وابن أبى حاتم - عن مجاهد قوله : ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ قال : لا يقضى أحد أبدا كل ما افترض عليه . وحكاه البغوى ، عن الحسن البصرى ، بنحو من هذا . ولم أجد للمتقدمين فيه كلاماً سوى هذا . والذى يقع لى فى معنى ذلك - والله أعلم - أن المعنى : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ أى : بعثه ، ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ أى : لا يفعله الآن حتى تنتضى المدة ، ويفرغ القدر من بنى آدم ممن كتب تعالى له أن سيوجد منهم ، ويخرج إلى الدنيا ، وقد أمر به تعالى كونا وقدرًا ، فإذا تهاهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم .

وقوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ فيه امتنان ، وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعد ما كانت عظاما بالية وترابا متمزقا ، ﴿ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾

(١) « نشورها » : بالراء ، وقد تقدم بيان ذلك فى سورة البقرة .

(٢) البخارى (٤٨١٤) ومسلم (٢٩٥٥ / ١٤١) .

أى : أنزلناه من السماء على الأرض ، ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴾ أى : أسكنناه فيها فدخّل في تخومها وتخلّل في أجزاء الحب المودّع فيها ، فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض ، ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ فالحب : كل ما يذكر من الحبوب ، والعنب معروف ، والقضب هو : الفصفصة التى تأكلها الدواب رطبة . ويقال لها: القتّ أيضا . قال ذلك ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ، والسدى . وقال الحسن البصرى : القضب: العلف . ﴿ وَزَيْتُونًا ﴾ : وهو معروف ، وهو آدمٌ وعصيره آدم ، ويستصبح به ، ويدهن به . ﴿ وَنَخْلًا ﴾ يؤكل بلحا بسرا ، ورتبا ، وتمرا ، ونيثا ، ومطبوخا ، ويعتمر منه ربُّ واخل . ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ أى : بساتين . قال الحسن ، وقتادة : ﴿ غُلْبًا ﴾ : نخل غلاظ كرام . وقال ابن عباس ، ومجاهد : « الحدائق » : كل ما التف واجتمع . وقال ابن عباس أيضا : ﴿ غُلْبًا ﴾ : الشجر الذى يستظل به . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ أى : طوال . وقال عكرمة : ﴿ غُلْبًا ﴾ أى : غلاظ الأوساط . وفى رواية : غلاظ الرقاب ، ألم تر إلى الرجل إذا كان غليظ الرقبة قيل : والله إنه لأغلب . رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ : أما الفاكهة فهو ما يتفكه به من الثمار . قال ابن عباس : الفاكهة: كل ما أكل رطبا . والأبّ : ما أنبت الأرض ، مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس - وفى رواية عنه: هو الحشيش للبهائم . وقال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبو مالك : الأب : الكلا . وعن مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد : الأب للبهائم كالفاكهة لبنى آدم . وعن عطاء : كل نبت على وجه الأرض فهو أبّ . وقال الضحاك : كل شئ أنبتته الأرض سوى الفاكهة فهو أبّ . وقال أبو السائب : ما أنبت الأرض مما يأكل الناس وتأكل الأنعام . وقال ابن عباس : الأب : الكلا والمرعى . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد ، وغير واحد . وعن أنس قال : قرأ عمر بن الخطاب ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ ، فلما أتى على هذه الآية : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ قال : عرفنا ما الفاكهة ، فما الأب ؟ فقال : لعمر ك يا بن الخطاب إن هذا لهو التكلف . فهو إسناده صحيح ، وقد رواه غير واحد عن أنس به . هو محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه ، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض ، لقوله : ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ . وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ أى : عيشة لكم ولأنعامكم فى هذه الدار إلى يوم القيامة .

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ ﴾ ﴿ ٢٢ ﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿ ٢٤ ﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿ ٢٥ ﴾ وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ ﴿ ٢٦ ﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿ ٢٧ ﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿ ٢٨ ﴾ صَاحِبَةٌ مُّشْتَبِرَةٌ ﴿ ٢٩ ﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿ ٤٠ ﴾ تَرْتَفُحُهُمْ فَتَرَةٌ ﴿ ٤١ ﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ ﴿ ٤٢ ﴾

قال ابن عباس : ﴿ الصَّاعَةُ ﴾ : اسم من أسماء يوم القيامة ، عظمه الله ، وحدّره عباده . قال ابن جرير : لعله اسم النفخة فى الصور . وقال البغوى : ﴿ الصَّاعَةُ ﴾ : يعنى صيحة القيامة ؛

سميت بذلك لأنها تَصْخُحُ الأَسْمَاعَ ، أى : تبالغ فى إسماعها حتى تكاد تُصَمِّمَهَا .

﴿ يَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ أى : يراهم ، ويفر منهم ، ويتعد عنهم ؛ لأن الهول عظيم ، والخطب جليل . قال عكرمة : يلقى الرجل زوجته فيقول لها : يا هذه ، أى بعل كنت لك ؟ فتقول : نعم البعل كنت ! وتثنى بخير ما استطاعت ، فيقول لها : فإننى أطلبُ إليك اليومَ حسنةً واحدةً تهيئها لى لعلى أنجو مما ترين . فتقول له : ما أيسر ما طلبت ، ولكن لا أطيق أن أعطيك شيئاً أتخوف مثل الذى تخاف . قال : وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به فيقول : يا بنى ، أى والد كنت لك ؟ فيثنى بخير . فيقول له : يا بنى ، إني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلى أنجو بها مما ترى . فيقول ولده : يا أبت ، ما أيسر ما طلبت ، ولكنى أتخوف مثل الذى تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً . يقول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ . وفى الحديث الصحيح - فى أمر الشفاعة : أنه إذا طلب إلى كل من أولى العزم أن يشفع عند الله فى الخلائق ، يقول : نفسى نفسى ، لا أسأله اليوم إلا نفسى ، حتى إن عيسى ابن مريم يقول : لا أسأله اليوم إلا نفسى ، لا أسأله مريم التى ولدتنى . ولهذا قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ (١) . قال قتادة : الأحب فالأحب ، والأقرب فالأقرب ، من هول ذلك اليوم .

وقوله : ﴿ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ أى : هو فى شُغْلٍ شاغل عن غيره . روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « تحشرون حفاة عراة مشاة غُرلاً » . قال : فقالت زوجته : يا رسول الله ، أو يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال : « لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ . أو قال : « ما أشغله عن النظر » . وعن ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : « تحشرون حفاة عراة غُرلاً » . فقالت امرأة : أبيضر - أو : يرى - بعضنا عورة بعض ؟ قال : « يا فلانة ، ﴿ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ » . ثم قال الترمذى : وهذا حديث حسن صحيح (٢) . وروى النسائى عن عائشة ، أن رسول الله ﷺ قال : « يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرلاً » . فقالت عائشة : يا رسول الله ، فكيف بالعمورات ؟ فقال : « لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ » (٣) . انفرد به النسائى .

وقوله : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ . ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أى : يكون الناس هنالك فريقين : وجوه مسفرة ، أى : مستنيرة ، ﴿ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أى : مسرورة فرحة من السرور فى قلوبهم ، قد ظهر البشر على وجوههم ، وهؤلاء هم أهل الجنة . ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَٰبِرَةٌ . تَرَهَقَهَا قَتْرَةٌ ﴾ أى : يعلوها ويغشاها قتره ، أى : سواد . وقال ابن عباس : ﴿ تَرَهَقَهَا قَتْرَةٌ ﴾ أى : يغشاها سواد الوجوه . وقوله : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفٰجِرَةُ ﴾ أى : الكفرة قلوبهم ، الفجرة فى أعمالهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فٰجِرًا كٰفِرًا ﴾ [نوح : ٢٧] .

(١) مضت أحاديث الشفاعة عند تفسير أول سورة الإسراء . فانظرها .

(٢) الترمذى (٣٣٣٢) . (٣) النسائى (٢٠٨٣) ، وصححه الألبانى .

تفسير سورة التكوير

وهي مكية

روى الإمام أحمد: عن ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ، و﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ ، و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ . وهكذا رواه الترمذى (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ١ ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ ٢ ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ ٣
 ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ ٤ ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ ٥ ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ ٦ ﴿وَإِذَا
 النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ ٧ ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّتَتْ﴾ ٨ ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قِيلَتْ﴾ ٩ ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ
 نُثِرَتْ﴾ ١٠ ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ ١١ ﴿وَإِذَا الْجَبَلُ سُيِّرَتْ﴾ ١٢ ﴿وَإِذَا الْبُنَىٰ أُنزِلَتْ﴾
 ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ ١٣ ﴿﴾ ١٤

قال ابن عباس: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ يعني: أظلمت وعنه: ذهب ، وقال مجاهد: اضمحلت وذهب . وكذا قال الضحاك . وقال قتادة: ذهب ضوءها . وقال سعيد بن جبير: ﴿كُوِّرَتْ﴾: غَوَّرت . وقال الربيع بن خثيم: ﴿كُوِّرَتْ﴾ يعني: رمى بها . وقال زيد بن أسلم: تقع في الأرض . قال ابن جرير: والصواب من القول عندنا في ذلك أن التكوير جمع الشيء بعضه إلى بعض، ومنه تكوير العمامة وجمع الثياب بعضها إلى بعض، فمعنى قوله: ﴿كُوِّرَتْ﴾: جمع بعضها إلى بعض ، ثم لفت فرمى بها ، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها . روى عن البخارى عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ: « الشمس والقمر يوران يوم القيامة » . انفرده البخارى (٢) .

وقوله: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أى: انثرت ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْقَرَّتْ﴾ [الانفطار: ٢٠] ، وأصل الانكدار: الانصباب . قال أبو بن كعب: ست آيات قبل يوم القيامة ، بينا الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت ، ففزعت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب والطيور والوحوش ، فماجوا بعضهم في بعض :

(١) المسند (٤٨٠٦) والترمذى (٣٣٣٣) وقال: «حديث حسن غريب» ، وقال الشيخ أحمد شاکر: «إسناده صحيح» .

(٢) البخارى (٣٢٠٠) .

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ قال : اختلطت ، ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ قال : أهملها أهلها ، ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قال : قالت الجن : نحن نأتيكم بالخير . قال : فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأججٌ ، قال : فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا، قال فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الرياح فأماتتهم. رواه ابن جرير (١) وهكذا قال مجاهد والربيع بن خثيم، والحسن البصرى، وأبو صالح، وحمام بن أبى سليمان ، والضحاك فى قوله : ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أى : تناثرت .

وقوله : ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أى : زالت عن أماكنها ونُسفت ، فتركت الأرض قاعا صافصفا . وقوله : ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ قال عكرمة ، ومجاهد: عِشَارُ الإِبِلِ . قال مجاهد : ﴿عُطِّلَتْ﴾ : تركت وسببت . وقال أبى بن كعب ، والضحاك : أهملها أهلها : وقال الربيع ابن خثيم : لم تحلب ولم تُصَرَّ، تخلى منها أربابها . وقال الضحاك : تركت لا راعى لها . والمعنى فى هذا كله متقارب . والمقصود: أن العِشَارَ من الإِبِلِ - وهى : خيارها والحوامل منها التى قد وصَلت فى حملها إلى الشهر العاشر ، واحدها: عِشْرَاءُ ، ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع - قد اشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها ، بعد ما كانوا أرغب شىء فيها ، بما دهمهم من الأمر العظيم المُفْطَعِ الهائل ، وهو أمر القيامة وانعقاد أسبابها ، ووقوع مقدماتها . وقيل : بل يكون ذلك يوم القيامة ، يراها أصحابها كذلك ولا سبيل لهم إليها . وقد قيل فى العِشَارِ: إنها السحاب يُعْطَلُّ عن المسير بين السماء والأرض ، لخراب الدنيا . وقيل : إنها الأرض التى تُعْشَرُ . وقيل : إنها الديار التى كانت تسكن تُعْطَلُّ لذهاب أهلها . حكى هذه الأقوال كلها الإمام القرطبى ، ورجح أنها الإِبِلُ ، وعزاه إلى أكثر الناس. قلت : بل لا يعرف عن السلف والأئمة سواه ، والله أعلم .

وقوله : ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أى : جمعت . كما قال تعالى : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الانعام: ٣٨]. قال ابن عباس : يحشر كل شىء حتى الذباب. رواه ابن أبى حاتم . وكذا قال الربيع بن خثيم والسدى ، وغير واحد. وكذا قال قتادة فى تفسير هذه الآية : إن هذه الخلائق موافية فيقضى الله فيها ما يشاء . وقال عكرمة: حشرها : موتها . وقد تقدم عن أبى بن كعب أنه قال : ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ : اختلطت . قال ابن جرير : والأولى قول من قال : ﴿حُشِرَتْ﴾ : جمعت ، قال الله تعالى : ﴿وَالطَّيْرُ مُحْشَرَةٌ﴾ [ص: ١٩] ، أى : مجموعة .

وقوله : ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قال على لرجل من اليهود : أين جهنم ؟ قال : البحر . فقال : ما أراه إلا صادقا . ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦] ، ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ . وقال ابن عباس وغير واحد : يرسل الله عليها الدبور فتسعرها ، وتصير نارا تأجج ، وقد تقدم الكلام

(١) ابن جرير فى التفسير (٤١/٣٠) .

على ذلك عند قوله : ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ . وقال مجاهد ، والحسن بن مسلم : ﴿ سَجِرَتْ ﴾ : أوقدت . وقال الحسن : يبست . وقال الضحاك ، وقتادة : غاض ماؤها فذهب ولم يبق فيها قطرة . وقال الضحاك أيضا : ﴿ سَجِرَتْ ﴾ فجرت . وقال السدى : فتحت وسيرت . وقال الربيع ابن خثيم : ﴿ سَجِرَتْ ﴾ : فاضت .

وقوله : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ أى : جمع كل شكل إلى نظيره ، كقوله : ﴿ احشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [الصفات: ٢٢] . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قال : ذلك حين يكون الناس أزواجا ثلاثة . وقال مجاهد : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قال : الأمثال من الناس جمع بينهم . وكذا قال الربيع بن خثيم والحسن ، وقتادة . واختاره ابن جرير ، وهو الصحيح .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ ، هكذا قراءة الجمهور : ﴿ سُئِلَتْ ﴾ . والمؤودة هى التى كان أهل الجاهلية يدسونها فى التراب كراهية البنات ، فى يوم القيامة تسأل المؤودة على أى ذنب قتلت ، ليكون ذلك تهديداً لقاتلها ، فإذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذا ؟! وقال ابن عباس : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴾ أى : سألت . وكذا قال أبو الضحى : « سألت » أى : طلبت بدمها . وعن السدى ، وقتادة ، مثله . وقد وردت أحاديث تتعلق بالمؤودة ، فروى الإمام أحمد عن عائشة ، عن جدّامة (١) بنت وهب - أخت عكاشة - قالت : حضرت رسول الله ﷺ فى ناس وهو يقول : « لقد هممت أن أنهى عن الغيلة ، فنظرت فى الروم وفارس فإذا هم يُغِيلُونَ أولادهم ، ولا يضر أولادهم ذلك شيئا » . ثم سأله عن العزل ، فقال رسول الله ﷺ : « ذلك الواد الخفى ، وهو المؤودة سئلت » . ورواه مسلم ورواه أيضا ابن ماجه ، وأبو داود والترمذى ، والنسائى (٢) . وروى أحمد عن حسناء (٣) ابنة معاوية الصُريمية ، عن عمها قال : قلت : يا رسول الله ، من فى الجنة ؟ قال : « النبى فى الجنة ، والشهيد فى الجنة ، والمولود فى الجنة ، والمؤودة فى الجنة » (٤) .

وقوله : ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ : قال الضحاك : أعطى كل إنسان صحيفته يمينه أو بشماله . وقال قتادة : صحيفتك يا بن آدم ، تُملى فيها ، ثم تطوى ، ثم تنشر عليك يوم القيامة ، فلينظر رجل ماذا يملى فى صحيفته .

وقوله : ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ قال مجاهد : اجتذبت . وقال السدى : كشفت . وقال الضحاك : تنكشط فتذهب . وقوله : ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ﴾ قال السدى : أحميت . وقال قتادة : أوقدت . قال : وإنما يسعرها غضب الله وخطايا بنى آدم . وقوله : ﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنزِلَتْ ﴾ قال

(١) فى المطبوعة : « جذامة » بالذال ، وهى خطأ .
 (٢) المسند (٤٣٤/٦) ومسلم (١٤٤٢ / ١٤٠) ، وابن ماجه (٢٠١١) ، وأبو داود (٣٨٨٢) والترمذى (٢٠٧٧) والنسائى (١٠٦/٦) .
 (٣) فى المطبوعة والمخطوطة : « خنساء » والمثبت من المسند .
 (٤) المسند (٥٨/٥) والحديث رواه أبو داود (٢٥٢١) ، وصححه الألبانى .

الضحاك، وأبو مالك، وقتادة، والربيع بن خثيم أي: قربت إلى أهلها. وقوله: ﴿عَمِلَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾: هذا هو الجواب، أي: إذا وقعت هذه الأمور حينئذ تعلم كل نفس ما عملت وأحضر ذلك لها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذَهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

روى مسلم، والنسائي عن عمرو بن حرث قال: صليت خلف النبي ﷺ الصبح، فسمعته يقرأ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ. الْجَوَارِ الْكُنُوسِ. وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ. وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ (١). وعن علي: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ. الْجَوَارِ الْكُنُوسِ﴾ قال: هي النجوم تخنس بالنهار، وتظهر بالليل. وكذا روى عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والسدي، وغيرهم: أنها النجوم. وقال بعض الأئمة: إنما قيل للنجوم: «الخنس»، أي: في حال طلوعها، ثم هي جوار في فللكها، وفي حال غيوبتها يقال لها: «كنس» من قول العرب: أوى الظبي إلى كناسه: إذا تغيب فيه. وقال عبد الله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ﴾ قال: بقر الوحش. وكذا قال سعيد بن جبير. وقال العوفي، عن ابن عباس: هي الظباء. وكذا قال سعيد أيضا، ومجاهد، والضحاك. وتوقف ابن جرير في قوله: ﴿الْخُنُوسِ. الْجَوَارِ الْكُنُوسِ﴾، هل هو النجوم، أو الظباء وبقر الوحش؟ قال: ويحتمل أن يكون الجميع مرادا.

وقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾ فيه قولان: أحدهما: إقباله بظلامه. قال مجاهد: اظلم. وقال سعيد بن جبير: إذا نشأ. وقال الحسن البصري: إذا غشى الناس. وقال ابن عباس: ﴿إِذَا عَسَسَ﴾: إذا أدير. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وكذا قال زيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن: ﴿إِذَا عَسَسَ﴾ أي: إذا ذهب فتولى. وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿إِذَا عَسَسَ﴾: إذا أدير. قال لقوله: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي: أضاء. وعندى أن المراد بقوله: ﴿عَسَسَ﴾: إذا أقبل، وإن كان يصح استعماله في الإدبار، لكن الإقبال هاهنا أنسب؛ كأنه أقسم تعالى بالليل وظلامه إذا أقبل، وبالفجر وضيائه إذا أشرق، كما قال:

(١) مسلم (١٦٤/٤٥٦) والنسائي في الكبرى (١١٦٥١).

﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَفْشَى . وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل: ١ ، ٢] ، وقال : ﴿وَالضُّحَى . وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ١ ، ٢] ، وقال : ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَمَلَ اللَّيْلِ سَكَنًا﴾ [الانعام: ٩٦] ، وغير ذلك من الآيات . وقال كثير من علماء الأصول : إن لفظة « عسعس » تستعمل فى الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك ، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما ، والله أعلم .

وقوله : ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ قال الضحاك : إذا طلع . وقال قتادة : إذا أضاء وأقبل . وقال سعيد بن جبير : إذا نشأ . وهو المروى عن على . وقال ابن جرير : يعنى : وَضوءُ النهار إذا أقبل وتَبَيَّن . وقوله : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يعنى : إن هذا القرآن لتبليغُ رسول كريم ، أى : ملك شريف حسن الخلق ، بهى المنظر ، وهو جبريل ، عليه الصلاة والسلام . قاله ابن عباس ، والحسن ، وقاتدة ، وغيرهم . ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ كقوله : ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى . ذُو مِرَّةٍ﴾ [فاستوى] ﴿[النجم: ٥ ، ٦] ، أى : شديد الخلق ، شديد البطش والفعل ، ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أى : له مكانة عند الله عز وجل ومنزلة رفيعة . قال أبو صالح فى قوله : ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ قال : جبريل يدخل فى سبعين حجاباً من نور بغير إذن ، ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ أى : له وجاهة ، وهو مسموع القول مطاع فى الملأ الأعلى . قال قتادة : ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ أى : فى السموات ، يعنى : ليس هو من أفناء الملائكة ، بل هو من السادة والأشراف ، مُعْتَنَى به ، انتخب لهذه الرسالة العظيمة . وقوله : ﴿أَمِينٍ﴾ : صفة لجبريل بالأمانة ، وهذا عظيم جدا أن الرب عز وجل يزكى عبده ورسوله الملكى جبريل كما زكى عبده ورسوله البشرى محمداً ﷺ بقوله : ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ . قال الشعبي ، وميمون بن مهران ، وأبو صالح ، ومن تقدم ذكرهم : المراد بقوله : ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ يعنى : محمداً ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَأَى بِالْأَفْقِ الْمُبِينَ﴾ يعنى : ولقد رأى محمداً جبريل الذى يأتيه بالرسالة عن الله عز وجل على الصورة التى خلقه الله عليها له ستمائة جناح ﴿بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ أى : البين ، وهى الرؤية الأولى التى كانت بالبطحاء ، وهى المذكورة فى قوله : ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى . ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى . وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى . ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى . فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم: ٥ - ١٠] ، كما تقدم تفسير ذلك وتقريره والدليل أن المراد بذلك جبريل ، عليه السلام . والظاهر - والله أعلم - أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء ؛ لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية وهى الأولى ، وأما الثانية وهى المذكورة فى قوله : ﴿وَلَقَدْ رَأَى نَزْلَةَ أُخْرَى . عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى . إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم: ١٣ - ١٦] ، فتلك إنما ذكرت فى سورة «النجم» ، وقد نزلت بعد سورة الإسراء .

وقوله : ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ أى : وما محمد على ما أنزله الله إليه بظنين ، أى : بمتهم . ومنهم من قرأ ذلك بالضاد ، أى : ببخيل ، بل يبذله لكل أحد . قال سفيان بن عيينة : ظنين وضنين سواء ، أى : ما هو بكاذب ، وما هو بفاجر . والظنين : المتهم ، والضنين : البخيل . وقال قتادة : كان القرآن غيباً ، فأنزله الله على محمد ، فما ضنَّ به على

الناس ، بل بَلَّغَهُ ونشره وبذله لكل من أراهه . وكذا قال عكرمة ، وابن زيد، وغير واحد . واختار ابن جرير قراءة الضاد . قلت: وكلاهما متواتر ، ومعناه صحيح كما تقدم .

وقوله : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ أى : وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم ، أى : لا يقدر على حملة ، ولا يريد، ولا ينبغي له . كما قال : ﴿ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظْهِرُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعزُونَ ﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢] . وقوله : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ ؟ أى : فأين تذهب عقولكم فى تكذيبكم بهذا القرآن ، مع ظهوره ووضوحه ، وبيان كونه حقا من عند الله عز وجل ، كما قال الصديق لوفد بنى حنيفة حين قدموا مسلمين ، وأمرهم قتلوا عليه شيئا من قرآن مسيلمة الذى هو فى غاية الهديان والركاكة ، فقال: ويحكم، أين يذهب بعقولكم ؟ والله إن هذا الكلام لم يخرج من إله ، أى : من إله . وقال قتادة : ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ أى : عن كتاب الله وعن طاعته . وقوله : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ أى : هذا القرآن ذكر لجميع الناس ، يتذكرون به ويتعظون ، ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ أى : من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن ، فإنه منجاة له وهداية ، ولا هداية فيما سواه ، ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : ليست المشيئة موكولة إليكم ، فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل ، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى رب العالمين .

تفسير سورة الانفطار

وهي مكية

روى النسائي عن جابر قال : قام معاذ فضلى العشاء الآخرة فطوّل ، فقال النبي ﷺ : «أفتان يا معاذ !؟ أين كنت عن سبح اسم ربك الأعلى ، والضحى ، وإذا السماء انفطرت !؟» . وأصل الحديث مخرج فى الصحيحين (١) ، ولكن ذكرُ ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ من أفراد النسائي . وتقدم من رواية عبد الله بن عمر ، عن النبي ﷺ قال : « من سرّه أن ينظرَ إلى القيامة رأى عين فليقرأ : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّت ﴾ » (٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴾ ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴾ ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ ﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴾ ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ ﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾

يقول تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ أى : انشقت ، كما قال : ﴿ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ﴾ [المزمل : ١١٨] . ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴾ أى : تساقطت . ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴾ قال ابن عباس : فجر الله بعضها فى بعض . وقال الحسن : فجر الله بعضها فى بعض ، فذهب ماؤها . وقال قتادة : اختلط مالها بعدبها . ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ قال ابن عباس : بُحِثَتْ . وقال السدى : تُبْعَثَرُ : تُحَرَّكُ فيخرج من فيها . ﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ أى : إذا كان هذا حصل هذا .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ : هذا تهديد ، لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب ؛ حيث قال : ﴿ الْكَرِيمِ ﴾ ، حتى يقول قائلهم : غره كرمه . بل المعنى فى هذه الآية : ما غرك يا بن آدم بربك الكريم - أى : العظيم - حتى أقدمت على معصيته ، وقابلته بما لا يليق ؟ كما جاء فى الحديث : « يقول الله يوم القيامة : ابن آدم ، ما غرك بى ؟ ابن آدم ، ماذا أجبت المرسلين ؟ » . عن ابن عمر - وقرأ هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ قال : غره - والله - جهله . وروى عن ابن عباس ، والحسن مثل ذلك . وقال قتادة : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ : شىءٌ ما غرّ ابن آدم غير هذا العدو الشيطان . وقال

(١) النسائي فى الكبرى (١١٦٥٢) والبخارى (٧٠٠ ، ٧١١) ومسلم (٤٦٥ / ١٧٨) .

(٢) مضى تخريجه فى أول سورة التكوير .

الفضيل بن عياض : لو قال لى : « ما غرك بى » ، لقلت : ستورك المرخاة . وقال أبو بكر الوراق : لو قال لى : ﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ لقلت : غرنى كرم الكريم .

وقوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ أى : ما غرك بالرب الكريم ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ أى : جعلك سويًا معتدل القامة منتصبها ، فى أحسن الهيئات والأشكال . روى الإمام أحمد عن بسر^(١) بن جحاش القرشى : أن رسول الله ﷺ بصق يوما فى كفه ، فوضع عليها إصبعه ، ثم قال : « قال الله عز وجل : ابن آدم ، أنى تُعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه؟ حتى إذا سويتك وعدلتك ، مشيت بين بردين وللأرض منك وئيدٌ ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقي قلت : أتصدق ، وأنى أوان الصدقة » . وكذا رواه ابن ماجه^(٢) .

وقوله : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ : قال مجاهد : فى أى شبه أب أو أم أو خال أو عم ؟ وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إن امرأتى وكدت غلاماً أسوداً ؟ قال : « هل لك من إبل ؟ » . قال : نعم . قال : « فما ألونها ؟ » قال : حمر . قال : « فهل فيها من أورق ؟ » قال : نعم . قال : « فأنى أتاها ذلك ؟ » قال : عسى أن يكون نزع عرق . قال : « وهذا عسى أن يكون نزع عرق »^(٣) . وقد قال عكرمة فى قوله : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ : إن شاء فى صورة قرد ، وإن شاء فى صورة خنزير . وكذا قال أبو صالح : إن شاء فى صورة كلب ، وإن شاء فى صورة حمار ، وإن شاء فى صورة خنزير . قال قتادة : ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ ، قال : قادر - والله - ربنا على ذلك . ومعنى هذا القول عند هؤلاء : أن الله ، عز وجل ، قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات المنكرة الخلق ، ولكن بقدرته ولطفه وحلمه يخلقه على شكل حسن مستقيم معتدل تام ، حسن المنظر والهيئة . وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُكذِبُونَ بِاللَّيْنِ ﴾ أى : بل إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصى ، تكذيب فى قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ يعنى : وإن عليكم لملائكة حافظة كراما فلا تقابلوهم بالقبائح ، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم .

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٦﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٧﴾ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ سَعِيًّا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾

(١) فى المطبوعة والمخطوطة : « بشر » والمثبت كما فى المسند وابن ماجه . وكلاهما صحيح . انظر المعنى فى ضبط أسماء الرجال لمحمد طاهر الهندي (ص ٣٨ ط . دار الكتاب العربى) .

(٢) المسند (٢١٠ / ٤) . وابن ماجه (٢٧٠٧) وفى زوائد البوصيرى : « إسناده صحيح ، رجاله ثقات » .

(٣) البخارى (٥٣٠٥) . ومسلم (١٥٠٠ / ١٨) .

يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم ، وهم الذين أطاعوا الله عز وجل ، ولم يقابلوه بالمعاصي . ثم ذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم؛ ولهذا قال: ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أى: يوم الحساب والجزاء والقيامة ، ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ أى : لا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة، ولا يخفف عنهم من عذابها ، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ، ولو يوما واحدا .

وقوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ تعظيم لشأن يوم القيامة ، ثم أكده بقوله: ﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ ، ثم فسره بقوله: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ أى: لا يقدر أحد على نفع أحد ولا خلاصه مما هو فيه ، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . ونذكر هاهنا حديث: « يا بنى هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار ، لا أملك لكم من الله شيئا » (١) . ولهذا قال : ﴿ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ ، كقوله: ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦] ، وكقوله: ﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴾ [الفرقان: ٢٦] ، وكقوله: ﴿ مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٤] . قال قتادة : ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ ، والأمر - والله - اليوم لله ، ولكنه لا ينازعه فيه يومئذ أحد .

تفسير سورة المطففين

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾

روى النسائي وابن ماجه عن ابن عباس قال : لما قدم نبي الله ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا ، فأنزل الله : ﴿ وَيَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ ، فحسبوا الكيلَ بعد ذلك (١) . فالمراد بالتطيف هاهنا : البخس في المكيال والميزان ، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس ، وإما بالنقصان إن قَصَّاهم . ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخسار والهلاك وهو الويل ، بقوله : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ أى : من الناس ﴿ يَسْتَوْفُونَ ﴾ أى : يأخذون حقهم بالوفاء والزائد ، ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ أى : ينقصون . والأحسن أن يجعل « كالوا » و«وزنوا» متعديا ، ويكون هم فى محل نصب ، ومنهم من يجعلها ضميرا مؤكدا للمستتر فى قوله : « كالوا » و«وزنوا» ، ويحذف المفعول لدلالة الكلام عليه ، وكلاهما متقارب .

وقد أمر الله - تعالى - بالوفاء فى الكيل والميزان ، فقال : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٥] ، وقال : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [الانعام: ١٥٢] ، وقال : ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٩٩] . وأهلك الله قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يخسون الناس فى المكيال والميزان . ثم قال تعالى متوعدا لهم : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ؟ أى : أما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يَدَي من يعلم السرائر والضمائر ، فى يوم عظيم الهول ، كثير الفزع ، جليل الخطب ، من خسر فيه أدخل ناراً حامية ؟

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى : يقومون حفاة عراة غرلاً ، فى موقف صعب حرج ضيق صنك على المجرم ، ويغشاهم من أمر الله ما تعجز القوى والحواس عنه . عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : « ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه » . رواه البخارى ومسلم (٢) .

(١) النسائي فى الكبرى (١١٦٥٤) وابن ماجه (٢٢٢٣) ، وصححه الألبانى .

(٢) البخارى (٢٨٦٢ ، ٦٥٣١) ومسلم (٢٨٦٢ / ٦٠) .

ولفظ الإمام أحمد عن ابن عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ : لعظمة الرحمن عز وجل يوم القيامة ، حتى إن العرق ليُلجِمُ الرجالَ إلى أنصافِ أذانهم » (١) .

وروى الإمام أحمد : عن المقداد - يعنى ابن الأسود الكندى - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان يومُ القيامةِ أدنيت الشمس من العباد ، حتى تكون قيدَ ميلٍ أو ميلين ، قال : فتصهرهم الشمس ، فيكونون في العرقِ كقَدْرُ أعمالهم ، منهم من يأخذه إلى عقبه ، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من يأخذه إلى حَقْوَيْهِ ، ومنهم من يلجمه إجماماً » . رواه مسلم والترمذى (٢) . روى الإمام أحمد عن عقبه بن عامر قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « تدنو الشمس من الأرض فيعرق الناس ، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ، ومنهم من يبلغ إلى نصف الساق ، ومنهم من يبلغ إلى ركبتيه ، ومنهم من يبلغ العَجْزَ ، ومنهم من يبلغ الخاصرة ، ومنهم من يبلغ منكبيه ، ومنهم من يبلغ وسط فيه - وأشار بيده فألجمها فاه ، رأيت رسول الله ﷺ يشير هكذا - ومنهم من يغطيه عرقه » . وضرب بيده إشارة . انفرد به أحمد (٣) .

وفى حديث : أنهم يقومون سبعين سنة لا يتكلمون . وقيل : يقومون ثلاثمائة سنة . وقيل : يقومون أربعين ألف سنة . ويقضى بينهم فى مقدار عشرة آلاف سنة ، كما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة مرفوعاً : « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » (٤) . وفى سنن أبى داود والنسائى وابن ماجه عن عائشة : أن رسول الله ﷺ كان يفتتح قيام الليل : يكبر عشراً ، ويحمد عشراً ، ويسبح عشراً ، ويستغفر عشراً ، ويقول : « اللهم اغفر لى واهدنى ، وارزقنى وعافنى » . ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة (٥) .

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينَ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينَ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَإِلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسْطِيطُ الْآوَلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُعَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

يقول تعالى : حقا ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينَ ﴾ أى : إن مصيرهم وماواهم لفى سجين -

(١) المسند (٤٨٦٢) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) المسند (٣١٦) ومسلم (٦٢ / ٢٨٦٤) والترمذى (٢٤٢١) .

(٣) المسند (١٥٧ / ٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٣٣٨ / ١٠) : « رواه أحمد والطبرانى وإسناد الطبرانى جيد » .

(٤) مسلم (٢٤ / ٩٨٧) .

(٥) أبو داود (٧٦٦) والنسائى (١٦١٧) وابن ماجه (١٣٥٦) وصححه الالبانى :

فِعِيلٌ مِنَ السَّجْنِ ، وَهُوَ الضِّيْقُ - كَمَا يُقَالُ : فَسِيقٌ وَشَرِيْبٌ وَخَمِيْرٌ وَسَكِيْرٌ ، وَنَحْوُ ذَلِكَ .
 وَلِهَذَا عَظَّمَ أَمْرَهُ فَقَالَ : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِيْنٌ ﴾ ؟ أَيْ : هُوَ أَمْرٌ عَظِيْمٌ ، وَسَجْنٌ مُقِيْمٌ وَعَذَابٌ
 أَلِيْمٌ . وَالصَّحِيْحُ أَنَّ «سَجِيْنَا» مَأْخُوْذٌ مِنَ السَّجْنِ ، وَهُوَ الضِّيْقُ ، فَإِذَا الْمَخْلُوْقَاتُ كُلُّ مَا تَسَافَلُ
 مِنْهَا ضَاقَ ، وَكُلُّ مَا تَعَالَى مِنْهَا اتَّسَعَ ، فَإِنَّ الْأَفْلَاكَ السَّبْعَةَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا أَوْسَعُ وَأَعْلَى مِنَ
 الَّذِي دُونَهُ ، وَكَذَلِكَ الْأَرْضُونَ كُلُّ وَاحِدَةٍ أَوْسَعُ مِنَ الَّتِي دُونِهَا ، حَتَّى يَتَنَهَى السَّفْوَلُ الْمَطْلُوقُ
 وَالْمَحَلُّ الْأَضْيِيقُ إِلَى الْمَرْكَزِ فِي وَسْطِ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ . وَلَمَّا كَانَ مُصِيْرُ الْفَجَارِ إِلَى جَهَنَّمَ وَهِيَ
 أَسْفَلُ السَّافِلِيْنَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِيْنَ ﴾ [التين: ٥] قَالَ هَاهُنَا : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ
 الْفُجَارِ لَفِي سَجِيْنٍ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِيْنٌ ﴾ ، وَهُوَ يَجْمَعُ الضِّيْقَ وَالسَّفْوَلَ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَإِذَا أَلْفَوْا مِنْهَا
 مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفرقان: ١٣] .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴾ لَيْسَ تَفْسِيْرًا لِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِيْنٌ ﴾ ، وَإِنَّمَا هُوَ تَفْسِيْرٌ لِمَا
 كَتَبَ لَهُمْ مِنَ الْمَصِيْرِ إِلَى سَجِيْنٍ ، أَيْ : مَرْقُومٌ مَكْتُوبٌ مَفْرُوْغٌ مِنْهُ ، لَا يَزِيْدُ فِيهِ أَحَدٌ وَلَا
 يَنْقُصُ مِنْهُ أَحَدٌ ؛ قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرْظِيُّ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِيْنَ ﴾ أَيْ : إِذَا صَارُوا
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَا أَوْعَدَهُمُ اللَّهُ مِنَ السَّجْنِ وَالْعَذَابِ الْمُهِيْنِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَيَلَّ ﴾
 بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ ، وَأَنَّ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ الْهَلَاكُ وَالذَّمَارُ ، كَمَا يُقَالُ : وَيَلُّ لِفُلَانٍ . وَكَمَا جَاءَ
 فِي الْمُسْنَدِ وَالسُّنَنِ مِنْ رَوَايَةِ بَهْزِ بْنِ حَكِيْمٍ بْنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ : قَالَ
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَيَلُّ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ ، لِيَضْحَكُ النَّاسُ ، وَيَلُّ لَهُ ، وَيَلُّ لَهُ » (١) .
 ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُفْسِرًا لِلْمُكَذِّبِيْنَ الْفَجَارِ الْكُفْرَةَ : ﴿ الَّذِيْنَ يُكْذِبُوْنَ يَوْمَ الدِّيْنِ ﴾ أَيْ : لَا يَصْدُقُوْنَ
 بِوَقُوْعِهِ ، وَلَا يَعْتَقِدُوْنَ كَوْنَهُ ، وَيَسْتَبْعَدُوْنَ أَمْرَهُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يُكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيْمٍ ﴾
 أَيْ : مُعْتَدٍ فِي أَعْمَالِهِ ؛ مِنْ تَعَاطَى الْحَرَامَ وَالْمَجَاوِزَةَ فِي تَنَاوُلِ الْمَبَاحِ ، وَالْأَثِيْمِ فِي أَقْوَالِهِ : إِنْ
 حَدَّثَ كَذِبًا ، وَإِنْ وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِنْ خَاصَمَ فَجَرَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِيْنَ ﴾ أَيْ : إِذَا سَمِعَ كَلَامَ اللَّهِ مِنَ الرَّسُولِ يَكْذِبُ
 بِهِ ، وَيُظَنُّ بِهِ ظَنُّ السُّوءِ ، فَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ مُفْتَعَلٌ مَجْمُوعٌ مِنْ كِتَابِ الْأَوَائِلِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى :
 ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِيْنَ ﴾ [النحل: ٢٤] ، وَقَالَ : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِيْنَ اكْتَسَبَهَا
 فِيهِ تَمَلَّى عَلَيْهِ بَكْرَةٌ وَأَصِيْلًا ﴾ [الفرقان: ٥] ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾
 أَيْ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمُوا وَلَا كَمَا قَالُوا ، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَسَاطِيْرُ الْأَوَّلِيْنَ ، بَلْ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ
 وَوَحْيُهُ وَتَنْزِيلُهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ ، وَإِنَّمَا حَجَبَ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْإِيْمَانِ بِهِ مَا عَلَيْهَا مِنَ الرَّيْنِ الَّذِي
 قَدْ لَبَسَ قُلُوبَهُمْ مِنْ كَثْرَةِ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا
 يَكْسِبُونَ ﴾ . وَالرَّيْنُ يَعْتَرِي قُلُوبَ الْكَافِرِيْنَ ، وَالغَيْمُ لِلْأَبْرَارِ ، وَالغَيْمُ لِلْمُقْرَبِيْنَ . وَقَدْ رَوَى ابْنُ
 جُرَيْرٍ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنْ الْعَبْدَ إِذَا أَذْنَبَ
 ذَنْبًا كَانَتْ نَكْتَةٌ سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ ، فَإِنْ تَابَ مِنْهَا صُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ :

(١) المسند (٥/٥ ، ٧) وأبو داود (٤٩٩٠) والترمذی (٢٣١٥) ، وصححه الألبانی .

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ . وقال الترمذى : حسن صحيح . ولفظ النسائي : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة ، فإن هو نزع واستغفر وتاب صُقل قلبه ، فإن عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه ، فهو الران الذى قال الله : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ » (١) . وروى أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء فى قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صُقل قلبه ، فإن زاد زادت حتى يعلو قلبه ، وذلك الران الذى ذكر الله فى القرآن : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ » (٢) . وقال الحسن البصرى : هو الذنب على الذنب ، حتى يعمى القلب ، فيموت . وكذا قال مجاهد وقتادة ، وابن زيد ، وغيرهم .

وقوله : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ أى : لهم يوم القيامة منزل ونزل سجين ، ثم هم يوم القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم . قال الإمام الشافعى : فى هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل يومئذ . وهذا الذى قاله الإمام الشافعى ، رحمه الله ، فى غاية الحسن ، وهو استدلال بمفهوم هذه الآية ، كما دل عليه منطوق قوله : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] . وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة فى رؤية المؤمنين ربهم عز وجل فى الدار الآخرة ، رؤية بالابصار فى عَرَصات القيامة ، وفى روضات الجنات الفاخرة . قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴾ أى : ثم هم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن من أهل النيران ، ﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ أى : يقال لهم ذلك على وجه التقرير والتوبيخ ، والتصغير والتحقير .

﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيَّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَنْبَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَاكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَّخْحُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَمُهُمْ مِنْ عِلِّيِّينَ ﴿٢٦﴾ فَلْيَتَنَفَّسْ أَلْمُنَافِسُونَ ﴿٢٧﴾ وَمَنْ جَاهِدْ مِنْ سُلَيْمٍ ﴿٢٨﴾ عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

يقول تعالى : حقا ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبَارِ ﴾ وهم بخلاف الفجار ، ﴿ لَفِي عِلِّيَّينَ ﴾ أى : مصيرهم إلى عليين ، وهو بخلاف سجين . قال غير واحد : إنها السماء السابعة . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ ﴾ يعنى : الجنة . وفى رواية عنه : أعمالهم فى السماء عند الله . وكذا قال الضحاك . وقال قتادة : عليون : ساق العرش اليمنى . وقال غيره : عليون عند سدرة المنتهى . والظاهر : أن عليين مأخوذ من العلو ، وكلما علا الشيء وارتفع عظم

(١) ابن جرير فى التفسير (٦٢/٣٠ ، ٦٣) ، والترمذى (٢٣١٥) ، والنسائى (١١٦٥٨ / ١) ، وابن ماجه (٤٢٤٤) وصححه الألبانى .

(٢) المسند (٧٩٣٩) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

واتسع ؛ ولهذا قال معظمنا أمره ومفضما شأنه : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلِيُّونَ ﴾ .
ثم قال مؤكدا لما كتب لهم : ﴿ كِتَابٌ مُرْقُومٌ . يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ، وهم الملائكة ، قاله قتادة .
وقال العوفي ، عن ابن عباس : يشهده من كل سماء مقربوها . ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ أى : يوم القيامة هم فى نعيم مقيم ، وجنات فيها فضل عميم ، ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ وهى : السرر تحت الحِجَال ، ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ قيل : معناه : ينظرون فى مُلكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذى لا ينقضى ولا يبئد . وقيل : معناه : ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ إلى الله عز وجل . وهذا مقابلة لما وُصف به أولئك الفجار : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ ، فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلى الله عز وجل وهم على سررهم وفرشهم .

وقوله : ﴿ تَعْرِفُ لِي وَجُوهُهُمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ أى : تعرف إذا نظرت إليهم فى وجوههم نضرة النعيم ، أى : صفة الترافة والحشمة والسرور والدعة والرياسة ؛ مما هم فيه من النعيم العظيم .
وقوله : ﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴾ أى : يسقون من خمر من الجنة . والرحيق : من أسماء الخمر .
قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد . وقال ابن مسعود فى قوله : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكَ ﴾ أى : خلطه مسك . وقال ابن عباس : طيب الله لهم الخمر ، فكان آخر شيء جعل فيها مسك ، خُتِمَ بِمِسْكَ . وكذا قال قتادة والضحاك . وقال إبراهيم والحسن : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكَ ﴾ أى : عاقبته مسك . وقال مجاهد : ﴿ خِتَامُهُ مِسْكَ ﴾ قال : طيبه مسك .
وقوله : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ أى : وفى مثل هذا الحال فليتنافخ المتنافخون ، وليتباهى ويكاثر ويستبق إلى مثله المستبقون ، كقوله : ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ [الصفات: ٦١] . وقوله : ﴿ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾ أى : ومزاج هذا الرحيق الموصوف من تسنيم ، أى : من شراب يقال له تسنيم ، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه . قاله أبو صالح والضحاك ؛ ولهذا قال : ﴿ وَعَيْنَا يُشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أى : يشربها المقربون صرفاً ، وتُمزَجُ لأصحاب اليمين مزجاً . قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق ، وقتادة ، وغيرهم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٣٦﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٧﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣٨﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٣٩﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٤٠﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٤١﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٤٢﴾ هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا فى الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين ، أى : يستهزئون بهم ويحتقرونهم ، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم ، أى : محتقرين لهم ، ﴿ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ (١) : أى : إذا انقلب ، أى : رجع هؤلاء المجرمون إلى

(١) « فاكهين » : قراءة الجمهور ، وكذا قراءة الحافظ ابن كثير .

منازلهم ، انقلبوا إليها فاكهين ، أى : مهما طلبوا وجدوا ، ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم ، بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحترقونهم ويحسدونهم ، ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴾ أى : لكونهم على غير دينهم ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ أى : وما بعث هؤلاء المجرمون حافظين على هؤلاء المؤمنين ما يصدر من أعمالهم وأقوالهم ، ولا كلفوا بهم ؟ فلم اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم ، كما قال تعالى : ﴿ قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون . إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ . إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠٨-١١١] . ولهذا قال هاهنا : ﴿ فَالْيَوْمَ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ أى : فى مقابلة ما ضحك بهم أولئك ، ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾ أى : إلى الله عز وجل ، فى مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون ، ليسوا بضالين ، بل هم من أولياء الله المقربين ، ينظرون إلى ربهم فى دار كرامته . وقوله : ﴿ هَلْ تُؤْتَى الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ؟ أى : هل جوزى الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتقيص أم لا ؟ معنى : قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله .

تفسير سورة الانشقاق

وهي مكية

عن أبي هريرة أنه قرأ بهم : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ ، فسجد فيها ، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها . رواه مسلم والنسائي (١) . وروى البخارى عن أبي رافع قال : صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ ، فسجد ، فقلت له ، فقال : سجدت خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه . وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائي (٢) . وقد روى مسلم وأهل السنن عن أبي هريرة قال : سجدنا مع رسول الله ﷺ فى ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ و ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ربع ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَمَلَقْتَهُ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْفَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا (١١) وَيَصَلَّىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) ﴿

يقول تعالى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ وذلك يوم القيامة ، ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ أى : استمعت لربها وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقاق ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ أى : وحق لها أن تطيع أمره؛ لأنه العظيم الذى لا يُمانع ولا يغالب ، بل قد قهر كل شىء وذل له كل شىء . ثم قال : ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ أى : بسطت وفرشت ووسعت . روى ابن جرير عن على بن الحسين : أن النبى ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة مدَّ الله الأرض مدَّ الأديم حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه ، فأكون أول من يدعى ، وجبريل عن يمين الرحمن ، والله ما رآه قبلها ، فأقول : يا رب ، إن هذا أخبرنى أنك أرسلته إلى ؟ فيقول الله عز وجل : صدق . ثم أشفع فأقول : يا رب ،

(١) مسلم (٥٧٨ / ١٠٧) والنسائي فى الكبرى (١١٦٦٠) .

(٢) البخارى (٧٦٦ ، ٧٦٨) ومسلم (٥٧٨ / ١٠٧) وأبو داود (١٤٠٨) والنسائي (٩٦٢) .

(٣) مسلم (٥٧٨ / ١٠٨) وأبو داود (١٤٠٧) والترمذى (٥٧٣) .

عبادك عبدوك فى أطراف الأرض . قال : وهو المقام المحمود « (١) .

وقوله : ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ أى : ألقت ما فى بطنها من الأموات ، وتخلت منهم . قاله مجاهد ، وسعيد ، وقتادة ، ﴿ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ﴾ كما تقدم .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ أى : ساع إلى ربك سعياً ، وعامل عملاً ، ﴿ فَمَلَأْهِ ﴾ ، ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر . ويشهد له ما رواه أبو داود الطيالسى ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « قال جبريل : يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه » (٢) . ومن الناس من يعيد الضمير على قوله: ﴿ رَبِّكَ ﴾ أى : فملاق ربك ، ومعناه : فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك . وعلى هذا فكلا القولين متلازم . قال ابن عباس : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ يقول : تعمل عملاً تلقى الله به ، خيراً كان أو شراً . وقال قتادة : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ : إن كدحك - يا ابن آدم - لضعيف، فمن استطاع أن يكون كدحه فى طاعة الله فليفعل ، ولا قوة إلا بالله . ثم قال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَوْتَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ . فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ أى : سهلاً بلا تعسير ، أى : لا يحقق عليه جميع دقائق أعماله؛ فإن من حوسب كذلك يهلك لا محالة . روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « من نُوقِشَ الحِسَابَ عَذَّبَ » . قالت : فقلت : أليس قال الله : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ ؟ ، قال : « ليس ذاك بالحساب ، ولكن ذلك العَرَضُ ، من نُوقِشَ الحِسَابَ يومَ القيامة عذب » . وهكذا رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن جرير (٣) . وروى ابن جرير عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « إنه ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا معذبا » . فقلت : أليس الله يقول : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ ؟ ، قال : « ذاك العرض ، إنه من نُوقِشَ الحِسَابَ عَذَّبَ » ، وقال بيده على إصبعه كأنه يتكئ . أخرجاه (٤) . وروى أحمد عن عائشة قالت : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول فى بعض صلواته : « اللهم حاسبنى حساباً يسيراً » . فلما انصرف قلت : يا رسول الله ، ما الحساب اليسير ؟ قال : « أن ينظر فى كتابه فيتجاوز له عنه ، إنه من نُوقِشَ الحِسَابَ يا عائشة يومئذ هلك » . صحيح على شرط مسلم (٥) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ أى : ويرجع إلى أهله فى الجنة . قاله قتادة ،

(١) ابن جرير فى التفسير (٧٢ / ٣٠) . ورواه الحاكم فى المستدرک (٥٧٠ / ٥) عن جابر بنحوه، ثم قال : « صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه » .

(٢) الطيالسى فى المسند (١٧٥٥) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (٢ / ٢٥٥ ، ٢٥٦) : « رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه زاخر بن سليمان وثقه أحمد وابن معين وأبو داود وتكلم فيه ابن عدى وابن حبان بما لا يضر » .

(٣) المسند (٤٧ / ٦) والبخارى (٤٩٣٩) ومسلم (٧٩ / ٢٨٧٦) والترمذى (٣٣٣٧) وابن جرير فى التفسير (٧٤ / ٣٠) .

(٤) ابن جرير فى التفسير (٧٤ / ٣٠) والبخارى ومسلم السابقان .

(٥) المسند (٤٨ / ٦) .

والضحاك ، ﴿ مَسْرُورًا ﴾ أى : فرحان مغتبطا بما أعطاه الله عز وجل . وقوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾ أى : بشماله من وراء ظهره ، تُثْنِي يده إلى ورائه ويعطى كتابه بها كذلك ، ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴾ أى : خسارًا وهلاكًا ، ﴿ وَيَصَلِّي سَعِيرًا . إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ أى : فرحًا لا يفكر فى العواقب ، ولا يخاف مما أمامه ، فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل ، ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴾ أى : كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ولا يعيده بعد موته . قاله ابن عباس ، وقتادة ، وغيرهما . والْحَوْرُ : هو الرجوع . قال الله : ﴿ بَلَى إِنْ رَبُّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ يعنى : بلى سيعيده الله كما بدأه ، ويجازيه على أعماله خيرا وشرا ، فإنه ﴿ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ أى : عليما خبيرًا .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْشَفَقِ ۝١١ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٢ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝١٣ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٤ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٥ وَإِذَا قُرئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۝١٦ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ۝١٧ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝١٨ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٩ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٢٠ ﴾

سجدة

رُوى عن على ، وابن عباس ، وعُباد بن الصامت ، وأبى هريرة ، وشداد بن أوس ، وابن عمر ، وغيرهم أنهم قالوا : الشفق : الحمرة . فالشفق هو : حمرة الأفق إما قبل طلوع الشمس - كما قاله مجاهد - وإما بعد غروبها - كما هو معروف عند أهل اللغة . قال الخليل بن أحمد : الشفق : الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة ، فإذا ذهب قيل : غاب الشفق . وقال الجوهري : الشفق : بقية ضوء الشمس وحمرةًها فى أول الليل إلى قريب من العتمة . وكذا قال عكرمة : الشفق الذى يكون بين المغرب والعشاء . وفى صحيح مسلم ، عن عبد الله بن عمرو ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « وقت المغرب ما لم يغب الشفق » (١) .

ففى هذا كله دليل على أن الشفق هو كما قاله الجوهري والخليل . ولكن صح عن مجاهد أنه قال فى هذه الآية : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْشَفَقِ ﴾ : هو النهار كله . وفى رواية عنه أيضا أنه قال : الشفق : الشمس . رواهما ابن أبى حاتم . وإنما حملة على هذا قرنه بقوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ أى : جمع . كأنه أقسم بالضياء والظلام . وقال ابن جرير : أقسم الله بالنهار مدبراً ، وبالليل مقبلاً . قال ابن جرير : وقال آخرون : الشفق اسم للحمرة والبياض . وقالوا : هو من الأضداد . قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة : ﴿ وَمَا وَسَقَ ﴾ : وما جمع . قال قتادة : وما جمع من نجم ودابة . واستشهد ابن عباس بقول الشاعر :

مُسْتَوْسَقَاتٍ لَوْ تَجِدْنَ سَأْتِقَا

قد قال عكرمة : ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ يقول : ما ساق من ظلمة ، إذا كان الليل ذهب كل شيء إلى ماواه .

وقوله : ﴿ وَالْقَمَرَ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ قال ابن عباس : إذا اجتمع واستوى . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، ومسروق ، وأبو صالح ، والضحاك ، وابن زيد : ﴿ وَالْقَمَرَ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ : إذا استوى . وقال الحسن : إذا اجتمع ، إذا امتلأ . وقال قتادة : إذا استدار . ومعنى كلامهم : أنه إذا تكامل نوره وأبدر ، جعله مقابلاً لليل وما وسق . وقوله : ﴿ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ . هكذا رواه البخاري بهذا اللفظ (١) ، وهو محتمل أن يكون ابن عباس أسند هذا التفسير عن النبي ﷺ ، كأنه قال : سمعت هذا من نبيكم ﷺ ، فيكون قوله : « نبيكم » مرفوعاً على الفاعلية من « قال » وهو الأظهر ، والله أعلم ، كما قال أنس : لا يأتي عام إلا والذي بعده شر منه ، سمعته من نبيكم ﷺ . وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ : حالاً بعد حال . وكذا قال عكرمة ومرة الطيب ، ومجاهد ، والحسن ، والضحاك .

ويحتمل أن يكون المراد : ﴿ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ : حالاً بعد حال . قال : هذا ، يعني المراد بهذا نبيكم ﷺ ، فيكون مرفوعاً على أن « هذا » و « نبيكم » يكونان مبتدأ وخبراً ، والله أعلم . ولعل هذا قد يكون هو المتبادر إلى كثير من الرواة ، كما قال أبو داود الطيالسي وغندر : حدثنا شعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ قال : محمد ﷺ . ويؤيد هذا المعنى قراءة عمر ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وعامة أهل مكة والكوفة : « لَتَرْكَبَنَّ » بفتح التاء والباء . روى ابن أبي حاتم عن الشعبي : ﴿ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ قال : لتركبن يا محمد سماء بعد سماء . وهكذا روى عن ابن مسعود ، ومسروق ، وأبي العالية : ﴿ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ : سماء بعد سماء . قلت : يعنون ليلة الإسراء .

وقال السدي نفسه : ﴿ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ : أعمال من قبلكم منزلاً بعد منزل . قلت : كأنه أراد معنى الحديث الصحيح : « لتركبن سنن من كان قبلكم ، حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » . قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن ؟ » (٢) . وهذا محتمل . وقال عبد الله [بن مسعود] : ﴿ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ قال : السماء تنشق ثم تحمر ، ثم تكون لونا بعد لون . وقال سعيد بن جبير : ﴿ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ قال : قوم كانوا في الدنيا خسيس أمرهم ، فارتفعوا في الآخرة ، وآخرون كانوا أشرافاً في الدنيا ، فاتضعوا في الآخرة . وقال عكرمة : ﴿ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ : حالاً بعد حال ، فطيماً بعد ما كان رضيعاً ، وشيخاً بعد ما كان شاباً . وقال الحسن البصري : ﴿ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ يقول : حالاً بعد حال ، رخاء بعد شدة ، وشدة بعد رخاء ، وغنى بعد فقر ، وفقراً بعد غنى ، وصحة بعد سقم ، وسقماً بعد صحة .

(٢) مضى تخريجه عند الآية (٣٤) من سورة التوبة .

(١) البخاري (٤٩٤٠) .

ثم قال ابن جرير بعد ما حكى أقوال الناس فى هذه الآية من القراء والمفسرين : والصواب من التأويل قول من قال لَتَرَكِبَنَّ أَنْتَ - يا محمد - حالا بعد حال وأمراً بعد أمر من الشدائد. والمراد بذلك - وإن كان الخطاب إلى رسول الله ﷺ مَوْجَّهًا - جَمِيعَ النَّاسِ ، وأنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأهواله أحوالاً .

وقوله : ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ أى : فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ؟ وما لهم إذا قرئت عليهم آيات الرحمن وكلامه - وهو هذا القرآن - لا يسجدون إعظاماً وإكراماً واحتراماً ؟ وقوله : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْتُمُونَ ﴾ أى : من سجيبتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ قال مجاهد وقتادة : يكتبون فى صدورهم ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى : فأخبرهم - يا محمد - بأن الله عز وجل قد أعد لهم عذاباً أليماً .

وقوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ : هذا استثناء منقطع ، يعنى : لكن الذين آمنوا ، أى : بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بجوارحهم ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ ﴾ أى : فى الدار الآخرة ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قال ابن عباس : غير منقوص . وقال مجاهد ، والضحاك : غير محسوب . وحاصل قولهما أنه غير مقطوع ، كما قال تعالى : ﴿ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُوزٍ ﴾ [هود: ١٠٨] . وقال السدى : قال بعضهم : ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ : غير منقوص . وقال بعضهم : ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ عليهم . هذا القول الآخر عن بعضهم قد أنكره غير واحد ؛ فإن الله عز وجل له المنة على أهل الجنة فى كل حال وأن لحظة ، وإنما دخلوها بفضلهم ورحمته لا بأعمالهم ، فله عليهم المنة دائماً سرمداً ، والحمد لله وحده أبداً ؛ ولهذا يلهمون تسبيحه وتحميده كما يلهمون النفس : ﴿ وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

تفسير سورة البروج

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قِيلَ أَصْحَابُ الْأَعْدُدِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُوقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾

يقسم تعالى بالسماء وبروجها ، وهي : النجوم العظام ، كما تقدم بيان ذلك في قوله : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ [الفرقان: ٦١] . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : البروج : النجوم . وعن مجاهد أيضا : البروج التي فيها الحرس . وقال يحيى ابن رافع : البروج : قصور في السماء . وقال المنهال بن عمرو : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ : الخلق الحسن . واختار ابن جرير أنها : منازل الشمس والقمر ، وهي اثنا عشر برجاً ، تسير الشمس في كل واحد منها شهراً ، ويسير القمر في كل واحد يومين وثلاثاً ، فذلك ثمانية وعشرون منزلاً ، ويستسر ليلتين .

وقوله : ﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ . وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ : اختلف المفسرون في ذلك . وروى أحمد عن أبي هريرة أنه قال في هذه الآية : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ قال : الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة ، والموعود يوم القيامة (١) . وقد روى عن أبي هريرة أنه قال : اليوم الموعود يوم القيامة . وكذلك قال الحسن ، وقتادة ، وابن زيد . ولم أرهم يختلفون في ذلك ، ولله الحمد . وقال مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك : الشاهد : ابن آدم ، والمشهود : يوم القيامة . وعن عكرمة أيضا : الشاهد : محمد ﷺ ، والمشهود : يوم الجمعة . وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : الشاهد : الله ، والمشهود : يوم القيامة . وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ قال : الشاهد : الإنسان . والمشهود : يوم الجمعة .

وروى ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ الشاهد : يوم عرفة ، والمشهود : يوم القيامة . وبه عن سفيان - هو الثوري - عن مغيرة ، عن إبراهيم قال : يوم الذبح ، ويوم عرفة ،

يعنى الشاهد والمشهود. وعن سعيد بن جبير: الشاهد: الله، وتلا ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤٧٩]، والمشهود: نحن. حكاه البغوى، وقال: الأكثرون على أن الشاهد: يوم الجمعة، والمشهود: يوم عرفة.

وقوله: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ أى: لعن أصحاب الأخدود، وجمعه: أخاديد، وهى الحفير فى الأرض، وهذا خبر عن قوم من الكفار عمّدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله، عز وجل، فقهرهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم، فأبوا عليهم، فحفروا لهم فى الأرض أخدوداً وأججوا فيه ناراً، وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم، فقتلهم فيها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ أى: مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿ وَمَا تَقَمُّوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ أى: وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذى لا يضام من لاذ بجنابه، المنيع الحميد فى جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، وإن كان قد قدر على عباده هؤلاء هذا الذى وقع بهم بأيدى الكفار به، فهو العزيز الحميد، وإن خفى سبب ذلك على كثير من الناس. ثم قال: ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من تمام الصفة أنه المالك لجميع السموات والأرض وما بينهما، ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أى: لا يغيب عنه شيء فى جميع السموات والأرض، ولا تخفى عليه خافية.

وقد اختلف أهل التفسير فى أهل هذه القصة، من هم. فعن على: أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل تزويج المحارم، فامتنع عليه علماؤهم، فعمد إلى حفر أخدود فقذف فيه من أنكر عليه منهم، واستمر فيهم تحليل المحارم إلى اليوم. وعنه: أنهم كانوا قوماً باليمن اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم، فغلب مؤمنوهم على كفارهم، ثم اقتتلوا فغلب الكفار المؤمنين، فخذوا لهم الأخاديد، وأحرقوهم فيها. وعنه: أنهم كانوا من أهل الحبشة، وبنيتهم حبشى. وقال ابن عباس: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ﴾ قال: ناس من بنى إسرائيل، خدّوا أخدوداً فى الأرض، ثم أوقدوا فيه ناراً، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساءً، فعرضوا عليها، وزعموا أنه دانيال وأصحابه. وهكذا قال الضحاك بن مزاحم، وقيل غير ذلك.

وقد روى الإمام أحمد عن صُهَيْب: أن رسول الله ﷺ قال: « كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إني قد كبرت سنّي وحضر أجلي، فادفع إلى غلاما أعلمه السحر. فدفع إليه غلاما فكان يعلمه السحر، وكان بين الساحر وبين الملك راهب، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه، فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال: ما حبسك؟ وإذا أتى أهله ضربه وقالوا: ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك فقل: حبسنى أهلى. وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حبسنى الساحر. قال: فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة، قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا، فقال: اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر

الساحر . قال : فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحبّ إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس . ورماها فقتلها ، ومضى الناس . فأخبر الراهب بذلك فقال : أئى بُنى ، أنت أفضل منى ، وإنك سَتبْتلى ، فإن ابتليت فلا تدل على . فكان الغلام يُبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم ، وكان جليس للملك فعمى ، فسمع به ، فاتاه بهدايا كثيرة فقال : اشفى ولك ما ههنا أجمع . فقال : ما أنا أشفى أحداً ، إنما يشفى الله ، عز وجل ، فإن آمنت به دعوت الله شفاك . فأمن فدعا الله شفاه . ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس ، فقال له الملك : يا فلان ، من ردّ عليك بصرك؟ فقال : ربي ؟ فقال : أنا ؟ قال : لا ، ربي وربك الله . قال : ولك رب غيرى ؟ قال : نعم ، ربي وربك الله . فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فبعث إليه فقال : أئى بُنى ، بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص وهذه الأدواء ؟ قال : ما أشفى أنا أحداً ، إنما يشفى الله ، عز وجل . قال : أنا ؟ قال : لا . قال : أولك رب غيرى ؟ قال : ربي وربك الله . فأخذه أيضا بالعذاب ، فلم يزل به حتى دل على الراهب ، فأتى بالراهب فقال : ارجع عن دينك ، فأبى ، فوضع المشار فى مفرق رأسه حتى وقع شفاه ، وقال للأعمى : ارجع عن دينك ، فأبى ، فوضع المشار فى مفرق رأسه حتى وقع شفاه إلى الأرض . وقال للغلام : ارجع عن دينك ، فأبى ، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا ، وقال : إذا بلغت ذروته ، فإن رجع عن دينه وإلا فدّهدوه ، فذهبوا به ، فلما علوا به الجبل قال : اللهم ، اكفنيهم بما شئت . فرجف بهم الجبل فدّهدوها أجمعون . وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله . فبعث به مع نفر فى قُرُقور فقال : إذا لججتم به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فغرّقوه فى البحر . فلججوا به البحر فقال الغلام : اللهم ، اكفنيهم بما شئت . فغرقوا أجمعون ، وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله . ثم قال للملك : إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما أمرك به ، فإن أنت فعلت ما أمرك به قتلتنى ، وإلا فإنك لا تستطيع قتلى . قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس فى صعيد واحد ثم تصلبى على جذع ، وتأخذ سهماً من كنانتى ثم قل : « بسم الله رب الغلام » ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى . ففعل ، ووضع السهم فى كبد قوسه ثم رماه ، وقال : « بسم الله رب الغلام » . فوقع السهم فى صدغه ، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات ، فقال الناس : آمنة برب الغلام . فقيل للملك : أرايت ما كنت تحذر ؟ فقد - والله - نزل بك ، قد آمن الناس كلهم . فأمر بأفواه السكك فخذت فيها الأخاديد ، وأضمرت فيها النيران ، وقال : من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها . قال : فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون ، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه ، فكانها تقاعست أن تقع فى النار ، فقال الصبى : اصبرى يا أمه ، فإنك على الحق » وهكذا رواه مسلم والنسائى (١) .

وقد جَوّده الإمام أبو عيسى الترمذى عن صهيب قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر

(١) المسند (٦ / ١٦) ومسلم (٣٠٠٥ / ٧٣) والنسائى فى الكبرى (١١٦٦١) .

هَمَسَ - والهَمَسُ في قول بعضهم : تحريك شفثيه كأنه يتكلم - فقيل له : إنك - يا رسول الله - إذا صليت العصر همست ؟ قال : « إن نبيا من الأنبياء ، كان أعجب بأمته فقال : من يقوم لهؤلاء ؟ . فأوحى الله إليه أن خيرهم بين أن أنتقم منهم ، وبين أن أسلط عليهم عدوهم . فاختاروا النعمة ، فسَلَطَ عليهم الموت ، فمات منهم في يوم سبعون ألفا » . قال : وكان إذا حَدَّثَ بهذا الحديث ، حَدَّثَ بهذا الحديث الآخر قال : كان ملك من الملوك ، وكان لذلك الملك كاهن تكهن له ، فقال الكاهن : انظروا لى غلاماً فهما - أو قال : فظناً لَقْنَا - فأعلمه علمى هذا . فذكر القصة بتمامها ، وقال فى آخره : « يقول الله عز وجل : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوُؤُودِ ﴾ » حتى بلغ : ﴿ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ . قال : فأما الغلام فإنه دفن قال : فيذكر أنه أخرج فى زمان عمر بن الخطاب ، وإصبعه على صُدْغِه كما وضعها حين قتل . ثم قال الترمذى : حسن غريب (١) . وهذا السياق ليس فيه صراحة أن سياق هذه القصة من كلام النبى ﷺ . قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المِزى : فيحتمل أن يكون من كلام صُهَيْبِ الرومى ، فإنه كان عنده علم من أخبار النصارى ، والله أعلم .

وقد أورد ابن إسحاق بن يسار هذه القصة فى السيرة بسياق آخر، فيها مخالفة لما تقدم فقال: حدثنى يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القُرْظى - وحدثنى أيضاً بعض أهل نجران ، عن أهلها : أن أهل نجران كانوا أهل شرك يعبدون الأوثان ، وكان فى قرية من قرأها قريباً من نجران - ونجران هى القرية العظمى التى إليها جماعُ أهل تلك البلاد - ساحرٌ يعلم غلمان أهل نجران السحر ، فلما نزلها فيمُون - ولم يسموه لى بالاسم الذى سماه ابن منبه ، قالوا : رجل نزلها - ابنتى خيمة بين نجران وبين تلك القرية التى فيها الساحر ، وجعل أهل نجران يرسلون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر ، فبعث الثامر ابنه عبد الله بن الثامر مع غلمان أهل نجران ، فكان إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من عبادته وصلاته ، فجعل يجلس إليه ويسمع منه ، حتى أسلم فوحد الله وعبده، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام حتى إذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم، وكان يعلمه ، فكتمه إياه وقال له : يا ابن أخى، إنك لن تحمله؛ أخشى ضعفك عنه . والثامر أبو عبد الله لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان ، فلما رأى عبد الله أن صاحبه قد ضن به عنه ، وتخوف ضعفه فيه ، عمد إلى أقذاح فجمعها ، ثم لم يبق لله اسماً يعلمه إلا كتبه فى قَدْحٍ ، وكل اسم فى قَدْحٍ ، حتى إذا أحصاها أوقد ناراً ثم جعل يقذفها فيها قَدْحاً قَدْحاً ، حتى إذا مر بالاسم الأعظم قذف فيها بقَدْحِه ، فوثب القَدْحُ حتى خرج منها لم يضره شيء ، فأخذه ثم أتى به صاحبه فأخبره أنه قد علم الاسم الأعظم الذى كتبه فقال : وما هو ؟ قال : هو كذا وكذا . قال : وكيف علمته ؟ فأخبره بما صنع . قال : أى ابن أخى ، قد أصبته فأمسك على نفسك ، وما أظن أن تفعل .

فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحداً به ضر إلا قال : يا عبد الله ،

أتوحدُ الله وتدخلُ في ديني وأدعو الله لك فيعافيكَ مما أنت فيه من البلاء؟ فيقول: نعم .
 فيوحد الله ويسلم، فيدعو الله له فيشفي ، حتى لم يبق بنجران أحد به ضر إلا آتاه ، فاتبعه
 على أمره ودعا له فعوفى ، حتى رُفِع شأنه إلى ملك نجران ، فدعاه فقال له: أفسدت على أهل
 قريتي ، وخالفت ديني ودين آبائي ، لأمثلنَّ بك . قال: لا تقدر على ذلك . قال: فجعل يرسل
 به إلى الجبل الطويل ، فيطرح على رأسه ، فيقع إلى الأرض ما به بأس ، وجعل يبعث به إلى
 مياه نجران ، ببحور لا يلقى فيها شيء إلا هلك ، فيلقى به فيها ، فيخرج ليس به بأس . فلما
 غلبه قال له عبد الله بن الثامر: إنك - والله - لا تقدر على قتلى حتى تُوحدَ الله فتؤمن بما آمنت
 به ، فإنك إن فعلت سلطتَ على ققتلتني . قال: فوحدَ الله ذلك الملك ، وشهد شهادة عبد الله
 ابن الثامر ، ثم ضربه بعصا في يده فشجه شجة غير كبيرة ، فقتله ، وهلك الملك مكانه .
 واستجمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر - وكان على ما جاء به عيسى ابن مريم ، عليه
 السلام ، من الإنجيل وحكمه - ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث ، فمن هنالك
 كان أصل دين النصرانية بنجران .

قال ابن إسحاق : فهذا حديث محمد بن كعب القرظي وبعض أهل نجران عن عبد الله بن
 الثامر ، والله أعلم أي ذلك كان . قال : فسار إليهم ذو نواس بجنده ، فدعاهم إلى اليهودية ،
 وخيّرهم بين ذلك أو القتل ، فاخترأوا القتل ، فخذ الأخدود ، فحرق بالنار وقتل بالسيف
 ومثل بهم ، حتى قتل منهم قريباً من عشرين ألفاً ، ففى ذى نواس وجنده أنزل الله ، عز
 وجل ، على رسوله ﷺ : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَىٰ مَا
 يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ
 عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

هكذا ذكر ابن إسحاق في السيرة أن الذي قتل أصحاب الأخدود هو ذو نواس ، واسمه :
 زرعة ، ويسمى في زمان مملكته بيوسف ، وهو ابن تَبَّان أسعد أبي كَرَب ، وهو تبع الذي غزا
 المدينة وكسى الكعبة ، واستصحب معه حبرين من يهود المدينة ، فكان تَهَوَّد من تَهَوَّد من أهل
 اليمن على يديهما ، كما ذكره ابن إسحاق مبسوطاً ، فقتل ذو نواس في غداة واحدة في الأخدود
 عشرين ألفاً ، ولم ينج منهم سوى رجل واحد يقال له : دوس ذو ثعلبان ، ذهب فارساً ،
 وطرَدُوا وراءه فلم يُقدَّر عليه ، فذهب إلى قيصر ملك الشام ، فكتب إلى النجاشي ملك الحبشة ،
 فأرسل معه جيشاً من نصارى الحبشة يقدمهم أرباط وأبرهة ، فاستنقذوا اليمن من أيدي اليهود ،
 وذهب ذو نواس هارباً فَلَجَّج في البحر ، فغرق . واستمر مُلْكُ الحبشة في أيدي النصارى سبعين
 سنة ، ثم استنقذه سيف بن ذى يزن الحميري من أيدي النصارى ، لما استجاش بكسرى ملك
 الفرس ، فأرسل معه من فى السجون ، وكانوا قريباً من سبعمائة ، ففتح بهم اليمن ، ورجع
 الملك إلى حمير . وسنذكر طرفاً من ذلك - إن شاء الله - فى تفسير سورة : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ

رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ .

وقال ابن إسحاق : وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أنه حدث : أن رجلاً من أهل نجران كان في زمان عمر بن الخطاب ، حَفَرَ خَرَبَةً من خَرِبِ نَجْرَانَ لبعض حاجته ، فوجد عبد الله بن الثامر تحت دَفْنٍ فيها قاعدا ، واضعا يده على ضربة في رأسه ، ممسكا عليها بيده ، فإذا أخذت يده عنها تُعَبْتُ دما ، وإذا أرسلت يده رُدَّتْ عليها ، فأمسكت دهما ، وفي يده خاتم مكتوب فيه : ربى الله .

فكُتِبَ فيه إلى عمر بن الخطاب يخبره بأمره ، فكتب عمر إليهم : أن أقرّوه على حاله ، ورددوا عليه الدفن الذي كان عليه . ففعلوا (١) .

وقد قال أبو بكر بن أبي الدنيا عن بعض أهل العلم : إن أبا موسى لما افتتح أصبهان وجد حائطا من حيطان المدينة قد سقط ، فبناه فسقط ، ثم بناه فسقط ، فقيل له : إن تحتة رجلاً صالحاً . فحفر الأساس فوجد فيه رجلاً قائماً معه سيف ، فيه مكتوب : أنا الحارث بن مضاض ، نقتم على أصحاب الأخدود . فاستخرجه أبو موسى ، وبني الحائط ، فثبت .

قلت : هو الحارث بن مضاض بن عمرو بن مضاض بن عمرو الجرهمي ، أحد ملوك جرهم الذين ولوا أمر الكعبة بعد ولد نبت بن إسماعيل بن إبراهيم ، وكلد الحارث هذا هو : عمرو بن الحارث بن مضاض هو آخر ملوك جرهم بمكة ، لما أخرجتهم خزاعة وأجلوهم إلى اليمن ، وهو القائل في شعره الذي قال ابن هشام إنه أول شعر قاله العرب :

كَأَن لَّمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجُّونِ إِلَى الصَّفَا أَنَيْسٌ ، وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرٌ
بَلَى ، نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فَأَبَادَنَا صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالْجُدُودُ الْعَوَائِرُ

وهذا يقتضى أن هذه القصة كانت قديما بعد زمان إسماعيل ، عليه السلام ، بقرب من خمسمائة سنة أو نحوها ، وما ذكره ابن إسحاق يقتضى أن قصتهم كانت في زمان الفترة التي بين عيسى ومحمد ، عليهما من الله السلام ، وهو أشبه ، والله أعلم . وقد يحتمل أن ذلك قد وقع في العالم كثيراً .

وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أى : حرّقوا . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن أبيزى . ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ﴾ أى : لم يقلعوا عما فعلوا ، ويندموا على ما أسلفوا . ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ ، وذلك أن الجزاء من جنس العمل .

قال الحسن البصرى : انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أوليائه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يَدْعُو وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أُنثِقُ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين أن ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ .

ثم قال : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ أى : إن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره لشديد عظيم قوى ؛ فإنه تعالى ذو القوة المتين ، الذى ما شاء كان كما يشاء فى مثل ملح البصر ، أو هو أقرب ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ يَدْعُو وَيُعِيدُ ﴾ أى : من قوته وقدرته التامة يبدئ الخلق ثم يعيده كما بدأه ، بلا ممانع ولا مدافع ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ أى : يغفر ذنب من تاب إليه وخضع لديه ، ولو كان الذنب من أى شىء كان . و﴿ الْوَدُودُ ﴾ - قال ابن عباس وغيره : هو الحبيب ، ﴿ ذُو الْعَرْشِ ﴾ أى : صاحب العرش العظيم العالى على جميع الخلائق . و﴿ الْمَجِيدُ ﴾ فيه قراءتان : الرفع على أنه صفة للرب ، عز وجل . والجر على أنه صفة للعرش ، وكلاهما معنى صحيح . ﴿ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ أى : مهما أراد فعله ، لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل ؛ لعظمته وقهره وحكمته وعدله ، كما روينا عن أبى بكر الصديق أنه قيل له - وهو فى مرض الموت : هل نظر إليك الطبيب ؟ قال : نعم . قالوا : فما قال لك ؟ قال : قال لى : إنى فعال لما أريد .

وقوله : ﴿ هَلْ أُنثِقُ حَدِيثُ الْجُنُودِ . فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ أى : هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس ، وأنزل عليهم من العقوبة التى لم يردّها عنهم أحد ؟ وهذا تقرير لقوله : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ أى : إذا أخذ الظالم أخذه أخذاً أليماً شديداً ، أخذ عزيز مقتدر . وقوله : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴾ أى : هم فى شك وريب وكفر وعناد ، ﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ أى : هو قادر عليهم ، قاهر لا يفوتونه ولا يعجزونه ، ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ﴾ أى : عظيم كريم ، ﴿ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ أى : هو فى الملائكة الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل . وقال الحسن البصرى : إن هذا القرآن المجيد عند الله فى لوح محفوظ ، ينزل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه .

تفسير سورة الطارق

وهي مكية

روى عبد الله ابن الإمام أحمد عن خالد بن أبي جبل العُدَوَانِي : أنه أبصر رسول الله ﷺ في مُشْرِقٍ ثَقِيفٍ وهو قائم على قوس - أو : عصا - حين أتاهم بيتغى عندهم النصر ، فسمعتة يقول : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ ، حتى ختمها - قال : فوعيتها في الجاهلية وأنا مشرك ، ثم قرأتها في الإسلام - قال : فدعنتي ثقيف فقالوا: ماذا سمعت من هذا الرجل ؟ فقرأتها عليهم ، فقال من معهم من قريش : نحن أعلم بصاحبنا ، لو كنا نعلم ما يقول حقا لاتبعناه (١) . وروى النسائي عن جابر قال : صلى معاذ المغرب ، فقرأ البقرة والنساء ، فقال النبي ﷺ : « أفتان يا معاذ ؟ ما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق ، والشمس وضحاها ، ونحو هذا ؟ » (٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النُّجُومِ الثَّاقِبِ ﴿٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيَّهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجِيمٍ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَالْهُمُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ ﴾

يقسم تعالى بالسماء وما جعل فيها من الكواكب النيرة ؛ ولهذا قال : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ ثم قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ ، ثم فسره بقوله : ﴿ النُّجُومِ الثَّاقِبِ ﴾ . قال قتادة وغيره : إنما سمى النجم طارقاً ؛ لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار . ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح : نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً (٣) ، أى : يأتيهم فجأة بالليل .

وقوله : ﴿ الثَّاقِبِ ﴾ قال ابن عباس : المضىء . وقال السدى : يثقب الشياطين إذا أرسل عليها . وقال عكرمة : هو مضىء ومحرق للشيطان .

وقوله : ﴿ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيَّهَا حَافِظٌ ﴾ أى : كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات ، كما قال تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [العد: ١١] . وقوله : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ : تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذى خلق منه ، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد ؛ لأن من قدر على البداء فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى ، كما قال :

(١) المسند (٤ / ٣٣٥) وقال الهيثمى فى الزوائد (٧ / ١٣٩) : « عبد الرحمن ذكره ابن أبى حاتم ولم يجرحه أحد وبقيته رجاله ثقات » .

(٢) النسائي فى الكبرى (١١٦٦٤) ، ورواه البخارى (٧٠٥) بلفظ قريب منه .

(٣) البخارى (٥٢٤٣) .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧] . وقوله : ﴿ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ يعنى : المنى ؛ يخرج دَفَقاً من الرجل ومن المرأة ، فيتولد منهما الولد بإذن الله ، عز وجل ؛ ولهذا قال : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ يعنى : صلب الرجل وترائب المرأة ، وهو صدرها . وعن ابن عباس : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ : صلب الرجل وترائب المرأة ، أصفر رقيق ، لا يكون الولد إلا منهما . وكذا قال سعيد بن جبَّير ، وعكرمة ، وقتادة والسُدِّي ، وغيرهم . وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ قال : هذه الترائب . ووضع يده على صدره . وقال الضحَّاك وعطية ، عن ابن عباس : تربية المرأة موضع القلادة . وكذا قال عكرمة ، وسعيد ابن جبَّير . وقال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : الترائب : بين ثديها . وعن مجاهد : الترائب ما بين المنكبين إلى الصدر . وعنه أيضا : الترائب أسفل من التراقي . وعن قتادة : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ : من بين صلبه ونحره .
وقوله : ﴿ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : على رجوع هذا الماء الدافق إلى مقره الذى خرج منه لقادر على ذلك . قاله مجاهد ، وعكرمة ، وغيرهما .

والقول الثانى : إنه على رجوع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق ، أى : إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر ؛ لأن من قدر على البدء قدر على الإعادة .

وقد ذكر الله ، عز وجل ، هذا الدليل فى القرآن فى غير ما موضع ، وهذا القول قال به الضحَّاك ، واختاره ابن جرير ، ولهذا قال : ﴿ يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ أى : يوم القيامة تبلى فيه السرائر ، أى : تظهر وتبدو ، ويبقى السر علانية والمكنون مشهورا . وقد ثبت فى الصحيحين ، عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : « يرفع لكل غادر لواء عند استه ، يقال : هذه غَدْرَةٌ فلان بن فلان » (١) .

وقوله : ﴿ فَمَأَلَهُ ﴾ أى : الإنسان يوم القيامة ﴿ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ أى : فى نفسه ﴿ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ أى : من خارج منه ، أى : لا يقدر على أن ينقذ نفسه من عذاب الله ، ولا يستطيع له أحد ذلك .

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۗ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّلْوٰعِ ۗ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٢﴾ وَمَا هُوَ بِأَلْمَزَلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَآكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلِكُ الْكٰفِرِينَ أَمْهَاتِهِمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ﴾

قال ابن عباس : الرجوع : المطر . وعنه : هو السحاب فيه المطر . وعنه : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴾ : تمطر ثم تمطر . وقال قتادة : ترجع رزق العباد كل عام ، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم . وقال ابن زيد : ترجع نجومها وشمسها وقمرها ، يأتين من هاهنا . ﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ

الصدع ﴿ قال ابن عباس : هو انصداعها عن النبات . وكذا قال سعيد بن جببر ، وعكرمة ، وقتادة ، وغير واحد .

وقوله : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴾ : قال ابن عباس : حق . وكذا قال قتادة . وقال آخر : حكم عدل . ﴿ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ أى : بل هو حق جد .

ثم أخبر عن الكافرين بأنهم يكذبون به ويصدون عن سبيله ، فقال : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾ أى : يمكرون بالناس فى دعوتهم إلى خلاف القرآن . ثم قال : ﴿ فَمَهَلِ الْكَافِرِينَ ﴾ أى : أنظرهم ولا تستعجل لهم ، ﴿ أَمْ هَلُمُّهُمْ رُوَيْدًا ﴾ أى : قليلا . أى : وترى ماذا أحل بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك ، كما قال : ﴿ نَمَتَّهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّضَهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [لقمان: ٢٤] .

تفسير سورة سبح

وهي مكة

والدليلُ على ذلك ما رواه البخارى عن البراء بن عازب قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير وابنُ أم مكتوم ، فجعلنا يُقرئنا القرآن . ثم جاء عمار وبلال وسعد . ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين . ثم جاء النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به ، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون : هذا رسول الله ﷺ قد جاء ، فما جاء حتى قرأت : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ فى سورٍ مثلها (١) . وثبت فى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى » (٢) . وروى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير : أن رسول الله ﷺ قرأ فى العيدين بـ ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ، و ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ ، وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعاً . وقد رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ، وابن ماجه ، ولفظ مسلم وأهل السنن : كان يقرأ فى العيدين ويوم الجمعة بـ ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ، و ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ ، وربما اجتمعا فى يوم واحد فقرأهما (٣) . وقد روى الإمام أحمد فى مسنده من حديث أبى بن كعب ، وعبد الله ابن عباس ، وعبد الرحمن ابن أبزى ، وعائشة أم المؤمنين : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى الوتر بـ ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ، و ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ، و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ - زادت عائشة : والمعوذتين (٤) . وهكذا روى هذا الحديث من طريق جابر وأبى أمامة صدق بن عجلان ، وعبد الله بن مسعود ، وعمران بن حصين ، وعلى بن أبى طالب ، ولولا خشية الإطالة لأوردنا ما تيسر من أسانيد ذلك ومتونه ولكن فى الإرشاد بهذا الاختصار كفاية ، والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ٣ وَالَّذِي أخرج
الْمَرْعى ٤ فَجَعَلَهُ غنَاءً أَحْوَى ٥ سُبْحٰنَكَ فَلَا تَسْبُو ٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا
يَخْفَى ٧ وَيَسْرُكُ لِلْيَسْرَى ٨ فَذَكِّرْ لِن نَفَعَتِ الذِّكْرَى ٩ سَيَذَكِّرْ مَنْ يَخْشَى ١٠
وَيَنْجِيئَهَا الْأَشْقَى ١١ الَّذِي يَصَلَّى النَّارَ الْكُبْرَى ١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ١٣ ﴿

ربع

(٢) البخارى (٥٠٧) ومسلم (٤٦٥ / ١٧٨) .

(١) البخارى (٤٩٤١) .

(٣) المسند (٤ / ٢٧١) ومسلم (٦٢ / ٨٧٨) وأبو داود (١١٢٢) والترمذى (٥٣٣) والنسائى (١٥٦٨) وابن ماجه (١٢٨١) .

(٤) المسند (٥ / ١٢٣) عن أبى ، (٢٧٢٠) عن ابن عباس ، (٤٠٦ / ٣) عن ابن أبزى ، (٢٢٧ / ٦) عن عائشة .

وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده صحيح » .

عن عبد خير قال : سمعت علياً قرأ : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ، فقال : سبحان ربي الأعلى . وروى ابن جرير : أن ابن عباس كان إذا قرأ : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ، يقول : سبحان ربي الأعلى ، وإذا قرأ : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [القيامة: ١] فأتى على آخرها : ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ [القيامة: ٤٠] يقول : سبحانك وبلى (١) .

وقوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ أى : خلق الخليقة وسوّى كل مخلوق فى أحسن الهيئات . وقوله : ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ قال مجاهد : هدى الإنسان للشقاوة والسعادة ، وهدى الأنعام لمراعاتها . وهذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لفرعون : ﴿ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه: ٥٠] أى : قدر قادراً ، وهدى الخلائق إليه ، كما ثبت فى صحيح مسلم ، عن عبد الله بن عمرو : أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله قَدَّرَ مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » (٢) .

وقوله : ﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ أى : من جميع صنوف النباتات والزررع ، ﴿ فَجَعَلَهُ غَثَاءً أَحْوَى ﴾ قال ابن عباس : هشيمًا متغيرًا . وعن مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد ، نحوه .
وقوله : ﴿ سَنُقَرِّبُكَ ﴾ أى : يا محمد ﴿ فَلَا تَنْسَى ﴾ . وهذا إخبار من الله ، عز وجل ، ووعد منه له ، بأنه سيرثه قراءة لا ينساها ، ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ . وهذا اختيار ابن جرير . وقال قتادة : كان رسول الله ﷺ لا ينسى شيئاً إلا ما شاء الله . وقيل : المراد بقوله : ﴿ فَلَا تَنْسَى ﴾ : طلب ، وجعل معنى الاستثناء على هذا ما يقع من النسخ ، أى : لا تنسى ما نقرئك إلا ما شاء الله رفعة ؛ فلا عليك أن تتركه . وقوله : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴾ أى : يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم ، لا يخفى عليه من ذلك شيء . وقوله : ﴿ وَنُنَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴾ أى : نسهل عليك أفعال الخير وأقواله ، ونشرع لك شرعاً سهلاً مستقيماً عدلاً ، لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر .

وقوله : ﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ أى : ذكّر حيث تنفع التذكرة . ومن هاهنا يؤخذ الأدب فى نشر العلم ، فلا يضعه عند غير أهله ، كما قال أمير المؤمنين على : ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم . وقال : حدثت الناس بما يعرفون ، أحببون أن يكذب الله ورسوله؟! وقوله : ﴿ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ أى : سيتعظ بما تبلغه - يا محمد - من قلبه يخشى الله ويعلم أنه ملاقيه ، ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى . الَّذِي يَصَلَّى النَّارَ الْكُبْرَى . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ أى : لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه ، بل هى مضرة عليه ؛ لأن بسببها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب ، وأنواع النكال . روى الإمام أحمد عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « أما أهل النار الذين هم أهلها لا يموتون ولا يحيون ، وأما أناس يريد الله بهم الرحمة فيميتهم فى النار فيدخل عليهم الشفعاء ، فيأخذ الرجل أنصاره فينبتهم - أو قال : ينبتون - فى نهر الحياء -

أو قال: الحياة - أو قال: الحيوان - أو قال: نهر الجنة فينبتون - نبات الحبة في حميل السيل .
قال : وقال النبي ﷺ : « أما ترون الشجرة تكون خضراء ، ثم تكون صفراء أو قال : تكون صفراء ثم تكون خضراء ؟ » . قال : فقال بعضهم : كأن النبي ﷺ كان بالبادية (١) .

وروى أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « أما أهل النار الذين هم أهلها ، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن أناس - أو كما قال - تصيبهم النار بذنوبهم - أو قال : بخطاياهم - فيميتهم إماتة ، حتى إذا صاروا فحماً أذن في الشفاعة ، فجىء بهم ضبائر ضبائر ، فنبتوا على أنهار الجنة ، فيقال : يا أهل الجنة ، اقبضوا عليهم . فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل » . قال : فقال رجل من القوم حينئذ : كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية .
ورواه مسلم (٢) . ورواه أحمد أيضاً عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ قال : « إن أهل النار الذين لا يريد الله إخراجهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، وإن أهل النار الذين يريد الله إخراجهم يميتهم فيها إماتة ، حتى يصيروا فحماً ، ثم يخرجون ضبائر فيلقون على أنهار الجنة ، فيرش عليهم من أنهار الجنة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل » (٣) .

وقد قال الله إخباراً عن أهل النار: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ ﴾ [الزخرف: ٧٧] ، وقال تعالى: ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر: ٣٦] . إلى غير ذلك من الآيات في هذا المعنى .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ ١٤ ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ ١٥ ﴿ بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ١٦ ﴿ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ ١٧ ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ ١٨ ﴿ صُحُفٍ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ١٩ ﴿ وَمُوسَى ﴾ ٢٠

يقول تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ أى: طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة ، وتابع ما أنزل الله على الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ أى: أقام الصلاة فى أوقاتها ؛ ابتغاء رضوان الله وطاعة لأمر الله وامتنالاً لشرع الله . وكذا قال ابن عباس: إن المراد بذلك الصلوات الخمس . واختاره ابن جرير . وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كان يأمر الناس بإخراج صدقة الفطر ، ويتلو هذه الآية ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ . وذكّر اسم ربّه فصلّى .
وقال أبو الأحوص : إذا أتى أحدكم سائل وهو يريد الصلاة ، فليقدم بين يدي صلواته زكاته ، فإن الله يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ . وذكّر اسم ربّه فصلّى . وقال قتادة فى هذه الآية ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴾ . وذكّر اسم ربّه فصلّى : زكى ماله وأرضى خالقه .

ثم قال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى : تقدمونها على أمر الآخرة ، وتبدونها على

(١) المسند (٥/٣) وابن ماجه (٤٣٠٩) ، وصححه الالبانى .

(٢) المسند (١١/٣) ومسلم (٣٠٦/١٨٥) . (٣) المسند (٢٠/٣) ومسلم (٣٠٦/١٨٥) .

ما فيه نفعكم وصلاحكم ومعادكم ، ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أى : ثواب الله فى الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى ، فإن الدنيا دنية فانية ، والآخرة شريفة باقية ، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى ، ويهتم بما يزول عنه قريبا ، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد !؟ روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدنيا دارٌ من لا دارَ له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » (١) . وروى ابن جرير عن عرفة الشقفي قال : استقرأت ابن مسعود : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ فلما بلغ : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ترك القراءة ، وأقبل على أصحابه وقال : آثرنا الدنيا على الآخرة . فسكت القوم ، فقال : آثرنا الدنيا لأننا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها ، وزويت عنا الآخرة فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل (٢) . وهذا منه على وجه التواضع والهضم ، أو هو إخبار عن الجنس من حيث هو ، والله أعلم . وقد روى الإمام أحمد عن أبى موسى الأشعري : أن رسول الله ﷺ قال : « من أحب ديناه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فأثروا ما يبقى على ما يفنى » . تفرد به أحمد (٣) .

وقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ روى الحافظ أبو بكر البزار عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ قال النبي ﷺ : « كان كل هذا - أو : كان هذا - فى صحف إبراهيم وموسى » (٤) . ثم قال : لا نعلم أسند الثقات عن عطاء بن السائب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس غير هذا ، وحديثا آخر أورده قبل هذا . وروى النسائي عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ قال : كلها فى صحف إبراهيم وموسى ، فلما نزلت : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [النجم : ٣٧] قال : وفى ﴿ أَلَا تَنْزُرُ وَازِرَةً وَّرَزْرَ أُخْرَى ﴾ [النجم : ٣٨] (٥) . يعنى أن هذه الآية كقوله فى سورة « النجم » : ﴿ أَمْ لَمْ يَبَيِّنْ بَمَا فِي صُحُفِ مُوسَى . وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى . أَلَا تَنْزُرُ وَازِرَةً وَّرَزْرَ أُخْرَى . وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يَرَى . ثُمَّ يُجْرَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى . وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ [النجم : ٣٦ : ٤٢] . . . الآيات إلى آخرهن . وقال أبو العالية : قصة هذه السورة فى الصحف الأولى . واختار ابن جرير أن المراد بقوله : ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ إشارة إلى قوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى . بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ ، ثم قال : ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أى : مضمون هذا الكلام ﴿ لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ (٦) . وهذا اختيار حسن قوى . وقد روى عن قتادة وابن زيد ، نحوه . والله أعلم .

(١) المسند (٧١/٦) وقال الهيثمى فى الزوائد (٢٩١/١٠) : « رجاله رجال الصحيح غير دويد وهو ثقة » .

(٢) ابن جرير فى التفسير (١٠٠/٣٠) .

(٣) المسند (٤١٢/٤) وقال الهيثمى فى الزوائد (٢٥٢/١٠) : « رواه أحمد والبزار والطبرانى ورجالهم ثقات » .

(٤) البزار فى المسند (٢٢٨٥ كشف الأستار) وقال الهيثمى فى الزوائد (١٤٠/٧) : « فيه عطاء بن السائب وقد اختلط ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٥) النسائي فى الكبرى (١١٦٦٨) ، والحاكم فى المستدرک (٤٧٠/٢) وقال : « حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي .

(٦) ابن جرير فى التفسير (١٠١/٣٠) .

تفسير سورة الغاشية

وهي مكية

قد تقدم عن النعمان بن بشير: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، والغاشية في صلاة العيد ويوم الجمعة (١). وروى الإمام مالك: أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير: بم كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة؟ قال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾. ورواه أبو داود والنسائي. ورواه مسلم وابن ماجه (٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وَجُوهُ يَوْمٍ ذُرِّيَعُ ﴿٢﴾ خَشِيعَةٌ ﴿٣﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٤﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٥﴾ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ عَائِيَةٍ ﴿٦﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيْعٍ ﴿٧﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٨﴾ ﴾

الغاشية: من أسماء يوم القيامة. قاله ابن عباس، وقتادة، وابن زيد؛ لأنها تغشى الناس وتعمهم.

وقوله: ﴿ وَجُوهُ يَوْمٍ ذُرِّيَعُ ﴾ أى: ذليلة. قاله قتادة. وقال ابن عباس: تخشع ولا ينفعها عملها.

وقوله: ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾ أى: قد عملت عملاً كثيراً، ونصبت فيه، وصليت يوم القيامة ناراً حامية. وقال البخارى: قال ابن عباس: ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾: النصارى. وعن عكرمة، والسدى: ﴿ عَامِلَةٌ ﴾ فى الدنيا بالمعاصى ﴿ نَاصِبَةٌ ﴾ فى النار بالعذاب والأغلال. قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: ﴿ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴾ أى: حارة شديدة الحر ﴿ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ عَائِيَةٍ ﴾ أى: قد انتهت حرها وغليانها. قاله ابن عباس، ومجاهد، والحسن، والسدى.

وقوله: ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيْعٍ ﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: شجر من نار. وقال سعيد بن جبیر: هو الزقوم. وعنه: أنها الحجارة. وقال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو الجوزاء، وقتادة: هو الشبرق. قال قتادة: قريش تسميه فى الربيع: الشبرق، وفى الصيف: الضريع. قال عكرمة: وهو شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض. وقال البخارى: قال مجاهد:

(١) مضى تخريجه فى أول سورة الأعلى.

(٢) مالك فى الموطأ (١/١١١) وأبو داود (١١٢٣) والنسائي (١٤٢٣) ورواه مسلم (٨٧٨/٦٢) وابن ماجه (١١١٩).

الضريعُ نبتٌ يقال له: الشَّيرُقُ ، يسميه أهل الحجاز : الضريعَ إذا يبس ، وهو سم (١). وقوله : ﴿ لَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ يعني : لا يحصل به مقصود ، ولا يندفع به محذور .

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لَسَعِيَهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَفِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾

لما ذكر حال الأشقياء ، نثى بذكر السعداء فقال : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ نَاعِمَةٌ ﴾ أى : يعرف النعيم فيها . وإنما حصل لها ذلك بسعيها . وقال سفيان : ﴿ لَسَعِيَهَا رَاضِيَةٌ ﴾ : قد رضيت عملها .

وقوله : ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أى : ربيعة بهية فى الغرفات آمنون ، ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَافِيَةً ﴾ أى : لا تسمع فى الجنة التى هم فيها كلمة لغو . كما قال : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ﴾ [مريم: ٦٢] ، وقال : ﴿ لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ ﴾ [الطور: ٢٣] ، وقال : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ [الواقعة: ٢٥ ، ٢٦] . ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ أى : سارحة . وهذه نكرة فى سياق الإثبات ، وليس المراد بها عينا واحدة ، وإنما هذا جنس ، يعنى : فيها عيون جاريات . عن أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ : « أنهار الجنة تفجر من تحت تلال - أو : من تحت جبال - المسك » (٢) . ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴾ أى : عالية ناعمة كثيرة الفرش ، مرتفعة السمك ، عليها الحور العين ﴿ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ يعنى : أوانى الشرب معدة مرصدة لمن أَرادها من أربابها ، ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾ قال ابن عباس : النمارق : الروسائد . وكذا قال عكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، والسدى ، والثورى ، وغيرهم . وقوله : ﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ قال ابن عباس : الزرابى : البسط . وكذا قال الضحاك ، وغير واحد . ومعنى مَبْثُوثَةٌ ، أى : هاهنا وهاهنا لمن أَراد الجلوس عليها .

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فِعَذْبَةُ اللَّهِ الْعَذَابُ الْأَكْبَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول تعالى أمراً عباده بالنظر فى مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ ؟ فإنها خلق عجيب ، وتركيبها غريب ، فإنها فى غاية القوة والشدة ، وهى مع ذلك تلين للحمل الثقيل ، وتنقاد للقائد الضعيف ، وتؤكل ، ويتنفع بوبرها ، ويشرب

لبنها . ونهبوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل ، وكان شريح القاضى يقول :
إخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ؟ أى : كيف رفعها
الله ، عز وجل ، عن الأرض هذا الرفع العظيم ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ
فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ [ق : ٦] .

﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نَصَبْنَا ﴾ أى : جعلت منصوبة قائمة ثابتة راسية لثلا تميد الأرض بأهلها ،
وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن . ﴿ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِّعَتْ ﴾ أى : كيف بسطت
ومدت ومهدت ، فنبه البدوى على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذى هو راكب عليه ،
والسماء التى فوق رأسه ، والجبل الذى تجاهه ، والأرض التى تحته - على قدرة خالق ذلك
وصانعه ، وأنه الرب العظيم الخالق المتصرف المالك ، وأنه الإله الذى لا يستحق العبادة سواه .
وهكذا أقسم « ضمام » فى سؤاله على رسول الله ﷺ ، كما رواه الإمام أحمد عن أنس قال :
كنا نهيئ أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء ، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية
العاقل فيسأله ونحن نسمع ، فجاء رجل من أهل البادية فقال : يا محمد ، إنه أتانا رسولك
فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك . قال : « صدق » . قال : فمن خلق السماء ؟ قال : « الله » .
قال : فمن خلق الأرض ؟ قال : « الله » . قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟
قال : « الله » . قال : فبالذى خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال ، أله أرسلك ؟ قال :
« نعم » . قال : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات فى يومنا وليلتنا . قال : « صدق » .
قال : فبالذى أرسلك ، أله أمرك بهذا ؟ قال : « نعم » . قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة
فى أموالنا ؟ قال : « صدق » . قال : فبالذى أرسلك ، أله أمرك بهذا ؟ قال : « نعم » . قال :
وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا . قال : « صدق » . قال : ثم ولى
فقال : والذى بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن شيئا . فقال النبى ﷺ : « إن صدق
ليدخلن الجنة » . وقد رواه مسلم ، وعلقه البخارى ، ورواه الترمذى والنسائى (١) . ورواه الإمام
أحمد والبخارى وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن أنس ، به بطوله ، وقال فى آخره : « وأنا
ضمام بن ثعلبة أخو بنى سعد بن بكر » (٢) .

وقوله : ﴿ فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ أى : فذكر - يا محمد - الناس بما
أرسلت به إليهم ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ؛ ولهذا قال : ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ قال
ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهما : لست عليهم بجبار . وقال ابن زيد : لست بالذى تكرههم
على الإيمان . وروى الإمام أحمد عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس
حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم

(١) المسند (١٤٣/٣) ومسلم (١٠/١٢) . ورواه البخارى (١٤٨/١) فتح والترمذى (٦١٩) والنسائى فى الكبرى
(٢٤٠١) .

(٢) المسند (١٦٨/٣) والبخارى (٦٣) وأبو داود (٤٨٦) والنسائى فى الكبرى (٢٤٠٢) وابن ماجه (١٤٠٢) .

على الله عز وجل . ثم قرأ : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ . وهكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى بهذه الزيادة (١) . وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين من رواية أبى هريرة ، بدون ذكر هذه الآية (٢) .

وقوله : ﴿ إِنْ مِنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾ أى : تولى عن العمل بأركانه ، وكفر بالحق بجنانه ولسانه . وهذه كقوله : ﴿ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى . وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ [القيامة : ٣١ ، ٣٢] . ولهذا قال : ﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾ . روى الإمام أحمد : أن أبا أمامة الباهلى مرَّ على خالد بن يزيد بن معاوية ، فسأله عن ألين كلمة سمعها من رسول الله ﷺ ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا كلكم يدخل الجنة ، إلا من شرَّد على الله شرَّاد البعير على أهله » . تفرد بإخراجه الإمام أحمد (٣) . وقوله : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ ﴾ أى : مرجعهم ومنقلبهم ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ أى : نحن نحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم بها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

(١) المسند (٣/٣٠٠) ومسلم (٣٣/٢١) والترمذى (٣٣٤١) والنسائى فى الكبرى (١١٦٧٠) .

(٢) البخارى (٢٩٤٦) ومسلم (٣٤/٢١) .

(٣) المسند (٥/٢٥٨) ، وقال الهيثمى فى الزوائد (١٠/٤٠٦) : « رجاله رجال الصحيح غير على بن خالد الدولى وهو ثقة » .

تفسير سورة الفجر

وهي مكية

روى النسائي عن جابر قال : صلى معاذ صلاةً ، فجاء رجل فصلى معه فطَوَّل ، فصلى في ناحية المسجد ثم انصرف ، فبلغ ذلك معاذًا فقال : منافق . فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل الفتى ، فقال : يا رسول الله ، جئت أصلي معه فطَوَّل عَلَيَّ ، فانصرفت واصلتُ في ناحية المسجد ، فعلقت ناضحى . فقال رسول الله ﷺ : « أَفَتَأْنِ يا معاذ ؟ أين أنت منِ ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ و ﴿ الشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ و ﴿ الْفَجْرِ ﴾ و ﴿ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ » (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْفَجْرِ ١ ﴾ وَلَيْلٍ عَشْرِ ٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣ وَأَيُّ لَيْلٍ إِذَا يَسِرُّ ٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِمَادِ ٦ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ٨ وَتُمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ ١٠ الَّذِينَ طَفَّوْا فِي الْبِلَادِ ١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ١٤ ﴿﴾

أما الفجر فمعروف ، وهو : الصبح . قاله على ، وابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والسدى . وعن مسروق ، ومجاهد ، ومحمد بن كعب : المراد به فجر يوم النحر خاصة ، وهو خاتمة الليالي العشر . وقيل : المراد بذلك الصلاة التي تفعل عنده ، كما قاله عكرمة . وقيل : المراد به جميع النهار . وهو رواية عن ابن عباس .

والليالي العشر : المراد بها عشر ذى الحجة . كما قاله ابن عباس ، وابن الزبير ، ومجاهد ، وغير واحد من السلف والخلف . وقد ثبت في صحيح البخارى ، عن ابن عباس مرفوعا : « ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام » - يعنى عشر ذى الحجة - قالوا : ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد فى سبيل الله ، إلا رجلا خرج بنفسه وماله ، ثم لم يرجع من ذلك بشيء » (٢) . وقيل : المراد بذلك العشر الأول من المحرم . والصحيح القول الأول .

وقوله : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ : قيل : الوتر يوم عرفة ، لكونه التاسع ، وأن الشفع يوم النحر لكونه العاشر . وقاله ابن عباس ، وعكرمة ، والضحاك أيضا .

قول ثان : عن واصل بن السائب قال : سألت عطاء عن قوله : ﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ قلتُ :

(٢) البخارى (٩٦٩) .

(١) النسائي فى الكبرى (١١٦٧٣) .

صلاتنا وترنا هذا ؟ قال : لا ، ولكن الشفع يوم عرفة ، والوتر ليلة الأضحى .

قول ثالث : عن عبد الله بن الزبير قال: الشفع قول الله ، عز وجل: ﴿ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ ، والوتر قوله : ﴿ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : ٢٠٣] . وفي الصحيحين من رواية أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ : « إن لله تسع وتسعين اسما ، مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » (١) .

قول رابع : قال الحسن البصرى ، وزيد بن أسلم : الخلق كلهم شفع ، ووتر ، أقسم تعالى بخلقه . وهو رواية عن مجاهد ، والمشهور عنه الأول . وقال ابن عباس : ﴿ وَالشَّفْعُ وَالْوَتْرُ ﴾ قال : الله وتر واحد ، وأتم شفع . ويقال : الشفع صلاة الغداة ، والوتر : صلاة المغرب .

قول خامس : عن مجاهد : ﴿ وَالشَّفْعُ وَالْوَتْرُ ﴾ قال : الشفع الزوج ، والوتر : الله عز وجل . وعنه : الله الوتر ، وخلقه الشفع ، الذكر والأنثى . وعنه : ﴿ وَالشَّفْعُ وَالْوَتْرُ ﴾ : كل شيء خلقه الله شفع ، السماء والأرض ، البر والبحو ، الجن والإنس ، والشمس والقمر ، ونحو هذا . ونحا مجاهد فى هذا ما ذكره فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٩] أى : لتعلموا أن خالق الأزواج واحد .

قول سادس : قال قتادة ، عن الحسن : ﴿ وَالشَّفْعُ وَالْوَتْرُ ﴾ : هو العدد ، منه شفع ومنه وتر .

قول سابع : قال أبو العالية ، والربيع بن أنس ، وغيرهما : هى الصلاة ، منها شفع كالرباعية والثنائية ، ومنها وتر كالمغرب ، فإنها ثلاث ، وهى وتر النهار . وكذلك صلاة الوتر فى آخر التهجد من الليل .

ولم يجزم ابن جرير بشيء من هذه الأقوال فى الشفع والوتر .

وقوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ قال : ابن عباس : أى إذا ذهب . وقال عبد الله بن الزبير : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ : حتى يذهب بعضه بعضا . وقال مجاهد ، وأبو العالية ، وقتادة ، ومالك ، عن زيد بن أسلم وابن زيد : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ إذا سار . وهذا يمكن حمله على ما قاله ابن عباس ، أى : ذهب . ويحتمل أن يكون المراد إذا سار ، أى : أقبل . وقد يقال : إن هذا أنسب ؛ لأنه فى مقابلة قوله : ﴿ وَالْفَجْرِ ﴾ ، فإن الفجر هو إقبال النهار وإدبار الليل ، فإذا حمل قوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ ، على إقباله كان قسماً بإقبال الليل وإدبار النهار ، وبالعكس ، كقوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَفَسَّرَ ﴾ [التكويد : ١٧ ، ١٨] . وكذا قال الضحاك : ﴿ إِذَا يَسْرِ ﴾ أى : يجرى . وقال عكرمة : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ : يعنى : ليلة جمعة . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم .

وقوله : ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ أى : لذي عقل ولب وحجا ودين ، وإنما سمي العقل حجراً لأنه يمنع الإنسان من تعاطى ما لا يليق به من الأفعال والأقوال ، ومنه حجر البيت لأنه يمنع الطائف من اللصوق بجداره الشامى . ومنه حجر اليمامة ، وحجر الحاكم على فلان : إذا منعه التصرف ، ﴿ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٢] ، كل هذا من قبيل واحد ، ومعنى متقارب ، وهذا القسم هو بأوقات العبادة ، وبنفس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب التى يتقرب بها إليه عباده المتقون المطيعون له ، الخائفون منه ، المتواضعون لديه ، الخاشعون لوجهه الكريم .

ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم قال بعده : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ ، وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين ، خارجين عن طاعته مكذبين لرسله ، جاحدين لكتبه . فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم ، وجعلهم أحاديث وعبرا ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ وهؤلاء عاد الأولى ، وهم أولاد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح ، قاله ابن إسحاق وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هوداً ، عليه السلام ، فكذبوه وخالفوه ، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم ، وأهلكهم بريح صرصر عاتية ، ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَمَلَّ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٧ ، ٨] . وقد ذكر الله قصتهم فى القرآن فى غير ما موضع ، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون . فقوله تعالى : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ : عطف بيان ؛ زيادة تعريف بهم .

وقوله : ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ : لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التى ترفع بالأعمدة الشداد ، وقد كانوا أشد الناس فى زمانهم خلقة وأقواهم بطشا ، ولهذا ذكّرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها فى طاعة ربهم الذى خلقهم ، فقال : ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصِطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ [لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ] ﴾ (١) [الاعراف: ٦٩] . وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَو لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥] ، وقال هاهنا : ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ أى : القبيلة التى لم يخلق مثلها فى بلادهم ، لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم . قال مجاهد : إرم : أمة قديمة . يعنى : عادا الأولى ، كما قال قتادة بن دعامة ، والسدى : إن إرم بيت مملكة عاد . وهذا قول حسن جيد قوى . وقال مجاهد ، وقاتدة ، والكلبي فى قوله : ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ : كانوا أهل عمود لا يقيمون . وقال ابن عباس : إنما قيل لهم : ﴿ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ لطولهم . واختار الأول ابن جرير ، ورد الثانى فأصاب .

وقوله : ﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ : أعاد ابن زيد الضمير على العماد ؛ لارتفاعها ، وقال : بنوا عمداً بالأحفاف لم يخلق مثلها فى البلاد . وأما قتادة وابن جرير فأعاد الضمير على

(١) فى المطبوعة والمخطوطة بدلها : « ولا تمثوا فى الأرض مفلسين » وهو خطأ .

القبيلة، أى : لم يخلق مثل تلك القبيلة فى البلاد ، يعنى فى زمانهم . وهذا القول هو الصواب ، وقول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف ؛ لأنه لو كان أراد ذلك لقال : التى لم يعمل مثلها فى البلاد، وإنما قال : ﴿ لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ ﴾ . قلت : فعلى كل قول سواء كانت العماد أبنية بنوها ، أو أعمدة بيوتهم للبدو ، أو سلاحا يقاتلون به ، أو طول الواحد منهم - فهم قبيلة وأمة من الأمم ، وهم المذكورون فى القرآن فى غير ما موضع ، المقرونون بشمود كما هاهنا ، والله أعلم . وقال ابن إسحاق : كانوا عربا ، وكان منزلهم بوادى القرى . وقد ذكرنا قصة « عاد » مستقصاة فى سورة « الأعراف » بما أغنى عن إعادته .

وقوله : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ قال ابن عباس : الأوتاد : الجنود الذين يشدون له أمره . ويقال : كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم فى أوتاد من حديد يعلقهم بها . وكذا قال مجاهد : كان يوتد الناس بالأوتاد . وهكذا قال سعيد بن جبير ، والحسن ، والسدى . ﴿ الَّذِينَ طَفَقُوا فِي الْبِلَادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴾ أى : تمردوا وعتوا وعاثوا فى الأرض بالإنفساد والأذى للناس ، ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أى : أنزل عليهم رجزا من السماء ، وأحل بهم عقوبة لا يردّها عن القوم المجرمين . وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبَاسِرٌ ﴾ قال ابن عباس : يسمع ويرى . يعنى : يرصد خلقه فيما يعملون ، ويجازى كلا بسعيه فى الدنيا والأخرى ، وسيعرض الخلائق كلهم عليه ، فيحكم فيهم بعدله ، ويقابل كلا بما يستحقه . وهو المنزه عن الظلم والجور .

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تَكْفُرُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْتَضِرُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿١٩﴾ وَتَحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

يقول تعالى منكراً على الإنسان فى اعتقاده إذا وسع الله عليه فى الرزق ليختبره فى ذلك ، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له وليس كذلك ، بل هو ابتلاء وامتحان . كما قال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ . نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ، ٥٦] . وكذلك فى الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنته وضيّق عليه فى الرزق ، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له . قال الله : ﴿ كَلَّا ﴾ أى : ليس الأمر كما زعم ، لا فى هذا ولا فى هذا ، فإن الله يعطى المال من يحب ومن لا يحب ، ويضيّق على من يحب ومن لا يحب ، وإنما المدار فى ذلك على طاعة الله فى كل من الحالين، إذا كان غنيا بأن يشكر الله على ذلك ، وإذا كان فقيراً بأن يصبر .

وقوله : ﴿ بَلْ لَا تَكْفُرُونَ الْيَتِيمَ ﴾ فيه أمر بالإكرام له ، وروى أبو داود عن سهل - يعنى ابن سعد - أن رسول الله ﷺ قال : « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة » . وقرن بين إصبعيه :

الوسطى والتي تلى الإبهام (١) . ﴿ وَلَا تَحْضُونَ ﴾ (٢) عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿ يعنى : لا يأمرؤن بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ، ويحث بعضهم على بعض فى ذلك ، ﴿ وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ ﴾ يعنى : الميراث ﴿ أَكْلًا لَمًّا ﴾ أى : من أى جهة حصل لهم ، من حلال أو حرام ، ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ أى : كثيراً - زاد بعضهم : فاحشا .

﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿١١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿١٢﴾ وَجِئَتْ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَاتَى لَهُ الذِّكْرَى ﴿١٣﴾ يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدِمْتُ لِحَيَاتِي ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿١٥﴾ وَلَا يُؤْتِي وَثَاقَهُ أَحَدًا ﴿١٦﴾ يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿١٧﴾ أَرْجَىٰ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْتَبِتَةً ﴿١٨﴾ فَأَدْخِلْنِي فِي عَبْدِي ﴿١٩﴾ وَأَدْخِلْنِي جَنَّتِي ﴿٢٠﴾ ﴿

يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة ، فقال : ﴿ كَلَّا ﴾ أى : حقا ﴿ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ أى : وطئت ومهدت وسويت الأرض والجبال ، وقام الخلائق من قبورهم لربهم ، ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ يعنى : لفصل القضاء بين خلقه ، وذلك بعد ما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد ﷺ ، بعدما يسألون أولى العزم من الرسل واحداً بعد واحد ، فكلهم يقول : لست بصاحب ذاكم ، حتى تنتهى التوبة إلى محمد ﷺ فيقول : « أنا لها ، أنا لها » . فيذهب فيشفع عند الله فى أن يأتى لفصل القضاء فيشفعه الله فى ذلك ، وهى أول الشفاعات ، وهى المقام المحمود كما تقدم بيانه فى سورة « سبحان » (٣) ، فيجىء الرب تعالى لفصل القضاء كما يشاء ، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً .

وقوله : ﴿ وَجِئَتْ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ : روى الإمام مسلم عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » . وهكذا رواه الترمذى (٤) . وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ ﴾ أى : عمله وما كان أسلفه فى قديم دهره وحديثه ، ﴿ وَأَتَىٰ لَهُ الذِّكْرَى ﴾ أى : وكيف تنفعه الذكرى ؟ ﴿ يَلَيْتَنِي قَدِمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ يعنى : يندم على ما كان سلف منه من المعاصى - إن كان عاصياً - ويود لو كان ازداد من الطاعات - إن كان طائعاً - كما روى الإمام أحمد بن حنبل عن محمد بن أبى عميرة - وكان من أصحاب رسول الله ﷺ - قال : لو أن عبداً خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت هراماً فى طاعة الله ، لَحَقِرَهُ يوم القيامة ، ولو دَّ أنه يُرَدُّ إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب (٥) .

(١) أبو داود (٥١٥٠) . ورواه البخارى (٦٠٠٥) .

(٢) « تحضون » : هى قراءة الجمهور ، وكذا هى قراء الحافظ ابن كثير .

(٣) عند الآية (٧٩) . (٤) مسلم (٢٨٤٢ / ٢٩) والترمذى (٢٥٧٣) .

(٥) المسند (٤ / ١٨٥) ، وصححه الهيمى فى الزوائد (١ / ٥٤) .

قال الله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴾ أى : ليس أحد أشد عذاباً من تعذيب الله من عصاه ، ﴿ وَلَا يُؤْتِيهِمْ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ أى : وليس أحد أشد قبضاً ووثقا من الزبانية لمن كفر بربهم ، عز وجل ، هذا فى حق المجرمين من الخلائق والظالمين . فأما النفس الزكية المطمئنة وهى الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق فيقال لها : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ أى : إلى جواره ووثابه وما أعد لعباده فى جنته، ﴿ رَاضِيَةٌ ﴾ أى : فى نفسها ﴿ مَرْضِيَّةٌ ﴾ أى : قد رضيت عن الله ورضى عنها وأرضاها ، ﴿ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴾ أى : فى جملتهم ، ﴿ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴾ . وهذا يقال لها عند الاحتضار ، وفى يوم القيامة أيضا ، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره ، وكذلك هاهنا .

ثم اختلف المفسرون فىمن نزلت هذه الآية، فروى عن ابن عباس : نزلت فى عثمان بن عفان . وعن بُرَيْدَةَ بن الحُصَيْب : نزلت فى حمزة بن عبد المطلب . وقال ابن عباس : يقال للأرواح المطمئنة يوم القيامة : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ ﴾ ، يعنى : صاحبك ، وهو بدنها الذى كانت تعمره فى الدنيا ، ﴿ رَاضِيَةٌ مَرْضِيَّةٌ ﴾ . وروى عنه أنه كان يَقْرؤها : « فادخلى فى عبدى وادخلى جنتى » . وكذا قال عكرمة والكلبى ، واختاره ابن جرير ، وهو غريب ، والظاهر الأول ؛ لقوله : ﴿ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَىٰ اللّٰهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ [الانعام: ٦٢] ، ﴿ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَىٰ اللّٰهِ ﴾ [غافر: ٤٣] أى : إلى حكمه والوقوف بين يديه . وعن سعيد بن جبيرة قال : مات ابن عباس بالطائف ، فجاء طير لم ير على خلقه ، فدخل نعشه ، ثم لم ير خارجا منه فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر ، ما يدرى من تلاها : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٌ مَرْضِيَّةٌ . فَادْخُلِي فِي عِبَادِي . وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴾ . رواه الطبرانى (١) . وقد ذكر الحافظ محمد بن المنذر الهروى - المعروف بشكْر - فى كتاب « العجايب » بسنده عن قُبَاث بن رزين أبى هاشم قال : أسرت فى بلاد الروم ، فجمعنا الملك وعرض علينا دينه ، على أن من امتنع ضربت عنقه . فارتد ثلاثة ، وجاء الرابع فامتنع ، فضربت عنقه ، وألقى رأسه فى نهر هناك ، فرسب فى الماء ثم طفا على وجه الماء ، ونظر إلى أولئك الثلاثة فقال : يا فلان ، ويا فلان ، ويا فلان - يناديهم بأسمائهم - قال الله تعالى فى كتابه : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٌ مَرْضِيَّةٌ . فَادْخُلِي فِي عِبَادِي . وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴾ . ثم غاص فى الماء ، قال : فكادت النصرارى أن يسلموا ، ووقع سرير الملك ، ورجع أولئك الثلاثة إلى الإسلام . قال : وجاء الفداء من عند الخليفة أبى جعفر المنصور فخلصنا .

(١) الطبرانى فى المعجم الكبير (١٠/ ٢٩٠) وقال الهيثمى فى الزوائد (٩/ ٢٨٨) : « رجاله رجال الصحيح » .

تفسير سورة البلد

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَمْ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفْهَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾

ربع

هذا قسم من الله تبارك وتعالى بمكة أم القرى في حال كون الساكن فيها حالا ؛ لينبه على عظمة قدرها في حال إحرام أهلها . قال مجاهد : ﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ : لا رد عليهم ؛ أقسم بهذا البلد . وقال ابن عباس : ﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ يعني : مكة ، ﴿ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ قال : أنت - يا محمد - يحل لك أن تقابل به . وكذا روى عن سعيد بن جبير ، وقتادة . وقال مجاهد : ما أصبت فيه فهو حلال لك . وقال قتادة : ﴿ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ قال : أنت به من غير حرج ولا إثم . وقال الحسن البصرى : أحلها الله له ساعة من نهار . وهذا المعنى الذى قالوه قد ورد به الحديث المتفق على صحته : « إن هذا البلد حرمة الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحُرْمَةِ الله إلى يوم القيامة ، لا يُعْضَدُ شجره ولا يختلى خلاه . وإنما أحلت لى ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب » . وفى لفظ آخر: « فإن أحد ترخص بقتال رسول الله فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم » (١) .

وقوله : ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ قال ابن عباس : الوالد : الذى يلد ، وما ولد : العاقر الذى لا يولد له . وقال عكرمة : الوالد : العاقر ، وما ولد : الذى يلد . وقال مجاهد ، وقتادة ، وسعيد بن جبير ، والحسن البصرى ، وغيرهم : يعنى بالوالد آدم ، وما ولد ولده . وهذا الذى ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسن قوى ؛ لأنه تعالى لما أقسم بأمر القرى وهى المساكن أقسم بعده بالساكين ، وهو آدم أبو البشر وولده . وقال أبو عمران الجونى : هو إبراهيم وذريته . رواه ابن جرير . واختار ابن جرير أنه عام فى كل والد وولده .

وقوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ : روى عن ابن مسعود ، وابن عباس ، وعكرمة ،

(١) البخارى (١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٨٣٢ ، ٤٢٩٥) ومسلم (١٣٥٣ / ٤٤٥) .

ومجاهد، وغيرهم : يعنى منتصبا - زاد ابن عباس فى رواية عنه - فى بطن أمه . والكبد : الاستواء والاستقامة . ومعنى هذا القول : لقد خلقنا الإنسان سويا مستقيما كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [الانفطار: ٦، ٧] ، وكقوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤] . وقال ابن عباس : فى كبد ، قال : فى شدة خلق ، ألم تر إليه . . . وذكر مولده ونبات أسنانه . وقال مجاهد : ﴿ فى كَبِدٍ ﴾ : نطفة ، ثم علقه ، ثم مضغة يتكبد فى الخلق ، قال مجاهد : وهو كقوله : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ [الاحقاف: ١٥] ، وأرضعته كرها ، ومعيشته كره ، فهو يكابد ذلك . وقال سعيد بن جبیر : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبِدٍ ﴾ : فى شدة وطلب معيشة . وقال عكرمة : فى شدة وطول . وقال قتادة : فى مشقة . واختار ابن جرير أن المراد بذلك مكابدة الأمور ومشاقها .

وقوله : ﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ : قال الحسن البصرى : يعنى أيحسب أن لن يقدر عليه أحد يأخذ ماله . وقال قتادة : ﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ قال : ابن آدم يظن أن لن يسأل عن هذا المال : من أين اكتسبه؟ وأين أنفقه؟ وقال السدى : ﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ قال : الله عز وجل .

وقوله : ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴾ أى : يقول ابن آدم : أنفقت مالا ليدا ، أى : كثيرا . قاله مجاهد ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم . ﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ قال مجاهد : أى أيحسب أن لم يره الله عز وجل . وكذا قال غيره من السلف .

وقوله : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴾ أى : يبصر بهما ، ﴿ وَلسَانًا ﴾ أى : ينطق به ، فيعبر عما فى ضميره ، ﴿ وَشَفَتَيْنِ ﴾ يستعين بهما على الكلام وأكل الطعام ، وجمالا لوجهه وفمه . ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ : الطريقين عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : الخير والشر . وكذا روى عن على ، وابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة . ونظير هذه الآية قوله : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيمًا بَصِيرًا . إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٢، ٣] .

﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ ١١ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ ١٢ ﴿ فَكُ رَقَبَةً ﴾ ١٣ ﴿ أَوْ اطَّعْتُمْ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ ١٤ ﴿ يَتَّبِعُنَا وَمَنْ يَمُرَّ بِهَا فَسَمِعْنَا لَهُ أَصْوَابًا ﴾ ١٥ ﴿ أَوْ مَسَّ كَيْدًا فَإِنَّهُ يَمُرُّ بَيْنَ يَدَيْنَا ﴾ ١٦ ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ ١٧ ﴿ وَلَئِنْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ ١٨ ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ ﴾ ١٩ ﴿

عن ابن عمر فى قوله : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ قال : جبل فى جهنم . وقال كعب الاحبار : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ : هو سبعون درجة فى جهنم . وقال الحسن البصرى : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ قال : عقبة فى جهنم . وقال قتادة : إنها قحمة شديدة فاقتحموها بطاعة الله عز وجل . وقال قتادة : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ . ثم أخبر عن اقتحامها فقال : ﴿ فَكُ رَقَبَةً ﴾ أو إطعام . وقال ابن زيد :

﴿ اقْتَصِمِ الْعَقَبَةَ ﴾ أى: أفلا سلك الطريق التى فيها النجاة والخير. ثم بينها فقال: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ . أَوْ إِطْعَامٌ ﴾ . قرئ: ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ بالإضافة، وقرئ على أنه فعل، وفيه ضمير الفاعل والرقبة مفعوله وكلتا القراءتين معناهما متقاربان .

روى الإمام أحمد عن سعيد بن مرجانة: أنه سمع أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرب منها إرباً منه من النار، حتى إنه ليعتق باليد اليد، وبالرجل الرجل، وبالفرج الفرج ». فقال على بن الحسين: أنت سمعت هذا من أبى هريرة؟ فقال سعيد: نعم. فقال على بن الحسين لغلام له - أفره غلماناه - ادع مطرفاً. فلما قام بين يديه قال: اذهب فأنت حر لوجه الله. ورواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى، من طرق. وعند مسلم أن هذا الغلام الذى أعتقه على ابن الحسين زين العابدين كان قد أعطى فيه عشرة آلاف درهم (١). وروى أحمد: أن شرحبيل بن السمط قال لعمر بن عبد الله بن عباس: حدثنا حديثاً ليس فيه تزديد ولا نسيان. قال عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من أعتق رقبة مسلمة كانت فكاهة من النار، عضواً بعضو. ومن شاب شبية فى سبيل الله، كانت له نورا يوم القيامة، ومن رمى بسهم فبلغ فأصاب أو أخطأ، كان كمنعت رقبة من بنى إسماعيل ». وروى أبو داود والنسائى بعضه (٢). وروى أحمد عن عمرو بن عبد الله السلمى قال: قلت له: حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ليس فيه انتقاص ولا وهم. قال: سمعته يقول: « من وكَّد له ثلاثة أولاد فى الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحنث، أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم، ومن شاب شبية فى سبيل الله كانت له نورا يوم القيامة، ومن رمى بسهم فى سبيل الله، بلغ به العدو، أصاب أو أخطأ، كان له عتق رقبة. ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار، ومن أنفق زوجين فى سبيل الله، فإن للجنة ثمانية أبواب، يدخله الله من أى باب شاء منها » (٣). وهذه أسانيد جيدة قوية، ولله الحمد.

وقوله: ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْئَةٍ ﴾ قال ابن عباس: ذى مجاعة. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وغير واحد. والسَّعْبُ: هو الجوع. وقال إبراهيم النخعي: فى يوم الطعام فيه عزيز. وقال قتادة: فى يوم يشتهى فيه الطعام. وقوله: ﴿ بِتَيْمًا ﴾ أى: أطعم فى مثل هذا اليوم تيمما، ﴿ ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ أى: ذا قرابة منه. قاله ابن عباس، وعكرمة، والحسن، والضحاك، والسدى. كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن سليمان بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذى الرحم اثنتان، صدقة وصله ». وقد رواه الترمذى والنسائى، وهذا إسناد صحيح (٤).

(١) المسند (٢/ ٤٢٢) والبخارى (٢٥٨٧، ٦٧٩٥) ومسلم (١٥٠٩/ ٢١) والترمذى (١٥٤١) والنسائى فى الكبرى (٤٨٧٥).

(٢) المسند (٤/ ١١٣) وأبو داود (٣٩٩٦٦) والنسائى فى الكبرى (٤٨٨٥، ٤٨٨٦)، وصححه الألبانى.

(٣) المسند (٤/ ٣٨٦).

(٤) المسند (٤/ ٢١٤) والترمذى (٦٥٨) والنسائى (٩٢/ ٥) وقال الترمذى: « حديث حسن ».

وقوله : ﴿ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ أى : فقيراً مُدَقِّعاً لاصقاً بالتراب ، وهو الدقعاء أيضاً . قال ابن عباس : ﴿ ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ هو المطروح فى الطريق، الذى لا بيت له ، ولا شىء يقبىه من التراب - وفى رواية: هو الذى لصق بالدقعاء من الفقر والحاجة ، ليس له شىء - وفى رواية عنه : هو البعيد التربة. قال ابن أبى حاتم : يعنى الغريب عن وطنه . وقال عكرمة : هو الفقير المديون المحتاج . وقال سعيد ابن جبير : هو الذى لا أحد له . وقال ابن عباس ، وسعيد ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان : هو ذو العيال . وكل هذه قريية المعنى .

وقوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى : ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة ، مؤمناً بقلبه ، محتسب ثواب ذلك عند الله عز وجل . كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩] وقال : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ الآية [النحل: ٩٧] . وقوله : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴾ أى : كان من المؤمنين العاملين صالحاً، المتواصين بالصبر على أذى الناس، وعلى الرحمة بهم . كما جاء فى الحديث : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » (١) . وفى الحديث الآخر : « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » (٢) . وقوله : ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ أى : المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين .

ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ أى : أصحاب الشمال ، ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ ﴾ أى : مطبقة عليهم ، فلا محيد لهم عنها ، ولا خروج لهم منها . قال أبو هريرة ، وابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد : ﴿ مُؤَصَّدَةٌ ﴾ أى : مطبقة - قال ابن عباس : مغلقة الأبواب . وقال مجاهد : أصد الباب بلغة قريش : أى أغلقه . وسيأتى فى ذلك حديث فى سورة : ﴿ وَيَلْ لِكُلِّ هَمَزَةٍ لُحْمَةٌ ﴾ . وقال الضحاك : ﴿ مُؤَصَّدَةٌ ﴾ : حيط لا باب له . وقال قتادة : ﴿ مُؤَصَّدَةٌ ﴾ : مطبقة فلا ضوء فيها ولا فرج ، ولا خروج منها آخر الأبد .

(١) المسند (٦٤٩٤) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) مسلم (٢٣١٩/ ٦٦) .

تفسير سورة الشمس وضحاها

وهي مكية

تقدم حديث جابر الذى فى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هلا صليت بـ ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ، و ﴿ الشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ و ﴿ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ ؟ » (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ ﴿ ١ ﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ﴿ ٢ ﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ﴿ ٣ ﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴿ ٤ ﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَّا ﴿ ٥ ﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّا ﴿ ٦ ﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿ ٧ ﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿ ٨ ﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ﴿ ٩ ﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿ ١٠ ﴾

قال مجاهد : ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ أى : وضوئها . وقال قتادة : ﴿ وَضُحَاهَا ﴾ : النهار كله . قال ابن جرير : والصواب أن يقال : أقسم الله بالشمس ونهارها ؛ لأن ضوء الشمس الظاهر هو النهار . ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ﴾ قال مجاهد : تبعها . وقال ابن عباس : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ﴾ قال : يتلو النهار . وقال قتادة : ﴿ إِذَا تَلَّهَا ﴾ ليلة الهلال ، إذا سقطت الشمس روى الهلال . وقال ابن زيد : هو يتلوها فى النصف الأول من الشهر ، ثم هى تتلوه . وهو يتقدمها فى النصف الأخير من الشهر . وقال زيد بن أسلم : إذا تلاها ليلة القدر .

وقوله : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ﴾ قال مجاهد : أضاء . وقال قتادة : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ﴾ : إذا غشيها النهار . قال ابن جرير : وكان بعض أهل العربية يتأول ذلك بمعنى : والنهار إذا جلا الظلمة ، لدلالة الكلام عليها . قلت : ولو أن هذا القائل تأول ذلك بمعنى ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ﴾ أى : البسيطة ، لكان أولى ، ولصح تأويله فى قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ ، فكان أجود وأقوى ، والله أعلم . ولهذا قال مجاهد : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ﴾ إنه كقوله : ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ [الليل: ٢] . وأما ابن جرير فاختار عود الضمير فى ذلك كله على الشمس ، لجرى ذكرها . وقالوا فى قوله : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ معنى : إذا يغشى الشمس حين تغيب ، فتظلم الأفاق .

وقوله : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَّا ﴾ : يحتمل أن تكون « ما » هاهنا مصدرية ، بمعنى : والسماء وبنائها ، وهو قول قتادة . ويحتمل أن تكون بمعنى « من » يعنى : والسماء وبنائها . وهو قول مجاهد ، وكلاهما متلازم ، والبناء هو الرفع ، كقوله : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ أى : بقوة ﴿ وَإِنَّا

(١) مضى الحديث وتخريجه أول سورة الأعلى .

لْمُؤْمِنُونَ . وَالْأَرْضَ قَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ [الذاريات: ٤٧ ، ٤٨] . وهكذا قوله : ﴿ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴾ قال مجاهد : ﴿ طَحَاهَا ﴾ : دحاهها . وقال ابن عباس : ﴿ وَمَا طَحَاهَا ﴾ أى : خلق فيها . وقال : ﴿ طَحَاهَا ﴾ : قسمها . وقال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : ﴿ طَحَاهَا ﴾ : بسطها . وهذا أشهر الأقوال ، وعليه الأكثر من المفسرين ، وهو المعروف عند أهل اللغة ، قال الجوهري : طحوته مثل دحوته ، أى : بسطته .

وقوله : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ أى : خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القريمة ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠] . وقال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ » . أخرجاه من رواية أبى هريرة (١) . وفى صحيح مسلم من رواية عياض ابن حمار المجاشعى ، عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله عز وجل : إني خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم » (٢) .

وقوله : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ أى : فأرشدها إلى فجورها وتقواها ، أى : بين لها ذلك ، وهداها إلى ما قدر لها . قال ابن عباس : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ : بين لها الخير والشر . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، والثورى . وقال سعيد بن جبير : ألهمها الخير والشر . وقال ابن زيد : جعل فيها فجورها وتقواها . وروى ابن جرير عن أبى الأسود الدبلى قال : قال لى عمران بن حصين: أرأيت ما يعمل فيه الناس ويتكادحون فيه ، أشىء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون مما آتاهم به نبيهم ﷺ ، وأكدت عليهم الحجة ؟ قلت : بل شىء قضى عليهم . قال : فهل يكون ذلك ظلماً ؟ قال : ففزعت منه فزعاً شديداً ، قال : قلت له : ليس شىء إلا وهو خلقه وملك يده ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . قال : سددك الله ، إنما سألت لأخبر عقلتك ، إن رجلاً من مزينة - أو جهينة - أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ، أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون ، أشىء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق ، أم شىء مما يستقبلون مما آتاهم به نبيهم ، وأكدت به عليهم الحجة ؟ قال : « بل شىء قد قضى عليهم » . قال : ففيم نعمل ؟ قال : « من كان الله خلقه لإحدى المنزلتين يهينه لها ، وتصديق ذلك فى كتاب الله : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ » . رواه أحمد ومسلم (٣) .

وقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ : يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكى نفسه ، أى : بطاعة الله - كما قال قتادة - وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل . ويروى نحوه عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد ابن جبير . وكقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ [الأعلى: ١٤ ، ١٥] .

(١) البخارى (١٣٨٥) ومسلم (٢٦٥٨ / ٢٢) .

(٢) مسلم (٢٨٦٥ / ٦٣) .

(٣) ابن جرير فى التفسير (١٣٥ / ٣٠) والمسند (٤٣٨ / ٤) ومسلم (٢٦٥٠ / ١٠) .

﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ أى : دسستها ، أى : أحملها ووضع منها بخذلانته إياها عن الهدى ، حتى ركب المعاصى وترك طاعة الله عز وجل . وقد يحتمل أن يكون المعنى : قد أفلح من زكى الله نفسه ، وقد خاب من دسى الله نفسه ، كما قال عن ابن عباس .

وروى الطبرانى عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ وقف ، ثم قال : «اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها ، وخير من زكاها» (١) . وروى الإمام أحمد عن عائشة : أنها فقَدَت النبي ﷺ من مضجعه ، فلمسته بيدها ، فوَقعت عليه وهو ساجد ، وهو يقول : « رب ، أعط نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » تفرد به (٢) . وروى الإمام أحمد عن زيد بن أرقم قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم ، إني أعوذ بك من العجز والكسل والهزم ، والجبن والبخل وعذاب القبر . اللهم ، آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها . اللهم ، إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشيع ، وعلم لا ينفع ، ودعوة لا يستجاب لها » . قال زيد : كان رسول الله ﷺ يعلمناهن ونحن نعلمكوهن . رواه مسلم (٣) .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَاقْتَدِمُوا عَلَىٰ آلِهِمْ بِذَنبِهِمْ فَنَسَوْنَهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ ﴾

يخبر تعالى عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم ، بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغى . وقال محمد بن كعب : ﴿ بطغواها ﴾ أى : بأجمعها . والأول أولى ، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما . فاعقبهم ذلك تكذيباً فى قلوبهم بما جاءهم به رسولهم من الهدى واليقين . ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ أى : أشقى القبيلة ، هو قدار بن سالف عاقر الناقة ، وهو أحمير ثمود ، وهو الذى قال تعالى : ﴿ فنادوا أصحابهم فتعاطى ففقر ﴾ [القمر : ٢٩] . وكان هذا الرجل عزيزاً فيهم ، شريفاً فى قومه . نسبياً رئيساً مطاعاً ، كما روى الإمام أحمد عن عبد الله بن زمعة قال : خطب رسول الله ﷺ ، فذكر الناقة ، وذكر الذى عقرها ، فقال : « ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ : انبعث لها رجل عارم عزيز منبع فى رهطه ، مثل زمعة » . ورواه البخارى ومسلم ، والترمذى والنسائى (٤) .

وقوله : ﴿ فقال لهم رسول الله ﴾ يعنى : صالحاً ، عليه السلام : ﴿ ناقة الله ﴾ أى : احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء ، ﴿ وسقياها ﴾ أى : لا تعتدوا عليها فى سقياها ، فإن لها شرب يوم

(١) الطبرانى فى المعجم الكبير (١١ / ١٠٦) وقال الهيثمى فى الزوائد (٧ / ١٤١) : « إسناده حسن » .

(٢) المسند (٦ / ٢٠٩) . (٣) المسند (٤ / ٣٧١) ومسلم (٢٧٢٢ / ٧٣) .

(٤) المسند (٤ / ١٧) والبخارى (٤٩٤٢) ومسلم (٢٨٥٥ / ٤٩) والترمذى (٣٣٤٣) والنسائى فى الكبرى (١١٦٧٥) .

ولكم شرب يوم معلوم . قال الله : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ أى : كذبوه فيما جاءهم به فأعقبتهم ذلك أن عقروا الناقة التى أخرجها الله من الصخرة آية لهم وحجة عليهم ، ﴿ فَذَمَدَمَ عَلَيْهِمَ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أى : غضب عليهم ، فدمر عليهم ، ﴿ فَسَوَّاهَا ﴾ أى : فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء . قال قتادة : بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم ، وذكرهم وأنثاهم ، فلما اشترك القوم فى عقرها دمدم الله عليهم بذنوبهم فسواها .

وقوله : ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ . قال ابن عباس : لا يخاف الله من أحد تبعه . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وبكر بن عبد الله المزنى ، وغيرهم . وقال الضحاك والسدى : ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴾ أى : لم يخف الذى عقرها عاقبة ما صنع والقول الأول أولى ؛ لدلالة السياق عليه ، والله أعلم .

تفسير سورة الليل

وهي مكية

تقدم قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ : « فها صليت ب ﴿ سَبَّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ،
﴿ وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴾ ، و ﴿ اللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ﴾ ؟ » (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ﴾ (١) وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ
لَشَتَّى (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا
مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا
رَدَّتْ (١١) رُدَّتْ ﴿

روى الإمام أحمد عن علقمة: أنه قدم الشام فدخل مسجد دمشق، فصلى فيه ركعتين وقال:

اللهم ، ارزقني جليساً صالحاً . قال : فجلس إلى أبي الدرداء ، فقال له أبو الدرداء : ممن أنت؟ قال : من أهل الكوفة . قال : كيف سمعت ابن أم عبد يقرأ : ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى . وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ﴾ ؟ قال علقمة : «والذكر والأنثى» . فقال أبو الدرداء : لقد سمعتها من رسول الله ﷺ ، فما زال هؤلاء حتى شككوني . ثم قال : ثم ألم يكن فيكم صاحب الوساد وصاحب السر الذي لا يعلمه أحد غيره ، والذي أجبر من الشيطان على لسان النبي ﷺ ؟ (٢) . وقد رواه البخاري هاهنا ومسلم عن إبراهيم قال: قدم أصحاب عبد الله على أبي الدرداء، فطلبهم فوجدهم، فقال : أيكم يقرأ على قراءة عبد الله ؟ قالوا: كلنا ، قال: أيكم أحفظ ؟ فأشاروا إلى علقمة، فقال : كيف سمعته يقرأ : ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ﴾ ؟ قال : «والذكر والأنثى» . قال : أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ هكذا ، وهؤلاء يريدوني أن أقرأ : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ ، والله لا أتابعهم (٣) .

هذا لفظ البخاري: هكذا قرأ ذلك ابن مسعود ، وأبو الدرداء - ورفع أبو الدرداء - وأما

الجمهور فقرأوا ذلك كما هو مثبت في المصحف الإمام العثماني في سائر الآفاق : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ ، فأقسم تعالى بـ ﴿ اللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ﴾ أي : إذا غشى الخليفة بظلامه ، ﴿ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ﴾ أي : بضيائه وإشراقه ، ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ ، كقوله : ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ [النبا: ٨] ، وكقوله : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات : ٤٩] .

(٢) المسند (٦ / ٤٤٩) .

(١) مضي الحديث وتخريجه أول سورة الأعلى .

(٣) البخاري (٤٩٤٤) ومسلم (٨٢٤ / ٢٨٢) .

ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان القسم عليه أيضاً متضاداً؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ أى : أعمال العباد التى اكتسبوها متضادة أيضاً ومتخالفة ، فمن فاعل خيراً ومن فاعل شراً ، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ أى : أعطى ما أمر بإخراجه ، واتقى الله فى أموره ، ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أى : بالمجازاة على ذلك ، قاله قتادة ، وقال خَصِيف : بالشواب . وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وأبو صالح ، وزيد بن أسلم : ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أى : بالخلف . وقال أبو عبد الرحمن السلمى ، والضحاك : ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أى : بلا إله إلا الله . وفى رواية عن عكرمة : ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أى : بما أنعم الله عليه . وفى رواية عن زيد بن أسلم: ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ قال: الصلاة والزكاة والصوم . وقال مرة : وصدقة الفطر . وقوله : ﴿فَسَيِّرَهُ لِلْيُسْرَى﴾ قال ابن عباس: يعنى للخير . وقال زيد بن أسلم : يعنى للجنة .

وقال بعض السلف : من ثواب الحسنة الحسنه بعدها ، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ أى : بما عنده ، ﴿وَأَسْتَفْتَى﴾ قال ابن عباس : أى بخل بماله ، واستغنى عن ربه ، عز وجل . ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ أى : بالجزء فى الدار الآخرة ، ﴿فَسَيِّرَهُ لِلْعُسْرَى﴾ أى : لطريق الشر ، كما قال تعالى : ﴿وَنَقَلَبُ أَفْبِدَتَهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الانعام : ١١٠] . والآيات فى هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله ، عز وجل ، يُجازى من قصد الخير بالتوفيق له ، ومن قصد الشر بالخذلان . وكل ذلك بقدر مُقدَّر ، والأحاديثُ الدالة على هذا المعنى كثيرة :

روى البخارى عن على بن أبى طالب قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى بَقِيعِ الْغَرْقَدِ فى جنازة ، فقال : « ما منكم من أحد إلا وقد كُتِبَ مقعده من الجنة ومقعده من النار » . فقالوا : يا رسول الله ، أفلا نتكل ؟ فقال : « اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له » . قال : ثم قرأ : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَيِّرَهُ لِلْيُسْرَى﴾ ، إلى قوله : ﴿لِلْعُسْرَى﴾ (١) . ثم رواه عن على ابن أبى طالب قال : كنا فى جنازة فى بَقِيعِ الْغَرْقَدِ ، فأتى رسول الله ﷺ فقعده وقعدنا حوله ، ومعه مَخْضَرَةٌ فَتَكَّسَ فجعل ينكتُ بمخضرتة ، ثم قال : « ما منكم من أحد - أو : ما من نفس منقوسة - إلا كتب مكانها من الجنة والنار ، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة » . فقال رجل : يا رسول الله ، أفلا نتكل وندع العمل ؟ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة ، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى أهل الشقاء ؟ فقال : « أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاء فييسرون إلى عمل أهل الشقاء » . ثم قرأ : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَيِّرَهُ لِلْيُسْرَى﴾ الآية . وقد أخرجه بقية الجماعة (٢) . وروى ابن جرير عن جابر بن عبد الله أنه قال : يا رسول الله ، أنعمل لأمر قد فرغ منه ، أو لأمر

(١) البخارى (٤٩٤٥ - ٤٩٤٧) .

(٢) البخارى (٤٩٤٨) ومسلم (٦/ ٢٦٤٧) وأبو داود (٤٦٩٤) والترمذى (٣٣٤٤) .

نستأنفه ؟ فقال : « لأمر قد فرغ منه » . فقال سراقه : ففيم العمل إذا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « كل عامل مُيسَّر لعمله » . ورواه مسلم (١) . قال ابن جرير : وذكر أن هذه الآية أنزلت في أبي بكر الصديق : عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر يعتق على الإسلام بمكة ، فكان يعتق عجايز ونساء إذا أسلمن ، فقال له أبوه : أى بنى ، أراك تعتق أناساً ضعفاء ، فلو أنك تعتق رجالاً جلداء يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك ؟! فقال : أى أبت ، إنما أريد - أظنه قال - ما عند الله : قال : فحدثنى بعض أهل بيتى أن هذه الآية أنزلت فيه : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ قال مجاهد : أى إذا مات . وقال أبو صالح ، وزيد ابن أسلم : إذا تردى في النار .

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴿١٠﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴿١١﴾ فَأَنْذَرْتَكُمْ نَارًا تَلْقَى ﴿١٢﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٣﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٤﴾ وَسَيَجْزِيهَا الْآلَفَى ﴿١٥﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَرَكَّى ﴿١٦﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٧﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿١٨﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿١٩﴾ ﴾

قال قتادة : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ أى : نبين الحلال والحرام . وقال غيره : من سلك طريق الهدى وصل إلى الله . وجعله كقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ [النحل: ٩] . حكاه ابن جرير . وقوله : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴾ أى : الجميع ملكنا وأنا المتصرف فيهما .

وقوله : ﴿ فَأَنْذَرْتُمْ نَارًا تَلْقَى ﴾ : قال مجاهد : أى توجه . روى الإمام أحمد عن النعمان ابن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجلٌ توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلى منها دماغه » . رواه البخارى (٣) . وروى مسلم عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلى منهما دماغه كما يغلى المرءُجُل ، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً ، وإنه لأهونهم عذاباً » (٤) .

وقوله : ﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴾ أى : لا يدخلها دخولا يحيط به من جميع جوانبه إلا الأشقى . ثم فسره فقال : ﴿ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ أى : بقلبه ، ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ أى : عن العمل بجوارحه وأركانه . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أمتى تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى » . قالوا : ومن أبى يا رسول الله ؟ قال : « من أطاعنى دخل الجنة ، ومن عصانى فقد أبى » . ورواه البخارى (٥) .

(١) ابن جرير في التفسير (٣٠/ ١٤٤) ومسلم (٢٦٤٨/ ٨) .

(٢) ابن جرير في التفسير (٣٠/ ١٤٢) . (٣) المسند (٤/ ٢٧٤) والبخارى (٦٥٦١ ، ٦٥٦٢) .

(٤) مسلم (٢١٣/ ٣٦٣) . (٥) المسند (٢/ ٣٦١) والبخارى (٧٢٨٠) .

وقوله : ﴿ وَسَيَجْزِيهَا الْأَتْقَى ﴾ أى : وسيُزحزح عن النار التقى النقى الأتقى . ثم فسره بقوله : ﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ أى : يصرف ماله فى طاعة ربه ؛ ليزكى نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا ، ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴾ أى : ليس بذله ماله فى مكافأة من أسدى إليه معروفاً ، فهو يعطى فى مقابلة ذلك ، وإنما دفعه ذلك ﴿ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴾ أى : طمعاً فى أن يحصل له رؤيته فى الدار الآخرة فى روضات الجنات ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ أى : ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات .

وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فى أبى بكر الصديق ، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك . ولا شك أنه داخل فيها ، وأولى الأمة بعمومها ، فإن لفظها لفظ العموم ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَسَيَجْزِيهَا الْأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى . وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴾ ، ولكنه مقدم الأمة وسابقهم فى جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة ؛ فإنه كان صديقاً تقياً كريماً جواداً بذالاً لأمواله فى طاعة مولاه ، ونصرة رسول الله ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم ، ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها ، ولكن كان فضله وإخسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل ؛ ولهذا قال له عروة بن مسعود - وهو سيد ثقيف ، يوم صلح الحديبية : أما والله لولا يد لك كانت عندى لم أجرك بها لأجبتك . وكان الصديق قد أغلظ له فى المقالة ، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل ، فكيف بمن عداهم ؟ ولهذا قال : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى . وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ . وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « من أنفق زوجين فى سبيل الله دَعَتَهُ خَزَنَةُ الْجَنَّةِ : يا عبد الله ، هذا خير » ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، ما على من يُدعى منها ضرورة فهل يدعى منها كلها أحد ؟ قال : « نعم ، وأرجو أن تكون منهم » (١) .

تفسير سورة الضحى

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ وَالضُّحَى ﴿٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿٣﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴿٤﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴿٥﴾ وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴿٦﴾ أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَتَوَّى ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴿٨﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا يَنْعَمَ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١٠﴾ ﴿١١﴾

روى الإمام أحمد عن جندب قال: اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأتت امرأة فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك. فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَالضُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ . رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن جرير (١) . وقد ذكر بعض السلف - منهم ابن إسحاق - أن هذه السورة هى التى أوحاها جبريل إلى رسول الله ﷺ، حين تبدى له فى صورته التى خلقه الله عليها، ودنا إليه وتدلى منهطاً عليه وهو بالابطح، ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: ١٠] . قال: قال له هذه السورة: ﴿ وَالضُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ . قال ابن عباس: لما نزل على رسول الله ﷺ القرآن، أبطأ عنه جبريل أياماً، فتغير بذلك، فقال المشركون: ودعه ربه وقلاه . فأنزل الله: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ .

وهذا قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء، ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ أى: سكن فاطلم وادلهم . قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم . وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا، كما قال: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ [الليل: ١، ٢]، وقال: ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [الانعام: ٩٦] .

وقوله: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ أى: ما تركك، ﴿ وَمَا قَلَى ﴾ أى: وما أبغضك، ﴿ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ أى: والدار الآخرة خير لك من هذه الدار . ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهى الناس فى الدنيا، وأعظمهم لها إطراحاً، كما هو معلوم من سيرته . ولما خيّر، عليه السلام، فى آخر عمره بين الخلد فى الدنيا إلى آخرها ثم الجنة، وبين الصيرورة إلى الله عز وجل، اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية . روى الإمام أحمد عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: اضطلع رسول الله ﷺ على حصير، فآثر فى جنبه، فلما استيقظ جعلت

(١) المسند (٤/ ٣١٢) والبخارى (١١٢٤، ١١٢٥، ٤٩٥٠، ٤٩٥١، ٤٩٨٣) ومسلم (١٧٩٧/ ١١٤)، والترمذى (٣٣٤٥) وابن ماجه (٣٢٥٠) وابن جرير فى التفسير (١٤٨/٣٠) .

أَمْسَحَ جَنْبَهُ وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا أَدْنَتُنَا حَتَّى نَبْسُطَ لَكَ عَلَى الْحَصِيرِ شَيْئاً؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ ! مَا أَنَا وَالدُّنْيَا؟ ! إِنَّمَا مِثْلِي وَمِثْلُ الدُّنْيَا كِرَاكِبٌ ظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا ». ورواه الترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح (١) .

وقوله : ﴿ وَتَسْوَفُ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ أى : فى الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه فى أمته ، وفيما أعدّه له من الكرامة ، ومن جملة نهر الكوثر الذى حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ، وطينه مسك أذفر . عن عبد الله بن عباس قال : عرض على رسول الله ما هو مفتوح على أمته من بعده كترأ كترأ ، فأنزل الله : ﴿ وَتَسْوَفُ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ فأعطاه فى الجنة ألف ألف قصر ، فى كل قصر ما ينبغى له من الأزواج والخدم . رواه ابن جرير (٢) ، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس : ومثل هذا ما يقال إلا عن توقيف . وقال السدى ، عن ابن عباس : من رضا محمد ﷺ ألا يدخل أحد من أهل بيته النار . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم . وقال الحسن : يعنى بذلك الشفاعة . وهكذا قال أبو جعفر الباقر .

ثم قال تعالى يعدد نعمه على عبده ورسوله محمد ، صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ ، وذلك أن أباه توفى وهو حمل فى بطن أمه ، وقيل : بعد أن ولد ، عليه السلام ، ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين . ثم كان فى كفالة جده عبد المطلب ، إلى أن توفى وله من العمر ثمانى سنين ، فكفله عمه أبو طالب . ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره ويؤقره ، ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره ، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان ، وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره ، إلى أن توفى أبو طالب قبل الهجرة بقليل ، فأقدم عليه سفهاء قريش وجهاهم ، فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج ، كما أجرى الله سنته على الوجه الأتم والأكمل . فلما وصل إليهم أووه ونصروه وحاطوه وقاتلوا بين يديه ، رضى الله عنهم أجمعين ، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به .

وقوله : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ كقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نُّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الآية [الشورى: ٥٢] . وقوله : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ أى : كنت فقيراً ذا عيال ، فأغناك الله عن سواه ، فجمع له بين مقامى ، الفقير الصابر والغنى الشاكر ، صلوات الله وسلامه عليه . وقال قتادة فى قوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى . وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى . وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ قال : كانت هذه منازل الرسول ﷺ قبل أن يبعثه الله ، عز وجل . وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس الغنى عن كثرة العرّض ، ولكن الغنى غنى النفس » (٣) . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال :

(١) المسند (٣٧٠٩) والترمذى (٢٣٧٧) وابن ماجه (٤١٠٩) . وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) ابن جرير فى التفسير (١٤٩/٣٠) . (٣) البخارى (٦٤٤٦) ، ومسلم (١٠٥١ / ١٢٠) .

قال رسول الله ﷺ : « قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه » (١) .

ثم قال : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ أى : كما كنت يتيماً فأواك الله فلا تقهر اليتيم ، أى : لا تذله وتنهره وتهنه ، ولكن أحسن إليه ، وتلطف به . قال قتادة : كن لليتيم كالأب الرحيم . ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ أى : وكما كنت ضالاً فهداك الله ، فلا تنهر السائل فى العلم المسترشد . قال ابن إسحاق : ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ أى : فلا تكن جباراً ، ولا متكبراً ، ولا فحاشاً ، ولا فظاً على الضعفاء من عباد الله . وقال قتادة : يعنى رد المسكين برحمة ولين .

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ أى : وكما كنت عائلاً فقيراً فأغنك الله ، فحدث بنعمة الله عليك ، كما جاء فى الدعاء المأثور النبوى : « واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها ، قابليها ، وأتمها علينا » . وعن أبى نضرة قال : كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدث بها . وروى أبو داود عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » . ورواه الترمذى ، وقال : صحيح (٢) . وروى أبو داود عن جابر ، عن النبى ﷺ قال : « من أبلى بلاء فذكره فقد شكره ، وإن كتبه فقد كفره » . تفرد به أبو داود (٣) . وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « من أعطى عطاءً فوجد فليجز به ، فإن لم يجد فليثن به ، فمن أثنى به فقد شكره ، ومن كتبه فقد كفره » . تفرد به أبو داود (٤) . وقال مجاهد : يعنى النبوة التى أعطاك ربك . وفى رواية عنه : القرآن . وقال الحسن بن على : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ قال : ما عملت من خير فحدث إخوانك . وقال ابن إسحاق : ما جاءك من الله من نعمة وكرامة من النبوة فحدث بها واذكرها ، وادع إليها . وقال : فجعل رسول الله ﷺ يذكر ما أنعم الله به عليه من النبوة سرأ إلى من يطمئن إليه من أهله ، وافترضت عليه الصلاة ، فصلى .

(١) مسلم (١٠٥٤ / ١٢٥) .

(٢) أبو داود (٤٨١١) والترمذى (١٩٥٤) ، وصححه الألبانى .

(٣) أبو داود (٤٨١٤) ، وصححه الألبانى .

(٤) أبو داود (٤٨١٣) ، وصححه الألبانى .

تفسير سورة ألم نشرح

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾ ﴾

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ يعني : أما شرحنا لك صدرك ، أى : نورنا وجعلناه فسيحاً رحباً واسعاً كقوله : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥] ، وكما شرح الله صدره كذلك جعل شرعه فسيحاً واسعاً سمحاً سهلاً لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق . وقيل : المراد بقوله : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ : شرح صدره ليلة الإسراء (١) ، فإن من جملة شرح صدره الذى فُعل بصدرة ليلة الإسراء ، وما نشأ عنه من الشرح المعنوى أيضاً ، والله أعلم .

روى عبد الله بن الإمام أحمد عن أبي بن كعب: أن أبا هريرة كان جريئاً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره ، فقال : يا رسول الله ، ما أول ما رأيت من أمر النبوة ؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالسا وقال : « لقد سألت يا أبا هريرة ، إنى لفى الصحراء ابن عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسى ، وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ [قال : نعم] فاستقبلانى بوجوه لم أرها [خلق] قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط . فأقبلا إلى يمثيان ، حتى أخذ كل واحد منهما بعضدى ، لا أجد لأحدهما مسا ، فقال أحدهما لصاحبه : أضجعه . فأضجعانى بلا قَصْرٍ ولا هَضْرٍ . فقال أحدهما لصاحبه : اقلق صدره . فهوى أحدهما إلى صدرى فقلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع ، فقال له : أخرج الغلَّ والحَسَدَ . فأخرج شيئاً كهية العلقة ثم نبذها فطرحها ، فقال له : أدخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذى أخرج شبه الفضة ، ثم هز إبهام رجلى اليمنى فقال : اغدُ واسلم . فرجعت بها أعدو ، رقة على الصغير ، ورحمة للكبير » (٢) .

وقوله : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ بمعنى : ﴿ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : ٢٢]

(١) انظر الأحاديث أول سورة الإسراء .

(٢) المسند (٥ / ١٣٩) وقال الهيثمى فى الزوائد (٨ / ٢٢٢) : « رجاله ثقات وثقهم ابن حبان » . وما بين المعرفين

﴿ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ الإنقاض : الصوت . وقال غير واحد من السلف في قوله : ﴿ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أى : أثقلت حمله .

وقوله : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ قال مجاهد : لا أذكرُ إلا ذُكرتَ معى : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . وقال قتادة : رفع الله ذكركه فى الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحبُ صلاة إلا ينادى بها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « سألت ربي مسألة ودَدْتُ أنى لم أكن سألته ، قلت : قد كانت قبلى أنبياء ، منهم من سخرت له الريح ، ومنهم من يحيى الموتى . قال : يا محمد ، ألم أجدك يتيماً فأوتيتك ؟ قلت : بلى يا رب . قال : ألم أجدك ضالاً فهديتك ؟ قلت : بلى يا رب . قال : ألم أجدك عائلاً فأغنيتك ؟ قال : قلت : بلى يا رب . قال ألم أشرح لك صدرك ؟ ألم أرفع لك ذكرك ؟ قلت : بلى يا رب » (١) .

وقال آخرون : رفع الله ذكره فى الأولين والآخرين ، ونوه به ، حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به ، وأن يأمروا أهمهم بالإيمان به ، ثم شهر ذكره فى أمته فلا يُذكر الله إلا ذُكر معه .

وقوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ : أخبر تعالى أن مع العسر يوجد اليسر ، ثم أكد هذا الخبر . وقوله : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ أى : إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها ، فانصب فى العبادة ، وقم إليها نشيطاً فارغ البال ، وأخلص لربك النية والرغبة . ومن هذا القبيل قوله ﷺ فى الحديث المتفق على صحته : « لا صلاة بحضرة طعام ، ولا وهو يدافعه الأحيثان » (٢) . وقوله ﷺ : « إذا أقيمت الصلاة وحضر العشاء ، فابدؤوا بالعشاء » (٣) . قال مجاهد فى هذه الآية : إذا فرغت من أمر الدنيا فقمتم إلى الصلاة ، فانصب لربك ، وفى رواية عنه : إذا قمت إلى الصلاة فانصب فى حاجتك ، وعن ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض فانصب فى قيام الليل . وعن ابن عياض نحوه . وفى رواية عن ابن مسعود : ﴿ فأنصب . وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ بعد فراغك من الصلاة وأنت جالس . وقال ابن عباس : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ يعنى : فى الدعاء . وقال زيد بن أسلم ، والضحاك : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ أى : من الجهاد ﴿ فأنصب ﴾ أى : فى العبادة . ﴿ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ قال الثورى : اجعل نيتك ورجبتك إلى الله ، عز وجل .

(١) رواه الحاكم فى المستدرک (٢/ ٥٢٦) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » .

(٢) مسلم (٥٦٠/ ٦٧) . (٣) البخارى (٥٤٦٥) .

تفسير سورة التين

وهي مكية

عن البراء بن عازب : كان النبي ﷺ يقرأ في سفر في إحدى الركعتين بالتين والزيتون ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه . أخرجه الجماعة في كتبهم (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالزَّيْتُونَ ﴾ ﴿١﴾ وَطُورِ سَيْنِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴿٩﴾

اختلف المفسرون هاهنا على أقوال كثيرة ، فقول : المراد بالتين مسجد دمشق . وقيل : هي نفسها . وقيل : الجبل الذي عندها . وقال مجاهد : هو تينكم هذا . ﴿ وَالزَّيْتُونَ ﴾ قال قتادة ، وابن زيد ، وغيرهم : هو مسجد بيت المقدس . وقال مجاهد ، وعكرمة : هو هذا الزيتون الذي تعصرون . ﴿ وَطُورِ سَيْنِينَ ﴾ قال غير واحد : هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى . ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ يعنى : مكة . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وإبراهيم النَّخَعِيُّ ، ولا خلاف في ذلك .

وقال بعض الأئمة : هذه محالٌ ثلاثة ، بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلًا من أولى العزم أصحاب الشرائع الكبار ، فالأول : محلة التين والزيتون ، وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى ابن مريم . والثاني : طور سينين ، وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى ابن عمران . والثالث : مكة ، وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً ، وهو الذي أرسل فيه محمداً ﷺ . قالوا : وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة : جاء الله من طور سيناء - يعنى الذي كلم الله عليه موسى بن عمران - وأشرق من ساعير - يعنى جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى - واستعلن من جبال فاران - يعنى : جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً - فذكرهم على الترتيب الوجودى بحسب ترتيبهم فى الزمان ، ولهذا أقسم بالأشرف ، ثم الأشرف منه ، ثم بالأشرف منهما .

وقوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ : هذا هو المقسم عليه ، وهو أنه تعالى خلق الإنسان فى أحسن صورة ، وشكل متصّب القامة ، سوى الأعضاء حسننها . ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ

(١) البخارى (٤٩٥٢) ومسلم (٤٦٤ / ١٧٥) وأبو داود (١٢٢١) والترمذى (٣١٠) والنسائى فى الكبرى (١١٦٨٢) وابن ماجه (٨٣٤ ، ٨٣٥) .

سَافِلِينَ ﴿ أَى : إِلَى النَّارِ . قَالَ مُجَاهِدٌ ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ ، وَالْحَسَنُ ، وَابْنُ زَيْدٍ ، وَغَيْرُهُمْ . ثُمَّ بَعْدَ هَذَا الْحَسَنُ وَالنُّضَارَةُ مَصِيرَهُ إِلَى النَّارِ إِنْ لَمْ يَطِيعِ اللَّهَ وَيَتَّبِعِ الرَّسُولَ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : ﴿ ثُمَّ رَدَّذَنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ أَى : إِلَى أَرْضِ الْعَمْرِ . رَوَى هَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَعُكْرَمَةَ - حَتَّى قَالَ عُكْرَمَةُ : مَنْ جَمَعَ الْقُرْآنَ لَمْ يُرَدَّ إِلَى أَرْضِ الْعَمْرِ . وَاخْتَارَ ذَلِكَ ابْنُ جَرِيرٍ . وَلَوْ كَانَ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ لَمَا حَسُنَ اسْتِثْنَاءُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الْهَرَمَ قَدْ يَصِيبُ بَعْضَهُمْ ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ مَا ذَكَرْنَاهُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَالْعَصْرِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [الْعَصْرِ : ١ - ٣] .

وقوله : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أَى : غَيْرُ مَقْطُوعٍ ، كَمَا تَقَدَّمَ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ ﴾ يَعْنَى : يَا بَنِي آدَمَ ﴿ بَعْدَ الْبَلَدَيْنِ ﴾ ؟ أَى : بِالْجِزَاءِ فِي الْمَعَادِ وَقَدْ عَلِمْتَ الْبِدْءَ ، وَعَرَفْتَ أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى الْبِدْءِ ، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى الرَّجْعَةِ بِطَرِيقِ الْأُولَى ، فَأَى شَيْءٍ يَحْمِلُكَ عَلَى التَّكْذِيبِ بِالْمَعَادِ وَقَدْ عَرَفْتَ هَذَا ؟ وَقَوْلِهِ : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴾ أَى : أَمَا هُوَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ، الَّذِي لَا يَجُورُ وَلَا يَظْلِمُ أَحَدًا ، وَمَنْ عَدَّلَهُ أَنْ يَقِيمَ الْقِيَامَةَ فَيُنْصِفَ الْمَظْلُومَ فِي الدُّنْيَا مِنْ ظُلْمِهِ .

تفسير سورة اقرأ

وهي أول شيء نزل من القرآن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حُبب إليه الخلاء ، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه - وهو : التعبد - الليالي ذوات العدد ، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ . قال رسول الله ﷺ : « فقلت : ما أنا بقارئ » . قال : « فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ . فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ . فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ حتى بلغ : ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ » قال : فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال : « زملوني زملوني » . فزملوه حتى ذهب عنه الروع . فقال : « يا خديجة ، ما لي ؟ » فأخبرها الخبر وقال : « قد خشيت على نفسي » . فقالت له : كلا ، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي - وهو ابن عم خديجة ، أخى أبيها ، وكان امرأ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربي ، وكتب بالعربية (١) من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى - فقالت خديجة : أى ابن عم ، اسمع من ابن أخيك . فقال ورقة : ابن أخى ، ما ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ ما رأى ، فقال ورقة : هذا الناموس الذى أنزل على موسى ، ليتنى فيها جذعا أكون حيا حين يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : « أومخرجي هم ؟ » . فقال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرأ مؤزرأ . ثم لم ينشب ورقة أن توفي ، وفتر الوحي فترة حتى حزن رسول الله ﷺ - فيما بلغنا - حزناً غدا منه مرارا كى يتردى من رؤوس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقي نفسه منه ، تبدى له جبريل فقال : يا محمد ، إنك رسول الله حقاً . فيسكن بذلك جأشه ، وتقرُّ

(١) في المطبوعة : « بالعبرانية » والمثبت من المسند والمخطوطة .

نفسه فيرجع . فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل ، فقال له مثل ذلك . وهذا الحديث مخرج في الصحيحين^(١).

فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمة المباركات ، وهُنَّ أول رحمة رَحِمَ اللهُ بها العباد ، وأول نعمة أنعم اللهُ بها عليهم . وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقه ، وأن من كَرَّمَهُ تعالى أن عَلمَ الإنسان ما لم يعلم ، فشرفه وكرمه بالعلم ، وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة ، والعلم تارة يكون في الأذهان ، وتارة يكون في اللسان ، وتارة يكون في الكتابة بالبنان ، ذهني ولفظي ورسمي ، والرسمي يستلزمهما من غير عكس ، فلهذا قال : ﴿ أَفَرَأَى رَبُّكَ الْأَكْرَمَ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . وفي الأثر : قيدوا العلم بالكتابة .

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿١﴾ أَنْ رَآهُ اسْتَجْوَى ﴿٢﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ ﴿٣﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٤﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿٥﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ﴿٦﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿٧﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿٩﴾ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٠﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبِيٍّ خَاطِفَةٍ ﴿١١﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٢﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٣﴾ كَلَّا لَا نُطِيعُكَ وَأَسْجُدُ ﴿١٤﴾ وَأَقْرَبُ ﴿١٥﴾ ﴾

سجدة

يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان ، إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله . ثم تهده وتوعده ووعظه فقال : ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ ﴾ أي : إلى الله المصير والمرجع ، وسيحاسبك على مالك : من أين جمعته ؟ وفيم صرفته ؟ ثم قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾ : نزلت في أبي جهل ، لعنه الله ، توعده النبي ﷺ على الصلاة عند البيت ، فوعظه الله تعالى بالتى هي أحسن أولا ، فقال : ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ﴾ أي : فما ظنك إن كان هذا الذى تنهاه على الطريق المستقيمة فى فعله ، أو ﴿ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴾ بقوله ، وأنت تزجره وتوعده على صلواته ؛ ولهذا قال : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ أي : أما علم هذا الناهى لهذا المهتدى أن الله يراه ويسمع كلامه ، وسيجزيه على فعله أتم الجزاء . ثم قال تعالى متوعداً ومتهدداً : ﴿ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ ﴾ أي : لئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد ﴿ لَنَسْفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ أي : لنسمنها سوادا يوم القيامة .

ثم قال : ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِفَةٍ ﴾ يعنى : ناصية أبى جهل كاذبة فى مقالها خاطفة فى فعالها . ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ أي : قومه وعشيرته ، أي : ليدعهم يستنصر بهم ، ﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ : وهم ملائكة العذاب ، حتى يعلم من يغلب : أحزبنا أو حزبه . روى البخارى عن ابن عباس :

(١) المسند (٢٣٢/٦) والبخارى (٣ ، ٤ ، ٤٩٥٣ ، ٤٩٥٥) ومسلم (١٦٠/٢٥٢) .

قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لأطان على عنقه . فبلغ النبي ﷺ ، فقال : « لئن فعله لأخذته الملائكة » . وكذا رواه الترمذى والنسائى وابن جرير (١) . وروى أحمد ، والترمذى وابن جرير - وهذا لفظه - عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يصلى عند المقام فمر به أبو جهل بن هشام فقال: يا محمد، ألم أنك عن هذا ؟ - وتوَعَدَهُ - فأغظ له رسول الله ﷺ وانتهره ، فقال: يا محمد ، بأى شىء تهددنى ؟ أما والله إنى لأكثر هذا الوادى نادياً ! فأنزل الله : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ قال ابن عباس : لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته . وقال الترمذى : حسن صحيح (٢) .

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت رسول الله يصلى عند الكعبة لأتينه حتى أطأ على عنقه. قال: فقال: « لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ، ولو أن اليهود تَمَنَّوْا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يبأهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلاً » (٣) . وروى ابن جرير عن أبى هريرة قال : قال أبو جهل : هل يَعْقُرُ محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا : نعم . قال : فقال : واللوات والعزى لئن رأيت يصلى كذلك لأطان على رقبته ، ولأعقرن وجهه فى التراب ، فأتى رسول الله ﷺ وهو يُصَلِّى ليطأ على رقبته ، قال : فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبه ويتقى بيديه ، قال : فقيل له : ما لك ؟ فقال : إن بينى وبينه خندقا من نار وهولا وأجنحة . قال : فقال رسول الله : « لو دنا منى لأختطفته الملائكة عضواً عضواً » . قال : وأنزل الله - لا أدرى فى حديث أبى هريرة أم لا - : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْفَىٰ ﴾ إلى آخر السورة . وقد رواه أحمد بن حنبل ، ومسلم ، والنسائى (٤) .

وقوله : ﴿ كَلَّا لَا تَطَعَهُ ﴾ يعنى : يا محمد ، لا تطعه فيما ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها، وصلِّ حيث شئت ولا تباله ؛ فإن الله حافظك وناصرك ، وهو يعصمك من الناس ، ﴿ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ ، كما ثبت فى الصحيح - عند مسلم - عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثرُوا الدعاء » (٥) . وتقدم أيضاً : أن رسول الله ﷺ كان يسجد فى : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ و﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ (٦) .

(١) البخارى (٤٩٥٨) والترمذى (٣٣٤٨) والنسائى فى الكبرى (١١٦٨٥) وابن جرير فى التفسير (١٦٥ / ٣٠) .
(٢) المسند (٣٠٠٤٥) والترمذى (٣٣٤٩) وابن جرير فى التفسير (١٦٤ / ٣٠) . وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده صحيح » .

(٣) المسند (٢٢٢٥) وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده صحيح » .

(٤) ابن جرير فى التفسير (١٦٥ / ٣٠) والمسند (٣٧٠ / ٢) ومسلم (٣٨ / ٢٧٩٧) والنسائى فى الكبرى (١١٦٨٣) .

(٥) مسلم (٤٨٢ / ٢١٤) . (٦) مضى تخريج ذلك فى أول سورة الانشقاق .

تفسير سورة القدر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ ﴿٣﴾ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٤﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُوتُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٥﴾ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ ﴿٦﴾ ﴾

يخبر الله تعالى أنه أنزل القرآن ليلة القدر ، وهي الليلة المباركة التي قال الله ، عز وجل : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ ﴾ [الدخان: ٣] وهي ليلة القدر، وهي من شهر رمضان ، كما قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة: ١٨٥] . قال ابن عباس وغيره : أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفصلا بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ .

ثم قال تعالى مُعْظَمًا لشان ليلة القدر ، التي اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها ، فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ . وقال مجاهد : ليلة القدر خير من ألف شهر ، ليس في تلك الشهور ليلة القدر . وهكذا قال قتادة بن دعامة ، والشافعي ، وغير واحد . وقال عمرو بن قيس الملائي : عمل فيها خير من عمل ألف شهر . وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر - وليس فيها ليلة القدر - هو اختيار ابن جرير . وهو الصواب لا ما عدها ، وهو كقوله ﷺ : « رِبَاطُ لَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَنَازِلِ » . رواه أحمد (١) . وكما جاء في قاصد الجمعة بهيئة حسنة ، ونية صالحة : « أَنَّهُ يُكْتَبُ لَهُ عَمَلُ سَنَةٍ ، أَجْرُ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا » إلى غير ذلك من المعاني المشابهة لذلك . ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر ، ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » (٢) .

وقوله : ﴿ نَزَّلَ الْمَلَكُوتُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ أي : يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها ، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة ، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ويحيطون بحلق الذكر ، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيمها له . وأما الروح فقيل : المراد به هاهنا جبريل ، عليه السلام ، فيكون من باب عطف الخاص على العام . وقيل : هم

(١) المسند (٤٧٠) ، وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

(٢) البخاري (١٩٠١) ومسلم (١٧٥/٧٦٠) .

ضرب من الملائكة. كما تقدم في سورة « النبا ». والله أعلم . وقوله: ﴿ من كل أمر ﴾ قال مجاهد: سلام هي من كل أمر . وقال: هي سالمة ، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً أو يعمل فيها أذى . وقال قتادة وغيره: تقضى فيها الأمور ، وتقدر الآجال والأرزاق ، كما قال تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان: ٤] .

وقوله تعالى: ﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطَلَعِ الْفَجْرِ ﴾ عن الشعبي قال: تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد ، حتى يطلع الفجر . وقال قتادة وابن زيد في قوله : ﴿ سَلَامٌ هِيَ ﴾ يعني : هي خير كلها ، ليس فيها شر إلى مطلع الفجر .

فصل: اختلف العلماء : هل كانت ليلة القدر في الأمم السالفة ، أو هي من خصائص هذه الأمة ؟ على قولين :

قال الزهري : حدثنا مالك : أنه بلغه : أن رسول الله ﷺ أرى أعمار الناس قبله - أو : ما شاء الله من ذلك - فكانه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل الذي بلغ غيرهم في طول العمر ، فأعطاه الله ليلة القدر خيراً من ألف شهر (١) . وهذا الذي قاله مالك يقتضى تخصيص هذه الأمة بليلة القدر ، وقد نقله صاحب « العدة » أحد أئمة الشافعية عن جمهور العلماء ، فالله أعلم . وحكى الخطابي عليه الإجماع ، والذي دل عليه الحديث أنها كانت في الأمم الماضية كما هي في امتنا .

روى الإمام أحمد بن حنبل عن مرثد قال : سألت أبا ذر قلت : كيف سألت رسول الله ﷺ عن ليلة القدر ؟ قال : أنا كنت أسأل الناس عنها ، قلت : يا رسول الله ، أخبرني عن ليلة القدر ، أفي رمضان هي أو في غيره ؟ قال : « بل هي في رمضان » . قلت : تكون مع الأنبياء ما كانوا ، فإذا قبضوا رفعت ؟ أم هي إلى يوم القيامة ؟ قال : « بل هي إلى يوم القيامة » . قلت : في أى رمضان هي ؟ قال : « التمسوها في العشر الأول ، والعشر الأواخر » . ثم حدّث رسول الله ﷺ وحدّث ، ثم اهتبلت غفلته قلت : في أى العشرين هي ؟ قال : « ابتغوها في العشر الأواخر ، لا تسألني عن شيء بعدها » . ثم حدّث رسول الله ﷺ ، ثم اهتبلت غفلته فقلت : يا رسول الله ، أقسمت عليك بحقى عليك لَمَّا أخبرتنى في أى العشر هي ؟ فغضب على غضباً لم يغضب مثله منذ صحبتته ، وقال : « التمسوها في السبع الأواخر ، لا تسألني عن شيء بعدها » . ورواه النسائي (٢) .

ففيه دلالة على ما ذكرناه ، وفيه أنها تكون باقية إلى يوم القيامة في كل سنة بعد النبي ﷺ ، لا كما زعمه بعض طوائف الشيعة من رفعها بالكلية ، على ما فهموه من الحديث الذي سنورده بعد من قوله ، عليه السلام : « فرفعت ، وعسى أن يكون خيراً لكم » ؛ لأن المراد رفع علم وقتها عيناً . وفيه دلالة على أنها ليلة القدر يختص وقوعها بشهر رمضان من بين سائر

(٢) المسند (١٧١/٥) والنسائي (٣٤٢٧) .

(١) مالك في الموطأ (٣٢١/١) (١٥) .

الشهور ، لا كما روى عن ابن مسعود ومن تابعه من علماء أهل الكوفة ، من أنها توجد فى جميع السنة ، وترجى فى جميع الشهور على السواء .

فصل : ثم قد قيل : ليلة إحدى وعشرين ؛ لحديث أبى سعيد الخدرى قال : اعتكف رسول الله ﷺ العشر الأول من رمضان واعتكفنا معه ، فاتاه جبريل فقال : إن الذى تطلب أمامك . فاعتكف العشر الأوسط واعتكفنا معه ، فاتاه جبريل فقال : إن الذى تطلب أمامك . ثم قام النبى ﷺ خطيباً صبيحة عشرين من رمضان ، فقال : « من كان اعتكف معى فليرجع ، فإنى رأيت ليلة القدر ، وإنى أنسيتها ، وإنها فى العشر الأواخر فى وتر ، وإنى رأيت كأنى أسجد فى طين وماء » . وكان سقف المسجد جريداً من النخل ، وما نرى فى السماء شيئاً ، فجاءت قزعة فمطرتنا ، فصلى بنا النبى ﷺ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ﷺ تصديق رؤياه . وفى لفظ : « فى صبح إحدى وعشرين » أخرجاه فى الصحيحين (١) . قال الشافعى : وهذا الحديث أصح الروايات .

وقيل : ليلة ثلاث وعشرين ؛ لحديث عبد الله بن أنيس فى « صحيح مسلم » (٢) وهو قريب السياق من رواية أبى سعيد ، فالله أعلم .

وقيل : تكون ليلة خمس وعشرين ؛ لما رواه البخارى ، عن عبد الله بن عباس : أن رسول الله ﷺ قال : « التمسوها فى العشر الأواخر من رمضان ، فى تاسعة تبقى ، فى سابعة تبقى ، فى خامسة تبقى » (٣) . فسره كثيرون بليالى الأوتار ، وهو أظهر وأشهر . وحمله آخرون على الإشفاع كما رواه مسلم عن أبى سعيد ، أنه حملة على ذلك . والله أعلم .

وقيل : إنها تكون ليلة سبع وعشرين ؛ لما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى بن كعب ، عن رسول الله ﷺ : « إنها ليلة سبع وعشرين » (٤) . روى الإمام أحمد عن زرّ : سألت أبى بن كعب قلت : أبا المنذر ، إن أخاك ابن مسعود يقول : من يُقِمُ الحَوْلَ يُصَبُّ ليلة القدر . قال : يرحمه الله ، لقد علم أنها فى شهر رمضان ، وأنها ليلة سبع وعشرين . ثم حلف . قلت : وكيف تعلمون ذلك ؟ قال : بالعلامة - أو : بالآية - التى أخبرنا بها ، تطلع ذلك اليوم لا شعاع لها ، أعنى الشمس . وقد رواه مسلم ، عن أبى ، فذكره ، وفيه : فقال : والله الذى لا إله إلا هو ، إنها لفى رمضان - يحلف بما يستثنى - والله إنى لأعلم أى ليلة القدر هى التى أمرنا رسول الله ﷺ بقيامها ، هى ليلة سبع وعشرين ، وأمرتها أن تطلع الشمس فى صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها (٥) . وفى الباب عن معاوية ، وابن عمر ، وابن عباس ، وغيرهم ، عن رسول الله ﷺ : أنها ليلة سبع وعشرين . وهو قول طائفة من السلف ، وهو الجأزة من مذهب أحمد بن حنبل ، رحمه الله ، وهو رواية عن أبى حنيفة أيضاً . وقد حكى عن بعض

(١) البخارى (٢٠١٨) ومسلم (٢١٣/١١٦٧) . (٢) مسلم (٢١٨/١١٦٨) .

(٣) البخارى (٢٠٢١) . (٤) مسلم (١٧٩/٧٦٢) .

(٥) المسند (١٣٠/٥) ومسلم ، السابق .

السلف أنه حاول استخراج كونها ليلة سبع وعشرين من القرآن ، من قوله : ﴿ هِيَ ﴾ لأنها الكلمة السابعة والعشرون من السورة ، والله أعلم .

وقيل : إنها تكون في ليلة تسع وعشرين . روى أحمد بن حنبل عن أبي هريرة . أن رسول الله ﷺ قال في ليلة القدر: «إنها ليلة سابعة أو تسعة وعشرين ، وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى» (١) . تفرد به أحمد ، وإسناده لا بأس به .

فصل : قال الشافعي في هذه الروايات: صدرت من النبي ﷺ جواباً للسائل إذا قيل له : ألمس ليلة القدر في الليلة الفلانية ؟ يقول: « نعم » . وإنما ليلة القدر ليلة مُعَيَّنَةٌ : لا تنتقل . نقله الترمذي عنه بمعناه . وروى عن أبي قلابة أنه قال: ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر (٢) .

وهذا الذي حكاه عن أبي قلابة نص عليه مالك ، والثوري ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق ابن راهويه ، وأبو ثور ، والمزني ، وأبو بكر بن خزيمة ، وغيرهم . وهو محكى عن الشافعي - نقله القاضي عنه ، وهو الأشبه - والله أعلم . وقد يستأنس لهذا القول بما ثبت في الصحيحين ، عن عبد الله بن عمر : أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر من رمضان ، فقال رسول الله ﷺ : « أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر ، فمن كان متحريراً فليتحررها في السبع الأواخر» (٣) . وفيهما أيضاً عن عائشة ، رضى الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال : « تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي الْوَتْرِ مِنَ الْعَشْرِ الْآخِرِ مِنْ رَمَضَانَ » (٤) . ولفظه للبخاري .

ويحتج للشافعي أنها لا تنتقل ، وأنها معينة من الشهر ، بما رواه البخاري في صحيحه ، عن عبادة بن الصامت قال : خرج رسول الله ﷺ ليخبرنا بليلة القدر ، فتلاحى رجلان من المسلمين ، فقال : « خرجت لأخبركم بليلة القدر ، فتلاحى فلان وفلان ، فرفعت ، وعسى أن يكون خيراً لكم ، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة » (٥) .

وجه الدلالة منه : أنها لو لم تكن معينة مستمرة التعيين ، لما حصل لهم العلم بعينها في كل سنة ، إذ لو كانت تنتقل لما علموا تعيينها إلا ذلك العام فقط ، اللهم إلا أن يقال : إنه إنما خرج ليعلمهم بها تلك السنة فقط .

وقوله : « فتلاحى فلان وفلان فرفعت » : فيه استئناس لما يقال : إن المماراة تقطع الفائدة والعلم النافع .

وقوله : « فرفعت » أى : رفع علم تعيينها لكم ، لا أنها رفعت بالكلية من الوجود ، كما يقوله جهلة الشيعة ؛ لأنه قد قال بعد هذا : « فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة » .

(٢) الترمذي (١٥٩/٣) .

(١) المسند (٥١٩/٢) .

(٤) البخاري (٢٠١٧) ومسلم (٢١٩/١١٦٩) .

(٣) البخاري (٢٠١٥) ومسلم (٢٠٥ / ١١٦٥) .

(٥) البخاري (٢٠٢٣) .

وقوله : « وعسى أن يكون خيراً لكم » يعنى : عدم تعيينها لكم ، فإنها إذا كانت مبهمة اجتهد طلبها فى ابتغائها فى جميع محال رجائها ، فكان أكثر للعبادة ، بخلاف ما إذا علموا عينها فإنها كانت الهمم تتقاصر على قيامها فقط . وإنما اقتضت الحكمة إبهامها لتعم العبادة جميع الشهر فى ابتغائها ، ويكون الاجتهاد فى العشر الأواخر أكثر . ولهذا كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان ، حتى توفاه الله ، عز وجل . ثم اعتكف أزواجه من بعده . أخرجاه من حديث عائشة (١) . ولهما عن ابن عمر : كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان (٢) .

وقالت عائشة : كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر ، أحيا الليل ، وأيقظ أهله ، وشد المنزر . أخرجاه (٣) . ولمسلم عنها : كان رسول الله ﷺ يجتهد فى العشر ما لا يجتهد فى غيره (٤) .

وهذا معنى قولها : « وشد المنزر » . وقيل : المراد بذلك : اعتزال النساء . ويحتمل أن يكون كناية عن الأمرين ، لما رواه الإمام أحمد عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا بقى عشر من رمضان شدَّ منزره ، واعتزل نساءه . انفرد به أحمد (٥) .

والمستحب الإكثار من الدعاء فى جميع الأوقات ، وفى شهر رمضان أكثر ، وفى العشر الأخير منه ، ثم فى أوتاره أكثر . والمستحب أن يكثُر من هذا الدعاء : « اللهم ، إنك عفوٌ تحب العفو ، فاعف عني » ؛ لما رواه الإمام أحمد عن عائشة قالت : يا رسول الله ، إن وافقت ليلة القدر فما أدعو؟ قال : « قولى : اللهم إنك عفوٌ تحب العفو ، فاعف عني » .

وقد رواه الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . وأخرجه الحاكم فى مستدركه ، وقال : هذا صحيح على شرط الشيخين (٦) .

(١) البخارى (٢٠٢٦) ومسلم (٣/١١٧٢) .

(٢) البخارى (٢٠٢٥) ومسلم (١/١١٧١) .

(٣) البخارى (٢٠٢٤) ومسلم (٧/١١٧٤) .

(٤) مسلم (٨/١١٧٥) .

(٥) المسند (٦٦/٦) .

(٦) المسند (٦/١٨٢) والترمذى (٣٥١٣) والنسائى فى الكبرى (١١٦٨٨) وابن ماجه (٣٨٥٠) والحاكم (١/٥٣٠) ، وصححه الألبانى .

تفسير سورة لم يكن

وهي مدنية

روى الإمام أحمد عن أبي حية البدرى - وهو: مالك بن عمرو بن ثابت الأنصارى - قال: لما نزلت: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ إلى آخرها، قال جبريل: يا رسول الله، إن ربك يأمرك أن تقرتها أياً. فقال النبي ﷺ لأبى: «إن جبريل أمرنى أن أقرئك هذه السورة». قال أبى: وقد ذكرت ثم يا رسول الله؟ قال: «نعم». قال: فبكى أبى (١). وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأبى بن كعب: «إن الله أمرنى أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾» قال: وسمانى لك؟ قال: «نعم». فبكى. ورواه البخارى، ومسلم، والترمذى، والنسائى (٢). وروى أحمد عن أبى بن كعب قال: إن رسول الله ﷺ قال لى: «إن الله أمرنى أن أقرأ عليك القرآن». قال: فقراً: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، قال: فقراً فيها: ولو أن ابن آدم سأل وادياً من مال، فأعطيه، لسأل ثانياً، ولو سأل ثانياً فأعطيه لسأل ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب. وإن ذلك الدين عند الله الحنيفية، غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية، ومن يفعل خيراً فلن يكفره. ورواه الترمذى وقال: حسن صحيح (٣).

وإنما قرأ عليه النبي ﷺ هذه السورة تشبهاً له، وزيادة لإيمانه، فإنه - كما رواه، أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى (٤) - كان قد أنكر على عبد الله بن مسعود قراءة شيء من القرآن على خلاف ما قرأه رسول الله ﷺ فرفعه إلى النبي ﷺ فاستقراهما، وقال، لكل منهما: «أصبت». قال أبى: فأخذنى من الشك ولا إذ كنت فى الجاهلية. فضرب رسول الله ﷺ فى صدره، قال أبى: ففضت عرقاً، وكأنا أنظر إلى الله فرقاً. وأخبره رسول الله ﷺ أن جبريل أتاه فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف. فقلت: «أسأل الله معافاته ومغفرته». فقال: على حرفين. فلم يزل حتى قال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف. كما قدمنا ذكر هذا الحديث بطرقه وألفاظه فى أول التفسير. فلما نزلت هذه السورة الكريمة وفيها: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً. فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾، قرأها عليه رسول الله ﷺ قراءة إبلاغ وتشبث وإنذار، لا قراءة تعلم واستذكار، والله أعلم. وهذا كما أن عمر بن الخطاب لما سأل رسول الله ﷺ يوم الحديبية عن تلك الأسئلة، وكان فيما قال: أو لم تكن تخبرنا أنا سنأتى البيت ونظوف به؟ قال: «بلى، فأخبرت أنك أتيت عامك هذا؟».

(١) المسند (٤٨٩/٣).

(٢) المسند (١٣٠/٣) والبخارى (٤٩٥٩) ومسلم (٢٤٥/٧٩٩) والترمذى (٣٧٩٢) والنسائى فى الكبرى (١١٦٩١).

(٣) المسند (١٣١/٥) والترمذى (٣٧٩٣).

(٤) المسند (١٢٧/٥) ومسلم (٢٧٣/٨٢٠) وأبو داود (١٤٧٨) والنسائى (٤٩٠).

قال : لا ، قال : « فإنك آتبه ، ومطوف به » . فلما رجعوا من الحديبية ، وأنزل الله على النبي ﷺ سورة « الفتح » ، دعا عمر بن الخطاب وقرأها عليه ، وفيها قوله : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَدْخُلْنَا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِذَا شَاءَ اللَّهُ آمِينَ ﴾ الآية [الفتح : ٢٧] ، كما تقدم (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ (١)
 رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا
 الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ
 وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ ﴿٥﴾ ﴿٥﴾

أما أهل الكتاب فهم : اليهود والنصارى ، والمشركون : عبدة الأوثان والنيران ، من العرب ومن العجم . وقال مجاهد : لم يكونوا ﴿ منفكين ﴾ يعني : متتهين حتى يتبين لهم الحق . وكذا قال قتادة . ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ أى : هذا القرآن ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ . ثم فسر البيعة بقوله : ﴿ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴾ يعني : محمداً ﷺ ، وما يتلوه من القرآن العظيم ، الذى هو مكتوب فى الملائ الأعلى ، فى صحف مطهرة كقوله : ﴿ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس : ١٣-١٦] .

وقوله : ﴿ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴾ قال ابن جرير : أى فى الصحف المطهرة كتب من الله قيمة عادلة مستقيمة ، ليس فيها خطأ ؛ لأنها من عند الله ، عز وجل . قال قتادة : ﴿ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴾ : يذكر القرآن بأحسن الذكر ، ويثنى عليه بأحسن الثناء . وقال ابن زيد : ﴿ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴾ : مستقيمة معتدلة . وقوله : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴾ كقوله : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٥] يعنى بذلك : أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا ، بعد ما أقام الله عليهم الحجج والبيئات تفرقوا واختلفوا فى الذى أراده الله من كتبهم ، واختلفوا اختلافاً كثيراً .

وقوله : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ كقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الانبيا : ٢٥] ؛ ولهذا قال : حنفاء ، أى : متحنفين عن الشرك إلى التوحيد . كقوله : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] ، وقد تقدم تقرير الحنيف فى سورة « الأنعام » (٢) بما أغنى عن إعادته هاهنا . ﴿ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾

وهى أشرف عبادات البدن ، ﴿ وَيُؤْتُوا الزُّكَاةَ ﴾ وهى الإحسان إلى الفقراء والمحاويج ﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ أى : الملة القائمة العادلة ، أو : الأمة المستقيمة المعتدلة . وقد استدل كثير من الأئمة ، كالزهري والشافعى ، بهذه الآية الكريمة على أن الأعمال داخلة فى الإيمان ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَا أَمُرُوا إِلَّا لِیُعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزُّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ ﴿ ٦ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿ ٧ ﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿ ٨ ﴾

يخبر تعالى عن مآل الفجار ، من كفره أهل الكتاب ، والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة وأنبياء الله المرسله : أنهم يوم القيامة ﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى : ماكثين ، لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿ أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ أى : شر الخليقة التى برأها الله وذراها . ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار - الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بأبدانهم - بأنهم خير البرية . وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء ، على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة ؛ لقوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ .

قال تعالى : ﴿ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أى : يوم القيامة ، ﴿ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أى : بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم ، ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ فيما منحهم من الفضل العميم . وقوله : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ أى : هذا الجزاء حاصل لمن خشى الله واتقاه حق تقواه ، وعبدته كأنه يراه ، قد علم أنه إن لم يره فإنه يراه .

تفسير سورة إذا زلزلت

وهي مكية

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: أتى رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أقرئتني يا رسول الله . قال له: « اقرأ ثلاثاً من ذات الر . فقال له الرجل: كبر سبني واشتد قلبى ، وغلظ لسانى . قال: « فاقرا من ذات حم » ، فقال مثل مقالته الأولى . فقال: « اقرأ ثلاثاً من المسبحات » ، فقال مثل مقالته . فقال الرجل: ولكن أقرئتني - يا رسول الله - سورة جامعة . فأقرأه: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ حتى إذا فرغ منها قال الرجل: والذي بعثك بالحق ، لا أزيد عليها أبداً . ثم أدبر الرجل ، فقال رسول الله ﷺ: « أفلح الرويجل ! أفلح الرويجل ! » ثم قال: « على به » . فجاءه فقال له: « أمرت بيوم الأضحى جعله الله عيداً لهذه الأمة » . فقال له الرجل: أرايت إن لم أجد إلا منيحة أنشى فأضحى بها ؟ قال: « لا ، ولكنك تأخذ من شعرك ، وتقلم أظفارك ، وتقص شاربك ، وتحلق عانتك ، فذاك تمام أضحيتك عند الله ، عز وجل » . وأخرجه أبو داود والنسائي (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

قال ابن عباس: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ أى: تحركت من أسفلها . ﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ يعنى: ألقت ما فيها من الموتى . قاله غير واحد من السلف . وهذه كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج: ١] ، وكقوله: ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ . وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [الانشقاق: ٤، ٣] . وروى مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « تقىء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجىء القاتل فيقول: فى هذا قتلت ، ويجىء القاطع فيقول: فى هذا قطعت رحمى ، ويجىء السارق فيقول: فى هذا قطعت يدى ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً » (٢) .

(١) المسند (٦٥٧٥) وقال الشيخ أحمد شاكر: « إسناده صحيح » وأبو داود (١٣٩٩) والنسائي (٤٣٦٥) .

(٢) مسلم (١٠١٣/١٠٦٢) .

وقوله : ﴿ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴾ أى : استنكر أمرها بعد ما كانت قارة ساكنة ثابتة ، وهو مستقر على ظهرها ، أى : تقلبت الحال ، فصارت متحركة مضطربة ، قد جاءها من أمر الله ما قد أعد لها من الزلزال الذى لا محيد لها عنه ، ثم ألفت ما فى بطنها من الاموات من الأولين والآخرين ، وحينئذ استنكر الناس أمرها وتبدلت الأرض غير الأرض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار . وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ أى : تحدث بما عمل العاملون على ظهرها . روى الإمام أحمد والترمذى عن أبى هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال : « أتدرون ما أخبارها ؟ » . قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها ، أن تقول : عمل كذا وكذا ، يوم كذا وكذا ، فهذه أخبارها » . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب (١) .

وقوله : ﴿ بِأَنَّ رَيْكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ : قال البخارى : أوحى لها وأوحى إليها ، ووحى لها ووحى إليها : واحد (٢) . وكذا قال ابن عباس : ﴿ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ أى : أوحى إليها . والظاهر أن هذا مُضَمَّنٌ بمعنى أذن لها . وقال ابن عباس : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال : قال لها ربها : قولى ، فقالت . وقال مجاهد : ﴿ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ أى : أمرها . وقال القرطبى : أمرها أن تتشق عنهم .

وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا ﴾ أى : يرجعون عن موقف الحساب ، ﴿ أَشْتَاتًا ﴾ أى : أنواعاً وأصنافاً ، ما بين شقى وسعيد ، مأمور به إلى الجنة ، ومأمور به إلى النار . قال ابن جريج : يتصدعون أشتاتاً فلا يجتمعون آخر ما عليهم . وقال السدى : ﴿ أَشْتَاتًا ﴾ : فرقا . وقوله تعالى : ﴿ لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى : ليعملوا ويجازوا بما عملوه فى الدنيا ، من خير وشر . ولهذا قال : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .

روى البخارى عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : « الخليل لثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر ؛ فاما الذى له أجر ، فرجل ربطها فى سبيل الله فأطال طيلها فى مرج أو روضة ، فما أصابت فى طيلها ذلك فى المرج والروضة كان له حسنا ، ولو أنها قطعت طيلها فاستنتت شرفاً أو شرفين ، كانت آثارها وأرواثها حسنات له ، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقى به كان ذلك حسنات له ، وهى لذلك الرجل أجر . ورجل ربطها تَغْنِيًا وتعففاً ، ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها ، فهى له ستر . ورجل ربطها فخراً ورتاء ونواء ، فهى على ذلك وزر » . فسئل رسول الله ﷺ عن الحمر ، فقال : « ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الفاذة الجامعة : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ . ورواه مسلم (٣) .

(١) المسند (٣٧٤/٢) والترمذى (٣٣٥٣) والنسائى فى الكبرى (١١٦٩٣) .

(٢) البخارى (٨ / ٧٢٦ فتح) . (٣) البخارى (٤٩٦٢) ومسلم (٢٤/٩٨٧) .

وفى صحيح البخارى، عن عدى مرفوعا: «اتقوا النار ولو بِشِقِّ تَمْرَةٍ، ولو بكلمة طيبة» (١).
وفى الصحيح: « لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئاً ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستسقى، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط » (٢).

وفى الصحيح أيضاً: « يا نساء المؤمنات ، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة » (٣)
يعنى : ظلّفها .

(٢) مسلم (٢٦٢٦/١٤٤).

(١) البخارى (٧٥١٢).

(٣) البخارى (٢٥٦٦).

تفسير سورة العاديات

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٨﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿٩﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾

يقسم تعالى بالخييل إذا أجريت في سبيله فعدت وضبحت ، وهو : الصوت الذي يسمع من الفرس حين تعدو . ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾ يعني : اصطكاك نعالها للصخر فتقذح منه النار . ﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴾ يعني : الإغارة وقت الصباح ، كما كان رسول الله ﷺ يغير صباحاً ويستمع الأذان ، فإن سمع أذاناً وإلا أغار .

وقوله ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴾ يعني : غباراً في مكان معترك الخيول . ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ أي : توسطن ذلك المكان كلهن جمع . عن عبد الله [بن مسعود] : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ قال : الإبل . وقال علي : هي الإبل . وقال ابن عباس : هي الخيل . فبلغ علياً قول ابن عباس ، فقال : ما كانت لنا خيل يوم بدر . قال ابن عباس : إنما كان ذلك في سرية بعثت .

روى ابن أبي حاتم وابن جرير : عن ابن عباس ، قال : بينا أنا في الحجر جالساً ، جاءني رجل فسألني عن : ﴿ الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ ، فقلت له : الخيل حين تغير في سبيل الله ، ثم تأوى إلى الليل ، فيصنعون طعامهم ، ويورون نارهم . فانفتل عني فذهب إلى علي ، وهو عند سقاية زمزم فسأله عن ﴿ الْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ ، فقال : سألت عنها أحداً قبلي ؟ قال : نعم ، سألت ابن عباس فقال : الخيل حين تغير في سبيل الله . قال : اذهب فادعه لى . فلما وقف على رأسه قال : تفتى الناس بما لا علم لك ، والله لئن كان أول غزوة في الإسلام بدر ، وما كان معنا إلا فرسان : فرس للزبير وفرس للمقداد ، فكيف تكون العاديات ضبْحاً ؟ إنما العاديات ضبْحاً من عرفة إلى المزدلفة ، ومن المزدلفة إلى منى . قال ابن عباس : فتزعت عن قولي ورجعت إلى الذي قال علي ، رضى الله عنه . وقد قال بقول علي : إنها الإبل جماعة . منهم : إبراهيم ، وعبيد بن عمير ويقول ابن عباس آخرون ، منهم : مجاهد وعكرمة ، وعطاء وقتادة ، والضحاك . واختاره ابن جرير . وقال أكثر هؤلاء في قوله : ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾ يعني : بحوافرها . وقيل : أسعرت الحرب بين ركبانهن . قاله قتادة . وعن ابن عباس ومجاهد : ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾

يعنى : مكر الرجال . وقيل : هو إيقاد النار إذا رجعوا إلى منازلهم من الليل . وقيل : المراد بذلك : نيران القبائل . وقال ابن جرير : والصواب الأول ؛ أنها الخيل حين تقدح بحوافرها .

وقوله : ﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : يعنى إغارة الخيل صباحاً فى سبيل الله . وقال من فسرها بالإبل : هو الدفع صباحاً من المزدلفة إلى منى . وقالوا كلهم فى قوله : ﴿ فَاتَّزَنَ بِهِ نَقْعًا ﴾ هو : المكان الذى إذا حلت فيه أثارت به الغبار ، إما فى حج أو غزو . وقوله : ﴿ فَوَسَّطَنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ قال ابن عباس ، وعطاء ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك : يعنى جَمَعَ الكفار من العدو . ويحتمل أن يكون : فوسطن بذلك المكان جَمِيعَهُنَّ ، ويكون ﴿ جَمْعًا ﴾ منصوباً على الحال المؤكدة . وقوله : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ : هذا هو المقسم عليه ، بمعنى : أنه بنعم ربه لجحود كفور . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وإبراهيم النَّخَعِيُّ ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة ، الكنود : الكفور . قال الحسن : هو الذى يعد المصائب ، وينسى نعم ربه . وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ قال قتادة وسفيان الثورى : وإن الله على ذلك لشهيد . ويحتمل أن يعود الضمير على الإنسان ، قاله محمد بن كعب القرظى ، فيكون تقديره : وإن الإنسان على كونه كنوداً لشهيد ، أى : بلسان حاله ، أى : ظاهر ذلك عليه فى أقواله وأفعاله ، كما قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكَفْرِ ﴾ [التوبة: ١٧] .

وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ أى : وإنه لحب الخير - وهو : المال - لشديد . وفيه مذهبان : أحدهما : أن المعنى : وإنه لشديد المحبة للمال . والثانى : وإنه لحريص بخيل ؛ من محبة المال . وكلاهما صحيح . ثم قال تعالى مَزْهَدًا فى الدنيا ، وَمُرْغَبًا فى الآخرة ، ومنبهاً على ما هو كائن بعد هذه الحال ، وما يستقبله الإنسان من الأهوال : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَمًا فِي الْقُبُورِ ﴾ أى : أخرج ما فيها من الأموات ، ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ قال ابن عباس وغيره : يعنى أبرز وأظهر ما كانوا يسرون فى نفوسهم ، ﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ أى : العالم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون ، ومجازيهم عليه أوفر الجزاء ، ولا يظلم مثقال ذرة .

تفسير سورة القارعة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ
النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾
فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾
فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿١٠﴾ نَارًا حَامِيَةً ﴿١١﴾ ﴾

﴿ القارعة ﴾ : من أسماء القيامة ، كالخاقة ، والطامة ، والصاخة ، والغاشية ، وغير ذلك .

ثم قال تعالى معظماً أمرها ومهولاً لشأنها : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ ثم فسر ذلك بقوله : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ أى : فى انتشارهم وتفرقهم ، وذهابهم ومجيتهم ، من حيرتهم مما هم فيه ، كأنهم فراش مبثوث ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴾ [الفر: ٧] . وقوله : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ يعنى : قد صارت كأنها الصوف المنفوش ، الذى قد شرع فى الذهاب والتمزق . قال مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبیر ، والحسن ، وقتادة : ﴿ الْعِهْنُ ﴾ : الصوف .

ثم أخبر تعالى عما يؤول إليه عمل العاملين ، وما يصيرون إليه من الكرامة أو الإهانة ، بحسب أعمالهم ، فقال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ أى : رجحت حسناته على سيئاته ، ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ يعنى : فى الجنة . ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ أى : رجحت سيئاته على حسناته . وقوله : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ قيل : معناه : فهو ساقط هاو بأم رأسه فى نار جهنم . وَعَبَّرَ عَنْهُ بِأَمِهِ - يعنى دماغه - روى نحو هذا عن ابن عباس ، وعكرمة ، وقتادة ، قال قتادة : يهوى فى النار على رأسه . وقيل : معناه : ﴿ فَأُمُّهُ ﴾ التى يرجع إليها ، ويصير فى المعاد إليها ﴿ هَاوِيَةٌ ﴾ ، وهى اسم من أسماء النار . قال ابن جرير : وإنما قيل : للهاوية أمه ؛ لأنه لا ماوى له غيرها . وقال ابن زيد : الهاوية : النار ، هى أمه وماواه التى يرجع إليها ويأوى إليها ، وقرأ : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ [آل عمران: ١٥١] . وعن قتادة أنه قال : هى النار ، وهى ماواهم . ولهذا قال تعالى مفسراً للهاوية : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ . نَارًا حَامِيَةً ﴾ أى : حارة شديدة الحر ، قوية اللهب والسعير . عن أبى هريرة : أن النبى ﷺ قال : « نار بنى آدم التى تُوقدون جزء من سبعين جزء من نار جهنم » . قالوا : يا رسول الله ، إن كانت لكافية . فقال : « إنها فُضِّلَتْ عليها بتسعة

« وستين جزءاً » . رواه البخارى وفي بعض ألفاظه: « إنها فُضلت عليها بتسعة وستين جزءاً ، كلهن مثل حرّها » (١) .

وروى الإمام أحمد : عن أبي هريرة قال : سمعت أبا القاسم رضي الله عنه يقول : « نار بنى آدم التي توقدون ، جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » . فقال رجل : إن كانت لكافية . فقال : « لقد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً حرّاً فحرّاً » . تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وهو على شرط مسلم (٢) . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، وضربت بالبحر مرتين ، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد » . وهذا على شرط الصحيحين ، ولم يخرجوه من هذا الوجه ، وقد رواه مسلم (٣) . وقد روى الإمام أحمد : عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « هذه النار جزء من مائة جزء من جهنم » (٤) . تفرد به أيضاً من هذا الوجه ، وهو على شرط مسلم أيضاً . وروى أبو القاسم الطبراني عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتدرون ما مثل ناركم هذه من نار جهنم ؟ لهى أشد سواداً من دخان ناركم هذه بسبعين ضعفاً » (٥) . وثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اشتكت النار إلى ربها فقالت : يا رب ، أكل بعضى بعضاً ، فأذن لها بنفسين : نفس في الشتاء ، ونفس في الصيف . فأشد ما تجدون في الشتاء من بردها ، وأشد ما تجدون في الصيف من حرها » (٦) . وفي الصحيحين : « إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة ، فإن شدة الحر من فيح جهنم » (٧) .

(١) البخارى (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣/٣٠) .

(٢) المسند (٢٤٤/٢) ومسلم (٢٨٤٣/٣٠) .

(٣) المسند (٣٧٩/٢) .

(٤) المسند (٤٨٤٣) وقال الهيثمي في الزوائد (١٠ / ٣٩٠) : « رجاله رجال الصحيح » .

(٥) البخارى (٣٢٦٠) .

(٦) البخارى (٥٣٣) ومسلم (١٨٠ / ٦١٥) .

تفسير سورة التكاثر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ﴾ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾
 ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾
 ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُنسَلْنَ يُومِئذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴿١﴾

يقول تعالى: اشغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها ، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر ، وصرتم من أهلها؟! وقال الحسن البصرى : ﴿ أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ في الاموال والاولاد . وفي صحيح البخارى عن أبى بن كعب قال : كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت : ﴿ أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ . يعنى : « لو كان لابن آدم واد من ذهب » (١) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن الشَّخِير ، عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : « ﴿ أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ » ، يقول ابن آدم : مالى مالى . وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأنيت ، أو لبست فأبلت ، أو تصدقت فأمضيت ؟ » . ورواه مسلم والترمذى (٢) .

وروى مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول العبد : مالى مالى ! وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأنى ، أو لبس فأبلى ، أو تصدق فاقنتى (٣) ، وما سوى ذلك فذاهب وتاركة للناس » . تفرد به مسلم (٤) . وروى البخارى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « يتبع الميت ثلاثة ، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد : يتبعه أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله ، ويبقى عمله » . وكذا رواه مسلم والترمذى (٥) . وروى الإمام أحمد عن أنس : أن النبى ﷺ قال : « يهرم ابن آدم وتبقى منه اثنان : الحرص والأمل » . أخرجاه فى الصحيحين (٦) . والمراد بقوله : ﴿ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ أى : صرتم إليها ودفنتم فيها ، كما جاء فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعوده ، فقال : « لا بأس ، ظهور

(١) البخارى (٦٤٣٧) .

(٢) المسند (٢٤/٤) ومسلم (٣/٢٩٥٨) والترمذى (٣٣٥٤)

(٣) فى المطبوعة : « فأمضى » والمثبت من المخطوطة ومسلم .

(٤) مسلم (٤/٢٩٥٩) .

(٥) البخارى (٦٥١٤) ومسلم (٥/٢٩٦٠) والترمذى (٢٣٧٩) .

(٦) المسند (١١٥/٣) والبخارى (٦٤٢١) ومسلم (١١٦/١٠٤٧) .

إن شاء الله . فقال : قلت : طهور؟! بل هي حمى تفور ، على شيخ كبير ، تزيه القبور ! قال : «فَتَعَمَّ إِذَا» (١) .

وقوله : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ قال الحسن البصرى : هذا وعيد بعد وعيد . وقال الضحاك : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعنى : الكفار ، ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعنى : أيها المؤمنون .

وقوله : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ أى : لو علمتم حق العلم ، لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة ، حتى صرتم إلى المقابر . ثم قال : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ هذا تفسير الوعيد المتقدم ، وهو قوله : ﴿ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ توعدهم بهذا الحال ، وهى رؤية النار (٢) ، التى إذا زفرت زفرة خَرَ كل ملك مقرب ، ونبى مرسل على ركبته ، من المهابة والعظمة ومعاناة الأهوال . وقوله : ﴿ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ أى : ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم ، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك . ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته .

وروى ابن جرير عن أبى هريرة قال : بينما أبو بكر وعمر جالسان ، إذ جاءهما النبى ﷺ فقال : « ما أجلسكما هاهنا ؟ » قالا : « الذى بعثك بالحق ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع . قال : «والذى بعثنى بالحق ما أخرجنى غيره » . فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار ، فاستقبلتهم المرأة ، فقال لها النبى ﷺ : « أين فلان ؟ » فقالت : ذهب يستعذب لنا ماء . فجاء صاحبهم يحمل قربته فقال : مرحبا ، ما زار العباد أفضل من شىء زارنى اليوم . فعلق قربته بكرب نخلة ، وانطلق فجاءهم بعدق ، فقال النبى ﷺ : « ألا كنت اجتنبت ؟ » فقال : أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم . ثم أخذ الشفرة ، فقال النبى ﷺ : « إياك والحلوب ؟ » فذبح لهم يومئذ ، فأكلوا . فقال النبى ﷺ : « لتسألن عن هذا يوم القيامة . أخرجكم من بيوتكم الجوع ، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا ، فهذا من النعيم » ورواه مسلم وأهل السنن (٣) . وروى أحمد عن معاذ بن عبد الله بن حبيب ، عن أبيه ، عن عمه قال : كنا فى مجلس فطلع علينا النبى ﷺ وعلى رأسه أثر ماء ، فقلنا : يا رسول الله ، نراك طيب النفس . قال : « أجل » . قال : ثم خاض الناس فى ذكر الغنى ، فقال رسول الله ﷺ : « لا بأس بالغنى لمن اتقى الله ، والصحة لمن اتقى الله خير من الغنى ، وطيب النفس من النعيم » . ورواه ابن ماجه (٤) . وروى الترمذى عن أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ : « إن أول ما يسأل

(١) البخارى (٥٦٦٢ ، ٥٦٥٦ ، ٧٤٧٠) .

(٢) فى المطبوعة : « رؤية أهل النار » . ولا معنى لزيادة « أهل » .

(٣) ابن جرير فى التفسير (١٨٥ / ٣٠) ومسلم (٢٠٣٨ / ١٤٠) وأبو داود (٥١٢٨) والترمذى (٢٣٦٩) ، (٢٨٢٢) .

(٤) المسند (٣٧٢ / ٥) وابن ماجه (٢١٤١) وفى زوائد البوصيرى : « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » .

عنه - يعنى يوم القيامة - العبد من النعيم أن يقال له : ألم نُصِحِّحْ لك جسمك ، ونُرَوِّكَ من الماء البارد ؟ . ورواه ابن حبان فى صحيحه (١) . وعن عبد الله بن الزبير قال : قال الزبير : لما نزلت : ﴿ تُمْ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ ، قالوا : يا رسول الله ، لأى نعيم نسال عنه ، وإنما هما الأسودان التمر والماء ؟ قال : « إن ذلك سيكون » . رواه الترمذى وابن ماجه وأحمد ، وقال الترمذى : حسن (٢) . وقال سعيد بن جبیر : حتى عن شربة عسل . وقال مجاهد : عن كل لذة من لذات الدنيا . وقال الحسن البصرى : نعيم الغداء والعشاء ، وقال أبو قلابة : من النعيم أكل العسل والسمن بالخبز النقى . وقول مجاهد هذا أشمل هذه الأقوال .

وقال ابن عباس : ﴿ تُمْ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ النعيم : صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، يسأل الله العباد فيما استعملوها ، وهو أعلم بذلك منهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] . وثبت فى صحيح البخارى ، وسنن الترمذى وابن ماجه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » (٣) . ومعنى هذا : أنهم مقصرون فى شكر هاتين النعمتين ، لا يقومون بواجبهما ، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه ، فهو مغبون . وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « يقول الله ، عز وجل - يوم القيامة : يا بن آدم ، حملتكم على الخيل والإبل ، وزوجتكم النساء ، وجعلتكم ترابع وترأس ، فأين شكر ذلك ؟ » (٤) . تفرد به من هذا الوجه .

(١) الترمذى (٣٣٥٨) وصححه الألبانى وابن حبان فى صحيحه (٧٣٢٠ إحصان) .

(٢) الترمذى (٣٣٥٦) وابن ماجه (٤١٥٨) وحسنه الألبانى وهو فى المسند (٤٢٩/٥) .

(٣) البخارى (٦٤١٢) . والترمذى (٤١٣٣) وابن ماجه (٤١٧٠) .

(٤) المسند (٤٩٢/٢) . ورواه مسلم (٤٩٦٨/١٦) .

تفسير سورة العصر

وهي مكية

روى الطبراني عن عبد الله بن حصن قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا، لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر « سورة العصر » إلى آخرها ، ثم يسلم أحدهما على الآخر (١) . وقال الشافعي لو تدبر الناس هذه السورة ، لو سعتهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿١﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٢﴾ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴿٤﴾

العصر : الزمان الذي يقع فيه حركاتُ بنى آدم ، من خير وشر . وقال زيد بن أسلم : هو العشى ، والمشهور الأول .

فأقسم تعالى بذلك على أن الإنسان لفي خسر، أى : فى خسارة وهلاك ، ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، ﴿ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ وهو أداء الطاعات ، وترك المحرمات ، ﴿ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ على المصائب والأقدار ، وأذى من يؤذى ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر .

(١) الطبراني فى الأوسط (٥٠٩٧) .

تفسير سورة ويل لكل همزة لمزة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيَلِّ يَكُلُ هُمَزَةً لَمَزَةٌ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾ ﴾

الهماز بالقول ، واللماز بالفعل . يعنى: يزدري الناس ويتقصص بهم . وقد تقدم بيان ذلك فى قوله : ﴿ هَمَزَ مَشَاءَ يَنْمِيمِ ﴾ [القلم : ١١] .

قال ابن عباس: ﴿ هُمَزَةٌ لَمَزَةٌ ﴾ : طعان معياب . وقال الربيع بن أنس: الهمزة : يهمزه فى وجهه ، واللمزة من خلفه . وقال قتادة : يهمزه ويلمزه بلسانه وعينه ، ويأكل لحوم الناس ، ويطعن عليهم . وقال مجاهد : الهمزة : باليد والعين ، واللمزة : باللسان . وهكذا قال ابن زيد ، وزيد ابن أسلم : هُمَزَةٌ لَحُومِ النَّاسِ . ثم قال بعضهم: المراد بذلك الأخنس بن شريق . وقيل غيره . وقال مجاهد : هى عامة .

وقوله : ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴾ أى : جمعه بعضه على بعض ، وأحصى عدده كقوله : ﴿ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ﴾ [المعارج : ١٨] . قاله السدى ، وابن جرير . وقال محمد بن كعب فى قوله : ﴿ جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴾ : ألهاه ماله بالنهار ، هذا إلى هذا ، فإذا كان الليل ، نام كأنه جيفة منتنة .

وقوله : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ أى : يظن أن جمعه المال يخلده فى هذه الدار ؟ ﴿ كَلَّا ﴾ أى : ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب . ثم قال تعالى : ﴿ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾ أى : ليلقين هذا الذى جمع مالا فعدده فى الحطمة وهى اسم طبقة من أسماء النار؛ لأنها تحطم من فيها . ولهذا قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ . نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ . الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴾ قال ثابت البناني : تحرقهم إلى الأفئدة وهم أحياء ، ثم يقول : لقد بلغ منهم العذاب ، ثم يبكى . وقال محمد بن كعب : تأكل كل شئ من جسده ، حتى إذا بلغت فواده حَذَوَ حلقة ترجع على جسده .

وقوله : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴾ أى : مطبقة كما تقدم تفسيره فى سورة البلد .

وقوله : ﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ قال عطية العوفى : عمد من حديد . وقال السدى : من نار . وعن ابن عباس : ﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ يعنى : الأبواب هى الممدودة . وقال قتادة فى قراءة عبد الله

ابن مسعود : إنها عليهم مؤصدة بعمد ممدّة . وقال العوفى ، عن ابن عباس : أدخلهم فى عمّد فمدت عليهم بعماد ، وفى أعناقهم السلاسل فسدت بها الأبواب . وقال قتادة : كنا نحدث أنهم يعذبون بعمد فى النار . واختاره ابن جرير . وقال أبو صالح : ﴿ فى عمّدٍ مُمدّةٍ ﴾ ، يعنى القيود الطوال .

تفسير سورة الفيل

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ نَرَكَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾

هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش ، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل ، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود ، فأبادهم الله ، وأرغم آثافهم ، وخيب سعيهم ، وأضل عملهم ، وردهم بشر خيبة . وكانوا قوما نصارى ، وكان دينهم إذ ذلك أقرب حالا مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان . ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال ، لسان حال القدرة يقول : لم ينصركم - يا معشر قريش - على الحبشة لخيريتكم عليهم ، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد ﷺ خاتم الأنبياء .

وهذه قصة أصحاب الفيل هميلي وجلا الإيجاز والاختصار والتقريب ، وقد تقدم في قصة أصحاب الأخدود: أن ذا نُوَّاس - وكان آخر ملوك حمير ، وكان مشركاً - هو الذي قتل أصحاب الأخدود ، وكانوا نصارى ، وكانوا قريياً من عشرين ألفاً ، فلم يفلت منهم إلا دوس ذو ثعلبان ، فذهب فاستغاث بقيصر ملك الشام وكان نصرانياً - فكتب له إلى النجاشي ملك الحبشة ، لكونه أقرب إليهم ، فبعث معه أميرين : أرباط وأبرهة بن الصباح أبا يكسوم ، في جيش كثيف ، فدخلوا اليمن فجاسوا خلال الديار ، واستلبوا الملك من حمير ، وهلك ذو نواس غريقاً في البحر . واستقل الحبشة بملك اليمن وعليهم هذان الأميران : أرباط وأبرهة ، فاختلفا في أمرهما وتصالوا وتقاتلا وتصافا ، فقال أحدهما للآخر : إنه لا حاجة بنا إلى اصطدام الحبشين بيننا ، ولكن ابرز إلى وأبرز إليك ، فأينا قتل الآخر استقل بعده بالملك . فأجابه إلى ذلك فتبارزا ، وخَلَفَ كل واحد منهما قناة ، فحمل أرباط على أبرهة فضربه بالسيف ، فشرم أنفه وقمه وشق وجهه ، وحمل عتودة مولى أبرهة على أرباط فقتله ، ورجع أبرهة جريحاً ، فداوى جرحه فبرأ ، واستقل بتدبير جيش الحبشة باليمن . فكتب إليه النجاشي يلومه على ما كان منه ، ويتوعده ويحلف ليطان بلاده ويجز ناصيته . فأرسل إليه أبرهة يترقق له ويصانعه ، وبعث مع رسوله بهدايا وتحف ، ويجراب فيها من تراب اليمن ، وجز ناصيته فأرسلها معه ،

ويقول في كتابه : ليطأ الملك على هذا الجراب فيسير قسمه ، وهذه ناصيتي قد بعثت بها إليك . فلما وصل ذلك إليه أعجبه منه ، ورضى عنه ، وأقره على عمله . وأرسل أبرهة يقول للنجاشي : إني سأبنى لك كنيسة بأرض اليمن لم يُبْنَ قبلها مثلها . فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء ، ربيعة البناء ، عالية الفناء ، مزخرفة الأرجاء . سمّتها العرب القُدَيْس ؛ لارتفاعها ، لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها . وعزم أبرهة الأشرم على أن يصرف حجّ العرب إليها كما يحج إلى الكعبة بمكة ، ونادى بذلك في مملكته ، فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك ، وغضبت قريش غضباً شديداً ، حتى قصدها بعضهم ، وتوصل إلى أن دخلها ليلاً . فأحدث فيها وكرّ راجعاً . فلما رأى السدنة ذلك الحدث رفعوا أمرهم إلى ملكهم أبرهة ، وقالوا له : إنما صنع هذا بعض قريش غضباً لبيتهم الذي ضاهيت هذا به ، فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة ، وليخربنه حجراً حجراً .

وذكر مقاتل بن سليمان : أن فتية من قريش دخلوا فأججوا فيها ناراً ، وكان يوماً فيه هواء شديد فاحترقت ، وسقطت إلى الأرض .

فتأهب أبرهة لذلك ، وصار في جيش كثيف عرّمرم لثلا يصدّه أحد عنه ، واستصحب معه فيلاً عظيماً كبير الجثة لم ير مثله . يقال له : محمود . وكان قد بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة لذلك ، ويقال : كان معه أيضاً ثمانية أفيال ، وقيل : اثنا عشر فيلاً غيره ، فإله أعلم .

يعنى ليهدم به الكعبة ، بأن يجعل السلاسل في الأركان ، وتوضع في عُنُق الفيل ، ثم يزجر ليلقى الحائط جملة واحدة . فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا ذلك جداً ، ورأوا أن حقاً عليهم المحاجة دون البيت ، ورَد من أراد به كيد . فخرج إليه رجل من أشرف أهل اليمن وملوكهم ، يقال له « ذُو نَفَر » فدعا قومه ومن آجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة ، وجهاده عن بيت الله ، وما يريد من هدمه وخرابه . فأجابوه وقاتلوا أبرهة ، فهزّمهم لما يريد الله - عز وجل - من كرامة البيت وتعظيمه ، وأسر « ذُو نَفَر » فاستصحبه معه . ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم اعترض له نُفَيْل بن حَبِيب الخثعمي في قومه : شَهْرَان (١) وناهس ، فقاتلوه ، فهزّمهم أبرهة ، وأسر نُفَيْل بن حَبِيب ، فأراد قتله ثم عفا عنه ، واستصحبه معه ليدله في بلاد الحجاز . فلما اقترب من أرض الطائف ، خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم ، الذي عندهم ، الذي يسمونه اللات . فأكرمهم وبعثوا معه « أبا رَغَال » دليلاً . فلما انتهى أبرهة إلى المُعَمْس - وهو قريب من مكة - نزل به وأغار جيشه على سَرَح أهل مكة من الإبل وغيرها ، فأخذوه . وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب . وكان الذي أغار على السرح بأمر أبرهة أمير المقدمة ، وكان يقال له : « الأسود بن مَفْصُود » فهجاه بعض العرب - فيما ذكره ابن إسحاق - وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة ، وأمره أن يأتيه

(١) في المطبوعة : « شهدان » بالبدال المهملة بعد الهاء ، وهو خطأ . قال في القاموس : « وشَهْرَان بن غَيْرِس أبو قبيلة من خثعم » (مادة : شهر) .

بأشرف قريش ، وأن يخبره أن الملك لم يجئ لقتالكم إلا أن تصدوه عن البيت . فجاء حنافة فدل على عبد المطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال ، فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربته ، وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم ، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمة ، وإن يخلى بينه وبينه ، فوالله ما عندنا دَفْعُ عنه . فقال له حنافة : فاذهب معي إليه . فذهب معه ، فلما رآه أبرهة أجله ، وكان عبد المطلب رجلاً جميلاً (١) حسن المنظر ، ونزل أبرهة عن سريره ، وجلس معه على البساط ، وقال لترجمانه : قل له : ما حاجتك ؟ فقال لترجمان : إن حاجتي أن يردّ علىّ الملك مائتي بعير أصابها لى . فقال أبرهة لترجمانه : قل له : لقد كنت أعجبتني حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه ، لا تكلمني فيه ! فقال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربا سيمنعه . قال : ما كان ليمنع مني ! قال : أنت وذاك .

ويقال : إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشرف العرب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت ، فأبى عليهم ، ورد أبرهة على عبد المطلب إبله ، ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة ، والتحصن في رؤوس الجبال ، تخوفاً عليهم من مَعْرَةِ الجيش . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، وقال عبد المطلب وهو أخذ بحلقة باب الكعبة :

لَا هُمْ إِنْ الْمِرَّةَ يَمُ نَعُ رَحْلَهُ فَاَمْنَعُ حِلَالِكَ
لَا يَغْلِبُنَّ صَالِيَهُمْ وَمَحَالُهُمْ غَدَاؤًا مِحَالِكَ

قال ابن إسحاق : ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب ، ثم خرجوا إلى رؤوس الجبال . وذكر مقاتل بن سليمان أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مقلّدة ، لعل بعض الجيش ينال منها شيئاً بغير حق ، فينتقم الله منه .

فلما أصبح أبرهة تهباً لدخول مكة ، وهياً فيله - وكان اسمه محموداً - وعبا جيشه ، فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال : « ابرك محمود ، أو ارجع راشداً من حيث جئت ، فإنك في بلد الله الحرام » . ثم أرسل أذنه ، فبرك الفيل . وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد في الجبل . وضربوا الفيل ليقوم فأبى . فضربوا في رأسه بالطبرزين وأدخلوا محاجن لهم في مرقاه فبزغوه بها ليقوم ، فأبى ، فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول . ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك . ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك . ووجهوه إلى مكة فبرك . وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف

(١) في المطبوعة : « جسيما » والثبت من المخطوطة .

والبأسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر فى منقاره ، وحجران فى رجله ، أمثال الحمص والعدس ، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك ، وليس كلهم أصابت . وخرجوا هاربين يتندرون الطريق ، ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق . هذا ونفيل على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز ، ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النعمة ، وجعل نفيل يقول :

أَيْنَ الْمَفْرُوقُ ؟ وَالإلهُ الطَّالِبُ
وَالأشْرُمُ الْمَغْلُوبُ غيرُ الغالبِ

قال ابن إسحاق : وقال نفيل فى ذلك أيضاً :

الْأَحْيَيْتِ عَنَّا يَا رُدَيْنَا	نَعْمَنَّاكُمْ مَعَ الْإِصْبَاحِ عَيْنَا
رُدَيْنَةُ ، لَو رَأَيْتَ - وَكَأ تَرِيئِهِ	لَدَى جَنْبِ الْمُحْصَبِ - مَا رَأَيْنَا
إِذَا لَعَدَّرْتَنِي وَحَمَدْتَ أَمْرِي	وَكَمْ تَأْسَى عَلَى مَا فَاتَ بَيْنَنَا
حَمَدْتُ اللَّهَ إِذْ أَبْصَرْتُ طَيْراً	وَحَفَّتْ حَجَّارَةٌ تُلْقَى عَلَيْنَا
فَكَلَّ الْقَوْمُ يَسْأَلُ عَن نَفِيلِ	كَأَنَّ عَلَى الْحِشَّانِ دَيْنَنَا !

وذكر الواقدى بإسناده أنهم لما تعبوا لدخول الحرم وهيؤوا الفيل ، جعلوا لا يصرفونه إلى جهة من سائر الجهات إلا ذهب فيها ، فإذا وجهوه إلى الحرم رُبض وصاح . وجعل أبرهة يحمل على سائس الفيل وينهره ويضربه ، ليقهر الفيل على دخول الحرم . وطال الفصل فى ذلك . هذا وعبد المطلب وجماعة من أشرف مكة ، منهم المطعم بن عدى ، وعمرو بن عائد ابن عمران بن مخزوم ، ومسعود بن عمرو الثقفى ، على حراء ينظرون إلى ما الحبشة يصنعون ، وماذا يلقون من أمر الفيل ، وهو العجب العجاب . فبينما هم كذلك ، إذ بعث الله عليهم طيراً أبابيل ، أى قطعاً قطعاً صفراً دون الحمام ، وأرجلها حمر ، ومع كل طائر ثلاثة أحجار ، وجاءت فحلقت عليهم ، وأرسلت تلك الأحجار عليهم فهلكوا .

وقال محمد بن كعب : جاؤوا بفيلين فأما محمود فربض ، وأما الآخر فشجع فحصب . وقال وهب بن منبه : كان معهم فيلة ، فأما محمود - وهو فيل الملك - فربض ، ليقتدى به بقية الفيلة ، وكان فيها فيل تشجع فحصب ، فهربت بقية الفيلة . وقال عطاء بن يسار ، وغيره : ليس كلهم أصابه العذاب فى الساعة الراهنة ، بل منهم من هلك سريعاً ، ومنهم من جعل يتساقط عضواً عضواً وهم هاريون ، وكان أبرهة ممن تساقط عضواً عضواً ، حتى مات ببلاد خثعم .

وقال ابن إسحاق : فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون على كل منهل ، وأصيب أبرهة فى جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون .

وذكر مقاتل بن سليمان : أن قريشاً أصابوا مالا جزيلاً من أسلابهم ، وما كان معهم ، وأن عبد المطلب أصاب يومئذ من الذهب ما ملى حفرة . وقال ابن إسحاق : وحدثني يعقوب

ابن عُبَيْة : أنه حدث أن أول ما رُوِيَت الحَصْبَة والجُدْرى بأرض العرب ذلك العام . وهكذا روى عن عكرمة ، من طريق جيد . قال ابن إسحاق : فلما بعث الله محمدا ﷺ كان فيما يُعَدُّ به على قريش من نعمته عليهم وفضله ، ما ردّ عنهم من أمر الحبشة ، لبقاء أمرهم ومدتهم ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلِيلٍ . وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ . ﴿ لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا ربَّ هذا البيت . الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَأَمَّنَّهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [سورة قريش] أى : لثلا يغير شيئا من حالهم التى كانوا عليها ، لما أراد الله بهم من الخير لو قبلوه .

قال ابن هشام: الأبايل: الجماعات ، ولم تتكلم العرب بواحدة . قال: وأما السجيل ، فأخبرنى يونس النحوى وأبو عبيدة أنه عند العرب : الشديد الصلب . قال : وذكر بعض المفسرين أنهما كلمتان بالفارسية ، جعلتهما العرب كلمة واحدة ، وإنما هو سنج وجل يعنى بالسنج : الحجر ، والجِلُّ : الطين . يقول : الحجارة من هذين الجنسين : الحجر والطين . قال : والعصفُ : ورقُ الزرع الذى لم يُقْضَب ، واحدته عصفة . انتهى ما ذكره . وقال ابن عباس ، والضحاك : أبابيل : يتبع بعضها بعضا . وقال الحسن البصرى ، وقاتدة : الأبايل : الكثيرة . وقال مجاهد : أبابيل : شتى متتابعة مجتمعة . وقال ابن زيد : الأبايل : المختلفة ، تأتى من هاهنا ، ومن هاهنا ، أنتهم من كل مكان . وقال السُّدِّي ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿ حِجَارَةٌ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ قال : طين فى حجارة .

وقوله : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ قال سعيد بن جبير : يعنى التبن الذى تسميه العامة : هبور . وفى رواية عن سعيد : ورق الحنطة . وعنه أيضاً : العصف : التبن . والمأكول : القصيل يجز للدواب . وكذلك قال الحسن البصرى . وعن ابن عباس : العصف : القشرة التى على الحبة ، كالغلاف على الحنطة .

والمعنى : أن الله ، سبحانه وتعالى ، أهلكتهم ودمرهم ، وردهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيراً ، وأهلك عامتهم ، ولم يرجع منهم بخير إلا وهو جريح ، كما جرى لملكهم أبرهة ، فإنه انصدع صدره عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء ، وأخبرهم بما جرى لهم ، ثم مات . فملك بعده ابنه يكسوم ، ثم من بعده أخوه مسروق بن أبرهة . ثم خرج سيف بن ذى يزن الحميرى إلى كسرى فاستعانه على الحبشة ، فأنفذ معه من جيوشه فقاتلوا معه ، فرد الله إليهم ملكهم ، وما كان فى آبايهم من الملك ، وجاءته وفود العرب بالتهنئة .

وقد قدمنا فى تفسير « سورة الفتح » (١) أن رسول الله ﷺ لما أطل يوم الحديبية على الثنية التى تهبط به على قريش ، بركت ناقته ، فزجروها فألحَّت ، فقالوا : خلأت القصواء ، أى : حرَّت . فقال رسول الله ﷺ : « ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها

(١) راجع تفسير الآية (٢٦) .

حابس الفيل . ثم قال : «والذى نفسى بيده ، لا يسألونى اليوم خطة يُعَظَمون فيها حُرُمات الله ، إلا أُجبتهم إليها » . ثم زجرها فقامت . والحديث من أفراد البخارى (١) .

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة : « إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسلَّط عليها رسوله والمؤمنين ، وإنه قد عادت حُرْمَتُها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب » (٢) .

(٢) البخارى (١١٢) ومسلم (٤٤٧ / ١٣٥٥) .

(١) وهو فى البخارى (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

تفسير سورة لإيلاف قريش

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لِإِيْلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ ﴿ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ ﴿

هذه السورة متعلقة بما قبلها . كما صرح بذلك محمد بن إسحاق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ لأن المعنى عندهما : حبسنا عن مكة الفيل وأهلكنا أهله ﴿ لإيلاف قريش ﴾ أى : لانتلافهم واجتماعهم فى بلدهم آمنين .

وقيل : المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة فى الشتاء إلى اليمن ، وفى الصيف إلى الشام فى المتاجر وغير ذلك ، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين فى أسفارهم ؛ لعظمتهم عند الناس ، لكونهم سكان حرم الله ، فمن عرفهم احترمهم ، بل من صوفى إليهم وسار معهم أمن بهم . هذا حالهم فى أسفارهم ورحلتهم فى شتائهم وصيفهم . وأما فى حال إقامتهم فى البلد ، فكما قال تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّأْمُونًا يَتَخَفُّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : ٦٧] . ولهذا قال : ﴿ لإيلاف قريش . إيلافهم ﴾ ، بدل من الأول ومفسر له . ولهذا قال : ﴿ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴾ .

وقال ابن جرير : الصواب أن « اللام » لام التعجب ، كأنه يقول : اعجبوا لإيلاف قريش ونعمتى عليهم فى ذلك . قال : وذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان منفصلتان مستقلتان .

ثم أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة فقال : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ أى : فليوحده بالعبادة ، كما جعل لهم حرما آمنا وبيتا محرما ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ عَبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : ٩١] .

وقوله : ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ ﴾ أى : هو رب البيت ، وهو الذى أطعمهم من جوع ، ﴿ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ أى : تفضل عليهم بالأمن والرخص ، فليفرده بالعبادة وحده لا شريك له ، ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا ندأ ولا وثناً . ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة ، ومن عصاه سلبها منه ، كما قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمَنَةً مُمْطِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقًا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَاسِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [النحل : ١١٢ ، ١١٣] .

تفسير السورة التي يذكر فيها الماعون

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾
وَلَا يُحِصُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ
سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾

يقول تعالى : أرأيت - يا محمد - الذي يكذب بالدين ؟ وهو : المعاد والجزاء والثواب ،
﴿ فذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴾ أى : هو الذى يقهر اليتيم ويظلمه حقه ، ولا يطعمه ولا يحسن إليه ،
﴿ وَلَا يُحِصُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ . وَلَا تَحَاضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ
الْمِسْكِينِ ﴾ [الفجر: ١٧، ١٨] .

ثم قال : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ، قال ابن عباس ، وغيره : يعنى
المنافقين ، الذين يصلون فى العلانية ولا يصلون فى السر . ولهذا قال : ﴿ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ أى : الذين
هم من أهل الصلاة وقد التزموا بها ، ثم هم عنها ساهون ، إما عن فعلها بالكلية ، كما قاله ابن
عباس ، وإما عن فعلها فى الوقت المقدر لها شرعا ، فيخرجها عن وقتها بالكلية ، كما قاله
مسروق ، وأبو الضحى . وقال عطاء بن دينار : والحمد لله الذى قال : ﴿ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ،
ولم يقل : فى صلاتهم ساهون .

وإما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائما أو غالبا . وإما عن أدائها بأركانها
وشروطها على الوجه المأمور به . وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها ، فاللفظ يشمل هذا كله ،
ولكل من اتصف بشيء من ذلك قسط من هذه الآية . ومن اتصف بجميع ذلك ، فقد تم
نصيبه منها ، وكمل له النفاق العملى . كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « تلك
صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يجلس يرقب الشمس ، حتى إذا كانت
بين قرنى الشيطان قام فنقرَ أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً » (١) . فهذا آخر صلاة العصر التى
هى الوسطى ، كما ثبت به النص إلى آخر وقتها ، وهو وقت كراهة ، ثم قام إليها فنقرها نقر
الغراب ، لم يطمئن ولا خشع فيها أيضا ؛ ولهذا قال : « لا يذكر الله فيها إلا قليلاً » . ولعله
إنما حملة على القيام إليها مراعاة الناس ، لا ابتغاء وجه الله ، فهو إذا لم يصل بالكلية . قال

(١) مسلم (٦٢٢ / ١٩٥) ، ولم يعزه صاحب التحفة (٢٩٦/١) للبخارى .

تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢] . وقال هاهنا : ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ : « من سمع الناس بعمله ، سمع الله به سامع خلقه ، وحقره وصغره » (١) .

وتأخير الصلاة عن وقتها يحتمل تركها بالكلية ، أو صلاتها بعد وقتها شرعا ، أو تأخيرها عن أول الوقت .

وقوله : ﴿ وَيَمْتَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ أى : لا أحسنوا عبادة ربهم ، ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به ، مع بقاء عينه ورجوعه إليهم . فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربى أولى وأولى . وقد قال مجاهد : قال على : الماعون : الزكاة . وكذا رواه السدى ، عن أبى صالح ، عن على . وكذا روى من غير وجه عن ابن عمر . وبه يقول محمد بن الحنفية ، وسعيد بن جبيرة ، وعكرمة ، ومجاهد .

وقال الحسن البصرى : إن صلى راءى ، وإن فاتته لم يأس عليها ، ويمنع زكاة ماله . وفى لفظ: صدقة ماله . وقال زيد بن أسلم: هم المنافقون ، ظهرت الصلاة فصلوها ، وخفيت الزكاة فمنعوها . وقال يحيى بن الجزار : إن أبا العبيدين سأل عبد الله بن مسعود عن الماعون ، فقال : هو ما يتعاوره الناس بينهم من الفأس ، والقدر ، والدلو .

وروى ابن جرير عن عبد الله قال: كنا أصحاب رسول الله ﷺ نتحدث أن الماعون الدلو ، والفأس ، والقدر ، لا يستغنى عنهن (٢) .

وعن أبى إسحاق قال : سمعت سعد بن عياض يحدث عن أصحاب النبي ﷺ مثله . وعن عبد الله: أنه سئل عن الماعون ، فقال : ما يتعاوره الناس بينهم: الفأس والدلو ، وشبهه .

وقال ابن عباس : ﴿ وَيَمْتَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ يعنى : متاع البيت . وكذا قال مجاهد وإبراهيم النخعي ، وسعيد ابن جبيرة ، وغير واحد : إنها العارية للأمتعة .

وقال ليث بن أبى سليم ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : ﴿ وَيَمْتَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ قال : لم يجئ أهلها بعد .

وقال عكرمة : رأس الماعون زكاة المال ، وأدناه المنخل ، والدلو ، والإبرة . رواه ابن أبى حاتم . وهذا الذى قاله عكرمة حسن ؛ فإنه يشمل الأقوال كلها ، وترجع كلها إلى شىء واحد . وهو ترك المعاونة بمال أو منفعة . ولهذا قال محمد بن كعب : ﴿ وَيَمْتَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ قال : المعروف . ولهذا جاء فى الحديث : « كل معروف صدقة » (٣) .

(١) المسند (٦٩٨٦) وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده صحيح » وهو فى المسند أيضاً برقم (٦٥٠٩) وقال الشيخ شاکر : « إسناده صحيح » .

(٢) ابن جرير فى التفسير (٢٠٥ / ٣٠) . (٣) البخارى (٦٠٢١) ومسلم (٥٢ / ١٠٠٥) .

تفسير سورة الكوثر

وهي مدنية ، وقيل : مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّكَ شَانِئُكَ ﴿٣﴾ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٤﴾ ﴾

قد ورد في صفة الحوض يوم القيامة أنه يَشْخَبُ فيه ميزابان من السماء عن نهر الكوثر، وأن آتيته عددُ نجوم السماء. وقد روى هذا الحديث مسلم وأبو داود والنسائي، ولفظ مسلم قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد، إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسم، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «أنزلت على آتفا سورة»، فقرا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ. فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ. إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ. ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه نهر وَعَدْنِيهِ رَبِّي، عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض تَرِدُ عليه أمتى يوم القيامة، آتيته عدد النجوم، فيختلجُ العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمتى. فيقول: إنك لا تدري ما أحدث بعدك» (١). وقد استدل به كثير من القراء على أن هذه السورة مدنية، وكثير من الفقهاء على أن البسملة من السورة، وأنها منزلة معها.

فأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ فقد تقدم في هذا الحديث أنه نهر في الجنة. وقد رواه الإمام أحمد عن أنس أنه قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾. قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت الكوثر، فإذا هو نهر يجري، ولم يُشَقْ شَقاً، وإذا حافتاه قباب اللؤلؤ، فضربت بيدي في تربته، فإذا مسكه ذَفْرَةٌ، وإذا حصاه اللؤلؤ» (٢). روى الإمام أحمد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلت الجنة فإذا أنا بنهر، حافتاه خيام اللؤلؤ، فضربت بيدي إلى ما يجري فيه الماء، فإذا مسك أذفر. قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاكه الله، عز وجل». ورواه البخاري ومسلم، عن أنس بن مالك قال: لما عُرِجَ بالنبي ﷺ إلى السماء قال: «أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر». وهذا لفظ البخاري (٣). وروى ابن جرير عن شريك بن أبي نمر، قال:

(١) مسلم (٤٠٠/٥٣) وأبو داود (٤٧٤٧) والنسائي في الكبرى (١١٧٠٢).

(٢) المسند (١٥٢/٣) ورواه الترمذي (٣٣٦١) وقال: «حسن صحيح».

(٣) المسند (١٠٣/٣) والبخاري (٤٩٦٤) وعزاه صاحب التحفة (٣٣٧/١) للبخاري ومسلم ثم قال: «حديث

مسلم هذا لم يذكره أبو السعود»، وقال صاحب النكت الطراف: «أورده الحميدي في أفراد البخاري».

سمعت أنس بن مالك يحدثنا قال : لما أسرى برسول الله ﷺ ، مضى به جبريل فى السماء الدنيا ، فإذا هو بنهر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد ، فذهب يشم ترابه ، فإذا هو مسك . قال : « يا جبريل ، ما هذا النهر ؟ قال : هو الكوثر الذى خبأ لك ربك » . وهو مخرج فى الصحيحين (١) .

وروى البخارى عن أبى عبيدة ، عن عائشة قال : سألتها عن قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثِرَ ﴾ ، قالت : نهر أعطيه نبيكم ﷺ ، شاطئه عليه دُرٌّ مجوف ، آيته كعدد النجوم . ورواه أحمد والنسائى (٢) . ثم قال البخارى عن ابن عباس أنه قال فى الكوثر : هو الخير الذى أعطاه الله إياه . قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبیر : فإن ناساً يزعمون أنه نهر فى الجنة ؟ فقال سعيد : النهر الذى فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله إياه (٣) . وعن ابن عباس قال : الكوثر : الخير الكثير (٤) . وهذا التفسير يعم النهر وغيره ؛ لأن الكوثر من الكثرة ، وهو الخير الكثير ، ومن ذلك النهر كما قال ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبیر ، ومجاهد ، حتى قال مجاهد : هو الخير الكثير فى الدنيا والآخرة . وقال عكرمة : هو النبوة والقرآن ، وثواب الآخرة . وقد صح عن ابن عباس أنه فسره بالنهر أيضا ، فروى ابن جرير عن ابن عباس قال : الكوثر : نهر فى الجنة ، حافظه ذهب وفضة ، يجرى على الياقوت والدر ، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل (٥) .

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « الكوثر نهر فى الجنة حافظه من ذهب ، والماء يجرى على اللؤلؤ ، وماؤه أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل » . وهكذا رواه الترمذى ، وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح (٦) .

وقوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحِرْ ﴾ أى : كما أعطيناك الخير الكثير فى الدنيا والآخرة ، ومن ذلك النهر الذى تقدم صفته فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة وتحرك ، فاعبده وحده لا شريك له ، وانحر على اسمه وحده لا شريك له . كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] ، قال ابن عباس ، وعطاء ، ومجاهد ، وعكرمة ، والحسن : يعنى بذلك نحر البدن ونحوها . وكذا قال قتادة ، ومحمد بن كعب القرظى ، والضحاك وغير واحد من السلف . وهذا بخلاف ما كان المشركون عليه من السجود لغير الله ، والذبح على غير اسمه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ [الأنعام: ١٢١] .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ وَأَنْحِرْ ﴾ : وضع اليد اليمنى على اليسرى تحت النحر . يروى

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٠٧ / ٣٠) والبخارى (٧٥١٧) ومسلم (٢٦٢ / ١٦٢) .

(٢) البخارى (٤٩٦٥) والمسند (٨١ / ٦) والنسائى فى الكبرى (٦١٧٠٥) .

(٣) البخارى (٤٩٦٦) . (٤) البخارى (٦٥٧٨) .

(٥) ابن جرير فى التفسير (٢٠٧ / ٣٠) .

(٦) المسند (٦٤٧٦) والترمذى (٣٣٦١) وابن ماجه (٤٣٣٤) . وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده صحيح » .

هذا عن علي، ولا يصح. وعن الشعبي مثله. وعن أبي جعفر الباقر: ﴿ وَأَنْحَرُ ﴾ يعني: ارفع اليدين عند افتتاح الصلاة. وقيل: ﴿ وَأَنْحَرُ ﴾ أى: استقبل بنحرك القبلة. ذكر هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير. وكل هذه الأقوال غريبة جدا. والصحيح القول الأول: أن المراد بالنحر ذبح المناسك؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يصلى العيد، ثم ينحر نسكه ويقول: « من صلى صلاتنا، ونسك نسكنا، فقد أصاب النسك. ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له ». فقام أبو بردة ابن نيار فقال: يا رسول الله، إني نسكتُ شاتى قبل الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم يشتهى فيه اللحم. قال: « شاتك شاة لحم ». قال: فإن عندي عناقا هي أحب إلي من شاتين، أفتجزئ عني؟ قال: « تجزئك، ولا تجزئ أحدا بعدك » (١). قال ابن جرير: والصواب قول من قال: معنى ذلك: فاجعل صلاتك كلها لربك خالصا دون ما سواه من الأنداد والآلهة، وكذلك نحره اجعله له دون الأوثان؛ شكراً له على ما أعطاك من الكرامة والخير، الذى لا كفاء له، وخصك به. وهذا الذى قاله فى غاية الحسن، وقد سبقه إلى هذا المعنى: محمد بن كعب القرظى، وعطاء.

وقوله: ﴿ إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ أى: إن مبغضك - يا محمد - ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين، هو الأبتَر الأقل الأذل المنقطع ذكره. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، وقتادة: نزلت فى العاص بن وائل. وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان قال: كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول: دعوه فإنه رجل أبتَر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره. فأنزل الله هذه السورة. وقال شمر بن عطية: نزلت فى عقبه بن أبي معيط. وقال ابن عباس أيضاً، وعكرمة: نزلت فى كعب بن الأشرف وجماعة من كفار قريش. وروى البزار: عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش: أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا المُصنِّبِ المنتبر من قومه يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة وأهل السقاية؟ فقال: أنتم خير منه. قال: فنزلت: ﴿ إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾. هكذا رواه البزار (٢). وهو إسناد صحيح. وقال عطاء: نزلت فى أبي لهب، وذلك حين مات ابن رسول الله ﷺ فذهب أبو لهب إلى المشركين وقال: بُتِرَ محمد الليلة. فأنزل الله فى ذلك: ﴿ إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾. وعن ابن عباس: نزلت فى أبي جهل. وعنه: ﴿ إِنْ شَأْنُكَ ﴾ يعنى: عدوك. وهذا يعم جميع من اتصف بذلك ممن ذكر، وغيرهم. وقال عكرمة: الأبتَر: الفرد. وقال السدنى: كانوا إذا مات ذكور الرجل قالوا: بُتِرَ. فلما مات أبناء رسول الله ﷺ قالوا: بُتِرَ محمد. فأنزل الله: ﴿ إِنْ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾. وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبتَر الذى إذا مات انقطع ذكره، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه ينقطع ذكره، وحاشا وكلا، بل قد أبقي الله ذكره على رؤوس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمرا على دوام الآباد، إلى يوم الحشر والمعاد، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم التناد.

(٢) البزار فى المسند (٢٢٩٣ كشف الاستار).

(١) البخارى (٩٨٣).

تفسير سورة قل يا أيها الكافرون

وهي مكية

ثبت في صحيح مسلم ، عن جابر : أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة ، وبـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ في ركعتي الطواف (١) . وروى الإمام أحمد عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب، بضعا وعشرين مرة - أو: بضع عشرة مرة - ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ، و﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (٢) . وروى أحمد عن ابن عمر قال : رمقت النبي ﷺ أربعاً وعشرين - أو : خمسا وعشرين - مرة ، يقرأ في الركعتين قبل الفجر ، والركعتين بعد المغرب بـ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (٣) . وروى أحمد عن ابن عمر قال : رمقت النبي ﷺ شهراً ، وكان يقرأ في الركعتين قبل الفجر بـ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ، و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . وكذا رواه الترمذى وابن ماجه . وقال الترمذى : هذا حديث حسن (٤) . وروى أبو القاسم الطبراني عن جبلة بن حارثة - وهو أخو زيد بن حارثة - أن النبي ﷺ قال : « إذا أويت إلى فراشك فاقرأ: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ حتى تمر بآخرها، فإنها براءة من الشرك » (٥) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ ﴿٣﴾ لَكُمْ مَا أَعْبُدُ ﴿٤﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٥﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ ﴿٦﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٧﴾ ﴾

هذه السورة سورة البراءة من العمل الذى يعمله المشركون، وهى أمرة بالإخلاص فيه، فقوله: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ شمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجهون بهذا الخطاب هم كفار قريش. وقيل: إنهم من جهلهم دَعَوْا رسول الله ﷺ إلى عبادة أوثانهم سنة، ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله هذه السورة، وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية، فقال: ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يعنى: من الأصنام والأنداد، ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ ﴾ وهو الله وحده لا شريك له. فـ « ما » هاهنا بمعنى « من ».

ثم قال: ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ ﴾ أى: ولا أعبد عبادتكم ، أى : لا

(١) مسلم (١٤٧/١٢١٨)

(٢) المسند (٤٧٦٣) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

(٣) المسند (٥٧٤٢) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

(٤) المسند (٥٦٩١) و الترمذى (٤١٧) وابن ماجه (١١٤٩) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

(٥) الطبراني فى المعجم الكبير (٢٨٧/٢) (٢١٩٥) وقال الهيمى فى الزوائد (١٢٤/١٠): «رجاله وثقوا».

أسلكها ولا أقتدى بها ، وإنما أعبد الله على الوجه الذى يحبه ويرضاه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ أى : لا تقتدون بأوامر الله وشرعه فى عبادته ، بل قد اخترعتم شيئاً من تلقاء أنفسكم ، كما قال : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ [النجم: ٢٣] ، فتبوا منهم فى جميع ما هم فيه ، فإن العابد لا بد له من معبود يعبده ، وعبادة يسلكها إليه ، فالرسول وأتباعه يعبدون الله بما شرعه ؛ ولهذا كان كلمة الإسلام « لا إله إلا الله محمد رسول الله » أى : لا معبود إلا الله ولا طريق إليه إلا بما جاء به الرسول ﷺ ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله ؛ ولهذا قال لهم الرسول ﷺ : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٤١] ، وقال : ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ [القصص: ٥٥] . وقال البخارى : يقال : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ : الكفر ، ﴿ وَلِيَ دِينِ ﴾ : الإسلام . ولم يقل : « دىنى » لأن الآيات بالنون ، فحذف الياء ، كما قال : ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨] ، و﴿ يَسْقِينِ (١) ﴾ [الشعراء: ٧٩] . وقال غيره : لا أعبد ما تعبدون الآن ، ولا أجيئكم فيما بقى من عمرى ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، وهم الذين قال : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ [المائدة: ٦٤] . انتهى ما ذكره (٢) .

ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية أن ذلك من باب التأكيد ، كقول : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥ ، ٦] ، وكقوله : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ [التكاثف: ٦ ، ٧] . وحكاها بعضهم - كابن الجوزى ، وغيره - عن ابن قتيبة ، فالله أعلم . فهذه ثلاثة أقوال : أولها ما ذكرناه أولاً . الثانى : ما حكاها البخارى وغيره من المفسرين أن المراد : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ : فى الماضى ، ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ فى المستقبل . الثالث : أن ذلك تأكيد محض . وثم قول رابع ، نصره أبو العباس بن تيمية فى بعض كتبه ، وهو أن المراد بقوله : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ : نفى الفعل لأنها جملة فعلية ، ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴾ : نفى قبوله لذلك بالكلية ؛ لأن النفى بالجملة الإسمية أكد فكأنه نفى الفعل ، وكونه قابلاً لذلك ومعناه نفى الوقوع ونفى الإمكان الشرعى أيضا . وهو قول حسن أيضا ، والله أعلم .

وقد استدلل الإمام أبو عبد الله الشافعى وغيره بهذه الآية الكريمة : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة فوّرت اليهود من النصارى وبالعكس ؛ إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به ؛ لأن الأديان - ما عدا الإسلام - كلها كالشئ الواحد فى البطلان . وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم تورث النصارى من اليهود وبالعكس ؛ لحديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتوارث أهل ملتين شتى » (٣) .

(١) فى المطبوعة : ﴿ يشفين ﴾ وهى الآية (٨٠) من الشعراء ، وأثبتنا ما فى المخطوطة ، وكلاهما جائز الاستدلال به .

(٢) البخارى (٧٣٣/٨) فتح .

(٣) المسند (٦٨٤٤) وأبو داود (٢٩١١) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » .

تفسير سورة إذا جاء نصر الله والفتح

وهي مدنية

قد تقدم أنها تعدل ربع القرآن، ﴿ إِذَا زُلْزِلَتْ ﴾ تعدل ربع القرآن (١). وروى النسائي عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: قال لى ابن عباس: يا بن عتبة، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت؟ قلت: نعم، ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾. قال: صدقت (٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُمْ كَانَ تَوَّابًا ﴾

روى البخارى عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وجد فى نفسه، فقال: لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه عن قد علمتم. فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رثيت أنه دعانى فيهم يومئذ إلا ليُرِيهم فقال: ما تقولون فى قول الله، عز وجل: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لى: أذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فذلك علامة أجلك، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُمْ كَانَ تَوَّابًا ﴾. فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول. تفرد به البخارى. وروى ابن جرير عن ابن عباس، فذكر مثل هذه القصة، أو نحوها (٣).

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾، قال رسول الله ﷺ: « نُعِيَتْ إِلَى نَفْسِي » بأنه مقبوض فى تلك السنة. تفرد به أحمد (٤). وهكذا قال مجاهد، وأبو العالية، والضحاك، وغير واحد: إنها أجل رسول الله ﷺ نُعِيَتْ إِلَيْهِ. وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ علم النبى ﷺ أنه قد نُعِيَتْ إِلَيْهِ نفسه، فقيل: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾، السورة كلها (٥). وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى، عن رسول الله ﷺ أنه قال: لما نزلت هذه السورة: ﴿ إِذَا

(١) راجع تفسير سورة الزلزلة.

(٢) النسائي فى الكبرى (١١٧١٣)، ورواه مسلم (٢٤ / ٣ / ٢١).

(٣) البخارى (٤٩٧٠) وابن جرير فى التفسير (٣٠ / ٢١٥).

(٤) المسند (١٨٧٣) وقال الشيخ أحمد شاکر: «إسناده صحيح».

(٥) المسند (٣٢٠١) وقال الشيخ أحمد شاکر: «إسناده صحيح».

جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ ، قرأها رسول الله ﷺ حتى ختمها ، فقال : « الناس حيز ، وأنا وأصحابي حيز » . وقال : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية » . فقال له مروان : كذبت - وعنده رافع بن خديج ، وزيد بن ثابت ، قاعدان معه على السرير فقال أبو سعيد : لو شاء هذان لحدثاك ، ولكن هذا يخاف أن تنزعه عن عرافة قومه ، وهذا يخشى أن تنزعه عن الصدقة . فرجع مروان عليه الدرّة ليضربه ، فلما رأيا ذلك قالوا : صدق (١) . تفرد به أحمد ، وهذا الذي أنكره مروان على أبي سعيد ليس بمنكر ، فقد ثبت من رواية ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح : « لا هجرة ، ولكن جهاد ونية ، ولكن إذا استنفرتم فانفروا » . أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما (٢) .

فالذي فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر ، من أنه قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون أن نحمد الله ونشكره ونسبحه ، يعنى نصلى ونستغفره - معنى مليح صحيح ، وقد ثبت له شاهد من صلاة النبي ﷺ يوم فتح مكة وقت الضحى ثمانى ركعات ، فقال قائلون : هى صلاة الضحى . وأجيبوا بأنه لم يكن يواظب عليها ، فكيف صلاها ذلك اليوم وقد كان مسافراً لم ينو الإقامة بمكة ؟ ولهذا أقام فيها إلى آخر شهر رمضان قريباً من تسعة عشر يوماً يقصر الصلاة ويُفطر هو وجميع الجيش ، وكانوا نحواً من عشرة آلاف . قال هؤلاء : وإنما كانت صلاة الفتح ، قالوا : فيستحب لأمر الجيـش إذا فتح بلدأ أن يصلى فيه أول ما يدخله ثمانى ركعات . وهكذا فعل سعد بن أبى وقاص يوم فتح المدائن ، ثم قال بعضهم : يصلها كلها بتسليمة واحدة . والصحيح أنه يسلم من كل ركعتين .

وروى البخارى عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكثُر أن يقول فى ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى » يتأول القرآن . وأخرجه بقية الجماعة إلا الترمذى (٣) . وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكثُر فى آخر أمره من قول : « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه » . وقال : « إن ربى كان أخبرنى أنى سأرى علامة فى أمتى ، وأمرنى إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره ، إنه كان تواباً ، فقد رأيتها : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ » . ورواه مسلم (٤) .

والمراد بالفتح هاهنا فتح مكة قولاً واحداً ، فإن أحياء العرب كانت تتلَوّ بإسلامها فتح مكة ، يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبي . فلما فتح الله عليه مكة دخلوا فى دين الله أفواجا ، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً ، ولم يبق فى سائر قبائل

(١) المسند (٢٢/٣) .

(٢) البخارى (١٣٤٩ ، ١٨٣٤) ومسلم (١٣٥٣ / ٤٤٥) .

(٣) البخارى (٤٩٦٨) ومسلم (٢١٧ / ٤٨٤) وأبو داود (٨٧٧) وابن ماجه (٨٨٩) .

(٤) المسند (٣٥/٦) ومسلم (٤٨٤ / ٢٢٠) .

العرب إلا مظهر للإسلام ، ولله الحمد والمنة . وقد روى البخارى فى صحيحه عن عمرو بن سلمة قال : لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله ﷺ ، وكانت الأحياء تتلوم بإسلامها فتح مكة ، يقولون : دعوه وقومه ، فإن ظهر عليهم فهو نبي . الحديث . وقد حررنا غزوة الفتح فى كتابنا : السيرة ، فمن أراد فليراجعه هناك ، ولله الحمد والمنة .

تفسير سورة تبت

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾
 سَيَصِلُنَّ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ
 مَّسْلَمٍ ﴿٥﴾

روى البخارى عن ابن عباس : أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء ، فصعد الجبل فنادى :
 « يا صباحاه . فاجتمعت إليه قريش ، فقال : « أرايتم إن حدثتكم أن العذر مٌصبحكم أو
 مُمسِككم ، أكنتم تصدقونى ؟ » . قالوا : نعم . قال : « فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد » .
 فقال أبو لهب : ألهدنا جمعتنا ؟ تبا لك . فأنزل الله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ ، إلى آخرها (١) .
 وفى رواية : فقام ينفُض يديه ، وهو يقول : تبا لك سائر اليوم . ألهدنا جمعتنا ؟ فأنزل الله :
 ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (٢) . الأول دعاء عليه ، والثانى خبر عنه . فأبو لهب هذا هو أحد
 أعمام رسول الله ﷺ واسمه : عبد العزى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عتبة . وإنما سُمى « أبا
 لهب » لإسراق وجهه ، وكان كثير الأذى لرسول الله ﷺ والبغضة له ، والازدراء به ،
 والتنقص له ولدينه .

روى الإمام أحمد عن ربيعة بن عباد ، من بنى الدليل - وكان جاهلياً فأسلم - قال : رأيت
 النبي ﷺ فى الجاهلية فى سوق ذى المجاز وهو يقول : « يا أيها الناس ، قولوا : لا إله إلا الله
 تفلحوا » . والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضىء الوجه أحول ذو غديرتين ، يقول :
 إنه صابئ كاذب . يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب (٣) . ثم رواه عن
 سُرَيْج ، عن ابن أبي الزناد ، عن أبيه ، فذكره ، قال أبو الزناد : قلت لربيعة : كنت يومئذ
 صغيراً ؟ قال : لا ، والله إنى يومئذ لأعقل أنى أزر القربة . تفرد به أحمد .

وقال ابن إسحاق : حدثنى حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس قال : سمعت ربيعة
 ابن عباد الدبلى يقول : إنى لمع أبى رجل شاب ، أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل -
 ووراءه رجل أحول وضىء ، ذو جمّة - يَقِفُ رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول : « يا بنى فلان ،

(٢) البخارى (١٣٩٤ ، ٣٥٢٥ ، ٤٨٠١) .

(١) البخارى (٤٩٧٢) .

(٣) المسند (٣٤١/٤) .

إني رسول الله إليكم ، أمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفدَ عن الله ما بعثني به . وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه : يا بني فلان ، هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الحى من بنى مالك بن أقيش ، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه . فقلت لأبى : من هذا ؟ قال : عمه أبو لهب . رواه أحمد والطبرانى بهذا اللفظ (١) .

فقوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ أى : خسرت وخابت ، وضل عمله وسعيه ، ﴿ وَتَبَّ ﴾ أى : وقد تبَّ تحققُ خسارته وهلاكه . وقوله : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ قال ابن عباس وغيره : ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ يعنى : ولده . ورؤى عن عائشة ، ومجاهد ، وعطاء ، والحسن ، وابن سيرين مثله . وذكر عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ لما دعا قومه إلى الإيمان ، قال أبو لهب : إذا كان ما يقول ابن أخى حقاً ، فإنى أتدى نفسى يوم القيامة من العذاب بمالى وولدى . فأنزل الله : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ .

وقوله : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ أى : ذات شرر ولهيب وإحراق شديد ، ﴿ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ وكانت زوجته من سادات نساء قريش ، وهى : أم جميل ، واسمها أروى بنت حرب ابن أمية ، وهى أخت أبى سفيان . وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده ؛ فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه فى عذابه فى نار جهنم . ولهذا قال : ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ يعنى : تحمل الحطب فتلقى على زوجها ، ليزداد على ما هو فيه ، وهى مهيأة لذلك مستعدة له . ﴿ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ قال مجاهد ، وعروة : من مسد النار . وعن مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والثورى ، والسدى : ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ : كانت تمشى بالنميمة . قال سعيد بن المسيب : كانت لها قلادة فاخرة ، فقالت : لأنفقتها فى عداوة محمد ، يعنى : فأعقبها الله بها حبلاً فى جيدها من مسد النار . وعن الشعبي قال : المسد : الليف ، وقال مجاهد : ﴿ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ أى : طوق من حديد ، ألا ترى أن العرب يسمون البكرة مسداً ؟

عن أسماء بنت أبى بكر قالت : لما نزلت : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ ، أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ، ولها ولولة ، وفى يدها فهر ، وهى تقول :

مُدَّمَا أَيْنَا وِدِينَه قَلِينَا وَأَمْرَه عَصِينَا

ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد ومعه أبو بكر ، فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله ، قد أقبلت وأنا أخاف عليك أن تراك . فقال رسول الله ﷺ : « إنها لن ترانى » . وقرأ قرآنا اعتصم به ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرَأَتِ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾

(١) المسند (٤٩٢/٣) والطبرانى فى المعجم الكبير (٦٣/٥) (٤٥٨٩) وقال الهيثمى فى الزوائد (٣٩/٦) : « فيه حسين ابن عبد الله بن عبيد الله وهو ضعيف ، ووثقه ابن معين فى رواية » .

[الإسراء: ٤٥] . فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله ﷺ فقالت : يا أبا بكر ، إنى أخبرت أن صاحبك هجانى ؟ قال : لا ، ورب هذا البيت ما هجاك . فقلت وهى تقول : قد علمت قریش أنى ابنة سيدها . قال : وقال الوليد فى حديثه أو غيره : فعثرت أم جميل فى مرطها وهى تطوف بالبيت ، فقالت : تعس مذمم . فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب : إنى لخصانُ فما أكلم ، وثقافُ فما أعلم ، وكلنا من بنى العم ، وقریش بعد أعلم (١) . ثم قال البزار : لا نعلمه يروى بأحسن من هذا الإسناد ، عن أبى بكر ، رضى الله عنه .

وقد قال بعض أهل العلم فى قوله تعالى : ﴿ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ أى : فى عنقها حبل من نار جهنم ترفع به إلى شفيرها ، ثم يرمى بها إلى أسفلها ، ثم كذلك دائماً .

قال العلماء : وفى هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة ، فإنه منذ نزل قوله تعالى : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ . وَأَمْرَاتُهُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ . فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ ، فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان ، لم يقبض لهما أن يؤمنا ، ولا واحد منهما لا ظاهراً ولا باطناً ، لا مسراً ولا معلناً ، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة .

تفسير سورة الإخلاص

وهي مكية

ذكر سبب نزولها وفضلها :

روى الإمام أحمد عن أبي بن كعب : أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : يا محمد ، انسب لنا ربك ، فأنزل الله : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ . وكذا رواه الترمذى ، وابن جرير (١) . وروى البخارى عن عائشة : أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم ، فيختم بـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ ، فقال : « سلوه : لآى شىء يصنع ذلك ؟ » . فسألوه ، فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها . فقال النبي ﷺ : « أخبروه أن الله تعالى يحبه » وقد رواه مسلم والنسائى (٢) . وروى البخارى عن أبى سعيد ؛ أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، يرددتها ، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ ، فذكر ذلك له ، وكان الرجل يتقالها ، فقال النبي ﷺ : « والذى نفسى بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن » ورواه أبو داود والنسائى (٣) .

وروى البخارى : عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة ؟ » . فشق ذلك عليهم وقالوا : أينما يطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال : « الله الواحد الصمد ثلث القرآن » . تفرد بإخراجه البخارى (٤) . وروى الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « احشدوا ، فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن » . فحشد من حشد ، ثم خرج نبى الله ﷺ فقراً : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . ثم دخل ، فقال بعضنا لبعض : قال رسول الله ﷺ : « فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن » . إنى لأرى هذا خيراً جاء من السماء ، ثم خرج نبى الله ﷺ فقال : « إنى قلت : سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، ألا وإنها تعدل ثلث القرآن » . وهكذا رواه مسلم . وقال الترمذى : حسن صحيح غريب (٥) .

وروى الإمام أحمد عن أبى الدرداء ، أن رسول الله ﷺ قال : « أيعجز أحدكم أن يقرأ كل يوم ثلث القرآن ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله ، نحن أضعف من ذلك وأعجز . قال : « فإن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء ، فـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ثلث القرآن » . ورواه مسلم والنسائى (٦) . وروى البخارى عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ، ثم نفث

(١) المسند (١٣٣/٥) والترمذى (٣٣٦٤) وحسنه الألبانى ، وابن جرير فى التفسير (٢٢١/٣٠ ، ٢٢٣) .

(٢) البخارى (٧٣٧٥) ومسلم (٢٦٣ / ٨١٣) والنسائى (٩٩٣) .

(٣) البخارى (٧٣٧٤ ، ٥٠١٣ ، ٦٦٤٣) وأبو داود (١٤٦١) والنسائى (٩٩٥) .

(٤) البخارى (٥٠١٥) . (٥) الترمذى (٢٩٠٠) ومسلم (٨١٢ / ٢٦١) .

(٦) المسند (٤٤٢/٦) ومسلم (٨١١ / ٢٥٩) والنسائى فى الكبرى (١٠٥٣٧) .

فيهما فقرأ فيهما: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ . ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات . وهكذا رواه أهل السنن (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾

قد تقدم ذكر سبب نزولها . وقال عكرمة : لما قالت اليهود : نحن نعبد عزيرَ ابن الله . وقالت النصارى : نحن نعبد المسيح ابن الله . وقالت المجوس : نحن نعبد الشمس والقمر . وقالت المشركون : نحن نعبد الأوثان - أنزل الله على رسوله ﷺ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . يعني : هو الواحد الأحد ، الذى لا نظير له ولا وزير ، ولا نديد ولا شبيه ولا عديل ، ولا يُطلق هذا اللفظ على أحد فى الإثبات إلا على الله ، عز وجل ؛ لأنه الكامل فى جميع صفاته وأفعاله .

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ قال ابن عباس: يعنى الذى يصمد الخلائق إليه فى حوائجهم ومسائلهم . وعنه : هو السيد الذى قد كمل فى سؤده ، والشريف الذى قد كمل فى شرفه ، والعظيم الذى قد كمل فى عظمته ، والحليم الذى قد كمل فى حلمه ، والعليم الذى قد كمل فى علمه ، والحكيم الذى قد كمل فى حكيمته . وهو الذى قد كمل فى أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله سبحانه ، هذه صفته لا تبغى إلا له ، ليس له كفاء ، وليس كمثلته شىء ، سبحانه الله الواحد القهار . وقال أبو وائل : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ : السيد الذى قد انتهى سؤده ، وعن ابن مسعود مثله . وقال زيد بن أسلم : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ : السيد . وقال الحسن ، وقتادة : هو الباقي بعد خلقه . وقال الحسن أيضا : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ : الحى القيوم الذى لا زوال له . وقال عكرمة : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ : الذى لم يخرج منه شىء ولا يطعم . وقال الربيع بن أنس : هو الذى لم يلد ولم يولد . كأنه جعل ما بعده تفسيرا له ، وهو قوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ، وهو تفسير جيد . وقال ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، ومجاهد ، وعبد الله بن بُريدة ، وعكرمة أيضا ، وسعيد ابن جبير ، وعطاء بن أبى رباح ، وعطية العوفى ، والضحاك ، والسدى : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ : الذى لا جوف له . وقال الشعبي : هو الذى لا يأكل الطعام ، ولا يشرب الشراب .

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى كتاب السنة له ، بعد إيراده كثيرا من هذه الأقوال فى تفسير « الصمد » : وكل هذه صحيحة ، وهى صفات ربنا ، عز وجل ، وهو الذى يُصمَدُ

(١) البخارى (٥٠١٧) وأبو داود (٥٠٥٦) والترمذى (٣٤٠٢) والنسائى فى الكبرى (١٠٦٢٤) وابن ماجه (٣٨٧٥) .

إليه فى الحوائج ، وهو الذى قد انتهى سؤدده ، وهو الصمد الذى لا جوف له ، ولا يأكل ولا يشرب ، وهو الباقى بعد خلقه . وقال البيهقى نحو ذلك أيضا . وقوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ أى : ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة . قال مجاهد : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ يعنى : لا صاحبة له . وهذا كما قال تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الانعام: ١٠١] أى : هو مالك كل شىء وخالقه ، فكيف يكون له من خلقه من نظير يساميه ، أو قريب يدانيه ، تعالى وتقدس وتنزه . قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتْفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٨٨-٩٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الانبيا: ٢٦، ٢٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ [الصافات: ١٥٨] ، [١٥٩] .

وفى صحيح البخارى : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولدا ، وهو يرزقهم ويعاقبهم » (١) . وروى البخارى عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « قال الله ، عز وجل : كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقولته : لن يُعبدنى كما بدانى ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته . وأما شتمه إياى فقولته : اتخذ الله ولداً . وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » (٢) .

(١) البخارى (٦٠٩٩) .

(٢) البخارى (٤٩٧٤ ، ٤٩٧٥) .

تفسير سورتي المعوذتين

وهما مدنيتان

روى مسلم عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ . رواه أحمد والترمذى ، والنسائى ، وقال الترمذى : حسن صحيح (١) .

وروى الإمام مالك عن عائشة : أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينثف ، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه ، وأمسح بيده عليه ، رجاء بركتها . ورواه البخارى وأبو داود والنسائى وابن ماجه (٢) . وتقدم فى آخر سورة : ﴿ ن ﴾ ، من حديث أبى نضرة ، عن أبى سعيد : أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من أعين الجان وعين الإنسان ، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما ، وترك ما سواهما . رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حديث حسن (٣) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿ ١ ﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿ ٢ ﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿ ٣ ﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿ ٤ ﴾

عن جابر قال : الفلق : الصبح . وقال العوفى ، عن ابن عباس : ﴿ الفلق ﴾ : الصبح . وروى عن مجاهد ، وسعيد بن جبیر ، وقتادة مثل هذا . قال ابن زيد ، وابن جرير : وهى كقوله تعالى : ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ﴾ [الأنعام: ٩٦] . وهذا هو الصحيح ، وهو اختيار البخارى فى صحيحه (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أى : من شر جميع المخلوقات . وقال ثابت البنانى ، والحسن البصرى : جهنم وإبليس وذريته مما خلق . ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ قال مجاهد : غاسقُ الليلُ إذا وَقَبَ غروبُ الشمس . وكذا قال ابن عباس ، ومحمد بن كعب القرظى ، والضحاك ، وخُصيف ، والحسن ، وقتادة : إنه الليل إذا أقبل بظلامه . وقال الزهرى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ : الشمس إذا غربت . وعن عطية وقتادة : إذا وَقَبَ الليل : إذا ذهب . وقال

(١) مسلم (٢٦٤/٨١٤) والمسند (١٤٤/٤) والترمذى (٢٩٠٢) والنسائى (٩٥٤) .

(٢) مالك فى الموطأ (٩٤٢/٢) والبخارى (٥٠١٦) ومسلم (٢١٩٢/٥١) وأبو داود (٣٩٠٢) والنسائى فى الكبرى (٧٥٤٤ ، ٧٥٤٩ ، ١٠٨٤٧) وابن ماجه (٣٥٢٩) .

(٣) (٤) البخارى (٧٤١/٨ فتح) .

(٣) مضى تخريجه هناك .

أبو هريرة : ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ : كوكب . وقال ابن زيد : كانت العرب تقول : الغاسق سقوط الثريا ، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها ، وترتفع عند طلوعها .

قال ابن جرير: وقال آخرون: هو القمر. قلت: وحسنة أصحاب هذا القول ما رواه الإمام أحمد عن أبي سلمة قال: قالت عائشة: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فأراني القمر حين يطلع، وقال: « تَعَوَّذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الْغَاسِقِ إِذَا وَقَبَ » . ورواه الترمذى والنسائى ، وقال الترمذى: حسن صحيح . ولفظه: « تعوذى بالله من شر هذا ، فإن هذا الغاسق إذا وَقَبَ » . ولفظ النسائى: « تَعَوَّذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا، هَذَا الْغَاسِقِ إِذَا وَقَبَ » (١) .

قال أصحاب القول الأول - وهو أنه الليل إذا ولج: هذا لا ينافى قولنا ؛ لأن القمر آية الليل ، ولا يوجد له سلطان إلا فيه ، وكذلك النجوم لا تضيء ، إلا فى الليل ، فهو يرجع إلى ما قلناه ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ قال مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة والضحاك : يعنى : السواحر - قال مجاهد : إذا رقين ونفثن فى العقدة . وروى ابن جرير عن ابن طائوس ، عن أبيه قال: ما من شيء أقرب من الشرك من رقية الحية والمجانين (٢) . وفى الحديث الآخر: أن جبريل جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : اشتكيت يا محمد ؟ فقال : «نعم» . فقال : باسم الله أُرْقِيكَ ، من كل داء يؤذيك ، ومن شر كل حاسد وعين ، الله يشفيك (٣) .

ولعل هذا كان من شكواه ، عليه السلام ، حين سحر ، ثم عافاه الله تعالى وشفاه ، ورد كيد السحرة الحساد من اليهود فى رؤوسهم ، وجعل تدميرهم فى تدبيرهم ، وفضحهم ، ولكن مع هذا لم يعاتبه رسول الله ﷺ يوماً من الدهر ، بل كفى الله وشفى وعافى .

وروى البخارى عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ سحر ، حتى كان يُرَى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن - قال سفيان : وهذا أشد ما يكون من السحر ، إذا كان كذا - فقال : « يا عائشة ، أعلمت أن الله قد أفتانى فيما استفتيته فيه ؟ أتانى رجلان ففعد أحدهما عند رأسى ، والآخر عند رجلى ، فقال الذى عند رأسى للآخر : ما بال الرجل ؟ قال : مطبوب . قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد بن أعصم - رجل من بنى زُرَيْقٍ حَلِيفٌ لِيَهُودَ ، كان منافقاً - قال : وفيهم ؟ قال : فى مُشَطِّ ومُشَاقَّة . قال : وأين ؟ قال : فى جُفِّ طَلْعَةِ ذَكَرٍ تَحْتَ رَعُوقَةٍ فى بَثْرِ ذُرْوَانَ » . قالت : فاتى البثر حتى استخرجه فقال : « هذه البثر التى أريتها ، وكان ماءها نُفَاعَةَ الْحَنَاءِ ، وكان نخلها رؤوس الشياطين » . قال : فاستخرج فقلت : أفلا ؟ أى : تَنَشَّرَتْ ؟ فقال : « أمَّا اللهُ فقد شفانى ، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً » . وفيه : « قالت : حتى كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله » . وعنده : « فأمر بالبثر فدفت » . وقد رواه مسلم . ورواه

(١) المسند (٦١/٦) والترمذى (٣٣٦٦) والنسائى فى الكبرى (١٠١٣٨) .

(٢) ابن جرير فى التفسير (٢٢٧ / ٣٠) . (٣) مسلم (٤٠ / ٢١٨٦) .

الإمام أحمد عن عائشة قالت : لبث رسول الله ﷺ ستة أشهر يُرى أنه يأتي ولا يأتي ، فاتاه ملكان ، فجلس أحدهما عند رأسه ، والآخر عند رجله ، فقال أحدهما للآخر : ما باله ؟ قال : مطبوب . قال : ومن طبه ؟ قال : لييد بن الأعصم ، وذكر تمام الحديث (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾ ﴾

هذه ثلاث صفات من صفات الرب ، عز وجل ؛ الربوبية ، والملك ، والإلهية ، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه ، فجميع الأشياء مخلوقة له ، مملوكة عبيد له ، فأمر المستعبد أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات ، من شر الوسواس الخناس ، وهو الشيطان الموكل بالإنسان ، فإنه ما من أحد من بنى آدم إلا وله قرين يُزين له الفواحش ، ولا يألوه جهداً في الخبال . والمعصوم من عصم الله ، وقد ثبت في الصحيح أنه : « ما منكم من أحد إلا قد وُكِّلَ به قرينة » . قالوا : وأنت يا رسول الله ؟ قال : « نعم ، إلا أن الله أعانني عليه ، فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير » (٢) ، وثبت في الصحيح ، عن أنس في قصة زيارة صفة للنبي ﷺ وهو معتكف ، وخروجه معها ليلاً ليردها إلى منزلها ، فلقى رجلاً من الأنصار ، فلما رآيا رسول الله ﷺ أسرع ، فقال رسول الله : « على رسلكما ، إنها صفة بنت حبي » . فقالا : سبحان الله ، يا رسول الله . فقال : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلبكما شيئاً ، أو قال : شراً » (٣) . وروى الإمام أحمد عن أبي تيممة عن رديف رسول الله ﷺ قال : عثر بالنبي ﷺ حمارة ، فقلت : تعس الشيطان . فقال النبي ﷺ : « لا تقل : تعس الشيطان ، فإنك إذا قلت : تعس الشيطان ، تعاضم ، وقال : بقوتي صرعته ، وإذا قلت : باسم الله ، تصاغر حتى يصير مثل الذباب » . تفرد به أحمد (٤) . إسناده جيد قوى ، وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان وغلب ، وإن لم يذكر الله تعاضم وغلب . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحدكم إذا كان في المسجد ، جاءه الشيطان فأبس به كما يُبس الرجل بدابته ، فإذا سكن له زنقه - أو : أجمه » . قال أبو هريرة : وأنتم ترون ذلك ، أما

(١) البخارى (٥٧٦٦ ، ٥٨٦٣ ، ٦٣٩١) ومسلم (٤٣/٢١٨٩) وهو في المسند (٩٦١٦) .

(٢) مسلم (٦٩/٢٨١٤) .

(٣) مسلم (٢١٧٤/٢٣) ، ورواه البخارى (٢٠٣٥ ، ٦٢١٩ ، ٧١٧١) عن صفة .

(٤) المسند (٥٩/٥) .

المزنوق فتراه مائلاً - كذا - لا يذكر الله ، وأما الملجم ففاتح فاه لا يذكر الله ، عز وجل . تفرد به أحمد (١) .

وقال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ ، قال : الشيطان جائم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ، فإذا ذكر الله خنس . وكذا قال مجاهد ، وقتادة . وقال المعتمر ابن سليمان ، عن أبيه : ذُكِرَ لِي أَنَّ الشَّيْطَانَ ، أَوْ : الْوَسْوَاسَ يَنْثَثُ فِي قَلْبِ ابْنِ آدَمَ عِنْدَ الْحَزْنِ وَعِنْدَ الْفَرَحِ ، فَإِذَا ذَكَرَ اللَّهَ خَنَسَ . وقال العوفي عن ابن عباس في قوله : ﴿ الْوَسْوَاسِ ﴾ قال : هو الشيطان يأمر ، فإذا أطيع خنس .

وقوله : ﴿ الَّذِي يُوسُّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ : هل يختص هذا ببني آدم - كما هو الظاهر أو يعم بني آدم والجن ؟ فيه قولان ، ويكونون قد دخلوا في لفظ الناس تغليبا . وقال ابن جرير : وقد استعمل فيهم (رجال من الجن) فلا بدع في إطلاق الناس عليهم .

وقوله : ﴿ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ هل هو تفصيل لقوله : ﴿ الَّذِي يُوسُّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ ، ثم بينهم فقال : ﴿ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ وهذا يقوى القول الثاني . وقيل قوله : ﴿ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ تفسير للذي يُوسُّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ، من شياطين الإنس والجن ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢] . وكما روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى أحدث نفسى بالشئ لأن آخر من السماء أحب إلى من أن أتكلم به . قال : فقال النبي ﷺ : «الله أكبر الله أكبر، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة» . ورواه أبو داود والنسائي (٢) .

آخر التفسير ولله الحمد والمنة

(١) المسند (٨٣٥٢) وقال الهيثمي في الزوائد (٢٤٥ / ١) : « رجاله رجال الصحيح » ، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر .

(٢) المسند (٢٠٩٧) وأبو داود (٥١١٢) والنسائي في الكبرى (١٠٥٠٣) وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح» .

فهرس المسانيد

فهرس المسانيد

٤٤٠ ، ٤٥٣ ، ٤٨٩ ، ٤٩١ ، ٥١١ ، ٥٢٩ ،
 ٥٣٧ ، ٥٥٩ ، ٥٦٣ ، ٥٩١ ، ٦١١ ، ٦٢٣ ،
 ٦٤٠ ، ٦٤٥ ، ٦٥٥ ، ٦٦٠ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ،
 ٦٧٣ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦١٧ ، ٧١٩ ، ٧٢٦ ،
 ٧٢٧ ، ٧٢٩ ، ٧٤٢ ، ٧٦١ ، ٧٨٢ ، ٨٠٥ ،
 ٨٤٥ ، ٨٤/٢ ، ٨٥ ، ١١٤ ، ١٤١ ، ١٤٩ ،
 ١٩٦ ، ٣٠٧ ، ٣٢٧ ، ٣٤٦ ، ٣٨٩ ، ٣٩٩ ،
 ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤١٩ ، ٤٢٩ ، ٤٤٨ ، ٤٥٧ ،
 ٤٧٩ ، ٥٢٤ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٦١١ ، ٦١٤ ،
 ٦٤٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٨ ، ٦٩٢ ، ٣٨/٣ ، ٣٩ ،
 ٥٣ ، ٥٨ ، ٦٤ ، ١٣٢ ، ١٧٢ ، ١٩٦ ، ٢٠٢ ،
 ٢٠٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٥٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٦ ،
 ٣٤٦ ، ٣٥٣ ، ٣٥٦ ، ٣٥٩ ، ٣٧٢ ، ٤٠٨ ،
 ٤٢٢ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٤٦٩ ،
 ٤٨٣ ، ٤٨٥ ، ٤٩٧ ، ٥٤٣ ، ٥٤٧ ، ٥٥٥ ،
 ٥٥٨ ، ٥٩٣ ، ٦٧٨ ، ٧١٣ ، ٧٢٣ ، ٧٣٩ .

* أنس بن النضر ٣٩/٣ .

* أوس بن أبي أوس ١/٦٤٦ .

* أوس بن أوس الثقفي ٣/٧٠ ، ٥١٩ .

* أوس بن حذيفة ١/٤٧ .

* إياس بن عبد الله بن أبي ذباب ١/٥٠١ .

* أبو أيوب الأنصاري ١/٢٣٦ ، ٣٠٩ ، ٤٩١ ،
 ١٠١/٢ ، ١٩٦/٣ ، ٥١٩ .

«ب»

* أبو البحري ١/٧١٦ ، ٥٥٣/٣ .

* البراء بن عازب ١/١٥٦ ، ١٩١ ، ٢٠٣ ،
 ٢٢٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٥ ، ٣٢٤ ،
 ٤٢٦ ، ٤٨٠ ، ٥٤٤ ، ٥٥٨ ، ٦١٥ ، ٦٨٠ .

«أ»

* أبي بن كعب ١/٥٠ ، ٥٥ ، ٣٠٨ ، ٨٠٧ ،
 ٤٨٤/٢ ، ٤٨٧ ، ٥٥/٣ ، ٦٨ ، ٦٣٣ ، ٦٧٢ ،
 ٧٠١ ، ٧١٠ ، ٧١٣ ، ٧٢٣ ، ٧٤٨ .

* أسامة بن زيد ١/١٠٩ ، ١١٨ ، ١٥٨ ، ٢٤٩ ،
 ٣٩٥ ، ٤٤٦ ، ١٤٣/٢ ، ١٧/٣ .

* أسامة بن عمير ١/٥٨ .

* أسماء بنت أبي بكر ١/٢٤٥ ، ٤٣٠/٢ ،
 ٤٣٥ ، ٤١٨/٣ .

* أسماء بنت عميس ١/٦٢٩ .

* أسماء بنت يزيد بن السكن ١/٢٠٣ ، ٣١١ ،
 ٧٦١ ، ٧٣٠ ، ٦١٩ .

* الأسود بن سريع من بني سعد ١/٦٢ ،
 ٤١٧/٢ ، ٤٢٤/٣ .

* أبو أسيد ١/٢٩٢ ، ٦٤/٢ ، ٢٧٢ ، ٦٠/٣ .

* أسيد بن حضير ١/٧٢ .

* الأشعث بن قيس ١/٥٠١ ، ٥٣١/٣ .

* الأشعري ١/٦٩٩ .

* الأقرع بن حابس ٣/٣٥٤ .

* أبو أمامة الباهلي ١/٧٣ ، ١٨٥ ، ٣١١ ، ٣٥٣ ،
 ٤٠٠ ، ٦٠٥ ، ٧١٦ ، ٨١١ ، ٢٠٠/٢ ، ٢٧٦ ،
 ٤٣٠ ، ٣٩٣/٣ ، ٥٠٩ .

* امرأة من بني سليم ٣/١٥٢ .

* أنس بن مالك ١/٥٣ ، ٥٧ ، ١٠٩ ، ١٧٣ ،
 ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ،

٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٨ ، ٢٥١ ، ٢٦٦ ، ٢٨١ ،
 ٢٩٩ ، ٣٠٨ ، ٣١٤ ، ٣٤٣ ، ٣٦٢ ، ٣٧١ ،
 ٣٩٠ ، ٣٩٥ ، ٤١٣ ، ٤٢٦ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ .

* ثوبان مولى رسول الله ﷺ ١/٢٧٩، ٤٤٥،
٣/٥٣٦، ٤٦٢، ٣٥٥/٢.

«ج»

* جابر بن سمرة ١/٦٥٢، ٢/٦٧٣، ٣/٥٢١،
٥٧٧.

* جابر بن سليم ٢/٧٥٢.

* جابر بن عبد الله ١/٥٣، ٦٢، ١١٦، ١٤٨،

١٧٢، ١٧٦، ١٩٢، ٢٠١، ٢٢٢، ٢٣٢،

٢٣٦، ٢٣٩، ٢٤٣، ٢٤٨، ٢٦٣، ٢٦٥،

٢٧٠، ٢٧٧، ٢٨٨، ٢٩٥، ٣٣١، ٣٧٨،

٣٩٤، ٣٩٨، ٤١٠، ٤٢٣، ٤٣٩، ٤٦٤،

٤٦٧، ٤٦٨، ٤٧٩، ٥٠١، ٥١٧، ٥٢١،

٥٦٧، ٥٦٨، ٦٠٥، ٦١٥، ٦٢٨، ٦٣٥،

٦٤٥، ٦٥٠، ٦٧٢، ٦٧٣، ٦٧٤، ٦٨٠،

٧٠٩، ٧٣٧، ٧٤٠، ٧٨٢، ٨٢٩، ٨٣٢،

٨٣٤، ١٦/٢، ٣٧، ٩٤، ٩٨، ١٤٠،

١٩١، ٢١٦، ٢٢٣، ٢٨٢، ٣٣١، ٣٣٧،

٣٤٧، ٣٨٨، ٤١٣، ٤٤٨، ٥٠٩، ٥٩٤،

٥٩٧، ٦٥٣، ٨١٩، ٧١/٣، ٩١، ١١٩،

١٦٨، ٢٣٧، ٢٥٥، ٣٢٩، ٣٣٢، ٣٣٣،

٣٦٠، ٤٣٦، ٤٨٧، ٥٢١، ٥٢٥، ٥٦٨،

٦٠٠، ٦١١، ٦١٥، ٦٤٨، ٦٥٧، ٦٦٨،

٦٧٨، ٦٨٠، ٦٩٠، ٦٩٥، ٧٠٠، ٧٤١.

* جارية بن قدامة السعدي ١/٤١٥.

* جبير بن مطعم بن عدى ١/٢٤٩، ٤٩٧،

١٢٨/٢، ٣٩٦، ٤٠٧/٣، ٥٠٩.

* جبير بن نفير ١/٧٠٧، ٣/٥٥٨.

* أبو جبيرة ٣/٣٥٨.

* جدامة بنت وهب - أخت عكاشة ٣/٦٤٤.

* جرير بن عبد الله البجلي ١/٢٤٦، ٤٥٦،

٦٤٧، ٧٠٥، ٥٤٥/٢، ٣/٣٧٤، ٤٨٩، ٦١٠.

٧٢٩، ٧/٢، ٢١، ١٥٦، ٢٣٤، ٣٤٦،

٤٦٢، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٦، ٦٨٧، ٣/٣٢٦،

٣٤٩، ٣٦٠، ٤٤٦، ٥٥٨، ٦٧٢، ٧٠٣.

* أبو بردة بن دينار ٣/٧٤٠.

* أبو برزة الأسلمي ١/٦٠٥، ٣/٥١.

* بريدة بن الحصيب ١/٧٣، ٢٣٣، ٢٩٦، ٣٣٧،

٦٢٥، ٦٣٩، ٧٢٣، ٢/١٤٣، ٣/٩٧،

٥٦٤، ٥٦٥.

* أبو بريدة ٣/١٥، ٥٣١.

* بسر بن أرطاة ١/١٦٢، ٢/٤٦٥.

* بسر بن جحاش ٢/٣٧٢، ٣/١٣٦، ٦٤٩.

* بشير بن الحصاصية ١/٢٣٠.

* بشير بن سعد ٣/٦٠.

* أبو بكر ١/٤١٧، ٥١٤، ٥٧٧، ٧٤٨،

١٦٨/٢، ٨٠٨، ٣/٢٥٥.

* أبو بكر بن عياش ١/٦٠٩.

* أبو بكرة ١/٤٩١، ٤٩٩، ٥٢٣، ٢/١٦٤،

٥٩١، ٧٠٤، ٣/٣٢٢، ٤٠٢.

* بلال ١/٨٠٥.

* بلال بن الحارث المزني ٣/٣٦٨.

«ت»

* تميم الداري ١/٧٢٥، ٢/١٦١، ٣/٨٤.

* أبو تميم ٣/٧٥٤.

«ث»

* ثابت بن يزيد الخولاني ١/٧٢٨.

* ثعلبة بن الحكم ١/٦٧٧، ٢/٥٢٢، ٣/١١١.

* أبو ثعلبة الخشني ١/٦٣٤، ٨١٥.

* ثمامة بن أثال ٣/٣١٦.

- * الحسين بن علي / ١ ، ٢١١ / ٣ ، ٦٨ / ٣ .
- * حفصة / ١ ، ٢٤٠ / ٢ ، ٥١٥ .
- * حمدان بن أبان / ١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ .
- * حمرة بن عمرو الأسلمي / ١ ، ٢٢٢ .
- * حميد بن عبد الرحمن بن عوف / ١ ، ٤٤٨ .
- * أبو حميد الساعدي / ١ ، ٤٣٤ ، ٦٤ / ٢ ، ٢٧٢ ، ٦٧ / ٣ ، ٦٦٥ .
- * حنظلة بن حزم بن حنيفة / ١ ، ٢١٦ .
- * أبو حية البدرى / ٣ ، ٦٨٢ .

(خ)

- * خالد بن أبي جبل العدواني / ٣ ، ٦٦٩ .
- * خالد الخزاعي / ١ ، ٧٨٣ ، ٤٥٢ / ٣ .
- * خالد بن عرعة / ١ ، ٣٩٢ .
- * خالد بن معدان / ١ ، ٦٤٥ .
- * خالد بن يزيد بن معاوية / ٣ ، ٦٧٩ .
- * خباب بن الارت / ١ ، ٢٥٩ ، ٧٣٨ .
- * خريم بن فاتك الأسدي / ١ ، ٨٤٦ .
- * خزيمة بن ثابت / ١ ، ١١٨ ، ٣٤١ .
- * خزيمة بن ثابت الخطمي / ١ ، ٢٧٠ .
- * خولة بنت ثعلبة / ٣ ، ٤٦٤ .

(د)

- * أبو الدرداء / ١ ، ١٣٧ ، ٢٢٢ ، ٣٢٠ ، ٣٦٥ .
- * ٥٤٥ ، ٥٧٣ ، ٦٢٨ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٥ / ٢ ، ٦٥٥ .
- * ٤٦٢ ، ١١١ / ٣ ، ١٧٠ ، ٣١٧ ، ٤٠٣ ، ٧٤٩ .
- * درة بنت أبي لهب / ١ ، ٤٠١ ، ٣٦١ / ٣ .
- * أبو الدهماء / ٣ ، ١٦٩ .

- * جمعة بن خالد بن الصمة / ١ ، ٧١٠ .
- * جعفر بن أبي طالب / ٣ ، ٣٠ ، ٥١١ .
- * جعفر بن عبد الله بن الحكم / ١ ، ٣٢٩ .
- * أبو جمعة / ١ ، ٧٨ .
- * جندب الأزدي / ١ ، ١٤٩ ، ٧٤١ .
- * جندب بن عبد الله / ١ ، ٤٥ ، ١٠٩ ، ٢٦١ ، ٤٨٩ ، ٦٢ / ٢ ، ٦٩٨ / ٣ .
- * جنيد بن سبع / ٣ ، ٣٣٨ .

(ح)

- * الحارث البكري / ٢ ، ٣٦ ، ٣٠٧ .
- * الحارث بن الحارث الأشعري / ١ ، ٩١ .
- * الحارث مولى عثمان / ٢ ، ٤٧٧ .
- * الحارث بن هشام / ٣ ، ٢٤٧ .
- * حارثة بن وهب / ١ ، ٥٦٣ ، ٥٥٩ / ٣ .
- * حبة بن خالد / ٣ ، ٣٨٤ .
- * حبيبة بنت نجدة / ١ ، ٢٠١ .
- * حبيبة بنت سهل الأنصاري / ١ ، ٢٧٩ .
- * أم حبيبة / ١ ، ٥٧٢ .
- * الحجاج بن عمرو الأنصاري / ١ ، ٢٣٩ .
- * حذيفة بن أسيد الغفاري / ١ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٨٤٣ ، ٥٧٩ / ٢ ، ٦١٤ ، ٧٥٦ ، ٢٨٣ / ٣ .
- * حذيفة بن اليمان / ١ ، ١١٠ ، ٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٣٣٧ ، ٣٧٨ ، ٣٩٩ ، ٥١٥ ، ٥١٧ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦١٧ ، ٦٣٥ ، ٦٤٦ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٨٥ / ٢ ، ١١٥ ، ٣٤ / ٣ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٥٨ ، ٥٥٩ .
- * الحسن / ١ ، ٣٣٢ ، ٧٠ / ٣ ، ٤٠٢ ، ٥٥٨ ، ٥٩٠ .
- * حسناء ابنة معاوية الصرمية / ٢ ، ٤٢٤ ، ٦٤٤ / ٣ .

* أم رومان ٦٤٦/٢ .

* أبو ريحانة ٥٨٧/١ .

« ز »

* الزبير بن العوام ٤٢٨/١ .

* أبو الزبير ٢١١/٣ .

* زر ٧١٠/٣ .

* زهرة بن معبد ١٥٤/٢ .

* أبو زهير الثقفي ١٩٣/١ .

* زهير بن عمرو ٧٣١/١ .

* زيد بن أرقم ٢٥٥/٣ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٦٩٢ .

* زيد بن أسلم ٣٩٢/٣ ، ٣٧٩ ، ٤٨٦ .

* زيد بن أبي أوفى ٣٦٣/٢ .

* زيد بن ثابت ٢٩٥/١ ، ٣١٧ ، ٥٤٧ ، ٥٥٨ .

* زيد بن حارثة ٧٤٠/٣ ، ٥٤٧/٢ ، ٣٨/٣ ، ٥٩٤ .

* زيد بن خالد الجهني ٣٤٠/١ ، ٦٣٤/٢ ، ٤٤٣/٣ .

* زيد بن عاصم ٦٤٢/١ .

* زينب بنت جحش ٢٩٠/١ ، ٤٤١ ، ٤٩٢/٢ ، ٦٦٦ .

* زينب بنت أبي سلمة ٤٠٢/٣ .

« س »

* سبرة بن معبد الجهني ٤٨٥/١ ، ٥٤٨/٣ .

* سبرة بن فاكه ١٠/٢ .

* سبيعة ٥٣٨/٣ .

* سراقه بن مالك ٣٩٥/١ ، ٥٤٨ .

* سعد بن مالك ١٠٦/١ ، ١١٨ ، ٩٧/٢ .

« ذ »

* أبو ذر ٥٦/١ ، ٨٦ ، ١٠٤ ، ١٣١ ، ٢١٠ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣٢٠ ، ٣٤٦ ، ٣٥٩ ، ٣٨٤ .

* أبو ذر ٤٧٦ ، ٣٩٢ ، ٥١٢ ، ٥١٦ ، ٥٢١ ، ٦٣٢ .

* أبو ذر ٧٧٢ ، ٧٥٩ ، ٧٠٠ ، ٦٦٤ ، ٨٣٦ ، ٨١١ .

* أبو ذر ٨٤٣ ، ٨٤٥ ، ٨٤٦ ، ١٣٥/٢ ، ٢١١ ، ٢٢٩ .

* أبو ذر ٢٣٤ ، ٢٧٨ ، ٣٢٧ ، ٣٣٨ ، ٤١١ ، ٤١٢ .

* أبو ذر ٥٨٨ ، ٥٨٤ ، ٧٠٣ ، ١٢٦/٣ ، ٣٦١ ، ٣٩٧ .

* أبو ذر ٤٠٣ ، ٥٣٦ .

« ر »

* أبو راشد الخبراني ١٩٣/٣ .

* رافع بن خديج ١٧٧/١ ، ٦٢٧ .

* أبو رافع ٦٥٧/٣ .

* ربيع ١٣٧/٣ .

* ربيعة بن عامر ٤٢٧/٣ .

* ربيعة بن عباد ٧٤٦/٣ .

* ربيعة بن كعب الأسلمي ٥٣٧/١ .

* رجل من أصحاب النبي ﷺ ٤٧٨/٣ .

* رجل من الأعراب ٦٣/٢ .

* رجل من الأنصار ٥٥٠/١ .

* رجل من بني سليم ١١٠/١ .

* رجل من بني عامر ١٦/٣ .

* رجل من مزينة ٢٥/٢ .

* أبو رزين العقيلي (لقيط بن عامر) ١٢٦/١ .

* أبو رزين ٢٥٠/٢ ، ٥٨٠ .

* رفاعه بن رافع الزرقني ١٠٥/٢ ، ١٢٢ .

* رفاعه ٣٥٥/٣ .

* رويغ بن ثابت الأنصاري ٦٩/٣ .

- * سلمة بن الأكوع ٢١٩/١ ، ١٧١/٣ ، ٣٣١ .
- * سلمة بن صخر ٤٦٥/٣ .
- * سلمة بن قيس الأشجعي ٤٩٢/١ .
- * أبو سلمة بن عبد الرحمن ٧٥٣/٣ .
- * أم سلمة ٥٧/١ ، ٢٠٠ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٣٥٥ ، ٤٥٠ ، ٤٩٥ ، ٥٧٠ ، ١١٤/٢ ، ١١٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٨ ، ٤٩/٣ ، ٣٨٦ ، ٥٠٥ ، ٥١١ ، ٥٩٣ .
- * سليم بن عامر ٤٢٤/٣ .
- * سليمان بن صرد ٤١/٣ .
- * سليمان بن عامر ٥١٦/٣ ، ٦٨٨ .
- * سمرة بن جندب ٢١٣/١ ، ٢٢٨ ، ٣٤٤ ، ٥٢٦ ، ٥٦١ ، ٦٠٥ ، ١٧/٢ ، ٨٦ ، ١٤٧ ، ١٩٥ ، ٤٩١ .
- * سهل بن سعد الساعدي ٧٢/١ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٩٢ ، ٤٢٧ ، ٤٥٣ ، ٨٥/٢ ، ١٨١ ، ٣٢٧ ، ٣٥٤ ، ٦٤٠ ، ٢٢/٣ ، ٦٠ ، ٦١ ، ١٨٤ ، ٢٠٣ ، ٢٧١ ، ٣٢٠ ، ٣٥٧ ، ٤٠٧ ، ٦٨٣ .
- * سهلة بنت سهيل (امرأة أبي حذيفة) ٤٨١/١ ، ٣٠/٣ .
- * سهيل ٤٤٨/٣ .
- * سواء بن خالد ٣٨٥/٣ .
- * سودة بنت زمعة ٥٨٢/١ .
- * سويد بن هبيرة ٣٦٠/١ .
- « ش »
- * شبيب أبو روح ٨٢٧/٢ ، ٨٢٨ .
- * الشخير ٧٢٣/٣ .
- * شداد بن أوس ٢٥٠/١ ، ٧٨٤ .
- * أبو شريح الخزازي ٢١٣/١ .
- * سعد بن معاذ ٦٦٠/١ .
- * سعد بن هشام ٥٥٨/٣ ، ٥٩٥ .
- * سعد بن أبي وقاص ٤٦٦/١ ، ٦٦٣ ، ٧٨٢ ، ٣٠/٢ ، ٩٧ ، ٦٠١ ، ٧٩٠ ، ٣٦٢/٣ .
- * ابن السعدي ٨٤٤/١ .
- * أبو سعيد الأشعري ٣٩٨/١ .
- * سعيد بن جبير ٥٣٦/١ .
- * أبو سعيد الخدري ٥١/١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٩٠ ، ١١٦ ، ١٨٤ ، ١٩٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٤٠٧ ، ٤١٧ ، ٤٤٨ ، ٤٨٤ ، ٤٩٠ ، ٥٠٨ ، ٥٣٧ ، ٥٤٥ ، ٥٥٩ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٦٢٠ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧٢٥ ، ٨٠٥ ، ٨٥٠ ، ٢٤/٢ ، ٦٣ ، ١٠٠ ، ١٢١ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٨٦ ، ٢٠٠ ، ٢١٦ ، ٣٢٧ ، ٣٦٣ ، ٣٨٨ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٤٩٣ ، ٥٠٥ ، ٥٣٤ ، ٥٤٧ ، ٥٧١ ، ٥٧٧ ، ٦٣١ ، ٦٥٥ ، ٦٦٣ ، ٧٧٢ ، ٧٨٤ ، ٩٧/٣ ، ١٠١ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ٢٠٤ ، ٣٥١ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٩٢ ، ٤٥٧ ، ٤٦٢ ، ٥١٩ ، ٥٦٥ ، ٦١١ ، ٦٣٩ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٧١٠ ، ٧٤٣ ، ٧٤٩ .
- * سعيد بن زيد ٥٨/١ ، ١١٦ .
- * سعيد بن عمرو ٥٨٧/٢ ، ٣١١/٣ .
- * أبو سعيد بن الملقى ٤٩/١ ، ١٩٥ ، ١١٣/٢ ، ٣٦٨ .
- * أبو سعيد مولى ابن عامر بن كريز ٥٠/١ .
- * سعيد بن أبي هلال ٧٤/١ .
- * أبو سفيان ٣٧٩/١ .
- * سفيان بن عبد الله الثقفي ٢٣٩/٣ .
- * سلمان الفارسي ٢٢٤/١ ، ٤٥٤ ، ٥٤٦ ، ٥٣/٢ ، ٦٢ ، ١٣٩ ، ٥١٦/٣ .
- * سلمى بنت قيس ٥٠٣/٣ .

٦٤٥ ، ٦٦٤ ، ٦٧٧ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ،
 ٧١٩ ، ٧٣١ ، ٧٣٨ ، ٧٤٨ ، ٧٥١ ، ٧٥٤ ،
 ٧٧٥ ، ٧٧٨ ، ٨٠٤ ، ٨١٥ ، ٩/٢ ، ٧٨ ،
 ٨٣ ، ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٩٢ ، ٣٠٧ ، ٣٥٨ ،
 ٣٨٨ ، ٤٢٦ ، ٤٦٦ ، ٤٧٩ ، ٥٧٨ ، ٥٩٤ ،
 ٦٤١ ، ٦٤٤ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٦٦ ، ٧٣٣ ،
 ٧٥٣ ، ٦/٣ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ١١١ ،
 ١٣٤ ، ١٦٨ ، ١٩٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،
 ٢٦١ ، ٣١٧ ، ٣٢٧ ، ٤٠١ ، ٤١٣ ، ٤١٨ ،
 ٤٢٨ ، ٤٣٠ ، ٤٤٥ ، ٥٠٣ ، ٥٠٥ ، ٥٢٠ ،
 ٥٤٤ ، ٥٦٥ ، ٥٧٦ ، ٥٩٤ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ،
 ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٤١ ، ٦٥٨ ، ٦٧٢ ، ٦٧٥ ،
 ٧٠٥ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧٣١ ، ٧٤٤ ، ٧٤٩ ،
 ٧٥٣ .

* عاصم بن عمر بن قتادة ١٧٢/١ ، ٣٥٧ ،
 ٦٩٨ ، ١٥١/٢ ، ٤٦٥/٣ .

* عباد بن شرحبيل الغبري ١/٢٠٨ .

* عبادة بن الصامت ١/٥٣ ، ٦٥ ، ٢٢٤ ، ٤٧٤ ،
 ٥٢٩ ، ٥٤٥ ، ٥٥٢ ، ٦١٢ ، ٦٧٠ ، ٦٨٨ ،
 ٧٧٤ ، ٨٣٦ ، ٨٤٠ ، ٥٠٥/٢ ، ٦٣٥ ، ٣/٣ ،
 ٣٩٣ ، ٥٠٤ ، ٥٩٨ ، ٧١١ .

* العباس بن عبد المطلب ٣/٢٥٤ ، ٢٥٥ .

* عبد الرحمن بن أبزي ٢/٥١٧ ، ٨٤٧ ،
 ٦٧٢/٣ .

* عبد الرحمن بن البيهقي ١/٤٧٥ .

* عبد الرحمن بن أبي سعيد ١/٣٢٩ .

* عبد الرحمن بن سمرة ١/٢٧٢ .

* عبد الرحمن بن عوف ١/٦٥ ، ٤٢٩ ، ٤٩٧ ،
 ٨٤٤ ، ٥٠٠ .

* عبد الرحمن بن غنم ١/٤٣٢ ، ٧٢٥ .

* عبد الرحمن بن يعمر الديلي ١/٢٤٧ ، ٢٥٢ .

* شريك بن أبي نمر ٣/٧٣٨ .

* شقيق ١/٥١٧ .

* شهر بن حوشب ١/١١٦ ، ٢/٦٩٨ ، ٣/٢٠٩ .

« ص »

* صدى بن عجلان ١/٦٢٤ .

* صرمة بن قيس ١/٢٢٦ .

* الصعب بن جثامة ١/٧٤٠ .

* صفوان بن عسال ١/٨٤٣ .

* صفوان بن مُحَرِّز ٣/٤٦٩ .

* صفية ١/٢٣١ .

* صفية بنت شيبة ١/٥٢٧ .

* صهيب ١/٢٥٥ ، ٢/٣٢٣ ، ٣/٦١١ ،
 ٦٦٣ ، ٦٦٤ .

« ط »

* أبو الطفيل ٢/١٨٣ .

* أبو طلحة الأنصاري ٣/٦٨ ، ١٥٩ .

« ع »

* عائشة ١/٥٨ ، ٩٧ ، ١٣٤ ، ١٤٣ ، ١٥٩ ،

١٧١ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٩٢ ، ٢٠١ ، ٢١٩ ،

٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٩ ، ٢٤٩ ،

٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ ،

٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٩٦ ، ٣٠٦ ،

٣٠٧ ، ٣٢٢ ، ٣٣٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥٢ ،

٣٥٥ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٤٤١ ، ٤٥٧ ، ٤٦٢ ،

٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٧٧ ، ٤٨١ ، ٤٨٤ ، ٥٠٥ ،

٥١٢ ، ٥١٥ ، ٥١٨ ، ٥٢٠ ، ٥٣٦ ، ٥٧٧ ،

٥٧٨ ، ٥٨٠ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٩٣ ، ٦٣٤ .

٧٠٩ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ ، ٧٤٣ ،
 ٧٥٢ ، ٧٥٧ ، ٧٥٩ ، ٧٧١ ، ٨٣٢ ، ٨٣٤ ،
 ٨٤٥ ، ٨٤٧ ، ١٥/٢ ، ١٧ ، ٣٩ ، ٦٠ ، ٧٢ ،
 ٩٨ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ١١٩ ، ١٢١ ،
 ١٢٨ ، ١٤١ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ٢٤٢ ، ٢٩٠ ،
 ٣٣١ ، ٣٨٨ ، ٣٩٦ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٣٩ ،
 ٤٥٣ ، ٤٩٣ ، ٥١٣ ، ٥٣٥ ، ٥٧٣ ، ٥٨١ ،
 ٥٨٤ ، ٥٨٩ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٦٢ ، ٧٣٠ ،
 ٧٦٠ ، ٧٨٦ ، ٨١١ ، ٨١٥ ، ٨٢٠ ، ١٥/٣ ،
 ٣٠ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٧٦ ، ٨٤ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ١٣٤ ،
 ١٥٢ ، ١٩١ ، ٢٠٨ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٧٦ ،
 ٣٠٩ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٧ ،
 ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ،
 ٤١٤ ، ٤١٧ ، ٤٣٦ ، ٤٤٨ ، ٤٧٧ ، ٥٠١ ،
 ٥٠٤ ، ٥١٧ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ،
 ٥٥٠ ، ٥٥٩ ، ٥٦٥ ، ٥٨٧ ، ٥٨٩ ،
 ٦١٠ ، ٦١٤ ، ٦٢١ ، ٦٤١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٥ ،
 ٦٨٠ ، ٦٩٢ ، ٦٩٩ ، ٧٠٢ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ ،
 ٧١٠ ، ٧٢٥ ، ٧٣٩ ، ٧٤٣ ، ٧٤٤ ، ٧٥٥ .

* عبد الله بن عدى بن الحمراء ٢٤٨/٣ .

* عبد الله بن عمر ٦٢/١ ، ٧٩ ، ١٢٧ ، ١٤٦ ،
 ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٧٣ ، ١٩١ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ،
 ٢١٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٤٢ ،
 ٢٨٣ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ،
 ٣٣٩ ، ٣٤٢ ، ٤١٥ ، ٤٣٥ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥ ،
 ٤٧٥ ، ٥٠٤ ، ٥١٦ ، ٥٢٦ ، ٥٢٩ ، ٥٤٦ ،
 ٥٥١ ، ٥٥٦ ، ٥٦٣ ، ٥٦٥ ، ٥٨٣ ، ٥٩١ ،
 ٦٢٤ ، ٦٣٠ ، ٦٤٨ ، ٦٧٩ ، ٧٢٥ ، ٧٢٧ ،
 ٧٢٩ ، ٧٣١ ، ٧٣٨ ، ٧٨٢ ، ٨٢٦ ، ١١/٢ ،
 ٣٧ ، ٥٢ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، ١٨٧ ، ٢٥٥ ، ٣١٧ ،
 ٣٢٨ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٧٧ ، ٣٩٧ ، ٤٤٧ ،
 ٤٥٧ ، ٤٦٣ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٧٨٤ ، ١٠/٣ ،
 ١٩٩ ، ٢٢١ ، ٢٦٧ ، ٢٩٣ ، ٤٠٨ ، ٤١٤ ،

* أبو عبد الرحمن ١٩٣/٣ .

* عبد الله بن أنيس الجهني ٢٩٨/١ ، ٧٠٩ .

* عبد الله بن أبي أوفى ١٣٢/١ ، ١٩٥/٢ ،
 ٧١/٣ ، ٣٤٨ ، ٤٢٥ .

* عبد الله بن بسر ٦٥٢/٢ .

* عبد الله بن أبي بكر ١٧٢/٢ ، ٣٢٩/٣ .

* عبد الله بن حبيب ٧٢٤/٣ .

* عبد الله بن أبي حدرد ٥٥٥/١ ، ٥٥٦ .

* عبد الله بن جابر ٥١/١ .

* عبد الله الديلمي ١٧٠/٣ .

* عبد الله بن الزبير ١٨٣/١ ، ٤٥٣ ، ٢١٤/٢ ،
 ٢٢٥/٣ ، ٣٥١ ، ٤٩٨ .

* عبد الله بن زمعة ٦٩٢/٣ .

* عبد الله بن السائب ٢٥٢/١ .

* عبد الله بن سرجس ٣٢١/٣ .

* عبد الله بن سلام ٢١٨/٢ ، ٥٠٦ .

* عبد الله بن الشخير ٤٥١/٣ .

* عبد الله بن شقيق ٦٩/١ ، ٤١٢/٢ .

* عبد الله بن عباس ٤٥/١ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٥٧ ،

٩١ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٤ ، ١٣٨ ،

١٤٠ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧٧ ،

١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٨٩ ، ٢١٦ ، ٢٣٣ ،

٣٢٩ ، ٣٢٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٤ ، ٣٧٠ ، ٣٧٩ ،

٣٨٠ ، ٣٨٧ ، ٣٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣١٢ ، ٣٣٢ ،

٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٨٥ ،

٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٤٠٣ ،

٤١٥ ، ٤٢٦ ، ٤٣٣ ، ٤٣٩ ، ٤٤١ ، ٤٤٤ ،

٤٧٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ،

٥٤٠ ، ٥٤٦ ، ٥٥٣ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ،

٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٧ ، ٦١٠ ، ٦١٧ ،

٦٤٠ ، ٦٤٥ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٩٠ ، ٦٩٥ .

٤٥١ ، ٤٣٠ ، ٤٢٧ ، ٤١٥ ، ٣١٩ ، ٣١٧
 ٥٧٩ ، ٥٧١ ، ٥٦٥ ، ٥٤٧ ، ٥١٥ ، ٤٩٣
 ٢١/٣ ، ٨٠٩ ، ٨٠٨/٢ ، ٦١٤ ، ٦١٢
 ٣٢٧ ، ٣٠٩ ، ٢٣٧ ، ١٩٩ ، ١٧٨ ، ١٠٣
 ٤٠١ ، ٣٩٧ ، ٣٩٦ ، ٣٩٥ ، ٣٩٤ ، ٣٨٤
 ٤٧٠ ، ٤٣٨ ، ٤٢٧ ، ٤٢٤ ، ٤١٦ ، ٤٠٧
 ٦٨٤ ، ٦٢١ ، ٥٩٩ ، ٥٦٤ ، ٥٣٧ ، ٥١٠
 .٧٤٧ ، ٧٣٧ ، ٧٠٣ ، ٦٩٨

* عبد الله بن مفضل / ١ ، ٣٠ / ١ ، ٢٤ / ٢ ، ٣٢٤ / ٣ ،
 .٦٣٦ ، ٥٧٢ ، ٥٤٩ ، ٣٣٦

* عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث / ٢ ، ١٧٦ / ٢ .

* عبيد الله وهو ابن عمر العمري / ٢ ، ١٨٧ / ٢ .

* أبو عبيدة بن الجراح / ١ ، ٨٩ / ١ .

* عتبة بن عبد السلمي / ٣ ، ٤٣٤ / ٣ .

* عتبة بن خالد / ٣ ، ٣٨٥ / ٣ .

* عتبة بن غزوان / ٣ ، ٢٠٤ / ٣ .

* عثمان بن عفان / ١ ، ٤١٧ / ١ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ،
 .٦٦٤ ، ٥٦٧ ، ٢٧٨ ، ١٨٩ / ٢ ، ٨٣٨

* عدى بن حاتم / ١ ، ٣١٨ / ١ ، ٣٨٦ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ،
 .٧١٧ / ٣ ، ٨١٥ ، ٦٧٣ ، ١٦٠ / ٢ ، ٦٣٤

* عدى بن عميرة الكندي / ١ ، ٣٨٤ / ١ ، ٤٣٤ .

* العرياض بن سارية / ١ ، ١٨٥ / ١ ، ٥٠٩ / ٣ .

* عروة بن الزبير / ٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٢١٤ / ٣ ، ٤٩٥ .

* عروة بن أبي الجعد البارقى / ٢ ، ١٣٧ / ٢ .

* عروة النقيمي / ١ ، ٢٢٢ / ١ .

* أبو عزة / ٣ ، ١٧ / ٣ .

* عطية السعدى / ١ ، ٧٧ / ١ .

* عطية القرظى / ١ ، ٤٦٣ / ١ .

* عقبه بن عامر / ١ ، ٢٥٢ / ١ ، ٢٨٣ ، ٣٣٧ ، ٦٤٨ ،
 ٧٣٧ ، ١٣٧ / ٢ ، ٣٧١ ، ٤٢٢ ، ١٣٢ / ٣ ، ١٣٢

٥٣٣ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٧١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٨ ،
 ٦٥٢ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧٣٩ ،
 .٧٤١

* عبد الله بن عمرو بن العاص / ١ ، ٨٩ / ١ ، ١٦٧ ،

١٨٤ ، ٢٠٨ ، ٢٢٥ ، ٢٥٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ،

٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٨٠ ، ٣٩٨ ، ٤١٨ ،

٤٣١ ، ٤٤٦ ، ٤٦٧ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٥٠٤ ،

٥٠٥ ، ٥٣٠ ، ٥٤٣ ، ٥٧٩ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ،

٦١٩ ، ٦٤٥ ، ٦٥٧ ، ٦٦٦ ، ٦٧٢ ، ٦٧٧ ،

٧٢٧ ، ٧٢٩ ، ٧٨٨ ، ٨٤٤ ، ٣٨ / ٢ ، ٧٨ ،

١٧٥ ، ١٨١ ، ٢٥٠ ، ٣٢٥ ، ٣٩٨ ، ٥٥٨ ،

٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٩٥ ، ٥٨ / ٣ ، ٦٥ ، ٩٤ ،

١٠١ ، ١١١ ، ١٧١ ، ٢٤٨ ، ٣١١ ، ٣١٦ ،

٣٢٢ ، ٣٥٦ ، ٣٧٩ ، ٣٩٣ ، ٣٩٥ ، ٤١٤ ،

٤٦٠ ، ٤٧٢ ، ٤٨٤ ، ٤٨٧ / ٣ ، ٥٥٩ ، ٥٦٩ ،

٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٦٠٨ ، ٦٥٩ ، ٦٧٣ ، ٦٩٩ ،

.٧٣٧ ، ٧١٦

* عبد الله بن قيس الأشعري / ٢ ، ١٨١ / ٢ ، ٤٢٣ / ٣ .

* عبد الله بن كعب بن مالك / ٢ ، ١٧٨ / ٢ .

* عبد الله بن مسعود / ١ ، ٥٤ / ١ ، ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٨ ،

٩٠ ، ٩١ ، ١٢١ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٤٨ ،

٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٩ ، ٢٢٨ ، ٢٤٥ ،

٢٨٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٢٣ ،

٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٤٧ ،

٣٨١ ، ٣٨٤ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤١٥ ،

٤٢٥ ، ٤٣٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٩١ ، ٤٩٥ ،

٥٠٥ ، ٥٠٩ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٧ ، ٥٤٩ ،

٥٥٠ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٦٤ ، ٥٧١ ، ٥٧٥ ،

٥٩١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٥ ، ٦٠٩ ، ٦٢٣ ، ٦٥١ ،

٦٦٥ ، ٧٠٤ ، ٧١٥ ، ٧١٩ ، ٧٢٣ ، ٧٢٥ ،

٧٤٣ ، ٧٤٥ ، ٧٧٦ ، ٧٩٣ ، ٨١٥ ، ٨٢٠ ،

٨٣٥ ، ٨٣٧ ، ٨٣٨ ، ٨٣٩ ، ٦ / ٢ ، ١٨ ، ٧٩ ،

٨٤ ، ١٢٤ ، ١٥٦ ، ٢٠٧ ، ٢٧٨ ، ٣٠٩ ،

٣٥٤ ، ٣٦٦ ، ٤٣٤ ، ٤٨٨ ، ٦٣٣ ، ٦٤٣ ،
٦٦٤ ، ٦٧٥ ، ٨٤٦ ، ١٧/٢ ، ٥٩ ، ٦٦ ، ٦٩ ،
١٩٧ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٣١٣ ، ٥٠١ ، ٥٠٤ ،
٥٤٨ ، ٥٦٤ ، ٦٢٩ ، ٦٤٤ ، ٧٤٢ ، ٧٩٩ .

* عمرة بن مرة الجهني ١/٥٣٧ .

* عمرو بن عبسة ١/٦٤٦ ، ٢/١٣٦ ،
٣/٦٧٨ .

* عمير بن قتادة ١/٤٩٠ .

* عوف بن مالك الأشجعي ١/٤٤١ .

* أبو عياش الزرقى ١/٥٦٧ .

* عياض بن حمار المجاشعي ١/٧٩٢ ، ٨٠٢ ،
١٦/٢ ، ٧٢ ، ٢٠٦ ، ٢٢٤ ، ٢٤٢ ، ٦٨٧ ،
٨٠٢ ، ٨٢٠ .

« ف »

* فاطمة بنت أبي حبيش ١/٢٧٦ .

* فاطمة بنت فيس ٣/٥٣٤ .

* الفريعة بنت مالك بن سنان ١/٣٠١ .

* فضالة الأنصاري ١/٥٠٩ .

* فضالة بن عبيد ١/٤٥٤ .

* فضالة بن عبيدة ٢/٣٩٩ .

* الفضل بن عباس ١/٢٩٩ .

* أم الفضل أم عبد الله بن عباس ١/٣٥٦ .

« ق »

* قيصة بن مخارق ١/٥٢٤ ، ٢/١٧٧ ، ٧٣١ .

* أبو قتادة الأنصاري ١/٢٢٢ ، ٣٣٧ ، ٥٨٩/٢ ،

٣/١٦٩ ، ٣١٦ ، ٧٤٠ .

* قتادة بن النعمان ٢/٥٩٥ .

١٥٨ ، ٦٥٢ .

* عقبه بن مالك الليثي ١/٥٣٣ .

* عكرمة ١/٢٦٦ ، ٤٧٦ ، ٣/٣٤٣ ، ٦٠٣ .

* أم العلاء ٢/٣٧٠ .

* علقمة بن أبي وقاص ٢/١٠٢ ، ٣/٣١٠ ،
٦٩٤ .

* علي بن الحسين ٣/٦٥٦ .

* علي بن أبي طالب ١/١١٠ ، ٢٥٧ ، ٢٩٤ ،
٢٩٥ ، ٣٧١ ، ٤٠٢ ، ٤١٧ ، ٤٦٣ ، ٤٧٠ ،

٤٨٥ ، ٥٢٩ ، ٥٧١ ، ٥٧٤ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ،

٦٤٧ ، ٦٧٦ ، ٦٨٦ ، ٧٧٠ ، ٨٤٨ ، ٢٠١/٢ ،

٤٨١ ، ٣٧٥ ، ٣٨٩ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٦٩٥ .

* عمار بن ياسر ١/٥١٨ ، ٧٥٦ ، ٢/١٨٣ ،
٣/٤٣٢ .

* عمارة بن خزيمه الأنصاري ١/٣٤١ .

* عمارة بن ربيعة ٢/٥٤٦ .

* عمر بن الخطاب ١/١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٩٣ ،

٢٢٩ ، ٢٦٢ ، ٢٧٣ ، ٣٠٣ ، ٣٣٢ ، ٣٩٠ ،

٤٣٤ ، ٤٧٨ ، ٥٤٤ ، ٥٦١ ، ٥٦٣ ، ٦١١ ،

٦١٥ ، ٦١٧ ، ٦٢٧ ، ٦٤٥ ، ٧٢٤ ، ٧٧٩ ،

٨٣٣ ، ١٣/٢ ، ٧١ ، ١٠٤ ، ٢٠٢ ، ٥٤٦ ،

٦٢٥ ، ٧٦٦ ، ٦٤/٣ ، ٢٠٤ ، ٣٢٦ ، ٣٥١ ،

٣٥٣ ، ٣٩٣ ، ٤٥٧ ، ٥١٣ ، ٥٤٦ ، ٥٥٤ .

* عمر بن علي ٣/١٧ .

* عمر بن أبي سلمة ٣/٧٤٤ .

* عمران بن حصين ١/١٩٨ ، ٢٤١ ، ٤٤٩ ،

٥١٥ ، ٥٣٧ ، ٥٤٦ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٢/٣٧٠ ،

٥٧٧ ، ٣/٦٩١ .

* عمرو بن الأحوص ١/٣٣٦ .

* عمرو بن خارجة ١/٢١٤ .

* عمرو بن العاص ١/١٣٦ ، ٢٢٨ ، ٢٩٣ ،

- * محمد بن أبي عميرة ٦٨٤/٣ .
- * محمد بن كعب القرظي ٨٠٩/١ ، ٢٣١/٣ ، ٣٠٩ .
- * محمد بن مسلم بن بدر المكي ٢٢٧/٣ .
- * محمود بن لبيد ٤٩٦/٢ .
- * مرثد ٧٠٩/٣ .
- * مروان بن الحكم ٣٤٢/٣ .
- * مسروق ٤٣٨/١ .
- * أبو مسعود الأنصاري ٣١٩/١ ، ٣٤٦ ، ٤٧١ ، ٦٧/٣ ، ١٨٥/٢ .
- * أبو مسعود البدرى ٣٣٧/١ .
- * المستورد أخو بنى فهر ١٦٧/٢ ، ٣٢٦ .
- * المستورد بن شداد ٤٣٣/١ .
- * المسور بن مخرمة ٢٤٨/١ ، ٦٣١/٢ ، ٣٣٧/٣ ، ٥٣٧ .
- * المسيب بن حزن ٢٠١/٢ ، ٧٧٧ .
- * المطلب بن أبي وداعة ٨١٩/١ .
- * معاذ بن أنس الجهني ٨١٤/٢ ، ٨١٥ ، ٣٦٠/٣ .
- * معاذ بن جبل ٥٥/١ ، ٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٤٠١ ، ٤٥٤ ، ٥٠٣ ، ٥١٤ ، ٥٤٥ ، ٥٩٢ ، ٧٨٢ ، ٧٩٠ ، ٦٧٢ ، ١٧٦ ، ٢٢/٣ ، ٦٧٤ ، ٣٠٧/٢ .
- * معاوية بن الحكم السلمي ٢٩٧/١ ، ٥٥٠ ، ٤٦٧/٣ ، ٧٢٢ .
- * معاوية بن حيدة القشيري ١١٢/١ ، ٢٦٨ ، ٢٧٧ ، ٤٠١ ، ٥٠١ ، ٣١٩/٣ ، ٦٥٣ .
- * معاوية بن أبي سفيان ٥٢١/١ ، ٥٥٣ ، ٦٤٥ ، ٧١٠ ، ٢٧٣ ، ٢٥٨/٣ ، ٥٢٢/٢ ، ٨٤٤ .
- * معبد الجهني ٥٢٣/١ .
- * المغيرة بن شعبة ١٥٦/١ ، ٥٤٤ ، ٥٠٣/٢ ،

- * قيس بن سعد بن عبادة ٣١٥/١ ، ٧٢٧ .
- * قيس بن عاصم ٤٩٧/١ .
- « ك »
- * أبو كبشة الأنصاري ٣٧/٢ .
- * كعب بن عجرة ٢٤٠/١ ، ٦٧/٣ .
- * كعب بن مالك ١٩٩/١ ، ٢٠٣/٢ ، ٤١٢ ، ٦١٧/٣ .
- * كلدة بن الحنبل ٦٥٣/٢ .
- * أم كلثوم بنت عقبة ٥٧٢/١ .
- * كيسان ٦٠٥/١ ، ٧٢٦ .
- « ل »
- * لقيط بن صبرة ٦٤٦/١ .
- « م »
- * أبو مالك الأشجعي ٤٣٣/١ .
- * أبو مالك الأشعري ٦٤٨/١ ، ٣٥٦/٢ ، ٦١٤ ، ١٨٤/٣ .
- * مالك بن أنس ٧٠٩/٣ .
- * مالك بن صعصعة ٤٠٩/٢ .
- * مالك بن عمرو بن ثابت الأنصاري ٧١٣/٣ .
- * مالك بن أبي كعب ٤٣٩/١ .
- * مالك بن فضلة ٧٤٦/١ ، ٧٤٧ ، ٢٣٢/٢ .
- * أم مبشر - امرأة زيد بن حارثة ٥١٥/٢ ، ٣٣٢/٣ .
- * مجمع بن جارية ٦٠٥/١ .
- * محجن بن الأدرع ٢٢٣/١ .
- * محمد بن حمزة ٢٦٧/٣ .

* أبو واقد الليثي ١/٣٩٥ ، ٦٣١ ، ٥٤/٢ ، ٥٩٥ ،
٤٠٧ ، ٣٦٤/٣ .

* وحشى بن حرب ٢/٦٧٨ .

* الوليد بن عباد ٣/٤١٤ ، ٥٥٧ .

« ي »

* يزيد بن رومان ٢/١٧٢ .

* يزيد أبو حبيب ١/٥١٢ .

* يزيد بن أبي عبيد ٣/٣٣١ .

* أبو اليسر ١/٣٣٨ .

الأحاديث التي لم يذكر أصحابها :

* ١/٤٢ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ،

٦٤ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ،

٩٢ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١١١ ، ١٢١ ، ١٢٥ ،

١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٥١ ،

١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٥ ،

١٦٩ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ،

١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،

١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٩ ،

٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ،

٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ،

٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ،

٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ،

٢٩١ ، ٢٩٩ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ،

٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٩ ،

٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ،

٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ ،

٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٥ ،

٣٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ،

٤١٩ ، ٤٢٤ ، ٤٢٧ ، ٤٣١ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ،

٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦٤ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ،

٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ،

٣٥٥ ، ٣٥٩ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٩٢ ، ٤٠٥ ،

٤١٦ ، ٤١٩ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ،

٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ ،

٤٧١ ، ٤٨٨ ، ٤٩٤ ، ٤٩٦ ، ٥١٠ ، ٥١٢ ،

٥١٦ ، ٥٢١ ، ٥٢٨ ، ٥٤٤ ، ٥٤٧ ، ٥٥٤ ،

٥٥٨ ، ٥٦١ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٧٤ ، ٥٧٦ ،

٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٦٠١ ، ٦٠٨ ، ٦١٢ ، ٦٢٠ ،

٦٣٤ ، ٦٥١ ، ٦٥٥ ، ٦٦٠ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ،

٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٧٠٥ ، ٧١٦ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ ،

٧٣٣ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٤٢ ، ٧٥٧ ، ٧٧٧ ،

٧٨٧ ، ٧٩٧ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٣ ، ٨١٩ ،

٨٠٣ ، ٨١٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٣ ، ٨١٩ ،

٨٠٣ ، ٨١٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٣ ، ٨١٩ ،

٨٠٣ ، ٨١٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٣ ، ٨١٩ ،

٨٠٣ ، ٨١٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٣ ، ٨١٩ ،

٨٠٣ ، ٨١٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٣ ، ٨١٩ ،

٨٠٣ ، ٨١٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٣ ، ٨١٩ ،

٨٠٣ ، ٨١٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٣ ، ٨١٩ ،

٨٠٣ ، ٨١٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٣ ، ٨١٩ ،

٨٠٣ ، ٨١٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٣ ، ٨١٩ ،

٨٠٣ ، ٨١٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٣ ، ٨١٩ ،

٨٠٣ ، ٨١٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٣ ، ٨١٩ ،

٨٠٣ ، ٨١٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٣ ، ٨١٩ ،

٨٠٣ ، ٨١٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٣ ، ٨١٩ ،

٨٠٣ ، ٨١٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٣ ، ٨١٩ ،

٨٠٣ ، ٨١٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٣ ، ٨١٩ ،

٨٠٣ ، ٨١٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٣ ، ٨١٩ ،

٨٠٣ ، ٨١٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٣ ، ٨١٩ ،

« و »

* وائل بن حجر ١/٧٠ .

* وائلة بن الأسقع ١/٧٤ ، ٢٢٠ ، ٥٥٥ ،

٨١٩ .

فهرس الموضوعات

الصفحة

الموضوع

سورة لقمان (٣١)

- ٥ ريع : ﴿ آتَم ١ تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ _____
- ٥ أقوال السلف فى الغناء والمزامير وقسمهم على تحريمها _____
- ٦ مآل الأبرار السعداء فى الدر الآخرة _____
- ٦ ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ _____
- ٧ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ _____
- ٨ لقمان يعظ ولده _____
- ٩ وصايا نافعة حكاها لقمان الحكيم ليمثلها الناس ويقتدوا بها _____
- ١٠ ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ _____
- ١١ ريع : ﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ _____
- ١٢ ﴿ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ _____
- ١٢ ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةَ أَبْحُرٍ ﴾ _____
- ١٣ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ _____
- ١٣ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَبْعَثُ اللَّهُ ﴾ _____
- ١٤ أمر الله تعالى عباده بالتقوى وإنذاره إياهم يوم القيامة وما فيه _____
- ١٤ مفاتيح الغيب التى استأثر الله تعالى بعلمها _____

سورة السجدة (٣٢)

- ١٨ ﴿ آتَم ١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ _____
- ١٨ خلق الله السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وهو سبحانه القائم على شؤون من فيهما —
- ١٩ ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ _____
- ١٩ ريع : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ _____
- ٢٠ حال المشركين يوم القيامة حين عاينوا البعث وحين وقوفهم حقيرين ذليلين _____
- ٢١ ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ﴾ _____
- ٢٣ الله تعالى لا يساوى فى حكمه يوم القيامة بين مؤمن وفاسق _____
- ٢٤ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مَرْجَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ﴾ _____
- ٢٦ ﴿ أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ ﴾ _____

٢٧ استعجال الكفار وقوع بأس الله بهم وحلول غضبه ونقمته عليهم

سورة الأحزاب (٣٣)

٢٨ ربيع : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾

ليس للشخص الواحد قلبان في جوفه ولا تصير الزوجة زوجته التي يظهر منها ، ولا يصير

٢٨ الدعى ولدًا إذا تبناه فدعاه ابنًا له

٣١ ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾

٣٢ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ﴾

٣٣ نصر الله تعالى للمؤمنين في غزوة الأحزاب

٣٥ ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾

٣٦ ﴿ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ آفَاطِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا ﴾

٣٧ ربيع : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعْرِضِينَ مِنْكُمْ وَالْقَاتِلِينَ إِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾

٣٧ ﴿ يَخْشَوْنَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾

٣٧ التاسى برسول الله ﷺ في جميع أقواله وأفعاله وأحواله

٣٨ استمرار المؤمنين على عهد الله وميثاقه وجزاؤهم وجزاء المنافقين

٤٠ ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ ﴾

٤١ ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِبِهِمْ وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ ﴾

٤٤ أمر الله تعالى لرسوله ﷺ بأن يخير نساء بين الطلاق وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال

٤٦ الجزء - ٢٢ : ﴿ وَمَنْ يَفْتَنَنَّكَ اللَّهُ فَرِّطْ لَهُ وَرَسُولَهُ فَعَمَلٌ صَالِحًا لَوْ أَنَّهَا أَجْرُهَا مَرَّتَيْنِ ﴾

أمر الله تعالى لنساء المؤمنين بعدم الخضوع فى القول ولزوم البيوت وعدم التبرج وإقامة

٤٦ الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله

٤٨ ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾

٥٠ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾

٥٢ ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾

٥٤ ﴿ الَّذِينَ يَلْفُفُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴾

٥٦ أمر الله عباده المؤمنين بكثرة ذكره وتسيحه ليلاً ونهاراً وصلاة الله تعالى عليهم وملائكته

٥٨ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾

٦٠ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾

٦٢ ربيع : ﴿ تُرْجِي مِنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾

٦٣ ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَغْنَيْتُكَ حُسْنُهُنَّ ﴾

٦٤ آية الحجاب

٦٦ أقارب لا يجب الاحتجاب منهم

٦٦ ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾

- ٧٢ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾
- ٧٣ للمرأة المسلمة رى خاص بها يميزها عن المرأة الجاهلية وسمات الإمام
- ٧٣ ريع : ﴿ لَنْ لَمْ يَنْتَه الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ﴾
- ٧٥ ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾
- ٧٦ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَ اللَّهُ مِنْهُمَا قَالُوا ﴾
- ٧٧ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾
- ٧٧ ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا ﴾

سورة سبأ (٣٤)

- ٧٩ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾
- ٧٩ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ﴾
- ٨٠ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقَتْ كُلُّ مُرِّقَةٍ ﴾
- ٨١ ريع : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِيبِي مَعَهُ ﴾
- ٨٢ تسخير الله تعالى الريح لسليمان عليه السلام وكذلك الجن
- ٨٣ ﴿ فَلَمَّا فَصَّيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ﴾
- ٨٤ ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِهُمْ آيَةٌ جَنَّانٌ ﴾
- ٨٦ ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قَرْيَ ظَاهِرَةً ﴾
- ٨٨ ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ ﴾
- ٨٨ بيان أنه تبارك وتعالى الإله الواحد الاحد ، الفرد الصمد
- ٩٠ ريع : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ ﴾
- ٩٢ تمادى الكفار فى طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان
- ٩٣ ما بعث الله نبيا فى قرية إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤهم
- ٩٥ تقريع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق
- ٩٥ استحقاق الكفار العقوبة والاليم من العذاب
- ٩٦ ريع : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مُقِيًّا وَقِرَادَىٰ ثُمَّ تَتَّكِرُوا ﴾
- ٩٧ ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾
- ٩٨ ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فِرْعَوْنُ إِذْ فِرْعَوْنُ فَلَا قُوَّةَ وَأَخْدَرُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾

سورة فاطر (٣٥)

- ١٠٠ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾
- ١٠٠ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن
- ١٠١ استقلاله سبحانه بالخلق والرزق
- ١٠١ ﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ﴾

- ١٠١ عداوة إبليس لابن آدم
- ١٠٢ ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾
- ١٠٣ ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِ سَحَابًا فَسُقَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾
- ١٠٥ ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبَ فَرَاتٍ سَائِعٍ شَرَابُهُ وَهَذَا مَلْحٌ أَجَاجٌ ﴾
- ١٠٦ ﴿ يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ ﴾
- ١٠٦ ربيع: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾
- ١٠٧ ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾
- ١٠٨ كمال قدرته سبحانه في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد
- ١٠٩ رجاء عباد الله المؤمنين ثواب الله
- ١١٠ ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ ﴾
- ١١٠ القائمين بالكتاب العظيم هم المصطفون من عباد الله
- ١١١ جزاء المصطفين من عباد الله جنات عدن
- ١١٢ ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾
- ١١٤ ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾
- ١١٥ ربيع: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾
- ١١٥ ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إْحْدَى الْأُمَمِ ﴾
- ١١٦ ﴿ أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

سورة يس (٣٦)

- ١١٧ ﴿ يَسَ ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾
- ١١٧ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا ﴾
- ١٢٠ ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴾
- ١٢١ ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾
- ١٢١ ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾
- ١٢٢ الجزء - ٢٣ : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾
- ١٢٤ ﴿ يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾
- ١٢٤ ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا ﴾
- ١٢٥ ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾
- ١٢٨ ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴾
- ١٢٩ تمادى المشركين فى غيهم وضلالهم
- ١٢٩ استبعاد الكفرة لقيام الساعة
- ١٢٩ ﴿ وَتَفِيخٌ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَمْسِلُونَ ﴾
- ١٣٠ أهل الجنة يوم القيامة فى شغل عن غيرهم فاكهون

٧٧٧	فهرس الموضوعات
١٣١	ربع: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ لَكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾
١٣١	﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾
١٣٣	كلما طال عمر الإنسان عاد إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط
١٣٥	ذكر ما أنعم به تعالى على خلقه من الأنعام التي سخرها لهم
١٣٦	﴿ أَوْ لَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾
١٣٧	قدرة الله العظيمة في خلق السموات السبع

سورة الصافات (٣٧)

١٣٩	﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴾
١٤٠	﴿ إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴾
١٤١	﴿ فَاسْتَضِيهِمْ أَهْمٌ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مِنْ خَلْقِنَا ﴾
١٤١	ربع: ﴿ احشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾
١٤٢	تلاوم الكفار في عرصات القيامة
١٤٣	﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴾
١٤٥	تساؤل أهل الجنة بعضهم البعض عن أحوالهم
١٤٦	﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّوْمِ ﴾
١٤٨	أكثر الأمم الماضية كانوا ضالين
١٤٨	﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾
١٤٩	ربع: ﴿ وَإِنْ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾
١٤٩	﴿ فَتَنْظُرْ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي مُسَيِّمٌ ﴾
١٥٠	هجرة إبراهيم عليه السلام
١٥٣	ذكر ما أنعم الله به على موسى وهارون عليهما السلام
١٥٣	﴿ وَإِنْ إِبْرَاهِيمَ لَمِنَّ الْمُرْسَلِينَ (١٢٢) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾
١٥٤	﴿ وَإِنْ لَوْطًا لَمِنَّ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴾
١٥٤	ربع: ﴿ فَنَبِّذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾
١٥٥	﴿ فَاسْتَضِيهِمُ الرِّبَاطُ وَالنَّبَاتُ وَلَهُمُ النَّبْتُونَ ﴾
١٥٦	﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاعِلِينَ ﴾
١٥٧	العاقبة للرسول وأتباعهم في الدنيا والآخرة
١٥٨	تنزيه الله تعالى عما يقول الظالمون المكذوبون

سورة ص (٣٨)

١٦١	﴿ مَن وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ﴾
١٦١	تعجب المشركين من بعثة رسول الله ﷺ وبشيرا ونذيرا

- ١٦٤ إخبار الله تعالى عن القرون الماضية وما حل بهم من العذاب
- ١٦٥ إخبار الله تعالى عن عبده ورسوله داود أنه كان ذا أيد
- ١٦٦ ريع: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخُسْفَى إِذْ تُسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾
- ١٦٦ وصية الله عز وجل لولاة الامور أن يحكموا بين الناس بالعدل
- ١٦٦ إخباره تعالى أنه ما خلق الخلق عبثا وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحده
- ١٦٧ هبة الله تعالى لداود سليمان نبيا
- ١٦٨ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾
- ١٧١ ابتلاء الله تعالى لعبده أيوب
- ١٧٣ فضائل عباد الله المرسلين وأنبيائه العابدين
- ١٧٤ ريع: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَثْرَابَ﴾
- ١٧٥ ذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم
- ١٧٦ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِمَّنْ لَّهَ الْإِلَهَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾
- ١٧٧ إعلام الله الملائكة بأنه خالق بشرنا من طين
- ١٧٨ ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾

سورة الزمر (٣٩)

- ١٧٩ ﴿تَنْزِيلِ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾
- ١٨٠ الله خالق السموات والأرض بالحق
- ١٨١ ريع: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾
- ١٨٢ ﴿أَمْ هُوَ قَائِلٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾
- ١٨٢ أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته
- ١٨٣ ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾
- ١٨٣ ﴿وَالَّذِينَ اجْتَبَوْا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾
- ١٨٤ ﴿أَلَمْ نَحْوَ حَقِّ عَلَيْهِ كَلِمَةَ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْفِقُ مِنْ فِي النَّارِ﴾
- ١٨٥ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾
- ١٨٦ مدح الله لكتابه القرآن العظيم
- ١٨٧ ﴿أَلَمْ نَبْطِئْ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾
- ١٨٨ ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾
- ١٨٩ الجزء - ٢٤: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ إِذْ جَاءَهُ﴾
- ١٩٠ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾
- ١٩١ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ﴾
- ١٩٢ ذم الله تعالى للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله
- ١٩٢ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾

٧٧٩	فهرس الموضوعات
١٩٤	تضرع الإنسان إلى الله في حال الضراء
١٩٤	ربع: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾
١٩٧	يوم القيامة تسود وجوه وتبيض وجوه
١٩٧	الله تعالى خالق الأشياء كلها
١٩٨	ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره
١٩٩	إخبار الله تعالى عن هول يوم القيامة
٢٠١	حال الأشقياء وكيف يساقون إلى النار
٢٠٢	حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفدا إلى الجنة
٢٠٥	إخبار الله تعالى عن ملائكته بأنهم محذوقون من حول عرشه المجيد ، يسبحون بحمد ربهم

سورة زافر (٤٠)

٢٠٦	ربع: ﴿ حَمِّمٌ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾
٢٠٧	ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان إلا الذين كفروا
٢٠٧	إخبار الله تعالى عن الملائكة المقربين من حملة العرش الأربعة ومن حوله من الكروبيين
٢٠٩	﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادُونَ لَمَقَّتْ اللَّهُ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾
٢١١	إخبار الله تعالى عن عظمته وكبريائه
٢١٢	﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَوَّلَةِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينِ ﴾
٢١٣	ربع: ﴿ أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ ﴾
٢١٤	تسليه الله تعالى لنبيه ﷺ في تكذيب من كذب من قومه
٢١٥	مؤمن آل فرعون
٢١٧	تحذير مؤمن آل فرعون قومه بأس الله
٢١٨	عتو فرعون وتمرده وافتراءه في تكذيبه موسى عليه السلام
٢١٩	﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾
٢١٩	ربع: ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾
٢٢٢	تحتاج أهل النار في النار وتخاصمهم
٢٢٥	إخبار الله تعالى بأنه يعيد الخلائق يوم القيامة وأن ذلك سهل عليه
٢٢٥	من فضل الله تعالى أنه ندب عباده إلى دعائه وتكفل لهم بالإجابة
٢٢٦	امتنان الله على خلقه بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه وجعل النهار مبصرًا
٢٢٧	ربع: ﴿ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾
٢٢٨	﴿ أَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُ يُصْرَفُونَ ﴾
٢٢٨	أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه
٢٢٩	امتنان الله تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام
٢٣٠	إخبار الله تعالى عن الأمم المكذبة بالرسول في قديم الدهر

سورة فصلت (٤١)

- ﴿ حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلَ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ٢٣١
 ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ ٢٣٢
 ربيع : ﴿ قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ قُرُونٌ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ ٢٣٣
 ﴿ فَإِنِ اعْرَضُوا فَعَلَّ أَنْذَرْتَكُمْ صَاعِقَةٌ مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ ٢٣٥
 ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ ٢٣٦
 ربيع : ﴿ وَقَبَضْنَا لَهُمْ قُرْءَانَ فَزَيَّوْا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ ٢٣٨
 ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ ٢٣٩
 ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ ٢٤٠
 قدرة الله العظيمة وأنه الذي لا نظير له ٢٤٢
 علم الله بمن يلحد فى آياته وأسمائه وصفاته ٢٤٢
 كفر المشركين بالقرآن كفر عناد وتعنت ٢٤٣
 الجزء - ٢٥ : ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ ٢٤٤
 لا يميل الإنسان من دعائه ربه بالخير ٢٤٥
 ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴾ ٢٤٥

سورة الشورى (٤٢)

- ﴿ حَمَّ ﴿١﴾ عَسَقَ ﴾ ٢٤٧
 ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ٢٤٨
 إنكار الله تعالى على المشركين اتخاذهم آلهة من دونه ٢٤٩
 ربيع : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ ٢٥٠
 ﴿ فَلِلَّذَلِكَ فَادَعُ وَاسْتَظِمَّ كَمَا أَمَرْتَ ﴾ ٢٥١
 توعد الله تعالى الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به ٢٥١
 إخبار الله تعالى عن لطفه بعباده فى رزقه إياهم عن آخرهم ٢٥٢
 ﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ٢٥٤
 ربيع : ﴿ وَتَوَسَّطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لِيُبَغِزَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ٢٥٦
 من آيات الله الدالة على عظمته خلق السموات والأرض ٢٥٨
 من آيات الله تعالى الدالة على قدرته وسلطانه وتسخيره البحر لتجرى فيه الفلك بأمره ٢٥٨
 تحقير الله لسان الحياة الدنيا وزينتها ٢٥٩
 ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ ٢٦٠
 ما شاء الله كان ولا راد له ٢٦٢
 أمر الله تعالى بالاستعداد لما يكون فى يوم القيامة من الأهوال ٢٦٢

- فهرس الموضوعات ٧٨١
- الله تعالى خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما ٢٦٣
- ربع: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ﴾ ٢٦٤

سورة الزخرف (٤٣)

- ﴿ حَمْدٌ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ ٢٦٥
- اعتراف المشركين بأن الخالق للسموات والأرض هو الله ٢٦٦
- إخبار الله تعالى عن المشركين فيما افتروه وكذبوه في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها لله ٢٦٨
- ربع: ﴿ قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴾ ٢٦٩
- تبرؤ إبراهيم عليه السلام من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان ٢٧٠
- ﴿ وَمَنْ يَمْشِ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ ٢٧٢
- ابتعث الله تعالى عبده ورسوله موسى عليه السلام إلى فرعون وملكه ٢٧٣
- تمرد فرعون وعتوه وكفره وعناده وافتخاره بملك مصر ٢٧٤
- ربع: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ ﴾ ٢٧٥
- ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ٢٧٨
- حال الأشقياء في جهنم ٢٧٩
- ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ ٢٨٠

سورة الدخان (٤٤)

- ﴿ حَمْدٌ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ ٢٨٢
- المشركون في شك يلعبون ٢٨٣
- ربع: ﴿ وَتَلَقَّوْنَهَا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ ٢٨٥
- أنكار الله تعالى على المشركين إنكارهم البعث والمعاد ٢٨٧
- عدل الله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث الباطل ٢٨٩
- إخبار الله بما يعذب به الكافرين الجاحدين للقائه ٢٨٩
- حال السعداء يوم القيامة ٢٩٠

سورة الجاثية (٤٥)

- ﴿ حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ ٢٩٢
- ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْزَلُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ ٢٩٢
- ربع: ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرِي أَلْفُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ﴾ ٢٩٣
- ذكر ما أنعم الله به على بنى إسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم ٢٩٤
- لا يستوى المؤمنون والكافرون ٢٩٤

- ٢٩٥ _____ قول الدهرية ومن وافقهم فى إنكار المعاد
- ٢٩٦ _____ الله تعالى مالك السموات والأرض والحاكم فيهما
- ٢٩٧ _____ حكم الله فى خلقه يوم القيامة

سورة الأحقاف (٤٦)

- ٢٩٩ _____ الجزء - ٢٦: ﴿ حَمَّ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾
- ٣٠٠ _____ الكفار إذا تلى عليهم آيات الله بينات يقولون هذا سحر مبين
- ٣٠٢ _____ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ﴾
- ٣٠٣ _____ الوصية بالوالدين
- ٣٠٥ _____ حال الأشقياء العاقين للوالدين
- ٣٠٦ _____ ربيع: ﴿ وَادْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ﴾
- ٣٠٨ _____ تمكين الله للأمم السالفة فى الدنيا من الاموال والأولاد
- ٣٠٩ _____ سماع الجن للقرآن وإنذارهم قومهم
- ٣١٤ _____ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَمَيِّ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُخَيِّبَ الْمَوْتَىٰ ﴾

سورة القتال (٤٧)

- ٣١٥ _____ ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾
- ٣١٦ _____ إرشاد المؤمنين إلى ما يعتمدونه فى حربهم مع المشركين
- ٣١٨ _____ ربيع: ﴿ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾
- ٣١٩ _____ ﴿ أَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سَوْءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾
- ٣٢٠ _____ بلادة المنافقين وقلة فهمهم
- ٣٢١ _____ تمنى المؤمنين شرعية الجهاد فلما فرض نكل عنه كثير من الناس
- ٣٢٣ _____ أمر الله تعالى بتدبر القرآن وفهمه
- ٣٢٣ _____ ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴾
- ٣٢٤ _____ ربيع: ﴿ إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا ﴾
- ٣٢٥ _____ تحقير الله تعالى لأمر الدنيا والتهوين من شأنها

سورة الفتح (٤٨)

- ٣٢٦ _____ ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾
- ٣٢٨ _____ إنزال الله تعالى السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا
- ٣٢٩ _____ إرسال الله تعالى رسوله ﷺ شاهدا ومبشرا ونذيرا
- ٣٣٣ _____ إخبار الله تعالى رسوله ﷺ بما يعتذر به المخلفون من الاعراب
- ٣٣٤ _____ ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِأَخْذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾

- فهرس الموضوعات ٧٨٣
- ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَسْئُورَةٌ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ بِأَمْرِ اللَّهِ ﴾ ٣٣٤
- ربع : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ ٣٣٥
- ﴿ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ ٣٣٥
- الكفار من مشركى العرب من قريش ومن مالا هم على نصرتهم على رسول الله ﷺ هم
- ٣٣٧ الكفار دون غيرهم
- ﴿ لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْرُؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ ٣٤٦
- ٣٥٠ إخبار الله تعالى عن محمد ﷺ أنه رسول الله حقا بلا شك

سورة الحجرات (٤٩)

- ربع : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ٣٥٢
- ذم الذين ينادون رسول الله ﷺ من وراء الحجرات ٣٥٤
- الامر بالإصلاح بين الفئتين الباغيتين بعضهم على بعض ٣٥٦
- نهى الله تعالى عن السخرية بالناس ٣٥٨
- الامر باجتناب الكثير من الظن ٣٥٨
- خلق الله تعالى الناس جميعا من نفس واحدة وجعلهم شعوبا ليتعارفوا ٣٦١
- ربع : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قَوْلُوا اسْلَمْنَا ﴾ ٣٦٢

سورة ق (٥٠)

- ﴿ ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ ﴾ ٣٦٥
- ﴿ أَقْلَمُ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيَّنَّاها وَزَيَّنَّاها وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ ٣٦٦
- ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّمِّ وَقَوْمُ دَاوُدَ ﴾ ٣٦٧
- قدرة الله تعالى على الإنسان بأنه فلقه، وعلمه، وعلمه محيط بجميع أموره ٣٦٨
- ربع : ﴿ قَالَ قَرِيبُهُ رَبَّنَا مَا أَطْفَيْتَهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ ٣٧٠
- قول الله تعالى لجهنم يوم القيامة هل امتلأت ٣٧٢
- ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴾ ٣٧٣
- ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ ٣٧٥

سورة الذاريات (٥١)

- ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْمُحَامِلَاتِ وَرِقًا ﴾ ٣٧٧
- ما يكون فيه المتقون يوم القيامة ٣٧٨
- حديث ضيف إبراهيم عليه السلام ٣٨١
- الجزء - ٢٧ : ﴿ قَالَ لَمَّا خَطَبْتُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ ٣٨٢
- ﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ ٣٨٢

- ٣٨٣ _____ قدرة الله تعالى على خلق العالم العلوى والسفلى
- ٣٨٤ _____ تكذيب السابقين لأنبيائهم وقولهم لكل نبي ساحر أو مجنون

سورة الطور (٥٢)

- ٣٨٦ _____ ﴿ وَالطُّورِ ۝ وَكِتَابٍ مُّسْتَوٍرٍ ﴾
- ٣٨٨ _____ حال السعداء فى الجنات
- ٣٨٨ _____ ربيع: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ ﴾
- ٣٩٠ _____ نفى الله تعالى عن رسوله ﷺ ما يرميه به أهل البهتان والفجور
- ٣٩١ _____ ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾
- ٣٩٢ _____ عناد المشركين ومكابرتهم للمحسوس

سورة النجم (٥٣)

- ٣٩٤ _____ ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾
- ٣٩٥ _____ ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴾
- ٣٩٨ _____ ربيع: ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ﴾
- ٤٠٠ _____ الإنكار على المشركين فى تسميتهم الملائكة تسمية الانثى
- ٤٠١ _____ الله تعالى مالك السموات والأرض الغنى عما سواه
- ٤٠٣ _____ ذم الله تعالى لمن تولى عن طاعته
- ٤٠٤ _____ ﴿ وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴾
- ٤٠٦ _____ ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذِيرِ الْأُولَىٰ ﴾

سورة القمر (٥٤)

- ٤٠٧ _____ ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾
- ٤٠٩ _____ ﴿ قَتُولَ عَلَيْهِمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نَّكَرٍ ﴾
- ٤٠٩ _____ ربيع: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾
- ٤١١ _____ ذكر ثمود وأتهم كذبوا رسولهم صالحا ﷺ
- ٤١٢ _____ ذكر قوم لوط وأتهم كذبوا رسولهم وخالفوه
- ٤١٣ _____ ذكر فرعون وقومه وأتهم كذبوا بآيات الله
- ٤١٤ _____ المجرمون فى ضلال عن الحق وسعر مما هم فيه من الشكوك

سورة الرحمن (٥٥)

- ٤١٦ _____ ربيع: ﴿ الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾
- ٤١٨ _____ خلق الإنسان من صلصال كالفخار

٧٨٥	فهرس الموضوعات
٤٢١	انشقاق السماء يوم القيامة وردة كالدهان
٤٢٣	﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جِتَانًا ﴾
٤٢٤	ذكر الفرش في الجنة وعظمتها
٤٢٦	﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جِتَانًا ﴾

سورة الواقعة (٥٦)

٤٢٩	ربع: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾
٤٣٠	إخبار الله تعالى عن السابقين الأولين وأنهم جماعة من الأولين
٤٣٤	ذكر أصحاب اليمين ومآلهم
٤٣٩	ذكر أصحاب الشمال ومآلهم
٤٤٩	تقرير الله تعالى للمعاد والرد على المكذبين به
٤٤١	﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿١٧﴾ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾
٤٤٣	ربع: ﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾
٤٤٥	﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴾
٤٤٦	أحوال الناس عند احتضارهم

سورة الحديد (٥٧)

٤٤٨	ربع: ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾
٤٤٩	خلق الله تعالى السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام
٤٥٠	أمر الله تعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الاكمل
٤٥٣	المؤمنون يوم القيامة يسمى نورهم بين أيديهم
٤٥٥	ربع: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾
٤٥٦	ثواب الله تعالى للمصدقين والمصدقات بأموالهم على أهل الحاجة
٤٥٨	تحقير الله تعالى لآمر الحياة الدنيا
٤٥٩	قدر الله تعالى السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية
٤٦٠	﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾
٤٦١	منذ مبعث نوح عليه السلام لم يرسل الله تعالى بعده رسولا إلا من ذريته
٤٦٢	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾

سورة المجادلة (٥٨)

٤٦٤	الجزء - ٢٨ : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾
٤٦٥	الظهار بأحكامه
٤٦٧	جزاء من يشاق الله ورسوله ﷺ ويعاند شرعه
٤٦٨	﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْنَا عَنْهُ ﴾
٤٧٠	الامر بإحسان المؤمنین بعضهم إلى بعض في المجالس
٤٧٢	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَاجَرْتُمْ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ﴾
٤٧٣	ربع: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾
٤٧٤	جزاء الكفار المعاندين المحادين

سورة الحشر (٥٩)

- ٤٧٧ _____ جميع من فى السموات وما فى الأرض يسبح لله ويمجده ويقدهسه
- ٤٨١ _____ الفىء وصفته وحكمه
- ٤٨٤ _____ حال الفقراء المستحقين لمال الفىء
- ٤٨٨ _____ ريع : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِن أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾
- ٤٨٩ _____ الأمر بتقوى الله تعالى
- ٤٩٠ _____ تعظيم أمر القرآن وعلو قدره وأنه ينبغى أن تخشع له القلوب

سورة الممتحنة (٦٠)

- ٤٩٤ _____ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾
- ٤٩٧ _____ الأمر بالابتداء بإبراهيم عليه السلام ومن معه فى مجانبة المشركين ومعاداتهم
- ٤٩٩ _____ ريع : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَةً ﴾
- ٥٠٠ _____ أمر المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات أن يمتحنهن
- ٥٠٢ _____ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات
- ٥٠٥ _____ نهى الله تعالى عن موالة الكافرين

سورة الصف (٦١)

- ٥٠٧ _____ ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾
- ٥٠٩ _____ ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ لِمَ تَقُولُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾
- ٥١١ _____ لا أحد أظلم ممن يفترى على الله الكذب
- ٥١٢ _____ التجارة العظيمة التى تنجى من العذاب الاليم
- ٥١٢ _____ أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله فى جميع أحوالهم

سورة الجمعة (٦٢)

- ٥١٥ _____ ريع : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾
- ٥١٧ _____ ذم اليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها ثم لم يعلموا بها
- ٥١٨ _____ أمر المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة
- ٥٢١ _____ معاتبته من وقع منه الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة

سورة المنافقين (٦٣)

- ٥٢٢ _____ ريع : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ﴾
- ٥٢٣ _____ صدور المنافقين عما يقال لهم استكبارا واحتقارا لما قيل لهم
- ٥٢٧ _____ الأمر للمؤمنين بكثرة ذكره الله والنهى عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك

سورة التغابن (٦٤)

- ٥٢٨ _____ ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ ﴾
- ٥٢٩ _____ إخبار الله تعالى عن الأمم الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال
- ٥٢٩ _____ ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُخْفَىٰ قَلْبًا بِأَنَّ لِي رِيبًا لِّتُنَجِّنَ ﴾

- ٥٣٠ ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾
 ٥٣٠ من الأزواج والأولاد من هو عدو الزوج والوالد

سورة الطلاق (٦٥)

- ٥٣٣ ريع : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾
 ٥٣٥ ﴿ لِإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾
 ٥٣٧ عدة الآيسة التي انقطع عنها الحيض والتي لم تحض
 ٥٣٩ إذا طلق أحد أمراته عليه أن يسكنها في منزل حتى تنقضى عدتها
 ٥٤١ ما حل بالأمم السابقة بسبب مخالفة أمر الله وتكذيب رسله
 ٥٤٢ قدرة الله التامة وسلطانه العظيم

سورة التحريم (٦٦)

- ٥٤٣ ريع : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾
 ٥٤٧ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾
 ٥٤٩ أمر الله تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين
 ٥٥٠ مثل للمؤمنين أنهم لا تضرمهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم

سورة الملك (٦٧)

- الجزء - ٢٩ : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾
 ٥٥١ مأل الذين كفروا بربهم
 ٥٥٢ مأل من يخاف مقام ربه إذا كان غائبا عن الناس
 ٥٥٥ قدرة الله على تعذيب الكافرين
 ٥٥٥ عبادة المشركين لغير الله يتغنون عندهم نصرا وورقا
 ٥٥٦ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾

سورة القلم (٦٨)

- ٥٥٧ ريع : ﴿ تَنْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾
 ٥٥٩ ﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴾
 ٥٦١ قصة أصحاب الجنة ومآلهم
 ٥٦٢ جزاء المتقين في الدار الآخرة جنات النعيم
 ٥٦٣ يوم القيامة وما يكون فيه من الأحوال والبلاء
 ٥٦٤ ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾

سورة الحاقة (٦٩)

- ٥٦٦ ريع : ﴿ الْحَاقَّةُ ۝ مَا الْحَاقَّةُ ﴾
 ٥٦٧ أهوال يوم القيامة وأول ذلك نفخة الفزع
 ٥٦٨ سعادة من أوتى كتابه يوم القيامة يمينه
 ٥٦٩ حال الأشقياء إذا أعطى أحدهم كتابه في العرصات بشماله

- ٥٧٠ _____ قسم الله تعالى أن القرآن كلامه ووحية إلى رسوله الذي اصطفاه ﷺ
 ٥٧١ _____ ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾

سورة الماعج (٧٠)

- ٥٧٢ _____ ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾
 ٥٧٤ _____ ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴾
 ٥٧٥ _____ ربيع : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾
 ٥٧٧ _____ الإنكار على المشركين نفورهم من رسول الله ﷺ

سورة نوح (٧١)

- ٥٨٠ _____ إخبار الله تعالى عن نوح عليه السلام وأنه أرسله إلى قومه لينذرهم بأس الله
 ٥٨٠ _____ شكاية نوح ﷺ إلى ربه ما لقي من قومه
 ٥٨٢ _____ اتباع قوم نوح ﷺ من يزيده ماله وولده إلا خسارا
 ٥٨٣ _____ ذنوب الكافرين وإصرارهم على كفرهم وعتوهم أدخلهم النار

سورة الجن (٧٢)

- ٥٨٥ _____ ربيع : ﴿ قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾
 ٥٨٦ _____ حال الجن حين بعث الله رسوله محمدا ﷺ
 ٥٨٨ _____ إخبار الجن عن أنفسهم وأن منهم الصالحون ومنهم دون ذلك
 ٥٨٩ _____ ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾
 ٥٩١ _____ أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول للناس أنه لا علم له بوقت الساعة

سورة المزمل (٧٣)

- ٥٩٣ _____ أمر الله تعالى رسوله أن يترك التزمل وينهض إلى القيام لربه
 ٥٩٦ _____ أمر الله تعالى رسوله بالصبر على المكذبين
 ٥٩٧ _____ ربيع : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ ﴾

سورة المدثر (٧٤)

- ٦٠٠ _____ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾
 ٦٠٢ _____ ﴿ ذُرِّيٍّ وَمِمَّنْ خَلَقْتُمْ وَحِيدًا ﴾
 ٦٠٤ _____ ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ﴾
 ٦٠٦ _____ كل نفس متعلقة بعملها يوم القيامة

سورة القيامة (٧٥)

- ٦٠٧ _____ ربيع : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾
 ٦١٠ _____ تعليم الله تعالى لرسوله ﷺ في كيفية تلقي الوحي من الملك
 ٦١٢ _____ حالة الاحتضار وما يكون عنده من الأحوال

سورة الإنسان (٧٦)

- ٦١٤ الإنسان أوجده الله تعالى و لم يكن شيئا يذكر
 ٦١٥ ما أرصده الله للكافرين من خلقه من السلاسل والأغلال والسعير
 ٦١٧ ريع: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾
 ٦١٩ امتنان الله تعالى على رسوله ﷺ بما نزله عليه من القرآن العظيم

سورة المرسلات (٧٧)

- ٦٢١ إقسام الله تعالى بملائكته أن ما وعدنا به لواقع
 ٦٢٢ إهلاك الله تعالى الأولين
 ٦٢٣ انطلاق الكفار يوم القيامة إلى ما كانوا يكذبون به من الجزاء والجنة والنار
 ٦٢٤ حال المتقين يوم القيامة وأنهم فى ظلال وعيون

سورة النبأ (٧٨)

- ٦٢٦ الجزء - ٣٠: ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۚ عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ ﴾
 ٦٢٧ يوم الفصل مؤقت بأجل محدود
 ٦٢٩ حال السعداء وما أعد لهم تعالى من الكرامة والنعيم المقيم
 ٦٣٠ عظمة الله وجلاله وأنه رب السماوات والأرض

سورة النازعات (٧٩)

- ٦٣٢ ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْاقًا ۚ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴾
 ٦٣٤ بعثة موسى ﷺ إلى فرعون وتأييده بالمعجزات
 ٦٣٥ ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بِنَاهَا ﴾ - يوم القيامة يتذكر الإنسان فيه ما سعى

سورة عبس (٨٠)

- ٦٣٧ ريع: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۚ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾
 ٦٣٨ ذم الله تعالى من أنكر البعث
 ٦٤٠ إذا جاءت صبيحة القيامة يفر المرء من أخيه

سورة التكوير (٨١)

- ٦٤٢ ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾
 ٦٤٥ إقسام الله تعالى بالنجوم والليل والصبح على أن القرآن تبليغ رسول كريم

سورة الانفطار (٨٢)

- ٦٤٨ ريع: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۚ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَرتْ ﴾
 ٦٤٩ ما يصير الأبرار إليه من النعيم

سورة المطففين (٨٣)

- ٦٥١ الويل للذين يبخسون فى الكيل والميزان

- ٦٥٢ _____ مصير الفجار ومأواهم فى سجين
 ٦٥٤ _____ مصير الأبرار ومأواهم فى عليين
 ٦٥٥ _____ إخبار الله تعالى عن المجرمين وأنهم كانوا فى الدنيا يضحكون من المؤمنين

سورة الانشقاق (٨٤)

- ٦٥٧ _____ ربيع : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾

سورة البروج (٨٥)

- ٦٦٢ _____ إقسام الله تعالى بالسماء وبروجها
 ٦٦٨ _____ وعد الله تعالى لعباده المؤمنين أن لهم جنات

سورة الطارق (٨٦)

- ٦٦٩ _____ إقسام الله تعالى بالسماء وما جعل فيهما من الكواكب السيارة

سورة الأعلى (٨٧)

- ٦٧٢ _____ ربيع : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾
 ٦٧٤ _____ فلاح من طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة

سورة الغاشية (٨٨)

- ٦٧٦ _____ ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾
 ٦٧٧ _____ حال السعداء يوم القيامة - أمر الله تعالى عباده بالنظر فى مخلوقاته

سورة الفجر (٨٩)

- ٦٨٠ _____ ﴿ وَالْفَجْرِ ۝ وَبِالْأَسْمَانِ الْعُرْوِ ۝ وَبِالنَّجْمِ الثَّاقِبِ ۝ ﴾
 ٦٨٣ _____ الإنكار على الإنسان فى اعتقاده أن توسيع الله عليه إكرام له
 ٦٨٤ _____ ذكر ما يقع يوم القيامة من الأحوال

سورة البلد (٩٠)

- ٦٨٦ _____ ربيع : ﴿ لَا أَلْقِمُ بِهِذَا الْقَلْبَ ﴾
 ٦٨٧ _____ ﴿ فَلَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقَبَةُ ﴿

سورة الشمس (٩١)

- ٦٩٠ _____ إقسام الله تعالى بالشمس وضحاها
 ٦٩٢ _____ ذكر ثمود وأنهم كذبوا رسولهم

سورة الليل (٩٢)

- ٦٩٤ _____ إقسام الله تعالى بالليل إذا يغشى
 ٦٩٦ _____ ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾

- فهرس الموضوعات ٧٩١
- سورة الضحى (٩٣)
- ٧٩٨ إقسام الله تعالى بالضحى والليل إذا سجى
- سورة ألم نشرح (٩٤)
- ٧٠١ ربيع : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾
- سورة التين (٩٥)
- ٧٠٣ ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾
- سورة اقرأ (٩٦)
- ٧٠٥ الأمر بالقراءة باسم الله الذى خلق
- ٧٠٦ حال الإنسان إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله
- سورة القدر (٩٧)
- ٧٠٨ ذكر الله تعالى أنه أنزل القرآن ليلة القدر
- سورة لم يكن (٩٨)
- ٧١٤ ﴿ نَمَّ يَكْفُرُوا مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ آيَةُ ﴾
- ٧١٥ مآل الفجار من كفره أهل الكتاب والمشركين
- سورة الزلزلة (٩٩)
- ٧١٦ ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾
- سورة العاديات (١٠٠)
- ٧١٩ ربيع : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾
- سورة القارعة (١٠١)
- ٧٢١ تعظيم الله سبحانه أمر القيامة وتهويل شأنها
- سورة التكاثر (١٠٢)
- ٧٢٣ شغل حب الدنيا ونعيمها الإنسان عن طلب الآخرة
- سورة العصر (١٠٣)
- ٧٢٦ إقسام الله تعالى بالعصر أن الإنسان لفى خسر

- ٧٢٧ سورة ويل لكل همزة لمزة (١٠٤) _____ الويل لكل طعان معياب
- ٧٢٩ سورة الفيل (١٠٥) _____ من النعم التي أنعم الله بها على قريش صرف أصحاب الفيل عنهم
- ٧٣٥ سورة لإيلاف قريش (١٠٦) _____ ذكر ما كانت تألفه قريش من الرحلة في الشتاء والرحلة في الصيف
- ٧٣٦ سورة الماعون (١٠٧) _____ ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾
- ٧٣٨ سورة الكوثر (١٠٨) _____ إعطاء الله الكوثر لنبيه ﷺ
- ٧٤١ سورة قل يا أيها الكافرون (١٠٩) _____ طلب البراءة من العمل الذي يعمله المشركون
- ٧٤٣ سورة إذا جاء نصر الله والفتح (١١٠) _____ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾
- ٧٤٦ سورة تبت (١١١) _____ ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ﴾
- ٧٤٩ سورة الإخلاص (١١٢) _____ الله هو الواحد الأحد
- ٧٥٢ سورة الفلق (١١٣) _____ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾
- ٧٥٤ سورة الناس (١١٤) _____ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾
- ٧٥٧ فهرس المسانيد _____
- ٧٧٣ فهرس الموضوعات _____